تيسير القرآن الكريم

للقراءة والفهم المستقيم

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾

صدق الله العظيم

من سورة الفاتحة إلى سورة التوبة

الجزء الأول

لفضيلة الأستاذ الشيخ

عبد الجليل عيسى

شيخ كلية اللغة العربية

بالأزهر الشريف (سابقا)

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٩

عيسى، عبد الجليل.
تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم/ عبد الجليل عيسى. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.
٦٠٤ص ؛ ٢٨ سم .
تدمك ١ ٥٢٩ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القرآن .
(أ) العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ١٧١٣٥/ ٢٠٠٨
I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 529 - 1
ديوى ٢٢٠

■ الكتاب: تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم

■ المؤلف: فضيلة الشيخ عبدالجليل عيسى - شيخ كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف سابقا.

■ الطبعة الأولى: ١٩٥٨.

■ الطبعة الثانية: ١٩٨٠.

■ الطبعة الثالثة: ٢٠٠٩.

■ طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

■ الغلاف والإخراج الفنى: أميمة على أحمد.

■ تصـــحـيـح : محمد صابر - أحمد حسن

■ مـــراجـعـة: سعيد عبدالفتاح - أميمة على

مقدمة الطبعة الأولى
(عام ١٩٥٨م، ١٣٧٦هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على خاتم النبيين: سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد.

فإن القرآن هو كتاب الله الكريم الذى أنزله على رسوله الأمين مهيمنا على جميع ما أنزل قبله على الرسل أجمعين، فيه شفاء لما فى الصدور، وهدى للسارى ونور. فلذا عُنِىَ العلماء قديما وحديثا بشأنه، ووضعوا العلوم المختلفة لخدمته، وكان شأن المسلمين فى كل عصر وبلد، الرغبة الملحة فى حفظه وتلاوته، ومداومة النظر فيه، لاستنباط ماحواه من الأحكام والعبر، ولما اتسعت رقعة الإسلام، ودخله أمم تختلف فى لغاتها وطرق كتابتها، وتعذر على كثير من متعلميها قراءة القرآن، وهى على رسم المصحف الإمام، فلم ينتفع بتلاوته على الوجه الصحيح إلا النذر اليسير، ممن انقطع لتعلم طريقته، أو أمضى زمنا ليس بالقصير فى معالجة قراءته، لذلك رغب كثير من المسلمين فى كتابته على طريقة الإملاء الحديثة، فتصدى لمحاربة هذه الرغبة، مؤمنون بصيرون بالعواقب، غيورون على قدسية الكتاب الكريم، وكان الصواب حليفهم فى محاربة هذه الرغبة الطائشة، لأن القرآن هو عمدة هذا الدين، وطرق الإملاء الحديثة تختلف باختلاف أقطار المسلمين، بل قد تختلف باختلاف جوانب القطر الواحد، فإذا فُتح باب كتابته بالإملاء الحديث تسرب له ما تسرب للكتب السابقة من التحريف والتغيير، ونال من قدسيته ما قد نال من قدسيتها، فأثر فى قيمتها الدينية والعلمية.

لما كان كل هذا، وكنا ذات يوم فى مجلس، دار فيه الحديث حول الدين وطرق خدمته، فتطرق البحث إلى هذه الناحية المذكورة آنفا. وكان ممن ضمهم هذا المجلس الرجل المؤمن الذى أغدق الله عليه الكثير من نعمه، وتوّجها بنعمة التوفيق لكل ما يقربه إلى ربه، هو السيدأحمد حامد سراج الدين فسألنى: وهل من حل لهذه العقبة التى لو ذللت، لانتفع بقراءة كتاب الله خلق كثير؟ فقلت: إنه قد عرض لى حل يجمع بين المصلحتين: مصلحة القارئ فى

التسهيل عليه، ومصلحة المحافظة على الرسم العثمانى الذى توارثه المسلمون منذ القرون الطويلة. ولما شرحتها له أعجب بها. وألح فى سرعة إبرازها للوجود، واعدًا فى سبيل تحقيقها ببذل كل مجهود. ولما صممنا العزم على الإنجاز، رغب بعض الإخوان أن ينضم إلى تسهيل قراءة القرآن تيسير فهمه على القارىء العادى، ولو باختيار تفسير مختصر من التفاسير الكثيرة يوضع على هامش المصحف، فاستعرضنا كل التفاسير، فلم نجد من بينها ما يفى بالمقصود، إذ و جدنا منها ما وضع للخاصة من العلماء، كتفسير البيضاوى، والفخر الرازى، ومنها ما حاول صاحبه الارتفاع بعبارته عن مستوى القارئ العادى، وجعل أبحاثه كلها تدور حول إثبات إعجاز القرآن، كتفسير الكشاف، ومنها ما أطال صاحبه فيه تطويلا مملا كتفسير الطبرى أو اختصره اختصارًا مخلا كتفسير الجلالين، ومنها ما حشاه صاحبه بالأبحاث النحوية والصرفية أو الفقهية، وغير ذلك. كتفسير أبى حيان والقرطبى. ومنها ما ملأه صاحبه بغرائب الحكايات وأباطيل الإسرائيليات التى دسها اليهود الذين استتروا وراء إظهارهم الإسلام، وكادوا لكتابه الكريم، ونسبوا لكبار الصحابة فى فهمه آراء باطلة، شوهت جماله، وكانت مادة خصبة لأعداء الإسلام. ومن هؤلاء اليهود: (كعب الأحبار) و(وهب بن منبه) بعد ذلك استقر الرأى على أن يعهد إلينا بوضع تفسير مختصر يوضح معنى اللفظ الغريب، وما لابد منه فى فهم التركيب. على أن تبعد عنه ما استطعنا العبارات الاصطلاحية، والخلافات الطائفية والمذهبية، وإذا اضطررنا لذكر بعض الاصطلاحات فإننا لا نذكرها إلا فى مقدمة الصفحة بين تفسير المفردات، ولكن عندما نقول (المعنى): فإننا حرمنا على أنفسنا ذكر شىء من ذلك مطلقا وقد تجنبنا أيضا زخرفة العبارة، محافظة على محاكاة المعانى التى تضمنتها الحروف، أو أشارت إليها الأساليب حتى يتجلى المعنى الأصلى بارزا ليس عليه حجاب. فإذا رأيتنا نفسر قوله تعالى «إياك نعبد» صفحة (٢) بقولنا (لا نعبد غيرك) تعلم أننا فهمنا هذا الحصر من تقديم المفعول «إياك». وإذا فسرنا قوله تعالى :﴿ثم فى النار يسجرون﴾ الآية (٧٢) من سورة غافر صفحة ٦٢٧ بقولنا (ثم يدخلون فى النار لتحرق ظاهرهم وباطنهم) تعلم أننا أخذنا إدخالهم النار من الحرف (فى) وإحراق باطنهم من قوله (يسجرون). وإذا قلنا فى تفسير قوله تعالى ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ الآية (٢) من سورة البلد صفحة ٨٠٨ (والحال أن الكفار من أهله استحلوا إيذاءك أيها النبى.. إلخ) تعلم أن الواو فى «وأنت حل» تدل على أن الجملة التى بعدها حال مما قبلها.. وهكذا فى كل ما كان فى هذا النوع.

وقد رأينا لدواعى الاختصار. وضيق حيز الصفحات مع الرغبة فى إيفاء بعض المقامات حقها، بتدعيمها بالأدلة من القرآن نفسه، أن نكتفى بذكر رقم الآية وسورتها أو صفحتها من المصحف نفسه بدل ذكر ألفاظ الآيات كلها. ولما كان من المقرر عند العلماء أن خير تفسير لكلامه تعالى هو كلامه نفسه، فإنا لم نأل جهدا فى الإحالة على كل ما يوضح معنى الكلمة، أو يعين المراد منها. وقد نتوسع فى ذلك أحيانا ليتمكن مَنْ يريد تكوين فكرة فى موضوع معين

من تحقيق رغبته، فإذا رأيت كثرة الإحالات فى موضوع تعتبره فى نظرك واضحا. فلا تشغل نفسك بتتبع الإحالات، وامض فى سبيلك. وأعلم أن المقصود بها غيرك.

وقد نفسر المفرد فى مكان بغير ما نفسره به فى مكان آخر، نشير بذلك إلى أن لعلماء السلف فى هذا اللفظ رأيين، ونترك للمطَّلع حرية أختيار ما تطمئن إليه نفسه منهما.

وينبغى أن يعلم أن كل الذى حاولناه فى هذا المختصر هو أننا أعددنا مصباحا صغيرا يكشف بعض معالم الطريق لمن أراد استجلاء بعض أسرار كتاب الله تعالى. وذلك أنا نعلم أن القرآن قد تعرض لعلوم شتى، من: تشريعية، واجتماعية ، وخلقية، وتاريخية، وطبية، وزراعية، وفلكية، وغير ذلك.

كما نعلم أن لهذه العلوم رجالا تخصصوا فيها، ومن المؤكد أن يكون من بينهم مَنْ إذا وضعنا أمامه هذا المصباح الذى يبرز له المعانى الأصلية من ثنايا العبارات المعجزة واضحة ليس دونها حجاب. مَنْ قد يخرج من أسرار القرآن ومعجزاته ما خفى على كثير غيره، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاء.

وقد بذلنا فى الوصول إلى ذلك جهد المقلين، راجين من الله العلى القدير أن يغفر لنا خطايانا، وأن يدخلنا فى زمرة مَنْ شملهم عفوه، إنه واسع المغفرة جوَّاد كريم.

وقد وضعنا كل كلمة تخالف فى الرسم الإملاء المعاصر رقما، ووضعنا أمام هذا الرقم فى أدنى الصفحة رسمها الموافق للإملاء الحديث. وفيما يلى هذا نموذج لبعض الكلمات بالرسم الوارد فى المصحف الإمام وما يقابلها بالرسم الحديث.

وبهذا نكون قد جمعنا بين المحافظة على رسم المصحف الإمام، وبين تسهيل قراءته على القارئين، وإذا رأيت بعض كلمات القرآن فى أثناء الشرح مكتوبة بالإملاء الحديث، فاعلم أن هذا خاص بالكتابة فى أثناء التفسير فقط، ولا يجوز أن يعمل ذلك فى صلب المصحف نفسه وإلا نكون قد وقعنا فى الخطر المشار إليه سابقا.

وقد وضعنا الشرح بالهامش مبدوءا ببيان معانى المفردات اللغوية، وبعد الفراغ منها، نبدأ فى بيان المعنى بقولنا: (المعنى)..

والله الموفق للصواب.

عبدالجليل عيسى

نموذج من الكلمات المكتوبة بالرسم العثمانى مع مقابلتها بالرسم العثمانى يبين صعوبة صحة النطق بالكلمة على وجهها الصحيح

الكلمة بإملاء المصحف	رقم الصفحة	رقم الآية	الكلمة بإملاء المعاصر	الكلمة بإملاء المصحف	رقم الصفحة	رقم الآية	الكلمة بالإملاء المعاصر
إسرءيل	٩	٤٠	إسرائيل	وملايه	٢٩٩	٩٧	وملئه
الصلوة	٩	٤٣	الصلاة	التى	٣١٠	٥٠	اللاتى
الزكوة	٩	٤٣	الزكاة	نبؤا	٣٣٠	٩	نبأ
الحيوة	١٧	٨٥	الحياة	الضعفؤا	٣٣٢	٢١	الضعفاء
اليل	٣١	١٦٤	الليل	ونَــا	٣٧٦	٨٣	ونأى
التورــة	٦٣	٣	التوراة	يبنؤم	٤١٤	٩٤	يابن أم
ومأوـه	٩٠	١٦٢	ومأواه	فسـلُوا	٤٢١	٧	فاسألوا
الربوا	١٣٠	١٦١	الربا	أفاين	٤٢٤	٣٤	أفإن
وءاتكم	١٤٠	٢٠	وآتاكم	سأوريكم	٤٢٤	٣٧	سأريكم
وءاتينه	١٤٦	٤٦	وآتيناه	أيُّه	٤٦٢	٣١	أيها
علَم	١٥٩	١٠٩	علام	مال هذا	٤٧١	٧	مالهذا
أنبَؤا	١٦٢	٥	أنباء	لأاذبحنَّه	٤٩٦	٢١	لأذبحنه
وينئون	١٦٦	٢٦	وينأون	الملؤا	٤٩٧	٢٩	الملأ
طير	١٦٨	٣٨	طائر	شركآءى	٥١٦	٦٢	شركائى
بالغدوة	١٧٠	٥٢	بالغداة	أسـوا	٥٣٢	١٠	أساءوا
أرَك	١٧٤	٧٤	أراك	السوأى	٥٣٢	١٠	السوء
هدَن	١٧٥	٨٠	هدان	يبدؤا	٥٣٢	١١	يبدأ
شركؤا	١٧٨	٩٤	شركاء	شفعؤا	٥٣٢	١٣	شفعاء
دعوىهم	١٩٢	٥	دعواهم	ولقآى	٥٣٢	١٦	ولقاء
يبنى ادم	١٩٥	٢٦	يا بنى آدم	البلؤا	٥٩٣	١٠٦	البلاء
ءايتى	١٩٧	٣٥	آياتى	يـداود	٦٠٠	٢٦	ياداود
بسيمهم	١٩٩	٤٦	بسيماهم	النجوة	٦٢٣	٤١	النجاة
نشؤا	٢٩٧	٨٧	نشاء	دعؤا	٦٢٤	٥٠	دعاء

مقدمة الطبعة الثانية
(عام ١٩٨٠م، ١٤٠٠هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على خاتم النبيين: سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن القرآن هو كتاب الله الكريم، الذى أنزله على رسوله الأمين، مهيمنا على جميع ما أنزل قبله على الرسل أجمعين. فيه شفاء لما فى الصدور، وهدى للسارى ونور، فلذا عنى العلماء قديما وحديثًا بشأنه، ووضعوا العلوم المختلفة لخدمته. وكان شأن المسلمين فى كل عصر وبلد، الرغبة الملحة فى حفظه وتلاوته، ومداومة النظر فيه، لاستنباط ما حواه من الأحكام والعبر. ولما اتسعت رقعة الإسلام، ودخلته أمم تختلف فى لغاتها وطرق كتابتها، وتعذر على كثير من متعلميها قراءة القرآن، وهو على رسم المصحف الإمام، فلم ينتفع بتلاوته على الوجه الصحيح إلا النزر اليسير، ممن انقطع لتعلم طريقته، أو أمضى زمنا ليس بالقصير فى معالجة قراءته. لذلك حاول بعض المسلمين كتابته على طريقة الإملاء العادية. فتصدى لمحاربة هذه الفكرة مؤمنون بصيرون بالعواقب، غيورون على قدسية الكتاب الكريم. وكان الصواب حليفهم فى محاربة هذه الرغبة الطائشة. لأن القرآن هو عمدة هذا الدين. وطرق الإملاء العادية تختلف باختلاف أقطار المسلمين، بل قد تختلف باختلاف جوانب القطر الواحد. فإذا فتح باب كتابته بالإملاء المعتاد عند كل طائفة من طوائف المسلمين، تسرب إليه ما تسرب للكتب السابقة من التحريف والتغيير، ونال من قدسيته ما نال من قدسيتها، وأثر فى قيمتها الدينية والعلمية.

لما كان كل هذا، رأينا أن نجمع بين الأمرين: التسهيل على القارئ، والمحافظة على أصل رسم المصحف الإمام؛ فوضعنا على كل كلمة تخالف الرسم المعتاد رقما، ووضعنا أمام هذا الرقم فى هامش المصحف الكلمة بالرسم المعتاد.

ومما جاء موافقا للرسم العادى تارة، ومخالفا أخرى، تبعا لاختلاف كتاب الوحى كما سيأتى، كلمات فى آخرها تاء التأنيث التى تكتب فى المعتاد تاء مربوطة فقد وردت فى المصحف أحيانا تاء مربوطة، وفقا للإملاء المعتاد، وأحيانا تاء مفتوحة من ذلك كلمات:

نعمة: وردت بتاء مربوطة فى آيتى ١٧١ صفحة ٩١ و ٩ صفحة ٥٥٠ وبتاء مفتوحة. كما فى آيتى ١٠٣ صفحة ٧٩، ٣١ صفحة ٥٤٣.

رحمة: وردت بتاء مربوطة فى آية ٥٢ صفحة ٢٠٠، وبتاء مفتوحة كما فى آيات ٥٦ صفحة ٢٠١، ٧٣ صفحة ٢٩٥، ٥٠ صفحة ٥٣٧، ٣٢ صفحة ٦٥٠.

امرأة: وردت بتاء مربوطة فى آية ١٥٨ صفحة ١٢٤، وبتاء مفتوحة كما فى آيتى ٣٥ صفحة ٦٨، ٣٠ صفحة ٣٠٧.

سنة: وردت مربوطة فى آية ٧٧ صفحة ٣٧٥، وبتاء مفتوحة كما فى آيتى ٣٨ صفحة ٢٣٢، ٤٣ صفحة ٥٧٨.

لعنة: وردت بتاء مربوطة فى آية ١٦١ صفحة ٣١، وبتاء مفتوحة كما فى آيتى ٦١ صفحة ٧٢، ٧ صفحة ٤٥٧.

ومنها كلمة (مما) فقد وردت فى آية ٣ صفحة ٢٢٧ (مما رزقناهم) وجاءت (من ما) فى آية ١٠ صفحة ٧٤٤.

شجرة: وردت بتاء مربوطة فى آية ٣٥ صفحة ٨، وبتاء مفتوحة كما فى آية ٤٣ صفحة ٦٥٩.

ومما جاء مضطربًا أيضًا كتابة الحروف المبتدئة بها بعض السور فبينما نرى فى سورة مريم (كهيعص) متصلا بعضها ببعض وعليها رقم آية، نجد أول سورة الشورى (حم) (عسق) آيتين.

رسم المصحف

لماذا خالف الرسم المعتاد فى بعض كلماته؟

يسأل كثيرون عن سبب مخالفة الرسم المعتاد فى بعض كلمات المصحف.

وقد تعرض لبيان ذلك جمهرة كبيرة من العلماء، وحاصل ما ثبت من طريق صحيح أن النبى ﷺ عندما كان ينزل عليه شىء من القرآن يدعو برجل ممن يعرفون الكتابة من العرب، وكانوا قلة بين أمة أمية. عولت فى المحافظة على تراثها على قوة الذاكرة، فكانت صدورهم هى دواوينهم. يدعوه ﷺ ويملى عليه ما نزل. ويقول له اكتب هذه الآيات، فى مكان كذا من السورة التى يذكر فيها كذا وكذا، فيكتب على ما تيسر له من جلد حيوان أو عظمه، أو كتفه، أو قشرة

جريد، أو حجر رقيق أملس، إلى غير ذلك. ولما هاجر ﷺ إلى المدينة كانت كل هذه الصحف محفوظة عند عائشة، أم المؤمنين رضى الله عنها.

وبعد أن جاور ﷺ ربه، وتولى أبو بكر الخلافة، ووقعت بين المسلمين وبين الكفار حروب شديدة، كان منها حرب (اليمامة) المشهورة التى قتل فيها كثير ممن يحفظون القرآن، عند ذلك جاء عمر بن الخطاب إلى أبى بكر وقال له: إن القتل قد اشتد فى حفاظ القرآن، وإنى أخشى أن يشتد القتل فيهم فى مواطن أخرى. فيفنى أشياخ الحفاظ، فأرى أن تجمع من بقى منهم، وتجمع معهم كتاب الوحى، ويراجعوا ما كتب على ما هو محفوظ فى الصدور: ثم يحفظ وعند ذلك نأمن على القرآن من الضياع. فدعا أبو بكر زيد بن ثابت، وقال له: إنك شاب عاقل، لا نتهمك، وكنت ممن يكتب الوحى للنبى ﷺ، فتتبع القرآن واجمعه، قال زيد: فقمت أجمعه مما كتب عليه فى زمن النبى ﷺ وأقارنه بما فى صدور الحفاظ. فلما فرغت قدمته لأبى بكر رضى الله عنه، فأودع هذه الصحف عند ابنته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها. وتسمى هذه (الكتبة الأولى).

ولما مات أبو بكر، وتولى عمر بن الخطاب نقلت تلك الصحف عند ابنته حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها.

ولما ولى عثمان بن عفان الخلافة - وكان حذيفة بن اليمان رضى الله عنه فى حرب (أرمينية)، وكان معه جند من الشام، والعراق، والحجاز، واختلفوا فى قراءاتهم، وتعصب كل فريق منهم لما يقرأ، حتى إن الرجل منهم ليقول للآخر: إن قراءتى خير من قراءتك، وكفر بعضهم بعضا وتلاعنوا - فانزعج لذلك حذيفة، وبمجرد وصوله المدينة راجعًا، توجه إلى عثمان قبل أن يذهب إلى بيته، وقال له: أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك، ثم وصف له ما حدث، وقال: إنى أخشى عليهم أن يختلفوا فى كتابهم كما أختلف اليهود والنصارى.

فجمع عثمان وجوه الصحابة، وكان من بينهم على بن أبى طالب رضى الله عنه وعرض عليهم الأمر: فاتفقوا جميعا على أن يجمع ما سجل فى عهد أبى بكر ويكون هو المرجع الوحيد. فأرسل عثمان إلى حفصة، وقال لها: أرسلى لنا الصحف ننسخها فى مصاحف ثم نردها إليك، فأرسلتها إليه، فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها كما هى فى مصاحف. قال الطبرى: إن الصحف التى كانت عند حفصة جعلت إماما فى هذا الجمع، وتسمى هذه (الكتبة الثانية). وأرسل عثمان إلى كل قطر نسخة من هذه النسخ، كما هو مبين فى آخر هذا المصحف تحت عنوان (تعريف بهذا المصحف) صفحة ج، وأمر بحرق كل ما كتب من القرآن خلاف ذلك فأحرقت جميعها. هذا ما حصل فى سبب كتابة القرآن فى تلك الصحف.

وقبل أن نغادر هذا المقام، نرى أن من الواجب علينا لمناسبة ما بذل من المحافظة على كتاب الله، إنصافا للعاملين، وتشجيعًا للمصلحين، أن نسجل هنا ذلك العمل الجيد الذى تم فى

عهد وزير الأوقاف السابق (السيد أحمد عبد الله طعيمة)، وهو تسجيل القرآن الكريم، مرتلا، كما أنزله الله تعالى على رسوله محافظا فيه على الأصل وعلى كيفية الأداء من إعطاء الحروف حقها، كما كان ينطقها العرب الذين نزل القرآن بلسانهم فكان فى ذلك حفظ له من اختلاف القراء، وتلاعب الصهيونية التى حاولت - بل وإلى الآن تحاول - أن يتسرب إفسادها إلى أعز شيء عند المسلمين، يفدونه بأرواحهم فجازاه الله خير الجزاء.

والآن.. وبعد مضى زمن على هذا العمل الطيب نرجو من القائمين على تسجيل القرآن والمتولين توزيعه أن يراجعوا التسجيل بكل دقة وألا يكون التسجيل إلا على اسطوانات جيدة سليمة حتى لا تتعرض للفساد بسرعة وأن يرشدوا من يحصل على نسخة من هذه الإسطوانات أن يتنبه دائما لأى فساد يطرأ عليها فيبطل العمل بها حالا، وإلا كانت شرا تسببنا لتسربه لكتاب الله من حيث لا نشعر، وقانا الله وإياهم شر ذلك.

ملاحظة: قد يلاحظ القارئ عند تفسير كلمة أننا قد نحيل على تفسيرها فى مكان آخر. وسبب ذلك: ضيق حيز الصفحة عن ذكر كل ما نريد.

وفقنا الله لانتفاعنا بكتابه الكريم.

٣ ربيع الاخر سنة ١٤٠٠هـ

١٩ فبراير ١٩٨٠

عبدالجليل عيسى

فهرس
بعض مبادئ مهمة تعرض لها القرآن

لم يُنوِّع القرآن الأدلة على وجوه مختلفة، مثل ما نوّع في أدلة الأصول الثلاثة:

(أ) وجود الله، ووحدانيته.
(ب) بعث الخلائق يوم القيامة للحساب والجزاء.
(جـ) صدق الرسول حتى إنه لا تكاد تخلو منها سورة من السور المكية التي نزلت في غضون ثلاث عشرة سنة من سنوات الرسالة المحمدية البالغ عددها ثلاثًا وعشرين سنة.

١ - الوجود والوحدانية: آيات ٦١، ٦٣، ص ٥٢٩، ٣٥، ٣٦، ص ٦٩٩، ٥١ ص ٣٥٢، ٧٣- ٧٦ ص ٣٥٥، ٤٢ وما بعدها ص ٤٠٠، ٧٣ ص ٤٤٤، ١٨، ١٩ ص ٤٧٢ و١٦ وما بعدها ص ٥٢٢ و١١ ص ٥٤٠، ٤٠ ص ٥٧٧، ٣٨ ص ٦١١.

٢ - البعث: آيات ٥٧ ص ٢٠٢، ٦٦، ٦٧ ص ٤٠٣، ٥، ٦ ص ٤٣٣، ٥٠ ص ٦٣٥، ١١ ص ٦٤٨، ٣٣ ص ٦٧١، ٣، ٤، ص ٦٨٨، ١١، ١٥ ص ٦٨٩ ومن ٣٦- ٤٠ ص ٧٨٠.

٣ - صدق الرسول ﷺ: من أدلته أنه قطع بأمور في المستقبل وقعت كما أخبر، وأنه أخبر بأن الكفار سيعجزون عما تحداهم به وثبت عجزهم. أنظر الآيات ١٩ ص ٢٢٩، ١٥، ١٦ ص ٢٦١، ١٠٢، ١٠٣ ص ٣٦٠، ٤٨ ص ٥٢٧، ٥٧ ص ٦٤٦، ٣٣، ٣٤ ص ٦٩٩، وآيات ٢- ٤ ص ٥٣٠، ٢٣، ٢٤ ص ٦، ٢٩ ص ٧٨٥، ١٥، ١٦ ص ٨٠٣، ٤٥ ص ٧٠٧، ١٠ ص ٦٨٠ و٢٧ ص ٦٨٣، ١١ وما بعدها ص ٧٧٦ و٦٧ ص ١٥٠، ٧٤ ص ٢٥٤، ٨٨ ص ٣٧٦، ٣ ص ٧٥٢، ٢٨ ص ٢٤٤، وآية ٤٠ صفحة ٥٥٦ فقد قال قاطعا إنه ليس بعده نبي في وقت كانوا يعلمون أن الرسل قبله كانوا يتلو بعضهم بعضا انظر آية ٤٤ صفحة ٤٤٩ وها هو قد مضى على العالم نحو ١٤ قرنا ولم يأت نبي. فصدق الله وصدق رسوله.

٤ - لا عذر لأحد في عدم معرفة الخالق المدبر لهذا الكون ولو نشأ في شاهق جبل ولم تصل إليه رسالة. انظر آية ١٧٢ صفحة ٢٢١.

٥ - إقرار الإنسان بوجود الله لا ينفعه ما دام يخالطه شيء من الشرك انظر آيتي ٨٢ صفحة ١٧٥، ١٠٦ صفحة ٣١٩.

٦ - إذا آمن الشخص بالله وببعض رسله وببعض كتبه دون بعض فهو كافر، وحكم الكافر الخلود في النار انظر آيات ٩١ صفحة ٧٧، ١٣٦ صفحة ١٢٦، ٣٤ صفحة ٦٧٧، ١٦، ١٧ صفحة ٧٣٢ وانظر كيف سمى القرآن أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد كفارا في آية ١ صفحة ٨١٦.

٧ - أصل عبادة الأصنام أنها كانت صورًا لعباد صالحين ماتوا انظر آية ٢٣ صفحة ٧٦٩.

٨ - الاستعاذة بغير الله من أكبر الجرائم آية ٦ صفحات ٧٧٠.

٩ - أهل الكتاب لم يؤمنوا بالآخرة على الوجه الصحيح آية ٢٩ صفحة ٢٤٥.

١٠ - مما امتازت به أمة محمد ﷺ أنها تؤمن بكل رسل الله، ولا نفرق بين أحد منهم آية ٢٨٥ صفحة ٦١.

١١ - فرعون يقول: إنه هو الرب الأعلى، مع أن له آلهة. انظر بيان ذلك في آية ١٢٧ صفحة ٢١١.

١٢ - لم كان الكافر بالله أشد ضلالا من الحيوان؟ انظر شرح آية ١٧٩ صفحة ٢٢٢.

١٣ - الإيمان بعد مباشرة أمارات الموت المحقق لا ينفع انظر الآيات ١٥٨ صفحة ١٩٠ و٩٠، ٩١ صفحة ٢٨٠، ٨٥ صفحة ٦٢٩، ١٨ صفحة ٦٧٥، ١٧، ١٨ صفحة ١٠١.

١٤ - علماء أهل الكتاب يعلمون أن القرآن حق

ولكنهم يكابرون انظر آيات ٤١ و٤٢ صفحة ٩، ٨٩ صفحة ١٧، ١١٤ صفحة ١٨١.

١٥ - علماء أهل الكتاب كانوا يعلمون أن الرسول صادق، ولكنهم كانوا يخفون ذلك محافظة على رياستهم من الضياع آية ١٤٦ صفحة ٢٨.

١٦ - فرعون كان يعتقد أن موسى رسول الله ولكنه كان يكابر خوفا على سلطانه من الذهاب آيتا ١٠٢ صفحة ٣٧٨، ١٤ صفحة ٤٩٥.

١٧ - المشركون كانوا يعتقدون أن الخالق لهم ولجميع العالَم هو الله وحده، ومنشأ كفرهم أنهم اتخذوا من المخلوقات شفعاء يقربونهم له سبحانه. انظر الآيات ٦١ و٦٣ صفحة ٥٢٩، ٨٧ صفحة ٦٥٥، ١٨ صفحة ٢٦٨ و٣ صفحة ٦٠٦ وشرح آية ٢٣ صفحة ٧٦٩.

١٨ - متى يشاء الله إضلال الناس أو هدايتهم وبيان سنته سبحانه فى ذلك انظر آيات ٧٨، ٧٩ ص ١١٤، ٤٨ ص ١٤٦، ١٤٨ ص ١٨٨، ٣٥ ص ١٦٧، ٩٩ ص ٢٨١ و٣٥ ص ٣٤٩، ٥٣ ص ٤٤١، ٥٠ ص ٥٧٠، من ٥ إلى ١٠ ص، ٨١٠.

١٩ - معانى الضلال فى القرآن آية ٢٤ ص ١٦٥.

٢٠ - التنفير من التقليد، والحث على استعمال العقل آية ٥٣ وما بعدها صفحة ٤٢٦، ٢١ صفحة ٥٤٢.

٢١ - القرآن يرشدنا كيف نعبر عما يستحى من التصريح به بكنايات لطيفة. آيات ١٨٧ صفحة ٣٦، ١٩٦ صفحة ٣٨ (أو به أذى من رأسه) كناية عما يصيب الرأس من أمراض أو حشرات وآيات ٢٣٦ صفحة ٤٨، ٦ صفحة ١٣٧، ٧٥ صفحة ١٥٢ (كانا يأكلان الطعام) كناية عما يستلزمه أكل الطعام من إخراج الفضلات وآية ١٨٩ صفحة ٢٢٤.

٢٢ - كيف يربى الله تعالى المسلم على تحمل الشدائد حتى يكون قوى العزيمة معدًا لتحمل كل خطر آية ٢١٤ صفحة ٤٢.

٢٣- ينبغى لقائد الجيش أن يختبر قوة عزائم جنده قبل خوض المعركة، ويبعد عنه ضعيف العزيمة آية ٢٤٩ صفحة ٥١.

٢٤ - أروع تمثيل للترغيب فى الإنفاق فى سبيل الله، آيتا ٢٦١ صفحة ٥٥، ٢٦٥ صفحة ٥٦.

٢٥ - إخفاء الصدقات أفضل من إعلانها آية ٢٧١ صفحة ٥٧.

٢٦ - غلق باب تلاعب الشيطان بضعاف النفوس حيث أمر بكتابة الديون، والإشهاد عليها آية ٢٨٢ صفحة ٦٠.

٢٧ - يعلمنا الله سبحانه كيف نتغاضى عن ذكر سيئات الغير عند الاجتماع به فى وقت الصفاء انظر ذلك فى آية ١٠٠ ص ٣١٨. وتأمل كيف أغفل يوسف عليه السلام حادث الجب المذكور فى آيتى ١٠ و١٥ صفحة ٣٠٤ لئلا يؤذى إخوته.

٢٨ - المؤمن الصادق يستعيذ بالله من أن يكون فتنة للقوم الظالمين، انظر آية ٨٥ ص ٢٧٩.

٢٩ - الغاوى يطلق على الذى يضل السبيل الحق، وعلى الذى يضل غيره، آيتا ٩١ و٩٤ ص ٤٨٥.

٣٠ - متى يزين الله للعبد ما فيه هلاكه آية ٤ ص ٤٩٤.

٣١ - لماذا يظن الكافرون عند مشاهدة العذاب أنهم لم يمكثوا فى القبور إلا زمنا يسيرًا، آيتا ٤٥ صفحة ٢٧٣، ٣٥ ص ٦٧٢.

٣٢ - شروط قبول التوبة، وأنها ليست مجرد النطق بلفظ التوبة. انظر آيات ٣٩ صفحة ١٤٤ و ٥ صفحة ٢٤٠، ١١ صفحة ٢٤١ و١١٩ صفحة٢٦٢ و ٥ صفحة ٤٥٧ و ٧٠ و٧١ صفحة ٤٧٨ و٨٢ ص ٤١٣.

٣٣ - تسبيح الجبال وغيرها وسجودها. انظر آية ٧٩ صفحة ٤٢٨.

٣٤ - اختلاف أحوال وجوه الكفار وأبصارهم يوم القيامة باختلاف المواقف انظر آية ٤٥ صفحة ٦٤٥.

٣٥ - لا يصلح الله حال أمة إلا إذا أصلحت ضمائرها وأعدت نفسها للتقوى، آية ١١ ص ٣٢٢.

٣٦ - كل ما فى الأرض والسماء مسخر لمصلحة الإنسان. انظر آيات ٢٩ صفحة ٧، ٣٢ و٣٣ و٢٤ صفحة ٣٢٤ و٥ وما بعدها صفحتى ٣٤٦ و٣٤٧ وآية ٦٥ صفحة ٤٤٢.

٣٧ - لماذا كانت أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس؟ انظر الصفات التى استحقت بها ذلك.

في آية ١١٠ صفحة ٨٠ وانظر لم لعن غيرها في آيتي ٧٨ و٧٩ صفحة ١٥٣.

٣٨ - إذا وقعت الخطيئة في قرية فما هي طريقة النجاة من آثارها؟ انظر آية ١٦٣ وما بعدها ص ٢١٩.

٣٩ - تمنى الكافر عند مشاهدة العذاب الرجوع إلى الدنيا ليعمل صالحا، انظر آيتي ١٠٠ صفحة ٤٥٤، ٤٤ صفحة ٣٣٦.

٤٠ - معنى إحكام آيات القرآن ومعنى تفصيلها انظر آية ١ ص ٢٨٣.

٤١ - متى فضل الله بني إسرائيل على العالمين، وما سبب ذلك؛ وكيف انقضى هذا التفضيل؟ انظر آية ٢٢ ص ٦٥٨.

٤٢ - من هم الشهداء يوم القيامة الذين يشهدون على غيرهم انظر آية ٦٩ ص ٦١٦.

٤٣ - معنى الغيب والشهادة في القرآن، انظر آية ٧٣ ص ١٧٤.

٤٤ - مقدار اليوم عند الله في الدنيا والآخرة انظر آية ٤٨ ص ٤٤٠.

٤٥ - قد يوسع الله للعبد استدراجا له ثم ينزل به عقابه الشديد انظر آيات ١٧٨ صفحة ٩٢، و١٨٢ و ١٨٣ صفحة ٢٢٢، ٤٤ صفحة ١٦٨، ٥٥ ، ٥٦ صفحة ٤٥٠.

٤٦ - جاء في القرآن (علم اليقين) و(حق اليقين) و(عين اليقين) فما الفرق بينها؟ انظر ذلك في صفحة ٧١٨.

٤٧ - هل يطلق (خالق) و(رازق) على غير الله سبحانه؟ انظر صفحتي ٤٤٢ و ٤٤٦.

٤٨ - (الصيحة) جاءت لمعان في القرآن. انظر ذلك في صفحة ٤٤٩.

٤٩ - استعمالات القرآن لكلمة (كتاب) انظر ذلك في صفحة ٧٩٧.

٥٠ - اسماء يوم القيامة التي جاءت في القرآن، بيان ذلك في صفحة ٧٦١.

٥١ - (العزة) جاءت في القرآن حقيقية وكاذبة. انظر ذلك في صفحة ٥٩٧.

٥٢ - لم أمر الله سبحانه النبي ﷺ بالاستغفار. انظر السبب في آية ٥٥ صفحة ٦٢٥.

٥٣ - القدوة في الشر عليه وزر عمله؛ ووزر من قلده إلى يوم القيامة: انظر صفحة ٥١٢.

٥٤ - المجرمون يهزءون بالمؤمنين في الدنيا. وفي الآخرة تنعكس الحال؛ انظر آيات ٢٩ وما بعدها صفحة ٧٩٨.

٥٥ - النهي عن الإصغاء للإشاعات أيام الحرب انظر آية ٨٣ صفحة ١١٥.

٥٦ - لماذا قيل عن نوح إنه آدم الصغير. مع أنه ركب معه في السفينة أهله والمؤمنون من غيرهم؟ كما في آية ٤٠ صفحة ٢٩٠، انظر بيان ذلك في شرح آية ٧٧ صفحة ٥٩١.

٥٧ - لا تكثر المصائب إلا عند فساد أخلاق الناس. انظر آيتي ٤١ صفحة ٥٣٦، و٣٠ صفحة ٦٤٣.

٥٨ - مخالفة أوامر قائد الجيش أثناء المعركة تسبب النكبات انظر ١٥٢ صفحة ٨٧.

٥٩ - الرهبانية أول من ابتدعها رهبان مصر، انظر آية ٢٧ صفحة ٧٢٣.

٦٠ - من هم الذين إذا تابوا لا تقبل توبتهم، انظر آيتي ٩٠ صفحة ٧٧، ١٨ صفحة ١٠١.

٦١ - عمق الإيمان، وقوة العزيمة تقاوم تسعة جنود من الخصوم، لأن القرآن جعل المقاتل من المؤمنين يقف في وجه عشرة، فشخصه يقابل شخصًا من خصومه، وقوة إيمانه وعزيمته تقاوم تسعة، آية ٦٥ صفحة ٢٣٧.

٦٢ - حال كثير من تجار المسلمين الآن أشد فسادًا من حال فساق التجار في عهد التنزيل انظر شرح آيتي ٢، ٣ ص ٧٩٦.

٦٣ - أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد يعتبرهم القرآن كفارًا في آية ١ صفحة ٨١٦.

٦٤ - معنى كلمة مثاني في القرآني وأنها تطلق على الفاتحة، وعلى القرآن كله، صفحة ٣٤٤.

٦٥ - «ولقد صرفنا في هذا القرآن» معنى التصريف صفحة ٣٦٩.

٦٦ - الإسلام يشدد في المحافظة على العهود بما ليس له مثيل، الآيات ٩٠ صفحة ١١٦، ٧٢، ٧٣ صفحة ٢٢٨، ٤ صفحة ٢٤٠، ٩١، ٩٢ صفحة ٣٥٨.

٦٧ - الإسلام يحث أتباعه على السير في الأرض للاعتبار بما حصل للأمم التي انحرفت عن الاستقامة. الآيات ٩ صفحة ٥٣١ ومن ١٥ إلى ١٩ صفحة ٦٥٤، من ٤٢ إلى ٤٤ صفحة ٥٧٨،

٣١ صفحة ٦٢٠، من ٨٢ إلى ٨٥ صفحة ٦٢٩.

٦٨ - معنى الفتح في القرآن، آية ١١٨ صفحة ٤٨٧.

٦٩ - كلمة (وراء) معانيها في القرآن آية ١٦ صفحة ٣٣٢.

٧٠ - شرح صحيح لكلمة جاءت في القرآن لم يتنبه له أحد ممن سلفوا انظر لفظ (التغابن) في آية ٩ صفحة ٧٤٦.

٧١ - أخبث مكيدة للإسلام دبرها اليهود فأحبطها الله سبحانه وفضحهم انظر آية ٧٢ صفحة ٧٤.

٧٢ - المتقرب إلى الله بعبادة خالطتها بدعة أشد تعرضا للخطر من العاصي الذي يعرف أنه في معصية، لأن الأول قد يداهمه الموت قبل أن يعرف أنه مبتدع، بخلاف الثاني فإنه دائما يشعر بتأنيب ضميره فهو أقرب إلى التوبة والندم، انظر آيات ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥ صفحة ٣٩٤، ٣٠ صفحة ١٩٦، ٨ صفحة ٥٧٢، ٢٧ صفحة ٦٥١.

٧٣ - لم خلق الله الإنس والجن؟ آية ٥٦ صفحة ٦٩٦.

٧٤ - حكمة بعث الخلائق يوم القيامة، لتجزى كل نفس بما تسعى، انظر آية ١٥ صفحة ٤٠٧، ١١٥ صفحة ٤٥٦، ١٨، ١٩، ٢٠ صفحة ٥٤٦.

٧٥ - لم يصور القرآن طائفة بأبشع الصور مثل ما صور المنافقين، انظر بعضا من ذلك في آيات ٨ إلى ٢٠ ص٤ صفحة ٥٥٠، من ١ إلى ٨ صفحة ٧٤٢.

٧٦ - قد يصيب الله العبد بالمصائب ليفيق من غفلته ويرجع صادقًا في توبته انظر آيات ٤٢، ٤٣ صفحة ١٦٨. ٩٤ صفحة ٢٠٨، ٧٦، ٧٧ ص ٤٥٢، ٤١ صفحة ٥٣٦، ٢١ ص ٥٤٧، ٤٨ ص ٦٥٢.

٧٧ - إذا رجع العبد إلى ربه عند المصيبة ثم نكص بعد زوالها فهو من شرار الخلق انظر آيات ١٣٥ - ١٣٦ص ٢١٣، ٢١، ٢٢، ٢٣ ص ٢٦٩، ٥٣، ٥٤، ٥٥ ص ٣٥٢، ٦٥، ٦٦ ص ٥٣٠، ٣٣، ٣٤ ص ٥٣٥.

٧٨ - علاج همزات الشياطين ودسائس النفوس، انظر آيات ٢٠٠، ٢٠١ صفحة ٢٢٥، ٣٤، ٣٥، ٣٦ ص ٦٣٤.

٧٩ - شدة أهوال القيامة تفقد الكافر عقله فيقدم على الحلف بالله كذبا وهو واقف بين يديه سبحانه، انظرآية ٢٣ ص ١٦٥.

٨٠ - قد يغدق الله على الأمة الظالمة الخير ليمكر بها حتى إذا أخذها فجأة كانت مصيبتها أشد. آية ١٧٨ ص ٩٢، ٤٤ ص ١٦٨ وآية ١٢ وما بعدها ص ٧٧٦.

٨١ - المعاند لا تنفع معه الحجة مهما تكن واضحة آية ٧ ص ١٦٣، ١١١ ص ١٨١، ٣١ ص ٣٢٦.

٨٢ - كان الرسل السابقون مرسلين إلى أمم معينة وأرسل خاتم الرسل إلى الناس كافة آية ١٥٨ ص ٢١٨، ١٠٧ ص ٤٣٢، ١ ص ٤٧٠، ٢٨ ص ٥٦٦، ٥٢ ص ٧٦١.

٨٣ - عناية الإسلام بإخراج العرب من الأمية وجعلهم أمة متعلمة انظر ذلك في شرح آية ٢ ص ٧٤١.

٨٤ - لا يجوز أن يطلب العبد من ربه شيئا إلا بعد تحققه من أنه أمر جائز أن يطلب فإذا علم حرمته، أو جهل جوازه فلا يجوز، انظر شرح آية ٤٦ ص ٢٩٠.

٨٥ - قد يبتلي الله العبد الفاسق بما يسبب زيادة عذابه، آية ١٦٣ ص ٢١٩.

٨٦ - المال يسبب الطغيان إلا من عصم الله. الآيات ٧٦ إلى ٨٣ ص ٥١٨، ٦، ٧ ص ٨١٤.

٨٧ - معنى كون المرأة والأولاد أعداء الأزواج أو الآباء، آية ١٤ صفحة ٧٤٧.

٨٨ - القرآن هو معجزة الرسول الخالدة، آيتا ٥٠، ٥١، ص ٥٢٨.

٨٩ - شروط قبول الشفاعة: رضاء الله عن المشفوع له، وإذنه للشفيع انظر ٢٨ ص ٤٢٣، ١٠٩ ص ٤١٦، ٢٥٥ ص ٥٣.

٩٠ - مما يدل على أن الإنسان هو أفضل هذه المخلوقات أن الله خلق ما في هذا الكون لمصلحته، وسخره له، انظر الآيات ٢٩ ص ٧، ١٢، ١٣ ص ٦٦١، ٣٢، ٣٣، ص٣٣٤.

٩١ - تأخير التوبة إلى حصول مقدمات الموت

يفـقـدها فـائدتهـا، انظـر الآيات ۹۰، ۹۱ ص ٢٨٥، ٥٤ إلى ٥٩ ص ٦١٤، ٨٥ ص ٦٢٩.

٩٢ - يبتلى الله العبد بالشدائد، والشر، والخير، لتظهر طبيعته على حقيقتها، انظر ٤٥ ص ٤٢٤، ١٢٤ ص ٢٤، ١٨٦ ص ٩٤، ١٥٥ ص ٣٠، ٤٠ ص ٤٩٩، ١٢٤ صفحة ٢٤.

٩٣ - يطلق القرآن الساعة على القيامة الكبرى التي تكون للخلائق أجمع، وعلى القيامة الصغرى التي تكون عند نهاية عمر كل فرد، أو أمة وعلى لحظة من الزمن مهما قلت، فمن الأول ما في آية ١٨٧ صفحة ٢٢٣ و٥٥ صفحة ٥٣٨، ومن الثاني ما في آية ٣١ صفحة ١٦٦ و٧٥ صفحة ٤٠٤ ومن الثالث مافي آية ٢٤ صفحة ١٩٧ و٣٥ صفحة ٦٧٢ وأما الساعة المستعملة الآن بمعنى جزء من ٢٤ المنقسم إليه الليل والنهار فهذا عرف طارئ لا يعرفه العرب القدماء.

٩٤ - الجمع بين قوله تعالى: ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ آية ٧٨ صفحة ٥١٨ وقوله تعالى: ﴿لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ آية ٣٩ صفحة ٧١١، وبين ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ آية ٦ ص ١٩٣ و﴿ليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ آية ١٣ صفحة ٥٢٢.

٩٥ - الجمع بين مثل قوله تعالى: ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ آية ١١١ صفحة ٣٦١، وقوله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ آيتي ٣٥ و٣٦ صفحة ٧٨٥.

٩٦ - خطأ من يقول: إن ذا القرنين المذكور في آية ٨٣ صفحة ٣٩٢ هو الإسكندر المقدوني لأسباب كثيرة، منها: أن الإسكندر كان كافرا، جبارا، سكيرا مات ببابل، عقب حفلة شراب، والمذكور في القرآن كان فيه من صفات الصالحين المصلحين ما حمل بعض العلماء على ترجيح أن يكون نبيًا، انظر قوله تعالى: ﴿قلنا يا ذا القرنين﴾ آية ٨٦، وإيمانه بالآخرة في آيتي ٨٧، ٩٨ ورفضه أخذ الأجر على عمل الخير في آيتي ٩٤و ٩٥ ص ٣٩٣.

٩٧ - الجمع بين النهي عن الإسراف في آيتي ٢٩ ص ٣٦٨، ٦٧ ص ٤٧٨. وبين «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» آية ٩ ص ٧٣١.

٩٨ - لا ينفع أمام عدالة الله سبحانه حسب ولا نسب، إنما ينفع الإيمان والتقوى انظر الآيات من ٤٢ إلى ٤٩ صفحة ٢٩٠ و١٠ و١١ ص ٧٥٣.

٩٩ - ما اشتهر عن العرب من قتل أولادهم كما في آيات ١٣٧ صفحة ١٨٥ و١٥١ صفحة ١٨٩ و٥٨ و٥٩ صفحة ٣٥٢ لم يكن عاما في كل القبائل؛ بل كان في قبيلة واحدة فقط وحدث قبيل البعثة بمدة يسيرة ولم يلبث أن انقطع وأسلم أول من فعله.

١٠٠ - يطلق القرآن الذليل على الضعيف ماديا ولو كان مؤمنا كما في آية ١٢٣ ص ٨٣ وعلى المتواضع لإخوانه المؤمنين كما في آية ٥٤ ص ١٤٨.

١٠١ - قد يأتي القرآن بملخص القصة أولا. ثم يفصلها. أو يذكر نتيجتها. انظر آيات ١١٥ وما بعده إلى آية ١٢٢ ص ٤١٧ وآيتي ٣٤ و٣٨ ص ٧٠٧ وآية ١٠٣ مع آيات ١٠٤ وما بعدها صفحة ٢٠٩ وآية ١١ مع ١٢ صفحة ٤٢١.

١٠٢ - يستجيب الله تعالى دعاء المضطر ولو كان مشركا آية ٦٢ ص ٣٧٣، ٥٣ و٥٤ ص ٣٥٢ و٢٢ و٢٣ ص ٢٦٩ و٦٥ ص ٥٣٠.

١٠٣ - أرق خطاب مع المشركين. آيتا ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى..﴾ إلخ آية ٢٤ ص ٥٦٦ و﴿ولا أدرى ما يفعل بي ولا بكم﴾ آية ٩ ص ٦٦٧.

١٠٤ - قد يكون الرجل إماما لكن في الشر لا في الخير آية ٤١ صفحة ٥١٢ و١٢ صفحة ٢٤١.

١٠٥ - حكمة خلق إبليس في هذه الدنيا آية ٢١ صفحة ٥٦٥.

١٠٦ - لو ساير سبحانه طيش السفهاء لأسرع إليهم الفناء. ولكنه يعلم أنه سيخرج من أصلابهم من هم خير منهم آيات ٣٢ صفحة ٣٢١، ٨ صفحة ٧٢٦، ٥٣ صفحة ٥٢٨.

١٠٧ - لِمَ أوجب الله على المؤمنين الدفاع عن عقيدتهم، ولو بالقتال، مع قدرته على إيذاء أعدائهم بدون قتال؟ آيه ٥٣ صفحة ٦٨٣.

١٠٨ - إذا فسدت الفطرة بسبب ما، ومضى على فسادها فترة تكفى لتجمدها على ما هى عليه، فلا ينفع معها تهديد ولا تعذيب آية ٣١ ص ٣٢٦، ١١١ ص ١٨١، ٢٧، ٢٨ ص ١٦٦، ١٢٤، ١٣٥ ص ٢١٢و ٢٢ و ٢٣ ص ٢٣٠، ٥٠ ص ٦٥٢.

١٠٩ - كان بنو إسرائيل يكيدون للمصريين آية ٣٥ ص ٤٨٢، ٥٥ ص ٤٨٣.

١١٠ - رضاء النبى ﷺ عن أحد لا يدل على رضاء الله عنه، ولا حبه له لأن الله سبحانه يعلم من حال عباده مال لا يعلمه أحدمن البشر، انظر آية ٩٦ صفحة ٢٥٨، ٥٦ صفحة ٥١٥.

١١١ - القرآن يسمى الدعاء عبادة، وسماه ﷺ مخ العبادة انظر آية ٦٠ صفحة ٦٢٦.

١١٢ - فى طاعة الله سبحانه وتعالى سعادة الدنيا بسرور العبد بالشكر على النعمة والرضا بالقضاء، كما أنها سبب للسعادة الخالدة فى الآخرة، انظر آيات ٦٦ ص ١٥٠، ٩٦ ص، ٢٠٨، ٩٧ ص ٣٥٩، ٥٥ ص ٤٦٧، ١١ ص ٧٤٦ ومن ١٠ إلى ٢٢ ص ٧٦٨ ومن ١٥ إلى ٢١ ص ٥٤٦ وغير ذلك كثير.

١١٣ - إقرار الإنسان بوجود الله لا ينفعه، ما دام يخالطه شيء من الشرك انظر آيتى ٨٢ صفحة ١٧٥، ١٠٦ صفحة ٣١٩.

١١٤ - الكفار مخاطبون بفروع الشرائع، يثابون على ما طلبته من الخير، ويعاقبون على ما نهت عنه عقابا زائدا على عذاب الكفر آيات ١٧٨ صفحة ٩٢، ٣٤ صفحة ٢٣١ و٢٥ صفحة ٣٤٨، ٨٨ صفحة ٣٥٧، ٦٨، ٦٩ صفحة ٤٧٨، ١٢، ١٣ صفحة ٥٢٢، ٦٧، ٦٨ صفحة ٥٦١، ٦، ٧ صفحة ٦٣٠، ٢٠ صفحة ٦٦٩ و٤٣ وما بعدها صفحة ٧٧٧، ٣١ صفحة ٧٨٠ ويثابون على الخير انظر آية ٧ صفحة ٨١٨.

١١٥ - أفظع جريمة بعد الكفر بالله أبرق القرآن وأرعد فى عقاب فاعلها هى: قتل النفس المؤمنة بدون حق، انظر الآيات ٩٣ ص ١١٧، ٣٠، ٣٢ ص ١٤٢.

١١٦ - يبقى ذكر الأمة عاليا ما بقيت لغتها حية قوية، انظر آيات ١٠ صفحة ٤٢١، ٤٤ صفحة ٦٥١، ولهذا كان أقوى سلاح لخصوم الإسلام والعرب هو إيقاظ اللغة العامية فى كل أمة حتى تحتل مكان الفصحى، فيندثر ذكر العرب، وتتقطع صلة المسلمين كافة بكتابهم.

١١٧ - يستشهد بعض المسلمين بآيات فى غير موضعها نتيجة لخطأ صريح أو رأى مرجوح رفضه المحققون انظر الآيات ١٠٥ صفحة ١٥٨ و١٢٢ صفحة ٢٦٣، ٣٤ صفحة ٦١١ ومنها (الوسيلة) فى آية ٣٥ صفحة ١٤٣ إذ لم يقل أحد من المفسرين مطلقا إنها غير العمل الصالح و(المودة فى القربى) آية ٧٣ ص ٦٤٢.

١١٨ - يجب على رئيس الدولة ألا يجعل للأغنياء وذوى الجاه منزلة فوق منزلة الأتقياء مهما يكونوا من الفقر أو الضعف، انظر الآيات ١ وما بعدها صفحة ٧٩١، ٢٧ إلى ٣١ صفحة ٢٨٨، ١١١ إلى ١١٤ صفحة ٤٨٦، ٢٨، صفحة ٣٨٤، ٥٢، ٥٣ صفحة ١٧٠.

١١٩ - شروط الصلاة المقبولة آية ١ ص ٤٤٥.

١٢٠- وما هى علامة قبولها انظر آية ٤٥ صفحة ٥٢٧.

١٢١ - خطأ شائع لم ينتبه له من قال: إن الزكاة لم تفرض إلا بعد الهجرة إلى المدينة، مع أنها فرضت مع الصلاة بمكة بدون تحديد مقاديرها ولا مصارفها، فإن هذا هو الذى بُيِّن فى المدينة، فى آية ٦٠ صفحة ٢٥١، بل أثبت القرآن أن الزكاة مفروضة على الأمم السابقة كما سيأتى انظر الزكاة فى السور المكية، فى آيات ٤ صفحة ٤٤٥، ١٥٦ صفحة ٢١٧، ٣ صفحة ٤٩٤، ٤ صفحة ٥٣٩، ٧ صفحة ٦٣٠، ٢٠ صفحة ٧٧٥.

وانظر الزكاة فى الأمم السابقة فى آيات ٣١ صفحة ٣٩٩، ٥٥ صفحة ٤٠١، ٧٣ صفحة ٤٢٨.

١٢٢- كيف عد سبحانه التحذير من المعصية والتنبيه لما سيلاقيه العاصى من العذاب نعمة تستوجب الشكر، انظر شرح آية ٥٥ صفحة ٧٠٤، ٢٥ إلى ٤٥ صفحة ٧١٠.

١٢٣ - سورة من قصار السور عالجت ثلاثة عشر عيبا من عيوب الجاهلية الخلقية والاجتماعية حتى نقلت أجلاف العرب من الفوضى

والخشونة إلى مصاف أرقى الأمم أدبا ورقة شعور، انظر سورة الحجرات صفحة ٦٨٤.

١٢٤ - الإسلام يعتمد على الإقناع لا على الإكراه، انظر آيات ٢٥٦ ص ٥٣، ٢٩ صفحة ٣٨٤، ٤٨ صفحة ٦٤٥، ٢١ وما بعدها صفحة ٨٠٥، ٤٥ صفحة ٦٩٢.

١٢٥- صفة عباد الرحمن انظر الأيات من ٦٣ إلى ٧٧ صفحة ٤٧٧، من ١٥ إلى ١٩ ص ٦٩٣، من ٢ إلى ٤ ص ٢٢٧.

١٢٦- يطلق القرآن لفظ قوم وهو يريد الزعماء والجنود فقط، انظر ذلك في آية ٥١ مع آية ٥٥ ص ٦٥٢ لتتبين أن الذين أغرقوا هو فرعون والجيش الذى كان يقوده لا جميع قومه.

١٢٧ - ينسب القرآن لقوم أمورًا صدرت منهم أو حلت بهم وهو يريد أصولهم انظر الآيات ٥٠ وما بعدها صفحة ١٠.

مقدمة الطبعة الثالثة
(عام ٢٠٠٧م.١٤٢٨هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله.. احمده واستعينه واصلى على خاتم رسله ورحمته للعالمين سيدنا محمد ﷺ.

وبعد.. فقد شاء الله تعالى أن يكرمنى بكتابة مقدمة كتاب الله الكريم.. ميسر الفهم.. دقيق الإيجاز فى غير إلغاز.. يفهم الألباب فى غير إطناب.. هذا هو كتاب (تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم) لعلم من أعلام الإسلام الذين ربوا دعاه الدين لله.. ومهدوا لمن بعدهم الدعوة إلى الله تعالى.. فوصف مؤلفه.. رضى الله تعالى عنه أستاذ أجيالنا..

فضيلة الشيخ/ عبد الجليل عيسى.. بأنه ناصر السنة، وقاهر البدعة، وميسر كتاب الله وسنة رسول الله للقارئ والدارس والمذكر. ذلك الرجل الذى شاء الله تعالى أن يجعل حياته المباركة ممتدة فى تراثة القيم إلى أن تقوم الساعة.. وتلك المقدمة سبقتها مقدمة للمقدمة وهى الكتاب نفسه، والذى سبق مقدمتى الآن.. وسيحكم قارئ الكتاب قبلى على صدقى فى تكريم كاتبه، واسأل الله سبحانه كما بارك فيه أن يبارك فى تراثه، وأن يبسط البركة على يد كل أبناء الشيخ برضا الله، وحسبى فى تكريم شيخنا أن كتابه (تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم) يعلم الله أنه أول مراجعى لأنه عرفنى كيف أجمع شتات الآيات جمعا يستوعب كل ما قيل بحلاوة كل ما يقول.

نفع الله كل قارئ به، وأجزل للشيخ عظيم الثواب ووافر الرضوان.. ويارك الله فى كل من يعمل على أشاعة هذا التراث والبلاغ منه لكل من يقرأ عنه.

والله ولى التوفيق

(١) سُورَةُ الفَاتِحَةِ
مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا سَبْع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ[١] ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾
مَٰلِكِ[٢] يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ[٣] ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾
صِرَٰطَ[٤] ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رب﴾: خالق ومربى. ﴿الدين﴾: الحساب. ﴿الصراط﴾: الطريق

المعنى: إقرأ مستعينا باسم الله واسع الرحمة دائمها، المستحق لجميع الثناء الجميل؛ لأنه صاحب كل النعم، وهو وحده المتصرف يوم الحساب والجزاء. ولما فرغ سبحانه من ذكر الصفات الدالة على أن مصدر كل النعم هو الله وحده، وأنه الخالق لجميع العالم ومربيهم، وأنه واسع الرحمة ومسبغها على خلقه، وأنه المتصرف وحده فى مصير الخلائق يوم الحساب، كان طبيعيا لمن تمر على خاطره تلك الصفات العظيمة أن يستحضر صاحبها ويراه كأنه حاضر معه، فيصح أن يخاطبه بقوله:

﴿إياك نعبد﴾ أى لا نعبد إلا إياك يا رب ولا نستعين إلا بك، فوفقنا للطريق الموصل للخير فى أقرب وقت، طريق عبادك الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وابعدنا عن طريق المغضوب عليهم الذين أعرضوا عن الحق بعد العلم به كبرًا وحسدًا، والضالين البعيدين عن الصواب حيرة وجهلاً.

---

(١) العالمين.
(٢) مالك.
(٣) الصراط.
(٤) صراط.



(٢) سُورَةُ البَقَرَةِ مَدَنِيَّة
وآياتها ست وثمانون ومائتان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ
هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾
وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ
مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم﴾: حروف مفردة لإقامة الحجة على الذين قالوا إن القرآن من كلام البشر، بأنه كلام منظوم من هذه الحروف التى تنظمون منها كلامكم، فلماذا عجزتم عن الإتيان بمثله. ﴿الكتاب﴾: القرآن. ﴿الريب﴾: الشك. ﴿هدى﴾: هاد ومرشد للخير. ﴿المتقين﴾: الذين جعلوا بينهم وبين ما يغضب الله وقاية فلا يقربونه. ﴿الغيب﴾: كل ما غاب عنا وأخبرنا الله ورسوله به كالملائكة والجن والبعث وتقدير الأرزاق والأعمار وغير ذلك.

﴿يقيمون الصلاة﴾: أى يأتون بها كاملة الأركان حسا ومعنى.

﴿ما أنزل إليك﴾: أى القرآن. ﴿وما أنزل من قبلك﴾: أى التوراة والإنجيل الصحيحين. و﴿الآخرة﴾: الدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب. ﴿يوقنون﴾: الإيقان الإيمان بالشىء مع الإحساس به كأنه يراه. وأفرد الآخرة بالذكر مع دخولها فى الغيب لأهميتها ولخطر إنكارها.

﴿الهدى﴾: هنا ضد الضلال. ﴿الفلاح﴾: الفوز. ﴿الإنذار﴾: الإعلام مع تخويف: ﴿الختم﴾: الطبع والتغطية. ﴿الغشاوة﴾: الغطاء.

---

(١) الف. لام. ميم.
(٢) الكتاب.
(٣) الصلاة.
(٤) رزقناهم.

أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ
أَبْصَارِهِمْ(١) غِشَاوَةٌ(٢) وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ
مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾
يُخَادِعُونَ(٣) اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ
السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

﴿الخداع﴾: إظهار غير ما في النفس للتمويه والختل. والمراد بالمرض هنا النفاق.

﴿فزادهم الله مرضا﴾: بسبب تكذيبهم بكل ما يتجدد من وحى وبراهين. انظر الآيتين ﴿١٢٤﴾، ﴿١٢٥﴾ من سورة التوبة: صفحة ٢٦٤.

﴿السفه﴾: طيش وخفة في العقل.

المعنى: إن هؤلاء المؤمنين متمكنون من هداية ربهم، فائزون بكل ما يأملون أما كفار مكة الذين جاهروا بالعناد فقد أصبحوا بحالة لا ينفع معها إنذارك لهم، لأن قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم غطيت بغشاء كثيف من ظلمة الكفر فلا ينفذ إلى ما وراءه إيمان. ومن الناس منافقون يظهرون الإيمان ويخفون الكفر زاعمين أنهم بعلمهم هذا يخادعون الله والمؤمنين لينجوا منهم، ولكنهم في الحقيقة إنما خدعوا أنفسهم وأضروها. وإذا قال لهم بعض المؤمنين الذين يشكون فيهم لا تفسدوا في الأرض بالنفاق قالوا إنما نحن مصلحون. والحقيقة أنهم من كبار المفسدين ولكن لا يشعرون لأن طباعهم فسدت فرأوا الحسن قبيحا والقبيح حسنا.

وإذا قال لهم بعض المؤمنين أيضا آمنوا إيمانا صحيحا كإيمان الناس أظهروا القبول وقالوا سرًّا بينهم وبين أنفسهم لا نؤمن كما آمن السفهاء: يريدون قبحهم الله بالسفهاء أتباع الرسول. والحقيقة أنهم هم السفهاء الذين فقدوا عقولهم.

---

(١) أبصارهم.
(٢) غشاوة.
(٣) يخادعون.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ[1]
قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ
بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ[2] يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ[3] بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ[4] وَمَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا
أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ[5]
لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾
أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ[6] وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
أَصَابِعَهُمْ[7] فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ[8] حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ
مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ[9] ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ[10]
كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ[11] إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

﴿شياطينهم﴾: المراد بهم زعماؤهم. ﴿يمدهم﴾: يمهلهم. ﴿الطغيان﴾: تجاوز الحد. ﴿يعمهون﴾: يترددون تحيرًا. ﴿استوقد﴾: أوقد. ﴿الصيب﴾: المطر الشديد. ﴿الصاعقة﴾: قصفة الرعد المصحوبة بنار.

المعنى: إن هؤلاء المنافقين إذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا أنهم منهم، وإذا انفردوا مع رؤسائهم قالوا لهم إنا معكم فى الباطن وما قلناه للمؤمنين قصدنا به الاستهزاء بهم، والله سيجازيهم على استهزائهم هذا، ولكنه يمهلهم ليزدادوا طغيانا وحيرة فيزيد عذابهم أولئك المنافقون هم الذين اختاروا الضلال لفائدة عاجلة زائلة وتركوا هدى الله الموصل لنعيم دائم. وفاعل ذلك خاسر فى تجارته. وحال بعض هؤلاء المنافقين كحال فريق من الناس أوقد نارًا ليستضيء ويأمن المخاوف فلما اشتد نورها أذهبه الله وتركهم فى ظلمات لا يبصرون وقد استولى عليهم الرعب، فهم صم لا يسمعون الحق سماع قبول ولا ينطقون به عن عقيدة، ولا يقولون خيرًا، عمى عن طريق الهداية، فهم لكل هذا لا يرجعون إلى الحق أبدًا. وحال بعضهم الآخر كحال قوم أصابهم مطر مصحوب بظلمات ورعد وبرق بلغ من دهشتهم أنهم توهموا أن سد آذانهم بأطراف أصابعهم يحفظهم من الموت، وما هو بحافظ، لأن الله محيط بهم فلا يمكنهم من الخلاص، وبلغ من شدة البرق عليهم أنه يكاد يخطف أبصارهم وكلما ظهر منه بعض الضوء الخاطف أسرعوا يطلبون النجاة ولكن سرعان ما يذهب الضوء فيظلم الجو فيقفون وهذا منتهى الحيرة. ولو شاء الله لأذهب سمعهم بقصف الرعد، وأبصارهم بلمعان البرق، لأنه قدير لا يعجزه شيء عما يريد.

---

(١) شياطينهم. (٢) طغيانهم. (٣) الضلالة. (٤) تجارتهم. (٥) ظلمات. (٦) ظلمات.
(٧) أصابعهم. (٨) الصواعق. (٩) بالكافرين. (١٠) أبصارهم. (١١) وأبصارهم.

شيء قدير (٢٠) يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم
والذين من قبلكم لعلكم تتقون (٢١) الذي جعل لكم
الأرض فراشا[1] والسماء بناء وأنزل من السماء ماء
فأخرج به من الثمرات[2] رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا
وأنتم تعلمون (٢٢) وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا
فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله
إن كنتم صادقين[3] (٢٣) فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا
النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين[4] (٢٤)
وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات[5] أن لهم جنات[6] تجري
من تحتها الأنهار[7] كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا
الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها[8] ولهم فيها أزواج[9]
مطهرة وهم فيها خالدون[10] (٢٥) * إن الله لا يستحيي

﴿الأنداد﴾: جمع ند وهو المماثل. ﴿الريب﴾: الشك. ﴿السورة﴾: القطعة من القرآن لها أول وآخر وأقلها ثلاث آيات مثل (سورة الكوثر). ﴿شهداءكم﴾: الذين يشهدون لكم يوم القيامة. ﴿متشابها﴾: متماثلا يشبه بعضه بعضا.

المعنى: يأيها الناس من أهل مكة الذين كفرتم اتركوا الكفر واعبدوا ربكم وحده، لأنه هو الذى أنعم عليكم وعلى آبائكم بنعمة الوجود راجين من الله التوفيق للتقوى. وربكم هو الذى جعل لكم الأرض ممهدة فيها راحتكم، والسماء متماسكة لا تقع على الأرض فتسحقكم، وأنزل لكم من السماء ماء أخرج به أرزاقكم، فلا تجعلوا له من خلقه نظراء فى استحقاق العبادة وأنتم تعلمون أنه وحده الخالق الرازق وهم لا يستطيعون شيئا.

وإن كنتم فى شك فى القرآن الذى نزلناه على عبدنا محمد ﷺ وزعمتم أنه كلام بشر فأتوا بسورة من رجل أمى مثل محمد واستعينوا بآلهتكم الذين زعمتم أنهم يشهدون لصالحكم يوم القيامة إن كنتم صادقين فى دعوى أنه كلام بشر. أما وأنكم لا يمكنكم أن تفعلوا فاعترفوا بالحق وتجنبوا دخول نار بلغ من شدتها أن وقودها لا يكون إلا من الناس والحجارة قد أعدت وهيئت للكافرين أمثالكم.

وبشر أيها النبى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجرى من تحت قصورها الأنهار. كلما رزقوا ثمرة من ثمارها وجدوها كسابقها فى الجودة والحسن لأنه متشابه فى ذلك. ولهم فيها زوجات مطهرات من كل عيوب نساء الدنيا كالحيض والنفاس والمكر والكيد والحسد.

(١) فراشا. (٢) الثمرات. (٣) صادقين. (٤) للكافرين. (٥) الصالحات.
(٦) جنات. (٧) الأنهار. (٨) متشابها. (٩) أزواج. (١٠) خالدون.

أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ
مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا
وَمَا يُضِلُّ بِهِۦ إِلَّا الْفَٰسِقِينَ (١) ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ
مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ (٢) وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦ أَن يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ (٣) ﴿٢٧﴾ كَيْفَ
تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا (٤) فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ
ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ
جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ (٥) سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ (٦) وَهُوَ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ (٧) إِنِّى جَاعِلٌ
فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا
وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ

﴿بعوضة﴾: هى الحشرة المعروفة فى مصر بالناموس. ﴿ميثاقه﴾: توثيقه وتوكيده. ﴿نسبح بحمدك﴾: نقول سبحان الله وبحمده. ﴿نقدس لك﴾: ننزهك عما لا يليق بك.

المعنى: لما قال الكفار أما يستحى رب محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت، يريدون أن القرآن ليس من كلام الله ليصدوا الناس، رد الله عليهم بقوله إن الله لا يترك ضرب مَثَل أى مَثَل كان بالشىء الحقير كالبعوضة وما فوقها فى المعنى المراد وهو الصغر متى كان المقام والحكمة تقتضى ذلك.

فأما الذين آمنوا فيعلمون أن هذا المثل حق، وأما الذين كفروا فيقولون للتشكيك ما هذا؟ وهذا النوع من القرآن يكشف عن طبيعة الشخص، فيضل به مَنْ فسد طبعه ويهدى به مَنْ سلمت فطرته، فما يضل به إلا الخارجون عن نظام الفطرة السليمة الذين تعودوا إبطال عهود الله التى أكدها على لسان رسله، ويقطعون ما أمر الله بوصله من الأرحام وموالاة المؤمنين والكتب المنزلة، ويفسدون فى الأرض بالمعاصى وسفك الدماء والذين يفعلون ذلك هم الخاسرون لكل خير أنظر مثل ذلك فى الآية (٨٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥ والآية (٤٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦، وسيأتى تحقيق ذلك وافيا فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. والآية (١٧٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢.

كيف تكفرون بربكم وقد كنتم ترابا لا حياة فيه فنفخ فيكم الروح، ثم يميتكم عند انقضاء الأجل ثم يحييكم عند البعث ثم إليه ترجعون للحساب والجزاء، وهو الذى خلق لكم جميع ما

---

(١) الفاسقين. (٢) ميثاقه. (٣) الخاسرون. (٤) أمواتا.
(٥) فسواهن. (٦) سموات. (٧) للملائكة.

فى الأرض من خيرات، ثم توجهت إرادته إلى السماء فجعلها سبع سموات. واذكر أيها الرسول لهؤلاء الناس فضلى على الإنسان حين قلت للملائكة إنى جاعل منه فى الأرض خليفة يخلفنى فى عمارتها، فقالوا هذا الإنسان من شأنه أن يفسد ويسفك الدماء، أما نحن فنسبح بحمك وننزهك.

ويجدر بنا هنا أن نذكر رأى فضيلة الإمام الشيخ محمد عبده فى هذه المسألة. قال الأستاذ الإمام: وقد بحث أناس فى جوهر الملائكة وحاولوا معرفتهم ولكن مَنْ وفقهم الله تعالى على هذا السر قليلون، والدين إنما شرع للناس كافة. فكان الصواب الاكتفاء بالإيمان بعالم الغيب من غير بحث عن حقيقته لأن تكليف الناس هذا البحث أو العلم يكاد يكون من تكليف ما لا يطاق، ومَنْ خصعه الله تعالى بزيادة فى العلم فذلك فضله يؤتيه مَنْ يشاء، فقد ورد فى الصحيح عن أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه فى هذا العلم اللدنى الخاص، وقد سئل (هل خصكم رسول الله ﷺ بشىء من العلم؟ فقال لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يؤتى الله عبدًا فهمًا فى القرآن... إلخ).

وأما ذلك الحوار فى الآيات فهو شأن من شئون الله تعالى مع ملائكته صوره لنا فى هذه القصة بالقول والمراجعة والسؤال والجواب ونحن لا نعرف حقيقة ذلك القول ولكننا نعلم أنه ليس كما يكون منا، وأن هناك معانى قصدت إفادتها بهذه العبارات وهى عبارة عن شأن من شؤونه تعالى قبل خلق آدم، وأنه كان يعد له الكون، وشأن مع الملائكة يتعلق بخلق نوع الإنسان، وشأن آخر فى بيان كرامة هذا النوع وفضله.. وأما الفائدة فيما وراء البحث فى حقيقة الملائكة وكيفية الخطاب بينهم وبين الله تعالى فهى من وجوه:

أحدها.. أن الله تعالى فى عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته فى صنعه، وما يخفى عليهم من أسراره فى خلقه، ولا سيما عند الحيرة، والسؤال يكون بالمقال ويكون بالحال، والتوجه إلى الله تعالى فى استفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التى جرت سننه تعالى بأن يفيض منها (كالبحث العلمى والاستدلال العقلى والإلهام الإلهى).. وربما كان للملائكة طريق آخر لاستفاضة العلم غير معروفة لأحد من البشر، فيمكننا أن نحمل سؤال الملائكة على ذلك..

ثانيها.. إذا كان من أسرار الله تعالى وحكمه ما يخفى على الملائكة فنحن أولى بأن يخفى علينا فلا مطمع للإنسان فى أن يعرف جميع أسرار الخليقة وحكمها لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلا..

ثالثها.. أن الله تعالى هدى الملائكة فى حيرتهم وأجابهم عن سؤالهم لإقامة الدليل، بعد الإرشاد إلى الخضوع والتسليم، وذلك بعد أن أخبرهم بأنه يعلم ما لا يعلمون علم آدم الأسماء ثم عرضهم على الملائكة كما سيأتى بيانه.

رابعها.. تسلية النبى ﷺ عن تكذيب الناس، ومحاجتهم فى النبوة بغير برهان على إنكار ما انكروا وبطلان ما جحدوا، فإذا كان الملأ الأعلى قد مثلوا على أنهم يختصمون ويطلبون البيان والبرهان فيما لا يعلمون، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين، وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين، أى فعليك أيها الرسول أن تصبر على هؤلاء المكذبين، وترشد المسترشدين، وتأتى أهل الدعوة بسلطان مبين، وهذا الوجه هو الذى يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها وبما جاء خاصة فى الآية (٢٦) من هذه السورة وكون الكلام لا يزال فى موضوع الكتاب وكونه لا ريب فيه، وفى الرسول وكونه يبلغ وحى الله تعالى ويهدى به عباده وفى اختلاف الناس فيها، ومن خواص القرآن الحكيم الانتقال من مسألة إلى أخرى مباينة لها أو قريبة منها مع كون الجميع فى سياق موضوع واحد..

وبعد ما عرض الإمام إلى آراء كثيرة فى حقيقة الملائكة، وحقيقة هذا الحوار، وما دارفيه من آراء حكَّموا فيها تقاليدهم وعوائدهم قال: ولست أحيط علماً بما فعلت العادة والتقاليد فى أنفس بعض مَنْ يظنون أنهم مِن المتشددين فى الدين إذ ينفرون من هذه المعانى كما ينفر المرضى أو المخدجون[1] من جيد الأطعمة التى لا تضرهم، وقد يتوقف عليها قوام بنيتهم، ويتشبثون بأوهام مألوفة لهم تَشَبُّث أولئك المرضى والمخدجين بأضر طعام يفسد الأجسام، ويزيد السقام. لا أعرف ما الذى فهموه من لفظ روح أو مَلَك، وما الذى يتخيلونه من لفظ قوة اليس الروح فى الآدمى مثلا هذا الذى يظهر لنا فى أفراد هذا النوع بالعقل والحس والوجدان

(١) المخدجون من خدجت الناقة تخدج بالكسر خِدَاجاً فهى خادج وابنها خديج اى ناقص لم يتم أيام الحمل.

والإرادة والعمل، وإذا سلبوه سلبوا ما يسمى بالحياة؟ أو ليست القوة هي ما تصدر عنه الآثار فيمن وهبت له فإذا سمى الروح لظهور أثر قوة، أو سميت القوة لخفاء حقيقتها روحا، فهل يضر ذلك بالدين، أو ينقص معتقده شيئا من اليقين؟. ألا لا يسمى الإيمان إيمانًا حتى يكون إذعانًا، ولا يكون كذلك حتى يستسلم الوجدان، وتخشع الأركان لذلك السلطان الذى تعلق به الإيمان ولا يكون كذلك حتى يلقى الوهم سلاحه، ويبلغ العقل فلاحه، وهل يستكمل هذا لمن لا يفهم ما يمكنه فهمه، ولا يعلم مالا يتيسر له علمه؟ كلا إنما يعرف الحقَّ أهلُه، ولا يضل سبله، ولا يعرف أهل الغفلة. لو أن مسكينًا من عبدة الألفاظ مَنْ أشدهم ذكاء، و أذربهم لسانًا، أخذ بما قيل له إن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل[٢] ثم تطلع عقله إلى أن يفهم معنى نوارنية الأجسام، وهل النور وَحْدَهُ له قِوام يكون به شخصًا ممتازاً بدون أن يقوم بجِرْم آخر كثيف ثم ينعكس عنه كذبالة المصباح أو سلك الكهرباء؟ ومعنى قابلية التشكل، وهل يمكن للشيء الواحد أن يتقلب فى أشكال من الصور مختلفة حسبما يريد وكيف يكون ذلك؟ ألا يقع فى حيرة، ولو سئل عما يعتقده من ذلك ألا يحدث فى لسانه من العقد ما لا يستطيع حله؟ أليس مثل هذه الحيرة بعد شكا؟ نعم ليست هذه الحيرة حيرة مَنْ وقف دون أبواب الغيب يطرف لما لا يستطيع النظر إليه، لكنها حيرة مَنْ أخذ بقول لا يفهمه، وكلف نفسه علم ما لاتعلمه. فلا يعد مثله ممن آمن بالملائكة إيمانا صحيحا، واطمأنت بإيمانه نفسه، وأذعن له قلبه، ولم يبق لوهمه سلاح ينازع به عقله، كما هو شأن صاحب الإيمان الصحيح. فليرجع هؤلاء إلى أنفسهم ليعلموا أن الذى وقر فيها تقاليد حفت بالمخاوف، لا علوم حفت بالسكينة والطمأنينة. هؤلاء لم يشرق فى نفوسهم ذلك السر الذى يعبر عنه بالنور الإلهى، والضياء الملكوتى، واللألاء القدسى، أو ما يماثل ذلك من العبادات، لم يسبق لنفوسهم عهد بملاحظة جانب الحق، ولم تكتحل أعين بصائرهم بنظرة إلى مطلع الوجود منه على الخلق، ولو علموا أن العالم بأسره فانٍ فى نفسه، وأن ليس فى الكون باق كان أو يكون إلا وجه الكريم، وأن ما كشف فى الكون وما لطف وما ظهر منه وما بطن، إنما هو فيض من جوده، ونسبة إلى وجوده، وليس الشريف

(٢) هذا هو التعريف المشهور فى كتب الكلام وغيرها. وأول ما يعترض به عليه أنه لا يصح فيه معنى الجسم فى اللغة. ولكنه صار مألوفا وإن لم يكن مفهوماً.

إلا ما أعلى بذكره منزلته، ولا الخسيس إلا ما بين لنا بالنظر إلى الأول نسبته، فإن كل مظهر من مظاهر الوجود فى نفسه واقع موقعه، ليس شيء أعلى ولا أحط منه. فإن كان كذلك ولابد أن يكون كما قدره . لو عرفوا ذلك كله لأطلقوا لأنفسهم أن تجول فى تلك الشؤون حتى تصل إلى مستقر الطمأنينة حيث لا ينازع العقل شيء من وساوس الوهم، ولا تجد طائفا من الخوف ثم لا يتحرجون من إطلاق لفظ مكان لفظ آخر. هذه القوى التى نرى آثارها فى كل شيء يقع تحت حواسنا، وقد خفيت حقائقها عنا، ولم يصل أدق الباحثين فى بحثه عنها إلا إلى آثار تجل إذا كشفت، وتقل بل تضمحل إذا حجبت، وهى التى يدور عليها كمال الوجود، وبها ينشأ الناشيء، وبها ينتهى إلى غايته الكامل، كما لا يخفى على نبيه ولا خامل. أليست أشعة من ضياء الحق؟ أليست أجل مظهر من مظاهر سلطانه؟ ألا تعد بنفسها من عالم الغيب وإن كانت آثارها من عالم الشهادة؟ ألا يجوز أن يشعر الشاعر منها بضرب من الحياة والاختيار خاص بها . لا ندرك كنهه لاحتجابه بما نتصوره من حياتنا واختيارنا؟ يستكثر من الخير بما يقف عليه من شؤونها، ومعرفة الطريق إلى استدرار منافعها؟

أليس الوجود الإلهى الأعلى من عالم الغيب وآثاره فى خلقه من عالم الشهادة؟ أليس هو الذى وهب تلك القوى خواصها وقدر لها آثارها؟ لم لا تقول أيها الغافل: إنه بذلك وهبها حياتها الخاصة بها، ولم قصرت معنى الحياة على ما تراه فيك وفى حيوان مثلك؟ مع أنك لوسئلت عن هذا الذى تزعم أنك فهمته وسميته حياة لم تستطع له تعريفا، ولا لفعله تصريفا؟ لم لا تقول كما قال الله وبه نقول (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)؟. أنظر قوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض إئتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين﴾ (الآية (١١) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٠، ٦٣١.

وقوله عز وجل: ﴿لو أنزلنا هذا القران على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ (الآية ٢١) من سورة الحشر صفحة ٧٢٣.

وقوله سبحانه: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون﴾ (الآية ٦٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٤..

وعبارة الألوسى فى تفسيره للآية (١١) من سورة فصلت لعبارة ﴿إئتيا طوعا أو كرها﴾ قال: الأمر هنا فى الإتيان عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوجودهما تعلقا فعليا بطريق التمثيل من غير أن يكون هناك آمر ومأمور. أنظر الألوسى جزء ٢٤ صفحة ٩١..

وقوله سبحانه فى الآية (٧٢) من سورة الأحزاب صفحة ٥٦١: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ والمراد التمثيل أيضا.

وقوله تعالى: ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير....الآية﴾ الآية (٧٩) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبى معه والطير.. الآية﴾ الآية (١٠) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٣، ٥٦٤ وأوبى معه أى رددى ورجعى وقدسى الله معه. أفلا تزعم أن لله ملائكة فى الأرض وملائكة فى السماء؟ هل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض؟ وهل حددت أمكنتها، ورسمت مساكنها؟ وهل عرفت أين يجلس مَنْ يكون منهم عن يمينك؟ ومَنْ يكون منهم عن يسارك؟ هل ترى أجسامهم النورانية تضىء لك فى الظلام، أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام؟

فلو ركنت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك، وما بين يديك وما خلفك، وأن الله ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك، وبالعبارة التى تلقفتها عنهم، كى لا يوحشك بما يدهشك، وترك لك النظر فيما تطمئن إليه نفسك من وجوه تعرفها. أفلا يكون ذلك أروح لنفسك، وأوعى إلى طمأنينة عقلك؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئا من وراء حجاب، ووقفت على سر من أسرار الكتاب؟ فإن لم تجد فى نفسك استعدادا لقبول أشعة هذه الحقائق، وكنت ممن يؤمن بالغيب ويفوض فى إدراك الحقيقة ويقول (آمنا به كل من عند ربنا) فلا تَرْم طلاب العرفان بالريب ماداموا يصدقون بالكتاب الذى آمنت به، ويؤمنون بالرسول الذى صدقت برسالته، وهم فى إيمانهم أعلى منك كعبا، وأرضى منك بريهم نفسا، الا إن مؤمنا لو مالت نفسه إلى فهم ما أُنزل إليه من ربه على النحو الذى يطمئن إليه قلبه كما قلنا كان من دينه فى ثقة، ومن فضل ربه فى سعة.

قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا
ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ[1] فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[2] (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ[3] لَا عِلْمَ لَنَا
إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ[4]
أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ
إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ[5] وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ
تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ[6] اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا
إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ[7] (٣٤)
وَقُلْنَا يَا آدَمُ[8] اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا
رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
الظَّالِمِينَ[9] (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ[10] عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا
فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ

﴿رغدا﴾: واسعا هنيئا. ﴿أزلهما﴾: زحزحهما.

المعنى: أن الله سبحانه وتعالى رد على الملائكة بأنه يعلم مالا يعلمون من الحكم الخافية عليهم التى منها أنه سيكون من أولاد آدم نبيون وصديقون وشهداء وصالحون. ثم أعد سبحانه آدم ليكون مستعدا ليعرف باجتهاده خصائص المخلوقات فينتفع بها بخلاف الملائكة فإنهم لايعرفون إلا ما يطلعهم الله تعالى عليه: ولذلك لما تبين بعد أنه مفكر مخترع قال الله للملائكة ألم أقل لكم إنى أعلم غيب كل شيء. ثم ميزة أخرى للإنسان حين طلب من جميع المخلوقات وفى مقدمتهم الملائكة وهم أشرفهم الخضوع لآدم وذريته، فخضعوا إلا إبليس استكبر وكفر بأمر ربه. وقلنا بعد ذلك تكريما لآدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وهى جنة لا يعلم حقيقتها إلا الله، وكلا منها أكلا هنيئا واسعا لا حجر فيه إلا شجرة عينها لهما، وهو سبحانه أعلم بها. فوسوس لهما الشيطان حتى أكلا منها، فأخرجهما من نعيمها، فقلنا للثلاثة اهبطوا إلى الأرض، وسيكون أبليس وذريته لآدم وأولاده أشد الأعداء كما فى الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨.

---

(١) الملائكة.
(٢) صادقين.
(٣) سبحانك.
(٤) يا آدم.
(٥) السموات.
(٦) للملائكة.
(٧) الكافرين.
(٨) يا آدم.
(٩) الظالمين.
(١٠) الشيطان.

مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ[1] إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ[2]
فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟
مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ[3] أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ[4] ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ[5] ﴿٣٩﴾
يَٰبَنِىٓ[6] إِسْرَٰٓءِيلَ[7] ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ
وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ[8] فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾
وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ
بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى[9] ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ[10] فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا
تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ[11] وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ[12] وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ[13] وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ[14] ﴿٤٣﴾
۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ[15]

﴿مستقر﴾: موضع قرار.

﴿متاع﴾: كل ما يتمتع به إلى حين هو قيام الساعة.

﴿فارهبون﴾: فخافوني.

﴿تلبسوا﴾: تخلطوا.

﴿البر﴾: كل ما فيه خير.

المعنى: أهبطوا إلى الأرض ولكم فيها مكان استقرار وما تتمتعون به مما تخرجه إلى انقضاء الدنيا. وألهم الله تعالى آدم بعد ذلك كلمات قالها إعلانا للتوبة، وهي ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية (٢٣) من سورة الأعراف صفحة ١٩٥. فلما قالها تاب الله تعالى عليه لأنه كثير قبول التوبة رحيم بعباده. ثم كرر الأمر بالهبوط ليرتب عليه تحذيره بقوله فإن يأتكم

---

(١) ومتاع.
(٢) كلمات.
(٣) بآياتنا.
(٤) أصحاب.
(٥) خالدون.
(٦) يابني..
(٧) إسرائيل.
(٨) وإياي.
(٩) بآياتي.
(١٠) وإياي.
(١١) بالباطل.
(١٢) الصلاة.
(١٣) الزكاة..
(١٤) الراكعين.
(١٥) الكتاب.

منى هدى فى كتاب أو على لسان رسول فمن سار عليه فلا يخاف يوم القيامة من سوء ولا يحزن لفوات خير.

أما الذين كفروا وأعرضوا عن هذا الهدى فخالدون فى جهنم. ثم خاطب اليهود بقوله يا بنى إسرائيل أى يا أولاد يعقوب أذكروا نعمتى على آبائكم حين أنجيتهم من فرعون ومن الغرق وظللت عليهم الغمام فى التيه إلى غير ذلك. وأشكروها بطاعتى. وأوفوا بعهدى الذى أخذته عليكم فى التوراة من الإيمان بكل رسول يأتى مصدقا لما فى التوراة ومنهم محمد. أوف بعهدكم الذى وعدتكم به من السعادة فى الدنيا والأخرة. ولا تخافوا غيرى. وآمنوا بالقرآن المصدق للتوراة فى التوحيد والنبوة وغير ذلك من مكارم الأخلاق. ولا يصح أن تكونوا أنتم يا أهل الكتاب أول كافر بهذا القرآن فيتبعكم غيركم فيكون إثمه عليكم. ولاتستبدلوا بسبب تحريف آياتى فى التوراة من حذف صفة محمد ﷺ ثمنا قليلا هو حب الرياسة وزخرف الدنيا واحذروا عذابى ولا تخلطوا الحق الذى أنزل عليكم بالباطل الذى تفترونه. ولا تكتموا الحق وهو صدق محمد ﷺ وأنتم تعلمون أنكم ملبسون كاتمون. فإذا آمنتم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واخضعوا لأوامر الله عز وجل مع الخاضعين لها من المسلمين. أنظر الآية (٦٥) من سورة النساء صفحة ١١١. والآية (٥٥) من سورة المائدة صفحة ١٤٨؛ وكان الأحبار يأمرون أتباعهم بالعمل بما فى التوراة من البر والتقوى. وكانوا هم لا يعملون إلا بما يوافق شهواتهم. فوبخهم الله بقوله: أتأمرون أتباعكم بالخير وتتركون أنفسكم مع أنكم أنتم الذين تقرأون التوراة؟ أليس لكم عقل يمنعكم من هذا؟

﴿عدل﴾: فداء.

﴿يسومونكم﴾: يذيقونكم.

المعنى: واستعينوا على ما يلاقيكم بالصبر وعدم الضجر وبالصلاة لأنها تربط المرء بربه فلا يبالى بشىء. وأن الصلاة الصحيحة الكاملة التى تُحدثُ هذا الأثر شاقة على النفوس

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ
إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ
وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ
الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا
يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ
وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ
مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾
وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ
تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ
الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ
ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ

اللاهية اللاعبة، دون النفوس الخاشعة المطمئنة، لأنهم يوقنون أنهم سيلاقون ربهم الذى يقفون بين يديه فى الصلاة يدعونه تضرعا وخيفة، يلاقونه بالبعث ويرجعون إليه للحساب والجزاء، ثم أعاد تذكيرهم بنعمته عليهم ليذكر منها تفضيل آبائهم على عالمى زمانهم. ثم أنذرهم بقوله: واتقوا يوما أى خافوا يوم القيامة الذى لا تنفع فيه نفس صالحة نفسا عاصية بشىء، ولا يقبل فيها شفاعة مطلقا إذا كانت كافرة، إلا بإذنه تعالى إذا كانت مؤمنة عاصية، ولا يقبل من الجميع فداء، ولا تجد نفس عاصية مَنْ ينصرها فيمنع عنها العذاب، وأذكروا يا بنى إسرائيل حين نجيناكم من فرعون وقومه لما كانوا يذيقونكم أشد العذاب من ذبح الذكور من أبنائكم وترك البنات أحياء. وفى هذا ابتلاء لكم عظيم لما فيه من إهانة النساء وإذلال الرجال، وأذكروا نعمته عليكم حين فلق لكم البحر الذى دخلتموه فراراً من فرعون فأنجاكم، وأغرق فرعون وقومه وأنتم تنظرون إليهم وهم يغرقون، وفى هذا سرور عظيم بهلاك العدو. واذكروا أيضا حين ضربنا لموسى موعداً أربعين ليلة نعطيه بعدها التوراة التى فيها هدايتكم، وبعد ذهابه عبدتم العجل، فظلمتم أنفسكم، وكان حقكم الهلاك، ولكن عفونا عنكم من بعد هذا الجرم لعلكم تشكرون نعمتنا فلا تعودون لمعصيتنا. وقد فصلت هذه القصة الأخيرة فى سورة الأعراف الآيات (١٤٢)، (١٤٨- ١٥٣) صفحات ٢١٤، ٢١٥- ٢١٦.

---

(١) الصلاة. (٢) الخاشعين. (٣) ملاقو.
(٤) راجعون. (٥) يا بنى إسرائيل. (٦) العالمين.
(٧) شفاعة. (٨) نجيناكم. (٩) فانجيناكم.
(١٠) واعدنا. (١١) ظالمون.

وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ
يَٰقَوْمِ(١) إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ
بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ
عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ(٢)
لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ(٣)
وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم(٤) مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ
وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ(٥) مَا رَزَقْنَٰكُمْ(٦) ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ
فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟
حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ(٧) ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾
فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى

﴿الفـرقـان﴾: الفـارق بين الحق و البـاطل.

(الصاعقة) صوت شديد مصحوب بنار.

﴿المن﴾: مــادة حلوة تشـبــه العـسـل..

﴿السلوى﴾: الطيـر السمانى. ﴿رغدا﴾: كثيرا طيـبـا. ﴿القـريـة﴾: هى أريحـاء بالشـام.

﴿حطة﴾: إسقاط.

المعنى: واذكروا يا بنى إسرائيل حين آتينا مـوسى التـوراة الفـارقـة بين الحق والبـاطل لهدايتكم. واذكروا أيضا نعمتى عليكم بقبول التوبة حين طلب منكم مـوسى أن تـوبوا عن عبـادة العجل بقـتل أنفسكم، لأن القـتل أهون من الخلود فى النار. ولما أطعـتم تاب عليكم ربكم لأنه كثير قبول التوبة رحيم بعباده. وأذكروا حين تعنتم وطلبتم رؤية الله عـز وجل عيانا ليخبركم بصحة ما جاء به موسى فـأهلكتكم الصـاعقة وأنتم تنظرونها تحل بكم فيزداد فزعكم، ثم بعد ذلك أحييناكم لعلكم تشكرون ربكم. ومن نعمنا عليكم أننا حفظناكم من شدة حـر التيه مـدة أربعين سنة كما فى الآية (٢٦) من سـورة المائدة صـفحـة ١٤١. بتظليل الغمـام وإنزال المن والسلوى لئلا يقتلكم الجوع فى الصحارى القاحلة. وما ظلمنا هؤلاء اليهود حين عصوا ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بتسببهم فى العقـاب. واذكروا حين أنقذناكم من التيه وقلنا لكم ادخلوا قرية أريحاء متواضعين لله، وكلوا هنيئا من خيراتها، وقولوا عند دخولكم بابها. طلبنا

(١) ياقوم.
(٢) ياموسى..
(٣) الصاعقة.
(٤) بعثناكم.
(٥) طيبات.
(٦) رزقناكم.
(٧) خطاياكم.

ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾
۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ
ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ[١] لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ
وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ
بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ
ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا
سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ
مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ[٢] ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
ٱلنَّبِيِّـۧنَ[٣] بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ[٤] وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ[٥] مَنْ

منك يا رب حط وإسقاط خطايانا عنا. فنغفر للمخطىء منكم، ونزيد المحسن إحسانا. فبدل الظالمون منكم كلمة (حطة) بكلمة (حنطة) بالنون استهزاء بما قيل لهم كما يفعل السفهاء.

﴿رجزا﴾: عذابا..

﴿استسقى﴾: طلب السقيا أى الشرب.

﴿مشربهم﴾: موضع شربهم.

﴿تعثوا﴾: تفسدوا..

﴿بقلها﴾: ما تنبته الأرض من الخضر كالكرفس والكراث وكل ما يغرى بالأكل.

﴿قثائها﴾: أخت الخيار ويسميها العامة فى مصر (قتة).

﴿فومها﴾: ثومها.

﴿مصرا﴾: بلدا كبيرا فى الحضر.

﴿باءوا﴾: رجعوا.

﴿الذين هادوا﴾: أى دخلوا فى اليهودية أى اليهود.. وقد تكلم الراغب الأصفهانى فى كتابه غريب القرآن صفحة ٥٦٩ عند قول الله تعالى﴿والذين هادوا﴾ فقال "الهَوْد الرجوع برفق، ومنه التهويد وهو مشىٌ كالدبيب وصار الهود فى المتعارف التوبة من الذنب. قال تعالى ﴿إنا

(١) يا موسى.
(٢) بآيات.
(٣) النبيين.
(٤) النصارى.
(٥) والصابئين.

هدنا إليك﴾ الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧. أى تبنا إليك. وقال بعض العلماء: يهود فى الأصل قولهم (هدنا إليك) وكان اسم مدح ثم صار بعد نسخ شريعتهم اسما لازما لهم وإن لم يكن فيه معنى المدح ويقال هاد فلان إذا تحرى طريق اليهود فى الدين. والعرب قد تشق من اسم العلم فعلا فتقول (من لفظ فرعون) تَفَرْعَنَ أى صار جبارا كفرعون مصر، وتقول فلان تَطَفَّلَ إذا فَعَلَ فِعْلَ الطفل الصغير وصار يحضر الموائد بدون دعوة من أصحابها، ومنه الطُفَيْلِىّ الذى يحضر بدون دعوة كما يفعل الأطفال.

﴿الصابئين﴾: قوم كانوا على دين نوح ثم حرفوا وعبدوا الكواكب.

المعنى: فلما بدلوا ما قيل لهم أنزلنا على الظالمين منهم عذابا بسبب فسقهم. واذكروا يا بنى إسرائيل حين طلب موسى من ربه الماء ليشرب قومه فى التيه فغجرنا لهم اثنتى عشرة عينا بعدد قبائل الأسباط المشار إليهم فى الآية (١٦٠) من سورة الأعراف صفحة ٢١٨. لتعلم كل قبيلة مكان شربها فلا يزاحمها غيرها، وقلنا لهم كلوا من المن والسلوى واشربوا مما رزقناكم، ولا تفسدوا فى الأرض فتعدوا فى عداد المفسدين قبلكم. واذكروا حين قلتم وأنتم فى التيه لموسى لن نصبر على طعام واحد لا يتغير، هو المن والسلوى. فاطلب من ربك ما يفتح شهيتنا من البقول والقثاء... إلخ. فقال موسى: لا يصح أن تتركوا طعاما طيبا وتأخذوا بدله خسيسا لا يوجد إلا فى البلد الكبير فى الحضر. ثم بيَّن سبحانه مآل أمرهم حتى بعد خروجهم من التيه فقال: وضربت عليهم الذلة أى لزمهم الذل والهوان والاستكانة وعدم القوة المادية، ورجعوا بغضب من الله بسبب كفرهم بآيات الله وتعديهم على أنبيائهم بالقتل، وذلك بسبب ما تأصل فى طباعهم من الجرأة على المعاصى وتجاوز حدود الله. ومع كل هذا فباب التوبة مفتوح لكل الطوائف. فالذين آمنوا بمحمد واليهود والنصارى والصابئون هم من آمن منهم إيمانا صحيحا.

﴿ميثاقكم﴾: هو العهد على العمل بما فى التوراة.

﴿الطور﴾: الجبل المعروف الذى ناجى موسى ربه عليه.

ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا[1] فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ
رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا
مِيثَٰقَكُمۡ[2] وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم[3] بِقُوَّةٖ
وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ
فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ[4] ﴿٦٤﴾
وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ
كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ[5] ﴿٦٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهَا[6] نَكَٰلٗا[7] لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا
وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ
إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ
قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ[8] ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا
رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ
وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٨﴾

﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾: قال المرحوم الشيخ محمد عبده في الجزء الأول من تفسيره صفحة ٢٤٠: ذكر لنا سبحانه دفع الطور فوق بني إسرائيل ولم يذكر لنا أنه أراد بذلك الإكراه على الإيمان وإنما حكى عنهم في آية أخرى أنهم ظنوا أنه واقع بهم فقد قال تعالى في سورة الأعراف في الآية ١٧١ صفحة ٢٢٠. ﴿وإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُم بقوَّة وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. والنتق الزَعْزَعَة والهز والجذب، والعرب تقول نتق الشيء يَنْتِقه، وينتقه من باب ضرب يَضْرِبُ. ونتق ينتق نتقًا إذا جذبه واقتلعه، وقد يكون ذلك في الآية بنوع من الزلازل كما يدل عليه تعبير النتق وهو في الأصل بمعنى الزَعْزَعَة، والمفهوم من أخذ الميثاق منهم لإيمانهم وعاهدوا موسى عليه ورفع الطور وظنهم أنه واقع بهم من الآيات رأوها بعد أخذ الميثاق، كان ذلك ليأخذوه بقوة واجتهاد، والله أعلم. (السبت): هو اليوم المعروف بهذا الأسم من أيام الأسبوع.

---

(١) صالحا.
(٢) ميثاقكم.
(٣) آتيناكم
(٤) الخاسرين
(٥) خاسئين.
(٦) فجعلناهم.
(٧) نكالا.
(٨) الجاهلين.

وتفصيل حادثته فى الآية ١٦٣ من سورة الأعراف صفحة ٢١٩.

﴿خاسئين﴾: أذلاء حقيرين.. ﴿نكالا﴾: عبرة مانعة من ارتكاب مثلها.

﴿ما بين يديها﴾: هى الأمم التى فى زمانها. ﴿ماخلفها﴾: الأمم الآتية بعدها.

﴿هزوا﴾: مهزوءا بنا.

﴿فارض﴾: مسنة كبيرة.

﴿عوان﴾: وسط.

المعنى من آمن من كل هذه الطوائف إيمانا صحيحا بالله إلخ فلا يضيع أجره عند الله، ولا يخاف من مكروه يناله يوم القيامة، ولا يحزن على فوات مرغوب. واذكروا يا بنى إسرائيل حين أخذنا عليكم العهد على العمل بالتوراة وقد رفعنا فوق رءوسكم الجبل لنريكم قدرتنا وآياتنا وقلنا لكم خذوا التوراة بجد واجتهاد وتدبروا ما فيها واعملوا به لتفوزوا بتقوى الله، ثم بعد هذا التشديد فى الميثاق أعرضتم عن الوفاء به، فلولا فضل الله بتوفيقكم للتوبة ورحمته بعفوه عن ذنوبكم لكنتم من الهالكين. ولقد عرفتم الذين تجاوزوا الحد منكم فى يوم السبت بصيدهم الحيتان وقد نهوا عن ذلك كما هو مبين فى الآية ١٦٣ من سورة الأعراف فمسخناهم قردة محقرة، وجعلنا تلك العقوبة عبرة للأمم الموجودة فى عصرها ولمن يأتى بعدها وتذكيرا للمتقين ليزدادوا تقوى. واذكروا حين قال موسى لقومه عندما اختلفوا فى قتل شخص: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة فقالوا أتهزأ بنا. قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين الذين يستهزئون. قالوا: اسأل الله يبين لنا ماسنها، قال إنه يقول إنها بقرة متوسطة السن لا مسنة ولا صغيرة، بل وسط بين ذلك.

﴿فاقع﴾: شديد الصفرة..

﴿ذلول﴾: سهلة القيادة متمرنة على العمل.

﴿تثير الأرض﴾: تحرثها (الحرث): الأرض المهيأة للزراعة.

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (١) ﴿٦٩﴾
قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ (٢) عَلَيْنَا
وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا
قَالُوا الْآنَ (٣) جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾
وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ (٤) فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ
تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ
الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ (٥) لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ
قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ
وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ (٦) ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا
يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ

﴿مسلمة﴾: خالية من العيوب...
﴿الشية﴾: بقعة من لون يغاير اللون العام للشيء. ﴿إدارأتم﴾: تخاصمتم وصار كل يدرأ الشبهة عن نفسه.

المعنى: قالوا أطلب من الله بيان لونها، قال إنها صفراء شديدة الصفار تسر الناظر إليها، قالوا بين لنا هل هى عاملة تحرث وتسقى أم سائمة لم تعمل أبدًا. قال: هى سائمة ليست سهلة القياد ولم تعمل فى حرث ولا سقى وليس بها علامة من لون آخر غير الصفرة. قالوا الآن جئت بالبيان الوافى. وبحثوا كثيرا حتى وجدوها وذبحوها بعد مشقة فى العثور عليها، وبما أنكم قتلتم نفسا واختلفتم فى معرفة القاتل والله سيخرجه من بينكم فاضربوا القتيل بجزء من هذه البقرة، فضربوه فأحياه الله تعالى وذكر لهم اسم قاتله ثم مات ثانيا.. فكما أحيا الله هذا الرجل أمام أعينكم هو قادر على إحياء الموتى يوم القيامة للحساب، فلا يصح إنكاره بعد أن رأيتم هذه الأدلة فاعقلوها.. ثم بعد كل هذا قست قلوبكم أيها اليهود وتصلبت عن قبول الحق، فهى كالحجارة فى القسوة أو أشد، لأن من الحجارة ما يتفجر منه الأنهار الواسعة، ومنها ما يشقق طولا وعرضا فيسيل منه الماء، ومنها ما يهبط من أعلى الجبل طوع ما يريد الله لا يتأخر. فالحجارة أنفع من قلوبكم مع تنفيذها ما هيئت له، أما أنتم فتعملون نقيض ما طلبه الله منكم، وما الله بغافل عما تعملون، وسيجازيكم عليه.

---

(١) الناظرين. (٢) تشابه. (٣) الآن
(٤) فادارأتم. (٥) أياته. (٦) الأنهار.

وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ[1] عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟
لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ[2] ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ
مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟
أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ[3] إِلَّآ
أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ
ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ
ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا
يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً
قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ

﴿أماني﴾: أكاذيب، كان النبي ﷺ وأصحابه يظنون أن أقرب الناس إلى الإيمان هم اليهود دون المشركين والنصارى، لأن أغلبهم موحدون ولأن الإسلام خفف عنهم ما شددت فيه التوراة، فقال سبحانه لنبيه وأصحابه: أبعد كل ما سمعتموه من جرائمهم التي عددناها لكم فيما سبق مازلتم تطمعون في أن يصدقوا دينكم لأجل دعوتكم لهم إليه مع أنهم منغمسون في شرور أخرى، فمنهم أحبار يحرفون التوراة ويفسرونها تفسيرا فاسدا ليحافظوا على شهواتهم وهم يعلمون أنهم مفترون، ومنهم منافقون إذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا مثلكم بصدق ما جاء به النبي، وإذا خلا بعض اليهود من هؤلاء المنافقين ببعض آخر لم ينافق قال هذا الأخير مخطئا الفريق المنافق: كيف تخبرون المسلمين بما أطلعكم الله عليه في التوراة من صدق نبيهم فيقيموا عليكم الحجة يوم القيامة بأنكم كنتم تعرفون صدقه. أفلا تعقلون أنكم بعملكم هذا أضعتم حجة لنا كان يمكن أن نعتذر بها يوم القيامة، وهي أن نقول إنا كنا نجهل أنه نبي. فسفه سبحانه عقولهم بقوله أولا يعلم هؤلاء السفهاء أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون. ومنهم فريق أميون لا يعلمون من التوراة إلا أكاذيب تلقوها عن رؤسائهم فليس عندهم إلا ظن ووهم لا يغني من الحق شيئا، ومن أحبارهم فريق يكتب بيده كتابا ويقول لأتباعه هذا من التوراة ليتوسل بذلك إلى متاع زائل. فالهلاك والعذاب لهؤلاء بسبب افترائهم وبسبب كسبهم الخبيث. ولما توعدهم القرآن بالنار قال رؤساؤهم لعوامهم ليصرفوهم عن الخوف من النار: إن في التوراة أن النار لن تمس اليهود إلا أربعين يوما، وهي المدة التي عبد فيها أجدادهم العجل. فرد سبحانه بقوله هل أتخذتم بذلك وعدا من الله أم تفترون على الله بغير علم..

---

(١) بغافل. (٢) كلام. (٣) الكتاب.

(الجـــزء الأول) ١٦

عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ[1]
بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ[2] ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ[3] ﴿٨١﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ[4] أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ[5] ٱلْجَنَّةِ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ[6] ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ[7] بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[8]
لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ[9] إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ[10] وَٱلْمَسَٰكِينِ[11] وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ[12]
وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ[13] ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ[14] لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ[15] ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ
هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ[16]
تَظَٰهَرُونَ[17] عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ[18] وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ[19]
تُفَٰدُوهُمْ[20] وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ

﴿الميثاق﴾ : العهد.

﴿وقولوا للناس حُسنا﴾ : أى قولا حسنا جدا كأنه هو الحسن نفسه.

﴿تظاهرون عليهم﴾ : تتعاونون.

﴿الإثم﴾ : المعصية.

﴿العدوان﴾ : الظلم.

﴿تفادوهم﴾ : تفكوا أسراهم بالفداء.

المعنى: بلى، أى ستمسكم النار خالدين فيها، لأن حكم الله العام فى كل الأمم أن من أرتكب سيئة واسترسل فى الخطيئة حتى سدت عليه منافذ النجاة فمات على الشرك فإنه يخلد فى جهنم لا فرق بين يهودى وغيره، أما من آمن وعمل صالحا فإنه يخلد فى الجنة.

---

(١) وأحاطت.
(٢) أصحاب.
(٣) خالدون.
(٤) الصالحات.
(٥) أصحاب..
(٦) خالدون
(٧) ميثاق.
(٨) إسرائيل.
(٩) وبالوالدين.
(١٠) واليتامى.
(١١) والمساكين.
(١٢) الصلاة.
(١٣) الزكاة.
(١٤) ميثاقكم.
(١٥) دياركم.
(١٦) ديارهم.
(١٧) تظاهرون.
(١٨) والعدوان.
(١٩) أسارى.
(٢٠) تفادوهم

وأذكر حين شددنا عليهم العهد فى التوراة بأن لا يعبدوا إلا الله ويحسنوا للوالدين ولذى القربى واليتامى والمساكين، وأن يقولوا القول الحسن كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدق فى الشهادة وغير ذلك، وأن يصلوا ويزكوا على الوجه المشروع فى التوراة، فقبلتم أيها اليهود هذا العهد ثم انصرفتم عن الوفاء به وأنتم على عادتكم من الإعراض عن كل خير إلا قليلا منكم وهم من أحسنوا صنعا فيما مضى ومن آمنوا بمحمد الآن. وكان بالمدينة قبل الإسلام حروب بين قبيلتين من العرب هما الأوس والخزرج و كان بعض اليهود حليفا للأوس، والبعض الآخر حليفا للخزرج، وكان كل فريق من اليهود يقاتل اليهود الذين مع الفريق الآخر ويخرجونهم من ديارهم ويأسرونهم، وبعد أنتهاء الحرب يفدى كل فريق من اليهود أسرى اليهود من الفريق الآخر، فإذا سئلوا كيف تفدونهم وقد كانوا يقاتلون مع أعدائكم؟ قالوا لأن الله أمرنا فى التوراة بفداء أسرى اليهود. فإذا قيل لهم ولم تقاتلونهم وهم منكم؟ قالوا: حياء من أن يغلب حلفاؤنا العرب. وكان الله سبحانه قد أخذ عليهم العهد فى التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضا ولا يخرجه من داره، وأن يفديه إذا أسر، وكانوا جميعا أقروا بهذا العهد وشهد كل منهم على الآخر به، ولما خالفوا التوراة فى عدم القتل وعدم الإخراج فأخرجوا إخوانهم من ديارهم وتعاونوا مع العرب على العدوان عليهم ومع ذلك حافظوا على الفداء، وبخهم الله تعالى بقوله: أفتؤمنون ببعض التوراة وهو ما فيه الأمر بالفداء وتكفرون ببعضها وهو ما فيه تحريم القتل والإخراج من الديار، ونظير هذا الرد سيأتى فى الآية (٩١) من سورة البقرة صفحة ١٨.

﴿قفينا﴾: أتبعنا رسولا بعد رسول.

﴿روح القدس﴾: الروح المقدس الطاهر وهو جبريل.

﴿غلف﴾: جمع أغلف أى مغلفة ومغطاة لا يصل إليها شىء.

﴿يستفتحون﴾: يطلبون الفتح والنصر.

المعنى: فما جزاء من يفعل هذه الجرائم إلا ذل فى الدنيا. وقد وقع ذلك بقتل بنى قريظة وطرد بنى النضير من يهود المدينة إلى الشام. ويوم القيامة يلاقون أشد العذاب. أولئك الذين

ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ
إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ
ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا
مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ
بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ
ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا
غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾
وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ
وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

قتلوا أنفسهم إلى آخر ما تقدم، هم الذين اختاروا نعيم الحياة الدنيا الزائل على نعيم الآخرة الخالد، فلا يخفف عنهم عذاب جهنم ولا يجدون من يدفعه عنهم. ولقد آتينا موسى التوراة، وجئنا من بعده بالرسل رسولا بعد رسول، وآتينا عيسى بن مريم المعجزات الواضحات كإحياء الموتى وبقية ما جاء فى الآية (٤٩) من سورة آل عمران وقويناه بجبريل الطاهر من كل دنس، يسير معه حيث سار، فلم يستقم لكم معه حال، فهل يصح منكم أنه كلما جاءكم رسول بما لا تحب نفوسكم الخبيثة تحاربونه وتكذبونه وتقتلونه إن قدرتم على قتله؟ وقال هؤلاء اليهود لنبينا محمد ﷺ تيئيسا له من إيمانهم بما جاء به: قلوبنا مغلفة فى أغطية لا تفهم ما تقول يا محمد فلا تحاول أن تجعلنا نتبعك، والحقيقة أنهم مخادعون وأن قلوبهم أصلها كقلوب غيرهم.. يمكنها الوصول للحق لو تركت الحسد وأخلصت، ولكنها لم تخلص، فكان جزاؤهم لعنة الله والطرد من رحمته بسبب طول عهدهم بالكفر بأنبيائهم وكتبهم، فلا يؤمنون إلا بالقليل كإيمانهم بما يوافق شهواتهم مما ذكر فى التوراة كفداء الأسرى المتقدم، وهذا لا يدفع عنهم من الخلود فى النار شيئا. وكان اليهود فى الجاهلية إذا قاتلوا المشركين يقولون اللهم انصرنا عليهم بمجيء نبى آخر الزمان الذى نجد صفته فى التوراة، ولما جاء القرآن بصدق ما فى التوراة من أصول العقائد وصفة الرسول وجاءهم الرسول الذى عرفوه وكانوا يستنصرون به على المشركين، كفروا به حسدا لأنهم كانوا

---

(١) الكتاب. (٢) الحياة. (٣) القيامة. (٤) بغافل. (٥) الحياة.
(٦) الكتاب. (٧) البينات. (٨) وأيدناه. (٩) كتاب. (١٠) الكافرين.

بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا
أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو
بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ
عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ
قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾
* وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ
وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ
ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ
إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ
ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن

يطمعون أن يكون من بنى إسرائيل، فلما جاء من العرب الأميين حسدوه وحاربوه حرصا على الجاه، فلعنة الله عليهم، لأنهم كفروا برسوله وكتابه.

﴿اشتروا به﴾: باعوه، فاشترى وشرى كلاهما يستعمل فى البيع والشراء.

﴿بغيا﴾: حسدا وطلبا لما ليس لهم.

﴿باءوا﴾: رجعوا.

﴿أشربوا فى قلوبهم العجل﴾: أى خلط حبه قلوبهم.

المعنى: قبحت صفقة باعوا فيها نعيم الآخرة الذى كان معدا لهم لو آمنوا، فى مقابل كفرهم بالقرآن حسدا على أن ينزل الله من فضله وحيا على من اختار من عباده وهو محمد ﷺ، فرجعوا بغضب من الله على كفرهم بمحمد زائد على غضب استحقوه من قبل بالكفر بعيسى وبإضاعة التوراة، فلهم على هذا عذاب مهين مذل.

وإذا قيل لليهود الموجودين فى عصره ﷺ آمنوا بالقرآن الذى أنزله الله كما أنزل التوراة على موسى قالوا يكفينا الإيمان بالتوارة التى أنزلت علينا. وفى الوقت الذى يزعمون فيه الإيمان بالتوراة هم يكفرون بالقرآن الذى أنزله الله بعدها مع أنه حق مصدق لما فى التوراة، فإذا كفروا بالتوراة نفسها.. قل لهم أيها النبى إذا كنتم صادقين فى دعوى إيمانكم بالتوراة فلأى سبب قتل آباؤكم أنبياء الله من قبل نزول القرآن ورضيتم بعملهم؟ وقد مضى نظير ما

---

(١) وللكافرين. (٢) بالبينات. (٣) ظالمون. (٤) ميثاقكم. (٥) آتيناكم. (٦) إيمانكم.

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ
عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ
سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ
بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ
عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ
وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ
إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾
أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ
لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ

هنا فى الآية (٨٥) صفحة ١٦ وقل لهم أيضا قد جاءكم نبيكم موسى بالمعجزات الواضحة كالعصا واليد وفلق البحر وتظليل الغمام ثم آتخذتم العجل إلها بعد مجىء موسى بها فظلمتم أنفسكم بذلك واذكروا إذ أخذنا عليكم العهد ورفعنا الطور إلى آخر ما تقدم فى الآية (٦٣) وقلنا لكم اسمعوا ما تؤمرون به سماع قبول، قالوا بلسانهم سمعنا قولك وسنعمل، وقالوا فى سرهم عصينا أمرك كما يفعل السفهاء، وامتزج بقلوبهم حب عبادة العجل بسبب مرانهم على الكفر. قل لهم أيها النبى قبح ما يجركم إليه هذا الإيمان الكاذب، لأن الإيمان الصحيح لا يدعو إلى الكفر.. ولما كانوا يقولون لن يدخل الجنة إلا اليهود كما فى الآية (١١١) صفحة ٢٢ قال سبحانه قل لهم أيها النبى إن كانت لكم الجنة ذات النعيم العظيم كما تزعمون فتمنوا الموت الذى يوصلكم إليها إن كنتم صادقين فى أن الجنة خاصة بكم.

﴿يعمر﴾: يعيش طويلا.

المعنى: ولما كانوا كاذبين ويعلمون أن الجنة للمتقين فإنه يستحيل عليهم أن يتمنوا الموت بسبب ما ارتكبوا من الكفر وغيره، والله يعلم أنهم ظالمون لأنفسهم وللحق بتبجحهم بالباطل الواضح كالشمس، فلو تمنوا لأدخلهم جهنم. ومن إعجاز القرآن أنه لم يجرؤ أحد منهم أن يتمنى الموت لعلمهم بظلمهم. وسبب ذلك أنهم أحرص الناس على حياة، أى حياة كانت ولو حقيرة؛ وأحرص حتى من المشركين الذين لا يؤمنون باليوم الآخر، وقد روى البخارى أنه ﷺ

(١) الكتاب. (٢) بالظالمين. (٣) حياة. (٤) وملائكته. (٥) وميكال. (٦) للكافرين.
(٧) آيات. (٨) بينات. (٩) الفاسقون. (١٠) عاهدوا. (١١) الكتاب كتاب.

قال: (والذى نفسى بيده لو تمناه أحدهم لمات غاصًا بريقه).. ولأنهم يعلمون فى نفوسهم أن محمداً رسول الله حقا وأنه صادق فى كل ما يقول خافوا جميعا من هذا التحدى الصريح الذى لا يحوم حوله الشك. انظر المباهلة فى الآية (٦١) من سورة آل عمران صفحة ٧٢. وكانوا يعرفون ذلك وصدقه كما يعرفون أبناءهم.. أنظر الآية (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨؛ ولهذا يحب أحدهم لو يعيش ألف سنة خوفا من عذاب ما بعد الموت، وليس تعمير أحدهم ألف سنة بمنجيه من العذاب، لأن الله تعالى عليم بعملهم وسيعاقبهم حتما.

ولما كانوا تعللوا أولا بأن إيمانهم بالتوراة يكفيهم ورد عليهم بما تقدم، وتعللوا ثانيا بأن الجنة خاصة بهم فلا خوف عليهم ورد عليهم، تعللوا ثالثا بأنه كان يمكن أن يؤمنوا بمحمد لو كان الذى يأتيه بالوحى ميكائيل لأن جبريل كما زعموا عدوهم، فهو الذى أخبرهم بتخريب بيت المقدس على يد عدوهم بختنصر، كما فى أول سورة الإسراء، وهو الذى يطلع محمدا على أسرارهم، فقال الله عز وجل قل لهم أيها النبى من كان منكم عدوا لجبريل فهو عدو لله، لأن جبريل ما نزل القرآن على قلبك إلا بإذنه تعالى هذا القرآن المصدق لما تقدمه من التوراة والإنجيل، فكان حق جبريل الشكر لا الكراهية، والقرآن هاد من الضلال ومبشر للمؤمنين بالنعيم الخالد، فإن كنتم مؤمنين حقا فكيف تكرهون البشرى، فاسمعوا القول الفصل: من كان عدوا لله بكفره بما أنزل، ولملائكته لكراهة قيامهم بواجبهم، ولرسله بالتكذيب والقتل، ولجبريل بكراهتهم له لأنه ينزل بالإنذارات ولميكائيل وهو كجبريل، فمن عادى جبريل فقد عاداه، ولهذا خصهما بالذكر مع دخولهم فى عموم الملائكة، من عادى واحدا مما ذكر فإن الله تعالى يعامله معاملة الأعداء لأنه كافر فيخلده فى النار، ولقد أنزلنا إليك أيها النبى على لسان جبريل هذا القرآن الواضح فلا يكفر به إلا الخارج عن طريق الحق. وكان اليهود عاهدوه ﷺ على أن لا يعاونوا المشركين عليه ونقض هذا العهد أكثرهم على طريقتهم فى نقض العهود، فوبخهم سبحانه بقوله: هل مَرَن هؤلاء على الفسق، وكلما عاهدوا لا يوفون ولذلك لا يؤمن منهم إلا قليل وقد صدق الله، فكان اليهود أقل الطوائف إيمانا بالإسلام، ولما جاء محمد رسولا من الله يؤيد التوراة على الوجه المبين فى الآيتين (٤١) ، (٨٩) من سورة البقرة طرح فريق منهم التوراة وراء ظهره ولم يعملوا بما فيها من الإيمان بمحمد ﷺ كأنهم لا يعلمون شيئا منها.

وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟
ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ
ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى
ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ
حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا
مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ
مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ
وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ
مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟
وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾
يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ
وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ

﴿واتبعوا ما تتلوا.... الآية﴾: هذا معطوف على قوله سبحانه وتعالى ﴿نبذ فريق﴾.

﴿الشياطين﴾: يراد بهم الخبثاء من الإنس كما تقدم فى الآية (١٤) من سورة البقرة وكما سيأتى فى الآية (١١٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨١.

﴿السحر﴾: المراد به هنا ما يزاوله بعض خبثاء الإنس من أفعال يكون لها أثر فى شخص آخر من غير اتصال..

﴿بابل﴾: بلد قديم بالعراق كان يكثر فيه السحر.

﴿هاروت وماروت﴾: بيان للملكين المذكورين سابقًا، والمراد ما أنزل على الملكين اللذين هما هاروت وماروت، أنزل الله عليهما وصف السحر وكيفية الاحتيال به ليعرفاه للناس ليتجنبوه كما يعلم رجال الأمن أى رجال الشرطة حيل اللصوص فى ارتكاب الجرائم ليتمكنوا من مقاومتهم والقبض عليهم.

﴿فتنة﴾: أى سبب ابتلاء وامتحان ليتميز المطيع من العاصى.

﴿اشتراه﴾: أخذه.

---

(١) الشياطين.
(٢) سليمان.
(٣) سليمان.
(٤) الشياطين.
(٥) هاروت وماروت.
(٦) اشتراه.
(٧) خلاق.
(٨) راعنا.

﴿خلاق﴾: نصيب.

﴿شروا به أنفسهم﴾: باعوها.

﴿انظرنا﴾: انتظرنا. المعنى: واتبع اليهود السحر الذى كانت تشيعه النفوس الخبيثة عن ملك سليمان من أن عهده راج فيه السحر، وأنه ما سخر الريح والجن إلا بالسحر، وقد دونوا هذه الشرور والمفاسد فى كتب يتلونها على الناس ليضللوا عقولهم وينحرفوا عن الطريق المستقيم كما هى طبيعتهم دائما، فرد سبحانه كل ذلك بقوله: وما كفر سليمان، أى لم يعمل بالسحر الذى يكفر من عمل به ولكن شياطين الإنس من اليهود هم الذين كفروا بالعمل به وتعليم الناس ما أنزل على الملكين هاروت وماروت ببابل، وذلك أن كثرة شيوع السحر فيها اقتضت أن يرسل الله تعالى ملكين فى صورة رجلين بهذين الإسمين هاروت وماروت يبصران الناس بحقيقة السحر وكيفية الاحتيال به ليبتعدوا عنه، وكانا لا يعلمان أحدا إلا ونصحاه بأن تعليمنا هذا سبب فتنة واختبار يظهر به الصالح من الطالح فلا يخدعك به أحد ولا تكفر بالعمل به، فالصالح ابتعد عن العمل به، والفاسق صار يفسد به العلاقة بين الزوجين. ولولا أن الله تعالى ترك الأسباب تنتج مسبباتها لمنع ضرره كما منع النار عن حرق نبيه إبراهيم. فهؤلاء الخبثاء تعلموا ما ضرهم ولم ينفعهم لفساد طبعهم، ولقد علموا من الملكين أن من اختار العمل به لكسب متاع الدنيا فليس له فى نعيم الآخره نصيب، وقبح ما باعوا به ثواب أنفسهم لو كانوا يعلمون علما نافعا. ولو أنهم آمنوا وخافوا الله لعلموا أن رضا الله خير من متاع زائل. وكان المسلمون الذين يحضرون مجلسه ﷺ لسماع الوحى يقولون له عند تلاوته يا رسول الله: راعنا أى راقب حالنا وانتظرنا، حتى نتمكن من حفظ ما تلقيه علينا لئلا يفوتنا شيء. فسمعهم اليهود وانتهزوها فرصة للسخرية منه ﷺ، فصاروا يقولون يا أبا القاسم راعنا، يوهمون أنهم يريدون المراعاة ولكنهم يريدون (أنت راعنا) من الرعونة والطيش، فنهى الله المسلمين عنها وأمرهم أن يقولوا بدلها، أنظرنا أى انتظرنا، وأن يحسنوا السماع حتى لا يحتاجوا إلى طلب الإمهال. وللكافرين من هؤلاء اليهود عذاب شديد.

أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ[1] وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن
رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ
أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ
أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[2] وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟[3] رَسُولَكُمْ
كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ[4]
فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ[5]
لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ[6] كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم
مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ
بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ[7]
وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ[8] ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ

﴿ننسخ﴾: نغير.

﴿من آية﴾: (من) تدل على النص على عموم نفى ما بعدها و﴿آية﴾ المراد بها هنا المعجزة..

﴿ننسها﴾: نذهبها من الذاكرة.. ﴿من ولى ولا نصير﴾: ﴿من﴾ كالسابقة فى ﴿من آية﴾ و﴿الولىّ﴾: هو الصديق الذى يدفع الضر عن صديقه بالحسنى و﴿النصير﴾: هو الذى يدفعه بالقوة. ﴿أم تريدون.. إلخ﴾: ﴿أم﴾ حرف متضمن معنى حرفين (بل) التى تفيد الانتقال من كلام لآخر، وهمزة الاستفهام التى تفيد التوبيخ، والخطاب فى تريدون للكفار من أهل مكة واليهود لأن لكل أمة دعوته ﷺ أرسل لهم كما أرسل لغيرهم.

﴿من يتبدل الكفر بالإيمان﴾: يفضل الكفر على الإيمان.

﴿سواء السبيل﴾: وسط الطريق(1)..

﴿ود﴾: أحب

المعنى: لا يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون عبّاد الأصنام أن ينزل الله عليكم أيها المؤمنون خيرا من وحى ورحمة. والله يختص برحمته ورسالته من يشاء من عباده كمحمد ﷺ بالرسالة والهداية وأمته بالرحمة سواء أحب هؤلاء أم كرهوا(2). والله وحده هو ذو

(١) الكتاب.
(٢) السموات.
(٣) تسألوا.
(٤) بالإيمان.
(٥) الكتاب.
(٦) إيمانكم.
(٧) الصلاة.
(٨) الزكاة.

(١) انظر سواء السبيل في شرح آية (٢٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٩.
(٢) انظر الآية ٩٠ من سورة البقرة صفحة ١٨.

الفضل والخير يضعه كما يشاء. ولما كان المشركون يقولون لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا الخ[٣]. ويقولون لو جاء بمعجزات مثل معجزات موسى لآمنا به[٤]؛ وقالت اليهود أنزل علينا يا محمد كتابا من السماء[٥]؛ فلما حصل كل هذا رد سبحانه عليهم بقوله: (ما ننسخ الخ) أى ما نترك تأييد نبى متأخر بمعجزة كانت لنبى سابق، أو نُنسى الناس هذه المعجزة السابقة لطول العهد بها إلا وأيدنا هذا الرسول المتأخر بمعجزة خير من السابقة فى قوة الإقناع وإثبات النبوة. أو مثلها فى ذلك تكون مناسبة لعصر نبيها، وذلك لما عندنا من القدرة التى تمكننا من عدم التقيد بمعجزة واحدة لجميع الرسل.

ألم تعلم أيها المخاطب أن الله مالك السموات والأرض يفعل فيهما ما يشاء، وليس لكم أيها الناس من دونه تعالى صديق يدفع عذاب الله عنكم بالشفاعة، ولا نصير يمنع عذابه عنكم إن عصيتم. فهل تريدون يأهل مكة باقتراحكم معجزات معينة أن تسألوا رسولكم محمدا ﷺ كما سأل اليهود موسى من قبل معجزة معينة ولم يكتفوا بمعجزاته الكثيرة، وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة[٦]؟ إنكم إن فعلتم ذلك فقد اخترتم الكفر، ومن يختر الكفر ويترك الإيمان فقد انحرف فى سيره عن وسط الطريق، فلابد أن يخرج منه ويقع فى الهاوية[٧]. لقد أحب كثير من اليهود والنصارى أن يردوكم أيها المؤمنون من بعد إيمانكم إلى الكفر، لاعتقاد أنه صواب، بل لحسدهم لكم من بعد ما تبين لهم فى التوراة الحق من أن محمدا رسول الله حقا وأن دينه صدق. فاعفوا عنهم الآن ولا تؤاخذوهم بجرمهم واصفحوا عنهم فلا توبخوهم حتى يأذن الله بقتالهم، وقد فعل سبحانه فأذن فى قتال بنى قريظة وطرد بنى النضير، وهو قدير على نصركم وخذلانهم، فاطلبوا نصره تعالى بالمداومة على طاعته البدنية والمالية، فأقيموا الصلاة، وأدوا الزكاة لأصحابها، وما تقدموا من خير بعد ذلك ستجدون ثوابه عنده تعالى، لأنه يعلم أعمالكم ولن يضيع أجرها.

---

(٣) أنظر الآيات ٩٠ إلى ٩٣ من سورة الإسراء صفحتى ٦ ٣٧، ٣٧٧.

(٤) أنظر الآية ١٢٤ من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والآية ٤٨ من سورة القصص صفحتى ٥١٣، ٥١٤.

(٥) أنظر الآية ١٥٣ من سورة النساء صفحة ١٢٩.

(٦) أنظر الآية (٥٥) من سورة البقرة صفحة ١١.

(٧) أنظر الآية (١٥٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩.

عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ
ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ[1] تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡ
قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ[2] إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ[3] ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ
وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ
عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ[4]
عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ[5] لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ
يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ[6] كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ
فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ[7] فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾
وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ[8] ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ
فِي خَرَابِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ
لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١٤﴾
وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿هودا﴾: أى يهودًا، والمراد من كان يهوديا.

﴿أو نصارى﴾: (أو) هنا للتقسيم لا للترديد لأن كلا منهما يكره الآخر ويرى أنه على باطل كما سيأتى فى الآية (١١٣) من هذه السورة الآتية فى هذه الصفحة.

(بلى): حرف يفيد إبطال ما قبله وإثبات ما بعده، وأنه هو الحق.

﴿أسلم وجهه.... إلخ﴾: جاء فى لسان العرب أسلم فلان فلانا إلى خصمه أى تركه للهلاك ولم يحمه منه، ومنه حديث رسول الله ﷺ «المسلم أخو المسلم: لا يَظلمه ولا يسلمه... الحديث».

وأسلم فلان أمره لله، فالفعل فى كل ذلك متعد لمفعول. ويقال أيضا أسلم الرجل أى انقاد، ومنه (يحكم بها النبيون الذين أسلموا)[1] وقوله تعالى (وأتونى مسلمين)[2] وقوله سبحانه (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون)[3]. و يقال أيضا أسلم الرجل أى دخل فى الإسلام، والفعل فى ذلك لازم غير متعد، وقد يكون أصله من المتعدى ولما حذف مفعوله كثيرا صار كاللازم، والأصل أسلم الرجل نفسه لله. فتفسيره بأسلم (اللازم) تفسير لحاصل المعنى، وكذا يقال فى أسلم بمعنى انقاد والأصل أسلم قياده لغيره. و(الوجه) هو توجه القلب والنية[4]. وقال المرحوم الشيخ محمد عبده: إسلام الوجه لله هو التوجه إليه وحده، وإفراده بالعبادة كما قال سبحانه وتعالى فى سورة الفاتحة (إياك نعبد وإياك نستعين). وقد عبَّر القرآن هنا عن إسلام القلب وصحة القصد إلى الشىء

---

(١) نصارى.	(٢) برهانكم.	(٣) صادقين.	(٤) النصارى.
(٥) النصارى.	(٦) الكتاب.	(٧) القيامة.	(٨) مساجد.

---

(١) الآية (٤٤) من سورة المائدة صفحة ١٤٥ . (٢) الآية (٣١) من سورة النمل صفحة ٤٩٧ .

(٣) الآية (٨١) من سورة النمل صفحة ٥٠٤ .

(٤) أنظر معانى الوجه فى شرح الآية (٤٧) من سورة النساء صفحة ١٠٨ ..

القصد إلى الشيء بإسلام الوجه، كما عبَّر عنه في مكان آخر بتوجيه الوجه حيث قال حكاية عن خليل الرحمن عليه السلام ﴿إني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض .... الآية﴾(٥). وذلك لأن قاصد الشيء عادة يقبل عليه بوجهه ولا يوليه ظهره، ولما كان توجيه الوجه إلى جهة الشيء يدل على قصده وإشتغال القلب به عبَّر سبحانه عن قصد إفراده بالعبادة بإسلام الوجه. (وهو محسن): أى مجيد لعمله بأن يكون متفقا مع ما شرعه الله.

﴿وهم يتلون الكتاب): المراد من هذه الجملة هو توبيخ هؤلاء الناس على أنهم يعرفون ما فى كتبهم ويخالفونها. ﴿الذين لا يعلمون﴾: المراد مشركوا العرب ومَنْ ماثلهم.

﴿ومن أظلم﴾ أى لا أحد أشد ظلما. ﴿مساجد الله﴾: المراد من المساجد هنا أمكنة العبادة مطلقا، لا خصوص المساجد المعروفة الآن، ومثل هذا الاستعمال فقوله سبحانه ﴿لنتخذن عليهم مسجدا﴾(٦) وقوله تعالى ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا﴾(٧) ولم يكن الإسلام دخل فلسطين عند الإسراء. ﴿أن يذكر فيها أسمه): هذا بدل اشتمال من المساجد، وذلك لأن الذكر إذا حصل فى المساجد فهى مشتملة عليه، فهو كقولهم يعجبنى محمد علمه، والمراد منع ذكر الله فى المساجد، وذكر الله كناية عن كل العبادات التى تحصل فى المساجد من صلاة وتسبيح وقراءة قرآن وغير ذلك مما أذن الشارع فى حصوله فى المساجد.

﴿ولله المشرق والمغرب﴾: هذا كناية عن الجهات كلها. ﴿فأينما تولوا﴾: المراد فى أى جهة توجهوا وجوهكم إليها. ﴿فثَمّ﴾: أى فهناك.

﴿وجه الله﴾: الوجه هنا بمعنى الجهة، والمراد الجهة التى أمركم سبحانه بالتوجه إليها.

قال الفخر الرازى: المعنى فأى مكان أمركم الله باستقباله فهو القبلة التى يرضاها.

وقال ابن عباس: وجه الله أى قبلة الله والمراد أن مكان التوجه إليه لا يختص بمسجد دون مسجد، ولا بمكان دون مكان.

المعنى: وقال اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، وهذه كلها تمنيات ليس لها أصل، وإلا فهاتوا دليلكم إن كنتم صادقين، ولن

---

(٥) الآية (٧٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٥.
(٦) الآية (٢١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٣.
(٧) الآية (١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٤.

يكون هذا. بل الصحيح أن الذى يدخل الجنة هو كل من أخلص عبادته لله وحده، وأحسن عمله، فله أجره على ذلك عند ربه يوم القيامة، ولا يخاف مكروها، ولا يحزن على فوات مرغوب. قال ابن كثير: أفادت هذه الآية أن للعمل المقبول شرطين الأول: أن يكون خالصا لله وحده، والثانى: أن يكون صوابا موافقا لما شرعه الله سبحانه، فإذا كان خالصا ولم يكن صوابا لا يقلبه الله منه، وفى هذا قال ﷺ: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو مردود عليه» رواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها، فعمل الرهبان ومن شابهمه من المبتدعين، وإن فرض أنهم فيه مخلصون لله، لأنه لا يقبل منهم إلا إذا كان موافقا للشريعة التى جاء بها رسولهم الذى أرسل إليهم، من ذلك شريعة خاتم الرسل ﷺ الذى أرسل للناس كافةج بشريعة جديدة ناسخة لكل ما تقدمها، فكل عمل بعد بعثة محمد ﷺ جاء على خلاف ما فى شريعته فهو باطل، قال تعالى ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ (الآية ٢٣ من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣).

وقال سبحانه ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء﴾[(٨)] ثم ذكر ابن كثير بعد ذلك حادثة بكاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما زار الشام ورأى راهبا منهمكا فى العبادة[(٩)]. وقال سبحانه ﴿هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا. الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾[(١٠)] وأما إذا كان العمل موافقا للشريعة فى الصورة الظاهرة فقط ولم يكن خالصا لوجه الله فهو أيضا مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين، لذلك هدد سبحانه المصلين رياء بالهلاك[(١١)] وقالت اليهود ليست النصارى على شىء يعتد به لأن المسيح المبشر به فى التوراة لم يأت إلى الآن فهم فى تصديقهم بعيسى على باطل. وقالت النصارى ليست اليهود على شىء يعتد به لأنهم كفروا بعيسى. وهكذا تنابذ الفريقان مع أن كلا منهما يتلو كتابه، فاليهود يعلمون ما فى التوارة من صفات عيسى وأنه رسول الله، والنصارى يعلمون ما فى الإنجيل من أن عيسى متمم لتعاليم موسى، فكان اللائق بهم أن يكونوا متفقين ضد المشركين، ولكن الشهوات مزقتهم وجعلتهم مثل المشركين الذين يقولون لكل ذى دين سماوى أنه ليس على شىء.

---

(٨) الآية (٣٩) من سورة النور صفحة ٤٦٤.
(٩) أنظر ذلك في شرح الآية (٣) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥.
(١٠) أنظر شرح الآيتين (١٠٣) و(١٠٤) من سورة الكهف صفحتي ٣٩٤، ٣٩٥.
(١١) أنظر الآية (٤) وما بعدها من سورة الماعون صفحة ٨٢٣.

كذلك قال الذين لا يعلمون.. إلخ المراد كهذا التعصب البغيض الناتج عنه طعن فى الغير بلا دليل تَعَصُّبَ الجهلة من مشركى العرب ومَنْ على شاكلتهم. فقالوا قولا يطعنون فيه على أهل الأديان جميعا بلا دليل بل لمجرد التعصب لما عليه الآباء، فقالوا فى اليهود والنصارى إنهم ليسوا على شىء من الحق، وأن من يزعمونهم رسلا لهم إنما هم كهنة دجالون يتلون عليهم أساطير الأولين، وقال الفخر الرازى: وهذا توبيخ شديد لأهل الكتاب حيث وضعوا أنفسهم مع أنهم علماء مع من لا يعلم من جهلة المشركين.

فدعهم أيها النبى، وسيحكم الله تعالى بينهم بعدله يوم القيامة، ويجازى كل فريق على قدر جرمه، وكان اليهود خربوا معابد النصارى، والنصارى خربوا بيت المقدس فى عهد طيطس الرومانى، فذبحوا فيه الخنازير ورموا فيه الجيف، وبقى خرابا إلى أن بناه المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

والمشركون منعوا النبى ﷺ وأصحابه من دخول البيت الحرام، فقال سبحانه: ﴿فمن أظلم﴾ إلخ أى لا أحد أظلم ممن منع الناس عن عبادة الله تعالى وذكره فى المساجد أى أمكنة العبادة، وسعى فى تخريبها، مع أن اللائق بهؤلاء المانعين أن يكونوا خاشعين لله فلا يدخلوا المعابد إلا خائفين منه لا هادمين لها مانعين الناس من عمارتها بالذكر والصلاة. فهؤلاء جزاؤهم الخزى فى الدنيا، وعذاب عظيم فى الأخرى. وإذا منعكم هؤلاء المشركون من البيت الحرام فاعلموا أن الأرض كلها لله، ففى أى مكان منها وليتم وجوهكم الجهة التى أمركم بالتوجه إليها وفى ذلك إشارة إلى الإذن بإقامة الصلاة فى أى مكان، كما قال ﷺ «جعلت لى الأرض مسجدا». قال ابن عباس لما حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أنكر اليهود ذلك فقال سبحانه ردا عليهم ﴿ولله المشرق والمغرب.. إلخ﴾ فهى نظير قوله تعالى: ﴿ولله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[١٢]. وقال الفخر الرازى: أى أن المشرق والمغرب وجميع الجهات كلها مخلوقة ومملوكة لله سبحانه وتعالى، فأى مكان أمركم الله باستقباله فهو القبلة التى أرادها لأن القبلة ليست قبلة لذاتها بل لأن الله سبحانه جعلها قبلة. فإن جَعَل الكعبة قبلة فلا تنكروا ذلك لأنه تعالى يدبر شئون عباده كما يريد وهو واسع الفضل عليم بمصالحهم.

---

(١٢) الآية (١٤٢) من سورة البقرة صفحة ٢٧.

وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ
مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَٰنِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ
السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ
كُن فَيَكُونُ (١١٧) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ
أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ
تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)
إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَٰبِ
الْجَحِيمِ (١١٩) وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ
تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ
أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن
وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُ حَقَّ
تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ

﴿قانتون﴾: خاضعون.

﴿بديع السموات والأرض﴾: موجودهما على مثال لم يسبق..

﴿يقول له كن فيكون﴾: لم يعلمنا الله سبحانه حقيقة هذا القول وإنما الذى يجب علينا أن نعتقده أنه سبحانه إذا قضى أمرا نفذ بقدرته سريعا من غير توقف على شىء آخر.

﴿الذين لا يعلمون﴾: هم مشركوا العرب...

﴿لولا يكلمنا الله﴾: (لولا) حرف يدل على الرغبة فى حصول ما بعده..

﴿آية﴾: معجزة. ﴿كذلك قال الذين من قبلهم﴾: كهذا العناد الصادر عنه قول فاسد. عاند الذين من قبل العرب وهم اليهود والنصارى فقالوا أقوالا فاسدة. ﴿من ولى ولا نصير﴾: تقدم فى صفحة ٢١ السابقة.

المعنى: وإنما كان المطلوب التوجه إلى الجهة التى يرضاها لأنه واسع لا يحد ولا يحصر حتى يمكن التوجه إليه فى مكان معين، عليم بالمتوجه إليه أينما كان فلا يضيع عليه أجره. وقال الألوسى: المراد أنه واسع الفضل والرحمة، فلهذا لم يضيق عليكم فى القبلة. وقالت تلك الطوائف الثلاث إن الله سبحانه جعل له ولدا، والولد يطلق على الذكر والأنثى والمفرد

---

(١) واسع. (٢) سبحانه.
(٣) السموات. (٤) قانتون.
(٥) السموات. (٦) تشابهت.
(٧) الآيات. (٨) أرسلناك.
(٩) تسأل. (١٠) أصحاب.
(١١) النصارى. (١٢) آتيناهم.
(١٣) الكتاب.

والجمع. فالنصارى قالوا المسيح ابن الله، وبعض اليهود قالوا العزير ابن الله، وبعض مشركى العرب قالوا الملائكة بنات الله. أنظر الآية (٤٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩. والآية (١٤٩) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥ والآية (١٩) من سورة الزخرف صفحتى ٦٤٨، ٦٤٩.. والآية (٢١) من سورة النجم صفحة ٧٠١. تنزه سبحانه وتعالى عما يقولون، فإن له كل ما فى السموات والأرض خلقا وملكا وعبيدا، ولا يصح أن يكون من هذه ولد للخالق القديم الباقى، لأن الولد لابد أن يكون من جنس أبيه، وكل المخلوقات قانتة له تعالى خاضعة مسخرة لما خلقت له، وهو سبحانه خالق السموات والأرض على نظام لم يسبق، وإذا أراد إيجاد أمر حصل بلا إبطاء. وقال جهلة المشركين عنادا أطلب يا محمد أن يكلمنا الله عيانا ويخبرنا بصدقك أو يرينا حجة صدقك مما اقترحناه عليك أنظر الآية (٩٠) وما بعدها من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٦، ٣٧٧. فلا تحزن أيها النبى فإن ما قالوه قالت مثله الأمم السابقة لأنبيائهم. فقد قال اليهود لموسى «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة» وقالت النصارى لعيسى «هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء» فقد تشابهت قلوب الكفار من كل أمة فى الجحود والعناد.

وقد بينا من الأدلة ما يكفى المنصفين فيعتقدون الحق اعتقادا جازما فلم يتعنتوا.

إنا أرسلناك أيها النبى بالدين الحق مبشرا من آمن به بالجنة، ومنذرا من كفر به بالنار، فافعل ما أمرت به، ولن يسألك أحد عمن لم يؤمن من أصحاب الجحيم، لأنه ليس عليك إلا البلاغ، ولا تحاول إرضاءهم فإنهم لن يرضوا عنك إلا إذا اتبعت دينهم الباطل. فقل لهم إن هدى الله الذى جاء به القرآن هو الهدى الصحيح. ولئن اتبعت شهواتهم فرضا بعدما ظهر لك من العلم بالحق فمالك من صديق يحفظك ولا نصير يمنعك من العذاب. ونزل فيمن أسلم من اليهود والنصارى قول الله سبحانه ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ أى التوراة والإنجيل، حال كونهم تلوه حق تلاوته فلم يحرفوه، يؤمنون بكتابهم إيمانا صحيحا يستتبع إيمانهم بالقرآن، أما من يكفر بالكتب السابقة بالتحريف والإنكار فأولئك هم الخاسرون.

(الجزء الأول) ٢٤

هم الخٰسرون[1] ﴿١٢١﴾ يٰبني إسرٰءيل[2] اذكروا نعمتي التي
أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العٰلمين[3] ﴿١٢٢﴾ واتقوا
يوما لا تجزي نفس عن نفس شيـٔا ولا يقبل منها عدل
ولا تنفعها شفٰعة[4] ولا هم ينصرون ﴿١٢٣﴾ ۞ وإذ ابتلى
إبرٰهـۧم[5] ربه بكلمٰت[6] فأتمهن قال إني جاعلك للناس
إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظٰلمين[7] ﴿١٢٤﴾
وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام
إبرٰهـۧم[8] مصلى وعهدنا إلى إبرٰهـۧم[9] وإسمٰعيل[10] أن طهرا
بيتي للطائفين والعٰكفين[11] والركع السجود ﴿١٢٥﴾
وإذ قال إبرٰهـۧم[12] رب اجعل هٰذا بلدا ءامنا وارزق
أهله من الثمرٰت[13] من ءامن منهم بالله واليوم الآخر
قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب

﴿عدل﴾: فداء.

﴿ابتلى﴾: اختبر وامتحن.

﴿بكلمات﴾: بأوامر ونواه منها أمره بذبح ولده الوحيد.

﴿أتمهن﴾: قام بهن خير قيام.

﴿مثابة﴾: موضعا يثوب أي يرجع إليه المنصرف عنه حباله.

﴿أمنا﴾: موضع أمان.

﴿مقام إبراهيم﴾: قيل هو الحجر الذى كان يقف عليه عند رفع قواعد البيت وقيل هو المسجد حول الكعبة، ويقول بعض محققى الفقهاء: حيثما صليت من المسجد الحرام فمقام إبراهيم.

﴿عهدنا﴾: يقول العربى: عهد الملك إلى وزيره بكذا إذا أمره به بتطهير البيت.

﴿العاكفين﴾: المقيمين فى المسجد للعبادة.

---

(١) الخاسرون.
(٢) يا بنى إسرائيل.
(٣) العالمين.
(٤) شفاعة.
(٥) إبراهيم.
(٦) بكلمات.
(٧) الظالمين.
(٨) إبراهيم.
(٩) إبراهيم.
(١٠) إسماعيل.
(١١) والعاكفين.
(١٢) إبراهيم.
(١٣) الثمرات.

﴿البلد﴾: المراد به مكة.

﴿أضطره﴾: ألجاه.

المعنى: يا بنى إسرائيل آذكروا نعمتى إلى قوله تعالى ينصرون. تقدم بيانها فى الآيتين (٤٧)، (٤٨) من هذه السورة صفحة ١٠. وأذكر حين امتحن الله تعالى نبيه إبراهيم بتكاليف شاقة كأمره بذبح ولده فقام بها خير قيام. أنظر الآيات من (١٠١) إلى (١١٣) من سورة الصافات صفحتى ٥٩٢، ٥٩٣. فكان جزاؤه أن جعله ربه إماما للناس يقتدون به.. أنظر الآية (٣٧) من سورة النجم صفحة ٧٠٣. قال إبراهيم: وأجعل يا رب من ذريتى أئمة فقال سبحانه لا ينال ويصل عهدى بالإمامة الظالمين من ذريتك بالكفر والمعصية مع عمد وأصرار كما فى الآية (١١٣) من سورة الصافات صفحة ٥٩٣. وأذكر حين جعلنا الكعبة مكانا تهوى إليه قلوب المؤمنين.كلما فارقوه رغبوا فى الرجوع إليه فلا يخلو من زائرين، وجعلنا ما حولها مكان أمن لا يصاب قاصده بما يصاب به غيره من ظلم ظالم أو غارة قوى على ضعيف، فكان الرجل فى الجاهلية يلاقى فيه قاتل أبيه فلا يمسه بسوء.

واتخذوا أيها المسلمين من مقام إبراهيم الذى حول الكعبة مصلى تصلون فيه بعد الطواف بالبيت وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بأن يحفظا البيت الحرام فيصوناه من خبائث الوثنية، للطائفين حوله، والعاكفين المقيمين حوله للعبادة، والراكعين الساجدين أى المصلين. واذكر حين قال إبراهيم رب أجعل هذا البلد الذى نشأ حول البيت أى مكة ذا أمن لأهله، وارزقهم من ثمرات الأرض وخيراتها ليقبلوا على طاعتك وشكرك، وأجعل رزقك هذا للمؤمن منهم خاصة فقال سبحانه: لا تخصيصى فى رزق الدنيا بل وسأرزق من كفر، لأن رزقى فى الدنيا يستوى فيه الطائع والفاجر، والذى يخص المؤمن هو نعيم الآخر ة فقط، أما من كفر فأمتعه فى الدنيا زمنا يسيرا هو مدة حياته، ثم ألجئه وأسوقه فى الآخرة إلى عذاب النار، وقبح المصير مصيره هذا.

النار وبئس المصير ﴿١٢٦﴾ وإذ يرفع إبراهيم[1] القواعد
من البيت وإسماعيل[2] ربنا تقبل منا إنك أنت السميع
العليم ﴿١٢٧﴾ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة
مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب
الرحيم ﴿١٢٨﴾ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم
آياتك[3] ويعلمهم الكتاب[4] والحكمة ويزكيهم إنك أنت
العزيز الحكيم ﴿١٢٩﴾ ومن يرغب عن ملة إبراهيم[5]
إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه[6] في الدنيا وإنه
في الآخرة لمن الصالحين[7] ﴿١٣٠﴾ إذ قال له ربه أسلم
قال أسلمت لرب العالمين[8] ﴿١٣١﴾ ووصى بها إبراهيم[9]
بنيه ويعقوب يا بني[10] إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن
إلا وأنتم مسلمون ﴿١٣٢﴾ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب

﴿القواعد﴾: الأسس. ورفعها بالبناء عليها.

﴿أمة﴾ جماعة.

﴿مسلمة﴾: منقادة.

﴿مناسكنا﴾: شرائع عبادتنا لك.

﴿آياتك﴾: المراد بها هنا القرآن.

﴿الكتاب﴾: المراد به هنا الخط والكتابة.

﴿الحكمة﴾: معرفة أسرار الشريعة.

﴿يزكيهم﴾: يطهرهم.

﴿ومَنْ يرغب عن ملة إبراهيم﴾: ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام مشرب معنى النفي و(يرغب) أي يعرض عنها. والمعنى لا أحد يعرض عن ملة إبراهيم. ومثلها (ومن يغفر الذنوب إلا الله) الآية (١٣٥) من سورة آل عمران صفحتي ٨٤، ٨٥..

(سفه نفسه): استخفها وامتهنها.

﴿اصطفيناه﴾: اخترناه.

﴿أم كنتم شهداء.. إلخ﴾ (أم) كلمة يسميها علماء العربية منقطعة، تفيد معنى حرفين..

---

(١) إبراهيم.
(٢) وإسماعيل.
(٣) آياتك.
(٤) الكتاب.
(٥) إبراهيم.
(٦) اصطفيناه.
(٧) الصالحين.
(٨) العالمين..
(٩) إبراهيم.
(١٠) يابني.

حرف (بل) الذى يفيد انقطاع الكلام الآتى بعدها عما قيل من جهة الإعراب لا من جهة المعنى، وحرف نفى يفيد النفى أى الإنكار وإبطال الكلام السابق عليهما وهو هنا كما سيأتى بيانه فى الشرح أن اليهود قالوه للنبى ﷺ كذبا فالمعنى هنا إنكار ما قالوه وإثبات نقيضه.

﴿شهداء﴾ بمعنى حاضرين.

المعنى: واذكر حين بنى إبراهيم وإسماعيل البيت قائلين يا ربنا تقبل منا عملنا هذا إنك سميع لدعائنا عليم بنياتنا، ربنا وفقنا واجعلنا مستمرين على الانقياد لك، وأجعل من ذريتنا طائفة منقادة لك، وعلمنا طرق عبادتك حتى لا نخطىء الصواب، وتب علينا مما قد يكون حصل منا، إنك كثير قبول التوبة رحيم بعبادك، ربنا اسمع دعاءنا وابعث فى ذريتنا رسولا منهم يتلو عليهم ما تنزله عليه من آياتك. وقد استجاب الله تعالى وبعث محمدًا ﷺ يتلو عليهم القرآن ويعلمهم الكتابة لينقلهم من الأمية للعلم فكان أول ما نزل على هذا الرسول قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك... الذى علم بالقلم﴾ ويعلمهم أسرار شريعتك حتى يسارعوا إلى العمل.

وهذا يفيد أن العلم وحده لا يكفى فى النجاة، ويطهرهم من ذميم الأخلاق، إنك العزيز الغالب الذى لا يعجزه شىء، الحكيم الذى يدبر ما فيه المصلحة. وإذا كانت هذه ملة إبراهيم فلا يرغب عنها ويتركها إلا من احتقر نفسه وامتهنها. ولقد اخترنا إبراهيم فى الدنيا لرسالتنا، وهو فى الآخرة من الصالحين أصحاب الدرجات العلا.. اصطفيناه حين قلنا له أسلم، أى أذعن وأخلص دينك لله، فقال فورا: قد انقدت وأخلصت لله رب العالمين. ووصى بهذه الملة إبراهيم بنيه بالمحافظة عليها. وكذلك وصى بها يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم بنيه قائلا: يا بنى إن الله تعالى أختار لكم هذا الدين دين الإسلام فاثبتوا عليه فى كل لحظة حتى لا يدرككم الموت الذى قد يأتى فجأة إلا وأنتم مسلمون. ولما قالت اليهود للنبى ﷺ: ألست تعلم أن يعقوب يوم مات وصى بنيه باليهودية؟ رد عليهم بقوله «أم كنتم شهداء»إلخ، أى هل كنتم حاضرين وقت حضور الموت ليعقوب فسمعتم ما قال؟

(الجزء الأول) ٢٦

الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ
إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ[1] وَإِسْمَاعِيلَ[2] وَإِسْحَاقَ[3] إِلَٰهًا
وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ
لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ[4] تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ[5] حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾
قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ[6]
وَإِسْمَاعِيلَ[7] وَإِسْحَاقَ[8] وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ
وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ
فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ
اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ

﴿أمة﴾: جماعة.

﴿حنيفا﴾: مائلا من الباطل إلى الحق.

﴿الأسباط﴾: أولاد يعقوب والمراد ما أُنزل إلى الأنبياء منهم.

﴿مسلمون﴾ منقادون خاضعون.

﴿هودا﴾: أى يهودا.

﴿شقاق﴾: خلاف ومحاربة.

﴿صبغة الله﴾: أصلها الحال التى عليها الثوب المصبوغ.

والمراد بها هنا دين الله الذى فطر الناس عليه، فهو يخالط قلوب المؤمنين كما تخالط مادة الصباغة الثوب فلا تزول منه إلا بمشقة.

المعنى: أن الحق الذى وقع هو أن يعقوب حين حضره الموت قال لبنيه ليطمئن عليهم وليؤكد رسالته فى آخر لحظة من حياته: مَنْ الذى تعبدونه من بعد موتى؟ قالوا: نعبد الله آلهك الواحد الذى هو آله آبائك إبراهيم إلخ. وعدوا إسماعيل من آبائهم مع أنه عمهم لأن العم بمنزلة الأب، ونحن منقادون له لا نخضع لغيره وإذا رأينا ما حصل من أولاد يعقوب عليه السلام عندما خرجوا مع موسى من مصر وطلبهم إلها غير الله وعبادتهم العجل إلى آخر ما

---

(١) إبراهيم.
(٢) إسماعيل.
(٣) إسحاق.
(٤) نصارى.
(٥) إبراهيم.
(٦) إبراهيم.
(٧) إسماعيل.
(٨) وإسحاق...

هو مذكور فى الآيات (١٣٨) من سورة الأعراف صفحة ٢١٣ و١٤٨ من نفس السورة صفحة ٢١٥. يدرك أن يعقوب عليه السلام ساوره الخوف على أولاده من عقائد المصريين. فأراد أن يأخذ عليهم الميثاق بما فيه نجاتهم ولكن طبعهم غلب ونقضوا العهد كما هى عادتهم. تلك الجماعة من يعقوب وأبنائه وآبائه قد مضت. لها جزاء ما عملت لا تأخذ من جزاء عمل غيرها شيئا. ولكم أيها اليهود الموجودون فى عصر محمد ﷺ جزاء ما عملتم لا تأخذون من جزاء عمل غيركم شيئا. ولا تسألون يوم القيامة عما كانوا يعملون. كما لم يسألوا هم عما كنتم تعملون. فلا تظنوا أنهم سينفعونكم. وقالوا كونوا هودا أو نصارى «أو»» للتفصيل والأصل قالت اليهود لغيرها من الأمم كونوا يهودا تهتدوا إلى الصواب. وقالت النصارى لغيرها كونوا نصارى تهتدوا إلى الصواب. قل لهم جميعا أيها النبى لن نكون كما تطلبون بل نتبع ملة إبراهيم البعيد عن الباطل. ولم يكن مشركا مثل العرب الذين يزعمون أنهم حنفاء على ملة إبراهيم. وبعد أن أمر سبحانه نبيه بأن يعلن اتباعه لإبراهيم. أمر سبحانه المؤمنين بذلك أيضا فقال قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا من القرآن. وما أنزل إلى إبراهيم وأولاده وأحفاده وهى الصحف المذكورة فى آخر سورة الأعلى. وما أوتى موسى من التوراة. وعيسى من الإنجيل. ثم عمم ما يجب الإيمان به فقال: وما أوتى النبيون كلهم من ربهم من الآيات والوصايا. لا نفرق بين أحد من رسل الله كما تفرقون أنتم. ونحن لله خاضعون.

فإن آمن اليهود والنصارى بالله مثل إيمانكم أيها المسلمون على أنه واحد لا ولد له وليس حالا فى غيره. منزه عن الشبيه. فقد اهتدوا للصواب. وإن تولوا عن ذلك فاعلم أيها النبى أنهم فى مشاقة وعداوة لك فلا تأمنهم. ولكن لا تفزع من عداوتهم. فإنى أنا الله سأتولى كف شرهم عنك. وقل لهم لا تحاولوا المستحيل فقد صبغنا الله أى فطرنا على دينه الحق. ولا أحسن من فطرة الله التى فطر الناس عليها إذا لم تفسدها الشياطين.

﴿أتحاجوننا فى الله﴾: تجادلوننا فى تصرفه (السفهاء): السفه طيش وخفة فى العقل.

﴿ولاهم﴾: صرفهم.

مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ
وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ
أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ
بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾
* سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي
كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا
لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا
وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ

﴿عن قبلتهم﴾: بيت المقدس.

﴿وسطا﴾: خيارا عدولا لا تفريط عندكم ولا إفراط.

﴿ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾: أنظر شهادة الرسول فى الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧.

المعنى: ونحن لا نعبد إلا الله وحده. لما قال كل من اليهود والنصارى لن يدخل الجنة غيرهم لأن الله تعالى خصهم بالأنبياء والكتب ولم يعط العرب كتبا، ولم يكن فيهم نبى ولو كان محمد نبيا لكنا منا، رد الله تعالى قولهم فقال: قل أيها النبى لهؤلاء أتجادلوننا فى الله وتدعون أنه خصكم بكل الفضائل دون العرب وهو ربنا وربكم بل رب الناس كافة وله أن يختار من عباده مَنْ يشاء تبعا لحكمته لا لجنسيتهم، ولنا أعمالنا نجازى بها ولكم أعمالكم تجازون بها. وقد يكون فى أعمالنا ما نستحق عليه الإكرام، ونحن له تعالى مخلصون فى العمل دونكم. فنحن أولى بالاصطفاء. أم تزعمون أن إبراهيم وأولاده كانوا على اليهودية والنصرانية التى أنتم عليها. إن قالوا ذلك فقل لهم

---

(١) عابدون.
(٢) أعمالنا.
(٣) اعمالكم..
(٤) إبراهيم وإسماعيل.
(٥) نصاري.
(٦) شهادة.
(٧) بغافل.
(٩) ماولاهم.
(٩) صراط.
(١٠) جعلناكم.

أنتم عليها، إن قالوا ذلك فقل لهم أأنتم أعلم أم الله؟ الواقع أن الله هو الأعلم وقد برأ إبراهيم من اليهودية والنصرانية لأنهما لم يوجدا إلا من بعده أنظر الآية (٦٥) من سورة آل عمران صفحة ٧٣ وتبعته ذريته من الأنبياء. ولما كان أهل الكتاب يعلمون الحق قال مهددا لهم: ومن أظلم أى لا أحد أشد ظلما ممن أخفى عن الناس شهادة من الله بصدق رسوله ﷺ، وهى عنده فى كتابه الذى أنزله الله على نبيه (التوراة والإنجيل) قال تعالى: «الذين ءاتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم» أنظر الآية (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨ التالية. وقال تعالى: ﴿ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) أنظر الآية (٦) من سورة الصف صفحة ٧٣٩. ثم هددهم بقوله وما الله بغافل عما تعملون، أى سيجازيكم شر الجزاء. وكرر زجرهم عن الطمع فى الانتفاع بعمل آبائهم لشدة اغترارهم به فقال: تلك أمة قد خلت إلخ ما تقدم فى الآية (١٣٤) من هذه السورة. وكان اليهود يصلون إلى بيت المقدس، وقد صلى النبى ﷺ إليه زمنا ثم اشتاق إلى الكعبة كما سيأتى، فقبل أن يأذنه الله تعالى بالتوجه إلى الكعبة أخبره سبحانه بما سيقوله خصومه، وكان غيبا لا يعلمه غيره سبحانه، تطمينا له ﷺ وإعدادا للجواب قبل وقوع السؤال لئلا يفاجأ بما يغضبه، فقال: سيقول السفهاء من المنافقين واليهود ومشركى قريش عندما نأذنكم باستقبال الكعبة: أى شىء صرف محمدا وأصحابه عن بيت المقدس الذى كانوا يصلون إليه؟ قل لهم أيها النبى: المشرق والمغرب وكل الجهات لله، لا فضل لجهة بذاتها على أخرى، وأن لله أن يختص ما يشاء بما شاء وهو وحده الذى يهدى مَنْ يشاء من عباده إلى الصراط المستقيم، أى الدين الحق الذى يقضى بتسليم الأمر كله له تعالى بلا انحراف مع الشهوات الفاسدة. وكما هديناكم أيها المؤمنون إلى الحق جعلناكم خيارا عدولا لا ماديين كاليهود والمشركين، ولا مسرفين فى الروحانيات مهملين حقوق الجسم كرهبان النصارى، بل جمع لكم دينكم بين حق الجسد وحق الروح لتكونوا شهودا عدولا يوم القيامة على الأمم قبلكم بأن رسلهم قد بلغتهم لعلمكم هذا القرآن، ويكون رسولكم شاهدا عليكم بأنكم حافظتم على الوسط ولم تنحرفوا. وما جعلنا القبلة فيما مضى هى الجهة التى كنت عليها وهى بيت المقدس ثم أمرناك بالتحول عنها إلى الكعبة إلا لنعلم علم ظهور وتحقق بعد أن كان علم غيب ويتبين لكم من يتبع الرسول ويثبت على إيمانه..

ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا
عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ
فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ
وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ
وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم
مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾
ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ
وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾

﴿ينقلب على عقبيه﴾: يرجع إلى الكفر.

﴿لكبيرة﴾: شاقة فى فهم حكمتها

﴿يضيع إيمانكم﴾: أى ثواب إيمانكم.

﴿رءوف﴾: يرفع كل بلاء ومشقة. ﴿رحيم﴾: يضم إلى رفع البلاء الإحسان إلى عباده.

﴿تقلب وجهك فى السماء﴾: تطلعك إلى السماء راجيا من ر بك بلسان الحال جعل قبلتك الكعبة.

﴿شطر المسجد﴾: جهته ﴿بكل آية﴾: حجة.

المعنى: نميز من يثبت على اتباع الرسول ممن يرجع إلى الكفر ظنا منه لضعف إيمانه أن النبى ﷺ فى حيرة من أمر دينه. وقد ارتد فعلا بعض ضعفاء الإيمان وطهر الله المؤمنين منهم، وأن هذه التحويلة من قبلة إلى قبلة لشاقة فى فهم حكمتها على ضعيف الإ يمان، لكن أصحاب الإيمان الكامل والهداية يعلمون أن هذا منه تعالى لحكمة، وهؤلاء لا يضيع الله عليهم ثواب ثباتهم على الإيمان، بل يجازيهم أحسن الجزاء لأنه رءوف بعباده المخلصين، فينقذهم من البلاء، رحيم كثير الإحسان فيجزل لهم الثواب.

---

(١) إيمانكم.
(٢) ترضاها.
(٣) الكتاب.
(٤) بغافل.
(٥) الكتاب.
(٦) آية.
(٧) الظالمين.
(٨) آتيناهم.
(٩) الكتاب.

وكان سبحانه أمره ﷺ وهو بمكة أن يصلى إلى بيت المقدس فكان ﷺ يصلى إليه وهو قائم بجوار الكعبة يجعلها بينه وبين المقدس لخشيته من استدبارها فيشتد نفور قريش منه لشدة تعظيمهم لها لأنها قبلة أبيهم إبراهيم. ولما هاجر ﷺ إلى المدينة تعذر عليه الجمع بينهما، لأن الكعبة فى الجنوب وبيت المقدس فى الشمال، فصار فى صلاته يستدبر الكعبة، ومكث على ذلك بضعة عشرا شهرا، فانتهز المشركون ذلك فى التنفير منه لأنه ترك قبلة أبيه إبراهيم واستقبل قبلة اليهود، وقالوا لو كان على دين جديد لما استقبل قبلتنا. فتمنت نفسه الشريفة استقبال قبلة أبيه إبراهيم الذى جاء لإحياء ملته، فتوجه بقلبه الطاهر إلى ربه طالبا بلسان حاله متطلعا بوجهه إلى السماء راجيا أن يجيب الله عز وجل أمنيته ليسهل إيمان قومه، فوعده الله تعالى بقوله: ﴿فلنولينك قبلة ترضاها﴾. ثم أردف الوعد بالإجابة فقال تعالى: فول وجهك جهة المسجد الحرام الذى به الكعبة، وفى أى مكان وجدتم أيها المسلمون فاتجهوا جهته. ثم وبخ مثيرى الفتنة وهدد بقوله: وإن الذين أتوا الكتاب وهم علماء اليهود والنصارى يعلمون أن تحويل القبلة هو الحق الموجود فى كتبهم من أن النبى المبشر به يحيى ملة إبراهيم ويصلى إلى قبلته، وما الله بغافل عن تضليلهم وسيجازيهم عليه، ثم بين سبحانه حال هؤلاء المعاندين بعد معرفتهم الحق فقال: ولئن أتيت إلخ أى ولئن جئتهم بكل حجة دالة على صدقك ما تبعوا قبلتك ثم قطع أطماعهم بقول ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ ومع اتحادهم فى مخاصمتك فهم فيما بينهم مختلفون فلا يتبع بعضهم قبلة بعض. فاليهود لا يتركون بيت المقدس، والنصارى لا يتركون مطلع الشمس. ولئن اتبعت شهواتهم فرضا من بعد ما علمت الحق فأنت من الظالمين أنفسهم. والكلام تنبيه لقريب العهد بالإيمان الذى يخشى عليه من الخداع المزخرف. وكل علماء أهل الكتاب يعرفونه ﷺ من صفته فى كتبهم التى لا تنطبق على غيره كما يعرفون أبناءهم الذين لا يجهلون من أمرهم شيئا، وأن فريقا منهم وهم علماؤهم الذين فضلوا الدنيا على الآخرة يخفون الحق على أتباعهم مع علمهم بأنه الحق أما المنصف منهم كعبد الله بن سلام فقد أسرع إلى الإيمان به ﷺ.

الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ
وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا
يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾
وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾
وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ
عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي
وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا
فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾
فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

﴿الممترين﴾: الشاكين.

﴿أرسلنا فيكم﴾: أى إليكم.

﴿الكتاب والحكمة﴾: الكتابة وأسرار الشريعة. أنظر الآية (٤٨) من سورة آل عمران صفحة ٧٠.

المعنى: أن الحق هو ما يأتيك من ربك، فلا تلتفت أيها السامع لأوهامهم فتكون من الشاكين. ولكل أمة وفريق من الناس قبلة هو موليها وجهه فى عبادته، ولم يكن لكل الأمم قبلة واحدة كما تقدم فى الآية (١٤٥) من سورة البقرة صفحة ٢٨ فلا معنى لتشبثكم بقبلة معينة. وإذا كان الأمر كذلك فالخير فى اتباع ما أمر به الله وعدم العناد، فبادروا إلى العمل الصالح الذى أختاره الله لكم، ثم هدد الله سبحانه المعاندين بقوله: ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا﴾ يوم القيامة فيجازيكم على اعمالكم من طاعة أو معصية. فهوسبحانه قدير لا يعجزه جمعكم للحساب والجزاء. ومن حيث خرجت لسفر فول وجهك إلخ أى فالحكم فى القبلة واحد سفرا أو حضرا.

ثم زاد فى طمأنينته ﷺ وأصحابه فقال: ﴿وإنه للحق من ربك﴾ وسيكافئكم على اتباعه. ثم أعاد الأمر ثالثا موجها الخطاب له ﷺ ولأمته لسد باب الفتنة التى أثارها الخبثاء فى

---

(١) الخيرات.
(٢) أينما.
(٣) بغافل.
(٤) آياتنا.
(٥) الكتاب.

مسألة القبلة، فقد كانت شديدة لدقة فهمها على كثير من البسطاء، ولزخرفة ما عرضوه من الشبه،، فقال تعالى: ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم الخ﴾ ولهذا رتب على هذا الأمر الأخير ثلاث حكم.

الأولى: لئلا يكون للناس عليكم حجة، أى ليبطل ما يزعمونه حجة يجادلونكم بها، فاليهود قالوا يترك ديننا ويتبع قبلتنا، والمشركون قالوا: يدَّعى اتباع إبراهيم ويخالف قبلته، فباتجاهك إلى الكعبة تنقطع حجة الناس ما عدا الظالمين منهم بالعناد فإنه لا يمكن إسكاتهم، فهؤلاء لا قيمة لهم، فلا تخشوهم لأن الباطل زاهق، وأخشونى فإنى قادر على العذاب إذا توعدت.

وأشار للحكمة الثانية بقوله: ﴿ولأتم نعمتى عليكم﴾ لأنه ﷺ عربى من ولد إبراهيم عليه السلام، وكتابه عربى، وقومه الذين امتدت بهم دعوته عرب يحبون إبراهيم وإسماعيل، فتعظيم الكعبة التى بناها إبراهيم بالتوجه إليها نعمة على الجميع.

وأشار للحكمة الثالثة بقوله: ﴿لعلكم تهتدون﴾ أى ليهيئكم بذلك للثبات على الهداية إلى الحق. ثم خاطب العرب جميعا فقال: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم) أى يتم نعمته عليكم بتعظيم بيته الذى تحبونه وتطهيره من مظاهر الوثنية كما أتمها عليكم بإرسال رسول منكم يتلو عليكم آياتنا أى القرآن الذى فيه سعادتكم، وطهركم من الشرك ويعلمكم الكتاب والحكمة، أى الكتابة وأسرار الشريعة ويعلمكم ما لم تعلموه من استنباط الأحكام وطرق الانتفاع بخيرات الأرض، فاذكرونى باستحضار عظمتى ونعمتى عليكم، أذكركم أى أجازيكم بالعز فى الدنيا والنعيم فى الأخرى. وأشكروا لى نعمتى عليكم بالطاعة، ولا تجحدوها بعصيانى فيحل عليكم غضبى، وهذا إنذار قصد به تأكيد الأمر بالشكر.

﴿نبلونكم﴾: أى نختبرنكم والمراد نعاملكم معاملة المختبر ليتبين للناس القوى الإيمان والضعيف أنظر الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢ والآية (١٨٦) من سورة آل عمران صفحة ٩٤.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم
بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ
وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ
أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ
فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ
وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ
لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ

(ونقص من الأموال﴾: التى تركها المسلمون وراءهم بمكة والمراد بالأموال هنا الأنعام خاصة التى هى الإبل والبقر والغنم لأنها كانت معظم ما يتموله العرب. و﴿نقص﴾: معطوف على الخوف، وما بعده يشير به إلى بعض أسباب الجوع والخوف.

﴿والأنفس﴾: بالقتل فى الحروب أو المرض فى جو المدينة لما فيه من حمى لم يألفها أهل مكة.

﴿والثمرات﴾: المراد بها ثمرات النخيل والأعناب وغيرها.

﴿صلوات﴾: تعطف وإحسان. ﴿الصفا والمروة﴾: جبلان صغيران قريبان من الكعبة. ﴿شعائر الله﴾: الشعيرة تطلق فى الشرع على مكان العبادة وعلى العبادة نفسها.

﴿حج البيت﴾: أى قصده للحج وأعماله من إحرام وطواف حول الكعبة وسعى بين الصفا والمروة ووقوف بعرفة.

﴿اعتمر﴾ أى أتى بعمرة. وأعمالها هى أعمال الحج ما عدا الوقوف بعرفة، وليس لها وقت معين. ﴿جناح﴾: إثم. ﴿يطوف بهما﴾: يسعى بينهما. ﴿الذين يكتمون﴾: هم أحبار اليهود.

﴿ما أنزلنا﴾: فى التوراه. ﴿البينات﴾: الآيات الواضحات الدالة على صفته ﷺ.

﴿الهدى﴾: الإرشاد للحق.. ﴿الكتاب﴾: التوراة.

---

(١) والصلاة. (٢) الصابرين. (٣) أموات.
(٤) الأموال. (٥) والثمرات. (٦) الصابرين.
(٧) أصابتهم. (٨) راجعون. (٩) صلوات..
(١٠) البينات. (١١) بيناه. (١٢) الكتاب.

المعنى لما استولى الغيظ على اليهود والكفار لعجزهم عن الحجة، وصمموا على إيذائه ﷺ وأصحابه، نبههم سبحانه على ما يستعينون به على دفع كيدهم، وهو الصبر والصلاة كما تقدم فى الآية (٤٥). فإنهما حصنان لا يهزم متحصن بهما، بدليل قوله تعالى: ﴿إن الله مع الصابرين﴾ أى بالمساعدة ومن كان الله تعالى معه لا يهزم. ولما كانت الدعوة تعرض أهلها لأن يحاربهم عدوها ولا تصان غالبا إلا بدفعه بقتاله، وكان المنافقون يثبطون بعض المؤمنين عن القتال رغب فيه سبحانه بقوله: ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله هم أموات، بل هم أحياء ولكن لا تشعرون بحياتهم، لأنها حياة برزخية تجامع الموت ولا يعلم حقيقتها إلا الله عز وجل. ثم نبه سبحانه المؤمنين لبعض مصاعب ستلاقيهم فقال: ولنبلونكم أى نختبركم بشىء من الخوف من العدو لقلتكم فى وسط كفار كثيرين والجوع الناشىء عن إخراج كثير منكم من ديارهم وأموالهم التى تركوها وراءهم بمكة. والمراد بها الأنعام التى كانت تتألف منها معظم أموالهم والأنفس بالقتل فى الحرب والمرض. والثمرات من النخيل والعنب وغيرهما.. وقد حصل شىء من ذلك فى غزوة الأحزاب الآتية فى سورة الأحزاب وفى غزوة العسرة الآتية فى الآية (١١٧) من سورة التوبة صفحة ٢٦٢. ثم رغب سبحانه فى الصبر فقال: «وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة» من هذه المذكورات قالوا إنا لله يفعل بنا ما يشاء وإنا إليه راجعون بالموت ويوم القيامة فنرجو إحسانه. هؤلاء عليهم صلوات أى تعطفات وحنو من ربهم وإحسان، وهم المهتدون للصواب. إن الصفا والمروة من أمكنة عبادة شرعها الله وهى السعى الآتى، فمن حج أو اعتمر فلا إثم عليه فى أن يسعى بينهما. وإنما قال لا إثم مع أنه ركن لأن المسلمين كانوا يتحرجون منه لوجود صنمين عليهما وضعهما كفار مكة. فقال سبحانه لا حرج فى السعى ما دمتم عاجزين عن إزالة الأصنام، أى كما أنه لا حرج فى التوجه إلى الكعبة قبل الفتح والمسلمون بالمدينة مع إنها فى ذلك الوقت محاطة بالأصنام. ومن تطوع خيرا بأن يأتى بحجة وعمرة بعد الفرض فإن الله شاكر عمله أى يجازيه أحسن الجزاء. عليم بنيته وعمله فلا يضيع عليه شيئا من ثوابه. إن أحبار اليهود الذين أخفوا عن الناس ما أنزلنا فى التوراة من الآيات الدالة على صدقه ﷺ يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون الآتى ذكرهم فى الآية (١٦١) من سورة البقرة صفحة ٣١. أى يطلبون منه تعالى طردهم من رحمته.

ٱللَّٰعِنُونَ[1] ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ[2]
وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ[3] فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ
وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ[4] ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[5] وَٱلْأَرْضِ
وَٱخْتِلَٰفِ[6] ٱلَّيْلِ[7] وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا
يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ
ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ
ٱلرِّيَٰحِ[8] وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ[9]
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ
ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ

﴿أندادا﴾: جمع ند بالكسر وهو المماثل، أي مماثلين له سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا.

المعنى: جميع من ذكروا ملعونون إلا الذين تابوا منهم عن الكتمان وأصلحوا أعمالهم بالإخلاص والإتقان، وبينوا لأتباعهم رجوعهم إلى الحق ليتبعوهم فيه كما تبعوهم في الباطل. هؤلاء أتوب عليهم أي أقبل توبتهم لأني كثير قبول توبة عبدي إذا رجع إليّ وندمك على ما فرط منه، الرحيم الذي لا يعجل بالعقوبة ليفسح المجال للتوبة. ثم بين سبحانه من هم الملعونون ومن هم اللاعنون، وأن الملعونين من غير التائبين ضربت عليهم اللعنة الأبدية فقال تعالى: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار عليهم لعنة الله، أي يلعنهم الله والملائكة والناس أجمعون، خالدين في اللعنة بالخلود في أثرها وهو جهنم، لا يخفف عنهم العذاب ولا يمهلون عنه لحظة. وإلهكم المعبود بحق إله واحد، فمن عبد غيره خلد في النار. الرحمن الرحيم، فيجب المبادرة إلى أسباب رحمته. ثم بين سبحانه دليل وحدانيته بقوله: إن

---

(١) اللاعنون.
(٢) والملائكة..
(٣) خالدين.
(٤) واحد..
(٥) السموات..
(٦) واختلاف.
(٧) الليل.
(٨) الرياح.
(٩) لآيات.

والأرض وما فيهما من عجائب، واختلاف الليل والنهار بالطول والقصر والظلمة والنور بنظام لا يتخلف، والفلك وهى العظيم من السفن، ويطلق على الواحد والجمع، التى تجرى في البحر بما ينفع الناس من طعام ومتاع، ومن وجوه العبرة فيها أن يجعل الله سبحانه هذا الماء السائل يحمل هذه الأجسام الضخمة، وفيما أنزل الله من السحاب من ماء. أنظر الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥، فأحيا به الأرض باظهار ما أودع فيها من نبات وأشجار بعد موتها أى خلوها من ذلك كما فى الآية (٥) من سورة الحج صفحتى ٤٣٣، ٤٢٤ والآية (٣٩) من سورة فصلت صفحة ٦٣٥، وبث فيها أى فرق فى جهاتها من كل دابة، وهى كل ما دب على وجه الأرض، وتصريف الرياح أى تقليبها من جهة إلى أخرى وتحويلها من شدة إلى لين ومن برودة إلى حر وبالعكس، والسحاب المسخر المذلل بين السماء والأرض فلا يسقط منه شيء إلا فى المكان والزمان المقدر له كما فى الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥؛ فى كل ما ذكر آيات وبراهين على وجوده تعالى وحكمته لقوم يعقلون ويتدبرون فى أن هذا النظام البديع لا يمكن أن يكون بدون خالق مدبر حكيم، ومع هذه البراهين القاطعة تجد من الناس من يتخذ لنفسه من المخلوقات آلهة ويجعلها مماثلة له تعالى فيخضع لها كما يخضع له ويحبها كحبه مع أن الله وحده هو خالقهم ورازقهم، وهذه الآلهة لا تملك حتى لنفسها نفعا ولا تدفع ضرا. والذين آمنوا أشد حبا لله من حب الكافر لمعبوده الباطل، لأن المؤمن لا يلجأ إلا لله فى الرخاء والشدة وأما الكافر فإنه فى الشدة ينسى آلهته ويلجأ لله كما فى الآيات (٥٣) من سورة النحل صفحة ٣٥٢، (٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣، (٨) من سورة الزمر صفحة ٦٠٧، فلو تنبه المسكين لهذا العلم أنه جانب الصواب حين قدس من لا يستحق تقديسا.

﴿الذين اتُّبِعوا﴾: هم أئمة الكفر الذين قادوا الضعفاء إلى اتباعهم..

﴿الذين اتَّبعوا﴾: هم الأتباع المقلدون.

﴿تقطعت بهم الأسباب﴾: تفككت الروابط التى كانت بينهم فى الدنيا..

أنظر الآية (٩٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨.

وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ
اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ
الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ
مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ[١] حَسَرَاتٍ[٢]
عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ[٣] مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا
مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا[٤] طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ[٥] الشَّيْطَانِ[٦]
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ
وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ
كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ
كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً

﴿كرة﴾: رجعة للدنيا.

﴿عدو مبين﴾: أى واضح أنظر معانى كلمة مبين فى الآية (٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٦.

﴿يأمركم﴾: أى يوسوس ويزين.

﴿بالسوء﴾: ما يسوء فى الآخرة وهو المعصية.

﴿الفحشاء﴾: أقبح أنواع المعاصى كالقتل والزنا.

﴿يعتق﴾: يصيح. ﴿ما لايسمع﴾: هى البهائم.

﴿دعاء﴾: يريد الصياح على القريب منها لتأتى مثلا. ﴿نداء﴾: هو الصياح على البعيد منها.

المعنى: أراد سبحانه أن يبين سوء عاقبة المتخذين أندادا فقال: ولو يرى الذين ظلموا إلى آخره، أى لو يرى الظالمون أنفسهم بالكفر حين يشاهدون العذاب المعد لهم فى الآخرة أن القدرة كلها لله وحده وأن عذابه شديد لرأوا ما لا يوصف من شدة هوله. وفى هذا الحين يتنصل أئمة الكفر من أتباعهم عندما يعلمون أن عليهم فوق جزاء كفرهم جزاء كفر أتباعهم

---

(١) أعمالهم.
(٢) حسرات.
(٣) بخارجين.
(٤) حلالا..
(٥) خطوات.
(٦) الشيطان.

كما فى الآيتين (٦٧)، (٦٨) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١. والآيات (٣١)، (٣٢)، (٣٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٧: ورأى الفريقان التابع والمتبوع العذاب، وتفككت روابطهم حتى قال الأتباع لو منحنا الله رجعة للدنيا لتبرأنا من الرؤساء كما تبرءوا منا فى هذا اليوم العصيب.. كهذا المنظر المتخيل الفظيع يريهم الله أعمالهم مثار حسرات لهم، وفى النهاية يخلدون فى النار. ولما كان من ضمن جرائم هؤلاء الكافرين تحريم ما أحل الله، فالمشركون حرموا ما فى الآية (١٠٣) من سورة المائدة صفحة ١٥٧، والآيتين (١٣٨)، (١٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٨٦، واليهود حرموا ما أشارت إليه الآية (٩٣) من سورة آل عمران صفحة ٧٨، رد سبحانه على زعم الجميع بقوله كلوا منْ طيبات إلخ. والطيبات ما تقبله النفس الطاهرة، ولا تتبعوا وساوس الشيطان لأنه عدو لكم واضح العداوة، والعدو لا يأمر بخير، وإنما يأمر بالمعاصى وبأقبحها عند الله، ومنها أن تقولوا حرم الله كذا وأحل كذا بدون علم، وإذا قيل لهم اتركوا الشيطان واتبعوا ما أنزل الله من توحيد الله وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث قالوا: كلا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا. فسفه سبحانه عقولهم بقوله أو لو كان إلخ أى أيتبعون آباءهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا من الدين عن دليل ولا يهتدون إلى الصواب. فمثل هؤلاء الكفار ومن يدعوهم إلى الهدى والتوحيد كمثل البهائم وراعيها الذى يصيح بها لتقبل أو تدبر فلا تسمع من الراعى إلا صوتا ساذجا ولا تعقل للكلام المركب معنى، لاشتغال قلوبهم بتقليد الآباء فلا تلتفت عقولهم للنظر فى القول الصحيح أنظر الآية (٢٢) من سورة الأنفال صفحتى ٢٢٩، ٢٣٠.

﴿صم﴾: لا يسمعون.

﴿بكم﴾: لا ينطقون.

﴿أُهلَّ به لغير الله﴾: يقال أهَلَّ الرجل أى رفع صوته، ومعنى التركيب وما رفع الصوت لاسم غير اسم الله مقترنًا ذلك الرفع بذبحه، والمراد ما ذكر عند ذبحه اسم غير الله.

﴿اضطر﴾: ألجأته ضرورة إلى ارتكاب المحظور.

(سورة البقرة) ٣٣

صم بكم عمى فهم لا يعقلون (١٧١) يا أيها الذين ءامنوا
كلوا من طيبت[1] ما رزقنكم[2] واشكروا لله إن كنتم إياه
تعبدون (١٧٢) إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير
وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد
فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم (١٧٣) إن الذين
يكتمون ما أنزل الله من الكتب[3] ويشترون به ثمنا
قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم
الله يوم القيمة[4] ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (١٧٤)
أولئك الذين اشتروا الضللة[5] بالهدى والعذاب بالمغفرة
فما أصبرهم على النار (١٧٥) ذلك بأن الله نزل الكتب[6]
بالحق وإن الذين اختلفوا فى الكتب[7] لفى شقاق
بعيد (١٧٦) * ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق

﴿باغ﴾: أى طالب له، راغب فيه، محب له لذاته كبعض الناس الفاسدى الطبع الذين يحبون أكل الميتة، وقال كثير من المفسرين..

﴿غير باغ﴾: أى على مضطر آخر بأن يأخذ منه ما كان لو ترك له لأنقذه هو أيضا من الهلاك.

﴿عاد﴾: متجاوز حد الضرورة إلى حد الشبع..

﴿إن الله غفور﴾: يغفر لعباده الخطأ اليسير فى تحديد المقدار الذى يدفع الضرر.

﴿رحيم﴾: حيث حرم عليهم ما يضرهم.

﴿الذين يكتمون﴾: المراد بهم هنا أحبار اليهود.

﴿الكتاب﴾: هنا التوراة.

﴿يشترون﴾: يأخذون.

﴿يزكيهم﴾: يطهرهم من الخبث.

﴿فما أصبرهم على النار﴾: (ما) هذه معناها شىء عجيب. والمعنى شىء عجيب جعلهم يصبرون إلخ. ويقول علماء العربية إن هذا التركيب من صيغ التعجب، ومثله صيغة (أسمع بهم

---

(١) طيبات.
(٢) رزقناكم.
(٣) الكتاب.
(٤) القيامة.
(٥) الضلالة.
(٦، ٧) الكتاب

﴿فما أصبرهم على النار﴾: (ما) هذه معناها شىء عجيب. والمعنى شىء عجيب جعلهم يصبرون الخ. ويقول علماء العربية إن هذا التركيب من صيغ التعجب، ومثله صيغة (أسمع بهم) الآتية فى الآية (٣٨) من سورة مريم صفحتى ٣٩٩، ٤٠٠.

ولما كان التعجب هو انفعال النفس عند شعورهم بشىء يخفى عليها سببه، ولذا يقولون: إذا ظهر السبب بطل العجب، ولما كان التعجب لا يتأتى منه تعالى لأنه سبحانه لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، لدفع هذا قال العلماء: إن المراد بهذا التركيب إذا صدر منه سبحانه وتعالى هو تعجيب الناس من شأن هؤلاء. فهو تعجيب للمؤمنين من صبر هؤلاء الكفار على ارتكاب المعاصى الموجبة لدخول النار من غير مبالاة. وليس المراد أن لهم على النار صبراً، بدليل أنهم يستغيثون منها[١]، وبدليل صراخهم من عذابها[٢]، وأمثال ذلك كثير[٣]. ولهذا قال الحسن وقتادة: والله مالهم على النار من صبر، ولكن المعنى: ما أجراهم على العمل الذى يقربهم من النار. وقال ابن كثير: ما أدومهم على عمل أهل المعاصى التى تفضى بهم إلى النار. ومن هذا القبيل فى صدوره عنه سبحانه وتعالى ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾[٤] وهو تعجيب للخلق من شدة كفر الإنسان وفى هذا الموضوع قال القرافى فى كتابه الفروق[٥]: إن علماء العربية نصوا على أن (إنْ) بكسر فسكون لا تدخل إلا على الفعل المشكوك فى وقوعه. فلا تقول إن غربت الشمس فأتِنى، بل تقول إذا غربت.. الخ لأن (إذا) هى التى تدخل على الفعل المحقق الوقوع، أو المظنون على الأقل. ومقتضى قولهم هذا أنّ (إنْ) لا ترد فى كتاب الله تعالى صادرة منه سبحانه. لأنه سبحانه بكل شىء عليم. فلا يعتريه شك ولاظن. لكنها وردت فى كثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا الخ﴾[٦].

(١) كما في الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٥.
(٢) كما في الايتين (٣٦)، (٣٧) من سورة فاطر صفحتي ٥٧٦، ٥٧٧.
(٣) أنظر الآية (٤٢) من سورة النساء صفحة ١٠٧ والآيتين (١٠٦)، (١٠٧) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥، والآية (٤٠) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨..
(٤) أنظر الآية (١٧) من سورة عبس صفحة ٧٩٢.
(٥) صفحة ٩٢ الجزء الأول.
(٦) الآية (٢٣) من سورة البقرة صفحة ٦.

بلغتهم وعلى أسلوب كلامهم، فكل ما كان فى أساليبهم حسنا جاء فى القرآن. وما كان قبيحا فى أساليبهم لم يأت فى القرآن، تحقيقا لكونه عربيا على أتم وجه، فالضابط أن كل فعل من شأنه أن يكون فى العادة مشكوكا فيه بين الناس يحسن تعليقه بـ (إن) من جهته تعالى ومن جهة غيره، سواء أكان معلوما للمتكلم أو السامع أم لا. ولذلك يحسن لمن يسمع حركة فى بيت أهله مسافرون، ويتيقن أنها من لص أن يقول: إن كانت هذه حركة لص يجب أن نقبض عليه.. لأن وجود رجل غريب فى بيت غيره من شأنه أن يكون قليلا مشكوكا فيه. وجاء على هذه القاعدة فى القرآن قوله تعالى: ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ الآية (٣١) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠. فهو جار على أسلوب كلام العرب. وإلا فالله سبحانه لا يشغله شىء عن شىء حتى يحتاج للتفرغ لبعض خلقه.

﴿الكتاب﴾: المراد جنسه، فيشمل التوراة والإنجيل والقرآن. (شقاق بعيد): خلاف وتنافر بعيد المدى لا يمكن تلافيه.

﴿البر﴾: الخير الواسع.

المعنى: فهم كالصم والبكم الذين لا يعقلون شيئا، لأنهم أتلفوا عقولهم بإهمال النظر فى الأدلة والركون إلى التقليد. ثم أعاد سبحانه الأمر بأكل الطيبات ليرتب عليه الأمر بالشكر وما بعده، فقال: واشكروا الله بصرف نعمه فيما يرضيه إن كنتم حقا تخصونه بالعبادة، واعلموا أنه لم يحرم عليكم إلا الميتة والدم المسفوح، وهو ما يخرج من الحيوان عند ذبحه وقبل خروج الروح، وكذا حرم أجزاء الخنزير، وخص اللحم بالذكر لأنه المقصود بالأكل غالبًا وغيره تبعاً له، وحرم ما ذكر غير اسم الله عليه أو يقصد بذبحه التقرب لغيره سبحانه، فَمَنْ ألجأته الضرورة لأكل شىء من تلك المحرمات كأن كان مسافرًا ولم يجد ما يقتات به وخاف على نفسه الهلاك فأكل منها وكان غير طالب لما ينقذ غيره كما تقدم ولا متجاوز حد دفع الضرورة إلى حد الشبع، فهذا المضطر بهذه الشروط لا ذنب عليه فى الأكل منها، إن الله غفور لمن سبق له شىء يخالف قبل التحريم، رحيم بهم فلا يشق عليهم، ورؤساء اليهود والنصارى الذين

يكتمون الحق الذى أنزله الله تعالى فى التوراة والإنجيل. أنظر الآية (١٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨. ويأخذون بدل هذا الكتمان من أتباعهم وجهلتهم ثمنا قليلا هو الأموال التى يأخذونها بحكم رئاستهم، تصير تلك الأموال نارًا بعد الموت، ولا يكلمهم الله يوم القيامة كلاما يسرهم، ولا يطهرهم من الذنوب والخبائث، ولهم فى الآخرة عذاب شديد الألم، هؤلاء هم الذين فضلوا الضلالة أى الكفر والعصيان وتركوا الهدى وهو الإيمان والطاعة، واختاروا العذاب بدل المغفرة، فاعجبوا أيها الناس من مداومة هؤلاء الذين يكتمون الحق على إجرامهم الذى سيوصلهم إلى النار حتما.. هذا العذاب حل بهم بسبب أن الله تعالى نزل التوراة مقرونة بالحق فبدلوها وحاربوه، وأن هؤلاء اليهود والنصارى هم الذين اختلفوا فى كتب الله، فاليهود رفضوا ما عدا التوراة، والنصارى رفضوا القرآن. أما المؤمنون الصادقون كالمسلمين فإنهم يؤمنون بكتب الله الصادقة كلها كما تقدم فى الآية (٤) من سورة البقرة صفحة ٣ وما سيأتى فى الآية ٢٨٥ من نفس السورة صفحتى ٦١، ٦٢. هؤلاء المختلفون بالباطل فى خلاف وتنافر بعيد المدى لا يمكن إصلاحهم لتعصب كل لما عنده ولما استغل الكفار جميعا تحويل القبلة فى إحداث جدل باطل فتن به ضعيف الإيمان، كرر سبحانه الكلام فيه ليزيل كل أثر لفتنتهم مبينا لهم أنه لا يصح الجدل فى شىء ليس فى ذاته برا. فقال: ليس البر إلخ أى ليس البر مجرد أن تولوا وجوهكم جهة المشرق والمغرب.

﴿مَنْ آمن﴾: المراد عَمَلُ مَنْ آمن. حتى يصح الإخبار به عن البر. يقول العربى: يعجبنى فلان يريد يعجبنى عمله.

﴿الكتاب﴾: المراد جنس الكتاب، فيشمل جميع الكتب المنزلة[1].

﴿آتى المال على حبه﴾: ﴿على﴾ حرف يفيد هنا معنى (مع) كما فى قوله تعالى: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ أى مع ظلمهم[2] أى أنفق المال مع حبه له.

قال ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف المعنى مع حبه للمال والرغبة

(١) انظر الآية (٢٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٦١، ٦٢..
(٢) انظر الآية (٦) من سورة الرعد صفحتى ٣٢١، ٣٢٢.

وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ
ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ
وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ
وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ
فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ
فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ
بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ
بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ
حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ

فيه، ويؤيدهم قوله تعالى: «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»[٣] فالبر ذكر فى الآيتين. وحب المال المنفق ذكر فيهما، وكانت الثانية صريحة فى حب المال، فتحمل عليها الأولى، وهذا لا يمنع أنهم أنفقوا هذا المال الذى يحبونه لوجه الله تعالى وطلبًا لرضاه، كما فى قوله تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما﴾ إلى قوله ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾[٤]. فجمع فى هذه الآية بين حب المال وطلب رضاء الله.

ويؤيدهم أيضا ما جاء فى الصحيحين مرفوعا قال ﷺ: (أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى، وتخشى الفقر). أى أن أفضل الصدقة ما يبذله المؤمن وهو يحرص عليها ويحبها لأنها ذات قيمة عنده، ولذا ذم سبحانه من يتصدق بما يكره فقال

---

(١) والملائكة.
(٢) الكتاب.
(٣) والنبيين.
(٤) واليتامى.
(٥) والمساكين.
(٦) الصلاة.
(٧) الزكاة.
(٨) عاهدوا.
(٩) والصابرين..
(١٠) بإحسان.
(١١) حياة.
(١٢) الألباب.

---

(٣) انظر الآية (٩٢) من سورة آل عمران صفحة ٧٨.
(٤) انظر الآيتين (٨)، (٩) من سورة الإنسان صفحتى ٧٨١، ٧٨٢.

سبحانه: ﴿ويجعلون لله ما يكرهون﴾[٥]. قال المرحوم الشيخ محمد عبده فى تفسيره: وهذا الإيتاء غير إيتاء الزكاة الآتى. وهو ركن من أركان البر الواجب كالزكاة، وهو مطلوب لسد حاجة المحتاج.

ولا يشترط فيه نصاب معين بل هو على حسب الاستطاعة، فإذا كان الباذل لا يملك إلا رغيفا واحدا لم يكن محتاجا إليه لنفسه، ولا لمن تجب عليه نفقته، ورأى مضطرًا لهذا الرغيف وجب عليه بذله له. ثم قال: وليس المضطر وحده هو الذى له حق فى ذلك بل أمر الله تعالى المؤمن أن يعطى من غير الزكاة ذوى القربى، ولو كان غنيا، لأنها من صلة الرحم، وهم أحق الناس بالبر والصلة.

فمن قطع رحمه خصوصا المحتاجين، ورضى بأن ينعم وذوى قرباه بائسون فهو برئ من الدين، وبعيد من البر[٦] وكل هذا يفيد أن فى المال حقا غير الزكاة المفروضة، ويؤيد هذا ما أخرجه الدارقطنى وابن ماجة فى سننه والترمذى فى جامعه عن فاطمة بنت قيس أن النبى ﷺ قال: إن فى المال حقا سوى الزكاة، ثم تلا هذه الآية (ليس البر.. إلخ) وما يتفق مع هذا الحديث مهما كانت درجته قول القرطبى: اتفق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فإنه يجبصرف الزكاة إليها وقال مالك يجب على الناس فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم (ذوى القربى): قال المرحوم الشيخ عباس الجمل[٧]: ذوى القربى هنا هم كل قريب من الأصول والفروع وغيرهم، ولا يشترط أن يكونوا محتاجين، لأن فيها صلة رحم وهى تطلب للمحتاج كما تطلب للغنى منهم، لأن إيتاء المال هنا ليس هو الزكاة المفروضة، لأن نفقتهم واجبة على قريبهم الغنى، ولا تصح زكاته لمن تجب عليه نفقته، وليس هو صدقة التطوع لأن الأقربين الأغنياء من الأصول والفروع ليسوا مصرفًا لصدقة التطوع، ولأن القرآن عدد مصارف الزكاة المفروضة فى قوله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين

---

(٥) أنظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

(٦) أنظر شيئا من هذا فى شرح الآية (٨) من سورة النساء صفحتى ٩٨، ٩٩. وشرح الآية (١٤١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٦، والآيتين (٢٤)، (٢٥) من سورة المعارج صفحة ٧٦٦..

(٧) فى رسالته التى وضعها فى شرح هذه الآية (آية البر).

عليهـا .. الآية﴾[٨]. ولم يذكر فيها ذوى القربى أما الأغنياء من ذوى القربى فإنما يؤتون المال لصلة الرحم، لا صدقة، لأنها لا تحل لغنى، فالفرق بين الصدقة، وصلة الرحم فى إعطاء ذوى القـربى هى النيـة فـعلى من يؤتى المال لذى القـربى أن ينوى بذلك صلة الرحم، لا التصـدق عليهم..

﴿اليتامى﴾: اليتيم هنا هو من مات أبوه وتركه صغيرا محتاجا للغذاء والكساء.

﴿المساكين﴾: المراد بالمسكين هنا المحتاج الذى لا يسأل الناس شيئا، فهو مستكين منطو على نفسـه. ﴿ابن السـبيل﴾: هو المسافـر المحتاج المنقطع عن أهله ولو كان غنيا فى بلده. ﴿السـائلين﴾: هم الفقـراء الذى يسـألون الناس[٩]. ﴿فى الرقـاب﴾: أى فى فك رقاب العبيد بشـرائهم وعتقهم. ﴿والصـابرين﴾: معطوف على (مَنْ آمن) الذى هو خبـر المبتدأ فكان حقه الرفع كما فى (الموفون بعهدهم) ولكن علماء العربية قالوا إنه يجوز للمتكلم أن يغير إعراب الكلمة ليلفت الأنظار إلى معناها[١٠]. ويكون الأصل هنا. وأخص بالذكر من بين هذه الطوائف الصـابرين، لأن أجرهم يوفى بغيـر حسـاب، لما ثبت أن الصبـر نصف الإيمان، ومن هذا النوع الالتفات فى قوله تعالى: ﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا.. الآية﴾[١١].

﴿البأساء﴾: هى كل شدة تحصل للإنسان بسبب مصيبة تلحقه فى غير نفسه مما يعز عليه كفقد ولد أو مال مثلا. ﴿الضراء﴾: هى الضرر الذى يصيب الإنسان فى نفسه كالمرض.

﴿البأس﴾: المراد به هنا شدة القتال فى سبيل الله.

﴿كتب عليكم﴾: أى فرض، والخطاب لجميع المؤمنين على أن يتولى القصـاص ولى الأمر منهم، وذلك إذا طلب ولى الدم القـصاص فـهذا يدل على أن لولى الدم حق العـفو، فـالوجوب بالنسبة للحكام فقط، فلا يجوز لهم العفو إذا طلب صاحب الحق القصاص.

---

(٨) الآية (٦٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥١.

(٩) السائل والمحروم في الآية (٢٥) من سورة المعارج صفحة ٧٦٦..

(١٠) انظر شرح الآية (١٦٢) من سورة النساء صفحتى ١٣٠، ١٣١.

(١١) الآية (٩٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩.

﴿القصاص﴾: قال صاحب الأساس تقول العرب قصصت أثر فلان يريدون تتبعته، ومنه فى القرآن الكريم (وقالت لأخته قصيه)(١٢).

وقال الراغب: القصاص تتبع الدم بقتل القاتل، لهذا قال بعضهم إن القصاص يلزمه معنى (المساواة) قال المرحوم الشيخ محمد عبده: القصاص معناه هنا أن يقتل القاتل لأنه فى نظر الشريعة مساو للمقتول.

﴿فى القتلى﴾: (فى) بمعنى باء السببية، كما فى قوله ﷺ:: دخلت امرأة النار فى هرة. أى دخلت النار بسبب حبسها هرة حتى ماتت جوعا. والقتلى جمع قتيل كجرحى جمع جريح.. (الحر بالحر.. إلخ): أى الحر يقتل بالحر، والعبد يقتل بالعبد إلخ وهذا بيان لحكم النوع إذا قتل نوع، ولم تتعرض الآية لحكم أحد النوعين إذا قتل الآخر، كما إذا قتل رجل امرأة أو بالعكس، فالآية مجملة، وبين هذا الأجمال أمور: الأول قوله تعالى فى شأن بنى إسرائيل ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين.. إلخ﴾(١٣). قال أبو السعود لأن شريعة من قبلنا إذا قصها الله سبحانه علينا من غير قيام دليل على نسخها فهى شريعة لنا.. والثانى أن النبى ﷺ بينها بسنته، فقتل الرجل اليهودى الذى قتل امرأة.. والثالث أن القصاص بنى على المساواة فى العصمة. والعصمة تكون بالمساواة فى الدين، أو بالوجود فى قطر واحد تحت حكومة واحدة، فالمعاهدون من غير المسلمين الذين يشاركوننا فى الوطن لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

﴿فمن عفى له من أخيه﴾ أى فالقاتل الذى صدر له العفو من جهة أخيه أى ﴿ولى الدم﴾ شىء من العفو ولو قليلا، فإنه بمنزلة العفو التام فى إسقاط القصاص فإن عفا بعض أولياء الدم ولو كان واحداً من مائة سقط القصاص، والتعبير بصفة الأخوة الثابتة بينهما فيه تحريك عوامل التراحم والعطف، وإشعار بأن الله سبحانه يحب العفو، ﴿فاتباع بمعروف﴾: أى فالأمر المطلوب اتباع إلخ والمراد فليكن من العافى اتباع المعروف فى استيفاء الدية من القاتل

(١٢) الآية (١١) من سورة القصص صفحة ٥٠٧..
(١٣) الآية (٤٥) من سورة المائدة صفحتى ١٤٥، ١٤٦.

من غير تعسف ولا إرهاق.. ﴿وأداء إليه بإحسان﴾: أى المطلوب من القاتل أداء الدية للعافى بإحسان بأن لا يماطل ولا ينتقص منها شيئا..

المعنى: بل البر الصحيح هو عمل من آمن بالله، أى بوجوده ووحدانيته، واستحقاقه وحده جميع صفات الكمال، وباليوم الآخر بأنه حاصل لاشك فيه وبوجود الملائكة، وأنهم عباد مكرمون، وبجميع الكتب السماوية، وبالنبيين الذين ذكرهم الله سبحانه تفصيلا، والإيمان بأن لله رسلا غيرهم وإن كنا لا نعلمهم(١٤)، وأعطى المال مع حبه له ذوى القربى واليتامى والمساكين إلى آخر ما ذكر، وأدى الصلاة على وجهها، وآتى الزكاة المفروضة، والموفون بعهدهم مع الله ومع الناس، ومدح سبحانه من أصحاب صفات البر الصابرين فى تلك الشدائد المذكورة وخصوصا فى ميدان الجهاد(١٥). أولئك الموصوفون بهذه الصفات هم الذين صدقوا فى إيمانهم وفيما عاهدوا الله عليه صدقا قويا حتى كأنه لا صادق غيرهم. والذين اتقوا الله تقوى تامة حتى كأنه لا أتقياء غيرهم(١٦). فرض عليكم أيها المؤمنون أن يقتص حكامكم من القاتل بقتله، ولما كانت عوائد الجاهلية أن للأقوياء على الضعفاء امتيازات غير عادلة من ذلك أنه إذا قتل عبدًا حرًا تركوا العبد وقتلوا سيده، وإذا قتلت امرأة رجلا تركوها وقتلوا من أسرتها رجلا، وإذا قتل رجل فقير رجلاً من الأغنياء يقتلون بدله رجالا من الضعفاء، لما كان كل هذا أراد سبحانه أن يبطله بهذه الآية، فالمعنى: إذا قتل حرٌ حراً يقتل هو به لا غيره من كبار أسرة القاتل، ولا يقتل به أكثر من واحد، وإذا قتل عبد من عبيد الضعفاء عبدًا مملوكا للأقوياء يقتل هو به لا سيده، ولا أحد الأحرار من أسياده، وإذا قتلت امرأة امرأة أخرى تقتل هى، لا رجلا من أفراد قبيلتها بدلها، فالقصاص على نفسه، لا على أحد من قبيلته كما كان فى الجاهلية. ومما يدل على أن المعنى الحرفى لما ذكر غير مراد أن قتل العبد بالعبد والأنثى بالأنثى يفيد من باب أولى قتل العبد بالحر وقتل الأنثى بالذكر.

قال البيضاوى: إن الآية لا تدل على أنه لا يقتل الحر بالعبد ولا الذكر بالأنثى لأن ما ذكر

(١٤) أنظر الآيتين (١٦٣)، (١٦٤) من سورة النساء صفحة ١٣١، والآيات (٨٣) حتى (٩٠) من سورة الأنعام صفحات ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧..

(١٥) انظر الأيتين (٦٥)، (٦٦) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧.

(١٦) أخذ هذا الحصر فى الجملتين من تعريف طرفيهما وزيادة ضمير الفصل (هم) فى الثانية.

فيها كان لمجرد محاربة عادة جاهلية، فليس مقصودا ظاهره، وذلك لأن مفهوم المخالفة إنما يعتبر حيث لم يظهر للتخصيص بالذكر غرض سوى اختصاص الحكم به، وهنا ظهر أن له غرضًا غير التخصيص وهو ما ذكر من إبطال تلك العادة[١٧]. فالمراد من كل ما تقدم أن حكم الشريعة أنه لا يقتل غير القاتل مهما كان من الفوارق بين القاتل والمقتول.

ولما كانت الديانة اليهودية لا تجيز العفو عن الجانى، والنصرانية تطلب العفو وتشدد فى طلبه، جاء الإسلام بالعدل الوسط فجوز العفو واحتساب الأجر عند الله وأخذ الدية بدل القصاص فقال سبحانه فى ذلك (فمن عفى له من أخيه.. إلخ). أى فالجانى الذى صدر له شىء من العفو عن جنايته من جهة أخيه ولى الدم حتى لو كان هذا العفو قليلا كما تقدم فى شرح المفردات بأن كل من بعض الورثة دون بعض فالمطلوب شرعا من العافى أن يتبع فى مطالبته الدية الطريق المعروف حسنه وهو عدم إرهاقه بدفعها مرة واحدة إن كان ذلك يعجزه، ولا يأخذ أكثر مما ينبغى، والمطلوب من الجانى المعفو عنه أن يؤدى الدية إلى أولياء المقتول على الوجه الحسن، فلا يماطل ولا ينقص منها شيئا، وأسلوب الآية يفيد بأن الله سبحانه يحب من عباده العفو ولذلك فرض اتباع العفو وإن لم يكن من جميع أولياء الدم، لأن فى العفو إيقاظ الضمائر لتغليب جانب الأخوة الإنسانية والدينية فتقل الشرور وتنتشر المحبة[١٨] وذلك الحكم من عدم وجوب القصاص، والعفو مع أخذ الدية تسهيل ورحمة منه تعالى بكم حيث لم يحتم عليكم ما حتمه على من سبقكم، فمن اعتدى من أهل القتيل بأن قتل القاتل بعد أخذ الدية فله عذاب أليم فى الدنيا بالقصاص أو الدية، وفى الآخرة بالنار. ولكم فى شرع هذا القصاص حياة، أى بقاء وحفظ، لأن القاتل إذا علم أنه سيُقتَل امتنع عن القتل فأحيا نفسه ونفس من كان يريد قتله.

﴿جنفا﴾: عدولا عن الحق خطأ.

﴿إثما﴾: عدولا عن الحق عمدًا.

﴿فأصلح بينهم﴾: أى بين الموصى لهم بعضهم مع بعض أو مع الورثة.

---

(١٧) فهو من قبيل قوله تعالى: ﴿وربائبكم اللاتى فى حجوركم.. إلخ﴾ (الآية ٢٣) من سورة النساء صفحتى ١٠٢، ١٠٣.

(١٨) انظر الآية (٢٢) من سورة النور صفحة ٤٦٠.

إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ[1]
وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ
بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا
فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ[2]
فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ
وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ
خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى
لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ[3] مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ

﴿أياما معدودات﴾: اختار المرحوم الشيخ محمد عبده أن هذه الأيام هى أيام رمضان، لأنه لم يثبت فى السنة الصحيحة السالمة من معارض أن الصوم كان واجبا على المسلمين قبل صوم رمضان، ولو ثبت ذلك لنقل إلينا متواترا، لأنه من العبادات العملية التى تتكرر ولا ينساها الناس. والمراد من (معدودات) أى قليلات، فمن أساليب العرب أنهم إذا أرادوا تقليل عدد شىء يقولون: شىء معدود أى قليل ومنه فى القرآن الكريم فى الحديث عن اليهود ﴿قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات﴾ الآية (٢٤) من سورة آل عمران صفحة ٦٦. وقوله تعالى فى الحديث عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة﴾ الآية (٢٠) من سورة يوسف صفحة ٣٠٥.

وقوله سبحانه: ﴿واذكروا الله فى أيام معدودات﴾ الآية (٢٠٣) من سورة البقرة صفحة ٤٠ وهى أيام التشريق الثلاثة التى يقضيها الحاج فى منى بعد يوم العيد الأكبر، فالمراد تسهيل أمر الصيام عليهم. كما هى سنته تعالى فى التدرج بعباده ليأخذهم باللطف إلى التشريع النهائى ولا يفاجئهم بما يشق عليهم، انظر كيف تدرج بالزكاة فى شرح الآية (٤) من سورة لقمان صفحة ٥٣٩، وفى تحريم الخمر فى شرح الآية (٢١٩) من سورة البقرة صفحة٤٣، وفى الأمر بتقديم صدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ فى الآية(١٢) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٧، ولما استشعروا أن للرسول ﷺ مقاما خاصا عند ربه يوجب عليهم عدم الإثقال عليه بما لا يفيد

---

(١) للوالدين.
(٢) معدودات.
(٣) وبينات.

ولما استشعروا أن للرسول ﷺ مقاما خاصا عند ربه يوجب عليهم عدم الإثقال عليه بما لا يفيد خصوصا وهو الرحيم بهم، شديد الحياء، لما حصل هذا خفف عنهم بما فى الآية (١٣) من نفس السورة صفحة ٧٢٧، وكذا يقال فى قيامك الليل فى الآيات (٢) وما بعدها من سورة المزمل صفحة ٧٧٣ ثم الآية (٢٠) من نفس السورة صفحتي ٧٧٤، ٧٧٥. نقول لما تعودوا الصوم مع التخيير انتقل بهم إلى الوجوب.

﴿يطيقونه﴾: المراد بقوله (يطيقونه) أى يتحملونه بغاية المشقة، ولا يقال أطيق حمل هذه الورقة، أو السماء فوقنا، لأن من أركان تعريف الكلام العربى أن يكون مفيدا للسامع فائدة يجهلها، ولذا قالوا لا يقال السيف أمضى من العصا، أو أنا أطيق حمل عود الحطب لأنه فقد ركنا من أركان اعتياده كلاما عند العرب.

﴿هدى للناس... إلخ﴾: المراد هاديا للناس إلى الصواب هداية خاصة به لما فيه من الإعجاز وتفصيل الأحكام مما ليس فى غيره، ولهذا جعله الهدى نفسه.

﴿وبينات من الهدى﴾: أى حال كونه أدلة واضحات من بين الكتب الإلهية الهادية إلى الصواب فهو هادٍ بواسطة أمرين، أمر مختص به وآخر غير مختص.

﴿الفرقان﴾: هو الفارق بقوة بين الحق والباطل. ﴿فمن شهد منكم الشهر﴾: أدرك رمضان وهو حى..

المعنى: فرض عليكم إذا حضر أحدكم مقدمات الموت وكان يملك خيرا أى مالا له قيمة وذلك يختلف تقديره باختلاف أحوال الناس فى منازلهم وأزمانهم الوصية، أى فرض عليكم أن يوصى من حضرته الوفاة للوالدين اللذين لا يرثان كالأجداد مع وجود الآباء، والوالدين الكافرين، لأنه من البر المطلوب لهما شرعا، والأقربين من الفقراء، فإن لم يكن فى قرابته فقراء يوصى ندبا لفقراء المسلمين. فإن مات ولم يوص وجب على الورثة أن يخرجوها عنه. فإن لم يخرجوها أخرجها القاضى النائب عن جماعة المسلمين وهذا هو سر توجيه الخطاب لهم فى قوله تعالى ﴿كتب عليكم﴾ ولم يقل (كتب على الواحد منكم) لأن فرضها ثابت بالآية، وبحديث البخارى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (ما حق امرئ مسلم له شىء يوصى

فيه، يبيت ليلتين[1] إلا ووصيته مكتوبة عنده) فرحم الله امرأ حافظ عليها ولم يغتر بمن يقول إن الآية منسوخة.. فإن العلماء المحققين أبطلوا قوله هذا. بالمعروف أى يوصى لمن ذكروا بالمتعارف بين الناس أنه يكفى صدقه فى مثل ماله، وحدده ﷺ بأن لا يزيد على الثلث. ومما يؤكد وجوبها قوله (حقا) أى الإيصاء واجب وجوبا حقا. فمن بدل الإيصاء وغيره من الأوصياء أو الشهود بالزيادة أو النقص أو الكتمان بعد ما علمه فإثم هذا التبديل على المبدل وحده لا يتعداه إلى الموصى ولا إلى غيره، لأن الله تعالى سميع لقول الموصى، عليم بما يفعل الأوصياء والشهود، ومجازيهم خيرا أو شرا. فمن خاف أى علم من الموصى بعدا عن الحق فى وصيته خطأ أو عمدًا بأن زاد فى الوصية عن الثلث لينتقص حق وارث، أو أوصى لغنى أو سليم أو فاسق بأكثر من نصيب فقير، أو مريض أو صالح، فأصلح بين الموصى لهم بأن عدل الوصية وجعلها على وجه المصلحة فلا ذنب عليه فى تعديلها، أى فليس عمله من التبديل المنهى عنه فيما سبق، لأن الله واسع المغفرة، فلا يؤاخذ بالهفوات فضلا عما فيه إصلاح، رحيم بعباده يحب عدم إساءتهم.

يأيها الذين آمنوا من أتباع محمد ﷺ فرض عليكم الصيام كما فرض على الأمم قبلكم، وإن اختلف فى عدد أيامه وتعيين شهوره، لأنه يعد المؤمن ليكون تقيا بعيدا عن المعاصى. وجعله الله تعالى أياما قلائل تيسيرا عليكم. فمن كان مريضا فى أيام الصوم أو مسافرا فأفطر فعليه عدد ما أفطره من أيام أخر. فمن استطاع الصوم وأفطر ولم يكن مسافرا ولا مريضا فعليه فدية هى إطعام مسكين غداء وعشاء عن كل يوم أفطره من جنس طعام المفطر. فمن تطوع خيرا بأن أطعم المسكين أكثر من يوم أو أطعم عددا من المساكين عن اليوم الواحد فهو خير له عند الله يوم القيامة. وأن تصوموا أى وصومكم عند القدرة خير لكم من الفطر والإطعام أن كنتم تعلمون وجه المصلحة فى الصوم، وهكذا كان أول شرع الصوم على التخيير بينه وبين الإطعام ليتدرج بهم إلى تحتيمه فلما تعوده أوجب الصوم فقط كما سيأتى. وتلك الأيام المعدودات هى شهر رمضان الذى أنزل فيه أول ما نزل من القرآن الهادى للخير والموضح المبين للحق، وهى بعض الهدى الإلهى الذى أنزله على الأنبياء من قبل فارقا بين الحق والباطل فرقا قويا.

---

(١) يبيت ليلتين: أي بعد سماع الآية وعلمه بها.

الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ
أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا
الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ[1] وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾
وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ
إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾
أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ
لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ
أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ[2] بَاشِرُوهُنَّ[3]
وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ
لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ
ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ[4] وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ[5] وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ[6]
فِي الْمَسَاجِدِ[7] تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

﴿فليستجيبوا لى﴾: أى فليجيبوا بإخلاص ما طلبه منهم بالطاعة.

﴿يرشدون﴾: يهتدون.

﴿الرفث﴾: كل مـا لا تجيـز الآداب العامـة التصريح به مما يحصل بين الرجل وزوجته، والمراد هنا المباشرة.

﴿تختانون أنفسكم﴾: أى تخونونها خيانة شديدة وتظلمونها بعدم صبركم.

المعنى: فمن شهد منكم شهر رمضان بأن كان حيا حاضرا غير مسافر فليصمه وجوبا وبهـذا الأمـر انتهى حكم التخـيـيـر السـابق وأصبح لا يجوز إلا الصوم. فمن كان مريضا أو مسافرا فيجب عليه قضاء ما فاته فى أيام أخر. أما الشيخ الكبير الذى يعجز عن الصوم لضعف الشيخوخة فحكمه الفطر دائما مع الفدية، وهذا الحكم مأخوذ من عمل الصحابة، واستقر عليه الإجماع. والله حين جوز لكم الفطر فى السفر والمرض يريد لكم التيسير ولا يريد لكم ما فيه عسر ومشقة ويريد منكم إكمال عدة الأيام التى فرضها عليكم إما أداء أو قضاء، ولتكبروا الله أى تعظموه شكرًا لنعمته بهدايته لكم. ولما سأل جماعة النبى ﷺ كيف ندعوا الله أبرفع الصوت أم بخفته نزل: وإذا

---

(١) هداكم.
(٢) فالآن.
(٣) باشروهن.
(٤) الليل.
(٥) تباشروهن.
(٦) عاكفون.
(٧) المساجد.

سألك عبادى أى المحبون عن كيفية مناجاتى، فأخبرهم أنى قريب منهم بعلمى أسمع كل ما يقولون واجيب دعوة أحدهم إما بقضاء ما طلب أو بخير منه، فليستجيبوا دعوتى لهم إلى الطاعة، وليؤمنوا بأنى الإله الواحد المالك لكل شيء ليعدهم ذلك لكمال الهداية والرشد. وكان المسلمون أول ما فرض الصوم إذا دخل المغرب يأكلون ويغشون النساء إلى أن يناموا، فإذا نام أحدهم ثم استيقظ ولو فى أول الليل أمسك عن كل مفطر إلى غروب شمس اليوم التالى، فغلب الطبع بعضهم فلامس زوجته بعد نوم، فندم وأسرع إلى النبى ﷺ يشكو ويستغفر، فنزل قوله تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث﴾ أى أحل لكم ملامسة نسائكم فى أى وقت من أوقات الليل ولو بعد النوم. لأنهن ستر لكم تقضون حاجتكم معهن فيحفظن أعراضكم من أن تنكشف على غيرهم، وأنتم لهن كذلك، وسبب هذا التيسير أنه سبحانه علم أنكم كنتم تخونون أنفسكم وتظلمونها بعدم صبركم، فتاب عليكم أى قبل توبتكم، وعفا عنكم برفع هذا التحريم طوال الليل.

فالآن بعد التحليل باشروا زوجاتكم واطلبوا بذلك ما قدره الله لكم من الولدان. وأبحت لكم أيضا الأكل والشرب طوال الليل إلى أن يتبين لكم الخيط الأبيض، وهو بياض الفجر، من الخيط الأسود وهو سواد الليل المجاور للبياض. ومجموعهما يسمى فجرا، فإذا رأيتم الفجر فأمسكوا وأتموا صومكم إلى دخول الليل بغروب الشمس. ولا تباشروا النساء فى المدة التى نويتم اعتكافها فى المساجد. والاعتكاف تقدم فى الآية (١٢٥) صفحة ٢٤، وتلك الأحكام السابقة هى حدود الله، أى حواجزه الفاصلة بين الحلال والحرام، فلا تقربوها وابتعدوا من مخالفتها. كذلك أى كهذا البيان الواضح يبين الله بقية آيات الأحكام، أى يأتى بها واضحة ليعدكم للتقوى.

﴿تدلوا بها إلى الحكام﴾: تدفعونها رشوة.

﴿فريقا من أموال الناس﴾: بعضا منها.

﴿البر﴾: الخير الواسع..

اللَّهُ آيَاتِهِ[1] لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم[2]
بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ[3] وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا
مِّنْ أَمْوَالِ[4] النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ * يَسْأَلُونَكَ
عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ[5] لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ
بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ
وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا[6] وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾
وَقَاتِلُوا[7] فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ[8] وَلَا تَعْتَدُوا
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ
وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ
وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ[9] عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ[10] فِيهِ
فَإِن قَاتَلُوكُمْ[11] فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ[12] ﴿١٩١﴾
فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ[13] حَتَّىٰ

﴿حيث ثقفتموهم﴾: فى كل مكان وجدتموهم فيه.. يقال ثَقِفَه يَثْقَفُه بوزن سَمِعَه يَسْمَعُه، ومعناه وجده وقَدَر عليه..

﴿الفتنة أشد من القتل﴾: الفتنة الابتلاء الشديد والامتحان القاسى كما فى الآيتين (١١)، (٥٣) من سورة الحج صفحتى ٤٣٤، ٤٤١ والآية (٢) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٠.

المعنى: بعد أن بيَّن الله أنه سبحانه يأتى بأحكامه واضحة ليعدكم للتقوى ذكر سبحانه بعض تلك الأحكام فقال: ﴿ولا تأكلوا أموالكم﴾ إلخ. أى لا يأخذ بعضكم مال بعض حرامًا، كالسرقة والغصب، ولا تدفعوا الأموال رشوة للحكام الذين يفصلون فى مشاكلكم لتتوصلوا بأحكامهم الجائرة إلى أن تأخذوا بعضها من أموال غيركم أخذا مقارنا للذنب لأنه حرام، وأنتم تعلمون أنكم على باطل، وهذا أشد قبحا من عمل الجاهل. ولما سأل بعض

(١) آياته.
(٢) أموالكم.
(٣) بالباطل.
(٤) أموال.
(٥) مواقيت.
(٦) أبوابها.
(٧) وقاتلوا.
(٨) يقاتلونكم.
(٩) تقاتلوهم.
(١٠) يقاتلوكم.
(١١) قاتلوكم.
(١٢) الكافرين.
(١٣) وقاتلوهم.

المسلمين النبى ﷺ عن الهلال لمَ يظهر أول الشهر صغيرا ثم يكبر ولم لا يكون على حالة واحدة كالشمس؟ أجابهم سبحانه عن الحكمة فى ذلك فقال: قل لهم أيها النبى جعل الله تعالى حالة الأهلة كما ترون لتكون مبينة لأوقات أعمال الناس الدينية كالصوم وعدة الطلاق والحج، والدنيوية كالإجارة والرهن وسداد الديون. انظر الآية (٥) من سورة يونس صفحة ٢٦٦. والآية (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦.

وكان من عوائد العرب التى لا أصل لها أنهم كانوا إذا رجعوا من الحج لا يدخل الرجل بيته من بابه بل يدخل من خلف الخباء إن كان من أهل الخيام، ومن ثقب فى خلف البيت إن كان من أهل البناء، ظانين أن سقف الباب يحول بينهم وبين رحمة السماء ويحسبون فعلهم هذا برا يقربهم إلى الله. وقد بقيت هذه العادة إلى ما بعد الإسلام، فقد روى البخارى أن بعض الأنصار كانوا إذا حجوا دخلوا البيوت من ظهورها، فأبطل سبحانه هذا التخريف بأسلوب التوبيخ والإرشاد فقال (وليس البر) إلخ أى ليس عمل الخير أن تدخلوا البيوت من خلف ولكن العمل المقرب لله هو عمل من اتقى الله وعمل ما تقدم بيانه فى الآية (١٧٧) من هذه السورة صفحتى ٣٣، ٣٤.

فلا تعصوا أمره. وكان مشركو مكة منعوه ﷺ وأصحابه من دخول مكة معتمرًا فى السنة السادسة ثم صالحوه صلح الحديبية المشهور على أن يمكنوه من الدخول فى العام القادم، فلما حل الموعد وطلب ﷺ من أصحابه أن يتجهزوا بأدوات الحرب مخافة أن يغدر بهم الكفار، جزع بعضهم خوف القتال فى الحرم وفى وقت الإحرام، فأنزل الله تعالى ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ إلخ. فأذن لهم فى القتال دفاعا ليتمكنوا من عبادته التى هى سبيل رضاه، ولا يعتدوا بالبدء بالقتال فإذا بدءوا هم فاقتلوهم فى أى مكان وجدتموهم فيه من حل أو حرم وأخرجوهم من مكة كما أخرجوكم منها، والبادئ أظلم، وفتنتهم لكم بمكة أيام ضعفكم بتعذيبكم ومحاولة إكراهكم على الكفر أشد قسوة على الحر من القتل. ثم استثنى من عموم الأمكنة المصرح لهم بالقتال فيها المسجد الحرام فقال: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾ المراد أن من دخل منهم المسجد يكون آمنا إلا إذا بدأ هو بالقتال فيه، فإن قاتلوكم فيه فاقتلوهم، لأن المدافع غير ملوم.

لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ(١)
إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ(٢) ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ
وَالْحُرُمَاتُ(٣) قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ
بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ
إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾
وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ
الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ
فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ
مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ
بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ(٤) أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ

﴿فلا عدوان﴾: المراد فلا مجازاة على التعدى.

﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام﴾: أى انتهاك حرمة الشهر الحرام يكون بانتهاك غيركم لحرمته، والأشهر الحرم أربعة كما فى الآية (٣٦) من سورة التوبة صفحة ٢٤٦.

﴿والحرمات﴾: الحرمات كل ما يجب احترامه والمحافظة عليه.

﴿قصاص﴾: أى يجزى فيها القصاص وهو المقابلة بالمثل كما تقدم فى الآية (١٧٨) من هذه السورة صفحة ٣٤.

﴿فاعتدوا عليه﴾: انظر ما قيل فى شرح قوله تعالى: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ صفحة ٣٦٣. ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾: أى لا تعرضوا أنفسكم إلى الهلاك بسبب بخلكم عن الإنفاق فى شراء عدة القتال، لأن ذلك يمكن عدوكم من إهلاككم.

﴿التهلكة﴾ مصدر بمعنى الهلاك، والباء فى ﴿بأيديكم﴾ جاءت فى المفعول لتأكيد وقوع الفعل عليه، والأصل: لا تلقوا أيديكم، والمراد أنفسكم، كما تقول لصاحبك لا تلق بمالك فى البحر. ومثل الباء هنا الباء فى (بجذع النخلة) الآية (٢٥) من سورة مريم صفحة ٣٩٨، ومثلها أيضا الباء فى (بسبب) الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥.

﴿الحج والعمرة﴾: تقدما فى الآية (١٥٨) من هذه السورة صفحة ٣٠.

﴿أُحصرتم﴾: منعتم عن إتمامهما بمانع قهرى. ﴿استيسر﴾: تيسر لكم الحصول عليه.

﴿الهدى﴾: هى الذبائح التى يهديها الحاج لفقراء بيت الله وأقلها شاة.

---

(١) عدوان. (٢) الظالمين. (٣) والحرمات. (٤) ثلاثة.

﴿محله﴾: المكان الذى شرع ذبحه فيه وهو جوار الكعبة. ﴿نسك﴾: حيوان يذبح وأقله شاة. ﴿تمتع بالعمرة إلى الحج﴾: أى جمع بينهما مقدما العمرة والتحلل منها ثم يشرع بعد ذلك فى أعمال الحج.

المعنى: وقاتلوا هؤلاء المعتدين حتى تذهب قوتهم التى يفتنون بها من آمن ويمنعونه من إظهار عقيدته، وبهذا يكون الدين الذى شرعه الله على لسان أنبيائه خالصا له تعالى ليس فيه شىء من مظاهر الشرك، فإن انتهوا عن مقاتلتكم وصدكم عن دينكم فكفوا عن قتالهم لأنه لا عدوان إلا على الظالم أى لا مجازاة إلا على المعتدى الظالم. فإذا كفوا فلا ظلم منهم فلا مجازاة منكم. ثم أكد مجازاتهم فى أسلوب قاعدة عامة ليدفع تحرج المسلمين من القتال فى الأشهر الحرم فقال (الشهر الحرام) إلخ.

أى انتهاك حرمته تكون بسبب انتهاك غيركم لحرمته، وكذا كل ما يجب احترامه يجرى فيه القصاص. فمن اعتدى عليكم فجازوه بمثل ما فعل. واتقوا الله فلا تعصوه ولا تتجاوزوا المثل حتى تلقوا بأنفسكم فى الهلاك، لأن الله تعالى مع المتقين بالنصر والتأييد. وإذا كان الكفار فتنوكم ولا يزالون يفتنون إخوانا لكم فلا تبخلوا فى الإنفاق فى طريق طاعة الله تعالى من جهاد وغيره، وأحسنوا كل أعمالكم وأتقنوها فإن الله يحب المحسنين ويجازيهم بعز الدنيا ونعيم الآخرة. وأدوا الحج والعمرة لله تامين، وقد تقدم بيان أركانهما فى الآية (١٥٨) من هذه السورة صفحة ٣٠. فإن منعكم عدو أو حيوان مفترس أو غير ذلك عن الإتمام فقدموا ما تيسر لكم من الهدى إلى فقراء بيت الله، ولا تحلقوا رءوسكم، أى استمروا على إحرامكم حتى يبلغ الهدى الكعبة.، وإذا كان المحرم الممنوع من حلق الرأس مريضا يضره عدم الحلق أو به ما يؤذيه فى رأسه كجرح أو قمل يؤذيه عدم الحلق أيضا فله أن يحلق ويفدى بصيام ثلاثة أيام، أو صدقة مقدار إطعام ستة مساكين لكل مسكين مقدار عُشر كيلة بالكيل المصرى من قمح أو تمر أو بذبح نسك مثل شاة مثلا فإذا أمنتم بذهاب سبب الخوف الذى منعكم من الإتمام فمن تمتع بالعمرة أى جاء بها أولا ثم تحلل منها ومكث مدة إحلاله ثم شرع فى أعمال الحج قبيل يوم عرفة فعليه نظير تمتعه بما يتمتع به غير المحرم بين العمرة والحج أن يقدم لفقراء البيت ما تيسر له من الهدى يذبحه يوم النحر، فمن لم يجد هديا لعدمه أو لعجزه عن ثمنه فعليه صيام ثلاثة أيام فى أيام الإحرام بالحج تمتد إلى نهاية يوم عرفة، وسبعة أيام إذا رجع، فيكون الجميع عشرة كاملة.

كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ
ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾
ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ(١) فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ
وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ
يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ(٢) ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا
مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ(٣) فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ
ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ(٤) وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ
وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم
مَّنَٰسِكَكُمْ(٥) فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا
فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ

﴿لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام﴾: أى يكون من غير أهل الحرم المقيمين فى مكة أو فيما حولها داخل منطقة الحرم التى يحرم صيدها وقطع شجرها.

﴿فرض فيهن الحج﴾: أوجبه على نفسه بالشروع فيه

﴿رفث﴾: تقدم بيانه فى الآية (١٨٧) من هذه السورة صفحتى ٣٦، ٣٧.

﴿فسوق﴾: معصية.

﴿جدال﴾: خصام.

﴿جناح﴾: إثم

﴿أفضتم من عرفات﴾: أصل معنى هذه المادة (فاض) سال الماء بكثرة، يقال فاض الماء فى الوادي أى سال، واستعمل مجازا فى غير الماء، فيقال فاض الغدر أى كثر فى الناس، وأفاض الرجل الماء أى جعله يسيل، ثم استعمل (أفاض) مجازا فى الدفع بقوة، ومنه ما هنا، ومفعوله محذوف وجوبا للعلم به، والأصل إذا أفضتم أنفسكم من عرفات، أى إذا دفعتم أنفسكم، والمراد إذا انصرفتم من عرفات.

﴿المشعر الحرام﴾: جبل بمزدلفة ثبت أنه ﷺ بعد أن صلى الصبح ركب ناقته ووقف فوقه مستقبلا القبلة وصار يدعو الله ويكبره ويحمده حتى طلعت الشمس ثم سار إلى منى.

﴿مناسككم﴾: عبادات الحج. ﴿أو أشد ذكرًا﴾: (أو) بمعنى بل كما فى الآية (١٤٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥.

المعنى: ذلك الحكم المذكور من وجوب الهدى أو الصيام إنما يكون على الحاج المستمتع إذا كان غير مستوطن فى الحرم، أما إذا كان المستمتع من أهل الحرم فلا دم ولا صيام. واتقوا

---

(١) معلومات. (٢) الألباب. (٣) عرفات. (٤) هداكم. (٥) مناسككم.

واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، واعلموا أنه شديد العقاب لمن خالفه. ثم بين سبحانه وقت الحج الذى لا يصح إلا فيه فقال (الحج أشهر معلومات) أى وقت الحج الذى يصح فيه هو أشهر معلومات عند الناس من عهد إبراهيم عليه السلام، وهى شوال وذو القعدة وذو الحجة. والمراد أن الإحرام يصح فى أى وقت منها، وتنتهى أركانه وواجباته فى أثناء آخرها، وأما العمرة فتصح فى جميع أيام العام، فمن أوجب على نفسه الحج بالشروع فيه فيجب عليه وجوبا مؤكدا أن يبتعد عن ملامسة النساء وعن المعاصى والخصومات التى قد تغير القلوب فى وقت يطلب فيه أن تكون صافية. وما تفعلوا من خير غير ذلك كصدقة أو طواف يعلمه الله فيجازيكم عليه أحسن الجزاء، وتزودوا بالأعمال الصالحة فى موسم الطاعة العظمى لأن خير الزاد التقوى لبقائه، وما عداه زائل، ومن كان له عقل فليحذر ما يغضب ربه، وليس عليكم مؤاخذة فى أن تطلبوا رزقا حسنا من فضل ربكم بتجارة أو غيرها مادام قصدكم أولا هو الحج، لأن طلب الرزق لا ينافى الإخلاص فى الحج، فإذا انصرفتم من عرفات بعد غروب الشمس ووصلتم مزدلفة فاذكروا الله تعالى بالتلبية والتهليل والدعاء عند المشعر الحرام، واذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة، لأنكم كنتم قبل هذا الهدى الإلهى من الضالين البعيدين عن الحق، ولما كان من عادة بعض أشراف العرب أنهم يقفون فى بعض أماكن الحج وحدهم ويفيضون وحدهم قبل الناس استكبارا على غيرهم مع أن أعمال الحج تادى بالمساواة فى حرم الله، أبطل سبحانه تلك العادة بقوله ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله﴾ مما سلف. فإذا فرغتم من عبادتكم فى الحج فاذكروا الله كذكركم آباءكم إلخ. وقد كانت العرب فى الجاهلية إذا فرغوا من أعمال الحج تجمعوا فى منى للتفاخر بذكر محاسن الآباء شعرا ونثرا لينتشر فى القبائل. فمنع سبحانه ذلك وصرفهم إلى ما يفيد وهو ذكر الله وحده بحماس ونشاط مثلما كانوا يذكرون آباءهم عند التفاخر، بل يجب أن يكون ذكرهم لله تعالى أقوى وأشد من ذكرهم لآبائهم، لأن فضله سبحانه لا يساويه فضل. ثم بين سبحانه أن الناس فى ذكرهم له تعالى ودعائهم ينقسمون بحسب استعدادهم وما يشغل قلوبهم إلى قسمين، فمنهم من يقول فى ذكره ربنا آتنا فى الدنيا حظنا منها، وهذا ليس له فى الآخرة نصيب من الخير.

فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ[1] ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا
فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾
أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾
۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ[2] فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ
فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ[3] ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ
مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ
فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ
لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ
بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ

﴿خلاق﴾: نصيب.

﴿أيام معدودات﴾: هى الأيام الثلاثة بعد يوم العيد.

﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾: نفى الإثم فى الحالين، ردا على ما كان يزعمه العرب فى الجاهلية، بعضهم يقول يأثم إذا تعجل، وآخرون يقولون يأثم إذا تأخر، فأبطل كل ذلك، وبهذا تعلم أنه لا ينافى أفضلية التأخير.

﴿ويشهد الله على ما فى قلبه﴾: العرب تستعمل هذا التعبير كناية عن الحلف بالله، انظر الآيتين (١)، (٢) من سورة المنافقون صفحتى ٧٤٢، ٧٤٣، وتصريحهم بالحلف فى الآية (٧٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥٤.

﴿ألد الخصام﴾: أشد فى المخاصمة.

﴿الحرث﴾: ثمرات الأرض كالزرع.

﴿النسل﴾: ما يتناسل من حيوان ينتفع به.

﴿أخذته العزة بالإثم﴾: العزة فى الأصل خلاف الذل، انظر الآية (١٨٠) من سورة ص صفحة ٥٩٧، و أريد بها هنا التكبر، فالمعنى استولت عليه أنفة الكبر مقرونة بالإثم أى الذنب.

﴿لبئس المهاد﴾: قبح المكان الذى أعد لإقامته وهو جهنم.

﴿يشرى﴾: يبيع وشرى تستعمل عند العرب فى أخذ أو أعطى.

(١) خلاق.
(٢) معدودات.
(٣) الحياة.

المعنى:، أن هذا الذى شغلته دنياه عن أخرته ليس له فى نعيم الآخرة نصيب لأنه جعل الدنيا كل همه، ومنهم صالحون يطلبون خيرى الدنيا والآخرة. وحسنة الدنيا هى الحياة الطيبة المذكورة فى الآية (٩٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٩. وحسنة الآخرة هى الجنة، ويطلبون مع كل ذلك البعد عن كل عمل يوصل للنار. أولئك الذين طلبوا الحسنيين لهم جزاء طيب حسن من جنس أعمالهم الطيبة، والله سريع الحساب فيوفى كل عامل عمله عقب عمله ويحاسب الخلق جميعا يوم القيامة فى أقصر وقت.

واذكروا الله أيها الحجاج بالتلبية والتكبير عند رمى الجمار وعقب الصلوات وكل عبادة فى الأيام الثلاثة بعد العيد. فمن استعجل ورحلِ من منى بعد يومين فلا إثم عليه فى التعجيل، ومن تأخر فى منى حتى بات ليلة الثالث ورمى جماره فلا حرج عليه كذلك، أى فهو مخير، بشرط أن يكون فى كل حال متقيا ربه، لأن تقواه أساس كل خير. ولذا أكدها بقوله سبحانه ﴿واتقوا الله﴾ إلخ فى حال أداء المناسك فلا تفعلوا محظورا، وفى جميع أحوالكم حتى لا تضيعوا ثمرة حجكم، لأنه سيجازيكم يوم القيامة بما يحصل منكم، ثم بين سبحانه أن الناس فى دلالة أعمالهم على حقيقة ما فى قلوبهم فريقان، فقال: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله﴾ إلخ أى يعجبك قولهوأنت فى هذه الحياة الدنيا لأنك تأخذ فيها بالظاهر مع أنه منافق اللسان يظهر خلاف ما يبطن، ويبالغ فى ذلك حتى تبلغ به جرأته أنه يشهد الله تعالى على ما فى قلبه، أى يحلف بالله على أن ما فى قلبه موافق لما يقول، وهو فى الحقيقة أشد فى الخصومة والعداوة ممن لم يفعل فعله. فاحذروا هذا النوع من الناس لأنه لو تولى من المجلس أو تولى أمرا من أمور الناس أفسد وأهلك الحرث والنسل وكل نافع، فهو مغضوب عليه من الله، لأنه سبحانه لا يحب الفساد. ومن شدة خطره أن فساده عن تعمد لا عن خطأ. ولذا إذا قيل له (اتق الله) فلا تفسد استولت عليه أنفة الجاهلية مصحوبة بذنب الإصرار، فهذا كافيه على جرمه عذاب جهنم. وقبحت جهنم مكانا يأوى إليه. ومن الناس فريق صالح يبذل نفسه فى الجهاد وفى كل خير، انظر الآية (١١١) من سورة التوبة صفحة ٢٦١ طالبا رضاء الله لا يطلب ثمنا غيره، فهذا له عند الله الجنة كما فى آية سورة التوبة المتقدمة؛ لأن الله رءوف بعباده يرشدهم للخير، ويكافئهم على العمل المنقطع بالنعيم الدائم.

بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً
وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾
فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ
فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ
تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ
آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ
النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ
وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ

﴿يأيهـــا الذين آمنوا﴾: المراد بهم هنا المنافقون الذين أظهروا الإيمان. وليس المراد بهم اليهود. لأن الكلام عنهم الذى ابتدأ بالآية (٤٠) انتهى بالآية (١٥٢) من هذه السورة.

﴿السلم﴾: الإسلام.

﴿كافة﴾: فى الأصل صفة من (كَفَّ) بمعنى منع، استعمل بمعنى الجملة، فشموله من شمول الكل للأجزاء، وهو هنا حال من الضمير فى (ادخلوا) أى أدخلوا بكلياتكم وجميع أحوالكم أى ظاهرا وباطنا، أى فلا تنافقوا.

﴿زللتم﴾: انحرفتم عن الدخول فى السلم.

﴿يأتيهم الله﴾: أى عذابه.

﴿ظلل﴾: جمع ظلة وهى ما يظل غيره ويستره. انظر الآيات (١٧١) من سورة الأعراف صفحتى ٢٢٠، ٢٢١، (١٨٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١، (١٦) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨.

﴿الغمام﴾: السحاب: جمع غمامة كسحاب وسحابة وزنًا ومعنى، وسمى بذلك لأنه يغم السماء أى يسترها.

---

(١) خطوات.
(٢) الشيطان.
(٣) البينات.
(٤) والملائكة.
(٥) إسرائيل.
(٦) الحياة.
(٧) القيامة.
(٨) النبيين.
(٩) الكتاب.

﴿وقضى الأمر﴾: أى تم أمر إهلاكهم. ﴿كم آتيناهم﴾: (كم) اسم بمعنى كثير (من آية) (من) حرف يدل على أن ما بعده بيان لهذا الكثير.

﴿كان الناس أمة واحدة﴾: أى وجد الناس حال كونهم طائفة واحدة مشتبكة المصالح والمنافع يحتاج بعضها إلى بعض متميزة عن غيرها من بقية الحيوانات والطيور. انظر أصل (أمة) فى الآية (٨) من سورة هود صفحة ٢٨٥.

المعنى. يأيها الذين نطقوا بكلمة الإيمان ابتعدوا عن النفاق وادخلوا فى الإسلام الصحيح بكل أحوالكم الظاهر منها والباطن ولا تجعلوا شيئا من باطنكم يخالف ظاهركم، ولا تتبعوا سبيل الشيطان الذى يبعدكم عن الصواب لأنه عدو لكم ظاهر العداوة، والعدو لا يدل على خير. فإن انحرفتم عن طريق الإسلام الصحيح من بعد ما جاءتكم الحجج الظاهرة الدالة على أن الله تعالى يرشدكم إلى الخير . والشيطان يدلكم على الهلاك، فاعلموا أن الله عزيز قوى غالب لا يعجزه شىء عن الانتقام منكم. حكيم لا يسوى بين مؤمن وفاسق. انظر الآية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧. ثم بين سبحانه نهاية الوعيد بقوله: ﴿هل ينظرون﴾ أى ينتظرون كما فى الآية (١٨) من سورة محمد صفحة ٦٧٥. أى يجب ألا ينتظر هؤلاء الذين اتبعوا الشيطان إلا شرا هو أن يأتيهم عذاب الله فجأة مستورا فى ظلل من الغمام حتى تكون حسرتهم شديدة. انظر الآية (٢٤) من سورة الأحقاف ٦٦٩، ٦٧٠. وتأتيهم الملائكة المكلفون بعذابهم وعند ذلك يتم أمر إهلاكهم. وإليه سبحانه مرجع كل شىء. ومنه مرجعهم فيعاقبهم بعد الهلاك بأشد العذاب. وبعد ذلك أراد سبحانه أن يذكر هؤلاء الغافلين بما حل بمن قبلهم لما خالفوه سبحانه فقال: «سل بنى إسرائيل» إلخ أى اسأل يا من تنتفع بالسؤال بنى إسرائيل عن الآيات الكثيرة التى آتيناها لهم على لسان أنبيائهم واضحة فى الدلالة على طريق الحق، فبدل أن يشكروا عليها كفروا بها. ومن يبدل نعمة الله الدالة على الهدى والرشاد من بعد علمها وتيقنها فلابد من عقابه عقابا شديدا لأنه تعالى شديد العقاب لمن كفر نعمته ثم بين سبحانه سبب الغفلة عن الآيات فقال: «زين للذين كفروا» إلخ. أى زين لهم الشيطان زخارف

الدنيا فانصرفوا إلى طلبها، وغفلوا عن النظر فى الدليل النافع حتى بلغ من غرورهم أنهم يسخرون من المؤمنين الفقراء لحرمانهم فى زعمهم من نعيم الدنيا الذى يحسبونه كل شيء، مع أن الذين آمنوا واتقوا سيكونون فوقهم يوم القيامة فى جنة عالية وهم فى الهاوية وهى النار الحامية. ثم بين سبحانه أن رزق الدنيا ليس خاصا بتقى دون شقى، بل هو مبذول لكل مخلوق، فقال: «والله يرزق من يشاء بغير حساب» أى رزقا واسعا، بل قد يكون للكافر أوسع استدراجا له ليزداد كفرا فيزداد عذابا، انظر الآيات (٧٦) وحتى (٨٣) من سورة القصص صفحات ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩. والآيات (٣٤)، (٣٥)، (٥٥) من سورة التوبة صفحات ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٥٠. والآيات من (٣١) إلى (٣٥) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠. ولقد أوجد الله الناس أمة واحدة ذات طابع خاص لها مميزات تميزها عن بقية المخلوقات بالعقل والتفكير وتشابك مصالحهم فى المعاش وتزاحمهم، وهذا مع قصر عقولهم عن معرفة ما فيه سعادتهم على الوجه الصحيح كان السبب فى أن الله رحمهم، فأرسل إليهم رسلا ينظمون حياتهم ويبشرونهم بالنعيم الدائم إذا أطاعوا، ويخيفونهم من عذاب الله إذا عصوا، وأنزل مع الرسل الكتاب والمراد جنسه أى كتبا مملوءة بالحق ليحكم الله بها على لسان رسله فيما يختلفون فيه تبعا لاختلاف أغراضهم.

﴿أم حسبتم﴾: (أم) حرف متضمن معنى حرفين الأول (بل) التى تفيد الانتقال من كلام إلى آخر والثانى همزة الاستفهام الإنكارى المفيد للنفى فيكون حاصل معنى (أم) بل ليس الأمر كما تظنون.

﴿مثل الذين خلوا من قبلكم﴾: المثل الوصف العظيم والحال التى تستلفت الأنظار حتى أصبحت يضرب بها المثل، أى حال الذين مضوا من الأمم قبلكم.

﴿البأساء﴾: ما يصيب الإنسان فى غير نفسه كفقد ولد أو مال.

﴿الضراء﴾: ما يصيبه فى نفسه كالمرض.

﴿زلزلوا﴾: أزعجوا إزعاجًا شديدا.

فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ
بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ(١) بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى
مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ(٢) مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟
ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ
ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ
مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ(٣) وَٱلْأَقْرَبِينَ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ(٤) وَٱلْمَسَٰكِينِ(٥) وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ
لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن
تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

المعنى: أنه لما كان وجود الكتاب يشعر بأنه كان ينبغى ألا يقع خلاف، فكيف وقع خلاف مع وجوده فى كل عصر؟ بعد ذلك بين سبحانه أن الكتاب نعمة ككل شىء نافع رزقه الله تعالى للإنسان كالعقل والسمع والبصر، كلها نعم يستفيد منها سليم الطبع البعيد عن البغى والحسد فيما يعود عليه وعلى الناس بالخير، أما فاسد الطبع المنطوى على الخبث والحسد فإنه يتخذ من كل نعمة سبب نقمة، فيسخر عقله وحواسه للكيد للناس وإلحاق الشر بهم.انظر الآية (٢٦) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧٠؛ لكن وجود هذا الشرير لا يمنع إيجاد كل شىء نافع، إذ لو منع لما وجد فى العالم شىء نافع، فلم يختلف فى الكتاب النافع إلا الذين أنعم الله به عليهم وجاءهم بالحجج الواضحة الدالة على أنه حق يجب الاتفاق على احترامه، تحت تأثير البغى والحسد، وهدى الله لما فيه من الحق الذين آمنوا وأخلصوا فى إيمانهم بإذنه وتيسيره، لأن هدايته تعالى تعطى لمستحقها، وإضلاله لمستحقه، انظر ما تقدم فى الآية (٢٦) من هذه السورة صفحتى ٦، ٧.

ولما أنزل المشركون بالمسلمين من الشدائد والمصائب ما كان يزلزل بعضهم، انظر الآيات من (١٥٢) إلى (١٦٠) من سورة آل عمران صفحات ٨٧، ٨٨، ٨٩ والآيات من (٩) إلى (١٧) من سورة الأحزاب صفحات ٥٥٠، ٥٥١.

---

(١) البينات. (٢) صراط. (٣) فللوالدين. (٤) واليتامى. (٥) والمساكين.

حث الله سبحانه المسلمين على الصبر بتذكيرهم بصبر المؤمنين من الأمم قبلهم، فقال «أم حسبتم أن تدخلو الجنة» إلخ. روى البخارى أن بعض أصحابه ﷺ شكوا إليه ما يلقونه من المشركين وقالوا ألا تدعو الله لنا؟ فقال ﷺ: إن من كان قبلكم كان يوضع المنشار على رأس أحدهم فينشر حتى يصل إلى قدميه فلا يصرفه ذلك عن دينه. وقد ذكر سبحانه شيئا من ذلك فى أول سورة البروج صفحتى ٨٠٠، ٨٠١.

والمعنى: هل ظننتم أيها المسلمون أنكم ستدخلون الجنة دون أن تلاقوا مثل ما لاقى المؤمنون قبلكم من الشدائد التى يضرب بفظاعتها المثل؟ فإن أردتم دخول الجنة فاصبروا كما صبروا.

ثم بين سبحانه ما أصاب السابقين فقال: مستهم البأساء والضراء وأزعجوا إزعاجًا شديدًا جعل رسولهم والمؤمنين معه يقولون متى يأتينا نصر الله. فأجابهم سبحانه «ألا إن نصر الله قريب» أى أنه سبحانه نصرهم فعلا وكف شر عدوهم.

ثم شرع سبحانه فى بيان بعض الأحكام العملية فى صورة أجوبة لأسئلة وقعت منهم، فمنها أنهم سألوه عن أحسن شىء ينفق تقربا لله، وعن أحسن جهة ينفق فيها، فقال: المطلوب إنفاقه هو الخير، أى الحلال يعطى للوالدين وما بعدهم، وقد تقدم فى الآية (١٧٧) من هذه السورة صفحتى ٣٣، ٣٤؛ وما تفعلوا من خير غير ما تقدم من كل أنواع الخير فإن الله يعلمه وسيجازيكم عليه. ولما ملأ الإسلام قلوب المؤمنين رحمة بعد أن كانت كالحجارة، وأحبوا أن يصلوا إلى هداية قومهم بدون قتال، أعلمهم الله الذى يعلم ما لا يعلمون أن أغلب هؤلاء الكفار لا يخضعون للحجة ولو عرضت عليهم ألف سنة، وأنهم إذا لم يعاملوا بمثل عملهم ويقاتلوا فلن يكفوا عن قتالكم وإيذائكم ككل صاحب طبع لئيم، فقال «كتب عليكم القتال» إلخ، أى فرض الله عليكم القتال للدفاع عن الدين وهو يعلم أنه مكروه لكم لأنه لا يوافق ميولكم المبينة على غير الحق، إذ عسى أن تكرهوا شيئا مثل قتال المشركين مع أنه خير لكم لأنه فيه القضاء على فتنتهم، وعسى أن تحبوا شيئا مثل مسالمتهم وعدم قتالهم مع أنه شر لكم لأنه يقوى شوكتهم ويعوق نجاح الدعوة، والله تعالى يعلم من طبائعهم وخبثهم وأنتم لا تعلمون شيئا من ذلك، لأنها من أسرار نفوسهم التى لا يطلع عليها إلا علام الغيوب.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ
وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ
أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ
وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ[1] حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ
ٱسْتَطَـٰعُوا۟[2] وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ
فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ[3] فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ
أَصْحَـٰبُ[4] ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ[5] ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟[6] فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ
رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ
ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ[7] لِلنَّاسِ
وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ
ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ[8] لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

﴿الفتنة﴾: الابتلاء الشديد والامتحان القاسى.

﴿حبطت﴾: بطلت فلا تنفع صاحبها فى إنقاذه من الخلود فى النار.

﴿الميسر﴾: القمار بكل أنواعه.

﴿العفو﴾: قال الراغب: العفو هو ما سهل إنفاقه. وقال صاحب الأساس: يقول العربى: هذا من عفو مالى أى من حلاله وطيبه، وأعطيته الشىء عفوا أى من غير طلب منه. وقال صاحب المنار: يطلق العفو فى اللغة على معان، على الجيد الخالص من الدخيل وعلى الفاضل الزائد عن الحاجة، وعلى السهل الذى لا كلفة فيه ولا مشقة فى إنفاقه على النفوس وهذا هو المراد هنا كما سيأتى فى الآية (١٩٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥. وله معنى سلبى ومنه عفت الريح آثار الديار أى أزالتها. وعفا الله عن الذنب أى أزال أثره من العقاب. والغالب أنه ما زاد على مقدار حاجة الشخص وعياله.

المعنى: أرسل ﷺ سرية إلى مكة تستطلع أحوال قريش بعد واقعة بدر الأولى، فلقيت بعض كفار قريش فتقاتلوا، وقتل المسلمون رجلا من المشركين، وكان ذلك فى أول يوم من رجب وهم

---

(١) يقاتلونكم.
(٢) استطاعوا.
(٣) أعمالهم.
(٤) أصحاب.
(٥) خالدون.
(٦) وجاهدوا.
(٧) ومنافع.
(٨) الآيات.

لا يعلمون أنهم دخلوا فى شهر رجب، فأشاعت قريش فى القبائل أن محمدًا ينتهك حرمة الأشهر الحرام، فتساءل الناس من كفار ومسلمين، فأنزل الله سبحانه «يسألونك عن الشهر الحرام» إلخ، أى عن القتال فى الشهر المحرم القتال فيه وهو رجب أحد الأشهر الأربعة الحرم، وبقيتها ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، قل لهم أيها النبى: حقا القتال فى الشهر الحرام ذنب كبير، لكن هناك ما هو أكبر وأبشع جرما منه فينبغى أن تبتعدوا عنه إذا كنتم جادين فى المحافظة على حرمات الله، ذلك هو صدكم أي منعكم النبى ﷺ وأصحابه عن سبيل الله،أى إقامة دينه بقتلكم من يؤمن أو تعذيبه بأقسى أنواع العذاب، وكفركم به تعالى وهو خالقكم ورازقكم، ومنعكم المؤمنين عن دخول المسجد الحرام وإخراجكم أهل هذا المسجد، وهم النبى وأصحابه منه أى من بلده مكه، فكل ذلك من الصد عن سبيل الله والمسجد، والكفر به تعالى وإخراج المومنين من بلدهم أكبر عندالله، أى أعظم وزرا فى حكم الله تعالى من قتل رجل فى أول يوم من رجب خطأ لجهله بدخول زمن الشهر، وقد علمتم أن فتنة الناس عن دينهم أكبر وزرًا من القتل فى الشهر الحرام كما تقدم فى الآية (١٩١) من هذه السورة صفحة ٣٧، ثم بين سبحانه للمؤمنين خطأهم فى الطمع فى إيمان هؤلاء المشركين وشدة عنادهم فقال ولا يزالون، أى سيستمر هؤلاء الذين تكرهون قتالهم يقاتلونكم فى كل فرصة إلى أن يردوكم إلى الكفر إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ومن يرجع منكم إلى الكفر ويستمر حتى يموت كافرا فقد بطل كل ما عمله من خير، وحرم ثمرته فى الدنيا، فلا يكون له ما للمسلمين من مزايا الإسلام، وفى الآخرة فلا ينال من نعيمها شيئا، بل سيكون من الخالدين فى النار. أما الذين آمنوا وحافظوا على إيمانهم والذين هاجروا من مكة وطنهم خوفا على دينهم وجاهدوا بأنفسهم وأموالهم فى سبيل الله فإنهم يحق لهم أن يرجوا رحمة الله أى جنته، والله تبارك وتعالى غفور لهفواتهم، رحيم لا يؤاخذ المخلص بما فعل خطأ. ولما كثر تساؤل المسلمين عن حكم الخمر والميسر وعندما تنبهوا لشرورهما قال سبحانه: قل لهم أيها النبى إن فى تعاطيهما ذنبا كبيرا، وفيهما أيضا منافع دنيوية للناس بالتجارة فى الخمر وكسب المال دون مشقة فى الميسر، ولكن ذنبهما أعظم ضررا من فائدتهما. ففى الآية ترغيب الترك، ثم جاءت بعد ذلك الآية (٩٠) من سورة المائدة صفحة ١٥٥ قاطعة فى التحريم. وهنا يحسن أن نقف على سر عظيم من أسرار رحمته تعالى بعباده وهو الذى خلقهم ويعلم مواطن الضعف منهم، ذلك أنه

سبحانه إذا أراد أن يوجههم إلى تشريع جديد لم يألفوه يتلطف بهم فلا يحملهم عليه بعنف، بل يتدرج بهم حتى يصل بهم إلى النهاية التى قدرها، وقد بين ذلك فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم انظرها فى شرح الآية(١٨٤) من هذه السورة صفحة ٣٥. وقال العلماء إنه لما كانت عادة شرب الخمر متأصلة فى طبائع الناس أول العصر الإسلامى، وأراد سبحانه أن ينقذهم من شرورها تدرج بهم فى أربع مراحل فأشار أولا إلى كراهتها إشارة لطيفة فى مكة فى الآية (٦٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٤، ولما تنبهت بعض العقول لشرها وكثر التساؤل عنها نزلت الآية التى معنا هنا، وتركهم سبحانه يدركون بعقولهم أن الشىء الذى يكون ضرره أكبر من نفعه يكون ممنوعا، فلذا تركها كثير من أرباب الفطنة حتى نقل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال بعد سماع هذه الآية: (حرمت ورب الكعبة).

ولكن لما كان التحريم ليس بنص صريح، وكان شربها عادة مستحكمة، بقى على شربها قوم، بعد ذلك عالج سبحانه الأمر بالنص على تحريمها تحريما مؤقتا كما فى الآية (٤٣) من سورة النساء صفحة ١٠٧ ولما تعود الجميع تركها أغلب الوقت وتهيأت النفوس لحملها على التشريع النهائى وهو التحريم الصريح القاطع جاءت الآية (٩٠) من سورة المائدة صفحة ١٥٥.

فابتعد عنها الجميع وأنقذهم الله سبحانه من شرها. ومن العجب أن يتقمص الشيطان السنة بعض شباب هذا الجيل من استرخت عزائمهم فصاروا يرددون أن الله تعالى لم يحرم الخمر وإنما قال (اجتنبوه) ولم يقل لا تشربوا. كما قال فى القتل مثلا. وأنساهم الشيطان أن الأمر بالاجتناب أى البعد عن ساحته أقوى فى النهى عنه من النهى عن فعله لأن النهى عن الشرب لا يفيد المنع عن لمسها باليد مثلا بخلاف الأمر بالبعد عن ساحتها فإنه يفيد عدم الدنو منها، نسأل الله تعالى لأبنائنا السلامة من حبائل عدوهم الأصيل الرابض لهم بالمرصاد كما فى الآية (١١) من سورة المائدة صفحة ١٥٥. ولما سألوه ﷺ عن مقدار ما ينفقونه فى سبيل الله أهو كل أموالهم أم بعضها؟ قال: ينفقون العفو أى السهل الذى يدفع بسخاء نفس، وهذا غير الزكاة المفروضة المبين مصارفها فى الآية (٦٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥١. كذلك أى مثل هذا النوع من البيان الواضح يبين الله لكم آياته فى الأحكام المتعلقة بمصالحكم لعلكم تتفكرون فى النافع والضار فتعملون الأول وتتركون الثانى.

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ[1] ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ
لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ[2] ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ
مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ[3] حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ
مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا
الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ
وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى
الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ[4] لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى
فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ
فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
التَّوَّابِينَ[5] وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ

﴿أعنتكم﴾: حملكم مشقة.

﴿ولا تنكحوا المشركات.. ولا تنكحوا المشركين﴾: انظر معنى الشرك والكفر فى شرح الآية (٤٨) من سورة النساء صفحة ١٠٨. وهذا الحكم وهو عدم نكاح المؤمنين للمشركات، وعدم تزويج المشركين بالمؤمنات هو الأصل، ويتفق معه ما فى الآية (١٠) من سورة الممتحنة صفحتى ٧٣٦، ٧٣٧. حيث منعت المؤمنة من الزواج بالكافر، ومنعت المؤمن من أن يبقى فى عصمته كافرة، وبعد ذلك جاءت الآية (٥) من سورة المائدة صفحة ١٣٦ وخصصت عدم زواج المؤمنين بالمشركات والكافرات بغير الكتابيات منهن، وأجازت أن يتزوج المؤمن كتابية كما سيأتى.

﴿أمة﴾: امرأة مملوكة للغير. ﴿عبد﴾: رقيق مملوك للغير.

﴿المحيض﴾: هو الحيض والمراد هنا هو مكانه أو زمانه، والمراد عن حكم ملامسة المرأة أثناء الحيض (هو أذى) أى منشأ ضرر «فى المحيض» أى فى وقت الحيض.

﴿نساؤكم حرث لكم﴾: الحرث مكان الزرع من الأرض، أى هن كمكان الزرع.

المعنى: لعلكم تتفكرون فى أمر الدنيا وأمر الآخرة فلا تفعلوا إلا الأصلح لكم فيها. ولما نزلت الآيات المشددة فى حرمة مال اليتيم كالآية (١٠) من سورة النساء صفحة ٩٩ والآية (١٥٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩ والآية (٣٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩، تحرج كثير من المسلمين الذين فى حوزتهم يتيم، فكانوا يصنعون لليتيم طعاما خاصا ويقصرونه عليه فلا يقربه غيره حتى كان كثيرا ما يعتريه الفساد إذا مكث مدة طويلة، فسأل بعضهم عن حكم الله فى ذلك فنزلت الآية ﴿ويسألونك﴾ إلخ، أى عن كيفية المعيشة معهم مع هذا الحرج، فقال

---

(١) اليتامى. (٢) فإخوانكم. (٣) المشركات. (٤) آياته. (٥) التوابين.

سبحانه: قل لهم أيها النبى: إصلاح لهم، أى مخالطة على وجه الإصلاح لهم بالتربية والتهذيب ولأموالهم بالحفظ والتنمية، خير من مجانبتهم فى المعيشة مع ترك ذلك، لأنكم إن تخالطوهم فى المعاشرة والأكل معهم فهم إخوانكم فى الدين، ومن حق الأخ أن يخالط أخاه على الوجه اللائق الذى فيه صلاحه ولا يقاطعه لما فى ذلك من تعويده على الجفوة، والله يعلم المفسد لهم ولأموالهم عند المخالطة من المصلح لهم ولها فيجازى كلا حسب عمله. ولو شاء الله تحميلكم المشقة بتحريم المخالطة لفعل وأحرجكم كما شدد على من قبلكم كما فى آخر آية من هذه السورة، لأنه عزيز أى غالب يقدر على فعل ما يشاء، حكيم لا يكلف نفسه إلا ما فيه مصلحتها. ولما استأذن بعضهم فى أن يتزوج مشركة نزل قوله تعالى: ولا تنكحوا أيها المؤمنون النساء المشركات أى الكافرات غير الكتابيات ووالله لامرأة رقيقة مؤمنة خير من مشركة حرة ولو أعجبتكم المشركة لجمالها أو مالها. لأن بين المؤمنة وإن كانت أمة وبين المشركة غاية التباين فيما يجب لله عز وجل، وفى اعتقاد الرسل، وفى اليوم الآخر، بخلاف الكتابية فإنها تؤمن بالله ورسله واليوم الآخر. ولا تنكحوا أى تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات حتى يؤمنوا بالله، ووالله إن العبد الرقيق المؤمن خير من مشرك حر ولو أعجبكم المشرك. ثم بين سبحانه بعض أسباب المنع فقال أولئك، أى أهل الشرك من شأنهم أنهم يدعون ويرغبون فى أسباب دخول النار كحب الأصنام والتوسل بها، فمن الخطر معاشرتهم، والله تعالى يدعو على لسان رسله إلى أسباب دخول الجنة والمغفرة بإذنه وتوفيقه من يستحق ذلك أى فأطيعوا أوامره. ومن فضله سبحانه أنه يبين ويوضح دلائل حكمة شرعه للناس لعلهم يتذكرون أن الحكمة فيما شرع. ولما رأى المسلمون أن اليهود لا يخالطون الحائض مطلقا حتى فى المأكل والمسكن، والنصارى يمسوهن فى الحيض كالطاهرات سألوا عن ذلك، فنزل: «يسألونك عن المحيض» إلخ، أى عن الحكم فى ملامسة المرأة أثناء الحيض، قل هو منشأ أذى وقذارة فلا تقربوهن بالملامسة حتى ينتهى الحيض ويغتسلن، أما غير الملامسة من أكل وغيره فلا حرج، فإذا تطهرن فلامسوهن فى المكان الذى أمر الله عز وجل بالإتيان فيه وهو موضع النسل، إن الله يحب التوابين الذين إذا أذنبوا تابوا، ويحب المتطهرين من الأقذار الحسية والمعنوية. ثم بين سبحانه ما أشار إليه فى قوله: «من حيث أمركم» مع الإشعار بالحكمة فيما أمر به فقال: «نساؤكم حرث لكم» أى مكان تزرعون فيه الولد فلا تضيعوا الحكمة وتتركوا مكان الزرع.

﴿أنى شئتم﴾: كيف شئتم.

فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ[1] ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ
عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ[2] أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ[3]
وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ
أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ
عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ[4] فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ[5]
يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ[6] قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ
مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ
وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا[7] ۚ
وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ

﴿عرضة﴾: قيل فى المصباح تقول العرب: لا تعرض لفلان بكسر الراء فى (تعرض) أى لا تعترض له فتمنعه بسبب اعتراضك من أن يبلغ مراده. ويقال: سرت فى الطريق فعرض لى فيه عارض من جبل أو نحوه، أى مانع، والعرب لم تستعمل وزن (فُعْلَة) بضم فسكون إلا بمعنى المفعول فيقولون (غرفة) من ماء أى مقدارا مغروفا منه، كما فى الآية (٢٤٩) من هذه السورة صفحتى ٥١، ٥٢. ويقولون (مُضْغَة) أى مقدار ما يمضغ فى الفم انظر الآية (٥) من سورة الحج صفحتى ٤٣٣، ٤٣٤. و(لُقمة) أى شىء يلقم، وهكذا. وعرضة هنا مأخوذة من قولهم: عرضت العود على الإناء أى وضعته عليه ليمنع دخول شىء فيه، فالعود (عرضة) أى مانع.

﴿لأيمانكم﴾: جمع يمين وهو يطلق على الحلف بالله عز وجل. وعلى المحلوف عليه، وقد جمع المعنيين الحديث الشريف وهو قوله ﷺ: (من حلف على يمين ورأى غيرها خيرًا منها فليُكَفِّر عن يمينه وليفعل الذى هو خير) فاليمين الأولى بمعنى المحلوف عليه، والثانية بمعنى الحلف نفسه. والمراد فى الآية هو المحلوف عليه.

---

(١) ملاقوه.
(٢) لأيمانكم.
(٣) أيمانكم.
(٤) الطلاق.
(٥) والمطلقات.
(٦) ثلاثة.
(٧) إصلاحا.

﴿أن تبروا﴾: بيان لأيمانكم، أى للأمور المحلوف عليها بأنها هى البر والتقوى، والإصلاح بين الناس. فيكون حاصل المعنى: لا تجعلوا الله أى الحلف بالله سبحانه مانعا لكم من فعل المحلوف عليه الذى هو البر والتقوى.. إلخ.

(وللعرضة) معنى آخر، هو ما ينصب للشىء ويُعَرَّض له كالهدف للسهام. يقال جعلته عرضة لكذا، أى نصبته له، وكان معرضا له، ومن ذلك قول الشاعر (إن النساء لعرضة للتطليق) أى معرضات له، وإرادة هذا المعنى هنا فى الآية بعيد، والأنسب هو المعنى الأول.

﴿اللغو فى أيمانكم﴾: هو ما يسبق إليه اللسان من غير قصد نحو لا والله.

﴿كسبت قلوبكم﴾: أى ما قصدتموه وعقدتم عليه النية.

﴿يؤلون من نسائهم﴾: أى يحلفون ألا يلامسوا نساءهم. انظر تفصيل المادة فى الآية (٢٢) من سورة النور صفحة ٤٦٠.

﴿تربص﴾: انتظار.

﴿فاءوا﴾: رجعوا.

﴿عزموا الطلاق﴾: صمموا عليه.

﴿قروء﴾: جمع قرء بضم أوله وفتحه، ويطلق على الطهر الواقع بين حيضتين، وعلى الحيضة، ويرجح أن المراد بالقرء هنا الأطهار، ويؤكد ذلك تأنيث ثلاثة لأنها تؤنث مع المذكر كما فى أربعة أشهر، وتذكر مع المؤنث كما فى سبع ليال وثمانية أيام انظر الآية (٧) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦١، ٧٦٢.. فلو كان المراد الحيضات لقال ثلاث قروء.

المعنى: فأتوا نساءكم فى مكان النسل على أى وضع شئتم ما دمتم تتحرون النسل الذى به بقاء النوع الإنسانى، وقدموا لأنفسكم ما ينفعكم وهو طاعة الله وطلب الولد الصالح الذى يدعو لكم، واتقوا الله فلا تعصوه لأنكم ستلاقونه بعد البعث فيجازيكم. وبشر أيها النبى المؤمنين الطائعين بكل خير. وكان الرجل يغلب عليه الغضب فيحلف بالله ألا يفعل كذا من

الخير، أو أن يفعل كذا من الشر، فإذا قيل له لمَ لم تفعل هذا الخير؟ يقول أخاف من الحنث فى يمينى، فأنزل الله «ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم.. إلخ»، أى لا تجعلوا الحلف بالله مانعا من فعل المحلوف عليه من الخير، بأن تجعلوه مانعا من بركم بأرحامكم وبالمساكين، ومانعا من أن تتقوا ما حرم عليكم، ومانعا من أن تصلحوا بين الناس فيفسدهم الشقاق. وقد بين ﷺ أن من حلف على شيء من ذلك لا يفعل المحلوف عليه بل يفعل الخير ويترك الشر ويكفر عن يمينه، والله سميع عليم، فلا تخالفوا أوامره. واعلموا أن رحمته سبحانه بكم أنه لا يؤاخذكم باللغو فى أيمانكم التى تجرى على ألسنتكم من غير قصد، فلم يعتبر يمينا يكفر عنه عند الحنث، وإنما يؤاخذكم باليمين المقصود نكم المصمم عليه من قلوبكم. فيؤاخذكم عند الحنث فيه بالكفارة أو العقاب فى الآخرة إذا لم يكن له كفارة، كالأيمان الكاذبة أو على شهادة الزور. والله عز وجل غفور لعباده ما كان منهم من اللغو، حليم فلا يعجل العقوبة ليتوب العبد.

يقول الفخر الرازى «لا يؤاخذكـ الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم» فى الآية مسألتان: المسألة الأولى «اللغو» الساقط الذى لا يعتد به سواء كان كلاما أو غيره كقوله سبحانه ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾ وقوله ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾.. أما المفسرين فقد ذكروا وجوها: الأول: قول الشافعى أنه قول العرب (لا والله) و(بلى والله) مما يؤكدون به كلامهم ولا يخطر ببالهم الحلف. والثانى: قول أبى حنيفة أن اللغو هو أن يحلف على شيء يعتقده أنه كان ثم بان أنه لم يكن.

وأثر الصحابى فى تفسير كلام الله حجة. والحجة الأولى: قوله ﷺ «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير». الحديث دل على وجوب الكفارة على الحانث مطلقا من غير فصل بين المجد والهازل. الحجة الثانية أن اليمين معنى لا يلحقه الفسخ. فلا يعتبر فيه القصد كالطلاق والعتاق فهاتان الحجتان يوجبان الكفارة فى قول الناس (لا والله) و(بلى والله) إذا حصل الحنث ثم الذى يدل على أن اللغو لا يمكن تفسيره بما قال الشافعى ويجب تفسيره بما قاله أبو حنيفة أن اليمين فى اللغة عبارة عن القوة قال الشاعر:

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

أى بالقوة والمقصود من اليمين التقوية أى تقوية جانب البر على جانب الحنث بسبب اليمين وهذا يكون فى الموضع الذى يكون قابلا للتقوية وهذا إنما يكون إذا وقع اليمين على فعل فى المستقبل أما إذا وقع اليمين على الماضى فذلك لا يقبل التقوية البتة. فعلى هذا اليمين على الماضى تكون خالية عن الفائدة المطلوبة منها والخالى عن المطلوب يكون لغوا. فثبت أن اللغو هو اليمين على الماضى. والقول الثالث فى تفسير يمين اللغو هو أنه إذا حلف على ترك طاعة أو فعل معصية فهذا هو يمين اللغو وهو المعصية قال تعالى: ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾ فبين أنه تعالى لا يؤاخذ بترك هذه الأيمان ثم قال ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ أى بإقامتكم على ذلك الذى حلفتم عليه من ترك الطاعة وفعل المعصية، قالوا هذا التفسير مناف لقوله عليه السلام «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير» وهذا التأويل ضعيف من وجهين: الأول: أن المؤاخذة المذكورة فى هذه الآية صارت مفسرة فى آية المائدة بقوله تعالى ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته.. الآية﴾ ولما كان المراد بالمؤاخذة إيجاب الكفارة والكفارة ههنا واجبة علمنا أن المراد من الآية ليس هو هذه الصورة. الثانى: أنه تعالى جعل المقابل للغو هو كسب القلب، ولا يمكن تفسيره بما ذكره من الإصرار على الشيء الذى حلفوا عليه. لأن كسب القلب مشعر بالشروع فى فعل جديد، فأما الاستمرار على ما كان فذلك لا يسمى كسب القلب. الثالث: أنها اليمين المكفرة سميت لغوا لأن الكفارة أسقطت الإثم فكأنه يقول لا يؤاخذكم الله باللغو إذا كفرتم. وهذا قول الضحاك. والقول الرابع وهو قول القاضى أن المراد به ما يقع سهوا غير مقصود إليه والدليل على قوله تعالى بعد ذلك ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ أى يؤاخذكم إذا تعمدتم والمعلوم أن المقابل للعمد هو السهو. المسألة الثانية: احتج الشافعى بهذه الآية على وجوب الكفارة فى اليمين الغموس قال إنه تعالى ذكر هنا فى آية سورة البقرة:

﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ وفى آية سورة المائدة ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ وعقد اليمين محتمل لأن يكون المراد منه عقد القلب به، ولأن يكون المراد به العقد

الذى يضاد الحل، فلما ذكر هنا قوله ﴿بما كسبت قلوبكم﴾ علمنا أن المراد من هذا العقد هو عقد القلب، وأيضا ذكر المؤاخذة هنا ولم يبين تلك المؤاخذة ما هى؟ وبينها فى آية سورة المائدة بقوله ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته.. إلخ﴾ فبين أن المؤاخذة هى الكفارة. فكل واحدة من هاتين الآيتين مجملة من وجه ومبينة من وجه آخر فصارت كل واحدة منهما مفسرة للأخرى من وجه، وحصل من كل واحدة منهما أن كل يمين ذكر على سبيل الجد وربط القلب، فالكفارة واجبة فيها واليمين الغموس كذلك واجبة فيها.

﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم﴾ قد ذكرنا أنه تعالى بين فى هذا الموضع أنواعًا من الشرائع والأحكام. بقى أن يُقال: أى مناسبة بين هذا الحكم وبين ما قبله حتى يحسن ذكره عقيبه؟ فنقول قد ذكرنا أن سبب نزول الآية الأولى أن قوما من الصحابة حرموا على أنفسهم المطاعم والملابس واختاروا الرهبانية وحلفوا على ذلك فلما نهاهم الله تعالى عنها قالوا: يا رسول الله فكيف نصنع بأيماننا أنزل الله هذه الآية واعلم أن الكلام فى أن يمين اللغو ما هو قد سبق على الاستقصاء فى سورة البقرة فى تفسير قوله ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ فلا وجه للإعادة ثم قال تعالى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم (عقّدتم) بتشديد القاف بغير ألف، وقرأ حمزه والكسائى وأبو بكر عن عاصم (عَقَدْتم) بتخفيف القاف بغير ألف، وقرأ ابن عامر (عاقدتم) بالألف والتخفيف. قال الواحدى يقال: عقد فلان اليمين والعهد والحبل عقدًا إذا وكده وأحكمه، ومثل ذلك أيضا عقد بالتشديد إذا وكد، ومثله أيضا عاقد بالألف.

إذا عرفت هذا فتقول: أما من قرأ بالتخفيف فإنه صالح للقليل والكثير، يقال: عقد زيد يمينه، وعقدوا أيمانهم، وأما من قرأ بالتشديد فاعلم أن أبا عبيدة زيف هذه القراءة وقال: التشديد للتكرير مرة بعد مرة. فالقراءة بالتشديد توجب سقوط الكفارة عن اليمين الواحد لأنها لم تتكرر وأجاب الواحدى رحمه الله عنه من وجهين: الأول: أن بعضهم قال: عقد

بالتشديد والتخفيف واحد فى المعنى. الثانى: هب أنها تفيد التكرير كما فى قوله: ﴿وغلقت الأبواب﴾ إلا أن هذا التكرير يحصل بأن يعقدها بقلبه ولسانه، ومتى جمع بين القلب واللسان، فقد حصل التكرير، أما لو عقد اليمين بأحدهما دون الآخر لم يكن معقدا. وأما من قرأ بالألف فإنه من المفاعلة التى تختص بالواحد مثل عافاه الله. ومثل ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

وطارقت النعل، وعاقبت اللص فتكون هذه القراءة كقراءة مَنْ خفف. المسألة الثانية: (ما) مع الفعل بمنزلة المصدر، والتقدير: ولكن يؤاخذكم بعقدكم أوبتعقيدكم أو بمعاقدتكم الأيمان. المسألة الثالثة: فى الآية محذوف، والتقدير: لكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم فحذف وقت المؤاخذة لأنه كان معلوما عندهم أو بنكث ما عقدتم، فحذف المضاف. وأما عن كيفية استدلال الشافعى بهذه الآية على أن اليمين الغموس توجب الكفارة فقد ذكرناها فى سورة البقرة.

يقول الزمخشرى: اللغو فى اليمين، الساقط الذى لا يتعلق به حكم، واختلف فيه فعن عائشة رضى الله نعالى عنها أنها سئلت عنها فقالت: هو قول الرجل: (لا والله) و(بلى والله). وهو مذهب الشافعى وعن مجاهد: هو الرجل يحلف على الشىء يرى أنه كذلك وليس كما ظن. وهو مذهب أبى حنيفة (بما عقدتم الأيمان) بتعقيدكم الأيمان وهو توثيقها بالقصد والنية، وروى أن الحسن رضى الله عنه سئل عن لغو اليمين وكان عنده الفرزدق فقال: يا أبا سعيد دعنى أجب عنك فقال:

ولست بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تُعمّده عاقدات العزائم.

وقرئ عقدتم بالتخفيف وعاقدتم والمعنى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم فحذف وقت المؤاخذة لأنه كان معلوما عندهم أو بنكث ما عقدتم فحذف المضاف (فكفارته).. إلخ.

بعد ذلك يوضح سبحانه الإيلاء. وكان الرجل يحلف على أن لا يلامس امرأته ويتركها معلقة: لا هى مطلقة ولا زوجة. فوضع سبحانه حدا لهذا فقال «للذين يؤلون» أى يحلفون على البعد من نسائهم. انتظار مدة أربعة أشهر. ليتروى فيها أحدهم لعله يرجع إلى رشده، فإن

رجعوا فى تلك المدة أو فى آخرها بأن حنثوا فى اليمين ولامسوا زوجاتهم وكفروا عن اليمين فإن الله تعالى يغفر لهم ما سبق من إضرار زوجاتهم، رحيم بفتح باب التوبة. وإن صمموا على الطلاق فليراقبوا الله لأنه سميع لإيلائهم، عليم بنياتهم، هل هم معذورون أو يقصدون الإضرار بالمرأة.

فالحاصل أن من حلف أن لا يلامس زوجته لا يجوز أن يهمل أكثر من أربعة أشهر، فإن تاب وعاد قبل انقضائها فلا جناح عليه، وإن أبى حتى انقضت تعين أحدأمرين: إما الرجوع أو الطلاق، فإن لم يطلق ولا يراجع طلقها عليه الحاكم. والمطلقات ينتظرن بأنفسهن عن الزواج مدة ثلاثة قروء، أى يجب أن ينتظرن ولا يتزوجن حتى تنتهى هذه المدة وهذا فى المدخول بهن غير اليائسات من الحيض لكبر سن أو لصغر فهاتان عدتهن ثلاثة أشهر كما فى الآية (٤) من سورة الطلاق صفحة ٧٤٩. وغير الحوامل لأن عدتهن وضع الحمل كما فى الآية السابقة من سورة الطلاق، وغير المتوفى عنهن أزواجهن فعدتهن أربعة أشهر وعشر كما سيأتى فى الآية (٢٣٤) من هذه السورة صفحة ٤٨، وغير الإماء فإن السنة بينت أن عدتهن قرءان. أما غير المدخول بهن فلا عدة عليهن كما فى الآية (٤٩) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٧.

ولا يحل للمطلقات أن يكتمن ما فى أرحامهن من الولد استعجالا للزواج، ولا أن يكتمن الحيض لتطويل مدة العدة فتأخذ نفقة بدون حق، فإن كن يؤمن بالله الذى لا يخفى عليه شىء، وباليوم الأخر الذى سيحاسبن فيه، فلا يفعلن ما نهاهن الله عنه. وأزواج المطلقات أولى بردهن أى مراجعتهن فى ذلك أى فى مدة التربص. والمراد أن الرجل إن أراد مراجعتها وأبت وجب تقديم رأيه على رأيها إن أراد بالمراجعة إصلاحا لما بينهما، وأن لا يكون مريدا بالرجعة الإضرار بها كتطويل العدة حتى لا تتزوج ففى تلك الحالة يحرم عليه المراجعة. ويجب لها من الحقوق فى حال قيام الزوجية من مهر ونفقة وحسن معاشرة مثل الذى يجب عليهن للرجال مما يقتضيه العرف بين الناس فى معاشرة الأزواج من حفظ عرضه وولده وماله وخدمته فى بيته. فالمماثلة فى الوجوب لا فى جنس ما يجب، ويزيد الرجال عليهن درجة وسيأتى بيانها.

﴿درجة﴾: هى قوامتهم عليهن لأنهم هم الذين ينفقون، انظر الآية (٣٤) من سورة النساء

درجة والله عزيز حكيم (٢٢٨) الطلاق(١) مرتان فإمساك
بمعروف أو تسريح بإحسان(٢) ولا يحل لكم أن تأخذوا
مما ءاتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله
فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما
افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد
حدود الله فأولئك هم الظالمون(٣) (٢٢٩) فإن طلقها فلا
تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها فلا
جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله
وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون (٢٣٠) وإذا طلقتم
النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن
بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل
ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا ءايات(٤) الله هزوا

صفحتى ١٠٥، ١٠٦.

المعنى: الطلاق الذى يجوز المراجعة بعده لا يزيد عن مرتين، أى تطليقة بعد تطليقة. فإن طلقتم دون الثلاث فيجوز لكم إمساكهن أى مراجعتهن، بشرط أن تكون المراجعة مقرونة بالمعروف شرعا من حسن العشرة والبعد عن الإضرار، أو تسريحهن أى تركهن مقرونا بإحسان كجبر خاطر وأداء حقوق بلا مماطلة من مؤخر صداق وغيره. ولا يحل لكم أن تأخذوا فى مقابل الطلاق مما آتيتموهن من صداق وغيره شيئا، لمنافاة ذلك للإحسان. والخطاب فى الآية للحاكم لتنتظم الضمائر الآتية. وإسناد الأخذ والإتيان إلى الحكام لأنهم هم الآمرون بها عند التقاضى إليهم. ومحل ما تقدم إذا كان الزوج هو الذى اختار الطلاق، أما إذا كانت المرأة هى التى طلبته فلا جناح أن يأخذ منها مالاً لتحقيق رغبتها كما قال «إلا أن يخافا» إلخ، أى الزوجان أو أحدهما، كأن تخاف المرأة أن تعصى الله فى أمر زوجها أو تخونه، أو يخاف هو أن يخرج عن الحد المشروع فى مؤاخذتها إذا رأى منها كرها له، أو يخافا مما سوء العشرة، وعندئذ فلا جناح عليهما فيما افتدت به نفسها من مال ليطلقها، فلا إثم على الرجل فيما أخذ، ولا على المرأة فيما أعطت.

وتلك الأحكام المذكورة حدود الله التى حدد بها الحلال والحرام فلا تتجاوزوها بالمخالفة

(١) الطلاق.
(٢) بإحسان.
(٣) الظالمون.
(٤) آيات.

لأن من يتجاوزها فقد ظلم نفسه بتعريضها لعذاب الله. فإن طلقها مرة ثالثة بعد المرتين فلا تحل له من بعد الثالثة إلا بعد أن تتزوج رجلا غيره ويعاشرها معاشرة الأزواج. فإن طلقها الزوج الثانى بعد الملامسة فلا إثم على الزوج الأول ولا على هذه المطلقة من الثانى فى أن يرجع كل منهما إلى صاحبه بعد انقضاء العدة من الثاني. إن ظنا أن يحافظا على أوامر الله بعد اعتبارهما بما سبق. وتلك الأحكام السابقة هى حدود الله التى لا يجوز تخطيها يوضحها سبحانه لقوم يفهمون ما يبين لهم. وإذا طلقتم النساء طلاقا رجعيا وقارين انقضاء العدة فيجوز لكم إمساكهن بالمراجعة، بشرط أن يكون الإمساك بقصد الإحسان لا الإضرار بهن، أو تسريحهن أى تركهن حتى تنقضى العدة، ولتمام العناية بهذا الموضوع الكثير الوقوع بين الناس وللتحذير من مخالفة الله عز وجل فيه صرح سبحانه بما فهم مما سبق فقال: ولا تمسكوهن بالرجعة قبل انقضاء العدة ضرارا أى بقصد الإضرار بإطالة العدة حتى يمنعها عن الزواج أطول مدة يستطيعها. ولذا قال: «لتعتدوا» أى عليهن أى تظلموهن وتلجئوهن لدفع مال. ومن يمسكهن بقصد الإضرار فقد ظلم نفسه بتعريضها للعقاب. ولا تتخذوا آيات الله التى بينت تلك الأحكام هزوا أى مهزوءا بها بسبب مخالفتها فإن هذا لا يليق بمؤمن.

﴿الكتاب﴾: القرآن.

﴿الحكمة﴾: أسرار الشريعة.

﴿بلغن أجلهن﴾: انقضت عدتهن.

﴿تعضلوهن أن ينكحن﴾: إلخ تمنعونهن من أن يتزوجن الذين يرغبن فى أن يكونوا أزواجا لهن.

﴿ذلك يوعظ به﴾: أفرد اسم الإشارة مع إن المخاطبين جمع بدليل (منكم) ملاحظا فى الأول جنس المخاطبين، وفى الجمع أفراده، وهذا أسلوب عربى فصيح نظيره لفظ (مَنْ) فى الآية (٦) من سورة لقمان صفحة ٥٣٩، والآية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧، والآية (١١) من سورة الطلاق صفحة ٧٥٠.

(سورة البقرة) ٤٧

وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ[١]
وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ
فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ[٢] إِذَا تَرَاضَوْا[٣] بَيْنَهُم
بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَالْوَالِدَاتُ[٤] يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ[٥] حَوْلَيْنِ
كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ
رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ
لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ[٦] بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ
مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ[٧]

﴿أزكى﴾: أجلب للبركة.

﴿أطهر﴾: أنظف للسمعة وأبعد من الشبهة عن الرجل والمرأة.

﴿المولود له﴾: الأب.

﴿فصالا﴾: فطاما للطفل.

﴿تسترضعوا أولادكم﴾: تجعلوا لهم مراضع.

المعنى: واذكروا أيها المؤمنون نعمته تعالى عليكم بهدايتكم للإسلام لتشكروه بطاعته، واذكروا القرآن الذى أنزله عليكم ليعظكم به لعل ذلك يساعدكم على تقوى الله. واعلموا أن الله بكل شيء عليم ومنه تذكركم لكتابه والخوف منه، وسيجازيكم على ذلك، و إذا طلقتم النساء وانقضت عدتهن فلا يحل لمخلوق منكم أن يمنعهن من أن يتزوجن الرجال الذين يرغبن فى أن يكونوا أزواجا لهن. فالخطاب لأولياء المرأة وكل من يمكنه منعها، أى لا يجوز لأحد أن يقف فى طريق رغبة المطلقة فيمن تريد الزواج منه إذا تراضى الخاطبون والنساء المخطوبات بالطريق المعروف شرعا وعادة بأن لا يكون هناك مانع ولا ما يخل بشرف أهلها كعدم تحقيق الكفاءة. وذلك النهى عن المنع يوعظ به من كان يؤمن بالله ويعلم أنه مراقبه، ويؤمن باليوم

---

(١) الكتاب.
(٢) أزواجهن.
(٣) تراضوا.
(٤) والوالدات.
(٥) أولادهن.
(٦) والدة.
(٧) أولادكم

الآخر الذى سيجازى فيه على ما عمل، لأنه هو الذى ينفع فيه الوعظ، ذلكم أى ترك المنع باتباع الشرع أجلب للبركة وأطهر للرجل والمرأة لما يخشى عليهما من الريبة بسبب ميل كل لصاحبه. والله يعلم من المصلحة مالا تعلمون. والوالدات سواء أكن زوجات أو مطلقات عليهن أن يرضعن أولادهن عامين كاملين لمن أراد من الآباء أن يتم رضاعة ولده، ولا تجبر الأم على الزيادة عليهما، وعلى الآباء إطعامهن وكسوتهن إن كن مطلقات. أما الزوجات فرزقهن ثابت لهن بالزوجية بالمعروف بين الناس أنه فى طاقة الأب أى بلا إسراف ولا تقتير، لأن الله سبحانه لا يكلف نفسا إلا وسعها أى ما فى طاقتها. لا تضار أى لا تؤذى والدة بسبب ولدها بأن تكره على إرضاعه مع التضييق عليها فيما تستحقه من رزق وكسوة، ولا يضار مولود له بسبب ولده، بأن يكلف فوق طاقته. وعلى الوارث أى وارث الأب وهو الصبى إن كان والده ترك له مالا أوجده إن لم يترك والده شيئا مثل الذى كان على أب الطفل من الرزق والكسوة للمرضع. فإن أراد الولدان فطام الطفل قبل الحولين بعد اتفاق وتشاور فيما فيه مصلحة الطفل حتى لا يضر فلا حرج عليهما فى فطامه قبل الحولين.

﴿جناح﴾: ذنب.

﴿سلمتم﴾: أعطيتم.

﴿المعروف﴾: المتعارف بين الناس.

﴿يتربصن﴾: ينتظرن بدون زواج.

﴿عرضتم به﴾: لوحتم به من غير تصريح.

﴿لا تعزموا﴾: لا تصمموا جازمين.

﴿عقدة النكاح﴾: عقد الزواج.

﴿الكتاب﴾: المكتوب أى المفروض وهو العدة.

﴿أجله﴾: نهايته.

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ
مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا[1] يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ
فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ
أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن
لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا
عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ[2] أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
حَلِيمٌ (٢٣٥) لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ
تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ

﴿أو تفرضوا.. إلخ﴾: المراد توجبوا على أنفسكم مقدارا من المال تدفعونه لهن صداقا، انظر الآية (٣٨) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٦، وقال علماء اللغة إن (أو) الواردة بعد نهى أو نفى تفيد العموم كأنه قال ما لم تمسوهن وما لم تفرضوا إلخ. أى إذا انتفى الأمران ومثالها فى النهى (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) الآية (٢٤) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٣.

﴿فريضة﴾ : صداقا.

﴿الموسع﴾: ذو السعة والرخاء.

المعنى: وإن أردتم أيها الآباء أن تجعلوا لأولادكم مراضع غير الوالدات برضا منهن وتشاور فلا إثم عليكم فى هذا الاسترضاع إذا سلمتم المراضع ما آتيتم أى ما أردتم إعطاءه لهن من الأجر بالقدر المتعارف عليه بين الناس حتى لا يسئن إلى الطفل أو يهملنه. واتقوا الله فلا تتسببوا فى إيذاء الطفل ووالدته واعلموا أن الله بصير بعملكم فيجازيكم عليه خيرا أو شرا والذين يتوفون منكم ويذرون أى يتركون زوجات، يجب عليهن أن ينتظرن بدون زواج بعد موت الزوج أربعة أشهر وعشر ليال إذا كن غير حوامل. أما الحوامل فقال ابن عباس رضى الله عنهما: (أن الحامل المتوفى عنها زوجها تمكث أطول الأجلين: أجل الوضع أو أجل الأربعة أشهر وعشر). فإذا انقضت عدتهن فلا جناح عليكم أيها الأولياء والحكام، ولا عليهن أيضا فيما فعلن فى أنفسهن من الزينة والتهيؤ للخطاب، بشرط أن يكون ذلك بالشىء المعروف عند ذى

---

(١) أزواجا.
(٢) الكتاب.

المروءة وهو ما لا تبرج فيه. والله بما تعملون خبير، فلا تفعلوا إلا ما يبيحه سبحانه خوفا من غضبه. ولا جناح عليكم يا من تريدون الزواج من المعتدات عدة وفاة أو طلاق بائن. أما المعتدات من طلاق رجعى فلا يجوز حتى التعريض لأنهن فى عصمة أزواجهن إلى نهاية العدة فيما لوحتم به دون تصريح من خطبة النساء أى طلبهن للزواج، كأن يقول الرجل إنك امرأة صالحة، أو مثلك يرغبها الرجال. ولا يصرح كأن يقول أريد زواجك فإنه حرام ما دامت فى العدة. ولاجناح عليكم أيضا فيما أضمرتم فى أنفسكم من الرغبة فى زواج المعتدة لتعذر الاحتراز عنه. ولذا قال «علم الله أنكم ستذكرونهن» قطعا بدافع الرغبة البشرية، ولا تصبروا على السكوت عن إظهار الرغبة فيهن، فاذكروهن، ولكن لا تواعدوهن بالزواج سرا كأن يقول لها فى خلوة، عاهدينى على ألا تقبلى خطبة أحد حتى تخبرينى، لما فى هذه المواعدة من خطر الفتنة ومظنة التهمه والجر إلى التصريح المنهى عنه، ولكم أن تقولوا أمام الناس القول المعروف المتقدم وهو التعريض. وإنما كره ليحذر الناس من التساهل فيه لشدة الدوافع اليه. ولذا صرح بما فهم مما سبق فقال: ولا تعزموا عقدة الزواج عزما جازما لأنه يجر إلى الحرام واكتفوا بإكنان الرغبة فى النفس المعفو عنها حتى تبلغ العدة نهايتها، عند ذلك يصح أن تعزموا العزم الذى من شأنه أن يستتبع الفعل، وبما أن الله يعلم ما فى أنفسكم من عزم ونية امتثال وغيرها فاحذروا عقابه إذا خالفتم أمره، واعلموا أن لمن خالف وتجاوز أسرار الرغبة إلى العزم الذى يجر إلى الفعل مخرجا بالتوبة، لأنه سبحانه غفور لمن يتوب، حليم لا يعجل بالعقوبة ليفسح المجال للتوبة. وأنزل فيمن يطلق امرأته ولم يكن فرض لها مهرا ولا لامسها: لا جناح عليكم إذا طلقتم النساء مالم تمسوهن أو لم تفرضوا لهن مهرا، أى لا تبعة عليكم من مهر ولا نفقة إذا طلقتم لعذر وكان ذلك قبل الملامسة وقبل تقدير المهر، ولها فى هذه الحالة متعة تقدر على الموسع ذى اليسار بقدر غناه وعلى المقتر أى الفقير بقدر الحاجة.

﴿فرضتم﴾: تقدم المراد بها فى الصفحة السابقة.

﴿قدره﴾: مقدار طاقته.

قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا[1] بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ
وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ
أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ
لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَٰفِظُوا۟[2] عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ[3] وَٱلصَّلَوٰةِ[4] ٱلْوُسْطَىٰ
وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ[5] ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ
أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾
وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا[6] وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم[7]
مَّتَٰعًا[8] إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ[9] مَتَٰعٌۢ[10] بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى

﴿المقتر﴾: الفقير.

﴿الذى بيده عقدة النكاح﴾: هو الزوج.

﴿الصلاة الوسطى﴾: صلاة العصر.

﴿قانتين﴾: خاشعين.

﴿رجالا﴾: جمع راجل وهو غير الراكب.

﴿متاعا إلى الحول﴾: ما تمتع به من سكن ونفقة إلى نهاية الحول.

﴿غير إخراج﴾: أى غير مخرجات من بيوت أزواجهن كرها.

المعنى: إن المتعة تقدر على الغنى بقدر غناه، وعلى الفقير بقدر الحاجة، وتكون بالقدر المتعارف عند أهل المروءة، حقا أى واجبا لها على من يحسن التعامل بين الناس جبرا لغضاضة الطلاق على نفسها وشهادة بنزاهتها. ووصف المتاع بالإحسان لا ينافى الوجوب لأن الله سبحانه وصف القيام بالواجب بالإحسان فى آيات كثيرة منها ما جاء فى الآية (٩١) من سورة التوبة صفحة ٢٥٧ إذ النصح لله والرسول فيها واجب. وما جاء فى الآية (١٢٠) من نفس السورة صفحة ٢٦٣، ووصف سبحانه الثابت فى القتال بالمحسن مع أنه واجب والفرار حرام انظر الآيتين (١٤٧)، (١٤٨) من سورة آل عمران صفحتى ٨٦، ٨٧. وصور المطلقة أربع:

(أولها) أن يطلقها قبل أن يمسها ولم يفرض لها مهرا. وهذه لها متعة لا نفقة.

(الثانية) أن يكون الطلاق قبل المسيس وبعد فرض المهر فلها نصف الصداق.

(الثالثة) أن يكون الطلاق بعد المسيس وبعد فرض المهر فلها كل المهر.

---

(١) متاعا. (٢) حافظوا. (٣) الصلوات. (٤) والصلاة. (٥) قانتين.
(٦) أزواجا. (٧) لأزواجهم. (٨) متاعا. (٩) وللمطلقات. (١٠) متاعا.

(الرابعة) أن يكون بعد المسيس وقبل تسمية المهر فلها مهر المثل. وسيأتى حكم المتعة فى أول شرح صفحة ٥٠ الآتية.

فقوله وإن طلقتموهن إلخ هى الصورة الثانية، فلها النصف فى كل حال إلا فى حال واحدة هى أن يعفو النساء فيتركن هذا النصف، أو يعفو الزوج ويترك لها الصداق كله تفضلا، وعفوكم أيها الأزواج والزوجات أقرب لتقوى الله عز وجل. فهذا حث لكل منهما على السبق إلى التفضل «ولا تنسوا الفضل بينكم» بالمودة وحسن العشرة بين المطلق وأهل زوجته ثم ذكر سبحانه ما يعين على مراقبة الله فى تنفيذ أحكامه فقال سبحانه «حافظوا على الصلوات»: الخمس، بأدائها فى أوقاتها على أحسن وجه، خصوصا الصلاة الوسطى التى بين صلاتى النهار وصلاتى الليل، لأنها فى وقت يظن اشتغالكم فيه بتجارتكم ومعاشكم وقوموا لله فى صلاتكم خاشعين، ثم أكد وجوب الصلاة بأنها لا تسقط عن المكلف بأى حال ما دام فيه شعور فقال «فإن خفتم»: عدوًا أو سبعًا مثلا فصلوا ماشين أو راكبين إذا دخل وقت الصلاة فى حال المقاومة وظننتم أن المقاومة تستغرق وقتها، فصلوا لا يمنعكم من صلاتكم كر ولا فر، وقولوا فى صلاتكم ما تقولون عادة، ويومئ المصلى بقدر ما يستطيع، ولا يلزمه التوجه للقبلة. فإذا ذهب سبب الخوف فصلوا كالمعتاد.

والذين يتوفون منكم وقد تركوا زوجات يوصى الله أهل الميت وصية لأزواج المتوفين منهم بمتاع من نفقة وسكنى إلى نهاية الحول غير مخرجات من بيوت أزواجهن كرها فإن خرجن من تلقاء أنفسهن قبل العام فلا جناح عليكم يا أولياء الميت فيما تفعل تلك الزوجات من معروف شرعًا كالزينة وترك الحداد إذا كان الخروج بعد الأربعة أشهر وعشر فلا جناح عليكم فى تسببهن فى قطع النفقة. ولا جناح عليهن فى الزينة وترك الحداد. قال مجاهد: نزل فى عدة المتوفى عنها آيتان: آية الأربعة أشهر وعشر، وهذه الآية. والآيتان فى حالتين، فإن اختارت المرأة الإقامة فى دار الزوج والنفقة من تركته فعدتها سنة، وإلا فعدتها أربعة أشهر وعشر. فللعدة أجل محتم وهو الأقل، وأجل هى مخيرة فيه هو بقية العام، وللمطلقات متاع بالمعروف بين الناس حق حقا، أى وجب وجوبا على المتقين.

ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ
وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ
إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا
فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ
أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ
أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟

﴿ألم تر﴾: أى هل لم تعلم يا من يصح منك العلم، وتنظر نظر المعتبر.

﴿الذين خرجوا من ديارهم﴾: قال المرحوم الشيخ محمد عبده: مادام القرآن لم يبين هؤلاء القوم ولا مكانهم، ولا زمانهم، فلا يهمنا البحث عنهم، لأن العبرة التى أرادها الله سبحانه يكفى فيها أن هؤلاء قوم ساقهم الجبن والخوف من عدوهم إلى الفرار، وترك الديار، مع أنهم لم يكونوا قلة، وإنما خوف الموت هو السبب فى كل بلاء.

﴿فقال لهم الله موتوا﴾: المراد أماتهم الله سبحانه بأن أذلهم ومكن عدوهم منهم، ثم أحيا منهم جيلا جديدا لم يكن جبانا، والموت والحياة يعتريان الجماعة الواحدة باعتبار حالات مختلفة، فمعنى موتهم أن العدوَّ نَكَّل بهم وأذلهم حتى صاروا لا وجود لهم كأمة، ومعنى إحيائهم رجوع استقلالهم وعزتهم ووجودهم فى الحياة كأمة محترمة، وإطلاق الحياة على الحالة المعنوية الشريفة فى الأشخاص أو الأمم.

(١) آياته.
(٢) ديارهم.
(٣) ولكن.
(٤) وقاتلوا.
(٥) فيضاعفه.
(٦) ويبسط.
(٧) الملأ.
(٨) إسرائيل.
(٩) تقاتلوا.
(١٠) نقاتل.
(١١) ديارنا.
(١٢) وأبنائنا.

وإطلاق الموت على مقابلها، كل ذلك معهود فى القرآن، قال تعالى: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس﴾ الآية (١٢٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣. وقال سبحانه: ﴿استجيبوا لله والرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ الآية (٢٤) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٠. ويوضح ذلك دقة التعبير حيث عطف الموت على الخروج جبناً بحرف (الفاء) الدالة على اتصال الذل بالفرار مباشرة. وعطف إحياءهم على الموت بحرف (ثم) الدالة على التراخى فى الزمن.

﴿يقرض الله قرضا حسنا﴾: تركيب يفيد الحث على إنفاق الحلال فى وجوه الخير ابتغاء رضوانَ الله ليعطيه سبحانه أكثر منه (انظر أصل معنى مفردات هذا التركيب فى شرح الآية (١١) من سورة الحديد صفحة ٧٢٠ وجاء به بعدما تقدم إشعارا بأن دفع العدو يحتاج المال.

﴿فيضاعفه له﴾: أى يعوضه بدله أكثر منه مرات عديدة انظر الآيتين (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥، (٢٦٥) من نفس السورة صفحة ٥٦.

﴿يقبض﴾: أى يضيق الرزق.

﴿ويبسط﴾: أى ويوسع الرزق انظر الآيات (٣٥، ٣٦، ٣٧) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨.

﴿الملأ﴾: هم الجماعة من الوجهاء التى تحيط بالرئيس فتملأ عيون الأتباع مهابة.

﴿لنبى لهم﴾: هو صموبل.

﴿ابعث﴾: المراد عيّن.

﴿ملكا﴾: المراد أميرًا نرجع إليه فى شئون الحرب وغيرها.

المعنى: فرض هذا المتاع على الذين يخافون عقاب الله فيبتعدون عما يغضبه، كهذا البيان الواضح يبين الله كل آيات الأحكام ليسهل عليكم أن تعقلوا حكمته فى هذا التشريع. وختم الله بهذه الآية أحكام المطلقات لتشمل ما لم يدخل فيما سبق من صور المطلقات الأربع المتقدم ذكرها، وهما صورتا الممسوسة المفروض لها مهر، وغير المفروض. قال بعض العلماء: إن المتعة

ذكرها، وهما صورتا الممسوسة المفروض لها مهر، وغير المفروض. قال بعض العلماء: إن المتعة غير الصداق، وأنها واجبة لمن لا تستحق صداقا مندوبة لمن تستحقه كله أو نصفه. بل قال الحسن: إن لكل مطلقة متاعا، دخل بها أو لم يدخل، فرض لها أم لا، وظاهره الوجوب فى الكل. وقال قوم إنه مندوب فى المدخول بها. ثم شرع سبحانه فى ذكر قصص بعض السابقين للعبرة بما فيها من أن الجبن سبب الذل، والشجاعة سبب العزة، فقال سبحانه: «ألم تر» بقلبك وتعلم يا من يصح منك العلم إلى الذين خرجوا من ديارهم ومع أنهم كثيرون فقد خافوا الموت بجبنهم، فجزاهم الله بموتهم الأدبى وإذلال عدوهم لهم، وبعد انقراض هذا الجيل الجبان أحياهم الله بإخراج جيل جديد أرجع ملكهم. إن الله ذو فضل على الناس حيث جعل من المصائب حافزا للعزائم، وجعل اعتداء الظالم منبها لشعور المظلوم بقسوة الظلم فيستميت فى دفعه ويصلح أمر الناس، انظر الآية (٢٥١) الآتية من هذه السورة صفحة ٥٢. ولكن أكثر الناس لا يقومون بحقوق هذه النعمة من الشكر فلم يستفيدوا منها. ولما هيأ سبحانه النفوس للشعور بذم الخضوع للذل أمر المؤمنين بقتال أعدائهم فقال: «وقاتلوا فى سبيل الله» أى لإعلاء دينه. ولما كان الجهاد يطلب الإنفاق حث عليه فقال «من ذا الذى يقرض» إلخ، أى أقرضوا وادفعوا فى سبيل الله بطيب نفس ومال حلال فيضاعف الله ثوابه، والله يضيق الرزق على من يشاء امتحانا أيصبر، ويوسعه على من يشاء امتحانا هل يشكر. وإلى الله المرجع والمجازاة. ولما كان الذى حصل لبنى إسرائيل بعد انقضاء زمن التيه وهو أربعون سنة كما فى الآية (٢٦) من سورة المائدة صفحة ١٤١. أنهم (أى بنى إسرائيل) رجعوا إلى الله تعالى وندموا على ما حصل منهم وعزموا على دخول فلسطين، فنصرهم الله تعالى على من فيها من الوثنيين، وبعد زمن كثير انحرفوا ثانيا كما هى عادتهم فسلط الله سبحانه عليهم جبابرة الوثنيين فشردوهم واستولوا على التابوت الذى كانوا يحملونه معهم فى الحروب لتقوى قلوبهم، لما كان كل هذا قال سبحانه فى ذلك ألم ترفضه الجماعة من بعد موت موسى حين قالوا لنبيهم أقم لنا أميرًا نقاتل معه فى سبيل الله الوثنيين فى فلسطين، قال: أتوقع جبنكم إن فرض عليكم القتال. قالوا: ولم الجبن والحال أنا أخرجنا من ديارنا وأبعدنا عن أبنائنا بسبب سبى الأبناء؟ فلما فرض عليهم القتال تولوا وجبنوا.

إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين[1] ﴿٢٤٦﴾ وقال لهم
نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى
يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت
سعة من المال قال إن الله اصطفاه[2] عليكم وزاده
بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء
والله واسع[3] عليم ﴿٢٤٧﴾ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه
أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك
آل موسى وآل هارون[4] تحمله الملائكة[5] إن في ذلك
لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴿٢٤٨﴾ فلما فصل طالوت
بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس
مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة
بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين

﴿أنى يكون﴾: كيف يكون.

﴿سعة من المال﴾: رزقا واسعا.

﴿بسطة﴾: سعة.

﴿آية ملكه﴾: أى علامة كونه ملكا.

﴿التابوت﴾: هو الصندوق الذى كانت فيه ألواح التوراة، ووصايا الله سبحانه لبنى إسرائيل. قال المرحوم الشيخ محمد عبده: إن التابوت كان بعد موسى عند فتاه (يوشع انظر الآية (٦٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٩، وصار ينتقل بعد ذلك عند رؤسائهم فى الشريعة، وإنهم كانوا يستنصرون به، ويقدمونه أمام الجيش، فتقوى عزائمهم، فينصرهم الله عز وجل بتلك الشجاعة، ولذلك لما ضعف يقينهم، وفسدت أخلاقهم،، غلبهم عدوهم وأخذ منهم التابوت، فلم يغن عنهم وجود التابوت عند فسادهم شيئا، وكان ذلك بسبب الحروب التى وقفت بينهم وبين مَنْ جاورهم من الفلسطينيين الذين أذلوا اليهود وأخذوا التابوت منهم. وكان (صمويل) الذى ينطق به العرب (شمويل) قاضيا لبنى إسرائيل من بعد هذه الحروب، وهو نبيهم الذى طلبوا منه أن يعين لهم ملكا كما تقدم، وكان بعد موسى بنحو ألف سنة كما قال ابن كثير والشيخ محمد عبده.

﴿فيه سكينه﴾: سكينة أى تطمين لقلوبكم، والمراد فى إتيانه ووجوده بينكم تطمين قلوبكم.

(١) بالظالمين.
(٢) اصطفاه.
(٣) واسع.
(٤) هارون.
(٥) الملائكة.

(آل موسى وآل هارون): المراد موسى وهارون ومَنْ تبعهما من أنبياء بنى إسرائيل، انظر المراد من (آل) فى شرح قوله تعالى ﴿أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ الآية (٤٦) من سورة غافر صفحة ٦٢٤. ﴿تحمله الملائكة﴾: الذى يؤخذ مما فى كتب العهد القديم أن أهل فلسطين الذى غلبوا اليهود أصيبوا بأمراض ونقص فى الزروع، فتشاءموا من وجود التابوت بينهم، وظنوا أن إله إسرائيل انتقم منهم، فوضعوا التابوت على عجلة تجرها بقرتان ووجهوهما إلى موضع بنى إسرائيل تخلصا منه.

ولعل السبب فى قول نبيهم (تحمله الملائكة) هو أن البقرتين اللتين كانتا تجران العجلة من فلسطين إلى موضع بنى إسرائيل كانتا تسيران بدون قائد ولا سائق والعادة أن ما يجرى من الخبر بإلهام لا دخل للبشر فيه يقول عنه الناس إنه إلهام ملائكى لذا قال تحمله الملائكة.

(فصل طالوت): أى انفصل بالجيش عن محل إقامته متوجها إلى القتال.

﴿مبتليكم﴾: أى مختبركم. ﴿لم يطعمه﴾: أى لم يذق ماءه. ﴿غرفة﴾: من الغرف، وهو أخذ مقدار قليل من شىء كثير، وهى هنا بمعنى مفعول، أى مغروفة كلقمة بمعنى ملقومة، ونهبة بمعنى منهوب.

المعنى: جبنوا جميعا إلا قليلا منهم، والله عليم بمن ظلموا أنفسهم وأمتهم بالجبن وسيجازيهم ثم شرع سبحانه يفصل هذه الحادثة فقال: وقال لهم نبيهم صمويل إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا كما طلبتم، قالوا كيف يكون هذا والحال أننا أحق بالملك منه لأنه ليس من كبرائنا ولا من أغنيائنا؟ فرد نبيهم قولهم بما يفيد أن ما ذكروه لا دخل له فى استحاق ... المعول عليه صفات ذاتية فى الشخص تؤهله لاختيار الله له، منها إنه منح سعة علم أعلم بنى إسرائيل بفنون الحرب وبالكتاب المقدس، وكان أطولهم قامة ذا ... كه من يشاء ممن يستحقه لا بالوراثة، واسع الفضل عليم بمن هو أهله.

... م دليلا على أن الله اختاره ملكا قال لهم إن دليل ذلك هو أن يأتيكم التابوت

فيه ما يطمئن قلوبكم وفيه قطع من ألواح التوراة مما تركه أتباع موسى وهارون من أنبياء بنى إسرائيل حال كونه تحمله الملائكة. ولما حصل هذا وخضعوا وخرج بهم طالوت من مكان إقامتهم متوجها لقتال أعدائهم الوثنيين بفلسطين أراد امتحانهم ليعلم المخلص مأمون الطاعة وغيره ليبعده عن الجيش لخطر وجود من يخالف أمر القائد عند الشدة، فسار بهم مسافة اشتد عطشهم فيها، ثم قال إن الله مختبركم بنهر سيلاقيكم، فمن شرب منه كثيرا فليبتعد عنا، ومن لم يطعمه أى لم يذق منه كثيرا فليبق معى. ولما وصلوا النهر شرب أغلبهم كثيرا، واكتفى قليل منهم بغرفة بيده يخفف بها قسوة العطش، ثم تخطى النهر طالوت والمخلصون معه بسرعة وتأخر الأكثرون حتى شبعوا ماء وحملوا منه ما استطاعوا، فلما جاوزه هو والمخلصون معه أولاً ثم لحقهم الباقى بدليل المناقشة الآتية وإنما اقتصر فى الذكر على مجاوزة المخلصين لأنهم هم الذين صاحبوا قائدهم فى المجاوزة بسرعة.

﴿جالوت﴾: هو أكبر طاغية فى وثنيى فلسطين أعداء بنى إسرائيل.

﴿الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم﴾: قال الراغب الأصفهانى فى كتابه (غريب القرآن).

﴿الظن﴾ اسم للإدراك الذى يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جدا لم تتجاوز الوهم. ومتى قوى الظن استعمل معه حرف (أَنَّ) المشددة التى تفيد التوكيد كما هنا.

ومثل ما هنا ما فى قوله تعالى فى الآية (٤٦) من سورة البقرة صفحة ١٠ والآية (٢٠) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢.

﴿برزوا﴾: ظهروا.

﴿أفرغ علينا صبرا﴾: أى أصبب على قلوبنا صبرا يقوينا فالمراد صبرنا.

﴿داود﴾: كان جنديا فى عسكر طالوت.

﴿وآتاه الله الملك﴾: جعله ملكا على بنى إسرائيل.

ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ
قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟[1] ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ
غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ[2] ﴿٢٤٩﴾
وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا
وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ[3] ﴿٢٥٠﴾
فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ[4] ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم
بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ[5] ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ[6] ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ
وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ[7] ۚ
وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ[8] وَأَيَّدْنَٰهُ[9] بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ

﴿الحكمة﴾: المراد بها هنا النبوة والزبور، انظر الآية (١٦٣) من سورة النساء صفحة ١٣١.

﴿البينات﴾: المعجزات الواضحة المذكورة فى الآية (٤٩) من سورة آل عمران صفحتى ٧٠، ٧١.

﴿الروح القدس﴾: الروح المقدس الطاهر وهو جبريل.

المعنى: قال الذين شربوا كثيرا لا قدرة لنا على قتال جالوت وجنوده. وقال الذين يوقنون أنهم ملاقو ربهم ليجازيهم على ثباتهم: كم من فئة قليلة، أى كثيرا ما حدث أن غلبت جماعة قليلة مؤمنة كثرة غير مؤمنة بتسهيل الله إذا صبروا، فإنه سبحانه مع الصابرين بالنصر والتأييد. وعند ذلك أبعد طالوت الجنود الذين خالفوا وشربوا كثيرا، أبعدهم عن الجيش لمخالفتهم أمر قائدهم، وعدم طاعة الجندى من أقوى أسباب الهزائم انظر الآية (١٥٢) من سورة آل عمران صفحة ٨٧. ولما برز طالوت والمؤمنون معه لجالوت قالوا ربنا أعنا عليهم بالصبر وثبت أقدامنا فى مواطن القتال. فاستجاب سبحانه

---

(١) ملاقوا.
(٢) الصابرين.
(٣) الكافرين.
(٤) وآتاه.
(٥) العالمين.
(٦) آيات.
(٧) درجات.
(٨) البينات.
(٩) وأيدناه.

وهزموهم، وقتل داود جالوت، فاشتهر داود وعد فى الأبطال، وكان جزاؤه أن آتاه الله الملك على بنى إسرائيل والنبوة والزبور، وعلمه مما ينفعه كصنعة الدروع، انظر الآية (٨٠) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٨، ٤٢٩.

فكان عليه السلام نبيا ملكا. ثم بين سبحانه حكمة الإذن فى قتال الجبابرة فقال «ولولا دفع الله الناس» إلخ، أى لولا أن الله تعالى يسخر أهل العدل والحق لدفع شر أهل الظلم والباطل لتغلب الظالمون وفسدت الأرض ومن عليها، ولكن الله من فضله ورحمته بالضعفاء سخر للظالم من ينتقم منه.

تلك القصص المتقدمة أدلة من عند الله على صدقك أيها النبى، لأنك أمى لا تدرى من أخبار السابقين هذه الحقائق التى نتلوها عليك مقرونة بالحق، فكل ما يقال عنها خلاف ذلك باطل. وإنك أيها النبى لمن المرسلين حقا، إذ لولا الوحى لما عرفت من هذه الحوادث شيئا على الوجه الصحيح. انظر الآيتين (٤٤) و(٤٥) من سورة القصص صفحة ٥١٣... تلك الرسل المتقدم أنك منهم فضلنا بعضهم على بعض، ونص على من بقى لهم أتباع فقال: «منهم من كلم الله» وهو موسى، انظر الآية (١٦٤) من سورة النساء صفحة ١٣١. والآيات (١٤٣- ١٤٥) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٤، ٢١٥. «ورفع بعضهم درجات» يريد سبحانه بهذا البعض نبينا محمدا ﷺ. ووسطه فى الذكر بين موسى وعيسى إشارة إلى وجه فضله وهو أن شريعته وأمته وسط كما تقدم فى الآية (١٤٣) من هذه السورة صفحتى ٢٧، ٢٨ وفضله أنه صاحب رسالة عامة للناس كلهم خالدة إلى يوم القيامة. فكان رحمة للعالمين، انظر الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٢ والآية (٢٨) من سورة سبأ صفحة ٥٦٦.

﴿وآتينا عيسى بن مريم﴾ المعجزات الواضحة. وإنما ذكر عيسى باسمه لحكم، منها إبطال ما يزعمه عنه أهل الكتابين اليهود والنصارى من التفريط والإفراط فاليهود افتروا عليه بأنه ابن زنا والنصارى قدسوه حتى ألحقوه بالله تعالى، وقوينا أدلة نبوته بروح القدس جبريل.

﴿خلة﴾: صداقة.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ
الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ
يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ
هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ
لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ
وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا
وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ
الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ

﴿القيوم﴾: البالغ النهاية فى القيام بتدبير ملكه وفى الأساس قام على الأمر أى دام وثبت.

﴿سنة﴾: هى ما يتقدم النوم من الفتور.

﴿كرسيه﴾: سلطانه وعظمة قدرته.

﴿لا يؤوده﴾: لا يثقله ولا يشق عليه.

﴿الرشد﴾: ضد الغى.

﴿الغى﴾: الجهل الناشئ عن اعتقاد فاسد. والمراد طريق الرشد وطريق الغى.

﴿الطاغوت﴾: كل ما تكون طاعته سببا للطغيان والبعد عن الحق سواء أكان مخلوقا يعبد، أو رئيسا جبارا يطاع فى الشر خوفا من بطشه، أو شيطانا يضل عن طريق الصواب. ويطلق الطاغوت على الواحد والمتعدد، فيقال رجل طاغوت أى طاغية، ورجال طاغوت أى طاغون.

المعنى: لو شاء الله عدم اختلاف أتباع الرسل من بعد ما جاءتهم أدلة الحق ما اختلفوا ولكانوا متفقين قهرا عنهم كالملائكة، وما وقع بينهم خلاف أو قتال، ولكن طبعهم يقتضى أن يختلفوا كما تقدم فى الآية (٢١٣) من هذه السورة صفحتى ٤١، ٤٢. والاختلاف يؤدى إلى القتال غالبا. ثم بين سبحانه أهم ما اختلفوا فيه فقال: ﴿منهم من آمن ومنهم من كفر﴾ ولو شاء الله حتى بعد اختلافهم هذا عدم اقتتالهم ما اقتتلوا، بأن يخلقهم على أن يعذر المخالف

---

(١) البينات. (٢) رزقناكم. (٣) شفاعة.
(٤) والكافرون. (٥) الظالمون. (٦) السموات.
(٧) السموات. (٨) يؤوده. (٩) بالطاغوت.

من يخالفه، ويقتصر كل منهما فى نصرة رأيه على الحجة وحدها، ولكنه سبحانه جعل فى غرائزهم أن القوى يميل لمقاتلة مخالفه فى الرأى، وشرع لهم تحريم البغى ليحصل فى الآخرة ثواب وعقاب، وإلا لكانوا جميعا ملائكة، وتغير نظام هذا العالم. والله يفعل ما يريد. وقد أرادهم أن يكونوا غير الملائكة.

ثم بيَّن سبحانه ما يهذب النفوس مع التحذير من عقابه بقوله سبحانه ﴿انفقوا مما رزقناكم﴾ فى سبيل الله من قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لا بيع فيه حتى يشترى البخيل نفسه وينقذها من العذاب بمال يبذله، ولا صداقة يحمل بها صديق عن صديقه شيئا من ذنوبه، انظر الآية (٩١) من سورة آل عمران صفحتى ٧٧، ٧٨. والآية (٥٤) من سورة يونس صفحتى ٢٧٤، ٢٧٥. والآية (١٨) من سورة الرعد صفحة ٣٢٤. والآية (٤٧) من سورة الزمر صفحة ٦١٣. والآيات (١١-١٤) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥. والآيات (٣٤- ٣٧) من سورة عبس صفحة ٧٩٣؛ ولا شفاعة إلا بإذنه تعالى، ولا يأذن فيها لمن دنس نفسه بالبخل، والكافرون بنعمه تعالى الغافلون عن هذا اليوم هم الظالمون لأنفسهم.

الله الواحد الحى القائم بتدبير ملكه على أحسن وجه لا تغلبه سنة ولا نوم، له كل ما فى السموات إلخ، فهم ملكه وعبيده، لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضى عنه، انظر الآية (٢٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣، يعلم ما بين أيدى خلقه أى ما قدموه فى الدنيا، وما خلفهم أى ما أعد لهم فى الآخرة، فلا يأذن فى الشفاعة إلا لمستحق، انظر الآيات (١٠٩- ١١٢) من سورة طه صفحة ٤١٦، ولا يعلمون شيئا من علومه إلا ما شاء أن يطلعهم عليه، وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يشق عليه حفظهما، لأنه العلى فى سلطانه، العظيم فى عزه وجلاله، لا إكراه على الدخول فى الدين بعد ظهور الأدلة التى تبين الرشد والغى، لأن أساس الدين العقيدة ولا يمكن الإكراه على العقائد كما فى الآية (٩٩) من سورة يونس صفحة ٢٨١. فمن يكفر بالطاغوت فيعصى كل طاغية يحارب الله ورسوله، ويؤمن بالله فلا يطيع غيره.

ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ[١]
إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ[٢] يُخْرِجُونَهُم
مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ[٣] ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ[٤] ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ[٥] ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ[٦] فِى رَبِّهِۦٓ
أَنْ ءَاتَىٰهُ[٧] ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ[٨] رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ[٩]
وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ[١٠] وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ[١١] فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى
بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى
كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ[١٢] ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ
عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ[١٣] هَٰذِهِ
ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ
قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ

﴿العروة﴾: أصلها مقبض الدلو أو الكوز، والمراد بها هنا السبب الموصل إلى رضا الله.

﴿الوثقى﴾: تأنيث الأوثق، أى الأشد فتلا وإحكاما. ﴿لا انفصام﴾: لا انقطاع.

﴿ولى الذين آمنوا﴾: أى متولى أمورهم وناصرهم.

﴿الذى حاج إبراهيم﴾: أى جادل وهو نمروذ.

﴿بهت﴾: أى تحير ودهش وعجز عن الجدل.

﴿خاوية على عروشها﴾: خالية من السكان ساقطة حيطانها على سقوفها.

﴿أنى يحيى﴾: أى كيف يحيى؟

المعنى: من يؤمن بالله فقد اشتد تمسكه بالدين الحق الذى من تمسك به فقد تمسك بشىء متين لا ينقطع أبدًا، والله سميع بالأقوال، عليم بالنيات، فيعلم المخلص والمنافق. والله متولى

---

(١) الظلمات
(٢) الطاغوت.
(٣) الظلمات.
(٤) أصحاب.
(٥) خالدون.
(٦) إبراهيم.
(٧) آتاه.
(٨) إبراهيم.
(٩) يحيى.
(١٠) أحى.
(١١) إبراهيم.
(١٢) الظالمين.
(١٣) يحيى.

أمور المؤمنين فيخرجهم بهدايته من ظلمات الشبهات والوساوس الشيطانية إلى نور الحق واليقين، والكافرون متولى أمورهم كل مفسد طاغ من الكهنة وشياطين الإنس والجن يخرجونهم من نور الفطرة بإفسادها إلى ظلمات الكفر والمعاصى.

ثم ذكر سبحانه بعض ولايته للمؤمنين وخذلان الكافرين فقال: ألم تر، أى ألم تعلم يا من يصح منك العلم إلى نمروذ الذى جادل إبراهيم عليه السلام فى ربوبية ربه حيث أنكرها، لأن إعطاءه الملك والسلطان أبطره وأورثه كبرًا، لأن النفس الشريرة تقابل نعمه تعالى بالكفر بدل الشكر. فلما قال لإبراهيم من ربك الذى تدعونا إلى الإيمان به، قال إبراهيم: ربى هو الذى يحيى ويميت. قال نمروذ مغالطا: أنا أحيى من حكم بإعدامه بالعفو عنه وأميت من شئت بقتله. ولما كان هذا جدلا باطلا قد يصعب على الجهلة فهم الحقيقة فيه انتقل إبراهيم إلى حجة لا يستطيع فيها نمروذ مكابرة فقال: إن الله يأتى بالشمس إلخ، فعجز الكافر وأفحم. والله لا يهدى من ظلم نفسه بالإعراض عن التفكير فى الدليل على وجوده.

وألم تعلم أيضا مثل الذى مر على قرية خربة أثارت فى نفسه شبهة وإنقاذ الله له لسلامة فطرته، فلما قال متعجبا من شدة خرابها كيف يحيى الله أصحاب هذه القرية بعد موتهم فأماته الله وتركه ميتا مائة عام ويصح أن تكون الموتة الصغرى كما فى الآية (٢١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٣ وما قبلها؛ ثم بعثه أى أحياه وقال له على لسان ملك كم لبثت أى وقتًا مكثت؟ والحكمة فى السؤال إظهار عجز العبد عن الإحاطة بشئونه تعالى، قال تخمينا كما خمن أصحاب الكهف فى الآية(١٩) صفحتى ٣٨٢، ٣٨٣: يوما أو أقل، قال الملك: كلا بل مكثت على حالك التى كنت عليها مائة عام.

﴿لم يتسنه﴾: لم يتغير.

﴿آية للناس﴾: دليلا على قدرتنا.

﴿ننشزها﴾: نضم أجزاءها بعضها إلى بعض، وفى قراءة ننشيها من الإنشاء وهو الخلق الجديد.

فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ
وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا
ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ[1] رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي
الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي
قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ
كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ
أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ[2]
فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ
سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ[3] لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ[4]
عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ[5] فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ
مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ

﴿قال أولم تؤمن﴾: الهمزة للتقرير، وهو حمل المخاطب على الإقرار بما بعد النفى الآتى بعده.

﴿بلى﴾: المراد أقر بأنى مؤمن ولكن.. إلخ انظر (بلى) فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

﴿صرهن﴾: من صاره يصوره أماله بوزن عاقه يعوقه.. تقول العرب صرت الغصن أملته لأجنى ثمره.. وقرئ بكسر الصاد من صاره يصيره كباعه يبيعه ومعناه الإمالة والضم أيضا كما نقله الطبرى عن العرب، أى اجعلهن يملن إليك بالإيناس.

﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾: ومثلها ﴿ويزيدهم من فضله﴾ الآية (٣٨) من سورة النور صفحة ٤٦٤. أى والله يضاعف الأجر أى يزيده إلى سبعمائة أو أكثر كما فى قوله سبحانه (بغير حساب) الآية (١٠) من سورة الزمر صفحة ٦٠٧.

وهذا التفاوت يكون حسب تفاوت أحوال المنفقين من قوة الإيمان وشدة الإخلاص، والبذل فى سبيل الله مع الحاجة، والبذل مع الغنى، فرب دينار واحد يبذله فى طريق الخير محتاج إليه أكثر ثوابا من عشرة دنانير يبذلها من ليس فى حاجة إليها.

﴿منا﴾: هو تعداد الإحسان على المحسن إليه كأن يقول المحسن للمحسن عليه أنا أعطيتك كذا وفعلت لك كذا.

﴿أذى﴾: هو أعم من المن يشمله ويشمل ما هو أقسى منه كأن يعيره بأنه ناكر الجميل مثلا.

المعنى: وإذا أردت دليلا على قدرتنا فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتغير هذه المدة الطويلة وإلى حمارك كيف مات وتفتت عظامه. فعلنا ذلك لنريك قدرتنا ولنجعلك دليلا عليها للناس.

---

(١) إبراهيم. (٢) أموالهم. (٣) يضاعف. (٤) واسع. (٥) أموالهم.

ثم انتقل سبحانه من دليل خاص بهذا الرجل فى نفسه ولمن شاهده إلى دليل عام لجميع الناس مستمر يستدل به على البعث فى كل زمان وهو قدرته تعالى على تكوين عظام الحيوان ولحمه من مادة الأرض، وهذا الدليل أكثر سبحانه من الاحتجاج به على المنكرين للبعث من كل أمة، انظر الآية (٢٩) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦، والآيات (٤٩، ٥١، ٩٨، ٩٩) من سورة الإسراء صفحتى ٣٧١، ٣٧٨، والآية (١٠٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، والآية (١٦) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦، والآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤، والآية (٧٨) من سورة يس صفحة ٥٨٦، والآية (٣) من سورة القيامة صفحة ٧٩٧.

فلما ظهر الحق لهذا الرجل اعترف بقوة يقينه بقدرة الله. ثم ذكر سبحانه مثالا ثالثا لعنايته بالمؤمنين ونقلهم من رتبة العلم إلى رتبة عين اليقين فقال: ﴿وإذ قال إبراهيم﴾ إلخ أى أرنى بعينى كيفية إحياء الموتى رؤية عيان، قال: ألم تعلم ولم تؤمن بأنى قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألنى هذا السؤال.. أى أنت تعلم قدرتى وتؤمن بها.. قال إبراهيم نعم أعلم، ولكنى أريد علم المشاهدة ليطمئن قلبى بضم علم العيان والمشاهدة إلى علم البرهان، قال خذ أربعة من الطير أى ليكون فى كل جهة من الجهات الأربع بعض من الطير فصرهن إليك. قال أبو مسلم: المعنى فخذ أربعة من الطير فآنسهن بك حتى تصير بحيث تجيب دعوتك ثم أجعل كل واحد منها على جبل ثم نادها بما عودتها به فإنها تسرع إليك كذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة (كن) فيكونون كما يريد، انظر الآية (٢٥) من سورة الروم صفحة ٥٣٣.. فالمقصود ذكر مثال محس فى دعوة الأرواح إلى الأجساد بسهولة.. والمراد بالسعى الإتيان السريع طيرانا أو مشيا.. والله تعالى عزيز لا يعجزه شىء، حكيم فى كل ما يفعل..

ولما فرغ سبحانه من أمثلة عنايته بالمؤمنين شرع فى بيان بعض ما يقربهم إليه وهو الإنفاق فى سبيله فقال: مثل ماينفقه الذين ينفقون فى سبيل الله وهو كل ما يوصل إلى رضاه، كمثل حبة بر مثلا والمعنى أن المنفق لوجه الله يضاعف الله تعالى له الجزاء أضعافا كثيرة سبعمائة فأكثر كما قال (والله يضاعف لمن يشاء) فيزيده على السبعمائة بما لا يحصر. والله تعالى واسع لا يحد فضله، عليم بمن يستحق المضاعفة..

ثم بين سبحانه بعض ما يكون عليه هذا الإنفاق المضاعف الأجر بأنه هو الصادر من مؤمن لا يمن على المنفق عليه ولا يؤذيه، فهؤلاء لهم أجرهم الذى وعدهم به ربهم فى الآية السابقة، ولا يخافون يوم يخاف الناس من الفزع الأكبر.

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ
مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ
مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ
كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ
لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ
مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا
وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ
جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن
كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ

﴿رئاء الناس﴾: مرائيا لهم ليمدحوه.

﴿صفوان﴾: حجر كبير أملس.

﴿تراب﴾ المراد غبار.

﴿وابل﴾: مطر شديد. ﴿صلدا﴾: أملس لا غبار عليه.

﴿وتثبيتا من أنفسهم﴾: أى تحقيقا للثواب عليه واعتقادا منهم بأنه حاصل لهم اعتقادا ناشئا من صميم أنفسهم بخلاف المنافقين فإنهم لا يرجونه لإنكارهم له.

﴿ربوة﴾: مكان مرتفع. ﴿أكلها﴾: ثمرها الذى يؤكل. ﴿ضعفين﴾: أى أربعة أمثال ما ينتج من غيرها وهذا تصوير آخر غير ما تقدم فى الآية (٢٦١) من هذه السورة صفحة ٥٥ يبين لنا حال فريق من المنفقين أموالهم طلبا لرضاء الله، وأن الله سبحانه يمنحهم من الثواب مثل ما يمنح غيرهم ممن لم يصلوا إلى حالهم فى قوة الإيمان وشدة الإخلاص.

﴿فطل﴾: الطل هو المطر الخفيف صغير القطر، والأصل فالذى يصيبها ويكفيها طل.

﴿أيود﴾: هل يحب، والاستفهام للإنكار المفيد للنفى أى لا يجب.. إلخ. ﴿جنة﴾: بستان.

المعنى: ولا هم يحزنون على فوات النعيم يوم يحزن البخلاء. ثم أكد سبحانه النهى عن المن والأذى بقوله (قول معروف ومغفرة) إلخ. أى كلام جميل يقال للسائل كيرحمك الله، أو ربنا يعطيك ويعطينا، ومغفرة أى ستر عليه ما يقع منه من إلحاح وغيره، خير للسائل من صدقة يتبعها أذى. والأذى يشمل المن. والمراد أن العمل الصالح يجب أن يكون خاليا من كل عيب يذهب من فائدته.

---

(١) صدقاتكم. (٢) الكافرين. (٣) أموالهم. (٤) الأنهار. (٥) الثمرات.

والله تعالى غنى. وإنما أمر بالإنفاق لمصلحة المنفق وليظهر عيب البخيل، حليم لا يعجل العقوبة للمخالف لعله يرجع. ثم أكد سبحانه قبح المن والأذى بجعله كالرياء المذموم عند جميع الناس فى العاقبة الوخيمة فقال (لا تبطلوا صدقاتكم) إلخ، ولا تضيعوا ثواب صدقاتكم تضييعا كتضييع الذى ينفق ماله مرائيا للناس ليمدحوه، ولا يبغى رضا الله لانشغال قلبه بمظاهر الدنيا، ولا يؤمن بالله حتى يخافه، ولا باليوم الآخر حتى يعد له ما ينجيه من هوله، فمثل هذا المرائى ونفقته كمثل حجر ناعم عليه غبار رقيق نزل عليه مطر شديد أذهبه ولم يبق منه شيء، فهؤلاء المراءون لا يستطيعون الحصول على شيء من ثمرة إنفاقهم إذا أصابهم غضبه تعالى أو أحبط أعمالهم، كما لايستطيع الحجر إمساك ما عليه من الغبار إذا أصابه مطر شديد. والله تعالى لا يهدى الكافرين عقابا لهم وفى الكلام إشارة إلى أن المن والأذى من صفات الكافرين فيجب على المؤمن الابتعاد عنهما.

ثم ضرب المثل للمخلصين فقال: ومثل الذين ينفقون أموالهم طلبا لرضاه وتيقنا من ثوابه تيقنا صادرا من صميم أنفسهم لا نفاقا، قال الحسن رضى الله تعالى عنه: كان الرجل منا إذا هم بحسنة يتثبت، فإن كانت لله فعل، وإن أحس برياء أمسك، مثل إنفاق هؤلاء كمثل بستان فى مكان عال معرض شجره للشمس والهواء نزل عليه مطر كثير فاثمر قدر غيره أربع مرات، فإن لم يصبه وابل كفاه طل لجودة أرضه وحسن موقعه. والمراد أن هذه الجنة تثمر كثيرا قل المطر أو كثر، فكذا نفقات المخلصين تنمو عند الله قلت أو كثرت. ولكثرة وقوع الناس فى الرياء والمن والأذى ضرب الله سبحانه لها مثلا آخر يبرزها فى صورة مخيفة فقال: ﴿أيود أحدكم﴾ إلخ، أى لا يحب أحدكم أن يصير إلى حال رجل له بستان من نخيل وأعناب وغيرها كما يستفاد مما يأتى، وإنما اقتصر على ذكرهما لأهميتهما، وقد أصابته الشيخوخة فصار محتاجا لما فى البستان، ومع ذلك له ذرية ضعفاء لا يقدرون على كسب ولا على دفع ضر. وذكر الذرية لإظهار قسوة الحسرة عليه لأنه إذا رأى المصيبة تعمه وتعم عياله الضعفاء كان ألمه أشد وحسرته مضاعفة.

إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا
مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ
وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن
تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ
يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ
وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ
وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا
أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ
فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا
الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ
خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

﴿إعصار﴾: ريح عاصفة تستدير في الأرض ثم ترتفع حاملة غبار كهيئة عمود.

﴿ولا تيمموا﴾: تقصدوا.

﴿الخبيث﴾: المراد به هنا الرديء الذي لا تحرص عليه النفوس لا الحرام فإنه منهى عن اقتنائه فضلا عن إنفاقه.

﴿إلا أن تغمضوا فيه﴾: قال الراغب: الإغماض إطباق الجفن عند الشعور بالنوم، وقد استعير بها هنا للتغافل والتساهل، ويصح أن يكون (تغمضوا) مضمن معنى التساهل، وبما أن ﴿تغمضوا﴾ متعد فمفعوله مقدر مفهوم من سياق الكلام، والأصل ولستم بآخذيه في أي حال من الأحوال إلا في حال أن تغمضوا أبصاركم عنه متساهلين في أخذه لرداءته. ﴿حميد﴾: دائم استحقاق الحمد على نعمه التي لا تنقطع. ﴿الحكمة﴾: المراد بها هنا معرفة أسرار أحكام القرآن والإصابة في القول والعمل ووضع كل شيء محله. ﴿الألباب﴾: العقول. ﴿فنعما هي﴾: فنعم إبداؤها.

المعنى: فأصاب الجنة ريح فيه نار أي شديد الحرارة يحرق الشجر ويذهب النبات، فكذلك المرائي والمانُّ أو المنَّان والمؤذي يكونون يوم القيامة في شدة الحاجة إلى نفقاتهم التي قرنت بالرياء أو المن أو الأذى، فإذا بهم يجدونها قد حبطت وذهب ثوابها وسيقوا إلى جهنم، فيجمعون مع الحسرة بضياع أموالهم عبثا حسرة العذاب الأليم، كهذا البيان الواضح يبين الله تعالى آياته لتعتبروا بما فيها.

وبعدما بين سبحانه ما ينبغي أن يكون عليه حال المنفق شرع في بيان ما ينبغي مراعاته في المبذول فقال: ﴿أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ وهي أجودها وأحبها إلى النفس كما في

---

(١) الآيات. (٢) طيبات. (٣) الشيطان.
(٤) واسع. (٥) الألباب. (٦) للظالمين. (٧) الصدقات.

الآية (٩٢) من سورة آل عمران صفحة ٧٨. أى أنفقوا فى سبيل الله من أجود أموالكم من النقد وعروض التجارة، ومما أخرجنا لكم من الأرض من حب وثمر، ولا تقصدوا المال الردىء تنفقون منه وحده والحال أنكم لا تأخذون هذا الردىء لو أعطى لكم سدادا لحقوقكم إلا مغمضين أبصاركم عن النظر فيه لكراهتكم له. فالمراد لا تعطوا ما لا ترضون لأنفسكم. إن الله غنى عنكم، وإنما أمركم بما فيه مصلحتكم، حميد يستحق الحمد دائما، ومن جملة حمده وشكره على نعمه تحرى الإنفاق من الطيب، ثم بين سبحانه البخل ليتنبه المؤمن وينقطع عذر البخيل فقال: ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ إلخ، أى يخيل إليكم بوسوسته أن الإنفاق يذهب المال فاحرصوا عليه، ويأمر بوسوسته أيضا بالفحشاء كالبخل ومنع الزكاة، والله تعالى يعدكم فى كتابه جزاء ما أنفقتم مغفرة لذنوبكم، وفضلا أى رزقا حسنا، أى يجمع لكم بين خيرى الدنيا والآخرة.

والله عز وجل واسع الفضل عالم بنيات المنفقين، وهو سبحانه يؤتى الحكمة من يشاء من عباده الصالحين، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرى الدنيا والآخرة. وما يتعظ وينتفع إلا أصحاب العقول الخالصة من ظلمة الشهوات.

ثم أراد سبحانه أن يبين حُكمًا عامًا لجميع أنواع النفقات وما فى حكمها من النذر بعد بيان ما كان منها فى سبيل الله فقط فقال سبحانه: ﴿وما أنفقتم من نفقة﴾ قليلة أو كثيرة، سرا أو علنا، فى حق أو باطل، أو نذرتم من نذر، فى طاعة أو معصية، فإن الله سبحانه يعلمه ويجازى عليه، وما من نصير يدفع عذاب الله عمن ظلم.

ثم فصَّل سبحانه بعض ما أجمل أولا فقال: إن تبدوا. أى تظهروا إعطاء الصدقات «فنعمَّ» هذا الإبداء، وإن تعطوها خفية ويكون الآخذ فقيرا محتاجا فالإخفاء خير لكم لبعده عن الرياء وعن جرح كرامة الفقير. ويكفر هذا الإعطاء مطلقا سرا وعلنا شيئا من سيئاتكم، ومن السيئات ما لا يكفرها إلا السعى على الأولاد أو الحج المبرور مثلا، والله بما تعملون من خير وشر، خبير، وسيجازى عليه.. وأكثر العلماء يرون أن إظهار صدقة الفرض كالزكاة أفضل، وإخفاء صدقة التطوع أفضل إلا لمن وثق من نفسه عدم الرياء وكان قدوة للناس فيحسن له إظهارها ليقتدى به غيره.

خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ[١] وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي
مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ
إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ
وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ
أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ[٢] لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ
إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾
الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم[٣] بِاللَّيْلِ[٤] وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾
الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا[٥] لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ[٦] مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا
الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا[٧] ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا[٨] ۚ فَمَن

وقال: الفقراء، ولم يقل فقراءكم أو فقراء المسلمين، ليفيد أن صدقة التطوع مطلوبة لكل فقير ولو كان كافرا. إلا الكافر المحارب فإنه لا يجوز إعطاؤه.

﴿إلا ابتغاء وجه الله﴾: أى إلا طلبا لرضى الله. ﴿أحصروا فى سبيل الله﴾: أى حبسهم عن الكسب أنهم خصصوا جميع أوقاتهم للجهاد والاستعداد له. ﴿ضربا فى الأرض﴾: الضرب فى الأرض كناية عن السفر، والمراد أنهم لم يسافروا للتجارة وكسب الرزق لاشتغالهم عنه بالجهاد.

﴿سيماهم﴾: علاماتهم. ﴿إلحافا﴾: إلحاحا. ﴿يتخبطه الشيطان﴾: التخبط الضرب الشديد على غير نظام. ﴿المس﴾: الجنون.

المعنى: لما كانت الآية السابقة قد شملت الصدقة على المسلم والكافر، وكان بعض الصحابة قد تحرج من الإنفاق على المشركين.

لبعدهم عن الهداية، ولما كان شأن المؤمن أن يكون خيره عاما ليكون إنسانا كاملا، أراد سبحانه أن ينبه المؤمنين إلى أنه لا يجوز أن تربطوا الصدقة على المحتاج بإيمانه وهداه، لأن الهدى من الله فليس عليك أيها النبى هداهم، وأمتك مثلك، وإنما عليك البلاغ فقط، والله وحده هو الذى يهدى من يشاء بتوفيقه للنظر الصحيح إذا كان سليم الفطرة لم يفسدها، وما تنفقوا فى وجوه البر من خير أى مال حلال فثوابه لأنفسكم، والحال أنكم لا تنفقون إلا لطلب رضا الله لا رياء ولا جلبا لنفع دنيوى، واعلموا أن ما تنفقونه من خير يوفى إليكم جزاؤه تامًا، ولا تظلمون أى لا تنقصون منه شيئا.

---

(١) هداهم. (٢) بسيماهم. (٣) أموالهم. (٤) بالليل.
(٥) الربا. (٦) الشيطان. (٧، ٨) الربا

ثم بين سبحانه من هم أحق الناس بالصدقة وهم من اجتمعت فيهم خمس صفات فقال: (الفقراء) إلخ، أى أن الصدقات المطلوبة تعطى للفقراء أصحاب الصفات الآتية، وهم أهل الصفة، والصفة بضم الصاد سقيفة كانت فى المسجد النبوى، وكانوا أربعمائة من فقراء المهاجرين ليس لهم مأوى غير هذه السقيفة تقيم الشمس، الصفة الأولى: أنهم أحصروا فى سبيل الله. والثانية: أنهم لا يستطيعون سفرا لكسب رزق لتفرغهم للجهاد. الثالثة: أن الجاهل بحالهم يظنهم أغنياء لما هم عليه من التعفف. الرابعة: أن لهم علامات خاصة بهم وهى التواضع وأثر التعب. والخامسة: أنهم لا يسألون الناس شيئا حتى يلحفوا. والمراد لا يسألون أصلا فلا يقع منهم إلحاح كما هو الشأن فى محترفى التسول. والدليل على عدم وقوع سؤال منهم أصلا عدم معرفتهم إلا بعلامتهم، ولوسألوا لعرفوا! بالسؤال. وأيضا شدة تعففهم حتى يظن أنهم أغنياء، ولوسألوا لما كانوا كذلك. قال ﷺ ليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان لكن المسكين الذى لا يجد ما يكفيه ولا يفطن به فيتصدق عليه ولا يسأل الناس، إقرءوا إن شئتم: (لا يسألون الناس إلحافا). ثم شرع سبحانه فى بيان أحوال المنفق وزمان الإنفاق فقال: ﴿الذين ينفقون أموالهم﴾ إلخ المراد أنهم يشغلون أوقاتهم وأحوالهم بالصدقات لحرصهم على الخير، فكلما رأوا فرصة سارعوا ولم يتعللوا بوقت ولا حال.

ولما كان على النقيض من هؤلاء الأخيار الذين ينفقون بدون مقابل، الذين جمعوا مع البخل كل أموال الناس بالباطل، وهم المرابون، حذر سبحانه من عاقبتهم بقوله: ﴿الذين يأكلون الربا﴾ إلخ، المراد بالأكل مطلق الأخذ، لا يقومون من قبورهم بسبب الذهول والخبل الذى يلحقهم من شدة الهول إلا كما يقوم الذى يضربه الشيطان ضربا شديدا، وهذا تشبيه جاء على أسلوب العرب من تخيلهم أشياء مخيفة يبنون عليها كلامهم للتنفير منها كتخيلهم (غول وشيطان) للشىء القبيح، و(ملك) للحسن، ومنه ما جاء فى الآية (٦٥) من سورة الصافات صفحة ٥٦١. ذلك الأكل من الربا وما حل بهم من العذاب بسبب قولهم إن البيع الذى هو حلال قطعا مثل الربا فإذا جاز فالربا حلال، فكذبهم سبحانه فى هذه التسوية بقوله (وأحل الله البيع وحرم الربا).

جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ
إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ[1] ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ[2] ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟[3] وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ[4] ۗ وَٱللَّهُ
لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ[5] وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ[6] وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ[7] لَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟[8]
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ[9] لَا تَظْلِمُونَ
وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ
وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟
يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ

﴿موعظة﴾: وعظ وزجر عن الحرام.

﴿ما سلف﴾: ما مضى.

﴿يمحق الله الربا﴾: يذهبه ويذهب بركة ما خالطه.

﴿ويربى الصدقات﴾: يزيد فى فائدتها فى الدنيا والآخرة.

﴿وذروا﴾: اتركوا.

﴿فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾: أى فاعلموا أنكم على حرب مع الله ورسوله أى فأنتم أعداؤهما.

﴿فلكم رءوس أموالكم﴾: أى أصل أموالكم الخالى من الربا.

﴿ذو عسرة﴾: أى صاحب عسر لا يستطيع سداد أصل الدين.

﴿فنظرة إلى ميسرة﴾: أى فانتظار عليه إلى يسر وغنى يمكنه معه الأداء.

المعنى: فمن بلغه نهى من الله تعالى عن الربا فسمع وامتثل فله ما مضى من الربا قبل التحريم لأنه لا عقاب إلا بعد تحريم، وأمره بعد ذلك إلى الله تعالى يعامله بعدله، ومن العدل

---

(١) أصحاب.
(٢) خالدون.
(٣) الربا.
(٤) الصدقات.
(٥) الصالحات.
(٦) الصلاة.
(٧) الزكاة.
(٨) الربا.
(٩) أموالكم.

ألا يعاقب قبل بلوغ الحكم، لكن العبارة تشعر بأن رد الربا إلى أصحابه أفضل. ومن عاد إلى أكل الربا مستحلا له بعد هذا النهى فهو خالد فى النار؛ لأن استحلال الحرام كفر. يمحق الله الربا ويجعله سبب شقاء آكله، ويزيد فائدة الصدقات بالبركة فى مال صاحبها فى الدنيا وبزيادة أجرها فى الآخرة. والله لا يرضى عن شديد الكفر باستحلال الحرام. دائم ارتكاب الإثم. وقوله ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ إلخ، تعريض بمن يأكل الربا؛ كأنه يقول: لو كان من هؤلاء لامتنع عنه. وتمهيد لقوله يأيها الذين آمنوا اتقوا الله واتركوا ما بقى لكم من الربا عند الناس، فإن لم تتركوه فاعلموا أنكم فى حرب مع الله تعالى، ومن كان فى حرب معه فقد هلك، لأنه سبحانه قادر على الانتقام منه فى الدنيا بضياع المال والحسرة عليه عند فراقه، وبعذاب أليم فى الآخرة. وإن تبتم عن الربا امتثالا لأمر الله عز وجل فلكم أصل أموالكم فقط. ولا تأخذوا الزائد من الربا.

لا تظلمون المدين بأخذ الزائد، ولا يظلمكم المدين بنقص شىء من رأس المال.

وإن وجد مدين ذو عسرة وعجز عن سداد أصل الدين فانتظروه حتى يصير قادرا، ولا ترابوا المال عليه. وتصدقكم على المعسر بإبرائه من أصل الدين كله أو بعضه خير لكم من انتظار ميسرة لما فى التعاطف والتراحم من كبير الأجر عند الله، إن كنتم تعلمون الخير العظيم فى التصدق. روى مسلم أنه ﷺ قال: (من انظر معسرا أو ترك له شيئا مما عليه أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله).

ثم ختم سبحانه آيات الربا بالموعظة التى تذكر المؤمن بيوم القيامة وتسهل عليه التسامح والتفضل فقال: ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله﴾ فيوفى كل نفس جزاء ما عملت خيرا أو شرا، ولا يظلم الطائع بضياع شىء من أجره، ولا العاصى بزيادة شىء من العقاب عما يستحق.

وقد ورد أن من آخر الآيات نزولا آيات الربا.. وكان بين نزولها وبين وفاته ﷺ تسع ليال.

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم
بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ
كَاتِبُۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ
فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ
وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا
أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ
وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ
فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ
إِحْدَىٰهُمَا(١) فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا(٢) ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ
إِذَا مَا دُعُواْ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ(٣) أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا
إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ(٤) وَأَدْنَىٰٓ
أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً(٥) حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ

﴿لا يأب﴾: لا يمتنع. ﴿وليملل﴾: أى يلق على الكاتب ما يكتبه.

﴿ولا يبخس منه شيئا﴾: أى ولا ينقص من الدين شيئا ولو قليلا.

﴿سفيها﴾: مجنونا أو محجورا عليه لتبذير. ﴿أو ضعيفا﴾: صبيا أو كبيرا خرفا لا يعى ما يقول.

﴿لا يستطيع أن يمل﴾: لنحو خرس أو جهل باللغة التى يكتب بها.

﴿وليه﴾: من والد أو وصى أو قيم أو مترجم. (بالعدل﴾: بالصدق والحق.

﴿تضل إحداهما﴾: المراد بالضلال هنا النسيان الذى يوقع فى الخطأ. ﴿فتذكر إحداهما الأخرى﴾: كان الظاهر أن يقول فتذكرها الأخرى، بالضمير بدل الاسم الظاهر، لكنه سبحانه عدل عنه لأنه لا يفيد المعنى المراد، لأن المراد أن كل واحدة من المرأتين عرضة لأن تنسى شيئا من عناصر الشهادة، وتتذكر شيئا، وقد تكون إحداهما تذكرت شيئا نسيته الأخرى، وهذه الأخرى تذكرت شيئا نسيته زميلتها، فتصير كل واحدة منهما متذكرة وناسية فى آن واحد، ومجموع شهادتهما يكون شهادة واحدة سليمة من الخطأ. فلو قال: أن تضل إحداهما فتذكرها الأخرى، لكان الكلام خاصا بحالة واحدة وهى أن تكون إحداهما متذكرة لكل شىء، والثانية ناسية لبعض الأشياء، فيكون التذكر خاصا بواحدة والنسيان خاصا بالأخرى، وليس هذا هو المراد. والله أعلم.

﴿لا تسأموا﴾: أى لا تملوا ولا تكسلوا. ﴿أقسط عند الله﴾: أى أعدل فى شرع الله.

---

(١) (٢) إحداهما. (٣) تسأموا. (٤) للشهادة. (٥) تجارة.

﴿وأقوم للشهادة﴾: أى أعون على إقامتها على وجهها.

﴿وأدنى ألا ترتابوا﴾: أى وأقرب إلى عدم الشك.

﴿حاضرة تديرونها بينكم﴾: حضور التجارة بحضور البدلين من الثمن والمبيع تدار بين المتعاملين يدا بيد.

المعنى: أنه سبحانه بعد أن بين الحلال والحرام فى التعامل أمر هنا بحفظ المال بكتابة الدين والإشهاد عليه وأخذ الرهن إذا لم تتيسر الكتابة، فالمراد إذا داين بعضكم بعضا بمال إلى أجل معين كشهر كذا فاكتبوا مقداره وأجله، لأن ذلك أبعد عن النسيان عند التقاضى وسد لباب الفتنة بالإنكار. وقال بعض العلماء إن الأمر بكتابة الدين للوجوب خصوصا إذا فسدت الذمم، يؤيد ذلك قوله تعالى الآتى فى الكلام على التجارة الحاضرة ﴿فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾.

ثم بين سبحانه كيفية الكتابة فقال: ﴿وليكتب بينكم كاتب﴾ عادل يحافظ على حق كل من الطرفين، وإذا طلب كاتب للكتابة وهو عدل عالم بشروط المعاملات لا يجوز أن يمتنع. وأكد حرمة الامتناع بأمره صراحة بقوله: ﴿فليكتب﴾ وليلق على الكاتب مَن عليه الدين ليكون إملاؤه حجة عليه ﴿وليتق الله﴾ فى إملائه فلا ينقص منه شيئا. فإن كان المدين سفيها إلخ، فليملل وليه بالصدق والحق، واستشهدوا على الدين شاهدين يوقعان على الوثيقة من رجالكم العدول، فإن لم يكن الشاهدان رجلين فليشهد رجل وامرأتان ممن تعرفون عدالتهم خوفا أن تخطئ إحدى المرأتين لعدم قوة ضبطها المعاملات المالية، لأنها ليست من الأمور التى تهتم بها غالبا، فتذكرها الأخرى، أى تذكر كل منهما صاحبتها ما قد تنساه. ولا يمتنع الشهود إذا دعوا لتحمل الشهادة وقت الكتابة لما فى الكتابة من الفوائد الآتية المشار إليها بقوله: ذلكم، أى هذه الأحكام أعدل فى شرع الله وأعون على إقامة الشهادة على وجهها. وهذا يفيد أن للشاهد الحق فى أن يطلع على الوثيقة ليتأكد مما شهد عليه، وأقرب إلى انتفاء الشك، (إلا أن تكون تجارة) إلخ، أى يجب الدين، أما التجارة فى الأشياء الحاضرة عند التعامل والمتبادلة يد بيد بدون تأجيل شىء منها.

فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ
وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾
۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ (١) مَّقْبُوضَةٌ ۖ
فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ (٢)
وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ (٣) ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا
فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ (٤) وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ
أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ
مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ
بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ
وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ (٥) وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ

﴿جناح﴾: مؤاخذة. ﴿لا يضار كاتب ولا شهيد﴾: أى لا يضر المتعاملان أو أحداهما الكاتب أو الشاهد بتحميلهما مشقة تكلفهما مالا فى سفر أو بتكليفهما ما لا يليق كسفر طويل مشيا على الأرجل أو إرغامهما على كتابة أو شهادة زور أو ما فيه غبن. ﴿فسوق بكم﴾: أى خروج بكم عن طاعته تعالى. ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم﴾: كرر لفظ الجلالة فى الجمل الثلاث لإدخال المهابة فى النفوس فتسارع للعمل، وللتنبيه على أن كل جملة منها مستقلة عما قبلها تفيد معنى خاصا بها. فالأولى فيها الحث على التقوى. والثانية وعد منه سبحانه بإنعامه على عباده بتعليمهم ما به يتقونه. والثالثة فيها تعظيم لشأنه تعالى وأنه لا يشرع سبحانه وتعالى إلا عن علم تام. فالواو فيها للاستئناف، لا للعطف، ولا للحال. ﴿فرهان مقبوضة﴾: أى فشىء يرهن يقبضه صاحب الدين. ﴿آثم قلبه﴾: أى فإثمه شديد لأنه ناشئ من صميم قلبه لا نسيانا، والعرب إذا أرادت المبالغة فى شىء أسندت الفعل إلى العضو المختص فيقول أحدهم هذا الشىء رأته عينى وسمعته أذنى.

المعنى: فلا حرج عليكم فى عدم كتابة التجارة الحاضرة لعدم التنازع، ولما فى ذلك من المشقة. وأشهدوا إذا تبايعتم فى المعاملة الحاضرة لأن الإشهاد يدفع ما قد يحصل من الاختلاف خصوصا إذا كان التعاقد فى أشياء كبيرة القيمة. ولما كان شأن ما يحصل فى التجارة الحاضرة أن يكون قريبا من زمن العقد اكتفى فيها بالشهادة بخلاف الديون المؤجلة، فقد يموت أحد الشهود، فلهذا وجب الكتابة، وإذا أوجب الله تعالى على الشاهد والكاتب عدم الامتناع فلا يصح أن تضروهم. وأن تفعلوا ما نهيتم عنه فقد خرجتم عن طاعة ربكم، واتقوا عقاب الله بأن تفعلوا ما أمركم به، وتبتعدوا عما نهاكم عنه على لسان رسوله، وهو سبحانه

(١) فرهان. (٢) أمانته. (٣) الشهادة. (٤) السموات. (٥) وملائكته.

يعلمكم ما فيه صلاح حالكم فى الدنيا والآخرة بما يشرعه لكم. ولولا ذلك لتخبطتم فى السير وانحرفت بكم السبل. وهو سبحانه واسع العلم بكل شىء فلا يشرع لكم إلا عن علم محيط بأسباب المصالح التى أمركم بها وأسباب المفاسد التى نهاكم عنها. ومن هذا يعلم أن التقوى لا تكون إلا بعد علم بما شرعه الله من حلال وحرام، وعلم بما يصحح العبادة وما يفسدها.

نعم هناك علم آخر يكون ناتجا عن تقوى الله، وهو علم خاص يفيضه الله على عبده التقى، فيعطيه نورا يفرق به بين دقائق الشبهات التى لا يعلمها كثير من الناس، ويزيده طمأنينة قلب إلى ما يعتقد فيعيش مستريح الضمير آمنا فى سيره إلى الله انظر الآية (٢٩) من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٠، ٢٣١. وفى ذلك قال ﷺ (من تعلم فعمل بعلمه علمه الله ما لم يعلم) وفى رواية (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم).

بعد ذلك يقول الحق: وإن كنتم مسافرين وتداينتم وليس معكم كاتب ولا شهيد فالذى تحفظون به أموالكم أشياء مرهونة يقبضها الدائن ضمانا لدينه. ويجوز الرهن فى الحضر لرهنه ﷺ درعه عند يهودى على ثلاثين صاعا من شعير. فإن آمن بعضكم بعضا بحسن ظنه سفرا أو حضرا فلم يكتب ولم يشهد ولم يرتهن فيجب على المدين الذى ائتمنه الدائن أن يؤدى الدين الذى هو أمانة عنده، وليتق الله ولا ينكر الحق، ولا تكتموا أيها الشهود الشهادة بالامتناع عن أدائها إذا طلبتم لها، لأن كتمانها ذنب كبير متمكن من أشرف مكان وهو القلب. والله بما تعملون من أداء أو كتمان عليم وسيجازيكم.

لله ما فى السموات وما فى الأرض خلقا وملكا يشرع لمن فيهما ما فيه مصلحتهم. وإن تظهروا للناس ما فى أنفسكم من السوء بإظهار أثره، أو تخفوه احتراسا من الناس لا خوفا من الله، فسيجازيكم عليه يوم القيامة، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، فإذا أراد للعبد غفرانا وفقه للعمل الصالح الذى يذهب السيئات، والله على كل شىء قدير. فلا راد لما أراد.

ثم ختم سبحانه السورة بمافيه إرشاد الناس إلى الأخوة لا يفرقهم جنس ولا تبعية نبى دون نبى ولا كتاب دون كتاب فقال فى صورة شهادة منه تعالى لنبيه الأكرم وأصحابه الأخيار ﴿آمن الرسول﴾ إلخ وقد تقدم بيان ذلك فى الآية (٤) والآية (١٧٧) من هذه السورة صفحات ٣، ٣٣، ٣٤.

آمن النبى وصحبه قائلين لا نفرق بين أحد من رسله حتى لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى، بل نؤمن بالرسل جميعا، فهى بيان مزية هذه الأمة وتعريض بغيرها.

مِن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ
ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا
مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن
نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ
عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ
وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا[1] فَٱنصُرۡنَا
عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ[2] ٢٨٦

(٣) سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا مِائَتَانِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ[3] ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ

﴿لها ماكسبت﴾: من خير. ﴿وعليها ما اكتسبت﴾: من شر.

﴿إصرًا﴾: أصله الحمل الثقيل والمراد به هنا التكاليف الشاقة.

المعنى: وقالوا سمعنا كلام الله سماع فهم وقبول، واطعنا ما أمرنا به عز وجل عن إخلاص ويقين، لانفاقًا ولا تقليدًا لايؤثر فى القلب.

ولما كان شأن المؤمن الذى يقول هذا أن يكون يقظا لأقل تفريط، يلوم نفسه على مادون الكمال، كان من شأنه أيضًا أن يقول مع السمع والطاعة: غفرانك ربنا، أى نسألك أن تغفر ماقد يقع منا، وإليك وحدك مرجعنا، فوفقنا لما يرضيك عنا يوم لقائك، وتلقين الله للمؤمنين هذا الدعاء توجيه منه سبحانه لهم إلى اليقظة والمسارعة للتوبة عند كل هفوة.

ثم بشر سبحانه عباده الذين يلجأون إليه بتيسير الطاعة لهم فقال: ﴿لايكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾ إلخ، أى مافى طاقتها كما فى الآية (٧٨) من سورة الحج صفحتى ٤٤٤، ٤٤٥.

لها ثواب ماكسبت من الخير وعليها عقاب ما اكتسبت من الشر.

وغاير التعبير فى جانب الشر بما يفيد التكلف لأن فطرة الإنسان التى فطره الله تعالى عليها لا شر فيها، والشر لايأتيها إلا بتكليف من الخارج. ولهذا نرى فاعل الشر يشعر بقبح عمله فى صميم قلبه ويكره أن يعرفه عنه الناس، فالشر ممقوت حتى فى نظر صاحبه. انظر شرح الآية (٣٠) من سورة الروم صفحة ٥٣٤. ثم أراد سبحانه أن يعلم عباده مايدعونه به

---

(١) مولانا. (٢) الكافرين. (٣) ألفْ لاَمْ مِيمْ.

فقال: ﴿ربنا لاتؤاخذنا﴾ أى قولوا فى دعائكم ربنا لاتؤاخذنا بالعقاب إن نسينا أى تركنا ماينبغى فعله عن غفلة، أو أخطأنا أى فعلنا مالاينبغى عن خطأ غير مقصود، ولاتكلفنا أمرا يشق علينا عمله كما كلفت به مَنْ قبلنا من بنى إسرائيل، حيث كانت لاتُقبل توبة مذنب منهم إلا بقتل نفسه كما تقدم فى الآية (٥٤) من هذه السورة صفحة ١١.

وكان الشيء المتنجس لايطهر بالغسل بل لابد من قطع مكان النجاسة من الثوب مثلاً، وكان المطلوب فى الزكاة ربع المال لاربع عشره كما هو فى الإسلام إلى غير ذلك. ولاتحملنا مالا قدرة لنا على الصبر عليه من البلايا والفتن. واعف عنا بمحو أثر ما قد يقع منا، واغفر لنا ذنوبنا، أى استرها فلا تفضحنا بإظهارها ولا بالمؤاخذة عليها، وارحمنا فى كل الأحوال بتوفيقنا لسنة رسولك، أنت مولانا، أى ناصرنا ومتولى أمورنا، فانصرنا على الكافرين؛ لأن من شأن المولى أن ينصر مولاه على مَنْ كفر به باتخاذه أولياء من دونه سبحانه يلجأ لهم ويتقرب إليهم بالذبائح والنذور لينفعوه عند الله، فانصرنا يامولانا على الجاهلين منهم والجاحدين بالحجة والبرهان، وعلى المعتدين منهم بالسيف. واعلم أنه يجب على المؤمن أن يتنبه إلى أن الله سبحانه ماعلمنا هذا الدعاء لمجرد أن نحرك به شفاهنا، بل لنتوجه به إليه بقلوبنا عاملين مايرضيه. فإن مَنْ يستغفر من الذنب وهو مُصر عليه كالمستهزئ بربه. نسأل الله سبحانه السلامة والتوفيق ﴿ألم﴾ تقدم الكلام عليها أول البقرة.

﴿ألم﴾: تقدم شرحها أول سورة البقرة. ﴿القيوم﴾: دائم القيام بشئون خلقه على أتم وجه.

﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾ تقدم تفسيرها فى آية الكرسى وهى آية ٢٥٥ من سورة البقرة صفحة ٥٣.

﴿لما بين يدية﴾: ماتقدمه. ﴿الفرقان﴾: قوى الفرق بين الحق والباطل، فيشمل الكتب السابقة وغيرها كصحف إبراهيم وزبور داود، ويشمل العقل السليم أيضًا فهو من عطف العام على الخاص، ﴿أنزل﴾: كل مايجىء من قبل الحضرة العلية الإلهية يسمى اعطاؤه تنزيلا كما قال ﴿وانزلنا الحديد﴾ الآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣.

عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ
التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ
الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ
فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾
هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ
هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ
وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا
بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾
رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ

﴿محكمات﴾: هى الآيات الواضحة الدلالة التى يمكن الجميع فهمها كقوله ﴿لاتقربوا الزنا﴾، ﴿لاتقتلوا أولادكم﴾، ﴿ليس كمثله شىء وهو السميع البصير﴾ وما أشبه ذلك.

﴿هن أم الكتاب﴾: أى أصل القرآن وعمدته وأساس أحكامه التى يرد كل ماعداها مما يحتمل أوجها كثيرة إليها.

﴿متشابهات﴾: محتملات لأوجه كثيرة. والمحكم والمتشابه فى القرآن له معنيان: ماهنا، وما فى أول سورة هود صفحة ٢٨٣ مع مافى الآية (٢٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩.

﴿زيغ﴾: بُعد عن الحق والصواب. ﴿ابتغاء الفتنة﴾: طلبًا لفتنة الناس عن الإسلام بالتشكيك فيه.

﴿وابتغاء تأويله﴾: رجاء أن يُأَوِّلوه ويصرفوه عن معناه الذى يوافق المحكم إلى مايوافق أغراضهم وشهواتهم. ﴿بعد إذ هديتنا﴾: المراد بعد هدايتنا.

المعنى: الله هو الذى نزل عليك القرآن ممتلئا بالحق والصدق مصدقا لما تقدمه من كتب الأنبياء فيما لم يحرفوه منها، وأنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى من قبل هادين للناس من الضلال، وكذلك أنزل كل مايفرق بين الحق والباطل. إن الذين كفروا بآيات الله التى أنزلها لهداية عباده لهم عذاب شديد. والله عزيز أى غالب لايعجزه عذابهم، ذو انتقام أى عقوبة شديدة بِمَنْ خالف أمره. وهو سبحانه لايخفى عليه شىء مطلقًا، فيعلم السر وأخفى، فيثيب الطائع ويعذب العاصى.

---

(١) الكتاب. (٢) التوراه. (٣) بآيات. (٤) الكتاب.
(٥) آيات. (٦) حكمات. (٧) الكتاب. (٨) متشابهات.
(٩) تشابه. (١٠) راسخون. (١١) الألباب.

وكيف لايعلم أحوالكم وهو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء من ذكورة وأنوثة، وتمام ونقص، ولون مخصوص، وغير ذلك لا إله غيره يفعل ذلك، وهو العزيز الذى لايُغلب، الحكيم فى أفعاله. وهو الذى أنزل عليك أيها النبى القرآن منه آيات واضحات يفهمها كل مكلف هى أساس الكتاب والمرجع لما فيه، ومنه آيات محتملات لأوجه متعددة، فالذين فى قلوبهم زيغ يتبعون المتشابه ليفتنوا به ضعاف العقول بتأويله على مايوافق أهواءهم، فإذا سمعوا متشابها كقوله سبحانه: ﴿تبارك وجه ربك﴾ أو ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ أشاعوا فى الناس أن إله محمد يشبه الخلق له وجه وله يد..... إلخ والحق أن تأويل المتشابه لايعلمه إلا الله عز وجل وإلا العلماء الراسخون فى العلم؛ فيرجعونه إلى المحكم ويقولون كل من المحكم والمتشابه من عند ربنا، فلا يمكن أن يختلف بعضه عن بعض. وبما أنه سبحانه قال: ﴿ليس كمثله شىء﴾ فيجب أن يحمل الوجه واليد وغيرهما على صفة تليق به سبحانه وتعالى لاشبه بينها وبين مافى الخلق، فكما أن سمعه وبصره وكلامه لايشبه شىء منها مافى الخلق فكذلك وجهه ويده سبحانه. ولم يكلفنا الله عز وجل بمعرفة حقيقة سمعه وبصره.

فى المحكم الآيات الدالة على عدله تعالى وأن ثوابه على قدر عمل العبد.. والمتشابه مايرد إليه مثل ﴿يضل من يشاء ويهدى من يشاء﴾ و ﴿ولو شاء الله لهدى الناس جميعا﴾ و ﴿وإنه خالق كل شىء﴾ والآيات (٣٩) من سورة الأنعام صفحة: ١٦٨، ٣١ من سورة المدثر صفحتى ٧٧٦، ٧٧٧؛ (٣٠) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٣؛ (٢٩) من سورة التكوير صفحة ٧٩٥.

ومايتذكرويفهم الحق إلا أصحاب العقول الخالصة من الزيغ وهؤلاء هم الذين يلجئون إلى الله دائما قائلين: ربنا لاتزغ قلوبنا بتحويلها عن الحق بعد أن تفضلت وهديتنا، وهب لنا من عندك الرحمة.

﴿كدأب آل فرعون﴾: الدأب العادة والحال الثابتة. ﴿بئس المهاد﴾: قبح الفراش الذى يئوون إليه. ﴿آية﴾ دليل. (فئتين التقتا﴾: فرقتين التقتا للقتال. ﴿زين للناس﴾: قال عمر بن الخطاب المزين هو الله. والمراد خلق حبها فى القلوب ليعمر الكون، ولتكون وسائل للآخرة بتكثير النسل لجهاد والإنفاق فى سبيل الخير العام، فالمراد أنشأ الله الناس على هذا وفطرهم عليه، أنظر

رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ
لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ[1] وَلَآ أَوْلَٰدُهُم[2]
مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ
ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا[3] فَأَخَذَهُمُ
ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟
سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾
قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ[4] فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ
بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ[5] ﴿١٣﴾
زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ[6] مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ[7]
ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ

الآية (٣٢) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٦، ١٩٧. والآية (٧) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٠، ٣٨١. فليس المراد مدح التكالب عليها. انظر كتاب ﴿محمد الرسالة والرسول﴾ لنظمى لوقا صفحة ٨٤.

﴿القناطير﴾: جمع قنطار المراد به المال الكثير. ﴿المقنطرة﴾: البالغة فى الكثرة. والعرب إذا أرادت المبالغة فى شيء اشتقت منه صفة من لفظه وألحقتها به فيقولون ظل ظليل وليل أليل.

﴿المسومة﴾: المطهمة الحسان.

المعنى: ويقولون اعطنا ياربنا رحمة تنقذنا بها من الزلل إنك كثير العطاء. ربنا نقر بأنك ستجمع الناس قطعا فى يوم القيامة الذى لاشك فى حصوله لأنك وعدت به وأنت لاتخلف الميعاد. وفى هذا اليوم لن تنفع الكافرين أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئًا ولو قليلا. وسيصيرون وقود النار، وذلك لأن عادتهم وحالهم فى الكفر والعناد كعادة آل فرعون والذين من قبلهم من الأمم كعاد وثمود، فإنهم جميعًا كذبوا بآيات الله عز وجل المتلوة فى كتب الأنبياء والمنبثة فى الآفاق، فأخذهم الله إلى جهنم بسبب ذنوبهم والله شديد العقاب لِمَنْ كفر بآياته. قل أيها النبى للكافرين ستغلبون فى الدنيا بالقتل والأسر وضرب الجزية، وفى الآخرة تساقون إلى جهنم، وما أقبحها فراشًا لكم. قد كانت لكم عبرة يمكنكم الانتفاع بها لو أخلصتم؛ تلك هى أنكم رأيتم فرقتين التقتا يوم بدر للقتال: فئة قليلة تقاتل لنصرة دين الله وهى فئة المؤمنين، وكان عدد أفرادها ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً وليس معهم سوى فرسين، وأكثرهم ليس معه ما يركبه من إبل وغيرها؛ وفئة أخرى كافرة كثيرة

---

(١) أموالهم. (٢) أولادهم. (٣) بآياتنا. (٤) تقاتل. (٥) الأبصار. (٦) الشهوات. (٧) والقناطير.

وَالْأَنْعَامِ[1] وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ[2] الْحَيَاةِ[3] الدُّنْيَا وَاللَّهُ
عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ
ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ[4] تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ[5] خَالِدِينَ[6] فِيهَا وَأَزْوَاجٌ[7] مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ[8] مِنَ اللَّهِ
وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ
لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ[9] وَالصَّادِقِينَ[10]
وَالْقَانِتِينَ[11] وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ
اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ[12] وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا
بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ
عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ[13] وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ[14] إِلَّا
مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ[15]
اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ

العدد كانوا ألف مقاتل، وأغلبهم راكبون خيلاً وإبلاً؛ فلما بدأ القتال وشاهد الكفار بسالة المؤمنين وشدتهم فى القتال بدرجة غير مألوفة لهم وقع فى قلوبهم الرعب، حتى صاروا يرون المؤمنين مثلى عددهم أى الفين، رأى العين، أى رؤيا ظاهرة لا لبس فيها. وهذا مدد معنوى من الله يمد به المؤمنين الصادقين ليمحو الكفر والكافرين. ولذا قال الله: ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء﴾ ممن يستحقه. إن فى ذلك التأييد للقلة المؤمنة على الكثرة الكافرة لعبرة وموعظة لأصحاب البصائر، فيزداد إيمان المؤمن ويقبل على الإيمان الموفق. زين الله للناس حب المشتهيان من النساء والبنين الذكور المعدين للدفاع، والأموال الكثيرة من ذهب وفضة، والخيل الحسان.

﴿الأنعام﴾: الإبل والبقر والغنم. ﴿الحرث﴾: الزرع من نبات وشجر وماء ﴿حسن المآب﴾: من إضافة الصفة للموصوف. ﴿أزواج مطهرة﴾: زوجات مبرآت من كل ما يعيب النساء حسيا كالحيض والنفاس، أو معنويا كالكيد والغيرة ونكران الجميل. ﴿ورضوان﴾: قال الراغب الرضوان الرضى الكثير وخص فى القرآن بما كان من الله أنظر الآية (٧٢) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣.

﴿القانتين﴾: الطائعين.

﴿الأسحار﴾: جمع سَحَر بفتحتين وهو ثلث الليل الأخير.

(١) الأنعام. (٢) متاع. (٣) الحياة. (٤) جنات. (٥) الأنهار. (٦) خالدين.
(٧) وأزواج. (٨) ورضوان. (٩) الصابرين. (١٠) الصادقين. (١١) القانتين. (١٢) والملائكة.
(١٣) الإسلام (١٤) الكتاب (١٥) بآيات.

﴿القسط﴾: العدل.

المعنى: ذلك المذكور من الأشياء الستة هو مايستمع به الناس فى حياتهم الفانية، والله عنده المرجع الحسن فى الآخرة من النعيم الدائم. ثم فصل هذا النعيم بقوله: قل أيها النبى لهؤلاء الذين جعلوا كل همهم فى المتاع الزائل هل أخبركم بأحسن مما ذكر من هذا المتاع الفانى؟ فاسمعوا أقل لكم أن عندى، للمتقين جنات تجرى من تحت قصورها، وأشجارها الأنهار خالدين فيها، لاتزول أبدًا كما يزول نعيم الدنيا، ولهم فيها زوجات مطهرة من كل عيب، ولهم فوق ذلك رضا من الله عز وجل كثير دائم لاغضب بعده، والله بصير بعباده، فيعلم مَنْ يستحق هذا النعيم ومن لايستحقه.

ثم وصف أهل التقوى بأنهم هم الذين يقولون ربنا إننا آمنا بك وبرسلك فاغفرلنا ذنوبنا وقنا عذاب النار، الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس، والصادقين قولا بتقرير الحق، وعملاً بإتقان العمل، ونية بعدم التردد فى عمل الخير، والقانتين أى المداومين على الخشوع، والمنفقين للمال فى طريق الخير، والمستغفرين فى الأسحار أى المصلين فى الليل والناس نيام. قال مجاهد وابن كثير: المستغفرون هناهم المصلون؛ لأن أهل التهجد آخر الليل يطلبون بتهجدهم مغفرة الله عز وجل.

﴿شهد الله﴾ . أى أخبر الله ملائكته بأنه سبحانه واحد لايعبد سواه، والملائكة أخبرت الرسل بذلك، والرسل أخبرت أهل العلم، والعلماء أخبروا الناس كافة بأنه إله واحد، مقيمًا للعدل بين خلقه. ثم أكد توحيده المشهود به فقال: لا إله إلا هو العزيز الغالب الذى لايغلب، الحكيم فيما يفعل.

إن الدين المرضى عند الله هو الإسلام الذى بعث الله به جميع الرسل، والمراد بالإسلام هنا الأصول التى اتفق الجميع عليها المشار إليها فى الآية (١٣) من سورة الشورى صفحتى ٦٣٩، ٦٤٠.

وهى التوحيد والرسالة والبعث ومكارم الأخلاق، أما الفروع فلكل أمة مايناسبها فى عصرها أنظر الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦. والآية (٦٧) من سورة الحج صفحة ٤٤٣.

أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا
فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ
وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى
الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ
وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا
جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ

وما اختلف اليهود والنصارى فى الدين بأن وحّد بعضهم وكفر بعضهم إلا من بعد ما جاءهم العلم على لسان أنبيائهم وفى كتابهم، بغيًا وحسدًا وقع بينهم، لا لشبهة عرضت، وإلا لأزالها أقل برهان مما بين أيديهم وماجاء به خاتم الرسل صلوات الله تعالى عليه. ومَنْ يكفر بعد تلك الآيات والبراهين فسيلاقى جزاء كفره حتمًا فى أقرب وقت. فإن حاجك وجادلك فى الدين الكافرون بعد إقامة هذه الحجج فلا تجادل وقل: انقدت مخلصًا وخضعت بظاهرى وباطنى لله لا أشرك به غيره.

﴿أسلمت وجهى لله﴾: انقدت مخلصًا وخضعت بظاهرى وباطنى لله لا أشرك به غيره.
﴿الأميين﴾: المراد بهم هنا مشركو العرب. ﴿القسط﴾: العدل ﴿حبطت﴾: بطلت. ﴿الذين أوتو نصيبا من الكتاب﴾: المراد بهم اليهود.

المعنى: وحيث أنه لافائدة فى محاجتهم فأعلمهم أنك ومن اتبعك من المؤمنين خضعتم لله وحده، وقل لأهل الكتاب عامة.. يهودًا أو نصارى وللمشركين من العرب الأميين أى الذين لايقرءون كتابًا: هل أسلمتم بعد تلك الحجج أم مازلتم على عنادكم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا إلى الحق وأنجوا أنفسهم من العذاب، وإن أعرضوا عن الإسلام فلا يضرك إعراضهم؛ لأن الذى عليك إنما هو إبلاغهم حكم الله، وقد بلغت، وليس عليك هداهم. والله بصير بعباده فيجازى كلا بما يستحق. إن اليهود الذين يكفرون بآيات الله التى قرءوها فى التوراة الدالة

---

(١) الكتاب. (٢) والأميين. (٣) البلاغ. (٤) بآيات.
(٥) النبيين. (٦) أعمالهم. (٧) ناصرين. (٨) الكتاب.
(٩) كتاب. (١٠) معدودات. (١١) جمعناها.

على صدقك أيها النبى ويقتلون أنبياء الله بغير حق. وبما أن الخطاب لليهود المعاصرين له ﷺ بدليل ماسيأتى من إنذارهم بالعذاب ولا إنذار لغير الموجود، يكون المعنى: قتل آباؤهم ورضواهم عن فعل آبائهم، فكأنهم اشتركوا معهم فى القتل فاستحقوا مثل عقابهم، ومن جرأتهم أيضًا أنهم يقتلون المصلحين من أمتهم الذين كانوا يأمرونهم بالعدل. فبشرهم بعذاب شديد الألم، أى ليس لهم خبر يسرهم إلا الإنذار بالعذاب. فالكلام سيق على سبيل التهكم بهم وقطع أملهم فى النجاة. هؤلاء هم الذين بطلت كل أعمالهم فلم تنقذهم من القتل والأسر والطرد من الديار، وفى الآخرة فلم تنقذهم من العذاب، وليس لهم مَنْ ينصرهم بمنع العذاب عنهم. وذكر مايدل على أنهم اختلفوا فى كتبهم بعد العلم فقال «ألم تر» أى ألم تنظروتعجب أيها السامع لحال هؤلاء اليهود الذين آتاهم الله حظًا من علم التوراة، وإذا دعوا إليها لتحكم بينهم وبين خصومهم فيما اختلفوا فيه تولى فريق منهم وهم علماؤهم وأصحاب الرياسة فيهم وتبعهم العوام، وهم مصممون على الإعراض. وهذا أشنع احتقار لكتاب أكرمهم الله تعالى به، وذلك أنهم لما قيل لهم كيف تكفرون بمحمد وصفته عندكم فى التوراة فاتلوها إن كنتم صادقين فى دعواكم، امتنعوا، وإنما استحلوا كل هذه الجرائم لزعمهم أن النار لن تمسهم إلا أياما قليلة هى أربعون يوما عدد أيام عبادتهم العجل، وغرهم حتى ارتكبوا. ذلك ما افتروه فى دينهم من الباطل الذى يوافق أهواءهم. فعلى أى حال يكون هؤلاء الأشرار إذا جمعناهم للحساب يوم القيامة ووفى الله كل نفس ماكسبت من خير أو شر؟.

﴿تولج الليل فى النهار﴾ إلخ: أى تدخل بعض الليل فى النهار فيقصر الليل ويطول النهار، وتدخل بعض النهار فى الليل فيطول الليل ويقصر النهار والكلام كناية عن تطويل أحدهما وتقصير الآخر للحكمة التى أرادها الله سبحانه من ذلك. ﴿وتخرج الحى من الميت﴾: كالحيوان من التراب، والفرخة من البيضة والبيضة فى نظر العرب الذين نزل القرآن بلغتهم تعتبر ميتًا، لأنهم لا يطلقون ﴿الحى﴾ إلا على مافيه حياة فعلاً تجعله يتنفس ويتحرك، والبيضة عندهم كالنبات فيها استعداد للنمو لكنها عقب خروجها من الفرخة مباشرة تعتبر ميتًا فى نظرهم = وبالعكس كالبيضة من الفرخة، والتراب من الحيوان بعد موته، وبعض

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ[1] الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ
مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ
مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾
تُولِجُ اللَّيْلَ[2] فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ
مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ[3] أَوْلِيَاءَ
مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ
فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً[4] وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ
وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ
تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ[5] وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ
مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ

ماينفصل عنه فى حياته. ﴿فليس من الله فى شىء﴾: فليس من دين الله فى شىء، أى فهو بعيد عما شرعه سبحانه.

﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾: أى إلا فى حال خوفكم منهم أن يؤذوكم، بشىء تتقونه منهم، أى فلكم حينئذ أن توالوهم ظاهرا بقدر مايدفع عنكم الضرر، فهى فى الواقع موالاة ظاهرية لا الحقيقية المنهى عنها ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أى عقاب نفسه، وعقاب الله شديد.

المعنى: ولايظلم أحد بزيادة فى سيئاته ولابنقصان فى حسناته.

وإذا استمر إعراض هؤلاء الكافرين عن دينك أيها النبى واستولى عليهم الغرور فدعهم وارجع إلى الله بالدعاء والثناء، وقل يا الله يامالك الملك الحق، تعطى بعض الملك الصورى لِمَنْ تشاء، وتنزعه مِمَّنْ تشاء، وتعز مَنْ تشاء بشىء من أسباب العز، وتذل مَنْ تشاء بسحب الأسبابْ عنهم، بيدك الخير أى والشر، بدليل ﴿تذل وتنزع﴾ لايعجزك شىء. ومن مظاهر قدرتك أنك بحكمتك فى تكوين الأرض وجعل سير الشمس بحساب صار يزيد كل من الليل والنهار بمقدار ماينقص من الآخر. ومن قدرتك العجيبة أنك تخرج من الميت حيا ومن الحى ميتا، وترزق مَنْ تشاء ولارقيب عليك يحاسبك؛ لأن الأمر كله بيدك. وإذا كان الكافرون على هذا الحال من العناد فاحذروهم، ولا يتخذ مؤمن كافرا وليا يصطفيه فيطلعه على أسرار المؤمنين الخاصة لما فى هذا من ضرر مصلحة المؤمنين. خصوصًا وهم يرونهم يهزءون بهم وبعبادتهم كما فى الآية (٥٧) من سورة المائدة صفحة ١٤٨: فلا يجوز أن يصطفى المؤمن مَن غير المؤمنين أحدا: وهذا لايمنع أن تعاملوا

---

(١) مالك. (٢) الليل. (٣) الكافرين.
(٤) تقاة. (٥) السموات.

أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾
قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ(١) ﴿٣٢﴾
۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ(٢) وَءَالَ عِمْرَٰنَ(٣)
عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ(٤) ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ(٥) رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ
لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ
وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى
سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ(٦)
ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا

بالحسنى على الوجه المبين فى الآيتين (٨)، (٩) من سورة الممتحنة صفحة ٧٣٦. ومَنْ يفعل ذلك بأن يوالى غير المؤمنين فقد ضل عن شرع الله وأصبح لايربطه به شيء.

إلا أن تخافوا من الكافرين ضررا يلحقكم إذا أظهرتم التخويف منهم وعدم الثقة بهم وكنتم ضعافا لاتستطيعون دفع ضررهم أى فلكم فى هذه الحالة أن تظهروا لهم التودد صورة حتى تتقوا آذاهم، واحذروا عذاب الله نفسه إذا تخطيتم ماحدده لكم. وإليه سبحانه مصيركم يوم القيامة فيجازيكم بما عملتم.

قل أيها النبى لهم إن تخفوا مافى قلوبكم مما نهاكم الله عنه أو تظهروه يعلمه الله، لأنه العليم بكل شيء فى السموات والأرض، وسيجازيكم على ماتخفون وما تعلنون، لأنه قدير على كل مايريده.

واحذروا يوم القيامة الذى تجد فيه كل نفس جزاء ما عملته من خير حاضرا، وأما ماعملته من سوء فإنها تكرهه وتحب أن يكون بينها وبينه مسافات.

﴿أمدا﴾: مسافة بعيدة. ﴿اصطفى﴾: اختار وفضل.

﴿محررًا﴾ معتقًا من شواغل الدنيا متفرغا لخدمة بيتك المقدس. وكان هذا النوع من النذر مشروعًا عندهم. ﴿الرجيم﴾: المرجوم باللعن الكثير.

المعنى: تود النفس المذنبة وتحب أن يكون جزاء عملهم بعيدا عنها، وكرر ويحذركم الله نفسه لخطورة مخالفته تعالى وتساهل الناس فيها.

والله رءوف بعباده؛ ولذا بالغ فى تحذيرهم مما يضرهم ووهب لهم عقلا يدلهم على النافع والضار.

---

(١) الكافرين. (٢) إبراهيم. (٣) آل عمران.
(٤) العالمين. (٥) عمران. (٦) الشيطان.

قل أيها النبى لكل مَنْ يدعى محبة الله: إن كنتم تحبون الله حقا فاتبعونى فيما أفعل؛ لأنه بأمر الله الذى تدعون محبته، يحبكم الله أى يرضى عنكم ويغفر لكم ذنوبكم. وقل لهم أطيعوا الله باتباع كتابه، والرسول باتباع سنته؛ فإن أعرضوا فاعلم أنهم كاذبون فى دعوى محبتهم لله؛ لأنهم لو صدقوا لأحبهم وهو سبحانه لايحب الكافرين، وهم كافرون، فلا يحبهم، وإنما يحب سبحانه ويصطفى المخلصين مثل آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران، وهم مريم وعيسى عليهما السلام، بجعل النبوة والرسالة فيهم. ذرية من آل إبراهيم وآل عمران يشبه بعضها بعضا فى الخير والفضل والله سميع عليم حين قالت امرأة عمران (حنة بنت فاقوزا) أم مريم، أى سميع لمناجاتها، عليم بإخلاصها لما قالت يارب إنى نذرت لخدمة بيتك مافى بطنى متفرغا لذلك، فتقبل منى ذلك إنك السميع لدعائى، العليم بنيتى.

فلما وضعت وتبين أنها أنثى، وهى لاتصلح عادة لخدمة البيت المقدس مثل الذكور. قالت متحسرة حزينة: يارب إنى وضعتها أنثى: قالت ذلك والحال أن الله يعلم أنها أنثى، وأنها خير من ألف رجل، وأتمت كلامها فقالت : يارب ليس الذكر الذى طلبته منك كالأنثى التى وهبتها لى لأنه يصلح لخدمة بيتك وهى لاتصلح، وإنى سميتها مريم، وإنى أطلب منك أن تحفظها هى وذريتها من الشيطان الرجيم. فقبل سبحانه مريم من أمها ورباها ونماها تحت رعايته تربية حسنة جامعة لحسن الجسد والروح فى وسط طاهر.

﴿كفلها زكريا﴾: جعل زكريا كافلا لها. وكيفية ضم زكريا لها بينتها الآية (٤٤) الآتية فى هذه السورة صفحة ٧٠.

﴿المحراب﴾ هو أشرف مكان فى المنزل، وكان لايسمى محرابا إلا إذا كان يصعد إليه بسلم.

﴿أنَّى لك هذا﴾: أى من أين جاء لك هذا. ﴿هنالك دعا﴾: أى فى ذلك المكان عند مريم فى المحراب.

﴿مصدقا بكلمة من الله﴾: أى مؤمنا بعيسى وقد كان أول مَنْ آمن به لما بعثه الله.

وسمى عيسى كلمة لأنه جاء بكلمة ﴿كن﴾ بدون أب على خلاف المعتاد أنظر الآية (٤٥) الآتية فى هذه السورة صفحة ٧٠.

﴿حصورًا﴾: أى حابسا نفسه.

ومانعها عن كل ماينافى الكمال. ويطلق الحصور على الممتنع عن النساء زهدا ولا يصح هذا دليلا على فضل ترك الزواج، لأن يحيى ليس أفضل من أبيه ولا من جده إبراهيم، ولا من خاتم النبيين صلوات الله عليهم جميعًا. ﴿اجعل لى آية﴾: أى علامة أعرف بها وجود الحمل لأسرع بالشكر عليها.

﴿إلا رمزا﴾: أى إشارة بيد أو رأس مثلاً.

﴿العشى﴾: من الظهر للغروب.

﴿والإبكار﴾: الإبكار أصله مصدر لفعل ﴿أبكر﴾ بمعنى بَكَّرَ بتشديد الكاف، أى فعل شيئًا فى ﴿البكرة﴾ وهى الوقت من طلوع الفجر إلى الضحى، والمراد بالإبكار هنا نفس البكرة أنظر الآية (١١) من سورة مريم صفحة ٣٩٧.

حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ
وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ[1] أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ
مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾
هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ
ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ[2] وَهُوَ
قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا
بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ[3] ﴿٣٩﴾
قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ[4] وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى
عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل
لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ[5] أَيَّامٍ إِلَّا
رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ[6] ﴿٤١﴾
وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ[7] يَٰمَرْيَمُ[8] إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ[9] وَطَهَّرَكِ

المعنى: وجعل الله زكريا كافلاً لمريم، وصار كلما دخل عليها المكان الخاص بها وجد عندها رزقا. قال ابن عباس: كان زكريا قد استأجر لها مرضعا وفطمت بعد الحولين، وكان أكثر مكثها فى المحراب وحدها.

وقال ابن جرير: إن بنى إسرائيل أصابهم قحط شديد حتى ضعف زكريا عن كفالتها، وكان نجار من بنى إسرائيل يأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها، فيباركه الله، فيدخل عليها زكريا فيجد عندها فضلا من الرزق، فيسألها من أين لك هذا؟ فتقول: هو من عند الله الذى يرزق بلا حساب وتقدم تفسيرها فى الآية (٢٧) من هذه السورة صفحة ٦٧: وفى هذا المكان وفى هذا الجو من الرحمة وفى حضرة هذه المولودة النجيبة تذكر زكريا الذرية الصالحة. وكان قد بلغ من الكبر عتيا كما فى سورة مريم، فاتجه إلى الله عز وجل قائلا: هب لى من عندك ذرية

---

(١) يامريم. (٢) الملائكة. (٣) الصالحين. (٤) غلام. (٥) ثلاثة.
(٦) الإبكار. (٧) الملائكة. (٨) يامريم. (٩) اصطفاك.

وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ
وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ
الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ
أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾
إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ
الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ
الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ
الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي
بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي
قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ

مباركة ويفهم مما فى سورة مريم أن الذى طلبه زكريا ولد ذكر. فنادته الملائكة فى الحال وهو قائم يدعو فى محراب مريم، وقد يكون المنادى مَلَكًا واحدا معه غيره كما سيأتى فى الآية (٤٥) من هذه السورة صفحة ٧٠: إن الله يبشرك بولد اسمه يحيى يكون أول مصدق بنبى الله عيسى، ويسود على قومه بالعلم والفضل، ويحبس نفسه عن شهوات الدنيا ونقائصها. قال زكريا ليطمئن قلبه على كيفية وجود هذا الغلام: يارب على أى حال يولد لى مع كبرى وعقم امرأتى؟ قال: الأمر كذلك أى كما سمعت؛ لأن الله يفعل مايشاء لاتعجزه الأسباب. قال يارب اجعل لى علامة أعرف بها الحمل حتى أتلقاه بالشكر. قال: علامتك أنك تعجز عن الكلام مع الناس مدة ثلاثة أيام فلا تستطيع التفاهم معهم إلا بالإشارة، فإذا رأيت هذه العلامة فداوم على ذكر ربك وسبحه فى العشى والإبكار. وهذا يدل على أن منعه من كلام الناس كان معجزة لإنه لم يمتنع عن الذكر. واذكر إذ قالت الملائكة يامريم إن الله سبحانه اصطفاك أولا حين تقبلك من أمك، وهيأ الصالحين لتربيتك، وطهرك مما يستقبح من فاسد الأخلاق وذميم الصفات.

﴿اقنتى لربك﴾: الزمى طاعته مع تمام الخضوع.

﴿اركعى مع الراكعين﴾: اخضعى لأوامر الله عز وجل مع الخاضعين لها. ﴿أقلامهم﴾: للقرعة على مَنْ يكفل مريم. قال ابن عباس: إن أم مريم لما وضعت أنثى خشيت الا تقبل لخدمة بيت المقدس فلفتها فى ثوب ووضعتها عند الأحبار، فأراد كل منهم أن يقوم بكفالتها لأنه كانت بنت إمامهم عمران، وأخيرا اتفقوا على أن يقترعوا فَمنْ خرجت له القرعة أخذها.

(١) اصطفاك. (٢) العالمين. (٣) يامريم. (٤) الراكعين. (٥) اقلامهم. (٦) الملائكة.
(٧) يامريم. (٨) الصالحين. (٩) الكتاب. (١٠) التوراة. (١١) إسرائيل

فأحضروا أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة تبركًا بها ووضعوها فى جراب وأمروا بعض الغلمان ممنْ فى بيت المقدس أن يدخل يده ويخرج قلما. فالذى يخرج قلمه يكفل مريم. فخرج قلم زكريا. ﴿بكلمة﴾: أى مولود حامل بكلمة ﴿كن﴾ التى يكون بها كل شىء. فإطلاقها على عيسى على سبيل المبالغه لأنه نتج عنها بدون الوسائط المعتادة. ﴿وجيها﴾: ذا وجاهة وكرامة فى الدارين.

﴿كهلا﴾: هو الرجل التام الرجولية. ﴿كن فيكون﴾: لم يعلمنا سبحانه حقيقة هذا القول. وإنما الذى يجب أن نعتقده أنه سبحانه إذا قضى أمرًا نفذ بقدرته سريعًا من غير توقف على شىء آخر.

﴿الكتاب﴾: المراد به هنا الكتابة والخط، أى يكون قارئًا لا أميًا.

﴿الحكمة﴾: العلم الصحيح ومعرفة أسرار الأشياء.

﴿أخلق لكم﴾: أى أقدر وأصور أنظر الآية (١٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦.

المعنى: واصطفاك ثانيًا على نساء العالمين بولادة نبى من غير أن يمسك رجل. يامريم داومى على طاعة ربك خاشعة له، وخصوصا السجود لأنه أعلى مراتب العبادة، واخضعى بإخلاص مع الخاضعين من الصالحين.

ذلك الذى قصصناه عليك أيها النبى من أخبار مريم وأمها وزكريا كله من أخبار الغيب التى لاتعلمها أنت ولا قومك، نوحيه إليه، ولولا ذلك لما علمت شيئًا. فكيف بعد هذا يجادل المكابرون فى صدق رسالتك. وماكنت حاضرا مع المقترعين على كفالة مريم، وماكنت معهم وقت تخاصمهم وتنازعهم أولا قبل القرعة على مَنْ يكفلها.

واذكر إذ قالت الملائكة، والقائل هو جبريل وكان معه آخرون، أنظر الآية (١٧) من سورة مريم صفحة ٣٩٧: إن الله يبشرك بمولود يحصل بمجرد كلمة كن اسمه المسيح، أى الممسوح الذى يكون له مركز الملوك، وكان لايمسح بالزيت المقدس غير الملوك، عيسى ابن مريم، نسبه إليها ليشعرها بأنه سيكون بدون أب ينسب إليه، وسيكون ذا وجاهة وكرامة فى الدنيا والآخرة، ومن المقربين فى دار النعيم، ويكلم الناس وهو طفل كما يكلمهم وهو تام الرجولية، وسيكون من الصالحين.

كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ
الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم
بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ (١)
وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ (٢) مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ
مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ
نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا
آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٣) ﴿٥٣﴾
وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٤) ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ
يَا عِيسَىٰ (٥) إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ

قالت مريم متعجبة: كيف يكون لى ولد ولم أتزوج؟ قال الملك: أمر الله كما أخبرتك. والله يخلق مايشاء كما يشاء. إذا قدر وجود شيء وجاء زمنه فإنه يوجد بسرعة بلا تأخير: لأنه لايحتاج فى وجوده لغير كلمة ﴿كن﴾ فيكون.

ويعلمه الخط والكتابة فلا يكون أميا. ويعلمه العلم النافع وأسرار خلقه. ويعلمه التوراة التى نزلت عليه. ويجعله رسولاً إلى بنى إسرائيل قائلاً لهم: احتج على رسالتى إليكم بأنى قد جئتكم ببرهان صدقى. وهو أنى أخلق أى أصنع وأقدر لكم شيئًا من الطين.

﴿كهيئة الطير﴾: أى على صورته. ﴿الأكمه﴾: الذى ولد أعمى.

﴿لما بين يدى﴾ أى تقدمه. ﴿بعض الذى حرم عليكم﴾: أى فى التوراة كلحوم الإبل. وكل ذى ظفر. أنظر الاية (١٦٠) من سورة النساء صفحة ١٣٠. ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾:

كررها للتأكيد وليرتب عليها ما بعدها. ﴿أحس عيسى منهم الكفر﴾:

أى شعر من قومه بالكفر برسالته حتى هموا بقتله. ﴿مَنْ أنصارى إلى الله﴾: أى مَنْ يكون من جندى متوجها معى إلى نصرة دين الله.

﴿الحواريون﴾: هم صفوة أتباعه. مأخوذ من الحور بفتحتين وهو صفاء بياض العين. لبياض قلوبهم وصفاء طبائعهم. ﴿متوفيك﴾: رأى كثير من العلماء أن معناه قابض روحك ورافعها مع أرواح الشهداء. واستدلوا على ذلك بالآيتين (٨، ٣٤) من سورة الأنبياء صفحات ٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٤. ﴿مطهرك من الذين كفروا﴾: أى مبعدك من سوء تصرفهم.

---

(١) التوراة. (٢) صراط. (٣) الشاهدين. (٤) الماكرين. (٥) ياعيسى.

المعنى: أجعل لكم من الطين جسما على صورة الطير فأنفخ فيه فيصير طيرا حيا بإذن الله، وهذا احتراس منه عليه السلام خوف أن يؤلهوه، ولذا كرره هنا وفى سورة المائدة، لأن المقام خطير. وأبرئ مَنْ فيه عيب من عيبه، وأحيى بعض الموتى ليشهدوا بصدقى ثم يموتون، وأخبركم بما يكون غائبًا عنى مما فى بيوتكم ماتأكلونه وماتدخرونه، إن فى ذلك مما سبق من المعجزات دليلاً على صدق رسالتى إليكم إن كنتم مؤمنين بالله، لأنه لايجعل المعجزات إلا مع الرسل. وجئتكم مصدقا لما تقدم من التوراة التى هى كتابكم لا مكذبا لها، ولأخفف عنكم مافيها من التشديد بإحلال بعض ماحرمته عليكم عقابا لكم. فاتقوا الله ولاتكذبونى، واطيعونى فيما آمركم به لأن فيه مصلحتكم.

إن الله ربى وربكم فاعبدوه وحده، وهذا الذى أمرتكم به طريق مستقيم موصل للجنة. ولما أرسل عيسى وبلغهم كل ماسبق وشعر منهم بالكفر ونية السوء والغدر به، اتجه إلى خواصه وقال لهم مَنْ يساعدنى فى نصرة دين الله قالوا نحن أنصار الله وأعوان دينه، آمنا بالله، واشهد ياعيسى بأنا منقادون لأمره تعالى. فالإسلام وهو الخضوع لما شرعه الله هو دين كل نبى وإن اختلفت بعض تفاصيله باختلاف العصور. ثم أكدوا إقرارهم فقالوا: ربنا آمنا بما أنزلت من الإنجيل واتبعنا رسولك عيسى فاكتبنا مع الشاهدين للرسل يوم القيامة بأنهم بلغوا دعوتك لبنى إسرائيل وبما كان منهم من الكفر. ومكر الكفار بتدبير قتل عيسى، ومكر الله عز وجل أى أبطل مكرهم، والله خير الماكرين، أى المدبرين فى خفاء، لأن تدبيره للمصلحة لا للفساد كمكر غيره. ومكره سبحانه فى هذا المقام هو إلقاء شبه عيسى على غيره حين أرادوا قتله كما فى الآية (١٥٧) من سورة النساء صفحة ١٣٠، وكان مكرهم هذا حين قال الله ياعيسى إنى مستوفى أجلك فى الدنيا، والمراد عاصمك من أن يقتلك كافر حتى أقبض روحك عند انتهاء أجلك وأنت مكرم على فراشك، ورافعك إلى فى المنازل الرفيعة مع أدريس والشهداء، انظر الآية (٥٧) من سورة مريم صفحة ٤٠١، والآية (١٦٩) من سورة آل عمران صفحة ٩١. ومطهرك أى مبعدك من خبث الذين كفروا.

كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ[١] ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ[٢] ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ[٣] فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ[٤] ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ[٥] وَالذِّكْرِ
الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ
مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ
مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ
وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل
لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ[٦] ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ

﴿فوق الذين كفروا﴾: فوقية فضائل ورحمة وقوة حجة. فيكونون خيرا من الكافرين أخلاقاً وأجمل أدبا وأرق قلوبا. وأحب للتراحم وأقوى حجة ﴿فمن حاجك فيه﴾: أى فمن جادلك فى أمر عيسى وقال غير الحق.

﴿نبتهل﴾: أى نضرع إلى الله بالدعاء خاشعين.

المعنى: وجاعل الذين اتبعوك فى دينك وآمنوا برسالتك فى منزلة أعلى من منزلة الكافرين. فتكون فوقيتهم روحية معنوية فى كل المعانى السامية خالدة إلى يوم القيامة. ثم إلىَّ مرجعكم جميعًا، المؤمن منكم والكافر، فأحكم بينكم فيما اختلفتم فيه. فأما الذين كفروا كاليهود ومَنْ ماثلهم فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا بالاضطهاد فى كل العصور، وإغراء العداوة والبغضاء بينهم، كما فى الآية (٦٤) من سورة المائدة صفحتى ١٤٩، ١٥٠؛ وفى الآخرة بعذاب أشد وأبقى، ومالهم من ناصرين يمنعون العذاب عنهم. وأما الذين آمنوا بك وبرسل الله كلهم، وعملوا الأعمال الصالحات المطلوبة منهم، فسأوفيهم جزاءهم كاملاً، والله لايحب الظالمين لأنفسهم بالخروج عن الحق واتباع الشهوات.

ذلك الذى تقدم من خبر عيسى من أقوى الأدلة على صدق دعواك أيها النبى، ومن أقوى مايذكر بوجوه العبرة، ويرشد إلى معرفة أسرار الدين. وبعد مابين سبحانه كيفية خلق عيسى ومجيئه بالبينات، وماكان من إيمان بعض وكفر بعض، أراد أن يبطل شبهة مَنْ بالغوا فى تقديسه من أتباعه حتى فتنوا به وجعلوه إلها أو ابن إله، قال ردا عليهم: إن عيسى كآدم فى أنهما وجدا من غير أب، بل آدم أعجب لأنه خلق من تراب بلا أب ولا أم، وعيسى وجد من أم، ولم يدع أحد أن آدم إله ولا ابن إله.

---

(١) القيامة. (٢) ناصرين. (٣) الصالحات.
(٤) الظالمين. (٥) الآيات. (٦) الكاذبين.

هذا الذى قلناه لك أيها السامع الحق الآتى من ربك العليم بكل شىء، فلا تشك فيه بعد هذه البراهين. فمن جادلك أيها النبى أنت ومَنْ معك من المؤمنين فى أمر عيسى من النصارى بعد ذلك وأصر على أنه ابن الله مثلاً فقل تعالوا نجتمع رجالاً ونساء وأطفالا منا ومنكم، ثم نتضرع إلى الله ونطلب منه أن يلعن الكاذب منا فى أمر عيسى. وقد ورد أن النصارى لما سمعوا ذلك أحجموا عن المباهلة وقال علماؤهم:

﴿لاتباهلوا الرجل فو الله ماباهل قوم نبيًا إلا هلكوا جميعا﴾.

والحق أنه لايقدم على هذا الموقف شخص إلا إذا كان واثقًا من أنه على حق وإلا هلك وحل به غضب الله عز وجل.

ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ[1] تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ[2] لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ[3] وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ[4] وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ[5] فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ[6] يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ[7] لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۗ وَٱللَّهُ

إن هذا الذى قصصناه عليك فى أمر عيسى لهو القصص الحق، وماعداه من قول اليهود إنه ابن زنا، ومن قول المفتونين به من النصارى إنه إله أو ابن إله، فباطل.

﴿كلمة سواء﴾: تطلق الكلمة على الكلام المفيد كما تطلق على المفرد، والمراد هنا الكلام. كما فى الآية (٥) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠، والآية (١٠٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٤.

﴿أربابا﴾: جمع ﴿رب﴾ وهو يطلق على معان، منها رئيس الأسرة، ومنها مَنْ يربى غيره تربية جسمية، أو عقلية وثقافية، وماهنا من المعنى الأخير كما سيأتى فى سبب نزول الآية ﴿حنيفا﴾: مائلا عن الباطل إلى الحق والمراد بعيدًا عن الضلال، خصوصًا الشرك أنظر ماتقدم فى الآية (١٣٥) من سورة البقرة صفحة ٢٦: (مسلمًا): الإسلام أصل معناه الخضوع والاستسلام لكل ما أمر الله به على لسان كل الرسل، قال تعالى ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ أنظر الآية (١٩) من سورة آل عمران صفحة ٦٥، والآية (٨٥) من سورة آل عمران صفحة ٧٧، والآية (١٣) من سورة الشورى صفحتى ٦٣٩، ٦٤٠.

---

(١)، (٢) الكتاب. (٣) إبراهيم. (٤) التوراة.
(٥) حاججتم. (٦) إبراهيم. (٧) بإبراهيم.

﴿وما كان من المشركين﴾: التصريح بهذا وماقبله لتوبيخ مشركى العرب الذين يدعون أنهم على ملة إبراهيم، وحنفاء مثله، كما تقدم بيان ذلك فى صفحة ٢٦.

المعنى: وليس فى الوجود إله إلا الله، وأنه هو العزيز الغالب الذى لايغلبه أحد، الحكيم فى تدبيره. فإن أعرضوا بعد ذلك عن الإيمان الصحيح فسيجازيهم على ذلك أشد الجزاء، لأنه عليم بإفسادهم عقائد الناس. وبعد ما بطلت جميع مزاعمهم وعجزوا عن المحاجة أمر سبحانه نبيه الكريم أن يدعوهم إلى أصل كل دين سماوى فقال عز وجل: قل لهم أيها النبى يأهل الكتاب من يهود ونصارى تعالوا نتفق على كلمة مستو فيها كل الكتب السماوية التى بيننا وبينكم وهى التوراة والإنجيل والقرآن، ثم فسر تلك الكلمة بقوله أن لانعبد نحن وأنتم إلا الله، فلا نتقرب بعبادة لغيره، ولانجعل غيره شريكا له فى الخلق والرزق واستحقاق العبادة، ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، أى لانطيع أحبارنا وعلماءنا فيما يحلون ويحرمون من غير رجوع إلى كتب الله عز وجل. وقد ورد أن عدى بن حاتم وكان نصرانيا وأسلم لما سمع قوله تعالى ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾ الآية (٣١) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥، قال: يارسول الله لم يكونو يعبدونهم. فقال ﷺ: أليسوا كانوا يحلون ويحرمون فتأخذون بما يقولون؟ قال: نعم. قال: هو ذلك.

أى هذا هو معنى اتخاذهم أربابا. فإن أعرضوا عن هذا التوحيد فقولوا لهم اشهدوا بأنا نحن المسلمون دونكم. وهذا كلام الواثق الذى يعتقد أن الأدلة والعقول السليمة كلها بجانبه.

ثم ذكر سبحانه فى سياق دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام مايدل على أنه دين جميع الأنبياء الذين يجلونهم، وكانت قريش تجل إبراهيم عليه السلام، وتدعى أنها على دينه، فبين سبحانه لهم جميعًا من يهود ونصارى ومشركين أن إبراهيم الذى يجلونه لم يكن على شىء مما هم عليه الآن، وإنما كان على الإسلام الذى يدعوهم إليه سبحانه على لسان نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، فقال ﴿يأهل الكتاب... إلخ﴾ أى لِمَ تجادلون فى دين إبراهيم ويدعى كل منكم أن دين إبراهيم هو الدين الذى أنتم عليه ثم أقام سبحانه الحجة على الكتابيين بقوله: ﴿وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده﴾. أى أن اليهودية إنما حدثت بعد نزول التوراة والنصرانية بعد الإنجيل، وبين إبراهيم وموسى نحو ألف سنة، وبين موسى وعيسى نحو ألفين، فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلا من بعد عهده بقرون طويلة. أفلا تعقلون أن المتقدم على الشىء لا يمكن أن يكون تابعا له؟ ياهؤلاء جادلتم فيما لكم به نوع علم لقرب عهدكم به ووجود كتابه بأيديكم وهو موسى وعيسى، ومع ذلك انحرف علمكم فطعنت اليهود فى عيسى

وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ[1]
لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ[2] لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ[3] ٱللَّهِ وَأَنتُمْ
تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ[4] لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ[5]
وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ[6] ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ
ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟
إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ
أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ
ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ[7] عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾
۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ[8] مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ

وآلهته النصارى، فكيف تجادلون فيما ليس لكم به علم، وهو كون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا، والله تعالى وحده هو الذى يعلم الحق وأنتم لاتعلمون.

فيجب أن ترجعوا إليه.

ولما كان مشركوا العرب يدعون أيضًا أنهم على ملة إبراهيم ويسمون أنفسهم الحنفاء، أى أتباع إبراهيم رد على الجميع بأن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيًا ولا مشركًا كمشركى العرب. إن أحق الناس بالانتساب لإبراهيم هم الذين اتبعوه فى دينه الحق فى عصره أو بعده ومنهم هذا النبى محمد، والذين آمنوا من أمته.

﴿ولى المؤمنين﴾: متولى أمورهم وحافظهم. ﴿ودت﴾: أحبت وتمنت. ﴿طائفة من أهل الكتاب﴾: هم أشد اليهود خبثًا. ﴿تلبسون﴾: تخلطون.

﴿وجه النهار﴾: أوله. ﴿لاتؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾: أى لاتصدقوا إلا من تبع دينكم. يقال أمن فلان لفلان أى صدقه فيما يقول، انظر الآية (١٧) من سورة يوسف صفحتى ٣٠٤، ٣٠٥: والآية (٢٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤.

﴿قنطار﴾ المراد به المال الكثير.

المعنى: والله متولى أمور المؤمنين به الذين لايتجهون لغيره فى كشف ضر أو طلب نفع، وكان اليهود أشد الناس عداوة للمؤمنين وحرصًا على صرفهم عن دينهم، حتى بلغ من حرصهم هذا أن يتجرَّأوا فيطلبوا من بعض كبار الصحابة كمعاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان أن يدخلوا فى اليهودية بدعوى أنها دين إبراهيم أبى الأنبياء، وتفننوا فى عرقلة الدعوة المحمدية فنونا شتى

---

(١)، (٢) الكتاب. (٣) بآيات. (٤) الكتاب. (٥) بالباطل.
(٦) الكتاب. (٧) واسع. (٨) الكتاب.

أفظعها ماسيأتى فى الآية (٧٢) الآتية فى هذه الصفحة وانظر الآية (١٢٠) من سورة البقرة صفحة ٢٣، فقال فى ذلك سبحانه: ودت طائفة من اليهود أن يضلوكم، ومايضلون بعملهم هذا إلا أنفسهم؛ لأن العذاب سيضاعف لهم مرة على ضلالهم ومرة على محاولتهم إضلال غيرهم، انظر الآيتين (٦٧)، (٦٨) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١، ومايشعرون بهذا الخطر لشدة حسدهم للنبى ﷺ. ثم وبخهم بندائهم بوصف أنهم أهل كتاب سماوى من شأنه أن يزجرهم عن الباطل فقال يأهل الكتاب لم تكفرون أى تجحدون الأدلة التى بينها الله لكم فى التوراة والإنجيل الدالة على صدق محمد وأنتم تشهدون أى تعترفون فى صميم قلوبكم ولكنكم تعاندون حسدا. يأهل الكتاب لم تخلطون الحق الذى جاء فى كتبكم من عند الله بالباطل الذى افتراه أحباركم ورهبانكم وتكتمون الحق من أن محمد رسول الله وأنتم تعلمون. ففى الكلام توبيخ شديد.

وقالت طائفة من اليهود لبعض منهم: اظهروا إيمانكم بالقرآن أول النهار واكفروا به آخره ليظهر لِمَنْ دخل فيه من المسلمين أنه دين باطل بدليل انصراف أهل الكتاب عنه بعد الدخول فيه فيرجع من أسلم إلى الشرك ثانيا. وقال أيضًا خبثاء اليهود لأتباعهم: لاتصدقوا أحدا فى أمور الدين إلا إذا كان يهوديا؛ لأن اليهود أبناء الله وأحباؤه كما فى الآية (١٨) من سورة المائدة صفحتى ١٣٩، ١٤٠. قل أيها النبى ردًا عليهم إن الهدى إلى الحق هدى الله يعطيه مَنْ يشاء من خلقه وليس لازما لشعب معين. وهذه جملة جاءت بين كلام اليهود لتعجيل الرد عليهم، وبقية كلامهم أن يؤتى إلخ أى يؤتى الله أحدا غير يهودى نبوة أو غيرها من الفضائل مثلما آتاكم. ولاتصدقوا أن أحدا يقيم عليكم حجة يوم القيامة عند ربكم، قل أيها النبى فى تكميل الرد عليهم: إن الفضل بالنبوة وغيرها بيد الله يؤتيه مَنْ يشاء من خلقه، وهو أعلم بمَنْ يستحق رسالته من غير تقييد بجنس دون جنس. والله واسع الفضل عليم بمَنْ يستحق، والله هو الذى يختص برحمته من نبوة ورسالة وغيرها مَنْ يشاء، كررها ليبطل شدة فتنتهم، وهو وحده ذو الفضل العظيم، وفى الوقت الذى بلغ فيه تعصب اليهود هذا الحد يقرر القرآن أن أساس الإسلام مدح كل مستقيم مهما كان جنسه فيقول: ومن أهل الكتاب أمناء إذا أمنت أحدهم على مال كثير يؤدى الأمانه.

وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ
عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ (١)
سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾
بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ (٢) ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ
لَا خَلَٰقَ (٣) لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ
إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ (٤) وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾
وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ (٥) لِتَحْسَبُوهُ مِنَ
ٱلْكِتَٰبِ (٦) وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ (٧) وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ
ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ (٨) وَٱلْحُكْمَ
وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن

﴿دينار﴾: هو عند العرب يساوى بالعملة المصرية فى عصرنا ثلاثة أخماس الجنيه الذهب. ﴿الأميين﴾: جمع أُمّيّ وهو لفظ يطلق على مَنْ لايعرف القراءة والكتابة، نسبته إلى أمه أى فهو كيوم ولدته أمه، ومن هذا قوله تعالى ﴿الرسول النبى الأمى﴾ وقوله سبحانه ﴿بعث فى الأميين رسولاً﴾ ويطلق أيضًا على المنسوب للأمة ﴿واحدة الأمم﴾. وهذا المعنى الثانى هو المناسب فى هذه الآية لأنه الموافق لما جاء فى كتبهم، فقد جاء فى التوراة التى بأيديهم اليوم فى الإصحاح ٢٣ من سفر التثنية (لاتقرض أخاك «أى اليهود» بربا، وللأجنبى تقرض بربا) فهم يريدون بالأجنبى كل الأمم غيرهم، وجاء نظير ذلك فى سفر الخروج إصحاح ٢٢، ٢٥ وكذا فى سفر اللاويين أى الأحبار فى الإصحاح ٢٥، ٣٥ وكل ذلك مما حرفوه من التوراة ونسبوه إلى الله تعالى سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا انظر الآية (٧٩) من سورة البقرة صفحة ١٥. ويريدون بالأميين العرب لأنهم أمة أمية أكثرها لايقرأ كما تقدم فى الآية (٢٠) من هذه السورة صفحتى ٦٥، ٦٦؛ والآية (٢) من سورة الجمعة صفحة ٧٤١. ﴿بلى﴾: حرف يدل على إبطال النفى الذى قبله وإثبات نقيضه، انظر تفصيل ذلك فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

﴿لا خلاق لهم﴾: أى لانصيب لهم فى نعيم الآخرة.

﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾: أصل اللى فتل الحبل والميل به عن الاتجاه المستقيم، والمراد به هنا تحريف التوراة وصرفها إلى مايريدون. وقد جاء وصفهم بذلك فى الآية (٤٦) من سورة

---

(١) الأميين. (٢) وأيمانهم. (٣) خلاق. (٤) القيامة.
(٥) بالكتاب. (٦)، (٧)، (٨) الكتاب.

النساء صفحة ١٠٨ وسيأتى بيانه. (أن يؤتيه الله الكتاب): المراد بالكتاب هنا الإنجيل. والحكم أى العلم الصحيح ومعرفة أسرار الأشياء.

المعنى: ومن اليهود مَنْ يخون ويستحل أموال غير اليهودى بحيث لو أمنته على دينار واحد لايرجعه إليك إلا إذا أثقلت عليه ولازمته بالقيام على رأسه ليلا ونهارًا. وسبب محاولة الخيانة هذه أنهم يزعمون أن التوراة تحل لهم أكل أموال كل الأمم غير اليهود فليس عليهم سبيل أى ذنب فى ذلك، ويقول هؤلاء اليهود هذا الكذب المفضوح وهم يعلمون أنهم كاذبون. ثم رد سبحانه عليهم فقال: بلى، أى بل عليكم إثم كبير فى استحلال أموال الناس؛ والحقيقة المقررة على لسان جميع رسله هى أن من أوفى بعهده الذى عاهد عليه الناس كالوفاء بالدين والأمانات، واتقى فلم يعص ربه فى شىء، فإن الله يحبه، لأنه سبحانه يحب المتقين، ومن أحبه الله فاز بالسعادتين. إن الذين يستبدلون بالوفاء بعهد الله الذى أخذه عليهم فى كتبهم من الإيمان بالنبى المبشر به المبينة صفته عندهم فى التوراة والإنجيل كما سيأتى قريبا فى الآية (٨١) من هذه السورة صفحة ٧٦، ويستبدلون بأيمانهم التى يحلفونها كاذبين ليأكلوا أموال الناس بالباطل؛ الذين يستبدلون بكل ذلك ثمنا قليلاً هو متاع الدنيا الزائل، لانصيب لهم فى نعيم الآخرة، ولايكلمهم الله تعالى بما يسرهم ويفرج عنهم كربا، ولا ينظر إليهم نظر عطف ورحمة، ولايزكيهم أى يطهرهم من خبث الذنوب بالمغفرة، فتكون آخرتهم المسجلة عليهم أنهم فى عذاب أليم. وإن من اليهود فريقا هم علماؤهم يحرفون التوراة بوضع لفظ مكان لفظ، أو بتفسيرها بغير المراد، أو بقراءة شىء من كلامهم بنغم قراءة التوراة، ليظنه السامع من التوراة وماهو منها، ويقولون هذا المحرف بلفظه أو معناه من عند الله وماهو من عند الله، ويفترون على الله الكذب الكثير من هذا وغيره، وهم يعلمون أنهم كاذبون، وهذا أقبح أنواع الذنوب. ثم رد سبحانه على الذين عبدوا المسيح من النصارى بقوله ﴿ماكان لبشر﴾ أى مكان لبشر مخلوق لله أن يؤتيه الله من فضله الكتاب والحكمة ثم يقول للناس كونوا عبادًا لى من دون توحيد الله بالعبادة والمراد ماكان جائزًا منه أن يجمع بين أجلّ نعمة وأكبر جريمة؛ ولكن الذى يصح أن يصدر عنه هو أن يقول للناس كونوا عبادًا لله عز وجل.

كُونُوا رَبَّانِيِّينَ[1] بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ[2] وَبِمَا كُنتُمْ
تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ[3] وَالنَّبِيِّينَ[4]
أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾
وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ[5] النَّبِيِّينَ[6] لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ[7]
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ
وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي
قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ[8] ﴿٨١﴾
فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[9] ﴿٨٢﴾
أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ[10]
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ
وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ[11] وَإِسْمَاعِيلَ[12] وَإِسْحَاقَ[13]
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ

﴿ربانيين﴾: الربانى منسوب إلى الرب مباشرة لأنه شديد التمسك بطاعته. ومن أفضل الربانيين العلماء العاملون.

﴿تدرسون﴾: أصل الدرس التكرار. فالمراد تكونون دارسين له فاهمين ﴿بعد إذ أنتم مسلمون﴾: المراد بعد ثبوت إسلامكم.

﴿ميثاق النبيين﴾: الميثاق العهد الموثق أى المؤكد من كتاب منزل وحكمة أى علم بأسرار الشريعة.

﴿إصرى﴾: عهدى. ﴿أسلم﴾: أى خضع وانقاد. ﴿الأسباط﴾ هم أولاد يعقوب الاثنا عشر، انظر الآية (١٣٦) من سورة البقرة صفحة ٢٦.

المعنى: ولكن يقول للناس كونوا شديدى التمسك بطاعة الله لتتشرفوا بانتسابكم إليه، ومن أسباب تشرفكم هذا أن تعلموا غيركم مافى الكتاب المنزل على رسولكم، وأن تكثروا دراسته لتفهموه حق الفهم. وقدم التعليم على الفهم مع أنه مؤخر عنه فى الوجود للإشارة إلى كثرة ثواب التعليم؛ لأنه طاعة واصل نفعها للغير. فالمراد أن الوسيلة الصحيحة الموصلة إلى رضا الرب هى علم الكتاب وتعليمه والعمل به، وبدون ذلك لايكون الإنسان ربانيا. ولايأمركم مَنْ آتاه الله الكتاب والحكمة بأن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا كما تقول العرب الملائكة بنات الله، انظر الآية (١٦) ومابعدها من سورة الزخرف صفحتى ٦٤٨، ٦٤٩. وكما قال بعض اليهود العزير بن الله، والنصارى قالوا المسيح بن الله، أى وابن الرب لابد أن يكون ربا مثله. هل يصح

---

(١) ربانيين. (٢) الكتاب. (٣) الملائكة. (٤) والنبيين. (٥) ميثاق.
(٦) النبيين. (٧) كتاب. (٨) الشاهدين. (٩) الفاسقون. (١٠) السموات.
(١١) إبراهيم. (١٢) وإسماعيل. (١٣) وإسحاق.

أن يأمركم النبى بالكفر بعد إسلامكم بالفطرة التى فطر الله تعالى الناس عليها؟ فالمراد أن الرسول جاء ليحارب مَنْ يفسد فطرة الله لا ليفسدها هو. واذكر حين أخذ الله العهد على النبيين وعلى أممهم بواسطة أنبيائهم مؤكدين العهد على أن الذى أعطيتكم أياه من كتاب وحكمة إذا جاءكم به رسول آخر مصدق للكتاب الذى معكم لتؤمنن بهذا الرسول ولتنصرنه على مَنْ يحاربه. ثم قال تعالى للأنبياء بعد أخذ هذا العهد أأقررتم بهذا العهد وأخذتم على الإيمان بكل رسول يأتى بعدكم وعلى نصرته عهدى على أممكم؟

قال النبيون: أقررنا أى وأخذنا العهد على أممنا، أى قال ذلك كل واحد منهم فى وقته. قال سبحانه: فاشهدوا على أنفسكم وعلى أممكم وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم. وهذا تحذير شديد أنظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧؛ والآية (٨٩) من سورة النحل صفحتى ٣٥٧، ٣٥٨.

فَمنْ تولى بعد هذا الميثاق المؤكد بأنْ نقضه فلم يؤمن بالرسول الآتى بعد رسوله مؤيدا بالمعجزات فهو فاسق أى خارج عن طاعة ربه، وجزاؤه جهنم خالدًا فيها. ثم بعد هذا البيان يعرض هؤلاء الكفار عن الإيمان فيطلبون دينا غير دين الله الذى ارتضاه لكل الأنبياء وهو الإسلام والحال أنه له سبحانه وحده خضع وانقاد جميع مَنْ فى السموات والأرض من العقلاء طائعين وكارهين، والانقياد كرها هو مايكون من الكافر عند الشدائد كما حصل لفرعون عند الغرق، أنظر الآية (٩٠) من سورة يونس صفحة ٢٨٠. وكما يحصل لكل كافر عند مشاهدة الموت، وعند الشدائد التى لايستطيع الخلاص منها، أنظر الآية (٦٥) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠ والآية (٣٢) من سورة لقمان صفحتى ٥٤٣، ٥٤٤. وإليه سبحانه يرجع الجميع يوم القيامة فيجازيهم. وقل لهم أيها النبى أنت وأمتك نحن آمنا بالله وما أنزل علينا من القرآن، وتقدم مثلها فى الآية (١٣٦) من سورة البقرة صفحة ٢٦، وما أنزل على إبراهيم ومَنْ بعده من الأنبياء، وما أوتى النبيون كداود وسليمان وأيوب وغيرهم وما أنزل الله تعالى على إبراهيم وموسى منه مافصله القرآن فنؤمن به كذلك كما فى الآية (١٤) إلى آخر سورة الأعلى صفحة ٨٠٤ والآية (٣٦) ومابعدها من سورة النجم صفحة ٧٠٣، ومنه ماجاء مجملاً فنؤمن به كذلك كما هنا وكما فى الآية (١٣٦) والآية (١٦٣) من سورة النساء صفحتى ١٢٦، ١٣١.

مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾
وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ[1] دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ[2] ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟
بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ[3] وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ[4]
وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ[5] ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ
أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ[6] وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾
خَٰلِدِينَ[7] فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ[8] ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟
كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم
مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

﴿يبتغ﴾ يطلب. ﴿البينات﴾: الأدلة الظاهرة.

المعنى: وآمنا بما أُوتى النبيون كداود وسليمان وأيوب وغيرهم، لانفرق فى الإيمان بين أحد منهم كما فرق أهل الكتاب قبلنا فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، كما تقدم فى الآية ﴿٢٨٥﴾ من سورة البقرة صفحتى ٦١، ٦٢. ونحن لله وحده مستسلمون أى منقادون بإخلاص. ومَنْ يطلب دينا غير الإسلام الذى هو دين جميع الأنبياء كما تقدم فى الآية (١٩) فلن يقبل منه، ولذا يكون فى الآخرة من الخاسرين لكل خير. كيف يهدى الله قومًا هم أهل الكتاب الذين كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بأن الذى تنطبق عليه الصفات الموجودة عندهم فى التوراة والإنجيل هو الرسول من عند الله، ولما جاء محمد أقروا فى أنفسهم بأنه صاحب تلك الصفات، وأنه النبى المبشر به فى التوراة والإنجيل، خصوصًا وقد أيد ما فى كتبهم بالمعجزات والأدله القاطعة على صدقه. انظر الآيتين (٨٩، ١٤٦) من سورة البقرة صفحتى ١٧، ٢٨. والله لايهدى القوم الظالمين: لأن استمرارهم على الظلم والجحود يمنعهم من سلوك أسباب الهداية. هؤلاء الذين كفروا بعد علم حسدا، عليهم لعنة الله أى سخطه الموجب لطردهم عن رحمته، وعليهم لعنة الملائكة والناس أجمعين. أنظر الآية (٢٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤.

خالدين فى آثار تلك اللعنه وهى جهنم، لايخفف عنهم العذاب ولا يؤخرون عن دخولها. إلا الذين تابوا من بعد ظلمهم المانع من الهداية، وأصلحوا نفوسهم بالأعمال الصالحة التى تمحو

---

(١) الإسلام. (٢) الخاسرين. (٣) إيمانهم.
(٤) البينات. (٥) الظالمين. (٦) والملائكة.
(٧) خالدين. (٨) إيمانهم.

آثار الذنوب؛ لأن الله تعالى يغفر لِمَنْ تاب. رحيم بفتح باب التوبة للمذنب. إن الذين كفروا بمحمد بعد إيمانهم بصفاته التى فى كتبهم وشهادتهم وإقرارهم بأن صاحبها هو الرسول المنتظر. ثم ازدادوا كفرا بمحاربتهم محمدا وإيذائه والصد عن دينه بالكيد، لن تقبل توبتهم من الذنوب الزائدة على ذنب الكفر لأن الله تعالى لايقبل توبة من كافر عن ذنب مادام على كفره. أما إذا تاب من أصل الكفر ثم أذنب بعد ذلك فإن الله تعالى يقبل توبته. أما ذنوبه التى ارتكبها وهو كافر كالقتل أو غيره فإنه الله تعالى يمحوها بمجرد إيمانه كما فى الآية (٣٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٢. وهؤلاء الكافرون الذين ازدادوا كفرًا وماتوا على كفرهم لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا إذا أمكن أن يملكه، سواء تصدق به لينقذ نفسه. أو افتدى به لمن يمكن أن يأخذه منه ليفديه. أنظر الآية (١٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢١.

فهؤلاء ليس لهم إلا العذاب الشديد الألم. فأقسام الكافر هنا ثلاثة: مَنْ يتوب من الكفر توبة مقبولة ويعمل صالحا فهذا يستحق المغفرة والرحمة. والثانى مَنْ يتوب توبة غير مقبوله لأنه يتوب عن ذنب مع البقاء على الكفر فلو تاب عن الكفر أولاً ثم أذنب بعد ذلك وتاب منه فإن الله تعالى يتوب عليه. والثالث مَنْ مات وهو كافر فهذا خالد فى النار نسأل الله تعالى السلامة.

﴿البر﴾: الخير الواسع. ﴿حِلاًّ﴾: أى حلالاً. انظر ﴿وطعام الذين أُوتوا الكتاب حل لكم﴾ الآية (٥) من سورة المائدة صفحة ١٣٦.

﴿إسرائيل﴾: لقب نبى الله يعقوب ثم أطلق على ذريته.

﴿حرم إسرائيل﴾: المراد بإسرائيل هنا هم اليهود من أولاد يعقوب.

ومعنى تحريمهم على أنفسهم أنهم تسببوا بظلمهم فى أن الله حرم عليهم طيبات كانت حلالاً لهم تأديبا لهم.

﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾: متعلق بـ ﴿حَرَّم﴾ بمعنى تسبب فى التحريم.

أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ[١] ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟
مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾
۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[٢] إِلَّا مَا حَرَّمَ
إِسْرَٰٓءِيلُ[٣] عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ[٤] ۗ قُلْ فَأْتُوا۟
بِٱلتَّوْرَىٰةِ[٥] فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ[٦] ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ[٧] ﴿٩٤﴾
قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ[٨] حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ[٩] ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ[١٠] بَيِّنَٰتٌ[١١]
مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ[١٢] ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ
حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ
غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ[١٣] ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ[١٤] لِمَ تَكْفُرُونَ

﴿حنيفا﴾: المراد بعيدا عن كل باطل ﴿أول بيت﴾: المراد بالبيت الكعبة المشرفه، والأولية زمانية بالنسبة لبيوت العبادة الصحيحة التى بناها الأنبياء. قال صاحب المنار: فليس فى الأرض مكان عبادة بناه الأنبياء أقدم منه. وهذا يستلزم أولية الشرف. ﴿وضع للناس﴾: المراد بناه نبى الله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام بأمره سبحانه وتعالى ليكون مكان عبادة للناس انظر الآية (١٢٧) من سورة البقرة صفحة ٢٥. أما بيت المقدس فالذى بناه نبى الله داود وجدده ابنه سليمان عليهما السلام، وكان ذلك بعد عهد إبراهيم عليه السلام بعدة قرون قال ابن كثير: مايروى أن أول من بنى الكعبة آدم عليه السلام غير صحيح. ومنقول من الإسرائيليات.

﴿بكة﴾: قال كثير من العلماء بكة هى مكة.

﴿مباركا﴾: هذا بيان لحال من حالات البيت وهو أنه مقارن للبركة التى يظهر أثرها فيما يفاض على جيرانه والعابدين حوله من ثمرات الأرض وتجبى إليه خيرات العالم استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام ﴿هدى للعالمين﴾: أى مكان عبادة وذكريات صالحة تهدى للسعادة فى الدارين. ﴿آيات بينات﴾: أى دلائل وعلامات ظاهرة على أنه وضع بأمر الله سبحانه وأنه محل تكريمه وأنه سبحانه وعد أهله بالأمان استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام.

---

(١) ناصرين. (٢)، (٣) إسرائيل. (٤)، (٥) التوراة. (٦) صادقين.
(٧) الظالمون. (٨) إبراهيم. (٩) للعالمين. (١٠) آيات.
(١١) بينات. (١٢) إبراهيم. (١٣) العالمين. (١٤) الكتاب.

﴿مقام إبراهيم﴾: أطلق مقام إبراهيم على الحَجَر الذى كان يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع جدارها ثم أطلق على المكان الذى كان إبراهيم عليه السلام يصلى فيه حول الكعبة بجوار هذا الحجر، ولذا قال بعضهم: مقام إبراهيم هنا هو موضع قيامه للصلاة، وأمرنا بالصلاة فيه. انظر الآية (١٢٥) من سورة البقرة صفحة ٢٤.

قال ابن عباس: الحرم كله مقام إبراهيم.

﴿ومَنْ دخله كان آمنا﴾: المراد مَنْ دخل حرم البيت الذى حرم الله المعاصى فيه، وليس المراد مَنْ دخل فى جوف البيت نفسه، انظر الآية (٥٧) من سورة القصص صفحة ٥١٥. وهذه علامة أيضًا من علامات إكرام الله تعالى لهذا البيت محل اتفاق بين جميع قبائل العرب. قال صاحب تفسير المنار: وليس معنى ذلك أن الخلق تعجز عن إيذاء مَنْ دخل البيت على سبيل خرق العادة بمعنى أنه يكون معجزة، ليس المراد ذلك ولكن المراد أنه تعالى ألهمهم احترام البيت لاعتقادهم نسبته إليه سبحانه وتعالى، وإلى جدهم إبراهيم عليه السلام، وبذلك فلا يُرَدّ أن الحجاج ضرب مَنْ كان بداخله فى أول عهد بنى أمية، لأنه مافعل ذلك مستحلا وإلا كان كافرا، بل فعله وهو يعلم أنه بذلك عصى ربه تبارك وتعالى، وماحمله على ذلك إلا السياسة التى تحمل صاحبها على مخالفة ما يعتقد أنه حق، وتُوقِعه فى كثير من المظالم.

المعنى: ومالهم مَنْ ينصرهم بمنع العذاب. ثم بيَّن سبحانه أن علامة الإيمان الصحيح هو الإنفاق فى الخير كما فى الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤. فقال سبحانه: ﴿لن تنالوا البر﴾ أى الخير حتى تنفقوا مما تحبونه. فإن ذلك دليل على أنكم تفضلون ماعند الله. وما تنفقوا من شىء قليل أو كثير محبوب أو غير محبوب فالله تعالى يعلمه ويجازى على حسبه.

وكان اليهود لايكفون عن عرقلة دعوته ﷺ بكل مايظنونه يبلبل الأفكار، فمرة يقولون لو كان محمد على ملة إبراهيم والنبيين كما يدعى لما استحل ما كان محرما عليهم كلحوم الإبل وألبانها. ومرة قالوا إن جميع الأنبياء من إسحاق بن إبراهيم كانوا يصلون إلى بيت المقدس فلو

كان محمد على ماكانوا عليه لما تحول إلى الكعبة. فأبطل سبحانه ذلك بقوله: كل الطعام كان حلالا لبنى يعقوب إلا ماتسببوا فى تحريمه على أنفسهم حيث ظلموا وارتكبوا سيئات كثيرة اقتضت أن يعاقبهم الله تعالى، فأنزل سبحانه فى التوراة تحريم بعض الطيبات كما فى الآية (٥) من سورة النساء صفحة ١٣٦: فكانت جرأتهم المتسببة فى التحريم سابقة نزول التوراة. فقل لهم أيها النبى مقيمًا الحجة عليهم: فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين فى قولكم إن التحريم كان قبل التوراة لأن جميع المطعومات كانت قبل نزول التوراة حلالاً للجميع بحكم أن الأصل هو الحل فى كل الأشياء والتحريم لايكون إلا بدليل انظر الآية (٢٩) من سورة البقرة صفحة ٧؛ وانظر ماحرمه الله عليهم وسببه فى الآيات (١٤٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨، و(١٦٠، ١٦١) من سورة النساء صفحة ١٣: فإذا لم تأتوا بالتوراة ثبت كذبكم على الله تعالى. ومن افترى على الله الكذب من بعد مالزمته الحجة فهو ظالم لنفسه بعدم ترك الحسد الموجب للهلاك. فإذا لم يأتوا بالتوراة ولن يأتوا بها فقل لهم تسجيلا لبغيهم: صدق الله فيما أخبر به من عدم تحريم شىء على إسرائيل قبل التوراة. وإذا كان الأمر كذلك وأردتم النجاة فاتبعوا ملة إبراهيم إلخ. تقدم بيانها فى الآية (٦٧) من هذه السورة صفحة ٧٣. فالاتجاه إلى الكعبة اتباع لإبراهيم لا إعراض عن ملته كما تزعمون. مباركًا وهدى فيه فضيلة حسية هى توافر ثمرات الأرض لجيرانه مع أنه فى واد غير ذى زرع، ومعنوية وهى أنه مكان هداية بالحج والصلاة إليه. وفى الحج والصلاة ما لايخفى من أسباب الهداية. وفى هذا البيت أدلة ظاهرة على أنه من صنع الله ومحل تكريمه: منها مقام إبراهيم، ومعرفة جميع قبائل العرب ذلك باليقين دليل على صدق القرآن فى أن إبراهيم هو الذى بناه. ومن أدلة تكريمه أن الذى يدخل فى حرمه يكون آمنا من كل سوء. اتفق على ذلك جميع العرب، فكان الرجل يلقى فيه قاتل أبيه فلا يؤذيه، وحتى الحيوان يغدو ويروح فيه لايمسه أحد بسوء. جرى على ذلك العرب دهورا طويلة إلى يومنا. ومن علامات تكريمه وجوب الحج إليه ليكون اجتماع كبار المسلمين عنده مهيئًا لهم بعد التعاون والتآلف لبحث كل مايعود على الإسلام بالعز وعلى أهله بالسعادة. ومازال الناس يحافظون على ذلك من عهد إبراهيم إلى عهد نبينا محمد عليهما الصلاة

بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا
عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩)
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ
تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ
وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا
وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ
وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ
مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ

والسلام. ولم يمنع العرب من ذلك ماطرأ عليهم من الشرك. ومَنْ كفر أى جحد أن هذا بين الله الذى كرمه بكل ماسبق وأن إبراهيم هو بانيه بعد هذه الأدلة فلا يضر إلا نفسه؛ لأن الله تعالى غنى عن العالمين جميعا. وهم الفقراء إلى فضله ورحمته. وبعد ما أقام سبحانه الدليل على أن محمدا على ملة إبراهيم أمر نبيه ﷺ أن يوبخهم على إصرارهم على الضلال فقال: قل يأهل الكتاب لم تكفرون أى تصرون على الكفر.

﴿تبغونها عوجا﴾: أى تقصدون بصدكم عنها جعلها معوجة فى نظر الناس. ﴿وأنتم شهداء﴾: أى عالمون من كتبكم ومقرون بأنها حق انظر الآية (٨٤) من سورة البقرة صفحة ١٦.

﴿يعتصم بالله﴾: يتمسك بدينه ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾: هى أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى. ﴿واعتصموا بحبل الله﴾: أى تمسكوا بحبل الله المتين الذى هو القرآن. ﴿شفا حفرة﴾: أى طرف حفرة من جهنم، والمراد كنتم قريبين من الوقوع فى جهنم لولا أن تدارككم الله بالإسلام وهذا تمثيل للمعنويات بالحسيات كما هو أسلوب العرب عند الترغيب أو التنفير انظر الآية (٦٥) من سورة الصافات صفحة ٥٩١، والآية (٣٠) من سورة ق صفحة ٦٩٠.

المعنى: ما الذى يحملكم على الكفر بآيات الله وقرآنه، مع أن الله مطلع على أعمالكم؛ أفلا تخافون عقابه. وقل لهم لم تصدون عن سبيل الله أى تحاولون صرف مَنْ آمن بشبه وتشكيكات

---

(١) بآيات. (٢) الكتاب. (٣) بغافل. (٤) الكتاب. (٥) إيمانكم.
(٦) كافرين. (٧) آيات. (٨) صراط. (٩) إخوانا. (١٠) آياته.

تقصدون بها جعل سبيل الله معوجة فى نظر مَنْ يغتر بكيدكم، وأنتم تعلمون من كتبكم أنها سبيل الله المستقيم وما الله بغافل عما تعملون من هذا الصد وغيره من جرائمكم وسيحاسبكم عليها. ولم يكف خبثاء اليهود الكيد بالتشكيك فى تحليل بعض الطعام وفى جعل الكعبة قبلة كما تقدم، بل عمدوا إلى نوع آخر ليحبطوا الدعوة المحمدية وهى فى مهدها؛ ذلك أنهم يعلمون أنه كان بين قبائل المسلمين فى الجاهلية فتن وحروب تنابذ فيها الطرفان بالشعر والنثر، فأرادوا إثارة ذكراها لتتقد نار الفتنة من جديد فيتم لهم ما أرادوا. فأرسلوا غلامًا فى مجتمع المسلمين ينشد الشعر الذى قيل أيام تلك الحروب، فأثار هذا الشعر بعض ما كان بين الأوس والخزرج أكبر قبائل الأنصار من كره وعداوة، وكادوا يقتتلون، فأدركهم النبى ﷺ وحال بينهم وقال: أترجعون إلى غلظة الجاهلية وأنا مازلت بينكم بعد أن أكرمكم الله تعالى بالإسلام وألف بين قلوبكم؟ وعند ذلك أدرك الجميع أنها نزعة شيطانية فبكوا وعانق بعضهم بعضًا. فأنزل الله تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب﴾ يقصد خبثاء اليهود، يردوكم بعد إيمانكم إلى الكفر. وكيف تكفرون أى لايصح ذلك وأنتم تتلى عليكم آيات الله من القرآن الذى لو أنزل على جبل لتصدع من خشية الله.

وأيضًا حاضر بينكم رسول الله يزيل شبهاتكم ويرسم لكم طريق خلاصكم، ومَنْ يتمسك بدين الله فقد هدى إلى طريق مستقيم موصل لدار النعيم. يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقواه، وحافظوا على إسلامكم فى كل لحظة حتى لايفاجئكم الموت إلا وأنتم مسلمون. وتمسكوا بالقرآن الذى هو حبل الله المتين، ولاتعملوا ما فيه تفرقكم شيعا وأحزابًا، انظر الآية (١٥٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩. وتذكروا نعمة الله عليكم إذ كنت فى الجاهلية أعداء فألف بين قلوبكم بالإسلام فأصبحتم ببركة نعمته تعالى إخوانا متحابين. واذكروا أنكم كنتم بسبب كفركم على طرف حفرة من نار جهنم، أى ليس بينكم وبين الوقوع فى جهنم إلا الموت على الكفر، فأنقذكم الله منها بالإيمان. كهذا البيان البديع يبيّن الله لكم دائمًا دلائل طرق الخير.

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن
بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ(١) وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾
يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ
وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ(٢) فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ
فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٣) ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ(٤) اللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ(٥) ﴿١٠٨﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ(٦) وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ

﴿أمة﴾: جماعة. ﴿يدعون﴾: المراد يطلبون الناس إلى عمل الخير، سواء كان الطلب بالأمر أو النهى و ﴿الخير﴾ هو كل عمل فيه صلاح الدين أو الدنيا. ﴿ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾: من عطف المفصل على المجمل، وهو له وقع على النفوس أقوى من الاقتصار على المفصل وحده، و ﴿المعروف﴾ هو العمل المعروف نفعه شرعًا وعقلاً من كل ما فيه صلاح الدين والدنيا. و﴿المنكر﴾ هو كل ما تنكره الشريعة والعقول السليمة من كل مافيه مفسدة وإضرار بالنفس أو الغير.

﴿ففى رحمة الله﴾: أى فى الجنة التى هى أثر رحمة الله.

﴿كنتم خير أمة﴾: أوجدكم الله خير أمة... إلخ.

المعنى: لعلكم تهتدون إلى الخير وتجتنبون الشر. ولتكن منكم إلخ: المراد يجب أن تكونوا كلكم أمة من خصائص أفرادها أنهم يدعون.. إلخ. فالكلام من قبيل قولهم: ليكن لى منك صديق حميم. وبهذا تتفق الآية مع الآية (١١٠) الآتية قريبا وكذا مع غيرها أنظر الآيات (٧٨ ، ٧٩) من سورة المائدة صفحتى ١٥٢، ١٥٣ و(٤١) من سورة الحج ٤٣٩. لكن بشرط أن تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. وكل هذا فى الأمور المعلومة لكل الناس. أما ما قد يخفى على غير الفقهاء فى الدين فلا يتصدى للأمر به والنهى عنه إلا الخبير به الذى يستطيع استنباط الصواب أنظر الآية (٨٣) من سورة النساء صفحة ١١٥. والخير كل ما فيه سعادة الدارين.

---

(١) البينات. (٢) إيمانكم. (٣) خالدون. (٤) آيات. (٥) للعالمين. (٦) السموات.

ثم بيّن سبحانه كيف تكون الدعوة إليه فقال: يأمرون بالمعروف وهو كل ما فيه طاعة، وينهون عن المنكر وهو كل مافيه معصية. ومن يفعل ذلك ضمن الفلاح أى الفوز بالسعادة. ولا تكونوا كاليهود والنصارى الذين تفرقوا شيعا يعادى بعضهم بعضا، واختلفوا فى الدين يكفر بعضهم بعضا، من بعد ماجاءهم البينات والبراهين الموجبة للاتفاق على الحق، انظر الآية (٢١٣) من سورة البقرة صفحتى ٤١، ٤٢ والآية (٤) من سورة البينة صفحة ٨١٦. وأولئك المختلفون لهم عذاب عظيم.

واذكر لهم يوم القيامة وأهواله حين تبيض وجوه المؤمنين وتسود وجوه الكافرين. فأما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم توبيخا: أكفرتم بعد أن خلقكم الله مؤمنين به بالفطرة فأفسدها إهمالكم والتأمل فى الأدلة وافتتانكم بالدنيا فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم فيدخلون فى آثار رحمة الله وهى الجنة خالدين فيها.

تلك آيات الله التى جاءت فى وعد المؤمنين ووعيد الكافرين نتلوها عليك أيها النبى مصحوبة بالحق، فلن يتخلف شىء مما فيها، وما الله يريد ظلما لأحد، بأن يعذب مَنْ لايستحق أو ينقص أجر المستحق. ولله كل مافى السموات والأرض خلقا وملكا، الكل فى قبضة قدرته تعالى، وإليه سبحانه ترجع كل الأمور فى النهاية، فيجازى كل مكلف بما يستحقه. كنتم خير أمة إلخ: أى وجدتم الآن على أنكم خير أمة، لأن جميع الأمم فى ذلك الحين غلب عليها الفساد. ثم بيّن وجه الخيرية بقوله: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله على الوجه الصواب. وإذا كان كل الأمم أمرها الله على لسان أنبيائها أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فما وجه خيرية هذه الأمة على غيرها؟ الجواب أن هذه الأمة أمرت بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بكل الطرق الممكنة باليد واللسان والقلب بلا هوادة حتى ولو أدّى ذلك إلى القتال انظر الآيتين (٧٩) من سورة المائدة صفحة ١٥٣ و (٩) من سورة الحجرات صفحتى ٦٨٥، ٦٨٦. وهذا مالم يكن فى الأمم الماضية. وعلى ذلك تكون الأمة التى تفرط فى القيام بهذا الواجب الذى ميزها على غيرها قد فقدت خاصيتها وعرضت نفسها لغضب الله سبحانة وتعالى، انظر ماحل بمنْ فرطوا فى ذلك فى الآيات (١٦٣ ـ ١٦٦) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٩، ٢٢٠.

أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ
يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ
أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُو
بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ
ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ * لَيْسُوا سَوَاءً
مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ
اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ
فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا
مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ

﴿لن يضروكم إلا أذى﴾: أى لن يلحقوا بكم ضررا إلا أذى بلسان من سب أو تهديد كاذب.

﴿ضربت عليهم الذلة﴾: أصله من ضرب الخيمة على الشيء فتحيط به؛ أى أحاطت بهم الذلة من كل جانب.

﴿أينما ثقفوا﴾: فى أى مكان وجدوا فيه.

﴿إلا بحبل من الله﴾: إلا إذا عصمهم عهد من الله لهم بعدم إيذائهم إذا دفعوا الجزية.

﴿حبل من الناس﴾: إذا عقدوا معهم عهدا على أن لايضر بعضهم بعضًا كما فعل ﷺ معهم بالمدينة، ولكنهم على عادتهم نقضوه فحاربهم.

﴿باءوا﴾: رجعوا. ﴿المسكنة﴾: الاستكانة والخضوع والمهانة. ﴿أمة﴾: جماعة.

﴿قائمة﴾: مستقيمة من قولهم قام العود إذا استقام.

﴿آناء الليل﴾: جمع إنْوَ بكسر فسكون بمعنى جزء. ﴿فلن يكفروه﴾: أى فلن يجحدوا جزاءه بأن يحرموا منه.

المعنى: لو آمن اليهود والنصارى مثل إيمانكم لكان خيرا لهم لما فيه من السعادة الخالدة. من أهل الكتاب مؤمنون بحق كعبد الله بن سلام وأصحابه من اليهود، والنجاشى وأصحابه من النصارى، وأكثرهم الفاسقون الخارجون عن الدين الخالص.

---

(١) الكتاب. (٢) الفاسقون. (٣) يقاتلو كم.
(٤) بآيات. (٥) الكتاب. (٦) آيات.
(٧) الليل. (٨) ويسارعون. (٩) الخيرات.
(١٠) الصالحين.

ولما كانت الكثرة الفاسقة ربما تزعج المؤمنين قال سبحانه مطمئنا أصحابه ﷺ: لن يضروكم بشيء يخيفكم، لأنه لايكون إلا أذى بلسان مَنْ سب كما يفعل السفهاء الجبناء، لأنهم إن تعدوا ذلك وقاتلوكم يعطوكم ظهورهم منهزمين مغلوبين فلا تخشوا بأسهم، ولايجدون مَنْ ينصرهم عليكم. ولزمهم الذل وأحاط بهم فى أى مكان وجدوا فيه، إلا فى حال اعتصامهم بعهد . من الله للمؤمنين بعدم إيذائهم إذا دفعوا الجزية، وعهد من الناس الذين يعيشون معهم بأن لايضر بعضهم بعضا، ولكن لسوء طباعهم لايحافظون على عهد، وماتقدم فى أوائل البقرة خير شاهد على ذلك: ولهذا قال: ورجعوا بغضب من الله، أى استحقوه لنقضهم العهود، وضربت عليهم المسكنة، أى الاستكانة والمهانة. ذلك المذكور من ضرب الذل والغضب بسبب استمرارهم على الكفر بالأدلة التى أقامها الله تعالى على الحق وقتلهم أنبياءهم. ذلك الكفر والقتل بسبب تعودهم مداومة المعصية والعدوان كما تقدم فى الآية (٦١) من سورة البقرة صفحة ١٢.

ثم أنصف الصالحين منهم بقوله ﴿ليسوا سواء﴾: أى أن أهل الكتاب ليسوا متساوين فى منازعتهم وأفعالهم، بل منهم طائفة مستقيمة لاتنحرف عن الحق، يتلون القرآن فى ساعات الليل وهم يصلون، كعبد الله بن سلام وأصحابه ومَنْ أسلم من نصارى نجران والحبشة، يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويبادرون فى عمل الخيرات خشية الفوات، وهؤلاء عند الله من الصالحين. ومايفعلوه من خير فلن يجحدوا جزاءه ويحرموه، بل يثابون عليه، والله عليم بالمتقين فيجازيهم على قدر تقواهم.

﴿فيها صر﴾ : هو البرد الشديد الذى يجفف النبات كأنه حرقه بالنار.

﴿حرث قوم﴾ : الحرث الزرع. ﴿بطانة من دونكم﴾: بطانة الرجل خاصته الذين يطلعون على باطنه.

﴿لايألونكم خبالا﴾: يألون:

كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ[١] وَلَآ أَوْلَٰدُهُم[٢] مِّنَ ٱللَّهِ
شَيْـًٔا ۖ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ[٣] ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ[٤] ﴿١١٦﴾ مَثَلُ
مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ[٥] ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ
أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ
ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا
لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ
قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ[٦] وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ
قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ[٧] ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ
تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ[٨] كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ
قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ
قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾
إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ

يقصرون قال القاموس: الخبال فى الأصل الذى يلحق الإنسان فيورثه اضطرابًا كالمرض والجنون ويستعمل فى كل شىء يصيب الإنسان والمراد لايقصرون بل يجتهدون فى إفساد الأمر عليكم. ﴿ودوا﴾: أحبوا.

﴿ماعنتم﴾: العنت: شدة الضرر والمشقة.

﴿بالكتاب كله﴾: المراد بالكتاب الجنس فيشمل كل كتب الله كالتوراة والإنجيل.

﴿عضوا عليكم الأنامل﴾: أى أطراف الأصابع. والكلام كناية عن شدة الغيظ.

﴿تمسسكم حسنة﴾: أى تأتيكم نعمة من الله كنصر فى حرب أو غنيمة.

المعنى: إن الذين كفروا لن تدفع عنهم أموالهم بالفداء ولا أولادهم بالاستعانة بهم من عذاب الله شيئًا ولو قليلاً، فعاقبتهم مصاحبة النار خالدين فيها، ومثل المال الذى ينفقونه فى شهواتهم ومحاربتهم له ﷺ كمثل ريح شديدة البرودة أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى فأهلكته؛ فالمال الذى أنفقوه فيما ذكر هو الذى أفسد فطرهم واتلف عقولهم فلم تفكر فى العواقب، فالمال كالريح والفطركالزرع. وماظلمهم الله بإتلاف ماتلف ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب أسبابه.

---

(١) أموالهم.
(٢) أولادهم.
(٣) اصحاب.
(٤) خالدون.
(٥) الحياة.
(٦) افواههم.
(٧) الآيات.
(٨) بالكتاب.

ونزل فى رجال من المسلمين كانوا يوالون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من قرابة أو جوار أو محالفة فى الجاهلية، ولما كان فى المبالغة فى هذه الموالاة خطر على سلامة المسلمين، حذر سبحانه منها فقال: ﴿لاتتخذوا بطانة من دونكم﴾ أى غير أبناء ملتكم المؤمنين. ثم وصف البطانة المنهى عنها بأنهم لايقصرون فى إفساد أمركم، وأنهم يحبون ويتمنون ضرركم، وقد ظهرت علامات بغضهم لكم من كلامهم، فهى لشدتها عندهم يصعب عليهم إخفاؤها، وماتخفيه صدورهم من البغض لكم أقوى وأشد مما يفلت من ألسنتهم.

قد بينا لكم العلامات الفارقة بين مَنْ يصح أن يكون من خاصتكم وبين مَنْ لايصح إن كنتم تعقلون، فاعتبروا ولا تأمنوا على أسراركم خصوصا الحربية مَنْ كان من هذا النوع. وقد تقدم فى الآيتين (٢٨، ٢٩) من هذه السورة صفحة ٦٧ شرح أوفى لهذا الموضوع.

ونزل فى اليهود المنافقين قوله: هاأنتم هؤلاء تحبونهم لقرابة أو صداقة ولا يحبونكم لشدة تعصبهم لدينهم الباطل، فلا يصح أن يكونوا فى باطلهم أحرص منكم على حقكم، وأنتم تؤمنون بكل كتب الله المنزلة وهم لايؤمنون بشىء من كتابكم، وإذا لقوكم قالوا آمنا معكم ليغرروا بكم، وإذا خلوا أى فارقوكم وخلا بعضهم إلى بعض عضوا أطراف أصابعهم من شدة غيظهم منكم وعجزهم عن إهلاككم؛ قل لهم: استمروا على غيظكم إلى الموت فلن تروا مايسركم أبدا، انظر الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥، إنه عليم بما فى صدوركم من الغيظ الذى تحاولون إخفاءه، فلا يمكنكم من إضرار عباده المخلصين. وبلغ من شدة بغضهم لكم أن الحسنة التى تأتيكم من الله كنصر أو غنيمة أو كثرة مَنْ يدخل معكم فى دينكم تحزنهم. وإن تصبكم سيئة كهزيمة أو جدب أو شدة يفرحوا بها، فهم بالغو النهاية فى عداوتكم، فكيف توالونهم وتصافونهم.

﴿غدوت﴾: أى خرجت من بيت أهلك غدوة أى أول النهار.

﴿تبوئ﴾: أى تنزل وترتب. ﴿مقاعد للقتال﴾: أى مواطن للحرب، بأن قسمتهم إلى ميمنة وميسرة وقلب ومقدمة وساقة.

وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ
الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت
طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا
اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن
يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ
مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن
فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ
مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ
قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ
الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ

﴿طائفتان منكم﴾: هما حيان من الأنصار بنو سلمة وبنوحارثة.

﴿من فورهم هذا﴾: أي من ساعتهم هذه بدون إبطاء.

﴿مسومين﴾: مغيرين من قولهم سوم على القوم إذا أغار عليهم وفتك بهم.

﴿ليقطع طرفا﴾: متعلق بالنصر المفهوم من قوله ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ أي ومابنصركم الله إلا ليقطع طرفا... ومعنى القطع هنا الإهلاك ومعنى الطرف هنا أشرافهم، وذلك لأن من شأن الأشراف ألا يكونوا فى المقدمة. فالمعنى ليهلك صناديد الكفر. وقال بعض المفسرين إن المراد من الطرف هنا الطائفة الأقرب إلى المسلمين فهو من قبيل قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ الآية (١٢٣) من سورة التوبة صفحتى ٢٦٣، ٢٦٤.

﴿أو يكبتهم﴾: أي يخزيهم ويذلهم انظر الآية (٥) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٥، وأصل الكبت الغيظ والغم.

المعنى: إن تصبروا على ما أمركم الله من الحذر منهم وتتقوا الله فى موالاتهم وغيرها لايضركم كيدهم شيئا ولو قليلا، لأنه محيط بما يحاولون من كيد، فلا يعجزه رد كيدهم. ثم أراد سبحانه أن يذكر المسلمين بحادثتين عظيمتين، هما واقعتا أحد وبدر، وذكر فى ذلك نحو الستين آية من (١٢١) إلى ١٧٩. وسبب غزوة أحد أن المشركين لما انكسروا فى بدر اشتد غيظهم، فخرج أبو سفيان بن حرب من مكة فى شوال من السنة الثالثة فى نحو ثلاثة آلاف

---

(١) مقاعد. (٢) بثلاثة. (٣) آلاف.
(٤) الملائكة. (٥) آلاف. (٦) الملائكة.

مقاتل، ولما علم ﷺ بذلك خرج فى ألف من أصحابه لملاقاة الكفار عند أحُد فى شمال المدينة، وفى منتصف الطريق رجع عبد الله بن أُبى كبير المنافقين بثلث الجيش بدعوى أنه ﷺ لم يأخذ رأيه فى القتال، وكادت تحدث بذلك فتنة فى جيش المسلمين لولا فضل الله تعالى، كما سيأتى بيانه، وماسيأتى فى الآية (١٥٤) صفحة ٨٨ يدل على أن بعض المنافقين بقى فى الجيش ولم يرجع مع عبد الله بن أبى ابن سلول ولما كانت هذه الغزوة من الغزوات المهمة المليئة بالعبر، ولايتسع المقام هنا لإيفائها حقها. نحيل مَنْ أراد المزيد على شرح حديث ٤٧٩ من كتابنا صفوة البخارى، ليجد هناك كل ماحصل. واذكر لهم أيها النبى حين غدوت من أهلك ترتب المؤمنين فى مواطن القتال. والله سميع لكل ماقلته لهم، عليم بما سيكون من أسباب فشلكم.

وأذكر أيضًا حين همت طائفتان منكم أن تفشلا بالجبن والضعف والرجوع مع عبد الله بن أُبى عندما رجع بثلث الجيش من وسط الطريق، ولما كانوا صادقى الإيمان ولم يكونوا منافقين كعبد الله تولى الله سبحانه صرف الفشل عنهم وثبتهم، وعلى الله يتوكل المؤمن بعد أخذ العدة ولايخاف شيئًا. وذكرهم أيضًا بنصره سبحانه لهم ببدر لصدق إيمانهم وحسن طاعتهم، وكانوا أذلة.. وأذلة جمع ذليل وأصله الخاضع لقهر مَنْ هو أقوى منه، وهذا ليس مراد هنا بل المراد هنا قليلو العدد ضعفاء فى العدة. لقلتهم وكثرة عدوهم، كما سيأتى فى الأنفال، فاتقوا الله ولاتخالفوا رسوله لعلكم تشكرونه على نصركم. تبوئ المؤمنين مواطن القتال حين تقول لهم بعد أن همّ بعضهم بالفشل:

أليس يكفيكم أن يساعدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين لتطمئن قلوبكم. بلى أى بل يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف ثم وعدهم بزيادته فقال إن تصبروا وتتقوا مخالفة الرسول ويأتيكم الكفار بسرعة يزد ربكم الملائكة إلى خمسة آلاف مرسلين منه لتقويتكم.

وماجعل الله إمداد الملائكة إلا بشرى لكم بأنكم ستنصرون ولتطمئن قلوبكم فلا تهابوا كثرة العدو. وما النصر إلا من عند الله يؤتيه الغالب الحكيم فى منحه لمن يستحقه بالصبر والتقوى. يمددكم ربكم بالملائكة إذا صبرتم واتقيتم مخالفة الرسول. ليهلك بعضا من أعدائكم

فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ
عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ[1] ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[2]
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟
ٱلرِّبَوٰٓا۟[3] أَضْعَٰفًا[4] مُّضَٰعَفَةً[5] ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾
وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ[6] ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ
مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ[7] وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ
وَٱلْكَٰظِمِينَ[8] ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً[9] أَوْ ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ

أو يغيظهم ويذلهم أو المراد يهلك بعضا ويذل بعضا. واختار إمام المفسرين ابن جرير أن المسلمين لم يمدوا بالملائكة فى غزوة أُحد لأنهم لو أمدوا لما انهزموا، ولأن الوعد بالإمداد كان مشروطا بأمرين: الصبر والتقوى، هما لم يحصلا من المسلمين فى أُحد، فلذا نكبوا بأشد نكبة كما سيأتى.

﴿أضعافا مضاعفة﴾: كان المدين فى الجاهلية يقول للدائن إذا حل أجل الدين: أجّل الطلب وأزيدك، وبطول الزمن يتضاعف رأس المال عدة مرات. فهذا هو الربا المضاعف. وجاءت بعد ذلك الآية (٢٧٥) من سورة البقرة صفحتى ٥٨، ٥٩ تنهى عن الربا مطلقا.

﴿السراء والضراء﴾: اليسر والعسر.

المعنى: فيرجعوا خائبين. ولما وقع ﷺ فى الحفرة التى أعدها له الكفار، وكسرت سنه وجرحت وجنته، غضب وقال: اللهم العن أبا سفيان بن حرب، اللهم العن فلانا وفلانا، لأناس سماهم من زعماء المشركين، فنزل قوله تعالى ﴿ليس لك من الأمر شىء﴾ أى ليس لك أيها النبى من أمر خلقى شىء من التصرف فيهم إلا أن تبلغهم شرعى، أما مجازاتهم على أعمالهم فلى وحدى أحكم فيها كيف أشاء ﴿أو يتوب عليهم﴾ مرتبط بقوله قبل ﴿أويكبتهم﴾ والأصل ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليه أو يعذبهم بسبب ظلمهم، فليس لك من الأمر شىء فى ذلك.

---

(١) ظالمون. (٢) السموات. (٣) الربا. (٤)، (٥) أضعافا مضاعفة. (٦) للكافرين.
(٧) السموات. (٨) والكاظمين. (٩) فاحشة.

ولكنه سبحانه عجل بنهيه ﷺ عن لعن أناس معينين للتنبيه على خطورة تعجل الإنسان على ماليس له به علم خصوصا فى الأمور الخطيرة كلعن شخص معين ربما يكون أراد الله له الهداية، وقد حصل فعلا أن كل من دعا عليهم ﷺ فى هذا اليوم تابوا وصاروا من كبار أصحابه. فسبحان مَنْ استأثر بعلم الغيب وحده ثم أكد سبحانه عموم سلطانه بقوله﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض﴾ إلخ، أى كل ما فيهما خلقه وعبيده، يغفر لَمَنْ يشاء منهم إذا علم سلامة فطرته، ويعذب مَنْ يشاء إذا علم إصراره على المعصية. ولما كانت العبر فى الحوادث الجسام تفتح القلوب لتلقى الأوامر بقبول وإذعان، جرت سنة الله تعالى فى القرآن أن يمزج القصص بالأحكام، فقال محذرا من شر أمراض المجتمع، وهو الربا الذى يقسى القلوب على المحتاج ويعودها عدم الصدقة، ولذا لا تجده مذكورا فى القرآن بالذم إلا بجانبه الحث على الصدقة، كما هنا وكما فى الآية (٢٧٦) من سورة البقرة ٥٩؛ والآية (٣٩) من سورة الروم صنحتى ٥٣٥، ٥٣٦، فقال تعالى: لاتأكلوا الربا المخرب للبيوت، واتقوا النار التى أعدها الله تعالى للكافرين. قال أبو حنيفة رضى الله عنه: هذه أخوف آية فى القرآن، هدد الله بها المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إذا لم يتقوه ويجتنبوا ماحرمه عليهم.

ثم بين سبحانه طريق تقواه بقوله: واطيعوا الله إلخ، وسارعوا إلى أسباب مغفرة ربكم، بأن تسارعوا إلى التوبة من كل ذنب كالربا، وبأن تقبلوا على عمل الخيرات كالصدقات، وهذه هى أسباب دخوله الجنة الواسعة جدا التى لايعلم مداها إلا الله سبحانه، لأن عرضها إذا كان كعرض السموات السبع والأراضين السبع متجاورة ممتدة فكم يكون طولها؟ هذه الجنة أعدها الله تعالى للمتقين الموصوفين بالصفات الخمس الآتية:

الأولى: ينفقون فى حال اليسر والعسر فى كل حالة بما يناسبها، كما قال ﷺ (اتق النار ولو بشق تمرة). وذلك ليبقى قلب المؤمن مملوءا بالرحمة ولايتعود البخل.

الثانية: كظم الغيظ بأن يخفوه بالصبر ولايظهر أثره.

الثالثة: العفو أى التجاوز عن إساءة المسىء وترك مؤاخذته مع القدرة عليها، فهى مرتبة فوق مرتبة كظم الغيظ.

ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ[1] تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ[2] خَٰلِدِينَ[3] فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ[4] ﴿١٣٦﴾
قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ[5] ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ
ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ
مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ
وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ
ٱلظَّٰلِمِينَ[6] ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ
ٱلْكَٰفِرِينَ[7] ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا
يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟[8] مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ[9] ﴿١٤٢﴾

الرابعة: وهى أعلى مما قبلها هى الإحسان إلى المسيء، ولهذا جاءت هذه الصفة بأسلوب مخالف لما قبلها ومابعدها.

وإذا لاحظت ما تقدم من دعائه ﷺ على بعض المشركين لما أذوه تفهم حكمة ذكر هذه الصفات فى هذا المقام.

الخامسة: أنهم إذا فعلوا خطيئة كبيرة كالزنا أو ظلموا أنفسهم بذنب صغير تذكروا بقلوبهم فطلبوا مغفرته تعالى لذنوبهم. كما فى الآية (٢٠١) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥. موقنين أنه لايغفر الذنوب غيره تعالى.

﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾: أى مضت من قبل وجودكم طرق فى تصرفه سبحانة فى ملكه اقتضاها نظامه تعالى فى خلقه من نصر أصحاب الحق وإهلاك الظالمين. ﴿ولاتهنوا﴾: ولاتضعفوا عن الجهاد لما أصابكم من هزيمة.

﴿وأنتم الأعلون﴾: أى الممتازون بأن قتالكم لله عز وجل، وقتال أعدائكم للشيطان. وقتلاكم فى الجنة، وقتلاهم فى النار. ﴿إن يمسسكم قرح﴾: أى إن يصبكم جراح وقتل.

﴿ويتخذ منكم شهداء﴾: أى يكرم بعضكم بالاستشهاد فى سبيله، ويكون منكم مَنْ يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة، كما تقدم فى الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨. ﴿وليمحص الله الذين آمنوا﴾: أى يخلصهم من كل عيب ويطهرهم. ﴿ويمحق﴾: أى يهلك. ﴿أم حسبتم﴾: أى هل ظننتم أن تدخلوا الجنة ولم يتبين مَنْ جاهدوا حق الجهاد، ويتبين الصابرون

---

(١) وجنات. (٢) الأنهار. (٣) خالدين.
(٤) العاملين. (٥) عاقبة. (٦) الظالمين.
(٧) الكافرين. (٨) جاهدوا. (٩) الصابرين.

الذين لاتفزعهم الشدائد. وتقدم مثل هذا التركيب فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢.

المعنى: ولم يديموا العزم على الذنب لأنهم يعلمون أن الله تعالى نهى عن الإصرار واعتبره من صفات الكفار، كما فى الآية (٤٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥. أولئك الموصوفون بالصفات الخمس جزاؤهم من ربهم مغفرة لذنوبهم، وجنات تجرى من تحت غرفها الأنهار، ونعم أجر العاملين كما أمرهم الله. ثم رجع سبحانه للكلام عن غزوة أحد مذكرا بأن سنته نصر المتقين وخذلان المخالفين، فقال تعالى: ﴿قد خلت﴾ أى مضت من قبلكم عاداتنا مع أمم، فسيروا فى الأرض فانظروا عاقبة المكذبين، وكيف هلكوا.

هذا الذى تلوته عليكم من الإرشاد الإلهى بيان للناس جميعا، وهدى من الضلال، وتذكير وعظة للمتقين، لأنهم هم الذين ينتفعون بالتذكير، كما فى الآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦. ولاتضعفوا عن الجهاد لما أصابكم من هزيمة، ولاتحزنوا على مَنْ قتل منكم، وكان النبى ﷺ حزن حزنا شديدا على قتل عمه حمزه رضى الله عنه فى هذه الموقعة وأنتم المتازون عن خصومكم فى أمور كثيرة، منها أنكم فى النهاية غالبون، كما فى الآية (١٧٣) من سورة الصافات صفحة ٥٩٦؛ وإن كنتم مؤمنين، فلا يجوز أن يحصل منكم شىء من ذلك، لأن الإيمان يوجب الثقة بالله.

ثم بين سبحانه بعض أسباب عدم الحزن فقال: إن كان أصابكم فى أحد قتل أو جراح فقد أصاب خصومكم مثله يوم بدر ومع ذلك لم يضعفوا مع أنهم على باطل فكيف وأنتم على الحق.

وتلك الأيام أى أيام النصر نجعلها بين الناس مداولة لهذا تارة وذاك أخرى لحكمة نعلمها، وفى النهاية تكون العاقبة للمتقين. وأشار سبحانه لبعض هذه الحكم فقال: وليعلم الله علم ظهور وتحقق الذين قاتلوا عن إيمان والذين نافقوا، وليتخذ منكم شهداء مكرمين عند الله ويشهدون على غيرهم يوم القيامة. والله لايحب الظالمين الذين يحاربون الحق.

ومَنْ يكرهه الله عز وجل فلابد من خذلانه. وأيضًا فعل سبحانه ماتقدم ليمحص ويصفى من العيوب الذين أخلصوا فى إيمانهم، ويهلك الكافرين لبغيهم. ثم خاطب كل مَنْ حضروا

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ
وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ
مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ[١]
وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ
ٱلشَّٰكِرِينَ[٢] ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ
كِتَٰبًا[٣] مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ
ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ[٤] ﴿١٤٥﴾
وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ[٥] مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ
أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ
يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ[٦] ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا
ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا
عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ[٧] ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ[٨] ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا

واقعة أُحد بقوله ﴿أم حسبتم﴾ إلخ؛ أى هل تظنون أنكم تدخلون الجنة ولم يتبين مَنْ جاهدوا حق الجهاد ولم يخالفوا أوامر رسولهم وقائدهم، ويتبين الصابرون الذين لاتفزعهم الشدائد. فمحصل المعنى كما فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢: هل ظننتم كما يظن المغرورون أن تدخلوا الجنة وأنتم إلى الآن لم تجاهدوا حق الجهاد، ولم يتمكن الصبر من نفوسكم والجنة لاتُنال إلا بهما.

﴿خلت﴾: مضت. ﴿أفإن مات﴾: كما مات قبله كثير من إخوانه الأنبياء ﴿أو قتل﴾: كما قتل قبله بعض إخوانه من رسل بنى إسرائيل انظر الآية (٨٧) من سورة البقرة صفحة ١٧.

﴿انقلبتم على أعقابكم﴾: أى رددتم إلى الكفر. ﴿وما كان لنفس أن تموت إلخ﴾:: ما: نافيه و: كان: من الأفعال التى تدخل على جملة المبتدأ والخبر فتبقى رفع المبتدأ ويسمى اسمها وتنصب الخبر ويسمى خبرها. و: أن : فى ﴿أن تموت﴾ حرف يجعل الفعل المذكور بعده فى قوة المصدر، وهذا المصدر هو اسم كان مقدم على خبرها، وخبرها هو ﴿لنفس﴾، و ﴿إذن الله﴾ مراد به هنا مشيئته. والمعنى التحليلى للتركيب: وما كان الموت حاصلاً لنفس مطلقا بسبب من الأسباب إلا بسبب واحد هو مشيئة الله تعالى؛ والمعنى المراد: أنه يستحيل أن يموت مخلوق من الأحياء إلا إذا أراد الله ذلك؛ واعلم أن هذه الصيغة وردت فى القرآن فى سبعة مواضع، ويدور المراد من مضمونها على ثلاثة معان: الأول إفادة أن الفعل المذكور فى خبر كان

(١) أعقابكم. (٢) الشاكرين. (٣) كتابا. (٤) الشاكرين.
(٥) قاتل. (٦) الصابرين. (٧) الكافرين. (٨) فآتاهم.

لاينبغى أن يكون، مع أنه ممكن فى ذاته عقلا كما فى قوله تعالى ﴿وما كان لنبى أن يغل إلخ﴾ الآية (١٦١) من سورة آل عمران صفحتى ٨٩، ٩٠.

والثانى: إفادة أن هذا الفعل مستحيل عقلا كما فى قوله تعالى ﴿وما كان لله أن يتخذ من ولد إلخ﴾ الآية (٣٥) من سورة مريم صفحة ٣٩٩. وقوله ﴿ماكان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ الآية (٦٠) من سورة النمل صفحة ٥٠١.

والثالث: إفادة النهى عن هذا الفعل كما فى ﴿وما كان لنبى أن يكون له أسرى إلخ﴾ الآية (٦٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧ وقوله ﴿ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين إلخ﴾ الآية (١١٣) من سورة التوبة صفحة ٢٦١. وقوله تعالى ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله إلخ﴾ الآية (٥٣) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٨، ٥٥٩. وما معنا هنا فى هذه الآية من القسم الثانى.

﴿كتابا مؤجلا﴾: أى كتب الله الموت على كل نفس كتابا ذا أجل محدود لا تتعداه. ﴿وكأى من نبى﴾: كلمة تفيد التكثير أى كثير من الأنبياء. ﴿ربيون﴾: هم الربانيون المتقدمون فى الآية (٧٩) من هذه السورة صفحتى ٧٥، ٧٦. ﴿فما وهنوا﴾: أى فما ضعفوا ولا فتروا عن القتال مع نبيهم. ﴿وما استكانوا﴾: وما خضعوا لعدوهم. ﴿إسرافنا فى أمرنا﴾: أى تجاوزنا حدود ما شرعته لنا.

المعنى: أن النبى ﷺ استشار أصحابه عندما علم بخروج قريش من مكة أيخرج لملاقاتهم خارج المدينة عند أُحد أم يبقى بالمدينة، فرأى عبد الله بن أُبى ومن معه عدم الخروج من المدينة، وكان ﷺ أميل إلى هذا الرأى، ورأى كثير من شباب المسلمين الخروج، وتبعتهم الكثرة من الصحابة، ولما خرجوا وهزم المسلمين كما سيأتى خاطب سبحانه هذه الكثرة التى رأت الخروج للقتال بقوله: ولقد كنتم تمنون الموت لتنالوا الشهادة أو الغنيمة كما حصل لأهل بدر. فقد رأيتم أسبابه وهو شدة الحرب وأنتم تنظرون إليها نظرة فاحصة لاعابرة غير مقصودة وذلك أن الإنسان قد يرى شيئًا لكنه لاشتغال قلبه بشىء آخر لايتنبه له، فهذه الجملة مؤكدة لما

قبلها، فلم انهزمتم وقد رأيتم ماطلبتم؟ ولما هجم المشركون عليه ﷺ بعد فرار أصحابه وركزوا سهامهم نحوه ولم يكن حوله سوى عشرة قتل أكثرهم، ظن الكفار أنه ﷺ قد قتل، فنادوا فرحين: قُتل محمد. فاشتدت هزيمة المسلمين وفروا، قال سبحانه فى لوم هؤلاء: وما محمد إلا رسول قد مضت من قبله الرسل، واستمر أنصارهم محافظين على دين أنبيائهم، فهل يصح إذا مات محمد أو قتل أن ترجعوا أنتم كفارا، ومن يرجع منكم إلى الكفر ويجبن عن قتال الكفار فلن يضر الله شيئًا وإنما يضر نفسه، لأن الله تعالى غنى عنكم وقادر على أن يخلق خيرا منكم، وسيجزى الله بالعز الشاكرين لنعمه بالثبات والصبر عند الشدائد.

مستحيل أن تموت نفس إلا بمشيئة الله فى أجل محدد، فلم فررتم والفرار لايدفع الموت والثبات لايقطع العمر، ثم أراد سبحانه أن يلوم الذين شغلتهم المغانم فتركوا مواقعهم كما تقدم فتسببوا فى هزيمة المسلمين فقال (من كان يريد ثواب الدنيا... إلخ﴾ أى أن مَنْ يريد بعمله من قتال وغيره حظ الدنيا أعطاه الله تعالى شيئًا منه، ومَنْ قصد بعمله ثواب الآخرة أعطاه الله سبحانه ثوابها، لأن الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمَنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ﴿أى فثوابه على الله﴾ ومَنْ كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه. وقد تقدم فى الآيتين (٢٠١، ٢٠٢) من سورة البقرة صفحة ٤٠. إن المؤمن الذى يطلب بعمله ثواب الدنيا والآخرة يعطه الله تعالى ثوابهما.

وسيجزى الله الشاكرين لنعمه بالثبات مع نبيه والدفاع عن دينه. ثم ضرب سبحانه لهم المثل بالصابرين من الأمم قبلهم فقال: وكثير من الأنبياء قاتل معه ربيون كثير، أى جمع كثير من المؤمنين المخلصين. فما ضعفوا عن القتال، وماخضعوا لعدوهم. والله يحب الصابرين على البلاء فيجازيهم بالنصر والثواب العظيم.

وما كان قول هؤلاء الربيين عند ملاقاة عدوهم إلا قولهم ربنا اغفر لنا ذنوبنا، فهمًا منهم بأنه لا مصيبة إلا بذنب. كما فى الآية (٣٠) من سورة الشورى صفحة ٤٦٣، وتجاوزنا حدودنا. وثبت أقدامنا عند القتال، وانصرنا على الكافرين بك المحاربين لرسلك فآتاهم الله ثواب الدنيا بالنصر والغنيمة.

وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ
أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ
أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ
وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ
إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ
وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا
وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾
۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ
فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ

﴿حسن ثواب﴾: من إضافة الصفة لموصوفها أي الثواب الحسن في الآخرة كقولهم ﴿جميل الصبر﴾ أي الصبر الجميل.

﴿سلطانا﴾: برهانا.

﴿مأواهم﴾: أي المكان الذي يأوون إليه في الآخرة. ﴿بئس مثوى﴾: أي قبحت النار محل إقامة.

﴿تحسونهم بإذنه﴾: أي تقتلونهم قتلا ذريعا بتيسيره سبحانه وتعالى. قال الراغب: أصله من قولهم حَسَسْتُ فلانًا أي أصبت حاسة من حواسه إصابة قاتلة، ومن قولهم كبدت فلانا أي أصبت كبده. ﴿صرفكم عنهم﴾: أي شغلكم عن قتالهم بمنع معونته لكم. ﴿ليبتليكم﴾: أي يعاملكم معاملة المختبر ليظهر للناس الصادق والمنافق. ﴿تصعدون﴾: أي تذهبون بعيدًا في صعيد الأرض فرارًا من القتال. ﴿ولاتلوون﴾: ولا تميلون على أحد مَمَّنْ ثبت معه ﷺ بنجدة أو مساعدة.

﴿يدعوكم﴾: يناديكم لترجعوا. ﴿في أخراكم﴾: وهو خلف ظهوركم.

﴿فأثابكم غما بغم﴾: فجزاكم غما بالهزيمة بسبب غمكم له ﷺ لمخالفة أمره. أو غما على غم بالهزيمة والجراحة وانتصار العدو. ﴿لكيلا تحزنوا﴾: لأجل ألا تحزنوا بعد هذا التأديب.

المعنى: وأعطيهم ثواب الآخرة الحسن وهو المغفرة والجنة. والله يحب المحسنين لأعمالهم فيجيب دعاءهم. وكان عبد الله بن أُبيّ ومَنْ رجع معه من المنافقين كما تقدم أشاعوا في المدينة بعد انكسار المسلمين أن النصر سيكون دائمًا لقريش فيجب أن نصطلح معهم، فأنزل

---

(١) أعقابكم. (٢) خاسرين. (٣) مولاكم. (٤) الناصرين.
(٥) سلطانا. (٦) ومأواهم. (٧) الظالمين. (٨) وتنازعتم.
(٩) أراكم. (١٠) تلوون. (١١) أخراكم. (١٢) فأثابكم.

الله تعالى محذرًا المؤمنين ومطمئنًا لهم قوله: يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفرو بقلوبكم من المنافقين يردوكم إلى الشرك فتخسروا الدنيا والآخرة؛ بل الله مولاكم أى ناصركم، فاستغنوا به واتبعوا أوامره فهو خير الناصرين. وطمأنهم بقوله: سنلقى فى قلوب الذين كفروا الخوف منكم بسبب جعلهم مع الله شركاء ليس عندهم عليها دليل، وكل الذى عندهم مجرد وهم ناشىء عن تقليد: فإذا ما رأوا المسلمين يقاتلون بقوة إيمان لثقتهم بنصر الله انهزموا أمام هذه القوة، وسيكون آخر ما يأوون إليه النار وبئس النار مثوى للظالمين للحق وأهله. ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ إلخ: بيان ذلك أن النبى ﷺ لما نظم الجيش أول المعركة كما تقدم جعل خمسين من الرماة فوق ربوة فى سفح أُحُد خلف الجيش ليحموا ظهره من هجوم يأتيهم من الخلف، وجعل أميرا عليهم عبد الله بن جبير، وأمرهم ألا يتركوا مكانهم سواء أكانت الهزيمة أو كان النصر، ولما انهزم المشركون أول المعركة وتركوا وراءهم مغانم كثيرة اختلف الرماة مع أميرهم، فالكثرة منهم نزلوا لجمع الغنائم ظنا منهم ألا رجعة للمشركين وبقى عبد الله بن جبير وعشرة معه امتثالا لأمر الرسول. عند ذلك رأى خالد بن الوليد وكان رئيس فرسان المشركين أن ظهر المسلمين قد انكشف، فهجم على مَنْ بقى من الرماة وقتلهم؛ عند ذلك رجع المشركون وأحاطوا بالمسلمين من كل جانب وهزموهم شر هزيمة، وحصل له ﷺ ماتقدم بيانه. وفى هذا قال سبحانه: ولقد صدقكم الله ماوعدكم به فى قوله ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ حين كنتم تقتلونهم قتلاً شديدًا أول الأمر بعونه وتيسيره سبحانه، حتى إذا فشلتم فى الرأى والتقدير وتنازعتم أيها الرماة واختلفتم مع أميركم وعصيتم أمر نبيكم، حصل منكم كل هذا بعد ما أراكم سبحانه ماتحبون من النصر، فكان منكم فريق يريد الدنيا وهم الذين نزلوا من الرماة لجمع المغانم، ومنكم مَنْ يريد الآخرة وهم العشرة الذين ثبتوا مع أميرهم، عند ذلك منع سبحانه عنكم تأييده وصرفكم عن قتالهم بما شغلتم به من الهزيمة ليميز صادق الإيمان والعزم من الضعيف. ولقد عفا عنكم لما ندمتم والله ذو فضل بالعفو وقبول التوبة.

وكان صرف الله لكم عن قتال المشركين فى وقت ماكنتم تصعدون أى تذهبون بعيدا عن موطن القتال ولا تميلون على أحد ممن ثبت مع نبيكم بمساعدة، والحال أنه ﷺ كان ينادى عليكم لترجعوا فلم ترجعوا، فجازاكم الله غما بالهزيمة بسبب غمكم له ﷺ بمخالفة أمره ليربيكم ويؤدبكم حتى لاتحزنوا بعد ذلك على مايفوتكم من خير.

وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ[1] وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ
عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ
وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ
ٱلْجَٰهِلِيَّةِ[2] يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ
ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ
لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا[3] قُل لَّوْ كُنتُمْ
فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ
وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ
ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ[4] بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟
وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ[5] إِذَا

﴿أمنة﴾: أمنا، وفسره بأنه نعاس، والنعاس فتور يتقدم النوم كالسنة.

﴿مضاجعهم﴾: المراد المكان الذى يصرعون فيه.

﴿وليبتلى الله مافى صدوركم﴾: أصل الابتلاء الاختبار كما فى (٣١) من سورة محمد صفحة ٦٧٦ والمراد ليمتحن الله إسلامكم هل هو صحيح أم زائف فتظهر حقيقة ماأنتم عليه ﴿مافى صدوركم﴾ من مبادئ الإسلام وذلك أن القرآن أكثر مايستعمل الصدر فى الإسلام، والقلب فى الإيمان، وقلما يطلق أحدهما على معنى الآخر، انظر الآية (١٢٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣ و (٢٢) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩، وانظر قوله تعالى ﴿كتب فى قلوبهم الإيمان﴾ الآية (٢٢) من سورة المجادلة صفحتى ٧٢٨، ٧٢٩ ولم يقل كتب فى صدورهم الإيمان، ولذا يقال اعتقد فلان بقلبه ولا يقال اعتقد بصدره.

﴿وليمحص مافى قلوبكم﴾: يقال محصت الشىء إذا خلصته مما فيه من العيوب فالمراد ليخلص عقائد قلوبهم من وساوس الشيطان.

﴿ذات الصدور﴾: المراد الوجدانات والسرائر الملازمة للصدور.

﴿الجمعان﴾: جمع المؤمنين وجمع المشركين.

﴿استزلهم الشيطان﴾: أى أوقعهم فى زلة وغلطة.

---

(١) أصابكم. (٢) الجاهلية. (٣) هاهنا.
(٤) الشيطان. (٥) لإخوانهم.

المعنى: ولا تحزنوا على ماأصابكم من جروح وقتل فلا تبالوا بعد ذلك بمخاطر، والله خبير بما تعملون، فليحاسب كل منكم نفسه. ثم أنزل الله عليكم من بعد الغم نعاسا يؤمنكم به، وذلك أنهم لما أدركوا بسرعة أن ما أصابهم كان بتقصير بعضهم فاستغفروا الله وعزموا على عدم العودة، عند ذلك أنزل الله عليهم النعاس ليستردوا ما فقدوه من قوة، والنوم للمصاب نعمة لأنه يضع حدا بينه وبين الماضى المحزن. ولذا لما أفاقوا رجعوا إليه ﷺ تلمع سيوفهم كأنها شهب، فظن المشركون أن هذا مدد جديد فانصرفوا مكتفين بما حصل. وكان هذا النعاس إنما غشى طائفة المؤمنين الصادقين، أما طائفة المنافقين الذين بقوا مع الجيش ولم يرجعوا مع عبد الله ابن أُبى فإنهم لم يهمهم إلا أنفسهم أى لا أمر الدين ولا أمر الرسول فلم يناموا بل كانوا مسرورين بما حصل، يظنون بالله ظنا غير الظن الحق، حيث ظنوا أن الله سبحانه لن ينصر محمدا، وهذا هو ظن أهل الجاهلية المشركين الذين لايقدرون وعد الله حق قدره، يقول بعضهم لبعض ولضعاف المؤمنين الذين دخلوا فى الإسلام حديثا: ليس لنا من أمر النصر نصيب فلو كان محمد على حق لنصره الله.

قل لهم أيها النبى إن القضاء فى كل شىء من نصر وغيره لله وحده، وقد ضمنه لِمَنْ اتقاه ولم يخالف أمر رسوله.

ويخفى هؤلاء المنافقون من التشكيك فى الدين ما لا يظهرون لك خوفا من بطش الكثرة المؤمنة بهم. ومن تشكيكهم أنهم يقولون همسا: لو كان لنا من أمر النصر نصيب كما يقول محمد وأصحابه من أنهم جند الله وأنهم هم الغالبون ما قتل من رجالنا مَنْ قتل هنا. قل لهم أيها النبى أن موت كل شخص مقدر، وله عند الله تعالى زمان ومكان لايتعداهما فلو كنتم فى بيوتكم ولم تخرجوا مع المجاهدين وكان مقدرًا فى علم الله أنكم ستقتلون فى مكان وزمان المعركة لخرج الذين كتب عليهم القتل فى الأزل إلى مصارعهم التى يسقطون فيها قتلى، أى فقتل مَنْ قتل ضرورى الوقوع، لأن ما قدره الله عز وجل لايتخلف. وإنما قدر الله ماحصل ليميز الخبيث من الطيب، وليظهر لكم ما انطوت عليه نفوسكم أيها المؤمنون من ضعف أو قوة، لأن بعض الناس يغتر فيطن فى نفسه ما ليس فيها، فيتوهم أنه شجاع وهو جبان، وكريم وهو

ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا
وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي
وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾
وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ
اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ
حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ
فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾
إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ
فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ
بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ

بخيل، ولايظهر حقيقته إلا تجربته بالعمل، وليتمحص ما فى قلوبكم من وساوس الشيطان، والله تعالى عليم بالسرائر التى قد تخفى على أصحابها فتخدعهم كما حصل فيمَنْ تمنوا الموت، انظر الآية (١٤٣) المتقدمة من هذه السورة صفحة ٨٦، والله عالم بكل شىء، وإنما يبتلى ليظهر للناس ماخفى عليهم. إن الذين انهزموا منكم وتركوا النبى ﷺ وراءهم يوم التقى الجمعان إنما أوقعهم الشيطان فى زلة بسبب بعض ماكسبوا من الذنوب، وهو مخالفتهم لأمره ﷺ.

وإذا رجعت للآية (٣٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣، تفهم لم قال ﴿ببعض﴾ هنا.

ولقد عفا الله عنهم لما اعترفوا وتابوا. فيأيها الذين آمنوا تنبهوا ولاتكونوا مثل الكافرين الظاهرين والمنافقين الذين قالوا فى شأن إخوانهم فى النسب أو المودة.

(ضربوا فى الأرض﴾: سافروا. ﴿غزّى﴾: جمع غاز، بوزن رُكّعٌ وراكع، وهو من نوادر أوزان الجمع المعتل، وفعله غزا يغزو بوزن عدا يعدو، ومفرده غازٍ وجمعه غزًّا كما هنا، وغزاة أيضًا، فالمعنى وكانوا غزاة فى سبيل الله. ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾:

فبسبب رحمة وضعها الله فى قلبك و ﴿ما﴾ حرف يفيد تأكيد ربط السبب وهو الرحمة بالمسبب وهو ﴿لنت﴾ أى سهلت أخلاقك.

﴿فظا﴾: جافا فى المعاملة.

﴿غليظ القلب﴾: لاشفقة فيه.

﴿فإذا عزمت﴾: أى قطعت برأى بعد المشاورة. ﴿فتوكل على الله﴾:

(١) القيامة.

أى فثق به سبحانه وأنت قادم على ماتريد. ﴿يغل﴾: يخون فى الغنيمة، من الغلول وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها.

المعنى: إذا سافروا لنحو تجارة وماتوا أو كانوا غزاة وقتلوا لو كانوا مقيمين عندنا ما ماتوا وما قتلوا. لاتقولوا أيها المؤمنون هذا القول الدال على الجهل بقضاء الله فى الموت كما تقدم، ليجعل سبحانه أثر ذلك القول ونتيجته حسرة فى قلوب الكافرين وحدهم، فيحرمها من طمأنينة الرضا بقضاء الله وقدره، فيستولى عليهم الضجر وقلق النفس فيزدادوا ضعفاً ويقيكم الله شرهم. والله يحيى ويميت حسب تقديره. فقد يعيش المسافر والمقاتل ويموت المقيم القاعد. والله لئن قتلتم أيها المؤمنون فى الجهاد أو متم وأنتم فى طريقه أو أثنائه موتا طبيعيا لمغفرة من الله لذنوبكم ورحمة منه لكم خير مما يجمع الحريصون على الحياة وأسعد حظا لظفركم بمغفرة تمحو الذنوب ورحمة ترفع الدرجات. ثم بين سبحانه أن مرجع الجميع إليه فقال: ولئن متم أى موتا عاديا أو قتلتم فى الجهاد أو غيره فلابد من حشركم وجمعكم عنده تعالى يوم القيامة ليحاسبكم ويجازيكم. فبسبب رحمة عظيمة منحها الله لك أيها النبى سهلت أخلاقك لأصحابك بعد ما خالفوك فلم تغضب عليهم، ولو كنت فاقد الرحمة جاف المعاملة قاسى القلب لتفرقوا من حولك وبقيت وحدك، فاعف عنهم نهائيا فيما تسببوا فيه من إيذائك واستغفر لهم ربك فيما خالفوه، وبهذا تشملهم شفقتك عليهم فيزداد حبهم لك، وداوم على مشاورتهم فيما ليس فيه وحى، ولا تترك المشاورة لما وقع منهم من خطأ فى هذه الواقعة، فإن الخير فى تربيتهم على هذا المبدأ العظيم، لأن خطأ الكثيرين أقل من خطأ الواحد. فإذا قطعت برأى بعد المشاورة فثق بربك وأنت قادم على العمل، فالله يحب الواثقين بمساعدته الذين لايرون غيره لأنه صاحب التصرف فى كل شىء. ولذا قال سبحانه: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ كما حصل يوم بدر، وإن يخذلكم كما حصل فى أُحد فلا أحد ينصركم من بعد خذلانه، وعلى الله يتوكل المؤمنون لأنهم يعلمون أنه لا ناصر سواه. ولما كان سبب الهزيمة فى أُحد هو حرص الرماة على الغنائم وخوفهم أن يفوتهم شىء منها كما تقدم، أراد سبحانه أن ينبههم إلى خطئهم ويرشدهم إلى الغنيمة حق كل مجاهد وأنه ﷺ لايعطى بعضا ويترك بعضا وإلا كان ممن يغل ويخون فى الغنيمة، وماجاز لنبى من الأنبياء فضلاً عن نبيكم وهو أكرمهم

لا يظلمون ﴿١٦١﴾ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط
من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴿١٦٢﴾ هم درجات
عند الله والله بصير بما يعملون ﴿١٦٣﴾ لقد من الله على
المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم
آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا
من قبل لفي ضلال مبين ﴿١٦٤﴾ أولما أصابتكم مصيبة
قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم
إن الله على كل شيء قدير ﴿١٦٥﴾ وما أصابكم يوم التقى
الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ﴿١٦٦﴾ وليعلم الذين
نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا
قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب
منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم

عند ربه أن يتصرف فى الغنيمة قبل قسمتها على مستحقيها؛ لأن مَنْ يغلل يأت بما خان فيه يوم القيامة ليفضح على رءوس الأشهاد. انظر تفصيل مايحصل فى ذلك يوم القيامة فى حديث رقم ٤١٣ من كتابنا صفوة صحيح البخارى. ثم تعطى كل نفس يوم القيامة جزاء ماعملت وافيا بدون نقص.

﴿باء بسخط من الله﴾: أى رجع مغضوبا عليه من الله.

﴿مأواه﴾: أى مكانه الذى يأوى إليه.

﴿يزكيهم﴾: يطهرهم من العقائد الفاسدة.

﴿الكتاب والحكمة﴾: الكتاب المراد هنا صفة الكتابة فينقلهم من الأمية إلى العلم، انظر الآية (٢) من سورة الجمعة صفحة ٧٤١، وقد تقدم فى الآية (٤٨) من هذه السورة صفحة ٧٠؛ والحكمة هى معرفة أسرار الشريعة.

﴿أصابتكم مصيبة﴾: فى أحد بقتل سبعين منكم. ﴿قد أصبتم مثليها﴾: يوم بدر حيث قتلتم من عدوكم سبعين وأسرتم سبعين. ﴿أنَّى هذا﴾: أى من أين هذا الفشل.

﴿أو ادفعوا﴾: أى العدو عن أهلكم ووطنكم على الأقل.

المعنى: ولا تظلم نفس شيئًا من جزاء عملها. ثم طمأن سبحانه المؤمنين وحذر الكافرين فقال: أفمن اتبع رضوان الله بسيره فى الطريق الذى يرضيه كصالحى المؤمنين كمَنْ رجع من سعيه فى الدنيا بسخط الله لأنه عصاه كالكافرين والمنافقين الذين عاقبتهم أن مثواهم جهنم وبئس النهاية نهايتهم.

---

(١) رضوان. (٢) ومأواه. (٣) درجات. (٤) آياته.
(٥) الكتاب. (٦) ضلال. (٧) أصابتكم. (٨) أصابكم.
(٩) قاتلوا. (١٠) لاتبعناكم. (١١) للإيمان. (١٢) بأفواههم.

والجميع مؤمنون وكافرون على درجات عند الله فليسوا سواء فى الثواب والعقاب، فالمؤمنون لهم منازل فى الجنة تختلف باختلاف درجات أعمالهم، والمغضوب عليهم لهم درجات فى جهنم تختلف باختلاف جرائمهم والله بصير بما يعملون فيعطى كلا على قدر ما يستحقه.
ثم أراد سبحانه أن يوبخ العرب على كفرهم بمَنْ كان سببا فى بقاء ذكرهم إلى يوم القيامة، فقال: ﴿لقد من الله على المؤمنين﴾ أى من العرب الذين نشأت بينهم الدعوة وحملوها إلى سائر العالم إذ بعث من بينهم رسولا إلى الناس كافة، ولهذا لم يقل ﴿بعث إليهم﴾ وإلا لكان مبعوثا للعرب خاصة، من أنفسهم أى عربى، وهذا تشريف لهم لأنهم صاروا من الأمم التى اختار الله منها أنبياء إجابة لدعوة إبراهيم كما فى الآية (١٢٩) من سورة البقرة صفحة ٢٥. والآية (٢) من سورة الجمعة صفحة ٧٤١. وكل نبى كان بلسان قومه كما فى الآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩، والآية (٥٨) من سورة الدخان صفحة ٦٦٠ وهذا يقتضى أن يكون العرب أول مَنْ يؤمن به لأنه فخر لهم وكتابه بلغتهم، أنظر الآية (١٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١، والآية (٤٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١.

هذا الرسول يتلو عليهم كلام الله ويزكيهم وينقلهم من الأمية ويعلمهم الكتابة والقراءة فيحصلون كل علم نافع، ويعلمهم معرفة أسرار الأشياء وخاصة الشريعة بعد ما كانوا قبل مجيئه فى ضلال ظاهر. ثم وبخ سبحانه المؤمنين الذين جزعوا يوم أُحد بقوله أو لما أصابتكم إلخ، المعنى أجزعتم وتخاذلتم ولما أصابتكم مصيبة كنتم قد أصبتم من عدوكم قدرها مرتين قلتم مستغربين مع أنكم السبب: من أين جاءت هذه المصيبة؟ قل لهم أيها النبى: الذى أصابكم حاصل من أنفسكم لأنها السبب حيث خالف رماتكم أمره ﷺ. والله قدير ومن سنته فى خلقه أنه ينصر المطيع ويخذل العاصى. ثم بين ما تقدم فقال وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإرادة الله تعالى وقضائه بأن مَنْ يخالف قائده يخذل. ثم بين الحكمة فيما حصل فقال: ﴿وليعلم المؤمنين﴾ أى علم ظهور، والمراد ليظهر للناس المؤمنين والمنافقين الذين قال لهم المؤمنون استمروا مع الجيش وقاتلوا معنا فى سبيل إعلاء كلمة الله، أو على الأقل ادفعوا العدو عن أهلكم ووطنكم قالوا مراوغين: لو نعلم أنكم ستلقون قتالاً لبقينا معكم ولكنا نعلم أنه لن

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ[1] وَقَعَدُوا
لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن
كُنتُمْ صَادِقِينَ[2] ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَمْوَاتًا[3] بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا
آتَاهُمُ[4] اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا
بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾
۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ
أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ
مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ
فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا[5] وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾
فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا

يحصل قتال. هؤلاء المنافقون بقولهم هذا تباعدوا عن الإيمان المظنون فيهم وصاروا إلى أهل الكفر أقرب. ولم يحكم بكفرهم نهائيا تأديبا لِمَنْ يتهجم على التكفير بدون دليل قاطع، وأيضًا لفتح باب الإيمان لِمَنْ لم يتمكن النفاق من قلبه.... يقولون بأفواههم ليس هناك حرب مع أنهم يعتقدون فى صميم قلوبهم أن الحرب واقعة لا محالة.

﴿ادرءوا﴾: ادفعوا. ﴿استجابوا لله﴾: أطاعوه. ﴿القرح﴾: المراد به هنا الجرح. ﴿فانقلبوا﴾: أى رجعوا.

المعنى: والله أعلم بالنفاق الذى يكتمونه وسيجازيهم عليه، وهم الذين قالوا بعد المعركة لأجل إخوانهم الذين قتلوا فى أُحُد، قالوا والحال أنهم قد قعدوا وتخلفوا عن القتال: لو أطاعونا وتخلفوا مثلنا ما قتلوا كما أننا لم نقتل. قل أيها النبى ردا عليهم: فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين فى أن الحذر ينفع من القدر، وقدر الله تعالى وقضاؤه فى القتل كقضائه فى الموت العادى لابد من نفاذه ولا يتوقف على حرب، فليس كل محارب يموت، ولا قاعد يسلم. ثم بيّن سبحانه فساد ما يضلل به المنافقون من أن الذى سلم من القتل أسعد حظًا من الذى قتل، فقال: ولاتحسبن أيها السامع الذين قتلوا فى سبيل الله من الشهداء أمواتا كأمواتكم بل هم أحياء حياة برزخية لانعلم حقيقتها وأما الذى نعلمه فهو أنهم منعمون كما تقدم فى الآية (١٥٤) من سورة البقرة صفحة ٣٠ عند ربهم، عندية شرف وكرامة، كما قيل فى

(١) لإخوانهم. (٢) صادقين. (٣) أمواتا.
(٤) آتاهم. (٥) إيمانا.

أدريس فى الآية (٥٧) من سورة مريم صفحة ٤٠١، يرزقون رزقا حسنا لا نعلم حقيقته لكننا نعلم أنهم سعداء به، مسرورين لما آتاهم الله تعالى من فضله زيادة على ذلك الرزق الذى استحقوه بجهادهم انظر الآية (٣٠) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٥، ٥٧٦، ويفرحون بإخوانهم المجاهدين الذين تركوهم خلفهم ولم يقتلوا ولم يلحقوا بهم إلى الآن. يستبشرون بأنه لا خوف على إخوانهم من مكروه، ولا يحزنون لفوات محبوب، ويستبشر هؤلاء الشهداء بنعمة من الله عز وجل هى جزيل ثوابه، وفضل زيادة فى الثواب، ويسرون أيضًا بصدق وعده تعالى فى أنه لايضيع أجر المؤمنين. وروى أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أُحد وعلموا أنه ﷺ مازال حيا ندموا وهموا بالرجوع للقضاء على كبار المسلمين، فبلغ ذلك النبى ﷺ فأراد أن يرهبهم ويريهم قوة أصحابه خصوصا بعدما ندموا وشعروا بأن الله تعالى لابد ناصرهم، فنادى مناد فى المدينة بالخروج لملاقاة المشركين ثانيا على أن لايخرج إلا مَنْ شهد المعركة فى أحد فخرجوا جميعا حتى مَنْ كان جريحا بعد تضميد جراحه، فأشاع المنافقون فى المدينة أن أبا سفيان جمع جموعًا كثيرة من قريش لايمكن التغلب عليها يريدون بذلك تثبيط المؤمنين عن القتال فلم يبال بهم أحد، بل قابلوا هذه الدعاية الخبيثة بقولهم: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ وساروا حتى بلغوا مكانا يقال له حمراء الأسد يبعد عن المدينة نحو ثلاثة أميال، عند ذلك علموا أن رجالا من قريش نصحوا أبا سفيان بالرجوع قائلين أن المغلوب دائمًا يقاتل قتال المستميت، فخاف المشركون، فأنزل الله فى ذلك قوله: الذين استجابوا لله والرسول لما طلبهم للقتال ثانيا من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا أعمالهم منهم وهم كلهم طبعا، واتقوا معاصيه ، لهم أجر عظيم فى الآخرة. هؤلاء الذين قال لهم المنافقون إن الكفار قد جمعوا لكم جموعهم فاخشوهم ولا تخرجوا، فزادهم هذا القول إيمانا بنصر الله لأنهم تابوا وقالوا كافينا الله شرهم، ونعم الوكيل الذى نكل إليه أمورنا.

فرجعوا مصحوبين بنعمة من الله هى قوة الإيمان، وفضل هو الأجر العظيم، لم يمسسهم سوء من أحد، واتبعوا بأقدامهم ما يرضى الله تعالى عنهم.

رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ
إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا
فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟
ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾
وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ
إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾
مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ
ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

﴿يسارعون فى الكفر﴾: يقعون فى أعمال الكفر سريعا وهم المنافقون ﴿أن مانملى لهم خير لأنفسهم﴾: أى أن إمهالنا لهم بتطويل أعمارهم خير. ﴿ليذر﴾: ليترك. ﴿يجتبى﴾: يختار.

المعنى: والله ذو فضل عظيم فلا يمنعه عَمَنْ أخلص فى طاعته.

إنما ذلكم المنافق القائل لكم إن الناس قد جمعوا لكم هو الشيطان الأكبر من شياطين الإنس المشار إليهم فى الآية (١١٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨١، يخوفكم من أوليائه وأحبابه كفار قريش الموالين له فى الباطل، فلا تخافوا الكافرين لأنهم لايستطيعون ضركم، وخافونى أنا الرب القادر لأن الأمر كله بيدى إن كنتم راسخين فى الإيمان فلا تبالوا بهم ولايحزنك أيها النبى أعمال المنافقين وكفرهم فإنهم بذلك لايضرون أولياء الله بل يضرون أنفسهم، فمَن يضروك إذًا لأنك من جند الله مادمت محافظا على أوامره. وإنما وقعت منهم تلك المحاولات الفاشلة لأن من قضاء الله تعالى أن مَنْ تفسد فطرته التى خلقه عليها سليمة يفقد الاستعداد للخير، فيحرمه سبحانه من أقل نصيب من نعيم الآخرة كما فى الآية (١٠١) من سورة التوبة صفحة ٢٥٩ ولهم فى الآخرة عذاب عظيم.

إن الكافرين الذين اختاروا الكفر بدل الإيمان لن يضروا الله شيئًا ولو قليلا، وإنما يضرون أنفسهم، ولهم فى الآخرة عذاب مؤلم فهم كالمنافقين فى فشلهم فى الدنيا وعذابهم فى الآخرة. ولايحسبن هؤلاء الكافرون أن إمهالنا لهم وعدم إهلاكنا لهم سريعا خير لأنفسهم، كلا بل هو لزيادة شقائهم بكثرة المعاصى فيكون لهم فى الآخرة عذاب مهين. ثم أراد سبحانه أن يبين بعض حكمه فيما حصل فى يوم واحد فقال: ماكان الله ليترك المؤمنين المخلصين على ماأنتم عليه أيها المسلمون عامة، المخلصون والمنافقون، من اختلاط الصادق

---

(١) رضوان. (٢) الشيطان. (٣) يسارعون. (٤) بالإيمان.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ[1] ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ
هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ[2] ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ[3] ٱلسَّمَٰوَٰتِ[4] وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ
قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ
ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾
ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾
ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ
يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن
قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ[5] وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ[6] ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن
قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ[7] وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ[8] ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

بالمنافق، والاغترار باشتراكهم فى صور العبادات كالصلاة والصيام فينخدع المخلص فى المنافق، حتى يميز الخبيث من الطيب، ويبين المنافق من المؤمن، بواسطة التعرض للمحن والشدائد.

ولما كان يخطر بالبال أنه كان يمكن أن يطلع الله المؤمنين جميعا على غيبه نفى سبحانه ذلك وإلا لكانوا كلهم رسلا، ولكنه يختار من رسله مَنْ يشاء أن يطلعهم على بعض الغيب الذى لا تصل إليه عقولهم ولهم فى علمه مصلحة ليبلغوه لأممهم كالبعث والجنة والنار وما فيهما وغير ذلك. فآمنوا بالله ورسله بأن تؤمنوا بكل ما جاءوا به عنه تعالى. وأن تؤمنوا كما أمرتكم وتتقوا ما نهيتكم عنه فلكم أجر عظيم فى الآخرة. وإلى هنا انتهى الكلام على غزوة أُحد، وعاد سبحانه وتعالى إلى بيان بعض أعمال اليهود فقال: ﴿ولايحسبن..﴾ إلخ.

﴿سيطوقون مابخلوا به﴾: أى يجعل المال الذى بخلوا به طوقا من نار فى أعناقهم يوم القيامة. **﴿عذاب الحريق﴾**: أى المحرق، فالمراد عذاب النار.

﴿قدمت أيديكم﴾: المراد ما قدمتم.. فعبر عن الإنسان باليد لأن أكثر أعماله بها.

﴿عهد إلينا﴾: أى أوصانا فى التوراة وأمرنا أن لانؤمن لرسول أى لانصدقه حتى يأتينا بقربان.

﴿القربان﴾: مايتقرب به إلى الله تعالى من صدقة أو حيوان يذبح للفقراء. **﴿تأكله النار﴾** أى تحرقه وكانوا تعنتوا مع بعض أنبيائهم فطلبوا منه ذلك فذبح بقرة وتركها فى الخلاء فجاءت نار من السماء فأحرقتها، ومع ذلك كذبوه وقالوا ساحر.

---

(١) آتاهم. (٢) القيامة. (٣) ميراث. (٤) السموات.
(٥) بالبينات. (٦) صادقين. (٧) بالبينات. (٨) الكتاب.

﴿البينات﴾: المعجزات الواضحات. ﴿الزبر﴾: جمع زبور وهى المواعظ التى تهز القلوب والتى جاء بها داود عليه السلام. ﴿والكتاب﴾: المراد جنس الكتاب فيشمل التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم ﴿المنير﴾: الموضح لطريق الحق.

المعنى: ولا يحسبن اليهود الذين يبخلون ببذل بعض ماآتاهم الله بخلهم خيرا لهم بل هو شر لهم، لأنهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة. انظر كيف فسر ﷺ هذه الآية وبيَّن كيفية التطويق فى حديثى رقم ٢٠٤، ٢٠٥ من كتابنا صفوة البخارى. ولله ميراث السموات والأرض ومافيهما، أى فلن يبقى فى يد الإنسان شىء، فمن الجهل أن يبخل على نفسه بما ينجيها من العذاب، والله بما تعملون أيها البخلاء خبير؛ وسيجازيكم شر الجزاء.

ولما نزل قوله تعالى «من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا» الآية (٢٤٥) من سورة البقرة صفحة ٥٠، قالت اليهود تهكما على القرآن والرسول إن الله فقير ونحن أغنياء وإلا لما طلب منا قرضا. فهددهم سبحانه بقوله: لقد سمع الله قول الذين... إلى قوله سنكتب ماقالوا، أى نأمر الملائكة بأن تسجل عليهم فى صحائفهم هذا الجرم، وتسجل أيضا قتلهم الأنبياء بغير حق، ونقول لهم يوم القيامة على لسان خزنة جهنم: ذوقوا عذاب النار المحرقة، قائلين لهم أيضا: ذلك الذى أنتم فيه من العذاب بسبب أن الله ليس بصاحب ظلم لعباده، أى العذاب أصابكم بذنوبكم وبكونه تعالى عادلا فى حكمه لايظلم فيعاقب غير المستحق للعقاب، ولايجعل الفاسق كالمؤمن ولا الأشرار كالأخيار، فيكون أضاع على المتقين تعبهم. وهؤلاء اليهود الذين قالوا إن الله أوصانا فى التوراة بأن لانصدق رسولاً إلا إذا جاءنا بقربان تأكله النار وهم كاذبون فى أن الله أمرهم بهذا أو جعله شرطا لتصديق الأنبياء، لأن النبوة تثبت بكل معجزة لا بخصوص ماطلبوا، ولذا رد عليهم بقوله: قل لهم أيها النبى قد جاءكم رسل كثيرون من قبلى بالمعجزات الواضحات التى هى أقوى مما طلبتم كإحياء الموتى، وجاء بعضهم بما طلبتم من القربان، فلم قتلتم البعض وحاولتم قتل الآخر كعيسى ولم تكتفوا بتكذيبهم إذا كنتم صادقين فى دعواكم أنكم تصدقون عند المعجزة.

ثم أراد سبحانه أن يُسلى نبيه حتى لايجزع لتكذيبهم فقال عز وجل: فإن كذبوك بعد أن جئتهم بالمعجزة الخالدة وهى القرآن الذى لو اجتمع الإنس والجن لما استطاعوا أن يأتوا بسورة

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ
فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾
۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا
وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾
وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ
لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟
بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ
يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا
تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾
وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

منه، فلا تحزن لأنه قد كذب رسل من قبلك جاءوا لأممهم بالمعجزات الواضحات والمواعظ المؤثرات والكتب المنيرة لطريق النجاة.

﴿الغرور﴾: الخديعة أى أنها تخدع المشغول بها فلا ينتبه لما يستقبله من خطر.

﴿لتبلون﴾: تمتحنون وتختبرون.

﴿من عزم الأمور﴾: أى الأمور المعزوم عليها أى التى يجب العزم والثبات عليها.

﴿ميثاق الذين أوتوا الكتاب﴾: الميثاق العهد الذى أخذ على أهل الكتاب. ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾: أى طرحوا تعاليمه وأهملوها.

﴿بمفازة من العذاب﴾: أى بمكان يفوزون فيه بالنجاة من العذاب.

المعنى: بعدما رد سبحانه عليهم أراد أن يُسلى رسوله من جهة أخرى، فقال: كل نفس لابد أن تموت، فلا تضجر من عنادهم فإنه منته بموتهم، ولا تعجل بعقابهم فى هذه الدار فإن المدخر لهم بعد الموت لا يدانيه عذاب الدنيا كله. ولذا قال وإنما توفون أجوركم كاملة يوم القيامة، فمَنْ زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز بالسعادة الدائمة، ومامتاع هذه الحياة الفانية إلا متاع الخديعة الذى يعمى صاحبه عن الخطر الذى يستقبله فى الآخرة.

---

(١) القيامة. (٢) الحياة. (٣) متاع.
(٤) أموالكم. (٥) الكتاب. (٦) ميثاق.
(٧) الكتاب. (٨) السموات

ثم أراد سبحانه أن ينبه نبيه وأصحابه إلى التسلح بالصبر على ما سيلاقيه من المتاعب فقال ﴿لتبلون.. إلخ﴾ أى سيلاقيكم ابتلاء وامتحان فى أموالكم بالتكليف بإنفاقها فى الخير، وبما يصيبها من تلف، وفى أنفسكم بالقتل والأسر والأمراض والتكاليف الأخرى، ولتسمعن من اليهود والنصارى ومن المشركين أذى كثيرًا كالطعن فى دينكم واتهام الرسول بأنه ساحر كذاب وتحقير مَنْ يؤمن معكم، وإن تصبروا على ذلك ولا تضق به نفوسكم وتمروا به كراما وتتقوا الله فلا تعصوه فهو خير لكم، لأن ماذكر من الصبر والتقوى من الأمور التى يجب الثبات عليها. ثم بيَّن سبحانه بعض إيذاء أهل الكتاب له ﷺ حيث كتموا صفاته التى عندهم فى التوراة، وأنكروا أنه هو النبى المبشر به، فقال سبحانه: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق﴾ إلخ. واذكر أيها النبى وقت أخذ الله العهد على أهل الكتاب لتبين مافى الكتاب من صفاته ﷺ وعلامات نبوته للناس ولا تكتمونه، ذكر ذلك للمبالغة فى إيجاب البيان، فنبذوا تعاليم الكتاب وأهملوه. ثم بين سبب ذلك فقال ﴿واشتروا به﴾ إلخ، أى استبدلوا ببيان الحق الواجب عليهم بالعهد ثمنا قليلا تافها هو حب الرياسة على الجهال من أتباعهم وابتزاز أموالهم، لأنهم لو أسلموا لضاع منهم كل ذلك، فبئس ما أخذوا لأنه زائل أضاعوا به نعيما خالدًا، انظر الآية (١٧٤) من سورة البقرة صفحة ٣٣.

لا تحسبن أيها النبى الذين يفرحون بما أتوا الناس من الضلال الذى يظنونه ينفعهم، ويحبون أن يمدحهم الناس بأنهم حفاظ التوراة العاملون بما فيها وهم فى الحقيقة لم يحافظوا ولم يفعلوا بل فعلوا نقيضه وهو تضليل الناس وصرفهم عن الحق الواضح كما فى الآية (٧٩) من سورة البقرة صفحة ١٥، فلا تحسبنهم ﴿بمفازة﴾ أى بمنجاة من العذاب فى الدنيا بل سيلاحقهم الخذلان والكمد بنصرة أهل الحق عليهم ولهم فى الآخرة عذاب شديد الألم. ثم زاد فى طمأنينة النبى ﷺ وأصحابه فقال: ﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ إلخ، أى لايتصرف فيها أحد إلا بمشيئته فلا تبالوا بغيره لأنه هو وحده القدير على كل شىء، ومنه خذلان الكافر وتعذيبه، ونصر المؤمن وتنعيمه.

قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ[١] وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ[٢]
الَّيْلِ[٣] وَالنَّهَارِ لَآيَٰتٍ[٤] لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ[٥] ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ
اللَّهَ قِيَٰمًا[٦] وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
السَّمَٰوَٰتِ[٧] وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا[٨] سُبْحَٰنَكَ[٩]
فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ
أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ[١٠] مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا
مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ[١١] أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ
لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾
رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ[١٢]
إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي
لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ[١٣] مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم
مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ[١٤] وَأُوذُوا

﴿لآيات﴾: أدلة وبراهين على قدرة الله وصدق رسوله.

﴿الألباب﴾: العقول. ﴿مناديا﴾: هو الرسول والقرآن الذى جاء به.

﴿فاغفر لنا ذنوبنا﴾: الناشئة من تقصير فى عبادتنا لك.

﴿سيئاتنا﴾: التى ارتكبناها فى حقوق العباد. ﴿الأبرار﴾: جمع بار وهم المحسنون فى أعمالهم. انظر الآيتين (١٧٧، ١٨٩) من سورة البقرة صفحات ٣٣، ٣٤ ـ ٣٧.

﴿على رسلك﴾ أى على لسان رسلك. ﴿بعضكم من بعض﴾: أى أن الذكر والأنثى من جنس واحد فلا تفاضل بينهما إلا بالعمل الصالح.

المعنى: قال الفخر الرازى: إن المقصود من هذا الكتاب الكريم هو جذب القلوب والأرواح من الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق فى معرفة الحق سبحانه. فتراه هنا عز وجل لما أطال الكلام من رَد شُبَه المبطلين، رجع هنا إلى إثارة القلوب بذكر مايدل على توحيده وكبريائه وجلاله فذكر هذه الآيات وأراد بذلك سبحانه أن يبين سبب غفلتهم عن الأدلة وهو أنهم

---

(١) السموات. (٢) واختلاف. (٣) الليل.
(٤) لآيات. (٥) الألباب. (٦) قياما.
(٧) السموات. (٨) باطلا. (٩) سبحانك.
(١٠) للظالمين. (١١) للإيمان. (١٢) القيامة.
(١٣) عامل. (١٤) ديارهم.

أفسدوا عقولهم بالتقليد، فقال إن فى خلق السموات والأرض ومافيهما من عجائب، واختلاف الليل والنهار بالطول والقصر والظلمة والنور بنظام لايتخلف، لأدلة وبراهين على قدرة الله وحكمته، لأولى الألباب أى العقول الخالصة من الغفلة والشهوات والتقليد الأعمى، وانظر لذلك حكمًا كثيرة فى الآيات:

(١٦٤) من سورة البقرة صفحة ٣١، (٦٧) من سورة يونس صفحتى ٢٧٦، ٢٧٧ (٧١، ٧٢، ٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧ (٦، ١٠، ١١) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧.

وأولو الألباب هم الذين يذكرون الله فى الصلاة قيامًا عند القدرة عليه، وقعودا أى قاعدين عند العجز عن القيام، وعلى جنوبهم أى مضطجعين عند العجز عن القعود، والمراد يحافظون على الصلاة فى كل حال، ويتفكرون فى مخلوقات السموات والأرض ومافيها من عجائب ونظام لايقدر عليه سوى الخلاق العليم، قائلين فى أثناء تفكيرهم: ياربنا ماخلقت هذا النظام باطلاً بغير حكمة، سبحانك أى ننزهك عن هذا، فقنا عذاب النار لأنك يارب حكمت بخزى وإهانة مَنْ تدخله النار، وما للظالمين الذين حكمت بدخولهم النار أنصار وأعوان يدفعون عنهم العذاب. ياربنا إننا سمعنا رسولك وكتابك ينادينا أن آمنوا بربكم فأسرعنا إلى الإجابة، فاستر عنا يوم الحشر الأكبر ذنوبنا، وكفر أى اسقط عنا بعفوك أو بقبول حسناتنا، كما قلت: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار، وآتنا ما وعدتنا به على لسان رسلك من الرحمة والفضل، فأجاب ربهم دعاءهم ووعدهم بأنه لايضيع عمل عامل منهم، بل يحفظه لهم ويجازيهم عليه خير الجزاء، سواء أكان العامل ذكر أم أنثى، فكلهم فى العبودية له سواء، وإنما التفاضل بالعمل الصالح. ولذا قال: فالذين هاجروا فرارا بدينهم إلى مكان يحافظون فيه عليه، وأخرجوا من ديارهم قهرا عنهم خشية القتل، كما فعل ﷺ عند الهجرة إلى المدينة، انظر الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، وأوذوا أى آذاهم الكفار بالشتم والضرب وسلب المال كما حصل لآل ياسر فى مكة.

فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ
وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ
عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ
تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ
جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ
جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ
عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ
وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

﴿تقلب الذين كفروا﴾: تنقلهم وتفرقهم.

﴿متاع قليل﴾: أى تمتع قليل إذا قيس بنعيم الآخرة.

﴿مأواهم جهنم﴾: أى المكان الذى يأوون إليه. ﴿بئس المهاد﴾: قبح الفراش.

﴿نزلا من عند الله﴾: النُّزل ما يُعد للضيف عند نزوله.

﴿صابروا﴾: غالبوا أعداءكم فى الصبر على شدائد الحرب فلا يكونن أصبر منكم.

﴿رابطوا﴾: أقيموا فى ثغور بلادكم التى يخشى منها على بلادكم.

المعنى: وقَاتَلُوا مَنْ يحارب الدعوة وقُتِلوا استشهادًا فى سبيل الله، الذين فعلوا كل هذا وعزتى وجلالى لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحت غرفها الأنهار، أثيبهم

---

(١) وقاتلوا.
(٢) جنات.
(٣) الأنهار.
(٤) البلاد.
(٥) متاع.
(٦) ماواهم.
(٧) جنات.
(٨) الأنهار..
(٩) خالدين.
(١٠) الكتاب.
(١١) خاشعين.
(١٢) بآيات.

بهذا ثوابا من عند الله أى ثوابا عظيما يليق بالمنعم، والأصل ثوابا من عندى لكنه أظهر لفظ الجلالة لتفخيم الثواب. والله عنده الثواب الحسن.

ثم أراد سبحانه أن يبين للمؤمنين أن ماوعدهم به من الثواب هو السعادة الدائمة وماعداه زائل فقال: لايَغرنَّك أيها السامع أو القارئ تنقل الذين كفروا فى البلاد للتجارة والكسب مع التمتع بالحرية وشهوات النفس، فإن كل هذا متاع قليل إذا قيس بنعيم الآخرة الخالد المعد للمؤمنين، ثم بعد هذا التمتع الزائل يكون مأواهم الذى يأوون إليه هو جهنم وبئست فراشا أعدوه لآخرتهم. هذا ما أعد للكافرين.

لكن الذين اتقوا ربهم فلم يعصوه لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها حال كون ذلك النعيم نزلاً أعد لهم من عند الله، وماعند الله بعد ذلك من الرضوان الأكبر خير للأبرار من الجنات لأنه نعيم للروح. ثم استثنى من عموم الكافرين من أهل الكتاب المذمومين فيما تقدم فقال: وإن من أهل الكتاب لَمَنْ يؤمن بالله، كعبد الله بن سلام وأصحابه من اليهود والنجاشى وأصحابه من النصارى، ومـاأنزل إليكم من القرآن، وما أنزل إليهم هو التوراة والإنجيل الصحيحان، حال كونهم خائفين خاضعين بقلوبهم، لايشترون بآيات الله ثمنًا قليلا كما يفعل مَنْ لم يؤمن من أحبارهم ورؤسائهم أولئك المؤمنون من أهل الكتاب لهم أجرهم مرتين كما فى الآية (٥٤) من سورة القصص صفحة ٥١٤.

إن الله سريع الحساب. أى يحاسب جميع الخلائق فى أقصر وقت ويوفى كلا جزاءه. يأيها الذين آمنوا اصبروا على مشاق التكاليف وصابروا أعداءكم أى اغلبوهم فى الصبر على الجهاد والشدائد حتى يعجزوا هم دونكم، ورابطوا بعدتكم فى منافذ بلادكم حتى لايفاجئكم عدوكم على غرة منكم، واتقوا الله فلا تعصوه، لأن التقوى أساس النجاح، يرجى لكم الفلاح وهو الفوز بالمطلوب فى الدنيا بالعزة وفى الأخرى بالنعيم. نسأل الله تعالى حسن الختام.

(٤) سُورَةُ النِّسَاءِ مَدَنِيَّةٌ
وَآيَاتُهَا سِتٌّ وَسَبْعُونَ وَمِائَةٌ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ[1]
وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ[2] أَمْوَٰلَهُمْ[3] ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟
ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ[4] إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ[5] ۚ
إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى
ٱلْيَتَٰمَىٰ[6] فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ
وَثُلَٰثَ[7] وَرُبَٰعَ[8] ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً[9] أَوْ مَا مَلَكَتْ

سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وبث منهما﴾ أى نشر وفرق فى الأرض من النفس وزوجها.

﴿الأرحام﴾ المراد بها روابط القرابة.

﴿الخبيث بالطيب﴾: المراد بالخبيث الردىء من الأشياء وبالطيب الجيد.

﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾: أى لاتأخذوها لتضموها إلى أموالكم. ﴿حوبا﴾: ذنبا.

﴿ما طاب﴾: ماحل. ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾: أى اثنين اثنين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا.

المعنى: يأيها الناس المؤمن منكم والكافر اتقوا ربكم بالبعد عن معاصيه، الذى أنشأكم من نفس واحدة هى آدم عليه السلام ثم خلق الله حواء من آدم، يقول رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن خلقن من ضلع أعوج، وإن أعوج مافي الضلع أعلاه، فإن ذهبت لتقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج» فكنتم نوعًا واحدًا يسهل بينكم التآلف. ثم بيّن سبحانه كيفية خلقهم المذكور فقال عاطفا على مقدر مفهوم من السياق وخلق منها أى من نوعها زوجها والأصل خلق تلك النفس أولاً ثم خلق من نوعها زوجها ثانيا لينسجما وتكون بينهما المودة والرحمة المشار إليهما فى الآية (٢١) من سورة الروم صفحة ٥٣٢، ثم فرع منهما رجالا كثيرا ونساء كثيرات ونشرهما فى أنحاء الأرض ليعمروها، أنظر المراد من النفس الواحد فى الآيات

---

(١) واحدة (٢) اليتامى. (٣)، (٤) أموالهم. (٥) أموالكم.
(٦) اليتامى. (٧)، (٨) وثلاث ورباع. (٩) فواحدة.

(١٨٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٤ و (٧٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٥ و (٢١) من سورة الروم صفحة ٥٣٣ و (١١) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ ونظير هذا الاستعمال ماتقدم فى الآية (١٦٤) من سورة آل عمران صفحة ٩٠. ثم أكد الأمر بالتقوى بقوله واتقوا الله الذى تساءلون به، الذى يسأل بعضكم بعضا قضاء حاجته بسبب تعظيم المسئول له تعالى. كان الرجل يقول لصاحبه اسألك بالله أن تفعل هدا أى أطلب منك أن تفعل كذا بسبب إيمانك به تعالى وتعظيمك له. واتقوا الأرحام أى واتقوا قطعها بأن تصلوها، وقرئ والأرحام بكسر الميم، ومعنى هذه القراءة وتساءلون بالأرحام وكان الرجل منهم يقول لصاحبه أسألك بالرحم التى بينى وبينك أن تفعل كذا. فكأنه سبحانه وتعالى يقول: لاتفرطوا فى هاتين الرابطتين بينكم رابطة الإيمان بالله ورابطة القرابة. إن الله كان عليكم رقيبا يعلم كل أعمالكم ويحاسبكم عليها. وآتو أيها الأوصياء اليتامى الذين تحت وصايتكم أموالهم أى لاتفتروا عليهم بل أنفقوا عليهم شيئا فشيئًا مع الاعتدال، ولاتختزنوها باسم حفظها وأنتم تطمعون فى إخفائها أو تنتظرون موتهم لتأخذوها ميراثا. ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب أى لاتأخذوا الطيب من أموال اليتيم وتضعوا مكانه الخبيث من أموالكم؛ كانوا فى الجاهلية يأخذ الوصى الشاة السمينة من مال القاصر ويعطى بدلها هزيلة، ولاتأخذوا أموالهم وتضموها إلى أموالكم بدون عوض مطلقًا، لأن كل ما تقدم النهى عنه كان إثما كبيرا. وروى عن عائشة أن الرجل فى الجاهلية تكون فى وصايته اليتيمة الغنية بنت عمه مثلا ويعجبه جمالها ويرغب فى مالها الذى ملكته من غير طريق الميراث لأن العرب ماكانت تورث الصغير كما سيأتى فيتزوجها بأقل من صداق مثلها فنهى الله عن ذلك وأمرهم بالعدل وقال وإن خفتم ألا تعدلوا فى الصداق ولم تطمئن نفوسكم إلى العدل فى صداقهن فتزوجوا ماحل لكم غيرهن مثنى وثلاث إلخ. أى كل واحد يأخذ مايستطيع من هذا العدد بشرط العدل والقدرة على النفقة، فإن خفتم ألاّ تعدلوا بين الزوجات فتزوجوا واحدة فقط أو عاشروا ما ملكت أيمانكم من الإماء لأنه ليس لهن من الحقوق مثل ما للزوجات. من أراد معرفة رأى عائشة فى تفسير الآية فليرجع لحديث رقم ٥٠٣ من كتابنا صفوة صحيح البخارى.

أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ③ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ
صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ
هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ④ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ
ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا
مَّعْرُوفًا ⑤ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ
ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ
إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ
وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ
أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ⑥ لِّلرِّجَالِ
نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ
نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ⑦ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ

﴿أدنى﴾: أقرب. ﴿ألا تعولوا﴾: العول الجور، أى أقرب إلى ألا تجوروا أى إلى عدم الجور. ﴿صدقاتهن﴾: جمع صدقة بفتح فضم لغة فى الصداق، والمراد مهورهن. ﴿نحلة﴾: أى عطية طيبة بها نفوسكم غير طامعين فى استرداد شىء منها. ﴿هنيئا﴾: مستلذا لاتنغيص بعده.

﴿مريئا﴾: حسن التغذية.

﴿السفهاء﴾ جمع سفيه وهو السيئ التصرف لصغر أو تبذير ذكرا كان أو أنثى.

﴿قياما﴾: أى بها قيام حياتكم ومعاشكم.

﴿وابتلوا اليتامى﴾: اختبروهم فى حسن التصرف قبل البلوغ بأن تعطوهم بعضا من المال ليتصرفوا فيه تحت مراقبتكم. ﴿بلغوا النكاح﴾: أى بلغوا السن المؤهل للزواج. ﴿آنستم منهم رشدا﴾: أى تبينتم منهم صلاحا فى المعاملة المالية. ﴿إسرافا وبدارًا أن يكبروا﴾: أى لاتتعجلوا فى أكلها لأجل أن تسرفوا فيه وتبادروا بالأكل قبل أن يكبر صاحب المال فينزعه من أيديكم.

المعنى: ذلك الاقتصار على الواحدة أقرب إلى عدم الجور أى العدل، وأعطوا النساء مهورهن حال كونها نحلة أى عن طيب نفس، فإن رضيت نفوسهن عن إعطائكم شيئًا من الصداق، أى من غير إضرار منكم ولا خديعة فيحل لكم أن تأخذوه حال كونه هنيئًا مريئا

---

(١) أيمانكم .
(٢) صدقاتهن.
(٣) أموالكم.
(٤) قياما .
(٥) اليتامى.
(٦)، (٧) أموالهم.
(٨)، (٩) الوالدان.

والمراد بالأكل مطلق التصرف. ولاتؤتوا السفهاء يأولى الأمر أموالكم، المراد أموالهم وإنما نسبها لأولى الأمر لحملهم على المحافظة عليها كأنها أموالهم، الأموال التى جعلها الله لكم أيها المسلمون قيام حياتكم وعليها نظام معاشكم، وارزقوهم فيها أى اجعلوا أموالكم مكان رزقهم وكسوتهم بأن تتجروا فيها وتنموها فتكون نفقاتهم من الربح لا من أصل المال وإلا نفد، ولهذا لم يقل وارزقوهم منها وقولوا لهؤلاء السفهاء فى حال اعتدالكم فى الصرف عليهم قولاً طيبا ترضاه نفوسهم، فإن كان السفيه صبيا فقولوا له مثلا هذا مالك نحفظه لك وسنسلمه لك قريبا، وإن كان السفيه كبيرا وعظتموه وعرفتموه عاقبة الإتلاف من الفقر والحاجة إلى الغير لعله يتنبه. واختبروا اليتامى قبل البلوغ حتى إذا بلغوا الحلم وعلمتم رشدهم فسلموهم أموالهم فورا. ثم أكد الأمر بالدفع بقوله: ولا تأكلوها إلخ، ليرتب عليه بعض دواعى الأكل ليحذرهم إسرافا أى لأجل الإسراف فى أخذها مبادرين به قبل أن يكبروا فينتزعوها من أيديكم، ومَنْ كان من أولياء اليتامى غنيًا بماله الخاص فالواجب أن يحمل نفسه على العفة عن مال القاصر ويرجو بولايته ثواب الله، ومن كان منهم فقيرا فليأكل من مال الفقير بالقدر المعروف عند العقلاء الصالحين وهو مايسد الجوع ويستر العورة. فإذا سلمتوهم أموالهم عند الرشد فأشهدوا عليهم أنهم تسلموها على حالة كذا سدا لباب التنازع وقطعا لوسوسة الشياطين. وكفى بالله محاسبا مجازيا للمحسن والمسيئ فاحذروه. وكان أهل الجاهلية لايورثون إلا مَنْ يدافع عن العشيرة، فلا يورثون النساء ولا الصغار، وكان هذا ظلمًا للضعفاء، فأنزل الله تعالى إبطالا لذلك: للرجال نصيب بينته الآيات الآتية، والمراد بالرجال الذكور كبارًا وصغارًا، مما ترك أحد والديهم أو أقربائهم الميتين، وللنساء نصيب كذلك كبيرات أو صغيرات من المتروك قليلا أو كثيرا، جعله الله تعالى لهم ولهن نصيبا مفروضا، أى محتما ليس لأحد أن ينقص منه شيئًا. وإذا حضر قسمة التركة أحد من قرابة الميت الذين لايرثون. فإنهم يعطون من نصيب الورثة الأغنياء لا لحاجة القريب ولكن ليشعر بمحبة قريبه الوارث له بإهدائه ما أعطى فلا يتسرب إلى نفسه حسد على المال الذى نزل على الوارث من السماء من غير نصب ولا مشقة.

وَالْيَتَامَىٰ[1] وَالْمَسَاكِينُ[2] فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا
مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً
ضِعَافًا[3] خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ[4] الْيَتَامَىٰ[5] ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ
فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ
فِي أَوْلَادِكُمْ[6] ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً
فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً[7] فَلَهَا
النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ
إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ
الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن
بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا
تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ

المعنى: كذلك إذا حضر القسمة اليتامى والمساكين الأجانب فأعطوهم مما ترك الميت قبل القسمة إن كان الورثة كلهم كبارا، أما الصغار فلا يؤخذ من نصيبهم شيء، وقولوا لليتامى والمساكين قولا معروفا فيه اعتذار لهم بحرمة التصرف فى مال القاصر، وحكمة إعطاء ذوى القربى غير الوارثين أن المال الذى يأتى الشخص من غير مشقة قد يثير فى النفوس الحسد، فيطلب التودد إليهم بحسب مايليق بحالهم كالهدية مثلا، وذلك فضلاً عما فيه من صلة الرحم وشكر المنعم، فإنه يصرف النفوس عن الحسد إلى المحبة.

ورأى بعض العلماء أن القول المعروف مطلوب حتى إذا كان الورثة كبارا، وذلك بملاطفة الآخذ حتى لايتأذى عزيز النفس. وليخش الله الأوصياءُ الذين لو تركوا من خلفهم أى بعد موتهم ذرية ضعافًا مثل الذين تحت أيديهم الآن خافوا عليهم أن يسيئ الناس معاملتهم، والمراد أنه يجب على الأوصياء أن يقدروا فى أنفسهم أنهم هم الذين ماتوا، وأن هؤلاء اليتامى أبناؤهم، فيعاملونهم بالشفقة والرحمة التى يحبونها لهم. فليتقوا الله فى أمر مَنْ تحت أيديهم من اليتامى، وليقولوا لهم فى مخاطبتهم وتربيتهم قولاً سديدا فيه جبر خاطرهم على فقد آبائهم،

---

(١) واليتامى.
(٢) والمساكين.
(٣) ضعافا.
(٤) أموال.
(٥) اليتامى.
(٦) أولادكم.
(٧) واحدة.

كأن يقولوا فى مخاطبتهم: افعل هذا يابنى أو ياولدى، ويستقبلوهم بحسن الترحيب، ويرشدوهم إلى محاسن الآداب بالحكمة والموعظة الحسنة. فسبحان الرحمن الرحيم الذى أدب الكبير، وجبر خاطر الصغير، فله الحمد على كل حال.

إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم مايجر إلى النار، وسيصلون أى سيدخلون سعيرا أى نارا شديدة.

يوصيكم الله أى يأمركم فى شأن ميراث أولادكم بأن تجعلوا للذكر مثل نصيب الأُنثيين إذا اجتمع فى الورثة ذكور وإناث، أما إن كان الورثة كلهم نساء أى بنات ليس معهن ابن فوق اثنتين أى زائدات على بنتين فلهن ثلثا ماترك الميت، وإن كانت واحدة فلها النصف، أما لو ترك بنتين فقط فنهما الثلثان لأن الثلثين ثبت للأختين كما فى آخر آية من هذه السورة فالبنتان أولى، ولأن البنت تستحق الثلث مع الولد الذكر فمع البنت أولى؛ ولأبويه أى والد الميت ووالدته لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ذكر أو أنثى، إلا أنه إن كان الولد أنثى فالأب يأخذ السدس فرضا وباقى التركة بعد الفروض تعصيبا، فإن لم يكن له أى للميت ولد وورثه أبواه فقط فلأمه الثلث وللأب الباقى، أما إذا وجد معهما أحد الزوجين كان ثلث مابقى بعد نصيب الزوج أو الزوجة للأم والباقى للأب. فإن كان للميت أخوة اثنان فصاعدا ذكورا أو إناثا فلأمه السدس والباقى للأب ولا شىء للإخوة، لأن الأب حجبهم. وهذا التوريث من بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء دينه. آباؤكم وأبناؤكم لاتعلمون أنتم أيهم أقرب لكم نفعا. والمراد أن الله تعالى فرض تلك الفرائض حسب علمه وحكمته، ولو وكلها إليكم لما علمتم أيهم أنفع لكم فتقعوا فى الخطأ وتعطوا مَنْ يضركم وتحرموا مَنْ ينفعكم، لذلك فرض الله تعالى عليكم هذا التقسيم فرضًا محتما صادرًا من الله العليم الحكيم.

﴿كلالة﴾: الكلالة هو الذى لا والد له ولا ولد.

المعنى: ولكم نصف ماترك زوجاتكم إن لم يكن لهن ولد ذكرًا أو أنثى. فإن كان لهن ولد منكم أو من غيركم فلكم الربع مما تركن، تأخذونه من بعد إخراج قيمة الوصية التى أوصين بها وتسديد الدين الذى عليهن.

كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ [1]
إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا
تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ
مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ
فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا
أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً [2] أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ
أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ [3] مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن
ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا
أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾
تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ [4]
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ [5] خَالِدِينَ [6] فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ

وللزوجات واحدة أو متعددات الربع مما ترك الزوج إن لم يكن له ولد منهن أو من غيرهن، يقسم بينهن بالسوية، فإن كان للزوج ولد ذكرا أو أنثى فللزوجة أو الزوجات الثمن من بعد إخراج الوصية وتسديد الدين ويقدم الدين فى كل الأحوال على الوصية إذا ضاق المال عن سدادها . وإن وجد رجل يورث حال كونه لا والد له ولا ولد أى لافرع ولا أصل أو امرأة كذلك ولأحدهما أخ أو أخت لأم فلكل واحد منهما السدس. فإن كان الأخوة أو الأخوان من أم أكثر من واحد بأن كانوا اثنين فما فوق فهم شركاء فى الثلث للذكر مثل الأنثى. أما إذا كان الأخ من الأب فإنه يرث بالتعصيب أى يأخذ كل الباقى إذا انفرد، أو إذا كانت الأخت من الأب وانفردت ترث النصف كما سيأتى آخر السورة. وتحترم وصية الميت إذا كان غير مضاربها للورثة، كأن يوصى بأكثر من ثلث تركته أو يوصى لوارث، ومن وجوه الضرر أن يقر بدين لا حقيقة له لزوجته أو لغيرها، إلى غير ذلك مما يعود على الورثة بالضرر، فإن كل ذلك يهمل ولا يلتفت إليه. يوصيكم الله بالمحافظة علي هذا التقسيم وصية صادرة منه، وهو العليم بمَنْ يجور ومَنْ يعدل فى وصيته، حليم من شأنه أن لايعجل بالعقوبة فلا يغتر المضار بالإمهال، تلك الأحكام المذكورة فى اليتامى والوصايا والمواريث حدود الله وضعها فاصلة بين الحق والباطل، فلا يجوز تعديها، فمن يطعه سبحانه بالمحافظة عليها يدخله جنات إلخ، ومَنْ يعص الله ورسوله ويتعد حدوده التى بينها هنا وغيرها يدخله نارا ...

---

(١) أزواجكم. (٢) كلالة. (٣) واحد.
(٤) جنات. (٥) الأنهار (٦) خالدين.

يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ
ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ
فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ
ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ
فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ
لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ
قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟

﴿اعـتـدنا﴾: أصله أعـددنا أى هيـأنا.

﴿ولاتعـضلوهن﴾: أصل العـضل الحـبس والتضييق، والمراد هنا لاتمنعوهن عن الزواج.

المعنى: مَنْ يعص الله يدخله نارًا خـالدا فـيهـا وله عـذاب شـديد الأهانة. والنسـاء اللاتى يفعلن الفاحشة وهى السحاق وهو ماتفعله المرأة مع مثلها، فاستشهدوا عليهن أربعة من رجالكم، فإن شهدوا فاحبسوهن فى البيوت بأن توضع المرأة وحدها بعيدة عَمنْ كانت تساحقها حتى يتوفاهن مَلَك الموت أو يجعل الله لهن سبيلا إلى الخروج من الحبس بالتوبة أو بالزواج المغنى عن المساحقة.

والرجلان اللذان يأتيان الفاحشة وهى اللواط فآذوهما بعد ثبوت ذلك بالشهادة أيضًا، فإن تابا قبل إيذائهما بإقامة الحد عليهما بأن ندما وأصلحا كل أعمالهما وطهرا نفسيهما فأعرضوا عنهما، أى كفوا عن إقامة الحد عليهما، إن الله كان كثير قبول التوبة من المخلص، شديد الرحمة فيغلبها على الغضب.

ولما ذكر سبحانه أن التوبة مع الإصلاح تقتضى ترك العقوبة فى الدنيا اتبع ذلك بشرط قبول التوبة: إنما التوبة التى أوجب الله تعالى على نفسه قبولها تكون للذين يعملون السوء

---

(١) خالدا.
(٢) واللاتى.
(٣) الفاحشة.
(٤) يتوفاهن.
(٥) واللذان.
(٦) يأتيانها.
(٧) بجهالة.
(٨) الآن.

بجهالة أى بحمق وسفاهة ثم يتوبون من قريب أى عقب الذنب مباشرة كما فى الآية (١٣٥) من سورة آل عمران صفحتى ٨٤، ٨٥.

هذا هو الوقت الذى تقبل فيه التوبة قطعا بأذن الله. والآية الآتية بينت الوقت الذى لاتقبل فيه قطعا، والتوبة فى غير هذين الوقتين مسكوت عنها فهى محل رجاء وخوف، فكلما قرب وقت التوبة من وقت الذنب كان رجاء العفو أقوى، وكلما بعد بالإصرار وعدم المبالاة كان عدم القبول أقوى. أنظر ماتقدم فى سورة البقرة الآية (٨١) صفحة ١٦، وكان الله عليما بإخلاص التائب وعدمه، حكيما فى جعل الندم توبة حتى يرغم أنف الشيطان: وليست التوبة المقبولة للذين يعملون السيئات ويستمرون مصرين عليها إلى أن يحضرهم الموت أو يأخذوا فى النزع ويصبحوا عاجزين عن الذنب فيتوبوا، ولا للذين يموتون وهم كفار أى إذا تابوا فى الآخرة لاتقبل توبتهم. أنظر الآية (١٠٦) من سورة المؤمنون ومابعدها صفحة ٤٥٥ والآية (٥٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٤. أولئك المذكورون من الفريقين اعتدنا وهيأنا لهم عذابا شديد الألم.

وكان عادة أهل الجاهلية أن يرث الرجل نساء أقربائه. فإن شاء تزوج المرأة منهن بلا صداق وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها، وإن شاء منعها من الزواج حتى تفتدى بمال، وإلا تركها حتى يرثها، فجاء الإسلام بالنهى عن هذه الوحشية. فقال سبحانه: لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها عنهن، والتقييد بالكره للتشنيع عليهم، وإلا فلا يجوز أن يرثها برضاها، أى لايجوز أن تأخذوهن على سبيل الارث كما يورث المتاع والحيوان. ولا يحل لكم أيضًا منعهن عن الزواج بغيركم بأن تمسكوهن فى عصمتكم مع الإعراض عنهن وإظهار الكراهة لهن ولا تطلقوهن لتضايقوهن حتى تذهبوا أى تأخذوا بعض ما آتيتموهن...

﴿فاحشة مبينة﴾: معصية واضحة كالزنا والنشوز. ﴿قنطارا﴾: المراد به هنا صداقا كثيرا. ﴿بهتانا﴾: ظلما. ﴿أفضى بعضكم إلى بعض﴾: أطلع كل منكما صاحبه على عورته. ﴿ميثاقا غليظا﴾: عهدا مشددا على الإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان، الآية (٢٢٩) من سورة البقرة صفحة ٤٦.

بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ[1] مُّبَيِّنَةٍ
وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن
تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ
ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ[2] قِنطَارًا
فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا[3] وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾
وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ
مِنكُم مِّيثَٰقًا[4] غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم
مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً[5] وَمَقْتًا وَسَآءَ
سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ[6] وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ[7]
وَعَمَّٰتُكُمْ[8] وَخَٰلَٰتُكُمْ[9] وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ
وَأُمَّهَٰتُكُمُ[10] ٱلَّٰتِىٓ[11] أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم[12] مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ[13]
وَأُمَّهَٰتُ[14] نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ[15] ٱلَّٰتِى[16] فِى حُجُورِكُم مِّن

المعنى: لايحل لكم أن تمنعوهن عن الزواج لتأخذوا بعض ماأعطيتموه لهن من الصداق إلا أن يرتكبن معصية واضحة ثابتة كالزنا أو الخروج على طاعة الزوج، فعند ذلك يجوز لكم أن تضايقوهن حتى يفتدين منكم بالخلع وهو أن تدفع المرأة مـــالا نظيـــر إطلاق سراحها.

أما إذا لم تأت الزوجات بما يشين فيطلب منكم أن تعاشروهن بالمعروف المستحسن من الإنصاف فى المبيت والنفقة وجميل القول، فإن كرهتموهن لعيب فيهن غير ماتقدم فاصبروا، فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا، من ثواب جزيل، أوولد صالح، أو حفظ مال وعرض، إلى غير ذلك. وكان من أسباب مضارة الزوجات أن الرجل تعجبه المرأة غير زوجته ولا يستطيع الجمع بينهما فيضار زوجته حتى يلجئها إلى دفع ماأخذته ليتزوج مَنْ

(١) بفاحشة.
(٢) إحداهن.
(٣) بهتانًا.
(٤) ميثاقا.
(٥) فاحشة.
(٦) أمهاتكم.
(٧) وأخواتكم.
(٨) وعماتكم.
(٩) وخالاتكم.
(١٠) وأمهاتكم.
(١١) اللاتى.
(١٢) وأخواتكم.
(١٣) الرضاعة.
(١٤) وأمهات.
(١٥) وربائبكم.
(١٦) اللاتى

يريدها، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك فقال: وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج، تطليق امرأة وتزوج أخرى، والحال أنكم آتيتم المرأة المراد طلاقها صداقا بالغا حد الكثرة، فلا تأخذوا من هذا الصداق الكثير شيئا ولو قليلاً وهل يصح أن تأخذوه ظلما وإثما مبينا. ثم كرر التوبيخ بقوله: وكيف تأخذونه وقد خلا كل منكما بصاحبه بدون ستر، وأيضًا أخذ الله لأجلهن عليكم عهدا مشددا بأن تعاشروهن بمعروف. ولاتتزوجوا أو تبقوا فى عصمتكم من النساء مَنْ كانت زوجا لآبائكم، والمراد بالآباء ما يعم الأجداد أيضًا، لكن مامضى يعفو الله عنه بشرط مفارقته لها عند علمه بالتحريم. إن زواج الابن زوجة أبيه كان فاحشة بالغة فى القبح، ومقتا من الله ومن المؤمنين ذوى المروءة، وقبح طريقًا يسلكه عاقل عنده حياء. ولهذه المناسبة ذكر بقية المحرمات من النساء فقال: حرمت عليكم أمهاتكم ويشمل الجدات، وبناتكم ويشمل بنات الأولاد، وأخواتكم ولو لأم، والعمات والخالات، وبنات الأخ وبنات الأخت كذلك ولو لأم، وأمهاتكم اللاتى جاءت أمومتهن من الرضاعة فقط، وأخواتكم من الرضاعة كذلك.

وقد أنزل سبحانه الرضاعة منزلة النسب فجعل المرضعة أما للرضيع، وبحكم ذلك يكون زوجها أبًا له وجده جدا، وكل ولد ولدته المرضعة قبل رضاعه أو بعده فهو أخوه، وحرمت عليكم أمهات زوجاتكم بمجرد العقد على بنتها ولو طلقها قبل الدخول، وربائبكم أى بنات زوجاتكم من رجل آخر اللاتى يغلب أن يربين تحت رعايتكم مع أمهن، فالقيد للغالب، وإلا فبنت الزوجة محرمة ولولم تترب فى حضانة زوج أمها.

﴿حلائل﴾: جمع حليلة وهى الزوجة. ﴿سلف﴾: مضى. ﴿المحصنات﴾: الإحصان يطلق فى القرآن على أربعة معان: الإسلام والحرية كما فى الآية (٢٥) الآتية، والعفة كما فى الآية (٢٥) أيضًا والآية (٥) من سورة المائدة صفحة ١٣٦، والآية (٤)، (٢٣) من سورة النور صفحتى ٤٥٧، ٤٦٠، والزواج كما هنا. وسميت بذلك لأن زوجها يحصنها ويحفظها من الخطيئة.

وإذا كسرت الصاد فالمراد أنها أحصنت فرجها كما فى الآية (١٢) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣.

نِسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ
وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ
إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم
مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ
فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ
طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم
بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ

﴿مسافحين﴾: السفاح الزنا.

﴿أجورهن﴾: مهورهن.

﴿طولا﴾: غنى.

﴿من فتياتكم المؤمنات﴾: هنا كلام كثير فى شرط الإيمان وذكر الألوسى رأيين. أنظرهما فى أول الجزء الخامس للألوسى.

المعنى: ومحل تحريم بنت الزوجة إذا دخل الزوج بالأم. أما إذا طلق الأم قبل الدخول بها فإنه يحل له الزواج ببنتها، وهذا هو قوله سبحانه ﴿من نسائكم اللاتى دخلتم بهن﴾ وصرح بالمفهوم لشدة العناية بالأعراض فقال: فإن لم تكونوا دخلتم بالأمهات فلا جناح عليكم فى زواج بناتهن بعد طلاق أمهاتهن. وحرم عليكم حلائل أبنائكم ويشمل ابن الابن وإن نزل

---

(١) اللاتى.
(٢) وحلائل.
(٣) أصلابكم.
(٤) والمحصنات.
(٥) أيمانكم.
(٦) كتاب.
(٧) بأموالكم.
(٨) مسافحين.
(٩) تراضيتم.
(١٠) المحصنات.
(١١) المؤمنات.
(١٢) فمما.
(١٣) أيمانكم.
(١٤) فتياتكم.
(١٥) المؤمنات.
(١٦) بإيمانكم.

وابن البنت، فزوجاتهم تحرم على الجد. الذين من أصلابكم. أما الابن الذى ليس من الصلب كالابن المتبنى الذى كان معروفا فى الجاهلية فكان الرجل يختار ولدا أجنبيا ويلحقه بأولاده فى كل شىء حتى الميراث، وكانوا يحرمون زوجاتهم على مَنْ تبناهم، فجاء الإسلام وأبطل هذا التحريم، وأجاز أن يتزوج المتبنى زوجة مَن تبناه كما سيأتى فى أول سورة الأحزاب.

أما الابن من الرضاعة فللعلماء فيه رأيان، فالجمهور على أنه كابن النسب تحرم زوجته. واختار بعضهم حل زوجته لأنه ليس ابن صلب والله تعالى حرم زوجة ابن الصلب فقط. ومما يحرم عليكم الجمع بين الأختين فى عصمة رجل واحد، وأدخل ﷺ فى حكمهما الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها، لكن ماسلف ومضى من ذلك لايعاقبكم الله عليه، بشرط أن يفارق إحداهما عند سماع الحكم. وحرم عليكم المحصنات أى ذوات الأزواج من النساء إلا ماملكت أيمانكم من الإماء فى حرب الدفاع عن الدين وأزواجهن فى دار الحرب لم يقعوا فى الأسر فإنه يصح افتراشهن بعد ثبوت أنهن غير حوامل. كتب الله تعالى عليكم كل تلك الأحكام كتابا أى أوجبها إيجابا. وأحل الله لكم ماسوى ماحرم عليكم. فيما تقدم أن تطلبوه بأموالكم التى تدفعونها مهرًا حال كونكم محصنين أى قاصدين إحصان أنفسكم وزوجاتكم. فالإحصان هنا معناه العفة. وأكد ذلك بقوله غير مسافحين أى زانين، فما طلبتم التمتع به من الزوجات فآتوهن مهورهن التى فرضتموها لهن فريضة أى قدرتموها لهن. أنظر ماتقدم فى الآية (٢٣٦) من سورة البقرة صفحتى ٤٨، ٤٩. ولا إثم عليكم فيما تراضيتم به أنتم وهن من بعد الفريضة. أى لاحرج بعد تقدير المهر إن تراضيتم على الزيادة فيه أو النقص منه متى كان ذلك عن طيب نفس. ومَن لم يستطع منكم غنى ومالاً واسعا يمكنه من زواج الحرائر المؤمنات، وهذا قيد للأفضل وإلا فالحرة الكتابية مقدمة على الأمة فيحل له أن يتزوج الأمة المؤمنة والله أعلم بمقدار إيمانكم فلا تحتقروا الأمة فقد يكون إيمانها أحسن، بعضكم من بعض، أى متساوون فى الدين، أنظر الآية (١٩٥) من سورة آل عمران صفحتى ٩٥، ٩٦؛ فتزوجوهن بإذن مواليهن، وآتوهن مهورهن.

أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ[1] غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ[2] وَلَا
مُتَّخِذَٰتِ[3] أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ[4]
فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ[5] مِنَ ٱلْعَذَابِ ذَٰلِكَ
لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾
وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ[6]
أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ
وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ[7] ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟
أَمْوَٰلَكُم[8] بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ[9] إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً[10] عَن تَرَاضٍ
مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾
وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا[11] وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا

﴿محصنات﴾: المراد هنا عفيفات. ﴿غير مسافحات﴾: أى غير زانيات.

﴿أخدان﴾: جمع خدن بكسر فسكون وهو خليل المرأة التى يزنى بها سرا.

﴿فـإذا أحـصن﴾: المراد هنا تزوجن. ﴿فاحشة﴾: أى زنا.

﴿ماعلى المحصنات﴾: المراد بها هنا الحرائر الأبكار. ﴿العذاب﴾: المراد به الحد وهو الجلد. ﴿العنت﴾: المشقة والضرر من مقاومة دواعى الفطرة لأنها قد تحدث أضرارًا عصبية أو خلقية.

المعنى: ادفعوا لهن مهورهن بالمتعارف من غير نقص ولا مماطلة حال كونهن عفيفات. وأكد العفة بقوله غير مسافحات، أى غير مجاهرات بالزنا، فإذا تزوجن فإن آتين بفعلة فاحشة وهى الزنا فعليهن من الحد نصف ماعلى الحرائر الأبكار. وهذا النصف خمسون جلدة، ولارجم عليها لأنه لايُنَصّف، وليس معنى هذا أنها لاتحد إذا كانت بكرا، فالحد ثابت عليها مطلقا بهذه الآية وبالسنة الصحيحة. ويقاس على الإماء فى هذا العبيد الذكور. وقد يقال إذا كان نصف الحد ثابتا عليها وهى بكر فلم قيده بالإحصان؟ أجيب بأنه لدفع توهم أنه يزيد بالزواج. ذلك أى نكاح الإماء جائز عند عدم القدرة على زواج الحرة مع خوف المشقة. والصبر

---

(١) محصنات. (٢) مسافحات. (٣) متخذات.
(٤) بفاحشة. (٥) المحصنات. (٦) الشهوات.
(٧) الإنسان. (٨) أموالكم. (٩) بالباطل.
(١٠) تجارة. (١١) عدوانا.

عن زواج الإماء مع العفة خير لكم من جهات كثيرة، منها أن أولادكم سيكونون عبيدًا لمالك الأمة، ومنها أنه لو طلبها سيدها للخدمة فى سفر أو حضر لما جاز لزوجها منعها. ولهذا قال العلماء زواج الأمة كأكل الميتة لايحل إلا للمضطر، والله سبحانه غفور لمن أقدم، رحيم حيث رخص لدفع الحرج.. يريد الله بذكر كل ماتقدم من الأحكام أن يبيّن لكم ماخفى عليكم من مصالحكم وأفضل الأعمال، ويرشدكم إلى طرق الذين سبقوكم من الأنبياء من اختيار الأحكام الصالحة فى كل زمان بما يناسبه، ويريد أيضًا أن يرشدكم لأسباب قبول توبتكم، عليم بما ينفعكم، حكيم لايشرع إلا مافيه مصلحتكم. والله يريد أن يتوب عليكم، أعاده ليربط به مقابله وهو قوله: ويريد الذين يتبعون الشهوات وهم خصومكم من المشركين واليهود الذين لايهتمون إلا بما يحقق شهواتهم ولا يقدرون للعاقبة حسابا أن تميلوا أى تنحرفوا عن الحق حتى تكونوا مثلهم. يريد الله أن يخفف عنكم فيما شرعه، فلا يجعل فيه حرجا كما تقدم فى آخر سورة البقرة، لأنه يعلم أن الإنسان ضعيف لايقدر على مقاومة المشاق والميل الشديد إلى النساء. قال ابن عباس ثمان آيات نزلت فى سورة النساء هى خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وهى آيات (٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣١، ٤٠، ١١٠، ١١٦، ١٥٢).

وبعدما تكلم سبحانه من أول السورة إلى هنا فى المحافظة على أموال اليتامى والنساء والميراث ناسب أن يذكر قاعدة عامة للتعامل فى الأموال وهى أن لايأخذ أحد مال أحد بطريق غير مشروع كالسرقة والغصب ومنع الإرث إلى غير ذلك، فقال تعالى ﴿لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ لكن إذا كانت الأموال أموال تجارة صادرة عن تراض منكم فلكم أخذها. والمراد كل معاملة مشروعة. ولاتقتلوا أنفسكم أى لايقتل بعضكم بعضا.

وجاء به هنا لأن أكل المال ظلما يسبب القتل غالبا. إن الله رحيم بكم حيث حرم عليكم سبب هلاككم. ومن يفعل ذلك القتل عدوانا أى قصدًا لاخطأ، وظلما لاقصاصا ولا دفاعا، فسوف ندخله نارا.

وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ
عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾
وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ
نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ
وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾
وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ
عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا
فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ
فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ
وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ
وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا

﴿كبائر﴾: الكبيرة كل معصية اقترن بها وعيد شديد، وقدر لها حد كالزنا والقتل والسرقة. ﴿سيئاتكم﴾: هى الصغائر التى لم تقترن بشيء مما تقدم. ﴿موالى﴾: أى ورثة لهم حق الولاية. ﴿مما ترك﴾: أى على ماترك فمن بمعنى على، انظر الآية (٧٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨.

﴿والذين عقدت أيمانكم﴾: المراد بهم الزوج والزوجة لأن من عادة عقد الزواج أن يضع كل من طرفيه يمينه فى يمين الآخر.

﴿قوامون على النساء﴾ أى من شأنهم القيام على شئونهن لأن الأسرة لابد لها من رئيس يوجه سياستها ولا يصح أن تكون المرأة كما سيأتى، فتعين أن يكون الرجل. ﴿قانتات﴾: مطيعات لأزواجهن.

﴿حافظات للغيب﴾: أى يجب عليهنّ حفظه من عرض ومال فى غيبة أزواجهن.

﴿نشوزهن﴾: عصيانهن.

المعنى: وكان إدخالكم النار سهلا عليه سبحانه فخافوه بأن تبتعدوا عن الكبائر التى نهاكم عنها يسقط عنكم الذنوب الصغائر ويدخلكم الجنة دخولا كريما حسنا. ولما فرغ من التعريض لأموال الغير بالجوارح شرع يبيّن حرمة التعريض لها بالقلوب كالحسد، فلما قالت النساء: نرث النصف من الرجال فلم لايكون علينا النصف من العقاب فى الذنوب؟.. وقال الرجال: نرجو أن نفضل على النساء فى ثواب الأعمال كما فضلنا عليهم فى الميراث، نزل: ﴿ولا تتمنوا مافضل الله﴾إلخ، والمراد أن لكل من الرجال والنساء أعمالاً تخصه لايقوم بها غيره غالبا،

(١) واسألوا. (٢) موالى. (٣) الوالدان. (٤) أيمانكم. (٥) قواموان.
(٦) أموالهم. (٧) فالصالحات. (٨) قانتات. (٩) حافظات. (١٠) واللاتى.

فعلى الرجال الجهاد ومتاعب الرزق، وعلى النساء الحمل والرضاع والحضانة وشئون المنزل، وكل له أجره على قدر عمله، فيجب أن يرضى كل بما قسمه الله ولا يحسد غيره، وإذا أراد المزيد من الفضل فليتجه إلى الله تعالى ويطلب المزيد بالعمل الصالح لا بالحسد والتمنى؛ ولذا قال ﴿واسألوا الله من فضله﴾ قال ابن عباس: لا يقل أحدكم ليت ما أعطى لفلان كان لى. ولكن ليقل اللهم أعطنى. إن الله كان بكل شيء عليما، فالفضل منه عن علم بأسباب استحقاقه.

ولكل من الرجال والنساء الموروثين جعلنا لهم موالى أى ورثة لهم حق الولاية على ماترك الموروث، وهؤلاء الموالى هم الوالدان والأقربون، والمراد جميع الأصول والفروع والحواشى التى تقدم أول السورة أنها ترث، ويدخل فيهم أيضًا الزوج والزوجة لأن لكل منهما حق الارث بعقد الزوجية.

فآتوهم ياأولى الأمر نصيبهم، ولاتمنعوا أحدا حقه، لأن الله تعالى شهيد ورقيب على أعمالكم. والرجال من شأنهم أنهم يقومون على نظام الأسرة التى منها النساء بسبب تفضيل الله تعالى لهم عليهن بأشياء كثيرة منها نقصان استعداد المرأة فى مهام الأمور كما تقدم فى الآية (٢٨٢) من سورة البقرة صفحتى ٦٠، ٦١؛ ونقصان من ثوابهن فى العبادة لفوات مدة الحيض والنفاس، ومنها أن الرجال خصوا بالرسالة والنبوة والإمامة الكبرى وإقامة الشعائر كالأذان والخطبة وصلاة الجمعة، وبما أنفقوا من أموالهم من صداق ونفقة على الزوجة والأولاد والخدم، ثم شرع فى بيان كيفية القيام عليهن بحسب اختلاف أحوالهن، فالصالحات منهن مطيعات للأزواج حافظات لأعراضهن ومال أزواجهن بسبب حفظ الله وتوفيقه لهن لصلاحهن، وهذا القسم من النساء ليس للرجال عليهن سلطان بخلاف القسم الثانى المبين فى قوله واللاتى تخافون نشوزهن بظهور أماراته كإهمال شئون المنزل أو إظهار الدلال بجمالها فعالجوهن بما يأتى على الترتيب: الأول الوعظ بما يلين قلوبهن ويذكرهن بغضب الله فإذا لم ينفع فاهجروهن فى المضاجع بأن تكونوا معهن فى مرقد واحد مع إعراضكم عنهن وليس أقسى على المرأة التى تظن أن أنوثتها أقوى سلاح فى إخضاع الرجل من أن ترى الرجل كسر هذا السلاح بحزمه، فإذا لم ينفع هذا أيضًا فى بعض النساء فاضربوهن ضربا غير مبرح قال ابن عباس تضرب بالسواك ونحوه كاليد والعصا الصغيرة، لأن المقصود هو إيلامها

١٠٦

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا
فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَٰحًا[1]
يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَاعْبُدُوا
اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ[2] إِحْسَٰنًا[3] وَبِذِى
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ[4] وَالْمَسَٰكِينِ[5] وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ
الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُكُمْ[6] إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾
الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَىٰهُمُ[7]
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ[8] عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾
وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ[9] رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَٰنُ[10] لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ
قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

نفسيا بأنها استحقت أن تعامل معاملة العبيد، فإن أطعنكم بترك النشوز فلا تبغوا أى تطلبوا لكم عليهن طريقا لإيذائهن. والمراد فكفوا عنهن وسامحوهن.

﴿والجار ذى القربى﴾: هو الذى قرب جواره ولو كان غير مسلم.

﴿والجار الجنب﴾ هو الأبعد من الأول. وحدد بعضهم الجوار بأربعين دارًا. والأصح أن الجار المطلوب الإحسان إليه هو الذى تراه فى غدوك ورواحك وتشعر بغيابه.

﴿الصاحب بالجنب﴾: الملازم لك، ويشمل خليلك فى الحضر ورفيقك فى السفر، وامرأتك التى تضاجعك. ﴿مختالا﴾: هو المتكبر الذى يظهر اختياله فى مشيته وحركاته مستعليا على غيره. ﴿فخورا﴾: هو المتكبر الذى يظهر أثر كبره فى أقواله ويكثر من تعداد مناقبه التى يزعم أنه امتاز بها عن الناس.

﴿رئاء الناس﴾: أى رياء ليمدحهم الناس.

المعنى: إن علت أيديكم عليهن بدون حق فاعلموا أن يد الله تعالى عليكم أعلى وأعظم فاجتنبوا ظلمهن. وإن توقعتم آثار شقاق بين الزوجين أو نزاع فابعثوا إليهما رجلا عدلا من

---

(١) إصلاحا. (٢) وبالوالدين.
(٣) إحسانا. (٤) واليتامى.
(٥) والمساكين. (٦) أيمانكم.
(٧) آتاهم. (٨) للكافرين.
(٩) أموالهم. (١٠) الشيطان.

أهل الزوج ورجلا مثله من أهلها ليكونا حكمين أعرف ببواطن أمورهما وأرغب فى الإصلاح ونفوس الزوجين عنهما راضية، فإن يرد الحكمان إصلاحا يوفق الله بين الزوجين.

والمعنى إن تكن نية الحكمين خالصة بارك الله عز وجل وساطتهما واعبدوا الله أى اخضعوا لسلطانه فى السر والجهر، ولاتشركوا معه شيئًا من مخلوقاته فى الدعاء والتضرع له. وأحسنوا بالوالدين إحسانا بالبر ولين الجانب وأحسنوا بذى القربى وهم أقرب الناس إليكم بعد الوالدين، أنظر الآية (٨٣) من سورة البقرة صفحة ١٦. وأحسنوا لليتامى بالعطف عليهم لتعوضوهم فقد آبائهم، وللجار ذى القربى أى القريب فى المنزل، فالقرابة كما تكون بالنسب تكون بالجوار، والجار الأبعد دارًا من الأول كما تقدم، وصاحبك الذى تغلب مصاحبته لك، وابن السبيل المنقطع عن أهله فى السفر وفى حاجة إلى مساعدة، وإلى الأرقاء الذين ملكتهم أيمانكم بالرفق بهم وعدم تكليفهم مايشق عليهم والمساعدة على عتقهم ، أنظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤. والآية (٦٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥١. ثم بين سبحانه حكمة تلك الوصايا المتقدمة فقال إن الله لايحب من كان مختالا فخورا، لأنهم يأنفون من قرابتهم وجيرانهم الفقراء، أنظر الآيتين (٣٧، ٣٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩. هؤلاء المختالون الفخورون هم الذين من شأنهم أن يبخلوا بما آتاهم الله من فضله ولايكتفوا بهذا الجرم بل يأمرون غيرهم بالبخل بغضا للبذل وتسهيلا على أنفسهم بأن يوجد لهم شركاء فى صفتهم وهى البخل، ويخفون ما أنعم الله تعالى به عليهم من السعة والخير. ثم بيّن سبحانه نتيجة بغضه لهم فقال: وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا شديد الإهانة. وهم الذين ينفقون أموالهم لأجل مراءاة الناس ليغتنموا من وراء ذلك متاعا زائلا، ولا يؤمنون بالله إلخ حتى يكون ذلك داعيا لهم إلى الإخلاص فى الإنفاق ولم يجدوا مخلصا ينصحهم، بل لم يصاحبوا إلا شياطين الإنس والجن الذين لايدلون على خير . ومَنْ يكن الشيطان قرينه فبئس القرين قرينه. وأى ضرر يلحقهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر؟ لا ضرر، بل المحقق هو النفع.

﴿ذرة﴾: هى الواحدة من الهباء المنتشر فى الجو. عن ابن عباس أنه أدخل يده فى التراب ثم أخرجها ونفخ فيها وقال كل واحدة من هذه ﴿من الغبار المتطاير﴾ ذرة. ﴿يضاعفها﴾: أى

وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ
مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ
بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا
يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا
الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا
إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ
عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ
النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ

يزيدها إلى عشر أمثالها كما في الآية (١٦٠) من سورة الأنعام صفحة ١٩١ ﴿عابري سبيل﴾: أي سالكين إلى الماء طريقا في المسجد.

﴿من الغائط﴾: أحدثتم حدثا أصغر.

﴿لامستم النساء﴾: أي أحدثتم حدثا أكبر.

﴿فتيمموا﴾: اقصدوا.

﴿صعيدا﴾: هو كل ماصعد على وجه الأرض ولم تدخله صنعة الإنسان كالتراب والحجر غير المدهون بما يغطيه.

﴿طيبا﴾: طاهرا.

المعنى: وماذا يضرهم لو أنفقوا بعض مارزقهم الله، وكان الله بهم عليما، فلا يظلم فاعل خير مقدار ذرة. وإن تك الذرة حسنة يضاعفها إلى عشر ويعطي من عنده تفضلا أجرًا عظيما زائدا على الأمثال العشرة. انظر الآية (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥. فكيف يصنع هؤلاء المجرمون إذا جئنا يوم القيامة من كل أمة بشهيد يشهد عليهم بما حصل منهم وهذا الشهيد هو نبيهم، وجئنا بك أيها النبي على هؤلاء الذين بعثت إليهم شهيدا على مَنْ آمن وعمل صالحا، ومَن كفر وعمل سيئًا، ومَنْ نافق ومَنْ أخلص، انظر الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتي ٢٧، ٢٨.

يوم هذا المشهد يتمنى الذين كفروا أن تسوى بهم الأرض فيكونوا هم وهي سواء ترابا لايبعثون حتى يشاهدوا هول هذا الموقف، انظر آخر سورة ﴿عم﴾ ولايستطيعون كتمان شيء مما عملوا بعد أن يلجئهم الله إلى الاعتراف بعد الإنكار كما في الآية (٢٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥، فأخرس الله سبحانه ألسنتهم وأنطق جوارحهم، أنظر الآية (٦٥) من سورة يس، والآية (٢٠) من سورة فصلت صفحتي ٥٨٥، ٦٣٢ على الترتيب.

---

(١) يضاعفها. (٢) الصلاة. (٣) سكارى. (٤) لامستم. (٥) الكتاب.

عند ذلك يلقون فى النار وهم مقرون بعدله عز وجل.

وبعد أن نهاهم عن الشرك أراد أن يحذرهم مما قد يجر إليه من حيث لايشعرون فقال ﴿لاتقربوا الصلاة﴾ إلخ: نزلت بعد أن صلى أحد المسلمين وهو سكران وقرأ ﴿قل يأيها الكافرون أعبد ماتعبدون إلى آخر السورة﴾ بدون ﴿لا﴾. والمراد لاتقربوا الصلاة أو مكانها حال كونكم سكارى إلى أن تفيقوا وتعلموا ماتقرءون وماتدعون به، وكان مقدمة لتحريم الخمر، ولاتقربوا مكان الصلاة حال كونكم جنب فى جميع الأحوال إلا فى حال كونكم عابرى سبيل الماء = كأن يكون ماء الغسل فى مكان لايصل إليه الجنب إلا بالمرور فى المسجد. ولايليق أن يحمل عابر السبيل على المسافر لأن حكمه سيأتى فى الآية نفسها فلا معنى لتكراره بلا سبب. وقد كانت أبواب بيوت الصحابة من جيران المسجد مفتحة فى المسجد.، وإن كنتم مرضى يضركم استعمال الماء أو مسافرين أو مقيمين وأحدثتم الحدث الأصغر أو الأكبر فلم تجدوا ماء. هذا القيد غير راجع للمرضى قطعا لأن المرض يبيح التيمم مع وجود الماء وراجع قطعا للمقيم المحدث حدثا أصغر أو أكبر، واختلفت الأنظار فى رجوعه للمسافر فقال الجمهور يرجع إليه فلا يتيمم المسافر إلا عند فقد الماء بعد البحث عنه، وقال آخرون لايرجع إليه فتكون الأعذار المبيحة للتيمم ثلاثة: السفر. المرض. عدم وجود الماء فى الحضر. ورجع هذا بأن قيد السفر مع عدم وجود الماء يكون لغوا لأن عدم وجود الماء كان فى إباحة التيمم حتى فى الحضر. وأيضًا إن الشارع اعتبر مشقة السفر، فأباح الفطر للصائم، وقصر الصلاة من أربع إلى ركعتين كما سيأتى قريبا. ومشقة حمل الماء فى السفر والبحث عنه للطهارة أشد من صلاة الركعتين اللتين خففهما سبحانه عن المسافر. فتيمموا اقصدوا بعد دخول وقت الصلاة شيئًا مما صعد على وجه الأرض طيبا أى طاهرًا، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إلى المرفقين. وأجاز مالك إلى الكوعين إن الله كان عفوا - كثير العفو - والتسامح حيث يسر لكم الصلاة بالتيمم ولم يلزمكم بإعادتها، غفورا لما يصدر من العبد من هفوات ومنها صلاته وهو سكران، وكان ذلك قبل البت فى التحريم وبعد مابيّن سبحانه تلك الأحكام العظيمة من أول السورة إلى هنا أراد أن يحذر المؤمنين من إهمالها كما أهمل أهل الكتاب قبلهم فعاقبهم فقال: ألم تر وتعلم أيها السامع إلى الذين أعطاهم الله نصيبا من التوراة لكنهم حرموا أنفسهم من هدايته، فهم بذلك يشترون الضلالة.

ٱلضَّلَـٰلَةَ[1] وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ
بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ
ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا
وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا[2] لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا
فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ
خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ[3] ءَامِنُواْ بِمَا
نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا
عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ[4] ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ
ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ
مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ
إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ

﴿الضلالة﴾: مصدر لفعل ضل، قال صاحب المختار ضَلَّ ضاع وهلك يضل ضلالاً وضلالة، وقال صاحب المصباح ضَلَّ الرجل الطريق يَضِل بكسر الضاد ضلالاً وضلالة أخطأ الطريق المستقيم.

﴿الذين هادوا﴾: هم اليهود.

﴿يحرفون الكلم﴾: يغيرون كلام التوراة الذى فيه صفة النبى ﷺ ليبعدوا الناس عن تصديقه.

﴿غير مسمع﴾: كلمة ذات وجهين إن قالها المؤدب فمعناها لا سمعت مكروها؛ لكن الخبثاء يريدون بها لا سمعت خيرًا. ﴿راعنا﴾: تقدم مايريدونه منها فى الآية (١٠٤) من سورة البقرة صفحة ٢٠ وهو نسبة إلى الرعونة.

﴿ليا بألسنتهم﴾: تحويلا للكلام عن ظاهره إلى معنى خبيث، أنظر تفصيل ذلك فى الآية (٧٨) من آل عمران صفحة ٧٥.

﴿نطمس وجوها﴾: الطمس إزالة الشيء أو إخفاؤه أنظر الآية (٨٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٩، ٢٨٠، والآية (٦٦) من سورة يس صفحة ٥٨٥، والآية (٨) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٤. والوجه يطلق على وجه البدن المعروف، وعلى وجه النفس أى جهتها التى تقصدها ويسمونها مقصدا، فمن الأول أنظر الآية (١١١) من سورة طه صفحة ٤١٦، ومن

---

(١) الضلالة.
(٢) وراعنا.
(٣) الكتاب.
(٤) أصحاب.

الثانى انظر الآية (١٢٥) صفحتى ١٢٣، ١٢٤ والآيتين (٣٠، ٤٣) من سورة الروم صفحتى ٥٣٤، ٥٣٦.

﴿فنردها على أدبارها﴾: الرد على الأدبار يكون حسيا ومعنويا؛ فمن الأول أنظر الآية (١٥) من سورة الأنفال صفحتى ٢٢٨، ٢٢٩. والثانى أنظر الآية (٢٥) من سورة محمد صفحة ٦٧٦.

﴿أو نلعنهم ﴾: قال أبو مسلم اللعن هنا مراد به الهلاك ويصح أن تكون ﴿أو﴾ بمعنى (الواو) يقول العربى: للنفس تقاها أو عليها فجورها يريد وعليها فجورها، أنظر شرح الآية (١٦٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٩.

﴿أصحاب السبت﴾: تقدم الكلام عليهم فى الآية (٦٥) من سورة البقرة صفحة ١٣. وسيأتى بالتفضيل فى الآية (١٦٦) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٩، ٢٢٠.

﴿لايغفر أن يشرك به) أصل معنى الشرك هو أن يعبد مع الله سبحانه غيره ومعنى الكفر يشمل ذلك ويشمل إنكار شىء من الشرع معلوم بالضرورة كإنكار البعث وإنكار رسالة رسول من الرسل.

فبين الشرك والكفر عموم وخصوص مطلق، فكل شرك كفر، وليس كل كفر شركا.

﴿ويغفر مادون ذلك﴾: أى يغفر ماهو أقل خطرًا من الشرك.

وهو المعاصى العملية التى لاتنافى الإيمان كالسرقة والزنا مثلا وعلى ذلك فالكفر وهو أخو الشرك ومساو له لايغفر أيضًا بل صاحبه مخلد فى النار أنظر الآية (٣٩) من سورة البقرة صفحة ٩، والآية (٣٦) من سورة الأعراف صفحة ١٩٧، والآية (٥٥) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٥، والآية (٧٢) من سورة الزمر صفحة ٦١٦، والآية (١٠) من سورة التغابن صفحة ٧٤٦.

﴿يزكون أنفسهم﴾: أصل معنى التزكية تطهير النفس من النفس أنظر الآية (٩) من سورة الشمس صفحة ٨٠٩. والمراد هنا يمدحونها بالباطل.

المعنى: - يبذلون فى سبيل الضلال وهو الكيد للإسلام ويريدون منكم أن تضلوا سبيل الحق لتكونوا مثلهم فلا يخافوكم أنظر الآيات (١٠٩، ١٢٠) من سورة البقرة صفحتى ٢١، ٢٣؛ (٧٢، ١٠٠) من سورة آل عمران صفحتى ٧٢، ٧٩؛

والله أعلم منكم بأعدائكم، وقد أخبركم بعداوة هؤلاء فاحذروهم وحسبكم الله حافظا لكم منهم، وناصرا لكم عليهم.

ومن هؤلاء اليهود قوم وهم أحبارهم يحرفون كلام التوراة مزيلين له عن مواضعه ليضعوا مكانه مايحقق أغراضهم؛ وذلك أنه كان فى التوراة من صفات النبى المنتظر أنه ربعة أى متوسط الطول، ولما جاء ﷺ ووجدوا الوصف منطبقا عليه غيروا الوصف وجعلوه ﴿طويلا﴾ أنظر الآية (٧١) من سورة آل عمران صفحة ٧٤، ويقولون للنبى ﷺ إذا أمرهم بشىء: سمعنا قولك، يظهرون له أنهم صدقوه، ويقولون فى سرهم همسا من بعضهم لبعض وعصينا كما يفعل المستهزئ الجبان، ويقولون أيضًا فى خطابهم له ﷺ «اسمع» ماتقوله «غير مسمع» هذه الكلمة ذات وجهين إذا قالها مُهَذَّب فإنه يريد بها الدعاء للمخاطب أى لاسمعت مكروها.

وإن قالها خبيث كهؤلاء اليهود فإنه يريد الشر أى لا سمعت خيرًا، ويقولون أيضًا: راعنا، يوهمون أنهم يقصدون انتظرنا وهم أن فيك رعونة - حماه الله تعالى منها - يقولون ذلك ليا للكلام وتحويلا له إلى المعنى الخبيث، وطعنا فى الدين بالاستهزاء به، أنظر الآيتين (٥٧، ٥٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٨.

ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا بدل سمعنا وعصينا، واسمع وانظرنا بدل راعنا، لكان خيرا لهم عند الله وأقوم أى أليق بذوى العقول، ولكن أبعدهم الله عن رحمته بسبب كفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا كعبد الله بن سلام وأصحابه لتغلب سلامة فطرتهم على إفساد اليهود أنظر سبب ذلك فى شرح الآية (١٠٠) من سورة البقرة صفحة ١٩.

يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا من القرآن مصدقا لما معكم من التوراة فى إقرار التوحيد الخالص وإثبات نبوة محمد ﷺ وترك الفواحش إلى غير ذلك، أى سارعوا إلى الدخول فى الإسلام من قبل أن نطمس مقاصدكم من الكيد للإسلام والقضاء عليه، ونرد ذوى المقاصد السيئة منكم على أدبارهم أى خاسرين بسبب انتشار الإسلام وانتصار المسلمين، أو نسجل اللعنة وهى الطرد من الرحمة مع الإذلال والخضوع لتحكم الطغاة فيهم. أنظر الآية (٦٥) من سورة البقرة صفحة ١٢.

كما لعنا أصحاب السبت لما اعتدوا فيه كما فى الآية (١٦٦) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٩، ٢٢٠. وكان أمر الله مفعولا أى لايستطيع أحد منع ماأراد، فهو تهديد لهم لعلهم يرجعون ولما كان عملهم هذا من ضمن الإشراك بالله لأنه تكذيب لكتابه ورسوله حذرهم سبحانه من خطر الشرك بقوله: ﴿إن الله لايغفر أن يشرك به﴾ فصاحب الشرك مخلد فى النار، ويغفر كل ذنب أقل منه لمن يشاء من عباده، بأن يوفقهم لكثرة الأعمال الصالحة التى تمحو السيئات كما فى الآية (١١٤) من سورة هود صفحة ٣٠١.

وسبب عدم غفران الشرك أن من يشرك بالله فقد افترى واجترأ فى الكذب على الله عز وجل، وارتكب إثما عظيما فىفُحشِه تصغر بالنسبة إليه جميع الذنوب، لاينفعُهُ شيئًا بل يجلب له سخرية الناس وغضب الله سبحانه، ولما كان من افترائهم على الله ماسجله عليهم فى الآيات (٨٠، ١١١) من سورة البقرة صفحات ١٥، ١٦ ـ ٢٢، (١٨) من سورة المائدة صفحتى ١٣٩، ١٤٠، (٦) من سورة الجمعة صفحة ٧٤١، رد عليهم بقوله: ألم تر إلى الذين يزكون أى يمدحون أنفسهم بالباطل بتأثير الغرور، وتزكية الشخص نفسه بالباطل لاقيمة لها، بل الله هو صاحب التزكية الحقة النافعة.

﴿فتيلا﴾: هو مايكون فى شق نواة التمرة مثل الخيط، وتضرب العرب به المثل للشىء الحقير. ﴿الذين أوتوا نصيبا..إلخ﴾: هم أحبار اليهود. ﴿الجبت﴾: كل ماخضع له الناس من

يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ
يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾
أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ[1] يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ
وَٱلطَّٰغُوتِ[2] وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ
مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ
وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ
مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ
ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ[3] ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ
إِبْرَٰهِيمَ[4] ٱلْكِتَٰبَ[5] وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم[6] مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾
فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ
سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا[7] سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا
كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ[8] جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟

دون الله من شـيطان وسـاحـر وكـاهن.

﴿الطاغوت﴾:

صيغة مبالغة من الطغيان، ويطلق على كل مَنْ تكون طاعـتـه سـبب لـزيادة طغـيـانه من مـخلوق يـعـبـد أو رئيس يطاع فى الباطل انظر الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤.

﴿للذين كفروا﴾: اللام بمعنى (فى) أى فى شأن الذين كفروا. ﴿نقيرا﴾: هو الموضع المنخفض فى ظهر نواة التمرة ومنه تنبت النخلة، وأصل النقير موضع منقار الطائر.

المعنى: . بل العبرة بتزكية الله لمن يشاء لصلاحهم وتقواهم كما فى الآية (٣٢) من سورة النجم صفحتى ٧٠٢، ٧٠٣. لا لأجناسهم ولاينقص أحد من جزاء عمله شيئًا صغيرًا. فالكلام مثل ماتقدم فى الآية (٤٠) من هذه السورة صفحة ١٠٧.

أنظر أيها النبى وتعجب كيف يفترون على الله الكذب بما تقدم بيانه، وكفى بافترائهم هذا إثما ظاهرا لأنه ثبت من قوله سبحانه أنه لايحابى أحدا بدون عمل لأنه من الجنس الفلانى بل أكرم الناس عنده أتقاهم. ولما ذهب كعب بن الأشرف على رأس وفد من علماء اليهود إلى مكة لتحريض المشركين على محاربة المسلمين قال أبو سفيان هؤلاء هم أهل العلم بالكتب الأولى فاسألوهم هل ديننا خير ونحن نخدم بيت الله ونسقى الحجاج ونكرم الضيف ونفك

---

(١) الكتاب. (٢) والطاغوت.
(٣) آتاهم. (٤) إبراهيم.
(٥) الكتاب. (٦) وآتيناهم.
(٧) بآياتنا. (٨) بدلناهم.

المكروب. أو دين محمد وقد ترك دين آبائه فقالت اليهود: دينكم خير من دينه وأنتم أهدى سبيلا ممَنْ آمنوا به.. فنزل فى هؤلاء قوله تعالى: ألم تر وتعجب من ضلال هؤلاء وتضليلهم مع أنهم أعطوا بعضا من التوراة وفيها الحق، يخضعون للشيطان وكل طاغية، ويقولون فى شأن الذين كفروا هؤلاء المشركون أرشد وأقوم من المسلمين طريقا. ولا جرم أشنع من جرم مَنْ يقول إن دين مَنْ يشرك بالله أصوب من دين مَن يؤمن بالله ولذا قال: أولئك اليهود المضللون وهم الذين لعنهم الله عز وجل فلن تجدلهم مَنْ ينصرهم بمنع العذاب عنهم. ولما كان منشأ نقائص اليهود هم البخل والحقد على غير اليهودى، قال ﴿أم لهم نصيب من الملك﴾ المراد ليس لهم حظ من الملك والسلطان. فلو فرضنا أن لهم نصيبا منه فإنهم لايؤتون الناس كافة غير اليهود شيئًا ولو حقيرًا، وهذا من شدة حسدهم وكراهتهم الخير لغيرهم. وإذا كان هذا حالهم فى محقرات الأموال فكيف لايقتلهم الغيظ إذا ظهر من العرب نبى يخضع لسلطانه اليهود. ولهذا وبخهم بقوله ﴿أم يحسدون الناس﴾ أى النبى ﷺ وأصحابه على ماآتاهم الله من فضله من كتاب وحكمه وسلطان؛ انظر الحسد فى الآية (١٠٩) من سورة البقرة صفحة ٢١.

﴿فقد آتينا آل إبراهيم﴾ إلخ.. المراد أنه إذا كان فضل الله فيما مضى قد شمل أجدادهم وأجداد محمد وهم إبراهيم وذريته ﴿إسماعيل وإسحق ويعقوب﴾ فكيف يريدون الآن قصره عليهم، ولا سبب إلا الحسد. والكتاب والحكمة تقدما فى الآية (١٢٩) من سورة البقرة صفحة ٢٥.

وآتيناهم ملكا عظيما كملك يوسف وداود وسليمان، فلا عجب إذا أوتى محمد وأصحابه ملكا أيضًا، فمن اليهود مَن آمن بالتوراة وما فيها من البشارة بمحمد كعبد الله بن سلام وأصحابه، ومنهم مَنْ أعرض عن كتابهم التوراة فلم يخضع له.

وكفى بجهنم سعيرا لهم. ثم فصل كيف يكون هذا العذاب فقال: كلما نضجت جلودهم بالحريق خلقنا لهم جلودا غيرها جديدة ليذوقوا العذاب لأن الإحساس يصل للنفس بواسطة الجلد الذى فيه الحياه فسبحان العليم بأسرار خلقه.

الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ
وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا
الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا
بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا
بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ
إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ
أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ
أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ

﴿مطهرة﴾: تقدم بيانها فى الآية (٢٥) من سورة البقرة صفحة ٦.

﴿ظلا ظليلا﴾: تقدم بيان مثل هذا التركيب فى الآية (١٤) من سورة آل عمران صفحتى ٦٤، ٦٥.

﴿الأمانات﴾: جمع أمانة وهى كل مايؤتمن عليه الإنسان ويتعلق به حق لغيره ويجب حفظه وأداؤه لصاحبه، وهى أنواع ولذا جمعها، فالمال أمانة، والعلم أمانة يجب بذله لكل منتفع به، والتكاليف التى وضعها الله فى ذمة العبد أمانة.

﴿نعما يعظكم به﴾: أى نعم الشىء الذى يعظكم ويأمركم به وهو أداء الأمانات والحكم بالعدل.

﴿أحسن تأويلا﴾: أى مآلا فى الآخرة.

﴿الذين يزعمون أنهم آمنوا﴾: هم منافقوا اليهود.

﴿الطاغوت﴾: تقدم فى الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤.

والآية (٥١) من سورة النساء صفحة ١٠٩.

المعنى: إن الله كان عزيزا أى غالبا لايمنعه أحد عما يريد، حكيما فى حكمه لايسوى بين المؤمن والكافر كما فى الآية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧.

---

(١) الصالحات. (٢) جنات. (٣) الأنهار. (٤) خالدين.
(٥) أزواج. (٦) الأمانات. (٧) تنازعتم. (٨) الطاغوت.

والذين آمنوا وعملوا الصالحات إلخ تقدم تفسيرها فى الآية (٢٥) من سورة البقرة صفحة ٦؛ وقوله وندخلهم ظلا ظليلا تفصيل لبعض ماتقدم فى قوله سندخلهم جنات نظير مافى الآية (٥٨) من سورة هود، وقال بعضهم هو إدخال غير الأول، فهو كناية عن نعيم الروح بعد ذكر نعيم الجسد من قولهم فلان يعيش فى ظل فلان، أى فى عِزِّه وعطفه، وهذا النعيم هو الرضوان الأكبر المذكور فى (٧٢) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣، ظلا ظليلا أى وارفا انظر تفسير هذا التركيب فى الآية (١٤) من سورة آل عمران صفحتى ٦٤، ٦٥ والكلام جرى على مايعهده العرب من أن هذا يفيد التنعم الكامل وإلا فليس هناك شمس لها حر يتقى، وبعد مابين أن اليهود خانوا أمانة الله فى كتمانهم مافى التوراة من صفته ﷺ وطاعتهم للطواغيت، أراد سبحانه أن يحذر المسلمين من سلوك طريقهم حتى لا يلحقهم غضبه سبحانه فقال: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ والأمانة كما تكون بين الإنسان وربه ككل النعم التى وهبها الله تعالى له فإنه يجب على الإنسان صرفها فيما يرضى الله تعالى، وكذلك تكون بين المرء وأخيه الإنسان كالودائع والعلم. ولما فى أداء الأمانة من المزايا العظيمة شدد سبحانه فى المحافظة عليها، انظر الآية (٢٨٣) من سورة البقرة صفحة ٦١. والآية (٢٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٠، والآية (٨) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦.. إلى غير ذلك، وإذا حكمتم بين الناس مطلقا ولو كفارًا ولذا لم يقل بين المسلمين لأن العدل مطلق دائمًا ، فاحكموا بالعدل، وهو لايقتصر على القضاء بين المتخاصمين، بل يشمل تصرف الوالى، وكل رئيس مع مرؤسيه؛ انظر الآية (١٣٥) الآتية صفحتى ١٢٥، ١٢٦ والآية (٨) من سورة المائدة صفحة ١٣٧؛ ونعم العدل وأداء الأمانة شيئا يعظكم ويوصيكم الله به، فاحترسوا من مخالفة أمره، لأنه سميع لأقوالكم، بصير بأعمالكم ونياتكم. يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله فيما أمر به ونهى عنه فى القرآن، وأطيعوا الرسول فيما بين به القرآن ككيفية الصلاة والحج ومقادير الزكاة وغير ذلك، وأطيعوا أولى الأمر بشرط أن يكونوا منكم أى مسلمين، وأولو الأمر الذين يجب طاعتهم هم الجماعة التى يكل إليها المسلمون تصريف شئونهم من العلماء والحكام وقواد الجند والمفكرين الذين يرجع إليهم الناس فى المصالح العامة، فهؤلاء إذا اتفقوا على أمر ليس فيه نص صريح صحيح عن الشارع يخالفه وكانوا مختارين فى إبداء رأيهم وجبت طاعتهم شرعا، وإن اختلف

وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم
مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ
أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ
مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ
قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ
ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا ٱللَّهَ
وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا
وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا
كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا مِن دِيَٰرِكُم

أولو الأمر فى شىء فردوه إلى الله والرسول. وطريقة الرد أن يختار أولو الأمر من بينهم أو مع ضم غيرهم ممن هم أهل خبرة بالكتاب والسنة ومقاصد الشريعة وعلل الأحكام التى يصح القياس عليها، فيعرضوا الأمر على تلك القواعد فما وافقها أخذوا به، انظر الآية (٨٣) الآتية صفحة ١١٥ فإنها تدل على أن الخبراء بالكتاب والسنة هم بعض أولى الأمر كلهم، حيث جعل الاستنباط لبعضهم لا للجميع، إن كنتم تؤمنون بالله لأن المؤمن لايخالف ربه، واليوم الآخر فتخافون شدائده. ذلك الرد إلى الكتاب والسنة خير لكم فى الدنيا وأحسن مآلا فى الآخرة. ثم شرع سبحانه فى بيان طائفة من اليهود وهم المنافقون منهم فقال: ألم تر أيها النبى وتعجب إلى الذين يزعمون كذبا أنهم آمنوا بما أنزل من القرآن وما أنزل من قبلك هى التوراة، ثم بعد ذلك يريدون أن يتحاكموا إلى الكاهن ولى الشيطان، مع أنهم أمروا فى الكتب التى يزعمون أنهم آمنوا بها أن يكفروا به، انظر الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤. والآية (٣٦) من سورة النحل صفحة ٣٥٠، وبيان ذلك يأتى فيما بعد.

﴿إلا ليطاع﴾: اللام فى ﴿ليطاع﴾ تسمى لام الحكمة أى الحكمة المقتضية لإرسال الرسل هى أن يطيعهم المرسل إليهم فيحصل صلاح الخلق ومثلها فى الآية (١) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩ والآية (٥٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ ﴿شجر بينهم﴾: نشأ واختلط عليهم.

المعنى: كان رجال من يهود قريظة والنضير دخلوا فى الإسلام ونافق بعضهم وأخلص بعضهم، وحصلت بينهم خصومة فى قتيل، وكان أبو برزة الأسلمى من كهان اليهود يقضى بينهم

---

(١) الشيطان. (٢) ضلالاً. (٣) المنافقين. (٤) أصابتهم. (٥) إحسانا. (٦) دياركم.

فى المنازعات، وكان لايتعفف عن الرشوة، فرغب المنافقون من اليهود فى التحاكم إليه لضعف حجتهم، وأراد المخلصون فى إسلامهم التحاكم إلى النبى ﷺ، وعارض الفريق الأول، فأنزل الله هذه الآيات ﴿ألم تر إلى الذين يزعـمـون﴾ إلخ. ويريد الشيطان من الإنس والجن أن يبعدهم عن الحق مسافات بعيدة يعسر عليهم معها الرجوع إلى الحق، ثم صرح بما فهم ضمنا من نفاقهم فقال: وإذا قيل لهم أى لهؤلاء المنافقين تعالوا نتحاكم إلى ما أنزل الله فى القرآن من الأحكام، وإلى الرسول ليحكم بيننا بما آراه الله تعالى، رأيتهم وصرح بصفتهم ليشعر بعلة الإعراض وهى النفاق، يعرضون عن التحاكم إليك إعراضا متعمدا خوفا من تمسكك بالحق فتضيع شهوتهم الباطلة.

ثم بين سبحانه وتعالى اضطرابهم وجهلهم حيث ظنوا أنهم يستطيعون التغرير به ﷺ فقال: فكيف يكون حالهم إذا أصابتهم مصيبة من المصائب التى لابد أن يقع فيها المنافق فتفضحه بسبب تحاكمهم إلى الطاغوت وإعراضهم عن حكم الله جاءوك للاعتذار حال كونهم يحلفون بالله زاعمين أن الحلف يخفى خبثهم: ماأردنا بتحاكمنا إلى غيرك إلا إحسانا فى المعاملة مع الناس، وتوفيقا بالصلح والتراضى، أولئك المنافقون وهم الذين يعلم الله مافى قلوبهم، فأعرض أيها النبى عنهم ولاتقبل عليهم ببشاشة ولا تكريم، وعظهم ببيان سوء حالهم إذا هم أصروا، وقل لهم فى السر فإنه يؤثر فى النفس مالا يؤثر الجهر أمام الناس قولا يغوص فى نفوسهم ويبلغ غاية مايراد منه. ثم بين سبحانه أنهم أَخطَأُوا الطريق لإهمالهم المسارعة إلى التوبة حيث عولوا على الاعتذار الباطل فقال: وما أرسلنا رسولا من الرسل السابقين إلا ليطاع فيما يأمر به مما فيه مصلحة الجميع بأذن الله أى بأمره تعالى للناس المنزل إليهم أن يطيعوه، ولو أنهم حين ظلموا أنفسهم بالنفاق والتحاكم لغيرك جاءوك عقب المعصية بلا إبطاء فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول مما أهانوه به من الإعراض عنه والتحاكم إلى غيره لوجدوا الله كثير قبول التوبة رحيما بعباده، ولكنهم لم يفعلوا هذا ظانين أن تمويههم الباطل ينجيهم ﴿فلا﴾ أى فليس الأمر كما يظنون وحق ربك لايؤمنون إيمانا ينجيهم إلا بثلاثة شروط: الأول أن يحكموك فيما شجر بينهم من خلاف أى يقبلوك حكما فيما نشأ وصعب حله بينهم من مشاكل، والثانى: ألا يجدوا فى قرارة أنفسهم ضيقا مما قضيت به، والثالث: أن يسلموا، أى ينقادوا لحكمك انقيادا تاما لاتلكؤ فيه. ولما فرغ سبحانه من بيان طريق التوبة السهل الميسر أراد أن يبين كيف

ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به
لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا (٦٦) وإذا [١]لآتيناهم من
لدنا أجرا عظيما (٦٧) [٢]ولهديناهم [٣]صراطا مستقيما (٦٨)
ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله
عليهم من [٤]النبيين والصديقين والشهداء [٥]والصالحين
وحسن أولئك رفيقا (٦٩) ذلك الفضل من الله
وكفى بالله عليما (٧٠) يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم
فانفروا ثبات أو انفروا جميعا (٧١) وإن منكم لمن
ليبطئن فإن [٦]أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم
أكن معهم شهيدا (٧٢) ولئن [٧]أصابكم فضل من الله
ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة [٨]يا ليتني كنت
معهم فأفوز فوزا عظيما (٧٣) * [٩]فليقاتل في سبيل الله

يكون حالهم لو اشترط في توبتهم ماكان شرطه على الأمم السابقة فقال: ولو أنا فرضنا وأوجبنا عليهم أي على أمتك أيها النبي إذا أذنبوا وأرادوا التوبة أن اقتلوا أنفسكم كما فعلنا مع بني اسرائيل قبلهم، انظر الآية (٥٤) من سورة البقرة صفحة ١١، أو كتبنا عليهم أخف من القتل وهو الخروج من الديار بالهجرة فرارًا بالدين.

﴿أشدَّ تثبيتًا﴾: أقرب إلى ثبات إيمانهم.

﴿خذوا حذركم﴾: خذوا سلاحكم أي تيقظوا لعدوكم.

﴿فانفروا﴾: أي سارعوا لقتال العدو إذا تعدى عليكم.

﴿ثبات﴾: جمع ثُبَة بضم ففتح وهي الجماعة المتميزة عن غيرها ﴿وإن منكم لَمَنْ ليبطئن﴾: من بطأ المشدد بمعنى أبطأ، أي يتثاقل ويتأخرن.. ويلاحظ أن في هذه الجملة ثلاث تأكيدات لجريمة المنافقين هذه. ﴿شهيدًا﴾: حاضرًا المعنى: ـ لو أوجبنا عليهم قتل أنفسهم أو خروجهم من ديارهم مافعلوه إلا قليل منهم وهم مَنْ صدقوا في إيمانهم وهم قليل في كل أمة، انظر الآية (١٠٣) من سورة يوسف صفحة (٣١٨)، ولو أنهم فعلوا مايوعظون به من طاعة الرسول والمسارعة إلى الاستغفار لكان خيرًا لهم في الدنيا والآخرة وأشد تثبيتا لإيمانهم؛ لأن كثرة الطاعات تقوي الإيمان، وإذن لو فعلوا ماطلب منهم وقوي إيمانهم لأعطيناهم من عندنا أجرا عظيما ـ السعادة في الدنيا والجنة في الآخرة ـ بسبب مازدنا في هدايتهم وتوفيقهم إلى

---

(١) لآتيناهم. (٢) ولهديناهم. (٣) صراطا. (٤) النبيين. (٥) والصالحين.
(٦) أصابتكم. (٧) أصابكم. (٨) ياليتني. (٩) فليقاتل.

صراط مستقيم وهو المبين فى سورة الفاتحة... ثم أشار إلى أصحاب الصراط المستقيم فقال: ومن يطع الله والرسول فى كل ما أمرا به، فأولئك يكونون مع الذين أنعم الله عليهم بما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، وهم أربع درجات: النبيون.. وهم أعلاهم .. والصديقون وهم الذين بالغوا فى التصديق حتى وصلوا أعلى درجاته وأشرفت بصائرهم حتى صاروا يعرفون الحق من الباطل من أول نظرة، والشهداء جمع شهيد بمعنى شاهد وهم القائمون بالعدل.. الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر المشار إليهم فى الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨.

والآية (١٨) من سورة آل عمران صفحة ٦٥.

والرابعة الصالحون وهم الذين صلحت نفوسهم وأعمالهم ولم يبلغوا أن يكونوا حججا ظاهرين حتى يشهدوا على غيرهم كالذين قبلهم وما أحسن هؤلاء رفقاء، فهذا مدح من الله عز وجل دونه كل مدح من الخلق. ذلك الجزاء لمن أطاعه هو الفضل الكامل لأنه من الله ذى الفضل العظيم، وكفى بالله عليما بعباده، فلا يغيب عنه شىء من أعمالهم ونياتهم. وبعد مابيَّن سبحانه مابه صلاح المؤمنين فى الداخل من العدل وعدم الشرك شرع فى بيان مابه أمنهم فى الخارج فقال: يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم، أى احذروا عدوكم، واستعدوا لدفع كيده دائما، انظر الآية (٦٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٦، فسارعوا لصد العدو جماعة بعد جماعة حسبما يقتضى نظام الحرب، وانفروا جميعا إذا هجم العدو على دياركم، وعند ذلك يجب على كل مسلم أن يحارب. وهذا يقتضى أن تكون الأمة كلها على استعداد للحرب كل فيما يصلح له. وإن منكم ياجميع المسلمين فيشمل المنافقين وضعاف الإيمان والجبناء لفريقا وعزتى ليبطئن أى ليتبطأ عن الجهاد لنفاقه ولا يحضر فإذا أصابتكم مصيبة بقتل أو هزيمة قال قد أنعم الله علىَّ لأنى لم أكن حاضرًا معهم، ومن فظاعة جرمه أنه يعد مايغضب الله نعمة. ولئن أصابكم فضل من الله كغنيمة مثلا ليقولن ندما على تأخره وتهالكا على الدنيا: ياليتنى كنت معهم فى المعركة فأفوز بالغنيمة كما فازوا، يقول ذلك كأنه لم يكن بينكم وبينه مودة ولا تعارف، أى يقول قول العدو. ومن جهلهم أنهم عدوا الفوز بحطام الدنيا الفانى فوزًا عظيمًا، فاتركوا هؤلاء جانبًا، وليقاتل فى سبيل الله....

ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾
وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ
ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ
هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا
وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ
فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾
أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ
يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ
كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ

﴿يشرون﴾ : يبيعون.. قيل فى كتاب لسان العرب: للعرب فى كلمتى (شروه) و(اشتروه) مذهبان. فالأكثر منهما أن تكون لفظ شروه بمعنى باعوه... واشتروه بمعنى ابتاعوه.. وربما جعلوهما بمعنى واحد.

وقيل فى المختار.. شرى فلان الشىء إذا باعه، وإذا اشتراه أيضًا فهو من الأضداد وقال الراغب ﴿شريت﴾ بمعنى بعت أكثر استعمالاً عند العرب ومن هذا يتبين أن الأكثر فى شرى وباع تقديم الشىء وأخذ الثمن والقليل العكس.

وأن اشترى وابتاع الأكثر فيهما تقديم الثمن وأخذ الشىء ولهذا لم تأت شرى فى القرآن إلا بمعنى باع، وذلك فى أربعة مواضع فى الآية (١٠٢) من سورة البقرة صفحة ٢٠. والآية (٢٠٧) من سورة البقرة صفحتى ٤٠، ٤١ والآية (٧٤) التى هنا فى هذه السورة والآية (٢٠) من سورة يوسف صفحة ٣٠٥ .. لكنها جاءت فى كلام العرب قليلاً بمعنى ﴿اشترى﴾ كما فى قول عنترة العبسى.

حصانى كان دلال المنايا .. فخاض غمارها وشرى وباعا

و﴿اشترى﴾ جاء فى القرآن بالمعنيين إلا أنها بمعنى أخذ الشىء ودفع الثمن أكثر، فبمعنى باع لم يأت إلا مرة واحدة بينما جاء بالمعنى الأول فى (١٩) موضعا... الأول ـ الآية (١٦) من سورة البقرة صفحة ٥ الثانى ـ الآية (٤١) من سورة البقرة صفحة ٩.... والثالث ـ الآية (٧٩) من سورة البقرة صفحة ١٥ .. الرابع ـ الآية (٨٦) من سورة البقرة صفحة ١٧.. الخامس ـ الآية (١٠٢) من سورة البقرة صفحة ٢٠..

---

(١) الحياة. (٢) يقاتل. (٣) تقاتلون. (٤) والولدان. (٥، ٦) يقاتلون.
(٧) الطاغوت. (٨) فقاتلوا. (٩، ١٠) الشيطان. (١١) الصلاة. (١٢) الزكاة. (١٣) متاع.

السادس ـ الآية (١٧٤) من سورة البقرة صفحة ٣٢..

السابع ـ الآية (١٧٥) من سورة البقرة صفحة ٣٣..

الثامن ـ الآية (٧٧) من سورة آل عمران صفحة ٧٥..

التاسع ـ الآية (١٧٧) من سورة آل عمران صفحة ٩٢..

العاشر ـ الآية (١٨٧) من سورة آل عمران صفحة ٩٤..

الحادى عشر ـ الآية (١٨٧) من سورة آل عمران صفحة ٩٤..

الثانى عشر ـ الآية (١٩٩) من سورة آل عمران صفحة ٩٦..

الثالث عشر ـ الآية (٤٤) من سورة آل عمران صفحتى ١٠٧ ـ ١٠٨..

الرابع عشر ـ الآية (٤٤) من سورة المائدة صفحة ١٤٥..

الخامس عشر ـ الآية (١٠٦) من سورة المائدة صفحة ١٥٨..

السادس عشر ـ الآية (٩) من سورة التوبة صفحة ٢٤١..

السابع عشر ـ الآية (٢١) من سورة يوسف صفحة ٣٠٥..

الثامن عشر ـ الآية (٩٥) من سورة النحل صفحة ٣٥٩..

التاسع عشر ـ الآية (٦) من سورة النحل صفحة ٥٣٩..

أما المرة التى جاء فيها بمعنى باع فهى الآية (٩٠) من سورة البقرة صفحة ١٨.. فاحفظ هذا واستصحبه معك فى كل المواطن.

﴿القرية الظالم أهلها﴾: هى مكة لما كانت تحت سيطرة المشركين.

﴿الطاغوت﴾: تقدم شرحها فى الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤ والآية (٥١) من سورة النساء صفحة ١٠٩..

المعنى: ـ فليقاتل فى سبيل الله الذين يبيعون متاع الحياة الدنيا ويأخذون بدله نعيم الآخرة. ثم بيَّن سبحانه أن المقاتل فى سبيله قد استحق الأجر سواء انتصر أو انكسر فقال: مَنْ يقاتل فى سبيل الله فيقتله العدو أو يقتل هو العدو فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا، ثم حث المتباطئين

فقال: ومالكم إلخ، أى ماذا ثبت لكم من الأعذار حتى تتركوا الجهاد فى سبيل الله، وفى سبيل إنقاذ المساكين الضعفاء المحصورين بمكة من الرجال الذين لايستطيعون الهجرة، والنساء والولدان الذين لايملكون حيلة للخلاص، وقد كان الكفار يعذبونهم لإرغام أهلهم الذين اسلموا وهاجروا إلى المدينة على العودة إلى مكة: هؤلاء الضعفاء الذين يقولون داعين الله: ياربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها بالشرك، وتعذيب مَنْ يسلم. وهو أشد من القتل كما فى الآية (١٩١) من سورة البقرة صفحة ٣٧.. واجعل لنا من عندك وليا يتولى أمورنا حتى تخلصنا من الظلم، واجعل لنا نصيرا ينصرنا عليهم ويسهل لنا الخلاص. وقد استجاب الله لهم فيسر لبعضهم الهجرة، وجعل لِمَنْ بقى منهم خير ولى وأعز نصير، وهو نبيه ﷺ حيث مكنه من فتح مكة فأصبح ﷺ ولى هؤلاء الضعفاء، وأصبحوا به أقوياء. ثم أعاد الترغيب فى القتال لدفع الشر مع مقابلته بضده وهو القتال فى سبيل الشيطان فقال الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله وهو سبيل الخير والمصلحة والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطغيان والكفر، فإذا لم يقاتل المؤمنون الطغاة فسدت الأرض، انظر الآية (٢٥١) من سورة البقرة صفحة ٥٢.. وإذا كان الأمر كذلك فقاتلوا أولياء الشيطان ولا تخافوا لأن كيد الشيطان لاعدائه ضعيف لأنه باطل، والباطل لايقف أمام الحق إذا وجد الحق أنصارا، لأن الله فى جانب من يدافع عن الحق. وبعد ما حذر سبحانه من المثبطين وحث على القتال فى سبيله شرع فى ذكر شأن آخر من شئون العرب قبل الإسلام وبعده؛ وذلك أن العرب كانوا قبل الإسلام فى تخاصم وحروب مستمرة، ولاسيما بين الأوس والخزرج، ولما جاء الإسلام وأمرهم بالسلم وتهذيب النفوس بالصلاة والزكاة والكف عن العدوان، ورغب فى التسامح حتى رقت طبائعهم، ولما اشتد إيذاء المشركين للضعفاء من المسلمين فى مكة كما تقدم ودعت الضرورة للقتال، ودعاهم ﷺ إليه، كرهه بعضهم، فنزل قوله: ألم تر أيها النبى وتعجب من هؤلاء الذين كانوا بالأمس يسارعون إلى سفك الدماء البريئة لأوهى الأسباب، لما دعاهم الله إلى الدفاع المشروع لدفع الظلم إذا فريق منهم وهو فريق ضعاف الإيمان الجهلة بالصواب يخافون بأس الناس من الكفار كما يخشون الله بل أشد، لأنهم رجحوا جانب خشية الكافر وقالوا تمنيا لعدمه: ربنا لم أوجبت علينا القتال فى هذا الوقت المبكر فهلا أخرتنا وزدت فى مدة الكف عن القتال إلى أجل قريب هو أجل موتنا العادى؟ ووصفوه بالقرب إجابة الرجاء، فقال سبحانه: قل لهم أيها النبى تزهيداً لهم فيما يرجونه من متاع زائل: متاع الدنيا هو كل مايتمتع به الإنسان فيها...

الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾
أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ
مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ
وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ
مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ
مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ(١) لِلنَّاسِ رَسُولًا
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ
وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ(٢) عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ
فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ
وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ

﴿فتيلا﴾: هو ما يكون فى شق النواة مثل الخيط. ﴿بروج﴾: قصور كبيرة. ﴿مشيدة﴾: مرتفعة يصعب الوصول إليها .

المعنى: - كل نعيم الدنيا قليل بل لاشى إذا قيس بما عند الله فى دار النعيم الخالد. وثواب الآخرة الحاصل بالطاعات خير من هذا المتاع القليل لمن اتقى الله تعالى ولم يعصه، ولا يظلم ربك أحدا من جزاء عمله مقدار فتيل، وقد تقدم شرحها فى الآية (٤٩) من هذه السورة صفحتى ١٠٨، ١٠٩ ثم أخبر سبحانه هؤلاء الذين يخافون القتال بأن الحذر لايمنع القدر فقال: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ إلخ: أى فى أى مكان توجدون فيه فى حضر أو سفر يلحقكم الموت إذا جاء أجله ولو كنتم فى قصور حصينة. ثم شرع سبحانه فى بيان نوع آخر من دسائس المنافقين وخبثاء اليهود، وذلك أنه حبا منهم فى صرف الناس عنه ﷺ كانوا إذا أصابتهم مصيبة من هزيمة أو قحط يشيعون بين ضعاف العقول والإيمان أن سبب هذه المصائب هو شؤم محمد، وإذا أصابهم رخاء ونعمة قالوا إنها من فضل الله ورضاه عنهم. ففضح الله هذا الدس مبينا حقيقة الأمر بقوله: ﴿وإن تصبهم حسنة﴾ إلخ ثم رد عليهم بقوله: ﴿قل لهم- أيها النبى - كل من الحسنة والسيئة من عند الله، أى أنه هو تعالى واضع أسباب كل منهما، فيعطى الخير لمستحقه، ويعاقب بالنقم مَنْ تسبب فيها، ولا دخل لمحمد فيها. انظر الآيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧.

توضح شيئًا من هذا. ولما كان هذا شأنه تعالى قبل مجىء محمد وبعده قال تسفيها لهم: ﴿فما لهؤلاء القوم﴾ إلخ أى ماذا أصاب عقول هؤلاء حتى صاروا كالبهائم التى لاتفهم مايلقى إليها، وإلا فماذا يقولون فى المصائب التى حلت بهم قبل بعثة محمد؟ وبعد ما أبطل دسهم

(١، ٢) أرسلناك.

شرع فى بيان الأمر فى ذاته فقال: ﴿ما أصابك﴾ أيها المكلف﴿من حسنة﴾وخير﴿فمن الله﴾لأنه معطيك أسبابها، وماأصابك من سيئة فمن الله لأنه معطيك أسبابها﴿وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ لأنك أنت صرفت ما أعطاك من نعم فى طريق الشر فاستجلبت النقم، فإذا أعطاك الله العقل وصرفته فى كيفية سرقة أموال الناس، أوأعطاك المال فصرفته فى الخمر والميسر فمآلك الخسران، أما إذا صرفت عقلك فى تحصيل أسباب السعادة لك والناس، والمال للفقراء والمصالح العامة فجزاؤك من الله فى الدنيا السعادة وفى الآخرة النعيم الدائم. ولما كان الله سبحانه وتعالى هو المعطى لهذه العقول والأموال وسائر الجوارح التى بها يكتسب الخير والشر، صح أن نقول أن كل مانالنا من خير فهو من الله لأنه لولا عطاؤه سبحانه مانلنا الخير الكثير بها، ولما كنا نحن الذين حوّلنا هذه النعم من العقل والمال وغيرهما للشر صح أن يقال إن ما أصابنا من مصيبة هو من أنفسنا لأننا نحن الذين أسأنا استعمال هذه النعم ولا دخل لأحد فيما حل بنا، أنظر ماتقدم فى غزوة أحد فى الآية (١٥٢) من سورة آل عمران صفحة ٨٧.

وأرسلناك أيها النبى رسولا سببا للرحمة لاسبب نقمة حتى يتشاءموا بك انظر الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٢.

وكفى بالله شهيدا، أى يكفيك شهادة ربك العدل الحكيم، فلا قيمة لقولهم الباطل. وإذا ثبت أنك رسول الله فمَنْ أطاعك فقد أطاع الله، ومَنْ أعرض عن طاعتك فلا تحاول أن تكرهه، لأنا لم نرسلك مهيمنا ومسيطرًا عليهم تجبرهم على الخير وتحاسبهم، لأن هذا من شأن الله وحده. ثم ذكر بعض التوائهم فقال: ويقولون أى هؤلاء المنافقون للنبى ﷺ إذا أمرهم بشيء: أمرك طاعة أى مطاع فإذا خرجوا من عندك دبر طائفة منهم وهم أساس الفتنة فيهم غير ما أمرتهم به، فلا تجزع لأن الله تعالى يعلم مايدبرون، وسيكفيك شرهم، فلا تتصد للانتقام منهم، وفوض أمرك إليه تعالى، وهو حسبك وكيلا عنك. أفلا يتأمل هؤلاء القرآن فيعلمون أنك صادق لأنه كلام الله الحق، إذ لو كان من عند غيره تعالى...

مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ
أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى
ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ
مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ
وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ
شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً
سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ
لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ

﴿يستنبطونه﴾: أى يستخرجون خفاياه.

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا﴾: قال السدى والضحاك والجُبّائى: المعنى: ولولا فضل الله عليكم بإرسال النبى ﷺ ورحمته بإنزال القرآن لاتبعتم الشيطان كلكم وبقيتم على الكفر والضلال إلا قليلا منكم. وهم الذين تفضل الله عليهم بالعقل الراجح. فاهتدوا به إلى طريق الحق. فسلموا من مهاوى الضلال. وعصموا من متابعة الشيطان بدون إرسال رسول وإنزال كتاب. كقس بن ساعدة وزيد بن عمر بن نفيل، وأضرابهم. وفى كثير من غير العرب أمثالهم. وبهذا التفسير لايرد مايقال من أنك إذا قلت لمن تذكره بحقك عليه: لولا مساعدتى لك لضاع مالك إلا قليلا. فإنك لم تجعل لمساعدتك فضلا فى بقاء القليل من المال للمخاطب. وإنما ذكرته بفضلك عليه فى بقاء أكثر ماله. لا فى كله. لايرد هذا هنا لأن الفضل المقدر نفيه المستتبع لاتباع الشيطان إنما هو فضل مخصوص وهو فضل إرسال الرسول وإنزال الكتاب. وهذا لا ينافى أن لله فضلاً آخر على هؤلاء الذين لايحتاجون إلى الرسول والكتاب. وهو فضل هبة العقل الراجح.

والتوفيق للانتفاع به فى البعد عن الشرك وما فيه إضرار بالغير أو فساد فى الأرض. وهؤلاء قليل جدا فى كل عصر. وماجاءت الشرائع بل والقوانين إلا لأغلب الأمة. لأن النادر لا حكم له كما قالوا. وقال أبو مسلم الأصفهانى: المعنى لولا فضل الله عليكم ورحمته بالنصر على أعدائكم والمعونة مرة بعد أخرى لاتبعتم الشيطان فيما يوسوس به إليكم من الخواطر الفاسدة المؤدية إلى الجبن، والفشل، والضلال إلا قليلا وهم أهل البصائر النيّره. والعزائم

---

(١) اختلافا. (٢) الشيطان. (٣) فقاتل. (٤، ٥) شفاعة. (٦) القيامة.

القوية من أفاضل المؤمنين الذين يعلمون أنه ليس من شرط كون الدين حقا حصول الدولة والغلبة فى الدنيا.

ولا من شرط كونه باطلا حصول الانكسار له، بل مدار الأمر فى كونه حقا أو باطلا على الدليل وحده، ونظير هذا ما فى الآية (٣٣) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠.

﴿لاتكلف إلا نفسك﴾: أى لايكلفك الله إلا فعل نفسك ولم يكلفك أن تهدى غيرك إنما عليك البلاغ فقط.

﴿بأسا﴾: الحرب الشديدة. ﴿أشد تنكيلا﴾: تعذيبا شديدا.

﴿كفل﴾: نصيب. ﴿مقيتا﴾: رقيبا ومهيمنا، وأصلها من قاته يقوت أى حافظ على حياته بما يقوته، ويلزم من ذلك أن يكون رقيبا عليه.

المعنى: لو كان القرآن من صنع غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرًا فى نظامه وفى أخباره، ومنها ما أخبر به عما يبيتون وما تكنه ضمائرهم، وقد أخبر عن غيب ماض ما كان يعلمه أحد، انظر الآيات (٤٤) من سورة آل عمران صفحة ٧٠، (١٠٢) من سورة يوسف صفحة ٣١٨، (٤٤) من سورة القصص صفحة ٥١٣؛ وعن مستقبل مثل ما فى أول سورة الروم صفحتى ٥٣٠، ٥٣١. ومع طول الزمن لم يوجد ما يخالفه، وأخبر أنه خاتم النبيين وكان أنبياء بنى اسرائيل يتلو بعضهم بعضا، ومع مضى هذا الزمن الطويل لم يأت نبى، إلى غير ذلك مما لا يعد. وحيث إن هذا القرآن صادق فى كل ما أخبر به فيجب أن يؤمنوا برسالته ﷺ ولايعملوا معه هذا العمل الشنيع. ثم ذكر نوعا آخر من جناياتهم فقال: وإذا جاء هؤلاء المنافقين وأمثالهم من ضعاف العقول من المسلمين خبر أمر حصل لجيوش المسلمين من الأمن والخوف، وكان هؤلاء أذاعوه وتحدثوا به، ولوسكتوا وأرجعوا الخبر إلى الرسول أو أولى الأمر أصحاب الخبرة المتقدم بيانهم فى شرح الآية (٥٩) من هذه السورة صفحة ١١٠ لعلم حقيقة الخبر، والمراد منه الذين يعرفون خباياه من أولى الأمر الذين يميزون بين مايصلح أن يقال وما لايقال، وهذا هو المعروف فى عهدنا بالرقابة على أخبار الحرب. ولولا فضل الله عليكم بالقرآن الذى فيه أسباب سعادتكم، ورحمته بإرسال رسول يبين لكم ما فيه مصلحتكم لاتبعتم

الشيطان فى طريق الفساد إلا قليلا، وهم الذين تفضل الله عليهم بفضل آخر هو سلامة الفطرة وصفاء العقول، فعرفوا الخير من الشر كقس بن ساعدة وورقة بن نوفل الذين كانوا يؤمنون بالله وبالبعث قبل بعثته ﷺ فقاتل أنت أيها النبى ومن أطاعك لايكلفك الله إلا فعل نفسك، فإن فعلت فلا يضرك تخلف غيرك، وحرض المؤمنين أى حثهم على القتال ورغبهم فيه لعل الله أن يكف عنك بطش الكافرين وشدتهم، لأنه سبحانه أشد منهم بأسا وأشد منهم تعذيبا.

ولما كانت الشفاعة هى التوسط بالقول فى وصول منفعة للغير، وكان تحريضه ﷺ على القتال فيه وصول خير لمن يحرضهم إذا فعلوا، ولما كان تثبيط المنافقين عن القتال توسطا بالقول فى شر قال سبحانه: ﴿من يشفع شفاعة حسنة﴾، وهى ماكانت فى أمر مشروع، وهى تعم الحث على الخير، والدعاء للمسلم، والكلمة الطيبة فى الصلح بين الناس يكن له نصيب منها؛ شاع استعمال النصيب فى الثواب المضاعف وهو هنا كذلك لأن الحسنة بعشر أمثالها. ﴿ومن يشفع شفاعة سيئة﴾، وهى الكلام الموصل لضرر الغير، ومنه تثبيط المؤمنين عن الجهاد وتخويفهم بإذاعة الأخبار السيئة، يكن له كفل منها.

كثر استعمال الكفل فى المثل المساوى وهو هنا كذلك لأن السيئة بمثلها، والله سبحانه رقيب على أعمال العباد يعطى الشافع نصيبا من شفاعته على قدر نيته، ثم رغب سبحانه فى فرد من أفراد الشفاعة الحسنة فقال: ﴿وإذا حييتم﴾ إلخ لأن التحية فى الإسلام هى شفاعة من المسلم لأخيه عند الله بالدعاء له بالأمان من الخوف، وهى بلفظ السلام كما فى الآية (٦١) من سورة النور صفحتى ٤٦٨، ٤٦٩؛ والآية (٤٤) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٦؛ بأحسن منها.

فإذا قال البادئ: السلام عليكم.. يقول الراد: وعليكم السلام ورحمة الله، وهكذا يزاد عليه ما أمكن.. أو ردوها أى أجيبوا بمثلها والأفضل الأول، وقد صح عن بعض السلف أنه رد تحية النصرانى بقوله: وعليكم السلام ورحمة الله، فقيل له فى ذلك، فقال:أليس فى رحمة الله يعيش. ﴿إن الله كان على كل شىء حسيبا﴾ أى رقيبا، فاحذروا مخالفة تعاليمه لأنه لاإله إلا هو، لايُرْجَى خير من غيره، وليجمعنكم ويحشرنكم لحساب يوم القيامة الذى لاشك فى وقوعه فيجازيكم، ولا أحد أصدق منه.

مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ[1] فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ
أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ
وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ
كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ
يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ
حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾
إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ[2]
أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ[3] أَوْ يُقَاتِلُوا[4]
قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ[5] ۚ فَإِنِ
اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ[6] وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ
اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ
أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ

﴿فئتين﴾: فريقين. ﴿أركسهم﴾: نكسهم وردهم إلى كفرهم؛ ركس الشيء وأركسه قلبه على رأسه والمراد هنا قلب معنوى وهو رجوعهم إلى الغدر والشرك الظاهر ﴿ودوا﴾: أحبوا وتمنوا. ﴿أولياء﴾: أخلاء أصفياء. ﴿ميثاق﴾: عهد.

﴿حصرت صدورهم﴾: ضاقت.

﴿السلم﴾: المسالمة والصلح. ﴿كلما ردوا﴾: المراد كلما دعاهم المشركون إلى الكفر وعبادة الأصنام. ﴿الفتنة﴾: المراد بها الكفر والوثنية.

المعنى: لا أحد أصدق من الله حديثا، وقد أخبركم بوعده لما أطاع بالجنة، ووعيده لمن عصى بالنار، وكان يوجد بمكة فريق من المشركين ينافقون نفاقا من نوع آخر هو نفاق الولاء للمسلمين كذبا خوفا منهم إذا انتصروا فى النهاية فلا يعاملونهم بالشدة التى يعاملون بها الكفار المعاندين، وفى الوقت نفسه كانت ميولهم مع المشركين يفرحون بانتصارهم على المؤمنين، وكان المؤمنون فى المدينة بالنسبة لهؤلاء فريقين: فريق يرى أن يعدوا من الأولياء والأنصار فيستعان بهم على المشركين لأنهم كانوا يجهلون حقيقتهم، وفريق يرى أن يعاملوا معاملة المشركين المعادين، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿فمالكم فى المنافقين﴾إلخ؛ أى: أى شيء ثبت لكم فى شأن معاملة المنافقين حتى تتفرقوا فيهم فرقتين؟ والمراد إنكار وجود مايصح للخلاف فى أمرهم، بل الواجب الاتفاق على معاملتهم كالمجاهرين بالعداوة والله أركسهم أى ردهم إلى الكفر الظاهر بسبب كثرة ما كسبوه من أعمال المعاصى والشرك حتى انطمست قلوبهم. ﴿أتريدون أن تهدوا﴾ إلخ؛ أى ليس فى

(١) المنافقين. (٢) ميثاق. (٣) يقاتلوكم.
(٤) يقاتلوا. (٥) فلقاتلوكم. (٦) يقاتلوكم

استطاعتكم أن تحاولوا هداية مَنْ أضله بسبب إصراره على الكفر، انظر الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧. ومن يضلل الله أى يبعد عن الهداية بسبب ما قدم من جرائم فلن تجد له طريقا يوصله للنجاة ثم بين سبحانه بعض أسباب إضلاله لهم فقال: ودوا وتمنوا أن تكفروا كما كفروا فتكونون مثلهم سواء، ويقضى على الإسلام فى مهده، فلا تتخذوا منهم أصفياء إلى أن يؤمنوا ويهاجروا إلى المدينة ابتغاء نصرة دين الله. فإن أعرضوا عن ذلك فخذوهم إذا قدرتم عليهم واقتلوهم فى أى مكان وجدتموهم، ولاتتخذوا منهم أولياء أى أصدقاء توالونهم، ولانصيرا تستنصرون به إلا نوعين منهم فلا تفعلوا معهم ذلك؛ الأول الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم معاهدة ألا يعتدى أحدكم على الآخر، فإذا وصل هؤلاء إليهم فقد دخلوا فى حكمهم؛ والثانى الذين جاءوكم أى تركوا مكة وحضروا إليكم لأنهم ضاقت صدورهم من أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم، أى يريدون مسالمتكم ومسالمة قومهم لخوفهم إذا حاربوا معكم من أن يفتك المشركون بأهلهم فى مكة، ولو شاء الله لسلطهم عليكم، أى من رحمته تعالى أن كف عنكم شر هاتين الطائفتين، ولو شاء لكانوا قوة مع الكفار عليكم فيقاتلونكم معهم، فإن استمروا على عدم التعرض لكم بمكروه فلم يقاتلوكم مع تمكنهم من ذلك وألقوا إليكم السلم، أى وثقتم منهم بالمسالمة والبعد عن العداوة فلا تتعرضوا لهم بسوء. ثم شرع سبحانه فى بيان حال نوع آخر من المنافقين وذلك أن قوما من قريش كانوا يحضرون إلى المدينة ويظهرون له ﷺ أنهم أسلموا ثم يرجعون إلى مكة فينغمسون فى عبادة الأصنام، يقصدون بهذه الذبذبة بين المؤمنين والكافرين أن يأمنوا كُلًّا منهما لأنهم لاهَمَّ لهم إلا سلامة أنفسهم وأموالهم، فأنزل الله تعالى فيهم: ستجدون منافقين آخرين أى غير ما سبق يريدون أن يأمنوكم بإظهار الإسلام ويأمنوا قومهم بعبادة الأصنام معهم، كلما دعاهم المشركون إلى الكفر معهم....

﴿أركسوا فيها﴾: أى وقعوا فيها أشنع وقوع. ﴿حيث ثقفتموهم﴾: أى فى مكان وجدتموهم.

﴿سلطانا مبينا﴾: حجة وبرهانا واضحا ﴿فتحرير رقبة﴾: أى عتق رقبة المراد بها العبد الرقيق.

﴿مسلمة﴾: أى مؤداة.

أَرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ
وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ
وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ
لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن
يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ
فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ
خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا
عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

﴿ميثاق﴾: عهد (وقاسوا على المعاهد الذمى الذى يعيش مع المسلمين لأنه أولى بهذا الحكم من المعاهد ﴿شهرين متتابعين﴾: أى يتابع صيام أيام الشهرين دون انقطاع.

﴿ضربتم فى سبيل الله﴾: أى سافرتم للجهاد.

المعنى: . وقعوا فى الكفر غارقين فيه، فهؤلاء إن لم يبتعدوا عنكم ويبتعدوا عن الدس لكم عند المشركين، وإن لم يقدموا إليكم المسالمة والمصالحة، وإن لم يكفوا أيديهم عن قتالكم، إن لم يفعلوا كل هذا فخذوهم بالأسر، واقتلوهم فى أى مكان قدرتم عليهم فيه. وهؤلاء إذا لم يبتعدوا عما سبق جعلنا لكم عليهم سلطانا، أى حجة واضحة تبيح لكم قتالهم. ولما ذكر حكم المنافقين الذين يخادعون المسلمين ناسب أن يذكر حكم قتل مَنْ لايجوز قتله من مؤمن ومعاهد وذمى عمدا وخطأ، فقال ﴿وماكان لمؤمن﴾ إلخ، أى وماصح لمؤمن أن يقتل مؤمناً بغير حق في أى حال: لا فى حال كون القتل خطأ، كأن يريد رمى صيد فيصيب رجلا، ومَنْ قتل مؤمناً خطأ فعليه عتق رقبة مؤمنة كفارة لعدم تثبته وتساهله فى تصرفاته التى من شأنها الخطر، وعليه أيضاً دية وهى مائة بعير أو قيمتها يسلمها إلى أهل المقتول يقتسمونها كالميراث إلا أن يتصدق الورثة على القاتل بإعفائه منها. فإن كان المقتول خطأ من قوم عدو لكم أى كفار محاربين ولكنه هو مؤمن بينهم، كأن يؤمن رجل فى قوم محاربين كافرين ويعجز عن الهجرة إلى بلاد المسلمين ويقتله المسلم خطأ بظن أنه محارب، فعليه تحرير رقبة كفارة كما تقدم، وليس عليه دية لأنه

(١) سلطانا. (٢) خطأ. (٣) ميثاق. (٤) خالدا.

لاتوارث بين المسلم وغيره، والمفروض أن أهله كلهم كفار. وإن كان المقتول خطأ كافرًا من قوم بين المسلمين وبينهم معاهدة بأن لايقتل أحد الطرفين من الآخر، ومثل المعاهدين أهل الذمة وهم الذين يعيشون مع المسلمين وتحت حكمهم فلهم مالهم وماعليهم، فعلى القاتل دية تسلم إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنه، أى فالواجب فى قتل المعاهد والذمى كالواجب فى قتل المسلم.

وقدم فى قتل المؤمن العتق إشعارا بأن حق الله فى قتل المؤمن مقدم على حقوق الناس. وجوز التنازل عن الدية فى الأولى دون الثانية لأن من شأن المؤمن أن لايقبل منة من غيره. فمَنْ لم يجد رقبة أو لم يجد ثمنها فعليه بدلها صيام شهرين قمريين متتابعين لايفصل بين يومين منهما إفطار فى النهار، فإن فصل أعاد من أولهما وبطل ما مضى. شرع الله لكم ذلك لمحبته أن يتوب عليكم توبة منه عليكم لما وقع منكم من عدم التحرى، وكان الله عليما بما يصلحكم، حكيما فيما شرع لكم من أحكام. ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا﴾ إلخ: لما لم يذكر لذلك كفارة كسابقة بل شدد حتى قال الفخر الرازى فى هذه الآية من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ. وقد اختلف العلماء قديما فى خلود القاتل عمدا فى النار وعدم قبول توبته قال ابن عباس وآخرون لا توبة لقاتل مؤمن عمدا لأن هذه الآية آخر ما نزل فى القتل، ونزلت بعد الآية (٤٨) من سورة النساء صفحة ١٠٨ وتلك الآية خاصة بمغفرة ما دون الشرك بستة أشهر، فهى مخصصة لها. على أن قوله فى آية المغفرة ﴿لِمَن يشاء﴾ يفتح باب عدم المغفرة للقاتل عمدًا.. وقال آخرون إن هذا العذاب لِمَنْ يقتل مستحلا القتل، وقال آخرون إن المراد بالخلود طول المكث لمدة بلغ من طولها أنه لايعلمها إلا الله تعالى، وقال آخرون إنه لاينجو من هذا الجزاء إلا مَنْ تاب وندم وضاقت عليه الدنيا بسبب شعوره بذنبه، وشغل كل أوقاته بالطاعات وأكثر من الصدقات وكل ماينفع الناس واستمر على ذلك حتى مات، فإذا فعلَ كل ذلك فهو محل رجاء عند الله فى أن لايسوى بينه وبين المشرك. يأيها الذين آمنوا إذا سافرتم للجهاد فى سبيل الله فتبينوا أى تحققوا وتثبتوا ولاتتسرعوا.. وسيأتى بيان سبب نزول هذه الآية فى الصفحة التالية.

فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ[1] لَسْتَ مُؤْمِنًا
تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ[2] الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ
كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ[3] مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ[4] فِي سَبِيلِ اللَّهِ
بِأَمْوَالِهِمْ[5] وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ[6] بِأَمْوَالِهِمْ[7]
وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ
وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ[8] عَلَى الْقَاعِدِينَ[9] أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾
دَرَجَاتٍ[10] مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ[11] الْمَلَائِكَةُ[12] ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ
قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ
وَاسِعَةً[13] فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ[14] جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ

﴿فتبينوا﴾: أى تحققوا وتثبتوا ولاتتسرعوا. ﴿السلام﴾: التحية الدالة على انقياده للإسلام. ﴿غير أولى الضرر﴾: كالعمى والعرج والمرض.

المعنى: - كما رواه ابن جرير أن رجلا من قبيلة كافرة أسلم وحده دون جميع قومه، ولما غزتهم سرية من سرايا المسلمين هربوا جميعا وبقى هو لثقته بإسلامه، ولجأ بغنمه إلى جبل فلما أدركه المسلمون بادرهم بقوله: السلام عليكم لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فظن أسامة بن زيد أنه قال ذلك خوفا فقتله وأخذ غنمه، فلما بلغ النبى ﷺ حزن حزنا شديدا وقال: أقتلتموه طمعا فى غنمه؟ فماذا تقولون يوم القيامة فى لا إله إلا الله التى سمعتموها؟ فنزل قوله تعالى: يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتثبتوا مما يقع أمامكم ولا تتسرعوا بتصرفات تضر، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم تحية الإسلام لست مؤمنا حقا ولكنك تخاف القتل، طالبين بعملكم هذا حطام الدنيا الفانى وهو الغنم، فلا تفعلوا ذلك لأن عند الله مغانم أكثر وأحسن من هذه، وقد كنتم من قبل وأنتم بمكة مثله تخفون دينكم خوفا من بطش قريش كما أخفى هو دينه عن قومه، فمن الله عليكم بتيسير الهجرة والقسوة حتى

---

(١) السلام. (٢) الحياة. (٣) القاعدون.
(٤) والمجاهدون. (٥) بأموالهم. (٦) المجاهدين.
(٧) بأموالهم. (٨) المجاهدين. (٩) القاعدين.
(١٠) درجات. (١١) توفاهم. (١٢) الملائكة.
(١٣) واسعة. (١٤) مأواهم.

أظهرتم إسلامكم فتبينوا من الآن فصاعدا حتى لا تقعوا فيما وقعتم فيه، إن الله كان بما تعملون خبيرا بما فى نفوسكم فلا تخالفوه.

ثم شرع فى الحث على الجهاد بقوله: لايستوى أى فى المنزلة عند الله القاعدون عن الجهاد المأذون لهم فى القعود اكتفاء بغيرهم، من المؤمنين الذين ليس لهم عذر، والمجاهدون فى سبيل الله، أى لايستوى القاعدون المذكورون مع المجاهدين. ثم بين عدم التساوى بقوله: فضَّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين الأصحاء المأذون لهم درجة، أى منزلة يعلمها سبحانه، وكلا من القاعدين بأذن والمجاهدين وعده الله المنزلة الحسنى وهى الجنة، أى أنهم وإن تفاوتوا فى درجات الثواب فقد استووا فى دخول الجنة؛ وفضل الله المجاهدين على القاعدين بغير عذر ولا إذن أجرًا عظيمًا، بينه سبحانه بقوله: درجات منه ومغفرة لكل ذنب، ورحمة ينعمون بها، وكان الله كثير المغفرة والرحمة، لم تنص الآية على حكم أصحاب الأعذار، وفى الأحاديث مايفيد أن بعضهم له أجر وإن لم يساو أجر مَنْ جاهد إذا نصحوا لله ورسوله كما فى الآية (٩١) من سورة التوبة صفحة ٢٥٧، وظاهر حال ما فى الآية (٩٢) من سورة التوبة صفحة ٢٥٧، ربما يدل على أن بعض مَنْ عجز عن الجهاد لعذر لايقل عن أجر مَنْ جاهد فعلاً، والله أعلم. ولما هاجر ﷺ إلى المدينة وبقى بمكة مسلمون واشتد إيذاء الكفار لهم، أوجب الله الهجرة على القادر عليها، فاختار بعضهم الإقامة بمكة مع ما هم فيه من الذل ومنعهم على مساعدته ﷺ فأنزل الله تعالى: أن الذين توفاهم الملائكة أى تتوفى أرواحهم ملائكة الموت حال كونهم ظالمى أنفسهم بترك الهجرة والتعرض لذل العدو بدون عذر وقال الملائكة توبيخا لهم: فى أى شىء من الدين كنتم؟ أى أكنتم محافظين تمام المحافظة عليه؟ قالوا معتذرين: كنا مستضعفين فى أرض مكة عاجزين عن إقامة الدين، قالت الملائكة توبيخا لهم: ألم تكن أرض الله واسعة تفرون إليها بدينكم؟ فأولئك المقصرون فى الهجرة مسكنهم فى الآخرة جهنم، وبئست جهنم نهاية ومصيرا.

مصيرا ﴿٩٧﴾ إلا المستضعفين من الرجال والنساء
والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ﴿٩٨﴾
فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا
غفورا ﴿٩٩﴾ * ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض
مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى
الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله
وكان الله غفورا رحيما ﴿١٠٠﴾ وإذا ضربتم في الأرض
فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم
أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا
مبينا ﴿١٠١﴾ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم
طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا
فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا

﴿مراغما كثيرا﴾: أى أمكنة للهجرة كثيرة.. يجد فيها خيرا يرغم به أنف عدوه.

﴿وقع أجره على الله﴾: أى وجب وثبت.

﴿وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ إلخ: صلاة القصر وصلاة الخوف لهما كيفيتان وشروط مبسوطة فى كتب الفقه.. والذى حققه بعض العلماء أن القصر له معنيان (١) قصر الأركان بالتخفيف من طولها ويكون فى صلاة الخوف المشار إليها فى الآية (٢٣٩) من سورة البقرة صفحة ٤٩. (٢) قصر العدد بنقصان ركعتين فى الصلاة الرباعية وقيد سبحانه إباحة القصر بأمرين الضرب فى الأرض والخوف. فإذا وجد الأمران أبيح القصر بمعنييه فيصلون صلاة مقصورًا عددها وأركانها؛ وإذا انتفى الأمران بأن كانوا مقيمين آمنين انتفى القصران فيصلون صلاة كاملة العدد تامة الأركان وإن وجد أحد السببين يترتب عليه قصره وحده فإذا وجد الخوف والإقامة قصرت الأركان واستوفى العدد وهذا نوع من القصر وليس هو القصر من كل وجه... وإن وجد السفر والأمن قصر العدد واستوفيت الأركان.. والقرآن مجمل بيّنه الرسول ﷺ وماتقدم بيانه هنا كانت هى سنته التى سار عليها. ﴿جناح﴾: حرج. ﴿يفتنكم الذين كفروا﴾: أى يؤذونكم بقتل أو جرح أو غيرهما.

المعنى: لكن الضعفاء العاجزين عن الهجرة من الرجال المرضى أو الفقراء الذين لايجدون زادا ولا راحلة تحملهم، والنساء والولدان الصغار الذين لايستطيعون حيلة للخروج لعجزهم،

---

(١) والولدان. (٢) مراغما. (٣) الصلاة. (٤) الكافرين. (٥) الصلاة.

ولا يعرفون طريقا للهجرة لجهلهم بمسالك الأرض فأولئك المستضعفون يرجى من الله العفو عنهم، والله عفو غفور. وفى ذكر المغفرة هنا إشعار بأن ترك الهجرة أمر خطير يحمل المضطر على اعتبار تركها ذنبا ليعلق قلبه بها، ويحمل من له أدنى قدرة على محاولتها.

ثم شرع يرغب فى الهجرة وينبه المستضعفين إلى البحث عن حيل تمكنهم منها فقال: "ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرًا»؛ أى يجد كثيرا من الأمكنة التى يعيش فيها سعيدا، وسعة فى الرزق. ثم بين أن فضل الله لابد أن يدرك المهاجر، سواء وصل إلى المكان الذى يريده أم لا، فقال: ومَنْ يخرج من بيته ناويا الهجرة إلى ما فيه رضا الله ثم يدركه الموت ولو بعد خروجه من البيت مباشرة فقد استحق أجره الذى وعد الله به المهاجرين فى سبيله، فإن الله غفور لما كان الهفوات التى قد يكون منها تأخير الهجرة ولو قليلا، رحيم حيث أعطى ثواب المهاجرين لمَنْ لم تتم هجرته ولما كان الجهاد والهجرة يستلزمان السفر أتبع الكلام فيهما ببيان كيفية الصلاة فى السفر والحرب فقال: «وإذا ضربتم فى الأرض» أى سافرتم فليس عليكم حرج فى أن تخففوا من الصلاة الرباعية وتخففوا أيضًا بعض شروط الصلاة مطلقا كما سيأتى بيانه، إن خفتم أن يؤذيكم الذين كفروا، فإنَّ الكافرين كانوا لكم أعداء ظاهرى العداوة، فهم لا يضيعون فرصة اشتغالكم بالصلاة فينالوا منكم. وبعدما أذن فى القصر إجمالا شرع يبين كيفية بعضه وهو ما إذا لم يشتبك الجيشان فى القتال أما إذا التحموا فى القتال فإنه يصلى كل حسب استطاعته كما فى الآية (٢٣٩) من سورة البقرة صفحة ٤٩. فقال: وإذا كنت أيها النبى، ومثلك كل إمام للجيش، فى المحاربين وكنتم تخافون العدو فأردت أن تقيم الصلاة بهم فاجعلهم طائفتين، إحداهما تصلى معك، والأخرى تراقب العدو، وليأخذ الذين يصلون معك أسلحتهم معهم أثناء الصلاة ليكونوا مستعدين فى كل لحظة، فإذا سجد الذين معك فلتكن الطائفة الأخرى من ورائكم تحرسكم إلى أن تنتهى الأولى من صلاتها نصف الصلاة معك وباقيها وحدهم، ثم يسلموا وينصرفوا لحراسة العدو مكان الطائفة الأولى، وكل هذا وأنت قائم فى الركعة الثالثة فى غير صلاة الصبح، وفى الصبح فى الثانية، تقرأ منتظرا الطائفة الثانية التى لم تصل.

فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم
مَّيْلَةً وَاحِدَةً[1] وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ
أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ
إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ[2] عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ[3]
فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا[4] وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ
فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ[5] إِنَّ الصَّلَاةَ[6] كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا[7]
مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ
فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ[8] بِالْحَقِّ
لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ[9] اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ
خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾

﴿ود الذين كفروا﴾: أحبوا وتمنوا. ﴿فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾: ينقضون عليكم دفعة واحدة. ﴿كتابا موقوتا﴾: مكتوبا أى مفروضة فى أوقات محددة. ﴿ولاتهنوا فى ابتغاء القوم﴾: لاتضعفوا فى طلب الكفار.

﴿بما أراك الله﴾: قال الزمخشرى أى بما عرّفك الله.

﴿ولاتكن للخائنين خصيما﴾: اللام فى للخائنين بمعنى عن وخصيما أى مخاصما ومدافعا أى لاتكن مخاصمًا للأبرياء دفاعا عن الخائنين، ويصح أن تكون اللام للتعليل بمعنى مخاصمًا للأبرياء لأجل الخائنين.

المعنى: ـ تأتى الطائفة الأخرى التى لم تصل فتبدأ صلاتها معك وأنت قائم فى الركعة الثالثة، أو فى الركعة الثانية فى صلاة الصبح بالنسبة لك، والأولى بالنسبة لهم، وبعد أن تسلم أنت من صلاتك يتمون هم مابقى من صلاتهم، وليأخذ هؤلاء أيضًا حذرهم أى مايتحرزون به من العدو كالدرع ونحوه، وأسلحتهم أى مايقاتلون به كالسيف والخنجر مثلا.

ثم بيَّن حكمة هذا الاحتراس الشديد بقوله: ﴿ود الذين كفروا﴾ إلخ أى تمنوا أن تغفلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم التى تحتاجون إليها فى الحرب فيحملوا عليكم حملة واحدة ليقضوا عليكم وأنتم على غير استعداد. ولا حرج عليكم إن حل بكم مايؤذيكم من مطر أو مرض فى أن لا تحملوا أسلحتكم معكم أثناء الصلاة لثقل حملها بسبب مايبللكم من مطر أو يضعفكم من

---

(١) واحدة. (٢) للكافرين. (٣) الصلاة.
(٤) قياما. (٥، ٦) الصلاة. (٧) كتابا.
(٨) الكتاب. (٩) أراك.

مرض. وأمرهم بعد ذلك بالاحتياط فقال: ﴿وخذوا حذركم﴾ أى كونوا على حذر لئلا يفاجئكم العدو. ثم أراد أن يقوى عزائمهم فقال:﴿إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا﴾.. فى الدنيا والآخرة، فلا يزعجكم الأمر بالحذر الشديد. فإذا فرغتم من صلاة الخوف على الوجه المبيَّن فداوموا على ذكر الله فى جميع الأحوال حتى فى حال المقاتلة لتقوى عزائمكم. قال ابن عباس بعدما فسر هذه الآية: لم يعذر الله تعالى أحدًا فى ترك ذكره إلا مَنْ فقد عقله. فإذا اطمأننتم بالرجوع من السفر أو أمنتم العدو بانصرافه أو انهزامه فأقيموا الصلاة كاملة العدد والأركان إذا رجعتم من السفر، أو كاملة الأركان فقط إذا كنتم مازلتم فى السفر. إن الصلاة كانت على المؤمنين فرضا محدد الأوقات لايجوز تأخيرها عنها. ومَنْ أراد المزيد من البيان فى كيفية صلاة الخوف والسفر، فليرجع إلى حديثى رقم ١٣٤، ١٣٥ من كتابنا صفوة البخارى، فقد وفينا الموضوع حقه بما لم يسبق له مثيل.

ولاتهنوا وتضعفوا أيها المؤمنون فى طلب الكفار الذين أعلنوكم بالعداء، إن تكونوا تتألمون من القتال فإنهم يتألمون مثلكم وأنتم تمتازون عنهم بأنكم ترجون من الله إحدى الحسنيين النصر أو الجنة، وهم لايرجون ذلك لأنهم كفروا به سبحانه فليس لهم فى فضله طمع، انظر الآية (٥٢) من سورة التوبة صفحة ٢٤٩. ولما أمرهم بالمحافظة على الدين الذى يدعو إلى العدل من أن يصاب من الخارج، أراد أن يأمرهم بالمحافظة على العدل فى الداخل، فقال: إنا أنزلنا إليك أيها النبى القرآن مصحوبا بالحق لتحكم بين الناس بما ألهمك الله عند النظر فيه، ولا تكن مخاصما الناس لأجل الخائنين. وسبب ذلك أن رجلا من المسلمين يقال له طعمة بن أبيرق سرق درعا من حديد ووضعها أمانة عند يهودى، ولما بحث أصحابها وجدوها عند اليهودى، فأخبرهم بأن الذى جاء بها إليه طعمة، وأنكر طعمة ذلك وحلف. فقال اليهودى: والله ماسرقتها ياأبا القاسم ولكن رماها علىَّ طعمة، وكان لطعمة جيران وأقارب يبرءونه فذهبوا إلى الرسول ﷺ وشهدوا ببراءته، فكاد الرسول يصدقهم. فعاتبه الله بهذه الآيات وقال له: استغفر الله مما هممت به من الحكم لطعمة لمجرد حلفه أنه ماسرق وشهادة أقاربه، بل يجب البحث فى مقدار قرابتهم له وغيظهم من اليهودى إذ قد يكون لذلك دخل فى انحراف شهادتهم.

وَلَا تُجَٰدِلْ[1] عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا
يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ
مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَٰٓأَنتُمْ
هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ[2] عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ[3] ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ[4] ٱللَّهَ
عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ[5] أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (١٠٩) وَمَن
يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ
غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ
عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ
خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا[6]
وَإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ
لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ

﴿يختانون أنفسهم﴾: يبالغون فى خيانة أنفسهم. وتقدم أصل معناها فى الآية (١٨٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٦، ٣٧ ﴿بهتانا﴾: كذبا عظيمًا.

المعنى: . بعد ما نهاه ﷺ عن الدفاع عن طعمة أراد أن يأتى بحكم عام يشمله ويشمل أقاربه وجيرانه المدافعين عنه ومَنْ ماثلهم فقال: ولاتجادل مدافعا عن الذين يخونون أنفسهم خيانة شديدة بالمعصية، لأن ضررها راجع إليهم، لأن الله لايحب كثير الخيانة والإثم، أما الذى يفعلها هفوة ثم يسارع إلى التوبة فهو إلى عفو الله أقرب.

ومن صفات هؤلاء أنهم يستترون فى معاصيهم حياء من الناس ولا يستحيون من الله وهو حاضر معهم بعلمه كما فى الآية (٧) من سورة المجادلة صفحتى ٧٢٥، ٧٢٦؛ والله معهم حين يدبرون بليل أى خفية ما لا يرضى به سبحانه من القول كتدبير طعمة وجيرانه، والله محيط بأعمالهم ظاهرة أو خفية كما هو محيط بأقوالهم الخفية.

ثم وجه سبحانه الخطاب للذين كانوا يدافعون عن طعمة ها أنتم هؤلاء دافعتم عنهم فى الدنيا فَمَن يجرؤ أن يجادل الله عنهم يوم القيامة؟ أى لا أحد يستطيع ذلك. ومَنْ يكون عليهم وكيلا؟ أى حافظا لهم من عذابه تعالى. ثم فتح باب التوبة بقوله:

ومَنْ يعمل مايسىء غيره كعمل طعمة مع اليهودى، أو يظلم نفسه بكل ذنب قاصر عليه كشرب خمر أو كذب، ثم يستغفر الله نادما مخلصا، يجد الله غفورًا لذنبه رحيما به، والمراد يقبل توبته. ومَنْ يكسب إثما فوباله على نفسه، أى لايعاقب بالذنب غير فاعله، ومَنْ يكسب خطيئة صغيرة أو إثما أى معصية كبيرة ثم يتهم به شخصا بريئا كرمى طعمة لليهودى بالسرقة فقد احتمل أى حمل بصعوبة وشدة بهتانا وذنبا ظاهرًا لا شبهة فيه. ولولا فضل الله عليك أيها النبى باطلاعه لك على سرهم، ورحمته بالعصمة من الخطأ الذى يضر الغير، لهمت

(١) تجادل. (٢) جادلتم. (٣) الحياة. (٤) يجادل. (٥) القيامة. (٦) بهتانا.

وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ(١)
وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ
عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ(٢) إِلَّا مَنْ أَمَرَ
بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ(٣) بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾
وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ
غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ
مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا(٤)
بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا(٥) وَإِن يَدْعُونَ
إِلَّا شَيْطَانًا(٦) مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ
نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ

طائفة من الذين يخونون أنفسهم أن يضلوك أى يبعدوك عن القضاء بالحق، وفى الحقيقة مـا يضلون إلا أنفسـهم لأن وبال تصـرفـهم عليهم وحدهم.

﴿الكتاب﴾: أى القرآن. ﴿الحكمة﴾: المراد بها هنا القدرة على تحرى الحق والصواب.

﴿نجواهم﴾: النجوى التناجى بالحديث سرًا، وقد يراد بها المتناجون أنفسهم كما فى الآية (٤٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٠.

﴿يشاقق الرسول﴾: يخالفه بأن يكون فى شق والرسول فى شق آخر.

﴿نوله ماتولى﴾: نتركه وما اختاره لنفسه.

﴿ونصله﴾: أى وندخله ﴿إلا إناثا﴾: المراد معبودات ضعيفة كالإناث لاتدفع عدوًا ولا تأخذ ثأرا، وكانت العرب تصف الضعيف بالأنثى، وقيل المراد بالإناث أصنامهم ذات الأسماء المؤنثة المذكورة فى الآية (١٩) والآية (٢٠) من سورة النجم صفحة ٧٠١ ذلك لأنهم جعلوها رمزا للملائكة الذين كانوا يعبدونهم ويسمونهم بنات الله، انظر الآية (٨٠) من سورة آل عمران صفحة ٧٦، والآيتين (٤٠، ٤١) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٨، ٥٦٩. ﴿مريدًا﴾: شديد التمرد والخروج على الطاعة.

﴿مفروضا﴾: معينا، أو واجبا استيلائى عليه.

المعنى: - ومايضرونك أيها النبى شيئًا من الضرر ولو صغيرًا، لأنك إنما تعمل بالظاهر، وما كان يخطر ببالك أن المسلم يحلف كذبا كما حلف طعمة أنه برىء. وأنزل الله القرآن وألهمك

(١) الكتاب. (٢) نجواهم. (٣) إصلاح.
(٤) ضلالا. (٥) إناثا. (٦) شيطانا.

تحرى الحق ولذلك حفظك من الإسراع بإدانة اليهودى وعلمك ما لم تكن تعلم من خفيات الأمور، وكان فضل الله عليك بهذا وغيره عظيما لا يساويه فضل مخلوق. وبعد ما بيَّن سبحانه قبح ماديره طعمة وأقاربه سرًا، أراد أن يبين حكما عاما فى كل مايدبر سرا، وهو أن أغلبه يكون شرا كما فى الآية (١٠) من سورة المجادلة صفحتى ٧٢٦، ٧٢٧؛ فقال: ﴿لاخير فى كثير من نجواهم﴾ أى نجوى الناس كافة إلا نجوى مَنْ أمر بصدقة أو عمل بر، أو كلمة إصلاح بين متخاصمين. ومَنْ يفعل شيئا من هذه الفضائل الثلاث سرًا ابتغاء أى طلب رضاء الله عنه لا رياء ولا منفعة شخصية، فسوف يؤيته الله أجرا عظيمًا.

وبعدما بيَّن ثواب الذين يتناجون بالخير شرع يبين مَنْ يتناجون بالشر ليحاربوا تعاليم الرسول فقال: ومَنْ يحارب تعاليم الرسول من بعد ما تبين له الهدى على لسانه ﷺ، ويتبع بمحاربته هذه سبيلاً وطريقا غير طريق المؤمنين المبيَّن فى سورة الفاتحة، نتركه وماأراد، وفى الآخرة ندخله جهنم وقبحت جهنم نهاية ونظير هذا آيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧. وبعدما بيَّن سبحانه أن مَنْ يخالف الرسول يدخله جهنم، وكانت مخالفة الرسول متفاوتة الدرجات، أراد سبحانه أن يبين ما يصح مغفرته منها وما لا يصح فقال: ﴿إن الله لايغفر﴾ إلخ؛ تقدم تفسيرها فى الآية (٤٨) من هذه السورة. ومَنْ يشرك بالله فقد بعد عن طريق الحق مسافات بعيدة، ولايمكن أن يرجع سالما. ثم بيَّن بعض أحوال المشركين فقال: ﴿إن يدعون﴾ إلخ؛ أى مايدعون لقضاء حاجاتهم وتفريج كربهم غير الله تعالى إلا معبودات ضعيفة لا تملك لهم نفعًا ولاتدفع عنهم ضرًا، ومايدعون بدعائهم لهذه المعبودات إلا شيطانًا متمردًا، لأنه هو الذى أغراهم بعبادتها موصوف بأنه ملعون ومطرود من رحمة الله عز وجل، وبأنه قال وعزتك لأجعلن لى من عبادك نصيبا مفروضا محتمًا استيلائى عليه، انظر الآية (٦٢) وما بعدها من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣. وكذا انظر الآية (٨٢) من سورة ص صفحة ٦٠٥.

ولأضلنهم عن الحق بالوسوسة، ولأمنينهم بالأمانى الباطلة كطول العمر وعدم البعث والجزاء إلى غير ذلك حتى يغفلوا عن الموت وعن تذكر الآخرة فيعصوا الرسل. ثم بين بعضًا من إضلاله فقال: ولآمرنهم بالوسوسة التى يطيعونها كما يطيع المأمور أمر سيده.

فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ[1] وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ
وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ[2] وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا
مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ[3]
إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ[4] جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا
مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ[5] سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّٰتٍ[6] تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ[7] خَٰلِدِينَ[8] فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ
ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ
وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ[9] ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا
يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ
مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ[10] مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا
مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ[11] حَنِيفًا

﴿فليبتكن﴾: البتك القطع والتبتيك التقطيع الكثير. ﴿الأنعام﴾: الإبل والبقر والغنم. ﴿يغيرن خلق الله﴾: بسوء التصرف فيه حسيا ومعنويا؛ الأول كخصى الرجال حتى يصبحوا كالنساء، والثانى كإفساد الفطر السليمة وتحويلها إلى الشر. ﴿غرورا﴾: أى باطلا يغر ضعيف العقل وليس له نصيب من الحق ﴿مأواهم جهنم﴾: أى مكانهم الذى يأويهم جهنم.

﴿محيصًا﴾: مفرا

﴿قيلا﴾: قولاً

﴿وليا ولا نصيرا﴾: تقدم الفرق بينهما فى صفحة ٢١.

﴿نقيرا﴾: تقدم فى الآية (٥٣) من هذه السورة صفحة ١٠٩ ﴿أسلم وجهه لله﴾: أخلص نفسه لله وجعلها له وحده لا تعرف ربا سواه. انظر معانى الوجه فى صفحة ١٠٨.

﴿حنيفا﴾: بعيدا عن الأديان الباطلة.

المعنى: - حلف الشيطان بعزة الله ليحملن أتباعه على أن يقطعوا آذان الأنعام احتراما للأصنام، فكانوا إذا ولدت الناقة خمس مرات وجاء الخامس ذكرا قطعوا أذنها أو شقوها ليكون ذلك علامة على أنها أصبحت ملكًا للأصنام لايركبها ولا ينتفع بها أحد كما سيأتى تفصيله فى الآية (١٠٣) من سورة المائدة، وكان من أسخف أعمالهم الوثنية، ولذا خصه بالذكر

---

(١) الأنعام. (٢)، (٣) الشيطان. (٤) مأواهم. (٥) الصالحات.
(٦) جنات. (٧) الأنهار. (٨) خالدين. (٩) الكتاب
(١٠) الصالحات. (١١) إبراهيم.

مع أنه داخل فيما قبله، وحلف أيضًا ليأمرنهم بتغيير خلق الله بسوء التصرف فيه فالله أحسن كل شيء خلقه، والشيطان وجنوده يفسدون لمحاربة الرسل والمصلحين، ومَنْ يتخذ الشيطان وليا له من دون الله يصرفه كيف يشاء فقد خسر خسرانا واضحًا فى دنياه وآخرته. يعدهم الشيطان بكل ضار كالفقر إذا أنفقوا فى سبيل الله تعالى، وبالغنى إذا لعبوا القمار، إلى غير ذلك. انظر الآية (٢٦٨) من سورة البقرة. ويمنيهم بالباطل كما تقدم، ومايعدهم فى الحقيقة إلا بما يغر وليس له أصل. أولئك الذين يلعب بهم الشيطان هذا التلاعب مكانهم الذى يأوون إليه فى النهاية هو جهنم ولا مفر لهم منها. وبعد ما ذكر جزاء الكافرين أتبعه بجزاء المؤمنين كما هى عادة القرآن ليبرز الفرق بينهما فقال: والذين آمنوا وعملوا الصالحات إلخ، وعدهم الله بذلك وعدًا حقا لا شك فى تحققه، ولا أحد أصدق من الله قولاً. ولما كان مما منى به الشيطان أتباعه ما منى به اليهود والنصارى من أنهم أبناء الله وأحباؤه كما فى الآية (٨) من سورة المائدة، وبأنه لايدخل الجنة غيرهما كما فى الآية (١١١) من سورة البقرة، وكان بعض المسلمين قابل قولهم هذا بقوله نبينا آخر الأنبياء فنحن أفضل الأمم، لما كان كل هذا رد الله تعالى على الجميع بإرجاع الأمر إلى الحق فيما قالوا، فقال عز وجل ﴿ليس بأمانيكم﴾ إلخ، أى ليس الأمر مرتبطا بأمانيكم أيها المسلمون، ولا بأمانى أهل الكتاب، بل بالعمل الصالح مع الإيمان، ومَنْ يعمل سوءا يجز به فى الدنيا والآخرة ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا، تقدم بيانها فى الآية (٨٩) من هذه السورة.

ومَنْ يعمل شيئًا من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئًا. والآية تفيد أن الإيمان شرط فى انتفاع العامل بعمله فى الآخرة، أما الكافر فلا ينجيه عمله من جهنم، انظر الآية (٢٣) من سورة الفرقان، ولا أحد أحسن دينا ممن أخلص عمله لوجه الله تعالى وهو محسن لعمله محافظ على كل ما يستطيع من الحسنات وكان فى ذلك متبعا لملة إبراهيم عليه السلام البعيد فى ملته عن الأديان الباطلة.

﴿ما كتب لهن﴾: مافرض لهن من الصداق. ﴿ المستضعفين من الولدان﴾: هم الصغار اليتامى. ﴿القسط﴾: العدل. ﴿بعلها﴾: زوجها. ﴿نشوزا﴾: أى سوء معاملة كأن يستعلى عليها لتعلق قلبه بغيرها مثلا.

وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ[1] خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ[2]
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾
وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ
عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَٰبِ[3] فِي يَتَٰمَى[4] النِّسَاءِ الَّٰتِي[5] لَا تُؤْتُونَهُنَّ
مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ
مِنَ الْوِلْدَٰنِ[6] وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَٰمَىٰ[7] بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ
خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ
بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا
بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ
وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾
وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ
فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا

﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾: تفسير التركيب. وأحضر الله الأنفس عند الشح بحيث لا تفارقه، والمراد أنها جبلت عليه، والشح. البخل الشديد المصاحب للحرص. وعبارة الشيخ محمد عبده: أى أنها معرضة له.. لكن آية ﴿إن الإنسان خلق هلوعا.. إلى قوله إذا مسّه الخير منوعا﴾ تدل على أنه جبل عليه وأمرته الشرائع بمحاربته أو تخفيف حدته.

المعنى: . وجعل الله إبراهيم خليلا أى صفيا مختارا ولله كل ما فى السموات والأرض خلقا وملكا وتصرفا، فليحذر الذين يخالفونه، وليطمئن المطيعون، وكان محيطا بكل ما فيهما علما وقدرة. ولما نزلت الآيات الأولى فى أول السورة وكان فيها مفاجأة للعرب نظرًا لما تعودوه من حرمان النساء والأطفال من الميراث، جال بخاطر بعضهم كيف يرث الصغير والمرأة وهما لايحسنان التصرف وكيف يستطيع العدل بين الزوجات فى كل شىء.ومن الأشياء مالا يقدر عليه كالميل القلبى؟ وهل هذا يشعر بأن التعدد ممنوع أو سينزل الله لنا مايعدل تلك الأحكام تيسيرا علينا كما قيل فى الآيتين (٦٥، ٦٦) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧؛ وتوهموا أن ما نزل أول السورة غير قطعى فيصح تقييده أو إطلاقه أو تيسيره بأى وجه فأكثروا من سؤاله ﷺ لعل الإفتاء يأتى بما يريدون فأنزل الله تعالى: يستفتونك أى يطلبون منك الفتيا ياأيها النبى فى شأن النساء وبيان الغامض عليهم من أحكامهن من حيث الحقوق المالية والزواج والنشوز والخصام والصلح والعدل وكيف تكون العشرة والفراق، ويدل على أن الاستفتاء كان

(١) إبراهيم. (٢) السموات. (٣) الكتاب. (٤) يتامى. (٥) اللاتى. (٦) الولدان. (٧) لليتامى.

فى كل ذلك الجواب الآتى فى الآيات الأربع: قل أيها النبى فى جوابهم: الله يفتيكم فيما خفى عليكم من أحكامهن وستأتى هذه الفتوى الجديدة فى الآيات الثلاث الآتية بعد هذه مباشرة، ويفتيكم أيضًا فيهن مايتلى عليكم كل يوم فى القرآن فى يتامى النساء إلخ، وهو ما تقدم أول هذه السورة فى الآية (٣) ومابعدها، اللاتى لاتؤتونهن مافرض لهن من صداق مثيلاتهن، والحال أنكم ترغبون فى أن تتزوجوهن لجمالهن والتمتع بأموالهن مع عدم العدل فى المهر أو ترغبون عن زواجهن لعدم جمالهن، ولاتزوجوهن غيركم حتى يدركهن الموت لتأخذوا مالهن من مال جاءهن من غير الميراث كالهبة مثلا لأنهم ماكانوا يورثون النساء كما تقدم، ومايتلى عليكم فى القرآن، يفتيكم أيضًا فى الضعفاء من اليتامى الصغار بأن تعطوهم حقوقهم، وأن تقوموا لهم بالعدل فى كل شىء على أتم وجه كما تقدم أول السورة، وماتفعلوا لهم من خير زائد على أصل العدل فإن الله يعلمه وسيجازيكم عليه أحسن الجزاء، فمعاملة اليتيم على ثلاث درجات : محرمة وهى هضم شىء من حقوقه، وواجبة وهى العدل معه.

ومستحبة وهى الزيادة فى إكرامه بما ليس من ماله، وبهذا ظهر للمستفتين أن الأحكام الأولى كانت نهائية فيما يتعلق بحق النساء واليتامى. ثم شرع سبحانه فى بيان أحكام لم تبين من قبل فقال: وإن امرأة خافت أى خشيت وتوقعت من زوجها استعلاء عليها أو تقصيرًا فى النفقة أو إعراضا عنها بعدم محادثتها أو مؤانستها كالمعتاد، فلا جناح عليهما فى أن يصلحا مافسد بينهما صلحًا نافعا بأن تترك له بعض الواجب لها رغبة فى بقاء الزوجية، وإلا فعلى الزوج أن يوفيها حقها أو يطلقها، والصلح خير من النشوز والفرقة. ويجب أن يلاحظ الزوجان أن النفوس جبلت على الشح، فالنساء حريصات على حقوقهن، والأزواج حريصون على أموالهم، فإذا أمكن التغلب بالتسامح يكون خيرا، وأن تحسنوا العشرة فيما بينكم ويعذر بعضكم بعضا، وتتقوا أسباب الفراق، فإن الله يعلم كل ذلك فيجازى مَنْ أحسن بالحسنى.

﴿قوامين بالقسط﴾: أى مداومين على القيام بالعدل.

﴿شهداء لله﴾: شهداء بالحق لوجه الله تعالى لا لغرض دنيوى

المعنى: . وتتقوا الظلم فذلك خير لكم، لأن الله يغفر لكم به ما مضى من ميل، وقد رحمكم حيث لم يؤاخذكم بالميل القلبى. وإذا لم يمكن الصلح وتفرقا بخلع أو طلاق فالله لايتركهما، بل

وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ
اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن
تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ
اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ
وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن
كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا
قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا

يغنى كلا عن صاحبه من واسع فضله، بأن يرزقها زوجا غيره، ويرزقه غيرها. وكان الله واسع الفضل حكيما فى تدبيره. ولله مافى السموات ومافى الأرض ملكا وتصرفا، فلا يعجزه إغناء كل منهما. ولما كان أساس كل خير هو تقوى الله عز وجل فقد وصينا بها كل الذين جاءهم كتاب من الله قبلكم كما وصيناكم وصينا الجميع بقولنا إن تكفروا وتهملوا ما وصيناكم به فلن تضروا الله شيئًا، لأن له كل ما فى السموات وما فى الأرض فهو سبحانه غنى عن عبادتكم، مستحق للحمد الكثير لكثرة نعمه وإن لم يحمده أحد منكم. ثم كرر ملكه لما فى السموات والأرض ليرتب عليه ما بعده من تهديد كما سيأتى، وكفى بالله وكيلا لِمَنْ أطاعه، فلا تعولوا على غيره. ثم هددكم بما يشعر بكمال قدرته فقال: إن يشأ يذهبكم ويفنكم يأيها الناس ويأت بقوم آخرين بدلكم يكونون خيرا منكم كما فى الآية (٣٨) من سورة محمد صفحتى ٦٧٧، ٦٧٨؛ وهو قدير على ذلك، وقد فعل ذلك فى أمم مضت كعاد وثمود وقوم نوح، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك لهذه الأمة مع عصيان أكثرها، لأن حكمته اقتضت أن تكون آخر الأمم ليوم القيامة. مَنْ كان يريد بسعيه وجهاده ثواب الدنيا فقط من سعة رزق ولذائذ عيش فارشدوه إلى أن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة لاتزاحم إحداهما الأخرى، فلم يكتفى بالأدنى الفانى ويهمل الأعلى الباقى مع أن الجمع بينهما سهل عليه، وقد جمع الصالحون بينهما كما فى الآية (٢٠١) من سورة البقرة صفحة ٤٠، وكان الله سميعا لكل مايتحرك به لسان، بصيرا بكل مايدور فى خاطر، فليحذروه وليفعلوا مايرضيه ولما كان العدل أساس السعادة كرر الأمر به فقال: يأيها الذين آمنوا إلخ أى كونوا محافظين على القيام بالعدل شهداء بالحق لوجه الله لا لطلب نفع، ولو كانت الشهادة

---

(١) واسعا. (٢) السموات. (٣) الكتاب. (٤)، (٥) السموات. (٦) قوامين. (٧) الوالدين

فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ
اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ[1] الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ
وَالْكِتَابِ[2] الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ[3] وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلَالًا[4] بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا
ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ
وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ[5] بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ[6] أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ
الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾
وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ[7] أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ[8] اللَّهِ
يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا

على أنفسكم فاشهدوا عليها بأن تقروا بالحق، أو على الوالدين أو الأقارب، إن يكن المشهود عليه غنيا يرجى نفعه أو فقيرا يخشى عليه فلا تمتعوا عن الشهادة على الغنى طمعا فى غناه ولا على الفقير شفقه عليه، لأن الله سبحانه أولى بالنوعين، وأرحم بهما منكم، وأعلم بما فيه مصلحتهما.

﴿تلووا﴾: ألسنتكم فى الشهادة بأن تأتوا بها على غير وجهها.

﴿أو تعرضوا﴾: عنها فتكتموها. ﴿والكتاب الذى أنزل من قبل﴾: المراد جنس الكتاب فيشمل كل ما نزل على الأنبياء السابقين.

﴿بشر المنافقين﴾: أصل البشارة هى الخبر السار وعبر بها عن الخبر المحزن تهكما بهم واستهزاء انظر الآية (٢١) من سورة آل عمران صفحة ٦٦.

﴿يخوضوا﴾: أصل معنى الخوض هو الدخول فى الماء الكثير الذى لاتؤمن عاقبة الدخول فيه. ثم استعمل قليلاً فى الدخول فى الحديث للتسلية، ومنه قوله تعالى فى المنافقين الذين استهزءوا بالرسول ﷺ وبالقرآن الكريم: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ الآية (٦٥) من سورة التوبة صفحتى ٢٥١، ٢٥٢ ... ويستعمل قليلا أيضًا فى الحديث عن أمر خطير كقول العلماء: لايجوز الخوض فى الكلام عن الروح لأنها سر من أسرار الله عز وجل... ويستعمل كثيرا فى الدخول فى الباطل كما فى هذه الآية التى نحن بصدد شرحها وكثير غيرها فى القرآن.

المعنى: - يقول صاحب تفسير المنار فى الجزء الخامس.. قد علم مما سبق مكان هذه الآيات ومابعدها إلى آخر السورة مما قبلها وهى أحكام عامة فى الإيمان والعمل وأحكام

(١، ٢) والكتاب. (٣) وملائكته. (٤) ضلالا. (٥) المنافقين. (٦) الكافرين. (٧) الكتاب. (٨) آيات.

المنافقين وأهل الكتاب في ذلك. فأما قوله تعالى ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط﴾ إلخ فهو يتصل بما قبله من الآيات القريبة خاصة بما فيه من الأمر العام بالقسط بعد الأمر بالقسط فى اليتامى والنساء، فهنالك خص اليتامى والنساء فى سياق الاستفتاء فيهن، ولأن حقهن آكد، وظلمهن معهود... وههنا عمم الأمر بالقسط لأن العدل حفا لـ النظام وقوام أمر الاجتماع وبما فيه من الشهادة لله بالحق ولو على النفس أو الوالدين والأقربين وعدم محاباة أحد فى ذلك لغناه، أو مراعاته لفقره، لأن العدل والحق مقدمان على الحقوق الشخصية وحقوق القـ ابة وغيرها. وكانت محاباة الأقربين معهودة فى الجاهلية لأن أمرهم قائم بالعصبية، فالواحد منهم كان ينصر قومه وأهل عصبيته لأنه يعتز بهم، كما يظلم النساء واليتامى لضعفهن، وعدم الاعتزاز بهن، فحظر الله سبحانه محاباة المرء نفسه أو أهله هنا وإعطائهم ما ليس لهم من الحق، يقابل حظر ظلم النساء واليتامى هناك وهضم ما لهن من الحق. روى ابن المنذر من طريق ابن جريج عن مولى لابن عباس قال «لما قدم النبى ﷺ المدينة كانت ﴿البقرة﴾ أول سورة نزلت ثم أردفتها سورة النساء».. قال فكان الرجل تكون عنده الشهادة قِبَلَ ابنه أو ابن عمه أو ذوى رحمه فيلوى بها لسانه أو يكتمها مما يرى من عسرته حتى يوسر فيقضى فنزلت «كونوا قوامين بالقسط شهداء لله» فتأمل كيف بقى تأثير المحاباة فيهم بعد الإسلام حتى نزلت هذه الآية.

القوامون بالقسط هم الذين يقيمون العدل بالإتيان به على أتم الوجوه وأكملها وأدومها فإن ﴿قوامين﴾ جمع قوام وهو المبالغ فى القيام بالشىء، والقيام بالشىء هو الإتيان به مستويًا تامًا لانقص فيه ولا عوج. لذلك أمر تعالى بإقامة الصلاة وإقامة الشهادة وإقامة الوزن بالقسط لتأكيد العناية بهذه الأشياء، ومَنْ بنى جدارًا مائلاً أو ناقصًا لايقال إنه أقام البناء أو أقام الجدار. قال تعالى «فوجدوا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه»... وإنما احتاج الجدار إلى إقامة لأنه كان مائلا متداعيًا للسقوط. وهذه العبارة أبلغ مايمكن أن يقال فى تأكيد أمر العدل والعناية به. فالأمر بالعدل والقسط مطلقًا يكون بعبارات مختلفة بعضها آكد من بعض.. تقول

اعدلوا أو اقسطوا وتقول كونوا عادلين أو مقسطين وهذه أبلغ لأنها أمر بتحصيل الصفة لابمجرد الإتيان بالقسط الذى يصدق بمرة.

وتقول: أقيموا بالقسط، أى لتكن المبالغة والعناية بإقامة القسط على وجهه صفة من صفاتكم، بأن تتحروه بالدقة التامة حتى يكون ملكة راسخة فى نفوسكم، والقسط يكون فى العمل كالقيام بما يجب من العدل بين الزوجات والأولاد، ويكون فى الحكم بين الناس ممن يوليه السلطة.. أو يحكمان الناس فيما بينهم، وكان ينبغى أن يكون المسلمون بمثل هذه الهداية أعدل الأمم وأقومهم بالقسط وكذلك كانوا عندما كانوا مهتدين بالقرآن، وصدق على سلفهم قوله تعالى: «وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون».. ثم خلف من بعد أولئك السلف خلف نبذوا هداية القرآن وراء ظهورهم، حتى صارت جميع الأمم تضرب المثل بظلم حكامهم وسوء حالهم، وتفخر عليهم بالعدل بل صار الذين ليس لهم من الإسلام إلا اسمه يلتمسون من تلك الأمم القسط، ومايهدى إليه من العلم. انظر الآية (٨) من سورة المائدة صفحة ١٣٧.

وقوله تعالى: ﴿شهداء لله﴾ خبر بعد خبر أى كونوا شهداء لله والشهداء جمع شهيد بوزن ﴿فعيل﴾.. والأصل فى صيغة: فعيل: أن تدل على الصفات الراسخة كعليم وحكيم فهو على هذا أمر بالعناية بأمر الشهادة والرسوخ فيها، وقد تقدم تفسير الشهادة فى تفسير أواخر سورة البقرة فتراجع فى الجزء الثانى من تفسير المنار، ومعنى كون الشهادة لله أن يتحرى فيها الحق الذى يرضاه ويأمر به من غير مراعاة ولامحاباة لأحد ﴿ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ أى كونوا شهداء بالحق لوجه الله وامتثال أمره واتباع شرعه، الذى تنال به مرضاته ومثوبته. ولو كانت الشهادة على أنفسكم بأن يثبت بها الحق عليكم ومن أقر على نفسه بحق فقد شهد عليها لأن الشهادة إظهار الحق. أو على والديكم وأقرب الناس إليكم كأولادكم وإخوتكم، فإنه ليس من بر الوالدين ولا من صلة رحم الأقربين أن يعانوا بما ليس لهم بحق، بالإعراض عن الشهادة عليهم، أو ليّها والتحريف فيها لأجلهم، وإنما البر والصلة فى الحق والمعروف والحق أحق أن يتبع. والذين يتعاونون على الظلم وهضم حقوق الناس يتعاون الناس على ظلمهم وهضم حقوقهم.

فتكون المحاباة فى الشهادة من أسباب فشو الظلم والعدوان، وذلك من المفاسد التى لايأمن شرها أحد من الناس. فالمحاباة فى الشهادة مفسدة ضررها عام وإن كانت لمصلحة يريد المحابى بها نفع أهله أو الشفقة على فقير أو العصبية لغنى ولذلك قال عز وجل: ﴿إن يكن غنيا أو فقيرًا فالله أولى بهما﴾ أى إن يكن المشهود عليه من الأقربين أو غيرهم غنيًا أو فقيرًا فالله أولى بهما وشرعه أحق أن يتبع فيهما. فلا تحابوا الغنى طمعًا فى بره، ولا خوفًا من شره، ولا الفقير عطفًا عليه ورحمة به، فمرضاة الفقير ليست خيرًا لكم ولا له من مرضاة الله تعالى، ولا أنتم أرحم بالفقير وأعلم بمصلحته من ربه عز وجل، ولولا أنه تعالى يعلم أن العدل وإقامة الشهادة بالحق، هى خير للشاهد والمشهود عليه، سواء كان غنيًا أو فقيرًا لما شرع الله ذلك وأوجبه، روى ابن جرير عن السدى فى الآية قال نزلت فى النبى ﷺ اختصم إليه رجلان غنى وفقير فكان حلفه مع الفقير يرى أن الفقير لايظلم الغنى فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط فى الغنى والفقير. أ هـ. أى كان ميله القلبى موجهًا إلى الفقير لظنه أنه لايتصدى لظلم الغنى وهو وإن ظن ذلك لايحكم إلا بالحق الذى تظهره البينة والحجة سواء أنزلت الآية فى ذلك أم لا، وروى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى هذه الآية أنه قال. ونعم ما قال. هذا فى الشهادة فأقم الشهادة يابن آدم ولو على نفسك أو الوالدين أو الأقربين أو على ذى قرابتك وأشراف قومك فإنما الشهادة لله وليست للناس، وأن الله رضى بالعدل لنفسه والإقساط... والعدل ميزان الله فى الأرض، به يرد الله من الشديد على الضعيف ومن الصادق على الكاذب، ومن المبطل على المحق، وبالعدل يصدق الصادق ويكذب الكاذب، ويرد المعتدى ويوبخه ربنا تبارك وتعالى، وبالعدل يصلح الناس،....

يابن آدم إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما، يقول الله: أنا أولى بغنيكم وفقيركم، ولايمنعك غنى غنّى ولافقر فقير أن تشهد عليه بما تعلم فإن ذلك من الحق. أ. هـ.

.. فلا تتبعوا شهوات أنفسكم فى شهادتكم كراهة أن تعدلوا بين الخصمين فى الشهادة لأن العدل لا يفوت عليكم إلا متعة زائلة، وأن تحرفوا الشهادة أو تكتموها بأن لاتشهدوا أصلاً، يجازكم الله أشد الجزاء لأنه سبحانه خبير بكل ماتعملون يأيها الذين آمنوا من أتباع محمد آمنوا بالله ورسوله إلخ. المراد اثبتوا على الإيمان بالله ورسوله واجمعوا بين الإيمان بالله

وبخاتم رسله وبالقرآن، وبين الإيمان بالكتب التى أنزلها الله على الأنبياء من قبل كالتوراة والإنجيل الصحيحين وصحف إبراهيم وزبور داود. والإيمان على هذا الوجه هو مزية هذه الأمة انظر الآية (٢٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٦١، ٦٢ وانظر نظير ذلك فى الآية (٢٨) من سورة الحديد صفحتى ٧٢٣، ٧٢٤...

ومَنْ يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل وبعد عن الحق. ثم شرع سبحانه فى بيان بعض أصحاب هذا الضلال فقال: إن الذين آمنوا ثم كفروا إلخ هم بعض المنافقين الذين أظهروا الإيمان ثم أظهروا الكفر ثم ازدادوا كفرًا بمحاربتهم النبى ﷺ وإيذاء أصحابه حتى تمكن الجحود من قلوبهم فلم يبق فيها استعداد للإيمان الصحيح لايمكن أن يغفر الله لهم لأنه لايغفر الكفر كما تقدم فى الآية (٤٨) من هذه السورة صفحة ١٠٨، ولايهديهم إلى الطريق الموصل للجنة، لأنه سبحانه لايهدى الفاسقين كما فى الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧. وأخبر أيها النبى المنافقين بأن لهم عذابا شديد الألم؛ هؤلاء المنافقون همْ الذين يتخذون الكافرين أولياء يوالونهم بالمودة وينصرونهم فى السر متجاوزين ولاية المؤمنين ومعرضين عنها. هل بعملهم هذا يطلبون عند الكافرين العزة والقوة؟ إن كان كذلك فهم مخطئون لأن القوة والعزة كلها لله وللمؤمنين المخلصين كما فى الآية (٨) من سورة المنافقون صفحة ٧٤٤.

يتخذونهم أولياء وأصفياء ويجالسونهم والحال أن الله قد نزل عليكم أيها المسلمون جميعا بما فيكم المنافقون فى القرآن بمكة فى الآية (٦٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٢، ١٧٣. أن إذا سمعتم آيات الله من القرآن يكذبها المشركون ويستهزئون بها باللغو عند سماعها كما فى الآية (٢٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢ فلا تقعدوا يا مَنْ أظهرتم الإسلام مع الكافرين المستهزئين حتى ينتقلوا لحديث غير الاستهزاء، وذلك أن المسلمين بمكة كانوا ضعافًا فلا علاج لحفظهم كرامة القرآن إلا الانصراف عن الخوض فيه.

وإذا كنتم ممنوعين من الجلوس معهم عند سماع ما فيه طعن فى دينكم فكيف توالونهم وتتخذون منهم أصفياء.

فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ[1] وَٱلْكَٰفِرِينَ[2] فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ
يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن
مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ[3] نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ
عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ[4] وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ[5] عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ[6] يُخَٰدِعُونَ[7] ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ[8]
وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ[9] قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ
وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ
لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن
تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟
ٱلْكَٰفِرِينَ[10] أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن

﴿يتربصون بكم﴾: ينتظرون مايحل بكم من خير أو شر.

﴿فتح من الله﴾: المراد فتح الله عليكم باب خير.

﴿للكافرين نصيب﴾: حظ من النصر.

﴿نستحوذ عليكم﴾: يريدون ألم نحافظ عليكم وكنا قادرين على أسركم ولكنا لم نفعل إخلاصا منا لكم.

المعنى: . إنكم إذا قعدتم معهم وهم يهزءون تكونون مثلهم فى الكفر لإقراركم لهم عليه وعدم إنكاركم أو انصرافكم. وهذه الجملة تعليل للنهى غير داخلة فيما أنزل قبل فى الأنعام. ثم توعد سبحانه الفريقين فقال: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا﴾. هؤلاء المنافقون هم الذين ينتظرون مايحل بكم. فإن كان لكم فتح من الله بنعمة النصر والغنيمة قالوا نحن معكم فى الدين والجهاد فأعطونا مماغنمتم انظر الآيتين (٧٢، ٧٣) من هذه السورة صفحة ١١٢. أن كان للكافرين نصيب من

(١) المنافقين.
(٢) والكافرين.
(٣) للكافرين.
(٤) القيامة.
(٥) للكافرين.
(٦) المنافقين.
(٧) يخادعون.
(٨) خادعهم.
(٩) الصلاة.
(١٠) الكافرين.

النصر والغنائم قال هؤلاء المنافقون للكافرين: ألم نحافظ عليكم ونمنعكم من إيذاء المؤمنين لكم بالقتل والأسر بتخذيلهم وإطلاعكم على أسرارهم حتى انتصرتم، فأعطونا مما كسبتم.

فالله يحكم بين صادق الإيمان منكم والمنافق يوم القيامة، فيدخل الصادق الجنة والمنافق النار، أما فى الدنيا فكل منكما معصوم الدم والمال لنطقه بكلمة التوحيد، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين المخلصين فى إيمانهم القائمين على حدود الله طريقا إلى النصر عليهم، أى لايمكنهم من أن يغلبوهم. إن هؤلاء المنافقين يفعلون مع الله عز وجل فعل المخادع، حيث يظهرون أمارات الإيمان ويبطنون الكفر، وهو سبحانه يفعل معهم ذلك أيضًا حيث حفظ دماءهم وأموالهم فى الدنيا، وأعد لهم فى الآخرة الدرك الأسفل من النار. وإذا قاموا للصلاة مع المؤمنين قاموا متثاقلين بلا نشاط ولا رغبة، يظهرون للناس أنهم مؤمنون، ولا يذكرون الله إلا قليلا، وهو مايفعلونه أمام المؤمنين إذا اضطروا لذلك فى صلاة أو حج مثلاً، يقفون هذه المواقف حال كونهم مذبذبين أى جعلهم الشيطان مترددين بين المذكور من المؤمنين المخلصين والكافرين المعلنين. ثم فسر هذه الذبذبة بقوله لا إلى هؤلاء إلخ.. أى لا منسوبين إلى المؤمنين حقيقة لإضمارهم الكفر، ولا منسوبين إلى الكافرين المعلنين لتظاهرهم بالإيمان ومَنْ يضلله الله لعدم استعداده للهداية كما فى الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧.. فلن تجد له طريقا إلى الهداية.

ثم وجه سبحانه الخطاب للمؤمنين الصادقين فقال: ﴿يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء﴾إلخ.. لأن هذا من فعل المنافقين، فاحذروا أن تقعوا فيه. وقد تقدم تفسير الولاية المنهى عنها فى الآية (٢٨) من سورة آل عمران صفحة ٦٧.

﴿سلطانا مبينا﴾: أى حجة ظاهرة فى استحقاقكم العذاب.

﴿الدرك الأسفل﴾: الدرك الطبقة من المكان الذى له طبقات بعضها فوق بعض.

﴿اعتصموا بالله﴾: أى تمسكوا بكتابه وشرعه.

تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ
لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ۚ
وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ
مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾
إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ
بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ
سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا

﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله... إلخ﴾

قال القرطبى: لما ذكر المشركين والمنافقين ذكر الكفار من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى إذ كفروا بمحمد ﷺ وبين أن الكفر به كفر بالكل لأنه مامن نبى إلا وقد أمر قومه بالإيمان بمحمد ﷺ وبجميع الأنبياء.

ومعنى ﴿يريدون أن يفوقوا... إلخ﴾ أى بين الإيمان بالله والإيمان برسله. فنص سبحانه على أن التفريق بين الله ورسله كفر وإنما كان كفرًا لأنه سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل، ردوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوا منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التى أمرهم الله بالتزامها، فكأنهم جحدوا الصانع سبحانه وجَحْدُ الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية... وكذا التفريق بين رسله فى الإيمان بهم هو أيضًا كفر.

المعنى:. لايصح أن تجعلوا لله عليكم يوم القيامة حجة ظاهرة لتعذيبكم هى اتخاذكم الكافرين أولياء تطلعونهم على أسرار دولتكم ومايضر سلامتها. إن عاقبة المنافقين أنهم يكونون يوم القيامة فى الطبقة السفلى من جهنم، وهى شر طبقاتها، لأنهم شر أهلها، بما جمعوا بين الكفر وبين غش المؤمنين، ولا تجد لهم نصيرًا ينقذهم منها. إلا الذين تابوا من الكفر والنفاق، وأيدوا توبتهم بثلاثة أمور: الأول. أصلحوا ما أفسدوا بأن يجتهدوا فى الأعمال الصالحة.

---

(١) سلطانا. (٢) المنافقين. (٣) الكافرون.

والثانى - اعتصامهم أى تمسكهم بكتاب الله ودينه المتين فتخلقوا بأخلاقه انظر الآية (١٧٥) الآتية فى هذه السورة صفحة ١٢٣، والآية (١٠٣) من سورة آل عمران صفحتى ٧٩، ٨٠.

والثالث - إخلاصهم فى عملهم لله لايريدون إلا رضاه، فلا يقصرون جلب نفع أو دفع ضر، فأولئك الذين يعملون ذلك يكونون رفقاء المؤمنين فى أحكام الدنيا والآخرة، وسوف يؤتيهم الله أجرًا عظيمًا لايعلم قدره سوى المنعم به. وأى شىء من المصلحة يعود عليه سبحانه من تعذيبكم إن شكرتم نعمه بصرف كل ماأنعم به عليكم فيما يرضيه، وهذا لا يكون إلا عن إيمان كامل، ولذا قال: وآمنتم بأنه الواحد صاحب كل هذه النعم. وكان الله شاكرا أى مثيبا على الشكر بأجزل العطاء، عالما بكل ماتعملون فلا يضيع على أحد شيئًا من جزاء عمله. ولما كان التشديد فى التحذير من المنافقين ربما يفيد جواز الجهر بالسوء مطلقا متى كان حقا فيتعود الناس الجرأة على ذكر مساوئ الغير وفى ذلك فساد كبير، حذر سبحانه من هذا فقال: لايحب الله الجهر بالسوء.. إلخ. أى لايرضى عن إعلان القول الذى يسىء الغير، إلا جهر من ظلم بأن يشكو ظالمه لحاكم وغيره ممَّنْ يرجو مساعدته فى رفع الظلم. وإنما خص النهى عن الجهر بالسوء مع أن التناجى به منهى عنه أيضا كما فى الآية (٨) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٦. لأن المقام هنا فى الجهر بعيوب المنافقين ولأنه أشد ضررًا وأجاز الشارع أيضًا قول السوء فى المجاهر بالمعصية للتحذير منه وكذا فى الشهادة وفى مواضع أخرى يترتب على قول الحق فيها مصلحة راجحة.. انظر شيئًا من ذلك فى شرح الآيتين (١١، ١٢) من سورة الحجرات صفحة ٦٨٦.

إن الله كان سميعا لقول السوء، عليما بالسبب الباعث عليه من دفع ظلم أو مجرد تشنيع، وبعد ذلك أراد سبحانه أن يبين حكم إبداء الخير من قول أو فعل وإخفائه، وحكم العفو عن الجهر بالسوء فقال: ﴿إن تبدوا خيرا﴾ أى تظهروا الخير من قول أو فعل، أو تفعلوه سرًا وتصفحوا عمن أساء بعد القدرة عليه، فإن الله يجزيكم أحسن الجزاء، ويعفو عن سيئاتكم، لأنه سبحانه كثير العفو، قدير لا يعجزه الثواب الكثير على العمل القليل. وإنما خص العفو

لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن
تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ
مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ
ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن
ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ
ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا
لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾
فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ
ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا
بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ

بالذكر فى الجزاء لأنه أشق على النفس وأهم المقاصد فى الألفة بين الناس. إن الذين يكفرون بالله وبرسله ثم بيَّن كيفية كفرهم به تعالى مع أنهم يقرون به فقال ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله فى الإيمان به تعالى والكفر بهم كلهم أو بعضهم، وهؤلاء الأخيرون هم الذين يقولون نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض، فاليهود الذين آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمَّد، والنصارى الذين آمنوا بموسى وعيسى وكفروا بمحمد ويريدون بقولهم هذا أن يتخذوا بين الإيمان الصحيح والكفر طريقا أى دينا وسطا يدينون به مع أنه لا وسط بين الإيمان والكفر كما فى الآية (٣٢) من سورة يونس صفحة ٢٧١؛ أولئك الذين فرقوا؛ بين الله ورسله وبين أنبيائه هم المبالغون فى الكفر. ثبت هذا الحكم ثبوتا قاطعا لأن عدم الإيمان برسول واحد ممَّنْ ثبتت رسالتهم كفر به تعالى، لأنه تكذيب له فى أخباره بأنه اختاره رسولاً، وأعتدنا أى وأعددنا وهيأنا.

﴿الصاعقة﴾: قصفة الرعد المصحوبة بنار. ﴿اتخذوا العجل﴾: أى جعلوه إلها وعبدوه؛ انظر الآية (١٤٨) من سورة الأعراف صفحة ٢١٥ ونلاحظ أن ذكر اتخاذ العجل بعد طلب رؤية الله جهرة للترقى فى ذكر الجرائم أو للترتيب الزمنى، لأن اتخاذ العجل كان قبل طلب الرؤية، انظر الآية (٥١) من سورة البقرة صفحة ١٠ وكذا الآية (٥٥) من نفس السورة صفحة ١١ والآية (١٤٨) من سورة الأعراف صفحة ٢١٥ ومابعدها إلى الآية (١٥٥) ﴿سلطانا مبينا﴾:

---

(١) للكافرين. (٢) يسألك. (٣) الكتاب. (٤) كتابًا.
(٥) الصاعقة. (٦) البينات. (٧) سلطانا. (٨) بميثاقهم.
(٩) ميثاقا. (١٠) ميثاقهم. (١١) بآيات.

أى سلطة ظاهرة فأخضعناهم له مع شدة تمردهم فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا انظر الآية (٥٤) من سورة البقرة صفحة ١١. ﴿رفعنا فوقهم الطور﴾: الجبل الذى ناجى موسى ربه عليه.

﴿بميثاقهم﴾: أى بسبب إعطائهم العهد بأن يطيعوا ويعملوا بما فى التوراة. ﴿الباب﴾: باب القرية كما فى الآية (٥٨) من سورة البقرة صفحة ١١. ﴿لاتعدوا فى السبت﴾: أى لاتتجاوزوا حدود الله بالصيد يوم السبت كما فى الآية (١٦٣) من سورة الأعراف صفحة ١١٩.

﴿ميثاقا غليظا﴾: عهداً مؤكداً.

﴿فيما نقضهم ميثاقهم﴾: أصلها بنقضهم أى بسبب نقضهم العهود، وزيدت ﴿ما﴾ لتأكيد سببية ماذكر فى لعنهم المفهوم من المقام، وجاء صريحا فى الآية (١٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٨.

﴿قلوبنا غلف﴾: أى مغلفة لاتفهم ماتقول يامحمدً.

﴿بل طبع الله عليها﴾: الطبع أى التغطية والختم.

المعنى: أعددنا لهم بسبب كفرهم عذابا شديد الإهانة والذين آمنوا بالله ورسله كلهم ولم يفرقوا بين أحد منهم، فلا يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض كما فعل غيرهم، أولئك سوف نؤتيهم أجورهم التى وعدناهم بها وهى الجنة. وكان الله غفورًا لهفوات مَنْ صلح إيمانه، رحيما به فيضاعف حسناته يسألك أيها النبى أهل الكتاب ﴿اليهود﴾ أن تنزل عليهم كتابا من السماء جملة واحدة كما نزل على موسى ألواح الوصايا العشر، انظر الآية (٣٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤، وجعلوا ذلك شرطا لإيمانهم بك، ولكنهم فى الحقيقة كاذبون كأمثالهم، انظر الآية (٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣.

فلا تحزن لتعنتهم هذا لأنه موروث عن آبائهم، فقد سألوا موسى تعنتا أعظم مما سألك أبناؤهم حيث قالوا أرنا الله عيانا، أى لن نؤمن لك حتى نرى الله كما يرى بعضنا بعضا، انظر الآية (٥٥) من سورة البقرة صفحة ١١. فأخذتهم الصاعقة وأهلكتهم بسبب ظلمهم أنفسهم

حيث شبهوا الخالق بالمخلوق. ثم نذكر لهم جريمة أبشع من ذلك هى أنهم جعلوا من الذهب عجلاً وعبدوه من بعد ما جاءتهم المعجزات على يدى موسى قاطعة بنفى شريك لله عز وجل، ومع ذلك عفونا عنهم ولم نهلكهم جميعا حتى لايبقى لهم نسل. وآتينا موسى قوة وسلطة عليهم جعلتهم يقتلون أنفسهم لتتبل توبتهم كما فى الآية (٥٤) من سورة البقرة صفحة ١١.

ورفعنا فوقهم الطور بسبب أخذ العهد عليهم بأن يعملوا بما فى التوراة بقوة وقلنا لهم ادخلوا باب القرية خاضعين لله منكسى رءوسكم إنكسارا لعظمته، وقلنا لهم أيضا لاتعدوا ولاتتجاوزوا أوامر الله بسبب صيد السمك فى يوم السبت وقد نهاكم عنه، وأخذنا منهم عهدًا مؤكدًا بأن تخلصوا فى العمل بما شرعه الله تعالى لكم ولاتعصوا له أمرًا.

فبما نقضهم إلخ أى فبسبب هذه الجرائم السبع لعناهم، وقد ذكر اللعن صراحة فى الآية (٨٨) من سورة البقرة صفحة ١٧، والآية (١٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٨، والجريمة الأولى كثرة نقضهم العهود، والثانية كفرهم بالبراهين التى أقامها الله دالة على صدق أنبيائه، والثالثة قتلهم الأنبياء بغير حق كقتلهم زكريا ويحيى عليهما السلام، والرابعة قولهم لنبينا ﷺ، قلوبنا غلف لا نفهم ماتقول.

وسارع سبحانه بالرد عليهم فى هذه بقوله، بل طبع الله عليها بسبب كفرهم وجحودهم الذى أفسدها. أى فليس الأمر كما يقولون كما تقدم فى الآية (٨٨) من سورة البقرة صفحة ١٧ فلا يؤمن منهم إلا قليل كعبد الله بن سلام وأصحابه. والخامسة كفرهم بنبوة عيسى عليه السلام بقرينة السادسة ومابعدها، وهى قولهم على مريم إلخ.

﴿بهتانا﴾: كذبا يبهت العقول أى يحيرها.

﴿شبه لهم﴾: أى وقعت الشبهة لهم وظنوا أنهم قتلوه مع أنهم قتلوا غيره ظانين أنه هو.

﴿وماقتلوه يقينا﴾: يقينا صفة لمصدر مفهوم من النفى فى ﴿ما﴾.. أى انتفى نفيًا متيقنًا.

﴿وإن من أهل الكتاب﴾ إن حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾.

عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ
عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن
شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم
بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل
رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا
عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ
ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾
لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ
إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ

﴿والمقيمين الصلاة﴾: قال الزمخشرى فى كتابة الكشاف ﴿المقيمين الصلاة﴾ منصوب على المدح لبيان فضل الصلاة وهذا باب واسع فى لغة العرب، ذكر له سيبويه أمثلة وشواهد وقال الألوسى: ومايتقل عن عثمان باطل إذ كيف يظن بالصحابة وهم فصحاء العرب اللحن فى الكلام فضلاً عن القرآن. وكيف يتصور منهم الخطأ فى أعز كتاب عليهم وكيف يُظن بعثمان عدم المسارعة إلى تغيير خطأ وقع فى القرآن، وكيف يتركه للعرب بعده تقيمه هى بألسنتها. وأيضًا إذا كان الذين جمعوا القرآن وهم خيار الصحابة فكيف يقيمه غيرهم. فلعمرى إن هذا مما يستحيل عقلاً وشرعا وعادة، فالحق إن هذا الخبر المروى عن عثمان باطل... وقال صاحب المنار: هذه جملة مستقلة و ﴿المقيمين﴾ منصوب على المدح على ما قاله سيبويه وغيره من النحاة أى أخص وأمدح المقيمين الصلاة منهم الذين يؤدونها على وجه الكمال فإنهم أجدر المؤمنين بالرسوخ فى الإيمان وهذا الأسلوب لايأتى فى الكلام البليغ إلا لحكمة، والحكمة هنا هى مزية الصلاة وكون إقامتها آية كمال الإيمان على أن تغيير إعراب كلمة بين أمثالها ينبه الذهن للتأمل فيها ويهدى الفكر إلى استخراج مزيتها، وهذا من أركان البلاغة.

المعنى: . وبسبب افترائهم على مريم كذبا شديدًا فى قبحه حيث رموها حماها الله بالزنا . والسابعة قولهم تبجحا واستهتارًا إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله. فوصفهم له بالرسول كان استهزاء منهم قبحهم الله كأمثالهم المشركين فى قولهم لنبينا ﷺ ﴿ياأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ الآية (٦) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨. وكذبهم سبحانه بقوله

---

(١) بهتانا. (٢) الكتاب. (٣) القيامة. (٤) طيبات. (٥) الربا. (٦) أموال.
(٧) بالباطل. (٨) للكافرين. (٩) الراسخون. (١٠) الصلاة.

﴿وماقتلوه وماصلبوه﴾ بعد قتله كما يزعمون، ولكن وقعت لهم شبهة فقتلوا غيره. وإن الذين اختلفوا فى قتله لفى شك من قتله حيث قال بعضهم لما رأى الجثة: الوجه وجه عيسى والجسد ليس بجسده فليس هو، وقال آخرون: بل هو. فما لهم حينئذ بقتله من علم يوثق به، ولكن الذى عندهم مجرد ظن يجرون وراءه، والظن لايغنى من الحق شيئًا خصوصا فى العقائد. ثم بين سبحانه الحقيقة التى يجب اعتقادها فقال: ﴿وماقتلوه يقينا﴾ أى انتفى قتلهم له نفيا متيقنا، بل رفعه الله أى لم ينالوا منه مايهينه، بل أكرمه الله ورفعه مكانا عليا كإدريس، انظر ماتقدم فى الآية (٥٥) من سورة آل عمران صفحتى ٧١، ٧٢. وكان الله عزيزا قاهرا، وغالبا لغيره ولايقهره أحد حكيمًا في تصرفاته، وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى إيمانا صحيحا بأنه عبد الله ورسوله عندما يدركه الموت وينكشف عنه الغطاء فيعلم الحق، فيؤمن اليهودى بأنه نبى صادق لا ابن زنا، ويؤمن النصرانى بأنه عبد الله ورسوله لا إله ولا ابن إله، ولكن إيمانهم هذا لاينفعهم كما لم ينفع فرعون عندما أدركه الغرق. ولا يغرنك أنك لاتدرك هذا وأنت بجوار مَنْ يموت أو يموت فجأة، لأن سر خروج الروح ومدته على الحقيقة لم يستطع العلم الوصول إليها. ألا ترى أنه تعالى أخبر أن ملائكة الموت تضرب الكافر عند موته على وجهه كما فى الآية (٥٠) من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٤، ٢٣٥ مع أن الجالس بجواره لايرى شيئًا. وفائدة إخباره سبحانه بذلك هى حثهم على الإيمان فى وقت ينفع فيه. ويوم القيامة يكون عيسى شاهدًا عليهم بأنه بلغهم، انظر الآية (١١٦) من سورة المائدة صفحتى ١٦٠، ١٦١. فبسبب ما وقع من اليهود من ظلم أنفسهم بما ارتكبوه مما سبق بيانه وماسيأتى حرمنا عليهم طيبات كانت حلا لهم تأديبا لعلهم يرجعون انظر الآية (١٤٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨، وبسبب منعهم من الدخول فى دين الله خلقا كثيرًا، وبسبب أخذهم الربا وقد نهوا عنه فى التوراة فى الإصحاح ٢٣ من سفر التثنية ونظير ذلك فى سفر الخروج الإصحاح ٢٢، ٢٥ وكذلك فى الإصحاح ٢٥، ٣٥ من سفر اللاويين. وأكلهم أموال الناس غير اليهود بباطل افتروه على الله حيث زعموا أن الله أحل لهم مال غير اليهود كما تقدم فى الآية (٧٥) من سورة آل عمران، وقد أعددنا للكافرين من هؤلاء اليهود فى الآخرة عذابا شديد الألم. لكن الراسخين فى علم التوراة الصحيحة قبل التحريف من اليهود كعبد الله بن سلام، والمؤمنون من أصحابك أيها النبى، يؤمنون بما أنزل إليك من القرآن، وما أنزل

ٱلزَّكَوٰةَ[1] وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ
إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ[2] مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ[3]
وَإِسْمَٰعِيلَ[4] وَإِسْحَٰقَ[5] وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ
وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ[6] وَسُلَيْمَٰنَ[7] ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾
وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ[8] عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ
نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾
رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ
حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ
يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ[9] يَشْهَدُونَ ۚ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا[10] بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

من قبلك على موسى وعيسى وإبراهيم، والمقيمين الصلاة، الأصل والمقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة يؤمنون بما أنزل إليك كذلك، لكن لأهمية الصلاة التى هى عماد الدين غير الله سبحانه وتعالى إعراب المقيمون وجعله منصوبا على تقدير فعل مدح، أى أمدح من بين هؤلاء المقيمين الصلاة ليلفت النظر بتغيير الإعراب إلى أهميتها.

﴿الأسباط﴾: جمع سبط وهو ولد الولد. والمراد هنا ذرية أولاد يعقوب ومعنى الإيحاء إليهم هو الإيحاء إلى أنبيائهم الكثيرين لأنه لم يكثر فى أمة واحدة من الأمم أنبياء مثل ما كثروا فى بنى إسرائيل كما أنه لم تجرأ أمة على قتل أنبيائهم مثل جرأة بنى إسرائيل على ذلك انظر بقية الكلام على الأسباط فى شرح الآية (١٣٦) من سورة البقرة صفحة ٢٦.

﴿زبورا﴾: المراد به كتابا، وكان فيه حكم ومواعظ وثناء على الله عز وجل.

﴿تكليما﴾: خاصًا وهو أنه بلا واسطة مَلَكِ كالمعتاد مع الرسل.

المعنى: - والمؤتون الزكاة والمؤمنون من كل الأمم بالله واليوم الآخر يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك، ليس أحد من هؤلاء كاليهود والنصارى المتعصبين الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، أولئك الموصفون بما تقدم سنؤتيهم فى الآخرة أجرًا عظيما لايخطر على قلب بشر. ولما كان اليهود يؤمنون بنبوة نوح عليه السلام وكل الأنبياء من بعده، وليس نوح وكثير مِمنْ بعده من اليهود أراد سبحانه أن يثبت تعنتهم بإفحامهم بأن محمدا ﷺ فرد من أفراد

---

(١) الزكاة. (٢) والنبيين. (٣) إبراهيم. (٤) وإسماعيل.
(٥) وإسحاق. (٦) وهارون (٧) وسليمان. (٨) قصصناهم.
(٩) والملائكة. (١٠) ضلالا.

أنبياء الله الكثيرين فلم كفرتم به، فما ذاك إلا لحسدكم له لأنه ليس منكم، فقال سبحانه: إنا أوحينا إليك أيها النبى كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده كهود وصالح وشعيب وغيرهم، وأوحينا كذلك إلى إبراهيم وذريته، وذكرهم بخصوصهم مع أنهم داخلون فى النبيين الذين بعد نوح ليبين لليهود أن منهم أنبياء كثيرين فلا يجوز أن يبخلوا على العرب بنبى واحد. وكذلك أرسلنا رسلاً قد ذكرناهم لك من قبل هذه السورة كما فى الآيات من (٨٣) إلى (٨٦) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٥، ١٧٦ مما نزل بمكة، ورسلاً لم نذكرهم لك فلا يعلمهم إلا الله تعالى، انظر الآية (٧٨) من سورة غافر صفحة ٦٢٨، وكلم الله موسى تكليما بلا واسطة، فهو رسول أيضا موحى إليه؛.. أرسلنا هؤلاء جميعًا رسلا مبشرين المؤمنين بالجنة والكافرين بالنار لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل، أى إنما أرسلناهم منذرين لنقطع حجة مَنْ يقول لو أرسلت إلينا رسولاً منا، انظر الآية (١٣٤) من سورة طه صفحة ٤١٩، والآية (٤٧) من سورة القصص صفحة ٥١٣، وكان الله عزيزًا لايغلب على مايريد، حكيما فى تصرفه، ومنه قطع حجة المعاندين. ولما كان كل ماتقدم يوجب على كل منصف أن يشهد بصدق رسالته ﷺ أراد سبحانه أن يطمئن نبيه إذا استمروا على عنادهم ولم يشهدوا له بالصدق. فقال سبحانه: ﴿لكن الله يشهد﴾. أى إذا لم يشهدوا هم فالله يشهدلك، وكفى به شهيدا بصحة ما أنزل إليك، أنزله مع علمه بأنك أهل لإنزاله عليك، والملائكة أيضًا يشهدون لك، فلا تبال بإنكار المعاندين. ثم بيَّن سبب إنكارهم وهددهم فقال: إن الذين كفروا بعدم تصديقك ومنعوا الناس عن الدخول فى دين الله قد ضلوا وبعدوا عن الحق مسافات بعيدة لايمكنهم الرجوع إلى الهدى. ثم كرر وصفهم بالكفر توبيخا لهم فقال: ﴿إن الذين كفروا﴾ إلخ....

﴿لاتغلوا فى دينكم﴾: لاتتجاوزوا الحدود فى دينكم الذى اخترتموه، وقد جاوزت اليهود فأنزلت المسيح عن منزلته، وتجاوزت النصارى فى تعظيمه حتى قالوا إنه ابن الله. ﴿وكلمته﴾.. أى تحقيق كلمة = كن = ﴿وروح منه﴾: أى سر من أسراره فى كيفية خلقه وفى معجزاته.

المعنى: وظلموا محمد رسول الله بإنكار صفته التى عندهم فى التوراة؛ لم يكن الله ليغفر لهم ماداموا على الكفر، ولا ليهديهم طريقا إلى الصواب إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدًا. وكان تخليدهم فى جهنم هينا على الله تعالى.

وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾
إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى
اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ
بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا
تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ
فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا
لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ
وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا

يأيها الناس جميعا بما فيكم أهل الكتاب قد جاءكم الرسول المعروف بعلاماته عندكم.. انظر الآية (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨ بالقرآن المشتمل على الحق فآمنوا به تفعلوا خيرا لأنفسكم، وإن تكفروا فلن تضروا الله شيئًا لأن له مافى السموات ومافى الأرض فهو غنى عنكم وعن عبادتكم، وإن يشأ يأت بخير منكم، انظر الآية (١٩) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٢، والآية (٣٨) من سورة محمد صفحتى ٦٧٧، ٦٧٨؛ وكان الله عليما بمَنْ يؤمن ومَنْ لايؤمن، حكيما لايسوى بينهما فى الجزاء، انظر الآية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧.

يأهل الكتاب لاتتجاوزوا الحدود فى دينكم فتنقصوا من رفعة الله أو ترفعوه إلى منزلة الألوهية، فلا تقولوا على الله إلا الحق الثابت بنص أو برهان، ولم يقل الله تعالى لكم عن المسيح شيئًا مما تزعمون. إنما المسيح رسول الله إلى بنى إسرائيل، أى لاابن الله ولا ابن زنا، وأثر كلمة ﴿كن﴾ التى ألقاها الله تعالى إلى مريم وروح منه تعالى. فآمنوا بالله على الوجه اللائق به من أنه سبحانه ليس له ولد، وبرسله فلا تقولوا على أحدهم أنه ابن زنا، ولاتقولوا أيها النصارى الآلهة ثلاثة:

الأب والابن وروح القدس، أو الله وعيسى وأمه كما فى الآية (١١٦) من سورة المائدة صفحتى ١٦٠، ١٦١. انتهوا عن هذا القول الباطل يكن انتهاؤكم خيرا لكم. ثم قرر سبحانه الحق الذى يجب أن يعتقد فقال: إنما الله إله واحد تنزيها له من أن يكون له ولد. وكيف يكون ذلك وكل ما فى السموات والأرض ملكه وعبيده، فكيف يكون عبده المملوك له جزءا منه وولدا

(١) خالدين. (٢) السموات. (٣) الكتاب. (٤) ألقاها.
(٥) ثلاثة. (٦) واحد. (٧) سبحانه. (٨) السموات.

لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً

له. وكفى بالله وحده وكيلا حافظًا لما فى السموات والأرض ومدبرًا له، فليس فى حاجة إلى ولد. وكيف كان يدبرها سبحانه آلاف السنين قبل وجود هذا الولد المزعوم الذى لم يمكث على وجه الأرض سوى بضع سنين. ثم رد على النصارى بما هو أبلغ فقال: لن يستنكف أى لن يترفع المسيح ويأنف أن يكون عبد الله...

﴿المقربون﴾: هم خواص الملائكة كجبريل وميكائيل وعزرائيل.

واعتصموا به﴾: أى تمسكوا بالقرآن.

﴿الكلالة﴾: تطلق الكلالة على مَنْ ليس له والد ولا ولد عند موته وفى المنار عند تفسير الكلالة فى الآية (١٢) من سورة النساء.. يقول صاحب المنار: إن الله أنزل آيتين فى الكلالة هذه الآية. والآية (١٧٦) من سورة النساء.

فبيَّن فى هذه الآية مايرثه الإخوه لأم من الكلالة فقط للحاجة إلى ذلك وعدم الحاجة عند نزول الآية إلى بيان مايأخذه إخوة العصب، وكأنه وقع بعد ذلك إرث كلالة فيه إخوة عصب وسئل النبى صلوات الله تعالى عليه عن ذلك فنزلت الآية الأخرى التى فى آخر السورة جعلت للأخت الواحدة النصف إن انفردت، وللأختين فاكثر الثلثين، وللأخ فاكثر كل التركة.

﴿وله أخ أو أخت﴾: أجمع الصحابة على أنهما من الأم

المعنى: - ولا الملائكة المقربون يأنفون أن يكونوا عبيدًا لله.

وإذا كانت شبهتكم فى جعل عيسى إلها أنه ولد من غير أب وأنه كان يحيى الموتى إلخ فالملائكة كذلك من غير أب، وأعمالهم الخارقة أقوى من أعمال عيسى، بل عيسى نفسه كان

---

(١) الملائكة. (٢) الصالحات. (٣) برهان. (٤) صراطا. (٥) الكلالة.

بنفخة من جبريل؛ انظر الآية (١٧) من سورة مريم صفحة ٣٩٧، والآية (١٢) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣. وقد بلغ من قوة الملائكة أن يقتلع أحدهم المدينة بأكملها ويجعل عاليها سافلها، فكانوا أولى بأن تجعلوهم آلهة، وهذا مالم يقل به أحد منكم.

ومَنْ يستنكف عن عبادة الله من جميع الخلق ويستكبر عنها غرورا بنفسه، فسيحشرهم أى ومعهم مَنْ لم يستنكف ولم يتكبر، سيحشرهم جميعا. ويدل على أن المراد الجميع العاصى منهم والطائع التفصيل الآتى فى قوله: فأما الذين آمنوا ولم يستنكفوا وعملوا الصالحات فيوفيهم الله أجورهم الحسنة بعشر أمثالها ويزيدهم على ذلك من فضله إلى سبعمائة ضعف وإلى أكثر من ذلك، انظر الآية (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥. وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا شديدًا ولايجدون يوم القيامة صديقا يشفع لهم ولانصيرا يدفع عنهم بقوته العذاب.

وبعدما أقام الحجة على جميع الكافرين والمنافقين خاطب الجميع بقوله: يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم، أى حجة قاطعة، وهى المعجزات ودلائل التوحيد، وأنزلنا إليكم بواسطة رسولنا محمد ﷺ نورًا هو القرآن فيه بيان لكل ما تحتاجون إليه، فأما الذين آمنوا بالله إيمانا صحيحا وتمسكوا بما فى القرآن من عقائد وأحكام فسيدخلهم يوم القيامة فى دار رحمته وهى الجنة، ويمن عليهم بفضله وهو النظر إلى وجهه الكريم، أما فى الدنيا فيهديهم أى يوفقهم إلى سلوك طريق النجاة وهو الإسلام الصحيح. وقد ذكر جزاءهم فى الآخرة للمسارعة إلى تبشيرهم بالمقصود الأصلى. ولما تقدم فى الآية (١٢) صفحة ١٠٠ ذكر الكلالة، وكان الإخوة فيها لأم، سأل بعضهم النبى ﷺ عن حكم مَنْ له أخ أو أخت لأبوين أو لأب، فقال تعالى: يستفتونك أيها النبى أى فى الكلالة، بدليل الجواب، قل لهم: الله يفتيكم فيها، ثم بين الفتوى بقوله: إن امرؤ هلك أى مات ليس له ولد ذكر أو أنثى أى ولا والد لأن هذا هو الكلالة كما تقدم أول السورة، لأنه لو كان للميت والد لحجب جميع الأخوة، فتوريث الإخوة هنا يدل على عدم الوالد، وله أخت من أبوين أو أب فلها نصف ماترك، وهو أى الأخ من أبوين أو أب يرثها فى جميع ماتركت إن لم يكن لها ولد، أى ولا والد كما تقدم؛ فإن كان لها ولد ذكر فلا شىء للأخ، وإن كان أنثى فللأخ ما بقى بعد نصيب الأنثى أو الإناث، وإن كانتا أى الأختان اثنتين فصاعدا فلهما الثلثان مما ترك الأخ، وإن كانوا أى الورثة إخوة رجالا ونساء أى فيهم من النوعين..

فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟
وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

(٥) سُورَةُ المائدة مدنية
وآياتها عشرون ومائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ
ٱلْأَنْعَٰمِ[١] إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟
شَعَٰٓئِرَ[٢] ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ[٣]
وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ
وَرِضْوَٰنًا[٤] ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ

فللذكـر من هؤلاء الأخـوة مـثل حظ أى نصيب الأنثيين.. يبين الله لكم أمور دينكم وتفصيل فرائضكم، كراهة أن تضلوا وتبتعدوا عن الصـواب فى أعـمـالكم وفى قـسـمـة التركات. والله بكل شىء عليم، فلا يشرع لكم إلا ما فيه مصلحتكم. فله الحمد والشكر.

سورة المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أوفـوا﴾: الوفـاء الإتيـان بالشىء وافيـا تاما. ﴿العـقـود﴾: هـى العهـود المؤكدة التى أخـذها الله على عـباده، أو أخـذها العبـاد بعضهم على بعض فيما هو جائز شرعًا.

﴿بهـيـمـة﴾: هى كل حيـوان من شـأنه ألا ينطق. ﴿الأنعـام﴾: هـى الإبل والبـقـر وتشمل الجاموس والغنم الضأن والمعز.

﴿الصيد﴾: هو ما يصاد من الحيوان الوحشى، كالظباء، والبقر والحمير الوحشيتين كما سيأتى فى الآيتين (٩٥، ٩٦) من هذه السورة صفحة ١٥٦.

﴿حُرُم﴾: جمع حرام وهو المحرم بضم فسكون، وهو مَنْ كان فى أرض الحرم أو كان ناويًا حجًا أو عمرة ولو لم يكن دخل أرض الحرم.

﴿شعائر الله﴾: تقدم بيانها فى الآية (١٥٨) من سورة البقرة صفحة ٣٠، والمراد بها هنا مـا جعل شـعـارًا وعـلامـة على أعـمـال ومناسك الحـج والعـمـرة من إحـرام وطواف وسـعى

---

(١) الأنعام. (٢) شعائر.
(٣) القلائد (٤) ورضوانا

إلخ..﴿الشهر الحرام﴾: المراد جنس الشهر الحرام، فيشمل الأشهر الحرم الأربعة المبينة فى الآية (١٩٤) من سورة البقرة صفحة ٢٨، والآية (٣٦) من سورة التوبة صفحة ٢٤٦. ﴿الهدى﴾: هو ما يهدى إلى بيت الله من الأنعام للتوسعة على فقرائه. ﴿القلائد﴾: جمع قلادة وهى ما يوضع فى عنق الهدى ليكون علامة على أنه مهدى للكعبة حتى لا يتعرض له أحد، وإحلال القلائد المنهى عنه يكون بنزعها من عنق الحيوان المهدى للبيت الحرام وما كانت العرب تقلد الإبل وإنما كانت تقلد البقر والغنم. ﴿ءَامين البيت﴾: قاصدين البيت للحج أو العمرة، انظر الآية (٩٧) من سورة آل عمران صفحة ٧٨. ﴿ورضوانا﴾: هو الرضى العظيم انظر شرح الآية (١٦) من سورة المائدة صفحة ١٣٩.

﴿إذا حللتم﴾: أى خرجتم من الإحرام أو من أرض الحرام.

﴿يجرمنكم﴾: يحملنكم. ﴿شنآن﴾: أى بغض.

المعنى: . كان كثير من الكلام فى السورة السابقة فى مجادلة أهل الكتاب، وكان اليهود منهم مشهورين بنقض العهود وتحريم ما أحل الله عز وجل وبالعكس، وكان الكلام معهم فى هذه السورة كثيرًا أيضًا فى نحو ٨٦ آية. قال سبحانه: يأيها الذين آمنوا حافظوا على العهود ولا تكونوا مثل غيركم، وقد أحل الله لكم أكل لحم بهيمة هى الأنعام كلها، ولم يحرم عليكم إلا ما سيتلى عليكم فى الآية الثالثة ﴿من هذه السورة﴾. ولم يحل لكم ما يصاد من الحيوان الوحشى وأنتم فى أرض الحرم ولم لم تكونوا محرمين بحج، أو وأنتم محرمون بالحج أو العمرة ولو لم تكونوا فى أرض الحرم، إن الله يقضى ما يريد القضاء به كما تقتضيه حكمته. ولا تجعلوا شعائر دين الله حلالاً تتصرفون فيها كما تريدون من التهاون فيها، أو تصيدون فى الحرم إلى غير ذلك مما فيه استهزاء بها، ولا تحلوا القلائد بنزعها عن عنق الهدى فتعرضوها لأخذ الناس لها فضلاً عما فى ذلك من احتقار شعيرة من شعائر الله تعالى. ولا تحلوا دم وأموال القاصدين للبيت الحرام يطلبون فضلاً من الله أى رزقا بالتجارة ورضوانا بالحج. وإذا خرجتم من الحرم أو فرغتم من أعمال الحج فاصطادوا ما شئتم من صيد البر. ولا يحملنكم بغضكم...

قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟
وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ
وَٱلْعُدْوَٰنِ(١) ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾
حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ
لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ
وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن
تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ(٢) ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ
لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ
ٱلْإِسْلَٰمَ(٣) دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ
لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ(٤) مَاذَآ أُحِلَّ
لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ(٥) ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ

المفردات: . ﴿الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾: هذه الأربعة ذكرت على سبيل الحصر فى الآية (١٧٣) من سورة البقرة وشرحت هناك صفحة ٣٣، وذكرت كذلك فى الآية (١٤٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٨٧ ، ١٨٨ والآية (١١٥) من سورة النحل صفحة ٣٦٢ . ﴿المنخنقة﴾: ما حبس نفسها حتى ماتت. ﴿الموقوذة﴾: هى ما ضربت بشيء ثقيل كحجر أو عصا حتى ماتت. ﴿المتردية﴾: هى ما وقعت من مكان مرتفع أو فى مكان منخفض بئر فماتت. ﴿النطيحة﴾: هى التى نطحتها أخرى حتى ماتت. ﴿وما أكل السبع﴾: المراد به كل حيوان مفترس كالذئب والفهد والسبع مثلاً، والمراد ما أكل بعضها فماتت من جرحه. ﴿ذكيتم﴾: ذبحتم. ﴿وما ذبح على النصب﴾: نصب جمع نصيب بمعنى منصوب، وكانت حجارة ينصبها العرب حول الكعبة يذبحون عليها تعظيمًا لآلهتهم. ﴿تستقسموا بالأزلام﴾: أى تعرفون ما قسم لكم فى الغيب بواسطة القرعة بالأزلام وهى جمع زلم بفتحتين وهو السهم، وكانت العرب تأخذ ثلاثة منها مكتوب على أحدها: أمرنى ربى، وعلى الثانى: نهانى ربى، وليس على الثالث شيء، ويضعونها فى جراب، ومن أراد سفرًا أو عمل شيء أخرج واحدا منها، فإن خرج الأول سافر أو فعل ما يريد، وإن خرج الثانى امتنع، وإن خرج الثالث أعاد القرعة. ﴿فسق﴾: أى خروج عن الطاعة. ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى﴾: ﴿اليوم﴾ المراد به الزمن الذى نزلت فيه هذه الآية وكان هذا اليوم قبل وفاته ﷺ بنحو ثمانين يومًا قالت اليهود لعمر بن الخطاب: إن فى كتابكم آية لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، قال عمر وأى آية؟ قالوا: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم... إلخ﴾.

(١) والعدوان. (٢) بالأزلام. (٣) الإسلام (٤) يسالونك (٥) الطيبات.

قال عمر: إنى والله لأعلم اليوم الذى نزلت فيه على رسول الله ﷺ، والساعة التى نزلت فيها. نزلت على رسول الله ﷺ عشية عرفه فى يوم الجمعة، رواه الشيخان وغيرهما.
﴿أكملت﴾: الكمال من الألفاظ التى الأصل فيها ألا تستعمل إلا فى الكيفيات والمعنويات، لا فى الكميات والحسيات، فيقال: فلان كامل الخُلق، ولا يقال تام الخُلُق فالكمال بحر لا ساحل له، ولذا يقال: الكمال لله وحده. ولهذا ناسب أن يكون فى جانب الدين لأنه هو الوسيلة الوحيدة للسعادة الخالدة التى هى أسمى مطالب الحكماء، ولا يغفل عنها إلا الحمقى والسفهاء.

﴿دينكم﴾: المراد من الدين هنا شريعة الإسلام كما هو مبين فى آخر الآية وهى الشريعة التى بَيَّنَتْ العقائد والعبادات والمعاملات والآداب والأخلاق ولم تترك طريقًا من طرق الخير إلا أرشدت إليه، ولا طريقًا من طرق الشر إلا حذرت منه، فكانت الرحمة العظمى المهداة من الخالق لخلقه. ﴿وأتممت﴾: التمام من الألفاظ التى الأصل فيها أن تستعمل فى الكميات والماديات فيقال: فلان تام الأعضاء، وهذا بيت تام الأركان، ولما كانت المعنويات الرفيعة أشرف وأعلا منزلة من الماديات مهما سمت، ناسب أن يكون الكمال فى جانب الدين الحق لأنه الوسيلة الوحيدة للسعادة الخالدة كما تقدم. ولما كانت النعمة المرادة هنا هى فتح مكة، وهدم معاقل الشرك وتطهير البلاد من حمية الجاهلية فأمن المؤمنون على أنفسهم وأهليهم، وكان كل ذلك سعادة لكنها دون السعادة الدائمة، لما كان كل ذلك ناسبها الإتمام الذى يستعمل كثيرًا فى الماديات الفانية: ﴿مخمصة﴾: مجاعة تخمص لها البطون أى تضمر. ﴿متجانف﴾:الجنف الميل كما تقدم فى الآية (١٨٢) من سورة البقرة صفحة ٣٥، والمراد مائل ومنحرف إلى الإثم. ﴿الجوارح﴾: جمع جارحة والهاء للمبالغة لا للتأنيث كعلامة، والجارح هو المعلم على الصيد من الكلاب أو الطيور التى من شأنها أن تجرح ما تصيده.

المعنى: . لا يحملنكم بغضكم لقوم، المراد بهم مشركو مكة، لأجل صدهم ومنعهم لكم عن دخول المسجد الحرام فى عام صلح الحديبية الذى سيأتى الكلام عليه فى الآية ﴿١٨﴾ من سورة الفتح صفحة ٦٨١، ولا يحملنكم على أن تعتدوا عليهم بالقتل وغيره بدون سبب، وتعاونوا على فعل الخير، انظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة، صفحتى ٣٣، ٣٤. وعلى كل ما يتقى به الشر، ولا تعاونوا على ارتكاب الذنب وتجاوز حدود الله شرعها لحسن المعاملة بين الناس، واتقوا الله فى كل ما أمر به لأنه شديد العقاب لِمَنْ لم يتقه.....

ثم شرع فى بيان المحرمات المشار إليها فى الآية الأولى فقال:

﴿حُرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾

ثم فصل بعض أنواع الميتة فذكر منها خمسة، وذكر واحدًا مما أهل لغير الله به وهو ما ذبح على النصب لأنه كان كثيرًا عند العرب. فمحرمات الطعام أربعة إجمالاً وعشرة تفصيلاً. إلا ما ذكيتم من كل هذه الأشياء: أى أدركتموها وفيها حياة فذكيتموها الذكاة الشرعية، وهى أن يكون فى الحيوان حركة بعد ذبحه فى أى عضو من أعضائه ولو فى أذنه أو ذنبه.

وحكمة حرمة القرعة بالسهام أنها خرافات وأوهام لا يعول عليها إلا ضعيف العقل، ولما فيها من إفساد العقائد ونظام الأعمال. ومَنْ أراد أيضاحًا أوسع فى هذا المقام ومعرفة الفرق بين المحرم هنا وبين القرعة المباحة فليرجع إلى شرح حديث رقم ٣٥٢ من كتابنا صفوة صحيح البخارى. ذلكم أى كل ما تقدم فسق وخروج عن طاعة الله عز وجل. اليوم أى يوم نزول هذه الآية، وكان قبل وفاته ﷺ بنحو ثمانين يومًا؛ يوم وقف النبى ﷺ بعرفة فى حجة الوداع وكان يوم الجمعة.

يئس الذين كفروا وانقطع رجاؤهم فى أن ينتصروا عليكم لما شاهدوه من انتشار الإسلام وقوته. فلا تخافوهم وخافونى وحدى، لأن الضر والنفع بيدى. اليوم أكملت لكم دينكم ببيان الحدود والحلال والحرام، فلا زيادة ولا نقصان بعد اليوم. قال ابن عباس: المراد بالدين هنا كل ما فيه من عقائد وأحكام وعبادات وآداب وما فى معناها بالتفصيل، وأهم الحدود والمعاملات وما عدا ذلك وضع المتخصصون فى فقه الشريعة قواعده التى يستخلص منها الأحكام الجزئية. وأتممت عليكم نعمتى بفتح مكة وهدم منار الجاهلية، واخترت لكم الإسلام دينا. فَمنْ وقع فى ضرورة كمجاعة شديدة حال كونه غير مائل إلى الإثم كما هو مبين فى شرح الآية (١٧٣) من سورة البقرة صفحة ٣٣. فأكل من هذه المحرمات فإن الله غفور رحيم بعدم مؤاخذته. ثم شرع فى تفصيل الحلال الذى ذكر إجمالاً فقال: يسألونك ما هو الحلال لهم من الطعام. قل أحل لكم كل طيب لا تستخبثه النفوس السليمة، وصيد ما علمتموه من الجوارح...

مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ
عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ[1]
وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ[2] حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ
حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ[3] مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ[4] وَالْمُحْصَنَاتُ[5]
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ[6] مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ[7] وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ
وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ[8] فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ
مِنَ الْخَاسِرِينَ[9] ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى
الصَّلَاةِ[10] فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ
وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ
جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ

المفردات: ﴿مكلبين﴾: معلمين لها طريقة الصيد. والمكلب بكسر اللام مؤدب الجوارح ومروضها على الصيد، مأخوذ من الكلب بفتح فسكون وهو الحيوان المعروف لأن التكليب فيه أكثر.

﴿المحصنات﴾: المراد هنا العفيفات ﴿أجورهن﴾: مهورهن. ﴿محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان﴾: تقدم تفسيرها فى الآية (٢٥) من سورة النساء صفحتى ١٠٣، ١٠٤. ﴿حبط عمله﴾: أى بطل ﴿المرافق﴾: جمع مرفق بكسر فسكون ففتح كمنبر. وبالعكس كمجلس. وهو العظم الذى عند المفصل الذى بين الذراع والعضد.

﴿الكعبين﴾: هما العظمان البارزان فى الرجل عند مفصل الساق من القدم.

المعنى: ـ كلوا من صيد الجوارح إذا كنتم علمتموها مما علمكم الله من طرق التعليم والتأديب التى ألهمها الله تعالى لكم بواسطة العقل، فإذا استوفت الشروط فكلوا من الحيوان الذى تمسكه لكم، أما إذا أمسكته الجوارح لنفسها فلا يحل أكله. واذكروا اسم الله على تلك الجوارح عند إرسالها على الصيد، واتقوا الله فلا تقربوا ما حرم، ومنه صيد غير المعلم أو غير المسمى عليه، لأن الله سريع الحساب، فيجازى بسرعة على السيئة والحسنة. ﴿اليوم

---

(١) الطيبات. (٢) الكتاب.
(٣) والمحصنات. (٤) المؤمنات.
(٥) والمحصنات. (٦) الكتاب.
(٧) مسافحين (٨) بالإيمان
(٩) الخاسرين (١٠) الصلاة.

أحل لكم الطيبات﴾ أعاده للتأكيد وليربط به ما بعده، وطعام اليهود والنصارى المحلل لهم فى كتبهم حل لكم، أما الخمر والخنزير فلا، لأنها محرمة على لسان كل نبى، وطعامكم حل لهم، أى وكل طعام حلال فى شريعتكم أيها المسلمون فقد أصبح حلالاً لهم، ولو كان قبل ذلك محرمًا عليهم، كلحوم الإبل وكل ذى ظفر إلى آخر ما بينته الآية (١٤٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨، فإن الإسلام نسخ تحريم ذلك بنزول القرآن الناسخ لكل حكم خالف أحكامه من الكتب السابقة؛ أى فإباحة الطعام مشتركة بين الجانبين، دون إباحة النساء فإنها لنا دونهم. كما فى قوله: ﴿والمحصنات﴾ أى وأحل لكم زواج المحصنات أى العفيفات من المؤمنات والعفيفات من الكتابيات، بشرط أن توفوا لهن مهورهن، وأن تكونوا قاصدين إحصان أنفسكم وإحصان زوجاتكم، لا زانين علنا أو سرًا. ومَنْ يكفر بتعاليم الإيمان وما تقتضيه بأن يمتنع عن توحيد الله وعن طاعته فقد بطل كل عمله من الخير فلا ينفعه فى الآخرة بالإنقاذ من الخلود فى النار، انظر شرح الآيتين (٧ ، ٨) من سورة الزلزلة صفحة ٨١٨. وكذلك الآية (٢٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣؛ فيكون فى الآخرة من الخاسرين المحرومين من النعيم. يأيها الذين آمنوا إذا أردتم القيام للصلاة وكنتم محدثين فلابد من الوضوء وهو أن تغسلوا وجوهكم إلخ، وقد كان الوضوء ثابتًا بالسنة حيث عَلمه جبريل عليه السلام للنبى صلوات الله عليه صبيحة فرض الصلاة وهو بمكة، فجاءت هذه الآية بالمدينة وفى آخر العهد لتؤكد وجوبه بجعله حكمًا متلوا لا يحتمل تغييرًا. وقوله: ﴿وأرجلكم﴾ بالنصب على عطف على وجوهكم، وقرئ أرجلكم بالكسر معطوفًا على رءوسكم، وتكون هذه القراءة أفادت المسح على الخف والجورب، ويكون المعنى فاغسلوا الأرجل إذا كانت مكشوفة، وامسحوها إذا كانت داخلة فى خف أو جورب. وبينت السنة أن الغسل لابد أن يعم الرجل، أما المسح فيكفى فيه مرور الأصابع مبللة على ظهر الخف؛ وإن كنتم جنبًا فاطهروا بغسل الجسد كله بالماء الطهور. ولما فرغ من بيان أعمال الوضوء وكان يظن أن ذلك وقد نزل آخر الأمر قد يكون ناسخا لما نزل قبل ذلك من إباحة التيمم فى الآية (٤٣) من سورة النساء صفحة ١٠٧ ذكر التيمم هنا ثانيًا ليسجل خلوده أيضًا كالوضوء، ويدفع احتمال ظن النسخ فقال: ﴿وإن كنتم مرضى﴾ مرضًا يمنع من استعمال الماء أو مسافرين....

أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ[1] ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً
فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ
مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ
وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُوا۟
نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ[2] ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ[3] لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ
لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾
وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ[4] ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ[5] أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ[6]
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ

المفردات: ﴿من الغائط﴾: تقدم تفسير الآية كلها فى الآية (٤٣) من سورة النساء صفحة ١٠٧.

﴿حرج﴾: مشقة.

﴿ميثاقه﴾: عهده

﴿واثقكم به﴾: عاهدكم عليه وأخذه عليكم بواسطة رسوله محمَّد ﷺ.

﴿بذات الصدور﴾: أى خفياتها

﴿الملامسة﴾ لها ملابسة تامة حتى كأنها صاحبة لها لا تفارقها.

﴿قوامين لله﴾: أى كثيرى القيام بحقوق الله مخلصين لوجهه لا ترجون إلا رضاه لا رياء ولا سمعة.

﴿شهداء بالقسط﴾: شاهدين بالعدل بدون محاباة لأحد.

﴿ولا يجرمنكم﴾: أى لا يحملنكم.

﴿شنآن قوم﴾: بغضكم لقوم.

المعنى:إذا وجد عذر من هذه الأعذار فتيمموا. وإنما أجاز لكم ذلك لأنه لا يريد أن يجعل عليكم مشقة فى تكاليف الدين، ولكن يريد بتشريعاته طهارتكم حسيا من النجاسات ومعنويا

---

(١) لامستم.
(٢) وميثاقه.
(٣) قوامين.
(٤) الصالحات.
(٥) بآياتنا.
(٦) أصحاب.

من الذنوب، وليتم نعمته عليكم بالجمع بين الطهارتين. وإذا تعسرت إحداهما حلت الأخرى مكانها فلا تتعطلوا عن الصلاة يومًا كما كان الحال عند الأمم قبلكم لعلكم تشكرون هذه النعم بالمداومة على الطاعة.

واذكروا نعمة الله عليكم بهدايتكم إلى الإسلام. واذكروا عهوده التى أخذها عليكم بواسطة رسوله كعهد بيعة العقبة وبيعة الرضوان الآتية فى الآيتين (١٠ ، ١٨) من سورة الحج صفحات ٤٣٤، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، هذه العهود وغيرها التى عاهدكم عليها فى الوقت الذى قلتم فيه سمعنا قولك أيها النبى وأطعنا أمرك،

واتقوا الله فلا تخافوا عهوده لأنه سبحانه عليم بخفيات الصدور. فإياكم والتفكير فيما يغضبه. ومَنْ أراد معرفة بيعاته ﷺ تفصيلاً وما حصل فيها فليرجع إلى حديث رقم ٧ من كتابنا صفوة البخارى وبعدما بيَّن المطلوب من المسلمين من عباده ومحافظة على عهده أراد أن يبين لهم ما يجرى بينهم وبين الناس فقال:

﴿كونوا قوامين﴾ إلخ، أى محافظين على القيام بكل ما أخذ عليكم العهد به مخلصين فى ذلك لله لا تريدون إلا رضاه وكونوا فى شهادتكم بين الناس عدولاً فلا تحابوا مشهودًا له ولا تظلموا مشهودًا عليه. ولا يحملنكم كرهكم لقوم على عدم العدل فى الشهادة فتضيعوا عليهم حقهم.

وتقدم نظير هذا فى الآية (٣) من سورة النساء صفحتى ٩٧، ٩٨ وكذلك فى الآية (١٣٥) من نفس السورة صفحتى ١٢٥، ١٢٦.

وإذا كان العدل أساس نظام الدولة فاعدلوا، أى حافظوا عليه لأنه أقرب طريق موصل لتقوى الله والبعد عن غضبه. ولهذا أيضًا كرر الوصية بها فقال: واتقوا الله لأنه خبير بما تعملون، فيجازى مَنْ فرط فيها. ثم أراد أن يبين جزاء مَنْ اتقى وغيره فقال: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ إلخ.

وبعد التذكير بنعمة إيصال الخير أراد أن يذكر بنعمة الإنجاء من الشر فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾....

إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ
عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾
۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ(١) بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ(٢) وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ
ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ(٣)
وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ(٤) وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ
ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ
جَنَّٰتٍ(٥) تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ(٦) ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ
مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ(٧)
لَعَنَّٰهُمْ(٨) وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً(٩) ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن
مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ
عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ(١٠)

المفردات: ﴿قوم﴾: هم كفار قريش قبل الهجرة عندما هموا بقتله وقتل كثير من أصحابه انظر الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، واليهود بعد الهجرة حينما هموا بقتله ﷺ بحجر يلقونه عليه وهو جالس بجوار حائط عندهم، فأخبره الله تعالى بغدرهم فانصرف انظر شرح أول سورة الحشر صفحتى ٧٢٩ ، ٧٣٠. ﴿يبسطوا إليكم أيديهم﴾: بسط اليد كناية عن إيقاع الأذى. ﴿فكف أيديهم﴾: أى أحبط مكيدتهم. ﴿ميثاق﴾: أى عهد ﴿اثنى عشر نقيبا﴾: هم زعماء أسباطهم المتقدم ذكرهم فى الآيتين (١٣٦ ، ١٤٠) من سورة البقرة صفحتى ٢٦، ٢٧ وهم الذين فجر موسى العيون بعددهم كما فى الآية (٦٠) من سورة البقرة صفحة ١٢ . ﴿وعزرتموهم﴾: أى نصرتموهم. ﴿فبما نقضهم﴾: أى فبسبب نقضهم. وانظر مثل هذا فى الآية (١٥٥) من سورة النساء صفحة ١٢٩ . ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾: أى يغيرون كلام الله الذى فى التوراة ويبعدونه عن موضعه الذى وضعه الله تعالى فيه، وهذا التصرف يحصل بأمور بينتها الآيات (٧٥، ٧٩، ١٧٤) من سورة البقرة صفحتى ١٥، ٣٣ ... و الآية (٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٧٥ ... و الآية (١٥) من سورة المائدة صفحة ١٣٩ ... و الآية (٩١) من سورة الأنعام صفحة ٩١: ﴿حظا﴾: نصيبا. ﴿خائنة﴾: تستعمل العرب وزن فاعلة وتريد به المصدر فتقول: قائلة بمعنى القيلولة. وخاطئة تريد الخطيئة كما فى الآية (٩) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢، فخائنة هنا بمعنى الخيانة.

---

(١) ميثاق. (٢) إسرائيل. (٣) الصلاة. (٤) الزكاة.
(٥) جنات. (٦) الأنهار. (٧) ميثاقهم. (٨) لعناهم.
(٩) قاسية (١٠) نصارى

المعنى: ـ تذكروا نعمته تعالى عليكم فى أوقات الشدة التى همَّ فيها اليهود والمشركون بالفتك بكم وإبطال دعوتكم فأحبط كيدهم ونجاكم، فحافظوا على تقوى الله عز وجل يزدكم حفظًا وقوة وعلى الله وحده يتوكل المؤمنون، فإنه سبحانه خير مَنْ يدفع الشر ويجلب النفع..

وبعد ما بيَّن سبحانه قيمة حفظ العهود أراد أن يذكر بعض الأمم التى نقضتها وما حل بهم ليحذر المسلمون من عملهم فقال: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل﴾ على أمور مهمة ذكر القرآن فى مواضع كثيرة منها غير ما هنا ما فى الآيات (٨٣ ، ٨٤) من سورة البقرة صفحة ١٦ ، و(٨١ ، ١٨٧) من سورة آل عمران صفحتى ٧٦، ٩٤ و(١٥٤) من سورة النساء صفحة ١٢٩ و (١٦٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥؛ وبعثنا منهم قادة لهم وكفلاء عليهم بالوفاء لله تعالى بالعهود. وقال الله لبنى إسرائيل إنى معكم بعلمى لما يكون منكم وبالنصر إن وفيتم بالعهد. ثم بيَّن الميثاق فقال: لئن أى وعزتى لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى الذين سأرسلهم إليكم بعد موسى كداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى ومحمَّد، وهذا هو الميثاق الذى أشارت إليه الآية (٨١) من سورة آل عمران صفحة ٧٦، وعزرتموهم بالمساعدة على الجهاد فى سبيل الله، وبذلتم من الصدقات فوق الواجب، وتقدم بيان القرض الحسن فى الآية (٢٤٥) صفحة ٥٠. لو فعلتم ذلك لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحت غرفها الأنهار، فَمنْ كفر وجحد شيئًا مما أمرت به بعد ذلك العهد فقد انحرف وترك وسط الطريق الموصل للنجاة، ومَنْ انحرف اتجه إلى إحدى سبل الضلال المشار إليها فى الآية (١٥٣) الأنعام صفحة ١٨٩، ولكن هؤلاء اليهود نقضوا العهود، وبسبب هذا طردناهم عن رحمتنا وملأنا قلوبهم قسوة لا ينفع فيها وعظ ولا تدخلها رحمة. وكان من آثار ذلك أنهم تجرءوا على كلام الله فحرفوه ليخفوا ما فيه من الحق ومن صفة محمَّد ﷺ، ونسوا مقدارًا مما ذكرهم الله تعالى به فى التوراة، فالذى عندهم مما فى التوراة الصحيحة هو بعضها فقط، انظر الآيات (٢٣) من سورة آل عمران صفحة ٦٦ و (١٤٤ ، ١٥١) من سورة النساء صفحات ١٠٧، ١٠٨ ، ١٢٨، ١٢٩؛ ولاتزال أيها النبى تطلع على خيانة منهم، أى هذا هو حالهم دائمًا إلا قليلاً منهم وهم مَنْ آمن منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه، فاعف عن هؤلاء المؤمنين منهم، ولا تؤاخذهم بما سلف منهم، واصفح عما يمكن أن يكون منهم من إساءة إليك إن الله يحب المحسنين بالعفو والصفح والمقصود بالعفو محو الشيء، والمقصود بالصفح الإعراض وعدم المؤاخذة على الذنب. ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى﴾ أى ادعوا أنهم أنصار الله عز وجل وهم كاذبون...

أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ
ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ
بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ
رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ
وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ
مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ
وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ
أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ
مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ

المفردات: . ﴿العداوة﴾: أى التعادى المسبب للتقاتل.

﴿والبغضاء﴾: أى الكراهة، فهو من عطف السبب على مسببه.

﴿نور﴾: المراد به هنا القرآن، لأنه ينير الطريق لمَنْ اتبعه كما سيأتى انظر الآيات (١٧٤) من سورة النساء صفحة ١٣٣ و(١٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨ و (٥٢) من سورة الشورى صفحة ٦٤٦ و(٨) من سورة التغابن ٧٤٦ .

﴿وكتاب مبين﴾: ﴿مبين﴾ أى موضح لطرائق النجاة، ولما وصف الكتاب بهذه الصفة واكتسب معناها صحَّ عطفه على ما قبله من قبيل عطف الصفة على الصفة، كما تقول جاء محمد العالم والكريم، ومما يؤيد أن الكتاب هنا هو والنور يدلان على شىء واحد إعادة الضمير عليه مفردًا فى قوله ﴿يهدى به الله﴾، ولو كانا متغايرين لقال ﴿بهما﴾.

﴿يهدى به﴾:المراد يزيده هداية، انظر الآية (١٣) من سورة الكهف صفحة ٣٨١ والآية (١٧) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٥ .

﴿رضوانه﴾: قال الراغب: الرضوان هو الرضى التام، ولما كان أعظم الرضا هو رضى الله سبحانه خص لفظ الرضوان فى القرآن بما كان من الله، انظر الآيات (٧٢) من سورة التوبة

---

(١) ميثاقهم. (٢) القيامة. (٣)، (٤) الكتاب.
(٥) وكتاب. (٦) رضوانه. (٧) السلام.
(٨) الظلمات. (٩) صراط (١٠) السموات

صفحة ٢٥٣ و(٢٩) من سورة الفتح صفحتى ٦٨٣، ٦٨٤؛ و (٢٠) من سورة الحديد صفحة ٧٢٢ و(٢٧) من سورة الحديد أيضًا صفحة ٧٢٣؛

﴿سبل السلام﴾: السبل جمع سبيل وهى الطريق، وقد جاء فى القرآن مجموعًا كما هنا، ومفردًا وهو كثير، فإذا كان مجموعًا مقابلاً للصراط المستقيم، فالمراد به كل الطرق الموصلة لغير الحق، ولما فيه هلاك سالكها كما فى قوله تعالى ﴿وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ الآية (١٥٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩ .

وإذا ذكر مجموعا فى مقام مدحه والترغيب فيه كما هنا، فإنه يراد به كل الأعمال الصالحة الموصلة للسلامة من المخاطر فى الدنيا والآخرة، ولذلك أضافها سبحانه إلى السلام، أى أنها كلها مهما تعددت فإنها توصل إلى شيء واحد، هو النجاة من كل شر.

وإذا جاء مفردًا مضافًا للنبى ﷺ فإنه يراد به مجموع شريعته من عقائد وأعمال، كما فى قوله تعالى ﴿قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى.. إلخ﴾.

الآية (١٠٨) من سورة يوسف صفحة ٣١٩، فهى بمعنى الصراط المستقيم فى الآية (١٥٣)، المتقدمة.

المعنى: - ومن النصارى أخذنا أيضًا العهود كما أخذناها على اليهود، وما أخذ عليهم كثير، منه ما اشتركوا فيه مع اليهود كالإيمان بالرسول الذى يأتى ونصرته، ومما انفردوا به أن المسيح عيَّن الرسول الذى سيأتى بعده باسمه ومع ذلك كفروا به، انظر الآية (٦) من سورة الصف صفحتى ٧٣٨، ٧٣٩؛ فنسى هؤلاء أيضًا نصيبًا مما ذكرهم الله به فى الإنجيل، فكان جزاؤهم أن هيج الله وقوى بينهم أى بين النصارى بعضهم مع بعض التعادى والتقاتل والبغضاء أى الكراهية، وهو من عطف السبب على المسبب، إلى يوم القيامة، وقد تحقق هذا إلى يومنا هذا، فلم نر أهل ملة واحدة يتقاتلون جريًا وراء الشهوات والمطامع مثل ما نرى بين النصارى، وهذا جزاؤهم فى الدنيا، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون فى الآخرة، أى فسيعاقبهم أشد العقاب.

ثم بعد كل هذا خاطبهم بما فيه نجاتهم فقال: يأهل الكتاب من يهود ونصارى قد جاءكم

رسولنا محمَّد ﷺ يبين لكم بعض ما كنتم تخفون من الكتاب أى من التوراة والإنجيل كإخفاء آية الرجم التى ستأتى فى شرح الآية (٤١) وما بعدها من هذه السورة صفحة ١٤٤ وما بعدها؛ وكإخفاء صفته ﷺ، والبشارة به، ويعفو عن كثير مما تخفونه صيانة لكم من زيادة الفضيحة لعلكم ترجعون انظر الآية (٩١) من سورة الأنعام صفحة ١٧٧ .

قد جاءكم من الله نور هو الكتاب المبيِّن لكم طريق الحق؛ وفوائد هذا الكتاب أولاً أنه يهدى به الله مَنْ اتبع فى أعماله ما يرضيه إلى الطريق التى يسلم فيها من مخاوف الدنيا والآخرة.

وثانيًا أنه يخرج مَنْ آمن به من ظلمات الكفر والجهل إلى نور التوحيد والعلم بإرادته، ويهديهم إلى الطريق المستقيم وهو دين الإسلام.

فهذه هى الهداية إلى سبل السلام ذكرت بعنوان آخر هى أنها أقرب طريق يوصل للمقصود، فعطفها نظير العطف فى الآية (٥٨) من سورة هود صفحة ٢٩٣.

وبعد ما بيَّن أحوال أهل الكتاب عامة ذكر ما يخص النصارى فقال:

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم﴾ والذين قالوا ذلك انقرضوا الآن.

كما بدأ ينقرض مَنْ يقول بالتثليث المشار إليه فى الآية (٧٣) الآتية صفحة ١٥٢، وكذا مَنْ يقول: إن المسيح وأمه إلهان كما فى الآية (١١٦) الآتية أيضًا صفحتى ١٦٠، ١٦١ ، بدأ يقل هؤلاء بعد انتشار مذهب «البروتستانت» أى إصلاح النصرانية الذى يدين به أعظم أمم النصارى مدنية الآن، وهو مبنى على أن المسيح رسول فقط، ولكنهم ينكرون نبوة محمَّد ﷺ أو عمومها . قل يأيها النبى ردًا على هؤلاء إن كان الأمر كما تزعمون فمَنْ يملك من أمر الله وإرادته شيئًا يدفع به الإهلاك بالعذاب إن أراد الله أن يهلك المسيح وأمه بل ومَنْ فى الأرض جميعًا.

أى لا أحد يستطيع ذلك، لأن لله ملك السموات والأرض وما بينهما، فالكل عبيد له بما فيهم المسيح، يخلق ما يشاء كيف شاء من تراب مباشرة بلا أب ولا أم كآدم، أو بدون أب كالمسيح، لأنه قدير على كل شىء، فلا وجه لشبهتكم فى عبادة المسيح لأنه ولد بدون أب....

وَالنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ اللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ اذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ادْخُلُوا۟ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا

المفردات: . ﴿وقالت اليهود والنصارى﴾: الكلام على التوزيع، إذ المعنى أن كل واحدة منهما تقول عن نفسها ذلك، ولا تدخل معها الأخرى، انظر ما قيل فى شرح الآيتين (١١١، ١١٢) من سورة البقرة صفحة٢٢ .

﴿على فترة من الرسل﴾: على حين فتور وانقطاع وجود أحد من الرسل. روى البخارى أن الفترة بين عيسى ونبينا عليهما السلام كانت ستمائة عام.

﴿إذ جعل فيكم أنبياء... إلخ﴾ قال ابن جرير: إن السبعين رجلاً الذين اختارهم موسى عليه السلام ليصعدوا معه الجبل عندما صعد لمناجاة ربه سبحانه وتعالى، صاروا كلهم أنبياء... وقال الألوسى: والمراد بهم موسى وهارون ويوسف وجميع أولاد يعقوب على القول بأنهم كانوا أنبياء.... والسبعون الذين اختارهم موسى لميقات ربه فقد قال ابن السائب ومقاتل أنهم كانوا أنبياء.. وقال الماوردى وغيره المراد بهم مَنْ أرسلوا بعد موسى. وقيل المراد بهم مَنْ تقدم ومَنْ تأخر.

﴿وجعلكم ملوكًا﴾: أى كالملوك فى الحرية والاستغناء عن الغير والتمتع بالخيرات، ومنه قولهم فلان ملك زمانه.

﴿الأرض المقدسة﴾: أى المطهرة من الوثنية لكثرة ما بعث فيها من الأنبياء دعاة التوحيد، وهى ما بين العريش إلى الفرات.

﴿كتب الله لكم﴾: أى قدر فى علمه أنكم تدخلونها وتسكنونها ما دمتم مطيعين. ﴿قومًا جبارين﴾: أشداء البطش وهم الجبابرة الكنعانيون.

---

(١) والنصارى. (٢) أبناء (٣) أحباؤه (٤) السموات
(٥) الكتاب (٦) يا قوم (٧) وآتاكم (٨) العالمين
(٩) يا قوم (١٠) خاسرين (١١) يا موسى.

المعنى: . ومن دعاوى اليهود والنصارى الباطلة قول كل فريق منهم عن نفسه نحن المقربين إلى الله المحبوبون له كقرب الأبناء من الأب ومحبته لهم فلا يعذبنا وليس فى الناس مَنْ يشاركنا فى ذلك.

هكذا قالت كل طائفة عن نفسها. قل لهم أيها النبى إلزاما وتبكيتا إن كان لكم منزلة لبست لغيركم فلم يعذبكم الله بذنوبكم فى الدنيا من اضطهاد وإذلال لليهود كما فى أول سورة الإسراء، وكما هو مشاهد إلى يومنا هذا، وللنصارى أيام الرومان، ومن المصائب التى تحل بهم كل يوم بسبب ما يرتكبون من الظلم والمفاسد. إذن فليس الأمر كما تزعمون بل أنتم بشر ككل خلق الله عز وجل يجرى عليكم ما يجرى عليهم. مَنْ يعمل سوءًا يجز به فيغفر لمَنْ يشاء إذا تاب، ويعذب مَنْ يشاء لإصراره على المعصية، لا فرق عنده فى ذلك بين أتباع موسى وعيسى ومحمَّد. ثم أكد الرد بقوله:

﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ إلخ؛ أى أن كل ما فيهما مستوون عنده تعالى بأنهم ملكه وعبيده يتصرف فيهم بعدله على حد سواء... يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا محمَّد المبَشَّر به فى كتبكم، يبين لكم ما تحتاجون إليه فى الدين والدنيا بعد انقطاع وجود الرسل، أى فأنتم فى حاجة إلى ما يرشدكم إلى طرق العمل المنجى، اتقاء أن تقولوا معتذرين عن تفريطكم يوم القيامة يا ربنا لم تعذبنا ولم يأتنا منك مَنْ يبشرنا إذا أطعنا وينذرنا إذا عصينا، فقد جاءكم بشير ونذير وانقطعت حجتكم، والله قادر على كل شىء من إرسال الرسل وقطع الحجج وتعذيب المخالف. ثم ذكر سبحانه بعض مخالفات اليهود ونقضهم العهد، فقال:

﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم﴾ بالشكر عليها والطاعة ثم عدد بعض هذه النعم فقال إذ جعل فيكم أنبياء كثيرين لم يبعث فى أمة أكثر منهم، وجعلكم كالملوك أحرارًا فى تصرفكم أغنياء عن غيركم بما لم يؤت أحدًا من عالم زمانكم: من فلق البحر، والمن والسلوى، وتظليل الغمام فى التيه، وتفجير الماء من الحجر، إلى غير ذلك يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى وعد الله أنكم ستدخلونها، ولا ترجعوا على أعقابكم مدبرين خوفا من الجبابرة فتنقلبوا أى ترجعوا بهذا الجبن خاسرين ثواب الدنيا والآخرة. ﴿قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها﴾....

حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ[١] ﴿٢٢﴾
قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا
عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ[٢] وَعَلَى اللَّهِ
فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ[٣] إِنَّا لَن
نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا[٤]
إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ[٥] ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا
نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ[٦] ﴿٢٥﴾
قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ
فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ[٧] ﴿٢٦﴾ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ
ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ
يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ
الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ

المفردات:- (ابنى آدم): هما هابيل وقابيل.

﴿قربانا﴾: هو ما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبائح وغيرها كما تقدم فى الآية (١٨٣) من سورة آل عمران صفحة ٩٣ .

﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾: المراد أنه سبحانه لا يتقبل عمل عبده ويثبت عليه بالنعيم الدائم إلا إذا كان تقيًا.

أما الكافر فإنه لا ينفعه فى الإنقاذ من الخلود فى النار عمل من أعمال البر، انظر شرح الآية (٧) من سورة الزلزلة صفحة٨١٨.

وقد يستجيب سبحانه دعاءه فينقذه من خطر فى الدنيا لا لتقواه، ولكن ليظهر للخلق سوء طبعه ويقطع عليه باب العذر، انظر الآيتين (٢٢ ، ٢٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٩، والآية (٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣.

المعنى:- إن بنى إسرائيل لما نجاهم الله من فرعون أمرهم بدخول الأرض المقدسة، وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون، فأخذ موسى من كل سبط رئيسًا على قومه وسار بهم، فلما دنا من الأرض الموعودة بعث النقباء يتجسسون أخبار الكنعانيين، فلما وصلوا وجدوهم ضخام الأجسام أشداء البأس، فلما رجعوا وأخبروا موسى أمرهم أن يكتموا عن الجيش لئلا ينزعج، وموسى واثق من نصر الله الذى وعده، فكتم بعض النقباء ولم يكتم أكثرهم، فجبن الجيش، وقالوا إن فيها جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها بقتال غيرنا أو بغير قتال.

قال رجلان من الذين يخافون مخالفة أمر الله وقد أنعم الله عليهما بالثبات وكانا من النقباء الذين كتموا ما رأوا، وأحدهما يوشع: ادخلوا على الجبارين باب عاصمتهم، وفاجئوهم

---

(١) داخلون. (٢) غالبون (٣) ياموسى
(٤) فقاتلا (٥) قاعدون (٦، ٧) الفاسقين.

فى مضيق من الأرض حتى لا يجدوا للحرب مجالاً، فإن دخلتم معتمدين على الله فإنكم ستغلبون، فلا تجبنوا، وعلى الله توكلوا إن كنتم مؤمنين، لأن وعد الله حق.

فقالوا غير مبالين ولا منتفعين بنصيحة: لن ندخلها ما داموا فيها فاذهب يا موسى أنت وربك فقاتلا الجبارين. قالوا ذلك استهزاء وعدم مبالاة بأمر الله لقسوة قلوبهم وبعدهم عن الأدب، إنا ههنا قاعدون ننتظر النتيجة.

قال موسى: يا ربى إنى لا أملك إلا أمر نفسى ونفس أخى هارون، وهذا منه عليه السلام شكوى إلى الله واعتذار وتنصل من عصيان قومه، فافرق أى احكم بيننا وبينهم بما يستحقه كل منا، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا. وأراد بذكر نفسه وأخيه فقط قلة الموافقين لا الحصر. وإلا فمعه الرجلان اللذان يخافان الله.

فقال سبحانه مجيبًا دعاء موسى: إن الأرض المقدسة محرم عليهم دخولها وتملكها أربعين سنة يتيهون فى الأرض، أى يسيرون فى برية من الأرض تائهين، لا يستقرون فى مكان، وكانت هذه الأرض فيما بين مصر والشام، فلما مات هؤلاء الكبار فى التية حتى موسى وهارون ماتا فيه أيضًا ونشأ بعدهم ذرية لم تألف الذل الذى كانوا فيه فى مصر على يد فرعون فكانوا شجعانا ودخلوا الأرض المقدسة، فلا تأس أى لا تحزن على تعذيب القوم الفاسقين الخارجين عن طاعة ربهم.

ولما كان الحامل لليهود على محاربة نبينا محمَّد ﷺ هو الحسد والغيرة، أراد سبحانه أن يسليه على حسدهم، ببيان أن الحسد قديم فى طبع الإنسان، وأنه كان السبب فى أفظع الجرائم، فذكر قصة آدم فى ذلك.

فقال: واتل أيها النبى على أهل عصرك بما فيهم أهل الكتاب خبر ابنى آدم هابيل وقابيل تلاوة مقرونة بالحق والصدق، حين قرب كل منهما قربانا فتقبل الله قربان هابيل لتقواه ولم يتقبل قربان قابيل لعدم تقواه، فقال قابيل لأخيه حسدًا: لأقتلنك.

فقال أخوه: إنما يتقبل الله من المتقين، أى فليس الذنب عندى، بل ابحث عن العيب فى نفسك وأصلحها. والله يا أخى لئن مددت يدك إلىَّ لتقتلنى فما أنا بفاعل مثلك.

يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ[1] ﴿٢٨﴾
إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ[2]
ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟[3] ٱلظَّٰلِمِينَ[4] ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ
قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ[5] ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ
غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى[6] سَوْءَةَ أَخِيهِ
قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ[7] أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ
فَأُوَٰرِىَ[8] سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ[9] ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ
ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[10] أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ
نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا
وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ
رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ[11] ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ
لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟[12] ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

المفردات: ﴿أن تبوء بإثمى وإثمك﴾: المراد ترجع بإثم قتلى وإثمك الذى كان سبب عدم قبول قربانك.

﴿فطوعت له نفسه﴾: أى سهلت له.

﴿سوءة﴾: السوءة هى العورة التى يسوء منظرها.

﴿يا ويلتا﴾: أصلها يا ويلتى فأبدلوا ياء المتكلم ألفا، وهى كلمة يقولها المتحسر عند حلول الدواهى، انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨ . ويقولها المتعجب عند سماعه شيئًا غريبًا عليه كما فى الآية (٧٢) من سورة هود صفحة ٢٩٥ .

المعنى: . فلن أقتلك أبدًا ولو دفاعا خوفا من الله أن يرانى سافكا لدم إنسان. ولما كان الوعظ الدقيق ربما لا يفيد أتبعه بالتذكير بعذاب الآخرة فقال: إنى أريد أن ترجع بإثم قتلى وإثمك السابق فتحمل ذنبين بعد أن كان عليك ذنب واحد فتكون بذلك من أصحاب النار. فهونت له نفسه الأمارة بالسوء قتل أخيه فقتله، فصار من الخاسرين لأقرب الناس إليه ولنعيم الآخرة. ولما كان هذا أول موت تحير قابيل فى كيفية مواراة جثة أخيه التى يسوءه أن يراها بارزة، فبعث الله غرابا فى الأرض ليُرى الله القاتل كيفية مواراة سوءة أخيه. قال أبو مسلم إن

---

(١) العالمين.	(٢) أصحاب
(٣) جزاء	(٤) الظالمين
(٥) الخاسرين	(٦) يوارى.
(٧) يا ويلتا	(٨) فأوارى
(٩) النادمين	(١٠) إسرائيل
(١١) بالبينات	(١٢) جزاء

عادة الغراب البحث فى الأرض ليدفن ما يخطفه، ويظهر أن الغراب أطال البحث بدليل قوله ﴿يبحث﴾ الذى يدل على تكرار الفعل بخلاف ما لو قال (بحث)، ولما رأى قابيل ذلك تعلم منه، ولما شعر أنه جاهل وأقل خبرة من الغراب قال متحسرًا: يا ويلتا أبلغ من عجزى أن أكون أقل من الغراب تصريفًا للأمور.

ومن عجيب أمر الإنسان الذى يفخر بأنه أرقى الحيوانات أنه تتلمذ أول مرة على غراب. فأصبح من النادمين بسبب تحيره وكون الغراب أحسن منه، وتبرؤ أبويه منه.

ومن أجل فظاعة هذا الجرم العظيم واستعداد الناس للحسد الباعث عليه، فرضنا وحكمنا على بنى إسرائيل فى التوراة، وخص فى الذكر بنى إسرائيل مع أن هذا الجزاء ثابت لمَنْ قبلهم، لما تميزوا به عن سائر خلق الله من شدة الحسد ومن جرأتهم على هذا الذنب مع أشرف الخلق، فهم الشعب الوحيد الذى قتل أنبياءه؛ فكأن المعنى حكمنا على كل قاتل خصوصًا إذا كان من بنى إسرائيل، ثم بيَّن الذى كتبه فقال: أنه مَنْ قتل نفسًا بغير قتل نفس يوجب القصاص الآتى فى الآية (٤٥) الآتية صفحتى ١٤٥ ، ١٤٦؛ أو بغير فساد فى الأرض بما سيأتى بيانه فى الآية الآتية، فكأنما قتل الناس جميعًا لاشتراك الاثنين فى انتهاك حرمة الدماء والخروج على الله واستجلاب غضبه. ومَنْ أحياها بأن كان سبب بقائها حية، كأن دفع عنها القاتل أو أنقذها من هلاك مطلقًا، فكأنما أحيا الناس جميعًا فى استحقاق رحمة الله وجزيل ثوابه وقد جاء فى عقاب ابن آدم هذا قول النبى ﷺ: (كل نفس تُقتل بغير حق يكون على ابن آدم الأول كفل منها لأنه هو الذى سَنّ هذه السُنة السيئة).

ولقد جاءت بنى إسرائيل رسلنا بالأدلة الواضحة على صدقهم وعلى حرمة القتل ثم إن كثيرًا منهم بعد المكتوب عليهم وإرسال الرسل لمسرفون فى الأرض بالقتل والبغى. ولما كانت الآية تشعر بأن القتل لا يكون إلا قصاصا أراد أن يبين أنه يكون أيضًا للمفسدين، وفى بعض الفساد من الشرور والفتن ما هو أشد من القتل، فقال:

إنما جزاء الذين يحاربون الله بمحاربة تعاليم كتابه وعدم امتثالها، ورسوله بمحاربة إرشاده وسنته التى بَيّن بها القرآن...

وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ
أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ[1] أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ
لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا[2] فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ[3]
مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا
مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ[4] مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾
وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا[5]
مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ

المفردات: - ﴿فسادًا﴾: أى مفسدين.

﴿من خلاف﴾: أى تقطع اليد اليمنى من آخر الكف والرجل اليسرى عند القدم.

﴿وابتغوا﴾: أى اطلبوا.

﴿الوسيلة﴾: هى كل ما يتوسل به إلى رضاء الله تعالى، وهى اتباع ما أمر به سبحانه وترك ما نهى عنه قال ابن كثير فى تفسيره: قال ابن عباس الوسيلة هنا هى القربى أى الطاعة. وكذا قال مجاهد وأبو وائل والحسن وقتادة وغيرهم، وعبارة قتادة (أن يتقربوا إلى الله بطاعته والعمل بما يرضيه).

ثم قال ابن كثير: وهذا الذى قاله هؤلاء الأئمة لاخلاف بين المفسرين فيه.

﴿نكالا﴾: هو التعذيب الشديد.

المعنى: - إن محاربة الله ورسوله هى إثارة الفتن والقلاقل والإخلال بالأمن، انظر الآية (١٠٧) من سورة التوبة صفحة ٢٦٠، والذين يفعلون ذلك هم الذين يسعون فى الأرض مفسدين، ويسمون فى اصطلاح الفقهاء محاربين، وفى عصرنا بالخارجين على القانون، ويشترط فيهم أن يكونوا عصبة ذات قوة مسلحة تحترف السلب وهتك الأعراض وقتل مَنْ يقف فى طريقها عنوة جهارًا، فجزاء هؤلاء أن يقتلوا أو يصلبوا إلى آخر ما ذكر من أربع عقوبات يعاقب الإمام بها على قدر الجريمة، فإن كانت الجريمة هى الإفساد بالقتل فقط قتله، وإن كانت بالقتل وأخذ المال صلبه، بأن يربط حيًا فى خشبة أو شجرة مثلا حتى يموت،

(١) خلاف. (٢) وجاهدوا. (٣) القيامة
(٤) بخارجين (٥) نكالا.

وإن كانت سرقة فقط تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، وإن لم يحصل منهم شيء سوى إخافة الناس وإزعاجهم ينفوا من الأرض التى أفسدوا فيها إلى مكان بعيد. والسجن مثل النفى. ولما كان خطر هؤلاء شديدًا عبر فى عقابهم بصيغة التفعيل الدالة على الشدة فى النكاية بهم. ولذلك أيضًا جمع بين قطع اليد والرجل فى السرقة مع أنه فى سرقة الفرد العادية حكم بقطع يد واحدة كما فى الآية (٣٨) الآتية. ذلك الجزاء فضيحة لهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم. ومن هذا يعلم أن الحدود لا تكفر الذنب، ولكن ورد فى بعض الأحاديث ما يدل على أن التوبة الصحيحة مع الحد تكفر. ومن أراد تفصيل الموضوع وبيان الحق فيه فليرجع إلى شرح حديث رقم (٧) من كتابنا صفوة صحيح البخارى. فإن تاب هؤلاء المفسدون قبل تمكن الإمام منهم فلا يقام عليهم الحد المتقدم. لأن توبتهم وهم فى قوتهم تدل على أنها صحيحة. لأنه سبحانه غفور لما سلف، رحيم برفع العقاب عنهم، والذى يرتفع عنهم هو حق الله تعالى فقط. أما إذا سرقوا فلابد من رد المسروق لأهله. وإذا قتلوا فالأمر متروك لأصحاب الدم إن شاءوا عفوا وأخذوا الدية إلى آخر ما ذكر فى شرح حديث رقم (٧) من كتاب صفوة البخارى المتقدم.

فيأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتعدوا عن معاصيه. واطلبوا كل عمل يوصل لرضاه. وجاهدوا أنفسكم بمنعها عن الشرور. وجاهدوا الكفار والمحاربين بكل ما تستطيعون. لعلكم تفوزون فى الدنيا بالعز وفى الآخرة بالنعيم.

إن الذين كفروا لو فرض أن لكل واحد منهم ما فى الأرض جميعًا. انظر الآية (٥٤) من سورة يونس صفحة ٢٧٤، ٢٧٥؛ ومثله معه أيضًا وبذلوه ليفتدوا به من العذاب يوم القيامة ما تقبل منهم، بل ولهم عذاب شديد الألم بعد رفض الفداء. يومئذ يتمنون أن يخرجوا من النار بأى ثمن، وما هم بخارجين منها ولهم عذاب دائم. وبعدما بيَّن حكم السرقة الكبرى أراد بيان حكم السرقة الصغرى فقال:﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ فإن سرق مرة تقطع اليد اليمنى بالطريقة المتقدمة فى الآية (٣٣). وإن سرق ثانيا تقطع رجله اليسرى. فإذا عاد ثالثا تقطع اليد اليسرى. وفى الرابعة رجله اليمنى لأجل جزائه بما فعل. وللتنكيل به أى تشديد العقوبة. والله عزيز لا يعجز عما يريد، حكيم يشرع لكل ذنب ما يناسبه. فمن تاب عن السرقة من بعد ظلمه نفسه بها.....

وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩)
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن
يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)
* يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ
ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ
هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ
يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا
فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ
فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن
يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ
فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ

المفردات: ﴿يسارعون فى الكفر﴾: يقعون فيه مسرعين.

﴿الذين هادوا﴾: هم اليهود.

﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾: يغيرون كلام التوراة مبعدين له عن مواضعه التى وضعه الله فيه.

﴿السحت﴾: الحرام كرشوة وربا وأجرزنا.

المعنى: فَمَنْ تاب وأصلح عمله ورد المسروق لأصحابه فإن الله يقبل توبته لأنه كثير المغفرة والرحمة.

ألم تعلم أيها المخاطب أن الله له ملك السموات والأرض يدبر أمرهما بالحكمة والعدل، يعذب مَنْ يشاء ممنْ أفسدوا وعصوا، ويغفر لمَنْ يشاء ممنْ تابوا وأصلحوا، لأنه قدير على كل شيء من تعذيب أو مغفرة ورحمة.

وكان يهود المدينة وما حولها يدعون التمسك بالتوراة، فوقع فيهم حادث زنا من محصنين وخافوا عليهما من حكم التوراة، فأرسلوهما إلى النبى ﷺ.

وقالوا إن وجدتم عند محمد حكمًا أسهل فارضوا به واقبلوه وإلا فلا، فلما جاءوه ﷺ وسألوه قال: ما تجدون فى كتابكم؟ يريد التوراة، قالوا:

---

(١) السموات
(٢) يسارعون
(٣) بأفواههم
(٤)، (٥)، (٦) سمّاعون
(٧) أكالون.

نسود وجوههما ونفضحهما. فقال ﷺ: كذبتم، فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فجاءوا بها وبقارئ يعرف العبرية فقرأ حتى وصل آية الرجم وضع يده عليها وتخطاها، وكان عبدالله بن سلام حاضرا فقال:

ارفع يدك، فرفعها فوجدوا مكانها آية الرجم، فأمر ﷺ به، وأنزل الله فيهم وفى المنافقين منهم ومن غيرهم ﴿يأيها الرسول لا يحزنك﴾ إلخ؛ أى لا تهتم بمسارعة الذين يسارعون إلى التعمق فى الكفر بالتحيز إلى أعداء المؤمنين من المشركين.

ثم بيَّن هؤلاء المسارعين فقال: ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾، وهم المنافقون.

ومن الذين هادوا قوم سمَّاعون أى كثيرو الاستماع منك تجسسا عليك ليكذبوا ويحرفوا ما تقول ليصرفوا الناس عنك، سمَّاعون لأجل نقل ما تقول لقوم آخرين لم يأتوك وتجبرا، وهم زعماؤهم وأصحاب الرياسة فيهم، وهم الذين أرسلوا غيرهم يسأله ﷺ عن حكم الزنا؛ هؤلاء المتكبرون يحرفون كلام التوراة مبعدين له عن مواضعه بالطرق التى بينت فى شرح الآية (١٣) من هذه السورة صفحة ١٣٨، يقولون لأتباعهم الذين أرسلوهم إليه ﷺ: إن أوتيتم من محمد حكما أخف من الرجم فخذوه وارضوا به واقبلوه وإلا فاحذروا قبوله.

ثم قال سبحانه فى هؤلاء اللاعبين بدينهم:

ومن يرد الله فتنته أى فضيحته وخزيه بإظهار ما فى نفسه فلن تملك ما يدفع ما يريده الله له. وعلل ذلك بقوله:

أولئك هم الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من الكفر والنفاق، لأن الحسد صار طبعًا لهم، فهم كما فى الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤، لهم فى الدنيا خزى بالفضيحة والذم بنصر المؤمنين، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم.

ثم ذكر صفات أخرى لهم تؤكد استحقاقهم الخزى فقال:

﴿سماعون للكذب﴾ الذى يفتريه رؤساؤهم على كتاب الله، كثيرو أكل الحرام، وإذا كان حالهم كما علمت فإن جاءوك متحاكمين إليك فأنت مخير أيها النبى بين الحكم بينهم أو الإعراض عنهم.

عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم
بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ
وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ[١] فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ
وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ[٢] فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا
وَالرَّبَّانِيُّونَ[٣] وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ[٤] اللَّهِ وَكَانُوا
عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا
بِآيَاتِي[٥] ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْكَافِرُونَ[٦] ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ
بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ
وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ
كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

المفردات: ﴿القسط﴾: العدل.

﴿هدى ونور﴾. أى فيها ما يهدى إلى ما فيه سعادة الأخرى وما يضىء طريق الحياة فى الدنيا.

﴿الذين هادوا﴾: أى رجعوا من الكفر إلى الإيمان، والمراد بهم اليهود.

﴿الربانيون﴾: هم أهل الورع من أحبارهم كما تقدم فى الآية (٧٩) من سورة آل عمران صفحتى ٧٥، ٧٦

﴿الأحبار﴾: هم علماء اليهود.

﴿استحفظوا﴾: أى جعلهم الله تعالى حفظة ما علموه من كتابه وهو التوراة.

﴿والجروح قصاص﴾: أى متماثلات.

انظر الآية (١٩٤) من سورة البقرة صفحة ٣٨ .

المعنى: - وإن اخترت الإعراض فلا تخش غضبهم لأنهم لن يضروك شيئًا قليلاً فضلا عن الكثير، لأن الله عاصمك من الناس، وإن اخترت الحكم فاحكم بينهم بالعدل لأن الله يحب العادلين.

وتعجب أيها النبى من حال هؤلاء كيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله فى المسألة التى سألوك عنها، وما ذلك منهم لطلب الحق، وإنما جرى وراء الشهوات وطلب الأسهل؛ ولذا قال:

---

(١)، (٢) التوراة.
(٣) الربانيون.
(٤) كتاب
(٥) بآياتى
(٦) الكافرون.

ثم يتولون من بعد قبول التحكيم إذا لم يوافق حكمك أهواءهم، وليس هؤلاء بالمؤمنين فى الواقع، لا بالتوراة التى فى أيديهم، ولابك عند تحاكمهم إليك.

ثم أظهر جرمهم فى حق التوراة فقال:

إنا أنزلنا التوراة فيها ما يهدى إلى طريق الوصول إلى رضا الله، ونور يضىء ما خفى على الناس من طريق الحياة السعيدة، يحكم بها النبيون كموسى ومَنْ بعده إلى بعثة عيسى الذين انقادوا وخضعوا لحكم الله، وهذا يشعر بذم اليهود الذين تمردوا عليها؛ يحكمون بها لليهود، ويحكم بها أيضًا الربانيون والأحبار بما جعلهم الله تعالى حفظة أمناء عليه من شرعه الذى فى كتابه.

وكان هؤلاء النبيون ومن بعدهم شهداء أى رقباء يحمون الكتاب من التغيير كما فعل عبدالله ابن سلام، انظر شرح الآية (٤١) من هذه السورة صفحة ١٤٤ .

وإذا كان الأمر كما ذكر من عناية الله تعالى بكتبه فلا تخشوا أيها الأحبار الناس وخافونى فى ترك أمرى فإن النفع بيدى، ولا تتركوا آياتى التى فى التوراة وتأخذوا بدل إهمالها عوضًا حقيرًا من الرشوة أو الجاه.

ثم أيد كونهم غير مؤمنين بقوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ متى استحلوا ذلك. وفرضنا على بنى إسرائيل فى التوراة من العقوبات أن النفس تؤخذ بالنفس إذا قتلت عمدا بغير حق، والعين تفقأ بالعين، والأنف يجدع بالأنف، والأذن تقطع بالأذن، والسن تقلع بالسن، والجروح ذوات قصاص، أى يقتص من الجانى بمثل ما فعل بالمجنى عليه إن أمكن كاليد باليد والرجل بالرجل، وما لا يمكن فيه ذلك كما لو ضربه بقطعة عظم فى مخ رأسه فإنه لا يمكن أن يفعل به ذلك تمامًا، ففى هذه الحالة يقدر تعويض مالى.

وقد أقرت شريعتنا هذه الأحكام فوضحت ما جاء فى الآية (١٧٨) من سورة البقرة صفحة ٣٤، فمَنْ تصدق بما ثبت له من الحق بأن عفا عن الجانى فالتصدق كفارة يكفر بها ذنوبه، ويعفى عنه كما عفا عن أخيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فى هذه الجنايات وأهمل العقاب بالمثل فأولئك هم الظالمون...

ٱلظَّٰلِمُونَ[١] (٤٥) وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم[٢] بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ
مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ[٣] وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ
هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ[٤] وَهُدٗى
وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ (٤٦) وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡفَٰسِقُونَ[٥] (٤٧) وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ[٦] بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا
لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ[٧] وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم
بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ
ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ
لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ[٨] وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ[٩]ۖ
فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ[١٠]ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

المـفـردات: ﴿وقـفـينا على آثارهم﴾: أي بعثنا عيسى متبعا آثار هؤلاء النبيين الذين كانوا يحكمون بالتوراة.

﴿وليـــحـكم أهل الإنـجـــيل... إلخ﴾: فى الكلام تقدير قـول مقدر وذلك معهـود عند العرب وكثير فى القرآن.

انظر الآيات (٤٩) من سـورة الأعـــراف صـفـحـة ٢٠٠؛ و(٥٨) من سـورة الصـافـات صفحة ٥٩٠؛ و(٣١) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤؛ و(٢٠) من سورة الأحقاق صفحة ٦٦٩ .

والأصل قلنا لهم ﴿ليـحكم ... إلخ﴾ ويدل على ذلك قراءة حمزة ﴿وليحكُم﴾ بكسر اللام وفتح الميم، أى وأنزلنا الإنجيل هاديًا وموضحًا ومـصـدقًا ولأجل أن يحكم أهله بمـا طلب منهم العمل به فـيـه من الإيمـان بخـاتم المـرسلين ووجـوب اتبـاعـه، انظر الآية (١٥٧) من سـورة الأعـراف صـفـحـتـى ٢١٧، ٢١٨ و(٦) من سـورة الصف صفحتى ٧٣٨، ٧٣٩ .

﴿لمـا بين يديه من الكتـاب﴾: لمـا سبقـه من الكتب السـمـاوية. فـالكتاب مـراد به الجنس، فيشمل التوراة والإنجيل.

---

(١) الظالمون.
(٢) آثارهم.
(٣،٤) التوراة.
(٥) الفاسقون.
(٦) ، (٧) الكتاب.
(٨) واحدة.
(٩) آتاكم.
(١٠) الخيرات.

﴿ومهيمنا عليه﴾: أى رقيبا على ما سبقه من الكتب يقر الحق ويظهر خطأ ما صرفوه.

﴿شرعة﴾: هى الشريعة.

﴿ومناهجًا﴾: أصله الطريق الواضح فعطفه على الشريعة عطف تفسير لبعض صفات الشريعة.

﴿ليبلوكم﴾: أى يختبركم أى يعاملكم معاملة المختبر ليظهر للناس عملكم، واللام متعلقة بمقدر مفهوم من سياق الكلام والمعنى: ولكن أرادت حكمتنا أن تكونوا متفاوتى الاستعداد فتختلفوا فيتم اختباركم انظر آيتى (١١٨، ١١٩) من سورة هود صفحة٣٠١ .

﴿فاستبقوا الخيرات﴾: أى ابتدروها وسارعوا إليها انتهازًا للفرصة انظر الآية (٩٩) من سورة يونس صفحة ٢٨١ والآية (٣١) من سورة الرعد صفحة ٣٢٦ .

المعنى: . هم الظالمون لأنهم ظلموا أحد الخصمين بهضم حقه، ولم يحكموا بالعدل وبعثنا عيسى بن مريم بعد أولئك النبيين مصدقا بقوله وعمله لما سبقه وهو التوراة، ولم يغير فيها إلا ما أحله لأمته من بعض ما حرم على من سبقهم كما فى الآية (٥٠) من سورة آل عمران صفحة ٧١، وأعطينا عيسى الإنجيل مشتملاً على هدى من الضلال فى العقائد، ونور يضىء للسائر طريق الصواب فى أحكامه العملية، ومصدقًا لما سبقه من التوراة أيضًا.

فالمسيح مصدق للتوراة بقوله وعمله، والإنجيل مصدق لها بنصوصه، وهذا الإنجيل هدى... إلخ؛ أى شديد الهداية أكثر من التوراة لما فيه من المواعظ الروحية المخففة من غلظة قلوب بنى إسرائيل وينتفع به المتقون منهم قبل غيرهم..

وإذا كان هذا حال الإنجيل فإننا قلنا لهم بعد نزوله عليهم: ليحكم أهله وهم النصارى بما أنزل الله فيه من الأحكام التى أمرهم الله تعالى بالعمل بها، ومَنْ لم يحكم منهم بما فيه فأولئك هم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله.

وأنزلنا إليك أيها النبى الكتاب الكامل وهو القرآن مقترنًا بالحق فى كل أحكامه، مصدقًا لما تقدمه من الكتب السماوية، ورقيبًا عليها يقر ما فيها من الحق، ويبين ما دخلها من التحريف، فاحكم أيها النبى بين أفراد أمتك التى بعثت إليها بما فيهم أهل الكتاب بما أنزل الله فى القرآن، ولا تتبع أهواءهم مبتعدًا عما جاءك من الحق فى هذا القرآن بأن تحكم بما حرفوه مما يسهل عليهم شهواتهم.

لكل أمة منكم أيها الناس كافة جعلنا شريعة وطريقًا فى الأحكام العملية تناسب عصرها واستعدادها، انظر الآية (٦٧) من سورة الحج صفحة ٤٤٣، أى فيجب على أهل الكتاب أن يخضعوا لهذا الشرع الأخير الناسخ لكل ما سبقه فى الأعمال، أما العقائد فهى واحدة عند جميع الأنبياء كما فى الآية (١٣) من سورة الشورى صفحتى ٦٣٩، ٦٤٠ .

ولو شاء الله أن يجعلكم أمة واحدة ذات شريعة واحدة لجعلكم كذلك بأن يخلقكم على استعداد واحد، ويلزمكم حالة واحدة، ولا يختلف أحد منكم عن الآخر فى عقله ولا فى تفكيره مهما تغير الزمن والوطن.

ولكنه لم يشأ ذلك، بل جعلكم مختلفى العقول والأخلاق والاختيار، فلا تصلح لكم شريعة واحدة مع تطور الزمن، فجاء لكم بشرائع صالحة لحالكم، ليختبركم فيما أعطاكم من الشرائع والنعم، فيظهر المطيع والعاصى.

ولما كانت الشريعة الإسلامية هى النهائية الخالدة جاء بها فى غير العقائد والعبادات مرنة لتصلح لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة، ولم يأت بنهى قاطع إلا فى أمهات الفضائل وأمهات الرذائل التى لا تختلف فى عصر عن عصر، كبر الوالدين والإحسان للفقير والصدق، وتحريم الكذب، وقتل البرىء، إلى غير ذلك. وإذا كان الأمر كذلك فسارعوا إلى ما هو خير لكم، لأن ذلك مقصود كل الشرائع. إلى الله مرجعكم يوم القيامة جميعًا، فينبئكم بما اختلفتم فيه، فيظهر مَنْ كان على حق ومَنْ كان على باطل.

وأنزلنا إليك أيها النبى القرآن، وأنزلنا إليك قولنا لك أن احكم بينهم أى الأمر بالحكم إلخ، وليس مكررًا مع الأمر بالحكم أولاً، بل ليفيد أن الأمر به كان فيما نزل عليه، وهذا يفيد عناية خاصة.

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ
مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ
لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ
مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ
فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن
يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا
فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ
الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ

المفردات: ﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾: أى أخلاء موالين لهم بالنصرة والعون وإطلاعهم على أسرار دولتكم كما تقدم توضيحه فى الآية (٢٨) من سورة آل عمران صفحة ٦٧ .

﴿فى قلوبهم مرض﴾: هم المنافقون.

﴿يسارعون فيهم﴾: أى يسارعون فى مودتهم.

﴿دائرة﴾: مصيبة كبيرة مما يدور به الزمان.

﴿بالفتح﴾: أى النصر.

﴿أمر من عنده﴾: بقتل أعداء الإسلام وفضيحة المنافقين.

﴿جهد أيمانهم﴾: مؤكدين أيمانهم.

المعنى: . ولا تتبع شهواتهم المخالفة لما أنزل إليك، واحذر فتنتهم لك بصرفك عن بعض ما أنزل الله إليك ولو قليلاً.

روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: أن بعض أحبار اليهود قالوا اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا يا محمد إنا أحبار اليهود، ولو اتبعناك لاتبعك اليهود كلهم، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنتحاكم إليك، فإن قضيت لنا صدقناك.

---

(١) لفاسقون.
(٢) الجاهلية.
(٣) والنصارى.
(٥) الظالمين.
(٥) يسارعون.
(٦) نادمين.
(٨) أيمانهم.

فأبى ﷺ، فأنزل الله ﴿وأن احكم بينهم﴾ إلخ.

فتكون الآية إقرار له ﷺ على ما فعل وأمرًا له بالثبات وعدم الانخداع بهم. فإن تولوا عن حكمك فاعلم أن حكمة الله فى ذلك هى أن إرادته تمت على أن يصيبهم أى يعذبهم ببعض ذنوبهم فى هذه الحياة، أما فى الآخرة فيوفيهم جزاء كل ذنوبهم. ثم سلاّه ﷺ بقوله:

﴿وإن كثيرًا من الناس لفاسقون﴾ وإذا أعرضوا عن حكمك فهل حكم الجاهلية يطلبون وهو حكم يسير وراء الشهوات لا وراء العدل؟ ولا أحد أحسن من الله حكمًا عند قوم يوقنون بصحة شرعه.

ولما كان المنافقون فى المدينة كثيرين ويخشى منهم، وقد اغتر المؤمنون المخلصون بظاهرهم، ويخشى أن يطلعوا الكفار على أسرار المؤمنين، حذر الله موالاة الأعداء من اليهود والنصارى فقال:

﴿لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ لأن بعض اليهود يوالى ويصادق بعضهم الآخر، وكذا النصارى، وأيضًا مجموع اليهود والنصارى يجتمعون فى عداوتهم للمسلمين.

وإذا كانت عداوة اليهود أشد، وإذا كان كل منهم يحصر مودته لأهل ملته، فكيف توالونهم أنتم أيها المؤمنون، ومن يتولهم منكم بعد الآن فإنه يعتبر منهم، فهو ضال لضلالهم، والله لا يهدى القوم الظالمين بوضع الولاية والصداقة فى غير موضعها.

فترى الذين فى قلوبهم مرض النفاق يسارعون فى مودة الأعداء يقولون معتذرين عن عملهم: نخاف أن تصيبنا شدة فنحتاج إليهم. وهذا يدل على أنهم كانوا يتوقعون فشل المؤمنين وقوة الأعداء، انظر الآية (٩١) من سورة النساء صفحتى ١١٦، ١١٧ . فاصبر أيها النبى فعسى الله أن يأتى بالفتح أى النصر لنبيه، أو أمر من عنده بفضيحتهم وهتك سترهم وقتل الأعداء، فيصبح المنافقون نادمين على نفاقهم.

وعند ذلك يقول المؤمنون بعضهم لبعض متعجبين: أهؤلاء هم الذين أقسموا بالله غاية جهدهم فى توكيدها أنهم لمعكم وعلى دينكم؟

انظر مثل هذا فى الآيتين (٥٦)، (٦٢) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٠ ، ٢٥١ .

حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ[1] فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ[2] ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ
يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ[3]
يُجَٰهِدُونَ[4] فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ
فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ[5] عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا
وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ[6] وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ[7] وَهُمْ رَٰكِعُونَ[8] ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ[9] ﴿٥٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا
وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ[10] مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ[11]
ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

المفردات: ﴿حبطت أعمالهم﴾: أى بطلت وذهبت عبثًا.

﴿وهم راكعون﴾: المراد خاضعون لأمر الله عن طيب نفس مع انكسار الصالحين، وتقدم مثل هذا المعنى فى الآية (٤٣) من سورة البقرة صفحة ٩.

المعنى: فكان مآل نفاقهم أن جميع أعمالهم التى كانوا يوهمونكم بها أنهم منكم من صلاة وصيام وجهاد ذهبت عبثًا، فصاروا خاسرين لكل نافع، وأصيبوا فى الدنيا بالفضيحة، وفى الآخرة بالدرك الأسفل من النار.

ولما كان عمل مَنْ يصادق خصوم الدين مستدعيًا للردة والكفر، أراد سبحانه أن يبين له ﷺ حقيقة كانت خافية عليه يطمئن لها قلبه فقال: ﴿يأيها الذين آمنوا﴾، أى دخلوا فى الإيمان حقيقة أو تظاهرا، مَنْ يرتد أى يرجع إلى الكفر فسوف يأتى الله بدلهم بقوم فيهم ست صفات حميدة:

الأولى يحبهم الله وقد سبق فى الآية (٣١) من سورة آل عمران صفحة ٦٨ معنى حب الله وأن من آثاره المغفرة وحسن الجزاء.

والثانية يحبونه ومن آثار ذلك أنهم لا يبالون إلا بما يرضيه،

الثالثة والرابعة أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، ويفسرهما قوله تعالى فى آخر سورة الفتح ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ الآية (٢٩) من سورة الفتح صفحتى ٦٨٣، ٦٨٤.

---

(١) أعمالهم. (٢) خاسرين.
(٣) الكافرين. (٤) يجاهدون.
(٥) واسع. (٦) الصلاة.
(٧) الزكاة (٨) راكعون
(٩) الغالبون (١٠) الكتاب
(١١) الصلاة.

الخامسة يجاهدون فى سبيل الله بإخلاص، والسادسة ولا يخافون لومة لائم.

وفيها تعريض بالمنافقين الذين كانوا يخافون قوة اليهود والمشركين.

ذلك المذكور من الصفات فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء من عباده الصالحين، والله واسع فى الفضل عليم بِمَنْ يستحقه.

وقد تحقق هذا الخبر الغيبى وارتد عن الإسلام ١١ فرقة، ثلاث فى عهده ﷺ وقد أهلكهم الله تعالى، وسبع فى عهد أبى بكر، وقاتلهم رضى الله تعالى عنه حتى أقر الدين، وواحدة فى عهد عمر رضى الله تعالى عنه، وهم غسان قوم جبلة بن الأيهم.

وقيل أن جبلة ندم بعد أن سافر إلى الشام وأسلم. ثم بيَّن سبحانه مَنْ تجب موالاته بعد النهى عن موالاة أعدائه فقال: ﴿إنما وليكم الله﴾ إلخ أى ليس لكم أيها المؤمنون ولى وناصر إلا الله ورسوله وأنفسكم، بعضكم أولياء بعض كما فى الآية (٧١) من سورة التوبة صفحة٢٥٣.

ثم ذكر صفة المؤمنين بقوله الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم خاضعون لحكم الله متواضعون تواضع الصالحين.

ومن يتول الله بالإيمان به والتوكل عليه، والرسول والمؤمنين بمناصرتهم فإنه يغلب قطعا، لأن حزب الله هم الغالبون وحدهم. ثم أعاد النهى عن موالاة اليهود والنصارى مبينا سببًا آخر لعدم موالاتهم فقال:

يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم أى عبادتكم هزوا أى مهزوءًا به ومسخورًا منه، ولعبا أى ملعوبا به وأداة تسلية، واتقوا الله فلا توالوهم إن كنتم مؤمنين صادقين تحرصون على كرامة دينكم.

ثم ذكر نوعا من استهزائهم فقال: وإذا ناديتم أى أذنتم ودعوتم الناس للصلاة اتخذوا الصلاة والمناداة لها هزوا ولعبا.

روى أنهم كانوا إذا رأوا المسلمين ساجدين يسخرون بهم، وإذا سمعوا المؤذن يقول أشهد أن محمدًا رسول الله قال بعضهم هلك الكذاب ويتضاحكون، انظر الآيات (من ٢٩ إلى آخر سورة المطففين) صفحة ٧٩٨. ذلك الاستهزاء الواقع منهم بسبب أنهم قوم لا يعقلون، لأن عدم العقل والسفه يؤدى إلى الجهل بمحاسن الحق.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ[١] هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ
وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ
فَٰسِقُونَ[٢] ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ
ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ
وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ[٣] أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ
عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد
دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ[٤]
فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ[٥] وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ[٦] ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ[٧] وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ
ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾
وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ

المفردات: ﴿مثوبة عند الله﴾: أى جزاء ثابتًا فى حكم الله والمثوبة تطلق على الخير والشر ولكنها تطلق على الخير أكثر.

﴿وعبدالطاغوت﴾: معطوف على لعنة الله أى ومَنْ عبدالطاغوت والطاغوت كل طاغية جبار، وعبادته الخضوع له.

﴿يسارعون فى الإثم والعدوان﴾: أى يسارعون إلى الوقوع فى الكذب والتعدى والظلم.

﴿وأكلهم السحت﴾: المال الحرام كالرشوة والربا كما تقدم فى الآية (٤٢) من هذه السورة صفحتى ١٤٤، ١٤٥

﴿لولا﴾: كلمة تفيد الحث على ما بعدها.

﴿الربانيون﴾: الصلحاء كما تقدم فى الآية (٧٩) من سورة آل عمران.

﴿الأحبار﴾: العلماء.

﴿يدالله مغلولة﴾: روى أنهم كانوا إذا أصيبوا بجدب وطلب منهم نفقة فى خير اعتذروا بهذا العذر القبيح، يريدون أنه سبحانه وتعالى أمسك عنهم الرزق، فهى كناية عن التقتير عليهم، ولكنها كناية بشعة لا تصدر إلا عن جلف غليظ القلب.

المعنى: ـ وأراد سبحانه أن ينبههم إلى أن الدين ليس مثار استهزاء فقال: قل لهم أيها النبى مبكتا:

(١) الكتاب.
(٢) فاسقون.
(٣) الطاغوت.
(٤) يسارعون.
(٥) والعدوان.
(٦) ينهاهم.
(٧) الربانيون

يا أهل الكتاب هل تكرهون منا وتعيبون علينا إلا إيماننا الصادق بالله وبكتبه ومنه الكتاب الذى أنزل عليكم، وإيماننا بأن أكثركم فاسقون أى خارجون عن شرائع الله.

ثم نبههم إلى أن الأحق بالنقمة والعيب هو ما هم عليه فقال: قل لهم هل أخبركم بعمل أقبح من استهزائكم بديننا وأذاننا للصلاة من حيث الجزاء عند الله يوم القيامة؟ ثم أجاب عن هذا السؤال فقال:

مَنْ لعنه الله إلخ، أى عمل مَنْ لعنه الله أى العمل الذى استوجب من الله اللعن والغضب والمسخ والخضوع لكل طاغية جبار، وهذا العمل ذكر فى القرآن كثيرًا كقتلهم الأنبياء بغير حق، ونقضهم العهود، وعبادة العجل، وقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا، إلى غير ذلك.

انظر كيف جعلهم قردة وخنازير فى الآية (٦٥) من سورة البقرة صفحة١٣ . أولئك الملعونون المغضوب عليهم مكانهم فى الآخرة أشد شرًا، لأنهم أشد ضلالاً وبعدًا عن الطريق المستقيم. ونزل فى منافقى اليهود: وإذا جاءوكم أيها المؤمنون قالوا آمنا مثلكم والحال أنهم قد دخلوا عليكم متلبسين بالكفر، فهم كاذبون، وهم وأنفسهم قد خرجوا من عندكم بالكفر، أى لم يتغير منهم شىء، خرجوا كما دخلوا، وإذا صح أنهم يخادعونكم فكيف يخادعون الله وهو أعلم بما كانوا يكتمون.

وترى أيها النبى كثيرًا من هؤلاء اليهود يسارعون فى قول الإثم أى الكذب والعدوان والظلم وتجاوز حدود الله تعالى وفى أكلهم الحرام. وعزتى لقد قبح ما كانوا يعملون.

ثم بين سبحانه أن الفساد قد عم هذه الطائفة حتى شمل علماءهم فقال لولا أى هلا ينهاهم ويزجرهم الربانيون والأحبار عن هذا الكذب وأكل الحرام؟ أى لم يفعلوا ولو فعلوا لما تعودوا هذا الإجرام، كما سيأتى فى الآية (٧٩) صفحة١٥٢، وعزتى لقبح ما كان يصنع هؤلاء الربانيون والأحبار أيضًا. ثم ذكر سبحانه شناعة أخرى من شناعاتهم دليلاً على جرأتهم على الإثم فقال: وقالت اليهود يد الله مغلولة بالرزق عنا، فليس عندنا ما نتصدق به. فدعا سبحانه وتعالى عليهم بقوله:

﴿غلت أيديهم﴾ أى فى سلاسل جهنم يوم القيامة، وطردوا عن رحمة الله بسبب هذا القول الفظيع.

(الجزء السادس)

بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا
بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟
نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ
ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ
إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ
مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾
۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ
تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ

المفردات: ﴿مبسوطتان﴾: كناية عن غاية الجود والعطاء الشامل. وثنّى اليد لأن العرب تقول الكريم يعطى بكلتا يديه..

﴿أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله﴾: هذا كناية عما دأبوا عليه من إشعال الفتنة والكيد للمسلمين والإيقاع بينهم وبين المشركين، فالله سبحانه يحبطه ويدفع شره.

﴿منهم أمة مقتصدة﴾:أى طائفة معتدلة.

المعنى: كذبوا، بل هو سبحانه وتعالى جوَّاد كريم ينفق كيف يشاء حسب علمه وحكمته فيمن يستحق السعة أو التضييق.

وعزتى ليزيدن كثيرًا منهم وهم زعماؤهم الخائفون على ضياع جاههم ما أنزل إليك أيها النبى طغيانا على طغيانهم وكفرا على كفرهم، فكلما نزل شىء من الوحى فيه سعادتك وشرفك اشتد حسدهم وطغيانهم ومحاربتك.

ثم ذكر سبحانه نوعًا مما عوقبوا به فقال: وألقينا بين أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين شملتهم الآيات (٥٧، ٦٥، ٦٦) السابقة فى هذه السورة، العداوة والكره، فكل منهما يحارب الآخر ويكرهه دائمًا انتقامًا من الله منهم، أما ما يريدونه من الشر بالنسبة للرسول وأصحابه فقد تولى الله دفعه عنهم بقوله:

﴿كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله﴾ وأبعد الشر عن المسلمين، ورد كيدهم فى نحورهم، وهم بعملهم هذا يسعون فى الأرض للإفساد، وهذا أظهر فى بعضهم وهم اليهود.

---

(١) طغيانًا. (٢) العداوة.
(٣) القيامة. (٤) الكتاب.
(٥) ولأدخلنهم. (٦) جنات.
(٧) التوراة (٨) الكافرين.

فإنهم لايعيشون إلا فى جو فسدت فيه العلائق بين الناس ليمتصوا أموالهم، والله لا يحب المفسدين، فهم من المكروهين له تعالى.

ولو أنهم آمنوا بالنبى المبشر به فى كتبهم وهو خاتم النبيين، واتقوا عذاب الله باتباعه لجازيناهم فى الآخرة بتكفير ذنوبهم وإدخالهم الجنة.

أما فى الدنيا فلو أنهم عملوا بما فى التوراة والإنجيل الصحيحين وما أنزل إليهم من ربهم على لسان خاتم رسله لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كناية عن سعة الرزق وهناءة العيش، وأحاطت النعمة بهم من كل جانب، انظر الآية (٩٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٨، والآية (١١٢) من سورة النحل صفحة ٣٦١، والآيتين (٢، ٣) من سورة الطلاق صفحتى ٧٤٨، ٧٤٩؛ والآيات (١٠، ١١، ١٢) من سورة نوح صفحة ٧٦٨، والآية (١٦) من سورة الجن صفحة ٧٧١. من أهل الكتاب طائفة معتدلة فى أمر الدين لا تغالى فتقدس مخلوقًا وتلحقه بالله عز وجل، ولا تفرط فتنكر نبوة نبى ثبتت نبوته بالقطعيات، وهؤلاء هم الذين سارعوا إلى الإسلام كعبدالله بن سلام وأصحابه من اليهود، والنجاشى وأصحابه من النصارى، وكثير منهم بئس ما كانوا يعملون من العناد والحسد وتحريف الحق. ولما كان ﷺ قد يجتهد فى سياسة أمته بما يرىٰ معه أنه يجوز له تأخير بعض الأشياء حتى تسنح الفرصة كما حصل فى قصة زينب وزيد فى الآيات (٣٧، ٣٨، ٣٩) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٥، ٥٥٦ وفى الآية (٧٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤ ومن الآية (١) إلى الآية (١٠) من سورة عبس صفحتى ٧٩١، ٧٩٢.

لما كان كل هذا أراد سبحانه أن يطمئن رسوله من شر كل مخلوق، وأن يأمره بأن يصدع بالحق ولا يبالى، فقال: يأيها الرسول إلى الناس كافة، وهو نداء تشريف ليس كمثله تشريف، بلغ الخلق جميع ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل بأن لم تبلغ البعض فكأنك لم تبلغ شيئًا؛ لأن شرع الله عز وجل لا يتجزأ، ولا تخف فإن الله يعصمك أى يحفظك من قتل الناس لك، لأن قتلك يمنع إتمام رسالتك.

أما ما دون القتل من جرح وغيره كما حصل فى أُحد فى شرح الآية (١٢٨) من سورة آل عمران صفحة ٨٤ فلا يضر الرسالة، فلا مانع من وقوعه، والله حفظك لأنه لايهدى الكافرين إلى تحقيق أمنيتهم من إحباط دعوتك.

الْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ
وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ
الْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰبِـُٔونَ
وَالنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ
بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ
بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾
وَحَسِبُوٓا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾
لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
وَقَالَ الْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ

المفردات: ﴿تأس﴾: تحزن.

﴿فتنة﴾: بلاء وعذاب.

المعنى: . لما كان سبب غرور اليهود والنصارى وحسدهم له ﷺ هو افتخارهم بأنهم أهل كتاب وما عداهم جهلة مشركون، أبطل سبحانه هذا الغرور بقوله: قل أيها النبى لهم لستم على شيء يعتد به فى الدين إلى أن تقيموا التوراة والإنجيل، أى تحافظوا على ما فيهما من التوحيد الخالص والبعد عن السحت، والإيمان بما بشرا به من نبى من ولد إسماعيل، أما مجرد حفظ ألفاظهما والتفاخر بحملهما فهذا لا فخر فيه؛ لأن الحمار يحمل الكتب كما فى الآية (٥) من سورة الجمعة صفحة ٧٤١ . وتحافظوا أيضًا على ما أنزل إليكم من ربكم على لسان خاتم النبيين.

ولكن هل تظن أيها القارئ أنهم سيفعلون هذا؟ كلا بل سيزيد ما أنزل إليك أيها النبى من لقرآن طغيانهم وكفرهم كما تقدم فى الآية (٦٤) من هذه السورة صفحتى ١٤٩، ١٥٠؛ فلا تحزن على عدم إيمان القوم الكافرين؛ وذلك لأنه ﷺ كان رءوفا رحيما يحب الخير لكل مَنْ

---

(١) الكتاب.
(٢) التوراة.
(٣) طغيانًا.
(٤) الكافرين.
(٥) والصابئون.
(٦) والنصارى.
(٧) صالحًا
(٨) ميثاق
(٩) إسرائيل
(١٠) يا بنى
(١١) إسرائيل.

أرسل إليهم، ويحزن إذا حرموا منه، كما فى الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠ ....

ولما قدم أن مجرد حمل الكتب لا ينفع أراد أن يبين النافع المنجى فقال: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا﴾... إلخ وتقدم شرحها فى الآية (٦٢) من سورة البقرة صفحتى ١٢، ١٣، وغيَّر إعراب الصابئين للحكمة المتقدم بيانها فى الآية (١٦٢) من سورة النساء.

وهى هنا لفت النظر إلى أن الصابئين كانوا أهل كتاب، وأن حكمهم كحكم مَنْ لهم كتب من اليهود والنصارى والمسلمين فى نفى الخوف عنهم إذا أخلصوا وعملوا الصالحات.

ولما كانت العناية بالمحافظة على العهود هى المقصود الأسمى أعاد التذكير بها فقال: ﴿لقد أخذنا ميثاق﴾... إلخ. تقدم أن الميثاق هو العهد المؤكد، وتقدم فى الآية (١٢) من هذه السورة صفحة ١٢٨ ما أخذ به العهد عليهم، وأرسلنا إليهم رسلاً كثيرين لم يحصل مثله لأمة أخرى، وذلك لكثرة شرورهم وسرعة تمردهم على شرع الله عز وجل.

ثم بيَّن كيف عاملوا رسلهم فقال: كلما جاءهم رسول بما لا تميل إليه أنفسهم من ميثاق التكاليف استكبروا كما صرح بهذا الجواب فى الآية (٨٧) من سورة البقرة صفحة ١٧ .

وكانت نتيجة هذا الاستكبار أنهم كذبوا فريقًا من الرسل وقتلوا فريقًا كزكريا ويحيى عليهما السلام، وقد تقدم أيضًا فى الآية (٨٧) من سورة البقرة صفحة ١٧؛ وظنوا أن جرمهم هذا لا يصيبهم الله تعالى بسببه ببلاء وعذاب لزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، فعموا عندما ظهر الحق ولم يبصروا العبر فيمَنْ مضى من الأمم، وصموا آذانهم عن سماع الحق.

ثم تاب الله عليهم لما تابوا، فنجاهم من إذلال البابليين لهم دهرًا طويلاً، انظر الآية (٥) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٤، ٣٦٥؛ ثم عمى وصم كثير منهم، وقليل منهم مقتصد كما تقدم فى الآية (٦٦) من هذه السورة صفحة ١٥٠، والله تعالى بصير بما يعملون، وسيجازيهم بما يستحقون يوم القيامة.

ثم شرع فى بيان قبائح اليهود وإبطالها فقال سبحانه: كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح، وقد تقدم الكلام على طوائفهم فى الآية (١٧) من هذه السورة صفحة ١٣٩، قالوا هذا الباطل مع أن المسيح نفسه قال: يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم.

إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ[1] ٱلنَّارُ
وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ[2] مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ
ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ[3] وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ[4] وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ
عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾
مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ
وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ
ٱلْءَايَٰتِ[5] ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ[6] لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ
كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

المفردات: ﴿خلت﴾: مضت.

﴿صديقة﴾: ملازمة للصدق فى القول والعمل، انظر الآية (٦٩) من سورة النساء صفحة ١١٢، والآية (١٩) من سورة الحديد صفحتى ٧٢١، ٧٢٢

﴿يأكلان الطعام﴾: كناية عن كونهما حيوانين مخلوقين كسائر الحيوانات التى لا تعيش إلا بالأكل.

﴿أنى﴾: كيف.

﴿يؤفكون﴾: يصرفون.

﴿لا تغلوا﴾: أى لا تتجاوزوا الحد.

المعنى: - إنى عبد مثلكم لرب واحد، فاعبدوه وحده لأنه مَنْ يشرك معه فى العبادة غيره فقد حرم الله عليه الجنة، ومكانه الذى يأوى إليه هوالنار، ولا يجد مَنْ ينصره فيخرجه منها

ثم ذكر كفر طائفة أخرى من النصارى فقال: لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة:

---

(١) ومأواه.
(٢) للظالمين.
(٣) ثلاثة.
(٤) واحد.
(٥) الآيات.
(٦) الكتاب.

الأب، والأبن، وروح القدس. كهذا يقولون، وما من إله إلا إله واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين يثبتون على الكفر منهم عذاب شديد الألم.

أفلا يتوبون إلى الله بعد كل هذه الأدلة ويستغفرونه حتى يغفر لهم لأنه كثير المغفرة والرحمة. ثم شرع فى بيان حقيقة المسيح وأمه عليهما السلام فقال:

ما المسيح إلا رسول من رسل الله الكثيرين الذين مضوا، وما أمه إلا صديقة كسائر النساء الصديقات، وكان هو وأمه يأكلان الطعام لحفظ بدنيهما كسائر الحيوانات فضلا عن سائر الناس، وكل مَنْ يأكل يحتاج قطعًا إلى تبرز، فمن السفه أن يتخذ مثله إلهًا.

ولهذا قال: انظر أيها السامع وتعجب كيف نبين لهؤلاء البراهين القاطعة على بطلان مايزعمون فى المسيح.

ثم انظر كيف يصرفهم الشيطان عن التأمل فيها، ثم قل لهم أيها النبى مبكتا وموبخًا على عبادة مالا ينفع: أتعبدون من دون الله مالايملك لكم ضرًا تخشونه إذا امتنعتم عن عبادته، ولا نفعًا ترجونه ولا توحدون الله مع أنه هو وحده السميع لأدعيتكم وكل أقوالكم، العليم بما فى نفوسكم، ويحاسبكم عليه ويجازيكم.

وقل لهم أيضًا لا تتجاوزوا الحد فى دينكم تجاوزا مغايرًا للحق بأن يرفع النصارى منكم المسيح إلى رتبة الإله، ويدعى اليهود منكم أنهم أبناء الله وأحباؤه فلن يعذبهم إذا خالفوا محمدًا ﷺ.

ولا تتبعوا شهوات قوم هم أسلافهم وأئمة الدين منهم قد ضلوا من قبل بعثة خاتم النبيين، وأضلوا معهم خلقًا كثيرًا، وضلوا أخيرًا بعد بعثته ﷺ عن الشريعة المحمدية التى هى الطريق المستقيم.

ثم بين سبحانه بعض أسباب هذا الضّلال والإضلال وما عوقبوا به فقال: لعن الذين كفروا.........

مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ[1] عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ
ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ
عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا
مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ
أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ[2] ﴿٨٠﴾
وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ
أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ[3] ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ
أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ[4] لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ
وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ[5]ۚ
ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾
وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ
ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا

المفردات: ﴿الذين قالوا إنا نصارى﴾: عبّر سبحانه عن اليهود باسمهم، وعن المشركين بصفتهم، وهنا عبر عن النصارى بأنهم الذين ﴿قالوا﴾ ولم يقل ﴿الذين تنصروا﴾ مثلاً، مثل ما قال فى المشركين. ﴿الذين أشركوا﴾ وحكمته فى ذلك الإشعار بقرب مودتهم، حيث يقولون إنهم أنصار الله تعالى فهم أحباب أهل الحق، وفيه تعريض بصلابة اليهود، والمشركين والامتناع من الانقياد، لأن اليهود لما قال لهم نبيهم موسى ﴿ادخلوا الأرض المقدسة﴾.

قالوا: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ الآية (٢٤) من سورة المائدة صفحة ١٤١ .... والمشركون لما دعاهم الرسول ﷺ إلى الخير قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١ .. والنصارى لما قال لهم نبيهم عيسى عليه السلام ﴿من أنصارى إلى الله قالوا نحن أنصار الله﴾ الآية (٥٢) من سورة آل عمران صفحة ٧١. فالنصارى لمَ يتبجحوا بالرد تبجح اليهود والمشركين.

﴿تفيض من الدمع﴾: أصل معنى الفيض سيلان الماء، وهنا جعل الأعين تفيض مبالغة كأنها هى نفسها التى فاضت من كثرة الدمْع، كما يقولون ﴿سال الوادى﴾ أى سال الماء فى الوادى بكثرة حتى كأن الوادى هو الذى سال، انظر أصل معنى ﴿فاض﴾ فى شرح الآية (١٩٨) من سورة البقرة صفحة ٣٩.

---

(١) إسرائيل. (٢) خالدون.
(٣) فاسقون. (٤) عداوة.
(٥) نصارى.

المعنى: لعن الله الذين كفروا به من بنى إسرائيل على لسان داود فى الزبور، وعيسى بن مريم فى الإنجيل؛ ذلك اللعن بسبب عصيانهم له تعالى واعتدائهم المستمر على أحكام الله بافتراء الكذب عليه وعلى أنبيائهم بالقتل والتكذيب. ثم بين سبب استمرارهم على ذلك فقال: كانوا لا ينهى بعضهم بعضا عن منكر فعلوه مهما اشتد قبحه، فشجع ذلك الفساق على التجاهر، وعلم الذرية القبح والكبائر. لبئس ما كانوا يفعلون. ومن آثار هذا أنك ترى أيها النبى كثيرًا من بنى إسرائيل يصافون ويصادقون الكافرين ليحرضوهم على قتالك والكيد لك، قبح شيئًا قدموه لأنفسهم العمل الذى سبب سخط الله عليهم، وكان من أثره أنهم خالدون فى العذاب. ولو كان هؤلاء الذين يوالون المشركين يؤمنون بالله وبالنبى محمد ﷺ وبالقرآن ما اتخذوا المشركين بالله الملعونين فى كل كتاب وعلى لسان كل نبى أصفياء أخلاء، ولكن كثيرًا من هؤلاء اليهود الذين يدَّعون الإيمان بموسى وكتابه خارجون عن دين موسى وعاصون لكتابه. ثم بين الحالة النفسية لأهل الكتاب والمشركين بالنسبة للمؤمنين من العداوة والمودة ودرجة كل منهما، فقال: لتجدن أيها الرسول اليهود والمشركين أشد الكفار عداوة للمؤمنين، ولتجدن أقربهم مودة النصارى، أى أن أحد الفريقين بالنسبة للمؤمنين فى أقصى مراتب أحد النقيضين، والآخر فى أقصى مراتب نقيضه، وكونهم أقرب مودة بسبب أن منهم قسيسين أى علماء بكتبهم، ورهبانًا أى منقطعين للعبادة، أى فيهم مَنْ يعلم ومَنْ يمثل الزهد، وأنهم لا يستكبرون عن الإذعان للحق إذا ظهر، لأن من آداب دينهم التواضع، بخلاف الحال عند اليهود، وقد أثبتت الأيام هذه المعجزة فكان أكثر الناس دخولا فى الإسلام النصارى ولا نكاد نجد يهوديًا يسلم.

ومن أسباب قربهم من المسلمين أنهم إذا سمعوا القرآن المنزَّل على الرسول المبشر به فى الإنجيل ترى أيها الناظر أعينهم تمتلئ من الدمع حتى يتدفق من جوانبها لكثرته، وهذا كناية عن رقة قلوبهم وعدم تكبرهم بسبب معرفتهم بعض الحق، فكيف لو عرفوا جميع الحق بسماع جميع القرآن. وبيان ذلك أنه لما اشتد إيذاء قريش للمؤمنين فكانوا يعذبون كل مَنْ يظهر إسلامه، ولم يمنع النبى ﷺ من إيذائهم سوى عمه أبى طالب، فقد كانت قريش تخافه، عند ذلك رأى النبى ﷺ أنه عاجز عن دفع ظلم قريش، فأمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وقال لهم: إن فيها ملكا صالحًا لا يُظلم عنده أحد. فهاجر إليها نحو ثمانين رجلاً منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول وجعفر بن أبى طالب، فلما وصلوا طلب منهم النجاشى أن يسمعوه شيئًا مما نزل على رسولهم، فقرأ جعفر سورة مريم وكان فى المجلس قسيسون ورهبان، فانحدرت دموعهم لما عرفوا الحق، وفيهم وفى أمثالهم نزلت هذه الآية وعقب ذلك مباشرة قالوا معلنين إيمانهم: يا رب آمنا بما أنزلت على محمد نبيك، فاقبل إيماننا واكتبنا مع الشهداء على الناس يوم القيامة.

مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ
ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾
فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ
وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا
رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ
مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن
يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ
مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ
تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ

المفردات: ﴿باللغو فى أيمانكم﴾.. تقدم فى الآية (٢٢٥) من سورة البقرة صفحة ٤٥ أن اللغو ما يجرى على اللسان من غير قصد يمين..

﴿بما عقدتم﴾.. أى بتعقيدكم الأيمان أى بتوثيقها بالقصد والنية.

﴿أوسط ما تطعمون﴾... أى من معتاد ما تأكلون أنتم وأهليكم.

المعنى: لأنهم عدول وهم المشار إليهم فى الاية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٨،٢٧ والآية (٦٩) من سورة النساء صفحة ١١٢. ويقولون أيضًا أى مانع يمنعنا من الإيمان بالله وبما جاءنا من الحق على لسان محمَّد والحال أنا نطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين فى دار النعيم، فأعطاهم الله من الثواب بسبب قولهم هذا الناشئ عن اعتقاد جنات تجرى من تحتها الأنهار إلخ، وأنقذهم من الكفر الذى يجازى أصحابه بملازمة الجحيم أى جهنم.

ولما جاء فى سياق مدح النصارى حديث الرهبانية وهى مبنية على كسر النفس والبعد عن لذائذ الحياة، وكان هذا ربما يفيد جوازها فى الإسلام، بل فكر فيها ثلاثة من خيار أصحابه

---

(١) الشاهدين. (٢) الصالحين.
(٣) فاثابهم (٤) جنات.
(٥) الأنهار. (٦) خالدين.
(٧) بآياتنا (٨) أصحاب
(٩) طيبات (١٠) حلالا
(١١) أيمانكم. (١٢) الأيمان
(١٣) فكفارته (١٤) مساكين
(١٥) ثلاثة (١٦) كفارة.

ﷺ، انظر قصتهم فى حديث ٥٢١ من كتابنا صفوة صحيح البخارى، لما كان كل هذا وكان الإسلام آخر الأديان الذى أراد الله تعالى أن يكون هو الدين العام الخالد، ولم يجعل فيه حرجًا ولا تضييقًا، حذر المسلمين من أمثال هذه الرهبانية فقال تعالى: يأيها الذين آمنوا لا تحرموا على أنفسكم طيبات ما أحل الله لكم المبينة فى أول السورة ظانين أن هذا يقربكم من الله. ثم أكد هذا النهى بقوله: ولا تعتدوا بتعدى حدوده تعالى التى فصل بها بين الحلال والحرام، أى فلا تدخلوا فى الحرام شيئًا من الحلال ولا العكس؛ لأن الله عز وجل لا يحب من يعتدى على حدوده، فاحذروا غضبه.

ثم صرح بالأمر بضد ما نهى عنه تأكيدًا فقال: وكلوا مما رزقكم الله حال كونه حلالاً فى نفسه فليس مما حرمه عليكم أول السورة من الميتة وما بعدها، وحلالاً فى طريقة كسبه وتناوله فلا يكون ربا أو مثله، وبأن لا تسرفوا فى تعاطيه، انظر الآية (١٤١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٦ والآية (٣١) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦، طيبًا مستلذًا غير مستقذر. والمراد من الأكل مطلق الأخذ والاستعمال، واتقوا الله فلا تفتاتوا عليه فى التحريم والتحليل ولما نزلت هذه الآية وكان بعض الصحابة حرم على نفسه بعض الملذات وحلف على ذلك. بين سبحانه حكم الأيمان، فقال:

لا يؤاخذكم الله بالعقاب أو الكفارة بلغو اليمين، ولكن يؤاخذكم بما قصدتموه وصممتم عليه النية؛ يؤاخذكم بالعقاب إذا كانت اليمين غموسًا وهى التى تغمس صاحبها فى النار كأن يحلف على شىء أنه حصل وهو يعلم أنه لم يحصل، أو بالعكس، فلا كفارة لهذه إلا جهنم.

ويؤاخذكم بالكفارة فى غير ذلك كأن يحلف أن يفعل كذا ولايفعل.

وتلك الكفارة هى إطعام عشرة مساكين غداء وعشاء من معتاد ما تطعمون أهليكم الذين تحت رعايتكم؛ فلا يجوز لمعتاد أكل اللحم والخضر والفاكهة أن يطعم الخبز والجبن مثلا. ويجوز أن يعطى المسكين ما يكفيه طعام يوم من مال أو قوت أو كسوتهم بما يستر الجسم. وتزيد المرأة المسكينة غطاء للرأس، أو عتق رقبة رقيق فمن لم يجد واحدا من الثلاثة فعليه صيام ثلاثة أيام متتابعة عند بعض، وغير متتابعة عند آخرين؛ ذلك كفارة أيمانكم.

أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ
عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ
ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ
وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم
مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟
فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾
لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا
طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟
وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ

المفردات: . ﴿الميسر﴾.. هو القمار بكل أنواعه. ﴿الأنصاب﴾.. حجارة كانوا يذبحون عندها تعظيمًا لأصنامهم كما تقدم فى الآية (٣) من هذه السورة صفحة ١٣٥ . ﴿الأزلام﴾... السهام التى كانوا يعرفون بها الغيب كما تقدم فى الآية (٣) أيضًا.

﴿رجس﴾.. خبيث مستقذر عند أرباب العقول السليمة. ﴿فيما طعموا﴾.. أكلوا وشربوا. ﴿ليبلونكم﴾.... يختبرنكم. ﴿الصيد﴾... تقدم فى الآية (١) صفحة ١٢٤ أن الصيد يطلق على مايصاد من حيوان البحر ومن حيوان البر الوحشى والمراد به هنا الثانى كما سيأتى فى الآية (٩٦) صفحة ١٥٦ .

المعنى: . إذا حلفتم وحنثتم. وصرح بالكفارة ثانيًا تاكيدًا، وليرتب عليها قوله: واحفظوا أيمانكم، فلا تعرضوها بدون سبب قوى ولا تكثروا منها ولو صادقة فضلا عن الكاذبة، انظر الآية (٢٢٤) من سورة البقرة صفحة ٤٥ . كهذا البيان البديع يبين الله لكم آياته الدالة على شرعه لعلكم تشكرون نعمته على إخراجكم من ظلمة الجهل إلى نور العلم. ثم ذكر سبحانه فى معرض الكلام على المطعومات بعضا منها بلغ من خبثه أن يقرن بما فيه شرك فقال: ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾ أى مقاربتها وتناولها من وسوسة الشيطان وتزيينه. وجرت عادة القرآن أن ينسب كل منكر شرعا إلى الشيطان لأنه سببه، وإذا كان الأمر كذلك فاجتنبوه أى ابتعدوا عن هذا الرجس كله رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما تحبون. ثم بين حظ الشيطان فى الخمر والميسر بخصوصهما لأنهما من المطعومات فى الغالب فقال: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء﴾ تقدم شرحه فى الآية (٦٤) من هذه السورة صفحتى ١٤٩ ، ١٥٠، بسبب تعاطى الخمر والميسر.

(١، ٢) أيمانكم. (٣) آياته (٤) والأزلام (٥، ٦) الشيطان.
(٧) العداوة. (٨) الصلاة. (٩) البلاغ (١٠، ١١) الصالحات

وهذه مفسدة دنيوية. أما الآخروية فهي في قوله: ﴿ويصدكم عن ذكر الله﴾ أي يلهيكم ويصرفكم عن تذكر الله وما يجب له ﴿وعن الصلاة﴾ خصها مع أنها داخلة في ذكر الله لأهميتها. فبعد كل هذا البيان هل أنتم منتهون؟ الكلام على معنى الأمر المؤكد أي انتهوا. ثم عطف على قوله ﴿فاجتنبوه﴾: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ في كل ما أمرا به ونهيا عنه، واحذروا مخالفتهما فإن فيها شقاء الدنيا والآخرة كما تقدم، فإن أعرضتم عما أمرتكم فلا تغتروا بتأخير العذاب لأنه ليس في يد رسولنا، بل الذي في قدرته ومطلوب منه هو إبلاغكم أحكامنا إبلاغا واضحًا يقطع العذر أما العذاب فعلينا نحن وسنوفيكم جزاءكم كما في الآية (٤٠) من سورة الرعد صفحة (٣٢٨). ولما نزل هذا التشديد في تحريم الخمر والميسر، سأل بعضهم عن حال الذين ماتوا وكانوا يشربون ويأكلون مال الميسر، وعن حال من كان غائبًا منهم بعيدًا عن المدينة وقت نزول هذه الآية، وطبعًا كانوا يشربون الخمر ويأكلون مال الميسر وهم لا يعلمون القطع بالتحريم؛ لهذا كله أنزل سبحانه: ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الأحياء والأموات والحاضرين والغائبين إثم ومؤاخذة فيما أكلو من الميسر وشربوا من الخمر فيما مضى قبل القطع بالتحريم، أو قبل العلم به، إذا ما اتقوا فيما مضى ما كان محرمًا عليهم كالمذكور أول السورة، وكإسراف في المباح، وآمنوا بما كان قد نزله سبحانه من القرآن، وعملوا الصالحات التي كانت قد شرعت في ذلك الزمن كالصلاة والصيام والجهاد، ثم اتقوا ما حرمه الله بعد ذلك عند العلم به، وآمنوا بما نزل في هذا المحرم أخيرًا وفي غيره لأن الإيمان يزيد بزيادة المطلوب به كما في الآية (١٢٤) من سورة التوبة صفحة ٢٦٤، والآية (٢٢) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٢، والآية (٤) من سورة الفتح صفحة ٦٧٨؛ ثم اتقوا أي ارتقوا في التقوى فابتعدوا عن الشبهات خوفا من الوقوع في الحرام، وأحسنوا كل أعمالهم بأن أتوا بها على أكمل وجه، والله يحب المحسنين فيحفظهم من كل مكروه. ولما كان ظاهر العموم في الآية ٨٧ من هذه السورة صفحة ١٥٤ ربما يفيد نسخ حكم آيتي (١، ٢) من هذه السورة صفحتي ١٣٤، ١٣٥، ولما كان الإسلام شديد الحرص على المحافظة على حرمة البيت الحرام ومن احترامه ألا يؤذي قاصده غيره ولو حيوانًا، أكد سبحانه الحكم الأول ودفع توهم النسخ وبين جزاء مَنْ يخالف بقوله: ﴿يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله﴾ أي يعاملنكم معاملة المختبر ليظهر للناس حالكم بشيء من الصيد المحرم صيده كما تقدم في الآية (١) صفحة ١٣٤ وسيأتي في الآية (٩٦) صفحة ١٥٦ .

تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ
فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم
مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ
مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ[1] ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ[2] طَعَامُ مَسَٰكِينَ[3]
أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ
عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو
ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا[4] لَّكُمْ
وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ
ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا[5] لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ
وَٱلْقَلَٰٓئِدَ[6] ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[7]

المفردات: . ﴿حرم﴾: . جمع محرم بسكون الحاء وكسر الراء.

﴿النعم﴾: . هى الإبل والبقر والغنم.

﴿أو عدل ذلك صياما﴾ .. أى معادل ومساوى ذلك الطعام من الصيام

﴿وبال أمره﴾ .. أى سوء عاقبة فعله.

﴿الهدى والقلائد﴾ .. تقدمًا فى الآية (٢) من هذه السورة صفحتى ١٣٤، ١٣٥ .

﴿قياما للناس﴾ .. أى سببًا لقيام مصالح الناس الذين يجاورونه أو يحجون إليه ونظيرها فى الآية (٥) من سورة النساء صفحة ٩٨. ﴿الشهر الحرام﴾ .. المراد الجنس فيشمل الأربعة الحرم.

المعنى: . تناله أيديكم ورماحكم أى أنه كثير فيسهل أخذه. ووجه الاختبار أن المسافر يتلهف على أكل اللحوم ولم يتيسر له حملها، فإذا وجد ما يريد من حيوان البر الوحشى الجائز الأكل كالغزال والطير الوحشى فإنه يتهافت عليه.

يبتليكم ليعلم علم ظهور وتحقق مَنْ يخاف ربه فى حال غيبته عن عيون الناس، فيكون خوفه خالصا لوجه الله تعالى لا رياء، فَمَنْ اعتدى بأخذ شىء من صيد الحرم بعد علمه بنهى الله عنه فله عذاب فى الآخرة شديد الألم، وفى الدنيا بالتعزيز والضرب.

ثم أعاد سبحانه النهى عن صيد البر للمحرم أو للداخل فى أرض الحرم كما تقدم أول السورة ليرتب عليه جزاءه فقال:

---

(١) بالغ. (٢) كفارة (٣) مساكين (٤) متاعا.
(٥) قيامًا. (٦) والقلائد. (٧) السموات

﴿لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ أى محرمون بحج أو عمرة، ومَنْ قتله متعمدًا فعليه جزاء ذلك من الأنعام مماثلاً لما قتله فى هيئته وصورته إن وجد، وإلا فعليه قيمة المماثل، يحكم به رجلان عدلان منكم. وقد حكموا فى قتل النعامة بواحد من الإبل، وفى بقر الوحشى وحماره ببقرة إنسية، وفى الظبى بشاة. فإن لم يكن للصيد مثيل من النعم كالعصفور والجراد فعليه قيمته يشترى بها طعامًا يعطيه للمساكين لكل مسكين مد وهو نصف قدح بالكيل المصرى الآن، حال كون هذا الجزاء المحكوم به مهديًا إلى فقراء الكعبة واصلا إليها، ويصح له أن يقدم لمساكين الحرم بدل هذا الجزاء من الحيوان طعامًا من جنس غالب قوت أهل البلد يساوى قيمة الجزاء، يعطى منه لكل مسكين مد أيضًا، أو ما يعادل ذلك الطعام من صيام بأن يصوم عن كل مد يومًا.

فرض عليه الجزاء ليدرك سوء عاقبة فعله. عفا الله عما سلف قبل التحريم، ومَنْ عاد إلى قتل الصيد بعد تحريمه فينتقم الله منه فى الآخرة مع جزائه فى الدنيا بما سبق، والله عزيز أى غالب لا يغلبه أحد، ذو انتقام شديد ممنْ يصر على معاصيه. أحل لكم أيها المؤمنون صيد البحر من سمك وغيره مما لا يعيش إلا فيه، وطعامه وهو المملح من سمكه حتى صار يعيش زمنا طويلاً يتمتع بأكله المقيمون منكم والسيارة، أى المسافرون يتزودون منه. وحرم عليكم أن تصيدوا حيوان البر الوحشى المتقدم ذكره ما دمتم محرمين على الوجه المبين فى الآية (١) من هذه السورة صفحة ١٣٤ . واتقوا الله فلا تنتهكوا أوامره فإنكم ستحشرون إليه فيحاسبكم ويجازيكم. جعل الله الكعبة التى هى البيت الحرام الذى حرم الله انتهاكه سببا لقيام مصالح الناس الذين يجاورونه والذين يحجون إليه، بإيداع تعظيمه فى قلوب الجميع، وجذب الأفئدة إليه، وصرف الناس عن الاعتداء على مَنْ يجاوره وكذلك جعل الأشهر الحرم والهدى وهو ما يهدى للكعبة من الأنعام للتوسعة على جيرانها الفقراء، وجعل القلائد المتقدم بيانها فى الآية (٢) من هذه السورة صفحتى ١٣٤ ، ١٣٥، جعل كل هذه قيامًا للناس، فلا يصاب واحد بأذى فيها ولا واحد منها بسوء. قالوا كان فى الأمم ملوك يدفع بعضهم شر بعض، ولما لم يكن فى العرب ملوك جعل الله فيهم البيت، وهذه المذكورات تدفع شر المعتدى ولو فى بعض الأمكنة والأزمنة والحالات، فعل الله ذلك لأجل أن تعلموا إذا تأملتم فيه أن الله تعالى يعلم ما فى العالم العلوى والسفلى.

وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾
مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ[١] وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ
وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ[٢]
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟[٣] عَنْ
أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟[٤] عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ
ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾
قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ[٥] ﴿١٠٢﴾
مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ
وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

المفردات: . ﴿بحيرة﴾ .. هى الناقة التى تلد خمسة آخرها ذكر؛ فإن العرب كانوا بعد الخامس يبحرون أذنها أى يشقونها ويتركونها هبة للأصنام فلا تركب ولا تحلب ولا تمنع من ماء ولا مرعى، فشق أذنها علامة أنها ملك للأصنام. ﴿سائبة﴾ .. هى الناقة التى ينذرها الرجل، فكان أحدهم يقول إذا شفيت من مرضى مثلاً فناقتى سائبة أى متروكة للأصنام كسابقتها. ﴿وصيلة﴾ .. كانت الشاة عندهم إذا ولدت أنثى فهى لهم، وإن ولدت ذكرًا ذبحوه لخدام الأصنام، وإذا ولدت ذكرًا وأنثى معًا قالوا وصلت الأنثى أخاها فلا يذبح للآلهة. فوصيلة بمعنى واصلة. ﴿حام﴾ .. الحامى هو الفحل من الإبل الذى خرج من صلبه عشرة أبطن، فإنهم كانوا يقولون حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنعونه ماء ولا مرعى.

المعنى: يعلم أسرارهما، وهو سبحانه بكل شيء، سواء ما ذكر أو غيره، عليم العلم الكامل بكل دقائقه؛ لذلك جعل فى قلوب العرب على غلظتها تعظيمًا لهذا المكان وللأعمال التى تعمل فيه ولأزمانها، وكان فى ذلك حقن للدماء وسعة فى الرزق. واعلموا أن الله شديد العقاب على مَنْ أصر على معصيته، وأنه غفور رحيم لمَنْ رجع إليه وأطاع.

هذه أحكام شرعناها لكم لخيركم، وليس على رسولنا إلا إبلاغها لكم، وقد فعل ولم يقصر فى تبليغكم كل ما طلب منكم، فلا عذر لكم بعد الآن. والله يعلم ما تظهرونه من أقوال وأفعال، وما تكتمونه وسيجازيكم على الجميع، فاحذروا مخالفة أمره، وبما أنه سبحانه سيجازى الجميع فاعلموا أن عدله وحكمته اقتضيا أن لا يستوى عنده الخبيث مع الطيب، أى الضار

---

(١) البلاغ. (٢) الألباب
(٣، ٤) تسألوا (٥) كافرين

والنافع، والفاسد والصالح، والحرام والحلال، والظالم والعادل، إلى غير ذلك، ولو أعجبك أيها المخاطب كثرة الخبيث من الناس ووجاهتهم، ومن الأموال المحرمة فى التوسعة والتمتع بها، فالقليل الطيب من كل شىء خير من الكثير الخبيث مهما ظن فيه من الفوائد. فاتقوا الله يا أصحاب العقول الخالصة من شهوات المغريات لعلكم تفلحون إذا اتقيتموه. ولما شعر بعض الصحابة من آية «اليوم أكملت لكم دينكم» = الآية (٣) من هذه السورة صفحة ١٣٥ = أن مدة بقائه ﷺ بينهم أصبحت قليلة، أكثروا من السؤال عن أشياء لم تقع، وكان فى هذا خطر التشديد عليهم فى تشريع أحكام ثقيلة عليهم؛ روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ خطب فقال: (أيها الناس إن لله فرض عليكم الحج فحجوا).. فقال أحدهم: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت ﷺ حتى كررها السائل ثلاثًا، ثم قال ﷺ: (لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، ذرونى ما تركتكم، فإنما هلك مَنْ كان قبلكم بكثرة سؤالهم). لكل هذا نزل قوله تعالى: لا تسألوا عن أشياء مما لاخير لكم فيه كالتكاليف الشاقة وأسرار أعراض الناس، كقولهم مَنْ والد فلان؟ لشخص كانوا يشكون فى نسبته لأبيه؛ ولهذا قال إن تبد لكم أى يظهر الله جوابها تسؤكم لشدة تكاليفها أو بفضيحة أصحابها. واعلموا أنكم إن تسألوا عن مثل هذه الأشياء التى يسوءكم جوابها، إن تسألوا عنها فى وقت نزول القرآن أى فى حياته ﷺ فإنها تظهر لكم، فتعرضوا أنفسكم لغضب الله إذا فرطتم فى التكاليف، أو لفضيحة ما كان مستورًا. عفا الله تعالى عن جملة تلك الأشياء التى نهيتم عن السؤال عنها بعدم التكليف بها، فاسكتوا أنتم أيضًا قد سأل مثل تلك الأشياء المستتبعة للندم قوم من قبلكم من بنى إسرائيل فأصبحوا بسببها كافرين حيث لم يقوموا بما كلفوا به، فسألوا موسى أن يقاتلوا فلما فرض، أعرضوا، انظر الآية (٢٤٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٠، ٥١ . وسألوا عيسى إنزال مائدة ثم كفروا بها، انظر الآية (١١٥) الآتية من هذه السورة صفحة ١٦٠ . وسألوا زيادة عبادة ولم يحافظوا عليها، انظر الآية (٢٧) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣ إلخ.

ولما نهى سبحانه فى الآية (٨٧) من هذه السورة صفحة ١٥٤ عن تحريم ما أحله أراد أن يبين ضلال أهل الجاهلية فى جرأتهم على التحريم فقال: ما جعل الله أى ما شرع ولا أذن أن يتخذ الناس بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حاما، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب حيث يفعلون هذه الأفعال المنكرة ويقولون أمرنا الله بها تكريمًا لشفعائنا عنده وهى الأصنام

هذا فعل رؤسائهم، أما أكثرهم وهم المقلدون فهم لا يعقلون أن ذلك كذب من الرؤساء معطل للانتفاع بما أحل الله تعالى. وإذا قيل لهم تعالوا نتحاكم إلى ما أنزل الله فى القرآن...

وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا
أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾
يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ
إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَٰدَةُ[1] بَيْنِكُمْ إِذَا
حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ
مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ
فَأَصَٰبَتْكُم[2] مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ الصَّلَوٰةِ[3]
فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ
ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ[4] اللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾
فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا
مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَٰنِ[5] فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ

المفردات: . ﴿شهادة﴾.. تطلق على الشهود أى الحضور، ومنه عالم الغيب والشهادة، وعلى الحلف، وعلم العلم، وعلى الإيصاء. ﴿من غيركم﴾.. أى من غير المسلمين. ﴿ضربتم فى الأرض﴾... سافرتم. ﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾.. أى قاربتم نهاية الأجل. ﴿تحبسونهما﴾.. المراد بالحبس هنا الإمساك لأداء اليمين لا السجن المعروف. ﴿من بعد الصلاة﴾.. صلاة العصر إذا كانا مسلمين وإلا فصلاة أهل دينهما، لأن المراد الوقت الذى يخاف فيه من الكذب. ﴿إن ارتبتم﴾.. شككتم. ﴿عثر﴾.. من العثور وهو الاطلاع على الشيء مصادفة. ﴿استحقا إثما﴾.. أى فعلا ما يوجب استحقاق جزاء ذنب. ﴿الأوليَان﴾.. أى الأقربان من الميت اللذان لهما الأولوية فى البحث عن شئونه.

المعنى: . وتعالوا إلى الرسول المبين لما أنزل الله، أعرضوا وقالوا كافينا ما وجدنا عليه آباءنا من عقائد وأحكام. فرد عليهم سبحانه مسفهًا لهم بقوله ﴿أولو﴾ إلخ، أى أيكفيهم ذلك ولو كان آباؤهم جهلاء ولا يهتدون إلى سبيل الحق. وبعدما بين سبحانه أن الجامد على التقليد الأعمى قلما ينفع فيه إصلاح، أراد أن ينبه المؤمنين إلى العناية بأنفسهم، والحرص على عدم تسرب الخلل إليهم، فقال ﴿يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ إلخ، أى الزموا إصلاح أنفسكم بمراقبة الله تعالى وإرشاد العالم للجاهل منكم، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإنه إذا فعلتم ذلك لا يضركم مَنْ ضل من غيركم إذا دمتم أنتم مهتدين. ثم وجه سبحانه الخطاب لكل الناس فقال: إلىَّ مرجعكم جميعًا، المؤمن وغيره، والصالح والفاسق، فينبئكم عند الحساب بما كنتم تعملون، ويجازى كلا على حسب عمله.

---

(١) شهادة. (٢) فأصابتكم (٣) الصلاة
(٤) شهادة (٥) الأوليان

روى الإمام أحمد عن أبى بكر رضى الله عنه أنه خطب يومًا فقال: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية، يريد الآية المتقدمة، ولكنكم تضعونها فى غير موضعها، وإنى سمعت النبى ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه يعمهم الله بعذاب من عنده. ولما فرغ سبحانه من أحكام تتعلق بأمور دينهم شرع فى بيان أحكام تتعلق بدنياهم وقع سببها أثناء نزول السورة؛ وذلك أن رجلين نصرانيين أحدهما يسمى تميما الدارى، والآخر عدى بن بدَّاء بتشديد الدال كانا يتجران فى الجاهلية بين مكة والشام، ولما هاجر ﷺ إلى المدينة وهاجر معه كثير من قريش حوَّل تميم وزميله تجارتهما إلى المدينة، وكان بديل بن أبى مريم مولى عمرو بن العاص تاجرا أيضًا أسلم وهاجر إلى المدينة مع أهله وخرج فى تجارة إلى الشام مع تميم وزميله، وكان معه ضمن تجارته ﴿جام﴾ وهو إناء من فضه محلى بالذهب، فمرض فى الطريق، فكتب وصيته ووضعها فى وسط متاعه، وأوصاهما إن مات أن يسلما متاعه إلى أهله. ولما مات أخذا الجام وباعاه لما رجعا إلى المدينة بألف درهم وسلما متاعه إلى أهله. فلما فتحوه علموا فقد الجام، فسألوهما عنه فأنكرا، فترافعوا إليه ﷺ فنزلت ﴿يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾ إلى آخر الآية. فأمر ﷺ باستحضارهما وتحليفهما بأنهما ما قبضا غير ما سلماه. وبعد مدة ظهر الجام عند قوم فسئلوا عنه فقالوا اشتريناه من تميم وعدى فكذبوهما فترافعوا إلى النبى ﷺ ثانيًا، فنزلت الآية الآخرى ﴿فإن عثر على أنهما استحقا إثما﴾ إلخ، فأمر ﷺ رجلين من أهل بديل أن يحلفا على أن الجام للورثة، فحلف عمرو بن العاص وآخر وأخذاه.

ومعنى الآيتين: يأيها الذين آمنوا الشهادة المشروعة بينكم إذا شعر أحدكم بأسباب الموت هى شهادة اثنين من رجالكم عدلين، هذا إن كنتم مقيمين، أما إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا مسلمين تشهدونهم فشهادة رجلين من غير المسلمين، فإن أدوها كما حملوها فالأمر ظاهر وإن شككتم فى أمانتهما فاحجزوهما بعد صلاة العصر ليحلفا ويقولا فى يمينهما لا نشترى بيمين الله ثمنًا ولو كان المقسم له من أقاربنا، ولا نكتم شهادة الله، إنا إذا كتمنا لمَنَ المذنبين. فإن علم أنهما استحقا إثما بالكذب فالشاهدان المعول عليهما فى فض النزاع رجلان آخران من أقارب الميت الذين استحق أقربهم رد الشهادة عليه. ﴿فالأوليان﴾ بيان ﴿للآخران﴾ فيقسمان بالله....

لَشَهَٰدَتُنَآ[1] أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا[2] وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ[3] ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ[4] عَلَىٰ وَجْهِهَآ
أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ[5] بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ[6] وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ۗ
وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ[7] ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ
ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ
عَلَّٰمُ[8] ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى[9] ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ
نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ[10] إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ
تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ[11]
وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ[12] وَٱلْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ
كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِىۖ
وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِىۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ
بِإِذْنِىۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[13] عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم

المفردات: ﴿شهادتنا﴾.. المراد بالشهادة هنا اليمين كما فى الآية (٦) من سورة النور صفحة ٤٥٧، وسميت اليمين شهادة لأنها كالشهادة على المحلوف.

﴿أدنى﴾.. أقرب.

﴿أو ترد أيمان﴾.. أى إلى الورثة.

﴿روح القدس﴾.. الروح المقدس وهو جبريل.

﴿الأكمه﴾.. مَنْ ولد أعمى.

﴿كهلاً﴾.. هو الرجل التام الرجولية .

﴿تخرج الموتى﴾.. من القبور بعد إحيائهم انظر الآية (٤٩) من سورة آل عمران صفحتى ٧٠، ٧١ .

المعنى: . يقسمان قائلين والله ليميننا أحق بالقبول من يمينهما وطلب التعبير بذلك تأدبًا وإلا فيمينهما لاحق فيها قطعًا،

وما اعتدينا عليهم فى تكذيبهم ولا فى يميننا، إنا إذا كنا اعتدينا لمن الظالمين لأنفسنا وللحق، ونحن نعلم جزاء الظالم.

ذلك أى تحليف الشاهدين الأولين بعد صلاة، أقرب إلى أن يأتوا بالشهادة على وجهها الصحيح خوفا من عذاب الآخرة أو خوفًا من أن ترد إلى الورثة فيحلفوا بعد حلفهم فيظهر كذبهم.

---

(١) لشهادتنا (٢) شهادتهما (٣) الظالمين
(٤) بالشهادة (٥) أيمان (٦) أيمانهم
(٧) الفاسقين (٨) علام (٩) يا عيسى
(١٠) والدتك (١١) الكتاب (١٢) التوراة
(١٣) إسرائيل

فالمعنى: ذلك أقرب إلى تأدية اليمين صحيحة خوف عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة المحرمة فى كل الأديان، أو خوف أن يطلب اليمين من غيرهم، وفى هذا إهدار لحلفهم وفضيحة على رءوس الأشهاد.

فاتقوا الله أيها الناس بترك الخيانة والكذب، واسمعوا ما يأمركم الله تعالى به سماع قبول حتى تنالوا هدايته، لأنه لا يهدى الخارجين عن أوامره.

ولما كان معظم السورة فى مجادلة أهل الكتاب أراد سبحانه أن ينذرهم بما سيكون يوم القيامة. فقال: ﴿يوم يجمع الله﴾ إلخ، أى واذكر لهم أيها النبى يوم يجمع الله الرسل فيسألهم وهو أعلم بكل ما حصل، لكن أراد أن يقيم الحجة على مَنْ خالف كسؤال الموءُودة فى سورة التكوير الآية (٨) صفحة ٧٩٤. أى هل أجابتكم أممكم إجابة إيمان وإقرار أم كفر وإنكار؟

قالوا لا علم لنا ببواطن جميع مَنْ عاصرونا ولا بحال مَنْ جاءوا بعدهم إذ هذا خاص بك لأنك علام الغيوب.

أما ما تقدم فى الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧ من شهادة الرسل على أممهم فإنها شهادة على أنهم بلغوهم فقط لتتقطع حجتهم انظر الآية (١٦٥) من سورة النساء أيضًا صفحة ١٣١.... أما حقيقة باطنهم فليس لهم بها علم كما فى الآيتين (٩٤، ١٠١) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٧، ٢٥٩ و٤٦ من سورة هود صفحة ٢٩١ .

وبعدما ذكر سبحانه سؤال الرسل إجمالاً شرع فى تفصيل سؤال واحد منهم لإقامة الحجة على مَنْ أرسل إليهم الذين كان الحديث عنهم فى هذه السورة، وهم بنو إسرائيل فقال:

إذ قال الله يا عيسى إلخ، روح القدس هو جبريل. وبقية الآية تقدم فى الآيات (٤٦، ٤٨، ٤٩) من سورة آل عمران صفحتى ٧٠، ٧١....

واذكر يا عيسى نعمتى عليك حين كففت عنك إيذاء بنى إسرائيل فلم أمكنهم من قتلك ولا من صلبك كما كانوا يريدون، منعتهم عنك حين جئتهم.....

بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي
وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ
يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا
وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾
قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ
السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ ۖ
وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا
عَلَيْكُمْ ۖ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ
أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ

المفردات :. ﴿البينات﴾ .. المعجزات

﴿الحواريين﴾.. حوارى الرجل هم خاصته.

﴿هل يستطيع ربك﴾.. الاستطاعة هنا معناها الطاعة أى هل يطيعك ربك ويجيب دعاءك، كاستجاب بمعنى أجاب.

﴿مائدة﴾ .. هى الخوان الذى يوضع عليه الطعام وهو شىء مرتفع عن الأرض. وتطلق على الطعام نفسه.

﴿لأولنا﴾.. أى مَنْ حضر نزولها.

﴿وآخرنا﴾.. أى مَنْ يأتى بعدنا.

المعنى :. إذ جئتهم بالمعجزات الواضحات فقال الكافرون منهم: ما هذا الذى جئت به إلا سحر واضح.

واذكر نعمتى عليك أيضا حين أوحيت على لسانك أو فى الإنجيل إلى خواصك بأن آمنوا بى وبرسولى عيسى، قالوا آمنا واشهد يا ربنا بأنا مستسلمون ومنقادون لما تأمرنا به.

واذكر أيها النبى حين قال الحواريون لعيسى هل يطيعك ربك ويجيب دعاءك إذا سألته

---

(١) بالبينات
(٢) الحواريين
(٣) يا عيسى
(٤) الشاهدين
(٥) الرازقين
(٦) العالمين
(٧) يا عيسى

أن ينزل علينا مائدة من السماء، قال عيسى اتقوا الله فلا تقترحوا من الآيات مثل ما كان يقترح سلفكم كقولهم:

أرنا الله جهرة وغيره مما كان فتنة لهم، إن كنتم مؤمنين حقا، لأنه يوجب الخوف منه تعالى.

قالوا موجهين طلبهم بأربعة أشياء؛ الأول: نريد الأكل منها تبركا، أو لأنا فى حاجة إلى طعام.

الثانى : تطمئن قلوبنا بزيادة اليقين.

الثالث : نعلم علم مشاهدة أنك قد صدقتنا فيما وعدتنا من أنَّ مَنْ يؤمن بنبوتك يحقق الله رجاءه.

الرابع : نكون عليها من الشاهدين بما عاينا لمَنْ يأتى بعدنا، ومع علمه عليه السلام بأن معجزاته التى قارنت دعوته أقوى مما اقترحوا، انظر الآية (١١٠) السابقة صفحتى ١٥٩، ١٦٠، فإنه أراد أن يقطع كل معاذيرهم فقال:

يا الله ياربنا أنزل علينا ما طلبوا يكون يوم نزولها يوم سرور لمَنْ حضر نزولها ولمَنْ لم يحضره، ودليلا جديدا يقوى ما سبقه.

قال الله : إنى منزلها عليكم، واشترط لهذا الوعد أن مَنْ يكفر منكم بعد إنزالها فإنى أعذبه عذابا لم يره أحد قبله

ولا شك أنه سيكون. عذابا آخر مع إفنائهم، لأن سنته تعالى أنه إذا أجاب قوما لما طلبوا من المعجزات ولم يؤمنوا أهلكهم، انظ الآية (٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣.

ولهذا لم يجب كفار قريش لما طالبوا فى الآيات (٩٠ - ٩٣) صفحتى ٣٧٦، ٣٧٧ من سورة الإسراء وبيَّن سبحانه سبب المنع فى الآية (٥٩) من نفس السورة صفحة ٣٧٢.

وقال مجاهد والحسن وكثير غيرهم إن المائدة لم تنزل، وإنهم لما سمعوا الشرط

ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ
قَالَ سُبْحَٰنَكَ[1] مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن
كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي
نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ[2] ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ
أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ
شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ
عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ
عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾
قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ[3] صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ[4]
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ[5] خَٰلِدِينَ[6] فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[7]
وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

خافوا وقالوا لا حاجة لنا فيها. واذكر أيها النبى للناس يوم يقول الله يا عيسى بن مريم إلخ!...وعبَّر عما سيقع في المستقبل بصيغة الماضى للإشارة إلى أنه محقق الوقوع.

المعنى : . سأل سبحانه عيسى عليه السلام توبيخا لمَنْ زعم هذا الباطل : هل أنت قلت للناس حقا اتخذونى أنا وأمى الهين متجاوزين إفراد الله وحده بالألوهية؟ وقد تقدم فى الآيات (١٧، ٧٢، ٧٣) صفحات ١٣٩، ١٥١، ١٥٢ طوائف النصارى من حيث اعتقادهم فى المسيح، قال عيسى : سبحانك أى تنزيها لك عما لا يليق بك، ما ينبغى لى ولا يصح أن أقول ماليس لى بحق، لأنى أعرف أنى عبدك.

ثم استدل على براءته بقوله:

إن كنت قلته فقد علمته، لأنك تعلم ما انطوت عليه نفسى فضلا عما يصدر من لسانى، وأنا لا أعلم ما فى نفسك لأنك أنت وحدك علاَّم الغيوب.ثم بعد ذلك بين ما صدر منه فقال: ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به.

---

(١) سبحانك
(٢) علاَّم
(٣) الصادقين
(٤) جنات
(٥) الأنهار
(٦) خالدين
(٧) السموات

ثم بين ما أمر به بقوله:

أن اعبدوا الله ربى وربكم، وبعد ذلك كنت رقيبا عليهم مدة بقائى معهم، فلما توفيتنى وانقطعت عنهم كنت أنت يارب وحدك الرقيب عليهم فيما تراقب من خلقك، وأنت على كل شئ شهيد لا على هذا فقط.

ولما كان المسيح عليه السلام يعلم أن من أمته المؤمن والكافر فوض أمرهم جميعا إلى الله تعالى فقال فى جملتهم:

إن تعذب مَنْ كفر منهم فإنهم عبادك وأنت العليم بظاهرهم وخافيهم، وتعلم أنهم عبدوا غيرك، فإن عذبتهم فهو عدل منك؛ وإن تغفر لمَنْ آمن منهم فإنه من فضلك ولا معقب لحكمك؛ لأنك أنت العزيز الغالب الذى لا يمنعه عما يريد أحد، الحكيم الذى يضع كل حكم فى موضعه، ولا يسوى بين المؤمن والفاسق كما فى الآية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧.

قال الله هذا يوم ينفع الصادقين فى إيمانهم وأقوالهم وأعمالهم فى الدنيا، ثم بيَّن النفع فقال :

لهم جنات تجرى من تحت غرفها الأنهار هذا ما يكون لهم من النعيم الجسمانى.

أما النعيم الروحانى فهو رضوان الله تعالى عنهم ورضاهم عنه، فهو أكبر من كل نعيم.

كما قال تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ الآية (٧٢) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣ ثم ختم سبحانه السورة بما يؤيد خطأ النصارى وغيرهم فى إشراك غيره تعالى معه فى العبادةفقال:

﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن﴾ أى فالكل عبيده فى قبضة يده، وهو على كل شئ قدير، من الإيجاد والإفناء، والمنع والعطاء، وتعذيب الكاذب وإثابة الصادق اللهم اجعلنا من عبادك الصادقين، ولاتجعلنا فتنة للظالمين.


(٦) سورة الأنعام مكية
وآياتها خمس وستون ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل
الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون (١)
هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى
عنده ثم أنتم تمترون (٢) وهو الله فى السموات وفى
الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون (٣)
وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها
معرضين (٤) فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف
يأتيهم أنبؤا ما كانوا به يستهزءون (٥) ألم يروا كم

سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿خلق﴾ . الخلق : إيجاد عن تقدير وحكمة مطلقة، أى سواء لوحظ فى المخلوق عند خلقه غيره أم لا . ﴿وجعل﴾ .. الجعل : إيجاد شيء ملاحظًا فيه شيء آخر، كجعل لكم من أنفسكم أزواجا، وجعل فى السماء بروجا.

﴿الظلمات والنور﴾ .. وهما حسيان كظلمة الليل ونور النهار، ومعنويات كظلمة الجهل والكفر، ونور العلم والإيمان. وأفرد النور لأن الحق واحد والباطل كثير، انظر الآية (١٥٣) الآتية من هذه السورة صفحة ١٨٩.

﴿يعدلون﴾ .. يقال عدل كذا بكذا إذا سواه به، أى يسوون به تعالى الأصنام فى العبادة مع أنها لم تخلق شيئا.

﴿قضى أجلا﴾ .. هو أجل مدة حياة كل فرد فى الدنيا.

﴿وأجل مسمى عنده﴾ .. هو أجل قيام الساعة ﴿تمترون﴾ .. تشكون.

المعنى : . كل الثناء الحسن والذكر الجميل مستحق له تعالى، لأنه مصدر كل نعمة تستوجب الحمد ومنها خلقه السموات والأرض، ووضع النظام الذى نتج عنه ظلمة فيها سكن المجتهد. ونور فيه سعيه وكسبه، انظر الآيات (٧١، ٧٢، ٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧؛

---

(١) السموات (٢) الظلمات (٣) السموات
(٤) آيات (٥) أنباء

والآية (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦. ثم بعد هذا الصنع العظيم ترى الذين كفروا وجحدوا فضل ربهم يسوون به تعالى غيره ممَّنْ لا يستطيع خلق ذبابة يسوونه به فى التقديس والضراعة إليه والخوف منه، انظر آيتى ٧٣ من سورة الحج صفحة ٤٤٤، و (٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠. ثم خاطب سبحانه هؤلاء الكافرين لتوبيخهم على شنيع صنعهم وتذكيرهم بنعمه عليهم فى أنفسهم فقال: ﴿هو الذى خلقكم من طين﴾ من مبدأ خلقتكم إلى انتهاء العالم، انظر الآية (٥٥) من سورة طه صفحة ٤١٠ والآية (٢٠) من سورة الروم صفحتى ٥٣٢، ٥٣٣؛ ثم قدر لكم أجلين : أجل لكل فرد يعرف بانتهاء حياته، وأجل معلوم له تعالى لا يعلمه غيره وهو أجل بعثكم من القبور للحساب والجزاء، ثم أنتم بعد كل هذا تجحدون وتجادلون فى الحق، وهو أن القادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته بل هو عليها أقدر، كما فى الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤؛ وهو سبحانه الخالق وحده المتصرف فى السموات والأرض، ويستوى فى علمه السر والجهر، ويعلم ما تكسبون من خير وشر. ثم أراد سبحانه أن يبين سبب عدم اهتدائهم مع قوة البراهين فقال: وما تأتيهم من آية من آيات ربهم القرآنية الناطقة بألوهيته ووحدانيته إلا كانوا عنها معرضين فلا يعتبرون. فقد كذبوا بالحق وهو القرآن لما جاءهم على لسان نبينا فاستهزءوا به، انظر الآية (١٤٠) من سورة النساء صفحتى ١٢٦، ١٢٧ والآية (٥) من سورة الشعراء صفحتى ٤٧٩، ٤٨٠، فسوف يحل بهم ما تضمنته الأخبار التى جاء بها القرآن من خذلانهم فى الدنيا وعذابهم فى الآخرة كما فى الآية (١٠) الآتية من هذه السورة صفحة ١٦٣ والآية (٨) من سورة هود صفحة ٢٨٥ والآية (١٠٦) من سورة الكهف صفحة ٣٩٥؛ إلى غير ذلك. ثم شرع سبحانه فى بيان ما توعدهم به مبينا أن سنته فى أمثالهم كما جاء مفصلا فى سورة القمر فقال: ألم يروا.....

المفردات :. ﴿قرن﴾ .. القرن من الناس القوم المقترنون فى زمن واحد ومتوسط زمانهم حوالى مائة عام؛ ويطلق القرن أيضا على أهل عصر فيهم نبى واحد أو ملك مهما طال زمانه كقوم نوح وهود وعاد إلخ.

﴿السماء﴾ .. المراد بها هنا المطر.

أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن
لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى
مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ
بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾
وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ
ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا
وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن
قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾
قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ

﴿مدرارًا﴾ .. غزيرا ﴿قرطاس﴾ .. أى ورق.

﴿لا ينظرون﴾ .. لا يمهلون.

﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ .. أى خلطنا الأمر عليهم كما يخلطون على أنفسهم فى قولهم ما هذا الرسول إلا بشر مثلكم.

﴿فحاق﴾ .. أى نزل وحل.

المعنى : . ألم يعلم هؤلاء الكفار القرون الكثيرة التى كانت قبلهم وأهلكناها لمّا عملت مثل عملهم: مكناهم فى الأرض تمكينا لم نمكنه لكم أيها الكفار. فكانوا أطول منكم أعمارا وأقوى أجساما وأوسع سلطانا. ووسعنا لهم فى الرزق فأرسلنا المطر عليهم غزيرا وصيرنا الأنهار تجرى من تحت قصورهم وجناتهم، انظر الآية (٥١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢؛ فلم يغن عنهم ماهم فيه شيئا. فأهلكناهم بسبب ذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين، أى أنه سبحانه لا يعجزه شىء. إذا أهلك المفسد يعمر الأرض بغيره، انظر آيتى (١٤، ١٥) من سورة الشمس صفحة ٨١٠.

ثم أراد سبحانه أن يبين لرسوله شدة عناد قومه وأنهم لا يرجى منهم فقال: ولو نزلنا عليك أيها النبى كلاما مكتوبا فى قرطاس فلمسوا القرطاس بأيديهم للتحقق ورفع الشبهة لقالوا

(١) مكناهم
(٢) الأنهار
(٣) فأهلكناهم
(٤) كتابا
(٥) جعلناه
(٦) لجعلناه
(٧) عاقبة
(٨) السموات.

تعنتا وعنادًا ما هذا الكتاب إلا سحر واضح وقالوا تشكيكا فى رسالته صلى الله عليه وسلم: لولا أنزل على هذا الذى يدعى النبوة ملك يخبرنا أنه نبى. ولو أنزلنا ملكا كما اقترحوا لقضى الأمر بإهلاكهم كما تقدم بيانه فى الآية (١١٥) من سورة المائدة صفحة ١٦٠، ثم لا يمهلون بل يأخذهم العذاب عاجلاً.

وأيضا لو جعلنا المنزل عليهم ملكًا لا بشرًا لجعلناه متمثلا فى صورة رجل ليمكنهم رؤيته لاستحالة رؤية البشر للملك على صورته الحقيقية. ولو جعلناه فى صورة رجل لاختلط الأمر عليهم كما كانوا وحينئذ يقعون فيما يلبسون أول الأمر، أى فهم يطلبون إما ما فيه هلاكهم. أو عبثا.

ثم سلى سبحانه نبيه على ما أصابه من استهزاء قومه فقال: ولقد استهزئ برسل من قبلك فأحاط بالذين سخروا منهم العذاب الذى كانوا به يستهزئون، انظر الآية (٥٩) وما بعدها من سورة الأعراف صفحة ٢٠٢ وما بعدها لتعرف كيف استهزئ بالرسل قبل محمَّد ﷺ قل أيها النبى مذكرًا قومك بأحوال مَنْ قبلهم: سيروا فى الأرض ثم انظروا بعين الاعتبار كيف صارت عاقبة المكذبين لرسلهم من إهلاكهم وترك ديارهم خرابا، انظر آيات (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣، و (٤٥) من سورة الحج صفحة ٤٤٠، و (٥٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٠.

وقل أيها النبى لقومك الجاحدين: لِمَنْ ما فى السموات والأرض مُلكا وخَلقا وتصرفا؟ وقد ثبت أنهم يقرون بأنها لله كما فى آيتى (٨٤، ٨٩) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٥٣، ٤٥٤، وآيتى (٦١، ٦٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩. ولذا قال فى الجواب: قل لله أى لا خلاف بيننا فى ذلك، فألجأهم بذلك إلى الاعتراف بخطأ عبادة غيره تعالى. وقل لهم أيضا: إن الله الذى يملك كل شىء كتب وأوجب على نفسه الرحمة بعباده فلا يعجل بعقوبتهم، ويقبل توبتهم، ووالله ليجمعنكم ويحشرنكم إلى يوم القيامة.

يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ[1] لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ
لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ[2] وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ[3] وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ
أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ
يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ
وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا
كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ
ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗ[4] قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي
وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَن بَلَغَۚ

المفردات : . ﴿إلى يوم القيامة﴾ .. إلى بمعنى ﴿فى﴾ .. أى يجمعكم فى يوم القيامة أو بمعنى اللام كما فى قوله ﴿والأمر إليك﴾ .. أى والأمر لك، ويساعده قوله ﴿يوم مجموع له الناس﴾ الآية (١٠٣) من سورة هود صفحة ٢٩٩ أى للحساب فيه ﴿لا ريب فيه﴾ .. لا شك فيه.

﴿ما سكن﴾ .. أى وما تحرك، ففى الكلام اكتفاء بذكر أحد الطرفين المتلازمين لانفهامه من المذكور كما فى قوله: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ .. أى أو البرد.

﴿وليًا﴾ .. أى ناصرًا وملجأ يخضع له.

﴿فاطر السموات﴾ .. مخترعها ومبتدئ خلقها.

المعنى : . ليجمعنكم ليوم القيامة جمعا لاشك فيه، ويجمع على الخصوص الذين خسروا أنفسهم بإهمال عقولهم، فهم لا يؤمنون أبدًا ما داموا على هذا الحال. وكما أن لله كل ما فى السموات والأرض له أيضا كل ما سكن وما تحرك فى الليل والنهار، أى أنه سبحانه مالك لجميع ما فى كل زمان وكل مكان، وهو السميع لكل أقوالهم وهمساتهم، العليم بكل ما تخفيه الصدور. وإذا كان الأمر كذلك فقل لهم أيها النبى أغير الله الذى هذه صفاته أتخذ ناصرا ومعبودا؟ أى هذا لا يصح ولا يكون من عاقل. ثم وصف نفسه بقوله: فاطر السموات والأرض، أى خالقهما لا على مثال سبق، وهو يطعم أى يرزق غيره طعاما ولا يحتاج إلى رزق من أحد.

(١) القيامة
(٢) الليل
(٣) السموات
(٤) شهادة.

وقل لهم أيضا إنى أمرت من الله أن أكون أول مَنْ انقاد لأوامره وخضع ليقتدى بى غيرى، وقيل لى لا تكونن من المشركين به تعالى غيره فى شىء أبدا، فالمراد أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك.

وقل أيضا أخاف إن عصيت ربى فيما أمر به عذاب يوم عظيم هوله وهو يوم القيامة.

مَنْ يُصرف عنه هذا العذاب يوم القيامة فقد رحمه الله. وإبعاد العذاب فى هذا اليوم هو الفوز والنجاح الواضح.

ولما بيَّن أن الخير والعذاب بيده يوم القيامة أراد سبحانه أن يبين أن الأمر كذلك فى الدنيا فقال:

وإن يمسسك أيها المخاطب بضر كمرض أو فقر وغيرهما من أنواع البلاء فلا مزيل له عنك إلا هو سبحانه، أى لا أحد من الخلق فضلا عن الأصنام. وإن يمسسك بخير كصحة أو غنى أو ولد فلا راد له، لأنه على كل شىء من الضر والخير قدير، فلا يكشف الضر سواه، ولا يحفظ النعمة غيره. وهو القاهر الغالب فوق عباده بالقدرة والإخضاع، انظر الآية (١٢٧) من سورة الأعراف صفحة ٢١١ يتضح لك معنى القهر. وهو الحكيم فى تنفيذ أوامره، الخبير بأهل الخير والشر.

ولما قال مشركو مكة للنبى ﷺ : ما نرى أحدا يصدقك فيما تقول، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فأخبرونا بأنه ليس لك عندهم ذكر، فهل عندك مَنْ يشهد لك. أمره الله تعالى أن يقول لهم: أى شىء شهادته أكبر وأعظم وأحق بأن تكون أصح وأصدق؟ ثم أمره بأن يجيب عنهم بأن أكبر الشهادات شهادة الله، أى وإذا كانت هذه قيمة شهادته فهو شهيد بينى وبينكم بأنى صادق وبأنكم معاندون، وقل لهم إن الله تعالى أوحى إلىَّ هذا القرآن لأنذركم وأخوفكم بما فيه من الوعيد، وأنذر به أيضا كل مَنْ بلغه إلى يوم القيامة. وخص الإنذار بالذكر مع أن القرآن فيه إنذار وتبشير لأن المخاطبين هنا كانوا كلهم كفار جاحدين يناسبهم التخويف.

أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ
قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ[1] وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾
الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ[2] الْكِتَابَ[3] يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ
الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ[4] إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ[5] ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا
أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ
إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ
كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾
وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن
يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا
حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ[6] يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا

﴿فتنتهم﴾.. المراد بالفتنة هنا الكفر، والمعنى عاقبة كفرهم.

﴿ضل﴾ .. غاب. ﴿أكنة﴾.. أغطية جمع كنان كغطاء وزنا ومعنى.

﴿يفقهوه﴾.. يفهموه على حقيقته.

﴿وقرًا﴾.. صمما وهو عدم السمع.

المعنى : . قل لهم أيها الرسول موبخا لهم على شركهم معلنا براءتك منهم: أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ثم قل لهم بعد هذا الاستفهام التوبيخى: أنا لا أشهد بما تشهدون.

ثم قل لهم تقريرا للحق إنما هو إله واحد وإنى برىء مما تشركون به. ثم بين خطأهم وخديعة أهل الكتاب لهم فى قولهم ليس لمحمَّد فى كتبنا ذكر بقوله: الذين آتيناهم الكتاب.

وهم اليهود والنصارى يعرفون أن محمَّدًا رسول الله بصفته المبينة فى كتبهم معرفة محققة كتحقق معرفتهم لأبنائهم كما تقدم فى الآية (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨، فهؤلاء هم الذين خسروا أنفسهم بالكفر بالرسول وإنكار صفته، فهم لا يؤمنون أبدًا خوفًا على رياستهم أن تضيع إذا أسلموا وكانوا تابعين لسيد المسلمين. ثم أشار إلى سبب خسرانهم بأنهم فى أعلى درجات الظلم بقوله: ومن أظلم، أى ولا أحد أشد ظلما ممن اخترع على الله كذبا كزعم أن له ولدا أو شريكا أو وضع فى كتابه ماليس منه وقال هو من عند الله كما فى الآية (٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٧٥، أو كذب بآيات الله القرآنية والمعجزات القاطعة

---

(١) واحد (٢) آتيناهم (٣) الكتاب
(٤) بآياته (٥) الظالمون (٦) يجادلونك.

بصدق رسوله، ولا شك أن الجمع بين هاتين الجريمتين من أبشع الظلم المانع من الفلاح والنجاة، لأن الظالمين لا يفلحون.

ثم أمر سبحانه نبيه أن يحذرهم من خطر سيلاقيهم قطعا فقال: ﴿ويوم نحشرهم﴾ أى واذكر لهم أيها النبى يوم نحشر جميع الخلق ثم نقول للذين أشركوا منهم مع الله تعالى غيره توبيخا: أين مَنْ جعلتموهم شركاء لله وكنتم تزعمون أنهم يستحقون ذلك وأنهم يشفعون لكم عند الله؟ ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذى لازموه طول حياتهم إلا قولهم والله ربنا ما كنا مشركين بك، أى لم يكن منهم إلا الإنكار الشديد المؤكد بالقسم لما رأوا العذاب ظانين أن ذلك ينفعهم ولما ختم على أفواههم كما فى الآية (٦٥) من سورة يس صفحة ٥٨٥ وشهد عليهم الشهود كما فى الآية (٢٠) وما بعدها من سورة فصلت صفحة ٦٣٢. وتبين أنه لا ينفع. اعترفوا، انظر الآية (٤٢) من سورة النساء صفحة ١٠٧، والآية (٨٦) من سورة النحل صفحة ٣٥٧.

انظر أيها المخاطب كيف كذبوا على أنفسهم بقولهم ما كنا مشركين. وغاب عنهم ما كانوا يفترونه من أن لله شركاء يشفعون فيهم ثم أراد سبحانه أن يؤكد كذبهم فذكر بعضا مما حصل ويحصل منهم فقال:

ومنهم أى من هؤلاء المشركين فريق يستمع إليك أيها النبى وأنت تتلو القرآن ولكنهم لا ينتفعون لأننا عاقبناهم لشدة عنادهم وحسدهم وتكبرهم وتمكن كل هذه الأمراض من قلوبهم بأن جعلنا على قلوبهم أغطية تمنعهم أن يفقهوا المسموع من القرآن، وجعلنا فى آذانهم وقرًا وفى أعينهم عمى، وهذا هو معنى قوله وإن يروا كل آية مما يدل على وحدانيته تعالى وعلى صدق رسوله لا يؤمنوا بها، والكلام كناية عن أن ما فى قلوبهم من المرض حرمهم من الانتفاع بعقولهم وأسماعهم وأبصارهم، انظر الآيات (٧) من سورة البقرة صفحة ٤، و (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢، و (٧٤) من سورة يونس صفحة ٢٧٨، و (٢٢) من سورة النحل صفحة ٣٤٧، (٤٦) من سورة الحج صفحة ٤٤٠، (٢٠) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٥ و (١٦) من سورة الحديد صفحة ٧٢١، و (٥) من سورة الصف صفحة ٧٣٨، حتى إذا جاءوك يجادلونك فى دعوتك مكابرة لا لغرض الوصول للحق يقول هؤلاء الكافرون إنْ هذا، أى ما هذا ...

إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ
عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ
تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ
بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم
مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا
وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ
قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟
ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا
عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ
أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ

﴿أساطير﴾ .. جمع أسطورة وهى الأكذوبة انظر الآية (٥) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠، ٤٧١. ﴿ينهون عنه﴾ .. أى ينهون غيرهم عن سماع القرآن لئلا يستولى على عقولهم فيؤمنوا، انظر الآية (٢٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣. ﴿وينأون عنه﴾.. أى يعرضون عنه انظر الآيتين (٤، ٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣٠.

﴿وإن يهلكون﴾.. إن حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾ أى ما يهلكون إلا أنفسهم.. إلخ ومثلها إن الآتية فى الآية (٢٩).

﴿ولو ترى﴾ .. الخطاب لكل مَنْ يصح منه أن يرى فى ذلك الوقت ﴿إذ وقفوا على النار﴾.. أى حين تُوقِفهم ملائكة العذاب على شفير جهنم انظر الآيات (٥٣) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨، و (٤٤، ٤٥) من سورة الشورى صفحة ٦٤٥ و ٩١ من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥؛ والأصل ﴿إذ يوقَفون﴾ أى فى المستقبل يوم القيامة، ولكنه سبحانه عبَّر بالفعل الماضى بدل المستقبل ليفيد أنه محتم الوقوع حتى كأنه حاصل من الآن. ونظير ذلك ﴿أتى أمر الله﴾ الآية (١) من سورة النحل صفحة ٣٤٥ أى أنه لابد من حصوله ﴿ياليتنا نرد﴾.. أى يا ربنا نتمنى عليك أن تردنا إلى الدنيا إلخ انظر الآية (١٠٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦.

﴿بل﴾.. حرف يفيد إبطال ما فهم من كلامهم السابق من دعوى أنهم صادقون فى الرجوع إلى الحق لو ردوا إلى الدنيا، أى أن قولهم هذا غير صادر عن رغبة صحيحة فى الإيمان.

---

(١) أساطير (٢) وينأون (٣) ياليتنا
(٤) بآيات (٥) لكاذبون (٦) يا حسرتنا
(٧) الحياة.

﴿بدا لهم﴾.. أى ظهر واضحا.

﴿ما كانوا يخفون﴾.. أخفى، وكفر، وستر، كلها فى اللغة بمعنى واحد، وما كانوا يخفونه أى يكفرون به فى الدنيا هو البعث، والحساب، والعذاب لَمنْ كفر انظر الآيات (٢٠) من سورة السجدة صفحة ٥٤٧، و (٣٤) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١، و ١٤ من سورة الطور صفحة ٦٩٧؛ ﴿إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾.. ﴿هى﴾ أى الحياة التى نحياها. ﴿حياتنا الدنيا﴾ أصل كلمة ﴿دنيا﴾ مؤنث ﴿الأدنى﴾ أى الأقرب، وصارت ﴿الحياة الدنيا﴾ عبارة عن الحياة المقابلة للحياة الآخرة ونظير ماهنا ما قالوه فى آيتى (٣٧) من سورة المؤمنون صفحة ﴿٤٤٩﴾، و (٢٤) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣. ﴿أليس هذا بالحق قالوا بلى﴾..

انظر هذا فى الآية (٣٤) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١.

﴿الساعة﴾.. المراد بها هنا نهاية عمر كل واحد منهم التى تعتبر المرحلة الأولى من مراحل القيامة. ﴿فرطنا فيها﴾.. الضمير يعود على الحياة الدنيا المفهومة من السياق كما فى الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣، وكضمير ﴿أنزلناه﴾ فى الآية (١) من سورة القدر صفحة ٨١٥. ﴿أوزارهم﴾.. جمع وزر بكسر أوله وأصله الحمل الثقيل، يقال وزره يزره بوزن وعده يعده بمعنى حمله أى الوزر على ظهره. والمراد بالوزر هنا الذنب.

﴿ألا﴾.. كلمة تفيد تنبيه السامع لما بعدها ﴿ساء﴾.. قَبُح.

﴿لعب﴾.. المراد به هنا الفعل الذى لا يقصد به فاعله غالبا مقصدًا صحيحًا من تحصيل نفع أو دفع ضر، كأفعال الأطفال التى يتلذذون بها لذاتها ﴿ولهو﴾.. هو ما يشغل الإنسان عما يهمه مما يظن أن فيه تسلية.

المعنى :. إنهم لا يكتفون بمجرد عدم الإيمان، بل يقولون ما هذا الكلام الذى جئت به يا محمَّد إلا أكاذيب وخرافات من خرافات السابقين من الأمم قبلنا، ثم لا يكتفون بهذا التكذيب المتبجح بل ينهون الناس عن سماع القرآن انظر الآية (٢٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣ ويعرضون عنه بأنفسهم ليظهروا للناس غاية النفور منه تأكيدا لنهيهم انظر آيتى (٤، ٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣٠، وما يهلكون ويضرون بذلك إلا أنفسهم بتعريضها لأشد العذاب، وما يشعرون بهذا الضرر ولا بقصره عليهم.

ثم شرع فى بيان ما سيكون منهم يوم القيامة فقال: ولو ترى يا مَنْ يصح أن ترى حال هؤلاء حين توقفهم الملائكة على حافة جهنم، ليلقوا فيها وهى تفور، لرأيت شدة فزعهم عندما يشاهدون هؤلاء عظيمًا لا يتصور، عند ذلك يقولون لهول ما شاهدوا.

يا ربنا نتمنى أن نرد إلى الدنيا لنتجنب ما كان منا ولا نُكذِّب بآيات ربنا من القرآن والمعجزات ونكون من المؤمنين بكل ما جاء به الرسل، وهذا التمنى يصدر منهم عند مشاهدة النار، أما بعد دخولهم فيها فإنهم سيطلبون الخروج فعلا، انظر الآية (٣٧) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٦، ٥٧٧. ثم بيَّن سبحانه أنهم كاذبون حتى فى زعمهم هذا فقال: بل بدا لهم إلخ أى ليس قولهم هذا صادرًا عن عزم صادق ورغبة فى الإيمان، بل لأنه ظهر للعيان واضحًا لا يمكن إخفاؤه ما كانوا يخفون عن الناس فى الدنيا من الكفر بالبعث، والحساب، والعذاب لمَنْ كفر. وإذا كان الأمر كذلك وكان المانع لهم من الإيمان هو الكبر والحسد، وهما من الأخلاق الذاتية التى لا تفارق صاحبها، فلا يغتر أحد بتمنيهم، فإنهم لو ردوا إلى الدنيا كما تمنوا لعادوا إلى الكفر، وتكذيب الرسول حسدًا وكبرًا، انظر آيتى (٢٢، ٢٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٩. والآية (٦٥) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠، فهم كاذبون فيما يقولون فى تمنيهم، وقالوا لا حياة إلا حياتنا الدنيا هذه، وما نحن بمبعوثين كما يقول محمَّد. ولو ترى أيها السامع حين يوقف هؤلاء للعرض على ربهم لسؤالهم، انظر الآية ٢٤ من سورة الصافات، وقال لهم ربهم أليس هذا البعث وما بعده حقا لا باطلا كما زعمتم، قالوا: نعم وحقك يا ربنا، وأقسموا مبالغة فى التذلل لعله ينفعهم، فكان الرد قوله تعالى : فذوقوا العذاب الذى أنكرتموه من قبل بسبب كفركم المستمر. قد خسر هؤلاء الذين كذبوا بيوم القيامة كل ما ربحه المؤمنون به تعالى من نعيم الرضا بقضاء الله والصبر على المكاره واطمئنان النفس والقناعة وغير ذلك من كل ما امتاز به المؤمن فى الدنيا التى تجعل حياته طيبة كما فى الآية ٩٧ من سورة النحل صفحة ٣٥٩، خسروا كل هذا واستمروا حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة أى مباغتة قالوا معلنين الندم يا حسرتنا على ما فرطنا فى حياتنا الدنيا فلم نعمل فيها ما ينفعنا. قالوا ذلك وهم يحملون ذنوبهم على ظهورهم. وقال بعضهم إن الذنوب تمثل لهم يوم القيامة أجساما قبيحة ثقيلة، انظر ما تقدم فى الآية (١٦١) من سورة آل عمران صفحتى ٨٩، ٩٠. ألا قبح ما يحملون. ثم بيَّن سبحانه حقيقة ما يغتر به الناس فقال:

﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾ إلخ....

وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾
قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ
وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ[1] بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ
رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ
أَتَاهُمْ[2] نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ[3] اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن
نَّبَإِ[4] الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ
اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ
فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ[5] ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ
يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾
وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ
عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

المفردات: ﴿إنه ليحزنك﴾.. كسرت همزة ﴿إن﴾ لأن الفعل قبلها علق عن العمل باللام فى ﴿ليحزنك﴾ وهذه اللام تسمى لام الابتداء لأنها لا تقع إلا فى أول الجملة لتفيد تقوية التأكيد المستفاد من ﴿إن﴾ ولمّا كَرِهَ العرب تجاور حرفين ﴿إن﴾ و ﴿اللام﴾ أخروا ﴿اللام﴾ وجعلوها فى خبر ﴿إن﴾.. ﴿يجحدون﴾.. الجحود التكذيب مكابرة لأنه إنكار باللسان لما هو ثابت فى القلب، انظر الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥ والآية (٢٠) الماضية صفحة ١٦٥.

المعنى: ـ وما أعمال الحياة الدنيا الخاصة بها التى لا علاقة لها بالآخرة إلا كلعب الأطفال أو كلهو الكبار فى عدم النفع المعتبر عند العقلاء، وعدم الثبات وقصر الزمن، وللدار الآخرة خير للذين يتقون الله لدوام نعيمها؛ هل تغفلون عن هذا فلا تعقلون هذا الفرق العظيم.. ولما اشتدت جرأة المشركين فى تحقير شأنهﷺ محاولين صرف الناس عنه بكل السبل؛ فتارة يرمونه بالجنون والكذب والسحر كما فى الآيات (٦) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨، و (٤) من سورة ص صفحتى ٥٩٧، ٥٩٨، و (٥٢) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥؛ وتارة يقولون إن محمدًا هو الذى افترى هذا القرآن على الله كما فى الآية ٤ من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠ والآية (٤٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٩، وتارة قالوا على القرآن نفسه إنه سحر كما فى الآية (٧) من سورة هود صفحة ٢٨٤ والآية (٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠، وتارة كانوا يقولون كان يصح أن نؤمن لو كان هذا القرآن نزل على رجل عظيم كما فى الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠؛ نقول لما كان كل هذا وكان ﷺ يحزن لذلك حزنا شديدا لأنهم قومه الذين يحب هدايتهم، أراد سبحانه أن يسليه ﷺ فقال: قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون مما سبق ومن اقتراح معجزات معينة كما تقدم فى الآية(٨) صفحة ١٦٣ وكما سيأتى فى الآيات من (٩٠) إلى (٩٣) صفحتى ٣٧٦، ٣٧٧، فلا تحزن لأنهم لا يكذبونك عن عقيدة بل هم

(١) الظالمين (٢) آتاهم (٣) لكلمات (٤) نبأ (٥) الجاهلين

جازمون فى صميم قلوبهم بأنك على حق، ولكن هؤلاء الظالمين يكابرون فى تكذيبهم بآيات الله الدالة على صدقك. ثم قوى سبحانه تسليته الأولى بتسلية ثانية فيها إرشاد لطريق النجاح فقال: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك﴾، انظر الآية (٤٢) من سورة الحج صفحة ٤٣٩، وآيتى (٤، ٢٥) من سورة فاطر صفحات ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٥؛ ولما كان التكذيب يستلزم الإيذاء اكتفى بذكره فى سياق الصبر فقال: ﴿فصبروا على ما كذبوا وأوذوا﴾ أى وصبروا على الإيذاء حتى آتاهم نصرنا، ولا مبدل لكلمات الله فى وعده بنصر الصابرين كما فى آيتى (١٧١، ١٧٢) من سورة الصافات صفحة ٥٩٦، والآية (٤٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٧، والآية (٥١) من سورة غافر صفحة ٦٢٤؛ ولقد جاءك بعض أنباء المرسلين قبلك التى قصصناها عليك قبل هذا المتضمنة تكذيب الرسل ونصر الله لهم فى النهاية. ومَنْ أراد معرفة أشد ما فعله كفار قريش به ﷺ فليرجع إلى حديثى ٤٢٨، ٤٧٣ من كتابنا صفوة البخارى. ثم أكد سبحانه الصبر بأنه علاج لابد منه فقال: وإن كان شأنك معهم أنه كبر وعظم عليك إعراضهم عنك المفهوم من التكذيب فإن استطعت أن تطلب نفقًا أى طريقا فى جوف الأرض أو سلما تصعد عليه إلى جهة السماء فتأتيهم بمعجزة مما اقترحوه ليؤمنوا كما يزعمون فافعل وأت لهم بما يطلبون، ولن تستطيع، أى فأرح نفسك بالصبر ولا تحزن ولا تحاول المستحيل. ولو شاء الله جمعهم على الهدى معكم لجمعهم بجعل الإيمان إجباريا لهم كالملائكة، ولكن هذا يستلزم أن لا تكون الدنيا دار تكليف، لأن التكليف يستلزم الاختيار، والاختيار يستلزم التفاوت فى التفكير والعادات والميول، وإذا انتفى كل هذا فلا جنة ولا نار، لأنهما وجدا على أساس تفاوت المكلفين فى الطاعة والمعصية، وإذا كانت هذه هى حكمة الله تعالى فلا تكونن أيها النبى بحرصك الشديد على إيمانهم من الجاهلين بسنة الله فى خلقه الذين يتمنون حصول ما ليس من الحكمة حصوله.

وخوطب نوح عليه السلام بأشد من هذا فى الآية (٤٦) من سورة هود صفحة ٢٩١؛ وبعد ما بيَّن سبحانه أن حكمته اقتضت تفاوت الناس، أراد أن يبين مَنْ منهم يختار الهدى وهل هؤلاء منهم أم لا ليريح ﷺ نفسه من الحزن عليهم، فقال: إنما يستجيب أى يجيب دعوتك إلى الإيمان الذين يسمعون ما يلقى إليهم سماع فهم وقبول، دون الذين لا يسمعون ولا ينظرون كأنهم أموات كما فى الآية (٤٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥. وموتى القلوب يخرجهم الله تعالى يوم القيامة من قبورهم ثم ترجعهم الملائكة إليه تعالى لينالوا جزاءهم. ثم أراد سبحانه أن يبين شيئا من عنادهم ليزيد فى تسليته ﷺ فقال:

وقالوا لولا نزل عليه آية مما اقترحنا مما سبقت الإشارة إليه فى الآية (٨) صفحة ١٦٣ وسيأتى بعضه فى الآية (٩٠) وما بعدها من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦ وما بعدها. قل لهم

وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا
أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ
فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ
صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ
أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾
بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ
وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ
فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾
فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ
وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا
مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا

أيها النبى إن الله قادر على أن ينزل آية مما تقترحون ولكن أكثرهم لا يعلمون أن نزولها حسب اقتراحهم فيه فناؤهم جميعا إذا لم يؤمنوا كما تقدم بيانه فى الآية ٨ المشار إليها صفحة ١٦٣.

المفردات : . ﴿دابة﴾ : انظر معناها فى الآية (٢٩) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣. ﴿يطير بجناحيه﴾ : ذكر ذلك للتأكيد كما فى الآية (٤٦) من سورة الحج صفحة ٤٤٠. ﴿أمم أمثالكم﴾ الأمة هى الجماعة التى تجمعها صفات وعادات واحدة متجانسة ﴿فى الكتاب﴾ : هو اللوح المحفوظ، انظر آيات (٥٩) الآتية صفحة ١٧١، و (٦) من سورة هود صفحة ٢٨٤، و (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠، و (٢٩) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨، و (٢٢) من سورة البروج صفحة ٨٠٢. ﴿من شيء﴾ : ﴿من﴾ للنص على عموم شيء بعدها. ﴿أرأيتكم﴾ : تتركب من الهمزة للاستفهام. والفعل رأى بمعنى علم وهذا الفعل متعد لمفعولين. وضمير التاء المفتوحة للمخاطب. والكاف حرف خطاب. والميم علامة الجمع ﴿أرأيتكم﴾ بمعنى أخبرونى. وذلك عن طريق مجازين.. الأول فى الاستفهام بإرادة مطلق طلب الإبصار. والثانى فى الرؤية بإرادة الإخبار إذ رؤية الشيء سبب فى الإخبار عنه.

والمعنى : أخبرونى إخبار مَنْ يعلم عن حالتكم عندما يصيبكم شيء فوق الأسباب هل تدعون أصنامكم التى لا تضر ولا تنفع أم تدعون الله سبحانه وتعالى.

---

(١) طائر (٢) الكتاب (٣) بآياتنا (٤) الظلمات (٥) صراط
(٦) أتاكم (٧) صادقين (٨) فأخذناهم (٩) الشيطان (١٠) أبواب.

﴿فيكشف ما تدعون إليه إن شاء﴾: التقييد بالمشيئة هنا إشارة إلى أن الذى يمكن أن يُكشف عنهم عند الرجوع إلى ربهم إنما هو عذاب الدنيا قبل بلوغ الروح الحلقوم، ومشاهدة مقدمات الموت التى لابد من حصوله بعدها أما بعد ذلك فلا ينفعهم تضرع لما دلت عليه آيات أخرى، انظر الآية (١٥٨) من هذه السورة صفحتى ١٩٠، ١٩١، وآيتى (٩٠، ٩١) من سورة يونس صفحة ٢٨٠، وآيتى (٨٤، ٨٥) من سورة غافر صفحة ٦٢٩.

﴿البأساء﴾: ما يصيب الإنسان فى غير نفسه كفقد ولد أو مال ﴿الضراء﴾: ما يصيبه فى نفسه كالمرض.

﴿يتضرعون﴾ : أى يتذللون ويخشعون لربهم تائبين، محافظين على التوبة غير ناقضين. لها، وإلا رجعوا خاسرين انظر الآية (١٣٥) من سورة الأعراف صفحة ٢١٣. والآية (٢٣) من سورة يونس صفحة ﴿٢٦٩﴾، والآية (٥٤) من سورة النحل صفحة ٣٥٢. والآية (٦٥) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠، والآية (٣٣) من سورة الروم صفحة ٥٣٥.

﴿فلولا﴾ : تأتى كلمة ﴿لولا﴾ فى لغة العرب لمعانٍ : منها أن تكون شرطية، تربط بين جملتين، نحو لولا طلوع الشمس لأظلم الجو، والمعنى لولا أن طلوع الشمس محقق لأظلم الجو. ومن ذلك فى القرآن ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم﴾ الآية (١٤) من سورة النور صفحتى ٤٥٨، ٤٥٩. ومنها إفادة التخصيص، وهو الحض على الفعل، أى طلب حصوله، قال تعالى ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ الآية (٣) من سورة الماعون صفحة ٨٢٣.

وهذا الطلب إما أن يكون على سبيل الرجاء، أو على سبيل الأمر. فمن الأول ﴿لولا أخرتنى..... إلخ﴾ الآية (١٠) من سورة المنافقون صفحة ٧٤٤، ومن الثانى ﴿لولا تستغفرون الله﴾ الآية (٤٦) من سورة النمل صفحة ٥٠٠، والفعل المذكور بعدها لا يكون إلا مضارعًا، أى دالاً على مستقبل، أو ماضيا مئولا بالمستقبل، فمن الأول ما تقدم فى صفحة ٥٠٠ ومن الثانى ما تقدم فى صفحة ٧٤٤، لأن معناها أرجوك يارب أن تؤخرنى إلى أجل.. إلخ. كما تقول لمَنْ يطالبك بدين له عليك:

لولا أمهلتنى. تريد: أرجوك أن تمهلنى. وقد يراد بـ ﴿لولا﴾ هذه التوبيخ والإشعار بالندم على التفريط. وهذه تفيد ضمنًا عدم حصول الفعل المذكور بعدها، وإن كان فى صورة الماضى، ومنه قوله تعالى ﴿فلولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ الآية (١٦) من سورة النور صفحة ٤٥٩، فالمعنى إنكم تستحقون التوبيخ على عدم قولكم ما يكون لنا ... إلخ فينبغى لكم أن تندموا على هذا التفريط.

وقد يراد بها أيضا التعجيز والتحدى، وذلك حينما يطلب بها من المخاطب ما يعجز عنه، ومن ذلك فى القرآن قوله تعالى ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾ الآية (٨٣) من سور الواقعة صفحة ٧١٧ لأن المراد هل تستطيعون إرجاع الروح إذا بلغت الحلقوم إلخ ما سيأتى ونظير هذا التعجيز فى القرآن قوله تعالى ﴿قل كونوا حجارة أو حديدًا إلخ﴾ الآية (٥٠) وما بعدها من سورة الإسراء صفحة ٣٧١ ثم إن ﴿لولا﴾ لابد أن يكون الفعل المذكور بعدها متصلا بها، ولا يفصله فى اللفظ فقط لا فى المعنى إلا أحد ثلاثة أشياء.

﴿إذ﴾ و ﴿إذا﴾ ظرفان منصوبان بالفعل الذى أصله أن يكون قبلها نحو ما تقدم فى الآية (١٦) من سورة النور صفحة ٤٥٩ والآية (٨٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧.

والثالث الجملة الشرطية نحو قوله تعالى ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها.. إلخ﴾ وسيأتى بيان ذلك فى الآية (٨٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧، فأصل التركيب فلولا ترجعون الروح إن كنتم غير مدينين.

ومن معانى ﴿لولا﴾ أيضًا إفادة التفجع أى التوجع للرَّزية، والتأسف لحصولها، ويكون المراد حمل السامع على التأسف لما حل بإخوانه فى الإنسانية الذين أهلكتهم المصائب لمخالفتهم أوامر ربهم، وبذلك يجتنبون جرائمهم التى أوقعتهم فى هذا الهلاك، ومن ذلك ما فى هذه الآية التى نحن بسبيل شرحها، وما فى قوله تعالى ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض﴾ الآية (١١٦) من سورة هود صفحة ٣٠١، وقوله سبحانه ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانًا آلهة بل ضلوا عنهم .. إلخ﴾ الآية (٢٨) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧٠.

﴿فتحنا عليهم أبواب كل شىء﴾: من أبواب الرزق الواسع، وصحة الأجسام.

المعنى : . لما فرغ سبحانه من بيان آياته القاطعة بصدقه ﷺ،ومن الرد على مقترحاتهم أراد أن يرشد المستعد منهم لنوع من آياته فى الحيوانات لو تأملوها لعلِموا أنه لا يكون إلا عن تدبير حكيم عليم، واستغنوا بذلك عن تعنتهم فى اقتراح آيات معينة فقال ﴿وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ أيها الناس فى تمييزها عن غيرها وتجانسها فى أفعالها ونظام حياتها، وفى هذا أقوى دليل على حكمة العليم القدير، ما فرطنا فى الكتاب من شىء، ثم إلى ربهم تحشر هذه الأمم، أى يحشر المكلفون جميعًا، ومن الحيوانات مَنْ وقع عليه ظلم من مكلف ليشهد على مَنْ ظلمه كما تشهد عليه جوارحه كما فى الآية (٦٥) من سورة يس صفحة ٥٨٥، وآيتى (٢٠، ٢١) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢، وكما تشهد الموءودة فى الآية (٨) من سورة التكوير صفحة ٧٩٤؛ والذين كذبوا بآياتنا من القرآن والحجج المبينة فى الكون، صم لا يسمعون دعوة الحق سماع فهم وتدبر، بكم لا ينطقون بما قد يعرفون من الحق غارقون فى ظلمات الشرك والعناد وتقليد الآباء.

مَنْ يشأ الله إضلاله يضلله بأن يتركه ونفسه يختار ما يشاء كما اقتضته سنته فى نظام هذه الدنيا أن لا يجبر أحدًا على شىء، انظر آيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧، والآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧؛ وليس المعنى أنه يخلق الضلال فى العبد خلقًا قهرًا عنه فتكون أفعاله وحركاته كحركة الدم فى الجسم وعمل المعدة فى الهضم فلا دخل له فيها ولا يستطيع الخلاص منها. ومَنْ يشأ يجعله على صراط مستقيم وذلك بأن يوفقه للانتفاع بعقله وسمعه وبصره لسلامة طبعه ونظافته من الأمراض المميتة للقلوب انظر الآية (٩) من سورة يونس صفحة ٢٦٦ والآية (٢٧) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥، والآية (٦٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٣٠، والآية (١١) من سورة التغابن صفحتى ٧٤٦، ٧٤٧ وآيات (٥ - ٧) من سورة الليل صفحة ٨١٠؛ كما لا يضل إلا فاسد الطبع الذى مرن على المعاصى حتى طمس قلبه، انظر الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحة ٧، والآية (٢٥٨) من سورة البقرة أيضًا صفحة ٥٤، والآية (٨٦) من سورة آل عمران صفحة ٧٧، والآية (٦٧) من سورة المائدة صفحة

١٥٠، والآية (١٠٨) من سورة المائدة أيضا صفحة ١٥٩، والآية (٢٧) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٤، والآية (١٠٤) من سورة النحل صفحة ٣٦٠، والآيات (٨ ـ ١٠) من سورة الليل صفحتى ٨١٠، ٨١١ وغير ذلك، فمن حيث إنه سبحانه واضح الأسباب والمسببات صح أن يقال أنه يضل مَنْ يشاء ويهد مَنْ يشاء بمعنى أنه كان قادرًا أن يغير لهم هذا النظام فيكون العالم كله مجبورًا، ومن حيث إنه سبحانه منح المكلفين الاختيار وسهل لهم الأسباب صح أن يرتب هدايته لهم وإضلاله على عملهم فيقول مثلا ﴿إن الله لا يهدى مَنْ هو مسرف كذاب﴾ الآية (٢٨) من سورة غافر صفحة ٦٢١، ويقول ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ الآية (٦٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٣٠، ثم بعد ذلك أراد سبحانه أن ينبههم إلى ما فى داخل فطرتهم التى أفسدوها لعلهم يرجعون فقال: قل أيها النبى لمشركى قومك أرأيتم، أى أخبرونى ماذا تفعلون إن أتاكم عذاب الله فى الدنيا كما أتى مَنْ قبلكم، كالريح الصرصر، والصاعقة والطوفان، أو أتتكم مقدمات الساعة وأهوالها، هل تدعون لكشف ذلك أحدًا من آلهتكم غير الله إن كنتم صادقين فى أن أصنامكم آلهة تنفع، أم لا تدعون غيره تعالى؟ ثم أجاب بما هو الواقع منهم قطعًا فى مثل هذا فقال: بل إياه تدعون، أى لا تدعون غيره فى حال الشدة كما هى عادتكم دائمًا، انظر آيتى (٢٢، ٢٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٩، والآية (٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣، فيكشف سبحانه ما تدعونه لكشفه إن شاء وعند هذه الشدة تنسون ما تشركونه مع الله فى العبادة، ثم أراد سبحانه أن يخفف على رسوله شدة عناد قومه وقسوتهم عليه فأخبره بأن أمم الرسل قبله كانوا أقسى قلوبا من أمته، وأن الشدائد لم ترجعهم إلى الحق، ومع ذلك صبر هؤلاء الرسل كلما كذبوا حتى أتاهم نصر الله بإهلاك قومهم، انظر الآية (٣٤) الماضية صفحة ١٦٧ فقال هنا ولقد أرسلنا رسلاً إلى أمم كثيرة قبل أمتك فلما كفروا أنزلنا عليهم البأساء والضراء لعلهم يتضرعون، ويرجعون إلى الحق رجوعا صادقا لا نكسة بعده، ولكنهم لم يفعلوا، فيا حسرة عليهم حيث لم يفعلوا، واستمرت قلوبهم على قسوتها، وزين لهم الشيطان عملهم، فلما أهملوا ما ذكروا به كأنهم نَسُوه، بلوناهم بالحسنات بدل السيئات، لنسلك بهم كل طرق الاختبار، ونقطع عليهم سبل الاعتذار، انظر الآية (١٦٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٠، فوسعنا عليهم فى الرزق، وصحة الأجسام، فلم يزدهم ذلك إلا بطرًا وكبرًا، حتى إذا فرحوا .....

بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم[1] بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ
دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ[2] إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ[3] وَخَتَمَ عَلَىٰ
قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ
ٱلْءَايَٰتِ[4] ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ[5] إِنْ أَتَىٰكُمْ[6]
عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ[7] ﴿٤٧﴾
وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ
وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا[8] يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾
قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ
وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ
هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

المفردات :. ﴿مبلسون﴾.. يائسون من النجاة متحسرون. ﴿دابر القوم﴾.. دابر الجماعة مؤخرها أى أهلكناهم عن آخرهم.

﴿أرأيتم﴾.. انظر تركيب أرايتكم فى الآية (٤٠) صفحة ١٦٨ السابقة ﴿نصرف الآيات﴾.. أى ننوع الحجج على وجوه مختلفة، انظر آيات (١٠٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٠ و (٤١) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٩، ٣٧٠ و (٥٤) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨؛ ﴿يصدفون﴾.. يُعْرِضون عن التأمل .

﴿خزائن الله﴾. جمع خَزْنَة، أو خِزَانَة وأصلها ما يخزن فيه الشيء النفيس، والمراد بها مستودع فيوضاته تعالى من رحمة، ورزق، وغير ذلك، انظر آيات (٢١) من سورة الحجر صفحة ٣٣٩ و (٩) من سورة ص صفحة ٥٩٨ و (٧) من سورة المنافقون صفحتى ٧٤٣، ٧٤٤.

المعنى :. أنعمنا عليهم برغد العيش، حتى إذا فرحوا بما أنعمنا به عليهم فرح بطر وغرور، بدل أن يقوموا بحق المنعم، أخذناهم بعذاب الإفناء بغتة على غرة منهم، فإذا هم واقعون فى اليأس من النجاة، فقطع دابر الظالمين وهلكوا جميعا، والحمد لله رب العالمين على إهلاكهم لأن إهلاك الطغاة المفسدين إنقاذ لأهل الأرض من مفاسدهم.

وقل أيها النبى لهؤلاء المشركين أخبرونى إن أصمكم الله وأعماكم وختم على قلوبكم حتى صرتم مجانين هل عندكم إله غير الله يأتيكم بما سلبه منكم؟ الجواب لا قطعا، وإذا كان الأمر

---

(١) أخذناهم (٢) أرايتم (٣) وأبصاركم (٤) الآيات
(٥) أرايتكم (٦) أتاكم (٧) الظالمون (٨) بآياتنا .

كذلك فلماذا تعبدون غيره، وغيره لا يملك لكم دفع ضر ولا جلب نفع؟!.. انظر أيها السامع كيف ننوع لهم البراهين ليتنبهوا ولكنهم مع ذلك يعرضون عنها إعراضا شديدا.

وقل لهم أيها النبى أيضا أخبرونى عن مصيركم إن أتاكم عذاب الله الذى حلَّ بأمثالكم من الأمم التى كفرت بأنبيائها بغتة ولم تتقدمه أمارات تشعركم بقرب نزوله كما حصل لقوم لوط انظر الآية (٧٣) وما بعدها من سورة الحجر صفحة ٣٤٣، أو يأتيكم جهرة أى ظاهرا ترون مقدماته كما حصل لقوم عاد انظر آيات (٢١) وما بعدها من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٩ وما بعدها، فهل يهلك به إلا الظالمون منكم وهم المصرون على الشرك، أما الرسل ومَنْ آمن معهم فإنهم ينجون كما حصل لقوم نوح فى الآية (٤٠) من سورة هود صفحة ٢٩٠، ولقوم لوط كما فى آيتى (٨٣، ٨٤) من سورة الأعراف وغير ذلك كثير.

ولما سبق فى الآية (٣٧) أنهم كانوا يقترحون معجزات مخصوصة عنادا مع كثرة آيات الرسول ﷺ قال هنا فى تمام الرد عليهم:

وما نرسل المرسلين لأممهم إلا مبشرين مَنْ أطاع بالجنة، ومنذرين ومخوفين مَنْ عصى بالنار، أى ولم نرسلهم ليتلقوا من أممهم اقتراحات بمعجزات معينة ليسخروا منهم، فمَنْ آمن من هؤلاء الأمم واكتفى بمعجزة رسوله وأصلح عمله فلا خوف عليهم من عذاب ولا هم يحزنون على فوات ثواب.

أما الذين كذبوا بآياتنا التى اخترناها لكل رسول مناسبة لزمانه يمسهم العذاب بسبب استمرارهم على الفسق والخروج عن الطاعة وقل لهم أيها النبى: لا أقول لكم أيها الكفار عندى خزائن الله أتصرف بما فيها فأجعل فى الأرض جنات كما تقترحون فى آيتى (٩٠ و ٩١) من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٦، ٣٧٧، ولا أعلم الغيب المطلق الذى لا يعلمه إلا الله، فلا أعلم القيامة التى تكثرون السؤال عنها تحديا وعنادا، ولا أقول إنى ملك يقدر على ما لا يقدر عليه البشر حتى تكلفونى ما فى آيتى (٩٢، ٩٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، وما أتبع إلا ما يوحى إلىَّ من الله. وإذا كان الأمر كذلك فقل لهم لا يستوى الأعمى أى الضالّ عن الحق، والبصير أى المهتدى، أفلا تتفكرون أى ألا تسمعون هذا الكلام الحق فتتفكرون. فالاستفهام توبيخ على عدم السماع وعدم التفكير فى تلك الحجج.

وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم
مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ
الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ
مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم
مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ
فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم
مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ
عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ
تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ
نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾
قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ

﴿كتب ربكم على نفسه﴾.. أى فرض وأوجب على نفسه تفضلا منه.

﴿أنه مَنْ عمل منكم .. إلخ﴾.. هذا بدل أو بيان للرحمة ببعض أنواعها.

﴿بجهالة﴾.. أى بسفه وطيش دفعه إلى السوء لا عن تعمد وإصرار دائم.

المعنى : . وأنذر بما يوحى إليك وهو القرآن المؤمنين الذين يخافون من حشرهم إلى ربهم للحساب والجزاء وخصهم بالذكر لأنهم هم الذين ينفعهم الإنذار قال تعالى: ﴿فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ الآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ وفى معناها الآية (١٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٤ والآية (١١) من سورة يس صفحة ٥٨٠؛ المؤمنين الذين يعتقدون أنه ليس لهم من دون الله ناصر ولا معين ولا شفيع، انظر الآية (٢٥٤) من سورة البقرة صفحة ٥٣ والآية (١٩) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٦، أنذر هؤلاء لعلهم يحافظون على اتقاء ما يغضبه سبحانه روى ابن جرير عن عبدالله بن مسعود أن هذه الآية وما بعدها نزلتا فى ضعفاء المسلمين وفقرائهم فكأنه سبحانه يقول: إذا أعرض عنك المتكبرون فوجه عنايتك لهؤلاء المخلصين فإنهم سيكونون نواة أمتك فيما بعد. وبيان ذلك أنه مر ذات يوم نفر من صناديد قريش على النبى ﷺ ومعه بلال وصهيب وعمار بن ياسر وخباب وغيرهم من المستضعفين من المسلمين فقالوا يا محمَّد كيف تجالس هؤلاء دون كبار قومك؟ أهؤلاء هم الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا؟ اطردهم عنك فلعلك إن فعلت نتبعك.

(١) بالغداة (٢) الظالمين (٣) بالشاكرين (٤) بآياتنا
(٥) سلام (٦) بجهالة (٧) الآيات.

فنزل فيهم : وأنذر إلى آخر الآية (٥٥)، وكانت هذه عادة المستكبرين دائما. انظر الآيات من (٢٧) إلى (٣١) من سورة هود صفحتى ٢٨٨، ٢٨٩ وآيتى (٧٣، ٧٤) من سورة مريم صفحة ٤٠٣. وآيتى (١٠٩، ١١٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥. ولا تطرد أيها النبى هؤلاء المؤمنين الذين يدعون ربهم أول النهار وآخره، والمراد فى جميع الأوقات، يريدون وجه الله أى مخلصين، لا تطردهم إرضاءً لكفار قريش الذين طعنوا فى إخلاصهم واتهموهم بالنفاق، فما عليك أيها النبى من حساب هؤلاء الضعفاء شىء، كما أنه ليس من حسابك عليهم شىء أى كل منكما محاسب أمام ربه فيما يتعلق بداخل ضميره، فهى فى معنى قوله ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾، انظر الآية (٤٠) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨ والآية (١١٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦. وإذا كان الأمر كذلك فلا تسمع دس الكافرين وتطردهم، فإنك إن فعلت كنت فى عداد الظالمين، وحاشاه ﷺ أن يقع فى ظلم. وكهذه الفتنة التى وقع فيها الأقوياء فتنا كل متكبر بالضعفاء كما فتنا وامتحنا المستضعفين من المؤمنين والفقراء منهم بالأقوياء والأغنياء، انظر الآية (٢٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢ ليظهر معدن كل منهما، ويتبين المخلص فى إيمانه الذى لا يهتم إلا بما يقربه من الله من المتكبر الذى تهمه المظاهر، انظر الآية (٢٧) من سورة هود صفحة ٢٨٨ والآية (١١١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦ والآيات من (٣١) إلى (٣٥) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠ فتنًا بعضهم ببعض واختبرناهم ليقول المتكبرون أهؤلاء الفقراء المساكين هم الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا بهذه النعم التى يقول بها محمَّد، وهى أنهم سيكونون سادة فى الدنيا سعداء فى الآخرة؟ هذا لن يكون، انظر الآية (١١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧ فرد الله تعالى عليهم بقوله : أليس الله أعلم بمَنْ يشكر نعمته فيجازيه رغم أنوفكم. وبعد أن نهاه الله عن طردهم أمره سبحانه بأن يكرمهم ويجاملهم فقال: وإذا جاء الذين يؤمنون بآياتنا فقل لهم سلام من الله عليكم، أى أبلغهم تحيتى وطمئنهم بأن ربهم أوجب على نفسه تفضلا منه ورحمة أنه مَنْ عمل منكم ذنبا مندفعا إليه بلا روية ولا تصميم ثم سارع إلى التوبة والندم وأصلح أعماله بالإخلاص فى التوبة غفر الله له لأنه كثير المغفرة واسع الرحمة.

وبمثل هذا التفصيل البديع نفصل وننوع الآيات القرآنية الدالة على الحق لبيان الحجج والمواعظ، ولتظهر طرق المجرمين فيسهل اجتنابها. ثم أمره أن يقول لهؤلاء الطغاة أنى نهيت أى نهانى ربى ومنعتنى أدلة العقل عن أن أعبد الذين تدعونهم من دون الله.

قُلْ لَآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ
مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ
الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَٰصِلِينَ(١) ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي
مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِالظَّٰلِمِينَ(٢) ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ
إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ
إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ(٣) الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ
وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ(٤) مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم(٥)
بِالَّيْلِ(٦) وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ
أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

المفردات :. ﴿أهواءكم﴾ .. أى شهواتكم القائمة على الباطل لا على الدليل.

﴿بينة من ربى﴾.. أصل معنى بينة واضحة شديدة الوضوح وتطلق على المعجزة كما فى الآية (٨٧) من سورة البقرة صفحة ١٧، والآية (٩٢) من نفس السورة صفحة ١٨، و ١٠١ من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨، وتطلق أيضا على الدليل القاطع كالقرآن الكريم كما فى الآية (٩٩) من سورة البقرة صفحة ١٩، والآية (١٥) من سورة يونس صفحتى ٢٦٧، ٢٦٨ والآية (١) من سورة النور صفحتى ٤٥٦، ٤٥٧ وتطلق أيضا على العلم القطعى الناتج عما تقدم كما فى الآية (٤٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٢ ويعبر عنها فى القرآن أحيانا بالبصيرة كما فى الآية (١٠٨) من سورة يوسف صفحة ٣١٩. ﴿يقص الحق﴾.. أى يتبع فى فعله الحق، من قولهم قص أثره إذا اتبع طريقه ﴿مفاتح الغيب﴾.. جمع مفتح بفتح الميم كمرصد ومراصد وهو المخزن أى عنده خزائن الغيب، أو جمع مفتح بكسر الميم كمبرد ومبارد وهو المفتاح.. ﴿فى كتاب مبين﴾.. هو اللوح المحفوظ انظر الآية (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠ والآية (٢٩) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨.. ﴿يتوفاكم بالليل﴾.. المراد يضعف صلة الأرواح بالأجساد فلا يشعر النائم بما يشعر به المتيقظ، انظر الآية (٤٢) من سورة الزمر صفحة ٦١٢.. ﴿جرحتم﴾.. جرحه جرحًا كمنعه أحدث بجسمه تمزقا، ولهذا سميت السباع جوارح لأنها تجرح كما تقدم فى الآية (٤) من سورة المائدة صفحتى ١٣٥، ١٣٦. ومن المجاز فيه قولهم جرحه بلسانه أو فى شهادته إذا طعن فيه. وجوارح الإنسان هى يداه ورجلاه التى يكتسب بها. ولهذا قالوا إن المعنى هنا: ويعلم ما كسبتم من الإثم، لأن سياق الآية فى التهديد والتوبيخ فيناسبه كسب الذنب. ﴿يبعثكم فيه﴾.. أى يوقظكم فى جنس النهار لا فى النهار المتقدم. ﴿القاهر فوق عباده﴾.. أى الغالب فوق عباده بالقدرة والإخضاع انظر الآية (١٢٧) من سورة الأعراف صفحة ٢١١.

(١) الفاصلين (٢) بالظالمين (٣) ظلمات (٤) كتاب (٥) يتوفاكم (٦) بالليل.

المعنى : . قل لهم أيها النبى أيضا: لا أسير فى طريقكم الذى سلكتموه من اتباع الهوى وإغفال الدليل، لأن هذا هو الضلال بعينه؛ ولذا قال قد ضللت مثلكم إذا اتبعت أهواءكم، وما أنا حينئذ على شىء من الهداية.

ثم بَيَّن ما يجب أن يكون عليه المؤمن فقال: إنى سائر فى عملى على بينة واضحة من صحيح القرآن الذى جاءنى من عند ربى والحال أنكم قد كذبتم بهذا القرآن المعبر عنه ﴿ببينة﴾. ولما زعموا أنهم لم يصدقوه لعجزه ﷺ عن الإتيان بما توعدهم به من العذاب رغم تكرار طلبهم أن يأتيهم به، انظر آيات (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، و (٤٧) من سورة الحج صفحة ٤٤٠، و (٥٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨، و (١٨) من سورة الشورى صفحة ٦٤١، ولما غالطوا بذلك رد عليهم بقوله: ما عندى أى ليس عندى ما تستعجلون حصوله من العذاب لأنه مرهون بإرادة الله وحكمته، وما الحكم فى كل شىء يحدث فى هذا العالم إلا لله، فهو وحده الذى ينزل العذاب على مَنْ يشاء متى يشاء، يتبع سبحانه فى فعله الحق والحكمة، وهو خير الفاصلين بين الحق والباطل. وقل لهم أيضا : لو أن عندى ما تستعجلون به من العذاب لقضى الأمر بينى وبينكم بإنزاله عليكم سريعا لشدة غضبى من عصيانكم لربى وإنقاذا لعباده الضعفاء من بطشكم، ولكنه ليس فى يدى، والله سبحانه وحده هو الأعلم بمقدار ظلم الظالمين، فهو وحده الذى يتولى عقابهم، كل على حسب حاله، وهو العليم أيضا بحكمة اختيار الوقت الذى ينزل فيه العذاب، انظر آيات (١١) من سورة يونس صفحة ٢٦٧، و (٥٨) من سورة الكهف صفحة ٣٨٩، و (٤٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨؛ ولذا قال: وعنده سبحانه مفاتح الغيب، أى أن سر الغيب المطلق كله بيده سبحانه لا يعلمه غيره إلا عن طريقه، ويعلم ما فى البر والبحر من الظاهر والخافى عليكم، أى أن تعلق علمه سبحانه بالمشاهدات كتعلقة بالمغيبات، فالكل بالنسبة إلى علمه المحيط سواء، يعلم كل أحوالها لا يخفى عليه منها شىء مهما صغر؛ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، وما تسقط حبة فى ظلمات الأرض، ولا يسقط شىء رطب ولا يابس من الثمار ونحوها إلا ثابت كل ذلك فى كتاب هو اللوح المحفوظ، وكل هذا كناية عن إحاطة علمه سبحانه بتفاصيل كل شىء فى هذا العالم صغيره وكبيره علويه وسفليه لا مجرد المذكورات فقط. وهو الذى يتوفاكم بالليل بالنوم فيه، انظر الآية (٤٢) من سورة الزمر صفحة ٦١٢، لراحتكم كما فى الآية (٧٢) من سورة القصص صفحة ٥١٧، مع أنه يعلم ما كسبتم من الذنوب فى النهار السابق على الليل الذى تفضل عليكم فيه بما فيه راحتكم، ثم يوقظكم فى النهار لتسعوا فى الأرض، وهكذا ينيمكم ويوقظكم إلى أن يقضى الأجل المقدر لكل فرد منكم فى هذه الدنيا، ثم يميتكم فترجعون إليه فينبئكم بما داومتم عليه من عمل خير أو شر، ويجازيكم عليه. وهو القاهر فوق عباده فلا يعجزه أحد منهم وقد تقدم بيانها فى الآية

حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ
لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ[1] ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ
ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ[2] ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن
ظُلُمَٰتِ[3] ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا[4]
مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ[5] ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم
مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ
عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ
أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ
ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ[6] لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾
وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم
بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾
وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا[7] فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

(١٨) من هذه السورة صفحة ١٦٤، ويرسل عليكم لتسجيل أعمالكم حفظة...

المفردات :. ﴿حفظة﴾: هم الكرام الكاتبون فى الآية (١٠) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥. ﴿ألا له الحكم﴾: ألا كلمة تدل على تنبيه السامع لما بعدها لأهميته. ﴿ظلمات البر والبحر﴾: الظلمات كناية عن الأهوال والشدائد.

﴿تضرعا وخفية﴾ : التضرع المبالغة فى الضراعة وهى التذلل والخضوع وتكون فى الغالب جهرًا. والخفية الاستتار خوفا من الرياء.

﴿أو يلبسكم شيعا﴾ : يقال لبست الأمر لبسا كضرب خلطته. وشيع جمع شيعة كسلعة وسلع، والشيعة كل قوم جمعهم أمر واحد، وهو منصوب على الحال أى حال كونكم متفرقين، كلٌّ متحيز لفريقه، ويقال الشيعة هى الجماعة التى تشايعت على الباطل أى تعاونت عليه وأشياعهم أمثالهم؛ ﴿بأس بعض﴾ : البأس الشدة.

﴿لكل نبأ مستقر﴾ : النبأ الخبر، والمستقر أصله الزمان أو المكان الذى يستقر فيه شىء والمراد يتحقق وقوعه فيه ﴿يخوضون فى آياتنا﴾ : الخوض الحديث بالباطل، والمراد بالآيات آيات القرآن الكريم.

المعنى :. يرسل الحفظة يكتبون كل عمل من طاعة أو معصية حتى المباحات انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨ والآية (١٨) من سورة ق صفحة ٦٨٩، بل يكتبون حتى خلجات القلوب، انظر حديث رقم ٦٤٨ من كتابنا صفوة البخارى. وحكمة إخباره سبحانه بذلك أن العبد إذا علم هذا خشى الفضيحة على رءوس الأشهاد. ويستمر عمل هؤلاء الحفظة إلى أن تأتى أسباب الموت ومقدماته، وعند ذلك تقبض روح العبد رسل الله من الملائكة الموكلين بقبضها، وبذلك ينتهى عمل الحفظة، وهم لا يفرطون بالتوانى عن الموعد المحدد،

(١) مولاهم (٢) الحاسبين (٣) ظلمات (٤) انجانا
(٥) الشاكرين (٦) الآيات (٧) آياتنا.

ولا يسبقونه، ثم يرد الله جميع الخلائق إليه يوم القيامة للحساب والجزاء وهو سبحانه مولاهم الحق الباقى الذى لا يزول كما يزول ما اتخذوهم من دونه آلهة بالباطل. ألا له سبحانه وحده يوم القيامة القضاء النافذ وهو أسرع الحاسبين، يوفى كل عامل عمله عقب عمله، ويحاسب الخلق جميعا يوم القيامة فى أقصر وقت. وبعد ما بيَّن سبحانه أنه،هو المولى الحق أراد أن ينبه الكفار إلى ما يجدونه فى قرارة نفوسهم عند الشدة من إغفال غيره سبحانه ودعائه وحده، فقال: قل لهم أيها النبى مَنْ ينجيكم من أهوال البر والبحر إذا حلت بكم وجعلتكم تدعونه تضرعا وخفية، أى معلنين ومسرين قائلين: والله لئن أنجانا من هذه الشدة لنكونن من الشاكرين. ثم أمره ﷺ أن يجيب عنهم لإفادة أنه لا جواب عندهم غيره، فقال: قل الله هو الذى ينجيكم منها ومن كل كرب يعرض لكم، ثم أنتم بعد مشاهدة هذه الإحسانات تعودون إلى الإشراك به مَنْ لم يعمل لكم شيئا؛ أى فلم تكتفوا بعدم الشكر بل ضممتم إليه أقبح معصية.

وبعد ما بيَّن سبحانه أنه هو القادر على إنقاذهم من الشدائد، أراد أن يبيِّن لهم أنه قادر أيضا على إلقائهم فيها فقال:

هو القادر على أن يبعث أى يسلط عليكم عذابا شديدا شاملاً يأتيكم من جهة العلو كالصيحة والصواعق، أو من جهة السفل كالخسف والزلزال، انظر آيتى (١٦، ١٧) من سورة الملك صفحتى ٧٧٥، ٧٥٦. ولم يعيِّن سبحانه هذا العذاب الذى هدد به ليشمل كل ما يجد، وقد جد فى عصرنا مالم يكن فى حساب مخلوق وقت نزول القرآن مما تقذفه الطائرات وما تفجره الألغام والغواصات وما خفى كان أعظم. وقد سئل ﷺ عن هذه الآية فقال: (أما إنها لآتية ولم يأت تأويلها الآن) رواه أحمد والترمذى عن سعد بن أبى وقاص. يريد ﷺ أنها لن تحصل لأمته فى زمنه، ولكنها ستحصل ولابد لأمة دَعْوَته وهم جميع الخلق إلى يوم القيامة. فسبحان علام الغيوب الذى علَّم رسوله مالم يكن يعلم. وقادر أيضا على أن يخلطكم فى القتال للتنازع على الدنيا متفرقين كل فى ناحية، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾. انظر أيها النبى كيف ننوع الآيات تقريبا للفهم. وتقدم مثلها فى الآية (٤٦) صفحة ١٦٩، لعلهم يفقهون الحقيقة فيرجعون عن العناد. وكذب بالقرآن وما فيه من العذاب قومك العرب مع أنه الحق. فقل لهم لست موكلا بكم أحفظ أعمالكم وأجازيكم بها، بل هذا لله تعالى، وما أنا إلا نذير، ولكل خبر مما أخبركم الله به وقت يتحقق فيه مدلوله، وسوف تعلمون صدق تلك الأخبار. وإذا رأيت أيها المؤمن الذين يخوضون فى آياتنا المنزلة من الكفار المكذبين المستهزئين أو من أهل الأهواء المفرقين لكلمة المؤمنين، فأعرض عنهم، أى انصرف عنهم، لأن الجلوس معهم فيه إغراء لهم بالتمادى. وهذه الآية هى التى نبه الله سبحانه إليها فى الآية (١٤٠) من سورة النساء صفحتى ١٢٦، ١٢٧.

حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ[1]
فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ[2] ﴿٦٨﴾ وَمَا
عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا
وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ[3] ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا
كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن
تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا
كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟
يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا
وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا[4] ٱللَّهُ كَٱلَّذِى
ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ[5] فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ[6]
يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ

المفردات :ـ ﴿وإما ينسينك الشيطان﴾ : أصل التركيب ﴿إن﴾ و ﴿ما﴾.. و ﴿إن﴾ شرطية تدل على ارتباط جملتين بعضهما ببعض و ﴿ما﴾ حرف يدل على تأكيد هذا الارتباط فى كل حال من أحواله.

﴿وذر﴾ : اترك وابتعد. ﴿تبسل نفس﴾ : تبسل من البسل بمعنى الحبس أو الهلاك، يقال أبسله الله أى أهلكه.

﴿وإن تعدل﴾ : تفد. ﴿كل عدل﴾ : كل فداء ﴿أبسلوا بما كسبوا﴾ : هلكوا بسبب عملهم السيء ﴿حميم﴾ : هو الماء الشديد الحرارة.

﴿نرد على أعقابنا﴾ : الأعقاب جمع عقب وهو مؤخر القدم والمراد يرجعنا الشيطان إلى الخلف والمراد به الكفر. ﴿استهوته الشياطين﴾ : حملته على اتباع الهوى والسير على غير رشد. ﴿حيران﴾ : حال من الذى استهوته الشياطين و ﴿حيران﴾ : أى تائه لا يهتدى إلى ما فيه نجاته.

المعنى :ـ ابتعد عنهم حتى يشتغلوا بحديث غيره، وإن عرض لك نسيان فجالستهم وهم يخوضون ثم تذكرت ففارقهم حالاً لأنهم ظالمون ونسب الإنساء للشيطان لأن من أدب القرآن

---

(١) الشيطان
(٢) الظالمين
(٣) الحياة
(٤) هدانا
(٥) الشياطين
(٦) أصحاب.

أنه ينسب كل ما لا خير فيه للشيطان ولو كان خطأ، انظر آيتى (٦٣) من سورة الكهف صفحة ٣٩٠، و (١٥) من سورة القصص صفحة ٥٠٨. ولما كان ربما يتوهم أن الذى يجلس مع الخائضين ولو نسيانا مؤاخذ، دفع ذلك بقوله: وما على الذين يتقون الله من ذنب الخائضين شىء، أى لا يلحق المتقين الذين يجالسونهم نسيانا شىء يحاسبون عليه من ذنوبهم، ولكن عليهم فقط تذكيرهم بقبح أعمالهم، والقيام عن مجالسهم، وإظهار الكراهة لهم، لعلهم يتقون الخوض حياء أو خوفا من إساءة مَنْ هو أقوى منهم واترك أيها المؤمن الذين اتخذوا دينهم الذى فرض عليهم وطلب منهم الخضوع له وهو الإسلام لعبا ولهوًا، تقدم شرحها فى الآية (٣٢) من هذه السورة صفحتى ١٦٦، ١٦٧؛ والمراد لا تبال بهم وامض فيما أمرك به الله، وابتعد عن هؤلاء الذين خدعتهم الدنيا بالباطل حتى أنكروا البعث وانهمكوا فى ملذاتهم. وذكر بالقرآن، انظر آخر سورة ﴿ق﴾ صفحة ٦٩٢، لئلا تحبس كل نفس فى الهلاك بسبب ما كسبت من الذنوب حال كونها ليس لها ولى ينصرها ولا شفيع ينقذها من العذاب، وإن تقدم هذه النفس كل فداء تتقى به العذاب لا يقبل منها. أولئك المتخذون دينهم لعبا ولهوا المغترون بالدنيا الذين هلكوا ليس لهم شراب فى جهنم إلا من حميم يتجرعه أحدهم ولا يكاد يسيغه يقطع أمعاءهم، انظر الآيات (١٧٧) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٢، و (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥، و (١٥) من سورة محمد صفحة ٦٧٤، وعذاب أليم غير ذلك من نار تشوى جلودهم، لهم ذلك بسبب كفرهم المستمر. قل لهم أيها النبى أنت ومَنْ معك من المؤمنين هل يصح أن ندعوا من دون الله ما لا ينفعنا إن عبدناه، ولا يضرنا إن تركناه كما تفعلون فى عبادة الأصنام، ونرجع إلى الشرك بعد هداية الله لنا للتوحيد فنكون فى رجوعنا على أعقابنا مماثلين للذى استهوته الشياطين فهو هائم على وجهه فى الأرض حيران لا يهتدى إلى طريق النجاة، لهذا الضال رفقة مهتدون لم تضلهم الشياطين يدعونه إلى طريق الهداية والنجاة قائلين فى دعائهم ائتنا أى ارجع إلينا تسلم، فلا يجيبهم فيهلك. وقل لهم أيها النبى إن هدى الله الذى هدانا إليه وهو الإسلام هو الهدى وليس هناك هدى غيره.

وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴿٧١﴾ وأن أقيموا الصلاة
واتقوه وهو الذي إليه تحشرون ﴿٧٢﴾ وهو الذي خلق
السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون
قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب
والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴿٧٣﴾ * وإذ قال إبراهيم
لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك
في ضلال مبين ﴿٧٤﴾ وكذلك نري إبراهيم ملكوت
السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴿٧٥﴾ فلما
جن عليه الليل رءا كوكبا قال هذا ربي فلما أفل
قال لا أحب الآفلين ﴿٧٦﴾ فلما رءا القمر بازغا قال
هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من
القوم الضالين ﴿٧٧﴾ فلما رءا الشمس بازغة قال هذا

المفردات : . ﴿يوم يقول كن فيكون﴾ لم يعلمنا سبحانه حقيقة هذا القول، وإنما الذى يجب أن نعتقده أنه سبحانه إذا قضى أمرًا نفذ بقدرته سريعا من غير توقف على شىء آخر.

﴿الصور﴾ : هو فى اللغة اسم للبوق الذى ينفخ فيه فيحدث صوتًا قويًا؛ والله أعلم بحقيقة صور إسرافيل؛ ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ : أصل الغيب والشهادة مصدران بمعنى الغياب والحضور مع المشاهدة ثم أطلق الغيب على الغائب عن الحواس والشهادة على المُشَاهَد بالحواس ﴿لأبيه آزر﴾ : لعلك لاحظت أن القرآن عند حكاية محاورة نبى الله إبراهيم عليه السلام لهذا الكافر كان حريصا على التعبير عنه بأنه «أبوه» فى عدة مواضع: ما هنا وما فى الآيات (١١٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٦١، ٢٦٢، ومن (٤٢) إلى (٤٥) من سورة مريم صفحة ٤٠٠، و (٥٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٦، و (٧٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٤، و (٨٥) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢، و (٢٦) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩، و (٤) من سورة الممتحنة صفحة ٧٣٥. ذلك كله لندرك الحكمة السامية التى يرشد إليها الكتاب الكريم وهى أن الإنسان لا ينفعه إلا عمله وإن كفر الآباء لا يضر الأبناء المؤمنين، كما لا يضر الآباء فسوق الأبناء، وأن صلاح كل واحد من الطرفين لا ينفع الآخر إذا كان فاسقا، انظر الآيات (١١٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٦١، ٢٦٢، و ٤٢،

(١) العالمين (٢) الصلاة (٣) السموات (٤) عالم (٥) والشهادة (٦) إبراهيم
(٧) آزر (٨) آلهة (٩) آراك (١٠) ضلال (١١) إبراهيم (١٢) السموات
(١٣) الليل (١٤) رأى (١٥) الأفلين (١٦، ١٧) رأى.

٤٣، ٤٥، ٤٦ من سورة هود صفحتى ٢٩٠، ٢٩١ و (١٧، ١٨) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٦٨، ٦٦٩؛ وكذا لا ينفع الرجل الصالح زوجته الفاجرة ولا تنفع الزوجة الصالحة زوجها الفاسق انظر آيتى (١٠، ١١) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣، لكل هذا جاء سبحانه بالنتيجة محذرًا فى الآية (١٠١) من سورة «المؤمنون» صفحتى ٤٥٤، ٤٥٥، والآية (٣٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤ فهل ترى بعد ذلك أشقى من رجل أو امرأة يفرط فى حقوق الله سبحانه وتعالى معتمدًا فى النجاة على غيره من والد أو ولد؟ أما الغلامان المذكوران فى الآية (٨٢) من سورة الكهف صفحة ٣٩٢ لأن صلاح والديهما حملهما على توجيه ولديهما جهة الخير وكان الولدان مستعدين لهذا التوجيه فأكرم سبحانه الآباء بتوفيق الأبناء لما كانوا يحبونه لهما وبهذا نال الأب ثواب حسن تربية الأبناء فوق السرور بهم فى الآخرة. ولو كان الغلامان غير مستعدين للاستقامة لما نفعهما توجيه الآباء مهما فعلوا، انظر الغلام وأبويه فى الآيات ٨٠ من سورة الكهف صفحة ٣٩٢، و (١٧، ١٨) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٦٨، ٦٦٩؛ ﴿ملكوت السموات والأرض﴾: الملكوت هو الملك العظيم، كالرحموت للرحمة الواسعة، والرهبوت للرهبة الشديدة؛ فالوزن يفيد المبالغة فى مادته؛ ﴿جن عليه الليل﴾ : أى أظلم وستر جميع ما حوله.

﴿أفل﴾ : ذهب وغرب.

المعنى :- وقل لهم أيضا إنا معاشر المؤمنين أمرنا بأن نستسلم وننقاد لرب العالمين، وأن الله أمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه سبحانه لأنه هو الذى إليه وحده نحشر يوم القيامة فيحاسبنا، وهو سبحانه أيضا المنفرد بخلق السموات والأرض مقترنة بالحق أى لا لعبا وعبثا كما فى الآية (٢٧) من سورة ص صفحة ٦٠٠ وآيتى (٣٨، ٣٩) من سورة الدخان صفحتى ٦٥٨، ٦٥٩. واذكر يوم القيامة الذى يقول فيه للشىء كن فيكون أى يقول للخلق قوموا، فيقوموا قوله هذا هو الصدق الواقع لا محالة، وله وحده الملك فى ذلك اليوم الذى ينفخ فيه فى الصور، انظر الآية (١٦) من سورة غافر صفحة ٦١٩، وهو سبحانه عالم ما غاب وما ظهر، أى يستوى فى علمه الغائب والشاهد أى الحاضر، وهو الحكيم فى أفعاله، الخبير بجميع الخفيات؛ وبعد ما بيَّن سبحانه بطلان عمل المشركين، أمر نبيه ﷺ بتذكيرهم بدعوة إبراهيم صاحب المكانة

العليا عند العرب وأهل الكتاب، فقال: وإذ قال إبراهيم، أى واذكر لهم أيها النبى وقت قول إبراهيم الذى يدَّعون أنهم على ملته موبخًا لأبيه آزر على عبادة الأصنام: أتتخذ أصناما آلهة. ولحكمة عظمى كرر القرآن ذكر عابد الصنم الذى حاجه إبراهيم بوصف الأب، انظر الآيات (١١٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٦١، ٢٦٢، و (٤٢) إلى (٤٥) من سورة مريم صفحة ٤٠٠، و (٥٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٦، و (٧٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٤ و (٨٥) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢ و (٢٦) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩ و (٤) من سورة الممتحنة صفحة ٧٣٥. ومراد إبراهيم أنه لا يصح أن تجعل لنفسك ولقومك آلهة من دون الله، إنى أراك وقومك بهذا فى ضلال مبين واضح. وقد كان قومه يعبدون الأصنام والكواكب السيارة، فحاجهم فى عبادة الأصنام فى سورة الأنبياء من أول الآية (٥١) إلى الآية (٦٧) صفحتى ٤٢٦، ٤٢٧، وفى هذه السورة حاجهم فى عبادة الكواكب فقال سبحانه: ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾ أى كما أريناه الحق فى أمر أبيه وقومه كنا نريه المرة بعد المرة ملكوت السموات إلخ ليرى ببصره ما ينير بصيرته، والمراد نريه وجوه الاهتداء بها ليعرف حكمتنا فى تدبير ملكنا، ليقيم الحجة على المشركين وليكون فى خاصة نفسه من الموقنين، أى العالمين عن دليل. ثم ذكر سبحانه بعضا من كيفية اهتداء إبراهيم إلى أوجه الحجة فقال:

فلما جنَّ عليه الليل ونظر إلى ملكوت السموات رأى كوكبا عظيما ممتازا عن جميع الكواكب بشدة ضوئه وكان هو المشترى، فقال: هذا الكوكب هو ربى، قال ذلك مجاراة لهم تمهيدا للإنكار عليهم واستدراجا لهم إلى سماع حجته، فلما أفل واحتجب قال : لا أحب الآفلين. أى فلا يصح أن أجعلهم آلهة لأن الأفول تغير، والله يغير ولا يتغير، والرب ليس كمثله شىء، وهذا له أمثال يأفلون مثله، أشار إلى ذلك بقوله ﴿الآفلين﴾. فلما رأى القمر بازغا أى طالعا من وراء الأفق أول ظهوره من جهة المشرق قال : هذا ربى على الطريقة السابقة، فلما أفل القمر وهو أكبر من الكوكب السابق فى النظر وأقوى نورًا فى الأرض، قال على مسمع من قومه : لئن لم يهدنى ربى إلى الصواب لأكونن من الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا الكوكب هو ربى لأنه أكبر مما سبقه....

رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا
تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ
قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ
مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي
كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ
مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ
عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ
أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ
ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ
إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ

المفردات : . ﴿فطر السموات﴾ : ابتدأ خلقها. ﴿حنيفا﴾: الحنيف هو المائل عن الباطل المتميز إلى جهة الحق. ﴿وحاجه قومه﴾ : أي جادلوه، وقد بيَّن سبحانه شيئا من هذه المجادلة فى الآيات من (٥١) إلى (٧٠) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٦، ٤٢٧ وكذا فى الآيات من (٦٩) إلى (٨٩) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٤، ٤٨٥.

﴿سلطانا﴾ : أى حجة قاطعة.

﴿ولم يلبسوا إيمانهم﴾ : أى يخلطوا.

﴿بظلم﴾ : أى بكفر.

المعنى : . هذا أكبر قدرا وأعظم ضياء فهو أحق منهما بالربوبية إذا كانت الربوبية بالمظاهر، فلما أفلت كما أفل غيرها صرح عليه السلام بالنتيجة المرادة من كل ما تقدم فقال: يا قوم إنى برىء من تأليه هذه الكواكب التى جعلتموها أربابا مع الله، إنى وجهت
١ قصدى وجعلته خالصًا للإله الحق الذى فطر السموات والأرض حال كونى حنيفا بعيدا عن الباطل، وما أنا من المشركين مثلكم، وقد تقدم تفسيرها فى الآية (١٣٥) من سورة البقرة صفحة ٣٦، والآية (١٢٥) من سورة النساء صفحتى ١٢٣، ١٢٤. وجادل إبراهيم قومه، وخوفوه من أن تمسه آلهتهم بسوء كما يشعر بذلك الكلام الآتى، كما خوف قوم هود نبيهم بذلك فى الآية (٥٤) من سورة هود صفحة ٢٩٢. ومما حاجوه به أنهم يؤمنون به تعالى، وأنهم ما اتخذوا الأصنام إلا لتقربهم إليه وتشفع لهم عنده، وفى هذا تعظيم له تعالى لا كفر كما تزعم يا

---

(١) ياقوم (٢) السموات (٣) أتحاجونى (٤) هدان
(٥) سلطانا (٦) إيمانهم (٧) آتيناها (٨) إبراهيم
(٩) درجات (١٠) إسحاق

إبراهيم. فرد عليهم كل هذا بقوله أتحاجونى، أى هل يصح مجادلتكم لى فى شأن وحدانيته تعالى وما يجب له والحال أنه سبحانه قد هدانى إلى الحق، ومثل هذه الهداية هدايته تعالى لنبينا ﷺ فى الآية (٧) من سورة الضحى صفحة ٨١٢، ولا أخاف ما تشركون به من الكواكب والأصنام أن تصيبنى بسوء لأنى أعلم أنها لا تضر ولا تنفع، لكن إذا شاء ربى القادر وقوع مكروه لى فإنه يقع قطعا كما يشاء، وسع علم ربى كل شىء، فهو الذى يخاف منه لا من آلهتكم التى لا تعلم شيئا، فهل بعد هذا تعرضون عن التأمل فى عجز آلهتكم وجهلها فلا تتذكرون أنها غير قادرة على شىء وكيف أخاف من آلهتكم التى أشركتموها مع الله وهى لا تضر ولا تنفع، ولا تخافون أنتم من أنكم أشركتم بالله صاحب القوة والملك كله مخلوقات لم ينزل الله بشركها له دليلا قاطعا. والكلام كناية عن امتناع وجود دليل على شركهم، فأى الفريقين منا ومنكم أحق بالأمن والطمأنينة فى الآخرة : فريق الموحدين، أو فريق المشركين. إن كنتم على شىء من العلم الصحيح أدركتم أنا نحن أحق بالأمن منكم. ثم بيَّن سبحانه من هم أحق بعدم الخوف فقال: الذين آمنوا بالله وحده ولم يخلطوا إيمانهم بشرك كما يفعل المشركون الذين يزعمون أنهم اتخذوا الأصنام شفعاء، انظر الآية(٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦ والآية (١٠٦) من سورة يوسف صفحة ٣١٩، والآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠، أولئك الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك، لهم وحدهم يوم القيامة الأمن من الخلود فى النار، وهم المهتدون إلى الحق، وغيرهم على باطل. وتلك البراهين المذكورة من أول ﴿فلما جن عليه الليل﴾ إلى قوله ﴿مهتدون﴾ هى حجتنا التى آتيناها إبراهيم، أى أرشدناه إليها ليقيمها على قومه. نرفع درجات مَنْ نشاء من عبادنا بالعلم والحجة كإبراهيم. إن ربك أيها النبى حكيم فى كل فعله، عليم بمَنْ يستحق الرفع. وقد تفضلنا على إبراهيم فى أصله وفرعه، فوهبنا له إسحاق ويعقوب...

المفردات: ﴿وكلا فضلنا على العالمين﴾ : المراد عالمى زمانهم.

﴿واجتبيناهم﴾ : أى اصطفيناهم واخترناهم لرسالتنا، وهذا يدل على أن هناك رسلاً لله سبحانه غير هؤلاء المذكورين، انظر آيتى (١٦٣، ١٦٤) من سورة النساء صفحة١٣١.

كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ
وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ
كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ
وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ
وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ
فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا
بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ
ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ

﴿لحبط عنهم﴾ : لبطل وسقط.

﴿الكتـاب﴾ : هو اسم جامع لكل من صحف إبراهيم وموسى، وزبور داود. وإنجيل عيسى. ﴿والحكم﴾ : المراد به الحكمة وهى معرفة أسرار الشريعة ووضع كل شىء فى محله.

﴿اقتده﴾ : أى اقتد، والهاء حرف يزاد عند السكوت على الكلمة ساكنا، وقد يثبت فى الوصل ساكنا أيضا إجراء للوصل مجرى الوقف انظر مثلها فى الآية (١٩) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢.

المعنى :. ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ أى ووهبنا لإبراهيم إسحاق وولده يعقوب. واقتصر هنا على إسحاق وابنه، لأن إسحاق ولد بما يشبه المعجزة، لأن إبراهيم كان بلغ من الكبر وكذا زوجه سارة حالاً لا يولد لهما فيه، انظر ذلك واضحا فى قوله تعالى حكاية عن زوج إبراهيم ﴿أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا﴾ انظر الآية (٧٢) من سورة هود صفحة ٢٩٥ والآية (٢٩) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٤ وسيأتى حكمة إفراد إسماعيل عنهم فيما بعد. ﴿كلا هدينا﴾ أى هدينا كلا من إسحاق ويعقوب هديناه إلى ما يوصل لطريق الكرامات وجزيل الثواب. ﴿ونوحا هدينا من قبل﴾ أى وهدينا نوحا من قبلهم إلى ما هديناهم إليه. ﴿ومن ذريته﴾ معطوف على ﴿ونوحا هدينا﴾ بدون قيد ﴿من قبل﴾ أى وهدينا من ذرية إبراهيم داود

(١) وسليمان (٢) وهارون (٣) الصالحين (٤) وإسماعيل
(٥) العالمين (٦) وذرياتهم (٧) وإخوانهم (٨) واجتبيناهم
(٩) وهديناهم (١٠) صراط (١١) آتيناهم (١٢) الكتاب
(١٣) بكافرين (١٣) فبهداهم (١٥) أسألكم

وسليمان... إلخ وقد جزم ابن جرير بأن الضمير فى ذريته لنوح لأنه أقرب مذكور ولأن لوطا ويونس ليسا من ذرية إبراهيم.

وذهب سائر المفسرين إلى أن الضمير عائد على إبراهيم، لأن أصل الكلام فى شأنه، وإنما ذكر نوحا فى المقام لأنه جده لبيان نعمة الله عليه فى أصوله، وفى كثير من فروعه، ولذلك جمعهما سبحانه فى الامتنان عليهما بجعل النبوة فى نسلهما فى الآية (٢٦) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣. وقال هؤلاء إن يونس من ذرية إبراهيم وإن لوطا ابن أخيه فهو ابنه حكمًا وقال صاحب المنار: ولم يرتب سبحانه هؤلاء الأنبياء حسب زمانهم لأنه أنزل كتابه للهداية والموعظة لا لمجرد التاريخ، ولأنه ليس كتاب مناقب يرتب أصحابها حسب درجاتهم، وإنما هو كتاب عبرة، وقد جعلهم سبحانه فى هذا المقام ثلاثة أقسام لكل قسم منهم معنى يجمعه.

فالقسم الأول ﴿داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون﴾ والجامع بينهم أن الله آتاهم النبوة والإمارة والحكم والسيادة، وكل منهم ابتلى فصبر، وأُنعم عليه بالسراء فشكر، ولذلك خصوا بلفظ ﴿المحسنين﴾ لإحسانهم فى تصريف الشئون...

والقسم الثانى ﴿زكريا ويحيى وعيسى وإلياس﴾ هؤلاء يجمعهم شدة الزهد فى الدنيا، والرغبة عن سلطانها، ولذا وصفهم بالصالحين، وهو أليق بهم وإن كان كل نبى صالحًا.

والقسم الثالث ﴿إسماعيل واليسع ويونس ولوط﴾ ويجمع هؤلاء عدم خصوصية برزوا بها، إذ لم يكن لهم من سلطان الحكم ما للقسم الأول، ولا من المبالغة فى الزهد ما للقسم الثانى، واكتفى بذكر تفضيلهم على عالم زمانهم، والله أعلم بأسرار كتابه.

﴿ومن آبائهم﴾ أى وهدينا بعض آباء مَنْ ذكر من الأنبياء، وبعض ذرياتهم وإخوانهم، وهذا يدل على أن كثيرًا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم لم يهتدوا، وقد جاء ذلك صريحًا فى الآية (٢٦) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣. ﴿واجتبيناهم﴾ معطوف على ﴿فضلنا﴾ قال الراغب: يقال اجتبى الله العبد أى خصه بفيض إلهى يحصل له بسببه نعمة بلا سعى منه،

وهو خاص بالأنبياء، وبعض مَنْ يقاربهم من الصديقين والشهداء. ﴿وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾ أعاد ذكر الهداية ثانيًا للتأكيد، وليربط بها متعلقها وهو ﴿إلى صراط مستقيم﴾. وليرتب عليها قوله: ذلك أى الهدى إلى صراط مستقيم هو هدى الله الموصل للخير يهدى به سبحانه مَنْ يشاء هدايته من عباده المستعدين لذلك كما فى الآية (٣٩) المتقدمة صفحة ١٦٨ ولو فرض أن أشرك بالله أولئك المهتدون المصطفون لبطل وسقط عنهم مع علو قدرهم ما كانوا يعملون من الصالحات، فكيف بغيرهم ممَنْ جمع بين الشرك وعدم مزية مما فى هؤلاء. أولئك الأنبياء هم الذين آتيناهم الكتاب. والمراد بإتيانه سبحانه لهم الكتاب إلهامهم الفهم الصحيح لما فيه، والتمكن من الإحاطة بدقائقه، سواء جمع لأحدهم مع ذلك إنزاله عليه، أو كان تلقاه عن غيره منهم، لأنه من المعلوم أنه لم ينزل على كل واحد منهم كتابًا، بل على قليل منهم فقط. وآتيناهم الحكمة والنبوة، فإن يكفر بهذه الثلاثة هؤلاء المشركون من أهل مكة، بأن لم ينتفعوا بها فقد وكلنا بأمر رعايتها والانتفاع بها قوما كراما هم أهل المدينة ومَنْ سلك سبيلهم ليسوا بهذه النعم كافرين، أى فليسوا مثل كفار مكة. أولئك الأنبياء الثمانية عشر المذكورون هم الذين هداهم الله إلى الحق، فبهداهم اقتد أيها النبى، أى سر على طريقتهم فى الأخلاق الفاضلة، والصفات الكاملة، كالحلم والصبر والزهد وكثرة الشكر والتضرع، فيكون ﷺ جمع كل الفضائل التى تفرقت فيهم وقل أيها النبى لمَنْ بُعثت إليهم أولاً: لا أطلب منكم على هذا القرآن الذى أمرت أن أبلغه لكم أجرًا من مال ولا غيره.

ما هذا القرآن إلا تذكير وموعظة وإرشاد.

المفردات: . ﴿وما قدروا الله﴾ : أصل القدر معرفة المقدار، ثم استعمل فى معرفة الشىء على أتم وجه.

﴿قراطيس﴾ : جمع قرطاس وهو ما يكتب فيه من ورق وغيره. ﴿تبدونها﴾ : تظهرونها

﴿ذرهم﴾ : اتركهم ﴿فى خوضهم﴾: كلامهم الباطل.

﴿لما بين يديه﴾:

لِلْعَٰلَمِينَ[1] ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ[2] ٱلَّذِى
جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ
تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ
ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾
وَهَٰذَا كِتَٰبٌ[3] أَنزَلْنَٰهُ[4] مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ
وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ
إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ
إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ[5] فِى غَمَرَٰتِ[6] ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ[7] بَاسِطُوٓا۟
أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ

أى ما سبقه من الكتب. ﴿أم القرى﴾ : أى أهمها لأنها قبلة كل مسلم فى كل بلاد العالم. ولأن فيها أول بيت وضع للناس. ﴿عذاب الهون﴾ : هو الهوان الشديد.

المعنى :. ما هذا القرآن إلا تذكير للعالمين عامة لا لكم خاصة حتى أطلب منكم أجرًا. وبعد ما قرر سبحانه أدلة التوحيد شرع فى تقرير إثبات إرساله رسلاً وإثبات اليوم الآخر فقال ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ إلخ، أى ما عرفوا الله حق المعرفة اللائقة به تعالى، حيث جهلوا من صفاته الحكمة والرحمة اللتين تقتضيان أن يرشد الخلق لما فيه سعادتهم ولا يتركهم فوضى كالبهائم، انظر الآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦، ولا سبيل إلى ذلك إلا بإرسال الرسل وإنزال الكتب، انظر الآية (١٥٧) من هذه السورة صفحة ١٩٠ والآية (١٧) من سورة هود صفحة ٢٨٦ والآية (١٠٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٢. فما عرف هؤلاء المشركون ربهم حق المعرفة حين قالوا ما أنزل الله على بشر شيئا من الكتب مثل الذى يدعيه محمد، انظر الآية (٩٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧ فمرادهم الطعن فى رسالته ﷺ بأسلوب فيه مبالغة، فرد سبحانه عليهم بقوله قل لهم أيها النبى مَنْ أنزل الكتاب الذى جاء به موسى وهو التوراة؟ وقد كان العرب يعرفون ذلك كما تقدم فى الآية (٢٠) من هذه السورة صفحة ١٦٥، ولكنهم لما لجوا فى خصومتهم له ﷺ قالوا ما قالوا عنادًا وتجاهلاً لما كان يعرفه بعضهم.

أنزل الله كتاب موسى نورًا واضحًا فى نفسه، وهدى مرشدا للناس فى زمنه، تجعلونه وقرئ يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون إلخ، والأمر عليها ظاهر؛ أما قراءة تجعلونه ففيها التفات من الغيبة للخطاب مع اليهود أنفسهم، وهذه القراءة نزل الإذن بها لما هاجر ﷺ إلى المدينة واشتدت فظاعة اليهود؛ أما قراءة الياء فكانت بمكة مع كل السورة. ومَنْ أراد معرفة تفصيل ذلك فليرجع إلى حديث البخارى فى كتابنا صفوة البخارى رقم ٤٢٧. والمراد أن هذا الكتاب

---

(١) للعالمين (٢) الكتاب (٣) كتاب (٤) أنزلناه
(٥) الظالمون (٦) غمرات (٧) والملائكة.

الذى نزل للهداية تلاعب به أصحاب الشهوات من أحبار اليهود فكتبوه فى أوراق متعددة يبدون منها ما لهم مصلحة فى إظهاره، ويخفون ما لهم مصلحة فى إخفائه، وكان هو الأكثر، وهذا يدل على أن مخالفتهم للتوراة الصحيحة كانت أكثر. ثم امتن سبحانه على المؤمنين بقوله: وعلمتم أيها المؤمنون بإتيان الله لكم هذا القرآن المبين لكل شيء ومنه ما خفى من جرائم المشركين واليهود ما لم تكونوا تعلمونه قبل ذلك. وبعدما سألهم هذا السؤال المفحم لقنه الجواب الوحيد الذى كان يجب أن ينطقوه فقال: قل لهم : الذى أنزل الكتاب على موسى هو الله، ثم اتركهم فى باطلهم يلعبون كالصبيان فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. وهذا القرآن كتاب أنزلناه عليك كما أنزلنا التوراة على موسى، كتاب باركه الله بمزايا كثيرة، منها بقاؤه إلى قيام الساعة، وامتيازه فى النظم والمعنى، ومصدق فى الجملة لما تقدمه من كتب الأنبياء فلا يقر إلا ماهو صحيح منها، ويرد ما حرفوه. أنزلناه إليك لتبشر المؤمنين وتنذر أهل مكة وما حولها من سائر بلاد العالم. والذين يؤمنون بالآخرة وما فيها من الجزاء فلابد أن يخافوا الله فيؤمنوا بهذا القرآن، أما منكرو البعث فلا يشعرون بالحاجة إليه. وهذا هو السبب فى أن مشركى العرب معرضون عنه، انظر الآية (١٥) من سورة يونس صفحتى ٢٦٧، ٢٦٨، يؤمنون ويحافظون على صلاتهم بأدائها على أتم وجه. وخصت الصلاة من بين أركان الإسلام لأنه لم يكن فرض عند نزول السورة غيرها.

ولما كان الناس بالنسبة لإرسال الله رسلا من البشر على ثلاثة أقسام :

قسم يؤمن وهم أتباع الرسل من كل أمة، وقسم ينكرها وهم مشركو الأمم السابقة كما تقدم فى هود ومشركى هذه الأمة، وقسم ثالث يقر بها لكنه يدعيها لنفسه كذبا. وقد أبطل سبحانه دعوى الفريق الثانى، وشرع هنا فى تهديد الفريق الثالث ومَنْ كان على شاكلته فى الكذب على الله وإدعاء القدرة على الإتيان بمثل القرآن فقال: ومَنْ أظلم أى لا أحد أشد ظلما ممَنْ يكذب على الله كقوله : إن له شريكا أو ولدا، أو لم يرسل وحيا على بشر، أو يقول أوحى إلىَّ والحال أنه لم يوح إليه شيء كمسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة، ومثلة مَنْ قال سأنزل مثل ما أنزل الله كبعض مشركى مكة، انظر الآية (٣١) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١. ثم هدد سبحانه هذه الطوائف فقال: ولو ترى أيها السامع ما يحصل للظالمين وقت سكرات الموت والملائكة باسطو أيديهم قائلين لهم سلموا أرواحكم بلا إبطاء، اليوم تجزون عذاب الهوان الشديد. قال الفخر الرازى: الكلام كناية عن العنف والشدة فى إزهاق الروح وليس هناك قول لسان، والكل محتمل وإن كنا لا نرى شيئا، فقد يرى النائم شدائد ولا يشعر بها الجالس بجواره، والله أعلم بالغيب.

بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ[1]
تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ[2] كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ[3]
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ[4] وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ
مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟[5] ۚ
لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾
* إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ
وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾
فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ[6] سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ[7] ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ
قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ[8] لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم
مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ[9] فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ[10]

المفردات :. ﴿فرادى﴾ : أى أفرادا غير مجتمعين، والمراد ليس معكم أحد ممَّنْ تظنون أنه يشفع لكم، أو ينفعكم من الولد أو الوالد انظر الآية (٩٥) من سورة مريم صفحة ٤٠٥. ﴿خولناكم﴾ : أى أعطيناكم من الولد والمال وغيرهما.

﴿شفعاءكم﴾ : ما كانوا يعبدونه من دون الله ليشفعوا لهم.

﴿تقطع بينكم﴾ : فاعل تقطع مقدر مفهوم من سياق الكلام، والأصل تقطع ما كان بينكم من روابط المودة انظر الآية (١٦٦) من سورة البقرة صفحة ٣٢.

﴿وضلّ عنكم﴾ : أى غاب وذهب. ﴿فالق الحب﴾ : أصل الفلق الشق. ﴿يخرج الحىّ من الميت﴾ : أى يخرج ما ينمو ويزيد من حيوان أو نبات أو شجر مما لا ينمو لو بقى على حاله. كالتراب والحب والنوى إذا ترك دون زرع، وكالنطفة إذا بقيت فى صلب الرجل. والجملة مستأنفة مبينة لكثير مما قبلها، ولذا لم تعطف.

---

(١) آياته
(٢) فرادى
(٣) خلقناكم
(٤) خولناكم
(٥) شركاء
(٦) الليل
(٧) ظلمات
(٨) الآيات
(٩) واحدة
(١٠) الآيات.

﴿ومخرج الميت من الحيّ﴾ : ذكر تتميمًا لكمال قدرته تعالى، أى كما أنه يخرج الحى من الميت مخرج الميت من الحى، ولذلك عطفها بالواو وإنما أتى أولاً بصيغة الفعل المضارع ﴿يخرج﴾ فقال ﴿يخرج﴾ الحى، وهنا قال ﴿مخرج﴾ بصيغة اسم الفاعل للإشارة إلى أن صنع الله سبحانه فى إخراج الحى من الميت أظهر وأوضح فى بيان قدرته من إخراج الميت من الحى، وذلك أن الفعل المضارع يفيد الاستمرار والحركة، وهذا يجعله مستحضرا فى ذهن السامع، بخلاف الاسم أو الفعل الماضى، فكلاهما لا يفيد التجدد، ولا الاستحضار فى الذهن، ترى ذلك واضحا فى قوله تعالى ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة﴾ الآية (٦٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٢، فانظر كيف قال فى إنزال المطر ﴿أنزل﴾ بصيغة الماضى، ولكن فى اخضرار الأرض الذى يحصل تدريجًا، قال ﴿تصبح﴾ بصيغة المضارع، ليتمكن السامع من استحضار الصورة البديعة فى أن صيرورتها تأتى تدريجًا، ولاشك أن إخراج الحىّ الذى تشاهده العيون مددًا كثيرة أبدع من إخراج الميت الذى ينتهى ويغيب عن الأعين والأذهان كما فى الآية (٦٧) من سورة غافر صفحة ٦٢٧.

﴿فأنى﴾: فكيف ﴿تؤفكون﴾ : تصرفون ﴿الإصباح﴾ : المراد بالإصباح هنا هو الغبش الذى يكون بين الفجر الكاذب، والفجر الصادق.

والفجر الكاذب هو الضوء الذى يظهر مستطيلا إلى السماء، أى الذى يقول عنه الفقهاء إنه «كذنب السّرْحان» بكسر السين وسكون الراء، أى الذئب؛ ثم يضعف ويذهب، وعند ذلك يظهر الفجر الصادق، وهو الضوء المستعرض فى الأفق ثم يرتفع مع استعراضه هذا إلى أعلى شيئا فشيئا حتى تبزغ الشمس.

﴿الليل سكنا﴾ : أى وقت سكون وراحة للأجسام والعقول من عناء عمل النهار انظر آيات (٧١) وما بعدها من سورة القصص صفحة ٥١٧. ﴿حسبانا﴾ : أصله الحساب أطلقه عليهما مبالغة لدقة سيرهما حسب نظام الحساب المقرر لهما حتى كأنهما الحساب نفسه، ونظيره الآية (٥) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩. ﴿فمستقر﴾ : أى مكان تستقرون فيه فوق سطح الأرض. ﴿ومستودع﴾ : فى القبور إلى وقت البعث... وقيل المستقر هو الرجل الذى تستقر

النطفة فيه، والمستودع المرأة التى يستودع الجنين فى رحمها، فكأنه قال خلقكم من نفس واحدة فمنكم ذكر ومنكم أنثى.

المعنى :. يجازيكم الله بالعذاب بسبب ما كنتم تقولون على الله غير الحِق من أن له شريكا وأنه لا يوحى إلى أحد من البشر، وبسبب كونكم استكبرتم عن آياته فأعرضتم عنها ولم تفكروا فيها. ومما يهينهم به سبحانه أن يقول لهم يوم القيامة : ولقد جئتمونا للحساب منفردين عن الأنصار والشفعاء والأولاد والأموال وكل ما بعتم به آخرتكم من زخارف الدنيا، فأنتم اليوم على الهيئة التى ولدتم عليها فى التجرد من كل شىء حتى مما يستر العورة، وتركتم ما أعطيناكم فى الدنيا من زخارفها، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لله عز وجل يستحقون منكم معه سبحانه التعظيم والتقرب بالمال والنذر ليكونوا لكم شفعاء، فأين هم اليوم؟ ذهب كل هذا باطلاً، وتقطع ما كان بينكم من علاقات المودة والولاء، وغاب عنكم ما كنتم تزعمون من شفاعة الشفعاء وتقديم الفداء.

انظر ما تقدم فى الآيات (٢٢، ٢٣، ٢٤) من هذه السورة صفحة ١٦٥ وبعد ما بيَّن سبحانه أصول الإيمان الثلاثة : التوحيد والبعث والرسالة، شرع فى ذكر بعض آياته الدالة على قدرته وعلمه وحكمته فقال:

إن الله فالق الحب والنوى، يخرج الحى كالحيوان والنبات من الميت كالتراب ومخرج الميت كاللبن والفضلات وغيرها من الحيوان.

ذلكم القادر العظيم هو الله فكيف يصرفكم الشيطان عن طاعته ومن آياته سبحانه أنه هو الذى يفلق غبش الصبح بإظهار ضوء الشمس فيذهب الغبش كما تذهب قشرة الحبة وتفنى، وجعل الليل وقت سكون وراحة من تعب عمل النهار وجعل الشمس والقمر يسيران بحساب دقيق للحكمة المبينة فى آيتى (٥) من سورة يونس صفحة ٢٦٦، و (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦. ذلك كله تقدير العزيز الغالب الذى لا يعجزه شىء العليم بما فى ذلك من المصلحة.

وهو سبحانه الذى جعل ونظم لكم النجوم لتهتدوا بها فى السير فى ظلمات الليل فى البر والبحر. قد فصلنا الآيات والأدلة على وجود إله قادر لقوم يعلمون وينتفعون بها. وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة، تقدم بيانها أول سورة النساء، وجعل منكم ذكرا وأنثى. قد فصلنا الآيات المبينة لتفاصيل خلق البشر وعظيم الحكم لقوم يفقهون.

لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ
حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ[1]
مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ[2]
انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ[3]
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ
وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ[4] بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ[5] وَتَعَالَىٰ[6] عَمَّا
يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ[7] وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ
لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ[8] وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ[9]
كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)
لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ[10] وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ[11] وَهُوَ اللَّطِيفُ

المفردات :. ﴿فأخرجنا﴾ : لم يقل سبحانه ﴿فأخرج﴾ حتى يكون على نمط ﴿أنزل﴾ المذكور قبله بل حول الكلام من أسلوب الحديث عن الغائب إلى أسلوب المتكلم للفت نظر السامع إلى ما سيذكر بعد هذا الفعل من الصنع العجيب. وهذا الأسلوب يسميه علماء العربية ﴿التفاتا﴾ انظره فى الآية (٥٣) من سورة طه صفحة ٤١٠، والآية (٢٧) من سورة فاطر صفحة ٥٧٥.

﴿فأخرجنا منه﴾ : أى من النبات.

﴿خضرا﴾ : أى شيئا غضا أخضر.

﴿متراكبا﴾ أى بعضه فوق بعض.

﴿ومن النخل﴾ : خبر مقدم لمبتدأ مؤخر وهو ﴿قنوان﴾ الآتى . بيانه. و ﴿من طلعها﴾ : بدل من ﴿من النخل﴾ وهو بدل بعض من كل، مع إعادة حرف الجر كقول العرب يعجبنى من زيد من وجهه بشاشته.

﴿من طلعها﴾ : بيَّن اللغويون الطلع بأنه أول ما يظهر من ثمر النخل على هيئة كفين التقى أطراف أصابعهما من أعلى وآخرهما من أسفل مع تباعد يسير بين باطنيهما، ويسميه عامة المصريين (كوز النخل) ويكون فى وسطه الشماريخ التى تحمل البلح، وهو المسمى بالأكمام

(١) وجنات (٢) متشابه (٣) لآيات
(٤) وبنات (٥) سبحانه (٦) وتعالى
(٧) السموات (٨) صاحبة (٩) خالق
(١٠، ١١) الأبصار.

انظر الآية (١١) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩، وقد يطلق ويراد به الشماريخ نفسها التى بداخله كما هو ظاهر هنا وكما ذُكر فى الآية ١٠ من سورة ق صفحة ٦٨٩ وقد يطلق على غير ثمر النخل لقرب شبهه به انظر الآية (٦٥) من سورة الصافات صفحة ٥٩١ والمعنى ومن المخرج من طلع النخل قنوان إلخ. وإنما غيرَّ سبحانه الأسلوب، ولم يقل ومن النخل من طلعها قنوانًا حتى يكون متفقا مع سابقه ﴿خضرا﴾ ولاحقه ﴿جنات﴾ و ﴿الزيتون﴾ إلخ.

فعل ذلك سبحانه للفت النظر إلى ما فى النخل من جزيل الفائدة، وعجيب الصنع، حتى قال النبى ﷺ فى النخلة أنها تشبه المؤمن فى أن كل ما فيه نافع خصوصا عند أرباب النخيل.

﴿قنوان﴾ : جمع قِنو بكسر القاف وهو العود المحمل بالثمر فهو للثمر بمنزلة العنقود للعنب.

﴿دانية﴾ : قريبة سهلة التناول.

﴿وينعه﴾ : نضجه. ﴿الجن﴾ : يطلق لغة على كل مستتر عن العيون فيشمل الجن المعروف والملائكة الذين عبدوهم بإغراء شياطين الجن انظر آيتى (٤٠، ٤١) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٨، ٥٦٩ ﴿وخرقوا له﴾ : اختلقوا كذبا وباطلاً.

﴿يصفون﴾ : أى يفترون عليه سبحانه كذبا مزخرفا يحاولون به التمويه على البسطاء انظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٢.

﴿بديع السموات.. إلخ﴾ : المراد بالبديع هنا هو الذى يوجد الشىء على مثال لم يسبق إليه.

﴿أنى يكون﴾ : كيف يكون.

﴿صاحبة﴾ : زوجة ﴿اللطيف﴾ : يطلق على ما دق عن الأنظار فلا تستطيع رؤيته، وعلى العليم بدقائق الأشياء، وعلى الذى يعامل غيره برفق ورحمة، انظر الآية (١٩) من سورة الشورى صفحة ٦٤١.

المعنى : . فصلنا الآيات لقوم يفقهون أى يعلمون دقائق الأشياء فيزدادون إيمانا . ومن نعمه وقدرته سبحانه أنه هو الذى أنزل من السحاب ماء فأخرج بسببه كل صنف من أصناف النبات المختلفة، ثم فصَّل ما أجمل فقال: فأخرجنا منه أى من هذا النبات أى حولناه إلى شىء كامل الخضرة، ونخرج من هذا الأخضر حبا منظما بعضه فوق بعض كسنابل القمح وغيرها . ثم شرع سبحانه فى تفصيل حال الشجر بعد الخضر فقال: ومن النخل من طلعها أى ومن طلع النخل قنوان قريبة من يد المتناول. وأخرج بالماء أيضا جنات مكنونة من أعناب، والزيتون والرمان مشتبها أى بعضه يشبه بعضا فى الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأوصاف الدالة على كمال القدرة، وبعضه مختلف عن الآخر فى ذلك؛ انظروا أيها المخاطبون بعين الاعتبار إلى ثمر شجر الزيتون والرمان إذا أثمر وتدرج فى أحواله إلى أن يصل إلى نضجه. إن فى ذلك لأدلة عظيمة لقوم مستعدين للإيمان لسلامة فطرهم. وإنما اقتصر سبحانه على المذكور من الشجر لأنه هو المعروف عند العرب وقتئذ، وهم الذين نزل القرآن عليهم بلسانهم. ثم شرع سبحانه فى توبيخ مَنْ أشرك به مع وجود هذه الأدلة فقال: وجعلوا أى اعتقد الكفار أن لله شركاء من الملائكة، وقد عبدالمشركون الملائكة بسبب وسوسة الشياطين، انظر الآية (١٢١) الآتية من هذه السورة صفحة ١٨٢، وآيتى (٤٠، ٤١) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٨، ٥٦٩؛ عبدوا الجن والحال أن هؤلاء المشركين يعلمون أن الله تعالى وحده هو الذى خلقهم ورزقهم لا هؤلاء الجن، فإنهم أيضا مخلوقون مثلهم، فكيف يجعلون مخلوقا مثلهم شريكا للخالق؟ وافترى الكفار أيضا على الله فجعلوا له بنين وبنات بغير علم منهم بما هو الخطأ والصواب وبلا فكر ولا روية، فقال اليهود: العزير ابن الله، والنصارى: المسيح ابن الله، والعرب: الملائكة بنات الله، انظر آيات (٣٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥، (٥٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٢، (٤٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩، ومن (١٤٩) إلى (١٥٨) من سورة الصافات صفحتى ٥٩٥، ٥٩٦، ومن (١٦) إلى (١٩) من سورة الزخرف صفحتى ٦٤٨، ٦٤٩، و (٣٩) من سورة الطور صفحة ٦٩٩؛ سبحانه وتعالى عما يفترونه عليه من أن له ولدًا أو شريكا. فهو بديع السموات والأرض فكيف يكون له ولد والحال أنه ليس له زوجة. وهو سبحانه الذى خلق كل شىء ومن جملة ذلك ما زعمتموه شريكا أو ولدا، ويعلم كل شىء ولو كان له ولد لعلم به. ذلكم الموصوف بصفات الكمال هو الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فيما مضى وما سيكون فاعبدوه وحده لأنه على كل شىء وكيل أى رقيب فهو مطلع على أعمالكم فاحذروا انتقامه. لا تدركه الأبصار فهو ليس كالمخلوقات، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف، فيستحيل على مخلوق الإحاطة به.

الخبير ﴿١٠٣﴾ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر
فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴿١٠٤﴾
وكذلك نصرف الآيات(١) وليقولوا درست ولنبينه لقوم
يعلمون ﴿١٠٥﴾ اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله
إلا هو وأعرض عن المشركين ﴿١٠٦﴾ ولو شاء الله
ما أشركوا وما جعلناك(٢) عليهم حفيظا وما أنت عليهم
بوكيل ﴿١٠٧﴾ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا
الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم
ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴿١٠٨﴾
وأقسموا بالله جهد أيمانهم(٣) لئن جاءتهم آية(٤) ليؤمنن بها
قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت
لا يؤمنون ﴿١٠٩﴾ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم(٥) كما لم

المفردات : . ﴿بصائر﴾ : جمع بصيرة وهى للقلب كالبصر للعين، والمراد بها هنا القرآن وما فيه من حجج واضحة.

﴿أبصر﴾ : أى تأمل بعين البصيرة، يقال أبصر الرجل إذا خرج من ظلمة الكفر والمعصية إلى بصيرة الإيمان والطاعة انظر الآية (٢٠١) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥، والآية (٢١) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣.

﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ : المراد لم يكلفنى ربى بحفظ أعمالكم وإحصائها.

﴿نصرف الآيات﴾ : أى ننوع الأدلة على وجوه شتى كما تقدم فى الآية (٤٦) من هذه الآية صفحة ١٦٩، انظر الآية (٤١) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٩، ٣٧٠.

﴿درست﴾ : أصل معنى الدرس تكرار معالجة الفعل حتى يصل لغايته، يريدون أنك أخذت هذا القرآن عن غيرك من علماء أهل الكتاب انظر آيات (١٠٣) من سورة النحل صفحة ٣٦٠، و (٤، ٥) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠، ٤٧١.

---

(١) الآيات

(٢) جعلناك

(٣) أيمانهم

(٤) الآيات

(٥) وأبصارهم.

﴿عليهم بوكيل﴾ : ﴿على﴾ بمعنى عن انظر، مثلها فى ﴿على ملك سليمان﴾ آية (١٠٢) من سورة البقرة صفحة ٢٠.

﴿ولا تسبوا﴾ : المراد لا تقولوا كلاما خاليا من فائدة الإرشاد، لا تريدون به إلا مجرد التحضير كما سيأتى بيانه.

﴿الذين يدعون﴾ : المراد بالذين معبودات المشركين، وعَبّر عنهم بلفظ ﴿الذين﴾ الموضوع للذكور العقلاء، تغليبا للعقلاء من معبوداتهم كالملائكة عند العرب، والمسيح عند النصارى والعزير عند اليهود انظر الآية (٣٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥: نقول تغليبا لهؤلاء على الأصنام، والتغليب فى كلام العرب كثير ومنه فى القرآن غير ما هنا ﴿فكان أبواه مؤمنين﴾ آية (٨٠) من سورة الكهف صفحة ٣٩٢.

و ﴿يدعون﴾ أى يدعونهم لينفعوهم. ﴿من دون الله﴾ المراد معرضين عن الله. ﴿عدوا﴾ : أى بُعدا وتجاوزًا حدود الحق إلى الباطل.

﴿زينا لكل أمة.. إلخ﴾ : المراد أنهم لكثرة جرائمهم خلينا بينهم وبين تزيين الشياطين ولم نحفظهم من تسلطه عليهم ليزدادوا إثما فيزداد عذابهم، ونظير هذا قوله تعالى عن فرعون ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم﴾ آية (٤٠) من سورة القصص صفحة ٥١٢ فالمراد تركناهم ليغرقوا ولم ننقذهم انظر آية (٥) من سورة الصف صفحة ٧٣٨. ﴿جهد أيمانهم﴾: المراد بالغين منتهى اجتهادهم فى تأكيد أيمانهم. ﴿آية﴾ : يريدون بها معجزة دالة على صدق الرسول. ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ : هذه الجملة معطوفة على قوله تعالى ﴿لا يؤمنون﴾. والمعنى وما يشعركم أيضا أننا عند مجىء الآية التى يطلبونها نقلب قلوبهم بالهواجس والتأويلات الباطلة، والتفكير فى اختراع احتمالات يجادلون بها، ونقلب أبصارهم فى توهم خيالات كما هو شأنهم دائما من عدم الإذعان عند توارد الآيات عليهم من أول الأمر، كما هو شأن المبطل المعاند فإنه لا يصغى إلى الدليل مهما كان واضحا انظر آيتى (١٤، ١٥) من سورة الحجر صفحتى ٣٣٨، ٣٣٩.

المعنى : . قل أيها النبى لهؤلاء المشركين المحرومين من هداية القرآن : قد جاءكم من خالقكم ومربيكم من الوحى ما هو كالبصائر للقلوب، فمَنْ أبصر الحق فنفع إبصاره عائد على نفسه، ومَنْ أعرض فلم يتدبر فعمى قلبه فوبال إعراضه على نفسه، وما أنا عليكم بحفيظ لأعمالكم، وإنما ذلك لله الذى يحفظها ويجازى عليها، وإنما أنا منذر فقط ومبلغ. ومثل هذا التنويع البديع فى الأدلة تنوع الآيات الدالة على المعانى الجليلة ليهتدى بها المستعدون للإيمان، وليُفْحَم هؤلاء المشركين فلا يجدون مخرجا إلا افتراء الكذب فيقولون عنادًا قد درست يا محمَّد وتعلمت من غيرك وليس هذا الذى تدعى نزوله عليك بوحى وإنما هو شىء تلقيته من أهل الكتاب.

فالمراد أن القرآن هو البودقة التى تظهر طبع ما يعرض عليها فينتفع بها سليم الطبع ويضل الفاسد كما فى الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧ نصرف الآيات للسبب المتقدم ولنبين أسرار القرآن للذين رزقهم الله تعالى العلم الصحيح.

وبعد ما بيَّن سبحانه طوائف الناس بالنسبة للقرآن أمره ﷺ أن يتبع ما يوحى إليه فقال: اتبع ما أوحى إليك من ربك بالعمل به وبيانه للناس لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين فلا تبال بافترائهم عليك، فإن العاقبة لك وللمتقين. ثم أراد سبحانه تسلية رسوله فقال:

ولو شاء الله عدم إشراكهم بأن خلقهم مجبورين على الإيمان كالملائكة ما أشركوا، ولكنه خلقهم مختارين كما تقدم فى الآية (٣٩) صفحة ١٦٨ توضيح ذلك، وما جعلناك أيها النبى عليهم حفيظا أى رقيبا تحفظ عليهم أعمالهم، وما أنت عليهم بوكيل من جهتهم تجلب لهم ما ينفع وتدفع ما يضر ولما كان المؤمنون فى مكة قلة ضعيفة لا تستطيع الدفاع عن نفسها وسط طغيان كفار قريش، أمرهم الله بالحيطة فى مجادلة الكفار ولما قال كفار قريش : يا محمَّد إن لم تنته عن سب آلهتنا لنسبن مَنْ تزعم أنه أرسلك إلينا، فنزل قوله تعالى:

﴿ولا تسبوا .. إلخ﴾ أى ولا تشتموا آلهتهم ولا تذكروهم بقبيح لمجرد التشهير فقط فيحملهم ذلك على سب الله سبحانه بغير علم منهم أنهم يسبون الله متجاوزين حدود اللائق

بإلهه الذى يؤمنون به وبأنه خالقهم انظر آيات (٦١) وما بعدها من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩، والآية (٨٧) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥، وأن آلهتهم تشفع لهم عنده انظر الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨، وأنها تقربهم إليه سبحانه انظر الآية ٣ من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦. رب قائل يقول: كيف ينهانا سبحانه عن ذلك وقد جاء فى القرآن وصف آلهتهم بأنها لا تضر ولا تنفع، وأنها حطب جهنم انظر الآية (٩٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، وأنها لا تستطيع خلق ذبابة وإن يسلبهم الذباب شيئا فلا يستطيعون رده انظر الآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤، نقول إن ما جاء فى القرآن مما ذكر لا يقال له فى العرف إنه سب، لأن السب هو الشتم الذى يقصد به مجرد الإهانة والتحقير، كأن يقول الرجل لآخر أنت ومعبودك تحت حذائى مثلا من كل كلام خلا من وجه الدلالة على الخطأ والإرشاد إلى الصواب أما ما ذكر فى القرآن عن معبوداتهم فإنما المقصود به بيان الحقيقة، والتنفير من الخرافات الباطلة التى لا تستند إلى حجة، ومما يدل على ذلك أن من معبودات بعض قبائل العرب الملائكة انظر الآية (٤٠) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨، ولا يمكن أن القرآن يتعرض للملائكة بسب. كذلك أى مثل هذا التزيين الذى حمل المشركين على ما ذكر غضبا لآلهتهم زينا لكل أمة عملهم من إيمان وكفر وخير وشر تبعا لاستعدادهم، فنسهل لكل ما يقتضيه طبعه كما فى آيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧، ثم فى النهاية يكون مرجعهم إلى ربهم يوم القيامة فينبئهم بما كانوا يعملون ويجازيهم عليه. وأقسم بالله أولئك المشركون جهد أيمانهم مبالغة منهم فى التضليل لتغرير الضعفاء لئن جاءتهم آيه أى معجزة مما اقترحوه من تفجير الأرض ينابيع وإنشاء جنات .. إلخ انظر الآية (٩٠) وما بعدها من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٦، ٣٧٧ ليؤمنن بدين محمد بسبب هذه الاية، قل أيها الرسول لهم: إنما الآيات عند الله، فهو وحده القادر عليها، والمتصرف فيها بحكمته. ولما كان النبى ﷺ وكثير من المؤمنين يتمنون أن يجاب طلب هؤلاء الكفار كما تقدم فى الآية (٧) وما بعدها من هذه السورة صفحة ١٦٢، قال لهم سبحانه:

وما يشعركم أيها المؤمنون أنها إذا جاءت كما يطلبون لا يؤمنون. وقد تقدم أيضا أول هذه السورة ما كان سيحصل منهم لو أجيبوا، وما يشعركم أننا نقلب أفئدتهم عند مجىء الآيات بالخواطر والتأويلات والاحتمالات، ونقلب أبصارهم فى توهم التخيلات فيكونون على حالهم عندما رفضوا الإيمان بالقرآن، انظر آيتى (١٤، ١٥) من سورة الحجر صفحتى ٣٣٨، ٣٣٩.

يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم[1] يعمهون (١١٠)
ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة[2] وكلمهم الموتى وحشرنا
عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله
ولكن أكثرهم يجهلون (١١١) وكذلك جعلنا لكل نبي
عدوا شياطين[3] الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض
زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم
وما يفترون (١١٢) ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون
بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون (١١٣) أفغير الله
أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب[4] مفصلا
والذين آتيناهم[5] الكتاب[6] يعلمون أنه منزل من ربك
بالحق فلا تكونن من الممترين (١١٤) وتمت كلمت[7]
ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته[8] وهو السميع

المفردات : . ﴿ونذرهم﴾ : ونتركهم. ﴿يعمهون﴾ : يترددون من شدة الحيرة ﴿وحشرنا عليهم كل شيء﴾: المراد جمعناه وعرضناه عليهم ﴿قبلا﴾ : جمع قبيل بمعنى صنف ونوع وهو منصوب على أنه حال من ﴿كل شيء﴾ والمعنى عرضناه عليهم حال كونه صنفا بعد صنف إلخ.

﴿عدوا﴾ : العدو ضد الصديق يطلق على المفرد والجمع والذكر والأنثى، انظر آية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٢٨٨ والآية (٧٧) من سورة الشعراء صفحتي ٤٨٤، ٤٨٥؛ ﴿شياطين﴾ : الشيطان اسم لكل متمرد شرير من الإنس والجن. ﴿يوحى﴾ : الإيحاء الإعلام فى خفاء. ﴿زخرف القول﴾ : القول المزخرف فى الظاهر الفاسد الباطن. ﴿ولتصغى﴾ : أى تميل. ﴿وليقترفوا﴾ : أى يرتكبوا من الإثم. ﴿الممترين﴾ : أى الشاكين.

﴿تمت﴾ : أى أنها ستتحقق قطعا حتى كأنها تمت الآن فعلا إنما قلنا ذلك لأن السورة مكية ولم يكن وقتها حرب ولا نصر فهى بشرى له ﷺ وتطمين ﴿كلمة ربك﴾: المراد بها الجملة التى وعد فيها نبيه بالنصر، انظر آيات (٤٠) من سورة الحج صفحة ٤٣٩، و (٤٧) من سورة

---

(١) طغيانهم
(٢) الملائكة
(٣) شياطين
(٤) الكتاب
(٥) آتيناهم
(٦) الكتاب
(٧) كلمة
(٨) لكلماته.

الروم صفحة ٥٣٧، و (٥١) من سورة غافر صفحة ٦٢٤، و (٣٠) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨؛ ﴿صدقًا وعدلاً﴾ : مصدران منصوبان على الحال من ﴿ربك﴾ أى حال كون ربك أيها النبى صادقا فى وعده لك بالنصر وتوعده لعدوك بالخذلان وعادلا فى حكمه فلا يسوى بين المؤمن والفاسق انظر آية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٠٦، ٥٤٧، ويصح أن يكونا حالا من ﴿كلمة﴾ كما سيأتى فى شرح المعنى.

المعنى : . كحالهم أول الأمر وهم كفار، ونتركهم بعد ذلك فى طغيانهم ومجاوزتهم الحد يتحيرون هل هو حق أم سحر، ثم يغلب عليهم الطبع فيقولون أنه سحر، فيحرمون من الانتفاع به، انظر الآيات من (١٨ إلى ٢٥) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦، ثم بيَّن سبحانه ما أشعر قوله ﴿وما يشعركم﴾ إلخ، من أنهم كاذبون فى إيمانهم فقال: ولو أننا نزلنا الملائكة فرأوهم المرة بعد المرة بأعينهم وسمعوا شهادتهم لك أيها النبى بالرسالة كما اقترحوا فى الآيات (٧) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨ و (٩٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، و (٢١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣، وكلمهم الموتى منهم بأننا أحييناهم لنقيم الدليل على صدق ما جئت به من أن الميت سيبعث كما اقترحوا فى الآية (٣٦) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨، والآية (٢٥) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣، وجمعنا لهم كل شىء من الآيات وعرضنا عليهم ما طلبوه ومالم يطلبوه قبيلا بعد قبيل وصنفا بعد صنف، ما كانوا ليؤمنوا لأنهم لا ينظرون إلى الأدلة نظر اعتبار، وإنما ينظرون إليها نظر ريبة وحذر، فأقل هاجس يصرفهم عنها إلى ما تعودوا ووجدوا عليه آباءهم إلا أن يشاء الله إيمانهم قهرا كما تقدم فى الآية (٣٩) من هذه السورة صفحة ١٦٨ . هذا فى الحقيقة حالهم، ولكن أكثر المؤمنين الذين يتمنون إجابة طلبهم بإنزال ما اقترحوا يجهلون هذه الحقيقة. ثم شرع سبحانه فى تسلية رسوله ﷺ ببيان أن هذا هو شأن الكفار فى كل أمة مع كل نبى فقال: وكذلك جعلنا أى كما جعلنا هؤلاء أعداء لك جعلنا لكل نبى قبلك أعداء هم شياطين الإنس والجن، يتمردون ويتكبرون عن قبول الحق، يوسوس بعضهم إلى بعض القول المزيف لأجل التغرير بالبسطاء، انظر تزيين إبليس لآدم فى آيتى (٢٠، ٢١) من سورة الأعراف صفحة ١٩٤.

ولو شاء ربك عدم الإيحاء ما فعلوه، ولكنه لم يشأ أن يغير نظام الدنيا كما تقدم فى الآية (٣٩) من هذه السورة صفحة ١٦٨. وإذا كان الأمر كذلك فذرهم أيها النبى وما يفترون ويكذبون من الكيد لك ليصرفوا الناس عنك، يوحى بعضهم إلى بعض القول الباطل ليغروا البسطاء، ولتصغى إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة لموافقته لأهوائهم. وليرضوه من غير بحث عن صحته، وليقترفوا بسببه ما هم مقترفون من المعاصى. وبعد كل هذا أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم مبكتا: أفغير الله، أى أيصح أن أعدل عن الحق فأطلب حكما غير الله يحكم بينى وبينكم، ويبين المحق منا من المبطل، والحال أنه سبحانه هو الذى أنزل إليكم القرآن مفصلا فيه كل ما يحتاج إليه المكلف فلا حاجة لحكم غيره. ثم بيَّن سبحانه أحقية الكتاب بأن يكون حكما بشهادة علماء لهم خبرة بالكتب السماوية فقال: والذين آتيناهم الكتاب وهم اليهود والنصارى يعلمون أن القرآن منزل من ربك مقترنا بالحق فليرجع إليهم الشاكون. وعلماء أهل الكتاب يقر بعضهم بلسانه بهذا الحق، وبعضهم بقلبه ويعاند حسدا كما فى الآية (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨. فلا كونن أيها السامع بعد ذلك من الشاكين فى أن أهل الكتاب يعرفون ذلك. ثم طمأن سبحانه نبيه بقوله: وتمت أى تحققت كلمة ربك التى وعدك فيها بالنصر حال كونها صادقة عادلة فى حكمها لا يستطيع أحد أن يبدل ويغير وعد ربك فلابد من تحققها وهو السميع لكل ما زخرفوا به وضللوا، انظر كلمات الله تعالى فى وعد أنبيائه فى آيتى (٩٥) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤، و (٥١) من سورة غافر صفحة ٦٢٤.

المفردات :. ﴿إن يتبعون﴾ : إن حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾ أى ما يتبعون.

وكذلك يقال فى ﴿إن﴾ فى ﴿إن هم إلا ... إلخ﴾ أى ماهم متبعون شيئا إلا الظن.. إلخ.

﴿يخرصون﴾ : الخرص بفتح فسكون قول الشخص غير المتيقن لما يقول، فهو التخمين الذى لا سند له. ﴿ومالكم ألا تأكلوا﴾ : ﴿ما﴾ اسم استفهام مشرب معنى التنفير من عدم الأكل، يقول العربى: مالك يافلان ألا تفعل كذا، يريد أى شىء ثبت لك من الفائدة فى عدم فعل كذا. والمعنى المراد هنا.. أى فائدة لكم فى عدم الأكل مما ذكر اسم الله عليه. والمراد لا فائدة لكم فى عدم الأكل منه مطلقا. ﴿وذروا﴾ : أى واتركوا.

ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ
إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ[1] مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا
ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا
مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ
عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ[2] ٱلْإِثْمِ
وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟
يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ
وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ[3] لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ
لِيُجَٰدِلُوكُمْ[4] ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

﴿ظاهر الإثم﴾ : هو الذى يفعل علنا.

﴿وباطنه﴾ : هو أفعال القلوب كالحسد ونية السوء، انظر الآية (٥١) من هذه السورة صفحة ١٨٩. ﴿يقترفون﴾ : أى يرتكبون من الذنب.

المعنى :. وهو العليم بمقاصدهم وسيجازيهم عليها. ثم أراد سبحانه أن يبين لنبيه أن أهل الضلال هم الكثرة فى كل الأمم ليطمئن ولا يجزع فقال: وإن تطع أيها النبى أنت ومَنْ معك من المؤمنين أكثر مَنْ فى الأرض المراد وإن تطع ولو واحدًا من هذه الكثرة الغالبة بأن تخالف ما شرعه الله لك يضلوك عن سبيل الله لأنهم ضالون متبعون وسوسة الشيطان فلذلك لا يؤمنون أبدا، انظر الآية (١٠٣) من سورة يوسف صفحة ٢١٨ فما يتبع هؤلاء الكثيرون إلا الظن الباطل، والظن لا يغنى من الحق شيئا، وماهم إلا يكذبون فيما يقولون بلا سند ولو كانوا مخلصين لبحثوا. إن ربك وحده هو أعلم بمَنْ يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين. فاتبع أوامره ولا تطع الكثرة المبطلة. ثم رتب سبحانه على النهى عن اتباع المضلين الذين من جملة إضلالهم تحريم الحلال وتحليل الحرام بيان بعض ذلك فقال: فكلوا مما ذكر اسم الله عليه دون غيره مما سيأتى بيانه بعد آيتين إن كنتم بآياته المبينة للحق مؤمنين. وما لكم ألا تأكلوا إلخ أى لا فائدة لكم فى ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه، بل فيه ضرر عليكم حيث حرمتم ما أحل الله طاعة لوسوسة الشياطين كما سيأتى فى الآية التالية، والحال أنه سبحانه قد فصل وبيَّن لكم ما حرم عليكم فى الآية (١٤٥) الآتية من هذه السورة صفحتى ١٨٧، ١٨٨، والآية (١١٥) من سورة النحل صفحة ٣٦٢، وليس منه ما ذكر اسم الله عليه. حرم عليكم ما سيأتى بيانه إلا ما دعتكم إليه ضرورة كما تقدم تفصيل ذلك فى أول سورة المائدة. وإن كثيرا من الناس ليضلون غيرهم بتحسين المعاصى بأهوائهم وشهواتهم بغير علم مأخوذ من وحى صادق.

إن ربك وحده هو أعلم منك ومن جميع الخلق بالمعتدين الذين تجاوزوا ما أحله الله إلى ما

---

(١) بآياته (٢) ظاهر (٣) الشياطين (٤) ليجادلوكم

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ(١) وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ
فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ(٢) لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ
كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ(٣) مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ(٤) مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا
يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ
ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ
ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟
صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾
فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ(٥) ۖ وَمَن
يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا
يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ(٦) رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ

حرمه. واتركوا أيها المؤمنون الإثم الظاهر والباطن ومنه الحسد والكبر؛ إن الذين يكسبون الإثم ظاهرا أو باطنا سيلقون جزاء معصيتهم التى كانوا مستمرين عليها. ثم صرح بما فهم ضمنا مما تقدم فقال: ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح والحال أنه فسق، لأنه أهل لغير الله به كما صرح بذلك فى الآية (١٤٥) الآتية صفحتى ١٨٧، ١٨٨. وإن الشياطين من الإنس والجن ليوحون إلى أوليائهم من المشركين زخرف القول من الشبهات ليجادلوكم به تلقينا عنهم. قال عكرمة أوحى بعض مجوس الفرس إلى صناديد مشركى قريش أن يقولوا للنبى ﷺ إنك تزعم أنك تتبع أمر الله فلماذا لا تأكل مما ذبحه الله وتأكل مما يذبحه البشر؟ ويريدون بما ذبحه الله الميتة. وإن أطعمتموهم واستحللتم أكل الميتة وبالأولى ما أهل لغير الله إنكم لمشركون مثلهم.

المفردات : . ﴿أو مَنْ كان ميتا.. إلخ﴾ الهمزة للاستفهام المفيد للنفى داخلة على جملة مقدرة فى الكلام معلومة من السياق، تحتوى على مشبه ومشبه به، كالجملة، المذكورة بعدها، و ﴿مَنْ كان ميتا﴾ جملة مركبة من مبتدأ وهو ﴿مَنْ﴾ اسم موصول، وخبر وهو قوله ﴿كمَنْ مثله فى الظلمات... إلخ﴾ وهذه الجملة الثانية معطوفة بالواو على الجملة المقدرة، وتقدير الكلام هل أنتم أيها المؤمنون كأولياء الشياطين الذين يجادلونكم بباطل من القول مزخرف يوحيه إليهم شياطينهم، والمراد لا يمكن أن تكونوا مثلهم أبدًا انظر ذلك واضحًا فى الآية (٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠ ثم جاء بالدليل على صدق مضمون الجملة الأولى فقال: كما لا يستوى مَنْ كان ميتا بالكفر فأحياه الله بالإيمان.. إلخ بمَنْ مثله فى الظلمات.. إلخ أى لا يمكن أن يكونا متساويين.

﴿ميتا﴾: قال ابن عباس : المراد بالميت هنا الكافر الضال، لأنه كالميت لا يستطيع عمل

---

(١) فأحييناه (٢) الظلمات (٣) للكافرين (٤) أكابر (٥) للإسلام (٦) صراط.

خير لنفسه. ﴿فأحييناه﴾: المراد أنقذناه من الكفر بالإيمان الذى هو حياة للقلوب. ﴿نورًا﴾ : أى قرآنا ينير الطريق المستقيم. انظر الآية (٨) من سورة التغابن صفحة ٧٤٦. ﴿يمشى به فى الناس﴾ : أى يمشى بسببه بين الناس آمنا من جهنم.

﴿مَثَله﴾ : أى صفته العجيبة، وهو مبتدأ خبره قوله ﴿فى الظلمات﴾ والمعنى كمَنْ صفته أنه تائه فى الظلمات إلخ. ﴿فى الظلمات﴾ : المراد بها هنا الكفر والضلال. ﴿جعلنا﴾ : أى صيرنا. ﴿فى كل قرية﴾ : أى من القرى التى عتت عن أمر ربها وأردنا إراحة الخلق من إفسادها انظر آيتى (٨، ٩) من سورة الطلاق صفحة ٧٥٠، والقرية هنا هى المدينة الجامعة لكثير من الناس يقيم فيها أرباب النفوذ وأولو الأمر انظر الآية (٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦.

﴿أكابر﴾ : قال ابن جرير : أكابر جمع كبير، يقول العربى الأكابر والأصاغر، والأكابر هم أرباب النفوذ المسموعو الكلمة وهى مفعول ثان لجعلنا، والمفعول الأول هو ﴿مجرميها﴾ أى صيرنا فى كل قرية مجرميها هم أكابرها، والمجرم هو كل مَنْ يفعل ما فيه إفساد فى الأرض وإضرار بالخلق. ﴿صغار عند الله﴾ : أى ذل وهوان. ﴿فمن يرد الله أن يهديه﴾ : لاستحقاقه الهداية انظر الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ٦٦٨. ﴿يشرح صدره للإسلام﴾ : المراد يسهله وينشطه له، لأنه يشعر فى قلبه نورًا يقوده إلى السلامة، قال تعالى ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ الآية (٢٢) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩ وقال تعالى ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم﴾ الآية ٧ من سورة الحجرات صفحة ٦٨٥. قال ابن جرير: سأل جماعة النبى ﷺ وكيف يشرح الله صدر الرجل للإسلام؟ فقال: نور يقذفه فيه ينشرح له صدره وينفسح، قالوا: فهل لذلك إمارة يعرف بها؟ قال ﷺ: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقائه.. ﴿ومَنْ يرد أن يضله﴾: لاستحقاقه الإضلال انظر الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٢٦، ٢٧.

﴿ضيقًا﴾ : أى لا يتسع لشىء من الهدى، ولا يصل إليه شىء من الإيمان. ﴿حرجا﴾ : قال صاحب المنار : أصله مصدر لفعل ﴿حرج﴾ بوزن تعب، يقال حرج الرجل حرجا إذا اشتد به

الضيق، وأريد بالمصدر هنا اسم الفاعل، أى شديد الضيق، فهو تأكيد لما قبله. ﴿يَصَّعَّد﴾ : أصله يتصعد، أى يتكلف الصعود ويحاوله بمشقة، قال صاحب الأساس: يقول العربى صَعِد فلان السلّمَ، وصعد إلى السطح، وصعد فى السلم وفى السماء، وتَصَعَّد فى الجبل وتصاعد، أى تكلف الصعود. ﴿فى السماء﴾ : قال الراغب : سماء كل شيء أعلاه، انظر الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥، المراد يصعد إلى جهة أعلى منه. ﴿الرجس﴾ : المراد به هنا العذاب بالخذلان فى الدنيا، ونار جهنم فى الآخرة، انظر الآية (٩٠) من سورة المائدة صفحة ١٥٥.

المعنى : . وبعد ما بيّن سبحانه أن المؤمن على هدى والكافر فى ضلال، ضرب مثلا يبين الفرق بين المؤمنين المهتدين، والكافرين الضالين، لينفر المؤمنين من طاعة الكافرين، ويحذرهم من غوايتهم، ويبين لهم أيضا أن سبب ضلال الكافرين تزيين الشياطين لهم ذلك حتى أصبحوا لا يميزون بين النور والظلمة فقال: ﴿أو مَنْ كان ميتا ... إلخ﴾ أى هل أنتم أيها المؤمنون كأولياء الشياطين؟ كلا، كما أنه لا يستوى مَنْ كان ميتا بالكفر والجهل فأحييناه بالإيمان وجعلنا له نورًا يعيش بضوء هدايته. والمراد أنه أحاطت به ظلمات الجهل والتقليد وفساد الفطرة حتى أمسى لا يستطيع الخروج منها، أى لا يمكن أن تكونوا مثلهم، كما لا يمكن أن يكون السائر فى النور كالخابط فى الظلمات. كذلك، أى مثل هذا التزيين الذى تضمنه المثل السابق، وهو تزيين نور الهداية لمَنْ أحياه الله بالإيمان وتزيين ظلمات الكفر لموتى القلوب، مثل هذا التزيين زين للذين كفروا من قريش ما كانوا يعملون من الجرائم، والمزين لهم هذا هو الشيطان، انظر آية (٤٣) المتقدمة من هذه السورة صفحة ١٦٨ وآية (٣٩) من سورة الحجر صفحتى ٣٤٠، ٣٤١؛ أما المؤمنون فالمزين لهم بالإيمان هو الله تعالى انظر الآية (٧) من سورة الحجرات صفحة ٦٨٥، واكتفى بذكر المشركين فى التزيين الأخير دون المؤمنين لأن المقام فى بيان جرائمهم.

﴿وكذلك جعلنا فى كل قرية .. إلخ﴾ أى كما جعلنا فى مكة مجرميها هم أكابرها وأصحاب الكلمة فيها جعلنا فى كل قرية من قرى الأممِ السابقة التى أردنا إهلاكها أكابرها مجرميها ليمكروا فيها والمراد تسليته ﷺ لئلا يحزن على هلاك قومه بمحاربتهم له، وما يعود ضرر مكرهم فى الآخرة بالعذاب وفى الدنيا بالخزى إلا عليهم انظر آيات (٥٠ إلى ٥٣) من سورة

النمل صفحة ٥٠٠، وانظر الآية (٤٣) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨ ومن جرائم مشركى مكة أنهم إذا جاءتهم آية دالة على صدقه ﷺ قالوا لن نؤمن بما تقول يا محمَّد حتى يوحى الله إلينا، ويأتينا جبريل كما يأتى الرسل انظر آية (٥٢) من سورة المدثر صفحة ٧٧٨. فرد الله عليهم بقوله: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ أى هو وحده سبحانه الذى يعلم الشخص الذى يصح أن يكون محلا لرسالته لمزايا فيه وليست فى واحد منكم غير محمَّد. ثم توعدهم بأن عاقبة مكرهم ستكون عليهم فقال:

سيصيب الذى أجرموا صغار عند الله ومهانة وعذاب شديد بسبب دوام مكرهم انظر الآية (٢٦) من سورة الزمر صفحة ٦١٠، والآية (١٦) من سورة فصلت صفحتى ٦٣١، ٦٣٢ فمَنْ يرد الله أن يهديه لاستحقاقه الهداية انظر الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، فإنه سبحانه يمنحه من ثمرات الهداية شرح صدره للإسلام. وهذا من زيادة الهداية المشار إليها فى الآيات (١٧) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨ من سورة النساء صفحتى ١١١، ١١٢. فهدايته تعالى للعبد هى إمداده لما فى استعداده وتيسيره له انظر آيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧، ومَنْ يرد أن يضله لاستحقاقه الإضلال يجعل صدره ضيقا شديد الضيق لا يتسع لقبول شىء جديد عليه، مخالف لما غرق فيه من تقليد الآباء، أو حب الرياسة، فيرى نفسه أولى بالرياسة ممَنْ يرشده إلى الصواب، انظر الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠، ويكون استثقاله لإجابة الدعوة، وشعوره بالنفور منها كشعوره بالعجز عن الصعود بجسمه فى جو السماء، قال ابن جرير : هذا مثل ضربه الله لقلب الكافر فى شدة ضيقه عن وصول الإيمان كمثل امتناعه عن صعود السماء والمراد أن الكافر المعاند العاجز عن التغلب على خصمه يجد صدره شديد الضيق لايتسع للحق لأنه يزلزل كبرياءه، ولا يستطيع الخلاص من خصمه لأنه فوق طاقته انظر الآية (٣١) من سورة الحج صفحتى ٤٣٧، ٤٣٨ كذلك أى كجعل الصدر ضيقا يجعل الرجس على الذين لا يؤمنون.

ثم وجه سبحانه الخطاب له ﷺ فقال: وهذا أى ما فى القرآن من الأحكام هو الطريق الموصل لرضا ربك حال كونه مستقيما لا عوج فيه.

(الجزء الثامن) ١٨٤

قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ(١) لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ * لَهُمْ دَارُ
السَّلَامِ(٢) عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾
وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ(٣) الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ
الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا
بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ(٤)
خَالِدِينَ(٥) فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾
وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ(٦) بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾
يَا مَعْشَرَ(٧) الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ
عَلَيْكُمْ آيَاتِي(٨) وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا
عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ(٩) الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ
أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ(١٠) ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ
الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ(١١) ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ(١٢)

المفردات :. ﴿دار السلام﴾ : هى الجنة لأنها دار أمان من كل مكروه.

﴿يا معشر﴾ : المعشر الجماعة المختلطون فى العشرة، المراد هنا الأشرار من الجن.

﴿مثواكم﴾ : أى محل إقامتكم.

﴿إلا ما شاء الله﴾ : المراد خالدين فى النار الملتهبة التى وقودها الناس والحجارة فى جميع الأزمنة إلا فى وقت خروجهم منها إلى الزمهرير التى تقطع شدة برودته أوصالهم، وخروجهم إلى الحميم إذا اشتد بهم العطش انظر آيتى (٤٣، ٤٤) من سورة الرحمن صفحة ٧١١ فالآيتان تدلان أن الكفار يترددون بين جهنم والحميم.

﴿رسل منكم﴾ : المراد من جملتكم، لأن الرسل كلهم من الإنس انظر الآيات من (٢٩) إلى (٣٢) صفحتى ٦٧٠، ٦٧١.

المعنى :. قد بينا الآيات ونوعناها حسب استعداد كل الطوائف لينتفع الذين يتذكرون ويعتبرون فتكون لهم دار السلام فى كفالة ربهم، وهو سبحانه وليهم، أى محبهم وناصرهم بسبب أعمالهم الصالحة. وبعدما توعد سبحانه الكافرين ووعد المؤمنين بدار السلام شرع يبين ما سيكون قبل ذلك الجزاء من الحشر والحساب وإقامة الحجة فقال: ويوم يحشرهم أى واذكر أيها النبى لأمتك ما سيكون من حشر الثقلين الإنس والجن عندما نقول لأشرار الجن

---

(١) الآيات (٢) السلام (٣) يا معشر (٤) مثواكم (٥) خالدين (٦) الظالمين
(٧) يا معشر (٨) آياتى (٩) الحياة (١٠) كافرين (١١) غافلون (١٢) درجات

قد استكثرتم من إغواء الإنس كما فى الآية (٦٢) من سورة يس صفحة ٥٨٤، وقال مَنْ والى الشياطين من الإنس يا ربنا استمتع بعضنا ببعض، أى استمتع الجن بالإنس حيث جعلوا أنفسهم قادة لهم وأخضعوهم لأوامرهم، فاستمتع الجن بنشوة الرياسة، واستمتع الإنس بالجن حيث دلوهم على الشهوات وزينوا لهم حظوظهم النفسية، وبلغنا أى وصلنا بعد استمتاع بعضنا ببعض إلى الأجل الذى حددته لنا وهو يوم القيامة، وقد اعترفنا بذنوبنا. والمراد إظهار الحسرة والندامة، ولم يذكر هنا رد الشياطين على الإنس اكتفاء بذكره فى الآية (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣، وكان رده سبحانه عليهم أنه قال: النار هى محل إقامتكم فادخلوها خالدين لا تخرجون إلا لحظات إلى حميم يشوى الوجوه، إن ربك حكيم فى الثواب والعقاب لا يضع كلا منهما إلا فى محله عليم بالمستحق لهما. ومثل استمتاع الإنس والجن بعضهم ببعض فى الدنيا لما بينهم من التناسب نولى بعض الظالمين بعضا، أى نجعل بينهم موالاة بسبب ما كانوا يكسبون من الشرور الجامعة بينهما أى فالطيور على أشكالها تقع، انظر الآية (٦٧) من سورة التوبة صفحة ٢٥٢، والآية (٧١) من نفس السورة صفحة ٢٥٣ ويوم القيامة يقول لهم يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم فى الدنيا رسل من قبلى اخترتهم من جملتكم، يقصون عليكم آياتى التى أوحيتها إليهم، ويحذرونكم شدائد لقاء يومكم هذا، وقالوا مرغمين شهدنا على أنفسنا بأن الرسل جاءونا وقصوا الآيات وأنذرونا وقابلناهم بالتكذيب. ثم بين سبحانه ما دعاهم فى الدنيا إلى هذا الموقف فقال تعالى: وغرتهم الحياة الدنيا بزخارفها، وشهدوا اليوم على أنفسهم أنهم كانوا كافرين. ذلك الذى تقدم من إرسال الرسل إلخ ثابت بسبب أن من شأن ربك أيها النبى أنه لم يكن يهلك أهل القرى بظلم يقع منهم والحال أنهم غافلون أى لا يعلمون ما يجب عليهم، بل لابد أن يبلغهم ذلك رسول أو تابع رسول كالعلماء كما فى آية (١٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، فتنقطع معاذيرهم فلا يقولوا ﴿لولا أرسلت إلينا رسولا﴾ كما فى الآية (١٣٤) من سورة طه صفحة ٤١٣. ولكل من المكلفين من الإنس والجن درجات ومراتب فى الثواب، انظر الآيات من (١٠ إلى ١٤) من سورة الواقعة صفحات ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥.

مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ
الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم
مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ
مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَا قَوْمِ
اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن
تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾
وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا
هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ
فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ
قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ
دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿بمعجزين﴾.. الباء لتأكيد نفى ما بعدها عما قبلها و ﴿معجزين﴾ أى موقعين الله سبحانه فى العجز حتى تفلتوا من عقابه انظر الآية (١٢) من سورة الجن صفحة ٧٧١ .

﴿على مكانتكم﴾.. تدور مادة مكان ومكانة فى اللغة على معنى التمكن، والإحساس بالثبات والقوة يقول العرب: مَكُن فلان بفتح الميم والكاف مكانة فهو مكين إذا تمكنَّ أبلغ تمكن، قال الزجّاج ﴿مكانتكم﴾.. أى تمكينكم فى الدنيا. ومنه قول العرب:

إن بنى فلان ذوو مَكِنَة من القوة بفتح الميم والنون بينهما كاف مكسورة يريدون أنهم أصحاب تمكن وحاصل المعنى تهديدهم بأن يعملوا إلى آخر ما فى طاقتهم وأقصى ما يمكنهم فلن يصلوا إلى ما يريدون. ﴿عاقبة الدار﴾.. أى العاقبة الحسنى لدار الدنيا، وهذه العاقبة هى الجنة ونعيمها. ﴿ذرأ﴾.. أى خلق وكثّر انظر الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢. ﴿من الحرث﴾.. أى الزرع. ﴿الأنعام﴾.. الإبل والبقر والغنم. ﴿لشركائنا﴾.. المراد المعبودات التى جعلناها شركاء لله نتقرب إليهم بالنذور، والقربات، ليكونوا وسيلتنا عند الله بالشفاعة ليقربونا إليه انظر الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨ والآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦. ﴿ساء﴾..

---

(١) بغافل
(٢) لآت
(٣) يا قوم
(٤) عاقبة
(٥) الظالمون
(٦) والأنعام
(٧) أولادهم.

قبح. ﴿ليردوهم﴾.. يوقعوهم فى الردى وهو الهلاك.﴿وليلبسوا عليهم﴾.. أى وليخلطوا عليهم. ﴿دينهم﴾.. المراد به ما بقى لديهم من دين إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿فذرهم﴾.. أى اتركهم.

المعنى : . لكل عامل منزلة بقدر عمله تتفاوت بتفاوته، وما ربك بغافل عما يعمل كل عامل، فلا يخطئ فى تقدير الجزاء وربك هو الغنى فليس محتاجا إلى العباد ولا إلى عبادتهم وإنما هى لمصلحتهم، صاحب الرحمة الواسعة ومنها تكليفهم بما فيه مصلحتهم، فإرسال الرسل ليس لنفعه سبحانه بل هو رحمة للناس. إن يشأ يذهبكم أيها العصاة أو الناس جميعا بالهلاك لأن النقمة تعم كما فى الآية (٢٥) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٠، ويستخلف فى الأرض من بعد إهلاككم ما يشاء من الخلق مؤمنين، كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين لم يكونوا عصاة مثلكم وهو المؤمنون، وهم الذين كانوا مع نوح فى السفينة. إن الذى توعدون به من البعث والحساب وتفاوت الجزاء لواقع كما فى الآيات (٥، ٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٢، و (٧، ٨) من سورة الطور صفحة ٦٩٧؛ ولستم معجزين القادر القاهر فيما يريد. وقل لهم أيها النبى لتشديد التهديد: يا قوم اعملوا ما فى استطاعتكم إنى عامل وثابت على إسلامى، فسوف تعلمون الفريق الذى تكون له العاقبة الحسنى التى خلق الله لها هذه الدار الدنيا لتكون وسيلة إليها بما فيها من العمل الصالح لأن الشأن فى عدل الله عز وجل آلا يسوى بين الكافر والمؤمن وبعد هذه المحاجة شرع سبحانه فى بيان بعض أعمالهم التى أشركوا بسببها فى الحرث والأنعام وقتل الأولاد طاعة لشياطينهم إلى غير ذلك:

﴿وجعلوا لله مما ذرأ..﴾ إلخ؛ وبيانه أن مشركى قريش كانوا يعينون جزءًا من ثمرات الزرع ونتاج الأنعام لله يصرفونها للضيفان والمساكين، وجزءا منها لآلهتهم ينفقونه لخدامها ويذبحونه عندها، فإذا زاد ما جعلوه لله عن المعتاد جعلوا ما زاد للآلهة، وإذا زاد ما للآلهة تركوه لخدامها قائلين إن الله غنى ليس فى حاجة لشىء من نصيب الآلهة. فأصل نظم الكلام كما يفهم من السياق وجعلوا لله إلخ، ولشركائهم أيضا نصيبا وإنما لم يذكر نصيب الشركاء لأنه أمر محقق عندهم واكتفى بالإشارة إليه فى قوله:

فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، فشركاؤهم هى الأصنام لأنهم جعلوا لهم نصيبا من أموالهم، فما عينوه لشركائهم لا يصرف منه شيء فى الوجوه التى يصرف فيها ما عينوه لله، وما كان لله يصرف لآلهتهم، ساء ما يحكمون من ترجيح مخلوق عاجز على خالق قادر. فاحذر أيها المؤمن أن تتسرب هذه الشناعة إليك من حيث لا تشعر. ومثل تزيين الشرك فى قسمة الحرث والأنعام زين لكثير من مشركى العرب شركاؤهم من شياطين الإنس والجن قتل أولادهم، وكان تزيينهم وتحسينهم يختلف باختلاف نوع الولد، فإذا كان أنثى زينوا لهم التخلص منها لأنها قد تجلب العار إذا وقعت أسيره أو تزوجت غير كفء، وإذا كان ذكرا زينوا لوالده تقديمه قربانا للأصنام، ففى ذلك خير للولد لأنه يصير محسوب الآلهة ولأبيه ليباركوا رزقه ويشفعوا له عند الله، وإذا كان الوالد فقيرا زينوا له التخلص من ولده ذكرا أو أنثى ليخلصه من ذل الفقر كما فى الآية (١٥١) من هذه السورة صفحة ١٨٩، والآية (٣١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨.

زينوا لهم ذلك ليوقعوهم فى الردى، وليخلطوا عليهم ما كان عندهم من بقية دين إبراهيم بالوثنية ليبعدوهم عن هذه البقية. ولو شاء ربك عدم وقوع هذا منهم ما فعلوه، وقد تقدم بيان مشيئته تعالى فى الآية (١٢٥) من هذه السورة صفحة ١٨٣ وإذا كان الأمر كذلك فدعهم وافتراءهم فسيندمون وقت لا ينفعهم ندم. فالكلام تهديد لعلهم يتنبهون.

المفردات :. ﴿حجر﴾ : بمعنى محجور كذبح بمعنى مذبوح، انظر آية (١٠٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٣، يستوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير.

﴿لا يطعمها﴾ : لا يذوقها.

﴿وصفهم﴾ : المراد كذبهم على الله فى التحليل والتحريم، وهو من قبيل قولهم وصفت عينه السحر وكلامه الكذب، أى ثبت له ذلك على أتم وجه، انظر آية ٦٢ من سورة النحل صفحة ﴿٣٥٣﴾.

﴿سفها﴾ : السفه خفة العقل كما تقدم فى آية (١٣) من سورة البقرة صفحة (٤) وما اقبحه إذا انضم إليه الجهل. ﴿معروشات﴾ : هى من الكرم ما يحمل على عيدان كهيئة العريشة.

وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ
بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ
اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾
وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ
عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ
وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا
أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً
عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ * وَهُوَ الَّذِي
أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ
مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ
كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ
وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ

﴿أكله﴾ : ثمـــره الذى يؤكل، انظر الآية (٢٥) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣.

ويفسـر الإنشـاء والأكل آيتا (٣٤، ٣٥) من سورة يس صفحة ٥٨٢ .

المعنى : . بعدما تقدم ذكر سبحانه جملة من جرائمهم مقترنة متجاورة ليعطى السامع صورة بشعة لجرأتهم على الله فقال: وقالوا أى مشركو قريش هذه الأشياء التى جعلناها للآلهة أنعام وحرث محجورة وممنوع تناولها لا يأكل منها إلا مَنْ نشاء من خدام الأصنام، قـالوا هذا زعـمـا منهم أن الله أذن لهم فى ذلك، انظر الآية (٥٩) من سورة يونس صفحة ٢٧٥. وقالوا هذه أنعام حرمت ظهورها فلا تركب ولا يحمل عليها وهى السائبة وما بعدها المذكورة فى الآية (١٠٣) من سورة المائدة صفحة ١٥٧، وهذه أنعام لا يذكر اسم الله عليها حال ذبحها بل يذكر اسم أصنامهم قالوا كل هذا افتراء عليه سبحانه، وذلك أن التحليل والتحريم لا يكونان إلا من الله، فإذا حرموا وحللوا من عند أنفسهم أوهموا أتباعهم أن هذا بإذن الله وسيجزيهم الله بسبب استمرارهم على الافتراء أشد الجزاء. ومن أنواع كفرهم أنهم قالوا ما فى بطون البحائر والسوائب المتقدم ذكرها فى سورة المائدة خالصة أى خاصة وحلال لهم لا تشاركهم النساء، وهذا هو المقصود من قولهم ومحرم على أزواجنا أى نسائنا هذا إذا ولد حيا، وإن يكن ما فى بطونها ميتة أى ولد ميتا فالذكور والإناث شركاء فيه يأكلون منه وهذا من جفاء الطبع فى حق النساء الضعيفات.

---

(١) أنعام (٢، ٣) وأنعام (٤) الأنعام (٥) أزواجنا (٦) أولادهم (٧) جنات
(٨، ٩) معروشات (١٠) متشابها (١١) متشابه (١٢) وآتوا (١٣) الأنعام.

سيخزيهم الله وصفهم الكذب أو كذبهم البالغ نهاية القبح، لأنه حكيم لا يسوى بين الكافر والمؤمن، عليم بكل ما يفعلون فلا يظلم. ثم جمع سبحانه ما ينكر على العرب المشركين فى أمرين عظيمين فقال:

قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم كل خير وحرموا ما رزقهم الله تعالى مما ذكر فى الآية (١٠٣) من سورة المائدة صفحة ١٥٧ وغيرها افتراء على الله، قد ضلوا بهذا العمل أى زاد ضلالهم بدليل قوله وما كانوا فى الأصل مهتدين فالضلال عندهم قديما وحديثا. قال ابن عباس: إذا أردت أن تعرف جهل العرب فاقرأ هذه الآية. ثم رجع سبحانه إلى ماهو المقصود الأصلى من السورة وهو إقامة أدلة التوحيد، ومحاربة الشرك فى كل مظاهره، ومن أبشع مظاهره تحريم ما أحل الله وبالعكس، فذكر فى ذلك عشر آيات قدم لها بالإشارة إلى فضله سبحانه عليهم بالأنعام وما تنبت الأرض ومع ذلك يتصرفون فيها بما يغضبه فقال: وهو الذى أنشأ وأوجد جنات معروشات وغير معروشات بأن تقوم على سوقها، وأنشأ النخل والزرع مما فى الجنات مختلفا ثمره فى شكله ولونه وطعمه وريحه، وأنشأ الزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كذلك، كلوا يا عبادى من ثمر كل هذه المذكورات إن كانت مما يثمر ويؤكل ثمره وكلوا من كل ما ينتج منها من زرع، وآتوا حقه الذى أوجبه الله فيه للفقراء يوم حصاده.

والمراد يوم جمع الزرع وقطع الثمر وقد يشعر هذا أن فى المال حقا غير الزكاة، لأن الزرع يشمل الخُضَر كالفجل والكرنب وغير ذلك مما يطبخ أو يؤكل دون طبخ وليس فى ذلك زكاة عند جمهور الأئمة، وكذا الرمان والعنب قبل صيرورته زبيبًا، ولذا قال كثير من المفسرين أن هذه حقوقًا فى المال غير مقدرة سوى الزكاة لما أخرجه الترمذى والدارقطنى وجماعة عن فاطمة بنت قيس عن رسول الله ﷺ أنه قال ﴿إن فى المال حقا سوى الزكاة ثم قرأ ﴿وهو الذى أنشأ جنات... الآية﴾ ومثل هذا أخرجه البخارى فى تاريخه ويؤيد كل هذا ما ورد فى الحديث الصحيح (لا يؤمن بالله مَنْ بات شبعانا وجاره طاو إلى جنبه) وإجماع العلماء على أنه إذا وصل حال الفقير إلى حاجته إلى طعامه الضرورى الذى يهلك بعدها وجب على الناس أن يعطوه مقدار دفع الضرورة وإن كانوا ممَنْ لا تجب عليهم الزكاة انظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٢، ٣٤، ومَنْ أراد تفصيل كيف فرضت الزكاة ومتى بيَّن مقدارها وكيف كانت أولاً بمكة فليرجع إلى حديث رقم (٢٠١) من كتابنا صفوة البخارى. ولا تسرفوا أى لا يقع منكم إسراف فى صورة ما من صوره، فلا تسرفوا فى الأكل قبل الحصاد حرصا على حق الفقير، ولا فى الإعطاء حرصا على الأولاد من الجوع، ولا فى الأكل والشرب العادى كما فى الآية (٣١) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦، لأن الله تعالى لا يحب المسرفين، وأنشأنا لهم أيضا من الأنعام....

حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات
الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴿١٤٢﴾ ثمانية أزواج من
الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل ءآلذكرين حرم أم
الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئوني
بعلم إن كنتم صادقين ﴿١٤٣﴾ ومن الإبل اثنين ومن البقر
اثنين قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه
أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا
فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير
علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿١٤٤﴾ قل لا أجد
في ما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون
ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا
أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك

المفردات :ـ ﴿حمولة﴾ : هى ما يحمل الناس والمتاع من كبار الإبل.

﴿فرشا﴾ : المراد يتخذ من وبرها وأصوافها وشعرها فرش، انظر الآية (٨٠) من سورة النحل صفحة ٣٥٦.

﴿أزواج﴾ : يطلق الزوج فى اللغة على كل اثنين تقارنا فى شىء، تقول عندى زوج نعل مثلا، ويطلق على كل واحد من القرينين كالذكر والأنثى من الحيوانات المتزاوجة. فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج وللأنثيين زوجان، تقول عندى زوجا حمام تريد ذكرا وأنثى. وهذا الاستعمال هو المراد هنا وإلا كان المذكور أربعة لا ثمانية. ﴿شهداء﴾ :أى شاهدين حاضرين.

﴿رجس﴾ : خبيث تعافه الطباع السليمة.

﴿فسقا﴾ : أى سبب فسق وخروج عن طاعة الله.

﴿ باغ ولا عاد﴾ : تقدم فى الآية (١٧٣) من سورة البقرة صفحة ٣٣ أن الباغى هو الخارج على الإمام بالإفساد فى الأرض، والعادى هو الذى تجاوز حد الضرورة بأن يأكل حتى يشبع.

المعنى :ـ وخلق لكم من الأنعام ما يحملكم ويحمل متاعكم كما فى الآية ٧ من سورة النحل صفحة ٣٤٦، وجعل لكم منها فرشا للبيت، وقلنا لكم كلوا مما رزقكم الله من هذه الأنعام وغيرها، ولا تتبعوا خطوات الشيطان بتحريم ما لم يحرمه الله أو بجعلها للأصنام، إن

---

(١) خطوات (٢) الشيطان (٣) ثمانية (٤) أزواج (٥) آلذكرين (٦) أم ما
(٧) صادقين (٨) آلذكرين (٩) أم ما (١٠) وصاكم (١١) الظالمين

الشيطان لكم عدو ظاهر العداوة، انظر آيتى (١٦٨، ١٦٩) من سورة البقرة صفحة ٣٢، خلق من الأنعام المذكورة ثمانية أزواج، وبيَّن هذه الأزواج ليرتب عليه تبكيتهم وتجهيلهم على تحريم بعضها فقال:

من الضأن اثنين الذكر والأنثى أى الكبش والنعجة، ومن المعز اثنين أى التيس والعنز.

قل لهم أيها النبى آلذكرين من الضأن والمعز حرم الله تعالى أم الأنثيين منهما أم الأجنة التى فى أرحام الأنثيين ذكورا أم إناثا. والاستفهام للإنكار أى لم يحرم الله شيئا منها فأخبرونى بعلم منقول عن واحد من رسل الله إن كنتم صادقين فى دعوى أن الله حرمها. ومن الإبل اثنين الجمل والناقة، ومن البقر اثنين هما الثور والثورة، أما البقرة فهى واحدة البقر تطلق على الذكر والأنثى. قل لهم أيها النبى آلذكرين حرم أم الأنثيين أم ما اشتملت عليه أرحامها أى لا، لم يحرم شيئا كما سبق. فهل كنتم حاضرين حين وصاكم الله بهذا التحريم؟! والكلام تكرير للإفحام والتبكيت، والمعنى لم يكن شىء من هذا بل هو افتراء منكم. ولا أحد أشد ظلما ممن افترى على الله كذبا فنسب إليه تحريم ما لم يحرمه ليضل الناس بغير علم، انظر الآية (٢٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦؛ والمراد تسجيل الجهل العام مع سوء النية، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه وغيره ممَّنْ يتبعه فحرم من الهداية، لأن الله لا يهدى الظالمين.

وبعد ما ألزمهم سبحانه الحجة وبكتهم وهددهم أمر رسوله ﷺ أن يبين لهم ولغيرهم ما حرمه سبحانه دون غيره ومنه يعلم شناعة افترائهم بالزيادة عليه فقال:

قل أيها النبى لا أجد فيما أوحاه الله تعالى إلى طعاما محرما على آكل يأكله من ذكر أو أنثى إلا أن يكون ذلك الطعام ميتة أو دما مسفوحا إلخ، تقدم بيانها فى الآية (٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٥ فإنه أى المذكور من الثلاثة رجس أو يكون الطعام فسقا، وبين سبب كونه فسقا أنه أُهلَّ لغير الله به، والمراد ذكر غير اسم الله تعالى عند ذبحه، وتقدم مثل ذلك فى الآية (١٧٣) من سورة البقرة صفحة ٣٣ والآية (٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٥، فمَنْ ألجأته الضرورة لأكل شىء مما ذكر بشرط أن يكون غير باغ على إمامه بأن يكون مفسدا فى الأرض، ولا عاديا أى متجاوزا حد دفع الضرورة إلى الشبع....

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ
وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ
ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم(١)
بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ(٢) ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ
ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ(٣) وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾
سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا(٤)
وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ
إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ
ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ(٥) فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ(٦) أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ
شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُواْ
فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا(٧)

المفردات: ﴿غفور رحيم﴾ : غفور لعباده الخطأ اليسير فى تحديد المقدار الذى يدفع الضرر. رحيم حيث حرم عليهم ما يضرهم. انظر ما تقدم فى الآية (١٧٣) من سورة البقرة صفحة ٣٣، والآية (٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٥. ﴿الذين هادوا﴾ : معنى هاد رجع، والمراد بهم اليهود، انظر الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧..

﴿الحوايا﴾ : جمع حوية كقضايا وقضية، وهى المباعر جمع مَبْعر بفتح فسكون اسم مكان للبعر. وهى المصران الغليظة التى يكون فيها البعر قبل خروجه ويكون الشحم مختلطا فيه باللحم، ويأكله المصريون محشوا بالأرز والتوابل.

﴿بأسه﴾ : عذابه وانتقامه.

﴿إن تتبعون﴾ : إن . حرف نفى بمعنى ما .

﴿الظن﴾ : المراد به هنا الوهم الذى لا سند له. ﴿إن أنتم﴾ : إن . كسابقتها .

﴿تخرصون﴾ : الخرص التخمين. ﴿هلم﴾ : أى احضروا وهاتوا .

المعنى : . بعد ما بيَّن سبحانه ما حرمه على جميع المكلفين شرع فى بيان ما حرمه على بنى إسرائيل خاصة عقوبة لهم كما تقدم فى آيتى (١٦٠، ١٦١) من سورة النساء صفحة ١٣٠

---

(١) جزيناهم (٢) لصادقون (٣) واسعة
(٤) آباؤنا (٥) البالغة (٦) لهداكم
(٧) بآياتنا .

فقال: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر﴾، قال ابن عباس : هو ماليس منفرج الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط، وحرمنا عليهم من البقر والغنم شحومهما لا لحومهما، إلا الشحم الذى فوق الظهر أو الحوايا أو الشحم الذى اختلط بعظم وهو ألية الضان لاختلاط شحمها بالعصعص. فهذه الثلاثة حلال، فالمحرم غير ذلك هو شحم الكلية، والثرب بالثاء بوزن النَّجْم وهو الشحم الرقيق الذى يكون على الكرش والأمعاء، فالمحرم هو الشحم الذى ينزع بسهولة لعدم اختلاطه بعظم أو لحم. ذلك التحريم جزيناهم به بسبب بغيهم، وتقدم بيان البغى فى الآية (١٦٠) من سورة النساء صفحة ١٢٠، وإنا لصادقون فى كل ما أخبرناك به من تحريم وتحليل وبغى وغير ذلك. فإن كذبك المشركون الذين أرسلت إليهم لتقيم الحجج على الصواب لمحاجتهم فقل لهم ربكم ذو رحمة واسعة لمَنْ رجع إليه كما فى الآية (٨٢) من سورة طه صفحة ٤١٣، أما إذا استمروا على عنادهم فأعلمهم بأنه تعالى لا يرد عذابه عن المجرمين. وبعدما أبطل سبحانه كثيرا من شبهاتهم شرع فى تلقين نبيه ﷺ رد شبهة من أخبث ما ضل بمثلها كثير من الكفار قبلهم، لقنها سبحانه لرسوله قبل أن يقولوها لئلا يفاجأ بها وليس معه جوابها فقال تعالى:

سيقول لك الذين أشركوا إلخ. أى سيقول لك أيها النبى المشركون : لو شاء الله أن لا نشرك به نحن ولا آباؤنا من قبلنا ما أشركنا، ولو شاء أن لا نحرم ما حرمنا شيئا من الحرث والأنعام وغيرها، أى ولكنه شاء أن نشرك وأن نحرم فحرمنا، فوقوع ذلك منا دليل على مشيئته تعالى، يريدون أن يرتبوا على ذلك أنه سبحانه راض بما يعملون، أى فلا دخل لك يا محمد. وقد وقع ما أخبر به تعالى قبل وقوعه انظر الآية (٣٥) من سورة النحل صفحتى ٣٤٩، ٣٥٠، وآيتى (٢٠، ٢١) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩، بل بلغ من تبجحهم أنهم أدعوا أن الله أمرهم بهذا انظر الآية (٢٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦، ومرادهم أن يقولوا إن ما فعلناه حق مشروع لأنه بإرادة الله وكل ما أراده فهو مرضى عنه منه، فهم يقصدون بما قالوا ما يلزمه فى زعمهم وهو رضاه سبحانه عن كل ما يريده.

ولما كان هذا التلازم باطلا لأنه لا يلزم من إرادته تعالى لشىء رضاه عنه، لأن كل ما يقع فى ملكه بإرادته لا جبرا عليه ومع ذلك لا يرضى لعباده الكفر كما فى الآية (٧) صفحتى ٦٠٦،

٦٠٧ وكذلك لا يرضى لهم المعاصى. وإلا ما عذبهم عليها. ولذا رد عليهم بتكذيبهم فى دعوى التلازم بقوله كذلك أى مثل هذا التكذيب بالمغالطة كذب الكفار قبلهم رسلهم عندما قالوا لهم إن الله لا يرضى لعباده الشرك ولا الفحشاء، ولا يأمر ولا يرضى إلا بالإيمان والعدل أما إرادته فتابعة لحكمته تعالى فى النظام الذى ارتضاه لهذه الدار الدنيا، ومن هذا النظام أنه يسهّل لكل مكلف ما يختاره بعد أن يرشده إلى الصواب قال تعالى:

﴿وقل الحق من ربكم فمَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر﴾ انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥ وآيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧. فقولكم إن شركنا مرضى عنه تكذيب لرسولكم، كتكذيب الكفار قبلكم لرسلهم، واستمروا على هذا التكذيب حتى ذاقوا عذابنا. وهذا دليل على كذبهم، لأن الله تعالى لا يعذب على ما يرضيه، وبعد هذا التكذيب المقام عليه الدليل أمر الله تعالى نبيه أن يطالبهم بدليل علمى على زعمهم فقال:

قل لهم هل عندكم من علم فتظهروه لنا؟ والاستفهام للتوبيخ والتعجيز، ولذا أعقبه ببيان حقيقتهم فقال: إن تتبعون إلا الظن، أى ليس عندكم علم بل ظن باطل لا يغنى عن الحق شيئا؛ ولذا قال وإن أنتم أى ما أنتم إلا تخمنون تخمينا لا يستند إلى شىء.

وبعد ما نفى عنهم أدنى مراتب العلم أثبت لنفسه سبحانه الحجة القاطعة: قل أيها النبى لهؤلاء الكفار الذين يبنون أصول دينهم على التخمين: إذا لم يكن عندكم علم فى أمر دينكم فلله وحده الحجة البالغة النهاية فى القوة، فلو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين يجبركم على الاستقامة، فيكون العالم كله ملائكة، ولكنه لم يشأ ذلك للحكمة المتقدمة فى الآية (٣٩) من هذه السورة صفحة ١٦٨. وبعدما نفى عنهم العلم طلب منهم أن يحضروا مَنْ يشهد لهم على صحة ما يزعمون ليثبت أنهم ليسوا على شىء لا من العلم ولا من غيره فقال: قل هلم وهاتوا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم ما حرمتموه. وهذا تعجيز لأنه ليس فى البشر مَنْ يعلم عن الله علما قطعيا كأنه مشاهد إلا الرسل، فإن فرض وأحضروا شهداء وادعوا أنهم قاطعون بما يشهدون فلا تشهد أيها النبى معهم، أى لا تقرهم على كذبهم، ولا تتبع شهواتهم لأنهم مكذبون بآياتنا أى أدلتنا التى بينّاها لهم قاطعة بصدق رسولنا....

وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾
۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ
شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ[1] إِحْسَانًا[2] ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم[3] مِّنْ إِمْلَاقٍ[4]
نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ[5] مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ
ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم[6] بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ
الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ
وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ
ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم[7] بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا
صِرَاطِي[8] مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ
عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم[9] بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

المفردات : . ﴿يعدلون﴾: أى يجعلون له تعالى عُديلا، أى شريكا مماثلا، انظر أول هذه السورة صفحة ١٦٢ والآية (٦٠) من سورة النمل صفحة ٥٠١. ﴿إملاق﴾ : هو الفقر. ﴿ما ظهر منها﴾ : هو ما تفعله الجوارح كالقتل والزنا والسرقة والكذب.

﴿وما بطن﴾: هو أفعال القلوب كالحسد ونية السوء ﴿أشده﴾ : بلوغ الأشد محصور بين البلوغ مبلغ الرجال الذى عنده يكون التكليف، وبين اكتمال القوى الجسمية والعقلية ويكون غالبا بين العشرين والأربعين من عمر الإنسان، فقوله تعالى فى سورة يوسف ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما ... الآية﴾ انظر الآية (٢٢) من سورة يوسف صفحة ٣٠٥ معناه البلوغ مبلغ الرجال. وعنده راودته امرأة العزيز عن نفسه" ومنه قوله تعالى ﴿ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا﴾ انظر الآية (٦٧) من سورة غافر صفحة ٦٢٧ . ويطلق ﴿الأشد﴾ أيضا على بلوغ الإنسان مبلغا يجعله صالحا للتصرفات المالية بأن يكون عاقلا حسن التصريف، وهذه الحالة عبر عنها القرآن بالرشد فقال فى اليتامى ﴿فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم﴾ انظر الآية (٦) من

---

(١) وبالوالدين
(٢) إحسانا
(٣) أولادكم
(٤) إملاق
(٥) الفواحش
(٦، ٧) وصاكم
(٨) صراطى
(٩) وصاكم.

سورة النساء صفحة ٩٨ والآية (٣٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩ والآية (٨٢) من سورة الكهف صفحة ٣٩٢. أما قوله تعالى في شأن نبيه موسى عليه السلام ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما﴾ انظر الآية (١٤) من سورة القصص صفحة ٥٠٨. فإنا نجده سبحانه جمع بين بلوغ الأشد وبين الاستواء فبلوغ الأشد هو بلوغه مبلغ الرجال، واستواؤه هو اكتمال قوته الجسمية والعقلية، ويكون فى العادة بعد العشرين سنة.

وأما قوله ﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾ فهو يريد به أقصى بلوغ الأشد، وذلك يكون عند انتهاء شباب الإنسان، ودخوله فى سن الشيخوخة، وعند هذا المدى بُعث نبينا محمد ﷺ، فيؤخذ من كل ذلك أن بلوغ الأشد محصور المبدأ محصور النهاية، غير محصور ما بينهما.

﴿القسط﴾ : العدل ﴿ولو كان ذا قربى﴾ : الضمير فى ﴿كان﴾ يعود على مفهوم من سياق الكلام والمراد ولو كان المتعلق به القول قريبا لكم، ونظير هذا الضمير تجده فى ﴿عليها﴾ من قوله تعالى ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم، ما ترك عليها من دابة﴾ انظر الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

المعنى : ـ ولا تتبع هؤلاء المكذبين الذين من صفتهم أنهم لا يؤمنون بالآخرة، ويجعلون لربهم شريكا مماثلا وبعدما بين سبحانه ما حرمه وما أحله وحججه البالغة على المشركين، شرع فى بيان أصول المحرمات من الأعمال والأقوال وما يقابلها من أصول الفضائل فقال:

قل أيها النبى لهؤلاء المتبعين فى دينهم لمجرد التخمين والهوى فيما يحلون ويحرمون : تعالوا إلىَّ أقرأ عليكم الكلام الدال على ما حرمه ربكم عليكم، وخص التحريم بالذكر هنا مع أن الوصايا العشر التى سيذكرها فيها خمسة محرمة منهى عنها، وخمسة واجبة مأمور بها، لأن أغلب الكلام فيما سبق كان فيما حرَّموه، فكأنه يقول المحرّم هو ما نهى الله تعالى عنه لا ما حرمتم أنتم، وإلا فأصل الكلام أتل ما حرم وما أوجب. وإذا علمت أن من الأساليب العربية الفصيحة أنْ يقول الرئيس لمرءوسه اسمع ما أمنعك من فعله: لا تفعل كذا ولا كذا، وإذا علمت

أيضا أن من المقرر أن الأمر بشيء نهى عن ضده والنهى عن شيء أمر بضده، فإذا قلت لرجل أمرتك بالصلاة فقد نهيته عن تركها، وإذا نهيته عن الكذب فقد أمرته بتركه، إذا علمت كل هذا سهل عليك فهم ما يأتى وشر ع سبحانه فى بيان ما حرم وما أوحى به فقال:

أن لا تشركوا به شيئا و ﴿أن﴾ حرف تفسير تفيد أن ما بعدها تفسير لما قبلها، فكأنه قال:

أول ما أتلوه عليكم من الوصايا هو أن لا تشركوا به شيئا؛

والثانى مما أتلوه عليكم وأوصاكم به ربكم أن تحسنوا للوالدين إحسانا كاملا، وهذا يستلزم ترك الإساءة وإن صغرت فكيف بالعقوق.

وقد تقدم نظير ذلك فى الآية (٨٣) من سورة البقرة صفحة ١٦، والآية (٣٦) من سورة النساء صفحة ١٠٦، وسيأتى فى الآية (٢٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٧؛

والثالث من الوصايا أنْ لا تقتلوا أولادكم الصغار من أجل فقر حل بكم فرارا من أن يؤلمكم مشاهدتهم جياعا، وهذا من تزيين شياطينهم كما تقدم فى الآية (١٣٧) من هذه السورة صفحة ١٨٥، نحن نرزقكم وإياهم أى رزقكم ورزقهم علينا فلا تخافوا،

والرابع من الوصايا أن لا تقربوا المعاصى الشديدة القبح ما ظهر منها مما تفعله الجوارح كالزنا والسرقة، وما بطن كالحسد ونية السوء، انظر ما تقدم فى الآية (١٢٠) من هذه السورة صفحة ١٨٢.

والخامس منها أنْ لا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها إلا إذا كان القتل بوجه حق كأن تكون قاتلة أو زانية بعد إحصان. ذلكم ما ذكر من الأحكام الخمسة فى هذه الآية وصاكم بالمحافظة عليها ربكم لإعدادكم لأن تعقلوا ما فيه الخير فتعملوه وما فيه شر فتجتنبوه،

والسادس من الوصايا أن لا تقربوا مال اليتيم بوجه من الوجوه إلا بالفعلة التى هى أحسن كحفظه وتنميته، فحافظوا عليه إلى أن يبلغ رشده فسلموه له كما فى الآية (٦) من سورة النساء صفحة ٩٨.

والسابع منها أن تجعلوا الكيل وافيا وكذا الميزان، والمراد المكيل والموزون، ولا تكونوا من المطففين الذين توعدهم الله تعالى بالهلاك فى سورة المطففين. ولما كان الأمر بالقسط قد يوقع أهل الورع فى حرج لأن العدل المطلق لا يتحقق إلا بمثل موازين الذهب فقد تزيد حبة واحدة أو تنقص، لكل ذلك قال سبحانه:

﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ أى ما فى طاقتها فعله، ولا يؤاخذ بمثل هذه الأشياء التى لا يمكن ضبطها، بل بالعدل المعروف عند الناس،

والثامن منها أنْ تعدلوا إذا قلتم قولا فى حكم أو شهادة ولو كان المحتاج إلى قولكم ذا قرابة منكم.

والتاسع منها أنْ توفوا بالعهد الذى عاهدتم الله عليه، ويدخل فيه ما شرعه على لسان رسوله وقبلتموه بدخولكم فى الإسلام، ويدخل فيه ما يعاهد الناس بعضهم بعضا فيما هو جائز شرعا وما يلزمون به أنفسهم من نذر أو يمين، انظر الآية (٧٥) من سورة التوبة صفحة ٢٥٤، ومحل الوفاء بالعهد إذا كان على شىء فيه خير ومصلحة، لا فى شر، ولذا عبّر عنه بعهد الله. ذلكم ما ذكر من التكاليف الأربعة وصاكم ربكم به لعلكم تذكرون دائما ما فيها من المنافع فتحافظوا عليها ولا تغفلوا عنها.

والعاشر منها أنْ تتبعوا الشرع لأنه صراطى المستقيم المذكور فى سورة الفاتحة، وهذه الوصية العاشرة جامعة لكل خير، فهى أعم مما تقدم. ولا تتبعوا سبل الضلال الكثيرة فتتفرق أى تتشعب وتبعد بكم عن سبيله المستقيم. ذلك الأمر باتباع الطريق المستقيم وصاكم به ربكم لعلكم تتقون، وتبتعدون عما يضركم فى الدنيا والآخرة. روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ خط بيده خطا ثم قال:

هذه سبيل الله، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وشماله وقال:

هذه السبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ هذه الآية. ولذا أفرد سبيل الحق لأن الحق واحد، والباطل طرقه كثيرة.

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ
وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ
يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ
طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾
أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ
فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى
ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟
يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى
بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ

المفردات : ﴿تماما﴾ : بمعنى إتماما للنعمة.

﴿أنزل الكتاب﴾ : المراد جنس الكتاب الذى يشمل التوراة والإنجيل بدليل قوله ﴿طائفتين من قبلنا﴾ وهما اليهود والنصارى. ﴿دراستهم﴾: أى قراءة ومدارسة للفهم. ﴿صَدَفَ عنها﴾ : أعرض ﴿يأتى ربك﴾ : أى أمره بالعذاب انظر الآية (٣٣) من سورة النحل صفحة ٣٤٩. ﴿بعض آيات ربك﴾ : علامات قيام الساعة.

المعنى : . بعد ما أقام سبحانه على كفار مكة الحجج وأبطل ما يزعمون، ووصاهم بتلك الوصايا العشر التى قال عنها عبدالله بن مسعود: من سره أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ مختومة بخاتمه فليقرأ هذه الآيات: قل تعالوا إلىّ لعلكم تتقون. بعد كل هذا أراد سبحانه أن يقطع على الكافرين طريق الأعذار الكاذبة التى تعللوا بها والتى سيتعللون بها، منها أن الكتب السماوية نزلت فى الماضى على أمم غيرهم وما كانوا يعرفون قراءتها، ومنها أنهم لو نزل عليهم كتاب كغيرهم لكانوا أحسن منهم، فرد الله تعالى عليهم بأنا أن كنا أنزلنا التوراة على غيركم فقد أنزلنا على نبيكم ماهو خير منها وبلغتكم وهو القرآن فلمَ لم تؤمنوا إن كنتم صادقين؟

فقال سبحانه ثم قل لهم أيها النبى: تعالوا أتلو عليكم ما قال ربكم أننا آتينا موسى الكتاب وهو التوراة واقتصر على موسى والتوراة دون عيسى والإنجيل لأن بين التوراة والقرآن تشابها،

---

(١) الكتاب (٢) كتاب (٣) أنزلناه (٤) الكتاب (٥) لغافلين (٦) الكتاب
(٧) بآيات (٨) آياتنا (٩) الملائكة (١٠، ١١) آيات (١٢) إيمانها (١٣) آمنت

فكل منهما شريعة كاملة، والإنجيل ليس كذلك، فإن أكثره عظات، ولهذا نجد أن الله تعالى قرن بين القرآن والتوراة كثيرا، انظر ما تقدم فى آيات (٩١، ٩٢) من هذه السورة صفحة ١٧٧، وآيتى (٢٢، ٢٣) من سورة السجدة صفحة ٥٤٧، والآية (١٢) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧، إلى غير ذلك، إنما أنعمنا على الذى أحسن عمله، ونظير هذا الجزاء ما فى الآية (١٢٤) من سورة البقرة صفحة ٢٤، والآية (٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٥، والآية (٢٤) من سورة السجدة صفحة ٥٤٧، ومفصلا لكل شىء يحتاجون إليه، وهاديا إلى طريق الحق، وسببا لرحمة ربهم آتينا موسى التوراة الجامعة لهذه المزايا ليعد قومه لرجاء الإيمان بلقاء ربهم فى الجنة. وهذا القرآن الذى يتلى عليكم كتاب عظيم أنزلناه كثير البركة كما تقدم فى الآية (٩٢) من هذه السورة صفحة ١٧٧ فاتبعوه واتقوه ما نهاكم عنه لتكون رحمته تعالى مرجوة لكم. أنزلنا لكم القرآن منعا لكم من أن تقولوا يوم القيامة معتذرين عن شرككم إنما أنزل الكتاب الهادى للصواب على طائفتين من قبلنا وإننا كنا غافلين عن مدارسة وقراءة كتبهم لجهلنا بلغتهم، أو تقولوا فى اعتذاركم لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم لأننا أزكى عقولا وأعلى همة وأجمع لصفات الشهامة وحب الصراحة ونجدة الضعيف وعدم المبالاة بالشدائد، وقد صدر منهم فعلا ما أخبر به القرآن قبل وقوعه، انظر الآية (١٣٤) من سورة طه صفحة ٤١٩ والآية (٤٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨ والسورتان نزلتا بعد سورة الأنعام. فقد جاءكم من ربكم قرآن مبين لكل ما تحتاجون إليه فى تحقق سعادتكم وهدى ورحمة، تقدما فى الآية (١٥٤) من هذه السورة صفحة ١٩٠ السابقة، وإذا كان هذا هو حال آيات الله المشتملة على الهداية والرحمة فلا أحد أظلم لنفسه ممن كذب بها وأعرض عنها مبالغة فى التكذيب. سنجزى الذين يعرضون عن آياتنا أسوأ أنواع العذاب بسبب استمرارهم على الإعراض. وبعد أن هددهم أكد هذا التهديد وأراد أن يعرفهم بحقيقة ما سيلاقون وأنه لا يخرج عن واحد مما سيأتى فقال:

هل ينظرون أى لا ينظرون إلا أحد ثلاثة أشياء : فإما أن تأتيهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم، أو يأتى أمر ربك أيها النبى بالعذاب فى الدنيا كما حلّ بكثير من الأمم قبلهم، أو تأتى بعض آيات ربك الدالة على قيام الساعة.

مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا[1] خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا
مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ
مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟
يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن
جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾
قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى[2] رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ[3] مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ
إِبْرَٰهِيمَ[4] حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ
صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ[5] ﴿١٦٢﴾
لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾
قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ
كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

يوم يأتى بعض آيات ربك هذه فيؤمن الناس اضرارا كما اضطرارًا فرعون فى الآية (٩٠) من سورة يونس صفحة ٢٨٠، لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت....

المفردات : ـ ﴿قيما﴾ : أصله مصدر كالصغر والكبر وجعل وصفا للمبالغة، والمراد دينا يقوم به أمر الناس فى معاشهم ومعادهم، انظر الآية (٥) من سورة النساء صفحة ٩٨، والآية (٩٧) من سورة المائدة صفحتى ١٥٦، ١٥٧.

﴿حنيفا﴾ : مائلا عن الباطل إلى الحق.

﴿نسكى﴾ : هو فى الأصل مطلق العبادة وكثر استعماله فى عبادات الحج من سعى وطواف وذبائح، انظر الآية (١٩٦) من سورة البقرة صفحتى ٣٨، ٣٩، والآية (٢٠٠) من نفس السورة صفحتى ٣٩، ٤٠، والآية (٣٤) من سورة الحج صفحة ٤٣٨، والآية (٦٧) من نفس السورة صفحة ٤٤٣.

﴿تزر﴾ : أصل الوزر الحمل الثقيل، يقال وزر الشىء يزره كوَعَد يَعِد حمله والمراد تحمل ذنبا.

﴿وازرة﴾ : أى حاملة وزرا أى ذنبا. ﴿تزر وازرة وزر أخرى﴾ : يقول العربى: وزر فلان الشىء يزره بوزن وَعَدَه. يَعِده وَزْرًا. بفتح الواو. وسكون الزاى. ووِزْرًا بكسر الواو وسكون الزاى

(١) إيمانها
(٢) هدانى
(٣) صراط
(٤) إبراهيم
(٥) العالمين.

أيضا أى حمله. وتقول أيضا : وَزَر الرجل أى حمل ما يثقل ظهره وتقول أيضا وزر فلان يزر بوزن وعد أيضا وَزْرا و وِزْرا أيضا أى ارتكب إثما فهو وَزِرٌ بفتح الواو وكسر الزاى وموزور. والأنثى وازرة. والوزر بكسر الواو وسكون الزاى. يستعمل مصدرًا كما تقدم. ويستعمل بمعنى الإثم أى الذنب. ويستعمل بمعنى الحمل الثقيل. وجمعه أوزار ومنه قوله تعالى ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ الآية (٤) من سورة محمد صفحتى ٦٧٢، ٦٧٣ أى أثقالها والوَزَرَ بفتحات هو الملجأ ومنه قوله ﴿كلا لا وزر﴾؛ الآية (١١) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩ فمعنى ﴿لا تزر﴾ أى لا تحمل ﴿وازرة﴾ أى نفس مرتكبة ﴿وزر﴾ أى إثما و ﴿وزر أخرى﴾ أى إثم نفس مرتكبة أخرى والمراد جزاء ذنبها وهو العقاب. وبعد كل هذا فيحسن أن ننبه لأمر مهم هنا قد تخفى على بعض البسطاء دقائقه. وظروفه التى جاء فيها ذلك أن قوله تعالى ﴿لا تزر وازرة وزر أخرى﴾ لا تحمل نفس مذنبة ذنب نفس أخرى. وهذا ربما يوهم أن النفس غير المذنبة قد تحمل ذنب نفس أخرى. والعدل الإلهى يأبى ذلك لأنه سبحانه قرر أن كل نفس سواء كانت مذنبة أو غير مذنبة لا تحمل ذنب غيرها. فقد قال تعالى ﴿واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا﴾ الآية (٣٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤. وكل هذا يقتضى أن يقول سبحانه ﴿ولا تزر نفس وزر أخرى﴾ ويزول الخفاء إذا علمنا أن الكلام هنا مع قادة الكفر أصحاب الأوزار الذين يسعون فى تضليل غيرهم ويقولون لهم لا تخافوا شيئا لأننا سنحمل عنكم خطاياكم إن كان لكم خطايا. قال تعالى فيهم ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾ الآية (١٢) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢ وفى هذا الأسلوب أيضا إبراز للعدل الإلهى على أكمل وجه حتى مع هؤلاء المجرمين حيث قرّر أن عذابهم إنما هو على ما ارتكبوه من الأوزار. لا بما ارتكبه غيرهم.ولا يعارض هذا ما جاء فى الآية (١٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢ مما يفيد ظاهره أن هؤلاء الكفار يحملون أثقالا مثل أثقالهم. فإنه فى الحقيقة سيحمل المجرم ذنب نفسه لكنه مضاعف. عذاب على ذنبه الذى فعله فى نفسه خاصة كالكفر مثلا. وعذاب على إضلاله لغيره وتسببه فى كفره وانحرافه عن الصواب فهو بمعنى ما فى آيات (٣٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٨، (٦٧، ٦٨) من سورة الأحزاب صفحتى ٦٠، ٦١.

المعنى : . لا ينفع نفسا لم تكن آمنت من قبل مشاهدة علامة الساعة الكبرى إيمانها بعده، ولا ينفع نفسا كانت فى الدنيا مؤمنة ولكنها لم تعمل خيرا وعملا صالحا ما تحاوله من توبة أو عمل خير عند مشاهدة العلامة لبطلان التكليف الذى يترتب عليه ثواب العمل الصالح، أى فلا عمل ينفع فى تخفيف العذاب، ولا إيمان ينفع من الخلود فى النار. والآية أى العلامة الكبرى المقصودة هنا هى طلوع الشمس من مغربها قبيل الطامة الكبرى التى تكور الشمس وتبس الجبال؛ روى البخارى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال :

(لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا جميعا، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها) إلخ. فقل أيها النبى لهؤلاء الكفار المتربصين بكم الدوائر : انتظروا ما تتمنون وقوعه لنا من الانكسار وذهاب الدين، إنا منتظرون وعد ربنا لنا بالنصر، ووعيده لكم بالخذلان والعذاب وهذا تهديد شديد وجهه لهم كثيرا لو كانوا يعقلون، انظر آيات (١٠٢، ١٠٣) من سورة يونس صفحة ٢٨٢، و (١٢١، ١٢٢) من سورة هود صفحة ٣٠٢، و (٢٩ ، ٣٠) من سورة السجدة صفحة ٥٤٨، وبعد ما وصى سبحانه بهذه الوصايا العظيمة التى كان آخرها الأمر باتباع الصراط المستقيم والبعد عن سبل الضلال أراد سبحانه أن ينبه هذه الأمة بأمر خطير هى عرضة له من التفرق فى الدين والتعصب للرأى حتى تصير الأمة شيعا تتعصب كل شيعة لمذهبها فتنقطع العلاقات بين اتباع الأمة الواحدة كما حصل فى أهل الكتب قبلها لما طال عليهم الزمن، فقال سبحانه محذرًا :

إن الذين فرقوا دينهم وجعلوه مذاهب متعارضة مختلفة بما ابتدعوه فيه وهم اليهود والنصارى ومَنْ يشابههم فى ذلك، انظر الآية (١٠٥) من سورة آل عمران صفحة ٦٣، وكانوا شيعا أى فرقا، لست منهم فى شىء، أى أنت برىء منهم ومن عقابهم، إنما أمرهم فى الدنيا إلى الله عز وجل يدبره حسب حكمته ثم ينبئهم يوم القيامة بما كانوا يفعلون فى الدنيا ويجازيهم عليه. وبعد ما بيّن سبحانه أصول الفضائل التى أمر بها الإسلام وأصول الرذائل التى نهى عنها، أراد سبحانه أن يبين جزاء كل منهم فقال: مَنْ جاء ربه يوم القيامة مقترنا بالصفة الحسنة التى طبعتها فى نفسه الفعلة الحسنة التى عملها فى الدنيا فله من الجزاء جزاء عشر أمثالها، ومَنْ جاء بالسيئة فلا يجزى إلا جزاء مثلها المقدر بعدله تعالى. وهذا من فضله سبحانه لأنه ضاعف الحسنة فوق ما يستحقه العبد، وهنا لم يضاعفها رحمة منه بخلقه حتى العاصى منهم، فسبحان مَنْ سبقت رحمته غضبه. ولا يظلم أحد منهما يوم القيامة فلا ينقص من أجر المحسن شىء مما استحقه، ولا يزاد جزاء المسىء فوق المثل. ثم أمر سبحانه

رسوله أن يقول لجميع المكلفين القول الجامع لجملة ما تقدم فقال: قل للناس كافة إننى هدانى ربى وأوصلنى بما أوحاه إلىَّ إلى طريق مستقيم، وهو الدين الذى به قيام مصالح الناس فى معاشهم وآخرتهم، وهو ملة إبراهيم المبتعد عن الباطل، ولم يكن مشركا كالعرب الذين يدعون أنهم على ملته مع أنهم مشركون فهم كاذبون.

ثم أمره بأن يقول لهم بأن كل عبادته وأعماله خالصة لوجهه تعالى فقال: قل أيها النبى لهم أيضا إن صلاتى وأعمالى فى الحج كلها وما أفعله فى حال حياتى وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح كل ذلك خالص لله رب العالمين الذى لا شريك له فى الربوبية حتى يستحق أن يشارك فى العبادة، وبذلك الإخلاص فى توحيده وعبادته أمرنى ربى وأنا أول المنقادين لأمره سبحانه وقل لهم أيضا منكرا عليهم ماهم فيه : أغير الله أبغى ربا إلخ أى لا يصح أن أطلب ربا غير الله مع أنه هو وحده رب وخالق كل شىء وسيحاسبنا على ما كلفنا به ولا ينفعنا عنده إلا عملنا لأنه لا تكسب كل نفس إلا عليها، فما تزعمونه من تحمل غيركم ذنوبكم عنكم فى الآية ١٢ من سورة العنكبوت صفحة (٥٢٢) كذب وتضليل. والمعنى لا تكسب نفس إثما إلا كان عليها وحدها جزاؤه دون غيرها، ولا تحمل نفس مذنبة من الذنوب فوق حملها حمل نفس أخرى. فالجملة الثانية لازمة للأولى كقولك: ذنبى علىّ وحدى، ولا يستطيع أحد أن يحمل عنى شيئا منه، ثم فى النهاية ترجعون جميعا إلى ربكم فيخبركم بما كنتم تختلفون فيه من أمر أديانكم، فيظهر المحق من المبطل فيجازى كلا بما هو أهله.

المفردات: ﴿خلائف الأرض﴾: الخلائف جمع خليفة وهو مَنْ يخلف سابقه فى مكان أو عمل أو ملك. ﴿ليبلوكم﴾ : يختبركم أى يعاملكم معاملة المختبر لتظهر للناس حقيقتكم.

﴿حرج﴾ : تقدم فى الآية (١٢٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣. أنه شدة الضيق.

﴿لتنذر به﴾ : تخوف.

﴿قليلا ما تذكرون﴾ : المراد تتذكرون تذكرا قليلا جدا فى لحظات خاطفة ترغمكم عليه قوة الحجة، ولكن شدة عنادكم تصرفكم عنه.

﴿بأسنا﴾ : عذابنا.

﴿بياتا﴾ : أصله مصدر أريد به الصفة أى بائتين أى ليلا. ﴿قائلون﴾ : من القيلولة وهى النوم ظهرًا وقت شدة الحر. ﴿دعواهم﴾ : أى دعاؤهم واستغاثتهم انظر الآية (١٠) من سورة يونس صفحتى ٢٦٦، ٢٦٧.

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ
بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ
ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

(٧) سُورَةُ الأعْرَافِ مَكِّيَّة
وآيَاتُهَا سِتٌّ وَمِائَتَان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ
حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟
مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ
قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا
بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ

المعنى :. وهو وحده الذى مكنكم فى الأرض وجعلكم أممًا يخلف بعضكم بعضا فيها لتصلحوا، انظر الآية (٣٠) من سورة البقرة صفحتى ٧، ٨، أى لا أصنامكم، وهو سبحانه الذى رفع بعضكم فوق بعض درجات فى الغنى والفقر والصحة والمرض والعلم والجهل وغير ذلك ليبلوكم فيما آتاكم ليبنى الجزاء على ما يكون منكم، فهل شكر الغنى منكم وصبر الفقير، وعلَّم العالم الجاهل، وهكذا، انظر الآية (١٥٥) من سورة البقرة صفحة ٣٠، والآية (٢٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢.

إن ربك سريع العقاب لِمَنْ كفر بنعمه وإنه سبحانه مع سرعة عقابه لِمَنْ عصاه فإنه غفور لِمَنْ تاب، رحيم بالمؤمنين المحسنين.

سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿المص﴾ : تقدم بيان المراد من هذه الحروف المقطعة فى أول سورة البقرة. هذا القرآن كتاب أنزلناه إليك أيها الرسول فلا يضيق صدرك بما ستلاقيه بسببه من المشاق المشار إليها فى سورة المزمل ومن التهم التى توجه إليك كرميهم لك بالجنون والسحر والكذب، أى لا

---

(١) خلائف (٢) درجات (٣) آتاكم
(٤) الف لام ميم صاد (٥) كتاب (٦) أهلكناها
(٧) بياتا (٨) دعواهم.

يهمك هذا فإنه باطل زائل، والعاقبة لك، انظر آيات (٢٥، ٣٥، ١٠٥) من سورة الأنعام صفحات ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٨٠، ومن أصعب مالاقاه ﷺ حزنه على عدم إيمان أهله وعشيرته، أنظر الآية (١٢) من سورة هود صفحة ٢٨٥، والآية (٩٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤، والآية (١٢٧) من سورة النحل صفحة ٣٦٣، والآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠. أى فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل قبلك. أنزلناه إليك لتنذر به وتحذر العصاة وليكون تذكيرا للمؤمنين بوجوده تعالى وفضله.

ثم خاطب جميع المكلفين بقوله: اتبعوا أيها الناس هذا الكتاب الذى أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دون ربكم أولياء من شياطين الإنس والجن بأن تقبلوا منهم باطلهم وما يزينونه لكم من الشر، انظر الآية (٢٧) الآتية صفحتى ١٩٥، ١٩٦، والآية (١٦٨) من سورة البقرة صفحة ٣٢ والآية (٢٠٨) من نفس السورة صفحة ٤١، والآية (٢٥٧) من سورة البقرة أيضا صفحة ٥٤، والآية (٦٨) من سورة آل عمران صفحتى ٧٣، ٧٤، والآية (١١٩) من سورة النساء صفحتى ١٢٢، ١٢٣، فإنكم إن اتبعتموهم فيكون تذكركم قليلا جدًا، أى فلا تنتفعون به. ثم شرع فى تذكيرهم وتخويفهم مما حصل لمَنْ قبلهم من العذاب بسبب إعراضهم وتماديهم فى اتباع أوليائهم فقال:

﴿وكم من قرية﴾ أى وكثيرا من أهل القرى أهلكناهم فجاءهم عذابنا على غرة وهم نائمون ليلاً أو ظهرًا، فما حصل منهم عند مشاهدة العذاب....

المفردات : ﴿بأسنا﴾ : عذابنا. ﴿معايش﴾ : جمع معيشة وهى ما يعيش به الإنسان مثل الطعام والشراب انظر الآية (٢٠) من سورة الحجر صفحة ٣٣٩.

﴿قليلا ما تشكرون﴾ : أى لا يصدر عنكم ما يعتبر شكرًا لله تعالى على نعمه من إحسان إلى فقير أو عمل بر فهو قليل جدًا لا يتساوى مع جليل نعمه سبحانه وتعالى حتى لكأنه العدم.

إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٥)
فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ (٦)
فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ (٧) وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ
ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٨)
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم
بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (١٠)
وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟
لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ (١١)
قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ
خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَٱهْبِطْ
مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ

﴿ما منعك ألا تسجد﴾ : قال الراغب المنع يطلق على ضد العطاء؛ يقال رجل مانع ومناع للخير أى بخيل.

ويطلق على الحماية، ومنه مكان منيع أى يحمى مَنْ فيه، وفلان ذو منعة أى قوى ممتنع على مَنْ يقصده بسوء؛ أى ما الذى حماك وجرأك على ألا تسجد. ﴿فاهبط منها﴾ : الضمير يعود على الجنة المفهومة من السياق.

المعنى : . فما كان تضرعهم ودعاؤهم حين جاءهم العذاب إلا اعترافهم على أنفسهم بالظلم فى وقت لم ينفعهم ذلك، ويوم القيامة نسأل الأمم الذين أرسلنا إليهم رسلنا سؤال توبيخ، فيقال لهم: لم عملتم كذا وكذا؟ ولذا قال بعدها: ﴿فلنقصن عليهم بعلم﴾ إلخ، مما يدل على أنه ليس سؤال استعلام؛ انظر سؤالهم فى الآية (١٣٠) من سورة الأنعام صفحة ١٨٤، والآية (٦٥) من سورة القصص صفحة ٥١٦، والآية (١٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢، ولنسألن الرسل ماذا أجابتكم أممكم، أنظر الآية (١٠٩) من سورة المائدة صفحة ١٥٩؛ أما ما فى الآية (٧٨) من سورة القصص صفحة ٥١٨ وما فى الآية (٣٩) من سورة الرحمن صفحة ٧١١ مما يدل على أن المجرم لا يسأل عن ذنبه فالمراد لا يسأل سؤال استجلاب للرحمة بل للتوبيخ كما تقدم. ولنقصن على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم حال كوننا عالمين

---

(١) ظالمين. (٢) فلنسألن. (٣) ولنسألن.
(٤، ٥) موازينه. (٦) بآياتنا. (٧) مكناكم.
(٨) معايش. (٩) خلقناكم. (١٠) صورناكم.
(١١) للملائكة. (١٢) الساجدين.

بأحوالهم ظاهرها وباطنها؛ لأننا لم نكن غائبين عنهم فى حياتهم الدنيا، فكل صغيرة وكبيرة عندنا علمها. ولما كان الجزاء على حسب الأعمال وهى متفاوتة تنضبط بالوزن. قال: ﴿والوزن﴾ إلخ، أى الوزن الحق لأعمال العباد كائن يوم يسأل الرسل والمرسل إليهم: انظر الآية (٤٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥. ويطلق الوزن على القدر والمنزلة، ومنه ليس لفلان وزن أى قدر لخسته، ومنه قوله تعالى فى الآية (١٠٥) من سورة الكهف صفحة ٣٩٥ ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾ أى لا اعتبار لهم.

فلا تخالف بين الآيتين. فمَنْ ثقلت موازينه بالحسنات فأولئك هم المفلحون أى الفائزون. ومَنْ خفت موازينه لغلبة السيئات فأولئك الذين خسروا أنفسهم بسبب استمرارهم على جحود آيات الله وعدم الانقياد لها، ولا يعلم الميزان وكيفية الوزن يوم القيامة إلا علاَّم الغيوب ثم شرع سبحانه فى تذكيرهم بنعمه ليقبلوا دعوته فقال:

﴿ولقد مكناكم فى الأرض﴾ أى أقدرناكم على التصرف فيها، وجعلنا لكم فيها ما تكون به عيشتكم من المطاعم والمشارب وغيرها، وشكركم لله قليل جدًا لا يكافئ نعمه ثم شرع فى بيان نعمة أخرى هى تعظيمهم فى شخص أبيهم آدم وتكبر إبليس عليه مما يقتضى بعدهم عنه، انظر الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨، فقال :

﴿ولقد خلقناكم﴾ أى خلقنا أباكم آدم، ثم صورناه بصورة إنسان، ثم نفخنا فيه الروح كما فى الآية (٢٩) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠، ثم قلنا للملائكة اسجدوا له إلخ كما تقدم فى الآية (٣٤) وما بعدها من سورة البقرة صفحة ٨. قال ما منعك أى ما الذى جرأك على عدم السجود؟ قال : أنا خير منه، خلقتنى من نار وهى جوهر نورانى، وخلقته من طين وهو ظلمانى. وقد أخطأ لأن الطين أفضل من وجوه كثيرة؛ منها رزانته ووقاره، ومنها الحلم والحياء والصبر. وفى النار الطيش والحدة، وذلك يدعو إلى الاستكبار، والنار تفنى والتراب ينمو.

قال تعالى: فاهبط من الجنة فما يصح لك أن تتكبر فيها، وأكد الأمر بالهبوط بقوله فاخرج منها لأنك لست من أهلها.

مِنَ الصَّٰغِرِينَ ⑬ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ⑭
قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ⑮ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ
لَهُمْ صِرَٰطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ⑯ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ
أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ⑰ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا
لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ⑱
وَيَٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّٰلِمِينَ ⑲
فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن
سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن
تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَٰلِدِينَ ⑳ وَقَاسَمَهُمَآ
إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّٰصِحِينَ ㉑ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا

المفردات: ﴿الصاغرين﴾ : الصَّغار الهوان والاحتقار؛ انظر آيتى (٣٤، ٣٥) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠. ﴿أنظرنى﴾: أى أمهلنى ولا تمتنى.

﴿لأقعدن لهم صراطك﴾ : أى لأقعدن لهم على طريق شريعتك لأمنعهم عنها.

﴿مذؤما﴾ : مذموما معيبا

﴿مدحورا﴾ : مطرودا مبعدا عن الرحمة

﴿وقاسمهما﴾ : يقول العرب قاسم فلان فلانا أى حلف له، فهنا المراد حلف لهما.

﴿فدلاهما﴾ : أصل معنى دلى أنزل الشىء إلى أسفل شيئا فشيئا على مهل، والمراد مازال يغريهما بالحلف والترغيب حتى أسقطهما فى المعصية.

﴿بغرور﴾ : هو الخداع الباطل.

المعنى : . فاخرج من الجنة لأنك من أهل الصَّغار والهوان ملعون على كل لسان. فقال

---

(١) الصاغرين
(٢) صراطك
(٣) لأتينهم
(٤) أيمانهم
(٥) شاكرين
(٦) يا آدم
(٧) الظالمين
(٨) الشيطان
(٩) ماوورى
(١٠) سوآتهما
(١١) ما نهاكما
(١٢) الخالدين
(١٣) الناصحين
(١٤) فدلاهما.

إبليس متذللا : رب أمهلني إلى يوم البعث. قال : إنك من المنظرين؛ لأن بقاءه هو المحك الذى يظهر صدق المؤمن ومقدار تمسكه بدينه، فلما اطمأن اللعين إلى أنه باق أعلن عزمه الأكيد على الانتقام من أولاد آدم الذى تسبب فى نكبته، فقال: يارب أقسم بسبب إغوائك أى إضلالك لى لأقعدن لهم على طريق الإسلام أصد كل مَنْ أراد سلوكه كما يقعد قاطع الطريق لإيذاء السالك، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم إلخ؛ أى لا أترك جهة من جهاتهم إلا هجمت عليهم منها، وستكون النتيجة أنك لا تجد أكثرهم شاكرين لك بل يكفرون. وقاله اللعين ظنا فأصاب كما قال سبحانه: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه﴾ الآية (٢٠) من سورة سبأ صفحة ٥٦٥. كذلك انظر الآية (٣٩) وما بعدها من سورة الحجر صفحتى ٣٤٠، ٣٤١ عند ذلك كرر سبحانه الأمر بطرده فقال: اخرج منها مذؤما مدحورا، وعزتى لمَنْ اتبعك من المكلفين لأملأن جهنم منكم، المراد من أولاد آدم ومنك ومن ذريتك المذكورين فى الآية ٥٠ من سورة الكهف صفحة ٣٨٨ أما قوله تعالى : أجمعين: أى لا يفلت أحد منكم من عقاب الله عز وجل وبعد إخراج إبليس قلنا يا آدم اتخذ أنت وزوجك الجنة مسكنا. فكلا من حيث شئتما إلخ، وقد تقدم بيان ذلك فى الآية (٣٥) من سورة البقرة صفحة ٨، ولكن الشيطان قام بما توعد به وصار يوسوس لآدم وزوجته ليكشف لهما ما ستر عنهما من عوراتهما، فقال فى وسوسته: ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهة أن تكونا ملكين مقربين أو تكونا من الخالدين الذين لا يموتون كما قال فى الآية (١٢٠) من سورة طه صفحة ٤١٧، وأقسم لهما أنه من الناصحين لهما فأسقطهما فى المعصية بما أغراهما به وحقيقة الجنة أو الشجرة وكيفية وسوسة إبليس كل ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى والمطلوب من كل هذا هو العبرة والاحتراز من الشيطان، ولا يتوقف شىء من ذلك على معرفة شىء مما استأثر الله تعالى بعلمه.

المفردات : ﴿طفقا﴾ : يقال طفق فلان يفعل كذا أى شرع يفعل.

﴿يخصفان﴾ : أى يجعلان ورقة فوق أخرى كما تخصف النعل.

﴿مستقر﴾: أى مكان استقرار.

﴿ومتاع﴾: تمتع بخيرات الأرض.

﴿أنزلنا عليكم لباسا﴾ : يعبر القرآن بالإنزال ويريد به الخلق الصادر من العلى الكبير. انظر الآية (٥٩) من سورة يونس صفحة ٢٧٥، والآية (٦) من سورة الزمر صفحة ٦٠٦، والآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣، أى خلقنا لكم ما تلبسونه.

﴿وريشا﴾ : أصل الريش ما يستر الطير، وأريد به هنا لباس الزينة.

الشجرة بدت لهما سوءاتهما[1] وطفقا يخصفان عليهما
من ورق الجنة وناداهما[2] ربهما ألم أنهكما عن تلكما
الشجرة وأقل لكما إن الشيطان[3] لكما عدو مبين ﴿٢٢﴾
قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن
من الخاسرين[4] ﴿٢٣﴾ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو
ولكم في الأرض مستقر ومتاع[5] إلى حين ﴿٢٤﴾ قال فيها
تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴿٢٥﴾ يا بني آدم[6] قد
أنزلنا عليكم لباسا يواري[7] سوءاتكم[8] وريشا ولباس التقوى
ذلك خير ذلك من آيات[9] الله لعلهم يذكرون ﴿٢٦﴾
يا بني آدم[10] لا يفتننكم الشيطان[11] كما أخرج أبويكم من
الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما[12] إنه يراكم[13]
هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين[14]

﴿قبيله﴾ : جنوده وذريته.

المعنى : . فلما نجحت وسوسة إبليس وأكل آدم وزوجه من الشجرة وذاقا طعم ما فيها ظهرت لهما عوراتهما؛ لأن الله عاقبهما بإسقاط اللباس عنهما، وجعلا يلزقان ورقة فوق ورقة من ورق الجنة ليسترا به عوراتهما. وعاتبهما ربهما بقوله: ألم أنهكما عن هذه الشجرة وأقل لكما احترسا من الشيطان لأنه عدو لكما ظاهر العداوة؟. قالا تائبين : ياربنا إننا ظلمنا أنفسنا بهذه المعصية وإن لم تغفر لنا ذنبنا وترحمنا بفضلك لنكونن من الخاسرين لكل خير. قال تعالى: اهبطوا أى أنتما وإبليس من قبل حال كون بعضكم يعادى بعضًا كما فى الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨، فإبليس يدلكم على الهلاك، وأنتم تلعنونه، ولكم فى الأرض مكان استقرار وتمتع بالعيش إلى حين انقضاء آجالكم، وقال فيها تحيون جيلا بعد جيل، وفيها تموتون، ومنها تخرجون يوم القيامة للثواب والعقاب.

ثم عدد سبحانه نعمه وإرشاده فقال: يا بنى آدم نحن الذين خلقنا لكم لباسا يستر عوراتكم، ولباسا تتزينون به. هذا فيما ينفعكم فى الدنيا، أما فى الآخرة فلباس التقوى كالورع وكل ما يقى عذاب الله خير من كل ما فى الدنيا ذلك اللباس من آيات الله الدالة على فضله سبحانه ورحمته على عباده لعلهم يتذكرون عظيم فضله تعالى فلا يعصونه.

يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان أى يخدعنكم كما خدع أبويكما فأخرجهما من الجنة متسببا فى نزع لباسهما ليريهما عوراتهما. ثم علل التحذير من الشيطان بأنه يرى بنى آدم وهم لا يرونه، وشر الأعداء مَنْ يراك ولا تراه، لأنه يصعب الاحتراز منه.

(١) سوآتهما (٢) وناداهما (٣) الشيطان (٤) الخاسرين
(٥) ومتاع (٦) يابنى آدم (٧) يوارى (٨) سوآتكم
(٩) آيات (١٠) يابنى آدم (١١) الشيطان (١٢) سوآتهما
(١٣) يراكم (١٤) الشياطين.

أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً[1] قَالُوا
وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا[2] وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ
بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ
رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ
وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ[3] إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ[4]
أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾
* يَا بَنِي آدَمَ[5] خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا
وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾
قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ[6]
مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ[7] الدُّنْيَا
خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ[8] كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ[9] لِقَوْمٍ

المفردات : ﴿فاحشة﴾ : هى الفعلة المتناهية فى القبح كالطواف بالبيت عراة قائلين : لنكون مجردين من متاع الدنيا كما ولدتنا أمهاتنا، ولئلا نطوف بثياب عصينا الله فيها.

﴿القسط﴾ : العدل.

﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد﴾ أى اجعلوا وجوهكم مستقيمة لله فى عبادته، والمعنى المراد أخلصوا العبادة لله وحده قال صاحب المنار فى تفسير هذه الآية الكريمة : قل لهم أيها النبى أمرنى ربى بالقسط فاقسطوا وقل لهم أقيموا وجوهكم... إلخ وإقامة الشىء إعطاؤه حقه وتوفيته شروطه، انظر ﴿يقيمون الصلاة﴾ الآية (٣) من سورة البقرة صفحة ٣، و ﴿أقيموا الوزن﴾ الآية (٩) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩، والوجوه جمع وجه والمراد به هنا توجه القلب انظر الآية (٤٧) من سورة النساء صفحة ١٠٨ والمعنى أعطوا توجهكم إلى الله حقه عند كل مسجد تعبدونه فيه من صحة النية وحضور القلب والبعد عن الشواغل سواء أكانت العبادة صلاة أو طوافا أو ذكرًا أو فكرًا، وادعوه وحده مخلصين له الدين لا تشوبوا دعاءكم له سبحانه بأى شائبة من شرك

(١) فاحشة
(٢) آباءنا
(٣) الضلالة
(٤) الشياطين
(٥) يابنى آدم
(٦) والطيبات
(٧) الحياة
(٨) القيامة
(٩) الآيات.

أكبر كالتوسل بالأصنام أو غيرها، أو أصغر كالرياء أو التقرب إليه عز وجل بغير ما أذن لكم به كالنذور لغيره تعالى وما شابه ذلك انظر الآية (١١٢) من سورة البقرة صفحة ٢٢.

﴿قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ : فى هذا التحويل خفاء يحتاج إلى تمحيص فإذا ما رجعنا إلى ما قيل فى شرح الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٤ نعلم أن المراد هنا أن زينة الدنيا وطيباتها يتمتع بها الذين آمنوا وإن كانت غير خالصة من مكدرات دار الغرور، هذه المكدرات التى لا يسلم منها حتى الأنبياء والرسل، انظر بعض ما صادف كثيرا منهم من الحزن، وضيق الصدر، والقلق، والخوف إلخ فى آيات (١٥٥) من سورة البقرة صفحة ٣٠، و (١٨٦) من سورة آل عمران صفحة ٩٤، و (٣٣، ٣٤) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧، و (١٢) من سورة هود صفحة ٢٨٥، و (٩٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤، و (١٢٧) من سورة النحل صفحة ٣٦٣، و (١٠، ١١) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٠. هذه النعم التى هذا حالها فى الدنيا يُعلِم الله المؤمنين يوم القيامة علمًا هو عين اليقين انظر الآية (٩٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٨؛ بأنها لهم حال كونها خالصة مما كان يكدرها فى الدنيا، وعند ذلك تنشرح صدورهم بمشاهدة الجنة قريبة منهم انظر الآية (٣١) من سورة ق صفحة ٦٩٠.

المعنى : . إنه سبحانه أكد التحذير من الشيطان تأكيدًا بعد تأكيد فقال تعالى:

إنا جعلنا الشياطين إلخ، أى سهلنا لهم ما سعوا فيه بحسب استعدادهم السيئ من الرغبة فى موالاة ومناصرة الشياطين؛ انظر الآية (٣٠) فى هذه الصفحة وآيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧، و (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ثم بيَّن سبحانه بعض آثار ولايتهم للشياطين فقال: وإذا فعل هؤلاء الكفار أولياء الشياطبن فعلاً قبيحًا كطوافهم حول الكعبة عراة حتى سوءاتهم ولامهم الناس على ذلك قالوا معتذرين إن آباءهم كانوا يفعلونها، وإن الله تعالى أمرهم بها حيث أقرهم عليها ولو كرهها لَمَنَعَهم منها؛ انظر آيات (١٤٨) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨، و (٣٥) من سورة النحل صفحتى ٣٤٩، ٣٥٠، و (٢٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩. فرد سبحانه افتراءهم عليه بقوله: قل لهم أيها النبى كذبتم لأن الله لا يأمر بالفحشاء، فهل يصح أن تقولوا على الله ما ليس لكم به علم.

ولم يرد هنا على الأمر الأول وهو تقليد الآباء، لأنه تقرر توبيخهم عليه فى القرآن كثيرا: انظـر آيـات (٧٤، ٧٥) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٤، و (٢١) من سورة لقمان صفحة ٥٤٢، و (٢٢ ـ ٢٥) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩؛ ثم بيَّن سبحانه ما يصح أن يأمر به فقال:

قل لهم ربى يأمر بالقسط والعدل لا بما تقولون، وقل لهم اجعلوا وجوهكم مستقيمة لله وحده عند كل عبادة خصوصا فى المساجد، وادعوه مخلصين له العبادة بأن لا تخلطوا فى دعائكم ولا عبادتكم أى شائبة من الشرك، فاحترسوا من مخالفته، لأنه كما بدأكم وأنشأكم ابتداء يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم حال كونكم فريقين:

فريقا هداهم الله تعالى فى الدنيا لإخلاصهم، وفريقا حق عليه الضلال لاتباعهم الشياطين وإعراضهم عن دعوة الرسل؛ ولذا قال : إنهم اتخذوا أى استحقوا الإضلال لأنهم اتخذوا الشياطين أولياء، أى أطاعوهم وعصوا الرسل، ويحسبون أنهم مهتدون لأن الشياطين لقنتهم أن الله عظيم ولا يصح أن يخاطب العظيم مباشرة فلابد من التوسط والتوسل إليه بالأصنام ليقربوهم إليه، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وفى إبطال زعمهم قال سبحانه: ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ الآية (١٨٦) من سورة البقرة صفحة ٣٦؛ يا بنى آدم خذوا زينتكم أى لباس زينتكم المعتادة عند كل عبادة، فلا تقفوا بين يدى الله بأردأ ثيابكم وأوسخها وعندكم أنظف منها، وهذا رد شديد على المشركين الذين كانوا يطوفون عراة ولما كان بعض العرب يحرمون على أنفسهم إذا أحرموا بالحج لحم الشاة وشحمها ولبنها فنهاهم الله عن ذلك بقوله:

﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ فى هذه الثلاثة، وهى الزينة عند العبادة، والأكل، والشرب، لأن الله لا يحب المسرفين فى أى شىء. وقد جمع القرآن الطب فى هذه الآية. قل لهم أيها النبى مستنكرًا تحريمهم الحلال:

مَنْ الذى حرم زينة الله التى أخرجها لعباده والطيبات من الرزق؟ وقل لهم أيها النبى: هذه الزينة والطيبات من الرزق ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا وإن خالطها من شوائب الدنيا

يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ
يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً
وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا
عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ
أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ
اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا

شيء ويوم القيامة يعلمون أنها خالصة من كل ما كان يكدرها في الدنيا. كهذا التفصيل الدقيق المميز بين الحلال والحرام نفصل كل الآيات الدالة على الأحكام.

المفردات: ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾: تقدم بيانهما في الآية (١٥١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩. ﴿الإثم﴾: اسم لكل ذنب.

﴿البغي﴾: الظلم والتعدي على الغير، انظر الآية (٧٦) من سورة القصص صفحتي ٥١٧، ٥١٨ والآية (٢٧) من سورة الشورى صفحتي ٦٤٢، ٦٤٣، والآية (٩) من سورة الحجرات صفحتي ٦٨٥، ٦٨٦. ﴿سلطانا﴾: حجة وبرهانا. ﴿إما يأتينكم﴾: أصلها إن ما يأتينكم وما حرف يدل على عموم الأحوال أي في أي حال يأتينكم رسل إلخ.

﴿لا يستأخرون ساعة﴾: يطلق العرب الساعة على جزء من الزمن قليل كما هنا، وكلفظ ﴿ساعة﴾ الثاني في قوله تعالى:

﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة﴾ الآية (٥٥) من سورة لقمان صفحة ٥٣٨. أما لفظ ﴿ساعة﴾ المستعمل في زمننا المقسم إليه مجموع الليل والنهار إلى أربعة وعشرين جزءًا فهو عرف لم يكن معروفا عند العرب. وجاء لفظ الساعة في لسان الشارع لمعان أخرى. قال الراغب: أصل الساعة جزء من الزمن،

---

(١) الفواحش (٢) سلطانا (٣) يا بني آدم
(٤) آياتي (٥) بآياتنا (٦) أصحاب
(٧) خالدون (٨) بآياته (٩) الكتاب.

وعُبِّرَ به عن القيامة قال تعالى: ﴿اقتربت الساعة﴾ الآية (١) من سورة القمر صفحة ٧٠٤. وقال ابن الأثير فى غريب الحديث : وجاء فى الحديث ذكر الساعة مرادًا بها يوم القيامة. والساعة فى الأصل جزء قليل من النهار أو الليل، ثم استعيرت لاسم يوم القيامة، واستعمل العرب الساعة مجازًا فى نهاية أجل الفرد أو الأمة، فيقولون جاءت ساعة فلان وقامت قيامته يريدون جاء وقت موته ويسمونها الساعة الصغرى أو القيامة الصغرى، ومن ذلك فى القرآن ﴿قل أرأيتكم إن آتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين﴾ الآية (٤٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ فالساعة هنا هى القيامة الصغرى، لأن الوقت الذى يجاب فيه الدعاء ويكشف فيه الضر لا يكون إلا فى الدنيا وقبل حصول سكرات الموت أنظر آيات (٩٠، ٩١) من سورة يونس صفحة ٢٨٠ فالمراد أو أتتكم مقدمات الموت ولذلك قال العلماء للساعة ثلاثة إطلاقات : ساعة كبرى، وصغرى، ووسطى.

فالساعة الكبرى هى ما تكون عند النفخة الأولى المذكورة فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ وأيضا فى الآية (١٨) من سورة محمد صفحة ٦٧٥.

والساعة الصغرى هى ما تكون عند موت كل فرد؛ والساعة الوسطى هى ما تكون عند هلاك أمة أو ذهاب سلطانها. وقد يطلق على الساعة الكبرى هذه اسم يوم القيامة أيضًا توسعا انظر الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٤ كما يطلقون لفظ ﴿ساعة﴾ على يوم البعث كالساعة الأولى فى الآية (٥٥) من سورة لقمان صفحة ٥٣٨ المذكورة سابقا. ﴿ولا يستأخرون﴾ هذه الجملة معطوفة على كل الجملة الشرطية قبلها، لا على جزائها فقط والمعنى إذا جاء أجلهم لا يستأخرون عنه لحظة كما أنهم لا يتقدمون عليه قبل حلوله. انظر بقية شرحها فى الآية (٤٩) من سورة يونس صفحة ٢٧٤. ﴿ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ : أى يصل إليهم نصيبهم المكتوب لهم عند الله من الأرزاق والأعمال.

المعنى : . كهذا التفصيل نفصل سائر الأحكام لقوم يعلمون ما فيها من الحكم والأسرار، فيسارعون للعمل بها. وبعد ما أنكر سبحانه عليهم تحريم ما أحله من الزينة وطيبات الأرزاق، أتبع ذلك بأصول المحرمات العامة فقال: قل أيها النبى لهؤلاء المشركين وغيرهم إنما حرم ربى فى كتبه وعلى لسان رسله هذه الموبقات الخمس: الفواحش الظاهرة والباطنة، والإثم،

والبغى الذى لا يكون إلا بالباطل، وهو من ذكر الخاص بعد العام، والشرك بالله بدون حجة، وهذا تهكم بهم لأنه يستحيل أن يقام دليل على الشرك، وأن تفتروا على الله فى التحريم والتحليل والولد والصاحبة من كل ما تتهجمون على مقامه عز وجل بدون علم. وبعد ما بين سبحانه أصول المحرمات والمفاسد المهلكة للأمم قال سبحانه :

﴿ولكل أمة أجل﴾ أى قل لهم أيها النبى أيضا لكل أمة أجل أى وقت محدد لحياتها وسعادتها لا تتعداه، تنتهى بحلول الأجل حياتها، كأمم نوح وعاد وثمود وغيرهم ممَنْ أهلكهم الله جميعا، وقد تنتهى بحلوله سعادتها واستقلالها فتقع فى الذل تحت حكم غيرها، وذلك لا يكون إلا بانحرافها عن الاستقامة وارتكابها هذه الموبقات التى حرمها الله تعالى فيما سبق، فإذا جاء أجل الأمة لا يستأخرون لحظة كما أنهم لا يتقدمون عليه. فالمعنى أنهم لا يتقدمون على الأجل المحدود وإذا جاء لا يستأخرون عنه، فتنبه وبعد ما قرر سبحانه لكل أمة أجلا لا تسبقه ولا تتعداه، أراد أن يبين ما خاطب به كل أمة على لسان رسولها مبينا لها أصول الدين الذى شرعه لهدايتها، ونبهها إلى أنها إن اتقت وأصلحت فلا خوف عليها فى الآخرة، وإن استكبرت وكذبت الرسل كانت عاقبتها جهنم، فقال:

يا بنى آدم، أى سبق أنى قلت لكل أمة يا بنى آدم إن جاءكم فى أى حال من الأحوال رسل منكم يقرءون عليكم كتبى، فمَنْ اتقى منكم الشرك وأصلح عمله فلا يخاف من هول القيامة، ولا يحزن لفوات مرغوب. والذين يكذبون منكم بآياتنا ويستكبرون عن الإيمان بها أولئك يلازمون النار خالدين فيها. وبعدما بيَّن سبحانه جزاء المكذب بآياته أراد أن يبين أن مَنْ أشدهم ظلما مَنْ يكذب عليه أو يكذب بآياته فقال: فمَنْ أظلم أى لا أحد أشد ظلما ممَنْ كذب على الله ونسب إليه الباطل، أو كذب آياته التى أنزلها على رسله. أولئك المفترون والمكذبون يستوفون ما كتب من الأعمال والأعمار والأرزاق إلى أن تأتيهم ملائكة الموت يقبضون أرواحهم، وقالوا لهم أين الآلهة التى كنتم تعبدونها من دون الله ليدافعوا عنكم؟ قالوا غابوا عنا فلا نرى لهم وجودا. وبهذا اعترفوا على أنفسهم بالكفر.

كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم
مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا
هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ
ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ
فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ
تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا
لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ
ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾
لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ

المفردات : ﴿قال ادخلوا فى أمم﴾ إلخ

﴿قال﴾ أى الله سبحانه على لسان الملائكة، وإذا راجعت ما قلناه فى شرح الآية (٩) من سورة الحج صحة ٤٢٤ تعلم أن الله سبحانه يعلن هؤلاء أنه حكم عليهم حكما مقطوعًا به حتى كأنه تحقق وصار يخبر عنه. وذلك الحكم أنكم ستدخلون بعد الحساب يوم القيامة فى جهنم محشورين مع أمم مضت قبلكم.

﴿قد خلت﴾ : أى مضت.

﴿ادَّاركوا فيها﴾ : أصله تداركوا، أى أدرك بعضهم بعضا وتلاحقوا واجتمعوا فى النار.

﴿أخراهم﴾ : منزلة وهم الأتباع.

﴿لأولاهم﴾ : منزلة وهم القادة والرؤساء؛ اللام بمعنى ﴿عن﴾ أو ﴿فى﴾ أى قال الأتباع فى شأن الزعماء يا ربنا هؤلاء أضلونا.. إلخ.

﴿ضعفا﴾ : مضاعفا أى مثلين، لضلالهم فى أنفسهم، ولإضلالهم غيرهم.

﴿الجمل﴾ : هو الحبل الغليظ الذى تربط به السفن.

﴿سم الخياط﴾ : سم ثقب، والخياط هى الإبرة.

---

(١) كافرين (٢) أخراهم (٣) لأولاهم
(٤) فآتهم (٥) أولاهم (٦) لأخراهم
(٧) بآياتنا (٨) أبواب (٩) الظالمين
(١٠) الصالحات (١١) أصحاب.

﴿مهاد﴾ : فراش من تحتهم.

﴿غواش﴾ : قمع غاشية وهى الغطاء؛ انظر الآية (١٦) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨. والمراد أن النار محيطة بهم.

المعنى : . وشهدوا واعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا بدعائهم آلهة من دون الله كافرين. والمراد تحذير المشركين وحملهم على التأمل فيما سيلاقيهم إذا استمروا على شركهم.

وتقول لهم الملائكة بأمره تعالى ادخلوا فى عداد أمم قد مضت من قبلكم من الجن والإنس وعملوا مثل عملكم. وهذا يشعر بأنه سبحانه يدخل الكافرين فى جهنم أفواجا، فوجا بعد فوج لا دفعة واحدة؛ ولذا قال:

كلما دخلت أمة منهم فى النار لعنت أختها فى الكفر والتى سبقتها للنار؛ انظر الآية (٢٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤ والآية (٧١) من سورة الزمر صفحة ٦١٦. حتى إذا أدرك بعضهم بعضا واجتمعوا فى النار قالت الأتباع مخاطبة الرب سبحانه بخصوص القادة:

ياربنا هؤلاء الرؤساء هم الذين أضلونا فجازهم بعذاب مضاعف من النار. فيقول سبحانه : لكل منكم ومنهم عذاب مضاعف؛ أما الرؤساء فلما تقدم، وأما الأتباع فإنهم بتقليدهم الأعمى فى العقيدة التى لا يجوز فيها التقليد جمعوا مع ضلالهم جرما آخر هو زيادة ضلال الرؤساء وطغيانهم، والتقرير بالبسطاء الذين لم يقعوا فى شباك الرؤساء، ولكنكم لا تعلمون ما أعد لكل منكم. وانظر هذا الجدال بينهما فى الآيات (١٦٥ - ١٦٧) من سورة البقرة صفحتى ٣١، ٣٢، و (٣١ - ٣٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٧. وقالت أولاهم لأخراهم حين سمعوا جوابه تعالى: فما كان لكم علينا بعد هذا البيان فضل، أى لا مزية لكم علينا تقتضى تخفيف العذاب عنكم دوننا بل نحن متساوون فى العذاب ومضاعفته.

ويقول القادة للأتباع على سبيل التشفى: فذوقوا العذاب المضاعف بسبب كسبكم ما استحققتموه به. ثم قال سبحانه مبينا سبب سوء خاتمة هؤلاء : إن الذين كذبوا بآياتنا التى جاء بها الرسل واستكبروا عن الإيمان بها لا تفتح لهم أبواب السماء، أى لا يقبل لهم دعاء ولا عمل، وبهذا لا يدخلون الجنة إلا إذا دخل حبل السفينة الغليظ فى ثقب الإبرة، والمراد أنه مستحيل. وبمثل هذا الجزاء العادل نجزى كل مجرم؛ ثم فصَّل بعض هذا الجزاء فقال: لهم من جهنم فراش، ولهم منها غطاء، ومثل هذا الجزاء يخزى الظالمين، والمراد أنهم جمعوا بين الشرك والإجرام والظلم. ولما ذكر جزاء الكافر العاصى ناسب أن يقترن به جزاء المؤمن الطائع كعادة القرآن، فقال: والذين آمنوا وعملوا الصالحات، التى ما كلفناهم بها إلا وهى فى طاقتهم لا صعوبة فيها، أولئك هم أصحاب الجنة خالدين فيها.

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[1] (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ
تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ[2] وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا[3]
لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا[4] اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ
رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ[5] الْجَنَّةِ أَصْحَابَ[6] النَّارِ
أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ
رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ
اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ[7] (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ[8] (٤٥) وَبَيْنَهُمَا
حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ[9]
وَنَادَوْا أَصْحَابَ[10] الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ[11] عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا
وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ[12] تِلْقَاءَ

المفردات :. ﴿غِلّ﴾ : حقد كما فى الآية (٤٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤١ والآية (١٠) من سورة الحشر صفحة ٧٣١. ﴿أذن مؤذن﴾ : أى نادى مناد.

﴿بينهم﴾ : أى موجود فى مكان متوسط بين الفريقين.

﴿يصدون﴾ : الأصل صدوا فى الدنيا ولكن عبر بالمضارع لاستحضار الصور العجيبة فى البشاعة.

﴿يبغونها عوجا﴾ : أى يطلبون لها الاعوجاج والتناقض كما تقدم فى الآية (٩٩) من سورة آل عمران صفحة ٧٩.

﴿حجاب﴾: هو السور المذكور فى الآية (١٣) من سورة الحديد صفحة ٧٢٠.

﴿الأعراف﴾ : جمع عرف بوزن قفل وهو اسم لأعالى الأشياء ومنه عرف الديك، وعرف الفرس والمراد به هنا أعلى السور.

﴿سيماهم﴾ : علاماتهم المميزة لهم عن غيرهم. ﴿تلقاء﴾ : أى جهة.

المعنى :. ونزعنا ما كان فى قلوبهم من حقد فى الدنيا ليكونوا إخوانا على سرر متقابلين؛ انظر الآية (٤٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤١، حال كونهم تجرى من تحت غرفهم فى الجنة

---

(١) خالدون (٢) الأنهار (٣، ٤) هدانا
(٥، ٦) أصحاب (٧) الظالمين (٨) كافرون
(٩) بسيماهم (١٠) أصحاب (١١) سلام
(١٢) أبصارهم.

الأنهار، قائلين شكرا لله : الحمد لله الذى هدانا وأرشدنا لما هو وسيلة لهذا النعيم، وما كان فى استطاعتنا أن نهتدى بأنفسنا لكل سبل الخير لولا أن أرشدنا الله تعالى إليها بإرسال الرسل يبينون لنا ما فيه سعادتنا، فقد جاءت رسل ربنا بالحق الثابت الذى لا يخالطه باطل. وناداهم مناد بأن قال لهم: تلكم هى الجنة العالية المنزلة البعيدة المنال لغير أهلها التى أعطاها الله تعالى لكم بفضله جزاء عملكم الصالح. وبعد أن ذكر سبحانه أصحاب النار وأصحاب الجنة، أراد أن يبين لنا ما يكون بين الفريقين من الحوار، فقال عز وجل: ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ أى نادوا، على أصحاب النار قائلين فى ندائهم: إننا وجدنا ما وعدنا ربنا من الثواب حقا ثابتا لم يتخلف، فهل وجدتم أنتم أيضا ما وعدكم ربكم من العذاب حقا؟ ومرادهم بهذا الاعتراف بفضله والشماتة بالكفار. والتعبير بالوعد فى جانب العذاب معهود فى القرآن وإن كان أقل من الوعيد يؤتى به للتهكم، نظير قوله تعالى: ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ انظر الآية (٢٦٨) من سورة البقرة صفحة ٥٧، والآية (٦٨) من سورة التوبة صفحة ٢٥٢، والآية (٧٢) من سورة الحج صفحتى ٤٤٣، ٤٤٤. وهذا على أن الدارين فى أرض واحدة يفصل بينهما سور لا يمنع من اطلاع أهل الجنة وهم فى عليين على أهل النار وهم فى سجين. وقد كان هذا بعيد التصور فى العصور الأولى، أما الآن وبعد أن قدر البشر على أن يتخاطب مَنْ فى أقصى الشرق مع مَنْ فى أقصى الغرب مع رؤية كل منهما للآخر بواسطة (تليفزيون). فلا يبعد على القدير عز وجل أن يجعل أهل الآخرة يتراءون ويتخاطبون مع بعد الشقة كما يتخاطب الجليس مع جليسه. وشئون الآخرة لا يعلمها إلا هو عز وجل. وعندما يعترف أهل النار بصدق وعد الله ينادى مناد من قبل الله تعالى قائلا: لعنة الله وغضبه على الظالمين الذين كانوا فى الدنيا يمنعون الناس عن دين الله، ويعملون مجتهدين على جعله فى نظر الناس معوجًا بتحريفه وتغييره حسب شهواتهم، وهم بالدار الآخرة كافرون. وبين الجنة والنار وأصحابهما سور قد اعتلاه رجال أى ونساء وإنما قصر الكلام على الرجال لأن الكثير أن يكون التخاطب فى مثل هذه الحالة بين الرجال، وهؤلاء الواقفون على الأعراف هم مَنْ استوت حسناتهم وسيئاتهم، بعد أن اتجه مَنْ غلبت حسناته إلى الجنة، ومَنْ غلبت سيئاته إلى جهنم. يعرف هؤلاء الرجال كلا من الفريقين : فريق الجنة، وفريق النار بعلاماتهم المذكورة فى الآية (٣٨) وما بعدها لآخر سورة عبس صفحة ٧٩٣. ويظهر أن ما يحصل من أهل الأعراف من هذا النداء هنا يكون قبل دخول الفريقين الجنة والنار، إذ لو كان بعده لكانت معرفتهم بدخولهم لا بالعلامات فتنبه وتأمل وقال بعضهم: إنه بعد دخولهم الجنة وتكون الباء فى ﴿بسيماهم﴾ للمصاحبة لا للسببية، أى يعرفون كلا من الفريقين وهو مصاحب ومتصف

أَصْحَٰبِ[1] ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ[2] ﴿٤٧﴾
وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ[3] ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ[4]
قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾
أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ
لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ[5]
ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ[6] ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا
رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ[7] ﴿٥٠﴾
ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ[8] ٱلدُّنْيَا
فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ[9] كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا[10] يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم[11] بِكِتَٰبٍ[12] فَصَّلْنَٰهُ[13]
عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ
إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن

بصفته. ونادى أهل الأعراف على أصحاب الجنة قائلين : سلام وأمان من الله عليكم، أى نهنئكم بذلك، والحال أن أهل الأعراف لم يدخلوا الجنة ولكنهم يطمعون فى كرم الله ليدخلوها. وهذا ما سيحصل آخر الأمر. وإذا صرفت أبصار أصحاب الأعراف جهة....

المفردات :. ﴿حرمهما﴾ : أى منعهما، فالتحريم بمعنى المنع لا التحريم الشرعى، انظر آية (٧٢) من سورة المائدة صفحتى ١٥١، ١٥٢ و (١٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٧.

﴿لهوا﴾ : اللهو ما يشغل الإنسان عن الجد. ﴿ولعبا﴾ : اللعب هو ما تقصد منه فائدة صحيحة كأعمال الأطفال. ﴿ينظرون﴾ : ينتظرون تأويله: عاقبة أمره وما يئول إليه ما أخبر به من الوعد والوعيد.

﴿نسوه﴾ : المراد تركوا العمل به انظر الآية (١١٥) من سورة طه صفحة ٤١٧.

المعنى :. وإذا صرفت أبصارهم من غير رغبة منهم، بل بمقتضى سرعة تحولها من جهة إلى جهة؛ ولذا لم يقل: وإذا صرفوا أبصارهم جهة أصحاب النار، قالوا ربنا إلخ، أى استعاذوا بالله وفزعوا إلى رحمته أن لا يجعلهم منهم ونادى أصحاب الأعراف، كرر ذكرهم ولم يقل ونادوا، لأن النادمين هنا غير المتقدمين، والموضوع غير الموضوع. فالمراد من أصحاب الأعراف هنا قوم ممن كانوا فى مكة أيام طغيان كفار قريش، والرجال المنادى عليهم هم

---

(١) أصحاب (٢) الظالمين (٣) أصحاب
(٤) بسيماهم (٥، ٦) أصحاب (٧) الكافرين
(٨) الحياة (٩) ننساهم (١٠) بآياتنا
(١١) جئناهم (١٢) بكتاب (١٣) فصلناه

رؤساء المشركين كأبى جهل والوليد بن المغيرة وغيرهما، يعرفونهم بعلامات كانوا يعرفونهم بها فى الدنيا، وقالوا لهم توبيخا وتبكيتا: ما أغنى عنكم جمعكم للمال والرجال لقتال المسلمين واستكباركم على ضعفاء المؤمنين الذين عذبتموهم وسخرتم منهم أهؤلاء المستضعفون كبلال وآل ياسر هم الذين أقسمتم فى الدنيا على أن لا ينالهم الله برحمته لأنه لم يعطهم من الدنيا ما أعطاكم! فانظروا الآن كيف قال لهم الرحمن : ادخلوا الجنة لا خوف عليكم من مكروه ولا تحزنون لفوات مرغوب، انظر ما كانوا يقولونه فى هؤلاء الضعفاء فى الدنيا وما كان يقوله أمثالهم من كفار الأمم السابقة فى الضعفاء أمثالهم فى آيات (٢٧ إلى ٣١) من سورة هود صفحتى ٢٨٨، ٢٨٩، والآية (٢٨) من سورة الكهف صفحة ٣٨٤، والآية (١١١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦، والآية (١١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧. وبعد ما فرغ سبحانه من مخاطبة أصحاب الأعراف شرع فى بيان ما سيكون من الحوار بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ليتنبه الغافل ويرجع الكافر فقال: ونادى أصحاب النار لما اشتد بهم العطش والجوع على أصحاب الجنة قائلين: أفيضوا أى أعطونا شيئا من الماء أو مما رزقكم الله من الطعام. قالوا ردا عليهم : لانعطيكم شيئا لأن الله منعهما عن الكافرين. وهنا انتهى كلام أهل الجنة.

ثم بيَّن سبحانه بعض أسباب كفرهم فقال: الذين اتخذوا دينهم الذى كان يجب أن يحترموه لهوا ولعبا، فحرموا وحللوا حسب شهواتهم، واغتروا بزخارف الدنيا وزينتها، ثم قال تعالى تفريعا على رد أصحاب الجنة : لهذا نتركهم فى يوم الجزاء خالدين فى العذاب لنسيانهم لقاء ربهم فى يومهم هذا بإنكارهم البعث وجحودهم المستمر لآيات الله، فالكاف هنا كالكاف فى الآية (١٩٨) من سورة البقرة صفحة ٣٩ للتعليل. ثم تكلم سبحانه عن كفار مكة فقال: ولقد جئناهم بكتاب هو القرآن فصلنا حلاله وحرامه ومواعظه وقصصه، عالمين بحكمة كل ما فيه، حال كونه أكبر هاد للصواب، ورحمة بالعباد الذين استعدوا بسلامة فطرتهم للإيمان ﴿هل ينظرون﴾ الاستفهام للإنكار المفيد للنفى، أى ليس أمامهم شىء ينتظرونه إلا حصول ما يئول إليه أمر أخباره ووعده ووعيده، وهو خذلانهم فى الدنيا وخلودهم فى النار فى الآخرة. يوم يأتى ويحصل ما أخبر به يقول الذين تركوا هذا الكتاب.

قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن
شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ
قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾
إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ[١] وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ[٢] النَّهَارَ يَطْلُبُهُ
حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ[٣] بِأَمْرِهِ ۗ
أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ[٤] ﴿٥٤﴾
ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾
وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا[٥] وَادْعُوهُ خَوْفًا
وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ[٦] اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ
الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ[٧] بُشْرًا[٨] بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ
إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ[٩] لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ

المفردات : ﴿ستة أيام﴾ : يطلق اليوم على جزء من الزمن يتميز عن غيره بما يحدث فيه كيومنا المعروف الذى يعرف بالنور والظلمة. وأيام العرب هى مدة الحروب التى كانت تدور بينهم ويطلقونها على ما فيها. انظر الآية (٥) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٠ وأيام الله المذكورة فى سورة إبراهيم هى الأحداث التى حلت بالأمم.

أما اليوم هنا فهو مدة من الزمن الذى حدده الله لانتقال المخلوقات من حال إلى حال فى مبدأ الخلقة، ولا يعلم تحديده غيره تعالى وقد يراد به لحظة. انظر الآية (٢٩) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠، وله أيام أخر حددها تقريبا لأذهاننا تارة بألف سنة كما فى الآية (٤٧) من سورة الحج صفحة ٤٤٠ والآية (٥) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥ وتارة بخمسين ألف سنة كما فى الآية (٤) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥.

﴿يغشى الليل النهار﴾: أى يغطيه به ويجعله غشاء وسترا له. ﴿حثيثا﴾ : سريعا. ﴿تضرعا﴾ : هو التذلل ومنتهى الخشوع، والمراد به هنا الصفة، أى متضرعين. ﴿بشرا﴾: أصلها بشرا بضم أوله وثانيه ـ جمع بشير، كنذر ونذير، وسكنت الشين لتخفيف النطق به ﴿بين يدى﴾ : أى أمام

(١) السموات
(٢) الليل
(٣) مسخرات
(٤) العالمين
(٥) اصلاحها
(٦) رحمة
(٧) الرياح
(٨) بشرى
(٩) سقناه.

﴿رحمته﴾ : المراد بها هنا المطر الذى هو من أجلّ نعمه ورحمته تعالى لأن جميع المياه العذبة التى بها الحياة والنبات من ماء المطر، سواء منها ما كان فى الأنهار أو فى جوف الأرض، انظر الآية (٢٤) من سورة الروم صفحة ٥٣٣، وهذا الماء العذب هو الذى ينقذ الخلق من الظمأ والقحط.

﴿أقلت سحابا﴾ أى حملته ورفعته. ﴿بلد ميت﴾ : أى ليس بأرضه ماء ولا نبات، فهو جاف قحل لا ينتفع به كما لا ينتفع بالميت؛ انظر الآية (١٦٤) من سورة البقرة صفحة ٣١، والآية (٢٤) من سورة يونس صفحتى ٢٦٩، ٢٧٠ وآيات (١٩، ٢٤، ٥٠) من سورة الروم صفحات ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٧ والآية (٩) من سورة فاطر صفحة ٥٧٢، والآية (٣٣) من سورة يس صفحة ٥٨٢، وغير ذلك فى القرآن كثير.

المعنى : . يوم يأتى ما وعد به القرآن عند نهاية العالم وترتفع الحجب يقول الذين تركوا القرآن كالمنسى من قبل فى الدنيا : قد جاءت رسل ربنا بالحق، أى يعترفون بصحة ما جاءت به الرسل فى وقت لا ينفع فيه إيمان، ثم يتمنون أحد أمرين لإنقاذهم: إما شفعاء يشفعون لهم، أو رجوعهم إلى الدنيا كما فى آيات (١٠٠، ١٠١، ١٠٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦، والآية (٢٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، فكأنهم يقولون : هل لنا من شفعاء أو هل نرد أى نرجع إلى الدنيا ثم شرح سبحانه حالهم بقوله: قد خسروا أنفسهم فى الدنيا بتدنيسها بالشرك والمعاصى وضل أى غاب عنهم ما كانوا يفترونه من آلهة تقربهم من الله كما فى الآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦، وتشفع لهم. وبعد ما بين سبحانه حال المشركين فى الآخرة أتبع ذلك بخمسة أدلة على وحدانيته وقدرته موجبة قصر العبادة والدعاء عليه تعالى فقال.

﴿إن ربكم الله﴾ إلخ؛ أى إن الرب الحق لكم يا جميع المكلفين هو الله الذى خلق السموات والأرض أى وما فيهما كما فى الآية (٤) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥، ثم استوى على العرش، المراد أنه سبحانه بعد تكوين هذا الملك استوى على عرشه استواء يليق به، يدبر

أمره ويصرف نظامه على حسب حكمته، انظر الآية ٣ من سورة يونس صفحة ٢٦٥ وآيتى (٢، ٣) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٠، ٣٢١.

والعرب تكنى بالاستواء على العرش عن التملك. والعقل عاجز عن معرفة حقيقة الله عز وجل وصفاته، ويقطع بأنها ليس كمثلها شىء، فقدرته وعلمه وبصره وسمعه مثلا ليست كما هى عندنا، فكذا عرشه واستواؤه، وإنما الذى نفهمه ويكلفنا الله تعالى به هو أن نعتقد أن أمر الملك والتصرف فيه إنما هو لله وحده. وقد حكم السلف على مَنْ بحث فى حقيقة ذلك بأنه مبتدع يجب زجره . ثم ذكر سبحانه بعض تصريفه للكون فقال:

﴿يغشى الليل النهار﴾ أى يجعل الليل يستر ضوء النهار حال كونه يتبعه مسرعا كالطالب له بدون تراخ. وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونها مسخرات، أى مذللات خاضعات لأمره وتصريفه. ﴿ألا﴾ كلمة يراد بها تنبيه السامع والقارئ لما بعدها ليتأمله، أى تنبه فإن لله وحده خلق كل شىء، وله الأمر فيه بالتشريع والتدبير والتصرف.

﴿تبارك الله﴾ أى تعاظمت وتزايدت بركاته. وبعد ما ذكر سبحانه دليل توحيده أمر بما يجب أن يكون لازما لها وهو إفراده سبحانه بالدعاء والعبادة، فقال :

ادعوا ربكم متضرعين مخفين، لأنه أبعد عن الرياء، فلا يطلب رفع الصوت به إلا فيما شرع الله فيه الرفع لحكمة، كالأذان، وتكبير العيد، والتلبية فى الحج؛ لأنه سبحانه لا يحب المعتدين فى الدعاء، كما لا يحبهم فى كل شىء. والاعتداء فى الدعاء المبالغة فيه بما لا ينبغى ولا يجوز. ولا تفسدوا فى الأرض بالمعصية والظلم بعد إصلاح الله تعالى لها بما خلق فيها من المنافع، فلا تقلبوا النافع ضارًا، وادعوه سبحانه خائفين من غضبه، فتبعدوا عن سببه، وطمعا فى رحمته. ويفهم من الكلام تغليب الخوف على الرجاء ليأمن العبد الوقوع فى الخطر. ادعوه ولا تخشوا رد دعاء المخلص؛ لأن رحمته تعالى أى إحسانه قريب من المحسنين لأعمالهم، فلا يرد لهم دعاء. ومن دلائل قدرته أنه هو الذى يرسل الرياح مبشرة المجدبين أمام المطر، ولا تكاد تجد القرآن يذكر الرياح جمعا إلا فى الخير، ولا الريح مفردة إلا فى العذاب والشر؛ حتى إذا حملت الرياح سحابا ثقالا بالماء سقنا هذا السحاب إلى بلد ميت قحل، انظر آية (٩) من سورة فاطر صفحة ٥٧٢، فأنزلنا بسبب هذا السحاب الماء...

ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ (١) كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ
ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ
بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ
نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ (٢) لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ
قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ (٣) ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ
إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ
مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ (٤) فِى ضَلَٰلٍ (٥) مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ (٦)
لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ (٧) وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨) ﴿٦١﴾
أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ (٩) رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ
رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ (١٠) وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ

المفردات : ﴿البلد الطيب﴾ : أى الأرض الطيبة التربة الخصبة. ﴿خبث﴾ : أى ردئ التربة كالسبخة. ﴿نكدًا﴾ : هو ما لا يخرج إلا بعسر وصعوبة. ﴿الملأ﴾ : هم الأشراف والسادة الذين يملئون العيون مهابة.

﴿رسالات ربى﴾ : أراد بها ما أوحى إليه فى الأزمان الطويلة متفرقا من الأوامر والنواهى والمواعظ وكل المعانى المختلفة. ﴿ذكر من ربكم﴾ : موعظة وتذكير.

﴿على رجل منكم﴾ : على لسان رجل ﴿الفلك﴾ : العظيم من السفن.

المعنى :. فأخرجنا بالسحاب بواسطة مائه ثمرات كثيرة. كإخراج الثمرات هذه نخرج الموتى يوم القيامة لعلكم تذكرون قدرتنا فتؤمنون بالبعث، إذ لا فرق بين الإخراجين. والبلد الطيب يخرج نباته بسهولة بتيسير الله، والبلد الخبيث التربة لا يخرج نباته مع قلته إلا بعسر وصعوبة قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر والبار والفاجر؛ فالوعظ والإرشاد ينفع المؤمن الصالح، ولا يؤثر فى الكافر والفاجر ومثل هذا التصريف والتنويع نصرف الآيات ونرددها لقوم يشكرون نعمه تعالى فيتفكرون ويعتبرون. ثم شرع سبحانه فى ذكر ما حصل لبعض الأنبياء مع أممهم ليعتبر العاقل بما حصل فيبتعد عن سبب غضب الله وعذابه فقال: لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال لهم يا قوم اعبدوا الله وحده لأنه ليس لكم إله غيره، وإذا لم تفردوه بالعبادة فإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، هو يوم نزول العذاب بهم فى الدنيا والآخرة، فقال كبار القوم المترفون : إنا لنراك يا نوح فى ضلال عن الصواب ظاهر واضح قال: يا قوم ليس بى أقل ضلال وهو الضلالة الواحدة، ثم استدرك لتأكيد نفى الضلال فقال: ولكنى رسول من رب العالمين، أى لست بعيدا عن الضلال فقط بل أنا رسول إلخ، فأنا على صراط مستقيم، جئت أبلغكم رسالة ربى فى المواضيع المختلفة وأنصح لكم بسلوك طريق الخير، لأنى أعلم من الله

---

(١) الثمرات (٢) الآيات (٣) يا قوم (٤) لنراك (٥) ضلال
(٦) يا قوم (٧) ضلالة (٨) العالمين (٩) رسالات (١٠) فأنجيناه

كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين ﴿٦٤﴾ * وإلى عاد
أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره
أفلا تتقون ﴿٦٥﴾ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا
لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴿٦٦﴾
قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب
العالمين ﴿٦٧﴾ أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح
أمين ﴿٦٨﴾ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل
منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد
قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء
الله لعلكم تفلحون ﴿٦٩﴾ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده
ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت
من الصادقين ﴿٧٠﴾ قال قد وقع عليكم من ربكم

مالا تعلمون، فهو رحيم غفور لمن تاب ورجع إليه، وشديد العذاب لمَنْ كفر به وعصاه، فهل بعد هذا كذبتم وعجبتم من أن يجيئكم ذكر وموعظة من ربكم على لسان رجل منكم ليحذركم عاقبة الكفر، ولتتقوا الله وتخافوه لعله يرحمكم. فكذبوه فى دعوى الرسالة، فأنجيناه والذين كانوا معه وصحبوه فى الفلك، وهم الذين آمنوا به وكانوا قليلين: انظر الآية (٤٠) من سورة هود صفحة ٢٩٠. وأغرقنا جميع الباقى الذين كذبوا باياتنا....

المفردات :. ﴿عمين﴾ : جمع عم بالتنوين. وأصله عمى بكسر الميم والياء منونة، بوزن كتف وهو فاقد نور البصيرة والأعمى فاقد نورالعين؛ قال زهير:

ولكننى عن علم ما فى غد عم.

﴿بسطة﴾ : أى سعة فى الملك وقوة الأبدان، فكانوا أطول ما فى العالم أجساما وأقوى أبدانا.

﴿آلاء الله﴾ : نعمه مفردها إلى بكسر فسكون كحمل وأحمال. ﴿نذر﴾ : أى نترك.

المعنى :. أنجينا نوحا ومَنْ معه. وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فلم يؤمنوا؛ لأنهم كانوا عمى القلوب.

وأرسلنا إلى عاد وهى قبيلة كبيرة كانت فى اليمن تعبد الأصنام، أخاهم هودا، قال : يا قوم اعبدوا الله وحده مالكم إله غيره، أفلا تتقون عذابه؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه، وهذا يفيد أن من أشراف قوم هود مَنْ آمن به بخلاف قوم نوح فإنه لم يؤمن به من هؤلاء الأشراف أحد: إنّا لنراك فى سفاهة، أى خفة عقل وطيش، لأنك تأمر بترك دين قومك إلى دين آخر وإنّا لنظنك من الكاذبين فى ادعائك الرسالة. قال : يا قوم ليس عندى سفاهة أبدا بل أنا رسول من رب العالمين إليكم، أرسلنى أبلغكم رسالات ربى، كما قال نوح، وأنا لكم ناصح فيما

(١) بآياتنا (٢) يا قوم (٣) لنراك (٤) الكاذبين (٥) يا قوم
(٦) العالمين (٧) رسالات (٨) بسطة (٩) آلاء (١٠) الصادقين.

ادعـوكم إليـه، أمـين على مـا أقـول وعلى مـصلحـتكم. أعَجبـتم أن جـاءكم ذكـر من ربكم إلى آخـر مـا تقـدم فى قـول نوح، وأراد حـملهم على التوحيد بتذكيرهم بنعم الله عليهم فقال: واذكـروا فـضل الله حـين جـعلكم خلفـاءه فى الأرض من بعد ذهاب قوم نوح، وزادكم من بين الخلق بسطة، فـاذكروا نعم الله بالشكـر عليها ليـديمـهـا عليكم، ولا يكون ذلك إلا بعـبـادته وحده، لعلكم تفوزون بما فيه سعادتكم قالوا فى ردهم عليه: أجئتنا لنعبد الله وحده ونترك ما كان يعبد آباؤنا؟ كلا، بل لابد من عبادتهم مع الله والتوسط بهم عنده ليكونوا شفعاء لنا عنده، فـأتنا بما تعدنا من العذاب إن كنت من الصادقين، انظر آيات من (١٢٢ إلى ١٣٩).

رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي[1] فِيٓ أَسْمَآءٖ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٖ[2] فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم
مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ[3] وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا
وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا[4] وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾
وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحٗا[5] قَالَ يَٰقَوْمِ[6] ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ
نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا
تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ
إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ
تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتٗاۖ
فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ[7] ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ

من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٧، ٤٨٨ قال قد وقع ونزل، أى لابد من نزوله؛ فكأنه وقع عليهم.....

المفردات : ﴿رجس﴾ : أى عذاب. ﴿سلطان﴾ : برهان. ﴿دابر القوم﴾ : أصل الدابر خلف الشيء الذى يكون وراءه، والمراد هلكوا عن آخرهم. ﴿آية﴾ : أى أن أحوالها معجزة تدل على تمام قدرتنا على ما نريده من كل أمر خارق للعادة، لأنها كانت تشرب كل الماء الذى يكفى القوم جميعا فى يوم واحد، وقسَّم سبحانه الماء بينهم وبينها، فجعل لها الماء يوما خاصًا بها، وجعله لهم يوما خاصًا بهم، انظر الآية (١٥٥) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٩ وآيتى (٢٧، ٢٨) من سورة القمر صفحة ٧٠٦. ﴿فذروها﴾ : اتركوها. ﴿بواكم﴾ : أى أنزلكم فى مباءة وهى المكان الذى ينزل فيه. ﴿آلاء الله﴾ : أى نعمه تعالى كما تقدم. ﴿تعثوا فى الأرض﴾ : يقال عثى يعثى من باب ضرب وعلم، وعثى يعثو، وكلها بمعنى أفسد، فمفسدين بعدها لإفادة معنى الثبات على الفساد، انظر الآية (٨٥) من سورة هود صفحة ٢٩٧.

(١) أتجادلوننى (٢) سلطان (٣) فأنجيناه (٤) بآياتنا (٥) صالحا (٦) يا قوم (٧) آلاء.

المعنى :. قال قد تحقق وقوع العذاب والغضب من الله ربكم الذى خلقكم ورزقكم فعبدتم معه غيره، وهل يصح أن تجادلونى فى الدفاع عن أشياء ماهى إلا أسماء ليس لها معنى، لأنهم سموا الأصنام آلهة وليس فيها شىء من معنى الألوهية، ما أنزل الله بها حجة تدل على صحتها. وهذا مستحيل لأن الباطل لا دليل له، انظر اعترافهم بيوم القيامة فى الآية (٧٤) من سورة غافر صفحة ٦٢٧. فانتظروا نزول العذاب إنا معكم منتظرون ذلك وستعلمون صدقنا، فنزل العذاب المشار إليه فى الآية (٢٥) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧٠، فأنجيناه والذين معه من المؤمنين برحمة عظيمة منا لا يقدر عليها غيرنا، وقطعنا دابر المكذبين بآياتنا، أى أهلكناهم عن آخرهم، ولو تركوا ما كانوا ليؤمنوا أبدا، فإهلاكهم عدل، ولا فائدة فى إمهالهم؛ انظر الآية (١٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٧.

وأرسلنا إلى ثمود، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام، أخاهم صالحا؛ قال لهم يا قوم اعبدوا الله وحده مالكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة أى حجة ظاهرة شاهدة على صحة نبوتى، ثم بين هذه الحجة فقال : هذه ناقة الله، نسبها له تعالى تعظيما لشأنها، ولأنها كانت فى أحوالها خارقة للمعتاد؛ فقال لهم : هذه ناقة الله لكم آية فذروها أى اتركوها تأكل فى أرض الله، أى هى ناقة الله تعالى تأكل فى أرضه سبحانه فليس لكم منعها، ولا تمسوها بسوء، فإن مسستموها بأذى يأخذكم عذاب شديد الألم. وتذكروا نعمه تعالى عليكم حين جعلكم خلفاء من بعد عاد، وأنزلكم فى مباءة من الأرض تتخذون فى سهولها قصورًا تصيفون فيها، وتنحتون فى الجبال بيوتا تشتون فيها، فاذكروا نعم الله تعالى هذه، ولا تفسدوا فى الأرض بالشرك والطغيان مداومين على الإفساد. عند ذلك أهملوه هو تكبرا عليه، وتوجهوا بالكلام لِمَنْ آمن معه من المستضعفين المنكرين.

المفردات :. ﴿عتوا﴾ : يقال عتا الرجل يعتو بوزن سما يسمو إذا تمرد وتجاوز الحد فى ارتكاب الجرائم حتى صار لا ينفع فيه وعظ ولا تحذير، ويقال أيضا عتا الشيخ الكبير إذا أَسَنَّ وهرم ويبست مفاصله وصار فى حالة يصعب علاجها. وما هنا من المعنى الأول. ومن الثانى ما فى الآية (٨) من سورة مريم صفحتى ٣٩٦، ٣٩٧.

لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا[1] مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ
قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ
إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ[2] ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ
عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ[3] ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ[4] ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ[5] لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ
رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ[6] ﴿٧٩﴾
وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ[7] مَا سَبَقَكُم بِهَا
مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ[8] ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً
مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ
إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ[9] وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ

﴿جاثمين﴾ : الجثوم : البروك على الركب، والمراد هامدين موتى لا حراك بهم.

﴿الرجفة﴾ : الزلزلة والاضطراب الشديد. وعبر هنا بالرجفة وفى الآية (٥) من سورة الحاقه صفحة ٧٦١ بالطاغية: ولا منافاة بين الجميع، فإن الرجفة العظيمة الخارقة للعادة تحصل منها هزة للقلوب تهزها هزا عنيفا. ولخروجها عن المعتاد سميت طاغية لأن الطغيان مجاوزة الحد. ﴿قريتكم﴾ : هى سدوم وكانت فى شرق الأردن كما سيأتى فى الآية (٧٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨.

المعنى : - وجه المستكبرون السؤال للذين استضعفوهم استهزاء بهم وبنبيهم:

هل تعلمون أن صالحا مرسل من ربه حقيقة؟ فرد المؤمنون عليهم أحسن رد، حيث أفهموهم أن رسالته لاشك فيها، وإنما الذى ينبغى أن نخبركم به إنما هو إيماننا نحن به، فنحن مؤمنون بما أرسله الله به، فقال الذين استكبروا متبجحين: إنا بالذى آمنتم به كافرون، واتبعوا ردهم الخبيث بأقبح عمل هو ذبح الناقة التى أخبرهم صالح أنها آية الله وأمرهم بعدم المساس بها، واستكبروا عن امتثال أمر ربهم الذى بلغه لهم صالح، وقالوا مخاطبين صالحا تعجيزا له فى زعمهم ائتنا ما وعدتنا به من العذاب إن كنت من رسل الله حقا. فأخذتهم رجفة شديدة فأصبحوا جثثا هامدة وتحقق ما وعدهم به صالح. عند ذلك تولى وابتعد صالح عنهم وقال متحسرا على عدم قبولهم نصحه متبرئا منهم: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت

---

(١) صالحا (٢) كافرون (٣) يا صالح
(٤) جاثمين (٥) يا قوم (٦) الناصحين
(٧) الفاحشة (٨) العالمين (٩) فأنجيناه.

لكم بقبولها خوف الهلاك، ولكنكم لم تحبوا الناصحين، فليس المراد أنه خاطبهم وسمعوا، بل المراد من قوله هو ما علمت من التحسر والتبرؤ، وتعزية نفسه بأنه لم يقصر فى نصحهم واذكر أيها النبى لقومك ليعتبروا ويحذروا غضب الله، لوطا، وهو نبى الله، وابن أخى إبراهيم عليه السلام، أسكنه عمه إبراهيم قرية سدوم بشرق الأردن قريبا من البحر الميت؛ أى واذكر أيها النبى لوطا الذى أرسلناه لقومه حين قال لهم منكرا عليهم:

هل يصح أن تفعلوا الفعلة المتناهية فى الفحش؟ ومن زيادة جرمكم أنكم أنتم الذين ابتدعتموها؛ لأنه لم يسبقكم بها أحد من العالم كله. ثم بين هذه الفاحشة بقوله: إنكم لتأتون الرجال لمجرد الشهوة لا طلبا للنسل وتركتم النساء كما فى آيتى (١٦٥، ١٦٦) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٠، بل تجاوزتهم الحد فى كل شىء كما فى الآية (٢٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤، وما كان لهم جواب إلا قولهم أخرجوهم، أى لوطا ومَنْ آمن معه، انظر الآية (٥٦) من سورة النمل صفحة ٥٠١. والذى يتأمل جميع ما جاء فى القرآن عن هذه الحادثة يعلم أنه لما نهاهم علبه السلام عن هذه الفاحشة نهاهم أيضا عن جرائم أخرى بينتها الآية (٢٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤، وأنهم ردوا عليه أولاً بالتهديد بطرده إن للم يسكت كما فى الاية (١٦٧) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٠، وأنه لما لم يسكت قالوا إن كنت صادقا فأتنا بما تعدنا من العذاب، أى وإلا فاسكت كما فى الآية (٢٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤. ولما كرر النهى ثالثا ورابعا كما هى عادة الواعظ المصلح، أمروا بإخراجه كما هنا وعللوا طرده هو ومَنْ معه بأنهم أناس يحبون التطهر، وهذا صدر منهم على سبيل السخرية كما يقول الفساق فى مجلسهم إذا غشيهم رجل صالح: أبعدوا عنا هذا الزاهد المتقشف. فأنزلنا بهم العذاب، وأنجيناه وأهله، والمراد بأهله مَنْ آمن معه منهم؛ انظر الآيات (٢٦، ٣٥، ٣٦) من سورة الذاريات صفحتى ٦٩٣، ٦٩٤، إلا امرأته لم تنجها بل أهلكناها معهم كما فى الآية (٨١) من سورة هود صفحة ٢٩٦.

كَانَتْ مِنَ الْغَـٰبِرِينَ (١) ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ (٢) الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا قَالَ يَـٰقَوْمِ (٣) اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ
قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ
وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا (٤) ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾
وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ (٥) تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا
فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ (٦) الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾
وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ
وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ
خَيْرُ الْحَـٰكِمِينَ (٧) ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا

المفـردات : ـ ﴿الغـابرين﴾ : يقـال غـبـر الشيء إذا بقى منقطعـا عمـا كـان مـعـه، وإذا ذهب وهلك، ويصح هنا كل من المعنيين؛ أى من البـاقـين فى مكان العـذاب، أو الذاهبـين الهالكين.

﴿وأمطرنا عليهم مطرا﴾ : المـراد بالمطر هنا الحـجـارة المـحـمـاة بالنار التى أرسلت عليهم من السمـاء بعد خسف القرية؛ انظر الآية (٨٢) من سـورة هود صفحـة ٢٩٦ والآية (٧٤) من سـورة الحـجـر صفحـة ٣٤٣. ومن كل هذا تعلم أنه ليس مطر الخيـر المـتـقـدم فى الآية (٥٧) مـن هذه السـورة صـفـحـتـى ٢٠١، ٢٠٢ بل مطر سوء كما فى الآية (٤٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٥.

﴿مدين﴾ : فى التـوراة مـا يفيد أن مـدين اسم ولد مـن نسل إبراهيم عليه السـلام ثم أطلق على القبـيـلة التى من نسلـه، وأطلق أيضـا على مسـاكنهم، وهذا الأخـيـر هو الظاهـر فى الآية (٤٥) من سورة القصص صفحة ٥١٣. ويجب أن يعلم أيضا أن شعيبـا أرسل أيضا إلى أصحاب الأيكة وكـذبوه أيضـا فـأخـذهم عذاب يوم الظلة انظر الآيات (١٧٦ ـ ١٨٩) من سـورة الشـعـراء صفحتى ٤٩٠، ٤٩١.

---

(١) الغابرين
(٢) عاقبة
(٣) يا قوم
(٤) إصلاحها
(٥) صراط
(٦) عاقبة
(٧) الحاكمين.

﴿ولا تقعدوا بكل صراط﴾ : أى لا تقطعوا طريق الحق على سالكيه، وفسر ذلك بما بعده. ﴿توعدون﴾ : أى تخوفون. ﴿وتصدون عن سبيل الله﴾ ﴿وتبغونها عوجا﴾ : تقدم تفسيرهما فى الآية (٤٥) من هذه السورة صفحة ١٩٩.

المعنى .. فأنجيناه وأهل بيته إلا امرأته صارت من الهالكين؛ لأنها كانت من الكافرين؛ انظر الآية (١٠) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣، وأمطرنا عليهم عذابا من السماء بعد قلب القرية عاليها على سافلها كما فى الآية (٨٢) من سورة هود صفحة ٢٩٦، والآية (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣. فانظر أيها السامع وتأمل كيف صارت عاقبة المجرمين، وابتعد عن أسبابها. قال أبو جعفر: قلت لمحمد بن على هل عذب الله قوم لوط بعمل رجالهم؟ فقال: الله أعدل من ذلك، ولكنهم لما استغنى الرجال بالرجال واستغنى النساء بالنساء أهلكهم الله جميعا؛ انظر آيتى (١٥، ١٦) من سورة النساء صفحة ١٠١ وأرسلنا إلى أهل مدين من العرب العاربة، وكانت أرضهم تمتد ما بين طورسينا إلى الفرات، وكانوا قد جمعوا إلى كفرهم بخس الكيل والميزان، أخاهم شعيبا، سماه العلماء خطيب الأنبياء لأنه كان حسن الإقناع؛ أنظر بعضا منه فى الآيات من (٨٤ ـ ٩٥) من سورة هود صفحات ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨؛ قال يا قوم اعبدوا الله وحده لأنه ليس لكم إله حق غيره، قد جاءتكم بينة من ربكم، أى معجزة، لم يبين الله تعالى آية شعيب ولكنها لابد أن تكون معجزة كونية خارقة للعادة؛ لأن المعروف عن تلك الأمم السابقة أنها ما كانت تذعن إلا لذلك، ولو لم تكن هذه البينة ملزمة قاطعة للألسن لما أمكنه أن يرتب عليها أمره لهم بقوله :

﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾ أى أتموا المكيل والموزون إذا بعتم، ولا تنقصوا حقوق الناس، ولا تفسدوا فى الأرض بعدما أصلحها غيركم؛ ذلك من كل ما أمرتكم به خير لكم من كل وجه إن كنتم مؤمنين أى مصدقين بما أقول. وبعدما أمرهم بالتوحيد وما بعده نهاهم عن ثلاثة أشياء أخرى لا تقل خطورة عما قبلها إن لم تكن أفظع من بعضها فقال ﴿ولا تقعدوا بكل صراط﴾ إلخ؛ أى تقطعوا طريق الحق على مَنْ أراد سلوكه توعدونه وتخوفونه بالعذاب إن آمن. والجريمة الثانية أنكم تصدون وتصرفون من آمن عن الثبات على إيمانه، أى تحاولون كفره بعد إيمانه. والثالثة طلبكم جعل سبيل الله المستقيمة معوجة بالطعن فيها والتشكيك والتشويه؛ أنظر بعض ذلك فى الآية (٨٧) من سورة هود صفحة ٢٩٧، اتركوا ذلك واذكروا نعمة الله عليكم حين كنتم قليلا مستضعفين فبارك فيكم وكثركم، وانظروا وتأملوا كيف صارت نهاية المفسدين من الشعوب المجاورة لكم فتتجنبوا أسبابها؛ انظر بعض هذه الأمم التى أشار

مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ[1] وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن
قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ[2] ﴿٨٨﴾
قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ
نَجَّىٰنَا[3] ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ
أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى
ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ
وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ[4] ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ[5] ﴿٩٠﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ[6] ﴿٩١﴾
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا
كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ[7] ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ[8] لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ[9] رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ[10]

إليهـا هنا فى الآية (٨٩) من سـورة هود صفحة ٢٩٧. ثم هددهم وطمأن المؤمنين معه بقوله: وإن كان طائفة... إلخ أى أن نصر المؤمنين وخذلان المفسدين قريبًا إن شاء الله، وهو سبحانه خير الحاكمين؛ لأن حكمه حق وعدل دائما. فماذا كان بعد هذا التهديد، الذى لا يكون إلا من واثق بما يقول؟ إن ردهم الذى يدل على تمكن الكفر قول كبرائهم وأصحاب الكلمة فيهم...

المفردات :. ﴿افتح بيننا وبين قومنا﴾ : أى احكم بما يستحقه كل منا من النصر أو الهزيمة، انظر ما قلناه فى تفسير الآية (١١٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٧.

﴿رسالات ربى﴾ : تقدم مثلها فى الآية (٦٢) من هذه السورة صفحة ٢٠٢.

﴿الرجفة، جاثمين﴾ تقدما فى الآية (٧٨) من هذه السورة صفحة ٢٠٥.

﴿يغنوا فيها﴾ أى لم يقيموا فى ديارهم زمنا طويلا، من قولهم غنى بالمكان بوزن رضى إذا أقام فيه طويلا.

﴿آسى﴾ : من الأسى وهو الحزن أى أحزن.

المعنى :. قال الوجهاء المتكبرون من قومه : والله لنخرجنك من قريتنا أو لتعودون فى ملتنا، أى لابد من أحد الأمرين فاختر لنفسك أنت ومن معك أيهما شئت. والتعبير بالعودة

---

(١) يا شعيب (٢) كارهين (٣) نجانا
(٤) الفاتحين (٥) لخاسرون (٦) جاثمين
(٧) الخاسرين (٨) يا قوم (٩) رسالات
(١٠) آسى

باعتبار المجموع من شعيب والمؤمنين معه، لا باعتبار كل فرد منهم حتى يفيد أن شعيبا كان على ملتهم قبل النبوة، فقال شعيب: هل نعود ولو كنا كارهين العودة! أى هذا لن يكون، لأن الإكراه لا ينال العقائد انظر الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤، والله لقد افترينا على الله كذبا إن عدنا بعد زمن إنجاء الله لنا منها، وكانت العودة من نبى كذبا على الله لأنها تفيد وتقرر فى أذهان الناس أن لله شريكا كما كان يعتقد قومه وإلا لما فعلها الرسول. ويصح أن يكون الكلام للتعجب من قولهم، كأنه يقول ما أشد افتراءنا على الله إن عدنا فى ملتكم إلخ ولا يصح لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا. وهذا رفض آخر لطلبهم العودة فى ملتهم مؤكد أبلغ توكيد؛ أى لا نعود إلا أن يشاء الله؛ لأنه وحده المتصرف بحسب حكمته، ونحن لم نفسد فطرتنا بل قد أخلصنا له سبحانه الدين فعدله يأبى أن يحولنا إلى الشرك، أى فأنتم تطلبون ما يشبه المحال. والتعليق بالمشيئة يقصد به أيضًا التأدب مع الله وعدم القطع بما ليس لنا به علم، ونظيره ما تقدم فى الأنعام من قول إبراهيم عليه السلام فى الآية (٨٠) صفحة ١٧٥: وسع ربى كل شىء علما، فهو يعلم أحوال عباده وما فى قلوبهم ويعامل كلاً بما يستحق، فعليه وحده نكل أمورنا بعد قيامنا بما طلبه منا، فيارينا افتح بيننا وبينهم بنصر المحق منا وعقاب المفسد وأنت خير الحاكمين. ثم التفت الكفار لأتباع شعيب عليه السلام يضللونهم بعدما يئسوا منه فقالوا: لئن استمررتم على اتباع شعيب إنكم حينئذ لخاسرون أى مغبونون، لفوات ما نحن فيه من اللذائذ عليكم، ولترككم ما كان عليه آباؤكم.

﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين﴾ تقدم بيانها فى الآية (٧٨) من هذ السورة صفحة ٢٠٥ ثم ذكر ما يفيد سفههم فى قولهم ﴿لنخرجنك يا شعيب﴾ بقوله: الذين كذبوا شعيبا ذهبوا وهلكوا كأن لم يكن لهم هنا ذكر؛ وما يفيد سفههم فى قولهم ﴿لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون﴾ بقوله:

الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين لا مَنْ آمن مع شعيب. وبعد ما حل بهم العذاب وتركهم جثثا منكفئة على ركبها ووجوها انصرف بعيدا عنها وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم، كما قال صالح فى الآية (٧٩) المتقدمة من هذه السورة صفحة ٢٠٥. وإذا كان الأمر ما ذكر فكيف أحزن...

عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا
أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾
ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ
مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا
لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن
كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ
الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾
أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا
الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ
مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ

المفردات :. ﴿قرية﴾ : هى المدينة الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها المعبر عنها فى عصرنا بالعاصمة. ﴿البأساء﴾ : المصائب التى تصيب الشخص فيما حوله كماله وأهله. ﴿الضراء﴾ : ما يصيبه فى نفسه كالمرض، انظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤.

﴿يضَّرَّعون﴾ : تقدم فى الآية (٥٥) من هذه السورة صفحة ٢٠١.

﴿عَفَوْا﴾ : أى كثروا ونمت أرزاقهم، يقال عفا الشىء إذا كثر.

﴿بأسنا﴾ : عذابنا.

﴿بياتا﴾ : ليلا.

﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض﴾ :

﴿يهد﴾ أى يبين تقول العرب هدى فلانا الدليل وهدى له أى أرشده وبيَّن له الصواب انظر الآية (١٢٨) من سورة طه صفحة ٤١٨ والآية (٢٦) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٧، ٥٤٨. ﴿أن لو نشاء﴾ : انظر آيتى (٦٦، ٦٧) من سورة يس صفحة ٥٨٥ والمعنى لو أردنا تعذيبهم بسبب ذنوبهم لفعلنا.

﴿نطبع﴾ : الطبع هو الختم المتقدم فى الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤.

المعنى :. لا تستحقون أن أحزن عليكم لأنكم كفرتم بخالقكم ورازقكم. ثم أراد سبحانه أن يبين أن سنته فى عقاب الأمم أنه لا يعاقبهم إلا بعد تنبيههم مرة بعد أخرى، فقال: وما أرسلنا فى قريه من نبى، أى فكذبوه، إلا ابتلينا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون إلى الله

---

(١) كافرين (٢) فأخذناهم (٣) بركات (٤) فأخذناهم
(٥) بياتا (٦) الخاسرون (٧) أصبناهم

بالتضرع إليه، كما تقدم فى الآية (٤٢) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، ثم لما لم تنفع معهم الشدة بلوناهم بالخير وجعلنا الحالة الحسنة مكان الحالة السيئة كاليسر بدِل العسر والصحة بدل المرض لعل النعمة تنبههم للشكر، فإذا لم يرجعوا لا بهذا ولا بذاك أهلكناهم؛ انظر الآية (١٦٨) الآتية صفحة ٢٢٠، والآية (٣٥) من سورة الأنبياء ٤٢٤؛ فالمعنى غيرنا حالتهم إلى أحسن حتى كثروا ونمت أرزاقهم وقالوا قد مس آباءنا إلخ، أى لا نطماس بصيرتهم وفساد فطرتهم لم يلتفتوا إلى معنى الاختبار بل قالوا ما أصابنا هو عادة الدهر، فقد مس آباءنا من قبلنا بما يسوء وما يسر فنحن مثلهم، أى فليس الضر عقابا من الله على معاص، ولا الخير جزاء منه على طاعة. عند ذلك أصبناهم بالعذاب فجأة وهم فاقدوا الشعور بما سيحل بهم، وهذا تأكيد بمعنى البغتة، وأشد المصائب ما جاء على بغتة. ولو أن أهل القرى المهلكة آمنوا بما جاء به رسلهم، واتقوا ما حرم عليهم لفتحنا عليهم بركات إلخ، أى ليسرنا لهم الخير من كل جانب، ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا، فأخذناهم بالعذاب بسبب استمرارهم على كسب الكفر والمعاصى. وبعدما بيَّن سبحانه ما حل بالأمم السابقة بسبب كفرهم وعصيانهم، أراد أن ينبه أهل مكة وما حولها لخطر ماهم عليه منكرا عليهم عدم خوفهم منه تعالى فقال: أفأمن أهل مكة والقرى التى حولها من أن يأتيهم عذابنا فى الليل وهم نائمون ثم كرر الإنكار فقال: أو أمن أهل القرى أن يأتيهم عذابنا فى أول النهار وهم لاهون فى شدة الغفلة. ثم كرر مجموع الانكارين السابقين لزيادة التحذير فقال:

﴿أفأمنوا مكر الله﴾ أى لا يصح هذا من عاقل لأنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون لأنفسهم بسبب عدم التفاتهم لما حصل للأمم قبلهم. والمراد بالمكر هنا التدبير الخفى بما لا يحب الممكور به.

﴿أو لم يهد للذين يرثون الأرض﴾ أى أكان مجهولا لهم ما حصل لمن قبلهم ولم يبين لهؤلاء الذين يرثون الأرض من بعد أهلها جيلا بعد جيل أنهم خاضعون لمشيئتنا، ولو نشاء تعذيبهم بسبب ذنوبهم كما عذبنا الماضين لفعلنا وأصبناهم بذنوبهم، أى نهلك الوارثين كما أهلكنا الموروثين، ونطبع على قلوبهم فلا ينتفعون بوعظ عقابا لهم على إصرارهم على الكفر والمعاصى كما فى الآية (١٢٥) من سورة التوبة صفحة ٢٦٤ فالطبع بعض العقاب، ذكر لأنه أهم وأشد.

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ
عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ[1] فَمَا
كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ
عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ[2] ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ
عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ[3] ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن
بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا[4] إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ[5] فَظَلَمُوا بِهَا
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ[6] الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ
يَا فِرْعَوْنُ[7] إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ[8] ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ
أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ[9] ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ
جِئْتَ بِآيَةٍ[10] فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[11] ﴿١٠٦﴾
فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا

المفردات :. ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ : اللام فى ليؤمنوا لتأكيد النفى انظر الآية (٣٣) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١. ﴿من عهد﴾ : المراد به كل عهد ارتبطوا به، سواء ما أخذه الله عليهم فى الآية (١٧٢) الآتية فى هذه السورة صفحة ٢٢١، أو ما عاهدوا الله عليه إذا أصابهم بسوء، من توبتهم وشكره تعالى كما فى الآية (٦٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٢، والآية (٢٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٩، ومن للنص على عموم نفى ما بعدها.

﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ : فى الألوسى ﴿إن﴾ مخففه وضمير الشأن محذوف، وذهب الكوفيون إلى أن ﴿إن﴾ نافية واللام فى ﴿لفاسقين﴾ بمعنى ﴿إلا﴾ أى وما وجدنا أكثرهم إلا خارجين على الطاعة.

﴿فظلموا بها﴾ : أى ظلموا أنفسهم كافرين ومكذبين بها، فضمن الظلم معنى الكفر والتكذيب. ﴿فإذا هى﴾ : إذا الفجائية هنا قال الأخفش إنها حرف يدل على سرعة حصول ما بعده عقب حصول ما قبله، والفاء تؤكد هذا الربط.

المعنى :. ونطبع على قلوبهم فلا يسمعون المواعظ والأدلة سماع تدبر واتعاظ، انظر الآية ١٠١ من سورة يونس صفحة ٢٨٢.

ثم شرع سبحانه فى بيان عاقبة الكفر والمعاصى ليعتبر أهل مكة فقال: تلك القرى المهلكة من قرى قوم نوح وعاد وثمود إلخ نقص عليك أيها النبى بعض أخبارها فيما سبق، ومنها تعلم

---

(١) بالبينات (٢) الكافرين (٣) لفاسقين (٤) بآياتنا (٥) ملئه (٦) عاقبة
(٧) يا فرعون (٨) العالمين (٩) إسرائيل (١٠) بآية (١١) الصادقين.

أنهم ما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية معجزات رسلهم بسبب إصرارهم على تكذيبهم السابق على رؤيتها. فالمراد أنهم أول ما جاءهم الرسل فاجئوهم بالتكذيب، ولما أتوا بالمعجزات أصروا على التكذيب فما نفعتهم الآيات شيئا كما فى الآية (١٠١) من سورة يونس صفحة ٢٨٢.

وما وجدنا لأكثر هذه الأمم من محافظة على عهد. وقال : أكثرهم، لأن بعضهم كانوا لا يعاهدون، فلا يقال لا يوفون. وإن وجدنا أكثرهم إلخ.

المعنى : وأن الحال والشأن الذى وجدنا عليه أكثرهم هو التمكن من الفسوق، وهو الخروج من كل عهد مشروع بالنكث والغدر وغير ذلك من المعاصى. ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل المتقدم ذكرهم موسى مصاحبا للمعجزات الواضحات إلى فرعون وقومه والمصاحبة زمنها واسع فيدخل فيه الآيات التى جاءت بعد، كالطوفان وغيره، انظر الآية (٥٦) من سورة طه صفحة ٤١٠؛ وإنما خص الملأ وهم الزعماء بالذكر لأنهم كانوا هم السبب فى محاربة موسى فى دعوته كما سيأتى. فظلموا أنفسهم كافرين بالمعجزات.فانظر أيها السامع بعين عقلك كيفية ما فعلنا بهم لأنهم مفسدون. ثم شرع سبحانه فى تفصيل هذا الإجمال فقال: وقال موسى يا فرعون، وفرعون لقب ملك مصر، كما أن قيصر لقب ملك الروم، وكسرى لقب ملك الفرس، فكأنه قال يا ملك مصر إنى رسول من رب العالمين إليكم حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق إلخ، على بمعنى الباء كقولهم سافر على اسم الله أى باسم الله، وجاء فلان على حال حسنة أى بحال حسنة. فالمعنى أنا جدير بأن لا أقول على الله إلا الحق. والمراد لا يمكن أن أكذب على الله، قد جئتكم ببينة معجزة تثبت رسالتى التى أعطاها لى ربكم الذى خلقكم، فاترك بنى إسرائيل ليذهبوا إلى دار غير دارك يمكنهم فيها عبادة ربهم. قال فرعون:

إن كنت جئت بآية من عند مَنْ أرسلك فأت بها إن كنت من الصادقين فيما تقول. فألقى موسى عصاه من يده على الأرض ففاجأه كونها حية عظيمة ظاهر أمرها لا يشك فى أنها حية، وأخرج يده من جيبه فإذا هى بيضاء كما فى الآية (١٢) من سورة النمل صفحة ٤٩٥.

هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ
هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ
حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ
أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟
فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو
بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ
عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ
وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟
صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا

المفردات :. ﴿الملأ﴾ : زعماء القوم الذين لهم كلمة نافذة.

﴿فماذا تأمرون﴾ : يقول العرب تآمر القوم وأتمروا بمعنى تشاوروا، ويقول أحدهم مرنى أى أشر علىَّ. ﴿أرجه﴾ : أرجئه وأمهله ولا تتعجل بقتله أو سجنه؛ والعرب تخفف مثل ذلك بحذف الهمزة فيقولون أرجا فلان كذا أى أرجأه.

فهما لهجتان عربيتان، وقال بعض اللغويين إنهما لغتان إحداهما أرجا والأخرى أرجى فيقولون أرجأت الأمر وأرجيته والمعنى واحد، انظر ما قيل فى الآيه (١٠٦) من سورة التوبة صفحة ٢٦٠.

﴿حاشرين﴾ : رجالاً يجمعون السحرة ويحشرونهم فى المكان الذى تراه. ﴿سحروا أعين الناس﴾ : أى خيلوا لها أنها حيات حقيقية وهى فى الواقع ليست كذلك، انظر الآية (٦٦) من سورة طه صفحة ٤١١. ﴿واسترهبوهم﴾ : أصل معناه طلبوا إرهابهم وتخويفهم، والمراد خوفوهم وأرهبوهم إرهابا شديدا.

﴿تلقف﴾ : اللقف الأخذ بسرعة وتلقف تبتلع بسرعة.

﴿يأفكون﴾ : يكذبون به على الناس ويوهمونهم أنه حقيقة.

﴿فوقع الحق﴾ : ثبت وتبين الحق وهو صدق موسى.

---

(١) للناظرين (٢) لساحر (٣) حاشرين (٤) ساحر
(٥) الغالبين (٦) يا موسى (٧) صاغرين (٨) ساجدين

﴿انقلبوا﴾ : أى رجعوا إلى المدينة.

﴿صاغرين﴾ : أذلاء. ﴿وألقى السحرة ساجدين﴾: أى ألقت سطوة الحق السحرة على وجوههم خاضعين والمراد معرفتهم للحق أخضعتهم.

المعنى :. وأخرج موسى يده من جيبه فإذا هى بيضاء عن بقية جسمه وعن يده الأخرى بياضا يلفت النظر حتى رآه كل الحاضرين وعرفوا أنه غير طبيعى. عند ذلك خاف فرعون والزعماء أن يذهب ملكهم فغرروا بالناس ورددوا قول فرعون إن موسى لساحر عليم بفنون السحر. انظر الآية (٥٧) من سورة طه صفحة ٤١٠، والآية (٣٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٢، يريد أن يخرجكم من أرضكم مصر ليحل محلكم بنى إسرائيل. ثم قال فرعون للزعماء: فبماذا تأمرون؟ أى فبماذا تشيرون أن نعمله؟ قالوا: أمهله وأخاه هارون ولا تتعجل بقتله أو حبسه، وأرسل فى مدائن ملكك رجالا يحشرون السحرة المهرة ويجمعونهم عندك ليظهر عجزه فيفتضح أمام الناس حتى لو قتل بعد ذلك لا يشك أحد فى أنه كاذبا لا رسولاً. فأرسل وجاء السحرة إلى فرعون وقالوا إن لنا لأجرا عظيما على غلبتنا موسى إن كنا نحن الغالبين. قال فرعون: نعم لكم أجر، ولكم زيادة عليه وهو أن أجعلكم من المقربين عندى. قال السحرة : يا موسى إما أن تلقى عصاك أولا وإما أن نكون نحن الملقين ما معنا أولا. قال لهم موسى: ألقو أنتم أولا. فلما ألقوا حبالهم وعصيهم كما فى الآية (٤٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٢؛ سحروا أعين الناس وخوفوهم خوفا شديدا لأنهم جاءوا بسحر عظيم فى التمويه والتخييل، وبلغ من شدته أن موسى خاف منه، انظر الآية (٦٧) من سورة طه صفحة ٤١١ فقد انقلبت حبالهم وعصيهم فى أعين الناس حيات ضخمة. عند ذلك أدرك الله تعالىٰ موسى وقال له: ألق عصاك على سحرهم فألقاها فإذا هى حية أعظم تبتلع كل ما كانوا يكذبون به على الناس ويوهمونهم أنه حقيقة. عند ذلك ثبت ووضح الحق، وأن موسى صادق فى أنه رسول رب العالمين، وبطل ما كانوا يعملون من السحر، فَغُلِبُوا أى فرعون وقومه هنالك أى فى المكان الذى جمعهم فيه وفى الزمان المشار إليه فى الآية (٥٩) من سورة طه صفحة٤١٠. ورجعوا إلى المدينة أذلاء، وألقى السحرة ساجدين، أى أن معرفتهم للحق أرغمتهم على الخضوع لسطوة الحق، فكأن الحق دفعهم دفعا إلى الخضوع والتسليم حال كونهم قائلين فى أثناء سجودهم : آمنا برب العالمين...

بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ[1] ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ[2] ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ
ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ[3] لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ
فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾
لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ[4] ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا
تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ[5] رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن
قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ[6] ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ[7]
نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ[8] ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ
ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ
مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ[9] لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا

المفردات : ﴿من خلاف﴾ : أى يد من جهة ورجل من أخرى.

﴿تنقم منا﴾ : من نقم بوزن ضرب بمعنى كره وعاب.

﴿أفرغ علينا صبرا﴾ : أى أصبب علينا صبرا كثيرا كما يصب الماء الكثير حتى يغمر المصبوب عليه.

﴿أتذر﴾ : أى هل تترك.

﴿وآلهتك﴾ : روى أنه كان يعتقد أن فى العالم العلوى آلهة هى الكواكب وهى المربية للعالم السفلى، وأنه هو إله العالم السفلى. وجعل لقومه أصناما يعبدونها تقربا إليه هو لأنه هو أعلى المعبودات التى فى الأرض كما فى الآية (٢٤) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠، وليس فى الأرض إله غيره كما فى الآية (٢٨) من سورة القصص صفحة ٥١٢، فالمراد بآلهته هنا هى ما كانوا يتقربون به إليه، أو الجميع من سفلى وعلوى.

﴿نقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم﴾ : تقدم فى الآية (٤٩) من سورة البقرة صفحة ١٠.

---

(١) العالمين
(٢) وهارون
(٣) آذن
(٤) خلاف
(٥) بأيات
(٦) وآلهتك
(٧) ونستحيى
(٨) قاهرون
(٩) والعاقبة

المعنى : . قال سحرة فرعون آمنا برب العالمين. ولما كان فيه احتمال أنه فرعون كما كان يدعى فى الآية (٣٨) من سورة القصص صفحة ٥١٢، دفعوا ذلك بقولهم : رب موسى وهارون عند ذلك قال فرعون منكرا على السحرة وموبخا لهم: آمنتم برب موسى وهارون قبل أن آذن لكم؟ أى ولا يمكن أن آذن لكم، بدليل قوله إن هذا العمل منكم وعزتى لمكر وحيلة فعلتموها أنتم وموسى، انظر الآيات (٥٧، ٦٣، ٧١) من سورة طه صفحات ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، فى المدينة أى مصر، لتخرجوا منها أهلها المصريين وتكون لكم ولبنى إسرائيل. ثم هدد السحرة تهديدا إجماليا بقوله: فسوف تعلمون عاقبة ما فعلتم. ثم فصل هذا التهديد بقوله: وعزتى لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، أى اليد اليمنى والرجل اليسرى مثلا، ثم لأصلبنكم كلكم على جذوع النخل حتى تموتوا فضيحة لكم وتخويفا لغيركم، انظر الآية (٧١) من سورة طه صفحة ٤١٢، فلم يبال السحرة بهذا التهديد، بل قالوا:

إننا نحن وأنتم راجعون إلى ربنا فى الآخرة فيحكم بيننا وبينكم بالعدل. وقالوا أيضا:

ومن غريب أمرك يا فرعون أنك لا تعيب علينا شيئا إلا إيماننا بآيات ربنا لما جاءتنا على يد موسى، وذلك ليس فيه عيب بل هو من أكبر المحاسن والمفاخر. ويقصدون بهذا قطع أمل فرعون فى رجوعهم.

ثم أعرضوا عن فرعون وتوجهوا إلى الله تعالى قائلين: يا ربنا أفض علينا صبرا يغمرنا حتى لا نبالى بتهديد عدوك، وتوفنا ثابتين على ما وفقتنا إليه من الإسلام. وقال الملأ من قوم فرعون موجهين الخطاب لفرعون : هل يصح أن تترك موسى وبنى إسرائيل آمنين ليفسدوا فى أرض مصر بإدخال أهلها فى دينهم ويهملوك أنت وآلهتك. فرد عليهم بقوله: سنقتل إلخ، سنستمر ونزيد فى تقتيل الأبناء الذكور ونبقى نساءهم للذل والخدمة ولا يعجزنا ذلك لأنا فوقهم قاهرون. عند ذلك التفت موسى لقومه وقال لهم: استعينوا بالله على هذا الظالم واصبروا على تهديده ولا تبالوا به، لأن الأرض كلها لله وحده لا لفرعون والله هو الذى يورثها اى يعطيها لمَنْ يشاء من عباده، والخاتمة المحمودة لمَنْ يتقى الله، أى لا لفرعون وجنوده. فقال قوم موسى وهم بنو إسرائيل : أوذينا من جهة فرعون...

مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن
يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ[1] فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ
مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ[2] لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ
قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ
وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ[3] عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا
بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ
وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ[4] مُّفَصَّلَٰتٍ[5]
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ
قَالُوا۟ يَٰمُوسَى[6] ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ
عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[7] ﴿١٣٤﴾

المفردات :. ﴿السنين﴾ : جمع سنة وأصلها الزمن المعلوم، وتطلق على الشدة الناتجة عن قحط أو غيره. ﴿يطيروا﴾ : يتشاءموا.

﴿ألا﴾ : حرف يدل على تنبيه السامع للعناية بما يأتى بعده.

﴿طائرهم عند الله﴾ : أى شؤمهم يأتيهم من عند الله على عملهم لا من عند موسى وبسببه.

﴿مهما﴾ : اسم شرط يدل على العموم وبيَّن معناه بقوله ﴿من آية﴾ أى معجزة وهم يريدون ما تزعم أنه معجزة أيدك بها ربك.

﴿لتسحرنا بها﴾ : لتصرفنا بها بدقه وحيلة عما نحن عليه من دين ومن تسخير بنى إسرائيل فيما نريد. ﴿بمؤمنين﴾ : أى مصدقين. ﴿الطوفان﴾ : الأمطار المغرقة المتلفة للزرع والثمار.

﴿القمل﴾ : واحدته قمله وهى الحشرة المعروفة شديدة الإيذاء.

﴿الضفادع﴾ : جمع ضفدع كدرهم، والأنثى ضفدعة.

﴿آيات مفصلات﴾ : أى أدلة مفصلة دالة على صدق موسى.

﴿بما عهد عندك﴾ : أى بعهده عندك وهو النبوة.

﴿الرجز﴾ : أى العذاب المتقدم من القحط وغيره.

المعنى :. قال قوم موسى: أوذينا من قبل أن تأتينا بالرسالة بقتل أبنائنا إلخ، ومن بعد ما جئتنا بالتهديد وتشديد الجور. قال موسى تطمينا لهم: اصبروا، أرجو أن يهلك ربكم عدوكم ويجعلكم خلفاء فى الأرض فينظر كيف تعملون، أى ليظهر منكم ما انطوت عليه نفوسكم من

(١) آل (٢) الثمرات (٣) طائرهم (٤) آيات (٥) مفصلات (٦) يا موسى (٧) إسرائيل.

شكر نعمته تعالى أو كفرها، فيجازيكم على كل. وهذا إرشاد لهم إلى الشكر، وتحذير من المعاصى. ثم شرع سبحانه فى تفصيل مقدمات هلاك آل فرعون الذى وعد موسى قومه به فقال: وعزتى وجلالى لقد أخذنا أى أصبنا آل فرعون بالقحط فى البادية، ونقص ثمرات الشجر والزرع فى المدائن؛ فعلنا بهم ذلك لعلهم يتعظون فيرجعون إلى ربهم. ثم بيَّن عدم تذكرهم وعدم انتفاعهم بالتنبيه فقال: فكانوا إذا جاءتهم الحسنة أى ما يستحسنونه من رخاء وصحة قالوا غرورا: هذه النعم لنا وحدنا لا يستحقها غيرنا لعلو مقامنا، وإن يصبهم ما يسوءهم كالضيق والمرض ينسبون سببه لموسى وقومه، ويقولون ما أصابنا ذلك إلا بشؤمهم.

فرد سبحانه قولهم الباطل فقال: ألا إنما شؤمهم من عند الله اقتضته حكمته تعالى جزاء كفرهم، لا بسبب موسى، ولكن أكثرهم لا يعلمون حكمة تصرفه تعالى فى معاملة خلقه حسب أعمالهم، انظر قول أمثالهم ورده تعالى عليهم فى آيتى (١٨، ١٩) من سورة يس صفحة ٥٨٠. وقال أكثرهم لأن بعضا منهم آمن وأعلن إيمانه كالسحرة المتقدم ذكرهم، وبعضهم أخفى إيمانه كما سيأتى فى الآية (٢٨) من سورة غافر صفحة ٦٢١.

وقال فرعون وملؤه بعد رؤية المعجزات والجدب : إنك يا موسى إن جئتنا بكل نوع من أنواع المعجزات التى تزعمها لأجل أن تصرفنا بها بخداعك الخفى عن ديننا وعن استعباد بنى إسرائيل فما نحن لك بمصدقين. عند ذلك أنزل الله عليهم المصائب الخمس الآتى ذكرها حال كونها أدلة واضحات على صدق موسى فى دعوته وفيما توعدهم به من الهلاك، فكانت كلما جاءت مصيبة منها لجئوا لموسى ليدعو ربه ليكشفها ليؤمنوا، فيدعو موسى فتكشف فلا يؤمنون، كرروا ذلك خمسا. وقد كانت كل واحدة تكفى لزجرهم لو كانوا يعقلون. وستأتى استغاثتهم بموسى فى الآية (١٣٣) فى هذه الصفحة، وفصل سبحانه هذه المصائب فى قوله:

فأرسلنا، أى فأنزلنا عليهم المطر ثمانية أيام بلياليها، فأهلك زرعهم وثمرهم، وأنزل الجراد فملأ الأفق وأكل كل أخضر ويابس، ثم أرسل عليهم القمل ينهش أجسامهم ولا يستطيعون كفه لكثرته، ثم الضفادع فملأت المياه والبيوت ومواضع نومهم، ثم الدم فملأ المياه حتى عجزوا عن الشرب. وبعد هذه الآيات الواضحات استكبروا عن الإيمان وكانوا قوما راسخين فى الإجرام. وبين سبحانه استغاثتهم بقوله: ولما وقع عليهم العذاب المتقدم ذكره واحدا بعد الآخر قالوا عقب كل واحد: يا موسى ادع لنا ربك متوسلا بعهده عندك، ونعاهدك لئن كشفت عنا العذاب لنصدقنك ولنرسلن معك بنى إسرائيل كما طلبت.

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ
يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ
الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي
بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ
بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ
وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ
فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى
اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ

المفردات : . ﴿إلى أجل هم بالغوه﴾ : أى منعنا عنهم العذاب إلى مدة بلغوا نهايتها بسرعة بنقضهم العهد. ﴿فأغرقناهم فى اليم﴾ : هو البحر.

﴿وأورثنا القوم إلخ﴾ : معنى هذه الجملة لم يحصل إلا بعد مضى زمن طويل كما سيأتى إلى نهاية الآية (١٧١) صفحتى ٢٢٠، ٢٢١ ولكنه سبحانه عجل بذكر ثمرة هلاك فرعون ونجاة بنى إسرائيل ثم رجع ثانيا لتفصيل ما حصل بعد هلاكهم.

﴿مشارق الأرض ومغاربها﴾: المشارق والمغارب مراد بهما هنا جميع أرض الشام كما سيأتى.

﴿وتمت كلمة ربك﴾ : تمام الشيء وصوله إلى آخر حده و ﴿كلمة ربك﴾ هى وعده لبنى إسرائيل بإهلاك عدوهم. ﴿دمرنا﴾ : أهلكنا.

﴿يعرشون﴾ : أى يبنون من العرائش للجناب كما تقدم فى الآية (١٤١) صفحة ١٨٦.

﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلها﴾ : القائل هذا المنكر جهلتهم أما هارون وأحبارهم فحماهم الله تعالى منه.

﴿متبر ما هم فيه﴾ : من التتبير وهو الإهلاك والتدمير، فمتبر أى مهلك ومخرب، انظر الآية (٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥.

﴿أبغيكم﴾ : أطلب لكم كما فى الآية (٤٧) من سورة التوبة صفحة ٢٤٩.

---

(١) بالغوه (٢) فأغرقناهم (٣) غافلين
(٤) مشارق (٥) ومغاربها
(٦) باركنا (٧) إسرائيل
(٨) وجاوزنا (٩) إسرائيل
(١٠) يا موسى (١١) آلهة
(١٢) وباطل (١٣) العالمين.
(١٤) أنجيناكم (١٥) آل.

﴿يسومونكم﴾ : أصل معنى سام طلب، أى يطلبون لكم سوء العذاب، والمراد يعذبونكم.

المعنى : . فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى أجل هم بالغوه أى إلى زمن محدد بلغوا نهايته أسرعوا بنكث العهد فى كل مرة، والمراد لا يصبرون على الوفاء بالعهد إلا زمنا قليلا حتى يسرع إليهم الغدر كما هى عادتهم. ولما كرروا خيانة العهد مرارا ولم تنفعهم العبر عاقبناهم العقاب الأكبر، فأغرقناهم فى البحر بسبب استمرارهم على تكذيب آياتنا واستمرارهم على الغفلة عنها، وأورثنا أى أعطينا القوم الذين كان يستذلهم فرعون بما تقدم بيانه وهم بنو إسرائيل جميع الأرض التى باركنا فيها بالخصب والخير تحقيقا لوعدنا فى الآية (٥) من سورة القصص صفحة ٥٠٦، وهذه الأرض هى أرض الشام وفلسطين، وكانت تحت حكم فرعون فى ذلك الوقت، ولم يصف القرآن أرضا بالبركة إلا هذه، انظر الآية الأولى من سورة الإسراء صفحة ٣٦٤ وآيتى (٧١، ٨١) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٧، ٤٢٨، ونفذت كلمة ربك أى تحققت تامة فى كل وجه بالخير على بنى إسرائيل بسبب صبرهم على إيذاء فرعون، ودمرنا كل ما صنع فرعون وقومه من العمارات والقصور، وما عرشه للجنات والأعناب. وكان هذا التخريب لأسباب منها المصائب الخمسة المتقدمة فى الآية (١٣٣) صفحة ٢١٢، ومنها خروج بنى إسرائيل فإنه عطل أعمالا كثيرة كانوا يسخرونهم فيها، ومنها كثرة من غرق مع فرعون فتلف ما كانوا يقومون بشئونه، إلى غير ذلك.

ثم بعدما فرغ سبحانه من قصة موسى مع فرعون شرع فى قصته مع قومه فقال: ﴿وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر﴾ إلخ، أى تجاوزوه بعنايتنا كأننا كنا معهم، فأتوا عقب خروجهم من البحر ودخولهم البر على قوم يلازمون عبادة أصنام اتخذوها آلهة؛ فبدل أن يستقبحوا ذلك وينكروه بعد أن رأوا مصير المشركين، دفع ببعضهم جهلهم وغفلتهم أن يقولوا : يا موسى اجعل لنا إلها نتقرب به إلى الله، وهذا يدل على أنهم ألفوا عبادة غير الله فى المدة التى قضوها فى مصر، ولم يفهموا التوحيد الذى جاء به موسى كما فهمه بسرعة السحرة المصريون المتقدم ذكرهم فى الآية (١٢٠) صفحة ٢١٠، وكما فهمه المصرى الذى كتم إيمانه كما فى الآية (٢٨) من سورة غافر صفحة ٦٢١. فقال موسى : إنكم قوم تجهلون كل شىء، لأنكم جهلتم الضرورى وهو ما يليق به تعالى الذى لا يصح لعاقل أن يجهله، لأن هؤلاء القوم الذين يعبدون أصناما مقضى على ماهم فيه بالهلاك والتخريب بسبب ظهور التوحيد الحق فى هذه البلاد، وكل ما يعملونه من الأصنام وعبادة غير الله باطل وزائل. ثم تعجب موسى منكرا قولهم فقال: أغير الله، أى لا يصح أن أطلب لكم إلها غير الله وهو الذى فضلكم على العالمين فى زمانكم بما جدد فيكم من التوحيد الذى جاء به إبراهيم وبقية أهل زمانكم مشركون عبدة أصنام انظر الآية (٣٢) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨. ثم وجه سبحانه

سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ
وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا[1] مُوسَىٰ
ثَلَٰثِينَ[2] لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا[3] بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ[4] رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ
لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ[5] ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ
وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ
لِمِيقَٰتِنَا[6] وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ
لَن تَرَىٰنِى[7] وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ
فَسَوْفَ تَرَىٰنِى[8] ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا
وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ[9] تُبْتُ إِلَيْكَ
وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ[10] إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ
عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى[11] وَبِكَلَٰمِى[12] فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ[13] وَكُن مِّنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ[14] ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ

الخطاب لهؤلاء القساة غلاظ القلوب لعلهم يشكرون نعمه فيستقيمون فقال: وإذا أنجيناكم من ذل قوم فرعون حال كونهم يذيقونكم....

المفردات : . ﴿سوء العذاب﴾ : أسوأ العذاب.

﴿لميقاتنا﴾ : الميقات هو الوقت الذى يحدد لعمل من الأعمال كمواقيت الحج، واللام بمعنى عند، كما فى قوله تعالى ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ الآية (٧٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥.

﴿دكا﴾ : الدك الضغط القوى الشديد الذى يسوى الشيء المدكوك بالأرض، انظر الآية (٩٨) من سورة الكهف صفحة ٣٩٤؛ والمراد به هنا الشيء المدكوك وهو المراد فى قراءة دكاء. ﴿وخر موسى﴾ : الخرور السقوط من علو إلى أسفل كما فى الآية (١٠٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٩. ﴿صعقا﴾: صيغة مبالغة من صعق الشخص بوزن تعب إذا مات من صاعقة أو أغمى عليه، والمراد هنا الثانى انظر صعق فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ ومعانى الصاعقة فى الآية (١٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣١. ﴿اصطفيتك على الناس﴾ : اخترتك مفضلا لك على الناس. ﴿رسالاتى﴾ : تقدم بيانها فى الآية (٦٢) من هذه السورة صفحة ٢٠٢. ﴿وكتبنا له﴾ : أى أمرنا الملائكة بالكتابة انظر الآية (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠ والآية (٨٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥. ﴿فى الألواح﴾ : جمع لوح، ولم يعلم على وجه القطع عددها، ولا حقيقتها، ولا مَنْ كتبها، ولا هل كان فيها كل التوراة أو بعضها، وبقيتها نزلت تباعا بعد ذلك. والذى يجب الإيمان به هو أنه كان فيها شيء من شرع الله الذى فى التوراة الصحيحة. ﴿من كل شيء﴾ : المراد بهذا التعبير هنا التفخيم لا التعميم الحقيقى يقول العرب دخلت السوق فاشتريت كل

---

(١) وواعدنا (٢) ثلاثين (٣) وأتممناها (٤) ميقات (٥) هارون
(٦) لميقاتنا (٧، ٨) ترانى (٩) سبحانك (١٠) يا موسى (١١) برسالاتى
(١٢) وبكلامى (١٣) آتيتك (١٤) الشاكرين

شيء يريد أشياء كثيرة ومن ذلك فى القرآن ما فى الآية (٢٣) من سورة النمل صفحة ٤٩٧ والآية (٢٥) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧٠.

المعنى : . يوّقعون بكم أسوأ العذاب، وبين بعضه بقوله: يذبحون أبناءكم إلخ ما تقدم فى الآية (٤٩) من سورة البقرة صفحة ١٠. وبعد ما فرغ سبحانه من قصة موسى وقومه شرع فى بيان بدء وحى الشريعة إلى موسى، وقد كان بدء وحى الرسالة فى الطور عندما رأى النار وهو راجع من مدين كما فى الآيات (٩ ـ ٤٧) من سورة طه صفحات ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩ وآيات (٢٩ ـ ٣٥) من سورة القصص صفحات ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، فقال سبحانه ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ إلخ؛ أى واعدنا موسى بإعطائه الألواح بعد ثلاثين ليلة يقضيها بعيدا عن قومه، فلما قضاها زدناه عشر ليال لحكمة نعلمها. قال ابن عباس: كانت فتنة السامرى لبنى إسرائيل فى هذه العشرة التى زادها سبحانه، انظر فتنة السامرى فى الآية (٨٥) من سورة طه صفحة ٤١٣، والمراد بالليل ما يشمل النهار وخصه بالذكر لأن الليلة تسبق نهارها. وفائدة قوله: فتم الميقات أربعين دفع توهم أن تمام الثلاثين كان بالعشر كما يقال أتممت العشرة دراهم بدرهمين تريد أنه لولا الدرهمان لم تصر عشرة. وقال موسى قبل ذهابه للموعد لأخيه هارون جعلتك نائبا عنى فى مراعاة شئون قومى، فأصلح من أمورهم ما يتطلب إصلاحا، ولا تطع مَنْ دعاك لإفساد. ولما جاء موسى عند الموعد المحدد وكلمه ربه بلا واسطة من وراء حجاب كما فى الآية (٥١) من سورة الشورى صفحة ٦٤٦ تكليما ليس كتكليما فلا نعلم كيف كان. ولما رأى موسى أنه سبحانه كلمه مباشرة طمع فى أن يراه، فقال : رب أرنى ذاتك حتى أنظر إليك فأزداد شرفا. فقال سبحانه : لن ترانى يا موسى أبدًا. لأن العين الفانية لا ترى الباقى، وهذا لا ينافى أنه يراه فى الآخرة. وأراد سبحانه أن يقنعه بعجزه عنها فقال: انظر إلى الجبل الذى هو أقوى منك فإن استقر مكانه عندما أتجلى له فسوف ترانى. فلما تجلى ربه للجبل تجليا يليق به سبحانه لا نعرف حقيقته جعله مدكوكا مستويا بالأرض. عند ذلك سقط موسى على وجهه مغشيا عليه. فلما أفاق قال سبحانك، أى أنزهك تنزيها عظيما عن صفات المخلوقات تبت إليك من أن أسألك ماليس لى به علم، وأنا أول المؤمنين بعظمتك. قال الله يا موسى إنى فضلتك على الناس باختيارك لتلقى وتبليغ رسالاتى وبتكليمى لك مباشرة، فخذ ما أعطيتك من النبوة والشرائع، واشكر على ذلك ولا تتطلع لما ليس فى قدرتك وأمرنا الملائكة بأن تكتب له فى الألواح كل شيء يحتاجون إليه فى دينهم ودنياهم ولم يثبت من طريق مقطوع بصحته شيء يبين لنا حقيقة هذه الألواح ولا عددها ولا ما كتب فيها، هل كل التوراة أو

مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ
يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾
سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ
الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ
سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن
بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ
لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾
وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ
يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

معظمها والباقى نزل بعد ذلك؟ ولا مَنْ الذى كتبها. ذكر المنار رأيا لابن جرير فانظره.

المفردات :. ﴿موعظة وتفصيلا﴾: بدل أو عطف بيان من كل شىء باعتبار محله وهو النصب. ﴿خذها بقوة﴾ : بجد وعزيمة. ﴿بأحسنها﴾ : أى بأفضل ما فيها كالعفو بالنسبة للقصاص وإبراء المعسر بدل انتظاره. انظر آيتى (١٨، ٥٥) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٨، ٦١٤.

﴿دار الفاسقين﴾ : كعاد وثمود وقوم لوط والعمالقة والجبابرة بالشام.

﴿الرشد والغى﴾ : الهدى والضلال كما تقدم فى الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤.

﴿هل يجزون﴾ : هل حرف استفهام يفيد الإنكار والنفى. ﴿حبطت﴾ : بطلت ﴿قوم موسى﴾: المراد بعض قوم موسى وهم السامرى ومَنْ اتبعه كما سيأتى فى الآيه (٨٧) من سورة طه صفحة ٤١٤.

﴿حليهم﴾ : جمع حلى بفتح فسكون وهو ما يتزين به من ذهب أو فضة من حلى المصريين. ﴿جسدًا﴾ : أى مجرد جسد لا روح فيه. ﴿خوار﴾ : صوت البقر خاصة. ﴿سُقِطَ فى أيديهم﴾: كناية عن الحيرة والندم، ولعل أصل الكناية أن المتحير النادم يضرب يدًا على يد كما فى الآية (٤٢) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦. فالأصل ولما سقط بعض أيديهم على البعض الآخر فحذف الفاعل وقام الجار والمجرور مقامه.

---

(١) سأريكم — (٢) الفاسقين — (٣) آياتى
(٤) بآياتنا — (٥) غافلين — (٦) بآياتنا
(٧) أعمالهم — (٨) ظالمين — (٩) الخاسرين.

المعنى : . بعد ماقال سبحانه كتبنا له فى الألواح كل شىء، أى ما يحتاجون إليه فى حياتهم وآخراهم، بيَّن سبحانه ذلك بأنه مواعظ ترقق القلوب وتوقظ فيها الخشية منه تعالى والرغبة فى ثوابه، وأنه تفصيل لكل ما أمروا به أو نهوا عنه أو أحل لهم وقال لموسى خذ هذه الأحكام بعزم وجد، انظر الآية (٦٣) من سورة البقرة صفحة ١٣، وأمر قومك يعملوا بأحسن ما فيها وأفضله سأريكم يا مَنْ نجوتم من التيه دار الخارجين على أوامر ربهم وما صارت إليه من الخراب لتعتبروا فلا تفسقوا وتخرجوا عن أمر ربكم مثلهم حتى لا يصيبكم ما أصابهم من الهلاك. ويوضح المراد هنا الآية (٤٢) من سورة الروم صفحة ٥٣٦، والآية (١٠) من سورة محمد صفحة ٦٧٣. ثم حذرهم سبحانه من التكبر المؤدى إلى إهمال التفكير فى آيات الله تعالى ودلائل وجوده ووحدانيته، فقال: سأصرف عن فهم آياتى القائمة فى الآفاق وفى الأنفس، سأصرف عن فهمها الذين يتكبرون على الخلق، ويرفضون قبول الصواب معتزِّين بغير الحق وهو الباطل والضلال ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ الآية (٣٢) من سورة يونس صفحة ٢٧١، والآية (٥٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧. وإن يروا كل آية من آياتنا الدالة على صدق رسلنا لا يؤمنوا بها لشدة عنادهم وتحكم الشهوات فى أنفسهم، وإن يروا طريق الهدى لا يسلكوه، وإن يروا طريق الضلال يختاروه طريقا كل ذلك جزيناهم به بسبب أنهم ثبتوا وصمموا على تكذيب آياتنا المنزلة والمعجزة، وبسبب استمرارهم على الغفلة زمنا طويلا حتى طبع على قلوبهم فلا يتنبهون للأدلة، انظر آيتى (٦، ٧) من سورة البقرة صفحة ٤. والذين كذبوا بآياتنا المنزلة على رسلنا للهداية، وكذبوا بلقاء ربهم يوم القيامة أى بالبعث والجزاء، بطلت كل أعمالهم التى عملوها فى الدنيا وكانت مظنة نفعهم كصلة الرحم وإغاثة الملهوف، لأن شرط الانتفاع بها فى الآخرة الإيمان، فلا يجزون إلا جزاء عملهم وهو شر الجزاء. واتخذ قوم موسى من بعد ذهابه لميقات ربه من حليهم الذى أخذوه من المصريين صورة عجل بقر صنعه السامرى بحيث يخرج منه صوت كصوت البقر، وجعلوه إلها يعبدونه تقربا به إلى الله، انظر آيتى (٨٧، ٨٨) من سورة طه صفحة ٤١٤. ثم سفه عقولهم فقال: ألم يروا حين اتخذوه إلها أنه لا يكلمهم ولا يقدر على هدايتهم إلى طريق الصواب، فهم اتخذوه إلها وكانوا ظالمين لأنفسهم وللحق بهذا الجرم الفظيع. ولما ظهر لهم خطؤهم وندموا وعلموا أنهم قد ضلوا، رجعوا إلى الله قائلين لئن لم يرحمنا ربنا بقبول توبتنا ويغفر لنا خطيئتنا لنكونن من الخاسرين لخيرى الدنيا والآخرة.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ[1] أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا
خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ
وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ
ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ
وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ[2] ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى
وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ[3] ﴿١٥١﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ
وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ[4] ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾
وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ
رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن
مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ

المفردات :. ﴿أسفا﴾ : الأسف الحزن، وأسف بوزن كتف شديد الأسف، وفعله أسف كتعب.

﴿عجلتم أمر ربكم﴾ : يقال عجله بفتح ثم كسر إذا سبقه.

﴿سكت عن موسى الغضب﴾ : أصل السكوت ترك الكلام، والمراد هنا ذهب عنه الغضب.

﴿واختار موسى قومه﴾ : الأصل اختار من قومه فحذف حرف الجر للعلم به.

المعنى :. ولما رجع موسى من الطور مكان المناجاة إلى قومه بنى إسرائيل حال كونه غضبان على أخيه هارون لضعفه فى سياسة قومه حزينا على ما وقع منهم، قال : بئس خلافة خلافتكم لى من بعد ذهابى عنكم، فبدل أن تخلفونى بالمحافظة على تعاليمى خلفتمونى بضدها، هل استعجلتم أمرا من أمور ربكم وهو إعطائى التوراة، فلما لم أرجع إليكم بسرعة ظننتم موتى فغيرتم كما تغير الأمم بعد أنبيائها.

ثم طرح موسى الألواح من يده ليمسك بشعر رأس أخيه هارون ولحيته كما تفيد الآية (٩٤) من سورة طه صفحتى ٤١٤، ٤١٥، يجره إليه عتابا له وتألما من لينه مع طيش بعضهم، وقال له ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعنى؟ انظر الآية (٩٢) من سورة طه صفحة ٤١٤. قال هارون لموسى: يا ابن أمى لا تعجل بتعنيفى فإنى لم أفرط فى نصحهم، أنظر الآية (٩٠) من سورة طه صفحة ٤١٤، ولكنهم استضعفونى فلم يسمعوا نصحى ولم يمتثلوا أمرى بل قاربوا أن

(١) غضبان (٢) الظالمين (٣) الراحمين (٤) الحياة

يقتلونى لما نهيتهم، فلا تشمت بى أعدائى الذين عبدوا العجل فإنهم يتمنون إهانتى، ولا تجعلنى معهم وقرينا لهم فى غضبك مع أنهم هم وحدهم الظالمون. وكان هارون شقيق موسى، وإنما ناداه بالأم فقط ليحمله على العطف بتذكره لها وما قاسته فى المحافظة عليه عند ولادته من الشدائد والتعرض لفتك فرعون بها، انظر الآيات من (٧ . ١٣) من سورة القصص صفحات ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨.

فلما تبين لموسى عذر أخيه قال : يارب اغفر لى ما أغلظت من قول وفعل مع أخى، واغفر لأخى ما عساه قصر فيه من منع القوم من الكفر لما هددوه بالقتل، واشملنا برحمتك التى وسعت كل شىء لأنك أنت أرحم الراحمين.

ولما فرغ سبحانه من حكاية ما حصل بين موسى وأخيه شرع فى بيان ما استحقه قومه من جزاء كفرهم فقال:

إن الذين اتخذوا العجل إلها سينالهم غضب من ربهم، ومن آثار هذا الغضب أنْ لا تقبل توبة أحدهم إلا بقتل نفسه كما فى الآية (٥٤) من سورة البقرة صفحة ١١، وذلة فى الحياة الدنيا تقدم بيانها فى الآية (٦١) من سورة البقرة صفحة ١٢، منها للسامرى خصوصا ما فى الآية (٩٧) من سورة طه صفحة ٤١٥. وكهذا الجزاء الرادع نجزى كل مَنْ يفترى الكذب على الله بجعله يقبل وساطة آلهة تعبد من دونه. ومن هذا وما سيأتى بعده مباشرة وفى الآية (١٥٩) من هذه السورة صفحة ٢١٨ يظهر أن قوم موسى كانوا ثلاثة أقسام:

قسم كفر وصمم كالسامرى وشيعته، وقسم تنبه وتاب، وقسم لم يشترك فى الجرم وانكره وهم مَنْ فى الآية (١٥٩) الآتية صفحة ٢١٨ وفتح سبحانه باب التوبة لكل مذنب مهما كان ذنبه حتى يقطع على الشيطان أمله، فقال: والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا أى أخلصوا فيه وثبتوا عليه يقبلهم سبحانه لأن ربك أيها النبى كثير المغفرة واسع الرحمة، فلا يرفض توبة تائب. ولما ذهب عن موسى الغضب باعتذار أخيه عاد إلى الألواح فأخذها، وفيما نسخ وكتب فيها هدى وإرشاد وسبب رحمة للذين يخافون غضب ربهم. ولما أراد موسى أن تكون التوبة من قومه عامة اختار من قومه سبعين رجلا ....

سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا (١) فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ
لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ (٢) أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ
وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ
خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ (٣) ﴿١٥٥﴾ * وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ
مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ
يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ (٤) وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا (٥) يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾
ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا
عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ (٦) وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ (٧)
عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ (٨) وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ (٩)
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ (١٠) ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ

المفردات : . ﴿لميقاتنا﴾ : الميقات هنا لغرض غير ما تقدم فى الآية (١٤٣) من هذه السورة صفحة ٢١٤. فالأول كان لتلقى الألواح. وهنا للاعتذار والتوبة من اتخاذ العجل. وقد تقدم معنى الميقات هناك.

﴿الرجفة﴾ : الصاعقة كما تقدم فى الآية (٩١) من هذه السورة صفحة ٢٠٧.

﴿فتنتك﴾ : أى ابتلاؤك واختبارك.

﴿هدنا إليك﴾ : رجعنا وتبنا.

﴿فسأكتبها﴾ : الضمير يعود على الرحمة بمعنى آخر لأن الأولى هى الرحمة العامة كما سيأتى وأما مرجع الضمير فهى الرحمة الخاصة وهذا يسمى فى لغة العرب ﴿استخدام﴾ وهو ذكر الشىء بمعنى وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر. ومنه أنزلت السماء ماء فرعته الإبل. أى فرعت ما نبت على الأرض لما نزل عليها الماء.

﴿الأمى﴾ : أصله المنسوب لأمه وأريد به مَنْ لا يقرأ ولا يكتب لأنه كيوم ولدته أمه.

﴿إصرهم﴾ : التكاليف الشاقة كما تقدم فى آخر سورة البقرة.

﴿الأغلال﴾ : جمع غل بضم أوله وهو فى الأصل الحديد الذى يجمع يده إلى عنقه. والمراد به تصوير ما كانوا فيه من المشقة بصورة حسية.

المعنى : . واختار موسى سبعين رجلا من خيار قومه، فلما وصلوا جبل الطور غلبتهم غلظة الطبع كما هى عادتهم التى أبرزتها الآيات من (٤٠ إلى ١٤٢) من سورة البقرة صفحات

(١) لميقاتنا (٢) وإياى (٣) الغافرين (٤) الزكاة
(٥) بآياتنا (٦) التوراة (٧) وينهاهم (٨) الطيبات
(٩) الخبائث (١٠) والأغلال.

من ٩ إلى ٢٧، فطلبـوا من مـوسى أن يريهم الله جـهـرة، انظـر الآية (٥٥) من سـورة البـقـرة صفحة ١١، فأخذتهم الرجفة فماتوا جميعا ثم أحياهم كما فى الآية (٥٦) من سورة البقرة صفحة ١١. ويكون الترتيب بـ (ثُمَّ) فى الآية (١٥٣) من سورة النساء صفحة ١٢٩ ترتيب منزلة الجريمـة لا ترتيب زمانهـا، ولا شك أن عبـادة العجـل أفظع من سؤال الرؤية، ويؤيـد ذلك آيتا (٥٤، ٥٥) من سـورة البقـرة صـفحة ١١، ويكون الجـزاء الذى وقـع على بنى إسـرائيل متـفـاوتا بعضه بالرجفـة وهو مـا حـصل للسـبعين، وبعضـه بقتل الشـخص نفسـه وهو لمَنْ سـايروا السامرى فى عبادة العجل ثم أرادوا التوبة وبعضهم لم يقتلوا أنفسهم ولم تأخذهم الرجفة ولم يتوبوا وهم السامرى وأشياعه. وقال موسى: يارب لو شئت إلخ، يعنى يارب لو أردت لأهلكتهم قبل ذلك بإغراقهم فى البحر وتركهم لفرعون يقتلهم، ولو شئت أهلكتنى حين طلبت منك الرؤية، أفـتـهلكنا الآن بمـا فـعل السـفـهـاء منا من سـوء الأدب والجـرأة على الله. مـا هذا إلا ابتلاؤك وامـتـحـانك سـبـحـانك الذى أخـرتنى به انظر الآية (٨٥) من سورة طه صـفـحـة ٤١٣، تضل بسببه مَنْ تشاء، أى ما تلك الفعلة التى كانت سببا لأخذ الرجفة لهم إلا إمتحانًا منك جعلته سببا لظهور استعداد بنى إسرائيل وما انطوت عليه سرائر كل فرد منهم من ضلال وهداية، وما استحقوا من ثواب أو عقاب، فميزت بها المؤمنين الثابتين كالذين سيأتى ذكرهم فى الآية (١٥٩) من هذه السورة صفحة ٢١٨ وغيرهم ممن كفروا وتابوا، وغيرهما ممَنْ لم يتب كالسامرى ومَنْ معه. وإذا كان الأمر كذلك فاغفر لنا وارحمنا لأنه لا مولى لنا سواك، وأنت خير الغافرين حلما وكرما فلا يعظم على مغفرتك ذنب. وأكتب لنلا فى هذه الدنيا حسنة أى حياة طيبة وتوفيقا للطاعة، واكتب لنا فى الآخرة أيضا حسنة هى الجنة لأننا تبنا ورجعنا إليك. فما هنا كما فى الآية (٢٠١) من سورة البقرة صفحة ٤٠ قال سبحانه: عذابى أصيب به مَنْ أشاء لحكمة تقتضى زجره أو دفع ضره عن الناس، وهو قليل ما يصيب بالنسبة لسعة رحمتى العامة لكل المخلوقات حتى الكافر منهم، انظر الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣ والآية (٤٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨. أما رحمتى الخاصة وهى السعادة فى الدنيا والآخرة فسأكتبها للذين يتقون الكفر والمعاصى والتمرد على رسلهم، ويؤتون ما طلب

منهم من الزكاة، والذين هم بأياتنا المعجزة والمنزلة يؤمنون إيمانا مستمرا من غير إخلال بشىء منها، ولا يفرقون بين نبى ونبى، الذين يتبعون الرسول الذى أرسله الله للهداية، النبى المنبئ للمكلفين ما شرعه الله، الأمى الذى لم يقرأ ولم يكتب فى حياته، وتلك معجزة كبرى له، وليس هذا إلا خاتم الأنبياء الأعظم، عليه ألف صلاة وألف سلام. هذا الرسول الكريم يجده أهل الكتاب مكتوبا عندهم بصفاته التى لا تنطبق إلا عليه كما تقدم فى الآية (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨، ومن صفاته عندهم فى التوراة والإنجيل الصحيحين أنه يأمر بكل خير وينهى عن كل شر تنكره العقول السليمة، ويحل لهم الطيبات كلها حتى ما كان محرمًا عليهم فى التوراة، انظر الآية (١٦٠) من سورة النساء صفحة ١٣٠، والآية (١٤٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨، ويحرم عليهم الخبائث كالميتة والدم ولحم الخنزير وكل ما فى الآية (٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٥، والآية (١٦١) من سورة النساء صفحة ١٣٠، ويضع عنهم إصرهم أى يخفف عنهم التكاليف الشاقة كعدم قبول توبة مرتكب الكبيرة إلا بقتل نفسه كما فى الآية (٥٤) من سورة البقرة صفحة ١١، وعدم طهارة الثوب إلا بقطع موضع النجاسة، وعدم قبول الدية فى القتل العمد والخطأ بل لابد من القصاص، وتحريم صيد السمك يوم السبت كما سيأتى فى الآية (١٦٣) من هذه السورة صفحة ٢١٩ والآية (٦٥) من سورة البقرة صفحة ١٣، وهذا الأمر كان يضايقهم كما يضايق الغل رقبة الأسير، فالمراد تصوير حال بنى إسرائيل فيما مضى بحال الشخص الذى يحمل أثقالا توجع ظهره، وهو مع ذلك موثق بالسلاسل والأغلال فى عنقه ويديه ورجليه، متمكنة منه كما يتمكن المستعلى من المستعلى عليه.

المفردات :. (وعزروه): أصل العزر المنع، والمراد منعوه وحموه من عدوه بحماس حتى لا يناله بسوء، انظر الآية (٩) من سورة الفتح صفحة ٦٧٩.

﴿وكلماته﴾: المراد بها كل الكتب المنزلة كما فى الآية (١٣٦) من سورة البقرة صفحة ٢٦.

﴿يهدون بالحق﴾ : أى يرشدون الناس حال كونهم متمسكين بالحق والذى يرشد وهو بهذه الحال لا يرشد إلا إلى الصواب.

﴿وبه يعدلون﴾: ويعدلون فى أحكامهم بسبب وقوفهم عنده. ﴿وقطعناهم﴾ : أى فرقناهم فرقا.

فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي
أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ
إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ [١]
وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا [٢] بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ [٣] وَاتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ
وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَاهُمُ [٤] اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا
أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ [٥] قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ
بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ
عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ [٦] وَأَنْزَلْنَا
عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ [٧] مَا رَزَقْنَاكُمْ [٨]
وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ

﴿أسباطا﴾ : قبيلة كما تقدم فى آيتى (١٣٦، ١٤٠) من سورة البقرة صفحتى ٢٦، ٢٧ ﴿استسقاه قومه﴾ : أى طلبوا منه الشرب فطلب من ربه كما تقدم فى الآية (٦٠) من سورة البقرة صفحة ١٢. ﴿انبجست﴾: انفجرت كما فى الآية السابقة صفحة ١٢ ﴿مشربهم﴾:

مكان شربهم. ﴿المن والسلوى﴾: تقدم فى الآية (٥٧) من سورة البقرة صفحة ١١.

المعنى : ـ فالذين آمنوا بهذا الرسول عند مجيئه وتفانوا فى حمايته من كل من يعاديه، ونصروه إذا حورب، واتبعوا النور الذى أنزل معه وهو القرآن؛ أولئك الذين يفعلون كل ذلك هم وحدهم الفائزون برضوان الله وجنته. قل أيها النبى : يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا لا فرق بين عربى وعجمى وأبيض وأسود، الله الذى وحده ملك السموات والأرض يتصرف فيهما ويدبر أمرهما حسب حكمته، لا إله إلا هو يحيى ويميت لا غيره، فخافوه، وآمنوا به وبرسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله، أى بما يدعوكم إليه وبكل كتبه المنزلة، واتبعوه فى كل ما يفعل ويقول لترجى لكم الهداية إلى الخير. ثم بعد ذلك بيَّن سبحانه حال بعض أتباع موسى وأنهم ليسوا كلهم مخطئين، فقال: ومن قومه جماعة عظيمة يهدون الناس بالحق الذى جاء به نبيهم من عند ربه ويعدلون إذا حكموا بسبب ملاحظة هذا الحق وهذا المدح يدل على أنهم لم يقعوا فيما وقع فيه غيرهم من أكل الربا والسحت أى الرشوة وكل محرم، وفرقنا قوم موسى اثنتى عشرة فرقه تمتاز كل فرقة بنظام خاص حتى فى مكان شربهم كما سيأتى، فقوله ﴿أمما﴾ بيان لـ ﴿أسباطا﴾ قبله، وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب أى قلنا له اضرب بعصاك الحجر فضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدد الأسباط، قد علم كل سبط مكان شربه. وقد تقدم فى الآية (٦٠) من سورة البقرة صفحة ١٢ بيان ذلك.

---

(١) السموات (٢) فآمنوا (٣) وكلماته (٤) وقطعناهم
(٥) استسقاه (٦) الغمام (٧) طيبات (٨) رزقناكم.

لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا
حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ (١) ۚ
سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ
بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَسْأَلْهُمْ (٢) عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ
حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ
يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ
نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ
لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ
قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا
مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا
الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا

ومن نعمنا عليهم أيضا أننا ظللنا عليهم الغمام حفظا لهم من حر التيه، وأنزلنا عليهم المن والسلوى، انظر ذلك كله فى الآية (٥٧) من سورة البقرة صفحة ١١، وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم، وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم، ولكن ظلمهم قاصر عليهم ضرره لا يتعداهم إلى غيره.

المفردات : ﴿هذه القرية﴾ : هى أريحاء.

﴿حطة﴾ : أى اسقاط لخطايانا.

﴿سجدا﴾ : أى متواضعين.

﴿فبدل الذين ظلموا﴾ : أى قالوا بدل حطة حنطة بالنون.

﴿رجزا﴾ : أى عذابا. ﴿القرية التى كانت حاضرة البحر﴾ : عن ابن عباس أنها أيْلَةُ، وكانت بين مدين والطور، مشرفة على شاطئ البحر. ﴿إذ يعدون فى السبت﴾ : أى حين يتجاوزون حدود الله بصيد السمك فى يوم السبت وكان محرما عليهم ذلك. ﴿حيتانهم﴾: جمع حوت، والمراد به السمك مطلقا كبيرا أو صغيرا. ﴿يوم سبتهم﴾ : قال الراغب: أصل معنى السَّبْت القطع، تقول العرب سَبَتَ على الجلدَ يَسْبِتُه بكسر الباء أو ضمها سبتا أى قطعه، وسمى اليوم الذى يقع بين الجمعة والأحد بالمصدر ﴿السبت﴾ لأن الله تعالى شرع لليهود قطع العمل فيه والتفرغ للعبادة، فهذا الاسم مما اتخذه العرب من إسرائيل الذين اختلطوا بهم فى المدينة وما حولها. وقبل ذلك كان اسمه عند العرب (شِيان) بكسر الشين، والمراد من يوم ﴿سبتهم﴾ يوم قطع العمل للعبادة انظر الآية (٦٥) من سورة البقرة صفحة ١٢، والآية (٤٧) من سورة النساء صفحة ١٠٨، والآية (١٥٤) من سورة النساء صفحة ١٢٩. ﴿شرعا﴾ : أى ظاهرة على وجه الماء قريبة من الساحل جمع شارع كركع وراكع وسجد وساجد. ﴿ويوم لا يسبتون﴾ : أى يوم لا يقطعون العمل. ﴿نبلوهم﴾ : أى نختبرهم، والمراد نعاملهم معاملة

(١) خطيئاتكم (٢) واسألهم.

الممتحن الذى يريد أن يظهر للناس التمييـز بين من حَكَّمَ عقله فى نفسـه وشهواتها وبين من جعل عقله عبدًا لشهوات نفسه، وعلى ذلك يترتب الجزاء العادل قال تعالى: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقـولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قـبلهم فليعمـن الله الذين صـدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ انظر آيتى (٢، ٣) من سـورة العنكبوت صفحـة ٥٢٠ و ﴿الذى خلق الموتى والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾ الآية (٢) من سورة الملك صفحة ٧٥٤.

﴿أمة منهم﴾ : أى طائفة.

﴿معـذرة إلى ربكم﴾: أى عـذرا نعتذر به إلى ربكم. ﴿بئـيس﴾ : من البـأس وهو الشـدة، أى شديد.

المعنى :. واذكر أيها النبى إذ قـال ربك لبنى إسـرائيل اسكنوا قـرية أريحاء من بلاد الشـام، وكلوا من خيراتها فى أى جهة من نواحيها شئتم لا يزاحمكم أحد، وقولوا عند دخول بابها كما فى الآية (٥٨) من سـورة البقـرة صفحـة ١١ حَطّنَا منك يارب هـو إسقـاط خطايانا، وادخلوا باب القرية خـاشعين لله منكسى رءوسكم تواضعا له تعـالى، إذا فعلتم ذلك نغفـر لكم خطاياكم، ونزيد المحسنين ثوابا. فماذا كان من بنى إسـرائيل بعد هذه الأوامر والترغيب؟ كان منهم أنهم بدلوا قولا غير الذى قيل لهم كما يفعل المستهزئ، والمراد خالفوا مخالفة تامة، فأنزلنا عليهم عذابا من السـمـاء بسـبب استـمـرارهم على الظلم وتجـاوز الحد. قيل أن مـا نـزّل بهم فى هذه الحالة كان طاعونا شـديدا فتك بهم. واسأل أيها النبى أيضا اليهود المعـاصرين لك تقريعا لهم بما فعل أجدادهم لأنهم ماضون على طريقتهم وتحذيرا لهم من أن يحل بهم ما حل بأجدادهم إذا استمـروا على ماهم عليه، اسألهم عن خبـر القـرية القـريبة من البحـر ومـا حل بأهلها حين تجاوزوا حـدود الله بالصيد فى يوم السـبت الممنوع فيه العمل، حين كانت تأتيهم الحيتان فيه ظاهرة، وحين لا يكون فى يوم السـبت حـيث يمكنهم العمـل لا تأتيهم وكـان الله سـبـحـانه حـرم العـمل عليهم يوم السـبت امـتحـانا لهم لعلهم يتمـرنون على الطـاعـة فـيتـغلبـون على طبـاعـهم الشرسـة فتستقيم أحوالهم وأيضا ليتميـز الخبيث من الطيب؛ وورد أن اليهود لمـا رأوا السمك يكثـر يوم السـبت المحـرم عليهم الصيد فيه احتالوا على صيده برمى الشبـاك وراء السـمك أو إقامة سدود بعيدا عن الشـاطئ فى داخل الماء، فعلوا ذلك يوم السبت والسمك كثير قريب من

الشاطئ، حتى إذا دخل الليل وأراد السمك الرجوع إلى داخل البحر منعته السدود أو الشباك، فيصيدونه يوم الأحد ظانين أنهم بذلك أطاعوا الله وقالوا ما صدنا يوم لسبت. ولما كانت هذه الحيل لا تخفى على الله عز وجل كان جزاؤهم ما ستعلمه. كهذا البلاء والامتحان العظيم بظهور السمك بكثرة يوم السبت نبتلى ونمتحن هؤلاء اليهود بأشياء كثيرة بسبب فسقهم المستمر وخروجهم عن طاعة ربهم. وكان اليهود فى هذه القرية عند هذا الامتحان على ثلاث طوائف:

طائفة تعدت وعصت، وطائفة تقية نهتهم وحذرتهم سوء العاقبة ولم تَكُف عن النهى مهما أعرض عنها المخالفون، وطائفة صالحة أيضا نهت أول الأمر ولما يئست سكتت لاعتقادها أنهم بلغوا من الفجور حالة جعلتهم غير قابلين للنصيحة. وذكر القرآن أن الله عذب العاصين، ونجى الناصحين، وسكت عن الطائفة الثالثة، والجمهور على أنها نجت أيضا، لأن أسلوب كلامها يدل على أنها كانت مستقبحة لعمل المخالفين وأنها كانت مؤمنة بأن الله سبحانه سيعذبهم، ولذلك قال عكرمة، لما سمع رجلاً يقول إنها غير ناجية كيف هذا؟ ونحن نرى أنهم أنكروا، وكرهوا ما عمله العاصون. فإذا قلتم إن الله سبحانه وتعالى لم يقل فنجيناهم جميعا. نقول إنه سبحانه لم يقل أيضا فأهلكنا هذه الطائفة، ولعله سبحانه إنما خص بالذكر الذين استمروا على النهى لأنهم أعلى درجة، حيث حملهم الخوف من الله تعالى على مداومة النهى عن المنكر ومن هذا نعلم أن كل قرية ظهر فيها منكر إن لم يقم بعضها بالنهى عنه عمَّ جميعهم العذاب، وإن نهت طائفة منهم وحل العذاب نجت هى منه.

فى ذلك كله قال سبحانه: وإذ قالت أمة منهم أى طائفة من أهل هذه القرية تناقش الطائفة التى قامت بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : لم تعظون قوما الله مهلكهم بإفنائهم كما أفنى عادا وثمود، أو معذبهم عذابا شديدا فى الدنيا كما عذب آل فرعون بالقحط والمكدرات، أى لم تحاولون هذا وهو لا ينفع فيهم، لأن الله حكم بإهلاكهم أو تعذيبهم. قال الناهون عن المنكر : إنما فعلنا ذلك ليكون عذرًا لنا نعتذر به إلى ربكم إذا سألنا يوم القيامة عن وقوع هذا المنكر فى قريتنا، ورجاء فى انتفاعهم بالموعظة فيتقون الله، أى أننا لم نيأس منهم كما يئستم. فلما ترك العاصون ما ذكرهم به أتقياؤهم كأنهم نسوه، أنجينا الذين ظلموا بسبب تعدى الحدود بعذاب شديد وهو البؤس وهو الشقاء فى المعيشة بسبب استمرارهم على الفسق وتعودهم الاستهانة بأوامر الله.

عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾
وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن
يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ
وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا
مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ
خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ
وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ
أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا
الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ * وَإِذْ نَتَقْنَا

المفردات: . ﴿عتوا﴾ : العتو التجبر فى التكبر انظر ما سبق فى الآية (٧٧) من هذ السورة صفحة ٢٠٥.

﴿خاسئين﴾ : أى أذلاء مبعدين عن كل خير. ﴿تأذن ربك﴾ : أى أعلم إعلاما مؤكدا.

﴿يسومهم﴾ : يلحق ويوقع عليهم.

﴿وقطعناهم فى الأرض﴾ : أى فرقنا اليهود فى أنحاء الأرض.

﴿أمما﴾ : أى فرقا.

﴿وبلوناهم﴾ : أى عاملناهم معاملة المختبر ليظهر للناس ما فى طبائعهم فإذا وقع الجزاء آمن الجميع بأنه عدل منه تعالى.

﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ : أصل الخلف مصدر خلفه أى جاء بعده، جعل وصفا بمعنى خليفة لمَنْ قبله؛ فالمعنى جاء من بعدهم خلفاء لهم.

﴿ورثوا الكتاب﴾ : المراد به التوراة.

---

(١) خاسئين
(٢) القيامة
(٣) وقطعناهم
(٤) الصالحون
(٥) وبلوناهم
(٦) بالحسنات
(٧) الكتاب
(٨) ميثاق
(٩) الكتاب
(١٠) بالكتاب
(١١) الصلاة.

﴿عرض هذا الأدنى﴾ : العرض مالا ثبات له، والمراد به هنا حطام الدنيا الزائل. والأدنى صفة لمقدر، والأصل متاع هذا الشيء الأدنى، والمراد بالشيء الحياة الدنيا.

﴿ميثاق الكتاب﴾: أى العهد الذى جاء به كتابهم.

﴿ودرسوا ما فيه﴾ : أى قرءوا ما فى الكتاب وفهموه. ﴿يمسكون بالكتاب﴾ : أى يتمسكون بما فيه، يقال مسك بالشيء وتمسك به والمعنى واحد.

﴿نتقنا﴾ : أى رفعنا كما فى الآية (٦٣) من سورة البقرة صفحة ١٣.

المعنى : . فلما لم يزجرهم العذاب الشديد وطغوا فى تكبرهم عن ترك ما نهاهم عنه الواعظون، قلنا لهم كونوا قردة خاسئين، أى تعلقت إرادتنا بجعلهم قردة، انظر الآية (١١٧) من سورة البقرة صفحة ٢٢ والآية (٤٧) من سورة آل عمران صفحة ٧٠ والآية (٨٢) من سورة يس صفحة ٥٨٦. قيل أنهم مسخوا قردة وخنازير حقيقة وماتوا سريعا. وقال مجاهد : هو مسخ معنوى، أى مسخت قلوبهم فصارت لا تقبل نصحا وأصبحوا كالقردة فى الاحتقار والطيش والإفساد.

ثم شرع سبحانه فى بيان سننه فى عقاب الأمة كلها بعد بيان عقاب طائفة منها فقال: وإذ تأذن أى أعلم إعلاما مؤكدا بالقسم الذى دلت عليه اللام فى ﴿ليبعثن﴾ الآتية والمعنى : واذكر أيها النبى حين أخبر الله مقسما بعزته أنه ليبعثن ويسلطن على هؤلاء اليهود إلى يوم القيامة مَنْ يوقع بهم أسوأ أنواع العذاب وأشده عقابا لهم على ظلمهم وفسقهم وفسادهم وإفسادهم، انظر بعضا من ذلك فى أول سورة الإسراء، وإن أردت تفصيلا لما حل بهم من النكال على يد أكثر الأمم الكبيرة إلى وقتنا هذا فارجع إلى شرح حديث ٤٠٥ من كتابنا صفوة البخارى، فإنه سجل ما قرر لويس اليهودى الإنكليزى فى كتابه (المسألة اليهودية) وستتجلى لك معجزة القرآن وصدق الرسول على أروع صورة.

إن ربك أيها النبى لسريع العقاب فى الدنيا للأمة التى يغلب عليها الفساد، وإنه لغفور رحيم لمَنْ رجع إليه وتاب. ومما عاقبناهم به أننا قطعناهم فى الأرض حال كونهم جماعات

جماعات كل جماعة فى قطر حتى لا يكاد يخلو منهم قطر، لا شوكة لهم إلا الدس والوقيعة بين الدول، منهم الصالحون وهم الذين استقاموا وآمنوا بأنبياء الله بعد موسى إلى زمنه ﷺ، ومنهم أناس دون وصف الصلاح وهم درجات بعضها كافر أو قريب منه، وبعضها أقرب إلى الصلاح. واختبرناهم بالحسنات كالخصب والعافية هل يشكرون عليها أم يكفرون، وبالسيئات كالجدب والمرض هل يصبرون عليها ليرجعوا إلى ربهم بالتوبة من ذنوبهم ويشكروا فى السراء ويصبروا فى الضراء، انظر الآية (١١٠) من سورة النحل صفحة ٣٦١ والآية (١٣١) من سورة طه صفحة ٤١٩ والآية (٣٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤ والآية (٢٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢. فخلف من بعد أتقيائهم ذرية ورثوا عن آبائهم التوراة ولكنهم لم يعملوا بها؛ لأنهم يأخذون متاع هذه الحياة الدنيا الزائل المحرم عليهم أخذه كالربا والرشوة، ويقولون فى أنفسهم إن الله سيغفر لنا ذلك ولا يحاسبنا عليه، يرجون هذه المغفرة والحال أنهم إن يأتهم عرض حرام مثله يأخذوه، أى فهم مصرون على الذنب عازمون على العود إليه، ومع ذلك يرجون المغفرة. ألم يؤخذ على هؤلاء الخلف عهد الله فى التوراة بأن لا يقولوا على الله إلا الحق، والحال أنهم درسوا هذا الكتاب وفهموا ما فيه، وعلموا أنه ليس فيه حل أخذ الحرام، ولا جواز مغفرة الذنب مع الإصرار عليه. ولو تنبه هؤلاء قليلا لعلموا أن الدار الآخرة وما أعده الله فيها للمتقين الذين يتقون المعاصى كالرشوة والسحت خير من هذا المتاع الفانى، انظر الآية (٤٢) من سورة المائدة صفحتى ١٤٤، ١٤٥. أبعد ذلك تستمرون على عصيانكم فلا تعقلون وترجحون الخير على الشر، والنعيم الدائم على الزائل! والذين يتمسكون بكتاب الله وحبله المتين من أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وأصحابه، وأقاموا الصلاة المفروضة فى التوراة وفى القرآن بعد الإسلام، لا يضيع الله تعالى أجرهم لأنهم مصلحون، انظر الآية (٣٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٥.

ثم ختم سبحانه قصة بنى إسرائيل بالتذكير ببدء حالهم عند إنزال الكتاب عليهم، عقب بيان عاقبة أمرهم فى مخالفتهم لهذا الكتاب والخروج على تعاليمه، ليربط مبدئهم ونهايتهم، ليظهر للناس أن طبعهم هو طبعهم إلى قيام الساعة، فقال: وإذ نتقنا، أى واذكر أيها النبى إذ رفعنا فوق رءوس هؤلاء الجبل...

الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا
مَا ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾
وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ
أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾
أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ
بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ
الْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِىٓ
ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ
الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى
الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ
عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ

المفردات : . ﴿ظلة﴾ : أى غمامة، انظر الآية (٢١٠) من سورة البقرة صفحة ٤١ والآية (١٨٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١.

﴿أشهدهم على أنفسهم﴾ : المراد أوجدهم شاهدين على أنفسهم بذلك بلسان حالهم، وقالوا إن شهادة الحال أصدق من شهادة اللسان، وهذا كثير فى القرآن وفى كلام العرب يقال:

امتلأ الحوض وقال كفى ويقولون فى حال السارق، عينه تنطق بأنه سارق وفى القرآن الآية (١٧) من سورة التوبة صفحة ٢٤٢، والآية (٢٩) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤، والآية (٧) من سورة العاديات صفحة ٨١٨ وهذا يدل صراحة على أن الحجة قامت على بنى آدم بهذا الميثاق على أن رب العالمين هو الله وحده، وبعد قيام هذه الحجة فلا حاجة إلى إرسال رسول فى موضوعها وإنما تأتى الرسل بالشرائع فقط ﴿ألست بربكم﴾: الهمزة فى ﴿ألست﴾ أصل معناها الاستفهام وهو طلب المتكلم من السامع أن يفهمه شيئا خفى عليه علمه، واستعملت هنا فى الإنكار الذى معناه النفى، وبما أن ما بعدها هنا وهو (ليس) تفيد النفى أيضا، ومن المقرر أن نفى النفى إثبات فإن مضمون الكلام يصير ثابتا، ويكون قصد المتكلم بهذا التركيب هو حمل المخاطب على الاعتراف بما يفيد النفيين، ويكون المعنى حينئذ اعترفوا أيها المخاطبون بأنى أنا الله ربكم.

(١) آتيناكم (٢) بنى آدم (٣) القيامة
(٤) غافلين (٥) الآيات (٦) آتيناه
(٧) آياتنا (٨) الشيطان (٩) لرفعناه
(١٠) هواه.

﴿بلى﴾ اعلم أيها المثقف المنتهى أن الراجح مما قرره علماء العربية أن حرف (بلى) لا يأتى فى أكثر استعمالاته إلا بعد كلام فيه نفى، نحو قوله تعالى ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن﴾ الآية (٧) من سورة التغابن صفحة ٧٤٦، ويكون مراد المتكلم بها فى هذه الحالة هو إبطال النفى وإثبات ما بعده، وإن ذكر قبل النفى السابق على حرف (بلى) حرف استفهام، فإن كان استفهامنا مراد به التوبيخ فحرف (بلى) باق على معناه من إبطال النفى أيضا كما سبق، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا﴾ الآية (٣٤) من سورة الأحقاف، ونظير ذلك ما تقدم فى الآية ٣٠ من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، وإن كان الاستفهام للإنكار أى النفى كما هنا ويكون مضمون الكلام ثابتا يكون معنى بلى تقرير المعنى المتحصل من النفيين وهو الثبوت.

وقال سيبويه إمام العربية إنه يصح فى هذه الحال أن يجاب بحرف (بلى) وبحرف (نعم)، فبحرف (بلى) نظرًا لظاهر لفظ النفى، وبحرف (نعم) نظرًا لأن مضمون الكلام صار إثباتا. ونعم يجاب بها الإثبات، فنحو (هل جاء زيد)؟ إذا أردت الإثبات تقول فى جوابه نعم، وإن أردت النفى تقول لا، وقد جاء فى الحديث الصحيح الجواب بـ (نعم) بدل (بلى) بعد نفى مسبوق باستفهام إنكارى، وذلك فى قوله ﷺ للأنصار يومًا فى الحديث عن المهاجرين ألستم ترون لهم ذلك؟ قالوا: نعم.

وقد جاء قليلا الجواب بـ (بلى) بعد كلام ليس فيه نفى، من ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه من قوله ﷺ لأصحابه (أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قالوا: بلى) أى نعم نرضى. فاعلم ذلك واستصحبه معك فى كل ما يأتى من حرف (بلى). وإنما أفضت فى هذا لأن أكثر المفسرين اضطربت أقوالهم فى هذه الآية، ونسبوا لابن عباس رأيا لم يُسَلِّمه العلماء له، ولم يرضه إمام العربية سيبويه.

﴿فانسلخ منها﴾ : أى أهملها وتركها وراء ظهره كما تنسلخ الحية من ثوبها وتطرحه وراءها.

﴿فأتبعه الشيطان﴾ : فلحقه وتمكن من إغوائه بعد أن كان بعيدا عنه بسبب طاعته.

﴿الغاوين﴾ : الفاسدين المفسدين، انظر الآية (٣٩) من سورة الحجر صفحتى ٣٤٠، ٣٤١ والآية (٦٣) من سورة القصص صفحة ٥١٦ والآية (٣٢) من سورة الصافات صفحة ٥٨٩.

﴿أخلد إلى الأرض﴾ أى ركن ومال إلى التسفل المنافى للرفعة بميله إلى ما على الأرض من زينة زائلة كما فى الآية (٧) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٠، ٣٨١.

﴿تحمل عليه﴾ : أى تشتد عليه بالطرد والزجر وإيقاعه فيما يتعبه. ﴿يلهث﴾ : اللهث بفتح فسكون : التنفس الشديد مع إخراج اللسان، ويكون فى غير الكلب من شدة التعب أو العطش، وفعله لهث كمنع.

المعنى : . واذكر حين رفعنا جبل الطور فوق رءوسهم لحملهم على الاهتمام بما فى التوراة وعدم التمرد عليها، لأن القادر على ذلك قادر على محقهم إذا خالفوا، وقلنا لهم فى حال رفع الجبل خذوا ما أعطيناكم مما فى التوراة بقوة وعزم على احتمال مشاقه، وتذكروا دائما ما فيه من الأحكام واعملوا بها ليعدكم ذلك لتقوى الله. ثم بدأ سبحانه كلاما جديدا فى شئون البشر عامة من جهة ما أودعه فى فطرهم وعقولهم من الاستعداد للإيمان بوجود خالق حكيم، بعد بيان هدايته سبحانه للبشر عن طريق الرسل والكتب إلى كل مالا تصل إليه عقولهم من الخير فى الدارين، فقال: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم﴾ إلخ؛ أى واذكر أيها النبى لأمتك حين أخذ ربك من بنى آدم أى استخرج منهم ذريتهم بطنا بعد بطن، وفطرهم على الإيمان، وجعل عقولهم تدرك بالضرورة أن كل فعل لابد له من فاعل، وكل حادث لابد له من مُحدِث، وهذا هو المراد من قوله: وأشهدهم على أنفسهم قائلا لهم ألست بربكم، قالوا: نعم أنت ربنا، فهو قول بلسان الحال، كما فى قول السموات والأرض اتينا طائعين، انظر الآية (١١) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٠، ٦٣١؛ ثم بيَّن سبحانه حكمة هذا الإشهاد فقال: ﴿أن تقولوا يوم القيامه إنا كنا عن هذا غافلين﴾. والمعنى فعلنا هذا منعا لاعتذاركم يوم القيامة بأن تقولوا إذا شاهدتم عذاب المشركين إنا كنا عن علم وجود إله واحد غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبلنا ووجدنا نحن ذرية من بعدهم جاهلين بطلان شركهم فاقتدينا بهم، أفتهلكنا يارب بما فعل المبطلون من آبائنا وجرونا إليه وتجعل عذابنا كعذابهم فالمراد أن الله تعالى لا يقبل الاعتذار بالجهل بوجوده، ولا بتقليد الآباء فى ذلك، وكهذا التفصيل البديع نفصل لبنى آدم الدلائل على وجود إله لعلهم يرجعون إذا تأملوا فيها عن جهلهم وتقليدهم الآباء. فالآيات تدل على أن من لم تبلغه بعثة رسول لا يعذر يوم القيامة فى الشرك به تعالى، وإنما يعذر بمخالفة ما جاء به الرسل من الغيبيات والشرائع التى لا يصل إليها العقل. هذا ما رآه المحققون فى معنى الآية، واختاره القاضى البيضاوى ويؤيده قوله تعالى ﴿من بنى آدم﴾ ولم يقل (من آدم) وكذلك جمع الضمائر فى قوله عز وجل ﴿ظهورهم﴾ ولم يقل من ظهره وكذا فى قوله سبحانه ﴿ذريتهم﴾ ولم يقل (ذريته) لو كان المأخوذ منه هو آدم كما يقول بعض المفسرين فتأمل وبالله

التوفيق. وعلى ذلك يكون قوله تعالى ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ الآية (١٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦ معناه معذبين على ترك الشرائع وعلى جهل الغيبيات إلا بعد مجىء رسول يبلغها. ولو كان المراد ماكنا معذبين حتى فى عدم اعتقاد وجود إله لقال: وما كنا معذبين حتى نشهد المكلف على نفسه كما فى هذه الآية التى معنا. فمحصل المعنى أنه لا ينفعهم الاعتذار بما ذكر لأنه سبحانه نبههم بإقامة الأدلة، وجعلهم مستعدين لمعرفة الحق من وجود إله صانع حكيم.

ثم أراد سبحانه أن يضرب مثلا للمكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله ﷺ مع تأييدها بالأدلة العقلية فقال: واتل أى اقرأ على الناس ومنهم مشركو العرب واليهود خبر الرجل الذى آتيناه آياتنا المنزلة على رسولنا ومكناه من علمها فأهملها ولم يلتفت إلى الاهتداء بها أى فترتب على اختياره هذا الإهمال خضوعا لشهوة نفسه، أن لحقه الشيطان فأدركه وأحاط به من كل جانب حتى لا يفلت من سيطرته بعد أن فقد نور العلم والبصيرة، فأعقب ذلك أن صار من الغاوين الفاسدين المفسدين ولو أردنا أن نرفعه بتلك الآيات إلى درجات الكمال التى توجب قرن العلم بالعمل كما فى الآية (١١) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٧ لرفعناه بأن نجبره على الهداية كالملائكة، ولكنا لم نفعل لمخالفة ذلك لنظامنا فى هذه الحياة الدنيا من جعل الإنسان مختارا، وعلى حسب اختياره نسهل له ما يريد من خير وشر كما فى الآيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧، ولو اختار الرفعة لرفعناه. لكل هذا تركنا هذا الرجل وشأنه، فاختار لنفسه التسفل وأبى الرفعة، واتبع هواه فى الملاذ الزائلة، انظر الآية ٢٣ من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣، فصار حاله كحال الكلب يلهث دائما، حملت عليه أو تركته، فإنه مكروب بضيق التنفس. فالكلام تمثيل لحال المحروم من الانتفاع بعلمه بحال الكلب فى سوء الحال وقلق القلب واضطرابه وعدم راحته، فهو فى هم دائم مشغول بخسائس الشهوات، لا يرضى بما قسم له من الحظوظ، بل يزيد طمعه كلما نال مأربا، فهو فاقد رضا القلب وراحة الضمير برضا الله عنه. ذلك المثل الغريب هو مثل كل مكذب بآيات الله من كفار مكة أو يهود الجزيرة، انظر ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء﴾ الآية (١٢٥) من سورة الانعام صفحة ١٨٣. واعلم أن هذا الرجل الذى آتاه الله آياته فأهملها لم يبينه القرآن، ولم يتفق عليه العلماء قديما وحديثا، ولم يصح حديث يبين اسمه ولا جنسه ولا وطنه؛ لأن هذا كله ليس له دخل فى مكان العبرة فى الموضوع، فلا تشغل نفسك بما لا يفيد والله أعلم.

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾
سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا
يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا
مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ
لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ
كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾
وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ
يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾
وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾
وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

المفردات : ـ ﴿ساء مثلا﴾ : المثل الحال والصفة، وساء أى قبح، والمعنى قبح حالاً حال هؤلاء المكذبين. ﴿ذرأنا﴾ : أصل معنى الذرء بث الأشياء وتكثيرها، والمراد خلقنا بتقدير ونظام، انظر الآية (١١) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩.

﴿وذروا﴾ : أى اتركوا.

﴿يلحدون فى أسمائه﴾ : ألحد أى مال عن الصواب.

﴿يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ : تقدم بيانها فى الآية (١٥٩) من هذه السورة صفحة ٢١٨ . ﴿سنستدرجهم﴾ : أى نأخذهم درجة بعد درجة حتى يصلوا إلى ما فيه هلاكهم. ﴿وأملى لهم﴾ : أى أمهلهم.

﴿كيدى متين﴾ : الكيد كالمكر هو التدبير الخفى بما يسوء الممكور به.

المعنى : ـ ذلك الحال هو حال المكذبين بآياتنا بعد ما جاءتهم واضحة قاطعة بصدق رسولنا فأعرضوا عنها، سواء فى ذلك المشركون واليهود، فاقصص أيها النبى عليهم قصص مثل ذلك الرجل المشابه حاله حال المكذبين بما جئت به رجاء أن يتفكروا فى هذه الحال فينزجروا عما هم عليه. قبحت صفة هؤلاء المكذبين فى عداد الصفات. وما ظلموا أحدا بعملهم هذا وإنما ظلموا أنفسهم فقط. ثم أراد سبحانه أن يقرر ويؤكد مضمون القصة السابقة من أن مَنْ تسبب فى الهدى أو الضلال لابد أن ينتهى إلى الغاية التى جعلها الله لكل

(١، ٢) بآياتنا (٣) الخاسرون (٤) آذان (٥) كالأنعام
(٦) الغافلون (٧) أسمائه (٨) بآياتنا.

منهما؛ فمن استعمل ما وهبه الله من عقل وسمع وبصر فى التدبر لغرض الوصول للحق هداه الله إليه، ومَنْ أهملها وأفسد فطرته التى خلقها الله سليمة أضله. وقد تقدم تحقيق ذلك فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، وسيأتى نظيرها فى الآية (٣) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١، وقد أجمل سبحانه هذا المعنى فى الآية الأولى هنا، وفصله فى التى تليها؛ فمعنى الأولى : مَنْ يوفقه الله لسلوك سبيل الهداية بسبب حسن استعداده واستعماله لحواسه فهو المهتدى حقا الفائز بالسعادتين، انظر الآية (٩) من سورة يونس صفحة ٢٦٦، والآية (٢٧) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥، والآية (٦٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٣٠، والآية (١١) من سورة التغابن صفحتى ٧٤٦، ٧٤٧، ومَنْ يضلله ويحرمه من هذا التوفيق لنقص فيه كفسق أو كبر أو كثرة كذب أو غير ذلك فهذا الفريق من الناس هم الخاسرون لخيرى الدنيا والآخرة، انظر آيتى (٢٦ ، ٢٥٨) من سورة البقرة صفحات ٦، ٧، ٥٤، والآية (١٠٨) من سورة المائدة صفحة ١٥٩، والآية (٥٢) من سورة يوسف صفحة ٣١١، والآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦، والآية (٢٨) من سورة غافر صفحة ٦٢١ .

ثم فصل سبحانه هذا الإجمال فقال:

ولقد ذرأنا وأعددنا لجهنم كثيرا من الجن والأنس؛ لأنهم أهملوا عقولهم ومواهبهم فأصبحت عقولهم لا تفهم النافع من الضار، ولا يوجهون أبصارهم إلى التأمل فى آيات الله ودقيق صنعه، ولا آذانهم إلى سماع الحق سماع فهم وتدبر. وقد كرر القرآن هذا المعنى فى مواضع كثيرة، منها الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤، والآية (١٠٨) من سورة النحل صفحة ٣٦١، وآيتا (٢٦، ٢٧) من سورة السجدة صفحتا ٥٤٧، ٥٤٨، والآية (٢٣) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣، والآية (٢٦) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧٠. أولئك المهملون لمواهبهم كالأنعام من إبل وبقر وغنم فى كونهم لا ينتفعون بحواسهم إلا فيما يعود على متعة أجسامهم الفانية، بل هم أضل من الأنعام لأنها لا تفعل إلا ما فيه مصلحتها، أما هم فلا يفعلون إلا ما فيه

هلاكهم وعذابهم الدائم فى الآخرة، والأنعام لا تعذب وأولئك هم الكاملون فى الغفلة عما فيه سعادتهم فى الدارين. وبعد هذا أراد سبحانه أن يرشد عباده المخلصين إلى تذكره سبحانه وعدم الغفلة عن مراقبته مع البعد عن التلاعب بأسمائه وصفاته وتحريفها إلى معنى لا يليق به، فقال:

﴿ولله الأسماء الحسنى﴾ والمراد بالأسماء الألفاظ الدالة على الذات كلفظ الله، أو الذات والصفة كالرحمن، وبقية المذكور فى الآية (٢٢) من سورة الحشر وما بعدها صفحتى ٧٣٣، ٧٣٤. والحسنى مؤنث الأحسن. والمعنى : ولله دون غيره جميع الأسماء الدالة على أحسن المعانى وأكمل الصفات فاذكروه وسموه ونادوه بها، وابتعدوا عن الذين يلحدون أسمائه بالميل بألفاظها أو معانيها عن الحق من تحريفها أو تأويلها بما يفيد التشبيه بالمخلوقات وينافى الكمال، كتفسير علمه وقدرته وبصره وكلامه تعالى بأنها ككلامنا وقدرتنا وبصرنا إلخ، وكقول بعضهم لما سمع ﴿تبارك وجه ربك﴾ إن لله وجها أبيض يحيط به شعر أبيض. تعالى الله عن ذلك وعد بعضهم من الإلحاد فيها إدخال ماليس منها فيها بتسميته سبحانه بما لم يسم به نفسه مما لا يليق بكماله وجلاله، كأن يقول المستهتر:

الله خادم خلقه، يريد راعى مصالحهم. تعالى الله عن ذلك علوا كبير. وكقول الفلاسفة: الله هو العقل المدبر الأعظم.

ابتعدوا عن مثل هؤلاء فسيلقون جزاء أعمالهم قريبا وبعد ما ذكر سبحانه صفات أهل جهنم وحذر ممن يلحدون فى أسمائه قال: وممنْ يلحدون فى أسمائه قال: وممنْ خلقنا طائفة من الناس يهدون غيرهم إلى الصواب بسبب حبهم الحق وبه يعدلون إذا حكموا، وهذه الصفات ظاهرة فى أمة محمَّد ﷺ السالكة فى طريقه. أما الذين كذبوا بآياتنا المنزلة والموجودة فى الكون فسنتركهم فى غيهم وضلالهم شيئا فشيئا من حيث لا يشعرون حتى يقعوا فى المهالك، وسأمهلهم وأمد لهم فى الحياة كيدا لهم ومكرًا بهم، وكيدى متين يقصم الظهور، انظر آيات من (٥٤ إلى ٥٦) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٥٠، ٤٥١.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَٰوَٰتِ (١) وَالْأَرْضِ
وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ
أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ
فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ (٢) يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾
يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا (٣) قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا
عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَٰوَٰتِ (٤)
وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ
حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا
مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ
الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ

المـفـردات : . ﴿جنة﴾ : جنون كـمـا فى الآية (٢٥) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٤٧، ٤٤٨، والآية (٨) من سورة سبأ صفحة ٥٦٣.

﴿ملكوت﴾ : هو الملك العظيم كما تقدم فى الآية (٧٥) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤.

﴿ويذرهم﴾ : يتركهم.

﴿يعمهون﴾ : يتحيرون كما تقدم فى الآية (١٥) من سورة البقرة صفحة ٥.

﴿الساعة﴾: أصل معنى الساعة عند العرب لحظة من الزمن، والمراد هنا القيامة، أى قيام الناس من القبور عند النفخة الثانية، والعرب تطلق اللفظ الدال على الزمن وتريد الحدث الواقع فيه، انظر تفصيل ذلك فى شرح الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٤، عند الكلام على لفظ ﴿اليوم﴾، وانظر معانى الساعة عند العرب وفى القرآن فى شرح الآية (٣٤) من هذه السورة صفحة ١٩٧.

﴿أيان﴾ : متى. ﴿مرساها﴾ : أصله مصدر معناه الإرساء أى الإثبات، يقال رسا الشىء يرسو أى ثبت كما فى الآية (٤١) من سورة هود صفحة ٢٩٠، وأرساه غيره أثبته، والمراد هنا حصولها ووقوعها.

﴿لا يجليها لوقتها﴾ : لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاء وقوعها فى وقتها، فاللام فى ﴿لوقتها﴾ تسمى لام التوقيت كقوله ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ و كتب الخطاب لعشر بقين فى رمضان.

﴿ثقلت فى السموات﴾ : أى ثقل علمها على أهل السموات والأرض فلا يستطيعون الوصول إليه ﴿كأنك حفى عنها﴾ : أصل مادة حفى تفيد المبالغة فيما تعلقت به كما فى الآية (٤٧) من سورة مريم صفحتى ٤٠٠، ٤٠١، ومعنى التركيب كأنك مبالغ فى سؤال ربك عنها حتى توصلت إلى علمها، يقال فلان حفى عن الأمر أى مبالغ فى البحث عنه، وتعرف حاله، ويطلق لفظ

---

(١) السموات (٢) طغيانهم (٣) مرساها (٤) السموات.

﴿حَفِيٌّ﴾ أيضا على شديد البر واللطف بغيره، قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا﴾.

المعنى : ـ كذب هؤلاء الكفار رسولهم محمدا ﷺ، ولم يتفكروا فى حاله من أول نشأته وفى أدلة نبوته، لو تفكرتم لعلمتم أنه ليس بصاحبكم محمَّد جنون، وماهو إلا نذير لمَنْ عصى، واضح الإنذار. وبعد أن بيَّن أنه نذير لهم بين يدى عذاب شديد طلب منهم النظر والاستدلال العقلى فقال : أو لم ينظروا؛ أى هل كذبوا الرسول المعروف بينهم بالأمانة واتهموه بالجنون وهو المعروف عندهم بالعقل الراجح، ولم يتأملوا فى الملك العظيم وكل ما خلقه فيه شىء صغير أو كبير ظاهر أو باطن، فكل ذلك يدل على حكمة مدبر قدير لا يخلق هذا العالم عبثا، ولا يترك الناس سدى بدون مرشد، كما فى الآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦، ولم يتفكروا فيما عسى أن يكون عليه الشأن من اقتراب أجلهم وقدومهم على الله بسوء أعمالهم. فإذا لم يؤمنوا بهذا القرآن المملوء بالعبر والبراهين فبأى حديث بعد يؤمنون؟ أى ليس هناك ماهو مثله ولا قريب منه ينتظرون الإيمان به، انظر مثل ذلك فى الآية (٦) من سورة الجاثية صفحة ٦٦١، وآخر سورة المرسلات صفحة ٧٨٦.

مَنْ يضلل الله لاستحقاقه ذلك فلا يستطيع مخلوق أن يهديه. ثم أشار إلى سبب إضلاله بقوله: ويذرهم فى طغيانهم أى تجاوزهم الحد بالكفر والعصيان يتحيرون لايستطيعون خلاصا وقد تقدم قريبا سنة الله فى الضلال والهداية فلا تغفل.

ولما سألوه ﷺ عن موعد قيام الساعة، وأصل الساعة الجزء من الزمن، والمراد بها هنا ساعة خراب هذا العالم الذى يبدأ بالنفخة الأولى كما فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ فقال سبحانه : يسألونك أيها النبى عن موعد قيام الساعة قائلين متى وقوعها وحصولها؟ قل لهم علم وقتها عند ربى وحده كما فى الآية (٣٤) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤، لا يظهرها فى وقتها سواه سبحانه، ثقل وغمض علمها على كل مخلوق، فلا تأتيكم إلا بغتة بدون سبق شعور يسألونك هذا السؤال ويلحون فيه كأنك عالم بها، فإذا كرروا السؤال فكرر الجواب وقل لهم: علمها عند الله وحده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون اختصاصه سبحانه بعلمها.

ثم لما كان سؤالهم عن الساعة يشعر بأن بعضهم قد يخالجه ظن أنه ﷺ قد يقدر على مالا يقدر عليه قدرة البشر من النفع والضر، أراد سبحانه أن يبطل ذلك فقال: قل لهم أيها النبى إننى بشر مثلكم لا أملك لنفسى جلب نفع ولا دفع ضر إلا ما شاء الله من نفع يعيننى على جلبه أو ضر يساعدنى على دفعه، ولو كنت أعلم الغيب كما ظن بعضكم لا ستكثرت من

يُؤْمِنُونَ (١٨٨) ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ[1]
وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا[2] حَمَلَتْ
حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ
آتَيْتَنَا[3] صَالِحًا[4] لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ[5] (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا[6]
صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا[7] فَتَعَالَى[8] اللَّهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١)
وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢)
وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ
أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ[9] (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ
إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ[10] (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ
أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ

كل خير يرغب فيه الناس، كالمال الحاصل من التجارة المبنى استكثاره على معرفة ما سيكون عليه الحال فى المستقبل مثلا، ولدفعت عن نفسى كل سوء بالبعد عن أسبابه الخفية، وما أنا إلا نذير لكل عاص بالعذاب، وبشير للمؤمنين الصالحين بالجنة.

المفردات :ـ ﴿تغشاها﴾ : أصل الغشاء الغطاء الذى يستر الشىء من فوقه، ومنه الغشاوة فى قوله ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤، وتغشى الشىء غطاه؛ فهى كناية لطيفة عن أداء وظيفة الزوجية.

﴿فلما أثقلت﴾ : أى صارت ذات ثقل لكبر الحمل فى بطنها، فالهمزة تفيد الصيرورة كقولهم فلان أتمر وألبن، أى صار ذات تمر ولبن.

المعنى :ـ ختم سبحانه السورة بشىء مما بدأها به من الدعوة إلى التوحيد واتباع ما أنزله الله، والنهى عن اتباع غيره، والإشارة إلى نشأة الإنسان وعداوة الشيطان له وإغرائه بالمعصية إلخ. فقال هو الذى خلقكم من نفس واحدة أى من جنس واحد ليتم التآلف، ولذا قال: وجعل منها زوجها، أى من جنسها ليسكن إليها ويستريح، أنظر ما تقدم أول سورة النساء صفحة ٩٧، والآية (٢١) من سورة الروم صفحة ٥٣٣، فلما خالط الزوج الأنثى حملت حملا خفيفا أول الأمر لا تكاد المرأة تشعر به، فمرت به فى قضاء حاجاتها من غير مشقة، فلما صارت ثقيلة البطن وخافت هى وزوجها عاقبة الأمر دعوا الله ربهما قائلين يارب وعزتك لئن أعطيتنا نسلا صالحا للحياة لا نقص فى خلقته ولا فساد فى تركيبه لنكونن من الشاكرين لنعمتك، فلما أعطى الزوج والزوجة ولدا صالحا كما طلبا جعلا له تعالى شركاء فى شكر نعمه عليهم،

(١) واحدة (٢) تغشاها (٣) آتيتنا
(٤) صالحا (٥) الشاكرين (٦، ٧) آتاهما
(٨) فتعالى (٩) صامتون (١٠) صادقين.

فتقربوا إليهم كما يتقربون إليه، ونسبوا إليهم مالا يكون إلا منه سبحانه فأشرك بعضهم أصناما، وبعضهم يطلب حفظ ولده وماله من غيره تعالى، ويقدم لهم النذور التى لا تقدم إلا له تعالى، بل بلغ من جهل الإنسان بقدر ربه أنه يشرك حتى بالشجر والحجر، تعالى الله وارتفع شأنه عن شركهم، لأنه هو وحده صاحب الفضل فى كل ما ينال الإنسان من نعم.

فالمراد من الآية بيان حال البشر فيما طرأ عليهم من نزغات الشرك الخفى والجلى، فمن الأول تقديم مصلحة الولد على مصلحة الدين فيدخر له ولا ينفقه فى سبيل الله، انظر الآية (١٥) من سورة التغابن صفحة ٧٤٧، أما الشرك الظاهر فلا يحصر، وقد تسرب بعضه إلى كثير من المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله. فكأنه سبحانه يقول: هذا هو شأن الإنسان إذا خاف شيئا لجأ لله، وإذا اطمأن نسى ربه وأشرك، انظر الآية (٦٥) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠. وإنما نسب الشرك لجنس الإنسان مع أن فيهم مؤمنين لأن الأحكام دائما تناط بالأغلب، وأغلب البشر كافر كما فى الآية (١٠٣) من سورة يوسف صفحة ٣١٨، فيكون الحكم بالنسبة للكثرة، والقلة مستثناة لفظا أو تقديرا؛ لفظا كما فى الآية ١٩ من سورة المعارج وما بعدها صفحة ٧٦٥ والآية (٢) من سورة العصر صفحة ٨٢٠، تقديرا كما فى الآية (١٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٧، والآية (٩) من سورة هود صفحة ٢٨٥، والآية (٣٤) من سورة إبراهيم ٣٣٥، والآية (٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣، والآية (٦٦) من سورة مريم صفحة ٤٠٣ وغير ذلك كثير. ثم أنكر سبحانه عليهم هذا الشرك ووبخهم عليه فقال: أيشركون إلخ؛ أى هل يصح أن يشركوا معه سبحانه وهو الخالق لهم ولأولادهم مالا يخلق شيئا من الأشياء مهما يكن حقيرا كما فى الآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤، بل هؤلاء الشركاء يخلقهم وقتا بعد وقت أمام أبصارهم، ولكنهم لا يفقهون فيسوون بين مَنْ يخلق ومن لا يخلق، بل هو مخلوق مثلهم، انظر الآية (١٧) من سورة النحل صفحة ٣٤٧. وهؤلاء الشركاء مع كونهم مخلوقين لا يستطيعون نصرا لمَنْ يعبدهم على أعدائه بل ولا ينصرون أنفسهم إذا تعدى عليهم الغير بإهانة أو أخذ شىء من حولهم كما فى الآية المتقدمة من سورة الحج. وإن تدعوا أيها المشركون هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء لله ليرشدوكم إلى ما تحبون لا يتبعوكم إلى مرادكم، أى لا يجيبونكم كما يجيبكم الله إذا لجأتم إليه، فمستو عندكم دعاؤكم لهم وبقاؤكم على صمتكم وسكوتكم أى لا فائدة من دعائكم. ثم علل هذا سبحانه فقال فى تحدى

رسولنا ﷺ، لقومه من كفار العرب أجمعين. بهذا التحدى بعينه، فى الوقت الذى كان فيه ﷺ، بمكة، ولم يؤمن به إلا عدد قليل، معظمهم من المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة فى هذا الوقت العصيب، والكفار كثرة وقوة يرهبها الأقوياء، يتحداهم خاتم الرسل ﷺ، هذا التحدى المستفز للجبان، فضلا عمَنْ يدعون أنهم أشجع الشجعان من زعماء قريش والعرب أجمع أليسوا هم القائلين:

إذا بلغ الوليد لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا.

تحداهم ﷺ تحديا مستفزا مثيرا لغضبهم، مصحوبا بالاستخفاف بآلهتهم التى يعبدونها من دون الله، والمناداة بعجزها على رءوس الأشهاد، قال سبحانه فى ذلك ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين. ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون. إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ آيات (١٩٤، ١٩٥، ١٩٦) من هذه السورة صفحتى ٢٢٤، ٢٢٥؛ ﴿الذين تدعوهم﴾ هم ما كانوا يدعونهم فى الشدة من دون الله، ويتقربون إليهم بالذبائح وغيرها. ﴿عباد أمثالكم﴾ أى مخلوقات خاضعة لإرادة الله سبحانه يفعل بها ما يشاء، لا تملك لكم ضرًا ولا نفعًا. ﴿شركاءكم﴾ المراد بالشركاء هنا هذه المخلوقات التى جعلوها شريكة لله تعالى فى استحقاق الخضوع لها والتقرب إليها.

﴿فلا تنظرون﴾ أى فلا تمهلونى لحظة، ومعنى هذا التحدى المصحوب بالتسفيه لعقولهم، إن هذه الأشياء التى تدعو بها لقضاء حاجاتكم خصوصا التى لا يقدر عليها إلا الله، هم عباد لله خاضعون لإرادته وقدرته، كما أنكم خاضعون أيضا له تعالى، فكيف تفضلونهم عليكم وتضعون أنفسكم دونهم فى المنزلة فتخضعون لهم، ثم ترقى فى تسفيههم فقال فادعوهم وانظروا هل يجيبونكم لما تريدونه منهم. فإنكم إن كنتم صادقين فى أنهم يستحقون العبادة فإنهم يجيبونكم لما تريدون، فإذا لم يجيبوا فاعلموا أنكم واهمون، فاحذروا السير فى هذا الطريق الموصل للعذاب، فاحذروا السير فى هذا الطريق الموصل للعذاب المقيم. ثم ترقى فى تسفيههم درجة أخرى لعل مَنْ فيه بقية من ضمير منهم يتنبه فقال سبحانه ﴿ألهم أرجل﴾

إلخ، أى هل هذه المعبودات من الأصنام التى اتخذتموها شفعاء لكم عند الله لتقربكم إليه سبحانه كما فى الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨ والآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦، هل هذه لها أرجل تمشى بها أو لها أيد تبطش بها على مَنْ يحاول التعدى عليها، أم لها أعين تبصر بها الأشياء حتى ترى الضار فتجتنبه، والنافع فتغتنمه، أم لها آذان تسمع بها، فتسمع صوت المحذر من الشر فتبتعد عنه، أو صوت الداعى إلى الخير فتسرع إليه. والمراد أن هؤلاء المشركين فاقدون لكل هذه المزايا التى انتفع بها كثير من المخلوقات حتى الحيوان الأعجم الذى لا ينطق، إذًا فالحيوان بما فيه الحمير خير من آلهتكم، وهل سمع الإنسان تسفيها لعقل الكافر أبشع من هذا؟ ثم أمر سبحانه نبيه أن يلقمهم الحجر الذى يخرصهم، ويغرقهم فى لجج من الحيرة لا يستطيعون منها خلاصا، فقال ﴿ادعوا شركاءكم﴾ إلخ، أى إذا لم يكفكم كل هذا زجرا عن الغى فادعوا هؤلاء الذين اشركتموهم مع الله ليساعدوكم على الكيد لى وإيذائى بكل ما تستطيعونه حتى القتل، ونفذوا كيدكم بسرعة، ولا تمهلونى طرفة عين، فإنكم لن تستطيعوا لأن مولاى الذى تولى حفظى وانتصارى عليكم هو الله الذى نزل علىّ هذا الكتاب الذى أتلوه عليكم واتحداكم كل يوم أن تأتوا بمثله وعجزتم وشأنه سبحانه وتعالى أنه يتولى بتأييده الصالحين من عباده الذين يخلصون له العبادة ولا يعملون إلا ما فيه مصلحة العباد.

ولا تعجب أيها القارئ الكريم من سفه مشركى العرب بعد هذه الحجج التى تهز القلوب هزًا عنيفا. أقول لا تعجب فإن عجبك هنا يتضاءل إذا علمت أنهم هم الذين رضوا لأنفسهم أن يعبدوا أصنامًا يتخذونها بأيديهم من الحجر، وفى الوقت نفسه ينكرون أن يكون لله رسلا من البشر، اقرأ فى هذا قولهم منكرين على نبينا ﷺ أن يكون رسولا ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾ الآية (٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠. وهم فى هذا يضاهئون الكفار قبلهم الذين قالوا فى رسلهم مثل هذا القول كما فى آية أبعث الله بشرًا رسولا﴾ الآية (٩٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، وما جاء فى الآية (١٥) من سورة يس صفحة ٥٨٠.

ءَاذَانٌ[1] يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ
فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ[2] ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ[3]
وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ[4] ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ
لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن
تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ[5] يَنظُرُونَ
إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ
وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ[6] ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ[7]
نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ[8] مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ[9] تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا
هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ[10] يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ
لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ[11] قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا
قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى هَـٰذَا بَصَآئِرُ

المفردات :. ﴿فلا تنظرون﴾ : أى لا تنتظروا ولا تؤخروا كيدكم.

﴿وليِّـىَ الله﴾ : أى متولى أمرى وناصرى.

﴿العفو﴾ : تقدم معنى العفو فى الآية (٢١٩) من سورة البقرة صفحة ٤٣ وقال عبدالله ابن الزبير وعائشة ومجاهد المراد هنا أقبل السهل من أخلاق الناس، وقال الزمخشرى العفو ضد المشقه أى خذ ما سهل من أخلاق الناس وأفعالهم وما أتوك به بسهولة من غير مشقة، ولا تطلب منهم ما يشق عليهم لئلا ينفروا، قال ﷺ : ﴿يسروا ولا تعسروا﴾ قال صاحب المنار : والمراد من الآية أن من آداب هذا الدين وقواعد شرعه اليسر وتجنب الحرج وما يشق على الناس. ﴿بالعرف﴾ : هو ضد المنكر، أى ما تعارف عليه الناس من الخير.

﴿الجاهلين﴾ : المراد بهم هنا السفهاء الحمقى.

---

(١) آذان
(٢) وليى
(٣) الكتاب
(٤) الصالحين
(٥) وتراهم
(٦) الجاهلين
(٧) الشيطان
(٨) طائف
(٩) الشيطان
(١٠) إخوانهم
(١١) بآية.

﴿ينزغنك﴾ : أصل النزغ النخس، يقال نزغه إذا طعنه ونخسه، فكأن الشيطان ينخس الإنسان ليحثه على المعاصى، فالمراد وسوسته، انظر الآية (١٠٠) من سورة يوسف صفحة ٣١٨.

﴿فاستعذ بالله﴾ : أطلب منه أن يعيذك ويبعدك منه.

﴿طائف﴾ : الطائف هو من يدور على الشيء كما فى الآية (١٩) من سورة القلم صفحة ٧٥٨، والمراد هنا الوسوسة.

﴿يمدونهم﴾ : أى يعاونونهم.

﴿فى الغى﴾ : المراد به الضلال.

﴿لا يقصرون﴾ : أى لا يكفون ولا يتباطئون، فهو بمعنى يقصرون بتشديد الصاد المكسورة.

﴿لولا اجتبيتها﴾ : لو حرف يدل على الحث على فعل ما بعده. واجتبيتها: أى اخترتها وجئت بها أنت من عندك.

﴿بصائر﴾: تقدم فى الآية (١٠٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٠ أن البصائر للقلوب كالبصر للعيون، فالعيون تدرك بالبصر، والقلوب بالبصائر.

المعنى : . وليس لهم آذان يسمعون بها طلباتكم فكيف تعبدون مَنْ هو دونكم؟ فقل أيها الرسول لهؤلاء المصابين فى عقولهم نادوا مَنْ جعلتموهم شركاء لله ثم تعاونوا معهم على كيدى ولا تتأخروا فإنى لا أبالى بكم جميعا، لأن متولى أمرى وناصرى هو الله الذى نزل على هذا الكتاب، أى القرآن المبطل لشرككم، وهو وحده الذى ينصر الصالحين من عباده؛ هذا هو إلهى الذى أعبده، أما الذين تدعونهم لنصركم ولما فيه نفعكم فهم عاجزون لا يستطيعون نصركم، بل ولا نصر أنفسهم فضلا عنكم، كما تقدم.

وكررها لزيادة توبيخهم وإن تدعوهم إلى أن يدلوكم على ما ينصركم لا يسمعوا دعاءكم مطلقا.

وكان المشركون اتقنوا صنع آلهتهم حتى يدخلوا الرهبة فى قلوب مَنْ يقف أمامها فوضعوا لها أعينا صناعية بها حدق من الزجاج والجواهر تتجه جهة الداخل عليها كأنها تنظر إليه، لذا قال سبحانه محقرا أمرها:

وترى أيها المؤمن الناظر إليها أنها تنظر إليك، وفى الحقيقة هى لا تبصر.

وبعد ما فرغ سبحانه من بيان أصول العقيدة المبنية على التوحيد، شرع فى بيان أصول الفضائل فقال حاثا على ثلاثة أصول منها؛ الأول :

خذ أيها المؤمن من الناس السهل، أى تقبل منهم سهل الأمور ولا تشق عليهم إذا ما طلبت من أحدهم شيئا، وأمر غيرك بكل خير وابتعد عن معاشرة ومجادلة السفهاء شديدى الحمق، وإن شعرت بوسوسة الشيطان فسارع بالاستعاذة منه إلى الله، واطلب منه حفظك فإنه سميع لدعاء عبده، عليم بإخلاصه فيطرده عنه. وبهذا تكون من خيار المتقين الذين من صفتهم أنهم إذا شعروا بوسوسة الشيطان فى معصية، تذكروا عداوته لهم وإنجاء الله لمَنْ يلجأ إليه سبحانه، فإذا بصيرتهم تضىء، وإذا بعزمهم يقوى فيهزم الشيطان.

أما إخوان الشياطين الخاضعون لهم فإن الشياطين تشجعهم على الضلال والفساد، ثم لا يسكتون عنهم حتى يهلكوهم وقد بلغ من تبجح كفار قريش واستهتارهم الذى أوقعتهم فيه شياطينهم أنهم كانوا إذا فتر الوحى وتراخى نزوله زمنا، يتندرون سفاهة ويقولون اختر يا محمد آية من عند نفسك واخترعها كما اخترعت غيرها زاعما أنها من عند الله.

قاتلهم الله أنى يؤفكون. فأمر سبحانه نبيه أن يقول لهم فى أدب ووقار:

قل إنما اتبع ما يوحى إلىّ من ربى ولست بمبتدع شيئا من القرآن من عندى لأنى، عاجز عن ذلك مثلكم، وهذا القرآن الذى أوحاه ربى إلى حجج تضىء القلوب كالبصائر لها، وهو نورها الذى يهديها للحق.

مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ
الْقُرْءَانُ[1] فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾
وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ
الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ[2] وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ[3] ﴿٢٠٥﴾
إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ
وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ۩

(٨) سورة الأنفال مدنية وآياتها خمس وسبعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ

المفردات: ﴿استمعوا﴾: الاستماع أبلغ من السماع لأنه لا يكون إلا بقصد وتوجيه السمع إلى الكلام لإدراكه، أما السمع فقد يحصل من غير قصد.

﴿انصتوا﴾ الإنصات السكوت لأجل الاستماع لا يشغل بغيره.

﴿تضرعا﴾: التضرع هو إظهار الضراعة وهى التذلل له سبحانه والمبالغة فى الخضوع.

﴿خيفة﴾: هى حالة الخوف والخشية.

﴿الغدو﴾ : أصله مصدر غدا يغدو بوزن نما إذا ذهب فى وقت الغدوة وهى ما بين الفجر وطلوع الشمس، ثم توسعوا فى الغدو حتى صار يستعمل فى مطلق الذهاب، أنظر الآية (١٢) من سورة سبأ صفحة (٥٦٤)، والمراد به هنا وقته وهو الغدوة بضم أوله، كما يقال آتيك طلوع الشمس، أى وقت طلوعها.

﴿والآصال﴾: جمع أصيل وهو ما بين العصر والغروب، انظر الآية (٤٢) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٦، والآية (٢٥) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٣.

﴿الذين عند ربك﴾ المراد بهم الملائكة.

﴿الأنفال﴾ : جمع نفل بفتحتين كسبب وأسباب وهو الزيادة ولذا قيل لصلاة التطوع نافلة. والمراد به هنا الغنيمة لأنها من زيادة فضل الله.

﴿ذات بينكم﴾: ذات بمعنى صاحب، صفة لمحذوف، والبين من أسماء الأضداد، ما يطلق على الوصل والفرقة، ومنه قولهم:

من الخير السعى فى إصلاح ذات البين. والمراد هنا الفرقة.

---

(١) القرآن. (٢) الآصال. (٣) الغافلين.

المعنى: هذا القرآن بصائر، وكامل الهداية حتى كأنه هو نفسها، وسبب قوى لرحمة ربكم فى الدنيا والآخرة للذين يؤمنون به، انظر ما تقدم فى الآيات من (١٥٥ إلى ١٥٧) من سورة الأنعام صفحة ١٩٠. ثم بيَّن سبحانه الطريق الموصل للرحمة بسبب القرآن، والموصل للتحصن من نزغات الشيطان، فقال : وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له بعناية، وأنصتوا لتفهموا معانيه لترجى لكم رحمة الله، واذكر أيها المؤمن ربك الذى خلقك وربك برزقه وعنايته فى نفسك بأن تستحضر معنى أسمائه وصفاته وفضله عليك وحاجتك إليه، حال كونك متضرعا له، وخائفا من عقابه، واذكره أيضا بلسانك ذكرا أقل من الجهر الذى هو رفع الصوت، وفوق السر بأن يكون ذكرا وسطا كما فى الآية (١١٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٩، واذكره سبحانه فى طرفى النهار، لأن من افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان جديدا بمراقبته تعالى طول يومه، ولا تكن من الغافلين عن ذكره فى سائر الأوقات فيقسو قلبك ويستولى عليك الشيطان.

ثم أكد سبحانه هذا الأمر بالإشارة إلى أنه تشبه بملائكة الرحمن فقال ﴿إن الذين عند ربك﴾ الخ: عندية مكانة ومنزلة لا عندية مكان ومنزل، وهم الملائكة المقربون المشار إليهم فى الآية (١٧٢) من سورة النساء صفحتى ١٣٢، ١٣٣، لا يستكبرون كما يستكبر المشركون، ويسبحونه أى ينزهونه عن كل ما لا يليق به وله وحده يسجدون فلا يشكون معه أحدا.

سورة الأنفال

لما كانت واقعة بدر هى أول غزوة غنم فيها المسلمون، وكان فى الجيش رجال فى المقدمة يقاتلون وآخرون يحمون ظهورهم سأل بعض الصحابة النبى ﷺ: كيف تقسم هذه الغنائم وفينا من قاتل فعلا ومن اقتصر عمله على حماية المقاتلين، ولمن الحكم فى قسمتها ليعطى كلاحقه؟ فنزل قوله تعالى : ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ إلى الآية (٤١) الآتية صفحتى ٢٣٢-٢٣٣، أى يسألونك عن كيفية قسمتها وعن مستحقها، فقل لهم: أمرها متروك لله يحكم فيها بما يشاء حسب حكمته، ورسوله ينفذ ما أمره الله تعالى، فاتقوا الله فى الاختلاف على حطام الدنيا، وأصلحوا الحالة المصاحبة لتفرقكم فى هذا وفى غيره، فعالجوا أسبابها حتى تزول وتحل محلها المودة والإخاء والإيثار، وأطيعوا الله ورسوله فى كل ما يأمركم به. ولما سمع المؤمنون هذا التوجيه الكريم أصبحوا أخوة متراحمين يقدم أحدهم أخاه على نفسه، أنظر آخر سورة الفتح صفحتى ٦٨٣، ٦٨٤ والآية (٩) من سورة الحشر صفحة ٧٣١.

إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ
ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ[1] زَادَتْهُمْ
إِيمَٰنًا[2] وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ[3]
وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ[4] يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا
لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ[5] عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾
كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ[6] ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ[7] فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ
مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾
وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ
غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ
بِكَلِمَٰتِهِۦ[8] وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ[9] ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ
وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ[10] وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ

المفردات: ﴿وجلت﴾ : أى شعرت بالخوف شعورًا يحملها على العمل لدفع أسباب ما يخيف صاحبها، ووزنه فرح، انظر الآية (٥٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤١ والآية (٦٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥١.

﴿من بيتك﴾ : المرادِ المدينة المنورة.

﴿رزق كريم﴾ : الكريم اسم جامع لكل ما يحمد ويستحسن فى بابه، يقال رب كريم، وكتاب كريم، والمراد هنا خالى من الكدر.

﴿إحدى الطائفتين﴾ : هما العير والنفير كما سيأتى .

﴿وتودون﴾ : أى تحبون.

﴿ذات الشوكة﴾ : صاحبة القوة والسلاح.

﴿يحق الحق﴾ : أى يثبت الحق ويعليه.

﴿بكلماته﴾ : المنزلة على رسوله بوعده بالظفر بإحدى الطائفتين.

﴿دابر الكافرين﴾ : الدابر اسم فاعل من دبر بمعنى أدبر فهو بمعنى مدبر، والكلام كناية عن قتلهم جميعا حتى آخرهم.

---

(١) آياته.
(٢) إيمانا.
(٣) الصلاة.
(٤) رزقناهم.
(٥) درجات.
(٦) لكارهون.
(٧) يجادلونك.
(٨) بكلماته.
(٩) الكافرين.
(١٠) الباطل.

﴿تستغيثون﴾ : أى تطلبون الغوث والنصر منه تعالى.

المعنى : إن كنتم مؤمنين أطيعوا، لأن من صفات المؤمنين أنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم من جلاله سبحانه فأسرعوا إلى طاعته، وإذا تليت عليهم آيات القرآن إزدادوا بها يقينا وطمأنينة، خصوصا إذا كانت آياته لم يسمعوها من قبل، فإن إيمانهم بها زيادة على إيمانهم بما سبقها. ومن صفاتهم أنهم لا يفوضون أمورهم إلا إلى ربهم، ولا يعتمدون إلا عليه. ومن صفاتهم أنهم يؤدون صلاتهم على أحسن وجوها، ومن صفاتهم أنهم ينفقون بعض ما رزقهم الله فى وجوه الخير فهذه خمس صفات الذين يجمعونها هم المؤمنون إيمانا حقيقيا لا شك فيه، فجزاؤهم أن لهم درجات ومنازل عند ربهم فى دار الكرامة على قدر أعمالهم، ولهم مغفرة أى تجاوز عما صدر عنهم من سيئات، ولهم رزق كريم سهل لا كدر معه، انظر آيتى (٩٥ ، ٩٦) من سورة النساء صفحة ١١٨، والآية (٢٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٣. ثم أراد سبحانه أن يبين لمن كرهوا تقسيم الغنائم على ما لا يحبون أن ما يكرهونه قد يكون هو الخير، فذكرهم بكراهتهم لحرب قريش فى بدر مع أنها كانت فاتحة الخير والنصر.

وكان سببها أن المسلمين بلغهم أن أبا سفيان بن حرب خرج من الشام ومعه عير كثيرة محملة بالأقوات لأهل مكة، فرغبوا فى قطع الطريق عليه والاستيلاء عليها، نظير ما صادره المشركون من أموالهم بمكة لما هاجروا إلى المدينة، فعلم بذلك جواسيس أبى سفيان فأرسلوا إليه من بلغه، فأرسل لمكة يستنجد بهم، فنفر نحو ألف مقاتل على رأسهم أبو جهل، وفى الوقت نفسه حول أبو سفيان طريقه إلى جهة البحر لينجو من حصار المسلمين ولما خرج ﷺ بمن معه لأخذ العير، وكان من معه نحو ثلثمائة رجل، وقاربوا وادى بدر، علموا أن العير قد نجت، وأن نفير قريش وصل وادى بدر من الجهة الأخرى، فقال ﷺ:

إن الله أوحى إلىَّ بأنه سيمكننى من إحدى الطائفتين : العير أو النفير، وبما أن العير قد نجت فنحن الغالبون إذا حاربنا هؤلاء فكره ذلك بعض المسلمين وأعلنوا أنهم لم يستعدوا للحرب، فمازال ﷺ يرغبهم ويطمئنهم حتى التقى الجمعان، وتمت الغلبة للمسلمين. ومن أراد معرفة تفصيل ما حدث فى هذه الغزوة فليرجع إلى شرح حديث رقم (٤٧٦) من كتابنا صفوة

البخارى. فقوله سبحانه ﴿كما أخرجك﴾ الخ؛ معناه أن أمر قسمة الغنائم موكول لله ورسوله وإن كره بعض الراغبين فى النصيب الأوفى كراهة ككراهة إخراج ربك لك من المدينة لقتال النفير إخراجًا مقترنا بالحق والصواب، والحال أن كثيرا من المؤمنين لكارهون لعدم، استعدادهم.

ويلاحظ أن مد هذه الحال متسعة، ويسميها العلماء بالحال المقدرة، لأن الكراهة إنما حدثت بعد الخروج واليأس من الاستيلاء على العير كما علمت. يجادلونك فى الحق وهو قتال الذى ثبت وتعين لهم بعد ما فاتتهم العير. أى فلا معنى لخوفهم من الحرب كالذين يساقون إلى الموت وهم ينظرون أسبابه لا يشكون فيها، مع أن الأولى بهم أن يقدموا على الحرب وهم موقنون بصدق وعد الله تعالى. ثم فصل سبحانه هذا الإجمال قال:

واذكروا حين وعدكم سبحانه بأن إحدى الطائفتين: العير أو النفير، ستكون لكم أى تظفرون بها وكنتم تحبون أن العير هى التى ستلاقيكم، لأنها مجردة من قوة العدد والسلاح، وكان عدد رجالها لا يتجاوز الأربعين، أنتم تحبون ذلك ولكن الله تعالى العليم بما لا تعلمون يريد الأخرى ليهزم الشرك ويثبت الحق ويعليه، فقوى قلوبكم بكلماته التى أوحاها إلى رسوله بأنكم ستظفرون بما تلاقونه من الطائفتين، وبكلماته التى قضى بها قتلهم على أيديكم والتى أصدرها للملائكة بمساعدتكم ويريد سبحانه أيضا أن يهلك صناديد الشرك جميعا ليثبت الحق وهو الإسلام، ويبطل الكفر ولو كره المشركون المجرمون واذكروا أيضا حين دخلتم المعركة وطلبتم الغوث والمساعدة من ربكم.

المفردات : ﴿فاستجاب لكم﴾ : أى أجاب دعائكم .

﴿ممدكم﴾ : أى ناصركم ومغيثكم بتكثير جمعكم .

﴿مردفين﴾ : قال الراغب : المردف هو المتقدم على غيره بحيث يجعله خلفه : فالمراد متقدمين على صفوف الجيش ليلقوا الرعب فى قلوب الأعداء.

﴿يغشيكم النعاس﴾ : أصل الغشاء الغطاء كما تقدم فى الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤ والمراد إلقاء النعاس عليهم.

رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ[1]
مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ
قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ
ٱلشَّيْطَٰنِ[2] وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾
إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ[3] أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟
فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ[4]
عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ

﴿أمنة﴾ هى الأمن، وقد تقدم تفسيرها وتفسير النعاس فى الآية (١٥٤) من سورة آل عمران صفحة ٨٨.

﴿رجز الشيطان﴾ الرجز والرجس والركس كلها بمعنى الشىء المستقذر حسا أو معنى، والمراد هنا وسوسة الشيطان.

﴿وليربط على قلوبكم﴾ : المراد يثبتها ويملؤها صبرا ، انظر الآية (١٠) من سورة القصص صفحة ٥٠٧.

﴿بنان﴾ : يطلق على الأصابع وعلى أطرافها.

﴿شاقوا الله ورسوله﴾ المراد عادوهما، فكأنهما وضعوا أنفسهم فى شق غير الذى فيه الرسول.

المعنى : واذكروا حين كنتم تستغيثون ربكم إلخ؛ روى مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ : لما كان يوم بدر نظر ﷺ إلى أصحابه وهم نحو ثلثمائة رجل لا يكاد يوجد معهم خيل ولا سلاح، ونظر إلى المشركين وهم نحو ألف معهم الخيل والسلاح. فاستقبل القبلة ومد يديه وقال : اللهم أنجز لى ما وعدتنى؛ اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض : فما زال يردد دعاءه وتضرعه لربه حتى سقط رداؤه من فوق كتفيه ، فجاء أبو بكر ﷺ فرفع رداءه فوق منكبيه ثم ضمه إلى صدره وقال : يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك فإنه منجز لك وعده . وهذا ما قال سبحانه فيه ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ إلخ ، فأجاب دعاءه بقوله : إنى ممدكم ومقوى عزائمكم بألف إلخ ، وإنما استغاث ﷺ مع علمه بصدق وعده سبحانه لتقوية قلوب أصحابه، ولخوفه أن يكون وعده سبحانه مشروطا بشرط خفى عليهم ففرطوا فيه، نظير ما تقدم فى أحد ؛ أنظر آيتى (١٢٠ ، ١٢٥) من سورة آل عمران صفحتى ٨٢ ، ٨٣. أى إنى سأكثر عددكم كعدد أعدائكم من الملائكة الذين أمدكم بهم متقدمين صفوفكم. ثم بين سبحانه أن

(١) الملائكة. (٢) الشيطان.
(٣) الملائكة. (٤) للكافرين.

هذا الإمداد كان روحانيا لتقوية قلوبهم فقط فقال: وما جعل الله هذا الإمداد إلا بشيرا لكم بالنصر ، ولتطمئن به قلوبكم فلا تخاف ، وماالنصر فى الحقيقة إلا من عند الله لا من ملك ولا غيره، لأنه سبحانه عزيز أى غالب لا يغلبه شىء حكيم يعطى نصره لمن يستحقه. كل هذا يدل على أنه مدد معنوى فقط. وقد رأى بعضكم أن الملائكة قاتلت، ولكن المحققين على أنهم كانوا للتبشير والإطمئنان فقط، ويقوى هذا أنه لو قاتلت الملائكة لما بقى من المشركين أحد، ولما كان هناك حاجة إلى هذا العدد منهم، بل ملك واحد يكفى لإفناء أعظم منهم، ولما كان هناك حاجة أيضا إلى إلقاء النعاس ليتقووا كما سيأتى ، ولا لإنزال المطر لتثبت أقدامهم ولما كان لأهل بدر هذا الفضل العظيم، ولذهب معنى الاقتداء بالصابرين على القتال فى سبيل الله ولضاع أيضا معنى ابتلاء الله سبحانه وتعالى للمؤمنين ليظهر المخلص الصابر وغيره انظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤ والآية (٤) من سورة محمد صفحتى ٦٧٢، ٦٧٣ ولما صح الحصر فى قوله ﴿وما جعله الله إلا بشرى﴾ ولأن كل قتيل من المشركين كان معروفا من قتله من المسلمين، وقاتل أبى جهل على الأخص معروف بالتواتر، فإذا لم تقتل الملائكة أبا جهل فمن تقتل إذا؟ هذا هو الحق فلا تغتر بكثرة ما يروى من أحاديث وآثار غير ذلك، فإنها ما بين ضعيف أو مرسل لا يقوى على الوقوف فى وجه الدليل القطعى، والله أعلم. وأذكروا إذا يغشيكم ربكم النعاس تأمينا لكم، وانظر بيان النعاس الأمنة فى سبب كونه كذلك فى الآية (١٥٤) من سورة آل عمران صفحة ٨٨، وكان وادى بدر على سعته كثير الرمال الناعمة لا يكاد يوجد فيه ماء، فمن فيه يحتاج للماء لوجوه عدة خصوصا المسلم الذى يريد الطهارة للصلاة من كل حدث، فأكرمهم الله بإنزال المطر قبيل المعركة، ليتطهروا، ولتثبت أقدامهم فى أثناء المعركة فلا تغوص فى الرمال ، ويذهب عنهم وسوسة الشيطان بما يحزنهم من عدم الصلاة لعدم الطهارة، ولم يكن التيمم شرع فى هذا الوقت، وبذهاب وسوسة الشيطان تقوى قلوبهم، وقوة القلوب أقوى عامل فى الانتصار. وثبت أقدامكم فى الوقت الذى يوحى فيه ربك للملائكة بأنى معكم بالعون، فثبتوا الذين آمنوا بالتطمين والتبشير، سألقى فى قلوب الكافرين الرعب وهو الخوف الذى يملأ القلب وهذا حكاية لكلامه سبحانه الذى أخبر به رسوله ليخبر به أصحابه ليطمئنهم.. ثم حكى سبحانه ما كان وجهه من الأمر للنبى ﷺ ليوجهه إلى أصحابه فقال: فاضربوا الكفار فى رءوسهم أى فى المقاتل، أو عطلوهم إن لم تستطيعوا قتلهم: لأن من قطعت أصابعه لا يمسك سيفا. ذلك المتقدم كله انزلناه بهم بسبب أنهم عادوا الله ورسوله، ومن يعاد الله تعالى ورسوله حل به العذاب الشديد، لأنه سبحانه

كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ
بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ(١) جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾
فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ
اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ
الْكَافِرِينَ(٢) ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن
تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ
فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ
وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا
وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ

شديد العقاب. ثم خاطب من بقى من المشركين بقوله: ذلكم أى فى الذى قدره الله هو ذلك الذى رأيتموه من الانكسار، فذوقوا هذا العذاب الشديد فى الدنيا، وإن لكم فى الآخرة عذاب النار إذا أصررتم على كفركم. ثم أراد سبحانه أن يعلم المسلمين كيف يحاربون الكفار بعد هذه الموقعة فقال: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم﴾ إلخ.

المفردات: ﴿زحفا﴾: هو مصدر زحف إذا مشى على بطنه كالحيات، ويشبه به مشى الجيش الكثير الذى يراه الناظر إليه لكثرته كأنه يزحف، والمراد زاحفين.

﴿فلا تولوهم الأدبار﴾: لا تعطوهم ظهوركم، والمراد لا تنهزموا. ﴿متحرفا لقتال﴾: المتحرف هو المنحرف من جانب إلى آخر. ﴿أو متحيزا إلى فئة﴾: المتحيز المنتقل من حيز إلى حيز، والحيز المكان، والفئة الجماعة كما فى الآية (٢٤٩) من سورة البقرة صفحتى ٥١، ٥٢. ﴿باء بغضب﴾: أى رجع مقترنا بغضب. ﴿ومأواه جهنم﴾: أى مسكنه جهنم. ﴿بئس﴾: قبح. ﴿المصير﴾: النهاية التى صاروا إليها. ﴿وليبلى المؤمنين﴾: أى يمتحنهم، انظر الآية (١٦٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٠. ﴿موهن﴾: مضعف، والمراد هنا مبطل. ﴿تستفتحوا﴾: أى تطلبوا من الله الفتح والنصر. ﴿الفتح﴾: النصر. ﴿فئتكم﴾ جماعتكم. ﴿الدواب﴾: كل ما دب على وجه الأرض.

المعنى: إذا لقيتم الكفار حال كونهم زاحفين لقتالكم زحفا لكثرتهم فلا تفروا، ومن يفر منكم، وقت القتال غير متهيئ لنوع من أنواعه ليظفر بعدوه كأن يوهم خصمه أنه منهزم ليغريه باتباعه حتى يبتعد عن جيشه فيكر عليه فيقتله، أو غير منحاز إلى جماعة من إخوانه رأى

(١) مأواه. (٢) الكافرين.

تكاثر العدو عليهم فصاروا أحوج إليه من الجهة التى كان فيها، فمن يفر لغير ذلك أو نحوه فقد استحق غضب الله، ومكانه الذى يأوى إليه فى الآخرة هو جهنم، وقبحت مصيرا ثم نبه سبحانه المؤمنين إلى أن طاعته سبحانه هى سبب نصرهم: فلم تقتلوهم مع قلتكم لولا تأييد الله لكم، ولكنه سبحانه قتلهم بنصركم عليهم. ثم وجه سبحانه الخطاب لنبيهﷺ فقال: وما رميت إذا رميت يا محمد التراب فى وجوههم ولكن الله هو الذى رمى، أى أوصله إلى عيونهم فشغلوا عنكم فهزمتموهم. وبيان ذلك على ما روى أنه ﷺ لما بدأت المعركة أخذ قبضة من تراب ثم رماها فى جهة العدو قائلا: شاهت الوجوه! أى قبحت ، فأوصل الله عز وجل التراب إلى عيونهم. وصح أن يكون المعنى: فما رميت أيها المؤمن بسهمك وقوسك ولكن الله تعالى هو الذى سدد رميك ووفقك. والغرض من هذا هو تعويدهم بعد أخذ الأسباب على الرجوع إليه سبحانه، انظر الآية (١٤) من سورة التوبة صفحة ٢٤٢.

فعل سبحانه ذلك ليؤيد رسوله، ويمحق الكافرين، ويختبر المؤمنين بالحسنات من النصر والغنيمة، ليظهر شكرهم له، فيزيد نعمه عليهم إنه سبحانه سميع لدعائهم، عليم بصدق نياتهم، (ذلكم) إلخ، أى أن مراد الله هو ذلكم الذى حصل من البلاء ومن التوهين، أى إبطال كيد الكافرين به ﷺ ومحاولتهم القضاء على دعوته، وكان أبو جهل عند خروجه من مكة قال: اللهم إن ديننا قديم ودين محمد جديد فأى الدينين أحب إليك فانصر صاحبه ، ففى هذا خاطب سبحانه المشركين بقوله: إن تستفتحوا أى تطلبوا النصر فقد جاءكم النصر لأحق الطرفين به، فبعد هذا إن تنتهوا عن كفركم فانتهاؤكم خير لكم، وإن تعودوا لمحاربته نعد لنصره عليكم، ولن تغنى عنكم جماعتكم شيئاً ولو كثرت عُدَّةً وعددا، لأن الله مع المؤمنين بالنصر، ومن كان الله معه لابد أن ينتصر. وبعد الفراغ من غزوة بدر انتقل سبحانه إلى إرشاد المؤمنين إلى طريق النجاح، وإلى عدم الطمع فى حطام الدنيا كما كان بعضهم طامعا فى الغنائم، فقال: يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عن الرسول وتعرضوا عن أوامره، والحال أنكم تسمعون منه كلام الله القاطع بوجوب طاعته. ثم قرر سبحانه هذا المعنى بقوله: ولا تكونوا كالذين ادعوا السماع والفهم وهم المنافقون وأهل الكتاب، انظر الآية (٤٦) من سورة النساء صفحة ١٠٨، والآية (١٦) من سورة محمد صفحتى ٦٧٤ ، ٦٧٥، والحقيقة أنهم لا يسمعون سماع قبول. ثم أراد سبحانه أنه يبين بشاعة حال هؤلاء الكفار الذى ينهاكم عن التشبه بهم تحذيرا للمسلمين منهم فقال: إن شر الدواب فى حكم الله...

الصم البكم الذين لا يعقلون ﴿٢٢﴾ ولو علم الله فيهم
خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴿٢٣﴾
يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما
يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه
إليه تحشرون ﴿٢٤﴾ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا
منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ﴿٢٥﴾
واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون
أن يتخطفكم الناس فآواكم(١) وأيدكم بنصره ورزقكم
من الطيبات(٢) لعلكم تشكرون ﴿٢٦﴾ يا أيها الذين
آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم(٣) وأنتم
تعلمون ﴿٢٧﴾ واعلموا أنما أموالكم(٤) وأولادكم(٥) فتنة
وأن الله عنده أجر عظيم ﴿٢٨﴾ يا أيها الذين آمنوا

المفردات: ﴿الصم﴾: الذين لا يسمعون.

﴿البكم﴾: الذين لا يتكلمون.

﴿استجيبوا لله﴾: أى أجيبوا دعوته بالطاعة والامتثال مع العناية.

﴿لما يحييكم﴾: أى لكل ما يجعل لحياتكم قيمة كالعلم النافع والجهاد فى سبيل الله من الأمور التى تحقق العزة والكرامة.

﴿وتخونوا أماناتكم﴾: هى كل ما ائتمن عليه الإنسان من الحقوق العامة والخاصة.

﴿وأولادكم فتنة﴾: أى سبب اختبار وامتحان يظهر به الطائع وغيره.

المعنى: إن شر ما يدب على وجه الأرض هم الأشرار من البشر الذين أصموا آذانهم عن سماع القرآن خوفا من تأثيره عليهم، كما فى الآية (٢٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣، والذين يسمعونه ولكن لا يريدون فهمه كالمنافقين فى الآية (١٦) من سورة محمد صفحتى ٦٧٤، ٦٧٥، والذين يستمعون للبحث عن شبهة يطعنون بها عليه كاليهود فى الآية (٤١) من سورة المائدة صفحة ١٤٤، ومنهم من يسمع للنغم والطرب لا للفهم والاعتبار ؛ هؤلاء كالأنعام بل هم أضل ، انظر الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢. وإذا تأملت ما تقدم فى آيتى (٨١ ، ١٧١) من سورة البقرة صفحات ١٦، ٣٠، ٣٣ وفي الآيات (٤٢، ٤٣، ٤٤) من سورة يونس صفحة ٢٧٣، والآية (١٢) من سورة المطففين صفحة ٧٩٧، تجلى لك عدل الله فى معاملة هؤلاء الكافرين ومن يليهم من العصاة، وهم بكم لا يقولون ، ولا يعقلون الفرق بين الخير والشر، ولو علم الله فيهم استعداد للهداية وبقية من نور الفطرة لأسمعهم سماع قبول وتدبر، ولو أسمعهم بعد علمه أن لا خير فيهم لتولوا عن القبول والحال أنهم معرضون قبل ذلك

(١) فآواكم. (٢) الطيبات. (٣) أماناتكم. (٤) أموالكم. (٥) أولادكم.

بقلوبهم، أى لجمعوا إلى الإعراض السابق الانصراف اللاحق عن قبول الحق. وبعدما هيأ سبحانه المؤمنين للاقبال على سماع الخير حتى لا يكونوا كشر الدواب قال: يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم الرسول المبلغ عن الله تعالى لما فيه حياتكم وعزتكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وبين ما يتمناه بقلبه من طول الحياة وفسيح الأمل، بأن يميته فجأة أو قبل التمكن من الحصول على ما يشتهى. فالمراد لا تتأخروا عن عمل الخير لحظة فقد يعاجلكم الموت، فهذا أبلغ من قوله (اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) واعلموا أنكم إلى الله تحشرون يوم القيامة فيجازيكم على قدر أعمالكم، واتقوا أيها المؤمنون وقوع فتنة بينكم بالتنازع والتخاصم على الدنيا، فقاوموها وتجنبوا أسبابها، بأن ينهى بعضكم بعضا عما يؤدى إليها، لأنها إن وقعت فسيعم عذابها الظالم والبرىء. قال ﷺ (إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بينهم وهم قادرون على أن ينكروه فلم ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة). واعلموا أن الله شديد العقاب لمن خالف أمره. واذكروا أيها المؤمنون حين كنتم قلة ضعفاء فى مكة وفى المدينة تخافون أن يتخطفكم الكفار من عرب أو فرس وروم، فآواكم سبحانه إليه، أى حماكم من عدو أضخم عددا وقوة وأيدكم بنصره فى بدر، وسيؤيديكم على الفرس والروم إذا اتقيتم، ورزقكم من الطيبات كالغنائم التى لم تحل لأحد قبلكم لعلكم تشكرون نعمه بطاعة أوامره.

يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله بترك فرائضه وارتكاب معاصيه، ولا تخونوا الرسول بإهمال تعاليمه وإرشاداته، ولا تخونوا أمانات المسلمين وهى كل ما كان بينكم وبين قادتكم من شئون الدولة خصوصا الحربى منها، وما كان بين الأفراد بعضهم مع بعض، أى لا يجوز أن يحصل منكم ذلك خصوصا وأنتم تعلمون مفاسد الخيانة فى الدنيا والآخرة. وأعلموا أنما أموالكم وأولادكم أعطاها الله تعالى لكم ليعاملكم معاملة المختبر الممتحن ليظهر من يقدم رضوان الله ومصلحة نفسه وولده، ومن ذلك أن يبخل الرجل بالمال يبذله فى سبيل الله ليدخره لولده أو يخاف على ولده من الموت إذا دعى للجهاد، أما من بذل ماله وولده فى سبيل الله فهو الذى نجح فى الاختبار فاستحق الجنة والأجر العظيم، انظر آيتى ٢٤، ١١١ من سورة التوبة صفحات ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٦١، والآية (١٥) من سورة التغابن صفحة ٧٤٧.

إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ
وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ(١) ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتُنَا(٢) قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّآ أَسَٰطِيرُ(٣) ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا
هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ
وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ
أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا
كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا

المفردات: ﴿فرقانا﴾: صيغة مبالغة من مادة الفرق وهو الفصل بين شيئين أو أشياء، والمراد بالفرقان هنا كل ما يفرق بين الحق والباطل، من علم نافع، ونور بصيرة، ونصر على أعداء.. ويطلق على القرآن باعتبار اشتماله على ذلك.

﴿ليثبتوك﴾: أى يمنعوك عن الحركة بربطك بوثائق كالمبين فى الآية (٤) من سورة محمد صفحتى ٦٧٢ ، ٦٧٣ أو يحبسوك.

﴿أساطير﴾: جمع أسطورة ، والمراد بها هنا الأكذوبة، انظر الآية (٢٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٥، ١٦٦.

﴿فأمطر علينا.. إلخ﴾: أى كما تقول يا محمد أنه حصل لقوم لوط فى الآية (٨٢) من سورة هود صفحة ٢٩٦.

﴿أو ائتنا بعذاب أليم﴾: من عطف العام على الخاص. ﴿ليعذبهم﴾: اللام تفيد تأكيد النفى قبلها، المفهوم من (ما) وهى متعلقة بخبر كان المقدر أى وما كان الله مريدا لعذابهم..

﴿أولياءه﴾: أى ولاة أمره المحافظين عليه. ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾: إن حرف نفى أى ما أولياؤه إلا المتقون.

﴿البيت﴾: إذا أطلق البيت فى القرآن فالمراد به الكعبة..

المعنى: يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله فيما أمر به ونهى عنه يجعل لكم نورا تفرقون به بين الحق كما فى الآية (١٢٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والآية (٢٨) من سورة الحديد

---

(١) الماكرين. (٢) آياتنا. (٣) أساطير.

صفحتى ٧٢٣، ٧٢٤، وينصركم، ويكفر عنكم الصغائر، ويغفر لكم الكبائر، وليس هذا بعزيز عليه بأنه صاحب الفضل العظيم، ثم أراد سبحانه أن يذكر نبيه ببعض فضله عليه فذكر له حاله مع قومه بمكة وكيف نجاه منهم، وحسن هذا التذكير مجيئه عقب نصره له على الظالمين الخائنين الصادين عن بيت الله فقال: ﴿وإذا يمكر بك﴾ إلخ، وكان الذى حصل منهم أنهم لما مات عمه ﷺ أبو طالب وكان هو المدافع عنه، طمع كفار قريش فى الخلاص منه، فاجتمع صناديدهم فى ندوتهم يحقق التخلص منه ﷺ لأنه سفه عقولهم وحقر آلهتهم، فقال قوم نحبسه حتى يموت ، وقال آخرون لا بل نخرجه من مكة وقال آخرون غيرهم لا بل نقتله على أيدى فتيان من القبائل كلها فيتفرق دمه فى القبائل ويعجز أهله عن القصاص له ، عند ذلك أخبره جبريل عليه السلام بما دبروه، وبلغه أن الله سبحانه أذن له فى الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها، وخيب الله مكرهم. فالمعنى: وأذكر أيها النبى فضل ربك عليك حين مكر بك الكافرون من قومك وفى وطنك مكة، وفكروا فى ربطك بالسلاسل، أو سجك حتى تموت، أو قتلك أو نفيك بإخراجك بعيدا عن الأوساط العربية. ولعل الحكمة فى تأخيره سبحانه الإخراج فى الذكر مع أنهم قدموه فى تفكيرهم وأعرضوا عنه وعن الحبس وأختاروا القتل، للإشعار بأن الإخراج هو الذى حصل فعلا كما فى الآية (١٩١) من سورة البقرة صفحة ٣٧، والآية (٤٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٧، والآية (١٣) من سورة محمد صفحة ٦٧٤، والآية(٩) من سورة الممتحنة صفحة ٧٣٦، ولكن لا كما كانوا يريدون من طردة تحت سطوة غضبهم ، بل خرج تحت رعاية ربه، وليس إلى مكان تموت فيه دعوته كما كانوا يتمنون بل إلى مكان نمت فيه وترعرعت وكانت نكبة عليهم دكت حصون شركهم. فما هنا أشبه بما فى الآية (٨) من سورة المنافقون صفحة ٧٤٤، ويمكرون أى أن هذا حالهم دائمًا معكم أيها المؤمنون ، ويمكر الله بهم لكم ليحفظكم من كيدهم ، والله خير الماكرين ، لأن مكره نصر للحق وخذلان للباطل، وقد تقدم معنى المكر فى الآية (٥٤) من سورة آل عمران صفحة ٧١، والآية (٩٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٨. ثم ذكر سبحانه بعض مكابرتهم وعنادهم فقال: وإذا تتلى عليهم آياتنا

المنزلة فى القرآن قال بعضهم ووافقه الآخرون لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن، ثم عللوا ادعاءهم الباطل بما هو أشد منه بطلانا حيث قالوا: ليس هذا الكلام الذى يقوله محمد إلا أحاديث سطرت قديما فى كتب الأولين فكتبت له وصار يرددها، أنظر الآية (٥) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠ ، ٤٧١، ورد سبحانه على هذا الافتراء فى مواضع أخرى من القرآن مثل ما جاء فى آيتى (٣٧ ، ٣٨) من سورة يونس صفحة ٢٧٢.

والآية (١٣) من سورة هود صفحة ٢٨٥. ثم ذكر سبحانه نوعا عجيبا من عنادهم فقال: ﴿وإذا قالوا اللهم﴾: روى أن أبا جهل وجماعة قالوا يارب إن كان ما يقوله محمد هو الحق فإنا نفضل أن تنزل علينا حجارة من السماء تهلكنا، أو ترسل لنا عذابا آخر مؤلما، فإنا لا نتبع إلا رجلا عظيما لا فتى صغيرا كمحمد. أنظر الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠، وروى أن معاوية بن أبى سفيان قال لرجل من سبأ بلد بلقيس: ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة! فقال الرجل: قومك أجهل من قومى حين قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة إلخ، وكان الواجب أن يقولوا فاهدنا إليه، ثم رد سبحانه بقوله: وما كان الله مريدا لعذابهم عذاب إفناء وأنت فيهم والمراد بقوله وأنت فيهم أى وأنت رسولهم أيها النبى، وما كان معذبهم وفيهم من يستغفر وهم المستضعفون من المسلمين الذين عجزوا عن الهجرة، أما ما دون عذاب الفناء فإنه يقع بهم إذا استمروا على حالهم.

وهذا معنى قوله وما لهم ألا يعذبهم الخ، أى أى شىء من القوة ثبت لهم حتى يمنع عنهم عذابنا والحال أنهم يستحقونه بمنعهم المسلمين من دخول المسجد الحرام. وقد عذبهم فعلا بقتلهم وأسرهم وهزيمتهم فى بدر، وهم حين منعوا الناس عن المسجد الحرام لم يكونوا أصحاب الولاية عليه لشركهم بالله صاحب البيت ، ولا يصح أن يتولى بيت الله إلا الأتقياء الصالحون، ولكن أكثر الكفار لا يعلون، أى لاحق لهم فى الولاية على البيت ، وقليل منهم يعلم ويعاند ورأى بعضهم أن ضمير أولياءً وأولياءه يعود إليه سبحانه وتعالى ثم بين سبحانه بعض ما يمنع ولايتهم على المسجد فقال: وما كان صلاتهم أى عبادتهم عدن البيت الحرام إلا مكاء إلخ..

مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ[1] لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ
فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ
الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ
جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ[2] ﴿٣٧﴾
قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن
يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ[3] حَتَّىٰ
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ
اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
مَوْلَاكُمْ[4] نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ۞ وَاعْلَمُوا
أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي

المفردات: ﴿البيت﴾: إذا أطلق البيت فى القرآن فالمراد به الكعبة.

﴿مكاء﴾: هو الصفير.

﴿تصدية﴾: هو التصفيق.

﴿ثم تكون عليهم حسرة﴾: أنظر الآية (٥٥) من سورة التوبة صفحة ٢٥٠.

﴿فيركمه﴾: يقال ركمه إذا جمع بعضه إلى بعض ، ومنه سحبا مركوم انظر الآية (٤٤) من صورة الطور صفحة ٦٩٩.

﴿مضت سنة الأولين﴾: أى طريقة الله فى معاقبة الأولين. ﴿لا تكون فتنة﴾: المراد بها تعذيب المسلمين بمكة وغيرها كما فى الآية (١٩١) من سورة البقرة صفحة ٣٧. ﴿ما غنمتم﴾: ما استوليتم عليه من الغنائم، والغنيمة فى عرف الشرع ما استولى عليه المسلمون من المنقولات فى حرب الكفار عنوة، أما ما استولوا عليه من الأرض التى تفتح عنوة فإنه لا يجب قسمتها كالغنائم بل يتصرف فيها الإمام بما هو المصلحة.

المعنى: أراد سبحانه أن يبين عدم صحة ولا يتهم على المسجد الحرام فقال: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت﴾ إلخ، روى أنهم كانوا يطوفون بالبيت رجالاً ونساء متشابكين بالأذرع وهم يصفرون ويصفقون ، ولعلها عادة تسربت إليهم من مزامير بنى إسرائيل ، فالمراد: وما كانت عبادتهم عند البيت الذى كرمه الله إلا لهوا ولعبا، فقلنا لهم ذوقوا العذاب الذى استحققتموه بسبب كفركم المتأصل، ومن هذا العذاب ما حل بهم فى بدر من قتل وأسر وهزيمة. ثم بين سبحانه ما كان من استعداد قريش لما حصل فى بدر وما سيكون منهم لغيرها فقال: ﴿إن

(١) أموالهم. (٢) الخاسرون. (٣) وقاتلوهم. (٤) مولاكم.

الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ وهو الإسلام، فسينفقونها فى سبيل الشيطان ثم تكون عليهم حسرة وندما لذهابها عبثا مع انكسارهم المرة بعد المرة، وفى الآخرة يساقون إلى جهنم فقط لا يرون غيرها. وسيفعل سبحانه ذلك ليميز أى يفصل الخبيث من الطيب فلا يجعلهما سواء كما فى الآية (١٠٠) من سورة المائدة صفحة ١٥٧ ، وآيات (١٨ ، ١٩ ، ٢٠) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧ ويجعل سبحانه الفريق الخبيث بعضه منضما فوق بعض فيجمعه فى جهنم كما يجمع الحطب حزما فى النار، وهذا إشعار بمنتهى الإهانة. أولئك المجرمون هم وحدهم الخاسرون لكل خير. ثم فتح سبحانه باب الأمل فى رحمته فقال: قل أيها النبى للذين كفروا إن ينتهوا عما هم عليه ويسلموا يغفر الله لهم جميع ما سبق منهم من الكفر والمعاصى ، وإن يعودوا إلى معاداتك والصد عن الإسلام فإن الله يمضى فيهم سنته وطريقته التى نفذها فى أمثالهم من الإهلاك كقوم نوح وعاد وثمود وفرعون، فإذا عادوا فقاتلوهم أيها المؤمنون حتى لا يقع منهم إيذاء لمن يسلم، ويصير الدين كله لله لا يستطيع أحد أن يعذب ويكره أحدا على ترك دينه انظر الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣ ، ٥٤. فإن انتهوا عن الكفر وقتالكم فسيجازيهم الله خيرا لأنه بصير بما يعملون، وإن تولوا وأعرضوا ولم ينتهوا فلا تبالوا بهم وأعلموا أن الله تعالى متولى أموركم ، وهو نعم المولى ونعم النصير، فلا يخاف من يتولاه ، ولا يغلب من ينصره، وبعد ما نبه سبحانه المسلمين إلى ضرر التزاحم على الدنيا وأعلمهم أن الأمر فى تقسيم الأنفال التى هى غنائم الحرب موكول إلى الله ورسوله، أراد هنا أن يبين هذا الحكم فقال: واعلموا أن ما غنمتموه من شىء ولو كان قليلا، فالواجب أن يقسم إلى خمسة أقسام: خمس لله يصرف فيما يرضيه من مصالح المسلمين العامة، وللرسول يأخذ كفايته وكفاية نسائه.

المفردات: ﴿يوم الفرقان﴾: تقدم أصل معناه فى الآية (٢٩) من هذه السورة صفحتى ٢٣٠، ٢٣١. وقد أطلق على القرآن وما فيه من الآيات (١٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٣٥، ٣٦ و (٤) من سورة آل عمران صفحة ٦٣ و(١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠. ويوم الفرقان هو يوم ١٧ من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، وهذا اليوم حصل فيه أول نزول القرآن

ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ[١] وَٱلْمَسَٰكِينِ[٢] وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ
ءَامَنتُم[٣] بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى
ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ
ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ
وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ[٤] ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ
أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ
حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ
فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ[٥] كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ[٦]
فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾
وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ
فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ
تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟[٧] إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً

وموقعة بدر. وقال بعض العلماء أن العادة جرت على أن يجعل اليوم المعين بالعدد محلا لما وقع فيه من الحوادث وإن كانت فى سنين متعددة، فيقولون: فى يوم عاشوراء وهو العاشر من المحرم نجى الله نوحا، وفيه نجى موسى إلخ. فاليوم واحد وهو ١٧ من شهر رمضان حصل فيه حادثان عظيمان نزل أول القرآن فى ليلته، وقد عهد نسبة ما فى الليلة إليها تارة وإلى يومها أخرى، ووقع فيه أول قتال مع المشركين فى بدر، ولا شك أن أعظم نعمة هى نعمة نزول القرآن الفارق بين الحق والباطل إلى قيام الساعة، فهو الأولى أن يسمى فرقانا. أما انتصار المسلمين فى موقعة أعقبها انكسارهم فى أخرى وهى أحد كما تقدم فى آل عمران فليس له من المنزلة مثل ما لنزول القرآن.

﴿الجمعان﴾: جمع المسلمين وجمع المشركين.

﴿العدوة﴾: جانب الوادى وناحيته والمراد وادى بدر.

﴿الدنيا﴾: مؤنث الأدنى بمعنى الأقرب، والمعنى الناحية القريبة من المدينة المنورة.

﴿الركب﴾: المراد به ركب أبى سفيان المشار إليه فى الآية (٧) من هذه السورة صفحة ٢٢٧.

﴿أسفل منكم﴾: المراد فى مكان أسفل مما أنتم فيه وهو ساحل البحر كما تقدم.

﴿ولو تواعدتم لاختلفتم﴾: أى ولو اتفقتم على الموعد الذى تقابلتم فيه لاختلفتم فسبق أحدكما الآخر.

﴿ليهلك﴾: المراد بالهلاك هنا الكفر لأنه سببه.

---

(١) اليتامى. (٢) المساكين. (٣) آمنتم. (٤) الميعاد.
(٥) أراكهم. (٦) لتنازعتم. (٧) آمنوا.

﴿ويحيى﴾: يؤمن، فالإيمان حياة من موت الكفر كما تقدم فى الآية (١٢٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣.

﴿فئة﴾: أصل الفئة الجماعة، واستعملها القرآن فى الجماعة المقاتلة، انظر الآية (٢٤٩) من سورة البقرة صفحتى ٥١، ٥٢ والآية (١٣) من سورة آل عمران صفحة ٦٤.

المعنى: ويعطى من هذا الخمس الأول أقرب أهله ﷺ وعشيرته نسبا وولاء ونصرة فى الدين، وبينهم ﷺ بأنهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب المسلمون منهم. ويعطى منه أيضا المحتاجون من سائر المسلمين وهم اليتامى الفقراء والمساكين وابن السبيل، انظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٢٤. وذكر اليتيم مع دخوله فى المساكين دفعا لتوهم أن الغنيمة لا يستحقها إلا المجاهد وهو صغير لا يجاهد. والأربعة الأخماس الباقية تقسم على الجنود الذين حضروا المعركة، وقد سقط سهمه ﷺ وسهم قرابته بعد موته.

قسموا أيها المؤمنون الغنائم كما امرتم إن كنتم آمنتم بالله إيمانا صحيحا يوجب عليكم طاعته، وآمنتم بما أنزلنا على عبدنا محمد من الآيات، وآمنتم بما أنزلنا عليكم عند التقاء جمعكم وجمع المشركين ببدر من الملائكة والمطر والنعاس وكل أسباب القوة والنصر. وكل هذا يسير عليه تعالى لأنه سبحانه قدير على كل شيء. واذكروا أيضا حين كنتم بناحية من وادى بدر قريبة من المدينة والأعداء فى الجانب الأبعد منه، والحال أن ركب أبى سفيان الذى كنتم تريدونه فى مكان أسفل مما أنتم فيه وهو ساحل البحر بعيدا عنكم، وكان فرار أبى سفيان إلى الساحل وترك الطريق الأصلى هو السبب فى التقائكم مع المشركين ببدر بدون تواعد ولذا قال: ولو تواعدتم أنتم ونفير أبى جهل على التلاقى فى هذا المكان فى ذلك الوقت لأمكن اختلافكم فى الميعاد لتهيبكم الحرب بدون استعداد كما تقدم، ولحصر غرضكم فى أخذ العير، ولأن غرض أكثر المشركين كان إنقاذ العير بدون قتال، ولكن جمعكم الله على غير موعد ولا رغبة ليقضى أمرا كان مقررا فى علمه أنه يفعل وهو قتالهم وهزيمتهم، ليهلك باستمراره على الكفر من أراد ذلك بعد وضوح الحق حتى لا يكون له عند الله يوم القيامة حجة، ويؤمن من آمن عن يقين بأن الإسلام حق، وأن محمدا رسول الله صدقا. وأن الله السميع لأقوال الطرفين، عليم بما فى صدورهم، وسيجازى كلا بما يستحق. واذكر أيها النبى

حين أراك الله فى منامك قلة عدد الكفار وقد كان ﷺ رأى فى منامه قبل المعركة رؤيا تمثل المشركين قليلا عددهم جدا، فأخبر بها أصحابه ليطمئنوا، لأنها تفيد ضعف العدو وخذلانه مهما كثر عدده، ولو أراكهم فى المنام كثيرا لخفتم، والخوف يورث الجبن والتنازع، لأنكم لستم فى قوة الإيمان سواء، بل كان فيكم من يجادل فى القتال كما تقدم فى الآية (٦) من هذه السورة صفحة ٢٢٧، ولكن الله تعالى سلمكم من عواقب الفشل وتفرق الكلمة، لأنه عليم بما فى قلوبكم من الإخلاص وما فى قلوبهم من الجحود والكفر فسلَّمكم وأهلكهم؛ لأنه سبحانه قال: ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ الآية (٤٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٧. ثم خاطب المؤمنين كافة بما يؤيد الرؤيا فقال: واذكروا إذ يريكموهم الله حين قاربتم الالتقاء بهم قليلا فى نظر العين تصديقا لرؤياه ﷺ ليزداد يقينكم وتتشجعوا وأيضا إذا انضم إلى ذلك يقينكم بأن لكم إحدى الحسنيين الظفر والغنيمة أو الجنة اشتد إقبالكم على القتال بروح عالية وهذا من أقوى أسباب الغلبة، ويقللكم فى أعينهم حتى عن الواقع ليقدموا على القتال ولا يجبنوا وأيضا ليغتروا بكثرتهم فيستهينوا بكم، واستهانة المقاتل بخصمه من أسباب هزيمته، ولكن لما بدأ القتال فعلا وقع فى نظر المشركين أن عدد المسلمين يبلغ ألفين كم تقدم فى الآية (١٣) من سورة آل عمران صفحة ٦٤، فضعفوا واستولى ،عليهم الرعب. فالتقليل والتكثير كانا فى وقتين فلا تعارض، فهو نظير ما فى الآية (٢٤) من سورة الصافات صفحة ٥٨٨ من سؤال الكافر يوم القيامة مع ما فى الآية (٣٩) من سورة الرحمن صفحة ٧١١ من عدم السؤال فى أن كلا فى وقت غير وقت الآخر. فعل ذلك سبحانه ليقضى أمرا لابد من حصوله. وكرر ذلك لتأكيد أن ما أراده لابد من نفاذه لأنه إليه هو وحده مرجع الأمور كلها. ثم أرشد سبحانه المؤمنين إلى أسباب القوة المعنوية لكل مقاتل فقال: أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فى الحرب جماعة كافرة.

المفردات: ﴿تذهب ريحكم﴾: أصل الريح الهواء المتحرك؛ وتستعار للقوة والغلبة لأنه ليس فى الأجسام أقوى منها، فإذا اشتدت هيجت البحار واقتلعت الأشجار وهدمت الدور.

﴿بطرا﴾: هو مصدر بطر كفرح، وهو حالة تعترى الإنسان عند كثرة النعمة فتشغله عن شكرها.

﴿رئاء الناس﴾: الرئاء هو الرياء..

فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا(١) فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(٢) ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ(٣) بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ
لَهُمُ الشَّيْطَانُ(٤) أَعْمَالَهُمْ(٥) وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ
النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ
عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ
الْمُنَافِقُونَ(٦) وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ
إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ(٧) يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

﴿تراءت الفئتان﴾: أى قربت كل منهما من الأخرى بحيث تراها.

﴿نكص على عقبيه﴾: كناية عن مفارقته لهم وفراره.

المعنى: إذا لقيتم فئة من أعدائكم فى قتال فاثبتوا فى مقاومتهم ولاتفروا ، إلا منحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة كما تقدم فى الآية (١٦) المتقدمة صفحة ٢٢٩، وإنما كرر الأمر بالثبات بعدما تقدم فى الآية (١٦)، لتأكيده، وليرتب عليه ما بعده وهو قوله: واذكروا الله كثيرا، أى استحضروا بقلوبكم أثناء القتال قدرة الله تعالى ووعده بنصر المؤمنين وغضبه على من لم يثبت، وبلسانكم بصوت منخفض ، فقد ورد فى الحديث (إن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند قراءة القرآن، والجنائز ، والتقاء الصفوف فى القتال). فإذا ثبتم وذكرتم ربكم يرجى لكم الفلاح والفوز. وأطيعوا الله فى كل ما أمر به، ومنه ما تقدم هنا، وأطيعوا الرسول فيما يأمركم به من شئون الحرب وغيرها، ولا تنازعوا وتختلفوا ، فتفشلوا وتذهب قوتكم ، فيظفر بكم عدوكم، واصبروا على كل شدة تلاقيكم تفوزوا بعونه تعالى، لأنه مع الصابرين بالعون والمساعدة، وإياكم أن تكونوا كفار مكة الذين خرجوا من ديارهم وقد أبطرتهم نعمة القوة وكان همهم مراءاة الناس ليمدحوهم، والحال أنهم بخروجهم هذا يصدون عن سبيل الله وهو الإسلام. وبيان ذلك أن أبا سفيان لما نجا بالعير أرسل إلى أبى جهل يطلب منه العودة إلى مكة، فأبى أبو جهل وقال لا نرجع حتى نصل بدرا ونشرب بها الخمور وننحر الجزور وتغنى لنا الجوارى وتعلم بذلك العرب وكان عادة العرب أن يجتمعوا فى بدر كل عام يقيمون بها سوقا يتبايعون ويتفاخرون فأراد

---

(١) تنازعوا. (٢) الصابرين. (٣) ديارهم. (٤) الشيطان.
(٥) أعمالهم.. (٦) المنافقون. (٧) الملائكة.

الله عز وجل أن يسقيهم هذا العام كؤوس المنايا بدل الخمر، وتنوح عليهم النائحات بدل المغنيات، وذلك لأن الله تعالى محيط بكل أعمالهم وطغيانهم، فلا يفلت منه ظالم، واذكر أيها النبى لقومك حين زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم الإجرامية، ومنها البطر والرياء، وقال لهم بوسوسته الخفية: لن يغلبكم اليوم أحد من الناس كافة فضلا عن أتباع محمد الضعفاء، فأنتم أعز العرب نفرا، وإنى مع هذا جار لكم أساعدكم. قال البيضاوى: أوهمهم بوسوسته أن أعمالهم التى زينها لهم من عبادة الأصنام والتقرب إليها بالنذور وغيرها نافعتهم ومجيزة لهم من الشدائد فلما تراءت الفئتان وقرب كل منهم من الآخر رجع الشيطان إلى الوراء. والكلام تمثيل لانقطاع وسوسته. ثم زاد ما يدل على براءته منهم خوفا من أن يناله ما ينالهم فقال فى نفسه: إنى برىء منك لأنى أرى ما لا ترون من مدد الملائكة وقوة المؤمنين المعنوية، إنى أخاف الله أى قال فى نفسه أيضا إنى أخاف أن يهلكنى الله بأن يسلط على ملكا يحرقنى ويكون هذا اليوم هو يوم الوقت المعلوم الذى أنذرنى به فى الآية (٣٨) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠، ومثل هذا التمثيل سيأتى فى الآية (١٦) من سورة الحشر صفحة ٧٣٢. واذكر أيها النبى لأمتك أيضا وقت قول المنافقين فى المدينة وهم الذين فى قلوبهم مرض النفاق كما فى الآية (١٠) من سورة البقرة صفحة ٤، فالعطف للتفسير؛ قال هؤلاء لما جاءهم الخبر بكثرة المشركين واستعدادهم وعزم المسلمين على قتالهم: ما جعل اتباع محمد يجازفون وهم قلة إلا غرورهم بدينهم الذى يقول لهم إن القليل منهم يغلب الكثير من غيرهم كما فى الآية (٢٤٩) من سورة البقرة صفحتى ٥١ ، ٥٢، فرد سبحانه عليهم بقوله ﴿ومن يتوكل على الله﴾ إلخ ، أى فهو الغالب لأن الله عزيز أى غالب لا يغلب من يتوكل عليه، حكيم لا ينصر إلا صاحب الحق، ثم أراد سبحانه أن يبين كونه شديد العقاب فقال: ولو ترى، أى لو رأيت يا من يصح منك الرؤية حين قبضت الملائكة أرواح قتلى بدر، وهم يضربون وجوهم إلخ، وجواب لو محذوف ، أى لرأيت أمرا عظيما تقشعر منه الأبدان. وضرب الملائكة هنا من عالم الغيب لا يراه أحد ، نظير ما تقدم فى الآية (٣٧) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٧ ، ١٩٨.

المفردات: ﴿عذاب الحريق﴾: أى المحرق ، وهو عذاب النار كما فى الآية (١٨١) من سورة آل عمران صفحة ٩٣

﴿بظلام للعبيد﴾: أى ليس بصاحب ظلم كما تقدم فى (١٨٢) من سورة آل عمران صفحة ٩٣.

﴿كدأب﴾ أى عادتهم التى دأبوا عليها كما تقدم فى الآية (١١) من سورة آل عمران صفحة ٦٤.

وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ
فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ
اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ
اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا
مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ
فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ
فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا
ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ
عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ
فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

﴿إما تثقفنهم فى الحرب﴾: إما هى (إن وما) زيدت لتأكيد ربط الشرط بالجزاء، يقال يثقفه بوزن سمعه يسمعه معناه ظفر به.

﴿شرد بهم من خلفهم﴾: التشريد والتفريق، والمراد بمن خلفهم كفار مكة وأعوانهم.

المعنى: ويضربون ظهورهم وأقفيتهم ويقولون لهم ذوقوا مقدمات عذاب النار التى ستدخلونها يوم القيامة. وهذا الضرب والقول من الغيبيات لا نطلع عليه ولا نسمعه كما لا نرى ولا نسمع ما يحصل للنائم من شدائد؛ ذلك العذاب، بسبب ما قدمته أيديكم فى الدنيا، وبسبب أن الله ليس بصاحب ظلم لعبد من عباده، بل هو عادل فى حكمه لا يفعل بالعبد إلا ما يستحقه، حكيم فى أفعاله لا يسوى بين المؤمن والفاسق كما فى الآية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧ والآية (٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠، وآيتى (٣٥، ٣٦) من سورة القلم صفحة ٧٥٩.

وعادة هؤلاء الكفار التى داوموا عليها كعادة فرعون وقومه والذين من قبلهم من الأمم السابقة والملوك الظلمة، ثم فسر هذه العادة بقوله: ﴿كفروا بآيات الله﴾ فأخذهم الله بسبب ذنوبهم، ولم يظلم أحدا منهم شيئا، ونصر رسله والمؤمنين. إن الله شديد العقاب لمن يستحقه. ذلك الذى ذكر من عقاب كفار مكة بسبب كفرهم بنعمة الله عليهم بإرسال خاتم رسله منهم، وعقاب الأمم قبلهم بمثل ذنوبهم، كل هذا حصل بسبب أن الله عادل حكيم، فلا يصح فى حكمه أن يغير نعمة أعطاها لقوم حتى يغيروا ما كانوا عليه من استقامة استحقوا بها النعمة. وكفار مكة كانوا قبل بعثة محمد ﷺ ينتظرون أن يرسل الله منهم رسولا كما أرسل

(١) وأدبارهم. (٢) بظلام. (٣) آل. (٤) بآيات. (٥) آل.
(٦) بآيات (٧) فأهلكناهم. (٨) آل. (٩) ظالمين. (١٠) عاهدت.

من غيرهم كما فى الآية (٤٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨. فلما جاءهم حسدوه وحاربوه وهموا بقتله إلى آخر ما حصل منهم فسلط عليهم المؤمنون أعملوا فيهم القتل والأسر حتى فلوا شوكتهم وأرغموا أنوفهم؛ وبسبب أن الله سميع لأقوالهم السابقة واللاحقة، عليم بأحوالهم فيرتب عليها ما تستحقه. ﴿كدأب آل فرعون﴾ إلخ.. أعاد سبحانه هذه الجملة ليبين أن الأولى كانت فى تعذيبهم بكفرهم بما يتعلق به سبحانه وحده من إنكار وحدانيته ووجوب إفراده بالعبادة، ولذلك عبر فيها بلفظ الجلالة: (الله) وأيضا لم يعين فيها شيئا مما حل بهم، أما هذه فلبيان تعذيبهم بسبب جحودهم لآيات ربهم الذى رباهم بنعمه، ومن أجلها إرسال الرسل لهدايتهم، فتراه ذكر فيها بدل لفظ الجلالة (الله) ذكر (الرب) والرب هو المنعم كأنهم جمعوا فى كفرهم بين جريمتين فى حقه سبحانه وتعالى، جريمة إنكار وحدانيته وجريمة جحود نعمه عليهم؛ وبين فيها أيضا العذاب الذى حل ببعضهم وهو غرق آل فرعون ليشعر بأن ما حل بتلك الأمم لم يكن من نوع واحد، وقد جاء مفصلا فى الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦. ثم أراد سبحانه أن يبين حال فريق من الكفار عاهدوه ﷺ ثم نقضوا العهد وهم يهود المدينة، فذكر فى ذلك ثلاثة آيات فقال (إن شر الدواب) إلخ؛ وقد تقدم معنى هذا فى الآية (٢٢) من هذه السورة صفحتى ٢٢٩ ، ٢٣٠؛ أى إن شر ما يدب على وجه الأرض هم الذين جمعوا بين الكفر والإصرار عليه، فهؤلاء لا يؤمنون أبدا لشدة عنادهم وحسدهم. ثم بين نقض العهود المرة بعد المرة، أى وهم الذين عاهدت منهم زعماءهم نيابة عنهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة، والحال أنهم لا يتقون ولا يخافون عاقبة غدرهم. وكان ﷺ عقد مع يهود المدينة عقب هجرته عهدًا أقرهم فيه على دينهم وأمنهم على أموالهم على ألا يعينوا عليه المشركين، فنقضوا، ثم اعتذروا، ثم نقضوا فأمر سبحانه رسوله بقوله ﴿فإما تثقفنهم﴾ إلخ ؛ أى إن ظفرت بهم فى حرب فنكل بهم تنكيلا شديدا يكون سببا لتشتيت وتفريق من وراءهم من كفار مكة وغيرهم. والمراد اجعلهم عبرة لعل من وراءهم يتعظون ويعتبرون.

المفردات: ﴿فانبذ إليهم على سواء﴾: أى فاطرح لهم عهدهم حال كونك أنت وهم على سواء فى العلم بذلك ، والمراد أنذرهم بأنك قطعته ولا تأخذهم على غرة. فما أروع هذه المبادئ.

﴿رباط الخيل﴾: الرباط فى الأصل الحبل الذى تربط به الدابة ، وأريد به ربط الخيل وحبسها للجهاد.

﴿ وآخرين من دونهم﴾: (دون) هنا بمعنى غير وهو كثير فى القرآن ومنه ما فى الآية (٢٨) من سورة آل عمران صفحة ٦٧، والمراد هنا غير مشركى مكة واليهود.

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم
مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ
وَءَاخَرِينَ(١) مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟
مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾
۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ
حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾
وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ
أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ

﴿جنحوا﴾ أى مالوا ، يقال جنح للشىء وإليه: مال ورغب فيه.

﴿للسلم﴾: أى الصلح ، وهو يذكر ويؤنث ، فيقال السلم رغبت فيها.

﴿حسبك الله﴾: أى كافيك شرهم.

المعنى: بعدما بين سبحانه أحكام الناقضين للعهد بالفعل، أراد أن يبين أحكام العازمين على نقضه ، والمعنى: إن توقعت أيها النبى من قومك معاهدين خيانة بأن ظهر لك من الدلائل ما يثبت سوء نيتهم وأيد ذلك عندك تعودهم نقض العهود وعدم المبالاة بها، فاقطع عليهم طريق خيانتهم بإعلامهم فسخك للعهد ولا تفاجئهم بحرب قبل ذلك بل تكون أنت وهم فى العلم بنقض العهد مستويان أما الذين نقضوه فعلا فيجوز لك حربهم فعلا بدون إخطار سابق، إن الله لا يحب الخائنين مطلقا، خصوصا فى العهود، وما لا يحبه الله فلا تبال به أيها النبى، ولا يحسبن الذين كفروا أنهم يسبقون عقابنا وينجون من جرم الخيانة، لأنهم لا يعجزونا إذا أردنا الانتقام منهم. فالمراد قطع أطماعهم فى إيذاء المؤمنين وأعدوا أيها المؤمنون لدفع شر أعدائكم ما تستطيعونه من أسباب القوة، وهى تختلف باختلاف العصور، وأعدوا لهم الخيل المرابطة فى الثغور لمنع تسرب الأعداء إلى بلادكم. وخص الخيل بالذكر مع أنها داخلة فيما قبلها لأهميتها فى ذلك الوقت.

ترهبون وتخيفون بما ذكر عدو الله الكافر به وعدوكم الذين يتربصون بكم المصائب، وترهبون قوما آخرين من غيرهم لا تعلمونهم الآن ولكن الله تعالى يعلمهم. وقد ظهر منهم أول الأمر الروم والفرس، وأخيرا جموع النصارى فى الحروب الصليبية، ولا يزال كثير منهم يتربص

(١) وآخرين.

بالإسلام وأهله إلى اليوم. فيا ويلهم إن غفلوا عن إرشاد ربهم. ولما كان الاستعداد للحرب يحتاج إلى مال قال: وما تنفقوا من شيء قل أو كثر في سبيل الله يؤد إليكم جزاؤه وافيا يوم القيامة، وأنتم لا تظلمون منه شيئا. وإن مالوا للصلح فمل إليه أيها النبى لأن دينك دين سلام، وفوض أمرك إلى الله ولا تخف كيدهم، لأنه هو السميع لكل ما يدبرون، العليم بنياتهم. وإن يريدوا أن يخدعوك بإظهار رغبتهم فى الصلح ليأخذوكم على غرة فإن الله كافيك كيدهم، لأنه هو الذى سبق أن أيدك بنصره فى بدر، وبالأنصار الذين لم يكونوا من بلدك ولا من قومك. ولما كان بين قبائل الأنصار فى الجاهلية عداوات وحروب كما فى الاية (١٠٣) من سورة آل عمران صفحتى ٧٩ ، ٨٠ وكان هذا من أهم العوائق لنصره ، قال سبحانه ﴿وألف بين قلوبهم﴾ أى نصرك بهم بعد أن ألف بين قلوب الأوس والخزرج بعد حروب استمرت ١٢٠ عاما، وبلغ من شدتها أنك لو أنفقت ما فى الأرض جميعه لتصلح بينهم ما استطعت أن تجمعهم، ولكن نعمة الله عليهم بالإيمان الذى هو أقوى فى المودة والمحبة من روابط الأنساب والأوطان جمعتهم، لأن الله عزيز أى غالب لا يعجزه شيء، حكيم فى أفعاله فلا ينصر الباطل على الحق. وبعدما أمر سبحانه نبيه بالاستعداد والميل للصلح إذا رغب فيه أعداؤه وطمأنه بالتأييد، أمره بالتحريض على القتال عند الحاجة إليه كبدء العدو بالحرب أو الخيانة فى الصلح فقال: ﴿يا أيها النبى حسبك الله﴾ إلخ أى كافيك وكافى مَنْ اتبعك من المؤمنين شر أعدائكم فى الحرب أو الخيانة. فالكفاية الأولى كانت خاصة به ﷺ فى حال الخيانة فقط، وهذه عامة له ولأصحابه فى كل حال. ولما سمع المؤمنون هذا الوعد العظيم صاروا يرددونه عند كل شدة. أنظر ما حصل فى أحد فى الآية (١٧٣) من سورة آل عمران صفحة٩١.

المفردات: ﴿حرض المؤمنين﴾: أصل حرض من حرض حرضا بوزن تعب إذا قارب على الهلاك والوصف منه حرض بفتحتين على وزن المصدر، يقال رجل حرض أى قريب من الهلاك كما فى الآية (٨٥) من سورة يوسف صفحة ٣١٦. وصيغة حرض بتشديد الراء تفيد إزالة الحرض الذى هو القرب من الهلاك، كما يقال مرضت المحموم، أى أزلت مرضه، وقشرت الشجر أى أزلت قشره، ثم استعمل التحريض فى الحث الشديد على ما يمنع الهلاك من أول الأمر.

﴿أسرى﴾: جمع أسير وهو ما يقع حيا من الجند فى يد الأعداء فى حرب.

ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ
إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن
يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ
لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ
ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ
وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ
يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ
ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ
سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا
غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ

﴿يثــــخن فى الأرض﴾: أصله من ثخن الشىء السـائل غلظ ولم يسل واسـتـقـر فى مكانه، ثم اسـتعـير للثبات الناشىء من القوة والتفوق على الغير، يقال ثخن بوزن كرم يكرم بضم الراء، وأثخنه إذا بالغ فيه.

ومنه ﴿حتى إذا أثخنتموهم﴾ الآية (٤) من سورة محـمـد صفحتى ٦٧٢ ، ٦٧٣، والمراد هنا حتى يثبت أمره ويستقر ملكه فى الأرض، وتفسير الإثخان بالمبالغة فى القتل تفسير بسببه.

المعنى: يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ورغبهم فيه لدفع تعدى الكفار وإعلاء كلمة الحق والعدل على الباطل والظلم. ثم أمرهم سـبـحـانه بأمـر جـاء فى صـورة الخـبـر ليكون كـالـبـشـارة لهم فـقـال ﴿إن يكن منكم عـشـرون صابرون﴾ إلخ؛ أى يجب عليكم فى حـال قوتكم وظهور دولتكم أن يقف المقـاتل منكم فى وجه عشـرة من الكافـرين، وذلك لأنهم لا يتـعـمـقـون فى علم الحـقـائق كـمـا تعلمون، ولا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا كـمـا فى الآية (٧) من سـورة الروم صـفـحـة ٥٣١. فلا يدركون مـرضـاة الله فى دفع الظلم وإقرار السلام والحرية ، والفوز بإحدى الحسنيين النصرة والعزة، أو الموت شهداء والفوز بنعيم الآخرة. وكان هذا حال المؤمنين فى قوتهم.. وقد تواتر فى كل التواريخ أن جيوش المسلمين كانت فى حرب الروم ٢٤ ألفا وكان جيش هـرقل ٢٠٠ ألف ومع ذلك غلبهم المؤمنون، ولكن لما فسدوا وأهملوا دينهم انقلب الحال، ولن يرجع إليهم عزهم إلا إذا اتبعوا تعاليم دينهم. وبما أنكم الآن أيها المؤمنون ما زلتم لم تستكملوا قوتكم التى ترهبون بها كل من يريد بكم سوءا لضعف عددكم وعدتكم فإن الله يخفف عنكم ويجعل الحكم أنه يجب على

(١) صابرون. (٢) الآن. (٣) الصابرين. (٤) كتاب. (٥) حلالا.

الواحد منكم الثبات أمام أثنين من الأعداء، فإنه يغلبهما بعون الله إذا أن بالصبر، لأن الله مع الصابرين بالعون والمساعدة، وكرر ذكر الصبر لينبههم إلى تزرع الصبر من أقوى أسباب النصر، حتى قال بعضهم إنه إذا وجد فى أعدائهم وفقد ظفر فيهم بهم أعداءهم. ثم نبههم إلى عدم التساهل مع الأعداء وهم مازالوا محتاجين للقوة فقال ﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى﴾ إلخ، وسبب ذلك أنه لما وقع جمع من المشركين فى الأسر استشار ﷺ أصحابه فيما يفعل بالأسرى، فقال أبو بكر وكثيرون: نأخذ منهم فدية نتقوى بها على القتال، وقال عمر: هؤلاء أئمة الكفر وأرى قتلهم حتى ينزجر غيرهم. فمال ﷺ لرأى الكثرة وأخذ الفداء. ففى هذا نزلت الآية.

والمعنى: ما كان يصح لنبى أن يكون له أسرى يفاديهم إلا بعد أن يتم له السلطان والقوة فى الأرض التى يحكمها بحيث يخافه كل مَنْ تحدثه نفسه بسوء. تريدون أيها المسلمون بأخذ الفداء متاع الدنيا الزائل بينما يريد الله لكم ثواب الآخرة بما شرعه لكم من الأحكام الموصلة إليه، وفيها تمام الاستعداد لدفع العدو وكسر شوكته، والله عزيز يحب للمؤمنين العزة كما فى الآية (٨) من سورة «المنافقون» صفحة ٧٤٤، حكيم يحب للمؤمن أن يضع كل شىء فى موضعه، وليس من الحكمة أن تتساهلوا مع عدوكم وأنتم مازلتم قليلين. لولا وعد من الله مكتوب فى الأزل بأن لا يعذبكم عذاب إفناء لمسكم بسبب ما أخذتم عذاب عظيم. روى أنه لما نزل هذا العتاب الشديد جلس النبى ﷺ وأبو بكر يبكيان فجاءهما عمر بن الخطاب فقال: ما يبكيكما يا نبى الله؟ فقال ﷺ: نبكى على قبول الفداء، وقد عرض علىَّ عذاب أصحابى أقرب من هذه الشجرة وأشار إلى شجرة قريبة منه، ولو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غيرك يا عمر. وإذا كان الله قد أحل لكم الغنائم وفيها كفايتكم فكلوا منها حلالا طيبا، أى مستطابا لذيذا، واتقوا الله فلا تعودوا لما نهاكم عنه، إن الله غفور لذنوب التائبين رحيم فلا يعجل بالعقوبة. ثم أمر سبحانه رسوله أن يرغب الأسرى الذين دفعوا الفداء فى الإسلام وما فيه من خير عظيم فى الدنيا والآخرة وأن يهددهم بعاقبة بقائهم على الكفر وخيانته ﷺ ، فقال: ﴿يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله..﴾ إلخ.

اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ
خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ
وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي
الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ
كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

المفردات: ﴿أمكن منهم﴾: أى أمكنكم منهم ونصركم عليهم.

﴿الذين آووا ونصروا﴾: هم الأنصار من أهل المدينة، آووا المهاجرين فى بيوتهم ونصروهم على أعدائهم.. أنظر آيتى (٨، ٩) من سورة الحشر صفحة ٧٣١.

﴿مالكم من ولايتهم من شىء﴾: أى ليس بينكم وبينهم موالاة فى شىء.

﴿استنصروكم فى الدين﴾: أى طلبوا منكم أن تنصروهم فى المحافظة على دينهم بمنع اضطهاد الكفار لهم.

﴿ميثاق﴾: أي عهد.

﴿إلا تفعلوه﴾: أصله إن لا تفعلوه.

المعنى: إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا من حسن نية واستعداد للإيمان الصحيح يؤتكم خيرا وأفضل مما أخذ منكم من الفداء إذا آمنتم بإخلاص، فيخلف عليكم فى الدنيا أضعافه، ويجزل لكم ثواب الآخرة. ويغفر لكم كل ما سبق من معاصيكم حتى الكفر؛ لأنه سبحانه واسع المغفرة، رحيم بعباده المؤمنين كما فى الآية (٤٣) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٦. ثم حذرهم سبحانه وطمأن نبيه بقوله: وإن يريدوا خيانتك بما يظهرونه من الميل للإسلام وعدم العودة لقتالك فلا تخش بأسهم لأنهم قد خانوا الله من قبل خيانتهم لكم حيث أشركوا به غيره بعد ما أخذ عليهم العهد كما فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١، ومع ذلك أمكنكم من رقابهم بنصركم عليهم فى بدر مع تفوقهم فى العدد والعدة، فإذا خانوا فسيمكنك منهم، والله

(١) وجاهدوا. (٢) بأموالهم. (٣) آووا. (٤) ولايتهم.
(٥) ميثاق.. (٦) وجاهدوا. (٧) آووا.

عليم بما فى صدورهم، حكيم يعامل كلا بما يستحق. ولما فرغ سبحانه من بيان قواعد سياسة الحرب والسلم والأسرى والغنائم، ختم ذلك بما يناسبها من قواعد ولاية المؤمنين بعضهم لبعض بسبب الإيمان والهجرة واختلاف ذلك باختلاف الأحوال، فقال ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا ...﴾ إلخ، ولبيان ذلك يحسن أن نعلم أن المؤمنين كانوا فى عصره ﷺ وهو بالمدينة على أربعة أنواع: النوع الأول: هم المهاجرون السابقون قبل نزول هذه السورة، والثانى: الأنصار وهم من أسلم من أهل المدينة، والنوع الثالث: المؤمنون من أهل مكة الذين لم يهاجروا، والرابع: المؤمنون الذين هاجروا بعد ذلك. وقد بينت هذه الآيات حكم كل منها. فالقسم الأول والثانى بعضهم أولياء بعض، أى يتولى كل منهم من أمر الآخر ما يتولاه لنفسه، فأصبحت مصالحهم مشتركة بينهم كأسرة واحدة، حتى أن المهاجر كان يرث الأنصارى الذى لا وارث له من أقاربه وبالعكس، واستمر هذا التوارث إلى أن نزلت آيات المواريث فى أول سورة النساء فتغير الحكم. والقسم الثالث: وهم الذين لم يهاجروا وبقوا بأرض المشركين مالكم من ولايتهم من شىء أى ليس بين المسلمين فى المدينة وبينهم موالاة كالسابقة إلى أن يهاجروا فيكون لهم ما لإخوانهم، ولكن لهم عليكم شىء واحد هو أنه إذا تعدى عليهم المشركون لأجل دينهم وطلبوا منكم أن تنصروهم يجب عليكم نصرهم إلا فى حالة واحدة هى حالة ما إذا كان المعتدى المقيمين بدار الكفر كفارا بينكم وبينهم معاهدة ولم تنقض مدتها، فإنه فى هذه الحالة يجب تقديم حفظ العهد على نصرتهم؛ وذلك لأن الإسلام شدد فى المحافظة على العهد وعاب على اليهود كثرة نقضهم له واستهانتهم به. والله بما تعملون بصير فخافوا مخالفته، وهل رأيت أيها القارئ أنبل من هذه الأخلاق الإسلامية فى المحافظة على المعاهدات. والذين كفروا بعضهم يوالى بعضا فى التعاون ضد المسلمين، فيجب أن تحذروهم جميعا بالمحافظة على كل ما أمرتكم به، فإنكم إن لم تفعلوا ما أمرتم به من المحافظة على العهود تحصل فتنة شديدة فى الأرض، وفساد كبير بإنتشار الفوضى وسفك الدماء. ثم بين سبحانه فضل القسمين الأولين وما أعده لهم فى الآخرة فقال: والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم وحدهم المؤمنون إيمانا حقيقيا. وأعاد ذكر أوصافهم السابقة للإشارة إلى أنها هى سبب استحقاقهم لما بعدها.

لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن
بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا[1] مَعَكُمْ فَأُولَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا
الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ[2] اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

(٩) سورة التوبة مدنية
وآياتها تسع وعشرون ومائة

بَرَآءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى الَّذِينَ عَٰهَدتُّم[3] مِّنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوٓا
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَٰفِرِينَ[4] ﴿٢﴾
وَأَذَٰنٌ[5] مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ
أَنَّ اللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ

المفردات: ﴿رزق كريم﴾: هو الجامع لكل صفات الحسن كما تقدم فى الآية (٤) من هذه السورة صفحة ٢٢٧، ولذا فسره بعضهم بالجنة.

﴿أولو الأرحام﴾: أصحاب القرابة الذين يجمعهم رحم واحد غالبا.

﴿فى كتاب الله﴾: أى حكمه الذى كتبه وفرضه على عباده.

سورة التوبة

﴿براءة من الله﴾: أى تبرؤ

﴿الذين عاهدتم﴾: أى كنتم عقدتم معهم معاهدة.

﴿فسيحوا فى الأرض﴾: أصل السياحة جريان الماء، ثم استعمل فى السير الاختيارى، أى سيروا فى أنحاء الأرض حيث شئتم أربعة أشهر تبتدئ من يوم ١٠ من ذى الحجة كما سيأتى، فهى غير الأربعة الأشهر الآتية فى الآية (٣٦) من هذه السورة صفحة ٢٤٦.

﴿غير معجزى الله﴾: أى لا تعجزونه بالهرب منه أو التحصن إذا أراد عقابكم.

﴿وأذان من الله﴾: أى إعلام.

﴿يوم الحج الأكبر): هو يوم عيد الأضحى، لأن فيه تمام أعمال الحج، ووصفه بالأكبر لأن العمرة تسمى حجا أصغر، لأنه يزيد عنها ركنا كما تقدم فى الآية (١٥٨) من سورة البقرة صفحة ٣٠.

---

(١) وجاهدوا.
(٢) كتاب.
(٣) عاهدتم.
(٤) الكافرين.
(٥) أذان.

المعنى: لهم مغفرة تامة ماحية لكل ذنب، ولهم فى الآخرة رزق كريم من رب كريم، والصنف الرابع هم الذين آمنوا بعد نزول هذه الآية وهاجروا وجاهدوا، فالمراد ويهاجروا ويجاهدوا معكم، فحكم هؤلاء أنهم منكم أيها السابقون يستحقون ما استحققتم. وسياق الكلام يفيد أنهم أقل درجة عند الله، لأنه جعلهم قسما مستقلا تابعا، وقد صرح بهذا التفصيل فى الآية (١٠٠) من سورة التوبة التالية صفحتى ٢٥٨، ٢٥٩، والآية (١٠) من سورة الحديد صفحتى ٧١٩، ٧٢٠، والآيات (٨، ٩، ١٠) من سورة الحشر صفحة (٧٣١)، وقد جاءت مزية السبق مطلقة فى الآيات من (١٠ إلى ٢٦) من سورة الواقعة صفحتى ٧١٣، ٧١٤، وجاء تقدير جزائهم على قدر أعمالهم فى الآية (١٩٥) من سورة آل عمران صفحتى ٩٥، ٩٦. وبعدما فرغ سبحانه من ولاية الإيمان والهجرة فقط أراد أن يبين ولاية القرابة بين أصحاب الولاية السابقة فقال: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ أى بعضهم أحق بالإرث من المهاجرين والأنصار الأجانب، وهذه الأحقية كتبها الله تعالى وفرضها على عباده، أى فولاية الرحم مقدمة على ما هم أعم منها

وهى ولاية الإيمان والهجرة، فإذا استوى رجلان فى نسبتهما إلى الميت من حيث الإيمان والهجرة وامتاز أحدهما بقرب النسب قدم على الآخر، وهذا الحكم انتهى بنزول آيات المواريث أول سورة النساء. ثم ختم سبحانه السورة بقوله ﴿إن الله بكل شىء عليم﴾ ليفيد أن ما شرعه من الأحكام فى هذه السورة صادر عن علم محيط بكل ما يتعلق بمصالح المؤمنين، انظر الآية (٥٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٠.

وتسمى براءة. أما تسميتها بالتوبة فلأن قصة توبة كعب بن مالك الآتية فى الآيات (١١٧، ١١٨، ١١٩) صفحتى ٢٦٢، ٢٦٣، أهم توبة شهدها المسلمون فى عصره ﷺ انظر شرح صفحة ٢٤٧ وفيها إمام المتخلفين عن هذه الغزوة، وأما تسميتها براءة فظاهر من افتتاحيتها. ولم تفتتح بالبسملة كغيرها لأنه ﷺ لم يأمر بها، فظن بعضهم أنها مكملة للأنفال وعدهما سورة واحدة مكملة للسبع الطوال، وفهم بعضهم أنها سورة مستقلة وتركت البسملة لما قاله ابن عباس أن البسملة فيها رحمة وأمان وهذه نزلت لرفع الرحمة والأمان عن المشركين. وسبب نزولها أنه ﷺ لما خرج لغزوة تبوك التى نزل أغلب السورة فيها من أول الآية (٣٨) إلى

قبيل آخرها، وكانت مسافتها طويلة شاقة، برز نفاق المنافقين ودسائسهم مما سيأتى الحديث عنه فى أغلب السورة، عند ذلك بدأ المشركون يتمرون ويتربصون فى سرائرهم بالمسلمين، فكان من الحكمة وقد ثبت بالتجربة أنهم لا عهد لهم كما فى الآية (٧) التالية صفحة ٢٤٠. ولا يمكن الاطمئنان إلى معاشرتهم فى ظل معاهدات يُسهل لهم شركهم الغدر بها، كان من الحكمة أن يؤمن الله الدعوة من شرهم، فأمر سبحانه أولاً بقطع ما كان معهم من عهود مطلقة لم تقيد بوقت معين، ومن كان منهم له عهد بأقل من أربعة أشهر يكمل له إلى نهاية أربعة أشهر من هذا التاريخ، ومن كان له مدة فوق الأربعة أشهر يكمل له عهده إلى آخر مدته مهما طالت، وأمر ثانيا بتطهير جزيرة العرب من المشركين حتي لا يبقي فيها دينان انظر الآية (٥) وما بعدها صفحة ٢٤٠، والآية (١٢٣) من هذه السورة أيضا صفحتى ٢٦٣، ٢٦٤، فأنزل سبحانه من أول السورة إلى الآية (٢٨) سنة ٩ فى موسم الحج، وقد كان على رأس الحجاج المسلمين أبو بكر رضي الله عنه، فأرسل ﷺ بما نزل عليا بن أبى طالب ليقرأه على الناس يوم العيد فى منى، فقرأه عليهم جميعا، وكانوا خليطا من مسلمين ومشركين وقال بعده: لا يقرب البيت بعداليوم مشرك. ولما سمع المشركون فى الجزيرة ذلك وكانت مكة فتحت فى رمضان سنة ٨ هجرية قالوا بلغ محمدا أننا قد نبذنا عهده وأنه ليس بيننا وبينه سوى السيف. ومعنى الآيات هذه براءة من الله ورسوله إلى كل معاهد من المشركين، فقولوا لهم سيروا فى الأرض حيث شئتم مطمئنين مدة أربعة أشهر فقط، وفكروا فيها، فإن رجعتم عن شرككم فيها وإلا فما أنتم بقادرين على أن تعجزوا الله تعالى إذا طلب إهلاككم، وأنه سيخزيكم بالقتل والذل فى الدنيا، وبالعذاب فى الآخرة. وبعدما قرر سبحانه الحكم أمر بإعلانه فقال: وأذان فى الناس يوم الحج.. إلخ، أى هذا إعلان صادر من الله ورسوله إلى جميع الناس يوم الحج الأكبر، وهو اليوم العاشر من ذى الحجة الذى يجتمع فيه الناس بمنى، بأن الله برئ من المشركين، وكذا رسوله برئ منهم ومن عهودهم، وقولوا لهم إن تبتم عن الشرك والغدر فعملكم وهو التوبة خير.إلخ.

المفردات: ﴿توليتم﴾: أى ثبتم على التولى والإعراض عن التوبة.

خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله
وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴿٣﴾ إلا الذين عٰهدتم[1]
من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظٰهروا[2]
عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله
يحب المتقين ﴿٤﴾ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا
المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم
واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلوٰة[3]
وءاتوا[4] الزكوٰة[5] فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴿٥﴾
وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع
كلٰم[6] الله ثم أبلغه مأمنه ذٰلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴿٦﴾
كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله
إلا الذين عٰهدتم[7] عند المسجد الحرام فما استقٰموا[8]

﴿لم ينقصوكم شيئا﴾: من شروط العهد وحافظوا عليها تامة.

﴿ولم يظاهروا عليكم أحدا﴾: أى لم يعاونوا عليكم عدوا.

﴿فإذا انسلخ﴾: أصل السلخ الكشط، يقال سلخت الجلد عن الشاة أى كشطته وفصلته منها. ولما كان الزمان محيطا بكل ما فيه، عبّر عن ذهابه بالسلخ، فالمراد انفصلت وانقضت مدة الأشهر.

﴿الأشهر الحرم﴾: المعهودة المتقدمة فى قوله ﴿فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر﴾ وليست هى الأشهر الحرم المحرمة على الدوام الآتى ذكرها فى الآية ٣٦ صفحة (٢٤٦).

﴿واحصروهم﴾: فى المكان الذى يتحصنون فيه وامنعوهم من الخروج منه.

﴿واقعدوا لهم كل مرصد﴾: المرصد المكان الذى يرصد فيه العدو، والمراد مراقبة مسالكهم حتى لا يفلتوا.

﴿فخلوا سبيلهم﴾: أى فاتركوا لهم طريق حريتهم.

---

(١) عاهدتم.
(٢) يظاهروا.
(٣) الصلاة.
(٤) آتوا.
(٥) الزكاة.
(٦) كلام.
(٧) عاهدتم.
(٨) استقاموا.

﴿استجارك﴾: أصل معنى استجار طلب الجوار، والمراد استأمنك وطلب منك أن تؤمنه.

﴿مأمنه﴾: المكان الذى يأمن فيه بين أهله.

﴿فما استقاموا﴾: ما اسم شرط يدل على الزمن، والمراد أى زمان استقاموا لكم فيه.

المعنى: فالتوبة خير لكم فى الدنيا والآخرة، وإن داومتم على إعراضكم فاعلموا أنكم لا تعجزون الله إذا أراد تعذيبكم.

ثم ذكر سبحانه بعضا من هذا العذاب فى أسلوب تهكم بهم فقال: وبشر الكافرين أيها النبى بعذاب شديد الألم. فكأنه يقول: إذا تولوا فأحسن خبر يسمعونه هو إنذارهم بالعذاب. ثم استثنى سبحانه من الذين تبرأ من عهودهم وهددهم بالعذاب فقال ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين﴾ ولم ينقضوا شيئا من عهودكم، ولم يساعدوا عليكم عدوا، فهؤلاء حافظوا على عهدهم تاما إلى آخر مدتهم، ولا تسووهم بالخائنين؛ إن الله يحب المتقين لمعاصيه ومنها نقض عهد مَنْ حافظ عليه، فإذا انقضت مدة الأشهر الأربعة المحرم عليكم القتال فيها فاقتلوا مَنْ تشاءون من المشركين الخائنين للعهد فى أى مكان وجدتموهم فيه، وخذوا من تشاءون منهم أسرى، وحاصروهم إذا احتموا فى حصن، ولا تمكنوهم من الخروج حتى يسلموا أو يموتوا، واقعدوا لهم فى كل مكان ترصدون فيه حركاتهم، وليس المراد الحصر فى هذه الثلاث، بل المراد افعلوا بهم كل ما ترونه مناسبا للمصلحة ولتدبير شئون الحرب، وإنما أجاز الأسر هنا وقد كان منعه فى غزوة بدر فى الآية (٦٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧، لأن سورة التوبة نزلت سنة ٩ هجرية وقد قوى المسلمون وأصبحوا لا يخشون الأسر، فالحالة هنا تغيرت. فإن تابوا عن الشرك ودخلوا فى الإسلام، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فاتركوهم وشأنهم، لأن الله واسع المغفرة فيغفر لهم كل ما سبق، رحيم بعباده المؤمنين.

وبعد أن بين سبحانه حكم التائبين بالفعل أراد أن يبين حكم مَنْ يظهر استعداده للتوبة فقال سبحانه ﴿وإن أحد من المشركين﴾ إلخ؛ فهذا تخصيص لقوله السابق ﴿فاقتلوا المشركين﴾ إلخ، فيفيد أن المشركين الذين بلغوا نبذ عهودهم أو انتهت مدتها هم على ثلاثة

أقسام: قسم مُصر على الشرك ومصمم على الخيانة، وهذا يقاتل فى أى مكان وجد فيه، وقسم تاب وآمن، وقسم يطلب سماع القرآن ليتدبره. فالمعنى: وإن طلب منك أيها النبى أحد من المشركين الأمان ليسمع كلام الله ليعلم حقيقة الإسلام فيجب عليك أن تؤمنه، ثم بعد ما يسمع القرآن أبلغه فى أمان إلى دار قومه التى يأمن فيه على نفسه ويكون حرا فيما يختار؛ وذلك الأمر الذى أمرناك به من تمكينه من سماع القرآن بسبب جهلهم حقيقة الإسلام وإنما دفعهم لحربك عصبيتهم الجاهلية، فإذا بدر منهم استعداد للنظر والتدبر فى القرآن فمكنهم. ثم رجع سبحانه إلى بيان الحكمة فى التبرؤ من المشركين وقطع عهودهم فقال: كيف يكون للمشركين المستهينين بالعهود المجترئين على نقضها عهد محترم عند الله وعند رسوله؟ والاستفهام للإنكار والتعجب. والمعنى بأية صفة يثبت للمشركين عهد يقره الله ورسوله. وسيأتى تفصيل أسباب عدم احترام عهدهم فى الآيات (٨، ٩، ١٠) الآتية فى هذه السورة صفحة ٢٤١، وقبل ذكر هذه الأسباب استثنى سبحانه منهم من حافظ على عهده وهم المشار إليهم فى الآية (٤) هنا، وهم حى من بنى بكر من كنانة كما تقدم.

وبيان ذلك أن الذين عاهدوه عام الحديبية سنة ٦ هجرية الآتى ذكرها فى الآية (١٨) من سورة الفتح صفحة ٦٨١، كانوا كفار قريش وقبائل العرب حول مكة، وقد نقض قريش وكثير من العرب العهد، وكان ذلك سببا لغزوة الفتح سنة ٨ هـ ، وحافظ على عهده حى من بنى بكر من كنانة، فهم المقصودون هنا بقوله ﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام﴾ أى قريبا منه وبجواره فى الحديبية، وأعاد استثناءهم ليبين تأكيد الوفاء بالعهد مع شرطه الموجب للوفاء وهو الاستقامة فقال سبحانه ﴿فما استقاموا﴾. ولما فتح ﷺ مكة سنة ٨ هجرية دخل جميع أهلها من قريش فى الإسلام، وبقى قبائل من العرب المشركين حول مكة لم يسلموا، وهم الذين أمر الله سبحانه بنقض عهدهم وحربهم ما عدا من حافظ منهم على العهد.

المفردات: ﴿يظهروا عليكم﴾: المراد يتفوقون عليكم فى القوة ويظفرون بكم .

﴿لا يرقبوا فيكم﴾: أى لا يراعون فى معاملتكم.

لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ
وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً
يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾
اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ
إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا
وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن
بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ
إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا
نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

﴿إلاً﴾: الإل الرحم والقرابة.

﴿ولا ذمة﴾: أى عهدا.

﴿فصدوا عن سبيله﴾: صد فعل يستعمل لازما بمعنى أعرض ومتعديا بمعنى منع غيره والكل هنا صحيح.

﴿ساء﴾: أى قبح.

﴿نكثوا أيمانهم﴾: أى استمروا على نقض عهودهم التى أكدوها بأيمانهم المغلظة.

﴿وطعنوا فى دينكم﴾: عطف لبيان نوع من أنواع نقض العهد، وليس المراد به تقييد حال قتالهم بالجمع بين الأمرين الحرب مع الطعن فى الدين. وإنما المراد أن الحرب نقض للعهد.

والطعن فى الدين نقض للعهد، فهو كما قال الألوسى هو من عطف الخاص على العام لأن الفعل الواقع بعد شرط يفيد العموم فى مصدره فكأنه قال إن حصل منهم نقض للعهد ومن أفراد النقض للعهد الطعن فى الدين.

---

(١) بأفواههم.
(٢) فاسقون.
(٣) بأيات.
(٤) الصلاة.
(٥) وآتوا.
(٦)الزكاة.
(٧) الآيات.
(٨) أيمانهم.
(٩) فقاتلوا.
(١٠) أيمان.
(١١) تقاتلون.
(١٢) أيمانهم.

﴿أئمة الكفر﴾: صناديده وزعماؤه.

﴿لا أيمان لهم﴾: المراد ليس لهم أيمان يوثق بها.

﴿ألاَ﴾: كلمة مركبة من همزة استفهام استنكارى تفيد النفى، ومن اللام النافية، ومجموعهما يفيد الحث والتحريض على ما بعدهما.

﴿تقاتلون قوما﴾: المراد بهم الذين كانوا حول مكة ولم يدخلوا فى الإسلام بعد وكانوا تبعا لقريش فيما يأتمرون به ويعادون النبى ﷺ قد جاء ما يؤيد ذلك فى المنار جزء ١٠ صفحات ١٥٠، ١٥١، ١٨٣، ٢٣٥. ﴿هموا بإخراج الرسول﴾: عندما تآمروا على حبسه أو إخراجه أو قتله، كما تقدم فى الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١.

المعنى: فاستقيموا لهم محافظين على العهد ماداموا مستقيمين عليه، إن الله يحب المتقين لكل معصية ومنها الغدر، ثم شرع سبحانه فى بيان أسباب عدم احترام عهدهم المشار إليه سابقا فقال ﴿كيف وإن يظهروا عليكم﴾ إلخ، أى كيف يكون لهم عهد محترم وهم إن يظفروا بكم لا يراعون فى معاملتكم حقوق قرابة ولا عهود، وفى حالة ضعفهم يرضونكم بكلام عذب فيه إظهار محبتكم وحب الخير لكم، وهذا الكلام مجرد ألفاظ تخرج من أفواههم فقط ولا صلة لها بما فى قلوبهم، لأن قلوبهم المملوءة بالحقد والحسد تأبى أن توافق أفواههم كما قال سبحانه فى موضع آخر ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم﴾ الآية (١١) من سورة الفتح صفحتى ٦٧٩، ٦٨٠، وأكثرهم فاسقون أى خارجون على قيود العهد والطاعة.

ثم بَيّن سبحانه بعضا من أسباب فسقهم فقال ﴿اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا﴾ أى استبدلوا بامتثال آيات الله التى تأمر بالاستقامة والمحافظة على العهد ثمنًا قليلا من حطام الدنيا والانغماس فى الشهوات، فأعرضوا عن الحق بسبب هذا الاستبدال الخسيس وصرفوا غيرهم عنه. إنهم قبح عملهم الذى استمروا عليه حتى صار طبعا لهم فهم بسبب ذلك لا يقتصرون فى عدم احترام القرابة والعهد عليكم فقط، بل هذا هو طبعهم مع كل مؤمن. أولئك

هم وحدهم المعتدون على حدود الله. ثم بَيَّن سبحانه ما سيكون منهم فى المستقبل وأنه لا يتعدى أحد أمرين فقال: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فهم حينئذ إخوانكم فى الدين لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وبهذه الأخوة يسقط كل ما سبق من عداوة. ﴿ونفصل الآيات﴾ أى نأتى بها مفصلة ومبينة للحق والباطل، والفضيلة والرذيلة، ينتفع بها الذين يعلمون العلم النافع فيصلون لمعرفة الحق، وإن استمروا على نقض أيمانهم التى أكدوا بها عهودهم لكم وطعنوا فى دينكم كعادتهم فقاتلوهم لأنهم صناديد الكفر وقواده، كما أنهم فى الحقيقة لا أيمان لهم محترمة، فقاتلوهم راجين بذلك أن ينتهوا عن الكفر والفساد. ولما كان بعض المسلمين يظن أنه لو أمهل هؤلاء الكافرين لآمنوا، كما تقدم فى الآية (٢١٦) من سورة البقرة صفحة ٤٢، قطع سبحانه هذا الظن بالحث على قتالهم فقال ﴿ألا تقاتلون﴾ أى كيف لا تقاتلون ﴿قوما نكثوا أيمانهم﴾ التى أكدوا بها العهد المرة تلو المرة، وقد سبق منهم بمكة أنهم تبعوا قريشا فيما مضى وهموا بإخراج الرسول على الوجه الذى كانوا يريدونه كما تقدم فى الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، وهناك بينا سبب ذكر الخروج فقط، وهم الذين بدءوكم بالإيذاء والفتنة بمكة، وبتصميمهم على القتال فى بدر بعد علمهم بنجاة العير كما تقدم فى أسباب الحرب فى بدر فى سورة الأنفال، وبمجيئهم لأحد كما تقدم فى الآية (١٢١) من سورة آل عمران صفحة ٨٣، وانظر آيات (١، ٢، ٣) من سورة الممتحنة صفحتى ٧٣٤، ٧٣٥. فهل مع كل هذا تخافونهم؟ لا تخشوهم فالله وحده هو الذى أحق أن تخشوه، لأنه يضر وينفع وهم لا يملكون ضرًا ولا نفعًا، إن كنتم مؤمنين حقا. وهذا تحريض شديد على كف شر هؤلاء المشركين الذين بقوا حول مكة متمسكين بشركهم، وكانوا يشاركون قريشا قبل فتح مكة وإسلام أهلها فى كل تدبيرهم ومكائدهم للنبى ﷺ ومتضامنين معهم فى حروبهم للمسلمين، فكل ما كان ينسب لقريش قبل إسلامها فهو ينسب إليهم.

المفردات: ﴿أم﴾: تقدمت فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢ إنها تفيد الاستفهام التعجبى.

قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ
وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ
وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ
حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ
وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ
أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ
أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾
إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ
ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ

﴿وليجة﴾: هى ما يولج أى يدخل فى القوم وليس منهم يطلق على الواحد والكثير والمراد هنا بطانة السوء من المنافقين والمشركين أى شاهدين على أنفسهم بلسان الحال لا بلسان المقال كما فى الآية (٧) من سورة العاديات صفحة ٨١٨.

﴿حبطت أعمالهم﴾: أى بطلت.

﴿يعمروا مساجد الله﴾: عمارة المسجد تشمل العبادة فيه وترميمه وتنظيفه وخدمته وغير ذلك. ﴿سقاية الحاج﴾: السقاية اسم للمكان الذى يوضع فيه الماء لسقى الناس، ويطلق أيضا على الإناء الذى يشرب به، كما فى الآية (٧٠) من سورة يوسف صفحتى ٣١٣، ٣١٤؛ وسماها صواعًا فى الآية (٧٢) من السورة نفسها صفحة ٣١٤ لأنه كان يكال بها أيضا كالصاع، وصارت السقاية تستعمل بمعنى الحرفة كالنجارة والحدادة، وهذا المعنى هو الظاهر هنا.

المعنى: بعد أن بيّن سبحانه دواعى قتال المشركين ووبخ على تركه، جدد الأمر بقتالهم، ووعد المؤمنين بتعذيب أعدائهم تشجيعا لهم على القتال، فقال: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله﴾ على

(١) قاتلوهم.
(٢) جاهدوا.
(٣) مساجد.
(٤) شاهدين.
(٥) أعمالهم.
(٦) خالدون.
(٧) مساجد.
(٨) الصلاة.
(٩) آتى.
(١٠) الزكاة.

أيديكم بالقتل، ويعينكم عليهم، ويخزهم بالأسر، وينصركم عليهم أتم نصر، بجعل الغلبة النهائية لكم ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ هم الذين كانوا فى مكة وعجزوا عن الهجرة حتى أنقذهم النبى ﷺ حين فتح مكة سنة ٨ هجرية، وكان المشركون من أهل مكة وما حولها يعذبونهم، فشفى صدورهم بعزة الإسلام، وبذهاب ما كان فى قلوبهم من الغيظ على الكفار بإذلال من بقى من المشركين على الشرك وقهرهم انظر الآية (٧٥) من سورة النساء صفحة ١١٣ ويتوب الله على من يشاء منهم، وهم الذين نبهت عقولهم العبرة فأزالت غشاوة العصبية الجاهلية.

والله عليم بمن يستحق قبول توبته لحسن استعداده، حكيم فلا يضع الشيء إلا فى موضعه. ولما شق على بعض المسلمين قتال قومهم كما تقدمت الإشارة إليه فى الآية ٢١٦ من سورة البقرة صفحة ٤٢، وتمنى بعضهم أن يمهلوا حتى يهديهم الله، وكان سبحانه يعلم من أمرهم ما لا يعلمون، قال: ﴿أم حسبتم﴾ أى هل ظننتم أيها المسلمون أن يترككم الله على ما أنتم عليه من اختلاط الصادق الإيمان بالضعيف ولا يأمركم بالجهاد فتمتحنوا بما يميز المخلص من غيره، والحال أن الله لم يعلم علم وقوع المجاهد المخلص ولم يتخذ من غير الله ولا رسوله ولا المؤمنين أخصاء يطلعهم على أسرار دولته، ونفى علمه تعالى كناية عن عدم حصول هذا التمييز، فعلم الله إما قديم قبل وقوع الحوادث أو منجز يتصل بالأحداث حين تقع، والمراد هنا الثانى أى لما ينكشف ما كان فى علم الله من قديم ولا يكشفه إلا الامتحان الذى يميز الخبيث من الطيب. فالمراد أتظنون أن تتركوا بدون تمييز أمام الناس، والله خبير بكل ما تعملون من خير وشر ويجازيكم عليه.

انظر مثل هذا النهى عن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين فى الآية (١١٨) من سورة آل عمران صفحة ٨٢. وبعد أن زالت ولاية المشركين عن المسجد الحرام سنة ٨ بفتح مكة، ودخول أهلها فى الإسلام، وأزال ﷺ ما كان فوق الكعبة من الأصنام، أراد أن يبلغ جميع المشركين فى كل مكان أنه لا يقرب البيت الحرام بعد هذا العام وهو سنة ٩ هجرية غير

المؤمن، أما المشرك فلا يصح له أن يدنو منه، وذلك تحقيقا لأمره تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام المتقدم فى الآية (١٢٥) من سورة البقرة صفحة ٢٤ فقال سبحانه ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله... الخ﴾، أى لا ينبغى ولا يصح للمشركين أن يعمروا مساجد الله مطلقا، فضلا عن أشرفها وهو المسجد الحرام، حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر، باعترافهم بعبادة الأصنام، أى فلا ينبغى أن يجمعوا بين النقيضين: عمارة بيت الله والكفر به سبحانه. أولئك المشركون بطلت أعمالهم التى يظنونها تقربهم إلى الله لما خالطها من الشرك به سبحانه، وسيدخلون نار جهنم خالدين فيها أبدا.

إنما الذى يصح له أن يعمر مساجد الله هو من آمن بالله، والإيمان به إيمان برسله، وآمن باليوم الآخر، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، ولم يخش إلا الله، فيعمل ما يأمره به، ولا يبالى بمن يحاول منعه من طاعة ربه، فهؤلاء المتصفون بما تقدم ترجى لهم الهداية إلى الجنة، ولما كان حصل بين بعض أصحابه ﷺ حوار فى أى الأعمال أفضل كما فى رواية مسلم عن النعمان بن بشير.

فقال بعضهم:

سقى حجاج بيت الله الحرام لشدة حاجتهم إلى الماء ولصعوبة حمله المسافات الطويلة بخلاف الزاد.

وقال آخر:

بل عمارة المسجد الحرام، وقال ثالث: بل الجهاد فى سبيل الله، لما كان هذا أراد سبحانه أن يبين الصواب بما فيه توبيخ المشركين على ظنهم أنهم يتقربون إلى الله بعمارة المسجد الحرام مع بقائهم على الشرك فقال سبحانه مخاطبا المؤمنين معرضا بالمشركين: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام أى مع الإيمان كما يفهم من المقام حتى تصح المفاضلة الآتية كمن آمن بالله.... إلخ.

المفردات: ﴿رضوان﴾: الرضوان الرضا التام الكامل من كل وجه، فهو فوق نعيم الجنة كله، أنظر الآية (٧٢) من هذه السورة صفحة ٢٥٣، والآية (١٥) من سورة آل عمران صفحة ٦٥.

﴿مقيم﴾: أى خالد لا يزول.

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ[١] فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ
اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ[٢] (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا[٣] فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ[٤] وَأَنفُسِهِمْ
أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ[٥] (٢٠)
يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ[٦] وَجَنَّاتٍ[٧] لَّهُمْ فِيهَا
نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ[٨] فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ
أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ[٩]
وَإِخْوَانَكُمْ[١٠] أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ[١١]
وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[١٢] (٢٣) قُلْ إِن
كَانَ آبَاؤُكُمْ[١٣] وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ[١٤] وَأَزْوَاجُكُمْ[١٥]
وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ[١٦] اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ[١٧] تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا
وَمَسَاكِنُ[١٨] تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

﴿أولياء﴾: أى أخصاء توالونهم ويوالونكم..

﴿استحبوا الكفر﴾: الاستحباب الحب القوى والميل الشديد.

﴿عشيرتكم﴾: العشيرة فى الأصل مؤنث العشير وهو الذى يعاشر الشخص ويخالطه والمراد بها هنا الجماعة من أقارب الرجل الذين يعاشرونه ويتعاونون معه.

﴿اقترفتموها﴾: الاقتراف فى الأصل الاجتهاد فى الحصول على الشىء والمراد هنا الاكتساب بمجهود، والمال الذى يحصل بذلك أحب من المال الموروث.

المعنى: هل يصح أن تجعلوا أهل السقاية والعمارة فى الفضل وعلو الدرجة عند الله كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد بنفسه أو ماله أو بهما، والحقيقة أنهم لا يستوون فى حكم الله وتقديره، والله لا يهدى القوم الظالمين فى أحكامهم وتقديرهم. وفى هذه الجملة تعريض بمن بقى من المشركين يفضل عمارة المسجد الحرام على ما ذكر مع إفادة أن المساواة بين مجرد سقى الحجاج وعمارة المسجد، وبين الجهاد فى سبيل الله الذى به إعلاء كلمة الله، ظلم فى

---

(١) وجاهد. (٢) الظالمين.
(٣) وجاهدوا. (٤) بأموالهم.
(٥) الفائزون. (٦) ورضوان.
(٧) وجنات. (٨) خالدين.
(٩) آباءكم. (١٠) وإخوانكم.
(١١) الإيمان. (١٢) الظالمون.
(١٣) آباؤكم. (١٤) وإخوانكم.
(١٥) وأزواجكم. (١٦) وأموال.
(١٧) وتجارة. (١٨) ومساكن.

الحكم، لأنه وضع للشيء في غير محله. ثم بيّن سبحانه الحكم الصحيح على أبلغ وجه فقال ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله﴾ من غيرهم ممن عمل صالحا غير عملهم، فضلا عمن لا عمل له من الخير إلا السقاية والعمارة، وهم المشركون الذين يظنون ذلك. وأولئك هم الفائزون بالنعيم الممتاز الذى بيّنه بعد ذلك بأنه نعيمان: أحدهما روحانى وهو أعلاهما، والآخر جسمانى، فقال: يبشرهم ربهم على لسان ملائكته عند الموت برحمة عظيمة خاصة بهم فوق الرحمة العامة الشاملة لكل مخلوق كما فى الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧، وبرضوان منه أكبر لا يخالطه ولايعقبه سخط؛ فالنعيم الروحانى قسمان: عطف وإحسان خاص، ورضا لا يقدر قدره أحد. والنعيم الجسمانى جنات تجرى من تحت غرفها الأنهار لهم فيها نعم من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين فوق نعيم مَنْ لم يعمل عملهم من السبق إلى الإيمان والهجرة والجهاد، انظر من الآية (١٠ إلى الآية ٢٦) من سورة الواقعة صفحتى (٧١٣، ٧١٤). مقيم أى لا يزول حال كونهم خالدين فى تلك الجنات أبدا، وكل هذا ليس بعيدا عليه تعالى، لأن له أجر عظيم لا يعرف قدره غيره سبحانه. ولما كانت علاقات القرابة والنسب وتشابك المصالح مازالت قائمة بين المؤمنين وبين بعض المشركين المقيمين حول مكة وفى أنحاء الجزيرة، وكان بعض المسلمين يجول فى نفسه النفور من قتالهم لظنه أنه أصبح آمنا من تفوقهم، ولرجاء إيمانهم كما تقدم، والله يعلم أنهم خبثاء لا يصلح معهم إرشاد. حذر المسلمين من اصطفاء أحد منهم فقال: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أصفياء تطلعونهم على أسرار أمتكم ما داموا يستحبون الكفر ويقدمونه على الإيمان بالله ورسوله، وبعد هذا التحذير فمن يتولهم منكم فهو الظالم لنفسه بتعريضها لغضب الله وسخطه. ثم هدد سبحانه بما هو أقوى فى منعهم فقال: قل لهم أيها النبى إن كان آباؤكم الذين تفاخرون بهم وتعتزون بالنسبة إليهم كما تقدم فى الآية (٢٠٠) من سورة البقرة صفحتى ٣٩، ٤٠ وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اكتسبتموها بمجهودكم فهى عزيزة عليكم وتجارة تخافون بوارها ومساكن ترضونها، إن كان كل هذا مما تركتموه وراءكم أحب إليكم من الله ورسوله إلخ.

وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ
لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ(١) ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ
كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ
شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم
مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ(٢) ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ
بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ
مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ(٣)
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ

المفردات: ﴿تربصوا﴾: انتظروا.

﴿يأتى الله بأمره﴾: أى بعذاب يأمر بإنزاله بكم.

﴿مواطن﴾: جمع موطن، والمراد به هنا المكان الذى وقعت فيه حرب.

﴿يوم حنين﴾: هو يوم السبت ١٦ من شوال من السنة الثامنة للهجرة عقب فتح مكة مباشرة.

﴿كثرتكم﴾: فكانوا اثنى عشر ألفا ١٢,٠٠٠، وهو عدد لم يبلغه جيش المسلمين قبل ذلك.

﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت﴾: الرحب السعة، والباء بمعنى مع. و(ما) تجعل ما بعدها مصدرا، فالمعنى ضاقت عليكم الأرض مع سعتها.

﴿أنزل الله سكينته﴾: السكينة اسم للحالة النفسية الحاصلة من طمأنينة القلب وعدم الاضطراب.

﴿نجس﴾: أصل النجس بالفتح مصدر نجس الشىء من باب تعب، فالشىء نجس بكسر الجيم، وأريد بالمصدر هنا الشخص النجس بالكسر مبالغة، ومعناه شرير خبيث النفس يضر من يتصل به. ﴿عامهم هذا﴾: هو سنة تسع هجرية.

﴿عيلة﴾: فقرًا.

المعنى: إذا كان واحد مما ذكر من الآباء وما بعدهم أحب إليكم من الله ورسوله ومن الجهاد فى سبيل الله فأنتم ضعاف الإيمان أو منافقون، ومن كان هذا شأنهم فلينتظروا ما

---

(١) الفاسقين.

(٢) الكافرين.

(٣) قاتلوا.

يأمر الله به لهم من العذاب والبعد عن هدايته، لأن الله لا يهدى القوم الخارجين عن طاعته المفضلين غيره عليه.

ثم أراد سبحانه أن يبين للمسلمين أن الخير ليس فى ولاية الأقرباء غير المسلمين بل فى طاعة الله، لأنه هو الذى يضر وينفع، فقال مخاطبا المؤمنين: ولقد نصركم الله فى مواطن كثيرة من مواطن القتال مع قلة عددكم وعدتكم كيوم بدر وخيبر والأحزاب وفتح مكة وقتال يهود قريظة والنضير إلى غير ذلك، وخص يوم حنين لما فيه من العبر الكثيرة فقال (ويوم حنين) أى واذكروا يوم حنين حين أعجبتكم كثرتكم وكانت الحرب فيه بين المسلمين وبين هوازن وثقيف وكان جيش الكفار نحو ثلاثين ألفا، وكان فى جيش المسلمين عشرة آلاف ممن جاءوا من المدينة لفتح مكة وألفان من أهل مكة الذين أسلموا حديثا، وكان فيهم ضعاف الإيمان الذين تسببوا فى الهزيمة أول الأمر، ولما رأى بعض المسلمين كثرة جيشه قال: لن نُغلب اليوم. فسمعها ﷺ فلم تعجبه، لأنها تدل على الغرور وعلى اعتماد الشخص على كثرة العدد، والغفلة عن الله سبحانه وقد كان ما خشيه ﷺ؛ فلما التقى الجمعان وهُزم المشركون سارع أهل مكة لجمع الغنائم وتركوا الحرب، فارتقى جنود المشركين أعلى الجبال من خلف المسلمين واشتدوا فى ضربهم، فذعر المسلمون واختلط الأمر، و أشيع أنه ﷺ قتل، ففر جيش المسلمين مسرعا فى الإدبار، وعند ذلك أنزل الله سكينته على رسوله وعلى نحو ثمانين (٨٠) من المؤمنين معه، وأنزل جنودا روحانية من الملائكة لم تشاهدوها بأعينكم ولكن وجدتم أثرها فى قلوبكم من الثبات بعد الانهزام، وسيأتى توضيح ذلك فى الآية (٤٠)، وقد بقى ﷺ راكبا بغلته كالطود الراسخ يقول مناديا (أنا النبى لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب). فسمعه بعض المسلمين فنادى فى المنهزمين أن رسول الله لم يصب بسوء، فرجعوا وسيوفهم تلمع كأنها الشهب، فظن المشركون أن هذا مدد جديد أدرك المسلمين، فوقع فى قلوبهم الرعب، فانهزموا وتركوا وراءهم نساءهم وأطفالهم وجميع أموالهم من إبل وبقر وغنم، وكان ذلك جزاء الكافرين فى الدنيا، ولهم فى الآخرة عذاب شديد. ثم يتوب الله من بعد ذلك على

مَنْ يشاء منهم، وهم الذين أيقظتهم الحوادث، وكشفت غشاوة قلوبهم من المؤمنين الفارين، والله كثير المغفرة لمن رجع إليه، رحيم لا يعجل العقوبة. ومن أراد تفصيل ما حدث فى هذه الغزوة وسبب انكسار المسلمين أولاً وانتصارهم ثانيا، والعبر الكثيرة فى ذلك، فليرجع إلى شرح حديث رقم ٤٠١ من كتابنا صفوة البخارى.

وبعد ما بيّن سبحانه ما كان من شأن المشركين مما تقدم فى الآية (١٧) المتقدمة صفحة ٢٤٢، وغيرها أمر بإبعادهم عن المسجد الحرام فقال:

يأيها الذين آمنوا إنما المشركون أشرار خبثاء، فلا تجعلوهم يقربون المسجد الحرام بعد عامهم هذا. ولما كان أهل مكة ينتفعون بكثرة الحجاج والمعتمرين، وكان المشركون يحجون ويعتمرون على طريقتهم المشوبة بالشرك، طمأن سبحانه أهل مكة بقوله ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ من الغنائم ولكثرة الحجاج من المسلمين وغير ذلك. وقوله (إن شاء) ليعلمنا أن نرجع كل الأمور إليه سبحانه ونقطع النظر عن غيره، إن الله عليم بالمخلص منكم، حكيم فيما يعطى ويمنع. وبعد أن فرغ سبحانه من الكلام على مشركى العرب أراد أن يطهر الجزيرة من أهل الكتاب أيضا إذا لم يستقيموا ويخضعوا لحكم الإسلام، وهذا تمهيد للكلام فى غزوة تبوك مع الروم وهم أهل كتاب وما فيها من فضيحة المنافقين كما سيأتى، فقال:

﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون﴾ إلخ؛ أى قاتلوا من اجتمعت فيهم أربع صفات سلبية هى سبب عداوتهم للإسلام: الأولى: أنهم لا يؤمنون بالله على الوجه الحق لأنهم عددوه، فبعض اليهود قال العزيز ابن الله، والنصارى جعلوا المسيح إلها أو ابنا له، والجميع اتخذوا من أحبارهم ورهبانهم أربابًا لهم كما سيأتى والثانية عدم إيمانهم باليوم الآخر على الوجه الصحيح لأنهم يقولون إن الحياة فيه روحية فقط يكون الناس فيها كالملائكة، والصحيح أن الإنسان فيها هو الإنسان بجسمه وروحه، ويقول اليهود لن تمسنا النار إلا أياما معدودة كما فى الآية (٨٠) من سورة البقرة صفحتى ١٥، ١٦، إلى غير ذلك ما يضعف قيمة الإيمان باليوم الآخر، انظر الآية (١٦٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٠، ولا يحرمون أى يحلون ما حرم الله..

مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ[1] حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ
صَـٰغِرُونَ[2] ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ
ٱلنَّصَـٰرَى[3] ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ[4] ۖ
يُضَـٰهِـُٔونَ[5] قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ[6] ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ
يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ[7] أَرْبَابًا مِّن
دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟
إِلَـٰهًا وَٰحِدًا[8] ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ[9] عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾
يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟[10] نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ[11] وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن
يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ[12] ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ
رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ
وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ

المفردات: ﴿الذين أوتوا الكتاب﴾: هم اليهود والنصارى ومن فى حكمهم كالصابئين المتقدم ذكرهم فى الآية (٦٢) من سورة البقرة صفحتى ١٢، ١٣، والمراد بالكتاب جنسه فيشمل التوراة والإنجيل والزبور وغيرها.

﴿الجزية﴾: هى مقدار من المال يدفعه الكتابى على قدر طاقته مجازاة عن تكفل الدولة بحماية نفسه وماله وعرضه ودينه، وألا يكلف بحرب إلا إذا تطوع.

﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾: ﴿عن يد﴾ تطلق اليد على القدرة فيقال ليس لى بكذا يد، أى لا أقدر عليه، فالمراد ألا يرهق بما يشق عليه.

﴿وهم صاغرون﴾: أى خاضعون لحكم الدولة غير متمردين. وقيل فى المنار عند هذه الآية: اليد السعة والقدرة، فلا يظلمون ولا يرهقون، فهذا القيد لصالحهم، والقيد الثانى لصالح المؤمنين، وذلك بخضوعهم لسيادة المسلمين، وبهذا يكون قد مهد السبيل لهدايتهم للإسلام.

---

(١) الكتاب
(٢) صاغرون.
(٣) النصارى.
(٤) بأفواههم.
(٥) يضاهئون.
(٦) قاتلهم.
(٧) ورهبانهم.
(٨) واحدا.
(٩) سبحانه.
(١٠) يطفئوا.
(١١) بأفواههم.
(١٢) الكافرون.

بما يرونه من عدلهم، وفضائلهم، التى يشاهدونها فى معاملتهم، ويدركون أنها أقرب إلى هداية أنبيائهم، كأنه يقول: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليو م الآخر.. إلى أن قال: ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب، أى قاتلوا من ذكر عند وجود مقتضى القتال، كاعتداء عليكم، ومساعدة عدوكم، وتهديد أمنكم بأى صورة من الصورة، حتى تأمنوا عدوانهم.. بخضوعهم لدولتكم، ودفع الجزية، لتكون مقابل ما يدفعه المسلم من الزكاة، ليصرف من الجميع فى مصالح الدولة.

﴿عزير﴾: من يسميه أهل الكتاب عزرا.

﴿بأفواههم﴾: أى قولا وكلاما لا يتعدى الفم إلى العقل، لأنه باطل لا يستند إلى دليل، انظر الآية (٥) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠، والآية (٤) من سورة الأحزاب صفحة ٥٤٩.

﴿يضاهئون﴾: يشابهون ويحاكون به. ﴿أنى﴾: أى كيف.

﴿يؤفكون﴾: يصرفون عن الحق. ﴿ أحبارهم﴾: جمع حبر بفتح الحاء وكسرها وهو العالم من أهل الكتاب.

﴿رهبانهم﴾: جمع راهب، وأصله عند النصارى المنقطع للعبادة، والمراد به هنا ما يشمل المتعبد عند الجميع. ﴿نور الله﴾: المراد به القرآن وما فيه من الهداية، انظر الآية (١٦٢) من سورة النساء صفحتى(١٣٠، ١٣١، والآية (٨) من سورة التغابن صفحة ٧٤٦.

﴿يظهره﴾: يعليه بقوة البرهان ووضوح تعاليمه وموافقته للعقول السليمة ولمصلحة الناس كافة، انظر ما تقدم فى شرح الآية (١٩٣) من سورة البقرة صفحتى ٣٧، ٣٨

المعنى: قاتلوا الذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله فأكلوا السحت والربا ولحم الخنزير، وقاتل بعضهم بعضا كما فى الآية (٨٤) من سورة البقرة صفحة ١٦، وانظر آيتى (٦٢، ٦٣) من سورة المائدة صفحة ١٤٩، ولا يتدينون بدين الحق الذى فى كتبهم بل حرفوه وبدلوه. ثم بَيّن سبحانه هؤلاء الذين جمعوا بين كل هذه الجرائم فقال: ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾: فقاتلوهم عند وجود مقتض للقتال كإظهار العداوة لكم والاتصال بعدوكم أو فعل أى شىء مما يهدد

أمنكم حتى يعطوا الجزية كل بحسب قدرته وهم خاضعون لحكمكم ومحافظون على نظام دولتكم. ثم بَيّن سبحانه بعض ما تقدم مجملا فقال: وقالت اليهود أى بعضهم عزير ابن الله، ويقال إن هؤلاء قد انقرضوا وقالت النصارى المسيح ابن الله، ذلك القول الذى قالوه عن العزير والمسيح قول صادر من الفم فقط ليس له فى الوجود حقيقة، إن هو إلا محض افتراء يضاهئون به قول الكفار قبلهم من مشركى العرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله، سبحانه عما يصفون انظر شرح الآية (١١٦) من سورة البقرة صفحة ٢٣، وبراهمة الهند والبوذيون والصينيون الذين يقولون بحلول الإله فى بعض المخلوقات سبحان ربنا عما يصفون. فالمراد تسفيه الكتابيين بأن عقيدتهم تسربت إليهم من المشركين قبلهم، فهم لهذا يستحقون أن يدعى عليهم بالهلاك، و يقال فيهم قاتلهم الله، كيف يصرفون أنفسهم عن معرفة الحق الواضح.. ثم أراد سبحانه أن يبين شيئا من هذه المضاهاة فقال: اتخذوا رجال دينهم وعبادهم أربابا أى أنزلوهم منزلة الرب فى تحليل الحرام وتحريم الحلال؛ ورد فى الحديث الصحيح أن بعض من أسلم من أهل الكتاب لما سمع هذه الآية قال يا رسول الله ما كنا نجعلهم أربابًا، فقال ﷺ: أليسوا كانوا يحرمون لكم ويحلون وتتبعونهم؟ قال: نعم.فقال ﷺ: هو ذاك؛ لأن هذا لا يكون إلا من الرب سبحانه. وقد اتخذ النصارى فوق ذلك المسيح بن مريم ربًا لهم حيث جعلوه ابن الرب سبحان ربنا عما يشركون، والحال أنهم جميعا ما أمروا فى كتبهم وعلى لسان رسلهم إلا ليعبدوا الله إلها واحدا، لأنه لا إله إلا هو سبحانه، أى تنزيها له تعالى عن شركهم له غيره فى الألوهية والربوبية يريد هؤلاء الكتابيون أن يطفئوا نور الله الذى أفاضه على الخلق فأصبح ساطعا كالشمس بأفواههم الهزيلة، والكلام تسفيه لقولهم وإظهار لطيشهم بمظهر من يظن أن ضوء الشمس فى علاها كضوء فتيلة الزيت يطفئه نفس الطفل الخافت. أى فهى محاولة فاشلة، لأن الله لا يريد إلا أن يتم نوره ببعثه خاتم النبيين والرسل إلى الخلق أجمعين ولو كره الكافرون. ثم أراد سبحانه أن يبين كيف يتم نوره فقال هو الذى أرسل رسوله محمدًا بالهدى الأكمل ودين الحق الثابت الذى لا ينسخه دين بعده، بجعله مستعليا على كل دين، لما فيه من حجج قاطعة وعلم صحيح، ووضوح عقائده، ولموافقة شرعه لمصالح الناس كافة، ولو كره المشركون هذا التفوق.

كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ(١) ٱلنَّاسِ
بِٱلْبَٰطِلِ(٢) وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ
ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ
بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ
لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ
عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ(٣) ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ(٤) وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ
فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟(٥) ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا
يُقَٰتِلُونَكُمْ(٦) كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾
إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟(٧) عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ

المفردات: ﴿فى كتاب الله﴾: فيما كتبه وقدره فى الأزل.

﴿أربعة حرم﴾: مفردها حرام كسحب مفردها سحاب، وسميت بذلك لأن الله حرم فيها القتال على لسان إبراهيم وإسماعيل.

﴿القيم﴾: المستقيم.

﴿النسىء﴾: مصدر كالحريق والصهيل، من نسأ الشىء نسأ أى أخّره، والمراد هنا تأخير حرمة شهر إلى أخر.

﴿ليواطئوا﴾: ليوافقوا.

﴿عدة ما حرم﴾: أى عدد الشهور المحرمة بقطع النظر عن تعيينها.

المعنى: بعد أن بين سبحانه سوء حال اتباع الأحبار والرهبان فى اتخاذهم لهم أربابا، أراد أن يبين بعضا من حال هؤلاء الأحبار والرهبان فى تضليلهم لأتباعهم، ليحذر المؤمنين من الوقوع فيما وقعوا فيه فقال مؤكدا ما حصل منهم: ﴿يأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾ من السحت والرشاوى لتخفيف أحكام التوراة كما تقدمت الإشارة إليه فى الآية (٩١) من سورة الأنعام صفحة ١٧٧، والآية (١٦٩) من سورة

---

(١) أموال.
(٢) بالباطل.
(٣) كتاب.
(٤) السموات.
(٥) قاتلوا..
(٦) يقاتلونكم.
(٧) ليواطئوا.

الأعراف صفحة ٢٢٠، ومن استحلالهم أموال غير اليهود كما فى الآية (٧٥) من سورة آل عمران صفحتى ٧٤، ٧٥، وما يأخذ رجال الكنيسة ليغفروا الذنوب ويدخلوا الجنة، إلى غير ذلك، والمراد بالأكل مطلق الأخذ كما تقدم مكررا فى أول سورة النساء صفحة ٩٧ ويصدون الناس عن سبيل الله ودينه الحق الموصل إلى الجنة محافظة على رئاستهم. ثم حذر المسلمين من المبالغة فى حب المال حتى لا يكونوا مثلهم فقال:

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ بمنع حقوق الله فيهما وحقوق الفقراء، ولذا قال ﴿ولا ينفقونها فى سبيل الله﴾ وهو طريق الخير للمسلمين ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ يلاقيهم يوم يحمى على هذه الأموال فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم أى محيطة بهم من كل جانب، ويقال لهم إن هذا الذى تكوون به هو ما كنزتموه ولم تعطوا منه حقوق الله والناس، فذوقوا اليوم وبال كنزكم. وعبّر عن الخبر السيئ بالتبشير وهو لا يكون إلا بخير للسخرية بهم كما تقدم مرارا، وتخصيص الذهب والفضة بالذكر لأنهما الغالبان فى أساس المعاملة فى ذلك الوقت لا لخصوصهما وذاتهما، فالمراد كل ما يعتبره الناس أساس تعامل بينهم، والله قادر على أن يجعل غير الذهب أشد فى الإحراق منه، هذا إذا لم نقل إن الكلام كناية عما سينال الذين يكنزون الأموال ولا ينفقونها فى سبيل الله من العذاب الشديد فى الآخرة. ثم رجع سبحانه إلى الكلام عن أحوال المشركين وما يطلب فى معاملتهم بعد الفتح، بعد أن ذكر شيئا من أعمال أهل الكتاب التى اشتركوا فيها مع المشركين.

فقال: ﴿إن عدة الشهور.. ﴾ الخ، المراد أن عدد شهور السنة اثنا عشر شهرا فيما قدره الله لنظام خلقه ليعملوا به فى عباداتهم كالحج والصوم، ومعاملاتهم كالإجارة والبيع، انظر الآية (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦. وهذه الأشهر الاثنا عشر كتبها الله وقدرها على هذا النظام من يوم أن خلق السموات والأرض وجعل منها على لسان نبيه ابراهيم عليه السلام أربعة أشهر يحرم القتال فيها، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وكانت العرب تحترم ذلك التحريم حتى أن الرجل منهم يلقى قاتل أبيه فيها فلا يمسه بسوء، إلى أن

تلاعب بعض رؤسائهم كما سيأتى. وذلك التحريم لهذه الأشهر الأربعة هو دين الله المستقيم الذى لا عوج فيه، فلا تظلموا أنفسكم فى هذه الأشهر بانتهاك حرمتها والقتال فيها، وقاتلوا المشركين جميعا كما يقاتلونكم جميعا، واعلموا أن الله مع المتقين لما يغضبه، معهم بنصره وتأييده. ثم بَيّن الله بعض جرائم المشركين فى هذا الموضوع فقال:

إنما النسىء الذى يفعله مشركو العرب كفر يضاف إلى كفرهم الأساسى؛ لأن تحليل ما حرم الله كفر كما أن شركهم به تعالى كفر. وبيان ذلك أن العرب، كانوا لا ينقطعون عن الغزو والحرب فينهب القادر منهم الضعيف، فإذا ما اشتبكت قبيلتان فى حرب ودخل شهر من هذه الأشهر الأربعة، أو طال عليهم انتظار الشهر الحلال وخاصة فى مدة الثلاثة شهور الحرم المتوالية، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، فإن القوى منهم يعلن فى قومه أنه أحل لهم شهر المحرم مثلا، وينقل حرمته إلى شهر صفر، فإذا جاء العام التالى ووجد أن الحالة تستدعى القتال فى صفر فإنه ينقل التحريم إلى شهر ربيع وهكذا، وكان أول من فعل ذلك زعيم منهم يسمى (القلمس) بفتح القاف واللام وتشديد وفتح الميم. فهذا النسىء يضل به زعماء المشركين أتباعهم حيث يوهمونهم أن الله أجاز لهم حق نقل الحرمة من شهر إلى آخر، فكانوا إذا أحلوا شهرا حرموا الآخر مكتفين بأنهم وافقوا عدد الأشهر التى حرم الله القتال فيها.

ولكن هذا تضليل منهم، لأن الله حرم أشهرا معينة فطاعته تقتضى المحافظة على الحرمة، وعلى الأشهر التى عينها سبحانه على لسان أنبيائه إبراهيم وإسماعيل ومحمد عليهم السلام فمثلهم فى باطلهم كمثل من يصوم بدل شهر رمضان شهر شوال مثلا، فإذا ما سئل يقول إن الله أوجب علىَّ صوم شهر وقد صمته مع أن الله أوجب عليه صيام شهر معين لا مطلق شهر، فالتلاعب به كفر صريح.

المفردات: ﴿مالكم﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والخطاب للمسلمين.

﴿أنفروا﴾: أسرعوا فى الذهاب إلى ما يرضى الله.

﴿اثاقلتم﴾: أصلها تثاقلتم أى تباطأتم.

يُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ(١) وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٢) ﴿٣٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ
إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ
أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ(٣) الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ(٤) الْحَيَاةِ(٥)
الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا
وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ
إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ
إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ(٦) لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ
سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا(٧) بِأَمْوَالِكُمْ(٨)

﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾: قال القرطبى (من الآخرة) أى بدلا من نعيم الآخرة، فمن تتضمن معنى البدلية كما فى الآية (٦٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٣.

﴿إلا تنفروا﴾: أصلها إن لا تنفروا، وكذلك (إلا تنصروه).

﴿أخرجه الذين كفروا﴾: تسببوا فى إذن الله له بالخروج.

﴿ثانى اثنين﴾: واحد من اثنين.

﴿فى الغار﴾: هو فجوة فى أعلى جبل ثور على مسافة ساعة من مكة.

﴿لصاحبه﴾: هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿سكينته﴾: تقدم بيانها فى الآية (٢٦) من هذه السورة صفحة ٢٤٤، وستأتى فى الآية (٤) من سورة الفتح صفحة ٦٧٨.

﴿بجنود لم تروها﴾: هم الملائكة، وقد تقدم أن للملائكة تأييدا روحانيا باتصالها بنفس المؤمن، كاتصال الشيطان ووسوسته فى نفس الفاسق بدون أن يراه، انظر الآية (٢٧) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٥، ١٩٦ والآية (٣١) من سورة المدثر صفحتى ٧٧٦، ٧٧٧.

---

(١) أعمالهم.
(٢) الكافرين.
(٣) بالحياة.
(٤) متاع.
(٥) الحياة.
(٦) لصاحبه.
(٧) وجاهدوا.
(٨) بأموالكم.

﴿خفافا﴾: جمع خفيف، وتكون الخفة بسبب الصحة والنحافة والشباب والنشاط وعدم الشواغل.

﴿ثقالا﴾: جمع ثقيل، ويكون الثقل بسبب مرض أو سمن أو كبر أو كسل أو شواغل.

﴿كلمة الذين كفروا﴾: هى كلمتهم التى اتفقوا فيها على قتله ﷺ، وكانوا مجتمعين فى دار الندوة فنجاه الله سبحانه من كيدهم، انظر الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١

﴿وكلمة الله﴾: هى كلمته التى وعد فيها أنبياءه بالنصر، انظر الآية (١١٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٨١، ١٨٢، والآية (٥١) من سورة غافر صفحة ٦٢٤.

المعنى: فهم لم يحافظوا إلا على العدد، ولكن أهملوا عين الأشهر المحرمة فأحلوا ما حرم الله، أى وحرموا ما أحل، وقد زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فظنوا القبيح منها حسنا، والله لا يهدى الكافرين الذين اتبعوا تزيين الشيطان، انظر الآية (٩) من سورة يونس صفحة ٢٢٦، وما تقدم فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. وبعد أن أمر سبحانه بتطهير جزيرة العرب من المشركين وأذنابهم، أراد أن يؤمن المسلمين من غدر جيرانهم نصارى الروم ومَنْ قد ينضم إليهم ممن هم تحت سلطان المسلمين من نصارى العرب وكذا يؤمنهم شر المنافقين وهم أخبث خلق الله. ومن تحت سلطانهم مَنْ نصارى العرب، وكان نصارى الروم قد شرعوا فى إعداد جيْش لمهاجمته ﷺ فى المدينة، وقد علم بذلك الرسول ﷺ من تجار قادمين من الشام، فعزم على مهاجمتهم فى دارهم قبل أن يهاجموه فى داره، فأمر بالاستعداد لسفر طويل، وكان ذلك فى رجب عام ٩ هجرية، وكان الحر شديدا، والمسلمون فى عسرة من الزاد والركائب، وبعد أن سار ﷺ وصل الخبر للروم، فخافوا وأرسلوا وفدا لمصالحته فلقيه فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق فى مكان يقال له (تبوك) بفتح التاء وضم الباء مخففة، وصالحوه على أن يدفعوا له الجزية، فرجع ﷺ بعد أن مكث فى تبوك بضع عشرة ليلة، وتسمى هذه الغزوة غزوة تبوك أو غزوة العسرة، لما سيأتى فى الآية (١١٧) من هذه السورة

صفحة ٢٦٢ مما سبقت إليه الإشارة، وكانت هذه الغزوة سببا فى تطهير المسلمين من أخطر عدو بين جنبيهم وهم المنافقون فقد فضحهم الله فى هذه السورة بما لم يسبق مثله، فمازال يقول حتى كشف سترهم وستر أخبث رجالهم، ونزل فى شأن هذه الغزوة من أول الآية (٣٨) حتى آخر السورة.. ولتسهيل فهم ما يأتى يحسن أن تعلم أن المسلمين كانوا بالنسبة لهذه الغزوة على أربعة أقسام:

القادرون على الغزو وعدته وسارعوا إلى إجابته ﷺ، وهؤلاء أكثر الصحابة ونزلت فيهم الآيات (٤٤، ٨٨، ١٠٠، ١١١، ١١٢، ١١٧) من هذه السورة صفحات ٢٤٨، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٢. والقسم الثانى: وهؤلاء هم القادرون كسابقهم ولكنهم تثاقلوا أولاً بتأثير المنافقين، ولكن أدركهم لطف الله فأسرعوا بالسفر، ومما نزل فيهم آيتا (٣٨، ١١٧) هنا وصفحة ٢٦٢. القسم الثالث: وهم العاجزون عن السفر أو عن عدته، ونزلت فيهم آيتا (٩١، ٩٢) صفحة ٢٥٧. القسم الرابع: وهم المتخلفون مع القدرة من كل وجه وهم أربعة أنواع: الأول من تخلف كسلا ولم يعتذر للنبى ﷺ قبل السفر، ولما رجع ﷺ وسأله اعترف بخطئه ونزل فيهم آيتا (١٠٦، ١١٨) صفحتا ٢٦٠، ٢٦٢. والنوع الثانى من استأذن قبل السفر واعتذر بأعذار باطلة فأذن لهم الرسول وهو لا يعلم حقيقتهم، وهؤلاء هم عبدالله بن أبى بن سلول رأس المنافقين وجماعة من قومه، ونزل فيهم كثير من آيات السورة من أول الآية (٤٢) وما بعدها ونزل فيهم أثناء السفر قبل رجوعه ﷺ إلى المدينة آيات (٨٣، ٩٤، ٩٥) صفحات ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٨. والثالث بقية منافقى المدينة والمنافقين من الأعراب المقيمون حول المدينة وهؤلاء تخلفوا بدون عذر، ولما رجع ﷺ اعتذروا بأعذار كاذبة، فصدقهم وقبل أعذارهم. ونزل فيهم الآية (١٢٠) من هذه السورة صفحة ٢٦٣. والرابع المنافقون الذين سافروا معه ﷺ تورطا وهؤلاء هموا بارتكاب أبشع جريمة، ونزل فيهم الآية (٧٤) من هذه السورة صفحة ٢٥٤. ومَنْ أراد تفصيل ما حدث فليرجع إلى مقدمة شرح حديثى (٤٩٤، ٤٩٥) من كتابنا صفوة البخارى.

والمعنى : أى شىء حصل لكم أيها المسلمون حتى ملتم إلى راحة الأرض ونعيمها وتباطأتم عن نصرة الله عندما قال لكم النبى انفروا فى سبيل الله؟ هل رضيتم براحة الدنيا ولذاتها الزائلة بدلا عن نعيم الآخرة الباقى؟ إن كان الأمر كذلك فقد استبدلتم الأدنى بالأعلى، لأن متاع الدنيا إذا قيس بمتاع الآخرة قليل جدا، حتى يكاد أن يكون لا شىء فإن لم تنفروا للجهاد عندما يطلب منكم الرسول ذلك فإن الله يعذبكم عذابا أليما، ويستبدل بكم قوما غيركم أحسن منكم، ولا تضروه بامتناعكم شيئا لأنه على كل شىء قدير، فإن لم تنصروا الرسول على أعداء الحق فسينصره الله بقدرته وتأييده كما نصره حين تسبب الكافرون فى إخراجه من مكة، انظر بيان ذلك فى الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، حال كونه ﷺ أحد رجلين حين كانا فى الغار ورأى صاحبه أقدام الكفارعند باب الغار، فقال له ﷺ:

لا تحزن لأن الله معنا بنصره وحمايته، فأنزل الله الطمأنينة والأمن على رسوله، فشملت صاحبه، وأيده الله بجنود من عنده سبحانه لم تروها يا من كنتم تطاردونه، وجعل سبحانه بنجاة رسوله كلمة الذين كفروا التى أجمعوا فيها على قتله، جعل كلمتهم هى السفلى حيث أحبطها وأرجعهم خائبين، والحال أن كلمة الله وهى وعده رسله بالنصر وإعلاء كلمة التوحيد هى العليا، أى الغالبة، والله عزيز غالب حكيم لا ينصر إلا المؤمنين. ثم جدد سبحانه الأمر بالجهاد بعد التوبيخ على تركه فقال: انفروا إذا دعيتم للجهاد على أى حال كنتم عليها من صحة أو مرض أو غنى أو فقر... إلخ، وجاهدوا بأموالكم.

المفردات: ﴿عرضا﴾: ما يعرض للإنسان من متاع الدنيا، انظر الآية (١٦٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٠.

﴿قاصدا﴾: معتدلا بلا مشقة.

﴿الشقة﴾: المسافة التى تقطع بمشقة. ﴿عفا الله عنك﴾: أى تجاوز عن مؤاخذتك على اجتهادك، فهى كلمة عتاب رقيقة.

﴿انبعاثهم﴾: الانبعاث هو التوجه إلى الشىء بنشاط.

﴿فثبطهم﴾: التثبيط التعويق عن الشىء وإقامة العراقيل فى سبيله..

وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم
تعلمون ﴿٤١﴾ لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا
لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله
لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم
إنهم لكاذبون[1] ﴿٤٢﴾ عفا الله عنك لم أذنت لهم
حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين[2] ﴿٤٣﴾
لا يستأذنك[3] الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن
يجاهدوا[4] بأموالهم[5] وأنفسهم والله عليم بالمتقين ﴿٤٤﴾
إنما يستأذنك[6] الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر
وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴿٤٥﴾
* ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله
انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين[7] ﴿٤٦﴾

المعنى: جاهدوا أيها المؤمنون بأنفسكم في سبيل الله فذلكم خير لكم في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون ما ينفعكم. ثم تكلم سبحانه عن بعض من تخلف من المنافقين فقال: (لو كان عرضا...) إلخ، أي لو كان ما تدعو إليه أيها النبي متاعا للنفس قريب المنال لا مشقة في الحصول عليه أو سفرا قريبا لاتبعوك، ولكن بعدت عليهم المسافة الشاقة، وسيحلف لك هؤلاء المنافقون بعد رجوعك قائلين: لو استطعنا من جهة الصحة أو العدة لخرجنا معكم، يهلكون أنفسهم بوقوعهم في جرمين كبيرين: الجرم الأول حلفهم بالله كذبا، والثاني تخلفهم عن نصرة رسو ل الله، ففضحهم الله وشهّر بهم. والله يعلم أنهم لكاذبون في قولهم إنهم لو استطاعوا لخرجوا. ولما كان ﷺ قد صدقهم وأذن لهم كما تقدم عاتبه سبحانه بقوله: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ أي لأي شيء أذنت لهم؟ وهلا تريثت بالإذن حتى يتبين لك الصادقون في الاعتذار من الكاذبين فيه؟ وذلك لأن الكاذبين لن يخرجوا سواء أذنت أم لم تأذن لهم، فكان ينبغي عليك أن تتنبه إلى أن استئذانهم مع الحالة التي هم عليها من صحتهم وغناهم إنما هو دليل نفاقهم لأنه لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر في أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم إن قدروا عليهما أو بأحدهما، والله عليم بالذين يتقون غضبه فيجازيهم أحسن الجزاء. ﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ والحال أن الباعث لهم على ذلك أن الشك تمكن من قلوبهم، فهم يترددون أيذهبون أم يرجعون، فهم في شكهم مذبذبون ولا يخرجون منه إلى اليقين أبدا لتمكن مرض النفاق من قلوبهم.

(١) لكاذبون. (٢) الكاذبين. (٣) يستأذنك. (٤) يجاهدوا.
(٥) بأموالهم. (٦) يستأذنك. (٧) القاعدين.

لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ[1]
يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ[2] لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ[3] ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ
الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ[4] ﴿٤٨﴾
وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ[5] ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ
تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن
قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ
اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا[6] ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾
قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ
بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ
فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا

ولو أرادوا الخروج عن صدق نية لأعدوا له عدة كاملة من زاد وراحلة وكل ما يحتاج إليه المجاهد ولكن لحكمة ستأتى بعد ذلك كره الله انبعاثهم فثبطهم وسلط عليهم الشيطان يقول لهم بوسوسته اقعدوا مع القاعدين.

المفردات: ﴿خبالا﴾: هو مرض يؤثر فى العقل والتفكير.

﴿ولأوضعوا﴾: أصل الإيضاع نوع من سير الإبل فوق المعتاد، والمراد هنا أسرعوا ولم يتمهلوا.

﴿خلالكم﴾: جمع خلل بوزن جبل وجبال، و أصله الفجوة بين الشيئين، والمراد هنا أسرعوا فى الدخول فيما بينكم لتفريق كلمتكم.

﴿يبغونكم الفتنة﴾: أى يطلبون لكم الفتنة قال الراغب: أصل معنى الفتنة إدخال الذهب فى النار لتظهر جودته من رداءته.. واستعمل فى إدخال الإنسان النار قال تعالى: ﴿يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم﴾ أى عذابكم. وتارة تستعمل الفتنة فى العمل الذى يستوجب العذاب ومنه ﴿ألا فى الفتنة سقطوا﴾ ومنه قوله تعالى ﴿فتنتم أنفسكم﴾ أى أوقعتموها فى بلية وعذاب وقوله ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾. والمراد هنا يبغونكم الفتنة أى البلية والعذاب.

---

(١) خلالكم.
(٢) سماعون.
(٣) بالظالمين.
(٤) كارهون.
(٥) بالكافرين.
(٦) مولانا.

﴿وقلبوا لك الأمور﴾: أى قلبوا آراءهم على كل وجه ليختاروا ما فيه ضرك.

﴿جاء الحق﴾: هو النصر الذى وعد به الله.

﴿وظهر أمر الله﴾: أى غلب دينه وعلا شرعه بدخول الناس فيه أفواجا.

﴿ولا تفتنى﴾: أى توقعنى فى الفتنة قالها بعضهم لما علم أن السفر سيكون لبلاد الروم، يريد أنى قد أفتتن بجمال نساء الروم فأقع فى المعصية.

﴿فى الفتنة سقطوا﴾: أى وقعوا فى المعصية العظمى وهى النفاق.

﴿قد أخذنا أمرنا من قبل﴾: أى احترسنا وابتعدنا عن الخطر.

﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾: الأصل فى الشدائد أن يقال: كتب عليه، كما قال سبحانه ﴿لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ الآية ١٥٤ من سورة آل عمران صفحة ٨٨، وما فى الآية (٧٧) من سورة النساء صفحتى ١١٢، ١١٤ وفى الخير أن يقال: كتب له، قال تعالى: ﴿واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة﴾ الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧ ولكنه سبحانه هنا نبه المؤمنين إلى أن يغيظوا المنافقين بأن يقولوا لهم: كل ما يصيبنا من ربنا فنحن نعده نعمة يخفف بها عنا ذنوبنا أو يرفع بها درجاتنا عنده، وبذلك لا تكون نقمة كالذين يحصل لكم.

﴿هل تربصون﴾: أى تنتظرون.

﴿إحدى الحسنيين﴾: هما النصر والغنيمة أو الاستشهاد فى سبيل الله.

﴿من عنده﴾: كالصيحة والصاعقة مما حل بمَنْ قبلكم.

﴿أو بأيدينا﴾: أى بقتلكم وأسركم.

المعنى: بين سبحانه حكمة كراهة انبعاثهم بقوله ﴿لو خرجوا فيكم إلخ﴾؛ أى لو خرج هؤلاء المنافقون المستأذنون فى جماعتكم أيها المؤمنون مازادوكم شيئا إلا شرًا واضطرابا وضعفا فى القتال إذا قاتلتم وخللا فى النظام، حال كونهم بعملهم هذا يطلبون لكم الفتنة بتخويفكم

من العدو، والحال أن فيكم أناسا ضعاف العقول والعزيمة يسمعون كثيرا لدسهم، والله عليم بالظالمين منهم وبما هم مستعدون له، وسيجازيهم. وعزتى لقد طلب هؤلاء فتنتكم من قبل هذه الغزوة كما سبق فى غزوة أحد، انظر الآية (١٢٢) من سورة آل عمران صفحة ٨٣. وقد قلبوا الأمور على كل وجه، وأعملوا فكرهم ليؤذوك ويبطلوا دعوتك حتى جاء الحق الذى وعدك به الله من نصرك وإعلاء كلمته، وظهر أمر الله وعلا شرعه بفتح مكة وكثرة الداخلين فى الإسلام.

ثم أخذ سبحانه فى بيان نوع آخر من المنافقين فقال: ومنهم فريق يقول ائذن لى فى القعود يا رسول الله ولا توقعنى فى الفتنة أى المعصية، وذلك أن بعض هؤلاء ادعى أنه إذا رأى جمال نساء الروم لا يضبط نفسه، وبعضهم أدعى أن له أطفالا يخشى إذا تركهم أن يصبح قلبه موزعا وفكره مشتتا فيقصر فى القتال. فرد الله عليهم بقوله ألا إنهم بعملهم هذا قد عصوا وسقطوا فى هاوية الهلاك، وإن نار جهنم لمحيطة بهم فى الآخرة لكفرهم.

ثم بيَّن سبحانه حالة خبيثة من حالاتهم فقال: إن تصبك أيها النبى حسنة كنصر أو غنيمة تسؤهم وإن تصبك مصيبة كما وقع فى غزوة أحد يقولوا قد تنبهنا للأمر وأخذنا عدتنا بالحذر من قبل الوقوع فى هذه المصيبة وينصرفون عن مكان اجتماعهم الذى تجمعوا فيه بهذا القول إلى بيوتهم وهم شديدو الفرح لما أصابكم. وليس هناك عدو أقسى منهم. فيأيها النبى قل لهم لن يصيبنا إلا ماكتبه الله لنا وقدره علينا حسب حكمته، وهو وحده متولى أمورنا ونحن عبيده راضون بما يفعل فينا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون حقا، فلا يجزعون لما يصيبهم. وقل لهم أيضا ماذا تنتظرون لنا من الشر بينما ليس هناك شىء يمكن انتظاره لنا إلا واحدة من نهايتين حسنتين: إما النصر والغنيمة، وإما الاستشهاد فى سبيل الله الذى وراءه نعيم ليس بعده نعيم. ولكن نحن ننتظر لكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده يمحقكم كما حل بعصاة الأمم السابقة، أو بعذاب بأيدينا من أسر وقتل؛ وما دام الأمر كذلك فانتظروا إنا معكم منتظرون. ثم بيَّن سبحانه بعضا مما سيلاقيهم مما سيحزنهم حزنا شديدا فقال: قل لهم أيضا: أنفقوا ما شئتم فى الجهاد و فى الزكاة طائعين لتستروا نفاقكم.

أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ[1] ﴿٥٣﴾
وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ[2] إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ
وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ[3] إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ
إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ[4] ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ[5] وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ[6]
إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ[7] ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ
وَهُمْ كَٰفِرُونَ[8] ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم
مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا
أَوْ مَغَٰرَٰتٍ[9] أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾
وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ[10] فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟
وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ
رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ[11] ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا
ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ[12] ﴿٥٩﴾

المفردات: ﴿تزهق أنفسهم﴾: أصل الزهوق الخروج بصعوبة.

والمراد هنا الموت تعذيب كما في الآية (٥٠) من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٤، ٢٣٥.

﴿يفرقون﴾: أى يخافون خوفا شديدًا.

﴿ملجأ﴾: حصنا يلجئون إليه.

﴿أو مغارات﴾: جمع مغارة وهى مكان فى داخل جبل، وتسمى غارًا.

﴿أو مدخلا﴾: أى سربا فى الأرض يدخله الإنسان بمشقة كجحر الثعلب..

﴿يجمحون﴾: أى يسرعون فى اضطراب، مأخوذ من جموح الدابة..

﴿يلمزك فى الصدقات﴾: أى يعيبك فى توزيع الصدقات.

---

(١) فاسقين.
(٢) نفقاتهم.
(٣) الصلاة.
(٤) كارهون.
(٥) أموالهم.
(٦) أولادهم.
(٧) الحياة.
(٨) كافرون.
(٩) مغارات.
(١٠) الصدقات.
(١١) آتاهم.
(١٢) راغبون.

المعنى: وأنفقوا كارهين خوف عقوبة الرسول لكم إذا امتنعتم، فمهما أنفقتم فى الحالين فلن يقبل منكم ما أنفقتموه مادمتم خارجين عن الإيمان وما منعهم من قبول نفقاتهم شىء إلا كفرهم بالله ورسوله، وعدم إتيان الصلاة إلا فى حال كسلهم وعدم إنفاقهم إلا وهم كارهون لهذا الإنفاق فى سرائرهم، وإن كانوا فى الظاهر يوهمون أنهم راضون. وإذا كان هذا حالهم فى تخلفهم عن الجهاد حفظا لأنفسهم ولأولادهم من القتل فيه، ولأموالهم من أن تصرف فيما لا يريدون. فلا تعجبك أيها السامع أموالهم التى تعبوا فى جمعها، وحرصوا على حفظها، ولا أولادهم الذين تعبوا فى تربيتهم والحرص على صحتهم، لأن الله تعالى ما أعطاهم ذلك إلا لأنه أراد أن يعذبهم فى الدنيا بأخذ الأموال فى الزكاة والجهاد مع اعتقادهم أن لا فائدة لهم فى ذلك، وبقتل الأولاد فى الجهاد، فيقتلهم الحزن فى نهاية الأمر ويموتون وهم كافرون فيخلدون فى جهنم. ومن فضائحهم أنهم يحلفون بالله أنهم لمنكم فى الدين، أى مؤمنون مثلكم ليستروا أنفسهم، وليسوا فى الحقيقة منكم ولكنهم يفعلون ذلك لشدة خوفهم منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلون بالمشركين من القتل والأسر وأخذ الأموال، وقد بلغ الضيق بهم أنهم أمسوا فى حالة لو يجدون معها مكانا فى أى جهة ولو فى منتهى الضيق لاحتموا به، وليس هناك أتعس من أصحاب هذه المعيشة.

ومن قبائحهم التى يقصدون بها الصد عن الإسلام بالطعن فى نبيه أن منهم فريقا يطعن عليك فى توزيع الصدقات، وذلك أنه ﷺ كان يعطى المؤلفة قلوبهم كما سيأتى. قال بعض المنافقين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله.

فإن أعطوا من الصدقات ولو بدون استحقاق رضوا، وإن لم يعطوا منها لعدم استحقاقهم يسخطوا بسرعة. ولو أنهم رضوا بما آتاهم الله وقالوا حسبنا الله أى كافينا فإذا لم نأخذ ما نريد هذه المرة فسيؤتينا من فضله قريبا ما يرضينا ويعطينا رسوله مما يرد عليه من الغنائم ونحن لا نرغب إلى غير الله فى شىء لأنه سبحانه مالك كل شىء، لو فعلوا وقالوا ذلك لكان خيرا لهم.

۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ[1] وَٱلْعَٰمِلِينَ[2] عَلَيْهَا
وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ[3] وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾
وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ
لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾
يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن
يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا[4] فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ[5] أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ
تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ
مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ

المفردات: ﴿الفقراء والمساكين﴾: لم يجمع القرآن بينهما إلا فى هذه الآية ويرى بعض العلماء أنهما إذا اجتمعا كما هنا كانا صنفين متغايرين كل منهما محتاج لكن أحدهما أشد حاجة.

وقد جاء الفقير مقابلا للغنى فى الآية (٦) من سورة النساء صفحة ٩٨، والآية (٣٢) من سورة النور صفحة ٤٦٢. ورأى بعضهم أنهما صنف واحد يختلف بالوصف لا بالذات، فالفقير مأخوذ من الفاقرة وهى الداهية فى الآية (٢٥) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠، والمسكين مأخوذ من السكون وهو عدم الحركة للعجز والقناعة، فهما كقولك فى الشخص الواحد أنه عالم وتاجر.

﴿العاملين عليها﴾: هم من يوظفهم الإمام على جبايتها.

﴿المؤلفة قلوبهم﴾: هم جماعة يراد تأليف قلوبهم بالاستمالة للإسلام، أو كف شرهم عن المسلمين أو رجاء نفعهم فى الدفاع.

﴿وفى الرقاب﴾: أى فك رقاب العبيد بشرائهم وعتقهم.

﴿والغارمين﴾: هم الذين استدانوا فى غير معصية ولا سفه وعجزوا عن السداد.

---

(١) والمساكين.
(٢) والعاملين.
(٣) والغارمين.
(٤) خالدا.
(٥) المنافقون.

﴿وفى سبيل الله﴾: هو كل طريق يوصل لمرضاة الله فيشمل الجهاد وغيره، انظر الآية (٢١٧) من سورة البقرة صفحة ٤٣، والآية (٩٩) من سورة آل عمران صفحة ٧٩ وغير ذلك.

﴿وابن السبيل﴾: هو المسافر المنقطع عن بلده واحتاج إلى ما يوصله.

﴿أذن﴾: أى يصدق كل ما يسمع. فسموه لعنهم الله باسم آلة السمع مبالغة كما يسمى الجاسوس عينا.

﴿ويؤمن للمؤمنين﴾: أى لا يصدق إلا المؤمنين لصدقهم، فالتعبير كما فى الآية (١٧) من سورة يوسف صفحتى ٣٠٤، ٣٠٥.

﴿يحادد الله﴾: أى يعاديه بأن يضع نفسه فى حد أى جانب والله سبحانه فى جانب كالمشاقة.

﴿يحذر المنافقون﴾: عجيب أمر هؤلاء المنافقين، إن خوفهم من أن ينزل الله تعالى ما يفضحهم يدل على إيمانهم بأن الرسول ﷺ يتلقى عن الله ما يقول، ولكن مرض النفاق متمكن منهم لا يمكنهم من إدراك طريق النجاة.

﴿نخوض﴾: أى ندخل فى أحاديث للتسلية واللعب لا نقصد جدًا.

المعنى: كما تولى سبحانه تقسيم الغنائم ليدفع عن رسوله الشبهة كما فى الآية (٤١) من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٢، ٢٣٣، أراد سبحانه أن تقطع دسائس المنافقين فقسم زكاة الأموال بنفسه فقال: إنما الصدقات، أى الزكاة تعطى للمذكورين فقط لا تتعداهم إلى غيرهم، وللإمام حق التعميم والتخصيص حسب المصلحة.

فرض الله هذا التقسيم فريضة فليس لأحد نقضه، وقد أسقط عمر رضي الله عنه سهم المؤلفة قلوبهم لأن الإسلام قوى وليس فى حاجة إليهم، والله واسع العلم بمصالح عباده، حكيم فيما يشرع لهم.

ثم بيّن سبحانه نوعا آخر من قبائح المنافقين وهو أن بعضهم يجرؤ على الطعن فيه ﷺ فإذا قيل له قد يبلغ ما تقول محمدا، فيقول لا تخافوا فإن محمدا أذن، أى يصدق كل ما يقال

له، وسأحلف له ما قلت فيصدقنى، يريدون أخزاهم الله أنه ﷺ حماه الله يخدع ويسهل غشه. فرد سبحانه عليهم: قل لهم أيها النبى: محمد أذن خير لكم، أى لا يسمع النميمة والشر، ومن كان كذلك فهو خير صرف لكم لو كنتم تعقلون وتكفون عن نفاقكم.

ثم بيَّن المراد بكونه أذن خير بقوله: يؤمن بالله أى يصدق بما يوحيه الله، ويصدق المؤمنين الصادقين فى إيمانهم لأنه يمنعهم من الكذب، وهو رحمة للذين آمنوا منكم إيمانا صحيحا لأنه كان سبب هدايتهم. والذين يؤذون رسول الله بمثل ما تقولون لهم عذاب شديد الألم. ومن شأن هؤلاء المنافقين أنهم يعتمدون فى ستر عيوبهم على الحلف ليرضوكم عنهم وتنصرفوا عن دسهم كما فى آيتى (٤٢، ٥٦) من هذه السورة صفحتى ٢٤٨، ٢٥٠، وسيأتى فى آيات (٧٤، ٩٥، ٩٦، ١٠٧) من هذه السورة صفحات ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٠، والآية (٢) من سورة المنافقون صفحة ٧٤٣، والله ورسوله أحق أن يرضوه بطاعته إن كانوا مؤمنين حقا بالله الذى يحلفون به. ألم يعلم هؤلاء أنهم بعملهم هذا قد عادوا الله ورسوله، ومن يعاديهما فإن له نار جهنم خالدا فيها، وذلك هو الخزى العظيم، ولما كان المنافقون فى اضطراب فكرى كما فى الآية (٢٠) من سورة البقرة صفحتى ٥، ٦، والآية (١٤٣) من سورة النساء صفحة ١٢٧ والآية (٤) من سورة المنافقون صفحة ٧٤٣، كانوا بينما هم يسخرون فيما بينهم بالنبى ﷺ سرا يخافون أن يفضحوا ومن ذلك أن بعض من كان منهم فى غزوة تبوك قالوا فيما بينهم هل يظن محمد أنه سيفتح قصور الشام وحصونها زاعما أنهم كقبائل العرب ويتغلب عليها بسهولة؟ كلا. كلا. فقال بعضهم: كفوا لئلا يعلم ما نقول فقال الله فيهم: يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة أى مجموع آيات تخبرهم بما فى قلوب المنافقين. قل لهم أيها النبى استهزئوا ما شئتم فإن الله سيظهر ما تخافون من إظهاره، ولئن سألتهم عما قالوا وكيف قالوه ليقولن اعتذار أقبح من الذنب: إنما كنا نخوض فى حديث للتسلية لا نقصد جدا.

المفردات: ﴿ويقبضون أيديهم﴾: أصله ضم أصابع اليد إلى باطن الكف، وكنى به عن الامتناع عن الإنفاق فى الخير كالجهاد، انظر الآية (٧) من سورة المنافقون صفحتى ٧٤٣، ٧٤٤.

وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ[1] وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾
لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ[2] إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ
مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ[3]
وَالْمُنَافِقَاتُ[4] بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ
فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ[5] هُمُ الْفَاسِقُونَ[6] ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ
الْمُنَافِقِينَ[7] وَالْمُنَافِقَاتِ[8] وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ[9]
فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾
كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا[10]
وَأَوْلَادًا[11] فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ[12] فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ[13] كَمَا
اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ[14] وَخُضْتُمْ كَالَّذِي
خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ[15] فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

﴿نسوا الله﴾ المراد نسوا إطاعة أوامر الله فكأنهم نسوه.

﴿فنسيهم﴾: المراد عاملهم بالمثل، فترك رحمتهم وجعلهم كالشيء المنسى المهمل.

﴿فاستمتعوا﴾: أى ازدادوا فى التمتع.

﴿بخلاقهم﴾: أى نصيبهم من حظوظ الدنيا، أنظر الآية (٢٠٠) من سورة البقرة صفحتى ٣٩، ٤٠.

﴿وخضتم﴾: أى دخلتم فى الباطل.

﴿حبطت﴾: بطلت.

المعنى: كنا نلعب ونتلهى لنسهل قطع الطريق بالمداعبة. ولما كان قولهم هذا يتضمن استهزاء قال: قل لهم هل ضاقت عليكم سبل التسلية فلم تجدوا إلا التسلية والاستهزاء بالله

(١) وآياته.
(٢) إيمانكم.
(٣) المنافقون.
(٤) والمنافقات.
(٥) المنافقين.
(٦) الفاسقون.
(٧) المنافقين.
(٨) والمنافقات.
(٩) خالدين.
(١٠) أموالا.
(١١) وأولادا.
(١٢) بخلاقهم.
(١٣) بخلاقكم.
(١٤) بخلاقهم.
(١٥) أعمالهم.

وآياته المنزلة الدالة على نصرته للمؤمنين وبالرسول فى أعماله ؟ وقل لهم أيها النبى: إن الله يقول لكم لا تشتغلوا بالاعتذارات الباطلة فإنها لا تنفعكم بعد أن أظهرتم الكفر بالطعن فى الرسول وفى وعد الله له بعد أن كنتم تظهرون الإيمان، فإن نعف عن طائفة منكم بسبب إخلاصها فى التوبة فإنا سنعذب من لم يتب منكم بسبب إصرارهم على الجرائم.

ولما تقدم أنه سبحانه كذبهم فى حلفهم أنهم منكم بَيَّن سبب أنهم ليسوا من المسلمين فقال: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم...﴾ إلخ؛ أى أن أهل النفاق رجالاً ونساءً متشابهون فيه كتشابه أبعاض أى أجزاء الشىء الواحد. ثم بَيَّن وجه هذا التشابه بقوله: يأمرون بالمنكر كالكذب والخيانة والحلف زورا والغدر وكل ما تنكره العقول السليمة، وينهون عن المعروف كالجهاد والصدق والإخلاص لله وغير ذلك من كل ما تعارف الناس على حسنه، ويقبضون أيديهم عن البذل فى وجوه الخير لأنهم نسوا أوامر الله، فعاقبهم بجعلهم كالمنسيين الذين لا ينظر إليهم بعطف ولا رحمة؛ وذلك لأن المنافقين هم وحدهم الخارجون على أوامر الله بمكر وخداع حتى كأنه لا فاسق سواهم.

ثم بَيَّن سبحانه عاقبتهم فقال قارنا لهم مع الكفار المجاهدين: ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها﴾ وهى كافيتهم فى العذاب الشديد. وقرن ذلك بلعنته التى لا يرجى معها رحمة، ولهم بعد نار جهنم عذاب دائم آخر من زمهرير، أو ماء يشوى الوجوه، أو أكل من شجرة الزقوم كما فى الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥. والآية (٦٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩١. ثم خاطب المنافقين مباشرة فقال: ﴿كالذين من قبلكم﴾ إلخ، أى أنتم مثل مَنْ قبلكم من الأمم المهلكة الذين كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولادًا فتمتعوا تمتعا كاملا بكل نصيبهم من ملاذ الدنيا، فاستمتعتم أنتم أيضا مثلهم ولم تفضلوا عنهم بشىء، وخضتم فى الباطل كالخوض الذى خاضوه. أولئك بطلت كل أعمالهم التى كانوا يظنونها تنفعهم فى الدنيا، لأن ضررها كان أكثر من نفعها وذهبت عليهم عبثا، وفى الآخرة لأنها لم تمنع عنهم العذاب الأليم، أى وسيكون جزاؤكم مثلهم لأنكم أقل منهم فى كل ما ذكر من قوة وغيرها.

وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ[١] ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ[٢] وَأَصْحَٰبِ[٣] مَدْيَنَ
وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ[٤] أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ[٥] فَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ[٦] بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ[٧] وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ[٨]
وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ[٩]
جَنَّٰتٍ[١٠] تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ[١١] خَٰلِدِينَ[١٢] فِيهَا وَمَسَٰكِنَ[١٣]
طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ[١٤] عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ[١٥] مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ
هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ[١٦] ٱلْكُفَّارَ
وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ[١٧] جَهَنَّمُ وَبِئْسَ

المفردات:- ﴿قوم نوح﴾: إلخ: تقدم بعض ما حل بهم فى الآية (٥٩) وما بعدها من سورة الأعراف صفحة ٢٠٢ وما بعدها. وبعضه فى غير الأعراف.

﴿المؤتفكات﴾: جمع مؤتفكة كما فى الآية (٥٣) من سورة النجم صفحة ٧٠٤. وهى قرى قوم لوط عليه السلام، والكلمة من الائتفاك وهو الانقلاب الذى حدث بالخسف.

﴿البينات﴾: البراهين والمعجزات الواضحات.

﴿عدن﴾: أصل معنى عدن فى اللغة الإقامة يقال عدن فى المكان على وزن ضرب وقعد أى أقام واستقر فيه فالمراد هنا جنات خلود. وهو اسم لقسم من أقسام الجنة كالفردوس.

المعنى: وأولئك المنهمكون فى لذة الدنيا الغافلون عن الآخرة، هم وحدهم الخاسرون لكل خير وخسارتهم ليس بعدها خسارة، ثم وبخ سبحانه من نزلت فيهم هذه الآيات السابقة من الكفار والمنافقين فى عهده بتقريعهم وتذكيرهم بمن ضل قبلهم من الأقوام وما حل بهم نتيجة ضلالهم فقال: ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وقد أغرقناهم، وعاد الذين أخذتهم

---

(١) الخاسرون. (٢) إبراهيم. (٣) وأصحاب.
(٤) والمؤتفكات.. (٥) بالبينات. (٦) والمؤمنات.
(٧) الصلاة. (٨) الزكاة. (٩) والمؤمنات.
(١٠) جنات. (١١) الأنهار. (١٢) خالدين.
(١٣) ومساكن. (١٤) جنات. (١٥) ورضوان.
(١٦) جاهد. (١٧) ومأواهم.

الريح العقيم، وثمود وقد أخذتهم الصيحة، وقوم إبراهيم الذين أهلكوا هم وزعيمهم نمرود، وأصحاب مدين الذين أخذتهم الرجفة. والمؤتفكات وقد جعل قريتهم عاليها سافلها. فعلنا بهم كل هذا بعد أن جاءتهم رسلهم بالبينات فأعرضوا عنها، وما كان الله ليظلمهم، فقد حذرهم ولكنهم أصروا على ظلم أنفسهم بجحودهم وعنادهم، فأنتم إذا أصررتم على كفركم وعنادكم ستكونون فى الشقاء مثلهم، لأن سنة الله وعدله لا يتغيران.

وكما أن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض فكذلك المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض بالمحبة والنصرة والمودة، فكلهم يأمرون بكل خير وينهون عن كل منكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله فيما أمر به فى كتابه والرسول فيما أرشد إليه فى سنته فأولئك سيرحمهم الله برحمته الخاصة المبينة فى الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧، فيوفقهم للخير فى الدنيا، ويجزل لهم العطاء فى الآخرة، لأنه سبحانه عزيز أى قوى غالب لا يعجزه شىء أراده، حكيم فى قضائه وحكمه وتصرفاته ثم بَيَّن سبحانه شيئا مما سيرحمهم به فقال: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن﴾ أى قصورا وغرفا من فوقها غرف كما فى الآية (٢٠) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٨، ٦٠٩ تطيب الإقامة فيها.

هذه المساكن فى جنات الخلد. كما أن لهم فيها نعيما روحانيا هو رضا عظيم من الله، وليس هنا أسعد عند النفوس من نعيم تشعر معه أن المنعم به سبحانه راض عنها. وفسره بعضهم بأنه النظر إلى وجهه الكريم، وذلك النعيم بقسميه الجسمانى والروحانى المعد للمؤمنين والمؤمنات هو الفوزالعظيم الذى لا فوز بعده. ثم هدد المنافقين وأنذرهم بالجهاد كالكافرين المجاهرين إذا استمروا على نفاقهم فقال: يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين، أى ابذل جهدك فى مقاومة شر الفريقين اللذين يخالطون المؤمنين ولا تؤمن غائلتهم فعاملهم بالغلظة والشدة المناسبة لسوء حالهم. وجهاد الكفار بالسيف أى الحرب، وجهاد المنافقين بإقامة حدود الله عليهم إذا ظهر منهم أسبابها بدون قبول عذر منهم، وفضحهم، وعدم الصلاة على من يموت منهم، ومنعهم من الخروج مع المسلمين فى الجهاد، إلى غير ذلك مما يؤلم النفس ويحز فيها، ويجعلها ذليلة بين قومها، وفى الآخرة مأواها جهنم، وقبحت جهنم مصيرا.

ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ
وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ (١) وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟
إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ (٢) ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ
خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾
۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ (٣) ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا (٤) مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ
وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٥) ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم (٦) مِّن فَضْلِهِۦ
بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا
فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ
وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ
وَنَجْوَىٰهُمْ (٧) وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ (٨) ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ
ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ (٩) وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ

المفردات:- ﴿قالوا كلمة الكفر﴾: هى قول بعضهم لئن كان محمد صادقا فيما يقول عنا فنحن شر من الحمير.

﴿وهموا بما لم ينالوا﴾: هو همهم بقتله ﷺ، كما سيأتى بيانه.

﴿وما نقموا﴾: أى كرهوا وعابوا من نقم ينقم من باب ضرب يضرب.

﴿يلمزون﴾: اللمز الطعن مع الاستخفاف كما تقدم فى الآية (٥٨) من هذه السورة صفحة ٢٥٠.

﴿فى الصدقات﴾: أى يلمزون المتطوعين من المؤمنين فى أمر صدقاتهم.

المعنى: أراد سبحانه بيان سبب الأمر بجهادهم، وهو أنهم يقولون الكلمة الدالة على الكفر. فإذا سئلوا أنكروا وحلفوا ما قالوا؛ وأنهم أظهروا الكفر بعد أن كانوا لا يظهرون إلا الإسلام وأنهم هموا بما لا يمكن أن ينالوه وهو اغتياله ﷺ فى أثناء رجوعه من تبوك، وذلك أن الطريق كان به ممر قصير المسافة ولكنه ضيق وفوق جبل عال، فلما وصل إليه ﷺ أراد أن يختصر الطريق ويترك بقية الجيش يسير ببطن الوادى وهو طريق واسع لكنه طويل، فبينما هو ﷺ فى وسط هذا الممر والليل مظلم وإذا برجال يسرعون بابلهم يريدون مزاحمة ناقته ﷺ حتى تقع من سفح الجبل، فأعلمه الله تعالى أمرهم قبل أن يصلوا إليه، ولم يكن معه سوى حذيفة ابن اليمان وعمار بن ياسر، فأمر ﷺ حذيفة أن يردهم عنه، فرجع بعصاه وصار يضرب وجوه

(١) إسلامهم. (٢) أغناهم. (٣) عاهد.
(٤) آتانا. (٥) الصالحين. (٦) آتاهم.
(٧) ونجواهم.. (٨) علام. (٩) الصدقات.

الإبل وكانت نحو عشرة، ففزعوا وظنوا أن مكرهم قد افتضح، فأسرعوا حتى اختلطوا بالناس فقال ﷺ، لحذيفة: هل عرفتهم؟ فقال: لا، لأنهم كانوا ملثمين والليل مظلم، ولكنى عرفت إبلهم، وهى ناقة فلان وناقة فلان، فقال ﷺ: ما كانوا يريدون؟ إنهم كانوا يريدون قتلى، وسمّاهم له، فقال: ألا تأذن لنا يا نبى الله فنضرب أعناقهم؟ فقال ﷺ: لا تفعلوا لئلا يتحدث الناس أن محمدا شرع يقتل أصحابه، وأمره ألا يبوح بأسمائهم لأحد، ومنه سمى حذيفة صاحب السر. وما نقم هؤلاء المنافقون على الإسلام لشيء إلا لأن الله أغناهم بسببه من فضله، والرسول أغدق عليهم من الغنائم، فالكلام من قبيل قولك مالى عند فلان ذنب إلا أنى أحسنت إليه، أى ليس لكراهيتهم سبب، بل الأسباب متوفرة لحبه، فإن يتوبوا عن النفاق والجرائم يكن ذلك المتاب خيرا لهم، وإن يتولوا ويعرضوا عما دعوا إليه من التوبة يعذبهم عذابا أليما فى الدنيا والآخرة، كما تقدم فى الآية (٥٥) من هذه السورة صفحة ٢٥٠ وما سيأتى فى آيتى (٨٥، ١٠١) من هذه السورة أيضا صفحتى ٢٥٦، ٢٥٩، ومالهم فى الأرض كلها أقل ولى يتولى أمورهم ويخفف عنهم، ولا نصير يدفع العذاب عنهم. ومن هؤلاء المنافقين من عاهد الله تعالى وأقسم لئن آتاهم الله من فضله مالا كثيرا ليشكرن نعمته بالصدقة والأعمال الصالحة، فلما آتاهم الله من فضله ما طلبوا بخلوا به وانصرفوا عن طاعته والحال أنهم مصممون على الإعراض مبالغون فيه على عادتهم، فجعل الله عاقبة أمرهم نفاقا راسخا فى قلوبهم لا يفارقها إلى يوم لقائه فى الآخرة وذلك بسببين: الأول: أنهم أخلفوا الله ما وعدوه، والثانى: أنهم كانوا مستمرين على الكذب حتى استحال عليهم تركه، وأقبح أنواع الكذب حال المنافق؛ لأن باطنه يكذب ظاهره. ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم سرهم الكامن فى نفوسهم وما يتناجون به فيما بينهم من الإثم والعدوان ومعصية الرسول كما فى الآية (٩) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٦، لأنه سبحانه واسع العلم بكل غيب، لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ومن فظائع هؤلاء المنافقين أنهم لا يكتفون ببخلهم بل تعدوه إلى ذم المؤمنين المتطوعين فى أمر صدقاتهم وذلك إن النبى ﷺ حث أصحابه يوما على الصدقة فجاء رجال بأموال كثيرة، فقال المنافقون فيما بينهم: والله ما جاء هؤلاء إلا رياء، وجاء رجال فقراء بقدر ضئيل على قدر طاقتهم، فقال المنافقون: إن الله عن صدقة هؤلاء لغنى.

المفردات: ﴿جهدهم﴾: طاقتهم.

﴿سخر الله منهم﴾: أى جازاهم على سخريتهم بما تستحق.

إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ (٧٩) ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ
لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟
بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ (٨٠)
فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟
أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا
تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟
يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ
بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ
مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا
وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ
فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم

﴿المخلفون﴾: الذين خلفهم الشيطان وكسلهم. ﴿بمقعدهم﴾: أى قعودهم.. ﴿خلاف رسول الله﴾: أصل خلاف مصدر خالف واستعمل ظرفا بمعنى بعد، كما فى الآية (٧٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥، ويصح المعنيان هنا على أن يكون المصدر حالا بمعنى مخالف. ﴿لا تنفروا﴾: أى لا تسرعوا فى الخروج مع محمد. ﴿رجعك الله﴾: رجع يستعمل لازما بمعنى عاد كما فى الآية (١٥٠) من سورة الأعراف صفحة (٢١٦)، ومتعديا بمعنى أرجع كما فى الآية ٤٠ من سورة طه صفحتى (٤٠٨، ٤٠٩)، وما هنا من الثانى.

﴿الخالفين﴾: الخالف هو المتخلف عن غيره.

المعنى: ويسخرون من المؤمنين الفقراء الذين لا يجدون ما يتصدقون به إلا المال القليل. فجازاهم الله تعالى بأن جعلهم سخرية للمؤمنين والناس أجمعين بفضيحة لهم فى هذه السورة بما لم يسبق له مثيل، حتى قال بعض الصحابة: إن من أسماء السورة (الفاضحة)، ولهم فى الآخرة عذاب شديد الألم، وكان لعبدالله بن أبى بن سلول رأس المنافقين ولد صالح مخلص فى إيمانه هو عبد الله بن عبدالله بن أبى ومرض ابن سلول فجاء ولده عبدالله يطلب من النبى صلوات الله عليه أن يستغفر له، وكان ﷺ رقيق القلب رحيما كما وصفه ربه فى آخر هذه السورة، وكان كلما اشتد به إيذاء قومه يقول: اللهم أغفر لقومى فإنهم لا يعلمون. فلما استغفر ربه لعبد الله بن سلول، والله وحده هو الذى يعلم أنه سبب كل بلية، وأن لقبول الاستغفار شروطا بينتها الآية (٦٤) من سورة النساء صفحة ١١١، والآية (٨٢) من سورة طه صفحة ٤١٣، قال سبحانه استغفر لهم أو لا تستغفر إلخ، أى استغفارك وعدمه سواء، فمهما

---

(١) الفاسقين. (٢) خلاف. (٣) يجاهدوا. (٤) بأموالهم.. (٥) تقاتلوا. (٦) الخالفين.

أكثرت منه فلن أغفر لهم، فالتعبير بسبعين مرة كناية عن الكثرة بدون حد. ثم بَيَّن سبحانه عدم المغفرة بقوله: ذلك بأنهم أى بسبب أنهم كفروا بالله ورسوله، والله تعالى لا يهدى الكافر الخارج عن الإيمان به تعالى المصمم على ما هو عليه.

ثم شرع سبحانه فى بيان حال فريق من المنافقين وهم المتخلفون عن الغزوة كما تقدم وبيان ما يجب أن يعاملوا به بعد الرجوع إلى المدينة، ونزلت هذه الآيات فى أثناء السفر، فقال. فرح الذين منعهم الشيطان عن السفر بقعودهم فى بيوتهم بعد. سفر رسول الله أو حال كونهم مخالفين رسول الله بقعودهم هذا، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله لاعتقادهم أنه لا مصلحة لهم فى ذلك ولبعد شقة السفر، وقالوا تثبيطا لمن أراد الخروج: لا تخرجوا مع محمد فى الحر الشديد، قل لهم أيها النبى إذا خفتم من حر الدنيا فنار جهنم أشد حرا، فكيف لا تخافون منها لو كنتم تعلمون حقيقة الأمر، فالأولى بهم أن يضحكوا قليلا وسيبكون كثيرا، فهو أمر بمعنى الخبر، أى أن ضحكهم وفرحهم بتخلفهم قليل جدا بالنسبة لبكائهم مما أعد لهم من العذاب جزاء ما استمروا على اكتسابه من الخبائث. فإن أرجعك الله إلى طائفة من المنافقين المتخلفين، وإنما قال طائفة لأن من المتخلفين من كان صادق العذر، ومنهم من تاب كالثلاثة الآتى ذكرهم فى الآية (١١٨) من هذه السورة صفحة ٢٦٢، فاستأذنوك أيها النبى للخروج إلى غزوة أخرى يظنونها سهلة كثيرة المغانم، أو إلى غير الغزو كحج مثلا كما قال أمثالهم فى الآية (١٥) من سورة الفتح صفحة ٦٨٠، فقل لهم أيها النبى: لن تخرجوا معى أبدا، لأن الله تعالى نبهنى لخطركم فى الآية ٤٧ المتقدمة صفحة ٢٤٩، ولن تقاتلوا معى عدوا ولو هجم علينا فى ديارنا كما حصل فى غزوة الخندق الآتى ذكرها فى سورة الأحزاب، ولأنكم رضيتم لأنفسكم بعار القعود أول مرة دعيتم فيها دعوة خاصة لغزوة شاقة كماتقدمت الإشارة إليه وكما سيأتى فى الآية (١١٧) من هذه السورة صفحة ٢٦٢، فاقعدوا مع المتخلفين من العجزة والنساء والصبيان الذين لا يكلفون شرف الدفاع.. ولما مات ابن سلول المتقدم الحديث عنه طلب ابنه عبدالله من النبى ﷺ أن يصلى عليه ظانا أن ذلك ينفع والده، وليتقى بذلك احتقار الناس لأبيه، فأراد ﷺ أن يصلى عليه، فمنعه عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، فقال ﷺ : دعنى يا عمر فقد يكون ذلك سبباً فى إيمان كثير من قومه ، فأنزل الله سبحانه: ولا تصل أيها النبى على أحد من المنافقين مات أبدًا إلخ، وكان ذلك من المواضع

مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ
إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ
وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟
ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ
ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ
ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾
أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ
ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ
لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ

التى وافق فيها الوحى رأى عمر كما تقدم فى أسرى بدر، انظر الآية (٦٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧.

المفردات: ﴿أولو الطول﴾: أى أصحاب القدرة على الجهاد بالنفس والمال.

﴿مع الخوالف﴾: جمع خالفة، وهى المرأة لأنها تتخلف عما من شأنه أن يخص الرجال من الأعمال الشاقة، كما قال فى النساء الكبيرات: قواعد، انظر الآية (٦٠) من سورة النور صفحة ٤٦٨.

﴿وطبع على قلوبهم﴾: أى أغلقت عن قبول الصواب.

﴿المعذرون﴾: أى المعتذرون، والمراد هنا بعذر صحيح بدليل المقابلة. ﴿من الأعراب﴾: هم سكان البادية وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه، وينسب إليه الواحد فيقال أعرابى. ﴿وقعد الذين كذبوا﴾: هم قوم من منافقى الأعراب لم يسافروا ولم يعتذروا.

---

(١) فاسقون.
(٢) أموالهم.
(٣) وأولادهم.
(٤) كافرون.
(٥) وجاهدوا.
(٦) استأذنك.
(٧) القاعدين.
(٨) جاهدوا.
(٩) بأموالهم..
(١٠) الخيرات.
(١١) جنات.
(١٢) الأنهار.
(١٣) خالدين.

المعنى: ولا تقم على قبر واحد منهم للدفن أو للدعاء له، لأنهم كفروا بالله ورسوله، واستمروا على كفرهم حتى ماتوا وهم خارجون عن حظيرة الإيمان ولما كان من البواعث على تخلف المنافقين هو الحرص على أولادهم من القتل فى الجهاد، وعلى أموالهم أن تضيع فيه.

قال سبحانه: ولا تعجبك أيها السامع أموالهم ولا أولادهم إلخ، وأعاد سبحانه ما تقدم فى الآية (٥٥) من هذه السورة صفحة ٢٥٠، لأن المنافقين هنا نوع غير المتقدم هناك.

ثم بَيَّن سبحانه حالهم التى تؤيد ما تقدم وما يقابلها من حال المؤمنين الصادقين، فقال: وإذا أنزلت سورة أى جملة آيات من القرآن منادية بأن أخلصوا إيمانكم أيها المنافقون وجاهدوا مع رسوله بأنفسكم وأموالكم استأذنك فى التخلف عن إجابة الدعوة أصحاب القدرة منهم وقالوا لك أيها النبى ذرنا أى أتركنا مع القاعدين أرباب الأعذار كالنساء والعجزة والصبيان. رضوا لأنفسهم أن يكونوا فى حكم النساء وطبع على قلوبهم، فهم بسبب ذلك لا يفقهون ما يضر وما ينفع، وما يشرف وما يخزى؛ لكن الرسول والذين آمنوا معه بإخلاص قد جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وأولئك لهم الخيرات كلها فى الدنيا كالنصر على الأعداء والعز والغنيمة، وفى الآخرة كالجنة وما فيها، وأولئك هم وحدهم الفائزون. فهذه الآية وما قبلها من قبيل الآية (٨٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٦. ثم بين سبحانه بعض هذه الخيرات فقال: أعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار الخ ما تقدم فى الاية (٧٢) من هذه السورة صفحة ٢٥٣.

وبعد ما بين سبحانه حال منافقى الحضر شرع فى بيان حال رجال البادية فقال: وجاء المعذرون إلخ، أى وجاء قوم من الأعراب يعتذرون عن غزوة تبوك ليأذن لهم ﷺ، وقعد المنافقون منهم الذين كذبوا الله ورسوله فلم يسافروا ولم يعتذروا، سيصيب الكافرين من هؤلاء الأعراب وهم القسم الثانى عذاب شديد الإيلام.

المفردات: ﴿الضعفاء﴾: هم الشيوخ الذين أعجزهم الكبر والصبيان والنساء.

﴿حرج﴾: أى إثم وذنب.

﴿نصحوا لله﴾: أى أخلصوا فى إيمانهم وفى طاعتهم، نصحوا غيرهم بالجهاد ومحاربة شائعات العدو.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ
وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ
إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ
لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ
تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾
۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ(١) وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ
رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ
فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ
قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ
وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ(٢) ٱلۡغَيۡبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ(٣) فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحۡلِفُونَ

﴿ما على المحسنين﴾: المراد بالإحسان هنا هو النصح لله ولرسوله والإخلاص فى العمل.

﴿من سبيل﴾: من هنا لتأكيد النفى، وأصل معنى التركيب ليس هناك طريق للعتاب يمر عليهم والمراد لا عتاب عليهم ولا مؤاخذة.

﴿قلت لا أجد﴾: هذه الجملة حال منتظر بتقدير حرف (قد) قبل قلت ليصح الحال والمعنى إذا ما أتوك فى الحال الذى قلت لا أجد تولوا (فتولوا) هو جواب إذا، ومثل حال المنتظرة فى القرآن فى قوله تعالى:

﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾.

فخالدين حال يسمونها حالا مقدرة وتقدير حرف قد كثير فى كلام العرب.المعنى: أراد سبحانه أن يبين الأعذار المقبولة بالتفصيل ليعلم منها بطلان غيرها، وخص بالذكر شر غيرها وهو اعتذار الأغنياء.

فقال: ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون على الجهاد ولا على عيالهم إذا خرجوا وتركوهم بلا زاد حرج ولا مسئولية فى عدم الجهاد، إذا أخلصوا لله فى الإيمان، وللرسول فى الطاعة والأمانة، لأنه ليس على مَنْ أحسن النصح لله والإخلاص لرسوله لوم ولا عتاب؛ لأن إخلاصه يمنعه من التقصير. والله تعالى غفور لمن

---

(١) يستأذنوك.

(٢) عالم.

(٣) والشهادة.

قصر لا عن تعمد، رحيم بعباده المخلصين ثم ذكر سبحانه بعض هؤلاء المحسنين لما امتازوا به من علامات الإخلاص.

فقال: ﴿ولا على الذين﴾ إلخ، أى ولا لوم فى التخلف على الذين إذا أتوك لتحملهم، أى لتعطيهم ما يحملهم من الإبل أو غيرها ليسافروا معكم للجهاد، وقلت لهم لا أجد ما أحملكم عليه من الركائب، انصرفوا عن مجلسك وأعينهم تفيض دمعا حزنا على عدم قدرتهم على شراء ما يحملهم، وكان عدد هؤلاء سبعة رجال أطلق عليهم الصحابة بعد نزول هذه الآية ﴿البكاءون﴾ وهذا أجّل مظهر للفرق بين المنافق والمؤمن الصادق، فهؤلاء لا لوم عليهم، إنما اللوم على الذين يستأذنونك فى التخلف وهم أغنياء قادرون على ما يلزم المجاهد، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا مع الخوالف، وطبع على قلوبهم فهم لا يعلمون، تقدم شرحها فى الآية (٨٧) من هذه السورة صفحة ٢٥٦، وإنما أعادها لزيادة توبيخهم وإبرازهم فى صورة النساء، وهذا أشد من الصاعقة على نفس العربى.

ثم أراد سبحانه أن يبين ما سيكون من هؤلاء المنافقين المتخلفين بعد رجوعه ﷺ إلى المدينة فقال: ﴿يعتذرون إليكم﴾ أى سيقدم إليكم هؤلاء الأغنياء المتخلفون بلا عذر أعذارا كاذبة إذا رجعتم من سفركم، قل لهم أيها النبى : لا تعتذروا بالباطل فإنا لن نؤمن لكم، أى لن نصدقكم، انظر الآية (١٧) من سورة يوسف صفحتى ٣٠٤، ٣٠٥، قد نبأنا الله تعالى بعض أخباركم التى فيها كلام صدر منكم، وإنكم منافقون كاذبون فى اعتذاركم، وسيرى الله تعالى ورسوله بعد الآن أعمالكم وهل تتوبون أم تصرون على نفاقكم، فاحترسوا لأنكم ستردون فى الآخرة إلى الله الذى يستوى فى علمه ما خفى وما ظهر، فينبئكم بما استمررتم على عمله فى الدنيا ويجازيكم عليه.

المفردات:﴿انقلبتم إليهم﴾: أصل معنى انقلب تحول من جهة إلى أخرى، والمراد رجعتم.

﴿رجس﴾: أى قذر معنوى كما تقدم فى الآية (٩٠) من سورة المائدة صفحة ١٥٥ .

﴿مأواهم جهنم﴾: أى مكانهم الذى يأوون إليه.

بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا
عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا
عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾
الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ
مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾
وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ
الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ
الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ
قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ
سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾
وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ

﴿وأجدر﴾: أى أحق وأولى.

﴿حدود ما أنزل الله﴾: هى أحكامه من أوامر ونواهى، انظر الآية (١٢) من سورة النساء صفحة ١٠٠، والآية الأولى من سورة الطلاق صفحة ٧٤٨.

﴿مغرما﴾: أى غرما وهو ما يكره المرء أداءه ويعتبره غرامة له. ﴿ويتربص﴾: أى ينتظر.

﴿الدوائر﴾: جمع دائرة، وهى ما يدور به الزمان من المصائب التى تحيط بالإنسان فيشتد لها ألمه. ﴿السوء﴾: هو كل ما يسوء من الشر، انظر الآية (٢٨) من سورة مريم صفحة ٣٩٩.

﴿قربات﴾: جمع قربة، والمراد هنا التقرب إلى الله. ﴿وصلوات الرسول﴾: أى دعاؤه.

﴿ألا إنها﴾: ألا كلمة تنبه السامع لأهمية ما بعدها، والهاء ضمير يعود على النفقة المأخوذة من (ينفق).

المعنى: سيؤكدون لكم أعذارهم بالأيمان الكاذبة عند رجوعكم من السفر لأجل أن تعرضوا عن توبيخهم، فأعرضوا عنهم إعراض إهانة واحتقار لا إعراض صفح كما كانوا يطلبون لأنهم رجس، فيجب البعد عنهم لاستحالة إخلاصهم ماداموا مصممين على النفاق، وملجؤهم فى الآخرة جهنم جزاء ما استمروا على عملة فى الدنيا. ثم بَيَّن سبحانه غرضا آخر لحلفهم غير مجرد الاعتذار فقال: يحلفون لكم لترضوا عنهم فتديموا معاملتهم السابقة بظاهر إسلامهم ليستروا فضيحتهم وينتفعوا بما ينتفع به المؤمنون، فإن ترضوا عنهم فرضا بعد علمكم بحالهم

---

(١) ومأواهم. (٢) الفاسقين. (٣) قربات.
(٤) صلوات. (٥) والسابقون. (٦) المهاجرين..

فلن ينفعهم ذلك، لأن النافع هو رضا الله تعالى، والله لا يرضى عن الفاسقين، ثم شرح سبحانه فى بيان حال الأعراب المنافق منهم، والكافر المجاهر، والمؤمن، فقال: ﴿الأعراب أشد كفرا﴾ إلخ؛ أى كافرهم أشد فى الكفر من كافر الحضر؛ لأنهم أغلظ طبعا وأقسى قلبا، والمنافق منهم أشد نفاقا من منافقى الحضر لصفاء أذهانهم وقوة بيانهم، وهذه صفات تساعد على إتقان النفاق.

وجميع الأعراب أولى من أهل الحضر بالجهل بحدود ما أنزل الله على رسوله لبعدهم عن أهل العلم ورواة السنة، والله عليم بأحوال أهل الحضر والبادية، حكيم فى مجازاة كل بقدر ذنبه. ولما تقدم فى الآية (٩٠) من هذه السورة صفحتى ٢٥٦، ٢٥٧ بيان حال المعتذرين من الأعراب أراد أن يبين حال مَنْ أنفق منهم فى الجهاد خوفا من افتضاح امره، فقال: ﴿ومن الأعراب من يتخذ﴾ إلخ، أى يعتبر ما ينفقه خوفا من المؤمنين غرامة ثقيلة عليه دفعها، وينتظر أن تحل بكم المصائب ليتخلص منكم، ألا فليعلم هؤلاء أن المصائب التى تسوء وتؤذى ستحل بهم وحدهم؛ لأن الله تعالى سميع لأقوالهم المنكرة، عليم بخبث قلوبهم الذى يستوجب حلول المصائب.

ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويعتبر ما ينفقه فى سبيل الله، وسيلة لأمرين عظيمين: الأول التقرب عند الله والثانى دعاء الرسول المستجاب له بالبركة والمغفرة؛ ألا إن نفقتهم ستكون قربة لهم. وهذا وعد منه تعالى بقبوله قربانهم، وهو يتضمن إجابة دعاء الرسول لهم ثم فسر سبحانه ما وعد به فقال: سيدخلهم الله فى مكان رحمته وهى الجنة، إنه سبحانه غفور لمن يخلص فى أعماله ما قد يقع منه من تقصير، رحيم بهم فيهديهم إلى الصراط المستقيم. ثم شرع سبحانه فى تقسيم المؤمنين الصادقين والمنافقين من أهل الحضر والبادية فقال: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ وهم الذين آمنوا قبل الهجرة.

وكان المسلمون ضعافا، ويلحق بهم فى الحكم كل مَنْ جاهد بإخلاص لنصرة دين الله فى أوقات محنته، وناله ما نالهم من أشد أنواع البلاء، انظر الآية (١٠) وما بعدها من سورة الواقعة صفحتى ٧١٣، ٧١٤.

ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ[1] رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَنَّٰتٍ[2] تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ[3] خَٰلِدِينَ[4] فِيهَآ أَبَدًا
ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ
مُنَٰفِقُونَ[5] وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ[6] ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا
صَٰلِحًا[7] وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ[8] صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ
وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ[9] سَكَنٌ لَّهُمْ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ
عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ[10] وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ

المفردات: ﴿مردوا﴾: مرد على الشيء بوزن نصر مرودًا إذا مرن عليه واعتاده حتى يتعذر عليه تركه.

﴿سنعذبهم مرتين﴾: إحداهما بالمصائب والفضائح، والثانية عند الموت، انظر ما تقدم فى الآيات (٥٥، ٥٧، ٧٣، ٧٤، ٨٢، ٨٣) من هذه السورة صفحات ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، والآية ٥٠ من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٤، ٢٣٥. ﴿تطهرهم﴾: من دنس البخل والذنوب.

﴿وتزكيهم﴾: تنمى فى نفوسهم فعل الخير.

﴿وصل عليهم﴾: أى ادع لهم.

﴿سكن لهم﴾: أصل السكن سكون النفس واطمئنانها وأطلق على الصلاة مبالغة كأنها هى نفس الاطمئنان، والمراد أنها سبب اطمئنان.

المعنى: إن بعد السابقين فى المنزلة هؤلاء الذين اتبعوهم متحلين بإحسان إيمانهم وأعمالهم وأقوالهم بأن تكون جميعها كاملة؛ هؤلاء جميعا رضى الله عنهم بسبب إحسان أعمالهم، ورضوا عنه بما أنعم عليهم فى الدنيا والآخرة، وهيأ لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا، وهذا هو الفوز العظيم الذى لا فوز بعده.. وبعدما بيَّن سبحانه حال كاملى الإيمان أراد أن يبين أضدادهم ومردة المنافقين من أهل الحضر والبادية فقال: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة﴾ منافقون مثلهم، الجميع بلغوا غاية النفاق، لا

---

(١) بإحسان. (٢) جنات. (٣) الأنهار. (٤) خالدين. (٥) منافقون.
(٦) وآخرون. (٧) صالحا. (٨) أموالهم (٩) صلواتك. (١٠) الصدقات.

تعرفهم أيها النبى لشدة حرصهم، فهم أتقن للنفاق ممن فى آيتى (٢٩، ٣٠) من سورة محمد صفحة ٦٧٦، نحن نعرفهم، سنعذبهم مرتين فى الدنيا بالعذاب الظاهر والباطن، ثم يردون فى الآخرة إلى عذاب عظيم وهو الدرك الأسفل فى جهنم كما فى الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨. وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة قوم آخرون ليسوا من المنافقين ولا من السابقين الأولين ولا من الذين اتبعوهم بإحسان بل من المؤمنين المذنبين، وكانوا سبعة، فلما رجع ﷺ أعلنوا عن توبتهم بربطهم أنفسهم فى أعمدة المسجد وأقسموا أن لا يفكهم أحد غيره ﷺ.

فلما رآهم النبى ﷺ قال: لا أفعل حتى يأذن لى الله فيهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية. فأطلق سراحهم، هؤلاء اعترفوا بذنوبهم التى منها التخلف عن الغزوة بدون عذر، ولم يكذبوا كالمنافقين، وخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، أى جمعوا بينهما، لكنهم خائفون من ربهم، وليسوا مصرين على معصيتهم؛ لذلك كانوا محل رجاء قبول توبتهم؛ لأن الله تعالى غفور لمن تاب، رحيم بمن يحسن توبته، انظر الآية (٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١، و(٨٢) من سورة طه صفحة ٤١٣، و(٧) من سورة غافر صفحة ٦١٨. خذ أيها النبى من أموال هؤلاء المعترفين بذنوبهم ومن سائر المؤمنين صدقة من الزكاة الواجبة أو التطوع لتكون سببا فى تطهيرهم من النقائص وتزكيتهم فى فعل الخيرات، واسأل الله تعالى لهم دوام التوفيق والبركة، لأن دعاءك مطمئن لقلوبهم فى أن الله تعالى قبلهم، والله سبحانه سميع لدعائك عليهم بما فيه مصلحتهم فيجيبه لهم، ألم يعلم أولئك التائبون والمؤمنون كافة أن الله تعالى هو يقبل التوبة متجاوزًا عن ذنوب عباده المخلصين فى توبتهم؟ وهذا تحريض لهم على التوبة النصوح. ويتقبل الصدقات ويثيب عليها، وأنه سبحانه كثير قبول التوبة بعد التوبة مهما تكررت بتكرار الذنب، الرحيم بفتح باب الأمل وإغلاق باب اليأس. فخذ منهم الصدقة وقل لهم اعملوا لدنياكم وآخرتكم كل ما تستطيعون من الخير، فإن الله يرى عملكم خيرا كان أو شرا، فراقبوه، وسيراه رسوله فيشهد لكم أو عليكم، كما فى الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ
لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا
وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ
عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ
يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾
أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ
أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ
فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾

المفردات: . ﴿الغيب والشهادة﴾: يطلق الغيب على كل ما غاب عنا، والشهادة على ما حضر.

﴿مرجون لأمر الله﴾: أي مؤخرون إلى أن يظهر أمر الله فى شأنهم.

﴿مسجدا ضرارا﴾: هو المسجد الذى بناه المنافقون فى ضواحى المدينة ليدبروا فيه الكيد للمسلمين والإضرار بهم.

﴿إرصادا﴾: أى انتظارا وترقبًا لقدوم الكافر أبى عامر الراهب كما سيأتى.

﴿لمسجد أسس على التقوى﴾: هو مسجد قباء الذى بناه رسول الله ﷺ أول يوم دخل فيه المدينة مهاجرا.

﴿أن يتطهروا﴾: يبالغون فى الطهارتين المعنوية والحسية وربما كانوا يحافظون على الاستنجاء بالماء..

﴿بنيانه﴾: أصل البنيان مصدرا كالغفران وأريد به هنا الشىء المبنى، وهو المسجد.

﴿شفاء﴾: أى طرف كما فى الآية (١٠٣) من سورة آل عمران صفحتى ٧٩، ٨٠.

﴿جرف﴾ : هو البئر غير المبنى أو الحفرة.

﴿هار﴾ : أى متصدع آيل للسقوط

---

(١) عالم.
(٢) والشهادة.
(٣) وآخرون.
(٤) لكاذبون.
(٥) بنيانه.
(٦) ورضوان.
(٧) بنيانه.
(٨) الظالمين.

المعنى: ويرى عملكم المؤمنون أيضا فيشهدون لكم ويعاملونكم بحسبها، وفى النهاية ستردون بالبعث إلى الله الذى يستوفى فى علمة الغائب والحاضر فيخبركم بما كنتم تعملون ويجازيكم عليه وممن تأخروا عن الغزوة آخرون آخر الله البت فى أمرهم إلى أن يظهره سبحانه فى وقته المناسب.

وكان هؤلاء ثلاثة كما سيأتى فى الآية (١١٨) من هذه السورة صفحة ٢٦٢ وهم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية، وكانوا تخلفوا بلا عذر ولا اعتذار على نية اللحاق به ﷺ، ولكنهم انصرفوا عن هذا لا عن نفاق فلما رجع ﷺ وكان ما كان من كذب المنافقين وتوبة التائبين الذين ربطوا أنفسهم فى أعمدة المسجد كما فى الآية (١٠٢) السابقة من هذه السورة صفحة ٢٥٩، ولم يكذب هؤلاء ولم يربطوا أنفسهم، أنزل الله تعالى فيهم هذه الآية التى أبهمت أمرهم، فأصبحوا لايدرون هل يعذبهم كما فعل بالمنافقين أو يتوب عليهم كالمعترفين، وظهرت حكمة هذا الإبهام فى مقاطعة المؤمنين لهم حتى زوجاتهم فى كل شيء حتى فى الكلام كما سيأتى فى الآية (١١٨) من هذه السورة صفحة ٢٦٢، والله عليم بحال عباده، حكيم فى تربيتهم، وفيما يشرعه لهم، وتركهم على هذا الحال خمسين يوما كما سيأتى.

ثم شرع سبحانه فى بيان مكيدة خطيرة من مكايد المنافقين، كان بعض بسطاء المسلمين سايرهم فيها ليحذر من الوقوع فى مثلها، فقال (والذين اتخذوا مسجدا) إلخ.

ومن المنافقين رجال من الخزرج، وحاصل قصتهم أن رجلا منهم يدعى أبا عامر الراهب كان تنصر فى الجاهلية ولما انتشر الإسلام فى المدينة غضب الراهب وصار يساعد قريشا فى أحد وكل حروبهم، ولما يئس سافر إلى بلاد الروم ليستعين بقيصر، وأوعز إلى اثنى عشر رجلا من اتباعه المنافقين أن يبنوا مسجدا بعيدا عن مسجده ﷺ الكبير ليعدوا فيه مَنْ يساعده عند قدومه بجيش الروم، فلما فرغوا من بنائه أرادوا تغرير المسلمين حتى يكثروا الصلاة فيه فيخدعونهم، فقالوا للنبى ﷺ: يا رسول الله إنا فى أطراف المدينة وعندنا مرضى وعجزة ومَنْ يحول بينهم المطر وبين مسجدك، وقد بنينا مسجدا لتسهل الصلاة فيه على مثل

هؤلاء، ونريد أن تصلى لنا فيه، فوعدهم ﷺ بعد رجوعه من تبوك. فلما رجع أنزل الله تعالى فيهم هذه الآيات.

فأمر ﷺ بحرقه فحرق وجعل مكانه مزبلة، فهذا ما قال الله فيه: اتخذوا مسجدا لأغراض أربع: الإضرار بالمؤمنين وتقوية الكفر بالتآمر فيه بعيدا عن أعين المؤمنين، والتفريق بين المؤمنين حيث يصلون فى أماكن مختلفة فيسهل عليهم الدس وتمزيق الوحدة، وانتظارا لقدوم من حارب الله ورسوله من قبل فى أحد وغيرها.

وإذا سألت هؤلاء المنافقين عن سبب بناء هذا المسجد فسيحلفون ما أردنا إلا الأغراض الحسنى التى سبق أن قالوها، والله يشهد إنهم لكاذبون فى أيمانهم. لا تقم أيها النبى للصلاة فيه أبدا، وعزتى لمسجد أسس على التقوى أى قصد ببنائه عند وضع أساسه من أول يوم تقوى الله وهو مسجد قباء الذى بناه المسلمون خارج المدينة يوم دخوله ﷺ، أحق أن تقوم فيه، لأن فيه رجال يحبون أن يبالغوا فى تطهير أنفسهم بكثرة العبادة فيه، وبما يلزم ذلك من طهارة أبدانهم وثيابهم، والله تعالى يحب المطهرين بالطهارة المعنوية والحسية، ومن أحبه الله رضى عنه، ونال كل خير.

ثم أبرز سبحانه الفرق بين أهل المسجدين مسجد النفاق، ومسجد الإيمان، فقال: أفمن أسس بنيانه على قصد تقوى الله وطلب رضاه خير أم من أسس بنيانه على طرف بئر متصدع فانهار وسقط به فى نار جهنم، لأنهم ظالمون، والله لا يهدى الظالمين. ومعنى التمثيل هل يستوى مَنْ أسس دينه على قاعدة محكمة هى تقوى الله وطلب رضاه، بمن أسسه على أضعف القواعد وهى الباطل والنفاق الذى لا يثبت، فأوقعه الباطل فى نار جهنم.

المفردات: ﴿ريبة فى قلوبهم﴾: هى الاضطراب الفكرى والحيرة.

﴿ومن أوفى بعهده﴾: من اسم استفهام مشوب بمعنى النفى، أى لا أحد أوفى.

﴿السائحون﴾: تطلق السياحة على مجرد السير فى الأرض كما فى الآية (٢) من سورة التوبة صفحة ٢٣٩، وعلى السير للنظر والاعتبار كما فى الآية (١٣٧) من سورة آل عمران

لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ[1] ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ
قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم[2] بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ[3]
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى
ٱلتَّوْرَىٰةِ[4] وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ[5] ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ
ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ[6] ٱلْعَٰبِدُونَ[7] ٱلْحَٰمِدُونَ[8]
ٱلسَّٰٓئِحُونَ[9] ٱلرَّٰكِعُونَ[10] ٱلسَّٰجِدُونَ[11] ٱلْءَامِرُونَ[12] بِٱلْمَعْرُوفِ
وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ[13] لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟
لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ
أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ[14] ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ[15] لِأَبِيهِ

صفحة ٨٥، والآية (٢٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٣، وتطلق مجازا على جولان الفكر فى ملكوت الله تعالى للعبرة ولو كان الشخص مقيما كما فى الآية (١٩١) من سورة آل عمران صفحة ٩٥، والآية (١٨٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣، والآية (٦) من سورة ق صفحة ٦٨٨، وعلى الصيام لأن كلا من السائح والصائم يترك كثيرا من شهواته.

ولما وصفت النساء بها فى الآية (٥) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢ رأى البعض أن يكون المراد منها ما يشترك فيه الرجال والنساء وهو الصيام والتفكر.

﴿ما كان للنبى﴾: (ما كان) تأتى فى القرآن بمعنيين: الأول النفى نحو (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) الآية (٦٠) من سورة النمل صفحة ٥٠١. والثانى النهى نحو ما هنا وما فى قوله تعالى (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) الآية (٥٣) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٨، ٥٥٩.

المعنى: سيستمر بناؤهم الذى بنوه لأغراض خبيثة مثار شك واضطراب وخوف مستقر فى قلوبهم حتى بعد هدمه من أن يصيبهم المؤمنون بسوء، ولا ينقذهم منه إلا أن تتقطع قلوبهم بالموت. وفى الآية (٦٤) المتقدمة من هذه السورة صفحة ٢٥١، و(٤) من سورة المنافقون صفحة ٧٤٣ تصوير لبعض هذا الخوف، والله عليم بأسرار خلقه، حكيم فيما يفعل بهم وبعد

---

(١) بنيانهم. (٢) أموالهم. (٣) يقاتلون.
(٤) التوراة. (٥) القرآن. (٦) التائبون.
(٧) العابدون.. (٨) الحامدون. (٩) السائحون.
(١٠) الراكعون (١١) الساجدون. (١٢) الآمرون.
(١٣) الحافظون. (١٤) أصحاب (١٥) إبراهيم.

ما بين سبحانه حال فريق من المنافقين بلغ الغاية فى الشر، أراد أن يبين فريقا من المؤمنين بلغ الغاية فى الإيمان الكامل فقال (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) إلخ؛ مثل سبحانه بذلهم أنفسهم وأموالهم فى سبيله ومنحهم نظير ذلك نعيم الجنة، بالبيع والشراء، والحقيقة أنه لا بيع ولا شراء؛ لأن الأنفس هو خالقها، والأموال هو رازقها، فالإعطاء منه فضل وكرم، ثم بيَّن سبحانه كيف باع ويبيع المؤمنون أنفسهم فقال: يقاتلون فى سبيل الله، فيقتلون العدو تارة، ويقتلهم العدو أخرى، فهم مثابون على الحالين، وعد بذلك وعداً حقا أثبته فى الكتب المنزلة الصحيحة، فكل من قتل فى الدفاع عن سبيل الله فله الجنة، ولا أحد أشد وفاء بالعهود من الله، وإذا كان الأمر كذلك فاستبشروا أيها المجاهدون ببيعكم الذى بايعتم به ربكم لأنكم بعتم فانيا بنعيم دائم، ذلك البيع الرابح هو الفوز العظيم الذى لا فوز بعده.

ثم بيَّن سبحانه أصحاب هذا البيع فقال: ﴿التائبون﴾ إلخ، أى هم الكاملون فى التوبة، ﴿العابدون﴾أى البالغون النهاية فى العبودية لله تعالى، ﴿الحامدون﴾ فى السراء والضراء، ﴿السائحون﴾ بالصيام والجولان الفكرى فى ملكوت الله لزيادة الاعتبار (الراكعون، الساجدون) أى المصلون الفرض والنفل، ﴿الآمرون﴾ بكل معروف يقره الشرع ويرضاه العقل السليم، ﴿والناهون عن المنكر﴾ وهو ما لا يقره شرع. ثم وصفهم فى النهاية بصفة جامعة وهى ﴿الحافظون﴾ لكل حد من حدود الله وهى شرائعه التى فصلت بين الحلال والحرام كما تقدم فى الآية (٩٧) من هذه السورة صفحة ٢٥٨. وبشر أيها النبى هؤلاء المؤمنين الموصوفين بما تقدم بنعيم لا يحيط به البيان. ولما كانت عاطفة حب الآباء قوية إلى حد جعلت عبدالله بن عبدالله بن أبى بن سلول يطلب منه ﷺ أن يستغفر لأبيه كما تقدم فى الآية (٨٠) من هذه السورة صفحة ٢٥٥، وكان ﷺ كلما تذكر دفاع عمه أبى طالب عنه فى مكة تاقت نفسه الشريفة أن يطلب من الله تعالى التخفيف عنه، وكان بعض الصحابة يستغفرون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك، لما كان كل هذا، منعه سبحانه بقوله (ما كان للنبى) إلخ أى ما صح ولا جاز للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين البعيدين، بل ولو كانوا أصحاب قرابة، من بعد ما تبين لهم أنهم ماتوا مشركين، فاستحقوا عذاب الحميم .. ولما كان مما شجعهم أنهم كانوا يعلمون أن إبراهيم خليل الله استغفر لأبيه، بيَّن سبحانه وجه خطئهم، فقال (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه) إلخ.

إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ
تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ(١) لَأَوَّٰهٌ(٢) حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ
قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ(٣) حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ(٤)
وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ(٥)
وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ
يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ(٦) ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ
إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ
أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ
لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

المفردات: ﴿لأواه﴾: هو كثير التأوه والتألم.

﴿إذ هداهم﴾: أى بعد أن هداهم.

﴿ساعة﴾: المراد بالساعة هنا مطلق الزمن.

﴿العسرة﴾: هى الشدة والضيق الذى كانوا فيه وقت الشروع فى الغزو من شدة الحر وقلة الطعام والماء، حتى أكلوا التمر المدود، والشعير المسوس، وعصروا كرش البعير ليشربوا ماءه، كما تقدم عند الآية (٣٨) من هذه السورة صفحة ٢٤٧.

﴿ثم تاب عليهم﴾: الضمير هنا راجع للفريق الذين كادت قلوبهم أن تزيغ. والمراد أنه أحسن توبتهم لأنهم قاوموا الشدائد فحالوا بذلك بين قلوبهم وبين الزيغ.

﴿رءوف رحيم﴾: الرأفة الرفق بالضعيف خاصة، والرحمة أعم.

﴿الثلاثة﴾: هم كعب بن مالك وصاحباه المشار إليهما فى الآية (١٠٦) من هذه السورة صفحة ٢٦٠.

﴿الذين خلفوا﴾: أى تركهم الله ولم يبت فى أمرهم كما بت فى أمر المعترفين.

(١) ابراهيم.
(٢) لأواه.
(٣) هداهم..
(٤) السموات.
(٥) والمهاجرين.
(٦) الثلاثة.

﴿ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾: تقدم فى الآية (٢٥) من هذه السورة صفحة ٢٤٤.

﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾: معنى النفس فى الأصل الذات وأريد بها هنا القلب لأنه به حياة الذات، والمعنى ضاقت قلوبهم على سرورهم فلا يدخلها منه شىء وليس فيها إلا الغم والحزن.

﴿ملجأ من الله﴾: هو المأوى الذى يلجأ إليه الشخص ليقيه ما يتعبه.

﴿ثم تاب عليهم﴾: أى وفقهم لإخلاص التوبة..

﴿ليتوبوا﴾: أى ليستديموا التوبة عند كل ذنب.

المعنى: وما كان استغفار إبراهيم لأبيه مما يدخل فى عموم الأمر باتباعكم له، لأنه لم يكن لسبب من الأسباب إلا لسبب واحد هو أنه كان وعد أباه بأن يستغفر له ربه، انظر الآية (٤٧) من سورة مريم صفحتى ٤٠٠، ٤٠١، و(٤) من سورة الممتحنة صفحة ٧٣٥.

فلما تبين له أنه عدو له حين مات على الشرك تبرأ منه، إن إبراهيم لكثير التأوه خوفا من ربه وتحسرا على قومه، قوى الحلم الموجب للثبات على ما يرضى الله. ثم أراد سبحانه وتعالى أن يطمئن الذين استغفروا لآبائهم الكفار قبل علمهم بالنهى عنه، وأن يحذر من الوقوع فى معصية بعد العلم بحرمتها فقال: ﴿وما كان الله﴾ إلخ، وما كان من لطف الله بعباده أن يحكم على قوم بالضلال ويجرى عليهم أحكامه بعد أن هداهم للإسلام حتى يبين لهم بالوحى بيانا صريحا ما يتقونه ويحرم عليهم، إن الله بكل شىء عليم، فيعلم مَنْ يخالف عن جهل أو عن علم، فيجازى كلا بما يستحق، ولايعجز عن المجازاة، لأن له وحده التصرف فى السموات والأرض وما فيهما، يحيى مَنْ يشاء ويميت مَنْ يشاء، وليس لكم من دونه مَنْ يتولى أموركم وينفعكم، ولا من ينصركم بدفع العذاب عنكم إن خالفتم.

ثم رجع سبحانه لتتميم الكلام على التائبين من ذنب التخلف مع تفصيل ما حل ببعضهم ليرتب عليه ما ينبغى أن يعمل مع مَنْ أصر على النفاق ولم يسارع إلى التوبة، فقال: لقد تاب الله على النبى من بعد ما صدر عنه من الإذن للمنافقين كما تقدم فى الآية (٤٣) من هذه السورة صفحة ٢٤٨، وعلى المهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى وقت الشدة من كل هفواتهم،

ومنها ما حصل من بعضهم من التثاقل كما تقدم فى الآية (٣٨) من هذه السورة صفحة ٢٤٧، ومنها سماع بعضهم للمنافقين كما فى الآية (٤٨) من هذه السورة صفحة ٢٤٩، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم لتناهى الشدة حتى تثاقل فى الخروج وتخلف بعضهم بغير عذر وهم المذكورون فى الآية (١٠٢) المتقدمة من هذه السورة صفحة ٢٥٩، ثم تاب سبحانه عليهم لأنه بهم كثير الرأفة بضعيفهم، واسع الرحمة بهم جميعا، وتاب أيضا على الثلاثة الذين خلفهم الكسل وآخَّر الرسول البت فى أمرهم، وأبهم الله تعالى أمرهم حتى شعروا بأن الأرض ضاقت عليهم مع سعتها، فكأنهم لا يجدون فيها مكانا لشدة قلقهم من مقاطعة المؤمنين لهم وخوفهم من سوء العاقبة، وضاقت قلوبهم عن قبول السرور لامتلائها بالغم والهم، أى أن الضيق لاحقهم فى الأرض وفى القلوب حتى ظنوا أى تيقنوا كما فى الآية (٤٦) من سورة البقرة صفحة ١٠ أن لا ملجأ لهم يقيهم من سخط الله إلا الرجوع إليه بالتوبة ثم وفقهم سبحانه لإخلاص التوبة ليداوموا على التوبة ولا يجعلوا لليأس من رحمة الله عليهم سبيلا. إن الله كثير قبول توبة التوابين واسع الرحمة بالمحسنين وقد حكى كعب بن مالك قصته وما حصل له ولزميليه فى حديث طويل فَصّل فيه كيف قاطعه جميع الناس حتى امرأته وقد كان الإمام أحمد رضي الله عنه إذا قرأ هذا الحديث غلبه البكاء، والحديث رواه البخارى وهو رقم ٤٩٥ من كتابنا صفوة صحيح البخارى..

المفردات: ﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾: يقال رغب فى الشىء إذا أحبه، ورغب عنه إذا كرهه وأعرض عنه. فالمراد ولا يرغبون بإيثار حب أنفسهم عن حفظ نفسه الشريفة.

﴿ظمأ﴾: لقلة الماء كما تقدم.

﴿نصب﴾: أى تعب لبعد المسافة وقلة الركائب.

﴿مخمصة﴾: أى مجاعة لقلة الزاد.

﴿ولا يطئون موطئا﴾: أصل الوطء الدوس بالقدم.. والموطىء مكان الوطء..

﴿ينالون من عدو﴾: أى يأخذون.

ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ[1] (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ
الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن
رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَلَا يَطَئُونَ[2] مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ
نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ[3] ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً
وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ
فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ
وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا[4] الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ

﴿نيلا﴾: أصل النيل مصدر نال، والمراد به هنا الشيء المأخوذ.

﴿واديا﴾: الوادى هو المكان المتعرج بين التلال والجبال يشق السير فيه.

﴿لولا﴾: حرف يدل على التحريض على فعل ما بعده.

المعنى: يأيها الذين آمنوا اتقوا الله باتباع ما أمر والبعد عما نهى، وكونوا دائما مع الجماعة الصادقين فى جهادهم وإخلاصهم فى توبتهم وغير ذلك، ثم أراد سبحانه أن يؤكد وجوب الجهاد معه ﷺ وحرمة التخلف عنه إلا بإذنه فقال (ما كان لأهل المدينة) إلخ، أى ما جاز وما صح لأهل المدينة التى هى عاصمة الإسلام ومن حولهم من الأعراب المسلمين أن يتخلفوا عن رسول الله إذا خرج مجاهدا كما حصل فى تبوك ولا يفضلون محبة أنفسهم بالمحافظة عليها على نفسه الشريفة بأن يعرضوها للخطر وهم آمنون. ذلك النهى عن التخلف لما فيه من مصلحتهم الحقة، لأن كل ما يصيبهم فى جهادهم من أذى وإن كان قليلا ومن إيذاء للعدو وإن كان صغيرا إنما يكتب الله فى صحف أعمالهم بكل واحد مما ذكر ثواب عمل صالح؛ لأن الله تعالى لا يضيع أجر المحسنين لأعمالهم بالإخلاص فيها.. ولا ينفقون فى الجهاد نفقه صغيرة ولو تمرة، ولا كبيرة، ولا يقطعون فى سيرهم للجهاد واديا يصعب السير فيه إلا كتبه الله تعالى فى صحفهم

---

(١) الصادقين.
(٢) يطئون..
(٣) صالح..
(٤) قاتلوا.

ليجزيهم عليه يوم القيامة أحسن جزاء. ثم أراد سبحانه أن يبين أن الخروج العام لا يكون إلا إذا وجد سببه، كأن يخرج ﷺ بنفسه لغزوة مهمة.

فقال ﴿وما كان المؤمنون﴾ إلخ، فمعنى هذه الآية كما قال ابن عباس وقتادة وغيرهما أن المؤمنين بعدما نزل من الآيات فى توبيخ المتخلفين عن غزوة تبوك كما جاء فى الآيات (٣٨) وما بعدها من هذه السورة صفحة ٢٤٧ كانوا إذا بعث ﷺ بعثا تسابقوا عن آخرهم إلى النفير وتركوا النبى ﷺ وحده مع قلة قليلة وانقطعوا عن التفقه فى الدين، فأمروا فى هذه الآية أن ينفر للجهاد من كل فرقة طائفة ويبقى سائرهم مع النبى ﷺ بالمدينة ليتفقهوا فيما يجدّ من أحكام الدين وما ينزل من القرآن عليه ﷺ فى تلك الفترة فالضمير فى قوله ﴿ليتفقهوا﴾ و﴿لينذروا قومهم﴾ هو للفرقة الباقية مع النبى ﷺ بعد الفرق التى نفرت للجهاد والضمير فى رجعوا للمجاهدين.

والمعنى لينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم، ينذرونهم بما حصلوا عليه فى أيام غيبة هؤلاء المسافرين من العلوم التى سمعوها من النبى ﷺ وهم مقيمون معه بالمدينة فالتفقه فى الدين لا يكون إلا ممن هو مع النبى ﷺ الذى هو مصدر الشريعة، والمسافر للحرب ليس أمامه ما يتفقه منه.. فتوزيع الضمائر هنا مفهوم من سياق الكلام..

والمعنى أى وما كان من شأن المؤمنين ولا مما يجب عليهم أن ينفروا جميعا لأمر سهل. فهلا نفر للقتال فى هذه الحال من كل فرقة كبيرة منهم كالقبيلة وأهل المدينة طائفة أى جماعة بقدر الحاجة ليتأتى لجملة المؤمنين التفقه فى الدين بأن يقوم الباقون فى المدينة معه ﷺ بحفظ ما يتجدد نزوله من الوحى، وليعلموا قومهم الذين نفروا للعدو إذا رجعوا إليهم رجاء أن يحذروا مخالفة ما نزل من الوحى وهم غائبون.. وبهذا يكون مجموع المؤمنين قد حافظوا على المصلحتين.

ولما كان القتال شرع لتأمين القائمين بالدعوة، كان الواجب أن يحمى ظهرهم بتطهير الوسط الذى يعيشون فيه من كل ما يخشى منه عليها، فقال سبحانه: ﴿يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ أى الأقرب فالأقرب، فطهروا المدينة أولا ثم ما حولها، ثم مكة ثم ما حولها، ثم جزيرة العرب، وهكذا، لأن قتال الأبعد مع ترك العدو الأقرب لا يخفى خطره خصوصا مع قوم لا أمان لهم.

وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾
وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ
هَٰذِهِ إِيمَانًا[1] فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ
رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ[2] ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ
أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ
وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ
إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم[3] مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ
قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ
مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

المفردات: ﴿غلظة﴾: المراد بها هنا الشدة فى حال القتال وعدم التساهل، فتشمل الجرأة والصبر.

﴿رجسا﴾: أصل الرجس الشىء القذر، والمراد هنا القذارة المعنوية، وهى الكفر والنفاق.

﴿يفتنون﴾: أى يختبرون حتى يظهر حالهم للناس.

﴿عزيز عليه﴾: أى شديد وشاق على نفسه.

﴿ما عنتم﴾: أى عنتكم والعنت بفتحتين كل مكروه يثقل على النفوس احتماله.

﴿العرش﴾: يراد به مركز تدبير أمور الخلق ولا تعلم حقيقته، انظر الآية (٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٥.

المعنى: ولتكونوا فى حال الحرب أشداء بعيدين عن التهاون مع الأعداء حتى يشعروا بقوتكم فينزجروا عن حربكم، واعلموا أن الله مع المتقين لمخالفته بالعون والتأييد. وما تقدم فى الآية ٧٣ من هذه السورة صفحتى ٢٥٣، ٢٥٤ يدل على دخول المنافقين فى الكفار المأمور بالشدة معهم، كل بحسبه. ولذا ذكر بعد الأمر بالشدة هنا بعض جرائم المنافقين لتبرير القسوة معهم فقال ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ إلخ: أى ومن أحوال المنافقين الشنيعة أنهم كانوا

---

(١) إيمانا.
(٢) كافرون.
(٣) يراكم.

إذا أنزلت سورة من القرآن عليه ﷺ فمن هؤلاء المنافقين خبثاء يقولون مستهزئين لضعفاء الإيمان للتشكيك ولإخوانهم المنافقين ليثبتوا على النفاق، يقولون مستهزئين: من فيكم زادته هذه السورة إيمانا؟

وأجاب سبحانه عن سؤالهم ليحزنهم بقوله: فأما الذين آمنوا إيمانا صادقا فزادتهم السورة يقينا واطمئنان قلب، وهم يستبشرون بنزولها، لأنه سبب لزيادة درجاتهم وأما الذين فى قلوبهم مرض النفاق فزادتهم كفرا ونفاقا مضموما إلى كفرهم السابق، واستمروا عليه حتى ماتوا وهم كافرون.

ثم وبخهم على غفلتهم بقوله ﴿أو لا يرون﴾ إلخ: أى أجهلوا ولا يعلمون أنهم يفتنون بالجهاد معه ﷺ، ويعاينون انتصاره فى كل عام مرة أو مرتين، ثم لا يتوبون عما هم فيه ولا يعتبرون بأن ما حصل لم يكن إلا بتأييد الله تعالى. ولما فرغ من حالهم عند نزول السورة وهم بعيدون عن مجلسه ﷺ، أراد أن يبين حالهم وهم بمجلسه الشريف.

فقال: وإذا ما أنزلت سورة تبين بعض جرائمهم أو تطلب الجهاد كما فى الآية (٢٠) من سورة محمد صفحة ٦٧٥، نظر بعضهم إلى بعض ليتفقوا على الهرب كراهة سماعها قائلين: هل يراكم إذا انصرفتم أحد! ثم انصرفوا من مجلسه ﷺ عند وجود الفرصة، صرف الله قلوبهم عن الإيمان لإصرارهم على النفاق بسبب عدم فهمهم الصحيح!

ثم خاطب سبحانه العرب جميعا ليوبخ من حاربه ﷺ منهم فقال ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ أى عربى مثلكم شديد على نفسه مشقتكم وما ينالكم من سوء العاقبة، انظر أول سورة الكهف صفحة ٣٨٠، حريص على إيمانكم وصلاح حالكم، بالمؤمنين منكم ومن غيركم، رءوف رحيم. تقدم بيانهما فى الآية (١١٧) من هذه السورة صفحة ٢٦٢.

ثم وجه سبحانه الخطاب له ﷺ تسلية له وتطمينا فقال: ﴿فإن تولوا﴾ إلخ: أى فإن أعرضوا عن الإيمان بك فقل لهم حسبى الله، أى كافينى كل شر، فهو خير لى منكم، لا إله إلا هو عليه وحده توكلت فلا أعول على غيره، وهو رب العرش العظيم، لا يعلم مقدار عظمته غيره سبحانه.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg

تيسير القرآن الكريم

للقراءة والفهم المستقيم

من سورة يونس إلى سورة العنكبوت

الجزء الثاني

لفضيلة الأستاذ الشيخ

عبد الجليل عيسى

شيخ كلية اللغة العربية

بالأزهر الشريف (سابقا)

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٩

■ الكتاب: تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم - الجزء الثانى.

■ المؤلف: فضيلة الشيخ عبدالجليل عيسى - شيخ كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف سابقا.

■ الطبعة الأولى: ١٩٥٨م.

■ الطبعة الثانية: ١٩٨٠م.

■ الطبعة الثالثة: ٢٠٠٩م.

■ طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

■ الغلاف والإخراج الفنى: أميمة على أحمد.

■ تصـــحيح: محمد صابر - أحمد حسن.

■ مـــراجعة: سعيد عبدالفتاح - أميمة على.

ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر

صدق الله العظيم

(١٠) سُورَةُ يُونُسَ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَمِائَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر[1] تِلْكَ ءَايَٰتُ[2] ٱلْكِتَٰبِ[3] ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ
لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ
ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ
رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ[4] إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ[5] مُّبِينٌ ﴿٢﴾
إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[6] وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ
إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ

سورة يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: . ﴿الر﴾: تقدم الكلام على مثل هذه الأحرف المقطعة أول سورة البقرة. ﴿أكان للناس﴾: الهمزة تفيد الإنكار وتعجيب السامع من حيرة مشركى العرب وتعجبهم. ﴿للناس﴾: المراد بهم مشركو العرب خاصة. ﴿أن أنذر﴾: أن حرف يدل على أن مابعده تفسير لما قبله، والإنذار إعلام بشىء مع التخويف من مخالفته. ﴿الناس﴾: المراد بهم هنا جميع المكلفين.

﴿قدم﴾: أصل القدم أسفل الرجل من الشخص، ثم أطلقت على السبق والتقدم فى كل شىء، يقال فلان له قدم فى العلم أى سابقٌ غيرَه فيه.

﴿صدق﴾، أصل الصّدق فى القول ضد الكذب، ثم استعمل فى صفات الفضائل المشرفة، انظر الآية (٨٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥.

﴿ستة أيام﴾: هى أوقات لايعلم مقدارها إلا الله عز وجل. ورد أن اليوم كألف سنة كما فى الآية (٤٧) من سورة الحج صفحة ٤٤٠، وورد أنه كخمسين ألف سنة كما فى الآية (٤) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥.

---

(١) الفْ لاَمْ را.
(٢) آيات.
(٣) الكتابْ.
(٤) الكافرون.
(٥) لساحر.
(٦) السموات.

﴿استوى﴾: تقدم فى شرح الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١، وهو استواء يليق به تعالى لايعلمه غيره.

﴿العرش﴾: تقدم فى آخر التوبة وأنه شىء عظيم لايعلم حقيقته إلا الله تعالى.

المعنى: ـ تلك الآيات الرفيعة المنزلة التى يتألف منها القرآن هى آيات الكتاب صاحب الحكمة فى معانيه ومبانيه. واعجب أيها السامع من استغراب كفار العرب أن يوحى الله إلى رجل منهم وحيًا هو الأمر بإنذار الناس جميعا بما شرعه الله مع تخويفهم من عصيانه، انظر الآية (٩٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧.

وبشر المؤمنين خاصة بأن لهم سبقا فى الفضل ومنزلةً رفيعةً عند ربهم، وكان من نتيجة تعجب هؤلاء الكفار أنهم لما رأوا عجزهم عن الإتيان بسورة من القرآن قالوا ليضللوا الناس: إن هذا الرجل لساحر مبين.

ثم أبطل الله تعالى تعجبهم وافتراءهم بقوله: إن ربكم أيها المنكرون هو الذى خلق العوالم العلوية التى فوقكم والأرض التى تعيشون عليها فى ستة أوقات، فى كل وقت منها طور من أطوارها، ثم استوى على عرشه الذى جعله مركزا لتدبير هذا الملك العظيم، ومَنْ كانت هذه قدرته وأحكامه فهو سبحانه قدير لايستكثر عليه أن يختار من عباده من يشاء لتبليغ رسالته إلى خلقه، فاحذروا غضبه عليكم، ولا تعتمدوا على غيره من معبوداتكم التى زعمتم أنها تشفع لكم عنده كما فى الآية (١٨) الآتية فى هذه السورة صفحة ٢٦٨، فإنه لايشفع عنده سبحانه أحد إلا بعد إذنه له بذلك إذنا مبنيا على الحكمة بأن يكون الشفيع من الأخيار، والمشفوع لهم ممَنْ رضى سبحانه عنهم، انظر الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦، والآية (٢٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣، والآية (٢٦) من سورة النجم صفحتى ٧٠١، ٧٠٢.

ذلكم العظيم الموصوف بما ذكر هو وحده الله ربكم الذى يستحق العبادة، فاعبدوه وحده ولاتشركوا به غيره أتجهلون كل هذا فلا تتذكرون فى خلقه لترجعوا إلى الحق، والحال أن رجوعكم جميعا فى الآخرة إليه وحده فيحاسبكم ويجازيكم، وقد وعد وعدًا حقا لايتخلف.

إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا[١] ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ[٢] بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ
حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ ٱلَّذِى
جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟
عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ
يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ[٣] لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ[٤] ٱلَّيْلِ[٥]
وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[٦] وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ[٧]
لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟
بِٱلْحَيَوٰةِ[٨] ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا[٩]
غَٰفِلُونَ[١٠] (٧) أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ[١١] ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٨)
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ[١٢] يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ[١٣] ۖ
تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ[١٤] فِى جَنَّٰتِ[١٥] ٱلنَّعِيمِ (٩) دَعْوَىٰهُمْ[١٦]

المفـــــردات: ـ ﴿الخلق﴾: المراد بهم هنا المكلفون، لأنهم هم الذين يبعثون ليحاسبوا. ﴿القسط﴾: العدل. ﴿حميم﴾: هو الماء الشديد الحرارة كما فى الآية (٤٤) من سورة الرحمن صفحة ٧١١. ﴿ضياء﴾: فى الأصل اسم مصدر وأريد به هنا اسم الفاعل، أى مضيئة، والضوء هو ماينشأ من الشىء بلا واسطة كضوء الشمس والنار والسراج، انظر الآية (٦١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٧. ﴿نورا﴾: هو ما ينشأ عن الشىء بواسطة غيره كنور القمر والمرآة. ﴿لآيات﴾: أى أدلة وبراهين دالة على وجوده تعالى وقدرته.

﴿لايرجون لقاءنا﴾: أى لايتوقعونه لأنهم ينكرونه ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾: يقول أبو السعود فى شرح ذلك: يهديهم بسبب إيمانهم إلى الجنة، وإنما لم يصرح بها اعتمادا على ظهورها من سياق الكلام، ولا سيما بعد ملاحظة ما سبقها من بيان مأوى الكفار وما لحقها من قوله جنات النعيم.

المعنى: ـ بيَّن سبحانه ما وعد به بأنه هو الذى أنشأ الخلق عند تكوينه أول مرة، ثم يعيده بعد موته للحساب والجزاء، فيجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما بيَّنه فى الآية (٩) هنا جزاءً عادلاً لاينقص من أجر أحدهم مثقال ذرة، ويجزى الذين كفروا بأن يسقيهم كلما استغاثوا من العطش ماء شديد الحرارة يقطع أمعاءهم، ثم يغرقهم بعد ذلك فى عذاب شديد

---

(١) يبدأ. (٢) الصالحات. (٣) الآيات. (٤) اختلاف.
(٥) الليل. (٦) السموات. (٧) لآيات. (٨) بالحياة.
(٩) آياتنا. (١٠) غافلون. (١١) مأواهم. (١٢) الصالحات.
(١٣) بإيمانهم. (١٤) الأنهار. (١٥) جنات. (١٦) دعواهم.

الألم، وذلك بسبب استمرارهم على الكفر انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥، والآية (١٥) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٤. ومن بلاغة القرآن أنه لايذكر المعلوم من السياق إلا لأغراض خاصة ولهذا لم يتعرض فى مجازاة الكفار للقسط اكتفاء بذكره فى مجازاة المؤمنين، ولم يذكر مايجازى به المؤمنين اكتفاء بذكر مقابله فى الكافرين.

ثم فَصّل سبحانه ما أجمله فى خلق السموات والأرض وتدبير الملك مما يدل على كمال القدرة على إرسال الرسل وبعث الخلق للحساب فقال: هو الذى جعل الشمس مضيئة، والقمر منيرا، وقدر سير القمر فى منازل كل ليلة فى واحدة لايختلف فى شهر عن شهر، وَمِنْ سَيْره هذا يتكون الشهر، ومنه تتكون السنون، فيعلم الناس عدد السنين وحساب العبادات كالصيام والحج والعِدَّة، والمعاملات كالإجارة والرهن، وغير ذلك، انظر الآية (١٨٩) من سورة البقرة صفحة ٣٧. ما خلق الله الشمس والقمر بهذا النظام إلا خلقا مقترنا بالحكمة والمصلحة، ولم يخلقه عبثا، انظر الآية (١٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١، والآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦. يجعل سبحانه الآيات الدالة على الحكمة مفصلة واضحة ينتفع بها قوم يستعملون عقولهم ولم يهملوها فيكونوا كالأنعام كما فى الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢، ثم أتبع هذه الآيات السماوية بالإشارة إلى جميع الآيات سماويةً وأرضيةً، فقال ﴿إن فى اختلاف الليل والنهار﴾ بما تقدم فى الآية (١٦٤) من سورة البقرة صفحة ٣١، ﴿وماخلق الله فى السموات والأرض﴾ من جمادات مختلفة، وحيوانات متنوعة، ونباتات لاتحصر، دلائل وبراهين على وجود صانع حكيم ينتفع بها قوم يتقون الله ويخافون عاقبة الإهمال، انظر آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٥، ثم بيَّن سبحانه حال مَنْ كفر بالبعث لغفلته عن النظر فى الآيات فقال: إن الذين لايرجون لقاءنا يوم القيامة للحساب، ورضوا بمتاع الحياة الدنيا، واطمأنوا بزخارفها، وارتاحت نفوسهم لشهواتها بسبب غفلتهم عن تدبر آياتنا، أولئك مسكنهم فى الآخرة نار جهنم بسبب استمرارهم مدة حياتهم على اكتساب الخطايا . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيهديهم ربهم بسبب إيمانهم الصادق وعملهم الصالح إلى دار السعادة حال كونهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم، ويكون دعاؤهم فيها ....

فِيهَا سُبْحَٰنَكَ[1] ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ[2] وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ[3]
أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ[4] ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ
لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ
فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ[5] يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾
وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ[6] ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا
فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ
مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾
وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ[7] وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ[8] خَلَٰٓئِفَ[9] فِى ٱلْأَرْضِ
مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَاتُنَا[10] بَيِّنَٰتٍ[11] قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ[12]

المفـردات : ـ ﴿لقضـى إليـهم أجلهم﴾ : أى لقضى الله بوصول نهاية أجلهم إليهم، فالمراد لأهلكهم. ﴿فنذر﴾ أى فنترك . ﴿يعمهون﴾ : أى يتحيرون ويرتبكون فلا يهتدون إلى صواب ﴿القرون﴾ : جمع قرن، تقدم بيانه فى الآية (٦) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٢، ١٦٣ ﴿خلائف﴾ : أى خلفاء لمَنْ قبلكم كما تقدم فى الآية (١٦٥) من سورة الأنعام صفحة ١٩٢، والآية (٧٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٤.

المعنى : ـ يكون دعاؤهم هو قولهم : سبحانك اللهم، أى ننزهك عن كل نقص بالله، وتحيتهم التى تحييهم بها الملائكة هى قولهم: سلام عليكم من كل مكروه، انظر آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥، والآية (٢٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤. وختام دعائهم: الحمد لله رب العالمين، انظر آخر سورة الزمر. ثم أراد سبحانه أن يبيّن حالاً من أحوال الإنسان التى جاءت الشرائع لتنظيمها بالصبر واستعمال العقل لأن تركها بدون تنظيم يجر إلى مخاطر كثيرة، وهو حب العجلة، وطلب الأشياء قبل أوانها، الذى يجر إلى التسرع فيما يضر تحت تأثير غضب أو عناد أو جهل أو استهزاء، انظر الآية (١١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥ والآية (٣٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤. ومن آثار هذه الحالة اندفاع المشركين إلى الاستهتار بتوعد الله لهم بالعذاب، وتخويفهم من يوم الحساب، انظر آيات (٧٠) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٣ و (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، و (٢٥) من سورة الملك صفحتى

---

(١) سبحانك. (٢) سلام. (٣) دعواهم. (٤) العالمين.
(٥) طغيانهم. (٦) الإنسان. (٧) بالبينات. (٨) جعلناكم.
(٩) خلائف. (١٠) آياتنا. (١١) بينات. (١٢) بقرآن.

٧٥٦، ٧٥٧. فقال سبحانه فى ذلك، ولو يعجل الله للناس، خصوصا الذين لا يرجون لقاء ربهم، الشرَّ الذى يستعجلونه سفها كاستعجالهم للخير، وهذا الشر هو عذاب الإفناء، لأهلكهم جميعا، ولكنه سبحانه لم يعجل لأنه قدَّر لهذه الأمة البقاء إلى قيام الساعة؛ لذلك ترك هؤلاء الكفار فى طغيانهم يتحيرون ولا يهتدون ليزدادوا إثما فيزدادوا عذابًا.

ثم شرع سبحانه فى بيان شأن آخر من شئون الإنسان هو أنه إذا اشتد به كرب لجأ إلى الله يدعوه ليكشفه عنه، فإذا أنقذه نسى الله ولم يؤد حقه، انظر الآية (٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣. فقال ﴿وإذا مس الإنسان الضر﴾ كشدة مرض أو خوف من غرق مثلا، دعا الله ليكشفه عنه من كل حال من أحواله، سواء كان مضطجعا لجنبه، أو قاعدا فى داخل بيته، أو قائما على قدميه، حائرا فى أمره، فلما كشفنا عنه ضره مضى واستمر على ما كان عليه قبلا من عصيان الله، ونسى حال البلاء كأنه لم يُصَبْ ولم يَدْعُ إلى ضر مسه.

كهذا النحو من معرفة الله فى الشدة ونسيانه فى الرخاء زين الشيطان للمسرفين فى الكفر من طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون. ثم هدد كفار مكة بقوله: ولقد أهلكنا القرون الذين مضوا قبلكم كقوم نوح وعاد وثمود حين ارتكبوا الظلم، وأشده الشرك كما فى الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠، والحال أن رسلهم جاءتهم بالبينات القاطعة على صدق ما جاءوا به، وما كانوا ليؤمنوا أبدًا لو بقوا أحياء لتمكن الكفر من قلوبهم؛ كهذا الجزاء الشديد نجزى كل مجرم. ثم جعلناكم يا مَنْ أرسل إليكم محمّد خلفا لتلك الأمم التى عذبناها على عصيانها لننظر كيف تعملون بعد ماعلمتم ما حل بهم، ونجازيكم على عملكم من خير أو شر، انظر الآية (٤١) من سورة الحج صفحة ٤٣٩. وبعدما سفه المشركين على إنكارهم الوحى وأقام على ذلك الحجج، أراد أن يبيِّن بعض جناياتهم المنافية لما أريد من استخلافهم فى الأرض فقال: ﴿وإذا تتلى﴾ إلخ؛ أى وإذا تتلى على كفار مكة آياتنا المنزلة حال كونها واضحات فى الدلالة على الحق، قال الذين لا يرجون لقاءنا المتقدم ذكرها قريبا للرسول الذى يتلو عليهم القرآن: إئت بقرآن إلخ ...

غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاى
نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن
عصيت ربى عذاب يوم عظيم ﴿١٥﴾ قل لو شاء الله
ما تلوته عليكم ولا أدريكم به فقد لبثت فيكم
عمرا من قبله أفلا تعقلون ﴿١٦﴾ فمن أظلم ممن
افترى على الله كذبا أو كذب بـايـته إنه لا يفلح
المجرمون ﴿١٧﴾ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم
ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعؤنا عند الله قل
أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموت ولا فى الأرض
سبحنه وتعلى عما يشركون ﴿١٨﴾ وما كان الناس
إلا أمة وحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك
لقضى بينهم فيما فيه يختلفون ﴿١٩﴾ ويقولون لولا أنزل

المفردات : ـ ﴿تلقاء نفسى﴾ : أصل تلقاء اسم مصدر من لقى كرضى لقاء، وأريد به ظرف مكان نحو جهة أو عند كما فى الآية (٢٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٩. ﴿لبثت فيكم عمرًا﴾: أى مكثت فى وسطكم عمرًا طويلاً.

أمة واحدة فاختلفوا تقدم بيانها فى الآية (٢١٣) من سورة البقرة صفحتى ٤١، ٤٢. ﴿كلمة سبقت من ربك﴾: هى وعده سبحانه وتعالى بتأخير جزائهم التام إلى يوم القيامة و﴿لولا﴾ حرف يدل على المبالغة فى طلب ما بعده.

المعنى : ـ إئت يا محمّد بقرآن غير هذا ليس به ما لا نعقله من البعث، ولا ما نكرهه من ذم آلهتنا، أو بدله بأن تجعل بدل الآية التى فيها ما لا نريد آية أخرى فيها ما نحب. وكان سؤالهم هذا مكيدة وخدعة يطمعون أن يجيبهم ﷺ إلى ما يطلبون، فيعلنوا فى الناس أن محمدًا كاذب فى قوله إن هذا القرآن من عند الله، لأنا طلبنا منه قرآنا غيره فجاء به. فرد سبحانه طلبهم التبديل بقوله: قل لهم ما يصح لى حتى لو فرض المحال وكنت أستطيع أن أبدله من عند نفسى ما أتبع فيه إلا ما يوحيه ربى إلىّ بدون تصرف فيه، لأنى أخاف إن عصيت ربى بالتصرف فيه عذاب يوم عظيم الخطر. ثم لقنه الجواب عن السؤال الأول، وفصله عن الثانى لأهميته، فقال: وقل لهم ردًا على الاتيان بغيره: ليس هذا القرآن من عندى حتى آتيكم بغيره، بل هو من عند الله، ولو شاء عدم إنزاله على ما تلوته عليكم، حتى لو شاء أن يذهبه من قلبى لفعل كما فى الآيات من (٨٥ إلى ٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦ وبذلك ما كنتم تدرون بشىء منه. ثم أرشدهم إلى الدليل القاطع بصدقه وجهلهم فقال: ﴿فقد لبثت﴾ إلخ، أى كيف تطلبون هذا مع أنى أقمت فيكم وخالطتكم تمام المخالطة أربعين سنة لم تعرفوا عنى فيها أنى خطيب كفحول خطبائكم، بل ماكنت أعلم شيئًا

(١) تلقاء. (٢) أدراكم. (٣) بآياته. (٤) شفعاؤنا. (٥) اتنبئون.
(٦) السموات. (٧) سبحانه. (٨) وتعالى. (٩) واحدة.

من علوم هذا القرآن حتى الإيمان الصحيح ماكنت أعرفه، انظر آيتى (٤٨) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٧، و (٥٢) من سورة الشورى صفحة ٦٤٦. فهل تجهلون كل هذا أفلا تعقلون استحالة الإتيان بمثل هذا القرآن من مخلوق خصوصا مثلى فى الأمية. ثم أراد أن يبيّن لهم أن شر أنواع الظلم شيئان، الأول: افتراء الكذب على الله كالذى كانوا يقترحونه على النبى ﷺ، والثانى التكذيب بآياته كما كذبوا؛ لأن كلا منهما جرم شنيع، والمقرر فى سنة الله سبحانه الجارية فى خلقه أن المجرم لايفلح أبدًا. انظر آيات (٢١، ١٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٥، ١٨٧، و(٣٧) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٧، ١٩٨. ثم بيَّن سبحانه ماجرأهم على الكفر فقال: ويعبدون من دون الله مخلوقات لاتضرهم إذا لم يعبدوها، ولاتنفعهم إن عبدوها ويقولون لتبرير عبادتهم هؤلاء الذين نتقرب إليهم بالذبائح والنذور والطواف حولهم والاستغاثة بهم لأنهم مقربون إلى الله، فبواسطتهم يقربوننا إليه بشفاعتهم لنا لأنا عصاة والعاصى لايصح أن يخاطب ربه. فالمنكرون البعث يشفعون لهم فى رفع بلاء الدنيا وكثرة الخير، أنظر الآية (٣٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٠، والشَّاكُّونَ فيه يحتاطون بعملهم هذا خوف أن يكون البعث صحيحا، انظر الآية (٣٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦، و (٥٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧، فرد سبحانه عليهم بقوله (قل اتنبئون) إلخ أى أتخبرون الله بما لايعلم له أصلا لا فى السموات ولا فى الأرض، ومالايعلمه الله مستحيل أن يوجد، لأنه لو كان هناك شفعاء فى السموات كالملائكة، أو فى الأرض كمعبودات المشركين لَعَلِمَهُ، سبحانه وتعالى عما يشركون. ثم أراد سبحانه أن يسلى رسوله بأن اختلاف الناس طبع من طبائعهم فلا تحزن إذا لم يتبعوك جميعا، فقال: وماكان الناس فى حال من الأحوال إلا أمة واحدة مميزة عن جميع أمم الحيوانات الأخرى المشار إليها فى الآية (٣٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، لها خصائص العقل والتفكير، وذلك يستدعى الاختلاف تبعا لاختلاف الرغبات كما تقدم تحقيق ذلك فى الآية (٢١٣) من سورة البقرة صفحتى ٤١، ٤٢. ولولا كلمة سبقت من ربك بأن يؤخر جزاءهم ليوم القيامة لعجله لهم فى الدنيا وقضى بينهم فيما اختلفون فيه بإهلاك المبطل منهم ونجاة المصلح، انظر الآية (٩٣) الآتية صفحتى ٢٨٠، ٢٨١. وبعدما أبطل سبحانه خديعتهم باقتراح تبديل القرآن شرع فى بيان نوع آخر من تعنتهم وتبريرهم الكفر بنبوته ﷺ، وهو ادعاؤهم أنه لو كان رسولا حقا لأنزل الله تعالى عليه معجزة موسى وعيسى، أو معجزة مما يقترحونه عليه، انظر الآيات (٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠، و (٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧١، و (٤٨) من سورة القصص صفحتى ٥١٣، ٥١٤، و (٥٠، ٥١) من سورة العنكبوات صفحة ٥٢٨، وغير ذلك.

عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى
مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ
بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ
مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى
يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ
وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ
دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ
فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ
أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ

المفـردات: ـ ﴿مكر فى آياتنا﴾: المكر هو التـدبيـر الخـفى شـرا أو خـيـرًا، والمراد مكر بالطعن فى آياتنا.

﴿أسـرع مكرا﴾: من سـرع سـرعـا بوزن صغر إذا صار سريعا.

﴿رسلنا﴾: هم الحـفظة المشـار إليهم فى الآيات (١٠، ١١، ١٢) من سـورة الانفطار صفحتى ٧٩٥، ٧٩٦.

﴿الفلك﴾: يطلق على السـفـينة الواحـدة وعلى الجمع.

﴿ريح عاصف﴾: أى شديدة قوية تعصف كل ما يلاقيها.

﴿أحيط بهم﴾: أى أحاط بهم الموج فلا خلاص لهم من الهلاك.

المعنى: ـ قل لهم أيها النبى فى رد طلبهم الآيات: إنما الآيات من عند عالم الغيب سبحانه وتعالى، فهو الذى يعلم الآيات وأوقات نزولها حسب حكمته، وأنا لا أعلم إلا مايوحيه إلىَّ، فانتظروا مايفعل الله بى وبكم إنى معكم منتظر.

وفيه تهديد لهم بالعذاب، انظر آيتى (١٠١، ١٠٢) من هذه السورة صفحة ٢٨٢، والآية (٩) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧.

ثم أراد سبحانه أن يبين طبيعة عنادهم فى صورة أخرى فقال ﴿وإذا أذقنا الناس﴾ أى وإذا أذقنا هؤلاء الكفار أثرًا من آثار رحمتنا كصحة وغنى من بعد ضراء مستهم كمرض وقحط ما

---

(١) الشاكرين. (٢) أنجاهم. (٣) متاع. (٤، ٥) الحياة

كان منهم إلا المبادرة إلى المكر بالطعن فى آياتنا المنزلة للهداية، وبتشكيك الضعفاء فيها والاحتيال على إبطال أثرها فى النفوس. قل أيها النبى لهؤلاء الذين يسرعون فى المكر: الله أسرع مكرا منكم، لأنه سبق أن قدر أنه سيعاقبكم على خبثكم فى الدنيا قبل الآخرة.

ثم أكد ما سيحصل لهم بقوله: إن رسلنا يكتبون كل ماتمكرون به فى صحفكم فلا تظنوا أن مكركم خاف علينا، والله هو الذى سخر لكم البحر والريح والفلك والدواب وغيرها لتسيروا بها فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى أثناء سيركم فى البحر راكبين فى السفن وجرت بهؤلاء الكفار، وإنما لم يقل ﴿بكم﴾ إعراضا عن خطابهم احتقارا لهم، بريح لينة موافقة لغرضهم، وفرحوا بسهولة الريح، بينما هم كذلك هبت على سفنهم ريح شديدة تحطم كل مايلاقيها، واضطرب البحر، وأحاط بهم الموج حتى اعتقدوا أنهم هالكون، دعوا الله فى تلك الحالة ليكشف عنهم، مخلصين له فى الدعاء والطاعة، قائلين يارب وعزتك لئن أنجيتنا من هذه الشدة لنكونن من الشاكرين لنعمتك بالتوحيد والطاعة؛ لأن الشدة نبهت الفطرة، ورفعت عنها الغطاء الباطل الذى أفسدوها به من اتباع الآباء وتغليب الشهوات.

قال الألوسى فى تفسيره: ومن المحزن أن يكون حال المسلمين الآن أتعس من حال مشركى العرب؛ لأن كثيرا منهم الآن إذا وقع فى شدة يستنجد بغيره تعالى، مع أن المشركين نسوا فيها كل ماعداه. فلا حول ولا قوة إلا بالله فلما استجاب الله دعاءهم ونجاهم من الغرق إذا هم يفاجئون الناس فى الأرض التى وصلوا إليها بالبغى عليهم والظلم، بعيدين عن الحق الذى كان يجب أن يكون منهم شكرًا لله ثم هددهم سبحانه هم وأمثالهم بقوله: ياأيها الناس الضالون الغافلون إنما وبال بغيكم عائد على أنفسكم؛ لأنه إنما تتمتعون به متاع الدنيا الفانية ثم إلينا مرجعكم فى الآخرة فننبئكم بعملكم الذى داومتم عليه، ونجازيكم شر الجزاء. ثم أراد سبحانه أن يصور حقارة المتاع الفانى بما يمنع العاقل من البغى لأجل الحصول عليه فقال سبحانه وتعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء﴾ إلخ.

أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا
يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ
أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ
بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾
وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ
وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ
سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ
كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا

المفـردات: ـ ﴿أتاها أمـرنا﴾: أى نزل بهـا أمرنا المقدر لإهلاكها.

﴿حصيدا﴾: أى محصورا، والمراد هالكًا كما فى الآية (١٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١.

﴿لم تغن بالأمس﴾: أى كـأن لم يكن موجودا نباتها بالأمس، انظر الآية (٦٨) من سورة هود صفحة ٢٩٤.

﴿وزيادة﴾: هى النعيم الروحى بالنظر إلى وجهه الكريم.

﴿لا يرهق وجوههم﴾: يقال رهقه الشىء إذا تغلب عليه حتى غطاه مع تضايقه منه، ويقال أرهقه، انظر الآية (٧٣) من سورة الكهف صفحة ٣٩١.

﴿قتر﴾: هو الدخان الصاعد من اللحم المشوى، ويكون مشوبا بشىء من الدهن، فإذا علقت غبرته بالوجه قبح منظره وفيها إشارة إلى أنه صاعد من شىٍّ جنوبهم بالنار.

﴿أغشيت﴾: جعل لها غشاء وغطاء.

المعنى: ـ إن مثل متاع الدنيا فى افتتان الناس به مع سرعة زواله مع ظنهم أنهم تمكنوا منه، كمثل الأرض التى نزل عليها الماء فأنبتت أنواعا شتى من النبات تشابكت بسبب الماء أغصانه وأوراقه واختلط بعضها ببعض من قوة نموه وكثرة أغصانه، وكان فى هذا النبات ما يغذى الإنسان والحيوان كما فى الآية (٥٤) من سورة طه صفحة ٤١٠، والآية (٢٤) ومابعدها من

---

(١) أنزلناه. (٢) والأنعام. (٣) قادرون. (٤) أتاها. (٥) فجعلناها. (٦) الآيات. (٧) السلام.
(٨) صراط. (٩) أصحاب. (١٠) خالدون. (١١) الليل. (١٢) أصحاب. (١٣) خالدون.

سورة عبس صفحة ٧٩٢، حتى إذا استوفت الأرض حسنها وبهجتها، وازينت بأشكال النبات وألوانه، وظن أهلها أنهم قادرون على التمتع بها، أمرنا بإهلاك كل مافيها فى ليل أو نهار على غرة منهم، فلم يبق من زرعها شىء حتى كأنه لم يكن موجودًا بالأمس كهذا المثل فى بيانه لحقيقة الدنيا وغرور الناس بها وسرعة زوالها نفصل الآيات فى حقيقة التوحيد وأحوال التشريع تفصيلا ينتفع به المفكرون دون الغافلين.

وبعد مابيَّن سبحانه غرور الغافلين أتبع ذلك بما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع المقارنة بين حال كل منهما فقال ﴿والله يدعو﴾ إلخ؛ أى إذا كان الإسراف فى حب الدنيا والبغى للحصول عليها يدعو إليه الشيطان فيسوق متبعيه إلى دار الهلاك، فالله تعالى يدعو عباده إلى دار السلام وهى الجنة التى فيها السلامة من كل كدر وتحية أهلها السلام، ويهدى مَنْ يشاء ممَنْ حسن استعداده إلى طريق الخير، ويجازى الذين أحسنوا أعمالهم بالمثوبة الأكثر حسنًا، لأنها مضاعفة إلى عشر، انظر الآية (١٦٠) من سورة الأنعام صفحة ١٩١.

ويزيدهم من فضله بنعيم روحى عظيم ويصون وجوههم فلا يغشاها غبرة ولا ذل أولئك المحسنون هم أصحاب الجنة وحدهم خالدين فيها.

والذين عملوا السيئات من الكفر والمعاصى جزاء كل سيئة منهم مقدرة بمثلها فقط، وترهقهم ذلة، ولا يعصمهم أحد، ولايمنع عنهم عذاب الله، وبلغ من سواد وجوههم أنها تصير كأن رجلا غطاها قطعا بعضها فوق بعض من ليل شديد الظلمة ليس فيه نور قمر ولا لمعان نجم، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، انظر آخر سورة عبس صفحة ٧٩٣.

وأذكر أيها النبى لفريقى الناس المتقدم ذكرهم يوم نحشرهم جميعا فى موقف الحساب، انظر الآية (٢٢) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥، والآية (١٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢، وغير ذلك كثير.

المفردات: ـ ﴿مكانكم﴾: المراد الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم لاتغادروه حتى نفصل بينكم.
﴿فزيلنا بينهم﴾: أصله من زلت الشىء عن مكانه أى باعدته عنه، فالمراد فرقنا بينهم

ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا
بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾
فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ
لَغَٰفِلِينَ[1] ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا
إِلَى اللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ[2] الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾
قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ[3] وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ
الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَٰلُ[4] فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾
قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَؤُا[5] الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ

فتخاصموا وتقطع ماكان بينهم من علاقات، انظر الآية (١٦٦) من سورة البقرة صفحة ٣٢، والآية (٩٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨.

﴿هنالك تبلوا﴾: أى فى مكان الحشر تختبر كل نفس.

﴿ماأسلفت﴾: أى قدمت من عمل.

﴿وضل عنهم﴾: أى ذهب وغاب.

﴿يفترون﴾: أى يختلفون من الكذب.

﴿أمن يملك﴾: أصلها أم من يملك، وأم حرف يدل على الانتقال كحرف بل.

﴿يخرج الحى من الميت﴾ إلخ: تقدم فى الآية (٩٥) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨. ﴿فأنى﴾: فكيف. ﴿حقت كلمة ربك﴾: أى حكمه.

المعنى: . لما قال فيما تقدم ما لهم من الله من عاصم، بيَّنه بذكر ما سيكون من عدم نفع شركائهم بقوله فنقول للمشركين منهم: الزموا مكانكم أنتم وماجعلتموهم شركاء لله حتى نقضى فى أمركم، وقطعنا ما كان بينهم من علاقات حتى تخاصموا وتبرأ بعضهم من بعضهم. ولما كان ما أشركوا به أنواعا كثيرة منها الشمس والقمر كما فى الآية (٢٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٧؛ والنجوم كما فى شرح كلمة الصابئين فى الآية (٦٢) من سورة البقرة صفحتى ١٢، ١٣؛ والبقر عند مجوس الهند وقدماء المصريين، والأصنام والملائكة كما فى الآية (٤٠) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨، والمسيح والعزير، والأحبار والرهبان كما فى الآية (٣١) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥، ولما كان أكثر ما ذكر جمادات يبعد أن تحشر وتخاصم، وكان أساس كل الشرك هو إبليس وجنوده، صح هنا أن يكونوا هم المقصودين بقوله ﴿وشركاؤكم﴾ انظر نسبة الشرك إلى الشياطين فى الآيات (١٠٠، ١٢١، ١٢٨) من سورة الأنعام صفحات ١٧٩، ١٨٢،

---

(١) لغافلين. (٢) مولاهم. (٣) الأبصار. (٤) الضلال. (٥) يبدأ.

١٨٤، والآية (٣٠) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦، والآية (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣، والآية (٢٩) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢. وهذا لايمنع أن يسأل بعض معبوداتهم العاقلة فى موقف آخر كما فى الآية (١١٦) من سورة المائدة صفحتى ١٦٠، ١٦١، وقال شركاؤهم ما كنتم تعبدوننا، أى إنما كنتم تعبدون شهواتكم التى أطعتموها باختياركم كما فى الآية (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣، وإذا أنكرتم فالله شهيد عليكم وشهادته تكفى وتغنى عن كل شهادة. ثم بلغت بهم الحيرة والدهشة حدا جعلهم كالمجانين يكذبون الكذب المفضوح، فقالوا إنا كنا غافلين عن عبادتكم وطاعتكم لنا، كما فعلت هذه الدهشة فعلها بالمشركين فى آيات (٢٢، ٢٣، ٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥.

فى هذا الموقف العصيب تختبر كل نفس مؤمنة أو كافرة ما قدمت من عمل، فتشاهد نفعه أو ضرره أتم مشاهدة، ورد هؤلاء المشركون إلى جزاء الله مولاهم الحق لا ما اتخذوهم آلهة بالباطل، وغاب عنهم ما كانوا يفترونه من أن لهم شفعاء يشفعون لهم. قل أيها النبى لهؤلاء المشركين لعلهم يتنبهون: مَنْ يرزقكم من السماء بسبب المطر والشمس والأرض بخيراتها، بل أسألكم عما يتصل بذواتكم وأقول: مَنْ يملكُ التصرف فى أسماعكم وأبصاركم بهذا الصنع العجيب ويحفظها مع كثرة تعرضها للتلف ومَنْ يخرج الحى من الميت وبالعكس، ومَنْ يدبر أمر العالم كله؟

فسيقولون بلا تردد: الذى يفعل كل ذلك هو الله وحده، إذ لا مجال للمكابرة لغاية وضوح عجز المعبودات عن شىء من ذلك، فقل لهم: أبعد ذلك تشركون به فلا تتقون عذابه. ثم قرر نتيجة ما تقدم فقال: فذلكم المتصف بالصفات التى اعترفتم بها هو ربكم الحق فهل بعد الحق شىء يتبع إلا الضلال، فكيف تصرفون عن الحق؟ وكما ثبت أنه ليس بعد الحق إلا الضلال ثبتت كلمة ربك، أى حكمه على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون، ماداموا مصممين على الفسق. ثم احتج عليهم بشىء آخر فقال على سبيل التوبيخ وإلزام الحجة مع إهمال إنكار بعضهم البعث لأنه لايصح أن يلتفت إليه، ولأنه كابتداء الخلق سواء بسواء، بل الإعادة أهون، انظر الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤، فقال: قل لهم هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيد المكلف منه للحساب. والمراد إذا كنتم مؤمنين بأن الله هو الذى خلقكم من العدم فيجب أن تؤمنوا بأنه هو الذى يحييكم.

(الجزء الحادى عشر) ٢٧٢

قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾
قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ
يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن
لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾
وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ
شَيْـًٔا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَـٰذَا
الْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِى
بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ
الْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ
مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا۟ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ
صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ
تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ

المفردات: - ﴿فأنى﴾: فكيف. ﴿تؤفكون﴾: تصرفون عن الحق كما تقدم فى الآية (٣٢) من هذه السورة صفحة ٢٧١. ﴿لايهدى﴾: أى لايهتدى ﴿أن يفترى﴾: أن والفعل فى تأويل مصدر أريد به اسم المفعول، أى مفترى. ﴿الذى بين يديه﴾: أى ما سبقه. ﴿الكتاب﴾: المراد جنسه، فيشمل جميع الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم إلخ.

﴿ولما يأتهم﴾: لما حرف يفيد نفى ما بعده مع انتظار وقوعه كما فى قوله فى الآية (٨) من سورة ص صفحة ٥٩٨.

﴿لما يذوقوا عذاب﴾ : أى وسيذوقونه.

﴿تأويله﴾: أى مايؤول إليه حالهم من العذاب آخر الأمر.

المعنى: - وإذا كان لايستطيع أحد من شركائكم أن يبدأ الخلق ولايعيده، فالله وحده هو الذى يفعل ذلك، فكيف بعد ذلك يصرفكم الشيطان عن الحق إلى الباطل. ثم قل لهم أيها النبى أيضا: هل يوجد واحد ممَنْ جعلتموهم شركاء لله يهدى غيره إلى الحق بأن يخلق له عقلا ويرسل له رسلا وينزل كتبا إلى غير ذلك؟ فإذا استحال ذلك على غير الله فقل لهم: الله وحده هو الذى يهدى جميع العقلاء إلى الحق، وحيث إن الأمر كذلك هل مَنْ يقدر فيهدى غيره إلى الحق أحق أن يتبع فيما يأمر به أم مَنْ لايهتدى إلى الصواب إلا بعد أن يهديه غيره؟ فأى شىء حصل لكم فى عقولكم حق اتخذتم هؤلاء العاجزين شركاء لله؟ ثم أنكر عليهم وجعل السامع يتعجب منهم فقال: ﴿كيف﴾ أى كيف تحكمون بالباطل الذى يرفضه العقل؟ ثم بيَّن سبب أخطاء حكمهم فقال: وما يتبع أكثرهم فى معتقداتهم ومجادلاتهم إلا ظنًا ضعيفًا

---

(١) يبدأ. (٢) أم من. (٣) القرآن. (٤) الكتاب. (٥) العالمين. (٦) افتراه. (٧) صادقين.

مستندا إلى خيالات، والظن مطلقا فضلا عن الضعيف منه لا يغنى عن اعتقاد الحق شيئا من الإغناء ولو قليلا؛ لأن العقائد لابد فيها من العلم القاطع، وإنما قال أكثرهم لأن قايلا منهم كان يعلم الحق تمام العلم ولكن ينكره حسدا واستكبارا كما فى الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥؛ إن الله يعلم بفعلهم وسيجازيهم شر الجزاء. ولما كان عمدة الدين هو القرآن اهتم سبحانه بإقامة الحجج على بطلان كل ما يحاولون به صرف الناس عنه، فبعدما أبطل مكرهم فى الآية (١٥) من هذه السورة صفحتى ٢٦٧، ٢٦٨، أراد هنا أن يخرسهم بحجة أخرى لا تمكنهم المكابرة فيها فقال: ﴿وماكان﴾ إلخ، أى لا يصح أن يكون هذا المعجز لجميع البشر فى أسلوبه ومعناه مفترى من أحد على الله، ولكنه كان تصديق كل ما سبقه على لسان الرسل، كدعوة إبراهيم فى الآية (١٢٠) من سورة البقرة صفحة ٢٥، وبشارة موسى وعيسى به ﷺ كما فى الآية (١٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨، وتفصيل ما أجمل فى كتب موسى وعيسى، لاشىء فيه محل للشك، لأنه تنزيل من رب العالمين. ثم بعد ما بيَّن سبحانه أن القرآن أعلى من أن يفترى، انتقل إلى حكاية عنادهم وزعمهم أن محمدًا افتراه ليبطلهما فقال منكرًا عليهم: أم يقولون أن محمدًا افتراه؟ فإن قالوا ذلك فقل تبكيتا لهم وتعجيزًا: فأتوا بسورة ولو قصيرة تكون مثله فى أسلوبه وتأثيره وعلمه بجميع أسرار الخلق ما وجد منها وما لم يوجد مما أثبتت الأيام صدقه فيه، وادعوا لمساعدتكم مَنْ استطعتم دعوته من الإنس والجن إن كنتم صادقين فى أن محمدًا افتراه، لأنكم بشر مثل محمد، بل فيكم مَنْ اشتهر بالخطابة قبل محمد كما تقدم فى الآية (١٦) من هذه السورة صفحة ٢٦٨. وكما سيأتى فى الآية (٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦، وبعد ما أقام عليهم الحجة انتقل إلى بيان بعض ما كذبوه من القرآن لظنهم أنه محال أو لكراهتهم لوقوعه، وهو ما أنذرهم به من عذاب.. يحل بهم فى الدنيا والآخرة إذا لم يؤمنوا، فقال ﴿بل كذبوا﴾ إلخ؛ كذبوا بما لم يعلموه من جميع وجوهه حتى يصح لهم الحكم الصحيح، والحال أن هذا العذاب الذى لم يقع لهم إلى الآن سيقع قطعًا، انظر الآية (١٥٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٦. وهذه هى عادة الكفار مع رسلهم فكما كذب هؤلاء رسولنا محمّدا لما توعدهم بالعذاب كذب الذين من قبلهم رسلهم، ولكنه وقع رغم تكذيبهم فانظر أيها السامع كيف كانت عاقبتهم، انظر الآية (١٠٥) ومابعدها إلى الآية (٢٠٩) من سورة الشعراء خصوصًا الآية (١٣٨)، والآية (١٨٧) صفحات من ٤٨٦ إلى ٤٩٢.

كَانَ عَٰقِبَةُ[1] ٱلظَّٰلِمِينَ[2] ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ
وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾
وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ
مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم
مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟
لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى
ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ
شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ
كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ
قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾
وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا
مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ

المفردات : ـ ﴿لم يلبثوا﴾ : ـ أى لم يمكثوا.

﴿وإما نرينك﴾ · أصلها إن بكسر فسكون ما نرينك، وما حرف يدل على شدة ارتباط الشرط ﴿نرينك﴾ بالجزاء

﴿فإلينا مرجعهم﴾.

المعنى: ـ فتأمل كى تعلم على أى حال من الهلاك كانت عاقبة الظالمين. ومن كفار قومك أيها النبى مَنْ يؤمن فى الباطن بأن القرآن كلام الله حقا وإنما يكذبه فى الظاهر حسدًا وكبرًا كما كان حال أهل الكتاب وقوم فرعون، انظر الآية (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨، والآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥.

ومنهم مَنْ لا يؤمن به جهلا وتقليدا لغيرهم، ومن هؤلاء مَنْ فى آيتى ٤٢، ٤٣ هنا، وربك أعلم بمَنْ يفسد فى الأرض بالشرك والظلم، وإن أصروا على تكذيبهم فقل لهم لى عملى لا أجازى إلا عليه، ولكم عملكم لا تجازون إلا عليه، كما فى الاية (٥٢) الآتية صفحة ٢٧٤، والآية (٥٤) من سورة النور صفحة ٤٦٦، فأنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ففيه تهديد لهم ليتنبهوا من غفلتهم، انظر الآية (٣٥) من سورة هود صفحة ٢٨٩، والآية (٢١٦) من سورة الشعراء ٤٩٣، ومن هؤلاء المشركين أناس يستمعون إليك إذا قرات القرآن أو بينت ما فيه من العبر، ولكن لا يفهمون ولاينتفعون، فهم كالصم، أفأنت تسمع الصم ولو جمعوا مع الصمم عدم العقل، انظر الآية (٢٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٥، ١٦٦.

---

(١) عاقبة. (٢) الظالمين.

ومنهم فريق ينظر إليك ولكن لا يبصرن ما آتاك الله من نور الإيمان وهيبة الخشوع وسكينة المؤمنين، فهم كالعمى أفأنت تهدى العمى ولو جمعوا مع البصر فقد البصيرة، انظر الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢.

وإنما جمع المستمعين وأفرد الناظر للإشارة إلى كثرة السامعين، لأن السامع يسمع من كل جهة، أما الناظر فلا يرى إلا ما أمامه، إن الله لا يظلم الناس شيئا من الظلم ولو قليلا، فلا يعاقبهم قبل أن ينبههم إلى الحق ويرسل الرسل ويعطيهم العقول، فإذا فرطوا بعد ذلك فلم يظلموا إلا أنفسهم بعد استعمال ما وهبهم الله فيما خلق لأجله، ثم خوفهم بما سيلاقيهم يوم القيامة من الشدائد التى تنسيهم كل ما مضى، وتجعل الساعة فيها كآلاف الأعوام، فقال ﴿ويوم نحشرهم﴾ إلخ؛ أى واذكر لهم أيها النبى يوم يحشرهم الله فيتوهمون من شدة الهول أنهم لم يمكثوا فى الدنيا زمنًا بما فيه مدة القبور إلا لحظة من نهار لا تتسع إلا لمقدار تعارفهم فقط ثم تزول، انظرالآية (٥٥) من سورة الروم صفحة ٥٢٨، والآية (٣٥) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٧١، ٦٧٢، وآخر سورة النازعات صفحة ٧٩١.

قد خسر هؤلاء المكذبون باليوم الآخر كل خير، وما كانوا فيما اختاروا لأنفسهم مهتدين لطريق التجارة الرابحة المشارإليها فى آيتى (١٠، ١١) من سورة الصف صفحة ٧٣٩، وبعدما وبخهم على تكذيبهم بما لم يعلموه مما لم يأتهم إلى الآن فى الآية (٣٩) هنا، أراد أن يؤكد لهم وقوع ماوعدهم به من العذاب سواء فى زمن حياته ﷺ أو بعدها قطعا لأطماعهم فى أنه لو مات ﷺ فإنهم يأمنون نزول العذاب، فقال: ﴿وإما نرينك﴾ إلخ، أى وإن نريك بعض الذى نعدهم به من عذاب الدنيا أو نتوفاك قبل نزوله ففى الحالين لا مرجع لهم إلا إلينا أى فلابد من عذابهم، شاهدت أنت أيها النبى أم لم تشاهده، لأن الله وحده هو الشهيد على العالم بكل ما يفعلون، فلا فائدة لهم فى انتظار موتك، لأن العذاب واقع ولابد، انظر آخر سورة طه صفحة ٤١٩، وآيتى (٤١، ٤٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١، وأول سورة الطور صفحتى ٦٩٦، ٦٩٧.

أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا
نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ
فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ
إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ
الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ
كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا
عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾
۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ
وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ
مَا فِى الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا

المفردات: ﴿القسط﴾: العدل.

﴿أرايتم﴾: أى أخبرونى كما تقدم فى الآية (٤٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨.

﴿بياتا﴾: أى فى الليل كما فى الآية (٤) من سورة الأعراف صفحة ١٩٢.

﴿أثم إذا ما وقع﴾: الهمزة للاستفهام المراد به التوبيخ، وثم حرف عطف على مقدر والأصل تستعجلون العذاب استهزاء ثم إذا وقع آمنتم بصدق الوعد به ﴿الآن﴾: الهمزة للاستفهام التوبيخى أيضًا.

﴿يستنبئونك﴾: يطلبون منك النبأ أى الخبر.

﴿أحق هو﴾: أى العذاب الذى تتوعدنا به والاستفهام منهم على جهة الإنكار والاستهزاء.

﴿إى وربى﴾: إِى حرف بمعنى نعم، أى نعم وحق ربى. ﴿بمعجزين﴾: لا تعجزون مَنْ يطلبكم ليوقع بكم العذاب.

المعنى: - لكل أمة يوم القيامة رسول تنتسب إليه، فإذا جاء رسولهم للموقف ليشهد عليهم بما لاقوا به دعوته من إيمان وطاعة أو كفر ومعصية، قضى الله تعالى بينهم بالعدل، وحكم بنجاة المؤمنين وعقاب الكافرين، ولا يظلم منهم أحدا شيئًا، انظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧، والآية (٧١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤ ويقول كفار قريش للنبى ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين متى يتحقق هذا الوعد الذى وعدتمونا فيه العذاب؟ كما فى آيتى (٣٩، ٤٦) من هذه الصورة صفحتى ٢٧٢، ٢٧٣، وآيتى (٢٣، ٢٤) من سورة الجن صفحة ٧٧٢. إن كنتم

(١) صادقين. (٢) يستأخرون. (٣) أرأيتم. (٤) أتاكم.
(٥) بياتا. (٦) آمنتم. (٧) الآن.

صـادقين فى قـولكم إن الله تعـالى سينتقم لكم منا. ولقن سبـحانه نبيه الجواب بقوله: ﴿قل لا أملك﴾ إلخ، أى إنما أنا بشـر مثلكم لا أملك لنفسى فضلاً عن غيرها شيئًا من التصرف حتى أدفع عنهـا الضـر أو أجلب لهـا النفع، فكيف أملك شـئونكم حتى أتسبب فى إتيـان عـذابكم الموعود حسبما تريدون، ولكن ماشاءه الله لابد أن يكون، ولا شأن لى فيه لأنه خاص به تعالى، انظر الآية (١٨٨) من سورة الأعراف صفحتى ٢٢٣، ٢٢٤. ثم أجاب سبحانه على سؤالهم فقال ﴿لكل أمـة أجل﴾ حـدده الله تعـالى لبـقـائهـا وهلاكهـم لا يسـتـأخـرون عنه لحظة كـمـا أنهم لايتقدمون عليه لحظة، انظر الآية (٣٤) من سورة الأعـراف. وقل لهم أيها النبى أخبرونى عن حالكم وما يمكنكم عمله إذا أتاكم عذاب الله الذى تستعجلونه وقت مبيتكم فى الليل، أو وقت اشتغالكم بلهوكم ومعاشكم فى النهار، انظر آيات (٤، ٩٧، ٩٨) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٢، ٢٠٨، فأى شىء من العذاب تستعجلونه أيها المجرمون والعذاب كله مكروه لايستعجله إلا سفيه أو مجنون؟ فهل تستعجلون بالعذاب أيها المجرمون ثم إذا وقع بالفعل آمنتم بصدق الوعد به، وعند ذلك يقال لكم توبيخا الآن آمنتم به اضطرارًا، وقد كنتم قبل ذلك تستعجلونه تكذيبا واستنكارًا، انظر الآية (١٥٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٩٠، ١٩١، وماقيل لفرعون فى الآية (٩١) من هذه السـورة صـفـحـة ٢٨٠. ثم قيل للذين ظلمـوا أنفسهم بالكفـر والفسـوق لزيادة التوبيخ: ذوقوا العذاب الخالد، لاتجزون اليوم إلا بما استمررتم على اكتسابه فى الدنيا من الكفـر والمعـاصى. ويستنجزك أيها النبى هؤلاء المجرمون فيقـولون على سبيل الاستهزاء والإنكار: هل حق هذا العذاب الموعود؟ قل لهم: نعم وعزة ربى إنه لحق حاصل رغم أنوفكم وما أنتم بمعجزين الله إذا أراد تعذيبكم، لأنه سبحانه لايعجزه شىء فى الارض ولا فى السمـاء. وقد بلغ من هول هذا العذاب الموعود به أن كل نفس ظلمت بالكفر ولو كانت تملك كل ما فى الأرض لقدمته فداء لها من العذاب ولكنه لايقبل منها كما فى الآية (٩١) من سورة آل عمران صفحتى ٧٧، ٧٨. وأسر الظالمون حسرتهم وندمهم ولم يستطيعوا النطق بها لشدة مادهاهم العذاب، انظر الآية (٤٥) من سورة الشورى صفحة ٦٤٥، وعندما يسمعون قوله تعالى ﴿اخسَؤُا فيها ولا تكلمون﴾ الآية (١٠٨) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥، وانظر آيتى (٣٥، ٣٦) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٥.

ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾
أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟
هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم[1] مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم
مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا[2] قُلْ ءَآللَّهُ[3] أَذِنَ لَكُمْ
أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى
ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ[4] إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ
وَمَا تَتْلُوا۟[5] مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ[6] وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا

المفردات: . ﴿ألا﴾: حرف تنبيه لأهمية مابعده كما تقدم. ﴿موعظة﴾: هى الوصية بالخير والبعد عن الشر بأسلوب مؤثر. ﴿الصدور﴾: المراد بها هنا القلوب. ﴿وهدى﴾: إلى طريق الحق المستقيم.

﴿ما أنزل الله لكم من رزق﴾: الإنزال هنا معناه الخلق والإيجاد كما فى الآية (٦) من سورة الزمر صفحة ٦٠٦، والآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣.

﴿فى شأن﴾: الشأن هو الأمر المهم.

المعنى: . وقضى الله تعالى بين جميع الخلائق بما فيهم هؤلاء العدل، فلا يظلم أحدا مثقال ذرة، ثم أقام سبحانه الدليل على قدرته على إنجاز وعده وتنفيذ أحكامه فقال: ﴿ألا إن لله﴾ إلخ؛ أى أن جميع العالم خاضع لتصرفه، فليتنبه الغافلون إلى أن كل ما وعد الله تعالى به على لسان رسله حق واقع، لأنه وعد المالك القادر، ولكن أكثر الناس لايعلمون ذلك بإنكارهم البعث والجزاء، أو كأنهم لايعلمونه لإهمالهم ماينجيهم من هول هذا اليوم، والله وحده هو الذى يحيى ويميت، وإليه ترجعون جميعا يوم القيامة، فاحذروه. وبعدما أقام سبحانه البراهين على أصول العقائد وهى التوحيد والرسالة والبعث، أراد أن يبين فضله فى إرشاد الناس إلى أصول الفضائل العملية فقال مخاطبًا جميع

---

(١) أرايتم.
(٢) حلالا.
(٣) ء الله.
(٤) القيامة.
(٥) تتلو.
(٦) قرآن.

المكلفين: يأيها الناس قد جاءكم كتاب جامع لكل ما فيه سعادتكم من مواعظ حسنة لإصلاح الأخلاق والأعمال مع الترغيب فى فضل الله عز وجل والترهيب من عذابه، وشفاء لأمراض قلوبكم من الشرك والنفاق والحقد وحب الشر، ومبين لطرق الخير والشر، لتتجنبوا مايضركم كما فى الآية (٣) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١، وجالب الرحمة للمؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون به. ثم أمر نبيه ﷺ أن يبلغ المؤمنين أن يحق لهم الفرح بفضله عليهم فقال تعالى: قل لهم ليفرحوا بفضل الله عليهم بهذا القرآن وبرحمته تعالى حيث جعلهم من أهله ووفقهم للعمل بما فيه، فبذلك فقط فليفرحوا؛ فالمراد إن كان فى الدنيا شىء يستحق أن يفرح به فهو فضل الله تعالى ورحمته؛ لأن ماذكر من الفضل والرحمة أنفع من كل مايجمعونه من الذهب والفضة وسائرمتاع الدنيا، انظر من الآية (١٤ إلى ١٧) من سورة آل عمران صفحتى ٦٤، ٦٥. ثم أراد سبحانه أن يوبخ المشركين على مقابلتهم نعمه عليهم بالكذب عليه سبحانه، فقال قل لهم أيها النبى: خبرونى عن هذا الرزق الذى أفاضه الله تعالى عليكم من فيضه الأسمى فجعلتم بعضه حراما وبعضه حلالا كما فى الآية (١٠٣) من سورة المائدة صفحة ١٥٧، ومن الآية (١٣٦ إلى ١٥٠) من سورة الأنعام صفحات من ١٨٥ إلى ١٨٩. ثم شدد التوبيخ بتكرير الأمر فقال: قل لهم: هل الله أذن لكم فى هذا التقسيم بوحى من عنده؟ كلا بل أنتم على الله تفترون لأنه لم يوح إليكم بذلك. ثم بيَّن سبحانه هول ما سيلقونه يوم القيامة بعد ثبوت افترائهم فقال: ﴿وما ظن﴾ إلخ؛ أى: أى شىء يظن المفترون؟ هل يظنون أنهم يتركون بغير عقاب؟ كلا بل سيعاقبون أشد العقاب. تالله إن الله لذو فضل على الناس فى كل ماخلقه لهم من رزق وكل ما شرعه لهم ليبيِّن لهم طريق الخير ولكن أكثرهم لايشكرون هذا الفضل بل يقابلونه بالكفر والعصيان، انظر الآية (١٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٤. وبعد ما ذكّر سبحانه عباده بفضله ومايجب عليهم من شكره أتبع ذلك بتذكيرهم بإحاطة علمه بكل شئونهم وأعمالهم كبيرها وصغيرها، فخاطب أشرافهم فقال: وما تكون أيها النبى فى أمر من أمورك المهمة التى تعالج بها شئون أمتك، وماتتلو لأجل ذلك من قرآن، ثم عمم الخطاب لكل الأمة فقال: ولاتعملون من عمل من خير أو شر إلا كنا عليكم شهودا...

عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

المفردات: . ﴿تفيضون فيه﴾: الإفاضة الاندفاع فى الشىء بقوة. ﴿يعزب﴾: أى يغيب. ﴿ذرة﴾: هو الجزء الذى بلغ من الصغر أقل مقدار يتخيله البشر، وانظر ماتقدم عن ابن عباس فى الآية (٤٠) من سورة النساء صفحة ١٠٧. ﴿ألا﴾: حرف تنبيه كما تقدم مرارًا. ﴿أولياء الله﴾: جمع ولى وهو يطلق على المتولى أمر غيره بالرعاية، والولاية كما تكون بين المؤمنين بعضهم مع بعض تكون بين المنافقين والكفار كذلك، انظر الآية (٥١) من سورة المائدة صفحة ١٤٧، و الآية (٧١) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣، وكما تكون بين الله وعباده الصالحين تكون بين الشيطان وأتباعه الأشقياء، انظر الآية (٢٥٧) من سورة البقرة. فأولياء الله هم الذين والوا ربهم بالطاعة، ووالاهم سبحانه بالعون والتوفيق، وقد بينهم سبحانه فى الآية الآتية بأنهم هم المؤمنون الأتقياء، وفى الآية (٣٤) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١ بيّن سبحانه أنه لا ولى له غير الأتقياء، فكل مؤمن تقى ولى، وتتفاوت ولايتهم بتفاوت تقواهم وإن نفى الخوف والحزن فى القرآن ثبت للمؤمنين الصالحين فى كل مكان، انظر الآيات (٣٨، ١١٢، ٢٦٢، ٢٧٧) من سورة البقرة صفحات ٩، ٢٢، ٥٥، ٥٦، ٥٩، والآية (١٧٠) من سورة آل عمران صفحة ٩١، والآية (٦٩) من سورة المائدة صفحة ١٥١، والآية (٤٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٩، وآيتى (٣٥، ٤٩) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٧، ٢٠٠، والآية (٦٨) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٤، والآية (١٣) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧؛ ولا يحزنك قولهم أى بالطعن فيك بأنك ساحر أو كذاب أو مجنون إلى غير ذلك مما افتروه عليه ﷺ. ﴿العزة﴾: القوة والقهر. ﴿يخرصون﴾: أى يقدّرون بغير علم تقديرا باطلا كما تقدم فى الآية (١٤٨) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨.

---

(١) كتاب. (٢) الحياة. (٣) لكلمات. (٤) الليل. (٥) لآيات.

المعنى: إلا كنا عليكم رقباء حين تفعلونه، فنحصيه عليكم ونحاسبكم عليه، ولايغيب عن علم ربك أيها النبى أقل شيء يوزن بذرة فى الوجود علويه وسفليه، ولا شيء أصغر من الذرة مما لاتبصرونه من دقائق الكون، انظر الآية (٣٩) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣ تعلم إعجاز القرآن حين أخبر بموجودات لم تكن تخطر على بال مخلوق فى ذلك العصر، فمن أين جاء بها محمّد الأمى إذا لم تكن من العليم الخبير؟ فكل المخلوقات ماصغر منها وما عظم مسجل فى كتاب تام البيان وهو اللوح المحفوظ.

وبعد ما ذكّر سبحانه عباده بفضله وأنه يحصى عليهم أعمالهم، أراد أن يبين ما سيكون للمتقين من حسن الجزاء فقال ﴿ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم﴾ مما يخاف منه أعداؤه سبحانه كالخذلان والإذلال، ولايحزنون فى الآخرة عند الفزع الأكبر، انظر الآية (١٠٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١. ثم بيّن سبحانه أولياءه بأنهم هم الذين آمنوا وداوموا على تقواه، ولهم البشرى فى الحياة الدنيا بإخبار الله فى كتابه كما فى الآية (١٥٥) من سورة البقرة صفحة ٣٠، وبما يريهم فى المنام مما يطمئنهم على حسن مصيرهم، وعند الموت باطلاعهم على مكانهم فى الجنة، انظر الآية (٣٠) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٣، ٦٣٤، روى عبد الحى بن عماد المتوفى سنة ١٠٨٩ فى كتابه شذرات الذهب فى أخبار مَنْ ذهب بصفحة ٣١ أن بلال ابن رباح مؤذن رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة سمع امرأته تقول واحسرتاه فقال لاتقولى واحسرتاه بل قولى وافرحتاه غدًا يلقى بلَال الأحِبَّة محمَّدًا وصحبه؛ وكذلك فى الآخرة ببياض وجوههم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، لا تغيير لوعد الله، فليطمئن الأتقياء. ذلك المبشر به هو الفوز العظيم. ولما كانت الكثرة فى مكة مشركة وكانوا يؤذونه ﷺ بالباطل بما يحزنه كما فى الآية (٦) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨، وماتقدمت الإشارة إليه فى الآية (٣٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧، أراد سبحانه أن يسلى رسوله ويطمئنه بالنصر فقال: ولا يحزنك أيها النبى قولهم فيك لأن القوة والقهر كلها لله وحده وسينصرك عليهم، وهو السميع لما يفترون عليك، العليم بما يدبرون، وكيف لاينصرك وكل مَنْ فى السموات والأرض تحت تصرفه وحده. ومايتبع هؤلاء الكفار شركاء لله حقيقة حتى يرجوا منهم نفعا. ومايتبعون إلا ظنًا ووهمًا لا حقيقة له، وما هم فى اتباع هذا الوهم إلا يخبطون على غير هدى ، وكيف يكون له سبحانه شركاء وهو وحده الذى جعل لكم الليل مظلما لتستريحوا فيه من تعب النهار، وجعل النهار سببا وممكنا من الإبصار أى مضيئا لتطلبوا فيه الرزق، انظر آيتى (١٢، ٥٩) من سورة الإسراء صفحات ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٧٢، وآيات (٧١، ٧٢، ٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧. إن فيما ذكر لدلائل وبراهين على قدرة الله عز وجل لقوم يسمعون سماع قبول واعتبار.

يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ[1] هُوَ الْغَنِيُّ
لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن
سُلْطَانٍ[2] بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ
إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾
مَتَاعٌ[3] فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ
الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ * وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ
نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ[4] إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي
وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ[5] اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ
وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا
إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ
أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ[6] وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ

المفردات : ـ ﴿إن عندكم من سلطان﴾: إن حرف نفى، ومن مؤكدة لهذا النفى والسلطان: البرهان. (متاع فى الدنيا) : متاع خبر لمبتدأ مقدر مفهوم من سياق الكلام، والأصل ذلك الذى هم فيه من النعيم هو متاع فى الدنيا فقط.

﴿كبر عليكم مقامى﴾: أى شق عليكم طول قيامى ومكثى بينكم ألف عام إلا خمسين أحذركم عقاب الله كما فى الآية (٢٥) وما بعدها من سورة هود صفحة ٢٨٧ ومابعدها والآية (١٤) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢.

﴿فأجمعوا أمركم﴾: يقال أجمع الرحيل مثلاً إذا عزم عليه عزمًا قويًا، انظر الآية (٦٤) من سورة طه صفحة ٤١١.

﴿غمة﴾: أى خفيا يقتضى الحيرة والتردد.

﴿اقضوا إلىّ﴾: أى نفذوا ماتريدون إيصاله إلىّ من الشر، انظر الآية (١١) من هذه السورة صفحة ٢٦٧.

﴿ولاتنظرون﴾: أى ولا تمهلونى انظر الآية (٥٥) من سورة هود صفحة ٢٩٢.

﴿الفلك﴾: انظر شرح الآية (١٦٤) من سورة البقرة صفحة ٣١.

المعنى: ـ بيَّن سبحانه هنا نوعًا آخر من كفر المشركين غير اتخاذهم أصناما هو زعمهم أن الملائكة بنات الله كما تقدم بيانه عند الآية (١١٦) من سورة البقرة صفحة ٢٣، واتفق معهم اليهود فقال بعضهم: العزير ابن الله، والنصارى فقالوا: المسيح ابن الله، فأبطل سبحانه هذا

---

(١) سبحانه. (٢) سلطان. (٣) متاع. (٤) ياقوم. (٥) بآيات. (٦) فنجيناه.

الزعم بقوله ﴿قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه﴾ أى تنزيها له عن هذا الباطل لأنه وحده هو الغنى عن كل ماعداه، وكل ما فى العالم علويه وسفليه مملوك له تعالى يفعل به مايشاء، وإنما يكون الولد لِمَنْ يحتاج إليه، وتعالى الله عن الحاجة لمخلوق. وليس عندكم برهان على هذا الذى تفترون.

فالعجب منكم أن تقولوا على الله مالا تعلمون، بل ما قام الدليل على بطلانه. فقل لهم أيها النبى محذرا: إن الذين يفترون على الله الكذب لايفوزون بما يرغبون من النجاة من عذاب الله، ولايغتر أحد بما هم فيه فى الدنيا من نعيم زائل، فإنه تمتع قليل، وفى لحظات قليلة بالنسبة لنعيم الجنة الكثير الخالد ثم إلينا مرجعهم بالبعث، ثم نذيقهم شديد العذاب بسبب استمرارهم على الكفر.

ولما سبق فى الآيات (١٣، ١٤، ٣٩، ٤٧) من هذه السورة صفحات ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤ أنه حذرهم من أن يحل بهم ماحل بِمَنْ كفروا برسلهم من قبل، أراد أن يفصل بعض هذا الإجمال فقال: ﴿واتل عليهم﴾إلخ؛ أى اقرأ أيها النبى على هؤلاء المكذبين قصة نوح مع قومه وماحصل بينهم حين قال لقومه ياقوم إن كان شق عليكم طول قيامى فيكم ناصحًا ومذكرًا لكم بآيات الله فى خلقه لترجعوا عن الشرك فإن أردتم التخلص منى فإنى لا أعبأ بكم، لأنى لا أعول إلا على الله، فاعزموا على ماتريدون ومعكم شركاؤكم الذين اتخذتموهم من دون الله يساعدونكم، ثم لاترددوا فيما عزمتم عليه، ثم نفذوا ما ترون إيصاله إلىَّ من الشر ولا تمهلونى لحظة إن استطعتم.

وهذا منه عليه الصلاة والسلام تحد لهم وتعجيز يدل على قوة إيمانه بربه. فإن توليتم بعد ذلك عن نصحى فلن يضرنى ذلك شيئًا لأنى ماسألتكم أجرًا على نصحى ولن أطلب أجرًا إلا من الله الذى أمرنى أن أكون من المنقادين لكل مايأمر به. فلما استمروا على تكذيبه ولم تنفعهم كثرة مواعظه التى جاء بعضها مفصلا فى سورة نوح نجاه الله ومَنْ آمن معه فى السفينة من الغرق.

وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا
إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا
بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾
ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ
مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ
هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا
وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ
وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ
سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ

المفردات: . ﴿خلائف﴾: جمع خليفة كما تقدم فى الآية (١٤) من هذه السورة صفحة ٢٦٧.

﴿نطبع﴾: انظر شرحها فى صفحة ٢٠٨.

﴿وملئه﴾: هم وجهاء قومه كما تقدم فى الآية (٨٨) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٦، ٢٠٧.

﴿لتلفتنا﴾: أى تصرفنا.

المعنى: وجعلنا الذين نجيناهم مع نوح يخلفون المكذبين فى عمارة الأرض، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، فانظر أيها المخاطب العاقل بعين بصيرتك كيف كانت عاقبة الذين حذرهم رسولهم فلم يسمعوا. ثم بعثنا من بعد نوح رسلا مثله إلى أقوامهم كهود إلى عاد وصالح إلى ثمود وشعيب إلى قومه أهل مدين وجيرانهم أصحاب المؤتفكة كما تقدم فى الآية (٧٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣، فجاء كل رسول قومه بالبراهين الدالة على صدقه، فما كان المتأخر منهم ليؤمن بما كذب به آباؤه، لرسوخ عادة التقليد الأعمى فيهم، حتى طمست على قلوبهم، ومثل هذا الطبع على أتباع الرسل الماضين نطبع على قلوب المعتدين المتجاوزين حدود الحق رضوخا لشهواتهم كما تقدم فى الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤.

ثم ذكر سبحانه قصة موسى وهارون مع فرعون وقومه فى الآية (١٩) ليبين أن علة الكفر بالأنبياء ترجع فى الأكثر إلى سببين: الأول التقليد الأعمى باتباع الآباء، والثانى الخوف على

(١) جعلناهم. (٢) خلائف. (٣) بآياتنا.
(٤) عاقبة. (٥) بالبينات. (٦) وملئه.
(٧) بآياتنا. (٨) الساحرون. (٩) ساحر.

الرياسة من أن تذهب من الزعماء إذا اتبعوا الرسول وصاروا كغيرهم من أفراد الأمة تأمل آية (٧٨) الآتية هنا، فقال: ﴿ثم بعثنا من بعدهم﴾ إلخ؛ أى من بعد أولئك الرسل موسى وهارون إلى فرعون وملئه أى وقومه كما فى الآيات (١٠، ١١، ١٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٠، والآية (١٢) من سورة النمل صفحة ٤٩٥، والآية (٥٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢، مؤيدين بآياتنا المفصلة فى الآية (١٠٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٩، والآية (١٣٣) من نفس السورة صفحة ٢١٢، فأعرضوا عن الإيمان كبرا لرسوخهم فى الإجرام كما فى الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥.

ثم فصل هذا الإجمال فقال ﴿فلما جاءهم الحق﴾ أى الآيات الدالة على أن ماجاء به موسى حق من عند الله أقسموا أن هذا الذى جاء به موسى سحر واضح، انظر الآية (١٠٩) من سورة الأعراف صفحة ٢١٠، والآية (٣٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٢، والآية (٣٦) من سورة القصص صفحة ٥١٢.

عند ذلك قال موسى مندهشا من جراتهم على الكذب: أتقولون هذا القول الباطل للحق لما جاءكم وعرفتموه كما فى الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥؟ ثم أنكر قولهم متعجبا فقال: أسحر هذا؟ أى هل هذا الذى ارتجفت من عظمته قلوبكم سحر والحال المعروف أن الساحر لايفلح ولايفوز بقهر خصمه، وقد رأيتم قوتى عليكم فلما غلبتهم الحجة لجأوا إلى التمويه على بسطاء الشعب فقالوا: ﴿أجئتنا﴾ إلخ، أى هل جئت ياموسى أنت وأخوك إلا لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا وتكون لك ولأخيك كبرياء الرياسة الدينية وما يتبعها من رئاسة الملك فى أرض مصر كلها، ومانحن لكما مهما فعلتم بمصدقين ولامتبعين. وقال فرعون لجنوده: أحضروا لى كل ساحر راسخ العلم بالسحر. فلما جاء السحرة المطلوبون قال لهم موسى بعد أن خيّروه فيمن يلقى أولاً كما فى الآية (١١٥) من سورة الأعراف صفحة ٢١٠...

أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم
بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ
الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ(١) وَلَوْ كَرِهَ
الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ
عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ(٢) أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ
لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ
يَا قَوْمِ(٣) إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم
مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٤) ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ(٥) ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ
لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ(٦)
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ

المفـردات: . ﴿على خـوف من فـرعـون وملئهم﴾: قال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار جزء (١١) صفحة ٤٦٩ ﴿على خوف من فـرعـون وملئـهم أن يفـتنهم﴾ أى آمن هؤلاء الذرية على خوف من فرعون وملئهم أى كبار قومهم الجبناء المرائين فإن الملوك يستذلون الشعوب ويستعبدونهم بواسطة هؤلاء الذين يختـارونهم للرئاسـة على مَنْ دونهم. وقـال الألوسى: والمعنى أن هؤلاء الذرية من قـوم مـوسى آمنوا بموسى مع خـوفـهم من بطش فـرعـون، ومن وشـاية كـبـار قـومـهم الذين اسـتعـبـدهم المال فـأعلنوا كـفـرهم بموسى ليحظوا عند فرعون بالرضى ويجمعوا تبعًا لذلك أموالاً طائلة كقارون ومَنْ تبعه انظر الآيات من (٧٦ إلى ٨٢) صـفـحـات ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩. ﴿أن يفـتنهم﴾ الفـتنة هـى الابتـلاء الشـديد بالتعذيب والقتل وغيره كما تقدم فى الآية (٤٩) من سورة البقرة صفحة ١٠، والآية (١٩١) من نفس السورة صفحة ٣٧. ﴿لعال فى الأرض﴾: أى مستعل بالقهر والاستبداد انظر الآية (١٢٧) من سورة الأعراف صفحة ٢١١. ﴿لاتجعلنا فتنة﴾: أى لا تعذبنا وتخذلنا حتى لا يظن الكافرون أنهم على حق فيزدادوا كفرًا. ﴿أن تبوءا لقومكما﴾: التبوء: اتخاذ المباءة أى المسكن الذى يبوء إليه صاحبه أى يرجع، كما أن التوطن اتخاذ الوطن.

﴿قبلة﴾: قبلة الشىء مـايقـابله؛ قـال سعيد بن جبير: أى اجعلوا بيوتكم متقابلة أى قريبا بعضها من بعض؛ وقال مجاهد والضحاك وغيرهما المراد اجعلوا بيوتكم مساجد وصلوا فيها قال ابن كثير وكان هذا والله أعلم عندما اشتد بهم البلاء من فرعون وقومه وضيقوا عليهم

(١) بكلماته. (٢) وملئهم. (٣) ياقوم. (٤) الظالمين. (٥) الكافرين. (٦) الصلاة.

فأمروا بكثرة الصلاة فى البيوت بعيدا عن عيون قوم فرعون لتساعدهم الصلاة على الصبر كما أمر بها المسلمون فى الآية (٤٥) من سورة البقرة صفحة ١٠، وانظر ماحل بهم من فرعون فى الآيات (١٢٧، ١٢٨، ١٢٩) من سورة الأعراف صفحتى ٢١١، ٢١٢.

المعنى: . فلما ألقوا حبالهم وعصيهم كما فى الآية (٦٦) من سورة طه صفحة ٤١١ قال لهم موسى: ماجئتم به هو السحر، لا ماجئت به أنا، وإن الله سيظهر بطلانه للناس ويذهب أثره بما أعطانى من المعجزة؛ لأنه سبحانه لابد أن يفسد عمل المفسدين بمحقه وإزالة أثره، ويثبت الحق ويقويه بقوله ﴿كن﴾، وبحججه التى يؤيد بها رسله ولو كره الطغاة المفسدون، انظر آيتى (٧، ٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٧. ثم ألقى موسى عصاه فابتلعت حبالهم وعصيهم إلى آخر ما فى الآية (١١٧) من سورة الأعراف صفحة ٢١٠، فلما فشل سحرة فرعون أراد أن يغطى هذه الهزيمة أمام العامة فأمر بقتل مَنْ آمن بموسى وقال: ذرونى أقتل موسى أيضًا كما فى آيتى (٢٥، ٢٦) من سورة غافر صفحتى ٦٢٠، ٦٢١. عند ذلك دب الذعر فى قوم موسى فلم يصدقه أى يؤمن به ويتبعه إلا ذرية قليلة من بنى إسرائيل مع خوفهم من فرعون وملئهم أن يعذبهم ليردوهم عن إيمانهم، ولهم شبه عذر فى الخوف؛ لأن فرعون كان عاتيا مستبدا فى أرض مصر، وكان مسرفا فى تجاوز حدود العدل إلى الظلم الشديد. وقال موسى لِمَنْ آمن من قومه بعد ما رأى خوفهم: ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه وحده اعتمدوا فإنه يكفيكم شر أعدائكم إن كنتم فى إيمانكم مستسلمين خاضعين بصميم قلوبكم، فإن شرط نفع الإيمان الرضا القلبى بالمؤمن به، أما إذا خالطه كره وحسد فهو الكفر بعينه، انظر الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥. قالوا: على الله وحده توكلنا ياربنا لا تخذلنا فتجعلنا بذلك سببا فى زيادة كفر وعصيان الظالمين حيث يظنون أنهم هم المحقون ونحن المبطلون، ونجنا برحمتك من ظلم الكافرين وقلنا لموسى اتخذ أنت وأخوك لقومكما بيوتا فى مصر يلجئون إليها عند الخوف، واجعلوها أنتما وقومكما متجاورة ومتقابلة ليسهل تبليغهم ما به نجاتهم، وأقيموا الصلاة فى بيوتكم لتستعينوا بها على الشدائد. ولم يصح عن النبى حديث فى الجهة التى كانوا يصلون إليها. وبشر ياموسى المؤمنين من قومك بحفظ الله لهم من فرعون وملئه. وقال موسى بعد أن أعد بنى إسرائيل للخروج من مصر إعدادا دينيا بكثرة الصلاة، ودنيويا بالتجاور والتعاون ياربنا إنك آتيت إلخ...

فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا[1] فِى ٱلْحَيَوٰةِ[2] ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا
لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ[3] وَٱشْدُدْ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾
قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا[4] بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ
فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ
ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟
إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ[5] وَقَدْ عَصَيْتَ
قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ
لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ
عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ[6] ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم[7] مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ[8] فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ

المفردات: ـ ﴿أطمس على أموالهم﴾: أصل الطمس إزالة أثر الشىء، والمراد هنا محقها.

﴿واشـدد على قلوبهم﴾: أى قـو رباط القسوة على قلوبهم حتى يزدادوا طغيانا.

﴿وجاوزنا ببنى اسرائيل﴾: أصله تخطينا البحر بمصاحبتهم، والمراد جعلناهم يتجاوزونه بمقدرتنا. ﴿بغيا﴾: طغيانا.

﴿عدوا﴾ تعديا.

﴿ننجيك﴾: أى نجعلك على نجوة من الأرض وهى المكان المرتفع.

﴿ببدنك﴾: أى بمجرد جسمك الذى لا روح فيه ويقول الشيخ عبد الوهاب النجار إن آخر بحث يثبت أن فرعون موسى هو منفتاح بن رعمسيس من الأسرة ١٩. ﴿بوأنا﴾: أى أنزلناهم ﴿مبوأ صدق﴾: أى مكانا صالحا مرضيا.

المعنى: ـ إنك أعطيت فرعون وملأه ما يتزينون به من حلى وثياب وأثاث ومقادير كثيرة من أنواع الأموال، فلم يشكروا عليها بل جعلوها فى إضلال الناس وفتنتهم عن أسباب الهدى انظر شيئًا من ذلك فى شرح الآية (٨) من سورة القصص صفحة ٥٠٧، فكانت عاقبة هذا العطاء

(١) أموالا.
(٢) الحياة.
(٣) أموالهم.
(٤) وجاوزنا.
(٥) الآن.
(٦) لغافلون.
(٧) ورزقناهم.
(٨) الطيبات.

الواسع أنهم استعانوا به على إضلال الناس عن سبيل الحق، انظر آيتى (٦، ٧) من سورة العلق صفحة ٨١٤.

ربنا أهلك أموالهم وشدد قسوة قلوبهم حتى لاينفعهم الإيمان إذا حصل منهم بعد مشاهدتهم العذاب. وإنما قال موسى هذا عند يأسه من إيمانهم النافع، كما طلب نوح ذلك فى الآيات من (٢١ إلى ٢٨) من سورة نوح صفحتى ٧٦٩، ٧٧٠. ولما كان موسى يدعو وهارون يؤمن، قال سبحانه: قد أجيبت دعوتكما، وسلط على قوم فرعون ماجاء فى الآية (١٣٣) من سورة الأعراف، فاستقيما على ما أنتما عليه من الدعوة إلى الله ولا تتبعان طريق الجهلة الذين لايثقون فى صدق وعد الله. ولما كان من دعاء موسى طلب النجاة وإهلاك فرعون قال سبحانه فى إجابة ذلك وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر، فلحقهم فرعون وجنوده للبغى عليهم والفتك بهم، فخاضوا البحر وراءهم حتى إذا شاهد فرعون الغرق قال آمنت بأنه لا إله إلا الرب الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المنقادين الخاضعين له. فقيل له على سبيل الإنكار والتوبيخ أتسلم الآن بعد فوات الوقت الذى يصح فيه الإيمان وهو الوقت الذى تكون فيه مختارًا تأمل الحياة، فهل تؤمن الآن وقت الغرغرة والحال أنك قد عصيت الله من قبل بالكفر به وكنت من المفسدين فى الأرض بالظلم، انظر الآية (١٨) من سورة النساء صفحة ١٠١. اليوم بعد موتك نلقى جسدك على ربوة من الأرض لتكون لِمَنْ يأتى بعدك عبرة ينزجر بها عن عصيان الله.

ثم عرض سبحانه بكفار قريش وغيرهم ممَنْ لم يعتبروا فقال: وإن كثيرا من الناس لغافلون عن آياتنا الدالة على انتقامنا ممَنْ يحارب رسلنا، انظر الآية (١٠٥) من سورة يوسف صفحة ٣١٩.

ثم أراد سبحانه أن يبشر المؤمنين بالنصر وينذر المشركين فقال: ﴿ولقد بوأنا﴾ إلخ، أى أسكناهم مكانا فاضلا فى جنوب بلاد السلام هو فلسطين، ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا فى أمور دينهم إلا من بعد علمهم بأحكام التوراة. وهذا توبيخ حيث جعلوا ماجاء ليحقق الوفاق سببا للخلاف، انظر ما تقدم فى الآية (٢١٣) من سورة البقرة صفحتى ٤١، ٤٢، والآية (٤) من سورة البينة صفحة ٨١٦.

جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ[1] فِيمَا
كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ
إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ[2] ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ[3] مِن قَبْلِكَ لَقَدْ
جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ[4] ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ[5] ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ[6]
إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ
فِي ٱلْحَيَوٰةِ[7] ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ[8] إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ
لَأٓمَنَ[9] مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ
حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ

المفــردات: . ﴿الكتــاب﴾: المراد جنســه، فيشمل التوراة والإنجيل.

﴿الممترين﴾: الشاكين.

﴿حقت عليهم كلمة ربك﴾: أى قضاؤه عليهم بالعذاب.

﴿فلولا﴾: حرف أصل معناه الحث على مابعده وهو هنا مشرب بالتوبيخ لأن الحث هنا لايفيد لأنهم ماتوا.

المعنى: . إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، فيميز المحق بالثواب، ويجزى المبطل بالعقاب.

أراد سبحانه أن يعرض بكفار مكة على عدم إيمانهم مع وضوح الحجة فقال موجها الخطاب للنبى ﷺ: فإن كنت على سبيل الفرض فى شك مما أنزلنا إليك فى قصة نوح وموسى وماحصل لقومهما فاسأل علماء اليهود والنصارى، لقد جاءك الحق الواضح الذى لاشك فيه من ربك، فلا تكون من المترددين، بل استمر على ماأنت عليه من اليقين. ثم أكد

(١) القيامة.
(٢) فاسأل.
(٣) الكتاب.
(٤) بآيات.
(٥) الخاسرين.
(٦) إيمانها.
(٧) الحياة.
(٨) ومتعناهم.
(٩) لآمن.

التعريض بالمشركين بقوله: ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾ فى الدنيا والآخرة.

ولما كان ﷺ رحيم القلب يؤلمه بقاء قومه على الكفر ويطمع فى هدايتهم، أراد سبحانه وهو العليم بما فى قلوبهم أن يعلمه حقيقتهم فقال: ﴿إن الذين حقت عليهم﴾ إلخ؛ أى أعلم أيها النبى أن الذين ثبت عليهم الحكم من ربك بالعذاب لايؤمنون أبدا ولو جاءتهم كل معجزة مما اقترحوه وغيره حتى يروا العذاب الأليم بأعينهم، وعند ذلك لا ينفعهم إيمانهم لأنه اضطرارى لا اختيار لهم فيه، فهو كإيمان فرعون عند الغرق المتقدم.

وسبب ذلك رسوخهم فى الكفر والطغيان، فختم على قلوبهم كما فى الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤.

فلولا كان أهل قرية من أقوام الرسل السابقين الذين أهلكهم الله بالعذاب آمنت بمجرد دعوتهم وإقامة الحجة وقبل معاينة العذاب فكان ينفعها إيمانهم ولاتعذب، أى لم يؤمن قوم منهم فى حال الاختيار فهلكوا؛ لكن قوم يونس لما آمنوا قبل وقوع العذاب عندما شعروا بمقدماته وأماراته وإن كانوا غير قاطعين به كشفنا عنهم عذاب الذل والهوان فى الدنيا، ومتعناهم بالحياة ومنافعها إلى حين انقضاء أعمارهم الطبيعية، وفيه تحذير لأهل مكة وتنبيه لهم ليختاروا لأنفسهم انهلاك كقوم نوح وفرعون، أوالنجاة كقوم يونس.

ولو شاء ربك أيها النبى أن يجعل الناس كلهم مؤمنين جبرا عنهم بجعلهم كالملائكة، وبهذا يتغير نظام هذا العالم ونظام الآخرة ولايكون هناك نار ولاعذاب، ولكنه سبحانه أراد أن يكون المكلف مختارا كما تقدم بيان ذلك فى الآية (١٠٧) من سورة الأنعام صفحة ١٨٠، والآية (١٧٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢، وإذا كان الأمر كذلك فهل تريد أنت أيها النبى أن تكره الناس على الإيمان حتى يكونوا كلهم مؤمنين؟ هذا مستحيل لأنه ليس فى قدرتك.

إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾
قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى
ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ
إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى
مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ
أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ

المفـــردات: ـ ﴿الرجس﴾: أصل الرجس الشىء المستقذر حسا كالميتة، انظر الآية (١٤٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٨٧، ١٨٨؛ أو معنى كالميسر، انظر الآية (٩٠) من سورة المائدة صفحة ١٥٥، ويطلق على الكفر كما فى الآية (١٢٥) من سورة التوبة صفحة ٢٦٤؛ وعلى الكافر كما فى الآية (٩٥) من سورة التوبة أيضًا صفحتى ٢٥٨، ٢٥٩ وعلى العذاب المترتب على الكفر كما فى الآية (٧١) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٣، ٢٠٤؛ ومنه ماهنا. ﴿النذر﴾: جمع إنذار، وهو التحذير من الوقوع فى شر.

﴿أيام﴾: يطلق على الوقائع فيقال أيام العرب، والمراد ما وقع بينهم من حروب، فالمراد هنا ماحل بالذين مضوا، انظر الآية (٥) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٠.

﴿خلوا﴾: أى: مضوا.

﴿أقم وجهك للدين﴾: أصله حول وجهك للدين فقط؛ والمراد وجه نفسك بالكلية إلى عبادة الله تعالى وحده.

﴿حنيفا﴾ أى مائلا عن الباطل إلى الحق.

المعنى: ـ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بالنظام الذى وضعه الله تعالى للنفوس من حرية الاختيار، وتيسيره لها ما تختار فى الآيات من (١٨ إلى ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧؛ أى فلو أراد جبرها على غير الإيمان لما أمكن أن تؤمن، وإذا كان المكلفون لايخرجون عن

---

(١) الآيات. (٢) يتوفاكم. (٣) الظالمين.

هذا النظام فإنه سبحانه جعل الفوز الناتج عن الإيمان للذين يتدبرون فى أسرار كونه، ويجعل الخزى والخذلان على الذين يهملون عقولهم فلا يعتبرون، وإذا كان الأمر كذلك فقل أيها النبى لقومك الذين تحرص على هداهم: انظروا بعيون أبصاركم وبصائركم ماذا فى السموات والأرض من الآيات والعبر كما فى آيتى (٢٠، ٢١) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣، وما تنفع الآيات والنذر فى دفع العذاب عن قوم صمموا على عدم الإيمان وتمكن منهم الحقد والحسد حتى طمس على قلوبهم، فهؤلاء لا ينتظرون من الله إلا مثل ما وقع لَمنْ كفر بأنبيائه من الأمم الماضية من الخزى والعذاب، فقل لهم أيها النبى منذرا ومهددا: انتظروا ما سيحل بكم إنى معكم من المنتظرين الواثقين بصدق وعد الله، وسنتنا فى رسلنا مع أقوامهم أنهم إذا بلغوهم وأقاموا الحجة وآمن بعض وكفر بعض أننا نهلك الكافرين وننجى رسلنا والذين أمنوا، وكهذا الإنجاء ننجى المؤمنين معك أيها الرسول ونهلك المكذبين، نعدك بهذا وعدا حقا علينا لا نخلفه.

قل أيها الرسول لقومك إن كنتم فى شك من ثباتى على دينى وترجون بكل مكايدكم تحويلى عنه فاعلموا أنى لا أعبد أحدًا ممَنْ تعبدونهم من دون الله، ولكن أعبد الله الذى يقبض أرواحكم بالموت، ثم يبعثكم ويجازيكم، ولا يقدر أحد مما تعبدون على أن يفعل ذلك، وأمرنى ربى أن أكّون من المؤمنين الذين وعدهم بالنجاة من عذابه، وأمرت بأن أقيم وجهى للدين؛ أى اجعل قلبى لا يلتفت لغيره حال كونى بعيدا عن الباطن، وأمرت أن لا أكون من المشركين العرب الذين يزعمون أنهم حنفاء على ملة إبراهيم، والحنيفية الصحيحة لا تجتمع مع الشرك بالله، وقال لى ربى أيضا: لاتّدع من دون الله مخلوقا لا ينفعك إذا لجأت إليه ولا يضرك إذا تركته، فإن دعوت غيره تعالى فقد دخلت فى زمرة الظالمين لأنفسهم الظلم الأكبر المبين فى الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠.

ثم أكد أن معبوداتهم لاتضر ولا تنفع، وأن ذلك لله وحده، فقال تعالى ﴿وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو﴾...

لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ
بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ
فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ
وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ
وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ[1] ﴿١٠٩﴾

(١١) سُورَةُ هُودٍ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ وَمِائَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر[2] كِتَٰبٌ[3] أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ[4] ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ
حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ

سورة هود

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات :. ﴿آلر﴾ : تقدم الحديث عن هذه الحروف المقطعة فى أول سورة البقرة.

﴿أحكمت آياته﴾ : أصل الإحكام إتقان البناء، والمراد أن آياته لا يعتريها خلل من مخالفة الواقع أو البعد عن الحكمة أو تناقضها أو نسخها بشرع آخر. ﴿ثم فصلت﴾: فى النزول إلى سور وآيات وإلى مباحث شرائع وعقائد ومواعظ؛ وقسم نزولها على ٢٣ عاماً للحكمة المبينة فى الآية (٣٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤.

﴿ألا تعبدوا .. إلخ﴾ : بيان لأعظم حكمة فى إحكام آيات القرآن وتفصيلها وهى عبادة الله وحده أى أحكمنا آياته وفصلناها لتتركوا عبادة غيره تعالى. ﴿إننى لكم منه نذير﴾ : على تقدير قول مفهوم من سياق الكلام قل أيها النبى إننى لكم منه نذير وبشير... إلخ وهذا الأسلوب كثير فى القرآن؛ انظر الآية (١٠٦) من سورة الأعراف صفحة ٨٠، والآية (٤٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٠، والآية (٣١) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤، والآية (٢٠) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٩.

المعنى :. وإن يرد لك خيرا فلا أحد يستطيع رد فضله عنك، فهو وحده الذى يصيب بكل من الخير والضر مَنْ يشاء من عباده، ولولا مغفرته الواسعة وفضله ورحمته العامة لهلك جميع الناس بذنوبهم، ولكنه سبحانه يعفو لهم عن كثير، انظر الآية (٥٨) من سورة الكهف صفحة ٣٨٩، والآية (٤٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨، والآية (٣٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣. قل أيها النبى لكفار مكة : قد جاءكم الحق وهو القرآن وما اشتمل عليه، من ربكم لإنقاذكم من الضلال، فمَنْ اهتدى واتبع الحق فما نفع إلا نفسه، ومَنْ اختار الضلال فما ضر إلا نفسه، وما أنا بمهيمن عليكم فأكرهكم على الإيمان وأمنعكم بقوتى من الكفر والعصيان وإنما أنا بشير ونذير. فإن سمعوا فقد نجوا، وإلا فلا تسأل عنهم، واتبع ما يوحى إليك،

---

(١) الحاكمين (٢) الِفْ لام را (٣) كتاب (٤) آياته.

نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ
يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا(١) حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي
فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ۚ أَلَا
حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ
إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ
فِي كِتَابٍ(٢) مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ(٣)
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ
الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

واصبر على إيذائهم وتكذيبهم حتى يحكم الله تعالى لك بالنصر عليهم، وهو خير الحاكمين، لأنه مطلع على السرائر فلا يخطئ أبدا.

هذا القرآن كتاب قدر إحكام آياته، ثم فصلت عند نزولها حسب المصلحة والحكمة وكل ما اشتملت عليه، من عند حكيم يعالج كل شيء بما يصلح له، خبير لا يفعل إلا الصواب. فقل لهم أيها النبى لا تعبدوا أيها الناس إلا الله إنى لكم من قبله سبحانه نذير.

المفردات: . ﴿إلى أجل مسمى﴾ : هو انتهاء أعمارهم. ﴿تولوا﴾ : أصلها تتولوا حذفت إحدى التاءين تخفيفا. ﴿ألا﴾ : حرف يدل على تنبيه السامع لما بعدها لأهميته. ﴿يثنون صدورهم﴾ : أى يطوونها على بطونهم من شده الكمد. ﴿يستغشون ثيابهم﴾ : أى يجعلون ثيابهم غشاء وغطاء لوجوههم. ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾ : الدَّب والدَّبيب الانتقال الخفيف البطىء كدبيب الطفل والشيخ المسن، والعقرب، ويطلق مجازا على سريان السُّكْرِ والسّمِ فى الجسم، والفساد فى الأمة.

والدابة اسم عام يشمل كل نفس حيّة تدب على الأرض زحفا أو على قوائم، قال تعالى ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم مَنْ يمشى على بطنه ومنهم مَنْ يمشى على رجلين ومنهم مَنْ يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير﴾ الآية (٤٥) من سورة النور صفحة ٤٦٥ وقوله تعالى ﴿يخلق ما يشاء﴾ أى مما تعلمون ومما لا تعلمون، مما يكون على الأرض، أو يطير فى الهواء، أو يسبح فى الماء؛ وإطلاق دابة على ما يركب من الخيل، والبغال، والحمير؛ عُرفٌ طارئ لا من أصل اللغة.

ورزق الدابة هو غذاؤها الذى تعيش به، ومعنى كونه على الله أنه سبحانه أوجب على نفسه

---

(١) متاعا (٢) كتاب (٣) السموات.

خلق هذا الرزق على الوجه الذى اقتضته حكمته. كما أوجب على نفسه الرحمة. كما فى الآية (٥٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٠، فالمعنى أن عليه سبحانه أن يخلق لها ما تتغذى به، وسخره لها، وهداها إلى طلبه وتحصيله، كما قال ﴿أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾ الآية (٥٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٩، ٤١٠ وقال ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ الآية (٢٠) من سورة الحجر صفحة ٣٣٩، وليس معنى الآية أن الله سبحانه وتعالى يوصل رزقها إلى جوفها من غير سعى منها، ولا يغرنك ما وقع فيه كثير من المفسرين من خطأ واضح حيث قالوا إن الرزق يصل إلى صاحبه ولو بدون سعى، وقال بعضهم لو فررت من الرزق لسعى وراءك، وغفل هؤلاء عن أن الله سبحانه قد وضع الأسباب والمسببات وقال ﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه﴾ الآية (١٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٥. وقال ﷺ: (لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانا) فانظر إلى إشارته ﷺ إلى سعى الطير فى طلب الرزق بقوله تغدو خماصا أى تذهب فى أول النهار خالية البطون وتروح بطانا أى تعود شباعا. ولم يقل إن الله يضع لها رزقها فى فمها وهى نائمة، فالحديث أمر بالسعى فى طلب الرزق مع التوكل على الله ليسهل للطالب ما طلب، ولأن السعى لا ينافى التوكل قال ﷺ للأعرابى الذى قال عندما نزل عن ناقته هل أعقلها يا رسول الله أم أتوكل؟ قال له النبى صلوات الله عليه: (اعقلها وتوكل). وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: اعملوا فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة فالله، سبحانه وتعالى خلق الرزق وألهم الحيوان السعى لتحصيله وألهم الطفل والحيوان الصغير التقام الثدى مثلا، والكبير تناول طعامه بما هيأه له من يد أو منقار مثلاً. وقد يعاقب الله الفرد أو الأمة بالجوع حتى تموت إذا فرطت فى الأخذ بالأسباب المشروعة؛ ومنها عدم السعى أو عدم الانتقال من المكان القفر إلى المكان الذى فيه الرزق. فتكون عصت ربها فتدخل فى عموم قوله تعالى: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ الآية (٩٧) من سورة النساء صفحتى ١١٨، ١١٩، لأن ظلم النفس هو تعريضها لما فيه آلام التعذيب أو الهلاك بقى أن يقال وما الحكم فى الشيخ الهرم أو الطفل الضعيف، أو النساء المسنات، من كل مَنْ لا يستطيع تحصيل الرزق؟ والجواب أن كل هؤلاء مكلف

بتحصيل أرزاقهم إما الدولة أو الأقارب الأقوياء، أو المسلمون المقيمون بينهم. أما من أخذ حيطته، وأعد قوته الذى به حياته ثم أصابته مصيبة أهلكت قوته ولم يجد ما يعيش به كما إذا كان فى سفر مثلا ولم يجد قوتا ولا ماء حتى مات، فإن هذا وأمثاله ممَنْ سبق قضاء الله عليهم بموتهم على هذه الصورة، بل إنه سبحانه إذا قضى على حى بالموت فإنه يحول بينه وبين طعامه ولو كان بين يديه، بل ولو وصل إلى حلقه، بل قد يكون الطعام نفسه هو سبب هلاكه وفى هذا الحال لا ذنب عليه. ﴿مستقرها﴾ : مكان استقرارها من الأرض. ﴿ومستودعها﴾ : المكان الذى كانت مودعةً فيه قبل الاستقرار من أصلاب أو أرحام أو بُيَيضَةَ أو بيضة أو غير ذلك، وقد تقدم بعض معناها فى الآية (٩٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٨، ١٧٩. ﴿كتاب مبين﴾ : هو اللوح المحفوظ.

﴿ستة أيام﴾ : لا يعلم مقدارها إلا الله تعالى كما بينا ذلك فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١؛ وانظر الآية (٥) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥، والآية (٤) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥.

﴿عرشه على الماء﴾ : لا نعلم عن العرش إلا أنه مركز تدبير الملك كما تقدم فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١، والآية (٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٥، و ﴿الماء﴾ هنا هو الماء الذى جاء فى حديث عمران بن حصين الذى رواه البخارى فى كتاب (بَدءُ الخلق)، وهو قوله (قال ﷺ كان الله ولم يكن شىء غيره وكان عرشه على الماء. وخلق السموات والأرض إلخ الحديث) وظاهر هذا الحديث يدل على أن الماء خلق قبل العرش وأنهما معا خلقا قبل كل شىء فهو ليس الماء المعروف لنا الآن قطعا ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة: (قلت: يا رسول الله أخبرنى عن أصل كل شىء فقال: كل شىء خلق من الماء) ولعل هذا الماء هو ما يعبر عنه علماء زماننا بالسديم ويقولون إن كل شىء يتحلل فإنه فى النهاية يرجع إلى هذه المادة السائلة. والله أعلم بأسرار خلقه.

﴿ليبلوكم﴾ : أى يختبركم.

المعنى :. إنى نذير لكم من جهته تعالى إن لم ترجعوا عن الشر، وبشير لكم بثوابه إن آمنتم، ولأن تستغفروا ربكم مما حصل منكم من شرك ومعصية ثم تتوبوا إليه من كل ما يعرض لكم فى المستقبل من ذنوب. إن تفعلوا ذلك يمتعكم فى الدنيا متاعا طيبا كما فى

الآيات (١٠، ١١، ١٢) من سورة نوح ٧٦٨، إلى أجل مسمى ومقدر عنده تعالى وهو انتهاء العمر المقدر لكم فى علمه، ويعطى كل ذى فضل من علم وعمل جزاء فضله فى الآخرة كاملا، وإن تتولوا عما دعوتكم إليه فإنى أتوقع لكم عذاب يوم كبير هولُه وشدَّته، وهو يوم القيامة، وذلك لأنكم جميعا لابد راجعون إليه سبحانه بالموت والبعث، وهو قدير على كل شىء ومنه بعثكم وحشركم وتعذيبكم فاحذروا مخالفته. ثم بيَّن سبحانه ما كان منهم بعد كل هذه الإنذارات فقال: تنبه لحالهم عند سماع القرآن ترى هؤلاء الكافرين والمنافقين يحنون ظهورهم وينكسون رءوسهم كأنهم يحاولون طى صدورهم على بطونهم ليستخفوا منه ﷺ لئلا يرى آثار الحسرة والغيظ من سطوة القرآن على وجوههم وهذا هو شأن الكفار المعاندين مع رسل الله سبحانه انظر الآية (٧) من سورة نوح صفحة ٧٦٨.

(ألا): أى تنبه أيها السامع واعلم أن الله يستوى فى علمه سرهم وعلانيتهم حين يجعلون ثيابهم غطاء على وجوههم كراهة الاستماع لكلام الله كما فعل قوم نوح فى الآية (٧) من سورة نوح صفحة ٧٦٨؛ لأنه سبحانه عليم بأسرار الصدور وخواطر القلوب.

وبعد ما بيَّن سبحانه قدرته على كل شىء وأحاطة علمه، أراد أن يبين ما يهم الناس من آثار قدرته وعلمه وحكمة خلقه هذه الأجرام العظيمة فقال: وما من دابة من الدواب المشار إليها فى الآية (٤٥) من سورة النور صفحة ٤٦٥ إلا تكفل سبحانه برزقها وهداها لاكتسابه بغريزتها أو ما يهديها إليه العلم إن كانت من العقلاء بعد الأخذ فى أسبابه انظر الآية (١٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٥، ويعلم مستقرها فى الأرض وقبل ذلك المكان الذى كانت مودعة فيه من أصلاب الرجال وأرحام النساء وغير ذلك كل واحد من الدواب وأرزاقها وأحوالها ثابت فى كتاب واضح ما فيه، انظر الآية (٣٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. والله سبحانه هو وحده الذى خلق السموات والأرض وما بينهما كما فى الآية (٥٩) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٧، والآية (٤) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥، فى ﴿ستة أيام﴾ وكان عرشه قبل خلقهما على الماء. وكيفية ذلك لا نعلمها كما قال سبحانه: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾ الآية (٥١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨. ثم بيَّن سبحانه بعض حكمته فى خلق ما ذكر مما يخص المكلفين المخاطبين بالقرآن فقال ﴿ليبلوكم﴾ إلخ: أى يجعل ذلك ابتلاء وامتحانا لكم فيظهر أيكم أحسن إتقانا لعمله كما فى آخر الأنعام. صفحة ١٩٢. وتالله لئن قلت للناس أيها النبى إنكم مبعوثون من بعد الموت للحساب والجزاء كما فى الآية (٣١) من سورة النجم صفحة ٧٠٢ لسارع الكافرون منهم لتكذيبك مؤكدين أن هذا القرآن الذى يقول بالبعث ما هو إلا كالسحر فى الخديعة والبطلان واللعب بالعقول.

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ
مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ
بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ(١)
مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا(٢) مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾
وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ(٣) نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ
السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ(٤) أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾
فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ
أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا
أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
افْتَرَاهُ(٥) ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ(٦) وَادْعُوا
مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٧) ﴿١٣﴾

المفردات :. ﴿أمة﴾: اصل الأمة الجماعة المتجانسة كما تقدم فى الآية (٣٨٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، والمراد هنا فترة: من الزمن، أى مدة كما فى الآية (٤٥) من سورة يوسف صفحة ٣١٠.

﴿ألا﴾ : حرف تنبيه كما تقدم.

﴿حاق﴾ : أى نزل وأحاط بهم.

﴿لعلك﴾ : المراد من لعل هنا الاستفهام المقصود به النهى.

﴿لولا﴾ : حرف يدل على طلب حصول ما بعده، انظر معانيها فى شرح الآية (٤٦) من سورة النمل صفحة ٥٠٠.

﴿أم يقولون﴾ : ﴿أم﴾ حرف يفيد الانتقال من كلام إلى كلام كحرف ﴿بل﴾.

المعنى :. بعد ما بيَّن سبحانه إنكارهم للبعث شرع فى بيان إنكارهم لما توعدهم به فى الآية (٣) من هذه السورة صفحة ٢٨٤ فقال:

ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى مدة قليلة فى حسابنا، وغرهم أنهم يرونه بعيدًا، انظر آيتى (٦، ٧) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥؛ يقول المنكرون استهزاءً وإنكارا: أى شىء يمنع هذا العذاب لو كان ما يقول محمَّد حقًّا؟ ألا إن لهذا العذاب يوما محددا فى علمنا يأتيهم فيه، وحينئذ لا يستطيع مخلوق صرفه عنهم، وسيحيط بهم قطعا هذا العذاب إذا استمروا على الاستهزاء به رغم التحذير منه مرارا كما فى الآية (٣٩) من سورة يونس صفحتى ٢٧٢، ٢٧٣.

ثم بيَّن سبحانه بعض أنواع أخبار الإنسان المتقدم فى الآية (٧) السابقة فقال ﴿ولئن أذقنا

---

(١) الإنسان (٢) نزعناها (٣) أذقناه
(٤) الصالحات (٥) افتراه (٦) مفتريات
(٧) صادقين.

الإنسان﴾ إلخ: أى ولئن أعطيناه بعض النعم رحمة منا كالصحة وسعة الرزق والولد، ثم لحكمه نزعناها منه بمرض وفقر وموت، يسرع إليه اليأس الشديد من الرحمة والسخط على قضاء ربه، ويتغلب عليه كفران نعم الله السابقة عليه والتى لايزال يتمتع بها، فيجمع بين الحرمان من الصبر والشكر. ولئن أعطيناه نعمة بعد ضر كشفناه عنه ليقولن ذهب ما كان يسوءنى ولن يعود، ويصير شديد الفرح الذى يربط قلبه بحب الدنيا، ومبالغا فى الفخر والتعالى على الناس فيشغله ذلك عن شكر الله، ويغفل عن أنه ربما يعود إليه ما كان فيه من المصائب فكان يجب أن يكون على حذر مراقبا ربه ليحفظه مما يسوءه، ولذلك طلب سبحانه من عباده أن يشكروه ليداوم عليهم نعمه، انظر الآية (١٥٢) من سورة البقرة صفحة ٢٩.

هذا هو الغالب فى طبع الإنسان كما فى سورة العصر، ولا ينجو منه إلا الصابرون على الشدائد إيمانا بالله وتسليما لقضائه وعملوا الصالحات شكرًا لله تعالى، وهؤلاء لهم مغفرة لما قد يكون لهم من ذنوب، وفى الآخرة أجر كبير من الجنة ورضوان الله تعالى. ولما كان ﷺ شديد الحرص على إيمان قومه، شديد الحزن على كفرهم إلى حد كان يضيق فيه صدره الشريف غما عليهم كما تقدم فى آيتى (٣٣، ٣٥) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧، والآية (٢) من سورة الأعراف صفحة ١٩٢، والآية (١٢٧) من سورة النحل صفحة ٣٦٣، والآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠، وكان مما يحزنه تعنتهم فى اقتراح معجزات لمجرد العناد، قال سبحانه: ﴿فلعلك تارك﴾ إلخ، أى هل يجول بخاطرك أيها النبى تأخير تبليغ بعض ما يوحى إليك مما يشق سماعه على المشركين كتوبيخهم على الشرك واحتقار آلهتهم خوفا من قبح ردهم واستهزائهم؟ وهل يضيق صدرك أحيانا خوفا من أن يقولوا لولا جاءه من الله كنز من غير تعب فينعم كالملوك وتنعم معه أو يجىء معه ملك يخبرنا بصدقه؟ لا، لا تحزن أيها الرسول فليس عليك إلا الإنذار والتبليغ لما يوحى إليك؛ ولماذا يضيق صدرك وأنت تعلم أن الله على كل شىء رقيب ومهيمن، وسيفعل بهم ما يستحقون، انظر مثل هذه الحالة فى آيتى (٧٣، ٧٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤ بل يقول هؤلاء الكفار إن محمَّدا افترى هذا القرآن من عند نفسه ونسبه لله. قل لهم إن كان الأمر كما تزعمون فافتروا وأنتم أرباب الفصاحة والبلاغة عشر سور مثله فى الإتقان وعدم الاختلاف مع كثرة تكرار القصة الواحدة والإخبار بالغيب وحكمة التشريع، واستعينوا بما يمكنكم الاستعانة به من الإنس والجن، كما فى الآية (٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦ إن كنتم صادقين فى دعواكم إنه كلام بشر.

فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن
لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ
الْحَيَاةَ[1] الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ[2] فِيهَا وَهُمْ فِيهَا
لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا
النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ[3] مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾
أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن
قَبْلِهِ كِتَابُ[4] مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ
وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ
فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ[5] هَٰؤُلَاءِ
الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ[6] ﴿١٨﴾

المفردات :. ﴿حبط﴾ : أى ذهب نفعه.

﴿بينة من ربه﴾ : أى حجة ونور بصيرة وهبها له ربه كما فى الآية (٢٢) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩.

﴿شاهد منه﴾ : هو القرآن.

﴿كتاب موسى﴾: هو التوراة.

﴿إماما﴾ : أى متبعا. ﴿الأحزاب﴾ : هم قبائل مكة وما جاورها الذين تحزبوا وتعاونوا على مقاومة دعوته ﷺ ﴿مرية﴾ : شك ﴿الأشهاد﴾ : جمع شاهد كأصحاب وصاحب، أو شهيد كأشراف وشريف، والمراد بهم الملائكة الحفظة والأنبياء كما فى الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧. ﴿ألا﴾ : حرف تنبيه كما تقدم مرارًا.

المعنى :. فإن لم يستجب - لكم أيها المشركون - مَنْ تدعونهم لمساعدتكم لعجزهم فيجب أن تعلموا أنه ما أنزل إلا مقترنا بعلم غيره فلا يقدر عليه سواه. وإذا ثبت هذا فاشهدوا أنه لا إله إلا هو سبحانه.

وبعد انقطاع كل شبهة فيجب أن تدخلوا فى الإسلام. ثم أراد أن يبين سبب انصرافهم عن الحق وهو أنهم حصروا هممهم من الدنيا فى شهوات أنفسهم، لا يلتفتون لما وراءها، فقال:

(١) الحياة
(٢) أعمالهم
(٣) وباطل
(٤) كتاب
(٥) الأشهاد
(٦) الظالمين.

﴿مَنْ كان يريد﴾ إلخ، أى بجميع أعماله فى الدنيا حتى ما كان منها فى صورة الإحسان التمتع بزينة الدنيا من زيادة النفع أو الثناء عليه يعطيهم الله ثمرات أعمالهم فى الدنيا من صحة وسعة رزق ورئاسة وأولاد، لا ينقصون شيئا من ثمرات أعمالهم فى الدنيا مع ما يحيط بها من منغصات لابد منها كما فى الآية (١٢٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والآية (١٢٤) من سورة طه صفحة ٤١٨، وفى الآخرة ليس لهم فيها إلا النار لذهاب فائدة ما صنعوا لأنه فى نفسه باطل لخلوه من نية التقرب إلى الله، كما فى آيتى ١٧، ١٨ من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧. ثم نفى سبحانه المساواة بين أصحاب النار وأصحاب الجنة فقال: أفمن كان يسير على نور بصيرة من ربه، ويقوى هذا النور شاهد عظيم من الله يشهد بصحة وصدق تلك البينة وهو القرآن، ومن قبل القرآن شاهد آخر هو كتاب موسى حال كونه إماما متبعا فى الهدى ورحمة لمَنْ آمن به وعمل بما فيه، أى أفمن كان عنده هذه الحجج الثلاث كمَنْ ليس له من الدنيا إلا المتعة الفانية؟ الحق أنهما لا يستويان؛ أولئك الجامعون بين البينة وبين شهادة الكتب السماوية يؤمنون بصحة كل ما جاء به محمَّد. ومَنْ يكفر به ممَنْ تحزبوا على رسولنا فليس له مكان إلا النار التى وعدناه بدخولها فى الآية السابقة، فلا تكن أيها السامع فى شك من هذا الوعد لأنه حق من ربك، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون لغلبة الشر عليهم، انظر الآية (١٠٣) من سورة يونس صفحة ٢٨٢. ثم أراد سبحانه أن يبين فى السبع الآتية حال كل فريق من الفريقين المذكورين فقال سبحانه : ﴿ومَنْ أظلم﴾ إلخ أى لا أحد أشد ظلما لنفسه ولغيره من الفريق الذى يفترى على الله شيئا من الكذب بأن ينسب إليه مالا يليق كالولد والشريك، وأنه لم يجعل من البشر رسولاً إلى غير ذلك، هؤلاء يعرضون يوم القيامة على ربهم لمحاسبتهم، ويقر الشهداء عليهم بأنهم هم الذين كذبوا على ربهم فيفضحونهم بهذه الشهادة المقرونة باللعنة، أى طلب حرمانهم من الرحمة، لأنهم استمروا على الظلم والشرك طول حياتهم.

الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم
بِالْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ[1] ﴿١٩﴾ أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ
فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ
يُضَٰعَفُ[2] لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا
كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ
وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ
هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ[3]
وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ[4] الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ[5] ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ
وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾
أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

المفردات : . ﴿يبغونها عوجا﴾ : أصل المعنى يريدونها عوجاء لتوافق شهواتهم.

﴿معجزين فى الأرض﴾ : أى مفلتين من عقابه لعجزه.

﴿يضاعف لهم العذاب﴾ : أى يعذبون عذابا على ضلالهم وعذابا على إضلالهم غيرهم بصدهم عن سبيل الله قال تعالى ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ الآية (٨٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٧، وكذلك الآية (٦٩) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨.

﴿وضل﴾ : أى غاب.

﴿لا جرم﴾ : قال الخليل وسيبويه والفرَّاء وغيرهم أن ﴿لا﴾ و ﴿جرم﴾ يستعملها العرب كلمة واحدة ومعناها حَقَّ بفتح الحاء والقاف المشددة فعل ماض بمعنى ثبت وجملة ﴿أنهم فى الآخرة﴾ فاعل لهذا الفعل وهو حَقّ. ونقل عن الخليل أيضا أنه قال ﴿لا﴾حرف نفى وأن معنى التركيب ﴿لا جرم﴾ لابد ولا محالة من أنهم... إلخ ﴿أخبتوا إلى ربهم﴾: خشعوا له واطمأنت قلوبهم بالإيمان، انظر الآية (٥٤) من سورة الحج صفحة ٤٤١.

(١) كافرون
(٢) يضاعف
(٣) الصالحات
(٤) أصحاب
(٥) خالدون.

المعنى : . لعنة الله على الظالمين الذين يصرفون الناس عن الطريق الموصل إلى رضا الله، ويقصدون بصدهم عنها جعلها معوجة فى نظر الناس لينفروهم منها، والحال أنهم هم وحدهم الكافرون بالآخرة كفرا فظيعا، جعل كفر غيرهم كأنه عدم، أولئك الموصوفون بما ذكر لم يكونوا مفلتين من عقاب الله إذا أراد عقابهم فى أرض هذه الدنيا على سعتها، ولو تحصنوا فى بروج مشيدة، ولكن اقتضت حكمته أن يؤخر عقابهم للأجل الذى حدده، فإذا جاء فلن يكون لهم من دون الله مَنْ يتولاهم فيمنع عنهم عذابه، وحينئذ يضاعف لهم العذاب بجمع ما كانوا يستحقونه فى الدنيا على ما استحقوه فى الآخرة، وعلى جرائمهم المتعددة، لأنهم لشدة كفرهم صاروا يكرهون سماع القرآن كما فى الآية (٢٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣، وما كانوا يبصرون آيات الله فى الكون الدالة على الحق وقدرته وتفرده بالملك وعلى عدله فى تصرفه فى الخلق؛ أولئك هم الذين خسروا أنفسهم حيث باعوها للشيطان بثمن بخس هو متاع الدنيا الزائل، فخلدوا فى الآخرة فى جهنم، وغاب عنهم ما افتروه من شفعاء يدفعون عنهم العذاب. ثبت حقا أنهم فى الآخرة أشد أهل النار خسرانا. ويقابل هؤلاء المشركين، الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وخشعت قلوبهم واطمأنت إلى قضاء ربهم، أولئك وحدهم هم المستحقون للجنة الخالدون فيها. مثل الكافر والمؤمن كالأعمى الذى يسير على غير هدى، والأصم الذى لا يسمع ما يدل على السلامة، وقوى البصر الذى يعرف طريق النجاة، وشديد السمع الذى يسمع كل نافع، هل يستوى الفريقان فى الصفة والحال؟ أتجهلون أيها المخاطبون هذا الفارق الواضح فلا تتذكرون ما بينهما من التباين؟ والمراد يجب أن تتفكروا لتعتبروا وتهتدوا.

ثم أراد سبحانه أن يسلى رسوله على ما يعانيه من قومه، ويحذر المشركين بما حصل لقوم نوح لما خالفوه من هلاكهم ونجاة المؤمنين، فقال: ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه﴾ قائلا لهم إنى لكم نذير واضح الإنذار، بأن لا تعبدوا إلا الله؛ لأنى أخاف عليكم إذا أشركتم عذاب يوم شديد ما فيه من الألم.

أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ[١]
إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ[٢] ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا
بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ
كَٰذِبِينَ[٣] ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ[٤] أَرَءَيْتُمْ[٥] إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن
رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي[٦] رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا
وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ[٧] ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ[٨] لَآ أَسْـَٔلُكُمْ[٩] عَلَيْهِ مَالًا
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم
مُّلَٰقُواْ[١٠] رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ[١١] قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ[١٢]
مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾
وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ
أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن
يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ

المفردات :ـ ﴿الملأ﴾: هم الزعماء.

﴿أراذلنا﴾ : جمع أرذل وهو الأشد رذالة كما فى الآية (١١١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦، يقال رذل المرء بضم الذال كضخم وهو الخسيس الدون.

﴿بادى الرأى﴾ : أى فى الرأى أول ظهوره قبل البحث عن صحته.

﴿أرأيتم﴾ : أى أخبرونى.

﴿على بينة﴾ : أى نور بصيرة وحجة كما تقدم فى الآية (١٧) من هذه السورة صفحة ٢٨٦.

﴿رحمة﴾: المراد بها هنا النبوة.

﴿فعميت عليكم﴾ : أى خفيت.

المعنى :ـ قال زعماء الكفر من قوم نوح فى ردهم على نوح ﷺ : لا مزية لك علينا حتى نكون تابعين لك والحال أنه لم يتبعك إلا رعاع الناس من أول وهلة بلا فكر ولا روية، ولو فكروا

(١ ـ ٢) نراك
(٣) كاذبين
(٤) يا قوم
(٥) أرأيتم
(٦) وآتانى
(٧) كارهون
(٨) ويا قوم
(٩) أسألكم
(١٠) ملاقو
(١١) أراكم
(١٢) ويا قوم.

ما تبعوك، وما نرى لك أنت ومَنْ اتبعك أقل فضل تمتازون به علينا مع أننا أرباب المال والجاه، بل فضلا عن ذلك نظنكم كاذبين؛ أنت فى دعوى الرسالة، ومَنْ اتبعك فى دعوى أنهم صدقوك.

قال نوح يا قوم أخبرونى إن كنت على بصيرة من ربى أهلتنى لأن يعطينى ربى رحمة من فضله فحجب البينةَ عنكم جهْلكُم وغروركُم بالمال والجاه فلم تدركوا أنها هى السبب فى اختيار ربى لى رسولا لكم، هل نلزمكم اعتقادها جبرا والحال أنكم كارهون لها جحودا واستكبارا؟ انظر الآية (٧) من سورة نوح صفحة ٧٦٨.

أى هذا ما لا يمكن أن نفعله لأن العقائد لا تكون بالإكراه أبدا. ويا قوم لا أسألكم على تبليغ رسالة ربى مالاً، فما أطلب أجرًا على ذلك إلا من الله الذى أرسلنى.

ولما كان يؤخذ من كلامهم أنهم يستحسنون طرد العوام الذين اتبعوه، وأن الغنى والجاه هو المعول عليه فى كون الرجل عظيما، وأن الذين اتبعوه كاذبون فى تصديقهم له، وأن الرسول لا يكون إلا من الملائكة لا بشرًا، قال فى الرد على كل هذا ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ عن معاشرتى لأجل احتقاركم لهم، لأنهم سيلاقون ربهم يوم القيامة فيشكوننى إليه إن طردتهم، فلا يكون لى جواب أنجو به من عقاب الله، ولكنى أراكم قوما تجهلون ما يصح أن يمتاز به الناس بعضهم عن بعض من اتباع الحق وعمل الخير، وتظنون أن الامتياز لا يكون إلا بالمال والجاه.

ويا قوم مَنْ يمنع عنى عقاب الله إن تركتهم وهم أولياؤه؟ أتصرون على جهلكم فلا تتذكرون أن لهم ربا ينتقم لهم. ولا أقول لكم بادعاء الرسالة: إن عندى خزائن رزق الله أتصرف فيها كما أشاء، فأجعل مَنْ اتبعنى غنيا مثلكم، ولا أقول لكم إنى أعلم الغيب حتى أكشف عن قلوب مَنْ اتبعنى، ولم أدع أنى مَلَك من السماء حتى تردوا على بما نراك إلا بشرا، ولا أحكم على الفقراء من أتباعى بأن الله لن يؤتيهم خيرا فى الدنيا والآخرة إرضاء لشهواتكم؛ لأن الله هو الذى يعلم ما فى أنفسهم من إخلاص وغيره، إنى إذا قلت فيهم ما تحبون أكون من الظالمين لنفسى للقول بغير علم، وللمؤمنين بإنكار حقهم عند الله.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾
وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ
ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾
أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠
بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن
قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾
وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا
مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا
فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

المفردات :. ﴿بما تعدنا﴾ : أى ما فى الآية (٢٦) السابقة صفحتى ٢٨٧، ٢٨٨.

﴿معجزين﴾ : أى لا تعجزون الله إذا أراد عذابكم.

﴿يغويكم﴾ : أى يهلككم بالعذاب، انظر الآية (٥٩) من سورة مريم صفحة ٤٠٢.

﴿أم يقولون افتراه﴾ : أم حرف بمعنى ﴿بل﴾ التى تفيد الانتقال من جانب من الكلام إلى جانب آخر منه. قال ابن عباس المعنى بل يقول قوم نوح عنه أنه هو الذى افترى على الله سبحانه وتعالى كلَّ ما يأمرنا به وينهانا عنه.

﴿إجرامى﴾ : الجرم الذنب العظيم.

﴿لا تبتئس﴾ : أى لا يستول عليك البؤس أى الحزن.

﴿الفلك﴾ : السفينة والفلك يطلق على الواحد والجمع. ﴿بأعيننا﴾ : المراد بعنايتنا، انظر الآية (٣٩) من سورة طه صفحة ٤٠٨، والآية (٤٨) من سورة الطور صفحة ٧٠٠، والآية (١٤) من سورة القمر ٧٠٥. ﴿وكلما مَرَّ عليه ملأ﴾ إلخ: ﴿كل﴾ منصوب على الظرفية و ﴿ما﴾ مصدرية وقتية أى كل وقت مرورهم والعامل فى الظرف ﴿كل﴾ سخروا وهو يشبه الجواب لها. أنظر الألوسى والمغنى، ومثلها كلما رزقوا من ثمرة رزقا، وهو تركيب كثير فى القرآن.

المعنى :. لما عجزوا عن مقاومة الحجة بالحجة لجأوا لمجرد العناد وقالوا يا نوح قد شرعت فى جدالنا وأطلت حتى مللنا ولم نعد نتحمل ذلك؛ فإن كنت صادقا فيما تقول فأت بهذا العذاب الذى تتوعدنا به. فقال: إن هذا بيد الله وحده لا قدرة لى عليه، فهو سبحانه

---

(١) الظالمين (٢) يا نوح (٣) جادلتنا (٤) جدالنا (٥) الصادقين (٦) افتراه (٧) تخاطبنى

الذى يأتيكم به إن شاء حسب حكمته، ولستم بمفلتين من عذابه إذا جاء، لأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء. ولا ينفعكم نصحى مهما أحببت الخير لكم إن كان الله قدر هلاككم بالعذاب لعلمه بتصميمكم على الكفر والفساد، وانطماس قلوبكم حتى صارت لا تقبل حقا. والجملة على أسلوب (إن أحسنت إلىَّ أحسنت إليك إن قدرت) فالشرط الثانى قيد فى الجزاء الأول، وجزاء الثانى معلوم من المقام، هو سبحانه ربكم الذى يعلم ما فى قلوبكم، وسترجعون إليه فى الآخرة فيجازيكم بما تستحقون.

ولما كان الغرض من ذكر قصة نوح مع قومه هو تسليته ﷺ بما حصل لإخوانه النبيين قبله، وتهديد المشركين بما حصل لقوم نوح كما تقدم، أراد سبحانه أن ينبه السامع لسفاهة كفار مكة وسط قصة نوح تعجيلا لبعض الفائدة فقال: ﴿أم يقولون افتراه﴾ أى أن هذا القصص الحق الذى قصه الله تعالى عن نوح وقومه ما كان يعلمه أحد منهم كما سيأتى فى الآية(٤٩) الآتية من هذه السورة صفحة ٢٩١، فهل يصح أن يقول مشركو مكة قد افترى هذا الذى يحكيه عن نوح؟ قل لهم أيها النبى: إن كنت افتريته على الله فرضا فهو إجرام عظيم علىَّ إثمه، وبما أن هذا محال ممَّنْ يعلم فظاعة الكذب على الله فأنتم المجرمون وأنا برىء من إجرامكم ونظير هذا تقدم فى الآية (٤١) من سورة يونس صفحة ٢٧٣. ثم رجع سبحانه لقصة نوح فقال: ﴿وأوحى﴾ إلخ، أى أوحى الله إلى نوح ما يصرفه عن الطمع فى إيمانهم، فأعلمه بأنه لن يؤمن منهم بعد الآن إلا مَنْ سبق منه الإيمان قبل ذلك، فلا تحزن يا نوح بسبب ما فعلوه من تكذيبك وإيذائك، لأنا سننتقم منهم قريبا، واصنع السفينة التى أوحينا إليك بصنعها سننجيك عليها حال كونك ملحوظا بعنايتنا معلما بوحينا لك كيف تصنعها، ولا تخاطبنى فى شأن هؤلاء الظالمين بعد الآن بطلب رحمة أو تأخير عذاب، لأنه قضى عليهم بالهلاك غرقا. وشرع نوح يصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه وسألوه عما يصنع ويقول لهم أمرنى ربى أن أصنع بيتا يجرى على الماء ولم يكن هذا معروفا قبل ذلك استهزءوا به وضحكوا ورموه بالجنون، انظر الآية (٩) من سورة القمر صفحة ٧٠٥. ولما كان واثقا من وعد ربه قال: إن تسخروا منا بجهلكم، فأنا أيضا نسخر منكم، لكن بحق، فسوف تعلمون إلخ...

مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ
زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ
وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا
بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا(١) وَمُرْسَىٰهَآ(٢) إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾
وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ
فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ(٣) ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ(٤) ﴿٤٢﴾
قَالَ سَـَٔاوِىٓ(٥) إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ
ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ
فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ
وَيَٰسَمَآءُ(٦) أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ
عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ(٧) ﴿٤٤﴾

المفردات : ﴿مقيم﴾ : دائم خالد. ﴿فار﴾ : ارتفع بقوة. ﴿التنور﴾ : هو ما يصنع فيه الخبز. ﴿زوجين﴾ : أى ذكر وأنثى. والعرب تسمى كل فرد لا يستغنى عن زميله زوجا، فيقال للمرأة زوج، ولزوجها زوج، انظر الآية (١٤٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٧، والآية (٤٥) من سورة النجم صفحة ٧٠٣. ﴿مجريها﴾ : جريانها. ﴿مرساها﴾ : إرساؤها عند وقوفها عن سيرها.

﴿فى معزل﴾ : أى مكان منعزل عما فيه نوح والمؤمنون معه. ﴿سآوى﴾ : سألجأ. ﴿أقلعى﴾ : كفى عن الأمطار. ﴿غيض الماء﴾: يقال غاض الماء ذهب، وغاضه الله أذهبه، فهو فعل لازم ومتعد، وما فى الآية من الثانى كأغاض. ﴿استوت﴾: استقرت ﴿الجودى﴾ : جبل بالموصل. ﴿بعدا﴾ : يقال بعد الشىء بكسر العين بعدا بضم فسكون إذا صار بعيدا لا يرجى عوده، ثم استعمل فى الهلاك وهو المراد هنا.

المعنى : فسوف تعلمون مَنْ هو الذى يأتيه عذاب فى الدنيا يذله ويحل عليه فى الآخرة عذاب دائم، حتى إذا جاء وقت أمرنا بهلاكهم، ونبع الماء بقوة من جوف تنور إعلاما له بالاستعداد لركوب السفينة، ثم تتابع تفجر الماء من الأرض ونزوله من السماء كما فى آيتى

---

(١) مجريها
(٢) ومرساها
(٣) يابنى
(٤) الكافرين
(٥) سآوى
(٦) ويا سماء
(٧) الظالمين.

(١١، ١٢) من سورة القمر صفحة ٧٠٥؛ عند ذلك قلنا لنوح احمل فى السفينة من كل نوع من الحيوانات ذكرًا وأنثى، لتتناسل وتبقى أنواعها بعد الطوفان، واحمل فيها أيضا أهل بيتك جميعا إلا مَنْ سبق عليه حكمنا بهلاكه لكفره كامرأته وابنه، واحمل فيها أيضًا مَنْ آمن من قومك ولم يكونوا إلا عددا قليلا، لم يصح فى تحديد عددهم حديث عن النبى ﷺ. وقال نوح لأهله وللمؤمنين اركبوا فى السفينة حالة كونها بعناية الله وقدرته جريها ووقوفها، إن ربى واسع المغفرة لعباده، فلم يهلكهم جميعا بما وقع من بعضهم، رحيم بالمؤمنين سخر لهم ما به نجاتهم، فركبوا، وبينما هى تجرى بهم فى موج عظيم الارتفاع، وقبل تفاقم الخطر وانقطاع علاقة السفينة بالبر، رأى نوح ابنه فى معزل لم يركب معهم، فقال له: يا بنى اركب معنا ولا تبق مع الكافرين بعيدا عن السفينة، وإنما قال نوح هذا بعد ما نهاه الله تعالى عن طلب النجاة للكافرين كما فى الآية (٣٧) السابقة صفحة ٢٨٩ ظنا منه أن ابنه مؤمن، ولكنه فى الحقيقة كان منافقا يظهر لأبيه الإيمان ويخفى الكفر كأمه زوجة نوح كما فى الآية (١٠) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣، فكان جوابه لأبيه: إنى سألجا إلى جبل يحفظنى من خطر الماء. قال نوح: لا شىء فى هذا اليوم العصيب يحفظ أحدا من أمر الله الذى قضى به هلاك الكافرين، لكن مَنْ رحمه الله من عباده يحفظه من الغرق. وبعد هذا مباشرة لجأ نوح إلى ربه بما سيأتى فى الآيات (٤٥، ٤٦، ٤٧) من هذه السورة صفحة ٢٩١، وبعد هذه الضراعة من نوح إلى ربه كان الماء قد ارتفع وكثر الموج حتى حال بينهما فكان ابنه من المغرقين. وبعد هلاك الجميع قال سبحانه للأرض أى أمرها أمر تكوين بأن تخفى ما عليها من الماء فى جوفها بقوة، وأمر السماء أن تكف عن الأمطار، فكان ما أراد، وغاض الماء، ونفذ أمر الله سبحانه بنجاة المؤمنين وهلاك الكافرين، واستقرت السفينة على الجودى، وقيل هلاكا وسحقا للقوم الظالمين أنفسهم بالكفر. وهل القائل هو الله عز وجل، أو ملائكته أو الجميع كما فى الآية (١٦١) من سورة البقرة صفحة ٣٢ الله سبحانه وتعالى أعلم. وإنما قلنا إن طلب نوح نجاة ابنه مقدم على الغرق لأنه بعد غرقه تبين قطعا أنه ليس بمؤمن، لأن الله تعالى وعد نوحا بنجاة المؤمنين معه، وبالغرق لابد أن يعلم أنه ليس مؤمنا، فلا يصح أن يخاطب ربه فيه بعد أن نهاه عن ذلك فى الآية (٣٧) السابقة صفحة ٢٨٩.

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ
ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ[1] ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ[2] إِنَّهُۥ
لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ[3] ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ[4] مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ[5] ﴿٤٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ[6] مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ
وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ[7] ﴿٤٧﴾ قِيلَ
يَٰنُوحُ[8] ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ[9] مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ[10] عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن
مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾
تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ
أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ[11]
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ[12] ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

المفردات :. ﴿عمل غير صالح﴾ : الأصل أنه عامل عملا غير صالح، ولشدة كفره جعله نفس العمل الطالح مبالغة، كما يقال فى الرجل الشرير إنه شر أى صاحب شر شديد.

المعنى :. أن نوحا لما رأى ابنه فى خطر، وكان يظن أنه مؤمن كما تقدم، وكان الموج لم يحل بينهما نادى نوح ربه بما يأتى، وإنما قدم سبحانه حيلولة الموج وغرقه على هذا النداء لحكمة بلاغية هى تتميم القصة المبينة لوجه العبرة التى سيقت لها، وهى تسليته ﷺ، وتحذير المشركين من أن يحصل لهم مثل ما حصل لمَنْ كفر قبلهم. وبعد ما أتمها سبحانه أراد أن ينبه المسلمين لأمور مهمة وقعت فى حادث نوح وابنه منها أن الأنبياء إذا أخطأوا فى اجتهادهم يلامون لعظم منزلتهم، ومنها أن الإيمان والصلاح لا علاقة له بالوراثة والنسب، إذ لو كان بأحدهما لما كفر ابن نوح، ومنها أن الله تعالى يجزى الناس فى الدنيا والآخرة بأعمالهم لا بأنسابهم ولا يحابى أحدًا لأجل أبيه مهما كانت منزلة الأب، ومنها أنه لا يجوز أن يطلب العبد من الله شيئا إلا إذا كان عالما بجوازه، أما إذا جهل حكم الله فيه فإنه لا يجوز أن يطلبه من الله، ومن باب أولى إذا علم بحرمته، فقال سبحانه فى ذلك ﴿ونادى نوح ربه﴾ إلخ، المراد وقد كان نداء نوح ربه عقب امتناع ابنه من الركوب معه وتعرضه للخطر طالبا من الله أن ينقذه فقال: يارب إنك وعدتنى

---

(١) الحاكمين (٢) يا نوح (٣) صالح
(٤) تسألن (٥) الجاهلين (٦) أسألك
(٧) الخاسرين (٨) يا نوح (٩) بسلام
(١٠) وبركات (١١) العاقبة (١٢) يا قوم

بنجاة أهلى وابنى منهم فوفقه للركوب معنا لأن وعدك هو الحق الذى لا يتخلف وأنت أحسن الحاكمين حكما كما فى الآية (٥٠) من سورة المائدة صفحة ١٤٧، أى لا تنفذ جزاء عمل إلا بالعدل. ومراد نوح بهذا الثناء على الله استجلاب رحمته تعالى لينقذ له ولده. قال سبحانه: يا نوح إن ابنك هذا ليس من أهلك الذين أمرتك بأن تحملهم فى السفينة لينجوا، لأنه شرٌّ صرف، حيث كان يخفى كفره، فولاية الإيمان بينك وبينه منقطعة، فكأنه ليس بينه وبينك نسب أصلا، انظر آيتى (٦٧، ٧١) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٢، ٢٥٣، والآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١. فلا تسألنى أن أجيبك فى قضاء شىء ليس لك بجواز طلبه علم، إنى أعظك أى أنهاك نهيا يصل إلى شغاف قلبك حتى لا تكون من الذين يسألون بغير علم. قال نوح يارب إنى أحتمى وأتحصن بك من أن أسألك بعد الآن ماليس لى به علم صحيح، وإن لم تغفر لى ما فرط منى وترحمنى بقبول توبتى أكن من الخاسرين. وبعد ذلك حال الموج بينه وبين ابنه فغرق مع الكافرين؛ قال محمد أبو السعود فى تفسير (إرشاد العقل السليم) فى قوله تعالى ﴿فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق﴾ إلى قوله تعالى ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك﴾.. قال أبو السعود: لما كان دعاء نوح عليه السلام بتذكير وعده سبحانه مبنيًا على كون ابنه من أهله، نفى سبحانه أولاً كونه منهم بقوله ﴿إنه ليس من أهلك﴾ أى ليس منهم أصلاً لأن مدار الأهلية القرابة الدينية، ولا علاقة بين المؤمن والكافر؛ أو ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم فى الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء ﴿إلا مَنْ سبق عليه القول﴾ وعلى التقديرين فليس ابنه من الذين وعد الله بإنجائهم، ثم علل عدم كونه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقى بقوله تعالى ﴿إنه عمل غير صالح﴾ أصله أنه ذو عمل غير صالح فجعله نفس العمل مبالغة. وإيثار عمل غير صالح على فاسد إما لأن الفاسد بما يطلق على ما فسد ومن شأنه أن يكون صالحا فلا يكون نصًا فيما هو من قبيل الفاسد المحض كالقتل والظلم.

وإما للتلويح بأن نجاة مَنْ نجا إنما هو لصلاحه. وقرأ الكسائى ويعقوب: إنه عَمِل غير صالح، أى عمل عملاً غير صالح، ثم فَرَّع سبحانه على كل ما تقدم نهى نوح عن سؤال إنجاء

ابنه لكنه جاء به عامًا ليندرج فيه ذلك ومثله فقال ﴿فلا تسألنى﴾ أى إذا وقفت على حقيقة الأمر فلا تطلب منى ﴿ماليس لك به علم﴾ أى مطلب لا تعلم يقينا أن حصوله صواب وموافق للحكمة والمصلحة، ويجوز أن يكون المعنى ماليس لك علم بأنه صواب أو غير صواب فيكون النهى واردًا على مشتبه الحال، ويعلم منه حال معلوم الفساد بالأولى؛ ثم قال أبو السعود : وهذا صريح فى أن نداء نوح عليه السلام ربه ليس استفسارًا عن سبب عدم إنجاء ابنه مع مسبق الوعد بإنجاء أهله، وابنه منهم كما قيل، نقول ليس استفسارا لأن النهى عن استفسار مالم يعلم غير موافق للحكمة، لأن عدم العلم بالشىء داع إلى الاستفسار عنه، لا إلى تركه، وهذا فى القرآن كثيرا ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ و ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ و﴿يسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير﴾ إلى غير ذلك كثير.

وحينئذ يكون نداء نوح هذا دعاء منه لإنجاء ابنه حين حال الموج بينهما وكان يظن أنه لازال حيا لأن حيلولة الموج بينهما لا يستوجب هلاكه فضلا عن العلم به، فطلب من الله تقريب الفلك إلى المكان الذى فيه ابنه، أو يجعل الموج يطرحه فى السفينة مثلاً، ولم يكن ابنه مجاهرًا بالكفر كما تقدم وقصده الالتجاء إلى الجبل ليس نصًا فى الإصرار على الكفر لجواز أن يكون ذلك لجهله بانحصار النجاة فى الفلك وزعمه أن الجبل مثل الفلك؛ وإنما أخر سبحانه هذا الجزء من القصة لأن من سنته سبحانه أنه قد يأتى بنهاية القصة للتعجيل بالعبرة المقصودة منها ثم يأتى بباقيها بعد ذلك كما هنا.

وقال الزمخشرى فى توجيه لوم نوح عليه السلام: إن الله سبحانه قدم لنوح الوعد بنجاة أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم فكان على نوح أن يتنبه إلى أن فى جملة أهله مَنْ هو مستوجب للعذاب وأن كلهم ليسوا ناجين.

وما كان لنوح عليه السلام أن تخالطه شبهة عندما أشرف ابنه على الغرق فى أنه ممَنْ استثناهم الله عز وجل. فعوتب على أنه اشتبه عليه ما يجب أن لا يشتبه فيه خصوصا وهو الذى سأل إهلاك الكافرين جميعا فى الآية (٢٦) من سورة نوح صفحة ٧٦٩. فكان ينبغى له

أن يتنبه إلى أن الله سبحانه جعل المعنى المعتبر فى النجاة هو الإيمان لا القرابة، فكان المطلوب منه أن يفحص أفراد أهله ويتحرى أعمالهم، ولو فحص لأدرك أمارات نفاق ابنه من أنه لم يركب مع المؤمنين مع أنه سمع من أبيه أنه لا عاصم اليوم من أمر الله... إلخ؛ وفى هذه الحالة كان قد علم أنه ليس من المؤمنين. ولأنه عليه السلام لم يتحر يكون قد قصر وأولو العزم مؤاخذون على النقير والقطمير لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين كما يقولون.

وذهب الطوفان ورست السفينة على الجودى وقال سبحانه: يا نوح اهبط من السفينة أو الجودى إلى الأرض ممتعا بسلام منا فلا يؤذيك كافر بعد اليوم لأننا قضينا أن لا يبقى خالدًا فى الدنيا نسل لغيرك، اقرأ قوله تعالى : ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ الآية (٧٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩١، وبركات فى الرزق والنسل مغدقة عليك وعلى أمم سيتناسلون ممَنْ معك، وممَنْ معك أمم سنمتعهم فى الدنيا بمتعها دون سلام منا، ثم يمسهم منا فى الآخرة عذاب شديد الألم.

ثم أراد سبحانه أن ينبه الكفار إلى دليل صدق رسوله فقال: تلك القصة التى قصصناها عليك أيها النبى عن نوح وقومه هى من أخبار الغيب الماضية من زمن بعيد، نوحيها إليك، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا الوحى على هذا الوجه من التفصيل الدقيق، فاصبر على أذى قومك كما صبر نوح، فإن العاقبة لك كما كانت لنوح، لأنكما تتقيان الله فلا تفعلان ما يغضبه.

ثم شرع سبحانه فى ذكر قصة هود مع قومه للغرض الذى قصد من قصة نوح وقومه فقال: ﴿وإلى عاد﴾ إلخ؛ أى وأرسلنا إلى عاد الأولى أخاهم فى النسب والقومية هودا، انظر الآية (٥٠) من سورة النجم صفحة ٧٠٣، قال لهم وكانوا يتخذون من دون الله آلهة: يا قوم اعبدوا الله وحده لأنه ليس لكم إله حق غيره، وما أنتم إلا كاذبون عليه سبحانه فى جعلكم له شركاء يقربونكم إليه.

يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى
فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ
تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً
إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا
بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ
قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾
مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى
تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ
بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن
تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ
رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ

المفردات :. ﴿فطرنى﴾ : أى خلقنى على الفطرة السليمة. ﴿السماء﴾ : المراد بها هنا المطر. ﴿مدرارا﴾ : كثيرا. ﴿عن قولك﴾ : ﴿عن﴾ هنا حرف يفيد أن ما بعده علة وسبب فى حصول لما قبله كما تقدم فى الآية (١١٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٦١، ٢٦٢.

﴿لك بمؤمنين﴾ : أى مصدقين كما فى الآية (١٧) من سورة يوسف صفحتى ٣٠٤، ٣٠٥. ﴿إن نقول﴾ : ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى لا. ﴿اعتراك﴾ : أى أصابك بعض آلهتنا بشر لسبك لهم ولمنعك الناس عن عبادتهم.

﴿لا تنظرون﴾ : أى لا تمهلونى. ﴿من دابة﴾ : ﴿من﴾ لإفادة النص على عموم ما بعده، و ﴿دابه﴾ هى كل ما دَبّ على وجه الأرض.

﴿آخذ بناصيتها﴾ : أصل الناصية مقدم شعر الرأس، والأخذ به كناية عن القهر والإخضاع الذى لا مفر منه. ﴿إن ربى على صراط مستقيم﴾ : أى أفعاله لا تجرى إلا على الحق والعدل.

﴿تولوا﴾ : أصلها تتولوا حذفت إحدى التاءين تخفيفا.

المعنى :. قال هود يا قوم لا أسالكم على تبليغ الرسالة أجرًا، فما أجرى إلا على ربى الذى خلقنى، فهل تغفلون عن ذلك فلا تعقلون أن مَنْ لا يطلب منكم أجرا لا يكون متهما فى قوله. ﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾ إلخ؛ تقدم بيانها فى الآية (٣) من هذه السورة صفحة ٢٨٤، فإن فعلتم ذلك وأنتم فى أشد الحاجة للمطر لعدم وجود أنهار فى أرضكم فإنه تعالى يرسل المطر عليكم كثيرا. ومما يدل على شدة حاجتهم إلى المطر فرحهم بما ظنوه سحابا، وإذا هو العذاب، انظر الآية (٢٤) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٦٩، ٦٧٠، ويزدكم قوة إلى قوتكم التى

---

(١) يا قوم (٢) أسالكم (٣) ويا قوم (٤) ياهود
(٥) آلهتنا (٦) اعتراك (٧) آخذ.

تفخرون بها، أنظر الآية (١٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣١، وهذه القوة التى جعلتهم جبارين، انظر الآية (١٣٠) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٧، ٤٨٨، فاسمعوا نصحى، ولا تعرضوا عما أطلبه منكم حال كونكم مصرين على إجرامكم وكفركم، فما كان لهم رد إلا العناد والمكابرة بإنكار ما قدم لهم من الآيات الدالة على صدقه، فقالوا تبجحا فى الكذب : يا هود ما جئتنا ببينة. وهذا هو شأن الكفار مع كل نبى.

يتعامون عن الأدلة القاطعة ليوهموا ضعاف العقول أنهم على حق، انظر الآية ٥٩ الآتية فى هذه السورة صفحة ٢٩٣، وما قاله كفار مكة لنبينا ﷺ الذى جاءهم بأكبر المعجزات فى الآية (٣٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧، والآية (٢٠) من سورة يونس صفحتى ٢٦٨، ٢٦٩، وقد روى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (ما من نبى إلا أوتى من المعجزات ما يصح أن يؤمن به البشر). أنظر الحديث وشرحه فى كتابنا صفوة البخارى وقال ابن تيمية فى مجموعة تفسيره لِستٍّ سور من قصار المفصل أولها ﴿الأعلى﴾ وآخرها سورة ﴿الكافرون﴾ قال فى صفحة ١٧٥ إن بينة صالح كانت مبصرة ﴿أى ظاهرة مُحَسَّة﴾ وهى الناقة، أما بينة هود فكانت عقلية غير مُبْصَرَة بالعيون وهى التى أشار إليها بقوله: ﴿إنى أُشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون﴾ إلى قوله ﴿مستقيم﴾ ومن أعظم الآيات أن يخاطب رجل واحد أمة كبيرة تفخر بقوتها وشدة بطشها كما تقدمت الإشارة إلى ذلك فى الآية (١٣٠) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٧، ٤٨٨، والآية (١٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣١ وقالوا: وما نحن بالذين يتركون عبادة آلهتهم لمجرد قولك مع أنك بشر مثلنا، وما نحن لك بمصدقين، وما نجد من قول نقوله إلا أن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك بجنون وخبل فصرت تقول ما لا يعقل. قال هود: إنى أشهد الله أنى برىء مما تشركون، واشهدوا أنتم أيضا بذلك، فإنى لا أبالى بكم ولا بآلهتكم، فكيدونى أنتم وآلهتكم إن استطعتم ولا تمهلونى لحظة واحدة. وهذا منه عليه السلام توبيخ وتعجيز لآلهتهم لو كانوا يعقلون، وإنما لا أبالى بكم لأنى وكلت حفظى وخذلانكم إلى الله مالك أمرى وأمركم والمتصرف فى كل حى يتحرك فى الأرض أو فى السماء، انظر الآية (٢٩) من سورة الشورى صفحة ٦٤٢، إن ربى فى كل أفعاله على الحق والعدل، فينصر المخلصين ويخذل المفسدين. فإن تتولوا ولا تطيعوا أمرى فقد ثبتت الحجة عليكم، وحق عليكم العذاب، لأنى بلغتكم ما أمرنى ربى تبليغه لكم، فإذا هلكتم فسيستخلف ربى فى الأرض قوما غيركم، ولا تضرونه شيئا ولو قليلا بعدم إيمانكم فإنه غنى عنكم، وهو على كل شىء حفيظ.

شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟
أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً
وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ
قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ
ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ
ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ
إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا
مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا
لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ
إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى

المفردات : . ﴿حفيظ﴾ : رقيب عالم بكل ما تعملون.

﴿جاء أمرنا﴾ : الأمر واحد الأمور، والمراد به العذاب.

﴿عذاب غليظ﴾ : أى شديد الفظاعة، انظر وصف هذا العذاب الغليظ فى آيتى (٤١، ٤٢) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥، وآيتى (١٩، ٢٠) من سورة القمر صفحة ٧٠٦ وآيات (٦، ٧، ٨) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦١، ٧٦٢. ﴿وتلك عاد﴾ : عبَّر عن ﴿عاد﴾ بلفظ ﴿تلك﴾ الموضوع للمؤنث باعتبارها قبيلة وأعاد الضمير عليها مذكرا فى قوله جحدوا وعصوا واتبعوا باعتبار أنها ﴿قوم﴾ انظر آخر الآية بعدها والآية (٨٦) الآتية من هذه السورة صفحة ٢٩٧.

﴿جحدوا بآيات ربهم﴾ : الجحود هو إنكار الشىء فى الظاهر مع العلم بأنه حق، انظر الآية (٣٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧، والآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥ وجملة جحدوا وما بعدها بيان لبعض جرائمهم التى استحقوا بها الهلاك.

﴿وعصوا رسله﴾ : المراد أنهم بعصيانهم رسولهم كأنهم عصوا جميع رسل الله، كما يقول الكبير لِمَنْ أهان خادمه لا يصح أن تهين رجالى؛ وأيضا هم بنوا إنكارهم رسالته عن الله على أنه بشر مثلهم وعلى حَدِّ تعبيرهم لا يرسل الله إلا ملكا، وهذا المبدأ يستلزم إنكار رسالة رسل الله من البشر جميعًا، انظر إنكارهم هذا فى آيات:

(٢٧) من هذه السورة صفحة ٢٨٨، و (١٠) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣١، و (٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠، و (٢٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٧، و (٣٣، ٣٤) من نفس السورة صفحتى ٤٤٨، ٤٤٩، و (١٥٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٩، و (١٨٦) من نفس السورة

(١) ونجيناهم (٢) بآيات (٣) القيامة (٤) صالحا (٥) يا قوم
(٦) يا صالح (٧) أتنهانا (٨) يا قوم (٩) ارايتم.

صفحة ٤٤٩، و (١٥) من سورة يس صفحة ٥٨٠. ﴿جبار﴾ : هو القاهر الذى يجبر غيره على مالا يريد.

﴿عنيد﴾ : هو الطاغية الذى لا يخضع للحق مهما قوى دليله.

﴿واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة﴾ : أى جعل الله اللعنة تابعة لهم فى الدنيا من كل مَنْ علم بجرمهم، وتلحقهم يوم القيامة من الأشهاد المتقدم ذكرهم فى الآية (١٨) من هذه السورة صفحة ٢٨٦. ﴿ألا﴾ : حرف تنبيه كما تقدم.

﴿مريب﴾ : أى مُوقع فى سوء الظن وقلق النفس.

المعنى : . إن ربى محيط بتصرفاتكم وسيجازيكم عليها. ولما نزل عذابنا بساحتهم نجينا منه هودا والمؤمنين معه بسبب رحمتنا لهم بالتوفيق للإيمان، والذى نجيناهم منه هو عذاب بالغ النهاية فى الشدة فى الدنيا بريح صرصر عاتية كما فى الآية (٦) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١، وفى الآخرة بنار حامية، وتلك الأجسام الصرعى هى عاد الباغية التى كان بغيها أنهم كفروا بآيات ربهم وجحدوها وقالوا ما جئتنا ببينة كما تقدم، وعصوا رسل الله فى شخص رسولهم، لأنهم بنوا إنكار رسالته على أنه بشر مثلهم، وهذا يستلزم إنكار جميع الرسل. واتبع عوامهم فى هذا أمر كل جبار عنيد من رؤسائهم، فلحقتهم لعنة الله والناس أجمعين فى الدنيا والآخرة. ألا إن عادا جحدوا نعمة ربهم ولم يشكروها بالإيمان.

ألا بعدا لعاد وطردًا لهم عن رحمتنا، أى عاد قوم هود، وهى عاد الأولى، انظر الآية (٥٠) من سورة النجم صفحة ٧٠٣ لاعاد إرم ذات العماد الآتى ذكرها فى الآية (٧) من سورة الفجر صفحة ٨٠٦. وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا، وقد تقدم شىء عنهم فى آيات من سورة الأعراف، انظر الآية (٧٣) وما بعدها صفحة ٢٠٤؛ قال لهم يا قوم اعبدوا الله وحده لأنه ليس لكم إله حق غيره، وهو وحده الذى خلقكم من الأرض، ومكنكم من استعمارها والانتفاع بخيراتها، فاستغفروه من شرككم، ثم ارجعوا إليه كلما وقع منكم ذنب، إن ربى قريبة رحمته منكم، انظر الآية (٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١، مجيب دعاء المخلصين، انظر الآية (١٨٦) من سورة البقرة صفحة ٣٦. قالوا يا صالح قد كنت فيما بيننا مرجوا للسيادة قبل هذا الذى تدعونا إليه من تبديل ديننا، فهل يصح أن تنهانا عن أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا من قبل، وإنا لفى شك مما تدعونا إليه من ترك التوسل بشفعائنا الذين يقربوننا إلى الله وتعظيم تماثيلهم، فنحن لا ندرى ماذا تريد، فإن قولك موجب للريب، أى سوء الظن وقلق النفس.

قال يا قوم أخبرونى إن كنت على بصيرة ويقين من ربى وآتانى من فضله النبوة والرسالة فمَنْ ينصرنى من الله إن خالفته؟...

مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾
وَيَٰقَوْمِ[1] هَٰذِهِۦ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ
اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾
فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ[2] أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ
غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا[3] وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا۟ الصَّيْحَةُ
فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ[4] جَٰثِمِينَ[5] ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ
أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟[6] كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ
جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ[7] بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا[8] قَالَ سَلَٰمٌ[9]
فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ[10] أَيْدِيَهُمْ
لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ

المفردات : . ﴿غير تخسير﴾ : أى غير أن تجعلونى خاسرًا بإبطال أعمالى وتعريضى لسخط الله سبحانه.

﴿آية﴾ : أى أن أحوالها معجزة تدل على كمال قدرة خالقها سبحانه وتعالى.

﴿ومن خزى يومئذ﴾: أى من ذله وفضائحه التى لحقت الكفار فى هذا اليوم من سوء الذكرى ولعنة الله الأبدية.

﴿الصيحة﴾ : أصلها الصوت الشديد، وتقدم فى الآية (٧٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥ أنها سميت فى بعض الآيات الرجفة والصاعقة.

﴿جاثمين﴾ : أى ساقطين على وجوههم.

﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ : كأن لم يكونوا موجودين قبل ذلك، انظر الآية (٢٤) من سورة يونس صفحتى ٢٦٩، ٢٧٠.

﴿ألا﴾ : حرف للتنبيه للعناية بما بعده.

﴿بعدا لثمود﴾ : طردا لهم عن رحمة الله كما تقدم قريبا. ﴿حنيذ﴾ : الحنيذ هو المشوى على الحجارة المحماة بالنار وهو أنظف المشويات من اللحوم. ﴿أيديهم لا تصل إليه﴾ : لا تمتد إليه للأكل منه.

---

(١) ويا قوم (٢) ثلاثة (٣) صالحا
(٤) ديارهم (٥) جاثمين (٦) ثمود
(٧) إبراهيم (٨) سلاما (٩) سلام
(١٠) رأى.

﴿نكرهم﴾ : يقال نكر الرجل غيره بوزن تعب، وأنكره إذا رأى منه شيئًا لم يعهده، وهذا الإنكار هنا لعدم الأكل غير الإنكار عند أول مقابلتهم لأنهم كانوا على صورة غير ما يعهدها من الناس، انظر الآية (٢٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣. ﴿أوجس﴾: شعر فى نفسه خوفا منهم.

المعنى : . فمَنْ يمنعنى من عذاب الله تعالى إن عصيته بعدم تبليغ رسالته، فما تزيدوننى بحرصكم على ترك التبليغ إلا الوقوع فى الخسران بتقديم رضاكم على رضا الله سبحانه. ويا قوم هذه ناقة شرفها الله بنسبتها إليه لامتيازها دون الإبل بما تشاهدونه فى أكلها وشربها كما تقدم فى الآية (٧٣) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٤، وسيأتى فى الآية (١٥٥) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٩، جعلها الله لكم آية دالة على صدق ما أقول، فاتركوها تأكل وتشرب مما فى أرض الله، ولا يمسها أحد منكم بسوء لئلا يعمكم عذاب قريب، فبلغ من تجبرهم أنهم لم يكتفوا بمنعها من الأكل والشرب بل أقدموا على ماهو أفظع فقتلوها غير مبالغين بالوعيد. فضرب لهم صالح ثلاثة أيام فقط يتمتعون فيها بالحياة فى بلادهم ثم بعدها ينزل بهم الهلاك وقال لهم: ذلك وعد من الله غير مكذوب فيه.

فلما جاء أمرنا كما تقدم فى الآية (٥٨) من هذه السورة صفحة ٢٩٣. نجينا صالحا والمؤمنين معه من هذا الهلاك برحمة خاصة منا، ونجيناهم أيضا من خزى هذا اليوم وفضائحه التى ستبقى مدى الحياة. إن ربك أيها النبى هو القوى الغالب فسينجيك ويعذب قومك إذا أصروا على الكفر.

ثم أراد سبحانه أن يبين كيفية إهلاكهم فقال: ﴿وأخذ الذين ظلموا﴾ إلخ؛ أى أهلكهم بالصيحة لظلمهم فأصبحوا فى ديارهم ميتين لا حراك بهم كأنهم فى سرعة زوالهم لم يكونوا موجودين قبل ذلك. ألا إن ثمود كفروا نعمة ربهم، ألا بعدا لثمود، تقدم شرحها فى الآية (٦٠) من هذه السورة صفحة ٢٩٣. ولما كان المقصود من القصص فى هذه السورة هو ذكر أعمال الأمم مع رسلهم وما حل بهم كما تقدم عند الآية (٢٥) من هذه السورة صفحة ٢٨٧، وكان لوط ابن أخى إبراهيم عليهما السلام وآمن برسالة عمه لما كانا موجودين فى العراق، وبعدما نجى

الله تعالى إبراهيم من النار هاجر هو وابن أخيه لوط إلى الشام، فنزل إبراهيم بأعلى البلاد وهو الجزء المسمى الآن سوريا ولبنان وفلسطين، ونزل لوط فى قرى الجنوب، وهو المسمى الآن بشرق الأردن، وكانت عاصمتها سدوم القرية التى كانت تعمل الخبائث المشار إليها فى الآية (٧٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨، وانظر الآية (٧١) من سورة الأنبياء أيضا صفحة ٤٢٧، والآية (٢٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤، والآية (٩٩) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢، وأرسل الله تعالى لوطا إلى أهل هذه القرى؛ لما كان كل ذلك كان المقصود الأصلى فى هذا المقام هو قصة لوط وقومه، وإنما مرت الملائكة على إبراهيم فى الطريق ليعجلوا ببشارته بإنجاء ابن أخيه، وبولده بعد الكبر؛ لكل هذا غيَّر سبحانه أسلوب القصص السابق وقال: ﴿ولقد جاءت رسلنا﴾ أى من الملائكة إلى إبراهيم تحمل إليه البشرى بنجاة ابن أخيه وهلاك الكافرين وبالولد بعد الكبر، قالوا نسلم عليك سلاما، قال عليكم سلام.

ولم يمكث زمنا طويلا حتى قدم إليهم عجلا مشويا سمينا كما فى الآية (٢٧) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٤، فلما رآهم لا يأكلون خاف وقال لهم إنا منكم وجلون كما فى الآية (٥٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤١. قالوا لا تخف... إلخ وهنا يجب أن نقف على قوله تعالى: ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾.. كرر القرآن هذه الحادثة فى ثلاث سور، هنا، وفى سورة الحجر صفحة ٣٤١، وفى الذاريات صفحة ٦٩٣. وبما أنها فى حادث واحد يجب أن تعلم أولاً أن القرآن ليس كتاب تاريخ يسرد الحوادث مرتبة حسب وقوعها، بل يذكر من الحوادث الجزء الذى فيه العبرة التى هى المقصد الأول من مقاصد القرآن، وإذا كرر القصة عدة مرات فإنه قد يذكر فى كل مرة مالم يذكره فى الأخرى، وقد يقدم بعض أجزاء الحادثة الواحدة على البعض الآخر لحكمة أرادها سبحانه فى المقام الذى ذكرت فيه القصة، ومما جاء فيه بعض حوادث القصة دون بعض، اعتمادًا على أن هذا البعض المتروك قد ذكر فى موضع آخر،

قصة مناجاة الله سبحانه وتعالى لموسى فى الطور أول إبلاغه أنه رسول الله إلى فرعون وقومه، فذكر سبحانه فى بعضها أنه قال لموسى ﴿وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء﴾ الآية (١٢) من سورة النمل صفحة ٤٩٥، وفى موضع آخر قال ﴿واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء﴾ الآية (٢٢) من سورة طه صفحة ٤٠٧ وبما أن الحادثة واحدة كما هنا فيجب أن يكون أصل الكلام أدخل يدك فى جيبك ﴿أى فتحة ثوبك العليا﴾ ثم أَمِلّ يدك إلى جنبك حتى تصل إلى تحت ساعدك ثم أخرجها تخرج بيضاء وعلى هذا يقال هنا أصل ترتيب القصة هو ما جاء فى سورة الحجر صفحة ٣٤١ وسورة الذاريات صفحة ٦٩٣ وحاصله أن الملائكة أول ما دخلوا على إبراهيم سلَّموا، فرد السلام، وقدّم إليهم الطعام، ولما رآهم لا يأكلون خاف منهم فأدركوا ذلك منه فأخبروه بحقيقتهم وأنهم ملائكة لا بشر وبشروه بغلام عليم.

فتعجّب من أن يولد له ولد وقد مسه الكبر، وكانت امرأته فى مكان قريب منه، فلما سمعت ذلك ضحكت سرورًا بسرور زوجها، فبشروها هى أيضا بأن هذا الغلامَ المبشر به إبراهيم سيكون منها هى، لا من زوجة أخرى، وأنه سيعيش إلى أن يولد له ولد، فأقبلت عليهم تصيح: كيف ألد وأنا امرأة عجوز؟ وإلى هنا لم يأت لقوم لوط ذِكْر، ولما اطمأن إبراهيم وسرّ بهذه البشرى، وأدرك أن لهؤلاء الملائكة مهمة أخرى غير ذلك، لأن الغالب فى مجرد البشرى أنه يكفى فيها مَلَك واحد كما حصل لنبى الله زكريا ولمريم عليهما السلام، انظر صفحتى ٣٩٦، ٣٩٧ لذلك قال: فما خطبكم أيها المرسلون؟ قالوا إن الله سبحانه أرسلنا لإنقاذ لوط وإهلاك المجرمين من قومه.. إلخ بقى أن يقال ولمَ قدم سبحانه الكلام على قوم لوط قبل البشرى فى سورة هود؟

الجواب: أن هذا التقديم هو فى الذكر فقط، لا حكاية للترتيب الأصلى، وإنما فعل ذلك سبحانه لأن المقام فى سورة هود يقتضى أن يذكر المهمة الأصلية أولاً، لأنها مكان العبرة الكبرى، والدرس الدائم لكل مَنْ تحدثه نفسه بعصيان ربه وتكذيب رسوله.

إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ
فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ
يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا
لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ
ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾
فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا
فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾
يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ
وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ
رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ
عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ
كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ

المفردات : . ﴿يا ويلتى﴾ : أصلها يا ويلتى بكسر التاء، وهى كلمة تقال عند المفاجأة بشىء غريب.

﴿عجوز﴾ : بلغت فوق التسعين سنة.

﴿شيخا﴾ : كانت سنه فى ذلك الوقت مائة عام لذلك تعجب بخلاف حاله عندما بشروه بإسماعيل انظر الآية (١٠١) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢ فإنه لم يتعجب لأنه كان فى سن يولد فيها للإنسان عادة.

﴿حميد﴾ : محمود كثيرا من الحمد بمعنى المفعول، أى يستحق جميع أنواع الحمد والثناء الجميل.

﴿مجيد﴾ : من المجد وهو صفة تدل على كمال صاحبها فى الشرف وسعة الفضل والجود. ﴿الروع﴾ : الخوف.

﴿يجادلنا فى قوم لوط﴾ : أى يناقش رسلنا فى شأن قوم لوط.

﴿حليم﴾ : لا يعجل بالانتقام من المسىء تتجلى طبيعته هذه فى الآية (٣٦) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٥. ﴿أواه﴾ : كثير التأوه خوفا من الله، وخوفا على الناس من كل سوء.

﴿منيب﴾ : راجع إلى الله فى كل أموره. ﴿سئ بهم﴾ : وقع فيما يسوءه ويغمه بمجيئهم.

---

(١) فبشرناها (٢) بإسحاق (٣) إسحاق
(٤) يا ويلتى (٥) رحمة (٦) وبركاته
(٧) إبراهيم (٨) يجادلنا (٩) إبراهيم
(١٠) أواه (١١) يا إبراهيم (١٢) آتيهم
(١٣) السيئات (١٤) يا قوم.

﴿وضاق بهم ذرعا﴾ : ذرع الإنسان غاية طاقته التى يحملها بمشقة، فضيقه كناية عن العجز، أى عجز عن احتمالهم.

﴿عصيب﴾ : شديد الأذى. ﴿يهرعون﴾ : يقال هُرِع الشخص بضم فكسر إذا أسرع كَأَن غيره يدفعه.

﴿السيئات﴾ : بيِّنت بعضها الآية (٢٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤.

المعنى : ـ قالوا لا تخف، وبشروه بغلام عليم، وكانت امرأته قائمة فى مكان قريب منهم، فسمعت البشارة فضحكت سرورا، وبشرناها هى أيضا بإسحاق وبولده يعقوب؛ عند ذلك أقبلت على مجلسه وهى تصيح وتضرب جبهتها بيدها من شدة التعجب، وقالت فى صيحتها. ياويلتى! كيف ألد وأنا عجوز عشت طول حياتى عقيما، وهذا زوجى كما ترونه شيخا كبيرا لا يولد لمثله من مثلى! قالت الملائكة ردا عليها: ﴿أتعجبين ﴾ إلخ؛ أى لا ينبغى أن تعجبى من شىء هو من أمر الله الذى لا يعجزه شىء، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، ثم دعوا لها ولزوجها فقالوا: رحمة الله الخاصة بالمؤمنين وبركاته أى خيراته الكثيرة عليكم يا أهل بيت النبوة والرسالة، إنه سبحانه صاحب كل فضل يستحق عليه الثناء، واسع الفضل والإحسان.

بعد ذلك قال لهم إبراهيم: ما خطبكم، أى ما شأنكم الذى جاء بكم على هذه الصورة؟ قالوا إن الله أرسلنا إلى قوم لوط المجرمين لنهلكهم لم يقولوا ذلك بعدما تقدم مباشرة بل قالوه لما سألهم عن مهمتهم، انظر الآية (٣١) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٤.

وقد أوجز الكلام هنا اكتفاء بأنه مفصل هناك كما تقدم فى الصفحة السابقة.

﴿وامرأته قائمة﴾ أى وراء ستر تسمع المحاورة فضحكت بعد أن علمت مما سبق أنهم بشروا إبراهيم بالولد قبل الكلام على قوم لوط، وبهذا تعلم أن ضحكها هنا كان سرورًا بذلك ﴿فبشرناها بإسحاق﴾ المراد بشرناها بشرى خاصة بها، وهى أن هذا الولد الذى بشر به إبراهيم سيكون منها هى.

﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ أى إنه سيعيش حتى يولد له ولد و ﴿يعقوب﴾ منصوب بفعل مفهوم من سياق الكلام، أى بشرناها واهبين لها من إسحاق يعقوب، وقد جاء هذا الفعل

صريحًا فى آية أخرى فقال سبحانه ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ الآية (٧٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧.

﴿إن هذا لشىء عجيب﴾ أى فى نظر البشر وفيما جرت به سنة الله سبحانه فى البشر، فلما ذهب عن إبراهيم الخوف وجاءته البشرى أخذ يجادل رسلنا فيما أرسلناهم به من عقاب قوم لوط؛ لأنه كان شديد الحلم رَقيقًا رجاعا إلى ربه، وكل هذه صفات تورث تغليب الرحمة على الغضب قالت الملائكة يا إبراهيم أعرض عن هذا الجدل لأن الحال والواقع أنه قد جاء أمر ربك بهلاكهم، وأنهم عما قريب سينزل بهم عذاب غير مردود بجدل ولا بغيره ولما وصلت رسلنا لوطا ورأى هيئاتهم وجمالهم استولى عليه الغم خوفا عليهم من خُبَثَاءِ قومه وشعر بالعجز عن حمايتهم، وقال هذا يوم شديد الكرب.

ولما علم بهم قومه جاءوا مسرعين، وسبب تسرعهم أنهم كانوا من قبل ذلك متعودين الجرأة على الفواحش بلا حياء.

قال لوط يا قوم هؤلاء نساء أمتى جميعا هن بناتى، لأن النبى فى أمته كالوالد فى عشيرته فليستمتع بهن المتزوج منكم، وليتزوج غيره منهن، فإنهن أطهر...

وقد اعترض على هذا الرأى محمد الأمين الشنقيطى فى كتابه (أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن) جزء (٣) صفحة ٣٥ وقال إن النبى أب لكل بنات أمته المؤمنات فقط ولا أبوة له على الكافرات وذكر هذا الاعتراض الآلوسى، ورجح رأيين: الأول هؤلاء بناتى من صلبى تزوجوهن وكان زواج الكافر للمؤمنة جائزا حتى فى أول عهد سيدنا محمَّد خاتم الرسل ﷺ فقد تزوجت بنته رقية رضوان الله عليها العاص بن الربيع.

والثانى وقد نسبه لبعض جِلَّةِ المفسرين أن لوطًا لم يكن يقصد هذا القول على ظاهره بل يريد استجلابهم إليه، فيؤمنوا ويتزوجوا بناته، وهذا أنسب لقولهم ﴿لقد علمت مالنا فى بناتك من حق﴾... إلخ.

أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ(١) إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَٰلُوطُ(٢) إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ(٣) وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا(٤) سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ(٥) بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ(٦) ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم(٧) بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ

المفردات : . ﴿أطهر﴾ : بالغات فى الطهر غايته، فالتفضيل غير مقصود، لأنه لا طهر فى غيرهن.

﴿من حق﴾ : المراد من حاجة.

﴿قوة﴾ : أى قدرة على دفعكم بنفسى، أى لدفعتكم.

﴿آوي﴾ : أى ألجأ.

﴿ركن شديد﴾ : أى قوم من عصبتى يساعدوننى على طردكم، أى لطردتكم ودفعتكم عن ضيفى. وقال ذلك لأنه كان غريبا عنهم جاء مهاجرا من العراق كما سبق.

﴿فأسر﴾ : أصل الإسراء السير فى الليل، والمراد هنا مطلق السير، وذكر الليل ليحدد الجزء الذى يسيرون فيه.

﴿بقطع من الليل﴾ : أى بجزء من الليل يكفى للخروج من حدود القرية قبل طلوع الفجر.

﴿عاليها سافلها﴾ : ضمير عاليها يعود على القرية التى كانت تعمل الخبائث وهو مفهوم من سياق الكلام كما فى الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣، وانظر الآية (٦٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٢.

﴿سجيل﴾ : طين متحجر، انظر الآية (٣٣) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٤.

﴿منضود﴾ : متراكب متتابع بعضه فى أثر بعض ليس بين نزولها فاصل.

﴿مسومة﴾ : أى معلمة بعلامة خاصة معلومة عند ربك نجعلها خاصة بهم لا تصيب غيرهم.

---

(١) آوى (٢) يا لوط (٣) الليل
(٤) عاليها (٥) الظالمين (٦) يا قوم
(٧) أراكم.

﴿الظالمين﴾ : المراد بهم مشركو مكة الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسولهم. ﴿مَدْيَنَ﴾ : تقدم فى الآية (٨٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٦.

المعنى :. إن تمتعكم بنساء أمتى يكفيكم، لأنهن بالغات النهاية فى الطهر، فخافوا الله واجتنبوا الفاحشة التى تخزينى فى انتهاك كرامة ضيفى، أليس منكم رجل ذو رشد وعقل يرشدكم للصواب؟!

قالوا : لقد علمت مالنا فى النساء من حاجة، وإنك لتعلم ما نريد، فلا تحاول منعنا منه. فلما رأى تصميمهم قال: لو أن لى قوة أو عصبة لطردتكم. عند ذلك أسرعت الملائكة لنجدته وتطمينه فقالوا: يا لوط لا تخف.إنا ملائكة أرسلنا ربك لننجيك من شرهم بهلاكهم، ولن يصلوا إليك بما يسوءك، ورموهم بما طمسوا أعينهم فصاروا لا يبصرون لوطا ولا مَنْ معه، انظر الآية (٣٧) من سورة القمر صفحة ٧٠٧. فسر يا لوط فى جزء من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلى وراءه لئلا يرى العذاب فيصاب بشر، إلا امرأتك فلا تمكنها من السير معكم لأنه سيصيبها ما قدر لهم، لأنها كانت كافرة خائنة، وإن موعد هلاكهم الصبح. ولما رأوا منه استعجالا قالوا أليس الصبح بقريب؟ أى أنه موعد قريب جدا فلا تخف. فلما جاء موعد أمرنا بعذابهم قلبنا هذه القرية وما حولها على مَن فيها بعذابهم، وأرسلنا أو قذفنا عليهم فى أثناء القلب حجارة من طين متحجر لزيادة التعذيب، ولتصيب مَنْ كان منهم متفرقا بعيدا عن مكان الخسف، فكانت الحجارة عذابا فوق عذاب، انظر الآية (٣٤) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٥، وكانت تنزل متتابعة لا فاصل بينها مخصصة لهم لا تصيب غيرهم من الأبرياء ثم ختم سبحانه القصة ببيان الحكمة من ذكرها فقال: ﴿وماهى﴾ إلخ أى ليست هذه القرى بمكان بعيد عن الكافرين من أهل مكة، بل فى طريقهم إلى الشام كما فى الآية (٧٦) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣، وآيتى (١٣٧، ١٣٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥. والمشهور أن تلك القرى تحت الماء المعروف الآن ببحيرة لوط. وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم فى النسب شعيبا، قال لهم يا قوم اعبدوا الله وحده فمالكم من إله غيره، ولا تنقصوا الناس ما تكيلون لهم وما تزنون، إنى أراكم فى سعة من الرزق حقها أن تقابل بالشكر لا بالكفر وإيذاء الناس، وإنما نصحتكم لأنى أخاف عليكم عذاب الله فى يوم إلخ، انظر القصة وشرحها فى الآيات من (٨٥ إلى ٩٣) من سورة الأعراف صفحات ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨.

عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ[1] أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ
بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟
فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ[2] ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ[3]
أَصَلَوٰتُكَ[4] تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ
فِىٓ أَمْوَٰلِنَا[5] مَا نَشَٰٓؤُا۟[6] ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ[7] أَرَءَيْتُمْ[8] إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى
مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ[9] عَنْهُ ۚ
إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ[10] مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ[11] لَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ
هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ[12] ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾

المفردات: ـ ﴿محيط﴾ : أى شامل.

﴿القسط﴾ : العدل.

﴿تبخسوا الناس﴾ : يقال بخس من باب نفع إذا أضر غيره بنقص أو غش. ﴿تعثوا فى الأرض﴾ : يقال عثى يعثى كرضى يرضى عثيا بكسرتين مع تشديد الياء وعثا يعثو كغزا يغزو عثوا بضمتين مع تشديد الواو، وهو شدة الإفساد.

﴿مفسدين﴾ : المراد متعمدين الاستمرار فى الإفساد فى كل شىء.

﴿بقية الله خير﴾ : أى ما بقى لكم من الأموال الحلال. ﴿بحفيظ﴾ : أى رقيب. ﴿أصلاتك تأمرك﴾ : الاستفهام صدر منهم للإنكار عليه والاستهزاء به.

﴿إنك لأنت الحليم﴾ : وهذا منهم استهزاء ثان، والحليم العاقل المتأنى.

﴿الرشيد﴾ : الراسخ فى الرشد وهو الهداية.

﴿أرأيتم﴾ : أى أخبرونى ﴿على بينة﴾ : أى بصيرة وحجة.

﴿رزقا حسنا﴾ : مالاً حلالاً لا شبهة فيه. ﴿أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ : أى ما أريد مجرد مخالفتكم لتتصرفوا عما أنهاكم عنه لأسبقكم إليه وأسعد به دونكم.

---

(١) ويا قوم (٢) بقية (٣) يا شعيب
(٤) أصلاتك (٥) أموالنا (٦) نشاء
(٧) يا قوم (٨) أرأيتم (٩) أنهاكم
(١٠) الإصلاح (١١) ويا قوم (١٢) صالح.

﴿ما استطعت﴾ : ﴿ما﴾ مصدرية زمانية أى مدة استطاعتى.

﴿أنيب﴾ : أرجع فى كل أمورى.

﴿لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم﴾ : جرَم الذنب أو المال الحرام يجرمه بفتح الياء وكسر الراء جرما بفتح فسكون" كسبه، ويتعدى لاثنين بمعنى جعل غيره يكسبه كما هنا، وانظر الآية (٢) من سورة المائدة صفحتى ١٣٤، ١٣٥، والآية (٨) من نفس السورة صفحة ١٣٧؛ وفى المختار: قال الجُرْمُ الجريمة والذنب تقول منه جَرَمَ وأجرم واجترم وجرم أيضا كسب من باب ضرب، وقوله تعالى ﴿لا يجرمنكم شنئان قوم﴾ أى لا يحملنكم ويقال لا يكسبنكم.

وفى الراغب : أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة وأجرم صار ذا جرم نحو أثمر واستعير لكل اكتساب مكروه.

وفى المنار : يجرمنكم بفتح الياء وكسر الراء من جَرَم الذنب. أو المال بمعنى اكتسبه وفى قراءة ابن كثير بضم الياء مأخوذ من أجرمته الذنب إذا جعلته جارما له أى كاسبا له. فجرمه وأجرمه: ككَسَبه هو وكَسَبَ إياه غيره أى جعله يكسبه؛ يتعدى الثلاثى فى كل منهما بنفسه إلى مفعول واحد. وإلى مفعولين وحينئذ يكون كالرباعى وقوله تعالى ﴿لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم﴾إلخ أى لا تحملنكم وتكسبكم مشاققتكم وعداوتكم إلى أن تقضى بالإصرار عليها إلى إصابتكم بمثل ما أصاب مكذبى الرسل قبلكم.

وفى البيضاوى : لا يكسبنكم ﴿شقاقى﴾ أى معاداتى أن يصيبكم مثل . إلخ و ﴿جرم﴾ يتعدى لمفعول ولمفعولين ككسب؛ وما قوم لوط منكم ببعيد أى زمانا أو مكانا فإن لم تعتبروا بمَنْ قبلهم فاعتبروا بهم انظر الآية (٨٣) من هذه السورة صفحة ٢٩٦ والآية (٧٦) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣، والآية (١٣٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥.

وفى العربى : لا يجرمنكم أى لا يكسبنكم. شقاقى أى معاداتى وهو فاعل يجرمنكم. والكاف مفعوله الأول، وأن يصيبكم مفعوله الثانى، وجرم مثل ﴿كسب﴾ تتعدى لواحد واثنين أى لا يكسبنكم شقاقى أن يصيبكم إلخ.

المعنى : . أخاف عليكم من عذاب الله فى يوم محيط ما يقع فيه من العذاب بكم فيهلككم جميعا ثم بعد ما رغب سبحانه فى الكف عن نقص الكيل بالميزان، رغب ثانيا فى الإيفاء ليقتلع عادة شر تمكنت منهم، فقال: ﴿ويا قوم أوفوا﴾ إلخ؛ أى أتموا المكيل والموزون للناس بالعدل، لا تظلمون ولا تظلمون. ثم عمم النهى عن كل ما يضر الغير فقال ولا تبخسوا الناس فى الأشياء التى تعطونها لهم بأن تكون رديئة أو مغشوشة، ولا تفسدوا فى الأرض حال كونكم متعمدين الإفساد فى كل شىء غير ما تقدم، كقطع الطريق وسلب أموال الناس الضعاف إلى غير ذلك، فما يبقى لكم بعد البعد عن الحرام من الربح الحلال خير مما تجمعونه من حرام فإنه وبال عليكم إن كنتم مؤمنين بالله الذى تلجئون إليه عند الضراء فيجب أن تفضلوا الحلال عن الحرام وهذا ترغيب فى الإيمان الصحيح. وما أنا عليكم برقيب أحصى هذه المعاصى وأجازيكم عليها، وإنما أنا مبلغ فقط، والحفيظ هو الله وحده. قالوا مستهزئين به لكثرة صلاته: يا شعيب هل صلاتك التى تداوم عليها هى التى تأمرك أن تحملنا على ترك ما كان يعبده آباؤنا من هذه الأصنام، وأن نمتنع عن التصرف بما ينمى أموالنا كما نشاء مما نراه فى مصلحتنا؟ إنك إن حاولت أنت ذلك العاقل الرشيد . يريدون . قبحهم الله . الجاهل السفيه حيث تحاول المستحيل ونظير استهزاء قوم شعيب به استهزاء كفار مكة بخاتم الرسل ﷺ، انظر الآية (٦) من سورة الحجر صفحة ٣٢٨. قال شعيب يا قوم أخبرونى إن كنت أسير فى عملى على بصيرة تفضل بها علىَّ ربى ورزقنى مالاً حلالاً فهل أستطيع كتمان ما أمرنى ربى أن أبلغه لكم، والحال أنى لا أريد أن أنفرد بالتمتع بما فى أيديكم من الحرام الذى نهيتكم عنه، بل أنا متمسك بالنهى قبلكم، وما أريد بنصحى لكم إلا إصلاحكم مادمت أستطيعه، لأنه أمر بمعروف ونهى عن منكر، وما توفيقى ونجاحى فيما أريد إلا بمعونة الله، عليه اعتمدت، وإليه أرجع فى كل أمورى. ويا قوم لا توقعنكم معاداتكم لى فى أن يصيبكم من العذاب مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق أو قوم هود بالريح العاتية أو قوم صالح بالصيحة وهو صوت شديد مزعج مصحوبًا بزلزلة شديدة مهلكة، أو قوم لوط بالخسف وما هلاك قوم لوط ببعيد عنكم فى الزمن فاعتبروا به.

وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ
وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ(١) مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا
لَنَرَىٰكَ(٢) فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ(٣) ۖ وَمَآ أَنتَ
عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ(٤) أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ
وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ(٥) ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ(٦) ۖ
سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ(٧) ۖ
وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ(٨) جَـٰثِمِينَ(٩) ﴿٩٤﴾ كَأَن
لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا(١٠) وَسُلْطَـٰنٍ(١١) مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾

المفردات:. ﴿ودود﴾ : أصل الود العطف والإحسان، ويراد لازمه وهو المحبة.

﴿رهطك﴾ : رهط الرجل هم عشيرته الأقربون وهو لا يتجاوز العشرة.

﴿لرجمناك﴾ : أى لقتلناك رجما بالحجارة.

﴿ظهريا﴾ : أصله المنسوب إلى الظهر وكسرت الظاء عند النسب، والمراد مهملا.

﴿على مكانتكم﴾ : غاية إمكانكم كما تقدم فى الآية (١٣٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٥.

﴿الصيحة﴾ : هى المعبرة عنها بالرجفة، انظر الآية (٩١) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٧، والآية (١٧) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢.

﴿جاثمين﴾ : أى ميتين كما تقدم فى الآية (٦٧) صفحة ٢٩٤.

المعنى :. واستغفروا ربكم من الشر ومما أنتم فيه من الأمور المتقدمة وتوبوا إليه كلما وقع منكم ذنب، إن ربى رحيم بمَنْ يطلب مغفرته، كثير المحبة للتوابين، انظر الآية (٢٢٢) من سورة البقرة صفحة ٤٤. ولما عجزوا عن معارضته بالحجة لجئوا للمكابرة وجعلوا كلامه من قبيل

---

(١) يا شعيب (٢) لنراك (٣) لرجمناك
(٤) يا قوم (٥) ويا قوم (٦) عامل
(٧) كاذب (٨) ديارهم (٩) جاثمين
(١٠) بآياتنا (١١) وسلطان.

تخليط المجانين الذى لا يفهم فقالوا استهزاء به: يا شعيب ما نفهم كثيرا مما تقول، وإنا لنراك فيما بيننا ضعيفا لا تقدر على نفع ولا ضر، ولولا مراعاة خاطر عشيرتك لقتلناك شر قتلة، وما أنت عندنا بعزيز محترم حتى نمتنع عن رجمك لشخصك، وإنما نكف عنك مراعاة لحرمة عشيرتك، لأنهم ثبتوا على ديننا ولم يتبعوك ولا يتصور أنهم خافوا من قوة رهطه وهو قلة مع أنهم هم ألوف مؤلفة فهم يريدون أن المانع من قتلك احترامنا لقومك فقط.

قال: يا قوم هل يصح أن يكون رهطى أعز عليكم من الله حتى تراعوا حرمتهم ولا تراعوا حرمته تعالى، وتتخذونه بسبب إعراضكم عن رسوله منسيا مهملا وراء ظهوركم؟ إن ربى الذى أهملتم أوامره محيط علما بكل أعمالكم، وسيجازيكم.

وهذا تهديد لعلهم يتنبهون. ويا قوم إن لم تسمعوا نصحى فاعلموا بآخر ما يمكنكم، إنى عامل كذلك يؤيدنى ربى، سوف تعلمون مَنْ يأتيه عذاب يذله: هل أنا أم أنتم، وتعلمون أيضا مَنْ الكاذب فى قوله هل أنا أم أنتم. وكانوا أنذروه بالإخراج كما فى الآية (٨٨) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٦، ٢٠٧. وانتظروا مراقبين لما سيحصل، إنى أراقبه معكم.

ولما جاء أمرنا بعذابهم الذى أنذرناهم به نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة خاصة منا، وأخذتهم صيحة الصاعقة، فأصبحوا فى ديارهم جثثا هامدة بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر، كأن لم يكونوا موجودين فى تلك الديار بالأمس، إلا طردا لهم عن رحمة الله كما طردت عنها قبلهم ثمود، انظر آيتى (٦٧، ٦٨) من هذه السورة صفحة ٢٩٤.

ولقد أرسلنا موسى بآياتنا التسع المشار إليها إجمالا فى الآية (١٠١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨، والمذكورة تفصيلا فى الآيات (١٠٧، ١٠٨، ١٣٣) من سورة الأعراف صفحات ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، وسلطان مبين، أى حجة ظاهرة وهى العصا، وخصها بالذكر مع دخولها فيما قبلها لأنها أكبرها وأولها وجودًا.

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ
بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ
وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ
الْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ الْقُرَىٰ
نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ
وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ
الَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ
وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ
أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْـَٔاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ
مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا
لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ

المفردات : . ﴿وملئه﴾ : هم أشراف قومه.

﴿برشيد﴾ : أصل الرشد ضد الغى فالرشيد هو البعيد عن الضلال، والمراد أنه ليس بذى رشد لسوء عاقبته.

﴿يقدم قومه﴾ : يتقدمهم.

﴿الورد﴾ : أصل الورد بكسر الواو اسم مصدر من ورد على الماء، وأريد به الماء نفسه الذى يرد عليه العطاش. فجعل جهنم وردهم تهكما بهم وإنذارا بأنه لا مغيث لهم إلا هى. ﴿المورود﴾: الذى يرد عليه العطشى ليطفئوا ظمأهم.

﴿وأتبعوا فى هذه لعنة﴾ : أى جعلت اللعنة تابعة لهم. ﴿الرفد﴾ : أصل الرفد بكسر الراء: العطاء أى الشىء الذى يعطى، يقال رفده من باب ضرب أى أعطاه. ﴿المرفود﴾ : أى المعطى، وسميت اللعنة عطاء تهكما.

﴿قائم﴾ : أى باق إلى اليوم بعضه منحوت فى الصخر بين الحجاز والشام.

﴿حصيد﴾ : هالك كالزرع المحصود الزائل من مكانه.

﴿فما أغنت عنهم﴾ : أى ما دفعت عنهم عذاب الله. ﴿من شىء﴾ : من زائدة لتأكيد العموم، أى شيئا ولو صغيرا. ﴿تتبيب﴾ : هو من التباب وهو الهلاك، يقال تبب تتبيبا أى أهلك. ﴿مجموع له الناس﴾ : أى مجموع له الناس للحساب والجزاء. ﴿إلا لأجل معدود﴾ : ﴿لام لأجل﴾ تسمى لام التعليل والمعنى إلا لانقضاء أجل وهو مدة الدنيا. و ﴿معدود﴾ المراد قليل انظر الآية (٨) من سورة هود صفحة ٢٨٥، والآية (٢٠) من سورة يوسف صفحة ٣٠٥.

﴿يوم يأت﴾ : أصلها يأتى بالياء وحذفت تخفيفا كما تحذف الواو فى ﴿يدع﴾ انظر الآية (١١)

---

(١) وملئه (٢، ٣) القيامة (٤) ظلمناهم (٥) ظالمة.

من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥، والآية (١٨) من سورة العلق صفحة ٨١٥. وفاعل يأت ضمير يعود على اليوم المشهود باعتبار هوله وكربه انظر ما قيل فى أيام فى الآية (١٠٢) من سورة يونس صفحة ٢٨٢.

المعنى : . أرسلنا موسى إلى فرعون وقومه جميعا خصوصا الملأ منهم لقوة تأثيرهم فى غيرهم من الأتباع، فكفر به فرعون وأمر قومه بالكفر به، فاتبع الجميع أمر فرعون، مع أن أمره سىء العاقبة، لأن عاقبته أنه سيتقدمهم جميعا إلى الهلاك يوم القيامة فيوردهم النار وردًا محققا لاشك فيه، وقبح الورد المورود النار. وأتبعهم الله جميعا فى هذه الدنيا لعنة شديدة لأنها منه تعالى ومن ملائكته والناس أجمعين كما تقدم فى الآية (٦٠) من هذه السورة صفحة ٢٩٣، ويوم القيامة أيضا يلعنهم أهل الموقف جميعا، فاللعنة تابعة لهم حيث كانوا كما اتبعوا أمر فرعون، وقبح العطاء المعطى هذه اللعنة التى أتبعتهم فى كل مكان وزمان.

ذلك القصص الذى قصصناه عليك أيها النبى هو بعض أخبار القرى المهلكة بجناية أهلها، نقصه عليك حال كون تلك القرى منها ماهو باق شاهد بما حصل كقرى قوم صالح، ومنها زائل لا أثر له كقرى قوم لوط، وما ظلمناهم بإهلاكهم، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بشركهم وإفسادهم، فما نفعتهم آلهتهم التى كانوا يدعونها ويطلبون منها أن تشفع لهم فى دفع الضر، وتركوا إفراد الله بالدعاء والعبادة لما جاء أمر ربك بعذابهم، وما زادهم آلهتهم غير تخسير وهلاك، انظر تبت يدا أبى لهب صفحة ٨٢٥. وكهذا الأخذ الذى أخذ به ربك قرى قوم نوح وعاد وثمود يأخذ جميع القرى الظالمة بالكفر وغيره، إن أخذه سبحانه قوى الألم شديد لا يرجى منه أى خلاص. إن فى ذلك القصص لعبرة لمَنْ خاف الآخرة لأنه إذا رأى ما حصل لهم انزجر عما يوجبه ذلك، أى يوم القيامة المفهوم من كلمة ﴿الآخرة﴾ يوم يجمع الله تعالى فيه الناس للحساب والجزاء. وذلك يوم حاضر فيه الناس جميعا مشاهدون لما يجرى فيه. وما نؤخر ذلك اليوم إلا لانتهاء مدة قليلة حددناها له ليأتى فى نهايتها. ﴿يوم يأت﴾ المراد باليوم هنا الوقت غير المحدد، وأصل يأت ﴿يأتى﴾ حذفت الياء تخفيفا اكتفاء عنها بالكسرة. والمعنى فى الزمن الذى يأتى فيه هذا اليوم الخاص لا تتكلم نفس بما ينفع أو بشفاعة إلا بعد إذنه تعالى، انظر الآية (٣٨) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨، ولا مانع من جعل الزمن المطلق ظرفا لزمن معين كما قالوا: ﴿يوم يأتى العيد أفعل كذا﴾ انظر الآية (٣٨) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠.

فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ
فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ[1] فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾
۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ[2] فِيهَا مَا دَامَتِ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ
مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ
إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ
نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ[3]
فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ
رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ[4] إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا
أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

المفردات : . ﴿شقى وسعيد﴾ : يصح أن يراد بالشقى الكافر، وبالسعيد المؤمن الذى رجحت حسناته على سيئاته فلا يدخل النار أبدا، وعلى هذا يكون هناك قسم وسط مسكوت عنه وهم عصاة المؤمنين الذين غلبت سيئاتهم على حسناتهم فإنهم يدخلون النار ثم يخرجون. ويصح أن يراد بالشقى مَنْ يدخل النار مطلقا كافرًا وعاصيا، وبالسعيد مَنْ لا يدخل النار أصلا. ﴿زفير﴾: هو إخراج النفس بشدة. ﴿شهيق﴾ : صوت دخول الهواء فى الرئة بشدة . ﴿مادامت السموات والأرض﴾ : المراد بهما ما يكون فوقهما وتحتهما فى الآخرة وهذا تركيب يراد به الكناية عن تأبيد الخلود فى دار العذاب أو دار النعيم على ما يأتى فى الآية التالية، ويصح أن يراد بالسماء والأرض سماء دار العذاب وأرضها، وسماء دار النعيم وأرضها، وذلك أن النار دركات، أى طبقات بعضها فوق بعض كما فى قوله تعالى: ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار﴾ الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨. والجنة كذلك طبقات قال تعالى ﴿غرف من فوقها غرف مبنية﴾.. الآية (٢٠) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٨، ٦٠٩. والعرب تطلق على كل ماهو فوق رأس الإنسان سماء وكل ماهو تحته أرض بالنسبة إليه. فالسقف سماء كما فى الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥، والسحاب سماء فى قوله: ﴿وأنزل من السماء ماء﴾ الآية (٢٢) من سورة البقرة صفحة ٦.

(١، ٢) خالدين
(٣) الكتاب
(٤) أعمالهم.

ويكون المراد من التركيب مادامت سموات النار وأرضها أو سموات الجنة وأرضها ﴿عطاء﴾ : الأصل يعطهم الله عز وجل فى الجنة عطاء.

﴿مجذوذ﴾ : من جذه يجذه إذا قطعه، أى دائما غير مقطوع انظر الآية (٣٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤.

﴿مرية﴾ : اى شك.

﴿الكتاب﴾ : هو التوراة ﴿كلمة سبقت من ربك﴾ : بتأخير الانتقام الشديد منهم إلى يوم القيامة.

﴿لقضى بينهم﴾ : بإهلاك البغاة منهم فى الدنيا كما فعل بقوم نوح وعاد.

﴿مريب﴾ : أى موقع فى الريبة والحيرة، انظر الآية (٦٢) السابقة من هذه السورة صفحة ٢٩٣.

﴿وإنّ كلا لمّا.. إلخ﴾ : ﴿لمّا﴾ هذه بمعنى ﴿إلاّ﴾ كما فى الآية (٤) من سورة الطارق صفحة ٨٠٢ والمعنى وإن كل طرف من هؤلاء المختلفين إلا والله ليوفينهم جزاء أعمالهم وقد تستعمل ﴿إلا﴾ بدون أن يسبقها نفى. كقولهم: سألتك بالله إلا فعلت كذا. فإن قالوا هذه معها نفى مقدر مفهوم من سياق الكلام. والأصل سألتك أن لا تفعل إلا كذا يقال لهم: فلنقدر هنا نفيا كذلك ويكون الأصل وإن كل فريق لا يترك إلا بعد أن يحاسب ليوفيهم ربك جزاء أعمالهم ويجب أن يلاحظ أن كلام الله هو أصح الأصول العربية.

فيجب أن يكون الأصل المعول عليه، يرجع غيره إليه. لا أن نجّره وراء كلام جلف من أجلاف العرب فتنبه ولا تكن أسير التقليد والله الموفق للصواب.

هذا وقال ابن هشام : الأولى أن لمّا هنا هى التى تجزم الفعل المضارع. والفعل بعدها هنا مقدر. والأصل وإن كلا لما يوفوا أعمالهم. أى إنهم إلى الآن لم يوفوا جزاءهم وسيوفونها قطعا، والدليل على هذا الفعل المقدر هو قوله بعد ﴿ليوفينهم﴾ فهذا دليل على أن التوفية لم

تتم ولكنها ستحصل. ومثل ﴿لمَّا﴾ ما فى قوله تعالى ﴿بل لمَّا يذوقوا عذاب﴾ الآية ٨ من سورة ص صفحة ٥٩٨ أى وسيذوقوه؛ فاختر لنفسك ما تطمئن إليه. ﴿فاستقم كما أمرت﴾: المراد داوم على الاستقامة انظر الآية (١٥) من سورة الشورى صفحة ٦٤٠.

المعنى :. إن أهل الموقف شقى وسعيد؛ فأما الذين شقوا فمصيرهم إلى النار خالدين فيها إلا ما شاء ربك؛ إنْ جَرَيْنَا على الرأى الأول يكون المعنى إلا الوقت الذى يشاء الله إخراجهم فيه من النار إلى الزمهرير أو الحميم، انظر الآية (٦٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩١، والآية (٤٤) من سورة الرحمن صفحة ٧١١. وعلى الرأى الثانى يكون المعنى إلا النوع الذى يشاء سبحانه إخراجه منها وهم عصاة المؤمنين بعد استيفاء ما قدر عليهم من العذاب. إن ربك فعال لما يريد لا يقدر أحد على منعه.

وأما الذين رزقوا السعادة ففى الجنة خالدين فيها إلا ما شاء ربك؛ على الرأى الأول يكون المعنى خالدين فى نعيم الجنة الجسمانى إلا فى الوقت الذى يشاء الله تعالى نقلهم منه إلى النعيم الروحانى ورضوانه الأكبر، والنظر إلى وجهه الكريم.

وعلى الرأى الثانى يكون المعنى إلا النوع الذى يشاء الله تعالى إبعاده عن الجنة أول الأمر وهم عصاة المؤمنين، وتكون مدة التخليد مبتدأة من انصراف أهل الموقف إلى ما لا نهاية، والتأبيد ينتقض فى أول وقته المعين كما ينتقض فى آخره؛ تقول مكثت فى البيت يوم الخميس إلا ساعة، فيصح أن تكون هذه الساعة أول النهار أو آخره؛ فالمراد أن أهل الموقف لا يخرجون عن القسمين، وأن حالهم لا يخرج عن السعادة أو الشقاء، وهذا لا يمنع أن يجمع بعضهم بين الصفتين باعتبارين؛ فالموحدون العصاة شقوا بعصيانهم، وسعدوا بتوحيدهم. يعطى سبحانه هؤلاء السعداء فى الجنة عطاء غير مقطوع انظر الآية (٣٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤. وإذا كان أمر الأمم المشركة ما قصصناه عليك فلا تكن فى أدنى شك من عاقبة شرك هؤلاء الكفار بمكة؛ لأنهم اتفقوا معهم فى أن كلا لا يعبد إلا كعبادة آبائهم، فهم مقلدون لا يتبعون حجة، وإنا لموفون الجميع نصيبهم من العذاب كاملا.

ثم أراد سبحانه أن يحذر المؤمنين من الوقوع فيما وقع فيه أهل الكتب قبلهم من التفرق الذى سبب لهم الشقاء فقال: ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف قومه من بعده بغيا بينهم وتنازعا على الرياسة، انظر ما تقدم عند (٢١٣) من سورة البقرة صفحتى ٤١، ٤٢، ولولا أن الله سبحانه قضى بتأخير عذابهم الشديد ليوم القيامة لأهلك المبطل من أهل الكتاب فى الدنيا وإن هؤلاء الذين اختلفوا فى كتاب موسى لفى شك وحيرة فى كتابهم، بعد أن حرفه أسلافهم، فأصبحت معرفة الحقيقة منه متعسرة، انظر الآية (٤٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦ ، وآيتى (١٣، ١٤) من سورة الشورى صفحتى ٦٣٩، ٦٤٠.

﴿وإن كلا لمّا ليوفينهم﴾ إلخ، لمّا هنا بمعنى إلا كما فى الآية ٤ من سورة الطارق صفحة ٨٠٢. والمعنى : وإن كل طرف من هؤلاء المختلفين إلا والله ليوفينهم ربك أجرهم. وقد تستعمل ﴿إلا﴾ بدون نفى فى الكلام كقولهم :

(سألتك بالله إلا فعلت كذا) فإن قالوا هذه مقدر معها نفى مفهوم من المقام، والمعنى سألتك ألا تفعل إلا كذا، يقال لهم فلنقدر هنا نفيا كذلك ويكون المعنى: وإن كل فريق لا يترك إلا بعد أن يحاسب ليوفى أجره.

ويجب أن نلاحظ أن كلام الله هو كما ذكرنا أصح الأصول العربية.

﴿إن الله بما تعملون خبير﴾ لا يخفى عليه منه شىء فيوفى كل ذى حق حقه.

وإذا كان هذا هو حال الأمم التى أوتيت كتابا فاختلفت فيه فسبب اختلافها لها شقاء، فداوم أنت أيها النبى على الاستقامة كما أمرك ربك بالتزام الصراط المستقيم أنت ومَنْ تاب من الشرك من المؤمنين معك، ولا تطغوا أى تتجاوزوا حد الاعتدال بالتفريط فيما أمرتم به أو الغلو والمبالغة فيه بتكليف أنفسكم ما لا تطيقون فتعجزوا فينقطع بكم طريق الوصول، انظر ما حدث لأهل الكتاب فى الآية (٢٧) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣.

بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾
وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ(١) طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ(٢) إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ(٣)
يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ(٤) ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ
مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ
إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟
فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ
بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ
ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً(٥) ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ
رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ

المفردات :. ﴿ولا تركنوا﴾ : لا تميلوا إليهم أقل ميل.

﴿الذين ظلموا﴾ : أنفسهم والناس بالكفر أو غيره.

﴿طرفى النهار﴾ : أى فى طرفى النهار، والمراد صلاة الصبح وصلاة العصر وهى الصلاة الوسطى المذكورة فى الآية (٢٣٨) من سورة البقرة صفحة ٤٩.

﴿زلفا من الليل﴾: جمع زلفة بضم أوله بوزن غرفة وهى الساعة من الليل مطلقا.

﴿ذكرى﴾ : تذكير بالله تعالى وعظة.

﴿للذاكرين﴾ : أى تنفع المستعدين لها، انظر الآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦.

﴿فلولا﴾ : ﴿لولا﴾ هنا حرف يدل على أن المتكلم يريد من السامع أن يتحسر على هؤلاء الأقوام الذين أوقعوا أنفسهم فى الهلاك.

انظر معانى لولا فى الآية (٤٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ﴿كان﴾ : أى وُجِدَ ﴿القرون﴾ : جمع قرن وهو الجيل من الناس، والمراد الأمم. ﴿أولوا بقية﴾ : أى أصحاب بقية، والبقية هى الفضل والخير، سمى بذلك لأن الإنسان يستبقى عادة أفضل ما عنده ولا يفرط فيه أى خيار عقلاء لهم كلمة مسموعة.

---

(١) الصلاة
(٢) الليل
(٣) الحسنات
(٤) للذاكرين
(٥) واحدة

﴿إلا قليلا﴾ :

﴿إلا﴾ حرف معناه هنا لكن.

﴿ممَّنْ أنجينا﴾ : ﴿من﴾ فى ممَّنْ بيانية تدل على أن ما بعدها بيان للقليل المذكور قبلها.

﴿ما أترفوا فيه﴾ : أى ما جعلهم الله تعالى مترفين فيه، والترف هو التنعم بمتع الحياة عن سعة، انظر الآية (٣٣) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٤٨، ٤٤٩، وتقول العرب ترف فلان بفتح فكسر بوزن فرح أى توسع فى التنعم، وقد يترفه الله سبحانه وتعالى عقابا له، أى يوسع عليه فى الرزق حتى يستغرق فى ملاذه وشهواته وينسى شكر ربه سبحانه، انظر الآية (٤٤) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، وآيتى (٥٥، ٥٦) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٥٠، ٤٥١.

﴿بظلم﴾ : الباء للمصاحبة، أى مصاحبا لظلم والمراد حال كونه ظالما.

﴿ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة﴾ : تقدم شرحها فى الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦. ﴿وتمت كلمة ربك﴾ : أى نفذت كلمته وهى قوله ﴿لأملأن جهنم﴾ إلخ ونلاحظ ﴿أل﴾ فى الجِنَّة والناس للعهد، والمعهود هم الجن والإنس الذين اتبعوا الشيطان، انظر الآية (١٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٤ ﴿من الجِنَّة﴾ : أى الجن.

المعنى : ـ ولا تميلوا إلى الظالمين فتصيبكم بسبب ذلك نار جهنم، فمالكم فى حال ميلكم صديق يدفع عنكم عذاب الله، ثم تكون عاقبتكم أنكم لا ينصركم الله تعالى أبدا، لأنه لا يركن إلى الظالم إلا مَنْ يماثله فى حب الظلم، وقد حكم الله أنه ما للظالمين من أنصار.

وبعدما أمر سبحانه المؤمنين بالاستقامة وتجنب الطغيان والميل للظالم، أراد سبحانه أن يرشدهم إلى أعظم العبادات والأخلاق التى تعينهم وهى الصلاة فرضا أو نفلا، والصبر، والنهى عن المنكر، فقال: وأقم الصلاة فى طرفى النهار، وفى زلف من الليل، لأن الأعمال الصالحة تطهر النفوس فتذهب السيئات؛ إن فيما ذكر من الأوامر لموعظة للمستعدين لقبولها. واصبر أيها النبى على احتمال المشقة فى سبيل تنفيذ ما أمرت به يعطك الله أجرا

عظيما لأنه لا يضيع أجر من أحسن عملا، فهلا وجد من الأمم الذين سبقوكم وأهلكناهم بظلمهم جماعة أصحاب فضل وعقل ينهون غيرهم عن الفساد فى الأرض؟ المراد كان يجب أن يكون فيهم ذلك ليمنعوا عنهم العذاب، ولكن الذى حصل أنه لم يكن من أصحاب الكلمة المسموعة من فعل ذلك، لكن كان هناك قليل من المؤمنين المستضعفين غير مسموعى الكلمة ونجاهم الله مع رسلهم بعد أن كانوا مضطهدين لاحق بهم الأذى، واتبع الظالمون الأكثرون أسباب الترف والنعيم الذى رزقهم الله، فأفسدهم البطر والكبر على رسلنا، وصاروا راسخين فى الإجرام لا يمكن رجوعهم عنه، فاستحقوا الهلاك والظلم والإجرام يظهران أولاً فى الكبراء والرؤساء ثم يسريان بالتقليد فى العامة، فيكونان سببا للهلاك وإذا كان هذا حال الميل القليل إلى مَنْ وجد منه ظلم أى ظلم كان ولو قليلا فكيف يكون حال مَنْ يميل إلى الراسخين فى الظلم والعدوان ميلا عظيمًا ويتهالك على مصاحبتهم ومعاشرتهم، ويبتهج بمؤانستهم مادًا عينيه إلى ما هم فيه من زهرة الحياة الفانية، وفى الحكمة المأثورة (مَنْ دعا لظالم بالبقاء أحب أن يُعصى الله سبحانه فى أرضه). وما كان يصح أن يهلكهم الله تعالى ظالما لهم وهم مصلحون؛ لأن الله تعالى حرم الظلم على نفسه، فلو كانوا مصلحين لما عذبهم.

ولو شاء ربك أيها النبى الحريص على إيمان قومه لجعل الناس على دين واحد جبرا عنهم كالملائكة، ولكان العالم غير هذا العالم، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، بل تركهم مختارين، فلا يزالون مختلفين فى كل شىء تبعا لميولهم وشهواتهم وتفكيرهم يتعصب كل منهم لرأيه وما تعوده إلا الذين رحمهم ربك لسلامة فطرتهم، فإنهم اتفقوا على حكم كتاب الله فيهم وسماع كلمة رسوله؛ ولهذه المشيئة التى اقتضتها حكمة نظام عالم الدنيا خلق الله تعالى الناس مختلفين ليرتب على ذلك العقاب والثواب واستحقاق الجنة والنار.

وتحققت كلمة ربك على أتم وجه، وهى قوله: لأملأن جهنم من عالم الجن والإنس الذين لم يهتدوا بكتبه ولا بنصائح رسله، انظر آيات (١٣، ١٤، ١٥) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦. ثم ختم سبحانه السورة بأربع آيات تلفت النظر إلى ما سبق من العبر، وترشد إلى طريق النجاة، فقال تعالى: ﴿وكلا نقص عليك﴾ أيها الرسول...

مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِى هَٰذِهِ
الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ[1] ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا
إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ
بِغَٰفِلٍ[2] عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

(١٢) سورة يوسف مكية
وآياتها إحدى عشرة ومائة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر[3] تِلْكَ ءَايَٰتُ[4] الْكِتَٰبِ[5] الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ[6]
قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ

المفردات: ﴿وموعظة﴾: اعتبار.

﴿وذكرى﴾: أى تذكير بما حل بالغير ليجتنب ما يضر.

﴿اعملوا على مكانتكم﴾: تقدم بيانها فى الآية (٩٣) من هذه السورة صفحة ٢٩٨ .

المعنى: - وكل نوع من أخبار الرسل نقص عليك أيها النبى منه ما نقوى به قلبك على القيام بمشاق الرسالة.

وجاءك فى هذه السورة بيان الحق الذى دعا إليه الرسل، وهو توحيد الله، واتقاء ما يغضبه، والرجوع إليه إلخ.

وجاءك أيضًا فيها ما به العظة والاعتبار والتذكير بعاقبة الظلم والفساد ينتفع بها المؤمنون بالفعل والمستعدون للإيمان؛ فهؤلاء بشرهم بالنجاة.

وقل لمَنْ لم يؤمن منذرًا ومهددا:

اعملوا على آخر ما فى قدرتكم فى محاربة الدعوة وإيذاء المؤمنين. إنا نحن ثابتون على ما نعمل.

---

(١) عاملون.
(٢) بغافل.
(٣) ألف لام را
(٤) آيات
(٥) الكتاب
(٦) أنزلناه

وانتظروا بنا ما تتمنونه من بطلان دعوتنا بالموت أو بغيره كما فى الآية (٣٠) من سورة الطور صفحة ٦٩٨، إنا أيضًا منتظرون ما وعدنا ربنا من النصر عليكم.

وهذا من المواضع التى حققت الأيام صدقها، وأثبتت أن القرآن من كلام العليم بالمستقبل القدير على فعل ما يريد.

ولله وحده علم كل غيب فى السموات والأرض فيعلم ما سيحل بكم وما سيكون لنا، وإليه يرجع كل أمر، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وإذا كان الأمر كذلك فاعبده وحده، وتوكل عليه ولا تخش غيره، وما الله بغافل عما تعملون جميعًا أنتم والمشركون، وسيجازى كلا بما يستحق فى الدنيا والآخرة.

والله تعالى أعلم.

﴿سورة يوسف﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ـ ﴿آلر﴾: تقدم الكلام عليها أول البقرة.

المعنى: ـ تلك الآيات المذكورة فى هذه السورة هى من آيات الكتاب الموضح لحقائق الدين ومصالح الدنيا والآخرة.

إنا أنزلنا هذا الكتاب على رسولنا العربى حال كونه قرآنا عربيًا بلغتكم يا مَنْ تحملتم الرسالة أول نزولها لتبلغوها لغيركم لعلكم تعقلون أى تفهمون ما فيه.

ولو جعلناه أعجميًا لاعتذرتم عن اتباعه بجهلكم بلغته. انظر الآية (٤٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦، والآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩ . نحن نقص عليك أيها الرسول....

أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن
كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ[1] (٣) إِذْ قَالَ يُوسُفُ
لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ[2] (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ[3] لَا تَقْصُصْ
رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ[4]
لِلْإِنسَانِ[5] عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ
مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ
يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ[6] وَإِسْحَاقَ[7]
إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦) ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ
وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ[8] لِّلسَّائِلِينَ[9] (٧) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ
وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي
ضَلَالٍ[10] مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ

المفردات: . ﴿يا أبت﴾: أصلها يا أبى، والعرب تبدل الياء فى نداء الأب والأم تاء.

﴿يجتبيك ربك﴾: أى يصطفيك ويختارك دون أخوتك.

﴿تأويل﴾: أى بيان مآل الرؤيا وهو تفسيرها.

﴿الأحاديث﴾: سميت الرؤيا حديثًا لأنها تحكى ويتحدث بها.

﴿آل يعقوب﴾: أى أهله، ولا يستعمل آل إلا فيمن لهم مقام عال كآل إبراهيم وآل النبى، ولا يقال آل الزبال مثلاً. ﴿آيات﴾ أى دلائل.

﴿للسائلين﴾: للمستفسرين عن قصتهم المليئة بالعبر.

﴿عصبة﴾: جماعة من عشرة فما فوق.

---

(١) الغافلين.
(٢) ساجدين.
(٣) يا بنى
(٤) الشيطان
(٥) للإنسان.
(٦) إبراهيم
(٧) إسحاق
(٨) آيات
(٩) للسائلين
(١٠) ضلال

﴿ضلال﴾: خطأ فى الرأى وبُعد عن المساواة فى المحبة مع أننا أنفع له من يوسف.

﴿اطرحوه أرضًا﴾: أى ارموه فى أرض مجهولة بعيدة عن العمار حتى لا يستطيع العودة إلى أبيه.

المعنى: ـ نقص عليك أحسن القصص صدقا ووضوحًا وفائدة بإيحائنا إليك هذا القرآن، وإن الحال أنك كنت من قبل هذا الإيحاء من جملة الغافلين عنه من قومك لا تعلمون منه شيئًا، انظر الآية (٥٢) من سورة الشورى صفحة ٦٤٦ .

ثم شرع سبحانه يبين أحسن القصص فقال ﴿إذ قال يوسف﴾ وكانت سنه حينئذ اثنى عشر عامًا: يا أبت إنى رأيت فى المنام أحد عشر كوكبا والشمس والقمر، ثم بيَّن كيف رآهم فقال: رأيتهم ساجدين لى كسجود العقلاء. عند ذلك أدرك يعقوب من الرؤيا أن الله تعالى سيختار يوسف لأمر مهم، فخاف عليه من حسد إخوته فقال مشفقًا عليه: يا بنى لاتذكر رؤياك هذه على إخوتك، يريد إخوته من أبيه، وكانوا عشرة، فإنك إن قصصتها عليهم يحسدوك فيحتالوا لإهلاكك بإغراء الشيطان لأنه عدو ظاهر العداوة لبنى الإنسان. وكما اجتباك ربك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف المنزلة يجتبيك للنبوة والأمور العظيمة، ويعلمك من علمه الإلهى تعبير الرؤيا وتفسيرها على الوجه الصواب، ويتم نعمته عليك بالنبوة والرسالة والرياسة وعلى آل يعقوب بالمقام الكريم وتسلسل النبوة فيهم إلى زمن معين كما أتمها على أبويك إبراهيم وإسحاق من قبل هذا العهد؛ إن ربك عليم بمَنْ يستحق الاصطفاء، حكيم يضع الشىء فى محله.

ثم شرع فى القصة فقال: لقد كان فى قصة يوسف وإخوته لأبيه العشرة حين قالوا: والله ليوسف وأخوه بنيامين، ولم يذكروه باسمه للإشعار بأن محبة يعقوب له كانت بالتبع لمحبة يوسف، ولذا لم يتعرضوا له بأذى، أحب إلى أبينا منا، وكانت محبة يعقوب ظهرت بعد رؤيا يوسف، والحال إنا عصبة قوية قادرون على خدمته، إن أبانا فى ترجيحهما فى المحبة مع أننا أنفع له لفى خطأ فى الرأى ظاهر، ولا حل لذلك إلا بأحد أمرين: إما قتله، أو نفيه إلى أرض بعيدة يستحيل عليه الرجوع منها. إن فعلتم ذلك كان كل إقبال أبيكم عليكم وحدكم.

لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ[1] ﴿٩﴾
قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ[2]
الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ[3] ﴿١٠﴾
قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ
لَنَاصِحُونَ[4] ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ
لَحَافِظُونَ[5] ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ
أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ[6] ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ
الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ[7] ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا
بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ[8] الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ
لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءُوا[9] أَبَاهُمْ
عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا[10] إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا
يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا[11] فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا

المفردات: . ﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾: أصل الوجه الجزء المعروف من البدن، والمعنى لا يكون أمام وجهه غيركم، والكلام كناية عن تخليص محبته لهم لعدم اشتغاله بغيرهم.

﴿صالحين﴾: صلاحًا دينيا بالتوبة والعمل الصالح ودنيويًا بالتفات أبيكم إليكم.

﴿غيابة الجب﴾: الجب هو البئر غير المبنية، وغيابته ما يغيب عن رؤية البصر من قعره أو حفرة بجانبه تكون فوق سطح الماء ينزل فيها مَنْ أراد إخراج شيء وقع فى البئر.

﴿السيارة﴾: المسافرون الذين يسيرون لمسافات بعيدة.

﴿لناصحون﴾: بالبعد عما يضره فلا يخاف عليه.

﴿يرتع﴾: الرتوع هو أكل ماطاب من الفاكهة وغيرها من خيرات الزرع.

﴿ويلعب ﴾: بالسباق والصراع والرمى بالسهام.

﴿وأجمعوا﴾: عزموا عزمًا أكيدًا، انظر الآية (٧١) من سورة يونس صفحة ٢٧٧

﴿وأوحينا إليه﴾: عندما ألقوه فى البئر وحيا إلهاميًا ليطمئن قلبه كما أوحى إلى أم موسى فى الآية ٧ من سورة القصص صفحتى ٥٠٦، ٥٠٧ .

---

(١) صالحين. (٢) غيابة. (٣) فاعلين.
(٤) لناصحون. (٥) لحافظون (٦) غافلون
(٧) لخاسرون (٨) غيابة (٩) وجاءوا
(١٠) يا أباءنا (١١) متاعنا

﴿نستبق﴾: أى نجرى يسابق كل منا صاحبه تسلية.

﴿بمؤمن﴾: أى بمصدق.

المعنى: . إن قتلتموه أو نفيتموه يخلص حب أبيكم لكم، وبعد ذلك تتوبون من هذا الذنب وتكونون أهلا لحياة سعيدة. قال واحد منهم: لا ترتكبوا جريمة القتل لأنها عظيمة لا تؤمن المغفرة معها، واستعيضوا عن ذلك بإلقائه فى حفرة من الجب المعروف فى طريق المسافرين يأخذه بعضهم إلى مكان بعيد، فيتم لكم إبعاده عن أبيه، إن كنتم فاعلين الصواب فاعملوا هذا. ثم توجهوا الى أبيهم وكانوا قد شعروا أن أباهم يحرص على بعد يوسف عنهم خوفا من أن يذكر لهم شيئًا عن الرؤيا فقالوا: يا أبانا أى شىء عرض لك جعلك لا تأمنا على يوسف مع أننا نخصه بالنصح دائمًا؟ أرسله معنا غدًا حين نخرج كعادتنا إلى مراعينا وراء أنعامنا يتمتع بالأكل ويلعب كما نلعب، وإنا له لحافظون من كل سوء. قال:

إنى أحزن لبعده عنى، وأيضًا أخاف أن يأكله الذئب لصغره وأنتم عنه غافلون باشتغالكم بأنعامكم أو بلعبكم. قالوا: والله لئن اختطفه الذئب من بيننا ونحن جماعة قوية إنا إذا وقع هذا لخاسرون لكل شىء حتى مواشينا. أى وهذا لن يكون. عند هذا التأكيد منهم سمح يعقوب بما طلبوا.

فلما ذهبوا به فى الغدو اتفقوا على جعله فى غيابة الجب، نفذوا ما عزموا عليه.

عند ذلك ألقى الله تعالى فى قلبه أنه سينجو ويرى إخوته ثانيًا ويخبرهم بما صنعوه معه وهم لا يشعرون أن الذى أخبرهم بما حل بيوسف هو يوسف نفسه، وقد تحقق هذا الإلهام، انظر آيتى (٨٨، ٨٩) من هذه السورة صفحة ٣١٦ . وبعد ما اطمأنوا إلى أنهم تخلصوا منه جاءوا أباهم فى وقت العشاء وهو ما بعد الغروب حال كونهم يبكون ليقنعوه بما يدعون وهو قولهم يا أبانا إنا ذهبنا من مكان اجتماعنا إلى مكان بعيد نتسابق فيه بالجرى أو السهام وتركنا يوسف عند متاعنا من ثياب أو آنية طعام فأكله الذئب، وما أنت بمصدق لنا فى قولنا هذا لشدة محبتك ليوسف وسوء ظنك بنا.

وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ[1] ﴿١٧﴾ وَجَآءُو[2] عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ
قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ
وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ
فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ[3] هَٰذَا غُلَٰمٌ[4]
وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً[5] وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ
بَخْسٍ دَرَٰهِمَ[6] مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ[7] ﴿٢٠﴾
وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ[8] مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ[9]
عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ
عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا
بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ[10] حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ[11] ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ

المفردات: . ﴿بدم كذب﴾: الكذب مصدر وصف به الدم للمبالغة فى دلالته على الكذب حتى كأنه هو الكذب نفسه، كما تقول فلان شر أى صاحب شر. ﴿تصفون﴾: أى تكذبون، انظر آيتى (١٠٠، ١٣٩) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٩، ١٨٦، والآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٣، والآية (١٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٢ . ﴿سولت﴾: أى زينت وسهلت. ﴿سيارة﴾: أى جماعة تبالغ فى السير من مدين إلى مصر. ﴿واردهم﴾: هى الذى يرد على الماء ليحمل منه لرفقته. ﴿دلوه﴾:هو وعاء من جلد مؤنث فيقال الدلو نزعتها. ﴿يا بشرى﴾: هذه كلمة تستعمل عند السرور من غير قصد إلى نداء كما يقال عند الجذع يا حسرتا. ﴿وأسروه بضاعة﴾: أى أخفاه السيارة حال كونهم جاعلين له متاعًا من التجارة. ﴿وشروه﴾: أى باعوه، فشرى تستعمل فى معنى باع واشترى. ﴿بخس﴾: أى مبخوس ناقص عن ثمن مثله، من بخس الشيء نقصه. ﴿معدودة﴾ المراد قليلة لأن العرب كانت تعد القليل وتزن الكثير. ﴿مثواه﴾: إقامته. ﴿مكنا ليوسف فى الأرض﴾: أى جعلنا له مكانة ومنزلة. ﴿غالب على أمره﴾: أى قادر على تنفيذ كل أمر يريده ولايغلبه أحد على منعه. ﴿أشده﴾ : أى بلغ غاية نمو جسمه واشتداد قوته. وذلك يكون عادة ببلوغ الإنسان خمسة وعشرين عامًا، وهو دون الاستواء الذى عنده تكون النبوة، وهو أربعون عامًا، انظر الآية (١٤) من سورة القصص صفحة ٥٠٨ .

﴿حكمًا﴾: أى حكمة وهى معرفة أسرار الأشياء. ﴿راودته﴾: المراودة المطالبة فى رفق ولين مع شيء من المخادعة. ﴿عن نفسه﴾: المراد خادعته لتصرفه عن رغبة نفسه الشريفة فى العفاف.

(١) صادقين (٢) وجاءوا (٣) يا بشرى (٤) غلام
(٥) بضاعة (٦) دراهم (٧) الزاهدين (٨) اشتراه
(٩) مثواه (١٠) آتيناه (١١) وراودته

المعنى: . لست يا أبانا مصدقًا لنا ولو كنا فى الحقيقة صادقين، وجاءوا على قميص يوسف بدم يدل على كذبهم لكونه على ظاهر القميص، ولم يختلط بخيوطه، وأيضًا فقد وجد يعقوب أن القميص سليم لم يمزق، حتى روى أنه قال: (ما أحلم هذا الذئب الذى يأكل ابنى ولا يمزق قميصه)، كل هذا مع ما علم يعقوب من رؤيا يوسف أنه سيعيش حتى يكون نبيًا جعله يحكم بكذبهم ويقول: (لم يأكل ابنى ذئب بل سولت لكم أنفسكم الأمارة بالسوء أمرًا منكرًا، فصبرى صبر جميل، لا أشكو لأحد، وأطلب العون من الله على إظهار كذبكم، وعلى تحمل هذه المصيبة، وجاءت من جهة الشام إلى مصر سيارة فأرسلوا مَنْ يأتى لهم بماء من الجب، فأدلى دلوه، فتعلق به يوسف، فقال أبشروا وجدت غلامًا جميلاً. وأخفوه لئلا يراه أحد ويأخذه منهم، وقصدوا جعله بضاعة يبيعونه فى مصر على أنه رقيق، والله عليم بما يعمل الجميع من إخوة يوسف والسيارة، فلن يترك يوسف أبدًا، ولما وصلوا مصر باعوا يوسف بثمن ناقص هو دراهم قليلة، وكانوا غير راغبين فيه لئلا يظهر مَنْ يطالبهم به، وقال الذى اشتراه من مصر وهو كبير وزراء الملك، ويلقب بالعزيز كما سيأتى. قال لامرأته: أكرمى إقامته بيننا بحسن المعاملة ولا تعامليه كالخدم، وبيَّن سبب ذلك بقوله: عسى أن ينفعنا فى القيام بشئوننا، أو نتخذه ولدا نسر به، وكان عقيما، قال تعالى وكما جعلنا ليوسف إقامة كريمة جعلنا له فى أرض مصر منزلة ممتازة، وفعلنا له ما ذكر لنتم عليه النعمة، ولنعلمه من تأويل الأحاديث كتعبير الرؤيا الذى كان سببا فى نجاته، ووصوله إلى المنزلة العليا فى الدولة، كما سيأتى فى الآيات (٣٦، ٣٧، ٤٧) من هذه السورة صفحتى ٣٠٨، ٣١٠، والله قوى قادر على تنفيذ كل أمر يريده ومنه رفعة قدر يوسف، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك ومنهم إخوة يوسف عندما ظنوا أنهم قادرون على التفريق بين يوسف وأبيه ليخلو لهم الجو، ففشلوا وتم ما أراد الله، ولما بلغ يوسف غاية قوته آتيناه من لدنا حكمة وعلما نافعًا فى كل شىء من تأويل الرؤيا وتدبير الأمور، وقد ظهر ذلك فى تنظيم أقوات مصر، ومنع المجاعة وحيلته فى إحضار أخيه إليه، وعدم مسارعته فى الخروج من السجن عندما طلبه الملك، إلى غير ذلك، ومثل هذا الجزاء الحسن الذى جازينا به يوسف نجزى كل محسن لعمله بما هو الأصلح له فى دينه ودنياه، ثم شرع سبحانه فى بيان ما جرى ليوسف فى منزل العزيز فقال: وراودته إلخ.. أى وخادعته لتصرفه عن عفافه إلى ما تريد.

وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ
إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾
وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ
كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ
وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ
سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي
عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ
مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ
قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾
فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ
إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا

المفردات: . ﴿هيت﴾: اسم فعل بمعنى اقبل. ﴿لك﴾: أى أن الخطاب لك أنت. ﴿معاذ الله﴾: . الأصل أعوذ به معاذا، أى أتحصن به تحصنًا قويًا. ﴿إنه ربى أحسن مثواى﴾: أى إنه سبحانه ربى أحسن إقامتى فى بلد الغربة.

﴿همت به وهم بها﴾: قال شارح مسلم الثبوت محمد بن نظام الدين الأنصارى فى كتابه (الأصل الثانى السنة) أنها همَّت بقتله وهمّ هو بقتلها دفاعًا عن نفسه، وذلك لأن الهم لا يكون إلا بفعل والمرأة قابلة لا فاعلة، انظر مادة الهم كلها فى القرآن فإنها لا تدل إلا على ذلك، ومنها ما فى الآية (٧٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥٤ فافهم واحترس مما افتراه أعداء الدين على أنبياء الله حتى وقع فيه كثير من المفسرين عن غفلة. وتأمل ما سيأتى من قولها: ﴿فاستعصم﴾. ﴿برهان ربه﴾: أى طريقًا للخلاص بإلهام من ربه. ﴿السوء﴾: القتل بدون سبب لإمكان الخلاص بدونه.

﴿والفحشاء﴾: الزنا. ﴿المخلصين﴾: هم الذين أخلصهم ربهم من النقائص ﴿واستبقا الباب﴾: أراد كل منهما أن يسبق صاحبه إلى جهة الباب: هو ليخرج، وهى لتمنعه. ﴿وقدت قميصه﴾: قطعته. ﴿من دبر﴾: من خلف فوق كتفيه. ﴿وألفيا﴾: وجدا .﴿سيدها﴾: زوجها وهو العزيز كما سيأتى. وتأمل إضافة السيد إليها دونه تعلم أن هذا يبعد أن يكون يوسف يقصد العزيز فى قوله ﴿ربى أحسن مثواى﴾. ﴿لدى الباب﴾: أى عند الباب الخارجى الذى بعده

---

(١) الأبواب (٢) الظالمون (٣) رأى
(٤) برهان (٥) لدى (٦) راودتنى
(٧) الكاذبين (٨) الصادقين (٩) رأى

الخلاص. ﴿بأهلك﴾: أى بزوجك. ﴿سوءًا﴾: أى شيئًا يسوءك. ﴿شاهد من أهلها﴾: هو رجل عاقل جيد التفكير واستجلاء الحقائق، وسمى قوله شهادة لأنه أدى مؤداها فى براءة يوسف. ﴿من قُبل﴾: أى من الأمام من جهة الصدر. ﴿أعرض عن هذا﴾: أى اكتمه ولا تحدث به أحدا.

المعنى: وراودته امرأة العزيز فامتنع، بدليل اعترافها الآتى فى الآية (٣٢) من هذه السورة صفحة ٣٠٧، وعطفها استعصم بالفاء على المراودة عند ذلك غلقت الأبواب وقالت تعال أنت، فقال: معاذ الله أن أقابل نعمة ربى بعصيانه فأكون من الظالمين، فلما رأت منه هذا الاحتقار لها امتلأ صدرها بنار الغيظ، وصممت على الانتقام من خادم اشترته ويهبنها، فَهَمّت بالبطش به، وهَمّ هو أيضًا بقتلها، ولكنه سرعان ما أدركته العناية فأدرك أن للخلاص طريقًا غير القتل وهو الفرار. كهذا التثبيت تثبت يوسف دائمًا فى المستقبل لنصرف عنه السوء والفحشاء لأنه من عبادنا المخلصين.. وأسرع يوسف للباب الذى يوصله للخارج فأسرعت وراءه وصارت تمنعه بجذبه من قميصه من الخلف حتى قطعته، وعند الباب وجدا زوجها يريد الدخول، فمن شدة دهائها أنها لم تتلعثم عند المفاجأة، وأنها جعلت مراودته لها أمرًا لاشك فيه، فقصرت كلامها على نوع العذاب الذى يجازى به، فقالت لاجزاء له إلا أن يسجن أو عذاب أليم. ولعلها كانت تفضل السجن مدة قصيرة حتى لا يبعد عنها فإذا استمر على عناده يعذب العذاب الدائم. قال يوسف دفاعًا عن نفسه: هى التى راودتنى عن نفسى. فلما اختلف قولهما تقدم رجل عاقل من أهلها ليس فى شهادته تهمة وقال: إن كان قميصه قطع من الأمام فتكون هى الصادقة وهو كاذب لأنه مهاجم وهى مدافعة، وإن كان قطع من الخلف فهى الكاذبة وهو الصادق. ولو كان هذا الشاهد طفلاً كما يقولون لكان مجرد نطقه بأن يوسف برىء كافيا ولا حاجة لهذا الاستدلال، فتأمل. فلما رأى العزيز أن قميص يوسف قد قطع من الخلف علم براءته , قال إن هذا العمل ومحاولة التنصل منه باتهام البرىء هو من كيد النساء المعهود عنهن، إن كيدكن معشر النساء عظيم لا يفطن الرجال لحيلكن فيه. ثم التفت إلى يوسف وقال: يا يوسف أعرض عن حكاية ما حصل....

وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾
۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ[1] الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ[2] فَتَاهَا[3] عَن
نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا[4] فِي ضَلَالٍ[5] مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾
فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ
مُتَّكَأً وَآتَتْ[6] كُلَّ وَاحِدَةٍ[7] مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ
عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ
حَاشَ[8] لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾
قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ[9] عَن
نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ[10] لَيُسْجَنَنَّ
وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ[11] ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ
إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ
إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ[12] ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ

المفردات: ـ ﴿نسوة﴾: اسم جمع للمرأة لا واحد له من لفظه.

﴿فتاها﴾: خادمها.

﴿شغفها حبا﴾: مأخوذ من شغاف القلب وهو غلافه المحيط به، فشغفها أى اخترق حبه شغاف قلبها وغاص فى داخله حتى صارت لا تبالى.

﴿بمكرهن﴾: لعلها سمعت قولهن مكرا لشبهه به فى الخفاء، ولأنهن يردن طرده ليتمتعن به.

﴿اعتدت﴾: أى أعدت وهيأت.

﴿متكأ﴾: قال ابن عباس: هو الأترنج، وهو نوع من الفاكهة.

﴿أكبرنه﴾: أى عظمنه ودهشن من جماله. ﴿وقطعن أيديهن﴾: أى جرحنها جروحًا شديدة.

﴿حاش لله﴾: أصل المراد بها إعلان تنزيهه تعالى عن كل نقص وأردن بها التعجب وتنزيهه تعالى عن أن يخلق هذا الشاب من نوع البشر.

﴿فاستعصم﴾: أى أسرع فى المبالغة فى العصمة والامتناع. ﴿من الصاغرين﴾: هو من صغر بكسر الغين كفرح إذا ذل واحتقر، أى من الأذلاء المهانين، انظر الآية (٢٩) من سورة

---

(١) امرأة (٢) تراود
(٣) فتاها (٤) لنراها
(٥) ضلال (٦) وآتت
(٧) واحدة (٨) حاش
(٩) راودته (١٠) آمره
(١١) الصاغرين (١٢) الجاهلين

التوبة صفحتى ٢٤٤، ٢٤٥ . ﴿أصب إليهن﴾: أى أمل. ﴿من الجاهلين﴾: السفهاء. ﴿فاستجاب له ربه﴾: أى أجاب دعاءه على أحسن وجه.

المعنى: . والتفت إلى زليخا بفتح الزاى وقال: وأنتِ استغفرى لذنبك إنك كنت من جنس مرتكبى الخطايا عمدا من رجال ونساء. وقال نسوة فى عاصمة مصر: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه لأن حبه قد ملأ قلبها، وهذا أمر عجيب منها، إنا نعتقد أنها فى بعد عن الصواب واضح، فلما سمعت زليخا بمكرهن مكرت بهن كما مكرن بها، فدعتهن إلى حفل فى دارها، وأعدت لهن فيما قدمته من الطعام أترجا يحتاج أكله إلى تقشيره وتقطيعه بالسكين، ولذا وضعت لكل واحدة منهن سكينًا. ويبدو أنها أجادت سنها حتى يحصل ما تريد من إقامة الحجة عليهن فيعذرنها، وكانت حجزت يوسف فى غرفة داخل الغرفة التى كان فيها الطعام، ولذا قالت ﴿اخرج عليهن﴾ لتفاجئهن به وهو على أحسن صورة، وكن لم يرينه قبل ذلك، وبينما كن مشغولات بتقطيع الفاكهة وقعت عليه أعينهن. فاستولت عليهن الدهشة، وتحركت السكاكين فى أيديهن من غير شعور، فجرحت أيديهن جروحًا كثيرة، وقلن متعجبات: معاذ الله أن يكون هذا من البشر، إنما هو ملك كثير المحاسن، وهذا صدر منهن بناء على تصور الإنسان أن الملك أحسن الأحياء صورة كما يتصور أن الشيطان أقبحهم صورة، مع أن الإنسان لم ير ملكًا ولا شيطانًا، وبعد أن أقامت عليهن الحجة على عذرها باحت بما فى نفسها فقالت: لقد راودته عن نفسه فأسرع فى مقابلة طلبى بالرفض الشديد، وتمسك بالعصمة وعصانى، وإنى أقسم لئن لم يفعل ما أمرته به لأجمعن له بين السجن والإهانة، بعد أن كنت قد اقترحت على زوجى واحدا منهما. كما تقدم فى الآية ٢٥ من هذه السورة صفحة ٣٠٦ فلما رأى يوسف تصميمها وموافقة النساء لها فزع إلى الجناب الأعلى وقال: يارب إنى أحب السجن وأكره ما يدعوننى إليه، وإن لم تصرف عنى شر كيدهن لى لإيقاعى فى المعصية فلا منجاة لى من الميل إليهن، وعند ذلك أكون من السفهاء الذين لا يعملون بما يعلمون، فاستجاب له ربه تضرعه....

فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٣٤)
ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ[1] لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ
حِينٖ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ
إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ[2] أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ[3] أَحۡمِلُ
فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ
إِنَّا نَرَىٰكَ[4] مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ
تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ
ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ[5] (٣٧) وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ[6]
إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ
مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ (٣٨) يَٰصَٰحِبَيِ[7] ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ

المفردات: . ﴿بدالهم﴾: أى ظهر رأى آخر هو سجنه المفهوم مما بعده.

﴿الآيات﴾: هى الشواهد على براءته: من حال القميص، وشهادة الشاهد، ومبالغته فى العفة حتى أمام جمع النسوة، واحتقاره الشهوات المغرية فى مثل بيت العزيز إلى غير ذلك مما لم يذكره سبحانه لنا.

﴿حتى حين﴾ إلى زمن غير محدد.

﴿أعصر خمرًا﴾: أى عنبا يصير خمرًا.

﴿إلا نبأتكما بتأويله﴾: أى أخباره التى يؤول إليها، والحالة التى سيكون عليها.

﴿تركت ملة﴾: تركت دخولها واتباع أهلها.

﴿قوم لا يؤمنون﴾: هم المشركون فى مصر وغيرها.

﴿يا صاحبى السجن﴾: أى يا ساكنين فى السجن كقوله أصحاب الجنة مثلاً.

المعنى: . فصرف عنه كيدهن وعصمه أن يكون من الجاهلين، إنه سبحانه هو السميع لدعاء مَنْ لجأ إليه، العليم بنيات المخلصين.

---

(١) الآيات
(٢، ٣) أرانى
(٤) نراك
(٥) كافرون
(٦) آبائى
(٧) يا صاحبى

لدعاء مَنْ لجأ إليه، العليم بنيات المخلصين.

ثم ظهر للعزيز ورجاله رأى بسجنه فقالوا والله لنسجننه إلى أجل غير معين ليكون تحت تصرفها. وهذا يدل على أن زليخا كانت مالكة لزمام زوجها تقوده كما تشاء، فسجنوه. ودخل معه السجن بطريق المصادفة فتيان من خدام ملك مصر، أحدهما خازن الطعام، والآخر ساقى الملك.

فرأى كل منهما رؤيا منامية، فقصاها على يوسف، وقال أحدهما إنى رأيت فى المنام أنى أعصر عنبًا ليصير خمرًا، وقال الآخر: إنى رأيت أنى أحمل خبزًا فوق رأسى تأكل منه الطير، أخبرنا يا يوسف بتفسير هذه الرؤيا لأنا نراك من المحسنين للناس ولتعبير الرؤيا فانتهز يوسف الفرصة التى مكنته من الدعاية لما يعتقده الحق من توحيد الله سبحانه، فقال لهما ما يمهد به لقبول دعوته: لا يأتيكما طعام غدًا مثلا من غير كسب منكما إلا كنت عالمًا به قبل وصوله فأخبركما بما سيكون عليه قبل أن يأتيكما؛ ذلك العلم الغيبى مما علمنى ربى بوحيه إلىّ به ليكون فيه دليل على صدقى، أى كما كان دليلاً على صدق عيسى عليه السلام فى الآية (٤٩) من سورة آل عمران صفحتى ٧٠، ٧١ .

ثم بين سبب هذه النعمة فقال: إنى ابتعدت عن اتباع ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة على الوجه الصحيح كافرون، لأنهم كانوا يعتقدون أن الملوك سيعودون فى الآخرة ملوكًا، ولذا كانوا يحفظون معهم حليهم وأموالهم.

ولعل هذا هو السبب فى التأكيد بذكر ضمير (هم). واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله شيئًا مطلقًا، ذلك الفضل العظيم بالنبوة والهداية من فضل الله علينا وعلى الناس بإرسالنا إليهم، لننشر فيهم الحق، وندعوهم لطريق النجاة، ولكن أكثر الناس لا يشكرون نعم الله عليهم، فهم يشركون معه غيره، ياساكنين

مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن
دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ
بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا
إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾
يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا
وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ
الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا
اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ
فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ
بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ
وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ
لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ

المفردات: . ﴿متفرقون﴾: فى ذاتهم وصفاتهم وأنواعهم. ﴿إلا أسماء﴾: أى مجرد أسماء لا حقيقة لها. ﴿أنزل﴾: المراد أوجد كما فى الآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣ . ﴿سلطان﴾: برهان. ﴿القيم﴾: المستقيم. ﴿يا صاحبى السجن﴾: أى المقيمين فيه كما يقال أصحاب الجنة وأصحاب النار. ﴿ظن أنه ناج﴾: عَبَّر بذلك تأدبًا مع الله عز وجل، وإلا فهو يعلم نجاته بدليل قوله ﴿قضى الأمر﴾ إلخ. ﴿ربه﴾: سيده وهو الملك، وكان من ملوك العرب الرعاة.

﴿اذكرنى عند ربك﴾: أى اذكر صفاتى التى شاهدتها عند الملك. ﴿ذكر ربه﴾: أى ذكر يوسف عند ربه، فالإضافة لأدنى ملابسة كما يقولون. ﴿فلبث فى السجن﴾: أى مكث. ﴿بضع سنين﴾: البضع من ثلاثة إلى عشرة، والمشهور أن كل مدة مكثه كانت سبعًا. ﴿عجاف﴾: جمع عجفاء وهى الضعيفة الهزيلة. ﴿الملأ﴾: هم أشراف القوم وزعماؤهم. ﴿أفتونى﴾: الاستفتاء هو السؤال عن الأمر المشكل المجهول، سواء أكان حكمًا شرعيًا أم خبرا عن شىء، وما هنا

---

(١) الواحد (٢) سلطان
(٣) يا صاحبى (٤) فأنساه
(٥) الشيطان (٦) بقرات
(٧) سنبلات (٨) يابسات
(٩) رؤياى (١٠) للرؤيا
(١١) أضغاث (١٢) أحلام.

من الثانى. ﴿تعبـرون﴾: أصله من عبـر النهر، أى تنتقلون من معناها الخيالى إلى المعنى الحقيقى، والمراد تعرفون تفسير الرؤيا. ﴿أضغاث﴾: جمع ضغث بكسر أوله كما فى الآية (٤٤) من سورة ص صفحة ٦٠٢، وهى الحزمة من العيدان والحشائش المختلفة، والمراد خواطر وخيالات مختلفة لا ترمى إلى معنى.

المعنى: هل عبادة أرباب متعددين خير لكم أم عبادة الله الإله الحق المنفرد بالألوهية القهار الذى لايغلبه أحد.

وإذا كانت عبادة الواحد خيرًا فما تعبدون أنتم من دون هذا الإله الحق شيئًا إلا مجرد أسماء فارغة لا معنى لها فى الخارج. جعلتموها أسماء بمحض الجهل والضلال أنتم وآباؤكم ما أقام سبحانه عليها حجة، وليس الحكم الصحيح فيما يصح أن يعبد وما لا يصح إلا لله وحده.

ثم بيَّن هذا الحكم فقال: أمر سبحانه بأن لا تعبدوا أحدا غيره؛ ذلك التخصيص بالعبادة هو الدين المستقيم ولكن أكثر الناس يجهلون ذلك لتقليدهم آباءهم وتركهم النظر فى الدليل، انظر الآية (١٠٣) الآتية من هذه السورة صفحة ٣١٨ . وبعد ما أدى واجبه فى بيان الحق شرع فى جواب سؤالهما فقال: يا صاحبى السجن تفسير مناميكما أن عاصر الخمر سيخرج ويكون فى حاشية الملك ويكون هو ساقى الخمر، وأما صاحب الخبز فيصلب ويترك مصلوبًا حتى تأكل الطير من رأسه. وقد تم الأمر ونفذ الحكم على الوجه الذى بينته لكما بما تستفتيان. وقال يوسف للساقى: اذكرنى عند الملك بما رأيت عسى أن ينصفنى ممَّنْ ظلمونى. وهذا من قبيل الأخذ بالأسباب لاعيب فيه، فشغل الشيطان ذلك الساقى بأمور أخرى حتى نسى ذكر يوسف عند ربه، فمكث يوسف فى السجن بضع سنين. وقال الملك إنى رأيت فى المنام سبع بقرات سمان يأكلهن سبع ضعاف، وفى ليلة أخرى رأيت سبع سنبلات خضر وأخر يابسات ولعل الرؤيا الثانية كانت لتوجيه الذهن إلى معنى الرؤيا الأولى كما فهم يوسف عليه السلام، وقد جاءت فى التوراة على هذا الوجه.

وقال الملك أفتونى أيها الزعماء إن كنتم تعرفون تفسير الرؤيا. قالوا هذه الرؤيا تخاليط أحلام ووسوسة شيطان لا نعرف لها تأويلاً.

بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ[1] بِعَٰلِمِينَ[2] ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا
وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾
يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ[3] سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ[4] خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ[5] لَّعَلِّىٓ
أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ
سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا
مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ
يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى
مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾
وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ
إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ[6] مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى[7] قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ[8]

المفردات: ﴿وادكر﴾: أى تذكر.

﴿أمة﴾: أى مدة من الزمن طويلة، انظر الآية (٨) من سورة هود صفحة ٢٨٥.

﴿الصديق﴾: أى بالغ النهاية فى صدق الأقوال والأفعال.

﴿تزرعون﴾: خبر بمعنى الأمر، أى ازرعوا، وهو مقدمة لتفسير الرؤيا.

﴿دأبا﴾: أصله مصدر داب فى العمل إذا واظب عليه، وأريد به هنا اسم الفاعل، أى دائبين مداومين. ﴿ذروه﴾: اتركوه.

﴿فى سنبله﴾: أى فى عيدانه حتى ينتفعوا بالحب وينتفع الحيوان بالتبن فهو من قبيل إطلاق الجزء على الكل. ﴿شداد﴾: أى فى الجدب والقحط.

﴿يأكلن ما قدمتم لهن﴾: إسناد الأكل للسنين للمبالغة، والمراد يأكل الناس فيهن كل ما قدموه للادخار.

---

(١) الأحلام.
(٢) بعالمين
(٣) بقرات
(٤) سنبلات
(٥) يابسات
(٦) فاسأله
(٧) اللاتى
(٨) راودتن.

﴿تحصنون﴾: أى تحفظون وتدخرون للبذر. ﴿يغاث الناس﴾: يأتيهم الله بالغوث من مطر وخصب.

﴿يعصرون﴾: كل ما يعصر لاستخراج شرابه أو زيوته كالعنب والزيتون والسمسم.

﴿ما بال النسوة﴾: أى ما حقيقة حالهن.

﴿ما خطبكن﴾: أصل الخطب هو الشأن العظيم الذى يتخاطب بخصوصه الناس، انظر الآية (٥٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٢، والآية (٩٥) من سورة طه صفحة ٤١٥، والمراد هنا ما حالكن وشأنكن.

المعنى: . وقال الذى نجا من صاحبى السجن والحال أنه قد تذكر بعد مدة طويلة وصية يوسف: أنا أخبركم بتفسيره بعد تلقيه عمَّنْ يعرفه، فأرسلونى إلى السجن الذى هو فيه، فأرسلوه فجاء وقال يا يوسف، يا شديد الحرص على الصدق، أفتنا فى رؤيا سبع بقرات سمان إلخ، لعلى أرجع إلى أولى الأمر بما تقوله لعلهم يعلمون معناها ويعرفون فضلك وعلمك. فأراد يوسف أن ينبههم إلى ما يجب عمله قبل أن يفسر الرؤيا ليتلافوا ما سيكون من الخطر، فقال: ازرعوا القمح والشعير سبع سنين مداومين على ذلك، وما تحصدونه منه اتركوه محفوظا فى سنبله بطريقة تبعد عنه السوس، إلا قليلاً مما تأكلونه فى هذه السنين الخصبة مع الاقتصاد، وسيأتيكم بعد ذلك سبع سنين شديدة الجدب يأكل الناس فيها كل ما قدمتم لهم من هذه الحبوب المدخرة، واحفظوا قليلاً من تلك الحبوب ليكون بذرا لما يزرع فى المستقبل، ثم يأتى بعد تلك السنين المجدبة عام يغاث الناس فيه ويعصرون كل ما يعصر للشرب والأدام. فذهب الرسول إلى الملك ورجاله وأخبرهم فقال الملك: أحضروا لى يوسف.

فلما جاء رسول الملك ليوسف يطلبه للمقابلة قال له ارجع إلى سيدك واسأله قبل ذهابى إليه ما حقيقة مسألة النسوة اللاتى قطعن أيديهن؟ وما سبب ذلك؟ واعلموا أن هناك كيدا دبر للأبرياء، وربى هو وحده العليم بكيد النساء. فبلغ الرسول كلام يوسف للملك، فلفت نظره هذا الموقف العجيب من يوسف، فسأل، فأخبروه بما شاع من مراودة امرأة العزيز، فجمع النساء المجروحات أيديهن وقال ما شأنكن عندما راودتن يوسف؟

يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ[1] لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ
قَالَتِ ٱمْرَأَتُ[2] ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ[3] حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ[4]
عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ[5] ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ
أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾
۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا
مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ
ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ
لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ
إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ
يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ
وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ

المفردات: . ﴿حصحص الحق﴾: ظهر واتضح.

﴿لم أخنه بالغيب﴾: المراد في غيبته.

﴿استخلصه لنفسى﴾: أجعله خالصًا لنفسى.

﴿مكين﴾: ذو مكانة ومنزلة رفيعة.

﴿اجعلنى على خزائن الأرض﴾: أى ولنى أمر خزائن أموال وحبوب أرض مصر لأتصرف فيها بما فيه المصلحة.

﴿مكنا ليوسف﴾: أى جعلناه متمكنا من التصرف فى أرض مصر.

﴿يتبوأ منها﴾: أصلها يتخذ مباءة أى منزلاً، فالمراد ينزل فى أى مكان فيها، انظر الآية (١٢١) من سورة آل عمران صفحة ٨٣، والآية (٧٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٤ .

المعنى: . هل وجدتم من يوسف ميلاً؟ وما سبب سجنه؟ قلن جميعًا حماه الله ما علمنا عليه أدنى شىء يسوء شرفه.

وقالت امرأة العزيز: الآن ظهر الحق، أنا التى راودته عن نفسه وهو لم يراودنى، بل أسرع

---

(١) حاش
(٢) امرأة
(٣) الآن
(٤) راودته
(٥) الصادقين.

بالعصمة والإعراض عنى، وإنه لَمنْ الصادقين فى قوله هى راودتنى. ذلك الإقرار بالحق له ليعلم يوسف الآن حين يبلغه قولى هذا أنى لم أخنه فى غيبته من يوم سجن إلى وقتنا هذا، فلم أمس شرفه وعفته، وليزداد علما بأن الله لا يهدى كيد الخائنين، بل تكون عاقبة كيدهم وبالاً عليهم.

وما أبرئ نفسى من الخطأ لأن طبيعة النفس أنها كثيرة الأمر بالسوء فى كل وقت، إلا وقت رحمة ربك لصاحبها فإنه يحفظها، إن ربى عظيم المغفرة لما يعترى النفوس بمقتضى طباعها إذا تاب العبد منها، واسع الرحمة فلا يعجل بالعقوبة.

فلما تحقق للملك نزاهته قال ائتونى به من السجن اجعله خاصًا بى ومن أهل مشورتى، فأتوا به، فلما كلمه الملك ورأى حسن إجابته ورجاحة عقله قال إنك من الآن ذو مكانة ومنزلة رفيعة عندى مؤتمن على كل شىء.

قال يوسف: اجعلنى رئيسًا على إدارة خزائن المال والأقوات فى أرض مصر، لأنى شديد المحافظة على ما فى عهدتى، عليم بأحسن وجوه التصرف فيه، وأنتم مقبلون على شدة، فيجب الاحتراس من خطرها.

وكهذا التمكين البديع الذى تصورتموه الآن مكنا ليوسف فى أرض مصر ينزل فى بلادها حيث شاء، نختص برحمتنا فى الدنيا بالملك والغنى مَنْ نشاء حسب حكمتنا، ولا نضيع أجر المحسنين كما فى الآية (٣٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٥ .

وعزتى لأجر الآخرة من النعيم الدائم خير للذين آمنوا واستمروا على التقوى بالبعد عن المعاصى.

ولما كان القحط فى هذه السنين الشداد قد عم مصر وما جاورها من الشام واشتهر فيما حول مصر أن بها حبوبًا تباع، أرسل يعقوب أولاده جميعًا ما عدا أصغرهم وهو بنيامين شقيق يوسف، ولما وصلوا مصر دخلوا على يوسف....

فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم
بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ
أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ
فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَٰوِدُ[1] عَنْهُ
أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ[2] ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ[3] ٱجْعَلُوا بِضَٰعَتَهُمْ[4]
فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا
ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ[5] ﴿٦٣﴾
قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ[6] عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ
فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا[7] وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ[8] ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا
مَتَٰعَهُمْ[9] وَجَدُوا بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى
هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا[10] رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا

المفردات: . ﴿منكرون﴾: أى جاهلون به ولا يعرفونه.

﴿بجهازهم﴾: أصل الجهاز ما يعد من الأمتعه للتنقل والمراد هنا ما يحتاجونه من الحبوب.

﴿المنزلين﴾: هو من أنزلت الضيف عندى أى أحسنت ضيافته.

﴿لفتيانه﴾: جمع فتى والمراد عماله الكيالون.

﴿بضاعتهم﴾: المراد ما جاءوا به من الشام ليشتروا به غلالاً وكانت نعالا وجلودا وفضة.

﴿رحالهم﴾: جمع رحل وهو وعاء المتاع.

﴿انقلبوا﴾: أى رجعوا.

﴿نكتل﴾: يقال اكتال أى أخذ ما يكال كما فى الآية (٢) من سورة المطففين صفحة ٧٩٦. والمراد نكتال من الطعام ما نحتاجه.

﴿خير حافظًا﴾: حافظًا أى خير من جهة الحفظ.

﴿ما نبغى﴾: أى ما الذى نطلبه بعد هذا الإكرام:

---

(١) سنراود (٢) لفاعلون (٣) لفتيانه (٤) بضاعتهم (٥) لحافظون
(٦) آمنكم (٧) حافظا (٨) الراحمين (٩) متاعهم (١٠) بضاعتنا

﴿نمير أهلنا﴾: أى نجلب لهم من الميرة وهى الطعام الذى ينقل من بلد إلى آخر.

المعنى: ـ فلما دخلوا على يوسف يطلبون غلالاً، عرفهم على الفور وهم لم يعرفوه. يقال إنه عليه السلام لما أراد الحيلة لحضور أخيه بنيامين من حيث لا يشعرون أظهر لهم أنه يشك فى أنهم جواسيس لدولة أخرى، وإلا فما هو السبب فى مجيئهم مجتمعين بهذا العدد، فدافعوا بأنهم جميعًا إخوة لرجل واحد، بل إن لهم إخوة آخرين من زوجة أخرى.

فلما جهزهم بما يطلبون من حبوب وأعطى كل واحد حمل بعير وطعامًا يأكلونه فى الطريق، قال لهم إن كنتم صادقين فأحضروا لى فى المرة الثانية أخا من أبيكم حتى أتحقق من صدقكم، ألا ترون أنى وفيت لكم الكيل وأحسنت ضيافتكم مدة إقامتكم بمصر، فإن لم تأتونى به فلا تنتظروا منى فى المرة الثانية شيئًا، بل لا تقربوا بلادى فأمنعكم من دخولها.

ومن إتقان الحيلة أنه لم يقل بأخيكم من أبيكم، خوف أن ينتبهوا إلى أنه يعرفه. قالوا سنراود عنه أباه، أى نستميله بلطف وحيلة، وإنا لواصلون لغرضنا لشدة حاجتنا إلى الطعام. وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم التى جاءوا ليشتروا بها الطعام فى رحالهم من حيث لا يشعرون لعلهم يعرفون فضل إرجاعها لهم وإعطائهم الغلة بلا ثمن، لعلهم بعد معرفة ذلك يرجعون إلينا ثانيًا بعد علمهم كرمنا.

فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا إن عزيز مصر أمر بمنع الكيل لنا فى المستقبل إذا لم نحضر معنا أخانا بنيامين، فأرسله معنا نكتل ما نطلبه بقدر عددنا، وإنا سنحافظ عليه فى الذهاب والإياب، قال: هل يصح أن أخطئ ثانيًا وآمنكم عليه كما أخطأت عندما أمنتكم على أخيه يوسف من قبل فأضعتموه فالله خير مَنْ يحفظه لى وهو أرحم الراحمين، فأرجو أن يرحمنى بحفظه، ولا يبتلينى بفقده كما فقد أخوه.

ولما فتحوا أوعية طعامهم وجدوا فيها مع الغلة ما كانوا دفعوه من بضاعة ثمنًا للغلال. عند ذلك قالوا يا أبانا أى شىء نريده بعد هذا الإكرام الذى أكرمنا به العزيز؟ وهذه أيضًا بضاعتنا ردت إلينا تفضلاً منه، فأرسل معنا أخانا نمير أهلنا ونحفظ أخانا من كل مكروه.

وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ
مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ
بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ[1] مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾
وَقَالَ يَا بَنِيَّ[2] لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ[3] وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ[4]
مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ
إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾
وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ
مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا[5]
وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ[6] وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ[7] إِلَيْهِ أَخَاهُ
قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾
فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ

المفردات: ـ ﴿نزداد كيل بعير﴾: بزيادة عددهم بأخيهم بنيامين.

﴿كيل يسير﴾: المراد من الكيل المكيل.

﴿موثقًا﴾: عهدا مؤكدًا بالقسم بالله عليه.

﴿أن يحاط بكم﴾: أن يحيط بكم عدو فيهلككم، انظر الآية (٢٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٩.

﴿آوى إليه أخاه﴾: أى ضمه إليه.

﴿تبتئس﴾: أى يلحقنك بؤس وحزن.

﴿السقاية﴾: وعاء يسقى به ويكال به الطعام، وهو المعبر عنه فيما سيأتى بالصواع.

المعنى: ـ ونزيد ما نأتى به مقدار حمل جمل من المكيل؛ ذلك المكيل يسير حصوله بوجود أخينا معنا.

قال يعقوب: لن أرسله معكم إلا إذا أعطيتمونى عهدا تقسمون عليه بالله لترجعن بنيامين فى كل حال إلا فى حال فنائكم جميعًا.

---

(١) آتوه
(٢) يابنى
(٣) واحد
(٤) أبواب
(٥) قضاها
(٦) علمناه
(٧) آوى.

فلما أعطوه العهد قال: اعلموا أن الله رقـيب وشهيد على مـا قلـته وما قلتم، فاحذروا ما يغضبه.

وقال : يا بنى لا تدخلوا عـاصـمة العزيز من باب واحد حتى لا تحـوم حولكم الشبهة كالمرة الأولى، أو يكيد لكم الكـائدون، وما أدفع عنكم بتدبيرى هـذا من قضاء الله تعـالى شيـئًا إن أراد بـكم مكـروها، فلـيس الـقضاء فى تـدبير العالم إلا له سبحـانه وحده، له دون غـيره فوضت أمرى، وعلـيه يجب أن يعول كل متوكل بعد أخذ الأسباب العـادية.

ولما دخلوا من أبواب متفـرقة كما أمـرهم أبوهم، مـا كـان دخولهم هذا يدفع عنهم من قضاء الله شيئًا كما اعتقد يعقوب، فقد أصابهم ما أحزنهم باتهام أخيهم بالسرقة، وحجزه بمصر، وشدة المصيبة عليهم وعلى أبيهم.

لكن تلك الوصية من يعقوب كانت لحاجة تدور بخلده وهى الاحتياط لسلامة بنيامين والعودة به.

وقد حققت الوصية، ولكن قضـاء الله تعالى فوق كل تدبير، وإن يعقوب لصاحب علم خاص به وبأمثاله الأنبياء لما علمناهم بالوحى.

ولذا مع كونه احتـاط قـال لا أغنى عنكم من الله شيـئًا ولكن أكثـر الناس لا يعلمـون أن الواجب الجمع بين الاحتياط والتوكل عليه تعالى.

ولما دخلوا على يوسف فى مجلسه الخاص انتهز فرصة ضم فيها أخاه إليه وقال له سرًا أنا أخوك يوسف فلا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى؛ لأن الله قد أنجانا وجمعنا على أحسن وجه.

ولما جهز لهم طلباتهم دس هو بيده السقاية فى متاع أخيه بدون أن يشعر به أحد اتقانا للسرية...

ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ[1] ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ
عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن
جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم
مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ[2] ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا
جَزَٰٓؤُهُۥٓ[3] إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ[4] ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ[5] مَن وُجِدَ
فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ[6] كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ[7] ﴿٧٥﴾
فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ
أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ
ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ[8] مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ
كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ
أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا
لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

المفردات: ﴿أذن مؤذن﴾: أى نادى مناد.

﴿العير﴾: هى الإبل التى عليها أحمالهم، والمراد أصحابها.

﴿صواع الملك﴾: الصواع هو الصاع الذى يكال به، وهو المعبر عنه فيما تقدم بالسقاية، فيعاد الضمير عليه مذكرا ومؤنثًا وكانت من فضة.

﴿وأنا به زعيم﴾: أى كفيل وضامن، وهذا من كلام المؤذن.

﴿رحله﴾: هو وعاء المتاع كما تقدم فى الآية (٦٢) من هذه السورة صفحة ٣١٢.

﴿أوعيتهم﴾: أى رحالهم التى فيها متاعهم.

﴿كدنا ليوسف﴾أى دبرنا لصالحه تدبيرا خفيًا.

﴿فى دين الملك﴾: أى شريعته وقانونه.

﴿مكانًا﴾: أى منزلة.

﴿تصفون﴾: تكذبون كما تقدم فى الآية (١٨) من هذه السورة صفحة ٣٠٥.

---

(١) لسارقون
(٢) سارقين
(٣) جزاؤه
(٤) كاذبين
(٥، ٦) جزاؤه
(٧) الظالمين
(٨) درجات

المعنى: ـ وبعدما شرعوا فى الانصراف افتقد الفتيان السقاية التى يكيلون بها، ولما لم يكن فى المكان سوى إخوة يوسف، نادى أحد الفتيان عليهم مكررا نداءه قائلاً فيه: يا أصحاب الإبل إنكم لسارقون. قالوا وهم راجعون إلى الفتيان: ما الذى فقدتموه؟ ولم يقولوا: ما الذى سرق، مبالغة فى إبعاد شبهة السرقة عنهم، ولفتا لنظر الفتيان إلى حسن الخطاب؛ ولذا تنبه الفتيان وعدلوا عن الاتهام وقالوا: فقدنا صواع الملك الذى عليه شارة الدولة، ولمَنْ أوجده أو أرشد إلى مكانه حمل جمل من الغلال مكافأة. وقال المؤذن وأنا ضامن تسليم هذا الحمل.

قال إخوة يوسف: والله لقد علمتم من سيرتنا أثناء إقامتنا بينكم أننا ما جئنا لنفسد فى أرض مصر بالسرقة؛ لأن السرقة ليست من عادتنا.

قال الفتيان بأمر يوسف: فما جزاء سارقه إن كنتم كاذبين فى دعوى النزاهة؟ قالوا جزاء سرقته أخذ مَنْ وجد فى رحله وجعله رقيقًا، هذا هو جزاؤه عندنا فى شريعة يعقوب، وكذلك هو جزاء كل ظالم. وكانت شريعة ملك مصر أن السارق يضرب ويغرم ضعف قيمة المسروق. عند ذلك بدأ يوسف عليه السلام بمعاونة غلمانه بتفتيش أوعيتهم جميعًا مبتدئًا بأوعيتهم قبل وعاء أخيه لنفى تهمة أنهم هم الذين وضعوه فيها، فلما فتشوا وعاء أخيه أخرجها منه، فنفذ الجزاء وحجزه. وبهذا كدنا ليوسف كيدًا مثل كيدنا المعهود عنا دائمًا بالإتقان والإحكام، فحققنا له غرضه بهذا التدبير الخفى، ومنه أنه ألهم أن يستفتيهم فيفتوا بما يحقق طلبه، ولولا ذلك ما استطاع أن يأخذ أخاه؛ لأن شريعة ملك مصر تخالف ذلك كما تقدم، ولكن يوسف أخذ أخاه بمشيئة ربه وتيسيره. والله يرفع درجات مَنْ يشاء بالعلم والفضل كما رفع درجات يوسف. وفوق كل عالم من أصحاب هذه الدرجات عليم لا يدانيه أحد من خلقه وهو المولى سبحانه وتعالى. وعندما ظهرت هذه الفضيحة حاول بعضهم وهم أشدهم كراهة ليوسف وأخيه أن يبعدوها عنهم بالكذب والزور فقالوا: إن يسرق اليوم بنيامين فقد سرق أخ له من قبل، يريدون يوسف، لأنهما من أم غير أمنا ورثوا السرقة عنها، فهذا عيب قاصر عليهما لا يمسنا بسوء. فأضمر يوسف هذه التهمة فى نفسه ولم يظهر أثرها لهم فى قول أو فعل، وقال فى نفسه: أنتم شر منزلة عند الله وعند مَنْ يعرف حقيقتكم، والله وحده هو العليم بكذبكم.

قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا
مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن
نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾
فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ
فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ
يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا
عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى
كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾
قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى
ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

المفردات: . ﴿استيئسوا﴾: أى يئسوا يأسا شديدًا.

﴿خلصوا﴾: أى صاروا خالصين من غيرهم وانفردوا بأنفسهم بعيدا عن الناس.

﴿نجيًا﴾: أصله مصدر كالتناجى وهو التخاطب سرا وأطلقوه على المتناجى مبالغة، فالنجى هو الذى يخاطب غيره سرا، يقال للواحد والجمع، انظر مع ما هنا الآية (٥٢) من سورة مريم صفحة ٤٠١ .

﴿موثقًا﴾: أى عهدا مؤكدا بالحلف بالله.

﴿ما فرطتم فى يوسف﴾: أى تفريطكم فيه.

﴿لن أبرح الأرض﴾: أى لن أفارق أرض مصر.

﴿وما كنا للغيب حافظين﴾: وما كنا عالمين بما سيكون مما غاب عنا.

﴿واسأل القرية﴾: أى اسأل أهل القرية وهى مصر.

﴿سولت لكم أنفسكم﴾: أى زينت وسهلت.

---

(١) نراك
(٢) متاعنا
(٣) لظالمون
(٤) استيأسوا
(٥) الحاكمين
(٦) حافظين
(٧) واسأل
(٨) لصادقون.

المعنى: . فلما ثبت لديهم أن بنيامين مدين، قالوا: يأيها العزيز إن له أبا شيخًا كبيرًا فى السن يحزنه فراقه، فخذ أحدنا بدله حتى ترحم بإحسانك هذا الشيخ الكبير، إنا نراك من المحسنين.

قال يوسف: نعوذ بالله أن نأخذ بريئًا، فلا نأخذ إلا مَنْ وجدنا صواعنا عنده لأنا إذا أخذنا البرىء نكون من الظالمين.

فلما استحكم يأسهم من تخليصه اعتزلوا الناس متناجين بالتشاور فيما يقولون لأبيهم؛ قال كبيرهم عقلاً ورأيًا ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهدًا مؤكدا لتردن بنيامين إليه؟ وألم تعلموا أيضًا تفريطكم فى يوسف قبل ذلك بعد تأكيد المحافظة عليه؟ فلن أفارق أرض مصر حتى يأذن لى أبى بالرجوع إليه، أو يحكم الله لى بأمر من عنده مما هو غائب عنى ولو بالموت، وهو سبحانه خير الحاكمين، لا يحكم إلا بالعدل، فارجعوا أنتم إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق صواع الملك فأخذه رقيقا وزيره العزيز.

وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بعلمنا ذلك، وما كنا عندما أعطيناك العهد بحافظين للغيب حتى نعلم أنه سيسرق فلا نعطى عهدًا. واسأل أهل مصر الذين كنا عندهم، وأهل الجمال الذين كانوا هناك وأقبلوا معنا، وإنا لصادقون بما نقول لك.

فرجع الإخوة وقالوا ما وصاهم به كبيرهم. فقال يعقوب: لستم صادقين فيما تقولون، بل زينت لكم أنفسكم كيدًا آخر فنفذتموه كما سولت فى أخيه من قبل، وما فعلوه فى يوسف من دعوى أكل الذئب هو الذى حمله على سوء الظن بهم، وإن كانوا فى الواقع صادقين هنا كاذبين هناك.

لكن مَنْ له سابقة كذب يسهل لغيره اتهامه. فصبر جميل أليق بى كما تقدم، عسى الله أن يأتينى بيوسف وأخيه، أنه هو العليم بحالى وضعفى، الحكيم فيما يبتلى به عباده وفيما يدفع به البلاء. وإنما حمله على ترجى رجوعهما علمه بصدق رؤيا يوسف، ولأن الشدة إذا بلغت غايتها يعقبها الفرج.

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ
مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟[1] تَذْكُرُ يُوسُفَ
حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ[2] ﴿٨٥﴾ قَالَ
إِنَّمَآ أَشْكُوا۟[3] بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ[4] ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ
وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟[5] مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ[6] مِن
رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ[7] ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ
قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ[8]
مُّزْجَىٰةٍ[9] فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ
يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ
وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ[10] ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ
قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن

المفردات: . ﴿يا أسفى﴾: الأسف شدة الحزن على ما فات، وقد تقدم أن مثل هذا التركيب يراد به إظهار التحسر.

﴿كظيم﴾: شديد كظم غيظه لا يشكو لمخلوق.

﴿تفتأ﴾: معناه تزال، وحذف حرف النفى معها قياسى، والأصل لاتزال.

﴿حرضًا﴾: أصله مصدر حرض بكسر الراء كطرب أى قرب من الهلاك، وأريد به اسم الفاعل، أى القريب من الهلاك.

﴿بثى﴾: البث فى الأصل تفريق الشيء، ومنه بثت الريح التراب، ويطلق على الشيء المبثوث المنتشر، وأريد به هنا الغم.

﴿وحزنى﴾: الحزن ألم فى النفس ينشأ من شدة الغم.

﴿فتحسسوا﴾: أى ابحثوا واطلبوا معرفة خبر ه ن أخبار يوسف.

﴿روح الله﴾: فرجه ورحمته.

﴿الضر﴾: الضعف من شدة الجوع.

---

(١) تفتأ — (٢) الهالكين
(٣) أشكو — (٤) يابنى
(٥) تيئسوا — (٦) ييئس
(٧) الكافرون — (٨) ببضاعة
(٩) مزجاة — (١٠) جاهلون.

﴿مزجاة﴾: رديئة يدفعها كل واحد عن نفسه لرداءتها، انظر الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥ .

المعنى: . وانصرف يعقوب عنهم، وتذكر يوسف عند هذه المصيبة، وأعلن حسرته من عدم وجوده فى هذه الساعة ليسارع إلى خلاص أخيه وإرجاعه إليه، واشتد عليه الحزن والبكاء حتى اضطربت أعصابه وغطت عينيه غشاوة جعلته لا يكاد يبصر، وقد ساعد ذلك أنه كظيم لغيظه، ولم يفرج عن نفسه بالشكاية منه.

قالوا والله لاتزال تذكر يوسف وتتفجع عليه حتى يذيبك الحزن ويضعفك أو تهلك نهائيًا.

قال: لا أشكو غمى المبعثر حولى من كل جانب وحزنى إلاّ إلى الله؛ لأنى أعلم من لطفه ورحمته ما لاتعلمون فأرجو أن يرحمنى ويلطف بى.

يا بنى اذهبوا فتعرفوا شيئًا من أخبار يوسف وأخيه، ولا تيئسوا من رحمة الله لأنه لا ييئس منها إلا الكافرون لجهلهم بسعة رحمته سبحانه. فلما سمعوا وصية أبيهم سافر بعضهم إلى مصر ليبحث ويجلب قوتًا، فلما دخلوا على يوسف قالوا يأيها العزيز أهلكنا الجوع وجئنا نطلب غلة بثمن ردىء، فأوف لنا الكيل تفضلا منك ولا تنقصه لرداءة الثمن، وتصدق علينا بقبول بضاعتنا الرديئة.

قال يوسف منبهًا لهم لخطئهم: هل علمتم الآن قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه حين كنتم فى جهالة وطيش، أم مازال الجهل مخيما عليكم؟ وما فعلوه بأخيه هو سوء معاملته، وجفاؤهم له، وإشعاره بأنه مكروه منهم، حتى كان يشعر أنه ذليل بينهم؛ وهذا تحقيق لما وعده الله به فى الآية (١٥) من هذه السورة صفحة ٣٠٤ .

فلما سمعوا ذلك وكان ما فعلوه بيوسف تقادم عليه العهد لا يعلمه أحد تفرسوا فى القائل فعرفوه، فقالوا نقسم إنك أنت يوسف. قال: حقًا أنا يوسف، وهذا أخى الذى فرقتم بينى وبينه، قد مَنّ الله علينا بما ترون.

يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾
قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ[1] ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ[2] ﴿٩١﴾
قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ
أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ[3] ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ
وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾
وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ
لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ[4]
ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ[5] عَلَىٰ وَجْهِهِۦ
فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا
كُنَّا خَٰطِـِٔينَ[6] ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ[7]

المفردات: . ﴿آثرك الله﴾: أى اختارك وفضلك.

﴿لاتثريب﴾: يقال ثرب فلان على فلان بتشديد الراء إذا عدد عليه ذنوبه، والمراد هنا لا لوم ولا تأنيب.

﴿فصلت العير﴾: يقال فصل عن البلد إذا انفصل عن حيطانه مفارقًا له. والعير تقدم بيانها.

﴿تفندون﴾: تنسبوننى إلى الفند بفتحتين وهو الكذب وفساد الرأى وضعف العقل.

﴿فى ضلالك القديم﴾: فى خطئك الذى قلناه سابقًا عنك، انظر الآية (٨) من هذه السورة صفحة ٣٠٣ .

﴿آوى﴾ . أى ضمهما وعانقهما.

المعنى: . قد تفضل سبحانه علينا بكرمه لأن من اتقاه بالبعد عن معاصيه، وصبر على الشدائد ثقة بعدله، لا يضيع له أجر؛ لأنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عمله بالإخلاص فيه.

---

(١) آثرك
(٢) لخاطئين
(٣) الراحمين
(٤) ضلالك
(٥) ألقاه
(٦) خاطئين
(٧) آوى.

قالوا والله لقد فضلك الله علينا بالحلم والتقوى، وما كنا فيما فعلنا إلا متعمدين الخطيئة.

فلما أعلنوا خطأهم قال لن أوبخكم أبدا، ولكن لكم عندى صفح وعفو، وأرجو أن يغفر الله لكم؛ لأنه أرحم الراحمين لمن تاب من خطيئته.

وكان قد علم أن شدة الحزن أثرت فى نظر أبيه، وأن السرور يعيده كما كان، قال لإخوته: خذوا قميصى هذا الذى كنت ألبسه على بدنى واذهبوا به إلى الشام واطرحوه على وجه أبى فإنه يرجع بصيرًا وبعد ذلك ائتونى بأهلكم كلهم من الرجال والنساء والذرارى.

وقد روى أنهم عند دخولهم مصر كانوا سبعين رجلاً وامرأة وخرجوا مع موسى فى نحو سبعمائة ألف فلما انفصلت الجمال التى كان يركبها إخوة يوسف عن بنيان مصر قال يعقوب لمِنْ بقى معه من أولاده وأحفاده: إنى لأشم ريح يوسف لولا أن تنسبونى إلى ضعف العقل لصدقتمونى. وهذا سر من أسرار الأرواح الطاهرة لا يعرفه إلا مَنْ منَّ الله عليه بنور البصيرة.

قالوا تالله إنك لفى خطئك القديم من إفراطك فى حب يوسف فلما وصل البشير يحمل ثوب يوسف وألقاه على وجه يعقوب رجع بصيرًا كما كان.

قال لمِنْ عنده: ألم أقل لكم إنى أعلم من علم الله ورحمته مالا تعلمون، انظر الآية (٨٦) من هذه السورة صفحة ٣١٦ .

قالوا جميعًا يا أبانا اطلب من الله أن يغفر لنا ذنوبنا التى ارتكبناها فى حقك وحق إخوتنا، إنا كنا فيما مضى خاطئين، ولأنا تبنا إلى الله.

فلم يسرع يعقوب إلى الاستغفار، ليشعرهم أن جرمهم كان عظيمًا، وليزداد خوفهم من الله حتى تطهر قلوبهم تمامًا. لذا قال: سوف استغفر لكم ربى فى المستقبل. إنه واسع المغفرة والرحمة لمَنْ يحسن التوبة.

ثم بعد ذلك تجهزوا جميعًا للسفر إلى مصر حسب طلب يوسف، فلما دخلوا على يوسف...

إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ[1] (٩٩)
وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ[2]
هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ[3] مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ
أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ
ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ[4] بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ
رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (١٠٠)
۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى[5] مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ
ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[6] وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ[7] فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ[8] (١٠١) ذَٰلِكَ
مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟
أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ
بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ[9] عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

المفردات: . ﴿العرش﴾: المكان الذى يجلس عليه لإدارة شئون الدولة.

﴿خروا له سجدا﴾: أى هبطوا برءوسهم نحو الأرض تعظيمًا له لا عبادة وكان ذلك هو تحية الملوك والعظماء فى عهدهم؛ ولكن الإسلام حرمه وجعله كفرا إذا قصد به التقرب.

﴿البدو﴾: البادية التى يعيش أهلها على الترحال وراء المرعى.

﴿نزغ الشيطان﴾: أصل النزغ نخس الفرس بالحديد لتجرى، ثم استعمل فى وسوسة الشيطان.

﴿لطيف لما يشاء﴾: يقال لطف بضم الطاء لطافة أى دق وصغر حتى خفى عن الأنظار، فهو لطيف، ضد كثيف، ثم استعمل فى التدبير الخفى السهل النفاذ. فاللطيف هو المدبر للأمور بدقة المسهل لصعابها.

﴿الملك﴾: المراد التصرف فى أمور مصر بلا منازع ﴿فاطر السموات والأرض﴾: موجدهما لا على مثال سابق. ﴿أجمعوا أمرهم﴾: جمعوا كلمتهم على إلقاء يوسف فى الجب.

---

(١) آمنين
(٢) يا أبت
(٣) رؤياى
(٤) الشيطان
(٥) آتيتنى
(٦) السموات
(٧) وليى
(٨) بالصالحين
(٩) تسألهم

المعنى: . فلما دخلوا على يوسف فى المكان الذى أعده لاستقبالهم خارج مصر، ضم إليه أبويه وعانقهما، وقال لهما ولإخوته ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين على أنفسكم وأنعامكم من الجوع والهلاك وبعدما وصل مصر جلس على العرش ورفع أبويه عليه تكريما لهما، وسجدوا جميعًا الأحد عشر بما فيهم بنيامين، تحية له، وكانت بدل المصافحة، وقال يوسف يا أبت هذا السجود منكم هو تفسير رؤياى التى أخبرتك بها من قبل، وهى فى الآية (٤) من هذه السورة صفحة ٣٠٣، قد جعلها ربى حقيقة واقعة وقد شملنى ربى بإحسانه حين أخرجنى من السجن الذى ترتب عليه وصولى أعلى المراتب، وتفضل علىّ لما جاء بكم من البادية القاحلة إلى الحضر الخصيب؛ فعل ربى كل هذا بعد أن أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى، إن ربى محكم التدبير لما يشاء إنفاذه، إنه هو العليم بمصالح عباده وطرق تحقيقها، الحكيم الذى يضع كل شىء فى محله.

ومن حسن أدبه عليه السلام أنه لم يتعرض لخروجه من الجب لئلا يؤلم إخوته، وجعل أثر الشيطان مشتركًا بينه وبين إخوته،مع أنه خاص بهم، تلطفًا بهم، فما أروع هذا الأدب النبوى. وبعد ذلك اتجه يوسف إلى ربه معددًا نعمه عليه طالبًا حسن الخاتمة، فقال: يا رب قد أعطيتنى التصرف فى ملك مصر، وعلمتنى بعض العلوم التى أعرف بها مآل الأمور وتعبير الرؤيا على الوجه الصواب، يا مبدع السموات والأرض، أنت متولى أمورى فى الدنيا والآخرة، اقبضنى إليك على الإسلام تحقيقًا لوصية جدى إبراهيم فى الآية (١٣٢) من سورة البقرة صفحة ٢٥، وألحقنى بزمرة الصالحين من عبادك. وبعدما فرغ سبحانه من قصة يوسف أراد أن ينبه الكفار إلى وجه دلالتها على صدق رسوله، فقال سبحانه مخاطبًا نبيه ﷺ: ذلك القصص الذى قصصناه عليك بالحق من أخبار الغيب التى ما كنت تعلمها، أوحيناها إليك لأنك ما كنت يا محمد حاضرًا عندهم حين عزموا أمرهم على رمى يوسف فى الجب، وهم فى عملهم هذا يمكرون بيوسف، ويطلبون له الهلاك؛ ومع هذه الأدلة فإن الذى يؤمن بك من قومك قليل؛ لأن أكثر الناس مهما حرصت على إيمانهم لا يؤمنون لغلبة العناد عليهم، وقومك لا يؤمنون بك مع إنك لا تسألهم أجرًا على تبليغك رسالة ربك بما فى هذا القرآن، ففائدته عائدة عليهم لأنه تذكير لكل الناس وإرشاد....

لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم
بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ
عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾
قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ
ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ
أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ
ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ
قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا
عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ

المفردات: . ﴿كأين﴾: أى كثير. ﴿من آية﴾: أى دليل على وجود صانع عليم قادر.

﴿غاشية﴾: أى عقوبة تغشاهم وتعمهم.

﴿على بصيرة﴾: أى على يقين ناتج عن برهان.

﴿استيئس الرسل﴾: اشتد يأسهم.

﴿ظنوا﴾: توهموا.

﴿كذبوا﴾: أى كذبت عليهم أنفسهم حين أوهمتهم أن نصرهم سريع الوقوع، أو توهموا أن أممهم يكذبون عليهم فى إظهار الإيمان بهم؛ لأن تأخير ما وعدوهم به من هلاك الكافرين لم يحصل، فأورثهم ذلك شكا فى إيمان قومهم، وقد يكون كل ذلك كناية عن المبالغة فى تراخى النصر حتى تبلبلت النفوس، انظر الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢ .

﴿بأسنا﴾: أى عقابنا وعذابنا.

المعنى: . وما القرآن وما فيه من القصص إلا تذكير وعظة لجميع العالم. بعدما ذكر سبحانه أن أكثر الناس لا يؤمنون مهما حرص ﷺ على إيمانهم، أراد أن يبين سبب ذلك، وأنه

---

(١) للعالمين
(٢) السموات
(٣) غاشية
(٤) أدعو
(٥) وسبحان
(٦) عاقبة
(٧) استيأس.

الغفلة عن التفكير فى آيات الله فى الكون، فقال: وكثير من أدلة وجوده سبحانه وصدق رسله يمرون عليها وهم معرضون لا يفكرون فيها ولا يعتبرون، ولا يغرنك زعمهم أنهم مؤمنون بالله كما فى الآية (٨٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٥، والآية (٦١) وما بعدها من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩؛ لأنهم أفسدوا إيمانهم هذا بإشراك معبوداتهم وأحبارهم ورهبانهم مع الله فى الخضوع لهم والتوسل بهم إلى الله كما فى الآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥ ، ٦٠٦، فكيف يطمئن ضمير هؤلاء المشركين؟ فهل أمنوا من أن تأتيهم عقوبة تعمهم، أو تأتيهم الساعة فجأة فلا يستطيعون الرجوع من الشرك فيخلدوا فى النار. قل أيها النبى للناس هذه الشريعة هى طريقى إلى النجاة، أدعو إليها عن بينة أنا ومَنْ اتبعنى وصدق بى، وأنا وهم بريئون من شرك المشركين. ولما كان مما منع المشركين من الإيمان زعمهم أن الله تعالى لا يرسل بشرًا كما تقدم فى الآية (٩١) من سورة الأنعام صفحة ١٧٧، والآية (١٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣١، رد سبحانه عليهم بقوله ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا﴾ لا ملائكة كما يزعمون، نوحى إليهم ما نريد تبليغه للخلق، واخترناهم من أهل القرى أى الأمصار دون البوادى ليتبعهم سائر البلدان، ولأن أهل القرى أحلم وأعلم وأحسن سياسة، وأنت أيها النبى مثلهم كما فى الآية (٩) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧، أفلم يسر هؤلاء المشركون فى الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة المكذبين من قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم فيرجعوا إلى الحق فيفوزوا بالنعيم الدائم بدل هذا الزائل.

ووالله لنعيم الدار الآخرة خير للذين اتقوا الشرك والمعاصى. أجهلتم كل هذا فلا تعقلون أن النعيم الدائم خير، فتنبهوا، ولا يغرنكم ما أنتم فيه من الرخاء وتأخير العقاب، فإن مَنْ قبلكم من الأمم الذين كذبوا رسلهمس امهلوا أكثر مما أمهلتم كقوم نوح مثلا حتى إذا يئس الرسل من نصرهم عليهم وتوهموا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فجأة بإهلاك أعدائهم ونجاة مَنْ شاء الله نجاتهم من الأنبياء ومَنْ آمن معهم.

وهذه سنتنا، فلا يستطيع مخلوق رد عقابنا عن المجرمين لقد كان فى قصص الأنبياء مع أممهم ومنها قصة يوسف عبرة.....

عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(١) مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

(١٣) سُورَةُ الرَّعْدِ مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا ثَلَاثٌ وَأَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓر(٢) تِلْكَ آيَاتُ(٣) الْكِتَابِ(٤) وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ
مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾
اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ
عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ
مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ(٥) لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ

المفردات: ﴿بين يديه﴾: أى تقدم عليه من الكتب.

سورة الرعد

المفردات: ﴿المر﴾: تقدم الكلام على مثل هذه الحروف أول سورة البقرة.

﴿رفع السموات﴾: أى خلقها مرفوعة كما تقول سبحان من كبر الفيل وصغر البعوض أى خلقه كذلك.

﴿عمد﴾: هو ما يعتمد عليه، اسم جمع أو جمع واحده عماد بكسر أوله، انظر الآية (٧) من سورة الفجر صفحة ٨٠٦.

﴿استوى على العرش﴾: تقدم بيانه فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١.

﴿أجل مسمى﴾: هو قيام الساعة.

المعنى: فى سيرة هؤلاء الأنبياء مع أممهم عبرة يتعظ بها أصحاب العقول الخالصة من ظلمة الشرك. ما كان هذا القرآن وما فيه من القصص حديثا مكذوبا على الله على ما يزعم الكافرون. ولكنه كان تصديقا لما تقدمه من الكتب السماوية، أى لما فيها من الحق لا ما زادوه فيها من الخرافات والأباطيل ومفصلا لكل شىء يحتاج إليه المؤمن فى عقيدته وفى أعماله وهاديا من الضلال، وسبب رحمة فى الدارين لمن اتبعه من المؤمنين. والله أعلم.

المعنى: تلك الآيات من هذه السورة هى بعض آيات الكتاب المعجز للإنس والجن، وكل القرآن الذى أنزل إليك من ربك هو الحق الذى لا شك فيه، ولكن أكثر الناس لا ينتفعون به فلا يؤمنون لإغفالهم النظر والتأمل فيما حواه من العلوم والمعارف التى ما كان يعلمها أحد قبل نزوله. ثم أراد سبحانه أن يقيم الدليل على وجوده وقدرته تنبيها للغافلين فقال ﴿الله الذى رفع السموات﴾ إلخ، الله هو الذى خلق السموات مرفوعة بلا عماد تعتمد عليه وأنتم ترونها كذلك فلا يمسكها أن تقع على الأرض إلا هو، انظر الآية (٦٥) من سورة الحج صفحتى ٤٤٢،

---

(١) الألباب (٢) الف لام ميم. (٣) آيات. (٤) الكتاب. (٥) الآيات.

رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا
رَوَاسِيَ[1] وَأَنْهَارًا[2] وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ[3] جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ
اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ[4] النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ[5] لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ[6] وَجَنَّاتٌ[7]
مِّنْ أَعْنَابٍ[8] وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ
وَاحِدٍ[9] وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَاتٍ[10] لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ * وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ
قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا[11] أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ[12] فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ[13] النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[14] ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ
بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ[15]
وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ

٤٤٣)، ثم استوى على عرش ملكه استواء يليق به تعالى، وذلل الشمس والقمر وجعلهما طائعين لما أريد منهما، كل منهما يجرى فى منازله بنظام محكم إلى قيام الساعة، يدبر أمر ملكه على أحكم وجه، ويخلق دلائل وجوده مفصله واضحة لكى تتفكروا فيها لعلكم تعلمون أن من قدر على هذا الصنع الدقيق قادر على إعادة الموتى للحساب والجزاء.

المفردات: ﴿مد الأرض﴾: أى جعلها ممتدة طولا وعرضا ليمكن زرعها والانتفاع بها. انظر الآية (١٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٥.

﴿رواسى﴾: جمع راسية، والتاء للمبالغة فى الثبوت كما يقال فلان طاغية.

﴿زوجين اثنين﴾: أى ذكرا وأنثى، والزوج يطلق على الواحد الذى له مقارن كما تقدم فى الآية (١٤٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٧. ﴿يغشى الليل النهار﴾: أى يجعل الليل غشاء للنهار فيصير مظلما. ﴿صنوان﴾: الصنوان هو نخلات أصلها واحد. ﴿الأكل﴾: هو ما يؤكل كما فى الاية (٢٦٥) من سورة البقرة صفحة ٥٦، والآية (١٤١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٦.

﴿الأغلال﴾: جمع غل بضم أوله وهو طوق من حديد طرفاه فى اليدين ويلتف حول العنق.

﴿خلت﴾: مضت. ﴿المثلات﴾: جمع مثلة بفتح فضم، وهى العقوبة التى تماثل الذنب كما فى الآية (٤٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤٤.

---

(١) رواسى. (٢) وأنهارا. (٣) الثمرات. (٤) الليل. (٥) لآيات.
(٦) متجاورات. (٧) وجنات. (٨) أعناب. (٩) واحد.. (١٠) لآيات.
(١١) ترابا. (١٢) الأغلال. (١٣) أصحاب. (١٤) خالدون. (١٥) المثلات.

المعنى: نصبنا لهم البراهين لعلهم يوقنون أى يعلمون علما قاطعا بلقاء ربهم فى الأخرة فيخافون ولا يفسدون فى الأرض. وبعد ما بين سبحانه الدلائل السماوية أراد أن يبين الدلائل الأرضية فقال: وهو الذى مد الأرض ليمكن الاستقرار عليها وجعل فيها جبالا ثابتة لا تتزحزح لتحفظ الأرض من التصدع والاضطراب كما فى الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧، والآية (٧) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧، وجعل فيها أنهارا لمنافع الإنسان والحيوان، وجعل فيها من كل أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكرا وأنثى، وهذا من إعجاز القرآن الذى جاء به نبى أمي فى وقت لم يكن فى العالم كله من يعلم ذلك. ومن قدرته تعالى أنه يذهب ضوء النهار بظلمة الليل والعكس كما فى الآية (٥) من سورة الزمر صفحة ٦٠٦، وإنما اقتصر هنا على ما ذكر لأن المقام للتخويف بقيام الساعة وهى تكون بتكوير الشمس وذهاب ضوئها. إن فيما ذكر من بديع خلق الله لأدلة وبراهين لقوم يتفكرون فيعرفون الحق. ومن أدلة قدرة الله سبحانه تلك الأرض التى ترونها أمامكم وفيها قطع متجاورة مختلفة، فبعضها سبخ لا ينبت، والآخر خصب ينبت كل شيء وبعضها رخو وبعضها صلب أو متحجر، ولولا تخصيص قادر حكيم لكانت على صفة واحدة، وفى الأرض جنات من أشجار الكرم وزرع من كل نوع، وفيها نخيل بعضه جذعه واحد له عدة خلفات، وبعضه منفرد فى أصله وفرعه، يسقى جميع ما تقدم بماء واحد لا يختلف طعمه، ومع ذلك نفضل بمحض القدرة بعضها على بعض فى ثمراتها شكلا وقدرا ورائحة وطعما. إن فى ذلك الصنع العجيب لأدلة قاطعة على وجود صانع لقومك يستعملون عقولهم.. وبعد ما ثبت الحق بكل هذه الأدلة أراد سبحانه أن يوبخ من أعرض عنها واستمر على جحوده للحق فقال: ﴿وإن تعجب﴾ إلخ، أى وإن تعجب أيها السامع من إنكارهم الحق فأجدر بالعجب قولهم منكرين البعث بتكرار التعجب منه: هل إذا صرنا ترابا هل نرجع إلى خلق جديد، لأن من قدر على الإنشاء من العدم قادر على الإعادة بل هى أسهل كما فى الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤. هؤلاء هم الذين كفروا بربهم مع وضوح أدلة وجوده ووحدانيته وهم الذين سيسحبون إلى جهنم والأغلال فى أعناقهم، أنظر الآية (٧١) من سورة غافر صفحة ٦٢٧، وآيات (٣٠، ٣١، ٣٢) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣، وهم الملازمون للنار خالدين فيها. وبعد ما ذكر إنكارهم لعذاب الآخرة أراد أن يبين جرأتهم على إنكار عذاب الدنيا أيضا الذى هددهم به الرسول ﷺ فقال: ويستعجلونك بالعقوبة السيئة التى هددوا بها إذا

لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ
ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾
ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ
وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ
ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن
جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾
لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ
أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ
وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن
دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ
وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا

استمروا على كفرهم قبل العافية من العذاب بالإيمان، انظر الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، يستعجلونك بذلك مستهزئين، والحال أنه مضت ووقعت فى الأمم قبلهم العقوبات لأنهم عملوا مثلهم، فكان حقهم أن يعتبروا وينزجروا. وبعد ما هددهم لعلهم يرجعون فتح أمامهم باب الأمل لئلا يوقعهم الشيطان فى اليأس، فقال: وإن ربك أيها النبى لذو صفح وعفو لمن تاب من خلقه مع ظلمه السابق، وإنه لشديد العقاب لمن استمر على عناده ولم يسارع إلى التوبة.

المفردات: ﴿لولا﴾: حرف يدل على طلب

﴿تغيض﴾: يقال غاض الماء أى ذهب وغاضه غيره أذهبه فهو فعل لازم ومتعد، وما هنا متعد، أى تذهب منه شيئا من أجزائه أو زمنه المعتاد، والمراد ينقص فيها.

﴿وماتزداد﴾: أى وما تزيده فهو متعد أيضا كما فى الآية (٦٥) من سورة يوسف صفحتى ٣١٢، ٣١٣، والآية (٢٥) من سورة الكهف صفحة ٣٨٤.

﴿الكبير﴾: العظيم الشأن الذى كل شىء دونه. ﴿المتعال﴾: المستعلى على كل شىء بقدرته.

﴿سارب﴾: أى بارز فى سيره.

﴿معقبات﴾: جمع معقبة، والمراد الجماعة من الملائكة يعقب بعضها بعضا فى الحفظ. انظر الآية (٤) من سورة الطارق صفحة ٨٠٢.

---

(١) عالم. (٢) والشهادة. (٣) بالليل.
(٤) معقبات. (٥) والملائكة. (٦) الصواعق.

﴿من أمر الله﴾: من بمعنى الباء أى بأمر الله.

﴿وال﴾: أى متولى أمورهم يجلب لهم الخير ويدفع الشر.

﴿يسبح الرعد بحمده﴾: المراد أن صوت الرعد يدل على خضوعه وتنزيهه له سبحانه وعلى استحقاقه لكل حمد، انظر الآية (٤٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٠.

﴿الصواعق﴾: تقدمت فى الآية (١٩) من سورة البقرة صفحة ٥.

المعنى: بعد ما ذكر سبحانه طعنهم فيه ﷺ لأنه يقول بالبعث، ولأنه توعدهم بعذاب، أراد أن يذكر طعنا آخر لأنه لم يأتهم بمعجزة كمعجزات الأنبياء قبله، فقال: ويقول الذين كفروا تعنتا: هلا يأتينا بمعجزة كعصا موسى، أنظر الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والآية (٤٨) من القصص صفحتى ٥١٣، ٥١٤، أو كمعجزات عيسى، أو مثل ما طلبناه منه فى الآيات (٩٠) وما بعدها من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦ وما بعدها، ورد سبحانه عليهم فى مواضع أخرى بما تراه فى الآية (٥٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٢، والآية (٥١) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨، فلما كان ﷺ لشدة رغبته فى هدايتهم يحدث نفسه بالميل إلى إجابة طلباتهم، قال له ربه عز وجل العليم بنياتهم: إنما أنت منذر، أى أن مهمتك التى بعثت لها هى تخويف الناس من عاقبة عصيان ربهم، وليس فى قدرتك الإتيان بالمعجزات. ومن حكمته تعالى أنه جعل لكل أمة من الأمم السابقة نبيا يهديهم مؤيدا بمعجزة تليق بزمانهم، وأنت بإعطائك القرآن وهو المعجزة الخالدة بخلود الدنيا تتحدى كل عالم على وجه الأرض، انظر الآية (٥١) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨. ثم أراد سبحانه أن يقيم لهم أدلة أخرى على كمال علمه بأحوال خلقه وقدرته على كل شىء تنبيها على أنه قادر على إنزال ما يقترحون لو علم صدقهم فى قولهم ولكنه يعلم أنهم مكابرون، فلم يجبهم إلى تلاعبهم، أنظر آيات (٧، ٣٣، ٣٨) من سورة الأنعام صفحات ١٦٣، ١٦٧، ١٦٨، فقال: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ من إنسان أو حيوان، أى يعلم أحواله وهو فى رحم أمه من ذكر أو أنثى، واحد أو متعدد، شقى أو سعيد.

أبيض أو أسود، إلى غير ذلك مما لا يحصى من أحواله، ويعلم ما ينقص من الجنين فى الأرحام من جسده أو مدة حمله، وما يزيد من ذلك، وكل شىء فى الوجود خلقه بمقدار محدد لا يتعداه، أنظر الآية (٤٩) من سورة القمر. الله سبحانه هو الذى يستوى عنده علم ما غاب عنا وما حضر، وهو العظيم الشأن المستعلى على كل شىء. ثم دلل على ذلك بقوله ﴿سواء منكم﴾ إلخ؛ أى يستوى فى علمه إسراركم القول والجهر به، ويستوى فى علمه عمل من هو مبالغ فى الاختفاء فى ظلام الليل ومن هو ظاهر ماش فى بياض النهار، لكل واحد من هؤلاء ملائكة تتعاقب على حفظه من أمامه ومن خلفه، يحفظونه من كل ما قدر سبحانه عدم إصابته به، وهذا الحفظ صادر بأمر الله سبحانه. ثم أراد سبحانه أن يؤيد ما سبق ببيان حكم عام هو أنه سبحانه لا يغير حال أمة من عز إلى شقاء وبالعكس إلا إذا غيروا ما هم عليه، أى فلا مطمع فى هداية كفار مكة إلا إذا أصلحوا أنفسهم وتركوا العناد وتقليد الآباء، وإذا أراد الله بقوم سوءًا لإصرارهم على المعاصى فلا راد لما أراد، وليس لهم من يواليهم وينصرهم بإبعاد العذاب عنهم.. والله هو الذى يريكم البرق الذى يتقدم المطر عادة ليخيف من يضره المطر ويطمع فى الخير من ينفعه، وينشىء السحاب الثقال بالماء الكثير. يسبح الرعد أى ينزه ربه تنزيها مقارنا لحمده سبحانه. وفى الآية (٤٤) من سورة الإسراء صفحة ٢٧٠ ما يفيد أن السموات والأرض ومن فيهن كلها تسبح ولكنا لا نفقه كيف تسبح،. والذى نفهمه أنها خاضعة لسلطانه، مسخرة فيما خلقت له، منادية بوجود صانع حكيم، وتسبح الملائكة من هيبته تعالى إجلالا له، ويرسل سبحانه الصواعق ليصيب بنارها من يشاء إصابته بها فيهلكه.

المفردات: ﴿يجادلون فى الله﴾: أى يجادلون فى صفات الله كالقدرة على البعث والحساب فينكرون ذلك.

﴿المحال﴾: أى المماحلة والمكايدة، يقال محل فلان بفلان إذا كاده ومكر به، فالمراد شديد الكيد لأعدائه.

مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾
لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ
لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ
بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾
وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا
وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ
لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى
ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ
أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ
قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا

﴿وما دعاء الكافرين إلخ﴾ المراد هنا دعاؤهم لأصنامهم فإنه هو الذى لا يجاب لأنها لا تستطيعه كما فى الآية (١٩٤) إلى الآية (١٩٨) من سورة الأعراف صفحتى ٢٢٤، ٢٢٥. أما دعاؤهم له سبحانه وتعالى فإنه قد يستجيبه لهم أنظر الآية (٢٢) وما بعدها من سورة يونس صفحة ٢٦٩، ويصح أيضا أن يقال أن دعاء الكافر ضائع غير نافع فى دفع الخلود فى النار، وهذا لا يمنع أنه قد ينفع فى غير ذلك.

﴿الغدو﴾: واحدها غداة وهى أول النهار.

﴿الآصال﴾: واحدها أصيل وهو ما بين العصر والمغرب. ﴿اودية﴾: واحدها واد وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء. ﴿بقدرها﴾: أى بمقدارها. ﴿أحتمل﴾: أى حمل.

﴿زبدا﴾: هو ما يعلو وجه الماء عند زيادته كالرغوة وغيرها.

المعنى: قدمنا كل هذه البراهين، ومع ذلك يجادل الكافرون فى صفاته تعالى، وينكرون وحدته وقدرته على البعث يوم القيامة، والله سبحانه لا يغلبه مخلوق لأنه شديد الكيد لأعدائه، له سبحانه وحده الدعوة الصحيحة الثابتة الواقعة فى محلها لأنه لا يجيب الدعاء

---

(١) يجادلون. (٢) كباسط.
(٣) ببالغه. (٤) الكافرين.
(٥) ضلال. (٦) وظلالهم.
(٧) والآصال. (٨) الظلمات.
(٩) فتشابه. (١٠) خالق.
(١١) الواحد. (١٢) القهار.

غيره، أما الذين يدعوهم المشركون غيره فإن دعاءهم لهم ذاهب فى الهواء لأنهم لا يستجيبون بشىء من طلبات الداعين إلا كاستجابة الماء لمن يبسط كفيه له من بعيد، ويطلب منه أن يصل إلى فمه، وليس الماء بواصل فمه أبدا، لأنه جماد لا يشعر بعطش الطالب ولا يسمع دعاءه.

وإذا كان الأمر كذلك فما دعاء الكافرين لمعبوداتهم إلا فى ضلال وضياع وانحراف عن طريق الصواب. وكيف يكون لغيره سبحانه قدرة على إجابة دعاء مع أن كل شىء فى السموات والأرض خاضع لعظمته منقاد لإرادته حتى ظلال من له ظل منها فإنها خاضعة أيضا تبعا لخضوع صاحبها فى أوقات الغدو والآصال؛ فإن الجميع خاضع طائعا أو كارها.. والكلام كناية عن أنه لا مناص من هذا الخضوع؛ فإن استمروا على عنادهم فقل لهم أيها النبى: من رب هذه الأجرام العلوية والسفلية التى تحير العقول فى بديع صنعها وإتقان نظامها؟ فليس هناك إلا جواب واحد لا ينكرونه كما فى الآية (٦١) وما بعدها من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩. وإذا كان الحال كذلك فبادر أنت به وقل لهم: هو الله وحده، ثم قل لهم بعد ذلك: أجهلتم هذا فاتخذتم من دونه سبحانه من لا يملكون لأنفسهم فضلا عن غيرهم نفعا يجلبونه ولا ضرا يدفعونه؟ ثم قل لهم أيضا منبها لخطئهم: هل يستوى الأعمى الذى إذا سار لا يأمن الخطر، والبصير الذى يعرف طريق الأمن؟ وإذا كانا لا يستويان فكذلك لا يستوى الكافر الضال والمؤمن المهتدى. وهل تستوى الظلمات التى لا يرى فيها الطريق والنور الذى يجلو كل شىء؟ وإذا كان لا يستويان فكذلك لا يستوى الكفر والإيمان. وإذا كان هذا هو الواقع فما سبب حيرتكم؟ هل خلق ما جعلتموهم شركاء لله خلقا كخلق الله فاشتبه عليكم أمر خلقها مع خلق الله فجعلتموهم شركاء له؟ وإذا كان هذا مستحيلا فقل لهم إن الله وحده هو الخالق لكل شىء سواه وبعد ما بين سبحانه الفرق الواضح بين المؤمن والكافر والإيمان والكفر، وأبطل وجود صانع غيره أراد أن يضرب لهم مثلا للحق فى ثباته وللباطل فى اضمحلاله وزواله ليحيطهم بالدليل من كل جانب ويقطع معاذيرهم يوم القيامة فقال: ﴿أنزل من السماء ماء﴾ إلخ؛ أنزل سبحانه من السحاب مطرا فسالت مياه الأودية على حسب مقدارها فى الصغر

رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متع زبد
مثله كذلك يضرب الله الحق والبطل فأما الزبد
فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض
كذلك يضرب الله الأمثال (١٧) للذين استجابوا
لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم
ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك
لهم سوء الحساب ومأوىهم جهنم وبئس المهاد (١٨)
۞ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو
أعمى إنما يتذكر أولوا الألبب (١٩) الذين يوفون
بعهد الله ولا ينقضون الميثق (٢٠) والذين يصلون
ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء
الحساب (٢١) والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا

والكبر، فحمل السيل الذى تكون من ذلك الماء زبدا.

المفردات: ﴿رابيا﴾: عاليا مرتفعا.

﴿ابتغاء حلية﴾: أى طلبا لما يتحلى به كالذهب والفضة.

﴿أو متاع﴾: هو ما يتمتع به الناس كالقدور والمحاريث وآلات المصانع من الحديد والنحاس مثلا.

﴿زبد مثله﴾: زبد المعادن هو ما يخالطها من الأشياء الغريبة المضعفة لقيمتها وتعلو على سطحها عند غليانها.

﴿جفاء﴾: مصدر جفأت الشىء أى طرحته ورميته، وأريد بالمصدر اسم المفعول أى مرميا ضائعا.

﴿استجابوا لربهم﴾: أجابوا دعوة ربهم بالقبول. ﴿الحسنى﴾: المثوبة الحسنى وهى الجنة.

﴿بئس المهاد﴾: قبح المكان الممهد لنزولهم فيه. ﴿بعهد الله﴾: هو ما أخذه عليهم من الإقرار به حيث ركب فيهم العقول وأقام لهم الأدلة كما قال فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١ وكذا ما أخذه عليهم على لسان رسلهم كما فى الآية (٨١) من سورة آل عمران صفحة ٧٦. ﴿الميثاق﴾: العهد المؤكد. ﴿إلا ابتغاء وجه الله﴾: تقدم فى الآية (٢٧٢) من سورة البقرة صفحة ٥٨.

المعنى: فحمل السيل فى أثناء جريانه زبدا طافيا فوق سطحه، وبعض المعادن التى يوقدون عليها حالة كونها فى النار، وهذا القيد للتأكيد كقوله (ولا طائر يطير بجناحيه) فى

(١) متاع. (٢) والباطل. (٣) ومأواهم. (٤) الألباب. (٥) الميثاق.

الآية (٣٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، يوقدون عليها ابتغاء حلية، أى طالبين عمل حلية من ذهب أو فضة أو اتخاذ متاع من نحو الحديد والنحاس والرصاص زبد مثل زبد الماء. كهذا المثل يضرب الله مثل الحق والباطل؛ فكما أن الزبد يذهب مهملا ضائعا فكذلك الباطل يزول، وكما أن الماء والمعدن الصافى يبقى فى الأرض لنفع الناس كذلك الماء يبقى فى بطن الأرض فى العيون والآبار، ويغذى الحبوب والثمار، والمعدن يمكث مددا طويلة، وكذلك الحق يبقى ويعلو. كهذين المثلين فى الجلاء والوضوح يضرب الله الأمثال دائما للناس ليبصرهم بالصراع الشديد بين الشر وأنصاره والخير وأنصاره يتنازعان البقاء والبقاء دائما للأصلح. وإنما نوع التمثيل بالماء والمعادن ليفهم جميع الطوائف من زراع لا يرون إلا الماء وصناع لا يرون السيول وإنما يعيشون بين المعادن وصهرها. وبعد هذا البيان الرائع فالذين يجيبون دعوة ربهم بقوة إخلاص، لهم عنده المثوبة الحسنى فى الآخرة وهى الجنة والذين لم يستجيبوا له فلهم عذاب شديد بلغ من شدته أن الواحد منهم لو كان يمتلك كل ما فى الأرض ومثله معه لدفعه لينقذ نفسه منه ولكنه لا يقبل منه إذا فرض وملك كما فى الآية (٣٦) من سورة المائدة صفحة ١٤٣. أولئك الذين لم يستجيبوا لله لهم أسوأ حساب وأشده كما فى الآية (٨) من سورة الطلاق صفحة ٧٥٠، ومكانهم الذى يأوون إليه هو جهنم، وقبح المهاد والمستقر جهنم. أفمن يعلم أنما أنزل إليك أيها النبى هو الحق المبين فى المثل السابق كمن لا يعلم لأنه أعمى القلب. والمعنى هل بعد بيان حال كل من الفريقين ومصيرهما يتوهم غافل مساواتهما؟ كلا، فلا يقول ذلك إلا مجنون لأنه لا يتذكر ويدرك ما بينهما من فرق إلا أصحاب العقول الخالصة من تقليد الآباء على الباطل وحب الجاه الكاذب. ثم وصف سبحانه أصحاب العقول بتسع صفات فقال: الذين يوفون بعهد الله الذى أخذه عليهم فى كتابه من طاعة رسوله ولا ينقضون العهود المؤكدة التى بينهم وبين الله وبينهم وبين العباد، فالكلام تعميم بعد تخصيص. والذين يصلون ما أمر الله بوصله كالرحم والمؤمنين وكل ما فى وصله ومودته تقرب لله سبحانه، ويخشون ربهم، والخشية خوف مقرون بتعظيم من يخشى منه، ولذا خصها الله تعالى بالعلماء الذين يعرفون ربهم حق المعرفة كما فى الآية (٢٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٥. فالمراد أنهم يخافون خوف مهابة وإجلال، فلا يفعلون ما يغضبه خوفا من عقابه لأن نتيجة فعل ما يغضبه وقوعهم فى سوء الحساب يوم القيامة، وفضيحتهم على رءوس الأشهاد

الصَّلَوٰةَ[1] وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ[2] سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ
بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ[3] عَدْنٍ
يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ[4] وَأَزْوَٰجِهِمْ[5] وَذُرِّيَّٰتِهِمْ[6]
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ[7] يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ[8] عَلَيْكُم
بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ
عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ[9] وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن
يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ
سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ
وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ[10] ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ[11] ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ
إِلَّا مَتَٰعٌ[12] ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ
مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ
مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ

والذين صبروا على مشاق التكاليف وقسوة المصائب طالبين بذلك رضا ربهم لا رياء ولا سمعة، وأقاموا الصلاة...

المفردات: ﴿يدرءون﴾: أى يدفعون.

﴿عقبى الدار﴾: العقبى هى العاقبة المذكورة فى الآية (١٢٨) من سورة الأعراف صفحة ٢١١ والآية (٤٩) من سورة هود صفحة ٢٩١، والآية (١٣٢) من سورة طه صفحة ٤١٩. ﴿عدن﴾: أى إقامة وخلود.

﴿صلح﴾: أى كان مؤمنا صالحا.

﴿ميثاقه﴾: أى توكيده. ﴿ويقدر﴾: يضيق.

﴿متاع﴾: أى شىء قليل كمتاع الراعى والمسافر سفرا قصيرا.

﴿لولا أنزل﴾: أى هلا، فهى كلمة تدل على طلب ما بعدها.

---

(١) الصلاة.
(٢) رزقناهم.
(٣) جنات.
(٤) آبائهم.
(٥) وأزواجهم.
(٦) وذرياتهم.
(٧) والملائكة.
(٨) سلام.
(٩) ميثاقه.
(١٠) بالحياة
(١١) وماالحياة
(١٢) متاع.

﴿آية﴾: أى معجزة.

﴿من أناب﴾: أى رجع.

المعنى: وأدوا الصلاة كاملة حسا ومعنى، وأنفقوا فى وجوه الخير بعض ما رزقهم الله تعالى سرا فيما بينهم وبين ربهم وعلانية أمام الناس، وقد تقدم بيان محلهما فى الآية (٢٧١) من سورة البقرة صفحتى ٥٧، ٥٨ ويدفعون الشر بالخير. انظر الآية (٣٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٤؛ أولئك الموصوفون بما ذكر لهم العاقبة الحسنة التى تعقب دار الدنيا التى أحسنوا عملهم فيها، وفسر هذه العاقبة بأنها جنات عدن يدخلونها خالدين فيها هم ومن عمل صالحا من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ليتم أنسهم بأهلهم.

وفى الكلام دليل على أنه فى ذلك اليوم لا تنفع الأنساب إذا لم يكن معها عمل صالح. ويؤيده ما فى الآية ٤٦ من سورة هود صفحة ٢٩١، والآية (١٠١) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٥٤، ٤٥٥، والآية (٨٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٩، والآية (٤١) من سورة الدخان صفحة ٦٥٩ ومثل ما هنا فى الآية (٢١) من سورة الطور صفحة ٦٩٧، ٦٩٨. وكيفية اجتماع أهل الجنة وائتناس بعضهم ببعض لا نعلم كيفيته لأنه من أحوال الآخرة التى لا نعلم كيفيتها. وإذا كان أهل الجنة وهم فى الجنة يرون أهل النار وبالعكس ويتخاطبون مع بعد المسافة بينهما، فأيسر من ذلك رؤية أهل الجنة بعضهم لبعض، انظر آيتى (٤٤، ٥٠) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٩، ٢٠٠، والآيات من (٥١ إلى ٥٩) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠، وانظر بقية ذلك فى تفسير صفحة ٦٩٨.

ثم ذكر سبحانه ما لأهل الجنة من الكرامة بتسليم الملائكة عليهم فقال: ﴿والملائكة يدخلون عليهم﴾ إلخ؛ أى وتدخل عليهم الملائكة من كل باب قائلين أمان من الله عليكم بسبب صبركم على مشاق العبادة والجهاد والمصائب احتسابا لوجه الله فلا خوف عليكم أبدا، فنعم عاقبة الدنيا هذه الجنة. وبعد ما بين سبحانه ما أعده للمتقين بين حال الأشقياء وما أعد لهم

من العذاب فقال: والذين ينقضون عهد الله الذى أخذه عليهم بالإقرار به حيث ركب فيهم العقول التى بها الوصول للحق من بعد توثيقه وتأكيده بنصب الأدلة على وجوده فى الكون وفى أنفسهم كما تقدم فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١، ويقطعون ما أمر الله بوصله مما تقدم فى الآية (٢١) من هذه السورة صفحة ٣٢٤، ويفسدون فى الأرض بالظلم والطغيان وإثارة الفتن، هؤلاء لهم الطرد من رحمة الله، ولهم سوء العاقبة وهى جهنم. ثم لما كان بعض الكفار أغنياء وتسبب غناهم فى عنادهم وشدة كفرهم، أراد سبحانه أن يبين حكمة تقسيمه الأرزاق على المؤمن والكافر، فقال: ﴿الله يبسط الرزق﴾ أى يوسعه لمن يشاء من خلقه ممن كان له مهارة فى جمع المال، ولا علاقة لهذا بكفر أو إيمان ولا بصلاح أو معصية، ويضيق على من يشاء ممن هو ضيق الحيلة فى الكسب، ولا علاقة له أيضا بكفر أو إيمان، بل قد يوسع على الكافر استدراجا ويضيق على المؤمن لزيادة أجره وإدخارًا لنعيم دائم، ولذا قال: ﴿وفرحوا﴾ أى فرح الكفار ببسط الرزق فى الحياة الدنيا واعتبروه أكبر متاع، وهم فى هذا مخطئون، إذ ليس نعيم الدنيا كله إذا قيس بنعيم الآخرة إلا شيئا يسيرا جدا سريع الزوال كمتاع الراعى الذى لا يكفى إلا مدة يسيرة.

وقد غر المال كفار مكة حتى تعنتوا وتغافلوا عن المعجزة الخالدة وهى القرآن، وقالوا عنادا: هلا أنزل على محمد معجزة من ربه كما تقدم فى الآية (٧) من هذه السورة صفحة ٣٢٢؟ ولما كانوا كثيرا ما رددوا قولهم هذا كررها القرآن لذلك. قل لهم ما أعظم عنادكم بعد علمكم بالمعجزة التى عجزتم جميعا عن الإتيان بمثلها؟ فلا جواب لكم عندى إلا أن أقول لكم إن الله تعالى يضل من يشاء لعناده بعد ظهور الحق، ويهدى من رجع عن العناد وأقبل على الحق، فإذا أردتم الهداية فارجعوا إليه تنالوها، والراجعون إلى الله تعالى هم الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم دائما بتذكر الله عند كل شدة، فلا يبالون بشىء ولا يحزنون على فوات مرغوب، ثقة بما عند الله...

أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ[1] طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ كَذَلِكَ
أَرْسَلْنَاكَ[2] فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ
الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ
قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ
الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ[3] الَّذِينَ آمَنُوا
أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ
كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ
حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾
وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ

المفردات: ﴿ألا﴾: كلمة تنبه للعناية بما بعدها.

﴿طوبى لهم﴾: مأخوذة من الطيب وهى كلمة تدل على الحياة الطيبة والسرور.

﴿وحسن مآب﴾: (مآب) أى مرجع، هنا من إضافة الصفة للموصوف.

﴿خلت﴾: مضت

﴿متاب﴾: أصلها متابى أى مرجعى فى الآخرة.

﴿ييئس﴾: أى يعلم،.

﴿قارعة﴾: أى داهية تقرع قلوبهم وتقلقهم، انظر سورة القارعة. صفحة ٨١٩.

﴿وعد الله﴾: بموتهم أو بقيام الساعة.

﴿فأمليت﴾: أى أمهلت.

﴿قائم﴾: أى رقيب.

المعنى: لا يطمئن القلوب ويطرد عنها الفزع والاضطراب إلا تذكرهم لله سبحانه. ثم بيَّن سبحانه جزاء ثواب المطمئنين فقال: الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الفرح وقرة العين والمرجع الحسن يوم القيامة. وبعد ما ذكر سبحانه تعنت الكفار فى طلباتهم من رسوله وبيَّن أنهم لن يهتدوا لأنهم غير مخلصين، أراد أن يسلى نبيه بأن هذه عادة الأمم مع أنبيائهم، وأن عاقبة المعاندين وخيمة، فقال: ﴿وكذلك﴾ إلخ؛ أى أرسلنا لك ولأمتك كإرسالنا للرسل قبلك

(١) الصالحات. (٢) أرسلناك. (٣) ييأس.

إلى أمم مضت، لتتلو على أمتك الكتاب الذى أوحيناه إليك، كما فى الآية (١٠٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٩، والحال أن كفار قومك يكفرون بربهم عظيم الرحمة ومن رحمته إرسالك لإرشادهم إلى مافيه نجاتهم ومنها أنه أرسلك لهم رحمة. قل لهم: هو، أى الرحمن الذى كفرتم به ربى، لا أقر بإله غيره، ولا أتوكل إلا عليه، وإليه وحده مرجعى فى الآخرة، أما أنتم فميئوس منكم ما دمتم على حالكم، لأن حالكم لو أن قرآنا سيرت به الجبال عن أماكنها، أو شققت به أرض مكة وجعلت أنهارا وعيونا أو إحياء رجل بقراءته الموتى وكلمهم، ولو أن قرآنا جاءكم- يا كفار مكة وشاهدتم منه ما ذكر لما آمنتم، لتمكن الكفر والعناد من قلوبكم، انظر الآية (١١١) من سورة الأنعام صفحة ١٨١، فلا تطمعوا أيها المؤمنون فى هدايتهم؛ لأن الله لو علم فيهم خيرا لأجابهم إلى طلبهم، ولا يعجز عنه، لأن الأمر جميعه بيده. وإذا كان الأمر كذلك فهل غفل المؤمنون فلم يعلموا أن الله لو شاء لهدى الناس جميعا قهرا فيكونون كالملائكة كما تقدم شرح ذلك فى الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦، والآية (٩٩) من سورة يونس صفحة ٢٨١، ولكنه سبحانه شاء أن يكونوا مختارين، ولابد أن يختلفوا كما فى الآية (١١٨) من سورة هود صفحة ٣٠١، ويبقى كفار مكة تصيبهم بسبب عملهم السيئ وإصرارهم على الكفر مصائب شديدة من قتل وأسر، أو تحل تلك المصائب فى مكان قريب منهم يسكنه أناس على صلة بهم تجمعهم صفات مشتركة من الكفر والمعاصى فيحزنهم ذلك ويزعجهم خوف أن يصيبهم شررها ولا يزالون فى هذا القلق حتى يأتى أمر الله بموتهم أو بقيام الساعة، وهذا وعد صادق لابد من تحققه، لأن الله لا يخلف الميعاد. وإذا اشتد إيذاؤهم لك أيها النبى واستهزاؤهم بك فلا تحزن لأن أمم إخوانك الرسل قبلك استهزءوا بهم، فأمهلت هؤلاء الكافرين ليزدادوا كفرا، ثم أخذتهم بالعقاب أخذ عزيز مقتدر، ارجع إلى الآية (١٧٨) صفحة ٩٢، فانظر وتأمل على أى حال كان عقابى لهم، ألم أنكل بهم وأجعلهم عبرة لغيرهم. ثم رجع سبحانه إلى تسفيه المشركين فى التسوية فى العبادة والدعاء بين الله وخلقه فقال:

﴿أفمن هو قائم﴾ إلخ...

عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ
أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ[1] مِّنَ ٱلْقَوْلِ
بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى
ٱلْحَيَوٰةِ[2] ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ
مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ[3] أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ[4] ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ[5]
ٱلْكِتَٰبَ[6] يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن
يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ
إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ[7] ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ[8] حُكْمًا
عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ

المفردات: ﴿سموهم﴾: أى اذكروا أسماءهم، وهو كناية عن أنه لا حقيقة لهم، انظر الآية (٧١) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٣، ٢٠٤ والآية (٧٤) من سورة غافر صفحة ٦٢٧.

﴿بظاهر من القول﴾: أى بقول له ظاهر وليس له حقيقة فهو كالخيال.

﴿واق﴾: أى حافظ يقيهم.

﴿مثل الجنة﴾: أى صفتها العجيبة.

﴿أكلها﴾: أى ما يؤكل فيها كما تقدم فى الآية (٤) من هذه السورة صفحة ٣٢١. ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾: المراد بهم من أسلم من اليهود والنصارى. ﴿الأحزاب﴾: الذين تحزبوا من الكتابيين عليه ﷺ وساعدوا المشركين.

﴿مآب﴾: أصلها مآبى أى مرجعى. ﴿حكما﴾: أصل الحكم مصدر أريد به الحاكم مبالغة فى الفصل بين الحق والباطل. ﴿عربيا﴾: أى بلسان العرب لأنهم قومك أيها النبى ولم يرسل اللّٰه رسولا إلا بلسان قومه، أنظر الآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩.

---

(١) بظاهر.
(٢) الحياة.
(٣) الأنهار.
(٤) الكافرين.
(٥) آتيناهم.
(٦) الكتاب.
(٧) مآب.
(٨) أنزلناه.

المعنى: أفمن هو رقيب على كل نفس صالحة أو طالحة عليم بما كسبته من خير أو شر، كمن ليس كذلك ممن جعلتموهم شركاء لله؟ ولذا قال ﴿وجعلوا لله﴾ إلخ؛ وبعد هذا الفارق العظيم جعلوا لله شركاء عبدوهم وطلبوا منهم قضاء مصالحهم. ثم وبخهم توبيخا آخر فقال: قل أيها النبى لهم سموا لنا هؤلاء الشركاء فمن هم؟ بل أنتم تخبرون الله سبحانه بشركاء لا يعلم لهم وجودا فى الأرض مع أنه يعلم كل شىء فيها، بل أنتم تسمونهم شركاء بمجرد ظاهر القول دون أن يكون لهم حقيقة، فدعوا كل هذا الباطل.. بل الحقيقة أن الشيطان زين وحسن لكم أيها الكافرون مكركم وكيدكم للإسلام، وصدكم بوسوسته عن سبيل الله المستقيم المبين فى سورة الفاتحة، ومن يضلله الله لفساد قلبه كما فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ فليس له من أحد يقدر على هدايته. لهؤلاء الذين أضلهم الله عذاب فى الدنيا بالقتل والأسر وأنواع المحن، ووالله لعذاب الآخرة أشق لشدته ودوامه، وليس لهم واق مطلقا يقيهم من عذاب الله. هذا جزاء من كفر، أما جزاء المؤمنين فاعلم أن صفة الجنة التى وعدهم الله بها هى أنها تجرى مِنْ تحت قصورها الأنهار، ومأكولاتها دائمة لا تنقطع وظلها كذلك، كما فى الآية (١٣) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٢؛ تلك الجنة هى عاقبة المتقين، وعاقبة الكافرين النار، ثم أراد سبحانه أن يطمئن نبيه بأن العلماء بالكتب السابقة المخلصين يفرحون بالقرآن الذى أنزل إليك لأنه موافق للحق الذى فى كتبهم ولهذا سارعوا إلى الإيمان بك كعبدالله بن سلام وأصحابه من اليهود ونصارى نجران واليمن والحبشة، ومنهم قوم تحزبوا ضدك حسدا وعنادا فأنكروا بعض مافى القرآن وهو ما يخالف ما حرفوه. قل للمنكرين إنما أمر ربى أن أعبد الله وحده ولا أشرك فى ربوبيته أحدا، وإلى توحيده وطاعته أدعو جميع الخلق، وإليه وحده مرجعى للجزاء يوم القيامة. ومثل إنزالنا للكتب لمصالح الناس أنزلنا هذا القرآن حال كونه حاكما بين الحق والباطل، بلسان عربى، ليسهل على أول من كلفوا به فهمه للقيام بنشر دعوته، ووالله لئن اتبعت أيها المخاطب شهوات الكفار بعدم مخالفتهم أو السكوت عن تجهيلهم بعدما جاءك من العلم القاطع بأنهم على باطل، وأن ما فى القرآن هو الحق...

مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا
مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا[1] وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ
أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ[2] إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾
يَمْحُو[3] اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ[4] ﴿٣٩﴾
وَإِن مَّا[5] نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ الْبَلَاغُ[6] وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ
لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ
وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ[7] لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ[8] ﴿٤٣﴾

المفردات: ﴿ولى﴾: أى صديق ينصرك، انظر آيتى (١٠٧، ١٢٠) من سورة البقرة صفحتى ٢١، ٢٣.

﴿واق﴾: أى واقى يقيك العذاب.

﴿آية﴾: المراد معجزة.

﴿أجل﴾: المراد وقت معين.

﴿كتاب﴾: المراد بالكتاب المكتوب المحتم أى الحدث المكتوب فى الأزل وجوب حصوله، انظر آيتى (٢٤، ١٢٧) من سورة النساء صفحتى ١٠٣، ١٢٤، فالمراد معجزة محتم وجودها فى هذا الأجل.

﴿أم الكتاب﴾: أم كل شىء أصله؛ فالمراد أصل كل مكتوب ومقدر وهو اللوح المحفوظ.

﴿وإن ما نريك﴾: أصله وإن نريك وجىء بما لتأكيد الربط بين الشرط والجزاء تقدمت فى الآية (٥٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٥، وانظر آيتى (٤١، ٤٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١.

---

(١) ازواجا.
(٢) بآية.
(٣) يمحو.
(٤) الكتاب.
(٥) وإما.
(٦) البلاغ.
(٧) الكفار.
(٨) الكتاب.

﴿بعض الذى نعدهم﴾: هو عذاب الدنيا لأنه وعدهم به.

﴿الأرض﴾: إذا أطلقت الأرض فى القرآن فسياق الكلام يبين المراد منها كما فى الآية (٧٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥، والآية (٤) من سورة القصص صفحة ٥٠٦؛ والسياق هنا يدل على أن المراد بها الأرض التى ظلم أهلها من الأمم السابقة كما تقدم فى الآيات (٦) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٢، ١٦٣ و(٩) من سورة الروم صفحة ٥٣١، و(٨٢) من سورة غافر صفحتى ٦٢٨، ٦٢٩.

﴿ننقصها من أطرافها﴾: الطرف الناحية والطائفة من الشىء كما فى الآية (١٢٧) من سورة آل عمران صفحتى ٨٣، ٨٤. قال عكرمة: ونقصانها بتخريب قراها وإهلاك أهلها انظر الآية (٢٧) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧٠.

﴿معقب﴾: المعقب هو الذى يأتى فى عقب الشىء والمراد هنا من يأتى ليبطل.

﴿مكر الذين من قبلهم﴾: أصل المكر التدبير الخفى لإيصال الضرر بالغير وهو لا يشعر.

﴿ومن عنده علم الكتاب﴾: المراد بهم علماء اليهود والنصارى الذين أسلموا فإنهم يعلمون من كتبهم صدقه ﷺ، انظر الآية (١٩٧) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢.

المعنى: إن اتبعت أهواءهم بعد علمك ببطلانها فما لك ولى ولا واق يحفظك من عذاب الله، والمراد من هذا التهديد قطع أطماع الكفرة فى إرجاع مسلم عن دينه وحث المؤمنين على الثبات.

ولما كان المعاندون يحاولون وضع العراقيل فى سبيل دعوته ﷺ بتشكيكات كثيرة، فتارة يقولون لو كان محمد رسولا لما شغل نفسه بالزواج والأولاد ولتفرغ للعبادة كيحيى وعيسى، وبعضهم يقول لن نؤمن به حتى يأتينا بمعجزات مثل معجزات الرسل قبله كما تقدم عند الآية (٧) من هذه السورة صفحة ٣٢٢، ونظيره فى الآية (٤٨) من سورة القصص صفحتى ٥١٣، ٥١٤)، وبعضهم يقول لو كان محمد صادقا لجاءنا بالعذاب الذى توعدنا به؛ لما كان كل هذا

أبطله سبحانه بقوله: ولقد أرسلنا رسلا من قبلك كثيرين وجعلنا لهم أزواجا وذرية، حتى روى أنه كان لداود وسليمان نحو مائة زوجة، وما منع ذلك رسالتهم أما المعجزات فما كان فى قدرة رسول أن يأتى قومه بمعجزة لكن بتيسير الله المبنى على الحكمة تأتى المعجزة المناسبة لزمن الرسول، ولكل وقت من أوقات الرسل وأممهم معجزة معينة تناسب زمنها محتم وجودها فيه لا يصلح غيرها.. يمحو الله ويذهب من المعجزات ما يشاء ويثبت بدلها ما يشاء حسب حكمته، وعنده أصل كل مكتوب مقدر. وإن ما نرينك أيها النبى بعض ما توعدناهم به وهو عذاب الدنيا بأن ننزله بهم فى حياتك أو نتوفاك قبل إنزاله فإنه ليس من شأنك لأنه ليس عليك إلا تبليغ ما كلفناك تبليغه لهم، ومنه وعيدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا، أما محاسبتهم على أعمالهم وتعذيبهم فعلينا وحدنا فى حياتك أو بعد موتك، فهل شك هؤلاء فى العذاب ولم يروا أنا أهلكنا الظالمين فى الأرض بالكفر والمعاصى وخربنا ديارهم، انظر آيتى (٦٩، ٧٠) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٢، ٥٣ ٢ والآيات من (٩ إلى ١٤) من سورة إبراهيم صفحات ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، والآية (٧٨) من سورة القصص صفحة ٥١٨، وسيأتى مثل هذه الآية فى الآية (٤٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥، فكان الوا جب عليهم أن ينتبهوا لأن الله إذا حكم فلابد من تنفيذ حكمه؛ لأنه ليس فى الوجود من يبطله وهو سبحانه سريع الحساب فسيحاسبهم قريبا فى الآخرة بعد عذابهم فى الدنيا.

ثم أراد سبحانه أن يطمئن نبيه بأن العاقبة له فقال: وقد مكر الذين كفروا قبل كفار مكة بأنبيائهم ودبروا لهم المكايد كما فعل قومك أيها النبى فأحبط الله مكرهم ونصر عباده المخلصين؛ لأن المكر والتدبير الذى لا يخيب هو لله وحده، أما مكر غيره فلا يضر إلا صاحبه، لأنه سبحانه يعلم ما تكسب كل نفس من خير أو شر فيجازى كلا بما يستحق. وسيعلم الكفار قريبا لمن العاقبة المحمودة.

ويقول الذين كفروا برسالتك لست مرسلا من عند الله، قل لهم: حسبى الله شهيدا بصدقى، وحسبى يشهد بينى وبينكم أيضا علماء أهل الكتاب الذين لم يقدموا الدنيا على الدين...

سورة إبراهيم

(١٤) سورة إبراهيم مكية
وآياتها ثنتان وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓر[1] كِتَٰبٌ[2] أَنزَلْنَٰهُ[3] إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ[4]
إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ[5] ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾
ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[6] وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ
لِّلْكَٰفِرِينَ[7] مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
ٱلْحَيَوٰةَ[8] ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ[9] بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا
مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ
مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿الر﴾: تقدم مثل هذه الحروف المقطعة أول سورة البقرة.

﴿لتخرج الناس... إلخ﴾: اللام فى (لتخرج) لام الحكمة وتقدم مثلها فى الآية (٦٤) من سورة النساء صفحة ١١١.

﴿إلى صراط العزيز﴾: هو بيان للنور، ونظيره فى إعادة حرف الجر على المبين فى الآية (٧٥) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٤، ٢٠٥. والعزيز الغالب القادر على كل شىء.

﴿الحميد﴾: المستحق لكثرة الحمد لكثرة نعمه وإن لم يحمده الغافلون.

﴿ويل﴾: أى هلاك. ﴿يستحبون﴾: أى يحبون حبا شديدا.

﴿يبغونها عوجا﴾: تقدم فى الآية (٩٩) من سورة آل عمران صفحة ٧٩.

---

(١) ألف لام را
(٢) كتاب.
(٣) أنزلناه.
(٤) الظلمات.
(٥) صراط.
(٦) السموات.
(٧) للكافرين.
(٨) الحياة.
(٩) ضلال.

المعنى: هذا القرآن كتاب أنزلناه إليك أيها النبى لحكمة هى إخراج الناس كافة بما فيه من التعاليم من ظلمات الشرك والجهل إلى نور الإيمان والعلم بتيسير ربهم، هذا النور هو طريق الخير الذى شرعه العزيز الحميد. ثم بين العزيز بأنه هو الله الذى له كل ما فى السموات وما فى الأرض خلقا وملكا يتصرف فيه كما يشاء، وإذا كان هذا هو حال الإله الحق فالهلاك للكافرين بعذاب شديد، الذين يحبون الحياة الدنيا ويفضلونها على الآخرة، ويمنعون الناس عن الدخول فى دين الله الحق، ويرغبون أن يرى الدين معوجا فى نظر الناس لينفروهم منه، هؤلاء فى ضلال بعيد عن الحق لا يمكن رجوعهم إلى الصواب.

ثم أراد سبحانه أن يسلى رسوله على عناد قومه بأن هذه عادة الأمم مع كل أنبيائهم مع أنه سبحانه سهل عليهم ما جاءتهم به رسلهم حيث جاءهم بلغتهم التى يسهل عليهم فهمها، فقال: ﴿وما أرسلنا من رسول﴾ أى من الرسل السابقة إلا متكلمًا بلغة قومه الذين بعث فيهم ليفهموا عنه ما يبين لهم من شرعه تعالى، ومع ذلك عاند كثير واستكبروا، فأضلهم الله حسب سنته التى وضعها من إضلال الفاسقين وهداية من رجع إليه وأناب، انظر الآية (٢٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦. والله سبحانه هو الغالب الذى لا يغلب، الحكيم الذى يضع كل شىء فى محله؛ فالمراد بالقوم هنا هم الذين أرسل الرسول فيهم وإن كان مرسلا لغيرهم، لأنهم إذا فهموا الشرع وآمنوا به أمكن نقله لغيرهم بكل الطرق، ولهذا قال سبحانه لنبينا ﷺ ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ الآية (٢١٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٣، وذلك لأن إرسال رسول لجميع العالم بكل لغة أمر عسير لا يكاد يتحقق، بل قد يكون مستحيلا إذا كانت اللغات تتوالد ويتجدد منها ما لم يكن موجود، انظر الآية (١٩٥) وما بعدها من سورة الشعراء صفحتى ٤٩١، ٤٩٢.

المفردات: ﴿أيام الله﴾: تطلق العرب الأيام على الحوادث الجسام التى حصلت فى الماضى، فيقال أيام العرب فى الجاهلية أى حروبها.

﴿يسومونكم﴾: أى يطلبون لكم، انظر ما تقدم فى الآية (٤٩) من سورة البقرة صفحة ١٠.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ
اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦)
وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ
عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن
فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمْ يَأْتِكُمْ
نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن
بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا

﴿بلاء﴾: امتحان وفتنة.

﴿تأذن﴾: أخبر خبرا مؤكدا كما تقدم فى الآية (١٦٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٠.

﴿فردوا أيديهم فى أفواههم﴾: المراد بأيدى هنا النعم أى الأيادى التى جاء بها الأنبياء من الشرائع والعقائد التى تنقذهم من الهلاك، وهذا كناية عن رفضها وعدم قبولها كما يقول الرجل لآخر إذا لم يعجبه كلامه احفظ كلامك لنفسك فإنى لن أسمعه. هذا هو أنسب المعانى لكلمة (ردوا).

المعنى: بعدما أجمل سبحانه القول فى إرسال الرسل بلسان قومهم، أراد تفصيل الإجمال بعض تفصيل فقال: ولقد أرسلنا موسى مؤيدا بمعجزتنا من العصا واليد وبقية التسع المشار إليها فى الآية (١٠١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨، وتقدم بعضها فى الآية (١٣٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢، وقلنا له أخرج قومك بنى إسرائيل من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى والإيمان، وأنذرهم بالوقائع التى أوقعها الله بالأمم قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود كما تقدم فى الآية (١٠٢) من سورة يونس

---

(١) بآياتنا.
(٢) الظلمات.
(٣) بأيام.
(٤) لآيات.
(٥) أنجاكم..
(٦) آل فرعون.
(٧) نبأ.
(٨) بالبينات.
(٩) أفواههم..

صفحة ٢٨٢، إن فى تذكر أيام الله دلائل تنبه للخوف من عصيان الله كل قوى الصبر على المشاق والبعد عن الشهوات كثير الشكر لنعم ربه بالبعد عما يغضبه.

ثم فصل سبحانه ما قاله موسى فقال: وإذ قال موسى لقومه تنفيذا لأمر ربه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم حين أنجاكم من آل فرعون عندما كانوا يكلفونكم بالأعمال الشاقة مع القهر والإذلال، ويذبحون أبناءكم الذكور ويبقون النساء ذليلات مستضعفات، وهذا من أشد المصائب على النفس الحرة، وفى كل مما ذكر من التعذيب والإنجاء منه اختبار وامتحان من الله لكم عظيم ليظهر للناس مقدار صبركم وشكركم بالرجوع إلى الله سبحانه، انظر الآية (١٦٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٠. واذكروا يا بنى إسرائيل وعد ربكم المؤكد حين أعلمكم بأنكم إن شكرتم نعمه بامتثال أوامره لأزيدنكم من نعمى عليكم، ولئن كفرتم بنعمى حل بكم عذابى المؤلم، لأن عذابى لمن كفر وعزتى لشديد. ثم بيَّن موسى لهم أن شكرهم لا يعود نفعه إلا عليهم، وعدمه لا يعود ضرره إلا عليهم، فقال: إن تكفروا أنتم وجميع من فى الأرض فلن يضر الله شيئا، لأنه هو الغنى عن جميع خلقه، المستحق لجميع الحمد، لأنه مصدر كل النعم، سواء أشكرتم أم كفرتم. ولما أحس موسى من قومه المضى فى العصيان، شرع يفصل لهم ما أمره الله بتذكيرهم إياه، وهو أيام من قبلهم، فقال موسى: يا قوم ألم يأتكم خبر الذين مضوا قبلكم من قوم نوح وعاد وثمود والأمم الذين جاءوا بعدهم بلغت حدًا من الكثرة لا يعلمه إلا الله، انظر الآية (٧٨) من سورة غافر صفحة ٦٢٨. ثم بيَّن هذا الخبر فقال: جاءتهم رسلهم بالأدلة القاطعة بصدقهم، مبينين لهم محاسن ما شرعه الله تعالى لسعادتهم، فردوا الحديث عن تلك الشرائع إلى أفواه أنبيائهم أى رفضوها وطلبوا عدم الحديث بها، وبالغوا فى الرد فأعلنوا كفرهم بتلك الشرائع.

المفردات: ﴿مريب﴾: أى موقع فى الريبة والحيرة. ﴿أجل مسمى﴾: هو انتهاء آجالهم.

﴿إن أنتم﴾: (إن) حرف نفى بمعنى (ما). ﴿سلطان مبين﴾: أى معجزة واضحة مما نقترحه نحن.

المعنى: إنا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به مما تدعون أنه بينات، بل هو سحر، وإنا لفى شك محير مما تدعوننا إليه من العقائد والشرائع. قالت لهم رسلهم: أفى وجود الله شك؟

أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ⑨
۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا
عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا(١) فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ(٢) مُّبِينٍ ⑩ قَالَتْ
لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ
مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ(٣)
إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ⑪ وَمَا
لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا(٤) سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ
عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا(٥) وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ⑫
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ
أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ

وكيف ذلك وهو وحده خالق السموات والأرض، يدعوكم إلى الحق ليغفر لكم بعض ذنوبكم إذا أطعتم، وهى الذنوب التى بينكم وبينه تعالى، لا الذنوب المتعلقة بحقوق العباد، ويؤخركم أى لا يعاجلكم بعذاب الإفناء الكلى، بل يمتعكم بخيرات الدنيا ويكثر لكم من أسباب كثرة الثواب فى الآخرة، ولا تكونوا ممن قضى عليهم بالهلاك عند جمودهم على المعاصى، قالوا فى ردهم على الرسل ما أنتم إلا بشر مثلنا، لا فضل لكم علينا، فلم خصكم بالنبوة؟ تريدون أن تمنعونا من عبادة الأصنام التى كان يعبدها آباؤنا؟ فأتونا بحجة واضحة مما نقترفه عليكم. ولما كان هذا منهم عنادا يعلم الله أنه لو جاءهم بما اقترحوا لا يؤمنون كما هو حال أمثالهم فى آيتى (٧، ١١١) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٣، ١٨١، والآية (٧٦) من سورة يونس صفحة ٢٧٨، والآية (١٣) من سورة النمل صفحة ٤٩٥، قالت لهم رسلهم: نعم، ما نحن إلا بشر مثلكم، ولم ندع أننا ملائكة، ولكن لا نسلم لكم أن كل البشر عند الله سواء، بل إن الله يمن على من يشاء من عباده بالنبوة والرسالة لما يعلمه فيه من صفاء الطبع وإخلاص النية، كما فى الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، وما كان فى قدرتنا أن نأتيكم بما تقترحون إلا بإذن الله ومشيئته، وعلى الله وحده فليتوكل كل مؤمن، ونحن أيها الأنبياء فى المقدمة فلنتوكل عليه فى الصبر على عنادكم، وأى عذر لنا فى أن لا نتوكل على الله والحال أنه قد هدانا سبيلنا التى توصلنا إلى معرفته ومعرفة كل خير، بإرشادنا إلى طريق النجاة، وتوفيقنا لسلوكها، ولنصبر على إيذائكم لنا بالعناد واقتراح الآيات والاستهزاء، وعلى الله وحده فليثبت المتوكلون على توكلهم، محتملين كل أذى فى سبيل الله. ولما عجز هؤلاء الكفار عن مقاومة الدليل عمدوا إلى القوة وحلفوا

(١) آباؤنا. (٢، ٣) بسلطان. (٤) هدانا. (٥) آذيتمونا.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ
لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ
كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ
صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن
كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾
مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ
فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ
هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾
وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ
ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم
مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ

على أن يفعلوا أحد أمرين: إما إخراجكم أيها الرسل من أرضنا أنتم ومن آمن بكم، أو يعود من آمن بكم فى ملتنا كما كانوا، أنظر ما تقدم فى الآية (٨٨) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٦، ٢٧٧. وعندما اشتد عنادهم وانقطع الأمل فى إيمانهم أوحى الله إلى رسله قائلا وعزتى لنهلكنهم لأنهم ظالمون...

المفردات:﴿مقامى﴾: أصل المقام مكان القيام كالحضرة مكان الحضور، ويكنى به عن الذات الحاضرة فيه على سبيل التعظيم، انظر الآية (٤٦) من سورة الرحمن صفحة ٧١١.

﴿واستفتحوا﴾: أى استنصروا الله على أعدائهم كقوله تعالى إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح. وكأنهم لما قوى تكذيبهم وأذاهم للمؤمنين، ولم يعاجلهم الله عز وجل بالعقوبة ظنوا أن ما قيل لهم باطل، فاستفتحوا على سبيل التهكم والاستهزاء كقول قوم نوح ﴿فأتنا بما تعدنا﴾، وقوم شعيب ﴿فأسقط علينا كسفا من السماء﴾ وقولهم هم أنفسهم ﴿ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب﴾ الآية (١٦) من سورة ص صفحة ٥٩٩؛ وقيل الضمير للرسل ومكذبيهم، لأنهم كانوا كلهم سألوا الله أن ينصر المحق ويهلك المبطل. وقلنا فى ﴿عجل لنا قطنا... إلخ﴾ الآية (١٦) من سورة ص صفحة ٥٩٩ لما سمع الكفار تهديدهم بعذاب الآخرة قالوا على سبيل الاستهزاء والسخرية يا ربنا عجل لنا نصيبنا من هذا العذاب ولا تؤخره ليوم الحساب كما يزعم محمد، وهذا منتهى الحماقة كما فى الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، وانظر الآية (٨٩) من سورة البقرة صفحة ١٧، والآية (١٩) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٩.

---

(١) الظالمين. (٢، ٣) ورائه. (٤) أعمالهم. (٥) الضلال.
(٦) السموات. (٧) الضعفاء. (٨) هدانا.

﴿صديد﴾: هو ما يسيل من جلود أهل النار من قيح مخلوط بدم.

﴿يتجرعه﴾: يتكلف شربه جرعة بعد جرعة.

﴿ولا يكاد يسيغه﴾: يكاد أى يقرب، والسوغ مرور الشراب فى الحلق بسهولة، أى لا يقرب من سوغه.

﴿أعمالهم﴾: بدل من (مثل) على حذف مضاف أى مثل أعمالهم.

﴿عاصف﴾: أى شديد الرياح.

المعنى: قال الله لرسله وعزتى لنسكننكم أرض هؤلاء الكفرة من بعد هلاكهم. ذلك النصر وإهلاك العدو حاصل لمن خاف ذاتى العلية، وخاف وعيدى بالعذاب لمن عصى فهو مؤمن صادق الإيمان وعلىّ نصره.

وبعد هذا الوعد من الله طلب كل من الرسل والكفار النصر على حصمه، فجاء نصر الله لأهل الحق، وخاب كل جبار شديد العناد، فحل به الهلاك فى الدنيا، ومن ورائه فى الآخرة عذاب جهنم، ويسقى فيها من ماء صديد منتن، يضطر لشدة عطشه أن يشربه جرعة جرعة لقبحه ولا يقرب من استساغته لأنه لا يمكن أن يستساغ، ويحيط به أسباب الموت من كل جهة، وكل واحد منها كافٍ فى موته لو كان فى الدنيا، وما هو فى جهنم بميت فيستريح ولا يحيا حياة طيبة، انظر الآية (٣٦) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦، ومن ورائه بعد كل هذا عذاب آخر أشد، انظر الآية (٥٥) وما بعدها من سورة ص صفحة ٦٠٣، وآيات (٤٢، ٤٣، ٤٤، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥) من سورة الواقعة صفحتى ٧١٥، ٧١٦.

ثم بيَّن سبحانه حال الكفار التى استحقوا بها هذا الشقاء فقال: ﴿مثل الذين كفروا﴾ إلخ؛ أى حال أعمال الكافرين التى كانوا يعملونها فى الدنيا كصلة الأرحام، وإغاثة الملهوف، وفداء الأسرى وخدمة البيت، كحال رماد اشتدت بتفريقه الريح فى يوم عاصف، وهو تأكيد لما قبله، لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا منها فى الدنيا على الانتفاع بشىء منها، فلا يرون له أثرا

من الثواب، كما لا يقدر صاحب الرماد المتطاير فى الريح على إمساك شىء منه، وذلك لأن شرط نفع الأعمال فى الآخرة هو الإيمان، أنظر الآية ٢٦٤ من سورة البقرة صفحة ٥٦، والآية ١١٧ من سورة آل عمران صفحة ٨٢؛ ذلك العمل على غير أساس هو الضلال البعيد عن الصواب.

ثم ذكر سبحانه بعض أدلة وحدانيته لبيان غفلتهم فقال: ألم تر أيها السامع وتعلم أن الله هو الذى خلق السموات والأرض مقترنين بالوجه الحق الذى اقتضته الحكمة، ومن قدر على ذلك قادر على إهلاككم أيها الكافرون والإتيان بخلق جديد غيركم، وما ذلك عليه بعزيز، أى ممتنع ومتعذر. ثم أراد سبحانه أن يصور ما سيكون يوم القيامة من الخصام والحوار بين الشيطان وأنصاره ومن ضللوا بهم من الجهلاء، فقال: وسيبرزون لله يوم القيامة بروزًا لا شك فيه كأنه واقع فعلاً فيقول ضعفاء الفكر والرأى من الأتباع للقادة المستكبرين: إنا كنا فى الدنيا مبالغين فى اتباعكم فى تكذيب الرسل ومحاربتهم، فهل أنتم اليوم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ولو قليلا، أى تدفعونه عنا؟ قال المستكبرون معتذرين: لو كنا أهلاً لهداية الله وهدانا إلى الصواب.

المفردات: ﴿محيص﴾: أى منجى ومهرب.

﴿لما قضى الأمر﴾: أى نفذ أمر الله بإدخال أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

﴿من سلطان﴾: أى تسلط وقدرة على إرغامكم على الكفر والمعصية.

﴿بمصرخكم﴾: الصراخ رفع الصوت طلبا للإغاثة، يقال استصرخته أى استغثت به فأصرخنى، أى أزال سبب صراخى بأن أغاثنى، كما يقال مرضته أى أزلت سبب مرضه.

﴿ضرب الله مثلا﴾: أى وضعه الموضع اللائق به.

﴿كلمة طيبة﴾: هى كل ما يدل على الحق ككلمة التوحيد والدعوة إلى الإسلام والقرآن.

﴿أكلها﴾: ما يؤكل من ثمرها.

لَهَدَيْنَٰكُمْ[١] سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن
مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ[٢] لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ
وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم
مِّن سُلْطَٰنٍ[٣] إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى
وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى
كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ[٤] لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ[٥] جَنَّٰتٍ[٦]
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ[٧] خَٰلِدِينَ[٨] فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ
فِيهَا سَلَٰمٌ[٩] ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ
أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ

﴿كلمة خبيثة﴾: هى كل كلمة ضارة كالإقرار بالشرك. والدعوة إليه، وتكذيب الرسل.

المعنى: قال المستكبرون للضعفاء: لو وفقنا الله لأرشدناكم، فنحن وأنتم الآن يستوى علينا الجزع والصبر فلا خلاص لنا من العذاب..

وقال الشيطان زعيمهم الأكبر لما قضى الله الأمر بتنعيم الطائعين وتعذيب العاصين: إن الله وعدكم وعدًا حقًا بالبعث والجزاء، ووعدتكم وعدًا باطلاً بأنه لا بعث ولا جزاء، وحتى إن كان هناك بعث على سبيل الفرض فإن الأصنام ستشفع لكم، وما كان لى عليكم من قدرة أرغمكم بها على اتباعى، لكن كل ما فعلته أنى دعوتكم بوسوستى إلى الكفر والمعصية فأسرعتم إلى إجابتى لأنها وافقت شهواتكم، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم، لأنكم سمعتم قولى وأهملتم قول ربكم، فما أنا اليوم بمغيثكم من العذاب، ولا أنتم بقادرين على إغاثتى، إنى اليوم كفرت بإشراككم إياى مع الله فى الدنيا بأن أطعتمونى كما يطيع العبد خالقه.

---

(١) لهديناكم.
(٢) الشيطان.
(٣) سلطان.
(٤) الظالمين.
(٥) الصالحات.
(٦) جنات.
(٧) الأنهار.
(٨) خالدين.
(٩) سلام..

وقال هذا ظنا أنه يبرئه من تبعة إضلالهم، ولكنه لا ينفعه. ثم علل تبرأه بأن الظالمين لهم عذاب أليم، انظر موقفا للشيطان مثل هذا فى الآية (٤٨) الأنفال. هذا ما كان من شأن العصاة والكافرين وزعيمهم إبليس.

أما المؤمنون الذين عملوا الصالحات فتدخلهم الملائكة جنات تجرى من تحت قصورها الأنهار خالدين فيها بأمر ربهم تحيتهم التى تحييهم بها الملائكة هو قولهم السلام عليكم، انظر الآية (٢٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥.

وبعد ما ذكر سبحانه أحوال الأشقياء والسعداء ليحذر ويبشر، أراد أن يضرب لعمل كل من الفريقين مثلا بالمشاهد المحس لتقرير ما تقدم من ثبات أمر المؤمنين وبطلان أعمال الكافرين فقال: ﴿ألم تر﴾ إلخ، أى ألم تعلم أيها السامع علم يقين كيف وضع الله للخير والشر مثلا، ثم فسر ذلك فقال: ﴿كلمة﴾ إلخ، أى جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة كل شىء فيها نافع وهى النخلة، أصلها ضارب بعروقه فى الأرض فهو ثابت لا تؤثر فيه الرياح، وأعلاها مرتفع إلى السماء من شدة نموها تعطى ثمرها كل وقت عَيَّنه الله لإثمارها بإرادة خالقها وتسخيره. ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون بما فيها من تصوير المعنويات بصور المحسات لفتا لأذهان الغافلين.

ومثل الكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة، وهى كل شجرة كريهة الطعم أو الرائحة، تنبت بجذور ضعيفة فوق سطح الأرض كالحنظلة مثلاً..

المفردات: ﴿اجتثت﴾: أى اقتلعت جثتها بالكلية فلم يبق منها شىء.

﴿دار البوار﴾: أى الهلاك.

﴿يصلونها﴾: أى يقاسون حرها بدخولهم فيها..

﴿أندادا﴾: جمع ند بكسر أوله وهو النظير فى استحقاق العبادة.

﴿ولا خلال﴾: هو المخالة بتشديد اللام والصداقة.

اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾
۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ
دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾
وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ
مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا
الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ
يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ
وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَٰتِ
رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ
وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ

﴿الفلك﴾: هو السفينة، ويطلق على الواحد والجمع.

﴿دائبين﴾: أي دائمين.

المعنى: إن مثل الكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة التى اقتلعت من جذورها حتى صارت ليس لها استقرار بل ذهبت مع الريح، فهذا المثل كالمثل السابق فى الآية (١٧) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٣، ٣٢٤، والمراد كل قول باطل لا ثبات له. يثبت الله الذين آمنوا بالقول المؤيد بالحجة المتمكن من قلوبهم فى الحياة الدنيا فلا يتزحزحون عن دينهم مهما اشتدت عليهم الفتن والتعذيب كما حصل لزكريا ويحيى وأصحاب الأخدود، أنظر الآية (٤) وما بعدها من سورة البروج صفحة ٨٠١، وفى الآخرة فى كل مواقفها الشديدة وأهمها يوم الفزع الأكبر، فلا يحزنهم شيء لثبات يقينهم برحمة ربهم، انظر ما تقدم فى الآية (٢٦) من سورة يونس صفحة ٢٧٠، والآية (١٠٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، ويضل الله الظالمين لأنفسهم بمحاربة الحق، ويفعل الله ما يشاء من هدايته وإضلال حسب ما اقتضته حكمته وعدله.

---

(١) الحياة.
(٢) الظالمين.
(٣) الصلاة.
(٤) رزقناهم.
(٥) خلال.
(٦) السموات.
(٧) الثمرات.
(٨) الأنهار.
(٩) دائبين.

ثم ذكر سبحانه بعض أسباب سوء عاقبة الظالمين فقال: ألم تر أيها السامع وتعجب من هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفرا، أى وضعوا مكان شكرها الذى وجب عليهم كفرا به تعالى، وهذا غاية الجحود لفضله، ومنهم كبار مشركى قريش الذين أسكنهم الله حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء وشرفهم بإرسال رسول منهم، فكفروا بكل ذلك، فأنزلوا أنفسهم وقومهم دار الهلاك، وهى جهنم التى يقاسون حر نارها، وقبحت المستقر. ومن أفظع جرائمهم أنهم جعلوا لله الواحد الصمد نظراء، واتخذوهم من الأصنام شركاء له تعالى فى العبادة لتكون عاقبة عملهم إضلال الناس عن سبيل الله، ثم أمر سبحانه نبيه أن يهددهم بقوله تمتعوا بشهواتكم قليلا، فإن نهايتكم النار خالدين فيها.

ثم أمر نبيه ﷺ أن يعرض عنهم ويرشد صالحى أمته بما فيه سعادتهم فقال: قل يا أيها النبى لعبادى الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا، فيقيموا الصلاة على أصولها، وينفقوا بعض ما رزقناهم من الحلال سرا فى التطوع وعلنا فى الواجب من قبل أن يأتى يوم لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بصحبة وصداقة، انظر الآية (٢٥٤) من سورة البقرة صفحة ٥٣.

ثم ذكر سبحانه الأدلة الواضحة على وجوده واستحقاقه العبادة وحده، ومع ذلك أعرض عنها الكافرون فاستحقوا الجزاء المناسب، فقال: الله وحده هو الذى خلق السموات والأرض، وأنزل من السحاب ماء فأخرج بسببه رزقا لكم من ثمرات الزرع والشجر ما بين مطعوم وملبوس وغير ذلك، وسخر لكم السفن لتجرى فى البحر تحمل أرزاقكم وأمتعتكم بإذنه ومشيئته فخلق الماء والهواء صالحا لحملها وتسييرها حسب ما تشاءون، انظر الآية (٤٦) من سورة الروم صفحتى ٥٣٦، ٥٣٧، والآية (١٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣، وسخر لكم الأنهار العذبة فجعلها معدة لانتفاعكم، وعلمكم كيف تنتفعون بها، وسخر لكم الشمس والقمر دائمين للإضاءة وإصلاح ما تحتاجون إليه من زرع وثمر.

المفردات: ﴿هذا البلد﴾: هو مكة.

﴿واجنبنى وبنى﴾: أى باعدنى وأبنائى.

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ[١] وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم[٢] مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ
وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ[٤] إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ[٣] لَظَلُومٌ
كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ[٤] رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا[٥]
وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ
كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى
فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ
غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ[٦]
فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ
ٱلثَّمَرَٰتِ[٧] لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ
مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى
ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ[٨] وَإِسْحَـٰقَ[٩] ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾

﴿بيتك المحرم﴾: هى الكعبة التى حرم الله التعرض لها بسوء أو التهاون بها.

﴿أفئدة﴾: أى قلوبا.

﴿تهوى﴾: المراد تميل إليهم شوقا ووددًا.

المعنى: وسخر سبحانه لكم أيها الناس الليل للراحة، والنهار للسعى، كما فى الآيات (٧١، ٧٢، ٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧. ﴿وآتاكم من كل﴾ إلخ، أى هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه فى دنياكم مما شأنه أن يطلب، سواء أطلبتموه أم لا.

وإن تعدوا ما أنعم الله به عليكم لا يمكنكم حصر أنواعه فضلا عن أفراده؛ إن الإنسان الذى قابل نعم الله بكفره أو عدم شكرها لشديد الظلم لنفسه حيث تسبب لها فى الهلاك والحرمان، كثير الكفر بمقدار النعم. ثم أراد سبحانه أن يوبخ مشركى العرب على زعمهم أنهم على ملة إبراهيم وإبراهيم منهم برىء فقال: ﴿وإذ قال إبراهيم﴾ إلخ، أى واذكر أيها النبى

---

(١) الليل.
(٢) وآتاكم.
(٣) الإنسان.
(٤) إبراهيم.
(٥) آمنا.
(٦) الصلاة.
(٧) الثمرات.
(٨) إسماعيل.
(٩) إسحاق.

لقومك قول أبيهم إبراهيم بعد بناء الكعبة يارب اجعل هذا البلد الذى فيه الكعبة ذا أمن لكل من سكنه فلا طغيان ظالم، وأبعدنى وأبنائى من أن نعبد الأصنام.

ثم بيَّن سبب طلبه الحفظ من هذا الشر فقال: إن الأصنام تتسبب فى إضلال كثير من الناس بواسطة وسوسة الشيطان، فمن تبعنى من ذريتى وابتعد عنها فإنه منى أرجوك شموله برحمتك، ومن عصانى فإنك قادر على توفيقه للتوبة فيدخل فى مغفرتك؛ وقال ابن كثير ذكر إبراهيم أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس وأنه تبرأ ممن عبدها، ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم كقول عيسى عليه السلام إن تعذبهم فإنهم عبادك أنظر الآية (١١٨) من سورة المائدة صفحة ١٦١. ربنا إنى أسكنت بعض ذريتى بواد لا ينبت زرعا يعيش عليه الإنسان عند بيتك الذى حرمت إهانته بسفك دم بجواره أو إيذاء لاجئ إليه حتى من الحيوانات البرية كما تقدم أول سورة المائدة صفحتى ١٣٤، ١٣٥. ياربنا أسكنت ذريتى هنا ليقيموا الصلاة عند بيتك فيدوم ذكرك، فاجعل قلوبا خيرة تميل إليهم ميل محبة وشوق، وارزقهم من الثمرات بأن تسخر من عبادك من يجلبها إليهم من كل ناحية، رجاء أن يشكروك.

ثم بيَّن إبراهيم عليه السلام أن دعاءه هذا إنما هو إظهار للعبودية فقال: ربنا إنك يستوى عندك علم سرنا وعلانيتنا، فأنت أعلم بمصالحنا وأرحم بنا من أنفسنا، وما يخفى عليك يا الله شيء مطلقا ولو صغيرا فى الأرض ولا فى السماء. ولما كان الشكر يزيد النعم ويجلب الرحمة، قال الحمد لله الذى وهب لى مع كبرى فى السن إسماعيل أولاً وإسحاق ثانيًا إن ربى والله لمجيب دعاء المخلصين.

وقد ولد له إسماعيل وكانت سنة ٩٩ سنة، وإسحاق وكانت سنة ١١٢ سنة.

المفردات: ﴿يقوم الحساب﴾: أى يقع ويتحقق كقولهم قامت الحرب.

﴿تشخص﴾: يرتفع جفنها وتبقى مفتوحة.

رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ
دُعَآءِ (٤٠) رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
ٱلْحِسَابُ (٤١) وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ
إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ (٤٢)
مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ
هَوَآءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ
وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم
مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ
ٱلْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ
وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ

﴿مهطعين﴾: أى مسرعين فى ذل وانكسار، وهى حال من أصحاب الأبصار المفهومين من السياق.

﴿مقنعى رءوسهم﴾: أى رافعيها من غير التفات إلى شىء كأنها مشدودة من الخلف فهى كالمقمع فى الآية (٨) من سورة يس صفحة ٥٧٩.

﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾: أصل طرف العين هو تحريك جفنها إلى أسفل، ويطلق على الجفن نفسه، وهو المراد هنا، والمعنى أن شخوص أبصارهم دائم لايزول من شدة الهول.

﴿وأفئدتهم هواء﴾: أى قلوبهم خالية من الفهم ووزن الأمور كالهواء والخلاء الذى ليس فيه شىء، انظر الآية (١٠) من سورة القصص صفحة ٥٠٧.

﴿مالكم من زوال﴾: أى لا يصيرون من الدنيا إلى البعث كما فى الآية (٣٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٠.

﴿مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾: بالكفر والمعاصى كعاد وثمود.

---

(١) الصلاة.
(٢) ولوالدى.
(٣) غافلا.
(٤) الظالمون.
(٥) الأبصار.
(٦) مساكن.

﴿يوم يأتيهم العذاب﴾: أى خوف الناس هول يوم يأتيهم فيه العذاب.

﴿مكروا مكرهم﴾: أى دبروا فى خفية كيدهم الفظيع لإبطال الحق.

﴿وعند الله مكرهم﴾: أى علمه عنده، وهو قادر على إحباطه..

﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾: أى وأنه كان مكرا شديدا بلغ شدته أنه يكاد يزيل الجبال. (إن) حرف شرط، وجواب الشرط مقدر مفهوم من سياق الكلام كما سيأتى، واللام فى (لتزول) للتعليل، ويسميها علماء العربية لام (كى) والمعنى: وعند الله جزاء مكرهم، وإن كان مكرهم معدا لزوال الجبال، أى الأمور العظيمة، فلن يبلغ مكر الله بهم.

كما يقال: أنا أعلم من فلان وإن كان فلان معدا لحل عويصات المسائل، انظر الآيات (٥٤) من سورة البقرة صفحة ٧١، و(١٢٣، ١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ٨٣، و(٢١) من سورة يونس صفحة ٢٦٩، و(٥٠، ٥١) من سورة النمل صفحة ٥٠٠.

المعنى: قال إبراهيم عليه السلام فى دعائه: يارب أجعلنى ووفقنى لأن أؤدى الصلاة على أصولها ووفق من ذريتى لذلك من صلحت قلوبهم، ربنا استجب دعائى، ربنا أغفر لى ولوالدى، قال ذلك قبل أن ينهاه ربه عن الاستغفار لأبيه كما تقدم فى الآية (١١٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٦١، ٢٦٢. وأغفر يا رب للمؤمنين جميعا يوم يقوم الحساب وبعدما فرغ سبحانه من تذكيرهم بما كان عليه أبوهم إبراهيم، أراد أن يسلى من تعدى عليهم طغاة قريش ويهدد الكفار فقال: ولا تحسبن ايها المخاطب ربك غافلا عما يعمل الظالمون من محاربة الإسلام وإيذاء المؤمنين، بل هو سبحانه عالم بكل صغيرة وكبيرة من أعمالهم، ولم يعجل بعقوبتهم الشديدة لأنه قدر تأخيرها ليوم عبوس عسير عليهم غير يسير. ثم صور حالهم فى هذا اليوم بما تنخلع له القلوب لو كانوا يعقلون فقال: ليوم تشخص فيه أبصارهم، فلا تقر من هول ما ترى، حال كونهم مسرعين إلى الداعى كما فى الآية (٨) من سورة القمر صفحة (٧٠٥)، رافعين رءوسهم لا يلتفتون إلى شىء، مثبتة أجفانهم فى أماكنها لا تطرف من الذهول، وقلوبهم كالهواء ليس فيها تفكير ولا تدبير من شدة الحيرة. وأنذر الناس أيها النبى وخوفهم من يوم يأتيهم فيه

العذاب الذى سمعتم بعض آثاره؛ فيقول الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصى ياربنا أخرنا أى أمهلنا وأخر عنا العذاب إلى أجل قريب نجب دعوتك إلى التوحيد ونتبع الرسل فيما أمروا به، وهذا الكلام يحصل منهم فى موقفين: عند الموت ومشاهدة مقدمات العذاب كما فى آيتى (٩٩، ١٠٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٤، والآية (١٠) من سورة المنافقون صفحة ٧٤٤. وعند مشاهدة عذاب جهنم فى الآخرة كما فى الآية (٢٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، والآية (٣٧) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٦، ٥٧٧. ويقال ردا عليهم: أتقولون هذا الآن ونسيتم أنكم أقسمتم من قبل هذا الموقف أنكم إذا متم تبقون ميتين ولا تبعثون للحساب، فالمراد كفرتم بالبعث، وسكنتم فى الدنيا فى مساكن الظالمين من الأمم قبلكم، وعلمتم ما كانوا عليه من الكفر مثلكم يا كفار قريش، وتبين لكم كيف نكلنا بهم وعذبناهم على عملهم، وضربنا لكم الأمثال، أى بينا لكم صفات ما فعلوا وما حل بهم بصور بديعة كالأمثال السائرة لعلكم تعتبرون، فلم ينفع كل هذا فيكم ثم بين سبحانه فظاعة كيد مشركى العرب وكيف أحبطه فقال: وقد مكر هؤلاء المشركون مكرهم الفظيع لإبطال الدعوة، وعند الله علم كل شىء عن مكرهم هذا الذى بلغ من قوته أنه تكاد تزول منه الجبال عن أماكنها، أى أنه فى غاية الشدة؛ فإن الله تعالى أقوى منهم مكرا، فأبطل كيدهم ورده إلى نحورهم. ثم أراد سبحانه تثبيت المؤمنين على الثقة بوعد ربهم فقال: ولا تحسبن أيها المخاطب لما رأيت من إمهالنا لهؤلاء أن الله يخلف ما وعد به من عذابهم..

المفردات: ﴿مخلف وعده رسله﴾: أصل التركيب مخلف رسله وعده الذى وعدهم به.

﴿عزيز﴾: غالب لا يقهر. ﴿مقرنين﴾ أى مقرون كل واحد منهم مع شيطانه كما فى الآية (٩٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥. ﴿فى الأصفاد﴾: جمع صفد بفتحتين وهو القيد من الحديد يوضع فى الأيدى والأرجل. ﴿سرابيلهم﴾: جمع سربال بكسر أوله وهو القميص.

﴿قطران﴾: مادة سوداء تسيل من نوع من شجر البادية تشبه الزفت المذاب، سريعة الالتهاب منتنة الرائحة.

﴿بلاغ﴾: كفاية. ﴿ربما﴾: كلمة تدل على قلة حصول ما بعدها وأريد بها هنا التهكم.

﴿الر﴾: تقدم الكلام على مثل هذه الحروف فى أول سورة البقرة.

مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾
يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟
لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ
فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ
ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ[1] لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟
أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ[2] وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ[3] ﴿٥٢﴾

(١٥) سُورَةُ الحِجْرِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَتِسْعُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر[4] تِلْكَ ءَايَٰتُ[5] ٱلْكِتَٰبِ[6] وَقُرْءَانٍ[7] مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا

المعنى: فلا تحسبن الله مخلف رسله ما وعدهم به من نصرهم، انظر الآية (٥١) من سورة غافر، والآية (٢١) من سورة المجادلة؛ لأنه سبحانه غالب لا يمنعه أحد عما يريد شديد الانتقام ممن كفر به وعصى رسله، فينتقم منهم يوم القيامة، يوم تبدل الأرض غير الأرض الموجودة الآن، وتبدل السموات كذلك، وبرز الإنس والجن جميعا من قبورهم لحكم الله الواحد القهار لا يشاركه أحد فى تصرفه وترى أيها الناظر المجرمين من الكافرين يوم القيامة مغلولين فى القيود مع شياطينهم، مدلية جلودهم بقطران كالسرابيل لتسرع النار إلى جلودهم مع سواد اللون ونتن الرائحة، وقطران الآخرة كنار الآخرة ليس له فى الدنيا نظير، والعياذ بالله، وتغشى وجوه المجرمين النار.

يفعل الله بهم ذلك ليجزى كل نفس منهم جزاء ما كسبت فى الدنيا، إن الله سريع الحساب لا يشغله حساب عن حساب. هذا القرآن كاف للناس لنصحهم ولإنذارهم وتخويفهم من عذاب الله وليعلموا إذا خافوا وتأملوا أنه لا إله إلا إله واحد، وليتذكر أصحاب العقول، أى يتذكرون عظمة ربهم فيبتعدوا عما فيه هلاكهم.

سورة الحجر

﴿تلك﴾ أى ما فى السورة من الآيات هى آيات الكتاب المنزل من الله، الجامع بين كونه كتابا كاملا ومقروءا، يبين الرشد من الغى.

(١) بلاغ. (٢) واحد. (٣) الألباب. (٤) الف لام را. (٥) آيات. (٦) الكتاب. (٧) قرآن.

يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا
وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا
أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ
مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ[١] ﴿٥﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي
نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ[٢]
إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ[٣] ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ[٤] إِلَّا
بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ
وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[٥] ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ
الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا
عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾

المفـــردات: . ﴿ذرهم﴾: أى اتركـــهـم فى شـهـواتهم. ﴿الا ولهـا كـتـاب مـعلوم﴾: هذه الجـملة صـفـة لقـرية وقـرنت بالـواو لتـأكيـد ربطها بالموصوف.

﴿يأيهـا الـذى نـزل عليــه الـذكــر﴾: قــال الكافرون ذلك على سبيل الاستهزاء، قبحهم الله، انظر مـاقـيل من أمـثـالهم لمثله ﷺ فى الآية (٨٧) من ســورة هود صـــفـــحـــة ٢٩٧.

﴿الذكر﴾: هو القرآن.

﴿لو مـا﴾: كلمة تدل على الحث على فعل مابعدها.

﴿منظرين﴾: أى مؤخرين. ﴿شيع﴾: جمع شيعة وهى الجماعة المتفقة على مذهب واحد.

﴿نسلكه﴾: أى ندخله كما يدخل الخيط فى الإبرة. ﴿خلت﴾: أى مضت.

﴿سنة الأولين﴾: أى طريقتهم فى الكفر بأنبيائهم. وطريقة الله سبحانه معهم بحرمانهم من الخير أو سرعة إهلاكهم. ﴿فظلوا﴾: أى صاروا مستمرين. ﴿يعرجون﴾: أى يصعدون إلى السماء.

المعنى: . يمر بالكافرين أوقات عصيبة يتمنون فيها كثيرا أن يكونوا أسلموا، وإنما أورده فى صورة القليل للإرشاد إلى أنه كـان يكفى فى حـصـول المراد، فـالعـرب تقـول: ربما تندم على

(١) يستأخرون.
(٢) بالملائكة.
(٣) الصادقين.
(٤) الملائكة.
(٥) لحافظون.

مافعلت، يريدون حتى لو كان الندم قليلا لوجب عليك أن لا تفعل مايوجبه، كيف وهو كثير، فاتركهم أيها النبى فى غرورهم ولاتطمع فى إيمانهم، يأكلون كما تأكل الأنعام ويتمتعون بدنياهم الفانية، ويشغلهم عن تدبر العواقب أملهم فى طول الحياة، فسوف يعلمون سوء عملهم عند معاينة العذاب. وبعد ذلك أراد سبحانه أن يبيِّن سبب تأخير العذاب فى الدنيا عنهم فقال: ﴿وما أهلكنا﴾ إلخ؛ أى وما أهلكنا قرية من قرى الأمم السابقة بخسفها وأهلها مثلا إلا ولها أجل مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ، لايجىء هلاكها قبله، ولايتأخر عنها إذا جاء الأجل. وبعد ما هدد سبحانه الكافرين شرع فى بيان بعض جرائمهم التى فعلوها معه ﷺ ثم سلاه بأنه قد حصل ماحصل منهم من أمم سابقة مع رسلهم وكانت العاقبة للمتقين فقال: وقالوا: أى كفار مكة تهكما واستهزاء: يأيها الذى يزعم أنه نزل عليه من الله القرآن، الواقع إنك مجنون، لأنك تدعى مايخالف آباءنا وفحول رجالنا، وإلا فلم لم تأتنا بالملائكة لتشهد لك إن كنت من الصادقين. فرد سبحانه عليهم بقوله: مانتنزل الملائكة إلا تنزيلا مقترنا بالوجه الذى اقتضته الحكمة، فلو علمنا أنهم يؤمنون حقا إذا نزلناهم لفعلنا ولكنهم كاذبون، وقد جرت سنتنا أننا إذا أنزلنا مايطلب الكافرون ولم يؤمنوا أهلكناهم فورا وماكانوا منظرين لحظة واحدة، انظر الآية (٥٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٢. ثم رد سبحانه على إنكارهم نزول القرآن على نبيه ﷺ فقال: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ الذى ينكرونه ﴿وإنا له لحافظون﴾ من كل مايمسه بسوء كذهاب أو تحريف أو زيادة أو نقص. ثم شرع فى تسليته ﷺ فقال: ولقد أرسلنا من قبلك أيها النبى رسلا فى جماعات الأمم السابقة وكانوا مثل أمتك مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون كذلك ندخل القرآن فى قلوب متعودى الإجرام مستهزأ به غير مقبول لفقد نفوسهم الاستعداد للحق، انظر الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧ والآية (٥٣) من سورة الحج صفحة ٤٤١؛ فهم لايؤمنون به أبدا، شأنهم فى ذلك شأن الأمم السابقة تعاند وتحارب الرسل فيحرمهم الله من الهداية. ثم بيَّن سبحانه سبب عدم هدايتهم وهو شدة عنادهم وعدم استعدادهم لقبول الحق فقال: ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فصاروا يصعدون فيه وينظرون إلى عجائب الملأ الأعلى...

المفردات: . ﴿سكرت أبصارنا﴾: السكر حالة تمنع الشخص من الإدراك بسبب خمر أو غضب مثلا، والمراد هنا منعت أبصارنا عن الرؤية بسبب السحر. ﴿فى السماء﴾: المراد السماء

لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴿١٥﴾
ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين ﴿١٦﴾
وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴿١٧﴾ إلا من استرق
السمع فأتبعه شهاب مبين ﴿١٨﴾ والأرض مددناها
وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴿١٩﴾
وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ﴿٢٠﴾
وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر
معلوم ﴿٢١﴾ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء
ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴿٢٢﴾ وإنا لنحن
نحيي ونميت ونحن الوارثون ﴿٢٣﴾ ولقد علمنا المستقدمين
منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴿٢٤﴾ وإن ربك هو
يحشرهم إنه حكيم عليم ﴿٢٥﴾ ولقد خلقنا الإنسان

الدنيا. ﴿بروجا﴾: جمع برج وهو واحد من اثنى عشر برجا قسموا إليها الفلك وهى منازل الكواكب أو هى النجوم الكبيرة، انظر الآية (١) من سورة البروج صفحة ٨٠٠. ﴿استرق السمع﴾: استمع مستخفيا، مأخوذ من السرقة وهى أخذ الشىء خفية. ﴿شهاب﴾: هو شعلة من نار.

﴿مبين﴾: أى ظاهر واضح لكل مبصر.

﴿رواسى﴾ أى جبالا ثابتة كما تقدم فى الآية (٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢١.

﴿موزون﴾: أى مقدر بمقدار معين اقتضته الحكمة. ﴿معايش﴾: العيش الحياة، يقال عاش فلان عيشا، ومعاشا ومعيشة أى حيى وصار حيًا، ومنه قوله ﷺ اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة، أى لا حياة دائمة إلا حياة الآخرة. انظر الآية (٦٤) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩. وتجمع المعيشة على معايش كما هنا وكما فى الآية (١٠) من سورة الأعراف صفحة ١٩٣. والعيشة هى حالة الإنسان التى يكون عليها فى حياته من رخاء أو ضيق، وسعادة أو شقاء.

﴿ومَنْ لستم له برازقين﴾: أراد بهم العيال والخدم والدواب. ﴿خزائنه﴾ أصل الخزانة هى مايحفظ فيها الشىء النفيس، والمراد بها هنا كناية عن كل ماينتفع به. ﴿بقدر﴾: أى بمقدار. ﴿لواقح﴾: جمع لاقحة بمعنى حامل. ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾: قال ابن عباس: المستقدمون هم كل مَنْ هلك من لدن آدم إلى الآن. والمستأخرون هم الأحياء الآن، ومَنْ سيأتى إلى يوم القيامة، ورآه عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم واختاره ابن جرير. وقال الحسن: المستقدمون فى الطاعة والخيرات والمستأخرون المبطئون فيها.

---

(١) أبصارنا. (٢) وزيناها. (٣) للناظرين. (٤) وحفظناها. (٥) شيطان. (٦) مددناها.
(٧) رواسى. (٨) معايش. (٩) برازقين. (١٠) الرياح. (١١) لواقح. (١٢) فاسقيناكموه.
(١٣) بخازنين. (١٤) الوارثون. (١٥) المستأخرين. (١٦) الإنسان.

المعنى: . لو أريناهم المعجزات الحسية رأى العين على أوضح صورة لقالوا لشدة عنادهم إنما منعت أبصارنا فقط عن نظر الواقع، ثم انتقلوا إلى التعميم فقالوا بل سحر محمّد أبصارنا وعقولنا فصرنا لا نرى ولانعقل حقائق بل خيالات، انظر مثله فى الآية (٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣؛ أى فمثل هؤلاء لاينفع فيهم شىء وبعد أن بيّن سبحانه أنهم معاندون لا طلاب حق، أراد أن يبين أن أمامهم من الأدلة على وجود الصانع الحكيم وقدرته ووحدانيته ما كان يكفيهم لو أخلصوا فقال: ﴿ولقد جعلنا فى السماء بروجا﴾ أى وجعلنا السماء وكواكبها ونجومها زينة للناظرين المتأملين، انظر الآية (٦) ومابعدها من سورة الصافات صفحة ٥٨٧، والآية (٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٤. وحفظنا السماء من كل شيطان مرجوم باللعنة فلا يقربها، لكن مَنْ أراد اختطاف شىء من عالم الغيب مما يلقيه الملائكة بعضهم لبعض تبعه كوكب مشتعل ظاهر للعيان، انظر الآية (١٠) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧، والآية (٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٤، والآية (٨) ومابعدها من سورة الجن صفحة ٧٧١. ومَنْ أراد تحقيق ذلك مع آية سورة الجن فليرجع إلى حديث رقم ٤٢٦ من كتابنا صفوة البخارى. وقد بسطنا الأرض ومددناها طولا وعرضا ليمكن الانتفاع بها كما تقدم فى الآية (٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢١، وجعلنا فيها جبالا ثوابت تحفظها من أن تميل وتتشقق كما تقدم فى سورة الرعد أيضًا. وأنبتنا فيها من كل شىء وزنت عناصره وقدرت تقديرا دقيقا حسب حكمتنا، وجعلنا لكم فيها ماتعيشون به أنتم وأولادكم وخدمكم وحيواناتكم أى فرزقكم ورزقهم علينا لاعليكم؛ وذلك أن كل شىء ملكنا وتحت تصرفنا كما يملك صاحب الخزائن مافيها. ومانتزل مما عندنا على خلقنا إلا بمقدار محدود معين قضائنا الأزلى. ومن قدرتنا ورحمتنا بكم أننا نرسل الرياح حاملة للمطر وكل ما فيه نفعكم، انظر الآية (٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠١، ٢٠٢؛ ولذا قال فأنزلنا من السماء أى من جهتها وهو السحاب فأسقيناكموه، ولستم بخازنى الماء العذب الذى رزقناكم به، بل حفظه فى باطن الأرض والأنهار بقدرتنا نحن، فهو منا إيجادا وحفظا. وإنا وحدنا لقادرون على إحياء من أردنا إحياءه، وإماتة من أردنا موته، ونرث الأرض ومَنْ عليها فى النهاية. ولقد علمنا كل المتقدمين منكم فى الأزمان الأولى وأحصينا ماكانوا يعملون، كما علمنا المتأخرين عنهم مَنْ كان حيا منهم أو سيوجد. وأن ربك أيها النبى هو الذى سيحشرهم يوم القيامة للحساب، إنه حكيم لايخلق الخلق عبثا كما فى الآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦، عليم بعمل كل الخلق وسيجازى عليه...

مِن صَلْصَٰلٍ[1] مِّنْ حَمَإٍ[2] مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ[3]
مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ[4]
إِنِّى خَٰلِقٌۢ[5] بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ[6] مِّنْ حَمَإٍ[7] مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا
سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ[8] ﴿٢٩﴾
فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ[9] كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ
أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ[10] ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ[11] مَا لَكَ
أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ[12] ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ
خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ[13] مِّنْ حَمَإٍ[14] مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا
فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾
قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ
رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ

المفــــردات: . ﴿صلصـــــال﴾: طين يابس يصلصل أى يظهـر له صـوت إذا نقـر عليـه، وإذا طبخ فى النار صار فخارًا، فهو قبل النار كالفخار، انظر الآية (١٤) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩.

﴿حـمـأ﴾: هو الطين الذى اسود من طول مجاورته للماء. ﴿مسنون﴾ : هو المتغير ريحه، انظر الآية (٢٥٩) من سورة البقرة صفحتى ٥٤، ٥٥.

﴿الســمـــوم﴾: هو لهب النار الخـــالص فـإضـافـة النار إليـه من إضـافـة العـام إلى الخاص ويسمونها الإضافة التى تكون للتبيين، أى تفيد أن المضاف إليه وهو هنا ﴿السموم﴾ جاء يبين المراد مما قبله وهو ﴿نار﴾ كما فى قولهم شجر كافور، وماء مطر.

﴿خلقته من صلصال﴾: ذكر إبليس الصلصال، والحمأ ليشير إلى أنه خير من آدم وذريته، وقد جاء ذلك صريحا فى الآية (١٢) من سورة الأعراف صفحة ١٩٣.

﴿رجيم﴾: أى مرجوم باللعن من الله وجميع خلقه، فما بعده تفسير له.

﴿إلى يوم الدين﴾: إلى يوم القيامة، وفيه إشعار بتأخير عقابه الشديد غير اللعن إلى هذا اليوم وأن اللعنة مع شدتها ليست وحدها جزاء فعله، وأن الجزاء الأوفى يعلنه به يوم القيامة، ومنه الخلود فى جهنم، وليس معنى ذلك أن اللعنة تنقطع عنه إذا جاء يوم القيامة، بل المراد أنه

---

(١) صلصال. (٢) حمأ. (٣) خلقناه. (٤) للملائكة. (٥) خالق.
(٦) صلصال. (٧) حمأ. (٨) ساجدين. (٩) الملائكة. (١٠) الساجدين.
(١١) بإبليس. (١٢) الساجدين. (١٣) صلصال. (١٤) حمأ.

عند ذلك اليوم يرى من الهول ما تصير معه اللعنة كأنها لاشىء؛ وبهذا نعلم أن اللعنة باقية تتبعه فى جهنم، فيلعنه كل مَنْ فيها، ويلعنه المؤمنون، انظر آيات (٣٨، ٤٤) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٨، ١٩٩ و (٢٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤ و (٦٨) من سورة الأحزاب صفحة ٥٦١.

﴿أنظرنى﴾ : أى أمهلنى أى بدون موت.

﴿إلى يوم يبعثون﴾: أى يبعث آدم وذريته للحساب والجزاء أراد بذلك أن يجد فسحة من الوقت تمكنه من إفساد أولاد آدم فَيَثْأرَ بذلك من آدم وذريته. وأراد أيضا أن ينجو من الموت الذى يعم كل حى عند النفخة الأولى فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥، لأنه إذا أخر ليوم البعث الذى يكون عند النفخة الثانية التى عندها يحيى الأموات جميعا وبذلك تتصل حياته بهذه الحياة، فلا يذوق الموت أبدًا.

ولكن الله سبحانه لم يجب طلبه كاملا، بل أخر موته ﴿إلى يوم الوقت المعلوم﴾ فقط وهو وقت النفخة الأولى التى بها فناء كل حىّ.

وإذا كان اليوم زمنا، والوقت زمنا، فما معنى إضافة الزمن للزمن؟ لمعرفة ذلك يجب أن تعلم أولاً أن المراد هنا من كل من ﴿اليوم، الوقت﴾ فالوقت هنا هو زمن وُقِّتَ وعُيِّن لوقوع حدث فيه، والحدث هنا هو النفخة الأولى.

وإنما قلنا ذلك لأن هذه المادة تدل على التوقيت والتحديد، انظر ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا﴾ الآية (١٠٣) من سورة النساء صفحة ١٢٠، و ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتًا﴾ الآية (١٧) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧ إلى غير ذلك. واليوم المراد به الزمن الذى يبدأ بالنفخة الأولى وينتهى بالنفخة الثانية، فإضافة يوم إلى الوقت من إضافة الكل إلى الجزء من أجزائه كما تقول هذا بلد البيت العتيق، والبيت العتيق جزء من أجزاء البلد. فالمعنى إلى يوم فى اللحظة الأولى منه المعلومة عند الله وحده يحدث حدثًا عظيمًا وهو النفخة الأولى التى بها تفنى الخلائق.

المعنى : ـ ومن دلائل قدرتنا أيضا أنا خلقنا أول إنسان من تراب كما فى آيات (٥٩) من سورة آل عمران صفحة ٧٢، و٣٧ من سورة الكهف صفحة ٣٨٦، و (٧) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥، فعجن بالماء فصار طينا كما فى آية سورة السجدة المتقدمة، فمكث كثيرًا حتى صار حمأ مسنونا، ثم يبس فصار صلصالاً فالمراد من صلصال مأخوذ من حمأ مسنون، وخلقنا أول الجان من قبل خلق آدم من نار لا دخان فيها.

وأذكر أيها الرسول لقومك حين عظم ربكم أباكم آدم فقال للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فإذا تممت خلقه وجعلت فيه الروح التى هى سر من أسرارى فقعوا على الأرض ساجدين له، وقد تقدم فى الآية (٣٤) من سورة البقرة صفحة ٨ معنى ذلك. ﴿فسجد الملائكة كلهم﴾ أى لم يتخلف منهم أحد.

﴿أجمعون﴾ أى فى وقت واحد، لأن مادة الجمع تفيد ذلك خصوصًا إذا فهم العموم من غيرها؛ لكن إبليس امتنع أن يكون معهم فى تعظيم آدم حسدًا وكبرًا كما فى آية سورة البقرة المتقدمة.

بعد ذلك أراد سبحانه أن يظهر ما انطوت عليه نفسه من الكبر فقال تعالى: يا إبليس أى غرض لك فى أن لا تكون مع الساجدين؟ قال إبليس: لا يصح لى أن أسجد لمن هو أقل منى منزلة كما فى الآية (١٢) من سورة الأعراف صفحة ١٩٣. وقد تقدم فى سورة البقرة شرح القصة على الوجه الخالى من المناقشة.

قال سبحانه: فاخرج من المنزلة الرفيعة التى كنت فيها، والجنة التى كان فيها آدم كما تقدم فى سورة البقرة، فإنك مرجوم باللعنة والبعد عن الرحمة، وإن ذلك الطرد دائم إلى يوم القيامة. قال : يارب حيث جعلتنى رجيما فأمهلنى ولا تمتنى إلى يوم البعث. قال سبحانه: فإنك من المنظرين إلى يوم البعث المحدد فى علمنا. قال : يارب بحق إغوائك لى لأزينن لأولاد آدم المعاصى فى دار الدنيا، ولأحملنهم جميعا على الغواية وهى الضلال والبعد عن الحق، انظر الآية (٨٢) من سورة ص صفحة ٦٠٥.

أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا
صِرَاطٌ[1] عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ
سُلْطَانٌ[2] إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ
لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ[3] لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ
جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ[4] وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾
ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ[5] آمِنِينَ[6] ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ
غِلٍّ إِخْوَانًا[7] عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ[8] ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ
وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾
وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ[9] ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا
سَلَامًا[10] قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا
نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ[11] عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ

المفردات : ﴿المخلصين﴾: تقدم فى الآية (٢٤) من سورة يوسف صفحة ٣٠٦. ﴿صراط على﴾ : أى طريق حق على أن أراعيه. ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾: سلطان أى تسلط وقدرة على إغوائهم بجبرهم على الخضوع لك، وهذا لايمنع من أن يحاول إغراءهم، انظر آيتى (٢٠٠، ٢٠١) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥ أما التسلط بمعنى القهر وجبر العبد على المعاصى والكفر فليس فى طاقة إبليس كما فى آيات (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣، و (٩٩، ١٠٠) من سورة النحل صفحة ٣٥٩، و (٣٠) من سورة الصافات صفحة ٥٨٩. ﴿فى جنات وعيون﴾: المراد فى مكان تحيط به الجنات والعيون، لا أنهم فى العيون نفسها، انظر الآية (٥٤) من سورة القمر صفحة ٧٠٨ ﴿غل﴾ : حقد ﴿نصب﴾: تعب انظرالآية (٣) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥. ﴿ضيف إبراهيم﴾: الملائكة المرسلون لقوم لوط كما تقدم فى الآية (٦٩) من سورة هود ومابعدها صفحة ٢٩٤. ﴿وجلون﴾: خائفون. ﴿بغلام﴾: وهو إسحاق كما تقدم فى سورة هود الآية (٧١) صفحة ٢٩٥.

---

(١) صراط.
(٢) سلطان.
(٣) أبواب.
(٤) جنات.
(٥) بسلام.
(٦) آمنين.
(٧) إخوانا.
(٨) متقابلين.
(٩) إبراهيم.
(١٠) سلاما.
(١١) بغلام.

المعنى: لأضلنهم أجمعين إلا عبادك المخلصين فإنى لا أستطيع إغواءهم. قال سبحانه: حفظ عبادى المخلصين من تضليلك حق علىّ، فاحفظهم من إغوائك، فليس لك سلطان على أحد منهم، لكن مَنْ اتبعك من القابلين للإغواء، فإنك تستطيع إغواءه انظر آيات من (٩١ إلى ٩٩) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٥، ٤٨٦ وأن جهنم لهى المكان الذى وعدت بجمع الغاوين فيه أجمعين. لها سبعة أبواب بعدد دركاتها لكل درك باب، فالمنافقون فى الأسفل كما فى الآية (١٤٥) من سورة النساء لكل باب جزء منهم مقسوم معين لا يتعداه. أما عباد الله الذين اتقوا معاصيه فهم فى جنات وعيون تجرى منها الأنهار، تقول لهم الملائكة ادخلوها مصاحبين للسلامة من كل عيب آمنين من كل خوف، ولم نبق فى قلوبهم حقدا ولا حسدا كحال أهل الدنيا فتكون حالهم كحال الإخوة المتقابلين وهم جلوس على سرر بحالة من النعيم الفائق لايعلمها إلا المتفضل بها. لايمسهم فى الجنة تعب فى تحصيل رزق ولا غيره، ولا يخرجون منها، فهم فى نعيمها خالدون. وبعدما بين سبحانه جزاء مَنْ عصاه ومَنْ أخلص وأطاع، ولما كان فى العصاة من هزه الخوف، أراد أن يفتح له باب الأمل فى الرجوع إلى الحق ليبعد عنه اليأس الذى يوقعه فى شراك الشيطان فقال تعالى: نبئْ أيها الرسول عبادى إنى أنا الغفور لذنوب مَنْ يتوب منهم، الرحيم بهم، فلا أعجل بعقوبتهم، وأخبرهم أيضا أن عذابى لِمَنْ أصر على معاصيه ولم يتب هو العذاب المؤلم.

ثم شرع سبحانه فى تذكيرهم بقصص مَنْ قبلهم وماحل بهم لما خالفوا رسلهم ليحملهم على التوبة فقال: ونبئهم عنْ ضيف إبراهيم من الملائكة الذين جاءوا فى صورة شبان لإهلاك قوم لوط حين دخلوا على إبراهيم فى طريقهم إلى قرى قوم لوط، فقالوا نسلم عليك سلاما، فقال سلام وقدم إليهم طعاما فلم يأكلوا، فقال إنَّا منكم خائفون أنا وأهلى من أن تكونوا رسل هلاك يشمل المؤمنين مع الكافرين، انظر آيات من (٧٠ إلى ٧٦) من سورة هود صفحتى ٢٩٤، ٢٩٥. قالوا لا تخف إنَّا ملائكة ربك مررنا عليك لنبشرك بغلام سيكون عالما كبيرا. فاستغرب من أن يأتيه ولد بعد هذه السن الكبيرة كما تقدم تفصيل القصة كاملة من كل وجه فى الآية (٦٩) ومابعدها من سورة هود صفحتى ٢٩٤، ٢٩٥.

ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ(١) بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن
مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ(٢) ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا
ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ(٣) لُوطٍ
إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ
ٱلْغَٰبِرِينَ(٤) ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ(٥) لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ(٦) بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ
يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ(٧) بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ(٨) ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ(٩) وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ(١٠) وَلَا يَلْتَفِتْ
مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ
ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾
وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ

المفـــردات: . ﴿القـــانطين﴾: اليـــائسين. ﴿خطبكم﴾: أمـــركم الخطيـــر الذى جـــاء بكم على هذه الحالة.

﴿قـدَّرنا﴾: المراد قـدَّر الله، والعـرب تفـهم إذا قال رجال الملك قولاً إنه بأمر الملك.

﴿من الغابرين﴾: أى الباقين مع الهالكين.

وقد ورد هذا اللفظ سبع مرات فى القرآن هنا وفى الآية (٨٣) من ســـورة الأعـــراف صفـحتى ٢٠٥، ٢٠٦، والآية (١٧١) من سورة الشعـراء صفـحة ٤٩٠، والآية (٥٧) من سورة النمل صفحة٥٠١، وآيتى (٣٢، ٣٣) من سـورة العنكبوت صفحة ٥٢٥، والآية (١٣٥) من سورة الصافات صفحة ٥٩٤، وكلها فى هذه المرأة فقط.

﴿منكرون﴾: أى غير معروفين لنا.

﴿يمترون﴾: يشكون. ﴿بقطع من الليل﴾: بجزء من الليل.

﴿أدبارهم﴾: أى خلفهم. ﴿وقضينا إليه﴾: أى وأوحينا إليه أمرًا مقضيا فيه.

---

(١) بشرناك.
(٢) القانطين.
(٣) آل.
(٤) الغابرين.
(٥) آل.
(٦) جئناك.
(٧) وآتيناك.
(٨) لصادقون.
(٩) الليل.
(١٠) أدبارهم.

﴿أن دابر هؤلاء مقطوع﴾: هذا بيان للأمر الموحى به، والمعنى هالكون جميعا.

﴿مصبحين﴾: أى داخلين فى وقت الصبح.

المعنى: قال إبراهيم هل تبشرونى مع كبرى، فبأى أمر عجيب تبشرون؟ قالوا: بشرناك بالأمرالمحقق فلا تكن من اليائسين. قال: أنا لا أعجب من ذلك قنوطا من رحمة ربى لأنه لا يقنط من رحمته إلا البعيدون عن معرفة قدرته تعالى، ولكن لأنه بعيد فى العادة التى أجراها سبحانه فى خلقه. وبعد ما أطمأن قال: وإذا كان الأمر ما ذكرتم فما هو الأمر الخطير الذى جاء بكم على هذه الصورة غير المعتادة فى هيئتكم وجمعكم؟ قالوا: إنّا أرسلنا إلى قوم مجرمين هم قوم لوط، لكن أهل لوط سننجيهم أجمعين ماعدا امرأته فإنا ننفذ فيها أمر الله بإهلاكها مع الهالكين.

فلما وصل الملائكة المرسلون من الله تعالى إلى جماعة لوط ورآهم لوط على الحالة التى رآهم بها إبراهيم قال أنتم قوم مجهولون لنا فماذا تريدون بنا؟ قالوا: ما جئناك بشر، بل بتحقيق ما كان قومك يكذبونك فيه وهو العذاب الذى توعدتهم به، وآتيناك بالأمر المحقق وإنا لصادقون فيما نخبرك. وإنما أكدوا له ذلك لأنه كان مضربا خائفا أن يعم الشر الجميع كما كان ذلك حال إبراهيم من الخوف عليهم، انظر الآية ٣٢ من سورة العنكبوت صفحة ﴿٥٢٥﴾.

ثم بدءوا يرتبون كيفية نجاته فقالوا: فأسر بأهلك فى جزء من الليل ولا تنتظر النهار، وسر وراء أهلك حاثا لهم على السرعة، ولا يلتفت منكم أحد إلى الخلف لئلا يصيبه أذى، واذهبوا إلى المكان الذى أمركم الله بالذهاب إليه وهو الشام. ثم قال سبحانه مخبرا نبينا ﷺ وأمته: وأوحينا إلى لوط ذلك الأمر، وهو أن هؤلاء مهلكون جميعا فى وقت الصبح. وبعد ما أطمأن لوط كان خبر هؤلاء الشبان الحسان الذين جاء الملائكة فى صورتهم، انتشر فى المدينة، وهى سدوم عاصمة الأردن فى ذلك الوقت، فجاء أهلها مستبشرين فرحين بأضياف لوط طعمة سائغة لهم، فقال لهم لوط أن هؤلاء الشبان ضيوفى..

ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾
قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَٰلَمِينَ[1] ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن
كُنتُمْ فَٰعِلِينَ[2] ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا[3] سَافِلَهَا
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ[4]
لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً[5]
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ[6] الْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ[7] ﴿٧٨﴾
فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ
أَصْحَٰبُ[8] الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ[9] ءَايَٰتِنَا[10]
فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ
بُيُوتًا ءَامِنِينَ[11] ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾
فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا

المفردات: . ﴿لعمرك﴾: العمر بفتح العين أو ضمها هو الحياة، وإذا حلفوا به التزموا الفتح: فالمعنى وحياتك.

﴿يعمهون﴾: يتحيرون ويتخبطون: ﴿الصيحة﴾: تقدمت فى الآية (٦٧) من سورة هود صفحة ٢٩٤.

﴿مشرقين﴾: داخلين فى وقت شروق الشمس.

﴿عاليها سافلها﴾: تقدم بيانهما فى الآية (٨٢) من سورة هود صفحة ٢٩٦.

﴿سجيل﴾: تقدم بيانها كذلك فى الموضع المشار إليه سابقا.

﴿للمتوسمين﴾: المتفرسين الذين يعرفون الأشياء بسماتها أى علاماتها.

﴿لبسبيل مقيم﴾: أى طريق لهم ثابت يمرون عليه كل حين، انظر آيتى (١٣٧، ١٣٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥ ﴿الأيكة﴾: أصلها الشجرة كثيرة الأغصان، والمراد هنا بقعة كثيرة الأشجار بين ساحل البحر الأحمر ومدين.

﴿وإنهما﴾: أى مَنْ أرسل إليهما شعيب وهما ﴿مدين وأصحاب الأيكة﴾. ﴿إمام مبين﴾: أصل الإمام ما يؤتم به، وقد سمى به الطريق لأنه يرشد المسافر، أى طريق واضح.

﴿أصحاب الحجر﴾: هم ثمود، والحجر مكانهم، وكان بين المدينة والشام. ﴿المرسلين﴾: المراد نبيهم صالح ومَنْ سبقه من الرسل لأن تكذيبهم لنبيهم تكذيب لكل مَنْ سبقه، انظر الآية (١٥٠) من سورة النساء صفحة ١٢٨، والآية (٥٩) من سورة هود صفحة ٢٩٣.

---

(١) العالمين. (٢) فاعلين. (٣) عاليها. (٤) لآيات.
(٥) لآية. (٦) أصحاب. (٧) لظالمين. (٨) أصحاب.
(٩) وآتيناهم. (١٠) آياتنا. (١١) آمنين.

المعنى: هؤلاء ضيوفى فلا تفضحونى بالإساءة إليهم، واتقوا الله ولاتذلونى بإذلالهم. قالوا أو لم يسبق أننا نهيناك عن الدفاع عن أحد من الناس كافة، انظر الآية (١٦٧) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٠. قال ﴿هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين﴾ تقدم شرحها فى صفحة ٢٩٥. فقالت الملائكة للوط تطمينا له: وحياتك إنهم لفى ضلالهم المتمكن منهم حتى جعلهم كالسكارى لايعقلون، فهم يتخبطون على غير هدى، أى فلا تنتظر منهم خيرا وسنريحك منهم، انظر الآية (٨١) من سورة هود صفحة ٢٩٦، فأخذتهم الصيحة فى وقت الشروق، فجعلنا عالى قريتهم التى كانت تعمل الخبائث سافلها، وأنزلنا عليهم حجارة محماة بالنار لسرعة القضاء عليهم وإن فى هلاك هؤلاء وتدمير قريتهم لآيات وعبرا لمن يتفكر ويتأمل. وإنها لفى طريق ثابت يسلكه أهل مكة كل حين إذا سافروا إلى الشام للتجارة. فكان يجب أن يفكروا أو يعتبروا، ولكنهم لاينتفعون؛ لأن الآيات والعبر لاتنفع إلا المؤمن والمستعد للإيمان. وكان نبى الله شعيب أرسل إلى مدين التى كان منها، وأرسل أيضًا إلى أصحاب الأيكة وكان أجنبيا عنهم ولذا وصف سبحانه هودا وصالحا ونوحا ولوطا كلا منهم بأنه أخو المرسل إليهم، انظر آيات (٦٥، ٧٣) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٣، ٢٠٤، و (٥٠، ٦١) من سورة هود صفحتى ٢٩١، ٢٩٣، و (١٠٦، ١٢٤، ١٦١) من سورة الشعراء صفحات ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٩، ووصف بذلك شعيبا فى إرساله لمدين، انظر آيات ٨٥ من سورة الأعراف صفحة ٢٠٦، و (٨٤) من سورة هود صفحتى ٢٩٦، ٢٩٧، و (٣٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٥، ولم يصفه بذلك فى إرساله لأصحاب الأيكة كالآية التى معنا وآيتى (١٧٦، ١٧٧) من سورة الشعراء ٤٩٠ صفحة فقال: ﴿وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين﴾ إلخ: أى وإنه كان أصحاب الأيكة الذين أرسل إليهم شعيب ظالمين بتكذيبهم نبيهم، فانتقمنا منهم بالظلة المبينة فى الآية (١٨٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١.

وأما أهل مدين فأخذتهم الصيحة كما تقدم فى سورة هود، وإن مكان مدين وأصحاب الأيكة المرسل إليهم شعيب لفى طريق واضح يسلكه أهل مكة فى ذهابهم للشام. ﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين﴾ وآتيناهم آياتنا الدالة على صدق نبيهم صالح كما تقدم فى سورة هود، فاستمروا فى الإعراض عنها وكانوا يتخذون بيوتهم فى جوف الجبال ليكونوا آمنين من هدمها ومن اللصوص وغير ذلك، فأخذتهم الصيحة وقت الصبح فما أغنى عنهم ماعملوه من تحصين البيوت واستكثار الأموال، انظر الآية (١٤١) ومابعدها من سورة الشعراء صفحة ٤٨٨.

السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ
السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ
الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ
مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ
جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾
كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ
عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ
يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ
نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ

المفردات: . ﴿الساعة﴾: يوم القيامة. ﴿الصفح الجميل﴾: هو ما لاعتاب معه، قال ابن كثير: وكان هذا قبل أن يُؤْذن ﷺ بقتالهم لأن السورة مكية والقتال إنما شرع في المدينة انظر الآية (١٠٩) من سورة البقرة صفحة ٢١.

﴿سبعا من المثانى﴾: هى سورة الفاتحة لأنها سبع آيات تثنى أى تكرر قراءتها فى كل صلاة، فالمثانى جمع مُثَنَّى بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد النون مفتوحة، والمثنى هو المردد، المكرر، لتكرر قراءته دون سأم أو ملل بل بإقبال نفس وشوق، وأيضًا لتكرر براهينه ومواعظه وقصصه بصور مختلفة لقطع سبل العذر على مَنْ يحاول الاعتذار يوم القيامة انظر الآية (٢٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩.

﴿والقرآن العظيم﴾: عطفه على ماقبله من قبيل عطف الكل على الجزء كما يقال: (رأيت وجه فلان وجسده كله).

﴿لاتمدن عينيك﴾: أى لاتنظر إليه نظرة راغب فيه.

﴿أزواجا منهم﴾: أى أصنافا من الكفرة كاليهود والنصارى والمشركين. ﴿واخفض جناحك﴾: كناية عن التواضع لهم والرفق بهم.

﴿المقتسمين﴾: هم اليهود والنصارى الذين قسموا القرآن إلى حق وباطل، فما وافق أهواءهم فهو حق وإلا فباطل.

﴿عضين﴾: مفردها عضة بكسر ففتح من عضيت الشىء بالتشديد أى فرقته فكل فرقة تسمى عضة، وهو تفسير للتقسيم قبله.

(١) لأتية. (٢) الخلاق. (٣) آتيناك. (٤) القرآن. (٥) أزواجًا. (٦) القرآن.
(٧) لنسألنهم. (٨) كفيناك. (٩) المستهزئين. (١٠) إله.

﴿فاصدع﴾: أى اجهر.

﴿كفيناك﴾: أى كفيناك شرهم، وحفظناك منهم.

المعنى: . بعد ماذكر من قصص الأولين ما فيه عبرة للمعتبر، أراد أن ينبه إلى عبرة أخرى هى أن خلق السموات والأرض ومافيهما على هذا النظام لابد أن يكون لحكمة هى عبادة خالقها والإصلاح فيها والبعد عن الإفساد فقال سبحانه: وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما إلا خلقا مقترنا بالحق لا باطلا ولا عبثًا، انظر الآية (١٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١، والآية (٢٧) من سورة ص صفحة ٦٠٠.

وإن الساعة لآتية قطعا فينتقم الله لك ممن كذبك، فلا تحرص على سرعة الانتقام منهم بل عاملهم معاملة الصفوح الحكيم حتى يأذنك بتأديبهم، إن ربك هو الذى خلقك وخلقهم، وهو العليم بحالك وحالهم، وسيعامل كلا منكما بما يستحق. ولقد أكرمناك بإعطائك فاتحة الكتاب والقرآن العظيم، ومَنْ يعطى هذه النعمة العظمى لايصح منه أن يرى أن هناك نعمة أعلى منها يرغب فيها.

وعلى هذا فلا يصح لمؤمن أن يمد عينيه وينظر إلى مامتع الله به أصناف الكافرين من زخارف الدنيا الزائلة، فلا تحزن أيها النبى أى لا تحزن عليهم إذا لم يؤمنوا، وتواضع لِمَنْ معك من المؤمنين وعاملهم برفق فإنهم هم الذين ينصرك الله بهم.

وقل لهؤلاء المشركين إنى نذير لكم واضح الحجة بعذاب إذا لم تؤمنوا.

ولما كان إيتاء القرآن هو إنزاله قال سبحانه: ﴿كما أنزلنا﴾ إلخ، أى أنزلنا عليك الفاتحة والقرآن كما أنزلنا على مَنْ قبلك من اليهود والنصارى التوراة والإنجيل فاقتسموا القرآن وجعلوه أجزاء آمنوا ببعضها وكفروا بالآخر تبعا لأهوائهم لا للحق فى ذاته والمراد أن هذا سيحصل من اليهود والنصارى قطعا حتى كأنه حاصل الآن وإن كان لم يحصل فعلا إلا بعد هجرته إلى المدينة واختلاطه بهم، وإنما سارع سبحانه بإخبار رسوله بما سيكون لئلا يفاجأ بما يزعجه، انظر نظير ذلك فى الآية (١٤٨) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨.

رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ
يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

(١٦) سُورَةُ النَّحْلِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَعِشْرُونَ وَمِائَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ
مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ
خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ

فوربك أيها النبى لنسألنهم جميعا عن هذا التقسيم الباطل ونجازيهم عليه. فاجهر بتبليغ ما أمرك ربك بتبليغه، ولا تلتفت لما يقول الكافرون، ولا تخف لأنا كفيناك شر هؤلاء الطغاة الذين يستهزئون بك وبمَنْ آمن معك وبما أنزل عليك، انظر الآية (١٤٠) من سورة النساء صفحتى ١٢٦، ١٢٧ وآيتى (٥٢، ٥٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٠.

هؤلاء المستهزئون هم الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون عاقبة إجرامهم وأنها وبال عليهم فى الدنيا والآخرة. ولقد نعلم إنك أيها النبى يضيق صدرك بما يقولون فى القرآن من أنه سحر، وفيك بانك كاهن ومجنون، انظر الآية (٣٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧، والآية (٤٢) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٤، فلا تحزن والجأ إلى ربك، واستعن بتسبيحه عليهم....

﴿اليقين﴾: هو الموت لأنه متعين حصوله لكل حى حتى صار كأنه هو اليقين نفسه.

سورة النحل

المفردات: ـ ﴿أتى أمر الله﴾: أى أن الأمر الذى وعدكم ربكم به آت ولابد حتى كأنه أتى فعلا.

﴿بالروح﴾: الروح هنا هو الوحى الذى يشمل القرآن وغيره من كتب الأنبياء وكل مايلقيه الله سبحانه لهم مما فيه منفعة للخلق، انظر تفصيل ذلك فى شرح الآية (٨٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦.

﴿أمره﴾: أى أن هذا القرآن من أمر الله وسر من أسراره.

---

(١) الساجدين. (٢) سبحانه. (٣) وتعالى. (٤) الملائكة. (٥) تعالى . (٦) الإنسان. (٧) والأنعام.

﴿نطفة﴾: انظر شرحها فى الآية (١٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦.

﴿خصيم﴾: شديد الخصومة والجدل.

﴿مبين﴾: ظاهر الخصومة.

﴿الأنعام﴾: هى الإبل والبقر والغنم.

﴿دفء﴾: مايستدفأ به لدفع البرد من وبرها وصوفها وشعرها كما فى الآية (٨٠) الآتية فى هذه السورة صفحة ٣٥٦.

المعنى: . فاستعن بتسبيح ربك وكن من المحافظين على الصلاة، فإنها تعين على كل شدة كما فى الآية (٤٥) من سورة البقرة صفحة ١٠، واعبد ربك حتى يأتيك الموت.

ولما كان كفار مكة يستعجلون العذاب الذى وعدهم به القرآن،ويقولون باستهزاء متى هذا الوعد، انظر آيات (٤٨، ٥١، ٥٣) من سورة يونس صفحة ٢٧٤، رد سبحانه بقوله: ﴿أتى أمر الله﴾ أى قرب قربا شديدا حتى كأنه وقع فأريحوا أنفسكم من استعجاله. تنزه الله تنزيها عظيمًا وترفع عما يشركون به من أصنام لاتقدر على خلق أضعف شىء وهو الذباب كما فى الآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤. ينزل الملائكة بالوحى من قرآن وغيره على مَنْ يشاء اتخاذه رسولا من عباده قائلا لهم أنذروا الخلق بأنه لا إله إلا أنا الواحد القادر فاتقوا مايغضبنى.

بعد ماذكر سبحانه أنه لا إله إلا هو أراد أن يبين بعض أدلة ذلك لعل الكفار يتنبهون لها فيرجعوا عن ضلالهم. وكل مافى السورة يدور حول هذا الموضوع، فقال خلق السموات والأرض مقترنة بالحق لا للهو واللعب كما تقدم فى صفحة ٢٤٤. تنزه وترفع سبحانه وتعالى عما يشركون به. وخلق الإنسان من نطفة سائلة لاتماسك فيها ولاتحفظ شكلا، فنسى هذا الإنسان أنه مخلوق من ماء مهين، وتبجح على خالقه، وأنكر قدرته بأسلوب مخاصمة ظاهرة، فقال منكرا البعث ﴿مَنْ يحيى العظام وهى رميم﴾ الآية (٧٨) من سورة يس.

﴿والأنعام خلقها لكم﴾ يابنى آدم تأخذون منها ماتستدفئون به...

الجزء الرابع عشر

وَمَنَٰفِعُ[1] وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ (٥) وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ
وَحِينَ تَسۡرَحُونَ (٦) وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ
بَٰلِغِيهِ[2] إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ (٧)
وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا
تَعۡلَمُونَ (٨) وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ
لَهَدَىٰكُمۡ[3] أَجۡمَعِينَ (٩) هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ
لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ
ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ[4] وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ[5]ۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ[6] لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ[7]
وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ[8] بِأَمۡرِهِۦٓۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ[9] لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ[10]ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ[11] لِّقَوۡمٖ

المفـردات: ـ جـمـال: زينة وحسن منظر.

﴿تريحون﴾: أى تردونها فى المساء من المرعى إلى مـراحـهـا ممتلئة البطون والضـروع ولذا قدمه.

﴿وحين تسرحون﴾: أى تخرجونها فى الصباح إلى مسارحها ومراعيها تقول العرب سرح فلان ماشيته بوزن نفع إذا أخرجها صباحا للمرعى ويقولون سرحت الماشية إذا خرجت للمرعى، ففعل ﴿سرح﴾ متعد ولازم والمراد هنا تخرجونها.

﴿أثقالكم﴾: أحمالكم الثقيلة.

﴿رءوف رحيم﴾: رءوف يرفع كل بلاء ومشقة ﴿رحيم﴾ يضم إلى رفع البلاء الإحسان إلى عباده.

﴿قصد السبيل﴾: السبيل هى الطريق مطلقا، والقصد فى الأصل مصدر أريد به القاصد أى المستقيم، أى على الله بيانها، انظر الآية (١٠) من سورة البلد مع الآية (١٢) من سورة الليل صفحتى ٨٠٨، ٨١١ ﴿ومنها جائر﴾: أى مائل وبعيد عن الاستقامة انظر الآية (١٥٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩. ﴿تسيمون﴾: أى تجعلون أنعامكم ترعى فيه.

﴿ذرأ لكم﴾: أصل معنى الذرء بث الأشياء وتكثيرها والمراد خلق بتقدير ونظام.

المعنى: ـ وخلق لكم سبحانه فى الأنعام منافع كنسلها ولبنها وركوبها، ومن لحومها وشحومها تأكلون، ولكم فيها بهجة حين تريحونها مساء، وحين تسرحون بها صباحا، ومن فائدة بعضها وهى الإبل أنه تحمل متاعكم الثقيل إلى بلد بعيد لم تكونوا واصلين إليه لولاها إلا بمشقة

(١) ومنافع. (٢) بالغيه. (٣) لهداكم. (٤) والأعناب. (٥) الثمرات. (٦) لآية.
(٧) الليل. (٨) مسخرات. (٩) لآيات. (١٠) ألوانه. (١١) لآية.

شديدة على أنفسكم، إن ربكم رءوف بكم فى كل مايشق عليكم رحيم بعموم إحسانه إليكم فى كل شىء من دفع مشقة وجلب أسباب النعيم والمسرة. وخلق لكم الخيل والبغال والحمير لتركبوها، وجعل لكم من منظرها زينة وبهجة لمن يركبها، وسيخلق لكم فى المستقبل غير هذه مالا تعلمونه الآن، وقد صدق وعده وخلق القطارات والسيارات والطائرات ومازالت قدرته تخلق للإنسان ما لا يعلم، ومما تقدم تعلم أن أهم مايقصد من الإبل هو حمل الأثقال المسافات البعيدة وأهم مايقصد من الخيل وزميلتيها ﴿البغال والحمير﴾ هو الركوب، وهذا لايمنع أنه قد يستعمل كل مما ذكر فى أغراض أخرى كالحمل على البغال مثلا والركوب على الإبل. ولما كانت حكمة خلق الإنسان هى عبادة الله وعمارة الأرض كما فى الآية (٣٠) من سورة البقرة صفحتى ٧، ٨ والآية (٥٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ أراد سبحانه أن ينبه إلى أنه سبحانه أرسل رسله لبيان طريق الخير المحقق للحكمة فقال: وعلى الله بيان الطريق المستقيم كما فى الآية (١٥٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩، ومن الطرق ماهو منحرف بعيد عن الخير، ولو شاء لجبر الناس على الهداية كالملائكة ولكن لاتكون الدنيا على هذا النظام، انظر بيان ذلك فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ والآية (٩٩) من سورة يونس صفحة ٢٨١، وهو سبحانه الذى أنزل من جهة السماء ماء بعضه شراب لكم وبعضه ينبت منه الشجر، والمراد الزرع الذى ترعاه الأنعام التى منها اللبن واللحوم والكساء، وينبت به الزرع الذى يخرج لنا حبوبا، والزيتون والنخيل والأعناب وغير ذلك من كل الثمرات.

إن هذه الأعمال الجليلة لأدلة واضحة على وجود صانع حكيم ينتفع بها أرباب العقول المفكرة، انظر الآية (٢٤) ومابعدها من سورة عبس صفحة ٧٩٢، وسخر لكم الليل لتستريحوا فيه والنهار للسعى على الرزق، والشمس وعليها حياة الحيوان وبقاء النبات، والقمر لمعرفة عدد السنين والحساب، والنجوم مسخرات لكم بأمره لتهتدوا بها فى ظلمات الليل؛ إن فى كل ذلك لآيات وبراهين لقوم يعقلون، ومن دلائل قدرته تعالى ودقة صنعه ما أوجده بكثرة فى الأرض من عجائب خلقه مثل المعادن والجبال والحيوان والنبات بألوان مختلفة يستدل باختلافها على وجود صانع حكيم كل متذكر متعظ متنبه لما حوله، انظر آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٥ ...

ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن
مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا
ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ
إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ
ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ
يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ
مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ
ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾
وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ

المفردات: . ﴿القانطين﴾: اليائسين. ﴿خطبكم﴾: أمركم الخطير الذى جاء بكم على هذه الحالة.

﴿قدَّرنا﴾: المراد قدَّر الله، والعرب تفهم إذا قال رجال الملك قولاً إنه بأمر الملك.

﴿من الغابرين﴾: أى الباقين مع الهالكين.

وقد ورد هذا اللفظ سبع مرات فى القرآن هنا وفى الآية (٨٣) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٥، ٢٠٦، والآية (١٧١) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٠، والآية (٥٧) من سورة النمل صفحة٥٠١، وآيتى (٣٢، ٣٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٥، والآية (١٣٥) من سورة الصافات صفحة ٥٩٤، وكلها فى هذه المرأة فقط.

﴿منكرون﴾: أى غير معروفين لنا.

﴿يمترون﴾: يشكون. ﴿بقطع من الليل﴾: بجزء من الليل.

﴿أدبارهم﴾: أى خلفهم. ﴿وقضينا إليه﴾: أى وأوحينا إليه أمرًا مقضيا فيه.

---

(١) بشرناك.
(٢) القانطين.
(٣) آل.
(٤) الغابرين.
(٥) آل.
(٦) جئناك.
(٧) وآتيناك.
(٨) لصادقون.
(٩) الليل.
(١٠) أدبارهم.

المعنى: . والله هو الذى سخر البحر بقسميه المالح والعذب كما فى الآية (١٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣ لتأكلوا منه سمكا طازجا وتستخرجوا منهما لؤلؤا وكل مايتحلى به الإنسان خصوصا النساء، ومن فضله أنه سخر لكم البحر لتجرى السفن فيه لحمل أمتعتكم وأقواتكم، ولتطلبوا فضل الله بالتجارة فتنقل بضائعكم الثقال لعلكم تعرفون فضله فتشكروه بطاعته والبعد عن معصيته، وجعل فى الأرض جبالا ثابتة تحفظ الأرض أن تميل وتتفتت، وجعل فيها أنهارا للشرب والزرع وطرقا لعلكم تهتدون فى السير إلى مقاصدكم، وجعل فى الطرق علامات تدل السائر إلى اتجاهه، وجعل النجوم لفوائد، منها الاهتداء بمواقعها على السير فى البر والبحر.

وبعد ما عدد هذه النعم الدالة على عظيم قدرته سبحانه، أراد أن ينكر على المشركين غفلتهم فقال ﴿أفمن يخلق﴾ إلخ؛ أى هل يصح أن تجهلوا فتسووا مَنْ يخلق هذه العجائب بأصنامكم التى لاتخلق شيئًا؟ أفلا تتأملون فتعلموا فساد عملكم، وماذكر لكم بعض يسير من نعم الله تعالى عليكم التى إن حاولتم عدها استحال عليكم حصرها، ومع هذا جحدتموها وكفرتم به، فكان حقكم الهلاك، ولكنه سبحانه غفور لما فرط منكم من التقصير فى شكرها إذا رجعتم عن غيكم، رحيم لايعجل بعقوبتكم ليفسح المجال للتوبة.

ثم أراد سبحانه أن يبين خواص الإله الحق وهى علم السر والجهر والخلق لكل شىء، ليقارنوا فيعلموا أن ليس فى الأصنام شىء منها فقال: والله يعلم كل شىء ويستوى عنده السر والجهر، والذين يعبدهم المشركون لايخلقون شيئًا بل هم أنفسهم مخلوقون له تعالى، وهم أموات الآن وغير قابلين للحياة فى المستقبل أبدا، ولايعلمون متى يبعث عبادهم من القبور، والإله الذى يجهل وقت بعث عباده أعجز من ذبابه وأجهل من فراشة.

وإذا كان الأمر كذلك فيجب أن تعلموا أن إلهكم الحق هو إله واحد، أما الذين لايؤمنون بالبعث فقلوبهم متحجرة منكرة للوحدانية لأنهم غارقون فى الكبر وهو أساس كل مصيبة، انظر الآية (٣٤) من سورة البقرة صفحة ٨. ثم توعدهم بالعقاب فقال: لاشك أن الله يعلم سرهم وعلانيتهم، وسيجازيهم بأشد العقاب.

إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ
رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ
كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ
عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن
فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾
ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ
تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ
وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ
بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ
جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

المفـردات: . ﴿أسـاطيـر﴾: جـمع أسطورة وهى الأكـذوبة كـمـا فـى الآية (٢٥) من سـورة الأنعام صفحتى ١٦٥، ١٦٦.

﴿أوزارهـم﴾: ذنوبهـم ﴿ومن أوزار﴾: ﴿مـن﴾ هنا تبعيضية، فالمراد ومثل بعض أوزار الذين تبعوهم، وهذا البعض من الذنوب هو الذنوب التى ارتكبهـا هؤلاء المغـرر بهم بسـبب إغـراء زعماء الكفر، أما ذنوب الأتباع التى ارتكبوها من غـيـر إغـراء فـلا يتـحمل المغـرورن مثلها. ﴿ألا﴾: حرف يدل على أن قصد المتكلم تنبيه السـامع لما يذكـر بعـد لخطورته. ﴿يزرون﴾: يحـملون من الوزر. ﴿مكر الذين من قبلهم﴾: وهم الأمم الكافـرة بأنبـيـائهـا، انظر الآية (٤٢) من سـورة الرعـد صـفـحـة ٣٢٨. ﴿فـأتى الله بنيـانهـم من القـواعد﴾: القـواعـد هى الأسس التى يقـوم عليـهـا البنـاء، والكلام كنـاية عن إبطال مكرهم من أساسه وإهلاكهم. ﴿فخر عليهم السقف﴾: خر السقف أى سقط ﴿تشاقون فيهم﴾: تخاصمون وتنازعون الأنبياء فى شأنهم وتزعمون أنهم شركاء لله حقا. ﴿الذين أوتوا العلم﴾:

---

(١) أساطير.
(٢) القيامة.
(٣) بنيانهم.
(٤) وأتاهم.
(٥) القيامة.
(٦) شركائى.
(٧) تشاقون.
(٨) الكافرين.
(٩) تتوفاهم.
(١٠) الملائكة.
(١١) أبواب.
(١٢) خالدين.

من أهل الموقف يوم القيامة وهم الأنبياء انظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧ والآية (٨٩) من هذه السورة صفحتى ٣٥٧، ٣٥٨. ﴿الخزى﴾: الذل والهوان. ﴿السوء﴾: العذاب. ﴿فألقوا السلم﴾: السلم الاستسلام والخضوع. ﴿بلى﴾: حرف يدل على إبطال النفى قبله وإثبات نقيضه، انظر الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١. ﴿مثوى﴾ مكان إقامة.

المعنى: . إن الله لايحب مَنْ استكبر عن قبول الحق. ومَنْ كرهه الله هلك. وإذا قيل لهؤلاء المستكبرين للفت نظرهم إلى ما فى القرآن من البراهين: ما الذى أنزله ربكم على محمَّد؟ قالوا: هذا الذى تزعمون نزوله من الله ماهو إلا ترهات وأباطيل منقولة عن الأولين، انظر ما فى آيات (٤، ٥، ٦) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠، ٤٧١. وإنما أوقعهم الشيطان فى هذا القول الباطل لتكون عاقبة أمرهم أنهم يجمعون يوم القيامة بين عقاب ذنوبهم كاملة وعقاب مثل ذنوب الذين غرروا بهم وأضلوهم وهم لايعلمون أنهم مضللون، أى فهم جهلاء فى هذا، وخطر الجهل فى العقائد مما لايخفى. وبين ذلك ﷺ بقوله: مَنْ سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة. ألا قبح مايحملون من الأوزار المضاعفة، انظر الآية (١٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢. ثم هددهم سبحانه بأنه سيحل بهم مثل ما حل بمَنْ فعل فعلهم مع أنبيائهم فقال: قد مكر. أى دبر الكيد فى خفاء الكافرون من قبلهم لأنبيائهم فأبطل الله تعالى كيدهم من أساسه وجعل وباله عليهم. وفى الكلام تمثيل حال مشركى مكة بحال مشركى الأمم السابقة فى إبطال مكرهم وتعذيبهم ونجاة الرسل. ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول توبيخا لهم: أين ماجعلتموهم شركاء لى وكنتم تدافعون عنهم وتنازعون رسلى بزعمكم أنهم شركاء حقا؟ وعندما يعجزون عن الجواب يقول الأنبياء الشهداء عليهم: إن الخزى والهوان اليوم والعذاب واقع على الكافرين الذين استمروا على كفرهم حتى توفتهم رسل الموت والحال أنهم ظالمون أنفسهم بالشرك. عند ذلك يستسلمون ويخضعون قائلين كذبا من شدة الدهشة: ماكنا فى الدنيا نعمل شيئًا من المعاصى. فيقول لهم الملائكة والأنبياء: كلا فقد كذبتم لأنكم عملتم أفظع المعاصى، والله سبحانه عليم بكل ماكنتم تعملون. فإذا كذبتم فهو سبحانه صادق، انظر آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٦٤. مآل هؤلاء أنهم يدخلون أبواب جهنم، لكل باب منهم جزء مقسوم كما فى الآية (٤٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤١، وقبحت جهنم مثوى المتكبرين.

* وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ
لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ
وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ
سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ
يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ
كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟
وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ
وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ

المفردات: . ﴿ينظرون﴾: ينتظرون.

﴿حاق بهم﴾: أى أحاط بهم حتى صاروا لاخلاص لهم منه.

المعنى: . وقيل للذين اتقوا ربهم فلم يشركوا به غيره: ما الذى أنزله ربكم على رسوله؟ قالوا: أنزل خيرا للعالمين. فكان جزاؤهم أن لهم فى الدنيا مثوبة حسنة من عز ونصر وطمأنينة قلب، ووالله لثواب دار الآخرة الذى أعد لهم خير مما أوتوا فى الدنيا كما فى الآية (١٤٨) من سورة آل عمران صفحتى ٨٦، ٨٧. ولنعم الدار للمتقين دار الآخرة هى جنات عدن يدخلونها تجرى من تحت قصورها الأنهار، لهم فيها مايشاءون من النعيم. كهذا الجزاء العظيم يجزى الله كل المتقين الذين تتوفاهم الملائكة حال كونهم طاهرين من دنس الشرك، تقول الملائكة لهم عند الموت تطمينا لهم: أمان من الله عليكم فلا يصيبكم مكروه بعد اليوم، ادخلوا الجنة التى أعدها الله لكم جزاء ثباتكم على أعمالكم الصالحة. هذا هو جزاء المتقين.

أما كفار مكة فلا ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم بالموت العادى، أو يأتى أمر ربك بإهلاك كفار الأمم السابقة كما فى الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦.

ثم أراد سبحانه أن يبين أن عادته مع الأمم واحدة، فكل مجرم يلقى جزاءه، فقال كهذا الشرك والتكذيب لرسولهم الذى وقع منهم فعل الذين مضوا قبلهم كعاد وثمود وغيرهم، فعاقبهم الله سبحانه، وماظلمهم ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم، فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم، وأحاط بهم العذاب الذى كانوا ينكرونه ويستهزئون به كما فى الآية (٤٨) من سورة يونس صفحة ٢٧٤ والآية (٣٢) من سورة هود صفحة ٢٨٩ ثم بيَّن سبحانه نوعا من عناد أهل مكة يلجأون إليه إذا قهرتهم الحجة وهو قولهم: لو شاء الله ماعبدنا من دونه شيئًا نحن ولا

---

(١) جنات. (٢) الأنهار. (٣) تتوفاهم. (٤) الملائكة. (٥) سلام. (٦) الملائكة

آباؤنا ولا حرمنا ماحرمنا مما هو مبين فى الآية (١٠٣) من سورة المائدة صفحة ١٥٧ وآيتى (١٣٨، ١٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٨٦، وقد تقدم فى شرح الآية (١٤٨) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨ إبطال كلامهم.

ثم بيَّن سبحانه أن هذا منهم تقليد موروث عمن سبقهم، ولم يمنعهم من عذاب الله فقال تعالى: ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾.

المفردات: . ﴿الطاغوت﴾: كل مايصرف عن الله عز وجل، انظر الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤.

الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)
وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ
الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧) وَأَقْسَمُوا
بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا
عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ
لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا
كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ
كُن فَيَكُونُ (٤٠) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا
لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا

﴿حقت﴾: وجبت وثبتت. ﴿الضلالة﴾: المرة الظاهرة من الضلال.

﴿جهد أيمانهم﴾: أى غاية اجتهادهم فى الحلف أى مؤكدين بكل تأكيد.

﴿بلى﴾: حرف يبطل النفى قبله ويثبت نقيضه.

﴿لنبوئنهم﴾: لنسكننهم.

المعنى: . كهذا العناد الباطل فعل الكافرون بأنبيائهم ممَّنْ سبقهم، فأشركوا، وحرموا الحلال، وردوا على رسلهم بهذا الكذب، ولما كان قولهم هذا يتضمن تكذيب الرسل فى أن الله تعالى هو الذى حرم الشرك وغيره، ويشعر بأنهم يوهمون الجهلة بأنه لو كان الرسل صادقين

---

(١) البلاغ. (٢) الطاغوت. (٣) الضلالة. (٤) عاقبة. (٥) هداهم.
(٦) ناصرين. (٧) أيمانهم. (٨) كاذبين. (٩) أردناه. (١٠) لنبوئنهم.

لطلبوا من الله منعنا من الشرك وغيره، رد سبحانه بقوله ليس على الرسل إلا التبليغ الواضح لكل ما أراد الله تبليغه للناس، وليس فى قدرتهم هداية أحد، ولايصح أن يطلبوا من الله مالم يأذن لهم بطلبه. ثم فصل بعض ما أجمل فقال: ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً يقول لهم اعبدوا الله وحده وابتعدوا عن كل طاغية يصرفكم عن طاعة ربكم من شيطان أو كاهن أو جبار، فمن الناس مَنْ أخلص نيته فهداه الله تعالى، ومنهم مَنْ عاند واستكبر فحقت عليه الضلالة، فسيروا فى الأرض يا كفار مكة فانظروا كيف كانت نهاية المكذبين لرسلهم من عاد وثمود وغيرهم وما هم منكم ببعيد.

ولما كان نبينا ﷺ رحيما يصعب عليه شقاء قومه كما فى الآية (١٢٨) من سورة التوبة صفحة ٢٦٤ قال سبحانه: إن تحرص أيها النبى على هداية قومك كفار مكة فلن ينفعك حرصك شيئًا لأنهم ممَنْ حقت عليهم الضلالة، والله لايهدى مَنْ اختار الضلال، ومالهم يوم القيامة مَنْ ينصرهم بمنع العذاب عنهم ثم بيَّن أنهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث أيضًا، فقال: ﴿وأقسموا بالله﴾ أى حلف كفار قريش غاية طاقتهم على أن الله لايبعث مَنْ يموت أى على إنكار البعث، فرد عليهم سبحانه أبلغ رد بقوله: ﴿بلى﴾ أى سيبعثهم حتما لأنه كتب على نفسه بذلك وعدا حقا لايتخلف، ولكن أكثر الناس يجهلون حكمته فى خلق هذا العالم، وأنه ماخلقه عبثا، فهم لايعلمون صدق هذا الوعد انظر الآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦. يبعثهم سبحانه ليبين لهم الذى اختلفوا فيه وهو الحق، فيعرفون فى أى جانب هو، فيعلم المؤمنون أنهم صادقون فيما قالوه عن الله تعالى وعن البعث وغيره من كل حق، ويعلم الذين كفروا أنهم كاذبين فى إنكار ذلك.

ثم بيَّن سبحانه أن إيجاد كل مايريده بغاية السهولة فكيف يصعب عليه البعث الذى هو فى قدرته فقال سبحانه: ﴿إنما قولنا لشىء﴾ إلخ؛ أى لايحتاج الشىء الذى نريد إيجاده إلا أن نقول له كن فهو يكون.

والذين هاجروا من ديارهم لوجه الله تعالى من بعد ماظلمهم الكفار فى مكة لنسكننهم فى الدنيا مساكن حسنة وهى المدينة، يحيون فيها حياة طيبة ووالله لأجر الآخرة وهو الجنة ونعيمها أكبر، لو كانوا يعلمون.

يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟(١)
أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ(٢) وَٱلزُّبُرِ ۗ
وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن
يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم
بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ
يَتَفَيَّؤُا۟(٣) ظِلَٰلُهُۥ(٤) عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ
دَٰخِرُونَ(٥) ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ
مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ(٦) وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾

المفـــردات: . ﴿أهل الذكــر﴾: أهل الكتب السابقة كالتوراة. ﴿بالبينات﴾: مرتبط بقوله ﴿أرسلنا﴾ والبينات هى المعجزات الدالة على صدق الرسل.

﴿والزبر﴾: جمع زبور والمراد به هنا الكتب التى جاء بها الرسل.

﴿الذكر﴾: المراد به هنا القرآن.

﴿لتبين للناس مانزل إليهم﴾: أى لتوضح للناس ماجاء فى القرآن مجملا، تبينه لهم بالقول أو بالعمل باجتهاد منك أيها النبى نقرك عليه، أو بإلهام منا، أو بوحى، انظر الآية (٩) من سورة الصف صفحة ٧٣٩.

﴿مكروا﴾: سعوا فى الشر خفية.

﴿السيئات﴾: هى الأعمال السيئات.

﴿فى تقلبهم﴾: أى فى سفرهم للتجارة ونحوها، انظر الآية (١٩٦) من سورة آل عمران صفحة ٩٦.

﴿بمعجزين﴾: أى بغالبين الله ومفلتين من عقابه.

---

(١) فاسألوا.
(٢) بالبينات.
(٣) يتفيأ.
(٤) ظلاله.
(٥) داخرون.
(٦) والملائكة.

﴿على تخوف﴾: أى مع تخوف، وهو ظهور الخوف قبل وقوع المخوف منه وهو أشد ألمًا، انظر الآية (٥٥) من سورة البقرة صفحة ١١ والآية (٤٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٩.

﴿رءوف رحيم﴾: ﴿رءوف﴾ يرفع كل بلاء ومشقة، ﴿رحيم﴾ يضم إلى رفع البلاء الإحسان إلى عبده.

﴿يتفيأ ظلاله﴾: أى يرجع، مأخوذ من الفىء وأصل معناه الرجوع كما فى الآية (٩) من سورة الحجرات صفحتى ٦٨٥، ٦٨٦، والمراد به هنا ظل الشىء آخر النهار، لأنه يرجع من جهة إلى جهة، والظل المقابل للفىء هو ماكان أول النهار.

﴿عن اليمين والشمائل﴾: أصل اليمين والشمال للإنسان والمراد هنا جانبا الشىء. وأفرد اليمين وجمع الشمال لأن اليمين يشار بها للخير، والظلمة للشر، مثل الظلمات والنور فى الآية (١) من سورة الأنعام صفحة ١٦٢، والظل قريب من الظلمة.

﴿سجدا﴾: أى منقادات خاضعات لما أراد الله منها.

﴿داخرون﴾: تقول العرب: دخر الرجل يَدْخَر بفتح الخاء فى الفعلين أى خضع وفعل مايؤمر به رغم أنفه فى ذل وانكسار، فالداخر هو الذى لايمتنع عما أريد منه، وذلك المعنى هو المراد هنا وفى الآية (٨٧) من سورة النمل صفحتى ٥٠٤، ٥٠٥، وقد يراد به خاضع ذليل مهان كما فى الآية (١٨) من سورة الصافات صفحة ٥٨٨ والآية (٦٠) من سورة غافر صفحتى ٦٢٥، ٦٢٦.

المعنى: . نجزى المهاجرين فرارا بدينهم أحسن الأجر، وهم الذين صبروا على مفارقة وطنهم، وأذى المشركين، ولم يتركوا دينهم، ولايفوضون أمرهم إلا إلى ربهم.

ولما كانت قريش تقول إن الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا ولا يليق به أن يرسل إلا ملكا، انظر الآية (٩٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، رد سبحانه عليهم بقوله: وما أرسلنا من قبلك أيها النبى إلا رجالا نوحى إليهم بشرائعنا فاسألوا يأهل مكة أهل الكتب السماوية السابقة ليعلموكم بالحقيقة إن كنتم لاتعلمون أن رسلنا هؤلاء الرجال مؤيدين بالمعجزات حاملين شرعنا الذى فيه مصلحة أممهم.

وأنزلنا إليك أيها النبى القرآن لتبين للناس كيف يعملون بما نزل إليهم، وإرادة أن يتفكروا فيهتدوا للحق، فكيف بعد هذا يصح أن يتعامى المشركون؟ فهل أمن هؤلاء الذين دبروا للرسل التدابير السيئة أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون؟ انظر الآية (٨١) من سورة القصص صفحتى ٥١٨، ٥١٩، أو يأتيهم العذاب بغتة من جهة السماء بالصاعقة كما فعل بثمود، أو يأخذهم فى أثناء سفرهم بعيدين عن أهليهم، وهذا أشد ألما لنفوسهم، وماهم بمعجزين الله إذا أراد ذلك، أو يأخذهم العذاب جهرة وهم ينظرون خائفين، فهل أمنتم كل هذا ونسيتم أن إمهاله تعالى ماهو إلا لأنه رءوف رحيم بكم، فلا يعجل العقوبة لعلكم ترجعون.

وقد تقدم فى الآية (٧) من هذى السورة صفحة ٣٤٦.

ثم نبههم إلى عبر أخرى فقال: ﴿أو لم يروا﴾ إلخ: أى أغفل هؤلاء ولم ينظروا إلى ماخلق الله من الأجسام القائمة تنتقل ظلالها من موضع إلى موضع هى وأصحابها وهم منقادون فى ذل وانكسار لأمر الله القاهر خاضعة لله، وماذلك إلا لإحكام تدبيرها ونظام سير الكواكب فيعلموا أن القادر على ذلك قادر على إهلاكهم.

ثم ذكر ماهو كالدليل لما سبق بحكم عام فقال: ﴿ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض﴾ من كل دابة تتحرك فيهما، أى أن كل مافيهما خاضع لما خلق له على النظام الذى وضعه سبحانه، وكذا الملائكة خاضعة له تعالى وهم لايستكبرون.

وخصهم مع دخولهم فيما سبق لأن خضوعهم ممتاز بنوع خاص، انظر الآية (٦) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢، ولأن فيه رد على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله وعبدوهم، انظر الآية (٥٧) ومابعدها فى هذه السورة صفحة ٣٥٢، والآية (٤٠) ومابعدها من سورة سبأ صفحة ٥٦٨، والآية (١٤٩) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥، والآية (١٦) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٨، وأيضًا لتوبيخ الكفار على استكبارهم على السجود لله وحده مع أن الملائكة لايستكبرون عنه، انظر الآية (٣٨) من سورة فصلت صفحة ٦٣٥.

يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾
۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن
نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾
ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ
يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا
رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ
لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ
أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾
يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ

المفردات: . ﴿يخافون ربهم﴾: أى يخافون عذابه.

﴿فارهبون﴾: الرهبة الخوف أى خافوا عذابى.

﴿الدين﴾: المراد به هنا الطاعة.

﴿واصبا﴾: أى دائمًا انظر الآية (٩) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧.

﴿تجأرون﴾: تتضرعون رافعين أصواتكم بالاستغاثة به تعالى.

﴿لما لايعلمون﴾: أى لأصنام لايعلمون لها وجودا حقيقيا بدليل أنها لاتضر ولاتنفع، انظر الآية (٧١) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٣، ٢٠٤، والآية (٦٦) من سورة يونس صفحة ٢٧٦.

﴿تفترون﴾: أى تكذبوا عمدًا.

﴿ظل﴾: صار.

﴿كظيم﴾: ممتلئ غيظًا، انظر الآية (١٣٤) من سورة آل عمران صفحة ٨٤.

المعنى: . لاتستكبر الملائكة عن السجود لله لأنهم يخافون عذاب ربهم القادر القاهر الذى لايرد قضاؤه، ويفعلون مايؤمرون (هنا سجدة).

وبعد مابين سبحانه أن كل شىء خاضع لمشيئته، أتبع ذلك بالنهى عن أن يشرك به غيره، لأنه سبحانه مصدر النعم، ولا مرجع للإنسان عند الشدائد غيره، وقال الله تعالى لعباده لاتتخذوا إلهين اثنين.

---

(١) واحد. (٢) فإياى. (٣) السموات. (٤) تجأرون. (٥) آتيناهم.
(٦) رزقناهم. (٧) لتسألن. (٨) البنات. (٩) سبحانه. (١٠) يتوارى.

وإنما ذكر اثنين للإشعار بأن محل النهى هو الاثنينية، وأكد قوله ﴿إنما هو إله واحد﴾ لبيان أن المقصود هو الوحدانية، وإذا كان الأمر كذلك فلا تخافوا غيره لأن كل مافى السموات والأرض له ملكا وعبيدا، ويجب أن تكون الطاعة له وحده دائمة فى كل وقت إلى يوم القيامة، فهل يصح بعد هذا أن تتقوا غير الله وهو لايملك لكم شيئًا مع أنه لانعمة حصلت لكم إلا وهى من الله وإذا مسكم ضر من سقم أو مرض أو كرب فلاتستغيثون إلا به، ثم إذا كشف الضر عنكم إذا جماعة منكم يجعلون له تعالى شريكا يتقربون إليه بالنذور والذبائح، وجماعة اعتبروا واهتدوا كما فى الآية (٣٢) من سورة لقمان صفحتى ٥٤٣، ٥٤٤.

وإنما رجع البعض إلى الشرك لتكون عاقبتهم أن يجحدوا نعم الله عليهم.

ثم توعدهم بقوله فتمتعوا بزخرف الدنيا الزائل فسوف تعلمون عند لقاء ربكم وبال عملكم.

ثم عدد بعض جرائم المشركين فقال: ويجعلون لمعبودات لايعلمون لها وجودا حقيقيا لأنها عديمة النفع نصيبا مما أنعمنا عليهم به من الحرث والأنعام كما فى الآية (١٣٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٥.

ثم هددهم بقوله: ﴿تالله لتسألن﴾ إلخ؛ أى أقسم لأسألنكم عما افتريتموه من الباطل وأجازيكم عليه. ولقد بلغ من جهل هؤلاء المشركين أن جعلوا لله بنات وهم الملائكة وعبدوها لأنها بنات الله، وجعلوا هم لأنفسهم مايشتهون ويحبون وهم الذكور؛ أى أنه ليس لله تعالى إلا بنات، أما هم فلهم معها ذكور، انظر الآية (١٠٠) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩، والآية (١٩) من سورة الزخرف صفحتى ٦٤٨، ٦٤٩، والآية (٢٧) من سورة النجم صفحة ٧٠٢؛ يجعلون لله البنات التى يكرهونها بدليل أن أحدهم إذا أخبر بأنه ولد له أنثى صار وجهه مسودًا كئيبا ممتلئًا غيظًا من الحزن، يتوارى من الناس خجلا من أن يروه حزينا، ويتردد فى نفسه أحد أمرين: إما أن يمسك مابشر به ويبقيه حيا مع الهوان والمذلة...

هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾
لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم
مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ
فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ(١) سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ
لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾
تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ(٢)
أَعْمَـٰلَهُمْ(٣) فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا
عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ(٤) إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً(٥) لِّقَوْمٍ

المفردات: ـ ﴿يدسه فى التراب﴾: أى يخفيه تحت التراب حيا حتى يموت. ﴿ألا﴾: كلمة تنبه لما بعدها.

﴿ساء﴾: قبح ﴿مثل السوء﴾: المثل هنا الصفة، والسوء مايسوء والمراد لهم صفة السوء وهى احتياجهم للولد الذكر وكراهتهم للبنات خوف الفقر والعار.

﴿ولله المثل الأعلى﴾: أى الصفة العليا وهى أنه الغنى عن كل ماعداه.

﴿وتصف ألسنتهم الكذب﴾: أى تبرزه على أظهر وجه، كما تقول وصفت عينه السحر وخده الجمال. ﴿لاجرم﴾: أى حقا.

﴿مفرطون﴾: أى مقدمون إلى النار قبل غيرهم من أفرطته إلى كذا إذا قدمته إليه.

المعنى: ـ هل يبقى المولود الأنثى مع الذل الذى يزعمه أم يقتله بدفنه فى التراب حيا.

ألا قبح حكمهم الذى جعل لله البنات التى لايرضونها لأنفسهم، واختاروا لأنفسهم الذكور. لهؤلاء الذين لايؤمنون بالبعث والجزاء صفات النقص وهى حاجتهم إلى الذكور لمعاونتهم وقتلهم البنات ظلما، ولله سبحانه صفات الكمال العليا وهى أنه إله واحد غنى عن الولد واسع القدرة إلخ، وهو العزيز الذى لايغلبه غالب، الحكيم الذى لايضع الشىء إلا فى موضعه.

---

(١) يستأخرون.
(٢) الشيطان.
(٣) أعمالهم.
(٤) الكتاب.
(٥) لآية.

وهؤلاء المشركون بقولهم هذا على الله ظلموا أنفسهم واستحقوا الهلاك، ولكن حلم الله تعالى واسع فيمهل ليفسح الفرصة للتوبة لأنه لو آخذ الناس بمعاصيهم بسرعة لما ترك على ظهر الأرض دابة مطلقا حتى من الحيوانات بسبب شؤم الإنسان، ولكن بفضله سبحانه يؤخر الظلمة إلى الوقت الذى حدده لفنائهم، فإذا جاء هذا الوقت لايتأخرون عنه لحظة، كما أنهم لايتقدمون عليه لحظة، وينسب هؤلاء المشركون إلى الله مايكرهونه لأنفسهم من البنات والشركاء فى الرياسة، وتنطق ألسنتهم بالكذب وهو قولهم إن لنا عند الله إن فرض ورجعنا إليه المنزلة الحسنى وهى الجنة، انظر الآية (٣٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦ والآية (٥٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧.

لاشك أن لهؤلاء النار فقط، وأنهم مسوقون إليها قبل سواهم.

ثم أراد سبحانه أن يسلى رسوله على تبجحهم بأن ماهم عليه من الجهل وقبح المعاملة معه ﷺ كان فى أمم سبقتهم مع رسلهم فقال سبحانه: تالله لقد أرسلنا رسلا من قبلك إلى أممهم بمثل ماأرسلناك به من أصول الدين، فحسَّن لهم الشيطان الكفر والمعاصى، فكذبوا رسلهم، فهو متولى أمرهم فى الدنيا، ولهم فى الآخرة عذاب شديد الألم.

وما أنزلنا عليك أيها النبى القرآن إلا لتبين للناس الحق فيما اختلفوا فيه فيتركوا الباطل ويقتصروا على الحق، وليكون هاديا للقلوب الضاله، وسبب رحمة للمؤمنين به.

وبعد ماتوعد المشركين بالعذاب رجع إلى ذكر دلائل التوحيد لأنه المقصود من كل الشرائع فقال: والله وحده هو الذى أنزل من جهة السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، أى أنبت فيها أنواع النبات بعد يبسها.

إن فى هذا الفعل لأدلة على وجود صانع حكيم، ينتفع بها الذين يسمعون سماع فهم وتدبر.

يسمعون (٦٥) وإن لكم في الأنعام[1] لعبرة نسقيكم
مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا
للشاربين[2] (٦٦) ومن ثمرات النخيل والأعناب[3] تتخذون
منه سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية[4] لقوم
يعقلون (٦٧) وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من
الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون (٦٨) ثم كلي من
كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها
شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك
لآية لقوم يتفكرون (٦٩) والله خلقكم ثم يتوفاكم[5]
ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد
علم شيئا إن الله عليم قدير (٧٠) والله فضل بعضكم
على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم

المفردات: . ﴿الأنعام﴾: هى الإبل والبقر والغنم. ﴿نسقيكم﴾: من أسقيته بمعنى سقيته. ﴿فى بطونه﴾: شاع فى القرآن تذكير اللفظ وتأنيثه باعتبارين كالأنعام، فإنه ذكر هنا باعتبار إرادة الجنس، وأنث فى الآية (٥) من هذه السورة صفحتى ٣٤٥، ٣٤٦ باعتبار أنه جمع؛ ونظيره عن الشمس وتأنيث صفتها وتذكير اسم الإشارة الراجع إليها فى الآية (٧٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٤، ١٧٥، وآيتى (١١، ١٢) من سوة عبس صفحة ٧٩٢

﴿عبرة﴾: أى اعتبار وعظة.

﴿فرث﴾: فضلات طعام الحيوان مادام فى الكرش، فإذا خرج فهو سرجين.

﴿خالصا﴾: من لون الدم ورائحة الفرث.

﴿سائغا﴾: أى سهل المرور فى الحلق لذيذا. ﴿سكرا﴾: أى خمرا مسكرا.

﴿رزقا حسنا﴾: هو التمر والزبيب ونحوهما.

﴿أوحى ربك إلى النحل﴾: أى ألهمها ووضع فى فطرتها.

﴿ومما يعرشون﴾: أى مايجعلونه عريشة لسقف البيت أو تحت شجر الكرم.

﴿سبل ربك﴾ واحدها سبيل أى طريق.

﴿ذللا﴾: واحدها ذلول أى مذللة مسهلة.

---

(١) الأنعام. (٢) للشاربين. (٣) والأعناب. (٤) لآية. (٥) بتوفاكم.

﴿أرذل العمر﴾: أى أخسه وأرداه وهو الذى يضعف معه العقل ولا يكاد صاحبه يشعر بما يحصل منه.

المعنى: . إن فى كل ما تقدم أدلة لقوم يسمعون سماع فهم واعتبار، وإن فى خلق الله تعالى للأنعام لعبرة لكم، ثم بينّها فقال ﴿نسقيكم﴾ أى نخرج لكم من بعض مافى بطونها من بين مادتين هما الفرث والدم لبنا سائغا للشاربين، وإن لكم عبرة أيضًا تدل على قدرتنا وعجيب صنيعنا فى ثمرات النخيل والأعناب حيث جمعنا فيها بين سم قاتل وأطيب مايطعم، ولو تركتموه ولم تتدخلوا فى تحويله إلى خمر لبقى رزقا حسنا فقط. إن فى هذا الصنع البديع لأدلة لقوم يعقلون أن القادر على ذلك هو وحده الإله الحق.

ومن عجيب صنعنا أيضًا أننا ألهمنا النحل أن تعمل لها مساكن من كهوف الجبال، ومن فجوات جذوع الشجر وفروعه، ومن عرائش البيوت والكروم، ثم ألهمها أن تأكل من زهور كل ثمرات النبات وأن تسلك الطرق التى ألهمها ربها سلوكها حال كونها سهلة مذللة لا صعوبة فيها. ثم وجه الكلام للخلق لبيان محل الإنعام عليهم فقال سبحانه: يخرج من بطونها من جهة فمها شراب هو العسل مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن فى هذا الخلق لأدلة على وجود صانع حكيم ينتفع بها المتفكرون الذين لايغفلون عقولهم.

وبعد ما فرغ سبحانه من عجائب صنعه فى الحيوان شرع فى عجائب صنعه فى الإنسان فقال: والله خلقكم وقدر لكم آجالا مختلفة، منكم مَنْ يتوفاه مبكرا، ومنكم مَنْ يرجعه إلى حال الطفولة، لتكون عاقبته أنه يفقد كل ماعلمه، إن الله عليم بأسرار خلقه، قدير على عمل مايريد.

وهذا دليل على أن تفاوت أحوال الناس ليس إلا بتقدير قادر حكيم مختار وإلا لاستووا فى أعمارهم.

وبعدما فرغ من بيان اختلاف الإنسان فى العمر أتبعه ببيان اختلافه فى الرزق وغيره فقال ﴿والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق﴾ فجعل رزق السيد أفضل من رزق مملوكه، فما الذين فضلوا فى الرزق وهم الملاك برادى أى بمعطى رزقهم لعبيدهم.

عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ[١] فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ
يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا[٢] وَجَعَلَ
لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم[٣] بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ[٤]
أَفَبِٱلْبَٰطِلِ[٥] يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ[٦] ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾
وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[٧]
وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ
ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ
ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ[٨] مِنَّا
رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ
لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ
أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ[٩] أَيْنَمَا
يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ

المفردات: ـ ﴿حفدة﴾: هم أولاد البنين.

﴿بالباطل يؤمنون﴾: هذا الباطل هو أن الأصنام تنفع عابدها.

﴿شيئًا﴾: هو بدل من رزقا للدلالة على القلة.

﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾: الأمثال جمع مثل بكسر فسكون بمعنى ند أى مثيل. انظر الآية (٢٢) من سورة البقرة صفحة ٦.

﴿ضرب الله مثلا﴾: ضرب المثل هنا معناه تشبيه شيء بشيء.

﴿كل على مولاه﴾: عالة ثقيل على مَنْ يعوله.

﴿أينما يوجهه﴾: فى أى جهة مَّا يوجهه فيها.

المعنى: ـ فلا يرد المفضلون نصف رزقهم على عبيدهم فيشتركون فيه شركة متساوية، والمراد توبيخ الذين يشركون به تعالى بعض مخلوقاته؛ لأن المعنى أنكم لاترضون بشركة عبيدكم لكم فى شيء من الرزق الذى يعمكم ويعمهم وهم أمثالكم بشر، فما بالكم تشركون معه سبحانه بعض مخلوقاته فيما لايليق إلا به وهو الألوهية انظر الآية (٢٨) من سورة الروم صفحة ٥٣٤، فهل بعد هذا يشركون به تعالى فيجحدون كافرين بنعمته عليهم؛ لأن الإنعام يقتضى أن لايعبدوا غيره.

---

(١) ايمانهم. (٢) أزواجا. (٣) أزواجكم.
(٤) الطيبات. (٥) أفبالباطل. (٦) وبنعمة.
(٧) السموات. (٨) رزقناه. (٩) مولاه.

ثم ذكر نعمة من نعمه على خلقه فقال: والله جعل لكم من جنس أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وتأنسوا بها، وجعل لكم من أزواجكم المنعم بها عليكم نعمة أخرى هى البنون وأولاد البنين ورزقكم رزقا أحله لكم تستلذه نفوسكم، هل بعد ذلك يشرك به بعض خلقه فيؤمنون بآلهة باطلة ويكفرون نعم الله عليهم فلا يشكرونه عليها بإخلاص العبادة له وحده.

ثم بيَّن كيفية هذا الباطل فقال: ويعبدون من دون الله أصناما لاتملك لهم الآن رزقا قليلا، لا من السموات كالمطر، ولا من الأرض كالنبات، ولايستطيعون فى المستقبل أن يملكوا شيئًا من ذلك.

ثم وجه الخطاب للكفار للاهتمام فقال: ﴿فلا تجعلوا﴾: أى إذا ثبت عدم نفع الأصنام فلا تجعلوا لله مثيلا؛ لأن الله يعلم حقيقة ماتعملون فيجازيكم، وأنتم لاتعلمون مايجب له فتجاسرتم عليه وجعلتم له مثيلا.

ثم أراد سبحانه أن يذكر لهم تشبيها يبرز لهم جهلهم فقال: ضرب الله مثلا.

ثم بين هذا المثل المضروب فقال: عبدا مملوكا للغير ورجلا آخر حرا رزقناه وملكناه رزقا حلالا طيبا؛ هل يستوى أفراد النوعين العبيد والأسياد؟ كلا.

وإذا كان لايستوى العبيد والأحرار فكيف تسوون بين رب العالمين وماهو أقل من العبيد وهم الأصنام؟ وإذا ثبت أن الله وحده هو صاحب الفضل فى كل شىء فقل أيها النبى أنت ومَنْ اتبعك: الحمد كله لله، لايستحقه غيره، ولا يفعل هؤلاء مايفعلون عن علم، بل أكثرهم لايعلمون، فيضعوا العبادة فى غير موضعها تقليدا لغيرهم، وقليل منهم يعلم ويعاند، انظر الآية (٨٣) الآتية صفحة ٣٥٧، أو المراد ولكن أكثر الخلق لايعلمون وأقلهم مؤمنون.

وضرب الله مثلا آخر يؤيد السابق على وجه واضح، وبينه بقوله: رجلين أحدهما ولد أخرس، ويلزم ذلك الصمم أى عدم السمع، فهو لايفهم غيره، وهو لذلك عالة على مَنْ يتولى أمره، فى أى جهة يرسله مولاه لقضاء مصلحة لايأتى بفائدة؛ هل يستوى هذا مع رجل فصيح قوى السمع ينفع الناس بالحث على العدل وغيره.

وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ[1] مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[2]
وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ
أُمَّهَٰتِكُمۡ[3] لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ[4]
وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ
مُسَخَّرَٰتٖ[5] فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ[6] لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ
سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ[7] بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا
يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا
وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا[8] وَمَتَٰعًا[9] إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم
مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا[10] وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا[11] وَجَعَلَ
لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ[12] تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ[13] تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ

المفـردات: . ﴿أمـر السـاعـة﴾: أى أمـر قيامها فى السرعة والسهولة.

﴿أو هو أقرب﴾: ﴿أو﴾ هنا بمعنى بل.

﴿السـمع والأبصـار﴾: أفـرد السـمع لأن مـدركـاته نوع واحـد وهو الصـوت بخـلاف البصر فإنه يدرك الألوان والأشكال.

﴿الافئدة﴾: هى القلوب.

﴿الطير﴾: يطلق على الواحد والجمع.

﴿مسـخـرات﴾: أى مهيئات للطيـران بما خلق لها من الأجنحة وغيرها.

﴿جو السماء﴾: هو مابين السماء والأرض وأضيف للسماء لأن الطائر يكون فى جانبها فى نظر العين.

﴿يوم ظعنكم﴾: أى سفركم.

﴿أثاثا﴾: فرش البيوت.

﴿متاعا﴾: للبس والتجارة.

﴿إلى حين﴾: أى إلى مدة من الزمان تبلى بعدها.

﴿أكنانا﴾: جمع كن بكسر أوله وهو مايسكن فيه من كهف أو مكان منحوت فيها.

﴿سرابيل﴾: جمع سربال بكسر فسكون وهو كل مايلبس.

﴿تقيكم الحر﴾: خص الحر بالذكر لأنه هو مثار الشكوى فى بلاد العرب.

---

(١) صراط. (٢) السموات. (٣) أمهاتكم. (٤) والأبصار. (٥) مسخرات. (٦) لآيات.
(٧) الأنعام. (٨) أثاثا. (٩) ومتاعا. (١٠) ظلالا. (١١) أكنانا. (١٢، ١٣) سرابيل.

وقد تعرضت الآية (٥) المتقدمة أول السورة صفحتى ٣٤٥، ٣٤٦ للوقاية من البرد.

﴿بأسكم﴾: أى شدتكم وقت الحرب، وسرابيلها هى الدروع.

المعنى: . يأمر غيره بالعدل وهو فى نفسه على طريق مستقيم لايريد شيئًا إلا بلغه فى أقرب وقت، وهذا مثل ضربه سبحانه لنفسه وللأصنام لإبطال المماثلة بينهما، ولله علم ماغاب عن الخلق فى السموات والأرض، وما أمر قيام الساعة إلا كرد طرف العين من أعلى إلى أسفل بل هو أقرب من ذلك، وهذا صادق بقربها جدا، وبسرعة قيامها عند حلول أجلها.

ثم بيَّن نعمة من نعمه سبحانه دالة على قدرته فقال: والله أخرجكم من بطون أمهاتكم حال كونكم جهالا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة أدوات تعلمون بها، رجاء أن تشكروا مَنْ أنعم بها عليكم.

ألم ير هؤلاء الذين يعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا، إلى الطيور مذللات للطيران فى الفراغ المتصاعد إلى السماء، مايمسكهن عن الوقوع لثقل أجسامها ورقة الهواء إلا الله، لما نظم لها من أجنحة أوسع من جسمها وأخف، إن فى ذلك لدلائل على قدرة صانعها ينتفع بها المهيئون للإيمان.

والله جعل لكم من بيوتكم ماتسكنون فيه وقت إقامتكم من الحجر وغيره، وجعل لكم أيضًا من جلود الأنعام نفسها ومما عليها من صوف ووبر وشعر بيوتا تجدونها خفيفة فى حملها ونقلها وقت ترحالكم ونزولكم فى أثناء السفر، وجعل لكم من أصواف الغنم وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاثا ومتاعا تنتفعون به مدة من الزمن.

ولما كان من الناس مَنْ قد يكون مسافرا ولا قدرة له على بيوت الجلد وغيرها، قال: والله جعل لمَنْ كان هذا شأنه مايقوم مقام البيت من ظلال ماخلق من الشجر والجبل تتقون به حر الشمس المعروف شدتها عليهم، وجعل لهذا النوع من الخلق أيضًا كهوفا ومغارات فى الجبال تقوم مقام البيوت، وجعل لكم ثيابا تقيكم الحر والبرد، وجعل لكم ماتلبسونه فى الحرب من الحديد كالدروع تقيكم شرها.

كذلك الإتمام للنعمة عليكم فيما مضى.....

يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا
ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا
رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟
رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ
فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى
ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا
فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى
كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا

المفردات: . ﴿ثم ينكرونها﴾: حرف ﴿ثم﴾ يدل على استبعاد الإنكار بعد المعرفة، لأن الواجب على مَنْ يعرف النعمة أن يعترف بها، ويشكر عليها، لا أن ينكرها. ﴿وأكثرهم الكافرون﴾: هذا التركيب يفيد الحصر، أى أنهم لشدة كفرهم انحصر فيهم الكفر. ﴿ثم لايؤذن للذين كفروا﴾: أى لايؤذن لهم فى الاعتذار، انظر آيتى (٣٥، ٣٦) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٥ وحرف ﴿ثم﴾ يدل على أن مصيبتهم بمنع الاعتذار الذى أوقعهم فى القنوط أشد من مصيبتهم بشهادة الأنبياء عليهم، لأنهم بعد الشهادة كانوا يأملون أن يعتذروا، ويقبل عذرهم. ﴿شهيدا﴾: هو نبيها. انظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧.

﴿يستعتبون﴾: أصله مأخوذ من العَتْب بفتح فسكون، وهو المحادثة فى أسباب الغضب، يقال استعتب الخادم سيده، أى طلب منه أن يزيل من نفسه سبب عتابه، وهو الغضب عليه. يقول العربى: استعتبت فلانا فأعتبنى، أى استرضيته فرضى. فمعنى﴿ولا هم يستعتبون﴾ أنه لايطلب منهم أحد من الشفعاء الرجوع عما أوجب العتب. ﴿ينظرون﴾: يمهلون. ﴿السلم﴾: الاستسلام والخضوع. ﴿ضل عنهم﴾: أى غاب وضاع. ﴿زدناهم عذابا﴾: على منعهم غيرهم من الإيمان ﴿فوق العذاب﴾ الذى استحقوه بكفرهم. ﴿ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا﴾: أعاد هذه العبارة ثانيا بعد ذكرها فى الآية (٨٤) من هذه السورة لتهديد كفار قريش بخاصة. لأن الشهادة ستكون عليهم لا لهم، وليوبخهم على محاربة رسول هو من أنفسهم، كان يجب عليهم أن يكونوا أسرع الناس إلى اتباعه.

المعنى: . كما أتمها عليكم فيما مضى يتمها عليكم فى المستقبل لعلكم تستسلمون وتنقادون لما شرعه لكم.

---

(١) البلاغ. (٢) نعمة. (٣) الكافرون. (٤، ٥) رأى. (٦) ندعو. (٧) لكاذبون. (٨) زدناهم.

قل لهم أيها النبى ذلك، فإن استمروا على إعراضهم فلا يضرك إعراضهم شيئًا، لأنه ليس عليك إلا البلاغ وقد بلغت.

ثم بيَّن سبحانه أن إعراض المشركين ليس لعدم معرفة نعم الله عليهم بل لاستيلاء الغفلة على قلوبهم، فلم يلتفتوا إلى مصدر النعم التى تغرقهم، ولا إلى أدلة ذلك المحيطة بهم، انظر الآية (١٠٥) من سورة يوسف صفحة ٣١٩، فقال يعرفون إلخ أى يعرفون أنه تعالى وحده هو المنعم عليهم بكل النعم، انظر آيات (٦١) ومابعدها من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩، ولكنهم يعملون عمل مَنْ ينكرها حيث كفروا به ولم يشكروه عليها، وأكثرهم جمدوا على تقليد الآباء، والقادة، وتعصبوا لذلك حتى صاروا كأنهم لا كافر سواهم. وأنذرهم أيها النبى يوم نحشر من كل أمة نبيها يشهد لها أو عليها، فإذا ثبت إجرامهم وأراد الكافر منهم الاعتذار لايؤذن له، ولا يطلب منهم سبب رضا الله عنهم، لأن الكفر يحول دون ذلك. ثم زاد فى تخويفهم فقال: وإذا رأى الذين ظلموا أنفسهم بالكفر عذاب جهنم وطلبوا التخفيف لايخفف عنهم ولا يمهلون لحظة، انظر الآية (٤٩) من سورة غافر صفحة ٦٢٤. وإذا رأى الذين أشركوا مع الله غيره المعبودات التى أشركوها معه سبحانه محشورة معهم، أرادوا أن يعتذروا ويوزعوا من العذاب عليهم ليخف عنهم، فقالوا ياربنا هؤلاء هم الذين جعلناهم شركاء لك وكنا نعبدهم ونستعين بهم من دونك. فرد الشركاء القول على المشركين قائلين لهم إنكم لكاذبون فيما تضمنه كلامكم من أننا طلبنا منكم أن تعبدونا، انظر نظيره فى آيتى (٨١، ٨٢) من سورة مريم صفحة ٤٠٤ وآيتى (٥، ٦) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٦ والذى يحصل منه هذا التكذيب هو مايصح أن يقع منه من المعبودات كالملائكة وعيسى مثلا، والمقام هو الذى يدل على هذا كما دل فى الآية (٢٥) وما بعدها من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣ التى تفيد أن كل كافر يؤتى كتابه بشماله مع أنه ليس كل مَنْ يؤتى كتابه كذلك كان ذا سلطان أو مال، وقد سبق شىء من هذا فى الآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١. ﴿والقوا إلى الله﴾ إلخ؛ أى استسلموا وخضعوا لقضاء الله وغاب عنهم ماكانوا يفترونه من أن آلهتهم تشفع لهم وتدفع العذاب عنهم. الذين كفروا فى أنفسهم ومنعوا غيرهم من الإيمان زدناهم عذابا بصدهم ومنعهم فوق العذاب الذى استحقوه بالكفر بسبب استمرارهم على إفساد عقولهم وعقول الناس. ثم أراد سبحانه تأكيد تهديد كفار قريش على الخصوص بعد أن هدد كل كافر على العموم فى الآية (٨٤) السابقة، زيادة فى تحذيرهم فى غفلتهم عن هذا الخطر، لما علم أن التخصيص والتفصيل يعمل فى النفوس ما لا

عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ
بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ
ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾
وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ
تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ
مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ
بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن
تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ
وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ
وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

يعمله التعميم والإجمال؛ والنص على أن الرسول سيشهد عليهم لعلهم يزدجرون فقال ﴿ويوم نبعث﴾ إلخ؛ أى وذكرهم أيها النبى بما سيحصل يوم نبعث فى الأمة شهيدا عليهم من أنفسهم ليكون أقطع للعذر، ونجيئ بك أيها النبى شهيدا لهم أو عليهم...

المفردات: - ﴿على هؤلاء﴾: أى على أمتك وفى مقدمتهم كفار قريش.

﴿الكتاب﴾: القرآن. ﴿تبيانا﴾: بيانا تاما.

﴿وهدى﴾: هاديا أقوى هداية إلى الصواب.

﴿ورحمة﴾: وسبب رحمة لجميع الخلق.

﴿وبشرى﴾: أى مبشرا لمَنْ اتبعه بالجنة.

﴿والعدل﴾: هو المساواة فى كل شىء والاعتدال فيه من غير تفريط ولا إفراط ﴿والإحسان﴾ هو مقابلة الخير بأحسن منه، والشر بالعفو عنه.

﴿الفحشاء﴾: الذنوب المفرطة فى القبح كالزنا.

﴿والمنكر﴾: هو كل ماتنكره وتكرهه العقول السليمة.

﴿والبغى﴾: هو التعدى على الناس تجرؤا وظلما.

﴿كفيلا﴾: أى رقيبا وشهيدا.

﴿نقضت﴾: أى حلت ماغزلته. ﴿غزلها﴾: أصله مصدر وأريد به المغزول.

﴿أنكاثا﴾: جمع نكث بكسر فسكون وهو الشىء الذى نقض بعد غزله.

﴿دخلا بينكم﴾: الدخل فى الأصل مايدخل فى الشىء ولم يكن منه، ثم أرادوا به المكر والخديعة.

---

(١) الكتاب. (٢) تبيانا. (٣) والإحسان. (٤) وإيتاء. (٥) عاهدتم. (٦) الأيمان.
(٧) انكاثا. (٨) أيمانكم. (٩) القيامة. (١٠) واحدة. (١١) ولتسألن.

﴿أربى﴾: أى أكثر وأزيد مالاً وعددًا. ﴿يبلوكم الله به﴾: أى يعاملكم معاملة المختبر ليظهر للناس ما فى نفوسكم.

﴿لجعلكم أمة واحدة﴾: انظر شرح الآية (١١٨) من سورة هود صفحة ٣٠١.

المعنى: - ويوم القيامة نجيىء بك شاهدا على أمتك بمالها وماعليها، بعد ماأنزلنا عليك الكتاب لتقرأه عليهم مبينا لأصول كل مايحتاجون إليه فى أمور دينهم ودنياهم، وهاديا وسبب رحمة، ومبشرا للمسلمين بالجنة، فتشهد أنت بما لاقاه الناس به هل آمنوا به أو كفروا؟ وبعدما ذكر أن القرآن تبيان لكل شىء، دلل على ذلك بآية جامعة لأصول التكاليف كلها وهى قوله: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى﴾ أى إعطاء القرابة مايحتاجون إليه، وهو تخصيص بعد تعميم لأهميته، لأنه صلة رحم ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم﴾ أى ينهاكم برقيق القول لعلكم تتذكرون فضله عليكم بهذا النصح فتطيعونه ولاتعصونه فى شىء. قال ابن مسعود: هذه أجمع آية فى القرآن للخير والشر.

﴿وأوفوا بعهد الله﴾ وهو كل مايلتزمه الإنسان باختياره، ويدخل فيه الوعد، وأضيف لله لأنه فى الغالب يشهد الله عليه أو يحلف به على احترامه ومحل ذلك إذا كان ما التزم به لايعارض ما شرعه الله ولا تنقضوا الأيمان بالحنث فيها بعد تأكيدها، أى التشديد فيها بذكر الله وشىء من صفاته وغير ذلك من المؤكدات، والحال أنكم اعترفتم بأن الله رقيب عليكم، وهو سبحانه يعلم مايكون منكم من وفاء وحنث فيجازيكم عليه. ثم أكد سبحانه وجوب الوفاء وحرمة النقض بجعل مَنْ لم يحافظ على عهده ويمينه كالمرأة المجنونة التى تغزل الصوف أو القطن وتقوى غزله ثم تنقضه وتتركه محلولا كما كان، وكان غزل الصوف من عادة نساء العرب؛ لاتكونوا كهذه المجنونة حال كونكم متخذين أيمانكم التى حلفتموها على أنكم توفون العهد خديعة وتغريرا لغيركم ليطمئنوا إليكم وأنتم مضمرون لهم الغدر والانضمام لغيرهم لأنهم أكثر عددا وأوفر مالا، وإنما يأمركم ربكم بالوفاء ويوقعكم بين جماعتين إحداهما قليلة عاهدتموها والأخرى كبيرة أغنى منها ليظهر للناس هل تحافظون أم تجرون وراء المادة ولاتقيمون للعهود والأيمان وزنا، وليبين لكم يوم القيامة ماكنتم تختلفون فيه فى الدنيا من محافظة المؤمن وعصيان الكافر والعاصى، ويجازيكم حسب أعمالكم. ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة مؤمنة جبرا عنها كالملائكة لا اختيار لها، ولكن شاء أن يجعل لكم اختيارا، فيضل مَنْ يشاء من خلقه وهم الذين اختاروا متعة الدنيا وأهملوا النظر إلى الآخرة، انظر آيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة

وَلَا تَتَّخِذُوٓا أَيْمَٰنَكُمْ[1] دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُوقُوا ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ
ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ
وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا[2] مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً[3] طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم
بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ[4] فَٱسْتَعِذْ
بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ[5] ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ[6] عَلَى
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ[7]
عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا
بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا

الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧، وآيات من (٥ إلى ١٠) من سورة الليل صفحتى ٨١٠، ٨١١، ويهدى مَنْ يشاء كذلك، ووالله لنسألن جميعا يوم القيامة عما كنتم تعملون فى الدنيا. وتحقيق هذا المقام تقدم فى الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦، والآية (١١٨) من سورة هود صفحة ٣٠١.

المفردات: . ﴿ولا تتخذوا أيمانكم﴾ إلخ: تقدم فى الصفحة السابقة.

﴿فتزل قدم﴾: أصل زلة القدم تقلب الإنسان من حال خير إلى حال شر، والمراد هنا الوقوع فى الهلاك. ﴿تذوقوا السوء﴾: أى العذاب الذى يسوء صاحبه.

﴿تشتروا﴾: أى تستبدلوا. ﴿بعهد الله﴾: المراد به شرعه الذى عاهدتموه على المحافظة عليه ومنه العهود والأيمان ﴿ثمنا قليلا﴾: هو متاع الدنيا الزائل. ﴿ينفد﴾: أى يفنى.

﴿مَنْ عمل صالحا﴾: المراد الفريق من الناس الذى يعمل صالحًا، وهذا صح جمع الضمير فى قوله ﴿ولنجزينهم﴾ ﴿سلطان﴾: أى تسلط وتقهر.

﴿يتولونه﴾: أى يوالونه بطاعة وسوسته. ﴿آية مكان آية﴾: أى آية من القرآن مكان آية من التوراة كآية استقبال الكعبة بدل آية استقبال بيت المقدس، انظر الآية (١٤٢) ومابعدها من سورة البقرة صفحة ٢٧، وآية حل آكل لحم وشحم ماكان محرما على بنى إسرائيل فى الآية (١٤٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨ وجاء القرآن بحله فى الآية (١٤٥) من نفس السورة صفحتى ١٨٧، ١٨٨.

---

(١) أيمانكم. (٢) صالحا. (٣) حياة. (٤) القرآن. (٥) الشيطان. (٦) سلطان. (٧) سلطانه.

المعنى: . لما كان النهى عن اتخاذ الأيمان دخلا إنما فهم ضمنا مما سبق فى سياق خاص،أراد سبحانه أن يصرح بالنهى عنه وعلى وجه العموم لشدة قبحه فقال ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم﴾ فتزل قدمكم عن صراط الحق بعد ثبوتها عليه، والمرادتضلوا وتبعدوا عن الصواب ويكون من نتيجة ذلك أنكم تذوقون العذاب الذى يسوء فى الدنيا بالقتل والأسر وضياع المال بسبب صدودكم وإعراضكم عن شرع الله الذى من ضمنه الأمر بالمحافظة على العهود، ولكم فى الآخرة عذاب عظيم. ولا تستبدلوا بالوفاء بالعهد متاع الدنيا الفانى؛ لأن ماعند الله من الأجر العظيم الخالد خير لكم من متاع زائل، إن كنتم من أهل العلم والتمييز بين الصالح وغيره. ثم بيَّن وجه ذلك فقال: ماعندكم من نعيم الدنيا يفنى مهما طال زمنه، وماعند الله من نعيم الآخرة خالد لاينقضى. ولما كان الصبر نصف الإيمان وعليه المعول فى نجاح المؤمن، خص أصحابه بالذكر فقال: ووالله لنجزين الذين صبروا على مشاق التكاليف وأذى المشركين أجرهم على كل أعمالهم على حسب أحسنها، وهو الصبر الذى يجزى صاحبه أجره بغير حساب، انظر الآية (١٠) من سورة الزمر صفحة ٦٠٧. ثم بعد مابيَّن فضل الصبرمن بين الأعمال الصالحة أراد أن يبين فضل المثابرة على الأعمال الصالحة من كل مكلف ذكرًا أو أنثى فى المستقبل فقال: ﴿مَنْ عمل صالحا﴾ إلخ، أى عملاً صالحا من ذكر أو أنثى بشرط أن يكون مؤمنا لأن العمل بدون إيمان يكون هباء كما فى الآية (٢٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣، فلنحيينه فى الدنيا حياة طيبة لاتنغيص فيها لما رزق من القناعة والرضا والصبر على مصائب الدنيا لعلمه أنها دار ممر لا دار خلود، وانتظاره النعيم الدائم فى الآخرة، بخلاف الكافر بالله فإنه فى هم وشقاء لشدة خوفه على ما فى يده، انظر الآية (٥٥) من سورة التوبة صفحة ٢٥٠، ولنجزينهم فى الآخرة أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون كما فعلنا مع الصابرين.

ثم أراد سبحانه أن يشير إلى ما به يكون العمل الصالح مقبولا خالصا من وساوس الشيطان فقال: ﴿فإذا قرأت القرآن﴾ أى إذا أردت القراءة فاسأل الله أن يعيذك من نزغات الشيطان الرجيم باللعن فى كل حين. ثم بيَّن شروط إفادة الاستعاذه فقال إنه أى الشيطان ليس له سلطان وتأثير خطير بوسوسته على المؤمنين حقا الذين لايتوكلون إلا على الله، إنما

إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ
رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ
إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ
وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ[١]
ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى
ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ[٢] ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْكَٰذِبُونَ[٣] ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ[٤] إِلَّا
مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ[٥] وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ
بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ[٦] ٱلدُّنْيَا عَلَى
ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ[٧] ﴿١٠٧﴾

تأثيره على الذين يجعلونه وليا لهم فيطيعونه، والذين هم بسبب إغوائه مشركون بالله غيره. ثم انتقل سبحانه لبيان بعض مكابرة الكفار فقال: وإذا جئنا بآية فى القرآن فيها حكم يناسب زمنها بدل آية من التوراة أصبح حكمها لايناسب زمن نزول القرآن والله أعلم بما ينزل فلا ينزل إلا بحكمة..

المفردات: . ﴿مفتر﴾: أى مخترع الكذب على الله. ﴿روح القدس﴾: معناه روح الطهر، وأريد بهذا المركب جبريل، وهو من إضافة الموصوف لصفته، كقولهم هذا حاتم الجود. ﴿بشر﴾: يريدون به غلاما روميا نصرانيا كان يقرأ التوراة والإنجيل وكان بمكة يصنع السيوف ﴿لسان﴾: يطلق اللسان على اللغة التى يتكلم بها الشخص.

﴿يلحدون إليه﴾: الإلحاد الميل، يقال ألحد إذا مال عن الاعتدال، والمراد ينسبون التعليم إليه، فهم أمالوا مايفترونه إليه.

﴿أعجمى﴾: أى غير واضح خفى الدلالة نسبة إلى أعجم وهو الذى لايفهم العربى كلامه. انظر الآية (١٩٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢.

﴿من كفر بالله﴾ أى تلفظ بكلمة الكفر أو عمل عملاً فيه كفر ﴿من﴾ موصول مبتدأ خبره مقدر مفهوم من خبر ﴿لكن﴾ الآتى، والأصل مَنْ كفر بالله فعليهم غضب إلى آخره. ﴿من بعد إيمانه﴾: أى بعد إظهار الإيمان، ولم يثبت أن مؤمنا حقا كفر، إنما كان يحصل ذلك من المنافقين، انظر الآية (٧٢) من سورة آل عمران صفحة ٧٤. ﴿إلا مَنْ أكره﴾: مستثنى من حكم الغضب والعذاب. ﴿وقلبه مطمئن بالإيمان﴾: الجملة حال من فاعل الكفر المفهوم ضمنا من

(٢،١) بآيات. (٣) الكاذبون. (٤) إيمانه. (٥) بالإيمان. (٦) الحياة. (٧) الكافرين.

الإكراه، لأن معناه أكره على الكفر فكفر، والحال أن قلبه مطمئن. ولما كان يحتمل أن يسبق الذهن إلى جعل الحال من نائب فاعل ﴿أكره﴾ والمعنى عليه لايستقيم، لأنه قد يطمئن قلبه حال الإكراه، ولكن يكفر بعده مختارا، ومع ذلك يدخل فى حكم النجاة من العذاب؛ لما كان كل ذلك أراد سبحانه قطع هذا الاحتمال فقال: ﴿ولكن مَنْ شرح بالكفر صدرا﴾ إلخ؛ لتكون نصًا فى أن الحال من فاعل الكفر.

﴿شرح بالكفر صدرا﴾ أصله شرح صدره بالكفر، أى اعتقده وطابت به نفسه. ﴿استحبوا الدنيا على الآخرة﴾: أى أحبوها حبا قويا مقدمين لها على حب ماينجى فى الآخرة، والمراد فعلوا فعل المستحب، وإلا فكفار مكة لايؤمنون بالآخرة، انظر الآية (٣٨) من هذه السورة صفحة ٣٥٠.

المعنى: - إن الذين يحاربون الرسول يحاولون تضليل الناس وصرفهم عنه، فإذا رأوه جاء بآية فى القرآن تصلح للخلود مخالفة لما سبق فى التوراة قال المشركون بإيعاز من اليهود إن محمدا يكذب على الله لأنه أحل ماحرم كالصيد يوم السبت ولحوم الإبل وغيرها مما جاء فى الآية (١٤٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨، وكان كفار مكة يرجعون إلى أهل الكتاب عند إرادة محاربته ﷺ، انظر الآية (٥١) من سورة النساء صفحة ١٠٩، والآية (١٥٧) من سورة الأنعام صفحة ١٩٠. ولتمام الرد عليهم وتسفيههم جاءت بعد ذلك آيات (١١٤ إلى ١٢٤) من هذه السورة، وما أنت كما يقول المبطلون أيها النبى بل هم المبطلون لأن أكثرهم وهم الأتباع لايعلمون الحق، وزعماؤهم يعلمون أن محمدًا رسول ولكنهم يكابرون. ثم رد عليهم بقوله قل أيها النبى: الذى نزل القرآن هو الروح الطاهر نزل به من ربك مقترنا بالحق، ليثبت به قلوب المؤمنين وليكون هاديا للصواب، ومبشرا بالنعيم للمسلمين. ولقد نعلم أن كفار مكة يقولون إن الذى يعلم محمدا هذا القرآن هو بشر معروف وليس من عند الله، وقولهم هذا باطل لأن لغة الذى ينسبون إليه ذلك أعجمية لايفهمها العربى، والقرآن لسان عربى واضح الفصاحة حتى أعجزكم، فكيف يستطيعه أعجمى. وإذا رأيت هؤلاء المشركين فى ضلال فلا تعجب لأن الذين لايؤمنون بآيات الله المعجزة ويتعامون عنها لايهديهم الله ولهم فى الآخرة عذاب شديد الألم. ثم رد الافتراء عليهم فقال إنما يفترى الكذب على الله الذين لايؤمنون بآيات الله لا الرسول المؤمن بها، وأولئك هم وحدهم الكاذبون البالغون فى الكذب غايته. وكان كفار مكة يعذبون مَنْ يظهر الإسلام من المساكين الذين لا عصبية لهم، ولاينقذهم من ذلك إلا إذا أعلنوا الكفر بمحمد، وكان من هؤلاء الضعفاء عمار بن ياسر وأبوه وأمه سمية وغيرهم، فلما رفض ياسر

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ[1]
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ[2] ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ
هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ[3] ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ
مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ[4] وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ
بَعْدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٖ
تُجَٰدِلُ[5] عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٖ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرْيَةٗ كَانَتْ ءَامِنَةٗ[6]
مُّطْمَئِنَّةٗ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتْ
بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا[7] ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا
كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٞ مِّنْهُمْ
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ[8] ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ
مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا[9] طَيِّبٗا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ[10] ٱللَّهِ

وسمية الكفر قتلوهما، ولما رأى عمار ذلك نطق بكلمة الكفر ثم جاء يبكى ﷺ، فنزل قوله تعالى ﴿مَنْ كفر﴾ أى أظهر الكفر بعد الإيمان فعليهم غضب إلا مَنْ أكره على النطق بذلك والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان فإنه ناج، ولكن مَنْ لم يكن كذلك بل شرح صدره بالكفر فعليهم غضب من الله، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم؛ ذلك المذكور من الغضب والعذاب الشديد بسبب حبهم متاع الدنيا الزائل وتقديمه على نعيم الآخرة، وبسبب أن الله لايهدى الجامدين على الكفر عنادا وحسدا، انظر بيان ذلك فى صفحتى ٤، ٢٧٨.

المفردات: ﴿طبع الله على قلوبهم﴾ إلخ: الطبع هو الختم المبين فى صفحة ٤. ﴿لاجرم﴾: أى حقا ولا شك.

﴿ثم إن ربك للذين هاجروا﴾: ﴿ثم﴾ هنا لبيان تباعد مرتبة حالهم هذه عن مرتبة حالهم قبل الهجرة وهم مضطهدون وقوله ﴿للذين هاجروا﴾ خبر إن والمعنى إن ربك لهم لاعليهم، فهو ينصرهم ولا يخذلهم.

﴿فتنوا﴾: أى عذبوا عذابا شديدا، انظر الآية (١٠) وماقبلها من سورة البروج صفحة ٨٠١.

﴿تجادل عن نفسها﴾: المراد لايهمها إلا نفسها وينسى الوالد ولده.. إلخ ما فى الآيات (٣٤) إلى (٣٧) من سورة عبس صفحة ٧٩٣.

﴿ضرب الله مثلا قرية﴾: أى جعل القرية الموصوفة بما ذكر مثلا يعتبر به كما تقدم فى الآيه (٧٥) من هذه السورة صفحة ٣٥٥. ﴿رغدا﴾: أى واسعا كثيرا.

(١) وأبصارهم. (٢) الغافلون. (٣) الخاسرون. (٤) جاهدو. (٥) تجادل.
(٦) آمنة. (٧) فأذاقها. (٨) ظالمون. (٩) حلالا. (١٠) نعمة.

﴿كفرت بأنعم الله﴾: أنعم جمع نعمة، أى بنعمة. ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف﴾ فى الكلام تشبيهان، المراد رماهم بمصائب أحاطت بهم كما يحيط اللباس بصاحبه، واشتد ألمهم منها حتى كأنهم يأكلون حنظلا بشع المرارة.

المعنى: . بيّن سبحانه سبب عدم هدايتهم بأنه طبع على قلوبهم فصارت لاتقبل الحق، وسمعهم فلا يسمع القرآن سماع فهم وتدبر، وأبصارهم فلا ترى ما فى الكون من عبر. وسبب ذلك أنهم غارقون فى الغفلة الشديدة حتى كأنهم لا غافل غيرهم، وهؤلاء لاشك أنهم وحدهم هم الخاسرون كل خير فى الآخرة.

ثم أراد سبحانه أن يبين حكم عمار المتقدم ومن عمل مثله فقال: ثم إن ربك للذين هاجروا من مكة فرارا بدينهم بعد الإذن فى الهجرة إلى الحبشة وغيرها من بعد ماعذبوا ثم جاهدوا المشركين بألسنتهم ببيان ما هم عليه من الضلال إلى أن يحين وقت مجاهدتهم بالسيف فيعملوه. ونظير ذلك فى المجاهدة باللسان فى الآية (٧٣) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٣، ٢٥٤.

أما إن كانت هذه الآية مدنية فالجهاد يكون بالسيف أيضًا. وصبروا على مشاق التكاليف، إن ربك من بعد الهجرة والجهاد والصبر لغفور لما حصل منهم تحت التهديد بالقتل، رحيم فلا يعاقبهم عليه.

تتحقق هذه المغفرة والرحمة يوم تأتى كل نفس تدافع عن ذاتها بالاعتذار تارة والإنكار أخرى، لايهمها شأن غيرها لهول موقف يوم القيامة، وفى هذا اليوم يوفى الله كل نفس جزاء عملها خيرا أو شرا، ولايظلم أحدا منهم بنقض أجره أو عقابه بلا موجب.

ثم بعد ما هدد سبحانه الكافرين بالعذاب فى الآخرة أراد تهديدهم أيضا بمصائب الدنيا من جوع وخوف من بعد أمن وسعة رزق فقال: وضرب الله مثلا قرية كان أهلها فى أمن من العدو مطمئنة يأتيها رزقها واسعا من كل جهة فجحدت نعم الله فلم تشكره عليها ونسيت فضله ولجأت لغيره، فعاقبها الله بالمصائب التى أحاطت بها، وعمها الجوع والخوف حتى ذاقت مرارتها؛ كل ذلك بسبب ما استمروا عليه من التمادى فى الكفر والعصيان.

ولقد جاء أهل هذه القرية رسول منهم يعرفونه بأصله ونسبه، فطلب منهم الإقلاع عن الكفر، وطلب منهم الاعتراف له بالفضل وحذرهم من التمادى فى العصيان، فكان يجب عليهم شكر الله على ذلك ولكنهم كذبوه عنادا وحسدا، فأخذهم العذاب يوم بدر بالقتل والأسر، وبعد

إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ
وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ
غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا
تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ[1] وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ[2] قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾
وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ
وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ[3] وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ
إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ[4] ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ
ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ[5] وَهَدَاهُ[6] إِلَىٰ

ذلك بالجوع الشديد حتى أكلوا الجيف، والحال أنهم غارقون فى ظلم أنفسهم بالكفر.

وإذا تبين لكم ماحل بمَنْ يحارب الله ورسوله فاستقيموا ولا تحرموا الحلال، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا، واشكروا نعمة الله عليكم به فلا تخالفوا أمره.

المفردات: ـ ﴿وما أهل لغير الله به﴾: أهل الرجل ـ رَفَع صوته، فالمراد ماذكر اسم غير الله عليه، انظر بيان ذلك فى الآية (١٧٣) من سورة البقرة صفحة ٣٢. ﴿غير باغ ولا عاد﴾: تقدم بيانهما فى الآية المشار إليها من سورة البقرة. ﴿تصف ألسنتكم الكذب﴾: أى تبرزه على أظهر صوره، انظر الآية (٦٢) من هذه السورة صفحة ٣٥٣.

﴿الذين هادوا﴾: هم اليهود وأصله ﴿هاد﴾ أى رجع، لأنهم رجعوا وتابوا من عبادة العجل، انظر الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧ ﴿ماقصصنا عليك من قبل﴾: أى ماقصصناه عليك فى الآية (١٤٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨. ﴿للذين عملوا السوء﴾: يصح أن يقدر إن ربك يقدم فضله للذين.. إلخ. ﴿بجهالة﴾: أى مع جهلهم لعاقبته لغلبة الشهوة عليهم حتى حملتهم على ارتكاب أفظع المعاصى، انظر الآية (١٧) من سورة النساء صفحة ١٠١، وتقييد المغفرة لمَنْ تاب بكون ذنبه كان عن جهل ملاحظ فيه أن ذلك هو الغالب، وإلا فالتوبة النصوح تمحو الذنب سواء أكان عن جهالة أو عن غيرها. ﴿أمة﴾: أى جماعة كثيرة، والمراد أنه جمع من الفضائل ما لو تفرق لكفى أمة بأجمعها. ﴿قانتا لله﴾: أى مطيعا لله قائما بأمره. ﴿حنيفا﴾: أى مائلا عن الباطل إلى الحق. ﴿ولم يك من المشركين﴾: أى لا كما يزعم

(١) حلال. (٢) متاع. (٣) ظلمناهم. (٤) بجهالة. (٥) اجتباه. (٦) وهداه.

كفار قريش أنهم حنفاء على ملة إبراهيم لأن الحنيفية تنافى الشرك الذى هم عليه، انظر الآية (٦٧) من سورة آل عمران صفحة ٧٣. ﴿اجتباه﴾: اصطفاه واختاره لرسالته وخلته، والجملة حال على تقدير ﴿قد﴾ أى حال كونه قد اجتباه.

المعنى: ـ اشكروا نعم الله إن كنتم لاتطيعون غيره ولا تقصدون إلا التقرب إليه. ومن نعمه عليكم أنه رفع عنكم كثيرا مما كان محرما فى التوراة، ولم يحرم إلا الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح لغير الله، ولايجوز شىء من ذلك إلا للمضطر غير الباغى على إمامه، وغير متجاوز حد الضرورة فإن الله لايؤاخذه بذلك لأنه سبحانه غفور رحيم، وقد تقدم شرح الآية فى سورة البقرة الآية (١٧٣) صفحة ٣٣. وإذا كان الله لم يحرم من الطعام إلا ماذكر فلا تجرءوا وتحللوا وتحرموا لمجرد وصف ألسنتكم لكذب، لأن عاقبة أمركم تكون هى افتراؤكم على الله الكذب، حيث نسبتم إليه أنه حلل كذا مع أنه حرام، أو حرم كذا مع أنه حلال، زاعمين أنكم بهذا تنالون حظوظا وخيرا كثيرا، مع أن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون أبدا؛ لأن الذى يكذبون لأجله متاع قليل زائل ينقطع عن قرب، وفى الآخرة لهم عذاب شديد الألم.

ولما فرغ من تجهيل المشركين أراد أن يبين ماحرمه على اليهود خاصة فى التوراة عقابا لهم ولكنه أحله لهم إذا أسلموا فقال: وعلى الذين هادوا دون غيرهم من الأولين والآخرين حرمنا ماقصصناه عليك من قبل فى سورة الأنعام، وماظلمناهم بالتحريم ولكن كانوا هم الذين ظلموا أنفسهم بتسببهم فيه كما هو مبين فى الآيات من (١٥٥ إلى ١٦١) من سورة النساء صفحتى ١٢٩، ١٣٠. ثم فتح سبحانه باب التوبة فقال: ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة وطيش ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا أعمالهم لتمحو سيئاتهم فيغفر الله ذنوبهم؛ لأنه سبحانه بعد هذه التوبة لغفور لهذا السوء، رحيم يمحو السيئات بالحسنات، انظر الآية (١١٤) من سورة هود صفحة ٣٠١. ثم أراد سبحانه أن يسفه كلام مشركى العرب واليهود فى زعمهم أنهم على ملة إبراهيم فقال: إن إبراهيم الذى تتمسحون به كان جامعا لكل الفضائل منزها عما أنتم عليه لأنه كان مطيعا لأوامر ربه، قائما على حدوده، بعيدا عن كل باطل، ولم يك مثلكم مشركا بربه، بل كان كثير الشكر لنعم ربه، ولكل هذا اصطفاه لرسالته ومخاللته، ووفقه لسلوك طريق الحق الموصل للنعيم الدائم.

صِرَٰطٍ[1] مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ[2] فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ
فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ[3] ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ
ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ[4] حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾
إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ[5] فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾
ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ
وَجَٰدِلْهُم[6] بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن
ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ
فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
لِّلصَّٰبِرِينَ[7] ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ
عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

المفـردات: - ﴿فى الدنيـا حـسنة﴾: هى محبة جميع أهل الأديان له، وكثرة الأنبياء من أولاده، وذكره الحسن على كل لسان إلى قيام الساعة استجابة لدعوته حين قال ﴿واجعل لى لسان صدق فى الآخرين﴾ الآية (٨٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥. ﴿جُعِلَ السبت﴾: تقدم بيان ذلك فى صفحة ٢١٩ والمراد فرض تعظيمه وترك العمل فيه للتفرغ للعبادة. ﴿بالحكمة﴾: الحكمة هى وضع الشىء فى محله، والمراد هنا الطريقة اللائقة بحال المدعو فإذا كان ممَّنْ يظن أنه يريد بيان الحق فقدم له الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة، وأكثر مايكون ذلك فى مخاطبة الخواص، انظر شيئًا من ذلك فى محاورة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه فى الآيات من (٤٢ إلى ٤٨) من سورة مريم صفحتى ٤٠٠، ٤٠١، وإذا كان مكابرًا معاندًا ويخشى من تركه على حاله فى محاربة الدعوة أن يؤثر على غيره فلا بأس بكشف جهله وبيان سوء مستقبله ومقابلته بشىء من الشدة الممزوجة بالتحذير، انظر شيئًا من ذلك فى الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢، والآية (٥٥) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٥، والآية ٧٣ من سورة التوبة صفحتى ٢٥٣، ٢٥٤، والآية (٤٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٧. ﴿الموعظة الحسنة﴾: الموعظة هى الكلام المرقق للقلوب، المرهف للشعور، الذى تخلط فيه الرغبة بالرهبة، والإنذار بالبشارة. ﴿جادلهم﴾: الجدل الحوار والمناظرة بالدليل، وحسنه أن يكون برفق من غير فظاظة. ﴿ضَيق﴾: بالفتح لغة فى الضيق بالكسر.

المعنى: - وآتينا إبراهيم فى الدنيا ذكرا حسنا، وسيكون فى الآخرة من زمرة الصالحين فى الدرجات العلا. ثم أوحينا إليك ﴿ثم﴾ هنا للدلالة على الانتقال من رتبة خليل الله إبراهيم إلى رتبة أعلى. قال الزمخشرى جاء بـ ﴿ثم﴾ إيذانًا بأن أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم من الكرامة اتباع خاتم الرسل ﷺ لملته. والمعنى ثم أوحينا إليك أيها الرسول وقلنا لك اتبع ملة

---

(١) صراط. (٢) وآتيناه. (٣) الصالحين. (٤) إبراهيم. (٥) القيامة. (٦) وجادلهم. (٧) للصابرين.

إبراهيم العظيم المنزلة عند ربه حال كونه حنيفا مسلما، ولم يكن من المشركين أبدا كما يزعم قومك، ولشدة تبجحهم بحب إبراهيم كرر بعده عن الشرك ليتنبهوا فيرجعوا إلى الصواب. ولما كان يوم السبت معظما عند اليهود ظنوا أن فى تعظيم الإسلام للجمعة مخالفة لملة إبراهيم فدفع ذلك سبحانه بقوله: ﴿إنما جُعل السبت﴾ أى تعظيم يوم السبت وتحريم الصيد والعمل فيه على اليهود فقط، ومع ذلك اختلفوا فى احترامه؛ فمنهم مَنْ حافظ، ومنهم مَنْ تعدى كما هو مبين فى صفحة ٢١٩. وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه فيجازى كلا بما يستحق. ولما أمره باتباع إبراهيم بيّن له طريق إبراهيم فى دعوة قومه لتتحق المتابعة فى كل شيء، فقال: ادع أيها النبى قومك إلى طريق الصواب الموصل لرضا ربك، فادع خواص قومك بالقول الحكيم المشتمل على الدليل الواضح، وعوامهم بالمواعظ التى تهز مشاعرهم، وتستولى على قلوبهم فتربطهم بخالقهم، وجادل مَنْ يجادلك بالطريقة التى هى أحسن من غيرها، أى برفق وبُعد عن الخشونة وطول تحمل وعدم إساءة مهما بدر منهم؛ ذكر الغزالى فى كتاب تهافت الفلاسفة (تخريج الأستاذ سليمان دنيا - طبعة الحلبى سنة ١٩٤٧ صفحة ١٧) قال: الناس ثلاثة أصناف. ١ - عوام، وهم أهل السلامة البله، ٢ - خواص، وهم أهل الذكاء والبصيرة، ٣ - أهل الجدل. أما الخواص فادعوهم بالحكمة وأما العوام وهم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق فادعوهم إلى الله بالموعظة، ويناسب ذلك نَهْىُ مالك رضى الله عنه وعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه. أن يحدث الناس بما لا يفهمون من صفات الله تعالى.

وأما أهل الشغب والجدل فادعوهم بالمجادلة، وقد جمع سبحانه ذلك فى قوله ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾. ثم بيَّن أن الهداية بعد ذلك لله وحده، وإنما على الرسول البلاغ، فقال: إنه وحده هو الذى يعلم بِمَن رسخ فى الضلال ومَنْ سلم طبعه فينتفع بدعوتك. ولما كانت الدعوة تستلزم غالبا محاربة أعدائها لها وتعديهم على القائمين بها، نبه المسلمين إلى ماهو الأحسن فى معاملة مَنْ يتعدى عليهم فقال: وإن عاقبتم أى أردتم عقاب المتعدى فلا تتجاوزوا المثل، ولئن صبرتم ولم تقابلوا بالمثل فصبركم والله خير لكم فى الدنيا والآخرة. واصبر أنت أيها النبى، عبارة الألوسى: إنه تعالى أمر نبيه صريحًا، بما ندب إليه غيره تعريضًا، بالصبر لأنه ﷺ أولى الناس بعزائم الأمور أى وليكون قدوة صالحة، انظر الآية (٣٥) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٧١، ٦٧٢. واستشعر أنه لا صبر لك إلا بتوفيق الله عز وجل ومعونته فيسهل عليك مشقة الصبر. ويؤخذ من الكلام شدة الترغيب فى الصبر حيث عبر عن المجازاة بالعقاب المقيد (بإن) الدالة على استبعاد حصول الشرط المذكور بعدها، ثم حبب فيه بقوله: ولئن صبرتم لهو خير، ثم صرح بالأمر به فقال: ﴿واصبر﴾ إلخ، ولاتحزن أيها النبى على عدم إيمان قومك، ولا يضيق صدرك، لأن الله مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد، والذين هم محسنون لأعمالهم، أى يبتعدون عن المعاصى، وعملوا الصالحات. والله الموفق..

(١٧) سُورَةُ الإِسْرَاءِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا إِحْدَى عَشْرَةَ وَمِائَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ
وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي
وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا
شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ
لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾
فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ

سورة الإسراء

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: . ﴿سبحان﴾: أى تنزيها لله تعالى عما لا يليق به من نقص وعجز.

﴿أسرى﴾: أى جعله ساريًا. والإسراء السير فى الليل خاصة.

﴿بعبده﴾: محمد ﷺ. مَنْ يقول إن الإسراء كان منامًا كما سيأتى فى شرح آية (٦٠) من هذه السورة صفحة ٣٧٢ يقول إن العبد كما يطلق على الجسم الكثيف يطلق أيضًا على الأرواح.

ومن ذلك إطلاقه على الملائكة، وهى ليست أجسامًا كثيفة كأجسام الحيوانات وذلك فى قوله تعالى عن جبريل عليه السلام ﴿نزل به الروح الأمين﴾ الآية (١٩٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١، وكذلك قوله عن الملائكة ﴿عباد مكرمون﴾ الآية (٢٦) من سورة الأنبياء.

﴿ليلاً﴾: صرح به للتأكيد ولدفع توهم المجاز. ﴿المسجد الحرام﴾: كان يطلق حينئذ على ما حول الكعبة من الفراغ، وكان بقدر المطاف الآن، ثم وسعه الخلفاء والملوك بعده.

---

(١) سبحان (٢) الأقصى
(٣) باركنا (٤) آياتنا
(٥) وآتينا (٦) الكتاب
(٧) وجعلناه (٨، ٩) إسرائيل
(١٠) الكتاب (١١) أولاهما

﴿المسجد الأقصى﴾: هو بيت المقدس، ولم يكن بعده مساجد فى ذلك الوقت.

﴿آياتنا﴾: المراد ما فيه العبر من عجائب خلقه تعالى، وما فيه أدلة القدرة الباهرة.

﴿الكتاب﴾: التوراة.

﴿ذرية من حملنا﴾: رأى بعض العلماء أن ذرية... إلخ منادى، والمعنى لا تتخذوا من دونى وكيلاً ذرية... إلخ؛ ورأى آخرون أنه منصوب بفعل مقدر فى الكلام يفهم من سياق الكلام.

والأصل وجعلنا التوراة هدى لبنى إسرائيل، وأريد ببنى إسرائيل ذرية مَنْ حملنا... إلخ؛

والمعنى على كل أنهم ذرية بعض مَنْ حملهم الله فى السفينة مع نوح لأنهم آمنوا به فأنجاهم من الغرق، وليسوا أصولاً لبنى إسرائيل.

وقد جاء التعبير بهذا المعنى فى الآية (٥٨) من سورة مريم صفحتى ٤٠١، ٤٠٢، والمراد من ذكر هو حملهم على توحيد الله وطاعة أوامره بتذكيرهم بنعمه سبحانه عليهم فى ضمن إنجاء أصلهم من الغرق.

﴿وقضينا إلى بنى إسرائيل﴾: أى أوحينا إليهم وحيًا مقضيا مقطوعًا به.

﴿فى الأرض﴾: أى أرض فلسطين التى حول بيت المقدس.

﴿مرتين﴾: وكان بين كل منهما خمسمائة سنة.

﴿لتعلن﴾: أى تجرون فى الأرض وتفسدون انظر الآية (١٩) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧.

﴿عبادًا﴾: وثنيين من بابل بالعراق ويقال إنه جيش بختنصر بضم فسكون فضم ففتحتين مع تشديد الصاد.

﴿بأس﴾ المراد به هنا القوة والبطش.

المعنى: . يعلمنا الله تعالى أن نقول: سبحان الذى.. إلخ أى تنزه اللّه تنزيها كاملاً عن صفات النقص، الذى أسرى بعبده محمَّد فى جزء من الليل، من المسجد الحرام إلى بيت المقدس الذى جعلنا البركة تحوطه فى معاش أهله وبنيهم حيث كان فيهم أنبياء كثيرون،

أسرينا بعبدنا لنريه من عجائب الملكوت ما يزيده إيمانًا، ويرشده إلى أسرار الكون، إنه سبحانه هو وحده السميع لأقوال رسوله، البصير بأفعاله، فيكرمه حسب ما يعلمه فيه. واعلم أن العلماء اختلفوا قديمًا وحديثًا فى الإسراء: هل كان بالروح والجسد أم بالروح فقط، يقظة أو منامًا.

وبهذا الاختلاف خرج كونه يقظة من باب العقائد الواجبة إلى باب العلم الذى يرى فيه كل واحد ما يطمئن إليه قلبه. ومَنْ أراد تفصيل الكلام فى هذا الموضوع بما لم يسبق له مثيل فى كتاب آخر فليرجع إلى شرح حديث رقم ٤٧٤ من كتابنا صفوة صحيح البخارى.

وبعدما بيَّن سبحانه إكرامه لعبده محمَّد ﷺ؛ ذكر ما أكرم به عبده ونبيه موسى قبله بالتوراة ليخرج بها بنى إسرائيل من الظلمات إلى النور.

ثم بيَّن أن قوم موسى لم يعملوا بها بل أفسدوا فسلط عليهم البابليين فقتلوهم وشردوهم، ولما تابوا رفع عنهم هذه المحنة وأعاد لهم الدولة، وجعلهم أكثر عددًا مما كانوا.

ثم عادوا إلى عصيانه وقتلوا زكريا ويحيى، فسلط عليهم الذين أهلكوهم أول مرة، وفى هذا تذكير لأهل مكة بأن يحصل لهم ما حصل لبنى إسرائيل إذا خالفوا نبيهم فقال: وآتينا موسى الكتاب الهادى لبنى إسرائيل، وقلنا لهم فيه لا تتخذوا من دون اللّٰه كفيلا تكلون إليه أموركم، يا ذرية بعض مَنْ حملناهم مع نوح فى السفينة فأنجيناهم من الغرق، لأن نوحًا كان عبدًا كثير الشكر لنعم ربه.

وفى هذا تنبيه لهم إلى نعمته عليهم وأنهم من سلالة نبى يجب أن يشكروا اللّٰه تعالى كثيرا كما كان هو يشكر كذلك.

وأوحينا إلى بنى إسرائيل فيما أوحيناه إلى موسى وأعلمهم به إنكم ستخالفون ربكم مرتين: أولاهما التلاعب بتغيير التوراة وقتل نبيهم شعيبا عليه السلام، والثانية قتل زكريا ويحيى، ولتستكبرن عن طاعة اللّٰه ولتظلمن ظلمًا كبيرًا. فأنذركم سبحانه أنه إذا جاء موعد المعصية الأولى فسنبعث عليكم عبادا لنا أصحاب بطش لينزجر منكم مَنْ فيه بقية خير عن مشاركة الكثرة فى المعصية.

شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾
ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ
وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ
وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا
وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ
وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾
إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾
وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ

المفردات: ﴿فجاسوا﴾: أى دخلوا وترددوا باحثين. ﴿خلال الديار﴾: أى وسطها. ﴿الكرة﴾: أى الغلبة والقوة. ﴿نفيرًا﴾: هو مَنْ ينفر مع الرجل من قومه لدفع العدو. ﴿وإن أساتم فلها﴾: اللام فى ﴿فلها﴾ بمعنى على، انظر الآية (٤٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦ . ﴿يسوءوا وجوهكم﴾: أى يجعلوا آثار الإساءة ظاهرة فيها، والمراد يلحقوا بكم الأذى والشر. ﴿المسجد﴾: هو المسجد الأقصى. ﴿يتبروا﴾: أى يهلكوا. ﴿ماعلوا﴾: أى ما غلبوا الناس وقهروهم بالاستيلاء عليه. ﴿حصيرًا﴾: يقال حصره بوزن نصره إذا ضيق عليه وأحاط به، والحصير المكان الذى فيه التضييق والحبس، فالمعنى جعلناها محبسًا وسجنا، انظر الآية (٥) من سورة التوبة صفحة ٢٤٠، والآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥ .

وقال الحسن الحصير هنا معناه الفراش أى وجعلناها مهادًا لهم كما فى الآية (١٨) من سورة الرعد صفحة ٣٢٤ . ﴿ويدع الإنسان﴾: أصل يدع (يدعو) حذفت الواو تخفيفًا كما حذفت فى (يمح) فى الآية (٢٤) من سورة الشورى صفحة ٦٤٢.

المعنى: ـ أرسلنا للانتقام منكم عبادا أولى بطش شديد، فخاضوا وسط دياركم للإفساد والتدمير، فقتلوا ونهبوا، وأحرقوا التوراة، وخربوا بيت المقدس، وكان ذلك الوعد من الله نافذًا لابد من حصوله ثم لما تبتم رددنا لكم الغلبة على أعدائكم، فغزوتم البابليين، وخلصتم أسراكم، واسترجعتم أموالكم، ورزقناكم أموالا وبنين وصرتم أكثر مما كنتم عددًا، وقلنا لكم إن أحسنتم

---

(١) خلال (٢) وأمددناكم (٣) بأموال (٤) وجعلناكم
(٥) ليسوءوا (٦) للكافرين (٧) الصالحات (٨،٩) الإنسان
(١٠) الليل. (١١) آيتين (١٢) آية.

فأطعتم ربكم. كان إحسانكم لمصلحتكم فى الدنيا والآخرة، وإن أسأتم بالعصيان فإلى أنفسكم تسيئون، ولا تضر الإساءة غيركم، فإذا جاء وقت المرة الآخرة من مرّتى إفسادكم فى الأرض سلطنا عليكم أعداءكم ليلحقوا بكم أشد أنواع الإساءة، وليدخلوا المسجد قاهرين لكم كما دخلوه أول مرة، وليهلكوا ما استولوا عليه من أموالكم وأولادكم إهلاكا شديدًا. عسى ربكم أن يرحمكم بعد المرة الآخرة إن تبتم عن المعاصى، ثم هددهم سبحانه بقوله، وإن عدتم لمعصية ربكم عدنا عليكم بالقتل والسبى، وقد عادوا وكذبوا خاتم الرسل ﷺ وهموا بقتله وأعانوا عليه المشركين فسلط اللّٰه المؤمنين عليهم، فقتلوا منهم بنى قريظة، وطردوا بنى النضير من ديارهم، وضربت الجزية على مَنْ بقى، ثم تتابعت النكبات عليهم من سائر الأمم إلى يومنا هذا، وفى الآخرة جعل جهنم سجنًا لهم. وبعدما بين ما حل ببنى إسرائيل لما خالفوا التوراة، أراد أن ينبه أمة محمَّد إلى عدم العمل مثلهم، فبين لهم ميزة القرآن، وحذرهم من مخالفة ما فيه، فقال: إن هذا القرآن يهدى للطريق التى هى أقوم الطرق وأسلمها، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا كبيرًا، ويُنذر الذين لا يؤمنون بالآخرة بأنا أعددنا لهم فى جهنم عذابًا شديد الألم. وبعدما بيَّن سبحانه أن هذا القرآن يدعو الإنسان إلى الخير العظيم ويحذره من الشر الكبير بيَّن سبحانه أن بعض أنواع الإنسان يدعو لنفسه بالشر كما يطلب الخير، ويستعجل العذاب كما لو كان يستعجل النعيم انظر الآية (٧٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥، وكان الإنسان عجولاً متسرعًا لا يقدر العواقب. وقال بعض العلماء المراد بالإنسان مطلق الإنسان لا الكافر بخاصة، والمعنى عليه أن القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير فى الواقع. وهو فى بعض أحواله يطيش تحت تأثير الغضب مثلاً فيدعو على نفسه أو أهله بما هو شر بقوة كما لو كان يدعو بما هو خير، واستدل هؤلاء بما رواه أبو داود والبزار عن جابر بن عبدالله عن رسول الله ﷺأنه قال: (لا تدعو على أنفسكم، ولا على أولادكم، لئلا توافقوا من اللّٰه سبحانه ساعة إجابة فيستجيب لكم) أى فتندموا وقت لا ينفع الندم. وبعدما ذكر سبحانه نعمته على عباده بهداية القرآن أراد أن يذكر نعمته بهداية حسية وفيها برهان على قدرته وحكمته فقال: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ أى دليلين على القدرة والحكمة بتعاقبهما على نظام واحد مع إمكان غيره، ﴿فمحونا آية الليل﴾ المراد آية هى الليل ومعنى محوناها أى خلقناها ممحوة أى مظلمة لا ضوء فيها كما تقول سود الله الفحم وبيض الجصّ أى خلقهما كذلك. وليس المراد أنها خلقت مضيئة ثم طمست.

الَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِن رَبِّكُمْ
وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَهُ
تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَنٍ أَلْزَمْنَهُ طَئِرَهُ فِي عُنُقِهِ
وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَبًا يَلْقَهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ
كِتَبَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَنِ اهْتَدَى
فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ
رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا
فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾
وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا
لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَهَا

المفردات: ﴿مبصرة﴾: أى مبصرا صاحبها، والمراد مضيئة.

﴿لتبتغوا﴾: أى لتطلبوا بالسعى فى الأرض.

﴿فضلاً﴾: رزقًا من فضل الله.

﴿طائره﴾: يطلق الطائر على الحظ وعلى النصيب المترتب على العمل وعلى العمل نفسه كأنه يطير إلى صاحبه من عش الغيب، انظر الآية (١٣١) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢، والآية (١٩) من سورة يس صفحة ٥٨٠. ﴿لاتزر وازرة وزر أخرى﴾: تقدم بيانها فى صفحة ١٩١ .

﴿أمرنا﴾: بفتح الميم المخففة أى أمرناهم بالطاعة على لسان الرسول المبعوث إلى أهلها فخالفوا. وقال بعضهم إن ﴿أمرنا﴾ بتشديد الميم المفتوحة أى كثرنا من الكثرة. والمعنى كثرنا المترفين ففسقوا.

﴿مترفيها﴾: جمع مترف وهو الغنى المنعم الذى يطغيه الغنى، انظر صفحة ٨١٤ .

﴿فحق عليها القول﴾: أى وجب عليها وقوع الوعيد بالعذاب.

﴿وكم﴾ تدل على كثرة ما بعدها.

﴿القرون﴾: جمع قرن والمراد به الأمة.

﴿العاجلة﴾: أى متاع الحياة الدنيا السابقة على الآخرة، انظر الآية (٢٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤١.

---

(١) الليل (٢) آية (٣) فصلناه (٤) إنسان
(٥) ألزمناه (٦) طائره (٧) القيامة (٨) كتابا
(٩) يلقاه (١٠) كتابك (١١) فدمرناها (١٢) يصلاها

﴿يصلاها﴾: أى يدخلها ويقاسى حرها.

المعنى: - وجلعنا الآية التى هى النهار مضيئة يبصر الموجود فيها ما حوله، فعلنا ذلك لتطلبوا فيه رزقا من ربكم بالسعى، إذ ذلك يتعسر فى الظلمة غالبًا، وتعلموا باختلاف الليل والنهار عدد السنين، ولتعلموا حساب مواعيد عقود إيجاركم وبيعكم ومواسم الأعمال دنيا ودينا، وكل شىء لكم فيه مصلحة فصلناه لكم، أى بيناه بيانا واضحًا لتقوم عليكم الحجة بعد تمام النعمة. ثم ذكرهم بما سيكون لعلهم يعتبرون فقال: وكل إنسان ألزمناه عمله لزوم القلادة للعنق لا تفارقه، ونخرج له يوم القيامة كتابًا يشتمل على كل ما عمل من خير وشر، يلقاه مفتوحًا ليسرع فى قراءته، ويقال له اقرأ بقدرة الله حتى لو لم يكن فى الدنيا قارئًا، كفى بنفسك حاسبة ومحصية عليك عملك، انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨. مَنْ اهتدى فإنما ينفع نفسه، ومَنْ ضل فإنما إثم ضلاله على نفسه، ولا تحمل نفس مذنبة فوق ذنبها ذنب نفس أخرى، وما كنا معذبين أحدا على ترك الأعمال أو الاعتقادات التى لا سبيل إلى معرفتها إلا بالشرع حتى نبعث رسولاً يبينها للناس ويحذرهم من مخالفتها، كأحوال الجنة والنار، والملائكة، والعبادات.

أما معرفة الله فلا عذر لأحد فى الجهل بها ولو لم يبعث الله رسلا، بل كفى فى وجوبها بث الأدلة فى الكون على وجود صانع حكيم، انظر تحقيق ذلك فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١ . وإذا قرب وقت تعلق إرادتنا بتعجيل إهلاك أهل القرية لتسرب الفساد إليهم كثرنا المترفين فأطغاهم الغنى وأنساهم ربهم، فوجب عليها تحقق الوعيد بالهلاك فأهلكناها إهلاكًا شديدًا، وكما ذكرنا للعلماء فى تفسير ﴿أمرنا﴾ من الآية رأيان:

الأول: أن أمرنا من الأمر ضد النهى، أى أمرناهم بالطاعة ففسقوا.. إلخ ونقل هذا الرأى عن ابن عباس وسعيد بن جبير وآخرين.

والثانى: أمرنا بمعنى كثرنا.. قال بكل من الرأيين رجال من السلف والخلف. ومعنى الآية على الرأى الأول هو: وإذا أردنا أن نهلك قرية بسبب ظهور المعاصى من أهلها لا نعاجلهم بالعقوبة فى أول ظهور المعاصى منهم بل نأمر مترفيها بالرجوع عن المعاصى والإقلاع عن الاستمرار فيها ليتبعهم الباقون فإن أصروا على الفسق عنادًا ولم ينههم أحد ممَّنْ يعيشون

معهم أهلكناهم، لما فى ترك إهلاكهم من استشراء الفساد فى المحيط الذى يعيشون فيه بل وفيمَنْ يأتى بعدهم ﴿والله لا يحب الفساد﴾ انظر ما قيل فى شرح الآية (١٦٥) من سورة الأعراف صفحة ٢١٩ . وحاصل هذا الرأى أن الله سبحانه أخبر عباده بأنه لا يعاجل بالعقوبة أمة ظالمة إلا بعد أن يعذر لهم غاية الإعذار الذى يتجلى بعده لكل أحد اليأس من إيمانهم، عند ذلك يهلكهم. ولعلك تلمح هذا المعنى من ذكر نوح بالخصوص عقب هذه الآية مباشرة ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾. لأنه هو الذى قال ﴿قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهارًا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا... الآيات (٥) وما بعدها من سورة نوح صفحة ٧٦٨، وبعد كل هذا الإعذار قال نوح عليه السلام ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا... آيتى (٢٦، ٢٧) من سورة نوح صفحة ٧٦٩، ولعلك لاحظت أيضًا قول الله سبحانه قبلها ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾، ويتجلى هذا المعنى المراد فيما قصه علينا من تاريخ الأمم الماضية فى قوم عاد فى صفحة ٢٠٣، وقوم صالح فى صفحة ٢٠٤، وقوم لوط فى صفحة ٢٠٥، وقوم شعيب فى صفحة ٢٠٦، فكل هذه الآيات توضح أن هؤلاء الناس كانوا مجرمين قبل أن تحذرهم رسلهم من الهلاك كما يلاحظ أيضًا أن رءوس الفتنة هم الكبراء المترفون ﴿الملأ﴾ ومن هذا يتبين أن الله سبحانه وتعالى لا يهلك قرية إلا إذا ظلم أهلها أنفسهم ظلمًا واضحًا تقوم به عليهم الحجة، وقد سجل سبحانه ذلك فى كثير من آيات القرآن انظر آيات (١٣١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٤، و(١٠٢) من سورة هود صفحة ٢٩٩، و(١١٧) من سورة هود صفحة ٣٠١، و ٥٩ من سورة الكهف صفحة ٣٨٩، و٤٨ من سورة الحج صفحة ٤٤٠ . ويؤيدكل هذا ما جاء فى القرآن صريحا من أنه لا حاجة لله تعالى فى تعذيب خلقه متى كانوا صالحين فقال سبحانه ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرًا عليمًا﴾ الآية (١٤٧) من سورة النساء صفحة ١٢٨ .

والرأى الثانى: أن أمرنا بمعنى كثرنا، واستدلوا بقراءة ﴿آمرنا﴾ بمد الهمزة، وهى منقولة عن على رضى الله عنه وعيسى بن عمرو وابن عباس والحسن وقتادة وعاصم وابن كثير ونافع، فكل هؤلاء قرؤها بمد الهمزة، أى بمعنى كثرنا، واستدلوا أيضًا بالقراءة الثالثة ﴿أمّرنا﴾ بتشديد الميم المفتوحة وهى منقولة أيضًا عن على والحسن والباقر وأبى عثمان النّهدى والسُّدى وزين بن على. والمعنى عند هؤلاء أننا إذا أردنا أن نهلك قرية اختار أهلها طريق

الضلال وصمموا عليه نمدهم بما يحقق اختيارهم فنكثر فيهم المترفين المنعمين من الرؤساء والكبراء والحكام بإغداق النعم والخير عليهم، وتوسيع الدنيا عليهم، فتفسدهم النعم ويتبعهم غيرهم، فيخرج الجميع عن الطاعات عنادًا واستكبارًا، عند ذلك ننزل بهم عذاب الاستئصال الذى لا يبقى منهم أحدًا حتى لا يكونوا جرثومة عدوى لإفساد مَنْ بعدهم، انظر آيتى (٣٤، ٣٥) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٧، ٥٦٨، وانظر كذلك الآية (١١٢) من سورة النحل صفحة ٣٦١ .

وهذه سنة الله فى خلقه، يُسهل لكل منهم ما يريد لنفسه من خير أو شر، قال سبحانه بعد هذه الآية ﴿مَنْ كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمَنْ نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومًا مدحورا﴾، ﴿ومَنْ أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأُلئك كان سعيهم مشكورا﴾، ﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورًا﴾ فانظر كيف سمى سبحانه ما يمد به الكافر ليزداد كفرا عطاء، يشير سبحانه بهذا إلى أن هذه هى رغبة العبد استعطاها من الله باختياره فأجاب سبحانه طِلْبَتَه، ولا يدرى هذا المسكين أنه عطاء فيه هلاكه، فهو من قبيل قوله تعالى فى آيات أخرى، انظر الآية (١٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٢، والآية (٤٣) وما بعدها من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩، فنرى أن اللَّه سبحانه قد لقننا حمده على إهلاك الظالمين، لا لشىء إلا لأنه فيه إنقاذ مَنْ يأتى بعدهم من الفساد؛ وانظر كذلك آيتى (٥٥، ٥٦) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٥٠، ٤٥١، وآيات (٧٦ - ٨١) من سورة القصص صفحات ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، والآية (١٥) من سورة هود صفحة ٢٨٦ والآية (٢٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤١، وآيات (٥ - ١٠) من سورة الليل صفحتى ٨١٠، ٨١١ .

ثم يقول سبحانه بعد ذلك ليوضح كثرة الأمم التى أهلكت: وكثيرا من الأمم أهلكناها من بعد نوح كعاد وثمود وغيرهم حسب هذه القاعدة. وفيه إنذار لأهل مكة. ويكفيك أيها النبى ربك خبيرًا بذنوب عباده وإن أخفوها فى الصدور، بصيرًا بها وإن حاولوا إخفاءها بالستور. فلا يخفى عليه شىء من أفعال مشركى قومك ، وسيجازيهم بما يستحقون. ومَنْ كانت العاجلة ومتاعها كل همه ولم يرد غيرها عجلنا لمن نريد منهم ما نشاء من متاعها فى الدنيا، ثم جعلنا له فى الآخرة جهنم يدخلها ويقاسى شدائدها.

مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا
سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾
كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ
عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾
لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾
۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل
لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾
وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا
كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ
إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

المفردات: ـ ﴿مذمومًا﴾: ممقوتًا من الله وملائكته والناس.

﴿مدحورًا﴾: مطرودًا من رحمة الله.

﴿نمد﴾: أى نساعد ونيسر.

﴿محظورًا﴾: ممنوعًا

﴿فتقعد﴾: فتصير. ﴿مخزولاً﴾: مغلوبًا خائبًا.

﴿وقضى﴾: أى حكم وأمر.

﴿أما يبلغن﴾: أصلها ﴿إن﴾ الشرطية وزيدت عليها ﴿ما﴾ لتأكيد ربط الجزاء بالشرط.

﴿أف﴾: كلمة تدل على التضجر.

﴿تنهرهما﴾: تزجرهما بقسوة.

﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ إلخ؛ أى جناحك الذليل كقولهم حاتم الجود والكلام كناية عن التواضع، انظر الآية (٨٨) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤ .

يقول فى هذا علماء البلاغة شَبَّه الذل بطائر (منخفض الجناح) لأن ذلك علامة التسليم بجامع لزوم التسليم التام فى كل. أو أن الكل مظهر للتسليم التام، وقيد من الرحمة احترازا من الذل الناشىء من الإذلال والإرهاق الصادر من القوى للضعيف.

﴿للأوابين﴾: جمع أواب وهو كثير الرجوع إلى الله بالتوبة.

---

(١) وللآخرة. (٢) درجات. (٣) وبالوالدين.
(٤) إحسانا. (٥) صالحين. (٦) للأوابين.

المعنى: . أعددنا النار لمن حصر همه فى متاع الدنيا يدخلها حال كونه ممقوتًا مطرودًا، ومَنْ أراد بعمله ثواب الآخرة وعمل لذلك العمل الذى شرعه الله موصلاً لها بشرط أن يكون مع ذلك مؤمنًا، لأن العمل بدون الإيمان هباء؛ انظر الآية (٢٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣؛ من يعملون العمل بهذه الشروط الثلاثة كان عملهم مقبولاً عند الله مثابا عليه. كلا: أى كل واحد من الفريقين فريق طلاب الدنيا وفريق طلاب الآخرة المعبر عنهم بـ ﴿هؤلاء وهؤلاء﴾ نيسر له من عطاء ربك أيها النبى أى من رزق وصحة وكثرة أولاد يستعين بها على ما اختار لنفسه، فهو من قبيل قوله ﷺ: (كل ميسر لما خلق له) أى ييسر الله له ما تميل إليه نفسه. وبهذا يكون الرزق نعمة لقوم نقمة لآخرين. انظر أيها السامع بعين الاعتبار تفضيلنا بعض عبادنا على بعض بأحوال مختلفة، فمنهم الفقير والغنى والصحيح والمريض إلى غير ذلك لحكمة نعلمها، انظر الآية (١٦٥) من سورة الأنعام صفحة ١٩٢ . والآية (٢٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢، والآية (٣٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠ . ووالله لتفاوتهم فى الدار الآخرة لأكبر درجات؛ لأن التفاوت فيها بالجنة والنار، وأكبر فضلا، لأن الفضل الصحيح ما كان بالدائم الباقى لا بالزائل فى أقل زمن. وبعدما أجمل سبحانه أعمال البر فى قوله ﴿وسعى له سعيها﴾ أراد أن يفصلها مبتدئًا بأشرفها فقال: لا تجعل أيها المكلف مع الله إلها آخر فتصير جامعًا على نفسك الندم والخذلان. وأمر ربك ألا تعبدوا إلا إياه، وبأن تحسنوا للوالدين إحسانًا تامًا ولو كانا كافرين، انظر الآية (١٥) من سورة لقمان صفحة ٥٤١ . وإذا وصل الوالدان عندك أو أحدهما حال الضعف والعجز كما كنت عندهما فى أول أمرك، وجب عليك أن تعاملهما معاملة الشاكر، وذلك بأنه إذا صدر منهما قول لا لا يرضيك لا تظهر لهما تأففا، أو صدر منهما عمل يفسد عليك شيئًا فلا تقس عليهما فى القول بل تصرفهما عنه بلطف، وقل لهما بدل التأفف والنهر قولاً كريمًا يشعر بالعطف والحنان والأدب. واخفض لهما جناح التذلل الناشئ من الرحمة لا من خوف العار مثلا، وادع الله أن يعاملهما برحمته كما رحماك بتربيتهما إياك فى صغرك تحقيقًا لوعده برحمة الراحمين.

وطلب الرحمة مطلوب للوالدين ولو كافرين بأن يهديهما للإيمان. ثم هدد سبحانه من يعمل ذلك نفاقًا مع إضمار كراهتهما فقال: ﴿ربكم أعلم بما فى نفوسكم﴾ من قصد البر إليهما، إن تكونوا قاصدين العمل الصالح يغفر لكم الله ما سبق منكم من تقصير، لأنه دائم المغفرة للأوابين.

وَءَاتِ[1] ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ
تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ[2] ٱلشَّيَٰطِينِ[3] ۖ وَكَانَ
ٱلشَّيْطَٰنُ[4] لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ
رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾
وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ
ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾
وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ[5] خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ[6] ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ
إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ
كَانَ فَٰحِشَةً[7] وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى
حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ
سُلْطَٰنًا[8] فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾

المفردات: ﴿ذا القربى﴾: هو ما بينه وبين الشخص قرابة رحم.

﴿حقه﴾: من صلة رحم ومودة ونفقة إذا كان محتاجًا. ﴿ابن السبيل﴾: هو الغريب المنقطع عن بلده. ﴿تبذيرا﴾: هو إنفاق المال فى غير موضعه. ﴿إخوان الشياطين﴾: أى قرناءهم الذين يجمعهم وإياهم الشر والفساد. ﴿كفورًا﴾: كثير الكفران والجحود لنعمة ربه.

﴿وإما تعرضن﴾: أصلها ﴿إن﴾ ﴿ما﴾ كما تقدم فى﴿إما يبلغن﴾.

﴿ابتغاء رحمة﴾: أى طلب رحمة وهو الرزق. ﴿ميسورا﴾: أى سهلاً لينا مع وعدهم بالخير يقال: يُسِر الأمر بضم فكسر أى سهل، وفى اللسان قيل إنه مصدر كمجلود بمعنى جلد. ﴿مغلولة إلى عنقك﴾: أى مقيدة بالغُل بضم الغين وهو القيد الذى يوضع فى اليدين والعنق، والمراد لا تكن بخيلاً.﴿تبسطها﴾: بسطها كناية عن التوسع فى الإنفاق إلى حد الإسراف.

﴿فتقعد﴾: فتصير. ﴿محسورًا﴾: أى نادمًا مغمومًا. ﴿يقدر﴾: أى يقتر ويضيق. ﴿إملاق﴾: أى فقر ﴿خطئا﴾: هو الخطأ التام وهو أن يفعل الرجل الجريمة عمدًا أما الخطأ بفتح الخاء

---

(١) وآت.
(٢) إخوان.
(٣) الشياطين
(٤) الشيطان
(٥) أولادكم
(٦) إملاق
(٧) فاحشة
(٨) سلطانا.

والطاء فهو أن يريد شيئًا فيقع خلافه كما فى قوله تعالى ﴿ومَنْ قتل مؤمنًا خطأً فتحرير رقبة مؤمنة﴾ الآية (٩٢) من سورة النساء صفحة ١١٧ .

﴿فاحشة﴾: أى فعلة ظاهرة القبح. ﴿ساء سبيلاً﴾. أى قبح طريقًا موصلاً للشر.

﴿سلطانًا﴾: أى تسلطًا واستيلاء على القاتل.

المعنى: ـ أعط أيها المؤمن أقرباءك حقهم عليك، خصوصًا نفقتهم إذا كانوا فقراء، وأعط المسكين وابن السبيل حقهم من الزكاة أو الصدقة، ولا تبعثر مالك فى غير المصلحة، لأنه لا يفعل ذلك إلا من استولى عليهم الشياطين فسخروهم للفساد، ودأب الشيطان أنه دائمًا يكفر بنعمة ربه، فلا يشكره عليها، فصاحبه مثله. وإن أرغمتك الظروف للإعراض عن إعطائهم لعدم وجود رزق حال كونك ترجو أن يفتح اللّه عليك به فقل لهم قولاً حسنًا يبين عذرك ويؤملهم فيك.

وكن دائما فى جميع تصرفاتك المالية وسطا بين الإسراف والبخل، لأنك إن لم تفعل تصر ملوما عند الله والناس إن بخلت، محسورا على ضياع مالك ان أسرفت. ولمناسبة الأمر ببر المحتاجين أراد سبحانه أن يبين أنه جعل الناس متعاونين فى الفقر والغنى لحكمة تقدم بعضها فى الصفحة السابقة فقال:إن ربك أيها النبى يبسط أى يوسع الرزق لمَنْ يشاء من عباده ويضيقه على مَنْ يشاء لحكمة، لأنه خبير بطبائعهم بصير بحوائجهم، فيعطى كلا ما يتفق مع الحكمة. وإذا كان الأمر كذلك فلا يجوز أن تقتلوا أولادكم خوف فقر يقع، لأنا نحن ضامنون رزقهم كما ضمنا رزقكم وبذلك يكون قتلهم إثما عظيما. ولما كان قتل الأولاد يفضى إلى قطع التناسل أتبعه بما يماثله فقال: ﴿ولا تقربوا الزنا﴾ أى لا تفعلوا مايقرب منه كاللمس والقبلة: فهو نهى عن مقدماته، ولذا لم يقل ولاتزنوا لأن الزنا ثبت أنه معصية فاضحة القبح، وأنه بئس الطريق الموصل إلى النار ولا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها إلا قتلاً مقترنًا بالحق ولا يكون ذلك إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، وزنا بعد إحصان، وقتل عمد. ومَنْ قتل مظلومًا فقد جعلنا لولى أمره سلطانا على القاتل بمؤاخذته بأحد أمرين: إما القصاص، وإما الدية، فلا يسرف فى القتل بأن يقتل بدل الواحد اثنين، لأنه بعدما نصره الله وأوجب على الحاكم القصاص له لا يصح له أن يتجاوز الحد.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾
وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ
خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ
عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ
مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ
ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ
سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ
رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ
فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ[1] رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ
وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ[2] إِنَٰثًا[3] ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ[4] لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ

المفردات: . ﴿ولاتقربوا مال اليتيم﴾: مبالغة فى النهى عن أكله. ﴿التى هى أحسن﴾: أى الطريقة الأحسن. ﴿أشده﴾: المراد به هنا تمام عقله وحسن تصرفه. ﴿بالعهد﴾: الذى ربطتم أنفسكم به مع الله بالعمل بكتابه، أو مع الناس فى الخير. ﴿مسئولاً﴾: عنه هل وفيت به أم لا. ﴿القسطاس﴾: الميزان. ﴿المستقيم﴾: المعتدل. ﴿تأويلاً﴾: هو ما يؤول الشىء إليه ويكون عاقبته. ﴿لا تقف﴾: أى لا تتبع. ﴿الفؤاد﴾: القلب. ﴿مسئولا﴾: عنه يوم القيامة.

﴿مرحًا﴾: المرح هو الاختيال والتفاخر والمراد به مختالاً متفاخرًا.

﴿كل ذلك﴾: المتقدم من الخصال الأربع والعشرين المبتدئة بقوله:

﴿لا تجعل مع الله﴾ وهى مشتملة على مأمورات ومحظورات.

﴿سيئه﴾: هو المنهى عنه منها.

﴿الحكمة﴾: هى معرفة الحق لذاته والخير للعمل به.

﴿مدحورًا﴾: مطرودًا عن رحمة الله.

﴿أفأصفاكم﴾: أى خصكم والهمزة للإنكار عليهم والأصل هل فضلكم سبحانه على نفسه فخصكم... إلخ.

﴿صرفنا فى هذا القرآن﴾: أصل التصريف كثرة صرف الشىء من حال إلى حال، ومفعوله مقدر مفهوم من المقام وهو ما نسبوه لله سبحانه بالباطل وما رد به عليهم.

---

(١) أفأصفاكم (٢) الملائكة (٣) إناثًا (٤) القرآن

المعنى: ـ ولا تتصرفوا فى مال اليتيم إلا على الوجه الأحسن له وهو حفظه وتنميته، واستمروا على ذلك حتى يبلغ رشده فسلموه له، وحافظوا على كل عهد لأن صاحب العهد سيسأل يوم القيامة عما عمل فيه. وأوفوا الكيل إذا كلتم للمشترى، وزنوا له بالميزان المعتدل. ذلك المأمور به خير لكم فى الدنيا لحصول البركة فى أموالكم، وأحسن فى الآخرة لحصول الثواب العظيم.

ولا تدخل أيها المؤمن فى شىء ليس لك به علم، فلا تقل سمعت وأنت لم تسمع، أو رأيت وأنت لم تر، أو علمت وأنت لم تعلم؛ لأنك ستسأل يوم القيامة هل سمعت حقًا أو نظرت صحيحًا أو علمت حقًا وتجازى على ذلك.

ولا تمش أيها المؤمن فى الأرض حال كونك مختالاً على الناس، لأنك مهما فعلت فلن تخرق الأرض بشدة وطأتك، ولن تبلغ مهما تطاولت أن تحاذى الجبال، أى فابتعد عن هذه الحماقة، وامش على الأرض هونا، وقل لمَنْ يسئ إليك سلامًا كما فى الآية (٦٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٧؛ كل ما تقدم كان القبيح منه مكروهًا ومبغوضًا عند الله، وكل مبغوض يعاقب صاحبه. ذلك المتقدم من الوصايا المبتدئة بقوله ﴿لا تجعل مع الله﴾ إلى قوله ﴿مكروهًا﴾ شىء عظيم، لأنه من الحكمة التى أوحاها ربك إليك.

ولما كان توحيد الله هو مبدأ الأمر ومنتهاه، إذ بدونه يبطل كل عمل، فهو رأس الحكمة، ختم الوصايا به كما بدأها به. وأيضًا رتب عليه أولاً نتيجته فى الدنيا ﴿فتقعد ملومًا﴾ إلخ؛ ورتب عليه آخرا نتيجته فى الآخرة وهى الرمى مع الاحتقار فى جهنم.

ثم أنكر سبحانه على مَنْ قالوا الملائكة بنات الله فقال: ﴿أفأصفاكم﴾ إلخ: أى هل فضلكم ربكم فخصكم بأفضل الأولاد وهم البنون واتخذ هو لنفسه من الملائكة بنات؟ إنكم فى قولكم هذا تقولون بهتانًا عظيمًا. ولقد قررنا هذا المعنى فى مواضع من القرآن بوجوه شتى لعلهم يتذكرون ويتعظون، ولكن لتحجر قلوبهم لايزيدهم هذا التصريف إلا نفورًا من الحق، انظر الآية (١٠٠) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩ والآيات (٥٧ ـ ٥٩) من سورة النحل صفحتى ٣٥٢، ٣٥٣، والآيات (١٥ ـ ١٩) من سورة الزخرف صفحتى ٦٤٨، ٦٤٩، والآيتين (٢١، ٢٧) من سورة النجم صفحتى ٧٠١، ٧٠٢ .

إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا
لَّابْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ [1] وَتَعَـٰلَىٰ [2]
عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ [3] ٱلسَّبْعُ
وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ
وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾
وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ [4] جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ [5] وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ
فِى ٱلْقُرْءَانِ [6] وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ [7] نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ
بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ
إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ [8] إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾
ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

المفردات: . ﴿ابتغوا﴾: طلبوا. ﴿ذى العرش﴾: صاحب الملك الصحيح وهو الله سبحانه. ﴿سبيلا﴾: طريقًا للمغالبة كما هى العادة بين الملوك كما فى الآية (٢٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٢، والآية (٩١) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٤، أو طريقًا للقرب إليه، ويساعده الآية (٥٧) الآتية فى هذه السورة صفحة ٣٧٢ ﴿تسبح له السموات السبع﴾ إلخ: المراد تدل بحدوثها وإتقانها على وجوب وجود صانع قادر حكيم.

﴿وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾ و﴿من﴾ حرف يفيد النص على عموم ما بعده، أى وما من شىء من الأشياء حيوانا كان أو نباتا أو جمادًا إلا يسبح مثلنا بحمده، والمراد بالتسبيح الدلالة بلسان الحال، أى تدل بحدوثها وتغيرها دلالة واضحة على وجود صانع حكيم، ووحدته وقدرته وتنزهه عن كل نقص كما يدل الأثر على مؤثره وهذا أسلوب عربى فصيح يقول العربى نطقت حال فلان بكذا يريد تدل دلالة واضحة على معنى معين ومن هذا الأسلوب ما جاء فى القرآن فى قوله سبحانه عن جهنم ﴿تكاد تميز من الغيظ﴾ الآية (٨) من سورة تبارك صفحة ٧٥٥ . ﴿ولكن لا تفقهون إلخ﴾ الخطاب للمشركين والكفار لأنهم هم الذين نقل الكلام عنهم قبائحهم من نسبة ما لا يليق إليه سبحانه. ﴿حجابًا﴾: أى مانعا يمنعهم عن إدراك الحق. ﴿مستورًا﴾: عن الأعين لأنه معنوى لا حسى وهو الغشاوة فى الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤ .

﴿أكنة﴾: جمع كنان بكسر أوله وهو الغطاء. ﴿وقرا﴾: صمما. ﴿بما يستمعون به﴾: أى بالحال الذى يستمعون إليك وهم متلبسون به من الاستهزاء بك وبالقرآن. ﴿إذ هم نجوى﴾: إذ

(١) سبحانه (٢) وتعالى (٣) السموات (٤) القرآن
(٥) آذانهم (٦) القرآن (٧) أدبارهم (٨) الظالمون

ظرف زمان بدل مما قبلها، ونجوى جمع نجى أى متناج كقتيل وقتلى، والمراد فى وقت تخاطبهم سرا، انظر الآية (١١٤) من سورة النساء صفحة ١٢٢ . ﴿مسحورًا﴾: أى سحره غيره فأصيب بالجنون. ﴿ضربوا لك الأمثال﴾: أى جعلوا لك أمثالاً كثيرة مختلفة من شدة عنادهم؛ فتارة قالوا ساحرًا، وأخرى مسحورًا، وغيرها شاعر وكاهن، إلى غير ذلك.

المعنى: . قل أيها النبى فى إظهار بطلان زعمهم من جهة أخرى: لو كان مع الله سبحانه فى الوجود آلهة كما يقول المشركون إذا كان هذا لطلب هؤلاء الآلهة طريقا يصلون منه إلى صاحب الملك المطلق لينازعوه عليه، أو المعنى لطلبوا طريقا يقربهم إليه لعلمهم بعلو منزلته وعظمته وعجزهم، أى ومَنْ كان كذلك لا يصح أن يكون إلها. سبحانه أى ننزهه سبحانه تنزيهًا لائقًا به، وتباعد سبحانه عما يزعمون من أن معه آلهة تباعدا بعيد المدى. ثم أراد سبحانه أن يبين أدلة جهلهم وعمى بصائرهم فقال: ﴿تسبح له﴾: إلخ: أى أن أجرام السموات والأرض ومَنْ فيهما من العقلاء من الملائكة والإنس والجن، بل كل ما فى الكون حتى الحيوانات والنباتات والجمادات تنادى بلسان حالها بإتقان صنعها على تنزيه سبحانه واستحقاقه لكل ثناء جميل، ولكن الكافرون لا يفقهون هذه الدلالة لاستيلاء الغفلة والغرور عليهم، انظر الآية (١٢٧) من سورة التوبة صفحة ٢٦٤، والآية (١٠٥) من سورة يوسف صفحة ٣١٩ . وكان جحودهم هذا يقتضى هلاكهم، ولكنه سبحانه حليم لا يعجل بالعقوبة ليفسح مجال المغفرة لمَنْ يتوب منهم. ثم بيَّن سبحانه بعض أسباب ضلالهم فقال: وإذا قرأت أيها النبى القرآن الناطق بالبراهين الدالة على الحق جعلنا بمقتضى حكمتنا فى الإضلال والهداية المبينة فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ بينك وبين المشركين الذين ينكرون البعث ـ والكفر به سبب كل الشرور ـ حجابا يمنعهم عن الحق بوضع الغشاوة على عيونهم، وأغطية على قلوبهم كراهة أن يفقهوه على حقيقته، وفى آذانهم صمما فلا يسمعونه سماع انتفاع، وكل هذا تمثيل لشدة جحودهم وقسوة قلوبهم. ومن أدلة ذلك أنك إذا ذكرت أيها النبى ربك غير مقترن بذكر آلهتهم ولوا عن مجلسك نافرين، وسبب ذلك نحن نعلمه؛ لأنا نعلم أنهم حين يستمعون يكونون هازئين ساخرين بك وبكتابك، وفى الحين نفسه هم متناجون فيما بينهم سرا بقول بعضهم البعض: ما تتبعون إن اتبعتم إلا رجلاً مجنونًا. انظر أيها النبى وتعجب كيف نوعوا لك التهم فضلوا فى جميع ذلك عن الحق فلا يستطيعون طريقًا إلى طعن يمكن قبوله.

سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ
خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾
أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ
قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾
يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ
ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا
مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ
يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ
عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ

المفردات: - ﴿رفاتا﴾: كالفتات وزنا ومعنى وهو ما تكسر من كل شيء.

﴿يكبر فى صدروكم﴾: أى تستبعد عقولكم قبوله للحياة.

﴿فطركم﴾: خلقكم أول مرة. ﴿ينغضون﴾: أى يحركونها إلى جهتك تعجبا واستهزاء.

﴿فتستجيبون بحمده﴾: أى تجيبون الداعى قائمين بحمده سبحانه. والكلام كناية عن سرعة وسهولة الانبعاث، فكأنه يقول منقادين انقياد الحامدين. ﴿إن لبثتم﴾: ما مكثتم.

﴿التى هى أحسن﴾: العبارة التى هى أحسن من غيرها، انظر الآية (٤٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٧ والآية (٣٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٤ . ﴿ينزغ بينهم﴾: أى يفسد بتهييج الشر بين المؤمنين وغيرهم ليفنى بعضهم بعضا. ﴿وكيلا﴾: أى مفوضا عن ربك لتجبرهم على الإيمان. ﴿زبورا﴾: هو الكتاب الذى أنزل على نبى الله داود.

المعنى: - بعدما عجب النبى ﷺ من ضربهم له الأمثال. ذكر أمرا آخر يعجب منه أيضًا وهو إنكارهم البعث فقال: وقالوا أيضا هل يمكن إذا صرنا عظامًا نخرة وقطعا متفرقة أن نرجع ونبعث مخلوقين خلقا جديدًا فيه حياة؟ قل أيها الرسول فى الرد عليهم قاطعا عليهم طمعهم فى عدم البعث: كونوا حجارة أو أشد منها كالحديد، أو أشد منه مما تستبعد عقولكم قبوله للحياة كالسموات والكواكب، فإن الله تعالى لابد معيدكم للحساب والجزاء، فسيقولون لك مستبعدين: مَنْ يعيدنا؟ فقل لهم: يعيدكم القادر العظيم الذى أوجدكم أول مرة من العدم، وسيقابلون جوابك القاطع بهز الرءوس استهزاء كعادة السفهاء، وسيقولون إنكارًا لما تقول:

---

(١) أئذا (٢) عظاما (٣) ورفاتا (٤) أئنا (٥) الشيطان
(٦) للإنسان (٧) أرسلناك (٨) السموات (٩) النبيين. (١٠) وآتينا

متى هذا الذى تعدنا به من البعث؟ قل لهم أرجو أن يكون قريبًا جدًا؛ لأنه محقق، وكل محقق الوقوع قريب مهما طال زمنه، وسيكون يوم يدعوكم من القبور، انظر آيتى (٦، ٧) من سورة القمر صفحة ٥٠٧، فتسرعون للإجابة خاضعين لعظمته، والحال أنكم من شدة الهول تظنون أنكم ما لبثتم فى القبور إلا زمنًا قليلاً، انظر الآية (١١٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦، والآية (٤٦) من سورة النازعات صفحة ٧٩١ .

وبعدما أقام سبحانه عليهم الحجة أراد أن يسد على الشيطان منافذ الفتنة فأمر بملاينة الكفار فى المجادلة، لأن الكلمة الطيبة قد تجذب من النفوس ما فيه بقية من خير فقال لنبيه: وقل لعبادى المؤمنين أن يقولوا عند محاورتهم للمشركين العبارات التى هى أحسن؛ لأن الشيطان يريد الإفساد بين المؤمنين والمشركين ليقتل بعضهم بعضا، وإنما كان هذا طبعه لأنه طول حياته عدو ظاهر العداوة للإنسان. ثم بيَّن بعض الجمل التى هى أحسن فقال قولوا لهم مثلا: ربكم أيها المشركون أعلم بكم، إن يشأ يرحمكم بالتوفيق للإيمان، وإن يشأ يعذبكم بعذابه، وعلقوا أمرهم على مشيئة الله، ولا تصرحوا لهم بأنهم من أهل النار، فإن ذلك فضلا عما فيه من تهييج الشر، فيه تدخل فى قضاء الله فى المستقبل؛ انظر الآية (٢٤) من سورة سبأ صفحة ٥٦٦، ولذا قال سبحانه لنبيه: وما أرسلناك أيها النبى مفوضًا عنا فى جبرهم على الإيمان، وإنما أرسلناك بشيرًا ونذيرا فقط، وربك وحده هو العليم. ولما كان من ضمن ما طعن به المشركون فيه ﷺ أنه رجل مسحور وغيره مما تقدم فى الآية (٤٧) من هذه السورة قال فى الرد عليهم بالحسنى: وربك أعلم بكل مَنْ فى السموات والأرض فيختار منهم لنبوته مَنْ يشاء حسب حكمته، وهؤلاء الأنبياء ليسوا سواء فى الفضل عنده تعالى، بل بعضهم أفضل من بعض: فإبراهيم باتخاذه خليلاً، وموسى كليما، ومحمَّد بالقرآن الذى أعجز البشر وكونه خاتم الرسل وغيره مما تقدم بعضه صفحة ٥٢، وفضلنا داود بالزبور أى لا بالملك العظيم، وكان فى هذا الزبور أن الأرض ترثها أمة محمَّد، انظر الآية (١٠٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، وفيه إشارة إلى أن مرجع الفضل هو الكتاب، ولا أفضل من القرآن، ففيه فضل جميع الكتب.

ثم رجع إلى إبطال عقائد المشركين بأسلوب آخر فقال للذين كانوا يعبدون الجن والمسيح وعزيرا والملائكة وغيرهم من العقلاء: ﴿ادعوا الذين﴾ إلخ....

زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا
تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ
ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ
إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ
مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ[1] أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ
كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ[2] مَسۡطُورٗا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ
بِٱلۡأٓيَٰتِ[3] إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا[4] ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ
مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾
وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا
ٱلرُّءۡيَا[5] ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ[6] إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ
فِي ٱلۡقُرۡءَانِ[7] وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا[8] كَبِيرٗا ﴿٦٠﴾
وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ[9] ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ[10] فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ

المفردات: . ﴿زعمتم﴾: أي توهمتم أنهم آلهة من الملائكة والجن وعيسى والعزير من كل ما يعقل. أما الأصنام فقد أبطلها في آيات أخرى منها آيتي (١٩٧، ١٩٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥، وآيات (٥٢ ـ ٦٧) من سورة الأنبياء صفحتي ٤٢٦، ٤٢٧، وآيات (٩١ ـ ٩٦) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢ .

﴿الوسيلة﴾: أي ما يقربهم إليه تعالى من الطاعات.

﴿أيهم أقرب﴾: ﴿أي﴾ من ﴿أيهم﴾ اسم موصول بمعنى الذي بدل من ضمير ﴿يبتغون﴾ بدل بعض من كل.

﴿محذورا﴾: أي يحذره ويحترس منه كل عاقل. ﴿الكتاب﴾: اللوح المحفوظ.

﴿وإن من قرية﴾: ﴿إن﴾ حرف نفي بمعنى ﴿ما﴾ و﴿من﴾ للنص على العموم في قرية. وقرية المراد بها التي ظلم أهلها بالكفر والمعاصي، انظر الآية (١٢٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، الآية (١٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، والآية (١١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١، والآية (٤٥) من سورة الحج صفحة ٤٤٠، والآية (٨) من سورة الطلاق صفحة ٧٥٠ .

﴿بالآيات﴾: هي المعجزات التي طلبتها قريش في الآية (٩٠) الآتية وما بعدها من هذه السورة صفحتي ٣٧٦، ٣٧٧ .

﴿مبصرة﴾: تجعل مَنْ يتأملها ذا بصيرة .

﴿فظلموا بها﴾: أي ظلموا أنفسهم بسبب كفرهم بها.

---

(١) القيامة. (٢) الكتاب. (٣) بالآيات (٤) وآتينا (٥) الرؤيا.
(٦) أريناك (٧) القرآن (٨) طغيانا (٩) للملائكة (١٠) لآدم

﴿أحاط بالناس﴾: علما وقدرة.

﴿الرؤيا التى أريناك﴾: ليلة الإسراء وما شاهدت فيها من العجائب، جاء فى كتب اللغة أن إدراك الشىء بالعين يقال فيه رأى محمَّد عليًا أى أبصره بعينيه، وإن كان الإدراك بالعقل وهو المسمى علمًا، أو معرفة يقال فيه أيضًا رأى محمد عليًا عالمًا، رؤية أيضًا، أى علم أنه عالم، وإن كان الإدراك فى المنام وهو المعبر عنه بالحُلم يقال فيه رأى محمّد فى منامه كذا رؤيا. وقد جاء الثلاثة فى القرآن فمن البصرية ما فى الآيات (٢٧) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٥، ١٩٦، و(٢) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٠، ٣٢١، و٢ من سورة الحج صفحة ٤٣٣، و (١٩) من سورة الملك صفحة ٧٥٦ ومن العلمية ما فى الآية (٣٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣، والآية (١) من سورة الفيل صفحة ٨٢٢؛ ومن المنامية ما هنا وما فى آيات (٤، ٥، ٤٣ ، ١٠٠) من سورة يوسف صفحات ٣٠٣، ٣٠٩، ٣١٨والآية (٢٧) من سورة الفتح صفحة ٦٨٣ . ومنها قوله ﷺ فى الحديث الصحيح: ﴿لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة﴾.

﴿فتنة للناس﴾: أى اختبارًا وامتحانًا ليتميز الطيب من الخبيث.

﴿الشجرة﴾: هى شجرة الزقوم فى الآية (٦٢) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠ .

﴿الملعونة﴾: أى ملعون آكلها، والمراد المذمومة.

المعنى: . قل أيها النبى للمشركين اطلبوا الذى زعمتم أنهم آلهة غير اللّٰه ليكشفوا عنكم ضرا أو يجلبوا لكم نفعًا، إنهم لا يستطيعون كشف ضر عنكم ولا تحويله لأعدائكم، وذلك لأن هؤلاء الذين يناديهم المشركون لكشف الضر عنهم هم أنفسهم يطلبون من هم أقرب منهم إلى اللّٰه كالملائكة ما يقربهم منه تعالى فضلا عن الأبعد، فهم مفتقرون إلى ربهم، راجون رحمته، خائفون عذابه، فلا يصح أن يكونوا آلهة معه؛ لأن الإله لابد أن يكون غنيا عن كل مَنْ عداه، وإنما خافوا عذاب اللّٰه لأن كل عاقل يحذره بالابتعاد عن سببه.

ثم أراد سبحانه أن يطمئن المؤمنين بالنصر على أعدائهم فقال:

﴿وإن من قرية﴾ إلخ: أى ما من قرية من القرى التى ارتكب أهلها الظلم بالكفر والمعاصى إلا نحن مهلكوا أهلها بالإفناء قبل يوم القيامة أو معذبوها بالذل والأسر وغير ذلك؛ كان ذلك القضاء مثبتًا فى كتابنا.

ولما كان كفار قريش يتعنتون فى طلب معجزات معينة، وكانت عادة اللّه سبحانه أنه إذا أجاب أمة لما تطلب ولم تؤمن أهلكها عن آخرها.

ولما كان سبحانه لايريد إهلاك أمة محمَّد آخر الأنبياء لم يجب طلبهم انتظارا لما سيخرج من ظهورهم من المؤمنين فى المستقبل؛ فى كل هذا قال سبحانه: وما منعنا أن نرسل الآيات التى اقترحوها إلا أن الأولين أمثالهم كعاد وثمود كذبوا بها لما جاءتهم فأهلكناهم، فلو جئناهم بها لكذبوا واستحقوا الفناء، ونحن لا نريد ذلك.

وقد سألت ثمود من قبل قومك آية فآتيناهم الناقة حجة واضحة فكفروا بها وعقروها فأهلكناهم. وما نرسل الآيات المقترحة إلا تخويفا من نزول العذاب، فإن لم يخافوا نزل فأهلكم.

واذكر أيها النبى حين قلنا لك إن ربك محيط بالناس علما وقدرة فلا تخف من شرهم فهو حافظك. وما جعلنا ما أريناك فى الإسراء من العجائب "لا لتخبرهم فيزداد إيمان المؤمن وكفر الكافر. وما جعلنا شجرة الزقوم إلا فتنة أيضًا.

فقد ورد أن أبا جهل لما سمع أنها تنبت فى أصل الجحيم قال إن محمَّدًا يزعم أن جهنم وقودها الحجارة.

ويزعم بعد ذلك أن فيها شجرا أخضر. وجهل أن القدرة جعلت النار فى كل شىء حتى فى الماء كما هو مبين فى أماكنه؛ انظر الآية (٨٠) من سورة يس صفحة ٥٨٦، والآيات (٧١ - ٧٣) من سورة الواقعة صفحتى ٧١٦، ٧١٧؛ ونخوفهم بأنواع التخويف لعلهم يرجعون فما يزيدهم ذلك إلا طغيانا وتجاوزا للحد كبيرا.

ثم أراد سبحانه أن يبين لنبيه أن عدم إيمان قومه لا سبب له إلا الحسد والكبر الذى أوقع إبليس فى الشقاء فهم مثله، فذكر له قصته المتقدمة فى البقرة والأعراف والحجر، انظر ما قيل فيه فى الآية (٣٤) من سورة البقرة صفحة ٨ .

قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا
ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ
فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ
ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ
وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ
سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى
لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ
رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ
إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ
كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ

المفردات: ـ ﴿طيناً﴾: أصله من طين.

﴿أرأيتك﴾: أى أخبرنى، فى الكلام استفهام مقدر يفهم من السياق، والأصل هل هذا الذى... إلخ.

﴿احتنكن﴾: أصله من احتنك الدابة إذا جعل فى فكها الأسفل حبلا يقودها به، والمراد أتصرف فيهم كما أريد.

﴿موفورا﴾: أى مكملاً غير منقوص منه شىء.

﴿استفزز﴾: يقال استفز الرجل غيره إذا استخفه فخدعه حتى أوقعه فيما يريده منه.

والمراد من هذا الأمر ومن الأوامر التى بعده تهديد إبليس ومن يتبعه. لأن الله لا يأمر بالفحشاء كما فى الآية (٢٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦ .

﴿بصوتك﴾: بوسوستك التى توقعهم فى المعصية.

﴿أجلب عليهم﴾: من الجلبة وهى الصياح بشدة.

---

(١) اسجد.
(٢) أرايتك.
(٣) القيامة
(٤) الأموال
(٥) الأولاد.
(٦) الشيطان
(٧) سلطان
(٨) نجاكم
(٩) الإنسان

﴿بخيلك ورجلك﴾: أى بجندك الخيالة والراجلين.

﴿غرورا﴾: هو تزيين الباطل بما يوهم أنه حق.

﴿سلطان﴾: أى تسلط وقدرة.

﴿يزجى لكم الفلك﴾: أى يسوقها حينا بعد حين ويجريها بالرياح. ﴿ضل﴾: أى غاب وذهب.

المعنى: ـ فسجد الملائكة إلا إبليس امتنع وقال منكرًا كيف أسجد لمَنْ خلقته من طين وأنا من نار فأنا خير منه. ثم قال إبليس أخبرنى يا رب هل هذا المخلوق من الطين هو الذى كرمته علىّ؟ ولم هذا؟ وعزتك لئن أخرتنى وتركتنى حيًا إلى يوم القيامة لأتحكمن فى ذريته وأحولهم إلى الشر إلا قليلاً جدا وهم الذين قويت عزائمهم فلا يؤثر فيهم إغوائى، انظر آيتى (٣٩، ٤٠) من سورة الحجر صفحتى ٣٤٠، ٣٤١ .

قال له سبحانه: امض فى طريقك الذى اخترته لنفسك فمَنْ تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جميعًا جزاء كاملاً. وأفرغ جهدك فى جميع أنواع الإغراء أنت وأعوانك، وشاركهم فى الأموال بجعل كسبها من حرام وصرفها فى حرام، والأولاد فى تكفيرهم وجعلهم عبيد للأصنام، وعدهم بالمواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكال على صلاح الآباء وطول الأمل، وما يعد الشيطان أتباعه إلا باطلاً. إن عبادى المخلصين فى طاعتى ليس لك على إغوائهم قدرة لتوكلهم على ربهم، وكفى به وكيلاً يلجئون إليه لدفع كيد الشيطان.

ثم بيَّن فساد رجوعهم إلى غيره تعالى فقال: ربكم الإله الحق هو وحده يسيِّر لكم السفن فى البحر لتطلبوا من فضله الربح فى التجارة ونقل أمتعتكم من بلد إلى بلد، إنه سبحانه دائم الرحمة بكم حيث سهل لكم ما يصعب عليكم. وربكم وحده هو الذى إذا مسكم ضر كخوف غرق غاب عن خواطركم كل ما تعبدونه إلا إياه سبحانه، فلا تجدون منقذاً غيره، فلما نجاكم من الغرق إلى بر السلامة أعرضتم عن توحيده، ونسيتم فضله.

وهذا شأن الإنسان يكثر من كفر النعمة. وكيف تفعلون هذا؟ هل أمنتم أن يخسف بكم ربكم القادر جانب البر الذى ظننتم أنكم فى أمان فيه فتبتلعكم الأرض كما فعل بقوم لوط، أو يرسل عليكم ما فيه هلاككم؟

عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن
يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ
فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾
* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ[1] فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَرَزَقْنَاهُم[2] مِّنَ الطَّيِّبَاتِ[3] وَفَضَّلْنَاهُمْ[4] عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ
خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ[5]
فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ[6] بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ[7]
وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ
فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا
لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ
وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ[8] لَقَدْ كِدتَّ
تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ[9] ضِعْفَ

المفردات: ـ ﴿حاصبًا﴾: هى الريح التى ترمى بالحصباء وهى الحجارة، والمراد ريحا مهلكة، انظر الآية ٧٤ من سورة الحجر صفحة ٣٤٣ . ﴿قاصفا﴾: هى الريح التى تقصف أى تكسر السفن، فالريح المهلكة فى البر تسمى حاصبا، وفى البحر تسمى قاصفًا. ﴿تبيعا﴾: فعيلا بمعنى فاعل كعليم بمعنى عالم أى تابعا يطالبنا بثأرهم.

﴿على كثير﴾: المراد بهم ما عدا الملائكة؛ فإن الإنسان فى جملته ولو كان كافرا فضله اللّٰه تعالى بالعقل والإرادة واستواء الخلقة وغير ذلك على الحيوانات والجمادات. وهذا لا ينافى أن بعض أفراد الإنسان أفضل من الملائكة.

﴿إمامهم﴾: أى نبيهم فيقال يا أتباع موسى ويا أتباع عيسى مثلاً. ﴿فتيلا﴾: هو الخيط الرفيع فى شق النواة. ﴿فى هذه أعمى﴾: أى فى هذه الدنيا أعمى البصيرة. ﴿فهو فى الآخرة أعمى﴾: أى أعمى البصر، انظر الآية (٩٧) الآتية فى هذه السورة صفحتى ٣٧٧، ٣٧٨، وآيتى (١٢٤، ١٢٥) من سورة طه صفحة ٤١٨، وهذا يكون عند قيامهم من القبور وشدة الحيرة لزيادة إيلامهم ثم بعد ذلك يزال العمى عنهم ليروا أهوال القيامة ويقرءوا كتبهم ويشاهدوا النار. ﴿أضل سبيلا﴾: أى أشد ضلالا عن سبيل النجاة. ﴿كادوا﴾: أى قربوا. ﴿يفتنونك﴾: أى يوقعونك فى الفتنة وهى المحنة الشديدة. ﴿كدت﴾: قاربت. ﴿ضعف﴾: قدره مرتين.

المعنى: ـ هل حسبتم أنكم بخروجكم إلى البر أمنتم من عذاب اللّٰه؟ كلا؛ فهو إن شاء غيبكم فى بطن الأرض، وإن شاء أمطر عليكم حجارة من السماء فلا تجدون مَنْ توكلونه فى دفعه

(١) وحملناهم (٢) ورزقناهم (٣) الطيبات (٤) وفضلناهم (٥) بإمامهم
(٦) كتابه (٧) كتابهم (٨) ثبتناك (٩) لأذقناك

عنكم. أم أمنتم أن يعيدكم ربكم فى البحر مرة أخرى فيرسل عليكم ريحا تكسر سفنكم فيغرقكم بسبب كفرانكم نعمته حين نجاكم أولاً، ثم لا تجدوا مَنْ يطالبنا ويسألنا عن إهلاككم. ومن فضل اللّه تعالى على الإنسان ومن نعمه التى كفرها الإنسان أنه سبحانه كرم بنى آدم بحسن القوام والنطق والتصرف على ما فى الأرض إلى غير ذلك، ومن فضله سبحانه أنه حملهم فى البر على الدواب وغيرها وفى البحر على السفن، ورزقهم من طيبات الحياة من مأكول ومشروب وملبوس، وفضلهم على أكثر مخلوقاته بالعقل والتفكير والاستعداد للنعيم الدائم. وذكر قومك أيها النبى بيوم القيامة حين ننادى كل بإمامها، ثم يعطون كتب أعمالهم فمَنْ تناول كتابه بيمينه فإنه يقرؤه مبتهجًا معلنا سروره على رءوس الأشهاد كما فى الآية (١٩) وما بعدها من سورة الحاقة صفحتى ٧٦٢، ٧٦٣، ولا ينقص من أجره شىء، وأما من تناول كتابه بشماله فيتحسر ويحصل منه ما فى الآية (٢٥) وما بعدها من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣، وهذا هو الذى أشار إليه هنا بقوله: ومن كان فى هذه الحياة الدنيا أعمى البصيرة لا يرى سبيل الخير ولا يتأمل أدلة وجود اللّه وحكيم صنعه تعالى فجزاؤه أن يكون فى الآخرة لا يرى طريق النجاة، بل سيكون أشد ضلالاً عن طريق النجاة من الأعمى فى الدنيا، لأن النجاة فى الآخرة مستحيلة. وكان من تعنت كفار قريش أن بعض صناديدهم أتوه ﷺ وطلبوا منه أن يطرد العبيد عن مجلسه والفقراء الذين آمنوا به وعند ذلك يؤمنون به. ولما كان ﷺ شديد الحزن على عدم إيمانهم ويحب هدايتهم دار فى خاطره: ماذا علىّ لو فعلت ذلك وقتا يسيرا حتى يهديهم الله تعالى ثم يكون الجميع إخوانا، فنهاه اللّه عز وجل فى الآية (٥٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٠، وبيِّن له هنا فضله سبحانه عليه فى تثبيته فقال: ﴿وإن كادوا ليفتنوك﴾ إلخ: أى وإن كفار قومك كادوا أى قاربوا أن يفتنوك ويصرفوك عن الدين الذى أوحيناه إليك، وفيه بر المؤمنين وموالاتهم والعطف عليهم، وبذلك تكون أحللت نفسك محل المفترى علينا حيث يفهم الناس أن عملك هذا بوحى من الله. وإذا كنت فعلت ماطلبوا لاعتبروك صديقاً ووليا لهم وخرجت عن ولايتى. ولولا تثبيتنا لك لقاربت أن تميل إلى اتباع مرادهم ميلا قليلا جدا. وتفهم منه أنه ﷺ لم يقترب من الركون فضلاً عن الركون نفسه، ولو حصلت هذه الهفوة التى لا تكاد تذكر لعذبناك عذابا لا يتصور العقل شدته.

ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾
وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا
وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ
أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾
أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ
ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ
فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا
مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى
مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾
وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ
زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى

المفردات: . ﴿وإن كادوا﴾: أى وإن كفار قومك قاربوا إلخ.

﴿ليستفزونك﴾: ليزعجونك ويقلقونك من البقاء فى أرض مكة بالتضييق عليك وإيذاء أصحابك.

﴿لا يلبثون خلافك﴾: لا يمكثون بعد خروجك.

﴿لسنتنا﴾: عادتنا لنصر رسلنا. ﴿لدلوك الشمس﴾: أى انتقالها من وسط السماء إلى جهة الغرب، واللام بمعنى عند، أى صل عند الزوال.

﴿غسق الليل﴾: ظلمته. ﴿قرآن الفجر﴾: المراد به صلاة الصبح، وعبر عنها بذلك لأنه ركن مهم فيها، وهو معطوف على ﴿الصلاة﴾ قبله. ﴿مشهودًا﴾: أى تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار. ﴿تهجد به﴾: أصل التهجد ترك الهجود وهو النوم فى الليل لأجل الصلاة فالمراد صل بعض الليل انظر الآية (١) وما بعدها من سورة المزمل صفحة ٧٧٣، وبه أى بالقرآن المشار إليه فيما سبق.

﴿نافلة لك﴾: أى فريضة زائدة خاصة بك دون أمتك. ﴿يبعثك﴾: يقيمك. ﴿مقاما محمودًا﴾: كريما يحمده كل الناس. ﴿مدخل صدق﴾: أى إدخالا كريمًا، انظر الآية (٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٥ . ﴿سلطانًا﴾: قوة بالحجة والتأييد.

﴿نصيرًا﴾: أى ناصرا لى على أعدائى. ﴿زهق﴾: ذهب وبطل.

---

(١) الحياة. (٢) خلافك. (٣) الصلاة (٤) الليل
(٥) قرآن. (٦) قرآن (٧) الليل (٨) سلطانا
(٩، ١٠) الباطل (١١) القرآن (١٢) الظالمين

المعنى: . ولو فعلت ما طلبوا لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات، أى لجمعنا عليك جميع ما فى الدنيا من عذاب وضاعفناه، وجميع ما فى الآخرة من عذاب وضاعفناه، وهذا تهديد بعذاب لا يخطر على قلب بشر، فسبحان ذى العزة والجبروت الذى يحاسب عباده على قدر منازلهم عنده، وقريب من هذا ما فى الآية (٣٠) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٣، ٥٥٤، ثم لا تجد لك نصيرًا يمنع عنك العذاب.

وأؤكد لك أيها النبى أن كفار قومك قاربوا أن يشتد ازعاجهم لك ليخرجوك من أرض مكة مقهورًا مغلوبًا، وهذا لم يحصل بل خرج بأمر ربه عز وجل وعاد بفضل الله تعالى منتصرًا عزيزًا وهم الأذلاء. ويجب أن يعلم هؤلاء أنه إذا تحقق منهم ذلك فلن يبقوا بعد خروجك منها إلا زمنا قليلاً، وقد تحقق هذا الوعيد، فقد أهلكوا ببدر بعد خروجه ﷺ بقليل، ثم ذهبت دولتهم نهائيًا بعد فتح مكة. وقد سن اللّه تعالى سنة هى أن كل قوم أخرجوا رسولهم أو آذوه لابد مهلكهم أو معذبهم، ولن تتغير سنته أبدا .

ثم أمر سبحانه نبيه بالإقبال على عبادة ربه ولا يبالى بهم فقال: أقم الصلاة المفروضة من أول زوال الشمس إلى ظُلْمَة الليل وهو وقت العشاء، وقد بينت السنة أن هذا هو وقت الظهر والعصر والمغرب والعشاء، أما صلاة الصبح فدل عليها قوله تعالى: ﴿وقرآن الفجر﴾ أى وأقم صلاة الفجر التى تشهدها الملائكة. هذه الصلوات الخمس فرض عليك وعلى جميع أمتك، ونزيد عليك أيها النبى فرضا سادسا هو صلاة الليل لتنال منزلة عليا محمودة عند جميع الخلائق وهى كل منزلة فيها كرامة، وعلى رأسها جميعها منزلته يوم القيامة فى الشفاعة العظمى. وقل يا رب أدخلنى فى كل أمر من أمور دينى ودنياى إدخالا كريمًا، وأخرجنى منه كذلك، واجعل لى من فضلك قوة أتغلب بها على أعدائى.

وقل منذرا قومك المشركين: جاء الحق من توحيد المعبود والشرع الصحيح، وذهب الباطل من الشرك والعقائد الفاسدة؛ لأن الباطل يضمحل أمام صولة الحق، وكيف لا يقوى الحق ونحن ننزل عليك أيها النبى من القرآن ما هو شفاء لما فى الصدور من الكفر والجهل والنفاق، وسبب رحمة لِمَنْ آمن به، أما الظالمون لأنفسهم بالإعراض عنه فلا يزيدهم إلا خسرانا؛ لأن كل آية يكذبون بها تزيد فى عذابهم، انظر الآية (٥٧) من سورة يونس صفحة ٢٧٥ .

الإنسان أعرض ونئا بجانبه وإذا مسه الشر كان
يئوسا ﴿٨٣﴾ قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم
بمن هو أهدى سبيلا ﴿٨٤﴾ ويسئلونك عن الروح قل
الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴿٨٥﴾
ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك
به علينا وكيلا ﴿٨٦﴾ إلا رحمة من ربك إن فضله
كان عليك كبيرا ﴿٨٧﴾ قل لئن اجتمعت الإنس والجن
على أن يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله ولو كان
بعضهم لبعض ظهيرا ﴿٨٨﴾ ولقد صرفنا للناس في هذا
القرءان من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴿٨٩﴾
وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴿٩٠﴾
أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار

المفردات: ـ ﴿نأى بجانبه﴾: صرف عن المنعم وجهه استكبارا. ﴿يئوسا﴾: أي شديد اليأس والضجر فاقد نعمة الصبر. ﴿شاكلته﴾: أي طريقته التي تشاكل وتلائم حاله. ﴿الروح﴾: جاء إطلاق الروح في القرآن على ستة معان: الأول: ـ نبي الله عيسى، انظر الآية (١٧١) من سورة النساء صفحة ١٣٢ . الثاني: ـ ما به الحياة انظر الآية (٢٩) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠، قال الراغب: وأضافها في هذه الآية لنفسه تشريفًا كقوله تعالى: ﴿وطهر بيتي﴾. الثالث: كبار الملائكة كجبريل انظر آيتي (١٠٢) من سورة النحل صفحة ٣٦٠، و(١٩٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١ . الرابع: ـ كل ما يوحي الله تعالى به إلى رسله جميعًا، انظر الآية (١٥) من سورة غافر صفحة ٦١٩ . الخامس: ـ القوة والثبات الموهوبة من الله عز وجل، انظر الآية (٢٢) من سورة المجادلة صفحتي ٧٢٨، ٧٢٩، السادس: ـ القرآن خاصة، انظر الآية (٥٢) من سورة الشورى صفحة ٦٤٦؛ وما معنا من هذا الأخير كما هو ظاهر من سياق الكلام سابقه ولاحقه، وقد جاء التصريح بأن الموحى من أمره في آيتي (١٥) من سورة غافر صفحة ٦١٩ و٥٢ من سورة الشورى صفحة ٦٤٦، وكون الروح هنا هو القرآن لا يمنع أن الروح بالمعنى المشهور هي أيضًا من أمر الله عز وجل، وبما أنه من المقرر أن خير ما فسرته فهو بالوارد، وإنما الذي ورد في القرآن فهو المبين فيما سبق فتفسر آية الإسراء بأليقها لمقام ورودها واعتبار سابقها ـ الآية (٨٢) ـ ولاحقها ـ آيات (٨٦، ٨٨، ٨٩، ١٠٥، ١٠٦) . ﴿من أمر ربي﴾: من أعمال ربي الخاصة به لا يستطيعها غيره.

---

(١) الإنسان. (٢) نأى. (٣) يئوسا
(٤) يسألونك (٥، ٦) القرآن. (٧) الأنهار

﴿ظهيرا﴾: مأخوذ من قولهم تظاهر القوم على شيء أى تعاونوا عليه، فالمراد معينا، انظر الآية (٤) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢ . ﴿صرفنا للناس﴾: تقدمت فى الآية (٤١) من هذه السورة صفحتى ٣٦٩، ٣٧٠ .

المعنى: ذكر سبحانه بعض طبائع الإنسان التى كانت سببا فى شقاء كثير فقال: وإذا أنعمنا على الإنسان الفاسد الطبع بالصحة وسعة الرزق ومافيه سعادته كالقرآن فإنه بدل أن يقابل ذلك بشكر المنعم وبتواضع الخاشعين يعرض عن ذلك ويبالغ فى الإعراض بإعطاء المنعم جانبه وهو كناية عن التكبر. ونظير ذلك ما فى آيتى (٦، ٧) من سورة العلق. وإذا مسه شر من فقر أو مرض كان شديد اليأس عديم الصبر. ولما كان هذا هو حال كفار قريش أمر سبحانه نبيه أن يقول لهم: كل منا ومنكم يعمل ويسير على طريقته، وسيجازيه ربه على عمله، وهو سبحانه وحده العليم بمَنْ هو أهدى طريقًا ممَنْ ليس كذلك، والمراد ممَنْ ليس على هدى أصلا. ومثل هذا الآية (٩٣) من سورة هود صفحة ٢٩٨ . ولمناسبة ما تقدم من أمره ﷺ بالحرص على ما أوحاه إليه فى الآية (٧٣) السابقة صفحة ٣٧٤، ومدح القرآن بأنه شفاء، ناسب أن يذكر ما كان عليه المشركون من الحيرة فى أمر هذا القرآن وكيف يأتى به محمَّد، أمر سبحانه نبيه أن يقول تيئيسا لهم: هذا القرآن الذى تسألون عنه هو أمر خاص بربى لا يستطيعه مخلوق، وليس عندكم من علم بعض الأشياء إلا قليلا لا يساوى شيئًا فيما عند الله، فكيف تطمعون أن تعرفوا كيف يتألف القرآن كما يطمع أحدكم فى كيفية تأليف القصائد. والدليل على أن هذا القرآن من شئون الله وحده أنه لو شاء لأذهب ما أوحاه إلى نبيه من صدره ثم لا يجد مَنْ يوكله فى إرجاع شيء منه، والمراد يعجز عن ذلك، ولو كان من كلام البشر لما عجز عن تذكره أو الإتيان بمثله، لكن لم نذهبه رحمة من ربك لك جعلتك لا تنساه كما فى الآية (٦) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٣؛ لأن فضله كان عليك كبيرًا، ومنه إرسالك، وإنزال القرآن عليك، وحفظه فى صدرك. ثم تحداهم التحدى المعجز فقال قل لهم قطعا لأطماعهم لئن اجتمعت جميع أفراد الإنس والجن وأرادوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن فى نظمه ومعانيه فإنهم لا يستطيعون ولو كانوا جميعًا متعاونين. ولقد نوعنا بوجوه مختلفة لزيادة البيان للناس فى هذا القرآن من معنى هو كالمثل النادر فى غرابته وروعته، فأبى أكثر الناس كل خير إلا الجحود، فإنهم تمسكوا به. ومن عجيب أمر هؤلاء المشركين أنهم بعد هذا التعجيز لم يستحوا بل لجوا فى طغيانهم وتضليلهم لعقول الضعفاء فقالوا للنبى: لن نؤمن لك أبدا حتى تأتينا بالمعجزات التى نطلبها منك، كأن تفجر لنا من أرض مكة عينا لا ينقطع ماؤها تجعلها بلدا ذا ذرع، أو يكون لك بمكة أيضًا بستان من نخيل وعنب فتفجر الأنهار لريه.

خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا
كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ
بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ
حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ
كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ
جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾
قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا
عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾
وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ
أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ
عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ

المفردات: . ﴿خلالها﴾: وسطها.

﴿كسفا﴾: جمع كسفة كقطعة وقطع وزنًا ومعنى، وهو حال من السماء.

﴿قبيلا﴾: القبيل الجماعة من صنف واحد وهو حال من الملائكة، انظر الآية (١١١) من سورة الأنعام صفحة ١٨١.

﴿زخرف﴾: أصل الزخرف الزينة والمراد هنا الذهب وغيره من النفائس.

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا﴾: المراد بالناس هنا كفار مكة غير قريش، لأن قريشًا كانت تؤمن برسالة إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، ويفخرون بأنهم حنفاء كإبراهيم.

﴿مطمئنين﴾: قارين فيها ساكنين.

﴿مأواهم جهنم﴾: مكانهم الذى يأوون إليه.

﴿خبت﴾: ضعف لهبها وانطفأ.

المعنى: . فتجعل وسط هذه الجنة أنهارا، أو تسقط السماء فوق رءوسنا قطعا كما زعمت أن الله توعدنا بذلك فى الآية (٩) من سورة سبأ صفحة ٥٦٣، أو تأتى بالله نراه عيانا وبالملائكة قبيلا بعد قبيل نراهم كذلك، أو تطلب من الله أن يجعل لك بيتًا من ذهب حتى تطلب لنا مثلك، أو ترقى فى السماء ولن نصدقك فى هذه الحال إلا إذا جئتنا بكتاب من الله

---

(١) خلالها. (٢) والملائكة. (٣) كتابًا (٤) ملائكة
(٥) القيامة. (٦) مأواهم (٧) زدناهم.

نقرؤه فنجده يقرر فيه صدقك. قل لهم أيها النبى فى الرد عليهم: أنزه ربى عن أن يتحكم فيه أحد، أو أن يشاركه فى قدرته، وما كنت إلا بشرا كسائر الناس رسولا كسائر الرسل ولم يأتوا لقومهم إلا بما يعطيه الله تعالى لهم. ثم حكى عنهم سبحانه مغالطة أخرى وهى استبعادهم أن يرسل الله رسولاً من البشر بل لابد أن يكون من الملائكة، فقال: وما منع الناس كمشركى قريش أن يؤمنوا برسولهم إلا قولهم منكرين بعثة البشر: أبعث الله بشرا رسولاً؟ وهذه عادة الأمم السابقة، انظر الآية (١٠) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣١، والآية (٤٧) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٠، والآية (٦) من سورة التغابن صفحة ٧٤٦، والمراد أنه لم تبق شبهة تمنعهم من الإيمان بمحمَّد إلا زعمهم أن الله لا يرسل بشرا ولا يرسل إلا ملائكة، فقل أيها النبى ردًا عليهم نيابة عنا لو كان فى الأرض ملائكة يمشون فيها كما يمشى بنو آدم مستقرين فيها لنزلنا عليهم من السماء ملكا يقوم بوظيفة الرسالة إليهم ويبلغهم ما أمرهم به ربهم، لأن الرسول للجنس كله لا يكون إلا منه ليمكن الفهم منه بسهولة.

أما تكليم الملك للبشر فلا يكون إلا باستعداد خاص فى الشخص الذى يتلقى عن الملك من البشر، ولا يكون إلا بصعوبة أيضًا؛ فقد كان ﷺ حين ينزل عليه جبريل بحالته الملكية يتصبب عرقًا. وقل من عند نفسك: إن أنكرتم رسالتى فيكفينى الله شاهدا على أنى رسوله إليكم بإظهار المعجزة الدالة على تصديقه لى، إنه يعلم أحوال عباده الظاهرة والباطنة، وسيجازيهم عليها.

وقل لهم أيضًا لو علم الله فيكم خيرا لهداكم ولكنه علم فساد قلوبكم فأضلكم، ومَنْ يضله الله فلا نصير ينقذه غير الله فى الدنيا، وفى الآخرة يحشرهم الله تعالى مسحوبين على وجوههم حال كونهم عميا ولا ينطقون ولا يسمعون، ومكانهم الذى يأوون إليه جهنم، كلما ضعف لهبها زادهم الله سعيرا، انظر آيتى (٧١، ٧٢) من سورة غافر صفحة ٦٢٧، والآية (٤٨) من سورة القمر صفحة ٧٠٨؛ فى الألوسى: استظهر أبو حيان كون المراد مما ذكر حقيقته، ويكون ذلك فى مبدأ الأمر ثم يَرُدُّ الله تعالى إليهم أبصارهم، ونطقهم، وسمعهم، فيرون النار، ويسمعون تغيظها وزفيرها، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم فى غير موضوع مثل: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، ﴿وتجادل عن نفسها﴾ ... إلخ، وروى عن ابن عباس أن ذلك مجاز على معنى أنهم لفرط الحيرة والذهول يشبهون أصحاب هذه الصفات.

سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا
أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾
۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ
فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ
خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ
ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ
بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ
إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ
مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ
وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم
مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا

المفردات: ـ ﴿سعيرًا﴾: هو اللهب شديد الاشتعال والتوقد والاستعار. ﴿بآياتنا﴾: أى بأدلتنا التى فى القرآن وفى الآفاق. ﴿رفاتا﴾: تقدم فى الآية (٤٩) من هذه السورة صفحة ٢٧١ . ﴿خزائن رحمة﴾: تقدم بيانها فى صفحة ١٦٩ .

﴿قتورا﴾: شديد البخل. ﴿تسع آيات﴾: إن لم نقل إن المراد الكثرة لا التحديد فأحسن ما قيل فى التسع إنها العصا واليد، والسنون ونقص الثمرات المذكورتان فى الآية (١٣٠) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢، والطوفان والأربعة بعده فى الآية (١٣٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢ أيضًا.

﴿إذ جاءهم﴾: ﴿إذ﴾ ظرف بمعنى حين متعلق بقوله تعالى ﴿آتينا موسى﴾ وجملة ﴿فاسأل بنى إسرائيل﴾ متوسطة بين الفعل ومتعلقة وهو الظرف؛ وهذا أسلوب كثير فى كلام العرب كقولهم: محمدٌ فاعلم جيدًا، رسول الله. فجملة ﴿فاعلم جيدًا﴾ متوسطة بين المبتدأ والخبر؛ وأمر الله سبحانه نبيه بسؤال الأولين لمساعدة الحجة على الحاضرين معهود أيضًا، انظر قوله تعالى ﴿اسأل من أرسلنا من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ الآية (٤٥) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١ . ﴿مسحورا﴾: مخبول العقل. ﴿بصائر﴾: جمع بصيرة والمراد بينات تجعلك على بصيرة فى تصديقى، وهى حال من ﴿هؤلاء﴾. ﴿مثبورا﴾: هالكا. ﴿يستفزهم من الأرض﴾: أى يزعجهم ليخرجهم من الأرض بقتلهم.

(١) بآياتنا.	(٢) أئذا.	(٣) عظاما	(٤) ورفاتا	(٥) السموات.
(٦) الظالمون	(٧) آتينا.	(٨) آيات	(٩) بينات	(١٠) فاسأل
(١١) إسرائيل	(١٢) يا موسى	(١٣) السموات	(١٤) يا فرعون	(١٥) فأغرقناه.

المعنى: . كلما هبط لهب النار بعد أكل جلودهم بدلنا لهم جلودا غيرها تلهب فيها النار ثانيا، ذلك العذاب جزاؤهم بسبب كفرهم وجحودهم. وكذبوا بالأدلة التى أقمناها لهم واستمروا فى العناد قائلين مكذبين للبعث هل يعقل أننا بعد أن نصير عظامًا ورفاتًا نبعث من جديد؟

فرد سبحانه عليهم بما فيه دليل على قدرته على بعثهم فقال﴿أو لم يروا﴾ إلخ: أى هل غفلوا ولم يعلموا أن الذى خلق السموات والأرض ابتداء من العدم ونظمها بقدرته قادر على أن يخلق أمثالهم من الخلق هو أصغر من خلق السموات والأرض كما فى الآية (٥٧) من سورة غافر صفحة ٦٢٥، بل إعادتهم أهون كما فى الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤ . وجعل سبحانه لإعادتهم بعد الموت أجلا محددا لاشك فى حصوله وهو يوم القيامة. وبعد إقامة هذه الحجة أبى هؤلاء الكافرون الذين ظلموا أنفسهم إلا مبالغة فى الكفر والجحود ثم سفه سبحانه عقولهم فى طلبهم توسعة رزق الدنيا من جنات وعيون وبيوت من زخرف بأنهم لن يستفيدوا من هذا الغنى حتى لو أجبنا طلبهم، لا فى الدنيا بالتمتع به، ولا فى الآخرة بتصديق الرسول، فقال لهم: لو ملكتم أيها المشركون جميع ما عند ربى من الخيرات ومكنكم من التصرف فيها فإن ما ركب فى طبائعكم من البخل يجعلكم تمسكون عن الإنفاق خشية الفقر، فتعيشون فى الفقر كما كنتم لأن الإنسان مطبوع على الحرص وشدة البخل، فلا تنفعون أنفسكم ولا أحدا من الناس.

وبين أنهم لن يؤمنوا بالآيات حتى التى اقترحوها، لأنهم كقوم موسى وقد أعطيناه تسع آيات لا واحدة ولا اثنين بينات واضحات الدلالة على صدقه، فاسأل يا محمَّد بنى إسرائيل الذين فى زمنك فإنهم لا يستطيعون تكذيب هذا فتقوم الحجة على قومك بتصديق هؤلاء لك ؛ آتينا موسى تلك الآيات حين جاء إلى فرعون وقومه يبلغهم رسالة ربه، فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مخبولا لأنك تقول برب غيرى.

قال موسى لقد علمت يا فرعون ما أنزل هذه الآيات إلا رب السموات والأرض، لأنه هو الذى يقدر عليها، وهى بصائر لمِنْ استبصر بها، ولكنك تكابر وتعاند خوفا على ملكك؛ ولهذا فإنى أظنك تهلك حتما إذا لم ترجع عن عنادك للحق، فلج فرعون فى طغيانه، وأراد أن يمحو بنى إسرائيل من على وجه الأرض، فأغرقناه ومَنْ معه جميعًا، كما فى الآية (٩٠) من سورة يونس صفحة ٢٨٠ .

من بعده لبني إسرائيل[1] اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد
الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴿١٠٤﴾ وبالحق أنزلناه[2] وبالحق نزل
وما أرسلناك[3] إلا مبشرا ونذيرا ﴿١٠٥﴾ وقرآنا[4] فرقناه[5]
لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه[6] تنزيلا ﴿١٠٦﴾
قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله
إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ﴿١٠٧﴾ ويقولون سبحان[7]
ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ﴿١٠٨﴾ ويخرون للأذقان
يبكون ويزيدهم خشوعا ﴿١٠٩﴾ قل ادعوا الله أو ادعوا
الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ولا تجهر
بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴿١١٠﴾
وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك
في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا ﴿١١١﴾

المفردات: ﴿الأرض﴾: المقدسة التى وعدناكم بها.

﴿لفيفا﴾: اللفيف الجماعات من قبائل مختلفة، فالمراد مختلطين ثم يميز كل فريق بعد ذلك انظر الآية (٥٩) من سورة يس صفحة ٥٨٤ .

﴿وبالحق أنزلناه﴾: المراد أن كونه من عندنا حق لاشك فيه.

﴿وبالحق نزل﴾: أى ونزل مقترنا بالتعاليم الحقة التى ليس فيها باطل، فالحق الأول صفة لنسبة الإنزال إليه تعالى، والثانى صفة لما فى القرآن من الأحكام.

﴿فرقناه﴾: أى أنزلناه متفرقا فى مدة ثلاث وعشرين سنة .

﴿على مكث﴾: أى على مهل وتؤدة.

﴿ونزلناه تنزيلا﴾: أى شيئًا بعد شىء على حسب المصالح والحكمة.

﴿أوتوا العلم من قبله﴾: وهم مَنْ آمن من أهل الكتاب، انظر صفة بعضهم فى آيتى (٨٢، ٨٣) من سورة المائدة صفحتى ١٥٣، ١٥٤ .

---

(١) إسرائيل.
(٢) أنزلناه.
(٣) أرسلناك
(٤) قرآنا
(٥) فرقناه.
(٦) ونزلناه
(٧) سبحان.

﴿يخرون﴾: يسقطون على الأرض.

﴿للأذقان﴾: جمع ذقن بفتحتين وهى آخر الفك الأسفل من الوجه، واللام بمعنى على لإفادة المبالغة فى السجود وأنه عم الوجه كله حتى الأذقان ولم يقتصر على أول ما يصل الأرض وهو الجبهة. (هنا سجدة).

﴿أيًّاما﴾: أصلها أيا منونة بمعنى أى اسم، و ﴿ما﴾ لتأكيد العموم فى ﴿أيا﴾.

﴿تدعوا﴾: أى تسموه به.

﴿فله﴾ : أى فللمسمى الذى هو الذات الأقدس.

﴿الحسنى﴾ : لدلالتها على صفات الجلال والإكرام.

﴿لا تخافت بها﴾ : أى لا تخفض صوتك بها حتى لا يسمعك أحد.

المعنى : . وقلنا من بعد غرق فرعون لبنى إسرائيل ادخلوا الأرض المقدسة التى كتبها الله لكم كما فى الآية (٢١) من سورة المائدة صفحة ١٤٠ . فإذا جاء وقت تحقيق وعد الحياة الآخرة وهو يوم القيامة جئنا بكم من قبوركم لموقف الحشر مختلطين الصالح بالطالح ثم نحكم بينكم بالعدل.

ولما كان السياق من أول الآية (٨٢) المتقدمة من هذه السورة (٣٧٥) فى القرآن الذى هو أساس الدين وعليه المعول فى تثبيت الدعوة وبقائها، رجع إلى الكلام عنه ثانيا لتأكيد إبطال زعمهم أنه ليس من عند الله، فقال:

﴿وبالحق أنزلناه﴾ إلخ: أى ما نزل إلا من عندنا نحن، وما نزل إلا بالعقائد والشرائع الحقة، وما أرسلناك أيها النبى إلا مبشرا مَنْ آمن به بالجنة، ونذيرا لمَنْ كفر به بالنار فلا دخل لك فى إيجاده.

وفرقنا هذا القرآن ووزعناه فى النزول على مدة طويلة لتقرأه على الناس على مهل ليستطيعوا فهمه وحفظه ويسهل عليهم القيام بتكاليفه. ونزلناه شيئا فشيئا على حسب الوقائع

والمصالح، انظر الآية (٣٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤، فقل أيها النبى للمشركين من قومك مَنْ على شاكلتهم آمنوا به أو لا تؤمنوا، أى اختاروا لأنفسكم ما تحبون لها، فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً، وعدم إيمانكم لا يلحق به نقصا. فإن لم تؤمنوا به فقد آمن به مَنْ هو خير منكم، والعلماء الذين قرءوا الكتب السابقة وعرفوا الحق فهؤلاء عرفوا أنه حق فكانوا إذا تلى عليهم يسقطون على وجوههم تعظيما لله وشكرا على نعمته به.

ويقولون ننزه ربنا عن خلف الوعد الذى وعد به فى الكتب السابقة من إرسال رسول يكون خاتم الرسل، إنه كان وعده حاصلا لا محالة، ويخرون ثانيا بعد السجود للشكر على إنجاز الوعد سجدا لما أثر فيهم من مواعظه باكين من خوف الله تعالى ويزيدهم القرآن خشوعا له تعالى.

وكان من تعنت المشركين أنهم لما سمعوه ﷺ يقول فى دعائه يا الله، يا رحمن، يا رحيم، قالوا انظر إلى هذا الذى يطلب منا ألا ندعوا إلا إلها واحدا وهو يدعو آلهة كثيرة.

فرد عليهم سبحانه بقوله قل أيها النبى لهم هو إله واحد سموه الله، أو الرحمن، فأى اسم تسمونه به مما يليق به فهو حسن لأن كل أسمائه حسنى.

وكان المسلمون فى مكة قلة مضطهدة، وكان المشركون إذا سمعوا من أحدهم قرآنا سبوه وضربوه، فأرشدهم الله عز وجل إلى الطريق الذى يبعدهم عن ذلك فقال ﴿ولا تجهر﴾ إلخ: أى ولا تجهر بقراءة صلاتك حتى يسمع المشركون، ولا تسر جدا حتى لا يسمع مَنْ خلفك من المؤمنين، واطلب طريقا وسطا بين الجهر والسر.

وقل الحمد لله على ما أنعم على عباده بجزيل النعم الموصوف بهذه الصفات الثلاث العظيمة وهى أنه لم يتخذ ولدا لعدم حاجته إليه.

وهذا رد على النصارى، ولم يكن له شريك لأنه ليس عاجزا حتى يساعده الشريك، وهو رد على المشركين، ولم يكن له ولى ينصره ويمنع عنه ذلا يلحقه. سبحانه وتعالى علوا كبيرا. وعظم ربك أيها النبى تعظيما يليق به فى ذاته وصفاته.

(١٨) سورة الكهف مكية وآياتها عشر ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل
لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ
الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ
اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ
كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)
فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا
الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا

سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿عوجا﴾: ميلا عن الصواب في معانيه.

﴿قيما﴾: معتدلا لا إفراط في تكاليفه حتى تكون شاقة ولا تفريط فيها حتى تهمل ما هو ضروري. ﴿لينذر﴾: يحذر ويخوف.

﴿بأسا﴾: المراد به العذاب.

﴿من لدنه﴾: من عنده. ﴿ماكثين﴾: مقيمين.

﴿كبرت كلمة﴾: ما أعظم شناعتها.

﴿تخرج من أفواههم﴾: صفة للكلمة تفيد استعظام جرأتهم على النطق بها.

﴿إن يقولون﴾: أي ما يقولون. ﴿باخع﴾: قاتل بالانتحار.

﴿على آثارهم﴾: أي من بعد توليهم عن الإيمان وبعدهم عنه.

المعنى: كل مدح وثناء جميل مستحق لله تعالى لتفضيله بنعمة إنزال القرآن الذي فيه سعادة البشر على عبده محمد ﷺ، ولم يجعل في هذا الكتاب انحرافا ما عن الصواب. وكل تعاليمه معتدلة وسط بين التشديد والإهمال. أنزله لينذر الكافرين عذابا شديدا صادرا من عنده وهو القوي القاهر، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحات بأن لهم أجرا حسنا هو الجنة خالدين فيه أبدا، وينذر على وجه الخصوص بعض الكافرين لفظاعة كفرهم، وهم الذين قالوا اتخذ الله ولدا وليس عندهم علم بذلك، ولا لآبائهم الذين قلدوهم. فما أعظم شناعة هذه الكلمة التي تجرؤوا على إخراجها من أفواههم، وما كان يصح أن تخرج منها أبدا؛ لأنهم لا يقولون إلا كذبا.. ولما كان ﷺ شديد الحرص على إيمان قومه وكان يحزنه كثيرا عدم إيمانهم، أراد سبحانه أن يقول له ما عليك إلا البلاغ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فهل إذا لم يؤمنوا

---

(١) الكتاب. (٢) الصالحات. (٣) ماكثين. (٤) لآبائهم.
(٥) أفواههم. (٦) باخع. (٧) آثارهم.

لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا
صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ
وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى
ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا
مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ
سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ
لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ
إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم
بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

بهذا القرآن تقتل نفسك أنت أثر توليهم عن الإيمان أسفا عليهم. ثم بين سبحانه سبب أمره بعدم الحزن عليهم بأن الدنيا وزخارفها فتنتهم وصرفتهم عن التعقل ومعرفة الصواب فقال: إنا جعلنا ما على الأرض من حيوان ونبات ومعادن زينة لها ولأهلها.

المفردات: ﴿لنبلونهم﴾: نعاملهم معاملة المختبر ليظهر ما انطوت عليه نفوسهم.

﴿صعيدا﴾: ترابا.

﴿جرزا﴾: لا نبات فيها من الجرز وهو القطع انظر الآية (٢٧) من سورة السجدة صفحة ٥٤٨.

﴿أم﴾: حرف يقوم مقام همزة الاستفهام.

﴿بل﴾ التى تفيد الانتقال من كلام إلى كلام.

﴿الكهف﴾: الفجوة الواسعة فى الجبل.

﴿الرقيم﴾: لوح من حجر رقمت عليه أسماؤهم بعد موتهم.

﴿آياتنا﴾: دلائل قدرتنا.

﴿أوى﴾: اتخذوه مكانا يأوون إليه.

﴿الفتية﴾: جمع فتى وهو الشاب. وكانوا من أبناء عظماء الروم.

(١) لجاعلون. (٢) أصحاب. (٣) آياتنا.
(٤) آتنا. (٥) آذانهم. (٦) بعثناهم.
(٧) آمنوا. (٨) وزدناهم. (٩) السموات.
(١٠) آلهة. (١١) بسلطان.

﴿فضربنا على آذانهم﴾: الأصل جعلنا على آذانهم حجابا يمنعهم من سماع الأصوات والمراد أنمناهم نوما لا تنبههم معه الأصوات.

﴿بعثناهم﴾: أيقظناهم.

﴿لنعلم﴾: علم ظهور وتحقق.

﴿الحزبين﴾: المختلفين فى مدة نومهم وهما منهم أنفسهم، كما سيأتى فى الآية (١٩) من هذه السورة صفحتى ٣٨٢، ٣٨٣.

﴿أحصى لما لبثوا أمدا﴾: أى أضبط لمدة مكثهم، والأمد مدة معينة.

﴿ربطنا على قلوبهم﴾: أصل الربط الشد والمراد قوينا عزيمتهم بالصبر على الشدائد انظر الآية (١٠) من سورة القصص صفحة ٥٠٧.

﴿إذ قاموا﴾: بين يدى الجبار الذى كان يريد إرغامهم على عبادة الأصنام، وفى لسان العرب مادة (قوم) أن من معناه العزم، يقال قام فلان على كذا أى عزم عليه. وفسر الألوسى ما معنا بذلك.

﴿شططا﴾: أصل الشطط البعد عن الصواب، وأطلق على القول مبالغة.

﴿لولا﴾: كلمة تدل على الحث على ما بعدها.

﴿سلطان﴾: أى حجة واضحة.

﴿فمن أظلم﴾: من اسم استفهام متضمن معنى النفى.

المعنى: جعلنا ما على الأرض زينة لأهلها لنظهر ما فى طبائعهم فيتميز من لا يغره ذلك، بل يصرفه فيما يسعده دنيا وأخرة فيكون أحسن عملا، ومن يغره ذلك فيشغله عن أسباب تلك السعادة، وبعد ذلك نجعل كل ما فى الأرض ترابا ونذرها قاعا صفصفا بعدما كانت ذات بهجة كما فى الآية (١٠٦) من سورة طه ٤١٦، أى فلا تحزن أيها النبى لتكذيب قومك اغترارا

بالدنيا فإنا سنفنيها ونحاسبهم على ما صنعوا. وكانت قصة أصحاب الكهف مما تتداول بين الناس قبل الرسالة فأوعز اليهود إلى مشركى العرب أن يسألوه ﷺ لعله يتعرض لتفاصيل القصة خصوصا عددهم فيفتحوا بذلك بابا للجدل يصعب إغلاقه. فأغلق سبحانه الباب فى وجه الفتنة بقوله: ﴿أم حسبت﴾ إلخ: أى هل حسبت أيها المخاطب أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا فى بقائهم أحياء مدة نومهم الطويل شيئا عجيبا من بين دلائل قدرتنا؛ فإن قصتهم وإن كانت خارقة للعادة ليست بعجيبة إذا قيست بسائر آياتنا الأخرى الدالة على القدرة على أعظم منها، ليسوا عجبا حين لجأوا إلى الكهف خوفا من ظلم ملوكهم المشركين، وقالوا يا ربنا آتنا من عندك رحمة تسهل لنا المغفرة والأمن من العدو، وهيىء لنا من الأمر الذى نحن عليه من مفارقة العدو هدى إلى الصواب، فاستجبنا دعاءهم فأنمناهم آمنين فى الكهف سنين عديدة، ثم أيقظناهم عند الأمن عليهم ليكون عاقبة ذلك اختلافهم فى مدة نومهم، فبعضهم يقول نبثنا يوما أو بعض يوم، وبعضهم الآخر يقول ربكم أعلم، فيتعلق علمنا تعلق وقوع بما هو أصوب منهما. وبعد ما أجمل قصتهم شرع سبحانه فى تفصيلها فقال: نحن نقص عليك أيها النبى خبرهم بالصدق الذى لاشك فيه.

وحاصل قصتهم أنهم فتية آمنوا بربهم وسط قوم مشركين، والتحقيق أنهم كانوا قبل المسيح، وزدناهم هدى بالتثبيت على الحق، وقويناهم بالصبر على شدائدإظهار الحق حين قاموا فى وجه قومهم وجهروا بقولهم: ربنا الحق هو رب السموات والأرض لا هذه الأصنام التى تعبدونها فلن ندعو من دونه سبحانه إلها، والله لقد قلنا إذا دعونا غيره قولا بعيدا عن الصواب، هؤلاء قومنا قد أخطأوا لأنهم اتخذوا من دونه سبحانه آلهة، هلا يأتون على ذلك بدليل واضح؟ كلا لن يستطيعوا فلا أحد أظلم من هؤلاء الذين افتروا على الله كذبا بنسبة الشريك إليه..

المفردات: ﴿اعتزلتموهم﴾: تجنبتموهم.

﴿فأووا إلى الكهف﴾: أى الجأوا إليه..

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ
يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم
مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ * وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن
كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ
الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن
يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا
مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ
الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ
لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ
رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ
مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ

﴿ينشر لكم﴾: أى يبسط ويوسع.

﴿مرفقا﴾: ما يرفق به أى ينتفع به.

﴿تزاور عن كهفهم﴾: أى تميل.

﴿تقرضهم ذات الشمال﴾: أى تعطيهم شيئا من شعاعها من جهة الشمال.

﴿من آيات الله﴾: من دلائل قدرته تعالى.

﴿بالوصيد﴾: فناء الكهف من جهة الباب.

﴿رعبا﴾: خوفا يملأ الصدور.

﴿بعثناهم﴾: أى أيقظناهم.

﴿كم لبثتم﴾: أى ما مقدار مدة مكثكم على هذا الحال.

﴿بورقكم﴾: الورق بكسر الراء هى الفضة.

﴿المدينة﴾: التى كانوا فيها، قيل هى (طرسوس).

المعنى: وبعد ما تقدم خاطب بعضهم بعضا قائلا: وحيث إنكم خالفتموهم فى عبادتهم غير الله فالجأوا إلى الكهف اتقاء لشرهم فإن الله يبسط لكم الخير من رحمته فى الدارين ويسهل لكم ما ينفعكم.

ثم بين سبحانه حالتهم بعد ما دخلوا الكهف فقال: ﴿وترى الشمس﴾ إلخ. وكان الكهف فى مكان من الأرض وسط بين الشمال البارد وبين وسط الكرة الحار، وكانت فتحته جهة الشمال

---

(١) تزاور.
(٢) آيات.
(٣) باسط.
(٤) بعثناهم.

فتصيب الشمس جزءا من جهته الغربية عند الشروق، وجزءا من جهته الشرقية عند الغروب، فتتقى جوه، من غير أن تصيبهم بحرها، فترى أيها الناظر الشمس إذا طلعت تميل على كهفهم من جهة يمين الداخل لهذا الكهف، وإذا غربت تعطيهم شعاعها من جهة شمال الداخل أيضا، وهم نيام فى وسطه بعيدا عنها؛ ذلك الإيواء إلى هذا الكهف ووضعهم فيه هذا الوضع من دلائل قدرة الله على تنفيذ ما يريد، فكان يجب أن يلتفت إليها المعاندون ليؤمنوا، ولكن لا يهدى الله إلى الانتفاع بذلك إلا من صلح قلبه وابتعد عن الحسد والكبر، فهذا هو المهتدى حقا الذى لا يستطيع أحد إضلاله، ومن يضلله لأنه فاسق كافر فلن تجد له صديقا يرشده انظر الآية (٣٩) من سورة الأنعام ١٦٨.

وتحسبهم أيها الناظر أيقاظا لتفتح أعينهم كأنهم ينظرون وفى الحقيقة هم نيام. ونقلب هؤلاء الفتية فى رقدتهم مرة على الجنب الأيمن وأخرى على الأيسر لنحفظ أجسامهم من تأثير الأرض، ولتقصر المعجزة فى أضيق حدودها، وكلبهم الذى صاحبهم فى حال خروجهم من المدينة مادا ذراعيه على فناء الكهف وهو نائم أيضا فى شكل اليقظان، لو اطلعت وشاهدت حالتهم وأنهم جميعا مفتحة عيونهم فى مكان موحش، وكل منهم فى مكانه لا يتحرك مع أنه ليس من العادة ذلك لعلمت أن هذا أمر غير عادى، فوليت فارا منهم ممتلئا قلبك من الرعب، وقد يكون مع كل ما سبق رزقهم الله هيبة تلقى فى قلب من يدنو منهم الخوف ليبعد عنهم أشرار المشركين، وكما كانت إنامتنا لهم آية كان إيقاظنا لهم آية أخرى، لتكون عاقبة ذلك أن يسأل بعضهم بعضا عن مدة مكثهم نائمين فى الكهف فقال واحد منهم: كم لبثتم؟

قال بعضهم: مكثنا على هذا الحال يوما أو بعض يوم.

ولما شك الآخرون فى ذلك قالوا اتركوا الأمر لله فهو الأعلم به، وابحثوا عما ينفعنا الآن، فابعثوا واحدا منكم بهذه العملة الفضية إلى المدينة التى فيها حاجات الناس.

فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ
وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ
يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾
وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ[1] بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟
ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا[2] ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ[3]
رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا
بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ
بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً
ظَٰهِرًا[4] وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ
لِشَا۟ىْءٍ[5] إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ

المفردات: ﴿أزكى طعاما﴾: أجود وأطيب.

﴿وليـــتلطف﴾: أى يتكلف اللطف فى المعاملة حتى لا تحصل خصومة فيعرف..

﴿يظهروا عليكم﴾: يطلعوا عليكم ويعلموا مكانكم ويتفوقوا عليكم فى القوة انظر الآية (٨) من سورة التوبة صفحة ٢٤١.

﴿أعثرنا عليهم﴾: أى أطلعنا الناس عليهم.

﴿غلبـــوا على أمـــرهم﴾: أى الذين تولوا أمور أهل القرية وهم الرؤساء.

﴿مسجدا﴾: المراد مكان عبادة.

﴿رجما بالغيب﴾: هو القول بدون علم.

والغيب كل ما غاب عن الإنسان، والمراد قالوا فى الغيب بدون علم.

﴿لا تمار فيهم﴾: أى لا تحاجج اليهود والمشركين فى عددهم.

﴿مراء ظاهرا﴾: المراء الظاهر هو أن تقص ما أخبرك الله به ولا تتعمق فيما وراءه، فلا تصدقهم فيه ولا تكذبهم.

﴿فاعل ذلك غدا﴾: المراد بالغد هنا مطلق الزمن المستقبل لا خصوص اليوم الذى بعد اليوم الذى أنت فيه..

---

(١) يتنازعون.
(٢) بنيانا.
(٣) ثلاثة.
(٤) ظاهرا.
(٥) لشىء.

المعنى: فليبحث عن أحسن أهل القرية طعاما فيشترى منه ما يقيتكم، وليكن لطيفا حتى لا يشعر بنا أحد؛ لأنهم إن شعروا وهم مشركون اعتبرونا خارجين على ملتهم وتمكنوا منكم يقتلوكم رجما أو يعيدوكم إلى الشرك، وإذا عدتم إلى الشرك فلن تفلحوا أبدا، وتكونوا خسرتم الدنيا والآخرة..

ولما ذهب أحدهم بالفضة دهش أهلها لأنها عملة قديمة جدا، وبعد التحرى ذهبوا معه إلى الكهف واطلعوا على ما فيه وعرفوا الحقيقة، فآمنوا بالبعث الذى كان بعضهم فى شك منه، وهذا هو المراد بقوله: ﴿وكذلك أعثرنا عليهم﴾ إلخ: أى وكما أنمناهم وبعثناهم لننجيهم من المشركين الذين كانوا فى زمنهم ولتزداد بصيرتهم يقينا، أطلعنا أهل القرية عليهم ليعلموا أن وعد الله بالبعث حق؛ لأن القادر على ما حصل لهم قادر على بعثهم بعد موتهم، وليعلموا أن القيامة لا شك فى قدرة الله تعالى عليها.

وأعثرنا عليهم فى الوقت الذى كان يتنازع أهل القرية أمر دينهم بينهم فى مسألة البعث وعدمه، وهل هو إذا حصل بالأرواح والأجساد أم بالأرواح فقط، فلما شاهدوا ما حصل للفتية آمنوا بأن البعث حق، وأنه بالجسم والروح، وبعد ذلك مباشرة مات الفتية جميعا، فتشاوروا فيما يفعلون بهم، فقال بعضهم: ابنوا على باب الكهف بنيانا يمنع الدخول إليهم ونتركهم وشأنهم فربهم أعلم بحالهم، وقال أصحاب الكلمة نبنى مكانا يتعبد فيه الناس و هذا كان جائزا فى شريعتهم ولكن الإسلام حرم بناء المساجد على القبور؛ قال الألوسى: (ومن استدل بالآية على جواز البناء على قبور الصلحاء واتخاذ مسجد عليها فقوله باطل عاطل فاسد كاسد، فقد صح فى الحديث أنه ﷺ قال: (لعن الله المتخذين على القبور المساجد والسرج). وفى رواية مسلم أنه ﷺ قال: (ألا وإن من كان قبلكم يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك). وفى البخارى ومسلم أنه ﷺ قال: (إن من كان قبلكم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا أولئك شرار الخلق).

وسيقول المتكلمون فى قصتهم من أهل الكتاب والعرب عددهم ثلاثة ورابعهم كلبهم، ويقول آخرون بل هم خمسة وسادسهم كلبهم، يرمون كلامهم هذا بدون علم، ويقول آخرون هم سبعة وثامنهم كلبهم. قل أيها النبى للمختلفين: ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل من الناس وهم الذين أطلعهم الله تعالى على عددهم.

وتعقيب القولين الأولين بالرجم بالغيب دون الثالث يشعر من بعيد بأن الثالث هو الصواب، خصوصا وقد جاء بالواو قبل الجملة الواقعة صفة للنكرة لتوكيد ربط الصفة بالموصوف، كما تقول جاءنى رجل ومعه آخر، فإن جادلوك فيهم أيها النبى فلا تجادلهم إلا جدالا ظاهرا لا تتعمق فيه معهم، بل تقتصر على ما أخبرك الله تعالى به ولا تزد عليه، ولا تستفت فى عددهم وأحوالهم أحدا من أهل الكتاب لأن ما عندك كافيك.

وكان ﷺ لما سألوه عن قصة أصحاب الكهف قال سأخبركم عنها غدا ولم يقل إن شاء الله فحبس الله تعالى عنه الوحى خمسة عشر يوما حتى أحزنه ذلك، ثم نزلت القصة، وجاء سبحانه فى سياق الكلام عن القصة بهذا التأديب تعليما له ﷺ ولأمته بأن لا يقطعوا بشىء فى المستقبل، بل يفوضوا الأمر فيه لمشيئة ربهم.

والمعنى ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك فى المستقبل إلا قولا مقترنا بمشيئة الله أى بقولك إن شاء الله، وقد حافظ ﷺ على ذلك طول حياته انظر الآية (٢٧) من سورة الفتح صفحة ٦٨٣.

المفردات: ﴿من هذا﴾: أى من الحديث عن أصحاب الكهف..

﴿رشدا﴾: قال الراغب: الرشد بفتح الراء والشين، والرشد بضم الراء وسكون الشين ضد الغى والضلال انظر الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤، ويستعمل الرشد استعمال الهداية، يقال رشد فلان إذا اهتدى للصواب والخير، ولذا قال الزجاج المراد بالرشد هنا هو إرشاد الخلق ودلالتهم على الخير، وقد يراد به الخير نفسه، انظر الآية (١٠) من سورة الجن

وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي
لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ(١)
مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا
لَهُ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ(٢) وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم
مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾
وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِ(٣)
وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ
يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ(٤) وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ
عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ(٥) الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ
أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ(٦) وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾
وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ
فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ(٧) نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا

صفحة ٧٧١.

﴿لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين﴾: أى مكثوا فيه ٣٠٠ سنة شمسية.

﴿ازدادوا تسعا﴾: أى تسع سنين إذا حسبناها بالسنين القمرية.

﴿أبصر به وأسمع﴾: تركيبان يدلان على التعجب والمبالغة فى المعنى المفهوم من مادتهما، أى ما أبصر الله سبحانه بكل موجود وما اسمعه بكل مسموع. فهو سبحانه لا يخفى عليه شىء وهذا التعجب صادر من النبى ﷺ ومن كل من يسمع هذا الخطاب فهما داخلان فى المأمور به بقوله سبحانه (قل الله أعلم) إلخ، أى وقل أبصر به إلخ فليس التعجب هنا صادرا من الله تعالى، ولا مانع من صدور تعجب الخلق من بعض صفاته سبحانه وتعالى وأفعاله على معنى أنها عظيمة جدا من شأنها أنها يتعجب منها. ومن ذلك فى الحديث قوله ﷺ: (ما أحلمك يارب على من عصاك، وما أقربك ممن دعاك، وما أعطفك على من سألك). ﴿كتاب ربك﴾: هو القرآن.

﴿لا مبدل لكلماته﴾: لا مغير لأحكامه التى جاءت فى كلماته.

﴿ملتحدا﴾: أى مكانا تميل إليه لتتحصن به أى ملجأ.

---

(١) ثلاث.
(٢) السموات.
(٣) لكلماته.
(٤) بالغداة.
(٥) الحياة.
(٦) هواه..
(٧) للظالمين.

﴿واصبر نفسك﴾: أى احبسها.

﴿لا تعد عيناك عنهم﴾: لا تصرف عيناك النظر عنهم لتنظر إلى أبناء الدنيا.

﴿فرطا﴾: متجاوزا فيه الحد.

﴿سرادقها﴾: السرادق لفظ فارسى معرب أرادت به العرب الفسطاط أى (الخيمة).

المعنى: وإذا نسيت أن تقول إن شاء الله فقلها عند تذكرك أنك نسيتها مادمت فى مجلسك ولم تنتقل لحديث آخر، وقل لعل الله أن يوفقنى ويعطينى من الحجج على صدقى ما هو أقرب إلى العقول من قصص أصحاب الكهف وأقوى فى إرشاد الناس. ثم رجع سبحانه إلى إتمام القصة فقال: (ولبثوا) أى مكث الفتية نياما فى كهفهم ثلثمائة سنين شمسية، وإذا حسبت قمرية زادت تسعا، وهذا حساب دقيق لا يعرفه إلا علماء الفلك من أن كل ٣٣ سنة وثلث سنة شمسية تساوى ٣٤ سنة قمرية. فسبحان من علَّم نبيه الأمى ما لم يعلم.

وهذا منه تعالى بيان لما أجمله فى قوله (فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا) وإذا كان الأمر كذلك فلا تتجاوز أيها النبى الحق الذى أخبر الله به، ولا تلتفت إلى اختلافات الناس، فإذا سمعت منهم خلاف ما أخبرناك به فقل لهم الله وحده هو الأعلم بمدة مكثهم نائمين، لأنه سبحانه هو المختص بعلم الغيب فى السموات والأرض فما أبصره سبحانه بكل موجود وما أسمعه لكل مسموع، وليس لأهل السموات والأرض من يتولى أمورهم غيره، ولا يشرك سبحانه فى قضائه فى شئون خلقه أحدا من أهل السموات والأرض. ولما فهم مما سبق أن فضل الله عليه ﷺ كان بسبب إنزال هذا القرآن الذى قامت به الحجة على المشركين، وكل أخباره صادقة، قال سبحانه لنبيه: واتل ما أوحى إليك من القرآن الذى أنزله ربك الصادق الحكم، ولا تشغل نفسك بلغوهم عندما قالوا لك إئت بقرآن غير هذا أو بدله انظر الآية (١٥) من سورة يونس صفحتى ٢٦٧، ٢٦٨، فإنه لا أحد يقدر على تبديل كلماته، وإياك أن تخالف أمر ربك، فإنك حينئذ لن تجد من دونه تعالى ملجأ يحفظك منه. ولما كان كفار قريش طلبوا منه ﷺ طرد الفقراء من حوله كما تقدم فى الآية (٥٢) من سورة الأنعام

والآية (٧٣) من سورة الإسراء صفحتى ١٧٠، ٣٧٤ وكما هى عادة المتكبرين من الكفار فى كل أمة، انظر آيات من (٢٧ إلى ٣١) من سورة هود صفحتى ٢٨٨، ٢٨٩ والآية (١١١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦، لما كان كل هذا أمر سبحانه نبيه بعدم إطاعتهم وبالمحافظة على احترام المؤمنين مهما كانوا ضعفاء أو فقراء، فقال: ﴿واصبر نفسك﴾ أى أحبسها مع فقراء أصحابك الذين يدعون ربهم دائما، خصوصا طرفى النهار وقت غفلة الناس، لا يريدون إلا وجه ربهم، لا رياء ولا طلب نفع، ولا تصرف نظرك عن الفقراء لرثاثة ثيابهم طالبا مجالسة الأغنياء المنعمين بزينة الدنيا إرضاء لهم طمعا فى إيمانهم، ولا تطع فى طرد الفقراء عن مجلسك من جعلنا قلبه غافلا عن تأمل القرآن لتمكن الزيغ من قلبه حتى صار عبدا لهواه، وأصبح أمره فى جميع أعماله بعيدا عن الصواب، انظر الآية (٥) من سورة الصف صفحة ٧٣٨. وبعد ما قطع أطماعهم فى صرفه ﷺ عن فقراء المؤمنين أمره بأن يهددهم بأن يقول لهم هذا الذى جئت به هو الحق من ربكم، فمن شاء أن يؤمن به فليؤمن فهو خير له، ومن شاء الكفر به فليكفر فإنه لم يظلم إلا نفسه، والله قد أعد للظالمين نارا تحيط بهم من كل جانب كما يحيط السرادق بما فيه إحاطة محققة كأنها وقعت.

المفردات: ﴿المهل﴾: هو اسم معدن من معادن الأرض كالذهب والفضة والنحاس إذا أذيب، انظر الآية (٤٥) من سورة الدخان صفحة ٦٥٩، والآية (٨) من سورة المعارج ٧٦٥.

﴿مرتفقا﴾: أصله المتكأ الذى يتكئ عليه الإنسان ليستريح، فهو تهكم بهم لأنه لا راحة فيها.

﴿عدن﴾: تقدمت فى الآية (٢٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥.

﴿سندس﴾: هو رقيق ثياب الحرير.

﴿استبرق﴾: هو الغليظ منها.

وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ
بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا[1]
وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ[2] إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠)
أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّتُ[3] عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَرُ[4] يُحَلَّوْنَ
فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن
سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ نِعْمَ
الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) ۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا
رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ[5] وَحَفَفْنَهُمَا[6]
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ[7] أُكُلَهَا
وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَلَهُمَا[8] نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ
ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَحِبِهِ[9] وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا
وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ

﴿الأرائك﴾: جمع أريكة وهى السرير الذى عليه ستار.

﴿اضرب لهم مثلا رجلين﴾: أى اجعل حال رجلين غنى كافر وفقير مؤمن مثلا يعتبر به قومك.

﴿كلتا الجنتين﴾: أى كل منهما.

﴿أكلها﴾: هو ما يؤكل من ثمارها.

﴿تظلم﴾: أى تنقص..

﴿فجرنا خلالهما نهرا﴾: المراد أجرينا فيما بين كل من الجنتين نهرا على حدة كما قال أبو السعود.

﴿أعز نفرا﴾: أى أقوى منك من جهة ما عندى من كثرة الأولاد والخدم والأتباع.

﴿ودخل جنته﴾: المراد دخل جنة من الجنتين، قال ذلك أبو حيان لأن دخول الجنتين فى وقت واحد غير ممكن.

﴿ظالم لنفسه﴾: أى ضار لنفسه بكفره.

---

(١) آمنوا.
(٢) الصالحات.
(٣) جنات.
(٤) الأنهار.
(٥) أعناب.
(٦) وحففناهما.
(٧) آتت..
(٨) خلالهما.
(٩) لصاحبه..

المعنى: وإذا استغاث الظالمون من شدة العطش فى جهنم تأتيهم الملائكة بماء كالنحاس المذاب الشديد الحرارة يشوى الوجوه إذا قربوه منها للشرب منه. قبح هذا الشراب وساءت جهنم مكان راحة.

هذا حال الكافرين فى الآخرة، أما الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة فإنا لا نضيع أجر من أحسن عملا منهم، فنعطيهم جنات عدن تجرى من تحت غرفهم الأنهار، يحلون فيها حلية من أساور من ذهب، ويلبسون ثيابا خضرا من حرير رقيق وغليظ حسب ما تشتهيه أنفسهم، متكئين فى الجنة على السرر ذات الستائر كالملوك، نعم الثواب ثوابهم هذا، وحسنت الجنة مكان راحة. واضرب أيها النبى لهؤلاء الطغاة من كفار قومك الذين استنكفوا أن يجتمعوا مع فقراء المؤمنين عندك وطلبوا منك طردهم، اضرب لهم مثلا حال رجلين أحدهما غنى كافر جعلنا له جنتين ليتم تنعمه بالتنقل بينهما وليأمن التنعم بإحداهما إذا تلفت الأخرى، فى الجنتين فواكه منها الأعناب، وجعلنا النخل محيطا بكرومهما للحفظ والزينة والفائدة، وجعلنا بين أشجارها زرعا كالبر وغيره، لتكون الجنتان جامعتين للطعام والفاكهة وهذا تمام التنعيم، وأعطت كل جنة خير ما يؤكل منها ولم تنقص منه شيئا، وأجرينا وسط كل من الجنتين نهرا لدوام ريها وحفظ بهجتها بدون تعب، وكان لصاحب الجنتين ثمر، أى أنواع من المال سوى الجنتين من ذهب وفضة وغيرهما. وكان له أيضا أولاد لأن الأولاد ثمرة أبيهم، ولذا قال (وأعز نفرا).

ولما رأى زخرف الدنيا قال لصاحبه المؤمن الفقير فى أثناء محاورتهما فى الكلام: أنا أكثر منك مالا وأقوى نفرا. وبعد افتخاره على صاحبه دخل جنة من جنتيه فخورا مستعليا ناسيا نعمة ربه كافرا بها.

المفردات: ﴿منقلبا﴾: مرجعا وعاقبة.

﴿لكن هو الله ربى﴾: أصلها لكن أنا أقول هو الله ربى.

مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً
وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾
قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن
تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ[1] رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠[2] هُوَ ٱللَّهُ
رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ
قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ
مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ
وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾
أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا
وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى[3] لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ
أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ

﴿لولا﴾: كلمة تدل على الحث على فعل ما بعدها ويفسرونها بـ (هلاّ).

﴿حسبانا﴾: أصل الحسبان مصدر حسب كالغفران من غفر ومعناه الحساب أريد به المحسوب والمقدر أى صواعق مقدرة جزاء كفرك.

﴿صعيدًا﴾: ترابا صاعدًا على وجه الأرض. ﴿زلقا﴾: الزلق هو الأرض الزلقة بفتح فسكون والمراد هنا أن ترابها مشبعا بالملح والماء ولا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها. ولا تثبت عليها القدم والمراد أنها سبخة لا تصلح للزرع مطلقا.

﴿غورا﴾: أصله مصدر غار أى غاب فى الأرض وأريد به غائرا مبالغة.

﴿أحيط بثمره﴾: أى أحاطت الصواعق بالثمر فأهلكته.

﴿خاوية على عروشها﴾: تقدم معناها فى صفحة ٥٤ والمراد خربة.

﴿فئة﴾: هى الجماعة من الناس.

المعنى: قال مغرورا بطول الأمل ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبدا، وما أظن القيامة حاصلة، ولئن فرض ورجعت إلى ربى بالبعث كما زعمت والله لأجدن خيرا من هذه الجنة عاقبة، لأنى أهل للنعيم فى كل حال. قال له صاحبه المؤمن وهو يناقشه: هل يصح أن تكفر بربك الذى خلقك من تراب باعتبار أصل مادتك، ثم من نطفة باعتبار مبدئك

---

(١) سواك.
(٢) لكن.
(٣) يا ليتنى.

القريب، ثم سواك أى عدلك رجلاً كاملاً. وإنما نسب إليه الكفر لأنه أنكر البعث وشك فيه، أى فأنت بهذا كافر؛ لكن أنا أقر بأن الله هو ربى ولا أشرك به أحدا؛ أما كان الأحق بك أنك حين دخول جنتك ونظرت إلى ما أنعم به عليك قلت هذا ما شاء الله لى ليكون حاملاً لى على شكره، وأقر بأنى لا قوة لى على تحصيل هذا المال إلا بمعونة الله، وبعد هذه النصيحة نبهه إلى أن الله قادر على أن يعطيه خيرا من جنته، بل ويرسل عليها صاعقة من السماء تهلك زرعها وأشجارها، أو يهلكها بإذهاب الماء عنها وجعله يغور فى باطن الأرض حتى يستحيل عليه طلبه، وقد حقق الله عز وجل ما أنذره به المؤمن، فأحاطت المصائب بثمار جنتيه بعدما ظن أنها لا تفنى أبدا. فأصبح يقلب كفيه ندما وأسفا على ضياع ما أنفقه فيها.

والحال أنها ساقطة على عروشها من الخراب، وتمنى أن لم يكن أشرك بربه أحدا، وتمنيه هذا صدر عنه اضطرارا وجزعا مما دهاه وليس عن ندم وتوبة، انظر مثله فى الآية (٦٥) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠، فهو خسر كل شىء، ولم تكن له عشيرة وعزوة ممن استعز بهم وافتخر على المؤمن، لا أحد من هؤلاء ينصره بدفع المصائب عنه من دون الله، فإنه وحده القادر على دفع السوء.

المفردات: ﴿هنالك﴾: أى فى ذلك المقام وهو مقام الشدائد والمحن.

﴿الولاية﴾: النصرة والمعاونة.

﴿عقبا﴾: أى عاقبة.

﴿واضرب لهم.. إلخ﴾: أى واجعل لهم إلخ ﴿مثل الحياة الدنيا كماء إلخ﴾ هذا التشبيه يسميه العلماء تشبيها مركبا، وهو تشبيه مجموعة أشياء بمجموعة أخرى فى معنى يجمعها، والمراد هنا تشبيه حال الحياة الدنيا وما فيها من زخارف ومغريات ثم تزول سريعا بحال

وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ
ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ
ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ
نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ
نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ
جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ
لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟

نبات رواه ماء المطر وصار أخضر بهيجًا، ثم جف وصار هشيما فى أسرع وقت.

﴿هشيما﴾: يابسا متكسرا.

﴿تذروه الرياح﴾: أى تنسفه وتطيره.

﴿نسير الجبال﴾: انظر ما سيحصل للجبال فى شرح الآية (١٠٥) من سورة طه صفحة ٤١٦.

﴿بارزة﴾: أى ليس عليها شىء مما كان يسترها من جبال وأشجار وزروع ومياه.

﴿فلم نغادر﴾: لم نترك.

﴿بل زعمتم﴾: المراد زعم منكروا البعث منكم، لا كل الخلائق الواقفة فى المحشر، لأن منهم مؤمنين، ومثل هذا جاء فى القرآن (قالوا يا موسى اجعل لنا إلها.. إلخ) الآية (١٣٨) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢.

---

(١) الولاية.
(٢) الحياة.
(٣) أنزلناه.
(٤) الرياح.
(٥) الحياة.
(٦) الباقيات.
(٧) الصالحات.
(٨) وحشرناهم.
(٩) خلقناكم.
(١٠) أن لن.
(١١) الكتاب.
(١٢) يا ويلتنا..
(١٣) الكتاب.
(١٤) أحصاها.

﴿ووضع﴾: أى فى اليمين للطائعين والشمال للعاصين كما فى آيتى (١٩، ٢٥) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦٢، ٧٦٣.

﴿الكتاب﴾: هو كتاب الأعمال.

﴿مشفقين﴾: خائفين.

﴿ياويلتنا﴾: كلمة تحسر، انظر الآية (٣١) من سورة المائدة صفحة ١٤٢.

المعنى: ما كان له من يعاونه على النصر، وما كان منتصرا هو بنفسه لشدة ضعفه أمام قدرة الله فى هذا المقام الذى يعجز فيه كل مخلوق عن دفع البلاء. يتضح أن العون النافع لا يكون ثابتا إلا للإله الحق لا يقدر عليه غيره، فهو سبحانه خير لعبده المؤمن من جهة الجزاء الحسن والعاقبة الطيبة.

وبعد ما ضرب سبحانه المثل لحال الكافر الذى أبطرته النعمة، والمؤمن الواثق بربه، أراد أن يضرب مثلا آخر لسرعة زوال الحياة الدنيا وعدم دوام نعيمها فقال: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا﴾ إلخ: أى أجعل أيها النبى لهؤلاء المغرورين بالدنيا صفتها مثلا عجيبا لعلهم يعتبرون، وقل لهم إن حال الدنيا فى بهجتها وسرعة زوالها كحال نبات رواه ماء المطر فاخضر والتف بعضه على بعض وأزهر، ثم لم يمكث طويلا حتى جف وصار هشيما تطير به الرياح فى كل ناصية حتى لا يبقى له أثر، وذلك بقدرة الله دائم القدرة على كل شىء من إيجاد وإفناء.. ثم بين سبحانه بعض زخارف الدنيا التى تفنى سريعا وما يقابلها مما يبقى خالدا فقال سبحانه: المال والبنون التى يفخر بها كفار أمتك هى زينة الحياة الدنيا فقط إذا لم يحولها صاحبها إلى زاد دائم للآخرة، أما أعمال الخير التى تبقى ثمرتها خالدة فى الآخرة فلاشك أنها خير عند الله من جهة الثواب ومن جهة ما يؤمله العاقل ليحيا سعيدا. وحذرهم أيها النبى من الأهوال يوم نسير الجبال الخ. والذى نفهمه من مجموع آيات القرآن أن الجبال تنفصل عن

الأرض ثم تسير فى الجو بسرعة ثم تتساقط فتصير كثيبا مهيلا ثم هباء منبثا كالعهن المنفوش، انظر الآيات (١٠٥) من سورة طه صفحة ٤١٦، و(٨٨) من سورة النمل صفحة ٥٠٥، و(١٠) من سورة الطور صفحة ٦٩٧، و(٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٣، و(١٤) من سورة المزمل صفحة ٧٧٤، و(١٠) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٤، و(٢٠) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧، و(٥) من سورة القارعة صفحة ٨١٩، وكل هذا يحصل يوم القيامة فى زمن لا يعلم حقيقة مقداره إلا الله سبحانه. وترى الأرض الجديدة غير أرض الدنيا ليس عليها شىء مما كان فى الدنيا، انظر الآية (٤٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٧، وحشر الله تعالى الناس جميعا عليها ولم يترك منهم فردا، وعرضوا على ربك صفا أى مصفوفين كما يصف الجند فى العرض لا يحجب أحد غيره، يقول سبحانه لهم: لقد جئتمونا فرادى لاشىء معكم من ولد ولا مال ولا شفيع، عراة كما خلقناكم أول مرة، انظر الآية (٩٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨، وكان الكفار فى الدنيا لم يكتفوا بتكذيب الرسل فى أنهم من عند الله، بل زعموا أن الله لن يجعل لكم موعدا يجمع الناس فيه للحساب، فقالوا وما نحن بمبعوثين، ووضع فى يد كل واحد كتابه، فيفرح المؤمنون ويخاف المجرمون مما فيه ويظهرون الحسرة والندم والدهشة من أنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة من أعمالهم إلا وسجلها.

المفردات: ﴿حاضرا﴾: مكتوبا فى الصحف.

﴿ففسق عن أمر ربه﴾: أى خرج من طاعة أمر ربه.

﴿وذريته﴾: أى أولاده، وقال جماعة المراد أتباعه من الجن والإنس.

﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾: أى لم أحضر إبليس وذريته عندما خلقت السموات والأرض وعندما خلقتهم أى لم أشهد بعضهم خلق بعضهم الآخر.

﴿عضدا﴾: أعوانا..

حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ[١]
اَسْجُدُوا لِأَدَمَ[٢] فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ
عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن
دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ[٣] بَدَلًا ﴿٥٠﴾
۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَٰتِ[٤] وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ
أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ
يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِىَ[٥] الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا
لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا[٦] الْمُجْرِمُونَ
النَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ[٧] لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ
الْإِنسَٰنُ[٨] أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن
يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ

﴿موبقا﴾: اسم مكان من وبق وبقا كفرح فرحا إذا هلك، أى مكان هلاك يشتركون فيه وهو جهنم، انظر الآية (٣٤) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣.

﴿فظنوا﴾: الظن هنا بمعنى اليقين كما فى الآية (٤٦) من سورة البقرة صفحة ١٠، والآية (٢٠) من سورة الحاقة ٧٦٢.

﴿مواقعوها﴾: أى مخالطوها وواقعون فيها.

﴿مصرفا﴾: أى مكانا ينصرفون إليه بعيدا عنها.

﴿ولقد صرفنا فى هذا القرآن﴾: إلخ: تقدم بيانها فى الآية (١٠٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٠، وانظر ما فى صفحة ٣٦٩.

المعنى: ووجدوا ما عملوا مسجلاً فى صحف أعمالهم، ولم يظلم ربك أحدا منهم بزيادة ذنوب لم يعملها. ولما كانت كل هذه المصائب بسبب الخضوع للشهوات التى زينها لهم إبليس وجنوده، أراد سبحانه أن يذكرهم فى هذا المقام بما بين إبليس وبينهم من العداوة لعلهم

---

(١) للملائكة.
(٢) لآدم.
(٣) للظالمين.
(٤) السموات..
(٥) شركائى.
(٦) ورائى.
(٧) القرآن.
(٨) الإنسان.

يحذرونه فقال: ﴿وإذا قلنا﴾ إلخ: أى واذكر لهم أيها النبى وقت أمرنا للملائكة وغيرهم من باب أولى باحترام آدم فأطاع الجميع إلا إبليس، وذلك لأنه لم يكن من جنس الملائكة الذين لا يعصون الله تعالى بل كان من الجن المخلوق من النار؛ لهذا خرج عن طاعة ربه، فهل يصح بعد ذلك أن تتخذوا إبليس وذريته يا أولاد آدم أنصارا لكم بدلا منى وأنا خالقكم، والحال أنهم لكم أعداء.. قبح هذا البدل الذى فضلتموه على المنعم عليكم، انظر قصة سجود الملائكة إلا إبليس فى الآية (٣٤) من سورة البقرة صفحة ٨. وما قيمة إبليس وذريته مع أنى أنا وحدى الذى خلقت السموات والأرض ولم أحضر واحدا منهم ليساعدنى، ولا أحضرت واحدا منهم عند خلق زميله الآخر لأنى لا أحتاج إلى أعوان فى ذلك، فضلا عن المضلين المفسدين، والمراد أن إبليس لا فضل له عليكم فكيف تطيعونه. وذكرهم يوم يقول الله سبحانه للمشركين نادوا الذين ادعيتم فى الدنيا أنهم شركائى فى العبادة وزعمتم أنهم يشفعون لكم، واطلبوا منهم أن يمنعوا عنكم عذاب جهنم، فنادى المشركون ما كانوا يعبدونهم ليغيثوهم فلم يجبهم ولم يغثهم أحد، وجعلنا بين الكفار وآلهتهم مكانا يشتركون فى الهلاك فيه وهو جهنم.

ولما رأى المجرمون النار أيقنوا أنهم واقعون فيها ولا مفر لهم منها.. ولقد نوعنا العبر على صور مختلفة فى هذا القرآن قطعا لأوهامهم الباطلة، ولكن كفار مكة لم ينقطعوا عن الجدل الباطل؛ لأن هذا طبع مريض القلب المكابر. وما منع هؤلاء المشركين من أن يؤمنوا بما جاء به رسولنا حين جاءهم القرآن الهادى للحق، ومن أن يستغفروا ربهم بالتوبة عما سبق منهم، إلا تعنتهم وطلبهم من الرسول أن يأتيهم بأحد أمرين:

المفردات: ﴿سنة الأولين﴾: وهى إهلاكهم دفعة واحدة.

﴿قبلا﴾: جمع قبيل بمعنى نوع، انظر صفحة ١٨١، أى قبيلا بعد قبيل.

﴿ليدحضوا﴾: ليبطلوا ويزيلوا..

﴿أكنة﴾: جمع كنان بكسر أوله وهو الغطاء.

سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ
الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا
هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ
عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ
فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ
لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم
مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ
أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩)
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ
أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا

﴿وقرا﴾: صمما..

﴿موئلا﴾: هو اسم مكان من وأل إليه يئل إذا لجأ إليه أى ملجأ.

﴿لمهلكهم﴾: المهلك مصدر بمعنى الهلاك جاء على خلاف القياس كمرجع فى الآية (٥٥) من سورة آل عمران صفحتى ٧١، ٧٢.

﴿لفتاه﴾: أى خادمه يوشع بن نون من نسل يوسف عليه السلام.

﴿لا أبرح﴾: لا أزال، والمراد لا أزال أسير.

﴿مجمع البحرين﴾: هو المكان الذى يجتمع فيه بحران ويصيران بحرا واحدا.

﴿حقبا﴾: هو اسم مفرد بمعنى المدة الطويلة وجمعه أحقاب كعنق وأعناق.

﴿حوتهما﴾: الحوت هو نوع من السمك.

المعنى: ولم يمنع المشركين من الإيمان إلا اشتغال قلوبهم بالتعنت الذى حملهم على طلب أحد أمرين: إما صاعقة تفنيهم جميعا كما فى الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، وإما أنواع من العذاب والبلاء يتلو بعضها بعضا وهم موجودون فى الدنيا، انظر الآية (٩٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، والآية (٣٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤، والآية (٧١) من سورة النمل صفحة ٥٠٣، والآية (٢٨) من سورة السجدة صفحة ٥٤٨، والآية (٢٩) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٦، ٥٦٧. ولما كان مجىء ذلك أمره مفوض إلى الله تعالى لا إلى رسول ولا غيره قال: وما نرسل المرسلين إلا لبشارة المؤمنين بالجنة وتخويف الكافرين بالعذاب، ولم نرسلهم ليقترح عليهم المعاندون آيات معينة، ويطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه. هذا هو الواقع، ولكن

---

(١) ويجادل. (٢) بالباطل. (٣) آياتى. (٤) بآيات. (٥) آذانهم. (٦) أهلكناهم. (٧) لفتاه.

الذين كفروا يعرضون عن الجنة ويجادلون بالباطل، كاقتراح معجزات معينة، وقولهم للرسل ما أنتم إلا بشر مثلنا، والله لا يرسل إلا ملائكة وغير ذلك، ليبطلوا بهذا الجدل الحق، واتخذوا آياتى القرآنية وما أنذرهم به من العذاب سخرية، فيقولون ما هذا القرآن إلا أكاذيب الأولين، ولو نشأ لقلنا مثله، وبهذا ظلموا أنفسهم حيث حرموها من السعادة لأنه لا أحد أظلم ممن وعظ بآيات الله فأعرض عنها ونسى ما عمل من المعاصى ولم يتفكر فى عواقبه. وسبب ذلك أنهم لما أفسدوا فطرهم بالشهوات عاقبناهم بالطمس على قلوبهم فلا تعقل، وعلى آذانهم فلا تسمع سماع فهم، انظر الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤، والآية (١٤) من سورة المطففين صفحة ٧٩٧، وكان أثر كل هذا أنك إن تدعهم أيها النبى إلى الهدى فلن يهتدوا إذا كان هذا حالهم أبدا. ولا يغتر أحد بتأخير عذاب كفار مكة لأن الله سبحانه قدر أن هذه آخر الأمم، فأفسح المجال لمن يتوب فيغفر له، ووسع الباقى برحمته التى وسعت كل شىء حتى الكافر كما فى الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧، ولو آخذهم بذنوبهم لعجل لهم عذاب الإفناء كغيرهم، ولكنه تركهم لموعد يذوقون فيه أشد العذاب وهو يوم القيامة، ولا يجدون ملجأ يحفظهم منه، وإمهالهم رحمة منه سبحانه بأمة محمد كلها، أما أهل تلك القرى الماضية من عاد وثمود وغيرها فإنا أهلكناهم جميعا لما ظلموا بتكذيب رسلهم، وجعلنا لهلاكهم موعدا لا يختلف، فكذلك سيكون عذاب هؤلاء. واذكر أيها النبى وقت قول موسى نبى الله لفتاه يوشع لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين، قيل عند بوغاز باب المندب جنوب اليمن وقيل عند جبل طارق. والصحيح أنه لم يرد عن النبى ﷺ ما يبينه ولو كان لبيانه دخل فى الاعتبار بالقصة لذكره، أو أسير زمنا طويلا حتى لا أعد مقصرا فى طلبه. فلما بلغا المجمع الذى هو بين البحرين نسيا حوتهما إلخ. وسبب ذكر هذه القصة هنا أنه سبحانه بعد ما ذكر أن من أسباب كفر قريش تكبرهم على الفقراء المؤمنين واستعظامهم أن يجمعهم مجلس واحد كما فى الآية (٢٨) من هذه السورة صفحة ٣٨٤، أرشدهم أولاً بصاحب الجنتين الغنى الكافر وصاحبه الفقير المؤمن وعاقبه كل منهما. ثم بين لهم أن زينة الدنيا لا قيمة لها بجانب الأعمال الصالحات.

ثم ذكرهم أيضا بما جره الكبر على إبليس حين منعه من تعظيم آدم ظنا منه أنه خير منه، ثم أيد ذلك أيضا بقصة موسى وصاحبه ليبين لكفار قريش أن موسى مع كونه نبيا ورسول الله لبنى

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ[1]
ءَاتِنَا[2] غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ
أَرَءَيْتَ[3] إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ
وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ[4] إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ[5] أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ
ءَاثَارِهِمَا[6] قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ[7]
رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ[8] مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ
هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ
إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ
مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ
صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا
تَسْـَٔلْنِى[9] عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾

إسرائيل لم يأنف أن يتعلم ممن هو أقل منه ما خفى عليه، وهذا أكبر دليل على أن التواضع من أقوى أسباب الفلاح، وأن الكبر من أقوى أسباب الهلاك. أما سبب ما حدث لموسى فنوضحه فيما يأتى.

المفردات: ﴿سربا﴾: السرب هو المكان الذى فيه انحدار.

﴿نصبا﴾: تعبا.

﴿أرايت﴾: تقدم فى الآية (٤٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ ومعناها أخبرنى، وفى الكلام استفهام مقدر، والأصل أخبرنى ما الذى شغلنى حين أوينا إلى الصخرة حتى نسيت الحوت.

﴿إذ أوينا﴾: أى التجأنا إليها لنستريح.

﴿وما أنسانيه إلا الشيطان﴾: تقدم فى الآية (٦٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٢، ١٧٣ حكمة نسبه مثل ذلك للشيطان.

﴿أن أذكره﴾: مصدر مئول بدل الضمير العائد على الحوت، والأصل ما أنسانى تذكره إلا الشيطان.

﴿عجبا﴾: هذا مبدأ كلام أى أنى أعجب. من ذلك عجبا. ﴿نبغ﴾: أى نطلب.

﴿قصصا﴾: يقصان قصصا أى يتبعانه اتباعا. ﴿عبدا من عبادنا﴾: التحقيق أنه نبى بدليل قوله ﴿وعلمناه﴾ وقول موسى ﴿تعلمنى مما علمت﴾ وقوله ﴿ما فعلته عن أمرى﴾ أى بل بوحى.

﴿رحمة﴾: هى النبوة انظر الآية (٣٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠.

---

(١) لفتاه. (٢) آتنا. (٣) أرأيت.
(٤) أنسانيه.. (٥) الشيطان. (٦) آثارهما.
(٧) آتيناه. (٨) وعلمناه. (٩) تسألنى.

﴿من لدنا﴾: من عندنا. ﴿رشدًا﴾: أصله مصدر كالبخل وجعل وصفا مبالغة أى علمًا ذا رشد، والرشد إصابة الخير. ﴿تحط به خبرا﴾: الخبر: المعرفة، والأصل ما لم يحط به خبرك.

﴿أحدث لك منه ذكرا﴾: أى ابتدئك أنا بذكره أى ببيانه.

المعنى: قال ابن جرير: إن موسى عليه السلام جرى بخاطره يوما أنه ليس على وجه الأرض فى زمنه من هو أعلم منه، فأراد سبحانه أن يرشده إلى أن التواضع خير، فأوحى إليه أن فى زمنك من يعلم ما لاتعلم يا موسى، فطلب موسى منه تعالى أن يجمعه به ليزداد علما وزيادة العلم مطلوبة من كل نبى انظر ما قيل لنبينا ﷺ فى الآية (١١٤) من سورة طه صفحة ٤١٧، فأخبره سبحانه أنه موجود على ساحل البحر، ولم يعين له مكانه بالتحديد حتى يرى أن العلم مما ينبغى استسهال الصعب فى الحصول عليه، وقال له خذ معك حوتا ففى المكان الذى تفقد فيه هذا الحوت تجد هذا العالم، فأمر موسى فتاه بحمل الحوت، وقال سنستمر سائرين حتى نبلغ آخر هذا الساحل عند التقاء هذا البحر ببحر آخر، فإن لم أجد هذا الرجل فسأسير دهرا طويلا حتى أجده، ف ساراً. فلما بلغا مجمع البحرين ناما فى ظل صخرة ثم بعد استيقاظهما تابعا السير ونسيا الحوت مكانهما، فسقط فى البحر، واتخذ فيه طريقا منحدرا إلى أسفل الماء، فلما جاوزا ذلك المكان بمدة أحسا فيها بالجوع والتعب قال موسى لفتاه: آتنا ما نتغذى به، وهذا يدل على أن هذا الطلب كان وسط النهار، لقد لقينا من سفرنا هذا تعبا. فلما تفقد الفتى المتاع اكتشف فقد الحوت فقال متأسفا: أخبرنى يا سيدى عما دهانى وشغلنى حتى جعلنى أنسى الحوت، وما أنسانى تذكره فى حينه إلا الشيطان ولابد أن يكون الحوت سقط فى البحر عندما كنا نياما، وإنى لأعجب من غفلتى هذه عجبا شديدا. قال موسى ذلك الذى ذكرت من مكان ضياع الحوت هو ما نطلبه، فرجعا فى الطريق الذى جاءا منه يتبعان أثرهما اتباعا حتى وصلا الصخرة فوجدا عبدا من عبادنا الصالحين أعطيناه وحيا ونبوة من فضلنا وعلمناه من عندنا أيضا علما غزيرا من بعض الأسرار الخفية التى لا يلزم أن يتعلمها الرسول؛ فالرسول يجب أن يعلم العقائد والشرائع التى يبلغها للناس، ولذا قال رسولنا ﷺ: (أنتم أعلم بأمور دنياكم) قال له موسى هل ترضى أن أسير معك على أن تعلمنى مما علمك الله من العلم الذى يوصل للرشد؟ قال إنك لن تستطيع معى صبرا. وبين السبب

فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ
إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا
نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ
إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا(١) فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ
لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ
بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى(٢) قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾
فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟
أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ
قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ(٣) عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى
وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

بقوله: وكيف تصبر وأنت رسول على أمور ظاهرها لا يتفق وما جئت به إلى الناس أحيانا، والرجل الصالح لا يسكت على ما يراه مخالفا؟ قال موسى: ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا تأمرنى به. قال فإن اتبعتنى فلا تفاتحنى بالسؤال عن شيء خفى عليك، بل اسكت حتى ابتدئ بذكره لك مبينا وجه الصواب فيه.

المفردات: ﴿إمرا﴾: عظيما فى بشاعته من قولهم أمر الأمر بوزن تعب إذا عظم.

﴿لا ترهقنى﴾: أى تحملنى ما لا أطيق.

﴿من أمرى﴾: وهو اتباعى لك.

﴿عسرًا﴾: صعوبة.

﴿زكية﴾: طاهرة من الذنوب لأنه صغير لا ذنب عليه فى شيء مما يفعل. ﴿نكرا﴾: منكرا.

﴿استطعما أهلها﴾: طلبا منهم طعاما.

وكان الأصل أن يقول حتى إذا أتيا أهل قرية استطعماهم ولكنه أظهر فى مقام الإضمار للتحقير والتبشيع، وقال بعض العلماء أنهما لما وصلا القرية وجدا فى طريقهما بعض أهلها ولما طلبا منهم طعاما وامتنعوا مروا على جميع أهل القرية ممن يرجى منهم إطعام الغريب فامتنعوا أيضا. فالأهل الأول غير الثانى.. والغرض من حكاية ذلك أن صاحب موسى رغم ما قوبل به هو وموسى من الجفاء وعدم المروءة فإنه لم يمنعه ذلك من إصلاح الفاسد ومقابلة

(١) غلاما.
(٢) تصاحبنى.
(٣) لاتخذت.

الإساءة بالإحسان. وجواب إذا فى قوله ﴿حتى إذا أتيا إلخ﴾ هو قوله الآتى ﴿قال لو شئت لاتخذت﴾.. إلخ والكلام من أول قوله ﴿استطعما﴾ إلى آخر قوله ﴿فأقامه﴾ كله صفة لقرية.

﴿يضيفوهما﴾: ينزلهما عندهم ضيوفا.

﴿يريد أن ينقض﴾: المراد يقرب من السقوط. والعرب تستعمل الإرادة من غير العاقل بمعنى القرب.

المعنى: فسارا حتى وجدا سفينة فركباها، وفى أثناء سيرها أحدث فيها الرجل الصالح خرقا يجعلها معيبة، وإن كان لا يغرقها فعلا، لكنه قد يعرضها للغرق. عند ذلك قال موسى: هل خرقتها قاصدا إغراق أهلها؟ إذن أنت فعلت أمرا خطيرًا.. قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا؟ قال موسى: لا تؤاخذنى بما نسيت من وصيتك ولا تكلفنى مشقة فى اتباعى لك، بل سهلها علىَّ بالسماح ثم سارا بعد نزولهما من السفينة حتى وجدا غلاما فقتله صاحبه، قال موسى منكرا: كيف تقتل نفسا طاهرة من غير أن تكون قد قتلت نفسا محرمة؟ لقد فعلت شيئا منكرا. فكرر عليه اللوم السابق مع زيادة ﴿لك﴾ للفت نظره لأنه قارب على مقاطعته.. فأدرك موسى ذلك وقال: إن سألتك عن شىء بعد هذه المرة فلا تجعلنى لك صاحبا، لأنك قد بلغت الغاية التى تعذر بها فى فراقى.

ثم سارا حتى أتيا أهل قرية طلبا من أهلها طعاما فكانوا بخلاء حتى بلغت شناعة بخلهم أنهم رفضوا حتى نزولهما عندهم ولو بدون طعام، وهذا منتهى الدناءة، لأن الكريم قد يعجز عن طعام ولكن لا يمكن أن يعجز عن إيواء. وسارا فى القرية فوجد الرجل الصالح حائطا مائلا للسقوط فأصلحه حتى أقامه كما كان، وكان قبيح صنع هؤلاء الناس سببا فى قول موسى منكرا عمل معروف فى هؤلاء اللئام: لو شئت أخذ أجر على إصلاح هذا الحائط لأخذته. قال: هذا الاعتراض الأخير هو سبب الفراق بينى وبينك حسب العهد الذى قطعته أنت على نفسك، وسأخبرك بوجه هذا التصرف الذى خفى عليك ولم تستطع صبرا على السكوت عليه.

المفردات: ﴿مساكين﴾: وصفهم بالمسكنة مع ملكهم سفينة لأنه ليس لهم مورد رزق غيرها..

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ(١) يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ
أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾
وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ(٢) فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا
طُغْيَٰنًا(٣) وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ
زَكَوٰةً(٤) وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ(٥)
يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَٰلِحًا(٦) فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا
رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ
تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ(٧) عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ
قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ
وَءَاتَيْنَٰهُ(٨) مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ

﴿يعملون فى البحر﴾: المراد يؤجرونها للعمل.

﴿وراءهم ملك﴾: تطلق (وراء) على خلف وهو كثير فى القرآن، وعلى أمام كما فى آيتى (١٦، ١٧) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٢ وهو المراد هنا .

﴿يرهقهما﴾: يحملهما بمشقة.

﴿طغيانا﴾: تجاوزا حد الشرع.

﴿زكاة﴾: طهارة نفس وصلاح.

﴿رحما﴾: عطفا ورحمة.

﴿يبلغا أشدهما﴾: يبلغا سن الرشد .

﴿ذى القرنين﴾: يرى بعضهم أنه الإسكندر المقدونى، ويرى آخرون أنه من حمير باليمن لأن لقب (ذى كذا) غير معروف عند غيرهم كذى نواس وذى يزن، وسمى ذا القرنين لأنه بلغ مطلع قرنى الشمس من المشرق والمغرب، وسنعرض لما حققه العالم الكبير المرحوم (أبو الكلام أزاد) وزير معارف الهند سابقا وذلك عند شرح معنى قوله تعالى ﴿ويسألونك عن ذى القرنين﴾ فقد حقق رحمه الله بما لا يدع مجالا للشك أن (ذا القرنين) هو الملك الفارسى الصالح (قورش)، ورد بقوة القول بأنه الإسكندر المقدونى.

﴿أتلو عليكم منه ذكرا﴾: أتلو عليكم من بعض أخباره قرآنا تعلمون منه حاله.

﴿مكنا له فى الأرض﴾: أى مكنا له التصرف فى الأرض.

---

(١) لمساكين. (٢) الغلام. (٣) طغيانا.
(٤) زكاة. (٥) لغلامين.. (٦) صالحا.
(٧) ويسألونك. (٨) وآتيناه.

﴿من كل شىء سببا﴾: أى أعطيناه من كل شىء أراده لتحقيق أغراضه طريقا.

﴿فأتبع سببا﴾: أى سلك طريقا يوصله من علم أو صنعة أو غير ذلك.

﴿مغرب الشمس﴾: المراد منتهى الأرض من جهة المغرب على شاطئ المحيط الأطلسى لأنه لم يكن معروفا أن وراءها شيئا.

﴿عين حمئة﴾: أى ذات حمئة وهى الطين الأسود.

المعنى: أما السفينة فكانت لمحاويج يؤجرونها للناس للحمل عليها فى البحر، فأردت أن أحدث فيها عيبا لا يرغب الظالم فيها، لأنى أعلم أن أمامهم ملكا يأخذ كل سفينة تعجبه غصبا، وهم ضعاف لا يستطيعون دفع ظلمه. وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين وهو مطبوع على الكفر، فخفنا لو تركناه وقوى أن يحملهما على الطغيان وتجاوز الحدود وعلى الكفر بالله بعد الإيمان، لأن شدة محبتهما له مع شدة رغبته فى الكفر قد توقعهما فيه، فأردنا أن ندفع شره عنهما، ورجونا أن يبدلهما ربهما ولدا غيره يكون خيرا منه صلاحًا وطهارة نفس، وأقرب عطفا ورحمة بأبويه. وأما الجدار فكان لصغيرين يتيمين فى المدينة، وكان تحته كنز لهما تركه أبوهما وكان رجلا صالحا، فأراد ربك حفظه لهما رعاية لحقهما وإكراما لصلاح أبيهما الذى أورثهما الصلاح والتقوى، فأمرنى بإقامة الجدار حتى يبلغا رشدهما ويستخرجا كنزهما، ورحمهم سبحانه بذلك رحمة واسعة عظيمة منه.. وما فعلت كل شىء مما رأيت عن أمرى ومن تلقاء نفسى، بل عن أمر ربى وبوحى منه مبنى على أساس ارتكاب أخف الضررين والمعاملة بالأحسن... ذلك الذى قلته لك هو تأويل الأفعال التى لم تطق الصبر عليها. وكان اليهود يحاولون إحراجه ﷺ، فيوعزون إلى مشركى مكة أن يسألوه ﷺ عن الأشياء الغريبة المجهولة عند الناس إلا قليلا منهم لعله يخطئ فيجدون منفذا للطعن فيه. من ذلك أنهم قالوا سلوه عن ذى القرنين وماذا حصل منه، فقال:﴿ويسألونك عن ذى القرنين﴾ إلخ، وهل كان ذو القرنين رجلا صالحا فقط أو نبيا كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿قلنا ياذا القرنين﴾ الآتى فى الآية (٨٦)، قل لهم أيها النبى سأتلو عليكم من أخباره قرآنا، ثم بين ذلك بقوله: ﴿إنا مكنا له فى الأرض﴾ أى مكناه من التصرف فى الأرض، وآتيناه من كل شىء يحتاجه فى أغراضه ومقاصده ما يوصله إليها من علم وقدرة ومعدات فعمل به، وسار غربا حتى إذا بلغ منتهى

الأرض من جهة المغرب، ووقف على ساحل البحر، وجد الشمس أى رآها فى رأى العين لا فى الحقيقة كأنها تغرب فى طين أسود؛ لأن لون ماء البحر أزرق يظهر من بعيد كأنه أسود، أما عن (ذى القرنين) فاعلم وفقنى الله وإياك أن كلا من المفسرين والمؤرخين لم تضطرب آراؤهم وتتشعب أقوالهم مثل اضطرابها وتشعبها فى تعيين من هو ذو القرنين الذى جاء ذكره فى القرآن، حتى جاء المرحوم (أبو الكلام آزاد) وزير معارف الهند المتوفى سنة ١٩٥٨ ميلادية، ووجد أمامه هذا البحر الخضم من الآراء، ولمح من خلالها أنه ليس لرأى منها سند قوى تطمئن إليه النفوس، فأجهد نفسه باحثا عن الصواب، فهداه الله سبحانه إلى الخطة المثلى، فبدأ بجمع خيوط المسألة من هنا، ومن هناك، وأخذ يتأملها حتى وصل للحق الذى لا ريب فيه، فكان أول ما فكر فيه هو الوصول إلى من هم هؤلاء السائلون عن ذى القرنين؟ ليتخذ من حالهم الخيط الأول الموصل للحل، فوجد أنهم هم اليهود أو مشركو مكة، بإيعاز من اليهود، فأخذ طريقه فى البحث عن تاريخ اليهود فى هذه الفترة من الزمن ليصل إلى سبب سؤالهم هذا، فقرأ كل كتبهم المقدسة فسرعان ما وضع يده على هذا الخيط الأول، ففى سفر (دانيال النبى) إصحاح ٨ آية (١)، وفى سفر (النبى يشعياه) إصحاح ٤٤ آية (٢٥)، وفى سفر (عزرا) الإصحاح الأول من أول آية فيه إلى آخره، جاء فى هذه الأسفار الحديث عن ملك فارسى عادل اسمه (كورش) أو (قورش) وأنه أنقذ اليهود فى بابل من الأسر الذى أوقعهم فيه (بختنصر)، ودام سبعين عاما، ورد إليهم كثيرا مما سلب منهم، وأرجعهم إلى بيت المقدس، فهذا يدل على عناية اليهود بهذه الشخصية. ثم اتجه بحث أبو الكلام بعد ذلك إلى تاريخ فارس وما كتبه المؤرخون قديما خصوصا اليونان عن هذا الملك العادل، فوجد فيها ما يؤيد كتب اليهود المقدسة. وفى كتابه (إغاثة اللهفان) يقول ابن القيم: ومن ملوك اليونان اسكندر المقدونى. وهو (ابن فيلبس) وليس هو ذا القرنين الذى قص الله تعالى نبأه فى القرآن، بل بينهما قرون كثيرة، وبينهما فى الدين أعظم تباين؛ ولذا قال أبو الكلام إن سيرة (قورش) و(اسكندر المقدونى) على طرفى نقيض، فبينما تنادى صفات ذى القرنين بالصلاح والتقوى، نجد سيرة إسكندر تثبت أنه كان جبارا قاسيا فى معاملة المغلوبين، وأنه طالما أتلف جميع مقدساتهم، وأنه كان ماجنا حتى أنه مات عقب حفلة شراب. ومن هنا فقد أكد أبو الكلام بما لا يدع مجالا للشك أن ذا القرنين المذكور فى هذه الآية هو الملك الفارسى الصالح (قورش).

وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا[1] ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ
وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ
نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا
مَنْ ءَامَنَ[2] وَعَمِلَ صَٰلِحًا[3] فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ
لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا
بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل
لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا
لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ
ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا[4] ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ
بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ

المفردات: ﴿عندها﴾ المراد قريبا من تلك العين على الشاطئ.

﴿قوما﴾: قيل كانوا كفارا يعيشون على الصيد وما يلفظه البحر.

﴿تتخذ فيهم حسنا﴾: المراد تتخذ فى معاملتهم طريقة حسنى.

﴿نكرا﴾: المراد منكرا غير معروف عند الناس. فالمعنى أنه شديد لم يعهد مثله.

﴿من أمرنا يسرا﴾: مما نأمره به تكليفا سهلا ذا يسر لا مشقة فيه.

﴿ثم أتبع سببا﴾: أى أتبع طريقا عكس الأول يوصله إلى المشرق.

﴿مطلع الشمس﴾: أى المكان الذى تطلع عليه أولاً من الأرض المسكونة.

﴿كذلك﴾ أى أمر ذى القرنين كما ذكرنا لك أيها النبى.

﴿بين السدين﴾: يطلق السد على الجبل، وعلى كل ما يحجز بين شيئين، والمراد هنا الأول؛ لأن الجبل يسد فجاجا من الأرض، كان فى مكان يفصل بين المغول والتتر فى الشمال وبين أهل الجنوب فى آسيا..

﴿من دونهما﴾: أى من جهة الجنوب. ﴿يأجوج﴾: اسم لقبيلة همجية هى التتر.

﴿مأجوج﴾: اسم لقبيلة أخرى همجية أيضا هى المغول، وكانتا من أصل واحد يسكنون الجزء الشمالى من آسيا ويلحق بهما كل من كان مثلهما.

---

(١) ياذا. (٢) آمن.
(٣) صالحا. (٤) ياذا.

﴿خرجا﴾: أى جعلا من أموالنا نتبرع به لك.

المعنى: ووجد قريبا من مغرب الشمس قوما كفارا فقال الله تعالى له: ياذا القرنين نبههم لضرر الشرك بربهم، ثم أنت بعد ذلك مخير بين أن تعذب من صمم على شركه بالقتل وبين أن تحلم عليهم وتكرر وعظهم المرة بعد المرة.

قال ذو القرنين لبعض خاصته: أما من ظلم نفسه ولم يقبل دعوتى وأصر على ما كان عليه من الشرك الذى هو الظلم العظيم فسوف نعذبه بالقتل ثم يرجع فى الآخرة إلى ربه فيعذبه عذابا شديدا جدا فى جهنم، وأما من آمن وعمل صالحا فله التوبة الحسنى وسنعلمه ما يسهل عليه الطاعة.

ثم سلك ذو القرنين طريقا يوصله إلى المشرق حتى إذا بلغ الموضع الذى تشرق عليه الشمس أولاً من الأرض وجدها تطلع على قوم عرايا كما هو الحال الآن فى بعض بلاد السودان وليس لهم بيوت مبنية. وأمر ذى القرنين وهؤلاء القوم هو كما أخبرناك أيها النبى، أى فلا تعجب. وقد أحطنا بما لدى ذى القرنين من الجنود والعدة علما تعلق بظاهر أمره وخافيه. والمراد أن ما عنده من الاستعداد بلغ كثرة لا يعلمها غيره تعالى.

ثم سلك ذو القرنين طريقا ثالثا مقاطعا لطريقى المغرب والمشرق متجها نحو الشمال فسار فيه، حتى إذا بلغ بين الجبلين المعهودين وجد من دونهما أمة من الناس قليلى الفطنة يصعب التفاهم معهم قالوا بواسطة تراجمة ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج القاطنين وراء الجبلين مفسدون فى أرضنا عندما يغيرون علينا بالقتل والسلب والتخريب، فهل ترضى أن نجعل لك جعلا من أموالنا نظير أن تجعل بيننا وبينهم سدا يمنعهم من الوصول إلينا.

قال ذو القرنين: ما جعلنى ربى فيه مكينا من سعة الملك والسلطان ووفرة العدد والمال خير مما تعرضون على من الخراج، وسأعمل ما ينقذكم من شرهم لوجه الله تعالى

فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي[1]
زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا
حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ[2] أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾
فَمَا اسْطَٰعُوٓا[3] أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَٰعُوا[4] لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾
قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّآءَ
وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ
يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ[5] جَمْعًا ﴿٩٩﴾
وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ[6] عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ
كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي
مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ[7]
نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا[8] ﴿١٠٣﴾

المفردات: ﴿ردما﴾: الردم السد بالحجر وغيره، والمراد هنا: المبنى بالحجر.

﴿زبر الحديد﴾: جمع زبرة بضم أوله وهى القطعة من الحديد.

﴿الصدفين﴾: تثنية صدف بفتحتين وهوجانب الجبل.

﴿قطرا﴾: هو النحاس المذاب.

﴿يظهروه﴾: أي يعلو فوق ظهره بالصعود عليه.

﴿دكاء﴾: أرضا مدكوكة مستوية مع غيرها.

﴿نزلا﴾: أصل النزل المكان الذى ينزل فيه الضيف لاكرامة كما سيأتى فى الآية (١٠٧) الآتية صفحة ٣٩٥، والتعبير به هنا للتهكم بهم.

﴿الأخسرين﴾: جمع أخسر وهو ما اشتدت خسارته.

المعنى: فأعينونى بما تستطيعون من عمال وصناع وأحجار وحديد أجعل بينكم وبينهم سدا قويا، ثم ذكر بعض تلك القوة التى طلبها بقوله: آتونى قطع الحديد، فوضعها بين حجارة بها ثقوب، ووضع معها بعض الخشب حتى إذا ساوى بين طرفى الجبلين وسد الفجوة التى بينهما

(١، ٢) آتونى.
(٣) اسطاعوا.
(٤) استطاعوا.
(٥) فجمعناهم.
(٦، ٧) للكافرين.
(٨) أعمالا..

التى كانوامعرضين منها للخطر وضع النار والمنافيخ وقال انفخوا فى الأكوار بكثرة، فنفخوا حتى أصبح الحديد كالنار ، قال آتونى نحاسا مذابا أفرغه عليه ليدخل بين فجواته ويغطى ظاهره فلا يتآكل من عوامل الجو. فلما تم ذلك عجز يأجوج ومأجوج عن استعلاء ظهره أو نقبه.

وبعد ذلك قال هذا السد والقدرة على إنشائه رحمة من ربى بعباده الضعفاء، وسيستمر هكذا حتى يأتى الوقت الذى وعد الله فيه بهدمه، فإذا جاء سبحانه بأسباب يهلمها هو خَرَّ مدكوكا مستويا بالأرض، ووعده حق لابد من تحققه. وقد روى البخارى عن السيدة زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ أنه دخل عليها يوما فزعا يقول: (لاإله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب! فتح اليوم من سد يأجوج ومأجوج جزء صغير!) فقلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال: (نعم إذا كثر الفساد). وقد اتسع شيئا فشيئا حتى فتح عن أخره فى القرن السابع الهجرى، وخرج جنكيز خان وخرَّبَ كثيرا من البلاد، وتبعه هولاكو الذى خرَّب بغداد وبلاد الفرس والشام حتى تفرق مُلك المسلمين شَذَرَ مَذَرَ. ثم قال سبحانه: (وتركنا بعض الخلق يموج فى بعض من الاضطراب والخوف، وننفخ فى الصور لقيام الساعة فنجمع الجميع للحساب والجزاء جمعا لا شك فيه، وأبرزنا جهنم يومئذ للكافرين إبرازا ظاهرا، انظر الآية (٩١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥، الذى كانت أعينهم فى غطاء أبعدهم عن النظر فى آياتى التى تذكرهم بوجودى وتوحيدى، وكانوا لشدة إعراضهم كأنهم صم لا يستطيعون سماع كتابى.. ثم أنكر عليهم موبخا بقوله: (أفحسب) إلخ أى ظن هؤلاء الكفار أن اتخاذهم عبادى كالملائكة والمسيح وعزير أولياء لهم من دونى ينفعهم؟ كلا فلن ينقذوهم من عذابى لأنى أعددت لهم جهنم مكانا ينزلون فيه. ولما كان منشأ الخطر على هؤلاء هو ظنهم الباطل أنهم على صواب فى توسلهم لله تعالى ببعض خلقه كما فى الآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦، وأن ذلك ينفعهم مهما حصل منهم من عصيان، نبه على ذلك بقوله: قل أيها النبى هل أنبئكم أيها الناس بأشد الناس خسرا فى أعمالهم.

الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ[1] الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ[2] رَبِّهِمْ
وَلِقَآئِهِۦ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ[3] فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ[4]
وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوٓا
ءَايَٰتِي[5] وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّٰلِحَٰتِ[6] كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ[7] الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾
خَٰلِدِينَ[8] فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ
الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ[9] رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ
كَلِمَٰتُ[10] رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠
بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ[11] فَمَن
كَانَ يَرْجُوا[12] لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا[13] وَلَا يُشْرِكْ
بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

المفردات: ﴿ضل سعيهم﴾: أى ضاع عبثا، انظر الآية (٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥، الآية (٣٠) من سورة يونس صفحة ٢٧١.

﴿ولقائه﴾: المراد كفروا بالآخرة على الوجه الصحيح كما تقدم فى الآية (٢٩) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٤، ٢٤٥.

﴿حبطت﴾: بطلت وذهب نفعها.

﴿فلا نقيم لهم﴾: الخ: كناية عن احتقارهم وعدم اعتبارهم، فلا ينافى ما فى الآيات (٩) من سورة الأعراف صفحة ١٩٣، و(٤٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥، و(٨) من سورة القارعة صفحة ٨١٩.

﴿هزوا﴾: أى مهزوءا بها، من ذلك ما فى (١٢) من سورة المطففين صفحة ٧٩٧.

---

(١) الحياة.
(٢) بآيات.
(٣) أعمالهم.
(٤) القيامة.
(٥) آياتى.
(٦) الصالحات.
(٧) جنات.
(٨) خالدين.
(٩) لكلمات.
(١٠) كلمات.
(١١) واحد.
(١٢) يرجو.
(١٣) صالحا.

﴿الفردوس﴾: اسم لجزء من الجنة ممتاز.

﴿حولا﴾: تحولا.

﴿لكلمات ربى﴾: المراد بها هنا أدلة وجوده تعالى وكماله وحكمته.

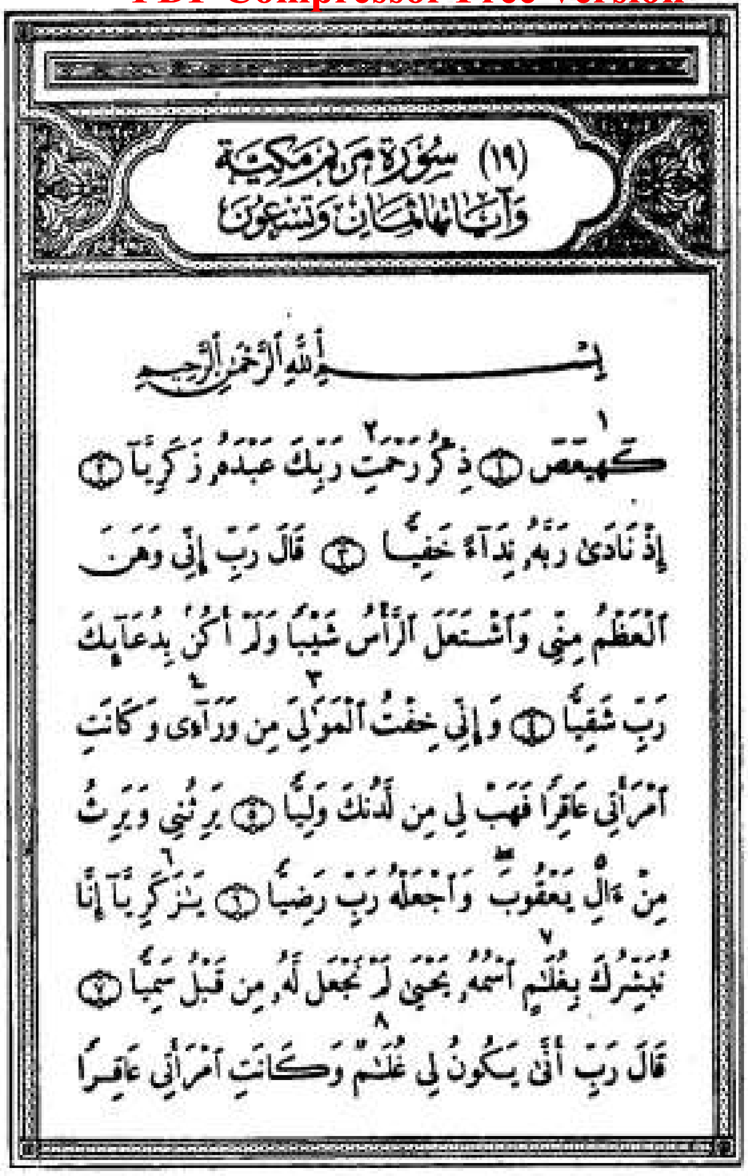
﴿مددا﴾: أى زيادة ومعونة.

المعنى: الأخسرون أعمالا هم الذين ضاع عليهم عملهم فى الدنيا فى حال أنهم يظنون أنهم يعملون حسنا، انظر الآية (٣٠) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦، والآية (٣٧) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١. وهذه الآية تجر بذيلها إلى شقاء كل من يفعل ما لم يأذن به الله من العبادات غافلا عن نهيه تعالى عن ذلك، انظر الآية (١٥٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩. هؤلاء الأخسرون هم الذين كفروا بآيات الله المنزلة وبراهينه المنبثة فى الكون الدالة على وحدانيته، وكفروا باليوم الآخر؛ وهذا الكفر هو السبب فى إبطال أعمالهم التى كانوا يظنونها تنفعهم كصلة الرحم وبر الفقير، فلا نعتبرهم يوم القيامة ولا ننظر إليهم.

ثم بيَّن مآلهم بسبب هذا الكفر فقال: ذلك الموقف القبيح جزاؤهم به جهنم بسبب أنه كفر شنيع، وأنه استهزاء بآيات الله تعالى ورسله.

ثم بيَّن سبحانه المؤمنين وما سيجازون به بقوله: إن الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات كانت لهم فى الآخرة جنات الفردوس نزلا يكرمون فى نعيمها خالدين لا يطلبون عنها تحولا.

ثم أراد سبحانه أن يبين أن أدلة وجوده ووحدانيته بلغت كثرة عظيمة تقطع العذر على كل مقصر فقال: قل أيها النبى للناس لو كان ماء البحر جميعه مدادًا يكتب به كلمات ربى التى أقامها لكم لنفد البحر وفرغ ماؤه دون أن تنفد تلك الكلمات ولو جىء بمثل البحر مددا له أى مساعدا له، والمراد المبالغة فى الزيادة لا التحديد، بدليل ما فى الآية (٢٧) من سورة لقمان صفحة ٥٤٣ والله تعالى أعلم.


(١٩) سورة مريم مكية
وآياتها ثمان وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم

كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢)
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ
الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ
رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ
امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ
مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا
نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧)
قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا

سورة مريم

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: . ﴿كهيعص﴾ : تقدم المراد من هذه الحروف فى أول البقرة.

﴿رحمة ربك عبده زكريا﴾ : أضاف الرحمة لفاعلها، وعبده مفعولها، وزكريا بدل منه.

﴿نادى﴾ : أى دعا. ﴿خفيا﴾ : سرا لأنه أقرب للإجابة وأبعد من الرياء.

﴿وهن العظم﴾ : أى ضعف العظم الذى هو قوام البدن فغيره أولى.

﴿اشتعل الرأس شيبا﴾ : أصل الاشتعال فى النار ارتفاع لهبها. والشيب بياض الشعر عند الكبر، فكأنه جعل الشيب لهب نار، وانتشاره فى رأسه اشتعالا، والأصل اشتعل شيب رأسى.

﴿الموالى﴾ : هم عصبته كبنى عمومته.

﴿من ورائى﴾ : أى من بعد موتى. ﴿عاقرا﴾ : هى التى لا تلد من أصل الخلقة.

(١) كافْ ها يا عين صادْ
(٢) رحمة
(٣) الموالى
(٤) ورائى
(٥) آل
(٦) يا زكريا
(٧) بغلام
(٨) غلام.

﴿وليا﴾ : ولدا صالحا كما تقدمت الإشارة إليه فى الآية (٣٨) من سورة آل عمران صفحة ٦٩. ﴿يرثنى﴾ : فى العلم.

﴿ويرث من آل يعقوب﴾ : النبوة والملك، أى يكون أهلا لهما. ويعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

﴿رضيا﴾ : مرضيا عليه منك.

﴿سميا﴾ : شبيها فى الصلاح والورع، انظر الآية (٦٥) من هذه السورة الآتية صفحتى ٤٠٢، ٤٠٣. وقيل إنه لم يسم أحد يحيى قبله.

﴿أنى ﴾ : أى كيف.

المعنى :. مما نقص عليك أيها النبى فى هذا القرآن ذكر الرحمة التى حصلت من ربك لعبده زكريا نبى الله من نسل سليمان بن داود؛ رحمة ربك له حين طلب من ربه فى خفية من الناس، وتجد فى صفحة ٦٩ بيان المكان والزمان الذى دعا فيهما زكريا، قال فى دعائه: يارب إنى ضعف عظمى الذى هو أقوى شىء فى جسمى، وانتشر الشيب فى رأسى كانتشار النار فى الحطب، ولم أكن فى يوم من الأيام شقيا بدعائى لك يارب، بل كنت مستجاب الدعوة عندك، فعاملنى بسابق كرمك. ثم بين الحامل له على الدعاء فقال:

وإنى خفت جور الموالى وتضييعهم للدين من بعد موتى، وكانوا من شرار بنى إسرائيل، وكانت امرأتى عاقرا لم تلد طول حياتها، فهب لى من فضلك ولدا يصلح لأن يرثنى فى العلم، ويرث من آل يعقوب أجداده النبوة والملك، بأن تختاره لذلك بأن تجعله يارب مرضيا عليه منك. فقال الله تعالى له على لسان كبير الملائكة الذين أمرهم الله ببشارته كما فى الآية (٣٩) من سورة آل عمران صفحة ٦٩ : يا زكريا إنا نبشرك بغلام سميناه قبل أن يولد يحيى تشريفا له لم نجعل له من قبل سميا. فأراد زكريا أن يطمئن على وجود هذا الغلام كما تقدم شرح ذلك فى صفحة ٦٩ فقال يارب كيف يكون لى هذا الغلام؟ هل أرجع أنا وامرأتى إلى الشباب ويرتفع العقم عنها؟

وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ
هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾
قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً[1] قَالَ ءَايَتُكَ[2] أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ
ثَلَٰثَ[3] لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ
فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ[4] خُذِ
ٱلْكِتَٰبَ[5] بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ[6] ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن
لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً[7] وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ[8] وَلَمْ يَكُن
جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ[9] عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ
يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ[10] مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ
مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ
حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾
قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾

المفردات : ـ ﴿عتيا﴾ : أصله مصدر عتا يعتو عتوا وعتيا، ومعناه هنا وصل إلى حالة من الشيخوخة يصعب علاجها.

﴿آية﴾ : أى علامة.

﴿سويا﴾ : أى سليم الجوارح ليس بك بكم وهو حال من فاعل.

﴿تكلم﴾ : أريد به أن عدم الكلام كان معجزة.

﴿المحراب﴾ : هو أشرف مكان فى المنزل وقد تقدم توضيحه فى الآية (٣٩) من سورة آل عمران صفحة ٦٩.

﴿أوحى اليهم﴾ : أى أشار إليهم.

﴿بكرة﴾ : أول النهار.

﴿وعشيا﴾ : آخر النهار. ﴿الكتاب﴾ : التوراة.

﴿بقوة﴾ : بعزم واجتهاد.

﴿الحكم﴾ : المراد به هنا فهم أسرار التوراة.

﴿وحنانا﴾ : شفقة ورحمة لأبويه وللضعفاء.

﴿وزكاة﴾ : طهارة فى النفس وصلاحا فلم يرتكب ذنبا.

---

(١) آية (٢) آيتك (٣) ثلاث (٤) يا يحيى
(٥) الكتاب (٦) وآتيناه (٧) وزكاة
(٨) بوالديه (٩) وسلام (١٠) الكتاب.

﴿برا بوالديه﴾ : بارا بهما محسنا مطيعا.

﴿فى الكتاب﴾ : المراد به هنا القرآن. ﴿انتبذت﴾ : اعتزلت وابتعدت. ﴿شرقيا﴾ : أى شرقى بيت المقدس.

﴿حجابا﴾ : ساترا توارت به منهم حتى لا يشغلها شاغل.

﴿روحنا﴾ : هو جبريل عليه السلام.

المعنى : . وقد بلغت من الكبر حدًا أعجز فيه عن أن يكون لى ولد. قال له الملك : الأمر كذلك، أى كما أمر ربك، فقد قال ربك يا زكريا الأمر فى ذلك على هين لا يحتاج إلا إلى أن أقول كن فيكون، ويقول لك ربك كيف تستصعب هذا وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا أى موجودا كما سيأتى فى الآية (٦٧) صفحة ٤٠٣، أو خلقت أباك آدم من العدم وأنت تبع له. قال يارب اجعل لى علامة أعرف بها وجود الحمل لأقابله بالشكر.

قال آيتك أن لسانك يحتبس عن تكلم الناس ثلاث ليال حال كونك سليم الحواس.

فخرج على قومه من مكان خلوته وأشار إليهم بأن يسبحوا ربهم فى طرفى النهار شكرا لله تعالى على فضله. ولما جاء موعد ولادته وولد يحيى وكبر قال الله له يا يحيى اعمل بما فى التوراة بجد واجتهاد، وأعطاه فهم أسرارها وهو لايزال صغيرا وملأ قلبه حنانا ورحمة منه تعالى لأبويه وللمساكين، ورزقه طهارة نفس، وكان بعيدا عن كل معصية وبارا بوالديه، ولم يكن متكبرا ولا عاصيا لهما أمرًا.

وأمانٌ عليه من الله يوم ولد من نزغ الشيطان، ويوم يموت من عذاب القبر، ويوم يبعث حيا من عذاب جهنم. واذكر أيها النبى لقومك فى القرآن قصة مريم حين ابتعدت عن أهلها فى مكان شرقى لتخلو للعبادة، وجعلت بينها وبينهم حجابا حتى لا يشغلها أحد، فأرسلنا إليها رسولنا جبريل الروح المقدس فتصور لها فى صورة إنسان مستوى الخلقة لتأنس به لأنها لا تطيق رؤية الملك على حقيقته، فلما رأته يفاجئها فى خلوتها قالت إنى أتحصن بالله من شرك، إن كنت رجلا تخاف الله فابتعد عنى.

قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾
قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ
بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ
ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾
۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا
ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا
وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي
قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ
ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي
وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ
لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ
قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾

المفردات : . ﴿أنى﴾ : كيف. ﴿بغيا﴾ : يصح أن يكون من قولهم بغى الرجل المرأة، أى طلبها للفاحشة، فيكون بغىّ على وزن فعيل بمعنى مفعول كقتيل بمعنى مقتول.

والمعنى هنا لم أكن من النساء اللاتى يطلبهن الرجال للزنا وعلى هذا لا تلحقه تاء التأنيث مطلقا، كما يقال رجل قتيل وامرأة قتيل، وقال بعضهم إن عدم لحوق التاء له بسبب أنه وصف مختص بالنساء كلفظ ﴿حائض﴾ فلا يقال رجل بغىّ، وإنما يقال رجل باغ. وأيًا ما كان فقد شاع استعماله فى الزانية حتى صار حقيقة صريحة فيها.

﴿آية للناس﴾ : برهانا على تمام قدرتنا.

﴿فحملته﴾ : أى حملته فى بطنها.

﴿انتبذت﴾ : ابتعدت.

﴿قصيا﴾ : بعيدا عن أهلها. ﴿فأجاءها﴾ : أى فألجأها وجاء بها.

﴿المخاض﴾ : هو الوجع الذى يسبق الولادة مباشرة. ﴿نسيا منسيا﴾ : النسى هو الشىء التافه الذى من شأنه أن ينسى وقد لا ينسى؛ لذلك قالت منسيا للقطع بالمراد.

﴿سريا﴾ : أى نهرا صغيرا.

﴿بجذع النخلة﴾ : الباء لتأكيد ربط الفعل بمفعوله، والأصل هزى جذع النخلة بإمالته إليك، انظر آيتى (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥، و (١٤) من سورة العلق صفحة ٨١٤ ﴿تساقط﴾ : قال فى لسان العرب: ساقط فلان الثمر أى أسقطه، وتابع إسقاطه، فالمراد تتابع إسقاط الرطب عليك. ﴿جنيا﴾ : ناضجا صالحا للجنى.

---

(١) غلاما (٢) غلام (٣) آية (٤) ياليتنى
(٥) فناداها (٦) تساقط (٧) يا مريم.

﴿فإمـا تـرين﴾ : أصلها ﴿إن﴾ الشرطيـة و ﴿مـا﴾ للتأكيـد كما تقدم بيان ذلك فى الآية (٢٠٠) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥.

﴿صوما﴾ : المراد به هنا الإمساك عن الكلام.

﴿لقد جئت﴾ إلخ : لقد فعلت فعلا شنيعا. ﴿فريا﴾ : غريبا منكرا.

المعنى : . قال جبريل فى الرد عليها لست إلا رسول ربك إليك لأتسبب فى أن يهب الله لك غلاما طاهرا بنفخى فى درعك كما أمر ربى. قالت كيف يوجد لى ولد ولم يتزوجنى بشر ولم أك فاجرة، ولا يكون الولد إلا بأحد هذين؟ قال جبريل: الأمر كما قلت لك، وقد قال ربك إيجاد الولد بغير الطرق المعروفة هين علىّ، وقد قررنا ذلك لنجعله آية للناس على قدرتنا وسبب رحمة لِمَنْ آمن به. وكان خلق عيسى بدون أب أمرًا محكوما بوقوعه أولا. فحملت ما وهبها الله تعالى، وكان ذلك سببا فى اعتزالها به وهو جنين فى بطنها فى مكان بعيد عن أهلها مخافة مسارعتهم فى لومها، فلما قرب الوضع ألجأها المخاض إلى جذع نخلة لتستتر به وتعتمد أى تتكئ عليه عند الألم، فلما وضعت قالت من خوف لوم الناس: ياليتنى مت قبل هذا وكنت شيئا حقيرا منسيا لا يخطر على بال أحد. ﴿فناداها من تحتها﴾ الظاهر أنه عيسى نفسه هو الذى ناداها ليزيل خوفها من أول لحظة ويعلمها أنه ليس طفلا عاديا، وليرشدها إلى إيكال الجواب عنها إليه إذا رجعت إلى أهلها وسألوها. وما دام الأمر من أوله إلى آخره أمر معجزات متعددة فليكن كلامه لها من تحتها من ضمن هذه المعجزات، ولا حاجة للقول أن القائل شخصا آخر، ولا حاجة للقول بأن القائل مَلَكًا. ناداها من مكان منخفض عن الربوة التى كانت فيها قائلا: لا تحزنى قد جعل ربك فى كان منخفض قريب منك نهرا صغيرا، وهزى جذع النخلة فإنها تتابع إسقاط رطب ناضج عليك، ونَخْل الرمال فى الغالب رفيع صغير يسهل تحريكه، فكلى من الرطب واشربى من النهر، واطمئنى نفسا، فإن رأيت أحدا من الناس يسألك عما حصل فأشيرى إليه بما يفهمه أنك نذرت للرحمن صمتا فلن تكلمى اليوم أحدا. وبعد ذلك سلمت أمرها لله وحملته بين يديها وجاءت به قومها، فلما رأوها دهشوا وقالوا يا مريم لقد فعلت شيئا عجبا منكرا.

يَٰأُخْتَ[١] هَٰرُونَ[٢] مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ
بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ
فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ[٣] ٱلْكِتَٰبَ[٤]
وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى[٥]
بِٱلصَّلَوٰةِ[٦] وَٱلزَّكَوٰةِ[٧] مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى[٨] وَلَمْ
يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ[٩] عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ
أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ
ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ
سُبْحَٰنَهُۥٓ[١٠] إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾
وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ[١١] مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾
فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن
مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا

المفردات : . ﴿يا أخت هارون﴾ : من أساليب العرب المعهودة أن يقولوا للرجل الصالح فلان أخو الأتقياء، وللطالح أخو الشياطين، يريدون مشابها لهما، انظر الآية (٢٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨. ولما كان هارون أخو موسى مشهورا بالصلاح شبهوها به. ﴿امرأ سوء﴾ : أى رجل فاحشة. ﴿أمك﴾ : هى المبينة قصتها فى الآية (٣٥) من سورة آل عمران وما بعدها صفحة ٦٨.

﴿بغيا﴾ : تقدم فى الآية (٢٠) السابقة صفحة ٣٩٨.

﴿آتانى الكتاب﴾ : المراد حكم بإعطائى الإنجيل عطاء لابد من تحققه، وكذا يقال فى جعلنى نبيا وما بعده.

﴿وبرا بوالدتى﴾ : أى بارا بها محسنا إليها. ﴿قول الحق﴾ : المراد أقول فيه قول الحق ﴿يمترون﴾ : يشكون. ﴿كن فيكون﴾ : المراد يحصل سريعا لا يعوقه شيء.

﴿وإن الله ربى﴾ إلخ : هذا من كلام عيسى عليه السلام كما فى الآية (٥١) من سورة آل عمران صفحة ٧١. ﴿هذا صراط﴾ : هذا الذى طلبته منكم طريق مستقيم يوصل إلى الله تعالى. ﴿الأحزاب﴾ : هم اليهود وطوائف النصارى. ﴿فويل﴾ : هلاك. ﴿أسمع بهم وأبصر﴾ : صيغتان تدلان على التعجب من قوة مادلت عليه مادتهما، أى أن سمعهما وبصرهما فى يوم القيامة يكونان تامين على خلاف ما كانوا فى الدنيا، والمراد أنه سبحانه يعجب نبيه عليه السلام من حال هؤلاء الكفار ومن حدة أسماعهم وأبصارهم يوم يأتون للحساب.

---

(١) يا أخت (٢) هارون (٣) آتانى (٤) الكتاب (٥) أوصانى (٦) بالصلاة
(٧) الزكاة (٨) بوالدتى (٩) والسلام (١٠) سبحانه (١١) صراط.

المعنى : . قالوا لها لما رأوا الطفل معها موبخين يا مَنْ كنت على صفة الرجل الصالح الورع هارون نبى الله من أين جئت بهذا وما كان أبوك زانيا وما كانت أمك حنة بغيا؟ ولما كانت مريم تعلم أن ابنها جاء بطريق معجزة أشارت إليه ليرد عليهم فيقطع عنها التهمة، قالوا متهمين: كيف نكلم من وجد فى المهد حال كونه صغيرا لا يتكلم؟ عند ذلك ظهرت المعجزة فقال: إنى عبد الله الخلاق العليم قضى فى علمه قضاء مبرما بإعطائى الإنجيل، وبجعلى نبيا إلى بنى إسرائيل، وبجعلى مباركا نافعا معلما للخير فى كل مكان أوجد فيه، وأوصانى بالمحافظة على الصلاة التى فرضها علىَّ، والزكاة إن وجد لى مال مادمت حيا وفى هذا رد للقول بأن الأنبياء يصلون فى قبورهم، وجعلنى بارا محسنا لوالدتى هذه التى تتهمونها باطلا، ولم يجعلنى متكبرا شقيا بعقوق والدتى وإيذاء غيرها. والأمان من كل مكروه الذى منحه سبحانه لنبيه يحيى فى الآية (١٥) السابقة صفحة ٣٩٧ تفضل به علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا كما تقدم بيانها فى الآية السابقة. ذلك المتقدم ذكره هو عيسى بن مريم، أقول فيه لكم قول الحق الذى فيه تشكون وتختلفون.

ما كان لله وهو الخالق لكل شىء أن يتخذ من ولد، تنزيها له عن هذا النقص؛ لأن الولد لا يحتاج إليه إلا العاجز، لكن الله سبحانه إذا قضى بحدوث أمر فلا يحتاج فى إيجاده إلا إلى أن يقول له كن فيكون. ثم رجع إلى تتميم كلام عيسى لقومه فقال : ﴿وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ تقدم بيانها فى الآية (٥١) من سورة آل عمران صفحة ٧١. هذا هو الحق فى أمر عيسى ولكن فرق اليهود والنصارى اختلفوا فيه، فقالت اليهود ساحر وابن زنا، وقال بعض النصارى هو ابن الله، وقال بعضهم هو الله، وقال بعضهم الآخر هو ثالث ثلاثة. فهلاك لهؤلاء الكافرين بوحدانية الله تعالى وتعظيم رسله من العذاب عند شهودهم وحضورهم فى يوم عظيم الحوادث، وهو يوم القيامة.

وإذا كان هؤلاء الكافرون فى الدنيا عميا وصما فإنهم سيكونون يوم القيامة فى أعلى قوة السمع والبصر، انظر الآية (٢٢) من سورة ق صفحة ٦٩٠. وهذا فى بعض المواقف يوم القيامة التى يقرأ فيها صحيفته، فلا ينافى أن الكافر فى موقف آخر يحشر أعمى كما فى الآية (١٢٥) من سورة طه صفحة ٤١٨.

لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ
يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا
وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ
إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ
مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ
إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا
سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ
كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ
عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ
أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ
وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ

المفردات : . ﴿صديقا﴾ : أى مبالغا فى المحافظة على الصدق فلم يكذب قط.

﴿لأبيه﴾ : هو آزر المتقدم فى الآية (٧٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤.

﴿صراطا﴾ : طريقا. ﴿سويا﴾ : مستقيما.

﴿لا تعبد الشيطان﴾ : المراد لا تطع وسوسته بعبادة غيره تعالى، انظر الآية (٦٠) من سورة يس صفحة ٥٨٤ وما قيل فى شرح الآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١.

﴿عصيا﴾ : شديد العصيان. ﴿وليا﴾ : قرينا له فى اللعن والعذاب لما بينكما من الموالاة.

﴿مليا﴾ : زمنا طويلا مأخوذ من الملاوة بفتح الميم وهى المدة الطويلة.

المعنى : . هؤلاء الكفار يقوى سمعهم وأبصارهم لهول يوم القيامة، لكنهم اليوم فى الدنيا لشدة ظلمهم أنفسهم بالإعراض عن الحق فى ضلال ظاهر حيث اعتقدوا أن غير الله تعالى يستحق ما يستحقه سبحانه.

---

(١) الظالمون
(٢) ضلال
(٣) الكتاب
(٤) إبراهيم
(٥، ٦) يا أبت
(٧) صراطا
(٨) يا أبت
(٩، ١٠) الشيطان
(١١) للشيطان
(١٢) آلهتى
(١٣) يا إبراهيم
(١٤) سلام.

وخَوِّفهم أيها النبى من هول يوم القيامة الذى يتحسرون فيه مع أنه وقت قضى فيه الأمر على أهل الجنة بالجنة وأهل النار بالنار، فأنذرهم بذلك والحال أنهم فى غفلة عنه ولا يصدقون به، انظر الآيات (١٦٧) من سورة البقرة صفحة ٣٢، و (٣١) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، و (٥٦) من سورة الزمر صفحة ٦١٤، و (٥٠) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٤.

ولا يحزنك أيها النبى تكذيبهم لك فإنا سننفرد بالملك كله، وليس هناك لهم مرجع إلا إلينا، وسنجازيهم على كفرهم، انظر الآية (١٦) من سورة غافر صفحة ٦١٩.

واتل أيها النبى على قومك فيما تذكره لهم فى القرآن قصة أبيهم إبراهيم؛ انظر (٦٩) وما بعدها من سورة الشعراء صفحة ٤٨٤، إنه كان صديقا نبيا، أى كان جامعا لخصائص الصديقين والأنبياء حين قال لأبيه آزر يا أبت لم تعبد صنما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا فى جلب نفع أو دفع ضر؛ يا أبت إن الله قد أعطانى من العلم ما لم يعطك، انظر الآية (٨٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٥، والآية (٥١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٦، فاتبعنى أدلك على طريق مستقيم يوصل للنجاة.

يا أبت لا تطع وسوسة الشيطان لأنه دائم العصيان للرحمن، ومن دام عصيانه لا يدل على خير ولا يرشد إليه.

يا أبت إنى أخاف أن يصيبك عذاب من ربك الذى كان يجب أن تستجلب رحمته بدل غضبه فتكون قرينا للشيطان فى اللعن والشقاء ليس لك ولى غيره.

قال آزر بعد هذا الوعظ البليغ الحكيم: هل أنت معرض عن آلهتى يا إبراهيم؟ لئن لم تنته عن الصد عنها لأرجمنك بالحجارة، فاحذر ذلك واهجرنى مليا. ومع هذا الرد الغليظ ترفق إبراهيم فى الرد وقال : سلام عليك فلا أصيبك بمكروه أبدا، وسأطلب لك من ربى المغفرة بأن يوفقك للهداية، وقد بر بوعده فاستغفر له كما فى الآية (٨٦) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥، ثم نهاه الله تعالى عنه كما فى الآية (١١٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٦١، ٢٦٢.

إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾
فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ
وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا
وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ[1]
مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ[2]
مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ[3] نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن
رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ[4] نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ[5] إِسۡمَٰعِيلَ[6]
إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ
أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ[7] وَٱلزَّكَوٰةِ[8] وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيًّا ﴿٥٥﴾
وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ[9] إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾
وَرَفَعۡنَٰهُ[10] مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ

المفردات :. ﴿حفيا﴾ : أي كثير البر واللطف بي. ﴿أعتزلكم﴾ : أي أفارقكم بالهجرة إلى خير منكم، انظر الآية (٧١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧، والآية (٢٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤، والآية (٩٩) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢.

﴿لسان صدق﴾ : المراد ثناء حسنا، والعرب تطلق الجارحة على ما يصدر منها، فتطلق اليد على العطاء، واللسان على الثناء.

﴿عليا﴾ : رفيعا رائعا. ﴿مخلصا﴾ : أي أخلصه الله من النقائص واصطفاه لرسالته.

﴿الأيمن﴾: صفة للجانب، انظر الآية (٨٠) من سورة طه صفحة ٤١٣.

﴿رسولا نبيا﴾ : انظر الفرق بينهما فى شرح الآية (٥٢) من سورة الحج صفحة ٤٤١.

﴿نجيا﴾ : أي مناجيا لله بلا واسطة.

﴿صديقا﴾ : تقدمت فى الآية (٤١) السابقة.

---

(١) الكتاب
(٢) وناديناه
(٣) وقربناه
(٤) هارون
(٥) الكتاب
(٦) إسماعيل
(٧) بالصلاة
(٨) الزكاة
(٩) الكتاب
(١٠) ورفعناه.

المعنى : ـ سأستغفر الله ربى لأنه عودنى اللطف بى، وقد يكون منه أن لا يخزينى فى أبى يوم القيامة، وسأبتعد عنكم وعن معبوداتكم غير الله، فأهجر بابل وأسافر إلى الشام، وأعبد ربى وحده راجيا أن أكون موفقا فى عبادتى لا شقيا مثلكم بضياع مجهودى.

فلما اعتزلهم وآلهتهم بالهجرة إلى الشام قاصدا وجه ربه عوضناه خيرا منهم، ورزقناه بإسحاق ومنْ ورائه ابنه يعقوب وكلا منهما جعلناه نبيا. ووهبنا لهم أى إبراهيم وذريته فيضا من رحمتنا بالنبوة والأولاد الصالحين والأموال الحلال، وجعلنا لهم ذكرا حسنا إلى قيام الساعة، ومنه أن كل مسلم يقول كل يوم عدة مرات اللهم صلى على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. واتل عليهم أيضا فى القرآن موسى إنه كان مصطفى لله ورسوله لخلقه وكان رفيع المنزلة على مَنْ أرسل إليهم، انظر الفرق بين النبى والرسول فى الآية (٥٢) من سورة الحج صفحة ٤٤١. وخاطبنا موسى مباشرة عند رجوعه من مدين إلى مصر مع زوجه، فسمع كلاما من ناحية جبل الطور الذى كان على يمين موسى فى اتجاهه لمصر، وكان ذلك أول رسالته، وقربناه فى المنزلة بأن جعلناه مناجيا لنا بلا واسطة، ووهبنا له من رحمتنا به إجابة لطلبه أخاه هارون حال كونه نبيا. ومحل الإحسان هو جعل هارون نبيا؛ لأنه كان أكبر من موسى سنا. واذكر فى الكتاب أيضا إسماعيل ابن إبراهيم، وإنما أخره فى الذكر عن أخوته لكمال الاعتناء به وليذكر له صفاته الخاصة، ومنها أنه كان صادق الوعد فى كل شئونه، وأهمها وعده لأبيه بالصبر عند الذبح ووفَّى، انظر الآية (١٠٢) من سورة الصافات صفحتى ٥٩٢، ٥٩٣، وكان يأمر أهله بالمحافظة على الصلاة والزكاة المشروعة فى عصره، وكان مرضيا عنه من ربه لمطابقة أفعاله لأقواله.

واذكر فى الكتاب إدريس وقد كان قبل نوح عليه السلام وكان شديد المحافظة على الصدق، وجعله ربه نبيا يرشد الخلق بعمله، ورفعناه منزلة علية فى الدنيا والآخرة كما قال فى نبينا ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ فى سورة الشرح أولئك المذكورون من أول زكريا إلى إدريس هم الذين أنعم الله عليهم إلخ، وخبر المبتدأ سيأتى فى قوله ﴿وإذا تتلى عليهم﴾ إلخ.

عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ
وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ
إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾
* فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟
ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ
وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ
شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ
إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا
وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى
نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا
بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ
وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

المفردات :. ﴿إسرائيل﴾ : هو نبى الله يعقوب عليه السلام.

﴿اجتبينا﴾ : أى اصطفينا واخترنا.

﴿خروا سجدا﴾ : أى سقطوا بوجوههم على الأرض ساجدين لله تعالى.

﴿فخلف﴾ : أى فجاء من بعدهم خلفا عنهم ﴿خلف﴾ : الخلف بسكون اللام أولاد السوء وبفتحها عقب الخير.

﴿غيا﴾ : الغى الشر والضلال، والمراد جزاء غى وهو العذاب والهلاك انظر الآية (٣٤) من سورة هود صفحة ٢٨٩.

﴿بكرة وعشيا﴾ : البكرة أول النهار والعشى آخره، والمراد هنا دائما.

﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾ : يرى بعضهم أن هذا أمر من كلام جبريل عليه السلام، وأن سببه أن مشركى مكة كانوا يتلمسون ما يشككون به البسطاء فى نبوته ﷺ، فكانوا إذا تأخر نزول الوحى تارة يقولون استهزاء : هات شيئا من عندك يا محمَّد وقل ربك أنزله عليك، انظر الآية (٢٠٣) من سورة الأعراف صفحتى ٢٢٥، ٢٢٦، وتارة يقولون إن ربه تركه وأبعضه. تجد ما قيل فى ذلك فى سورة الضحى. فسأل ﷺ جبريل مرة: لم تغيب عنى فى بعض الأحيان؟ فأمره الله سبحانه بأن يجيبه بما هنا كما سيأتى.

---

(١) النبيين (٢) آدم (٣) إبراهيم
(٤) إسرائيل (٥) آيات (٦) الصلاة
(٧) الشهوات (٨) وآمن (٩) صالحا
(١٠) جنات (١١) سلاما (١٢) السموات.

المعنى : . هؤلاء المنعم عليهم من النبيين الذين هم بعض ذرية آدم وبعض ذرية من حملنا مع نوح عليه السلام فى السفينة، وبعض ذرية إبراهيم، ومن ذرية إسرائيل، وكان منهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وغيرهم، وآخرون من جملة مَنْ هديناهم إلى الحق واخترناهم لما فيه الكرامة؛ هؤلاء جميعا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن فى كتبه المنزلة وقعوا ساجدين باكين من خشية الله تعالى مع علو منزلتهم.

وإنما خص هؤلاء جميعا مع دخولهم فى ذرية آدم للتنويه بشأن آبائهم. فجاء من بعد هؤلاء المفضلين خلف سوء أضاعوا الصلاة بتركها أو بتأخيرها عن وقتها بلا عذر، وساروا وراء شهوات أنفسهم، فجزاؤهم أنهم سيلقون جزاء ضلالهم فى جهنم، إلا مَنْ رجع منهم عن معصيته، بأن يؤمن إن كان كافرا، ويعمل صالحا مع الإيمان، فأولئك يدخلون الجنة ولا ينقصون من جزاء عملهم شيئا. ثم بيَّن الجنة بأنها جنات عدن التى وعد بها الرحمن عباده المؤمنين العاملين الصالحات وهى غائبة عنهم لكنهم آمنوا بها؛ إن الرحمن كان وعده منجزا لا يتخلف.

لا يسمعون فى الجنة لغوا من لغو الدنيا الذى لا فائدة منه، لكن يسمعون سلاما من الله وملائكته ومن بعضهم لبعض، بل ومن أصحاب الأعراف كما فى الآية (٤٦) من سورة الأعراف صفحة ١٩٩، ولهم رزقهم فيها فى كل وقت. تلك الجنة الموصوفة بتلك الصفات هى التى نجعلها ملكا ثابتا كالميراث لعبادنا المتقين، انظر الآية (١٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦ ولما فرغ سبحانه من الحديث عن الأنبياء الذى ذكره تثبيتا له ﷺ، وفرغ عليه ما حدث من خلف السوء، وذكر جزاء الشرير والخيِّر، عقب على ذلك بحكاية نزول جبريل وما رماه المشركون به ﷺ زيادة فى التسلية، وليبين أن الأمر ليس كما زعموا، وأن الملائكة أحرص الخلق على تقوى الله التى هى سبب النعيم، لذلك تراهم منقادين لربهم لا يخالفون لحظة؛ ولذلك صرح بعد ذلك بقوله لمحمَّد ﴿فاعبده واصطبر لعبادته﴾ أى لا تكترث بقول الجاحدين. وعطف عليه ما يقول الكافرون بالبعث للمقارنة بين قول المَلَك الطائع والإنسان الجاحد. فقول جبريل وما نتنزل على مهل فى زمان دون زمان إلا بأمر ربك يا محمَّد ومشيئته، لأنه مالك التصرف فى كل أحوالنا، وما كان ربك ناسيا لشىء من أعمالنا، فلا نملك أن ننتقل إلا بأمره، وكيف ينسى وهو خالق السموات والأرض ومدبر أمرهما وحافظهما.

وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ
سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ
حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ
وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ
لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ
بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ
عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ
الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ
قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا
وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ
أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ

المفردات :. ﴿اصطبر لعبادته﴾ : أى تحمل مشاق الصبر متفرغا لعبادته.

﴿سميا﴾ : أى مثيلا ونظيرا، انظر الآية (١١) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩، والآية (٤) من سورة الإخلاص صفحة ٨٢٦.

﴿جثيا﴾ : أى باركين على ركبهم جمع جاث.

﴿شيعة﴾ : المراد هنا جماعة تشايعت على الباطل أى تعاونت عليه. ﴿عتيا﴾ : تجاوزا للحد فى الجرائم انظر الآية (٧٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥. ﴿صليا﴾ : مصدر صلى بالنار إذا قاسى حرها والمراد دخولا. ﴿نديا﴾ : أى مجلسا كالنادى والمنتدى. ﴿وكم﴾ : كلمة تدل على التكثير. ﴿قرن﴾ : أهل العصر المتقاربة أعمارهم، انظر شرح الآية (٦) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٢، ١٦٣. ﴿أثاثا﴾ : الأثاث متاع البيت من فرش وثياب. ﴿رئيا﴾ : هو المنظر المرئى، أى نضارة وحسنا، وهو مأخوذ من الرؤية كالطِّحن بكسر الطاء وسكون الحاء لما طحن.

المعنى :. يستحيل عليه سبحانه النسيان، لأنه رب السموات والأرض وما بينهما، فحافظ على عبادته وحده، واحبس نفسك على مشاقها. ثم دلل على وجوب إفراده سبحانه بالعبادة بقوله: هل تعلم له مثيلا فيما ذكر من الانفراد بالتصرف فى جميع الخلق وأنه سبحانه خالق ومالك ومدبر كل ما فى السموات والأرض؟ المراد يستحيل أن يكون له مثيل. ويقول الكافر

(١) لعبادته (٢) الإنسان (٣) أئذا (٤) خلقناه
(٥) والشياطين (٦) الظالمين (٧) آياتنا
(٨) بينات (٩) أثاثا (١٠) الضلالة.

الذى لا يصدق بالبعث متعجبا منكرا: هل إذا مت أخرج حيا مرة أخرى؟ روى أن أُبىّ بن خلف أمسك بعظم بال وفتته وذراه فى الريح ثم قال زعم محمَّد أنا نبعث بعد ما صرنا هكذا، هذا مستحيل. فرد سبحانه على منكر البعث بقوله ﴿أولا يذكر﴾ إلخ: أى يقول ذلك ولا يتذكر هذا الإنسان أنا خلقناه من قبل الحالة التى هو عليها ولم يكن حينئذ شيئا موجودًا فالقادر على خلقه من عدم غير مسبوق بوجود قادر على إعادته بعد عدم مسبوق بوجود، بل هذا عليه أهون، انظر الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤، والآية (٧٩) من سورة يس صفحة ٥٨٦، فوحق ربك أيها النبى لنحشرنهم هم وشياطينهم الذين كانوا يغرونهم بالشرك والمعاصى، انظر الآية (١٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٨٤، والآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١، والآية (١٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢، ثم لنحضرنهم بعد طول الوقوف فى جسر المحشر خارج جهنم حولها جاثين على ركبهم إهانة لهم، ثم لنأخذن من كل جماعة منهم مَنْ هو أشد على الرحمن الذى غمرهم بإحسانه فى الدنيا تكبرا وتجاوزا للحد، أى نقدم للعذاب الأشد الضال الذى أضل غيره ثم الأتباع لأن الذى أضل غيره يكون أشد عذابا من غيره، انظر آيتى (٦٧، ٦٨) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١، ثم لنحن العاملين بسيئاتهم ومقدارها فنبدأ أولاً بمَنْ هو أولى بدخول جهنم من كل فريق ثم الذى يليه. ثم وجه سبحانه الخطاب للناس جميعا فقال: وما منكم أحد أيها الناس إلا يدنو من جهنم ويمر على الصراط المنصوب فوقها، كان هذا المرور قضاء منه تعالى محتما. ثم ننجى الذين اتقوا ربهم ونترك الظالمين فيها باركين على ركبهم ذلاً. وكيفية هذا الورود تفصيلا لا يعلمها إلا هو سبحانه. ثم ذكر سبحانه شبهة أخرى مما كان يضلل به المشركون وغيرهم، ذلك أنهم كانوا يقولون للناس : لو كان محمَّد على حق لكان هو ومَنْ معه أغنى منا وأحسن حالا لكن الأمر بالعكس. فالمعنى : وإذا تتلى على المشركين أدلة صدق نبينا واضحات قالوا للمؤمنين استهزاء أخبرونا أى الفريقين نحن وأنتم خير مكانة ومنزلة وأعظم مجلسا وأكثر عددا.

ويوضح هذا الآيات (٥٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٠، و ٤٨، ٤٩ من سورة الأعراف صفحة ٢٠٠. ثم رد سبحانه عليهم بقوله: ﴿وكم أهلكنا﴾ أى وكثيرا من الأمم السابقة أهلكناهم بكفرهم مثل هؤلاء مع أنهم كانوا أحسن من هؤلاء أثاثا ورئيا كعاد وثمود وقارون ومَنْ معه. ثم أمر سبحانه نبيه أن يقول لهم إن الله تعالى يمد الضالين بالمال والمتاع ليزدادوا ضلالاً فيزدادوا إثمًا كما فى الآية (١٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٢، أى لا لفضلهم عنده سبحانه.

لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ
وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ
جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ[١]
ٱلصَّٰلِحَٰتُ[٢] خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾
أَفَرَءَيْتَ[٣] ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا[٤] وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾
أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا
سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾
وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ
ءَالِهَةً[٥] لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ[٦]
عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ[٧] تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا
نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ

المفردات : . ﴿شر مكانا﴾ : أى منزلتهم شر وسوء، وهذا رد على قولهم ﴿خير مقاما﴾.

﴿أضعف جندا﴾ : أضعف أعوانا، وهذا رد على قولهم ﴿وأحسن نديا﴾.

﴿مردا﴾ : أى مرجعًا وعاقبة.

﴿أطّلع الغيب﴾ : أصله من قولهم أطلع الجبل إذا صعد فوقه، والمراد تمكن من علم الغيب، والأصل هل اطلع.

﴿عهدا﴾ : أى موثقا بأن يؤتيه ذلك.

﴿كلا﴾ : كلمة تدل على ردع المدعى باطلا.

وتنبيه على خطئه. ﴿ونرثه ما يقول﴾ : ﴿ما﴾ اسم موصول بدل من الضمير المنصوب فى ﴿نرثه﴾ بدل اشتمال كأنه سبحانه يقول نرث ما يقول والمراد مما يقول المقول عنه وهو المال والولد، والمعنى المراد وينسلب منه المال والولد بموته كما يأخذ الوارث ما ترك مورثه.

﴿لهم عزا﴾ : المراد سبب عز ونجاة.

﴿ويكونون عليهم ضدا﴾ : المراد أن الآلهة ستكون يوم القيامة شرا عليهم وسبب ذل لا عز. و ﴿ضدا﴾ لفظ يطلق على الواحد والأكثر مثل لفظ ﴿الطفل﴾ فى الآية (٣١) من سورة النور صفحتى ٤٦١، ٤٦٢، وهو حال مؤكدة للمعنى المفهوم من ﴿عليهم﴾. ﴿تؤزهم أزا﴾ : أصل الأز الهز الشديد والإزعاج، والمراد الإغراء على المعاصى.

---

(١) الباقيات (٢) الصالحات (٣) أفرأيت (٤) بآياتنا
(٥) آلهة (٦) الشياطين (٧) الكافرين.

﴿نعد لهم عدا﴾ : أى نعد لهم أعمالهم عدا دقيقا لنجازيهم عليها، فبقاؤهم زيادة فى ذنوبهم.

المعنى : . قل أيها النبى لهؤلاء المفتخرين بالغنى والكثرة إن سنة الله جرت على أن من انهمك فى الضلال ولم يلتفت للعبر يمهلهم ربهم ويبسط لهم فى الرزق استدراجا لهم، حتى إذا رأوا ما وعدهم الله به إما عذاب القتل والأسر والذل وإما قيام ساعتهم فيشاهدون العذاب الأكبر، عند ذلك يعلمون مَنْ من الفريقين أضعف جندا، وسيكون الأمر بعكس ما كان فى الدنيا، انظر الآية (٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩، والآية (٣٢) من سورة الرعد صفحة ٣٢٦، والآية (٤٨) من سورة الحج صفحة ٤٤٠. يفعل سبحانه ذلك بالضالين، ويزيد الذين اهتدوا إلى الإيمان والعمل الصالح هدى بما ينزل عليهم من الآيات عوضا مما حرموا من زينة الدنيا إكراما لهم بما هو أنفع وأبقى؛ ولذا قال : والباقيات أى الطاعات التى تبقى فائدتها خالدة خير فى حكم الله فى الثواب وأحسن عاقبة. وكان لرجل مسلم دين على العاص ابن وائل من كبار المشركين بمكة، فلما طالبه به قال له مادام محمَّد يقول إنا سنبعث بعد الموت فانتظر حتى تأتينى هناك وسيكون لى مال وولد وأعطيك ما تريد. فأنزل الله تسفيها له بعد تسفيه من قبله هذه الآيات؛ والمعنى : فبعد ما تقدم هل علمت أيها النبى حال هذا الكافر وعجبت من قوله الشنيع وجرأته على الله؛ لأن ما ادعى أنه سيكون لا يعلم إلا بأحد أمرين : إما علم الغيب وإما بعهد قطعه الله له وليس عنده واحد منهما. ثم أكد خطأه فقال: كلا، أى ليس الأمر كما ادعى، وسنظهر له أننا كتبنا قوله، ونزيده من العذاب فى جهنم فوق عذاب كفره عذابا على كذبه وجرأته على الباطل، وسنسلبه ما بيده من المال والولد ويأتينا يوم القيامة وحده لا يملك شيئا. وما غر هؤلاء المشركين إلا أنهم اتخذوا لأنفسهم من دون الله آلهة يتقربون بها إليه تعالى ليعتزوا بشفاعتهم فلا يصيبهم مكروه، وليس الأمر كما زعموا، بل ستجحد تلك الآلهة عبادتهم، ويكونون خصوما لهم بعد أن ينطق الله مَنْ لم يكن ناطقا منهم، انظر الآية (١٦٦) من سورة البقرة صفحة ٣٢. ثم أمر سبحانه رسوله بالتعجب مما يحل بالكافرين فقال: ألم تر أيها النبى أنا مكنا الشياطين من الكافرين لما أعرضوا عن البرهان حتى صاروا يغرونهم بالمعاصى إغراء شديدا، انظر الآية (٢٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣، فلا تعجل بطلب هلاكهم لأنا نعد عليهم جرائمهم عدا دقيقا لزيادة شقائهم، فدعهم واذكر يوم نحشر المتقين أى نجمعهم إلى ربهم الذى غمرهم برحمته حال كونهم وافدين عليه تعالى وفود الضيف العزيز على الملك الكريم.

وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا ﴿٨٦﴾
لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ[1] إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٨٧﴾
وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾
تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ[2] يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ
ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي
لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ[3]
وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي[4] ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ[5]
وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ[6] يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ[7] فَرۡدًا ﴿٩٥﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ[8] وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ[9] سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ
وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ[10] بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ
بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ
مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾

المفردات :. ﴿وفدا﴾ : اسم جنس واحده وافد، وهم القوم الذين يفدون على الملوك لأخذ العطايا. ﴿وردا﴾ : أصل الورد السير إلى الماء بسرعة من شدة العطش وأزيد به هنا الواردون العطاش. ﴿عهدا﴾ : هو كلمة التوحيد والعمل الصالح الذى يسوغ الإذن لهم بالشفاعة. ﴿إدا﴾ : أى عجيبا منكرا شديدا. ﴿يتفطرون منه﴾: أى يتشققن. ﴿وتخر الجبال﴾ : أى تسقط وتتهدم. ﴿هدا﴾ : مصدر مؤكد لمعنى ما قبله وهو ﴿تخر﴾ أى: تهد هدا شديدا. ﴿أن دعوا للرحمن ولدا﴾ : أى بسبب أنهم نسبوا له سبحانه ولدا.

﴿إن كل مَنْ فى السموات﴾ :﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ما. ﴿إلا آتى﴾ : إتيان معنوى بمعنى الخضوع لقضائه.

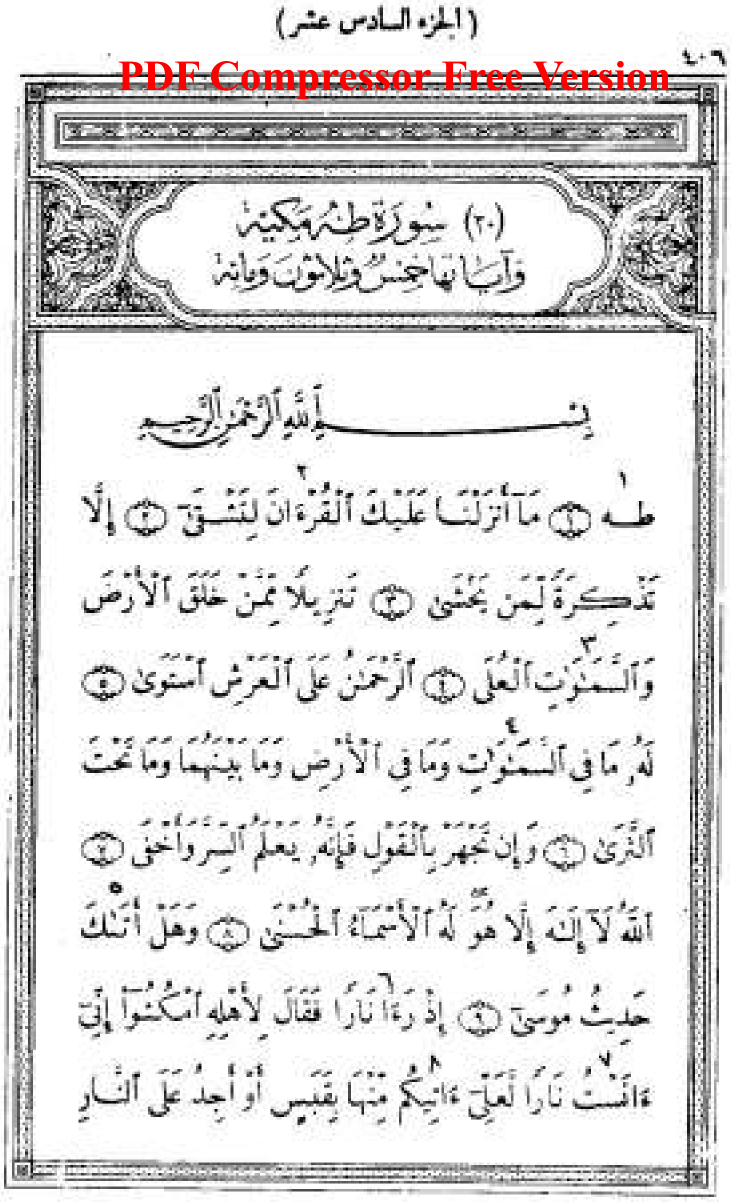
﴿ودا﴾ : أى محبة منشؤها الإيمان الذى يربط بين قلوبهم، انظر الآية (٧١) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣، والآية (٢٩) من سورة الفتح صفحتى ٦٨٣، ٦٨٤ والآية (١٠) من سورة الحشر

---

(١) الشفاعة
(٢، ٣) السموات
(٤) آتى
(٥) أحصاهم
(٦) آتيه
(٧) القيامة
(٨) آمنوا
(٩) الصالحات
(١٠) يسرناه.

صـفـحـة ٧٣١. ﴿لُدا﴾: جمع ألد بفتح اللام وتشديد الدال وهو شديد الخصومة بالباطل. ﴿قرن﴾ : أى جماعة من الناس والمراد أمة. ﴿هل تحس منهم من أحد﴾ : الاستفهام هنا بمعنى النفى أى لا تحس و﴿من﴾ فى ﴿من أحد﴾ مؤكدة لعموم النفى. ﴿ركزا﴾ : الركز الخفاء ومنه ركز الرمح إذا غيب بعضه فى الأرض، والمراد هنا الصوت الخفى الذى لا تكاد تسمع معه حروفًا.

المعنى :. نكرم المتقين ونسوق المجرمين إلى جهنم عطاشا كما تساق الدوأب العطاش إلى الماء، ولكن الماء هنا حميم يقطع أمعاءهم. يومئذ لا يملك أحد من العباد جميعا الشفاعة فى غيره إلا مَنْ أذن له ربه وفيمَنْ رضى عنه، انظر الآية (٢٥٥) من سورة البقرة صفحة ٥٣، والآية (٢٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣. وقال الكافرون من مشركين ويهود ونصارى: اتخذ الله ولدا؛ فالعرب قالوا الملائكة، واليهود قالوا العزير، والنصارى قالوا المسيح. لقد جئتم أيها الكافرون بقولكم هذا شيئا منكرا. ثم وصفه بما يبين شناعته فقال: تكاد السموات تتشقق من فظاعته، وتنشق الأرض حتى تبتلع مَنْ فوقها، وتتهد الجبال هدا شديدا؛ وذلك من أجل أنهم نسبوا لله ولدا، والحال أنه سبحانه لا يليق به اتخاذ الولد لأنه لا يكون إلا لحاجة والده له، والله سبحانه غنى عن العالمين. ثم دل على بطلان ذلك: ﴿إن كل مَنْ فى السموات﴾ إلخ: أى ما من أحد من الملائكة والجن والإنس إلا خاضع للرحمن فى قضائه مملوك له، لقد أحصاهم بعلمه، فهم تحت تصرفه، وعد أشخاصهم وأعمالهم عدا دقيقا، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة وحيدا مفردا عن الأهل والأصحاب والمال. ثم أراد سبحانه أن يسلى رسوله على مخالفة قومه له فقال : إن الذين آمنوا بالله وبرسالتك وعملوا الصالحات سيربط الله قلوبهم بالمحبة التى يبعثها الإيمان. وبعد إيحاء هذه السورة عليك بلغ أيها النبى ما أنزل إليك وبشر به وأنذر، فإنما جعلناه عربيا بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما اشتدوا فى خصومتهم بعذاب أليم، انظر توضيح المقام فى الآية (١٦٤) من سورة آل عمران صفحة٩٠، والآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩. ثم وعده ﷺ بالنصر فى ضمن وعيده للكفار بالهلاك فقال ﴿وكم أهلكنا﴾ إلخ: أى وكثيرا من الأمم قبلهم أهلكناهم لما كفروا كهؤلاء، حتى أنك لا تشعر الآن بحياة أحد منهم، ولا تسمع له همسا.


(الجزء السادس عشر)
٤٠٦
(٢٠) سورة طه مكية
وآياتها خمس وثلاثون ومائة
بسم الله الرحمن الرحيم
طه ﴿١﴾ ما أنزلنا عليك القرءان لتشقى ﴿٢﴾ إلا
تذكرة لمن يخشى ﴿٣﴾ تنزيلا ممن خلق الأرض
والسموات العلى ﴿٤﴾ الرحمن على العرش استوى ﴿٥﴾
له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت
الثرى ﴿٦﴾ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴿٧﴾
الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴿٨﴾ وهل أتاك
حديث موسى ﴿٩﴾ إذ رءا نارا فقال لأهله امكثوا إني
ءانست نارا لعلي ءاتيكم منها بقبس أو أجد على النار

سورة طـــه

بسم الله الرحمن الرحيم

المـفـردات: . ﴿طـه﴾ : تنطق : طا، ها. مختصرا من اسمي ﴿طاء، وهاء﴾، وتقدم الكلام على المراد من هذه الأحرف المقطعة كلها أول سورة البقرة.

﴿لتشقى﴾ : يطلق الشقاء عند العرب على التعب؛ يقال سيد القوم أشقاهم، أى أشدهم تعبا فى مصالحهم، انظر الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠، والآية (٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٧٩.

﴿العُلَى﴾ : جمع العليا، مؤنث الأعلى.

﴿على العرش استوى﴾ : تقدم بيانه فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١.

﴿الثرى﴾ : أصل الثرى التراب النَّدِيّ، والمراد مطلق التراب.

﴿هل أتاك﴾ : من أساليب العرب إذا أرادوا تثبيت الخبر يستفتحون بالاستفهام فيقول أحدهم لصاحبه هل بلغك كذا؟

ليستلفت نظره. ﴿آنست﴾ : الإيناس : الشعور بما يستأنس به، كما أن التوجس : الشعور بما يخاف منه، والمراد أبصرت نارا أستأنس بها.

---

(١) طا. ها (٢) القرآن (٣، ٤) السموات
(٥) أتاك (٦) رأى (٧) آنست
(٨) آتيكم.

﴿بقبس﴾ : أى بجزء مقتبس منها على رءوس عيدان، وهو المراد بالشهاب فى الآية (٧) من سورة النمل صفحتى ٤٩٤، وبالجذوة فى الآية (٢٩) من سورة القصص صفحتى ٥١٠، ٥١١.

المعنى : . لما كان ﷺ شديد الحزن على عدم إيمان قومه، أراد سبحانه أن يسليه ويدفع عنه الضجر فقال: ما أنزلنا عليك أيها النبى هذا القرآن لتتعب نفسك أسفا على كفر قومك به، فليس عليك إلا البلاغ، انظر الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠، ولكن أنزلناه تذكيرا لمن فى قلبه خشية، لأنه ينتفع به. ثم بيَّن سبحانه مكانة هذا القرآن بتفخيم شأن منزله فقال ﴿تنزيلا﴾ أى أنزل عليك تنزيلا ممن له هذه الأفعال والصفات العظيمة، هو الرحمن على العرش العظيم استوى استواء يليق به سبحانه، له كل ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما فى الجو وما تحت الثرى من معادن وغيرها، كل ما ذكر له خلقا وملكا وعبيدا. وبيَّن شمول ملكه وقدرته، وبيَّن إحاطة علمه بجميع الأشياء، فقال: وإن تجهر بالقول أيها المخاطب فاعلم أنه سبحانه فى علمه بأحوالك غنى عن جهرك لأنه يعلم ما تسر به لغيرك ولم ترفع به صوتك، ويعلم ما هو أخفى من السر وهو خواطر القلب التى لا يتحرك بها اللسان، انظر الآية (١٦) من سورة ق صفحة ٦٨٩. وهذا إرشاد منه تعالى ليتحرى العبد ويحتاط فلا ينطق بسوء. وإنما خص الجهر بالذكر لأنه الأكثر بين الناس. ثم أراد سبحانه أن يبين أن ما تقدم من صفات الكمال ليس أهلا لها إلا المعبود الحق الذى لا رب غيره ولا معبود سواه، فقال ﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾ لأنها دالة على التقديس والحكمة. والحسنى مؤنث الأحسن. ثم أراد سبحانه أن يرشد نبيه لتحمل المشاق والتسلى بما حصل لإخوانه الأنبياء، فذكره بقصة موسى وما لاقاه من فرعون وقومه، ليعلم منها أن العاقبة للمتقين، فقال: ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ إلخ: والمعنى : هل بلغك أيها النبى قصة موسى ورسالته وما لاقاه من فرعون، المبتدأة من وقت أن رأى نارا من بعيد، وكان الليل مظلما والجو باردا حتى خفى عليه الطريق، وكان موسى بعدما قضى الأجل مع والد زوجته أراد الرجوع إلى مصر ليرى والدته وأخاه، فأخذ معه بعضا من الغنم ليقتات من لبنها، وبعض ما يركب ويحمل متاعه، فلما وصل وادى طوى، وفيه جبل الطور وصادف ما سلف من الظلمة والبرد، رأى فى هذا الوقت شيئا ظنه نارا فقال لزوجه ومَنْ معه من الرعاة : امكثوا مكانكم لأنى أبصرت نارا وسأذهب إليها راجيا أن آتيكم منها بقبس أو أجد عندها هاديا يرشدنا إلى الطريق.

هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠
رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾
وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾
إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا
تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ
هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ
عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا
مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا
هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا
سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ
بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ

المفردات :. ﴿هدى﴾ : أصله مصدر وأريد به هاد. ومرشد للطريق. ﴿اخلع نعليك﴾ : لأن الحفاء كان أمارة التواضع والأدب فى ذلك الوقت، وقال سعيد بن جبير: ذلك كما يؤمر الرجل بخلع نعليه إذا أراد دخول الكعبة أى ليطأ الأرض المقدسة بقدميه عاريتين فتصيبه بركة ذلك المكان، وهو واقف يسمع أشرف ما يُسْمَع من أعلى مقام فى الوجود مباشرة من غير واسطة. ﴿إنك بالوادى المقدس﴾ إلخ: بيان لسبب الأمر بالخلع من شرف البقعة التى اختارها سبحانه لمناجاة كليمه موسى. ﴿المقدس﴾ قال الراغب: التقديس التطهير الإلهى المذكور فى قوله تعالى ﴿يطهركم﴾ الآية (٣٣) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٤ فهو تطهير من الأرجاس المعنوية كالشرك والحسد والحقد من كل ما فيه نقص معنوى ولذا يكون الشىء المقدس كثير البركة ولذا سمى المكان مباركا فى الآية (٣٠) من سورة القصص صفحة ٥١١. ﴿طوى﴾ : هو اسم هذا الوادى الموجود بجانب الطور كما فى الآية (٢٩) من سورة القصص صفحتى ٥١٠، ٥١١.

﴿الساعة﴾ : أى القيامة.

﴿أكاد أخفيها﴾ : أى أقرب من إخفائها ﴿أخفيها﴾ قال الراغب (الخفاء) يطلقه العرب على ما يستر به الشىء كالغطاء، ويقولون فلان أخفى الشىء أى أزال خفاءه وأظهره كما يقولون

---

(١) أتاها (٢) يا موسى (٣) الصلاة
(٤) آتية (٥) هواه (٦) يا موسى
(٧) أتوكا (٨) مآرب (٩) يا موسى
(١٠) فألقاها (١١) آية.

يقولون أقذيت العين أى أزلت عنها القَذَى، وأشكلت الكتاب أى أزلت إشكاله والتباسه بوضع علامات إعرابه. فالعرب تستعمل ﴿أخفى﴾ فى ستر الشىء، وفى إظهاره، وهما ضدان. فمن الأول ﴿إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها.. إلخ﴾ الآية (٢٧١) من سورة البقرة صفحتى ٥٧، ٥٨ ومن الثانى ما هنا. فالعرب تزيد فى الفعل الثلاثى همزة، أو تكرر حرفا من حروفه لإفادة معنى الإزالة. فالتكرير كما فى ﴿حَرِّض المؤمنين على القتال.. إلخ﴾ الآية (٦٥) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧، وزيادة الهمزة كما فى ﴿مصرخكم﴾ الآية (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣ فإنه مأخوذ من أصرخ، وكما هنا فى ﴿أخفيها﴾، وكما فى قولهم أقسط الرجل عدل وقسط؛ فالمعنى أزيل خفاءها بإظهارها، وإنها الحياة الدنيا ﴿فتردى﴾ : فتهلك. ﴿وما تلك بيمينك﴾ : استفهام يراد به تنبيه المخاطب لما سيأتى فليس المراد ظاهر ذلك السؤال من أنه لطلب العلم، لأن ذلك محال عليه تعالى وهو العليم بكل شىء، بل السؤال هنا مقصود به تعليم موسى عليه السلام ما يجهله عن هذه العصا، وذلك ما فهمه نبى الله موسى حيث ذكر كل ما يعلم ليتلقى من الله ما لا يعلم. فالمقام مقام تعليم من الله لموسى، لا أن يتعلم الله من موسى شيئا، حاشاه سبحانه. وهذا أسلوب معهود من كل مَنْ أراد أن يظهر من الشىء الصغير شيئا عظيما، فإنه يعرضه أولاً على الحاضرين، ويقول لهم ما هذا وما فائدته؟ فإذا قالوا كل ما يعرفونه عنه مما هو بعيد عما يريد السائل إظهاره، يظهر لهم ما يبهرهم ولا يخطر لهم على بال. فكذلك هنا بعدما عدد موسى كل ما يعلمه أظهر له سبحانه من أسرارها كل تلك المعجزات : كانقلابها حية، وضرب البحر بها حتى انفلق، وضرب الحجر حتى تفجر منه الماء. فكان جواب موسى جواب مَنْ يتطلع لعلم ما لا يعلمه. فأجابه الله سبحانه إليه. ﴿أهش بها﴾ : أى أضرب بها ورق الشجر ليسقط على غنمى فتأكله. ﴿مآرب أخرى﴾ : جمع مأربة بفتح الراء وضمها وكسرها، بمعنى حاجة. ﴿حية﴾ : اسم للصغير والكبير والذكر والأنثى من هذا النوع، والثعبان هو الكبير منها، انظر الآية (١٠٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٩، وكانت فى قوة الحركة والمقاومة كالجان. انظر الآية (١٠) من سورة النمل صفحة ٤٩٥، والآية (٣١) من سورة القصص صفحة ٥١١.

﴿سيرتها الأولى﴾ : هيئتها وحالتها الأولى.

﴿جناحك﴾ : أصل الجناح للطائر، ويطلق على جانب الشيء، وعلى العضد، انظر الآية (٣٢) من سورة القصص صفحة ٥١١.

﴿من غير سوء﴾ : أي من غير مرض كالبرص.

المعنى : . أو أجد على النار مَنْ يرشدنى للطريق. فلما أتى ما ظنه نارا، وجد نورا يخرج من شجرة خضراء كما فى الآية (٣٠) من سورة القصص صفحة ٥١١، وسمع صوتا يقول : يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك لأنك بالوادى المقدس الذى هو طوى، وأنا اصطفيتك من قومك للنبوة فاسمع بكل عناية لما يوحى إليك. ثم بيَّن بعض هذا الموحى به فقال إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وحدى، وأقم الصلاة لتذكرنى بقلبك ولسانك، واعلم يا موسى أنت ومَنْ تبلغه رسالتى أن الساعة آتية لا ريب فيها، أى قرب وقت وقوعها وإنهاء هذه الحياة الدنيا وجمع الخلائق للحساب، فهى لابد واقعة لتجزى كل نفس بما عملت، فلا يصرفنك عن الإيمان بها من لا يؤمن بها فتهلك مع الهالكين. ثم أراد سبحانه أن يبين لموسى المعجزات التى أعطاها له ليقيم بها الحجة على فرعون وقومه، فقال: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾المراد تأمل جيدا فى حال ما فى يدك لتعلم ما سيكون، فقال: هى عصاى أعتمد عليها فى المشى، وإذا وقفت وراء الغنم، وأسقط بها ورق الشجر لتأكل غنمى، ولى فيها منافع أخرى غير ذلك كحمل الزاد، وطرد السباع، ووضع الرداء عليها، والاستظلال من الشمس، إلى غير ذلك. قال سبحانه: اطرحها على الأرض يا موسى. فألقاها فإذا هى صارت حية تجرى، فخاف منها موسى فقال له: خذها ولا تخف سنعيدها إلى حالتها الأولى، أى كما كانت عصا عادية. ثم أرشده إلى المعجزة الثانية، فقال: وأدخل يدك من فتحة ثوبك حتى تضعها تحت عضدك، انظر الآية (١٢) من سورة النمل صفحة ٤٩٥، والآية (٣٢) من سورة القصص صفحة ٥١١، ثم أخرجها فإنها ستخرج بيضاء مخالفة للون باقى جسمك، وليس بياضها بياض مرض حال كونها معجزة ثانية. فعلنا معك ذلك لنريك بعض معجزاتنا.

ءَايَـٰتِنَا[1] ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾
قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾
وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾
وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ[2] أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ
بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ
كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾
قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ[3] ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ
مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾
أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ
بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً
مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ
هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ[4] إِلَىٰٓ أُمِّكَ

المفردات : . ﴿احلل عقدة من لسانى﴾ : كان فى لسانه عليه السلام رُتّه بضم الراء وتشديد التاء أى حبسة تجعل فى الفهم منه صعوبة فكان من أدبه أنه لم يطلب حلها جميعا، بدليل اعترافه بأن هارون أفصح منه كما فى الآية (٣٤) من سورة القصص صفحة ٥١١، وتصريح فرعون بأنه لا يوضح مراده كما فى الآية (٥٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢. ﴿وزيرا﴾ : أى مؤازرًا ومساعدًا. ﴿أزرى﴾ : يطلق الأزر على الظهر وعلى القوة. ﴿سؤلك﴾ : السؤل بمعنى المسئول كالخبز بمعنى المخبوز، والمراد إنا مكناك من أن تُفهِم غيرك بلا صعوبة. ﴿مرة﴾ : المراد بالمرة هنا الفترة من الزمن السابق التى حصل له فيها نعم كثيرة كما سيأتى. ﴿أوصينا إلى أمك﴾ : فى المنام أو على لسان ملك تمثل لها بشرا كما فى الآية (١٧) من سورة مريم صفحة ٣٩٧، انظر بيان ذلك فى الآية (٧) من سورة القصص صفحتى ٥٠٦، ٥٠٧.

﴿اقذفيه﴾ : أى اطرحيه، انظر الآية (٢) من سورة الحشر صفحتى ٧٢٩، ٧٣٠.

﴿التابوت﴾ : صندوق محكم من خشب. ﴿اليم﴾ : هو اسم للماء الكثير سواء أكان عذبا كما هنا، أم ملحا كما فى الآية (٧٨) من هذه السورة صفحة ٤١٣. ﴿عدو لى وعدو له﴾ : هو فرعون. ﴿ولتصنع على عينى﴾ : أصله من صنع الرجل فرسه إذا أحسن تربيتها، فالمراد تربى تحت رعايتى ومراقبتى فلا تمس بسوء، ونظير ذلك ما فى الآية ٣٧ من سورة هود صفحة

(١) آياتنا (٢) هارون
(٣) يا موسى (٤) فرجعناك.

٢٨٩. ﴿يكفله﴾: أى يحفظه ويقوم بشئونه. ﴿فرجعناك إلى أمك﴾ : أى رددناك إليها، انظر شرح الآية (٨٣) من سورة التوبة صفحة ٢٥٥.

المعنى : . لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا العظمى، اذهب بهما إلى فرعون لأنه جاوز حد العبودية إلى دعوى الربوبية وتجبر على خلقى، فادعه إلى عبادتى وحذره نقمتى. فلما سمع موسى ما كلف به وأنه أمر خطير طلب من ربه ستة أشياء ليقوم بما كلف به خير قيام فقال: يارب حقق لى شرحا وتيسيرا؛ أما الشرح فلصدرى بأن تفسحه لتحمل أعباء الرسالة والصبر على مشاقها، وأما التيسير فبتسهيل الأمر بإيجاد الأسباب ودفع الموانع، واحلل من لسانى عقدة من عقده التى يصعب التفاهم معها ليفهم الناس ما أبلغه عنك، واجعل لى مساعدا من أهل بيتى هو هارون أخى لأنه أفصح منى فيحمل معى أعباء الرسالة فأقوى به ظهرى عند الشدة، واجعله شريكى فى أمر الرسالة، انظر آيتى (٣٣، ٣٤) من القصص صفحة ٥١١. وإنما طلبت منك يارب ذلك لكى نتعاون على أن ننزهك عما لا يليق بك، وأن نذكرك وحدك كثيرا، والتعاون على البر يقوى العزائم، إنك يارب كنت بأحوالنا عليما فتساعدنا على ما يسهل لنا النجاح. قال سبحانه: قد أعطيتك ما سألتنى، ولقد تفضلنا عليك من قبل بنعم كثيرة لم تطلبها، فلا نبخل عليك بما تطلب منها حين أوصينا إلى أمك وقت أن خافت عليك من القتل، كما كان فرعون يفعل مع أبناء بنى إسرائيل، أوحينا إليها ما ينبغى به أن يكون وحيا لا يخل به لعظم شأنه فقلنا لها بهذا الوحى: ضعى موسى إذا خفت عليه فى التابوت، وألقيه فى النيل، فسيلقيه النيل بساحل قصر فرعون فيبصره الخدم فيأخذونه فيراه فرعون فيأخذه، مع أنه عدو لله حيث عبد غيره، وعدو لموسى حيث كان يقتل جنسه، وألقيت عليك محبة تحصل فى قلب كل مَنْ يراك صادرة من فضلى، لتحب من الجميع، ولتصنع تحتى رعايتى، ومنها حين مشت أختك تقص أثرك فى اليم كما فى الآية (٧) وما بعدها من سورة القصص صفحتى ٥٠٦، ٥٠٧. فلما أنعمنا عليك بمنعك من الرضاع من جميع النساء اللاتى أحضروها لك انتهزت أختك ذلك فقالت لبيت فرعون: هل أدلكم على مَنْ يحفظه ويقوم بشأنه؟ فقبلوا فلما عرضوك على أمك التقمت ثديها فتركوك فى كفالتها، وبذلك رددناك إلى أمك...

كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ
الْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ
جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾
اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾
اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا
لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن
يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا
أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ
مَعَنَا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن
رَّبِّكَ وَالسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ
إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن
رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ

المفردات : . ﴿تقر عينها﴾ : قر من باب ضرب وعلم قرة بضم أوله، وقرورًا كناية عن السرور، وأصله من القرار وهو الثبات المعنوى أو الحسى؛ أما المعنوى لأن مَنْ ينال أمنيته لا يتطلع إلى غيرها، وأما الحسى؛ لأن الألم والفزع يجعل العين حائرة مضطربة، فإذا اطمأن صاحبها سكنت، انظر الآية (٩) من سورة القصص صفحة ٥٠٧، والآية (١٩) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥١، ٥٥٢.

﴿ولا تحزن﴾ : المراد لا يعتريها بعد ذلك حزن أبدا. ﴿قتلت نفسا﴾ : هى نفس القبطى كما فى الآية (١٥) من سورة القصص صفحة ٥٠٨.

﴿من الغم﴾ : الذى اعتراك من خوف القتل، انظر الآية (١٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٠، والآية (٢٠) من سورة القصص صفحة ٥٠٩ .

﴿وفتناك﴾ : أى اختبرناك وامتحناك بالشر والخير كما فى الآية (٣٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤. ﴿فتونا﴾ : أنواعا من الفتن جمع فَتْن بفتح فسكون كالظنون جمع ظن.

﴿فلبثت﴾ : أى مكثت.

﴿مدين﴾ : فى الجنوب الشرقى للطور عند خليج العقبة.

﴿على قدر﴾: المراد بالقدر هنا الوقت الذى قدر الله عز وجل فى الأزل أن يكلم فيه موسى ويبلغه رسالته.

---

(١) فنجيناك	(٢) وفتناك	(٣) يا موسى
(٤) بآياتى	(٥) إسرائيل	(٦) جئناك
(٧) بآية	(٨) والسلام	(٩) يا موسى.

﴿واصطنعتك﴾ : أصله من الصنع بمعنى الصنيعة وهى الإحسان.

ومعنى اصطنعه جعله محل إحسانه.

﴿لنفسى﴾ : أى لوحى رسالتى، والمراد جعلتك من خواصى.

﴿بآياتى﴾ : المراد بها المعجزات كالعصا واليد وما يتبع ذلك، انظر الآية (١٠١) من سورة الإسراء صفحة ٢٧٨.

﴿ولا تنيا فى ذكرى﴾ : أى لا تقصرا فى ذكرى وعبادتى وطاعتى التى من أهمها تبليغ الرسالة.

﴿اذهبا إلى فرعون﴾ : لما أمرهما أولاً بالذهاب مطلقا بيَّن لهما هنا أن الذهاب إلى فرعون.

﴿طغى﴾ : تجاوز الحد فى الظلم.

﴿قولا لينا﴾ : أى لا عنف فيه ولا غلظة بينت بعضه آيتى (١٨، ١٩) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠.

﴿قالا ربنا إننا نخاف﴾ إلخ: إذا رجعت إلى آيتى (٣٣، ٣٤) من سورة القصص صفحة ٥١١ تعلم أن موسى عليه السلام عندما ناداه ربه أول مرة وأمره بالذهاب إلى فرعون أظهر عليه السلام خوفه من جبروت فرعون، وطمأنه سبحانه فسكنت نفسه ولما رجع وبلَّغ أخاه هارون بأن الله عز وجل أرسله معه إلى فرعون وكان هارون يعلم من طغيان فرعون وشدة غيظه من موسى مالم يعلمه موسى لغيبته مدة عشر سنين وهى الفترة التى قضاها بمدين، حملهما هذا على أن يظهرا حذرهما لربهما لعله يزيدهما طمأنينة يتحصنان بها عندما يفاجئهما فرعون وجنوده بالجبروت والبغى فقالا ربنا إننا ... إلخ.

﴿يفرط علينا﴾ : أى يعجل علينا بالقتل، وأصله من قولهم فرس فارط إذا سبق غيره، انظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٣. ﴿يطغى﴾ : المراد يزداد تجاوزا للحد فى الإساءة إلينا.

المعنى : . رددناك إلى أمك تحقيقا لوعدنا لها فى الآية (٧) من سورة القصص صفحتى ٥٠٦، ٥٠٧ لتسر ولا تحزن بعد ذلك أبدا. ومما مننا به عليك أننا نجيناك من الغم حين قتلت الرجل القبطى، وعاملناك معاملة المختبر لتتجلى حقيقتك التى أهلتك لتكون رسولا؛ فعلنا معك ذلك بأنواع الفتن كما حصل لك عند هربك من مصر مفارقا لأهلك سائرا على رجليك المسافات الطويلة مع عدم الزاد، وتأجير نفسك لرعى الغنم، إلى غير ذلك، وبعد تلك الفتنة مكثت مدة عشر سنين فى أهل مدين كما فى الآية (٢٧ إلى ٢٩) من سورة القصص صفحتى ٥١٠، ٥١١، ثم جئت على وفق الوقت الذى قدرته لأحملك رسالتى دون تقدم عليه أو تأخر عنه، ولولا توفيقى لما تم ذلك، وجعلتك من خواصى لتحمل رسالتى. اذهب أنت وأخوك هارون مستدلاً على صدقكما بآياتى ولا تفرطا فى عبادتى وطاعتى. اذهبا بذلك إلى فرعون لأنه تجاوز الحد فبلغاه رسالة ربكما بأسلوب لين أول الأمر حتى لا يفاجأ بما ينفره، فإذا تجبر وتكبر قوبل عمله بما يليق به كما فى الآية (١٠٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨، والآية (٢٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٨١، راجين أن يتذكر عظمة ربه أو يخاف عذابه. قال موسى وهارون بعد أن بلغه موسى تكليف ربه: ياربنا إننا نخاف أن يسبق فرعون بقتلنا، أو يزداد ظلمه لبنى إسرائيل عموما. قال : لا تخافا لأننى معكما بالحفظ والنصر أسمع وأرى، فأدفع شره عنكما، فأتياه فقولا إنا رسولا ربك إليك فأرسل معنا بنى إسرائيل، أى أطلقهم من الاستعباد، ولا تعذبهم بالقتل والتسخير فى الأعمال الشاقة، وإنما بدأ بهذا الطلب دون دعوة فرعون وقومه إلى الإيمان لأنه أسهل فى أول الأمر، فإذا أطاع انتقلا لغيره. وقد جئناك بالبرهان القاطع بصدقنا وهى المعجزة. ثم رغبه فى النجاة فقال: والسلامة والأمان من العذاب فى الدنيا والآخرة على مَنْ اتبع هدى الله وآمن برسله. ثم انتقلا إلى تخويفه وجاء بالتخويف على أنه وحى من الله لتخف حدته عليهما فقالا: إن الله قد أوحى إلينا أن العذاب فى الدارين على مَنْ كذب رسله وأعرض عما جاءوا به. ثم لما بلّغاه ما أمرهما الله تعالى به كان من تجبره أن أغفل قولهما: ﴿إنا رسولا ربك﴾ و ﴿قد جئناك بآية من ربك﴾ وقال: إذا كنتما رسولى ربكما فمَنْ ربكما هذا يا موسى الذى تزعمان أنه أرسلكما؟ وإنما وجه الخطاب لموسى لأنه الأصل فى الرسالة. قال موسى: ربنا جميعا نحن وأنت هو الإله الحق الذى أعطى كل شىء إلخ.

خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ
عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ(١) لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا
سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا(٢) مِّن
نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ(٣) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ(٤) لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ(٥) وَفِيهَا
نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ(٦)
ءَايَٰتِنَا(٧) كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ
أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ(٨) ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ
فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ
مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ
ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾

المفردات : . ﴿خلقه﴾ : أصل الخلق مصدر بمعنى الإيجاد، وأريد به هنا اسم المفعول أى مخلوقاته تعالى، وهو مفعول أول لأعطى، قدم عليه المفعول الثانى.

﴿كل شىء﴾ لأنه المقصود بالامتنان.

﴿بال﴾ : أصل البال الأمر المهم، والمراد به هنا الحال.

﴿فى كتاب﴾ : هو اللوح المحفوظ.

﴿لا يضل ربى﴾ : أى لا يخطئ فى شىء مما فيه. ﴿مهدا﴾ : أصل المهد مكان راحة الصبى، والمراد كالمهد فى الراحة فيها.

﴿وسلك لكم﴾ : أصل السلوك الدخول فى الطريق، يقال سلكت الطريق وسلكت فلانا فيه؛ فمن الأول آيتى (٦٩) من سورة النحل صفحة ٣٥٤، و (٢٠) من سورة نوح صفحة ٧٦٩؛ ومن الثانى آيتى (١٢) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨، و (٤٢) من سورة المدثر صفحة ٧٧٧. والمعنى المراد هنا: هيأ لكم فيها طرقا.

﴿سبلاً﴾ : جمع سبيل أى طريق.

﴿فأخرجنا به﴾ : أصل كلام موسى فأخرج، ولما حكاه سبحانه عنه نسب الإخراج إلى نفسه تعالى تنبيها لما فيه من كمال القدرة، انظر الآية (٦٠) من سورة النمل صفحة ٥٠١، والآية (٢٧) من سورة فاطر صفحة ٥٧٥.

﴿أزواجا﴾ : أى أصنافا.

---

(١) كتاب (٢) أزواجا (٣) أنعامكم
(٤) لآيات (٥) خلقناكم (٦) أريناه
(٧) آياتنا (٨) يا موسى.

﴿شتى﴾ : جمع شتيت كمريض ومرض أى مختلفة.

﴿آيات﴾ : أى أدلة على وجود صانع قادر حكيم.

﴿لألى﴾ : أى أصحاب.

﴿النهى﴾ : أى العقول الناهية عن القبيح، ومفرده نُهية بضم فسكون.

﴿لتخرجنا من أرضنا﴾ : أى لتتغلب على مصر حتى تخرجنا منها.

﴿موعدا﴾ : الموعد مصدر معناه الوعد، ويراد به الاتفاق على شيء وهو هنا زمان الاجتماع بدليل قوله بعد ذلك موعدكم يوم الزينة.

﴿مكان سوى﴾ : أى فى مكان من الأرض مستو لا ارتفاع فيه ولا انخفاض حتى يتمكن جميع الحاضرين من المشاهدة.

﴿الزينة﴾ : أى زينة الناس فيه لأنه يوم من أعيادهم المشهودة.

وروى بعضهم أنه يوم وفاء النيل ومازال معروفا فى مصر إلى الآن.

﴿أن يحشر الناس﴾ : مئول بمصدر معطوف على الزينة، أى ويوم حشر الناس وجمعهم ضحى.

﴿كيده﴾ : أصل الكيد التدبير الخفى، والمراد هنا ما يكيد به لخصومه من السحرة وغيرهم كما سيأتى فى آيتى (٦٤، ٦٩) صفحة ٤١١.

المعنى : أعطى سبحانه مخلوقاته كل ما يحتاجون إليه فى حياتهم، ثم هداهم إلى طريق الانتفاع به، انظر الآية (٢٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٥.

ولما أدرك فرعون قوة الدليل على بطلان دعواه الربوبية، وخاف أن يفهم الناس ذلك، نقل الكلام إلى أمور يمكن الجدل فيها فقال: إذا كنت رسولا فأخبرنى عن حال الأمم الماضية وما حصل لهم. فأغلق موسى عليه هذا الباب بقوله: علمها عند ربى لأنه من الغيب الذى لا يعلمه سواه، وإنما أنا عبد مثلك لا أعلم إلا ما يعلمنى ربى، وعلم هذه الأمم مثبت فى كتاب محفوظ

لا يخطئ ربى فى شيء مما فيه ولا ينساه؛ ربى هذا هو الذى جعل لكم الأرض مهادا وجعل لكم فيها طرقا، وأنزل من جهة السماء ماء، فأخرج به أنواعا مختلفة من النبات، قائلا كلوا من حبوبها وثمارها، وارعوا أنعامكم فى حشائشها، إن فى هذا الصنع البديع لأدلة على وجود صانع حكيم ينتفع بها أصحاب العقول السليمة، وقائلاً سبحانه أيضا: من هذه الأرض خلقناكم، وفيها نعيدكم بالموت، ومنها نخرجكم مرة أخرى للبعث والحساب.

ثم قال سبحانه تتميما لما جرى بين موسى عليه السلام وفرعون: ولقد أرينا فرعون أدلة وجودنا وصدق موسى كلها حين طلبها كما فى الآية (١٠٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٩، وآيتى (١٠٧، ١٠٨) وما بعدهما من نفس السورة تدل على أنه لم يُرِه قبل جمع السحرة غير آيتين العصا واليد، وإنما جمعهما هنا لأنهما فى قوة آيات كثيرة لما اشتملتا عليه من عبر تكفى الواحدة منها لإيمان أقسى الناس قلبا.

والتعبير بالجمع عن الواحد والاثنين لما فيه من المزايا معهود عن العرب؛ فمنه قولهم: فليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد، وقوله سبحانه ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ فالعصا كان يكفى فى إعجازها أن تتحرك وهى على حالها، أو تنقلب ثعبانا صغيرا بجسمها بدون حركة، أو ثعبانا يتحرك ببطء، إلى غير ذلك، لكنها انقلبت إلى ثعبان ضخم سريع الحركة كأنه جان، انظر ما سبق فى الآية (٢٠) من هذه السورة صفحة ٤٠٧، وهذا غير ما حصل فيما بعد من ابتلاعها تلالا من الحبال والعصى مع بقاء حجمها كما هو.

وبعد ما رأى فرعون هذه الآيات كذب موسى من شدة عناده وأبى الإيمان لقوة عتوه، وقال: هل جئتنا لتخرجنا من أرض مصر بسحرك وتتحكم فيها؟ فوعزتى لنأتينك بسحر مثل سحرك يغلبه، فاضرب بيننا وبينك وعدًا لا نخلفه نحن ولا أنت ونجتمع فى مكان مستو. قال موسى: زمن وعدكم يوم الزينة وحشر الناس فيه ضحى. فأعرض فرعون عن موسى فجمع ما يكيد به من السحرة وآلاتهم ثم أتى به فى الموعد.

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم
بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا[1] أَمْرَهُم
بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ[2] لَسَاحِرَانِ[3]
يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا
بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ
وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ[4] إِمَّا أَن
تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ
فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا
تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾
قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ
تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ[5] ۖ وَلَا يُفْلِحُ
السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا[6]

المفردات : . ﴿ويلكم﴾ : الويل: الهلاك. والمراد أهلككم الله. ﴿لا تفتروا﴾ : لا تجرءوا فى الكذب على الله. ﴿فيسحتكم بعذاب﴾ : يهلككم بعذاب الإفناء.

﴿أسروا النجوى﴾ : أخفوا تناجيهم عند النظر فى الأمر. ﴿إن هذان لساحران﴾ : إن حرف نفى بمعنى (ما) ولام ﴿لساحران﴾ بمعنى (إلا) أى ما هذان إلا ساحران. ﴿ويذهبا بطريقتكم﴾ : أى يذهباها، انظر الآية (١٧) من سورة البقرة صفحة ٥، وأرادوا بالطريقة ما كان عليه فرعون من اعتقادات وأعمال جعلته يفتخر بأن له ملك مصر، انظر آيتى (٢٦، ٢٩) من سورة غافر صفحة ٦٢١. والآية (٥١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢. ﴿المثلى﴾ : مؤنث الأمثل بمعنى الأفضل أى الأفضل من غيرها. ﴿اجمعوا كيدكم﴾ : أى اعزموا وأنتم متفقون على ما تكيدونهما به، انظر الآية ٧١ من سورة يونس صفحة ٢٧١، والآية (١٥) من سورة يوسف صفحة ٣٠٤. ﴿ثم ائتوا صفا﴾: أى مصطفين لأنه أهيب فى نفس الجمهور. ﴿استعلى﴾ : طلب العلو بالغلبة على خصمه. ﴿يخيل إليه من سحرهم﴾ : يقال إن فرعون وملأه لما رأوا فى مجلسهم الخاص أن عصا موسى صارت ثعبانا كما فى الآية (١٠٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٩ ضحكوا منه كما فى الآية (٤٧) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢ ظانين أن ما حصل نتيجة سحر تعلمه موسى ليوهم الناس أنه رسول، فأمر فرعون بجمع علمائه الذين يتقنون صنعة الشعوذة كما فى الآية (١١٢) من سورة الأعراف صفحة ٢١٠. فلما حضرا وعلموا بما حصل ظنوا كما ظن فرعون، وطلبوا أجرا إن غلبوا موسى كما فى الآية (٤١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٢، فلما أجابهم لطلبهم صنعوا حبالا وعصيا مجوفة على شكل حيات وحشوها زئبقا لتتحرك إذا مست أقل حرارة.

---

(١) فتنازعوا (٢) هذان (٣) لساحران (٤) يا موسى (٥) ساحر (٦) آمنا.

﴿فأوجس فى نفسه﴾: أى أضمر الخوف فى نفسه.﴿تلقف﴾ : أى تبتلع بقوة وسرعة. ﴿ما صنعوا﴾ : هذا يدل على أن سحرهم كان تخييلا تعلموه كما تتعلم الصنعة، وأنه لا حقيقة له، انظر الآية (٦٦) المتقدمة هنا، والآية (١١٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٠. ﴿فألقى السحرة سجدا﴾: أى فألقت سطوة المعجزة السحرة على وجوههم سجدا خاضعين لله، والمراد أن معرفتهم أن هذا هو الحق أخضعتهم له بقوة وقد أيقنوا بأن موسى نبى لا ساحر.

المعنى : . فلما جاء السحرة فى الموعد المحدد قال لهم موسى: أهلككم الله إهلاكا فلا تجرءوا على نسبة الكذب إليه تعالى بدعواكم أن معجزاته سحر فإنى أخشى أن يفنيكم بعذاب، وقد خاب كل من افترى على الله كذبا. وعندما سمعوا من موسى هذا التهديد الشديد تنازعوا فى الأمر الذى أريد منهم، وبالغوا فى إخفاء كلامهم عن الجميع، وكان تنازعهم أن بعضهم قال ما هذا بقول ساحر، فإن غلبنا اتبعناه، وبعضهم يعارض، وأخيرا قال بعضهم لبعض ما هذان الرجلان أى موسى وهارون إلا ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرض مصر بالاستيلاء عليها بسبب سحرهما الذى أظهروه لكم أولا. ويذهبا طريقتكم الفضلى. وإذا كان الأمر كذلك فاحزموا أمركم الذى تكيدونهما به، وادخلوا إلى الميدان صفا واحدًا حتى تدخلوا المهابة فى نفوس الجميع، وقد فاز اليوم مَنْ غلب خصمه. ثم قالوا ملاحظين أدب المجاملة: يا موسى إما أن تلقى ما معك أو نكون نحن أول مَنْ ألقى. فجامل موسى أيضا فقال بل ألقوا أنتم، فألقوا جميع ما أحضروه من حبال وعصى، ففوجئ موسى بتخيله أن حبالهم وعصيهم تسعى كالحيات بسبب إتقان سحرهم. ولما لم يكن موسى يعلم حقيقة السحر ورأى حبالهم وعصيهم تتحرك كما تتحرك عصاه، أخفى فى نفسه الخوف من أن يخفى الحق على الناس ويظنوه قد غلب لأنهم رأوا عصى السحرة وحبالهم تتحرك كما تحركت عصاه أول الأمر أمام فرعون، ولم يكن يعلم إلى تلك اللحظة أن عصاه ستلقف ما صنعوا. عند ذلك جاء الوحى قائلاً له ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ بحقك على باطلهم، وألق عصاك التى فى يمينك تبتلع كل ما صنعوه من أكوام الحبال والعصى مع بقاء جسمها كما هو؛ لأن ما صنعوه مكيدة ساحر، ولا يفلح الساحر فى أى مكان حل فيه، فلما ألقى موسى عصاه وابتلعت كل ما صنعوا، أيقن السحرة أنه نبى صادق وماهو بساحر، فحملهم يقينهم هذا على السجود لله توبة قائلين آمنا... قال الزمخشرى: ما أعجب أمرهم! ألقوا حبالهم وعصيهم أولاً للكفر والجحود، ثم ألقوا رءوسهم بعد لحظة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الإلقاءين.

بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ
لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ
ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن
نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ
مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾
إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ
مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ
مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾
وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ
ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

المفردات : . ﴿برب هارون وموسى﴾ : فى آيتى (١٢٢) من سورة الأعراف، و (٤٨) من سورة الشعراء صفحتى ٢١١، ٤٨٣ تقديم موسى، ويظهر أن بعضهم قدم موسى لأن الرسالة له أولا، وآخرون قدموا هارون لأنه أكبر سنا، فحكى سبحانه كلا من القولين فى موضعين.

﴿من خلاف﴾ : أى مختلفات : يد من جهة ورجل من أخرى، انظر الآية (١٢٤) من سورة الأعراف صفحة ٢١١.

﴿نؤثرك﴾ : نفضلك ونقدمك.

﴿والذى فطرنا﴾ : معطوف على ﴿ما﴾ فى ﴿ما جاءنا﴾ أى وعلى الذى فطرنا أى خلقنا.

---

(١) هارون
(٢) آمنتم
(٣) آذن
(٤) خلاف
(٥) البينات
(٦) الحياة
(٧) آمنا
(٨) خطايانا
(٩) الصالحات
(١٠) الدرجات
(١١) جنات
(١٢) الأنهار
(١٣) خالدين.

﴿فاقض﴾ : أى أصنع، انظر الآية (١٢) من سورة فصلت صفحة ٦٣١.

﴿وما أكرهتنا عليه﴾ : يظهر أن فرعون كان فيما يعتمد عليه فى تضليل الناس السحر، وكان يكره بعض العلماء على إتقانه، وأنهم كانوا يعلمون أنه تضليل ممقوت، وكانوا يعملونه خوفا من بطش فرعون.

﴿تزكى﴾ : أى تطهر من أنجاس الكفر والمعاصى.

المعنى :. أسرع السحرة بالسجود لله تعالى قائلين آمنا برب هارون وموسى.

قال بعضهم : إن السحرة بعدما ألقوا حبالهم للكفر والجحود سرعان ما ألقوا رءوسهم للشكر والسجود.

قال فرعون هل يصح أن تؤمنوا لموسى أى تصدقوه قبل أن آذن لكم، وما فعلتم ذلك إلا لأنه معلمكم الذى علمكم السحر، وعزتى لأقطعن أيديكم وأرجلكم من جهتين مختلفتين، ولأربطنكم بعد ذلك على جذوع النخل لتمام النكاية بكم، ولتعلمن أينا نحن وإله موسى أشد عذابا وأدوم.

قال السحرة لن نفضلك ونختارك على ما صح لنا من البراهين القاطعة على صدق موسى وعلى ربنا الحق الذى خلقنا، فاصنع ما أنت صانع مما تهددنا به فلن نبالى بك، لأنك لا تستطيع أن تصنع ما تريد إلا فى هذه الحياة الفانية التى لا تساوى عندنا شيئا؛ لأنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا، ومنها عمل السحر الذى أكرهتنا عليه، والله خير منك ومن كل ما فى هذه الحياة وأبقى، أما غيره فزائل. ولم يثبت من طريق صحيح ما يدل على أن فرعون فعل بهم ما هددهم به، والظاهر أنه جبن خوفا كما جبن عن قتل موسى عليه السلام مع جرأته السابقة على تقتيل بنى إسرائيل.

ثم أيد سبحانه كلامهم بقوله: ﴿إنه مَنْ يأت ربه مجرما﴾.. إلخ :

أى إن الأمر الثابت أن مَنْ يأت ربه يوم القيامة مجرما بأن يموت على الكفر والمعاصى فإن له جهنم لا يموت فيها فيستريح ولا يحيا حياة هنيئة. ومَنْ يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا، أى المنازل الرفيعة. وبيَّنها بأنها جنات عدن تجرى من تحت قصورها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء مَنْ طهّر نفسه من أوساخ الكفر والمعاصى.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ
طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ(١) دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾
فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾
وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ(٢) إِسْرَٰٓءِيلَ(٣)
قَدْ أَنجَيْنَٰكُم(٤) مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ(٥) جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ
وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ(٦)
مَا رَزَقْنَٰكُمْ(٧) وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن
يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ
وَءَامَنَ(٨) وَعَمِلَ صَٰلِحًا(٩) ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن
قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ(١٠) ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ
إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ
بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ

المفردات :. ﴿فاضرب لهم﴾ : أى اجعل لهم، من قولهم ضرب له فى ماله قسما، انظر كيف حصل فى الآية (٦٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٤. ﴿يبسا﴾ : أصله مصدر وأريد اسم الفاعل أى يابسا. ﴿دركا﴾: اسم من الإدراك بمعنى اللحوق. ﴿فغشيهم﴾ : أى غطاهم ﴿اليم﴾ : الماء الكثير عذبا كما فى الآية (٣٩) من هذه السورة صفحة ٤٠٨ أو ملحًا كما هنا. ﴿ما غشيهم﴾ : أى ماء لا يعلم مقداره إلا الله.

﴿وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾ : أى واعدنا رسولكم موسى لتلقى التوراة و ﴿الأيمن﴾ صفة للجانب.

﴿المن والسلوى﴾: العسل والطير، انظر الآية (٥٧) من سورة البقرة صفحة ١١.

﴿أعجلك عن قومك﴾ : أى، أى شىء جعلك تسبق قومك الذين اخترتهم للحضور معك لتلقى التوراة.

﴿على أثرى﴾ : أى سائرون على أثرى، أى فى طريقى، والمراد لاحقون بى بلا إبطاء، انظر الآية (٤٦) من سورة المائدة صفحة ١٤٦. ﴿فتنا قومك﴾ : معنى الفتنة الامتحان، انظر الآية (٤٠) من هذه السورة صفحتى ٤٠٨، ٤٠٩، والمراد امتحناهم بالسامرىّ ليظهر راسخ الإيمان والمزعزع الذى يحتاج إلى رعاية فتحوطه يا موسى بملاحظتك ولا تبتعد عنه كثيرا. ولو قال

---

(١) تخاف (٢) يابنى (٣) إسرائيل (٤) انجيناكم
(٥) وواعدناكم (٦) طيبات (٧) ما رزقناكم
(٨) وآمن (٩) صالحا (١٠) يا موسى.

سبحانه: فإنا قد فتنا قومك إلخ بدون ذكر الفاء لكان الكلام سائرا فى طريقه. فما الحكمة فى زيادة الفاء فى قوله ﴿فإنا قد فتنا﴾.. إلخ قال الألوسى ما معناه: جاءت هذه الفاء لتفيد بيان السبب فى السؤال السابق كأنه سبحانه يقول لموسى احترس بعد الآن من البعد عن قومك، وإهمال أمرهم، لأى سبب من الأسباب، فإنهم لحداثة عهدهم باتباعك، ومزيد بلاهتهم وحماقتهم يتمكن الشيطان من المكر بهم فيضلهم، فإن القوم الذين تركتهم مع أخيك هارون قد فتنوا وأضلهم السامرىّ بمجرد خروجك من بينهم. فكيف أمنت على هؤلاء الذين جاءوا معك وتركتهم خلفك؟

﴿السامرىّ﴾ : قال بعض أدعياء المسيحية إن (سامرىّ) نسبة إلى (السامرة) وهى بلد بفلسطين لم توجد إلا بعد موت موسى بعدة سنين، فكيف ينسب إليها رجل كان مع موسى؟ وهذا تضليل مكشوف لأن فى العهد القديم عندهم رجل اسمه (شِمرون) بن ياسر بن يعقوب، وله أولاد كثيرون يطلق عليهم (الشمرونيون) فالسامريون الذين منهم السامرىّ هم أولئك الشمرونيون.

والذين يعلمون تقريب الألفاظ العبرية يجدون المعربين يبدلون الشين العبرية بالسين المهملة، حتى أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنفسهم الذين ينطقون العربية يعربون شين العربية سينًا، فموشى عربوه (موسى)، ويشوع عربوه (يسوع) أو عيسى كما سماه القرآن. فالسامرى هذا إسرائيلى من أولاد (شمرون) حفيد (يعقوب)، وكان منافقا يظهر الإيمان بموسى ويبطن الكفر، وليس هذا غريبًا على بنى إسرائيل، فقد كان (قارون) من قوم موسى، انظر الآية (٧٦) من سورة القصص صفحتى ٥١٧، ٥١٨، ومع ذلك أعلن الكفر بموسى مع فرعون، انظر آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة غافر صفحة ٦٢٠؛ ووجود (ال) فى السامرىّ هنا ومجيئه بدون (ال) فى الآية (٩٥) الآتية صفحة ٤١٥ يفيد أن له اسمًا علمًا غير ذلك فقيل إن اسمه (موسى) وقيل (هارون) والله أعلم.

المعنى : . لما تآمر فرعون وقومه على قتل موسى ومَنْ معه كما قصه الله تعالى فى آيات (٥٢ إلى ٦٣) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٣، ٤٨٤، أوحى سبحانه إليه أن يخرج بنى إسرائيل ليلا، فإذا وصل البحر الأحمر يضربه بعصاه فيجعل لهم فيه طريقا يابسا يسهل السير فيه

حال كونه لا يخاف أدراك فرعون لهم ولا يخشى غرقا، وسهل على موسى تنبيه قومه أنهم كانوا متجاورين، انظر الآية (٨٧) من سورة يونس صفحة ٢٧٩، فلما علم فرعون بخروجهم أول الليل أتبعهم ومعه جنوده قريبا من الصبح كما فى الآية (٦٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٣، فلما وصلوا البحر وجدوا به طريقا يابسا فدخلوا فيه، فانطبق عليهم الماء بكثرة هائلة فهلكوا جميعا، وبذلك تبين أن فرعون كاذب فى قوله وما أهديكم إلا سبيل الرشاد، انظر الآية (٢٩) من سورة غافر صفحة ٦٢١؛ فقد أضلهم وما هداهم إلى خير.

وكان بين دخول يعقوب وأولاده مصر ليجتمعوا بيوسف وبين خروج ذريتهم مع موسى نحو أربعمائه سنة، وبلغ عددهم عند خروجهم ستمائة ألف. وقال سبحانه حملا لهم على شكره: يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم فرعون، ووعدناكم جانب الطور الأيمن بإنزال التوراة، ونزلنا عليكم وأنتم فى صحارى قاحلة المن والسلوى، وقلنا لكم كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيما رزقناكم بالتفريط فى شكره فيحل ويستحق عليكم غضبى، ومَنْ يحلل عليه غضبى فقد سقط فى هاوية ما لها من قرار، وهلك هلاكا أبديا.

ثم فتح باب التوبة فقال: وإنى لكثير المغفرة لمَنْ تاب توبة نصوحا عن الشرك، وآمن بكل ما يجب الإيمان به، وعمل الصالحات المطلوبة منه، ثم استقام على الهدى بقية حياته. وكان موسى عليه السلام قد أسرع إلى مكان المناجاة وسبق رفاقه فلامه سبحانه بقوله:

﴿وما أعجلك عن قومك﴾ المراد أن من أدب الرفقة ألا يفارق الرئيس أتباعه لما فى ذلك من انشغال البال أو ظن الإهمال، فضلاً عن تعريضهم للعب الشيطان بعقول ضعاف الإيمان منهم، فسارع موسى إلى الاعتذار بأنهم حاضرون حالاً لأنهم قريبون منه، وبين سبب عجلته بأنه ظن أن المسارعة إلى الوفاء بالعهد والحرص على الوعد ترضى ربه.

قال سبحانه: يا موسى إنا قد امتحنا قومك الذين تركتهم مع أخيك هارون من بعد فراقك لهم، فظهر أن فيهم ضعاف الإيمان، فأضلهم السامرىّ المنافق حتى عبدوا العجل الذى صنعه لهم من الذهب ولما تلقى موسى ألواح التوراة رجع إلى قومه...

غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا
أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ
مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ
بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا
فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا
لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾
أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا
وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ
إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟
أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا
مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾
أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ

المفردات : . ﴿أسفا﴾ : شديد الأسف والحزن. ﴿وعدا حسانا﴾ : بإعطائكم التوراة التى فيها هدى ونور. ﴿العهد﴾ : أى زمن بعدى عنكم. ﴿موعدى﴾ : المراد وعدكم لى بالثبات على دينى إلى أن أرجع من الميقات. ﴿بملكنا﴾ : أى بتملكنا أمرنا، والمراد باختيارنا. ﴿حملنا﴾ : المراد أمرنا بأن نحمل. ﴿أوزارا﴾ : جمع وزر وهو الحمل الثقيل.

﴿من زينة القوم﴾ : أى حلى القبط، وكانت نساء بنى إسرائيل استعارت كل واحدة منهن حلى جارتها القبطية وهربوا به ليلاً، جاء فى التوراة فى سفر الخروج الإصحاح الثالث رقم ٢١ ما يدل على أن الله سبحانه أمر بنى إسرائيل بأن تستعير نساؤهم من نساء المصريين حليهن ثم يسلبنه منهن، ولعل ذلك عقابًا من الله للمصريين على ما فعلوا ببنى إسرائيل من الاستعباد وأخذ الأموال وقتل الأولاد... إلخ. ﴿فقذفناها﴾ : أى طرحناها فى النار حسب أمر السامرىّ. ﴿فكذلك ألقى السامرىّ﴾: أى ألقى ما معه أيضا فى النار.

﴿جسدا﴾ : أى مجرد جسد لا روح فيه أو أحمر بلون الزعفران. قال المختار: الجسد جسم العاقل من إنس أو جن أو ملك والزعفران، وعجلا جسدا أى أحمر. وقال مجاهد الجسد هو ما لا يأكل ولا يشرب، انظر الآية (٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١. ﴿خوار﴾ : هو صوت العجل؛ يقال إن السامرىّ كان صانعا ماهرا، فحفر حفرة فى الأرض وجعل فيها

---

(١) غضبان (٢) يا قوم (٣) فقذفناها
(٤) هارون (٥) يا قوم (٦) عاكفين
(٧) يا هارون (٨) يا بن أم.

تجاويف إذا ساح الذهب فيها تشكل بصورة عجل بداخله تجاويف إذا مر فيها الهواء خرج من فمه صوت شبيه بصوت العجل.

﴿فقالوا﴾ : أى السامرىّ ومَنْ اتبعه من قوم موسى، انظر الآية (٥٤) من سورة البقرة صفحة ١١، وآيتى (١٤٨، ١٥٢) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٥، ٢١٦.

المعنى : . فرجع موسى من غيبته إلى قومه غضبان شديد الحزن على ما حصل، وقال منكرا عليهم: يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدًا فيه مصلحتكم وهو إعطاء التوراة، فهل وعدكم فطال عليكم زمن إنجاز الوعد؟ وإذا كان هذا غير صحيح فتكونون فعلتم ماهو سبب فى حصول غضب الرب عليكم بإخلافكم وعدكم لى بالثبات على الحق حتى أرجع. قالوا معتذرين: ما أخلفنا موعدك باختيارنا ولكن تغلب علينا مكر السامرى، ولولاه لما أخلفنا. ثم بيَّنوا ذلك بقولهم: ولكنا حملنا أحمالا ثقيلة من حلى المصريين عند خروجنا فقذفناها فى النار حسب طلب السامرىّ، وكذلك ألقى هو ما معه فيها، ثم بيَّن سبحانه نتيجة فتنة السامرىّ بقوله فأخرج ... إلخ، والمراد فأخرج السامرىّ لهم من هذا الذهب صورة عجل يخرج منه صوت كصوت البقر، وقال لهم السامرىّ ومَنْ فتن به: هذا العجل هو إلهكم وإله موسى، غفل عنه موسى فنسيه هنا وذهب يبحث عنه فى جبل الطور، فأظهر سبحانه جهلهم بقوله: ﴿أفلا يرون﴾: أى هل غفلوا فأصبحوا لا يعلمون أن هذا العجل لا يرد عليهم سؤالا، انظر الآية (١٤٨) من سورة الأعراف صفحة ٢١٥، ولا يملك لهم ضرًا إذا احتقروه، ولا يجلب لهم نفعا إذا عبدوه. ثم بيَّن سبحانه ما جرى من هارون فى غيبة موسى، وما جرى من موسى معه، فقال: ولقد قال لهم هارون من قبل رجوع موسى: يا قوم إنما فتنكم السامرى عن دينكم بهذا العجل، وإن ربكم الحق هو الرحمن لا غير، فاتبعونى وأطيعوا أمرى فى الثبات على الحق.

قالوا سنستمر محافظين على عبادة العجل إلى أن يرجع إلينا موسى . وبعد ذلك التفت موسى لأخيه هارون وقال: يا هارون ما حملك على عدم اتباعى فى الصلابة فى الحق والغضب لله عندما رأيتهم ضلوا عن الصواب، انظر الآية (١٢) من سورة الأعراف، هل نسيت يا هارون ما قلته لك فعصيت أمرى لك بالمحافظة على الدين ودفع الشر عنه؟ قال موسى ذلك وهو آخذ بشعر لحية أخيه ورأسه غضبا، انظر الآية (١٥٠) من سورة الأعراف صفحة ٢١٦.

بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ
بَنِي إِسْرَائِيلَ(١) وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ
يَا سَامِرِيُّ(٢) ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ
قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي
نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ(٣) أَن تَقُولَ
لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ
الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ
نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ
كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ
سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ(٤) مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ
عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ(٥) وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ(٦) فِيهِ
وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ(٧) حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ

المفردات :. ﴿ولم ترقب قولى﴾ : أى لم تراعه وتحافظ عليه.

﴿ما خطبك﴾ : أصل الخطب الأمر الخطير، والمراد ما هذا الأمر الخطير الذى صدر منك.

﴿بصرت﴾ : أى فطنت وعلمت.

﴿قبضة﴾ : أصلها المرة من القبض وأريد بها الشيء المقبوض.

﴿من أثر الرسول﴾ : المراد به هنا موسى عليه السلام، وأثره سنته، وإنما خاطب موسى خطاب الغائب رهبة منه كقول مخاطب الملك: ما قول الملك فى كذا؟

﴿فنبذتها﴾ : طرحتها.

﴿سولت لى نفسى﴾ : أى زينت وحسنت ﴿تقول لا مساس﴾ : المراد لا مخالطة، والكلام كناية عن الدعاء عليه بأن يعيش طريدا مكروها من الجميع.

﴿وإن لك موعدا﴾ : تحاسب فيه فى الآخرة.

﴿إلهك﴾ : المراد به العجل.

﴿ظلت﴾ : أى مكثت.

﴿نحرقنه﴾ : أى نبردنه بالمبرد حتى يكون كالتراب.

﴿ننسفه﴾ : نذريه فى البحر.

(١) إسرائيل (٢) يا سامرى (٣) الحياة (٤) آتيناك
(٥) القيامة (٦) خالدين (٧) القيامة.

﴿ذكرا﴾: هو القرآن.

﴿وزرا﴾ : أصله الحمل الثقيل، ويطلق على الذنب، والمراد هنا عقوبة الذنب.

﴿وساء﴾ : قبح.

المعنى :. قال هارون لموسى: يا بن أمى لا تجذب شعر لحيتى وشعر رأسى، لأن عذرى أنى خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض لتفرقوا فتلومنى على ذلك وتتهمنى بأنى لم أحافظ على قولك لى ﴿اخلفنى فى قومى وأصلح.. الآية﴾ الآية (١٤٢) من سورة الأعراف صفحة ٢١٤.

ثم أقبل موسى على السامرى منكرا عليه فعله فقال: ما هذا الأمر الشنيع الذى عملته يا سامرى؟ قال: إنى علمت من صنع التماثيل مالم يعلموه، فبعد ما أظهرت أنى أخذت شيئا من تعاليمك جاهرت بطرحها وتركها بعد غيابك عنا وكما زينت لى نفسى إظهار اتباعك زينت لى الآن ترك ذلك. هذا ما نقله الألوسى عن أبى مسلم الأصفهانى وأيده بعض العلماء، والله أعلم. عند ذلك دعا عليه بأن يكون طريدا شريدا مكروها من جميع الخلق. وهذا جزاؤك فى الدنيا، أما فى الآخرة فإن لك موعدا يوم القيامة تجازى فيه على جرمك لن يتخلف؛ أما هذا العجل الذى جعلته إلها لك وصرت مداوما على عبادته فانظر الآن ما سأصنع به، فسنبرده بالمبارد حتى يكون كالتراب، ثم نذريه فى البحر حتى لا يكون له أثر، ليظهر لمن اغتر به أنه باطل: إنما إلهكم الحق هو الله الذى لا إله إلا هو وسع علمه كل ما يصح أن يعلم، لا العجل الذى لا يعلم ولا يدفع عن نفسه الهلاك. ثم خاطب سبحانه نبينا ﷺ بقوله:

﴿كذلك نقص﴾ إلخ:

أى مثل هذا القصص الذى قصصناه عن موسى وقومه نقص عليك من أخبار السابقين للعبرة كما فى الآية (١١١) من سورة يوسف صفحتى ٣١٩، ٣٢٠ وقد آتيناك من فضلنا كتابا فيه تذكير بكل خير، مَنْ أعرض عنه أى مَنْ أعرض عن هذا الكتاب وهو القرآن فإنه يحمل يوم القيامة عقوبة فادحة خالدًا فيها، وقبحت العقوبة الشديدة حملا. ثم بين يوم القيامة بأنه يوم ينفخ إسرافيل فى الصور، وهو بوق ينفخ فيه، علامة قيام الساعة.

وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن
لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ
أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ
عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا
قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾
يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ
لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ
ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ
بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ
وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ
ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

المفردات : . ﴿زرقا﴾: فى أبدانهم من الهول وفى عيونهم، فهم عمى كما سيأتى فى الآية (١٢٤) من هذه السورة صفحة ٤١٨.

﴿يتخافتون﴾ : أى يخفون أصواتهم عند التخاطب من شدة الخوف. ﴿إن﴾ : هى حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾. ﴿لبثتم إلا عشرا﴾ : أى لم تمكثوا فى الدنيا إلا عشر ليال ﴿أمثلهم﴾ : أى أعدلهم رأيا وأقربهم إلى الواقع. ﴿ينسفها ربى نسفا﴾ : ورد فى القرآن فى مصير الجبال يوم القيامة نحو (١٢) آية، وبالاطلاع عليها بعد جمعها فى صعيد واحد يعلم أن أول ما يحدث لها عند النفخة الأولى أنها تتفتت، ثم تتحرك من أماكنها على هيئة ذرات متجاورة كأنها صوف منفوش، ثم تتبعثر وتصير هباء لا وجود لها انظر الآيات (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧، و (٨٨) من سورة النمل صفحة ٥٠٥، و ١٠ من سورة الطور صفحة ٦٩٧، و (٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٣، و (١٤) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢، و (٩) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥، و (١٤) من سورة المزمل صفحة ٧٧٤، و (١٠) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٤، و (٢٠) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧، و (٣) من سورة التكوير صفحة ٧٩٣، و (٥) من سورة القارعة صفحة ٨١٩.

﴿فيذرها﴾ : الضمير يعود على الأرض المفهومة من المقام، انظر الآية (٤٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨، أى يترك مكان الجبال. ﴿قاعا﴾ : خاليا ﴿صفصفا﴾ : مستويا. ﴿عوجا﴾ : المراد انخفاضا. ﴿أمتا﴾ : ارتفاعا يسيرا. ﴿الداعى﴾ : هو داعى الله إلى المحشر وهو إسرافيل. ﴿لا عوج له﴾ : أى لا يعوج فى السير إليه مدعو بل يسرعون إليه من غير انحراف. ﴿إلا همسا﴾ : أصله من همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت على مكان جاف. ﴿ما بين

(١) يتخافتون (٢) ويسألونك (٣) الشفاعة (٤) الصالحات.

أيديهم وما خلفهم﴾: مثل ما قدمت وأخرت، انظر الآية (٥) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥. ﴿عنت الوجوه﴾: أى خضعت وخشعت. ﴿القيوم﴾ : أى دائم القيام بشئون ملكه، انظر الآية (٢٥٥) من سورة البقرة صفحة ٥٣. ﴿هضما﴾ : نقصا فيما يستحقه من الثواب.

المعنى :. يوم القيامة نحشر المجرمين زرق الأبدان من شدة الفزع، عميا يتهامسون فى الحديث، يقول بعضهم لبعض: ما مكثتم فى الدنيا إلا عشر ليال؛ لأنهم لما شاهدوا الفزع الأكبر استقلوا مدة تنعمهم وظنوها لحظة؛ ولذا قال سبحانه: نحن أعلم بما يقولون من خطأ وصواب حين يقول أصدقهم قولا ما مكثتم فى الدنيا إلا يوما واحدا. ثم أراد سبحانه زيادة إزعاجهم فقال: ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ أى إن سألوك عن مصير الجبال الثقال يوم القيامة وفنائها الذى تقول به يا مُحمَّد فقل لهم إن قدرة الله تنسفها نسفا شديدا حتى تجعلها كالصوف المنفوش فيترك مكانها من الأرض خاليا مستويا لا انخفاض فيه ولا ارتفاع. يوم القيامة يتبع الخلق داعى الله إلى المحشر مسرعين من غير انحراف يمنة أو يسرة، وسكنت الأصوات للرحمن هيبة وإجلالا فلا تسمع إلا حفيف الأقدام على الأرض، فى هذا اليوم لا تنفع الشفاعة أحدًا إلا مَنْ يأذن فى الشفاعة له الرحمن، ويرضى للشافع قوله، بأن يكون من أهل الشفاعة فى غيره لرفعة منزلته عند الله. ومَنْ يطلع على آيات الشفاعة فى القرآن يعلم أن لها شرطين:

الأول :. استحقاق المشفوع له بأن يكون محل رضى الله سبحانه وتعالى، انظر الآية (٢٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣.

والثانى : أهلية الشافع لأن يأذن الله له، انظر الآيات (٢٥٥) من سورة البقرة صفحة ٥٣، و٣ من سورة يونس صفحة ٢٦٥، و (٢٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٦، و (٨٦) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥. فإذا فقدت الشفاعة شرط من الشرطين لا تنفع، انظر الآيات (٨٧) من سورة مريم صفحة ٤٠٥، و (٢٣) من سورة يس صفحة ٥٨١، و (١٨) من سورة غافر صفحتى ٦١٩، ٦٢٠. يعلم سبحانه ما بين أيديهم مما قدموه فى الدنيا، وما خلفهم مما أعد لهم فى الآخرة، فيجازى كلا بما يستحق ولا يحيطون هم بشىء من ذلك علما. وخشعت وجوه الخلق لله الحى الدائم القيام على شئون خلقه، وقد خاب من حمل ظلما فى الدنيا والآخرة لأنه يحرم من رحمة الرحمن فيهما، انظر الآية (٢١) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥، أما مَنْ يعمل عملاً من الصالحات وهو مؤمن بما جاء به الرسول فهو لا يخاف ظلما يقع عليه كطرح سيئات غيره عليه أو عقابه بدون ذنب، ولا يخاف نقص شىء من حسناته.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَٰلَى
ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن
يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا (١١٤)
وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ
عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟
إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ
وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ (١١٧) إِنَّ
لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا
وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ
هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا
مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا

المفردات :. ﴿وصرفنا﴾ : نوّعنا.

﴿الوعيد﴾ : التخويف من المعاصي.

﴿ذكرا﴾ : عظة وعبرة.

﴿فتعالى الله﴾ : أي ارتفع وابتعد عما لا يليق بجلاله.

﴿يقضى إليك وحيه﴾ : أي يفرغ جبريل من إلقائه إليك.

﴿عهدنا إلى آدم﴾ : تقول العرب عهد الملك إلى وزيره بكذا إذا أمره به، أي أمرناه بعدم الأكل من الشجرة.

﴿فنسى﴾ : أي ترك الامتثال، ولا يصح تفسيرها بالنسيان المعروف لأن إبليس ذكره بالنهى في وقت الوسوسة؛ ويؤيد ذلك ما سيأتي في الآية (١٢١) من قوله تعالى ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ وهل يقال في الذنب أكثر من ذلك؟ وما ألطف قول بعض العلماء ردًا على متنطع يحاول تبرئة آدم من المعصية بصرف كلام الله عن ظاهره.

فقال له يا هذا هل تطمع في أن يصدقك أحد ويكذب ربه.

---

(١) أنزلناه
(٢) قرآنا
(٣) فتعالى
(٤) آدم
(٥) للملائكة
(٦) لآدم
(٧) يا آدم
(٨) لا تظما
(٩) الشيطان
(١٠) يا آدم
(١١) سوءاتهما.

الله سبحانه يقول ﴿وعصى آدم ربه﴾ ولم يكتف بذلك حتى أردفها بقوله ﴿فغوى﴾ وقال ﴿ولم نجد له عزما﴾، واعترف آدم أنه بمخالفته هذه ظلم نفسه، وأنه إذا لم يغفر الله له ذنبه كان من الخاسرين؛ انظر الآية (٢٣) من سورة الأعراف صفحة ١٩٥.

وأنت تقول: كلا. لم يعص آدم، ولم يغو، فإذا كان لا يكفيك فى إثبات وقوع المعصية من آدم إلا أن يقول الله سبحانه: (وعزتى وجلالى إن آدم عصى وغوى)، فقد ركبت شططا، وعرضت نفسك للشك فى جل أخبار القرآن!! يا هذا ليست العبرة فى الأمور بالابتداء، إنما العبرة بالخاتمة والانتهاء. وخاتمة آدم كانت بخير والحمد لله، حيث وفقه ربه للمسارعة بالتوبة، فاجتباه، وتاب عليه، وهداه. وكيف لا يتوب عليه التواب الرحيم وهو لم يفعل إلا ذنبا من الذنوب المعرض لها كل بشر، وقد تاب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه وجعله خليفة خاتم الرسل ﷺ بعد أن كان مشركا يعبد الأصنام، وهل تريد أن تكون أحرص على آدم من ربه الذى خلقه واختاره لأن يكون أبا البشر.

﴿عزما﴾ : تصميما وثباتا على الأمر.

﴿ولا تضحى﴾ : أى لا يصيبك حر الضحى اللافح. ﴿فبدت لهما سوءاتهما﴾ : ظهرت لهما عوراتهما. ﴿طفقا﴾ : أى شرعا. ﴿يخصفان﴾ : أى يلزقان، ويلصقان.

المعنى :- ومثل إنزال هذه الآيات فى الدقة والإحكام أنزلنا عليك الكتاب حال كونه مقروءا بلسان العرب ليسهل على مَنْ يتحمل شريعته أولاً فهمه ليبلغوه لغيرهم، انظر الآية (٣٧) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٧، ٣٢٨؛ ونوَّعنا فيه من الوعيد على وجوه مختلفة، كما فى الآية (٤١) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٩، ٣٧٠، لعلهم يتقون الكفر والمعاصى فيتركونها، أو يحدث لهم هذا التنويع على الأقل تذكرًا واعتبارًا يقودهم إلى الهداية.

ولما كان الشرك بالله ظاهر البطلان نبههم إلى اللائق بمقامه تعالى فقال: ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ أى ارتفع سبحانه عن مماثلة المخلوق؛ لأنه الملك الحق ومن عداه إلى فناء.

ولما سبق ذكر إنزال القرآن وكان ﷺ حرصا منه على حفظه وخوفا من نسيان شيء منه يلاحق جبريل بالقراءة وهو ينزله عليه، وفى ذلك مع المشقة تشتيت الذهن، قال سبحانه: ولا تعجل أيها النبى بقراءة القرآن من قبل أن يقضى جبريل وحيه إليك، أى يفرغ من تلاوة ما يوحى إليك؛ لأن الله ضمن عدم نسيانك له كما فى الآية (٦) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٣، وسل الله زيادة العلم بأسراره ومعانيه لا الاستعجال.

ثم أراد سبحانه أن يبين نوعا من تصريف الوعيد ليتقوا أو يتذكروا ولا ينسوا ويهملوا كما حصل من أبيهم آدم بعد تهديده بما فى الآية (٣٥) من سورة البقرة صفحة ٨، فعاقبه الله تعالى بإخراجه من الجنة، ولكنه لما تاب قَبِل توبته واجتباه، فكذلك أنتم إن تبتم تاب الله عليكم، فقال فى ذلك: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم﴾ إلخ: أى لقد أمرنا آدم بعدم الأكل من الشجرة فترك الامتثال اغترارا بوسوسة الشيطان، ولم نجد له ثباتا. ثم فصل ذلك مع بيان ما كرم به آدم مما حقه أن يقابله بتمام الطاعة فقال :

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا﴾ إلخ: تقدم بيانه فى الآية (٣٤) من سورة البقرة صفحة ٨، فقلنا يا آدم إن إبليس عدو لك ولزوجك بل ولذريتك كما فى الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨، فاحذر أن يتسبب فى إخراجكما من الجنة فتشقى أنت وتشقى زوجك بشقائك فاحترس، وقد ضمنت لك فى هذه الجنة ألا تجوع فيها ولا تعرى، أى لا يخلو باطنك ولا ظاهرك مما يحفظه، ولا يتعرض باطنك لحرارة العطش ولا ظاهرك لحرارة الشمس؛ أى نعطيك ما به حياتك، وندفع عنك ما يضرك.

وقال بعض العلماء إن المعهود فى الأماكن القريبة من الجبال أن تكون شديدة الحر والبرد، ففى الآية (١١٨) جمع له ما يقيه قسوة البرد، وفى الآية (١١٩) جمع له ما يحفظه من قسوة الحر. فوسوس له الشيطان بقوله هل أدلك على شجرة لو أكلت منها صرت خالدا لا تموت وصاحب ملك لا يفنى؟ فأكل آدم وحواء منها فظهرت لهما عوراتهما وشرعا يغطيانها من ورق الجنة:

مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ
رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ
ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ
عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ
بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ
ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ
يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ (١٢٧)
أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ (١٢٨)
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ

المفردات : . ﴿وعصى آدم ربه﴾ : أى خالف نهى ربه، انظر الآية (٢٢) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٤، ١٩٥. ﴿فغوى﴾ : أى بعد عن الصواب انظر معنى الغى فى شرح الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤، والآية (٢) من سورة النجم صفحة ٧٠٠ حيث ظن أنه لا يجرؤ مخلوق على أن يحلف بالله كذبا، انظر الآية (٢١) من سورة الأعراف صفحة ١٩٤، فصدق إبليسَ فى أن أكله من الشجرة يكسبه الخلود.

﴿اجتباه﴾ : أى قربه إليه بالتوفيق للتوبة.

﴿اهبطا منها﴾ : المراد من ضمير المثنى هنا الفريقان، الأول آدم وحواء ومَنْ سيكون من ذريتهما، والثانى إبليس وذريته، انظر شرح الآية (٣٦) من سورة البقرة صفحتى ٨، ٩ والآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨. ﴿فإما يأتينكم﴾ : أى فإن يأتكم، انظر آيتى ٥٧، ٥٨ من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٥، ٢٣٦ ﴿عن ذكرى﴾ : المراد كل ما يذكر بالله من قرآن أو غيره. ﴿معيشة ضنكا﴾ : المراد بها هنا الحياة القلقة، وأصل الضنك الضيق فهو مصدر وصف به مبالغة، أى شديدة القلق؛ لأنه لما كان كل همه الدنيا وهى مليئة بالمنغصات كان فى ضيق نفسى دائما، انظر الآية (١٢٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣ و (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥، بخلاف المؤمن فإنه مطمئن دائما، انظر الآية (٢٨) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٥، ٣٢٦. روى عن جماعة من الصحابة أن المعيشة هذه ستكون فى القبر. ﴿فنسيتها﴾ : أى تركتها وأهملتها. ﴿أسرف﴾ : أى انهمك فى الشهوات. ﴿أفلم يهد لهم﴾ : المراد أفلم يتبين لكفار مكة، انظر الآية (١٠٠) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٨، ٢٠٩. ﴿كم أهلكنا﴾ : كم كلمة تدل على الكثرة، مفعول مقدم لأهلكنا. ﴿القرون﴾ : أى الأمم. ﴿يمشون فى مساكنهم﴾ : أى

(١) آدم (٢) اجتباه (٣) القيامة (٤) آياتنا
(٥) بآيات (٦) الآخرة (٧) مساكنهم (٨) لآيات.

حال كون مشركى مكة يشاهدون مساكن تلك الأمم المهلكة، كعاد وثمود وقوم لوط. ﴿النُّهَى﴾: أى العقول، انظر الآية (٥٤) المتقدمة صفحة ٤١٠. ﴿كلمة﴾ : هى وعده سبحانه بتأخير عذاب الإفناء عنهم، انظر الآية (٣٣) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١. ﴿لزاما﴾ : أصل اللزام مصدر لازم كخصام مصدر خاصم، وصف به للمبالغة، أى لازما وواجبا حصوله لا يتأخر. ﴿وأجل﴾ : معطوف على كلمة، والمراد الأجل المقدر لأعمارهم، رفصله عما عطف عليه للإشعار بأن كلا منهما سبب فى نفى لزوم العذاب السريع فى الدنيا.

المعنى : . وعصى آدم ربه بسبب طاعته لإبليس، وابتعد عن الصواب ثم بعدما أسرع آدم إلى الندم والتوبة قربه ربه إلى رضاه وتاب عليه قبل توبته فهداه إلى الصواب. بعد ذلك قال سبحانه للفريقين: اهبطا من جنة الراحة إلى أرض الشقاء حال كون كل منكما عدوا للآخر فإن جاءكم منى سبب هداية من كتاب أو رسول فمَنْ اتبع هداى فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة، ومن أعرض عن هذا الهدى الذى يذكر الناس بربهم فإنه يعيش فى قلق نفسى خوفًا أن يفوت الدنيا أو تفوته، لأنه لا يؤمن بالآخرة فلا ينتظر سعادة دائمة حتى يعمل لها ويتحمل فى سبيلها كل مشقة؛ ونحشره يوم القيامة أعمى لا يبصر، لزيادة إيلامه، وهذا عند القيام من القبور وشدة الحيرة، وبعد ذلك يكشف عنه الغطاء فيرى ما يزعجه من الأهوال، انظر الآية (٢٢) من سورة ق صفحة ٦٩٠، فيقول: يارب لم حشرتنى أعمى وقد كنت فى الدنيا بصيرا؟ قال سبحانه ردا عليه: كذلك فعلت أنت بنفسك. ثم فسر هذا التشبيه بقوله: أتتك آياتنا فى الدنيا فتركتها وأعرضت عنها، ومثل تركك لها نتركك اليوم فى الألم، ومثل ذلك الجزاء الموافق للجناية نجزى كل مَنْ أسرف فى الشهوات وأعرض عن آيات ربه. وعزتى لعذاب الآخرة بالنار أشد مما سواه وأدوم.

ثم أراد سبحانه أن يقرر قوله: ﴿وكذلك اليوم تنسى﴾ فقال منكرا غفلتهم: ﴿أفلم يهد لهم﴾ إلخ: أى هل تركهم الله سدى فلم يبين لهم كثرة مَنْ أهلكنا قبلهم من الأمم التى عملت مثل عملهم والحال أنهم يمشون فى أماكنهم التى كانوا فيها فى أسفارهم إلى الشام وغيره؟ انظر الآية (٨٩) من سورة هود صفحة ٢٩٧، والآية (١٠٩) من سورة يوسف صفحة ٣١٩، والآية (٧٦) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣، والآية (١٣٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥؛ إن فى هذا البيان من الله لآيات ترشد إلى الصواب أصحاب العقول السليمة. ثم بيَّن سبحانه حكمة عدم إصابتهم بمثل ما حل بمَنْ قبلهم فقال: ولولا كلمة سبقت من ربك أيها النبى بعدم إفنائهم فى الدنيا، ولولا أنه حدد لهم أجلا لا يتغير لكان عذاب إفنائهم لازم الحصول عقب جناياتهم.

مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ
فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ
عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾
وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا
نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ
مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾
وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ
وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ
أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

المفردات : . ﴿مسمى﴾ : معين. ﴿وسبح بحمد ربك﴾ إلى قوله: ﴿وأطراف النهار﴾ كل هذا كناية عن دوام التسبيح والتحميد فى كل الأوقات، ﴿وسبح﴾ أى نزه ﴿بحمد ربك﴾ المعنى قارنًا تسبيحك بحمد ربك.

﴿آناء الليل﴾ : أى أجزاء الليل. انظر الآية (١١٣) من سورة آل عمران صفحة ٨١.

﴿لا تمدن عينيك﴾ : أى لا تشغل نفسك به، انظر الآية (٢٨) من سورة الكهف صفحة ٣٨٤.

﴿أزواجا منهم﴾ : أصنافا وطوائف من الكفار.

﴿زهرة الحياة﴾ : أى بهجة، وهو حال من ﴿ما﴾ أى حال كونه بهجة زائلة.

﴿لنفتنهم فيه﴾ : أى نختبرهم انظر الآية (٣٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤، و (١٦ ، ١٧) من سورة الجن صفحتى ٧٧١، ٧٧٢.

﴿اصطبر عليها﴾ : أى اصبر بقوة وداوم على أدائها فى أوقاتها.

﴿لولا﴾ : كلمة تدل على الحث على ما بعدها، انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦.

﴿بآية من ربه﴾ : أى بمعجزة.

﴿أو لم تأتهم﴾ : الهمزة للاستفهام التوبيخى المفيد للنفى.

---

(١) آناء (٢) الليل (٣) أزواجا (٤) الحياة (٥) بالصلاة (٦) لا نسألك
(٧) والعاقبة (٨) بآية (٩) أهلكناهم (١٠) آياتك (١١) أصحاب (١٢) الصراط.

﴿الصحف الأولى﴾ : هى صحف إبراهيم وموسى المذكورة فى الآية (١٩) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤، وإنجيل عيسى.

﴿نَذِلّ﴾ : أى نهان.

﴿ونخزى﴾ : نفتضح.

﴿متربص﴾: أى منتظر.

﴿الصراط﴾: الطريق.

﴿السوى﴾ : المستقيم.

المعنى : ـ وإذا كان الأمر كما ذكر فاصبر أيها النبى على ما يقول كفار قريش فيك وفى كتابك واشغل كل أوقاتك بتنزيه ربك عما لا يليق به، مع حمده على جلائل نعمه، حال كونك راجيا منه تعالى أن يعطيك ما يرضيك فى الدنيا والآخرة، كما فى سورة الضحى.

ولا تنظر إلى ما جعلناه متعة وقتية لأنواع من هؤلاء الكفار حال كون هذا الذى متعناهم به مجرد بهجة دنيوية زائلة، وإنما متعناهم به لنعاملهم معاملة المختبر هل يشكرونه أم يكفرونه، ليظهر ما جبلوا عليه من المعاصى التى استحقوا عليها العقاب، وعندك أنت أيها النبى ومَنْ آمن معك رزق ربك الحلال خير وأبقى نفعا فى الدنيا والآخرة.

ولا تشغل نفسك بهم والتفت إلى أهلك فأمرهم بالمحافظة على الصلاة. وبالغ فى الصبر عليها، ولا تجعل الدنيا تشغلك عنها، فإنا لا نكلفك رزق نفسك ولا رزق أهلك، بل رزقك ورزقهم علينا بسعى منك جميل لا تكالب فيه، والعاقبة فى النهاية لأصحاب التقى.

ثم رجع سبحانه لبيان شىء من تعنتات الكفار التى أمره بالصبر عليها فقال : ﴿وقالوا لولا يأتينا﴾ إلخ :

أى لماذا لم يأتنا بمعجزة حسية كموسى وعيسى، أو مما اقترحناه من تفجير الأنهار وغيره. انظر الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١.

فـرد سبـحانه عليهم بقوله: ﴿أو لم تأتهم﴾ إلخ: أى هل تركهم الله فى غفلة ولم تـأتهم بينة هى ما جاء فى الكتب السماوية الأولى مما يدل على صدقه ﷺ كالتبشير به، انظر الآية (٦) من سورة الصف صفحتى ٧٣٨، ٧٣٩، وبيان صفاته، انظر شرح الآية (٤٢) من سورة البقرة صـفـحـة ٩، والآية (٤٦) من سـورة النسـاء صـفـحـة ١٠٨، والآية (١٥٧) من سـورة الأعـراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨.

ويصح أن يراد بالبينة القرآن الكريم؛ والمعنى : أو لم تـأتهم البينة المتضمنة لما جاء فى الصحف الأولى من العقائد الحقة، وأصول الأحكام ومكارم الأخلاق التى أجمع عليها كل الرسل مع أن المنزل عليه هذا القرآن أمى لم ير هذه الكتب، كما فى الآية (٥٢) من سورة الشورى صفحة ٦٤٦، وانظر الآية (١٦) من سورة يونس صفحة ٢٦٨، والآيات من (٤٨ إلى ٥١) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٧، ٥٢٨ .

ولو أنا أهلكنا كفار قريش بعذاب من قبل إرسال محمد وإنزال القرآن لاعتذروا يوم القيامة عن مخالفتهم لفروع الشريعة، أما أصولها فلا عذر لهم فيها لأنها معلومة لهم أو مركوزة فى طبائعهم؛ وقالوا:

يا ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا يتلو علينا آياتك فنتبعها ونعمل بما تقتضيه من قبل أن نذل بالقتل والسبى، ونخزى بدخول النار فى الآخرة، انظر الآية (١٩٢) من سورة آل عمران صفحة ٩٥، والآية (١٥٧) من سورة الأنعام صفحة ١٩٠.

وبعد كل هذا التحذير قل لهم أيها النبى: كل واحد منا ومنكم منتظر لما يصير إليه أمره فانتظروا فستعلمون عما قريب من منا هم أصحاب الطريق المستقيم، ومن منا اهتدى وابتعد عن الضلال، وهذا أسلوب يدل على قطع المتكلم بأنه هو الناجى، انظر الآية (١٠٢) من سورة يونس صفحة ٢٨٢.

(٢١) سُورَةُ الأَنبِيَاءِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ وَمِائَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾
مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ
ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ
تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ
افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾
مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقترب﴾: أى قرب جدا.

﴿للناس﴾: المراد بهم الكفار بدليل ما بعدها.

﴿حسابهم﴾: أى زمانه وهو الساعة

﴿من ذكر﴾: الذكر القرآن انظر آيتى (٩) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨، و(٨) من سورة ص صفحة ٥٩٨ و(من) للنص على العموم فى أجزاء الذكر.

﴿محدث﴾: أى جديد إنزاله.

﴿النجوى﴾: هى التناجى سرا.

﴿الذين ظلموا﴾: بدل من ضمير أسروا، جاء به للإشعار بظلمهم الفاحش فيما أسروه.

﴿هل﴾: حرف استفهام مراد به النفى، أى ما هذا.

﴿هذا﴾: يريدون به الرسول ﷺ.

﴿أفتأتون السحر﴾: الهمزة للإنكار، أى لا تأتوا، وأرادوا بالسحر القرآن.

﴿أضغاث أحلام﴾: أى أخلاط أحلام رآها فى النوم.

﴿افتراه﴾: أى جاء به من عند نفسه ونسبه لله.

﴿شاعر﴾: أى يأتى بكلام مزخرف باطل يخيل للسامع أنه حقيقة.

﴿من قرية﴾: (من) للنص على عموم قرية.

---

(١) أضغاث. (٢) أحلام.
(٣) افتراه. (٤) بآية
(٥) آمنت. (٦) أهلكناها.

المعنى: قرب للناس أو إلى الكفار زمن حسابهم، والحال أنهم فى غفلة عما سينزل بهم، معرضون عن الاستعداد لهذا اليوم. ما يأتيهم شىء نازل من القرآن يذكرهم أتم تذكير إلا استمعوه وهم يستهزئون به كالأطفال، لاهية قلوبهم عن الانتفاع به. ثم بيَّن سبحانه جناية أخرى من جناياتهم الشنيعة حيث رتبوا مبادئ الشر والمكر لهدم الدين فقال: ﴿وأسروا النجوى﴾ أى بالغ هؤلاء الكفار فى إخفاء تناجيهم قائلين فى تناجيهم ما محمد إلا بشر من جنسكم، وما أتى به هو سحر هل يصح أن تتركوا ما كان عليه آباؤكم فتحضروا مجلس السحر وأنتم تبصرون تأثيره فى الناس حتى حملهم على ترك دين آبائهم وأجدادهم. ثم حكى سبحانه ما قاله ﷺ بعد ما أعلمه الله بما قالوه سرا فقال أى النبى: ربى يعلم كل قول صادر ممن فى السماء أو الأرض جهرًا أو سرًا. ثم هددهم بقوله وهو السميع لأقوالهم، العليم بسرائرهم. ثم انتقل سبحانه إلى حكاية أقوال أخرى لهم باطلة تدل على حيرتهم فى المحاربة فقال: بل قالوا هذا القرآن تخاريف أحلام، ثم تركوا هذا القول وانتقلوا إلى قولهم بل هو كلام افتراه من عند نفسه، ثم تركوه أيضا وقالوا لا بل هو شاعر وما أتى به شعر يخيل إلى السامع ما ليس له حقيقة. وهذا شأن كل مبطل يتحول من باطل إلى أبطل منه، ثم قالوا وإن لم يكن محمد كما قلنا فليأت بمعجزة مثل المعجزات التى أرسل بها الرسل الأولون كعصا موسى وإحياء الموتى لعيسى. ثم كذبهم سبحانه فيما تضمنه كلامهم من الوعد بالإيمان لو أجيبوا إلى المعجزة المقترحة مع بيان أن فى إجابة طلبهم هلاكهم لأنهم حتى لو أجيبوا لما آمنوا فيقطع دابرهم، لأن هذه سنته تعالى، انظر الآية (٤٨) من سورة القصص صفحة ٥١٤ والآية (٢) من سورة القمر صفحة ٧٠٤. وانظر كذلك الآية (٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣، والآية (٥٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٢. فقال: (ما آمنت قبلهم) إلخ: أى لم تؤمن أمة من الأمم المهلكة عند إجابة طلبهم. وإذا كان الأولون لم يؤمنوا فهل هؤلاء يؤمنون لو أجيبوا؟ كلا؛ لأنا نقطع بعدم ذلك، انظر آيتى (٧، ١١) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٣، ١٨١، وآيتى (١٤، ١٥) من سورة الحجر صفحتى ٣٣٨، ٣٣٩.

المفردات: ﴿أهل الذكر﴾: هم أهل الكتاب. ﴿كتابا﴾: هو القرآن.

﴿فيه ذكركم﴾: قال ابن عباس: هو الصيت والشرف؛ انظر الآية (٤٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١.

﴿وكم﴾: تدل على كثرة ما بعدها.

﴿قصمنا﴾: القصم كسر لا يمكن إصلاحه.

﴿من قرية﴾: من لتأكيد العموم فى قرية.

﴿بأسنا﴾: عذابنا.

﴿يركضون﴾: المراد يهربون مسرعين. وأصل الركض ضرب الدابة بالرجل للإسراع.

﴿أترفتم فيه﴾: غرقتم فى نعيمه.

---

(١) فاسألوا.
(٢) جعلناهم.
(٣) خالدين.
(٤) صدقناهم.
(٥) فانجيناهم.
(٦) كتابا.
(٧) ومساكنكم.
(٨) تسألون.
(٩) يا ويلنا.
(١٠) ظالمين.
(١١) دعواهم.
(١٢) جعلناهم.
(١٣) خامدين.
(١٤) لاعبين.
(١٥) لاتخذناه.

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوا[1] أَهْلَ
الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ[2] جَسَدًا
لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَٰلِدِينَ[3] ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ[4]
الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ[5] وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾
لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا[6] فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾
وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا
قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا
يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ
وَمَسَٰكِنِكُمْ[7] لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ[8] ﴿١٣﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا[9] إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ[10] ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ[11] حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ[12]
حَصِيدًا خَٰمِدِينَ[13] ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ[14] ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ[15]

﴿ياويلنا﴾: تركيب يقال عند الندم والتحسر.

﴿دعواهم﴾: دعاؤهم، انظر الآية (١٠) من سورة يونس صفحتى ٢٦٦، ٢٦٧.

﴿حصيدا﴾: هو الزرع المحصود.

﴿خامدين﴾: أصل الخمود للنار إذا ذهبت حرارتها، والمراد هالكين.

المعنى: رد سبحانه على زعمهم أن الرسول لا يكون إلا ملكا المشار إليه بقولهم: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾ بقوله: ﴿وما أرسلنا﴾ إلخ: أى وما أرسلنا إلى الأمم قبل إرسالك لأمتك إلا رجالا مثلك لا ملائكة. ثم بين كيفية الإرسال بقوله: ﴿نوحى إليهم﴾ بواسطة انملك ما نشاء كما أوحينا إليك. ثم وجه الخطاب للكفار تبكيتا لهم فقال: فأسلوا أهل التوراة والإنجيل إن كنتم لا تعلمون ما ذكر، وقد كان المشركون يعرفون أن العلم عند أهل الكتاب، انظر الآية (٥١) من سورة النساء صفحة ١٠٩. وما جعلنا أحدا من رسل الأمم قبلكم جسدا مستغنيا عن الطعام كالملك، وما كانوا طوال الحياة كالملائكة فضلا عن الخلود بلا موت. ولما كان ما أوحى به للرسل متضمنا وعدهم بالنصر على أعدائهم قال سبحانه: ﴿ثم صدقناهم الوعد﴾ بالنصر والفلاح فى الدنيا والآخرة، فأنجيناهم من كل مكروه، وأنجينا من نشاء من أتباعهم المؤمنين، وأهلكنا المسرفين فى معصية ربهم بالكفر. ثم وبخ سبحانه مشركى العرب بأنهم فى أقصى مراتب الجهل ونكران الفضل فقال: ولقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ما يوجب شرفكم وبقاء ذكركم ما بقى، لأنه بلسانكم، ومنزل على نبى منكم تشرفون بشرفه، هل بلغتم غاية الجهل فلا تعقلون ما فيه شرفكم، ثم هددهم بقوله: ﴿وكم قصمنا﴾ إلخ: أى وكثيرا من أهل القرى أهلكناهم لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر بآيات الله مثلكم، وأنشأنا بعد هلاكها قوما آخرين أحسن منهم، انظر الآية (٣٨) من سورة محمد صفحتى ٦٧٧، ٦٧٨. ثم فصَّل شيئا من كيفية إهلاكهم فقال: ﴿فلما أحسوا﴾ إلخ: أى أدرك أهل القرية الظالمة مقدمات العذاب إذا

هم يجرون مسرعين فرارا، فقيل لهم بلسان الحال أو من الملائكة استهزاء: لا تركضوا وارجعوا إلى ما كنتم فيه من الترف والنعيم وإلى مساكنكم التى كنتم تفتخرون بها لعل أتباعكم وخدمكم يسألونكم الرأى فى تصريف الأمور كما كانت عادتكم. وهذا زيادة فى التوبيخ. ولما يئسوا من الخلاص قالوا: يا ويلنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا ولآيات الله بالإعراض عنها، وهذا ندم لا ينفعهم، انظر الآية (١٥٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٩٠، ١٩١، والآية (٥١) وما بعدها من سورة سبأ صفحة ٥٧٠، والآية (٨٥) من سورة غافر صفحة ٦٢٩ فمازالوا يرددون تلك الكلمة حتى جعلناهم كالزرع المحصود والنار التى خمدت أى هالكين، انظر آيتى ٦٤، ٦٥ من سورة المؤمنون صفحة ٤٥١.

ثم نبه سبحانه الكفار إلى الاعتبار بقوله: ﴿وما خلقنا﴾ أى ما خلقنا هذا العالم المحكم الصنع والنظام البديع لمجرد اللعب به كما يفعل الأطفال، بل خلقناه لحكم عالية على رأسها معرفتنا، والخضوع للنظام الذى وضعناه لسعادة الخلق، وسنحاسبهم إذا أهملوا، انظر الآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦؛ ثم أكد سبحانه المعنى السابق ببيان استحالة اللهو عليه سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿لو أردنا﴾ الخ: أى لو أردنا اتخاذ لهو لكان لهوا حاصلا من إله حكيم، والحكيم لا يعمل اللهو لأنه مستحيل عليه لما له من صفة الحكمة، فعدم وجود اللهو ليس لعجز بل لاستحالته. وقدرة الله تعالى لا تتعلق بالمستحيل، كما يقال يستحيل على الله أن يخرج عبدا من ملكه، لأن وجود ملك لغيره تعالى مستحيل.

المفردات: ﴿من لدنا﴾: أى من عندنا.

﴿إن كنا﴾: إن حرف نفى بمعنى (ما). انظر الآية (١١١) الآتية فى هذه السورة صفحة ٤٣٢، والآية (٩٣) من سورة مريم صفحة ٤٠٥.

﴿نقذف﴾: أى نرمى بقوة.

مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ[1] ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى
ٱلْبَٰطِلِ[2] فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا
تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[3] وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ
عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾
يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ[4] وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً[5]
مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ
لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ[6] ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾
لَا يُسْـَٔلُ[7] عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ[8] ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن
دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً[9] قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ[10] هَٰذَا ذِكْرُ مَن
مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ
فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ
إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟

﴿يدمغه﴾: أصل معناه يكسر دماغه، والمراد بمحقه.

﴿زاهق﴾: هالك ذاهب.

﴿الويل﴾: الهلاك.

﴿مما تصفون﴾: (من) بمعنى باء السببية أى بسبب وصفكم ومثلها فى قوله تعالى ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾ انظر الآية (٢٥) من سورة نوح صفحة ٧٦٩.

﴿تصفون﴾: أى تبالغون فى الكذب انظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

﴿ومن عنده﴾: هم الملائكة.

﴿يستحسرون﴾: يقال حسر البصر أو البعير بوزن ضرب إذا كلَّ وتعب، انظر الآية ٤ من سورة الملك صفحة ٧٥٤. ويقال استحسر البعير إذا اشتد تعبه، وبما أن الملائكة لا يعتريهم أدنى تعب من العبادة فيكون التعبير فى جانبهم بيستحسرون ملاحظ فيه ما يشعر به البشر عادة من التعب عند القيام بالتكاليف الشاقة.

---

(١) فاعلين.
(٢) الباطل.
(٣) السموات.
(٤) الليل.
(٥) آلهة.
(٦) فسبحان.
(٧) يسأل.
(٨) يسألون.
(٩) آلهة.
(١٠) برهانكم.

﴿أم اتخذوا﴾: أم بمعنى بل تفيد هنا الانتقال من كلام إلى آخر مع الإنكار والتهكم، انظر الآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩، والآية (٨٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥.

﴿من الأرض﴾: فيه تحقير لعقولهم حيث اتخذوا معبودات من معدن الأرض.

﴿ينشرون﴾: من أنشره أى أحياه كما فى الآية (٢٢) من سورة عبس صفحة ٧٩٢.

﴿هذا ذكر من معى﴾: (هذا) اسم إشارة مبتدأ والمشار إليه القرآن.

(وذكر من معى): المراد به القرآن، انظر الآية (٩) من سورة الحجر صفحة ٢٣٨.

﴿وذكر من قبلى﴾: المراد به الكتب السماوية السابقة وهى من صحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى.

﴿بل﴾.. إلخ: هذا كلام من جهته تعالى يفيد الانتقال من الأمر بتبكيتهم بالمطالبة بالبرهان الذى لا يستطيعونه إلى بيان أن المحاجة معهم لا تنفع لشدة إعراضهم عنادا.

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول﴾ .. إلخ: هذا كلام مقرر لما قبله من أدلة التوحيد ببيان أن جميع الرسل غير أصحاب الكتب السابقة تقر التوحيد وتنكر الشرك.

المعنى: لكان لهوا من عندنا وهو محال؛ ولهذا ما كنا فاعلين المستحيل، بل اللائق بالإله الحق.

ولكم أيها المشركون الهلاك بسبب افترائكم على الله بأن له ولدا وشريكا، وعلى رسوله بأنه ساحر إلخ ما تقدم. وكيف يحتاج لولد وكل ما فى السموات والأرض ملكه ومخلوقون له وعبيد لقدرته جل وعلا، ومن عنده عندية منزلة وهم الملائكة لا يتعاظمون عن عبادته ولا يكلون، أى لا يشعرون بأدنى تعب ينزهون ربهم عما تقولون عنه فى كل أوقات الليل والنهار، لا يتخلل تسبيحهم هذا فترة، فهم لا يتوانون لحظة، بل بلغ من جهل هؤلاء الكفار أنهم اتخذوا لهم آلهة من الأرض.

ثم بالغ فى توبيخهم فقال: ﴿هم ينشرون﴾ المراد أن من شأن الإله القدرة على إحياء الموتى فهل آلهتهم كذلك؟ ثم أراد سبحانه أن يبرز باطلهم من وجه آخر ويبطل زعمهم أن أصنامهم آلهة كما يبطل زعم كل من يقول إن فى الكون آلهة تتصرف فيه مع الله، وهذا الوجه مبنى على أن اسم (إله) لا يصدق إلا على واجب الوجود تام القدرة على كل ما عداه، فقال ﴿لو كان فيهما﴾ إلخ: أي لو كان فى السموات والأرض آلهة تدبر أمرهما غير الواحد الذى خلقهما لاختل نظامهما، لتنازع المشرفين عليهما؛ لأن كل واحد يريد أن يكون هو المتصرف وحده، ولكنهما لم يفسدا ذلك أنه ليس فيهما إلا الله وحده، انظر شرح هذا الدليل فى الآية (٩٩) من هذه السورة صفحة ٤٣١، وانظر الآية (٩١) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٤؛ فتنزيها لله رب العرش العظيم عما يفتريه عليه الكافرون.

ثم بيَّن صفة من صفات الإله الحق هى أنه لا يسأل عما يفعل لأنه عليم، حكيم، عادل، فلا يخطئ ولا يضع شيئا فى غير محله، ولا يظلم. أما ما عداه من الخلق بما فيه معبوداتهم العاقلة فهم يسألون، لأنهم عرضة للخطأ والظلم.

ثم كرر توبيخهم على جهلهم من جهة النقل بعدما وبخهم من جهة العقل فقال أم اتخذوا من دون الله آلهة! قل لهم أيها النبى: هاتوا برهانكم من الكتب السماوية السابقة إن كان عندكم منها شىء، انظر الآية (٤) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٦ وقل لهم هذا الدليل الذى احتج به عليكم هو شيئان: القرآن الذى هو كتاب أمتى الذى جاء يذكرها بربها، وكتب الأنبياء التى جاءت لتذكير من سبقنى من الأمم، فهل تجدون فيها ما يؤيد اتخاذ أصنامكم آلهة؟ كلا بل أكثر هؤلاء المشركين لا يميزون بين الحق والباطل، والقليل منهم يعلم ويعاند، فهم لهذا الجهل والعناد مستمرون على الإعراض عن الحق.

ثم بيَّن ما جاء على لسان كل الرسل قبله بقوله وما أرسلنا قبلك أيها النبى من رسول إلا وقد أوحينا إليه أنه لا إله إلا أنا الواحد الحق فاعبدونى وحدى.

اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾
لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ
خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن
دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾
أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا
رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ
أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ
بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾
وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا
مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن

المفردات : ﴿ولدا﴾: يريدون الملائكة، انظر شرح الآية (١١٦) من سورة البقرة صفحة ٢٣، والآية (٤٠) من سورة سبأ صفحة ٦٨.

﴿بل عباد﴾: بل للاضراب عما قبلها أي إبطاله.

﴿خشيته﴾: الخشية خوف مشوب بتعظيم ومهابة، انظر الآية (٢٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٥.

﴿مشفقون﴾: الإشفاق شدة الحذر.

﴿أو لم ير الذين كفروا﴾: الرؤية هنا علمية. أي ألم يعلموا. ومثلها في قوله تعالى: ﴿ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ انظر الآية (١٤٩) من سورة الأعراف صفحة ٢١٥، وقوله سبحانه ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا﴾ انظر الآية (٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٢، وقوله تعالى ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ انظر الآية (٧) من سورة المجادلة صفحتي ٧٢٥، ٧٢٦.

﴿كانتا﴾: بالتثنية لأن مجموع السموات طرف والأرض طرف آخر.

﴿رتقا﴾: أصل الرتق مصدر من قولهم رتق الرجل الشيء يرتقه بضم التاء وكسرها، إذا لاءم بين أجزائه وجعلها ملتحمة بعضها ببعض. وأريد بهذا المصدر هنا اسم المفعول أي مرتوقتين أي ملتصقتين كما تقول في الطعام: هذا أكل تريد مأكول.

---

(١) سبحانه. (٢) الظالمين. (٣) السموات. (٤) ففتقناهما.
(٥) رواسي. (٦) آياتها. (٧) الليل.

﴿ففتقناهما﴾: يقال فَتَقَ الشيء يفتُقه بضم التاء أى فصل بعض أجزائه عن بعض. والمعنى هنا فتقنا السماء بالمطر والأرض بالنبات. انظر الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥، وأنظر الآية (٢٧) من سورة السجدة صفحة ٥٤٨، وأنظر آيتى (١١، ١٢) من سورة الطارق صفحة ٨٠٣. فالمراد من السماء هنا السحاب.

﴿من الماء كل شىء﴾ إلخ: الماء هنا هو الماء المذكور فى الآية (٧) من سورة هود صفحة ٢٨٤ الذى هو أصل جميع المخلوقات كما تقدم فى الأحاديث هناك، وإنما خص سبحانه الأحياء هنا بالذكر لأن وجه العبرة فيها أدق، لأن جميع المخلوقات غير الأحياء تشترك مع هذا الماء فى أن الجميع لا حياة فيها، فهم متقاربون تقاربا واضحا، ويكون الإبداع والإعجاز أظهر إذا خلق سبحانه حيا من شىء لا حياة فيه، وإذا أخذت الحياة على عمومها فإن لفظ (الحىّ) يشمل الأرض القاحلة عندما يخالطها الماء كما فى الآية (٢٤) من سورة الروم صفحة ٥٢٣.

﴿رواسى﴾: المراد جبالاً ثابتات لحفظ توازنها. انظر الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧.

﴿تميد﴾: تضطرب ويختل توازنها.

﴿فجاجا﴾: جمع فج بالفتح وهو الطريق الواسع كما فى الآية (٢٧) من سورة الحج صفحة ٤٣٧. وأصله صفة (لسبلا) بعده، فلما قدم عليه صار حالاً منه. انظر الآية (٢٠) من سورة نوح صفحة ٧٦٩.

﴿آياتها﴾: المراد الأدلة المثبوتة فى السماء الدالة على وجود صانع حكيم قادر.

﴿فلك﴾: هو كل شىء دائر، والمراد طريقها الذى لا تتجاوزه فى سيرها.

﴿يسبحون﴾: يتحركون فى هدوء وسهولة كما يسبح السمك فى الماء.

المعنى: وقال كفار قريش اتخذ الرحمن الملائكة بنات له، سبحانه بل هم عباد مشرفون مقربون إلى الله لا يقولون شيئا حتى يأذن فيه كما هى عادة العبيد المؤدبين، ولا يعملون إلا ما يأمر به سبحانه لأنهم يعرفون أنه تعالى يعلم ما بين أيديهم إلخ، أى كل أحوالهم ما قدموه

وما أخروه منها، فهم دائمو المراقبة له سبحانه، ولا يشفعون فى أحد إلا لمن رضى الله عن أعماله. وهذا قطع لأطماع المشركين. وهؤلاء الملائكة من عظمته تعالى مرتعدون. ثم هدد المشركين أقوى تهديد فقال: لو قال واحد من هؤلاء الملائكة المقربين إنى إله غير الله فهذا القائل نجزيه جهنم مهما كانت منزلته، وكهذا الجزاء نجزى كل ظالم لنفسه بادعاء الربوبية أو الشرك به تعالى. ثم شرع سبحانه فى منهج آخر من مناهج التوحيد والأدلة عليه فى الكون فذكر ستة أشياء، فقال: ﴿أو لم ير الذين كفروا﴾.. لما لم يرد عن النبى ﷺ حديث صريح لتفسير هذه الآية تفرقت فيها كلمة العلماء، فأبدى كل رأيا يخالف الآخر، ولما لم يكن كثير من هذه الآراء معتمدا على دليل يصح الاعتماد عليه، رأينا أن نقتصر على إيراد ثلاثة آراء منها، ذكر لكل منها دليل. وللقارئ بعد ذلك أن يختار منها ما تطمئن إليه نفسه.

الرأى الأول: لابن عباس رضي الله عنهما. روى عن الحسن البصرى وقتادة وسعيد بن جبير وحاصل هذا الرأى.. أن السموات والأرض كانتا فى مبدأ خلقهما شيئا واحدا، ثم فصل الله سبحانه بينهما، ويكون المراد توبيخ الكفار على تقصيرهم فى العلم بذلك، مع تمكنهم منه باستفسارهم من علماء أهل الكتاب الذين كانوا يخالطونهم، ويقبلون أقوالهم. انظر الآية (٧) من هذه السورة صفحة ٤٢١، وشرح الآية (٥١) من سورة النساء صفحة ١٠٩، والآية (٤٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨.

وأهل الكتاب يعلمون ذلك من أنبيائهم، وهذا الرأى استمده القائلون به من ظاهر الأحاديث الصحيحة التى رواها المحدثون عند تفسير قوله تعالى ﴿وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء﴾ الآية (٧) من سورة هود صفحة ٢٨٤. فقد جاء فيها أنه ﷺ قال (أول ما خلق الله الماء، وخلق من الماء كل شىء).

أما الرأى الثانى: رأى لابن عباس أيضا. رواه عنه عكرمة وعطية والعوفى وعطاء، ووافقه عليه عبدالله بن عمر واختاره أكثر المفسرين وحاصل هذا الرأى.. أن السماء كانت رتقا لا تمطر، والأرض كانت رتقا لا تنبت، ففتق سبحانه السماء بالمطر، والأرض بالنبات. والرؤية على هذا الرأى بصرية تحصل بالمشاهدة الحسية. وهذا الرأى مبنى على أن المراد بالسموات كل ما

علانا من السحب التى تنزل المطر. وهذه السحب مسخرة بين السماء المعروفة وبين الأرض انظر الآية (١٦٤) من سورة البقرة صفحة ٣١، وشرح الآية (٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧١، وهكذا كل الآيات المفيدة أن رزق السماء هو المطر الذى ينبت به الشجر والزرع مثل آيات (١٤، ١٥، ١٦) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧، والآيات من (٢٤ إلى ٣٢) من سورة عبس صفحتى ٧٩٢، ٧٩٣. قال تعالى ﴿ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله﴾ انظر الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥، ويؤيد هذا قوله تعالى ما جاء فى آيتى (١١، ١٢) من سورة الطارق صفحة ٨٠٣. ومعنى هذا أن الفتق حصل لكل من السماء والأرض على حدة أى أن كلا منهما حصل بين أجزائها فتق. ومبنى أيضا على أن معنى (كان) فى (كانتا) أن هذا هو شأنهما دائما، سحاب ملتئم، ثم يتساقط المطر من بين ثناياه، وأرض ملتحمة الأجزاء يفتقها النبات، وهذا المعنى لفعل (كان) شائع فى لغة العرب، ومنه فى القرآن كثير، قال تعالى (وكان الإنسان عجولا) الآية (١١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥ أى أن هذا هو شأن الإنسان دائما، لا أنه كان عجولا فيما مضى ثم صار غير عجول الآن، وقال ﴿فسجدوا إلا إبليس كان من الجن﴾ الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨، وقال ﴿وكان الإنسان أكثر شىء جدلاً﴾ الآية (٥٤) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨.

أما الرأى الثالث: لأبى مسلم الأصفهانى. الذى رأى أن الظاهر إبقاء السموات على ظاهرها المعهود، وأن الدليل لا يقوم على الكفار إلا إذا كانوا معترفين بكل مقدماته، وأن هؤلاء الكفار ما كانوا يعلمون حال السموات والأرض عند خلقهما بنص القرآن نفسه قال تعالى فى الحديث عن الكفار ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ الآية (٥١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨.. نقول لما رأى أبو مسلم كل ذلك قال: المعنى أن السموات والأرض كانتا قبل وجودهما يجمعهما العدم. وكون الأمور المعنوية تجمع المحسوسات معروف فى لغة العرب، يقول أحدهم هؤلاء قوم جمعتهم المصائب أو المصالح مثلا، ويقول طواهم الغناء فى غياهبه، ومنه فى القرآن قوله تعالى فى سياق ما سيحصل يوم القيامة ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ الآية (٩) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩ ومعنى فتقهما على

هذا إيجادهما مفتوقتين أى منفصلة كل منهما عن الأخرى، كما يقول العربى سبحان من كبر الفيل وصغر البعوضة، يريد أوجد كلا منهما على هذه الحال، هذا كبير الجسم وذاك صغيرة، والمعنى هل يستمر هؤلاء الكفار على الغفلة ولا يلتفتوا للواقع فيعلموا أن السموات والأرض كانتا معدومتين، ونحن أوجدناهما، فهو من قبيل قوله تعالى ﴿أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض﴾ الآية (١٨٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣ وقوله ﴿أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾ آيتى (٣٥، ٣٦) من سورة الطور صفحة ٦٩٩ والمراد أنهم متمكنون من العلم بذلك بأدنى تأمل، لأن السموات والأرض بل وكل المخلوقات حادثة بعد اليوم، ومن المقطوع به عقلا أن كل حادث لابد له من محدث، ولا محدث لهما إلا الله، وهم معترفون بذلك كما قال تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله﴾ الآية (٦١) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩ فصح بعد كل هذا أن يوبخوا على غفلتهم عن هذه الأدلة وإعراضهم عن الالتفات إليها. والرؤية على هذا الرأى علمية كالرأى الأول.

ثم يقول تعالى بعد ذلك: وهل جهلوا أيضا أنا جعلنا من الماء الذى لا حياة فيه كل شىء حى، فهل بعد كل هذا يعرضون فلا يؤمنون. ومن دلائل قدرتنا وحكمتنا أنا جعلنا فى الأرض جبالا ثوابت كراهة أن يختل توازنها عند الزلازل، وجعلنا فى الأرض طرقا واسعة لعلهم يهتدون بها فى سيرهم لمقاصدهم، وجعلنا السماء فوقهم كالسقف وحفظناها بقدرتنا أن تسقط فوق رءوسهم. انظر الآية (٦٥) من سورة الحج صفحتى ٤٤٢، ٤٤٣، والآية (٤١) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٧، ٥٧٨، ومع ذلك فهؤلاء الكفار معرضون عما فيها من العبر. وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل من هذه الأربع يسير فى فلكه بنظام محكم، انظر الآية (٤٠) من سورة يس صفحة ٥٨٢. ثم رد على تمنيات باطلهم بما كان المشركون يبثونها فى أوساط العوام وذلك أنهم كانوا يقولون لا تهتموا لما يقوله محمد فسيموت وتموت معه دعوته ويبقى ديننا سليما، انظر الآية ٣٠ من سورة الطور صفحة (٦٩٨)، فقال: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ إلخ.

قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ
ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا
تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ
إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ
هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ
ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ
لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ
بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ

المفردات: ﴿نبلوكم﴾: البلاء الاختبار. والمراد نعاملكم معاملة المختبر، انظر آيتى (١٥، ١٦) من سورة الفجر صفحتى ٨٠٦، ٨٠٧.

﴿فتنة﴾: أى ابتلاء فهو تأكيد لما قبله من غير لفظه.

﴿إن يتخذونك﴾: (إن) حرف نفى بمعنى (لا).

﴿هزوا﴾: أصله مصدر وأريد به اسم المفعول مبالغة أى مهزوءا به.

﴿هم كافرون﴾: كرر (هم) للمبالغة فى حصر الكفر فيهم.

﴿خلق الإنسان من عجل﴾: العجل والعجلة طلب الشىء قبل أوانه والمراد أنه لفرط استعجاله كأنه مخلوق منه أى شديد العجلة كما قال: ﴿خلقكم من ضعف﴾ أى ضعفاء.

﴿آياتى﴾: المراد بها هنا دلائل صدق وعده تعالى وهى النقم التى ستحل بهم.

﴿هذا الوعد﴾: أى الوعد بالعذاب أو القيامة. ﴿تأتيهم بغتة﴾: أى تأتيهم القيامة فجأة.

﴿تبهتهم﴾: تدهشهم وتحيرهم. ﴿ينظرون﴾: يمهلون. ﴿حاق﴾: حل ونزل بهم.

﴿يكلؤكم﴾: يحفظكم.

المعنى: لم نخلد أحدًا مَمنْ قبلك بل ماتوا جميعا حتى أنت أحب الناس إلينا ستموت حتما وإذًا فلابد من موت هؤلاء المستهزئين بك والمستهزئين بوعدنا على لسانك ببعثهم من القبور وسيحاسبون على جرمهم. ثم أكد المعنى السابق بما يدل على عموم الموت لكل ذى نفس ولو

(١) أفإن. (٢) الخالدون. (٣) رآك. (٤) آلهتكم. (٥) كافرون.
(٦) الإنسان. (٧) سأريكم. (٨) آياتى. (٩) صادقين. (١٠) بالليل.

لم يكن من البشر كالملائكة والجن والحيوانات فقال: كل نفس لابد أن تذوق مرارة فراق جسدها، ونعاملكم فى الدنيا أيها المكلفون معاملة المختبر بالبلايا والنعم اختبارا لكم هل تصبرون عند البلاء وتشكرون على النعم أم لا؟ ونظيره فى الآية (٢٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢. وترجعون فى النهاية إلى ربكم فيجازيكم حسب ما صدر منكم، انظر آيتى (٤٣، ٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩. ثم بيَّن سبحانه بعض أنواع الفتنة التى مرت على ضعفاء المؤمنين ووقع فيها المشركون فقال: وإذا رآك أيها النبى الكافرون من صناديد قريش ورأوا قلة مَنْ آمن معك مع كثرتهم وضعفكم وقوتهم، ما يتخذونك ودينك إلا مهزوءا به، قائلين أهذا الرجل الضعيف هو الذى يذكر آلهتكم بسوء، انظر آيتى (٥٧، ٥٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٨، يقولون ذلك والحال أنهم بالقرآن الذى جاء رحمة لهم هم كافرون لا يصدقون ما فيه. ولما كان من ضمن استهزائهم أنهم إذا سمعوا آية تدل على توعدهم بالعذاب وبقيام الساعة يقولون منكرين: متى هذا؟ أى أنه لن يحصل، قال سبحانه: إن هؤلاء المشركين من جنس الإنسان شديدو التعجل حتى للشر، انظر آيات (١١، ٥٠، ٥١) سورة يونس صفحتى ٢٦٧، ٢٧٤ والآية (١٨) من سورة الشورى صفحة ٦٤١. ثم قال سبحانه: سأريكم نقماتى حتما فابتعدوا من الاستهزاء باستعجالها لأن هذا يضاعف لكم العذاب. ثم فصَّل بعضا من استهزائهم فقال: ويقولون متى يتحقق وعدك يا محمد أنت ومن معك لنا بالعذاب إن كنتم صادقين فيما تقرءونه فى كتابكم فأتونا به بسرعة. لو يعلم هؤلاء الكفار هول الوقت الذى يستعجلونه وهو حين تحيط بهم النار من كل جانب ولا يقدرون على دفعها ولا يجدون مَنْ ينصرهم بدفعها عنهم لما استعجلوا، بل ستأتيهم أهوال القيامة فجأة فتحيرهم فلا يستطيعون ردها، ولا يمهلون لحظة عن إهلاكهم.

ثم هددهم بما حصل لمَنْ قبلهم لما عملوا مثل عملهم، وطمأن نبيَّه بقوله: ولقد استهزأ أمم قبل أمتك برسلهم كما استهزأ هؤلاء بك فحل بالذين سخروا من رسلهم العذاب الذى كانوا به يستهزئون، انظر الآية (٢٤) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٦٩، ٦٧٠. ثم أرشدهم إلى دليل آخر لو تنبهوا له لرجعوا عن شركهم فقال قل لهم أيها النبى: من هو الذى يحفظكم بالليل والنهار من عذاب الإله الحق الذى وسعكم برحمته إن أراد أن ينزله بكم؟ أى لا أحد يستطيع ذلك، انظر الآية (١٧) من سورة المائدة صفحة ١٣٩، والآية (١١) من سورة الرعد صفحة ٣٢٢، والآية (٢٣) من سورة يس صفحة ٥٨١، والآية (٣٨) من سورة الزمر صفحة ٦١١.

بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ[1]
تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا
يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ[2] حَتَّىٰ طَالَ
عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ
أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ[3] (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ
وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ
نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا[4] إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ[5] (٤٦)
وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ[6] الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ[7] فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ
شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا[9] بِهَا وَكَفَىٰ
بِنَا حَاسِبِينَ[8] (٤٧) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ[10] الْفُرْقَانَ
وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ
وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ[11]

المفردات: ﴿يصحبون﴾: تقول العرب أنا صاحب لك من فلان، أى مجير لك من تعديه عليك. فالمراد لا يستطيع أحد نصرهم.

﴿هؤلاء﴾: المراد بهم مشركو العرب.

﴿أفلا يرون أنا نأتى الأرض﴾: إلخ: تقدم بيانها فى الآية (٤١) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨.

﴿أنذركم﴾: أى أحذركم من عذاب الله.

﴿نفخة﴾: أصل النفخ هبوب ريح لينة، والنفخة المرة منه. والمراد قدر ضئيل من العذاب.

﴿يا ويلنا﴾: تركيب يقال عند الندم والتحسر.

﴿القسط﴾: أصله العدل أريد به الوصف أى العادلة. ﴿مثقال﴾: أى مقدار.

﴿خردل﴾: هو حب أسود صغير جدًا يضرب به العرب المثل فى الصغر.

﴿الفرقان﴾: المراد هنا التوراة التى فيها فرق بين الحق والباطل.

﴿وضياء﴾: عند ظلمات الحيرة والجهل، وعطفه على ما قبله من قبيل عطف الصفة على الموصوف، وكذا يقال فيما بعده، كقولهم جاء الملك العظيم وابن الهمام، انظر الآية (٥٣) من سورة البقرة صفحتى ١٠، ١١، والآية (١٢) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٠.

﴿وذكرا﴾: تذكرة وعبرة. ﴿مشفقون﴾: خائفون.

﴿وهذا﴾: يعنى القرآن.

---

(١) آلهة. (٢) آباءهم. (٣) الغالبون.
(٤) يا ويلنا. (٥) ظالمين. (٦) الموازين.
(٧) القيامة. (٨) حاسبين. (٩) آتينا.
(١٠) هارون. (١١) أنزلناه.

المعنى: لا أحد يحفظهم غير الله، فهل تنبهوا؟ كلا بل هم عن تذكر ربهم معرضون. ثم انتقل سبحانه من وصفهم بالإعراض إلى توبيخهم بالاعتماد على آلهتهم فقال: ﴿أم لهم﴾ إلخ: أى أم لهم آلهة غيرنا تمنعهم من عذابنا؟ كلا لأن هذه الآلهة لا تستطيع نصر نفسها إذا تعدى عليها الغير ولا يستطيع أحد حفظهم مما نريد به من هلاك، أى فهى فى غاية العجز، فكيف ترجون منها النفع. ثم انتقل سبحانه إلى وعيدهم بالهلاك مع بيان أنهم استدرجوا بالنعم حتى تعرضوا للهلاك فكأنه يقول: إنما تورطوا فى توهم نفع آلهتهم بسبب تمتعهم بما يشتهون وطالت مدة حياتهم فى هذا التمتع فاغتروا وأهملوا النظر والبحث عن الحق، انظر ما قيل فى الآية (٣٥) من هذه السورة صفحة ٤٢٤. فهل طمس على قلوبهم فاصبحوا لا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من جهاتها بإهلاك الظالمين مثلهم، وما ديار المهلكين منهم ببعيد، إلى آخر ما سبق فى الرعد. وهل إذا أهلكنا من هم أشد منهم قوة فهم الذين يظنون أنهم يغلبون رسولنا والمؤمنين به؟ كلا! وبعد هذا التهديد أمر سبحانه نبيه أن يقول لهم لا أحذركم من العذاب الذى تسخرون منه إلا بالوحى الصادق الذى لا يختلف ما وعد به، ثم بين سبحانه أن طول إعراضهم عن الحق طمس على آذانهم فصاروا لا يسمعون نافعا ولا تخويفا مهما أنذرتهم، انظر آيتى (٦، ٧) من سورة البقرة صفحة ٤، والآية (٢٢) من سورة الأنفال صفحتى ٢٢٩، ٢٣٠. ثم بيَّن سبحانه ضعف هؤلاء المتعجرفين إذا رأوا أقل شىء من العذاب فقال: وعزتى لئن مسهم أقل شىء من عذاب ربك لارتفع صراخهم بقولهم يا هلاكنا إنا كنا ظالمين، أى لسارعوا بالاعتراف على أنفسهم بالظلم. ثم هددهم وطمأن نبيه بقوله: ﴿ونضع الموازين القسط﴾ أى وسنضع الموازين العادلة فى يوم القيامة، والله تعالى أعلم بكيفيتها وكيفية الوزن، وإنما الواجب هو اعتقاد العدل التام، فلا تظلم نفس شيئا من جزاء عملها، وإن كان العمل ضئيلا جدا لابد من إحضاره ووزنه. ويكفى جميع الخلق أن الله خير الحاسبين لا يخفى عليه شىء. ثم بين سبحانه أن سنته أن يرسل الرسل بالوحى الذى فيه سعادتهم فقال: ولقد آتينا موسى وهارون التوراة الجامعة بين تلك الصفات الثلاث العظيمة آخرها أنها تذكره تنفع المتقين الذين يخافون ربهم فى خلواتهم وبعدهم عن الناس، أى لا رياء، والحال أنهم شديدو الخوف من هول القيامة. وهذا القرآن ذكر كثير الخير أنزلناه عليك لنفعهم كما أنزلنا التوراة على موسى لنفع بنى إسرائيل.

أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ
مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ
ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ
فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ
ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾
وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾
قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ
بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ

المفردات: ﴿رشده﴾: الرشد الاهتداء إلى وجوه الصلاح فى الدين والدنيا.

﴿التماثيل﴾: جمع تمثال، وهو كل ما عبد من دون الله يقال له (صنم) و(وثن) وإذا كان جسما على هيئة إنسان أو حيوان يسمى تمثال كما هنا وقد أطلق إبراهيم عليه السلام على معبودات قومه أصناما كما فى الآية (٥٧) الآتية، وأوثانا كما فى الآية (١٧) مكن سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٢، ٥٢٣.

﴿لها عاكفون﴾: مداومون على عبادتها، فاللام بمعنى على كما فى الآية (٧) من سورة الإسراء.

﴿فطرهن﴾: أنشأهن.

﴿من الشاهدين﴾: الشاهد هو مَنْ عاين الشىء وتحقق منه وبرهن عليه.

﴿تولوا مدبرين﴾: أى تنصرفوا عنها، أنظر الآية (٢٥) من سورة التوبة صفحة ٢٤٤.

﴿جذاذا﴾: مأخوذ من الجذ وهو القطع كالحطام من الحطم وهو الكسر، والمراد هنا أجزاء صغيرة.

﴿يذكرهم﴾: بأنه سيوقع الشر بهم. ﴿على أعين الناس﴾: أى على الملأ يشاهده الجميع.

المعنى: هل بعد أن تبين لكم جليل مقام هذا النبى والقرآن فأنتم منكرون له بعد ذلك، متمادون فى قولكم هو شاعر وكتابه أضغاث أحلام إلى آخر ما تقدم فى الآية (٥) من هذه

---

(١) آتينا. (٢) إبراهيم. (٣) عالمين. (٤) عاكفون.
(٥) آباءنا. (٦) عابدين. (٧) آباؤكم. (٨) ضلال.
(٩) اللاعبين. (١٠) السموات. (١١) الشاهدين. (١٢) أصنامكم.
(١٣) بآلهتنا. (١٤) الظالمين. (١٥) إبراهيم. (١٦) أأنت.

السورة صفحة ٤٢٠. ثم أراد سبحانه أن يذكرهم بما حصل من قوم إبراهيم عليه السلام وإنجاء الله تعالى له وإهلاكهم لعلهم يرتدعون فقال: ولقد آتينا رسولنا إبراهيم الرشد الكامل اللائق به من قبل موسى وهارون، وكنا بما فيه من الفضائل التى تؤهله للرسالة عالمين. انظر الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٢٤، والآية (٨٤) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٢. ألهمناه رشده حين قال لأبيه وقومه مسفها لهم: ما هذه الأصنام التى ما هى إلا مجرد تماثيل نحتموها بأيديكم ثم تداومون على عبادتها. قالوا إنا وجدنا آباءنا لها وحدها عابدين فسرنا على طريقتهم، فمن أنت حتى تحولنا عن عادة أشياخنا. فجابههم إبراهيم عليه السلام بالحق ولم يبال حيث قال: وعزة ربى لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال وبعد عن الصواب واضح. فظنوا من جهلهم أنه يداعبهم فقالوا: هل أنت جاد فيما تقول أم أنت من اللاعبين الذين يمزحون؟ قال لست لاعبا بل أقرر لكم وأبلغكم أن ربكم الحق المستحق للعبادة وحده هو رب السموات والأرض الذى خلقهن، وأنا على ما أقول من المتحققين عليه البراهين. وقد كان لهم فى كل عام عيد يجتمعون فيه خارج المدينة، وكانوا يضعون الطعام فى قاعة أصنامهم، فإذا رجعوا من العيد أكلوه تبركا، فلما أرادوا الخروج للعيد قال آزر لابنه إبراهيم: اخرج معنا، فادعى أنه سقيم، فتولوا عنه، فقال بصوت منخفض: والله لأكيدن أصنامكم أى أحطمها بعد انصرافكم عنها، أراد بذلك تنبيههم من غفلتهم بشىء عملى بعدما تيقن أنه لم ينفع فيهم الحجاج العقلى فقرر تحطيم آلهتهم ليعلمهم أنها إذا كانت لا تدفع عن نفسها فكيف يخافونها فسمعه بعض الضعفاء المتأخرون منهم، فلما رجع إلى قاعة الأصنام وكان الصنم الأكبر فى صدرها قال مستهزئا: ألا تأكلون؟ ما لكم لا تنطقون؟ انظر الآيات من (٩١ إلى ٩٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢. ثم أخذ فأسا وكسرها جميعا إلا أكبرها، فتركه ووضع الفأس فى عنقه لعلهم يرجعون إليه فيسألونه فلا يجيب، فيدركون خطأهم فلما رجعوا قالوا: مَنْ فعل هذا بآلهتنا؟ إنه لمَنْ الظالمين لنفسه بتعريضها للهلاك. قال بعضهم: سمعنا فتى يذكرها بالشر يقال له إبراهيم. قال كبارهم: فأحضروه على مشهد من الناس لعلهم يشاهدون ما يحل به من الحساب والعقاب فلا يجرؤ أحد على الإقدام على جريمته. فلما جاءوا به قالوا: هل أنت فعلت هذا؟..

فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ
كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾
فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ
نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾
قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ
فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ
وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾
وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ

المفردات: ﴿بل﴾: حرف يدل على إبطال ما قبله وإثبات ما بعده.

﴿فعله كبيرهم﴾: أى الصنم الكبير منهم، وقال ذلك توبيخا لهم، أو أعرض بأن الحامل له على كسرها هو غيظه من كبيرهم لأنهم كانوا يعظمونه أكثر من غيره.

﴿رجعوا إلى أنفسهم﴾: أى باللوم حيث عبدوا مَنْ لا يدفع عن نفسه الضر.

﴿نكسوا على رءوسهم﴾: أصل نكس الشيء قلبه وجعل أعلاه أسفله، والمراد أنهم بعد إقرارهم بالخطأ فى عبادتهم انقلبوا من تلك الحال إلى المكابرة والجدل الباطل.

﴿أف﴾: أصل أف صوت المتضجر من قبح شيء، ثم صارت بمعنى أتضجر، واللام لبيان المتضجر لأجله.

﴿حرقوه﴾: أى أحرقوه بشدة وقسوة.

﴿الأرض التى باركنا فيها﴾: هى الشام، بعد أن كان ببابل بالعراق.

﴿نافلة﴾: عطية زائدة منه تعالى على ما طلب لأنه كان طلب ولدا من سارة فأعطاه معه ولد ولد وهو يعقوب.

---

(١) بآلهتنا. (٢) يا إبراهيم.
(٣) فاسألوهم. (٤) الظالمون.
(٥) آلهتكم. (٦) فاعلين.
(٧) يا نار. (٨) وسلاما.
(٩) إبراهيم. (١٠) فجعلناهم.
(١١) ونجيناه. (١٢) باركنا.
(١٣) للعالمين. (١٤) إسحاق.
(١٥) صالحين. (١٦) وجعلناهم.

المعنى: قال كفار بابل لإبراهيم عليه السلام: هل أنت الذى فعلت هذا التكسير الذى حل بآلهتنا؟ قال: لا يقصد لم أفعله عبثا بل تسبب فيه جهلكم فى تعظيمكم لها خصوصا الصنم الكبير منها، فاسألوهم عن كسرها إن كانوا ينطقون، وفى هذا أقوى تنبيه لهم من غفلتهم. عند ذلك رجع عقلاء منهم إلى الصواب وقالوا: إنكم أنتم الظالمون بعبادة مَنْ لا ينطق ولا يضر ولا ينفع. لكن قوة الزعماء وخدام الأصنام الذين ينتفعون ببقائها نكستهم وأرجعتهم إلى الباطل بالمكابرة والجدل فقالوا لإبراهيم: لقد علمت أنهم لا ينطقون فكيف تأمرنا بسؤالهم؟ قال هل وصل بكم الجهل هذا الحد فصرتم تعبدون ما لا ينفعكم أقل نفع إن عبدتموهم ولا يضركم إن تركتموه! إنى أتضجر لأجلكم أنتم وما تعبدونهم، أفلا تعقلون عند ذلك عمدوا إلى ما يعمد إليه القوى الجبار القاسى إذا عجز عن الحجة فإنه يلجأ إلى التنكيل؛ لذا قالوا ابنوا له غرفة مرتفعة الحيطان حتى لا يتمكن من الفرار منها، واملؤها بالأخشاب وأشعلوا فيها النار ثم أقذفوه فيها من الأعلى، انظر الآية (٩٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٧، وبهذا تنصرون آلهتكم على من أهانها إن كنتم فاعلين لها نصرا.

فلما طرحوه فى النار قال سبحانه للنار: كونى بردا وسلاما على خليلى إبراهيم. وهذا كناية عن حفظه من كل سوء. قالوا: ولو لم يقل سبحانه: ﴿وسلاما﴾ لقتله بردها. وأرادوا بإبراهيم كيدا وإضرارا فصيرهم الله هم الأخسرين بظهور حقه ومحق باطلهم، وأمرناه بالهجرة من العراق هو وابن أخيه لوط إلى الأرض المباركة وهى الشام وبهذا تم إنجاؤهم من كل كيد. وبركة الشام أن أغلب الأنبياء بعث فيها. ووهبنا له إسحاق ولد من زوجه سارة، وزدنا عطية زائدة هى يعقوب ولدا إسحاق. وكل واحد من إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب جعلناه صالحا كاملا. وجعلناهم أئمة يقتدى بهم يهدون الناس إلى الخير بإذننا. وأوحينا إليهم أن يفعلوا الخيرات ويحثوا الناس عليها.

المفردات: ﴿حكما﴾: المراد به هنا الحكمة وهى معرفة أسرار الأشياء، انظر الآية (٨٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٦.

ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا
عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ
ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ
سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ
فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ
فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ
فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ
شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا
حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ
وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم

﴿القرية﴾: هى سذوم بالذال كما فى القاموس وهى أكبر قرى قوم لوط وكانت بشرق الأردن.

﴿سوء﴾: أى شر يسيئون إلى كل مَنْ يخالطهم.

﴿ونصرناه من القوم﴾: (من) هنا بمعنى (على) أى نصرناه عليهم.

﴿الحرث﴾: المراد به الزرع.

﴿نفشت فيه﴾: انتشرت فيه ليلا ولم يكن معها راع فأكلته وأفسدته.

﴿شاهدين﴾: حاضرين بعلمنا.

﴿ففهمناها سليمان﴾: الضمير المؤنث يعود على الحكومة بمعنى الحكم الصحيح المفهوم من (إذ يحكمان).

﴿وسخرنا مع داود الجبال﴾: المتأمل لاستعمال القرآن لمادة التسخير يدرك منها معنى جعل الشيء المسخر مهيأ لانتفاع الإنسان به، انظر آيات (٣٢، ٣٣) من سورة إبراهيم، و(١٤) من سورة النحل صفحة ٣٤٧، و(٣٦، ٦٥) من سورة الحج صفحات ٤٣٨، ٤٤٢، ٤٤٣، و(١٢،

---

(١) الخيرات. (٢) الصلاة. (٣) الزكاة.
(٤) عابدين. (٥) آتيناه. (٦) ونجيناه.
(٧) الخبائث. (٨) فاسقين. (٩) وأدخلناه.
(١٠) الصالحين. (١١) فنجيناه. (١٢) ونصرناه.
(١٣) بآياتنا. (١٤) فأغرقناهم. (١٥) وسليمان.
(١٦) شاهدين. (١٧) ففهمناها. (١٨) سليمان.
(١٩) آتينا. (٢٠) فاعلين. (٢١) وعلمناه.

١٣) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٨. وكذا مَنْ يتأمل استعمال القرآن للتسبيح والسجود يجده كثيرا ما يراد به أن الشيء المسبح أو الساجد ينادى بأن الإله الحق واحد، وأنه سبحانه وحده صاحب الخلق والأمر فى كل الوجود، انظر آيتى (١٣، ١٥) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٢، ٣٢٣، والآية (٤٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٠، والآية (١٨) من سورة الحج صفحتى ٤٣٥، ٤٣٦ وقد ورد تسبيح الجبال وتأويبها مع داود فى موضعين غير ما هذا، فى الآية (١٠) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٣، ٥٦٤، والآية (١٨) من سورة ص صفحة ٥٩٨.

وقال البيضاوى: يسبحن أى يقدسن الله معه بلسان الحال، بمعنى أن تتمثل له مسبحة، فيكون ذلك أبهج لنفسه، وأجمع لمشاعره، فيستغرق فى التسبيح حتى يرى العالم كله مسبحا معه بلسان حاله الذى لا يعرف النفاق ولا غفلة القلب المعهودة فى لسان المقال، ولذا قالوا لسان الحال أصدق من لسان المقال وإذا أردت المزيد فى هذا الموضوع لتكون فكرتك سليمة واضحة فاجمع الآيات المشار إليها سابقا فى صعيد واحد أمام ناظريك وضم إليها ما فى الاية ١ من سورة الحديد صفحة ٧١٨، والآية (١) من سورة الحشر صفحة ٧٢٩، والآية (١) من سورة الصف صفحة ٧٣٨، والآية (١) من سورة الجمعة صفحتى ٧٤٠، ٧٤١، والآية (١) من سورة التغابن صفحة ٧٤٥ فإن المعنى يتجلى لك فى أبهج صورة. والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿لبوس﴾: أصل اللبوس اللباس، والمراد به هنا دروع الحرب.

﴿لتحصنكم﴾: لتحفظكم.

المعنى: وأوحينا إليهم فعل الخيرات خصوصا منها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا مخلصين لنا فى عبادتهم. وآتينا نبينا لوطا حكمة وعلما نافعا، ونجيناه من القرية التى كان أهلها يعملون كثيرا من الخبائث، أفظعها ما فى الآية (٨١) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥. إنهم كانوا قوم سوء وشر خارجين عن طاعة ربهم، فخسف الله تعالى بهم القرية ونجاه وأهله إلا امرأته، وأدخله فى أهل رحمته لأنه من عباده الصالحين. و أكرمنا نوحا حين نادى أنى مغلوب فانتصر

لى يارب، انظر الآية (٣٠) من سورة القمر صفحة ٧٠٥، وكان نداء نوح من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين فاستجبنا له، وبيَّن سبحانه كيف استجاب بقوله: فأنجيناه وأهله من الكرب العظيم وهو الطوفان ونصرناه على الكافرين المكذبين بآياتنا الدالة على وجودنا وصدق نوح فى رسالته حال كوننا حافظين له من أذاهم، لأنهم كانوا قوم شر فأهلكناهم بالغرق أجمعين.

وآتينا داود وسليمان فضلا حين حكما فى قضية الزرع الذى اتلفته الغنم ليلا، وكنا لذلك الحكم المتعلق بهما وبالمتحاكمين من أصحاب الزرع والغنم عالمين، فألهمنا سليمان الحكم الأقرب للصواب؛ وذلك أن داود حكم بالغنم لأهل الزرع، وكانت القيمة متساوية، وكان سليمان حاضرا، فقال: غير هذا أرفق بالطرفين، وأرى أن تسلم الغنم لأهل الزرع يأخذون من نتاجها وألبانها وأصوافها، وتسلم أرض الزرع لأصحاب الغنم فيزرعونها حتى تصير كما كانت. عند ذلك يعود كل منهما إلى ملكه. فأقره داود وكان كل منهما مجتهدا، والمجتهد مثاب على كل حال؛ ولذا قال سبحانه: وكلا منهما آتيناه حكما وعلما نافعا يمنعه من أن يجرى وراء هواه.

ثم بيَّن ما مَنَّ به سبحانه على كل منهما فقال: وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير كذلك تسبح، وكنا فاعلين أى هذا لا يعجزنا ولا ما هو أعظم منه. وعلمنا داود صنعة عمل دروع الحرب من الحديد ولم تكن معلومة من قبل لتحفظهم من أذى العدو.

المفردات: ﴿بأسكم﴾: أى حروب عدوكم.

﴿فهل أنتم.. الخ﴾: هل حرف استفهام أريد به هنا طلب ما بعده.

﴿عاصفة﴾: المراد: قوية سريعة السير وإن كانت فى نفسها مريحة لينة لا اضطراب فيها، انظر الآية ٣٦ من سورة ص صفحة (٦٠١).

﴿الأرض التى باركنا فيها﴾: هى الشام بكثرة الأنبياء منها ووفرة خيراتها.

﴿يغوصون﴾: ينزلون فى أعماق البحر لاستخراج اللؤلؤ وغيره.

مِنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾

﴿عملا دون ذلك﴾: كبناء المدن والقصور وكلمة ﴿دون﴾ هنا معناها (غير) كما فى الآية (١١٨) من سورة آل عمران صفحة ٨٢، والآية (١١٦) من سورة المائدة صفحتى ١٦٠، ١٦١.

﴿الضر﴾: بالضم هو كل ما يمس الشخص فى نفسه كالمرض والهزال، وبالفتح هو الضرر فى كل شىء.

﴿وذا الكفل﴾: قيل هو من أنبياء بنى إسرائيل. وقيل هو صالح، انظر كلاما كثيرا فى تفسير ابن كثير.

﴿ذا النون﴾: النون اسم للحوت وجمعه نينان كدود وديدان، وذا النون أى صاحب. الحوت، وهو نبى الله يونس بن متى؛ وكان رسول. الله لأهل (نينَوى) بكسر أوله، وسكون ثانيه، وفتح ثالثه ورابعه. وهى من قرى الموصل بالعراق،

﴿مغاضبا﴾: أى غاضبا من قومه لعدم إيمانهم.

﴿لن نقدر عليه﴾: أى لن نضيق عليه الأمر بل نبيح له تركهم، انظر قوله تعالى:

﴿فقدر عليه﴾.. إلخ الآية (١٦) من سورة الفجر صفحة ٨٠٧.

المعنى: لتحفظكم من ضرر حرب عدوكم، ثم قلنا لهم فهل أنتم شاكرون؟ والمراد أمرناهم بالشكر وسخرنا لسليمان الريح حال كونها قوية فى ذاتها فجعلناها تجرى حسب رغبته هينة

(١) شاكرون. (٢) ولسليمان. (٣) باركنا.
(٤) عالمين. (٥) الشياطين. (٦) حافظين.
(٧) الراحمين. (٨) وآتيناه. (٩) للعابدين.
(١٠) وإسماعيل. (١١) الصابرين. (١٢) وأدخلناهم.
(١٣) الصالحين. (١٤) مغاضبا. (١٥) الظلمات.
(١٦) سبحانك. (١٧) الظالمين.

لينة إلى الأرض التى اخترنا له الإقامة فيها لكثرة خيراتها، انظر الآية (٣٦) من سورة ص صفحة ٦٠١، وكنا بكل شىء عالمين، فلا تجرى الأشياء إلا على ما تقتضيه حكمتنا، وسخرنا لسليمان أيضا بعض الشياطين يستخرجون له من خيرات البحار ونفائسها، ويعملون له عملا غير ذلك كبناء الحصون والقصور، وكنا حافظين ومراقبين لأعمال هؤلاء الشياطين فلا ينال أحدا منهم سوء، ولا يتمردون على سليمان، وسيأتى بقية الموضوع فى الآية (٣٦) من سورة ص صفحة ٦٠١.

وأنقذنا أيوب حين نادى ربه وقد نهكه المرض ومات جميع أولاده، وقال فى ندائه مستشفعا برحمته تعالى التى وسعت كل شىء كما فى الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧: يارب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين، واستحى من أن يذكر مطلوبه صراحة؛ لذا مدحه سبحانه وتعالى فى الاية (٤٤) من سورة ص صفحة ٦٠٢ بأنه نعم العبد الصابر. فأجاب الله تعالى ضراعته بأن كشف عنه غمة مرضه، ورزقه أولادا بعدد من مات منهم، وزاد عليهم مثلهم رحمة منه سبحانه بعبده الصابر وعبرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر، ويتأدبوا كما تأدب فينالوا ما نال، وأكرمنا إسماعيل نبى الله بن إبراهيم، ونبى الله إدريس حفيد نوح، وذا الكفل، كل هؤلاء من الصابرين على شدائد التكاليف، وأدخلناهم نعيم رحمتنا وهى الجنة، انظر الآية (١٠٧) من سورة آل عمران صفحة ٨٠ لأنهم من عداد الصالحين الكاملين. ونجينا ذا النون حين هجر قومه الذين أرسل إليهم، وكانوا نحو مائة ألف فى بلد من بلاد الموصل بالعراق غضبا من عنادهم وتصميمهم على الكفر ظانا أن الله تعالى يبيح له هذا الفرار، وكان ظنه خطأ، فعاقبه الله تعالى بأن طرحه فى البحر، فالتقمه الحوت، انظر الآيات من (١٣٩ إلى ١٤٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥. فنادى فى ظلمات بطن الحوت والماء والليل قائلا: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾ أى لنفسى بعمل ما لا يرضيك يارب.

المفردات: ﴿لا تذرنى﴾: لا تتركنى.

﴿فردا﴾: أى بلا ولد يرثنى، انظر الآيات من (٣٨ إلى ٤١) من سورة آل عمران صفحة ٦٩.

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَٰهُ[1] مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـجِي[2] الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾
وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ
خَيْرُ الْوَٰرِثِينَ[3] ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ
وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ[4] فِي الْخَيْرَٰتِ[5]
وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَٰشِعِينَ[6] ﴿٩٠﴾ وَالَّتِي
أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا[7]
وَابْنَهَا آيَةً[8] لِّلْعَٰلَمِينَ[9] ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً
وَٰحِدَةً[10] وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ
كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ[11] ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ[12]
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَٰتِبُونَ[13] ﴿٩٤﴾
وَحَرَٰمٌ[14] عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا[15] أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا
فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾

﴿وأصلحنا له زوجه﴾: جعلناها صالحة للولادة بعد أن كانت عاقرا كما فى الآية (٥) من سورة مريم صفحة ٣٩٦.

﴿رغبا ورهبا﴾: أى رغبة فى رحمتنا وخوفا من عذابنا، انظر الآية (٩) من سورة الزمر صفحة ٦٠٧.

﴿والتى أحصنت فرجها﴾: هى السيدة مريم ابنة عمران، والمراد حفظته فصارت عفيفة، انظر معانى الإحصان فى الآية (٢٤) من سورة النساء صفحة ١٠٣.

﴿ونفخنا فيها من روحنا﴾: النفخ فيها كناية عن وضع سر من أسراره تعالى فى بطنها،انظر الآية (٢٩) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠، والآية (٨٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦.

---

(١) ونجيناه.
(٢) ننجي.
(٣) الوارثين.
(٤) يسارعون.
(٥) الخيرات.
(٦) خاشعين.
(٧) وجعلناها.
(٨) آية.
(٩) للعالمين.
(١٠) واحدة .
(١١) راجعون.
(١٢) الصالحات.
(١٣) كاتبون.
(١٤) وحرام.
(١٥) أهلكناها.

﴿وابنها﴾: هو عيسى عليه السلام.

﴿آية للعالمين﴾: أى جعلنا حالتهما دليلا للعالمين على كمال قدرتنا.

﴿هذه أمتكم﴾: أصل الأمة الجماعة المتفقون على دين، ثم أطلق على الدين نفسه وهو المراد هنا، انظر الأية (٢٣) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩ والخطاب هنا لجميع المكلفين. والمراد: هذه الشريعة هى شريعتكم.

﴿أمة واحدة﴾: أى حال كونها دينا واحدا عند جميع رسل الله والمراد بالدين هنا هو أصول الإسلام، انظر الآية (١٣) من سورة الشورى صفحتى ٦٣٩، ٦٤٠.

﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾: أى تفرقوا جاعلين أمر دينهم فيما بينهم قطعا متباينة حسب شهوات كل منهم بما سولت له نفسه مع أن دين الله عند جميع الرسل واحد فى أصوله، انظر الآية (٥٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٠، والآية (٣٢) من سورة الروم صفحتى ٥٣٤، ٥٣٥؛ ثم أنظر الآية (١٣) من سورة الشورى صفحتى ٦٣٩، ٦٤٠.

﴿فلا كفران لسعيه﴾: أى لا نكران لثواب سعيه.

﴿وحرام على قرية﴾.. إلخ: أى ممتنع عدم بعثها يوم القيامة، وهذا رد على أمنيتهم عدم البعث.

﴿يأجوج ومأجوج﴾: تقدم الكلام على أصلهما فى الآية (٩٤) من سورة الكهف صفحة ٣٩٣ وقوله تعالى ﴿فتحت يأجوج ومأجوج﴾: نسبة الفتح ليأجوج على تقدير مضاف مفهوم من السياق، والأصل فتحت طريق يأجوج إلخ، تقول العرب: بنى الأمير المدينة.، يريدون بنى عمال الأمير، ومنه فى القرآن: ﴿وأسأل "القرية﴾.. إلخ الآية (٨٢) من سورة يوسف صفحة ٣١٥ أى اسأل أهل القرية.

﴿حدب﴾: أصل الحدب هو ارتفاع الظهر. ثم أطلقه العرب على كل مرتفع من الأرض.

﴿ينسلون﴾: تقول العرب نَسَل الذئب بفتح النون والسين نسلانا إذا قارب الخطو وأسرع فى مشيته.

والمراد يسرعون النزول من الآكام والمرتفعات. قال ابن عباس: هذه صفتهم حال خروجهم.

المعنى: فأجبنا دعاء ذى النون أى يونس، ونجيناه من الغم الذى كان فيه. وكما أنجيناه لما عرف ذنبه ورجع إلينا ننجى كل مؤمن يقر بذنبه ويلجأ إلينا.

وأكرمنا زكريا حين نادى ربه وهو فى محراب مريم كما فى آيتى (٣٨، ٣٩) من سورة آل عمران صفحة ٦٩ بالنداء المبيَّن فى أول سورة مريم، و منه قوله يا رب لا تتركنى بدون وارث وأنت يا رب خير من يبقى بعد كل من يموتون، يشير إلى الثناء عليه سبحانه بدوام البقاء وإلى فناء كل ما سواه. ووهبنا له يحيى وصيَّرنا امرأته التى كانت عاقرا لا تلد صالحة للولادة. وأكرمنا كل هؤلاء الأنبياء المذكورين لأنهم كانوا مداومين على المبادرة إلى كل خير، ويدعوننا رغبة فى رحمتنا وخوفا من عذابنا، وكانوا لا يخشعون إلا لنا. وقد تقدم معنى الخشية فى الآية (٢٨) من هذه السورة صفحة ٤٢٣. ومن عبادنا الذين اصطفيناهم مريم التى حافظت على عفافها فوضعنا فى جوفها سرا من أسرارنا كان به عيسى بدون أب. وجعلنا ذلك برهانا للعالمين على تمام قدرتنا عل كل ما نريده. ثم أراد سبحانه أن يحث الناس على ملة الإسلام التى هى دين جميع الرسل كما فى الآية (١٩) من سورة آل عمران صفحة ٦٥ فقال مخاطبا جميع الناس: وإن هذه الملة التى هى الإسلام هى ملتكم الصحيحة التى يجب أن تحافظوا عليها حال كونها ملة واحدة عند جميع الرسل، وأنا ربكم واحد فلا تعبدوا غيرى، ومع هذا لم ينتفع بهذا الإرشاد إلا قليل، والأكثر جعلوا أمر دينهم بينهم قطعا، أى فتفرقوا فى الدين الداعى إلى الوحدة كل حزب بما لديهم فرحون، انظر الآية (٥٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٠. وكل فرقة سترجع فى الآخرة إلينا ونوفيها جزاءها. ثم فصل ذلك فقال: فمن يعمل بعض الأعمال الصالحات وهو مؤمن فلا نمنع عنه ثواب سعيه وإنا لعمله كاتبون وحافظون فلا نضيع عليه منه شيئا. وممتنع على أهل كل قرية أهلكناها بسبب ظلمها أنها لا ترجع إلينا يوم القيامة، أى فلابد من البعث والجزاء، ولا نكتفى بعذابها فى الدنيا، وسيبقى أهل الدنيا على

حالهم حتى يفتح باب الشر بانطلاق عوامل الفوضى ويعم الفساد، والقائمون بهذه الفوضى يسرعون من كل مرتفع من جبال أو طرق، حيث انحدرت جيوش التتار بقيادة (چنكيز خان) من الشمال الشرقى لآسيا وليس من سد (ذى القرنين) (الحديدى) ولا من سد (باب الأبواب) المتقدم الكلام عليهما عند الآية (٩٣) من سورة الكهف صفحة ٣٩٣ لأن هذين السدين باقيان إلى اليوم. وسيبقى سد (ذى القرنين) إلى أن يدك مع الأرض والجبال يوم القيامة كما تقدم.

ولما عبر (چنكيز خان) بجيوشه التى تفوق الحصر نهر (سيحون) كان أول هجومه على (بخارى) فى ٤ ذى الحجة سنة ٦١٦ هجرية ثم اتجهوا إلى (سمرقند) فدخولها فى محرم سنة ٦١٧ هجرية وأفنوا كل ما يلاقيهم من جيوش، ونهبوا كل ما يريدون فدب الرعب منهم فى قلوب جميع الخلائق فى تلك المناطق واستولى عليهم الفزع فلم يقو على الوقوف فى طريقهم أحد لشدة توحشهم، وما علم عنهم من التنكيل الشديد بكل من يقف فى طريقهم، ثم عبروا نهر (جيحون) ودخلوا مدينة (نيسابور)، ثم اتجهوا نحو (الرّىّ) ونهبوها، ثم دخلوا (همذان) ثم (قزوين) وقتلوا من أهلها نحو ٤٠ ألفا، ثم توجهوا نحو (أذربيجان)، ثم (تبريز) وفى سنة ٦١٨ هجرية دخلوا مدينة مراغة، فقتلوا أكثر أهلها، ونهبوا كل ما يصلح للنهب، وهكذا صاروا يستولون على تلك البلاد شيئا فشيئا بدون مشقة حتى حكموا كل البلاد الفارسية، ولما توفى (چنكيز خان) سنة ٦٢٤ هجرية كانت بغداد لا زالت مقر الخلافة العباسية بعيدة عن الخطر، ولما تولى الخلافة (المستعصم بالله) سنة ٦٤٠ هجرية دخل (هولاكو) حفيد (چنكيز خان) بغداد بجيش جرار فقتل (المستعصم)، وبموته مات آخر خليفة عباسى، وأتلف هولاكو كل ما فى بغداد من دور الكتب والقصور، وقذف بأنفس الكتب الإسلامية فى نهر دجلة، وكانت تلك أفظع خسارة علمية، وبعد مدة وجه (هولاكو) جيوشه إلى الشام ليقفز منها إلى مصر وغيرها، فأرسل حاكم مصر فى ذلك الحين السلطان (قطز) جيشا تحت قيادة (الظاهر بيبرس) الذى تولى سلطنة مصر بعد (قطز) فهزم جيوش التتار هزيمة منكرة فى المكان المسمى (عين جالوت)، ووقى الله أهل مصر والشام شر هؤلاء الغزاة.

وبعد هذه الموقعة ذهبت هيبة جيوش التتار، وانكسرت شوكتهم، وهذا الجيش المخرب هو يأجوج ومأجوج المذكور هنا فى الآية وقد تبين بطلان الرأى القائل إن ذلك سيحصل عند قيام الساعة، ويؤيد ما قلنا الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد بن حنبل وأخرجه البخارى وقال ﷺ (لَيُحَجَّن هذا البيت ولَيُعْتَمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج) اللام فيهما للقسم والمعنى: والله ليحج الناس ويعتمرون بعد خروج يأجوج ومأجوج، وهذا هو الحاصل الآن، وقد جاء فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى ما يفيد أن النبى ﷺ أطلق (يأجوج ومأجوج) على كل مَنْ لم يؤمن بالله ورسله وأنهم يبلغون من الكثرة حدا يجعل نسبة المؤمن إليهم كنسبة واحد إلى ألف، وقال ابن كثير فى تعليقه على هذا الحديث أنه يدل على كثرة يأجوج ومأجوج، بعدما أورد ابن كثير فى كتابه النهاية فى التاريخ الجزء الثانى صفحة ١٠٩ طبع المنار حديث زينب زوج النبى ﷺ الذى رواه البخارى ومسلم من أنه ﷺ استيقظ من النوم جزعا فلما سئل قال: ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلَّق بأصابعه حلقة صغيرة. قال ابن كثير إن هذه إشارة منه ﷺ إلى فتح أبواب الشر والفتن، فهو استعارة وضرب من المثل.

وقد فتحت الفتن على المسلمين بمقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولم يغلق بابها إلى اليوم، وفتح بابها الأكبر بغارة التتار هذه ومعنى هذا أنه ﷺ لا يريد بما فتح سد ذى القرنين الذى لن يدك إلا يوم القيامة مع الجبال والأرض، انظر الآية (٩٨) من سورة الكهف صفحة ٣٩٤ والله أعلم.

المفردات: ﴿واقترب﴾: أى قرب جـداً. انظر ﴿اقتربت الساعة﴾ الآية (١) من سورة القمر صفحة ٧٠٤.

﴿الوعد﴾: المراد بالوعد هنا الشىء الموعود به وهو هنا يوم القيامة.

﴿فإذا هى﴾: (إذا) كلمة تدل على حصول ما بعدها عقب حصول الموعود به المفهوم مما قبلها بسرعة. والفاء تؤكد هذا الربط. (هى) كلمة تدل على حالة مبهمة تفسرها الجملة

وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾
إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا
وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾
لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ
خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى
ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ
وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ
بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾

المذكورة بعدها. وحكمة هذا الاستعمال أن الضمير (هى) لا يفهم منه أول الأمر إلا شيء مبهم له خطره.

فلذا يترقب السامع بيانه. فإذا ما جاء هذا البيان بعد ذلك يتمكن فى ذهنه أقوى تمكن.

﴿شاخصة﴾: خبر مقدم و﴿أبصارهم﴾: مبتدأ مؤخر. فكأنه قيل: هذا الشيء الخطير هو أن أبصار الكافرين تكون شاخصة عند هذا الهول. ومعنى شاخصة مرتفعة الأجفان. لا تغمض أبدًا من شدة الكرب. انظر الآية (٤٢) من سورة إبراهيم صفحة (٣٣٦).

﴿ياويلنا﴾: تركيب يقوله المتحسر النادم. والويل هو الهلاك.

﴿بل كنا ظالمين﴾: بل حرف يدل على الإعراض عما قبله. والاعتراف بما يذكر بعده، والمراد أن الأدلة كانت قائمة أمامنا دائما، وكنا نتغافل عنها، فلم نكن فى غفلة أبدًا بل داومنا على ظلم أنفسنا بهذا التغافل.

---

(١) شاخصة.
(٢) أبصار.
(٣) يا ويلنا.
(٤) ظالمين.
(٥) واردون.
(٦) آلهة.
(٧) خالدون.
(٨) وتتلقاهم.
(٩) الملائكة.
(١٠) فاعلين.
(١١) الصالحون.

﴿وما تعبدون من دون الله﴾: أى من الأصنام وجنود الكفر، كالأحبار فى الآية (٣١) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥؛ وفرعون فى الآية (٣٨) من سورة القصص صفحة ٥١٢؛ والشيطان فى الآية (٤٤) من سورة مريم صفحة ٤٠٠ والآية (٦٠) من سورة يس صفحة ٥٨٤.

﴿حَصَب﴾: كلمة مأخوذة من الحَصْب بفتح فسكون، وهو الرّمى. والمراد به هنا ما يرمى به فى النار كالحطب.

﴿لها واردون﴾: اللام فى (لها) بمعنى (على) أى عليها.

﴿لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها﴾: لما كانت هذه القضية جاءت على الأسلوب الذى يقول عنه علماء المنطق: إنه دليل شرطىّ، أو استثنائى فله عندهم اسمان. وهو المؤلف من قضيتين يلزم عقلا من إبطال ثانيتهما إبطال الأولى.. كما تقول فى الرد على مَنْ يدعى أن الشمس طالعة: لو كانت الشمس طالعة لما كان الجو مظلما، ولما ظهرت النجوم لامعة، ولكن الثابت المشاهد الآن هو أن الجو مظلم، والنجوم ظاهرة، فثبت أن الشمس ليست طالعة، ولما كانت القضية الثانية فى الآية وهى قوله تعالى ﴿ماوردوها﴾ قد يخفى دليل إبطالها على الكثير، وأغفل الكلام عن ذلك جل المفسرين، ومن تنبه لذلك كالفخر الرازى لم يوضحها بما يقضى على الشبهات، نقول لما كان كل هذا رأينا أن نتبسط فى بيان هذا الدليل حتى يتيسر فهمه لمن لم يمارسوه فنقول جرت سنة القرآن أنه يستغنى عن ذكر بعض أجزاء الكلام كجواب (لو) مثلا لأنه مذكور فى موضع آخر من القرآن نفسه، انظر نظير ذلك فى شرح الآية (٣١) من سورة الرعد صفحة ٣٢٦؛ كما جرت سنته أيضا أنه بعدما يشدد فى لفت الأنظار إلى التأمل فى الأدلة بصحة الأصول التى يجب اعتقادها، ويكرر هذه الأدلة مرارا على وجوه مختلفة حتى لا يدع لأحد عذرا فى الغفلة عنها، نقول بعد كل ذلك يرتب على هذه الأدلة آثارها، على اعتبار أن ما أثبته حاصل محقق لا يقبل جدلا، ولا ادعاء غفلة من متغافل، ونظير هذا الدليل الاستثنائى فى القرآن قوله تعالى فى الآية (٢٢) من هذه السورة (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) والمعنى.. ولكنهما لم يفسدا فيتعين أنه ليس فيهما إلا إله واحد؛ وسنعرض لبعض من نظير ذلك فيما يلى:

منها: أنه أقام سبحانه الأدلة القاطعة بصور متعددة كما سبق على وجوب إفراده سبحانه بالعبادة، وإبطال عبادة غيره، بإثبات أنها مخلوقة له سبحانه مثل عابديها، وأنها عاجزة لا تنفع ولا تضر، وأن عابديها ينسونها عند الشدة، ولا يذكرون إلا الله وحده؛ انظر آيتى (٤٠، ٤١) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، والآيات من (١٩٠ إلى ١٩٨) من سورة الأعراف صفحتى٢٢٤، ٢٢٥، والآية (٢٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٩، والآيات (١٤، ١٥، ١٦) من سورة الرعد صفحة ٢٢٣، والآيات (١٧، ٢٠، ٢١) من سورة النحل صفحة ٢٤٧، والآيات من (٧٣ إلى ٧٦) من سورة النحل صفحتى ٣٥٥، ٣٥٦، وآيتى (٦٦، ٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣، والآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤، والآيات من (٧٠ إلى ٧٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٤، والآيات من (٧٧ إلى ٨٢) من سورة الشعراء أيضا صفحة ٤٨٥، والآية (٤١) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦، والآية (٦٥) من سورة العنكبوت أيضا صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠، وآيتى (٤، ٥) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٦.

ومنها: أنه سبحانه نبه عقول المشركين للتأمل فى هذا الكون العظيم ليصلوا من ذلك إلى أن هذا العالم المتقن الصنع وما حواه من أسرار لا يقدر على إيجاده إلا إله واحد لا يعجزه شيء يريده، انظر الآية (١٨٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣، والآيات من (٣٠ إلى ٣٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣.

ومنها: أنه سبحانه ألجأهم إلى الاعتراف بأنه وحده هو الذى أغدق عليهم ما هم فيه من النعم، ولا دخل لمعبوداتهم فى ذلك، انظر الآيات (٣١، ٣٤، ٣٥) من سورة يونس صفحتى ٢٧١، ٢٧٢، والآيات من (٣٢إلى ٣٤) من سورة إبراهيم صفحتى ٣٣٤، ٣٣٥، والآيات من (٥ إلى ١٨) من سورة النحل صفحات ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، والآيات من (٨٠ إلى ٨٣) من سورة النحل صفحتى ٣٥٦، ٣٥٧، والآيات من (٦٠ إلى ٦٤) من سورة النمل صفحتى ٥٠١، ٥٠٢، والايات من (٦١ إلى ٦٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩، والآية (٢٧) من سورة السجدة صفحة ٥٤٨.

ومنها: أنه سبحانه أمرهم بالسير فى الأرض، والتأمل فى عاقبة من كذبوا رسلهم ليقلعوا عن تكذيب رسولهم، حتى لا يحل بهم ما حل بمن قبلهم من العذاب، انظر الآية (٦) من سورة

الأنعام صفحة ١٦٢، ١٦٣، والآية (١٨٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣، والآية (٧٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣، والآية (١٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٧، وآيتى (٨٢، ٨٣) من سورة هود صفحة ٢٩٦، والآيات من (١٠٠ إلى ١٠٣) من سورة هود صفحة ٢٩٩، والآية (٤٥) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٦، والآيات من (٦٦ إلى ٧٧) من سورة الحجر صفحتى ٣٤٢، ٣٤٣، والآية (٣٦) من سورة النحل صفحة ٣٥٠، والآية (٤٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٥، والآيات من (٦٧ إلى ٦٩) من سورة النمل صفحتى ٥٠٢، ٥٠٣، والآية (٣٨) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٥، ٥٢٦، والآية (٢٦) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٧، ٥٤٨.

ومنها: أنه سبحانه طوقهم بأدلة لَوَتْ أعناقهم إلى الالتفات إلى التأمل فى حال الرسول ﷺ، وفيما يقوله عن ربه حينما يتحدث عما سيقع فى أسلوب أنه واقع فعلا ليملأ قلوبهم خشية، وخوفا، من أمر واقع لا محالة. فمن ذلك: ﴿قالوا لا علم لنا﴾، والأصل ﴿يقولون﴾ انظر الآية (١٠٩) من سورة المائدة صفحة ١٥٩، و(أتى أمر الله) أى أن يوم القيامة الذى قلت أنه سيحصل لابد من حصوله حتى كأنه حاصل من الآن، انظر الآية (١) من سورة النحل صفحة ٣٤٥، ويعرض سبحانه ما سيلاقيه المجرمون فى جهنم بصيغة الفعل الماضى حتى كأنه وقع وصح التحدث عنه، انظر الآيات من (٥٠ إلى ٦٥) من سورة الصافات صفحتى ٥٩٠، ٥٩١، والآية (١٩) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨؛ ويقارن سبحانه بين ما سيلاقيه الكافرون والمؤمنون فى أسلوب الأمر الواقع فعلا، انظر آيتى (٧١، ٧٣) من سورة الزمر صفحة ٩١٦.

ومنها أنه سبحانه يثبت لهؤلاء الكفار صدق رسله فى كل ما أخبروا به، ولو كان غيبا لا يعلمه إلا الله، لأن الأيام أظهرت صدقهم، فيجب أن يصدق هؤلاء رسولهم إذا قال لهم إن الله يأمركم أن لا تعبدوا إلا إياه، انظر الآية (٩٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥٧، والآيات من (٤٤ إلى ٤٦) من سورة القصص صفحة ٥١٣، والآيات من (٣ إلى ٥) من سورة الروم صفحتى ٥٣٠، ٥٣١، والآيات (١١، ١٥، ٢٧) من سورة الفتح صفحات ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨٣.

ومنها أنه سبحانه نبههم إلى أنه إذا وعد بشىء فهو صادق الوعد، لا يعجزه شىء عن تنفيذ ما يريد، فيجب أن يحذر هؤلاء الكفار ما هددهم به إذا لم يقلعوا عن الشرك، انظر بعض ذلك فى الآية ٥ من سورة الأنعام صفحة ١٦٢، والآيات من (٦٤ إلى ٦٧) من سورة هود صفحة

٢٩٤، وآيتى (٨١، ٨٢) من سورة هود أيضا صفحة ٢٩٦، والاية (٤٧) من سورة إبراهيم صفحتى ٣٣٦، ٣٣٧ وآيتى (٤٥، ٤٦) من سورة طه صفحة ٤٠٩ مع الآية (٤٠) من سورة القصص صفحة ٥١٢، وآيتى (١٤، ١٥) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٠، والآية (٧) من سورة القصص صفحتى ٥٠٦، ٥٠٧، وآيتى (٣٣، ٣٥) من سورة القصص صفحتى ٥١١، ٥١٢، والآية (٣٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٥، والآيات من (٣ إلى ٦) من سورة الروم صفحتى ٥٣٠، ٥٣١، وما أخبر به ووقع كما فى الآية (١٢) من سورة آل عمران صفحة ٦٤، والآيات من (٤٣ إلى ٤٥) من سورة القمر ٧٠٧.

ثم بعد كل هذا تحداهم بما أعجزهم بأن طلب منهم إن كانوا على حق أن يأتوا بسورة مثل سور القرآن، وأخبرهم بأسلوب قاطع باستحالة أن يأتوا بمثله، وهذا لو كان مستطاعا لهم أهون من امتشاق الحسام والدخول فى قتال توالت معه هزائمهم حتى دك آخر حصن من حصونهم، وانتصر الرسول والمؤمنون، انظر آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة البقرة صفحة ٦.

ثم فضحهم وكشف عن دخيلة نفوسهم. فقرر أنهم موقنون كأمثالهم من الكفار السابقين بأن جميع رسل الله على حق، وأنهم صادقون فيما يقولونه عن ربهم، ولكنهم مع كل هذا يكذبون ظاهرا فقط، انظر الآية (٤٢) من سورة البقرة صفحة ٩، والآية (٨٩) من سورة البقرة صفحة ١٧، والآية (١٤٦) من سورة البقرة أيضا صفحة ٢٨، والآية (٣٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧، والآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥.

ثم أخيرا سجل عليهم أنهم يعرضون عن قصد عنادا واستكبارا، انظر الآية (٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣، والآية (٢٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٥، ١٦٦، والآية (١١١) من سورة الأنعام أيضًا صفحة ١٨١، وآيتى (١٤، ١٥) من سورة الحجر صفحتى ٣٣٨، ٣٣٩.

هذا وإنما أطلنا فى هذا الموضوع لما تقدم، ولأنا رأيناها فرصة لعرض صورة واضحة يتجلى بها معنى قوله تعالى: ﴿ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا﴾ الآية (٨٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦. وقوله: ﴿ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شىء جدلا﴾ الآية (٥٤) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨

وقوله: ﴿وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا﴾ الآية (١١٣) من سورة طه صفحة ٤١٧؛ ومعنى تصريف الآيات تنويعها على وجوه شتى، وصور مختلفة، ليغلق سبيل الأعذار الكاذبة فى وجوه المكابرين.

﴿زفير﴾: هو النفس الخارج من الجوف بقوة من شدة الكرب، تقدم فى الآية (١٠٦) من سورة هود صفحة ٣٠٠.

﴿لا يسمعون﴾: أى ما يسرهم، فلا ينافى أنهم يسمعون ما لا يسر، أنظر الآية (٤٤) من سورة الأعراف صفحة ١٩٩ والآية (٥٠) من سورة الأعراف أيضا صفحة ٢٠٠، والآيات من (٢٧ إلى ٣٣) من سورة الصافات صفحتى ٥٨٨، ٥٨٩، وآيتى (٧١، ٧٢) من سورة الزمر صفحة ٦١٦، والآيات من (٤٧ إلى ٥٠) من سورة غافر صفحة ٦٢٤.

﴿الحسنى﴾: مؤنث الأحسن. والمراد المثوبة الأكثر حسنا على ماقدموا من الصالحات.

﴿حسيسها﴾: أصل الحسيس هو الصوت الخفيف. والمراد هنا صوت فوران جهنم المذكور فى الآية (٧) من سورة الملك صفحة ٧٥٥. وقال ابن كثير (حسيسها) هو صوت لهبها عند اضطرابه.

﴿الفزع الأكبر﴾: هو الهلع والذعر الذى يعترى الخلائق بعد النفخة الثانية التى يبعثون بعدها أحياء من القبور، انظر آيتى (٥١، ٥٢) من سورة يس صفحتى ٥٨٣، ٥٨٤، والآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥، وهو يحصل لجميع الخلائق من عهد آدم إلى قيام الساعة.

﴿السجل﴾: هو ما يكتب فيه كالقرطاس.

﴿للكتب﴾: جمع كتاب، والمراد بها هنا المكتوب فى السجل، انظر معانى (الكتاب) التى جاءت فى القرآن فى شرح الآية (٢) من سورة الجمعة صفحة ٧٤١، والآية (٧) من سورة المطففين صفحة ٧٩٧؛ واللام فى (للكتب) بمعنى على كما فى قوله تعالى (لها عاكفون) الآية (٥٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٦ وقوله (وتله للجبين) الآية (١٠٣) من سورة الصافات صفحة ٥٩٣.

﴿الزبور﴾: هو كتاب نبى الله داود.

﴿الذكر﴾: المراد به هنا التوراة، انظر الآية (٤٨) من هذه السورة صفحة ٤٢٥.

﴿أن الأرض﴾: إن كان المراد بالأرض هنا أرض الدنيا يكون المراد بالصالحين بعدها هم الصالحون لعمارتها، لأن البقاء للأصلح، والله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا. وإن كان المراد أرض الجنة فالأمر ظاهر، انظر الآية (٧٤) من سورة الزمر صفحتى ٦١٦، ٦١٧.

المعنى: وقرب جدا عند ذلك يوم القيامة الذى وعد الله سبحانه به، ووعده حق لا يتخلف. وإذا حصل هذا الوعد يفاجأ الذين كفروا بشخوص أبصارهم من شدة الفزع حال كونهم قائلين تحسرا: يا هلاكنا، قد كنا فى غفلة من هذا اليوم، لا بل الحق أنا كنا ظالمين لأنفسنا بعدم الإصغاء لقول الرسول، وإهمال النظر فى الأدلة التى عرضها علينا ثم وجه سبحانه الخطاب لهؤلاء المشركين وأمثالهم مهددا لهم بالمصير المحتوم فقال: إنكم أنتم وكل ما تعبدونهم من دون الله من الأصنام وإبليس وجنوده، وقود جهنم، انظر الآية (٢٤) من سورة البقرة صفحة ٦. وجميعكم واردون عليها قطعا، وإدخال الأصنام معهم فى جهنم مع إنها حجارة لا تتألم، يراد به النكاية بهم، وتوبيخهم على عبادتها، ولدوام حسرتهم كلما شاهدوها معهم فى مكان الإهانة،وقد كانوا يرجون منها الإنقاذ، ثم أراد سبحانه أن يقرع أسماعهم بما يبطل عبادتهم لغيره، فقال: لو كان هؤلاء إلخ.. أى لو كان هؤلاء آلهة كما زعمتم لما دخلوا جهنم، وحيث قد تبين لكم على أتم وجه أى من الأدلة التى جاءت على صور مختلفة وهى المتقدم الإشارة إليها هنا، أنهم سيدخلونها قطعا، حتى بلغ من ثبوت ذلك وظهوره أنه صح أن يخبر عنه الصادق أنهم دخلوها فعلا من الآن. حيث تبين ذلك امتنع بالضرورة كونهم آلهة، لأن الإله الحق لا يقبل مختارا أن يحبس فى دار أعدت للإهانة، وحينئذ فكل من العابدين والمعبودين سيكونون فى جهنم خالدين.

ثم بيَّن سبحانه بعض أحوالهم وهم فى جهنم فقال: لهم فيها زفير.. إلخ، أى لمن يعقل ويحس ممن دخلوا النار زفير من شدة العذاب، وهم فيها لا يسمعون شيئا يسرهم. ثم بعد ذلك أراد سبحانه أن يبين حال المؤمنين جميعا مع دفع شبهة العذاب عمن عبده الكافرون منهم وهم أبرياء من ذلك، كالمسيح، انظر الآية (١١٦) من سورة المائدة صفحتى ١٦٠، ١٦١ والعزير، انظر الآية (٣٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥، والملائكة، انظر الآية (٢٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣، وآيتى (١٧، ١٨) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢، والآية (٤٠) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨. ولذلك

قال: إن الذين سبقت لهم منا.. إلخ. أى إن الذين سبق أننا قدرنا لهم فى الأزل المثوبة الأكثر حسنا لأنها أجر مضاعف على حسناتهم التى عملوها فى الدنيا، انظر الآية (٤٠) من سورة النساء صفحة ١٠٧، والآية (١٦٠) من سورة الأنعام صفحة ٩١. هؤلاء يبعدهم ربهم عن جهنم لا يزعجهم سماع غليانها، وهم فى نعيم الجنة الذى تشتهيه أنفسهم خالدون لا ينقطع عنهم لحظة، انظر الآية (٣٢) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤.

ومما منَّ الله به عليهم أنهم قبل موقف القيامة لا يزعجهم هول الهلع الذى يعترى غيرهم، وهذا لا يتفق مع القول بأن هول الفزع الأكبر يعم جميع الخلائق حتى الأنبياء، وقد أجاب عن ذلك الألوسى بقوله:

(إذ يعترى الأنبياء حتى ينسوا عصمتهم وسرعان ما ينجلى بعد الشفاعة العظمى وإعطاء كل كتابه، يعلم الذين سبقت لهم الحسنى أنهم فى أمان، ونظرا لقلة هذا الزمن المشحون بالهول اعتبر بالنسبة إليهم كأنه لم يكن.

وعند دخولهم الجنة تستقبلهم ملائكة الرحمة بالبشرى قائلين: هذا يوم ثوابكم الذى وعدكم به ربكم فى الدنيا، واذكر أيها النبى الهول العظيم لقومك محذرا، يوم نطوى السماء طيا قويا سريعا سهلا، كقوة وسرعة وسهولة طى الكاتب للقرطاس على ما كتب فيه، ثم بعد ذلك تمور السماء كما فى الآية (٩) من سورة الطور صفحة ٦٩٧، ثم تتبدل السماء بغيرها كما فى الآية (٤٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٧؛ ونعيد الخلائق للحساب كما بدأنا خلقهم أولاً، بل إعادتهم علينا أسهل، الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤، إنا وعدنا بذلك وعدا أوجبناه على أنفسنا، إن شأننا دائمًا أننا ننجز كل ما نعد به، ولا يعجزنا عن ذلك شىء والمراد تنبيههم ليستعدوا لهذا اليوم لصالح الأعمال، ثم أراد سبحانه أن يوقظ العقول لما حكم به فى الأزل من أسباب تؤدى إلى مسبباتها.

بيَّن سبحانه كثيرا منها فى كتب الأنبياء السابقين فقال: ولقد كتبنا.. إلخ، ولقد قضينا قضاء مبرما بيناه فى الكتب السابقة أن الأرض يستحق الاستيلاء عليها الصالحون من عبادنا على ما تقدم بيانه.

إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا[١] لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ[٢] (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ[٣] إِلَّا
رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ[٤] (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ
وَاحِدٌ[٥] فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ[٦]
عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩)
إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ
أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ[٧] إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ[٨] رَبِّ احْكُم
بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)

(٢٢) سورة الحج مدنية
وآياتها ثمان وسبعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ

المفردات :: . ﴿في هذا﴾: أى ما ذكر فى السورة من القصص والمواعظ.

﴿لبلاغا﴾: أى كفاية فى الاعتبار.

﴿أنما إلهكم﴾: انظر ما قيل فى ﴿أنما﴾ بفتح الهمزة فى الآية (٢٤) من سورة ص صفحة ٦٠٠، وهو الاستسلام والخضوع لله تعالى.

﴿فهل أنتم﴾ : استفهام أريد به الحث على ما بعده.

﴿آذنتكم﴾ :: أى أعلمتكم ما أمرت بتبليغه لكم.

﴿على سواء﴾: أى مستوون كلكم فى الإعلام فلم أخص أحدا بشىء دون غيره ﴿وإن أدرى﴾: إنْ حرف نفى بمعنى لا.

المعنى: . إن فيما ذكر لكافية فى التذكر والاعتبار لقوم همهم عبادة الله ومعرفته لا الفتنة بزخارف الدنيا. وما أرسلناك أيها النبى إلا لتكون سبب رحمة لجميع العالم حتى الحيوانات، ومَنْ يعلم ما كان عليه العالم قبل بعثه ﷺ وما صار إليه بعدها يعلم كيف كان رحمة للعالمين، وأولها عدم الخسف والإفناء الكلى عند ارتكاب المعاصى كما كان فى الأمم السابقة، فقل لهم

(١) لبلاغا.
(٢) عابدين.
(٣) أرسلناك.
(٤) للعالمين.
(٥) واحد.
(٦) آذنتكم.
(٧) ومتاع.
(٨) قال.

أيها النبى إن أهم ما يوحيه إلىَّ ربى هو وحدانية إلهكم الذى يجب أن لا تعبدوا غيره، فاخضعوا له وأسلموا، فإن تولوا وأعرضوا عن الإسلام فقل لهم لإقامة الحجة قد أعلمتكم جميعا بما أمرنى ربى بتبليغه لكم، ولا أدرى هل ما توعدون به من العذاب والبعث للجزاء قريب أم بعيد؛ لأن الله تعالى لم يطلعنى عليه لكنه آت لا ريب فيهه.

إنه سبحانه يعلم كل قول يصدر منكم مما تجهرون به من الطعن فى الرسول ودينه وما تكتمونه من الحقد على المسلمين والكيد لهم وسيجازيكم عليه.

ولا أدرى لعل تأخير العذاب عنكم مدة من الزمن فتنة لكم واستدراج لتزدادوا إثما كما فى الآية (١٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٢. ولعله تمتيع لكم بزخارف الدنيا إلى أجل مقدر حسب حكمته تعالى ليزيدكم الترف طغيانا، ولتظهر حجة الله تعالى عليكم لأنه أحياكم مدة كافية فى تذكركم، انظر الآية (٣٧) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٦، ٥٧٧.

ثم حكى سبحانه ما تكلم به نبيه بعد أن بلغهم ما أوصى إليه فقال: قال رسولنا محمّد يارب احكم بينى وبين قومى أى افصل بينى وبينهم بالحق، أى بعدلك الذى لا يسوى بين المؤمن والكافر، والعادل والظالم، وربنا وربكم هو الرحمن بعباده المتقين المطلوب منه المعونة على كل ما تفترونه من الكذب عليه وعلى رسوله، انظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

﴿زلزلة الساعة﴾: الحركة الشديدة التى تزيل الأشياء من أماكنها؛ والمراد الزلزلة التى تحصل عند النفخة الثانية لأنها هى التى ينزعج عندها جميع الخلائق أما النفخة الأولى فلا يتأثر بها إلا الذين يكونون على وجه الأرض فقط، انظر الآية (١) من سورة الزلزلة صفحة ٨١٧.

﴿ سورة الحج﴾

** انظر سبب هذه التسمية فى الآية (٢٧) الآتية صفحة ٤٣٧ يأيها الناس جميعا احذروا عقاب ربكم بأن تطيعوه، ولا تفعلوا ما نهاكم عنه، لأن الزلزلة التى ستحصل يوم القيامة خطر عظيم.

عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ
وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ[١] وَمَا هُم
بِسُكَـٰرَىٰ[٢] وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يُجَـٰدِلُ[٣] فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ[٤] مَّرِيدٍ (٣)
كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ
ٱلسَّعِيرِ (٤) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ
فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم[٥] مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن
مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ
مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟
أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ
ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ
هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ

المفردات: ـ ﴿تذهل﴾: الذهول الغفلة الناشئة عن شدة الكرب. ﴿مريد﴾: مأخوذ من المرود وهو العتو وبلوغ الغاية فى الفساد؛ تقول العرب: مرد بوزن نصر وكرم مرودا فهو مارد ومريد ومتمرد. ﴿كتب عليه﴾: أى قضى الله تعالى عليه.

﴿تولاه﴾: أى اتبعه والمراد يرشده ويوصله.

﴿ويهديه﴾: أى يدله ويسوقه إلى طريق العذاب.

﴿السعير﴾: هى النار المتوهجة.

﴿ريب﴾: شك. ﴿نطفة﴾: المراد بها الحيوان المنوى، انظر ما سيأتى فى صفحة ٤٤٦. ﴿علقة﴾: القطعة الجامدة من الدم.

﴿مضغة﴾: القطعة من اللحم بقدر ما يمضغ فى الفم.

﴿مخلقة﴾: تامة الخلقة.

﴿طفلا﴾: المراد حال كون كل واحد منكم طفلا والطفل هو الولد من حين ولادته حتى يبلغ الحلم.

﴿أشدكم﴾: كمال العقل والقوة. ﴿أرذل العمر﴾: أى أخسه وهو الهرم والخوف.

﴿لكيلا يعلم﴾: لئلا يعلم والمراد ليرد إلى الجهل.

﴿هامدة﴾: ساكنة يابسة. ﴿اهتزت﴾: أى اضطربت بتحرك عناصر النبات فى جوفها.
﴿وربت﴾: أى انتفخت وزادت.

المعنى: ـ يوم ترون أيها الناس آثار تلك الزلزلة ترون هولاً شديدا بلغ من شدته أنه لو وجد فى ذلك الوقت امرأة ترضع طفلها لغفلت عما يحل به من الهلاك مع أنه لاصق بصدرها

---

(١) سكارى. (٢) بسكارى. (٣) يجادل. (٤) شيطان. (٥) خلقناكم.

وعزيز عليها، ولو كانت هناك حامل لسقط جنينها من شدة الفزع. وتظن أيها الناظر للناس فى ذلك اليوم أنهم سكارى بنحو خمر، والحقيقة أن ما هم فيه من الاختلال ليس نتيجة مسكر، ولكنه نتيجة شدة عذاب الله الذى أخافهم حتى طيّر عقولهم.

ثم بيَّن سبحانه أن بعض الناس بعد هذا التحذير الشديد مقلد جاهل يدفعه العناد إلى المجادلة فيما يليق به تعالى وما لا يليق مع جهله بهما، فينكر قدرته على البعث، ويزعم أن الأصنام تشفع له عند الله، انظر الآية (١٢) ومابعدها، ويزعم أنه تعالى لم يرسل محمَّدًا إليهم، انظر الآية (٤٢) من هذه السورة صفحة ٤٣٩، وينكر أن الله تعالى يعذبهم كما يقول محمَّد ﷺ، انظر الآية (٤٧) من هذه السورة صفحة ٤٤٠؛ هذا الفريق من الناس يتبع فى سلوكه هذا كل شيطان من الجن والإنس شديد الفساد، قضى الله على هذا الشيطان أنه مَنْ يتبعه يضله ويقوده إلى النار المستعرة، وإضلاله له وقيادته إلى ما يوصله للعذاب محتم، وإنما كان عليه لأن عذابه يزيد بمقدار مَنْ يضلهم، انظر الآية (٢٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٨، والآية (١٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢.

وبعد ما بيَّن سبحانه أنهم يجادلون بجهل أراد أن يقيم الدليل على قدرته على البعث بدليلين: الأول فى أنفسهم، والثانى فى الأرض والنبات، فقال: يأيها الناس إن كنتم فى شك من قدرتنا على البعث فيزيل شككم أن تنظروا كيف بدأنا خلقكم من تراب، ثم جعلنا منه نطفة، ثم جعلناه علقة، ثم مضغة، ثم جعلنا بإرادتنا بعض هذه المضغة طفلا كامل الخلقة، وبعضها ناقص لنبين لكم بهذا التدرج البديع الذى عرفه العلماء جليل حكمتنا وعظيم قدرتنا؛ ثم بعد ذلك نقر فى الأرحام من الأجنة مانشاء إقراره إلى وقت ولادته، ثم نخرج كل واحد منكم من الرحم حال كونه طفلا لاحول له ولا قوة، ثم نربيكم لتبلغوا أشدكم، ثم بعد ذلك منكم مَنْ يتوفى قبل الهرم، ومنكم مَنْ يرد فى شيخوخته إلى مثل حال الطفولة ليصير جاهلا بكل شىء كان يعلمه، وهذا هو أرذل العمر الذى يجعل صاحبه عديم النفع.

ثم أشار سبحانه إلى الدليل الثانى بقوله: وترى أيها المتأمل الأرض ميتة هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء تحرك جوفها بنمو النبات فيه، وعلت بتخلل الماء والهواء وعناصر النبات كما يعلو بطن المرأة الحبلى.

مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ
يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ
ءَاتِيَةٌ[1] لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ[2] فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى
وَلَا كِتَٰبٍ[3] مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ[4] عَذَابَ
ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ
بِظَلَّٰمٍ[5] لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ
فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ
عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ[6] ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ[7] ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ

المفـردات: . ﴿زوج﴾: صنف من النبات. ﴿بهيج﴾ أى شديد الحسن. ﴿بغير علم﴾: بدهى واضح لكل أحد.

﴿ولا هدى﴾: علم نظرى استدلالى موصل للمعرفة.

﴿ولا كتاب منير﴾: كتاب سماوى موضح للحق.

﴿ثانى عطفه﴾: عطف الشىء جانبه وجمعه أعطاف، وثنيه كناية عن التكبر والإعراض كَلَيِّ الرأس فى الآية (٥) سورة المنافقون صفحة ٧٤٣، والنَّأْى بالجانب فى الآية (٨٣) من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٥، ٣٧٦.

﴿الحريق﴾: أصل الحريق اسم مصدر وأريد به الشىء المحرق. ﴿على حرف﴾: حرف الشىء طرفه. ﴿فتنة﴾: شدة وبلاء. ﴿انقلب على وجهه﴾: كناية عن الرجوع عما كان فيه من خير إلى نقيضه.

المعنى: وأنبتت الأرض من كل صنف من النبات يسر الناظرين. ذلك المتقدم من خلق الإنسان، وإنبات الزرع ما وجد إلا بسبب أن الله هو الإله الحق لا رب غيره، وأنه قادر على

---

(١) آتيه.
(٢) يجادل.
(٣) كتاب.
(٤) القيامة.
(٥) بظلام.
(٦) الآخرة.
(٧) الضلال.

إحياء النطفة التى أصلها تراب، وأحيا الأرض الميتة بالنبات، وأنه قدير على كل شيء غير ما تقدم مهما عظم فى نظركم، وأنه حكيم فلابد من بعثكم ليوفى كلا على عمله، ولن يخلف وعده ببعث مَنْ فى القبور.

وبعد هذا فمن الناس قوم آخرون غير ما تقدم فى الآية (٣) من هذه السورة، وهم القادة والمضللون يجادلون فى صفات الله ومايليق به وما لا يليق بدون علم مطلقا، لا ضرورى كعلم الإنسان بحياته وأن الواحد نصف الاثنين، ولا استدلالى كالعلم بأن الأثر يدل على مؤثر، وليس معهم كتاب مقدس يدل على ما يزعمون، وبما أنه ليس للعلم طريق غير ذلك فلا يكون عندهم سوى الجهل.

يجادل هذا الفريق الجاهل حال كونه لاويًا عنقه عن الخضوع للحق كبرا ليضل الناس ويصرفهم عن دين الله الحق، وهذا له فى الدنيا خزى، إما بالقتل على الكفر، أو بالأسر، أو بغلبة المؤمنين عليه، ويوم القيامة يذيقه الله عذاب اللهب المحرق، ويقال لهم: ذلك الذى حصل لكم بسبب ما قدمته أيديكم من الأعمال المنكرة، وبسبب أن الله ليس بصاحب ظلم، فلا يسوى بين المؤمن والكافر، والصالح والفاجر ومن الناس فريق مذبذب فى إيمانه فهو يعبد الله على طرف فى دينه ليس متمكنا فيه كالجندى الذى يكون فى آخر الجيش، فإن رأى انتصارًا فرح بالغنيمة وإلا بادر إلى الفرار؛ فهذا إن أصابه خير من رخاء وسعة عيش فرح، وإن أصابته شدة فى نفسه أو ماله ارتد إلى الكفر فخسر فى الدنيا عزته وكرامته، وفى الآخرة نعيمها الدائم وذلك هو الخسران الواضح.

يدعو هذا الخاسر هو وأمثاله لكشف الضر عنه غير الله صنما لايضره إذا أهمله ولاينفعه إذا عظمه، وذلك هو الضلال البعيد عن الصواب.

فيكون مآل هذا الضال يوم القيامة أنه يدعو أى يصرخ نادمًا قائلاً: والله إن المعبود الذى ضرره الناتج عن عبادته ظهر أنه أقرب من نفعه المتوهم بالشفاعة إلخ.

مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ[1] وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ[2] جَنَّٰتٖ[3] تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ[4]ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ
أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ[5] ءَايَٰتِۭ[6] بَيِّنَٰتٖ[7] وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن
يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ[8]
وَٱلنَّصَٰرَىٰ[9] وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ
بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ[10]ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾
أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥۤ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ[11] وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ
وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ

المفردات: ﴿لبئس﴾ قبح. ﴿المولى﴾: الناصر والمعين. ﴿العشير﴾: المعاشر، انظر الآية (٢٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٣، ٢٤٤.

﴿ينصره﴾: الضمير يعود على النبى محمَّد صلوات ربى وسلامه عليه المفهوم من سياق الكلام لأنه هو الذى جاء بهذا الدين ونظير ذلك فى الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٢ والآية (١) من سورة القدر صفحة ٨١٥.

﴿بسبب﴾: المراد هنا الحبل، والأصل فليمدد سببا أى حبلاً، والباء جاءت لتأكيد ربط الفعل بمفعوله، انظر الآية (١٤) من سورة العلق صفحة ٨١٤.

﴿إلى السماء﴾ السماء اسم لكل ما ارتفع فوق رأس الإنسان، والمراد هنا سماء البيت وهو السقف.

﴿ليقطع﴾: أى ليقطع عنقه بالشنق، والأمر للتهديد كقوله تعالى ﴿ومن شاء فليكفر﴾ الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥ والآية (٦٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٣٠.

﴿كيده﴾: المراد فعله الذى اجتهد فيه، وسماه سبحانه كيدًا استهزاء به، وأصل معنى الكيد هو التدبير الخفى فى إيصال الضرر للغير. ﴿الذين هادوا﴾: هم اليهود. ﴿الصابئين﴾: عبّاد الكواكب، انظر شرح الآية (٦٢) من سورة البقرة صفحتى ١٢، ١٣.

﴿المجوس﴾: عبّاد النار. ﴿الذين أشركوا﴾: المراد بهم كل مَنْ عبد مع الله غيره ولم يشتهر باسم خاص كما اشتهر المجوس والصابئون. ﴿يسجد له﴾: أى يخضع لإرادته، انظر شرح الآية (٧٩) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨. ﴿وكثير من الناس﴾.. إلخ: ﴿كثير﴾ فاعل فعل مضمر أى ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة، وكثير حق عليه العذاب بكفره وإبائه عن الطاعة.

---

(١) آمنوا. (٢) الصالحات. (٣) جنات. (٤) الأنهار. (٥) أنزلناه. (٦) آيات.
(٧) بينات. (٨) الصابئين. (٩) النصارى. (١٠) القيامة. (١١) السموات.

(هنا سجدة بعد الفراغ من قراءة الآية (١٨٦))

المعنى: يصرخ الكافر عند مشاهدة العذاب قائلا والله إن من ضرره بكونه معبودًا أقرب من نفعه المتوهم بكونه شفيعا، والله لهو بئس المولى وبئس العاشر، فنفى الضرر والنفع أولاً باعتبار ذات الصنم نفسه، وأثبت الضرر ثانيا باعتبار أنه سبب فيه من حيث عبادته.

وبعد بيان حال الكافرين أراد بيان حال المؤمنين المخلصين، فقال إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحت قصورها الأنهار. إن الله يفعل مايريد من عقاب المفسد وإثابة الصالح، لايعجزه شيء. ومما أراده ولا راد لما يريد أنه ناصر رسوله فى الدنيا كما نبأ بإعلاء كلمته وإظهار دينه، وفى الآخرة بإعلاء درجته وإسعاد مَنْ آمن بالله والانتقام ممن كذبه، فمَنْ كان كل أمله فى السعادة أن الله لن ينصر محمَّدًا لأن نصره سيكون سببًا فى هلاكه فليعجل بالانتحار ليتخلص من الغيظ الذى يأكل صدره؛ لأن عدم نصر الله تعالى لرسوله مستحيل بعد وعده به فى الآية (٥١) من سورة غافر صفحة ٦٢٤ وهذا هو المراد من قوله، ﴿من كان يظن﴾ إلخ؛ أى فليضع حبلاً فى سقف بيته ثم يخنق نفسه. فلينظر قبل أن يقدم على ذلك هل يذهبن فعله هذا مايغيظه من نصر رسولنا وإذا كان لا يذهبه فنهاية أمره خيبة مسعاه ودوام غيظه فالكلام كناية عن قطع أمل عدوه ﷺ ونظير ذلك قوله تعالى لهم ﴿قل موتوا بغيظكم﴾ الآية (١١٩) من سورة آل عمران صفحة ٨٢ وكما أنزلنا تلك الحجج فى هذه السورة أنزلنا القرآن كله حال كونه آيات واضحات لإقامة الحجة على كل عاص، ولهداية مَنْ أردنا هدايته لسلامة فطرته. ثم أراد سبحانه بيان حال الطوائف المتقدمة يوم القيامة مع بعض تفصيل فقال: إن الذين آمنوا بالله ورسله. واليهود والنصارى والمجوس والمشركين إن الله يفصل بينهم يوم القيامة بإظهار المحق والمبطل لأنه شهيد على كل شيء ومنه أعمالهم فيكون فصله الحق. وبعدما حذر سبحانه بأنه سيقضى بينهم بما شاهده، نبههم إلى دليل لو تنبهوا له لاهتدوا فقال: ﴿ألم تر﴾ أى تعلم أيها العاقل أن كل شيء فى الوجود خاضع لإرادة الله تعالى، مسخر لقدرته عز وجل؟ ومن كان كذلك لايجوز أن يعبد غيره ولايعصى. وإنما ذكر الشمس ومابعدها مع دخولها فى ﴿مَنْ فى السموات والأرض﴾ لشهرتها ودفع توهم استبعاد ذلك منها بحسب النظر القاصر ولأن بعضها عُبِد من دون الله عز وجل، وكثير من الناس انتفع بذلك فحق له الثواب، وكثير منهم أهمل النظر والاعتبار فحق عليه العذاب. ومَنْ حق عليه العذاب فقد أهانه الله، ومَنْ يهنه الله فلا مكرم له.

اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾
۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا
قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ
الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾
وَلَهُم مَّقَٰمِعُ(١) مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا أَن يَخْرُجُوا
مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾
إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا(٢) وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ(٣) جَنَّٰتٍ(٤)
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ(٥) يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ
وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ
الْقَوْلِ وَهُدُوٓا إِلَىٰ صِرَٰطِ(٦) الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَٰهُ(٧)
لِلنَّاسِ سَوَآءً الْعَٰكِفُ(٨) فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ

المفردات: ـ ﴿هذان﴾: هما فريق المؤمنين فى آيتى (٢٣، ٢٤) وفريق الكافرين من الآية (١٩ إلى الآية ٢٢). ﴿خصمان﴾: الخصم معناه المخاصم، وهو يطلق على الواحد والكثير، والمراد هنا الثانى.

﴿اختصموا فى ربهم﴾: أى فيما يليق به وما لايليق.

﴿الحميم﴾: هو الماء شديد الحرارة.

﴿يصهر به﴾: يذاب به ﴿مقامع﴾: جمع مِقْمَعه بكسر فسكون ففتح بوزن ملعقة، وهى أداة القمع أى المنع، لأنها تمنعهم من الخروج من جهنم. ﴿الحريق﴾: اللهب المحرق ﴿إلى صراط﴾: طريق.

﴿الحميد﴾: أى السلوك المحمود دائمًا؛ وفى الألوسى أن الإضافة بيانية كما فى حبل الوريد﴿سواء﴾: أى مستو.

﴿العاكف﴾:المقيم. ﴿الباد﴾: الزائر القادم من البادية.

﴿بإلحاد﴾: أى ميل وبعد عن الحق والباء لتقوية ربط الفعل بمفعوله.

---

(١) مقامع.
(٢) آمنوا.
(٣) الصالحات.
(٤) جنات.
(٥) الأنهار.
(٦) صراط.
(٧) جعلناه.
(٨) العاكف.

المعنى: . الذى يهينه الله تعالى يستحيل أن يجد مَنْ يكرمه، لأن الله وحده هو الذى يفعل مايشاء من الإهانة والإكرام وغيرهما. وبعد ما ذكر سبحانه أقسام الفرق السابقة وذكر أنه سيفصل بينهم يوم القيامة أراد أن يبين طرق الخصومة وكيفية الحكم بينهما فقال: هذان، أى فريق المؤمنين وفريق يجمع كل مَنْ عداهم، ثم بيَّن مكان الخصومة فقال: اختصموا فيما يليق بربهم وما لا يليق. فقال المؤمنون: هو واحد قادر على البعث وعلى كل شىء، وقال الآخرون: معه آلهة غيره، وقال بعضهم: لايبعث مَنْ يموت ثم بيَّن مآل الفريق الثانى فقال: فكل الذين كفروا تحوطهم النار فى جهنم كما يحيط الثوب بلابسه، ويزاد عذابهم بأن تصب الملائكة الماء شديد الحرارة من فوق رءوسهم، فتصل حرارته أمعاءهم فتذيبها كما تذيب جلودهم، وأعد لهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا من النار من شدة الغم والكرب ضربتهم الملائكة بالمقامع فيعودون فى وسطها، ويقولون لهم ذوقوا عذاب النار المحرقة.

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فالله تعالى يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها حليا مبينا بأنه أساور مأخوذة من ذهب، ويحلون لؤلؤا؛ أما لباسهم الذى لابد منه فهو من حرير. وهداهم الله تعالى فى الجنة إلى القول الطيب الذى فيه تقديس الله واعتراف بفضله سبحانه، انظر الآيات من (٣٣ إلى ٣٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦، والآية (٧٤) من سورة الزمر صفحتى ٦١٦، ٦١٧.

وكما هداهم إلى طيب الأقوال هداهم أيضا إلى الحميد من الأفعال فى معاشرة بعضهم بعضا. فلا غل ولا كيد ولا حسد كما يحصل بين أهل الدنيا، بل أخوة صافية، انظر الآية (٤٣) من سورة الأعراف صفحة ١٩٩، والآية (٤٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤١.

وبعد ما ذكر سبحانه مآل الفريقين أتبع ذلك جرائم الكفار فقال: إن الذين كفروا بربهم وتعودوا أن يمنعوا الناس عن دين الله وعن الدخول إلى المسجد الحرام بمكة الذى جعله الله تعالى حرما آمنا للناس كافة يستوى فيه المقيم والطارئ ومَنْ يرد فيه أمرًا مقترنا بالبعد عن الحق، وبينه بقوله: بظلم.. إلخ.. نعذبهم عذابا شديد الإيلام.

بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ[1]
مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ
وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ
يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾
لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ[2] لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ[3]
عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ[4] فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟
ٱلْبَآئِسَ[5] ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ
وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ[6]
ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ
إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ[7]
وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ
وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ

المفردات: . ﴿بوأنا﴾: جعلنا له مباءة أى مرجعا يأوى إليه، انظر الآية (٩٣) من سورة يونس صفحتى ٢٨٠، ٢٨١.

﴿القائمين﴾: فى الصلاة.

﴿الركع﴾: جمع راكع. ﴿السجود﴾: جمع ساجد كقاعد وقعود. وهذه الثلاثة القيام والركوع والسجود هى أهم أركان الصلاة، فعبر بها كناية عنها.

﴿أذن فى الناس﴾: المراد اجهر بما أمرك الله به وأعلمهم بأن الله تعالى طلب منهم زيارة بيته.

﴿رجالا﴾: جمع راجل وهو الماشى بدون ركوب. ﴿ضامر﴾: خفيف اللحم من كثرة الحركة، والمراد به هنا الذكر والأنثى من الإبل.

﴿يأتين﴾: أى هذه الضوامر. ﴿فج عميق﴾: الفج الطريق الواسع، والعميق البعيد.

﴿ليشهدوا﴾: أى ليحضروا ويباشروا.

﴿فى أيام﴾: هى أيام النحر الثلاث، أولها يوم العيد.

﴿ليقضوا﴾: أصل القضاء القطع، والمراد هنا الإزالة. ﴿تفثهم﴾: هو فى الأصل الوسخ، وأريد به هنا حلق الشعر وتقليم الظفر وغسل العرق وغير ذلك مما يعلق بالجسم أثناء الإحرام.

﴿العتيق﴾: القديم.

﴿ذلك﴾: خبر لمبتدأ محذوف، والأصل الأمر هو ذلك، وهو تركيب يؤتى به للفصل بين كلامين أو وجهين من كلام واحد، انظر نظيره فى الآية (٥٥) من سورة ص صفحة ٦٠٣.

---

(١) لإبراهيم. (٢) منافع. (٣) معلومات. (٤) الأنعام. (٥) البائس. (٦) حرمات. (٧) الأوثان.

﴿الرجس من الأوثان﴾: الرجس هو النجس نجاسة معنوية أو حسية، وبيَّنه بأنه الأوثان أى الأصنام. ﴿حنفاء﴾: أى بعيدين عن الباطل. ﴿خر من السماء﴾: أى سقط.

المعنى: . ومَنْ يمل عن الحق ويظلم فى الحرام يذقه الله تعالى عذابا أليما كذلك. ولما كان مشركو مكة يفخرون بأنهم من ذرية إبراهيم أراد سبحانه أن ينبههم إلى خطئهم فى حق إبراهيم بانى البيت ويوبخهم على صدهم الناس عنه وارتكابهم الظلم فى حرمه، فقال: ﴿وإذا بوأنا لإبراهيم﴾ أى واذكر لهؤلاء الكفرة وقت أن جعلنا مكان البيت الحرام منزلا لجدهم إبراهيم، وقلنا له لا تشرك مع الله شيئًا من كل ما يُعبد مع الله، وطهر بيتى الذى أمرناك ببنائه، أى حافظ على بقائه طاهرا من تلويث الأصنام والأقذار ليكون معدًا للطائفين به والمصلين إليه قائمين راكعين ساجدين، وأعلم الناس أن الله تعالى فرض عليهم الحج إلى هذا البيت؛ فإن الله تعالى سيحببه إليهم فيأتون تلبية لندائك مشاة وركبانا على جياد من الإبل التى تأتى من كل طريق بعيد شوقا إليه، ليشهدوا منافع لهم دينية ودنيوية، انظر الآية (١٩٨) من سورة البقرة صفحة ٣٩، ويذكروا اسم الله عند الذبح فى أيام العيد الثلاثة على بهيمة الأنعام، والمراد الإبل والبقر والغنم التى رزقهم الله تعالى بها، فهى منه وإليه، فكلوا منها إن شئتم، وأطعموا مَنْ أصابه بؤس وشدة بسبب فقره. ثم بعد ذلك يطلب منهم أن يزيلوا ما علق بأجسامهم أثناء الإحرام وليوفوا نذورهم إن كانوا نذروا شيئًا فى الحرم، لأن الوفاء بالنذر يتأكد فى حرم الله، وليطوفوا بالبيت العتيق لأنه أول بيت بنى للعبادة، انظر الآية (٩٦) من سورة آل عمران صفحة ٧٨، وليطوفوا طواف الفرض المتمم لأعمال الحج وبه يحصل التحلل الأكبر الذى يحل به حتى النساء. هذا هو الأمر الحق، فمَنْ يعظم كل ماحرم الله انتهاكه من أعمال الحج وبقية التكاليف وتعظيمها بالمحافظة عليها، فتعظيمه ذلك خير له عند ربه فى الدنيا والآخرة. ولما كان المشركون يحلون الميتة ويحرمون انحلال، انظر آيات (٢، ٣، ١٠٣) من سورة المائدة صفحات ١٣٤، ١٣٥، ١٥٧، قال سبحانه: ﴿وأحلت لكم الأنعام﴾: الإبل والبقر والغنم إلا ما يتلى عليكم كل لحظة فى الآية (٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٥ وفى غيرها، فاجتنبوا الأوثان التى هى أبشع رجس، واجتنبوا قول الزور مطلقا خصوصا فى الشهادة حال كونكم مخلصين دينكم لله، لا كما يزعم المشركون من أنهم حنفاء مع شركهم بالله، ومَنْ يشرك بالله فقد هلك قطعا كما يهلك قطعا من يسقط من السماء فيصير قطعا تخطفها الطير بسرعة فلا تبقى له أثرًا.

أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ
شَعَٰٓئِرَ(١) اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا
مَنَٰفِعُ(٢) إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣)
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم
مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَٰمِ(٣) فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا
وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ
وَالصَّٰبِرِينَ(٤) عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَوٰةِ(٥) وَمِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ(٦) يُنفِقُونَ (٣٥) وَالْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا(٧) لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ(٨)
اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ
فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ
وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا(٩) لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن
يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ

المفـردات: . ﴿تهـوى به﴾: المراد تسـقطه. ﴿سحيق﴾: أى بعيـد الغـور. ﴿ذلك﴾: تقـدم المراد منها فى الصفحة السابقة.

﴿شعائر الله﴾: مفردها شعيرة، وهى كل ما شرعه الله وجعله علامة رضاه، انظر الآية (١٥٨) من سورة البقرة صفحة ٣٠ والآية (٢) من سورة المائدة صفحتى ١٣٤، ١٣٥.

﴿محلها﴾: المراد مكان حل نحرها.

﴿إلى البيت العتيق﴾ ﴿إلى﴾ بمعنى عند كما تقـول هذا الشـىء أحسن إلىَّ من العسل أى أحسن عندى. ﴿منسكا﴾: هو النسك، وهو فى الأصل العبادة مطلقا. والمراد به هنا تقديم القرابين من الذبائح تقربا لله تعالى. ﴿بهيمة الأنعام﴾: تقدم فى الآية (١) من سورة المائدة صفحة ١٣٤. ﴿المخبتين﴾: المتواضعون المذعنون بالعبودية.

﴿وجلت﴾: أى خافت. ﴿والبدن﴾: واحدها بَدَنَة بالفتح وهى من الإبل مايهدى إلى الكعبة، تطلق على الذكر والأنثى.

﴿صواف﴾: مفردها صافة، أى قائمات قد صفت أيديهن وأرجلهن ليس فيهن عيب. ﴿وجبت﴾: يقال وجب الحائط مثلا وجبة إذا سقط سقطة قوية، ويكون فيه هنا إشعار باختيارها سمينة كثيرة اللحم.

﴿القانع﴾: هو الفقير الراضى بما هو فيه ولا يسأل، انظر الآية (٢٧٣) من سورة البقرة صفحة ٥٨. ﴿المعتر﴾: هو الفقير الذى يتعرض لسؤال الناس.

---

(١) شعائر. (٢) منافع. (٣) الأنعام. (٤) الصابرين. (٥) الصلاة.
(٦) رزقناهم. (٧) جعلناها. (٨) شعائر. (٩) سخرناها.

المعنى: ومَنْ يشرك مع الله غيره فهو هالك لا نجاة له كهلاك من عصفت به الريح العاتية فى المهاوى العميقة فلا يستطيع الرجوع منها. ذلك الأمر كما ذكرت، ومَنْ يعظم البدن التى تهدى لفقراء البيت، والتى جعل الله تعالى إهداءها من أعلام دينه، وتعظيمها يكون باختيارها عظيمةِ الجسم سمينة غالية الثمن، فقد اتقى الله حقا؛ لأن تعظيمها أثر من آثار تقوى قلوب المؤمنين.

لكم فى هذه البدن المهداة للحرم منافع كركوبها عند الحاجة، وشرب لبنها عند الضرورة، إلى أجل مسمى هو زمان نحرها إذا وصلت محلها، أى مكان حل نحرها، وهو منطقة الحرم المحيطة بالبيت العتيق.

وبعد ما بيَّن سبحانه حكمة تعظيم الشعائر ومكان ذبحها أراد أن يبين أن الذبح على وجه التقرب إليه تعالى ليس خاصا بهذه الأمة، بل لكل أمة من أمم الأنبياء السابقين مناسك وذبائح تذكر بالله حين ذبحها ليشكر على توفيقه لإقامة هذه الشعائر، فالإله لكم ولهم واحد.

وإذا كان الأمر كذلك فله وحده انقادوا ولا تشركوا معه غيره. وبشر أيها النبى مَنْ سمع كلام ربه فخضع وأخلص له. ثم وصف هؤلاء الصالحين بأربع صفات جمعت أصول الفضائل فقال: الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم من هيبته، والصابرين على ما أصابهم من الشدائد ثقة بما عند الله من الفضل، والمقيمى الصلاة فى وقتها وعلى أتم وجوهها، والمنفقى بعض مارزقهم الله فى وجوه البر التى بيَّنها الله تعالى فى أماكن من كتابه.

وبعد ما رغب سبحانه فى وجوه البر ومنها تقديم الهدى إلى الكعبة، خص من بين الهدايا لأنها أعظمها قيمة فقال ممتنا: والبدن جعلناها لكم من شعائر دينه لكم فيها خير فى الدنيا والآخرة، فاذكروا اسم الله عليها عند نحرها حال كونها قائمة مصفوفة الأرجل ليس فيها نقص فإذا سقطت جنوبها على الأرض والمراد تمت ذكاتها فيجوز لكم أن تأكلوا منها، ويجب أن تطعموا الفقراء على اختلاف أحوالهم. وكما سخرنا كل شيء لما نريده منه سخرنا لكم هذه الإبل وذللناها لكم مع قوتها وعظم أجسامها لكى تشكروا نعم الله عليكم.

ثم حذر من الرياء فقال: لن ينال رضا الله اللحوم المتصدق بها، ولا الدماء التى تريقونها بكثرة ما تنحرون، ولكن الذى ينال رضاه هو تقواكم له بإخلاصكم فى تقديمها للفقراء لوجهه الكريم.

كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ[١] وَبَشِّرِ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ[٢] عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا[٣]
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ[٤]
بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ
أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم[٥] بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ
وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ[٦]
وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ[٧] وَمَسَاجِدُ[٨] يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ
وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾
الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ[٩] فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ[١٠] وَآتَوُا[١١]
الزَّكَاةَ[١٢] وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ[١٣]
الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ[١٤] وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾

المفردات: - ﴿كذلك﴾: أعادها ثانيا ليرتب عليها شيئًا غير ما رتبه أولاً ﴿خوان﴾: كثير الخيانة. ﴿كفور﴾: شديد الكفر. ﴿ولولا دفع الله الناس﴾: تقدم بيانها فى صفحة ٥٢.

﴿صوامع﴾: مفردها صومعة وهى معبد الرهبان فى الصحراء المسمى الآن بالدير وإن كان الإسلام جاء بإبطال الرهبنة انظر الآية ٢٧ من سورة الحديد صفحة ٧٢٣.

﴿بيع﴾: مفردها بيعة بكسر أوله وهى معبد النصارى غير الرهبان المسماة الآن بالكنيسة ﴿وصلوات﴾: مفردها صلاة وأصلها بالعبرية صلوتا وهى معبد اليهود.

﴿مساجد﴾: المراد بها هنا معابد المسلمين.

﴿عزيز﴾: أى غالب لايقدر عليه أحد.

المعنى: -

كذلك سخر لكم هذه الإبل لتعظموه سبحانه على هدايته لكم لشعائر دينه. وبشر أيها النبى المؤمنين الذين أحسنوا طاعتهم بجنة ونعيم دائم. وبعد ما بين سبحانه أن المشركين يصدون عن دينه وعن بيته أراد أن يبين ما به يتقى شرهم ويتمكن من إقامة دينه فقال: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ أى أن الله تعالى يدفع شر المفسدين عن المؤمنين المخلصين

---

(١) هداكم. (٢) يدافع. (٣) آمنوا. (٤) يقاتلون.
(٥) ديارهم. (٦) صوامع. (٧) صلوات. (٨) مساجد.
(٩) مكناهم. (١٠) الصلاة. (١١) وآتوا. (١٢) الزكاة.
(١٣) عاقبة. (١٤) إبراهيم.

البعيدين عن الخيانة والكفر؛ لأنه سبحانه يكره الخوان الكفور بنعمة ربه الجحود لها، فينصر مَنْ أحبهم عليهم، ويشترط فيهم ما سيأتى فى الآية (٤١) الآتية. ولما كان المسلمون فى مكة قد لاقوا من إيذاء المشركين أشد وأقسى مالاقاه بشر، وكانوا كلما اشتكوا له ﷺ أمرهم بالصبر، ولما هاجروا وأنسوا بالقوة أذن لهم بدفع العدوان بقوله ﴿أذن للذين يقاتلون﴾ إلخ: أى أن الله تعالى أباح للمؤمنين الذين يقاتلهم الكفار برد عدوانهم، وذلك الإذن بسبب أن المشركين ظلموهم.

قال ابن عباس: وهذه أول آية نزلت فى الإذن بالقتال، وإن الله على نصر المظلومين لقدير. وقد حصل فأهلك الكافرين، وجعل العزة للمؤمنين، انظر نظير ماهنا فى آيتى (٧، ٨) من سورة محمد صفحة ٦٧٣.

ثم وصف سبحانه هؤلاء المظلومين فقال: ﴿الذين أخرجوا﴾ أى هم الذين أخرجهم المشركون من مكة، وما كان لهم ذنب إلا قولهم. ربنا الله واحد لا نعبد غيره، انظر أول الممتحنة صفحة ٧٣٤ والآية (٨) من سورة البروج صفحة ٨٠١.

ثم بيّن سبحانه أن دفع عدوان الظالم ضرورة اقتضتها حكمته فقال ﴿ولولا دفع الله﴾ إلخ: أى ولولا أن الله سبحانه سخر أهل الحق والأقوياء لدفع ظلم أهل الشر لتغلب الباطل والشر على أهل الأرض فيهدمون بيوت العبادة التى يذكر فيها اسم الله، ولا يبقى فيها سوى ذكر الشيطان، وعند ذلك تكون الحياة كلها شقاء، ووالله لينصرن الله مَنْ ينصر شريعته لأنه قوى عزيز لا يغلب.

ثم وصف هؤلاء المؤمنين المأذونين بالقتال بصفات لابد منها فى دوام نصر الله لهم فقال: الذين إن مكناهم فى الأرض بجعل السلطان فى يدهم أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله وحده مرجع كل أمر، فيعز مَنْ يشاء ويذل مَنْ يشاء، وينعم مَنْ يشاء ويعذب مَنْ يشاء.

ثم شرع فى تسلية نبيه ﷺ على ماحصل وما سيحصل منهم فقال: وإن يكذبوك فلا تحزن فلست أول مَنْ فعل معه قومه ذلك، فقد كذب نوحا قومه، وهودا عاد، وصالحا ثمود، وإبراهيم قومه، ولوطا قومه، فاصبر كما صبروا.

وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ
ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ
فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ
فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى
فِى الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ
وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾
وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا
وَإِلَىَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ

المفردات: . ﴿فأمليت﴾: أى أمهلت وأرخيت الحبل لهم. ﴿نكير﴾: أى إنكارى عليهم بتغيير النعمة إلى نقمة.

﴿فكأين﴾: كلمة تدل على كثرة ما بعدها.

انظر الآية (١٤٦) من سورة آل عمران صفحة ٨٦ والآية (١٠٥) من سورة يوسف صفحة ٣١٩.

﴿خاوية على عروشها﴾: خربة ساقطة حيطانها على سقوفها. انظر الآية (٢٥٩) من سورة البقرة صفحتى ٥٤، ٥٥.

﴿معطلة﴾: أى ليس هناك مَنْ ينتفع بها.

﴿مشيد﴾: مرفوع البنيان.

﴿يستعجلونك بالعذاب﴾: الضمير لكفار قريش فقد كان ﷺ يحذرهم عذاب الله سبحانه وتعالى، ويتوعدهم بمجيئه، وكانوا ينكرون ذلك ويطلبون مجيئه استهزاء.

﴿لن يخلف الله وعده﴾: جملة حالية جاءت لبيان سفههم فى استعجال ما لابد منه لأن الله وعد به.

﴿وإن يوما عند ربك﴾: جملة أريد بها بيان خطئهم فى إنكار العذاب. فاليوم عند الله فى الدنيا كألف سنة فى حساب أهلها، وأما يوم الآخرة فهو مقدر بخمسين ألف سنة كما فى الآية (٤) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥

(١) أصحاب. (٢) للكافرين. (٣) أهلكناها.
(٤) آذان. (٥) الأبصار. (٦) آمنوا.
(٧) الصالحات. (٨) آياتنا. (٩) معجزين.

﴿نذير﴾: أى منذر ومخوف من جزاء فعل المعصية. ﴿سعوا فى آياتنا﴾: المراد من الآيات القرآن، والسعى فيه الاجتهاد لإبطاله يقال سعى فلان فى أمر فلان إذا أفسده بسعيه.

﴿معاجزين﴾: أى مسابقينه لإعجازه، يقال عاجز الرجل زميله إذا اجتهد كل منهما لإعجاز صاحبه وغلبته.

المعنى: . وكذب أصحاب مدين نبيهم شعيبا، وكذب فرعون وقومه موسى، فأمهلت كل هؤلاء الذين كفروا بأنبيائهم ليزدادوا إثما لزيادة عقابهم، انظر الآية (١٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٢. ثم أخذتهم بأشد أنواع العذاب، فانظر كيف كان أثر إنكارى وغضبى عليهم ترى هولاً عظيما، فكثيرا من القرى أهلكناها والحال أنها ظالمة فأمست خربة ليس بها أحد. وكثيرا من الآبار عطلناها بإعدام الذين كانوا يشربون منها، وكثيرا من القصور المشيدة أخليناها من سكانها؛ هل ركن هؤلاء المشركون إلى الكسل فلم يسيروا فى أنحاء الأرض ليروا آثار مَنْ أهلكهم الله بسبب ظلمهم من أقوام الأنبياء السابقين، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ما يجب من توحيد الله ونحوه، وآذان يسمعون بها أخبارهم من الأمم المجاورة لهم فيعتبروا. ولكن هؤلاء حتى لو رأوا مكان العبرة فإنهم لاينتفعون، لأن الانتفاع بوعى القلوب لا للعيون المفتحة بدون عقل وراءها، فالعمى الذى يضر ليس هو عمى الأبصار ولكنه عمى القلوب، انظر الآية (١٠٥) من سورة يوسف صفحة ٣١٩. ولما توعدهم ﷺ بالعذاب كانوا يسخرون منه، ومن ذلك أنهم كانوا يستعجلونه ويقولون متى هذا العذاب، فقال سبحانه قل لهم أيها النبى: كيف تنكرون مجىء العذاب والحال أنه سبحانه لايخلف وعده وقد وعد به وجعل لعذابكم موعدا ولن يخلف ما وعد به، وإن مدته مقدرة حسب علمه هو، وماترونه بعيدا هو عنده قريب، انظر الآية (٥١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧١، وآيتى (٦، ٧) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥، وكثيرا من القرى أمهلت أهلها كما أمهلتهم والحال أنهم ظالمون ثم أخذتهم بالعذاب وسأفعل بهؤلاء ما فعلت بمَنْ قبلهم وإن طال الزمن، وإلىّ مرجع الجميع فى الآخرة فأجازيهم بما يستحقون قل أيها النبى: يأيها الناس من كفار قريش وغيرهم ليس لى معكم إلا أن أخوفكم من عذاب الله وأبلغكم رسالته بأسلوب واضح، ثم بعد ذلك يعاملكم الله حسب أعمالكم: فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة من الله لذنوبهم ورزق كريم فى الجنة، والذين أجهدوا أنفسهم فى محاربة القرآن بتسميته سحرا وأساطير الأولين زاعمين أنهم يعجزونه ويبطلون آثاره..

أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن
رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ
فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ
لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ
مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ
عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ
فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ

المفردات: . ﴿من رسول ولا نبى﴾: لكل من النبى والرسول معنيان؛ فللنبى معنى لغوى وهو رفيع المنزلة، مأخوذ من نبا ينبو أى ارتفع، ومعنى اصطلاحى وهو مَنْ أرسله الله تعالى مبشرا بشرع جاء به رسول قبله وداعيا إليه كأنبياء بنى اسرائيل.

وللرسول معنيان: رسول أوحى إليه بشرع جديد، أى فى الفروع كما فى الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦، ورسول أوحى إليه بالدعوة لشرع سبقه، وهذا هو النبى بالمعنى الثانى؛ فكل رسول نبى بالمعنى اللغوى للنبوة؛ لأن كلا منهما رفيع المقام، وكل نبى بالمعنى الاصطلاحى رسول ولا عكس، انظر آيتى (١٥٧، ١٥٨) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨، وآيتى (٥١، ٥٤) من سورة مريم صفحة ٤٠١، والآية (٤٥) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٦، والآية (٦) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٧.. هذا كله فى الرسل والأنبياء من البشر، أما الملائكة فهم رسل بمعنى آخر كما سيأتى فى الآية (٧٥) من هذه السورة صفحة ٤٤٤.

﴿تمنى﴾: أى أحب واجتهد لنجاح دعوته ﴿ألقى الشيطان﴾: أى وضع الشيطان العراقيل فى طريقها.

﴿ينسخ الله﴾.. إلخ: أى يزيله ويبطل مفعوله، انظر الآية (١٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٢ ﴿مرض﴾: المراد نفاق.

---

(١) أصحاب. (٢، ٣) الشيطان. (٤) آياته. (٥) الشياطين. (٦) الظالمين. (٧) آمنوا.
(٨) صراط. (٩) آمنوا. (١٠) الصالحات. (١١) جنات. (١٢) بآياتنا.

﴿شقاق بعيد﴾: أى خلاف مع الحق وأهله بعيد مسافة مابينهما.

﴿فتخبت﴾ : أى تخضع.

﴿مرية﴾: شك.

﴿عقيم﴾: أى لاضير فيه من راحة أو فرج انظر الآية (٤١) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥.

المعنى: - إن الذين يحاربون آياتنا القرآنية أولئك سيلازمون جهنم. ثم أراد سبحانه أن يسلى نبيه ﷺ بأن محاربة الدين الحق معهودة فى الأمم السابقة فقال: وما أرسلنا قبلك رسولا ولا نبيًا إلا وحاله أنه إذا تمنى واجتهد فى تثبيت شريعته ونجاح دعوته ألقى الشيطان العراقيل والشبه على أتباعه لتكونُ صخورًا فى طريق أمنيته، انظر شرح آيات (٢٥، ١١٢، ١٢٥) من سورة الأنعام صفحات ١٦٥، ١٦٦، ١٨١، ١٨٣، وماقاله أبو جهل لتضليل الناس عندما سمع الآية (٦٣) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠، فيزيل الله تعالى ما يلقيه شياطين الإنس والجن، ثم يحكم الله آياته، أى يثبت شريعته التى جاءت فى آياته ويحفظها، والله عليم بأحوال الناس، حكيم فيما يفعله، فلا يترك الباطل يعلو على الحق، وإنما مكن سبحانه الشياطين من إلقاء الشبه فى طريق الدعوة ليجعل ذلك فتنة أى محنة وابتلاء يظهر معادن الناس، فالمنافقون وقساة القلوب من المشركين يزدادون ضلالاً، وهذان النوعان من الظالمين والله إنهم لفى عداوة للحق وبعد عن الصواب، وليقوى علم المؤمنين الذين آتاهم الله العلم الصحيح بأن ما جاء به رسوله هو الحق المنزل من ربك فيقوى إيمانهم به فتزيد طمأنينة قلوبهم، وأن الله يهدى المؤمنين فيما أشكل عليهم إلى طريق الحق المستقيم، انظر آيتى (٥، ٦) من سورة محمد صفحة ٦٧٣ ثم بين مآل الفريقين فقال: ولا يزال الذين كفروا فى شك من دينك حتى تأتيهم القيامة بغتة أو يأتيهم فى الدنيا عذاب القتل فى الحرب فى يوم لا خير لهم فيه كما حصل يوم بدر وغيره.

الملك والتصرف المطلق يوم ينتهى شكهم هو لله يحكم بين الخلق جميعا، ثم بين كيفية الحكم والفصل فقال: فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فهؤلاء لهم عذاب يذلهم.

مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ
لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ[1] ﴿٥٨﴾
لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾
۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ
لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ
يُولِجُ ٱلَّيْلَ[2] فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ[3] وَأَنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ
مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ[4] وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ
مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[5]
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ
تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى

المفردات: . ﴿وإن الله لهو خير الرازقين﴾: يطلق العرب الرازق على خالق الرزق، وعلى معطيه، والمراد هنا الثانى. أما الرازق بمعنى خالق الرزق فهو الله وحده، انظر آيات (٣١) من سورة يونس صفحة ٢٧١، و (٥٩) من نفس السورة صفحة ٢٧٥، و (٦) من سورة هود صفحة ٢٨٤، و (٥٨) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦.

ووجه خيريته سبحانه هنا على غيره أنه فضلا عن أن عطاءه غير محدود، ولا ممنون، فإنه يعطى رزقا هو خالقه، لعبد هو خالقه أيضا، فهو خالق النعمة ومانحها، أما غيره فإنه إذا أعطى فإنه إذا أعطى فإنه يعطى من رزق خلقه غيره وهو الله سبحانه وتعالى، فهو واسطة إعطاء فقط وشتان بين المقامين، فلذا كان سبحانه خير الرازقين بلا ريب ولذا يُكْرَه إطلاق لفظ ﴿رازق﴾ على غيره تعالى مطلقا لما فيه من الوقوع فى فهم خاطئ. ﴿مدخلا﴾: أريد به هنا مكانا يدخلونه وهو الجنة. ﴿ذلك﴾: تقدم المراد منها فى مثل هذا فى الآية (٣٠) السابقة فى هذه السورة صفحة ٤٣٧.

﴿ماعوقب به﴾: تسمية مايقع من المعتدى أولاً عقابا لمجرد المشاكلة اللفظية، لأن العقاب فى الأصل اسم لجزاء التعدى، وحسن المشاكلة هنا أن الابتداء بالتعدى هو السبب فى العقاب، فأطلق على السبب اسم مسببه، كما يقول العربى: أمطرت السماء نباتا يريد أمطرت ماء تسبب عنه نبات. ﴿يولج الليل فى النهار﴾: تقدم فى الآية (٢٧) من سورة آل عمران صفحة ٦٧.

المعنى: . الكافرون لهم عذاب شديد الإهانة، أما المؤمنون الذين تركوا أوطانهم فى طلب رضا الله بجهاد أعدائه ثم قتلوا فى الجهاد أو ماتوا موتا طبيعيا وهم فى طريقهم للجهاد أو راجعون منه، ليرزقنهم الله رزقا حسنا لايعلم حقيقته غيره تعالى؛ لأنه سبحانه هو خير

---

(١) الرازقين. (٢، ٣) الليل. (٤) الباطل. (٥) السموات.

الرازقين؛ لأنه يعطى بلا حساب ولا منة ثم بيَّن بعض هذا الرزق فقال ﴿ليدخلنهم﴾ إلخ: أى وعزته تعالى ليدخلن المقتولين فى سبيله والموتى المهاجرين فى طاعته جنات يرضون ما فيها من نعيم مقيم، وإن الله لعليم بنيات عباده فيجازى حسبها، حليم فلا يعجل بعقوبة العاصى ليفسح له مجال التوبة ذلك أى الأمر كما ذكر.

ثم انتقل إلى معنى آخر فقال ﴿ومن عاقب﴾ إلخ: أى والمؤمن الذى يجازى مَنْ جنى عليه بمثل ماجنى ولم يتعد فوق المطلوب، فإذا قطع أصبعه يقتصر على قطع أصبع فقط، أو قاتل المعتدى عليه كما قاتله، أو أخذ من ماله مثل ما أخذ من ماله، ثم بغى عليه الجانى بالعود إلى ظلمه ثانيا، فإن الله سبحانه ينصر المعتدى عليه لأنه مظلوم والله مع المظلوم. وإن الله لكثير العفو عمَنْ عاقب بمثل ما أوذى به فلا يؤاخذه به. كثير المغفرة له فيستر هفواته عن جميع خلقه ولا يفضحه يوم القيامة. وفى هذه الجملة إشارة لطيفة إلى حب الله للصفح وكبح شهوات النفوس ومقابلة السيئة بالحسنة إلا عند الضرورة، انظر الآيات من (٤٠ إلى ٤٣) من سورة الشورى صفحة ٦٤٤.

ذلك النصر الذى ضمنه سبحانه للمظلوم محقق، لأنه قادر على كل شىء يريده، انظر إلى قدرته تعالى فى المداولة بين الليل والنهار، فيزيد فى أحدهما بمقدار ما ينقصه من الآخر، فيضع ظلمة الليل مكان ضوء النهار وبالعكس، ولأنه سميع لقول كل من الطرفين، بصير بأعمالهما، فيجازى حسب مايصدر منهما. ذلك الوصف له تعالى بكمال القدرة والعلم لأنه هو الإله الحق وأن كل ما يدعونهم من دونه زاعمين أنهم آلهة باطلة ألوهيتهم لاحقيقة لها، وأن الله وحده هو العلى على ماعداه شأنا وأكبر سلطانا وأعلى من أن يكون له شريك. ثم ذكر سبحانه دلائل أخرى على كمال قدرته فقال ﴿ألم تر﴾ إلخ: أى ألم تبصر أيها الرائى أن الله ينزل من السماء مطرًا فتصير به الأرض مخضرة بالنبات بعد أن كانت بدونه قاحلة، إن الله لطيف بعباده حيث أوصل إليهم نفعهم ومنه إنزال المطر بدون إضرار بهم، عليم بدقائق الأمور ومنها مقادير مصالح العباد له وحده كل مافى السموات ومافى الأرض خلقا وملكا وعبيدًا، وأنه سبحانه هو الغنى عن كل ما سواه، المستحق لكثرة الحمد لكثرة نعمه. ألم تر وتعلم أيها العاقل أن الله سخر لكم جميعا أيها الناس ما فى الأرض ظاهرها وباطنها، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر تحملكم وتحمل أمتعتكم ، انظر معنى التسخير فى صفحة ٤٢٨، وانظر ما قيل فى الآية (٣٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٤.

فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ
إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ
لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ
فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ
هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ
فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾
وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ
لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

المفردات: ـ ﴿السماء﴾: المراد بها هنا كل ماعلا من الكواكب والنجوم والأجرام.

﴿لرءوف رحيم﴾: المراد هنا: إن الله بالناس لرءوف رحيم على ظلمهم. ونظير هذا قوله تعالى ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ الآية (٦) من سورة الرعد صفحتى ٣٢١، ٣٢٢. وانظر الفرق بينهما فى صفحتى ٢٨، ٣٤٦.

﴿منسكا﴾: تقدم أصل معناها فى صفحة ٤٣٨. والمراد بها هنا شريعة فى المعاملات وكيفية العبادات لا فى العقائد، فإنها واحدة كما فى صفحة ٦٣٩. انظر الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦.

﴿ناسكوه﴾: أى عاملون به.

﴿فى كتاب﴾: هو اللوح المحفوظ الذى كتب فيه كل شىء حتى القرآن. انظر الآية (٢٢) من سورة الحديد صفحة ٧٢٢، والآية (٢٢) من سورة البروج صفحة ٨٠٢. ﴿ينزل به سلطانا﴾: السلطان الحجة والبرهان، وتنزيله إيجاده. انظر الآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣.

المعنى: ـ ألم تر أن الله سخر لكم السفن تجرى فى البحر بإرادته ويمسك السماء من أن تقع على الأرض إلا بمشيئته؛ إن الله بالناس لرءوف رحيم، حيث سخر لهم مافى السموات والأرض، ومنع السماء من السقوط عليهم، وهيأ لهم أسباب الاستدلال ليصلوا إلى مافيه

---

(١) الإنسان. (٢) ينازعنك. (٣) جادلوك.
(٤) القيامة. (٥) كتاب. (٦) سلطانا.
(٧) للظالمين. (٨) آياتنا. (٩) بينات.

نجاتهم فى الآخرة، والله وحده هو الذى أحياكم بعد أن كنتم ترابا ونطفا، ثم يميتكم إذا جاء أجلكم، ثم يحييكم فى الآخرة للحساب والجزاء، وإن الإنسان لجحود لنعم الله مع ظهورها.

ولما كان اليهود والنصارى يساعدون المشركين فى منازعته ﷺ والتشكيك فيما جاء به بدعوى أنه بدَّل دين موسى الذى جاء فى التوراة حيث أحل ما كان محرما كالإبل، وبدل دين عيسى حيث أجاز مقابلة الإساءة بمثلها، والإنجيل ليس فيه إلا العفو، وغير ذلك؛ لما كان كل هذا أراد سبحانه إبطال زعمهم فقال: لكل أمة من الأمم السابقة أصحاب الشرائع جعلنا شريعة خاصة بهم لائقة بعصرهم، وعلى هذا الأساس جعلنا لأمة محمد شريعة يعملون بها إلى قيام الساعة وإذا كان هذا هو صنع الله الحكيم فلا يصح أن ينازعك، أهل الأديان السابقة فى أمر دينك أيها النبى لأنه ترتيب إلهى، واستمر فى الدعوة إلى توحيد ربك وعبادته على الوجه المبين فى مناسك القرآن إنك على طريق يهدى للحق مستقيم، وهو ماشرعه لك ولأمتك، وإن جادلوك فى أمر الدين بعد ظهور الحق فقل لهم محذرًا برفق: الله أعلم بما تعملون وسيجازيكم على عملكم، واطمئن أيها النبى، لأن الله سيحكم بينك وبينهم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون، فيثيب المصيب ويعاقب الضال.

ثم أراد حملهم على الإقرار بمضمون ما سبق فقال: ألم تعلم أيها العاقل إن الله يعلم ما فى السماء والأرض، أى فلا يخفى عليه شىء من أعمال الكفار وأقوالهم، وكل ذلك فى كتاب محفوظ، إن ذلك المذكور من الحكم بينهم يوم القيامة والعلم بكل شىء سهل عليه تعالى.

ثم دلل على سخافة عقول المشركين حيث بنوا أهم أعمالهم على غير أساس من دليل سمعى أو عقلى فقال: ويعبدون من دون الله مالم ينزل بعبادته حجة فى كتاب سماوى، وما ليس لهم به علم عن دليل عقلى، وما لهؤلاء الظالمين لأنفسهم باحتقار عقولهم نصير ينصرهم فى الدنيا بدفع القتل والأسر عنهم، وفى الآخرة بمنع العذاب.

ثم بيَّن بعض جرائمهم الأخرى فقال: وإذا تتلى عليهم آياتنا القرآنية حال كونها واضحات

ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا[١]
قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ
فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن
يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا
لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾
مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ
يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ[٢] رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ
بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى ٱللَّهِ
تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا[٣] ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا
وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ۩
وَجَٰهِدُوا[٤] فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ[٥] وَمَا جَعَلَ

فى الدلالة على الحق ترى فى وجوه هؤلاء الكفار المنكر واضح.

المفردات: ـ ﴿المنكر﴾: الشىء المستقبح الكريه. ﴿ضرب مثل﴾: أصل المثل عند العرب الكلام المشتمل على تشبيه شىء بشىء فيه دقه وبداعة جعلته مشهورا يتناقله الناس، ثم أطلق بعد ذلك على الكلام البديع ولو لم يكن فيه تشبيه كما هنا وضربه تبيينه وإبرازه.

﴿ماقدروا الله حق قدره﴾: تقدم بيانها فى صفحة ١٧٧.

﴿اركعوا واسجدوا﴾: المراد صلوا، وعبّر عنها بأهم أركانها.

﴿حق جهاده﴾: أصل التركيب جهادًا حقا فعكست العرب التركيب للمبالغة كقولهم فى العالم الكبير: فلان جد عالم، أى عالم جدًا. ﴿هنا سجدة﴾. ﴿اجتباكم﴾: أى اختاركم لنصرة دينه.

المعنى: ـ تدرك فى وجوه الكفار علامات العزم على ارتكاب المنكر مع المؤمنين من تجهم وعبوس، حتى أنهم يكادون يبطشون بالنبى والمؤمنين من شدة غيظهم وتعصبهم لباطلهم. قل لهم أيها النبى مقرعا ومتوعدا: هل تسمعون فأخبركم بشىء أشد شرًا عليكم من غيظكم؛ ذلك الشىء هو النار التى وعدها الله بأن تحرق لحوم الذين كفروا، وبئست النار مرجعا ونهاية. انظر الآية (١١٩) من سورة هود صفحة ٣٠١، والآية (٤٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤١، والآية (١٣) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦، والآية (٨٥) من سورة ص صفحة ٦٠٥، والآية (٣٠) من سورة ق صفحة ٦٩٠. ثم لما قدم أنهم يعبدون من دون الله ما لم يدل دليل على جواز عبادته أراد أن يوضح سفههم فقال: يأيها الناس بيَّن الله تعالى لكم حالاً مستغربة جديرة بأن

(١) آياتنا. (٢) الملائكة. (٣) آمنوا. (٤) جاهدوا. (٥) اجتباكم.

تسمى مثلا يشيع فى الأمصار والأعصار فاسمعوه سماع تدبر وعناية، ثم بين هذا المثل فقال: ﴿إن الذين تدعون﴾ إلخ: أى أن الأصنام التى تدعونها من دون الله لايقدرون على خلق أحقر المخلوقات وأضعفها وهو الذباب، ولو اجتمعوا وعاون بعضهم بعضا فى خلقه لما استطاعوا، ثم بالغ فى عجز آلهتهم بأنها لاتقدر حتى على منع هذا المخلوق الضعيف من أن يسلب منها شيئًا قليلا مما يوضع عندها من طعام للتبرك، كما سيأتى فى شرح الآية (٩١) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢، أو دهان فوق رءوسها قال ابن عباس: كانوا يطلونها بالزعفران، فما أضعف هذا العابد الطالب من الصنم أن ينفعه، وما أضعف هذا الصنم المطلوب منه النفع.

ثم أكد جهلهم بمقام خالقهم فقال: ﴿ماقدروا الله حق قدره﴾ أى ماعرفوا الله حق المعرفة اللائقة به سبحانه حيث أشركوا به أعجز الأشياء مع أنه وحده القوى على خلق العالم بأسره، العزيز الذى لايغلبه شىء مهما عظم. وبعد ما هدم سبحانه قواعد الشرك وأيد دعائم التوحيد، شرع فى إثبات الرسالة إبطالاً لما ضللوا به على الضعفاء من التشكيك فى رسالته ﷺ، انظر قولهم فيه صلوات الله عليه فى الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠، والآية (٨) من سورة ص صفحة ٥٩٨، يحاكون بذلك قول أمثالهم فى أنبيائهم فى الآية (٢٥) من سورة القمر صفحة ٧٠٦ فقال سبحانه: ﴿الله يصطفى﴾ إلخ: أى أن حكمته سبحانه قضت أنه يختار من الملائكة رسلا يحملون الوحى إلى أنبيائه، ومن الناس رسلا يبلغون شرعه تعالى إلى خلقه، وهو وحده السميع لأقوال عباده، البصير بأعمالهم، فيعلم مَنْ يصلح منهم للرسالة، انظر الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، وهو سبحانه الذى يعلم ماعليه عباده فى حاضرهم، وماتركوه خلفهم، وإليه مرجع كل الأمور، فلا يصح لأحد أن يعترض عليه فى اختيار مَنْ يختار، فيأيها الذين آمنوا لايهمكم تضليل هؤلاء الكفار، وأقبلوا على طاعة ربكم من صلاة وعبادة وغيرها من فعل الخير مترجين من الله الفلاح أى الفوز بالنعيم الدائم. وجاهدوا فى سبيل مرضاة الله أعداء دينه وشهوات أنفسكم الجهاد الحق، وهو الذى لايخاف صاحبه لومة لائم، لأنه سبحانه هو الذى اختاركم لنصرة دينه ليجزل لكم الثواب فى الآخرة وهو الذى خفف عنكم ماكلفكم به.

عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ
ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا
عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ
وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

(٢٣) سُورَةُ المُؤْمِنُونَ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا ثَمَانِي عَشْرَةَ وَمِائَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ
خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ

المفردات : . ﴿حرج﴾ : ضيق ومشقة. ﴿أبيكم إبراهيم﴾ : سماه أبا أمة محمد ﷺ مع أن فيها مَنْ ليس من نسله، لأن أبا رسول الأمة يعتبر أباهم جميعا، لأن رسولها كالأب في الرحمة بهم. ﴿ليكون الرسول شهيدا عليكم﴾ إلخ: تقدم في صفحة ٢٧.

المعنى : . ما جعل سبحانه عليكم فيما شرعه لكم مشقة، انظر آخر سورة البقرة. الزموا ملة أبيكم إبراهيم التي امتن الله عليكم بأن هداكم لها كما في الآية (١٦١) من سورة الأنعام صفحة ١٩١، ثم بيَّن سبحانه ما يؤيد اجتباءه للمؤمنين بقوله: هو سبحانه سماكم المسلمين من قبل نزول القرآن في الكتب السابقة من صحف إبراهيم وموسى، وسماكم المسلمين أيضا في هذا القرآن لتكون عاقبتكم يوم القيامة أن الشاهد عليكم بأن رسالة ربكم التي بلغتكم هي تلك التي بلغكم بها رسول الله ﷺ، وتكونوا أنتم شهداء على جميع الأمم السابقة بأن أنبياءهم بلغوهم شرع ربهم، بانين شهادتكم هذه على تصديقكم كتاب الله الذي جاء به رسولكم، وفيه القطع بأن الرسل بلغوا أممهم وآمن منهم البعض وكفر الباقي، وبما أن الله سبحانه خصكم بهذا الشرف فيجب

(١) إبراهيم
(٢) سماكم
(٣) الصلاة
(٤) وآتوا
(٥) الزكاة
(٦) مولاكم
(٧) خاشعون
(٨) للزكاة
(٩) فاعلون.

عليكم أن تشكروه بأداء الصلاة على أتم وجوهها وتؤتوا الزكاة مستحقيها، واعتصموا بالله أى تمسكوا بكل أوامره، ولا تثقوا إلا به فى جميع أموركم، ولا تطلبوا الإعانة إلا منه لأنه سبحانه هو وحده ناصركم ومتولى أموركم، فنعم المولى ونعم النصير سبحانه، لأنه لا مثيل له فى الموالاة والنصر، بل فى الحقيقة لا نصير سواه.

﴿أفلح المؤمنون﴾ : أى نجحوا وفازوا بالنعيم الدائم. ﴿اللغو﴾ : أصل اللغو الكلام الذى لا فائدة فيه، وقد يطلق عل كل مالا يعتد به من كلام أو عمل.

﴿للزكاة فاعلون﴾ : أصل معنى الزكاة النمو، والزيادة الحاصلة ببركة الله عز وجل. يقال زكا الزرع يزكو إذا حصل له نمو وبركة، ويقال زكّى فلان نفسه أى نمىّ فيها حب الخير والطاعات، قال تعالى: ﴿قد أفلح مَنْ زكاها﴾ الآية (٩) من سورة الشمس صفحة ٨٠٩، واللام فى قوله ﴿للزكاة﴾ تسمى لام الباعث على العمل، أى والذين هم لأجل تنمية حب الخير فى أنفسهم فاعلون ما يحقق ذلك، وهو ما أمرهم الله سبحانه به من إخراج الزكاة، ويسمى الجزء من المال الذى يخرج للفقراء زكاة لأن إخراجه سببٌ للبركة وتنمية حب الخير، انظر الآية (١٠٣) من سورة التوبه صفحة ٢٥٩، ولا يصح أن يراد بالزكاة هنا المال لأنه لا يقال فعل فلان المال مثلاً لأن مادة فعل لا تتعلق إلا بالمعانى، ولا تتعلق بالأجسام المادية، فيقال فعل فلان الإحسان، وفعل الشر مثلاً، ولا يقال فعل القمح أو الفول مثلاً.

﴿فروجهم﴾ : يطلق الفرج على كل من سوءتى الرجل والمرأة.

سورة المؤمنون

قد فاز بالمرغوب المؤمنون بالله حقا، الذين إذا وقفوا بين يدى ربهم فى الصلاة ملأ الخوف من جلاله قلوبهم، وسكنت جوارحهم، وعلموا أنه سبحانه مطلع عليهم يراقب أقوالهم وأفعالهم، والذين هم معرضون عن كل ما لا فائدة فيه وعن غيره من باب أولى. والذين هم لأجل تطهير نفوسهم من دنس الشح فاعلون ما يقربهم إلى الله من إخراج الزكاة لمستحقيها، والذين يحافظون على فروجهم إلخ.

حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ
أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ
رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ
مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣ ثُمَّ
خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا
ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا
ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ
ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ۝١٦
وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ

المفردات : . ﴿ابتغى﴾ : أى طلب.

﴿وراء ذلك﴾ : المراد غير ذلك.

﴿العادون﴾ : البالغون النهاية فى العدوان ومجاوزة حدود الشرع.

﴿أماناتهم﴾ : مفردها أمانة، وهى ما يؤتمن عليه الشخص من جهة الله سبحانه كالتكاليف الشرعية، أو من جهة الناس كالأموال المودعة عنده. وعهدهم ما عاهدوا عليه ربهم بقبول شرعة وتصديق رسله والوفاء بعهودهم وما عاهدوا عليه ربهم كالنذر مثلا، أو عاهدوا عليه الخلق من كل ما فيه مصلحة وليس ضارا بأحد. ﴿راعون﴾ : أى مراعون وحافظون. ﴿يحافظون﴾ : أى يؤدونها فى أوقاتها. ﴿الوارثون﴾ : أصل الإرث أخذ الشىء عن الغير من غير عقد بيع ولا هبة ولا غير ذلك، ثم استعمل فى مطلق استحقاق شىء، ومنه ما هنا وهو استحقاق الجنة، انظر الآية (٤٣) من سورة الأعراف صفحة ١٩٩، والآية (٦٣) من سورة مريم صفحة ٤٠٢. ﴿سلالة من طين﴾: السلالة هى الخلاصة التى سلت من غيرها، والغير هنا هو الطين الذى هو من التراب، انظر الآية (٣٧) من سورة الكهف، والآية (١١) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣، والآية (١٧) من سورة نوح صفحة ٧٦٩. ﴿نطفة﴾ : هى الحيوان المنوى الموجود فى المنى وهو الماء الدافق، انظر الآية (٣٧) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠. ﴿قرار مكين﴾ : أى مستقر حصين وهو الرحم

(١) حافظون (٢) ازواجهم (٣) أيمانهم
(٤) لأماناتهم (٥) راعون (٦) صلواتهم
(٧) الوارثون (٨) خالدون (٩) الإنسان
(١٠) سلالة (١١) جعلناه (١٢) عظاما
(١٣) العظام (١٤) أنشأناه (١٥) آخر
(١٦) الخالقين (١٧) القيامة.

المحاط بصندوق من عظام الظهر والجانبين وفوق العانة إلى آخر مالا يعرفه إلا الأخصائيون.
﴿علقة﴾، ﴿مضغة﴾ : تقدما فى صفحة ٤٣٣. ﴿الخالقين﴾ : يطلق الخلق بمعنى الإيجاد وهذا خاص بالله تعالى وبمعنى التقدير، والمراد هنا الثانى، وهذا يطلق على غيره تعالى، انظر الآية (٤٩) من سورة آل عمران صفحتى ٧٠، ٧١.

﴿طرائق﴾ : مفردها طريقة بمعنى مطروقة كذميمة بمعنى مذمومة، مأخوذة من قولهم طارق الرجل بين ثوبين إذا لبس أحدهما فوق الآخر، فهى بمعنى ﴿الطباق﴾ فى الآية (٣) من سورة الملك صفحة ٧٥٤.

المعنى :. والذين هم لفروجهم حافظون بإمساكها عن كل أجنبى وأجنبية، إلا على أزواجهم من رجل أو امرأة، أو ما ملكت أيمانهم، وهذا خاص بالرجال فقط، فهم الذين يجوز لهم التمتع بالمملوكات، أما المرأة فلا يحل لها التمتع بمملوكها؛ فهم غير مؤاخذين فى التمتع بما أحل لهم، فمَنْ طلب غير ما أحل له فأولئك هم المتوغلون فى العدوان على حدود الله، والذين هم لأماناتهم وعهودهم حافظون والذين يحافظون على صلواتهم بأدائها فى أول أوقاتها؛ هؤلاء الجامعون لهذه الخصال السبع وهم وحدهم المستحقون لأن يرثوا الفردوس، وهو أعلى الجنة، خالدين فيها. وبعد أن ذكر سبحانه صفات السعداء أتبع ذلك بذكر مبدأ خلقهم ومآل أمرهم ومآل غيرهم من بنى الإنسان، لبيان كمال قدرته وتمام نعمته، وليذكرهم بالخوف من عصيانه، فقال: ولقد خلقنا الإنسان من سلالة مستخلصة من الطين الذى أصله من التراب والماء، ثم جعلنا هذه السلالة نطفة، وحفظناها فى مكان حصين، ثم حولنا النطفة إلى علقة، فحولنا العلقة مضغة، فحولنا أكثر المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر بنفخ الروح فيه فصار حيا بعد أن كان جمادا ميتا، فتعالى شأنه سبحانه، وهو أحسن المقدرين المنظمين، لا اختلال فى تقديره. ويؤخذ من العطف بـ (ثم) تارة وبـ (الفاء) أخرى، إن المدة بين كل حال وأخرى تختلف بما لا يعلم مقداره بالضبط سواه سبحانه. ثم إنكم يا بنى آدم بعد هذا الخلق والحياة المقدرة لكل منكم لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون للجزاء والحساب. ولقد خلقنا فوقكم سبع سموات مطروق بعضها فوق بعض وما كنا عن جميع الخلق بما فيه هذه السموات بغافلين لحظة.

غَٰفِلِينَ[١] ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ[٢]
فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ[٣] ﴿١٨﴾
فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ[٤] مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ[٥] لَّكُمْ فِيهَا
فَوَٰكِهُ[٦] كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ
سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ[٧] ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ
فِى ٱلْأَنْعَٰمِ[٨] لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا
مَنَٰفِعُ[٩] كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ
تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ[١٠]
ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾
فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟[١١] ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ
مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ
مَلَٰٓئِكَةً[١٢] مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا[١٣] ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا

المفردات : ـ ﴿بقدر﴾ : أى بمقدار معين.

﴿شجرة﴾ : هى شجرة الزيتون.

﴿طور سـيناء﴾ : هو المكان الذى ناجى موسى ربه عنده، ويسمى طور سينين كما فى الآية (٢) من سورة التين صفحة ٨١٣.

﴿بالدهن﴾ : هو الزيت.

﴿وصبغ﴾ : هو الزيت باعتبار أنه مؤتدم به، والكلام من عطف الصفة على الموصوف، انظر الآية (٤٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥.

وسمى الزيت صبغا لأن الخبز يصبغ به عندما يغمس فيه.

﴿الأنعام﴾ : الإبل والبقر والغنم.

﴿الملأ﴾ : هم الزعماء وأصحاب الرأى.

﴿إن هو﴾ : إن حرف نفى بمعنى ما.

المعنى : ـ وما كنا عن هذه المخلوقات غافلين، بل حفظناها من الزوال والاختلال. وأنزلنا من جهة السماء ماء هو المطر مقترنا بمقدار كفاية الخلق فى مصالحهم بدون إضرار بهم، وإنا قادرون على إذهابه بتغويره وامتصاص الأرض له، أو تبخيره فى الهواء، أو استحالة

---

(١) غافلين (٢) فأسكناه (٣) لقادرون
(٤) جنات (٥) وأعناب (٦) فواكه
(٧) للآكلين (٨) الأنعام (٩) منافع
(١٠) يا قوم (١١) الملأ (١٢) ملائكة
(١٣) آبائنا.

استخراجه من باطن الأرض لسبب ما؛ فأنشأنا لكم بهذا الماء جنات من نخيل وأعناب وغيرهما، وخصهما بالذكر لكثرة الانتفاع بهما خصوصا فى بلاد العرب. لكم فى هذه الجنات فواكه غير النخيل والعنب كثيرة، ومما فى هذه الجنات من زروع وثمار تأكلون، والمراد تنتفعون أكلا أو بيعا؛ تقول العرب فلان يأكل من حرفته أى يرتزق منها. وانشأنا لكم بالماء أيضا شجرا مباركا هو شجر الزيتون الذى ينبت فى وادى الطور، وخصها بالذكر بعدما تقدم لكثرة منافعها، ولمكثها فى الأرض أكثر من كل الشجر، حتى قال بعضهم أنها تعيش نحو ألف عام، تنبت مصاحبة للدهن، كقولهم جاء فلان بثياب السفر، والمراد تخرج من ثمرها الزيت الجامع بين كونه يدهن به وتسرج به المصابيح، وبين كونه إداما يصبغ فيه الخبز أى يغمس وبعدما بين نعمته تعالى من جهة الزرع أراد بيان نعمه من جهة الحيوان فقال : وإن لكم فى الأنعام لعبرة تستدلون بها على قدرتنا وعلى فضلنا عليكم، نسقيكم مما فى بطونها من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين كما فى الآية (٦٦) من سورة النحل صفحة ٣٥٤. ولكم فيها منافع كثيرة من أصوافها وأوبارها وأشعارها انظر الآية (٨٠) من سورة النحل صفحة ٣٥٦، وتأكلون من لحومها، وعلى أعظمها عندكم وهو الإبل تحملون فى البر كما تحملون فى السفن فى البحر، انظر الآية (٧) من سورة النحل صفحة ٣٤٦.

ثم أراد سبحانه أن يذكر كفار قريش بمآل مَنْ أهمل الاعتبار وجحد نعمة الله وكذب رسله فأهلكهم الله، فقال: ولقد أرسلنا نوحا فقال يا قوم اعبدوا الله وحده فما لكم من إله غيره، فهل يصح أن تلجوا فى عمايتكم فلا تخافوا عذاب ربكم؟ فقال الزعماء الذين كفروا من قومه لعوامهم: ما هذا الرجل الذى يدعى أنه رسول إلا بشر مثلكم، أى وليس ملكا، يريد أن يتفضل عليكم ويكون سيدا لكم، ولو شاء الله أن يرسل رسولا لأرسل ملائكة رسلا، ما سمعنا بأن لله رسولا من البشر فيما نقل عن آبائنا الأولين، وهذا إما لفرط عناد هؤلاء الزعماء لتضليل العوام أو لأنهم كانوا بعد فترة طويلة انقطعت عنهم فيها أخبار مَنْ أرسل قبلهم، وإذا كان هذا غير مسموع فما نوح إلا رجل مجنون.

رَجُلٌ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ
ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ
بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا
مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ
مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي[1] فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾
فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ
ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا[2] مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ[3] ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي
مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ[4] وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ
قَرۡنًا ءَاخَرِينَ[5] ﴿٣١﴾ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ
مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ[6] وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ[7]

المفردات : ﴿جنَّة﴾: جنون.

﴿فتربصوا﴾ : انتظروا.

﴿حتى حين﴾ : إلى أن يفيق من جنونه.

﴿بأعيننا﴾ : تحت رعايتنا وحفظنا.

﴿أمرنا﴾ : بنزول العذاب بهم.

﴿وفار التنور﴾: نبع الماء بكثرة من تنور الخبز، انظر الآية (٤٠) من سورة هود صفحة ٢٩٠.

﴿فاسلك فيها﴾ : فادخل فى السفينة.

﴿زوجين﴾ : ذكرًا وأنثى من كل نوع من الحيوانات.

﴿من سبق عليه القول﴾ : سبق القضاء بهلاكه.

﴿لآيات﴾ : لعبرا وعظات.

﴿مبتلين﴾ : أصل الابتلاء الاختبار.

﴿قرنا آخرين﴾ : هم عاد قوم هود، انظر ما يدل على أن هودًا بعد نوح فى صفحات ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٩١، ٤٨٧.

﴿رسولاً منهم﴾ : هو هود عليه السلام.

(١) تخاطبنى
(٢) نجانا
(٣) الظالمين
(٤) لآيات
(٥) آخرين
(٦) الآخرة
(٧) اترفناهم.

﴿أترفناهم﴾: أى نعمناهم بسعة الرزق وغيره، يقول العربى: تَرِف فلان بفتح التاء وكسر الراء يترف بوزن فرح يفرح أى تنعم، وأترفه غيره نَعَّمَهُ.

المعنى : . قالوا ما نوح إلا رجل أصابه جنون فانتظروا حتى يفيق من جنونه، قال نوح بعد ما يئس من إيمانهم: يارب انصرنى عليهم بسبب استمرارهم على تكذيبى، فأجبنا دعاءه، وأوحينا إليه بأن يصنع السفينة تحت رعايتنا ووحينا إليه بكيفية عملها، فإذا جاء أمرنا بنزول العذاب بهم وفار التنور بالماء كما بيَّن فى الآية (٤٠) من سورة هود صفحة ٢٩٠، فاحمل فيها من كل حيوان زوجين، أى ذكرا وأنثى، وأكد ذلك بقوله اثنين، أى لا أكثر، حتى تتسع لكل الأنواع، واحمل فيها أيضا أهلك من نساء وذرية ومَنْ آمن معك، انظر صفحة ٢٩٠، إلا مَنْ سبق قضاء الله بهلاكه منهم لكفره، وأنت تعرف الكافر منهم والمؤمن، فلا تصحب منهم كافرًا. وقال (عليه) لأن الحاصل له ضار، والنافع يعدى له باللام، انظر الآية (١٠١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، والآية (٤٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦، ولا تخاطبنى يا نوح فى نجاة الظالمين منهم بأن تطلب ذلك لأنى حكمت بإغراقهم، ومن كان هذا مآله لا تصح الشفاعة فيه، انظر الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦.

فإذا علوت أنت ومَنْ معك على الفلك وتمكنتم من ظهرها فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين، وقل أيضا يارب أنزلنى من السفينة بعد ذهاب الماء مكانا مباركا يساعدنا على العمل لخيرى الدنيا والآخرة، وأنت خير المنزلين، إن فيما حصل لنوح وقومه لعبرا وعظات، وإنا كنا فيما فعلناه بهم معاملين عبادنا معاملة المختبر ليظهر مَنْ يعتبر ومَنْ يهمل، انظر الآية (١٥) من سورة القمر صفحة ٧٠٥، ثم أنشأنا من بعد نوح وقومه أمة أخرى هى عاد، فأرسلنا فيهم رسولا منهم هو أخوهم هود قائلا لهم اعبدوا الله ليس لكم إله غيره، هل يصح بعد هذا أن تهملوا فلا تتقوا عذابه، وقال كبار قوم هود الذين كفروا بالله وكذبوا بلقاء ما فى الآخرة من حساب وجزاء، والذى جرأهم على ما قالوه مما سيأتى هو ما كانوا فيه من الترف والنعيم، انظر ما قيل فى صفحة ٣٦٦.

فِي ٱلْحَيَوٰةِ[١] ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا
تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم
بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ[٢] ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ
إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا[٣] أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾
۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾
قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ
نَٰدِمِينَ[٤] ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ[٥] غُثَآءً
فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ[٦] ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا
ءَاخَرِينَ[٧] ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ[٨] ﴿٤٣﴾
ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ

المفردات : . ﴿هيهات﴾ : اسم فعل بمعنى بعُد بضم العين، وفاعله ضمير يرجع إلى شيء مفهوم من السياق وهو هنا البعث بعد الموت، وكررت للتوكيد.

﴿لما توعدون﴾ : اللام تسمى لام البيان، تبين مرجع الضمير بأنه هو البعث من القبور الذى وعدهم به هود، ونظير هذه اللام يأتى فى الآية (٤١) الآتية.

﴿إن هى إلا﴾ : إن حرف نفى بمعنى ما.

﴿عما قليل﴾ : أصلها عن ما، ثم أدغمت (عن) بمعنى بعد و (ما) المراد بها هنا زمن أى بعد زمن قليل.

﴿الصيحة﴾ : أصل الصيحة هى المرة من الصياح. وهو الصوت الشديد المزعج، والمراد بها هنا مطلق العذاب الشديد لأنهم أهلكوا بريح عاتية كما الآية (٦) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١، وسميت صيحة لأنه كان مع الريح صوت جبريل.

﴿غثاء﴾ : ما يحمله السيل من العيدان والورق والأشياء البالية المغبرة.

﴿فبعدا﴾ : أى هلاكا. ﴿تترا﴾ : أصلها (وترا) من الوتر، وهو الفرد. والعرب تبدل الواو فى مثل ذلك ﴿تاء﴾ والألف للتأنيث. لأنها حال من جماعة الرسل، والجمع يؤنث لفظه فيقال جاءت الرسل، وهى فى الأصل مصدر كالمواترة، وأريد بها الصفة أى متتابعين.

---

(١) الحياة — (٢) لخاسرون — (٣) عظاما
(٤) نادمين — (٥) فجعلناهم — (٦) الظالمين
(٧) آخرين — (٨) يستأخرون.

المعنى :. وقال الزعماء الذين نعمناهم فى الدنيا بكثرة المال والأولاد ما هذا النبى إلا بشر مثلكم، ثم بينوا وجه المماثلة بقولهم : يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربونه، أى والرسول لابد أن يكون من الملائكة أى أشرف منكم، ووالله إن أطعتم بشرا مثلكم فيما يأمركم به إنكم إذا أطعتموه لخاسرون كرامتكم لأنكم أذللتم أنفسكم لشخص لا مزية له عليه.

ومن فساد عقولهم أنهم لم يقبلوا الخضوع لبشر وعبدوا الحجر، ثم بينوا وجه اعتراضهم على قوله فقالوا: هل يصح أن يعدكم بالخروج من القبور بعد أن تموتوا وتصيروا ترابا وعظاما؟ كلا، بل بعُد جدًا ما يعدكم به، فما الحياة التى يمكن أن نحياها إلا هذه الحياة التى يسميها هو الدنيا زاعما أن بعدها أخرى، نموت ونحيا، أى يموت بعضنا ويحيا بالميلاد غيره، أو ينقرض قرن ويأتى قرن، وما نحن بمبعوثين بعد الموت أبدًا، ما هذا النبى إلا رجل افترى على الله كذبا فيما يدعيه من أنه أرسله، وما نحن له بمصدقين. وهذا يدل على أن كثيرا ممَّنْ ينكرون البعث يؤمنون بوجود الله كما سيأتى فى الآيات من (٨٢ إلى ٨٩) من هذه السورة صفحتى ٤٥٣، ٤٥٤.

عند ذلك قال الرسول يارب انصرنى عليهم بالانتقام منهم بسبب تكذيبهم لى. فأجاب الله عز وجل دعاءه وقال انتظر فبعد شيء قليل من الزمن ليصيرن نادمين على تكذيبك عندما يشاهدون العذاب، فأهلكتهم صيحة جبريل مع الريح العاتية بالحق، أى لم يظلموا، بل هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر وترك النظر فى الدليل، فجعلناهم بهذا العذاب مفتتين كورق الشجر الجاف فأهلكناهم هلاكا مبينا بأنه للقوم الظالمين.

ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين هم قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم، ولما فعلوا مثل فعلهم أهلكناهم أيضا فى الوقت المحدد لكل منهم، فما سبقت أمة منهم أجلها المحدد لهلاكها ولم تتأخر عنه، ثم بعد ذلك أرسلنا رسلنا متتابعين إلى أممهم فكانوا كلما جاء أمة رسولها كذبوه كأنهم تواصوا بذلك كما فى الآية (٥٣) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥، والآية (١١) من سورة الصافات إلى آخر السورة.

فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ[1] أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ
لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ[2] بِـَٔايَٰتِنَا[3]
وَسُلْطَٰنٍ[4] مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ[5] فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟
قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا
لَنَا عَٰبِدُونَ[6] ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا[7] مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ[8] لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا
ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً[9] وَءَاوَيْنَٰهُمَآ[10] إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ
وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ[11] وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا[12]
إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً
وَٰحِدَةً[13] وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ
زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا[14] نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ

المـفـرادت : . ﴿أحـاديث﴾ : جمع أحـدوثة، كـأعاجيب وأعجوبة، والأحـدوثة مـا يتحدث به الناس لغرابته.﴿بآياتنا﴾ : هى التسع المبينة فى صفحة ٣٧٨.﴿وسلطان مبين﴾ : أى حجة قـوية، وهـى العـصـا، انظر بيـان ذلك فى الآية (٩٦) من سورة هود صفحة ٢٩٨. ﴿وملئه﴾ : هم كـبـار قـومـه. ﴿فـاسـتكبـروا﴾ : أى على الإيمـان بمـوسى وهارون واحـتـقـروهمـا، انظر الآية (٤٧) الآتـيـة هنـا، والآية (١٨) من سـورة الشـعـراء صـفـحـة ٤٨٠، والآية (٢٧) من نفس السـورة صـفـحـة ٤٨١، والآيات (٤٧، ٥٢، ٥٣) من سـورة الزخـرف صـفـحـة ٦٥٢. ﴿عـالين﴾: متطاولين بغيا وظلما.﴿عابدون﴾ : خـادمون خـاضـعـون كـالعـابدين. ﴿الكتـاب﴾ : التـوراة. ﴿آية﴾ : أى دليـلا على تمـام القـدرة حـيث ولدته من غـيـر مـسـيس رجل. ﴿آويناهمـا﴾ : أى سقناهما إلى ربوة جعلناها مأوى لهما. ﴿ربوة﴾ : هى ما ارتفع من الأرض أقل من الجبل وهو بيت المقدس. ﴿قرار﴾ : أى استقرار للناس لمـا فيه من الزرع والثمار. ﴿معين﴾ : ماء جار يرى بالعين. ﴿أمتكم﴾ .... إلخ: ملتكم وشريعتكم، انظر الآية (٢٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩. ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم﴾ : قطعهم الشيطان فتقطعوا وتفرقوا فى أمر دينهم، انظر الآية (٩٣) من سورة الأنبيـاء صفـحـة ٤٣٠. ﴿زبرا﴾ : جمع زُبْرَة بضم فسكون، بمعنى قطعة، كمـا تقدم فى الآية (٩٦) من سـورة الكهف صفـحـة ٣٩٤، لكن الجمع هناك على (فُعَل) بضـمـتـين جمع سماعى، انظر القـاموس، فإنه قال : إن (فُعْلة) بضم فسكون تجمع بهذين الجمعين، وبما أن علماء العربية عولوا فى إثبات الجموع السماعية على سماعها من عربى أيا كان ولو كان جاهلا، فكيف لا نعول على السماع من أفصح كلام أعجز فحول العرب، فافهم هذا ولا تشغل نفسك بما تكلفوه هنا لجعل الجمع قياسيا مع أن الجموع السماعية لا تحصر؛ والمراد هنا من

(١) جعلناهم (٢) هارون (٣) بآياتنا (٤) سلطان (٥) وملئه (٦) عابدون (٧) آتينا
(٨) الكتاب (٩) آية (١٠) وآويناهما (١١) الطيبات (١٢) صالحا (١٣) واحدة (١٤) أن ما.

﴿زبرًا﴾ فرقا. ﴿ذرهم﴾ : أى اتركهم. ﴿غمرتهم﴾ : أصل الغمرة الماء الذى يغمر قامة الشخص، والمراد ما يغمرهم من جهل وغفلة. ﴿حتى حين﴾ : إلى الزمن المقدر لهلاكهم. ﴿نمدهم به﴾ : أى نعطيه لهم ونجعله مددا لتمتعهم.

المعنى : . ولما جاء إلى كل أمة رسولها وكذبوه أتبعنا بعضهم بعضا فى الهلاك، وجعلناهم أحاديث سمر لمَنْ بعدهم؛ فهلاكا لكل مَنْ لا يؤمن بربه. ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا الدالة على صدقهما، وهى حجج واضحة فى الدلالة على الحق إلى فرعون وكبار قومه، لأنهم هم القادة يتبعهم العوام، فاستكبروا عن الإيمان بهما لأنهم كانوا متوغلين فى الاستعلاء على الخلق، فلجوا فى العناد خوفا على مراكزهم الفانية. يدل على ذلك قولهم كيف نؤمن أى نصدق بشرين مثلنا وليسوا ملائكة حتى يكونوا ممتازين علينا، وأيضا قومهما الإسرائيليون خدام خاضعون لنا فكيف نخضع كخدامنا؟ وبهذا كذبوا موسى وهارون، فأهلكهم الله تعالى بالإغراق فى البحر كما أهلك مَنْ قبلهم لما كذبوا رسلهم. وبعد بيان فضله على بنى إسرائيل بإهلاك عدوهم أراد أن يبين فضله عليهم بإعطائهم التوراة فقال:

ولقد آتينا موسى الكتاب رجاء أن يهتدى به قومه، وجعلنا عيسى وأمه آية لبنى إسرائيل، وجعلناهما ينزلان بمرتفع من الأرض ذى ثمار وماء جار يرى بالعين، وقلنا لجميع الرسل كل فى زمنه ومنهم موسى وعيسى: كلوا من طيبات ما رزقناكم، واشكروا ربكم بعمل الصالحات، إنى عليم بعملكم وأجازيكم عليه، وقلنا لهم إن هذه الملة التى هى الإسلام كما فى الآية (١٩) من سورة آل عمران صفحة ٦٥ هى ملتكم ودينكم الذى اخترناه لكم حال كونها واحدة فى الأصول التى لا تتبدل بتبدل البلاد والعصور، وأنا ربكم الواحد فخافوا عاقبة عصيانى؛ فماذا كان من أمم هؤلاء الرسل بعد هذا الإرشاد والتحذير؟ كان منهم أن قطعوا هذا الدين الذى يجب أن يكون واحدًا، وجعلوا كل قطعة دينا يتحزب له أتباعه ويحاربون غيره، وكل حزب منهم مسرور بما رضيه لنفسه حسب هواه، انظر الآية (٣٢) من سورة الروم صفحتى ٥٣٤، ٥٣٥، والآية (٦٥) من سورة الزخرف صفحتى ٦٥٣، ٦٥٤. ولما كان من هؤلاء المتحزبين لما اختاروه الكفار المعاصرون لنبينا ﷺ، خاطبه سبحانه بما ينبغى أن يفعله معهم بعد اليأس منهم، فقال تعالى: فذرهم غارقين فى جهلهم وسكرتهم إلى حين وقت الانتقام منهم، انظر الآية (٦) من سورة البقرة صفحة ٤. ثم بين سبحانه بعض أسباب غرورهم فقال: ﴿أيحسبون﴾ ... إلخ.

وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ[1] بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ
هُم بِآيَاتِ[2] رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ
لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا[3] وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ
أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ[4] ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ[5]
فِي الْخَيْرَاتِ[6] وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ[7] يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾
بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ[8] مِّن دُونِ
ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ[9] ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم
بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ[10] ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا[11] الْيَوْمَ إِنَّكُم
مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي[12] تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ
عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ[13] تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا[14]

المفردات : . ﴿بل﴾ : كلمة تدل على الإضراب عما قبلها والانتقال لما بعدها.

﴿مشفقون﴾ : شديدو الحذر.

﴿لا يشركون﴾ : نص عليه بعد إثبات إيمانهم بالله لأن الإيمان بالله قد يجتمع مع الشرك، انظر آيتى (٨١، ٨٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٥، والآية (١٠٦) من سورة يوسف صفحة ٣١٩.

﴿وجلة﴾ : خائفة أن لا يقبل منهم ما أعطوه.

﴿وهم لها سابقون﴾ : أى لأجلها سابقون الناس.

﴿كتاب﴾ : المراد به صحيفة الأعمال، انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨، والآية (٢٩) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤.

(١) الخيرات
(٢) بآيات
(٣) آتوا
(٤) راجعون
(٥) يسارعون
(٦) الخيرات
(٧) كتاب
(٨) أعمال
(٩) عاملون
(١٠) يجأرون
(١١) تجأروا
(١٢) آياتى
(١٣) أعقابكم
(١٤) سامرا.

﴿غمرة﴾ : أى غفلة، انظر أصلها فى الآية (٥٤) السابقة من هذه السورة.

﴿من هذا﴾ : أى الكتاب أو مما جاء فى القرآن.

﴿مترفيهم﴾ : أى متنعميهم انظر الآية (١١٦) من سورة هود صفحة ٣٠١.

﴿يجأرون﴾ : أى يصرخون مستغيثين.

﴿أعقابكم﴾ : جمع عَقِب بفتح فكسر وهو مؤخر قدم رجل الإنسان.

﴿تنكصون﴾ : النكوص الرجوع إلى جهة الظهر رهو أقبح السير، لأن صاحبه لا يرى ما هو قادم عليه، والكلام كناية عن الإعراض الشنيع.

﴿مستكبرين به﴾ : الضمير يعود على البيت الحرام، واستغنى عن ذكره لشهرة افتخار قريش بأنهم خدامه والقوامون عليه وعلى السقاية فيه، انظر الآية (١٩) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٢، ٢٤٣.

﴿سامرا﴾ : اسم جمع بمعنى سامرين بوزن حاج اسم جمع بمعنى حجاج، وهو حال من ضمير الكفار، والسامرون هم الذين يتسلون بالأحاديث فى الليل.

المعنى : ـ هل يظن هؤلاء الكفار أن الذى نعطيه لهم من المال والبنين نسارع لهم به فيما فيه خيرهم؟ لا، لأن الواقع أنهم كالأنعام لا يشعرون أنه استدراج ليزدادوا إثما فيزداد عذابهم جزاء شدة عنادهم وإعراضهم، انظر الآية (١٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٢، والآية (٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩، والآية (٥٥) من سورة التوبة صفحة ٢٥٠، والآيات من (٣٤ إلى ٣٩) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٧، ٥٦٨، ولذا جاء فى المأثور:

إذا رأيت الله تعالى يعطى عبدا مع استمراره على معاصيه فاعلم أنه تعالى مكر به.

نسأل الله السلامة. وبعد ما بيَّن سبحانه مَنْ فرقوا دينهم حسب أهوائهم وغفلوا عما يراد بهم، شرع فى بيان الناجين فقال: إن الذين هم من خوف عذاب ربهم حذرون فلا يفعلون إلا ما يرضيه، والذين هم بآيات ربهم المنزلة والمنصوبة فى الآفاق يصدقون بما تدل عليه، والذين لا يخالط إيمانهم شرك، انظر الآية (٨٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٥، والذين يعطون الفقراء ما يعطونه والحال أن قلوبهم خائفة أن لا تكون على الوجه الذى يرضاه ربهم لعلمهم أنهم إلى ربهم راجعون فيحاسبهم على ما انطوت عليه نفوسهم، أولئك الموصوفون بما ذكر يسارعون فى فعل الخيرات وهم لأجلها سابقون الناس إلى الجنة، انظر الآية (١٠) من سورة الواقعة صفحتى ٧١٣، ٧١٤، ثم رغب سبحانه فى فعل الخيرات ببيان أنها سهلة على كل موفق لها فقال:

﴿ولا نكلف نفسا إلا وسعها﴾ أى قدر طاقتها، وعندنا كتاب أعمالهم يظهر أعمالهم على الوجه الحق ولا يظلمون شيئا من جزاء أعمالهم.

ثم انتقل سبحانه عن الكلام فى المتقين ورجع إلى الكلام فى حال المشركين فقال: بل قلوبهم أى قلوب الكفرة فى غفلة عن هذا الذى بينه القرآن من وجود كتاب يسجل عليهم أعمالهم، ولهم أعمال سيئة كثيرة غير غفلتهم هذه من معاص متعددة هم مستمرون على فعلها، حتى إذا أخذنا المتنعمين منهم بعذاب القتل والأسر والجوع الذى سلط عليهم حتى أكلوا الجيفة إذا هم يصرخون مستغيثين، فيقال لهم :

لا تجأروا اليوم فإنه لا ينفعكم، لأنكم لا تجدون منا نصرًا، لأن آياتى القرآنية كانت تتلى عليكم فكنتم تعرضون عنها إعراضا مستقبحا، لأنه ناتج عن اللجاج وعدم التعقل؛ تفعلون ذلك حال كونكم مستكبرين على غيركم مفتخرين بسبب البيت الحرام حال كونكم تستمرون بالطعن فى القرآن وفى الدين.

تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ
ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ
وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ
لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم
بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ
خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ
لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ
بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ * وَلَوۡ رَحِمۡنَٰهُمۡ
وَكَشَفۡنَا مَا بِهِم مِّن ضُرّٖ لَّلَجُّواْ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدۡ
أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ

المفرادت : . ﴿تهجرون﴾ : من الهجر بضم فسكون وهو فحش القول. ﴿أم﴾ : بمعنى بل التى تفيد الانتقال من توبيخ إلى توبيخ آخر. ﴿أم جاءهم ما لم يأت﴾ إلخ: انظر الآية (٢٤) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٤، ٥٧٥. ﴿جنة﴾ : أى جنون. ﴿بل﴾ : حرف يدل على إبطال ما قبله وإثبات ما بعده. ﴿بذكرهم﴾ : هو القرآن الذى به فخرهم وشرفهم، انظر الآية (١٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١. ﴿خرجا﴾ : الخرج والخراج مقابل الدخل، فهو كل ما تعطيه لغيرك، والغالب فى الخراج أن يكون أكثر من الخرج.

﴿خير الرازقين﴾ : تقدم بيانها فى الآية (٥٨) من سورة الحج صفحة ٤٤٢. ﴿ناكبون﴾ : أى منحرفون مبتعدون. ﴿يعمهون﴾ : عَمِهَ بفتح فكسر بوزن رضى، وفتحتين بوزن منع أى تحير وتخبط. ﴿استكانوا﴾ : خضعوا.

المعنى : . هم مفتخرون بالبيت الحرام متسامرين عنده بفحش القول وهو الطعن فى القرآن. ثم استنكر سبحانه عملهم بقوله ﴿أفلم يدبروا القول﴾ إلخ: أى هل يصح أن يلجوا فى طغيانهم فلم يتدبروا القرآن الذى هو قول ربهم، ولو تدبروه لعلموا أنه الحق فآمنوا. ثم انتقل سبحانه من توبيخ إلى توبيخ بشىء آخر فقال ﴿أم جاءهم﴾ إلخ: أى بل هل جاءهم رسول وكتاب لم يأت آباءهم الأولين مثلهما فلذا استبعدوا رسالة محمد ووقعوا فيما وقعوا فيه؟

---

(١) آباءهم (٢) كارهون (٣) السموات
(٤) آتيناهم (٥) تسألهم (٦) الرازقين
(٧) صراط (٨) بالآخرة (٩) الصراط
(١٠) لناكبون (١١) رحمناهم (١٢) طغيانهم
(١٣) أخذناهم.

الحق أن مجيء الرسل سنة الله التى لا تنكر، وأن العرب يعرفون أن إبراهيم رسول الله، وأنه أتى بالصحف التى فيها شرع الله. انظر الآية (١٩) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤. ثم انتقل إلى توبيخ آخر فقال ﴿أم لم يعرفوا﴾ إلخ : أى بل هل لم يعرفوا رسولهم محمد ﷺ بالأمانه والصدق وحسن الخلق. إلى غير ذلك من الكمالات اللائقة بالرسل حتى يترتب على عدم علمهم صحة إنكارهم لرسالته؟ الحق أنهم عرفوه بكل كمال لائق بالأنبياء فكيف ينكرونه؟ ثم انتقل إلى توبيخ بوجه آخر فقال ﴿أم يقولون﴾ إلخ : أى بل هل يقولون بمحمد ﷺ جنون؟ لا يمكن أن يصح هذا لأنه عليه السلام كان أرجح الناس عقلا. ولذا أبطل ما يظن أن يقال عنه فقال: بل جاءهم بالحق من توحيد الله ودين الإسلام الذى رضيه سبحانه دينا لكل الأنبياء، وأكثر قريش كارهون للحق لتحجر قلوبهم. أما أقلهم فعدم إيمانهم إنما هو للخوف من الكثرة لا لكراهية الحق: ولذا لما اطمأنوا دخلوا فى الإسلام أفواجا. ولو اتبع سبحانه فيما يعمل ويشرع ما يوافق شهواتهم لاختل نظام العالم لتناقص أهوائهم وفسادها. ثم انتقل سبحانه من التوبيخ على كراهة الحق إلى التوبيخ بالإعراض عن النافع عند جميع العقلاء فقال ﴿بل أتيناهم﴾ إلخ: أى جئناهم بالقرآن الذى فيه شرفهم لأنه بلغتهم. فهم لجهلهم بما فيه فخرهم معرضون. ثم انتقل إلى توبيخ آخر مع تحويل الكلام من الغيبة إلى الخطاب ليناسب ما بعده فقال ﴿أم تسألهم﴾ إلخ : أى بل هل يظنون أنك تطلب منهم على أداء الرسالة جعلا؟ كلا، فإنك لم تطلب لعلمك بأن ما يعطيك ربك من رزق حسن فى الدنيا وثواب فى الآخرة خير، وهو سبحانه خير المعطين للخيرات. وإنك أيها النبى والله لتدعوهم إلى سلوك طريق مستقيم هو الإسلام ولكن هؤلاء لأنهم لا يؤمنون بالآخرة حتى يخافوا عقاب الله مبتعدون عن طريق الحق. وقد بلغوا من التمرد والعناد أنهم لو مسهم ضر شديد فرحمنا ضعفهم وكشفناه عنهم لتمادوا فى اللجاج فى طغيانهم أى إفراطهم فى الكفر حال كونهم يتخبطون. ولقد أخذناهم فعلا بالعذاب من جوع وقتل وأسر فما خضعوا لربهم ولا تضرعوا له كبرا منهم، حتى إذا فتحنا عليهم باب عذاب شديد يوم القيامة انقطعت آمالهم فى النجاة. انظر الآية (١٢) من سورة الروم صفحة ٥٣٢. والآية (٧٥) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٤.

مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَـٰرَ(١)
وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ
فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَـٰفُ(٢) الَّيْلِ(٣) وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾
بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَءِذَا(٤) مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا
وَعِظَـٰمًا(٥) أَءِنَّا(٦) لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا(٧)
هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا أَسَـٰطِيرُ(٨) الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ
الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ
قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَـٰوَٰتِ(٩) السَّبْعِ وَرَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾
قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ
عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ

المفردات : . ﴿مبلسون﴾: أي متحيرون بائسون من كل خير.

﴿ذراكم﴾ : خلقكم، انظر صفحتى ١٨٥، ٢٢٢. ﴿أساطير﴾ : أكاذيب انظر صفحة ١٦٦. ﴿العرش﴾ : تقدم فى صفحة ٢٠١.

﴿سيقولون لله﴾ : قال فى جواب السؤالين الثانى والثالث ﴿لله﴾ ولم يقل ﴿الله﴾ ليطابق السؤال؛ لأن العرب تسوى بينهما، فإذا قال رجل من صاحب هذا؟ صح فى الجواب أن تقول ﴿فلان﴾ مجاراة للفظ وأن تقول.

﴿لفلان﴾ : مراعاة للمعنى.

﴿ملكوت﴾ : الملك الواسع، انظر شرحها فى صفحة ١٧٤.

﴿يجير﴾ : يغيث مَنْ يستجير به، يقال أجرت فلانا على فلان إذا أنقذته منه.

﴿ولا يجار عليه﴾ : أى لا يغاث مَنْ يريد تعذيبه بنصره عليه تعالى بمنع العذاب عنه.

﴿أنى﴾ : أى كيف.

---

(١) الأبصار
(٢) اختلاف
(٣) الليل
(٤) أئذا
(٥) عظاما
(٦) أئنا
(٧) آباؤنا
(٨) أساطير
(٩) السموات.

المعنى : . سيستمر هؤلاء الكفار فى عنادهم حتى إذا رأوا العذاب فاجأهم اليأس واستولى عليهم فحيرهم. وهو سبحانه الذى خلق لكم السمع والأبصار لتدركوا بهما مع مصالحكم ما نصبه سبحانه من الآيات، والأفئدة لتعقلوا بها فتصلوا إلى الحق والنافع، انظر الآية (٤٦) من سورة الحج صفحة ٤٤٠، وكان الواجب أن تشكروه على ذلك كثيرا بأن لا تهملوه وأن تستعملوها فيما خلقت له، ولكنكم لم تشكروا إلا قليلا جدا باستعمالها فى بعض مصالح الدنيا وأهملتم الأهم. وهو سبحانه وحده الذى خلقكم وكثركم فى الأرض، وإليه يوم القيامة تحشرون للحساب، فلا يجوز أن تعبدوا غيره. وهو سبحانه وحده الذى يحيى كل حى ويميته، ويختص به تخالف الليل والنهار من ظلمة ونور وطول وقصر لا يقدر على ذلك غيره؛ هل يصح أن تغفلوا كل هذا فلا تعقلوا بالتأمل فيه أن القادر عليها قادر على كل شىء بما فيه البعث والجزاء.

ثم بيَّن حال كفار مكة بعد ذلك فقال ﴿بل قالوا﴾ إلخ: أى لم ينتفعوا بل قالوا مثلما قال الأولون من آبائهم ومَنْ على شاكلتهم، فماذا قالوا؟ قالوا مستبعدين البعث : هل إذا متنا وكنا ترابا وعظاما هل يصح أن نبعث ثانيا إلى الحياة؟ كلا والله لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا البعث من قبل مجيئك يا محمّد على لسان قوم زعموا أنهم رسل مثلك ثم لم يتحقق ذلك مع طول العهد، فما هذا القول إلا أكاذيب الأولين قد نقلتها منهم ولا حقيقة لها. ثم بعد ذكر شبهاتهم ذكر سبحانه ما يلفت نظرهم إلى قدرته سبحانه على كل شىء فقال: قل أيها النبى لهم: لمن ملك السموات والأرض ومَنْ فيها إن كنتم من أهل العلم؟ وهذا توبيخ لهم بالجهل؛ ولذا قال مجيبا عنهم بالجواب الذى لا جواب غيره: سيقولون ملكها لله وحده. قل لهم : هل يصح بعد هذا أن تغفلوا فلا تتذكروا فتعلموا أن مَنْ قدر على ذلك يقدر على إحياء الموتى. قل لهم أيضا مَنْ صاحب هذه السموات السبع والعرش العظيم؟ سيقولون : ملكها لله. قل لهم: أفلا تتقون عذابه فلا تشركوا به بعض مخلوقاته ممَنْ لا قدرة له على البعث.

قل لهم مَنْ بيده ملك كل شىء وهو يغيث المستجير به ولا يغيث أحد منه أحدًا وينصره عليه إن كنتم تعلمون، فقولوا الحق. سيقولون : ملك كل شىء لله. قل لهم حينئذ : فكيف تسحرون؟

تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾
مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ
كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ
ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾
رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن
نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَـٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ
ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ
هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾
لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ
وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ

المفردات : . ﴿تسحرون﴾ : أى تخدعون عن الحق كأنكم مسحورون. ﴿من ولد﴾ : ﴿من﴾ حرف يدل على النص على عموم نفى ما بعده وهو ﴿ولد﴾. ﴿لذهب كل إله﴾ : لتفرد كل واحد بما خلقه.

﴿لعلا بعضهم على بعض﴾ : أى تغلب بعضهم على بعض.

﴿يصفون﴾ : أى يكذبون عليه. انظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

﴿الغيب والشهادة﴾ تقدما فى الآية (٧٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤.

﴿إما ترينى﴾ : أصل التركيب إن ما ترينى الآية (٦٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٢. ١٧٣. والآية (٥٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٥.

﴿همزات﴾ : مفردها همزة وهى المرة من الهمز وهو النخس بالمهماز التى تنخس به الدواب لتسرع فى السير. والمراد هنا الوساوس التى تدفع الشخص للمعاصى.

﴿ارجعون﴾ : جمع الضمير مع أن المخاطب واحد وهو الله تعالى للإشارة إلى أنهم كرروا هذا اللفظ لشدة النزع فاستغنى عن حكاية التكرار بجمع الضمير وهذا أسلوب عربى شائع. ﴿كلا﴾ : كلمة تدل على الزجر. ﴿كلمة﴾ : المراد بالكلمة هنا الكلام التام المتقدم. انظر الآية (٥) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠. ﴿من ورائهم﴾ : أى أمامهم. انظر الآية (٧٩) من سورة الكهف صفحة ٣٩٢. ﴿برزخ﴾ : أى حاجز انظر الآية (٥٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٦. والآية (٢٠) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩.

---

(١) أتيناهم (٢) لكاذبون (٣) سبحان
(٤) عالم (٥) والشهادة (٦) فتعالى
(٧) الظالمين (٨) لقادرون (٩) همزات
(١٠) الشياطين (١١) صالحا (١٢) قائلها
(١٣) ورائهم.

المعنى : . فكيف يخدعكم الشيطان عن الرشاد مع ظهور الأدلة على الصواب، انظر الآية (١٥) من سورة الحجر صفحة ٣٣٩. ثم بين سبحانه كذبهم فقال ﴿بل اتيناهم﴾ إلخ: أى ليس الأمر كما يزعمون من قولهم إن هذا القرآن أساطير، وأن لله ولدا، بل ما جئنا لهم فى هذا القرآن إلا بالحق، وما اتخذ الله ولدا ما، وما كان معه إله يشاركه فى الألوهية، إذ لو كان معه آلهة لانفرد كل واحد منهم بالذى يخلقه، ولغالب بعضهم بعضا ليوسع ملكه كما هو المشاهد فى ملوك الدنيا، ولو حصل هذا لاختل نظام العالم كما تقدم فى صفحة ٤٢٢، تنزهه سبحانه تنزيها عما يكذب عليه المشركون، يستوى فى علمه سبحانه الغائب عنا والمشاهد، وليس فى علمه أن له ولدا أو شريكا، فقولهم بهذا ناتج عن جهل، انظر الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨، فتعالى سبحانه عما يشركون. وبعد ما بين سبحانه جرائمهم التى تدعو إلى إهلاكهم أمر نبيه أن يطلب منه تعالى أن لا يجعله قرينا لهم فيما ينزل بهم؛ لأن العذاب قد لا يقتصر على العاصى فقط كما فى الآية (٢٥) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٠. فقال ﴿قل رب﴾ إلخ : أى ياربى إن كان لابد من أن ترينى ما تعدهم به من العذاب يا ربى فلا تجعلنى قرينا لهم فيه، وفى هذا إظهار لكمال العبودية. ولما كانوا يهزءون من تهديدهم بالعذاب قال تسفيها لهم: وإنا على أن نريك أيها النبى ما نعدهم به من العذاب لقادرون على إنجازه، ولكنا نؤخره لحكمة أنه سيظهر من أعقابهم مَنْ يؤمن، ولأن الله تعالى حكم أنه لا يعذبهم عذاب إفناء ما دام نبيه فيهم كما فى الآية (٣٣) من سورة الانفال صفحة ٢٣١. ثم أرشده ﷺ إلى المعاملة التى تنقذه من شرهم حتى يتمكن فيما بعد فقال: ﴿ادفع بالتى هى أحسن﴾ إلخ : أى ادفع السيئة بالحسنى، واصفح عن إساءتهم ولا تخف لأنا نحن أعلم بما يفترونه وسنجازيهم عليه، وقل ياربِ أعوذ بك من وساوس الشيطان من الإنس والجن، وأعوذ بك ربى من أن يحوموا حولى خصوصا فى الصلاة وقراءة القرآن وعند النزع.

ولا يزال هؤلاء المشركون يقولون الكذب إلى أن يعاينوا الموت، يقول أحدهم : ياربِ أرجعنى أرجعنى لعلى أعمل صالحا فى الدنيا التى فارقتها لأنها دار العمل فيزجروا عن هذا القول لأنه مجرد كلام لا يعبر عن حقيقة ما انطوت عليه طبائعهم، انظر آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، والآية (١٢) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦، والآية (٣٧) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٦، ٥٧٧.

وأمامهم حاجز يمنعهم من الرجوع إلى الدنيا إلى يوم البعث. ثم بين سبحانه أحوالهم فى هذا اليوم فقال ﴿فإذا نفخ﴾ إلخ : أى إذا نفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية إلخ...

فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾
فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ(١) فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾
وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ(٢) فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ(٣) ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا
كَٰلِحُونَ(٤) ﴿١٠٤﴾ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي(٥) تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا
تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا
ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ(٦) ﴿١٠٧﴾
قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ
عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا(٧) فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم
مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ
هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ(٨) كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾

المفردات : ﴿فى الصور﴾ : أى البوق، انظر الآية (٧٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤. ﴿ثقلت موازينه﴾ : وزن الأعمال تقدم فى صفحة ١٩٣.

﴿تلفح﴾: أصله مس لهب النار، والمراد هنا تحرق. ﴿كالحون﴾ : من كلح بوزن خضع أى كشر فى عبوس حتى تقلصت شفتاه، انظر الآية (٢٤) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠. ﴿شقوتنا﴾ : الشقوة الشقاوة أى سوء العاقبة.

﴿اخسئوا﴾ : ابتعدوا عن مقام الكرامة أذلاء مهانين. فهو زجر شديد.

﴿سخريا﴾ : أى هزوا، والمراد مهذوءا بهم، انظر الآية (٢٩) وما بعدها من سورة المطففين صفحة ٧٩٨. ﴿لبثتم﴾ :أى مكثتم.

المعنى : . فإذا نفخ فى الصور تقطعت الأنساب بينهم فلا يهتم كل إلا بنفسه. انظر الآية (٣٣) وما بعدها من سورة عبس صفحة ٧٩٣، ولا يسأل صديق صديقه سؤال تواصل لأن كل واحد مشغول بنفسه، انظر الآية (١٠) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥، وكل هذا عند النفخة الثانية؛ أما بعد استقرار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار فيقع التساؤل بين أهل النار كما فى الآية (٢٧) من سورة الصافات صفحة ٥٨٨، وبين أهل الجنة كما فى الآية (٥٠) من نفس السورة صفحة ٥٩٠، ثم يعرضون للحساب بوزن أعمالهم بطريقة لا يعلمها غير الله

(١، ٢) موازينه (٣) خالدون (٤) كالحون
(٥) آياتى (٦) ظالمون (٧) آمنا
(٨) قال.

سبحانه. فمَنْ ثقلت موازينه لكثرة أعماله الصالحة فهم الفائزون بالنعيم، ومَنْ خفت موازينه لخلوها من الخير فهؤلاء هم الذين خسروا أنفسهم بتضييع زمان حياتهم فى اللهو حتى فقدوا استعدادهم للكمال. فجزاؤهم الخلود فى جهنم تحرقهم حتى أشرف عضو فيهم وهو الوجه فتجعله قبيح المنظر. ويقول لهم ربهم تأنيبا وإشعارا لهم بعدله: ألم تكن آياتى القرآنية تتلى عليكم فى الدنيا فكنتم بها تكذبون.

والمراد اعترفوا على أنفسكم اليوم حتى لا تظنوا أنكم ظلمتم. قالوا يا ربنا تغلب علينا شقاؤنا وكنا بعيدين عن الحق. يا ربنا أخرجنا من النار فإن عدنا إلى التكذيب كنا ظالمين لأنفسنا. ولما كان سبحانه يعلم أنهم أفسدوا فطرتهم إلى درجة لا يمكن إصلاحها كما فى الآية (٢٧، ٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، والآية (٣٧) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٦، ٥٧٧. ولما كان هذا قال لهم سبحانه ابتعدوا عن مجال رحمتى حال كونكم مخلدين فى النار ولا تكلمونى فى شىء فإنى لن أسمع لكم. ثم ذكرهم بما كان منهم فى الدنيا مما يدل على انطماس بصائرهم وتحجر قلوبهم فقال:

﴿إنه كان فريق﴾ إلخ: أى أن حقيقة الأمر أنه كان فى الدنيا فريق من عبادى الصالحين يقولون يا ربنا آمنا بك وبرسولك فاغفر لنا ذنوبنا وارحمنا بإحسانك إلينا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم مادة تتسلون بها مستهزئين بهم. وتشاغلتم بهذا اللهو حتى أنسوكم بتشاغلكم بهم تذكر مقامى فلم تخافونى فى أوليائى. وكنتم تضحكون منهم خصوصا الفقراء. انظر الآية (٧٥) من سورة غافر صفحتى ٦٢٧، ٦٢٨، والآية (٢٩) وما بعدها من سورة المطففين صفحة ٧٩٨.

ثم ذكر سبحانه ما جازى به المؤمنين فقال: ﴿إنى جزيتهم﴾ إلخ: أى جزيت هؤلاء الذين كنتم تسخرون منهم بسبب صبرهم على إيذائكم وسخريتكم بالفوز والنعيم المقيم. ثم أمر سبحانه ملكا يسألهم سؤال تقريع فقال هذا الملك: كم سنة مكثتموها فى الأرض أحياء أو فى القبور؟

قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن
لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا
خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ
الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾
وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا
حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾
وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

(٢٤) سُورَةُ النُّورِ مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ

المفردات: . ﴿إن لبثتم إلا﴾: إن حرف نفى بمعنى ما.

﴿العرش﴾: تقدم فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٥٤ . ﴿فرضناها﴾: فرضنا ما فيها من الأحكام.

المعنى: . ولما كان ما شاهدوه من الهول وشدة العذاب جعل ما تنعموا به فى الدنيا كالعدم، وأن زمنه كأنه لحظة، قالوا فى جوابهم: مكثنا فى الدنيا يوما أو بعض يوم، فاسأل الذين يستطيعون عدها إن أردت الحقيقة، لأن ما نحن فيه من العذاب أنسانا عددها. قال الملك: ما مكثتم فى الدنيا إلا زمنا قليلاً لا يساوى لحظة لو قيس بالزمن الذى ستخلدون معذبين فيه لو كنتم تعلمون، أى لو كنتم من أهل العلم الصحيح لعلمتم قصر أيام الدنيا كما علمتم اليوم، ولعلمتم ما ينجيكم مما أنتم فيه الآن.

ثم وبخهم على غفلتهم عن هذا الهول فقال: ﴿أفحسبتم﴾ إلخ: أى هل جهلتم فظننتم أننا لم نخلقكم إلا تلهيا بكم لا للعبادة ولا لعمارة الأرض، وظننتم أنكم لا ترجعون إلينا فى الآخرة للحساب، فتعالى اللّٰه أى تنزه اللّٰه الجدير بأن يكون ملكا حقا عن أن يخلق شيئًا عبثًا. لا إله إلا هو رب العرش الكريم. ومَنْ يدع مع اللّٰه إلها آخر لا دليل عنده على صحة ألوهيته ـ وكل ما عدا اللّٰه كذلك ـ فلا يحاسبه على حرمة هذا سوى ربه، وسيجازيه أشد الجزاء، لأن الواقع أن الكافر لا يفلح ولا يفوز بالنجاة.

وبعد ذلك أمر سبحانه رسوله وكل مؤمن بالالتجاء إليه وحده، فقال ﴿وقل رب اغفر وارحم، وأنت خير الراحمين﴾.

---

(١) فاسأل (٢) قال (٣) خلقناكم (٤) فتعالى
(٥) آخر (٦) لابرهان (٧) الكافرون (٨) أنزلناها
(٩) فرضناها (١٠) آيات (١١) بينات.

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ[1]
مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن
كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ[2] وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ
مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً
وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ[3] ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا
بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ[4] جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ
شَهَادَةً[5] أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ[6] ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ
تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾
وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ[7] وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا
أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ[8] أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ[9] بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ
الصَّادِقِينَ[10] ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ[11] أَنَّ لَعْنَتَ[12] اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ

سورة النور

وهذه سورة أنزلناها عليك أيها النبى. وفرضنا أحكامها. وأنزلنا فيها أدلة على توحيدنا وقدرتنا ظاهرة واضحة. انظر آيات (٣٥، ٤١) إلى (٤٥) الآتية فى هذه السورة وما عقب عليها فى الآية (٤٦) صفحات ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥.

المفردات: . ﴿اجلدوا﴾: الجلد ضرب الجلد، والمراد الضرب بما يؤلم الجلد دون كسر عظم أو قطع لحم.

﴿المحصنات﴾: تقدم معناها فى الآية (٢٤) من سورة النساء صفحة ١٠٣، والمراد منها هنا العفيفات.

المعنى: . جمعنا لكم فى هذه السورة بين آيات الأحكام المتعلقة بنظام الأسرة ومحاسن الأخلاق، وبين دلائل وحدانيتنا وقدرتنا لتتذكروا فتتقوا المحارم وتؤمنوا بقدرتنا. ثم شرع فى بيان تلك الأحكام التى فرضها فقال ﴿الزانية والزانى﴾: إلخ: أى فالذى يزنى ذكرًا كان أو أنثى فعقابه فى الدنيا جلده مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رحمة فى تنفيذ أوامر الله. والمراد لا تعطلوها ولا تنقصوها. ثم حرض المؤمنين على المحافظة على تنفيذ أوامره فقال: ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾. أى فحافظوا على شريعته، وليشهد إقامة الحد على الزانى والزانية جماعة من المؤمنين أقلها ثلاثة، لزيادة التنكيل بالمعاقب، وللاتعاظ بالنسبة لغيره. وهذ الأمر للندب لا للوجوب.

---

(١) واحد (٢) الآخر (٣) المحصنات (٤) ثمانين
(٥) شهادة (٦) الفاسقون (٧) أزواجهم (٨) فشهادة
(٩) شهادات (١٠) الصادقين (١١) الخامسة (١٢) لعنة.

ثم شرع سبحانه وتعالى فى تقبيح أمر الزنا أشد تقبيح فقال ﴿الزانى لا ينكح إلا زانية﴾ إلخ: أى أن الزانى بعد أن رضى بالزنا واشتهر به لا يليق أن تقبله عفيفة بل لا تقبله زوجا لها إلا امرأة خسيسة ملوثة بعار الزنا أو بأسوأ منه وهو الشرك بالله، وكذا المرأة المعروفة بالزنا لا يقبلها له زوجة رجل عفيف بل لايليق بها إلا رجل زان مثلها أو أسوأ من الزانى وهو المشرك. وإذا علمت أن المراد هو تبشيع أمر الزنا وإبرازه فى أقبح صورة تعلم أنه ليس المراد صحة نكاح المشركة أو المشرك، وأن المراد التنفير منه بجعله قرينا للمشرك. وحرم نكاح الزانى والزانية على المؤمنين. والحرمة لا تمنع صحة العقد على الزانية المؤمنة والزانى المؤمن. أما فساد نكاح المشرك للمؤمنة فله أدلة كثيرة أورثت الإجماع عليه ومنها ما فى الآية (١٠) من سورة الممتحنة صفحتى ٧٣٦، ٧٣٧ .

ثم بعد أن بيَّن سبحانه حكم من فعل الزنا ونفَّر منه بيَّن حكم من نسب الزنا لغيره فقال ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ إلخ: المراد يتهمون العفيفات بالزنا؛ لأن الاتهام بغيره كالسرقة أو الكذب يكفى فيه شاهدان. وجزاء صاحبه التعزير لا الجلد ثمانين جلدة، ثم إذا لم يأت هؤلاء القاذفون بالزنا بأربعة شهود على أنهم رأوها تزنى فعاقبهم ثلاثة أشياء: الأول جلدهم ثمانين جلدة. والثانى عدم قبول شهادتهم أبدا فى كل شىء مهما كان صغيرًا، والثالث الحكم عليهم باستحقاق وصف الفسق. إلا الذين تابوا ورجعوا عن القذف وأعلنوا خطأهم وأصلحوا أعمالهم بالخضوع لأحكام الله ومنها تسليم أنفسهم للحد واستسماح المقذوف، فالاستثناء راجع للحكمين الأخيرين. أما الحد فلا يرفع بالتوبة، فإن الله تعالى غفور لذنب التائب رحيم له بقبول توبته. ولما كانت الحكمة فى حد القاذف هى رفع العار عن المقذوف، وهذ المعنى مشترك بين المرأة والرجل، كان حكم مَنْ قذف رجلاً بالزنا كذلك، وإنما خص المرأة بالذكر هنا لخصوص الواقعة وهى رمى السيدة عائشة رضى الله عنها كما سيأتى.

ولما كان الحكم السابق يشمل كل قاذف حتى الرجل لو قذف امرأته، وكان فى الواقع له حكم خاص استثناه سبحانه فقال: والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء أربعة بما رموهن به فشهادة أحدهم المطلوبة منه لإنقاذه من حد القذف هى خمس شهادات بالله إلخ: أربع يقول فى كل مرة منها: أشهد بالله أنى لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا، ويقول فى الخامسة: لعنة الله على الأبعد (أى يأتى بضمير المتكلم أى علىّ بتشديد الياء) إن كنت من الكاذبين.

مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ
أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ
أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ
حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ
لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم
مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ
بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو
عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ

المفردات: . ﴿يدرأ﴾: يدفع. ﴿العذاب﴾: المراد به المعروف لهم منه ﷺ وهو رجم الزانى المتزوج. ﴿الإفك﴾: هو أبلغ ما يكون من الكذب وأبعده عن الصدق. ﴿عصبة﴾: هى الجماعة المترابطة لغرض يجمعها وأقلها أربعة. ﴿الذى تولى﴾: هو عبد الله بن أبى سلول رأس المنافقين، انظر ما حصل منه فى شرح صفحات ٨٣، ٢٤٧،٩٠ وما بعدها وسورة المنافقين صفحة ٧٤٢ وما بعدها. ﴿كبره﴾: أى معظم الإفك. ﴿لولا إذ سمعتموه﴾: حرف يفيد الحث على ما بعده، انظر الآية (٣٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦ . ﴿لولا جاءوا﴾: هى كالسابقة.

﴿لولا فضل الله﴾: لولا هذه شرطية تربط بين جملتين والمعنى: لولا فضل الله موجود لفضحكم إلخ. ﴿فضل الله﴾: هو الزيادة فى الجود والكرم. ﴿رحمته﴾: المراد منها الرآفة، انظر شرح الآية (٧) من سورة النحل صفحة ٣٤٦ . ﴿فى ما أفضتم﴾: من الإفاضة والمراد خضتم بكثرة، فى تدل على أن (ما) بعدها سبب فيما قبلها كما فى الآية (٦٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧ وما سيأتى فى الآية (٩) من سورة الممتحنة صفحة ٧٣٦ .

المعنى: . ويدفع الحد عن المرأة المتهمة أن تشهد خمس شهادات تقول فى الأربع الأول منها: أشهد بالله إنه لَمِنْ الكاذبين فيما رمانى به من الزنا، وتقول فى الخامسة: أن غضب الله عليها ـ وتذكر ضمير نفسها وهو ياء المتكلم ـ إن كان من الصادقين. وسمى الجملتين الأخيرتين من شهادة كل من الرجل والمرأة شهادة لأنه قصد بهما كل ما يقصد بالشهادة من

---

(١) الكاذبين (٢) يدرأ (٣) شهادات (٤) الكاذبين
(٥) الخامسة (٦) الصادقين (٧) جاءوا (٨) المؤمنات
(٩) جاءوا (١٠) الكاذبون

تحقيق الخبر وإظهار الصدق. وبعد هذا التلاعن يحرم كل منهما على صاحبه حرمة أبدية كحرمة الرضاع، وإنما جعل الغضب فى جانبها بدل اللعن لأن عادة النساء الإكثار من التلفظ باللعن، فربما يجترئن عليه لكثرة جريه على ألسنتهن فجعل مكانه الغضب ليكون رادعًا لهن. ولولا فضل اللّه عليكم ورحمته لكم بهذه الأحكام وأنه كثير التوبة على مَنْ يتوب حكيم فيما شرع لعباده وما يعمله معهم لفضحكم وعجل عقوبتكم، هذا إذا قذف الرجل زوجته. إلا إذا اتهمته هى بالزنا فحكمها مأخوذ من الآية السابقة وهى الجلد ثمانين ما لم تأت بأربعة شهداء؛ لأن الاستثناء من حكمها خاص بالرجل. ولما كان حديث الإفك الذى رميت به السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها له علاقة بما تقدم، ذكره سبحانه فى هذه الآيات من (١١ إلى ٢٦)، وقد كانت حادثة الإفك فى غزوته ﷺ لبنى المصطلق فى شعبان سنة ست هجرية، وكان الذى أشاعها هو عبدالله بن أُبَىّ كبير المنافقين. ومن أراد تفصيل ما حصل فيها على أتم وجه فليرجع إلى شرح حديث رقم (٣٧٦) من كتابنا صفوة البخارى، قال سبحانه ﴿إن الذين جاءوا بالإفك﴾ أى أن تلك الجماعة التى اختلقت ذلك البهتان لم تخرج عن كونها منسوبة إليكم ومعدودة منكم، فلا تجزعوا كل الجزع لأن أغلبهم منساق بدون تعقل، فالغرض بدء تسلية لمَنْ أصيبوا به كعائشة رضى الله عنها وأبى بكر الصديق رضى اللّه عنه والنبى ﷺ. ثم طمأنهم فقال: ﴿لاتحسبوه﴾ أى لا تظنوا أن ما أشاعوه شر لكم بل هو خير لكم، وأى خير أحسن من شهادة اللّه عز وجل لعائشة ببراءة يعتبر تصديقها من الإيمان لأنه نزل بها قرآن مَنْ أنكر شيئًا منه كفر، إلى غير ذلك مما ترتب عليه من الأحكام التى وضعت حدًا لفوضى الاتهام إلى غير ذلك. ولكل واحد من الذين أشاعوا هذا الباطل عذاب على قدر نصيبه فى الإشاعة. أما الذى تولى القسم الأعظم منه فله عذاب عظيم هو جهنم خالدا فيها. ثم حثهم على التيقظ لما كان ينبغى أن يكون ليعملوا به فى المستقبل فقال سبحانه: لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون بإخوانهم الذين هم منهم خيرًا، وقطعوا بأن هذا كذب عنليم، خصوصًا وهو متعلق بمقام سام، ثم يقولون أيضًا هلا جاء هؤلاء المفترون بأربعة شهداء؟ المراد أنه مستحيل عليهم هذا؛ ولذا قال: فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك فى حكم اللّه وشرعه هم الكاذبون، فيستحقون إقامة الحد عليهم، وقد أقامه ﷺ وجلد كل من خاض فيه ثمانين جلدة. ولولا فضل الله عليكم فى الدنيا بالإمهال لتتوبوا، ورحمته فى الآخرة بالمغفرة، لأصابكم بسبب الإفك الذى خضتم فيه عذاب من الله تعالى.

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ
بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ
ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن
نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ
ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ
ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ
بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ

المفردات: . ﴿تلقونه بألسنتكم﴾: أى تستنطقونهم به وتتلقفونه من غيركم لينتشر وعبارة البيضاوى أى يأخذه بعضكم عن بعض بالسؤال عنه فينشره وتقولونه بأفواهكم أى كلاما صادرًا من الأفواه فقط ليس له علم قلوبكم.

والمعنى يحذركم الله من أن تعودوا لمثله.

﴿بأفواهكم﴾: أى تقولون قولاً ليس له أصل من علم إنما هو مجرد ألفاظ انظر الآية (٥) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠ .

﴿لولا إذ سمعتموه﴾: لولا هنا للحث على ما بعدها المقترن باللوم على التفريط فيه.

﴿سبحانك﴾: من عادة العرب أنهم إذا رأوا شيئًا غريبًا عن الطباع أن يقولوا سبحان الله أو لا إله إلا الله ويقصدون به التعجب من القول البعيد عن مدارك العقول. فالمراد هنا التعجيب من صنع هؤلاء الكاذبين. ويصح أن يراد تنزيهه تعالى عن أن يختار لنبيه زوجة زانية.

﴿بهتان﴾: أى زور يبهت مَنْ يسمعه أى يدهشه.

﴿يعظكم﴾: أى يرشدكم فى أسلوب مؤثر ﴿الفاحشة﴾: هى الزنا وأمثاله، ولا تطلق على القتل وأمثاله.

﴿ولولا فضل الله﴾: لولا هنا شرطية تربط بين جملتين كما تقدم.

﴿رءوف رحيم﴾: تقدم بيانهما فى صفحة ٣٤٦ .

﴿خطوات الشيطان﴾: هى وساوسه التى يزين بها لأتباعه.

---

(١) سبحانك (٢) بهتان (٣) الآيات (٤) الفاحشة
(٥) آمنوا (٦) الآخرة (٧) آمنوا (٨) خطوات
(٩) الشيطان. (١٠) خطوات (١١) الشيطان

المعنى: . ولولا فضل الله تعالى ورحمته عليكم لعجل سبحانه لكم العذاب فى الدنيا حين كنتم تتلقفون هذا الكذب بألسنتكم ويأخذ بعضكم عن بعض، وتقولون كلاما صادرًا عن الأفواه فقط ليس له سند من علم فى القلوب كما فى قوله تعالى ﴿يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم﴾ الآية (١٦٧) من سورة آل عمران صفحتى ٩٠، ٩١، بل إنكم تعلمون طهارة مَنْ افتريتم عليهم، وتظنون أنكم تتسلون بكلام سهل لا خطورة له، وهو عند الله عظيم فى الوزر واستحقاق العذاب ﴿ولولا إذ سمعتموه﴾ إلخ: أى أما كان اللائق بكم أنكم حينما سمعتم هذا الكذب قلتم لا يصح لنا أن نتكلم بهذا الفحش، تنزيهًا لك يا ربنا، هذا كذب عظيم لعظمة المكذوب عليه.

يحذركم الله تعالى من أن تعودوا لمثل هذا القذف أو استماعه إن كنتم مؤمنين سمعتم إرشاد ربكم. ويوضح الله تعالى لكم الآيات الدالة على محاسن الآداب، وعلى مايدفع شر الشيطان، والله عليم بأحوال خلقه، حكيم فيما شرعه لهم مما فيه مصلحتهم. ثم هدد سبحانه كبير المنافقين ومَنْ على شاكلته فقال:

إن الذين يحبون إشاعة أخبار الفاحشة ونشرها فى أوساط المؤمنين لإنقاص قدرهم وإظهار أنفسهم أشرف من غيرهم لهم عذاب شديد الألم فى الدنيا وهو حد القذف المتقدم، وقد أقامه ﷺ على عبدالله بن أبى وحسان ابن ثابت وغيرهما، وفى الآخرة بالنار إن لم يتوبوا، والله يعلم بواطن الأمور وأنتم لا تعلمون إلا الظاهر، فعاقبوا فى الدنيا على ما دل عليه الظاهر، والله يعاقب على ما فى السرائر كل بحسب ما عنده.

ثم كرر فضله تعالى عليهم ليشكروه فقال ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم لعجل لكم العذاب ولم يقبل توبتكم. ولولا أنه سبحانه رءوف بالمقذوف البرىء، رحيم به وبكم لما أظهر براءته، ولما شرع هذه الأحكام.

ثم أرشد سبحانه إرشادًا عاما مبيِّنًا منبع الخطر فقال: يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان، ومن يتبع خطوات الشيطان هلك، لأنه يأمر بكل فعل متناه فى الفحش وبكل منكر من الشرع.

ثم كرر سبحانه مِنَّته عليهم فقال: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ إلخ.

مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ(١) وَالْمُهَاجِرِينَ(٢) فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ(٣) الْغَافِلَاتِ(٤) الْمُؤْمِنَاتِ(٥) لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ(٦) وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْخَبِيثَاتُ(٧) لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ(٨) وَالطَّيِّبَاتُ(٩) لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ(١٠) أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

المفردات: ﴿ما زكى﴾: ما طهر من الدنس. ﴿من أحد﴾: من حرف يفيد إرادة النص على عموم النفى فى ﴿أحد﴾. ﴿يأتل﴾: تقول فلان ﴿ائتلى﴾ بوزن ﴿اعتلى﴾ يأتلى إذا حلف. كتآلى وألى كلها بمعنى أقسم. انظر الآية (٢٢٦) من سورة البقرة صفحة ٤٥ . ﴿أولو الفضل﴾: أصحاب الفضل. ﴿السعة﴾: كثرة الرزق.

﴿ليعفوا﴾: أصل العفو محو الشيء ومنه عفت الريح آثار الديار. والمراد محو آثار الذنب بستره.

﴿ليصفحوا﴾: الصفح الإعراض وعدم المؤاخذة على الذنب.

﴿المحصنات﴾: العفائف المصونات. ﴿الغافلات﴾: السليمات الصدور المنصرفات عن التفكير فيما يغضب الله.﴿دينهم﴾: المراد بالدين هنا الجزاء.

المعنى: - لولا فضل الله ما طهر أحد منكم أبدا ولم تقبل توبته. ولكن الله بفضله يزكى مَنْ يشاء بتوفيقه للتوبة لعلمه بحسن استعداده. انظر ما سبق فى صفحة ١٦٨. والله سميع لما تقولون، عليم بما تضمرون. فيرتب أحكامه على حسب علمه. ولما نزلت الآيات الأحد عشر السابقة فى براءة عائشة وتهديد الخائضين وكان فيهم (مِسْطَح) بكسر فسكون ففتح. ابن خالة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وكان مهاجرًا فقيرًا ممن شهد بدرًا وكان أبو بكر ينفق

---

(١) المساكين. (٢) المهاجرين.
(٣) المحصنات. (٤) الغافلات.
(٥) المؤمنات. (٦) الآخرة.
(٧) الخبيثات (٨) للخبيثات
(٩) الطيبات (١٠) للطيبات.

عليه وضاق صدر أبى بكر بسخافته، لأنه جمع بين الخوض فى الباطل وبين إيذاء أقرب الناس إليه لمَّا كان هذا حلف أبو بكر ألاَّ ينفق عليه ولمَّا كان سبحانه يعلم أن الخائضين متفاوتون فى الجرم وأن ﴿مِسطَح﴾ من أخفهم حملا، وأنه من أهل بدر فله بهذا منزلة خاصة تسهل قبول توبته، قال سبحانه: ﴿ولا يأتل﴾: أى لا يحلف أهل الفضل فى الدين والسعة فى الرزق على أن لا يؤتوا أصحاب القرابة منهم الموصوفين بأنهم مساكين ومهاجرون فى سبيل اللَّه، وليعفوا بستر ذنوبهم وعدم ذكرها، وليصفحوا فلا يؤاخذونهم عليها.

ثم رغب سبحانه أبا بكر فقال: ألا تحبون أن يغفر اللَّه لكم إذا أخطأتم؟ وإذا كنتم تحبون ذلك فأحبوه لغيركم بالصفح عنه، واللَّه مع كمال قدرته غفور رحيم، فتخلقوا بأخلاقه، فلما نزلت هذه الآية علم أبو بكر أن اللَّه سبحانه يعلم المؤمنين الصبر على احتمال الأذى، وتقديم رضاه سبحانه وتعالى على رضا النفس، وهذا هو الجهاد الأكبر، لمَّا علم أبو بكر ذلك قال: إنى لأحب أن يغفر اللَّه لى، وأعطى (مِسْطَح) أكثر مما كان يعطيه من قبل، ولما قدم سبحانه هذا الترغيب فى العفو عن المخطئ الذى شهد بدرًا وكان ذلك ربما يوهم التهوين من شأن هذه الجريمة خصوصًا بالنسبة لِمَنْ أشاعها عن قصد، دفع كل هذا بقوله: ﴿إن الذين يرمون المحصنات﴾ إلخ.

والذى يدل عليه سياق الكلام هنا هو أن هذا الجزاء لا يكون إلا للكافر، فيكون المراد أن مَنْ يرمى أمهات المؤمنين بهذا الباطل بعد نزول هذه الآيات فهو كافر، وأما مَنْ رماهن قبل ذلك ثم تاب (كَمِسْطَح) فليس كذلك، ويكفى إقامة الحد عليه، أما عبداللَّه ابن أبى ابن سلول، ومَنْ كان مثله فى النفاق ولم يتب فهو كافر مخلد، وأما رمى غير أمهات المؤمنين فهو كبيرة وليس بكفر، ولعن الشخص المعين بمعنى طلب طرده عن الرحمة إلى الأبد لا يجوز إلا لِمَنْ قطعنا بموته على الكفر.

أما اللعن بمعنى تشديد العقوبة فقط فإنه قد وقع لأشخاص معينين مؤمنين كلعنة ﷺ مَن كوى دابته على وجهها، رواه مسلم فى صحيحه؛ ولعن المرأة التى تخالف زوجها إذا طلبها، والأحسن الدعاء بالتوفيق، ومن هذا يعلم أنه لا يجوز لعن كافر معين لأنا لا نعلم مصيره فقد يتوب، كل هؤلاء المجرمون يعذبون يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بكل ما كانوا

يعملونه لا بالقذف فقط، وهذه الشهادة تكون بعد دفاعهم والختم على أفواههم، انظر آيتى (٢٧ . ٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، و٢٨ من سورة النحل صفحة ٢٤٨، والآية (٦٥) من سورة يس صفحة ٥٨٥، والآية (٢١) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢ .

وينطق الله اللسان واليد والرجل بكيفية يعلمها سبحانه، فبعد أن كان اللسان آلة نطق للشخص أصبح هو نفسه الناطق، انظر معنى ذلك فى آيتى (٢٠ و ٢١) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢ .

وفى هذا اليوم يوفيهم الله جزاءهم الثابت لهم بمقتضى العدل، وفى هذا اليوم يعلمون عند مشاهدتهم الأهوال أن الله وحده هو الحق لا يقدر على الجزاء غيره، المبين لكل شىء على حقيقته فى الدنيا، ولم يكن يخفى عنهم شيئًا مما كان ينفعهم ولكنهم تعاموا عنه. ﴿الخبيثات للخبيثين﴾ إلخ: قيل معناها نظير ما تقدم فى ﴿الزانى لا ينكح إلا زانية﴾ إلخ، أى الخبيثات من النساء لا يليق لهن إلا الخبيثون من الرجال وبالعكس، ويكون المراد التنفير من الخبيثات والخبثاء.

وقال ابن عباس وجماعة: المراد أن الكلمات الخبيثات لا توجه إلا للخبيثين من الرجال والنساء، وتغليب جمع المذكر على الرجال والنساء كثير فى القرآن، والخبيثون من الرجال والنساء أهل للكلمات الخبيثات.

ويكون الكلام توبيخا للمجرمين على رمى عائشة بما لا يرمى به إلا الخبيثات من النساء، وهى عصمها الله أطهر من فى عصرها وما بعده إلى يوم القيامة، والكلمات الطيبات الدالة على الشرف والنزاهة اللائقة بالطيبين رجالا ونساء، والطيبون منهما أهل للكلمات الطيبات لا يليق بهم غيرها، انظر بعض معانى الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة آيتى (٢٥، ٢٦) من سورة إبراهيم صفحتى ٣٢٣، ٣٢٤ .

ثم ذكر سبحانه النتيجة لما سبق فقال: أولئك أى الطيبون الذين ظلمتوهم بالقذف مبرءون مما يقول الكاذبون، لهم عند ربهم مغفرة عما يكون منهم من هفوات، ورزق كريم هو الجنة، انظر آيتى (٢٨، ٣١) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٣،٥٥٤ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى
تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى
يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى
لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ (١) لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ
أَبْصَارِهِمْ (٢) وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ
خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ (٣) يَغْضُضْنَ
مِنْ أَبْصَارِهِنَّ (٤) وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا
مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ (٥) أَوْ آبَاءِ (٦) بُعُولَتِهِنَّ

المفردات: . ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾: ﴿الذين آمنوا﴾: أريد بها هنا الرجال والنساء، لأن أهل البيت قد يكونوا على حال لا يجوز اطلاع النساء عليها، كما لا يجوز اطلاع الرجال.

﴿غير بيوتكم﴾: أي التي خصصتموها لسكناكم ولو كانت بكراء

﴿بإيجاز﴾ غير مملوكة لكم.

﴿تستأنسوا﴾: تستأذنوا ممَّن يملك الإذن من أصحابها بما يحصل به أنس أهل البيت ولا ينزعجون له.

والاستئذان يختلف باختلاف العرف، فقد يكون بقرع الباب، أو التسبيح، إلى غير ذلك.

﴿خيرلكم﴾ يسمى علماء العربية هذا الوزن

﴿أفعل تفضيل﴾ فالمعنى أن في الاستئذان خير ليس في تركه، أي أن تشريع الحكم العام على هذا الوجه خير لكم من عزة كاذبة تتمسكون بها. فأنتم كما مُنعتم من الدخول على غيركم بدون إذن، فكذلك مُنع غيركم من الدخول عليكم إلا بإذن. وفي ذلك استبقاء المودة وعدم التأذي من زيارتكم، بخلاف ما إذا كانت هجومًا.

﴿فإن لم تجدوا فيها أحدًا﴾: المراد فإن لم تعلموا أن فيها أحدًا فلا تدخلوا أي وإن كان فيها أحد في الواقع ولكنه لا يريد إظهار نفسه لكم ولهذا لم يقل سبحانه ﴿فإن لم يكن فيها﴾.

---

(١) متاع
(٢) أبصارهم
(٣) للمؤمنات
(٤) أبصارهن
(٥) آبائهن
(٦) آباء

﴿أزكى لكم﴾: أى أظهر للبعد عن الريبة والإهانة.

﴿جناح﴾: إثم.

﴿بيوتاً﴾: المراد بالبيوت هنا مطلق الأماكن لا بيوت السكن.

﴿غير مسكونة﴾: أى غير معدة للسكن بل ليتمتع بها مَنْ يحتاج إليها. كالفنادق والحوانيت والحمامات.

﴿متاع﴾: أى استمتاع وانتفاع.

﴿يبدين﴾: يظهرن.

﴿زينتهن﴾: الزينة كل ما تتزين به المرأة كالخاتم والكحل والخضاب والسوار والخلخال والقلادة والإكليل الذى يوضع على شعر الرأس.

﴿ما ظهر منها﴾: هو ما فى إخفائه مشقة وجرت العادة بظهوره كالثلاثة الأول فيما تقدم.

﴿ليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾: أى يضعنها عليها: تقول ضربت بيدى على الحائط إذا وضعتها عليها.

﴿خمرهن﴾: جمع خمار وهو ما تغطى به المرأة رأسها كالمسمى فى مصر بالطرحة.

﴿جيوبهن﴾: مفرده جيب وهو الفتحة فى أعلى الثوب يظهر منها بعض الصدر.

﴿بعولتهن﴾: مفرده بعل وهو الزوج.

المعنى: بعدما حذر سبحانه من جريمة الزنا والقذف به أراد أن يبين ما به الاحتياط لصيانة الشرف والعرض. فذكر الأحكام التى تساعد على ذلك وعلى أدب المعاشرة فقال: يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم إلا بعد الاستئذان والتسليم على أهلها. ذلك المذكور من الاستئذان والسلام خير لكم من الدخول بغتة فتروا عورات الناس فيتأذوا فيكرهوكم. ولقد أرشدكم الله لذلك لكى تتعظوا وتعملوا ما أمرتم به.

وظاهر الآية يدل على أن الاستئذان قبل التسليم. وقدم بعضهم السلام. والأحسن التفصيل فإن وقعت عين الزائر وهو خارج البيت على صاحب البيت قدم السلام، وإلا قدم الاستئذان.

والحكم عام حتى فى الزائر الأعمى، إذ ربما يفاجئ مَنْ فى البيت فيسمع ما لا يحبون أن يسمعه. فإن لم تجدوا أحدا ممّن يملك الإذن، وهو غير العبد والصبى، فلا تدخلوها حتى يأذن لكم مَنْ يملك الإذن، وإن قال لكم أهل البيت ارجعوا بصريح اللفظ أو بعدم الإذن، ويكفى فى منع الدخول سكوت مَنْ فى البيت عن الرد، والرجوع عند عدم الإذن أطهر لكم من دنس الدناءة فى الدين والدنيا؛ لأن الوقوف على الباب بعد منع الدخول قد يورث شبهة فى بعض أهل البيت. والله عليم بكل ما تعملون، فيعلم مقاصدكم من الاستئذان والدخول، ويجازيكم عليها، فاحذروا أن تضمروا تحت الاستئذان خيانة.

ويجب أن يعلم أن المراد بالإذن فى قوله تعالى ﴿حتى يؤذن لكم﴾ ما يعم إذن صاحب وإذن الشرع بالدخول فى حالة وجود منكر فى البيت الخالى، أو الشروع فى جريمة يتوقف منعها على سرعة الدخول ، أو إطفاء حريق أو نحو ذلك فإنه يجب المبادرة إلى الدخول بغير إذن لمنع ذلك. ليس عليكم أيها المؤمنون إثم فى أن تدخلوا أماكن غير معدة لسكنى قوم معينين، بل معدة ليتمتع أى ينتفع بها مَنْ يحتاج إليها كالفنادق ونحوها مما ليس فيها عورات يخاف الاطلاع عليها، والله تعالى يعلم ما تظهرون من قصد الانتفاع المشروع وما قد تخفون من قصد السرقة مثلا. فالكلام تحذير لِمَنْ يدخل للإفساد.

ومن الآداب المستفادة من هذه الآيات الثلاث أن النبى ﷺ كان إذا أتى باب قوم لا يستقبل الباب بوجهه، ولكنه كان ينزوى إلى ركنه الأيمن أو الأيسر، رواه أبو داود، وجاء فى البخارى ومسلم أنه ﷺ قال: لو أن رجلاً اطلع عليك فى بيتك بغير إذن فرميته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من حَرَج.

ثم أراد سبحانه أن يسد أبواب الفساد من ناحية أخرى فقال: قل يا أيها النبى للمؤمنين بربهم المقرين بشرعه يغضوا بعض أبصارهم، وهى التى تتجه للمحرم كالنظرة الثانية، ويحفظوا فروجهم من الحرام؛ ذلك أنفع لهم وأطهر لما فيه من البعد عن مصايد الشيطان؛ إن الله خبير بما يصنعون، لا يخفى عليه من حركات الجوارح وخيانة الأعين شىء، انظر الآية (١٩) من سورة غافر صفحة ٦٢٠، وقل للمؤمنات يغضضن بعض أبصارهن كذلك، ويحفظن فروجهن، ولا يظهرن زينتهن، وبالأولى مكانها لأحد إلا لأزواجهن أو آبائهن أو آباء أزواجهن....

أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ
أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ
ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ
لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ
لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ
ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ
وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ
يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ
ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ
وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ
إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ
ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ

المفردات: ﴿أو بنى إخوانهن﴾: قال فى جانب نسل الإخوة والأخوات

﴿بنى﴾ ولم يقل ﴿أبناء﴾ كما تقدم لأن أبناء جمع قلة، وأبناؤهن وأبناء أزواجهن أقل عادة من بنى إخوانهن وأخواتهن، ولذا يقال فى الغالب بنى آدم وبنى تميم.

﴿نسائهن﴾: المراد النساء المختصات بهن للخدمة والصحبة من حرائر المؤمنات؛ أما الكافرات ففيهن خلاف، قيل كالأجانب من الرجال

﴿ماملكت أيمانهن﴾: من الجوارى، أما العبيد الذكور ففيهم خلاف، والجمهور على المنع.

﴿التابعين﴾: هم الذين يتبعون القوم لينالوا من فضل طعامهم لشدة فقرهم وضعفهم أو بلههم

﴿الإربة﴾: هى الحاجة إلى النساء.

﴿الطفل﴾: يطلق على الواحد والمتعدد، والمراد هنا الثانى أى الأطفال.

﴿لم يظهروا﴾ إلخ: أى لم يطلعوا على عورات النساء لصغرهم.

﴿انكحوا﴾: أى زوجوا والخطاب للأولياء.

---

(١) أبنائهن (٢، ٣) إخوانهن (٤) أخواتهن
(٥) نسائهن (٦) أيمانهن (٧) التابعين
(٨) عورات (٩) أيها (١٠) الأيامى
(١١) الصالحين (١٢) إمائكم (١٣) واسع
(١٤) الكتاب (١٥) إيمانكن (١٦) آتوهم
(١٧) آتاكم (١٨) فتياتكم

﴿الأيامى﴾: جمع أيم وهو العزب ذكر أو أنثى بكرا أو ثيبا.

﴿عبادكم﴾: المراد بهم المملكون الذكور.

﴿إمائكم﴾: المملوكات الإناث.

﴿لا يجدون نكاحًا﴾: المراد بالنكاح هنا تكاليفه من صداق ونفقه.

﴿يبتغون﴾: يطلبون.

﴿الكتاب﴾: الكتاب والمكاتبة مصدران كالعتاب والمعاتبة، والمراد العقد الذى يكتبه السيد لعبده بأن يكون حرًا إذا أدى قدرًا معينا من المال.

﴿خيرًا﴾: أى إعانة وقدرة على الكسب.

﴿فتياتكم﴾: هن الإماء المملوكات.

المعنى: ـ يجوز للنساء إظهار زينتهن لأبنائهن أو أبناء أزواجهن لأنهم صاروا محارم لهن، أو إخوانهن الذكور، أو بنيهم، أو أبناء أخواتهن النساء، أو النساء المؤمنات المخالطات لهن، أو الجوارى المملوكات، أو الفقراء المرضى، أو الذين طحنهم الهرم حتى فقدوا الرغبة فى النساء، أو الأطفال الذين لا يعرفون عورات النساء.

وقل أيها النبى للمؤمنات لا يضربن بأرجلهن ليظهر صوت الخلخال فيعلم أنها من أرباب الزينة المترفات، فإن ذلك يورث ميلا من الرجال، ويمكن الشيطان من وسوسته، ولهذا تسمى العرب صوت الحلى ﴿وسواسا﴾ ويدخل فى النهى كل ما يلفت النظر إليها.

ولما كان لا يخلو مؤمن من تفريط قال سبحانه ﴿وتوبوا إلى اللّه جميعًا أيها المؤمنون﴾ خصوصًا مما كنتم تفعلونه، لأنه مما يجب الندم على حصوله لمخالفته المروءة ليرجى لكم الفلاح فى الدنيا والآخرة.

وبعدما نهى سبحانه عن السفاح المفسد للمجتمع، أمر بالنكاح المشروع المفضى للمودة والألفة.

فقال سبحانه مخاطبا أولياء الأمر: ﴿وأنكحوا﴾ أى زوجوا من لا زوج له منكم، والصالحين مما ملكت أيمانكم ذكورًا وإناثًا. وإنما خص الصالحين بامتثال أوامر اللَّه تعالى لأنهم هم الذين يستحقون المساعدة على الزواج ولا يمنع فقرهم من تزويجهم ما داموا قادرين على الصداق ونفقة مدة يستطيعون بعدها الكسب، إن يكونوا فقراء ليس معهم أكثر من الصداق وما ذكر معه، يغنهم اللَّه تعالى بالأسباب العادية كتوفيقهم للاهتمام بالكسب ليسدوا نفقة مَنْ لزمتهم نفقته، ومساعدة المرأة له فى معاشه كما هى عادة العرب وأهل القرى فى ذلك الحين، وحصول أولاد يساعدونهما إلى غير ذلك. واللَّه تعالى واسع الفضل، عليم بمَنْ قصد بزواجه العفاف فيساعده حسب حكمته. هذا فيمَنْ وجد الصداق،

أما الذين لا يجدون نفقات النكاح من الصداق وما يتبعه فيجب عليهم أن يجتهدوا فى العفة وقمع الشهوة ولو بالصوم كما فى الحديث الصحيح حتى يغنيهم اللَّه من فضله فيجدوا ما يتزوجون به.

ولما كان زواج المملوك قد يحرك فيه الرغبة فى الحرية أراد سبحانه أن ينبه السادة إلى تسهيل ذلك عليه فقال سبحانه:

﴿والذين يبتغون﴾ إلخ: أى والعبيد الذين يرغبون المكاتبة فكاتبوهم إن علمتم فيهم الرشد والقدرة على الكسب الحلال والاستقلال بتكاليف الحياة، وآتوهم أيها المؤمنون من المال الذى آتاكم لتساعدوهم على الحرية. ولا تكرهوا الفتيات المملوكات لكم على الزنا إن أردن تعففا..

رأى كثير من العلماء أن هذا نهى لعبدالله ابن أبى ابن سلول ومَنْ يعمل عمله حيث كان يكره إماءه على الزنا ليجمع من وراء ذلك مالا، وحاولوا توجيه المغفرة لهن مع أنهن مكرهات والمكره لا ذنب عليه، لزيادة توبيخ عبداللَّه المذكور.

تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ
فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا
إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ * اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ
مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ
الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ
زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ
تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ
وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾
فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُۥ يُسَبِّحُ
لَهُۥ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ
وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ الزَّكَوٰةِ

المفردات: . ﴿تحصنًا﴾: تعففا عن الزنا.

﴿عرض﴾: هو المتاع الزائل.

﴿مثلاً﴾: المراد بالمثل هنا العجيبة التى تماثل غيرها. والمراد به قصة السيدة عائشة التى تماثل قصة يوسف ومريم.

﴿خلوا﴾: أى مضوا وانقرضوا.

﴿نور السموات﴾: أى منورهما كما يقال فلان عدل أى عادل، وفلان نور المجلس أى منوره.

﴿مشكاة﴾: هى الكوة فى الجدار غير النافذة يسميها المصريون طاقة وهى تجمع النور فلا يتفرق فيضعف.

﴿مصباح﴾: هو الفتيلة المشتعلة.

﴿درى﴾: منسوب إلى الدر فى صفائه.

﴿زيتونه﴾: بيان للشجرة.

﴿فى بيوت﴾: قيل هى المساجد، وقال عكرمة بيوت المؤمنين التى يعمرونها بالعبادة: والمتأمل لاستعمال البيوت فى القرآن يرى أنها لم تستعمل إلا فى الكعبة كما فى آيتى (١٢٧)

---

(١) الحياة (٢) إكراههن
(٣) آيات (٤) مبينات
(٥) السموات (٦) كمشكاة
(٧) مباركة (٨) الأمثال
(٩) الآصال (١٠) تجارة
(١١) الصلاة. (١٢) الزكاة

من سورة البقرة صفحة ٢٥، و (٩٧) من سورة المائدة صفحتى١٥٦،١٥٧؛ وفى بيوت السكن. وهو كثير فى القرآن ومنه ما تقدم فى آيتى (٢٧، ٢٩) من هذه السورة، وبيت المؤمن لا يخلو من ذكر اللّه، ومراقبته تعالى.

وقال ﷺ (لا تجعلوا بيوتكم قبورًا) أى صلوا فيها.

﴿أذن اللّه﴾: أى أمر. ﴿ترفع﴾: تعظم.

المعنى: . قلنا إن كثيرًا من العلماء قال إن الآية تنهى أن يرغم السيد أمته على الزنا ليجمع مالا من ذلك، وقال الشيخ أبو الوفا الشرقاوى من أتقياء علماء الصعيد بمصر غفر اللّه له وشمله برحمته: إن المراد لا تكرهوا أيها الأسياد فتياتكم على المكاتبة التى قد تعرضهن للبغاء إن أردن أن يبقين محفوظات الشرف والعفة تحت رعايتكم لخوفهن من العجز عن جمع المال من طريق شريف. فعَبّر بالإكراه على البغاء وهو يريد الإكراه على مكاتبة مَنْ لا تريدها تنفيرًا منها.

فالكلام من قبيل ذكر المسبب وإرادة سببه. كما تقول لِمَنْ طرد ابنه وقطع عنه النفقة: لا تكره ولدك على السرقه، تريد لا تكرهه على الخروج من بيتك فإن ذلك يجره إلى السرقة عادة.

ورجح هذا الرأى بوجوه: الأول أن السياق فى المكاتبة والحث عليها. والثانى قوله تعالى: ﴿فإن اللّه من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ لا يمكن أن تكون المغفرة والرحمة فيه لعبداللّه بن أبى بن سلول على دياثته وإرغامه فتياته على الفاحشة. كما لا يعقل أن تكون المغفرة للفتيات المكرهات لأنهن لا اختيار لهن. فلا ذنب عليهن يحتاج إلى مغفرة. والثالث قوله فيما سبق: ﴿إن علمتم فيهم خيرًا﴾ فإنه يرجح ذلك.

فالحق أن المعنى أنه يجب على السيد أن يترك أمته فى كنفه إذا رغبت هى فى ذلك حفظًا لعرضها من الضياع. فإذا أكرهها على المكاتبة وأجهدت نفسها ووفقت ولم تلوث بفاحشة فإن اللّه تعالى يغفر للسيد مجازفته بمكاتبتها. وبهذا تنسجم أجزاء الآية على وجه تطمئن إليه النفس، واللّه تعالى أعلم.

ولقد أنزلنا إليكم آيات موضحًا للأحكام ولما فيه مصلحتكم، وأنزلنا إليكم قصة عجيبة تشابه قصة يوسف عندما اتهمته امرأة العزيز بإرادة الفاحشة، وقصة مريم عندما رماها قومها بأنها بغى وهما أبرياء وأنزلنا عظات ينتفع بها المؤمنون منها قوله تعالى: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن﴾... إلخ وقوله ﴿ولولا إذ سمعتموه قلتم﴾... إلخ وقوله ﴿يعظكم اللَّه﴾ إلخ.

ثم ذكر سبحانه ما يحقق به أن ما أنزله آيات بينات فقال: ﴿اللَّه نور السموات والأرض﴾ أى منورهما بما أودعه فى كتابه من أحكام وإرشادات وعظات، وما بثه فى الكون من أدلة على وجوده وحكمته وصدق رسله الذين أرسلهم للهداية.

ثم ضرب سبحانه مثلاً يوضح نوره هذا بشيء محس تدركه الأبصار، فشبهه بهيئة مركبة من طاقة ومصباح فيها ليقوى ضوءه ولا يتبعثر، وهذا المصباح فى زجاجة صافية كالكوكب الصافى الضوء، وإذا علمت أن العالم كله وقت نزول القرآن ما كان يعرف حصر المصباح فى زجاجة تحيط به ليصفو ضوءه ويخلو من الدخان، وإذا علمت أن اختراع الزجاج المحيط بالفتيلة قريب العهد جدًا، آمنت بأن هذا كلام العليم بأسرار خلقه، واتجهت إليه بقلبك قائلاً: اللهم زدنا إيمانًا وتوفيقًا.

هذا المصباح يوقد من زيت شجرة مباركة هى شجرة الزيتون النابتة فى مكان بارز للشمس ومرور الهواء، فلا هى شرق جبل أو حائط يحجب عنها الشمس آخر النهار، ولا غربى شيء كذلك يحجب عنها الشمس أول النهار، وذلك أكمل لنموها وأطيب لثمارها، بلغ من صفاء زيتها أنه يكاد يضيء ولو لم تمسه نار.

وهذا النور الذى شبه به ما جعله اللَّه هداية للناس متساند بما يقويه: فنور المصباح زاد فيه نقاء الزيت وضبط المشكاة وصفاء الزجاجة. يهدى اللَّه لهذا النور القوى مَنْ يشاء من عباده، وهم الذين لم يفسد الشيطان فطرتهم. ويضرب اللَّه الأمثال للناس تقريبًا إلى أفهامهم ليعتبروا، واللَّه بكل شيء عليم، فيضع الأمثال المناسبة للعقول، فيثيب مَنْ انتفع ويعاقب مَنْ أهمل.

ثم ذكر سبحانه بعض أحوال مَنْ حصلت لهم الهداية لهذا النور بذكر بعض أعمالهم القلبية والبدنية فقال: ﴿فى بيوت﴾ إلخ. والمراد يتجلى هذا النور فى بيوت أمر الله تعالى برفعها وذكر اسمه فيها.

وقال كثير من العلماء: هى المساجد. ولكن المتأمل لاستعمال القرآن لكلمة ﴿بيت﴾ يجده على كثرة ذكره لم يأت إلا للكعبة فقط، أو لبيت السكنى: ففى الكعبة جاء فى ثمان سور وهى ﴿البقرة وآل عمران والمائدة والأنفال وإبراهيم والحج والطور وقريش﴾. وبمعنى بيت السكن فى (٢٥) موضعا فى صفحات ٣٧ و ٧١ و ٨٨ و ١٠١ و ١١٩ و ٢٠٤ و ٢٢٧ و ٢٧٩و ٢٩٥ و ٣٠٥ و ٣٥٤ و ٣٧٧ و ٤٦١ و ٤٨٩ و ٥٠٧ و ٥٢٦ و ٦٥٠ و ٧٣٠ و ٧٤٨ ويطلق البيت فى القرآن على الأسرة كما فى الآية (٣٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٤ .

وقد ورد فى تفسير ابن جرير لآية (٧٨) من سورة يونس (واجعلوا بيوتكم قبلة) أن البيوت فى القرآن هى بيوت السكن، وأما المساجد فلها اسم خاص بها. ويكون المعنى: يتجلى هذا النور فى بيوت المؤمنين الصالحين التى أمرهم الله تعالى برفع منزلتها باستحضاره فى كل تصرفاتهم فيها، وبتعليم أهلهم كما فى الآية (٦) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢. ومن مدارسة القرآن وكل ما يذكرهم بربهم، انظر آيتى (٣٣ و ٣٤) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٤ وبالصلاة فيها.

فقد ورد أنه ﷺ قال: (لاتجعلوا بيوتكم قبورا) أى صلوا فيها. والمستحب أن تكون صلاة النوافل كلها فيها خصوصًا صلاة الليل.

ويؤيد هذا ما رواه البخارى عن زيد بن ثابت قال ﷺ: صلوا أيها الناس فى بيوتكم، فإن أفضل صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة، ويؤيده أيضًا ما رواه مسلم قال ﷺ:

«مثل البيت الذى يذكر الله فيه والبيت الذى لا يذكر الله فيه كمثل الحى والميت». ولذا قال يسبح له فيها بالغدو أى أول النهار، والآصال آخره، والمراد دائمًا: رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة.

يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (١) ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ
اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ
مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ (٢)
كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ (٣) مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ
يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ (٤) حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ (٥) فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ (٦) مَوْجٌ
مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ (٧) بَعْضُهَا فَوْقَ
بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا (٨) ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ
لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن
فِي السَّمَاوَاتِ (٩) وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ (١٠) ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ
صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾
وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ (١١) وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

المفردات: . ﴿كسراب﴾: ما يرى فى المكان المتسع الخالى وقت الظهر كأنه ماء. ﴿قيعة﴾: جمع قاع كجيرة جمع جار، والقاع المكان الخالى. انظر الآية (١٠٦) من سورة طه صفحة ٤١٦ . ﴿يحسبه﴾: يظنه. ﴿الظمآن﴾: شديد العطش. ﴿جاءه﴾: أى جاء مكان ما ظنه ماء. ﴿وجد الله عنده﴾: أى وجد جزاء الله .

﴿لجى﴾: منسوب للُجة وهى الماء الكثير بعيد الغور.

﴿يغشاه﴾: أى يغطى البحر. ﴿ألم تر أن الله﴾: الاستفهام هنا للتقرير كقوله فى سورة الضحى: ﴿ألم يجدك يتيمًا فآوى﴾. والرؤية هنا علمية ﴿يسبح له﴾: ينادى بتنزيهه عن كل نقص. انظر ما تقدم فى صفحة ٤٢٨ . ﴿والطير﴾: خصها بالذكر مع دخولها فيما قبلها لما فى أحوالها من عجيب الصنع. فهى جرم من شأنه أن يسقط على الأرض لولا ما أودعه الله فيه. انظر الآية (١٩) من سورة تبارك صفحة ٧٥٦ .

﴿صافات﴾: باسطات لأجنحتها.

﴿صلاته﴾: المراد بها الدعاء بطلب المعونة منه تعالى بلسان المقال أو لسان الحال.

المعنى: . يعمل هؤلاء الرجال الخيرات لأنهم يخافون هول يوم تتقلب فيه القلوب بين الخوف والرجاء، والأبصار بين الشمال واليمين لما يعتريها من الحيرة لجهل المصير. انظر

---

(١) الأبصار. (٢) أعمالهم. (٣) الظمآن. (٤) فوفاه.
(٥) كظلمات (٦) يغشاه (٧) ظلمات (٨) يراها
(٩) السموات (١٠) صافات (١١) السماوات

الآية (١٩) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٢،٥٥١، ولأنها لا تدرى من أين تأخذ كتابها، انظر صفحتى ٧٦٢، ٧٦٣ يسبحون ويخافون ليجزيهم اللّه أحسن جزاء لأعمالهم وهو مضاعفته للعشرة كما فى صفحة ١٩١، ويزيدهم عن ذلك بفضله، انظر صفحة ٥٥، واللّه يرزق مَنْ يشاء بغير حساب لأنه أكرم الأكرمين. وبعد ما بيَّن سبحانه حال المؤمنين وجزاءهم شرع فى بيان حال مَنْ أعرضوا عن نور ربهم الذى جاء به لهم لهدايتهم، وضرب لهم مثلين فقال: والذين كفروا بربهم أعمالهم الحسنة فى ذاتها التى يظنونها تنفعهم بدون إيمان صحيح كإغاثة الملهوف وصلة الرحم والبر بالمساكين وعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج إلى غير ذلك، انظر آيتى (١٨، ١٩) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٢، ٢٤٣ مثل هذه الأعمال فى عدم نفعها فى وقت الحاجة إليها كالسراب الذى يلجأ إليه الظمآن، فإذا جاءه لم يجد شيئًا يغيثه، فكذا هؤلاء إذا لجأوا إليه يوم القيامة لم يجدوا شيئًا بل وجدوا الحساب أمامهم بالمرصاد وعلى هذا فلا منافاة بين ما هنا وبين ما فى شرح آيتى (٧، ٨) من سورة الزلزلة صفحة ٨١٨ فوفاهم اللّه تعالى العقاب اللائق بهم، وهو سبحانه سريع الحساب لا يشغله حساب عن حساب، ولا يطول زمن جزائه.

ثم مثل أعمالهم السيئة الخالية من نور الحق، حيث يسيرون فى ضلال ناشئ من ظلمة الكفر وظلمات المعاصى المتعددة، بالظلام الناشئ عن الليل ولجج البحر والأمواج والسحاب الذى يغطى النجوم ليشتد الظلام، حتى إذا أخرج الواقع فيها يده وهى أقرب الأشياء إليه من مكانها بجوار جنبه وقربها لعينيه لم يقرب من رؤيتها فضلا عنها، ومن لم نجعل له نورا من أنوار الهداية لحرمانه من أسبابها فليس له نور أبدا، بخلاف المؤمن فإن له نورا على نور، كما تقدم، انظر الآية (٢٥٧) من سورة البقرة صفحة ٥٤، والآية (١٢٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والآيات من (٥ إلى ٧) من سورة الليل صفحة ٨١٠ .

ثم أراد سبحانه أن يسفه الكفار على غفلتهم فقال: ﴿ألم تر﴾ إلخ: أى ألم تعلم أيها المخاطب أن مَنْ فى السموات والأرض يشهد بلسان مقاله ولسان حاله بتنزيهه تعالى عن كل نقص بما أودع فيها من الإبداع الدال على كمال قدرته. وتتجلى قدرته فى خلق الطير الذى يقف صافا أجنحته فى الهواء لا يمسكه سوى قدرته تعالى، كل فريق مما فى السموات والأرض علم سبحانه توجهه إليه واعتماده عليه، لأنه عليم بكل ما يفعلون، وكيف لا يستمد الكل من فضله وهو المالك لكل ما فى السموات والأرض، وإليه فى النهاية مرجعهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا
فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ(١) وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن
جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن
مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ(٢) ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ
ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ(٣) وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ(٤) ﴿٤٤﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ
بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ
أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾
لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ(٥) مُّبَيِّنَٰتٍ(٦) ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ
إِلَىٰ صِرَٰطٍ(٧) مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا(٨) بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ
وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ
بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ

المفردات: . ﴿يزجى﴾: يسوق على مهل. ﴿ركاما﴾: متراكما بعضه فوق بعض، انظر الآية (٤٤) من سورة الطور صفحة ٦٩٩. ﴿الودق﴾: هو المطر.

﴿خلاله﴾: جمع خلل بوزن جبل، والخلال هى الشقوق التى تكون بين أجزائه. ﴿من جبال فيها﴾ بدل من قوله ﴿من السماء﴾، والمراد قطع السحاب الكبيرة. ﴿من برد﴾: من بمعنى بعض، والبرد قطع صغيرة من الماء المتجمد لشدة البرودة.

﴿سنا برقه﴾: أى ضوءه ﴿يذهب بالأبصار﴾: أى يذهبها، انظر صفحة ٥ . ﴿يقلب الله الليل والنهار﴾: يجعل أحدهما مكان الآخر، وبالنقص والزيادة والحر والبرد. ﴿لأولى الأبصار﴾: لأصحاب الأبصار التى وراءها عقل يفكر لا أبصار البله والمجانين، انظر الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢ . ﴿دابة﴾: المراد بها هنا كل ما دب ودرج من إنسان وأنعام ووحوش وزواحف وطيور وأسماك وغيرها وانظر بقية ما يطلق عليه دابة فى شرح الآية (٢٩) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣ .

﴿من ماء﴾: أى أن الماء عنصر مهم فيها وسترى فى شرح الآية (٢٩) المشار إليها هنا رأيا آخر فى معنى الماء هنا. والذى حملهم على القول بأن الماء هو الغالب أنهم علموا أن القرآن قال فى مكان آخر ﴿والله خلقكم من تراب﴾ الآية (١١) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣، والواقع الذى نشاهده أنه مخلوق من الماء والتراب، بل ومن عناصر أخرى تأتينا من الشمس والهواء يعلمها العلماء المتخصصون. وقال العلماء إن القرآن كثيرًا ما يتحدث عن الغالب ولا يريد

---

(١) خلاله (٢) بالأبصار (٣) الليل (٤) الأبصار
(٥) آيات (٦) مبينات (٧) صراط (٨) آمنا

الجميع كما قال تعالى عن الإنسان ﴿ألم نجعل له عينين، ولسانا وشفتين﴾ آيتى (٨، ٩) من سورة البلد صفحة ٨٠٨. وظاهر هذا يفيد أن كل إنسان كذلك، مع أنه قد يخلق إنسان بعين واحدة مثلاً أو بلا عيون مطلقا. اقرأ قوله تعالى ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ الآية (٧٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٦ مع أن بعض بنى آدم لا يسمع ولا يبصر، ومنهم مَنْ هو أبله لا عقل له. ﴿فمنهم﴾: ضمير (هم) أصله للعقلاء. ولما كانت ﴿دابة﴾ تعمهم وغيرهم غلب العقلاء على غيرهم. ولما دخل الجميع فى ضمير (هم) حسن استعمال (مَنْ) التى لا تكون إلا للعاقل فى الجميع. وزاد حسنها المشاكلة. وهى التعبير عن الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته .

﴿يمشى﴾: قال الراغب: المشى الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة، وقد يكنى به عن النميمة، ومنه هماز مشاء بنميم الآية (١١) من سورة القلم صفحة ٧٥٨ . ﴿يتولى﴾: أى يعرض.

المعنى: ألم تبصر أيها العاقل أن الله تعالى يسوق قطعا من السحاب متفرقة إلى حيث يريد، ثم يضم بعضها إلى بعض، فترى المطر يخرج من بين أجزائه، وينزل من السماء أى ينزل من قطع كبيرة فى جهتها تشبه الجبال فى الضخامة بعض البرد . ثم يوزع سبحانه هذا البرد حسب ما تقتضيه حكمته فيصيب به مَنْ يشاء من خلقه ولا قدرة لهم على دفعه، ويصرف ضرره عمَنْ يشاء، ثم وجه سبحانه العقول إلى عبرة باهرة حيث خلق من الماء نورًا ونارًا محرقة فقال ﴿يكاد﴾ إلخ: أى يقرب ضوء البرق الناتج من السحاب يذهب أبصار الناظر إليه من قوته وسرعته.

ثم ذكر سبحانه أثرًا عظيمًا من آثار قدرته فقال ﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ بتغايرهما فيما علمته مما تقدم. إن فى ذلك لعبرة لأصحاب الأبصار المزودة بعقول تفكر. ثم بين أثرًا آخر من آثار العظمة الإلهية يدل على كمال القدرة ودقيق الصنع حيث خلق من العنصر الواحد

أشياء مختلفة فى التكوين والطباع ونظام الحياة إلخ، وذلك نظير ما فى الآية (٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢١ فقال: ﴿والله خلق كل دابة﴾ وقدم ما هو أعجب منها وهى الزواحف التى تمشى على بطنها بدون استعانة بأرجل، ثم بما يمشى على رجلين، ثم على أربع، وبما أنه توجد حيوانات أخرى تمشى على أكثر من أربع كالعناكب وبعض الحشرات لكنها لما كانت لا تقع تحت الأنظار كثيرًا أشار إليها مجملة فى قوله ﴿يخلق الله ما يشاء﴾ أى مما تعلمون وما لا تعلمون مما يدب على الأرض ومما يطير فى الهواء ومما يسبح فى البحار والأنهار أو فى جوف الصخور وغير ذلك ولا يعوقه سبحانه شىء لأنه قدير على كل شىء.

ثم شرع سبحانه فى بيان حال قوم أعمتهم فتنة الدنيا عن الاعتبار فغلب عليهم الشقاء فقال: ﴿ولقد أنزلنا﴾ أى فى هذا القرآن آيات موضحات لطرق الحق على أتم وجه فاهتدى بها مَنْ زكى نفسه، وغفل عنها مَنْ أفسدها، انظر آيتى (٩، ١٠) من سورة الشمس صفحة ٨٠٩. والله يهدى مَنْ يشاء هدايته إلى طريق الصواب المستقيم، لأنه استجلبها بتحصيل أسبابها انظر صفحة ١٦٨ .

ثم شرع سبحانه فى بيان ما وقع من بعض المنافقين ووافقه بقيتهم فكانوا على شاكلتهم فى استحقاق العقاب، وذلك أن رجلاً منافقا تخاصم مع يهودى فطلب اليهودى التحاكم إلى رسول الله ﷺ لعلمه بأنه صاحب حق والنبى ﷺ لا يحكم إلا بالحق، وطلب المنافق التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودى لأنه يستطيع التأثير عليه بأنه هو الذى اختاره دون خصمه الذى اختار محمدًا.

وأخيرًا انتهيا إلى التحاكم إليه ﷺ فحكم لليهودى، ونزل قوله تعالى ﴿ويقولون آمنا﴾ إلخ: أى يقول هؤلاء الذين أظهروا الإسلام نحن آمنا بالله وبرسوله محمد ﷺ وأطعنا كل ما أمرنا به، ثم يعرض فريق منهم عن أوامر الله عز وجل ويوافقه الباقى، فليس أحد من هؤلاء جميعًا مؤمنا.

ثم ذكر حادثة من حوادث إعراض بعضهم عن حكم الله ورسوله فقال: وإذا دعوا إلى شرع الله وحكم رسوله ليحكم بينهم إلخ.

بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ
الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ
ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ
أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[1] ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا
دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ[2] ﴿٥٢﴾
۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ[3] لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل
لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ
أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ
وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ
إِلَّا الْبَلَاغُ[4] الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا[5] مِنكُمْ

المفردات: . ﴿إذا فريق﴾: إذا كلمة تدل على حصول ما بعدها فجأة. ﴿مذعنين﴾: أى خاضعين مستسلمين. ﴿أفى قلوبهم مرض﴾: الاستفهام هنا إنكارى يفيد نفى ما دخل عليه من جهة أنه العامل على الإعراض، والمراد هنا بالمرض هو عمى البصيرة. ﴿ارتابوا﴾: أى شكوا فى قدرته ﷺ على الوصول إلى الصواب. ﴿يحيف﴾: أى يظلم. ﴿بل﴾: حرف يفيد إبطال ما قبله وإثبات ما بعده. ﴿جهد أيمانهم﴾: أى بالغين غاية جهدهم فى توكيد أيمانهم، انظر الآية (٥٣) من سورة المائدة صفحتى ١٤٧، ١٤٨ .

﴿ليخرجن﴾: أى عن أموالهم إلى الغزو لإنفاقها فى سبيل الله. انظر صفحتى ٢٤٧، ٢٤٨ . ﴿طاعة معروفة﴾: أى طاعتكم طاعة معروفة بأنها قولية لا فعلية، انظر الآية ﴿٨١﴾ من سورة النساء صفحة ١١٤، والآية (٨) من سورة التوبة صفحة ٢٤١ . ﴿ما حُمّل﴾: من أدا الرسالة وقد أداها. ﴿ما حُمّلتم﴾: من التكاليف.

المعنى: وإذا دعى أحد هؤلاء المنافقين إلى التحاكم إلى الله ورسوله فاجأ هذا الداعى تصميم فريق منهم على الإعراض، وهو الفريق الذى يعتقد أنه على باطل، أما إذا كان المدعو منهم على حق فله فى ذلك مصلحة فإنه يسرع للخضوع لحكمه ﷺ. وفى ذكر الله مع الرسول زيادة تشنيع عليهم، فإعراضهم عن حكم الرسول الذى هو حكم الله تعالى لأنه ﷺ لا يحكم إلا

---

(١) الظالمون (٢) الفائزون (٣) أيمانهم
(٤) البلاغ (٥) آمنوا.

بما أراه الله كما فى الآية (١٠٥) من سورة النساء صفحة ١٢٠ . ثم فصَّل سبحانه الأسباب التى يمكن أن تكون حاملة لهم على رفض التحاكم إليه صلوات الله عليه، ثم أبطلها وأثبت السبب الحقيقى فقال ﴿فى قلوبهم مرض﴾ إلخ، والمراد هل الحامل لهم على عدم التحاكم إليه ﷺ هو ما أصيبت به قلوبهم من عمى البصيرة فلم يدركوا الحق مع وضوح الدليل؟ أو شكوا فى قدرته ﷺ على البحث والوصول إلى الحق؟ أو خوفهم من أن يظلمهم لشعورهم بكراهته لهم؟ لا لا، ليس الباعث لهم على موقفهم واحدا من هذه، بدليل أنه عندما يكون لهم الحق يخضعون لحكمه ﷺ، وإذًا فالسبب الصحيح لرفضهم هو شدة ظلمهم لأنفسهم وللحق حتى صاروا كأن الظلم لا يوجد فى غيرهم. ثم بيَّن سبحانه أن ما حصل منهم من الإعراض والكذب فى دعوى الطاعة ليس قول مؤمن حقا، فقال ﴿إنما كان قول المؤمنين﴾ إلخ: أى إنما كان قول سمعنا كلام الله ورسوله وأطعنا ما أمر به سواء وافق ما نحب أو نكره هو قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، وهؤلاء هم وحدهم المفلحون.

ثم بيَّن سبحانه حالا من أحوال المنافقين لزيادة فضيحتهم حتى ينفر منهم فقال: وأقسموا بالله بالغين غاية جهدهم فى توكيد قسمهم قائلين لئن أمرنا بالخروج للجهاد وغيره لنخرجن، أى فنحن طائعون لكل ما تأمر به. قل لهم أيها النبى أريحوا أنفسكم من الحلف كذبا، فطاعتكم المزيفة معروفة لكل مَنْ خبر أحوالكم فضلا عن علم علام الغيوب الذى أطلع رسوله على حقيقتكم. وبعدما وبخهم وفضحهم أراد سبحانه إرشادهم إلى طريق النجاة فقال: قل لهم أيها النبى: أطيعوا الله فيما أمر به فى كتابه، والرسول فيما بيَّن من طاعة خالصة لا التواء فيها، فإن أعرضوا عن نصحك فلا ضرر عليك إنما الضرر عليهم. وقل لهم إن الله يقول لكم: إن الرسول ليس عليه إلا ما حمله الله تعالى من أداء الرسالة وقد أداها، وعليكم ما حملكم من التكاليف وسيحاسبكم عليها، وإن تطيعوه تهتدوا للصواب، وليس على الرسول إلا التبليغ الموضح لما كلفتم به وقد فعل، وإنما بقى ما حملكم، فإن أديتم فلكم، وإن توليتم فعليكم. ولمَّا كان فيما سبق فضيحة لبعض مَنْ أظهر الإيمان، وكان هذا ربما يضعف من نفوس بعض حديثى العهد بالإسلام، خصوصًا وهم محاطون بأعداء كثيرين، أراد سبحانه أن يطمئنهم ما داموا قائمين بما كلفهم به فقال: ﴿وعد الله الذين آمنوا﴾ إلخ....

وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ[1] لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي
شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ[2] ﴿٥٥﴾
وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ[3] وَءَاتُوا[4] ٱلزَّكَوٰةَ[5] وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ
وَمَأْوَىٰهُمُ[6] ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا[7]
لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ[8] ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ[9] وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا
ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ[10] مَرَّٰتٍ[11] ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ[12] ٱلْفَجْرِ وَحِينَ
تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ[13] ٱلْعِشَآءِ ۚ
ثَلَٰثُ[14] عَوْرَٰتٍ[15] لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ
طَوَّٰفُونَ[16] عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ

المفردات: ﴿ليستخلفنهم فى الأرض﴾: أى ليجعلنهم خلفا صالحين بعد قوم فاسقين أهلكهم بذنوبهم، انظر الآية (١٤) من سورة يونس صفحة ٢٦٧ .

﴿ليمكنن لهم دينهم﴾: أى يثبت قواعده فيستقر ولا يتزعزع. ﴿معجزين فى الأرض﴾: أى يعجزون الله تعالى بالهرب من عقابه.

﴿مأواهم النار﴾: أى مكانهم الذى يأوون إليه آخر الأمر. ﴿يأيها الذين آمنوا﴾: المراد بالذين آمنوا هنا الذكور والإناث، كما تقدم فى الآية (٢٧) من هذه السورة صفحة ٤٦١﴾.

﴿ليستأذنكم﴾: الأمر وإن كان فى الظاهر للمملوكين والصبيان فهو فى الحقيقة للمخاطبين، قال ابن كثير: أمر الله المؤمنين أن يستأذنهم فى الدخول عليهم خدمهم وأطفالهم فى ثلاث أوقات.

قال الألوسى: المؤمنين أمروا أن يأمروا المذكورين بالاستئذان، كما أمروا أن يأمروهم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، ويضربوهم لتركها وهم أبناء عشر.

---

(١) الصالحات (٢) الفاسقون
(٣) الصلاة (٤) آتوا
(٥) الزكاة (٦) مأواهم
(٧) آمنوا (٨) ليستأذنكم
(٩) أيمانكم (١٠) ثلاث
(١١) مرات (١٢، ١٣) صلاة
(١٤) ثلاث (١٥) عورات
(١٦) طوافون

﴿الذين ملكت أيمانهم﴾: أى الذكور والإناث كما تقدم فى ﴿الذين﴾ قبلها. ﴿لم يبلغوا الحلم﴾ قال فى لسان العرب: الحُلم بضم فسكون، والاحتلام، هو أن يرى الصبى فى المنام ما يراه الرجل مع زوجته، فعله ﴿حَلَمَ﴾ بفتح اللام، والاسم منه الحُلُم بضمتين، وهو البلوغ مبلَغ الرجال.

﴿منكم﴾: أى من الأحرار، ذكورًا وإناثًا، قال يحيى بن كثير: إذا كان الغلام واعيًا فإنه يستأذن فى الأوقات الثلاثة حتى على أبويه، فإذا بلغ فإنه يستأذن فى جميع الأوقات، أما الطفل غير الواعى الذى لا يعرف عورات النساء فإنه لا يطلب منه الاستئذان، انظر الآية (٣١) من هذه السورة صفحتى ٤٦١، ٤٦٢ .

﴿ثلاث مرات﴾: قال أبو حيان: المراد ثلاث استئذانات، يقول العربى: ضربت ثلاث مرات يريد ثلاث ضربات، ويؤيد ذلك قوله ﷺ: الاستئذان ثلاث، وعلى ذلك يكون ﴿ثلاث مرات﴾ مفعولاً مطلقًا.

﴿من قبل صلاة الفجر﴾: أى أحد هذه المرات يكون قبل صلاة الفجر، وثانيها يكون حين تضعون... إلخ. ﴿تضعون﴾: أى تخلعون ثيابكم.

﴿من الظهيرة﴾: أصل معنى الظهيرة وقت انتصاف النهار، والمراد شدة الحر، والمعنى... وحين تخلعون ثيابكم من أجل شدة الحر. ﴿ثلاث عورات لكم﴾: أى هذه الأوقات ثلاث عورات لكم، وأصل معنى العورة الخلل.

يقال: أعْوَرَ المكان، أى حصل فيه خلل. ومنه ﴿إن بيوتنا عورة﴾ انظر الآية (١٣) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٠، ٥٥١، وأطلقت العورة على الأوقات المظنون كشف العورة فيها مبالغة كأنك جعلتها نفس العورة، كما تقول مبالغًا فى إثبات العدل لرجل: فلان عدل، أى عادل جدا، والمراد أن هذه الأوقات الثلاثة يختل فيها التستر عادة.

﴿ليس عليكم ولا عليهم﴾: أى ولا على الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم. ﴿جناح﴾: أصل معنى الجناح الإثم، ولكنه أريد به هنا المعنى الذى يعم ذلك وكذا ما تأباه المروءة، والأدب، وبذلك صح أن ينفى الجناح عن الصغار الذين لم يبلغوا الحلم، فإنهم وإن

كانوا غير محل للعقاب فإنهم ما داموا يميزون يطلب منهم أن يتجنبوا ما تأباه المروءة والآداب. ويكون المعنى ليس عليكم يا أهل البيت ذنب فى عدم نهى الخدم عن الدخول بلا إذن فى غير هذه الأوقات. ولا على الكبار من الخدم كذلك ذنب فى الدخول فى غير هذه الأوقات أيضًا. ولا على الصغار منهم مؤاخذة أدبية إذا دخلوا كذلك.

﴿بعدهن﴾: أى بعد هذه العورات الثلاث. ﴿طوافون عليكم﴾: هذا بيان للعذر الذى يجيز ترك الاستئذان. أى هم كثيرو الطواف عليكم لقضاء مصالحكم.

﴿بعضكم على بعض﴾: أى بعضكم طائف على بعض. فهذه الجملة مؤكدة لحكمة نفى الحرج. أى أن كلا منكم ومنهم لا يستغنى عن مخالطة صاحبه. فهم يطوفون عليكم للخدمة، وأنتم تطوفون عليهم للاستخدام. لأن من شأن الخدم أن يكونوا فى مكان منعزل، ولم يكن هناك طريق لتكليفهم بشىء إلا بالانتقال إليهم. ولا تغفل عما فى هذا التعبير من جبر قلوب الخدم حيث جعلهم بعضًا من المخاطبين وجعلهم متعاونين فى الحياة بقدر مشترك بينهم جميعًا. ولو تحتم الأمر بالاستئذان فى كل وقت لأدى ذلك إلى الحرج. والمشقة.

المعنى: وعد اللَّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات بخير جزيل. أكده باليمين، فقال: ﴿ليستخلفنهم﴾ أى واللَّه ليجعلنهم خلفاءه فى الأرض يعمرونها بالعدل كما استخلف عباده الصالحين قبلهم. الذين أقاموا العدل. ونشروا الأمن. وأعدوا لخصومهم كل قوة. وليثبتن قواعد دينهم الذى ارتضاه لهم بتقويتهم وقدرتهم على الدفاع عنه. وليبدلنهم من بعد خوفهم بسبب قلتهم وكثرة عدوهم أمنًا بنصرهم على أعدائهم: وذلك بسبب أنهم يداومون على عبادته سبحانه وحده. ومن اختار البقاء على الكفر بعد ذلك فأولئك هم الخارجون عن دائرة الهداية. التائهون فى الضلال.

وإذا كان هذا هو مصير الكافرين فاحذروا أيها المؤمنون السير فى طريقهم. واستعينوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. وأطيعوا الرسول فى كل ما يأمر به. راجين من ربكم واسع رحمته.

ولما كانت شوكة المشركين فى هذا الوقت ظاهرة القوة، وكان ربما يخالج بعض النفوس خوف من بطء تحقق هذا الوعد السابق، أراد سبحانه أن يزيل ذلك فقال ﴿لا تحسبن﴾ إلخ: أى لا تظن أيها المخاطب أن الكافرين معجزين اللّٰه فلا يهلكهم مهما كانوا فى أى قطر من أقطار الأرض، بل سيهلكهم ويجعل مكانهم فى الآخرة النار، وقبحت النار مرجعا.

ثم أراد سبحانه أن يبين آداب المعاشرة فى الأسرة الواحدة قال المرحوم الشيخ إبراهيم الجبالى فى رسالته (تفسير سورة النور): يكون مع المرء فى داره عادة جماعة ممن تربطهم به رابطة المعيشة، كأعضاء أسرته، وخدمه.

وهؤلاء تقتضى شئون الحياة أن يختلط بعضهم ببعض اختلاطًا متكررًا، وربما لا يتحاشى بعضهم أن يدخل على غيره فى خلوته، ولا يلتفت إلى استئذان فى كل مرة يريد أن يتصل فيها برفيقه فى المعيشة، وما من واحد من الأسرة إلا وله شئون خاصة يكره أن يطلع عليها غيره، فاحتاج الأمر إلى نظام واضح يحدد ما يضمن الراحة، ويزيل الحرج والمضايقة، فأنزل سبحانه هاتين الآيتين: ﴿يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم﴾... إلخ...

والمعنى: يأيها الذين آمنوا من الذكور والإناث يجب أن يستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والصبيان المميزون الذين دون البلوغ فى ثلاث أوقات يترك فيها الاحتشام عادة، هى الوقت الذى قبل الفجر حين يقوم الإنسان من نومه ويخلع ثيابه ويلبس غيرها، وفى الوقت الذى تخلعون فيه ثيابكم من شدة الحر وقد لا يستر أحدكم إلا ساتر خفيف، وإنما علق الحكم على خلع الثياب لا على الوقت لأن راحة الظهيرة تختلف باختلاف عوائد الناس، فمنهم مَنْ يبادر بها، ومنهم مَنْ يؤخرها قليلا أو كثيرا؛ والوقت الذى بعد صلاة العشاء حين يأوى أحدكم إلى فراشه فيخلع ويلبس كما سبق، وقد يكون له عورة أخرى يؤذيه أن يطلع عليها أحد مطلقًا.

هذه ثلاثة أوقات يهمل فيها التستر عادة، ليس عليكم إثم فى تركهم يدخلون بدون استئذان، ولا عليهم مؤاخذة فى دخولهم كذلك، أى فى غير هذه الأوقات لشدة حاجتكم إلى كثرة طواف بعضكم على بعض. كهذا البيان البديع لأدق الأحكام يُنزل اللّٰه تعالى آياته التى تتلى عليكم واضحة الدلالة على ما فيه مصلحتكم.

ٱلْأَيَٰتِ[1] وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ[2] مِنكُمُ
ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟[3] كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ[4] ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ[5] وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ[6]
مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى[7] لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ
أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ[8] بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ
خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ
وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ
أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ[9]
أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ[10] أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ[11] أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ[12]
أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ[13] أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ[14] أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ[15]
أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ[16] أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ
لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم

المفردات: . ﴿كما استأذن الذين من قبلهم﴾: قال الزمخشرى يريد سبحانه الذين ذكروا من قبل فى قوله تعالى ﴿لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم﴾... إلخ الآية (٢٧) وما بعدها من هذه السورة، فيكون المعنى أن الصغار إذا بلغوا يكون لهم حكم الكبار المتقدم ذكرهم من عدم الدخول إلا بإذن فى جميع الأوقات.

وإن كان ما سبق فى حكم دخول بيوت الغير من أبوابها، وما هنا فى دخول الحجر الخاصة فى البيت الواحد التى يكره مَنْ يكون بداخلها أن يراه أحد إلا وهو على حالة لائقة.

﴿القواعد﴾: جمع قاعد، وهو من الصفات الخاصة بالنساء كالحائض والطالق، والمراد بها العجائز اللواتى يغلب عليهن القعود فى البيت.

﴿لا يرجون نكاحًا﴾: أى لا يطمعن فى الزواج لعدم الرغبة فيهن.

﴿غير متبرجات﴾: التبرج تكلف إظهار ما يجب إخفاؤه، وأصله الخروج من البرج وهو

---

(١) الآيات (٢) الأطفال
(٣) فليستأذنوا (٤) استأذن
(٥) آياته (٦) القواعد
(٧) اللاتى (٨) متبرجات
(٩) آبائكم (١٠) امهاتكم
(١١) إخوانكم (١٢) أخواتكم
(١٣) أعمامكم (١٤) عماتكم
(١٥) أخوالكم (١٦) خالاتكم

القصر كما فى الآية (٧٨) من سورة النساء صفحة ١١٤ ثم استعمل فى خروج المرأة من الحشمة.

﴿أنفسكم﴾: المراد أبنائكم الذين هم كأنفسكم، ونظيره ﴿أنفسكم﴾ فى:

﴿فسلموا على أنفسكم﴾ الآتية فى هذه الآية أيضًا.

﴿مفاتحه﴾: جمع مفتح كمبرد وهو ما يفتح به، انظر صفحة ١٧١ .

﴿صديقكم﴾: الصديق يطلق على الواحد والأكثر كالعدو فى قوله ﴿وهم لكم عدو﴾ صفحة ٣٨٨، والصديق مَنْ يصدقك فى مودته وتصدقه فيها.

﴿أشتاتًا﴾: مفرده شتيت بوزن كريم، أى متفرق والمراد متفرقين.

المعنى: جرت عادة اللَّه سبحانه أن ينزل الآيات الدالة على ما فيه خيركم، واللَّه عليم بمصالح عباده، حكيم فيما يشرعه لهم.

ولما كان ما تقدم يفيد أن الأطفال يجوز لهم الدخول بغير إذن فى غير هذه الأوقات الثلاثة، وكان ذلك ربما يوهم أنهم لو بلغوا يغتفر لهم الدخول فى غيرها لسابق تعودهم ذلك، دفع ذلك بقوله ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم﴾ فى الآية (٢٧) وما بعدها من هذه السورة. ثم أكد عنايته بتوضيح الأحكام ليقطع العذر فقال: ﴿كذلك يبين اللَّه لكم آياته واللَّه عليم حكيم﴾.

وظاهر الآية الأولى (٥٨) أنه لا حرج فى الدخول بغير استئذان فيما بين صلاة العشاء وصلاة الفجر، وهذا الظاهر غير مراد، بل لا يجوز الدخول فى هذا الوقت أيضًا إلا بإذن وإنما لم تتعرض له الآية مفهوم من باب أولى، ولأن العادة جرت على المنع منه مطلقا، لأن الدخول فى وسط الليل من غير علم المدخول عليه فيه من التهمة ما لا يخفى خطره، لذلك لم يكن مظنه دخول الغير فيه. وقد أخذ العلماء من الآيتين أحكامًا وآدابا لها قيمتها، قال عطاء بن رباح لابن عباس: هل استأذن على أخوات لى أيتام يعشن معى تحت رعايتى فى بيت واحد؟ قال ابن عباس: نعم تستأذن عليهن. قال عطاء فرددت عليه طالبا أن يرخص لى فى

عدم الاستئذان. فأبى وقال: هل تحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا. قال: إذًا فاستأذن. وأخرج مالك فى الموطأ عن ابن يسار أن رجلا قال للنبى ﷺ: هل استأذن على أمى؟ قال ﷺ: نعم. قال: ليس لها خادم غيرى فهل استأذن عليها كلما دخلت. قال ﷺ: هل تحب أن تراها عريانة؟ قال: لا. قال ﷺ: فاستأذن عليها.

وسئل رباح: هل يستأذن الرجل على امرأته؟ قال: لا. قال ابن كثير: وهذا محمول على أنه غير واجب، وإلا فالأولى أن يعلمها بأن سيدخل عليها، ولا يفاجئها لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها. ولهذا كان عبدالله بن مسعود إذا دنا من باب بيته تنحنح كراهة أن يصادف أهله على حالة مكروهة، وهذا مفهوم من أنه ﷺ لما وصل المدينة نهارا، قادما من إحدى غزواته، عسكر بجيشه خارج المدينة، وقال: انتظروا حتى ندخل آخر النهار، بعد أن يعلم نساؤكم قدومكم حتى لا يفاجأن بكم، وهن على حالة لا تحبونها.

وفى هذا قال ابن عباس: إن الله ستير يحب الستر لعباده. وروى عن ابن عباس أيضًا أنه قال: تهاون الناس بهذه الآية.. وإنى لآمر زوجتى أن تستأذن علىّ. وقال ابن مسعود: عليكم أن تستأذنوا على آبائكم، وأمهاتكم، وإخوانكم، وأخواتكم... ويؤخذ من الآيتين أيضًا أن العادة التى كانت غالبة عند القوم هى المسارعة إلى الفراش عقب صلاة العشاء. وعدم السهر إلا لحاجة، أما إذا جرت العادة بالسهر بعد صلاة العشاء. فإنه يجب أن تلاحظ عادة القوم، وعلى ذلك يمتنع الدخول بغير إذن فى الوقت الذى تعودوا الشروع فى النوم فيه، وأخذ العلماء أيضًا من قوله تعالى ﴿من قبل صلاة الفجر ومن بعد صلاة العشاء﴾ أنه يوحى بأن الأفضل تعجيل النوم بعد صلاة العشاء ليكون المرء وهو مقبل على الموتة الصغرى بعيدًا عن اللغو وما قد يجر إليه السهر مما هو أقبح من اللغو، كما يوحى أيضًا بفضل التبكير فى اليقظة قبل صلاة الفجر، لأن فى ذلك مساعدة على التعجيل بالنوم بعد صلاة العشاء، كما أن القيام المبكر فيه نشاط للجسم وبركة فى اليوم الذى يستقبله.

والعجائز من النساء اللاتى لا يطمعن فى الزواج لا إثم عليهن فى أن يخلعن ثيابهن الظاهرة التى لايفضى خلعها إلى كشف عورة من عوراتهن حال كونهن غير قاصدات إظهار زينة خفية كالشعر والصدر والساق، أى لا يقصد بخلع الثياب التبرج بل التخفيف، وأن يطلبن العفة بعدم خلع الثياب خير لهن لما فيه من الاحترام والبعد عن كل شبهة إذ ما من ساقطة إلا ولها لاقطة، والله سميع لأقوالهن، عليم بقصدهن من كل قول وفعل.

ثم بيَّن سبحانه أحكام بعض أنواع المعاشرة مما كانت تختلف فيه الأنظار من تحرج وعدمه، فمن ذلك الأكل مع ذوى العاهات كالأعمى والأعرج، فقد كان هؤلاء يتحرجون من الأكل مع الأصحاء لأن الأعمى يخشى أن يظهر منه ما يتقزز منه البصير، والأعرج قد يضطر إلى جلسة قد تضايق غيره، والمريض شديد الإحساس يخشى أن يتأذى منه غيره، وكان من الأصحاء مَنْ يتحاشى أن يأكل مع واحد من هؤلاء الثلاثة ليبتعد عن إحراجه ويتركه يأكل وحده ليكون مطمئنًا، ومن ذلك ما كان من عادة مَنْ يخرج للجهاد من أثرياء المؤمنين ويتركون فى المدينة أصحاب الأعذار الفقراء الذين كانوا كثيرًا ما يأكلون من بيوتهم أى بيوت الأثرياء فى حال وجودهم، وكانوا يسمحون لهم بالأكل منها فى حال غيبتهم فكان هؤلاء الضعفاء يتحرجون من ذلك، وكان من عادة بعض القبائل أن الرجل لا يأكل وحده فكان أحدهم ينتظر مَنْ يشاركه من ضيف أو ابن سبيل، وربما مكث ينتظر يومًا كاملا.

وكل هذا تضييق لا معنى له ، فرفع سبحانه كل هذا الحرج ووسع الأمر فى مخالطة المؤمنين بعضهم لبعض متى حسنت النيات فقال تعالى: ليس على الأعمى ومَنْ فى حكمه تضييق فى أن يأكل مع السليم، فليس من شأن النفوس المهذبة أن تعنى بهذه الأمور التافهة فضلا عن أن المؤمنين أخوة، وكذلك ليس عليهم ولا على الأصحاء جناح أن يأكلوا من بيوت أبنائهم الذين هم كأنفسهم، لأن كسب الولد ملك أبيه، إلى قوله: أو بيوت إخوانكم الذكور أو بيوت أخواتكم الإناث، إلى قوله: أو بيوت مَنْ ملككم مفاتيحها وأذن لكم فى ذلك، أو من بيوت أصدقائكم الذين تطيب أنفسهم بذلك، ليس عليكم حرج فى أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين. ثم بيَّن سبحانه الأدب الذى يراعى عند دخول تلك البيوت التى أذن بالأكل منها فقال: ﴿فإذا دخلتم بيوتًا﴾ إلخ.

بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً (١) طَيِّبَةً
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ (٢) لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾
إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا
مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَسْتَـْٔذِنُونَكَ (٤) أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا
ٱسْتَـْٔذَنُوكَ (٥) لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ
لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ
بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ
مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ
فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ
فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

المفردات: . ﴿سلموا على أنفسكم﴾: أى على أهلها الذين هم إخوانكم كأنهم أنفسكم. ﴿تحية﴾: مصدر لسلموا من معناه كقعد جلوسا.

﴿مباركة﴾: محتوية على زيادة الخير والثواب. ﴿طيبة﴾: تطيب بها نفس المستمع. ﴿أمر جامع﴾: أى مهم يجمع الناس للتشاور فيه.

﴿لا تجعلوا دعاء الرسول﴾... إلخ: أى لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضا فهو مصدر مضاف لمفعوله كقولك حد الزانى. قال قتادة والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد: أى لا تنادونه كما ينادى بعضكم بعضا باسمه مع رفع الصوت بحالة تدل على عدم الاعتناء بالمخاطب، فقد كانوا يقولون بصوت مرتفع بخشونة يا محمَّد أو يا أبا القاسم، فأرشدهم سبحانه بأن ينادوه بما فيه احترام لفظا وصوتا بأن يقولوا يا رسول اللّٰه أو يا نبى اللّٰه مع صوت خفيض مشعر بالأدب.

وكان من نتيجة هذا التأديب الإلهى أن أغلبهم كان إذا أراد أن يخاطب النبى ﷺ يقول يا رسول الله بأبى أنت وأمى (أى أفديك بأبى وأمى). ﴿يتسللون﴾: ينسلون ويخرجون من الجماعة تدريجا فى خفية. ﴿لواذًا﴾: أى ملاوذة وهى مصدر من ملاوذ بمعنى استتر وهو فعل واوى وأما (لاذ) بمعنى لجأ فمصدر يائى (لياذًا) وهنا ﴿لواذًا﴾ أى ملاوذة بأن يستتر بعضهم

---

(١) مباركة (٢) الآيات (٣) يستاذنوه
(٤) يستاذنوك (٥) استاذنوك.

ببعض حتى يخرج. قال أبو داود كان لا يخرج أحد من الصحابة من مجلسه ﷺ إلا لعذر كرعاف أو حدث فكان يشير بيده له ﷺ مستأذنًا فيشير له ﷺ إذنا بيده، وكان بعض ضعاف الإيمان والمنافقين يقوم منصرفًا إلى جنب من استأذن يستتر به، أو يوهم أنه من أتباعه أو يريد منه شيئًا مهمًا. ﴿يخالفون عن أمره﴾: ضَمَّن يخالفون معنى الإعراض فعداه بحرف ﴿عن﴾ وأصله يتعدى بنفسه فيقال يخالفون أمره، والمعنى يخالفون تعاليم ربهم حال كونهم معرضين عن أمر رسوله لهم باتباع ما شرع الله. ﴿ألا﴾: كلمة تدل على تنبيه المخاطب للعناية بما بعدها. ﴿قد يعلم الله﴾: إلخ: ﴿قد﴾ حرف يفيد تحقيق العلم بعده، ففيه زيادة تهديد لهم وتخويفهم منه سبحانه ومثلها ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ الآتية فى الآية (٦٤) من نفس السورة.

المعنى: ـ بعدما أذن سبحانه فى الأكل من تلك البيوت بين أنه ليس معنى هذا أن يقتحمها الإنسان بدون إذن فقال: فإذا دخلتم بيوتًا من البيوت التى أذن لكم بالأكل منها فابدءوا دخولكم بالسلام على أهلها الذين هم منكم وأنتم منهم كأنهم أنفسكم تسليمًا مأمورًا به من عند الله، فهو مؤكد ومبارك بزيادة الثواب وتقوية الروابط الطيبة بتلك التحية نفس من تحيونه ويستريح لها. كهذا البيان الوافى يبين لكم الآيات لتعقلوا ما احتوت عليه من منافع طيبة وهداية. وبعدما بين سبحانه آداب مخالطة الناس بعضهم بعضا شرع فى بيان آدابهم بالنسبة لرسوله ﷺ وما يجب أن يكونوا عليه بالنسبة له من تمام الانقياد، وكان المنافقون لا يطيقون طول الاجتماع به ﷺ لشدة كراهتهم له، وللخوف من أن تنزل سورة تفضحهم فى مجابهتهم، انظر الآية (٦٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥١، فكانوا يحتالون فى الانصراف من مجلسه ﷺ بحيل شتى، منها أنه إذا استأذن أحد لعذر صحيح يتستر به أحدهم، أو يزعم أنه يريد منه شيئًا، إلى غير ذلك. فقال سبحانه لمحاربة هذا الخداع: ﴿إنما المؤمنون﴾ إلخ: إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، إن الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم. والمعنى: أى ليس هناك مؤمنون حقا إلا مَنْ جمعوا ثلاث صفات: الإيمان بالله، والإيمان برسوله، والمحافظة على البقاء مع رسوله فى كل اجتماع يدعوهم إليه لأمر مهم، وهو لا يدعو إلا لذلك، ولا ينصرفون من مجلسه إلا بعد استئذان

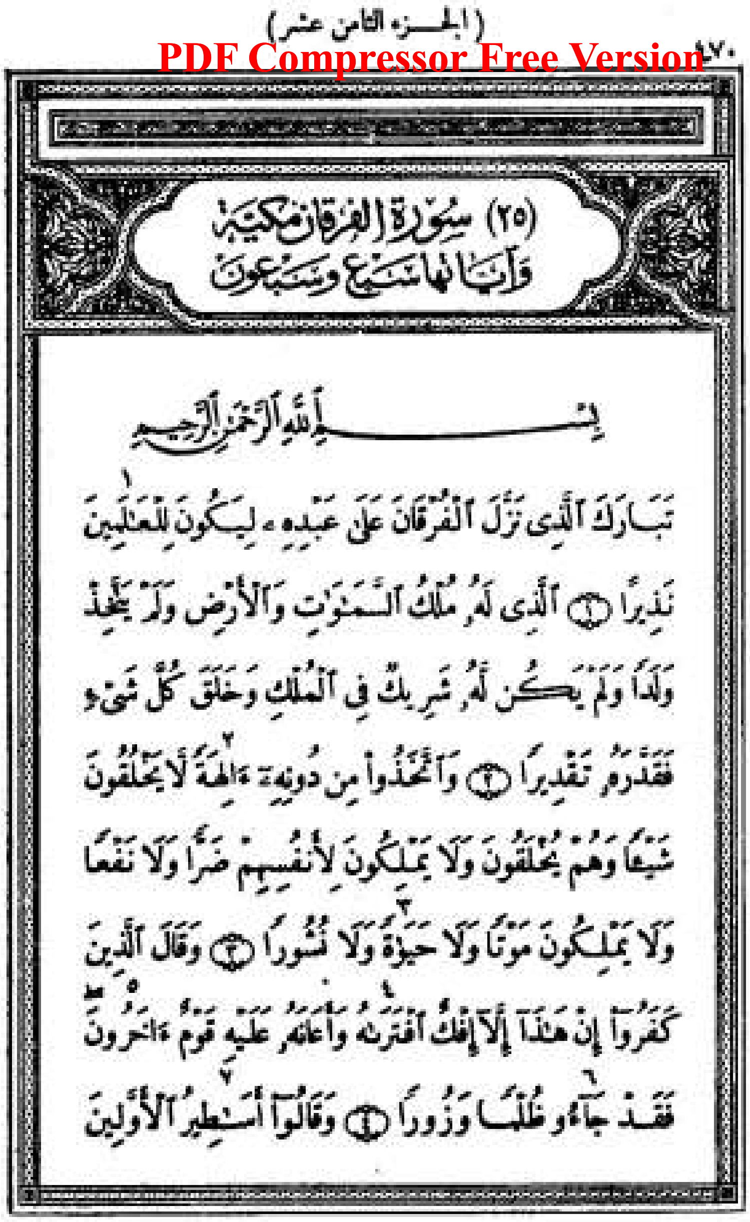
منهم وأذن منه ﷺ. ثم أعاد سبحانه هذا الحكم بأسلوب آخر جعل فيه الاستئذان من علامات صدق الإيمان فقال إن الذين يستأذنوك أولئك هم الذين يستحقون أن يكونوا وحدهم هم المؤمنين بالله واليوم الآخر. ثم أرشد سبحانه المؤمنين الصادقين إلى أن الاستئذان لا ينبغى أن يكون لكل طارئ ولو كان تافها، بل قصره على المهم، وإلى أن الإذن وعدمه متروك لمشيئته ﷺ وتقديره للأمور فيقدم الأهم على المهم، وإلى أن الأولى بالمؤمنين أن يتحاشوا الانصراف عن مجلسه ﷺ ولو بعد الإذن إلا للضرورة القصوى لأن المصلحة العامة فوق كل مصلحة شخصية. يرشد إلى هذا قوله سبحانه: ﴿واستغفر لهم﴾ أى ما قد يخطئون فى تقدير أهميته فى كل هذا قال سبحانه: فإذا استأذنوك للمهم من شئونهم فأذن لمَنْ شئت منهم وهو مَنْ علمت صحة تقديره للأمور، واستغفر لهم لما عساه أن يكونوا أخطأوا فيه. إن الله غفور لهفوات المؤمنين، رحيم بتيسير الإذن لهم. ثم نبه سبحانه لخطر التساهل فى معاملته ﷺ وقياسها على معاملة غيره، ويجرى هذا الحكم الآن فى كل أمر مهم يدعو إليه رئيس الدولة العادل، فقال ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول﴾ إلخ: أى لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضًا، أى لا تنادونه كما ينادى بعضكم بعضا، انظر مفردات هذه الصفحة تجد تفصيلاً لذلك. ثم هدد سبحانه مَنْ تحدثه نفسه بالانصراف عن مجلسه ﷺ فقال محذرًا لهم بأنه عليم بأعمالهم: قد يعلم الله الذين يتسللون منكم ملاوذة.

وإذا كان سبحانه يعلم قطعًا كل حركاتهم ونياتهم فليحذر الذين يخالفون تعاليم ربهم معرضين عن أمر رسوله أن تصيبهم فتنة أى بلاء عظيم بالمصائب، أو عذاب شديد بالقتل وهم على المعصية.

ثم بيَّن سبحانه أنه قادر على إيقاع ما هدد به فقال: ﴿ألا﴾ أى تنبهوا لما حذرتكم منه، فإن كل ما فى الكون مملوك له تعالى، فلا يخرج أحد عن قبضة ملكه.

ثم هدد من جهة أخرى وهى جهة علمه بكل تصرفاتهم فقال مؤكدًا علمه: قد يعلم سبحانه ما أنتم عليه من النفاق. ثم أعرض عن خطابهم احتقارا لهم فقال ﴿ويوم يرجعون إليه﴾.أى يوم يرجع المنافقون إليه وهو يوم القيامة سيخبرهم بما عملوا توبيخًا لهم على رءوس الأشهاد، والله بكل شىء عليم فهو سبحانه لا يخفى عليه صغيرة ولا كبيرة من أعمالهم وغيرها. والله تعالى أعلم.

سورة الفرقان



(الجزء الثامن عشر) ٤٧٠

(٢٥) سورة الفرقان مكية وآياتها سبع وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعلمين
نذيرا (١) الذى له ملك السموت والأرض ولم يتخذ
ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء
فقدره تقديرا (٢) واتخذوا من دونه ءالهة لا يخلقون
شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا
ولا يملكون موتا ولا حيوة ولا نشورا (٣) وقال الذين
كفروا إن هذا إلا إفك افترىه وأعانه عليه قوم ءاخرون
فقد جاءو ظلما وزورا (٤) وقالوا أسطير الأولين

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: . ﴿تبارك﴾ : هذا الفعل لم يرد من مادته غيره. فلا مضارع له ولا أمر ومادته تدل على معنى الزيادة فى الخير. والمراد منه هنا تعالى قدره وتزايد تنزيهه عن كل نقص. ﴿الفرقان﴾ : أصله شديد الفرق بين شيئين، والمراد هنا القرآن الفارق بين الحق والباطل.

﴿نذيرا﴾: أى محذرا من عقاب الله عز وجل.

﴿نشورًا﴾ : أصل النشور هو الحياة بعد الموت. يقال نَشَر الميت بوزن دخل إذا دبت فيه الحياة. وأنشره الله أى أحياه انظر الآية (٢٢) من سورة عبس صفحة ٧٩٢. ويطلق النشور على اليقظة بعد النوم. لأن النوم هو الموتة الصغرى. كما فى الآية (٤٧) الآتية فى هذه السورة صفحة ٤٧٥ والمراد هنا القيام من القبور المراد فى صفحة ٧٩٢. ﴿إن هذا﴾ : ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى (ما). ﴿إفك﴾ : أى كذب. انظر الآية (١١) من سورة النور صفحة ٤٥٨. ﴿افتراه﴾ : أى اخترعه محمَّد ﷺ ونسبه لله تعالى. ﴿قوم آخرون﴾ : يريدون بعض مَنْ أسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام. ﴿أساطير﴾: جمع أسطورة وهى الأكذوبة.

المعنى :. ارتفع شأنه سبحانه وتعالى عما يقوله المبطلون من أن له ولدًا أو شريكا. ومن الطعن فى رسوله الذى نزل عليه القرآن الفارق بين الحق والباطل ليكون للعالمين نذيرا

---

(١) للعالمين (٢) آلهة (٣) حياة (٤) افتراه
(٥) آخرون (٦) جاءوا (٧) أساطير.

وبشيرا أيضا. وإنما اقتصر على التخويف لأن أغلب السورة فى إبطال ما زعمه الكافرون مما ستعلمه، ولا يناسب الكافر إلا الإنذار، انظر شرح الآية (٤٦) من سورة القصص صفحة ٥١٣، اللّه وحده الذى له ملك السموات والأرض، فكل مَنْ فيها عبيده، فلا يصح أن يكون منهم ولد ولا شريك، وهو الخالق لكل شىء، وقدره أى هيأه لما أراده منه من الأفعال اللائقة به تقديرا بديعا لا اختلال فيه، ومن العجيب أن يتخذ المشركون المشار إليهم بقوله ﴿ولم يكن له شريك﴾ من دونه سبحانه آلهة عاجزين لأنهم لا يخلقون شيئا بل هم أنفسهم مخلوقون له سبحانه، ولا يستطيعون لأنفسهم دفع ضر ولا جلب نفع فضلا عن أن تملك شيئا من ذلك لغيرها. ولا يملكون موت أحدكما يميته اللّه سبحانه ولا إحياء ميت فى الدنيا ولا بعثا له فى الآخرة. وقال الكافرون من مشركى العرب:

ما هذا القرآن إلا كذب اخترعه ولم ينزله ربه وأعانه على افترائه قوم من اليهود الذين عندهم أخبار الأمم الماضية فيلقونها عليه وهو يزعم أن ربه أنزلها عليه. فقد أتى الكافرون بهذا القول ظلما للحق ولأنفسهم وكذبا باطلا، انظر تفصيل ذلك فى شرح صفحة ٥١٣؛ ومن المكابرة المفضوحة أن يموّه صناديد الكفر بمكة على البسطاء بهذا البهتان الواضح بعد أن سجل عليهم القرآن العجز عن الإتيان بمثله فى الآية (٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦. وإلا فكيف تقبل العقول أن يستعين الرسول بقلة من اليهود الذين أسلموا فى وقت هو فيه أعزل من كل سلاح مادى بل يتابعه الاضطهاد هو ومَنْ آمن معه.

وهؤلاء الكفار يملكون كل أسباب القــوة من العدد الكثير والمال الوفير مما يسخرون به الكثرة من اليهود الحانقين على الرسول ﷺ. الذين حاربوه بكل ما يستطيعون إلا هذا السلاح. فلو كانوا يستطيعونه لما سكتوا عن إمداد الكفار به طرفة عين. ثم بين سبحانه كيفية ما زعموه من الاستعانة باليهود فقال:

وقالوا أى المشركين : هذا القرآن هو أساطير الأولين... إلخ.

ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ
ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ[1] وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا[2] ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ
وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ
نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ
مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ[3] إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾
ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ[4] فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ
جَنَّٰتٍ[5] تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ[6] وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾
بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾
إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾
وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾

المفردات :. ﴿اكتتبها﴾ : أى طلب أن تكتب له. ﴿تملى عليه﴾ : أى تلقى عليه بعد كتابتها لحفظها. ﴿بكرة وأصيلا﴾ : البكرة أول النهار، والأصيل آخره، والمراد دائما.

﴿مسحورا﴾ : تقدم فى صفحة ٣٧٠ .

﴿تبارك ﴾ : تقدم فى الصفحة السابقة.

﴿إذا رأتهم﴾ : المراد إذا كانت بمرأى منهم. والعرب تقول تراءت نار القبيلتين إذا رأت كل قبيلة الأخرى؛ ومنه قوله ﷺ فى التنفير من مجاورة الكفار إذا كان فيها خطر على الدين ﴿إن المؤمن والكافر لا تتراءى نارهما﴾.

﴿تغيظا وزفيرا﴾ : أصل التغيظ إظهار الغيظ من شدته بصوت يقارنه وذلك لأن الغيظ هو انفعال مؤلم فى داخل القلب لا يظهر إلا أثره، والزفير النفس الخارج بشدة، والمراد المبالغة فى أن جهنم يخرج منها صوت كأنه صوت المغيظ المكروب، انظر آيتى (٧، ٨) من سورة الملك صفحة ٧٥٥، والعرب تقول فى القدر شديد الغليان، قدر مغتاظ، وتقول تغيظت الظهيرة إذا اشتد حرها. ﴿مقرنين﴾ : أى مقيدا كل واحد مع شيطانه فى الأغلال، انظر الآية (٤٩) من سورة الحجر صفحة ٣٣٧. ﴿دعوا﴾ : أى نادوا. ﴿هنالك﴾ : أى فى هذا المكان الضيق. ﴿ثبورا﴾ : أى هلاكا. فيقولون يا هلاك أدركنا لنستريح، انظر الآية (٤٠) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨.

المعنى :. ومن افتراء كفار مكة قولهم عن القرآن إنه مجرد أحاديث أغلبها مكذوب طلب أن تكتب له، فهى تتلى عليه مرارًا ليحفظها. قل أيها النبى ردا عليهم : ليس الأمر كما تزعمون، بل هذا القرآن أنزله الله تعالى الذى يعلم كل سر فى السموات والأرض، ولذا تجدون

(١) السموات (٢) ما لهذا (٣) الظالمون
(٤) الأمثال (٥) جنات (٦) الأنهار.

ما فيه من أخبار الغيب والأسلوب المعجز الذى لا يصل إليه غيره تعالى، انظر الآية (٤٦) من سورة القصص صفحة ٥١٣، فإنكاركم له يوجب عذابكم، لكنه سبحانه أمهلكم ليمكنكم من التوبة لأنه غفور رحيم دائما. وقال هؤلاء الكفار على سبيل التهكم به ﷺ: ما لهذا الذى يزعم أنه رسول يأكل الطعام كما نأكل، أى ماهو الشىء الذى يميزه عنا وجعله يدعى النبوة مع أنه يأكل ويشرب كما نفعل؟ ويمشى فى الأسواق لطلب الرزق كما نفعل؟ وظنوا لقصر عقولهم أن التمييز لا يكون إلا بالحسيات لا بالفضائل النفسية، فقالوا ﴿لولا﴾ أى فهلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون مساعدا له على إنذار الخلق ليصدقوه، أو ينزل الله عليه كنزا من السماء ينفق منه حتى لا يحتاج إلى المشى فى الأسواق، أو تكون له جنة أى بستانًا يأكل من ثمره كالأغنياء. ثم بعد كل هذا الضلال قال هؤلاء الكافرون الظالمون لأنفسهم: ما تتبعون إن اتبعتم إلا رجلا سحر فاختل عقله. ثم أعرض عنهم سبحانه والتفت لرسوله مخاطبا مسليا فقال: انظر أيها النبى واعجب كيف قالوا فى حقك الأقاويل العجيبة الخارجة عن العقول البالغة لغرابتها مبلغ الأمثال السائرة فبقوا بذلك متحيرين فى الضلال لا يجدون طريقا يوصلهم للحق. تبارك الذى إن شاء جعل لك فى الدنيا خيرا لك مما اقترحوه وهو أن يجعل لك فيها مثل ما وعدك به فى الآخرة من جنات تجرى من تحت أشجار كل واحدة منها الأنهار، ويجعل لك فيها قصورا. ولم يرد على طلبهم أن يكون ملكا لا يأكل الطعام لأنه رد عليه فى مواضع أخرى منها آيتى (٩٤، ٩٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، ولأن كونه ملكا ينافى حكمته فى خلق الدنيا وهى ترك الناس فيها أحرارا، ولو نزل ملكا من السماء لأجبروا أو أفناهم، انظر الآية (٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣. وبعد ما فرغ سبحانه من حكاية أباطيلهم فى أمر التوحيد والنبوة انتقل إلى حكاية باطل آخر متعلق بأمر الآخرة ليكون مقدمة لبيان ما أعد لهم فيها من الشقاء فقال: بل كذب هؤلاء الكفار بالساعة أى يوم القيامة، وهيأنا لمَنْ كذب بها من أمثالهم نارا مستعرة إذا واجهتهم عن بعد سمعوا لها تغيظا وزفيرا تتخلع له قلوبهم. عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: جهنم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف. وإذا ألقتهم الملائكة فى مكان ضيق منها لزيادة نكدهم حال كونهم مقرنين فى السلاسل نادوا الهلاك لينقذهم، فيقولون : يا هلاك أدركنا لنستريح انظر الآية (٤٠) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨.

لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾
قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ
لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ
عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ
ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ
نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ
نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا
تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ
نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ
إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا
بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

المفردات : . ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ : ولا ينال العبد الصالح كل ما يشتهى إلا فى الجنة، أما فى الدنيا فلا؛ فقد سأل نبينا ﷺ المغفرة لعمه ولم يُجب، انظر الآية (١١٣) من سورة التوبة صفحة ٢٦١؛ وسأل نوح نجاة ابنه فلم يُجب، انظر آيتى (٤٥، ٤٦) من سورة هود صفحة ٢٩١، إلى غير ذلك، انظر الآية (٣١) من سورة النحل صفحة ٣٤٩، والآية (٣٤) من سورة الزمر صفحة ٦١١، والآية (٣٥) من سورة ق صفحة٦٩١.

﴿الذكر﴾ : أى تذكر ربهم وعقابه.

﴿بورا﴾ : البور لفظ يطلق على الواحد والمتعدد، ومعناه فاسد هالك لا خير فيه. ﴿بما تقولون﴾ : الباء بمعنى فى، أى فيما تقولون.

﴿صرفا﴾ : دفعا للعذاب عنكم.

﴿ولا نصرا﴾ : أى لا تستطيعون الحصول على نصر من أحد يساعدكم على دفع العذاب عنكم.

المعنى : . أنهم لما طلبوا الهلاك ليستريحوا تقول لهم الزبانية: لا تطلبوا هلاكا واحدا بل

---

(١) واحدا
(٢) خالدين
(٣) أأنتم
(٤) سبحانك
(٥) آباءهم.

اطلبوا هلاكا كثيرا؛ المراد أن عذابكم سيتجدد ويستمر بلا انقطاع خصوصا عند تجدد جلودكم كما فى صفحة ١٠٩، ثم يوجه الخطاب إليهم تهكما وتقريعا، فيقال لهم: هل ما أنتم فيه من العذاب خير أم الجنة الخالد نعيمها التى وعد الله بها عباده المتقين، كانت فى علم الله جزاء لأعمالهم، ونهاية يرجعون إليها، لهم فى هذه الجنة ما يريدون.

ومن لطف الله بهم أن لا يلقى فى خاطر أحدهم الشعور بأن لغيره منزلة أعلى من منزلته فلا يلتفت لحال غيره ممَّنْ هو أشرف منه بل يكونون جميعا إخوانا متحابين، انظر الآية (٤٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤١، كان ما يشاءونه موعودا به منه تعالى مسئولا، أى يطلبونه من ربهم فيجيبهم كما فى الآية (١٩٤) من سورة آل عمران صفحة ٩٥، وتطلبه لهم الملائكة كما فى آيات (٧، ٨، ٩) من سورة غافر صفحة ٦١٨، واذكر أيها النبى لمشركى مكة محذرا لهم ما سيحصل لهم يوم يحشرهم ربهم هم والملائكة التى عبدوها من دون الله كما فى الآية (٢٦) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٢، ٤٢٣، والآية (٤٠) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨، ثم يقول سبحانه للملائكة: هل أنتم أضللتم عبادى بطلبكم منهم أن يعبدوكم، أم هم الذين ضلوا طريق الصواب من تلقاء أنفسهم.

وسؤال معبود المشركين هذا كسؤال معبود النصارى فى الآية (١١٦) من سورة المائدة صفحتى ١٦٠، ١٦١، وإنما سأل سبحانه هذا السؤال ليجيبوا بما أجابوا به لزيادة تبكيت المشركين وحسرتهم، فتعجبت الملائكة من هذا السؤال بقولهم سبحانك ما كان يصح لنا أن نعقد موالاة من أى نوع بيننا وبيـن غيـرك، انظر الآية (٤١) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٨، ٥٦٩.

ثم أبدت الملائكة أنهم هم الذين ضلوا، وبينت سبب ذلك فقالت : ليس سبب ضلالهم هو إضلالنا لهم، بل السبب هو فساد طبعهم حيث قابلوا نعم ربهم بالكفر كما فى الآية (٢٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٤ فأنت يارب لما أنعمت عليهم بالصحة والمال والأولاد لم يصرفوها فى عمارة الأرض ونفع الخلق بل اشتغلوا بملاذ الحياة حتى غفلوا عن ذكرك، وكانوا بسفههم هذا قوما هالكين.

وبعد ذلك يلتفت سبحانه للمشركين ليقيم الحجة عليهم فيقول : فقد كذبكم مَنْ عبدتموهم فى قولكم إنهم آلهة، فصرتم الآن لا تستطيعون دفع العذاب عنكم، ولا تحصلون على نصر من أحد يساعدكم على دفعه.

ثم خاطب سبحانه جميع المكلفين فقال: ومَنْ يظلم منكم نفسه بالكفر الذى هو الظلم العظيم كما فى الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠ نذقه عذابا كبيرا هو عذاب النار. ولما كان قولهم ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾ إلخ، متضمنا أن الرسول لا يكون إلا ملكا، رد سبحانه بقوله:

وما أرسلنا قبلك أحدًا من المرسلين إلا آكلين الطعام وماشين فى الأسواق، أى ولم يكن واحد منهم ملكا فأنت مثلهم، ثم بيَّن سبحانه الحكمة فى جعله كثيرا من الرسل ليسوا أغنياء ولا أصحاب جنات وقصور مع أن كثيرا من الكفار كذلك، فقال تعالى : وجعلنا بعضكم وهم الأغنياء لبعض وهم غيرهم فتنة، أى اختبارا لما فى طبائعكم، هل تصبرون أم تكفرون فنجازى كلا بما يستحق، وكان ربك بصيرا بالصواب، وبمَنْ يصبر بإخلاص، وبغيره؛ أى أنه سبحانه جعل أحوال الناس فى الدنيا مختلفة لحكم منها ما فى الآية (٣٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠، ومنها ابتلاء لهم وامتحان ليظهر ما فى دخيلة نفوسهم فيعاملون كلا بما يستحقه فالغنى يُمتحن بوجود الفقير معه.. هل يواسيه ولا يسخر منه، وهذا هو الغنى الشاكر، وإلا فهو الجاحد لنعمة ربه، والفقير يُمتحن بوجود الغنى.. هل يصبر على ماهو فيه ويرضى بقضاء الله، ولا يحسد الغنى، ولا يحقد عليه، وبهذا ينال أجر الصابرين والرسول الذى اختصه الله سبحانه بكرامة الرسالة يُمتحن هل يصبر على حسد الكافرين له ومحاربتهم إياه واحتقارهم كما هنا فى الآية (٧) السابقة والآية (٤١) الآتية والآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠.

وهذا الرسول امتحان لأشراف الناس وكبرائهم هل يخضعون للحق أم يركبهم الغرور فيعاندون كما حصل من الوليد بن المغيرة، انظر الآية (١١) وما بعدها صفحة ٧٧٦.

المفردات : ﴿لا يرجون لقاءنا﴾ : لا يتوقعونه لإنكارهم البعث، فلا يعملون له حسابا، لذلك يجرءون على الكفر والمعاصى، والمراد لقاء حسابه وجزائه سبحانه، انظر الآية (٢٧) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨. ﴿لولا﴾ : حرف يدل على طلب ما بعده؛ كهَلاَّ. ﴿استكبروا فى

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ[1]
أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا[2] عُتُوًّا
كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ[3] لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ
وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ
فَجَعَلْنَاهُ[4] هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ[5] الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ
مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ[6]
وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ[7] تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ
وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ[8] عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ
عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي[9] اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾
يَا وَيْلَتَىٰ[10] لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي
عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ[11] لِلْإِنسَانِ[12]
خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ[13] إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا

أنفسهم﴾ : أى اعتبروا أنفسهم كبيرة جدا لا يصح أن تخضع لرجل ليس عظيما فى زعمهم. انظر الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠. ﴿عتوا﴾ : أى تجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان. انظر الآية (٧٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥. ﴿حجرا محجورا﴾ الحجر بكسر الحاء ويصح فتحها أصله المنع، ولذا أطلق على العقل مبالغة فى الآية (٥) من سورة الفجر صفحة ٨٠٦، لأنه يمنع صاحبه عما يضره، وهو هنا مصدر لازم النصب بفعل مقدر، أى نطلب من الله منع ما نكره، ومحجورا أى ذا حجر، ووصف به للتأكيد على عادة العرب كما تقدم فى الآية (١٤) من سورة آل عمران صفحتى ٦٤، ٦٥، والعربى يقول هاتين الكلمتين إذا رأى ما يخيفه طالبا من ربه منع الشر عنه. ﴿قدمنا إلى ما عملوا﴾ : أصل القدوم إلى الشىء الحضور إليه، والمراد هنا قصدنا، وفى الكلام تشبيه حال أعمال الكفار وضياعها بحال مَنْ عملوا ما يرجون نفعه فجاء سلطان قاهر فبعثره فلم يستفيدوا منه. ﴿هباء﴾ : هو ذرات الغبار الصغيرة جدًا التى لا تظهر إلا فى شعاع الشمس الداخل من طاقة فى حائط. ﴿منثورا﴾ : متناثرا لا يمكن جمعه. ﴿مستقرا﴾: هو المكان الذى يقضون فيه أكثر أوقاتهم فى الجنة. ﴿مقيلا﴾ : هو فى الأصل مكان القيلولة وهى الراحة وقت الظهر، والمراد هنا مكان التمتع بالأزواج لأن الجنة لا نوم فيها. ﴿تشقق السماء بالغمام﴾: أى تنفتح بسبب نزول السحاب الذى فيه الملائكة. انظر الآية (٢١٠) من سورة البقرة صفحة ٤١. ﴿يعض الظالم على يديه﴾: عض اليدين والأنامل كناية عن الغيظ ﴿يا ويلتى﴾.. إلخ: الويل الهلاك، وهذا تركيب يقال عند التحسر، والمراد هنا التحسر على مصاحبة الأشرار. انظر الآية (٦٧) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٤. ﴿فلانا﴾ : فلان كناية عن

(١) الملائكة (٢) عتوا (٣) الملائكة (٤) فجعلناه (٥) أصحاب
(٦) بالغمام (٧) الملائكة (٨) الكافرين (٩) ياليتنى
(١٠) يا ويلتا (١١) الشيطان (١٢) للإنسان (١٣) يارب.

كل اسم لذكر عاقل، وفلانة أنثاه. ﴿الذكر﴾ : ذكر الله سبحانه والخوف منه، انظر الآية (١٩) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٨. ﴿الشيطان﴾ : المراد المضلون من الجن والإنس، انظر الآية (١٤) من سورة البقرة صفحة ٥، والآية (١١٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨١، والآية (٢٩) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣. ﴿خذولا﴾ : كثير الخذلان لمَنْ أطاعة، انظر الآية (١٢٠) من سورة النساء صفحة ١٢٣، والآية (٤٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٤، والآية (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣، والآية (١٦) من سورة الحشر صفحة ٧٣٢. ﴿اتخذوا﴾ : أى جعلوا.

المعنى : . بعدما بيَّن سبحانه بعض جرائم الكفار من أول الآية (٣) إلى الآية (٧) انتقل سبحانه إلى بيان جريمة عظمى لهم، لم يجرئهم عليها إلا إنكارهم البعث، وعدم خوفهم من أهواله، تلك هى أنهم لم يكتفوا بما اقترحوه أولاً من أن ينزل الله سبحانه مع الرسول ملكا يصدقه، بل طلبوا أن ينزل الله عليهم جميع الملائكة لتخبرهم بصدق محمَّد، ثم انتقلوا إلى أفظع من ذلك وهو أنهم لا يصدقون إلا إذا رأوا الرب سبحانه ويخبرهم بصدقه ﷺ، ولهذا عقب على قولهم بقوله: ﴿لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوًا كبيرًا﴾ حيث كذبوا رسولنا الصادق الأمين. ثم شرع سبحانه فى بيان ما سيلقونه عند مشاهدة الملائكة الذين طلبوهم فقال ﴿يوم يرون الملائكة﴾ إلخ: أى اذكر لهم أيها النبى ما سيكون يوم يرون الملائكة فإنه لا بشرى يومئذ لهؤلاء المجرمين الآتى بيانهم فى الآية (٣١) الآتية، فإنهم يشاهدون أهوالا ويقولون حجرًا محجورًا. والمعنى أنهم يطلبون نزول الملائكة فإذا رأوهم فزعوا أشد الفزع وقالوا ما كانوا يقولونه عند خوف الخطر. وقدمنا إلى ما عملوا فى الدنيا من أعمال الخير المبينة فى الآية (٣٩) من سورة النور صفحة ٤٦٤ فجعلناه مثل الهباء فى الحقارة وعدم النفع متفرقا لا يمكن جمعه. هذا مصير هؤلاء المجرمين، أما أصحاب الجنة المشار إليهم فى الآية (١٥) المتقدمة، يوم يضيع على الكفار كل آمالهم، فإنهم يكونون خيرا مستقرا وأحسن مقيلا. واذكر لهم أيضا يوم تتشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة تنزيلا عجيبا غير معهود، الملك أى السلطان والاستيلاء الشامل ظاهرا وباطنا ثابت لصاحب الرحمة الواسعة التى أغلقوا أبوابها عنهم بفظاعة جرائمهم، ونظيره فى الآية (٦) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥. فى هذا اليوم يعض الظالم على يديه من شدة الغيظ والحسرة ويقول ياليتنى لم أتخذ فلانا صديقا لأنه أضلنى عن ذكر الله وكتابه بعد إذ جاءنى على لسان رسوله وخذلنى اليوم لأنه كثير الخذلان لا أمان له، وقال الرسول يارب إن قومى الذين أرسلتنى لإنقاذهم اتخذوا هذا القرآن العظيم الذى فيه صلاحهم مهملا .. إلخ.

الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ
الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ
لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ
بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ
يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا
وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا
مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا اذْهَبَآ إِلَى الْقَوْمِ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ
لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً
وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ
الرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ

المفردات :. ﴿عدوا﴾ : العدو يطلق على الواحد والأكثر، انظر الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨.

﴿المجرمين﴾ : هم الجاحدون شديدو الإفساد، انظر صفحات ١٨٣، ٢٦٨، ٤١٢، ٤٨٦، ٧٧٧.

﴿لولا﴾ : بمعنى هلا كما تقدم فى الصفحة السابقة.

﴿نزل﴾ : نزل بمعنى أنزل كخبر بفتح الباء المشددة بمعنى أخبر.

﴿بمثَل﴾ : المراد به هنا الكلام الخارج عن المعقول الذى يجرى مجرى الأمثال، والمراد به اقتراحاتهم الباطلة، انظر معنى المثل فى صفحة ٤٤٤.

﴿آتينا موسى﴾ : أى قضينا فى الأزل وقدرنا إعطاءه الكتاب وهو التوراة، انظر مثل ذلك فى الآية (٣٠) من سورة مريم صفحة ٣٩٩، وإنما قلنا ذلك لأن التوراة لم يأخذها موسى إلا بعد غرق فرعون كما تقدم فى آيات (٥٠، ٥٧، ٦٣) من سورة البقرة صفحات ١٠، ١١، ١٣، وآيات (١٢١، ١٣٧، ١٤٢، ١٤٥، ١٥٠، ١٥٤) من سورة الأعراف صفحات من ٢١٣ إلى ٢١٦.

﴿وزيرا﴾ : أى مساعدا، انظر صفحة ٤٠٨.

﴿بآياتنا﴾ : المراد أدلة وجودنا التى نشرناها فى الكون، انظر آيات من (٣٠ إلى ٣٣) من

(١، ٢) القرآن (٣) واحدة (٤) ورتلناه (٥) جئناك (٦) آتينا
(٧) الكتاب (٨) هارون (٩) بآياتنا (١٠) فدمرناهم (١١) أغرقناهم
(١٢) جعلناهم (١٣) آية (١٤) للظالمين (١٥) ثمود (١٦) أصحاب.

سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣ وآيات من (١٧ إلى ٢٠) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥.

﴿آية﴾ : عبرة وعظة.

﴿أصحاب الرس﴾ : الرس فى لغة العرب يطلق على الأثر القليل للشىء كأثر الحمى مثلا بعد البرء منها، وعلى البئر والحفرة فى الأرض، واختار الطبرى أن أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود المذكورون فى صفحة ٨٠١، والذى يهمنا فى مكان العبرة أنهم قوم كذبوا رسولهم فأهلكهم الله تعالى.

المعنى :. أهملوا القرآن وما فيه من عقائد وأخلاق وعبادات تهذب النفوس كما فى الآية (٤٥) من سورة البقرة صفحة ١٠، (٤٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٧، ثم أراد سبحانه أن يسلى رسوله ويرغبه فى الاقتداء بإخوانه الأنبياء الذين حصل لهم مثل ما حصل له فقال: ﴿وكذلك جعلنا﴾ إلخ:

أى كما جعلنا لك أعداء من المشركين يحاربون دعوتك جعلنا لكل نبى صاحب دعوة أعداء من المجرمين، وذلك حسب سنتنا فى نظام هذا العالم، انظر شرح الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، وآيتى (٧٨، ٧٩) من سورة النساء صفحة ١١٤ والآيات من (٤ إلى ١٢) من سورة الليل صفحتى ٨١٠، ٨١١، ثم طمأن سبحانه نبيه فقال ﴿وكفى بربك﴾ إلخ :

أى وكفاك ربك هاديًا لك إلى ما يوصلك لأسمى الغايات وناصرا لك عليهم ثم رجع إلى ذكر نوع آخر من تعنت المشركين فقال:

﴿وقال الذين كفروا لولا﴾ أى هلا نزل عليه القرآن دفعة واحدة كما أنزلت الوصايا العشر فى الألواح على موسى، أما بقية أحكام التوراة فكانت توحى إلى موسى فى أوقات متعاقبة، انظر بعض ذلك فى الآيات (٥٧، ٥٨، ٦٠، ٦٧) من سورة البقرة صفحات ١١، ١٢، ١٣.

فرد سبحانه عليهم ببيان بعض حكم إنزاله تدريجا فقال:

﴿كذلك﴾ أى أنزلناه على هذا الوجه الذى طعنوا فيه عنادا لنقوى بهذا التنزيل المفرق فؤادك، فإن فى إنزاله حسب الوقائع واقتضاء الدواعى وإفحام الخصوم عند بروز كل شبهة ما يطمئنك، وييسر عليك حفظه وفهم معانيه، وضبط أحكامه، إلى غير تلك الحكم مما لا يخفى على ذى بصيرة، انظر الآية (١٠٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٩، ورتلناه ترتيلا بديعا، أى ورتلناه عليك بلسان جبريل شيئا فشيئا فى أكثر من عشرين عاما على تؤدة وتمهل ولا يأتونك بكلام شديد البطلان من مزاعم كاذبة واقتراحات متعنتة إلا جئناك بالجواب الحق الماحق لكل باطلهم، وهذا الجواب بالغ غاية الحسن فى البيان، فلا خفاء فيه مطلقا حتى لا يجدوا للجدال معه سبيلا.

ثم هددهم بقوله: ﴿الذين يحشرون﴾ إلخ:

أى هـؤلاء الكفار هم الذين سيحشرون مسحوبين على وجوههم إلى جهنم كما فى الآية (٩٧) من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٧، ٣٧٨، هؤلاء شر مكانة عند الله وأشد ضلالا عن طريق الخير.

ثم ذكر ما حل بالأمم السابقة عندما كذبوا رسلهم ليكون عبرة لهم لعلهم ينزجرون فقال ﴿ولقد آتينا موسى﴾ إلخ: أى قدرنا إعطاء موسى التوراة وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا، فقلنا لهما أذهبا إلى فرعون وقومه الذين لم يؤمنوا بالأدلة القائمة على وجودنا ووحدتنا حيث أهملوا النظر فيها، فذهبا إليهم وأرشادهم إلى بعض تلك الأدلة، انظر الآيات من (٤٩ إلى ٥٣) من سورة طه صفحتى ٤٠٩، ٤١٠، والآيات من (٢٤ إلى ٢٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٨١، فكذبوهما فدمرناهم، أى أهلكناهم إهلاكا شديدا.

وكذلك دمرنا قوم نوح لما كذبوه هو ومَنْ قبله كإدريس وشيث، فأغرقناهم بالطوفان، وجعلناهم للناس عبرة، وهيأنا فى الآخرة لكل ظالم منهم ومن غيرهم عذابا أليما، ودمرنا عادا وثمود وأصحاب الرس وأمما وجدوا بين مَنْ ذكر كثيرا عددهم عندما كذبوا أنبياءهم، وحذرنا كل فريق مما ذكر، وبينا له الأمثال.

الْأَمْثَالَ[1] وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ
الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا
لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ
آلِهَتِنَا[2] لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ
الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ[3] مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ
هَوَاهُ[4] أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ
أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ[5] بَلْ
هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤) أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ
شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥)
ثُمَّ قَبَضْنَاهُ[6] إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
اللَّيْلَ[7] لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ

المفردات : . ﴿الأمثال﴾ : القصص العجيبة من قصص مَنْ أهلك قبلهم.

﴿تبرنا﴾ : أى أهلكنا، انظر الآية (١٣٩) من سورة الأعراف صفحة ٢١٣، والآية (٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥. ﴿القرية﴾ : هى أكبر قرى قوم لوط كما فى الآية (٨٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥، والآية (٧٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨ ﴿السوء﴾ : هو كل ما يسوء كما فى الآية (٩٨) من سورة التوبة صفحة ٢٥٨، وهذا المطر مبين فى الآية (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣ ﴿أفلم يكونوا يرونها﴾ : استفهام للتوبيخ.

﴿بل﴾ : حرف يدل على الإضراب عما قبله وإثبات ما بعده.

﴿لا يرجون﴾ : لا يتوقعون كما تقدم فى صفحة ٤٧٣.

﴿نشورا﴾ : أى بعثا من القبور كما تقدم فى الآية (٣) من هذه السورة صفحة ٤٧٠.

﴿إن يتخذونك﴾ : إن حرف نفى بمعنى ما.

﴿هزوا﴾ : أى مهزوءا به، انظر الآية (٦٧) من سورة البقرة صفحة ١٣، ومنه ما فى الآيات من (٢٩) إلى آخر سورة المطففين صفحة ٧٩٨. ﴿إن كاد﴾ : أصلها إنه كاد أو قرب. ﴿أرأيت﴾ : معنى التركيب أخبرنى، انظر تفصيل ذلك التركيب فى الآية (٤٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨.

﴿أفأنت﴾ : الاستفهام إنكارى يفيد نفى ما بعده.

---

(١) الأمثال (٢) آلهتنا (٣) أرأيت (٤) هواه
(٥) كالأنعام (٦) قبضناه (٧) الليل.

﴿وكيلا﴾ : أى حافظا يمنعه من اتباع هواه، انظر الآية (٤٥) من سورة ق صفحة ٦٩٢، والآية (٢٢) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥.

﴿أم تحسب﴾ : أم بمعنى بل المتقدمة، والمراد بل هل تظن. ﴿إن هم﴾ :

﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾. ﴿الأنعام﴾ : تقدمت فى الآيات من (١٤٢ إلى ١٤٤) صفحتى ١٨٦، ١٨٧ . ﴿أضل﴾ : لأن الأنعام تنقاد لصاحبها وتعرف مَنْ يحسن إليها ومَنْ يسىء وتتجنب ما يضرها إلى غير ذلك مما تقدم فى الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢. ﴿عليه دليلا﴾ : المراد لولاها لما وجد كما أن المعلوم لا يوجد بدون الدليل.

﴿قبضناه﴾ : القبض ضد البسط، والمعنى جمعناه، ولما عَبّر عن إحداث الظل بالمد ناسب أن يعبر عن إزالته بالقبض، والمراد محوناه على مهل قليلا قليلا حسب سير الشمس ﴿إلينا﴾: جاء به ليفيد النص على كون مرجع إزالة الظل إليه سبحانه وحده، فلا يستطيع أحد مشاركته فيه.

﴿لباسا﴾ : أى أن ظلمته تستر كما يستر اللباس.

﴿سباتا﴾ : أصل السبت القطع وفعله كضرب ونصر والمراد قاطعا للعمل ليستريح النائم، انظر الآيات من (٧١ إلى ٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧، والآيات من (٩ إلى ١١) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧.

﴿نشورا﴾ : المراد به هنا وقت نشور؛ والنشور هنا اليقظة بعد النوم.

المعنى : . وكل فريق مما تقدم بيّنا له ما حصل للأولين إنذارا، ولما لم يرجعوا عن الشر أهلكناهم إهلاكا لائقا بهم، انظر الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦. ولقد مر فريق من قريش فى سفرهم للتجارة إلى الشام على سدوم كبرى قرى قوم لوط التى أمطر الله تعالى عليها الحجارة المحماة بعد خسفها، هل تعاموا عنها فلم يكونوا يرونها مع أنها فى طريقهم؟ كلا، بل الذى منعهم من الاعتبار أنهم كانوا ينكرون البعث فلم يخافوا عقاب الله، انظر الآية (٧٦) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣.

ثم ذكر بعض جرائمهم فقال: وإذا رأوك أيها النبى لا يتخذونك إلا موضع استهزاء قائلين على سبيل الاحتقار: هل هذا هو الذى بعثه الله رسولا؟ إنه قرب والله من شدة محاجته أن يضلنا أى يصرفنا عن عبادة آلهتنا لولا أن ثبتنا على عبادتها لصرفنا.

ولما تضمن كلامهم أنهم على هدى وأن ما عليه ﷺ ضلال، حماه الله، رد عليهم سبحانه بقوله: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا﴾ هم أم محمَّد ﷺ، وهذا تهديد بوقوع تعذيبهم قطعا.

ثم أراد سبحانه أن يخفف عن رسوله ﷺ حزنه وضيقه لعدم إيمان قومه كما فى الآية (١٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣، والآية (٣٣) وما بعدها من نفس السورة صفحة ١٦٧، والآية (١٢٧) من سورة النحل صفحة ٣٦٣، والآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠.

فقال ﴿أرأيت﴾ إلخ : أى أخبرنى أيها النبى هل الرجل الذى جعل شهواته إلها له لا يخضع لغيرها، هل يمكنك هدايته فتكون حافظا له من ذلك! كلا.

ثم بيّن سبحانه سبب عدم هدايتهم بقوله ﴿أم تحسب﴾ إلخ: أى بل هل تظن أن أكثرهم يسمعون نصائحك سماع قبول أو يعقلون الحجج فينفعهم إقامتها؟ كلا، فما هم إلا كالبهائم فى عدم تدبر المصير، بل هم أقل منها لما سبق.

ثم شرع سبحانه فى إقامة خمسة أدلة على وحدانيته يشاهدها كل مبصر وتنتهى فى الآية (٥٤) الآتية فقال:

ألم تنظر أيها المخاطب إلى صنع ربك كيف بسط الظل ولو شاء لجعله ثابتا بوقف حركة الكواكب التى تحدثه، ثم جعل الشمس سبب وجوده، ثم بعد بسطه قبضه إليه على مهل بإيجاد ضوء الشمس مكانه، ولا يقدر مخلوق على تحريك الشمس حتى تمحو الظل، وهو وحده الذى جعل لكم الليل كاللباس، وكما أن اللباس يحفظ من الحر والبرد ويستر العورات، كذلك الليل يستر الخائف من العدو أو الحيوان المفترس، وتستتر به المرأة التى لا تجد ما يليق بسترها إذا خرجت فى الخلاء، إلى غير ذلك، والنوم راحة، وجعل النهار زمن يقظة وسعى فى الرزق.

الَّذِىٓ أَرْسَلَ الرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ
السَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ
مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ
بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ
شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَٰفِرِينَ
وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ
الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ
بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ
الْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾
وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ
الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا
وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ

المفردات : . ﴿بشرا﴾ : أصلها بشُرا بضمتين بوزن رسل ثم سكنت الشين تخفيفا، ومفردها بشور بفتح أوله كرسول أى كثير التبشير، فالمراد مبشرات، انظر الآية (٤٦) من سورة الروم صفحتى ٥٣٦، ٥٣٧. ﴿بين يدى﴾ : أى أمام. ﴿رحمته﴾ : المراد بها هنا المطر لأنه ينبت الزرع ويسقى الخلق كما سيأتى. ﴿طهورا﴾ : شديد الطهارة مطهر غيره. ﴿نحيى به﴾ : إحياء الأرض جعلها تنبت، انظر الآية (٥) من سورة الحج صفحتى ٤٣٣، ٤٢٤، والآية (٥٠) من سورة الروم صفحة ٥٣٧. ﴿بلدة﴾ : أى أرض بلدة. ﴿ميتا﴾ : أى لا نبات فيها، وجاء بالصفة مذكرة لأن البلدة بمعنى البلد. ﴿أنعاما﴾ : تقدم فى الصفحة السابقة، وخصها بالذكر لأن أغلب منافع الإنسان منها. ﴿أناسى﴾ : جمع إنسى ككراسى وكرسى. ﴿صرفناه﴾ : أى صرفنا المطر فى أماكن وأوقات مختلفة ومقادير متفاوتة، انظر الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥. ﴿نذيرا﴾ : نبيا ينذر أهلها. ﴿جاهدهم به﴾ : أى قاوم الكفار بحجج القرآن حتى تسكتهم. انظر الآية ٧٣ من سورة التوبة صفحتى ٢٥٣، ٢٥٤. ﴿مرج البحرين﴾ : من قول العرب مرج فلان دابته إذا تركها تذهب كما تشاء، أى تركهما يتحركان لا يستقران ومرج من باب قتل. انظر الآية (١٩) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩. ﴿فرات﴾ : شديد العذوبة. ﴿أجاج﴾ : شديد الملوحة. ﴿برزخا﴾ : البرزخ ما يحجز بين شيئين وهنا هو ما يحجز بين البحرين من الأرض انظر الآية (١٠٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٤، والآية (٦١) من سورة النمل صفحتى ٥٠١، ٥٠٢. والآية (٢٠) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩. ﴿حجرا محجورًا﴾: تقدم أن الحجر المنع. فأريد به هنا المانع مبالغة، وهو من عطف الصفة على الموصوف كما

(١) الرياح (٢) لنحيى (٣) أنعاما (٤) صرفناه
(٥) الكافرين (٦) وجاهدهم (٧) أرسلناك (٨) ما أسألكم.

فى الآية (٥٣) من سورة البقرة صفحتى ١٠، ١١، والآية (٤٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥، والآية (١٢) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٠. ﴿الماء﴾ : انظر الآية (٤٥) من سورة النور صفحة ٤٦٥. ﴿نسبا﴾ : أصل النسب القرابة من جهة الذكور، والمراد هنا: جعله ذا نسب أى ولدا ذكرًا ينسب إليه. ﴿صهرا﴾ : الصهر القرابة. وأطلقوه على القرابة من جهة الإناث. فالمعنى ذات صهر أى أنثى يصاهر بها. هذا هو المراد هنا كقوله تعالى ﴿خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾ الآية (٤٥) من سورة النجم صفحة ٧٠٣، وقد يطلق الصهر على زوج الأنثى من قريبات الرجل كبنته وأخته مثلا. ﴿ظهيرا﴾ : أى معاونا للشيطان على معصية ربه، انظر الآية (٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦.

المعنى : . والله وحده هو الذى أرسل الرياح مبشرات بين يدى المطر الذى لولاه لما نبت زرع ولما سقى حيوان، وأنزل سبحانه من جهة السماء ماء شديد الطهارة لينبت به الأرض القاحلة ويسقى منه الأنعام وكثيرا من الإنسان الحى فى وقت نزوله، ولقد نقلنا هذا المطر بين الخلق حسب الحكمة ليتفكروا ويعرفوا كمال القدرة ويقوموا بواجب شكر منزله ومع ذلك امتنع أكثرهم عن عمل شىء مطلقا إلا كفران النعمة فإنهم تمسكوا به. ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نبيا يساعدك فى إنذار أهلها فيخف عنك بعض العبء لكنا قصرنا الأمر عليك إجلالا لك وتعظيما لشأنك، فقابل ذلك بالاجتهاد فى الدعوة، ولا تطع الكافرين فيما يريدونه منك مما أشير إليه فى الآية (٣٥) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧، والآية (٧٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤، وجاهدهم بالقرآن وما فيه من حجج وعبر وتحذير مما حصل لأمثالهم جهادا كبيرا حتى ييأسوا من إبطال دعوتك. والله وحده هو الذى أجرى البحرين المالح والحلو، ومن قدرته أنه مع شدة عذوبة أحدهما وملوحة الآخر حجز بينهما، وكان يمكن أن يطغى أحدهما على الآخر. وهو سبحانه الذى خلق من الماء بشرا فجعل منه ذكرا تنسب إليه الأسرة، وأنثى يصاهر بها الغير. وكان ربك أيها النبى قديرا يفعل ما يشاء، ومع كل هذا فهؤلاء الكفار يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم إن عبدوه ولا يضرهم إن تركوه، وكان الكافر بعمله هذا مساعدا للشيطان على عصيان أوامر ربه. ثم وبخ سبحانه المشركين بأن رسوله لم يطلب منهم مالا بل جاء لنفعهم فقال: وما أرسلناك أيها النبى إلا مبشرا من آمن بالجنة، ونذيرا لمَنْ عصى بالنار. وقل لهم ما أسألكم على تبليغ رسالة ربى بالتبشير والإنذار أجرا لكن مَنْ شاء أن يسلك ربه طريقا يوصله إليه فليفعل، انظر الآية (٢٩) من سورة هود صفحة ٢٨٨، والآية (٧٢) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٢.

أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى
لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ
خَبِيرًا (٥٨) ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ
خَبِيرًا (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ
أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) ۩ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ
فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)
وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ
أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى
ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا (٦٣)
وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا (٦٤) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥)

المفردات :. ﴿سبح بحمده﴾ : نزه ربك مع حمده على جزيل نعمه. ﴿ستة أيام﴾ : انظر تفصيل ذلك فى الآيات من (٩ إلى ١٢) من سورة فصلت صفحتى ٦٢٠، ٦٢١ واليوم عند الله مدة لا يعلم مقدارها على التحديد إلا هو سبحانه انظر الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١. ﴿فاسأل به خبيرا﴾ : تقول العرب اسأل به وعنه، انظر أول سورة المعارج صفحة ٧٦٤، والآية (٨) من سورة التكاثر صفحة ٨٢٠. وسأل به تفيد سأل مهتما به، وعنه تفيد مفتشا عنه.

﴿بارك﴾ : تقدم أول السورة

﴿بروجا﴾ : جمع برج وهو عند العرب القصر والحصن كما فى صفحة ١١٤، والمراد هنا منازل الشمس الاثنا عشر الآتى بيانها فى صفحة ٨٠٠.

﴿سراجا﴾ : الشمس انظر الآية (٥) من سورة يونس صفحة ٢٦٦.

﴿خلفة﴾ : الخلفة حالة الشيء الذى يخلف صاحبه ويحل محله، والمراد ذوى خلفة أى: يخلف أحدهما صاحبه. ﴿هونا﴾ : الهون هو الرفق واللين وأريد به الصفة أى مشيا هينا ذا وقار لا تكبر معه، انظر الآية (٣٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩، وآيتى (١٨، ١٩) من سورة لقمان صفحتى ٥٤١، ٥٤٢. ﴿الجاهلون﴾ : السفهاء. ﴿قالوا سلاما﴾ : هو سلام متاركة وتجنب لا سلام تحية، انظر الآية (٥٥) من سورة القصص صفحتى ٥١٤، ٥١٥.

﴿غراما﴾ : أى لازما، ومنه الغريم الذى يلازم مدينه بالمطالبة.

---

(١) السموات (٢) فاسأل (٣) سراجا (٤) الليل
(٥) الجاهلون (٦) سلاما (٧) قياما.

المعنى: . قل أيها النبى لمَنْ أرسلت إليهم: أنا لا أسالكم أجرا من مال لكن أطلب عمل الصالحات لمَنْ شاء منكم أن يسلك طريقا موصلة لرضا ربه. ثم أمر سبحانه نبيه بأن لا يخشى ضررهم بل يتوكل على ربه الحى الذى لا يموت، وينزهه عن النقص مثنيا عليه ليزيده نعما. وكفى بالله خبيرا بذنوب عباده، ما ظهر منها وما بطن، وفى هذا تهديد وتوبيخ للمشركين حيث اعتمدوا على مَنْ ليس فيه حياة ومَنْ يموتون. ثم وصف الإله الحق الذى يصح التوكل عليه بأنه هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى سته أيام ثم استوى على العرش. هو الرحمن فاسأل به خبيرا بما يليق به من أهل الكتاب الذين يعلمون أن معبودات المشركين لا تخلق ذبابا فضلا عن السموات والأرض. انظر الآية (٩٤) من سورة يونس صفحة ٢٨١. والآية (٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١. ونظيره ما فى الآية (٢٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥. ومن جرائم المشركين أنهم إذا قيل لهم اخضعوا للإله الحق تستجلبوا رحمته قالوا مستهزئين وما الرحمن الذى تأمرنا بالخضوع له وحده؟ فهل يصح أن نسجد لما تأمرنا بالسجود له ونترك آلهتنا؟ وزادهم طلب الخضوع للرحمن نفورا. أى تباعدا عن الإيمان، فكانوا مثل فرعون حين قال وما رب العالمين. انظر الآية (٢٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٨١، ثم بيَّن سفاهتهم وجهلهم بمقام الرحمن بقوله: تبارك الرحمن الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا. ولا تستطيع آلهتكم فعل أقل من ذلك. وهو وحده الذى جعل الليل والنهار يخلف أحدهما الآخر بنظام بديع لينتفع الخلق، يدركه مَنْ وفقه الله تعالى ليتذكر نعمة ربه أو أراد كثرة شكره أى أو أرادهما. انظر الآيات من (٧١ إلى ٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧. ثم بعد ما بيَّن سبحانه حال النافرين من عبادته أراد أن يبين أوصاف المخلصين من عباده وأحوالهم الدنيوية والأخروية، وأضافهم لنفسه بوصف الرحمة لأنها خاص بهم فقال: وعباد الرحمن الذين يمشون. أى هم الذين يمشون على الأرض مشيا هينا فى سكينة ووقار لا تفاخرا واستكبارا. وإذا خاطبهم السفهاء بما لا يصدر إلا منهم تركوهم بأدب وإغضاء، وهم الذين يقضون كثيرا من الليل فى الصلاة ساجدين قائمين، انظر الآية (١٦) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦، والآية (١٧) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣ وهم الذين يخشون ربهم فيضرعون إليه أن يبعد عنهم عذاب جهنم لأن عذابها لازم لا ينقطع.

إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ
يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ
لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ[1] وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ[2] لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[3] وَيَخْلُدْ فِيهِ
مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ[4] وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا[5]
فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ[6] وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا[7] فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ
مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ
مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ[8] رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا
عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ
أَزْوَاجِنَا[9] وَذُرِّيَّاتِنَا[10] قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾

المفردات : . ﴿ساءت﴾ : قبحت.

﴿مستقرا﴾ : مكان استقرار مؤقت.

﴿مقاما﴾: مكان إقامة دائمة ويكون العطف لإفادة الترقى فى التخويف أى أنه لا يخفف عنهم من عذابها إذا طالت المدة، انظر الآية (٣٦) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦.

﴿يقتروا﴾ : يضيعوا ويشحوا ﴿قواما﴾ : عدلا وسطا.

﴿أثاما﴾ : كالوبال، والنكال وزنا ومعنى فهو جزاء الإثم الذى هو الذنب.

﴿يضاعف﴾ : أى يعذب عذابين:

واحدا على الكفر وآخر على المعاصى غير الكفر، أو عذابا على الكفر، وآخر على إغرائهم لغيرهم، انظر شرح الآية (٦٩) من سورة آل عمران صفحة ٧٤، والآية (٢٠) من سورة هود صفحة ٢٨٧، والآيات (٣٠، ٦٧، ٦٨) من سورة الأحزاب صفحات ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٦٠، ٥٦١

(١) آخر
(٢) يضاعف
(٣) القيامة
(٤) آمن
(٥) صالحا
(٦) حسنات
(٧) صالحا
(٨) بآيات
(٩) أزواجنا
(١٠) ذرياتنا.

﴿يوم القيامة﴾ : بعد الرجوع إلى ما قيل فى شرح الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٤ تعلم أن المراد أن العبد الذى يفعل تلك الجرائم يحكم عليه يوم القيامة بمضاعفة عذابه وبخلوده فيه، فالذى يحصل يوم القيامة هو صدور الحكم، لا مضاعفة العذاب ولا الخلود، لأن هذا إنما يكون بعد انقضاء يوم القيامة كما سبق.

﴿يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ : يجعل مكان أعمالهم السيئة أعمالاً صالحة، فبعد أن كان من الطالحين صار من الصالحين وهذا غاية السعادة هذا ما رضيه كثير من علماء السلف. ويؤيد أن هذا هو معنى التبديل هنا مقابلة فى الآية (٢٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٤، وانظر الآية (١١) من سورة النمل صفحة ٤٩٥، وانظر ما قيل فى حديث رقم ١ من (صفوة صحيح البخارى) عند قوله ﷺ فهجرته إلى الله ورسوله.

﴿لا يشهدون الزور﴾ : أى لا يحضرون مجال الباطل.

﴿لم يخروا عليها﴾ : أصل الخرور السقوط على الأرض بدون نظام ولا ترتيب سابق كما فى صفحة ٣٤٨، وتستعمله العرب فى السجود على الأرض لإعلان الخضوع التام، انظر الآية (١٠٧) من سورة الإسراء صفحة٣٧١، والآية (٥٨) من سورة مريم صفحتى ٤٠١، ٤٠٢.

﴿قرة أعين﴾ : قرة العين كناية عن السرور والفرح، انظر الآية (٤٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٨، ٤٠٩، والآية (٩) من سورة القصص صفحة ٥٠٧.

﴿إماما﴾ : أى قدوة فى الخير ليتحقق لنا دخولنا فى دعوة إبراهيم عليه السلام، انظر الآية (١٢٤) من سورة البقرة صفحة ٢٤.

المعنى :. إن جهنم بئست مكانا مطلقا مؤقتا أو دائما. ومن صفات عباد الرحمن أنهم إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يشحوا وكان إنفاقهم وسطا بين الإسراف والتقتير، انظر صفحة ٣٦٨، ثم بعدما وصفهم سبحانه بالصفات الكريمة السابقة أراد أن يعرض بما كان عليه أعداؤهم الكفار من الصفات القبيحة فنفاها عنهم ليوبخ الكفار فقال:

﴿والذين لا يدعون﴾ إلخ: أى لا يشركون معه غيره، ولا يقتلون النفس التى حرم الله قتلها إلا بسبب من أسباب الحق، كالزنا من المحصن، والكفر بعد الإيمان أو قتل النفس البريئه، ولا يزنون، فكأنه سبحانه يقول:

والذين طهرهم الله مما أنتم عليه من الشرك والقتل إلخ. ومَنْ يفعل شيئا من هذه الذنوب من هؤلاء الكفار فقد ضم إلى الكفر جرما آخر فيلقى فى الآخرة جزاء إثمه بمضاعفة العذاب وتشديده عليه. ويخلد فيه محتقرا: فجمع بين العذابين الجسمانى والنفسانى.

ثم بعد هذا التهديد الشديد أراد سبحانه أن يفتح باب التوبة للمستعد، ويغلق باب الشيطان عليه فقال: إلا من تاب مما سبق. وآمن بكل ما يجب الإيمان به، وعمل صالحا، فهؤلاء التائبون المؤمنون الصالحون يمحو الله سابق معاصيهم بقبول التوبة، ويوفقهم لأن يعملوا مكانها الأعمال الحسنة. وكان الله كثير المغفرة واسع الرحمة. وبعد ما بيَّن قبول التوبة من أمهات المعاصى أراد أن يبين أنها كذلك من جميعها بشرط أن تكون خالصة فقال: ومَنْ تاب عن كل معصية بتركها والندم عليها وعمل صالحا كثيرا يعوضه ما سلف فإنه يرجع إلى الله تعالى رجوعا مرضيا عنه منه سبحانه فيجزل ثوابه.

ومن صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور أى الباطل وإذا مروا باللغو وهو ما ليس فيه فائدة من قول وعمل كما تقدم فى صفحة ٤٤٥ مروا كراما أى معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوع فيه. وهم الذين إذا ذكرهم مذكر بآيات ربهم التى جاءت فى القرآن أكبوا وأقبلوا عليها سامعين بآذان صاغية. ومبصرين بعيون يقظة، وراءها قلوب حية، ولم يقابلوها بالصمم والعمى كما يفعل المشركون.

ففى الكلام تعريض بالكافرين والمنافقين. وعباد الرحمن هم الذين يتجهون إلى الله دائما قائلين يا ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا ما يسرنا بتوفيقهم لطاعتك. وامنحهم الفضائل التى يعلو بها شأن الإنسان. واجعل كل واحد منا قدوة حسنة لغيره. فيجمع كل منا بين ثوابين: ثواب العمل الصالح. وثواب ترغيب الغير فيه.

أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً
وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾
قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ
فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

(٢٦) سُورَةُ الشُّعَرَاءِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا سَبْعٌ وَعِشْرُونَ وَمِائَتَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ
بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ
عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾
وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ

المفردات : . ﴿الغرفة﴾ : تطلق الغرفة على البناء المرتفع، فالمراد أعلى منازل الجنة، انظر الآية (٥٨) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩، والآية (٣٧) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨، والآية (٢٠) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٨، ٦٠٩.

﴿ويلقون فيها تحية وسلاما﴾ : هذا عطف تفسير فالسلام تفسير للتحية، انظر الآية (١٠) من سورة يونس صفحتى ٢٦٦، ٢٦٧. ﴿مستقرا ومقاما﴾ : أى يستمتعون فيها مهما طال الزمن ﴿يعبأ بكم﴾ : أى يعتد ويعتنى.

﴿دعاؤكم﴾ : عبادتكم. ﴿لزاما﴾ : أى لازما. لا ينقطع.

سورة الشعراء

المفردات : . ﴿طسم﴾ : تنطق طاسيم ميم. وتقدم المراد منها ومن مثلها أول سورة البقرة. ﴿لعلك﴾ : لعل هنا للاستفهام الذى يراد به الإنكار فتفيد النهى عما بعدها. ﴿باخع نفسك﴾ : أى مهلكها من الحزن، انظر صفحة ٣٨٠.

﴿آية﴾ : أى معجزة قاهرة لهم على الإيمان.

﴿أعناقهم لها خاضعين﴾ يطلق العنق عند العرب على المعروف فى الإنسان، وعلى الجماعة من الناس، وعلى الزعماء من القوم الذين يقال لهم رءوس، وصدور، والمراد هنا الجماعات.

---

(١) سلاما (٢) خالدين (٣) ما يعبأ
(٤) تنطق هكذا : طا . سيم . بسكون الميم . ميم . بسكون الميم أيضا. (٥) آيات (٦) الكتاب
(٧) باخع (٨) آية (٩) أعناقهم (١٠) خاضعين.

﴿من ذكر﴾ : ﴿من﴾ للنص على العموم فى ذكر، والمراد به الطائفة من القرآن.

﴿محدث﴾ : جديد إنزاله، انظر صفحة ٤٢٠.

المعنى : . هؤلاء العباد الصالحون يجزيهم الله تعالى أرفع منازل الجنة بسبب صبرهم على مشاق الطاعات ورفض الشهوات، وتلقى عليهم الملائكة تحية هى السلام، انظر آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥ خالدين فيها، حسنت مكان استقرار وإقامة.

وبعدما بيَّن سبحانه صفات المتقين الذين حققوا حكمة الله تعالى فى خلقهم المشار إليها فى الآية (٥٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ أمر رسوله ﷺ أن يقول للكفار:

لا يعتد بكم ربى لولا عبادتكم، فإنكم إذا لم تعبدوه وحده كنتم كالبهائم التى لا تستحق عناية خاصة ومنزلة رفيعة، وبما أنكم لم تحققوا هذا وكذبتم رسوله فسوف يكون جزاء تكذيبكم من العذاب لازما لكم خالدا. نسأل الله تعالى السلامة.

المعنى : . تلك الآيات التى ستتلى عليك فى هذه السورة هى آيات الكتاب الظاهر إعجازه وصحته. وإذا رجعت إلى ما قيل فى شرح الآية (٤٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٥ تعلم سبب قوله سبحانه لنبيه ﴿لعلك باخع نفسك﴾ إلخ: أى لا يصح أن تهلك نفسك أيها النبى لعدم إيمان كفار قومك. ثم علل نهيه له عن بخع نفسه حزنا عليهم بقوله ﴿إن نشأ ننزل﴾ إلخ:

أى إن نشأ إيمانهم قهرا عنهم فإنا لا نعجز، بأن ننزل عليهم معجزة من السماء ترغمهم على الإيمان، كما نتقنا الجبل على بنى إسرائيل، انظر صفحتى ٢٢٠، ٢٢١ ولو نزلنا هذه الآية لصارت جماعاتهم كلها خاضعين لها رغم أنوفهم، ولكن حكمتنا فى نظام هذا العالم اقتضت أن نتركهم مختارين، ثم بيَّن سبحانه شدة جمود هؤلاء المشركين على ماهم عليه من الكفر وتكذيب الرسول ليؤكد لرسوله عدم الطمع فى إيمانهم بقوله:

﴿وما يأتيهم من ذكر﴾ إلخ: أى ما يأتيهم طائفة من القرآن من عند ربهم الذى اقتضت رحمته الواسعة نزوله لنفعهم إلا استمروا على إعراضهم عن هذا الخير العظيم، فالكلام تهويل لشناعة جرمهم.

مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾
وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾
قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن
يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ
إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾
قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا
فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ
مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ
فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ

المفردات :. ﴿أو لم يروا﴾ : الهمزة للإنكار التوبيخى.

﴿كم أنبتنا﴾ : كم تفيد كثرة ما بعدها.

﴿من كل زوج﴾ : ﴿من﴾ هنا تدل على أن ما بعدها بيان للمراد من ﴿كم﴾ المذكورة قبلها، والزوج الصنف كما فى الآية (٥٣) من سورة طه صفحة ٤١٠، وله إطلاقات أخرى تجدها فى صفحة ١٨٧. والمعنى هنا: أنبتنا فيها عددًا كبيرا من أصناف النبات والشجر.

﴿كريم﴾ : محمود لكثرة منافعه.

﴿لآية﴾ : أى لعظة وعبرة. ﴿ألا﴾ : حرف يدل على عرض ما بعدها على السامع وحثه عليه كقولك: ألا تلقى علينا درسا يذكرنا بالله. ﴿إنا رسول رب العالمين﴾ : الأصل ﴿إنا رسولا﴾ ونظرا لاتحاد مطلبهما جعلهما كأنهما رسول واحد. ﴿لبثت﴾: مكثت.

المعنى :. ما يأتيهم بعض من القرآن لهدايتهم إلا كانوا عنه معرضين، بل لم يكتفوا بالإعراض عنه، بل كذبوا به تكذيبا صريحا، مستهزئين به كما فى صفحة ٤٢٠، فدعهم أيها النبى فسيأتيهم مصداق أخبار القرآن الذى استهزءوا به وقالوا عليه إنه سحر وشعر، وقد وقع فعلاً ما هددهم به من القتل والأسر فى الدنيا، وسيلقون أشد العذاب فى الآخرة. وبعد ما بيَّن إعراضهم عن الآيات المنزلة، أراد أن يبين إعراضهم عن النظر فى الآيات الكونية فقال: ﴿أو لم يروا﴾ إلخ: أى هل أصروا على ما هم عليه من الكفر ولم ينظروا إلى عجائب صنعنا فى الأرض.

(١) أنباء (٢) لآية (٣) الظالمين (٤) هارون
(٥) بآياتنا (٦) العالمين (٧) إسرائيل.

ثم بيّن ذلك بأنه أنبت فيها عددًا كثيرا من أفراد كل صنف من أصناف الشجر والنبات مختلف الأشكال والألوان، إلى غير ذلك من كل عظيم النفع. إن فى ذلك الإنبات لعظة تدعو إلى الإيمان بإله صانع حكيم. ومع كل هذا فقد تحجرت قلوبهم فلن يؤمن منهم إلا قليل، فلا تحزن لأن ربك هو العزيز أى الغالب الذى لا يغلب وسينتقم منهم، وهو الرحيم لمَنْ آمن منهم ومن غيرهم. ثم أراد سبحانه أن يخفف عن رسوله تألمه من عنادهم فذكر له ما وقع لإخوانه الأنبياء قبله، وما حل بمَنْ كذبوهم، ليظهر له أن أكثر الناس فى كل أمة من حزب الشيطان فقال: ﴿وإذ نادى ربك موسى﴾ إلخ : أى واذكر لقومك وقت نداء ربك لموسى على الطور كما تقدم فى صفحة ٤٠٧ إذ قال له توجه إلى القوم الظالمين لأنفسهم ولغيرهم باستعباد بنى إسرائيل، ثم بينهم بقوله:

قوم فرعون، أى وفرعون، لأنه رأس البلايا، انظر آيتى (١٦، ١٧) من سورة النازعات صفحتى ٧٨٩، ٧٩٠ إئتهم قائلا لهم ألا يتقون ربهم فيمتنعوا عن الظلم. ولما كان عند موسى ما يخشاه وهو أربعة أشياء عرضها على ربه سبحانه ليدبر له أمرها فقال: يارب إنى أخاف أن يكذبونى من أول الأمر فأنفعل فيضيق قلبى فينحبس لسانى فلا أقدر على البيان والمحاجة، فأرسل بفضلك مَنْ يكلف هارون أخى بأن يكون معينا لى، لأنه أفصح منى لسانا، انظر صفحتى ٤٠٨، ٥١١، خصوصا أن لقوم فرعون علىّ شر ذنب فى زعمهم وهو قتل رجل منهم خطأ كما فى صفحة ٥٠٨، فأخاف أن يقتلونى ظلما.

قال سبحانه: كلا، أى لا تخف، فقد أجبتك إلى طلبك من إرسال أخيك معك، فاذهبا إلى فرعون مُؤَيَّدَيْنِ بآياتنا الموضحة فى صفحة ٤١٠، إنا معكم أنت وأخيك وفرعون وقومه سامعون لكل ما يجرى بينكم من كيدهم، فأتيا فرعون وليقل كل منكما إنا رسول رب العالمين نبلغك عن ربك أن ترسل معنا بنى إسرائيل، أى تطلقهم ليذهبوا معنا إلى الشام، فذهبا إليه وبلغاه فقال فرعون كيف تجرؤ على ما تقول؟ ألم نربك فى منازلنا حال كونك طفلا قريب عهد بالولادة، ومكثت فى دارنا من عمرك عدد سنين، كانت ٣٠ سنة، ومكث فى مدين ١٠ سنوات، ومكث فى مصر بعد الرسالة يدعوهم ٣٠ سنة، وعاش بعد غرق فرعون ٥٠ سنة، والله تعالى أعلم. وفعلت فعلتك التى فعلتها، يريد قتل الرجل كما تقدم.

وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي
حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا
عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ
إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾
قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ
ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ
وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ
ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ

المفردات :. ﴿الكافرين﴾ : أى الجاحدين لنعمتنا.

﴿الضالين﴾ : المراد بالضلال هنا الجهل بالعواقب الموقع فى الخطأ.

﴿حكما﴾: أى حكمة أضع بها كل شىء فى موضعه.

﴿وتلك نعمة﴾ : مقدر معها استفهام إنكارى، أى وهل تلك نعمة.

﴿أن عبدت﴾ : ﴿أن﴾ حرف يدل على أن ما بعده تفسير لما قبله وهو ما اعتبره فرعون نعمة مع أنه نقمة، وعبدت أى اتخذتهم عبيداً.

المعنى :. قال فرعون : فعلت جريمتك يا موسى والحال أنك من الجاحدين لنعمتى عليك.

قال موسى : إنما قتلت هذا القبطى جاهلا أن ضربى للتأديب يذهب حياته، فلما خفت من أن تقتلونى كما فى صفحة ٥٠٩ فررت إلى مدين، فوهب لى ربى حكمة، وجعلنى من رسله. وهل يصح يا فرعون أن تسمى شيئا ما نعمة وهو فى الحقيقة نقمة، وذلك أن اضطهادك لبنى إسرائيل وذبح رجالهم هو السبب فى خوف أمى علىّ حتى رمتنى فى البحر فوصلت إلى بيتك، ولولا تصرفك لما حصل هذا، انظر صفحة ٥٠٧، وهذا القول لا ينافى ما فى الآية (٤٤) من سورة طه صفحة ٤٠٩، لأن المراد به هناك أول الأمر بدليل ما فى الآية (١٠٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨.

(١) الكافرين (٢) إسرائيل (٣) العالمين
(٤) السموات (٥) آبائكم (٦) الصادقين.

ولما رأى فرعون أن موسى لم يخف منه قال:

وما رب العالمين الذى تقول إنك رسوله؟ فبينه موسى بآثاره وأفعاله البديعة، لأن العقول لا تصل إلى حقيقة ذاته تعالى، فقال:

هو رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم من أهل اليقين الذين يعلمون عجائب هذه الأشياء فيقطعون بأنها لا توجد بدون موجد حكيم.

ولما كان فرعون يوهم قومه الذين استخف عقولهم كما فى صفحة ٦٥٢ بأنه ليس فى الكون رب أعلى منه، وأن هذه الأشياء التى ذكرها موسى قديمة متحركة بذاتها، قال لمَنْ حوله فى صورة المستهزئ : ألا تسمعون إلى هذا الباطل من أن هناك إلها غيرى كما فى صفحة ٥١٢.

عند ذلك سلك موسى طريقا آخر للمحاجة لا تمكن تلك المكابرة فيه، وهو خلقهم وخلق آبائهم قبلهم. فلا يمكن أن يكون هؤلاء قدما ولا موجودين بدون موجد، فزاد اللعين فى تضليل قومه وفر من الحجة وقال: إن هذا الرجل الذى يدعى أنه رسول مجنون أسأله عن حقيقة إلهه فيجيبنى بشىء آخر. فسلك موسى طريق دليل آخر مشاهد لهم كل يوم، وفيه سبب حياتهم فقال:

هو رب المشرق والمغرب إلخ. أى هو الذى يحرك الشمس بنظام محكم حتى ينتفع بها كل حى. فإن كنتم تعقلون وجب أن تعلموا صحة قولى. فلما انقطع عن فرعون باب التدجيل عمد إلى التهديد كما هى عادة كل جبار ظالم فقال:

وعزتى لئن اتبعت يا موسى إلها غيرى لأجعلنك ضمن المسجونين الذين تعرف ما يقاسونه من العذاب وما يصيرون إليه من الموت.

قال موسى: هل تفعل ذلك حتى لوجئتك بدليل يبين صدقى؟ قال:

فأت بهذا الدليل إن كنت صادقا. فألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان... إلخ.

مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ(١) ﴿٣٣﴾
قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ(٢) عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن
يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟
أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ(٣) ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ(٤) يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا
نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ(٥) ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ(٦) لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ
أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟
بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ(٧) ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ

المفردات :. ﴿نزع يده﴾ : أى أخرجها من جيبه كما فى الآية (١٢) من سورة النمل صفحة ٤٩٥.

﴿قال للملأ حوله﴾: إذا جمعنا ما هنا وما تقدم فى صفحة ٢١٠ نعلم أن الذى حصل هو أن موسى لما أظهر المعجزة قال فرعون وبعض ملئه مخاطبين بقية الملأ إن هذا لساحر عليم إلخ، فرد البعض الآخر يطلب إمهالة ودعوة السحرة إلخ.

فالقرآن فى حكاية القول الأول تارة يقتصر على قول الرئيس وهو فرعون كما هنا، وتارة ينسب القول للرئيس ومَن ردد قوله معلنا موافقته كما فى صفحة ٢١٠.

﴿يخرجكم من أرضكم﴾ : تقدم فى صفحتى ٤١٠، ٤١١.

﴿ماذا تأمرون﴾ : أى تشيرون به، مأخوذ من المؤامرة وهى المشاورة.

﴿أرجه﴾ : أمهله، انظر صفحة ٢١٠.

﴿حاشرين﴾ : أى رجالا يجمعون السحرة، انظر أيضا صفحة ٢١٠.

﴿سحار﴾ : عظيم السحر.

﴿لميقات يوم معلوم﴾ : هو يوم الزينة المتقدم فى صفحة ٤١٠.

﴿هل أنتم مجتمعون﴾ : ﴿هل﴾ هنا للحث على الفعل، أى اجتمعوا.

---

(١) للناظرين (٢) لساحر (٣) حاشرين (٤) لميقات
(٥) الغالبين (٦) إن (٧) الغالبون.

﴿تلقف﴾: تبتلع بقوة وسرعة.

﴿يأفكون﴾ : يكذبون به على الناس، انظر صفحة ٢١٠.

﴿فألقى السحرة﴾: أى خروا على الأرض سجدا لله تعالى، انظر صفحة ٤١١.

المعنى :. ألقى موسى عصاه على الأرض فإذا هى ثعبان واضح لاشك فى أنه ثعبان. وأدخل يده تحت إبطه ثم أخرجها فإذا هى بيضاء بياضا واضحا لكل ناظر أنه يخالف جميع لون بدنه. عند ذلك قال فرعون للزعماء المجتمعين حوله إن هذا الرجل يعنى موسى وعزتى لساحر غزير العلم بالسحر، يريد أن يستولى على ملككم فيطردكم منه فما هو الشىء الذى تأمرون وتشيرون به من حبس أو قتل مثلا؟ ويظهر أن القوم خافوا من فتنة العوام لو قوبل موسى بالغلظة بدون مقابلة عمله بمثله لأن فى عدم المقابلة بالمثل دليل العجز، فقالوا:

أمهله هو وأخاه وابعث رجالا يجمعون من أنحاء المملكة كل متين فى السحر عليم بفنونه، ففعل وجمع السحرة عند حلول زمن مؤقت ومحدد من يوم معلوم هو الضحى من يوم الزينة. وقيل للناس هلموا وأحضروا هذا الاجتماع لعلنا نشاهد انتصار السحرة فنثبت على الدين الذى هم عليه وهو دين فرعون، فلما جاء السحرة لمكان الاجتماع قالوا هل لنا أجرا إن غلبنا موسى؟ قال فرعون: نعم لكم أجر مادى كثير وأجر معنوى وهو أنكم إذا انتصرتم وعزتى لتكونن من المقربين عندى فى الرتبة والجاه، وتكونون من خواصى.

بعد ذلك قال السحرة لموسى: إما أن تلقى ما معك أولاً أو نلقى نحن، قال: ألقوا ما أنتم ملقون من أدوات سحركم، انظر صفحة ٤١١، فألقوا حبالهم، وعصيهم المملوءة بالزئبق كما فى شرح صفحة ٤١١وقالوا بحق عزة فرعون وقوته إنا لنحن الغالبون. فألقى موسى عصاه ففاجأهم أنها تبتلع كل ما خدعوا به الناس من حبال وعصى، فسقط السحرة على الأرض ساجدين لله من قوة المعجزة.

المفردات :. ﴿من خلاف﴾ : أى يدا من جهة ورجلا من أخرى كما تقدم فى صفحة ٤١٢.﴿لا ضير﴾ : لا ضرر علينا. ﴿منقلبون﴾ : راجعون كما فى الآية (٣١) من سورة

سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ
لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ
أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾
قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ
أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾
۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾
فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ
حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾
وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ

المطففين صفحة ٧٩٨. ﴿أسر بعبادى﴾ : من سرى إذا سار ليلا كما تقدم فى صفحة ٣٦٤. ﴿متبعون﴾ : أى سيتبعكم فرعون وجنوده فنقضى فيهم قضاءنا. ﴿حاشرين﴾ : أى جامعين للجند من كل مكان. ﴿لشرذمة﴾ : هى الطائفة من الناس التى لا يحسب لها حساب. ﴿لجميع حاذرون﴾ : ﴿جميع﴾ هنا معناها جَمْع بفتح فسكون كما فى الآية (٤٤) من سورة القمر صفحة ٧٠٧. أى إننا لجمع من عادتنا الحذر والاحتراس من أن نفاجأ بمكروه. ﴿فأخرجناهم﴾ : أى حركنا فيهم دواعى الخروج بهذه الأسباب المتقدمة. ﴿مقام كريم﴾ : هى المساكن الحسنة والمجالس البهجة. ﴿كذلك﴾ : أى الأمر كذلك. فالمراد تحقيق ما تقدم. ﴿وأورثناها بنى إسرائيل﴾ : أى أعطيناها لهم. وهذه الجملة وما قبلها ﴿كذلك﴾ متوسطة بين المعطوف ﴿فأتبعوهم﴾ والمعطوف عليه ﴿فأخرجناهم﴾ لأن اتباع فرعون لبنى إسرائيل كان عقب خروجه من عاصمة ملكه لا عقب الميراث. ﴿مشرقين﴾ : أى داخلين فى وقت شروق الشمس كقولهم أمسى إذا دخل فى وقت المساء. ﴿تراءى الجمعان﴾ : أى تقاربا حتى رأى كل منهما الآخر.

المعنى : فخر السحرة ساجدين لله لعلمهم أن ما أتى به موسى لا يمكن أن يكون سحرا كما تقدم فى صفحتى ٤١١، ٤١٢ حال كونهم قائلين آمنا برب العالمين الذى هو رب موسى وهارون لينصوا على أنه ليس فرعون. قال فرعون آمنتم له قبل أن آذن لكم، ما فعلتم ذلك إلا لأنه رئيسكم فى علم السحر الذى علمكم ذلك. فستعلمون وبال عملكم ثم بيّن ما هدد به بقوله: وعزتى لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم بعد ذلك فى جذوع النخل

---

(١) ساجدين (٢) آمنا (٣) العالمين (٤) هارون (٥) آمنتم
(٦) آذن (٧) خلاف (٨) خطايانا (٩) حاشرين (١٠) حاذرون
(١١) فأخرجناهم (١٢) جنات (١٣) أورثناها (١٤) إسرائيل (١٥) تراءى.

لتكونوا عبرة لغيركم. قالوا: لا ضرر علينا فيما تهددنا به لأنا راجعون إلى ربنا بالموت على كل حال فسيجازينا بأحسن الثواب، لأنا نطمع أن يغفر لنا خطايانا فيما أكرهتنا عليه من السحر كما فى صفحة ٤١٢ بسبب كوننا أول مَنْ يؤمن به من أهل هذا المشهد. وبعد ذلك مضى موسى يحذرهم ويظهر لهم دلائل صدقه، ومكث على ذلك نحو ٣٠ عاما فلم يزدهم ذلك إلا عنادا، عند ذلك أوحى الله تعالى إلى موسى أن يسرى ليلا ببنى إسرائيل نحو المشرق، وأخبره بأن فرعون وجنده سيتبعونهم فلا تخافوا فإنى سأهلكهم، فلما خرج موسى بقومه ليلا وعلم فرعون أرسل مَنْ يجمع له الجند من أنحاء ملكه، ولما اجتمعوا قال لهم محرضا لهم على اتباع موسى وقومه بأمور ثلاثة: الأول أنهم جماعة حقيرة، والثانى أنهم فعلوا ما يغيظنا من مخالفة أمرنا ومحاولة الخروج من ملكنا بدون إذن، والثالث أننا قوم من عادتنا شدة الحذر واليقظة فلا يصح أن نقهر على ما لا نريد. فأخرجنا فرعون وجنوده من جنات كانوا طول وقتهم يتنعمون بها، وعيون تجرى بالماء وأموال كثيرة من الذهب والفضة كنزوها ولم ينفقوها فى مصلحة الناس، ومساكن حسنة ومجالس بهجة؛ حقيقة ما حصل هو ذلك الذى ذكرناه لك أيها النبى.

وكانت هذه النعم التى نزعناها من بنى إسرائيل فى النهاية متعة لبنى إسرائيل. ثم رجع سبحانه لتفصيل أصل القصة فقال ﴿فأتبعوهم﴾ أى فأتبع فرعون وجنوده بنى إسرائيل فى وقت شروق الشمس حتى إذا قربوا منهم ورأى بعضهم بعضا قال أصحاب موسى إلى آخر ما سيأتى. وظاهر الكلام يدل على أن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد غرق فرعون، قال بذلك قوم، وأيدوا ما هنا بما فى آيتى (١٠٣، ١٠٤) من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٨، ٣٧٩، وآيتى (٥، ٦) من سورة القصص صفحة ٥٠٦، وآيتى (٢٦، ٢٨) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨، وقال قوم إنهم لم يرجعوا واستدلوا بما فى الآية (١٣٧) من سورة الأعراف صفحة ٢١٣ من أنه أعطاهم الأرض التى بارك فيها، والأرض التى وصفت بذلك فى القرآن هى الشام كما فى أول سورة الإسراء صفحة ٣٦٤ وآيتى (٧١، ٨١) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٧، ٤٢٩ وجمع بعضهم بين الآيات بأن فلسطين كانت فى عهد فرعون موسى تابعة لمصر، إن التواريخ كلها ظاهرة، فى أنهم لم يرجعوا، وكذا يقوى عدم الرجوع سياق القصة فى الآيات من (١٣٦ إلى ١٧١) من سورة الأعراف، وإن قوله تعالى هنا فأخرجناهم من جنات إلخ بالتنكير ظاهر فى أنه سبحانه أعطاهم جنات وعيون إلخ مثلها لا عينها، إذ لو كان المراد عين ما فى مصر لقال سبحانه من الجنات... إلخ بالتعريف، والله أعلم... وهذا هو ما اختاره ﴿مولانا محمد على الهندى﴾ فى تعليقه على ترجمته للقرآن إلى اللغة الإنكليزية.

قَالَ أَصْحَابُ[1] مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ
رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ
ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾
وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ[2] ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ
أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ[3] ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً[4]
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ[5] ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا
عَٰكِفِينَ[6] ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾
أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا[7]
كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم[8] مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ[9] ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ

المفردات :. ﴿كلا﴾ : كلمة تدل على النهى عن قول ما سبقها.

﴿فرق﴾ : أى جزء مما تفرق من ماء البحر.

﴿الطود﴾ : الجبل.

﴿أزلفنا﴾ : أى قربنا إلى وسط الماء.

﴿ثم﴾ : هناك أى وسط البحر.

﴿الآخرين﴾ : فرعون وقومه.

﴿آية﴾: أى دليل قاطع وعبرة لمن يعتبر.

﴿نظل﴾ : أى نصبر ونواظب. ﴿عاكفين﴾ : أى ملازمين ومداومين. ﴿عدو لى﴾ : تقدم فى صفحة ٣٨٨ أن العدو يطلق على الواحد والأكثر.

المعنى :. قال أصحاب موسى لما رأوا جند فرعون إنا لمدركون. أى قرب أن يلحقنا عدونا فيهلكنا. قال موسى : أزجركم عن قول ذلك، لأن ربى معى بحفظه وعنايته. وسيهدينى إلى طريق الخلاص.

عند ذلك أوحى الله تعالى إلى موسى بأن يضرب بعصاه البحر، فضرب فانفلق ماؤه حتى صار كل قطعة منه كالجبل العالى، وصار ما تحته كأنه سرداب يسير فيه العابر فلا تبل قدمه. انظر الآية (٧٧) من سورة طه صفحة ٤١٣.

---

(١) اصحاب (٢، ٣) الآخرين (٤) لآية
(٥) إبراهيم (٦) عاكفين (٧) آباءنا
(٨) افرايتم (٩) آباؤكم.

وقربنا إلى هذه السراديب فرعون وقومه فاندفعوا فى الدخول فيها، وأنجينا موسى وقومه أجمعين بإخراجهم قبل انطباق الماء على فرعون، ثم بعد نجاة قوم موسى أغرقنا فرعون وجنده بإرجاع الماء كما كان فغطاهم.

إن فى هذا الصنع المحكم لعبرة ودليلا لمَنْ له عقل يفكر.

ولكن ما كان أكثر المصريين مؤمنين، إذ لم يؤمن منهم إلا الرجل المذكور فى الآية (٢٨) من سورة غافر صفحة ٦٢١، وإلا امرأة فرعون كما فى الآية (١١) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣، وإلا السحرة كما تقدم هنا.

وما كان أكثر قوم موسى مطيعين له حق الطاعة لأنهم بعد خروجهم من البحر عبدوا العجل كما فى صفحة ٤١٤، وسألوا رؤية ربهم جهرة كما فى صفحة ١١، وعصوا أمر ربهم فى دخول الأرض المقدسة كما فى صفحتى ١٤٠، ١٤١، وإن ربك أيها النبى لهو العزيز الغالب الذى لا يغلب فلا يعجزه الانتقام من أعدائه، الرحيم بأوليائه المؤمنين برسله. وفى هذا تهديد لكفار قريش إذا لم يعتبروا.

واتل أيها النبى على كفار قومك خبر إبراهيم نبى الله حين قال لأبيه وقومه كما فى صفحة ١٧٤ ما هذا الذى تعبدونه من دون الله؟ قالوا: نعبد أصناما فنصير لأجل تعظيمها مداومين على عبادتها.

قال : هل يسمعونكم حين تنادونهم أو ينفعونكم برزق أو صحة إن عبدتموهم، أو يضرونكم إن أهملتموهم؟ قالوا بل لم يحصل شىء مما تقول، ولكنا وجدنا آباءنا قاصرين عبادتهم عليها فقلدناهم. فأراد إبراهيم أن ينكر عليهم موبخا فقال ﴿أفرأيتم﴾ إلخ : أى هل تأملتم فعلمتم حال ما داومتم على عبادته من هذه الأصنام أنتم وآباؤكم الأقدمون؟ أى كلا لم تتأملوا إذ لو تأملتم لقطعتم بأنهم لا يستحقون ذلك، أما أنا فإنى أبغضهم لأنهم كأعدائى فى كرههم وحب البعد عنهم، ولن يستطيعوا إضرارى بشىء وهذا دليل بطلان ألوهيتهم، انظر نظيره فى قوم نوح وهود فى صفحات ٢٧٧، ٢٩١، ٢٩٢، لكن رب العالمين هو وليى وناصرى ومؤيدى إلخ.

الْعَٰلَمِينَ[1] ﴿٧٧﴾ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِى هُوَ
يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾
وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى
خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى
بِالصَّٰلِحِينَ[2] ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْءَاخِرِينَ[3] ﴿٨٤﴾
وَاجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ
كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾
يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ
الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾
مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟
فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾

المفردات : . ﴿أطمع﴾ : المراد أرجو، وإنما قال ذلك هضما لنفسه كأنه لم يعمل شيئا صالحا.

﴿يوم الدين﴾ : يوم الحساب، انظر سورة الفاتحة.

﴿حكما﴾ : حكمة، انظر الآية (٢١) من هذه السورة صفحة ٤٨١. ﴿لسان صدق﴾: المراد ذكرا حسنا، وهو لا يكون إلا بالتوفيق للأعمال الصالحة، وهذا هو المقصود بالدعاء، انظر صفحة ٤٠١.

﴿قلب سليم﴾: أى ليس مريضا بكفر ولا نفاق ولا رياء.

﴿أزلفت الجنة﴾ : أى قربت، وعبر بالماضى لتحقق وقوع ذلك.

﴿برزت الجحيم﴾ : أى جعلت بارزة ظاهرة لهم حتى يروا أهوالها. ﴿الغاوين﴾ : يطلق الغاوى على مَنْ يضله غيره كما هنا وكما فى آيتى (١٧٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١، و (٤٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤١، وعلى مَنْ يضل غيره كما فى الآية (٩٤) الآتية هنا. وجاء المعنيان فى الآية (٦٣) من سورة القصص صفحة ٥١٦، والآية (٣٢) من سورة الصافات صفحة ٥٨٩. ﴿ينتصرون﴾ : بأن يدفعوا العذاب عن أنفسهم. ﴿كبكبوا﴾: أى طرحوا على وجوههم المرة بعد المرة حتى وصلوا قعر جهنم، وعبّر بالماضى للتحقق كما سبق.

المعنى : . ولكن خالق كل العالم هو وليى فى الدنيا والآخرة، فليس بينى وبينه سوى الموالاة والمحبة، وهو الذى خلقنى، وهو الذى يهدينى لما فيه الخير فى الدنيا والآخرة، وهو الذى يطعمنى برزقه الذى يسوقه لى ويسقينى، ولولاه لما نزل من السماء ماء، وهو وحده الذى ينعم علىّ بالشفاء إذا مرضت، وهو وحده الذى يميتنى الميتة الطبيعية عند حلول أجلى ثم يحيينى

(١) العالمين (٢) بالصالحين (٣) الآخرين

يوم البعث للحساب والجزاء، وهو الذى أرجوه فى خضوع وتواضع أن يغفر ما عسى أن يكون صدر منى من الخطأ يوم الحساب، أى كل هذه الأعمال لا يعلمها غيره تعالى وليس لأصنامكم حظ منها، انظر الآية (١٧) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٢، ٥٢٣. وبعد أن أثنى إبراهيم على ربه بما ذكر توجه إليه بالدعاء فقال: يارب امنحنى حكمة أضع بها كل شىء فى محله، ووفقنى لأكمل الأعمال حتى أكون فى زمرة الصالحين. وقد أجابه سبحانه كما فى الآية (٧٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧، والآية (٢٧) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤. ووفقنى يارب للأعمال الصالحة حتى يقتدى بى غيرى فيذكرونى بالخير وهم صادقون، واجعلنى يارب ممَّنْ يتمتعون بنعيم الجنة كما يتمتع الوارث بما يراه من فيض فضلك. ولما كان وعد أباه آزر بأنه سيستغفر له كما فى الآية (٤٧) من سورة مريم صفحتى ٤٠٠، ٤٠١ بر بوعده وقال: واغفر لأبى ذنوبه لأنه استمر على الضلال مدة طويلة بأن توفقه وتهديه للإيمان.

ولكنه بعدما علم موته على الكفر تبرأ منه كما فى الآية (١١٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٦١، ٢٦٢، ولا تخزنى يارب يوم يبعث الخلق بأن تدخلنى النار كما فى الآية (١٩٢) من سورة آل عمران صفحة ٩٥، يوم لا ينفع مال ولا بنون فى دفع العذاب عن العبد. لكن مَنْ أتى الله بقلب سليم خال من أمراض القلوب كالكفر والحسد والنفاق والرياء ينفعه عمله الناتج عن هذا القلب السليم. وهنا انتهى كلام إبراهيم عليه السلام، وشرع سبحانه فى بيان ما سيكون فى ذلك اليوم الذى طلب فيه إبراهيم النجاة فقال: وأزلفت الجنة أى قربت للمتقين حتى يفرحوا بدخولها، انظر الآية (٣١) من سورة ق صفحة ٦٩٠، وأبرزت الجحيم لكل مَنْ ضل وغوى ليسارع إليهم الفزع والحسرة، وتقول لهم زبانية جهنم توبيخا: أين ما كنتم تخضعون لهم تاركين ربكم وراء ظهوركم هل ينصركم أحد منهم اليوم بمنع العذاب عنكم، أو حتى بمنع العذاب عن نفسه هو؟ انظر الآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١ والآية (٢٢) من سورة الصافات صفحة ٥٨٨. بعد ذلك تدفع الملائكة هؤلاء العابدين لغير الله على وجوههم فى جهنم هم ومَنْ أغواهم من الأحبار والرهبان، انظر الآية (٣١) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥، وجنود أبليس من الجن أجمعين.

قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا
الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ
حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
الْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ * قَالُوا أَنُؤْمِنُ
لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾

المفردات :. ﴿المجرمون﴾ : المراد بهم هنا كل مَنْ صد عن الحق وحرض على تركه، انظر الآية (١٢٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والآية (٣١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤، والآية (٣٢) من سورة سبأ صفحة ٥٦٧.

﴿من شافعين﴾ : ﴿من﴾ حرف يفيد تأكيد العموم فيما بعدها، وجمع الشافعين وأفرد الصديق لأن العادة كثرة الشفعاء وقلة الأصدقاء.

﴿حميم﴾ : المراد به هنا قوة المحبة المشفق على مَنْ يحبه المهتم بأمره. ﴿فلو﴾: ﴿لو﴾ مستعملة هنا فى التمنى بمعنى ليت.

﴿كرة﴾ : رجعة إلى الدنيا انظر مثل هذا والرد عليه فى الآية (٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، والآية (٥٣) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٠، ٢٠١ وآيتى (٩٩، ١٠٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٤ والآية (١٠٧) من سورة المؤمنون أيضا صفحة ٤٥٥، والآية (٣٦) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦، والآية (٥٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٤.

﴿آية﴾: عبرة وعظة.

﴿كذبت قوم نوح ﴾.. إلخ : تقدم بيان ذلك فى الآية (٣٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤.

﴿ألا يتقون﴾ : ﴿ألا﴾ حرف يفيد الرغبة فى فعل ما بعده.

﴿إن أجرى﴾ : إن حرف نفى بمعنى ما.

---

(١) ضلال (٢) العالمين (٣) شافعين
(٤) لآية (٥) أسالكم (٦) العالمين.

﴿الأرذلون﴾ : يريدون بهم أهل الصنائع والفقراء، انظر الآية (٢٧) من سورة هود صفحة ٢٨٨، وانظر نظيره فى آيتى (٥٢، ٥٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٠.

المعنى : . قال العابدون لغير الله وهم فى جهنم يختصمون مع الأحبار والرهبان الذين جعلوا أنفسهم مكان الإله فى التحليل والتحريم، وجنود إبليس الذين زينوا لهم عبادة الأصنام، انظر شرح الآية (١١٧) من سورة النساء صفحة ١٢٢، والآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١، والله إنا كنا فى ضلال واضح حين كنا نسويكم برب العالمين فى الطاعة والحب والخشية، انظر الآية (١٦٥) من سورة البقرة صفحتى ٣١، ٣٢، وما أضلنا إلا المجرمون من السادة والكبراء ورجال الدين الذين تاجروا بدينهم لجلب متاع زائل، وآباؤنا الذين قلدناهم فكانوا على باطل، انظر الآية (٧٤) المتقدمة، والآية (١٧٠) من سورة البقرة صفحة ٣٢، والآية (١٠٤) من سورة المائدة صفحتى ١٥٧، ١٥٨، والآيات (٢٢، ٢٣، ٢٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩، فليس لنا اليوم شافع يشفع لنا فينقذنا من العذاب، ولا صديق شديد المحبة لنا مشفق علينا، يعطف علينا فيخفف عنا ما نحن فيه، وهذا يدل على الحسرة والحزن، فليت لنا رجعة إلى الدنيا فنؤمن ونعمل صالحا حتى لا نعذب إذا متنا، إن فى كل ما ذكر من قصة إبراهيم لعبرة لمن له قلب سليم، وما كان أكثر قوم إبراهيم مؤمنين، إذ لو كان أكثرهم مؤمنا لما عجل الله تعالى بإفنائهم. وإن ربك أيها النبى لهو العزيز أى الغالب القادر على تعجيل الانتقام من كفار قومك، الرحيم بإمهالهم، وإفساح مجال التوبة لهم، وإخراج ذرية مؤمنة من أصلابهم. وبعد ما قص سبحانه على الكفار قصة إبراهيم وما حصل لخصومه، أراد أن يقص عليهم قصة أبيهم الثانى وهو نوح عليه السلام فقال : ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ حين قال أخوهم فى النسب نوح : ألا تتقون الله فتخافوا عقابه فلا تعبدوا غيره؟ إنى لكم رسول من الله أمين فى تبليغ ما أمرنى ربى بتبليغه لكم، فاتقوا الله وأطيعونى فيما أطلبه منكم من توحيده تعالى، وما أطلب منكم أجرا على هذا التبليغ، فما أطلب أجرًا إلا من رب العالمين، فاتقوا الله وأطيعونى. وكرر الأمر بالتقوى لأنها عماد كل الأعمال فيجب ملاحظتها فى كل شىء، انظر ما حصل بين نوح وقومه فى صفحات ٢٠٢، ٢٨٧ إلى ٢٩١، ٧٦٧ إلى ٧٧٠ قالوا كيف نتبعك والحال أنه لم يتبعك إلا أراذلنا المنافقون فى دعواهم أتباعك، قال نوح : وأى شىء يعلمنى بباطن ما عملوا وليس لى أن أبحث عن البواطن، وإنما أمرت أن أحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر، فما حسابهم على الباطن والظاهر إلا على ربى لو تشعرون شعورًا صادقا لعلمتم ذلك ولكنكم قوم تجهلون.

وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾
قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ(١) لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا
وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ(٢) وَمَن مَّعَهُۥ
فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً(٣) وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾
إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ(٤) عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلْعَـٰلَمِينَ(٥) ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً(٦) تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾
وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم

المفردات : ﴿بطارد﴾ : الباء لتأكيد نفى ما بعدها عما قبلها. ﴿إن أنا﴾ : أى ما أنا.

﴿المرجومين﴾ : المقتولين رميا بالحجارة.

﴿افتح بينى وبينهم﴾: أصل الفتح إزالة الإغلاق والإشكال حسيا أو معنويا، الأول كفتح الباب والقفل وغيرهما ومنه ما فى الآية (٦٥) من سورة يوسف صفحتى ٣١٢، ٣١٣، والثانى كفتح أبواب العلم والخيرات، ومنه ما فى الآية (٧٦) من سورة البقرة صفحة ١٥، والآية (٩٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٨، والآية (٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧١، ومنه فتح فلان القضية إذا حكم فيها وأزال إشكالها، ومن هذا يقال للقاضى الفتاح. ويطلق الفتح على النصر على الأعداء لأنه يزيل قوة الخصم ويلحق به الهزيمة، ومنه ما فى الآية (٨٩) من سورة البقرة صفحة ١٧، والآية (٥٢) من سورة المائدة صفحة ١٤٧. ويطلق الفتح على الحكم وهو المراد هنا ونظيره ما فى الآية (٨٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٧.

﴿الفلك﴾ : السفينة، انظر صفحة ٢٨٩. ﴿المشحون﴾ : المملوء من كل صنف زوجين كما فى صفحة ٢٩٠.

﴿لآية﴾ : لعبرة وعظة.

﴿كذبت عاد المرسلين﴾ : انظر بيان ذلك فى الآية (٥٩) من سورة هود صفحة ٢٩٣ .

﴿ألا تتقون﴾ : ألا حرف يفيد الرغبة فى فعل ما بعده كما تقدم.

---

(١) يا نوح (٢) فأنجيناه (٣) لآية
(٤) أسألكم (٥) العالمين (٦) آية.

﴿أتبنون﴾ : الهمزة لإنكار ما بعدها وعدم الرضا عنه.

﴿ريع﴾ : مكان مرتفع. ﴿آية﴾ : قصر كثير الارتفاع كأنه جبل.

﴿تعبثون﴾ : تعملون ما لا فائدة جدية فيه غير التفاخر الأجوف. ﴿مصانع﴾ : المراد حصونا.

﴿لعلكم تخلدون﴾ : لعل هنا تفيد التشبيه أى كأنكم خالدون فى الدنيا.

﴿بطشتم﴾ : البطش الإيذاء العنيف.

المعنى : . وما أنا طارد مَنْ آمن بالله واتبعنى، فما أنا إلا نذير من الله تعالى لِـمَنْ عصاه مهما كان عظيما، أى ومبشر مَنْ أطاعه مهما كان فقيرا. قال قوم نوح له: لئن لم تنته عما تدعو إليه وعن المطعن فى آلهتنا لنرجمنك بالحجارة حتى تموت ولما كان قد مكث يدعوهم إلى الحق نحو ألف سنة كما فى صفحة ٥٢٢، فلم يزدهم ذلك إلا عنادًا كما فى صفحة ٧٦٨، قال نوح بعد ذلك: يارب إن قومى كذبونى فاحكم بينى وبينهم حكما يفصل بيننا، ونَجّنى ومَنْ آمن بك معى، فاستجاب الله سبحانه دعاءه ونجاه ومَنْ معه فى السفينة المملوءة بكل ما يحتاجون إليه، وأغرق بعد نجاتهم الباقين الذين لم يؤمنوا به؛ إن فى إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين وعزة الله لعبرة لقومك أيها النبى. وما كان أكثر قوم نوح مؤمنين، انظر شرح الآية (١٠٣) المتقدمة فى الصفحة السابقة. وإن ربك لهو العزيز أى الغالب فى انتقامه، الرحيم بمَنْ آمن به؛ ثم ذكر قصة هود وقومه للحكمة المتقدمة فقال: كذبت عاد المرسلين هودًا وإخوانه كما تقدم فى قوم نوح، وقد جاء الحديث عنهم فى صفحات ٢٠٣، ٢٩١، ٦٦٩، ٦٩٥، ٧٠٦، ٧٦١ حين قال لهم أخوهم هود ألا تتقون الله فتبتعدوا عما يغضبه، إنى لكم رسول من الله أمين فى تبليغ ما طلبه منكم، فاتقوا الله وأطيعونى، وما أسألكم عليه من أجر، ما أجرى إلا على رب العالمين، وقد تقدم بيان كل هذا، فهل يصح منكم أن تبنوا بكل مكان مرتفع قصرا مشيدا بدون حاجة إلى كل ذلك إلا التفاخر والتعالى على الناس، وتتخذوا لأنفسكم حصونا قوية كأنكم تظنون الخلود فى هذه الدار الفانية، وإذا أردتم البطش بأحد.. إلخ.

بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا
الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ(١) وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾
وَجَنَّاتٍ(٢) وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ
الْوَاعِظِينَ(٣) ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ
بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ(٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً(٥)
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ
أَخُوهُمْ صَالِحٌ(٦) أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ(٧) عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٨) ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا
آمِنِينَ(٩) ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ(١٠) وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ

المفردات :. ﴿جبارين﴾ : أى عتاة لا شفقة عندكم. ﴿أمدكم﴾ : أعطاكم وسخر لكم. ﴿إن هذا﴾ : أى ما هذا. ﴿خلق الأولين﴾ : عادة الأولين قبلك. ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ : تقدم بيان ذلك فى الآية (٥٩) من سورة هود صفحة ٢٩٣. ﴿أتتركون﴾: الهمزة للإنكار المفيد للنفى.

المعنى :. وإذا أردتم إيذاء أحدكم كنتم قساة القلوب لا رحمة عندكم، فاتقوا الله وأطيعونى. ثم كرر طلب التقوى لأنها الركن الأهم فى النجاة كما تقدم، فقال: واتقوا الذى منحكم وسخر لكم ما تعلمونه من أنواع النعم. ثم بين بعض هذه النعم التى لا يجهلونها فقال:

أمدكم بأنعام بينت فى صفحتى ٦٤، ٦٥، وبنين، وجنات، وعيون، إنى أخاف عليكم من عذاب يوم عظيم إذا لم تقابلوا هذه النعم بالشكر وطاعة المنعم بها. قالوا : وعظك وعدمه سواء لدينا فإنا لن نقبل منك شيئا، وما هذا الذى جئت به إلا عادة قوم سبقوك، انظر الآية (٢٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٥، ١٦٦، وما نحن بمعذبين فى الدنيا ولا فيما تزعمه من الآخرة. فكذبوه فأهلكناهم بريح صرصر عاتية كما فى صفحة ٧٦١، إن فى ذلك لعبرة، وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم، تقدم فى الصفحة السابقة. ثم ذكر سبحانه ما فعلته ثمود مع نبيهم صالح، وقد جاء ذكرهم فى صفحات ٢٠٤، ٢٩٣، ٦٩٥ فقال: ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾ حين قال لهم أخوهم فى النسب صالح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعونى، وما أسألكم عليه من أجر، فما أجرى إلا على رب العالمين. تقدم بيان كل ذلك فى صفحة ٤٨٦، فهل تظنون أن الله سيترككم فى النعيم الموجود فى هذا المكان حال كونكم آمنين عذابه. ثم بيَّن ما فى المكان من النعيم فقال : ﴿فى جنات وعيون وزروع ونخل﴾ إلخ.

---

(١) بأنعام (٢) جنات (٣) الواعظين (٤) فأهلكناهم (٥) لآية
(٦) صالح (٧) أسألكم (٨) العالمين (٩) آمنين (١٠) جنات.

طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ[١] ﴿١٤٩﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾
الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا
أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ
بِـَٔايَةٍ[٢] إِن كُنتَ مِنَ الصَّـٰدِقِينَ[٣] ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا
شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا
نَـٰدِمِينَ[٤] ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً[٥] وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾
كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ[٦] عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا

المفردات : . ﴿طلعها﴾ : هو أول ما يطلع من ثمر النخل كنصل السيف، فى جوفه العيدان التى تحمل البلح.

﴿هضيم﴾ : لين لطيف، علامة على خصوبة الأرض وجودة الثمر.

﴿فارهين﴾ : تقول العرب فره الرجل بفتح فضم كسهل إذا صار حاذقا فى الأمر ماهرا فيه.

﴿المسحَّرين﴾ الذين وقع عليهم السحر كثيرًا حتى ذهبت عقولهم.

﴿شرب﴾ : أى نصيب من الماء.

﴿عقروها﴾ : رماها واحد منهم بسهم فماتت، وكان ذلك بأمر من زعمائهم، انظر الآية (٢٩) من سورة القمر صفحة ٧٠٦.

المعنى : . لا تنتظروا أن يتركم ربكم فى ذلك النعيم، ومنه النخل الذى هو أنفع ما فى الجنات، وطلعه يتم نضجه حتى يصير لطيفا، ومما تنعمون به أنكم تنقبون فى الجبال بيوتا حال كونكم ماهرين فى النحت فتصير كأنها مبنية باليد، انظر صفحة ٢٠٤، فاتقوا الله وأطيعونى، ولا تطيعوا أمر رؤسائكم التسعة المفسدين فى الأرض كما فى صفحة ٥٠٠، وليس لهم فيها إصلاح أبدا، فهم شر صرف.

---

(١) فارهين
(٢) بآية
(٣) الصادقين
(٤) نادمين
(٥) لآية
(٦) أسالكم.

قالوا لصالح: ما أنت إلا رجل مخبول العقل، وما أنت إلا بشر مثلنا، فلا يصح أن تكون رسولاً لله لأنه لا يرسل إلا ملكا، انظر آيات (٩٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، و (٢٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٧، و (١٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣١ فأت بعلامة تدل على صدقك إن كنت صادقا. قال: هذه ناقة امتحنكم الله بها كما فى الآية ٢٧ من سورة القمر صفحة ٧٠٦ لها نصيب من الماء، وكان الماء عندهم قليلا فى آبار، فاتركوه لها يوما، ولكم كل الماء يوم آخر، لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم لشدة ما فيه من الهلاك. فعقروها فحدد لهم صالح ثلاثة أيام وبعدها ينزل بهم العذاب كما فى صفحة ٢٩٤ فصاروا نادمين لا توبة، بل لظنهم احتمال صدق صالح.

وبعد اليوم الثالث أخذتهم رجفة فصاروا كالهشيم المتكسر كما فى صفحة ٧٠٦.

إن فى هذا الذى حصل لقوم صالح لدليلا واضحا على هلاك كل مَنْ يخالف أمر ربه ويكذب رسله. وما كان أكثر قوم صالح مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم.

تقدم بيان كل ذلك. ثم ذكر لهم ما حصل لقوم لوط، وقد فصله القرآن فى صفحات ٢٠٥، ٢٩٥، ٣٤٢، ٥٢٤، ٦٩٤، ٧٠٧. فقال: ﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾ حين قال لهم أخوهم لوط: ألا تتقون. إنى لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعونى، وما أطلب منكم على تبليغ رسالة ربى أجرا ولو قليلا. فما أجرى إلا على رب العالمين. وقد تقدم بيان كل ذلك فى هذه السورة سابقا.

المفردات : . ﴿تذرون﴾ : تتركون. ﴿عادون﴾ : متعدون الحدود. ﴿القالين﴾ : أى المبغضين الكارهين، انظر الآية (٣) من سورة الضحى صفحتى ٨١١، ٨١٢. ﴿عجوزا﴾ : هى امرأته، انظر الآية (١٠) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣. ﴿الغابرين﴾ : أى الهالكين، تقدم معناها فى صفحة ٢٠٦. ﴿مطرا﴾ : جاء فى صفحة ٢٩٦. ﴿ساء﴾ : قبح. ﴿المنذرين﴾ : الذين أنذرهم نبيهم بالعذاب إذا عصوا ربهم. ﴿أصحاب الأيكة﴾ : الأيكة هى الشجر الملتف، وتقدم بيانها فى صفحة ٣٤٣.

عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾
وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ
قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ
نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾
إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾

المعنى : . قال لوط موبخا قومه: هل يصح أن تأتوا الذكور من ولد آدم وتتركوا الحلال الذى خلقه لكم ربكم من أزواجكم.

ثم انتقل من التوبيخ إلى التصريح بأنهم تجاوزوا كل حد معقول، فقال : بل أنتم قوم عادون. فردوا أخبث رد على هذا النصح الخالص بقولهم: لئن لم تنته يالوط لتكونن من الذين نخرجهم من ديارنا وننفيهم إلى الصحارى القاحلة. قال عليه السلام: إنى لعملكم هذا من الكارهين ثم اتجه إلى ربه قائلا يارب نجنى وأهلى المؤمنين معى من شر عملهم، فأجاب الله تعالى دعاءه ونجاه وأهله جميعا إلا امرأته فتركها فى الهالكين، انظر صفحة ٧٥٣، ثم دمر الله كل الفاسقين بخسف القرية بهم، وأعقب ذلك بإنزال الحجارة المحماة عليهم زيادة فى النكال. فقبح هذا المطر الذى نزل، لأنه لم يكن مطر ماء يعقبه خير.

إن فى هذا الحادث لعبرة ترشد كل ذى عقل للصواب، وما كان أكثر قوم لوط مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم. تقدم بيانه. ثم قص سبحانه ما حصل من أصحاب الأيكة مع نبيهم شعيب عليه السلام فقال: ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ حين كذبوا نبيهم كما تقدم فى الآية (٣٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤ حين قال لهم شعيب ألا تتقون؟ إنى لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعونى، وما أسألكم على تبليغ رسالة ربى أجرا، فما أجرى إلا على رب العالمين.

(١، ٢) العالمين (٣) أزواجكم (٤) يا لوط (٥) فنجيناه (٦) الغابرين (٧) الآخرين
(٨) لآية (٩) أصحاب (١٠) الأيكة (١١) أسألكم (١٢) العالمين

* أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾
وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا
الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ
الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ
لَمِنَ الْكَاذِبِينَ(١) ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ
كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٢) ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً(٣) وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ
لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٤) ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾
عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ

المفردات : . ﴿المخسرين﴾ : الناقصين لحقوق الناس فى الكيل والميزان، انظر الآية (٣) من سورة المطففين صفحة ٧٩٦.

﴿القسطاس﴾ : الميزان المستقيم المعتدل.

﴿تعثوا فى الأرض﴾ : تفسدوا فيها.

﴿مفسدين﴾ : المراد متعمدين الإفساد، انظر الآية (٨٥) من سورة هود صفحة ٢٩٧.

﴿الجبلة﴾ : نطق العرب بكلمات ملاحظين فيها معنى الجبل فى الثبات والعظم والضخامة فقالوا: فلان جبل أى ثابت لا يتزحزح وفلان جُبِل على الكرم بضم الجيم وكسر الباء أى لا يتحول عنه، وفلان ذو جبلة أى ضخم الجسم، وقالوا للجماعة القوية الكثيرة.

﴿جِبِلاًّ﴾ بكسرتين وتشديد اللام كما فى الآية (٦٢) من سورة يسٓ صفحة ٥٨٤، وقالوا لتلك الجماعة أيضا.

﴿جبلة﴾ كما هنا.

﴿المسحرين﴾ : تقدم فى صفحة ٤٨٩.

﴿كسفا﴾ : جمع كسفة بكسر فسكون كقطعة وزنا ومعنى.

---

(١) الكاذبين
(٢) الصادقين
(٣) لآية
(٤) العالمين.

﴿الظلة﴾ : هى سحابة لجأوا إليها من شدة الحر فأمطرت عليهم نارًا فاحترقوا جميعا.

﴿الروح﴾ : هنا هو جبريل عليه السلام.

المعنى : . قال شعيب ناصحا قومه: أوفوا الكيل إذا كلتم، ولا تكونوا من الذين ينقصون حقوق الناس. وزنوا لهم بالميزان المعتدل الذى لا يجور، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، أى لا تنقصوا شيئا من حقوقهم مطلقا، ولا تفسدوا فى الأرض حال كونكم شديدى الإفساد. واتقوا الله الذى خلقكم كما خلق مَنْ كان قبلكم من الأمم العظيمة التى كانت أشد منكم قوة، ومع ذلك أهلكهم لما عصوا. فلستم أقوى منهم. انظر الآية (٦٩) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٢، ٢٥٣. والآية (٤٤) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨، والآية (١٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣١، فردوا عليه بقولهم:

ما أنت إلا من المجانين. وما أنت إلا بشر مثانا. انظر صفحة ٤٨٩، وما نظنك إلا من الكاذبين فى دعواك. فأسقط علينا قطعا من السماء فيها الهلاك إن كنت من الصادقين، وهذا من تمام الجهل الذى وقع فيه أيضا كفار مكة كما فى صفحات ٢٣١، ٣٧٧ قال شعيب: ربى أعلم بما تعملون. فهو الذى ينزل عليكم العذاب اللائق بكم فى وقته المقدر له. فكذبوه فأفناهم عذاب يوم السحابة التى أظلتهم. وهم فرحون بها من شدة السحر، ولم يدروا أن فيها عذابا أليما كما حصل لقوم عاد. انظر الآية (٢٤) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٦٩، ٦٧٠. إن فى ذلك لعبرة، وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم. تقدم بيانها. وبعد ما قص سبحانه تلك القصص السبع على سبيل الاختصار تسلية لرسوله وتهديدا للمكذبين به، أراد أن يبين حقيقة ذلك القرآن المشتمل على هذه القصص فقال:

وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروحُ الأمين جبريل على قلبك، أى أثبته فيه إثباتا لا ينسى بعده لتكون من عداد رسلنا الذين أرسلناهم ليحذروا أقوامهم عذاب الله إذا عصوه. نزله بلسان عربى واضح.

مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ
ءَايَةً[١] أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ[٢] بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[٣] ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ[٤]
عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ[٥] فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾
أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ[٦] إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ[٧]
سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا
مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ[٨] ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ
ٱلشَّيَٰطِينُ[٩] ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾
إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ

المفردات : . ﴿مبين﴾ : واضح. ﴿زبر﴾ : جمع زبور، والمراد به هنا كتب السابقين، فهو كجمع رسول على رسل، انظر الآية (٤٤) من سورة النحل صفحة ٣٥١، وآيتى (١٨، ١٩) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤.

﴿آية﴾: حجة على صدق رسولنا.

﴿أن يعلمه﴾ : المصدر المؤول منها اسم كان مؤخر وخبرها آية.

﴿الأعجمين﴾ : مفرده أعجم، وهو الذى فى لسانه عجمة تجعل العربى لا يفهم كلامه، ومن المعلوم أن كل ما عدا العرب يقال لهم عَجَم بفتحتين، وعُجْم بضم فسكون كعَربَ وعُرْب، وإما إطلاق العجم على دولة الفرس فقط، فهذا اصطلاح خاص نشأ من كثرة إطلاق العام على بعض أفراده، وينسب ﴿الأعجم﴾ للكتاب واللسان، مثلا يقال قرآن أعجمى كما فى الآية (٤٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦، ولسان أعجمى كما فى الآية (١٠٣) من سورة النحل صفحة ٣٦٠. ولا يقال رجل أعجمى لأن الشىء لا ينسب إلى نفسه، قال ذلك صاحب مختار الصحاح.

وإنما قلنا إن ﴿الأعجمين﴾ : جمع أعجم خلافا لمَنْ تكلف غير ذلك محكما آراء العلماء فى القرآن، لأن القرآن هو الأصل، وهو أوثق الأصول اللغوية التى يرجع إليها غيرها. فلا يصح أن يحكم فيه غيره، انظر شرح ما سبق فى الآية (١١١) من سورة هود صفحة ٣٠٠.

﴿سلكناه﴾ : أدخلناه، انظر الآية (١٢) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨.

---

(١) آية (٢) علماء (٣) إسرائيل (٤) نزلناه (٥) سلكناه
(٦) أفرأيت (٧) متعناهم (٨) ظالمين (٩) الشياطين.

﴿هل نحن﴾ : الاستفهام لطلب تأخير العذاب.

﴿منظرون﴾ : ممهلون.

﴿أفرأيت﴾ : أى أخبرنى، انظر الآية (٤٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، والآية (٦٣) من سورة الكهف صفحة ٣٩٠.

﴿متعناهم سنين﴾ : أى تركناهم يتمتعون بنعيم الدنيا مدة طويلة.

﴿ذكرى﴾ : أى تذكيرا وتنبيها.

﴿السمع﴾: أى استماع كلام الملائكة التى تنزل بالوحى، انظر الآية (٩) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨.

﴿معزولون﴾: ممنوعون، انظر الآية (١٨) من سورة الحجر صفحة ٣٢٩، والآيات من (٧ إلى ١٠) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧، وآيتى (٨، ٩) من سورة الجن صفحة ٧٧١.

المعنى :ـ وإن ما فى هذا القرآن من العقائد والفضائل وصفة الرسول وأصحابه وعزتى لفى كتب الأنبياء السابقين، انظر الآيات (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨، والآية (٤٦) من سورة النساء صفحة ١٠٨، و (٧٠، ٧١) من سورة آل عمران صفحة ٧٤، و (٤٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨، و (٢٩) من سورة الفتح صفحتى ٦٨٣، ٦٨٤، و (٦) من سورة الصف صفحتى ٧٣٨، ٧٣٩، و (١٨ ، ١٩) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤، و (١٤٠) من سورة البقرة صفحة ٢٧، و (٩٤) من سورة يونس صفحة ٢٨١؛ وقد أقر بذلك مَنْ أسلم منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه.

هل غفل الكفار عن كل هذا ولم يكن علم بنى إسرائيل بصحته حجة كافية لهم فى الاقتناع، انظر شرح الآية (٥١) من سورة النساء صفحة ١٠٩.

ثم بيَّن سبحانه بعض حكم إنزال القرآن بلسان العرب فقال: ولو نزلنا هذا القرآن على رسول عجمى لا يعرف العربية ما كانوا ليؤمنوا أبدا، ويعتذرون بجهلهم هذا اللسان. فالمراد أنهم يكابرون على كل حال كما فى الآية (٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣، انظر شرح

الآية (٣٧) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٧، ٣٢٨، والآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩، والآية (٤٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦.

على هذا الوجه من الدخول أدخلنا القرآن فى قلوب المجرمين فاهمين معانيه مقرين بفصاحته مع اعتراف أهل الكتاب بصحته، فهم لا يمكن أن يؤمنوا به حتى يشاهدوا العذاب الأليم الذى يجعلهم يؤمنون مكرهين، وحينئذ لا يفهم إيمانهم كما فى الآية (١٥٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٩٠، ١٩١، وسيأتيهم هذا العذاب فجأة وهم لا يشعرون، وعند حصول مقدماته سيطلبون الإمهال حتى يرجعوا عما هم فيه كما فى الآية (٣٧) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٦، ٥٧٧. ثم وبخهم على قولهم ﴿أسقط علينا كسفا من السماء﴾ وقولهم ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ فقال تعالى:

أفبعذابنا يستعجلون استهزاء وتكذيبا؟ فأخبرنى أيها السامع هل إن تركناهم يتمتعون بما هم فيه مددا طويلة ما الذى يغنيه عنهم هذا التمتع الذى لابد من زواله؟

وما أهلكنا قرية من القرى المهلكة الظالمى أهلها إلا وقد أرسلنا لها منذرين من رسلنا يحذرونها عقاب الله تعالى إذا عصت أوامره، انظر الآية (١٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦؛ أنذرناهم تذكيرا لهم، ولم يكن من شأننا الظلم أبدا، انظر الآية (١١٧) من سورة هود صفحة ٣٠١.

ولما كان مما طعنوا به على القرآن قولهم إن محمدًا تعلمه من الكهان الذين يتلقون عن الشياطين، انظر الآية (٤٢) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٤، رد سبحانه باطلهم بقوله:

﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم﴾ أى ما يسهل عليهم هذا العمل العظيم بل لا يستطيعونه أبدا، لأنهم مبعدون عن سماع كلام الملائكة التى تنزل به كما فى الآيات المتقدمة.

وإذا علمت كل ما ذكر أيها النبى فلا تدع مع الله إلها آخر إلخ.

إِلَٰهًا ءَاخَرَ[1] فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ
ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى
يَرَىٰكَ[2] حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ[3] ﴿٢١٩﴾
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ
ٱلشَّيَٰطِينُ[4] ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ
ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ[5] ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ
ٱلْغَاوُۥنَ[6] ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾
وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[7] وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ[8] وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ
وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

المفردات : . ﴿عشيرتك﴾ : أقاربك، انظر الآية (٢٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٣، ٢٤٤. ﴿اخفض جناحك﴾ : تواضع، انظر صفحة ٣٤٤، والآية (٢٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٧. ﴿تقلبك فى الساجدين﴾ : تنقلك من حال إلى حال فى صلاتك مع المؤمنين جماعة، من وقوف إلى ركوع إلى سجود إلى جلوس.

﴿أفاك﴾ : كثير الإفك وهو الكذب.

﴿أثيم﴾ : كثير الوقوع فى الإثم وهو الذنب.

﴿يلقون السمع﴾ : المراد بالسمع هنا : الإذن كما فى الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤، وإلقاء السمع كناية عن شدة الإصغاء، انظر الآية (٣٧) من سورة ق صفحة٦٩١.

﴿الشعراء﴾ : يطلق العرب الشعر على كل كلام يستولى على شعور السامع، وأغلبه يكون تخيلات لا حقيقة لها، سواء أكان نظما أو نثرًا، ومراد العرب فى طعنهم فى النبى ﷺ بأنه شاعر هو المعنى الثانى، انظر الآية (٣٠) من سورة الطور صفحة ٦٩٨، وإنما قلنا ذلك لأن العرب ما كانوا يجهلون أن القرآن ليس من أوزان شعرهم المعروفة لهم ﴿الغاوون﴾ : الضالون، انظر الآية (٩١) من هذه السورة صفحة ٤٨٥.

---

(١) آخر (٢) يراك (٣) الساجدين (٤) الشياطين
(٥) كاذبون (٦) الغاوون (٧) آمنوا (٨) الصالحات.

﴿يهيمون﴾ : الهائم هو الذى يسير بدون قصد إلى غرض معين، فهو فى الغالب على غير هدى. ﴿انتصروا﴾ : المراد بالانتصار هنا: رد الهجاء الباطل بهجاء حق.

﴿أى منقلب﴾ : ﴿أيَّ﴾ نكرة وقعت صفة تفيد المبالغة، أو موصوفها كما تقول فلان رجل أيُّ رجل، أىْ رجلاً كامل الرجولة وموصوفها هنا مصدر مقدر مأخوذ من الفعل العامل فيها وهو ﴿ينقلبون﴾ الآتى بعدها.

و ﴿منقلب﴾ : مرجع ومصير، انظر الآية (٣٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦.

﴿ينقلبون﴾ : يصيرون ويرجعون.

والأصل : وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب فظيع سيلاقونه.

المعنى :. لما فرغ سبحانه من تهديد الكفار أراد أن يؤكد المحافظة على توحيده، فوجه الخطاب لرسوله، والمراد له ولأتباعه كل فيما يخصه، فقال: ﴿فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين﴾ وكان يظن أن الإنسان قد ينفع قرابته لمجرد أنهم أقرباؤه. فنبه سبحانه إلى خطأ ذلك فقال: ﴿وأنذر عشيرتك﴾ أى أهلك الأشد قرابة لك، ليعلموا أن نجاتهم فى اتباعك دون مجرد قرابتهم لك، ولذا لما نزلت دعاهم ﷺ وقال: يا عباس عم محمَّد اعمل لنفسك لا أغنى عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت محمَّد اعملى لنفسك فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا، وهكذا ذكرهم جميعا، واخفض جناحك لأتباعك المؤمنين ليلتفوا حولك، انظر الآية (١٥٩) من سورة آل عمران صفحة ٨٩.

المراد أنذر قومك فإن أطاعوك فاعطف عليهم، وإن عصوك فأعلن براءتك من أعمالهم حتى لا يصيبك ما ينزل بهم، ولا تبال بشىء ما دمت متوكلا على العزيز الغالب الذى ينصرك عليهم برحمته.

ثم بيّن سبب نصره بقوله: الذى يراك حين تقوم للصلاة فى الليل وحدك، وصلاتك جماعة مع المؤمنين، متنقلا من حال إلى حال.

وخص السجود بالذكر لأنه أعلى أركانها فى الخضوع لله، والعبد فيه أقرب إلى ربه، إنه سبحانه هو السميع لأقوال عباده، العليم بنياتهم، فيجازى كلا بما يستحق.

ولما كان من ضمن ما طعن به المشركون على النبى ﷺ قولهم إنه شاعر وإنه كاهن يتلقى عن الشياطين كما تقدمت الإشارة إليه فى الصفحة السابقة وفى الآية (٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠. لما كان كل هذا أبطل سبحانه زعمهم برده على كونه كاهنا بقوله: ﴿هل أنبئكم﴾ إلخ:

المعنى : قل أيها النبى لهم هل أعلمكم بجواب الاستفهام القائل: ﴿على مَنْ تنزل الشياطين﴾ اسمعوا الجواب : إنها تنزل على كل كذاب فاجر يصغى إليها باهتمام، وهؤلاء الأفاكون أكثر أقوالهم كاذبة. ورسولنا صادق لم يجرب عليه كذب مرة واحدة باعترافكم. ورد على كونه شاعرا بقوله ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ ولو كان رسولنا شاعرا لما اتبعه إلا الضالون الذين يجرون وراء المدح بالباطل أو هجو الخصوم بلا حق، وكان الشعر عند العرب أوسع ميدان للتسابق، وأمضى سلاح فى محاربة الخصوم. ثم وصف سبحانه أغلب الشعراء بأنهم فى واد من الكلام وفن من فنونه، من مدح غير المستحق وذم البرىء، وتحريض على مظلوم، إلى غير ذلك، وأنهم يقولون مالا يفعلون، فيمدحون الكرم وهم بخلاء، والصدق وهم كاذبون، والشجاعة وهم جبناء.

ثم استثنى سبحانه من الشعراء المذمومين شعراء المؤمنين الصالحين الذين يغلب فى شعرهم ذكر الله والحكم والمواعظ، وينتصرون فى شعرهم برد هجوم المشركين بمثله.

وقد أبشع المشركون فى هجوه ﷺ وهجو أصحابه، فكان حسان بن ثابت يرد عليهم فيخرسهم، وكان ﷺ وسلم يقول قولك يا حسان أشد عليهم من وقع السهام، «كان يقول: إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه.

وبعد ما أبطل سبحانه مزاعمهم ختم السورة بالتهديد الشديد لهؤلاء الكافرين فقال: وسيعلم الذين ظلموا، أى ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى، المصير الذى سيصيرون إليه فى النهاية وهو جهنم، وبئس المصير.

نسأل الله تعالى السلامة وحسن الختام.



(٢٧) سورة النمل مكية
وآياتها ثلاث وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم

طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين (١) هدى
وبشرى للمؤمنين (٢) الذين يقيمون الصلاة ويؤتون
الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون (٣) إن الذين لا يؤمنون
بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون (٤)
أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم
الأخسرون (٥) وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم
عليم (٦) إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا
سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم

سورة النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿طس﴾: تقرأ: طا، سين، بسكون النون. وتقدم المراد من مثلها فى أول سورة البقرة.

﴿وكتاب مبين﴾: لما لوحظ فى ﴿كتاب﴾ صفته ﴿مبين﴾ صح عطفه على ما قبله، كعطف الصفة على الموصوف كما تقدم فى الآية (٤٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥، وكتاب صار كالعلم لما أنزل على محمد ﷺ فصح وصف القرآن به.

﴿يوقنون﴾: يؤمنون إيمانا قويا، انظر الآية (٤) من سورة البقرة صفحة ٣ .

﴿زينا لهم﴾: يصح أن يكون المراد فى مثل هذا أننا خلينا بينهم وبين الشيطان ولم نحفظهم منه فجعل لهم القبيح حسنا وبالعكس كما فى الآية (٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٢.

---

(١) طا سين
(٢) آيات
(٣) القرآن
(٤) الصلاة
(٥) الزكاة
(٦،٧) بالآخرة
(٨) أعمالهم
(٩) الآخرة
(١٠) القرآن
(١١) آنست
(١٢) سآتيكم
(١٣) آتيكم

وذلك لأنهم لم يؤمنوا برسلنا، ولم يستعيذوا بنا من الشيطان، وقد تقدم ذلك فى الآية (١٠٨) من سورة الأنعام صفحة ١٨٠ .

﴿يعمهون﴾: يتخبطون فى الضلال.

﴿الأخسرون﴾: جمع أخسر وهو الأشد خسرانا.

﴿لتلقى﴾: أى تلقن وتعطى.

﴿من لدن﴾: من عند.

﴿آنست﴾: أبصرت انظر صفحة ٤٠٦ .

﴿شهاب﴾: شعلة من نار.

﴿قبس﴾: أى مقبوس ومأخوذ، انظر صفحة ٤٠٦ أيضًا.

المعنى: ـ تلك الآيات التى فى هذه السورة هى آيات من القرآن الموضح لكل ما فيه سعادة الخلق حال كونه بالغا نهاية الهداية التى تزيد المؤمنين إيمانا، وهو عظيم التبشير للمؤمنين برحمة من اللّه ورضوانه.

ثم وصف هؤلاء المؤمنين حقا بأنهم هم الذين يؤدون الصلاة على أتم وجوهها، ويؤتون الزكاة، ويوقنون بالآخرة، فيخافون أهوالها ولا يفسدون فى الأرض.

أما الذين ينكرون البعث فإنا قضينا بمجازاتهم على كفرهم بتزيين الشيطان لهم كل قبيح ليزدادوا إثما فيزدادوا عذابا، فهم طول حياتهم يتخبطون على غير هدى.

وهؤلاء هم الذين لهم فى الدنيا العذاب المسىء من الأسر والقتل، وهم فى الآخرة أشد خسرانا مما خسروه فى الدنيا، انظر الآية (٣٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢٧، والآية (١٢٧) من سورة طه صفحة ٤١٨ . وإنك أيها النبى لتتلقى هذا القرآن قطعا من عند حكيم فى تدبير خلقه، عليم بما يصلحهم.

وبعد ذلك أراد سبحانه أن يقص على نبيه والمؤمنين ما يطمئنهم ويثبت قلوبهم كما فى الآية (١٢٠) من سورة هود صفحتى ٣٠١، ٣٠٢، ويحذر الكافرين المعاندين من مصير أمثالهم، فذكر له بعض قصص إخوانه الأنبياء مبتدئًا بموسى كليمه. ولم يعن القرآن بسرد حياة نبى من الأنبياء من يوم ولادته إلى موته مثلما عنى بنبى الله موسى عليه السلام، انظر صفحتى ٤٠٨، ٥٠٧.

ولم يذكر قصة مرارا مثل ما ذكر قصته مع فرعون أكبر الطغاة الجبارين الذى لم يرض بأن يكون سلطانا ولا ملكًا مطلقًا بل أصر على أنه هو الرب الأعلى، انظر صفحة ٧٩٠ .

ولما كان ما حصل لموسى مع فرعون وملئه ومع قومه من بنى إسرائيل الذى قاسى الشدائد لإنقاذهم فأذاقوه أشد المتاعب ولم يريحوه يوما حتى فارق الدنيا، انظر صفحات ١٠ إلى ١٤، ٢١٣ ، ٢١٥، ٢١٩ ، ٢٧٩، لما كان كل هذا مليئًا بالعبر من جهات شتى، وكان فيه أكبر تسلية لكل مَنْ أصيب بمحاربة المفسدين وفيه أعظم درس لمَنْ تحدثه نفسه بالتعالى على خلق الله، ذكرها سبحانه مرارا بأساليب مختلفة دائرة بين الإجمال والتفصيل لأغراض شتى، يذكر فى كل مقام ما يناسبه لتتجدد العبرة عند كل مناسبة.

ولما كان القرآن ليس كتاب تاريخ يسرد الحوادث سردا جافا، بل هو كتاب إرشاد وهداية يتفنن فى إيقاظ العقول إلى طريق النجاة، فلا تعجب حينئذ إذا رأيت ما صورته صورة تكرار لهذه القصة فى مواضع عدة أبرزها ما هنا وما فى صفحات ٢٠٩ إلى ٢٢١، وفى أول سورة طه صفحة ٤٠٦، وفى أول سورة القصص صفحة ٥٠٦، وفى صفحات ٦٢٠ إلى ٦٢٥ .

فسبحان العليم الحكيم ـ قال سبحانه ﴿إذ قال موسى﴾ أى اذكر أيها النبى لقومك ما حصل حين قال موسى لأهله عند رجوعهم إلى مصر من مدين، وكان الجو باردًا والليل مظلمًا، خفى عليه.. الطريق:

إنى رأيت نارا سآتيكم منها بخبر عن الطريق، أو آتيكم بشهاب مقتبس أى مأخوذ منها لعلكم تصطلون. والمراد آتى بهما أو بأحدهما على الأقل، انظر شرح هذه الألفاظ بأوسع مما هنا فى صفحة ٤٠٦ .

تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ
وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَا مُوسَىٰ
إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا
رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ
لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ
ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ
يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ
آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾
فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾
وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ
وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ

المفردات: ﴿تصطلون﴾: تستدفئون بالنار من البرد.

﴿نودى﴾: المراد بالنداء هنا توجيه الخطاب مطلقا، سواء أكان معه حرف نداء أم لا، وقد جاء ذلك كثيرًا فى القرآن، انظر بعضه فى آيات (٢٢) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٤، ١٩٥، و(٤٤ ، ٤٦) من نفس السورة صفحة ١٩٩، و(٢٤) من سورة مريم صفحة ٣٩٨، ٨٧ من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٩، و(٩) من سورة الجمعة صفحة ٧٤٢، بل قد يكون توجيه ما ليس كلاما كنفخ إسرافيل انظر الآية (٤١) من سورة ق صفحة ٦٩١ .

﴿أن بورك﴾: ﴿أن﴾ حرف تفسير يفيد أن ما بعده مفسر لما قبله، أى خوطب بهذه الألفاظ.

﴿مَنْ فى النار﴾: المراد مَنْ فى مكان النار أى بجوارها وهو موسى عليه السلام.

---

(١) سبحان.
(٢) العالمين.
(٣) يا موسى.
(٤) رآها.
(٥) يا موسى.
(٦) آيات.
(٧) فاسقين
(٨) آياتنا
(٩) عاقبة
(١٠) آتينا.
(١١) سليمان.

﴿ومَنْ حولها﴾: أى ومَنْ هو موجود حول مكانها، وهم الملائكة الذين حضروا هذه اللحظة المباركة وفى آية أخرى ما يفيد أن البركة عمت البقعة أيضًا، انظر الآية (٣٠) من سورة القصص صفحة ٥١١ . ﴿جان﴾: حية سريعة الحركة، انظر ما قيل فى صفحة ٢٠٩ .

﴿ولى مدبرا﴾: أى انصرف مسرعًا جاعلاً ظهره إلى المكان الذى كان واقفا فيه. ﴿لم يعقب﴾: لم يلتفت إلى عقبه، والمراد لم يرجع.

﴿جيبك﴾: هو فتحة الثوب العليا التى يدخل منها الرأس.

﴿فى تسع آيات﴾: براهين، انظرها فى صفحة ٣٧٨ .

﴿مبصرة﴾: أى سببا فى قوة البصيرة والتأمل والمراد واضحة.

﴿جحدوا بها﴾: أى أنكروها كافرين بها.

﴿استيقنتها﴾: أى تيقنتها على أتم وجه.

﴿علوا﴾: أى ترفعا وتكبرا، انظر الآية (١٩) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧ .

المعنى: آتيكم بقطعة من النار لعلكم تستدفئون من البرد، فلما جاء موسى إلى مكان النار وجه سبحانه إليه الخطاب بقوله: بارك الله فيك يا موسى وأنت بجوار مكان هذه النار، وبارك فيمَن هو موجود حول مكانها، ووسع بعض علماء السلف حتى جعله يعم الأرض التى بارك اللّٰه تعالى فيها بكثرة الخيرات ومهبط النبوات انظر الآية (١٣٧) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢ .

ولاشك أن هذه تحية من اللّٰه سبحانه وتعالى لموسى أو بشرى بأنه سيكون من عباده المصطفين الأخيار.

ولما كان قد يسبق إلى الوهم أن اللّٰه عز وجل يحويه مكان كالخلق، نبه سبحانه نبيه موسى إلى تنزيهه عن ذلك فقال ﴿سبحان اللّٰه﴾ إلخ، أى وقل يا موسى أنزه ربى تنزيها كاملا عن كل ما يشبه الحوادث، لأنه هو رب العالمين، أى خالقهم، ولا يمكن التسوية بين الخالق والمخلوق،

وأكد ذلك بقوله: يا موسى إنى أنا اللّه العزيز القادر على كل شىء، فلا يعجزنى ما سأظهره من المعجزات، الحكيم فى كل ما أفعل.

ثم شرع سبحانه فى تسليح نبيه بالمعجزة فقال: وألق عصاك، أى ارمها على الأرض، فألقاها موسى فإذا هى ثعبان، فلما رآها تهتز بسرعة كأنها جان ولى معطيها ظهره خوفا من أن تناله بسوء ولم يرجع إليها، فقال سبحانه: يا موسى لا تخف لأنى لا يخاف فى حضرتى رسلى..

ولما جعل سبحانه نفى الخوف مقترنا بصفة الرسالة، وهذا ربما يجعل موسى يخاف مما حصل منه قبل الرسالة مما هو مبين فى صفحة ٥٠٨، دفع سبحانه ذلك بقوله ﴿إلا مَنْ ظلم ثم بدل حسنا﴾ إلخ: أى لكن مَنْ ظلم نفسه بما يستاء منه، ثم جعل مكان هذا السوء أعمالاً حسنة، فإنى أغفر له لأنى كثير المغفرة واسع الرحمة.

ثم أمره بأخذ العصا فأخذها فإذا هى كما كانت كما فى صفحة ٤٠٧ ثم بعد ذلك أرشده إلى المعجزة الثانية فقال: ﴿وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ كما تقدم فى صفحة ٤٠٧، وهاتان الآيتان فى جملة تسع آيات سنظهرها لك فى وقتها مرسلا بها إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين. فلما جاءت فرعون وقومه آياتنا حال كونها حجة واضحة على صدق رسولنا قالوا هذا سحر ظاهر، وأنكروا هذه المعجزات بألسنتهم والحال أن أنفسهم تيقنت أنها ليست سحرًا حال كونهم ظالمين لتلك الآيات حيث أهملوها وأنزلوها إلى مرتبة السحر ونظير ذلك ما فى الآية (٩) من سورة الأعراف صفحة ١٩٣، وحال كونهم مترفعين مستكبرين عن الإيمان بها، انظر الآية (٤٠) من نفس السورة صفحة ١٩٨، فانظر أيها العاقل على أى صفة كانت عاقبة المفسدين الذين هم فرعون وقومه.، وكانت فى الدنيا الإغراق فى البحر، وفى الآخرة الإحراق بالنار.

ثم شرع سبحانه فى قصة سليمان فقال: ولقد آتينا داود وسليمان طائفة من علم الحكم والدين، فقابلا هذه النعمة بالشكر بقولهما: الحمد للّه الذى فضلنا بالنبوة والملك على كثير من عباده.

مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ
يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ
إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ
جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾
حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ
ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي
أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾
وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ
أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ

المفردات: ﴿منطق﴾: أصل المنطق والنطق هو التكلم، والمراد: ما تبين به أغراضها بلغة خصّ اللّٰه تعالى بمعرفتها نبيه سليمان عليه السلام ويؤيد ذلك كلام الهدهد الآتى فى الآيات (٢٢ إلى ٢٦) هنا وفى الصفحة التالية، ولا غرابة فى ذلك فالمقام مقام خوارق خص اللّٰه بها نبيا من أنبيائه، وهو سبحانه قادر لا يعجزه شىء، بل ما هنا أسهل من إنطاق الجوارح يوم القيامة، انظر آيتى (٢٠، ٢١) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢ .

﴿حشر﴾: أى جمع. ﴿يوزعون﴾: أصل الوزع المنع والكف، والمراد يحبس أولهم حتى يلحق به المتخلف منهم.

﴿وادى النمل﴾: هو مكان يكثر فيه النمل ولا يعنينا تحديده، بل الذى يهمنا هو موضع العبرة فيه.

﴿قالت نملة﴾: المراد أرشدت زميلاتها بالطريقة التى أودعها اللّٰه تعالى فيها، انظر ما تقدم هنا فى الآية (١٦) .

---

(١) سليمان
(٢) لسليمان
(٣) مساكنكم
(٤) سليمان،
(٥) والدى
(٦) صالحا
(٧) ترضاه
(٨) الصالحين
(٩) لأذبحنه
(١٠) بسلطان

﴿لا يحطمنكم﴾: الحطم الكسر، والمراد يهلكنكم بالدوس. ظاهر النهى أنه موجه لسليمان وهو فى الحقيقة موجه للنمل، فالمراد لا تعرضن أنفسكن للهلاك، من قبيل قولهم لا يرض عنك الشيطان فتغضب ربك، أى لا تفعل المعاصى التى ترضى الشيطان وتغضب الرب.

﴿فتبسم ضاحكا من قولها﴾: لما كان التبسم قد يكون عن غير رضا كما يقولون تَبسَّم تَبسُّم الغضبان، وتبسم المستهزئ لما كان ذلك قال ﴿ضاحكًا﴾ ليفيد أنه تَبَسم سرورًا.

﴿أوزعنى أن أشكر﴾: أى احبسنى على أن أشكر نعمتك لا أتعداه إلى كفرانها بحيث أكون ملازما لشكرها.

﴿تفقد﴾: أصل التفقد البحث عما عساه أن يكون قد غاب أو فقد.

﴿أم كان﴾: ﴿أم﴾ حرف يدل على الانصراف عما قبله والانتقال لما بعده، ويعبر عن معناها ببل.

﴿بسلطان مبين﴾: بحجة واضحة.

﴿فمكث﴾: أى بقى غائبًا. ﴿غير بعيد﴾: أى زمنا غير طويل..

المعنى: - وورث سليمان داود، أى قام مقامه فى النبوة والملك، وقال متحدثا بنعمة ربه: يأيها الناس إن ربى سهل لى فهم ما يريده الطير إذا صوت، وكذا غيره من الحيوان كما سيأتى فى حديث النملة. وإنما خص الطير بالذكر لأنه كان من جنده الذى يحتاج إليه فى الأسفار. وإنما قال علمنا بدل علمت لأنه كان ملكا ونبيا، فخاطب رعيته على عادة الملوك مراعاة لقواعد السياسة من التمهيد لما يراد من رعيته من طاعة وحسن انقياد لما فيه مصلحته، فلم يكن من قبيل التعاظم والتكبر كما فى ملوك الدنيا.

ثم قال: إن الله سبحانه وتعالى آتانا من كل شىء ما يساعدنا على القيام بما يرضيه من عمارة الأرض، وإقامة العدل، وتسخير الجن والريح والطير، وغير ذلك، انظر الآية (٣٥) وما بعدها من سورة ص صفحة ٦٠١، وإن هذا لهو الفضل الظاهر.

ولما أراد سليمان السفر من الشام إلى مكان آخر لا يهمنا أمره لأنه لو كان فى بيانه فائدة لذكره اللّه عز وجل، أمر منْ يجمع له من أنحاء مملكته جنوده من الإنس والجن والطير، ولما ساروا كان يكف عن السير أولهم حتى يلحق بهم آخرهم لكثرتهم، حتى إذا دخلوا واديا كثير النمل حذرت نملة زميلاتها من الخطر إذا لم يسرعوا إلى دخول منازلهم فى باطن الأرض، وكان ذلك بإلهام من الله، كما ألهم النحل جمع القوت من الشجر وغيره، انظر الآية (٦٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٤، فإنكم إن لم تدخلوا أهلككم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، تريد بهذا أنهم لو شعروا بوجود النمل لتحاشوا تحطيمه، وبهذا تكون عارفة شئون سليمان وسائر الأنبياء عليهم السلام من نفورهم من الظلم والإيذاء، ولهذا كان سرور سليمان من معرفتها أن العدل والرأفة من شيم المؤمنين وأن اللّه عز وجل أنعم عليه بأن يكون من هؤلاء الرحماء، لذلك سارع بالتوجه إلى ربه شاكرا لأنعمه، ونظير ذلك ما قاله اللّه سبحانه وتعالى فى جيش سيدنا محمَّد ﷺ فى الآية (٢٥) من سورة الفتح صفحة ٦٨٢ حيث قال ﴿فتصيبكم منهم معرة بغير علم﴾ إلخ. فتَبسَمَّ تَبَسـمُّ المسرور من قولها متعجبًا من حسن تدبيرها لإنقاذ أخواتها مما فيه إرشاد لكل عاقل حتى يكون الواحد خيرا للمجموع.

وهنا تنبه سليمان لنعمة اللّه تعالى عليه فى إطلاعه على هذه الأسرار وتوفيقه لأن يكون رحيما بالضعفاء فقال: يارب اجعلنى لا أشغل نفسى إلا بشكر نعمتك التى أنعمت بها علىّ وعلى والدى من قبل، انظر الآية (١٨ وما بعدها) من سورة ص صفحة ٥٩٩ وإلا بعمل الصالح الذى ترضاه، وأدخلنى برحمتك فى عداد الصالحين.

وفى أثناء الطريق تفقد الجند فلم ير الهدهد، فقال: ما الذى منعنى من رؤية الهدهد؟ أى هل هو حاضر ولم أره؟ ثم قطع بأنه غائب فتوعده بقوله: واللّه لأعذبنه عذابا شديدًا كنتف ريشه وحبسه فى مكان ضيق أو لأذبحنه إلا إذا جاءنى ببرهان واضح على عذره فى الغياب، فمكث الهدهد غائبًا مدة غير طويلة، ثم حضر فقال:

أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾
إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ
ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا
تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۩
* قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾
ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ
مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ
إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ
ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾

المفردات: . ﴿أحطت بما لم تحط به﴾: الإحاطة بالشيء علما هى علمه من جميع جهاته، انظر الآية (٩١) من سورة الكهف صفحة ٣٩٣، أى علمت علما تاما بأشياء لم تعلمها، ولا مانع من أن يعلم التابع ما لم يعلمه متبوعه، انظر العبد الصالح مع موسى عليه السلام فى صفحة ٣٩٠ . ﴿سبأ﴾: أصل هذا الاسم اسم جد قبيلة، ثم أطلق على القبيلة نفسها وعلى مساكنها أيضًا. ﴿نبأ﴾: خبر مهم. ﴿امرأة﴾: هى بلقيس.

﴿تملكهم﴾: أى ملكة عليهم. ﴿عرش﴾: سرير الملك. ﴿ألا يسجدوا﴾: ﴿ألا﴾ كلمة مركبة من ﴿أن﴾ الناصبة، و﴿لا﴾ النافية. والأصل ﴿لئلا﴾ والمعنى: زين لهم الشيطان أعمالهم لأجل ألا يسجدوا... إلخ. أى ليبتعدوا عن السجود والخضوع لله تعالى، فهى وما بعدها حتى ﴿رب العرش العظيم﴾ من كلام الهدهد. ﴿الخبء﴾: كل مخبوء فى السماء كالمطر، وفى الأرض كالكنوز والنبات وغيرها. ﴿رب العرش﴾: انظر الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١، ويطلب من القارئ والسامع أن يسجد عند الفراغ من تلاوة كلمة ﴿العظيم﴾. هنا سجدة. ﴿يرجعون﴾: المراد: ما الذى يرجع بعضهم إلى بعض فيه من القول عند التشاور. ﴿الملأ﴾: زعماء القوم، انظر الآية (١٠٩) من سورة الأعراف صفحة ٢١٠ . ﴿كريم﴾: محترم لأنه كان مختومًا بختم صاحبه. ﴿الرحمن﴾: هو الذى وسعت رحمته وإحسانه كل شىء فى هذه الحياة الدنيا، من مؤمن وكافر،

---

(١) سبأ. (٢) بنبأ. (٣) الشيطان. (٤) أعمالهم. (٥) الكاذبين.
(٦) بكتابى. (٧) الملأ. (٨) كتاب. (٩) سليمان

وكل ذى روح من دابة تدب على وجه الأرض، أو طائر يطير بجناحيه، أو غير ذلك، روى البخارى فى كتاب الأدب أن النبى ﷺ قال: «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل فى الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه». ﴿الرحيم﴾: هو الذى يتفضل على المؤمنين برحمة خاصة، انظر شرح الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧، فمنها أنه يوفقهم لما يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ليفوزوا بالسعادة الخالدة، انظر الآية (٤٣) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٦، ومنها التفضل على بعض عباده باختيارهم رسلاً له إلى عباده، انظر شرح آيتى (٧٣، ٧٤) من سورة آل عمران صفحة ٧٤ . ﴿ألا تعلوا﴾: ﴿ألا﴾ كلمة مركبة من ﴿أن﴾ حرف تفسير، و﴿لا﴾ الناهية والمعنى: أن مضمون خطاب سليمان: لا تتعالوا وتتكبروا، انظر الآية (١٩) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧ . ﴿مسلمين﴾: منقادين خاضعين.

المعنى: فحضر الهدهد بعد قليل وقال إنى علمت ما لم تعلم يا نبى الله، ثم شرع يبين ذلك فقال: وجئتك من سبأ بخبر مهم محقق، ثم شرحه بقوله: إنى وجدت امرأة ملكة عليهم، وأعطيت من كل شىء يحتاج إليه الملوك، ولها عرش عظيم تجلس عليه عند النظر فى شئونها؛ وجدتها وقومها فى ضلال حيث عبدوا الشمس دون توحيد الله بالعبادة كما عبد مشركو العرب الأصنام ، وسبب ذلك أن الشيطان زين لهم من الكفر والمعاصى فمنعم عن طريق الحق فصاروا لا يهتدون إليه أبدا، وإنما منعهم الشيطان عن ذلك لئلا يسجدوا أى ليبتعدوا عن السجود والخضوع لله الذى يستحق ذلك وحده، لأنه هو وحده الذى يخرج للإنسان وغيره الخير من السماء والأرض الذى لا يعنه غيره، ويعلم ما تخفون أيها العباد وما تعلنون، وهو الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم بالنسبة إلى كل مخلوق فى السموات والأرض. قال سليمان: سننظر هل أنت صادق فيما تقول أم كنت من المعتادين على الكذب؟ ثم كتب سليمان إلى بلقيس وقومها كتابا، وقال للهدهد اذهب بكتابى هذا فألقه ثم تنح قريبا منهم واستمع مراجعة الملكة وقومها، فقام بما كلف به، فلما قرأته بلقيس جمعت رؤساء الجند وكبار قومها وقالت: يأيها الملأ إنى ألقى إلىّ كتاب، فسألوها ممّنْ هذا الكتاب وما مضمونه؟ فقالت إنه من سليمان، وإنه مفتتح باسم الله الرحمن الرحيم، ومضمونه لا تعلوا علىَّ وأتونى مسلمين خاضعين.

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟[1] أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً
أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ
شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ
ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ
أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ
فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ[2] قَالَ
أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ[3] ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم[4] بَلْ أَنتُم
بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ
لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ[5] ﴿٣٧﴾
قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟[6] أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى
مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ[7] بِهِۦ
قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾

المفردات: ﴿تشهدون﴾: أى تحضرون، والمراد بمشهد منكم.

﴿أولو قوة﴾: أى أصحاب قوة فى الأجسام والعدد وآلات الحروب.

﴿بأس﴾: شجاعة وصلابة فى الحرب.

﴿فناظرة﴾: منتظرة .

﴿أتمدونن بمال﴾: الهمزة للاستفهام التوبيخى، أى هل يصح أن تعطونى مالا؟

﴿بل﴾ حرف يدل على الانتقال من موضوع إلى موضوع، وهنا انتقل من الكلام على الإمداد بالمال إلى الحديث عما حملهم على ذلك.

﴿ارجع إليهم﴾: هذا خطاب لرئيس الوفد.

﴿لا قبل لهم بها﴾: أصل القبل القدرة على المقابلة والمجازاة بالمثل، والمراد هنا الطاقة والقدرة.

﴿أذلة﴾: بعد ذهاب الملك. ﴿صاغرون﴾: أسرى مسترقون. ﴿مسلمين﴾: خاضعين.

﴿عفريت﴾: هو من الجن المارد القوى، والعرب تقول للرجل الشديد إذا كان فيه خبث ودهاء: فلان عفريت. وقد سخر سبحانه الجن لنبيه سليمان فقط ولم يسخره لأحد بعده، انظر الآية (١٢) وما بعدها من سورة سبأ صفحة ٥٦٤، والآية (٣٥) وما بعدها من سورة ص صفحة ٦٠١ .

---

(١) الملأ. (٢) سليمان. (٣) آتانى. (٤) آتاكم.
(٥) صاغرون. (٦) الملأ. (٧) آتيك.

﴿مقامك﴾: مجلسك للحكم بين الرعية، وكان يجلس من الضحوة إلى نصف النهار.

المعنى: بعدما فرغت بلقيس من بيان ما فى الكتاب قالت: يأيها الملأ أفتونى فى الأمر فإنى لا أبت فى أمر إلا بحضوركم.

قالوا نحن أصحاب عدد كثير ومعدات عظيمة وأصحاب شجاعة والأمر موكول إليك فانظرى ما تأمرين به من القتال أو الصلح فإنا لا نخالف لك أمرًا. قالت: إن الملوك إذا دخلوا قرية قهرًا أفسدوها بتخريب عمارها وإتلاف أموالها، وصيروا أهلها أذلاء بالأسر والتشريد، وكذلك سيفعلون معنا لأن هذا هو دأبهم دائمًا وإنى سأرسل إلى سليمان وقومه هدية من نفائس الأموال وانتظر ما الحال الذى سيرجع به مَنْ نرسلهم بها، فإن قبلها كان ملكا ويجب أن نحاربه لأن شره لا يندفع إلا بذلك، وإن لم يقبلها كان نبيًا، والنبى مصلح لا يخشى منه، فخير لنا أن نطيعه لأنه لا يرضى منا إلا ذلك، فلما جاء الوفد بالهدية إلى سليمان قال موبخًا لهم: لست محتاجًا لما لكم، لأن ما أعطانى اللّٰه من النبوة والملك الواسع وتسخير الجن والطير كل هذا خير مما عندكم.

ثم انتقل من إنكار إمدادهم له بالمال إلى بيان ما حملهم على ذلك من قياس حاله عليه السلام على حالهم من حب الدنيا وحصرهم فيها، فالمعنى بل أنتم الذين تفرحون بما يهدى إليكم لتفانيكم فى حب الدنيا. ثم وجه الخطاب لرئيس الوفد فقال: أرجع بالهدية إلى بلقيس وقومها فواللّٰه لنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بمقاتلتها، ولنخرجنهم من سبأ أذلة وهم محتقرون. ولما رجع الوفد بالهدية وعلمت بلقيس أنه ليس ملكا قررت التوجه إليه مع أشراف قومها. ولما علم سليمان بذلك أراد أن يريها بعض ما خصه اللّٰه تعالى به من العجائب الدالة على صدق دعوته وليختبر عقلها فقال: يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يصلوا إلىَّ خاضعين؟ قال مارد من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك وإنى لقوى على حمله أمين، لا أضيع منه شيئًا.

وقد اتفق العلماء على أن الجن بصورته الحقيقية لا يراه إلا اللّٰه، فالذى كان يكلم سليمان كان فى صورة إنسان.

قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ
أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا
مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا
يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)
قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ
لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ
كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)
وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ
كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ
لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن
قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ

المفردات: ﴿الذى عنده علم من الكتاب﴾: اختار الإمام الرازى إنه سليمان نفسه، وعبّر عنه بذلك لبيان منشأ تفوقه فى القدرة على غيره. ﴿الكتاب﴾ هو اللوح المحفوظ المشتمل على ما فى الكون من أسرار يسخر الله بها الملائكة لعمل العجائب كما حصل لقوم لوط، انظر صفحة ٣٤٢ . ﴿طرفك﴾: يطلق الطرف على تحريك جفن العين، والمراد هنا الجفن نفسه، قاله الراغب. ﴿ليبلونى﴾: أصل البلاء والابتلاء هو الاختبار، والمراد ليعاملنى معاملة المختبر. ﴿نكروا لها عرشها﴾ أى غيروا أوضاع بعض أجزائه حتى يكون منكرا عندها أى غريبا غير معروف. ﴿الصرح﴾ هو كل بناء مرتفع سواء أكان قصرًا كما هنا أم غيره كما فى قوله تعالى عن حديث فرعون ووزيره هامان ﴿فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى﴾ الآية (٣٨) من سورة القصص صفحة ٥١٢ . وكان لسليمان عليه السلام قصر جعل أرض أبهائه من الزجاج المموج الذى يحاكى تموجات المياه الصافية. ﴿فلما رأته﴾: المراد رأت بعض أجزاء الصرح وهى أرضه. وإطلاق الكل وإرادة الجزء من أجزائه كثير فى كلام العرب. يقول أحدهم رأيت محمدًا، وهو لم ير إلا وجهه فقط، ويقول أمسكت بعلىّ وهو لم يمسك إلا يده. ﴿حسبته﴾: ظننت ما رأته من الزجاج. ﴿لجة﴾: أى ماء كثير يعلوه موج. ﴿ممرد﴾: أى مملس مصقول بطرق خاصة تقول العرب هذه شجرة ممردة أى

---

(١) الكتاب. (٢) آتيك. (٣) رآه. (٤) الشكر.
(٥) كافرين. (٦) سليمان. (٧) العالمين.

ليس عليها ورق، ومنه شاب أمرد أى لم ينبت فى وجهه لحية. ﴿قوارير﴾: جمع قارورة وهى القطعة من الزجاج.

المعنى: بعدما قال الجنى أنا آتيك بالعرش قبل أن تقوم من مجلسك، استبطأه سليمان الذى أطلعه الله على بعض أسرار الكون، فقال له: أنا آتيك به قبل أن تغمض عينك، وجاء به فعلا، فلما رآه ثابتا أمامه تذكر فضل اللّٰه تعالى عليه، فأسرع بالاعتراف به فقال: هذا من فضل ربى بلا حول منى ولا قوة، فعله سبحانه ليظهر للناس هل أنا عبد شكور أعرف قدر نعمه أم أكفر بها فأقصر فى شكره عليها، ومَنْ شكر ففائدة شكره تعود عليه بالسعادة والنعيم، ومَنْ كفر بترك الشكر فاللّٰه ليس فى حاجة إليه، لأنه سبحانه غنى عن شكره، كريم ينعم بدون مقابل، انظر الآية (٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٠ .

ثم أراد سليمان أن يختبر عقلها ودقة نظرها ويشعرها بقوته فقال: غيروا لها شكل عرشها مع بقاء أجزائه لننظر أتهتدى للصواب فتعرفه أم تكون من البلهاء. فلما وصلت أطلعوها على العرش وقالوا لها هل عرشك مثل هذا؟ أجابت بما دل على فطنتها فقالت: كأنه هو، ولم تقطع. ولما سمع سليمان إجابتها الدقيقة أدرك أنها بدأت تعلم قدرة إله سليمان ووحدانيته وصحة نبوة سليمان بسبب ما تكرر عليها من العجائب الخارجة عن طاقة البشر كرسالة الهدهد وإحضار عرشها بهذه السرعة من مسافات بعيدة.

عند ذلك بادر سليمان بشكر اللّٰه على نعمته عليه وعلى مَنْ آمن به بتوفيقه لهم إلى السبق بالصواب فقال: وأعطانا اللّٰه العلم النافع من قبل علمها، ولم نتحول عن الإسلام: أما هى فقد منعها عن الحق عبادتها للشمس مدة طويلة دون أن تفرد اللّٰه تعالى بالعبادة، وسبب وقوعها فى ذلك أنها كانت من قوم راسخين فى الكفر. ثم أراد سليمان أن يزيدها استعظامًا لأمره وتحقيقًا لنبوته وتثبيتًا لها على ما ظهر لها من الحق فقال: ادخلى هذا القصر، فلما رأت طريقه ظنته لجة ماء لصفاء غطائه من الزجاج، فكشفت ثوبها عن ساقيها خوف البلل. عند ذلك قال لها سليمان: إن هذا الذى ظننته ماء طريق صرح مصقول مأخوذ من الزجاج. عند ذلك تكاملت عندها البراهين على الصواب فقالت: يارب إنى ظلمت نفسى بعبادة غيرك، وأسلمت مع سليمان للّٰه رب العالمين. وبعدما بينّ سبحانه أن مَنْ آمن برسوله سليمان نجا، شرع فى قصة نبى آخر وما حصل لقومه من هلاك عندما كفروا به فقال سبحانه: ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا﴾ إلى آخر ما تقدم فى صفحة ٤٨٨ .

صَٰلِحًا[1] أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ[2] لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا
تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن
مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ[3] عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾
وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا
يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ
لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ[4] ﴿٤٩﴾
وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ[5] مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ[6] وَقَوْمَهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَءَايَةً[7] لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا[8] وَكَانُوا
يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَٰحِشَةَ[9] وَأَنتُمْ

المفردات: . ﴿أن اعبدوا الله﴾: المراد أرسلناه برسالة هى الأمر بعبادة الله. ﴿فإذا هم فريقان﴾: مؤمنون وكافرون، انظر الآية (٧٥) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٤، ٢٠٥ ﴿يختصمون﴾: جمع ضمير الفريقين باعتبار تعدد أفراد كل فريق.

﴿لولا﴾: المراد بهذا الحرف هنا هو طلب حصول الفعل المذكور بعده، انظر معانيه فى الآية (٤٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ . ﴿اطيرنا بك﴾ أى تشاءمنا بك، انظر الآية (١٣١) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢ .

﴿طائركم عند الله﴾: أى شؤمكم يأتيكم من عند الله على عملكم السيىء، انظر الآية السابقة. ﴿بل﴾: حرف اضراب أى انتقال من كلام إلى آخر.

﴿تفتنون﴾: تمتحنون بتعاقب الشر والخير عليكم. ﴿المدينة﴾: هى الحجر بكسر فسكون، انظر الآية (٨٠) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣ . ﴿تسعة رهط﴾: الرهط اسم جمع لا مفرد له من لفظه، وهو من الثلاثة إلى العشرة ، فكأنه قال: تسعة رجال هم الرهط، وكانوا من أبناء زعمائهم ﴿تقاسموا بالله﴾: أى أمر بعضهم بعضا بأن يقسموا بالله ﴿لنبيتنه﴾: لنقتلنه بياتا أى ليلا، انظر بياتا فى صفحات ١٩٢، ٢٠٨، ٢٧٤ . ﴿ما شهدنا﴾: أى ما حضرنا. ﴿مهلك﴾: مكان هلاك. ﴿ومكروا﴾ إلخ: دبروا فى الخفاء. ﴿أنا دمرناهم﴾: أى أهلكناهم. ﴿خاوية﴾: خربة ليس بها أحد. ﴿الآية﴾: لعبرة وعظة.

---

(١) صالحا. (٢) يا قوم. (٣) طائركم.
(٤) لصادقون. (٥) عاقبة. (٦) دمرناهم.
(٧) لآية. (٨) آمنوا (٩) الفاحشة

المعنى: ـ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم فى النسب صالحا، ففاجأه انقسامهم إلى فريقين كافر ومؤمن، يتخاصم أفراد كل فريق مع أفراد الفريق الآخر فيقول كل: الحق معى، قال صالح: يا قوم لم تستعجلون بالعقوبة التى تسوءكم، فتقولون ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، انظر صفحة ٢٠٥ قبل التوبة الحسنة التى فيها نجاتكم، فهلا تستغفرون اللّه أى أرجوكم أن ترجعوا إلى ربكم لعلكم ترحمون برفع العذاب. قالوا تشاءمنا بك وبمن معك لأنه حصل لنا قحط وشدة فى زمنكم، قال: ما حلَّ بكم علمه عند الله. وهو أعلم بأسبابه التى فعلتموها.

ثم انتقل من بيان ما حلَّ بهم إلى بيان الحكمة فيه، فقال: بل أنتم قوم تفتنون بالخير هل تشكرون، وبالشر هل تصبرون، انظر الآية (٩٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٨، والآية (٣٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤ . ثم أراد سبحانه أن يبين سبب تغلب الشر وأنه فساد الرؤساء كما فى الآية (١٢٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والآية (١٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، والآية (٦٧) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١ فقال سبحانه: وكان فى المدينة تسعة رجال يفسدون فى الأرض وليس لهم إصلاح مطلقًا.

ثم بين بعض إفسادهم بقوله: ﴿قالوا﴾ إلخ: أى قال بعضهم لبعض تعالوا نقسم بالله لنقتلن صالحا ومَنْ آمن معه ليلا، ثم لنقولن لولى دمه واللّه ما حضرنا مكان هلاك أصحابه فكيف نشهد هلاكه هو، أى لا علم لنا بذلك، وإنا لصادقون فى قولنا. ودبروا هذا التدبير الخفى، ودبرنا نحن تدبيرا أحكم منه وهم لا يشعرون بما قدرناه لهم، انظر الآية (٢) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨، فانظر أيها السامع وتأمل حالة عاقبة مكرهم، ثم بيّنها بقوله: ﴿إنا دمرناهم﴾ إلخ: أى إنا أهلكناهم هؤلاء التسعة وقومهم الكافرين أجمعين، فهذه بيوتهم خربة بسبب ظلمهم لأنفسهم ونبيهم، إن فى هذا لعبرة وعظة لقوم يعلمون. أى فلو كان قومك أيها النبى عندهم علم صحيح لا تعظوا. وأنجينا الذين آمنوا باللّه وبرسالة صالح، وكانوا يتقون اللّه فلم يفعلوا ما يغضبه. واذكر أيها النبى لقومك أيضًا قصة لوط حين قال لقومه هل يصح أن تغفلوا الفاحشة إلى آخر ما أشير فى صفحة ٤٨٩، ولا تغفل عما تقدم فى شرح الآية (٧) من هذه السورة صفحتى ٤٩٤، ٤٩٥ .

تُبۡصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ
ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ[1] لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ
أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ[2] وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ
قَدَّرۡنَٰهَا[3] مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ[4] ﴿٥٧﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ
مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ[5] عَلَىٰ عِبَادِهِ
ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ[6] خَيۡرٌ أَمَّا[7] يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ[8] وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا
بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ
أَءِلَٰهٞ[9] مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ
ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ[10] أَنۡهَٰرٗا[11] وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ[12]
وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ[13] مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ

المفردات: ﴿تبصرون﴾: أى يشاهد بعضكم حال ارتكاب الفاحشة، وهذا منتهى الاستهتار بالفضائل الدال على فقدان الحياة. ﴿قريتكم﴾: هى سدوم ﴿يتطهرون﴾: أى يبتعدون عن القذارة. قالوا ذلك استهزاء كما تقدم فى صفحة ٢٠٥ . ﴿الغابرين﴾: الهالكين، انظر شرح الآية (٨٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٦ . ﴿أمطرنا عليهم﴾: المراد أنزلنا عليهم حجارة، انظر صفحتى ٢٠٦، ٣٤٣ . ﴿فساء﴾: أى فقبح. ﴿المنذرين﴾: الذين أنذرهم أى حذرهم رسولهم. ﴿الله خير﴾: بمد همزة الاستفهام، والأصل أالله، أى هل الله خير إلخ. ﴿أما يشركون﴾: أصل أمَّا ﴿أم ما﴾ أى أم الذى يشركونه مع الله.

﴿فأنبتنا﴾: لم يقل أنبت، وجاء بضمير المتكلم للإشارة إلى بديع الصنع فيما ذكر، انظر الآية (٩٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩، والآية (٥٣) من سورة طه صفحة ٤١٠ . ﴿حدائق﴾: جمع حديقة وأصلها البستان المحاط بسور، فهو مأخوذ من الإحداق وهو الإحاطة. ﴿يعدلون﴾: من العدول عن الشىء بمعنى تركه. فالمراد يبعدون عن الصواب. ﴿قرارا﴾: أى مكان استقرار لكل مَنْ عليها. ﴿خلالها﴾: جمع خلل بفتحتين وهو ما توسط شيئين. فالمراد وسطها.

﴿بين البحرين﴾: أى العذب والمالح. ﴿حاجزا﴾: تقدم فى الآية ٥٣ من سورة الفرقان صفحة ٤٧٦ .

---

(١) آل. (٢) فأنجيناه. (٣) قدرناها. (٤) الغابرين.
(٥) وسلام. (٦) آلله. (٧) أم ما. (٨) السموات
(٩) أإله (١٠) خلالها (١١) أنهارا (١٢) رواسى
(١٣) أإله.

المعنى: . إنه بلغ من فُجر قوم لوط أنهم يفعلون الفاحشة علنا ولا يستحى الواحد منهم أن يراه الآخر، انظر ذلك وبقية جرائمهم فى الآية (٢٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤، ثم بين سبحانه تلك الفاحشة مع تكرار الإنكار والتأكيد الدال على أنها بلغت من القبح حدًا لا يصدق أحد بلوغه فقال: أئنكم لتأتون الرجال لأجل مجرد الشهوة كالبهائم التى لا تقصد معها نسلا متجاوزين النساء المخلوقات لذلك.

ثم نقل سبحانه الكلام إلى بيان منشأ هذا الإجرام الفظيع فقال: بل أنتم قوم تجهلون العاقبة الوخيمة المعدة لكم وهى نار جهنم. فما كان جوابهم على هذا النصح الخالص إلا قولهم أخرجوا أصحاب لوط الذين اتبعوه، أى وهو من باب أولى من قريتكم؛ لأنهم زاهدون متقشفون. فماذا كانت النتيجة بعد ذلك؟ قال سبحانه: فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرنا كونها من الهالكين، وأنزلنا عليهم حجارة محماة بعد خسف القرية بهم كما فى الآية (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣، فبئس هذا المطر لمَنْ أنذرهم نبيهم فلم يتنبهوا.

﴿قل الحمد لله﴾ إلخ: يلاحظ فى الإرشادات الإلهية أنها تنبه العباد لحمده تعالى على صدق وعده، وعلى قطع دابر المفسدين فى الأرض، وعلى إنجاء الصالحين انظر الآية (٤٥) من سورة الأنعام صفحة ١٦٩، والآية (٢٨) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٨، والآية (٣٤) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦، والآية (٧٤) من سورة الزمر صفحتى ٦١٦، ٦١٧ . وقل أيها النبى أنت والمؤمنون: سلام على عباد الله الذين اصطفاهم وهم الرسل عليهم السلام كما فى الآية (١٨١) من سورة ص صفحة ٥٩٧، وبعد ما فرغ سبحانه من قصص الأنبياء وأممهم. وبخ المشركين من العرب بقوله: هل الله خير لهم لأنه هو الذى خلقهم ورزقهم أو ما يشركونه معه من الأصنام التى لا تضر ولا تنفع؟ هل مَنْ خلق السموات والأرض وأنزل من السماء مطرا فأنبت به حدائق ذات بهجة ليس فى إمكانكم أن تنبتوا شجرها؛ هذا الإله صاحب هذه القدرة خير لكم أم الجمادات التى تعبدونها؟ هل هناك إله مع الله يجعل شريكا له؟ كلا بل هؤلاء المشركون بعملهم هذا يعدون عن الحق، بل هل مَنْ جعل الأرض قرارا، وجعل وسطها أنهارا لدوام الانتفاع بها إذا لم ينزل المطر، وجعل لها الجبال رواسى لئلا تهتز، انظر الآية (٣١) من سورة الأنبياء صفحة (٤٢٣)، وجعل بين البحرين حاجزا من الأرض فلا يختلطان؛ هذا الإله خير أم أصنامكم؟ ثم أكد توبيخهم بقوله: هل هناك إله مع الله حتى تشركوه به؟ كلا بل فعلوا ذلك لأن أكثرهم جهلة لايفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك، وقليل منهم يعلم ويعاند.

لا يعلمون (٦١) أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف
السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا
ما تذكرون (٦٢) أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر
ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أءله مع الله
تعالى الله عما يشركون (٦٣) أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده
ومن يرزقكم من السماء والأرض أءله مع الله قل
هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين (٦٤) قل لا يعلم من
في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون
أيان يبعثون (٦٥) بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم
في شك منها بل هم منها عمون (٦٦) وقال الذين كفروا
أءذا كنا ترابا وءاباؤنا أئنا لمخرجون (٦٧) لقد
وعدنا هذا نحن وءاباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير

المفردات: . ﴿المضطر﴾: المراد به هنا الذى تلجئه الشدة إلى الضراعة إلى الله. ﴿خلفاء الأرض﴾: الأصل خلفاء فى الأرض، أى يخلف بعضكم بعضا قرنا بعد قرن. ﴿بين يدى رحمته﴾: أى أمام وقبيل، ورحمته المراد بها هنا المطر الذى ينقذهم من القحط والعطش. ﴿لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله﴾: أى لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض شيئًا من الغيب، لكن الله وحده هو الذى يعلم، انظر الآية (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١ .

﴿أيان﴾: متى. ﴿بل﴾: حرف يفيد الانتقال من بيان حال من أحوال الكفار إلى بيان حال آخر لهم أشد. ﴿ادارك﴾: أصله تدارك، والعرب لما أدغمت التاء فى الدال جاءت بالألف فى أوله ليمكن النطق به، يقال تداركت الأشياء، أى أدرك بعضها بعضا، أى تتابعت، والمراد تتابعت أسباب علمهم بأن القيامة لابد منها ولكنهم لم يلتفتوا إليها، انظر الآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦، والآية (٣٦) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠ . ﴿منها عمون﴾: عمون جمع عم بفتح أوله وكسر آخره منونا بوزن أب، والمراد به أعمى القلب، أى أنهم عمى، وعماهم ناشئ من كفرهم بها. ﴿إن هذا﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾. ﴿أساطير﴾: أى أكاذيب انظر شرح الآية (٢٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٥، ١٦٦ .

---

(١) أإله. (٢) ظلمات. (٣) الرياح.
(٤) أإله. (٥) تعالى. (٦) يبدأ.
(٧) أإله. (٨) برهانكم (٩) صادقين
(١٠) السموات (١١) ادارك (١٢) الآخرة
(١٣) إذا. (١٤) ترابا (١٥) آباؤنا
(١٦) أإنا (١٧) آباؤنا (١٨) أساطير.

المعنى: وقل أيها النبى لكفار قومك هل مَنْ يجيب دعاء المضطر إذا لجأ إليه ويدفع عنه السوء ومَنْ يجعلكم خلفاء مَنْ سبقكم من الأمم فى الأرض، تنتفعون بخيراتها خير، أم آلهتكم الباطلة؟ ثم أكد جهلهم بقوله: ﴿أإله مع الله﴾ إلخ: أى هل هناك إله مع الله يفعل ذلك؟ كلا، ولكنكم قليلاً جدا ما تذكرون نعمة الله عليكم ولذا أشركتم به فى العبادة.

ثم زادهم توبيخا من ناحية أخرى فقال: ﴿أمَّن يهديكم﴾ إلخ: أى هل مَنْ يهديكم بالنجوم فى ظلمات البر والبحر كما فى الآية (٩٧) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨، ومَنْ يرسل الرياح مبشرات لكم قبيل نزول المطر الذى هو رحمة منا لكم خير أم آلهتكم التى لا تقدر على شىء؟ فهل هناك إله مع الله فعل هذا؟ كلا، تنزه سبحانه عن شرككم.

وقل لهم أيها النبى: هل مَنْ ينشئ الخلق أول مرة ثم يعيده بعد الموت للحساب والجزاء خير أم آلهتكم؟ وإنما احتج عليهم بالإعادة مع أنهم ينكرونها لأن اعترافهم بأنه هو الذى أنشأهم يلزمه قطعا أنه يعيدهم لأنه إله حكيم لا يخلق الناس عبثا كما تقدم، وبدليل ما سيأتى فى الآية (٦٦) هنا، ولهذا ألزمهم بذلك فى الآية (٧٨) وما بعدها من سورة يس صفحة ٥٨٦، وقل لهم مَنْ يرزقكم بكل رزق سماوى من مطر وغيره مما لا يعلمه إلا العلماء المختصون، وبكل رزق أرضى خير أم آلهتكم؟ فاستدل عليهم.

أولاً بأنه هو الذى يبشرهم بالمطر،.

وثانيا بأنه هو الذى ينزله فعلا كما ينزل غيره، هل هناك مع الله مَنْ يفعل ذلك؟ كلا. قل لهم أيها النبى هاتوا برهانكم على أن مع الله إلها غيره إن كنتم صادقين فيما تقولون.

ولما تعرض فيما سبق لإعادة الخلق عند قيام الساعة، وكان الكفار ينكرونها ويلحون فى طلب معرفة زمانها كما فى الآية (٧١) الآتية أمر سبحانه نبيه أن يقول لهم: لا يعلم الغيب الذى من ضمنه وقت قيام الساعة أحد من أهل السموات والأرض، ولكن الذى تفرد بعلم الغيب كله هو الله سبحانه، وما يشعر أحد فى أى زمان يبعث.

روى البخارى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت: مَنْ زعم أن محمدًا ﷺ يعلم ما فى غد فقد أعظم على الله الفرية، أى الكذب، ثم قرأت: ﴿قل لا يعلم مَنْ فى السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ والله سبحانه يطلع رسله على ما يشاء من الغيب كما فى آيتى (٢٦، ٢٧) من سورة الجن صفحتى ٧٧٢، ٧٧٣ .

وبعدما بينَّ سبحانه أن العباد لا يعلمون الغيب، وكان فى ذلك تقرير لعجزهم وقصور علمهم، انتقل من ذلك إلى بيان أن عند الكافرين عجزًا مزريا وهو جهلهم بما لا يصح أن يجهل بعد تكامل أسباب علمه عندهم وهو قيام الساعة فقال:

﴿بل ادارك﴾ أى تكامل لهم أسباب علمهم فى شأن الآخرة وأنها آتية قطعا، ومع ذلك أغفلوا هذه الأسباب.

ثم انتقل إلى ما هو أبشع من الإغفال وهو الحيرة فقال: بل هم فى شك من جميع أمور الآخرة لا فى وقتها فقط، تصدمهم الأدلة عليها فيهربون منها تارة بإنكارها تقليدا للآباء، وأخرى بتمنية نفوسهم بالخلاص من هولها إذا وقعت، انظر الآية (٣٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦، والآية (٥٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧ .

ثم انتقل من الحيرة والشك إلى ما هو أفظع وهو عمى البصيرة الذى لا يهتدى صاحبه إلى حق مطلقا، فقال بل هم من أحوالها فى عمى شديد.

وبعدما بيَّن سبحانه جهلهم بالآخرة وعماهم عنها أتبع ذلك بما يقولونه فى إنكارها فقال: وقال الذين كفروا بالله وبكتابه فى أسلوب تهكمى: هل نخرج من القبور بعد أن صرنا ترابا نحن وآباؤنا؟ ثم كرروا التهكم فقالوا: هل إنا حقا مخرجون؟

ثم ذكروا منشأ زعمهم فقالوا: لقد وعدنا نحن على لسان محمَّد، ووعد آباؤنا بمثله من قبل على لسان غيره ممَنْ يدعون أنهم أتباع رسل جاءوا قبل محمَّد عليه الصلاة والسلام، ولم يتحقق شىء من هذه الوعود، ما هذا الوعد إلا أسطورة مما سطره الأولون من الأكاذيب فى كتبهم فلا حقيقة له.

الأولين ﴿٦٨﴾ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف
كان عـٰقبة⁽¹⁾ المجرمين ﴿٦٩﴾ ولا تحزن عليهم ولا تكن
في ضيق مما يمكرون ﴿٧٠﴾ ويقولون متى هـٰذا الوعد
إن كنتم صـٰدقين⁽²⁾ ﴿٧١﴾ قل عسى أن يكون ردف
لكم بعض الذي تستعجلون ﴿٧٢﴾ وإن ربك لذو فضل
على الناس ولـٰكن أكثرهم لا يشكرون ﴿٧٣﴾ وإن
ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴿٧٤﴾
وما من غائبة⁽³⁾ في السماء والأرض إلا في كتـٰب⁽⁴⁾
مبين ﴿٧٥﴾ إن هـٰذا القرءان⁽⁵⁾ يقص على بني إسرٰءيل⁽⁶⁾
أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴿٧٦﴾ وإنه لهدى ورحمة
للمؤمنين ﴿٧٧﴾ إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز
العليم ﴿٧٨﴾ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴿٧٩﴾

المـفـردات: ﴿ضـيـق﴾: بفـتـح أوله هـو الضـيق بكسـر أوله، وهو انقبـاض الصـدر ﴿عـسـى﴾: قـال الزمـخـشـرى: عـسى ولعل وسـوف فى وعـود الملوك تفـيـد القطع بمـا بعـدها، وإنمـا يقـولونهـا إظهـارا لوقـارهم وإشعارا للسـامع بأن الرمز منهم كـالتصـريح من غـيـرهم. ﴿ردف لكم﴾: أصل مـعنى ردف تبع وقـرب، والمـراد قـرب لاحـقـا لـكم ولابد، انظر الآية (٩) من سـورة الأنـفـال صـفـحـتى ٢٢٨،٢٢٧ ﴿من غـائبـة﴾: ﴿من﴾ لـتـأكـيـد العموم فيما بعدها، ﴿غائبة﴾ التاء فى غائبة كـالتـاء فى خـافـيـة فى الآية (١٨) من سـورة الحاقة صفحة ٧٦٢، والتاء فيها للمبالغة فى معناها كالتاء فى الراوية وهو الرجل الذى يكثر من رواية الشعر، وكالعلامة أى كثير العلم.

المعنى: . بعدما بيَّن سبحانه غفلتهم عن الآخرة وعماهم عنها الذى جرأهم على كل منكر ظانين أنه لا حساب ولا عقاب بعد هذه الحياة، أراد سبحانه أن يهددهم على هذا التكذيب مع توافر الأدلة على بطلان ما يزعمون، ويخوفهم بأن ينزل بهم مثل ما ينزل بالمكذبين قبلهم فى الجملة لأنه ليس عذاب استئصال كما حصل للأمم السابقة لأنه سبحانه منعه عن أمة خاتم الرسل، انظر الآية (٣٣) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، فقال: قل لهم أيها النبى سيروا فى الأرض فانظروا على أى حال كانت نهاية المجرمين أمثالكم الذين كذبوا رسلهم وأنكروا اليوم الآخر، ثم صبر سبحانه رسوله ووعده بالنصر فقال: ولا تحزن على عدم إيمانهم، ولا تكن فى ضيق صدر من مكرهم وكيدهم لك فإنى عاصمك منهم، انظر الآية (١٢٧) وما بعدها من

(١) عاقبة (٢) صادقين (٣) غائبة
(٤) كتاب (٥) القرآن (٦) إسرائيل.

سورة النحل صفحة ٣٦٣، والآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠، والآية (٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٧٩ . ثم بيَّن سبحانه أن هؤلاء الكفار بلغ من تبجحهم أنهم يوجهون إليه ﷺ بطريق التهكم السؤال عن هذا العذاب الذى يتوعدهم به فقال:ويقولون متى يحصل هذا العذاب الموعود به إن كنت صادقا يا محمَّد أنت ومَنْ اتبعك؟ قل لهم عسى أن يحصل لكم قريبا بعض العذاب الذى تستعجلون وقوعه، وقد وقع يوم بدر هذا البعض، ثم تتابع الأسر والقتل حتى محا الكفر من البلاد نهائيًا، وما ينتظرهم فى الآخرة أدهى وأمر. ثم أكد سبحانه جهلهم فى هذا الاستعجال الذى سيحرمهم من التمتع بالحياة الدنيا إلى آخر أعمارهم فقال: ﴿وإن ربك لذو فضل على الناس﴾ بعدم تعجيل أهلاكهم على ذنوبهم ليفسح لهم مجال التوبة ولكن أكثرهم لا يعرفون حق هذه النعمة ولهذا لا يشكرونه عليها، انظر الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣ . ولما طمأن سبحانه نبيه بعدم الخوف من كيدهم أكد ذلك بقوله ﴿وإن ربك ليعلم﴾ إلخ: أى يستوى فى علمه ما يخفونه من عداوتك وما يظهرون وسيجازيهم عليه، انظر آيتى (٩، ١٠) من سورة الرعد صفحة ٣٢٢ . ثم أكد إحاطة علمه سبحانه بكل شىء فقال ﴿وما من غائبة﴾ إلخ: أى وما من شىء مهما اشتد خفاؤه فى السموات والأرض إلا فى كتاب مفصل لكل ما فيه، انظر الآية (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١ . وبعدما أقام سبحانه الأدلة على وجوده ووحدته وعلى البعث واليوم الآخر، أراد أن يبين صحة رسالة نبيه محمَّد ﷺ وصدقه فيما جاء به فقال: إن هذا القرآن الذى يقرؤه محمَّد الأمى الذى لم يقرأ شيئًا من تفاصيل الأديان السابقة يقص على بنى إسرائيل حقيقة كثير مما اختلفوا فيه كالمسيح الذى قدسه النصارى واحتقره اليهود وكلهم من بنى إسرائيل، وكذا العزير الذى جعله بعض اليهود ابن الله وأنكر ذلك النصارى، ودعوى اليهود أن النار لن تمسهم إلا مدة قصيرة كما فى الآية (٨٠) من سورة البقرة صفحتى ١٥، ١٦ وخالفهم النصارى، إلى غير ذلك. وأن هذا القرآن لشديد الهداية وسبب رحمة للمؤمنين المنتفعين به، وأن ربك أيها النبى يقضى بين جميع المختلفين من المؤمنين والكافرين وبنى إسرائيل بعضهم مع بعض بعدله. وهو سبحانه العزيز أى الغالب الذى لا يعجزه شىء، العليم الذى لا يخطئ فى حكمه، فتوكل على اللَّه إنك على الحق المبين، أى لا تبال بهم جميعًا.

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا
وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى[1] ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ[2]
إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا[3] فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾
۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ
ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا[4] لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾
وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا
فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو[5] قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى[6]
وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ
ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ[7] لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ[8] لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ
فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[9] وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ

المفردات: . ﴿الموتى﴾: المراد بهم الكفار شبهوا بالموتى لعدم انتفاعهم بالأدلة انظر تفصيل ذلك فى الآية (١٢٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣ .

﴿مدبرين﴾: معرضين وهو مبالغة فى الانصراف.

﴿إن تسمع﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى لا، ويوضحها ما فى الآية (٢٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٤ .

﴿وقع﴾: يطلق الوقوع على سقوط الشيء وعلى حصوله، والمراد هنا حصول مضمون القول أى قرب وقوعه، وهذا المعنى يعبر عنه القرآن تارة ﴿بسبق﴾ كما فى الآية (٤٠) من سورة هود صفحة ٢٩٠، وتارة ﴿بحق﴾ كما فى آيات (١٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، و(٦٣) من سورة القصص صفحة ٥١٦، و(٢٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣، قال الراغب واستعمال لفظ الوقوع هنا لتأكيد وجوب حصول ما بعده، وأكثر ما جاء فى القرآن لوقوع العذاب والشدائد، وقلما يستعمل فى غيره كما فى الآية (١٠٠) من سورة النساء صفحة ١١٩ .

﴿القول﴾: المراد به هنا الكلام الإلهى الدال على وعيده تعالى للكافرين بالعذاب، انظر الآية (٣٣) من سورة يونس صفحة ٢٧١، والآية (٣١) من سورة الصافات صفحة ٥٨٩، والآية (٧١) من سورة الزمر صفحة ٦١٦، والآية (١٤) من سورة ق صفحة ٦٨٩ .

---

(١) بهادى (٢) ضلالتهم.
(٣،٤) بآياتنا. (٥) جاءوا
(٦) بآياتى. (٧) الليل
(٨) لآيات (٩) السموات

﴿دابة﴾: ورد فى بعض الأحـاديث أنها من عـلامات السـاعة. وقد أكثر قـصاص الآثار فى وصف هذه الدابة وبالغوا فى طولها وعرضها، واختلفوا فى زمان خروجها ومكانه، وتكلموا فى اللغة التى تكلم بها الناس ولغاتهم لا تحصر، واختلفوا هل هى حيوان غير إنسان أم إنسان حتى بلغ من سـخف بعضهم أن يدعى أنها هـى على بن أبى طالب كرم اللّٰه تعـالى وجهه؛ لكل هذا قال الألوسى: ﴿واختلف فيها اختلافات مضطربة يعارض بعضها بعضا﴾ فامتنعنا عن نقله حفظا للوقت من الضياع عبثا. والحق أن أمور الغيب لا يجب التصديق بها إلا إذا ثبتت بدليل قطعى الثبوت والدلالة. قال الراغب الأصفهانى: ﴿قيل الدابة هنا جمع داب بتشديد الباء وأصلها دابِبَه بباء مكسورة وأخرى مفتوحة وأدغمت إحداهما فى الأخرى فصارت دابَّه بوزن خائنة جمع خائن وكذا قافلة جمع قافل وهو الراجع من سفر، والمراد بالدابة هنا جمع من الأشرار الذين هم فى الجهل بمنزلة ﴿الدواب﴾ ويساعده ﴿أن شر الدواب عند اللّٰه الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ الآية (٢٢) من سورة الأنفال صفحتى ٢٢٩، ٢٣٠ والآية (١٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، وما ورد فى الحديث الصحيح من قوله ﷺ (إذا كان أمراؤكم شراركم فبطن الأرض خير من ظهرها) وقوله ﴿من الأرض﴾ إشارة إلى أن هؤلاء الأشرار كالحشرات التى توجد بطريق التولد من التراب لا من طريق التوالد والتناسل المعروف. وأن طبعهم سفلى ليس فيه من سمو العالم العلوى شىء. ومعنى تكليمهم الناس أنهم يأمرونهم فيطيعون، أى أنهم أصحاب الكلمة كما هو شأن كبار المجرمين مع غيرهم، انظر الآية (١٢٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والآية (٦٧) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١، وقوله: ﴿إن الناس كانوا﴾ إلخ: تعليل لاستحقاقهم العذاب، والأصل (لأن الناس إلخ) وورد عن ابن عباس قال: تكلمهم من الكلم بفتح فسكون وهو الجرح بفتح الجيم، فالتكليم التجريح الكثير، والمراد الإيلام للناس حسيا بما يصيبهم فى أجسامهم، ومعنويا بما يصيبهم فى أرزاقهم. ويصح على هذا أن يراد بالدابة كل الحشرات التى يبتلى بها الناس عند انتشار معاصيهم كالطاعون وغيره، ومثل ما حصل لقوم فرعون فى الآيات (١٣٣ إلى ١٣٥) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٢، ٢١٣ لقوله سبحانه ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ الآية (٣٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣ . وإنما ألجأنا إلى مخالفة عادتنا فى الاختصار فى هذا الموضوع الرغبة فى تنبيه

القارئ إلى خطر الإسرائيليات التى أدخلها اليهود على المسلمين حتى كادت تشوه صفاء الإسلام وسماحته. ﴿بآياتنا﴾: هى الآيات المنزلة فى الكتب السماوية، ويصح أن تشمل أيضًا الآيات الكونية المتضمنة معنى أن اللّه تعالى موجود واحد قادر، وأن رسله صادقون، انظر الآية (١٠٥) من سورة يوسف صفحة ٣١٩، والآية (٥٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧ . ﴿فوجا﴾: المراد بهم رءوس الكفر من كل أمة يقدمون على غيرهم فى العذاب، انظر الآية (٩٨) من سورة هود صفحة ٢٩٩، والآية (٦٩) من سورة مريم صفحة ٤٠٢ . ﴿يوزعون﴾: يجمع بعضهم إلى بعض ثم يساقون إلى المحشر.

﴿مبصرًا﴾: المراد يبصرون فيه، انظر الآية (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦ . ﴿ويوم ينفخ فى الصور ففزع مَنْ فى السموات﴾ إلخ: معطوف على ﴿يوم نحشر﴾ المتقدم فى الآية (٨٣)، وكذا عطف عليه ﴿وترى الجبال﴾ الآتى بعد هذه، فاليوم واحد، انظر ما قلناه فى ﴿إذا﴾ المكررة فى أول سورة التكوير صفحة ٧٩٢، وحوادث هذا اليوم كثيرة، أولها النفخة الأولى التى بها يصعق الأحياء، انظر الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥، وآخرها سوق أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، انظر صفحة ٦١٦، وفى وسطها النفخة المذكورة هنا. وإذا علمنا أن تسيير الجبال يكون قبل النفخة الثانية التى بعدها الفزع نعلم أنه سبحانه لم يرتب ذكر الحوادث فى ذلك اليوم حسب وقوعها لئلا يتوهم أنه إنذار بشىء واحد، مع أنه إنذار وتخويف بأهوال كثيرة، كل واحد منها يكفى للزجر. فالنفخة الثانية هى نفخة البعث، ويعقب هذا البعث الفزع والذعر الذى يعترى الخلائق إلا من شاء اللّه، انظر ما سبق فى الآية (١٠٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، وإنما رتب الفزع على النفخ ﴿بالفاء﴾ فى قوله ﴿ففزع﴾ للإشارة إلى قلة الزمان الفاصل بينهما لسرعة مشاهدتهم تلك الأهوال، فعلى ذلك تكون نفخة البعث هى نفخة الفزع، إلا أن البعث يحصل بعدها مباشرة، والفزع يحصل بعدها عقب البعث.

المعنى: ـ بعدما بيَّن سبحانه البراهين الدالة على صدق رسوله ﷺ، أراد أن يبين أنه لا أمل فى إيمان كفار قومه فقال: إنك أيها النبى لا تقدر على إسماع الحق للموتى فكذا كفار قومك لأنهم كالموتى، وكذا لا تستطيع أن تسمع الصم نداءك لهم لإنقاذهم خصوصا إذا انصرفوا عنك معرضين، وكذا لا تستطيع أن تهدى العمى وتصرفهم عن ضلالهم إلى الطريق المستقيم

لأنهم لا يمكن أن يروه ماداموا فاقدين للقائد البصير حيث أعرضوا عنه، وما تسمع سماع قبول وانتفاع إلا كل مَنْ يؤمن بآيات ربه، فهم منقادون لأوامره.

وبعدما بيَّن سبحانه أدلة الحق واليأس من هداية المعاند، أراد أن يبين مقدمات العذاب الذى قدره على كل خارج وأهوال يوم القيامة فقال: ﴿وإذا وقع القول﴾: أى إذا قرب وقوع ما أخبر به سبحانه من إهلاك وتعذيب المجرمين أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم لأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون واذكر لقومك أيها النبى ما سيحصل يوم نحشر من كل أمة زعماء الكفر فيها الذين لم يصدقوا بآياتنا فقلدهم غيرهم فكان عذابهم مضاعفًا، انظر آيتى (٦٧، ٦٨) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٦٥١، فهم يساقون إلى مكان الحساب والجزاء حتى إذا جاءوا فى موقف الحساب قال لهم سبحانه موبخا هل كذبتم بآياتى إلخ: أى هل أقدمتم على تكذيب آياتى والحال أنكم لم تعطوها حقها من البحث الموصل للعلم الصحيح، أى هل يصح أن تقابلوها بالتكذيب من أول وهلة قبل أن تتأملوها.

ثم أكد التبكيت بقوله: أم ماذا كنتم تعملون مع الآيات غير تكذيبكم بها؟ أى لا شىء غير ذلك. ثم بيَّن سبحانه ما سيحصل بعد ذلك فقال ﴿ووقع﴾ إلخ: أى وحصل لهم العذاب الموعود به بسبب ظلمهم وهو تكذيب الآيات فهم بعد ذلك لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون، انظر الآيات (٢٩ إلى ٣٦) من سورة المرسلات، وانظر مع ذلك الآية (٢٤) من سورة النور صفحة ٤٦٠ .

ثم شرع سبحانه فى بيان بعض ما لو تأملوه لما أنكروا فقال: ﴿ألم يروا﴾ إلخ: أى ألم يعلموا أنا بقدرتنا جعلنا الليل ليستريحوا فيه بالنوم، والنهار يبصرون فيه طرق معاشهم، انظر الآيات (٧١ إلى ٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧ . ومَنْ قدر على النوم الذى هو الموتة الصغرى كما فى الآية (٤٢) من سورة الزمر صفحة ٦١٢، وعلى الإيقاظ وكان قادرا على أن يترك النائم إلى الأبد، مَنْ قدر على ذلك فهو سبحانه قادر على أن يميتكم ثم يحييكم. إن فى ذلك لآيات لقوم مستعدين للإيمان، فاذكر لهم أيها النبى ما سيحصل يوم ينفخ فى الصور النفخة الثانية فيبعث مَنْ فى القبور الأولى؛ ويشمل الخوف جميع مَنْ فى السموات ومَنْ فى الأرض.

إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾

المفردات: ﴿إلا مَنْ شاء اللَّه﴾: هم المذكورون فى الآيات (١٠١، ١٠٢، ١٠٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١ .

﴿داخرين﴾: خاضعين صاغرين.

﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾: تقدم تفصيل ذلك فى الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧ . ﴿صنع اللَّه﴾: مصدر منصوب بفعل مقدر مفهوم من السياق، أى صنع اللَّه ذلك صنعا.

﴿مَنْ جاء بالحسنة﴾: تقدم بيان ذلك فى صفحة ١٩١ . ﴿من فزع يومئذ﴾: الفزع هنا غير المتقدم فهذا يكون بعد النفخة الثانية المبينة فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ أما المتقدمة فى الصفحة السابقة فهى بعد النفخة الأولى. ﴿كبت وجوههم﴾: أى ألقيت بعنف والمراد جميع أجسامهم وإنما عبر بالوجه لأنه أشرفها.

﴿البلدة﴾: هى مكة. ﴿حرمها﴾: أى حرم إهانتها، انظر ما تقدم فى صفحة ١٥٦ .

المعنى: ونفخ فى الصور النفخة الأولى ففزع... إلخ، إلا مَنْ شاء اللَّه تعالى عدم فزعهم وهم كبار الملائكة، وبعد النفخة الثانية كل المكلفين يأتون المحشر خاضعين، وإذا رأيت الجبال فى هذا الوقت تظنها واقفة مكانها والحال أنها تمر مر السحاب إذا ضربته الريح، فمرورها فى الواقع سريع لكنه لضخامتها يظهر بطيئًا، ولا يقدر على ذلك غير اللَّه تعالى الذى صنع كل شيء صنعا متقنا حسب الحكمة. ولما كانت النفس تتوق بعدما تقدم إلى معرفة

(١) داخرين (٢) آمنون (٣) أتلو
(٤) القرآن (٥) آياته (٦) بغافل.

ما سيكون بعد الحشر قال سبحانه: ﴿إنه خبير بما تفعلون﴾ أى سيجازى العباد على كل كبيرة وصغيرة لأنه بكل أفعالهم ظاهرها وباطنها عليم.

وتم فصل ذلك بقوله: ﴿مَنْ جاء بالحسنة فله خير منها﴾ وهو عشر أمثالها كما فى صفحة ١٩١ وهم من الخوف فى هذا اليوم آمنون كما فى الآية (١٠٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، ومَنْ جاء بالسيئة يطرحون على وجوههم فى النار، وتقول لهم زبانية جهنم هل تجزون إلا الجزاء المناسب لما كنتم تعملونه فى الدنيا مما يغضب اللّٰه.

وبعدما بيَّن سبحانه ما سيكون من أهوال يوم القيامة ونجاة المؤمنين منها، أراد أن يحرك فى نفوس كفار مكة المسارعة إلى ما فيه النجاة مع التلطف فى التنبيه فقال: ﴿إنما أمرت﴾ إلخ: أى قل لهم أيها النبى إنما أمرنى ربى أن أعبد رب هذه البلدة التى حرم اللّٰه انتهاكها ولو بقتل حيوان مما يلجأ إليها أو قطع شجر من شجرها فضلاً عن الإنسان وأنتم أولى الناس باحترامها بعبادة رب البيت الذى هو سبب تشريفها وسبب إطعامكم من الجوع وأمنكم من الخوف كما فى صفحة ٨٢٣، وله سبحانه كل شىء خلقا وملكا وتصرفا، لا مكة وحدها، فلا يصح لكم أن تشركوا معه مَنْ لا يملك شيئًا. وقل لهم أيضًا أيها النبى أمرنى ربى أن أكون ممَنْ أسلموا وجوههم خالصة له تعالى لا يخضعون لغيره، انظر الآية (١٢٥) من سورة النساء صفحتى ١٢٣، ١٢٤، وأن أتلو القرآن لازداد يقينا بما فيه من الفيوضات الإلهية، وينتفع الناس بما فيه من الإرشاد إلى سبيل النجاة، فمَنْ اهتدى بالقرآن إلى الطريق المستقيم بالعمل بما فيه فإنما ثمرة اهتدائه تعود على نفسه، ومَنْ ضل بالإعراض عنه فإنه لا يضر إلا نفسه، ولن يضرك أيها النبى لأنك لم تكلف إلا بإنذارهم كبقية إخوانك الرسل وقد بلغت فأديت الرسالة، وبقى عليهم ضلال وبالهم، وقل أيها النبى الحمد للّٰه الذى وفقنى لأداء الأمانة فى تبليغكم وقل لهم إن تمسكتم بإعراضكم فسيريكم سبحانه آياته الدالة على صدق رسوله فتعرفون أنها حق فى وقت لا ينفعكم فيه ذلك، انظر الآية (١٥٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٩٠، ١٩١، وما ربك بغافل عما تعملون جميعًا من الحسنات أو السيئات وسيجازى كل بما يستحق. واللّٰه أعلم.

(٢٨) سُورَةُ القَصَصِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَثَمَانُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا۟
عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣)
إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ
طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥)
وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ

(سورة القصص)

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿طسم﴾: تقدم المراد من مثلها أول سورة البقرة، وتنطق هكذا طا. سيم بكسر الأول وسكون الثانى. مِيمْ بسكون الأول والأخير.

﴿المبين﴾: يقال بان الشىء فهو بائن وأبان فهو مبين، والكل بمعنى واحد هو الوضوح. ويقال أيضا أبنت الشىء أى وضحته، فأبان يستعمل لازما بمعنى موضحا ومتعديا بمعنى موضحا لغيره.

﴿نبأ موسى﴾: خبره من أول نشأته إلى ما بعد رسالته، ولا تنس ما تقدم فى الآية (٧) من سورة النمل صفحتى ٤٩٤، ٤٩٥.

﴿علا﴾: أى مستعل بالقهر والاستبداد.

﴿شيعا﴾: أى طوائف مختلفة يكرم طائفة ويهين أخرى.

﴿طائفة﴾: هم بنو اسرائيل كما تقدم فى الآية (٤٩) من سورة البقرة صفحة ١٠.

﴿الوارثين﴾: للملك والسلطان من فرعون، انظر ما تقدم فى الآية (٥٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٣.

---

(١) طا سيمْ ميمْ.
(٢) آيات.
(٣) الكتاب.
(٤) نتلو.
(٥) نبأ.
(٦) يستحيى.
(٧) أئمة.
(٨) الوارثين.
(٩) هامان.

﴿نمكن لهم فى الأرض﴾: يقال مكن له فى الأرض إذا جعل له فيها مكانا يستقر فيه والمراد أن تكون لهم السلطة.

﴿هامان﴾: هو وزير فرعون.

﴿أوحينا إلى أم موسى﴾: قال بعضهم الإيحاء هنا كان إما برؤيا منامية منفصلة، قطعت رضى الله عنها بأنها من عند الله، وذلك مثل رؤيا خليل الله إبراهيم عليه السلام وأُمر فيها بذبح ولده فى الآية (١٠٢) من سورة الصافات صفحتى ٥٩٢، ٥٩٣. وإما أن يكون الإيحاء بواسطة جبريل عليه السلام، جاءها فى صورة رجل وأخبرها بما ذكر وقطعت أنه من عند الله، ولذلك نظير وهو ما حصل لمريم عليها السلام فى الآية (١٧) وما بعدها من سورة مريم صفحة ٣٩٧ ويبدو أن يكون الوحى هنا لها بما سيأتى من الوعد برده إليها وجعله رسولا.

﴿أن﴾: حرف تفسير لما تضمنه الوحى.

المعنى: تلك الآيات التى فى هذه السورة هى بعض آيات الكتاب الموضح للحلال والحرام وكل ما فيه سعادة البشر، نتلو عليك أيها النبى فى هذا القرآن على لسان جبريل شيئا من خبر موسى وفرعون تلاوة مقترنة بالحق، لأجل انتفاع المؤمنين الموجودين ومن سيوجد.

ثم شرع سبحانه فى بيان ذلك الخبر فقال: (إن فرعون علا): أى تجبر واستعلى على الناس فى أرض مصر، وجعل أهلها طوائف يكرم القبط، ويستضعف بنى إسرائيل، فيذبح كثيرا من أبنائهم الذكور، ويستبقى البنات للخدمة. ومنشأ هذا الظلم فى التفرقة أنه كان من الراسخين فى الإفساد. كان يفعل ذلك فى الوقت الذى كنا نريد فيه أن نمن أى نتفضل على هؤلاء الذين استضعفهم فى أرض مصر، ونجعل منهم أئمة فى الدين وهم أنبياء بنى إسرائيل كما فى الآية (٢٠) من سورة المائدة صفحة ١٤٠، ونجعلهم الوارثين للقوة والدولة من بعد هلاك فرعون. ونرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرونه من هؤلاء المستضعفين من ضياع ملكهم على أيديهم ثم فصّل سبحانه ما أجمله فيما سبق بقوله: (وأوحينا) إلخ: وذلك أنه لما اشتد قتل فرعون لمواليد بنى إسرائيل وكانت أم موسى فى آخر مدة حملها وخافت إذا هى وضعت ذكرا أن يقتله فرعون، ألهمها سبحانه أو أراها فى المنام ما ينبغى أن تفعله لينجو وليدها، وذلك بأن ترضعه أولاً سرا.. إلخ.

أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا
تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾
فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ[1] فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ
وَهَٰمَٰنَ[2] وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ[3] ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ[4]
فِرْعَوْنَ قُرَّتُ[5] عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ
أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ
مُوسَىٰ فَٰرِغًا[6] إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ
قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ
قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾
۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ[7] ﴿١٢﴾
فَرَدَدْنَٰهُ[8] إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ

المفردات: ﴿اليم﴾: البحر، انظر الآية (٣٩) من سورة طه صفحة ٤٠٨.

﴿ليكون لهم عدوا﴾: هذه اللام تسمى لام العاقبة أى لتكون عاقبة عملهم أنه يصير لهم عدوا وحزنا، وليست لام العلة الباعثة، لأن الباعث لهم أن يكون قرة عين كما سيأتى وهذا كما تقول أخذ فلان كذا ليكون فيه سروره فكان فيه شقاؤه.

﴿حزنا﴾: الحزن بفتحتين والحزن بضم فسكون: الغم والمراد هنا محزنا أى سبب حزن.

﴿إمرأة فرعون﴾: هى (آسية) المرأة المؤمنة وكانت من نسل ملك مصر أيام نبى الله يوسف، انظر الآية (١١) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣.

﴿قرة عين﴾: المراد منشأ سرور، انظر الآية (٤٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٨، ٤٠٩.

﴿فؤاد﴾: لا يطلق الفؤاد على القلب إلا فى حالة توقده وشدة تيقظه.

﴿فارغا﴾: خاليا من العقل الذى يضبط تصرفات صاحبه لشدة خوفه، فهو ليس طبيعيا، انظر الآية (٤٣) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٦.

﴿ربطنا على قلبها﴾: المراد ثبتناها، انظر الآية (١٤) من سورة الكهف صفحة ٣٨١.

---

(١) آل فرعون.
(٢) هامان.
(٣) خاطئين.
(٤) امرأة.
(٥) قرة.
(٦) فارغا.
(٧) ناصحون.
(٨) فرددناه.

﴿قصيه﴾: تتبعى أثره.

﴿فبصرت به﴾: أبصرته.

﴿عن جنب﴾: الجنب هو الجانب والمراد عن بعد.

﴿حرمنا عليه المراضع﴾: منعناه من الرضاع من جميع المراضع.

المعنى: أوحينا إلى أم موسى قائلين لها أرضعيه، فإذا شعرت بخوف عليه فاطرحيه بالبحر بعد وضعه فى صندوق، ولا تخافى ولا تحزنى لأن ربك سيرده إليك قريبا، وسيعيش حتى يكون من أنبيائه المرسلين، ففعلت أم موسى ما ألهمها الله، فالتقطه آل فرعون ليسروا به فكانت عاقبة التقاطه أنه صار عدوا لهم وسبب حزنهم حيث أغرقه الله هو وجنوده وضاع ملكه. إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين أى مرتكبى الخطايا. ولذا عاقبهم الله تعالى بتربية عدوهم تحت رعايتهم.

ولما هم بعض رجال فرعون بقتله قالت امرأة فرعون هو قرة عين لى ولك لا تقتلوه، نرجو أن ينفعنا لما فيه من أمارات النجابة، أو على الأقل نتخذه ولدا ونحن فى شوق إلى ولد فالتقطوه وانتهى الأمر بمحافظتهم عليه والحال أنهم لا يشعرون أن هلاكهم على يديه.

ولما علمت أم موسى بوقوعه فى يد فرعون صارت كالمجنونة لأنها كادت أى قربت تبدى أى تظهر الحقيقة متحدثة بأمره لولا أن ثبتناها بالصبر لكشف الأمر، وإنما قويناها بالصبر لتكون من الواثقين بوعد الله برده إليها، ولكن قلب الأم ملىء بالرحمة ويريد الاطمئنان دائما على حركات ولدها، فقالت لأخته تتبعى أثره، وانظرى كيف صار حاله، ففعلت وأبصرته عن بعد وهم لا يشعرون أنها أخته وكنا منعناه من كل المراضع من قبل أن تقص أخته أثره، فلما رأته ممتنعا عن الرضاع من المرضعات عرضت مساعدتهم بأسلوب لطيف فقالت هل أدلكم على أهل بيت يرعونه لأجلكم وهم مخلصون له فى التربية لا يقصرون فى إرضاعه وحسن تربيته؟ ففعلوا ما أرشدتهم إليه وسلموه إلى أمه، وفى ذلك يقول سبحانه فرددناه إلى أمه لتقر عينها بولدها ولا تحزن على فراقه، ولتعلم علم مشاهدة أن وعد الله حق.

وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ(١) حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ
عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ(٢) ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ
عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ
ٱلشَّيْطَٰنِ(٣) ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ
نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾
قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾
فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ
بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾
فَلَمَّآ أَن أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ(٤)

المفردات: ﴿بلغ أشده﴾: الأشد جمع شدة بكسر أوله وفتح ثانيه مشددا كأنعم جمع نعمة. والشدة هنا هى القوة، وبلوغها استكمال القوة الجسمانية وانتهاء النمو المعتاد، وقد ناقش المختار كونه جمع شدة فراجعه فقد نقل أنه مفرد جاء على بناء الجمع، أو جمع لا واحد له من لفظه.

﴿استوى﴾: الاستواء هنا هو اعتدال العقل وكماله. ﴿حكما﴾: معناها هنا: الحكمة فهى ملكة يفهم بها أسرار الدين وهو غير النبوة، انظر الآية (٨٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٦.

﴿المدينة﴾: هى عاصمة الدولة فى عهد فرعون موسى ويقال إن اسمها (منف) بفتح فسكون، ويسميها بعضهم (مصر) كما فى الآية (٩٩) من سورة يوسف صفحتى ٣١٧، ٣١٨.

﴿على حين﴾: (على) هنا بمعنى (فى).

﴿من شيعته﴾: إسرائيلى أى من قومه. ﴿من عدوه﴾: أى من أهل مصر وعبّر بعضهم عنه بلفظ قبطى. ﴿فوكزه﴾: أى ضربه بقبضة يده. ﴿من عمل الشيطان﴾: الذى هيج غضبى لمنع تعديه فوقع القتل خطأ. ﴿مبين﴾: ظاهر والمراد ظاهر العداوة. انظر ما تقدم فى الآية (٢) من هذه السورة صفحة ٥٠٦. ﴿ظهيرا﴾: معينا، انظر الآية (٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦. ﴿يترقب﴾: أى ينتظر ما يحصل من فرح أو مكروه. ﴿استنصره﴾: طلب نصره ومعونته. ﴿يستصرخه﴾: يطلب النصر بصوت مرتفع. ﴿لغوى﴾: اللام لتأكيد ثبوت الغواية، وغوى أى شديد الضلال. ﴿أن أراد﴾: (أن) تفيد تأكيد ربط شرط (لما) وهو (أراد) بجوابها وهو (يبطش) والبطش الأخذ بشدة وعنف.

---

(١) آتيناه. (٢) فاستغاثه. (٣) الشيطان. (٤) يا موسى.

المعنى: ولتعلم أم موسى أن وعد الله تعالى بإرجاعه حق، ولكن أكثر الناس فى ذلك الوقت لا يعلمون بأن الله تعالى وعدها، ولا بأن موسى رجع إلى أمه ومكث عندها حتى فطمته ثم أتت به دار فرعون فتربى فيها حتى بلغ أشده فى عدة سنين كما فى الآية (١٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٠، قيل مكث عنده ثلاثين سنة، ولما استوى عقله آتيناه حكمة يزن بها الأمور وعلما نافعا. وكما جازينا موسى على إحسانه بثباته على الإيمان بربه مع أنه تربى فى بيت كفر، وعلى صبره على تحمّل إساءة فرعون إلى أبناء جنسه، نجزى كل محسن على إحسانه. وفى ليلة دخل موسى المدينة فى وقت كان أهلها فى غفلة عن الحركة الكثيرة بسبب نوم أو غيره، فوجد فى بعض طرقها رجلين يتضاربان، أحدهما من قومه، والآخر من أعدائه وكان القبطى أقوى من الإسرائيلى، فطلب الإسرائيلى من موسى أن يعينه على عدوه، فضرب موسى القبطى بقبضة يديه وكان قويا كما سيأتى فى الآية (٢٦) من هذه السورة صفحة ٥١٠ فقتله، وعند ذلك ندم على ما حصل منه خطأ فقال: هذا القتل أثر من آثار عمل الشيطان؛ لأنه حرك غضبى حتى قسوت فى كف أذى الرجل فمات خطأ، وما كنت أريد ذلك. ومن عادة الصالحين أنهم ينسبون كل شر إلى الشيطان وكل خير إلى الله تعالى، لأن الشيطان عدو للإنسان مضل له عن الصواب، ظاهر العداوة والإضلال وبالغ موسي في الندم فقال يا رب إني ظلمت نفسى بقتل نفس بدون إذن منك فى قتلها فاغفر لى ولا تؤاخذنى به، فغفر الله تعالى له لأنه سبحانه هو الغفور الرحيم بعباده المخلصين حين يلجأون إلى المخرج وهو استغفاره تعالى، وبعد ذلك قال موسى: يا رب استعطفك بحق إنعامك علىّ المرة بعد المرة، انظر الآية (٣٧) وما بعدها من سورة طه صفحة ٤٠٨، أرجوك أن تحفظنى فلن أكون معينا لمجرم أبدا. ولما انتشر خبر قتل القبطى ولم يعرف قاتله أصبح موسى يسير فى المدينة خائفا مما فعل يترقب ماذا سيحصل، وإذا الإسرائيلى الذى طلب مساعدته بالأمس يطلب منه الخلاص من قبطى آخر بصوت مرتفع، فوجه موسى الخطاب أولا للإسرائيلى بقوله إنك لشديد الغواية والضلال حيث تسببت فى قتل رجل واليوم تقاتل الآخر. وبعد هذا التوبيخ للإسرائيلى وبعدما علمه موسى من كثرة تعدى القبط على بنى إسرائيل أراد أن يضرب القبطى ليتخلص منه صاحبه، عند ذلك فهم القبطى من كلام موسى وتوبيخه لصاحبه أن

أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا
أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ
الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا(١) الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ
قَالَ يَا مُوسَىٰ(٢) إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ
إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ(٣) ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ
قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٤) ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ
مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾
وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ
وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا
قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾
فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ
إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا(٥) تَمْشِي عَلَى

موسى هو الذى قتل القبطى بالأمس خصوصا وأنه مد يده ليضربه فقال عند ذلك: يا موسى أتريد .. إلخ.

المفردات: ﴿إن تريد﴾: (إن) حرف نفى بمعنى (ما).

﴿جاء رجل﴾: هو من آل فرعون الآتى ذكره فى الآية (٢٨) من سورة غافر صفحة ٦٢١.

﴿يسعى﴾: يسرع فى السير.

﴿الملأ﴾: كبار الدولة.

﴿يأتمرون بك﴾: يتشاورون فى الأمر بقتلك.

﴿تلقاء﴾: جهة.

﴿مدين﴾: تقدم بيانها فى صفحة (٢٠٦).

﴿عسى﴾: أرجو.

﴿سواء السبيل﴾: سواء الشىء وسطه كما فى الآية (٥٥) من سورة الصافات صفحة (٥٩٠)، والمراد الطريق البعيد عن العقبات.

﴿ماء مدين﴾: هو البئر التى كانوا يستقون منها.

﴿أمة﴾: جماعة كثيرة.

﴿تذودان﴾: تمنعان غنمهما عن الزحام لأن على الماء من هو أقوى منهما.

---

(١) أقصى
(٢) يا موسى.
(٣) الناصحين.
(٤) الظالمين.
(٥) إحداهما.

﴿ما خطبكما﴾: ما هو شأنكما الذى منعكما من أن تسقيا كغيركما.

﴿يصدر﴾: يصرف.

﴿الرعاء﴾: جمع مفرده راع.

المعنى: قال القبطى: يا موسى ما تريد إلا أن تكون جبارا تتطاول على الناس فى غير نظر للعواقب، وما تريد أن تكون من المصلحين بين الناس بدفع الأذى والتخاصم بالتى هى أحسن. ولما كان موسى لا يقصد قتل القبطى وعلم أنه عرف أنه هو القاتل، انصرف ظانا أنه بذلك يمكن عدم انتشار الخبر، ولكن الخبر ذاع حتى وصل فرعون وملأه، فاتفقوا على قتل موسى. عند ذلك جاء رجل من أطراف المدينة لموسى مسرعا وقال يا موسى إن القوم يأتمرون على قتلك فاخرج من مصر حالا إنى لك من الناصحين، فخرج منها خائفا يترقب مستغيثا بالله أن ينجيه من ظلم فرعون وقومه. ولما توجه جهة مدين ولم يكن يعرف طريقها قال أرجو من ربى أن يهدينى طريق النجاة. ولما وصل إلى بئر مدين وجد عليه كثيرا من الناس يسقون أنعامهم ومواشيهم، ووجد فى مكان أقرب إليه من مكان هؤلاء الناس امرأتين تمنعان غنمهما من مكان الزحام. ولما رأى موسى ضعف هاتين المرأتين وخوفهما من الزحام رق لحالهما وسألهما ما سبب عدم ترك غنمكما تشرب؟ قالتا: إن عادتنا أن لا نسقى غنمنا حتى يصرف الرعاة مواشيهم بعد شربها لعجزنا عن المزاحمة وليس لنا رجال غير أبينا ولكنه رجل مسن أضعفه الكبر، فتقدم إلى البئر وسقى لهما وحده ولم يستعن بأحد وبعد انصرافهما توجه إلى ظل شجرة وقال يارب إنى محتاج لما تنزله إلىّ من خير كثير أو قليل، ومراده طلب القوت لشدة جوعه، فاستجاب الله طلبه، فلما رجعت البنتان وذكرتا لأبيهما ما حصل قال لإحداهما اذهبى وأبلغيه أنى أطلب حضوره لأكافئه بما يناسب حاله، فجاءته وهى تمشى محتشمة، ولم يصح حديث فى تعيين من هو هذا الرجل الكبير والد الفتاتين. ويذكر بعضهم أنه شعيب، واستبعده آخرون بأن شعيبا كان قريبا جدا من عهد لوط كما فى الآية (٨٦) من سورة هود صفحة ٢٩٧. ولوط وإبراهيم كانا فى عصر واحد كما فى الآية (٧١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧. وبين إبراهيم وموسى زمن بعيد يزيد على ٤٠٠ سنة، فتأمل ذلك.

ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ
لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ
نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ[1] ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا[2] يَٰٓأَبَتِ[3]
ٱسْتَـْٔجِرْهُ[4] ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ[5] ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾
قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ[6] عَلَىٰٓ أَن
تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ[7] حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ
أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ[8] ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ[9] عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾
۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ[10] مِن
جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ[11] نَارًا
لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم[12] مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ

المفردات: - ﴿على استحياء﴾ : أى مع استحياء، والمراد مستحيية فى حشمة.

﴿القوى﴾: لعلها علمت ذلك من نزعه الدلو الكبير من البئر وحده.

﴿الأمين﴾: علمته من أمره لها بالمشى خلفه وترشده إلى الطريق حتى لا يرى منها شيئاً قد تكشفه الريح.

﴿تأجرنى﴾: أى تؤجر نفسك لى.

﴿حجج﴾: جمع حجة بكسر أوله وهى السنة.

﴿أيما الأجلين﴾: المراد أى أجل من الأجلين قضيته فى خدمتك.

﴿عدوان﴾: أى تعدى علىَّ منك بطلب الزيادة إن اخترت أنا الثمانى سنين.

﴿بأهله﴾: أى زوجته ومن معه من بعض رعاة غنمه، انظر شرح صفحة ٤٠٦.

---

(١) الظالمين.
(٢) إحداهما.
(٣) يا أبت.
(٤) استأجره.
(٥) استأجرت.
(٦) هاتين
(٧) ثمانى.
(٨) الصالحين.
(٩) عدوان.
(١٠) آنس.
(١١) آنست.
(١٢) آتيكم.

﴿آنس﴾: أبصر، أنظر الآية (١٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٦، ٤٠٧.

﴿الطور﴾ : هو الجبل المعروف.

﴿بخبر﴾: أى استدل به على الطريق، انظر الآية (١٠) المشار إليها قبل ذلك.

﴿أوجذوة﴾: هى عود فيه نار بلا لهب كما تقدم فى صفحتى ٤٠٦، ٤٩٤.

المعنى : فجاءته إحداهما تمشى فى حشمة ووقار وقالت إن أبى يدعوك ليكافئك على سقيك أغنامنا. فلما ذهب موسى وقابل الرجل الكبير وقص عليه ما حصل له ولبنى إسرائيل من فرعون قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين لأنه لا سلطان لفرعون على أرضنا. بعد ذلك قالت إحدى البنتين يا أبت استأجره لرعى غنمنا، ثم عللت رغبتها بأنه قوى لا يغلبه أحد على أغنامنا أمين لا يضيع منها شيئاً. قال الرجل لموسى إنى أرغب فى تزويجك إحدى ابنتى هاتين اللتين كانتا مع الغنم على أن يكون صداقها أن تؤجرنى نفسك مدة ثمان سنين فإن أتممت عشر سنين عندى فهذا تفضل من عندك، وما أريد أن أشق عليك بإلزامك إتمام العشر أو تكليفك ما يصعب عليك، ستجدنى إن شاء الله من الصالحين فى حسن المعاملة والوفاء بالعهد.

قال موسى ذلك الذى شارطتنى عليه قائم بينى وبينك لا يخالفه واحد منا، لا أنا فيما شرطت علىَّ، ولا أنت فيما شرطت على نفسك، فأى أجل من الأجلين قضيته فى خدمتك فليس لك أن تظلمنى بطلب غيرما اختار، والله على ما تقول وكيل أى شهيد. فمكث موسى أطول الأجلين على ما روى. وبعد ذلك أخذ زوجته وبعض الأغنام يقتات من لبنها، وبعض دواب يحمل عليها متاعه، وبعض الرعاة يساعدونه، وأراد أن يرجع لمصر ليرى أمه وأخاه ظانا أن ما حدث قد نسى، فلما وصل طور سيناء فى ليلة مظلمة ضل فيها عن الطريق وكان البرد شديداً أبصر من جانب الطور نارًا، فقال لأهله أمكثوا مكانكم إنى رأيت نارًا سأذهب إليها لعلى أعلم مَمنْ عندها خبر الطريق، أو آتيكم بقطعة من النار لعلكم تستدفئون بها.

المفردات : ﴿تصطلون﴾: تستدفئون. (شاطئ الوادى): جانب الوادى الموصوف بالمقدس فى صفحتى ٤٠٧، ٧٨٩. (الأيمن): بالنسبة لموسى (فى البقعة المباركة): أى حال كون موسى

تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ
فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ
رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا
جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ
إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ
بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ
فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا
فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى
لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن
يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا
سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا

موجودًا فى المكان المبارك عليه لسماع فيه كلام ربه واختياره رسولاً. (من الشجرة) بدل من شاطئ الوادي، ويسمى بدل اشتمال لاشتمال الشاطئ عليها أى من عندها. (أن يا موسى): (أن) مفسرة للنداء وكذا يقال فى (أن ألق). (جان) فى سرعة الحركة، انظر شرح الآية (١٠٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٩.

﴿ولى مدبرا﴾ : أى انصرف من المكان حال كونه مدبرًا بظهره أى جاعلا دبره جهة المكان، والمراد مسرعا لا ينظر إلى الخلف.

﴿ولم يعقب﴾: قال قتادة : معناه لم يلتفت. وقال آخرون لم ينتظر . ومنه التعقيب فى المساجد وهو انتظار الصلاة بعد الفراغ من صلاة، والمراد لم يرجع لشدة خوفه.

﴿اسلك﴾: ادخل. ﴿جيبك﴾: فتحة الثوب من أعلى.

﴿جناحك﴾ : المراد به اليد التى خرجت بيضاء لأن اليد للإنسان كالجناح للطائر، ولما كان من عادة الطير أنه إذا خاف نشر جناحيه وإذا اطمأن ضمهما إلى جنبيه، ولما خاف موسى من خروج يده بيضاء خشية أن تكون أصيبت ببرص مثلا، لما كان كل هذا، أمره سبحانه أن يعيدها إلى مكانها من جنبه لتعود إلى حالتها الأولى فيطمئن إلى أنها مجرد معجزة فلا يضطرب أمام فرعون.

(١) آتاها. (٢) شاطئ. (٣) المباركة. (٤) يا موسى.
(٥) العالمين. (٦) رآها. (٧) يا موسى. (٨) الآمنين.
(٩) فذانك. (١٠) برهان. (١١) وملئه. (١٢) فاسقين.
(١٣) هارون. (١٤) سلطانا. (١٥) بآياتنا.

﴿من الرهب﴾: الرهب الخوف، و ﴿من﴾ بمعنى لام التعليل كقوله سبحانه ﴿مما خطيئاتهم اغرقوا﴾ الآية (٢٥) من سورة نوح صفحة ٧٦٩، وكقول الفرزدق فى مدح زين العابدين ﴿ويغضى من مهابته﴾ أى لشدة هيبته والمراد لأجل ذهاب الخوف أى لتطمئن. ﴿فذانك﴾: أى فهذان العصا واليد. ﴿ردءا﴾ : معينًا: ﴿يصدقنى﴾ : أى يوضح ما أقول ويبطل شبهاتهم فيظهر صدقى. ﴿سنشد عضدك﴾ : العضد هو ما بين المرفق إلى الكتف، والمرفق تقدم فى الآية (٦) من سورة المائدة صفحتى ١٣٦ ، ١٣٧، والجملة كناية عن تقويته. ﴿سلطانا﴾: أى تسلطا وغلبة . ﴿بآياتنا﴾ : بمعجزاتنا.

المعنى : آتيكم بنار لعلكم تستدفئون من البرد. فلما وصل إلى ما ظنه نارًا سمع نداء صادرًا من شاطئ الوادى الذى على يمينه حال كونه هو فى البقعة المباركة المشتملة على الشجرة التى ظهر منها ما يشبه النار، وفسر هذا النداء بقوله يا موسى إنى أنا الله رب العالمين وألق عصاك، فألقاها فصارت حية تسعى، فلما رآها موسى تهتز مسرعة ولى منصرفًا ولم يرجع من شدة خوفه، فسمع النداء يقول : يا موسى أقبل إلى المكان الذى كنت فيه ولا تخف من سوء إنك من الآمنين، ومد يدك وخذ هذه الحية فإنها ستكون فى يدك عصا كما كانت، انظر الآية (٢١) من سورة طه صفحة ٤٠٧. ثم قال له : ادخل يدك فى جيبك وأخرجها تخرج بيضاء من غير سوء وأضممها ثانيا إلى جنبك لأجل ذهاب خوفك لأنك ستجدها كما كانت، فهاتان حجتان واضحتان أنت مرسل بهما من ربك إلى فرعون وملئه لأنهم قوم استمروا على الفسق وهو الخروج عن الحق مددا طويلة.

قال موسى: يارب إن قتلت منهم نفسا وأخاف أن يقتلونى بدلها، وأخى هارون المقيم الآن بمصر هو أفصح منى لسانا فاجعله رسولا معى يكون عونا لى فى توضيح الرسالة وشرح الحجج وإبطال ما سيحاولون به تضليل الناس من الشبهات لأنى أخاف أن يكذبونى وأعجز عن الإفصاح عما أدفع به كذبهم. فأجاب سبحانه طلبه بقوله : ﴿سنشد﴾ إلخ: أى سنقويك بأخيك هارون ونجعل لكما تسلطا وقوة فلا يصلون إليكما بسوء بسبب قوة معجزاتنا التى ستبهرهم وتعجزهم وتزعجهم، فتكونون أنتما ومَنْ اتبعكما على الإيمان أصحاب الغلبة.

ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ
قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ
مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى
صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ
وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً

المفردات : ﴿بآياتنا﴾: تقدم المراد منها فى الآية (٥٦) من سورة طه صفحة ٤١٠ . ﴿مفترى﴾: أى افتريت على الله أنها معجزة أيدك بها. ﴿عاقبة الدار﴾ : المراد العاقبة المحمودة لدار الدنيا وهى الجنة، لأن الدنيا دهليز موصل للآخرة، انظر الآية (٢٢) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٤، ٣٢٥.

﴿من إله﴾: (من) للنص على عموم نفى إله غيره ﴿الطين﴾: المراد به القوالب التى تصنع من الطين، وما دامت لم تحرق تسمى لبنا بفتح فكسر، فإذا حرقت تسمى آجراً بمد الهمزة وضم الجيم. ﴿صرحا﴾ : هو البناء العالى. ﴿فأخذناه وجنوده﴾: اصل معناها قبضنا عليهم بأيدينا.

﴿فنبذناهم﴾: أصل معناها قذفناهم والمراد خلينا بينهم وبين البحر، ولم ننقذهم ، والكلام كناية عن إهلاكهم غرقا ، فكأنه تعالى فيما فعل بهم أخذهم مع كثرتهم فى قبضة يده وطرحهم فى البحر.

﴿اليم﴾ : البحر . ﴿أئمة﴾: أى قادة فى الكفر والعناد فعليهم مثل ذنوب مَنْ يعمل عملهم إلى يوم القيامة، انظر نظير ذلك فى الآية (٣٢) من سورة المائدة صفحة ١٤٢، ومن هذا قال ﷺ مَنْ سَنَّ سُنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة.

المعنى : لما خاف موسى طمأنه سبحانه بأن الغلبة ستكون له هو ومَنْ اتبعه، فلما جاء موسى إلى فرعون وقومه مؤيداً بالمعجزات الواضحات قالوا ما هذا الذى تدعى أنه معجزة

---

(١) الغالبون. (٥) عاقبة. (٩) فأخذناه. (١٣) وجعلناهم.
(٢) بآياتنا . (٦) الظالمون. (١٠) فنبذناهم. (١٤) أئمة.
(٣) بينات. (٧) يا هامان. (١١) عاقبة. (١٥) القيامة.
(٤) آبائنا . (٨) الكاذبين. (١٢) الظالمين. (١٦) واتبعناهم.

إلا سحر افتريت كذبا أن ربك الذى تزعمه أيدك به ، وما سمعنا بهذا الذى تدعونا إليه من عبادة إله واحد حاصلا فى عهد آبائنا الماضين. قال الزعماء ذلك تضليلا للشعب وتثبيتا لهم على التقليد وهم يعلمون أنهم كاذبون، لأنهم سمعوا بإله واحد من عهد يوسف وهو قريب منهم، انظر قول مؤمن من آل فرعون فى صفحتى ٦٢١، ٦٢٢ خصوصا الآية (٣٤)، وأيضا فرعون نفسه يعلم الحقيقة ولكنه كان يستخفهم، انظر الآية (١٠٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨، وآيتى (٤٦ ، ٤٧) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٠، والآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥، والآية (٥٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢. ولما كذبوه عنادًا سلك موسى عليه السلام أسلوبا لينا لعله ينجح فقال : ربى سبحانه هو الذى يعلم المحق منا والمبطل، ومَنْ الذى جاء بالحق الذى يوصل إلى طريق الرشاد، ومَنْ الذى له العاقبة المحمودة فى الآخرة، ولا تكون العاقبة الحسنة إلا للمحقين العدول، لأن الظالم لا يفلح أبدًا، بل لابد أن تكون نهايته الخسران. ولما كان هذا الكلامِ من موسى يدل على ثقته التامة بما يقول وربما أثر فى سامعيه، أسرع فرعون إلى إبطال أثره فقال : يأيها الملأ ما علمت لكم فى زمن من الأزمان إلها غيرى كما يدعى موسى.

ثم وجه الخطاب لوزيره على سبيل التهكم بكلام موسى ليشكك الناس فى صدقه فقال : يا هامان هيئ لى آجرا (طوبا أحمر) ثم ابن به صرحا لأصعد عليه وأشاهد إله موسى الذى يقول به وإنى لأظن موسى من الكاذبين الذين يدعون ما لا يصح، وبذلك تمادى هو وجنوده فى الاستكبار فى أرض مصر بغير استحقاق بل بالباطل، لأن الاستكبار بالحق هو لله وحده وسبب عنادهم وكفرهم ظنهم أنهم لا يبعثون يوم القيام فلا يحاسبون ولا يعاقبون. ثم بيَّن سبحانه ما حل بهم من عذاب الدنيا وما سيكون لهم فى الأخرى فقال: ﴿فأخذناه﴾ إلخ : المراد فأغرقناهم فى البحر. فانظر أيها السامع العاقل كيف كانت عاقبة هؤلاء الظالمين فى الدنيا. ولزيادة عذابهم جعلناهم قدوة يعمل مثل عملهم كل جبار متكبر يريد أن يثبت رئاسته على الطغيان والإرهاب لا على العدل والمحبة، فعلى فرعون وملئه من عذاب ذنوب مَنْ قلدوهم مثل عذابهم ، فهم بعملهم دعوا كل جبار إلى النار، ويوم القيامة لا يدفع عنهم أحد عذاب الله. واتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة من الله والملائكة وكل مَنْ عمل عملهم القبيح من الناس أجمعين، انظر الآية (١٦١) من سورة البقرة صفحة ٣١.

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ[1] ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا[2]
مُوسَى الْكِتَابَ[3] مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى
بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾
وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا
كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ[4] ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ
عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِنَا[5] وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ
إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم[6] مِّن
نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم
مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ
إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ[7] وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾
فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ

المفردات : ﴿المقبوحين﴾ : يصح أن يكون من قبحه بفتحات بمعنى أبعده، والمراد المبعدين عن الجنة، وأن يكون من قبحت الدمل إذا فتحته قبل نضجه فسال دمه مع الصديد، والمراد المشوهين فى الخلقة بسواد الوجوه كما فى صفحة ٦١٤، وزرقة العيون والأجسام كما فى صفحة ٤١٦.

﴿الكتاب﴾ : التوراة.

﴿بصائر﴾ : جمع بصيرة وهى نور القلب الذى يدرك به الخطأ والصواب والمراد سبب أنوار للقلوب.

﴿بجانب الغربى﴾ : أى بجانب الجبل الواقع غربى موسى وقت تلقيه التوراة مع السبعين رجلا، انظر شرح آيتى (١٤٢، ١٤٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٤.

﴿قضينا إلى موسى الأمر﴾ : أى أوحينا إليه أمرًا مقضيا أى مقطوعًا به وهو إعطاؤه التوراة، انظر الآية (٦٦) من سورة الحجر صفحة ٣٤٢.

﴿الشاهدين﴾ : المراد الحاضرين فى ذلك الزمن، انظر الآية (١٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٣٥، ٣٦.

---

(١) القيامة.
(٢) آتينا.
(٣) الكتاب.
(٤) الشاهدين.
(٥) آياتنا.
(٦) آتاهم.
(٧) آياتك.

﴿تطاول عليهم العمر﴾: امتد بعدهم الزمن وطال.

﴿ثاويا﴾ : مقيما. ﴿تتلو عليهم آياتنا﴾: أى تقرأ على أهل مدين على وجه التعلم منهم كما يقرأ المتعلم الدرس على معلمه ليتقن حفظه، انظر الآية (٥) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠، ٤٧١.

﴿نادينا﴾: المراد نادينا موسى وكلفناه بالرسالة، انظر الآية (٥٢) من سورة مريم صفحة ٤٠١ ، والآية (١١) من سورة طه صفحة ٤٠٧، والآية (١٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٠، والآية (٨) من سورة النمل صفحة ٤٩٥، والآية (١٦) من سورة النازعات صفحة ٧٨٩.

﴿ما آتاهم من نذير﴾: انظر شرح الآية (٣) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥.

﴿ولولا أن تصيبهم﴾ : لولا هذه لا تكون إلا قبل جملتين وتسمى امتناعية لأنها تفيد امتناع مضمون الجملة الثانية بسبب وجود مضمون الجملة الأولى، فإذا قلت لولا محمَّد موجود لعم الفساد، يفهم السامع أن امتناع عموم الفساد سببه وجود محمَّد، والجملة الأولى فيما هنا مأخوذة من مضمون الكلام وهى (فرض اعتذار الكفار بالجهل عند حصول العذاب موجود) والجملة الثانية مقدرة لفهمها من السياق وهى ﴿وما أرسلناك أيها النبى لهم﴾ ومثلها تقدم فى آيتى (١٠ ، ١٤) من سورة النور صفحتى ٤٥٨، ٤٥٩، وانظر معانى لولا فى شرح الآية (٤٦) من سورة النمل صفحة ٥٠٠، والمراد من الكلام قطع حجتهم، وسد باب اعتذارهم عند نزول العذاب كما فى الآية (١٦٥) من سورة النساء صفحة ١٣١، والآية (١٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، والآية (١٣٤) من سورة طه صفحة ٤١٩، وحكمة إرسال الرسول وإن كانت تشمل الإرشاد إلى الصواب وتبشير مَنْ يسمع بالسعادة وتحذير مَنْ يخالف بالشقاء كما فى الآية (١٦٥) المشار إليها صفحة ١٣١، والآية (٤٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٩ لكنه اقتصر هنا على جانب واحد منها لأنه المناسب فى خطاب كفار مكة الذين صمموا على الكفر رغم جميع الأدلة ﴿لولا أرسلت﴾ و ﴿لولا أوتى﴾: لولا فى هذين الموضعين بمعنى هلا التى تفيد طلب حصول ما بعدها.

المعنى : عاقب سبحانه فرعون وقومه باللعنة فى الدنيا وفى الآخرة بالحرمان من الجنة وبمسخ الخلقة.

وبعد ما فرغ سبحانه من قصة موسى أراد أن يبين الحكمة فى إرساله وإعطائه التوراة ليكون ذلك مقدمة لسبب إرسال خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن عليه فقال: ولقد آتينا موسى الكتاب فيه تنوير بصائر الناس وهدايتهم من الضلال وأسباب رحمة لمَنْ اتبعه ليكونوا على حال يرجى منهم فيها التذكر والاعتبار بما حصل لمَنْ عصوا رسلهم، فهو سبحانه يقول جئنا لهم بهذا الكتاب المنقذ من الضلال بعد ما أهلكنا الأمم التى سبقت كقوم نوح وهود وصالح لما عصوا رسلهم واختل نظام العالم، فأحتاج الناس إلى تشريع جديد يصلح ما فسد.

وبعد ما بيّن سبحانه أنه أرسل موسى فى وقت الحاجة أتبع ذلك ببيان صدق خاتم الرسل، وأنه جاء فى وقت الحاجة إليه أيضا فقال: وما كنت أيها النبى العربى بجانب الغربى حين أعطينا موسى الألواح، انظر الآية (١٥٠) من سورة الأعراف صفحة ٢١٦، بل ما كنت فى ذلك الزمن مطلقا لا قريبا من المكان ولا بعيدا عنه، فتفصيلك ماحدث من الغيوب الماضية من زمن بعيد برهان على صدق نبوتك.

ثم بيَّن الداعى لإرساله فقال : ﴿ولكنا أنشأنا قرونا) إلخ: أى ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى خلقاً كثيرًا تطاول عليهم الزمن، فتغيرت الشرائع، وخفيت الحقائق، وقست القلوب، فاقتضت الحكمة إرسالك بشرع صحيح، انظر الآية (٤٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥، والآية (١٦) من سورة الحديد. صفحة ٧٢١.

ثم ذكر سبحانه دليلا ثانيا فقال ﴿وما كنت ثاويا﴾ إلخ : أى وما كنت مقيما أيها النبى فى أهل مدين حال كونك تتقن عنهم قراءة آياتنا المفصلة لدقائق ما حصل لموسى عندهم، ولكنا نحن الذين اطلعناك عليه بعد إرسالك وإنزال القرآن المفصل لذلك، ولولا ذلك لما علمت هذه الأخبار. ثم شرع سبحانه فى دليل ثالث على صدقه ﷺ فقال: ﴿وما كنت بجانب الطور﴾ إلخ : أى وما كنت بجانب الطور فى ليلة مناجاتنا لموسى وإرساله لفرعون حتى تتحدث بتفصيل ما

حدث فى تلك الليلة مما بيّن فى الصفحات السابقة، ولكنا نحن الذين أرسلناك بالقرآن المفصل لتلك الأخبار وغيرها من كل ما فيه إصلاح البشر لتحذر قومك من كفار قريش الذين استفحل شرهم وطغى جهلهم حتى قرب أن يقضى على البقية الباقية من شرع أبيهم إبراهيم الذى بلغّه لهم نبيهم إسماعيل، وكان فيهم فى كل عصر مصلحون وحكماء يرشدونهم إلى هذا الشرع أمثال قس بن ساعدة، انظر خطبه وهى مشهورة ، وهذا هو ما يتفق مع قوله تعالى ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ أى نبى أو عالم مبلغ عنه، انظر الآية (٢٤) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٤ ، ٥٧٥: تنذر قومك أيها النبى لعلهم يتذكرون أن لهم شرعاً صحيحاً فيرجعون إليه، انظر شرح الآية (٦٨) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٢، وإذا كان الترتيب الزمنى لحوادث موسى وقع على هذا الوجه : أولاً : وجوده فى أهل مدين، ثانياً: مناداته بالرسالة عند رجوعه من مدين، ثالثاً : تلقى التوراة بعد خروجه من مصر، فما هو السر فى مخالفة ذلك هنا؟ لعل السر أنه لو جاء بها حسب الترتيب الزمنى لتوهم أن مجموعها دليل واحد على صدقه ﷺ، فتغيير الترتيب يفيد أن كل واقعة من هذه الحوادث الثلاث دليل مستقل على صدق الرسول الكريم.

ومما حسن تقدم قصة تلقى التوراة مع أنها جاءت عقب الحديث عنها فى قوله ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ إلخ، وما ذكر بعدها كان ترتيبهما حسب زمنهما.

ولما كانت تفاصيل أخبار الماضين لا يمكن أن يعلمها ﷺ إلا بأحدى طرق ثلاث:

(١) أن يشاهدها بنفسه، وهذه أبطلت هنا.

(٢) أن يتلقاها من أهل الكتاب، وهذه أبطلها سبحانه مرارا وبصور شتى، انظر آيات (١٥، ١٦، ١٧) من سورة يونس صفحتى ٢٦٧، ٢٦٨، والآيات (١٠١، ١٠٢، ١٠٣) من سورة النحل صفحتى ٣٥٩، ٣٦٠، وآيتى (٤ ، ٥) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠ ، ٤٧١ ، وأيضا لو كان لا علم عنده ﷺ إلا من طريق كتب أهل الكتاب لما عاب عليهم أنهم حرفوها، أنظر الآية (٤٦) من سورة النساء صفحة ١٠٨، والآية (٤١) من سورة المائدة صفحة ١٤٤، وأيضا لما صح أن يجيئ فى شرعه بشيء يخالف ما فيها لكنه ﷺ جاء بأحكام كثيرة تخالف ما فى التوراة، انظر آياتى

(٩٣ ، ٩٤) من سورة آل عمران صفحة ٧٨ والآية (١٦٠) من سورة النساء صفحة ١٣٠، والآية (١٤٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨.

فلم يبق إلا الطريق الثالث وهو إخباره تعالى له فى القرآن ، وهو عالم الغيب الذى لا يطلع على غيبه أحدا إلا مَنْ يرتضى من رسله، انظر آيتى (٢٦ ، ٢٧) من سورة الجن صفحتى ٧٧٢، ٧٧٣، الآية (٦) من سورة النمل صفحة ٤٩٤.

وبعد ما أقام سبحانه البراهين لكفار العرب على صدقه ﷺ أراد أن يبين أن حكمة إرسال الرسل هى سد باب المعاذير على الكفار حين يشاهدون العذاب فقال ﴿ولولا أن تصيبهم﴾ إلخ : أى ولولا فرض اعتذارهم بقولهم الناتج عن مشاهدة المصائب التى تحل بهم عقابا لهم على ذنوبهم: يا ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا ينبهنا لما يرضيك وما يغضبك فكنا نتبع ما تنزله عليه من آياتك ونكون من المؤمنين بوحدانيتك؛ أى لولا فرض ذلك محقق لما أرسلناك إليهم أيها النبى. فالكلام من قبيل ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾.

وبعدما حذرهم سبحانه من عدم قبول عذرهم شرع فى بيان ما حصل منهم عندما جاءهم هذا الرسول الذى كانوا سيعتذرون بعدم وجوده فقال ﴿فلما جاءهم﴾ إلخ : أى فلما جاءهم القرآن الحق المنزل من عندنا على رسولنا محمَّد ﷺ عاندوا وقالوا هلا آتاه الله الكتاب جملة واحدة كما فعل مع موسى، حيث آتاه الوصايا العشر جملة واحدة، انظر الآية (١٤٥) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٤، ٢١٥ والآية (١٥٠) من نفس السورة صفحة ٢١٦ وقد رد هذا سبحانه فى الآية (٣٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤ بوجه آخر غير ما هنا، فانظره.

المفردات : ﴿سحران﴾: يريدون ما أوتيه موسى وهو التوراة، وما أوتيه محمَّد وهو القرآن .

﴿تظاهرا﴾: أى تعاونا بتصديق كل منهما للآخر، انظر مادة ظاهر فى الآية (٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦، والآية (٤) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢.

﴿وصلنا﴾ : أصل التوصيل ضم قطع الحبل بعضها إلى بعض، والمراد أنزلنا القرآن على دفع متتابعة للحكمة الموجودة فى الآية (٣٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤.

﴿يدرءون﴾ أى يدفعون.

مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ
قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ
فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا
يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ
هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾
وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾
ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ
إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم
مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ

﴿اللغو﴾ : هو ما يستحق أن يلغى ويترك من العبث وسخف القول.

المعنى : فلما جاء الرسول قالوا عنادا لا نؤمن به لأنه لم يأت بكتاب جملة واحدة كما جاء موسى بالألواح جملة واحدة. فرد سبحانه عليهم بقوله: ﴿أولم يكفروا﴾ إلخ: أى هل آمن هؤلاء بما أوتى موسى من قبل ولم يكفروا به، ويقولوا إن الله لم ينزل على بشر شيئاً، انظر الآية (٩١) من سورة الأنعام إلى آخر صفحة ١٧٧، وقالوا اليوم بعد مجىء القرآن: توراة موسى وقرآن محمَّد سحران تعاونا فى تصديق كل منهما للآخر، كما فى القرآن فى الآية (٩٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٧، وقالوا إنا بكل من التوراة والقرآن كافرون. عند ذلك أمر سبحانه نبيه أن يتحداهم بأن يأتوا بخير منهما فقال : قل لهم أيها النبى متحديا: فأتوا أنتم بكتاب من عند الله أكثر هداية منهما فإنى أتبعه إن كنتم صادقين فى قولكم إن التوراة والقرآن سحران . وهذا كلام يراد به الإلزام والتبكيت. فإن لم يجيبوا طلبك بالإتيان بكتاب أحسن ولن يفعلوا كما قال فى آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة البقرة صفحة ٦، فاعلم أنه لا حجة عندهم وإنما يسيرون وراء شهواتهم فى الكبر والعناد.

وليس فى الوجود أحد أشد ضلالا ممن يتبع فى أمور الدين هواه بعيدا عن هدى الله الذى ينقذه من ضلاله، انظر الآيات (١٠٢ إلى ١٠٦) من سورة الكهف صفحتى ٣٩٤، ٣٩٥ ، ومن كان هذا شأنهم لايهديهم الله تعالى؛ لأنه لا يهدى مَنْ ظلم رسله وظلم الحق، انظر ما قيل فى

---

(١) تظاهرا. (٢) كافرون. (٣) بكتاب. (٤) صادقين. (٥) هواه.
(٦) الظالمين. (٧) آتيناهم. (٨) الكتاب. (٩) آمنا. (١٠) رزقناهم.

الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨.

وبعد ما أقام عليهم الحجة شرع فى بيان الحكمة فى إنزال القرآن على دفع فقال: ﴿ولقد وصلنا﴾ إلخ : أى ولقد أتبعنا بعض القرآن بعضا فى الإنزال حسب الوقائع وعلى مقتضى الحكمة ليكون أقرب إلى تذكيرهم وأدوم لتنبيههم.

ثم أكد سبحانه صدق القرآن بأن المخلصين من أهل الكتاب آمنوا به، فكان الأولى بَمنّ لا كتاب لهم أن يؤمنوا به، خصوصا أنه بلسانهم بخلاف الكتب السابقة، انظر شرح الآية (١٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١.

وكان ممَنْ أسلم من أهل الكتاب قوم من نصارى الحبشة كما فى الآية (٨٣) من سورة المائدة صفحتى ١٥٣ ، ١٥٤، وعبد الله بن سلام وأصحابه من اليهود، وكان هؤلاء إذا تلى عليهم القرآن قالوا آمنا بكل ما فيه لأنه الحق من ربنا وإنا كنا من قبل نزوله على دين الإسلام الذى جاء به إبراهيم وكل الأنبياء، وتحققناه فى القرآن، انظر الآية (١٢٨ وما بعدها حتى ١٣٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٥، ٢٦ والآية (١٩) من سورة آل عمران صفحة ٦٥.

هؤلاء النصارى واليهود الذين آمنوا إيمانا صحيحا بالتوراة والإنجيل وأدركوا خاتم الأنبياء وآمنوا به يؤتيهم الله تعالى يوم القيامة أجرهم مرتين : مرة على إيمانهم السابق، وأخرى على اللاحق جزاء صبرهم على أذى الكفار فى العصر الماضى والحاضر، ويصح أن يقال فى أهل الكتاب الذين آمنوا بكتابهم ونبيهم إيماناً صحيحا قبل بعثة خاتم الرسل، ثم آمنوا به وبكتابه بعد بعثته، يؤتون أجرهم مرتين بسبب صبرهم على تحمل الشدائد التى لاقوها من كفار كل من المسيحية والإسلام.

أما مقدار الأجر فى كل مرة فهو مقدار عظيم لا يعلمه إلا علام الغيوب المطلع على ما فى الصدور، فيقدر ثوابهم على قدرة قوة إيمان كل منهم، وشدة إخلاصه بدليل قوله تعالى فى آية أخرى ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ الآية (١٠) من سورة الزمر صفحة ٦٠٧، ومن أخلاقهم التى اكتسبوها بالإيمان أنهم يدفعون بالطاعة أثر المعصية وبالحلم الأذى، وهذا من آثار صبرهم، وينفقون فى وجوه الخير مما رزقهم الله تعالى، وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه لاشتغالهم بكل نافع.

وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا[١] وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ[٢] سَلَامٌ[٣] عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي
الْجَاهِلِينَ[٤] ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ
يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِن
نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ
حَرَمًا آمِنًا[٥] يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ[٦] كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ
بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ[٧] لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ
إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ[٨] ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ
الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا[٩] ۚ
وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ[١٠] ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم
مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ[١١] الْحَيَاةِ[١٢] الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ
وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ[١٣] وَعْدًا حَسَنًا

المفردات : ﴿لا نبتغى﴾ : لا نطلب معاشرة الجاهلين.

﴿الجاهلين﴾ المراد بهم هنا السفهاء الحمقى، انظر الآية (٦٧) من سورة البقرة صفحة ١٣.

﴿نتخطف من أرضنا﴾: أى ينتزعنا منها الأقوياء من المشركين بسرعة.

﴿أو لم نمكن لهم حرما﴾: الهمزة للاستفهام التقريرى، ونمكن لهم أى نثبتهم جاعلين مكانهم حراما انتهاكه لأنه فيه البيت الحرام، انظر الآية (٩٧) من سورة المائدة صفحتى ١٥٦ ، ١٥٧ ، فالحرام والحرام بمعنى واحد.

﴿آمنا﴾: أى ذا أمن لا يمس مَنْ فيه بسوء ، انظر الآية (٦٧) من سورة العنكبوت صفحة ٥٣٠.

---

(١) أعمالنا.
(٢) أعمالكم.
(٣) سلام.
(٤) الجاهلين.
(٥) آمنا.
(٦) ثمرات.
(٧) مساكنهم.
(٨) الوارثين.
(٩) آياتنا.
(١٠) ظالمون.
(١١) فمتاع.
(١٢) الحياة.
(١٣) وعدناه.

﴿يجبى﴾: أى يجمع ويساق إليه.

﴿كم﴾ : كلمة تدل على كثرة ما بعدها .

﴿من قرية﴾ من حرف يدل على أن ما بعده بيان للمراد من ﴿كم﴾.

﴿بطرت﴾: المراد كفرت بالنعمة فلم تقابلها بالشكر، انظر الآية (٤٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٤.

﴿معيشتها﴾ : أى ما به حياتها من مطعم ومشرب وملبس، أنظر شرح الآية (٢٠) من سورة الحجر صفحة ٣٣٩.

﴿أمها﴾ : أكبرها التى يسكنها القادة الذين يتبعهم جميع مَنْ حولهم.

المعنى : وقال هؤلاء المؤمنون للذين يلغون : لنا أعمالنا لا نحاسب إلا عليها ، سلام عليكم سلام ترك لا تحية؛ فأنا لا نسير فى طريق الجاهلين، انظر الآية (٦٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٧، والآية (٧٢) من نفس السورة صفحة ٤٧٨. ولما كان ﷺ شديد الحرص على إيمان عمه أبى طالب لأنه كان العون القوى الذى منع عنه إيذاء كفار قريش.

وكان سبحانه يعلم أن أبا طالب مصمم فى قلبه على عدم ترك دين قريش مع اعتقاده صدق ابن أخيه، فى هذا قال سبحانه: إنك أيها النبى لا تستطيع أن توفق مَنْ تحب إلى الإيمان ولو بذلت كل مجهود فلا تتعب نفسك، وليس عليك إلا البلاغ كما فى الآية (٢٧٢) من سورة البقرة صفحة ٥٨، ولكن الله وحده هو الذى يهدى مَنْ يشاء هدايته لحسن استعداده؛ لأنه أعلم بالمستعد للهداية وغيره.

وكان بعض كفار قريش ممن يعرفون الحق يقولون له ﷺ نخشى إن اتبعنا ما جئت به وخالفنا مَنْ حولنا من قبائل العرب القوية كثقيف وغيرها أن يحاربونا ويطردونا من ديارنا، فرد سبحانه عليهم بقوله ﴿أو لم نمكن لهم﴾ إلخ: أى هل لم نحفظهم ونجعل مكانهم مقدسا آمنا كل مَنْ فيه حتى الحيوان، فى الوقت الذى تتقاتل العرب حولهم من كل جهة وهم آمنون فى هذا الحرم الذى يحمل إليه ثمرات من كل ما يحتاجون إليه، جعلنا لهم ذلك رزقاً من عندنا؛ والمعنى أن الخوف لا يصح عذرًا لأنا جعلناكم فى بلد أمين من أقدم العصور فكيف

يكون أمنا لكم حال كفركم ولا يكون أمنا إذا آمنتم بمَنْ جعل له هذه القداسة؟ انظر آيتى (٣ ، ٤) من سورة قريش صفحة ٨٢٣، ولكن أكثرهم جهلة لا يتنبهون إلى الصواب الذى فيه خيرهم.

ثم أراد سبحانه أن يرد على شبهتهم من طريق آخر وهو أن عدم الإيمان لا يحفظ النعم بل يزيلها فقال ﴿وكم أهلكنا﴾ إلخ : أى وكثيراً من القرى التى كثر الخير على أهلها حتى بطروا تلك النعم خربناها فأصبحت مساكنهم خاوية لا يسكن فيها أحد من بعدهم إلا قليلا جدا من المارة الذين ينزلون بها يوما أو بعض يوم.

ولم يكن لهم من ذريتهم مَنْ يرثهم فى سكناها بل ورثها الله تعالى وحده، لأن كل شىء ليس له مالك معين يقال إنه ميراث الله عز وجل، انظر الآية (١١٢) من سورة النحل صفحة ٣٦١.

وما صح فى عدل ربك أيها النبى أن يهلك القرى قبل أن يبعث فى كبراها رسولا يتلو عليهم الآيات الناطقة بالحق، فإن اتبعوه نجوا وإلا هلكوا ، لأنهم ظلموا أنفسهم، وظلموا رسولهم، وظلموا الحق ، ثم بيَّن فساد ردهم من وجه ثالث وهو أنه لا يصح أن يكون عدم إيمانهم لمجرد المحافظة على متاع الدنيا، فقال: وكل ما أعطيتم أيها الناس من شىء من الأموال والأولاد فهو متاع الدنيا وزينتها فقط وليس له بقاء وعند الله تعالى من نعم الجنة خير وأبقى؛ هل تجهلون هذا فلا تعقلون الخير من غيره؟

وبعد ما بيَّن التفاوت فى النعيمين أراد أن يبين التفاوت بين صاحبيهما فقال تعالى ﴿افمن وعدناه وعدا حسنا﴾ إلخ .

المفردات : ﴿المحضرين﴾: الذين تحضرهم الملائكة للعذاب رغم أنوفهم، والقرآن لم يستعمل هذا اللفظ إلا فى ذلك، انظر الآية (١٦) من سورة الروم صفحة ٥٣٢، والآية (٥٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠.

﴿حق عليهم القول﴾: أى استحقوا العذاب، انظر شرح الآية (٨٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٤.

﴿ولو أنهم كانوا يهتدون﴾: جواب لو مفهوم من المقام أى : لما رأوا العذاب ﴿عميت عليهم الأنباء﴾: المراد خفيت عليهم الأنباء فلم يهتدوا إليها.

فَهُوَ لَاقِيهِ[1] كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ[2] مَتَٰعَ[3] ٱلْحَيَوٰةِ[4] ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ[5] مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ
شُرَكَآءِىَ[6] ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ[7] كَمَا غَوَيْنَا
تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟
شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ
لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ
أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ
فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ[8] وَعَمِلَ
صَٰلِحًا[9] فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ
مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ[10] ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ[11]
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ

﴿لا يتساءلون﴾: أى لشدة الهول لا يسأل أحد غيره شيئاً مما يساعده على الخروج من الخطر، انظر الآية (١٠) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥.

﴿الخيرة﴾: مصدر بمعنى الاختيار مأخوذ من تخير كالطيرة، انظر الآية (١٨) من سورة يس صفحة ٥٨٠.

المعنى : هل يستوى المؤمن الذى وعده ربه بالجنة وما فيها فهو واصل لهذا النعيم قطعا لاستحاله تخلف وعده تعالى، مع مَنْ تمتع بزخرف الدنيا المشوب بالآلام المهدد بالتحسر على انقطاعه، ثم هو يوم القيامة من العصاة الذين تجرهم الملائكة للعذاب الذى لاشك فيه؟ إنهما بعد هذا التفاوت الظاهر لا يستويان. واذكر أيها النبى لقومك ما سيحصل يوم يناديهم ربهم نداء توبيخ فيقول لهم أين شركائى الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لى؟ وكان هذا التوبيخ على مسمع من معبوداتهم؛ ولذا قال ﴿الذين﴾ إلخ : أى قال الشركاء المزعومون من شياطين الإنس والجن ورءوس الكفر الذين

---

(١) لاقية.
(٢) متعناه.
(٣) متاع.
(٤) الحياة.
(٥) القيامة.
(٦) شركائي.
(٧) أغويناهم.
(٨) وآمن.
(٩) صالحا.
(١٠) سبحان.
(١١) وتعالى.

ثبت عليهم مضمون قول الله ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس﴾ كما فى الآية (١٣) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦، وانظر ما قيل فى الآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠ ، ٢٧١. قالوا تمهيدا للجواب : يا ربنا هؤلاء الذين أشركونا معك فى العبادة أغويناهم بمجرد الوسوسة التى وافقت أهواءهم، ولم يكن لنا عليهم جبر، انظر الآية (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣، فكانوا فى غوايتهم كما غوينا نحن، كل منا باختياره، فنحن اليوم نوجه تبرؤنا إليك منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصى تحت تأثير شهوات أنفسهم، لأنهم فى الحقيقة ماكانوا يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم، انظر الآية (٢٣) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣، أى فلا تعاقبنا على ضلالهم عذابًا زائدًا على عقابنا على ضلالنا، ثم يوجه الخطاب للمشركين فيقول لهم تهكما: ادعوا شركاءكم الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم ليغيثوكم، انظر الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨. فلشدة حيرتهم دعوهم فلم يجيبوا لهم دعاء، لأنهم أعجز من أن ينقذوا أنفسهم فضلا عن غيرهم، ورأى الجميع من العابدين والمعبودين النار، ولو أنهم كانوا فى الدنيا مهتدين لما رأوها. وبعد أن يوبخهم على إشراكهم يوجه إليهم نداء توبيخ آخر على موقفهم مع الرسل الذين نهوهم عن الشرك فقال: ويوم يناديهم فيقول ما الذى قلتموه لرسلكم عندما طلبوا منكم توحيدنا؟ فغابت عنهم أخبار ما قالوه من شدة الحيرة فلا يستطيع أن يسأل أحدهم الآخر، لأن المقام شديد، يرهب الرسل أنفسهم فضلا عن العصاة المجرمين، انظر الآية (١٠٩) من سورة المائدة صفحة ١٥٩، هذا ما سيحصل لهؤلاء إذا استمروا؛ أما من تاب منهم وعمل صالحا فيرجى له أن يكون من الفائزين. ولما كان مما قاله المشركون لو كان هذا القرآن نزل على عظيم من عظماء مكة لآمنا، انظر الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٥٥، رد سبحانه عليهم بقوله: وربك أيها النبى هو الذى يخلق ما يشاء كما يشاء، ويختار من خلقه مَنْ يشاء لتبليغ رسالته، ولا يختار إلا طاهر النفس، حسن الاستعداد، لا صاحب المال والجاه كما فى الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، فما كان الاختيار لهؤلاء المشركين. تنزيها لله تعالى عن أن ينازعه غيره فى الاختيار، وتعاليا وترفعا له عن شركهم . ولما كان قولهم هذا مجرد حسد وتمويه على الحق، هددهم سبحانه بقوله : وربك يعلم ما تخفيه صدورهم من الحقد عليك أيها النبى.

وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ
فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ[1] وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)
قُلْ أَرَءَيْتُمْ[2] إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ[3] سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ[4] مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)
قُلْ أَرَءَيْتُمْ[5] إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ[6] مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ
أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ[7] وَٱلنَّهَارَ
لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)
وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ[8] ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤)
وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ[9] فَعَلِمُوٓا۟
أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٧٥) * إِنَّ
قَٰرُونَ[10] كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ[11]

المفردات : ﴿أرايتم﴾: المراد أخبرونى . ﴿سرمدا﴾: دائما أبدا ﴿لتبتغوا﴾: تطلبوا بالسعى فى الأرض، انظر الآية (١٥) من سورة النمل صفحة ٧٥٥. ﴿نزعنا﴾ أحضرنا. ﴿شهيدا﴾: هو نبيها، انظر آيتى (٤١ ، ٤٢) من سورة النساء صفحة ١٠٧ . ﴿ضل﴾: غاب ﴿قارون﴾ : قيل كان من أقارب موسى حتى قال كثير من السلف أنه ابن عمه ولكنه نافق مثل السامرى المذكور فى صفحة ٤١٣ ثم أعلن الكفر أخيرا.

﴿بغى﴾ : تكبر وطلب أن تكون له الكلمة فيهم.

المعنى : الله سبحانه هو الذى يعلم ما تكن صدور المشركين له ﷺ من الحقد وما يعلنونه من الطعن فيه بمثل ما فى صفحة ٤٢٠، ولما كان لا يعلم ما فى الصدور إلا الله الإله الواحد الحق، قال سبحانه: هو الله لا إله إلا هو، أى لا يصح أن يعبد سواه، له وحده الحمد فى الدارين، لأنه مصدر النعيم فيهما، وله الحكم النافذ فى كل شىء، وإليه ترجعون أيها المشركون أنتم والخلق أجمعون فيجازيكم على أعمالكم خيراً أو شراً. ثم شرع فى ذكر بعض نعمه سبحانه فقال ﴿أرايتم﴾ إلخ : أى قل أيها النبى لمشركى قومك أخبرونى إن جعل الله كل أزمانكم ليلاً لا نهار فيها إلى يوم القيامة من هو الإله المغاير لله الذى يستطيع أن يأتيكم بنهار تسعون فيه على رزقكم؟ هل أصبتم بصمم فلا تسمعون هذه العبر سماع فهم وتدبر؟ قل أيضا أخبرونى إن جعل الله كل أزمانكم نهارًا لا ليل فيه مَنْ هو الإله غير الله الذى يأتيكم بليل

(١) الآخرة. (٢) أرايتم. (٣) الليل.
(٤) القيامة. (٥) أرايتم. (٦) القيامة.
(٧) الليل. (٨) شركائى. (٩) برهانكم.
(١٠) قارون. (١١) آتيناه.

تستريحون فيه من عناء العمل؟ هل أصابكم العمى فلا تبصرون آيات الله التى نصبها فى الكون دالة على أنه وحده هو الذى يفعل كل شىء إبصار تأمل واعتبار بعين البصيرة، انظر الآية (١٠٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٠، والآية (٢٠١) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥، والآية (٢١) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣. ثم بيَّن سبحانه حكمته فى خلق الليل والنهار فقال: ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا، أى تستريحوا فى الليل، ولتسعوا فى طلب الرزق فى النهار، ولتكونوا مستعدين لشكره على نعمائه. ولما كان عماد رسالة الرسل هو الدعوة إلى التوحيد، وأنه لا شىء أجلب لغضب الله من الإشراك به، انظر الآية (٤٨) من سورة النساء صفحة ١٠٨، والآية (٧٢) من سورة المائدة صفحتى ١٥١ ، ١٥٢، ولا شىء أجلب لرضا الله من توحيده، انظر الآية (٧) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٦ ، ٦٠٧، لما كان كل هذا أعاد سبحانه تقريع المشركين على شركهم متبعا التقريع هنا بأنهم أشركوا عن عمى قلب لا عن برهان فقال : ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون﴾ فلما لم يجدوا أحضر سبحانه من كل أمة رسولها الذى أرسل إليها ليشهد لها أو عليها، وقلنا لهؤلاء المشركين هاتوا برهانكم على ما تزعمون، فعجزوا وعلموا أن الحق أى الحجة البالغة لله تعالى عليهم، وغاب عنهم ما كانوا يفترونه على الله كذبا من أنه له شريكا. وبعد ما بيَّن سبحانه محاربة أهل الضلال للحق ومصيرهم فى الآخرة وتحسرهم أراد سبحانه أن يضرب لهم مثلا بما حصل لأمثالهم فى الدنيا قبل الآخرة فقال (إن قارون) إلخ : ومن المعلوم أن رءوس الكفر التى حاربها موسى كانوا فرعون وهامان وقارون، انظر الآية (٣٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦، وسبب طغيان فرعون وهامان هو الخوف على الملك والرياسة كما تقدم؛ أما قارون فكان سبب طغيانه الغنى على حسب الطبع الغالب فى الإنسان المحروم من التوفيق، فإنه يقابل النعمة بدل الشكر عليها بالكفر والعصيان، وقليل من العباد مَنْ يقابلها بالشكر، انظر الآية (١٣) من سورة سبأ، والآية (٣٤) من نفس السورة صفحتى ٥٦٧، ٥٦٨، وآيتى (٦ ، ٧) من سورة العلق صفحة ٨١٤، وقالوا إن من أسباب عداوة قارون لموسى وهارون حسده لهما على أن يكونا رسولين مع أنه أغنى منهما، فلذا لما طلب منه موسى زكاة ماله للفقراء امتنع وطلب أن يكون هو صاحب الكلمة النافذة فى بنى إسرائيل، فى كل هذا قال

مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ[1] بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ
إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾
وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ[2] اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ[3] وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ
مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ
الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ
إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ
أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ
جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ[4] عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى
قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ[5] الدُّنْيَا
يَا لَيْتَ[6] لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ[7] إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾
وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ[8]
وَعَمِلَ صَالِحًا[9] وَلَا يُلَقَّاهَا[10] إِلَّا الصَّابِرُونَ[11] ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ

سبحانه: ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ أى كما أنكم يا كفار قريش من قوم محمَّد، فبغى على موسى وقومه بالتكبر بسبب أنه أعطى من الكنوز ما ليس عندهم، ظن أن العظمة والاستحقاق بالمال، انظر ما قاله كفار مكة فى نبيهم فى الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠.

المفردات: ﴿الكنوز﴾ التى كانت مدفونة خصوصا فى قبور قدماء المصريين.

﴿ما إن﴾: (ما) اسم موصول بمعنى التى والجملة المصدرة بأن صلتها. ﴿مفاتحه﴾: جمع مفتح بفتح فسكون، كمرصد ومراصد، وهو المخزن، قال ابن عباس: هى خزائنه وأوعيته.

﴿تنوء﴾: أى تصير ثقيلة عليهم من قولهم ناء بفلان الحمل إذا أثقله حتى أمال ظهره.
﴿العصبة﴾: الجماعة الكثيرة، انظر الآية (٨) من سورة يوسف صفحة ٣٠٣.

﴿أولى القوة﴾: أصحاب الشدة. ﴿على علم عندى﴾: المراد لأن عندى علما بمواضع الكنوز، أى حصلت عليه باستحقاق لا فضل لأحد علىَّ فيه. ﴿لا يسأل عن ذنوبهم﴾ لا يسألون سؤال استجلاب للرحمة، فلا ينافى أنهم يسألون سؤال توبيخ وتبكيت، انظر الآية (٩٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤، وآيتى (٢٤، ٢٥) من سورة الصافات صفحة ٥٨٨.

(١) لتنوء.
(٢) آتاك.
(٣) الآخرة.
(٤) يسأل.
(٥) الحياة.
(٦) ياليت.
(٧) قارون.
(٨) آمن.
(٩) صالحا.
(١٠) يلقاها.
(١١) الصابرون.

﴿ويلكم﴾: أصل معنى ويل الدعاء بالهلاك ثم استعمل فى معنى الزجر عن شىء، فالمراد لا تقولوا هذا الخطأ. ﴿يلقاها﴾ : المراد يتلقى الصالحات ويعطاها من عنده سبحانه، أنظر الآية (١١) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٢.

المعنى : وآتينا قارون من الكنوز المقادير التى يشق حمل خزائنها على الجماعة القوية، فأظهر التفاخر والفرح بما أوتيه حين قال له قومه المؤمنون من بنى إسرائيل: لا تفرح ، فرح بطر وشغف بالدنيا، لأن ذلك علامة التفانى فيها ونسيان الآخرة، والله تعالى لا يحب مَنْ كثر فرحه بها حتى شغلته عن آخرته ، واطلب من الغنى بسبب هذا المال الذى تفضل الله به عليك الدار الآخرة بأن تصرف منه فى وجوه الخير، ولا تنس نصيبك من الدنيا بأن تأخذ ما يكفيك ولا تقتر على نفسك وعيالك ، أى اسلك الطريق الوسط، انظر آيتى (٢٦ ، ٢٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨، وأحسن شكر ربك بطاعته كما أحسن إليك بجزيل النعم، ولا تطلب بكثرة المال الفساد فى الأرض لأن الله لا يحب المفسدين، ومن لا يحبه الله يغضب عليه، ومن غضب عليه فقد هوى، انظر الآية (٨١) من سورة طه صفحة ٤١٣.

قال قارون ردا على هذا النصح الجميل: إنما حصلت على هذا المال على استحقاق، لأن عندى من العلم ما استوجب أن أتفوق عليكم جميعا بالجاه والمال، ولم يعترف بأن لله فضلا عليه يلزمه شكره ، فكان رده سبحانه عليه قوله ﴿أولم يعلم﴾ إلخ : أى هل نسى ما جاء فى التوراة من إهلاك عصاة الأمم السابقة، ولم يعلم أن الله قد أهلك منهم مَنْ هم أشد منه قوة وأكثر جمعا للأموال ، انظر الآية (٦٩) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٢، ٢٥٣ والاية (٨٢) من سورة غافر صفحة ٦٢٩، وبعد ما بيَّن سبحانه جهل قارون اراد أن يبين ما سيلاقيه هو وأمثاله المجرمين يوم القيامة فقال ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ أى لا يسأل سبحانه المجرمين يوم القيامة عن ذنوبهم سؤال عتاب مقدمة للرحمة، انظر الآية (٨٤) من سورة النحل صفحة ٣٥٧، والآية (٢٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣.

ثم شرع سبحانه فى بيان مظهر من مظاهر اغترار قارون بالمال مقدمة لإهلاكه فقال (فخرج) إلخ : أى فخرج قارون على قومه ذات يوم فى زينة عظيمة من مراكب فاخرة وخدم مريدا بذلك التعالى عليهم بإظهار العظمة، قال الذين كُلُّ همهم الدنيا: ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم. وقال الذين أعطاهم الله تعالى العلم الصحيح بما أعده الله لعباده

وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ
تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا
لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ[1] ﴿٨٢﴾ تِلْكَ
ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ[2] نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ[3] لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ
فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟
ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ
عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ[4] لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ
بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ[5] مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟[6]
أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ[7] إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ

المؤمنين فى الآخرة : زجراً لكم عن هذا القول الباطل، فثواب الله فى الآخرة خير من كل هذا المتاع الزائل لمن آمن وعمل صالحا، ولا يمن الله بالتوفيق للأعمال الصالحات إلا على الصابرين على شدائد الدنيا وفتنتها . فخسفنا بقارون الأرض إلخ .

المفردات : ﴿وبداره﴾: المراد المنطقة التى كانوا فيها. ﴿من فئة﴾ : أى جماعة انظر الآية (٢٤٩) من سورة البقرة صفحتى ٥١ ، ٥٢، ومن لتأكيد عموم نفى ﴿ما﴾ التى بعدها.

﴿ويكأن الله﴾: أصل التركيب.

(ويك أن الله) و (ويك) و (وى) كلمتان تستعملان للدلالة على التعجب أو الندم، والمراد هنا الثانى ، والمعنى يا أسفا ألم نعلم أن الله يبسط إلخ. ﴿يبسط الرزق﴾ : أى يوسع ﴿ويقدر﴾ : أى ويضيق ، كما فى الآية (١٦) من سورة الفجر صفحة ٨٠٧. ﴿علوا فى الأرض﴾: أى تعاليا على الناس بالقهر والاستبداد ﴿فرض عليك﴾: أى أوجب عليك العمل به، انظر الآية الأولى من سورة النور صفحتى ٤٥٦ ، ٤٥٧. ﴿لرادك﴾ : جاء الرد فى لغة العرب على معنيين : الأول : إرجاع الشىء إلى ما كان عليه . والثانى : صرف الشىء من حال إلى حال، ومن جهة إلى

---

(١) الكافرون.
(٢) الآخرة.
(٣) العاقبة.
(٤) القرآن.
(٥) ضلال.
(٦) ترجو.
(٧) الكتاب.

حال، ومن جهة إلى جهة. فمن الأول ما فى الآية (٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، والآية (٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥. ومن الثانى فى الآيات (٥٩) من سورة النساء صفحة ١١٠، و(١٤٧) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨، و(١٠٧) من سورة يونس صفحتى ٢٨٢، ٢٨٣، ويقال لمَنْ ولد مسلما ثم كفر فلان ارتد أى تحول عن دينه ومنه حديث معاذ بن جبل لما بعثه ﷺ إلى اليمن وقال له بخصوص الزكاة (صدقة تؤخذ من أغنيائهم ترد إلى فقرائهم). فرادك هنا تؤخذ على المعنى الأول فمعناها مرجعك إلى ما كنت فيه. وعلى المعنى الثانى فيكون معناها صارفك وموصلك كما سيأتى فى المعنى. (إلى معاد) : المعاد إما من (عاد) بمعنى (رجع) وإما من (عاد) بمعنى (صار)، والكل كثير فى كلام العرب. فمن الأول ما فى الآية (٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦، ومن الثانى ما فى الآية (٣٩) من سورة يس صفحة ٥٨٢ وقوله ﷺ لمعاذ لما أطال الصلاة فوق المطلوب، فتألم الناس (لا تعد فتانا يا معاذ) أى لا تصر منفرًا. ومنه قوله ﷺ فى دعائه (وأصلح لى آخرتى التى فيها (أو إليها معادى) أى مصيرى. فالمعاد إما مكان الرجوع أى المرجع، أو المكان الذى يصير إليه أى المصير والنهاية، فهو اسم مكان كالمفاز فى الآية (٣١) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨.

المعنى : لما اغتر قارون بكثرة المال خسف الله به وبداره الأرض، فابتلعته هو وماله ومَنْ كان على مذهبه، وفى التوراة أنهم كانوا أكثر من ٢٥٠ رجلا، انظر سفر العدد فى إصحاح (١٦)، فما كان له قوة غير الله تنصره بمنع العذاب عنه، وما كان هو مستطيعا نصر نفسه بنفسه، وقد حصل ذلك لقارون بعد خروج بنى إسرائيل من مصر، وأصبح الذين تمنوا فى الزمن القريب جدا أن يكونوا فى منزلته فى الدنيا يقولون يا أسفا على ما كنا فيه من الخطأ، ألم نعلم أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده لحكمة غير رضاه عنه، ويضيقه على مَنْ يشاء لا لكرهه له، انظر الآية (١٨٠) من سورة آل عمران صفحة ٩٣، والآية (٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨ ، ١٦٩، وآيتى (٥٥ ، ٥٦) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٥٠ ، ٤٥١، لولا أن مَنَّ الله علينا بحفظنا مما كان عليه قارون من النفاق وغيره لخسف الأرض بنا معه. ثم كرروا الأسف على جهلهم أن الحقيقة أن الكافر بالله تعالى وبنعمه عليه لا يفلح أبدا. ثم أيد سبحانه قول أهل العلم فيما سبق من أن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا بقوله (تلك

الدار الأخرة) إلخ: أى تلك الدار الرفيعة المنزلة وهى الجنة نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرا على الحق وعلى الناس، ولا فسادا فى الأرض، لأن العاقبة المحمودة دائما تكون للمتقين.

ثم بيّن ما سيكون يوم القيامة من الجزاء فقال (من جاء بالحسنة فله خير منها) وأقله عشر أمثالها كما فى الآية (١٦٠) من سورة الأنعام صفحة ١٩١، وأكثره لا حد له كما فى الآية (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، كما فى صفحة ١٩١، وإنما قال يجزى الذين عملوا السيئات وخالف ما فى صفحة ١٩١ للإشعار بقبح السيئة وإنها منشأ إساءتهم، وجمع السيئات للإشارة إلى كثرتها وكثرة أصحابها بالنسبة للطائفتين، انظر الآية (١٠٣) من سورة يوسف صفحة ٣١٨، و(٢، ٣) من سورة العصر صفحتى٨٢٠، ٨٢١.

وبعد ما بيّن سبحانه لكفار مكة ما حصل لأمثالهم ممن كذبوا رسلهم ما فيه العبرة، وبين عاقبة المتقين أراد سبحانه أن يطمئن رسوله ﷺ بأن النصر فى النهاية له، وأن العاقبة الحسنى ستلاقيه، لأنه قام بما أمر به خير قيام، فقال: إن الذى فرض عليك القرآن أى العمل بما فيه فقمت به خير قيام لابد أن يرجعك إلى مكة بعد أن يتسبب قومك فى إخراجك منها سيرجعك إليها عزيزا منتصرا، ويذلهم ويخزيهم. قال بهذا جماعة من الصحابة والتابعين. أو المعنى: لابد أن يصرفك ويوصلك إلى مصير عظيم جدا يليق بك، وليس ذلك إلا الجنة التى فيها ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر، وقال بهذا جماعة أيضا منهم علىّ بن أبى طالب عليه السلام وابن عباس، وأبو سعيد الخدرى رضى الله عنهم أجمعين، ولكل وجهة فاختر لنفسك ما يرضيها. والله أعلى وأعلم.

ثم أراد سبحانه أن يؤكد هذا الوعد مع تهديد المشركين بأسلوب لين فقال: (قل ربى) إلخ: أى قل أيها النبى لهم ربى هو الذى يعلم بمن جاء بالهدى من عنده وبما يستحقه من الثواب والنصر، ويعلم من هو فى ضلال واضح وما يستحقه من العذاب والإذلال، ثم أكد صدق وعده مرة أخرى لزيادة تطمينه ﷺ ولتيئيس الكفار فقال (وما كنت ترجو) إلخ أى أنه سيردك إلى معاد كما ألقى إليك الكتاب، وما كنت ترجو ذلك ولكن ألقاه إليك رحمة منه لك ولعباده، لأن القرآن كله هدى ورحمة، وإذًا فلا تكونن معينا للكافرين.

ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

(٢٩) سُورَةُ العَنكَبُوتِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَسِتُّونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا
وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾

المفردات: ـ ﴿ظهيرا﴾: أى معينا كما فى الآية (١٧) المتقدمة صفحة ٥٠٨. ﴿لا يصدنك﴾: أصلها يصدونك فحذفت نون الفعل لوجود النهى وأدخلت عليه نون التوكيد.

المعنى: ـ فلا تكونن أيها النبى معينا للكافرين. وهذا النهى وما بعده يقصد به قطع أطماع المشركين بإظهار أن المنهى عنه وصل إلى درجة من القبح تطلب أن ينهى عنه من لايتصور وقوعه منه أصلا؛ ولذا قال ابن عباس فى هذا وأمثاله: الخطاب فى الظاهر له ﷺ والمراد غيره، انظر سورة الكافرون صفحة ٨٢٤، والآية (٤٩) من سورة المائدة صفحة ١٤٧، والآية (٧٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤ والآية (٢٨) من سورة الكهف صفحة ٣٨٤. ولا يصدك هؤلاء الكافرون عن قراءة آيات الله والعمل بها بعد وقت إنزالها عليك المقتضى أنك رسول، وادع الناس إلى توحيد ربك فى العبادة، ولاتكونن من المشركين بسبب معاونتك لهم، ولاتدع مع الله إلها آخر لأنه لا إله إلا هو، وكل شىء قابل للوجود فى هذه الدار فى وقت من الأوقات فإنه قابل للفناء إلا ذاته سبحانه وتعالى فإنه باق أبدا لايتغير، له سبحانه الحكم النافذ فى كل شىء، وإليه ترجعون جميعا للحساب والجزاء. والله تعالى أعلم.

سورة العنكبوت

المفردات: ـ ﴿آلمٓ﴾: تنطق هكذا: ألفْ لامْ. ميمْ بسكون الجميع، وتقدم المراد منها أول سورة البقرة. ﴿أحسب﴾: أى هل ظن. ﴿أن يتركوا﴾: أى يهملوا بلا اختبار بالتكاليف ولا جزاء فى الآخرة، انظر الآية (٣٦) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠. ﴿أن يقولوا آمنا﴾: أى لمجرد قولهم بأفواههم آمنا. ﴿لايفتنون﴾: أى لايختبرون ولايمتحنون بالتكاليف والمشاق.

---

(١) للكافرين. (٢) آيات. (٣) آخر. (٤) ألف. لام. ميم. (٥) آمنا. (٦) الكاذبين.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ
مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ
لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ
لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ
بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ
عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ
فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ
فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن
جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ

المعنى: ـ ألفْ. لامْ. ميمْ. هل ظن الناس أننا نتركهم لمجرد قولهم آمنا والحال أنهم لايختبرون بما يظهر حقيقتهم وما انطوت عليه نفوسهم؟ كلا، بل لابد من امتحانهم بالعسر واليسر والتكاليف، انظر آيتى (١٥٥، ١٥٦) من سورة البقرة صفحة ٣٠، والآية (١٨٦) من سورة آل عمران صفحة ٩٤، والآية (١٣١) من سورة طه صفحة ٤١٩، والآية (٣٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤، والآية (١١) من سورة الحج صفحة ٤٣٤، والآية (٢٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢، وآيتى (١٦، ١٧) من سورة الجن صفحتى ٧٧١، ٧٧٢. ولقد فتنا الذين من قبلهم كقوم فرعون فى الآية (١٧) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧، وغيرهم فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢، ومن الآية (٤) إلى الآية (١٠) من سورة البروج صفحة ٨٠١. فالمراد أن هذه هى سنة الله تعالى التى اقتضتها حكمته. وبهذا الامتحان يعلم سبحانه حال الذين صدقوا فى إيمانهم، وحال الكاذبين فيه، فيجازى كلا بما يستحقه.

المفردات: ـ ﴿أم حسب﴾: المعنى: هل ظن، انظر الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢. ﴿يسبقونا﴾: أى يفوتونا، والمراد يفلتون من عقابنا ﴿ساء﴾: قبح. ﴿مايحكمون﴾: حكمهم. ﴿يرجو لقاء الله﴾: أى يؤمن بالبعث، انظر صفحة ٤٧٣.

﴿بوالديه حسنا﴾: المراد إحسانا تاما حتى كأنه الحسن ذاته، انظر شرح الآية (٢٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٧. ﴿جاهد﴾: أى قاوم نفسه بالصبر على مشاق الطاعة والكف عن الشهوات وغير ذلك وإنما قلنا ذلك لأن السورة مكية ولم يكن فى مكة جهاد.

﴿أوذى فى الله﴾: أى آذاه الظالمون لأجل إيمانه بالله.

---

(١) يرجو. (٢) لآت. (٣) جاهد. (٤) يجاهد. (٥) العالمين.
(٦) آمنوا. (٧) الصالحات. (٨) الإنسان. (٩) بوالديه. (١٠) جاهداك.
(١١) آمنوا. (١٢) الصالحات. (١٣) الصالحين. (١٤) آمنا. (١٥) ولئن.

﴿فتنة الناس﴾: ما يصيبه من أذيتهم. ﴿أو ليس الله بأعلم﴾: المراد من هذا التركيب أنه سبحانه يعلم قطعا، انظر تفصيل ذلك فى الآية (٤٠) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠.

المعنى: - هل ظن هؤلاء الذين يرتكبون السيئات أن يفلتوا من عقابنا؟ كلا، لن يفلتوا، فبئس حكما حكمهم هذا. ثم أراد سبحانه أن يبين منشأ جرأتهم على المعاصى وهو إنكارهم البعث بعد الموت، فقال ﴿مَنْ كان يرجو﴾ إلخ: المراد مَنْ كان يؤمن بآخرة يلقى فيها ربه ليفيه حسابه كما فى الآية (٣٩) من سورة النور صفحة ٤٦٤، فليسارع إلى فعل ماينفعه، لأن أجل الله الذى حدده لهذا اليوم الآخر آت لاشك فيه. والله وحده هو السميع لكل قول، العليم بالعقائد والأعمال، فيجازى حسبها فى ذلك اليوم. ثم بين سبحانه أن مايطلبه من المكلفين هو لمصلحة أنفسهم فقال ﴿ومن جاهد﴾ إلخ: أى من اجتهد فى حرب نفسه وشهواتها أو فى الخير للمجتمع فثمرة جهاده تعود على نفسه، لأن الله غنى عن كل العالمين، فليس سبحانه محتاجا لعمل مخلوق قال الحسن البصرى: إن الرجل ليجاهد وماضرب يوما بسيف. ثم بيَّن جزاء المطيع فقال: ﴿والذين آمنوا﴾ إلخ: أى والذين آمنوا بالله ورسله وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم التى وقعت منهم، ولنجزينهم أحسن جزاء لأعمالهم، فإذا كان جزاء الحسنة مثلها نجزيهم عشر أمثالها بل وأكثر. ثم بيَّن سبحانه أفضل الطاعات بعد توحيده وهى الإحسان للوالدين فقال ﴿ووصينا﴾ إلخ: أى ووصينا الإنسان وأمرنا أن يحسن لوالديه إحسانا كثيرا جدا حتى كأنه هو الحسن نفسه، وقلنا له داوم على الإحسان إليهما وعلى طاعتهما إلا فى حالة واحدة فلا تطعهما فيها مع بقاء إحسانك لهما فيما عداها وهى حالة ما إذا حرضاك على أن تتبعهما فى أن تشرك بربك آلهة ليس عندك علم بألوهيتها، وبالأولى ما تعلم بطلانها. وإلى الله مرجعكم أيها الخلق جميعا يوم القيامة: مَنْ آمن منكم ومَنْ كفر، ومَنْ بر والديه ومَنْ عقهما، وسيجازيكم على ذلك. ثم بيَّن سبحانه منزلة عظمى سيمنحها للطائعين فقال ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وعزتى لأجعلنهم فى زمرة الكاملين فى الصلاح الذى هو متمنى الأنبياء ومنتهى درجات المؤمنين، انظر الآية (٨٤) من سورة المائدة صفحة ١٥٤ والآية (١٩٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥، والآية (١٠١) من سورة يوسف صفحة ٣١٨، والآية (٧٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨، والآية (٨٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥، وبعد مابيَّن سبحانه قسمين من الناس هما المؤمن حسن الاعتقاد والعمل، والكافر المجاهر بالكفر والعناد، وبيَّن ما أعد لكل منهما، أراد سبحانه أن يبين قسما ثالثا وهم ضعاف الإيمان

اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ
آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ
مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ
أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا
كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ
فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ
ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً
لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ
ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ

والمنافقون فقال: ومن الناس فريق يقول آمنا بالله فإذا أصابته شدة من جهة الكفار بسبب إظهاره الإيمان اعتبر ما يصيبه من ايذاء الناس له فى منزلة عذاب الله تعالى له يوم القيامة بجهنم جزاء كفره، والمراد جزع منه كما يجزع من عذاب الله فيرتد إلى الكفر. ولئن جاءك أيها النبى نصر من ربك كنصر على الأعداء أو غنيمة يقولون إنا كنا معكم فى الدين فأشركونا فى ثمرة هذا النصر، انظر آيتى، (٧٢، ٧٣) من سورة النساء صفحة ١١٢، والآية (١٤١) من نفس السورة صفحة ١٢٧، فهل يظن كل واحد منهم أنه هو وحده الذى يعلم ما فى داخل نفسه وليس الله تعالى بعالم ذلك.

المفردات: ـ ﴿بأعلم﴾: الباء لتأكيد نسبة العلم لله سبحانه. ﴿ولنحمل خطاياكم﴾: الأصل اتبعوا سبيلنا نحمل إلخ ولكنهم جاءوا بلام الأمر الدالة على أنهم يوجبون على أنفسهم تحمل خطايا الغير ليشجعوهم على اتباعهم. ﴿من شىء﴾: من لتأكيد عموم نفى ما بعدها. ﴿أثقالهم﴾: المراد أوزارهم. ﴿لبث﴾: أى مكث ﴿ألف سنة إلا خمسين عاما﴾: قال الزمخشرى فى تفسيره: فإن قلت: هلا قيل (تسعمائة وخمسين سنة) قلت: ما أورده الله سبحانه أحكم. لأنه لو قيل كما قلت لجاز أن يتوهم السامع إطلاق هذا العدد على ما يقرب منه. أى ويكون فى الحقيقة أقل مما ذكر. ويزول هذا التوهم بمجيئه على الوجه الذى جاء به القرآن فكأنه

---

(١) العالمين. (٢) آمنوا. (٣) المنافقين. (٤) آمنوا. (٥) خطاياكم.
(٦) بحاملين. (٧) خطاياهم. (٨) لكاذبون. (٩) ليسألن. (١٠) القيامة.
(١١) ظالمون. (١٢) فانجيناه. (١٣) أصحاب. (١٤) جعلناها. (١٥) آية.
(١٦) للعالمين. (١٧) إبراهيم. (١٨) أوثانا.

قال: تسعمائة وخمسين سنة كاملة، وافية العدد. كما أن ما جاء فى القرآن أكثر تحديدا، وأعذب لفظا وأملأ فائدة، وفيه نكتة أخرى. وهى أن القصة مسوقة كما قال الفخر الرازى لتسلية النبى ﷺ فإنه كان يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار فى الإسلام وإصرارهم على الكفر، انظر الآية (٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٧٩. فقال له سبحانه: إن نوحا لبث فى قومه ألف سنة تقريبا يدعوهم للإيمان. ولم يؤمن منهم إلا قليل. ومع ذلك صبر وماضجر فأنت أيها النبى أولى بالصبر لقصر مدة لبثك فيهم. وكثرة عدد من آمن بك. وأيضًا فقد كان كفار قوم نوح يغترون بتأخير العذاب عنهم هذه المدة الطويلة ومع ذلك لم ينج منه مع هذا المقدار الطويل من التأخير أحد فيجب أن لا يغتر قومك أيها النبى بتأخير العذاب عنهم مدة قصيرة فإنه سيلحقهم قطعا إذا استمروا على كفرهم. لكل ذلك كانت مفاجأة السامع بذكر أكبر عدد يعرفه العرب وهو الألف، أوقع فى النفس، وأوصل إلى الغرض. ثم قال الزمخشرى فإن قلت: فلمَ جاء التمييز أولا (بالسنة) وثانيا (بالعام)، ولم يقل ﴿ألف سنة إلا خمسين سنة﴾ مثلاً، قلت لأن تكرير اللفظ الواحد فى الكلام الواحد جدير بالاجتناب فى البلاغة لما فى التكرار من البشاعة. إلا إذا جاء ذلك لأجل غرض يقصده المتكلم. من تفخيم أو تهويل أو تشويه، أو نحو ذلك مما تجيزه قوانين بلاغة الكلام. وقال فى ذلك الألوسى: إن نوحا بعث على رأس الأربعين سنة كإخوانه الأنبياء. وعاش بعد الطوفان خمسين سنة وذكرت مدة دعوته لقومه بهذا الأسلوب فى القرآن للدلالة على كمال العدد. وكونه معينا نصا. لاتجز فيه، لأن (تسعمائه وخمسين) قد يطلق ويراد به ما يقرب منه، ولما فى ذكر ﴿ألف﴾ أول الأمر من تخيل طول المدة، فإن المقصود من القصة تصبيره ﷺ، وإنما اختلف التمييز لما فى التكرار فى مثل هذا الكلام من البشاعة، والحكمة فى اختيار (السنة) أولاً (والعام) ثانيا. أن السنة كما تطلق على العام تطلق على الشدة والجدب بخلاف العام فناسب اختيار السنة لزمان الدعوة الذى قاسى فيه نوح من الشدائد ما قاسى من قومه، انظر الآية (١٣٠) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢. ﴿آية للعالمين﴾: أى عبرة وتذكير لكل مَنْ سمع بها، انظر الآية (١٢) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢. ﴿أوثانا﴾: تماثيل يتقرب بها إلى الله تعالى. ﴿تخلقون﴾: أى تختلقون. ﴿إفكا﴾: كذبا هو ادعاء أنها تشفع لكم عند الله وتقربكم إليه كما فى الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨، والآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦. ﴿ابتغوا﴾: اطلبوا.

المعنى: - المحقق أن الله أعلم بما فى قلوب المنافقين وغيرهم لايخفى عليه شىء مما فيها، فكيف يخادعون مَنْ لا تخفى عليه خافية؟

وعزته تعالى إنه يعلم المؤمن الصادق والمنافق الكاذب فى ادعاء الإيمان وبعد ما بين سبحانه أن من طرق كفار قريش التى كانوا يسلكونها فى معاملة مَنْ آمن بمحمد القسوة ليرجعوه كافرا، أراد أن يبين طريقا آخر هو طريق اللين والترغيب فى عدم اتباع الرسول ﷺ فقال: (وقال الذين كفروا) إلخ: أى وقال الكافرون من قريش لِمَنْ آمن منهم اتبعوا طريقنا فى الدين ونحن نوجب على أنفسنا تحمل نتيجة خطاياكم إن كان لكم خطايا كما يقول محمد، أى لا تخافوا من حساب ولا عقاب فإنه ليس هناك شىء من هذا فردَّ عليهم سبحانه مبطلا زعمهم بقوله: وماهم بحاملين شيئًا من خطاياهم يوم القيامة لأنه يوم لايحمل فيه أحد وزر أحد انظر ما سبق فى الآية (١٦٤) من سورة الأنعام صفحة ١٩١، فهم كاذبون فيما قالوه، بل إن هؤلاء الطغاة سيحملون أوزار أنفسهم ويزادون عليها أوزارًا مثل أوزار مَنْ تسببوا فى إضلالهم من غير أن ينقص ذلك من أوزار الضالين شيئًا، انظر الآية (٢٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٨، ثم يسألون بعد ذلك سؤال تبكيت وتقريع عما كانوا يكذبونه فى الدنيا من التغرير وادعاء تحمل ذنوب الغير. ثم أراد سبحانه أن يبين مَنْ ابتلوا بفتن الكفار من الأنبياء وكيف كانت لهم العاقبة ليطمئن المؤمنون فقال: ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فمكث بينهم يدعوهم إلى عبادة رب واحد ألف سنة إلا خمسين عاما فكذبوه فأخذهم الطوفان وهم ظالمون، فأنجيناه ومَنْ حملهم معه فى السفينة، وجعلنا هذه الحادثة عبرة كل معتبر، انظر الآية (٢٥) وما بعدها من سورة هود صفحة ٢٨٧، وسورة نوح صفحة ٧٦٧ ومابعدها، وكذا أرسلنا إبراهيم حين قال لقومه اعبدوا الله وحده وخافوا عقابه، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون أنكم لاتعبدون إلا تماثيل تنحتونها بأيديكم، وتختلقون الكذب أنها تشفع لكم. إن هؤلاء الذين تعبدونهم من غير أن تفردوا الله بالعبادة لايملكون لكم جلب رزق، وإذا كان الأمر كذلك فاطلبوا الرزق عند مَنْ بيده رزق كل شىء.

المفردات: - ﴿بدأ الخلق﴾: تقول العرب بدأ الله الشىء، وبدأ به، وأبدأه كلها بمعنى واحد هو (فَعَلَه ابتداء) أى غير مسبوق به. وجاء من أبدأ اسمه تعالى (المبدئ المعيد) وهذا الفعل

الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا
فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ
الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ
وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ
فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ
أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾
فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ
اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

وهو ﴿أبدأ﴾ فعل مهجور فى الاستعمال، أما مضارعه وهو ﴿يُبدئُ﴾ فهو كثير ولم يرد فى القرآن إلا مصحوبا بـ ﴿يعيد﴾ كما هنا وكما فى الآية (٤٩) من سورة سبأ صفحة ٥٧٠، والآية (١٣) من سورة البروج صفحة ٨٠١؛ أما ﴿بدأ﴾ ففى القرآن كثير، وقد يأتى بدون ﴿يعيد﴾ كما فى الآية (٧) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥. ﴿ينشئ﴾: أى يبتدئ ويوجد ﴿النشأة﴾: هى المرة من الإنشاء والمراد بها الإعادة يوم القيامة. ﴿تقلبون﴾: تردون. ﴿بمعجزين﴾: بغالبين الله بالهرب من عقابه. ﴿من ولى﴾: أى صاحب يتولى أموركم ﴿ولانصير﴾: أى ناصر يمنع العذاب.

المعنى: ـ فاطلبوا أيها المشركون الرزق من عند الله لا عند أوثانكم، واعبدوه وحده، واشكروا له نعمه عليكم ، واستعدوا للقائه، لأنه هو الذى سترجعون إليه يوم القيامة فيجازيكم خيرًا أو شرا. ثم حذرهم من إهمال أوامر الله حتى لايحصل لهم ماحصل لأمثالهم فقال ﴿وإن تكذبوا﴾ إلخ: أى تكذبوا رسل الله فيما أخبروكم به فلن تضروا غير أنفسكم، فقد كذب أمم من قبلكم رسلهم فأهلكهم الله وأنجى رسله لأنه ليس على الرسول هداية أمته بل عليه تبليغ أوامر الله لهم واضحة. وبعد ما فرغ إبراهيم عليه السلام من بيان الأصل المهم وهو توحيد الله، وأشار إلى الأصل الثانى وهو الرسالة، أراد أن يبين الأصل الثالث وهو بعث الخلائق يوم القيامة للحساب والجزاء فقال معرضا عن خطابهم احتقارا لهم ﴿أو لم يروا﴾ إلخ: أى هل انطمست أبصارهم فلم ينظروا كيف يوجد الله الأشياء سواء أكانت نباتات أو أشجار أو

(١) البلاغ. (٢) الآخرة. (٣) بآيات. (٤) لقائه.
(٥) يئسوا. (٦) فأنجاه. (٧) لآيات

حيوانات، يوجدها سبحانه من العدم ثم يعيدها إلى العدم ثانيا، وهذا يتكرر أمام أعينهم كل حين، وهو مما يستدل به البصير على كمال قدرته تعالى على كل شىء. ثم انتقل سبحانه إلى دليل أوسع وأبهر على قدرته على البعث فقال: قل سيروا إلخ أى إن لم يكفكم مايحيط بكم من صنع الله عـز وجل فى إيجاد الأشياء وإعدامها فلتسيروا فى الأرض وتتأملوا فى أقطارها وبحارها وجبالها وأجناس ما فيها فتعلموا من ذلك كيف خلق الله جل وعلا هذه العوالم على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة، وأخلاق شتى، وألوان متفاوتة، انظر آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٥، فتصلوا بذلك إلى أن القادر على كل هذا قادر على إعادتكم يوم القيامة للحساب والجزاء، انظر آيات (٣، ٤، ٥) من سورة الجاثية صفحتى ٦٦٠، ٦٦١، والآية (٣٣) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١، ولاشك أن القادر على خلقهم أول مرة إلخ قادر على أعادتهم لأن ذلك سهل عليه، انظر الآيات (٤) من سورة يونس صفحتى ٢٦٥، ٢٦٦، و (٣٤) من السورة صفحتى ٢٧١، ٢٧٢، و (١٠٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤. ثم حكى سبحانه ماقاله لنبيه إبراهيم فقال: قل لقومك ياإبراهيم سيروا فى الأرض وتأملوا كيف أوجد الله الخلق ابتداء على أحوال مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتى، هذا الإله الذى فعل ذلك هو الذى ينشئ النشأة الآخرة بعد النشأة الأولى التى هى الابتداء. فالمراد أن مَنْ عرف بالقدرة على الإبداء يجب أن يحكم له بالقدرة على الإعادة لأن قدرته ثابتة له دائمًا على كل شىء يستوى عنده بدء الشىء وإعادته. ثم بيَّن ما سيكون بعد النشأة الآخرة تهديدا وترغيبا فقال: يعذب مَنْ يشاء تعذيبه وهم المنكرون للآخرة. ويرحم مَنْ يشاء برحمته وهم المؤمنون بها، وإليه ترجعون جميعا فلا مفر من ملاقاة جزائه، وما أنتم بمعجزين الله عن إدراككم مهما حاولتم الاختباء فى جوف الأرض أو الصعود إلى السماء إن استطعتم، انظر الآية (٣٣) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠، وما لكم من دون الله صديق يحرسكم من المصائب، ولا نصير يدفعها عنكم. ثم هددهم بما سيكون إذا استمروا فقال ﴿والذين كفروا﴾ إلخ: أى قل لهم أيضًا ياإبراهيم إن الذين كفروا واستمروا على كفرهم بآيات الله المنزلة فى كتبه والمبينة فى الكون الدالة على توحيده وعلى صدق رسله، هؤلاء ستكون عاقبتهم اليأس المحقق من رحمتى وهؤلاء المجرمون سيكون لهم عذاب شديد الألم. فلما أخذتهم الحجة عمدوا إلى القوة

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ
وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن
نَّاصِرِينَ (٢٥) ۞ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ
إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ
أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)
وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ
وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن
كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ

فقال بعضهم لبعض اقتلوه بسيف مثلا أو ألقوه فى النار ليموت حرقا، فألقوه فى النار، فأنجاه الله تعالى منها. إن فى هذه الحادثة لعبرا ومواعظ ينتفع بها المستعدون للإيمان.

المفردات: . ﴿أوثانا﴾: تماثيل كما تقدم فى صفحة ٥٢٢. ﴿مودة بينكم﴾: أى لدوام التواد بينكم بالمحافظة على عبادتها حتى لايخالف أحدكم صاحبه. ﴿مأواكم﴾: مكانكم الذى تأوون إليه آخر الأمر. ﴿من ناصرين﴾: ﴿من﴾ حرف يفيد تأكيد العموم فيما بعده. ﴿آمن له لوط﴾ أى صدقه، انظر الآية (١٧) من سورة يوسف صفحتى ٣٠٤، ٣٠٥. ﴿مهاجر إلى ربى﴾: أى تارك أرض الظلم فى العراق وذاهب إلى حيث أمرنى ربى. وهو الشام. ﴿الكتاب﴾: المراد جنس الكتاب فيشمل التوراة والزبور والإنجيل والقرآن.

﴿ولوطا﴾: هو ابن أخى إبراهيم، انظر تفصيل قصته فى صفحة ٤٨٩. ﴿أئنكم﴾: الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد للتوبيخ. ﴿تقطعون السبيل﴾: أى تقفون فى الطرق وتقتلون المارة وتأخذون أموالهم، وجاء الإسلام بعقاب أمثالهم فى الآية (٣٣) من سورة المائدة صفحتى ١٤٢، ١٤٣. ﴿ناديكم﴾: النادى هو مجلس القوم، ولا يقال له ناد إلا فى حال اجتماعهم فيه. ﴿المنكر﴾: المراد به هنا كل ما تنكره الطباع السليمة كتهزئ المارة، وقذفهم بالطوب وكشف العورة، وفحش المزاح من كل ما يدل على فقد الحياء.

---

(١) أوثانا. (٢) الحياة. (٣) القيامة. (٤) ومأواكم. (٥) ناصرين. (٦) فآمن.
(٧) إسحاق. (٨) الكتاب. (٩) آتيناه. (١٠) الصالحين. (١١) الفاحشة. (١٢) العالمين.
(١٣) أئنكم. (١٤) الصادقين

المعنى: . وقال إبراهيم لقومه لم تعبدوا من دون الله إلا تماثيل لتدوم المودة بينكم فى الدنيا بالمحافظة على عبادتها، أما يوم القيامة فينعكس الحال ويشتد بينكم التخاصم، انظر شرح الآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١، والآية (٨٢) من سورة مريم صفحة ٤٠٤، ويلعن أهل النار كذلك بعضهم بعضا، انظر الآية (٣٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٨، والآية (٦٨) من سورة الأحزاب صفحة ٥٦١، ومكانكم النار وما لكم من ناصرين يمنعون النار عنكم. وبعد ما قال إبراهيم ذلك أوقدوا له النار ورموه فيها فأنجاه الله تعالى منها كما فى الآية (٦٨) وما بعدها من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧، والآية (٩٧) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٢، ولما رأى لوط ابن أخيه هذه المعجزة آمن بما يقول وصدقه.

وقال إبراهيم إنى مهاجر من أرض قومى إلى المكان الذى أمرنى ربى بالهجرة إليه وهو الشام، فهاجر هو ولوط، وأقام هو بفلسطين ، ولوط بشرق الأردن. إن ربى هو وحده العزيز أى الغالب الذى يمنع عنى كيد الأعداء، الحكيم فيما يصنع ويأمر.

وبعد ذلك تزوج بسارة فولدت له على كبر إسحاق، وولد لإسحاق يعقوب، فعاش إبراهيم حتى رأى حفيده. وجعل الله فى ذريته من إسماعيل وإسحاق النبوة فلم يكن نبى إلا منهم، وأنزل عليهم الكتب المقدسة، وآتى سبحانه نبيه إبراهيم أجرًا فى الدنيا من الصلاة عليه من كل مؤمن، والذكر الحسن إلى يوم القيامة، انظر الآية (٥٠) من سورة مريم صفحة ٤٠١، ومحبة أهل الملل جميعا، فكل يفتخر بالانتساب له، وكفاه تخليدا أن اسمه مقترن بركن عظيم من أركان الإسلام وهو الحج إلى البيت الذى بناه هو وابنه اسماعيل كما فى الآية (١٢٧) من سورة البقرة صفحة ١٢٥. وسيكون فى الآخرة من عداد البالغين النهاية فى الصلاح، انظر شرح الآية (٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢١. واذكر أيها النبى لقومك قصة لوط حين قال لقومه إنكم لتفعلون الفعلة المتناهية فى الفحش مبتدعين لها لم يفعلها أحد قبلكم، فعليكم وزر كل مَنْ يعملها، ثم بينها مع غيرها فى أسلوب التوبيخ فقال: أنكم لتأتون الرجال بدلاً من النساء، وتفعلون فى مجلسكم ماتنكره الطباع، فلم يجدوا له جوابا إلا قولهم متبجحين: ائتنا

ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ[1] بِٱلْبُشْرَىٰ
قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟
ظَـٰلِمِينَ[2] ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ
لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ[3] ﴿٣٢﴾
وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ
كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ[4] ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ
رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا
مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ[5] ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ[6]
وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ[7] ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟

بعذاب الله إن كنت صادقا فيما تزعم أن عملنا يغضب الله وإنك نبى مستجاب الدعاء. قال لوط يارب انصرنى على هؤلاء المفسدين.

المفردات: . ﴿بالبشرى﴾: بأن يولد له إسحاق ومن بعده يعقوب، انظر الآية (٧١) من سورة هود صفحة ٢٩٥. ﴿هذه القرية﴾: قرية سدوم بشرق الأردن. ﴿الغابرين﴾: أى من الباقين فى العذاب، أو الذاهبين الهالكين، انظر الآية (٨٣) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٥، ٢٠٦. ﴿ولما أن جاءت﴾: ﴿أن﴾ حرف يراد به تأكيد الربط بين شرط ﴿لما﴾ وهو ﴿جاءت رسلنا﴾ وجوابها وهو ﴿سىء بهم﴾ إلخ.

﴿سىء بهم﴾: أى وقعت عليه الإساءة والغم بسببهم، انظر الآية (٧٧) من سورة هود صفحة ٢٩٥. ﴿ضاق بهم ذرعا﴾: المراد بالذرع الطاقة أى قصرت طاقته عن تدبير نجاتهم، انظر صفحة ٢٩٥. ﴿رجزا﴾: الرجز العذاب، انظر تفصيله فى الآية (٨٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٦، وفى صفحة ٤٩٠ تفصيل ماحصل منهم ولهم. ﴿آية﴾: عبره وعظة.

﴿ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾: أى لاتفسدوا مصممين على الاستمرار فى الفساد، انظر الآية (٨٥) من سورة هود صفحة ٢٩٧.

﴿الرجفة﴾: الزلزلة الشديدة. ﴿جاثمين﴾: أى باركين على ركبهم ميتين، انظر الآية (٧٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥.

---

(١) إبراهيم. (٢) ظالمين. (٣، ٤) الغابرين. (٥) ياقوم. (٦) الآخر. (٧) جاثمين.

المعنى: ـ لما طلب لوط النصر من ربه استجاب سبحانه دعاءه، وبعث ملائكة ينقذونه منهم بإهلاكهم، وأمرهم أن يمروا على إبراهيم أولاً ليبشروه بأنه سيولد له إسحاق، وسيولد لإسحاق يعقوب، ولما جاءت هذه الملائكة لإبراهيم حاملة البشرى قالوا له إنا سنهلك قرية سدوم بخسف الأرض بها لأن أهلها استمروا على تماديهم فى الظلم لرسولهم وللناس بالمعاصى وأنواع الفساد. عند ذلك خاف إبراهيم على ابن أخيه لوط فحاول تأجيل العذاب مدة لعلهم يرجعون وينج ابن أخيه لوط انظر ماجاء فى صفحة ٢٩٥، فأخبر الملائكة بأنه موجود فى القرية وهو برىء من جرائمهم. قال الملائكة تطمينا لإبراهيم: نحن أعلم بمن فيها، لننجينه ومن آمن من أهله، أما امرأته فإنها ستبقى مع الهالكين، لأنها خانته بالكفر به وإرشاد الفساق لضيوفه، انظر الآية (١٠) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣، ولما جاءت الملائكة من عند إبراهيم إلى لوط فى صورة شبان حسان خاف عليهم واستولى عليه الغم لضيق قوته عن دفع الشر عنهم، وحصل بينه وبين قومه ما فصله سبحانه فى صفحات ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٤٢، ٣٤٣. عند ذلك قالت الملائكة له لا تخف علينا ولا تحزن على خراب القرية، وسننجيك وأهلك المؤمنين ماعدا امرأتك فإنها مع الهالكين. ثم بينوا له ما سيفعلون فقالوا: إنا سننزل على أهل هذه القرية عذابا من جهة السماء بسبب استمرارهم على الفسق. وجاء فى آيات أخرى أنهم نسفوا القرية أولا ثم امطروها بالحجارة، انظر الآية (٨٢) من سورة هود صفحة ٢٩٦، والآية (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣. ثم أرشد سبحانه كفار مكة إلى مكان العبرة فى هذا الحادث فقال: ولقد تركنا من هذه القرية عبرة واضحة هى مكانها الخراب والماء الأسود الذى ملأ مكانها المسمى الآن بحيرة لوط أو البحر الميت، ينتفع بهذه العبرة العقلاء الذين يمرون عليها، انظر صفحات ٢٩٦، ٥٩٤، ٥٩٥. ثم شرع سبحانه فى عبرة أخرى فقال ﴿وإلى مدين أخاهم﴾ إلخ: أى وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وحده، وافعلوا ماترجون به ثواب يوم القيامة، ولاتشتدوا فى الإفساد فى الأرض، فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين، انظر تفصيل ذلك فى صفحة ٢٠٦. ثم ذكر عبرة ثالثة فقال ﴿وعادًا وثمودًا﴾ إلخ.

وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ[1] وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ[2]
أَعْمَٰلَهُمْ[3] فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾
وَقَٰرُونَ[4] وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ[5] وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ[6]
فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ[7] ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا
أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ
أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ
أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ
كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ
ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ
مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ
ٱلْأَمْثَٰلُ[8] نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ[9] ﴿٤٣﴾

المفردات: . ﴿مستبصرين﴾: أى متمكنين من الإبصار، وهو التأمل وتمييز الحق من الباطل، ولكنهم أهملوا. ﴿قارون﴾: تقدم فى صفحة ٥١٧. ﴿فرعون وهامان﴾ تقدما فى صفحة ٥١٢. ﴿سابقين﴾: المراد مفلتين من عذابنا. ﴿حاصبا﴾: هى الريح العاصفة فيها حجارة صغيرة ﴿أوهن﴾: أضعف. ﴿الأمثال﴾: المراد أمثال القرآن كهذا المثل وغيره، وهى كثيرة، منها ما فى الآية (١٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢٣، والآيات (٢٤) وما بعدها صفحة ٣٣٢، والآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤. ﴿نضربها﴾: أى نجعلها ونقدمها لهم.

المعنى: . وأهلكنا عادا وثمود، وقد تبين لكم يأهل مكة ماحل بهم من مشاهدة مساكنهم التى تمرون عليها فى رحلاتكم إلى اليمن والشام، وسبب ماحل بهم من الهلاك أنهم خضعوا للشيطان الذى زين لهم المعاصى ومنعهم عن طريق الصواب، مع أن الله خلقهم متمكنين من التبصر ولكنهم لم يفعلوا. وأهلك سبحانه قارون وفرعون وهامان. ثم بين سبحانه إهلاكهم فقال: ولقد جاءهم موسى بالبراهين القاطعة على صدقه فاستكبروا على الله تعالى وعلى رسوله مفسدين فى الأرض، وما كانوا سابقين عذابنا بل أدركهم فأهلكهم. ثم بيَّنَ كيف أهلكهم فقال ﴿فكلا أخذنا بذنبه﴾ إلخ: أى فكل فريق من هؤلاء الطغاة عاقبناه بذنبه؛ فمنهم

(١) مساكنهم. (٢) الشيطان. (٣) أعمالهم.
(٤) قارون. (٥) هامان. (٦) بالبينات.
(٧) سابقين. (٨) الأمثال. (٩) العالمون.

خَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَأَقِمِ
الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ
اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ * وَلَا تُجَٰدِلُوٓا أَهْلَ
الْكِتَٰبِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ
وَقُولُوٓا ءَامَنَّا بِالَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا
وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ
إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ
بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا
الْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا
تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ
بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ

من أرسلنا عليه حاصبا كقوم عاد، انظر صفحة ٧٦١، ومنهم مَنْ أخذته الصيحة كثمود، انظر صفحة ٢٩٤، ومنهم من خسفنا به الأرض كقارون، انظر صفحتى ٥١٨، ٥١٩، ومنهم من أغرقنا كقوم نوح وفرعون، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا هم الذين ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الحق بعد أن تبينوا دليله وامعنوا فى الكبر والإفساد. وبعد ما بين سبحانه أنه أهلك مَنْ أشرك به وكذب رسله، أراد أن ينبه كفار مكة إلى خطأ اتخاذهم معبودات لاتنفعهم، وإن مابنوه عليها من الآمال ضائع، فقال ﴿مثل الذين اتخذوا﴾ إلخ: أى حال هؤلاء الكفار الذين اتخذوا من دونه تعالى أولياء يقربونهم من الله زلفى كما فى صفحة ٦٠٦ كحال العنكبوت التى اتخذت لنفسها بيتا من نسيج فى منتهى الضعف لتحمى نفسها به، ولا بيت أضعف من بيت العنكبوت، لو كان هؤلاء الكفار ممَّنْ يعنون بالعلم النافع لعلموا أن هذه الأصنام ستكون يوم القيامة أضعف من بيت العنكبوت فلا تقيهم عذاب الله؛ ولذا قال ﴿إن الله يعلم مايدعون﴾: إلخ: أى يعلم حقيقة هذا الشىء الذى يعبدونه من دونه، وأنه لاينفعهم مثقال ذرة، لأنه أضعف من بيت العنكبوت. والله وحده هو العزيز الغالب على كل شىء، الحكيم فيما يشرع وفيما يعامل به عباده. وهذا المثل ونظائره من أمثال القرآن نضربها للناس ايضاحا لما أشكل عليهم، ومايتبه لمغزاها إلا العالمون.

المفردات: . ﴿بالحق﴾: انظر شرح صفحتى ١٧٤، ٢٦٦. ﴿الفحشاء﴾: الفعلة المتناهية فى الفحش كالزنا مثلا. ﴿المنكر﴾: كل ماتنكره الشرائع والعقول السليمة كالقتل والإفساد فى

---

(١) الكتاب. (٢، ٣) الصلاة. (٤) تجادلوا. (٥) الكتاب.
(٦) آمنا. (٧) واحد. (٨) الكتاب. (٩) آتيناهم. (١٠) الكتاب. (١١) بآياتنا.
(١٢) الكافرون. (١٣) كتاب. (١٤) آيات. (١٥) بينات. (١٦) بآياتنا.

الأرض. ﴿ذكر الله﴾: قال ابن عباس: معناه ذكر الله تعالى لكم بالثناء عليكم والرحمة أكبر لكم من ذكركم له بالطاعة. ﴿آتيناهم الكتاب﴾: المراد بالكتاب هنا جنس الكتاب فيشمل كل كتب الأنبياء السابقين. ﴿هؤلاء﴾: المراد بهم أهل مكة.

﴿يجحد﴾: الجحود إنكار باللسان لما هو ثابت فى القلب، انظر الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥. ﴿من كتاب﴾: ﴿من﴾ تفيد نفى عموم ما بعدها. ﴿ارتاب﴾: أى شك. ﴿المبطلون﴾: أى المتوغلين فى الباطل.

المعنى: ـ خلق الله السموات والأرض لحكم ولم يخلقها عبثا؛ إن فى هذا الخلق المتقن لبرهانا على وجود صانع حكيم يستحق العبادة وحده، لايتنبه لهذا البرهان إلا سليم الفطرة الممتلئ قلبه بنور الإيمان انظر الآية (١٩٠) وما بعدها من سورة آل عمران صفحة ٩٥. ثم وجه سبحانه نبيه ﷺ إلى طريق السعادة له ولأمته فقال ﴿اتل ما أوحى إليك﴾ إلخ: أى داوم على تلاوة القرآن تقربا إلى ربك، متأملا لما فيه من الأسرار، لتحمل نفسك وتحمل أمتك على العمل بما فيه من الأحكام ومكارم الأخلاق، وأد الصلاة على أتم وجوهها، لأنها بما حوت من الوقوف بين يدى الله تعالى وذكره وتسبيحه تحرض على البعد عن الفحشاء والمنكر، فكأنها تقول لصاحبها: عار عليك أن تفعل مايغضب ربك مع وقوفك بين يديه وقتا بعد آخر، أى فلا تكن متناقضا مع نفسك، فالصلاة تنهى بلسان حالها، والله سبحانه نهى بصريح القول فى الآية (٩٠) من سورة النحل صفحة ٣٥٨. وإذا ذكرتم ربكم بالطاعة فذكره لكم فى الملأ الأعلى بالثناء والرحمة أكبر نفعا لكم، انظر الآية (١٥٢) من سورة البقرة صفحة ٢٩، فمن رحمته لكم أنه جعل الحسنة بعشر أمثالها. وإذا أردت المزيد فارجع إلى قوله ﷺ فى الحديث القدسى: إذا ذكرنى عبدى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، انظر حديث ٧٠٠ فى كتابنا «صفوة صحيح البخارى» مع حديث ٦٣٢ من الكتاب نفسه. والله سبحانه يعلم ماتصنعون أيها العباد من خير وشر وسيجازيكم عليه. وبعد ما فرغ سبحانه من تسفيه المشركين وإقامة الحجة عليهم، أتبع ذلك ببيان طريقة إرشاد أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأن يسلك معهم طريق الحجاج بالحسنى، لأنهم يقرون بالأنبياء وباليوم الآخر، وعيبهم أنهم ينكرون نبوة خاتم الرسل ﷺ، والنصارى يقولون المسيح ابن الله، إلا الذين ظلموا منهم بالعناد ورفض الإرشاد، أى فاستعملوا معهم التسفيه كالمشركين، انظر ماقيل فى شرح الآية (١٢٥) من سورة النحل صفحة ٣٦٣ وقولوا فى المجادلة بالحسنى: آمنا بما أنزل إلينا وهو القرآن وبما أنزل إليكم على يد إبراهيم وبنيه كما فى الآية (١٣٦) من سورة البقرة صفحة ٢٦، وإلهنا وإلهكم واحد، ونحن له وحده خاضعون.

إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ
قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ
يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى
وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ
ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ
بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ
يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ
ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ
أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ

وكما أنزلنا على الرسل قبلك كتبا أنزلنا إليك القرآن؛ فالذين آتيناهم الكتب السابقة يؤمنون بالقرآن وبأنه حق من عند الله، انظر الآية (١٤٦) من سورة البقرة صفحة ٢٨، وآيتى (٧٠، ٧١) من سورة آل عمران صفحة ٧٤، ومن هؤلاء المشركين بمكة مَنْ يؤمن به فى دخيلة نفسه ولكنهم يجحدون عنادا، ومايجحد إلا المتمكنون من الكفر ثم أكد مايزيل كل شبهة فقال ﴿وماكنت تتلو﴾ إلخ: أى وماكنت يامحمد من قبل إنزال القرآن إليك تقدر على تلاوة كتاب ولاتكتبه، إذ لو كنت تقدر على ذلك لكان فيه منفذ شبهة لقصير النظر المتوغل فى الباطل، الذى عمى عن البراهين الأخرى القاطعة بصدقك، انظر الآية (١٦) من سورة يونس صفحة ٢٦٨. ثم انتقل إلى تأكيد أنه من عند الله فقال: بل هو آيات واضحات فى دلالتها على الحق، وضعها الله فى صدور العلماء، لايقدر أحد على تحريفها، ولايكابر فى إنكار آياتنا إلا الظالمون.

المفردات: ـ ﴿لولا﴾: كلمة تدل على طلب ما بعدها. ﴿آيات﴾: معجزات حسيات كعصا موسى مثلا. ﴿أو لم يكفهم﴾: انظر شرحها فى الآية (٥٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧. ﴿ذكرى﴾: أى تذكيرا. ﴿الباطل﴾ المراد به هنا كل ما عبد من دون الله. ﴿أجل مسمى﴾: موعد سماه الله وحدد زمنه فى علمه، انظر الآية (٢) من سورة الأنعام صفحة ١٦٢. ﴿يغشاهم﴾: أى يغطيهم، انظر الآية (١٦) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨.

المعنى: ـ وما يجحد بصدق القرآن إلا المتوغلون فى الظلم بالمكابرة بعد وضوح الحجة، ومن مكابرتهم أنهم مع عجزهم عن أن يأتوا بسورة من هذا القرآن كما فى صفحة ٦ يقولون عنادا

---

(١) الظالمون. (٢) آيات. (٣) الآيات. (٤) الكتاب. (٦) آمنوا.
(٧) بالباطل. (٨) الخاسرون. (٩) بالكافرين. (١٠) يغشاهم. (١١) يا عبادى.
(١٢) آمنوا . (١٣) واسعة. (١٤) فإياى.

نطلب أن ينزل عليك ربك معجزات حسية كما أنزل على موسى وعيسى مثلا. قل لهم أيها النبى إنما أمر نزول الآيات عند الله، ولو علم فيكم خيرا لأجابكم ولكنه يعلم أنكم متعنتون كما فى صفحتى ١٦٣، ١٨١، وليس من شأنى أنا إلا الإنذار الواضح، وقد فعلت. وقد رد سبحانه هذا التعنت بأسلوب آخر فى صفحات ٣٧٦، ٣٧٧، ٥١٤. ثم أبرز سبحانه تعنتهم فقال ﴿أو لم يكفهم﴾ إلخ: أى هل تركناهم بدون برهان على صدقك ولم يكفهم دليلا يغنى عن سائر الأدله إنا أنزلنا عليك القرآن يتلى عليهم منك وأنت أمى ماكنت تدرى ماالكتاب ولا الإيمان كما فى الآية (٥٢) من سورة الشورى صفحة ٦٤٦. إن فى ذلك الكتاب العظيم لنعمة عظيمة، وتذكرة لقوم همهم الإيمان لا التعنت، فإن لم يكتفوا بهذا القرآن الحجة الدائمة فقل لهم يكفينى الله شاهدا بينى وبينكم يعلم المحق والمبطل، لأنه وحده هو العليم بكل ما يجرى فى السموات والأرض. ثم هددهم فقال: والذين آمنوا بالمعبودات الباطلة وكفروا بالله، هؤلاء هم وحدهم الخاسرون لكل خير. ولما أنذرهم ﷺ بالعذاب إذا لم يؤمنوا كانوا يطلبون إنزال هذا العذاب استهزاء كما فى الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١ يقلدون الكفار قبلهم كما فى الآية (١٨٧) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١ فقال فى ذلك: ويستعجلونك استهزاء بوعدك وإنكارا له، ولولا أجل حدده الله لعذاب كل قوم فى الوقت الذى اقتضته حكمته لجاءهم العذاب عاجلا، وعزتى ليأتينهم فجأة من حيث لايقدرونه فى الدنيا كما حصل فى بدر وفى آخر حياتهم عند الموت وما بعده انظر الآية (٩٣) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٧، ١٧٨، والآية (٥٠) من سورة الانفال صفحتى ٢٣٤، ٢٣٥، والآية (٢٧) من سورة محمد صفحة ٦٧٦. ثم أبرز سبحانه تمام سفههم ليعجب الناس من جهلهم ببيان أن وراءهم عذاب أكبر مما يستعجلونه، انظر الآية (٢١) من سورة السجدة صفحة ٥٤٧ فقال: يستعجلونك بالعذاب والحال أن جهنم وعزتى لتحيط بهم قطعا لشناعة كفرهم فى يوم يغمرهم العذاب من كل جهاتهم، ويقول ملك العذاب ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون، ولما كان فى مكة بعض المستضعفين من المؤمنين الذين ليس لهم عصبة قوية تدفع عنهم شر كفار قريش، رغبهم سبحانه فى الهجرة إلى بلد يمكنهم فيها القيام بعبادتهم مع البعد عن ايذاء الكفار، فقال ﴿ياعبادى﴾ إلخ: أى أن أرضى واسعة،

ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا
وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ
فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ
وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم
مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾
وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ
لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ

فإن عجزتم عن إخلاص العبادة لى فى أرض ففروا إلى غيرها لتخلصوا لى العبادة فيها، انظر الآية (٩٧) وما بعدها من سورة النساء صفحتى ١١٧، ١١٨؛ ثم أراد سبحانه أن يسهل لهم الهجرة بأن الدنيا ليست دار بقاء وأن وراءها دار الجزاء، فقال ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ إلخ: أى كل نفس حية لابد أن تذوق مرارة الموت، وإذا كان الأمر كذلك فلا يصح التشبث بمكان فيه ذلة ومهانة.

المفردات: ـ ﴿لنبوئنهم﴾: أى ننزلنهم، انظر الآية (١٢١) من سورة آل عمران صفحة ٨٣. ﴿غرفا﴾: أمكنة عالية كما فى الآية (٢٠) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٨، ٦٠٩. ﴿كأين﴾: كلمة تدل على كثرة مابعدها.

﴿من دابة﴾: ﴿من﴾ حرف يدل على أن ما بعده بيان للمراد من ﴿كأين﴾ و ﴿دابة﴾ كل ما يدب ويتحرك كالملائكة والإنس والجن وكل الحيوانات. ﴿لاتحمل رزقها﴾: لاتستطيع حمله وادخاره. ﴿أنى﴾: كيف. ﴿يؤفكون﴾: أى يصرفون، انظر الآية (٣٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥. ﴿يبسط﴾: أى يوسع انظر الآية (٢٦) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥. ﴿يقدر﴾: أى يضيق، انظر الآية (١٦) من سورة الفجر صفحة ٨٠٧. ﴿لهو ولعب﴾: تقدم فى الآية (٣٢) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٦، ١٦٧. ﴿الحيوان﴾: أى الدائمة التى يعمل حسابها.

المعنى: ـ كل حى سيموت. ثم إلينا ترجعون فى الآخرة للحساب والجزاء. ثم بينّ بعض هذا الجزاء فقال: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا﴾ أى علالى تجرى

---

(١) آمنوا. (٢) الصالحات. (٣) الأنهار. (٤) خالدين.
(٥) العاملين. (٦) السموات. (٧) الحياة. (٨) الآخرة.

تحتها الأنهار مقدرين خلودهم فيها، نعم هذه الغرف أجر العاملين، الذين صبروا على الشدائد ولم يتوكلوا فيما يفعلون ويتركون إلا على ربهم. ولما كان ربما يجول بخاطر المهاجر أنه قد يصعب عليه الحصول على قوته، طمأنهم سبحانه بقوله: ﴿وكأين من دابة﴾ إلخ: أى وكثير من دواب الأرض لاتعرف كيف تحمل رزقها وتصبح ولا شىء عندها، ومع ذلك فالله تكفل برزقها مع ضعفها حيث هيأ لها ووضع فى غريزتها كيفية حصولها على رزقها، انظر الآية (٦) من سورة هود صفحة ٢٨٤. فكيف لايرزقكم مع قوتكم واجتهادكم، وهو السميع لكل مايطلبه العبد وغيره من أقواله، العليم بما فى القلوب فيعلم المخلص من غيره. ثم أراد سبحانه أن يبين جهل هؤلاء المشركين بأوضح صورة فقال: ﴿ولئن سألتهم﴾ إلخ أى ولئن سألت أيها النبى كفار مكة وقلت لهم: مَنْ هو الذى خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر فلا جواب لهم إلا اعترافهم بأنه هو الله وحده الذى فعل ذلك، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يصرفهم الشيطان عن إفراد الله بالعبادة لفرده بالخلق. ولما قال سبحانه فيما سبق أنه وحده هو الرازق أراد أن يبين أن رزقه يتسع ويضيق حسب مشيئته المتفقة مع حكمته فى خلقه، فقال: ﴿الله يبسط الرزق لِمَنْ يشاء﴾ بسطه له من عباده، ويقدر أى يضيق على مَنْ يشاء له التضييق، لأنه عليم بكل شىء، فيعلم متى يكون البسط ولِمَنْ، ومتى يكون التضييق ولِمَنْ؟ ولئن سألت أيها النبى كفار مكة: من الذى نزل من جهة السماء فأحيا به الأرض بالنبات بعد موتها ليقولن معترفين بأنه هو الله، قل الحمد لله الذى أقام من الأدلة على وحدانيته ما أرغمهم على الاعتراف بما يهدم عقائدهم وإظهار أنك على حق.

ولما كان هذا التناقض واضحا، إذ لايعقل أن يقر شخص بخالق رازق ويعبد غيره، انتقل سبحانه إلى بيان ذلك بأنهم لايعقلون مايقولون، لأن شهوة العناد وطغيان الفساد وحب الدنيا والمحافظة على الرياسة جعلهم كالبهائم التى لا تعقل. ثم أتبع سبحانه ذلك ببيان أن ما تهالكوا فى المحافظة عليه من حب الدنيا لا قيمة له إذا قيس بنعيم الآخرة، فقال: وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وأن الدار الآخرة لهى دار الحياة الدائمة، لو كان هؤلاء الكفار يعلمون ذلك لعملوا ما يقيهم شر الشقاء فيها ولما فضلوا متاع الدنيا الزائل. ثم شرع فى بيان شىء آخر من تناقضهم فقال: ﴿فإذا ركبوا فى الفلك﴾ إلخ...

دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ[1] إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ
يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ[2] وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا[3] وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ
مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ[4] يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧)
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ[5] (٦٨) وَٱلَّذِينَ
جَٰهَدُوا[6] فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٦٩)

(٣٠) سُورَةُ ٱلرُّومِ مَكِّيَّة وَءَايَاتُهَا سِتُّونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ[7] (١) غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم

المفردات: . ﴿الفلك﴾: السفينة ويطلق على الواحد والجمع، انظره فى الآية (٣٧) من سورة هود صفحة ٢٨٩. ﴿الدين﴾: معناه هنا الطاعة، والمراد خلاصتها وهو الدعاء والضراعة إليه سبحانه. ﴿إذا هم﴾: إذا حرف يدل على مفاجأة ما بعده لما قبله.

﴿ليكفروا﴾: اللام للأمر كقولك لمَنْ تأمره بالقيام ﴿لتقم يافلان﴾ والمراد تهديدهم كما فى الآية (٦٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥١، والآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥. ﴿أنا جعلنا حرما إلخ﴾: المراد شرعنا احترام هذا المكان فى عهد إبراهيم عليه السلام وبقى محترما لذلك، وهذا لاينافى أن يخرج ملحد أو فاسق على ذلك، فالكلام تشريع لا إخبار منه سبحانه وتعالى. ﴿حرما﴾: تقدم فى صفحة ٥١٥ أن الحرم هنا هو الحرام والمراد مكانًا محرمًا امتهانه.

﴿يتخطف﴾: يخطف الأشرار الأقوياء أموالهم بل وأنفسهم بالقتل، انظر الآية (٥٧) من سورة القصص صفحة ٥١٥. ﴿بالباطل﴾: تقدم فى الآية (٥٢) من هذه السورة صفحة ٥٢٨، والأصل أفيؤمنون بالباطل الخ ولكنه قدم ﴿بالباطل﴾ وكذا ﴿بنعمة﴾ على ما بعدهما للاهتمام ببيان محل التوبيخ. ﴿جاهدوا فينا﴾: انظر معنى الجهاد هنا فى الآية (٦) المتقدمة من هذه السورة صفحة ٥٢١.

المعنى: . ومن عجيب أمر هؤلاء المشركين أنهم إذا ركبوا فى السفينة فوق البحر وخافوا الفرق كما فى صفحة ٢٦٩، دعوا الله وحده فى صورة مَنْ يخلص لله العبادة من المؤمنين فلا يدعون غيره، وينسون آلهتهم، فلما نجاهم سبحانه إلى البر حصل إشراكهم بعد نجاتهم مباشرة، ثم هددهم سبحانه فقال ﴿ليكفروا﴾ إلخ: أى ليتمادوا فى الكفر بنعمتنا عليهم

---

(١) نجاهم. (٢) آتيناهم. (٣) آمنًا. (٤) أفبالباطل.
(٥) للكافرين. (٦) جاهدوا. (٧) ألفْ. لامْ. ميمْ.

وليتمتعوا بمتاع الدنيا الزائل، فعما قريب يعلمون عاقبة أمرهم عندما يشاهدون العذاب. ثم نبههم إلى نعمة أخرى يعيشون فيها دائما وهم غافلون عنها فقال: ﴿أو لم يروا﴾ إلخ: أى هل عمى كفار مكة ولم يروا إنا جعلنا بلدهم مصونا عن النهب والتعدى، آمنا أهله من السبى والقتل، والحال أن الناس من حولهم ينهبون ويقتلون ويسلبون، هل يصح بعد هذا أن يغفلوه ويؤمنوا بالأصنام التى لم تجعل لهم شيئًا من هذا؟ وبهذه النعمة وغيرها التى أنعم بها عليهم ربهم يكفرون فلا يشكرونه عليها بتوحيده بالعبادة، وإذا كان الأمر كما ذكر فلا أحد أشد ظلما للحق ولنفسه ممَّنْ افترى على الله كذبًا وزعم أن له شريكا يقرب إليه، إلى غير ذلك من جرائمهم المبينة فى صفحات ١٨٦، ١٨٧، ٦٤٨، أو كذب بالكتاب والرسول الحق لما جاءه؛ فما الذى غرهم بذلك؟ أليس فى جهنم مثوى لهؤلاء الكافرين؟ الحق أنها أعدت لهم وسيقيمون فيها خالدين. ثم ذكر مقابل هؤلاء فقال: والذين جاهدوا بالصبر على الشدائد فى سبيل نصرة ديننا لنزيدنهم هداية لسبيل الوصول إلينا، انظر الآية (١٣) ومابعدها من سورة الكهف صفحة ٣٨١، والآية (٧٦) من سورة مريم صفحة ٤٠٤، وذلك لأنهم أحسنوا النيات، والله مع المحسنين بالنصر والإعانة، والله أعلم.

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg

تيسير القرآن الكريم

للقراءة والفهم المستقيم

من سورة الروم إلى سورة الناس

الجزء الثالث

لفضيلة الأستاذ الشيخ

عبد الجليل عيسى

شيخ كلية اللغة العربية

بالأزهر الشريف (سابقا)

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٩

عيسى، عبد الجليل، ١٩٧٢ - ....
تيســيــر القــرآن الكريم للقــراءة والفــهم
المستقيم/ عبد الجليل عيسى.- القـاهرة :
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩
مج ٣ ؛ ٢٨ سم.
المحتويات: من سورة لقمان إلى آخر سورة
الناس.
تدمك ٨ ٧٦٢ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١- القرآن - تفسير.
أ - العنوان.

رقم الايداع بدار الكتب ٥٥٢٢/ ٢٠٠٩

I.S.B.N- 978 - 977 - 420 - 762 - 8

ديوى ٢٢٧

■ الكتاب: تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم - الجزء الثالث.

■ المؤلف: فضيلة الشيخ عبدالجليل عيسى - شيخ كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف سابقا.

■ الطبعة الأولى: ١٩٥٨م.

■ الطبعة الثانية: ١٩٨٠م.

■ الطبعة الثالثة: ٢٠٠٩م.

■ طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

■ الغلاف والإخراج الفنى: أميمة على أحمد.

■ تصـــحيح: محمد صابر - أحمد حسن.

■ مـــراجعة: سعيد عبدالفتاح - أميمة على.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ

صدق الله العظيم

دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ
يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ
مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا
جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ
جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

(٣٠) سُورَةُ الرُّومِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا سِتُّونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم

سورة الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿الم﴾: تقرأ ألفْ بفتح فكسر فسكون، لامْ بسكون آخره ميمْ بسكون آخره أيضًا.

﴿الروم﴾: هى أمة عظيمة من ولد روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، وكان ملكهم فى عصر النبوة هرقل بكسر ففتح فسكون، وكانت دولتهم تشمل الشام والعراق العربى، وكانوا نصارى أهل كتاب.

﴿أدنى الأرض﴾: أقرب بلاد الروم بالنسبة لأهل مكة.

المعنى: ﴿الم﴾ تقدم معناها[1] أول سورة البقرة. غلبت الفرس الروم فى أقرب الأرض إلى العرب، وكانت الفرس والروم أقوى دول العالم فى ذلك الوقت، وكانت الفرس وثنية ليس لها كتاب، وكانت تقيم فى غرب آسيا ويمتد ملكها إلى جزء من العراق 'المسمى بالعراق العجمى وفى هذا الجزء التقى الدولتان فى حرب سنة عشر من البعثة النبوية. فانهزمت الروم وفرح مشركو مكة بانتصار المشركين على أهل الكتاب وشمتوا بالمسلمين، وقالوا نحن وفارس سواء ليس عندنا كتاب، وقد انتصرت فارس، وسننتصر عليكم إذا هممتم بحرب، فأنزل الله تعالى هذه الآيات تطمينا للمسلمين، فأعلنها أبو بكر، فكذبه أبى بن خلف، فراهنه أبو بكر على أن النصارى سيغلبون الفرس وجعل الرهان مائة ناقة، وفى سنة ست من الهجرة انتصرت الروم فأخذ أبو بكر الإبل وتصدق بها، وكان ذلك قبل تحريم القمار.

---

(١) ألف . لام . ميم.

مِنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ
مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ
ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ
لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾
يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا[1] مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ[2] ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ[3] هُمْ
غَٰفِلُونَ[4] ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ[5] وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ
وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ[6] رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ[7] ﴿٨﴾ أَوَلَمْ
يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ[8] ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ
أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ[9] ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ[10]

المفردات : . ﴿غلبهم﴾ : المراد مغلوبيتهم أى انكسارهم وهزيمتهم.

﴿بضع﴾ : البضع ما بين الثلاث إلى التسع.

﴿ظاهرا من الحياة الدنيا﴾ : هو كل ما يفيدهم فى تمتعهم بها دون النظر إلى أنها مطية الآخرة.

﴿إلا بالحق﴾ : تقدمت فى الآية (٣) من سورة النحل صفحة ٣٤٥.

﴿أجل مسمى﴾ تقدم فى صفحة ٥٢٨.

﴿أثاروا الأرض﴾ أى حرثوها للزرع، انظر الآية (٧١) من سورة البقرة صفحة ١٤.

﴿عمروها﴾ : بالزرع والغرس والبناء.

﴿البينات﴾ : أى المعجزات.

المعنى :. إن الروم من بعد غلبة فارس لهم سيغلبون فارس فى مدة لا تتجاوز تسع سنين، وقد حصل ذلك فعلا سنة ست من الهجرة كما تقدم. ثم أراد سبحانه أن يبين أن ذلك كان بتقدير إلهى لحكمة يعلمها سبحانه، أشار إليها فى قوله ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ الآية (١٤٠) من سورة آل عمران صفحة ٨٥ فقال: ولله الأمر من قبل حصول كل شىء ومن بعده، ومنه قبل الغلب وبعده، أى فكل شىء بقضاء وقدر، ويوم يتغلب الروم على الفرس يفرح

(١) ظاهر (٢) الحياة (٣) الآخرة (٤) غافلون
(٥) السموات (٦) بلقاء (٧) لكافرون
(٨) عاقبة (٩) بالبينات (١٠) عاقبة

المؤمنون بنصر الله لمَنْ لهم كتاب على المشركين الذين لا كتاب لهم، لما فيه من التفاؤل وغيظ المشركين، وصدق ما وعدوا به. ثم أكد سبحانه ما قرره من أن الأمر كله له بقوله: ﴿ينصر مَنْ يشاء﴾ إلخ: أى ينصر مَنْ يشاء أن ينصره على عدوه.

وهو العزيز أى الغالب الذى لا يغلب، الرحيم بعباده المخلصين فيجعل العاقبة لهم. وعد الله، أصلها وعد الله المؤمنين بهذا النصر وعدا، وهو سبحانه لا يخلف وعده أبدا، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، لجهلهم بقدره تعالى، وبما وضعه من أسباب النصر، وأهمها طاعة أوامره ظاهرا وباطنا، فحصر هؤلاء الجاهلون كل همهم فى مظاهر الحياة الدنيا، وحصروا جميع أغراضهم فى لذائذها، ولم يجعلوا منها زادًا لآخرتهم، فكانوا كالحيوانات التى لا تدرك من الدنيا إلا ما يملأ البطون، وهى فى غفلة من مصيرها، فهؤلاء الكفار أتعس حالا من الحيوانات لأنهم إذا رحلوا عن الدنيا إلى الآخرة وجدوا خرابا وعذابا أليما. ثم أراد سبحانه أن ينبه المشركين إلى أدلة وجوده وحكمته، وأنه لابد أن يبعث الناس للجزاء، فقال ﴿أو لم يتفكروا﴾ إلخ.

أى هل غفل هؤلاء المكذبون بالبعث من قومك أيها النبى ولم يتفكروا فى خلق الله لهم بعد أن لم يكونوا شيئا، فيعلموا أن القادر على ذلك قادر على إعادتهم، ويعلموا أن الله تعالى ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا لحكمة، وأن لهذه الدنيا وقتا محددا لا تتعداه. وأن كثيرا من الناس بلقاء جزاء ربهم بعد انقضاء أجل الدنيا لكافرون، أى جاحدون ظانين أن الدنيا أبدية وأن الآخرة لا تكون؛ لذلك لجوا فى أعمال الشرور.

وبعد ذلك أرشدهم سبحانه إلى السير فى الأرض ليعلموا حال المكذبين من الأمم قبلهم، وأنهم كانوا أشد منهم قوة، وحرثوا الأرض وعمروها أكثر مما عمرها هؤلاء المشركون، وجاءتهم رسلهم بالبراهين الدالة على صدقهم فكذبوهم، فأهلكهم الله، وما كان سبحانه بظالم لهم بهذا العقاب، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم. ثم أبرز سبحانه هذه النهاية المحزنة فقال: ﴿ثم كان عاقبة الذين﴾ ... إلخ.

ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ
بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾
وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ
كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ
يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ
ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾
يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ
ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ

المفردات : . ﴿السوءى﴾ : تأنيث الأسوأ وهو الأقبح، كما أن الحسنى تأنيث الأحسن ﴿يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ : تقدمت فى صفحة ٥٠٢. ﴿يبلس المجرمون﴾ : ييأسون من النجاة. انظر الآية (٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩. ﴿يومئذ﴾ : الأصل يوم إذ تقوم الساعة. وبما أن ﴿إذ﴾ ظرف زمان فتكون إضافة يوم وهو زمان أيضا لها من إضافة للخاص مثل إضافة ﴿شجر رمان﴾ اى شجر مبين بأنه رمان. فالمعنى هنا يوم مبين بأنه زمن قيام الساعة. ﴿روضة﴾ : أرض ذات أشجار وأنهار.

﴿يحبرون﴾ : من الحبور أى يسرون وتتهلل وجوههم.

﴿محضرون﴾ : أى تحضرهم الملائكة لا يفلتون من العذاب. انظر الآية (٦١) من سورة القصص صفحتى ٥١٥، ٥١٦.

﴿فسبحان الله﴾ : تنزيها لله عما لا يليق به.

﴿عشيا﴾ : هو ما بعد العصر إلى الغروب.

﴿تظهرون﴾ : تدخلون فى وقت الظهر.

﴿يخرج الحى من الميت﴾ : تقدم فى صفحة ١٧٨.

---

(١) أساءوا (٢) السوءى (٣) بآيات (٤) يستهزءون (٥) يبدءوا
(٦) شركائهم (٧) شفعاء (٨) بشركائهم (٩) كافرين (١٠) آمنوا
(١١) الصالحات (١٢) بآياتنا (١٣) ولقاء (١٤) الآخرة (١٥) فسبحان
(١٦) السموات (١٧) آياته.

المعنى : . ثم كان عاقبة الذين عملوا السيئات أقبح العواقب، وذلك بالقتل والخزى فى الدنيا، والعذاب الدائم فى الآخرة. وسبب ذلك أنهم كذبوا بآيات الله المتلوة، والتى أيد بها رسله، وكانوا يستهزئون بها، وكانوا يسمونها سحرا وخرافات الأولين كبرا وعنادا. ثم شرع سبحانه فى إقامة الدليل على قدرته على البعث مع بيان بعض ما سيلاقيه هؤلاء فقال ﴿الله يبدأ الخلق﴾ إلخ: أى الله وحده هو الذى يبدأ خلق الناس ثم يعيد هذا الخلق بعد موتهم كما بدأهم أول مرة. ثم وجه سبحانه الخطاب لكفار مكة لشدة الزجر فقال ﴿ثم إليه ترجعون﴾ للحساب والجزاء.

ثم بين سبحانه ما سيحصل فى يوم البعث من الهول للمسيئين والسرور للمؤمنين فقال تعالى ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ إلخ: أى فى هذا اليوم ييأس المجرمون وتنقطع حجتهم ولا يوجد لهم شفيع ممَنْ كانوا أشركوهم مع الله ليشفعوا لهم ويتحقق لهم حينئذ كفرهم بهم واعتقادهم عدم نفعهم ويتبرءون منهم، انظر الآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١، والآية (٢٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤. ويوم تجئ الساعة التى يحشر فيها الخلق إلى الله يومئذ يتفرق أهل الموقف إلى فريقين: مؤمن وكافر؛ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضات الجنات يمرحون، وأما الذين كفروا بالله أو بأحد من رسله وأنكروا البعث بعد الموت فهؤلاء تحضرهم الملائكة فى مكان العذاب لا يغيبون عنه أبدا. ثم أرشد سبحانه إلى ما يهيئ العبد للحالة الأولى ويبعده عن الثانية وهو مداومة تنزيهه سبحانه عما لا يليق به وحمده والثناء عليه بما هو أهله فى كل وقت، خصوصا حين تدخلون فى وقت المساء وفيه صلاة المغرب والعشاء، وحين تدخلون فى الصباح وفيه صلاة الصبح، ثم وسط سبحانه بين هذه الأوقات ما يرشد عباده المميزين من أهل السموات والأرض إلى حمده سبحانه على ماهم فيه من النعم، ثم قال سبحانه ﴿وعشيا﴾ أى سبحوه فى العشى وفيه صلاة العصر، وحين تدخلون فى وقت الظهر. ثم بين سبحانه بعض مظاهر قدرته مقدمة لإثبات قدرته على البعث فقال: يخرج الشىء من ضده كالحى من كل حيوان يخرجه من التراب الميت، وكالتراب الميت من كل حى، ويحيى الأرض بالنبات بعد موتها باليبس والجفاف، وستخرجون من قبوركم كهذا الإخراج، فهما فى قدرته تعالى متساويان. وبعد ما بين سبحانه آثار قدرته فى كل حى أراد أن يثبت قدرته على البعث بدليل خاص بهؤلاء المنكرين وظاهر لهم فى أنفسهم فقال ﴿ومن آياته﴾ إلخ...

أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟
إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ
أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً
مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

المفردات :- ﴿إذا﴾ : تقدم معنى الحرف فى الآية (١٠٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٩.

﴿بشر﴾ : أى إنسان يقال للواحد والأكثر.

﴿تنتشرون﴾ : تتفرقون فى الأرض طلبا للرزق، انظر الآية (١٠) من سورة الجمعة صفحة ٧٤٢.

﴿لتسكنوا إليها﴾ : لتستريح نفوسكم بالميل إليها.

﴿مودة﴾ : محبة. ﴿رحمة﴾ : شفقة من أن يصيب أحدكم سوء.

﴿منامكم بالليل والنهار﴾ إلخ: إذا اطلعنا على الآيات (١٢) من سورة الاسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦، و (٤٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٥، و (٧١، ٧٢، ٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧، و (١٠، ١١) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧، نعلم أن الأصل فى التركيب هنا ليتفق مع كل ما سبق أن يكون هكذا (ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار) ولكنه سبحانه جاء به على هذه الصورة ليفيد أن كلا من هذين الزمانين وإن اختص بأحد الشيئين: الراحة والعمل، فهو صالح للآخر عند الحاجة.

﴿ابتغاؤكم﴾ : أى طلبكم.

---

(١) آياته (٢) أزواجا (٣) لآيات (٤) آياته
(٥) السموات (٦) واختلاف (٧) وألوانكم
(٨) لآيات (٩) للعالمين (١٠) آياته
(١١) بالليل (١٢) لآيات (١٣) آياته
(١٤) فيحيى (١٥) لآيات (١٦) آياته .

﴿خوفا وطمعا﴾: لإخافتكم من الصواعق المهلكة، ولإطماعكم فى المطر الذى يحيى الأرض بالنبات.

﴿تقوم الساعة﴾ : تبقى قائمة على حالها ونظامها. انظر الآية (٢) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٠، ٣٢١.

﴿بأمره﴾ : بإرادته انظر الآية (٦٥) من سورة الحج صفحتى ٤٤٢، ٤٤٣ .

المعنى : . ومن أدلة قدرته سبحانه على ما يشاء من إيجاد وإفناء أنه خلقكم وأنتم لحم فيه حياة من تراب ليس فيه شىء من مظاهر ذلك، ثم بعد إخراجكم من هذا التراب إذا أنتم بشر حى تنتشرون فى الأرض لمطالبكم المختلفة.

ومن دلائل قدرته أنه خلق لكم من جنس أنفسكم لا من جنس آخر أزواجا لتسكنوا إليها. وجعل بينكم توادا وتراحما لتدوم العشرة وتكون مبعث سعادة: إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ليصلوا إلى ما فى ذلك من الحكم.

ومن دلائل قدرته تعالى خلق السموات والأرض على هذا النظام البديع، واختلاف لغاتكم اختلافا لاحد له مع اتحاد أصلكم، واختلاف ألوانكم كذلك : إن فى كل ذلك لآيات لكل عالم يتأمل فى أسرار الوجود فيخشى ربه، انظر الآية (٢٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٥.

ومن دلائل قدرته وحكمته أن يهيئ لكم النوم بالليل للراحة، والسعى فى طلب الرزق فى النهار: إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون مواعظ الله فيتعظون بها.

ومن آياته أنه يريكم البرق فتخافون مما فيه من الصواعق، وتطمعون فيما يجلبه من المطر: إن فى ذلك لآيات لقوم يستعملون عقولهم، ومن آياته قيام السموات والأرض بإقامته لهما على نظامهما المتقن، ثم تكون النهاية أنه إذا دعاكم سبحانه من القبور للبعث إذا أنتم تخرجون بلا تأخير، انظر الآية (٥٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧١، ولا عجب فكل مَنْ فى السموات والأرض ملكه يتصرف فيه كما يشاء.

٩ الجزء الحادى والعشرون

وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ[1] (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا[2] الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ[3]
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ
أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا[4] مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ[5] مِنْ شُرَكَاءَ
فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ[6] فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ
كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ[7] لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ
وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ[8] (٢٩) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
فِطْرَتَ[9] اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ
ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)
* مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ[10] وَلَا تَكُونُوا مِنَ
الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا

المفـردات :. ﴿قـانتـون﴾ : منقـادون لمـا يريده فيهم كالموت والحياة والبعث.

﴿يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ : تقدم فى صفحة ٥٠٢.

﴿المثل الأعلى﴾ : المراد الوصف البديع الذى ليس لغيره ما يدانيه كالقدرة الشاملة والحكمة التامة.

﴿ضرب لكم مثلا﴾ : جعل لكم مثلا، انظر صفحتى ٣٥٥، ٤٤٤.

﴿هل لكم﴾ : ﴿هل﴾ حرف استفهام يراد به التوبيخ والإنكار أى النفى.

﴿من شركاء﴾: ﴿من﴾ لتأكيد عموم النفى فيما بعدها.

﴿سواء﴾ : أى مستوون. ﴿خيفتكم﴾ : أى خوفكم.

﴿أنفسكم﴾ : أى الأحرار مثلكم.

﴿بل اتبع﴾ : ﴿بل﴾ حرف يدل على الانتقال إلى كلام آخر.

﴿فمن يهدى﴾ : ﴿مَنْ﴾ حرف استفهام يراد به النفى، والمراد لا أحد يهدى.

﴿أقم وجهك للدين﴾ : المراد : خلص توجهك وقصدك لعبادة الله وحده، انظر الآية (١٠٥) من سورة يونس صفحة ٢٨٢.

---

(١) قانتون (٢) يبدأ (٣) السموات (٤) مما
(٥) أيمانكم (٦) رزقناكم (٧) الآيات
(٨) ناصرين (٩) فطرة (١٠) الصلاة.

﴿حنيفا﴾ : مائلا عن الباطل إلى الحق. انظر الآية (١٣٥) من سورة البقرة صفحة ٢٦.
﴿فطرة﴾ : يقال فطر الله الشىء أى أوجده على نظام بديع انظر الآية (١) من سورة فاطر صفحة ٥٧١، والآية (٢٢) من سورة يسٓ صفحة ٥٨١. والفطرة الحالة التى خلق الله الناس عليها، والمراد بها ما استقر فى طباعهم من الخضوع لإله قادر حكيم. ومن الميل إلى الحق وكل مكارم الأخلاق التى تقرها العقول السليمة ـحيث لو تركوا بدون تدخل الشياطين لما تحولوا عنها؛ ولهذا قال بعض السلف : الفطرة هى المبادئ العامة للإسلام. انظر الآية (١٣٨) من سورة البقرة صفحتى ٢٦، ٢٧. وشرح الآية (٨٠) من سورة آل عمران صفحة ٧٦.
﴿القيم﴾: المستقيم الذى لا عوج فيه. انظر صفحة ٣٨٠. ﴿منيبين إليه﴾ : أى راجعين إليه بالتوبة وفى كل شئونكم.

﴿فرقوا دينهم﴾ : أى مزقوه قطعا تبعا لأهوائهم. انظر الآية (١٠٥) من سورة آل عمران صفحة ٨٠، والآية (١٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٩١.

﴿شيعا﴾ : أى فرقا وأحزابا.

المعنى : ـ وله سبحانه كل مَنْ فى السموات والأرض خلقا وملكا وعبيدا كل له خاضعون. يحيى ويميت، ويبعث مَنْ يشاء من القبور للحساب والجزاء.

ثم قرر البعث بأسلوب آخر فقال ﴿وهو الذى يبدأ الخلق﴾ إلخ: أى هو وحده الذى يبدأ هذا المخلوق من العدم ثم يعيده للحياة بعد موته، وإعادته ثانيا أسهل عليه على حسب تصور الناس، وإلا فهو سبحانه يستوى عنده كل شىء فليس عنده سهل وأسهل. وله سبحانه الصفة العليا التى لا يشاركه فيها غيره. وهو العزيز الغالب فى ملكه الحكيم فى صنعه.

وبعدما أقام الدليل على قدرته على البعث شرع فى إقامة الدليل على وحدانيته بمَثَل يحسونه من أنفسهم فقال: ﴿ضرب﴾ أى جعل لكم ربكم أيها المشركون مثلا منتزعا من أنفسكم وما تحسونه. ثم بيَّن المثل فى أسلوب استفهام توبيخى فقال: هل لكم أيها الأحرار شركاء من عبيدكم المملوكين لكم يشاركونكم فى أموالكم التى رزقناها لكم فأنتم وهم فى

التصرف فى هذا المال على قدم المساواة تخافون من التصرف دونهم كما يخاف الحر من المماثل له؟ والمعنى إذا كنتم لا ترضون بذلك لأنفسكم فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا له بعض عبيده شركاء له؟ كهذا التفصيل والبيان البديع نفصل الآيات الدالة على العبر لقوم يعقلون ضرب الأمثال.

ولما لم يتنبهوا أعرض عن مخاطبتهم مبينا سبب جحودهم فقال: بل اتبع الذين ظلموا أنفسهم بالشرك كما فى الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠ شهوات أنفسهم جاهلين العاقبة، وإذا صمم الشخص على العناد والكفر فلا أحد يهديه إذا عاقبه الله تعالى بزيادة ضلاله، وليس له مَنْ ينصره من عذابه. انظر شرح ما سبق فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ثم أمر نبيه بالاهتمام بنفسه وبالمؤمنين معه وعدم المبالاة بهم فقال ﴿فأقم وجهك للدين﴾ إلخ: أى أخلص قصدك للدين الحق حال كونك بعيدا عن الباطل الذى هم فيه. وألزم فطرة الله التى فطر الناس عليها، ولا يقدر أحد أن يغير خلق الله بوضع فطرة أخرى مغايرة لما خلقها، ذلك الدين المأمور بإقامته هو دين الله المستقيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون مزيته لعدم تدبرهم. حافظوا أيها المؤمنون على هذا الدين حال كونكم راجعين إلى ربكم فى كل شيء، وخافوا عقابه، وحافظوا على الصلاة، ولا تكونوا كالمشركين الذين حرموا أنفسهم نعمة رضا الله تعالى عنهم، وهم الذين فرقوا دينهم تبع شهواتهم، وكانوا فرقا تشايع كل فرقة أمامها بدون عقل ولا دليل.

ولا تغفل عن أن المشرك هو كل مَنْ لم يفرد الله تعالى بالعبادة أو غير شرع الله. انظر شرح الآية (٢٢) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥، والآية (٣١) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥ وصفحة٢٧١.

المفردات : . ﴿وإذا مس الناس ضر﴾ : تقدم مثل هذا فى آيتى (٣٢، ٣٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٩، والآية (٦٥) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠.

﴿إذا فريق منهم﴾.. إلخ : ﴿إذا﴾ حرف يدل على سرعة حصول ما بعدها عقب حصول ما

كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ
دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا
فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ[١]
فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا[٢]
فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا
النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ[٣] لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ[٤] ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ
السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم[٥] مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ[٦] فِي أَمْوَالِ[٧] النَّاسِ
فَلَا يَرْبُو[٨] عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم[٩] مِّن زَكَاةٍ[١٠] تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ

قبلها. ﴿ليكفروا﴾ : تقدم فى الآية (٦٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٣٠. ﴿سلطانا﴾ : كتابا.

﴿يتكلم﴾ : المراد يدل على جواز ما يعملون، ونظيره فى الآية (٦٢) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥١، والآية (٢٩) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤. ﴿يقنطون﴾ : ييأسون من رحمة الله. ﴿يقدر﴾: يضيق، انظر الآية (١٦) من سورة الفجر صفحة ٨٠٧.

﴿ابن السبيل﴾ : هو المسافر الذى نفد ماله. ﴿يريدون وجه الله﴾ : المراد يخلصون لله فى الإنفاق.

انظر آيتى (٢٦٤، ٢٦٥) من سورة البقرة صفحة ٥٦. ﴿من ربا﴾ : ﴿من﴾ تدل على أن ما بعدها بيان لما قبلها، والمراد من الربا المال الذى يجر إلى الربا. ﴿ليربوا فى أموال الناس﴾ : المراد يزيد على حساب أموال الناس التى لا تحل لكم. ﴿فلا يربوا عند الله﴾ : أى لا يزيده سبحانه بل يمحقه، انظر الآية (٢٧٦) من سورة البقرة صفحة ٥٩.

المعنى : . لا تكونوا أيها المؤمنون من الذين اختلفوا فى دينهم تبعا لاختلاف شهواتهم وأهوائهم، وصار كل فريق شديد الفرح بمذهبه مهما كان باطلا، وهذه صفة لا يمكن معها جمع كلمة المؤمنين التى هى من أهم ما جاءت لأجلها الأديان. ثم رجع سبحانه إلى بيان حال للمشركين يعرفون بها، وهى أنهم حال الشدة لا يجدون إلا الله وينسونه حال الرخاء فقال

---

(١) آتيناهم (٢) سلطانا (٣) لآيات (٤) فآت
(٥) آتيتم (٦) ليربوا (٧) أموال
(٨) يربوا (٩) آتيتم (١٠) زكاة.

﴿وإذا مس﴾ إلخ: أى وإذا أصاب هؤلاء المشركين ضر من جدب أو خوف غرق أو شدة مرض أخلصوا الدعاء لله وحده راجعين إليه. وإذا كشف عنهم ذلك الضر رزقهم ما به رحمتهم من خصب أو نجاة يسرعون إلى الشرك ثانيا وينسون أنهم لم ينقذهم غيره سبحانه ثم هددهم فقال: ﴿ليكفروا﴾ إلخ: أى ليجحدوا نعمتنا عليهم كيف شاءوا، ونقول لهم تمتعوا ماهى إلا لحظات، فستعلمون صدق وعيدى، وشديد عذابى. ثم أعرض عن خطابهم تحقيرا لهم فقال: ﴿أم أنزلنا﴾ إلخ: أى ما لهؤلاء الناس مصممين على هذه الغفلة؟ هل أنزلنا عليهم كتابا يدلهم على صحة شركهم؟! ثم بيَّن سبحانه نوعا آخر من الناس امتاز بصفة خاصة هى البطر والفخر فى السراء. واليأس فى الضراء، وهذا ليس من صفات المؤمنين الصادقين، وقد تقدم مثله فى الآية (١٠) من سورة هود صفحة ٢٨٥ فقال: ﴿وإذا أذقنا الناس رحمة﴾ كسعة رزق وصحة وكثرة أولاد فرحوا بها فرح بطر وطيش حتى شغلهم ذلك عن شكر المنعم بها، وإن تصبهم سيئة كمرض وضيق وفقد ولد بسبب ذنوبهم يستولى عليهم اليأس من فرج الله. فيقعون فريسة الشيطان، أى فهم حرموا شكر النعمة والصبر على النقمة فخسروا الخير كله. هل غفل هؤلاء ولم يشاهدوا أن الله يبسط الرزق لمَنْ يشاء من عباده فى وقت ويضيقه عليه فى وقت آخر، أو على غيره، ومع ذلك فإن المؤمنين صابرون فى الضيق، شاكرون فى السعة. إن فى ذلك البسط لمقتضيه والتضييق عند وجود سببه لأدلة لقوم يؤمنون بأن ذلك فعل الله وحده وأنه لحكمة يعلمها. ولما قال فيما سبق إن السيئة بما كسبت أيدى العبد، أراد أن ينبه إلى أن طاعته مجلبة الرضا واليسر، كما فى الآية (٩٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٨. والآية (٩٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٩ فقال: ﴿فآت﴾ إلخ: أى آت أيها المخاطب قريبك حقه من صلة الرحم، والبر للمحتاج، وهذا يفيد أن فى المال حقا غير الزكاة، انظر شرح الآية (١٤١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٦ وآيتى (٢٤، ٢٥) من سورة المعارج صفحة ٧٦٦ ﴿والمسكين﴾ الذى لا يجد حاجته من القوت. ﴿وابن السبيل﴾ ذلك الإعطاء خير للذين يريدون به وجه الله. ثم بين وجه الخيرية بقوله ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أى فى الدنيا والآخرة. وبعد ما بيَّن جزاء مَنْ يرجو وجه الله شرع فى بيان غيره فقال ﴿وما آتيتم﴾ إلخ: أى

فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ
رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم(١) مَّن يَفْعَلُ
مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ(٢) وَتَعَالَىٰ(٣) عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾
ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ
لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾
قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ(٤) الَّذِينَ
مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ
يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا(٥)
فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا(٦) وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ(٧) مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ(٨) ﴿٤٥﴾
وَمِنْ آيَاتِهِ(٩) أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ(١٠) وَلِيُذِيقَكُم

وما دفعتم للغير من مال ليجلب لكم زيادة من أموال الناس فإن هذا لا يباركه الله بل يمحقه. ﴿وما آتيتم من زكاة﴾ أى صدقة لا تريدون بإعطائها إلا رضا الله فإنه يضاعف لكم ثوابها.

المفردات :. ﴿المضعفون﴾ : أى أصحاب الأضعاف بفتح الهمزة، كالموسرين أى أصحاب اليسار وهو الغنى، فالمراد هم أصحاب الأجر المضاعف كما فى الآية (٢٤٥) من سورة البقرة صفحة ٥٠. وفى المختار المضعفون جمع مضعف اسم فاعل من أضعف بمعنى نمى الشىء وجعله مضاعفا، أى ومَنْ يفعل ذلك فهم المنمون للأموال أما المرابى فهو ممحقها.

﴿هل﴾ : حرف استفهام أريد به النفى.

﴿من شىء﴾ : ﴿من﴾ حرف يدل على النص على العموم فيما بعده. ﴿ظهر الفساد﴾ : أى كثر، والفساد كالجدب والغرق والحرائق والأمراض وذهاب خيرات البحار ومحق البركة. ﴿بما كسبت أيدى الناس﴾ : انظر الآية (٣٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣.

﴿لعلهم يرجعون﴾ : انظر الآية (٩٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٨. ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ : تقدم فى صفحة ٥٣٤. ﴿يأتى يوم﴾ : هو يوم القيامة. ﴿يومئذ﴾ : المراد به هنا يوم القيامة. ﴿يصدعون﴾ : أصلها يتصدعون، أى يتفرقون إلى سعداء وأشقياء، انظر الآية (١٤)

---

(١) شركائكم (٢) سبحانه (٣) وتعالى (٤) عاقبة
(٥) صالحا (٦) آمنوا (٧) الصالحات
(٨) الكافرين (٩) آياته (١٠) مبشرات.

من هذه السورة صفحة ٥٣٢. ﴿يمهدون﴾ : أى يهيئون لأنفسهم منزلاً فى الجنة مريحا كالمهاد. ﴿مبشرات﴾: أى بالمطر، انظر الآية (٦٣) من سورة النمل صفحة ٥٠٢.

المعنى : . والذين يؤتون الصدقات لا يريدون إلا وجه الله هؤلاء تضاعف لهم الحسنات إلى سبعمائة وأكثر ثم بيَّن سبحانه أنه هو الفاعل لكل ما يصيبهم دون غيره فقال: ﴿الله الذى خلقكم﴾ : أى أنه وحده هو الذى خلقكم من العدم، ثم رزقكم ما به حياتكم، ثم يميتكم عند انتهاء آجالكم، ثم يحييكم يوم القيامة، هل من آلهتكم التى جعلتموها شريكة له تعالى مَنْ يفعل شيئا من ذلك! كلا، باعترافكم، كما فى الآية (٦٣) من سورة العنكبوت، والآية (٨٧) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥ فلا يصح حينئذ أن تشركوهم معه فى الخضوع، سبحانه وتعالى عما يشركون. ولما كان رأس كل مصيبة هو الشرك بالله حذرهم سبحانه من آثاره فقال: ﴿ظهر الفساد﴾ إلخ: أى كثر الخراب فى الدنيا بسبب جرائم الناس، وفعل بهم سبحانه ذلك ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا، وتمام الجزاء فى الآخرة لكى يرجى لهم الرجوع إليه بالتوبة والامتناع عن أسباب الفساد. قل أيها النبى للمشركين من قومك : سيروا فى البلاد فانظروا مساكن الذين فعلوا مثل فعلكم من قبلكم وكيف كانت عاقبتهم من الهلاك؛ وسبب ذلك أن أكثرهم كان مشركا مثلكم. وكثيرا ما يستعمل القرآن الأكثر فى الجميع للإشارة إلى أن هذا الجزاء يستحقونه لو صدر هذا الجرم من أكثرهم فبالأولى لو كان من الجميع. وبعد ما حذر المشركين وجه الخطاب لنبيه ﷺ، وأمره بالثبات على ماهو عليه فقال ﴿فأقم وجهك﴾ إلخ: أى وجه قصدك للدين الحق البليغ فى الاستقامة من قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لا يرده الله، لأنه وعد به، ووعده لا يمكن أن يتخلف، يوم يأتى هذا اليوم يتفرق الناس إلى كفار وصالحين، فمَنْ كفر فعليه وحده وبال كفره وهو جهنم، ومَنْ عملوا الصالحات فإنما هيأوا لأنفسهم منازل فى الجنة يستريحون فيها. وإنما وزع الجزاء على هذا الوجه لأنه عادل يجزى المؤمنين الذين عملوا الصالحات من فضله، والكافر لا يرحمه لأنه لا يحبه. وبعد ما ذكر أن أعظم الخراب سببه الشرك رجع ثانيا إلى التنبيه إلى دلائل وحدانيته بما يشاهدونه كل حين من إرسال الرياح ليبشركم بالمطر، وليذيقكم من رحمته الناتجة عنه.

مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ
قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ(١) فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ۖ
وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ
ٱلرِّيَـٰحَ(٢) فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ
وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ(٣)ۖ فَإِذَآ
أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾
وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾
فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ(٤) رَحْمَتِ(٥) ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ
إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾
وَلَئِنْ(٦) أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ
يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ

المفردات : . ﴿البينات﴾ : المعجزات والبراهين الدالة على صدقهم. ﴿تثير﴾ : أى تهيج وتحرك. ﴿كسفا﴾ : قطعا جمع كسفة كقطعة وزنا ومعنى؛ وذلك ليكون ثقيلا أكثر من الضغط الجوى فيمكن نزول الماء، انظر الآية (٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠١، ٢٠٢. ﴿الودق﴾ أى المطر. ﴿خلاله﴾ : أى وسطه. انظر الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥. ﴿إذا هم﴾ :﴿إذا﴾ تدل على مفاجأة ما بعدها لما قبلها. ﴿وإن كانوا﴾ أى وإن حالهم أنهم كانوا إلخ.

﴿من قبله﴾ : جاء بهذا القيد ثانيا لبيان أن القبلية كانت مباشرة وليست بعيدة للدلالة على سرعة تقلبهم من اليأس إلى الاستبشار، وهذا منتهى الخفة والطيش. والمؤمن رزين لاتستخفه السراء ولا تقنطه الضراء بل يقابل كل حالة بما يناسبها إما بالشكر وإما بالصبر. ﴿مبلسين﴾ : أى يائسين، انظر الآية (١٢) من هذه السورة صفحة ٥٣٢.

﴿آثار﴾ : المراد بها المطر والزرع. ﴿فرأوه﴾ : أى رأوا آثار رحمة الله والمراد بها الزرع. انظر الآية (٢١) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩، والآية (٢٠) من سورة الحديد صفحة ٧٢٢. ﴿لظلوا﴾ : أى مكثوا واستمروا، انظر الآية (٩٧) من سورة طه صفحة ٤١٥.

﴿الموتى﴾ : المراد بهم الكفار الذين أصبحوا كالموتى وكالصم، انظر الآية (١٢٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣.

---

(١) بالبينات (٢) الرياح (٣) خلاله
(٤) آثار (٥) رحمة (٦) ولئن.

المعنى : . يرسل الرياح ليبشركم وليذيقكم بسببها بعض رحمته وهو المطر الذى يجلب الخصب والزرع، ولتجرى السفن فى البحار بسبب هذه الرياح، وذلك بإذنه سبحانه، لتحملكم إلى بلاد بعيدة كما فى الآية (٢٢) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٧، ولتطلبوا من رزق الله بنقل تجارتكم عليها، وليهيئكم لشكره على هذه النعم ولا تعصوا المنعم بها. ثم وسط سبحانه بين الآيات الدالة على قدرته وعظيم نعمه ما يخفف عنه ﷺ ألمه من عدم إيمان قومه ببيان أن الأنبياء قبله حصل لهم ذلك فقال: ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالمعجزات فآمن بهم قوم وكفر آخرون، فانتقمنا من الذين أجرموا لعدم إيمانهم، بالهلاك فى الدنيا، ونجينا المؤمنين، لأنا أوجبنا على أنفسنا نصر المؤمنين حقا وفى الكلام بشارة للمؤمنين معه ﷺ وتهديد لكفار مكة.. ثم فصل سبحانه ما أجمله فيما سبق من أحوال الرياح للدلالة على قدرته على إحياء الموتى فقال: الله الذى يرسل الرياح فتحرك سحابا فيبسطه فى جهة السماء كيف يشاء، من قلة وكثرة، وشمالا وجنوبا مثلا، ويجعله قطعا متراكما بعضها فوق بعض، فترى المطر يخرج من وسطه فإذا أصاب بهذا المطر مَنْ يشاء من عباده فاجأهم الفرح والبشر وإن حالهم أنهم كانوا من قبل أن ينزل عليهم بمدة وجيزة جدا يائسين من هذا الخير، فهم سريعو التقلب لا يتنبهون إلى شكر ولا صبر. فانظر أيها المخاطب إلى آثار رحمة الله من الغيث والنبات والأشجار، وتأمل كيف يحيى الله الأرض بالنبات بعد يبسها، إن ذلك الذى يحيى هذه الأرض بعد موتها لمحيى الموتى يوم القيامة لأنه على كل شىء قدير. ثم أظهر سبحانه تزلزلهم واضطرابهم بأنهم إذا أصابهم الخير شغلوا أنفسهم عن الشكر بالفرح، وإن أصابهم شر يئسوا ولم يلتفتوا لفضيلة الصبر فقال: ولئن أرسلنا ريحا مضرة بالزرع فرأوه مصفرا لمكثوا من بعد اصفراره يجحدون نعمة الله السابقة؛ وإذا تأملنا ما جاء فى القرآن الكريم عن أحوال الناس عندما ينالهم رخاء أو تصادفهم شدة، نجده عرض لأربعة أصناف منهم:

الأول : . المؤمنون الصادقون، وحالهم أنهم إذا ابتلوا صبروا، وإذا أنعم الله سبحانه وتعالى عليهم شكروا، فلا تبطرهم النعم، ولا تعرضهم النقم لشقاء اليأس، فهم لا ينسون الله أبدًا فى

كلا الحالين. وفيهم نزل قوله تعالى ﴿الذين ينفقون فى السراء والضراء.. إلخ﴾ الآية (١٣٤) من سورة آل عمران صفحة ٨٤، وانظر آيات (١٥٦، ١٥٧، ٢٦٢) من سورة البقرة صفحات ٣٠، ٥٥، ٥٦، وبالجملة هم الذين جمعوا الصفات المذكورة فى الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤.

والثانى: ـ فاسقون مذبذبون. إذا وقعوا فى شدة لجأوا إلى الله تعالى يضرعون إليه مخلصين له الدين حتى إذا كشف الضر عنهم رجعوا إلى ما كانوا عليه متبجحين. وفى هؤلاء جاءت الآيات (١٣٤، ١٣٥) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٢، ٢١٣، و (١٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٧، و (٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣، و (٦٥) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠.

والثالث: ـ يرجع إلى الله تعالى عند الشدة، فإذا كشفها عنهم كانوا فريقين، فريق يستمر على الطاعة، وفريق ينكص على عقبيه وفى هؤلاء جاءت الآيات (٥٣، ٥٤) من سورة النحل صفحة ٣٥٢، و (٣٣) من هذه السورة صفحة ٥٣٥ وفى الفريق الأول بخاصة جاءت الآية (٩٨) من سورة يونس صفحة ٢٨١.

والرابع: ـ لا ينفع معه شدة ولا رخاء، ففى الشدة يسخط وييأس، وفى الرخاء يزهو ويفرح ويطغى على غيره وفيه جاءت آيات منها ما هنا و (٤٢، ٤٣، ٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩، و (٧٦، ٧٧) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٥٢، ٤٥٣، و (٣٦) من هذه السورة صفحة ٥٣٥؛ فلا تحزن أيها النبى على عدم إيمانهم لأنهم موتى القلوب صموا آذانهم عن سماع الحق وأنت لا تستطيع أن تسمع الموتى ولا تسمع الصم. انظر الآية (٣٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٤.

المفردات: ـ ﴿مدبرين﴾: تأكيد لما قبله انظر الآية (٨٠) من سورة النمل صفحة ٥٠٤.

﴿إن تسمع﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾.

﴿من ضعف﴾: المراد ابتدأكم ضعفاء حتى كأن الضعف أساس تكوينكم كما فى

الدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ الْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝ ۞ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ۝ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ

﴿خلق الإنسان من عجل﴾. الآية (٣٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤.

﴿قوة﴾ : هى بلوغ الأشد المبين فى الآية (١٤) من سورة القصص صفحة ٥٠٨. ﴿تقوم الساعة﴾ : الساعة هنا هى القيامة.

﴿غير ساعة﴾ : أى غير لحظة.

﴿يؤفكون﴾ : أى يصرفون وهم فى الدنيا عن الحق.

﴿الذين أوتوا العلم﴾ : هم الملائكة. انظر شرح الآية (١١٢) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥ وما بعدها.

﴿لبثتم فى كتاب الله﴾ : أى مكثتم فيما كتبه الله فى سابق علمه، والمراد حسبما قدره الله وقضى به.

﴿ولا هم يستعتبون﴾ : أى لا يرشدون إلى طلب عفو الله عنهم. انظر شرح الآية (٨٤) من سورة النحل صفحة ٣٥٧.

المعنى : . إنك أيها النبى لا يمكنك أن تسمع الصم صوتك خصوصا إذا انصرفوا عن مجلسك معرضين حسا ومعنى، وما أنت بهادى عمى القلوب مبعدا لهم عن ضلالهم البعيد.

---

(١) بهادى
(٢) ضلالتهم
(٣) بآياتنا
(٤) الإيمان
(٥) كتاب
(٦) القرآن
(٧) بآية.

وما تسمع إسماع فهم وقبول إلا من قلبه مهيأ للإيمان بالقرآن لخلوه من الكبر والعناد، فهم مستسلمون منقادون، وقد تقدّم مثلها فى صفحة ٥٠٤.

وبعد ما ذكر سبحانه أدلة وجوده وقدرته فى الآفاق أراد أن يذكر أدلة ذلك فى أنفسهم حتى يتبين لهم الحق كما فى الآية (٥٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧، فقال: الله وحده هو الذى بدأ خلقكمْ فى غاية الضعف، ثم نماكم حتى جعل لكم من بعد ضعفكم قوة: ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة، أى جمع عليكم فى الكبر بين مقدمات الفناء الباطنة والظاهرة، يخلق ما يشاء من ضعف وقوة وشباب وشيبة، وهو العليم بأحوال خلقه القدير على فعل ما يريد. وبعد ما بين سبحانه أدلة قدرته على بعث الناس يوم القيامة أراد أن ينبه لما سيكون فى هذا اليوم فقال ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ إلخ: أى ويوم تجىء ساعة البعث ويرى المجرمون من الكافرين ما فيها من الهول يحلفون أنهم ما مكثوا فى قبورهم إلا لحظة قليلة. ومثل صرفهم عن الحق فى مدة المكث فى القبور كانوا يصرفون فى الدنيا عن الحق إلى الباطل، فيقولون ماهى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين وغير ذلك من كل ما أنكروا به القيامة، وترده عليهم الملائكة الذين يعلمون الحقيقة : والله لقد مكثتم فى القبور المدة الطويلة التى قضى بها فإن كنتم ما زلتم منكرين للبعث فهذا يوم البعث، أى فقد تبين لكم بطلان إنكاركم، ولكنكم كنتم لا تعلمون أنه حق لتفريطكم فى البحث عن الحق واتباعه؛ فيوم يحصل كل هذا لا ينفع الذين ظلموا أنفسهم بالشرك اعتذارهم بجهل ولا بغيره، ولا يمكنهم أن يرضى عنهم ربهم لأنه لايغفر الشرك أبدا كما فى الآية (١١٦) من سورة النساء صفحة ١٢٢.

ثم بين سبحانه ما يقطع العذر فقال ﴿ولقد ضربنا﴾ إلخ أى ولقد أوضحنا لهم الحق وضربنا لهم الأمثال التى تبين قدرتنا على ما نريد بصور شتى، ولكنهم أعرضوا استكبارا وعنادا، وعزتى لئن جئتهم أيها النبى بآية واضحة قاطعة ليقابلونك بالإنكار الشديد، ويقولون ما أنت يا محمَّد والذين اتبعوك إلا قوم على الباطل مزورون. مثل هذا الطبع الذى طبعه الله على قلوب كفار قومك يطبع الله على قلوب كل مَنْ لم يطلب العلم.

قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

(٣١) سُورَةُ لُقْمَانَ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا أَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ[1] ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ[2] الْكِتَابِ[3] الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى
وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ[4] وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ[5] وَهُم بِالْآخِرَةِ[6] هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى
مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ
مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ
عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾

المفردات: ﴿لا يستخفنك﴾ أى لا يحملنك على الخفة والقلق جزعا.

﴿لا يوقنون﴾: لا يصدقون تصديقا قويا، انظر صفحة ٣.

المعنى: وإذا علمت أيها النبى أن هذا هو حالهم فاصبر على أذاهم معتمدا على أن وعد الله تعالى بنصرك عليهم وإظهار دينك حق لابد من إنجازه، ولا يقلقك ويزعجك الذين لا يوقنون بدينك ولا بالبعث.

(سورة لقمان)

المفردات: ﴿ألم﴾: تقدم كيفية النطق بها فى صفحة ٥٣٠، وتقدم المراد منها أول سورة البقرة.

﴿الحكيم﴾: صاحب الحكمة وهى وضع الشىء فى محله.

﴿هدى ورحمة﴾: حالان من الكتاب.

﴿يؤتون الزكاة﴾: كانت الزكاة مفروضة فى مكة من غير تحديد قدر، بل الأمر متروك لرغبة كل مسلم فى زيادة الأجر، وبعد الهجرة حددت مقاديرها ببيان من النبى ﷺ، ووزع على الولاة فى الأقاليم وحددت مصارفها على الوجه المبين فى الآية (٦٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥١.

---

(١) ألف. لا م. ميم.
(٢) آيات.
(٣) الكتاب.
(٤) الصلاة.
(٥) الزكاة.
(٦) بالآخرة.

﴿أولئك على هدى.. إلى المفلحون﴾: تقدم فى صفحة ٤.

﴿يشترى﴾: المراد يقدم ويفضل.

﴿لهو الحديث﴾: هو كل ما يلهى عما ينفع ويصرف عن ذكر الله كالخرافات والحكايات التى لا اعتداد بها والمضحكات والأغانى المكروهة شرعا.

﴿سبيل الله﴾: أى دينه.

﴿أولئك لهم﴾: أفرد أولاً فى (ليضل) و(يتخذها)؛ وآخرا فى (تتلى عليه..) إلخ الآية (٧) وذلك مراعاة للفظ (مَنْ) فى (مَنْ يشترى) وجمع هنا مراعاة لمعناه.. لأن معناه (فريق من الناس) ونظيره فى آيتى (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧، و(١١) من سورة الطلاق صفحة ٧٥٠ حيث قال (خالدين فيها) بعد قوله (يدخله).

المعنى: (تلك آيات الكتاب الحكيم) تقدم شرحها فى صفحة ٢٦٥، حال كون هذا الكتاب هاديا وسبب رحمة للمحسنين أعمالهم لأنهم هم الذين ينتفعون به. ثم بين المحسنين بأشهر أوصافهم فقال (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) روى عن ابن عباس أن النضر بن الحارث وكان من صناديد كفار قريش كان يحارب دعوة النبى ﷺ بكل ما يستطيع، فكان يشترى أجود المغنيات صوتا ولا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا أخذه إلى تلك المغنية، وبعدما يسقيه خمرا وتغنى له المغنية يقول له هذا خير مما يدعوك إليه محمد، وما يريد إلا أن تقتل نفسك دونه. وكان يجلب من بلاد الفرس كتب القصص ويجمع من يظن أن حديث القرآن يؤثر فيهم، ويحدثهم بأخبار ملوك العجم وحروبهم ويقول لهم إذا كان محمد يحدثكم عن عاد وثمود الأولى فأنا أحدثكم عن أناس هم أقرب منهم إليكم.. فكان بعضهم يستلمح حديثه ويعرض عن سماع القرآن. فنزل فى هذا قوله سبحانه: ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل أى ليصرف الناس عن دين الله جاهلا بخطر ما يعمل، ويجعل سبيل الله مهزوءا بها فى نظر البسطاء؛ كل من يفعل فعل هذا الفاسق لهم عذاب فى جهنم يجعلهم محتقرين.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ
فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ
وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا
فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا
خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾
وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ
فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾
وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ
إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ

المفردات: ﴿ولى﴾: انصرف.

﴿وقرا﴾: صمما.

﴿فبشره بعذاب﴾: هذا تهكم إذ المراد منه أنذره، انظر الآية (١٣٨) من سورة النساء صفحة ١٢٦، وشرح الآية (٣) من سورة التوبة صفحتى ٢٣٩، ٢٤٠.

﴿خلق السموات بغير عمد ترونها﴾: تقدم شرحها فى صفحة ٣٢٠.

﴿وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم﴾: تقدم فى الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧. ﴿بث فيها من كل دابة﴾: انظر الآية (١) من سورة النحل صفحة ٩٧.

﴿وأنزلنا﴾: انظر حكمة تحويل الكلام من الغيبة إلى التكلم فى الآية (٩٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩، والآية (٥٣) من سورة طه صفحة ٤١٠.

---

(١) آياتنا.
(٢) آمنوا.
(٣) الصالحات.
(٤) جنات.
(٥) خالدين.
(٦) السموات.
(٧) رواسى.
(٨) الظالمون.
(٩) ضلال.
(١٠) آتينا.
(١١، ١٢) لقمان.
(١٣) يا بنى.
(١٤) الإنسان.
(١٥) بوالديه.

﴿زوج﴾: صنف من النبات.

﴿كريم﴾: أى حسن، انظر الآية (٤) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٧.

﴿بل الظالمون﴾: بل للانتقال من كلام إلى آخر.

﴿مبين﴾: أى واضح، انظر شرح الآية (٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٦.

﴿لقمان﴾: قيل فيه كلام كثير من أنه حبشى أو سودانى أو نوبى وفى عهد داود إلى غير ذلك مما لم يثبت من طريق صحيح، والمقطوع به أنه كان رجلا صالحا دقيق الحس صادق الوجدان حسن التعبير كامل الفضائل.

﴿الحكمة﴾: هى مجموعة من الفضائل تجعل صاحبها يضع كل شىء فى محله.

﴿أن إشكر﴾: هى (أن) مفسرة لشىء مفهوم من السياق، أى ألهمناه إلهاما هو أن الشكر مطلوب إلخ.

﴿ووصينا الإنسان﴾: جاء سبحانه بهذه الوصية بين وصايا لقمان لابنه مسارعة لتأكيد ما فى وصايا لقمان من النهى عن الشرك كأنه يقول أن الوالدين الذين قرنت الإحسان إليهما وطاعتهما بعبادتى وحدى كما فى الآية (٣٦) من سورة النساء صفحة ١٠٦، والآية (١٥١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩، والآية (٢٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٧ لا يستحقان الطاعة فى الشرك فما بالك بغيرهما.

المعنى: وإذا تتلى آياتنا على هذا الذى اتخذ دين الله هزوا أعرض عنها متكبرا لا يعبأ بها كأنه لم يسمعها؛ لأن فى أذنيه صمما، فأحسن خبر يسمعه هو إنذاره بعذاب شديد الألم. ثم ذكر سبحانه مآل مقابلة فقال: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الجنات المملوءة بأسباب النعيم خالدين فيها، وعد سبحانه بذلك وعدا ثابتا لا يتخلف، وهو العزيز أى الغالب الذى لايعجزه شىء عن إنجاز وعده، الحكيم الذى لا يسوى بين المؤمن والفاسق كما فى الآيات (١٨

إلى ٢٠) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧. ثم شرع سبحانه فى بيان كمال قدرته على خلق هذا العالم ليثبت بذلك وحدانيته ويبطل الشرك فقال (خلق السموات) إلخ: أى وهو وحده الذى خلق السموات ورفعها بغير عمد وأنتم ترونها كذلك. وألقى فى الأرض جبالا راسيات كالأوتاد كما فى الآية (٧) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧ لئلا تميل وتضطرب بكم فتهلكوا، ونشر فيها دواب من كل نوع، وأنزل سبحانه من جهة السماء ماء، وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف الزروع والأشجار. ثم التفت سبحانه مخاطبا المشركين تبكيتا لهم فقال: هذا الذى ترونه فى السماء والأرض هو مخلوق لله، فأرونى أيها المشركون ما الذى خلقه الذين هم غيره وهم معبوداتهم. ثم انتقل من تبكيتهم إلى تسجيل ضلالهم مع وضوح الدليل فقال: ﴿بل الظالمون﴾ إلخ: أى الحق أن السبب هو أن هؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك فى ضلال واضح. وبعدما أبطل سبحانه الشرك بالعقل أراد أن يبطله بالنقل عن رجل صالح سلمت فطرته فأدرك بطلان الشرك فقال: ولقد آتينا لقمان الحكمة، وألهمناه شكر نعم الله، فإن شكره يعود نفعه على نفسه، ومن كفر ولم يشكر فلا يضر إلا نفسه، لأن الله تعالى غنى عن شكره، كثير استحقاق الحمد. ثم بين سبحانه أن لقمان مع كماله فى نفسه فإنه كان مهتما بتكميل غيره فقال: وإذ قال لقمان لابنه فى حال وعظه له: يا بنى لا تشرك بالله غيره لأن الشرك بالله ظلم لأنه وضع للعبادة فى غير موضعها، عظيم لأنه تسوية بين ما لا يضر ولاينفع، ومن الضر والنفع كله بيده ثم أكد كلام لقمان فى النهى عن الشرك فقال:

﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ إلخ.

المفردات: ﴿وهنا على وهن﴾: ضعفا ينضم إلى ضعف كلما تقادم حملها.

﴿فصاله﴾: المراد فطامه، انظر إيضاح ما هنا فى صفحة ٦٦٨.

﴿جاهداك على﴾: أى أفرغا جهدهما فى حملك على الشرك.

﴿ما ليس لك به علم﴾: المراد لا يمكن أن تعلم أن له شريكا لأنه مستحيل.

حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ(١) فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى
وَلِوَٰلِدَيْكَ(٢) إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ(٣) عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ
بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا
مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ(٤) إِنَّهَآ إِن تَكُ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ(٥)
أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾
يَٰبُنَىَّ(٦) أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ(٧) وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾
وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ
وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ(٨) لَصَوْتُ

﴿معروفا﴾: أى صحابا معروفا والصحاب بوزن السحاب هو الصحبة.

﴿أناب﴾: أى رجع.

﴿مثقال﴾: أصل المثقال ما يوزن به غيره والمراد ثقل حبة.

﴿خردل﴾: حب صغير جدا يضرب به المثل فى الصغر.

﴿لطيف﴾: المراد يصل علمه إلى كل خفى. انظر الآية (١٠٣) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٩، ١٨٠.

﴿خبير﴾: عليم بتفاصيل الأشياء وأسرارها.

﴿عزم الأمور﴾: أى الأمور التى يجب الثبات عليها. انظر شرح الآية (١٨٦) من سورة آل عمران صفحة ٩٤.

﴿ولا تصعر خدك للناس﴾: المراد: لا تلو عنهم خدك تكبرا وإعراضا. مأخوذ من (الصَّعَر) وهو داء يصيب البعير فيلوى عنقه.

﴿مرحا﴾: أى فرحا شديدا وبطرا. انظر الآية (٣٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩.

﴿مختال فخور﴾: تقدم فى الآية (٣٦) من سورة النساء صفحة ١٠٦.

﴿واقصد﴾: أى توسط.

﴿اغضض﴾: أى اخفض.

---

(١) وفصاله. (٢) ولوالديك.
(٣) جاهداك. (٤) يا بنى.
(٥) السموات. (٦) يا بنى.
(٧) الصلاة. (٨) الأصوات.

﴿أنكر﴾: أى أشد نكرا أى قبحا كما فى الآية (٧٤) من سورة الكهف صفحة ٢٩١.

المعنى: ووصينا الإنسان بوالديه خيرا خصوصا الأم؛ لأنها حملته فى بطنها جنينا تضعف به كل يوم ضعفا فوق ضعف حتى تضعه، ويبقى فى حجرها وتحت رعايتها ورحمتها حتى يأتى وقت فطامه فى تمام العامين لمن أراد أن يتم الرضاعة كما تقدم فى صفحة ٤٧، وقلنا له فى الوصية اشكر لى نعمى عليك بطاعتى، واشكر لوالديك تربيتك والسهر عليك بالإحسان إليهما والدعاء لهما كما فى الآية (٢٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٧، واحذر مخالفة أمرى فإن مصيرك ومرجعك إلىَّ فى الآخرة، وسأجازيك خيرا أو شرا. وإن جاهداك على أن تشرك بى ما لا وجود له بل هو مجرد أسماء كما فى الآية (٤٠) من سورة يوسف صفحة ٣٠٩ فلا تطعهما، وهذا لا يمنع أن أحتم عليك أن تصاحبهما فى الدنيا صحبة حسنة بحلم و بر وطاعة فى غير منكر، أما فى أمور الدنيا فاتبع سبيل فريق المؤمنين الذين يرجعون فى كل أمورهم إليه تعالى، ثم إلىَّ مرجعك أيها الإنسان ومرجع والديك فأنبئ كلا بعمله وأجازيه عليه. يا بنى إن الفعلة الحسنة أو السيئة مهما قلت حتى كانت فى الصغر وزن حبة خردل ومهما خفيت فى جوف صخرة أو فى عنان السماء أو فى باطن الأرض فلابد أن يأتى بها الله يوم القيامة مسجلة فى صحيفتك كما فى الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٢٨٧، ٢٨٨، ويحاسب فاعلها لأنه لطيف خبير لا يخفى عليه شىء. ثم عاد سبحانه لذكر بقية وصية لقمان لابنه فقال يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما يصيبك من البلاء ولاتجزع كعديم الإيمان إن ذلك الذى وصيتك به هو من الأمور التى يجب العزم عليها والثبات. ولا تعرض عن الناس تكبرا فيكرهوك بل أقبل عليهم بوجهك متواضعا. ولا تمش فى الأرض حال كونك شديد الفرح فإن هذا شأن الطائشين، لأن الله لا يحب كل مختال فى مشيته، فخور يتمشدق بتعداد مناقبه، وتوسط فى مشيك فلا تتماوت ولا تعجل كالمتسرع فإن ذلك أليق بالوقار. واخفض من صوتك مازاد على الحاجة؛ لأن رفع الصوت بدون حاجة يجعله أشبه بصوت الحمار، وأنكر الأصوات، صوت الحمير.

ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا
كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟
بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ
يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ
إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى
ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ
إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ
غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

المفردات: ﴿أسبغ عليكم﴾: أى وسع وأتم. انظر الآية (١١) من سورة سبأ صفحة ٥٦٤.

﴿ظاهرة﴾: تدرك بالحواس. كاستواء القامة والصحة والمال والولد وغير ذلك.

﴿باطنة﴾: كالعقل وحسن التدبير والرضا وطمأنينة القلب والإيمان وغير ذلك. ﴿يجادل فى الله﴾ إلى قوله منير: تقدم فى الآية (٨) من سورة الحج صفحة ٤٣٤.

﴿نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾: تقدم فى الآية (١٧٠) من سورة البقرة صفحة ٣٢، وشرح الآية (٩٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦.

﴿السعير﴾: النار الملتهبة المسعرة، انظر الآية (١٢) من سورة التكوير صفحة ٧٩٤.

(يسلم وجهه﴾: أى يخلص فى عبادته. انظر الآية (١١٢) من سورة البقرة صفحة ٢٢. والآية (١٢٥) من سورة النساء صفحة ١٢٣.

﴿استمسك بالعروة الوثقى﴾: تقدم فى الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤.

﴿نمتعهم قليلا﴾: تقدم معناها فى الآية (٧٧) من سورة النساء صفحتى ١١٣، ١١٤، والآية (٧٠) من سورة يونس صفحة ٢٧٧.

(نضطرهم﴾: أى نلجئهم.

﴿غليظ﴾: أى ثقيل ثقل الأجرام الغلاظ، والمراد شديد.

---

(١) السموات. (٢) ظاهرة.
(٢) يجادل. (٤) كتاب.
(٥) آباءنا. (٦) الشيطان.
(٧) عاقبة. (٨) السموات.

المعنى: بعدما نهى عن رفع الصوت فوق الحاجة نفر منه بأن ذلك يشبه صوت الحمار، وأقبح الأصوات هو صوت الحمير وبعدما فرغ سبحانه من وصايا لقمان رجع لتوبيخ المشركين على إصرارهم على الشرك مع مشاهدتهم أدلة توحيده وانتفاعهم بنعمه فقال (ألم تروا) إلخ: أى ألم تعلموا أيها الناس أن الله وحده هو الذى سخر لنفعكم ما فى جهة السماء من شمس وقمر ونجوم تهتدون بها فى سفر الليل، ومن مطر وما فى الأرض من أنهار وثمار وزروع ودواب، وأتم عليكم نعمه حال كونها ظاهرة وباطنة، ومن العجب بعد كل هذه الأدلة أن يجادل بعض الناس فى توحيد الله تعالى بلا دليل عقلى ولا هدى من نبى، ولا كتاب منزل من الله ينير لهم طريق الحق. وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا لا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فرد سبحانه عليهم فى صورة استفهام توبيخى فقال (أو لو كان) إلخ: أى هل يتبع هؤلاء آباءهم فى كل حال حتى لو كان الشيطان دعا آباءهم إلى طريق عذاب جهنم؟ وبعد ما بيَّن سبحانه حال الكافر المعاند وعاقبته أراد أن يبين حال مقابله وهو المؤمن الخاضع لربه مع ترضيته ﷺ فقال ﴿ومن يسلم﴾ إلخ: أى ومن يقبل على الله تعالى إقبالا كليا والحال أنه محسن لأعماله كلها فقد تعلق أتم تعلق بأقوى الأسباب الموصلة إلى رضا الله، ولله وحده عاقبة الأمور، فيجازى كلا حسب عمله، ومن كفر فلا يحزنك أيها النبى كفره لأنه ليس عليك هدايتهم، وإنما عليك البلاغ وقد فعلت. إلينا مرجع كل من يكفر فنطلعهم على معاصيهم بما يقطع عليهم سبيل الاعتذار، انظر آيتى (١٣، ١٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، والآية (٤٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧، وسجل عليهم سبحانه كل شىء لأنه عليم بدخائل نفوسهم فضلا عن ظاهر أعمالهم. ثم حذر الناس من الاغترار بما هم فيه من متاع الدنيا فقال (نمتعهم) إلخ: أى نتركهم يتمتعون بما فى الدنيا زمنا قليلا ثم نرغمهم إلى عذاب شديد. ثم أراد أن يبرهن على أن الكافرين يعاندون ويكابرون بدليل اعترافهم فقال ﴿ولئن سألتهم﴾ إلخ: أى ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين من قومك من الذى خلق السموات والأرض لا يجدون جوابا إلا اعترافهم بأنه هو الله. عند ذلك قل الحمد لله الذى أوجد من دلائل وحدانيته ما أرغمهم على الاعتراف بما يهدم عقائدهم من إشراك غيره فى الطاعة التى لا يستحقها إلا صاحب الفضل فى خلق هذه الأشياء، انظر شرح الآية (٥٩) من سورة النمل، ثم انتقل إلى بيان جهلهم الفاضح فقال بل أكثرهم لا يعلمون أن اعترافهم هذا أقوى حجة عليهم يوم القيامة.

لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[1] وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ
ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا[2] فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ[3] وَٱلْبَحْرُ
يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ[4] ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ
وَٰحِدَةٍ[5] إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ[6]
فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ[7] وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ
يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ[8]
وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى
فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ[9] ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ[10] إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ[11] لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ
دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ[12] إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم

فقال بل أكثرهم لا يعلمون أن اعترافهم هذا أقوى حجة عليهم يوم القيامة.

المفردات: ﴿يمده﴾: أى يزيده ويساعده، انظر الآية (١٠٩) من سورة الكهف صفحة (٣٩٥).

﴿من بعده﴾: أى بعد فراغ ما فيه.

﴿سبعة أبحر﴾: المراد بالعدد الكثرة لاالتحديد بسبعة فيشمل ما فوق الألف.

﴿كلمات الله﴾: المراد بها مقدوراته وكل ما يريده ويقول له ﴿كن فيكون﴾ من كل مافى الدنيا مما يدل على وجوده سبحانه وعجيب صنعه، ومن جميع نعمه فى الدنيا والآخرة انظر الآيات من (٢ إلى ١٨) من سورة النحل صفحة ٣٤٥ وما بعدها..

﴿يولج الليل فى النهار﴾ إلخ: تقدم فى الآية (٢٧) من سورة آل عمران صفحة ٦٧.

﴿إلى أجل سمى﴾: محدد ومعين وهو قيام الساعة.

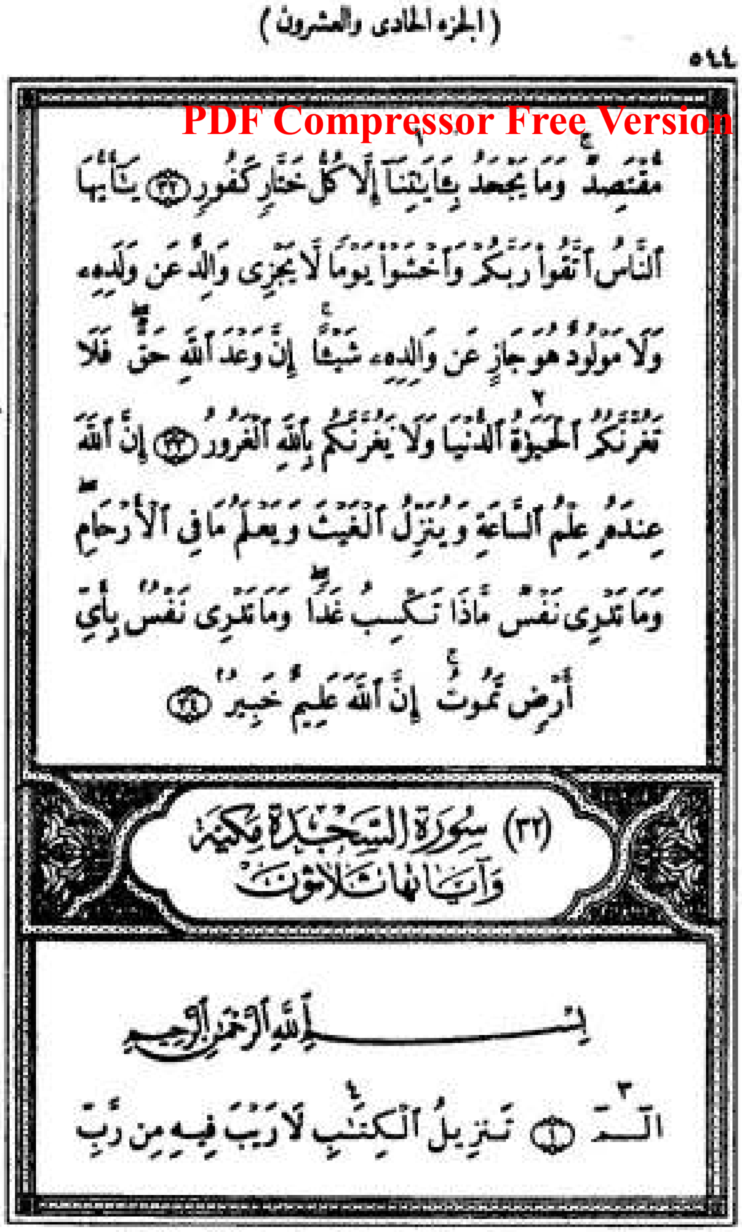
﴿بنعمة الله﴾: إحسانه بتهيئة أسباب الجرى من الريح، وجعل الماء وهو سائل يحمل السفن الثقال، انظر الآية (٣٣) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣.

﴿الظلل﴾: جمع ظلة بوزن غرفة وهى السحابة، انظر الآية (٢١٠) من سورة البقرة صفحة ٤١.

---

(١) السموات. (٢) أن ما.
(٣) أقلام. (٤) كلمات.
(٥) واحدة. (٦، ٧) الليل.
(٨) الباطل. (٩) بنعمة.
(١٠) آياته. (١١) لآيات.
(١٢) نجاهم.

المعنى: بعد ما سجل سبحانه اعتراف المشركين انتقل إلى إبطال معتقداتهم من وجه آخر فقال ﴿لله ما فى السموات والأرض﴾ إلخ: أى كل ما فى السموات والأرض مخلوق له تعالى ومملوك له، والمملوك لا يكون شريكا لمالكه. فكيف يستحق ما هو حقه وحده من العبادة وغيرها؟ وهم بهذه التسوية لم يضروا إلا أنفسهم لأن الله تعالى غنى عن طاعتهم مستحق لجميع الحمد رغم أنوفهم. وبعد ما بيّن سبحانه أنه أسبغ نعمه على عباده ظاهرة وباطنة. وأن له ما فى السموات والأرض، وأن أدلة وجوده ظاهرة لا يمكن إنكارها، أتبع ذلك ببيان أن تلك النعم وهذه المخلوقات وأدلة وجوده لا حصر لها فقال ﴿ولو أن ما فى الأرض من شجر أقلام﴾ إلخ: أى لو ثبت كون جميع ما فى الأرض من أجزاء الشجر أقلاما والحال أن ماء البحر ومعه بحار كثيرة مداد، وكتب بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله ما نفدت لعدم تناهيها، ولنفدت تلك الأقلام والمداد لتناهيها. إن الله عزيز غالب لا يعجزه شىء يريده، حكيم لا يخلق شيئا عبثا: ثم أبطل استبعادهم للبعث يوم القيامة: ﴿ما خلقكم﴾إلخ: أى ليس خلقكم جميعا وبعثكم للحساب يوم القيامة بالنسبة لله تعالى إلا كخلق نفس واحدة وبعث نفس كذلك، لأن الجميع لا يحتاج منه إلا لقوله كن فيكون. انظر صفحة ٥٨٦. إن الله سبحانه سميع لكل مسموع، بصير بكل مبصر. لا يشغله شىء عن شىء. ثم نبه سبحانه إلى أدلة قدرته وكثرة نعمه فقال (ألم تر): أى ألم تعلم أيها المخاطب أن الله ينقص من الليل بمقدار ما يزيد فى النهار وبالعكس وسخر الشمس والقمر كل منهما يجرى لحين معين، وألم تعلم أن الله بما تعملون أيها المكلفون خبير فتخافوا حسابه، ذلك الوصف الذى وصف به سبحانه نفسه من كمال القدرة وتمام الحكمة التى يعجز عنها الأحياء القادرون فضلا عن الجماد الذى يطيعونه من دون الله، إنما هو بسبب أنه سبحانه هو وحده الحق الثابت الألوهية، وأن ما يخضعون له من كل ما سواه باطل زائل، وأنه سبحانه هو العلى القدر الكبير السلطان. ثم ذكر دليلا آخر على كمال قدرته فقال: ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بإحسانه ليريكم بعض دلائل ألوهيته ووحدانيته، لأن فى كل ما ذكر لأدلة عظيمة لكل مؤمن قوى الصبر على المعاصى والبلاء لايقنط من رحمة ربه، كثير الشكر لنعمه. ثم بيَّن أن المشركين إنما ينسون الله فى الرخاء ولكنهم لا يجدون غيره فى الشدة فقال ﴿وإذا غشيتهم﴾ إلخ وإذا ركبوا فى السفن وغطاهم الموج ومن فوقهم السحب وخافوا الغرق دعوا الله وحده مخلصين له العبادة، لزوال ما ينازع الفطرة من تقليد الآباء، فلما استجاب لهم ونجاهم إلى البر انقسموا إلى فريقين.



الفطرة من تقليد الآباء، فلما استجاب لهم ونجاهم إلى البر انقسموا إلى فريقين.

المفردات: ﴿مقتصد﴾: معتدل غير مفرط ولا متكلف فوق طاقته مقبل على ربه بين الخوف والرجاء.

﴿يجحد﴾: يكفر عنادا مع اعتقاده خلاف ما يظهر. انظر الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥.

﴿ختار﴾: شديد من ختر بوزن ضرب.

﴿كفور﴾: مبالغ فى كفران نعم الله تعالى عليه.

﴿ولا مولود هو جاز﴾: جاء هنا بالجملة الاسمية التى تدل على تأكيد النسبة لدفع ما قد يظن من نفع الولد لقوله ﷺ: (الولد من كسب أبيه) وما تقرر من أن الطفل الصغير إذا مات يشفع لوالديه، فأراد سبحانه أن يبين أن الولد لا ينفع والده إذا بلغت معصيته حدا يمنع الإذن بالشفاعة له. انظر شرح الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦.

﴿الغرور﴾: هو كل ما يغر الإنسان ويشغله عن الله عز وجل من مال أو جاه أو شهوة أو شيطان وهو أخبثها، ولذا فسره بعضهم به.

﴿الساعة﴾: المراد بها هنا يوم القيامة. انظر معنى الساعة فى شرح الآية (١٨٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣.

﴿الغيث﴾: هو المطر الذى من شأنه أن يغيث الخلق بعد القحط. انظر الآية (٢٨) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣.

---

(١) بآياتنا. (٢) الحياة.
(٣) ألف. لام. ميم. (٤) الكتاب.

﴿يعلم ما فى الأرحام﴾: أى أحوال ما فى الأرحام كلها، الحاضر منهاوالمستقبل انظر الآية (٨) من سورة الرعد صفحة ٣٢٢، والآية (١١) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣.

﴿تكسب غدا﴾: المراد بالغد هنا الزمن المستقبل ولو بعد لحظة، ومثله (غدا) فى الآية (٢٣) من سورة الكهف صفحة ٣٨٣، والمراد بالكسب ما يصيب الإنسان وغيره ويحصل له أو على يديه من خير، أو شر، أو رزق، أو موت، أو قتل. والمراد أنه سبحانه هو الذى اختص بعلم ما سيحصل للنفوس فى مستقبلها، وقصر العلم عليه سبحانه هنا مستفاد باللزوم كما سيأتى.

﴿وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾: المراد أنكم كما تجهلون زمان ما سيحصل تجهلون أيضا مكانه.

المعنى: فمنهم معتدل فى كل أفعاله كما هو شأن العقلاء، ومنهم جاحد كافر، وما يكفر أى يجحد فضلنا إلا كل غدار ناقض لعهد الفطرة التى خلقه الله تعالى عليها، كما تقدم فى الآية (٣٠) من سورة الروم صفحة ٥٣٤، وبنقضه ما عاهد الله عليه عند خوف الغرق، انظر الآية ٢٢، ٢٣، من سورة يونس صفحة ٢٦٩، فهو كثير الكفر بنعمة الله. وبعد ما ذكر من دلائل التوحيد والبعث أنواعا أراد أن يخوفهم بما سيكون فقال يأيها الناس من كفار قريش وغيرهم اتقوا سخط ربكم واخشوا عذابه الذى لا يغنى فيه والد عن ولده شيئا، ولا مولود هو مغن عن والده شيئا، بل كل نفس بما كسبت رهينة، واعلموا أن وعد الله بمجىء هذا اليوم حق، فلا تخدعنكم زينة الحياة الدنيا فتجعلوها كل همكم وتنسوا الاستعداد للآخرة، ولا يخدعنكم الشيطان. ولما كان من أهم أسباب إنكارهم البعث هو زعمهم أن الساعة لو كانت ستحصل لوجب أن يعلمنا بوقتها محمد، فذكر سبحانه لهم خمسة أشياء، منها ما هو لاصق بهم ومع ذلك فإنه يستحيل عليهم علم واحد منها فقال ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ إلخ: أى إن الله وحده هو الذى يعلم وقت قيام الساعة، وهو وحده الذى ينزل المطر الكثير فى وقته ومكانه وصفته المعينة له، وإذا كان سبحانه هو وحده الذى ينزل المطر فلا يعلم وقت نزوله غيره، فضلا عن أنه يعلم ذلك من الأزل، ويعلم جميع أحوال كل ما فى الأرحام، انظر الآية (٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٣، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا.. والمراد أنه لما كان ما يصيب الإنسان هو من فعل الله عز وجل، وإذا كان لا يمكن أن يعلمه الإنسان قبل وقوعه انحصر علمه فيه سبحانه. وإنما جاء به على هذا الأسلوب لتوبيخهم على إنكار البعث، كأنه يقول إذا

كنتم لا تعرفون ما سيحصل لكم فى اللحظة المستقبلة. وكثير مما يحصل لكم عليه مدار حياتكم. فكيف تجعلون جهل وقت الساعة علامة على عدم حصوله؟ وأشار سبحانه إلى الغيب الخامس بقوله ﴿وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾. وهذا غير خاص بالمكان بالنسبة لشىء واحد فقط مما يعترى الانسان وهو الموت. فكأنه يقول إن جهلكم كما يكون بزمان الحوادث يكون أيضا بمكان بعضها وهو الموت. وإذا كنتم تجهلون مكان موتكم والمكان شىء ثابت لايتغير من موضعه فجهلكم بزمان الموت من باب أولى. لأن الزمان لحظات لا تستقر بل تتجدد دائما. إن الله عليم بجميع الأشياء، خبير بظواهرها وبواطنها. ويجب أن يعلم أنه ليس فى الاية ما يفيد أن علم الغيب محصور فيما ذكر فلا ينافى أن هناك غيبا لا يعلمه غيره سبحانه غير ما ذكر هنا منه عدم علم الشخص بما يكسب غيره. ولا مكان موت غيره. وكذا ما فى قوله تعالى ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر﴾ إلخ.. الآية (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١: ويجب هنا أن ننبه إلى أنه قد يقال ثبت أن هذه الأشياء الخمسة المذكورة فى هذه الآية هى مما استأثر الله سبحانه بعلمه فما حكمة اختلاف التعبير عنها. تارة بجملة اسمية. وأخرى بجملة فعلية؟ قد يقال والله أعلم: إنه سبحانه عبر عن أول هذه الخمسة وهو (علم الساعة) بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والاستمرار. لأن علمه سبحانه بالساعة مستمر. ولما كان نزول المطر يتجدد، أى يتجدد. أى يحصل ثم ينقطع ثم ينزل ثانيا وهكذا عبر عنه بالجملة الفعلية. أى ﴿ينزل الغيث﴾ لأن الفعل فى أصل وضعه يفيد التجدد وعدم الاستمرار. وكذا يقال فى ﴿ويعلم ما فى الأرحام﴾ لأن أحوال ما فى الأرحام تتجدد. فعلم الله سبحانه بأنه سيحصل غير علمه بأنه حصل فعلا. ولم يقل ويعلم نزول الغيث: لأنه أراد أن يفيد علمه به بطريق اللزوم الذى يشعر بالدعوى ودليلها. فكأنه سبحانه وتعالى يقول أنا وحدى أعلم نزول الغيث لأنه لا يعلم وقت نزوله غيرى. وأما تعبيره سبحانه عن اختصاصه بعلم ما سيحصل فى المستقبل بقوله ﴿وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾ فإنه يفيد قصر علم ما سيحصل وزمانه ومكانه عليه سبحانه وحده بطريق اللزوم أيضا. وإنما صنع ذلك سبحانه هنا لتوبيخ الكفار وإقامة الحجة عليهم فى إنكارهم البعث بحجة أنهم لا يعلمونه وقولهم مستهزئين به ﴿لا تأتينا الساعة﴾ الآية (٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٢ و﴿ما ندرى ما الساعة﴾ الآية (٣٢) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤. فكأنه يقول إن عدم علمكم بالشىء لا يدل على عدم وقوعه؛ ومن هنا نعلم أن الغيب الخامس وهو ﴿وما

تدرى نفس بأى أرض تموت﴾ غيب خاص بالمكان فقط بالنسبة لشىء واحد فقط وهو الموت. فكأنه سبحانه يقول إذا كنتم تجهلون الحوادث التى تصيبكم وتجهلون مكان أهمها وهو الموت مع أن المكان متصل بكم لا تفارقونه لحظة. وجهلكم هذا لا يمنع وقوعه بكم كل يوم فمن باب أولى لا يصح جهلكم بقيام الساعة دليلا على عدم وقوعها وقد يقول آخرون إن علماء الطبيعيات يعلمون المطر قبل حدوثه فكيف يقال إنه مما استأثر الله تعالى بعلمه؟ والجواب أن الله سبحانه قد استأثر بعلم زمان المطر قبل حصوله بما لا يحصى من عدد السنين أما علماء الطبيعيات فلا يعلمونه إلا قبل حصوله بزمن محدود تظهر فيه مقدماته وتسجلها آلاتهم فعلمهم هذا ليس من علم الغيب المطلق المتحدث عنه فى هذه الآية. بل هو من قبيل إدراك الرجل شديد الحساسية بردا أو حرا أو رائحة لا يشعر بها غيره. فلا يعتبر ما غاب عن البعض وعلمه البعض غيبا مما اختص الله سبحانه بعلمه. وأيضا اختص سبحانه بعلم جميع أحوال الغيث من أول عناصر وجوده وأسباب نزوله وزمانه ومكانه ومقداره بكل دقه حتى عدد ذراته وما يحدثه من خير أو شر وكل هذا مستحيل على غير العليم الخبير بأحوال ما خلق. أما قوله ﴿ما فى الأرحام﴾ فاعلم أن (ما) اسم موصول يفيد العموم. و(ال) فى ﴿الأرحام﴾ للاستغراق المفيد للعموم أيضا. أى يعلم أحوال جميع ما فى كل الأرحام. فكل حيوان من إنسان وغيره حتى صغار الحشرات إن كان لها أرحام يعلم سبحانه جميع أحوال ما فيها. من عدده، وتمام أعضائه أوزيادتها أو نقصانها. وخروجه إلى الدنيا حيا أو ميتا. ومستقبله. فقيرا أو غنيا. سعيدا أو شقيا يعلم سبحانه كل ذلك ما كان منه وما سيكون. وهذا مستحيل على غير الخالق العليم بما خلق. انظر الآية (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١. والآية (١٦) من هذه السورة صفحة ٤١.

سورة السجدة

المفردات: ﴿الم﴾: تقدم كيفية النطق بها فى صفحة ٥٢٠ والمقصود منها أول سورة البقرة.

﴿لا ريب فيه﴾: أى لا شك فى أنه من عند الله.

المعنى: ﴿الم﴾: تقدم المراد منها أول سورة البقرة. تنزيل الكتاب وهو القرآن حال كونه لاشك فيه هو من رب العالمين قطعا.

الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ
وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ
إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ
سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ
خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ
مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ
لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾
وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم

المفردات : . ﴿لتنذر قومًا﴾ إلخ : أى لتحذر قومًا ما حذر آباؤهم من قبل تحذيرا مباشرًا. انظر الآية (٤٦) من سورة القصص صفحة ٥١٣.

﴿خلق السموات إلى قوله العرش﴾ : تقدم فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١، والآية (٥٩) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٧.

﴿من ولى﴾ : ﴿من﴾ تفيد تأكيد عموم النفى فيما بعدها، والولى: الناصر. ﴿يدبر الأمر من السماء﴾ : أى من جهة العلو كقوله ﴿ءأمنتم مَنْ فى السماء﴾.. إلخ الآية (١٦) من سورة الملك صفحتى ٧٥٥، ٧٥٦. والمراد وهو سبحانه مستو على عرشه. ﴿إلى الأرض﴾ : أى منزلاً له إلى الأرض.

﴿يعرج﴾ : أى يصعد.

﴿فى يوم﴾ : المراد مدة من الزمن لا يعلم مقدارها إلا الله. انظر شرح الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١. ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ : المراد بالغيب كل ما غاب عنا، وبالشهادة كل ما نشاهده ونعلمه. انظر الآية (٧٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤. ﴿سلالة﴾ : أى خلاصة. انظر الآية (١٢) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦. ﴿ماء مهين﴾ : هو المنى. سواه: أى أتم خلقه. ﴿نفخ فيه من روحه﴾ : المراد وضع فيه سرًا من أسراره كان به حياته. انظر

---

(١) العالمين (٢) افتراه (٣) أتاهم
(٤) السموات (٥) عالم (٦) الشهادة
(٧) الإنسان (٨) سلالة (٩) سواه
(١٠) الأبصار (١١) أإذا (١٢) أإنا

نظيـر ذلك فى الآية (٩١) من سـورة الأنبيـاء صـفحـة ٤٣٠. ﴿الافئـدة﴾ : القلوب. انظر شـرح الآية (١٠) من سورة القصص صفحة ٥٠٧. ﴿قليلا ما تشكرون﴾ : ﴿قليلا ما﴾ تقدم شـرح هذا التـركيب فى شـرح الآية (١٠) من سـورة الأعـراف صـفحـة ١٩٣. ﴿ضللنا﴾ : انظـر معـانى ﴿ضل﴾ فى الآية (٢٤) من سـورة الأنعـام صـفحـة ١٦٥، وأصل معناهـا هنا غبنا عن الأعـين واختلطنا بتراب الأرض فهى كناية عن الموت وصيرورة أجسامهم ترابا.

المعنى : . بعد ما أخبر سبحانه أن تنزيل هذا القرآن هو من الله بلا شك، انتقل إلى ما يزعمه المكذبون من أنه أنزل عليه من الشياطين. انظر الآيات (٢١٠، ٢١١، ٢١٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢.

فقال ﴿أم يقولون﴾ إلخ: المراد : بل هل يقول هؤلاء المشركون أن محمّدا افترى هذا القرآن ونسبه إلى الله، ثم انتقل سبحانه من توبيخهم على الباطل إلى تأكيد أنه من الله فقال: بل هو الحق نازل إليك من عند ربك لتنذر قومك الذين مـا أتاهم نذير خـاص بهم من قبل إرسالك مترجيا هدايتهم. ثم بين قدرة مُنزل هذا الكتاب وحذرهم من حسابه فقال ﴿الله الذى خلق﴾ إلخ: أى الله هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أزمان لا يعلم مقدارها غيره تعالى، ثم استوى على العرش استواء يليق به سبحانه، مالكم أيها المشركون ناصر يدفع عنكم عذابه، ولا شفيع لكم عنده، هل انطمست بصائركم فلا تعتبرون بصنعه سبحانه. يدبر سبحانه الأمر على وجه الإتقان منزلا أسباب تنفيذه من ملك وغيره إلى الأرض، ثم يصعد إليه الأمر مع الملائكة فى زمن طويل بين تدبيره ووجوده. والمراد أنه سبحانه يدبر أمور الدنيا متقنة على حسب حكمته، وسبحانه مستو على عرشه، ثم يصعد خبر ذلك الأمر إليه إظهارًا لمزيد عظمته واتساع ملكه وانتشار سلطانه، إلى غير ذلك من حكم يعلمها. وكل ما ذكر من الصعود إليه والاستواء يكون على وجه لائق به سبحانه متفق مع تنزيهه عن مماثلة الحوادث. تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيرا. ذلك الذى يفعل هذه العجائب هو الله الذى يستوى فى علمه الحاضر والغائب، وهو الغالب الذى لا يعجزه شىء أراده، الرحيم بأهل طاعته، الذى أحسن كل شىء خلقه بأن جعله على وفق الحكمة، وبدأ خلق الإنسان الأول وهو آدم من طين مباشرة، ثم

جعل نسله من خلاصة مأخوذة من ماء ممتهن بعد أخذ هذا الماء من التراب، انظر الآية (٥٥) من سورة طه صفحة ٤١٠. ثم أتم خلقه ووضع فيه الروح، وجعل لكم يا بنى آدم السمع والأبصار والقلوب، ولا تشكرون الله تعالى إلا قليلا. ثم بعد أن بين سبحانه أدلة وحدانيته وصحة رسالة نبيه أتبع ذلك بالركن المهم الثالث وهو البعث حاكيا قول المنكرين مع الرد عليهم فقال ﴿وقالوا﴾ إلخ: أى قال الكفار منكرين هل إذا صارت أجسامنا مختلطة بتراب الأرض نبعث خلقا جديدا؟ فرد سبحانه بقوله ﴿بل هم﴾ إلخ.

بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ[1] ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم[2] مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ
ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ
ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا
فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا[3] إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا
كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا[4] وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ
يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ[5] وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا[6] ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟
سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ۩ تَتَجَافَىٰ
جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ[7] يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن
قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا

المفردات: ﴿ولو شئنا لآتينا﴾ إلخ: تقدم الكلام على ذلك فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ﴿حق القول﴾: تقدم فى شرح الآية (٨٣) من سورة النمل صفحة ٥٠٤. ﴿الجِنَّة﴾: الجن، انظر الآية (٦) من سورة الناس صفحة ٨٢٧. ﴿نسيناكم﴾: أى تركناكم فى العذاب. ﴿خروا سجدا﴾: تقدم فى الآية (١٠٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٩، والآية (٧٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨. ويطلب السجود للمتوضئ عند تلاوة كلمة ﴿لا يستكبرون﴾ ﴿هنا سجدة﴾.

﴿تتجافى﴾: أى ترتفع وتبتعد. ﴿المضاجع﴾: جمع مضجع بفتح فسكون ففتح، وهو مكان النوم.

﴿قرة أعين﴾: تقدم المراد منها فى الآية (٤٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٨، ٤٠٩.

(١) كافرون (٢) يتوفاكم (٣) صالحا (٤) هداها
(٥) نسيناكم (٦) بآياتنا (٧) رزقناهم.

المعنى :. بعد ما بين سبحانه ترددهم فى البعث واستبعادهم له انتقل إلى بيان أنهم كاذبون فى هذا التردد بل هم جازمون بعدمه فقال: ﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾. ثم أثبت سبحانه أن البعث لابد منه، وهددهم بما يكون بعده فقال: ﴿قل يتوفاكم﴾ إلخ : أى قل أيها النبى لهؤلاء الكافرين: إن مَلَك الموت الذى وكل بقبض أرواحكم يستوفى العدد الذى كتب عليه الموت منكم حين انتهاء أجله، ثم تردون إلى ربكم يوم القيامة أحياء، والمراد أن الذى يقدر على نزع أرواحكم من غير سبب ظاهر لكم قادر على إعادتها لأجسامها كذلك. ثم بين حال هؤلاء المشركين بعد البعث فقال: ﴿ولو ترى﴾ إلخ: أى ولو ترى يا مَنْ تصح منك الرؤية حين يقف المجرمون بين يدى ربهم عند الحساب، ومنهم منكرو البعث مطرقو رءوسهم من الخزى والفضيحة قائلين: يا ربنا إننا صرنا مستعدين لأن نبصر أدلة وجودك ووحدانيتك ولسماع قولك وقول رسلك وكنا قبل ذلك لا نبصر ولا نسمع، انظر آيتى (٩، ١٠) من سورة الملك صفحة ٧٥٥، فارجعنا إلى الدنيا نعمل صالحا إنا الآن أصبحنا موقنين بالحق الذى جاء على لسان رسلك. والمراد لو ترى أيها الناظر هذا الموقف لرأيت هولاً عظيما. قد بيَّن سبحانه أنهم كاذبون حتى فى هذا الموقف، وأنهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما نهوا عنه، انظر ذلك فى آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦. ثم بيَّن سبحانه أنه كان قادرا على أن يجعل الناس جميعا مهديين كالملائكة، ولكنه لم يشأ ذلك للحكمة التى بيناها فى شرح الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، ولذا قال ولكن سبق القول من إبليس عندما قال لأغوين بنى آدم، فقلت له وعزتى لأملأن جهنم من الجن والناس الذين يتبعونك أجمعين، انظر الآية (١٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٤، وبما أنه يستحيل رجوعكم إلى الدنيا، فذوقوا أيها المجرمون عذاب جهنم بسبب ترككم الاستعداد ليومكم هذا، إنا تركناكم فى العذاب. ثم بين أن هذا العذاب دائم لا مخلص لهم منه، فقال وذوقوا عذاب المكث الخالد بسبب ما داومتم على عمله من الكفر والجرائم. ثم ذكر سبحانه علامة أهل الإيمان التى استحقوا بها النعيم فقال ﴿إنما يؤمن﴾ إلخ: أى لا يصدق بحججنا وآيات كتابنا إلا الذين إذا وعظوا بها سقطوا على وجوههم سجدا لله إقرارا بعبوديتهم له، ونزهوه سبحانه عما لا يليق به، حامدين له جزيل

كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾
وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟
مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم
بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ
ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن
ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ
مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن
فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾
وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ

نعمه، والحال أنهم لا يستكبرون عن طاعته كما يفعل المجرمون. ومن علاماتهم أن جنوبهم تفارق مكان نومهم فى جوف الليل قائمين بين يديه بالعبادة خوفا من سخطه، وطمعا فى عفوه، وينفقون بعض ما رزقهم الله تعالى فى وجوه البر. انظر من الآية (١٥ إلى ١٩) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣. ثم بين جزاءهم بقوله ﴿فلا تعلم﴾ إلخ: أى فلا يعلم أحد عظيم ما أخفى لهم من النعيم الذى تنشرح له صدورهم جزاء ما كانوا يعملون من الصالحات، وكيف تمكن معرفته وقد قال فيه ﷺ (يقول الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)، ثم قرأ هذه الآية. ثم بيَّن سبحانه أن التفرقة فى المعاملة بين المجرمين والصالحين يقتضيها العدل والحكمة، فقال ﴿أفمن كان مؤمنا﴾ إلخ:

المفردات :. ﴿جنات المأوى﴾ : المأوى محل الإقامة، والمراد جنات الإقامة الحقيقية، أما الدنيا فهى دار سفر.

﴿نزلا﴾ : تقدم فى الآية (١٠٢) من سورة الكهف صفحة ٣٩٤.

﴿العذاب الأدنى﴾ : هو ما حصل لهم فى الدنيا من أسر وخوف وذل وجوع. ﴿العذاب الأكبر﴾ هو عذاب جهنم.

---

(١) آمنوا (٢) الصالحات (٣) جنات (٤) فمأواهم (٥) بآيات
(٦) آتينا (٧) الكتاب (٨) لقائه (٩) وجعلناه (١٠) إسرائيل
(١١) أئمة (١٢) بآياتنا (١٣) القيامة.

﴿ثم أعرض﴾ : ثم تدل على استبعاد الإعراض عقلا عن الآيات مع وضوحها وفائدتها.

﴿الكتاب﴾ : هو التوراة. ﴿مرية﴾ : شك.

﴿من لقائه﴾ : من لقاء موسى للكتاب.

﴿هدى﴾ : أصله مصدر وأريد به هاديا.

﴿أئمة﴾ : هم أنبياء بنى إسرائيل.

﴿يهد لهم﴾ : أى يبين لهم، انظر شرح الآية (١٠٠) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٨.

﴿كم أهلكنا﴾ : كم اسم يدل على الكثرة.

وهى فى موضع نصب بـ ﴿أهلكنا﴾ الآتية فى الصفحة القادمة.

المعنى :ـ هل بعد ما بين المجرم والمؤمن من التفاوت يتوهم مساواة المؤمن بالفاسق؟ كلا لا يستوون عند الله تعالى فى الجزاء، انظر الآية (٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠، والآية (٢١) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣، والآية (٢٠) من سورة الحشر صفحة ٧٣٢، ثم وضح الفرق بقوله فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم الجنات التى إقامتها دائمة بخلاف نعيم الدنيا فإنه لابد من الرحيل عنه، نزلا أى محل راحة، وأعطاهم ربهم ذلك جزاء عملهم الصالح. وأما الذين خرجوا على أوامر ربهم بالكفر فمحل إقامتهم النار كلما هموا بالخروج منها عندما تفور بهم كما فى الآية (٧) من سورة الملك صفحة ٧٥٥ دفعتهم الملائكة إلى قعرها، انظر آيتى (٢١، ٢٢) من سورة الحج صفحة ٤٣٦. وتقول لهم الملائكة إهانة لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون. ثم بيَّن سبحانه ما سيفعله بهم فقال ﴿ولنذيقنهم﴾ إلخ: أى وعزتى لنعذبنهم فى الدنيا بالعذاب الأقل قبل العذاب الأكبر ليرجعوا بالتوبة قبل الوقوع فى العذاب الأكبر. ثم أبرز الفرق بين مَنْ قابل آيات الله بالإعراض، وحال مَنْ قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد فقال ﴿ومن أظلم﴾ إلخ: أى لا أحد أشد ظلما لنفسه وللحق ممَنْ ذُكر بآيات ربه ثم قابلها بالإعراض. وبيَّن سبحانه جزاءه فقال: إنا من كل مجرم مهما قل

جرمه سننتقم فكيف بمَنْ هو أظلم من كل ظالم؟ وبعد ما ختم الكلام على المكذبين انتقل إلى تصبير نبيه على إيذاء قومه وتبشيره بأنه سيجعل من أتباعه قادة إلخ. فقال موجها الخطاب له ﷺ والمراد غيره لما تقدم فى شرح الآية (٩٤) من سورة يونس صفحة ٢٨١: ولقد آتينا موسى التوراة كما آتيناك القرآن، فلا تشك فى أن موسى أنزل عليه هذا الكتاب من ربه. وجعلنا الكتاب هاديا لبنى إسرائيل كما جعلنا القرآن هاديا لأمتك، وجعلنا من بنى إسرائيل قادة يهدون الناس إلى الحق بأمرنا لهم بذلك كما جعلنا فى أمتك علماء يهدون الناس إلى الحق بأمرنا كما فى الآية (١٠٤) من سورة آل عمران صفحة ٨٠: منحنا بنى إسرائيل هذه المزايا حين صبروا على مشاق الطاعة ومقاساة شدائد الكفار. وكانوا بآياتنا التى فى الكتاب وفى الكون يعلمون علما لا يخالطه شك، فإذا صبرتم مثلهم كان لكم أجرهم.

إن ربك أيها النبى يقضى بين الرسل وأممهم وبين المؤمنين والكافرين يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، فيبين المحق من المبطل ويحسن إلى ذلك ويعاقب هذا. ثم رجع سبحانه إلى أدلة توحيده وكمال قدرته فقال ﴿أو لم يهد لهم﴾ إلخ: أى هل غفلوا ولم يبين لهم طريق ومآل كفرهم كثرة مَنْ أهلكنا من الكافرين مثلهم.

المفردات:. ﴿الجرز﴾ : الأرض التى قطع نباتها.

﴿أنعامهم﴾ : المراد كل ما يهمهم من الحيوانات خصوصا الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم.

﴿الفتح﴾ : الفتح معناه الحكم ويقول أهل اليمن للقاضى : الفاتح والمراد به هنا الفصل بين الخلق يوم القيامة ومنه ما فى الآية (٨٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٧.

﴿ينظرون﴾ : يمهلون.

المعنى:. هل غفل هؤلاء الكفار ولم يرشدهم إلى طريق الخلاص كثرة مَنْ أهلكناهم من القرون الماضية مثل عاد وثمود وقوم لوط. ولا عذر لهم فى هذه الغفلة لأنهم يمرون فى أسفارهم للتجارة على أماكن ديارهم ويشاهدون آثارهم. انظر الآية (٧٦) من سورة الحجر

أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ[1]
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ[2] أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا
نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ
مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ[3] وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ
هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ[4] ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ
لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِيمَٰنُهُمْ[5] وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

(٣٣) سُورَةُ الْأَحْزَابِ مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَٰفِرِينَ[6] وَالْمُنَٰفِقِينَ[7]

صفحة ٣٤٣، والآية (٥٨) من سورة القصص صفحة ٥١٥، وآيتى (١٣٧، ١٣٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥ إن فى ذلك لأدلة على قدرة الله. فهل أصيب هؤلاء الكفار بالصمم فأصبحوا لا يسمعون كلام الله تعالى سماع تدبر واتعاظ؟ ثم ذكر دليلا آخر فقال ﴿أو لم يروا﴾ إلخ: أى هل عموا فلم يبصروا آثار أعمالنا حين نسوق الماء إلى الأرض اليابسة التى لا نبات فيها فيخرج بسببه زرعا تأكل أنعامهم من حشائشه، ويأكلون هم حبه وثماره فهل طمس على أعينهم فلا يبصرون فيعلمون قدرتنا على كل ما نريد؟ ولما كان المسلمون واثقين من وعد الله عز وجل لهم بالنصر كانوا دائما يقولون للكفار إن الله سيفتح لنا عليكم بالنصر، ويفصل بيننا وبينكم فيعزنا ويذلكم. فرد الكفار على ذلك بأسلوب الاستبعاد والاستهزاء بقولهم متى يحصل هذا النصر إن كنتم صادقين فأتوا به.

وأمر سبحانه نبيه بالرد فقال ﴿قل يوم﴾ إلخ : أى قل لهم يوم يحصل النصر وتقتلون لا ينفع الكافر منكم إيمانه كما فى الآية (١٥٨) من سورة الانعام صفحتى ١٩٠، ١٩١، والآية (٨٥) من سورة غافر صفحة ٦٢٩، ولا يمهلون عن العذاب لحظة. فأعرض أيها النبى عن سفههم ولا تجبهم إلا بما أمرت به، وانتظر صدق وعد ربك، ولا تأمل خيرا فيهم، لأنهم ينتظرون بك الهلاك، انظر الآية (٣٠) من سورة الطور صفحة ٦٩٨.

(١) مساكنهم (٢) لآيات (٣) أنعامهم (٤) صادقين
(٥) إيمانهم (٦) الكافرين (٧) المنافقين.

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن
رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ
فِى جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ[١] ٱلَّٰٓـِٔى[٢] تُظَٰهِرُونَ[٣] مِنْهُنَّ
أُمَّهَٰتِكُمْ[٤] وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم
بِأَفْوَٰهِكُمْ[٥] وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾
ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ[٦] هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟
ءَابَآءَهُمْ[٧] فَإِخْوَٰنُكُمْ[٨] فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ[٩] وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ
أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ[١٠] أُمَّهَٰتُهُمْ[١١] وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ
بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ[١٢] ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ[١٣] إِلَّآ أَن

سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

المــفــردات :. ﴿اتق الله﴾: أى داوم على تقوى الله تعالى.

المعنى :. كان مشركو قريش أرسلوا وفدا منهم إلى المدينة يطلب منه ﷺ أن لا يتعرض لآلهتهم بسوء، فنزلوا على عبدالله بن أبى بن سلول رأس النفــاق بالمــدينة، وكــان ﷺ أعطاهم الأمــان فى زيارتهم له، فلمــا طلبــوا منه ﷺ ما يريدون ووعده بأنهم لا يتعرضون لـه بشـــر، رفـض ﷺ. وكــان المنافــقـــون يخوفونه ﷺ من بطش المشركين وقوة اليهود القاطنين حول المدينة؛ لكل ذلك أنزل سبحانه ﴿يأيها النبى﴾ إلخ: أى دم على تقوى الله ولا تطع الكافرين والمنافقين فى شىء يخالف ما أمرناك به، انظر مثل محاولة الكفار هنا فى الآية (٧٣) وما بعدها من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤، وآيتى (٢٨، ٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥.

المفردات :. ﴿تظاهرون منهن﴾ : أى يقول أحدكم لزوجته: (أنتِ علىّ كظهر أمى) يريد محرمة كحرمتها، وكانوا يعتبرون ذلك طلاقا لا رجعة بعده، وسيأتى تفصيل ذلك صفحة ٧٢٤.

﴿أدعياءكم﴾ : جمع دعى بفتح فكسر مع تشديد الياء، وهو الذى يدعى غير أبيه أنه ابن له ويعطيه كل حقوق الأبناء.

---

(١) أزواجكم
(٢) اللائى
(٣) تظاهرون
(٤) أمهاتكم
(٥) بأفواهكم
(٦) لآبائهم
(٧) آباءهم
(٨) فإخوانكم
(٩) مواليكم
(١٠) أزواجه
(١١) أمهاتهم
(١٢) كتاب
(١٣) المهاجرين

﴿يهدى السبيل﴾ : يقال هداه السبيل وهداه إلى السبيل أى أرشده إليه، انظر الآية (٢١٣) من سورة البقرة صفحتى ٢١٢، ٢١٣، والآية (٣) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١.

﴿ادعوهم لآبائهم﴾ : أى انسبوهم لآبائهم. ﴿أقسط﴾: أعدل.

﴿مواليكم﴾ :أى نصراؤكم فى الدين.

﴿جناح﴾ : أى إثم ومؤاخذة.

﴿تعمدت قلوبكم﴾ : أى قصدتموه عمدا.

﴿أولوا الأرحام﴾ : أى أصحاب القرابات.

المعنى : . بعدما أمر سبحانه بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين رغب فى طاعته فقال: ﴿إن الله كان عليما﴾ أى بالصالح من الأشياء والفاسد. ﴿حكيما﴾ لا يأمر إلا بما فيه مصلحة. واتبع أيها النبى أنت ومَنْ آمن معك فى كل ما تفعلون وتتركون من أمور الدين ما يتلى عليك من ربك، ومنه ما سبق من الأمر بالتقوى وما بعدها. ثم طمأن المؤمنين وهدد الكافرين فقال: ﴿إن الله كان﴾ إلخ: أى لا تخف أيها النبى أنت ومَنْ معك فإن الله عليم بما تعملون أنتم والكافرون والمنافقون، فيحفظك من كيدهم، ويخذلهم. وتوكل على الله فى جميع أمورك، وكفاك سبحانه حافظا لك. وقبل الدخول فى تفسير هذه السورة يجب أن نعلم أن مقاصدها ترمى إلى إحباط مؤامرات فاشلة، وإشاعات باطلة، تعمد إثارتها المنافقون واليهود، وساعدهم المشركون، فأحبط سبحانه كيدهم، وأمر نبيه أن يسد عليهم منافذ الفتنة من كل ناحية، من جهة شخصه الشريف، ومن جهة نسائه الطاهرات، وفى أثناء ذلك ذكرهم بحوادث كان يكفى أقل منها لأن يعتبروا ويكفوا. ثم التفت سبحانه إلى العرب الذين أسلموا حديثا فهذب أخلاقهم، وعلمهم أرقى آداب المعاشرة، واحترام الرسول الأكرم، انظر ذلك فى الآيات من (٥٣ إلى ٥٨)، و (٦٩ إلى ٧١) من هذه السورة صفحات ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦١.

وكان من عادة الجاهلية التى استمرت إلى صدر الإسلام أن الرجل إذا تبنى ولد غيره جعله كابنه الحقيقى فى كل شىء : فى الميراث، وفى تحريم مطلقته على والده بالتبنى، وكان ﷺ

تبنى قبل النبوة زيد بن حارثة، وكان عبدا مملوكا لخديجة زوجه ﷺ، فأهدته له فأعتقه، وتبناه، وكانوا يقولون عنه زيد بن محمَّد، ثم منع الإسلام هذا العمل وأبطل آثاره، فأباح للرجل المتبنِى (بكسر النون) أن يتزوج مطلقة متبناه، ولكن لتأصل التبنى عند العرب من قديم لم يقدم أحد على زواج مطلقة متبناه، لأن صورته مازالت بشعة فى مخيلتهم كصورة زواج الواحد منهم مطلقة ابنه الحقيقى، لذلك اقتضت حكمته سبحانه أن يكون أول مَنْ يبطل هذه العادة هو رسوله ﷺ؛ لأن فيه أكبر قدوة، فأوحى إليه أن يزوج بنت عمته زينب بنت جحش لمولاه زيد بن حارثة، وأمره أن يتزوجها إذا طلقها زيـد، لمحق هذه العادة الشاذة محقا، فخطبها ﷺ لمولاه زيد من أخيها عبدالله بن جحش فامتنعت وامتنع أخوها، لأنها من أشراف العرب، فلا يصح أن تتزوج مَنْ كان رقيقا، فأنزل سبحانه الآية (٣٦) الآتية صفحة ٥٥٥، فخضعا لحكم الله، وتزوجها زيد، ولكنها شمخت بأنفها عليه، واحتقرته، وأطلقت لسانها فيه، فشكا زيد لرسول الله ﷺ، واستأذنه فى أن يطلقها، ولما كان ﷺ شديد الحياء تؤلمه أخف كلمة، شديد الحـذر مما قـد ينتهـزه المنافقون واليهود فيشيعون ما يظنه الناس ماسا بذاته الشريفة، رأى ﷺ سدا لهذا الباب أن يرجئ الأمـر حتى يرجو ربه فى أن يكون القدوة فى هذا الأمر غيره من المؤمنين، وشجعه على هذا الرجاء علمه بأن ربه الكريم الرحيم أعفى خليله إبراهيم عليه السلام من ذبح ولده إسماعيل بعد تكليفه به؛ لهذا الاعتبار قال ﷺ لزيد عندما شكا من زينب ﴿أمسك عليك زوجك﴾ فلامه سبحانه، انظر الآية (٣٧) الآتية صفحتى ٥٥٥، ٥٥٦، عند ذلك خضع ﷺ لأمر ربه وأذن لزيد فى الطلاق، وبعد استيفاء العدة تزوجها، فتلقفها المنافقون وصاروا يقولون تزوج محمَّد حليلة ولده. فأنزل سبحانه توبيخهم من أول قوله ﴿ما جعل الله لرجل﴾ إلخ. فقوله ما جعل إلخ تمهيد لأصل يحمل عليه ما بعده، فالمراد كما لم يجعل الله قلبين فى جوف واحد، ولم يجعل المرأة الواحدة أما وزوجا، كذا لم يجعل الولد الواحد ابنا لرجلين. ذلكم الذى صدر منكم من تسمية المتبنَى ابنا هو قول صادر من أفواهكم فقط من غير أن يكون له حقيقة فى الواقع كما فى الآية (١٦٧) من سورة آل عمران صفحتى ٩٠، ٩١، والآية (٣٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥.

والله يقـول الحق الثـابت فى الواقـع، وهو يهـدى إلى طريق الحق، فـاتركـوا قـولكم أيهـا المنافقون واليهود، واتبعوا قوله تعالى.

ثم بين الحق فقال ﴿ادعوهم﴾ إلخ: أى انسبوهم لآبائهم، أى قولوا زيد بن حارثة مثلا. لا زيد بن محمَّد، فإن نسبتهم لآبائهم أعدل فى حكم الله، فإن لم تعلموا لهم أبا تنسبونهم إليه فقـولوا للواحـد منهم هذا أخـى ومـولاى، أى فى الدين، ولا تقـولوا ابنى، ولا إثم عليكم فـيمـا يصدر عنكم عن خطأ وسبق لسان، ولكن عليكم ذنبًا إذا قلتم قاصدين.

وكان الله غفورا لما مضى، رحيما لعفوه عن المخطئ. وبعد ما قرر سبحانه هذه الحقائق، أراد أن يرتب عليها آثارها فقال ﴿النبى أولى﴾ إلخ: أى أن النبى وإن كان ليس أبا نسبيا لواحد من المؤمنين فإن له أبـوة رأفة ورحمة كما فى الآيـة (١٢٨) من سورة التوبة صفحة ٢٦٨ فهو ﷺ أشد ولاية ونصرة للمؤمنين من أنفسهم، لأنه لا يطلب منهم إلا ما فيه سعادتهم. أما النفس فإنها أمارة بالسوء. ولأزواجه أمومة احترام وتوقير يترتب عليها ما سيأتى فى الآية(٥٣) الآتية صفحتى ٥٥٨، ٥٥٩. ثم أبطل سبحانه التوارث بالتبنى والمؤاخاة فقال ﴿أولو الأرحام﴾ إلخ : وكان التوارث فى بدء الإسلام بالمؤاخاة بين المسلمين، فكان المهاجرى يرث الأنصارى دون أقربائه وذوى رحمه بسبب الأخوة التى كان يعقدها ﷺ بينهما، فكان شرط التوارث الإيمان والمؤاخاة، فأبطلته هذه الآية وأرجعته إلى ما فى صفحة ٩٩ وما بعدها. فالمعنى وأصحاب القرابات أولى ببعض فى الميراث بسبب القرابة فيما كتبه الله عز وجل وفرضه على عباده فى صفحة ٩٩ المتقدمة، أولى فى هذا الميراث من المؤمنين بسبب الإيمان والهجرة مع المؤاخاة، إلا أن تفعلوا...

المفردات :. ﴿فى الكتاب﴾ : المراد به هنا اللوح المحفوظ المذكور فى صفحة ٨٠٢.

﴿ميثاقهم﴾ : تقدم فى الآية (٨١) من سورة آل عمران صفحة ٧٦.

﴿ميثاقا غليظا﴾ : تقدم فى الآية (٢١) من سورة النساء صفحة ١٠٢، والميثاق الغليظ هو الميثاق السابق وإنما كرره لتأكيده بزيادة الصفة وهى ﴿غليظا﴾.

تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم[1] مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ[2]
مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ[3] مِيثَٰقَهُمْ[4] وَمِنكَ
وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ[5] وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا
مِنْهُم مِّيثَٰقًا[6] غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ[7] ٱلصَّٰدِقِينَ[8] عَن صِدْقِهِمْ ۚ
وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ[9] عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[10]
ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾
إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ
ٱلْأَبْصَٰرُ[11] وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ
ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا
شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ[12] وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت

﴿جنود﴾ : هم جيوش الأحزاب الآتى بيانهم. ﴿جنودا لم تروها﴾ : جنود الله التى يسلطها على أعدائه وهى كثيرة، منها الملائكة وشدة البرد الذى يفتت العظم، وإثارة الغبار والرمال فى الوجوه وكل ما يلقى الرعب فى الصدور ولا يعلمه إلا هو. انظر الآية (٣١) من سورة المدثر صفحتى ٧٧٦، ٧٧٧. ﴿من فوقكم ومن أسفل منكم﴾ : كناية عن الإحاطة من كل جانب، انظر الآية (٥٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨. ﴿زاغت الأبصار﴾ أصل الزيغ الميل عن الاستقامة والمراد هنا اختلت فصارت لا تبصر. ﴿بلغت القلوب الحناجر﴾ : كناية عن اضطراب القلوب عند الفزع.

﴿تظنون بالله الظنونا﴾ : المراد اختلفت ظنونكم فى وعد الله بالنصر، فالمؤمن القوى واثق، والضعيف خائف. ﴿هنالك﴾ : فى هذا الوقت. ﴿ابتلى﴾ اختبر. ﴿زلزلوا﴾ : أى اضطربوا.

﴿والذين فى قلوبهم مرض﴾ : المرض هنا هو النفاق كما فى الآية (١٠) من سورة البقرة صفحة ٤، فعطفه من عطف الصفة على الموصوف كما تقدم فى الآية (٤٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥. ﴿غرورا﴾ : باطلا يغر ضعيف العقل، انظر الآية (١١٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨١.

---

(١) أوليائكم (٢) الكتاب (٣) النبيين
(٤) ميثاقهم (٥) إبراهيم (٦) ميثاقا
(٧) ليسأل (٨) الصادقين (٩) للكافرين
(١٠) آمنوا (١١) الأبصار (١٢) المنافقون.

المعنى : . بعدما أبطل سبحانه التوارث بالمؤاخاة وحصره فى القرابة قال: ﴿إلا أن تفعلوا﴾ إلخ: أى لكن لكم أن تقدموا إلى أوليائكم بالإيمان والهجرة والمؤاخاة معروفا غير الميراث بأن توصوا لهم بجزء من مالكم، كان كل ما ذكر من الأحكام مسجلا فى اللوح المحفوظ أى أنه لم يكن ناشئا عن اضطراب فى الأوامر بل إنها خطط مرسومة اقتضتها الحكمة فى كل زمن بما يناسبه، ثم أراد سبحانه أن يحث نبيه على تبليغ كل ما يوحيه إليه فقال ﴿وإذ أخذنا﴾ إلخ: أى واذكر أيها النبى وقت أن أخذنا على النبيين عهودهم بتبليغ الرسالة والدعوة إلى الدين القيم، وأكدوا هذا العهد بالحلف عليه، وخص بعض هؤلاء النبيين بالذكر بعد دخولهم فى العموم السابق وأدخل فيهم نبينا ﷺ: لأنهم أولو العزم من الرسل وأصحاب الشرائع، فلهم منزلة خاصة. اخذ سبحانه هذا الميثاق على التبليغ ليسأل الرسل الصادقين عن صدقهم فى تبليغ رسالة ربهم تبكيتا للكافرين وإقامة للحجة عليهم: ولذا قال: ﴿وأعد للكافرين عذابا أليما﴾ انظر الآية (١٠٩) من سورة المائدة صفحة ١٥٩ ثم أراد سبحانه أن يشجع المؤمنين على الثبات على الحق وأنه ضامن نصرهم فقال ﴿يأيها الذين امنوا اذكروا نعمة الله عليكم﴾ إلخ: وهذا أول الكلام على غزوة الأحزاب، وآخره الآية (٢٧). وبيان أسبابها أنه كان بين بنى النضير من اليهود الذين حول المدينة وبين المسلمين عهد فخانوا العهد، فطردهم المسلمون من ديارهم، وذهب بعضهم إلى إخوانهم فى خيبر، وبعضهم إلى الشام، ونزل فى ذلك أول سورة الحشر صفحة ٧٢٩، ولما يئسوا من رجوعهم عمدوا إلى تأليب المشركين على المسلمين، فذهب جماعة منهم إلى كفار قريش بمكة وحرضوهم على حرب المسلمين، ووعدوهم بأنهم سيكونون معهم هم وإخوانهم يهود بنى قريظة الذين كانوا مازالوا حول المدينة وبينهم وبين المسلمين عهود لم ينقضوها، ولما قبلت قريش ذلك ذهب وفد اليهود إلى قبائل غطفان بنجد وأخبروهم بما تم فوافقوا أيضا، ثم ذهبوا إلى بنى قريظة وحرضوهم على نقض العهد، وأخبروهم بما تم أيضا فقبلوا، فخرجت قريش بجيش يبلغ عشرة آلاف تحت قيادة أبى سفيان بن حرب، وخرجت قبائل غطفان تحت قيادة ثلاثة من كبارها. ولما علم ﷺ خبر هذه الأحزاب عظم الأمر عليه واشتد خوف المسلمين

فاستشار ﷺ أصحابه فأشار سلمان الفارسى بحفر خندق واسع عميق يحيط بالمدينة بعيدا عنها حتى لا يستطيع العدو أن يجتازه ولا تصل سهامه المدينة. وقاسى المسلمون فى حفره الشدائد، ولما أقبلت الأحزاب : قريش بآلافها، وقبائل غطفان ويهود بنى قريظة. أمر ﷺ بالخروج إليهم على حافة الخندق من جهة المدينة حتى يقتلوا كل من يحاول عبور الخندق بالرمى بالحجارة، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف. وأقام الطرفان حول الخندق نحو شهر لم يحصل فى أثنائه إلا مراماة بالنبال قتل بسببها من المشركين ثلاثة. ومن المسلمين ستة. واشتد بالمسلمين بسبب هذا الحصار البلاء وأشاع المنافقون فى المدينة فى النفوس الهزيمة، وكان على رأس المنافقين عبدالله بن أُبى بن سلول. وكان يقول يعدكم محمَّد بفتح بلاد الفرس والروم، وهأنتم هؤلاء محاصرون ستموتون جوعا من بعض قبائل العرب الذين هم أقل قوة من الفرس والروم. وفى هذه الأثناء أسلم رجل من غطفان اسمه نعيم بن مسعود الأشجعى، وتسرب ليلا إلى رسول الله ﷺ وأخبره بإسلامه. وقال له مرنى بما شئت فإنهم لا يعلمون من أمرى شيئا. فقال له اذهب إليهم وخَذّلهم عنا، وكان بينه وبين كل من قريش واليهود علاقة حسنة، فذهب إلى كل منهما وخوفه من الآخر حتى شكك الأحزاب بعضها فى بعض فتخاذلوا، وفى هذه الحال أرسل الله تعالى ريحا عاصفا فى ليلة شديدة البرد فاقتلعت الخيام وكفأت القدور، فاشتد خوف أبى سفيان وأعلن قريشا بالرجوع. ولما انصرف انصرفت أيضا غطفان، وكان ذلك فى شوال سنة خمس. بعد ذلك أمر ﷺ بالتوجه لبنى قريظة لمعاقبتهم على خيانتهم ونقضهم العهد فقتل زعماءهم وأسر بقيتهم، ونزل فى ذلك آيتا (٢٦، ٢٧). فى كل ذلك يقول سبحانه يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون من حفر الخندق والصبر على المشاق بصيرا، فأنقذكم من شر عدوكم. ثم بيَّن كيف جاءت جنود هذه الأحزاب فقال ﴿إذ جاءوكم﴾ إلخ : أى أنه أنعم عليكم وقت أن حاصرتكم هذه الجنود من كل جهة، وحين كادت أبصاركم لا ترى من شدة الغم، واضطربت قلوبكم من الخوف، واختلفت ظنونكم أيها الذين أعلنتم الإيمان فى صدق وعد الله لكم بالنصر، فالمؤمن القوى ثابت واثق، والضعيف خائف،

طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا
وَيَسْتَأْذِنُ[1] فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا
هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم
مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا[2] الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا[3] وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا
يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا[4] اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ
الْأَدْبَارَ[5] وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ
الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ
أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن
دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ
مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ[6] لِإِخْوَانِهِمْ[7] هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ

فى هذا الوقت احتير الله سبحانه المؤمنين ليظهر القوى والضعيف، والصادق والمنافق. واضطربوا اضطرابا شديدا حين يقول المنافقون وهم الذين فى قلوبهم مرض النفاق: ما وعدنا الله ورسوله بالنصر إلا تغريرا بنا وإلا فمماذا أصبحنا محاصرين فى هذا المكان الضيق حتى كدنا نموت جوعا، وحين قالت طائفة من المنافقين إلخ.

المفردات: ﴿يثرب﴾: هو الاسم الجاهلى لمدينة رسول الله ﷺ، وقد كرهه صلوات الله وسلامه عليه وسماها طيبة.

﴿لا مقام﴾: لا إقامة.

﴿عورة﴾: من معانى العورة الشق فى الشىء كالحائط، فالمراد ذات عورة يتمكن السارق وغيره من دخولها ﴿دخلت عليهم﴾: أى دخل تلك البيوت عليهم جيش العدو.

﴿أقطارها﴾: أى جوانبها. ﴿الفتنة﴾: المراد بالفتنة هنا إعلان الكفر ومحاربة المسلمين.

﴿ما تلبثوا بها﴾: التلبث التوقف، أى ما توقفوا فى إعطائها إلا زمنا يسيرا. ﴿المعوقين﴾: المثبطين للهمم عن القتال مع الرسول ﴿هلم إلينا﴾: تعالوا واقبلوا علينا. ﴿البأس﴾: شدة الحرب. ﴿أشحة عليكم﴾: بخلاء عليكم بالمساعدة.

المعنى: وإذا قالت جماعة من المنافقين الذين خرجوا مع المسلمين لملاقاة الأحزاب عند الخندق: يأهل المدينة لا ينبغى لكم الإقامة هنا حول الخندق فارجعوا إلى منازلكم.

(١) يستأذن (٢) سُئلوا (٣) لآتوها (٤) عاهدوا
(٥) الأدبار (٦) القائلين (٧) لإخوانهم.

وفريق من المنافقين منهم يستأذن النبى ﷺ فى الرجوع إلى المدينة متعللين بأن بيوتهم معرضة غير حصينة يخشى عليها. فكذبهم سبحانه بقوله ﴿وماهى بعورة﴾ أى ماهى معرضة لشىء.

ثم بين السبب الحقيقى فقال ﴿إن يريدون﴾ إلخ: أى ما يريدون بهذا الاستئذان إلا الفرار من مساعدة المسلمين. ثم فضحهم أكثر فقال ﴿ولو دخلت﴾ إلخ : أى لو دخل جيش تلك البيوت من جميع جهاتها ثم طلب منهم الكفر ومقاتلة المسلمين لأجابوا طلبه وما توقفوا إلا زمنا يسيرا مقدار ما يستعدون. وما ذلك إلا لتمكن النفاق من قلوبهم، وشدة كراهتهم للمسلمين. ثم ذكر لهم مخازيهم يوم أحد فقال ﴿ولقد كانوا﴾ إلخ : أى ولقد كان هؤلاء المستأذنون عندما جبنوا يوم أحد كما تقدم فى شرح سورة آل عمران صفحة ٨٣ عاهدوا الله تعالى على أن لا يفروا بعد ذلك، وكان عهد الله مسئولا من صاحبه أن يوفى به، ولكن لم يوفوا. قل لهم أيها النبى لن ينفعكم من الموت على فراشكم أو القتل بالسيف مثلاً فراركم منه يوم الأحزاب مهما فررتم، لأنه لابد لكل نفس أن تموت فى أجلها المحدد لها، انظر الآية (٧٨) من سورة النساء صفحة ١١٤، وإذا فرضنا المستحيل ونفعكم فراركم فى تأخير الموت أو القتل فإن الله لا يمتعكم بالحياة إلا زمنا قليلا هو مقدار أطول عمر عاشه إنسان، وهذا ليس شيئا بالنسبة لعمر الدنيا أو لحياة الناس فى الآخرة. قل أيها النبى لهؤلاء المنافقين الجبناء. لا أحد يمنعكم مما يريده الله لكم من شر أو خير، أى إذا أراد بكم شرا فلن يستطيع أحد دفعه، وإذا أراد خيرا فلن يستطيع أحد منعه. وإذا كان الأمر كذلك فلا يجد هؤلاء المنافقون غير الله وليا، أى مواليا وصديقا يقدم النافع، ولا نصيرا يدفع عنهم الأذى؛ ثم حذر المنافقين فقال ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم﴾ وهم القائلون لإخوانهم فى النفاق الموجودين مع عسكر المسلمين عند الخندق : تعالوا إلينا فى المدينة واتركوا محمدًا ولا تساعدوه، وهم الذين لا يحضرون شدة الحرب إلا زمنا قليلا بقدر ما يراهم المخلصون، فإذا غفلوا عنهم تسللوا إلى بيوتهم. ثم بين لهم عيوبا هى البخل وشدة الخوف والفخر الكاذب والتبجح فى طلب المغانم فقال (أشحة)؛ أى بخلاء عليكم بالمساعدة بالنفس والمال، فإذا حصل للمسلمين خوف من هجوم عدو واشتد القتال رأيتهم أيها النبى....

يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ
الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً
عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ (١) وَكَانَ
ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا
وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ
يَسْأَلُونَ (٢) عَنْ أَنبَائِكُمْ (٣) وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا (٤) إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ
لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ (٥) وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾
وَلَمَّا رَأَى (٦) الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا (٧)
وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا (٨) اللَّهَ
عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا

المفردات : . ﴿تدور أعينهم﴾ : أى شمالا ويمينا من شدة الخوف. ﴿يغشى عليه﴾ : يغمى عليه. ﴿سلقوكم﴾ : يقال سلقه بالكلام إذا آذاه به. ﴿حداد﴾ : جمع حديد. والحديد هو القوى من كل شىء. انظر الآية (٢٢) من سورة ق صفحة ٦٩٠. ولسان حديد أى صارم كالسيف فى إيلام المخاطب. ﴿أحبط﴾ : أبطل.

﴿يودوا﴾ : يتمنوا. ﴿لو﴾ : حرف يدل على أن ما بعدها مؤول بمصدر. أى تمنوا إقامتهم فى البادية.

﴿بادون﴾ : جمع باد وهو ساكن البادية بعيدا عن المدينة. انظر الآية (٢٥) من سورة الحج صفحتى ٤٣٦، ٤٣٧.

﴿فى الأعراب﴾ : هم سكان البادية.

﴿أسوة﴾ : أى قدوة.

﴿قضى نحبه﴾ : أصل النحب هو النذر الذى يلتزمه الإنسان. وقضاؤه تأديته والفراغ منه. ثم استعمل قضاء النحب فى الموت كأنه نذر لازم فى عنق كل حى.

المعنى : . فإذا جاء الخوف من العدو، وخيف على هلاك أهل المدينة جميعا، رأيت أيها النبى هؤلاء المنافقين ينظرون إليك مستنجدين بك، والحال أن أعينهم مضطربة من شدة الخوف، كما ينظر الشخص المغمى عليه من شدة سكرات الموت، فإذا ذهب الخوف بانتصار

---

(١) أعمالهم (٢) يسألون (٣) أنبائكم (٤) قاتلوا
(٥) الآخر (٦) رأى (٧) إيمانا (٨) عاهدوا.

المسلمين وجمعت الغنائم، سلطوا ألسنتهم عليكم عند قسمة الغنائم، يقولون لابد أن نأخذ مثلكم فلستم بأحق منا، فقد قاتلنا أكثر منكم، وهم فى كل هذا كاذبون، أى فهم عند الشدة أجبن قوم، وعند قسمة الغنيمة أشح قوم. ثم بيَّن سبب تسليط ألسنتهم بقوله: ﴿أشحة عليكم﴾ إلخ: أى هم بخلاء حريصون على الغنائم التى هى خير أعطاه الله تعالى للمسلمين المجاهدين. وبعدما وصفهم بهذه الصفات الذميمة الثلاثة أراد أن يبين السبب فى وجودها فيهم، وهو عدم ثقتهم بالله تعالى، فقال ﴿أولئك لم يؤمنوا﴾ بالله ورسوله ويعلموا أن الأمر كله بيده. فأبطل الله تعالى كل أعمالهم التى تظاهروا بها معكم، وأذهب عليهم أجورها لأن شرط نفعها هو الإيمان. وكان ذلك الإحباط سهلاً على الله لا يبالى به لأنهم فعلوا ما يوجبه. ثم وضح مقدار الجبن والخوف المتسلط عليهم فقال ﴿يحسبون﴾ إلخ : أى أنهم من شدة جبنهم لا يزالون يظنون أن الأحزاب من قريش وغطفان واليهود مازالوا محاصرين المدينة مع أنهم انصرفوا. وإن يأت الأحزاب مرة أخرى المدينة يتمنوا أن يكونوا مقيمين فى البادية مع الأعراب بعيدين عن المدينة حال كونهم يسألون كل قادم من المدينة عن أخباركم وعما جرى لكم، منتظرين أن يسروا بخذلانكم، ولو كانوا معكم عند الخندق ولم يرجعوا إلى المدينة وفرض وقوع حرب بالسيوف، واختلطت فيها الصفوف، ما قاتلوا إلا قتالا ضعيفا لمجرد الرياء وخوفا من العار. ثم أبرز عدم إخلاصهم بصورة أخرى هى أن المؤمن الصحيح لابد أن يقتدى برسوله فى الصبر والثبات فقال ﴿لقد كان لكم﴾ إلخ : أى كان عندكم فرصة الاقتداء بأعمال رسول الله ﷺ فى الثبات فى الحروب ومقاساة الشدائد، وهذه قدوة حسنة ينتفع بها مَنْ كان يرجو رحمة الله تعالى ونعيم اليوم الآخر، ويذكر الله تعالى كثيرا فى الخوف والرجاء، والشدة والرخاء، حتى يستعين بذلك على ملازمة الطاعة. وبعد ما فرغ سبحانه من بيان فضائح المنافقين شرع فى بيان حال المؤمنين ليتجلى الفرق بينهما حين لقاء الأحزاب فقال ﴿ولما رأى المؤمنون﴾ إلخ : أى ولما أبصر المؤمنون الصادقون كثرة الأحزاب قالوا هذا الذى نراه من كثرة العدو هو الاختبار الذى وعدنا الله بأنه سيلاقينا حتى يتبين الصادق من الكاذب فينصر الأول ويخذل الثانى، انظر الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢، والآيات (٢، ٣، ٤)

تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ
وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾
وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ
فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ
تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ
قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا
فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ
تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ
مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ

من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٠، ٥٢١، وصدق الله ورسوله فى الوعد بالنصر، وما زادهم ذلك الخطب والبلاء إلا إيمانا بالله وتسليما لقضائه. ثم وصف سبحانه بعض المؤمنين الكاملين فقال ﴿من المؤمنين رجال﴾ إلخ: أى من المؤمنين الصادقين رجال وفوا ما عاهدوا الله عليه من الصبر فى البأساء والضراء، فمنهم مَنْ استشهد يوم بدر ويوم أحد وغيرهما، وفى مقدمتهم حمزة، ومنهم مَنْ ينتظر ذلك لينال شرف الشهادة وما بدلوا فى عهدهم شيئا ولو قليلا.

المفردات :. ﴿الذين ظاهروهم﴾ : أعانوهم، انظر الآية (٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦، والمراد بهم يهود بنى قريظة كما تقدم أول القصة. ﴿صياصيهم﴾ : جمع صيصة بكسر فسكون ففتح، وهى كل ما يتحصن به صاحبه ويدافع به عن نفسه، كقرن الثور ومخلب الصقر والحصن. ﴿أرضا لم تطئوها﴾ : أى لم تدخلوها إلى الآن، والمراد بها خيبر وما بعدها، وقد استولوا على خيبر سنة سبع هجرية.

﴿أمتعكن﴾ : أعطيكن متعة الطلاق.

﴿أسرحكن﴾ : أى أطلقكن. ﴿سراحا جميلا﴾ : هو ما لا إضرار فيه ولا مخاصمة معه.

المعنى :. وما بدل المؤمنون الصادقون فى العهد شيئا كما بدل المنافقون. حصل من المنافقين ما حصل، ومن الصادقين ما حصل، لتكون العاقبة أن الله يجزى الصادقين بسبب صدقهم أحسن الجزاء، ويعذب المنافقين شر العذاب إن شاء، أو يتوب عليهم. وإنما قال إن

(١) الصادقين (٢) المنافقين (٣) ظاهروهم (٤) الكتاب (٥) ديارهم (٦) أموالهم
(٧) لأزواجك (٨) الحياة (٩) الآخرة (١٠) المحسنات (١١) يانساء

شاء مع أن المنافق ألعن أنواع الكافرين، وسيكون فى الدرك الأسفل من النار كما فى الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨، لبيان أنه سبحانه لا يجب عليه شىء من تعذيب أو إنعام، وأن مشيئته سبحانه مطلقة لا حد لها، إلا أنه سبحانه هو نفسه الذى وضع نظام الثواب والعقاب حسب حكمته، فكأنه يقول: إنه سبحانه بحسب مشيئته التى لا سلطان لأحد عليها إن شاء عذب المنافق، وإن شاء لم يعذبه، لكنه شاء من نفسه تعذيبه، لأنه سبحانه حكيم لا يستوى عنده المؤمن والفاسق، كما تقدم فى الآية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧. وقال بعض العلماء: المعنى يعذب المنافقين فى الدنيا إن شاء، وإن شاء يعفيهم من عذاب الدنيا ليكون عذابهم فى الآخرة أشد. ثم نبههم للتوبة قبل أن يموتوا فقال ﴿إن الله كان غفورا رحيما﴾ لكل من رجع إليه تائبا. ورد الله الذين كفروا من طوائف الأحزاب بغيظهم لم ينالوا شيئا مما كانوا يظنونه خيرا لهم وهو النصر على المؤمنين، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله تعالى قويا على إيجاد ما يريد، عزيزا لا يغلبه أحد. روى البخارى أن رسول الله ﷺ كان يقول (لا إله إلا الله، وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده) وأنزل سبحانه يهود بنى قريظة الذين كانوا أعانوا المشركين من حصونهم، وملأهم خوفا، لم يستطيعوا مقاومته، تقتلون فريقا منهم أيها المؤمنون، وهم الذين كانوا فى الحرب مع المشركين، وتأسرون الباقى، وأورثكم أرضهم الزراعية، وديارهم وأموالهم من نقد وماشية وأثاث، وأورثكم أرضا لم تكونوا دخلتموها وقتئذ، وكان الله على كل شىء قديرا. ولما رأى أزواجه ﷺ كثرة هذه الغنائم اجتمعن حوله ﷺ وقلن : يا رسول الله هذه نساء كسرى وقيصر فى الحلى والحلل من الحرير والإماء والخدم، ونحن على ما ترى من الفاقة والضيق. فتألم قلبه الشريف أشد الألم من ميلهن إلى زخارف الدنيا التى تشغلهن عن الاستعداد للآخرة، فأنزل الله عز وجل قوله: يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن﴾ أى أعطيكن من النفقة ما يعطى للمطلقة، وأطلقكن طلاقا لا ضرر معه من خصومة أو نقص حق. وإن كنتن تردن رضا الله ورسوله ونعيم الدار الآخرة فزتن بالخير كله، لأن الله تعالى أعد للمحسنات بتقديم رضا الله أجرًا عظيما هو نعيم الجنة الخالد. وقل لهن أيضا

بِفَٰحِشَةٍ[1] مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ[2] لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ
ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا[3] نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا
رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ[4] ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ
إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ
مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا
تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ[5] ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ[6] وَءَاتِينَ[7]
ٱلزَّكَوٰةَ[8] وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾
وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ[9] ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ[10]
وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ[11] وَٱلْقَٰنِتِينَ[12] وَٱلْقَٰنِتَٰتِ[13] وَٱلصَّٰدِقِينَ[14]

﴿يا نساء النبى مَنْ يأت منكن بفاحشة﴾ إلخ: أى بكبيرة، وخطابهن بعنوان (نساء النبى) فيه تشريف لهن وحث على الامتثال.

المفردات : . ﴿مبينة﴾ : واضحة، انظر شرح الآية (٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٦. ﴿يضاعف لها العذاب ضعفين﴾ : ضعف الشيء مثله، والمراد تعذب مثل عذاب غيرها مرتين. ﴿يقنت﴾ : يداوم على الخضوع التام لربه، انظر الآية (٩) من سورة الزمر صفحة ٦٠٧.

﴿مرض﴾ : هو النفاق وحب الفجور.

﴿قولا معروفا﴾ : معتدلا لا تكسر فيه ﴿قرن﴾ : أصله اقررن، أى اثبتن فى البيوت. ﴿لاتبرجن﴾: أى لا تظهرن ما يجب إخفاؤه من محاسن الجسم، انظر الآية (٦٠) من سورة النور صفحة ٤٦٨.

﴿الرجس﴾ : المراد به هنا الذنب المدنس. ﴿أهل البيت﴾ : أصله يا أهل البيت.

﴿والحكمة﴾ : هى القرآن فهو من عطف الصفة على الموصوف كما فى الآية (٤٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥.

المعنى : . يا نساء النبى مَنْ يفعل منكن كبيرة ظاهرا قبحها تعذب مثل عذاب غيرها مرتين، لأن جرم الشخص صاحب المنزلة العظيمة له أثر كبير فى الضرر، وكان تشديد

---

(١) بفاحشة (٢) يضاعف (٣) صالحا (٤) يا نساء (٥) الجاهلية
(٦) الصلاة (٧) وآتين (٨) الزكاة (٩) آيات (١٠) المسلمات
(١١) المؤمنات (١٢) القانتين (١٣) القانتات (١٤) الصادقين.

عـذابكن سـهـلا على الله لا يمنع منه كـونكن فى بيت النبـوة ولا شـرفكن، فليس الله سـبحـانه كملوك الدنيا يعز عليه عقاب الأشـراف، بل الجميع أمام عدله سـواء. ونظير ذلك أن مَنْ تقنت منكن لله ورسـوله وتعـمل صـالحـا نؤتهـا أجرها مـرتين: مـرة على الطاعـة، ومـرة على رضـاها بالقناعة، وترجيحها رضا الله ورسوله على رضا نفسها بزخارف الدنيا. وإذا كان أجر الحسنة من غيـرهـن يضاعف إلى عشـرة فـأجرها منهن يكون عـشرين، وأعد لهـا فى الجنة فوق هذا الأجر رزقا حسنا لا يعلم مقداره إلا الله كما فى الآية (١٧) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦. يا نساء النبى ليست كل واحدة منكن كواحدة من آحاد نساء الناس الصالحات، بل منزلتكن أرفع، وثوابكن عند الله أعظم، بشرط أن تداومن على مراعاة أعلى منازل التقوى. وهذا يرجع إلى تكريم رسول الله والبعد بألصق الناس به عن كل شبهة؛ ولذا قال بعد ذلك بيانا لبعض التقوى ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ أى إذا خاطبتن رجلا فلا يكن فى صوتكن ميوعة الأنوثة وطراوتها، وقلن قولا عاديا معتدلا. وبعد ما علمهن المعروف من القول شرع فى تعليمهن الحسن من الفعل، فقال ﴿وقرن فى بيوتكن﴾ أى اجعلن الأصل فى حياتكن المكث فى البيوت، لأن ملاحظة مصالحها نصف المعيشة. وهذا الحكم ثابت لجميع النساء، بدليل قوله ﷺ للنساء عندما قلن له: يا رسول الله ذهب الرجال بفضل الجهاد فى سبيل الله فهل لنا عمل ندرك به فضل المجاهدين؟ فقال ﷺ (مَنْ قعدت منكن فى بيتها ترعى شئون زوجها وولدها فلها أجر المجاهدين) هذا وأجاز الشرع الخروج للحج، وزيارة الوالدين وعيادة المرضى المحارم ونحو ذلك، بشروط مبينة فى محلها. ولا تبرجن كتبرج نساء الجاهلية الأولى التى كانت قبل الإسلام إذ كانت تفعل ما نهت عنه الآية (٣١) من سورة النور صفحتى ٤٦١، ٤٦٢، والآية (٦٠) من نفس السورة صفحة ٤٦٨؛ فقد كانت المرأة فيها تظهر محاسنها فى الطرقات لكل ناظر متبخترة فى مشيتها متزينة متعطرة، راغبة فى تحسين نفسها فى نظر غير زوجها، ووراء ذلك ما وراءه. والرجل الذى يقبل أن تفعل امرأته ذلك تبرأ منه الرجولة. ثم أرشدهن إلى ما يساعدهن على التقوى فقال سبحانه ﴿وأقمن الصلاة وآتين الزكاة﴾ المفروضة والمندوبة إذا كان عندكن مال، وحافظن على طاعة الله ورسوله فى كل شىء. ثم بين الحكمة فى هذه

الإرشادات فقال ﴿إنما يريد الله﴾ إلخ : أى إنما أراد سبحانه أمركن ونهيكن ليذهب كل نقص عنكم يا أهل بيت النبوة ويطهركم من قذارة الآثام تطهيرا عظيما لا تخالطه شبهة.

والمراد بالبيت بيت سكنه ﷺ، لا بيت القرابة والنسب، فالمراد بأهله نساؤه الطاهرات للقرائن الدالة على ذلك من سابق الكلام ولاحقه. قال ذلك ابن عباس وعروة بن الزبير وعكرمة وغيرهم. وجاء بضمير المذكر فى ﴿عنكم﴾ و ﴿يطهركم﴾ مراعاة للفظ أهل، والعرب تجعل ضميره مذكرا، انظر خطابه سبحانه لسارة زوج إبراهيم عليه السلام فى الآية (٧٣) من سورة هود صفحة ٢٩٥.

وإنما أفرد البيت مع أن لكل واحدة بيتا لأنها جميعا بالنسبة له ﷺ بيت واحد، فهو واحد بالنسبة له ﷺ ومتعدد بالنسبة لكل واحدة، هؤلاء هم أهل البيت. أما آله ﷺ الذين تحرم عليهم الزكاة فهم مؤمنو بنى هاشم. وقال الشافعى : وبنى المطلب. وتذكرون دائما ما يتلى فى بيوتكن من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله الدالة على صدق النبوة، وكونه حكمة مشتملة على فنون العلوم والشرائع، وبهذا تعرفن قدر نعمة الله عليكن حيث جعلكن فى بيت النبوة، ومهبط الوحى، وهذا يوجب الحرص على كمال الطاعة.

إن الله كان لطيفا بكن حيث جعلكن فى بيت النبوة تسمعن آياته، خبيرا بكن إذ اختاركن أزواجا لرسوله. ثم أراد سبحانه أن يبين الأوصاف التى يستحق بها عباده مغفرته ورضوانه، سواء أكانوا من أزواجه ﷺ أو من غيرهن، فقال ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ إلخ:

أى أن المنقادين لأحكام الله تعالى فى القول والعمل والمنقادات، والمصدقين بقلوبهم لكل ما أخبر الله عز وجل به والمصدقات، والقانتين أى المداومين على الطاعات فى طمأنينة والمداومات، والصادقين فى الأقوال والأعمال، وذلك علامة الإيمان، كما أن الكذب علامة النفاق.

المفردات : ـ ﴿الخيرة﴾ : الاختيار، انظر الآية (٦٨) من سورة القصص صفحة ٥١٦.

﴿الذى أنعم الله عليه﴾ : بالهداية إلى الإسلام وهو زيد بن حارثة.

وَالصَّٰدِقَٰتِ[١] وَالصَّٰبِرِينَ[٢] وَالصَّٰبِرَٰتِ[٣] وَالْخَٰشِعِينَ[٤]
وَالْخَٰشِعَٰتِ[٥] وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَٰتِ[٦] وَالصَّٰٓئِمِينَ[٧]
وَالصَّٰٓئِمَٰتِ[٨] وَالْحَٰفِظِينَ[٩] فُرُوجَهُمْ وَالْحَٰفِظَٰتِ[١٠]
وَالذَّٰكِرِينَ[١١] اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّٰكِرَٰتِ[١٢] أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى
اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ
وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا[١٣] مُّبِينًا ﴿٣٦﴾
وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ
عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ
وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ[١٤] فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا
وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا[١٥] لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ
فِىٓ أَزْوَٰجِ[١٦] أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ

﴿وطرا﴾ : أصل الوطر الحاجة، والمراد بقوله ﴿قضى زيد منها وطرا﴾ أى طلقها لأنه لم يكن فى حاجة إليها، لقسوتها فى معاملته.

﴿حرج﴾ : أى إثم.

﴿أدعيائهم﴾ : هم أبناء الغير الذين يدعى غير آبائهم أنهم أبناؤه كما تقدم فى الآية (٤) من هذه السورة صفحة ٥٤٩.

المعنى : . والصادقات فى الأقوال والأعمال، والصابرين على ترك الشهوات ومشاق العبادات والصابرات، والخاشعين بقلوبهم وجوارحهم تواضعا لله خوفا منه تعالى والخاشعات، والمتصدقين ببعض أموالهم إلى المحتاجين والمتصدقات، والصائمين الفرض والنفل تقربا إلى الله والصائمات، والحافظين فروجهم عن الحرام والحافظات، والذاكرين الله بقلوبهم دائما وبألسنتهم كما طلب الله عز وجل منهم والذاكرات كذلك، انظر الآية (٢٠٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٦؛ الذين يفعلون كل ما تقدم يغفر الله تعالى ذنوبهم ويؤتيهم أجرا عظيما فى جنات النعيم.

ثم شرع سبحانه فى بيان سبب زواجه ﷺ من زينب رضى الله عنها، وكيف أنها كانت هى وأخوها ممتنعين عن زواجها بزيد كما سبق، فقال:

﴿وما كان لمؤمن﴾ إلخ:

---

(١) الصادقات (٢) الصابرين (٣) الصابرات (٤) الخاشعين
(٥) الخاشعات (٦) المتصدقات (٧) الصائمين (٨) الصائمات
(٩) الحافظين (١٠) الحافظات (١١) الذاكرين (١٢) الذاكرات
(١٣) ضلالا (١٤) تخشاه (١٥) زوجناكها (١٦) أزواج.

أى ما صح وما جاز لمؤمن كعبد الله بن جحش، ولا مؤمنة كزينب أخته، إذا قضى الله ورسوله أمرا، أن يكون لهم اختيار فى أمرهم بغير ما اختاره الله تعالى ورسوله. ثم أكد ذلك مهددا بقوله: ومَنْ يعص الله ورسوله، أى بالمخالفة، فقد بعد عن طريق الصواب بعدا ظاهرا، وتعرض لكل البلايا، انظر الآية (٦٣) من سورة النور صفحة ٤٦٩. ولما نزل ذلك خضعت زينب لأمر الله وتزوجها زيد، ولكن بقيت شديدة عليه تؤذيه وترى نفسها أشرف منه، فجاء يشكو لرسول الله ﷺ، فكان ﷺ يخاف لسان المنافقين كما سبق ويأمره بالتحمل، ولكن شكواه لم تنقطع، والله تعالى لم يعف رسوله من هذا التكليف، وهو أنه يتزوجها بعد زيد للحكمة الآتية عند ذلك سمح له ﷺ بطلاقها وخضع لأمر ربه، فجاء جبريل وقال له إن الله قد زوجك زينب. هذا هو ما أشار إليه بقوله: واذكر أيها النبى وقت قولك لمولاك زيد بن حارثة الذى أنعم الله عليه بالإسلام وبجعله تحت رعايتك، وأنعمت بالعتق والتربية الحسنة قولك عندما جاءك يشكو من إساءة زوجته زينب: أمسك عليك زوجك واتق الله فيها ولا تطلقها، وتخفى فى نفسك الشيء الذى لابد أن يظهره الله تعالى للناس وهو أنك ستتزوجها، لإبطال عادة مرذولة. فالشيء الذى أخفاه ﷺ وأبقاه فى سره رجاء أن يعفيه الله تعالى منه كما سبق هو ما أوحى الله إليه به أن يتزوجها بعد طلاق زيد لها ليتحقق التشريع المطلوب. قال ذلك جمهور من علماء الصدر الأول، منهم على بن الحسين والزهرى وبكر بْن العلاء والقشيرى وتبعهم خلق كثير، ويكون حاصل العتاب كيف تقول أمسك عليك زوجك مع أنى قد أوحيت إليك أن تتزوجها بعد طلاقها واستيفاء عدتها. هذا هو الأمر الذى كان أخفاه ﷺ، ولم يظهر سبحانه شيئا غيره إلى يومنا هذا. فاحذر أيها المؤمن ما دسه اليهود من الإسرائيليات، وتبعهم بسطاء المفسرين عن جهل، من أن الذى كان يخفيه ﷺ هو حبه لها، حمى الله مقامه الشريف من هذا الدس الحقير الذى ينادى سابق الكلام ولاحقه ببطلانه: لأن الله تعالى يقول أخفيت ما أنا مظهره قطعا، ولم يظهر الله محبة ولا غيرها إلا شيئا واحدا هو أنه تزوجها ﷺ. ثم اشتد سبحانه فى عتاب رسوله فقال ﴿وتخشى الناس﴾ إلخ : أى تخاف قول المنافقين أن محمدا تزوج امرأة ابنه، وكيف تخاف من تعييرهم لك بالباطل، والحال أن الله وحده هو

الأحق بالخشية فى كل شىء. فلما قضى زيد منها حاجته، وأصبح لا يريدها وطلقها، وانقضت عدتها، زوجناكها، لنبطل تخوف المؤمنين من ذلك حتى لا يجدوا فى أنفسهم حرجا من أن يتزوجوا مَنْ كن زوجات أدعيائهم، وكان ما أمر الله بنفاذه حاصلا. وهذه هى الزوجة الوحيدة التى تولى سبحانه تزويجها لرسوله بأمره بدون وساطة عقد، ولا وكالة ولا صداق، وهى إحدى خصوصياته ﷺ؛ ولهذا كانت رضى الله عنها تفتخر دائما على سائر أمهات المؤمنين قائلة: أنتن زوجكن أهلكن، أما أنا فزوجنى ربى من فوق سبع سموات، وكان السفير فى زواجى بين الله ورسوله جبريل عليه السلام... وقد أخرج ابن إسحاق هذه القصة من طريق السُّدِّى فساقها سياقا واضحا حسنا، ولفظه : بلغنا أن هذه الآية نزلت فى زينب بنت جحش وكانت أمها أميمة بنت عبدالمطلب عمة رسول الله ﷺ، وبعد ما زوجها رسول الله ﷺ زيدا بعد امتناع منها أَعْلَمَ الله رسوله ﷺ أنها ستكون من أزواجه، وكان يحصل بين زيد وزينب ما يكون بين الناس. فأمره ﷺ أن يمسك عليه زوجه ويتق الله، وكان يخشى الناس أن يعبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه لأنه كان تبناه، قال الله قد أخبرتك أنى مزوجها لك وتخفى فى نفسك ما الله مبديه، وقد أطنب الترمذى الحكيم فى تحسين هذه الرواية وقال إنها من جواهر العلم المكنون. ثم قال الحافظ بن حجر وردت آثار أخرى أخرجها ابن أبى حاتم والطبرى ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغى التشاغل بها والذى أوردته هنا هو المعتمد.

ثم قال الحافظ: والحاصل أن الذى كان يخفيه النبى ﷺ وسلم هو إخبار الله سبحانه إياه أنها ستصير زوجته والذى كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة ابنه وأراد الله تعالى إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبنى بأمر لا أبلغ فى الإبطال منه. والله أعلم.

المفردات :. ﴿فيما فرض الله له﴾ : المراد فيما أباح له الانتفاع به وجعله نصيبا له، ومن هذا المعنى فروض الميراث أى أنصبتها التى يستحقها كل وارث.

﴿سنة الله﴾ : أصله سن الله ذلك سنة، أى طريقته التى عامل بها الأولين.

ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ
ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ
قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ(١) ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ
وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾
مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ
وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ(٢)ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ(٣) ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ
وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ(٤) لِيُخۡرِجَكُم
مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ(٥) إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾
تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ(٦)ۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ(٧) شَٰهِدٗا(٨) وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾
وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

﴿خلوا﴾ : مضوا. ﴿قدرا مقدورا﴾ : القدر هو الإرادة الأزلية، ومقدورا تأكيد كما فى الآية (١٤) من سورة آل عمران صفحتى ٦٤، ٦٥، والمراد حكما مقطوعا به. ﴿ولكن رسول الله﴾ : استدراك بعد نفى الأبوة الحقيقية بإثبات الأبوة المجازية التى هى من شأن كل رسول، انظر شرح الآية (٧٨) من سورة هود صفحتى ٢٩٥، ٢٩٦.

﴿خاتم النبين﴾ : أصل الخاتم بفتح التاء الآلة التى يختم بها، والمراد آخرهم الذى به خُتِمُوا. ﴿بكرة وأصيلا﴾ : أول النهار وآخره. ﴿يصلى عليكم﴾ : الصلاة هنا معناها الحنو والعطف، وهى من الله تعالى الرحمة، ومن الملائكة الدعاء للمؤمنين بالمغفرة والنعيم والبعد عن كل سيئ، انظر الآية (٧) وما بعدها من سورة غافر صفحة ٦١٨. (شاهدا): على مَنْ بعثت إليهم، انظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧. (مبشرًا): مَنْ صدقك بالجنة. (نذيرًا) : أى منذرًا مَنْ كذبك بالعذاب. (بإذنه) : المراد بتيسيره وتسهيله (سراجا): المراد بالسراج هنا الشمس كما فى الآية (١٦) من سورة نوح صفحتى ٧٦٨، ٧٦٩ أى أن الرسول يشبه الشمس فى طرد ظلمة الكفر والضلال. وعليه حياة القلوب بالإيمان بعد موتها بالكفر.

المعنى : . وكان أمر الله لابد نافذا. ثم أبطل سبحانه افتراء المنافقين بأسلوب آخر فقال ﴿ما كان على النبى﴾ إلخ : أى ليس على النبى حرج فى عمل ما أحل الله له من كل شيء، ومنه تزوجه امرأة متبناه بعد طلاقها، ولم يكن رسولنا محمَّدًا ﷺ هو الوحيد فى ذلك من بين

---

(١) رسالات (٢) النبيين (٣) آمنوا
(٤) ملائكته (٥) الظلمات (٦) سلام
(٧) ارسلناك (٨) شاهدا.

الرسل، بل جعل الله تعالى ذلك سنة فى الرسل الذين مضوا قبل محمَّد؛ فلم يُحرج عليهم استعمال حلال، ووسع عليهم حتى فى باب التمتع بالنساء، وقد كان لأنبياء بنى إسرائيل خصوصًا داود وسليمان عليهما السلام من الزوجات عدد كثير لا يدانيه ما أجيز لمحمَّد صلوات الله تعالى عليه، وكان أمر الله الذى يقدره حاصلا لا محالة. ثم وصف الأنبياء الماضين بصفات الكمال فقال: الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه سبحانه وحده ولا يخشون غيره. وفى هذا عتاب له ﷺ، أى فكن مثلهم ولا تبال بافتراء الكاذبين، فالله كافيك شرهم ومبطل كيدهم، وكفى به سبحانه رقيبا حسيبا، وسيجازى كلا بما يستحق. ثم أبطل منشأ تضليلهم صراحة فقال: ﴿ما كان محمد﴾ إلخ: أى كيف تقولون تزوج محمَّد امرأة ابنه وما كان محمَّد فى يوم من الأيام أبًا حقيقيًا لواحد من رجالكم، ولكن كان رسول الله وآخر النبيين بما فيهم الرسل، انظر شرح الآية (٥٢) من سورة الحج صفحة ٤٤١، وهذا تأكيد لكمال نصحه لأمته؛ لأن الرسول الذى يعلم أنه سيأتى بعده رسول ربما لا يبلغ فى الشفقه غايتها اتكالا على مَنْ يأتى بعده، وأيضا تفيد أن شفقته ورحمته ﷺ ثابتة لكل مؤمن إلى قيام الساعة، بخلاف غيره فإنها تنتهى بوجود نبى بعده، وهذه منزلة رفيعة لم ينلها غيره ﷺ؛ ولذا قال: ﴿وكان الله بكل شىء عليما﴾ فيعلم مَنْ هو الأحق بأن يكون خاتم الأنبياء، ويعلم المصلحة فى كل تصرف، كما أنه هو العليم وحده بمَنْ يصلح للرسالة. انظر الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣. ولما كانت رسالة النبى رحمة من الله وفضلا، أرشد سبحانه إلى طريق شكرها فقال: يأيها الذين امنوا اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم، ذكرا كثيرا بقدر طاقتكم؛ لأنه سبحانه هو المنعم عليكم، وسبحوه أى نزهوه عما لا يليق به فى كل وقت، خصوصا طرفى النهار؛ لأنهما وقت شهود ملائكة الليل وملائكة النهار كما فى حديث البخارى. وإنما خص التسبيح مع أنه داخل فى الذكر؛ لأن المقام يقتضيه؛ لأن الإله الحق لا يرضى لرسوله إلا كل فضيلة. ثم ذكر سبحانه بعض نعمه التى يستحق عليها الذكر والتسبيح فقال: ﴿هو الذى يصلى﴾ إلخ: أى يعطف عليكم بالرحمة ومنها إرسال محمَّد لإنقاذكم، وملائكته بالدعاء لكم، ليخرجكم من ظلمات الكفر والمعاصى إلى نور الإيمان والطاعة. لأنه سبحانه دائم الرحمة بالمؤمنين، فسخر الملائكة لمصلحتهم. ثم بيَّن ما سيكون للمؤمنين فى الآخرة فقال: ﴿تحيتهم﴾ إلخ: أى أنه؛ التحية التى ستوجه إليهم من الملائكة يوم يلقون ربهم فى الجنة هى قولهم سلام عليكم، انظر الآية(٢٤)

بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ[1]
وَالْمُنَافِقِينَ[2] وَدَعْ أَذَاهُمْ[3] وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا[4] إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ[5]
ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ
عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ[6] اللَّاتِي[7] آتَيْتَ[8]
أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ
عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ[9] وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ[10]
اللَّاتِي[11] هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا
لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ[12]
وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ[13] لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ

من سورة الرعد صفحة ٣٢٥، والآية (٧٣) من سورة الزمر صفحة ٦١٦. وأعد لهم أجرا حسنًا هو ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. ثم وجه سبحانه الخطاب لنبيه مبينا له منزلته وما يجب عليه أن يعمله مع المؤمنين ومع المنافقين والكافرين فقال: يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا الخلق إلى سبيل الله وهو الدين الحق بتيسيره سبحانه، وجعلناك كالسراج، فكما أنه يضىء الطريق فكذا تضىء سبيل الحق. وبشر المؤمنين إلخ.

المفردات: . ﴿دع﴾ : أى اترك ولا تبال.

﴿نكحتم﴾ : المراد بالنكاح هنا العقد.

﴿تعتدونها﴾ : أى تستوفون عدد أيامها. ﴿فمتعوهن﴾ : أى أعطوهن متعة تجبر الخاطر.

﴿سرحوهن سراحا جميلا﴾ : أى اسمحوا لهن بالخروج من منازلكم لأنه ليس لكم عليهن عدة. والسراح الجميل: هو المشتمل على الكلام الطيب، وليس معه منع حق ولا مطالبة بمال.

﴿أجورهن﴾ : المراد : مهورهن.

﴿أفاء الله عليك﴾ : أى مما أعطاك الله من سبى الكفار.

﴿وبنات عمك﴾ إلخ : أفرد العم والخال وجمع العمات والخالات جريًا على المعروف عند العرب، تراه كثيرا فى أشعارهم مثل :

(قالت بنات العم يا سلمى)، و (إن بنى عمك فيهم رماح). ويظهر أن منشأ ذلك تأثرهم بأن

---

(١) الكافرين (٢) المنافقين (٣) أذاهم (٤) آمنوا (٥) المؤمنات
(٦) أزواجك (٧) اللاتى (٨) آتيت (٩) عماتك (١٠) خالاتك
(١١) اللاتى (١٢) أزواجهم (١٣) أيمانهم .

القرابة التى منشؤها الذكور تعتبر من جهة واحدة، ويعتبرون أبناء النساء أباعد عنهم، فهم يتعددون بتعدد آبائهم. ﴿وهبت نفسها للنبى﴾ : كان الأصل أن يقول وهبت نفسها لك لكنه سبحانه أظهر فيها مقام الإضمار للإشارة إلى أن الواهبة رغبت فيه؛ لأنه نبى الله لا لأنه محمَّد بن عبدالله.

﴿يستنكحها﴾ : تقول العرب نكح واستنكح بمعنى واحد، كعَجِلَ واستعجل، والمراد يتزوجها.

﴿خالصة لك﴾ : أى جعلنا هذه الأحكام السابقة من الزيادة على أربع نسوة وقبول هبة المرأة نفسها للرجل خاصة بك، أما غيرك فلا يزيد على أربع، ولا تصح الهبة له إلخ. ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم﴾ جملة توسطت بين الحكم السابق وبين حكمته الآتية فى ﴿لكى لا﴾ الغرض منها بيان أن ما شرعه سبحانه لرسوله ولأمته ناتج عن علم وحكمة.

﴿حرج﴾ : تضييق.

المعنى : ـ وبشر أيها النبى المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا هو نعيم الجنات، واثبت على ما أنت عليه، ولا تطع الكافرين فى عدم التعرض لآلهتهم، ولا المنافقين فى تخويفهم لك من اليهود إلخ ما سبق أول السورة صفحة ٥٤٨، ويوضح هنا ما سبق فى شرح الآية (٨٦) من سورة القصص صفحتى ٥١٩، ٥٢٠، ودع أذاهم، أى لا تبال بإيذائهم لك بالدس الدنىء والقول الباطل كقولهم تزوج محمَّد امرأة ابنه بسبب تمسكك بإنذارهم، واصبر على ما ينالك منهم، وتوكل على الله فى كل ما تفعل فإنه يكفيك شرهم، وكفى به موكولا إليه الأمور. ثم شرع سبحانه فى سد باب آخر من أبواب فتن المنافقين فقال: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم﴾ إلخ: وإذا رجعت إلى ما تقدم فى شرح صفحة ٥٤٩ علمت مناسبة هذه الآية، وذلك أنه ﷺ كان تزوج ثم طلق قبل الدخول لسبب خارج عن إرادته، فسدًا لبَاب استغلال المنافقين بيَّن سبحانه حكم معاملة المؤمنين مطلقًا والرسول أولهم للمطلقات قبل الدخول، ومنه يعلم أن لاعيب على المسلم فى ذلك متى كان مستوفيًا شروطه. والمعنى : ـ إذا عقدتم على النساء ثم طلقتم قبل

الدخول فليس لكم عليهن أن ينتظرن أياما بدون زواج، وإذا كان الأمر كذلك فأعطوهن متعة تجبر خاطرهن، وهى تختلف باختلاف حال الزوج من عسر ويسر، فكل يدفع حسب قدرته، وأقلها كسوة كاملة تصلح أن تخرج بها المرأة من بيتها. والراجح أن لكل مطلقة متعة وهى غير مؤخر الصداق. وقد سبق تفصيل ذلك فى الآية (٢٤١) من سورة البقرة صفحتى ٤٩، ٥٠، واتركوهن يخرجن من منازلكم تركا جميلا خاليا من الأذى مشتملا على كلام طيب ليس معه مطالبة بمال ولا منع حق. ثم شرع سبحانه فى سد منفذ آخر من منافذ المنافقين التى يتسللون منها ليضللوا عقول البلهاء فيقولون: إن محمدا استحل لنفسه ما حرمه على أمته. وستعلم قبل الفراغ من هذا المبحث عند الآية (٥٢) حكمة كل تصرف من تصرفاته ﷺ فى هذا الموضوع؛ فقال سبحانه: يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيتهن مهورهن كعائشة بنت أبى بكر، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وسودة بنت زمعة، بفتح فسكون، رضى الله تعالى عنهن، وما ملكت يمينك من أسيرات الحرب، وهو ﷺ، وإن أباح له الله سبحانه معاشرة المملوكة بمجرد الملك لكنه لم يفعل ذلك، بل كل مَنْ ملكهن من هذا النوع أسلمن وأعتقهن وعقد عليهن ودفع لهن صداقا كجويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق التى سيأتى الكلام عنها. ثم ذكر سبحانه بعض ما أحله لنبيه ﷺ من النساء بعنوان آخر وإن كن داخلات فيما سبق للتنويه بفضلهن على غيرهن فقال: ﴿وبنات عمك﴾ إلخ: أى وأحللنا لك بنات عمك وبنات عماتك، أى بنات القرشيين والقرشيات، وبنات خالك وبنات خالاتك، المراد بنات بنى زهرة ذكورهم وإناثهم. ثم وصف هؤلاء القرشيات والزهريات بالوصف الذى فضلهن على غيرهن فقال: ﴿اللاتى هاجرن معك﴾ والمراد مَنْ اشتركن معك فى الهجرة إلى المدينة ولو لم يتفق الزمن.

والمعروف أنه ﷺ دخل بقرشيات ولم يُعلم أنه تزوج واحدة من الزهريات. وإذا لاحظت الحكمة من هذا التفصيل وإنه إعلام من الله تعالى بالتوسعة على نبيه فى هذا الباب ليقطع ألسن المنافقين، تعلم أن المراد بالإحلال مجرد الجواز، وهو لا يستلزم أن يقع حصول كل ما ذكر. ثم وسع سبحانه على رسوله أكثر فقال: ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت﴾ إلخ : أى أحللنا لك أيها النبى أية امرأة مؤمنه تهب نفسها لك، ولا تطلب مهرا، إن حصل ذلك، فالمراد إعلامه بحل هذا النوع أيضًا.

قال ابن عباس: هو بيان لحكم فى المستقبل ولم يكن عنده ﷺ امرأة بالهبة حتى فارق هذه الدنيا ولذا قال: ﴿إن أراد النبى﴾ إلخ؛ أى إن وقع من امرأة ذلك وأراد النبى أن يتزوجها فلا حرج عليه.

ثم زاد سبحانه فى إكرامه إرغاما لأنف المنافقين فقال: ﴿خالصة لك﴾ أى كل هذه الأحكام السابقة من كثرة الزوجات ومن قبول هبة المرأة نفسها جعلناه خاصا بك لا يحل لغيرك من بقية المؤمنين.

ثم قرر سبحانه مضمون هذه الخصوصية قبل أن يذكر الحكمة فى هذه التوسعة، فقال: ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم﴾ إلخ : أى أبحنا لك كل ما ذكر لا عن نسيان، بل مع علمنا بما فرضناه على المؤمنين فى أزواجهم من الأحكام، بأن لا يزيدوا على أربع، ولا يتزوجوا إلا بولى وشهود وصداق وأن يحافظوا على العدل بين الزوجات فى كل شىء داخل تحت طاقتهم.

وما فرضناه عليهم فيما ملكت أيمانهم بأن تكون الأَمة أسرت فى حرب دينية وهى مشركة وأن يضرب عليها الإمام الرق، وأن تستبرأ قبل الدخول بها إلخ. ثم بيَّن الحكمة فى تخصيص الرسول بهذه الأحكام فقال ﴿لكى لا يكون﴾ إلخ: أى أحللنا لك أزواجك على اختلاف أنواعهن بدون تحديد بعدد، والواهبة نفسها، لمنع التضييق عليك، وليعلم الجميع أن الله تعالى هو الذى أحل لك كل هذا، فيخفت صوت النفاق من قوم يظهرون أنهم مؤمنون بالقرآن وهم كاذبون؛ وهذا أشبه بما قيل فى أمثالهم فى الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥.

ثم بيَّن توسعة أخرى فقال ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ أى أنه سبحانه يغفر لك مالا يمكن الاحتراز عنه من الهفوات، رحيما بك حيث تولى صيانة كرامتك من أن يمسها المنافقون بسوء. ثم بعد كل هذا هل استعمل ﷺ كل ما أحله الله له أم كان أقل من غيره فى هذا الباب؟ هذا ما ستعلمه قريبا.

المفردات : . ﴿ترجى﴾ : أى ترجئها وتؤخرها عن ليلتها المحددة لها إلى ليلة بعدها.

﴿تؤوى﴾ : أى تضم، والمُراد تقدمها على غيرها.

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ
إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ
بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ[1] كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ
بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ[2] وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[3]
لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ
غَيْرَ نَٰظِرِينَ[4] إِنَىٰهُ[5] وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ
فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ[6] لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ
يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ[7] مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ[8] مِنَ
ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا[9] فَسْـَٔلُوهُنَّ[10] مِن وَرَآءِ حِجَابٍ

﴿ابتغيت﴾ : أي طلبت. والمراد : قربتها بعد تأخيرها. ﴿عزلت﴾ : أي تجنبت. والمراد: أبعدتها وأخرتها عن ليلتها.

﴿جناح﴾ : أي حرج ومؤاخذة.

﴿أدنى أن تقر أعينهن﴾: المراد : أن علمهن بذلك أقرب إلى اطمئنانهن وعدم حزن مَنْ ترجئها، لعلمها بأنك سترجعها، خصوصا بعد علمهن بأن هذا حكم من الله سبحانه وتعالى ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ : أي لا يحل لك أيها النبى امرأة بعد مَنْ عندك الآن.

﴿من أزواج﴾ : ﴿من﴾ حرف يدل على النص على عموم نفى ما بعده.

﴿إلا أن يؤذن لكم﴾ : يؤذن متضمنة معنى الدعوة ولذلك قال بعده ﴿إلى طعام﴾ : فإلى حرف جر متعلق بيؤذن أى إلا أن يؤذن لكم مدعوين إلى تناول طعام، فهى تشعر ألا ينبغى الدخول لتناول الطعام بغير دعوة له ولو كان هناك إذن بمجرد دخول البيت. ﴿ناظرين﴾ : أى منتظرين.

﴿إناه﴾ : أى نضجه و ﴿إنى﴾ بوزن ﴿رضى﴾ بكسر أوله وفعله أنى يأنى بوزن رمى يرمى.. يقال: أنى الطعام أى استوى.

﴿ولكن إذا دعيتم﴾ : استدراك من النهى عن الدخول بغير إذن؛ لأن بعض النفوس تتأذى من الدخول بعد منعها حتى لو أذن لها فيه ثانيا، والمراد : أنه يجب إجابة الدعوة متى وجهت لما

---

(١) آتيتهن (٢) أزواج (٣) آمنوا (٤) ناظرين (٥) إناه
(٦) مستأنسين (٧) فيستحيى (٨) لا يستحيى (٩) متاعا (١٠) فاسألوهن.

يترتب على إغفالها من الجفاء وظن إهمال أو احتقار الداعى. ﴿فإذا طعمتم﴾ : أى أكلتم الطعام. ﴿فانتشروا﴾ : أى انصرفوا. وهذا خطاب لقوم مخصوصين وأمثالهم كما سيأتى بيانهم، وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيته ﷺ بإذن لغير طعام، وكذا لما جاز المكث بعد الطعام ولو لأمر مهم. ﴿مستأنسين لحديث﴾ : أى يستأنس بعضكم لأجل سماع حديث زميله فيطيل الاستماع. ﴿متاعا﴾ : أى شيئا ينتفع به.

المعنى : . وأراد سبحانه أن يبيّن ما وسع به على نبيه من وجه آخر ليقضى على البقية الباقية من دسائس اليهود والمنافقين؛ وبيان ذلك أن الحكم السابق الذى شرعه الله تعالى للناس عامة وهو وجوب التسوية بين الزوجات فى كل شىء خصوصًا فى المبيت، فأبان سبحانه هنا أنه أباح لرسوله ما منعه على غيره، وأن الأمر متروك لاختياره: يرجى مَنْ يشاء من زوجاته ويؤخرها عن ليلتها، ويضم إليه مَنْ يشاء فيقدمها على غيرها، ثم إذا أبعد واحده منهن مدة فله أن يلغى هذا الإبعاد ويقربها إليه ثانيًا؛ لا حرج عليه فى شىء من ذلك. ثم بين سبحانه الحكمة فى هذا التخيير فقال: ﴿ذلك﴾ إلخ: أى هذا الذى فهم مما تقدم من علمهن بأن لك الخيار، وبأنك إذا عزلت واحدة كان لك أن ترجعها ثانيًا؛ هذا أقرب إلى سرور مَنْ تقربها، وإلى عدم حزن مَنْ ترجئها، لعلمها بأنك سترجعها، فيكنّ جميعا راضيات بما تصنع معهن، خصوصا بعد علمهن بأن هذا حكم من الله تعالى. والله سبحانه يعلم ما فى قلوبكم من زيادة ميل للبعض بحسب الطبع البشرى مما لا قدرة لكم على منعه؛ لأنه سبحانه دائم العلم بأحوال خلقه، حليم لا يؤاخذ على كل هفوة، بل يعفو عن الكثير كما فى الآية (٣٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣. وإذا علمت مما تقدم أنه ﷺ لم يستعمل كل ما أحله الله تعالى له، فاعلم أنه هنا كذلك، فقد اتفق الرواة على أنه ﷺ كان شديد الحرص على العدل بين زوجاته فى كل شىء حتى فى كلمة التحية إذا قالها لإحداهن طاف على الجميع بها، وحتى فى السفر ما كان يأخذ مَنْ يريد، بل كان يقرع بينهن فمَنْ خرجت القرعة لها سافرت معه؛ فهو ﷺ لم يستعمل شيئًا مما أبيح له، ضبطًا لنفسه، وعملا بالأفضل، وليكون خير قدوة لأمته فى الحرص على الأحسن، فضلا عن الواجب. وبعد هذه التوسعة التى منحها له ربه للحكم التى

علمتها، وبعد أخذه ﷺ نفسه بالأفضل. فاسمع ما أكرم الله به زوجاته بعد ما اخترن البقاء معه كما فى آيتى (٢٨، ٢٩) السابقتين صفحة ٥٥٣، وما شدد به سبحانه عليه ﷺ مقابل ذلك حيث قال: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ أى من بعد الموجود عندك الآن. وكن عند نزول هذه الآية تسعا، فأصبحن فى حقه كأربع فى حق غيره، لا يجوز له الزيادة عليهن. بل شدد عليه أكثر من غيره فقال: ﴿ولا أن تبدل﴾ إلخ: أى ولا يحل لك أيضا أن تغير واحدة منهن بأخرى، بأن تطلقها وتتزوج مَنْ تريد، ولو فرض وأعجبك حسن مَنْ ليست عندك. لكن أحل الله تعالى لك بعد الآن ما تملكه يمينك من الجوارى فقط. ولم يأخذ من الجوارى بعد هذه الآية إلا مارية القبطية التى أهداها له ملك مصر. وكان الله على كل شىء رقيبا. فحافظوا على أوامره لأنه سبحانه سيحاسبكم عليها. وقبل أن ننتقل من هذا الموضوع يحسن أن نذكر ما يقطع ألسنة المبشرين بنير الإسلام، وأعداء الرسول الأكرم. كما قطع سبحانه ألسنة المنافقين.

فنقول : لعلك علمت مما سبق أن الرسول ﷺ كان فى هذا الموضوع مُضيقًا عليه أكثر من غيره من أمته: فقد كان الحال قبل تحديد عدد الزوجات بأربع كما فى الآية (٣) من سورة النساء صفحتى ٩٧، ٩٨ أن كثيرا من المسلمين كان يجمع فى عصمته ما شاء من العدد. كما كان شائعا فى العالم فى ذلك الحين. ولما جاء التحديد بأربع أمر ﷺ مَنْ عنده أكثر أن يطلق ما زاد، ولكن أحل لهم الطلاق حتى من هؤلاء الأربع بشروطه، كما أباح لهم استبدال المرأة بغيرها بشروطه أيضا. هذا ما أجازه الشرع لكل مسلم إلى يوم القيامة. أما بالنسبة له ﷺ بعد أن خير نساءه واخترنه فقد حرم الله عليه غيرهن، كما حرم عليه طلاق واحدة منهن. ولا شك أن هذا تضييق شديد إذا قورن بما أبيح لفرد من أفراد أمته من الزواج متى شاء بمَنْ يشاء. وإنما لم يجز له ﷺ أن يقتصر على أربع ويطلق الباقى كما هو الحال مع غيره، لما فى ذلك من الإحراج والتضييق على مَنْ يطلقها، بعد أن جعلها الله تعالى أمًا للمؤمنين. إكراما لها، كما تقدم فى الآية (٦) من هذه السورة صفحتى ٥٤٩، ٥٥٠: ولهذا حرم زواجهن بعد فراقه ﷺ كما فى الآية (٥٣) الآتية. فلو طلقهن ﷺ بعد ذلك فأين يذهبن؟ نعم كان يمكن ذلك عند تخييرهن إذا اختارت إحداهن الدنيا وطلقها ﷺ، فإن لها أن تتزوج: لأنها لم تمنح ميزة

أنها أم المؤمنين... ويحسن بنا أن نتعرض لبعض من ظروف زواجه ﷺ لتعلم منها صورة صحيحة لباقيها، ترفع عنك الشك، وتزيح الشبهة، فنقول : لما بلغ ﷺ من العمر ٢٥ سنة، رغبت فيه السيدة خديجة بنت خويلد، فأرسلت مَنْ يعرضها عليه ﷺ، فقبل وتزوجها، وكانت سنها عند ذلك ٤٠ سنة، أى أنها كانت فى حكم مَنْ تلده، وهذا عكس ما عليه الناس عادة، وعاش معها ٢٨ سنة، وفيًا لها لا يرغب فى غيرها حتى ماتت رضى الله عنها فى سنة الهجرة عن ٦٨ سنة. وكانت سِنّه ﷺ عند موتها أكثر من ٥٣ سنة، أى أنه قضى معها زهرة شبابه. ولما ماتت حزن عليها حزنا شديدا، طفحت به كتب التاريخ والسير؛ منه ما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها، قالت : تذكر ﷺ خديجة يوما فأطنب فى الثناء عليها حتى أدركتنى الغيرة التى تدرك النساء، فقلت: يا رسول ما هذه العجوز من عجائز قريش التى مازلت تذكرها، وقد أبدلك الله خيرا منها! فتغير وجهه الشريف تغيرا شديدا لم أره إلا عند الشدائد، وقال: لا والله لم يبدلنى الله خيرا منها، وإنى لأعرف فضلها، وإنها لخير نساء العالم. قالت عائشة: فأقسمت ألا أتعرض لخديجة بعد ذلك أبدا.

وقالت عائشة أيضا: إنه ﷺ كان إذا ذبح شاة يقول: إرسلوا لصديقات خديجة. ويقول : إنى لأحب مَنْ كانت تحبه... فخبرنى بربك أيها القارئ هل هناك صورة فى الوفاء أروع من هذه الصورة؟

وهل هناك خلق أنبل من هذا الخلق الكريم؟ قاتلكم الله أيها المنافقون، ويا أذناب المنافقين.

ثم كانت أول امرأة تزوجها بعد موت خديجة فى مكة قبل أن يهاجر بقليل هى السيدة سودة بنت زمعة القرشية، وكانت من السابقات إلى الإيمان؛ هاجرت من مكة إلى الحبشة هى وزوجها، وكان ابن عمها، وتركت أهلها، فرارا بدينها، ولما توفى زوجها ورجعت من الحبشة وقعت فى حرج شديد، إن رجعت لأهلها عذبوها حتى يردوها عن دينها كما كانوا يفعلون بغيرها، فماذا تصنع؟ عند ذلك أنقذها ﷺ بكفالتها، فتزوجها قبيل الهجرة، ولما هاجر لحقت به إلى المدينة.

ثم تزوج بعد ذلك بعائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، وكان أول مَنْ آمن بالنبى من الرجال وساعده بنفسه وبماله، ورافقه فى الهجرة، وصاحبه فى الغار، فكان ذلك مجاملة منه ﷺ لأبى بكر حيث رضيه صهرا، ولم يتزوج ﷺ بكرا غيرها.

ثم جاء بعد ذلك دور أكبر أنصاره ﷺ بعد أبى بكر، وهو عمر بن الخطاب، جرح زوج ابنته حفصة فى غزوة ومات من ذلك، وبعد انقضاء عدتها عرضها والدها على أبى بكر الصديق ليتزوجها فلم يجبه، فغضب عمر، ولما ماتت رقية بنت رسول الله ﷺ ذهب عمر إلى زوجها عثمان بن عفان وعرض عليه زواج ابنته حفصة فلم يجبه أيضا، فذهب عمر إلى رسول الله ﷺ يشكو إليه صاحبيه اللذين اختارهما لابنته المنكوبة فى زوجها، فقال له ﷺ : لا تحزن سيرزقها الله خيرا منهما. ففهم عمر قصده ﷺ وسر سرورا عظيمًا؛ لأنه حصل على أكبر أمنية كان يتمناها، وهى مصاهرة رسول الله. وبهذا سوى ﷺ بينه وبين أبى بكر وزيره الأول.

ثم جاء بعد ذلك دور أم سلمة هند بنت أبى أمية المخزومية؛ وكانت رضى الله عنها زوجًا لأبى سلمة عبدالله بن عبد الأسد من السابقين إلى الإسلام؛ أسلم بعد عشرة أنفس، وكان ابن عمه ﷺ وأخاه من الرضاعة، ولما اشتد إيذاء المشركين بمكة لمن يظهر إسلامه، هاجر عبدالله وأم سلمة إلى الحبشة فرارا بدينهما، وبعد هجرته ﷺ إلى المدينة رجع إليها عبدالله وزوجته، وجرح فى إحدى الغزوات، ومات بعد غزوة أحد، وترك زوجته أم سلمة، ومعها أربعة أولاد فى بلد غربة ليس لها مَنْ يعولها ويعولهم، فأرسل إليها ﷺ مَنْ يطلبها له. فقالت: إنى امرأة مسنة وصاحبة أولاد.

فقال ﷺ : أنا أسن منها، والأولاد رزقهم على الله، فقبلت وتزوجها.

ثم تزوج بعدها ﷺ السيدة زينب بنت جحش، وقد علمت كيف كان ذلك وما حكمته.

ولما جاءت سنة ٦ هجرية علم ﷺ أن بنى المصطلق وهى أكبر قبيلة فى خزاعة تستعد لمحاربته ﷺ تحت قيادة رئيسها الحارث، عند ذلك جهز جيشًا وخرج إليهم وقاتلهم فهزمهم، وأسر المسلمون رجالا ونساء وذرية، ولما قسمت الغنائم خرجت بنت كبير القوم وسيدهم وهى

جويرية بنت الحارث بن ضرار، من نصيب ثابت بن قيس، فطلبت من ثابت أن يكاتبها على مال تدفعه له لتكون حرة على الطريقة التى تقدم بيانها فى الآية (٣٣) من سورة النور صفحة ٤٦٢، فذهبت إلى رسول الله ﷺ تطلب منه المساعدة، ويظهر أنه ﷺ أدرك أن هذه القبيلة العريقة لو عوملت معاملة كريمة فى أسراها دخلت فى الإسلام طوعا، فعرض على جويرية أن يدفع لسيدها كل ما طلبه منها على أن تسلم ويتزوجها، فقبلت.

ولما ذاع زواجه ﷺ بها سارع المسلمون إلى عتق جميع ما بأيديهم من أسرى، وقالوا لا يحسن بنا أن يكون أصهار رسول الله أسرى بأيدينا، فأنقذت جويرية من الرق نحو مائة بيت وأسلم بسببها جميع بنى المصطلق؛ قالت عائشة رضى الله عنها: لا نعلم امرأة أكثر بركة على قومها من جويرية، مَنّ الله عليهم بالحرية والإسلام بسببها.

قال صاحب المنار : إنه ﷺ كان يرعى المصلحة فى اختيار زوجاته فى التشريع والتأديب، فربط به كبار الرجال والقبائل بالمصاهرة، وعَلّم أتباعه احترام النساء والعدل بينهن، وترك بعده منهن مَنْ يطمئن إلى نقلهن الأحكام التى لا يطلع عليها الرجال، لأنها من الأمور السرية التى تقع بين المرء وزوجه، ولكنها يجب أن يعلمها المسلمون.

ولو كان ﷺ يريد بتعدد الزوجات ما يريده أهل الدنيا من التمتع بالحلال فقط لاختار حسان الأبكار، ولما جمع فى عصمته هؤلاء العجائز من الثيبات فيهن ذوات الأولاد، حماه الله تعالى مما يفتريه المفترون. ولما كانت العرب أمة أمية بعيدة عن آداب الحضارة الرفيعة وكان فى نقلها مما هى فيه دفعة واحدة صعوبة، عالج سبحانه أحوالهم بالحكمة فى مناسبات عديدة، منها ما فى أول سورة الحجرات إلى آخرها صفحة ٦٨٤ وما بعدها، ومنها ما فى صفحات ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٧ إلى ٤٦٩، ومنها ما هنا؛ قال ابن عباس :

كان رجال من المسلمين ينتظرون أوقات طعام رسول الله ﷺ فيدخلون عليه فى بيته قبل الطعام ويجلسون إلى أن ينضج، ثم بعد الأكل لا يخرجون بل يستمرون يتسامرون، وكان ﷺ يتأذى من ذلك، ولكنه كان شديد الحياء، فأنزل سبحانه فى هؤلاء وأمثالهم:

﴿يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا﴾ إلخ: المعنى : لا تدخلوا بيوت النبى فى حال من الأحوال إلا فى حال إذنه لكم لتناول الطعام، بشرط ألا تدخلوا قبله وتنتظروا نضجه. ولما كانت بعض النفوس ربما تتأذى من الدخول بعد منعها منه إلا بإذنه مهما أذن لها فيه ثانيا، أراد سبحانه أن يحذر من ذلك ويبين أنه يجب إجابة الدعوة متى وجهت لما يترتب على عدم إجابتها من التباغض، فقال سبحانه: ولكن إذا دعيتم فادخلوا، فإذا طعمتم فانصرفوا، ولا تمكثوا مستأنسين لحديث بعضكم بعضًا، إذًا ما ذكر من الدخول بدون إذن والمكث بعد الطعام فوق المعتاد يؤذى النبى لضيق منازله ومنعه من الاشتغال بما يعنيه، فيستحيى من إخراجكم، ولكن الله تعالى لا يستحى من الجهر بالحق.

قال الزمخشرى : هذا أدب أدَّب الله به الثقلاء. وقالت عائشة رضى الله عنها:

يكفيك من الثقلاء أن الله سبحانه لم يتحملهم وأمرهم بالانصراف. ولما كان ذكر بيوت النبى ﷺ وسلم يشعر بأن فيها نساء، قال سبحانه ﴿وإذا سألتموهن﴾ إلخ: أى وإذا أراد أحدكم حاجة من إحدى زوجاته ﷺ فلا يكلمها إلا وبينه وبينها ساتر يحجبها عنه.

المفردات : ـ ﴿ذلكم﴾ : أى السؤال من وراء حجاب.

﴿أطهر لقلوبكم﴾ : أى أشد طهرا وأبعد عن الخواطر النفسانية؛ لأن نظر العين سبيل الفتنة.

﴿لا جناح﴾ : أى لا إثم.

﴿نسائهن﴾ : المراد بالنساء هنا المسلمات لأنه لا يضاف لأمهات المؤمنين غيرهن أما الكافرات فيجب الاحتجاب عنهن.

﴿ما ملكت أيمانهن﴾ : أى الأرقاء المملوكين لهن.

﴿يصلون على النبى﴾ : انظر معنى الصلاة فى شرح الآية (٤٣) السابقة من هذه السورة صفحة ٥٥٦.

ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا
رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ
ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ
فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي
آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ
وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ
وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) إِنَّ اللَّهَ
وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا
عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧)
وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا
فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل

﴿سلموا تسليما﴾ : أكد التسليم لاستغناء الصلاة عن ذلك بكونها يفعلها الله وملائكته.

﴿احتملوا﴾ : أى حملوا مع المشقة.

﴿بهتانا﴾ : أى كذبا شنيعًا.

﴿إثما مبينا﴾ : أى ذنبا ظاهرًا.

المعنى : ـ سؤالكم من وراء حجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهن بإبعادها عن مثار الفتنة، والفتنة هنا أخطر أنواع الفتنة. وما صح لكم أن تفعلوا ما يؤذى رسول الله من الدخول بغير إذنه إلخ ما تقدم، وكذا من كلام نسائه بدون حجاب، ولا أن تتزوجوا نساءه من بعد موته احتراما له ولهن؛ لأن ذلك كان فى حكم الله خطبًا جسيمًا.

ولما كان سبحانه يريد المحافظة على احترام رسوله حيا وميتا، هدد مَنْ يخالف ما أمر به فيما سبق: بقوله ﴿إن تبدوا﴾ إلخ: أى إن تظهروا شيئًا مما يؤذيه، كأن تتحدثوا بتمنى زواج نسائه من بعده، أو تخفوه فى صدوركم، يجازكم الله به؛ لأنه عليم بكل شىء مما تظهرون وما تخفون. ولما كان تعميم منع مكالمة نساء النبى بما يشمل الآباء والأبناء إلخ فيه حرج شديد، رفع ذلك سبحانه بقوله ﴿لا جناح﴾ إلخ: أى لا إثم على نسائه ﷺ أن يكلمن بدون حجاب آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نساء المؤمنات ولا العبيد المملوكين لهن لشدة حاجتهن إليهم فى الخدمة، واتقين الله فيما أمركن به فلا تتجاوزن حدوده؛ لأنه على كل شىء شهيد لا يخفى عليه شىء، فاحذرن مخالفته. ثم أظهر

---

(١) أزواجه (٢) آبائهن (٣) أبنائهن.
(٤، ٥) إخوانهن (٦) أخواتهن (٧) نسائهن
(٨) أيمانهن (٩) ملائكته (١٠) آمنوا
(١١) الآخرة (١٢) المؤمنات (١٣) بهتانا.

لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا

سبحانه تشريفه لرسوله بما لم يعهد له مثيل حتى يحمل السامعين على احترامه حيًا وميتًا، فقال: ﴿إن الله وملائكته﴾ إلخ: أى إن الله يعطف على النبى فيرحمه. وملائكته تعطف عليه بالدعاء له. فيأيها الذين آمنوا برسالته اعطفوا عليه بطلب زيادة الرحمة له من الله. بأن تقولوا: اللهم صلى على محمَّد. مثلا. وسلموا عليه تسليمًا يليق بمقامه. بأن تقولوا السلام عليك أيها النبى مثلا. أى نطلب من الله لك الأمان فى الدنيا والآخرة.

ثم حذر سبحانه من الوقوع فى مثل افتراء المنافقين مع تهديدهم فقال: إن الذين يؤذون الله ورسوله بارتكابهم ما يكرهه الله ورسوله من الكفر والمعاصى لعنهم أى أبعدهم الله فى الدنيا والآخرة عن رحمته، وأعد لهم مع ذلك عذابا مهينا فى الآخرة. ثم جاء بحكم عام يشمل مَنْ آذى كل مؤمن ومؤمنة فقال: ﴿والذين﴾ إلخ: أى والذين يوقعون بمؤمن أو مؤمنة أذى من قول أو فعل فقد احتملوا بهتانا وذنبًا واضحًا وبعد ما هدد سبحانه المؤذين أراد إرشاد المؤمنين إلى طريق النجاة فقال ﴿يأيها النبى قل﴾ إلخ.

المفردات: . ﴿يدنين﴾ : يرخين ويسدلن من الدنو بمعنى القرب. يقال: دنا الشىء أى قرب، ومنه ﴿قطوفها دانية﴾ الآية (٢٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣. ويقال أدناه غيره أى قربه منه. فالإدناء التقريب ولكنه ضُمِّن معنى الإسدال والإرخاء والمراد: يقربن ثيابهن من الأرض حتى لا يظهر إلا أقدامهن.

﴿جلابيبهن﴾ : جمع جلباب وهو ثوب ساتر لجسم المرأة تلبسه فوق ثيابها الداخلية.

---

(١) لأزواجك (٢) جلابيبهن (٣) المنافقون (٤) يسألك
(٥) الكافرين (٦) خالدين (٧) ياليتنا.

﴿أدنى أن يعرفن﴾ : أى أقرب إلى معرفة الحرة من غيرها.

﴿المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون﴾ إلخ : هم المنافقون الجامعون بين هذه الصفات القبيحة كما مر فى الآيات من (١٢ إلى ٢٠) من هذه السورة صفحات ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢. وأصل الإرجاف الزلزلة. والمراد يزلزلون عقائد الناس بالإشاعات. ﴿نغرينك بهم﴾ : أى نسلطنك عليهم. ﴿أينما ثقفوا﴾ : أى فى أى مكان وجدوا وأمكنت السيطرة عليهم. ﴿أخذوا﴾ : أى أسروا. ﴿قتلوا تقتيلا﴾ : أى قتلوا أشد قتل لا شفقة معه. ﴿سنة الله﴾ : الأصل سن الله تعالى ذلك سنة. ﴿خلوا﴾ : أى مضوا. ﴿وليا﴾ : مواليا يحفظهم. ﴿نصيرا﴾ : ناصراً يدفع عنهم العذاب. ﴿وجوههم﴾ : المراد أجسامهم، وإنما عبر بالوجوه لأنها أشرفها. ﴿ياليتنا﴾ ﴿يا﴾ حرف أصل وضعه لإفادة نداء ما بعده ولكنه أريد به هنا تنبيه السامع لما يفيد التحسر والندم بعده.

المعنى : . روى أن النساء كن يخرجن ليلا لقضاء حاجاتهن فى النخيل والغيطان فى زى متحد لا يميز الحرة من الأمة، وكان فساق المنافقين يتعرضون للإماء طمعًا فيهن، وربما تعرضوا فى أثناء ذلك لحرة، فإذا رآهم أحد قالوا ظنناها أمة. فأمر سبحانه الحرائر بالاحتشام فى لبسهن ليتميزن عن غيرهن فقال تعالى: يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يسدلن على محاسن أجسامهن بعضا من جلابيبهن، انظر ما تقدم فى الآية (٣١) من سورة النور صفحتى ٤٦١، ٤٦٢؛ ذلك اللباس على هذا الحال أقرب لمعرفة الحرة من غيرها فلا يتعرضن لما يؤذى سمعتهن، وكان الله غفورا رحيما لما سلف من التفريط؛ ولهذا كان عمر رضى الله عنه فى خلافته يحرم على الإماء التقنع كالحرائر وهو القائل: (أتتشبهين بالحرائر يالكاع). ثم هدد سبحانه المنافقين بأنهم إذا لم يكفوا عن فتنتهم المشار إليها فى الآيات (١٢، ١٣، و ١٨، ١٩) ينزل عليهم غضبه، فقال: ﴿لئن لم ينته﴾ إلخ: أى وعزتى إن لم يكف هؤلاء المنافقون الذين جمعوا تلك الصفات الذميمة لنحرضنك على أن تفعل بهم ما يرغمهم على الجلاء، ثم لا يجاورونك فى المدينة بعد ذلك إلا زمنًا قليلا جدًا مقدار ما يلتقطون ما يستطيعون التقاطه، حال كونهم فى هذا الزمن القليل ملعونين من الله وملائكته،

ويكون من آثار هذا اللعن أنهم فى أى مكان ظفر بهم فيه أخذوا وقتلوا تقتيلا. سن الله تعالى ذلك سنة قديمة هى أن يشرد الذين نافقوا رسله وسعوا فى إضعافهم بالأكاذيب لن تتبدل سنته تعالى إذا استمر هؤلاء على نشر هذه الأكاذيب. ويظهر أن كثيرا منهم خاف واختفى، وقد نال جزاءه مَنْ ظهر كفره منهم. وكان اليهود يساعدون المنافقين فى زلزلة عقائد الناس، وكانوا يعرفون من التوراة أن موعد قيام الساعة لا يعلمه إلا الله سبحانه، فكانوا يسألون النبى ﷺ عن موعدها لعله يخطئ فيكذبونه، فقال سبحانه: ﴿يسألك الناس عن الساعة﴾ أى عن موعدها قل لهم إنما علمها عند الله. ثم هددهم وخوفهم فقال: ﴿وما يدريك﴾ إلخ: أى وما يدريك أيها السائل لعل زمن الساعة يكون قريبًا جدًا، فهل عملت ما ينقذك من هولها؟ ثم بين حال الكافرين عمومًا ظاهرهم ومنافقهم فقال: إن الله لعن الكافرين وأعد لهم نارا مستعرة، خالدين فيها أبدا لا يجدون مواليا يحفظهم، ولا ناصرا يدفع عنهم العذاب؛ لا يجد هؤلاء ناصرا يوم تقلب أجسامهم فى النار حتى وجوههم كما يتقلب اللحم الذى يشوى على النار، وهم يقولون ندمًا ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول، انظر الآية (٢٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣. ثم ذكر سبحانه ما سيعتذر به الأتباع منهم ولا ينفعهم فقال: ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا﴾ إلخ.

المفردات :. ﴿سادتنا﴾ : ملوكنا وأمراءنا.

﴿كبراءنا﴾ : رجال الدين الذين علموهم ما فيه كفر ومعصية.

﴿ضعفين﴾ : أى قدر عذابنا مرتين لأنهم ضلوا وأضلونا معهم.

﴿الذين آذوا موسى﴾ : هم الذين أرسل إليهم فآذوه بقولهم: إنه مجنون فى الآية (٢٧) من سورة الشعراء صفحة ٤٨١.

وساحر كذاب فى الآية (٢٤) من سورة غافر صفحة ٦٢٠، ومهين أى حقير فى الآية (٥٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢.

﴿وجيها﴾ : أى صاحب جاه ومنزلة تجعله مستجاب الدعوة. ﴿سديدا﴾ : القول السديد هو

سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ
ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ
مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ
أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ
مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾
لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ
وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴿٧٣﴾

الصادق الذى يراد به الوصول إلى الحق، مأخوذ من قولهم سدد السهم إذا وجهه للغرض فلم يخطئه.

﴿الأمانة﴾ : هى الصفات التى ميز الله سبحانه بها الإنسان عن غيره وكانت منشأ تكليفه بالطاعات، ليتميز مَنْ يشكره عليها فلم يستعملها إلا فيما يرضيه، عمَنْ أهمل ذلك. وهذه الصفات هى مجموع العقل المفكر المستنتج، وحرية الإرادة. والكلام جاء على سبيل التمثيل لتهويل أمر هذه الأمانة والإشعار بفخامتها. فالمعنى: أن هذه الأمانة بلغت منزلة فى العظم بحيث لو كلفت بمراعتها الأجرام العظام التى يضرب المثل بقوتها، وكان فيها إدراك لا متنعت عن قبولها وخافت من التقصير فى واجباتها. وهذا أسلوب عربى فصيح يعمد إليه العرب إذا أرادوا تصوير أمر مفروض بصورة أمر محقق لزيادة تحقيق المعنى وتوضيح المقصود. وهناك معان أخرى للأمانة أوردناها فى شرح حديث رقم ٦٤٥ من كتابنا (صفوة البخارى). ﴿فأبين﴾ : أى امتنعن. ﴿أن يحملنها﴾ : يقال لم يحمل فلان الشىء أى لم يقم بمقتضاه. وانظر عدم حمل بنى إسرائيل للتوراة فى الآية (٥) من سورة الجمعة ٧٤١.

﴿أشفقن﴾ : أى خفن. ﴿الإنسان﴾ : المراد الإنس والجن، ولكنه اقتصر هنا على الإنسان؛ لأن المقام فى تعداد جرائمه. (إنه كان ظلومًا جهولاً): توسطت هذه الجملة بين الفعل وهو (حملها) ونتيجة وهى (ليعذب) إلخ: للمساعدة بإفادة عدم وفاء الإنسان ﴿ليعذب الله﴾ إلخ :

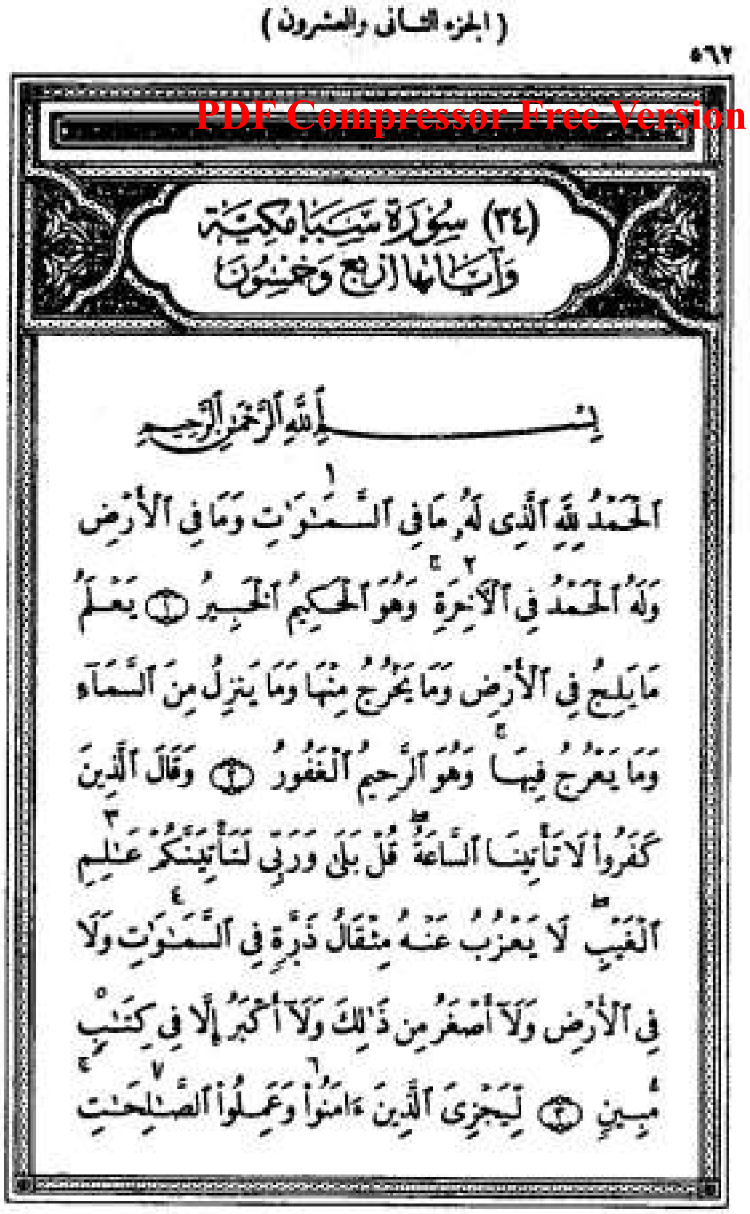
---

(١) آتهم (٢) آمنوا (٣) آذوا (٤) آمنوا (٥) أعمالكم (٦) السموات
(٧) الإنسان (٨) المنافقين (٩) المنافقات (١٠) المشركات (١١) المؤمنات.

هذه اللام تسمى لام العاقبة والنتيجة لما قبلها كما فى قوله ﴿ليكون لهم عدوا﴾ الآية (٨) من سورة القصص صفحة ٥٠٧.

المعنى: . وقال الكافرون لما رأوا العذاب معتذرين عذرًا غير مقبول: يا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا عن سبيل الحق، يا ربنا عذبهم مرتين: مرة بضلالهم، وأخرى بإضلالهم لنا، وأطردهم عن رحمتك طردًا أبديًا، وهذا منهم مع إنه شبه اعتذار فيه تشف ممَّنْ تسببوا فى هلاكهم، انظر الآية (٦١) من سورة ص صفحة ٦٠٣. ثم وجه سبحانه الخطاب للمنافقين الذين يدعون الإيمان فقال: ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ إلخ: أى يا مَنْ تظهرون أنكم آمنتم لا تؤذوا نبيكم بما تشيعونه عنه من أنه تزوج امرأة ابنه، وأنه يتمتع بما حرمه على غيره، إلى غير ذلك، فتكونوا كالذين آذوا موسى، وتكون العاقبة أنه سبحانه يبرئ نبيه محمَّدًا كما برأ موسى من قبل، وجعله ذا منزلة رفيعة.

يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا الصدق فقط، أى لا تقولوا كذبًا، فإنكم إن فعلتم ذلك توبة مما سبق يوفقكم الله لصالح الأعمال كما فى الآية (٧٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨. ويغفر لكم ذنوبكم السابقة؛ لأنكم بعملكم هذا كنتم مطيعين لله، ومَنْ يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا. ثم أراد سبحانه أن يوضح عظيم منزلة الطاعة، وأنها أهل لفوز صاحبها هذا الفوز العظيم، فقال سبحانه: ﴿إنا عرضنا الأمانة﴾: أى أن منشأ التكاليف من تلك الصفات الجميلة بلغت فى خطورة تبعاتها أنها لو عرضت على السموات والأرض والجبال لرفضتها خوفًا من نتائجها، لكن جنس الإنسان الذى أكثره بالغ غاية الظلم لنفسه ولربه، وغاية الجهل بعاقبه الأمور، فرح بها وقبلها، وصار يفتخر بأنه ممتاز على غيره بها، غير مقدر لعاقبة التفريط فيها، انظر الآية (٢) من سورة العصر صفحة ٨٢٠. ثم بيَّن سبحانه عاقبة حمل الإنسان لهذه الأمانة فقال: ﴿ليعذب الله﴾ إلخ: أى لتتحقق العدالة الإلهية، فيعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات على عدم قيامهم بواجب الشكر على ما أنعم الله تعالى عليهم من نعمة العقل والحرية، ويقبل سبحانه توبة المؤمنين والمؤمنات مما عسى أن يقع منهم؛ لأنه تعالى كثير المغفرة والرحمة لعباده المتقين، والله تعالى أعلم.


(الجزء الثاني والعشرون)
٥٦٢

(٣٤) سورة سبأ مكية
وآياتها أربع وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ[1] وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ[2] وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ① يَعْلَمُ
مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ② وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ[3]
الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ[4] وَلَا
فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ[5]
مُبِينٍ ③ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا[6] وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ[7]

سورة سبأ

بسم الله الرحمن الرحيم

المفـــردات: ـ ﴿يلج فى الأرض﴾: يدخل فيها. ﴿من السماء﴾: المراد من جهة العلو ﴿يعرج فيها﴾: ﴿يعرج﴾ أى يصعد و (فى) حرف بمعنى (إلى).

(بلى): حرف يدل على إبطال نفى ماقبله وإثبات نقيضه، انظرشرح الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

(لايعزب، ومثقال، وذرة، ولا أصغر، ﴿وكتاب، ومبين﴾: تقدم كل هذا فى الآية (٦١) من سورة يونس صفحتى ٢٧٥، ٢٧٦.

ولا فرق، إلا أن هناك أصغر وأكبر معطوف على ذرة، وهنا مبتدأ مرفوع، وخبره إلا فى كتاب.

المعنى: ـ تتضمن هذه السورة إثبات مقاصد ثلاثة ككل السور المكية، وهى : إثبات وحدانية الإله، ورسالة الرسل، واليوم الآخر. وسترى فى هذه السورة أن من ينكر البعث تارة يكتفى بمجرد الإنكار كما فى الآية (٣)، وتارة بالاستبعاد كما فى (٧، ٨)، وتارة بإظهار جهل ميعاده كما فى (٢٩). ثم بيَّن الحكمة فى البعث فى آيتى (٤، ٥). وحارب الشرك فى الآيات من (٢٢ إلى ٢٧) ومن (٤٠ إلى ٤٢)، ثم حذر منكرى الرسالة بما سيحصل لهم يوم القيامة فى الآيات من (٣١ إلى ٣٩) ومن الآية (٤٣) إلى آخر السورة، وبيَّن فيما بين كل ذلك قدرته سبحانه على

(١) السموات (٢) الآخرة. (٣)عالم. (٤) السموات. (٥) كتاب. (٦) آمنوا. (٧) الصالحات.

كل شيء، وعلمه بكل شيء، واستدل بما هو مشاهد في خلق السموات والأرض، وبما فعله مع داود وسليمان، فقال سبحانه: الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض خلقا وملكا وعبيدا، فهو سبحانه لكمال قدرته وتمام نعمته يستحق الثناء كله فى الدنيا، كما أنه يستحق كل ثناء فى الآخرة؛ لأن مافيها من نعيم من فضله يحمده عليه المؤمنون، انظر الآية (٧٤) من سورة الزمر صفحتى ٦١٦، ٦١٧، وهو سبحانه الحكيم فى تدبير أمر السماء والأرض، الخبير ببواطن الأمور. ثم أكد ذلك فقال: يعلم كل مايدخل فى باطن الأرض من أجزاء الأموات وقطرات الماء إلى غير ذلك، ويعلم مايخرج من الأرض من الأجزاء التى تكون منها جسم الإنسان، كما فى الآية ٥٥ من سورة طه صفحة ٤١٠ والنبات وغير ذلك، ويعلم كل ما ينزل من جهة السماء من الأمطار والملائكة والبلايا والأرزاق إلخ، ويعلم كل مايصعد إلى جهتها كالملائكة وأعمال العباد كما فى الآية (١٠) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٢، ٥٧٣، وهو سبحانه كثير الرحمة لعباده، الغفور للمذنبين إذا رجعوا إليه وبعد ما بين سبحانه شمول قدرته وعلمه لكل شيء، وهذا يقتضى حتما قدرته على بعث الخلق يوم القيامة، ذكر أقوال المنكرين الباطلة بقوله: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ أى القيامة، قل لهم أيها النبى: بلى، أى قولكم باطل، وعزة ربى لتأتينكم حتما. ثم بين مايجعلها يسيرة الحصول عليه سبحانه فقال: (عالم) أى ربى عالم الغيب كله لايغيب عن علمه وزن أصغر جسم فى السموات ولا فى الأرض. ثم أكد هذا بجملة ولا أصغر من الذرة ولا أكبر إلا وهو مسجل فى كتاب تام البيان وهو اللوح المحفوظ. ولم يأمر الله تعالى نبيه بأن يقسم به إلا فى ثلاثة مواضع من القرآن: فيما هنا، وفى الآية (٥٣) من سورة يونس صفحة ٢٧٤، وفى الآية (٧) من سورة التغابن، وكلها فى الرد على مَنْ ينكر البعث. ثم بيَّن سبحانه الحكمة فى بعث الخلق يوم القيامة فقال: (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات) إلخ.

المفردات: . ﴿سعوا فى آياتنا معاجزين﴾: تقدم فى الآية (٥١) من سورة الحج صفحتى ٤٤٠، ٤٤١. ﴿رجز﴾: المراد به هنا أشد أنواع العذاب، وانظر بقية معانيه فى شرح كلمة

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ
فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن
رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ
يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾
أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ
نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ

(رجس) الآية (٩٠) من سورة المائدة صفحة ١٥٥. ﴿الذين أوتوا العلم﴾: هم علماء أهل الكتاب الذين آمنوا كعبد الله بن سلام وأمثاله.

﴿هل ندلكم﴾: أرادوا بهذا الاستفهام السخرية بالنبى ﷺ، ولذا تجاهلوه وقالوا عنه: ﴿رجل﴾ كأنهم لا يعرفونه. ﴿ممزق﴾. مصدر ميمى على وزن اسم المفعول.

﴿جنة﴾: جنون. (بل): حرف يفيد إبطال ماقبله وإثبات مابعده. ﴿كسفا﴾: جمع كسفة كقطعة وزنا ومعنى. ﴿منيب﴾: راجع إلى ربه بالتوبة. ﴿أوبى معه﴾: التأويب الترديد والترجيع، والمراد رجعى التسبيح لله معه وتنزيهه عن كل نقص، انظر الآية (٧٩) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨، والآية (١٩) من سورة ص صفحة ٥٩٩. ﴿والطير﴾: المراد وسخرنا الطير تسبح معه أيضًا، انظر صفحة ٥٥٩ المشار إليها. ﴿وألنا له الحديد﴾: ظاهر قوله تعالى فى الآية (٨٠) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٨، ٤٢٩ ﴿وعلمناه صنعة لبوس.. إلخ﴾ يدل على أنه سبحانه علمه كيف يلين الحديد وكيف يصنع الدروع.. إلخ، كما علم نوحا عمل السفينة فى الآية (٣٧) من سورة هود صفحة ٢٨٩.

المعنى: - إن الله تعالى لم يقدر بعث الخلائق يوم القيامة إلا لأنه عادل قادر حكيم، لايترك الظالم بدون عقاب، ولا المحسن بدون مكافأة، فقد يطغى جبار فى الدنيا بالقتل والسلب، ويبقى معتزا بطغيانه إلى أن يموت، فإذا لم يكن هناك دار يقتص فيها للمظلوم من ظالمه لايتحقق العدل الإلهى. هذا ماأشار إليه سبحانه بقوله: ﴿ليجزى الذين آمنوا﴾ إلخ: وبما فى الآية (٢٢) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣، أى ليكافئ المؤمنين العاملين للصالحات بغفران ذنوبهم، ومنحهم رزقا حسنا فى الجنة لاتعب فيه ولا من عليه. أما الذين أجهدوا أنفسهم فى

---

(١) سعوا . (٢) فى آياتنا. (٣) معاجزين. (٤) صراط. (٥) بالآخرة.
(٦) الضلال. (٧) لآية. (٨) آتينا. (٩) ياجبال.

محاربة القرآن لإعجاز الرسول عن أداء رسالته، فهؤلاء جزاؤهم عذاب من أشد أنواع العذاب إيلاما فى جهنم، انظر آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠.

ثم أكد بطلان قول الكفار بعدم البعث باعتراف علماء أهل الكتاب فقال: (ويرى) أى ويعلم علماء أهل الكتاب أن القرآن الذى أنزل إليك من ربك وفيه البعث والجزاء هو الحق الذى لاشك فيه، وهو الذى يهدى إلى الطريق الموصل إلى الله، العزيز الذى لا يغلب، الحميد الذى يستحق الحمد الكثير. وقال كفار قريش يخاطب بعضهم بعضا استهزاء به ﷺ: هل ندلكم على رجل يحدثكم بأمر عجيب هو أنكم إذا متم ومزقت الأرض أجسامكم كل تمزيق حتى صرتم ترابا فستبعثون أحياء حياة جديدة. هل افترى أى اختلق هذا الرجل على الله كذبا فنسب إليه باطلا أم هو مجنون يقول مالا يعقل؟ فأبطل سبحانه كلامهم بقوله: (بل) أى لم يكذب محمد ﷺ على الله ولم يكن مجنونا، بل الحقيقة أن هؤلاء الذين لايؤمنون بالآخرة هم الذين اختلت عقولهم فوقعوا فى العذاب والضلال الذى أبعدهم عن الحق. ثم وبخهم على إهمالهم النظر فى الأدلة المحيطة بهم وهددهم فقال: ﴿أفلم يروا﴾ إلخ: أى هل عموا فلم ينظروا إلى مايحيط بجوانبهم من السماء والأرض فيعلموا أنهم ليسوا أشد خلقا منها كما فى الآية (٢٧) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠، وإننا إن نشأ نخسف بهم الأرض كما فعلنا بقارون فى صفحة ٥١٨، أو نسقط عليهم قطعا من جهة السماء تهلكهم كالظلة التى أهلكت أصحاب الأيكة فى آيتى (١٨٧، ١٨٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١، ولن يستطيعوا الفرار من السماء والأرض كما فى الآية (٣٣) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠. إن فى كل ماذكر لأدلة واضحة على قدرتنا ينتفع بها كل عبد راجع إلى ربه فى كل شىء. ثم ذكر سبحانه أدلة أخرى شاهدة على كمال قدرته وشمول نعمته فقال: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلا﴾ من النبوة والملك وكثرة الجنود، وقلنا ياجبال رددى معه تنزيه الله عن كل نقص كما يردد، وسخرنا معه الطير تردد معه كذلك، وقد ورد أن الله سبحانه كان أعطاه صوتا خاشعا جميلا، كان إذا سبح الله به يشعر السامع أن كل مافى الكون يسبح معه، وقد ورد فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبى موسى الأشعرى وهو يقرأ القرآن فى الليل فوقف ﷺ يستمع لقراءته متأثرا بها، ثم قال: لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير داود، وماسمعت صوت آلة لهو مهما رق صوتها أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى فى تأثيره فى سامعه رضى الله عنه؛ ومن فضلنا على داود أننا ألنا له الحديد ... إلخ.

ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ[1] وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟
صَٰلِحًا[2] ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ[3] ٱلرِّيحَ
غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ
ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ
عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ
مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ[4] وَتَمَٰثِيلَ[5] وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ
رَّاسِيَٰتٍ[6] ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ[7] دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ
ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ
مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ
ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ
ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ[8] فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ[9] ۖ جَنَّتَانِ
عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ

المفردات: ﴿سابغات﴾: السابغ هو التام الكامل، والمراد دروعا. ﴿قدر﴾ من التقدير، وهو جعل الشيء على قدر الحاجة. ﴿فى السرد﴾: أي النسج ﴿غدوها شهر﴾: أى جريها بالغدوة مقدار سير شهر بالسير العادى السريع والغدوة بضم فسكون هى من أول النهار إلى الظهر، وفى كتب اللغة مابين الفجر وطلوع الشمس ﴿رواحها شهر﴾: الرواح: اسم للوقت من الظهر إلى الغروب.

﴿أسلنا﴾: أى أذبنا. ﴿عين القطر﴾: القطر: النحاس المذاب، وعين القطر: يعنى ذات النحاس كما تقول عين الشيء: أى الشيء نفسه والله أعلم. (يزغ): أى ينحرف عن أمرنا بسبب عصيانه لسليمان. (السعير): نار ملتهبة في الدنيا، والعرب تطلق بعض أسماء مافي الآخرة علي مافي الدنيا، انظر الآية (٩٧٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢، ويصح أن يكون المراد في الدنيا والآخرة وهذا أشد تهديدا. (محاريب): جمع محراب والمراد به هنا المكان المرتفع كالقصر ﴿تماثيل﴾: جمع تمثال وهو الصورة المجسمة لما فيه روح. وكان هذا جائزا في شريعتهم وحرمه الإسلام بشروطه. ﴿جفان﴾: جمع جفنة بفتح فسكون وهي القصعة الكبيرة. ﴿الجواب﴾: أصلها الجوابي وواحدها الجابية، وهي الحوض الكبير. ﴿قدور راسيات﴾: القدور واحدها قدر وهو مايطبخ فيه. وراسيات ثابتات لاتنزل لعظمتها. ﴿قضينا عليه الموت﴾: المراد حكمنا عليه به ونفذناه، حكى ابن كثير فى البداية والنهاية فى سياق كلامه على إبراهيم عليه السلام أن سليمان مات

---

(١) سابغات . (٢) صالحا.
(٣) لسليمان. (٤) محاريب.
(٥) تماثيل. (٦) راسيات.
(٧) آل. (٨) لسبأ .
(٩) آية.

فجأة. ﴿دابة الأرض﴾: الأرض هنا مصدر، تقول العرب أرضت الخشبة، بضم الهمزة وكسر الراء ورفع الخشبة على أنها نائب فاعل، أرضا بفتح فسكون إذا أكلتها الأرضة بفتحات وهى دابة تفتك بالخشب فى أسرع وقت، فالمعنى دابة أكل الخشب ﴿منسأته﴾: عصاه. ﴿خر﴾: سقط. ﴿لبثوا﴾: أى مكثوا. ﴿سبأ﴾: هى قبيلة سبأ. ﴿فى مسكنهم﴾: موضع سكنهم وهو مأرب بوزن منزل، من بلاد اليمن، بينها وبين صنعاء نحو مائة كيلو متر. ﴿آية﴾: أى دليل على قدرة الله سبحانه وتعالى. ﴿جنتان﴾: المراد طائفتان من البساتين ﴿عن يمين وشمال﴾ أى قسم من البساتين عن يمين المقبل عليهم والأخرى عن شماله ولكنها متقاربة حتى كأنها بستان واحد.

المعنى: . وألنا لداود الحديد، وقلنا له اعمل دروعا كاملات من كل وجه. وعبر سبحانه عن هذا بأنه علمه صنعة عمل الدروع، انظر الآية (٨٠) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٨، ٤٢٩ كما علم نوحا عمل السفينة الآية (٣٧) من سورة هود صفحة ٢٨٩. وقلنا له ولآله اعملوا يآل داود كما فى الآية (١٣) الآتية كل الأعمال الصالحة لدينكم ودنياكم، إنى بما تعملون بصير، وسأجازيكم أحسن الجزاء؛ وقبل أن نتناول الآيات التى تحدثت عن سليمان نبى الله يجب أن نعرض لما قاله المفسرون قديما وحديثا فى تحديد ملك سليمان، وفى انتفاعه بهذه الريح، وماقاله العلماء المعاصرون عن المراد بالجن، وعلى ضوئه يمكن فهم الآية فهما صحيحا.

أما تحديد ملكه: . فقد قال جمهور المفسرين إنه كان يشمل الشام على حدودها القديمة، وجزءا من العراق، وفى آخر أمره استولى على ملك سبأ فى جنوب الجزيرة العربية، انظر الآيات من (٢٢ إلى ٤٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٦ ومابعدها، والآية (١٥) ومابعدها هنا وقال النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ فى كتابه المسمى بالعرائس صفحة ٣٢٥ مايأتى: وقال مقاتل: كان سليمان عليه السلام أعظم مُلكا من أبيه داود وأقضى منه، وكان داود أشد تعبدا من ابنه سليمان. وكان ملك سليمان مابين الشام إلى إصطخر (مدينة فى إقليم بلوخستان من بلاد الفرس القديمة). وقيل إنه ملك الأرض كلها. وروى مجاهد عن ابن عباس قال: ملك الأرض أربعة: مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان فسليمان وذو القرنين، وأما الكافران فالنمرود ابن كنعان وبختنصر). انتهى كلام النيسابورى.

نقول إن صح هذا الكلام يكون المراد من الأرض أرض المنطقة التى كان فيها لا الكرة

الأرضية، انظر ماقيل عن ذى القرنين وملكه فى سورة الكهف فإنه لم يملك إلا منطقة معينة. وكذلك النمرود وبختنصر فلم يملكا غير جزء معين من الأرض.

وأما انتفاعه عليه السلام بالريح: ـ فقال جمهور المفسرين إنها كانت له بمنزلة الطائرة فى زماننا، يستعملها فى تنقلاته.

وقال الشيخ النجار فى كتابه (قصص الأنبياء) إنها كانت تُسَيِّر له السفن فى البحار، وقال بعضهم كانت تحمل السحاب الممطر ليسقى له الزرع، ويحيى الأرض الميتة. لكن المتأمل لهذه الآيات يرى أن قوله تعالى ﴿تجرى إلى الأرض التى باركنا فيها﴾ الآية (٨١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٩، يُبعد أنها لتنقلاته، لأن تلك الأرض هى مملكته أو جزء منها فالمناسب أنها تجرى منها إلى غيرها، ولو أراد التنقلات داخل مملكته فقط لقال تجرى فيها، وقوله عاصفة لايناسب الركوب. ولعل الأقرب إلى الفهم هو القول إنها كانت مسخرة لحمل السحاب الممطر الذى عليه حياة الإنسان، والحيوان، والزرع.

وقوله: (رخاء) على هذا معناه أنها ذلول، سهلة القياد لما يريده منها ومما يساعد القول الأول فى تحديد ملكه قوله إلى الأرض التى باركنا فيها، ولم يصف القرآن الأرض بالمباركة إلا أرض الشام، وأيضًا لو كان يستعملها فى تنقلاته؛ لما كان فى حاجة إلى السفر الطويل مع جنده على الأرض حتى كاد يبطش بالحيوانات كما فى الآية (١٨) من سورة النمل صفحة ٤٩٦.

أما عن قول العلماء فى قوله تعالى: ﴿ومن الجن مَنْ يعمل بين يديه﴾ إلخ: فقد قال بعض المعاصرين من العلماء: إن المراد بالجن هنا هم المتمردون من الإنس، الخارجون على النظام، وحجتهم فى ذلك أن الجن المعروف يعلم كل مايحصل فى المحيط الذى يوجد فيه، وموت سليمان حصل وهم موجودون بل قريب منه كما يروى، فكيف لايعلمونه؟

وهذا مردود من وجوه.

الأول: ـ أنه ليس فى اللغة ولا فى القرآن طبعا إطلاق الجن على الإنس، وإنما الذى ورد إطلاقه عليهم هو لفظ ﴿شياطين﴾ كما فىَ الآية (١١٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨١.

الثانى: ـ أن القرآن جعل الإنس قسما مقابلا للجن، مباينا له، انظر الآية (١١٢) المشار

إليها هنا والآية (١٢٨) من سورة الأنعام أيضًا صفحة ١٨٤ والآية (٦) من سورة الناس صفحة ٨٢٧.

الثالث: أن الجن ماكانوا يعلمون كل مايحصل فى الوجود خصوصا ماكان من الأمور غير المنظورة كخروج الروح حتى لو كان قريبًا منهم، ودليل ذلك عدم علم الكثير منهم الذى كان بعيدا عن مكة بنزول القرآن على خاتم الرسل ﷺ إلا بعد أن سمعه نفر منهم وذهبوا إليهم وأخبروهم بما سمعوا، انظر الآيات من (٢٩ إلى ٣٢) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٧٠، ٦٧١، والآية (١) ومابعدها من سورة الجن صفحة ٧٧٠ ومابعدها، وأيضًا اعترفوا بجهلهم بحكمة إرسال الرسول فى الآية (١٠) من سورة الجن أيضا صفحة ٧٧١ ومن الآية (٨) من نفس السورة تعلم أنهم لم يعلموا أن السماء ملئت حراسا إلا بعدما قاربوها للتسمع ولو كانوا يعلمون الغيب بطريق غير مألوف لعلموا وهم على وجه الأرض.

فمن مجموع هذا يعلم أن الحق فى الموضوع أن الجن كالإنس خاضع للنظام الذى وضعه سبحانه لخلقه، وكيف يعلم بعض خلقه مالا يعلمه الآخر فالله سبحانه لم يمكن الجن من علم كل غيب عن الإنسان، بل يمنعهم عما يريد منعهم منه حتى لو حصل فى الخارج ماداموا لم يصلوا إلى علمه، ومنه خروج روح نبى الله سليمان، بل قد منعهم الله سبحانه من أن يتصرفوا كما يريدون فى كل شىء حتى التمثل بالنبى ﷺ. ففى الحديث الصحيح قال ﷺ: (مَنْ رآنى فى المنام فقد رآنى حقا فإن الشيطان لايتمثل بى) والشيطان من الجن كما فى الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨. قال القاضى عياض: منع الله الشيطان من أن يتصور فى صورته ﷺ لئلا يتوصل بذلك إلى الكذب على لسانه صلوات الله عليه، فيلتبس الحق بالباطل، ولا يوثق بما جاء فى عهد النبوة. ويكون معنى الآية تبينت الجن أنهم لو كانوا يعلمون كل غيب مامكثوا فى العمل الشاق بعد موت سليمان، أى فهم كغيرهم من بنى الإنسان إلا أنهم للطافة أجسامهم، وخفتها، وسرعة تحركهم، يمكنهم الإطلاع على بعض مايحصل فى الوجود، ويخفى على بعض أفراد الإنسان، وهذا النوع من الغيب يسمى الغيب الإضافى الذى يعتبر غيبا بالنسبة للبعض دون البعض، وهو يحصل للإنسان نفسه مع الإنسان الآخر فقد يعلم إنسان شيئًا ويجهله غيره، وذلك كالقرار الذى تتفق عليه المحكمة فى غرفة المداولة السرية، فهذا الحكم قبل إعلانه غيب يجهله كل الناس حتى المتهم، ويعلمه أعضاء المحكمة فقط. أما الغيب

المطلق فهو الذى لايعلمه إلا الله، كقيام الساعة، وأعمار الخلق، ومايحصل لهم فى المستقبل من رزق، وصحة، ومرض، وأمثال ذلك.

هذا ماكان يجب ذكره من أقوال العلماء قبل أن نتناول الآيات بالتفسير، والآن نعود إلى قوله تعالى: ﴿ولسليمان الريح﴾ إلخ والمراد: وسخرنا لسليمان نبى الله ابن داود الريح تحرك الشىء الذى يركبه إلى مايريد، وكان سيرها فى نصف النهار كالسير العادى السريع فى شهر، وأذبنا لسليمان النحاس، قيل جعله يسيل له كالماء، وقيل علمه كيف يذيبه؛ وسخرنا له من الجن مَنْ يعمل تحت إشرافه فى إخراج اللؤلؤ من البحار وبناء القصور والحصون كما فى الآية (٣٧) من سورة ص صفحة ٦٠١ إلى غير ذلك مما سيأتى، كانت تعمل بأمر الله تعالى لها. ومَنْ يعص منهم نذقه من عذاب السعير فى الدنيا والآخرة؛ تعمل هذه الشياطين له مايشاء من قصور وحصون وتماثيل وقصاع كبيرة جدا لكثرة الآكلين، وقدور ثابتات لكبرها لاترفع من مكانها، وقلنا لهم اعملوا يآل داود كل عمل صالح لتكونوا شاكرين لله نعمه عليكم، ولاتكونوا كأكثر الناس المقصرين. وقليل من عبادى من يشكر ربه حق شكره، بصرف جميع ماأنعم الله به عليه فيما خلق له، انظر الآية (٢٤) من سورة ص صفحتى ٥٩٩، ٦٠٠، ولما كانت سلطة تسخير الشياطين لم يعطها الله تعالى إلا لنبيه سليمان كما فى الآية (٣٥) من سورة ص صفحة ٦٠١، أراد سبحانه أن يبين كيف فرحت الشياطين بموته فقال: فلما قضينا عليه الموت وكان واقفًا متكئًا على عصاه فى وضع جعله يحفظ توازن جسمه وهو ميت فلم يسقط، فسخر الله تعالى الأرضة أكلت أسفل العصا، فوقع سليمان على الأرض، عند ذلك علمت الجن أنه مات، وعلموا أنهم جهلة فى علم الغيب الذى كانوا ضللوا الناس به، وإلا لو كانوا يعلمون الغيب حقا لما مكثوا فى العمل الشاق لحظة بعد موته، ولم يصح فى تحديد المدة التى قضاها سليمان متكئًا على عصاه وهو ميت حديث، وإنما الذى يجب أن يلاحظ أنها مدة تليق بنبى ملك له أتباع وخدم يرقبون أوقات حاجاته. أما الأرضة فإن منها نوعا يتلف أضخم خشبة فى دقائق، يعرف ذلك أهل السودان وهو أقرب البلاد لديارنا. وبعد ما بيَّن سبحانه مافعله مع مَنْ يشكره أراد أن يبين حال مَنْ ينكر فضله تحذيرا لقريش فقال: (لقد كان لسبأ) إلخ: أى لقد كان لهذا الحى من سبأ فى مسكنهم باليمن دليل على قدرة الله تعالى وفضله لو تنبهوا له لما حصل لهم ماحصل، ثم بين هذه الآية بأنها جنتان: واحدة عن يمين المقبل على واديهم والأخرى على شماله، وقيل لهم كلوا من رزق ربكم واشكروا له فضله على هذه البلدة التى مكنكم الله منها، وهى بلدة طيبة... إلخ.

طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ
الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ
وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا
وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ
سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ
أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ
كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾
وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ
مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ

المفردات: ـ ﴿سيل العرم﴾: العرم جمع (عرمة) بوزن كلمة وهى الحجارة المرصوص بعضها فوق بعض كخزان أسوان بمصر، جعلوها سدا بين جبلين ليحجز ماء المطر، وجعلوا فيه فتحات يأخذون منها بقدر الحاجة، فكثر زرعهم وفواكههم. ﴿جنتين﴾: سمى هذا البدل (جنتين) على سبيل التهكم لزيادة حسرتهم. ﴿أكل﴾: أى ثمر، انظر الآية (٣٣) من سورة الكهف صفحة ٣٨٥. ﴿خمط﴾: مر، بشع الطعم. ﴿أثل﴾: هو نوع من شجر الطرفاء لكنه كبير الحجم يسميه المصريون ﴿إتل﴾بكسر أوله وتاء مثناه بدل الثاء المثلثة ﴿سدر﴾: هو شجر النبق بفتح فسكون. ﴿هل﴾: للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى، أى لانجازى إلا شديد الكفر. ﴿القرى التى باركنا فيها﴾: هى قرى الشام. ﴿قرى ظاهرة﴾: متواصلة بحيث لايخرجون من واحدة حتى يروا الأخرى. ﴿قدرنا فيها السير﴾: أى نظمنا سيرهم فيها بحيث يقيلون فى واحدة ويبيتون فى الأخرى، فلا يحتاجون لحمل زاد ولا مبيت بأرض خلاء. ﴿باعد بين أسفارنا﴾: أى باعد بين منازل أسفارنا، وهى القرى التى كانوا ينزلون فيها مساء وظهرا؛ تمنوا أن يكون بين كل بلد وآخر مسافة بعيدة لاتقطع إلا فى أيام كثيرة بعد ما كانت تقطع فى نصف يوم، حتى لايستطيع قطعها إلا الغنى صاحب الإبل القوية التى تستطيع حمل الزاد والماء فى الصحارى

---

(١) بدلناهم. (٢) جزيناهم.
(٣) نجازى. (٤) باركنا.
(٥) ظاهرة. (٦) آمنين.
(٧) باعد. (٨) فجعلناهم.
(٩) مزقناهم. (١٠) لآيات.
(١١) سلطان. (١٢) بالآخرة.

القاحلة، وبهذا يعجز الفقير فتحصر التجارة فى الأغنياء، وهذا منتهى الجشع والبطر. ﴿جعلناهم أحاديث﴾: يتحدث بها الناس ويضربون بهم المثل. فيقولون تفرق القوم أيدى سبأ والأيدى الجماعة، أى كتفرق جماعة سبأ. ﴿كل ممزق﴾: تقدم فى صفحة ٥٦٣. ﴿صدق عليهم إبليس ظنه﴾: أى حقق عليهم ماظنه فيهم من أن شهواتهم ستمكنه من إغوائهم. وأقسم على ذلك كما فى الآية (٨٢) من سورة صٓ صفحة ٦٠٥. ﴿من سلطان﴾: (من) تفيد تأكيد عموم ما بعدها، وسلطان أى تسلط وقهر. وإنما هى مجرد وسوسة. انظر الآية (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٢.

المعنى: وقلنا لهم على لسان رسلهم: هذه بلدة طيبة فى هوائها وخصوبتها. وربكم الذى رزقكم بهذه النعم وأمركم بالشكر عليها هو رب غفور لما قد يحصل منكم من هفوات. فأعرضوا عن الشكر وكفروا، فأرسلنا عليهم السيل الذى كان يحجزه السد فأهلك زروعهم وأشجارهم، ولم يبق لهم بعد هلاك تلك الجنتين المثمرتين لكل فاكهة إلا شىء حقير هو أشجار ذات ثمر مر الطعم، وأشجار الأثل الذى لايثمر وبعض قليل من شجر النبق. ذلك الذى حل بهم جازيناهم به بسبب كفرهم نعم ربهم وعبادتهم غيره. والله تعالى لايجازى مثل هذا الجزاء إلا شديد الكفر. وبعد ما بين سبحانه ماأنعم به عليهم فى مساكنهم. وما قابلوا نعمته به من الكفر، وماحل بهم، أراد أن يبين نعمة أخرى عليهم فى أسفارهم التى اضطروا إليها بعد تخريب مزارعهم بالسيل. وكان ممكنا أن يعتبروا ويستقيموا ليرجع الله تعالى إليهم شيئًا مما فقد منهم، ولكنهم قابلوها أيضًا بالبطر وقسوة القلوب ولم يعتبروا. فعاقبهم فى هذه المرة بالتشريد فى أنحاء الأرض فقال: ﴿وجعلنا بينهم﴾ إلخ: أى لما كانت حياتهم تقتضى السفر إلى الشام للتجارة سهلنا لهم ذلك بأن جعلنا بينهم وبين الشام قرى متقاربة. وقلنا لهم بلسان الحال سيروا فيها ليالى وأياما آمنين لاتخافون جوعًا ولا عطشًا. ولكن أغنيائهم تمنوا فى دخيلة أنفسهم أن تكون المسافات بين كل بلد وأخرى فى الطريق بعيدة جدا لتنحصر التجارة فيهم. ولما حصل لكثير من تلك البلاد ما خربها، وكان سيل العرم قبل ذلك أفقرهم وصعب

قطع المسافة حتى على الأغنياء منهم، فضجوا بالشكوى وقالوا تحسرا: إن ربنا باعد بين منازلنا فى السفر حتى عجزنا.

يدل على هذا القراءة الأخرى السبعية (رُبنا بضم الباء، وباعد بفتح العين والدال) فكأن الذى حصل منهم شيئان: الأول تمنى الأغنياء منهم إبعاد المسافات بين القرى. والثانى تحسر الجميع على ماحصل حتى عَمَّ العجز. والقرآن أفاد المعنى الأول بالقراءة الموجودة بالمصحف، وأفاد المعنى الثانى بالقراءة الثانية. وذلك نظير إفادة معنيين فى قوله: ﴿وأرجلكم﴾ بالآية (٦) من سورة المائدة صفحتى ١٣٦، ١٣٧. وبعملهم هذا ظلموا أنفسهم، فكانت النتيجة أننا جعلناهم أحاديث الناس. ثم بيَّن كيف جعلهم سبحانه أحاديث فقال: ﴿ومزقناهم﴾ إلخ: أى فرقناهم فى أنحاء الأرض غاية التفريق؛ بعضهم إلى الشام، وبعضهم إلى المدينة وهم الأوس والخزرج، وبعضهم إلى عمان وبعضهم إلى تهامة؛ إن فى كل ماذكر لعبرة لكل مؤمن قوى الصبر على المعاصى، كثير الشكرلنعم ربه، فهو الذى تنفعه الذكرى. ولقد صدق إبليس ظنه على بنى آدم الذين منهم أهل سبأ، فاتبعوه فى وسوسته إلا فريقا من المؤمنين فإنهم لم يتبعوه، وهم لأنهم تحصنوا بالصبر شرفهم الله تعالى بالإضافة إلى نفسه فى الآية (٤٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤١. ثم قال سبحانه: ﴿وماكان له﴾ إلخ: المراد نمكن الشيطان من التسلط عليهم بالوسوسة لإمتحانهم فيظهر ويتميز مَنْ يؤمن بالآخرة منهم فيخاف ربه، ممَنْ هو فى شك من الآخرة لايؤمن بها، فيعلم الله تعالى مايحصل من كل فريق منهم علم حصول. وربك على كل شىء حفيظ. فهو سبحانه مهيمن بقدرته وعلمه. فكان يستطيع منع إبليس ويجعل العبد مجبورا على التقوى كالملائكة. وهو سبحانه يعلم كل شىء قبل حصوله على أنه سيحصل، والذى وجد هنا هو علم أنه حصل، قال أبو الحسن البصرى: والله ماضربهم إبليس بعصا، وماكان منه إلا أنه حسن لهم شهواتهم فأجابوه. ثم انتقل سبحانه لتوبيخ مشركى العرب وإقامة الحجة عليهم فقال: قل يأيها النبى لكفار قومك ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة غير الله ليجلبوا لكم نفعا أو يدفعوا ضرا.

لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾
وَلَا تَنفَعُ الشَّفَٰعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا
فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ
الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَٰوَٰتِ
وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ
وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ
شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَٰكَ
إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ

المفردات: . ﴿مثقال ذرة﴾: تقدم فى الآية (٦) من سورة يونس صفحتى ٢٧٥، ٢٧٦. ﴿من شرك﴾: (من) لإفادة عموم مابعدها وكذا (من) فى قوله من ظهير. والمراد: ليس لهم مشاركة فى خلق السموات والأرض.

﴿ظهير﴾: معين. ﴿فزع عن قلوبهم﴾ أى أزيل الفزع والخوف عن قلوبهم نحو قولهم قشر الشجر بضم القاف وتشديد الشين أى أزيل قشره. ﴿العلى﴾: المستعلى فوق كل خلقه. ﴿الكبير﴾: أى فى عظمته. ﴿أجرمنا﴾: فعلنا جرما، وهذا هضم للنفس ولين فى الخطاب لعل المشركين يتركون شيئًا من عنادهم. ﴿يفتح﴾: أى يحكم وينصر، انظر الآية (١١٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٧. ﴿كلا﴾: كلمة تدل على الزجر. ﴿كافة﴾: أى جامعة عامة، والمراد: رسالتك عامة للناس جميعا، انظر الآية (١٥٨) من سورة الأعراف صفحة ٢١٨.

المعنى: . قل أيها النبى لمشركى قومك الذين يعرفون ماحصل لسبأ منبهًا على بطلان ماهم عليه وتبكيتا لهم: ادعوا معبوداتكم الذين زعمتم أنهم آلهة غير الله ليجلبوا لكم نفعا أو يدفعوا عنكم ضرا، ثم أجاب عنهم بما لاجواب غيره فقال: لايملكون وزن أصغر شىء فى هذا الكون علويه وسفليه، وليس لهم فيهما أية شركة فى خلقهما ولا فى ملكهما، وليس لله تعالى من هذه الآلهة معين يعينه على تدبير مافيهما، انظر الآية (٨٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦ والآية (١٣) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣. وبعدما بين أن آلهتهم لاتنفعهم فى الدنيا بمثقال ذرة، شرع فى بيان أنها لاتنفع فى الآخرة أيضًا فقال: ﴿ولاتنفع الشفاعة عنده﴾ إلخ: والمراد لاتوجد لهم شفاعة أصلا؛ لأنها لاتوجد إلا لعبد مرضى عنه من الله سبحانه كما فى الآية (٢٨) من سورة

(١) السموات. (٢) الشفاعة. (٣) السموات.
(٤) ضلال. (٥) لاتسألون. (٦) نسأل.
(٧) أرسلناك.

الأنبياء صفحة ٤٢٣، ولاتوجد إلا من شافع مأذون له من الله، وهو سبحانه لايأذن لصنم ولا لشيطان، انظر الآية (٢٥٥) من سورة البقرة صفحة ٥٣، والآية (٢٦) من سورة النجم صفحتى ٧٠١، ٧٠٢ وشرح الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦. ولما كانت الشفاعة لاتكون إلا فى يوم القيامة أشار سبحانه إلى ماسيكون فيه بقوله ﴿حتى إذا فزع﴾ إلخ: والأصل يقف الخلائق يوم القيامة فزعين خائفين منتظرين خلاصا إلى أن يأذن الله عز وجل بالفصل وبفتح باب الشفاعة، فيرتفع الفزع عن قلوب المؤمنين، ويقول بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ فيقول الآخرون: قال الحق المقرر سابقا، وهو أنه سبحانه يقبل الشفاعة ممَّنْ يرضى له قولا، فيمن رضى عنه من المذنبين لأن خيره كان أكثر من شره، وهو سبحانه ذو العلو والكبرياء، ليس لملك ولا لنبى أن يتكلم إلا بإذنه. وبعدما بكت المشركين بأن آلهتهم لاتملك شيئًا وبخهم أيضًا بأنها لاترزق فقال: ﴿قل مَنْ يرزقكم﴾ إلخ: أى قل لهم أيها النبى مَنْ الذى يرزقكم من جهة السماء بإنزال الغيث الذى عليه حياتكم، وبتسخير الشمس والقمر والنجوم لمنافعكم، ومن الأرض بإخراج الأقوات. ولما كان الجواب معينا سارع إليه بقوله: ﴿قل الله﴾. ثم أمره ﷺ أن يلين لهم الخطاب لعله يكسر من حدة عنادهم بقوله: ﴿وإنا أو إياكم﴾ إلخ: أى كل واحد منا نحن وأنتم إما متمكن من الهدى، وإما غارق فى ظلمات الضلال الواضح. وقل لهم أيضًا أنتم لاتسألون عما نرتكب من الذنوب، ونحن لا نسأل عما تعملون من خير أو شر، ونظيره فى الآية (٤١) من سورة يونس صفحة ٢٧٣. فإذا لم يهتدوا فقل لهم سيجمع بيننا ربنا يوم القيامة ثم يقضى بيننا بالحق، وهو سبحانه القاضى العليم، فلا يخطئ الصواب. وبعدما ألزمهم الحجة سألهم عن شبهتهم فى عبادة غيره تعالى زيادة فى تبكيتهم فقال: قل أرونى هذه المعبودات التى ألحقتموها بالله شركاء له: هل لها هذه الصفة حقيقة، أم هى مجرد أسماء لاحقيقة لها كما فى الآية (٤٠) من سورة يوسف صفحة ٣٠٩؟، ثم زجرهم عن هذا الباطل بقوله: كلا بل الإله الحق هو الله الواحد العزيز الحكيم. وبعدما أقام أدلة التوحيد شرع فى الأصل الثانى وهو الرسالة فقال: ﴿وما أرسلناك﴾ إلخ: أى وما أرسلناك إلا رسالة عامة للناس جميعا حال كونك مبشرا مَنْ يؤمن بالجنة محذرا مَنْ يعصى بالنار، ولكن أكثر الناس لايعلمون الحق، فيحملهم الجهل الناتج عن الإهمال فى النظر فى الدليل على الإصرار على الضلال... ثم انتقل للأصل الثالث وهو البعث فقال: ﴿ويقولون متى﴾ إلخ: أى يقول كفار قريش على وجه الاستهزاء لشدة عنادهم: متى هذا الشىء الذى وعدتنا به يامحمَّد وبشرت مَنْ آمن بك بالجنة ومَنْ كفر بالنار، إن كنت صادقا أنت ومَنْ معك فقل لنا متى يحصل هذا؟!

صَادِقِينَ (١) ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ (٢) عَنْهُ
سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ
بِهَٰذَا الْقُرْآنِ (٣) وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ (٤)
مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ
يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا
مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا
أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ (٥) عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم
مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ (٦) وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ
وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ
وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ (٧) فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن

المفردات: . ﴿ميعاد يوم﴾: المراد بالميعاد هنا هو زمن الشىء الموعود به، فهو مضاف لما يبينه، فالمعنى زمن ماوعدتم به هو يوم محدد ﴿الذى بين يديه﴾: مرادهم الكتب التى سبقت القرآن كالتوراة والإنجيل ﴿يرجع بعضهم إلى بعض القول﴾: أى يرد بعضهم على بعض ويلقى اللوم عليه. ﴿الذين استضعفوا﴾: هم الأتباع. ﴿بعد إذ جاءكم﴾: الأصل بعد وقت مجىء الهدى، والمراد بعد علمكم بما فيه هدايتكم.

﴿الذين استكبروا﴾: هم الرؤساء انظر الآية (٦٧) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١. ﴿مكر الليل والنهار﴾: أى مكركم بنا المستمر ليلا ونهارا. ﴿أندادا﴾: أى شركاء.. يدعون أنهم يشبهونه تعالى وهو سبحانه ليس كمثله شىء.

﴿أسروا الندامة﴾: لم يظهروها لاشتغالهم بما دهاهم من الأهوال.

﴿الأغلال﴾: قيود الحديد التى جمعت أيديهم إلى أعناقهم. ﴿هل﴾: حرف استفهام مشرب معنى النفى أى لايجزون. ﴿من نذير﴾: (من) حرف يفيد النص على العموم فى نذير.

المعنى: . ويسأل الكفار على وجه الاستهزاء قائلين: متى هذا الوعد فأت به إن كنت صادقا يامحمد أنت ومَنْ معك ممَنْ يقول بقولك، قل لهم: لكم زمن يتحقق فيه ماوعدتم به محدد لاتستأخرون عنه لحظة إذا جاء، ولاتستقدمون عليه قبل مجيئه، لأن الله جعل له أجلا لايتخطاه، ولا يعلمه غيره سبحانه. وبعدما أثبت الأصول الثلاثة وهى التوحيد، وإرسال رسل من البشر، والبعث، وكانوا كافرين بها، ذكر جريمة أخرى لكثير منهم وهى إنكار كل الكتب السماوية فقال: ﴿وقال الذين كفروا﴾ إلخ: أى وقال مشركو العرب أى غير أولاد إسماعيل؛

---

(١) صادقين. (٢) تستأخرون. (٣) القرآن. (٤) الظالمون.
(٥) صددناكم. (٦) الليل. (٧) الأغلال.

لأن أولاده يؤمنون برسول من البشر: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب التى سبقته. ثم انتقل سبحانه لبيان ماسيكون من جدال بينهم يوم القيامة لعلهم يتنبهون فقال: ﴿ولو ترى﴾ إلخ: أى ولو ترى يامَنْ تصح منك الرؤية فى ذلك اليوم حال هؤلاء الظالمين لأنفسهم بالكفر حين توقفهم الملائكة للحساب عند ربهم حال كونهم يرد بعضهم على بعض التهم لرأيت حالا مفزعة تتفتت لها الأكباد، انظر الآية (٢٢) ومابعدها من سورة الصافات صفحة ٥٨٨ فهى نظير ذلك. ثم فصل بعض جدالهم فقال: ﴿يقول الذين استضعفوا﴾ إلخ: أى يقول الأتباع الضعفاء للرؤساء الذين كانوا مستكبرين: لولا وجودكم وتضليلكم لكنا مؤمنين، فيرد المستكبرون على الضعفاء بقولهم: هل نحن منعناكم عن اتباع الحق بعد علمكم بمجيئه من عند الله؟

كلا لم نمنعكم قهرًا عنكم، بل أنتم الذين كنتم متمكنين من الإجرام فى داخل أنفسكم بإعطائكم نفوسكم حظًا من الشهوات، وتفضيلكم الدنيا على الآخرة، فيرد المستضعفون قائلين: بل صدنا مكركم بنا الدائم بالليل والنهار لتحملونا كما يحمل الآمر المأمور على أن نكفر بالله ونجعل له شركاء يشبهونه. ثم بين سبحانه مادهاهم حتى قطع عليهم الجدال فقال ﴿وأسروا﴾ إلخ: أى وأخفوا الندامة على ماكان منهم من ضلال وإضلال حين رأوا العذاب الشديد، وعقد ألسنتهم ماشاهدوه من الهول. وجعلنا الأغلال فى أعناقهم يسحبون بها إلى جهنم لأنهم كفروا، ومانجازيهم إلا جزاء يناسب أعمالهم الشنيعة. وبعدما بين سبحانه ماسيكون عليه الكافر يوم القيامة أراد أن يصبر رسوله على عنادهم بأن هذه هى عادة الأمم مع أنبيائهم، والعاقبة للمتقين، فقال: وما أرسلنا فى قرية من قرى الأمم السابقة نذيرًا مهما كان.

المفردات: - ﴿نذير﴾: المراد رسول يحذرهم ويخوفهم من عصيان ربهم. ﴿مترفوها﴾: هم المتوسعون فى الترف وهو التنعيم، انظر الآية (٦٤) ومابعدها من سورة المؤمنون صفحة ٤٥١. ﴿أرسلتم به﴾: قالوا ذلك على سبيل التهكم لأنهم لايعتقدون أنهم رسل، انظر مثله فى الآية (٦) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨. ﴿يقدر﴾: أى يضيق. (زلفى): هى القربى وزنًا ومعنى وهى مصدر من معنى الفعل قبله جاء لتأكيده كقولهم قعد جلوسا.

نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾
وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾
قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ
أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ
فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا
مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ
رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ
وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾
وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ
كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم

﴿جزاء الضعف﴾: أى الجزاء المضاعف، الحسنة بعشر أمثالها. ﴿يسعون فى آياتنا معاجزين﴾: تقدم فى الآية (٥) من هذه السورة صفحة ٥٦٣. ﴿محضرون﴾: تحضرهم الملائكة رغم أنوفهم، انظر الآية (٦١) من سورة القصص صفحتى ٥١٥، ٥١٦.

﴿قل إن ربى يبسط الرزق﴾ إلخ: الفرق بين هذه وما قبلها فى الآية (٣٦) من وجوه: الأول أن ماسبق كان فى سياق الرد على أن كثرة الرزق علامة رضا الله، وماهنا لبيان أن الرزق بيد الله تعالى، فلا تخشوا الفقر وأنفقوا أيها المؤمنون تقربا إليه تعالى، والثانى ماسبق عام فى البسط على شخص والتضييق على آخر أو على شخص فى وقتين، وماهنا خاص بالبسط والتضييق لشخص واحد باعتبار وقتين وحالين.

﴿أنت ولينا من دونهم﴾: تقدم بيان ذلك فى الآية (١٨) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢.

المعنى: ـ وما أرسلنا فى قرية رسولا يحذر أهلها من عصيان ربهم إلا قال قادتها وكبارها إنا بما أرسلتم به فى زعمكم من التوحيد والبعث وغيرهما كافرون. وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا منكم أيها الذين تزعمون أنكم رسل الله، وهذا دليل على رضا الله عنا، فلو كان ماتدعوننا إلى تركه من الشرك وغيره لايرضيه لما أعطانا هذه النعم، ولو أراد إرسال رسول لأرسله من الأغنياء الذين يرضى عنهم، انظر الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠ والآية (٥٣) من سورة الزخرف أيضًا صفحة ٦٥٢، وإذا كان الأمر كذلك فما نحن بمعذبين فى الدنيا بشىء مما يكدر حياتنا، ولا فى الآخرة إن جاءت كما تزعمون. قل لهم أيها النبى: إن ربى يبسط

---

(١) كافرون. (٢) أموالا. (٣) أولادًا. (٤) أموالكم.
(٥) أولادكم. (٦) آمن. (٧) صالحا. (٨) الغرفات.
(٩) آمنون. (١٠) آياتنا. (١١) معاجزين. (١٢) الرازقين.
(٣) للملائكة. (١٤) سبحانك.

بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾
فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا
تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا
مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ
آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾
وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ
قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا
مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ
نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ * قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا
لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ

﴿إفك﴾: كلام لا حقيقة له. ﴿مفترى﴾: مدعى أنه من عند الله.

﴿للحق﴾: اللام بمعنى (عن) كما فى الآية (١١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧. (إن هذا إلا سحر): (إن) حرف نفى أى ما هذا إلخ.

﴿من كتب﴾: (من) لتأكيد العموم فيما بعدها، وكذا من فى قوله: (من نذير).

﴿يدرسونها﴾: يتقنون قراءتها وفهمها.
﴿معشار﴾: عشر بضم فسكون.

﴿نكير﴾: انكار، انظر الآية (٤٤) من سورة الحج صفحة ٤٤٠.

﴿أعظكم﴾: أنصحكم. ﴿تقوموا﴾: أى تجتهدوا فيما أطلبه منكم. ﴿مثنى﴾: أى اثنين اثنين. ﴿فرادى﴾: واحدا واحدا. ﴿مابصاحبكم﴾: ليس بصاحبكم محمد ﷺ. ﴿من جنة﴾: (من) لتأكيد العموم فيما بعدها. والجنة الجنون.

المعنى: لما سأل سبحانه الملائكة الذين كان كفار قريش يعبدونهم لزيادة تقريعهم، أجاب الملائكة بقولهم: سبحانك ربنا وتقدست أن يكون معك إله، نبرأ إليك من هؤلاء فلا موالاة بيننا وبينهم، إنما ولينا أنت وحدك، وهم كاذبون فى زعم أنهم كانوا يعبدوننا، بل كانوا فى الحقيقة خاضعين لتأثير الشياطين الذين زينوا لهم الشرك بدعوى تقليد الآباء، وأكثرهم مؤمنون بهذه الوسوسة، وأقلهم مقلدون للأكثر. وبعد ذلك يوجه سبحانه الخطاب لهم بقوله: (فاليوم) إلخ: أى فى هذا اليوم الذى خلص فيه الملك لله وحده كما فى الآية (١٦) من سورة غافر صفحة ٦١٩ لايملك بعضكم لبعض جلب نفع ولا دفع ضر، ونقول للذين ظلموا أنفسهم بالشرك ذوقوا

---

(١) آياتنا. (٢) بينات. (٣) آباؤكم. (٤، ٥) آتيناهم . (٦) بواحدة. (٧) فرادى.

عذاب النار الذى كنتم به تكذبون، وتقولون لايبعث الله مَنْ يموت وليس هناك دار جزاء. ثم ذكر سبحانه بعض باطلهم الذى استحقوا به العذاب فقال: وإذا قرأ رسولنا عليهم آياتنا حال كونها واضحات فى الدلالة على الحق قال هؤلاء الكافرون ماهذا إلا رجل يريد أن يمنعكم عما كان يعبد آباؤكم، وقالوا أيضا: ماهذا القرآن الذى يتلوه عليكم محمَّد (ﷺ) بالنسبة لمعانيه إلا كذب ادعى محمد أنه من عند الله، وقالوا أيضًا للقرآن الحق لما جاءهم فى أسلوب معجز: ماهذا إلا سحر واضح. ثم رد عليهم بقوله ﴿وما آتيناهم﴾ إلخ: أى وما آتينا أهل مكة كتبا يدرسونها تفيد صحة الشرك حتى يعذروا فيه، انظر الآية (٣٥) من سورة الروم صفحة ٥٣٥ والآية (٢١) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩ والآية (٤) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٦، وما أرسلنا إليهم قبلك نذيرا يحذرهم من عدم الشرك، وإذا كنا لم نفعل ذلك فمن أين جاءوا بهذا الشرك؟ بل جاءتهم الرسل بالتوحيد انظر الآية (٢٤) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٤، ٥٧٥. ثم هددهم إذا استمروا بأن يحصل لهم مثل ماحصل لأمثالهم فقال ﴿وكذب الذين﴾ إلخ: أى وقد سبق أن الذين قبلهم من الأمم كذبوا أنبياءهم، كعاد وثمود، ومابلغ أهل مكة عشر ما آتينا هؤلاء الأولين من طول الأعمار وقوة الأجسام وكثرة الأموال والأولاد، انظر الآية (٧٨) من سورة القصص صفحة ٥١٨ والآية (٩) من سورة الروم صفحة ٥٣١ والآية (٨٢) من سورة غافر صفحتى ٦٢٨، ٦٢٩ والآية (٨) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٧؛ كذب هؤلاء رسلى فانظر كيف كان أثر غضبى عليهم ترى هولاً عظيما.

والمعنى: فليحذر كفار قريش مثل ذلك. ثم أمر سبحانه نبيه أن يلين لهم الجانب فى الارشاد فقال: ﴿قل إنما أعظكم﴾ إلخ: أى لا أنصح لكم أيها الناس إلا بخصلة واحدة هى أنكم بدل أن تسارعوا إلى التكذيب عنادا بدون بحث أن تجتهدوا فى الأمر بإخلاص لوجه الله حال كونكم متفرقين اثنين اثنين أو واحدا واحدا؛ لأن الكثرة فوق ذلك توجب تهويش الخواطر وتشتيت العقول فيفسد التفكير؛ لأن الفرد الواحد فى الكثرة يفكر ويعمل بعقل غيره ويسير تبعا لحركة تلك الجمهرة، ثم تتفكروا فى أمر صاحبكم محمَّد الذى عاشرتموه مدة طويلة، وعرفتم عنه سلامة العقل وحسن التفكير، وفيما جاء به، فستصلون قطعا إلى أنه ليس به جنون كما تزعمون، انظر الآية (٦) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨.

إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾
قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ
بِالْحَقِّ عَلَّامُ(١) الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ
الْبَاطِلُ(٢) وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ
عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ
قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا
مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا(٣) بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ
التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ
وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ
وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ
كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

المفردات: . ﴿إن هو﴾: (إن) حرف نفى بمعنى ما. أى ماهو. ﴿نذير﴾: محذر من عصيان الله. ﴿بين يدى﴾: أى أمام. ﴿إن أجرى﴾: (إن) حرف نفى بمعنى ما. أى ما أجرى. ﴿يقذف بالحق﴾: يقال قذف به أى رماه بقوة، والمراد يقذف الحق على الباطل فيزهقه، انظر الآية (١٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٢. ﴿مايبدىء الباطل ومايعيد﴾: المراد بالباطل الكفر، والإبداء فعل الشىء أولاً، والإعادة فعله ثانيا، وهما لايكونان إلا من الحى لا من الميت، فالمراد ذهب الشرك ولم يبق له أثر.

﴿فزعوا﴾: انزعجوا. ﴿لافوت﴾: أى لا مهرب لهم من الله.

﴿أنى﴾: أى كيف. ﴿التناوش﴾: هو التناول السهل لشىء قريب.

والمراد: لايستطيعون الحصول على الإيمان المنجى بعد خروجهم من الدنيا. انظر آيات (١٥٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٩٠، ١٩١ و(٨٤، ٨٥) من سورة غافر صفحة ٦٢٩. ﴿يقذفون بالغيب﴾: المعنى يرجمون بالظن ويتكلمون فيما لاعلم لهم به، والمراد أن الذى يرمى الهدف المشاهد من بعيد قلما يصيب، فما بالك بالذى يرمى وهو لايرى شيئا، لأن الأمر مغيب عليه.

﴿أشياعهم﴾: مفردها شيعة كما فى الآية (١٥) من سورة القصص صفحة ٥٠٨، والشيعة هى الجماعة المتفقة فى مبدأ خير أو شر. والمراد أمثالهم.

﴿مريب﴾: موقع فى الريبة أى الشك.

المعنى: . ليس صاحبكم مجنونا كما تفترون، وماهو إلا ناصح لكم بتحذيركم من أنكم ستلاقون عذابا شديدا إذا بقيتم على كفركم. ثم أمر سبحانه نبيه أن ينبههم إلى أنه لايريد

---

(١) علاَّم. (٢) الباطل. (٣) آمنا.

منهم مالا كما يطلب رؤساء الدنيا فقال: ﴿قل ماسألتكم﴾ إلخ: المراد أنه لو فرض وسألت منكم أجرًا على تبليغ الرسالة فقد تنازلت عنه لكم، إذ ليس أجرى إلا على الله، وهو سبحانه مطلع على كل شيء، فيعلم صدقى، ولو كنت كاذبًا لخذلنى وبعدما أثبت أنه ليس طالب دنيا أمره سبحانه أن يبلغهم أن ماجاء به هو الحق من الله، وأنه سبحانه سيهلك الباطل، فقال ﴿قل إن ربى﴾ إلخ: أى إن ربى الذى أوحى إلىَّ هذا الحق هو الذى يقذف به فى وجه الباطل فيمحقه، وهو علاّم الغيوب، فلا يفلت منه باطل. ثم أوقعهم فى اليأس فأمر نبيه أن يقول لهم: جاء الحق، وثبتت تعاليم الإسلام، وذهب الباطل ولم يبق له أثر. ثم أمر سبحانه نبيه أن يلين لهم الكلام ثانيا كما سبق فى الآية (٢٤) ومابعدها من هذه السورة صفحة ٥٦٦، فقال (قل إن ضللت) إلخ: أى إن كنت فيما أقول بعيدا عن الصواب فإن وبال ذلك عائد على نفسى، لأنها هى الأمارة بالسوء، وإن اهتديت فبهداية ربى، إنه سميع لقولى وقولكم، قريب منى ومنكم، لايخفى عليه شيء، فيجازى كلا بما يستحق. وبعدما أبطل سبحانه كلامهم وسلك معهم كل الطرق من شدة ولين، أراد أن يذكرهم بما سيكون من الكافر يوم القيامة لعلهم يتنبهون فقال: (ولو ترى) إلخ: أى ولو ترى يا مَنْ يصح أن ترى فى ذلك اليوم هؤلاء الكفار حين يفزعون ويذعرون من هول الموقف لرأيت أمرًا عظيمًا، ولا مهرب لهم من عذاب الله، وأخذتهم الملائكة من مكان الموقف القريب من النار فطرحتهم فيها ويقولون حين يشاهدون العذاب آمنا بالرسول وندمنا على قولنا إنه ساحر. وكيف يكون لهم الحصول على الإيمان بسهولة من مكان بعيد هو الدنيا التى هى دار التكليف والتوبة وقد انقضى وقتها واستحال رجوعها؟ كيف يحصل لهم هذا والحال أنهم قد كفروا بمحمَّد من قبل فى الدنيا. و كانوا يرجمون بالظنون الباطلة من مكان بعيد عن الصواب بما كانوا يقولونه فيه ﷺ إنه ساحر كاهن، انظر الآية (٣) ومابعدها من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠، فكانت عاقبة كل ماسبق منهم أن يحول الله بينهم وبين مايشتهون من إيمان ينفعهم كما فعل بأمثالهم من قبل عندما آمنوا بعد فوات الوقت، لأن الجميع كانوا غارقين فى الشك فى صدق الرسل، وقد تمكن الشك منهم حتى صاروا لايثقون بشيء مما جاءت به الرسل، انظر آيتى (٩٠، ٩١) من سورة يونس صفحة ٢٨٠.

نسأل الله تعالى حسن الخاتمة.

(٣٥) سُورَةُ فَاطِرٍ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[1] وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ[2]
رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ[3] وَرُبَٰعَ[4] يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ
مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ
لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ
لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ[5] غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣)
وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ

سورة فاطر

بسم الله الرحمن الرحيم

تضمنت هذه السورة كمعظم السور المكية إثبات الأصول الثلاثة، وهى: التوحيد والرسالة والبعث.

﴿فاطر﴾: موجد على غير مثال سابق.

﴿السموات والأرض﴾: المراد هما وما حويا من العالم بأسره.

﴿أولى أجنحة﴾: ذات أجنحة. ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾: تقدم فى الآية (٣) من سورة النساء صفحتى ٩٧ و ٩٨ .

﴿ما يفتح الله للناس من رحمة﴾: يفتح أى يعطى و﴿من﴾: حرف يدل على أن ما بعده مبين وموضح للمبهم قبله وهو ﴿ما﴾ فى قوله: ﴿ما يفتح﴾ والمراد الرحمة التى يعطيها اللّه سبحانه للناس.

﴿لا ممسك لها﴾: أى لا مانع لها، وذكر الضمير هنا مؤنثًا لملاحظة معنى ﴿ما﴾ وهو الرحمة وذكره مذكر فى قوله: ﴿وما يمسك فلا مرسل له﴾ باعتبار لفظ ﴿ما﴾. ﴿هل﴾: حرف استفهام إنكارى يفيد النفى، أى لا خالق. ﴿من﴾: لتأكيد العموم فيما بعدها. ﴿فأنى﴾: فكيف. ﴿تؤفكون﴾: أى تصرفكم الشياطين عن الصواب.

---

(١) السموات (٢) الملائكة (٣) ثلاث
(٤) رباع (٥) خالق

المعنى: الثناء الجميل كله لله لأنه خالق جميع هذا العالم على مثال لم يسبق، وهو سبحانه الذى جعل الملائكة رسلا إلى مخلوقاته لتنفيذ أوامره فيها ولو بالعذاب كما فى الآية (٥٨) من سورة الحجر صفحة ٣٤٢، وإلى أنبيائه، وهم كبارهم كما فى الآية (٧٥) من سورة الحج صفحة ٤٤٤ . وجعل هؤلاء الملائكة أصحاب أجنحة، فمنهم مَنْ له جناحان، ومنهم مَنْ له ثلاثة، ومنهم مَنْ له أربعة. والبحث عن حقيقة هذه الأجنحة وصفتها ومواضعها من الجسم فى هذا العالم الغيبى مما لم يكلفنا الله عز وجل علمه، ولم يصح فيه عن النبى ﷺ حديث، وإنما الذى يعنينا أن نعلم أن كثرة الأجنحة دليل القدرة على السرعة فى تنفيذ أوامره تعالى وتبليغ رسالته، ويفيد أن الملائكة تتفاوت أقدارهم عند الله ومقدرتهم على الانتقال. يزيد سبحانه بموجب مشيئته فى خلقه ما يشاء زيادته، ومن ذلك أجنحة الملائكة. روى مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود أنه ﷺ رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح. فسبحان العليم بأسرار خلقه. إن الله على كل شىء قدير، لا يعجزه شىء أراده. ومن دلائل قدرته سبحانه أنه إذا أعطى بعض الناس أشياء من آثار رحمته كصحة وولد ومال وعلم وحكمة وغير ذلك فلا أحد يستطيع منعها، انظر الآية (٣٨) من سورة الزمر صفحة ٦١١. وإذا منع أثرًا من آثار رحمته عن أحد فلا يستطيع غيره سبحانه أن يعطيه له، انظر الآية (٢١) من سورة الملك صفحة ٧٥٦، وهو سبحانه العزيز أى الغالب على ما يشاء بلا منازع، الحكيم الذى لا يفعل إلا بعلم وإتقان. وبعدما بيَّن سبحانه أنه المالك لكل شىء وأن مصدر الخير كله بيده، أمر بشكره، فقال: يأيها الناس اذكروا نعمة الله واحفظوها بطاعة المنعم بها. ثم نفى أن يكون لغيره فى ذلك مدخل فقال: ﴿هل من خالق﴾ إلخ: أى لا خالق غير الله يرزقكم من جهة السماء بالمطر وغيره، ومن الأرض بالنبات وغيره كما تقدم فى الآية (٢٤) من سورة سبأ صفحة ٥٦٦، لا إله إلا هو، فكيف تصرفون عن توحيده؟ ثم تكلم سبحانه على إثبات رسالته ﷺ مسليًا له على ما قابله به الكفار فقال: وإن يكذبوك فلا تحزن فقد كذب رسل من قبلك، فعليك أن تتأسى بهم وتصبر، وإلى الله المرجع كله.

تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا
تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ[1] ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾
إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ[2] لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ
لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ[3] ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[4] وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ[5] لَهُم مَّغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ[6] حَسَنًا
فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ
نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ[7] إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾
وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ[8] فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ[9] إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ
فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾
مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ
ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ[10] يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ

المفردات: ﴿الغرور﴾: تقدم فى الآية (٣٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤ . ﴿زين له سوء عمله... ﴾إلخ: انظر الآيات (٣٠) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦ و(١٠٤) من سورة الكهف صفحة ٢٩٥ و(٣٦، ٣٧) من سورة الزخرف صفحتى ٦٥٠، ٦٥١ .

﴿تذهب نفسك﴾ إلخ: المراد لا يشتد حزنك عليهم حتى تهلك نفسك حسرة عليهم، انظر الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠ والآية (٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٧٩ .

﴿تثير سحابا﴾: تقدم فى الآية (٤٨) من سورة الروم صفحة ٥٣٧ .

﴿فسقناه﴾: لم يقل (فساقه) وحول الكلام إلى أسلوب المتكلم لفتا لنظر السامع إلى بديع صنع ما يذكر بعده انظر نظير ذلك فى الآية (٩٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩ والآية (٥٣) من سورة طه صفحة ٤١٠ .

﴿ميت﴾: جدب لا نبات فيه.

---

(١) الحياة
(٢) الشيطان
(٣) أصحاب
(٤) آمنوا
(٥) الصالحات
(٦) فرآه
(٧) حسرات
(٨) الرياح
(٩) فسقناه
(١٠) الصالح

﴿أحيينا به الأرض﴾: أى جعلنا فيها نباتًا وأشجارا.

﴿النشور﴾: البعث من القبور للحساب والجزاء.

﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ إلخ: صعود الكلم الطيب كناية عن قبوله سبحانه له ورضاه عن صاحبه، والكلم الطيب كل كلام يرضى اللّٰه عز وجل، ككلمة التوحيد، وتلاوة القرآن، وكل كلام يؤدى إلى خير لقائله أو للغير.

﴿والعمل الصالح يرفعه﴾: قال ابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم: المعنى يرفع العمل الصالح قدر الكلام الطيب، ويحقق معناه لأنه يدل على صدق نية صاحبه، فيقبله اللّٰه سبحانه، وهذا هو ما يشير إليه قولهم: إن الأقوال إذا لم تصدقها الأعمال تفقد قيمتها، وقد عاب سبحانه على أصحاب هذه الأقوال فى الآية (٤٤) من سورة البقرة صفحتى ٩، ١٠ وآيتى (٢، ٣) من سورة الصف صفحة ٧٣٨ . وقال قتادة وارتضاه ابن عطية: المعنى والعمل الصالح يرفعه الله سبحانه ويقبله.

المعنى: وإلى اللّٰه سبحانه ترجع الأمور فى الآخرة فيجازى كلا بما يستحقه. ثم ذكر سبحانه الأصل الثالث وهو البعث فقال: ﴿يأيها الناس إن وعد اللّٰه حق﴾ إلخ: أى إن وعد اللّٰه بالحشر والجزاء يوم القيامة حق لاشك فيه، فلا تغرنكم الحياة الدنيا بصرف جميع هممكم إلى التمتع بها فتلهيكم عن طلب الآخرة، ولا يغرنكم بحلم اللّٰه وإمهاله الشيطان الشديد التغرير بالبسطاء فيمنيكم بالمغفرة مع الإصرار على المعصية، فإن مَنْ يطمع فى ذلك كمن يطمع فى السلامة مع تناول السم اعتمادا على أن يمر به طبيب. ثم حثهم على عصيان الشيطان فقال: إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا بعصيانه؛ لأنه لا يدفع حزبه إلا لعمل عاقبته أن يدخل نارا مستعرة، انظر الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨ .

ثم بيَّن جزاء حزب الشيطان وجزاء أعدائه فقال: الذين كفروا واتبعوا الشيطان لهم عذاب شديد، والذين آمنوا باللّٰه وعملوا الصالحات لهم عند اللّٰه مغفرة لذنوبهم وأجر كبير هو نعيم الجنة الخالد. ثم بيَّن أن حكمته تعالى وعدله هما اللذان اقتضيا هذه التفرقة فى الجزاء فقال

﴿أفمن زين له سوء عمله﴾ إلخ: أى هل مَنْ زين له الشيطان عمله السيىء فجعل القبيح فى نظره حسناً، والباطل حقا كمَنْ لم يستطع أن يفعل معه ذلك لشدة خوفه من ربه؟ كلا لا يستويان انظر الآية (١٤) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٤، والآية (٢٢) من سورة الملك صفحة ٧٥٦ .

ثم بيَّن أنه سبحانه هو الذى وضع هذه الأحكام بمقتضى حكمته فقال: إن اللَّه يضل مَنْ يشاء لوجود أسباب فيه تقتضيه، ويهدى مَنْ يشاء، انظر توضيح ذلك فى الآية (٩٩) من سورة يونس صفحة ٢٨١ والآية (١٣) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦ .

وإذا كان الأمر كذلك فلا تترك أيها النبى نفسك تهلك حسرة على عدم إيمان قومك؛ لأن اللَّه عليم بما يصنعونه فيعاملهم بما يستحقونه.

ثم بيَّن سبحانه بعض دلائل قدرته على البعث لو تأملوها لما أنكروه فقال ﴿واللَّه الذى أرسل﴾ إلخ: أى هو سبحانه وحده صاحب القدرة على إرسال الرياح فتحرك السحاب الثقال بالماء إلى بلد قاحل، فأحيينا به أرضه بالنبات بعد أن كانت لا نبات بها، فكما أخرجنا النبات من باطنه كذلك نخرج الموتى من القبور. ولما كان مما جرأ المشركين على أنواع الكفر اعتزازهم بأصنامهم زاعمين أنها تدفع عنهم كل سوء، وتجلب لهم كل عزة وسعادة، انظر الآية (٨١) من سورة مريم صفحة ٤٠٤، أرشدهم سبحانه إلى مَنْ بيده العزة دون غيره، فقال ﴿من كان يريد العزة﴾ إلخ: أى من كان يريد الشرف والمنزلة الرفيعة فى الدنيا والآخرة والبعد عن كل سوء، فليطلبها من اللَّه بطاعته؛ لأن العزة كلها بيده وحده.

ثم بيَّن ما تطلب به العزة من قول وعمل فقال ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ إلخ: أى كل كلام يرضى اللَّه عز وجل كالنطق بكلمة التوحيد، والقرآن، وما به إصلاح إلى غير ذلك، وكل عمل صالح يرفع قيمة الكلم الطيب، ويجعل له عند اللَّه عز وجل منزلة ترفع قدر صاحبه يقبله سبحانه ويثبت عليه.

وبعد أن بيَّن سبحانه ما يقرب إليه تعالى هدد مَنْ يحاولون عرقلة الدعوة الإسلامية فقال: ﴿والذين يمكرون ... ﴾ إلخ.

ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾
وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن
مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ (١) ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ
عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ
فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ
لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ
فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾
يُولِجُ ٱلَّيْلَ (٢) فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ (٣) وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ
وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾
إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟

المفردات:- ﴿يبور﴾ يفسد ويذهب، انظر الآية (١٨) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢ . ﴿من تراب ثم من نطفة﴾: تقدم فى آيتى (١٢، ١٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦ . ﴿أزواجًا﴾: أى مزدوجين ذكرًا وأنثى. ﴿من أنثى﴾: ﴿من﴾ لتأكيد العموم فيما بعدها، وكذا هى فى ﴿من معمر﴾ الآتية. ﴿يعمر من معمر﴾ :المراد يزاد فى عمره، انظر الآية (٩٦) من سورة البقرة صفحة ١٩ والآية (٦٨) من سورة يس صفحة ٥٨٥، فالمعمر من طال عمره، والأصل ولا يعيش أحد حتى يصير معمرًا، ولا يموت أحد آخر صغيرًا حتى يرى كأنه ناقص العمر بالنسبة لغيره. ﴿كتاب﴾: هو اللوح المحفوظ المذكور فى الآية (٢٢) من سورة البروج صفحة ٨٠٢ . ﴿فرات﴾: شديد العذوبة مزيل للعطش. ﴿سائغ﴾: سهل المرور فى الحلق. ﴿أجاج﴾: شديد الملوحة. ﴿لحما طريًا، حلية، الفلك، مواخر لتبتغوا﴾: تقدم كل هذا فى الآية (١٤) من سورة النحل صفحة ٣٤٧، والفلك لفظ يطلق على المفرد من السفن كما فى الآية (٣٧) من سورة هود صفحة ٢٨٩ وعلى الجمع كما هنا. ﴿يولج الليل فى النهار﴾: تقدم فى الآية (٢٧) من سورة آل عمران صفحة ٦٧ . ﴿قطمير﴾: القشرة البيضاء الرقيقة حول نواة التمرة.

المعنى:- وكفار قريش الذين يدبرون فى الخفاء الفعلات السيئات لإيذاء النبى ﷺ والمؤمنين لهم عذاب شديد ومكرهم فاسد قطعا، انظر الآية (٣٠) من سورة الأنفال ٢٣١ .

ثم شرع فى دليل آخر على صحة البعث وقدرته عليه فقال: والله الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم ذكورا وإناثًا، ومن سعة علمه أنه لا تحمل أنثى من الحيوان ولا تضع

---

(١) كتاب (٢،٣) الليل

مولودها إلا معلومًا له تعالى حالها وحال جنينها وطفلها علمًا تفصيليًا كما تقدم فى الآية (٣٤) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤، ولا أحد يقضى له بطول العمر إلا وهو بالغ غاية ما قدر له، ولا أحد قدر له قصر العمر يزيد عمره عما قدر له حسب ما سجل فى الكتاب من الأزل. وما ورد من أن صلة الرحم والصدقات تطيل العمر معناه تبارك فيه حتى كأن ما حصل فيه فى أزمان طويلة؛ إن كل ما تقدم يسير سهل على الله. ثم شرع سبحانه فى ذكر أدلة تفرده بالملك والقدرة مع التلميح فى أول الكلام بمدح المؤمن وذم الكافر فقال: ﴿وما يستوى البحران﴾.

ثم فسر عدم الاستواء بقوله: هذا عذب جدا سهل لذيذ شرابه، والآخر مالح شديد الملوحة، وكل لحكمة يعلمها العلماء المختصون. ومن فضله عليكم أنه جعل لكم من كل منهما لحمًا طريًا تأكلونه، وتستخرجون من كل منهما أيضًا حلية من لؤلؤ ومرجان تلبسونها، انظر الآية (٢٢) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩ . وقد أثبت علماء البحار أن الحلية كما توجد فى الملح توجد فى العذب كذلك، فلا تغتر بكثرة من جهل ذلك. فسبحان العليم بأسرار خلقه. ومن آثار قدرته تعالى أنك ترى أيها الناظر إلى البحار أنه جعل السفن الصغيرة والكبيرة تمخر فى كل من البحرين، أى تجرى بسرعة، لتطلبوا شيئًا من فضل الله بالتجارة وغيرها، ولعلكم تشكرونه تعالى بدوام طاعته. ومن قدرته أنه يقصر الليل ويطيل النهار تارة، وأخرى يطيل الليل ويقصر النهار، وذلك لا يكون إلا بقدرة عالية تضبطهما على هذا النظام الدهور الطويلة بلا أدنى خلل. ومن قدرته أنه سخر الشمس والقمر لمنفعتكم، انظر الآية (٣٣) من سورة إبراهيم صفحتى ٣٣٤، ٣٣٥، كل منهما يجرى إلى الأجل المحدد له الذى ينتهى عنده جريانه وهو قيام الساعة. ثم جاء بالنتيجة من كل ما تقدم فقال ﴿ذلكم الله﴾ إلخ: أى الذى فعل كل هذه الأفعال العجيبة هو الله ربكم له الملك وحده، والذين تدعونهم من دونه تعالى لقضاء حاجاتكم كالملائكة والجن والأنبياء والصالحين الذين اتخذتم لهم تماثيل وصورا وتقربتم بهم إلى الله زلفى كما فى الآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦ كل هؤلاء لا يملكون فى هذا العالم والعالم الآخر أحقر شىء فى الوجود وهو القطمير، إن تدعوهم لقضاء مصالحكم لا يسمعوا دعاءكم لاشتغالهم بأنفسهم عنكم، ولو فرض أنهم سمعوا ما استجابوا لكم فى شىء مما تطلبون، انظر الآية (٥) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٦ .

لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ
خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ
وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ
بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ
وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ
مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ
لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ
وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ
وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ
إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ
فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ

المفردات: . ﴿يكفرون بشركم﴾: أى بإشراككم لهم مع الله فى العبادة، انظر الآية (٦) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٦ . ﴿الحميد﴾: أى المحمود على كل حال. ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾: أى لا تحمل نفس فوق أوزارها أوزار نفس أخرى، وكل ما يتعلق بهذا التركيب تقدم فى الآية (١٦٤) من سورة الأنعام صفحة ١٩١ . ﴿مثقلة﴾ المراد: نفس أثقلتها الذنوب. ﴿حملها﴾ المراد: ما تحمله من الذنوب؛ وهذا رد لقول المضللين فى الآية (١٢) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢ . ﴿ولو كان ذا قربى﴾: الأصل ولو كان الشخص المدعو للحمل من أقربائه. ﴿تنذر﴾: أى تحذر من عصيان الله. ﴿يخشون ربهم بالغيب﴾: أى يخافون ربهم فى خلواتهم وحال بعدهم عن الناس فهم بعيدون عن الرياء ﴿تزكى﴾: أى تطهر من أدناس الكفر والمعاصى. ﴿إن الله يسمع مَنْ يشاء﴾: انظر بيان ذلك فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ والآية (٢٣) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٠ ﴿الحرور﴾: الريح الحارة. ﴿إن أنت﴾: (إن) حرف نفى بمعنى (ما). أى ما أنت.

المعنى: ويوم القيامة ينكرون إشراككم لهم، ويتبرءون منكم، انظر الآية (٦) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٦ . ثم أكد ما سبق بقوله تعالى: ﴿ولا ينبئك﴾ إلخ: أى ولا يخبرك أيها المفتون بغير الله عن أحوال الدارين مثل خبير بهما، وهو الله عز وجل. وبعد ما بيَّن سبحانه أنه المالك لكل شىء، وأن ما يدعونهم من دونه لا يملكون شيئًا، أراد أن يرتب عليه ما هو نتيجته فقال ﴿يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله﴾ إلخ: أى أنتم أيها الناس جميعًا بلغ من شدة حاجتكم إلى الله كأنكم أنتم فقط الفقراء إليه تعالى فى كل شىء وفى كل لحظة، وهو سبحانه

---

(١) القيامة (٢) الصلاة (٣) الظلمات (٤) الأموات (٥) أرسلناك

الغنى عن كل مخلوق، المستحق للحمد دائمًا. إن يشأ ربكم إهلاككم يهلككم لقدرته على ذلك ولاستغنائه عنكم، ويأت بخلق جديد لا يعصونه، وما ذلك عليه سبحانه بعزيز، أى ممتنع. ثم هددهم بما سيكون يوم القيامة مع إبطال ما كان من تضليل قادة الكفر لغيرهم بقولهم اتبعوا سبيلنا ونحن نحمل عنكم خطاياكم يوم القيامة إن كان هناك قيامة كما يقول محمد ﷺ، انظر الآية (١٢) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢ . فقال ﴿ولاتزر وازرة﴾ إلخ: أى ويوم القيامة لا تحمل نفس مذنبة زيادة على ذنوبها ذنوب نفس أخرى بل تبقى ذنوب النفس الأخرى على عاتقها تجازى بها. ثم رد على ما يروجه المبطلون فى الآية (١٢) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢ فقال ﴿وإن تدع مثقلة﴾ إلخ: أى وإن تدع نفس مثقلة بأحمال الذنوب شخصًا آخر إلى تحمل شىء من ذنوبها لا يحمل هذا الشخص من حملها شيئًا ولو كان قريبا لها؛ لأن كل واحد مشغول بنفسه فلا يحمل أحد وزر غيره انظر الآية (٣٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤، والآية (٣٤) وما بعدها من سورة عبس صفحة ٧٩٣ . وبعد ذلك صبر سبحانه رسوله على عناد قومه فقال ﴿إنما تنذر﴾ إلخ: أى إنما ينفع تحذيرك ونصحك الذين يخافون ربهم فى خلواتهم لاعتقادهم اطلاعه على الخفايا، وأقاموا الصلاة - ومَنْ تطهر من دنس الذنوب فلا يعود نفع عمله هذا إلا على نفسه، وإلى اللّٰه المرجع فى النهاية، فيعامل كلا بما يستحق ثم ضرب سبحانه أمثلة توضح الفارق بين الحسن والقبيح، فقال: ﴿وما يستوى الأعمى والبصير﴾ أى الجاهل والعالم. ﴿ولا الظلمات ولا النور﴾ إشارة إلى الكفر والإيمان. ﴿ولا الظل ولا الحرور﴾ إشارة إلى الجنة والنار. ثم ذكر المقصود الأصلى فقال ﴿وما يستوى الأحياء ولا الأموات﴾ أى المؤمنون والكافرون، انظر الآية (١٢٢) من سورة الأنعام صفحة ﴿١٨٣﴾، والآية (١٦) من سورة الرعد صفحة ٣٢٣ . ثم بيَّن سبحانه أن الهداية والتوفيق بنظام وضعه سبحانه بحكمته فقال ﴿إن اللّٰه يسمع مَنْ يشاء﴾ إلخ: أى أن اللّٰه تعالى يهدى مَنْ يشاء إلى سماع الحجة سماع قبول وهم أحياء القلوب، وحينئذ فما أنت أيها النبى بمسمع أموات القلوب بالكفر، كما أنك لا تسمع الموتى فى القبور؛ وما عليك إلا الإنذار والتخويف من عقاب اللّٰه. ثم بيَّن أنه منذر من قبل اللّٰه تعالى فقال: ﴿إنا أرسلناك﴾... إلخ.

بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾
وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ[1] وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ[2] الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾
ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ
تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ[3]
مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا[4] وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ
أَلْوَانُهَا[5] وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ
وَالْأَنْعَامِ[6] مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ[7] كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ
مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ[8] إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ
الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ[9] اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ[10] وَأَنفَقُوا مِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ[11] سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً[12] لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾
لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ

المفردات: . ﴿وإن من أمة﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى ومن لتأكيد العموم فيما بعدها، والأمة الجماعة أو الجيل أو القرن من الناس. ﴿خلا﴾: مضى والمراد: جاءها. ﴿نذير﴾: محذر لها من نبى أو عالم. ﴿البينات، والزبر، والكتاب المنير﴾: تقدمت كلها فى الآية (١٨٤) من سورة آل عمران صفحة ٩٣ . ﴿نكير﴾: تقدم فى الآية (٤٥) من سورة سبأ صفحة ٥٦٩ . ﴿فأخرجنا به﴾: تقدم حكمة هذا التعبير فى الآية (٦٠) من سورة النمل صفحة ﴿٥٠١﴾ وانظر الآية (٩٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩ . ﴿جدد﴾: جمع جدة بضم أوله بوزن مدة وهى لون فى الشىء مستطيل يخالف ما بجانبيه، يقال فى ظهر الحصان جدة سوداء أى لون أسود ممتد كالطريق. ﴿غرابيب﴾: جمع غربيب بكسر فسكون بوزن قنديل، ومعناه شديد السواد وهو لفظ تؤكد به العرب الأسود فيقولون أسود غربيب، كما يقولون أصفر فاقع، وكان الأصل ﴿وسود غرابيب﴾ ولكن العرب عندما تريد التوكيد بتكرار ذكر الشىء تحذف الموصوف وتكتفى أولاً بصفته، ثم تذكر الموصوف ثانيًا بعد الصفة كأنه تفسير لها، فكأنهم ذكروا الشىء ثلاث مرات: مرة مضمرا، ومرة بوصفه، ومرة بذكره هو نفسه على أنه تفسير للوصف كما هنا. ﴿ومن الناس والدواب والأنعام﴾: إذا راجعت معنى ﴿دابة﴾ فى صفحة ٦٤٣ تعلم أن عطف الدواب على ما قبله من عطف العام على الخاص وأن عطف الأنعام على ما قبله من عطف الخاص على العام. ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾: لأنهم هم الذين يدركون دقة صنعه سبحانه. ﴿تجارة لن تبور﴾: انظر الآية (١٠) وما بعدها من سورة الصف صفحة ٧٣٩ .

---

(١) بالبينات. (٢) بالكتاب. (٣) ثمرات. (٤، ٥) ألوانها. (٦) الأنعام. (٧) ألوانه.
(٨) العلماء. (٩) كتاب. (١٠) الصلاة . (١١) رزقناهم. (١٢) تجارة.

المعنـى: إنا أرسلناك أيها النبى للناس كافة بالدين الحق مبشـرًا من آمن به بالجنة ومنذرًا مَنْ كفر بالنار. وما من أمة من الأمم إلا جاء لها نذير أى وبشير، وإنما اقتصر على النذير لأنه المناسب لحـال كفار قريش، وإنمـا فعل ذلك سبحـانه لأنه عادل حكيم والحكيم لا يفعل شيئًا عبثًا فلا يصح أن يترك طائفة من الناس كبيرة فى أى عصر دون أن يرشدها لما فيه صالحها ويحذرها، انظر الآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحـة ٤٥٦؛ وانظر تفصيل ذلك فى الآية (٤٦) من سورة القصص صفـحـة ٥١٣ . وإن يكذبك قومك أيها النبـى فـلا تحـزن فقد كذبت الأمم قبلهم رسلهم حـال مـجيئهم لهم بالمعـجـزات الواضحـات، وبالمواعظ التى تهـز القلوب، وبالكتب الموضحة لطريق الصـواب، فعاقبتهم بأخذهم بالعقوبة الشديدة، فانظر كيف كان أثر إنكارى عملهم وغضبى عليهم، ثم شـرع سبحـانه فى تقـرير قدرته ووحدانيته بأدلة سمـاوية وأرضيـة يشـاهدونها كل لحـظة فقـال ﴿ألم تر أن اللَّه﴾ إلخ: أى ألم تنظر وتتـأمل أن اللَّه ينزل من السمـاء مـاءً واحدا فيـخـرج به ثمـرات مـختلفـا ألوانها بالحـمـرة والصـفـرة والخضـرة وغيـر ذلك. ومن بديع صنعه تعالى فى الجبال أن منها مـا هو ذو خيوط بيض وحمـر مختلف ألوانها فى البيـاض والحمـرة من شديد البياض والحمـرة إلى متوسطها إلى ضعيفهـا، ومنها خيوط سـوداء شديدة السـواد كالفـحم، وهـذا لون غـريب فـى الجبـال. ومن الناس والدواب والأنعـام ﴿الإبل والغنم والبقر﴾ مختلف ألوانه كاختلاف مـا تقدم، فمَنْ تأمل هذا الصنيع العجيب علم بديع صنع اللَّه فخشيه حق الخشية؛ لأنه لا يخشى اللَّه عن بينة إلا العلماء الذين يطلعون على أسـرار صنعـه. هؤلاء هم الذين ينجح فـيـهم الإنذار المـتـقـدم فـى الآية (١٨) من هذه السـورة صـفحة ٥٧٤؛ إن اللَّه غالب يخشى المؤمنون غضبه، كثيـر المغفرة لمَنْ رجع إليه بالتوبة. ثم هدد مَنْ يقصر، وبشر مَنْ يرجع، فقال: إن الذين يتلون كتاب اللَّه تلاوة تدبر تستلزم العمل بما فيه، وأقاموا الصلاة بشـروطها، وأنفقوا بعض ما رزقهم اللَّه سـرا فى الصـدقات، وعـلانية فى الواجب كالزكاة، يفعلون ذلك راجين تجـارة مع اللَّه غير كاسدة؛ لأن مَنْ تاجـر مع اللَّه لا تبور تجارته أبدًا أى لن تكسـد وتخسر، انظر الآية (١٠) ومـا بعدها من سورة الصف صفحة ٧٣٩ . هؤلاء يرجون تلك التجـارة ليوفيهم ربهم أجورهم، ويزيدهم من فضله أضعـافًا كثيـرة كمـا فى الآية (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥؛ لأنه سبحـانه كثير المغفرة لهفواتهم.

شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ
ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ
بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا
فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ
بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾
جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ
وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ
أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ
أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا
يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ
لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا
كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ

المفردات: . ﴿شكور﴾: كثير الشكر لطاعة عباده، والمراد يحسن مجازاتهم عليها.

﴿لما بين يديه﴾: المراد: لما سبقه من الكتب السماوية.

﴿أورثنا الكتاب﴾: ﴿أورثنا﴾: الأصل نورث ولكنه أراد أنه محقق كأنه مضى. ﴿الكتاب﴾: هو القرآن. انظر وقارن بين ما هنا وما فى الآية (٥٣) من سورة غافر صفحة ٦٢٥ والآية (١٤) من سورة الشورى صفحة ٦٤٠ .

﴿اصطفينا﴾: أى اخترناهم وفضلناهم على سائر الأمم بجعلهم أمة وسطا كما فى الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨ ؛ وبجعلهم خير أمة كما فى الآية (١١٠) من سورة آل عمران صفحتى ٨٠، ٨١.

﴿ظالم لنفسه﴾: هو مَنْ أسرف فى المعاصى حتى غلبت سيئاته على حسناته.

﴿مقتصد﴾: هو مَنْ خلط عملا صالحًا وآخر سيئًا حتى تساويا، انظر الآية (١٠٢) من سورة التوبة صفحة ٢٥٩ .

﴿سابق بالخيرات﴾: متقدم على غيره فى دخول الجنة بسبب ما عمل من خيرات رجحت على سيئاته حتى أذهبتها، انظر الآية (١١٤) من سورة هود صفحة ٣٠١ .

﴿أحلنا﴾: أى جعلها محلا لنا وأنزلنا فيها.

(٢،١) الكتاب.
(٣) بالخيرات.
(٤) جنات.

﴿دار المقامة﴾: أى دار الإقامة الدائمة، وهى الجنة. ﴿نصب﴾: أى تعب. ﴿لغوب﴾: المراد به الفتور الذى يعقب التعب، وذكره للمبالغة فى وجود الراحة. وقال بعض المفسرين ﴿النصب﴾ التعب الجسمانى، و﴿اللغوب﴾ التعب النفسى كالقلق. ﴿كفور﴾: شديد الكفر. ﴿يصطرخون﴾: أى يصرخون مستغيثين ويصيحون صياحا شديدًا.

المعنى: . بعدما بيَّن سبحانه فضل الذين يتلون الكتاب عاملين به، بيَّن أن هذا الكتاب حق تفضل به على المؤمنين فقال: والذى أوحيناه إليك، ثم بينه بأنه هو الكتاب أى القرآن، هو الحق حال كونه مصدقًا لما تقدمه من الكتب السماوية الصحيحة. إن اللّه بأحوال عباده خبير فيختار مَنْ يصلح للرسالة، بصير بما يصلح لهم من أحكام ينزلها فى كتبه. ثم بعد انتقالك أيها النبى إلى الدار الآخرة جعلنا أمتك وارثة لهذا الكتاب، تقوم على تنفيذ ما فيه، ويبين أسراره علماؤها. وهذه الأمة التى آمنت به ﷺ تنقسم ثلاثة أقسام، منهم مَنْ غلبت معاصيه على حسناته، ومنهم مَنْ ساوت حسناته سيئاته، ومنهم مَنْ غلبت حسناته فأذهب سيئاته، فكان من السابقين بتيسير اللّه تعالى وفضله ذلك الاصطفاء هو الفضل الكبير من اللّه، لافضل بعده. ثم بيَّن جزاءهم فى الآخرة فقال: جنات عدن يدخلونها فيحلون فيها بالذهب واللؤلؤ، ولباسهم الكاسى لأجسامهم فيها حرير. وهذا يشمل أقسام المؤمنين الثلاثة. أما الكافرون فسيأتى جزاؤهم فى الآية (١٣٦) الآتية. قال ﷺ: السابق يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة، والظالم يحبس فى جهنم حتى يظن أنه لن ينجو ثم تناله الرحمة. وبعد دخول الجنة يقولون: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن والخوف من الموت والمكدرات، إن ربنا لكثير المغفرة، كثير الشكر لطاعة عبده، فيجازيه عليها أحسن الجزاء، ربنا هو الذى أنزلنا دار الإقامة الخالدة بفضله لا يمسنا فيها تعب ولا فتور والذين كفروا لهم نار جهنم وعذابها الدائم لا يموتون فيها فيستريحون، ولا يخفف عنهم من عذابها، انظر الآية (١٣) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤، كهذا الجزاء الشديد نجزى كل مبالغ فى كفره يضم إنكاره وحدانيته. ثم بيَّن حال الكفار بعد دخول النار فقال ﴿وهم يصطرخون﴾ إلخ: أى وهم يضجون بالاستغاثة قائلين يا ربنا أخرجنا .. إلخ.

أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم
مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا
لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى
جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ
وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا
يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ
شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟
مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ
كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم
بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ

المفردات: ﴿نعمركم﴾: تقدم فى الآية (١١) من هذه السورة صفحة ٥٧٣ .

﴿النذير﴾: المراد به هنا: الرسول.

﴿من نصير﴾: ﴿من﴾ لتأكيد العموم فيما بعدها، والنصير: المعين.

﴿ذات الصدور﴾: أى خفيات الصدور، انظر الآية (١١٩) من سورة آل عمران صفحة ٨٢ .

﴿خلائق﴾: تقدم فى الآية (١٦٥) من سورة الأنعام صفحة ١٩٢ .

﴿أرأيتم﴾: انظر المراد من هذا التركيب فى الآية (٤٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ .

﴿لهم شرك فى السموات﴾: المراد: مشاركة فى خلق السموات كما تقدم فى الآية (٢٢) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٥،٥٦٦ .

﴿آتيناهم كتابا﴾: تقدم فى الآية (٤٤) من سورة سبأ صفحة ٥٦٩ . ﴿غرورا﴾: أى باطلا مزخرفا يغر مَنْ يسمعه، انظر الآية (١٢) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٠ . ﴿يمسك السموات﴾: المراد بالسموات هنا: كل ما ارتفع فوق رءوسنا، من تلك الأجرام التى نشاهدها ومن الشمس والقمر والنجوم.

---

(١) صالحا. (٢) للظالمين.
(٣) عالم. (٤) السموات.
(٥) خلائف. (٦، ٧) الكافرين.
(٨) أرايتم. (٩) السموات
(١٠) آتيناهم. (١١) كتابا
(١٢) الظالمون. (١٣) السموات

﴿إن أمسكهما﴾ إلخ:(إن) حرف نفى بمعنى (ما) و(من) تدل على عموم ما بعدها.

المعنى: . يستغيث الكفار فى جهنم ويقولون يا ربنا أخرجنا منها نعمل عملا صالحا غير العمل الطالح الذى كنا نعمله فى الدنيا. فيقال لهم توبيخا وتبكيتا: ألم نصبر عليكم ونطل أعماركم زمنًا يتمكن فيه من التذكر والتدبر مَنْ يريد أن يتذكر بإخلاص، وجاءكم مع ذلك رسولنا ينذركم بعقاب الله إذا خالفتم أمره، فلم يحصل منكم إلا الكفر والعناد، فذوقوا اليوم عذاب جهنم، فليس لكم أيها الظلمة مَنْ ينصركم ويدفع العذاب عنكم، انظر آيتى (٥٨، ٥٩) من سورة الزمر صفحة ٦١٤ . ولما كان يجول فى بعض الخواطر أنهم لو أجيبوا إلى طلبهم لاستقاموا، دفع ذلك سبحانه بأنه عالم بكل ما غاب فى السموات والأرض وأنه عالم بدخائل الصدور، ويعلم أنهم لو أجيبوا وعادوا للحياة الدنيا لما اعتبروا ولغلب عليهم طبعهم، انظر آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦ .

ثم بيَّن سبحانه أنه مكن لهم فى الأرض فكان عليهم أن يشكروه، ولكنهم كفروا، فقال: هو الذى جعلكم خلفاء فى الأرض لعمارتها، ونبهكم إلى أن مَنْ شكر نعمة ربه عليه فشكره عائد عليه بالفائدة، ومَنْ كفر ولم يشكر فوبال كفره عليه، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا أى غضبا شديدًا، ولا يزيدهم إلا خسرانا لكل خير فى الدنيا والآخرة. ثم رجع إلى توبيخهم على الشرك فقال ﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين﴾ إلخ: أى أخبرونى أيها المشركون عن هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء لله تدعونهم دونه لقضاء حاجاتكم أرونى أى جزء من الأرض انفردوا بخلقه، أم لهم شركة مع الله تعالى فى خلق السموات فهل آتينا هؤلاء المشركين كتابا يدلهم على صحة شركهم فهم على علم وحجة واضحة بصحة ما يزعمون؟ الحق أنه لا شىء من ذلك، بل الواقع أن القادة الظالمين لا يعدون أتباعهم إلا باطلا مزخرفا، انظر ما تقدم فى صفحة ٥٦٧ .

وبعدما بيَّن ضعف معبوداتهم، وأنها لا تفعل شيئًا، أثبت لنفسه تعالى جلائل الأعمال فقال ﴿إن الله يمسك﴾ إلخ: أى أنه وحده هو الذى يمنع اختلال نظام السموات والأرض فيحفظهما من أن تزولا من الوجود، ولئن فرض أنهما زالتا ما أمسكهما أحد غيره تعالى.

مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ
أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى
ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ
فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ
تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ
وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾
وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن
دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ
فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾

المفردات: - ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾: المراد مؤكدين أيمانهم، كما تقدم فى الآية (٥٣) من سورة المائدة صفحتى ١٤٧، ١٤٨.

﴿نذير﴾: رسول.

﴿من إحدى الأمم﴾: إحدى هنا مراد بها العموم.

﴿يحيق﴾: أى ينزل ويحيط ﴿سنة الأولين﴾: أى عادة الله تعالى فى مجازاة الأمم السابقة التى عصت رسلها.

﴿ولو يؤاخذ الله الناس﴾ إلخ: تقدم فى الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

﴿أجل مسمى﴾: أى أجل معين هو يوم القيامة.

المعنى: - ولئن زالت السموات والأرض لا يمسكها أحد غير الله تعالى إنه سبحانه كان حليمًا على هؤلاء المشركين، فلم يعجل بعقابهم غفورًا لمَنْ يتوب منهم، انظر الآية (٤٥) الآتية والآية (٨٢) من سورة طه صفحة ٤١٣، والآية (٧٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨.

ثم أراد سبحانه أن يثبت أن عادة كفار قريش الكذب، وأنهم غير صادقين فيما قالوه فى الآية (٣٧) المتقدمة من هذه السورة، فقال: ﴿وأقسموا بالله﴾ إلخ: وذلك أنه كان بلغهم قبل مبعثه ﷺ أن طائفة من أهل الكتاب كذبوا رسلهم فلعنوهم، واجتهدوا فى الحلف بالله قائلين

---

(١) أيمانهم. (٢) سنة. (٤،٣) لسنة.
(٥) عاقبة. (٦) السموات.

والله لئن جاءنا رسول لنكونن أهدى من كل واحدة من أمم اليهود والنصارى وغيرهم فنؤمن جميعًا، انظر الآية (١٦٧) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٦، فلما جاء محمَّد نذيرا لهم من قبل الله ما زادهم مجيئه إلا نفورا من الحق وتباعدا عن الهدى حال كونهم مستكبرين فى الأرض عن الإيمان به وماكرين بالرسول المكر السيىء، انظر الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، ولا يحيط المكر السىء ويضر إلا بأهله. ومن هذا يعلم أن من مشركى العرب مَنْ كان يؤمن بأن لله رسلا من البشر لكنهم كفروا بنبينا عنادا فقط انظر الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والآية (٤٨) من سورة القصص صفحتى ٥١٣، ٥١٤ ، كما أن منهم مَنْ لايقول برسول من البشر كما فى الآية (٩٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، والآية (٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠ .

ثم هددهم فقال: ﴿فهل ينظرون﴾ إلخ: أى لا ينظر هؤلاء إلا مثل ما فعله اللَّه مع الأولين المكذبين لرسلهم مثلهم من العذاب الشديد. ولن تجد لعادة اللَّه تعالى تبديلا، فلن يضع موضع عذاب المكذب رحمة، ولن تجد لعادته تعالى تحويلا بأن ينقل عذابه من المكذبين لغيرهم، ثم استشهد على ما سبق فقال ﴿أولم يسيروا فى الأرض﴾ إلخ: أى هل قعدوا ولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة المكذبين قبلهم من الهلاك والدمار مع أنهم كانوا أشد قوة؟ وذلك لأن اللَّه لم يكنْ يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض، بل لابد من أن يفعل ما يريده، ولا يقف شىء فى طريق قدرته لأنه عليم بكل شىء فى الوجود، فلا يخفى عليه منه شىء، قدير يفعل ما يشاء. ثم أراد سبحانه أن يبين سبب عدم إهلاكهم كما فعل بغيرهم، وأن ذلك مرجعه لسعة حلمه سبحانه وتعالى. فقال ولو يؤاخذ اللَّه الناس بما كسبوا من الذنوب ما ترك على ظهر الأرض، المفهومة مما سبق، دابة واحدة لا من إنسان ولا من غيره؛ لأن شؤم المعاصى يعم الجميع، وقيل الدابة هنا لمَنْ يعقل فقط. ولكن اقتضت حكمته أن يؤخرهم إلى يوم القيامة، فإذا جاء هذا الأجل المضروب لهم فإنه سيجازى كلا على قدر عمله بكل دقة؛ لأنه كان بصيرًا بأعمال عباده فيجازى عن علم. والله تعالى أعلم.

(٣٦) سورة يس مكية
وآياتها ثلاث وثمانون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ[1] ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ[2] ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٖ[3] مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ[4] فَهُمۡ
غَٰفِلُونَ[5] ﴿٦﴾ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ
لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ[6] أَغۡلَٰلٗا[7] فَهِيَ إِلَى
ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا
وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ[8] فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٩﴾
وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ[9] أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾

سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿يس﴾: تنطق ياسين، بسكون آخرها. وتقدم أول سورة البقرة المراد من مثلها.

﴿الحكيم﴾: صاحب الحكمة وهي وضع كل شيء في محله.

﴿صراط مستقيم﴾: تقدم في الآية (٦) من سورة الفاتحة صفحة ٢.

﴿ما أنذر آباؤهم﴾: تقدم بيان ذلك في شرح الآية (٤٦) من سورة القصص صفحة ٥١٣.

﴿حق القول﴾: تقدم في شرح الآية (٨٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٤.

﴿أغلالا﴾: مفردها غُل بضم أوله وهو طوق من حديد تشد اليد إلى العنق للتعذيب.

﴿الأذقان﴾: جمع ذقن بفتحتين وهي آخر الوجه من أسفل. ﴿مقمحون﴾: جمع مقمح بضم فسكون ففتح. وهو الذي رفع رأسه وغض بصره. يقال: أقمح الغلُّ الرجلَ. أي جعل رأسه مرفوعًا من ضيقه. ﴿بين أيديهم﴾: أمامهم.

﴿أغشيناهم﴾: جعلنا على أبصارهم غشاوة كما في الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤.

المعنى: اشتملت هذه السورة أيضًا كالسور المكية على إثبات الأصول الثلاثة: الوحدانية والرسالة والبعث، كما اشتملت على ضرب الأمثال وذكر القصص للعبرة، ولما كان كفار قريش قالوا للنبي ﷺ لست مرسلا كما في الآية (٤٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨، رد سبحانه

---

(١) ياسين. (٤) آباؤهم. (٧) أغلالا.
(٢) القرآن. (٥) غافلون. (٨) فأغشيناهم.
(٣) صراط. (٦) أعناقهم. (٩) أأنذرتهم.

عليهم هنا بقوله: ﴿والقرآن الحكيم﴾ .. الخ: أى وحق هذا القرآن الممتلئ حكمة إنك أيها النبى من الذين اخترناهم لتبليغ رسالتنا للخلق، وإنك سائر على صراط مستقيم وهو دين الإسلام. نزل تنزيلاً من الله العزيز الغالب الذى لا يمنعه مخلوق عن تنفيذ ما يريد. الرحيم بعباده إذ أرسل إليهم مَنْ يرشدونهم إلى طريق النجاة، انظر الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٢. أنزلنا عليك هذا القرآن لتنذر كفار قريش الذين فى عهدك الذين لم ينذر آباؤهم الأقربون على لسان رسول خاص إنذارًا مباشرًا، وإن كانوا وصلتهم تعاليم إبراهيم وجاءهم بها اسماعيل، انظر الآية (٢٤) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٤، ٥٧٥؛ وكل هذا فى غير اعتقاد وجود الخالق وتوحيده، أما اعتقاد وجود الخالق سبحانه وتوحيده فلا يحتاج إلى رسول كما سبق بيانه فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

ثم جاء بما هو علة للإنذار فقال: ﴿فهم غافلون﴾ أى لأنهم فى غفلة عن الصواب كما تقول (إسق فلانًا فإنه عطشان)، ثم أراد سبحانه أن يبين أن الإنذار يقطع حجتهم كما فى الآية (١٦٥) من سورة النساء صفحة ١٣١ فقال: ﴿لقد حق القول﴾ إلخ: أى أنذرهم لتقوم عليهم الحجة؛ أما حقيقتهم فإنا نعلم أن اكثرهم من أتباع إبليس، وأن كلمتى حقت عليهم بأن يدخلوا جهنم، انظر الآية (١٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٤؛ لكل ذلك فهم لا يؤمنون أبدا. ثم صور حالهم الذى جعلهم لا يؤمنون فقال إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى محيطة بالعنق ومرتفعة إلى ذقونهم لكونها عريضة فهم لذلك مرتفعة رءوسهم إلى أعلى فشبه إصرارهم على الكفر واستكبارهم على الحق وعدم تواضعهم لاستماعه بالأقماح؛ لأن المقمح لا يطأطئ رأسه. وشبه عدم نظرهم فى العواقب المستقبلة بمن سد الطريق أمامه. وشبه عدم تفكيرهم فى أحوال الأمم الماضية بمن وضع خلفه سد فلا يستطيع الرجوع إلى الوراء. فكانت النتيجة أن أعينهم أصبحت لا تبصر شيئًا من أدلة الحق، كأن عليها غشاوة؛ ولذا قال: ﴿فهم لا يبصرون﴾. وإذا كان الأمر كذلك فأرح نفسك أيها النبى منهم فإن إنذارك وعدمه مستويان فنتيجتهما واحدة وهى أنهم لا يؤمنون أبدا، انظر نظير ذلك فى آيتى (٦، ٧) من سورة البقرة صفحة ٤.

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ
فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ
وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ[1] وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ[2]
فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ[3] الْقَرْيَةِ إِذْ
جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا
فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ
إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾
وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ[4] الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ
لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾
قَالُوا طَائِرُكُمْ[5] مَعَكُمْ أَئِنْ[6] ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴿١٩﴾
وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ[7] اتَّبِعُوا

المفردات: ﴿إنما تنذر﴾: المراد إنما ينتفع بتحذيرك.. إلخ انظر الآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦.

﴿الذكر﴾: هو القرآن. انظر الآية (٩) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨.

﴿خشى الرحمن بالغيب﴾: خاف ربه فى خلوته كما تقدم فى الآية (١٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٤.

﴿ما قدموا﴾: أى من أعمال. انظر الآية (١٣) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩.

﴿آثارهم﴾: أعمالهم التى بقيت بعد موتهم من حسنة وسيئة كبناء مسجد أو مدرسة أو مصحة أو كتاب نافع، أو سيئة كضريبة ظالمة أو إذلال شعب أو طائفة من الناس إلى غير ذلك.

﴿إمام﴾: هو اللوح المحفوظ لأنه أصل الكتب وقدوتها.

﴿واضرب لهم مثلا﴾: انظر الآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤.

﴿القرية﴾: هى انطاكية بفتح أولها وسكون النون وكسر الكاف مع الياء المخففة. وهى الآن فى مقاطعة أسكندرونة التابعة لتركيا. وقد أنكر ابن كثير فى تفسيره أنها أنطاكية واستدل على ذلك بأدلة.

---

(١) آثارهم.
(٢) أحصيناه.
(٣) أصحاب.
(٤) البلاغ.
(٥) طائركم.
(٦) أئن.
(٧) يا قوم.

﴿المرسلون﴾: قال قوم هم رسل عيسى عليه السلام. وقال ابن عباس وجماعة إنهم رسل من عند الله أيد بهم عيسى كما أيد موسى بهارون. وأيدوا رأيهم بأمور منها قوله تعالى :﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين﴾ ومنها قول أهل القرية ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ والبشرية لا تنافى عندهم إلا الرسالة من قبل الله تعالى لا من قبل شخص آخر.

ومنها قول الرسل ﴿وما علينا إلا البلاغ﴾. وهذا غير معهود إلا فى رسل الله.

﴿عززنا﴾: أى قوينا.

﴿تطيرنا بكم﴾: تقدم فى الآية (٤٧) من سورة النمل صفحة ٥٠٠.

﴿طائركم معكم﴾: أى شؤمكم معكم.

﴿أئن ذكرتم﴾: معناه هل إن ذكرناكم بما أمرنا الله تعالى به تهددوننا بالقتل؟

﴿بل﴾: حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر.

﴿مسرفون﴾: المراد: متجاوزون الحد فى الطغيان والكفر.

﴿المدينة﴾: هى القرية المتقدمة.

﴿رجل﴾: هو حبيب النجار كان يخفى إيمانه، ولما سمع بالرسل جاء ليساعدهم وينقذهم من ظلم قومه.

﴿يسعى﴾: أى يسرع.

المعنى: بعد ما بين سبحانه عدم نفع الإنذار فى كفار قريش، أتبع ذلك ببيان من يستفيد منهم فقال: ﴿إنما تنذر﴾ إلخ: أى إنما ينتفع بإنذارك من اتبع ما فى القرآن وتأمل فيه، وخشى عقاب الله بينه وبين ربه لا يرائى أحدًا، ولم يغتر برحمته سبحانه فإنه مع سعة رحمته شديد العقاب لمن لا يشكره عليها ويقدر فضله بها، انظر آيتى (٤٩، ٥٠) من سورة الحجر صفحة ٣٤١ والآية (٣) من سورة غافر صفحة ٦١٧.

فبشر مَنْ يفعل ذلك بمغفرة من الله تعالى لذنوبه، وأجر حسن هو نعيم الجنة. ثم بين سبحانه ما يساعد من تأمله على الخشية فقال ﴿إنا نحن نحيى الموت﴾ إلخ: أى إنا وحدنا

سنحيى الموتى من قبورهم يوم القيامة، وفى الدنيا نأمر الملائكة أن تكتب ما قدموه من خير أو شر فى صحائفهم. وكذلك نكتب أعمالهم التى تبقى بعد موتهم حسنة أم سيئة، انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى (٣٨٧، ٣٨٨)، والآية (٢٩) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤.

وقال فى هذا ﷺ: (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة). ثم أكد سبحانه ما سبق فقال ﴿وكل شىء﴾ إلخ: أى وكل شىء فى هذا الوجود ومنه عملكم أحصيناه وحفظناه فى اللوح المحفوظ.

ثم أراد سبحانه أن يذكرهم بما حل بأمثالهم لعلهم يرجعون فقال ﴿واضرب لهم مثلا﴾ إلخ: أى اجعل أيها النبى قصة أصحاب القرية مثلا لقومك إذ اتفقوا معهم فى الكفر والإصرار على التكذيب؛ وبيِّن لهم قصتهم حين جاءهم المرسلون لإنقاذهم من الشرك، ثم فصل كيف كان ذلك فقال (إذ أرسلنا) إلخ: أى حصل ذلك حين أرسلنا إليهم رسولين فكذبوهما، فقويناهما برسول ثالث، فقال الثلاثة لأهل أنطاكية: إنا إليكم مرسلون.

فاستمروا على التكذيب وقالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا لا فضل لكم حتى يميزكم الله علينا، وما أنزل الرحمن عليكم من شىء من الوحى، ما أنتم إلا تستسيغون الكذب ولا تستحون منه. ﴿قالوا ربنا يعلم﴾. العرب تستعمل هذا التركيب فى القسم، أى والله إنا إليكم لمرسلون، وما يطلب منا إلا أن نبلغكم رسالة ربنا واضحة. قالوا إنا تشاءمنا بكم لأنكم تطلبون منا أن نخالف ما كان عليه آباؤنا، ووالله إن لم تنتهوا عن قولكم هذا لنقتلنكم رجمًا بالحجارة، أو لنعذبنكم بالسجن مع المجرمين قالوا: سبب شؤمكم معكم وهو كفركم. ثم تعجبوا من حالهم مع توبيخهم فقالوا ﴿أئن ذكرتم﴾ إلخ: أى هل إن ذكرناكم بما فيه مصلحتكم تهددونا بالقتل؟ بل أنتم قوم مسرفون فى الظلم والطغيان. فى أثناء هذا الجدل جاء من أبعد مكان فى المدينة رجل يسرع، وقال: يا قوم اتبعوا المرسلين.. إلخ.

المفردات: ﴿فطرنى﴾: خلقنى.

﴿صيحة﴾: هى صوت شديد يصدر من أحد الملائكة لا يسمعه حى إلا مات.

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ[1] أَجْرًا وَهُم
مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ[2] مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً[3] إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ
بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ[4] شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾
إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ[5] مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ[6] بِرَبِّكُمْ
فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ[7] قَوْمِى
يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾
۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً[8] فَإِذَا هُمْ
خَٰمِدُونَ[9] ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً[10] عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ
إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ[11] ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم
مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا

﴿خامدون﴾: ميتون هامدون كما تخمد النار.

﴿يا حسرة على العباد﴾: المراد بالعباد هنا هم كل من كذبوا رسلهم، ويدخل فيهم المهلكون هنا دخولا أوليًا، وأصل معنى الحسرة الغم على ما فات وأريد به هنا لازمها وهو التألم، ولو كان للغير، والمنادى محذوف. يقول العربى يا رعاك الله افعل كذا مثلا، يريد يا هذا الرجل رعاك الله.. إلخ، فالمراد هنا يا أيها السامع العاقل يحق لك أن تتحسر حسرة شديدة وتتألم لأجل هؤلاء الكفار حيث فوتوا على أنفسهم السعادة الأبدية. والغرض تبشيع حالتهم حتى يحذر السامعون سلوك طريقهم.

﴿أولم يروا﴾: هذا استفهام تقريرى، أى قرروا أنكم رأيتم أى علمتم، انظر مثلها فى الآية (١) من سورة الشرح صفحة ٨١٢.

﴿كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾: كم تفيد معنى الكثير و﴿من القرون﴾ بيان لهذا الكثير.

﴿أنهم إليهم لا يرجعون﴾: معمول لفعل مقدر مفهوم من سياق الكلام وهو حكمنا وقضينا أنهم لا يرجعون.

﴿وإن كل لما﴾: (إن) هنا حرف نفى بمعنى (ما) و(لما) بمعنى (إلا) انظر الآية (١١١) من سورة هود صفحة ٣٠٠ أى ما كل واحد منهم إلا.. إلخ.

المعنى: قال هذا الرجل المؤمن مخاطبا أهل أنطاكية: يا قوم اتبعوا رسل الله. ثم رغبهم فقال: اتبعوهم لأنهم لا يسألونكم على رسالتهم شيئا من حطام الدنيا، والحال أنهم مهتدون،

---

(١) يسألكم. (٢) اتخذ. (٣) آلهة. (٤) شفاعتهم. (٥) ضلال. (٦) آمنت.
(٧) يا ليت. (٨) واحدة. (٩) خامدون. (١٠) يا حسرة. (١١) يستهزءون.

فإذا اتبعتموهم اهتديتم. عند ذلك شعر أهل القرية أنه آمن بهم وقد كانوا يظنونه على دينهم، فقالوا له: هل آمنت بهم؟ فتلطف فى إرشادهم بكلام يشعر أنه ينصح به نفسه، وأنه لم يختر لهم إلا ما اختار لنفسه، فقال: وما لى لا أعبد الذى فطرنى ثم أشعرهم بالخوف من الله فقال: وإليه ترجعون فى الآخرة. ثم نفى عن نفسه أنه يعبد غير الله تعالى فى أسلوب استفهام فقال: هل يصح أن أتخذ من دون الله آلهة؟ ثم بيّن السبب فى نفيه بقوله: إن يردنى الرحمن بضر، أى إن أراد الله أن يضرنى لا تنفعنى شفاعتهم عنده شيئا على فرض أنهم سيشفعون، فليس لهم عنده تعالى منزلة، وليس عندهم قوة ينقذوننى بها. إنى إذا عبدت غيره تعالى والله لفى ضلال واضح، انظر ما سبق فى شرح مبين فى الآية (٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٦. ثم جهر بالحق مظهرا عدم المبالاة بهم فقال: إنى آمنت بربكم الذى ليس لكم إله غيره، فاسمعوا جميع ما قلت واعملوا به. عند ذلك فتكوا به وقتلوه، وعقب قتله بشرته الملائكة بأن روحه مع أرواح الشهداء فى الجنة والمراد فى نعيم لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه وتعالى، كما أن الكافر يدخل عقب موته فى نار لا يعلمها غيره تعالى، انظر الآية (٢٥) من سورة نوح صفحة ٧٦٩. فلما شعر بالسعادة قال: ﴿يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين﴾. ثم أراد سبحانه أن يبين ما اقتضته حكمته فى إهلاكهم من احتقار شأنهم فقال: وما أنزلنا على قوم هذا الرجل الصالح من بعد موته جندا من السماء لإهلاكهم، وما كان يصح فى حكمتنا أن نفعل ذلك لأنا نهلك كل قوم بما يليق بهم، انظر الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦. وفى الكلام تعظيم شأن نبينا ﷺ؛ لأن الله سبحانه انزل له ملائكة تشد عزائم أصحابه، انظر الآية (١٢٥) من سورة آل عمران صفحة ٨٣. ثم بيّن سبحانه ما أهلكهم به فقال: ﴿إن كانت﴾ إلخ: أى ما كانت الفعلة التى أهلكناهم بها إلا صيحة واحدة لا أكثر، صاح بها جبريل عليهم فإذا هم ميتون فيا أيها السامعون يحق لكم أن تتحسروا حسرة شديدة على عباد خلقهم الله تعالى وتفضل عليهم ثم كفروا برسله، فما يأتيهم رسول من ربهم إلا كانوا به يستهزئون! ثم وبخ سبحانه كفار مكة على إهمالهم ما يعلمونه مما يدل على خطر ما هم فيه فقال: ﴿أو لم يروا﴾ إلخ: أى هل جهلوا ولم يعلموا إهلاكنا أمما كثيرة قبلهم حاكمين عليهم أنهم لا يرجعون إليهم، بل يرجعون إلينا نحن لمجازاتهم بما يستحقون وفى الكلام تهكم بكفار مكة وإبراز لجهلهم بما لا يصح أن يجهل، وما ذلك إلا لأنهم كانوا مثلهم، فيجب أن يعتبروا، ثم هددهم بما سيلاقيهم يوم القيامة فقال: ﴿وإن كل﴾ إلخ: أى وما كلهم إلا جميع.. إلخ.

جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ[1] لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ
أَحْيَيْنَٰهَا[2] وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا
جَنَّٰتٍ[3] مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ[4] وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾
لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾
سُبْحَٰنَ[5] الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَٰجَ[6] كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ الْأَرْضُ
وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ[7] لَّهُمُ الَّيْلُ[8]
نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ
تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾
وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ[9] مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾
لَا الشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ[10] سَابِقُ
النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ[11] لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا
ذُرِّيَّتَهُمْ فِى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ

المفردات: ﴿جميع﴾: هنا بمعنى مجموع، كقتيل بمعنى مقتول، انظر الآية (١٠٣) من سورة هود صفحة ٢٩٩، وبمعنى (جَمْع) بفتح فسكون كما فى الآية (٤٤) من سورة القمر صفحة ٧٠٧.

﴿محضرون﴾: أى تحضرهم الملائكة للعذاب، انظر الآية (١٦) من سورة الروم صفحة ٥٣٢.

﴿آية لهم﴾: أى دليل لهم على قدرة الله تعالى على البعث.

﴿الميتة﴾: أى القاحلة. ﴿أحييناها﴾: أى جعلناها منبتة بعد نزول الماء عليها.

﴿وما عملته أيديهم﴾: (ما) اسم بمعنى (الذى) معطوف على (ثمره) أى وليأكلوا مما عملته أيديهم مما رزقناهم على ما سيأتى فى الشرح.

﴿الأزواج﴾: جمع زوج والمراد به هنا كل شيئين بينهما ارتباط يؤديان به الحكمة من خلقهما. كالذكر والأنثى فى الحيوان أو النبات.

﴿نسلخ منه النهار﴾: أصل السلخ نزع الجلد عن الجسم. وفى الكلام تشبيه عجيب جدا إذ جعل الجو كأنه زنجى أسود يغطى جسمه شىء أبيض، وذلك أن الأصل فيما بين السماء والأرض الظلمة، كفراغ البيت الذى لا سراج فيه، فإذا ظهرت عليه الشمس أضاءته، وجعل ضوء النهار شيئًا أبيض ساترا لهذا الزنجى من جميع جهاته كأنه جلد له، فإذا غربت الشمس فكأنه سلخ ضوء النهار عن جسم الجو فصار مظلمًا.

---

(١) آية. (٢) أحييناها. (٣) جنات. (٤) أعناب.
(٥) سبحان. (٦) الأزواج (٧) آية. (٨) الليل.
(٩) قدرناه. (١٠) الليل. (١١) وآية.

﴿إذا هم﴾: (إذا) كلمة تدل على مفاجأة ما بعدها لما قبلها.

﴿لمستقر لها﴾: أى لزمان استقرارها النهائى وهو يوم القيامة.

﴿حتى عاد﴾: (عاد) هنا بمعنى (صار) كما تقول عاد النبات أخضر أى صار أخضر.

﴿العرجون﴾: هو العود الغليظ المتصل بالنخلة وفى آخره عناقيد البلح.

﴿فلك﴾: أى طريق مستدير.

﴿يسبحون﴾: المراد يسيرون مسيرًا هادئًا منتظمًا كسير السابح فى الماء.

﴿ذريتهم﴾: وإنما خص الذرية بالذكر مع أن المراد هم وذريتهم؛ لأن العرب بل كل الأمم تعتز ببنيها وتفخر بكثرتهم، لأنهم أهم أسباب القوة. والتغلب على الخصوم، انظر الآية (٣٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦ والآية (٤٦) من نفس السورة صفحة ٣٨٧ والآية (٧٧) من سورة مريم صفحة ٤٠٤ والآية (٣٥) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨ والآية (٢٠) من سورة الحديد صفحة ٧٢٢ والآية (١٤) من سورة القلم صفحة ٧٥٨ والآية (٢١) من سورة نوح صفحة ٧٦٩ والآية (١٣) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦. ﴿الفلك﴾: السفن.

المعنى: ما كلهم إلا مجموعون لدينا يوم القيامة للحساب، محضرون بعد ذلك فى جهنم للعذاب. ودليل واضح على قدرة الله تعالى على البعث نقدمه لهم هى تلك الأرض التى تكون قاحلة، فإذا نزل عليها الماء صارت حية أى ذات نبات. وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون فلا يستطيعون دعوى الجهل بذلك، وجعلنا فى الأرض جنات من نخيل وأعناب، وفجرنا فيها بعض العيون للسقى منها إذا غاب المطر أو جفت الأنهار ليأكلوا من ثمر هذا المذكور من النخيل والأعناب، ومما دخلته صنعة أيديهم منه، كعصير العنب أو طبخه حتى يصبح مربى وغيرها؛ هل جهل كل هذا كفار مكة فلا يشكرون الله تعالى عليه ويقرون بقدرته سبحانه على بعثهم؟ ولما كان الكلام السابق يشعر بأنهم لم يشكروا نعم ربهم وأشركوا به غيره. ناسب أن يذكر ما فيه تنزيه سبحانه عما صنعوا فقال: ﴿سبحان الذى﴾ إلخ: أى تنزيهًا لمن خلق هذه الأزواج كلها وحده مما تنبت الأرض من أشجار وزروع، ومن أنفسهم من ذكور وإناث، ومما لا يعلمون من أزواج لم يطلعوا عليها إلى ذلك الحين، وظهر بعضها بعد ذلك، وكثير بقى فى طى الخفاء، ومما ظهر من الأشياء المتزاوجة الكهرباء التى تحدث من (موجب وسالب)، والمغناطيس الذى

يحدث من (شمال وجنوب) إلى غير ذلك. وبعد ما أثبت البعث بأحوال الأرض وما يطرأ عليها أتبع ذلك بذكر أحوال الأجرام السماوية فقال ﴿وآية لهم الليل﴾ إلخ: أى وآية لهم على القدرة العظيمة الليل نبعد عنه النهار إبعادا لا يبقى معه شيء من ضوئه. فإذا هم داخلون فى وقت الظلام. وآية لهم أيضًا الشمس تجرى بنظام بديع لا يختل لحظة، وستبقى كذلك إلى قيام الساعة. ذلك الجرى على هذا النظام هو تقدير العزيز الغالب بقدرته على كل مخلوق، العليم بأسرار خلقه. وقال سبحانه ومن أدلة قدرتنا أن قدرنا سير القمر فى منازل يقطعها فى ٢٨ ليلة ثم يصير آخر الشهر كالعرجون القديم فى النحول والاعوجاج. ومن دقيق صنعه تعالى أن جعل الشمس لا يسهل لها أن تدرك القمر فى سرعة سيره لأنه يقطع دورته كل شهر مرة، وهى تقطعها كل عام، ولا الليل يسبق النهار فيترك بينهما فاصلا بل لابد من مجيء النهار عقب الليل مباشرة. وكل ما تقدم من الأرض والشمس والقمر لا يسير إلا فى طريقه لا يصطدم واحد منها بالآخر ويمكن أن ندرك روعة هذا النظام ودلالته القاطعة على أن لهذا الكون مدبرًا حكيمًا دائم السيطرة عليه إذا تصورنا مائة سيارة قد تجمعت فى منطقة واحدة مهما كانت مترامية الأطراف ثم انطلقت تسير بلا قيادة ثم ننظر ماذا يحدث؟ لاشك أنه لا يمضى على انطلاقها لحظات حتى يصدم بعضها بعضا وتحطم بعضها بعضا. إذا كان هذا يحدث مع قلة عدد السيارات وضآلة سرعتها إذا قيس عددها بعدد الكواكب المنطلقة فى الفضاء وهى تعد بالملايين وقيست سرعتها بسرعة الكواكب التى لا يتصورها العقل وتعد بجانبها السيارات كأنها سلحفاة. ومع ذلك لا تتصادم ولا تسقط على الأرض. إذ لو حصل ذلك لخرب هذا العالم الذى نعيش فيه فى طرفة عين. نقول إذا كان هذا هو الواقع أليس فيه البرهان القاطع على أن لهذا الكون ربا أحكم صنعه وحفظ نظامه، انظر الآية (٦٥) من سورة الحج صفحتى ٤٤٢، ٤٤٣ والآية (٤١) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٧، ٥٧٨. وآية لهم على قدرتنا أيضًا هى أنا حملنا ذريتهم الذين هم أعز شيء عندهم فى أثناء السفر فى البحر فى السفن المملوءة بهم وبكل ما يحتاجون إليه، وخلقنا لهم ما يركبونه فى البر من جمال وغيرها حال كونه مثل الفلك فى قضاء مصالحهم، انظر آيتى (٧ و ٨) من سورة النحل صفحة ٣٤٦ والآية (٢٢) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٧ والآية (٨٠) من سورة غافر صفحة ٦٢٨.

مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا
هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا[1] إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ[2] مِّنْ آيَاتِ[3] رَبِّهِمْ إِلَّا
كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا
رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا[4] أَنُطْعِمُ
مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ[5] مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ[6] ﴿٤٨﴾
مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً[7] تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا[8] مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا

المفردات: ﴿وإن نشأ نغرقهم﴾: متعلق بالفلك لأنها الأصل فى العبرة هنا، وغيرها ذكر تبعا لها ولأن العبرة فيها أوضح، لأن حمل الأجسام الضخام على الماء السائل فى العبرة أبهر.

﴿صريخ﴾: المراد به هنا الصراخ، وهو الاستغاثة، والمراد يموتون سريعًا.

﴿متاعًا إلى حين﴾: أى متعناهم بالحياة متاعا إلى انقضاء آجالهم.

﴿وإذا قيل لهم اتقوا﴾.. إلخ: جواب (إذا) مقدر مفهوم من السياق يدل عليه ﴿وما تأتيهم من آية﴾.. إلخ.. والأصل إذا قيل لهم اتقوا.. إلخ لم يبالوا وأعرضوا.

﴿ما بين أيديكم﴾: هو عذاب الآخرة.

﴿ما خلفكم﴾: هو ما حل بالأمم السابقة من الهلاك.

﴿من آية﴾: (من) لتأكيد العموم فيما بعدها، والآية الحجة الدالة على التوحيد وصدق الرسول.

---

(١) متاعا.
(٢) آية.
(٣) آيات.
(٤) آمنوا.
(٥) ضلال.
(٦) صادقين.
(٧) واحدة.
(٨) يا ويلنا.

﴿إن أنتم﴾: إن حرف نفى أى ما أنتم.

﴿الوعد﴾: المراد: الموعود به وهو البعث.

﴿ينظرون﴾: أى ينتظرون،

﴿يخصمون﴾: أى يختصمون فى البيع والشراء ومشاكل الحياة، فالمراد: بغتة وهم لايشعرون بها، انظر الآية (٢٠٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢.

﴿نفخ فى الصور﴾: المراد هنا: النفخة الثانية، انظر الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥.

﴿فإذا هم﴾: إذا تفيد مفاجأة ما بعدها لما قبلها.

﴿الأجداث﴾: جمع جدث بفتحتين. وهو القبر.

﴿ينسلون﴾: أى يسرعون، انظر آيتى (٩٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٠ و(٤٣) من سورة المعارج صفحة ٧٦٧.

﴿يا ويلنا﴾: أى يا هلاكنا وهى كلمة يقولها المتحسر.

﴿من مرقدنا﴾: المراد: من رقادنا. وذلك أنهم لما شاهدوا هول القيامة تصوروا أن كل ما قضوه فى القبور كان نومًا، ومهما كان فيه من العذاب لا يساوى شيئًا بالنسبة لما شاهدوه انظر آيتى (٤٥) من سورة يونس صفحة ٢٧٣ و (٥٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧١.

المعنى: ـ ومن فضلنا عليهم أننا خلقنا لهم ما يركبونه مثل السفن، وإن نشأ إغراقهم هم وذريتهم نغرقهم فجأة فلا يستطيعون استغاثة، وإذا فرض أن استغاثوا فلا أحد ينقذهم؛ ولكن رحمة منا بهم جعلناهم يتمتعون بالحياة إلى حين انتهاء آجالهم. ومن جرائم كفار قريش أنهم كانوا إذا قيل لهم احذروا عذاب الآخرة أو عذاب مثل ما حل بمَنْ قبلكم راجين من الله تعالى

رحمته لم يبالوا واستمروا فى إعراضهم. ثم بيَّن عدم مبالاتهم بقوله ﴿وما تأتيهم من آية)﴾إلخ: أى ما تأتيهم حجة من الحجج التى ساقها الله تعالى لهم إلا استمروا فى إعراضهم عنها.

وبعد مابيَّن إعراضهم عن خالقهم بيَّن قسوة قلوبهم على المخلوقين المحتاجين فقال ﴿وإذا قيل لهم أنفقوا﴾ إلخ: أى وإذا قال لهم بعض المؤمنين ناصحين لهم، كما نصح المؤمنون قارون فى الآية (٧٧) من سورة القصص صفحة ٥١٨ بقولهم أعطوا المساكين بعض ما رزقكم الله، قال هؤلاء الكافرون بالله وبنعمته للمؤمنين مغالطةً هل تطمعون أن نكون أحسن للفقراء من الله؟ لو شاء الله إطعامهم لأطعمهم، ما أنتم أيها الناصحون إلا فى بعد عن الصواب حيث تريدون أن نطعم مَنْ حرمه الله. وهذا فوق أنه هو الضلال، جهل بحكمة الله تعالى فى تفاوت الخلق فقرًا وغنى؛ لأنه سبحانه جعل ذلك اختبارًا للغنى أيشكر ويتصدق أم لا؟ وهل يصبر الفقير أم لا؟ انظر شرح الآية (٢٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢. وأيضًا ليتخذ بعضهم بعضا سخريًا، انظر شرح الآية (٣٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠. وبعد ما بيَّن بخلهم وتضليلهم ودفاعهم عنه بيَّن سبحانه إنكارهم للبعث فقال ﴿ويقولون متى﴾... إلخ: أى ويقول هؤلاء المشركون على سبيل الاستهزاء بالرسول ﷺ وأصحابه متى هذا البعث الذى تهددوننا به؟ أخبرونا عن وقته إن كنتم صادقين فى أنه آت. ورد سبحانه بقوله ﴿ما ينظرون﴾ إلخ: أى لا ينتظر هؤلاء وأمثالهم إلا صيحة واحدة هى نفخة إسرافيل الأولى المصرح بها فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ تأخذهم فجأة وهم متخاصمون فى أمور الدنيا، فلا يستطيع الواحد منهم أن يوصى فى أمواله وأولاده أحدا، ولا يستطيع مَنْ كان بعيدًا عن أهله أن يرجع إليهم. ونفخ فى الصور النفخة الثانية، فإذا هم من القبور يسرعون إلى لقاء ربهم للحساب. وعندما يشاهدون الأهوال يقولون قولاً مقطوعًا بتحققه: ياهلاكنا مَنْ الذى أيقظنا من نومنا؟ فترد عليهم الملائكة توبيخًا لهم: هذا الذى تشاهدونه هو ما وعد به الرحمن... إلخ.

مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾
فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ
فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ
مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾
سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا
الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ
أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ
اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ
جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ
الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ

المفردات: ﴿إن كانت﴾: إن حرف نفى، أى ما كانت الفعلة التى أعادتهم إلا صيحة.. إلخ. ﴿إذا هم﴾: تقدم فى الصفحة السابقة. ﴿جميع لدينا محضرون﴾: تقدم فى الصفحة السابقة.

﴿شغل﴾: الشغل هو ما يشغل الإنسان عن غيره. ﴿فاكهون﴾: الفاكه والفكه بفتح وكسر المتنعم المتلذذ.

﴿ظلال﴾: المراد بالظل الموضع الذى لاتصيبه الشمس، انظر الآية (١٤) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٢. (الأرائك): تقدم فى الآية (٣١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٥.

﴿ما يدعون﴾: أى ما يدعون به، أى ما يطلبونه مما تشتهيه أنفسهم، انظر الآية (٥٥) من سورة الدخان صفحة ٦٥٩.

﴿سلام﴾: خبر لمبتدأ مقدر، والأصل تحيتهم فى الجنة سلام.

يقال لهم من ربهم سبحانه وتعالى، انظر الآية (١٠) من سورة يونس صفحتى ٢٦٦، ٢٦٧.

﴿قولا﴾: الأصل يقال لهم قولاً صادرًا من رب رحيم، والمراد بأمره للملائكة به.

﴿امتازوا﴾: أى انفردوا وابتعدوا عن المؤمنين. (ألم): الاستفهام للتقرير، كما فى الآية (١)

---

(١) واحدة. (٢) أصحاب.
(٣) فاكهون. (٤) أزواجهم.
(٥) ظلال. (٦) فاكهة.
(٧) سلام. (٨) امتازوا.
(٩) يابنى آدم. (١٠) الشيطان.
(١١) صراط.

من سورة الشرح صفحة ٨١٢، أى اعترفوا بأنا عهدنا إليكم. ﴿أعهد إليكم﴾: تقدم معناها فى الآية (١١٥) من سورة طه صفحة ٤١٧.

﴿أن لا تعبدوا الشيطان﴾: أى لا تطيعوه انظر الآية (٤١) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٨، ٥٦٩.

﴿جبلا﴾: تقدم فى الآية (١٨٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١.

﴿اصلوها﴾: تقدم فى الآية (١٨) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧.

المعنى: قال الملائكة للكفار هذا الذى تشاهدونه هو ما وعد به ربكم الذى رحمكم بإرساله الرسل لإرشادكم مما أنتم فيه اليوم فحرمتم أنفسكم من رحمته، وهذا هو ما صدق المرسلون فى إخباركم به. ولم يكن جمعهم لهذا اليوم شاقًا على الله تعالى، فما كانت الفعلة التى جمعتهم إلا صيحة واحدة، فإذا هم مجموعون لدينا للحساب، محضرون للعذاب ويقول الله تعالى لهم: اليوم لا تظلم نفس شيئًا من حسناتها إن كان لها حسنات، ولا تجزون أنتم أيها المشركون إلا جزاء عملكم لا يزاد عليكم شىء ظلما، انظر شرح آيتى (٧، ٨) من سورة الزلزلة صفحة ٨١٨.

ثم بيَّن سبحانه ما أعد للمحسن وللمسىء فقال: إن أصحاب الجنة فى اشتغال بما هم فيه من النعيم لا يفكرون فى سواه، متلذذون بكل ما فى الجنة من نعم، هم وأزواجهم فى مكان لايرون فيه حر الشمس. على السرر متكئون. ثم بيَّن بعض ما يتنعمون به فقال: لهم فيها فاكهة من كل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولهم كل ما يتمنون ويطلبونه؛ أما نعيمهم الروحانى فهو تحية ربهم لهم بأن يأمر الملائكة بالسلام عليهم كلما رأوهم، انظر آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥، ثم يقال للكفار: وابتعدوا اليوم أيها المجرمون عن منازل المؤمنين. ثم يقال لهم توبيخًا: ﴿ألم أعهد﴾... إلخ: أى ألم نأمركم على لسان رسلنا بألا تطيعوا الشيطان لأنه لكم عدو ظاهر العداوة، فلا يدلكم إلا على ما فيه هلاككم، وقلنا لكم اعبدونى وحدى. هذا الطريق المستقيم الموصل للجنة ولكنكم لم تسلكوه بل سلكتم طريق الشيطان حتى أضل منكم خلقا كثيرا. فهل فقدتم عقولكم حتى تطيعوه؟ ثم يقال لهم لزيادة عذابهم هذه جهنم التى كان الرسل أوعدوكم بها إن بقيتم على جرائمكم. وبما أنكم لم تنتفعوا بهذا الوعيد فقاسوا اليوم حر نارها بسبب كفركم.

تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ
أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ
نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ
يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا
ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ
فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا
يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ
مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا
مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا
يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ

المفردات: ﴿اليوم نختم﴾ .. إلخ: انظر الآية (٢٤) من سورة النور صفحة ٤٦٠، والآية (٢٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢.

﴿استبقوا الصراط﴾: تقدم فى الآية (٢٥) من سورة يوسف صفحة ٣٠٦.

﴿فأنى﴾: فكيف.

﴿لمسخناهم﴾: المسخ تحويل حالة الشيء من حسنة إلى قبيحة، قال ابن عباس لمسخناهم أى أهلكناهم.

﴿على مكانتهم﴾: (على) بمعنى (مع) كما فى قوله تعالى ﴿آتى المال على حبه﴾ إلخ الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤؛ والمعنى مع تمكنهم فى القوة والعَدَد والعُدَد وظنهم أن لا غالب لهم فنأخذهم من حيث لا يشعرون بما يهلكهم.. فهو نظير ما فى الآية (٨٢) من سورة غافر صفحتى ٦٢٨، ٦٢٩ والآية (١٥) من سورة غافر صفحة ٦٣١؛ وانظر أصل معنى المكانة فى شرح الآية (١٣٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٥.

﴿مضيا ولا يرجعون﴾: لا يستطيعون ذهابا وإيابا والمراد: هلكوا.

﴿نعمره﴾: تقدم فى الآية (١١) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣.

﴿ننكسه فى الخلق﴾: أصل التنكيس جعل الأعلى أسفل، والمراد نجعل قوته ضعفا، انظر الآية (٥) من سورة الحج صفحتى ٣٣٣، ٣٣٤ والآية (٥٤) من سورة الروم صفحة ٥٣٨.

---

(١) افواههم. (٢) الصراط.
(٣) لمسخناهم. (٤) استطاعوا.
(٥) علمناه. (٦) قرآن.
(٧) الكافرين. (٨) انعاما.
(٩) مالكون. (١٠) ذللناها.
(١١) منافع. (١٢) آلهة.

الآية (٥) من سورة الحج صفحتى ٣٣٣، ٣٣٤ والآية (٥٤) من سورة الروم صفحة ٥٣٨.

﴿الشعر﴾: انظر المراد من الشعر هنا فى الآية (٢٢٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٣.

﴿إن هو إلا ذكر﴾: إن حرف نفى بمعنى (ما) أى ما هذا المنزل على رسولنا إلا تذكير للعاقل وقرآن يتلى.

﴿من كان حيا﴾: أى عاقلا يقظ الضمير متأملا لأن الغافل كالميت.

﴿يحق القول﴾: تقدم فى الآية (٨٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٤.

﴿أيدينا﴾: الذى يجب علينا أن نفهمه من ذلك أنه سبحانه خلقه بلا شريك ولا معين. ﴿أنعاما﴾: هى الإبل والبقر والغنم. ﴿ذللناها لهم﴾: جعلناها منقادة لهم. ﴿ركوبهم﴾: مركوبهم كحلوب بمعنى محلوب. ﴿مشارب﴾: جمع مشرب بمعنى مشروب أى اللبن، كالمأكل أى المأكول.

المعنى: يقال اليوم ادخلوا النار بما كنتم تكفرون. وبلغ من حيرتهم أنهم حين يسألون فى الحساب عن أعمالهم تخرس ألسنتهم، وتنطق أيديهم وأرجلهم بكل ما كسبوا من سيئات، ثم أراد سبحانه أن يبين شمول قدرته وأنهم كانوا يستحقون أن يعذبهم فى الدنيا حالا، ولكن سعة رحمته اقتضت إمهالهم لعل فيهم من يرجع إلى الصواب فقال: ﴿ولو نشاء﴾ إلخ: أى لو شئنا محو أبصارهم لفعلنا وأعميناهم، فإذا تسابقوا إلى الطريق كعادتهم فلا يمكن أن يبصروه. ولو نشاء لمسخناهم أى أهلكناهم رغم ظنهم أنهم أقوياء. ثم أراد سبحانه أن ينبههم إلى قدرته على البعث بحالة يشاهدونها فى أنفسهم فقال: ﴿ومن نعمره﴾ إلخ: أى ومن نطل عمره نقلب حاله من قوة فى جسمه وعقله إلى ضعف فيهما. فهل غفلوا عن هذا فأصبحوا لا يعقلون أن من قدر على أن ينقلهم من الشباب إلى الهرم ومن القوة إلى الضعف يقدر على أن يطمس على أعينهم ويمسخهم ويبعثهم بعد الموت. ولما كان افتراؤهم عليه ﷺ بقولهم إنه شاعر وأن ما جاء به من القرآن شعر أى خيالات وأوهام لا حقيقة لها، لما كان كل هذا، رد سبحانه بقوله: وما علمناه الشعر. وما ينبغى لرسولنا ذلك؛ لأنه لا يقول إلا الحق، وما هذا الذى جاء

يَنصُرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ
مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ[1] أَنَّا خَلَقْنَاهُ[2] مِن
نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا
وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ[3] وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾
قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ
عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا
أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ[4]
وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ[5] عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ[6]
الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ
كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ[7] الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ
شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

به الكافرين. ثم أعاد سبحانه الكلام فى وحدانيته وتفرده بالخلق فقال ﴿أو لم يروا﴾ إلخ: أى هل عميت أبصارهم ولم يروا أنا خلقنا لمنفعتهم من ضمن ما انفردنا بإيجاده أنعاما فهم متصرفون فيه، وأخضعناها لهم لينتفعوا بها، فمنها ما يركبونه، ومنها ما يأكلونه، ولهم فيها منافع أخرى منها اللبن الذى يشربونه، فهلا شكروا الله على هذه النعم؟ ثم صرح بجرمهم فقال: واتخذوا من دون الله آلهة راجين نصرها لهم.

المفردات: ﴿وهم لهم جند﴾: أى أن المشركين هم الجنود المدافعون عن الأصنام.

﴿محضرون﴾: أحضرتهم الشياطين للدفاع عنهم، انظر الآية (٦٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧.

﴿خصيم مبين﴾: تقدم فى الآية (٤) من سورة النحل صفحة ٣٤٥.

﴿وضرب لنا مثلا﴾: انظر ضرب المثل فى الآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤، والجملة معطوفة على جملة ﴿ير الإنسان﴾ داخلة فى خبر الإنكار.

﴿ونسى خلقه﴾: أى ترك التأمل فى خلق الله له من التراب والنطفة القذرة، انظر الآية (٥) من سورة الحج صفحتى ٤٣٣، ٤٣٤ والآية (٨) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥.

---

(١) الإنسان.
(٢) خلقناه.
(٣) العظام.
(٤) السموات.
(٥) بقادر.
(٦) الخلاق.
(٧) فسبحان.

﴿رميم﴾: أى بال قديم. يقال رم يرم بوزن حن يحن إذا بلى وتفتت. فهو فعيل بمعنى فاعل وإنما لم يؤنث فيقال (رميمة)؛ لأنه لغلبة استعماله غير مسبوق بموصوف صار كالأسماء الجامدة التى لا يجرى عليها حكم الصفات، وأما إذا كان (رميم) مأخوذ من قولهم رمت البقر الحشيش أى أكلته وكأن ما بلى وتفتت أكلته الأرض فيكون بوزن فعيلاً بمعنى مفعول، وهو يستوى فيه المذكر والمؤنث فيقال رجل جريح وامرأة جريح.

﴿من الشجر الأخضر نارا﴾: قال ابن عباس فى كل شجر نار. وخص الأخضر بالذكر لبيان كمال القدرة الإلهية.

﴿فإذا﴾: إذا كلمة تدل على سرعة حصول ما بعدها.

﴿بقادر﴾: الباء لتأكيد ثبوت القدرة له تعالى.

﴿بلى﴾: حرف يدل على إثبات ما بعد النفى السابق أى نحن قادرون؛ انظر تفصيل ذلك فى شرح الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

﴿يقول له كن﴾: لم يعلمنا سبحانه حقيقة هذا القول، وإنما الذى يجب أن نعتقده أنه سبحانه إذا قضى أمرًا نفذ بقدرته سريعًا من غير توقف على شىء آخر.

﴿ملكوت﴾: تقدم فى الآية (٧٥) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤.

المعنى: واتخذ الكفار لأنفسهم آلهة غير الله يرجون نصرهم فيما يهمهم من الأمور مع أن تلك الآلهة لا تستطيع نصرهم ومع ذلك فإن هؤلاء الكفار جند لآلهتهم محضرون لخدمتهم وحفظهم، انظر الآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤.

وهل هناك حماقة أشد من حماقة مَنْ ينتظر النصر مِمَن هو فى حاجة إلى من يحافظ عليه؟ وبعد ذلك أراد سبحانه أن يخفف عن رسوله ﷺ عنادهم فقال ﴿فلا يحزنك قولهم﴾: أى فى الله تعالى بأن يكون له شريكا، وفيك أيها النبى بأنك شاعر، إلى غير ذلك، لأنا نعلم ما يسرونه من نياتهم الخبيثة، وما يعلنونه من أفعالهم الذميمة، وسنجازيهم على كل ذلك أشد الجزاء. وبعد ما أبطل الشرك أراد أن يبين بطلان إنكارهم البعث بعد ما شاهدوا فى أنفسهم

ما يوجب التصديق به فقال ﴿أو لم ير الإنسان﴾ إلخ: أى هل جهل هذا الإنسان ولم يعلم أنا خلقناه من نطفة من ماء مهين فإذا هو شديد الخصومة لربه مجاهر بها، إذ ادعى أن لله شريكًا، وكذب رسوله. وهذا منه تعالى إنكار شديد عليهم، ولفت لأنظار العقلاء للتعجب من عنادهم. ثم زاد فى تجهيلهم فقال ﴿وضرب لنا مثلا﴾ إلخ: أى جعل لنا مثلا ونظيرًا من الخلق إذ قاس قدرتنا على قدرتهم، فجعل ما يمتنع عليهم ممتنعًا علينا، وأهمل النظر فى قدرتنا على خلقه هو من النطفة الحقيرة، وأن من قدر على ذلك يقدر على إعادته بعد موته بل ذلك أسهل عليه، انظر الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٢٤. ثم بيّن سبحانه ما قاله الكافر بقوله ﴿قال من يحيى العظام﴾ إلخ: أى قال فى أسلوب المنكر لا أحد يستطيع إحياء العظام المفتتة. قل لهم أيها النبى: يحييها الذى أنشأها أول مرة، وهو عليم بكل ما يخلق وبتفاصيل أجزائه. ثم أرشد الكفار إلى دليل على البعث غير ما تقدم فقال: ﴿الذى جعل لكم﴾ أى الذى أحيا العظام أول مرة هو الذى قدر على إيجاد النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من الماء المضاد للنار، ولا شك أن مَنْ يقدر على ذلك يكون أقدر على أن يعيد الجدة إلى ما كان غضا فيبس ثم أكد أنهم متحققون من قدرته على ما تقدم فقال: ﴿فإذا أنتم منه توقدون﴾: أى لا تشكون فى أنها نار حقيقية، ثم أثبت مضمون ما سبق فقال ﴿أوليس﴾ إلخ: أى أليس الذى خلق السموات والأرض مع ضخامتهما، بقادر على أن يحيى مثل هؤلاء الكفار انظر الآية (٥٧) من سورة غافر صفحة ٦٢٥، والآية (٣٣) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١، والآية (٢٧) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠.

ثم رد على إنكارهم بقوله ﴿بلى﴾ أى نعم هو قادر على ذلك؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الخلاق لكل شىء. العليم بدقائق خلقه، ثم أكد كل ما سبق من شمول قدرته وعلو سلطانه فقال: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا﴾ إلخ: أى لا يحتاج إلا لقوله كن فيكون، أى فينفذ سريعًا بلا حاجة إلى معين. ثم بعد ذلك أرشدنا إلى تنزيهه سبحانه عما افتروه فقال: ﴿فسبحان الذى﴾ إلخ: تنزه ربنا الذى تحت سلطانه كل هذا الملك الواسع علويه وسفليه تنزيهًا يليق به.

﴿وإليه ترجعون﴾ أيها الناس جميعًا وفيكم هؤلاء المشركون، فيجازى كلا بما هو أهله نسأله الله السلامة فى ذلك اليوم.

(٣٧) سُورَةُ الصَّافَّاتِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا اثْنَتَانِ وَثَمَانُونَ وَمِائَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّٰٓفَّٰتِ[١] صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّٰجِرَٰتِ[٢] زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّٰلِيَٰتِ[٣]
ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ[٤] ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ[٥]
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ[٦] ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ
الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ[٧]
مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ[٨] الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن
كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ
خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ
أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم[٩] مِّن طِينٍ

سورة الصافات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الصافات﴾: هى جموع الملائكة المحلقة بأجنحتها فى صفوف منتظمة منتظرة أوامر ربها، انظر شرح الآية (١) من سورة فاطر صفحة ٥٧١؛ والآية (١٦٥) الآتية فى هذه السورة صفحة ٥٩٦.

﴿فالزاجرات﴾: هى الملائكة التى تعمل على إبعاد الشياطين عن استراق السمع بقذفهم بالشهب، انظر الآية (٧) الآتية ومابعدها، والآية (٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٤ والآية (٨) من سورة الجن صفحة ٧٧١.

﴿التاليات﴾: هى الملائكة القارئات لكلام الله المنزل على رسله. ﴿ذكرا﴾: المراد كتب الله، انظر الآية (٤٣) من سورة النحل صفحة ٣٥١، والآية (١٠٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، والآية (٤١) من سورة فصلت صفحة ٦٣٥، والآية (٥١) من سورة القلم صفحة ٧٦١.

﴿المشارق﴾: جمع مشرق وهو موضع شروق الشمس والقمر والنجوم وهى كناية عن رب العالم كله.

﴿الدنيا﴾: مؤنث الأدنى بمعنى الأقرب، فالمراد القربى لمن على وجه الأرض. ﴿مارد﴾: أى

---

(١) الصافات. (٢) فالزاجرات. (٣) فالتاليات.
(٤) لواحد. (٥) السموات. (٦) المشارق.
(٧) شيطان. (٨) الملأ. (٩) خلقناهم.

متمرد خارج عن الطاعة. (لايسمعون): أي لايتسمعون خلسة. ﴿الملأ الأعلى﴾: المراد بهم هنا كبار الملائكة. ﴿يقذفون﴾: أى يرجمون.

﴿دحورا﴾: الدحور هو الطرد والإبعاد. ﴿واصب﴾: دائم كما فى الآية (٥٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٢. ﴿شهاب﴾: أصل الشهاب الشعلة الساطعة من النار الموقدة، والمراد هنا مايرى فى الجو كأنه كوكب ساقط من السماء. ﴿ثاقب﴾: أى مخترق لجسم المارد.

المعنى: - يقول سبحانه أقسم بالملائكة الصافين فى مقام العبودية، الزاجرين الشياطين عن التسمع لما يدور فى الملأ الأعلى، التالين لآيات الله تعالى على رسله: إن إلهكم أيها الناس لواحد، هو رب السموات والأرض ومابينهما. وهو رب مطالع الشمس على هذا النظام البديع الذى لايختل يوما. وهذا دليل على وجود صانع حكيم منفرد بتصريف ملكه وإلا لاختل وفسد، انظر الآية (٢٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٢ وقد ورد مثل هذا القسم فى القرآن كثيرا؛ لأنه جاء بلغة العرب وأساليبهم وكان من عادتهم إذا سمعوا الرجل يقسم يعلمون أنه سيقول كلاما مهمًا يجب الإصغاء إليه. وسبب ذلك أنهم كانوا يخافون من الأيمان الكاذبة. ويعتقدون أنها تخرب الديار. فيستقبلون الكلام المبدوء بالقسم باهتمام. فإذا فاجأهم البرهان القاطع وهم بهذا الاستعداد كانوا أقرب إلى الانقياد. ولايعرض إلا من كان شديد العناد. وعلى هذه العادة المعروفة عندهم أقسم سبحانه بأشياء كثيرة منها القرآن؛ ومنها بعض مخلوقاته كما هنا لحكم كثيرة فى المقسم به والمقسم عليه. منها أنه يلفت النظر إلى مواضع العبرة فى هذه الأشياء المقسم بها. والحث على تأملها حتى يصلوا إلى الصواب فيها. فمما أقسم به سبحانه القرآن لبيان أنه كلام الله حقا، وفيه كل أسباب السعادة انظر الآية (٢) من سورة يس صفحة ٥٧٩ والآية (١) من سورة ص صفحة ٥٩٧ والآية (٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٧ وغير ذلك؛ ومنها الملائكة لبيان أنهم عباد لربهم خاضعون، لا آلهة يعبدون كما فى هذه السورة. ومنها الشمس والقمر والنجوم لما فيها من الفوائد؛ ولأن تغيرها من حال إلى حال ينادى بحدوثها وأن لها خالقا حكيما. فلا تصح الغفلة عن شكر المنعم بها فضلا عن عبادتها.

انظر الآية (٣٧) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٤ و ٦٣٥ وصفحتى ٧٠٠ و ٨٠٩. ومنها الرياح كما فى الآية (١) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٢. ومنها الطور وغيره صفحتى ٦٩٦ و٦٩٧. ومنها القلم. والسماء ذات البروج. والفجر. والتين وغير ذلك مما سيأتى. وأهم ما أقسم سبحانه عليه الأصول الثلاثة التى جاء بها جميع الرسل. وهى الوحدانية كما هنا الآية (٤)، والرسالة كما فى الآية (٣) من سورة ص صفحة ٥٩٧، والبعث يوم القيامة كما فى آيتى (٥ و ٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٢، والآيات (٧ إلى ١٦) من سورة الطور صفحة ٦٩٧. ومما يجب التنبه له أن هذا النوع من القسم مما اختص به سبحانه. فلا يجوز لنا أن نحلف إلا بالله تعالى أو بصفة من صفاته سبحانه. لقوله ﷺ: «من كان حالفا فليحلف بالله أو ليسكت».

ثم أكد تفرده فقال (إنا زينا) إلخ: أى إنا وحدنا الذين زينا مايرى فى رأى العين أنه السماء القربى بزينة هى الكواكب التى يراها أهل الأرض فى الليل مشرقة متلألئة على سطحها الأزرق بأشكال وأوضاع مختلفة، وحفظنا السماء حفظا من كل شيطان متمرد ثم بيَّن سبحانه حال الشياطين بعد حفظ السماء بقوله (لايسمعون)إلخ: أى لايتسمعون مصغين إلى مايدور فى الملأ الأعلى، وإذا حاولوا من أية جهة تسمعًا يرمون من كل جانب إبعادا عنها، ولهم على تلك المحاولة فى الآخرة عذاب دائم، لايسمعون شيئًا إلا مَنْ اختلس من كلام الملائكة جملة، عند ذلك يلحقه شهاب يثقب ظهره، وكل هذا من أحوال الغيب التى يجب علينا الإيمان بها. وعدم التعمق فى بحثها؛ لأنه لولا أن الله تعالى أخبرنا بها ما أمكن الوصول إلى علم شىء منها. فيجب أن نقف عندما أعلمنا لأنه سبحانه لم يكلفنا البحث فيما وراء ذلك. ثم شرع بعد ذلك فى إثبات البعث وإبطال إنكارهم فقال مخاطبا رسوله (فاستفتهم) إلخ: أى فاستخبر مشركى مكة أيها النبى واسألهم هل هم أصعب خلقا وأشق إيجادا، أم مَنْ خلقنا من الملائكة والسموات والأرض ومابينهما وغير ذلك، ثم بيَّن أنهم هم أسهل من كل ماذكر، فقال (إنا خلقناهم من طين لازب) ولا شك أن مَنْ خلق من طين رخو تسهل إعادته يوم القيامة، فكيف يستنكرون أن يخلقوا منه مرة ثانية كما فى الآية (٥٥) من سورة طه صفحة ٤١٠.

لَازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا
لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا
إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا
أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ
وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ
يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا
يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ * احْشُرُوا
الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ
اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ
مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ
مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾
قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ

المفردات: ـ ﴿لازب﴾: متماسك لا هو بالسائل ولا بالصلب. ﴿بل﴾: حرف يدل على الانتقال من غرض إلى آخر. ﴿يستسخرون﴾: يبالغون فى السخرية. ﴿إن هذا﴾: إن حرف نفى بمعنى (ما) أى ماهذا. ﴿داخرون﴾: أى خاضعون أذلاء صاغرون، انظر الآية (٨٧) من سورة النمل صفحتى ٥٠٤، ٥٠٥.

﴿زجرة﴾: المراد بها صيحة الملك بالنفخة الثانية. ﴿فإذا هم﴾: إذا كلمة تدل على سرعة حصول مابعدها.

﴿ينظرون﴾: أى ينتظرون مايفعل بهم.

﴿ياويلنا)﴾ كلام يقوله المتحسر ومعناه ياهلاكنا.

﴿يوم الدين﴾: تقدم فى سورة الفاتحة.

﴿احشروا الذين ظلموا﴾: تقدم بيان ذلك فى الآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١، والآية (٩٢) ومابعدها من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥. ﴿فاهدوهم﴾ إلخ: المراد دلوهم على طريق جهنم. ﴿لاتناصرون﴾: أى لاينصر بعضكم بعضا بالتخليص من العذاب.

﴿مستسلمون﴾: أى منقادون لا قدرة لهم على الخلاص. ﴿تأتوننا عن اليمين﴾: تستعمل العرب اليد فى القوة، وهى فى اليد اليمنى أظهر؛ لأن البطش يكون بها غالبا، فالمراد كان إتيانكم لنا صادرًا عن القوة والقهر فأرغمتمونا على الكفر.

---

(١) آية. (٢) أ إذا.
(٣) عظاما. (٤) أ إنا.
(٥) آباؤنا. (٦) داخرون.
(٧) واحدة. (٨) ياويلنا.
(٩) ازواجهم. (١٠) صراط.

المعنى: . بعد ما بيَّن سبحانه قدرته على إعادتهم يوم القيامة انتقل إلى بيان حاله ﷺ وحال الكفار فقال ﴿بل عجبت﴾ إلخ: أى لاتستفتهم فإنهم معاندون بل انظر إلى تفاوت حالك وحالهم، فأنت تعجب من جهلهم وشدة غفلتهم، وهم يسخرون من تعجبك وتقديرك للبعث وإذا ذكرتهم بما فى القرآن ووعظتهم لايتعظون، وإذا رأوا معجزة تدل على صدقك يبالغون فى السخرية بك وبها، وقالوا عنها ماهذا إلا سحر ظاهر. ثم بينوا سبب إنكارهم فقالوا: هل إذا متنا وكنا ترابا وعظاما، ثم كرروا الاستفهام ثانية مبالغة فى الإنكار فقالوا: أ إنا لمبعوثون؟ ثم بالغوا فى الإنكار فقالوا: هل نُبعث حتى آباؤنا الأولون القدامى؟ أى فبعثهم يكون أبعد فى التحقيق، فأمر سبحانه رسوله أن يرد عليهم ويقول لهم نعم ستبعثون وأنتم صاغرون، وليست الفعلة التى تبعثكم من القبور إلا صيحة واحدة لاثانى لها؛ فإذا هم أحياء ينتظرون مصيرهم. ثم بيَّن ماسيكون منهم عند ذلك؛ فقال: وقالوا ياهلاكنا هذا الذى نشاهده هو يوم الحساب الذى وعدنا به الرسول، فتقول لهم كبار الملائكة: هذا يوم الفصل بين الخلائق الذى كنتم به تكذبون. ثم يقول هؤلاء الملائكة لزبانية جهنم: احشروا الذين ظلموا أنفسهم بالكفر هم وأزواجهم اللائى اتبعنهم؛ لأن الإنسان يتألم من رؤية زوجته تتعذب معه، كما يسر أهل الجنة بنعيم زوجاتهم معهم، انظر الآية (٢٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥، والآية (٥٦) من سورة يس صفحة ٥٨٤، والآية (٧٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٤.

واحشروا معهم أيضًا مَن كانوا يطيعونهم من دون الله من الشياطين لأنهم رأس كل المصائب انظر ماتقدم قريبا فى الآية (٦٠) من سورة يس صفحة ٥٨٤، فدلوا الجميع على طريق جهنم، وقفوهم أولاً فى موقف الحساب عند الصراط لأنهم سيسألون عن جميع ماحصل منهم لتقوم عليهم الحجة. ثم يقال لهم توبيخا: مالكم اليوم لاينصر بعضكم بعضا ثم انتقل إلى بيان الواقع فقال: بل هم اليوم منقادون أذلاء. ثم بين ماسيكون من الأتباع والمتبوعين من التخاصم فقال سبحانه ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾: أى سؤال لوم. ثم بيَّن ذلك بقوله: قالوا أى الأتباع منهم للمتبوعين؟ إنكم كنتم ترغموننا بقوة تضليلكم على الكفر والمعاصى، انظر شيئًا من ذلك فى الآية (٣٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٧، فقال المتبوعون فى الرد عليهم، ليس كذلك، بل أنتم الذين كنتم كافرين.

تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ[1]
بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ[2] (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا
لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَٰكُمْ[3] إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ[4] (٣٢) فَإِنَّهُمْ
يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ
بِٱلْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوٓا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ
يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا ءَالِهَتِنَا[5] لِشَاعِرٍ
مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣٧)
إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَٰكِهُ[6] وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِى جَنَّٰتِ[7]
ٱلنَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ[8] (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ
مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ[9] (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ

المفـردات:: ﴿سلطان﴾: أى قهـر وتسلط انظر الآيـة (٢٢) من سـورة إبراهيم صـفـحـة ٣٣٣. ﴿بل﴾: حرف يدل على انتقال من كلام إلى آخـــر. ﴿حق علينا﴾: المراد وقع علينا عذاب ربنا كما تقدم بيانه فى الآية (٨٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٤.

﴿إنا لذائقـــون﴾: أى للعـــذاب، والمراد معذبون، انظر الآية (٣٨) الآتية.

﴿فـأغـويناكم﴾ إلخ: انظر بيـان ذلك فى آيتى (٩١ و ٩٤) من سورة الشـعـراء صـفـحـة ٤٨٥. ﴿المخلصين﴾: تقدم فى الآية (٢٤) من سـورة يوسف صـفـحـة ٣٠٦. ﴿رزق مـعلوم﴾: المراد. معـروف بصفـاته التى لايشاركه فيها غيره، انظر الآية (٢٥) من سورة البقرة صفحة ٦ وآيتى (٣٢ و ٣٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤ إلى غير ذلك مما لايكون إلا فى الجنة. ﴿كأس﴾: أصل الكأس الإناء إذا كان فيه شراب. ويطلق على الشـراب نفسـه وهو المراد هنا، أى خمـر. ﴿معين﴾: أى نهـر ظاهـر للعيـون، انظر الآية (١٥) من سورة محمد صفحة ٦٧٤. ﴿بيضاء﴾: صفة للخمر، قال الراغب: العرب تطلق (الأبيض) على مَنْ لم يدنس بعيب فيقولون فلان أبيض الصفحة أو العرض أى أنه لاعيب فيه. ﴿لذة﴾: مبالغة فى أنها لذيذة حتى كأنها اللذة نفسها. ﴿غول﴾: أصل الغول: الإفساد، تقول العرب غاله الشىء إذا أفسده، وفى خمـر الدنيا مفاسد كثيرة منها السكر، وغياب العقل، والصداع، وهذا ما أشار إلى نفيه هنا. ومنها القىء. وكثرة البول والعرق، وهذا ما أشار إليه بقوله ﴿ولاينزفون﴾ كما سيأتى، انظر الآية (١٩) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤.

(١) سلطان. (٢) طاغين. (٣) فأغويناكم. (٤) غاوين. (٥) آلهتنا.
(٦) فواكه. (٧) جنات. (٨) متقابلين. (٩) للشاربين.

المعنى: ـ قال المتبوعون للتابعين منكرين أنهم أضلوهم: إننا لم نضلكم، بل كنتم بسبب إفسادكم فطرتكم غير مؤمنين بطبعكم لابتأثير منا، وعلى فرض أنا أغويناكم فهل كان لنا عليكم قهر حتى نجبركم على الكفر؟ بل كنتم قوما متجاوزين الحد فى الفساد، فوجب وثبت علينا وعيد ربنا بأنا سنذوق العذاب لا محالة. انظر الآية (١٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٤. ثم بينوا مافيه شبه عذر لهم فى إضلال الأتباع فقالوا (فأغويناكم) أى لم يكن منا إلا أن دعوناكم إلى الغواية لأننا غاوون أى ضالون، فأحببنا أن تكونوا مثلنا، فصادف ذلك هوى نفوسكم فأسرعتم إلى مطاوعتنا. فرتب سبحانه نتيجة ذلك بقوله: إنهم يومئذ فى العذاب مشتركون، كما اشتركوا فى الضلال، لكن عذاب القادة أشد من عذاب التابعين. انظر الآية (٢٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٨، والآية (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠. ثم بين سبحانه أن ماحصل لهم عدل منه سبحانه يعامل به كل مَنْ عمل فقال (كذلك: أى كما نفعل بهؤلاء نفعل بكل مجرم مشرك مثلهم. ثم بيّن سبب ماحصل لكفار مكة بقوله ﴿إنهم كانوا﴾ إلخ: أى لأن هؤلاء الكفار كانوا فى الدنيا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون عن الاعتراف بها، ويقولون فى تبرير استكبارهم هل نترك عبادة آلهتنا لرجل شاعر أى مزخرف للباطل مجنون لايعرف مايقول؟ يريدون أخزاهم الله تعالى ـ النبى ﷺ. ورد سبحانه عليهم بقوله ﴿بل جاء﴾ إلخ: أى لم يأت بشعر بل جاء بالحق وصدق كل رسول سبق، أى لم يأت بما يخالف العقول. انظر الآية (٣) من سورة آل عمران صفحتى ٦٢ و ٦٣. ثم حكم سبحانه حكمه النهائى عليهم فقال إنكم أيها المشركون المجرمون وعزتى لذائقون للعذاب الشديد الألم، وليس هذا إلا جزاءً على أعمالكم القبيحة، لكن عباد الله الذين أخلصوا أعمالهم لربهم، هؤلاء لهم فى الجنة رزق معلوم بيّنه سبحانه بقوله: فواكه تقدم لهم وهم مكرمكون، تصل إليهم بلا تعب حال كونهم فى جنات النعيم، على سرر متقابلين لتمام الأنس، تطوف عليهم الملائكة بخمر من نهر لاينقطع، بيضاء شديدة اللذة للشاربين، ليس فيها من عيوب خمر الدنيا شىء من صداع أو سكر.. إلخ.

المفردات: ـ ﴿عنها ينزفون﴾: أصل النزف نزح الشىء وإذهابه بالتدريج، يقال: نزفت الماء

وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ
عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ
بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي
قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم
مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ
تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ
مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا
ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ
خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً
لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾

من البئر إذا نزحته كله منه شيئًا فشيئًا، و(عن) تفيد السببية كما فى آيتى (١١٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٦١ و ٢٦٢ و(٥٣) من سورة هود صفحة ٢٩٢ فالمراد لايخرج مافى أبدانهم بسببها. ﴿قاصرات الطرف﴾: الطرف أى العين، والقصر الحبس، أى حابسات أعينهن على أزواجهن لاينظرن إلى غيرهم لجمالهم فى نظرهن. ﴿عين﴾: جمع عيناء بفتح فسكون، وهى المرأة الواسعة العين فى جمال. ﴿بيض﴾: المراد به هنا بيض النعام خاصة لأنه هو الذى تشبه به العرب المرأة الجميلة لصفاء بياضه واختلاطه بما يكسبه جمالا فى نظرهم. ﴿مكنون﴾ أى محفوظ لا تمسه الأيدى ولا يلحقه غبار. ﴿قرين﴾: خليل وصاحب، انظر الآية (٢٨) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣.

﴿أ إنك﴾: الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى، أى لاتصدق بيوم البعث.

﴿مدينون﴾: أى مسئولون عن أعمالنا ومجازون عليها. (سواء الجحيم): أى وسط جهنم. (إن كدت.. إلخ): إنك قاربت لتهلكنى.

﴿المحضرين﴾: الذين تحضرهم ملائكة العذاب كما تقدم فى الآية (٦١) من سورة القصص صفحتى ٥١٥ و ٥١٦.

﴿أفما نحن﴾: استفهام تلذذ من القائل وتوبيخ للقرين، والأصل: هل نحن مخلدون فى

---

(١) قاصرات. (٢) أ إنك. (٣) أ إذا. (٤) عظاما. (٥) أ إنا.
(٦) فرآه. (٧) العاملون. (٨) جعلناها. (٩) للظالمين.

النعيم فما نحن بميتين ﴿نزلاً﴾: يطلق النزل على المكان الذى ينزل فيه الضيف المكرم، كما فى الآية (١٠٧) من سورة الكهف صفحة ٣٩٥ ويطلق على مايقدم للضيف من الطعام كما هنا.

﴿شجرة الزقوم﴾: الزقوم اسم لشجرة صغيرة منتنة الرائحة مرة الطعم تنبت بأرض تهامة من بلاد العرب. ﴿فتنة﴾: محنة لهم فى الآخرة بإرغامهم على أكلها، وفى الدنيا حيث سارعوا إلى إنكارها وقالوا كيف يكون فى النار شجر، فيزيد عذابهم على ذلك، انظر الفرق بين المؤمن بالغيب والكافر به فى الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦ و ٧. ﴿أصل الجحيم﴾: أى قاع جهنم.

المعنى: . من صفات خمر الجنة أن شاربيها لايسكرون ولا يصيبهم منها صداع، ولايخرج مافى جوفهم بسببها، وعندهم نساء لاينظرن إلا إلى أزواجهن حسان العيون والبشرة كأنهن بيض محفوظ. ثم عطف على قوله (يطاف عليهم) قوله (فأقبل) إلخ: أى يشربون فيتحادثون يسأل بعضهم بعضا عما كان فى الدنيا، فيقول قائل منهم: إنى كان لى صاحب يقول لى مبكتًا هل أنت ممن يصدق بالبعث؟ وهل عقلك مصدق أننا إذا متنا وصرنا ترابا وعظاما نحاسب ونجازى؟ ثم قال هذا القائل لإخوانه هل أنتم مطلعون معى نبحث عنه أين هو الآن؟ فاطلع جهة النار فرأى صاحبه فى وسط جهنم، فقال له شماتة به: والله إنك لقد قاربت تهلكنى بإغوائك لى فى الدنيا، ولولا نعمة ربى على بالتوفيق لكنت الآن من المحضرين معك فى جهنم، ثم خاطب إخوانه متلذذا بنعمة الله تعالى عليهم فقال: أفما نحن بميتين إلا الموتة الأولى كما وعدنا ربنا؟ انظر الآية (٥٦) من سورة الدخان صفحة ٦٦٠ وما نحن بمعذبين أبدا، بل سنكون فى نعيم خالد. ثم بين سبحانه الفرق بين حال المؤمنين والكافرين بقوله (إن هذا) إلخ: أى إن هذا الذى فيه أهل الجنة لهو الفوز العظيم، لمثل هذا فليعمل العاملون، هل هذا الرزق المعلوم الذى يقدم لأهل الجنة خير أم شجرة الزقوم التى جعلناها محنة للكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك؟ كما فى الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠. ثم شرع سبحانه يوضح شيئًا من بشاعة شجرة الزقوم فقال: إنها شجرة تنبت فى قاع جهنم.

ويجب علينا الإيمان بأن الله الذى خلق الأشياء وخصائصها قادر على أن يفعل مايشاء فيجعل فى النار شجرًا، كما يجعل فى الشجر الأخضر نارا، كما تقدم فى الآية (٨٠) من سورة يس صفحة ٥٨٦.

وإذا كان الإنسان استطاع أن يخترع ثيابا لا تحرقها النار فهل يعجز خالق الإنسان أن يخلق

طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَٰطِينِ[1] ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ[2] مِنْهَا
فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ
حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ
أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ[3] ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ[4]
يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ[5]
الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ
نَادَىٰنَا[6] نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ[7] وَأَهْلَهُ مِنَ
الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ[8] ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ[9] عَلَىٰ نُوحٍ فِي
الْعَٰلَمِينَ[10] ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ
مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ[11] ﴿٨٢﴾

المعجزات؟ وإذا كان الإنسان استطاع الآن أن يرى ويخاطب مَنْ بينه وبينه مسافات شاسعة تقدر بالآف الأميال، فهل يتصور أن الله تعالى يعجز عن جعل أهل الجنة يتخاطبون مع أهل النار مهما تباعد مابينهما؟.

المفردات: . ﴿طلعها﴾: بيَّن اللغويون الطلع بأنه أول مايظهر من ثمر النخل فى وسطه شماريخ البلح، انظر شرح الآية (١٤٨) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٨، ٤٨٩، وهو المعبر عنه بالأكمام فى الآية (١١) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩. وبيَّنه آخرون بأنه الشماريخ نفسها، انظر شرح الآية (٩٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩، وظاهر ما فى الآية (١٠) من سورة ق صفحة ٦٨٩ يتفق مع الأخير.

﴿رءوس الشياطين﴾: من عادة العرب أنهم يشبهون كل قبيح فى صورته بالشيطان لأن صورته بشعة فى مخيلاتهم. ويشبهون حسن الصورة بالملك.

﴿شوبًا﴾: أصله مصدر شاب الشىء بالشىء إذا خلطه به والمراد به هنا المشرب به وهو الحميم الذى يخلط على الغساق الآتى فى الآية (٢٥) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧.

﴿حميم﴾: ماء شديد الحرارة.﴿ألفوا﴾: وجدوا.

﴿على آثارهم﴾: انظر الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠.

﴿يهرعون﴾: تقدم فى الآية (٧٨) من سورة هود صفحتى ٢٩٥، ٢٩٦.

---

(١) الشياطين. (٢) لآكلون. (٣) آباءهم. (٤) آثارهم. (٥) عاقبة. (٦) نادانا.
(٧) ونجيناه. (٨) الآخرين. (٩) سلام. (١٠) العالمين. (١١) الآخرين.

المعنى: . ثمر شجر الزقوم كأنه رءوس الشياطين. وعندما يشتد الجوع بالكفار يأكلون من طلع هذه الشجرة فيملئون منها بطونهم مكرهين.

فإذا عطشوا واستغاثوا وطالت استغاثتهم تسحبهم الزبانية إلى الحميم، فيغاثون بالماء شديد الحرارة، انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥ والآية (١٥) من سورة محمد صفحة ٦٧٤. ثم بعد ذلك ترجعهم الملائكة إلى الجحيم، انظر الآية (٤٤) من سورة الرحمن صفحة ٧١١. ثم بين سبب استحقاقهم لهذا العذاب بقوله: إنهم ألفوا.. إلخ: أى وجدوا آباءهم ضالين فأسرعوا فى السير على طريقهم. ثم بين أن ضلال الأمم وتقليد بعضها بعضا قديم كما فى الآية (١٧٠) من سورة البقرة صفحة ٣٢ والآية (٧٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٤، فقال وقد ضل قبلهم أكثر الأولين. والمراد تهديد كفار مكة بأنه سيحصل لهم ماحصل لِمَنْ قبلهم عندما فعلوا مثلهم. فالمراد ولقد ضل قبل كفار مكة أكثر الأمم الماضية. ولقد أرسلنا فيهم رسلا منذرين كما أرسلناك فى قومك أيها النبى، فانظر ماذا كانت عاقبة المنذرين عندما كذبوا رسلهم، بينتها الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦ أى أهلكناهم إلا عباد الله المؤمنين الذين أخلصهم الله تعالى لدينه فإنهم نجوا من العذاب.

ثم فصل بعض ما أشار إليه فيما سبق من إنذار الرسل وتكذيب الأمم ليخفف عن نبيه ﷺ فقال (ولقد نادانا نوح) أى بقوله يارب إنى مغلوب فانتصر كما فى الآية (١٠) من سورة القمر صفحة ٧٠٥ فوعزتى لنعم المجيبون لدعائه نحن. فانتقمنا منهم بالغرق. ونجيناه وأهله من الكرب العظيم أى الغرق وما كان يلاقيه من إيذاء قومه. وكافأه على صبره بجعلنا ذريته هم الباقين وحدهم ولم يبق على ظهر الأرض واحد ممن كان خارج السفينة، انظر الآية (٢٦) من سورة نوح صفحة ٧٦٩. وتركنا أى أبقينا عليه ثناءً حسنًا على لسان من جاء بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة. وقلنا سلام على نوح ونشرناه فى جميع العالمين ليسلموا عليه كما سلمنا عليه. إنا كما جزينا نوحا بهذا الفضل نجزى كل محسن. ثم بين سبحانه علة إحسانه عليه بقوله إنه.. إلخ: أى لأن نوحا كان من عبادنا المؤمنين إيمانا كاملا. ثم ختم سبحانه قصة نوح بالنتيجة المقصودة منها وهى تحذير كفار قريش، فقال: ثم أغرقنا كل مَنْ بقى خارج السفينة لأنه لم يكن مؤمنًا، انظر الآية (٣٦) من سورة هود صفحة ٢٨٩ والآية (٤٠) من سورة هود أيضًا صفحة ٢٩٠.

* وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾
أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى
سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ
فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ
عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ
أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾
قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ
كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ
رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾
فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ

المفردات: . ﴿وإن من شيعته﴾: المراد: وإن من الجماعة التى اتفقت مع نوح فى مبدئه كما تقدم فى الآية (٦٥) من سورة الأنعام صفحة ١٧٢ والمراد هنا: مَنْ تابعه فى أصل الدين. ﴿أئفكا آلهة﴾: الهمزة الأولى للاستفهام التوبيخى، والإفك أقبح الكذب كما فى شرح الآية (١١) من سورة النور صفحة ٤٥٨. وهو هنا مفعول لأجله، وآلهة مفعول (تريدون) مقدم عليه. ﴿فما ظنكم برب العالمين﴾: انظر معنى هذا فى الآية ٦ من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥. ﴿فنظر نظرة فى النجوم﴾: المراد: فكر تفكيرًا عميقا فى أحوالها انظر الآيات (١٩١) من سورة آل عمران صفحة ٩٥ و ٧٥ ومابعدها من سورة الأنعام صفحة ١٧٤ و (١٨٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣.

﴿سقيم﴾: المراد: سقيم القلب، لحزنه على كفرهم بالله سبحانه وتعالى؛ قال ابن عباس: أوهمهم إبراهيم أنه مريض بمرض معد حتى ينصرفوا عنه.

﴿تولوا عنه مدبرين﴾: انصرفوا معرضين كما تقدم فى الآية (٢٥) من سورة التوبة صفحة ٢٤٤ والآية (٨٠) من سورة النمل صفحة ٥٠٤. ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾: أصل معنى الروغ والروغان ميل الشخص إلى جانب ليخدع مَنْ يراقبه. والمراد ذهب خفية إلى أصنامهم. ﴿ألا تأكلون﴾: (ألا) هنا: حرف يراد به طلب حصول مابعده؛ انظر الآية (١٠٦) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦. كأنه يعرض عليهم الأكل سخرية بهم. ﴿فراغ عليهم ضربا﴾: المراد: مال مستعليًا عليهم ضاربًا لهم ضربًا شديدًا. ﴿باليمين﴾: المراد بقوة. ﴿يزفون﴾: أى يسرعون. تقول العرب زف النعام إذا أسرع فى السير. ﴿غلام حليم﴾: هو إسماعيل عليه السلام. ﴿بلغ معه السعى﴾: المراد: بلغ السن التى تؤهله لأن يسعى معه فى أعماله.

---

(١) لإبراهيم. (٢) أ إفكا. (٣) آلهة. (٤) العٰلمين. (٥) آلهتهم.
(٦) بنيانا. (٧) فجعلناهم. (٨) الصالحين. (٩) فبشرناه. (١٠) بغلام.

المعنى: . لما وعد سبحانه بأن يجعل لنوح ذكرًا حسنا فى العالم، نوه هنا بأن خليل الله إبراهيم من شيعة نوح الذين اتفقوا معه فى أصول دينه؛ أى جعلناه من أتباعه حين أقبل على دين ربه بقلب سليم من أمراض القلوب كالنفاق والشك والحسد حين قال لأبيه وقومه ما الذى تعبدونه من دون الله، أى لايصح منكم ذلك. هل تريدون آلهة غير الله ولا يحملكم على ذلك إلا مجرد الكذب. وهذا تشنيع عليهم بأنه لا شبهة لهم فيما فعلوا. ثم هددهم فقال فما ظنكم إلخ: أى فما الذى ظننتموه بمن هو أحق بالعبادة وحده لأنه هو الذى خلق كل العالمين. هل تظنون أنه سيترككم بدون عقاب على كفركم به؟ ونظير ذلك فى الآية (٧٨) من سورة مريم صفحة ٤٠٤، وكان للقوم عيد يخرجون إليه بعدما يتركون عند أصنامهم طعاما لتباركه، ثم يأكلونه بعد رجوعهم من احتفالهم بالعيد كما تقدم فى شرح صفحة ٤٢٦. وصار بعضهم ينبه بعضا للخروج لمكان الاحتفال فقالوا لإبراهيم اخرج معنا. فتضجر من جرمهم ورفع بصره إلى السماء متأملاً فى صنع الله الذى ماكان يصح أن يهملوه. موهمًا لهم أنه يستوحى النجوم لأن علم التنجيم كان شائعًا عندهم فخافوا العدوى وانصرفوا مسرعين بعيدًا عنه.

فذهب مختفيًا إلى أصنامهم. فقال مستهزئا بها: أعرض عليكم أن تأكلوا، ثم بالغ فى الاستهزاء فقال ما لكم لاتنطقون؟ ثم عمد إليهم يضربهم ضربًا بقوة حتى كسرها ولم يترك إلا واحدا؛ انظر الآية (٥٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٦. وبعد فراغهم من عيدهم أقبلوا إليه مسرعين، وحصل مافصلته الآيات (٥٩) ومابعدها من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٦. فقال لهم موبخًا: هل تعبدون ماتنحتونه من الحجارة وغيرها وتتركون الله مع أنه هو الذى خلقكم وخلق هذه الحجارة التى تنحتون منها أصنامكم فهو الأحق بالعبادة وحده. فلم يلتفتوا إلى حجته بل عمدوا إلى القوة، وقال كبارهم لعمالهم: ابنوا له بنيانا واملئوه بالحطب ثم أوقدوا فيه النار وألقوه فيه حتى لايستطيع الهرب فأرادوا أن يكيدوه بقتله فأنجيناه وجعلناهم الأذلين المقهورين، بعد ذلك عزم إبراهيم على الهجرة من بلاد الكفر ببابل بالعراق إلى الشام فقال إنى سأذهب إلى دار يرضى فيها ربى عنى لأتمكن من عبادته وحده فيها. وسيهدينى سبحانه إلى مافيه صلاح دينى. ولما وصل إلى الشام قال يارب هب لى ولدا من الصالحين ليعيننى على الدعوة لدينك.

فاستجاب الله تعالى دعاءه وبشره بأنه سيكون له غلام كثير الحلم. وهل هناك حلم أجلى مما ظهر منه عندما عرض عليه أبوه الذبح.

فلما ولد وبلغ مبلغًا يسعى فيه مع أبيه قال إبراهيم يابنى... إلخ.

يَـٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ
قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيۡنَـٰهُ
أَن يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَـٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾
وَفَدَيۡنَـٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾
سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾
إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَـٰهُ بِإِسۡحَـٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ
ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَـٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا
مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ
وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَـٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾
وَنَصَرۡنَـٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَـٰهُمَا

المفردات: ـ ﴿فلمّا أسلما﴾... إلخ (لمَّا): حرف يدل على وجود ارتباط بين جملتين: الأولى تسمى شرطا، والثانية تسمى جوابًا، والجواب هنا مقدر لأنه مفهوم من سياق الكلام، تقديره أنعمنا عليهما بالرضى التام ﴿وناديناه﴾... إلخ كجواب (إذا) فى الآية (٤٥) من سورة يس صفحة ٥٨٣. ﴿أسلما﴾: أى استسلما وانقادا الأمر الله سبحانه وتعالى. ﴿وتله للجبين﴾: أصل التل الرمى على (التل) وهو التراب المجتمع. ثم استعمل فى كل رمى على الأرض. ﴿للجبين﴾ (اللام) بمعنى (على) أى على الجبين. انظر الآية﴿٧﴾ من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥، والآية (١٠٧) من سورة الإسراء أيضًا صفحة ٣٧٩. والمراد: طرحه على شقه فوقع أحد جبينيه على الأرض. فلكل إنسان جبينان بينهما جبهته. ﴿أن يا إبراهيم﴾: أن تفسيرية؛ لأنها تدل على أن مابعدها تفسير لما وقع به النداء. انظر (أن) الثانية فى الآية (٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٥.

﴿قد صدقت الرؤيا﴾... إلخ: أى عزمت عزمًا قويًا على تنفيذ ما أمرنا به فى المنام. ﴿البلاء﴾: أى الامتحان. ﴿المبين﴾: الواضح انظر الآية (٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٦. ﴿ذبح﴾: هو الحيوان. الذى يذبح فيما بعد، كحِمْل بمعنى محمول.

المعنى: ولما كبر إسماعيل وصلح للسعى مع والده رأى إبراهيم فى المنام ملكًا يقول له إن الله تعالى يأمرك أن تذبح ولدك. ولما كانت رؤيا الأنبياء وحيًا كالوحى فى اليقظة قال إبراهيم لإسماعيل: يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فـفكر وقل لى رأيك، وإنما قال له ذلك مع

---

(١) يابنى. (٢) ياأبت. (٣) الصابرين. (٤) وناديناه. (٥) ياإبراهيم. (٦) الرؤيا.
(٧) البلاء. (٨) وفديناه. (٩) فى الآخرين. (١٠) سلام. (١١) إبراهيم. (١٢) وبشرناه.
(١٣) بإسحاق. (١٤) الصالحين. (١٥) وباركنا. (١٦) إسحاق. (١٧) وهارون. (١٨) ونجيناهما.
(١٩) ونصرناهم. (٢٠) الغالبين. (٢١) وآتيناهما.

علمه بأنه حتم ليطمئن على قوة عزم ولده وحسن خضوعه لأمر ربه، ولهذا كان ذلك منامًا لتكون مبادرتهما إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد. قال إسماعيل: ياأبت افعل ما أمرك به ربك ستجدنى إن شاء الله من الصابرين. وقد صدق إسماعيل فيما وعد. ومدحه ربه عليه انظر الآية (٥٤) من سورة مريم صفحة ٤٠١. فلما انقاد الخليل وولده لأمر الله وطرح الوالد ولده على الأرض كما تطرح الذبيحة. ووضع السكين على عنقه تجلى للملأ الأعلى صدق عزيمته فأنعمنا عليه بالخلة حتى لقب بخليل الرحمن. وناديناه على لسان ملك قائلين له: ياإبراهيم قد وفيت الرؤيا حقها. وبذلت جهدك فى تحقيقها فجازيناك أحسن الجزاء؛ لأن من شأننا أن نجزى كل محسن مثل ماجزيناك.

إن هذا التكليف الذى كلفناك به والله هو اختبار عظيم واضح لم يمتحن به أحد قبلك.

وفدينا ولده بحيوان يذبح بدله عظيم الجثة سمين. وأبقينا عليه ذكرا حسنا فى الأمم الآتية. وقلنا: سلام منا ومن أوليائنا على إبراهيم. كذلك نجزى كل محسن لأنه من عبادنا كاملى الإيمان. ثم مننا عليه بعد ذلك بأن بشرناه بولد آخر من زوجته الأولى (سارة) وهو إسحاق. وبشرناه بأنه سيكون نبيًا من الصالحين. وأفضنا عليه وعلى ابنه إسحاق بركات فكثرنا نسلهما وجعلنا جميع الرسل بعدهما من نسلهما ماعدا خاتم الأنبياء محمدًا ﷺ فإنه من نسل ولده إسماعيل. ومن ذرية إبراهيم وإسحاق فريق محسن لعقيدته وعمله بالإيمان والطاعة. وفريق ظالم لنفسه بالكفر والمعاصى. وفى ذكره سبحانه لذلك تنبيه على أن النسب لا دخل له فى الهداية والضلال وعلى أن فجور الخلف لاينقض أجر السلف انظر الآية (١٢٤) من سورة البقرة صفحة ٢٤ والآية (٤٦) من سورة هود صفحة ٢٩١. ومما سبق تعلم أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام؛ وقدجاء فى التوراة التى فى أيدى اليهود الآن (أن الله أمر إبراهيم بذبح ابنه الوحيد) وفى نسخة أخرى (ابنه البِكر) بكسر الباء ولايقال بِكر أو وحيد إلا لإسماعيل ولكن اليهود يغالطون حسدًا ويقولون إنه إسحاق. واغتر بهم بعض السلف.

قال ابن كثير: ما أظن مَنْ قال ذلك إلا تلقفه عن أخبار اليهود وسلمه من غير بحث ولا دليل. وعندنا كتاب الله تعالى يدل على أنه إسماعيل لا مور، منها قوله سبحانه فى البشارة، بإسحاق ﴿بغلام عليم﴾ الآية (٥٣) من سورة الحجر صفحة ٣٤١. وقال فى إسماعيل حليم كما هنا. ومنها أنه بعد ما فرغ من قصة إسماعيل هنا قال وبشرناه بإسحاق. وهذا يدل على أن حادث الذبح حصل قبل البشارة بإسحاق، ومنها أنه لما بشره بإسحاق فى الآية (٧١) من سورة هود صفحة ٢٩٥ قال (ومن وراء إسحاق يعقوب): أى أن إسحاق سيعيش حتى يولد له فى حياة

الْكِتَابَ[1] الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا[2] الصِّرَاطَ[3]
الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ[4] ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ[5] عَلَىٰ
مُوسَىٰ وَهَارُونَ[6] ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾
إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ
بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ[7] ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ
آبَائِكُمُ[8] الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ[9] ﴿١٢٩﴾
سَلَامٌ[10] عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ
لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ[11] وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ[12] ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾

إبراهيم وسارة، فلا يصح بعد هذا أن يأمر بذبحه وهو صغير. ولقد أنعمنا على موسى وهارون بالنبوة وغيرها. ثم فصل بعض ماأنعم به عليهما بقوله ونجيناهما وقومهما مما كانوا فيه من الذل وتقتيل أبنائهم وترك نسائهم على يد فرعون. ونصرناهم على فرعون وقومه فكانت نتيجة ذلك أنهم غلبوه بعدم تمكنه منهم وغرقه.

وآتيناهما بعد ذلك التوراة.

المفردات: . ﴿الكتاب﴾: هنا التوراة.

﴿المستبين﴾: أى البالغ النهاية فى البيان والتفصيل.

﴿تركنا عليهما فى الآخرين﴾: إلى قوله (المؤمنين) تقدم فى الآية (٧٨) ومابعدها صفحة ٥٩١.

﴿إلياس﴾: هو نبى من أنبياء بنى إسرائيل من نسل هارون عليه السلام.

﴿أتدعون إلخ﴾: أى أتطلبون حاجاتكم منه، كما تطلبون من الله سبحانه؟ ﴿بعلا﴾: البعل بلغة اليمن هو الرب فالمراد: أتدعون ربًا من الأرباب الباطلة التى حذر يوسف الصديق منها فى الآية (٣٩) ومابعدها من سورة يوسف صفحة ٣٠٨ ومابعدها.

﴿وتذرون﴾: أى وتتركون ﴿أحسن الخالقين﴾: تقدم شرح المراد منه فى الآية (١٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦.

﴿محضرون﴾: أى تحضرهم ملائكة العذاب، كما تقدم فى الآية (٦١) من سورة القصص صفحتى ٥١٥، ٥١٦.

---

(١) الكتاب. (٢) وهديناهما. (٣) الصراط. (٤) الآخرين. (٥) سلام. (٦) هارون.
(٧) الخالقين. (٨) آبائكم. (٩) الآخرين. (١٠) سلام. (١١) نجيناه. (١٢) الغابرين.

﴿المخلصين﴾ : الذين أخلصهم سبحانه لطاعته.

﴿الغابرين﴾ : أى الهالكين كما تقدم فى الآية (٨٣) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٥، ٢٠٦.

﴿دمرنا﴾ : أى أهلكنا.

المعنى: . وآتينا موسى وهارون التوراة المبينة لما ينفعهما فى دنياهما وآخرتهما، وهديناهما بسبب ذلك الطريق المستقيم الموصل للحق سريعًا، وتركنا عليهما الثناء الحسن فى لسان الأمم بعدهما. وقلنا سلام منَّا على موسى وهارون. إنا كذلك نجزى من أحسن أعماله؛ لأنهما من عبادنا المؤمنين الكاملين وإن إلياس لَمِنَ الذين اختارهم ربهم لرسالته. اذكر أيها النبى حاله وحال قومه حين قال لهم وكانوا جماعة من بنى إسرائيل سكنوا المدينة المعروفة اليوم ببعلبك. وهى تابعة الآن للبنان. وكانوا قد ظهر فيهم الفساد والشرك. وعبدوا أصنامًا من دون الله. فبعث الله تعالى إليهم إلياس لتجديد العمل بالتوراة. ولا غرابة فى سرعة تسرب الشرك إلى بنى إسرائيل فهم الذين أغفلوا نعمة ربهم عليهم فى إنجائهم من فرعون، وقالوا عقب خروجهم من البحر وأرجلهم مازالت مبللة (ياموسى اجعل لنا إلها كآلهة القوم الذين مروا عليهم) انظر الآية (١٣٨) من سورة الأعراف صفحة ٢١٣. قال لهم نبيهم إلياس: أطلب منكم أن تخافوا عقاب الله. وهل يصح أن تطلبوا حاجاتكم من رب باطل وتتركوا أحسن الخالقين. الله ربكم ورب آبائكم الأولين.

فكذبوه فى دعوى أن الله بعثه إليهم. فلذلك حكمنا أنهم يحضرون إلى النار إلا مَنْ آمن منهم فكانوا من عباد الله الذين اختارهم للعمل بدينه. وتركنا عليه فى الآخرين. سلام على إل ياسين إنا كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين وقد تقدم شرح كل هذا.

وإن لوطًا لَمِن المرسلين، اذكر أيها النبى لقومك حاله وحال قومه حين نجيناه وأهله المؤمنين معه أجمعين إلا امرأته العجوز تركناها فى الهالكين. ثم أهلكنا غير المؤمنين من كفار قومه. انظر ماحصل لهم فى الآية (١٦٠) ومابعدها من سورة الشعراء صفحة ٤٨٩.

المفردات: . ﴿لتمرون عليهم﴾ : انظر الآية (٧٦) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣.

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ[1] أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى
الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾
فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ
الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾
۞ فَنَبَذْنَاهُ[2] بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً
مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ[3] إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾
فَآمَنُوا[4] فَمَتَّعْنَاهُمْ[5] إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ
الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ[6] إِنَاثًا[7] وَهُمْ
شَاهِدُونَ[8] ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[9] ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ

﴿أَبَقَ﴾: تقول العرب أبق العبد أباقا إذا هرب من سيده، والمراد هنا: ترك قومه وهاجر بدون إذن من ربه سبحانه.

﴿الفلك المشحون﴾: أى السفينة المملوءة.

﴿فساهم﴾: أى عمل قرعة مع أهل السفينة.

﴿المدحضين﴾: من دَحضَ بوزن قطع أى زلق، تقول العرب دحضت رجله أى زلقت وأدحضه غيره أى أزلقه، والمراد هنا: المزحزحون عن مكان السلامة أى الواقعون فى الماء بظهور القرعة عليهم.

﴿الحوت﴾: نوع من السمك والكبير منه يبتلع أكثر من رجل واحد.

﴿مُليم﴾: أى فاعل مايلام عليه، تقول العرب ألام فلان إذا فعل مايلام عليه. ﴿لبث﴾: أى مكث.

﴿نبذناه﴾: أى طرحناه. والمراد جعلنا الحوت يقذفه إلى العراء، انظر الآية (٤٠) من سورة الذاريات صفحتى ٥٩٤، ٥٩٥.

﴿العراء﴾: المكان الخالى من شجر وغيره.

﴿يقطين﴾: هو القرع الكبير.

﴿أو يزيدون: (أو) بمعنى (بل). والعرب تأتى بهذا الحرف فى مثل هذا المقام لإفادة تحقيق الخبر السابق عليه مباشرة، انظر الآيات (٧٤) من سورة البقرة صفحتى ١٤، ١٥ و(١٧) من سورة النساء صفحتى ١١٤، ١١٥ و (٩) من سورة النجم صفحتى ٧٠٠، ٧٠١.

﴿استفتهم﴾: تقدمت فى الآية (١١) من سورة الصافات صفحتى ٥٨٧، ٥٨٨.

---

(١) بالليل. (٢) فنبذناه. (٣) أرسلناه. (٤) فآمنوا. (٥) فمتعناهم.
(٦) الملائكة. (٧) إناثا. (٨) شاهدون. (٩) لكاذبون.

﴿البنات﴾: المراد الملائكة، لأنهم كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، انظر الآيات (١١٦) من سورة البقرة صفحة ٢٣ و (٥٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٢ و (٢٧) من سورة النجم صفحة ٧٠٢.

﴿شاهدون﴾: أى حاضرون. انظر آيتى (٥١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨ و (١٩) من سورة الزخرف صفحتى ٦٤٨، ٦٤٩.

﴿ألا﴾: حرف يدل على أن قصد المتكلم تنبيه السامع لما بعده لأهميته وتحقق ثبوته.

﴿إفكهم﴾: أى كذبهم القبيح.

﴿أَصطفى﴾: أى أَختار. والأصل (أاصطفى) أى هل اصطفى؟ وحذفت همزة الفعل تخفيفًا. واكتفى بهمزة الاستفهام.

المعنى: . بعدما أخبر سبحانه بأنه أهلك قوم لوط. وبخ كفار قريش على عدم اعتبارهم مع أنهم يمرون على ديارهم صباحًا ومساءً والمراد من ذكر الصباح والمساء الكثرة لا التحديد، لأنها كانت فى طريقهم إلى الشام. انظر الآية (٨٣) من سورة هود صفحة ٢٩٦ والآية (٧٦) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣، ثم صرح بغلبة الجهل عليهم بقوله أفلا يعقلون؟ أى هل يصح أن تشاهدوا ذلك ياأهل مكة فلا تعتبروا وتخافوا أن يصيبكم مثل ماأصابهم لما عصوا رسولهم. ثم شرع فى قصة يونس لما فيها من العبرة أيضًا حيث أنقذ الله قومه من العذاب لما آمنوا فقال: وإن يونس لَمِنَ المرسلين.. إلخ: أى أرسله الله لأهل (نينوى) بالموصل ونينوى بكسر أوله وسكون ثانيه وفتح النون والواو. فلما كذبوه أنذرهم بعذاب يحل بهم وغضب منهم وهاجر وتركهم قبل أن يأذن له ربه بالهجرة، فعاقبه بما قصه سبحانه هنا. فلما تركهم صادف سفينة كانت مشحونة فوق طاقتها، فلما ركبها ودخلت فى وسط البحر لعبت بها الأمواج من كل جانب وأشرفوا على الغرق، فأرادوا تخفيف حملها بعمل قرعة فمن ظهرت عليه يلقى فى البحر لتخفف السفينة وينجو الباقون. فوقعت القرعة على يونس. فلما وصل الماء التقمه حوت كبير والحال أنه مستحق ذلك؛ لأنه فعل مايلام عليه. فلولا أنه كان فى كل أحواله من الرخاء والشدة من المسبحين لله لكان الحوت قبرًا له لايخرج إلى الحياة أبدًا إلا يوم القيامة، انظر

آيتى (٨٧ و ٨٨) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٩، ٤٣٠.

لكنه لما كان يسبح الله دائما أخرجناه من بطن الحوت إلى ساحل ليس فيه شجر وهو عليل. قال مجاهد: التقمه الحوت فى الضحى وطرحه آخر النهار. وجعلنا ورق القرع يظلله من حر الشمس. ولما أفاق أرسلناه ثانيا إلى أهل نينوى الذين غضب منهم وتركهم وكانوا بعد أن فارقهم ندموا وخافوا العذاب، انظر ماتقدم فى الآية (٩٨) من سورة يونس صفحة ٢٨١ وكانوا مائة ألف بل يزيدون. فآمنوا فأبقيناهم متمتعين بالحياة إلى حين انقضاء آجالهم. وبعد ما ذكر من أحوال الأمم السابقة ما فيه عبرة لكفار قريش، رجع ثانيا إلى توبيخهم على مايزعمونه مما لايليق به سبحانه، فقال فاستفتهم إلخ، أى اسأل أيها النبى على وجه التبكيت كفار قومك الذين قالوا: الملائكة بنات الله هل يصح أن يكون لربك البنات فقط ويختصون هم بالبنين؟ أى إذا كنتم أنتم تفضلون البنين على البنات فهل يصح أن تخصوا أنفسكم بالأفضل؟ إن هذه قسمة جائرة انظر آيتى (٢١، ٢٢) من سورة النجم صفحة ٧٠١. ثم انتقل من تبكيت بالاستفتاء إلى تبكيت بالجهل فقال أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون أى حاضرون وقت أن خلقناهم، فالمراد إبراز جهلهم بصورة أوضح. ثم شرع فى إبطال أصل زعمهم ببيان أن أساسه ليس إلا الكذب القبيح فقال (ألا إنهم من إفكهم) إلخ أى مجرد كذبهم فقط يقولون ولد الله بنات أسماها الملائكة فيجب أن نعبدها لتقربنا إليه تعالى. ثم أكد كذبهم فقال ألا إنهم.. الخ أى تحقق أيها السامع ما ألقيه إليك وهو أنهم لكاذبون، ثم نقض دعواهم من طريق أن العقل لايقبلها فقال: أصطفى البنات... إلخ؛ أى هل تقبل عقولكم أن الله يختار من خلقه البنات على البنين. ما لعقولكم؟ وأى شىء دهاها! وأى دليل جعلكم تحكمون بذلك الحكم الباطل ببداهة العقول هل فقدتم عقولكم فلا تتذكرون بطلان ماأنتم عليه انظر الآية (٤٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩.

وبعد ما أبطل زعمهم بالأدلة العقلية أراد أن يبطلها بالدليل النقلى فقال: أم لكم سلطان... إلخ.

سُلْطَٰنٌ[1] مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَٰبِكُمْ[2] إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ[3] ﴿١٥٧﴾
وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ
لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ[4] ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ
ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ
عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ[5] ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا
مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾
وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾
لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾
وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ
ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ[6] ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ
عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾

المفردا﴿سلطان مبين﴾: المراد: برهان واضح نزل به وحى عليكم من الله. ﴿وجعلوا﴾: أى مشركو العرب. ﴿الجنَّة﴾: المراد بهم هنا الملائكة سموا بذلك لاجتنانهم أى استتارهم عن العيون. ﴿نسبا﴾: حيث قالوا الملائكة بنات الله، كما فى الصفحة السابقة (إنهم لمحضرون): أى لقد علمت الملائكة أن هؤلاء المشركين محضرون إلى جهنم.

﴿يصفون﴾: المراد يكذبون، انظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

﴿المخلصين﴾: خلصهم ربهم من المعايب، انظر الآية (٢٤) من سورة يوسف صفحة ٣٠٦.

﴿بفاتنين﴾: (الباء) لتأكيد نفي نسبة مابعدها لما قبلها و (فاتنين) أى مفسدين والمعنى: بمفسدين المخلصين.. تقول العرب فتن فلان على فلان زوجته. أى أفسدها عليه وأخرجها عن طاعته. ﴿صال﴾: أصله صالى كقاضى. وهو من الصلى وهو الاحتراق بالنار. انظر الآية (٧٠) من سورة مريم صفحة ٤٠٣. ﴿الصافون﴾: تقدم أول السورة.

(إن كانوا)... إلخ: المراد: أن حال كفار قريش هو قولهم كذا. ﴿ذكرًا﴾: يريدون (كتابا) منزلا من عند الله انظر شرح الآية (٤٤) من سورة النحل صفحة ٣٥١ والآية (١٠٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، والآية (٣) من هذه السورة صفحة ٥٨٧.

﴿جندنا﴾: المراد بهم هنا: المؤمنون من أتباع كل نبى. ﴿فتول عنهم﴾: المراد أعرض عنهم واصبر. ﴿حتى حين﴾: أى إلى وقت إذننا لك فى قتالهم. ﴿وأبصرهم﴾: أى انظر إليهم فى ذلك الوقت فسترى مايسرك. ﴿يبصرون﴾: أى فسوف يرون مايسوءهم.

---

(١) سلطان. (٢) بكتابكم. (٣) صادقين. (٤) سبحان. (٥) بفاتنين. (٦) الغالبون.

المعنى: - هل لكم يا كفار مكة دليل واضح نازل فى كتاب من السماء يثبت أن الملائكة بنات الله. إن كان عندكم فأتوا به إن كنتم صادقين فى دعواكم. وهذا تعجيز لهم وتهكم بهم. ولما أعجزهم وأثبت جهلهم أعرض عن خطابهم. وبيّن للناس ماسيكون عليه حالهم يوم القيامة عندما تكذبهم الملائكة فقال تمهيدا لما سيكون: وجعلوا.. إلخ: أى وجعل كفار قريش بين الله سبحانه وبين الملائكة نسبا إذ قالوا: إنها بناته. ووالله لقد علمت الملائكة أن هؤلاء الكفار لمحضرون إلى النار لكذبهم هذا. والمراد المبالغة فى تكذيبهم؛ لأن الملائكة الذين يدعون أنهم يتقربون بهم، يعلمون أنهم كاذبون وأنهم لذلك سيدخلون جهنم قطعا. وتقول الملائكة أيضًا: لكن عباد الله الذين أخلصهم سبحانه لطاعته لايدخلون النار، ثم تبين الملائكة السبب فى نجاة المخلصين وأنه عجز المضلين عن إغوائهم فتقول: فإنكم يا كفار مكة أنتم وماتعبدون من شياطين الجن الذين أغروكم كما فى الآية (٤١) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٨ و ٥٦٩ ما أنتم جميعًا بفاتنين المؤمنين المخلصين على الله أى مفسديهم تقول العرب فلان فتن على فلان زوجته أى أفسدها عليه. إلا من هو داخل النار لاختياره الكفر والضلال انظر الآية (٤٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤١، ثم بينت الملائكة مقامها من العبودية لتأكيد الرد على مَنْ يزعم خلاف ذلك. فقالوا ومامنا إلا له مقام لايتجاوزه خضوعا لأمر الله. وإنا لنحن الواقفون صفوفا ننتظر الأوامر الإلهية.

وإنا لانقطع عن تنزيهه تعالى عما لايليق به. ثم رجع سبحانه إلى توبيخ المشركين وبيان كذبهم وأنهم لايريدون الحق أبدا. فقال: وإن كانوا ليقولون إلخ: أى أن كفار قريش كانوا يقولون قبل بعثة الرسول صلوات الله عليه: لو أن عندنا كتابا من الله مثل كتب الأنبياء الأولين لكنا عباد الله المخلصين. فلما جاء سيد الأذكار وهو القرآن الكريم كفروا به. فسوف يعلمون عاقبة كفرهم هذا انظر الآية (٤٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨، ثم هددهم سبحانه بقوله ولقد سبقت كلمتنا.. إلخ: أى ولقد سبق منا وعد لرسلنا. ثم بين سبحانه هذا الوعد بقوله: إنهم لهم المنصورون. وإن جند كل نبى من المؤمنين هم الغالبون. ونظير ماهنا مافى الأية (٢١) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٨. فأعرض عنهم أيها النبى واصبر حتى يؤذن لك فى قتالهم وانظرهم فى ذلك الوقت فستراهم فى أسوأ حال مما حل بهم من ذل وأسر وقتل، فسوف يبصرون هم أيضًا ما سيكون لك من نصر وتأييد.

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ
صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾
وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

(٣٨) سُورَةُ ص مَكِّيَّة وآياتها ثمان وثمانون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ
وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا
وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ

المفردات :. ﴿ أفبعذابنا﴾ ... إلخ : المراد بالعذاب هنا : عذاب الآخرة المشار إليه فى الآية (٥١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧١. ﴿ساء﴾ : أى قبح. ﴿المنذرين﴾ : أى الكفار الذين حذرهم الرسل من عذاب الله. ﴿تول عنهم﴾ : سبق أنه سبحانه أمر نبيه فى الآية (١٧٤) السابقة إلى حين وقوع عذاب الدنيا، وأمره هنا ثانيًا بالإعراض عنهم إلى حين عذاب الآخرة ﴿العزة﴾ : هى العظمة والغلبة التى تجعل صاحبها يغلب ولا يغلبه أحد، وهذه هى العزة الحقيقية، وهناك عزة كاذبة يدعيها صاحبها جهلاً وتكبرًا كما فى الآية (٢٠٦) من سورة البقرة صفحة ٤٠ والآية (٤٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٢.

﴿يصفون﴾ : تقدم فى الصفحة السابقة.

المعنى :. إنه بلغ من استخفاف كفار قريش بما كان يتوعدهم به ﷺ من العذاب أنهم كانوا يستعجلونه استهزاء، انظر الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١ والآية (١٨٧) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١. فأنزل فى ذلك سبحانه قوله تعالى: أفبعذابنا يستعجلون، أى هل بلغ من جهلهم أنهم يستعجلون هلاكهم. فأخبرهم أنه إذا نزل العذاب بديارهم فى وقت غفلتهم صباحا فبئس صباح المنذرين صباحهم. والمراد إذا نزل بهم فى أى وقت، وإنما خص الصباح لأن معظم غاراتهم كانت صباحا. فخاطبهم بما تعودوا خطره، انظر الآية (٣) من سورة العاديات صفحة ٨١٨. ولما أمر سبحانه نبيه فيما سبق بالإعراض عنهم إلى حين وقوع عذاب الدنيا أمره هنا ثانيا بالإعراض لحين وقوع عذاب الآخرة فهو تهديد بعذاب الآخرة بعد التهديد بعذاب الدنيا. فى كل هذا قال سبحانه ﴿وتول عنهم﴾ إلى قوله سبحانه ﴿يبصرون﴾.

(١) سبحان. (٢) سلام. (٣) العالمين. (٤) صاد. (٥) القرآن.

وبعد ذلك أرشد سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يسبحوا ربهم دائمًا فقال تعالى ﴿سبحان ربك﴾ أى قولوا سبحان ربك رب العزة الحقة، تنزهه عما يفتريه الكاذبون، وقولوا أيضا سلام من الله على المرسلين كلهم مَنْ ذكر هنا ومَنْ لم يذكر. والحمد لله على نعمه التى لا تعد ولا تحصى، انظر شرح الآية (٥٩) من سورة النمل صفحة ٥٠١، وقد ورد أنه ﷺ كان إذا قام من مجلسه قال: (سبحان ربك رب العزة عما يصفون... إلى قوله تعالى العالمين).

(سورة ص)

المفردات :. ﴿ص﴾ تنطق صاد بسكون الدال. ﴿ذى الذكر﴾ : أى صاحب الصيت العالى والشرف الرفيع، انظر الآية (١٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١ والآية (٤٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١. ﴿بل﴾ : حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر. ﴿عزة﴾ : هى الكاذبة المشار إليها سابقا. وهى التكبر . وحمية الجاهلية. ﴿شقاق﴾ : أى خلاف مع الحق وأهله، انظر الآية (٥٣) من سورة الحج صفحة ٤٤١. ﴿كم﴾ : كلمة تدل على الكثرة. ﴿من قرن﴾ : ﴿من﴾ حرف يدل على بيان المراد من ﴿كم﴾، أى قرونًا كثيرة أهلكناها. والمراد من ﴿قرن﴾ : الأمة، انظر الآية (٦) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٢ و ١٦٣. ﴿لات﴾ : كلمة مركبة من ﴿لا﴾ النافية بمعنى ليس ومن ﴿التاء﴾ التى تتصل بالحرف لتؤكد معناه؛ فتزاد فى ﴿رب﴾ فيقولون: ربت رجل لقيته. وفى ﴿ثم﴾ لتأكيد ترتيب العطف فيقولون جاء محمد ثمت أبو بكر. ﴿مناص﴾: أى فرار ونجاة. تقول العرب: ناص فلان عن مرافقه، ينوص. إذا فر وراغ منه. وأصل التركيب معناه وليس الحين حين مناص. ﴿منذر﴾ : المراد رسول يخوفهم من عقاب الله تعالى إذا عصوه.

المعنى :. ﴿ص﴾ تقدم المراد من مثل هذه الحروف أول سورة البقرة. أقسم بالقرآن صاحب الذكر العالى إنك يا محمد لمن المرسلين فالمقسم به هنا وفى صفحة ٥٧٩ هو القرآن. والمقسم عليه هو إثبات رسالة خاتم الأنبياء ﷺ. ويؤيد ذلك الآية (٤) الآتية. وبعد هذا القسم العظيم من رب أعظم انتقل سبحانه إلى الحامل لكفار قريش على اعتقاد تعدد الآلهة وعلى إنكار رسالة محمَّد. فبين أنه ليس الدليل ولا شبه دليل بل العناد والكبر الجاهلى وحب الخلاف والعداوة حسدا. ثم حذرهم أن يبطش بهم كما بطش بمَنْ قبلهم لما عملوا مثلهم، فقال كم أهلكنا .. إلخ: أى أهلكنا كثيرا من الأمم قبلهم لما كفروا وعصوا رسلهم فلما رأوا العذاب نادوا مستغيثين ولكن بعد فوات الأوان.

وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ[١] هَٰذَا سَٰحِرٌ[٢] كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ[٣]
إِلَٰهًا وَٰحِدًا[٤] إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ
مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ[٥] إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ
يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ[٦] إِنْ هَٰذَآ إِلَّا
ٱخْتِلَٰقٌ[٧] ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ[٨] عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ
مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ
رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[٩]
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ[١٠] ﴿١٠﴾
جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ
قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ
لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ[١١] لْـَٔيْكَةِ[١٢] ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ
إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا

إذ ليس الوقت وقت نجاة وفرار، انظر الآية (٦٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥١. ومن أسباب إنكارهم رسالة نبينا ﷺ أنهم عجبوا لمجيء الرسول بشرًا منهم انظر الآية (٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٥.

المفردات :. ﴿عجاب﴾: أى عجيب جدا كقولهم رجل طوال أى طويل جدا. ﴿الملأ﴾ : هم الزعماء والقادة، انظر الآية (٦٠) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٢. ﴿أن امشوا﴾ : ﴿أن﴾ تفسيرية، انظر ﴿أن﴾ الثانية فى الآية (٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٥، والمعنى: انصرفوا وهم يقولون لأتباعهم قولا مضمونة: ﴿امشوا﴾ أى انصرفوا عنه إلى آلهتكم، واثبتوا على عبادتها. ﴿الملة الآخرة﴾ : يريدون دين النصارى المحرف الذى قالوا فيه إن الله ثالث ثلاثة، انظر الآية (٧٣) من سورة المائدة صفحة ١٥٢. ﴿إن هذا﴾ : ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾. ﴿اختلاق﴾: أى كذب .﴿الذكر﴾ : أى القرآن. قالوا ذلك استهزاءً كما فى الآية (٦) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨.

﴿بل هم﴾ : ﴿بل﴾ حرف يفيد الانتقال من سبب من أسباب كفرهم إلى سبب آخر أى إن إنكارهم ليس عن علم. ﴿بل لما﴾ : ﴿بل﴾ هنا للانتقال إلى بيان أن شكهم هذا يزول عندما يرون العذاب، ولا ينفعهم شيء حينئذ. ﴿لما﴾ حرف يدل على عدم حصول ما بعده إلى وقت التكلم مع القطع بأنه سيحصل، والمعنى هنا: أنهم سيذوقونه حتمًا. ﴿فليرتقوا﴾ : أى فليصعدوا. ﴿فى الأسباب﴾ : جمع سبب وهو كل ما يتوصل به إلى شيء آخر كالحبل فى الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥، والسلم فى الآية(٣٦) من سورة غافر صفحة ٦٢٢. وانظر

---

(١) الكافرون. (٢) ساحر. (٣) الآلهة. (٤) واحدا . (٥) آلهتكم. (٦) الآخرة
(٧) اختلاق. (٨) أأنزل . (٩) السموات . (١٠) الأسباب. (١١) أصحاب . (١٢) الأيكة

مع هذا الآية (٣٥) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧. ﴿جند ما هنالك... إلخ﴾ ﴿هنالك﴾: أى فى مكة و ﴿جند﴾ خبر ﴿ما﴾ مقدم. والأصل هؤلاء الذين يقاومونك أيها النبى فى مكة هم جند مهزوم قطعًا، من عداد جنود الكفار الذين تحزبوا على الرسل قبلك فهزموا ﴿من الأحزاب﴾: أى من جنس الأمم الكافرة التى تحزبت على رسلها وأهلكها سبحانه. انظر الآية (٥) من سورة غافر صفحتى ٦١٧ و ٦١٨، والآية (٣٠) من نفس السورة صفحتى ٦٢١ و ٦٢٢. ﴿الأوتاد﴾: المراد بها الأهرامات الثابتة ثبوت الأوتاد، أى الجبال. انظر الآية (٧) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧، والآية (١٠) من سورة الفجر صفحة ٨٠٦. ﴿الأيكة﴾: شجرة كثيرة الأغصان. انظر الآية (٧٨) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣. ﴿إن كل﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ما. ﴿كذب الرسل﴾: انظر بيان ذلك فى الآية (٣٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤. ﴿فحق﴾: انظر شرح الآية (٨٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٤. ﴿وما ينظر﴾: أى وما ينتظر. راجع الآية (١٣) من سورة الحديد صفحة ٧٢٠.

المعنى: . قال مشركو مكة عن النبى ﷺ هذا ساحر كذاب. هكذا قال المجرمون والله سبحانه يقسم إنه لرسوله الصادق. ومن أصدق شهادة من الله؟ انظر الآية (٤٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨، والآية (٥٢) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨، والآية الأولى من سورة المنافقون صفحتى ٧٤٢ و ٧٤٣. ثم تعجبوا من قوله ﷺ: (لا إله إلا الله) فقالوا هل يزعم محمد أن المعبود إله واحد، ونظيره فى الآية (٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٥ إن هذا من محمد شىء عجيب جدا. واندفع صناديد المشركين ورؤساؤهم فى قول الباطل وقالوا لأتباعهم قولاً فسره بقوله امشوا أى سيروا على طريقة آبائكم وحافظوا عليها، واثبتوا على عبادة آلهتكم وتحملوا طعن محمد فيها حتى نرتب الخلاص منه. ثم عللوا أمرهم بالثبات بقولهم إن هذا الادعاء الذى يدعيه محمد من توحيد الإله لشىء يريد به السيادة على العرب والعجم. ثم أكدوا الترغيب فى الثبات بقولهم ما سمعنا بهذا الذى يدعو إليه محمد فى ملة النصارى التى هى آخر دين نزل من السماء لأنها تتفق معنا فى تعدد المعبود. فما الذى يقوله محمد إلا كذب وافتراء من عند نفسه ونسبه إلى الله. ثم ذكروا ما يدل على أن الباعث لهم فى الحقيقة على محاربة الدعوة إنما هو الحسد. فقالوا هل صحيح أن الله خصه من بيننا بإنزال ما يدعى أنه ذكر مع أننا زعماء العرب، انظر الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة

٦٥٠. وبعد ما بيَّن سبحانه ما يزعمونه شبهة لهم انتقل عنه مبطلا له ببيان سبب مهم فى جمودهم على الكفر فقال: بل هم فى شك.. إلخ، أى أن الذى منعهم من الإيمان هو تمكن الشك منهم بسبب تمسكهم بتقليد الآباء الذى حجب عقولهم عن النظر فى الأدلة، ثم انتقل سبحانه إلى بيان أنهم سيعرفون الحق مكرهين فقال ﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾ .. إلخ، أى أنهم إلى الآن لم يذوقوا عذابى وسيذوقونه قطعا. وعند ذلك يعترفون بالحق ولكن بعد فوات الأوان فلا تنفعهم تلك المعرفة، انظر الآية (١٥٨) من سورة الأنعام صفحة ١٩٠. ثم سفه سبحانه عقولهم على حسدهم فقال أم عندهم خزائن رحمة ربك أى هل يملك هؤلاء الكفار خزائن رحمة ربك الغالب الكثير العطاء لمن يستحقه حتى يتصرفوا فيها حسب شهواتهم فيعطوا النبوة لمَنْ يريدونه، ويمنعوها عمَنْ لا يريدونه انظر الآية (٣٧) من سورة الطور صفحة ٦٩٩، ثم أكد ما سبق بقوله: أم لهم ملك السموات... إلخ، أى أنه ليْس لهم مدخل فى أمر هذا العالم الذى هو جزء يسير من خزائن رحمة الله فمن أين لهم التصرف فيه. وإن زعموا أن لهم ذلك فليصعدوا فى المعارج الموصلة للعرش حتى يستووا عليه ويديروا أمر العالم وينزلوا الوحى على مَنْ يشاءون. وهذا منتهى التعجيز والسخرية بعقولهم. ثم أراد سبحانه أن يطمئن رسوله بأن هؤلاء المشركين الذين فقدوا عقولهم فصاروا كأنعام سيغلبون قطعا فقال جند... إلخ: أى مَنْ فى مكة من هؤلاء الذين فقدوا عقولهم هم جند من جنس الأحزاب التى تحزبت على الأنبياء مهزومون قطعًا. وقد تحقق ذلك فى بدر وغيرها حتى لم يبق للشرك أثر، ثم أكد ذلك ببيان ما حل بالطغاة أمثالهم من الأمم السابقة لعلهم ينتبهون فقال كذبت قبلهم قوم نوح. وعاد ﴿قوم هود﴾. وكانت مساكنهم فى الأحقاف انظر الآية (٢١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٩. وفرعون صاحب المبانى العظيمة التى تشبه الجبال فى الثبات. وثمود قوم صالح وقوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿قوم شعيب﴾.

هؤلاء هم الذين تحزبوا على رسلهم. ما كل فريق منهم إلا كذب رسوله، ويكون بهذا كذب الرسل جميعًا فوقع عليهم عقاب الله تعالى فأهلكهم انظر الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦. وبعد ما بيَّن سبحانه عقاب الأمم السابقة بالهلاك العام أراد أن يبين أن كفار قريش نظرا لأنه امتنع عنهم هذا النوع من العذاب - كما فى الآية (٣٣) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١ وشرح الآية (١٢٩) من سورة طه صفحتى ٤١٨ و ٤١٩ والآية (٦٧) من سورة يس

صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا
قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ
عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ
مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً
كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَٰهُ الْحِكْمَةَ
وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ * وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ
تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ
قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم
بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾
إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ
فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ
بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ

صفحة ٥٨٥ ـ سيأتيهم العذاب الأكبر فقال وما ينظر .. إلخ: أى وإذا كان كل من كذب هلك فما ينتظر هؤلاء المشركون إلا صيحة... إلخ.

المفردات :ـ ﴿صيحة﴾ : المراد بها هنا النفخة الثانية فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥.

﴿من فواق﴾ : ﴿من﴾ حرف يدل على النص على عموم نفى ما بعده، والفواق أى الرجوع، من أفاق المريض إذا رجع إلى صحته والمراد : صيحة واحدة لا تتكرر.

﴿قطنا﴾ : أى نصيبنا.

﴿الأيد﴾ : أى القوة والمراد : القوة فى الدين.

﴿أواب﴾ : أى كثير الرجوع إلى ربه.

﴿سخرنا الجبال﴾... إلخ : تقدم فى شرح الآية (١٠) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٣ و ٥٦٤.

﴿العشى﴾: آخر النهار.

﴿الإشراق﴾ : المراد به وقت شدة ضوء الشمس ضحى، والمراد من قوله تعالى بالعشى والإشراق أى دائما.

﴿شددنا ملكه﴾ : أى قويناه بالهيبة والنصر.

﴿الحكمة﴾ : هى كمال العلم ومعرفة أسرار الأشياء والإصابة فى القول والعمل، كما فى الآية (٤٨) من سورة آل عمران صفحة ٧٠.

---

(١) واحدة. (٢) وآتيناه. (٣) وأتاك. (٤) نبأ. (٥) الصراط. (٦) واحدة.

﴿فصل الخطاب﴾ : ﴿فصل﴾ بمعنى فاصل. والأصل الخطاب الفاصل بين الحق والباطل على أتم وجه فالتركيب من قبيل قولهم ﴿جوامع الكلم﴾ أى الكلام الجامع لمعان كثيرة. ﴿هل﴾ : المراد بها تثبيت الخبر فى نفس المخاطب، كما فى الآية (٩) من سورة طه. ﴿الخصم﴾ : لفظ يستعمل فى الواحد والأكثر والمراد هنا: الطرفان المتخاصمان. وكان كل طرف أكثر من واحد بدليل قوله تعالى ﴿تسوروا﴾ و ﴿دخلوا﴾: إلخ. ﴿تسوروا﴾ : تقول العرب تسور فلان البيت أى علا سوره، وتسنم الجمل أى علا سنامه والمراد هنا دخلوا من فوق سور المحراب، والسور الجدار. ﴿المحراب﴾ : هو أشرف مكان فى المنزل وكان لا يسمى محرابا إلا إذا كان مرتفعًا يصعد إليه بسلم، انظر الآية (٣٧) من سورة آل عمران صفحتى ٦٨ و ٦٩. ﴿ففزع﴾ : أى خاف، قال ابن عباس : كان داود عليه السلام يقسم أوقاته، يوما يتفرغ فيه للعبادة، ويوما للقضاء بين الناس، ويوما لإرشاد بنى إسرائيل ووعظهم، وكان حين دخلوا عليه فى يوم عبادته والاحتجاب عن الناس، والحرس على الأبواب لا يدخلون أحدًا. وعندما جاءوا من غير الأبواب، وتسوروا عليه محرابه من الخلف ظن أن أهل مملكته شقوا عليه عصا الطاعة، وخرجوا عليه، فيكون فزعه من فساد النظام، أو خاف أن يقتلوه؛ لأن بنى إسرائيل كان فيهم جرأة على أنبيائهم حتى قتلوا بعضهم، وهذا لم يعرف فى أمة غيرهم، انظر الآية (٦١) من سورة البقرة صفحة ١٢. ﴿لا تشطط﴾ : أى لا تتباعد عن الحق. ﴿سواء الصراط﴾ : تقدم فى الآية (١٠٨) من سورة البقرة صفحة ٢١. ﴿نعجة﴾ : هى الأنثى من الضأن. ﴿أكفلنيها﴾ : أصل معناه اجعلنى أكفلها تحت يدى. والمراد: اتركها لأنها ملكى. ﴿عزنى﴾ : أى غلبنى. ﴿فى الخطاب﴾: أى فى مخاطبته لى. ﴿الخلطاء﴾ : جمع خليط، وهو الشريك الذى يخلط ماله بمال غيره.

المعنى :. لا ينتظر كفار مكة إلا صيحة إسرافيل للبعث صيحة واحدة لا تتكرر. ولما سمع الكفار هذا التهديد لهم بعذاب الآخرة قالوا على سبيل الاستهزاء والسخرية يا ربنا عجل لنا نصيبنا من هذا العذاب ولا تؤخره إلى يوم الحساب الذى هو يوم القيامة كما يزعم محمَّدًا. وهذا منتهى الحماقة كما فى الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١. بعد ذلك قال سبحانه لنبيه اصبر على ما سمعت وما ستسمع من مثل هذا الكلام المنفر واذكر قصة عبدنا داود صاحب القوة فى الإيمان والعمل الصالح لتنتفع بها أنت ويعتبر بها كفار قومك، أما أنت فلا تضجر ولا تفزع مما يقع منهم حتى لا تقع فيما يوجب عتابك، أما هم فسيقبهون لقبح عملهم

وخطر ما سيحصل لهم لو استمروا؛ لأن داود مع علو شأنه لما حصل منه ما هو خلاف الأولى حصل له ما غمه وآلمه. ومما يدل على قوة داود فى الإيمان أنه كان كثير الرجوع إلى ربه فى كل شئونه، ثم شرع فى بيان قصته فقال إنا سخرنا الجبال معه ينزهن الله سبحانه عن كل نقص فى كل الأوقات خصوصًا فى المساء والضحى. وسخرنا معه الطير أيضًا حال كونها مجتمعة على تسبيح ربها. كل من الجبال والطير رجاع إلى ربه أى مطيع لمشيئته انظر شرح الآية (١٥) من سورة الرعد صفحة ٣٢٢ والآية (١٨) من سورة الحج صفحتى ٤٣٥ و ٤٣٦. وقوينا ملكه بالهيبة وكثرة الجنود والنصر المتلاحق. وآتيناه الحكمة والبيان الأوفى الذى يفصل به بين الحق والباطل. ثم ذكر ما حصل منه وله فقال وهل أتاك.. إلخ: أى تنبه أيها النبى لخبر الطرفين المتخاصمين أمام داود عليه السلام حين اعتلوا سور محرابه ودخلوا عليه وهو قائم يصلى فجأة من غير الباب المعهود وفى مكانه الخاص الذى لا يدخله أحد إلا بإذنه، فتوجس منهم شرا وظن أنهم سيقتلونه. فلما رأوا خوفه قالوا لا تخفْ، ثم شرعوا فى سرد قصتهم فقالوا: نحن فريقان متخاصمان بسبب بغى بعضنا على بعض، فاحكم بيننا بالحق ولا تتباعد عنه، وأرشدنا بحكمك إلى عين الصواب. وإنما قال أحد طرفى الخصومة ذلك لأنه يعتقد أنه صاحب الحق والله سبحانه يرشدنا بذلك إلى أنه ينبغى للحاكم أن يتحمل مثل ذلك من المظلوم، ولا يغضب بزعم أن ذلك يحط من قدره. فإن قدره مهما علا لا يصل إلى قدر نبى الله داود. وإنما خاف داود لأن المتسورين كانوا من قومه بنى إسرائيل، المعروفين بالغلظة والتهجم على أنبيائهم والاستهانة بقتلهم، انظر الآية (٨٧) من سورة البقرة صفحة ١٧، ويظهر أن فريق الشاكى (المظلوم) كانوا كثيرين حتى استطاعوا أن يرغموا فريق الظالم على الحضور معهم بهذه الكيفية وفى هذا الوقت ولم ينتظروا حتى يخرج داود. ثم شرع الشاكى فى تفصيل شكواه فقال: إن هذا الرجل من الفريق الثانى هو أخى فى النسب والدين وهو أغنى منى؛ لأن له تسعًا وتسعين نعجة ولا أملك إلا نعجة واحدة. فاغتصبها منى. ولما جادلته غلبنى فى المجادلة؛ لأنه أفصح منى وأقوى على تزويق الكلام حتى يخيل للسامع أنه صاحب حق. عند ذلك بحث داود القضية حتى وقف على أن الشاكى صاحب حق. فقال: والله لقد ظلمك هذا الرجل بأخذ نعجتك ضاما لها إلى نعاجه. ثم أراد أن يخفف من شدة غيظه على أخيه ببيان أن هذه هى طبيعة أكثر الناس فقال وإن كثيرا من الخلطاء.. إلخ.

المفردات:. ﴿قليل ما هم﴾: ﴿هم﴾ مبتدأ مؤخر و ﴿قليل﴾ خبره مقدم عليه. و﴿ما﴾

لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا[1] وَعَمِلُوا
ٱلصَّٰلِحَٰتِ[2] وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ[3]
فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ
وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ[4] ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ[5] إِنَّا
جَعَلْنَٰكَ[6] خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا يَوْمَ
ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
بَٰطِلًا[7] ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ
ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا[8] وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ[9]
كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾
كِتَٰبٌ[10] أَنزَلْنَٰهُ[11] إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ[12] لِّيَدَّبَّرُوٓا ءَايَٰتِهِۦ[13] وَلِيَتَذَكَّرَ

لتأكيد القلة فى ﴿قليل﴾ والأصل : وهم قليل جدا.

﴿أنما﴾ : يرى كثير من العلماء أن ﴿أنما﴾ بفتح الهمزة لمجرد التأكيد، ولا تفيد الحصر مثل ﴿إنما﴾ بكسر الهمزة. فالمراد أننا فتناه... إلخ.

وقال بعضهم: إنه لا مانع من إفادة الحصر ويصح هنا كما سيأتى فى الشرح.

﴿فتناه﴾ : أى امتحناه بما حصل ليظهر هل هو من أولى العزم الذين لا يبالون بشىء ما داموا بين يدى الله عز وجل وفى رهبة الخشوع له سبحانه وله فى جده إبراهيم عليه السلام خير قدوة حيث لم يبال بإلقاء الكفار له فى النار كما فى الآيات (٦٨ و ٦٩ و ٧٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧.

﴿خر راكعاً﴾ : ﴿خر﴾ سقط على الأرض كما فى الآية (١٠٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٩ و ﴿راكعًا﴾ أى مبتدئًا بالركوع قبل سجوده.

﴿أناب﴾ : رجع إلى ربه بالتوبة من هفوته، حيث ظن أن المتخاصمين سيقتلونه. وهم براء من ذلك.

(هنا يطلب من القارئ والمستمع المتوضئ أن يسجد سجدة واحدة تعرف بسجدة التلاوة).

---

(١) آمنوا. (٢) الصالحات. (٣) فتناه . (٤) مآب . (٥) يا داود .
(٦) جعلناك. (٧) باطلا . (٨) آمنوا . (٩) الصالحات. (١٠) كتاب.
(١١) أنزلناه . (١٢) مبارك. (١٣) آياته.

﴿زلفى﴾ : تقدم معناها فى الآية (٣٧) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨.

﴿مآب﴾ : المراد : مرجع فى الجنة.

﴿خليفة فى الأرض﴾ : خلافة خاصة غير المذكورة فى الآية (٣٠) من سورة البقرة صفحتى ٧ و ٨. والمراد بها هنا خليفة لمَنْ سبقه من الأنبياء، انظر الآية (٧٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٤.

﴿فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى﴾... إلخ : المقصود بهذا حثه على المداومة على ما ذكر. وتنبيه غيره ممن يتولون أمور الناس.

وقد قال سبحانه مثل هذا لنبينا ﷺ للحكمة نفسها.

فى آيتى (٤٨ و ٤٩) من سورة المائدة صفحتى ١٤٦ و ١٤٧؛ ولحكم أخرى كما فى شرح الآية (٨٦) من سورة القصص صفحتى ٥١٩ و ٥٢٠.

﴿وما خلقنا السماء والأرض﴾... إلخ : انظر الآية (١٩١) من سورة آل عمران صفحة ٩٥ والآية (١٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١ والآية (٢٢) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣.

﴿أم نجعل﴾ : ﴿أم﴾ هنا تفيد معنى حرفين: ﴿بل﴾ التى تفيد الانتقال من كلام إلى آخر، و(همزة الاستفهام الإنكارى) التى تفيد نفى ما بعدها. وهو هنا التسوية بين الأتقياء والأشرار.

﴿الفجار﴾ : جمع فاجر. وهو الذى يشق ستر الشرائع ويتجاهر بالفسق.

المعنى : . فلا يشتد غضبك على أخيك لأن طبيعة الناس الغالبة عليهم أن الشركاء يبغى القوى منهم على الضعيف. ولا يسلم من ذلك إلا مَنْ آمن بالله حق الإيمان وعمل صالحا. وهؤلاء قليل جدا. ولما انصرفوا من مجلسه تذكر أنه حصلت منه هفوة. وهو ظنه أن الداخلين عليه سيقتلونه وهم براء من ذلك، وهذا وإن كان هفوة بالنسبة إلينا لكنه بالنسبة للأنبياء يحاسبون عليه لعلو مقامهم، انظر نظير ذلك فى شرح الآية (٣٠) من سورة الأحزاب

صفحتى ٥٥٣ و ٥٥٤. قال سبحانه وتعالى فى ذلك فظن داود أننا لم نفعل به إلا الفتنة. فاستغفر ربه وسجد على الأرض حال كونه سابقًا ذلك بالركوع. ورجع إلى ربه بالتوبة. فغفرنا له تلك الهفوة. والحال أن له عندنا لزيادة فى القرب منا وله مرجع حسن فى الآخرة هو الجنة. وقلنا يا داود إنا جعلناك خليفة الأنبياء السابقين فى الأرض تدبر أمور الناس. فداوم على الحكم بينهم بالحق. ولا تتبع هوى النفس لأن مَنْ يتبعه يبتعد عن طريق الحق. والذين يبتعدون عن الحق لهم عذاب شديد بسبب نسيانهم اليوم الذى سيحاسبون فيه على ما فعلوا ولو لاحظوه ما ارتكبوا ذنبًا. ثم أراد سبحانه أن يبين أن يوم الحساب الذى هو يوم القيامة لابد منه لأنه لولاه لكان خلق هذا العالم بلا حكمة؛ لأن كثيرًا من الظلمة المفسدين فى الأرض لا يعاقبون فى الدنيا. وكثيرًا من المظلومين لا يستطيعون الانتقام ممَنْ ظلمهم فى الدنيا. فالعدل والحكمة تقتضى أن يكون هناك دار يقتص فيها للمظلوم ممَنْ ظلمه، ولذا قال سبحانه ذلك ظن... إلخ: أى ظن ألا يبعث مَنْ يموت هو ظن الذين كفروا باليوم الآخر. فويل أى هلاك لهم من عذاب النار.

ثم انتقل سبحانه إلى بيان أن حكمته وعدله لا تسوى بين المصلح والمفسد فقال أم نجعل... إلخ: أى هل يصح فى حكم الإله العادل أن يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض بالكفر والشرك وبقية الجرائم بل لا يصح أن نجعل المتقين من المؤمنين كالفجار منهم. ثم أراد سبحانه أن يبين أن فى القرآن إنقاذ الناس من الضلال لو تنبه له المشركون لاهتدوا فقال كتاب أنزلناه... إلخ أى هذا كتاب أنزلناه إليك أيها النبى مبارك أى كثير المنافع فى الدين والدنيا ليتدبروا آياته وما اشتملت عليه مما فيه سعادتهم وليتذكر أصحاب العقول السليمة ما أودع فى طبائعهم من الشعور بوجود إله واحد. انظر شرح الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١ والآية (٣٠) من سورة الروم صفحة ٥٣٤.

أولوا الألبٰب ﴿٢٩﴾ ووهبنا لداوود سليمٰن نعم العبد
إنه أواب ﴿٣٠﴾ إذ عرض عليه بالعشي الصٰفنٰت
الجياد ﴿٣١﴾ فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر
ربي حتى توارت بالحجاب ﴿٣٢﴾ ردوها علي فطفق مسحا
بالسوق والأعناق ﴿٣٣﴾ ولقد فتنا سليمٰن وألقينا على
كرسيه جسدا ثم أناب ﴿٣٤﴾ قال رب اغفر لي وهب لي
ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴿٣٥﴾
فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴿٣٦﴾
والشيٰطين كل بناء وغواص ﴿٣٧﴾ وءاخرين مقرنين
في الأصفاد ﴿٣٨﴾ هٰذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير
حساب ﴿٣٩﴾ وإن له عندنا لزلفى وحسن مـٔاب ﴿٤٠﴾
واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطٰن

المفردات : . ﴿أواب﴾ : تقدم فى الآية (١٧) من هذه السورة صفحة ٥٩٩.

﴿إذ عرض﴾ : ﴿إذا﴾ بمعنى حين. متعلق .بأواب.

﴿العشى﴾ : هو ما بعد الظهر إلى الغروب.

﴿الصافنات﴾ : جمع صافن وهو من الخيل ما يقف على ثلاثة أرجل ويرفع الرابعة، واضعا طرف حافرها على الأرض، وهذا لا يكون إلا فى الأصيل من الخيل؛ يقال صفن الفرس بوزن جلس.

﴿الجياد﴾ : جمع جواد يطلق على الذكر والأنثى؛ ومعناه الأصيل، سريع الجرى. والمراد : مدحها بأنها قوية نشيطة أصيلة، سباقة إذا جرت.

﴿أحببت﴾ : أى آثرت وفضلت، انظر الآية (١٠٧) من سورة النحل صفحة ٣٦٠.

﴿الخير﴾ : أصل الخير المال الكثير كما فى الآية (١٨٠) من سورة البقرة صفحتى ٣٤ و ٣٥ والآية (٨) من سورة العاديات صفحة ٨١٨.

﴿عن ذكر ربى﴾ : ﴿عن﴾ تفيد أن ما بعدها علة وسبب فيما قبلها، انظر شرح الآية (٤٧) من سورة الصافات صفحتى ٥٨٩ و ٥٩٠ فالمراد حبا حاصلاً بسبب تذكر أمر ربى بالعناية بالخيل، لأنها عدة الجهاد فى سبيل الله.

﴿بالحجاب﴾ : المراد به هنا ما حجبها عنه من افق، أو غبار، بعد جريها للاستعراض.

---

(١) الألباب. (٢) سليمان. (٣) الصافنات. (٤) سليمان. (٥) الشياطين. (٦) آخرين. (٧) مآب. (٨) الشيطان.

﴿طفق﴾ : أى شرع ﴿مسحا﴾ : المسح : إمرار اليد على الجسم والأصل يمسح سيقانها وأعناقها مسحًا.

﴿السوق﴾ : جمع ساق.

﴿فتنا سليمان﴾ : أى ابتليناه بما يشق عليه. ليظهر هل يصبر كما صبر أيوب أم لا؟.

﴿كرسيه﴾ : المراد به هنا عرش الملك الذى كان يجلس عليه، كما فى الآية (٣٨) من سورة النمل صفحة ٤٩٨.

﴿جسدًا﴾ : يراد به الجسم الذى لا روح فيه ولا قوة؛ انظر الآية (٨٨) من سورة طه صفحة ٤١٤.

﴿أناب﴾ : أى رجع.

﴿رخاء﴾ : أى لينة مريحة فى السير وإن كانت سريعة؛ انظر الآية (٨١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٩.

﴿حيث أصاب﴾ : ﴿حيث﴾ ظرف مكان و ﴿أصاب﴾ أى أراد. تقول العرب: أصاب فلان الصواب فأخطأ الجواب أى أراد قول الصواب فلم يوفق.

﴿غواص﴾ : فى البحار لاستخراج اللؤلؤ.

﴿مقرنين﴾ : أى مربوطًا بعضهم ببعض.

﴿الأصفاد﴾ : جمع صَفَد بفتح أوله وثانيه وهو السلسلة.

﴿هذا﴾ : أى الملك الواسع والمال الكثير.

﴿فامنن﴾ : أى فاعط.

﴿أمسك﴾ : أى امنع.

﴿زلفى وحسن مآب﴾ : تقدم فى الآية (٢٥) من هذه السورة صفحة ٦٠٠.

﴿مسنى الشيطان﴾ : المراد مرضت. ومن أدب الأنبياء أنهم ينسبون ما يؤلم إلى الشيطان. وكل خير إلى الله عز وجل. انظر آيتى (٧٩ و ٨٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥ والآية (١٥) من سورة القصص صفحة ٥٠٨.

المعنى : . هذا القرآن المبارك يتذكر به أصحاب العقول. وبعد ما فرغ سبحانه من قصة داود شرع فى حديث ابنه سليمان فقال: ووهبنا ... إلخ: أى أنعمنا على داود بولد صالح يرث ملكه ويكون نبيًا بعده هو سليمان.

نعم العبد هو لأنه رجاع إلى ربه فى كل أموره. ومنها حين عرض عليه بعد الظهر الخيل الجياد بأمر منه عليه السلام.

وذلك أن العناية بالخيل كانت مطلوبة فى دينه كما هى مطلوبة فى الإسلام ﴿باعتبارها من أدوات الحرب﴾ فجلس يومًا لاستعراضها، وأمر بإجرائها فجرت، فأراد أن ينبه مَنْ حوله إلى أنه لم يفعل ذلك للفخر وحب الدنيا، بل فعله لتنفيذ أمر الله وتقوية دينه. وصار يردد هذا التنبيه حتى توارت الخيل بما حجبها.

فقال ردوها علىَّ. فلما رجعت قام إليها، وصار يمسح سوقها وأعناقها بيده، إظهارا للعناية بها، وإرشادا لغيره من أمته. ثم انتقل سبحانه إلى حادث آخر لسليمان فقال ولقد فتنا ... إلخ: أى ابتلينا سليمان فألقينا على كرسى ملكه جسدًا لا فائدة فيه ثم رجع إلى الله بالتوبة أو رجع إليه الكرسى. وبيان ذلك أنه نظرا لأنه لم يرد فى تفسير الآية ما يفيد القطع برأى معين تشعبت فيها آراء المفسرين فروى بعضهم أن سليمان حين شعر بأنه ليس له مَنْ يرثه فيما هو فيه، كما ورث هو أباه، تمنى أن يكون له ذلك. بل صرح لمَنْ حوله بأنه سيكون له أولاد كثيرون يصلحون لذلك ويجاهدون فى سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله. فلم يولد له إلا شق ولد (سقط). فأدرك هفوته فرجع إلى ربه بالاستغفار والتوبة. وطلب من الله بدل الأولاد ما يحفظ له ذكره من باب آخر وهو الملك الذى لا يناله أحد غيره إلى آخر ما سيأتى. ورغبة سليمان فى ولد من نسله يرث مجده ليس غريبًا فقد طلب ذلك إبراهيم عليه السلام من قبل،

انظر الآيـة (١٢٤) من سورة البقرة صفحة ٢٤ ومن بعده زكريا كما فى الآية (٣٨) من سورة آل عمران والآيات من (٣ إلى ٦) من سورة مريم صفحة ٣٩٦ والآية (٨٩) وما بعدها من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٠، وقال ابن الأثير فى تاريخه فى الجزء الأول :

إنه كان لداود ولد أكبر من سليمان وكان فاسدا. وعلم أن أباه يرغب فى أن يكون كرسى الملك بعده لسليمان فحارب أباه. وانتزع منه الملك. ثم تكاثر عليه أنصار أبيه حتى قتلوه فرجع الملك لداود وخلص الكرسى لسليمان من بعده فقوله ألقينا على كرسيه جسدا يريد هذا الولد الفاجر، لأنه كان كأنه جسم ميت لا روح فيه. فقوله على هذا الرأى: ﴿ثم أناب﴾ أى رجع إليه الكرسى بعدما سلب منه. وقال الفخر الرازى : إن فتنة سليمان أن الله تعالى ابتلاه بمرض شديد أقعده حتى صار من شدته عليه كأنه مجرد جسد لا روح فيه ثم أناب أى رجع إلى حاله الأولى من العافية. وقد عرضنا على القارئ أقرب ما قيل فى هذا الموضوع ليعلم أنه لا حرج عليه فى أن يختار ما يطمئن له قلبه. والله سبحانه أعلم. وبعد ذلك طلب سليمان من ربه ما يريده حالة كونه مقدما الاستغفار ليكون أقرب إلى الإجابة فقال يا رب اغفر لى ما يكون قد حصل منى. وهب لى ملكًا لا يسهل حصوله لأحد من بعدى.

إنك أنت كثير العطاء. فاستجاب الله تعالى له فسخر له الريح تجرى بأمره لينة لا زعزعة فيها إلى حيث أراد. وسخرنا له الشياطين كل بَنَّاء منهم للمحاريب والقصور وغير ذلك. وشياطين آخرين مقيدين فى السلاسل لأنهم خالفوا أمره؛ انظر آيتى (٨١ و ٨٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٩. وآيتى (١٢ و ١٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٤.

وقال سبحانه له: هذا الملك الواسع هو عطاء منا لك. فأعط منه مَنْ شئت وامنع من شئت. فلن نحاسبك على شىء من تصرفك فيه، لأننا نعلم أنك لا تتصرف إلا فى الوجوه المشروعة النافعة. سخرنا كل ذلك لسليمان والحال أن منزلته عندنا عالية، وله فى الآخرة حسن مرجع. واذكر أيها النبى لقومك قصة عبدنا أيوب حين نادى ربه بقوله يارب إنى مسنى الشيطان... إلخ، وهو من نسل إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌ
بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ
رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ[1] ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ
ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ[2] صَابِرًا ۚ نِّعْمَ
ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ[3] إِبْرَٰهِيمَ[4] وَإِسْحَـٰقَ[5]
وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ[6] ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم[7]
بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ
ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ[8] وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ
وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ
مَـَٔابٍ[9] ﴿٤٩﴾ جَنَّـٰتِ[10] عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ[11] ﴿٥٠﴾
مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ[12] كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾
۞ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ[13] ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَـٰذَا

المفردات : ﴿نصب﴾ : أى مشقة وتعب.

﴿عذاب﴾ : المراد : ألم يضر صاحبه، انظر الآية (٨٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٩.

﴿اركض﴾ : أى اضرب الأرض برجلك يخرج منها ينبوعًا من الماء البارد.

﴿مغتسل﴾ : أصل المغتسل المكان الذى يغتسل فيه، ويطلق على الماء الذى يغتسل به، وهو المراد هنا، لعطف ما بعده عليه وهو ﴿شراب﴾ والمراد : مشروب. ﴿ذكرى لأولى الألباب﴾ : أى عظة لأصحاب العقول يتعلمون منها انتظار الفرج بالصبر الجميل.

﴿ضغثًا﴾ : هو الحزمة الصغيرة من عيدان الحشائش. انظر شرح الآية (٤٤) من سورة يوسف صفحتى ٣٠٩ و ٣١٠.

﴿لا تحنث﴾ : أى لا تقع فى الحنث، وهو الذنب، بسبب عدم فعل ما حلفت عليه، انظر الآية (٤٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥.

﴿أواب﴾ : تقدم فى الآية (١٧) من هذه السورة صفحة ٥٩٩.

﴿أولى الأيدى﴾ : ﴿الأيدى﴾ جمع يد والمراد بها هنا القوة فى الطاعة؛ انظر شرح الآية (٢٨) من سورة الصافات صفحة ٥٨٨. فالمراد أصحاب القوة فى الطاعة.

---

(١) الألباب. (٢) وجدناه . (٣) عبادنا . (٤) إبراهيم . (٥) إسحاق.
(٦) الأبصار . (٧) أخلصناهم . (٨) إسماعيل . (٩) مآب . (١٠) جنات.
(١١) الأبواب. (١٢) بفاكهة. (١٣) قاصرات.

﴿الأبصار﴾ : جمع بصر. والمراد به هنا البصيرة وهى معرفة أسرار الدين وغيره.

﴿أخلصناهم بخالصة﴾ : أى جعلناهم خالصين لطاعتنا بسبب توفيقهم لخصلة خالية من كل عيب، انظر الآية (٢٤) من سورة يوسف صفحة ٣٠٦.

﴿ذكرى الدار﴾ : بيان للخالصة السابقة والمعنى تذكر دار الآخرة والعمل لها.

﴿المصطفين﴾ : المختارين المفضلين على غيرهم.

﴿الأخيار﴾ : جمع خَيِّر بوزن سيد وهو كثير الخير.

﴿اليسع وذا الكفل﴾ : من أنبياء بنى إسرائيل.

﴿هذا ذكر﴾ : أى ما تقدم شرف عظيم لهؤلاء الأنبياء، انظر شرح الآية (١٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١ والآية (٤٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١.

﴿يدعون فيها بفاكهة﴾ : أى يطلبون وهم فى الجنة فاكهة كثيرة.. إلخ.

﴿قاصرات الطرف﴾ : أى لا ينظرون إلى غير أزواجهن لجمالهم فى نظرهن، كما تقدم فى الآية (٤٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠.

﴿أتراب﴾ : جمع تِرب بكسر فسكون. وهى المساوية لغيرها فى السن، أى متساويات فى سن الشباب، انظر آيتى (٣٦ و ٣٧) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥.

المعنى :. إن أيوب لما ابتلاه ربه سبحانه وتعالى بفقد الصحة والأولاد صبر ولم يشك لأحد غير الله. ولم يلجأ إلا إليه تعالى. فقال: إنى أصبت بتعب وألم من المرض. فأنقذه سبحانه فقال له اضرب الأرض برجلك يخرج ينبوعًا من الماء البارد. فاغتسل منه واشرب أى استعمله ظاهرا وباطنا يذهب ما بك من الألم. ونحن نجد بعض المياه المعدنية الآن تشفى أمراضا كثيرة جلدية وغيرها. فسبحان العليم بأسرار خلقه. ثم عوضه أولادًا بعدد من مات منهم مرتين.

وبارك فيهم حتى صاروا ضعف ما كانوا. فعلنا به ذلك لرحمتنا به، وعبرة لأصحاب العقول. يتعلمون منها أن الصبر مفتاح الفرج. وكان غضب على امرأته لأمر ما. فحلف لئن شفيت لأضربنها مائة ضربة. ولما كان سبحانه يعلم أنها معذورة وأن أيوب يحبها ولا يستغنى عنها، تلطف سبحانه بها وبه فرخص له أن يأخذ حزمة من عيدان الحشائش بها مائة عود ويضربها بها حتى لا يقع فى يمينه. وبيَّن السبب فى هذا الترخيص بقوله: إنا وجدناه صابرا. ثم مدحه بقوله: نعم العبد إنه رجاع إلى ربه، وقد اختلف العلماء فى مثل هذه الحيلة وغيرها، فراى بعضهم أنها رخصة من الله لأيوب خاصة، لا لغيره، واستدل بأن الله تعالى لعن بنى إسرائيل على الحيلة فى الآية (١٦٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٩.

وبقوله ﷺ لعن الله اليهود. حرم الله عليهم أكل شحوم الإبل فأذابوها وباعوها وأكلوا ثمنها. وقال بعضهم الصواب: التفصيل؛ فالحيلة التى لا يقصد بها إسقاط حق من حقوق الله تعالى ولا ضرر أحد كما هنا تجوز. وإلا فهى حرام.

واذكر أيها النبى عبادنا إبراهيم واسحاق ويعقوب أصحاب القوة فى الدين والبصائر النيرة، إنا جعلناهم خالصين لطاعتنا بسبب توفيقهم لخصلة خالصة من كل عيب هى تذكر دار الآخرة دائمًا فيعملون لها. وأنهم فى حكمنا لمن المختارين الذين جبلت نفوسهم على حب الخير. واذكر أيضًا ممَنْ تحملوا الشدائد إسماعيل واليسع وذا الكفل، وكل منهم من عبادنا الأخيار. هذا الذى تقدم من فضائل هؤلاء الأنبياء هو شرف عظيم. وإن لهم فى الآخرة لمرجع حسن لأنهم أفضل المتقين. ثم بيَّن هذا المرجع الحسن بأنه جنات عدن مفتحة لهم أبوابها تتلقاهم كأنها مسرورة بهم، انظر الآية (٧٣) من سورة الزمر صفحة ٦١٦. متكئين فى تلك الجنات على الأرائك كما فى الآية (١٣) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٢ يطلبون كل ما يشتهون من فاكهة كثيرة وشراب مما هو مبين فى الآية (١٥) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٤ وآيتى (٥ و ٦) من سورة الإنسان أيضًا صفحة ٧٨١. وعندهم فى الجنة حور عين قاصرات أطرافهن عليهم. كلهن سن واحدة شابات أبكار.

مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن
نَّفَادٍ (٥٤) هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ[1] لَشَرَّ مَآبٍ[2] (٥٥) جَهَنَّمَ
يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ
وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ[3] مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ[4] (٥٨) هَٰذَا فَوْجٌ
مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩)
قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ
الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا
ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم
مِّنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ[5] سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ
الْأَبْصَارُ[6] (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) قُلْ
إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ[7] الْقَهَّارُ (٦٥)
رَبُّ السَّمَاوَاتِ[8] وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ[9] (٦٦)

المفردات : ﴿ليوم الحساب﴾ : اللام بمعنى بعد، أى بعد يوم الحساب . كما تقول حضرت لخمس مضت من شعبان أى بعد خمسة أيام منه؛ لأن ما ذكر من النعيم فى الآيات (٥٠ و ٥١ و ٥٢) لا يكون إلا بعد موقف الحساب. وانصراف أهل الموقف كل إلى مقره من جنة أو نار.

﴿من نفاد﴾ : ﴿من﴾ لتأكيد عموم نفى ما بعدها . و ﴿النفاد﴾ الانقطاع والانتهاء، انظر الآية (٣٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤.

﴿هذا﴾ : تقدم المراد بها فى نظيرها فى ﴿ذلك﴾ فى الآية (٣٠) من سورة الحج صفحة ٤٣٧.

﴿مآب﴾ : أى مرجع وهو هنا جهنم.

﴿فبئس﴾ : أى فقبح.

﴿المهاد﴾ : أى الفراش انظر الآية (٢٠٦) من سورة البقرة صفحة ٤٠ والآية (٦) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧.

﴿حميم﴾ : هو الماء شديد الحرارة.

﴿غساق﴾ : أصله الماء المنتن والمراد به هنا: ما يسيل من صديد أجساد أهل النار.

﴿شكله﴾ : أى مثله فى بشاعة الطعم.

---

(١) للطاغين. (٢) مآب. (٣) آخر . (٤) أزواج. (٥) أتخذناهم.
(٦) الأبصار . (٧) الواحد. (٨) السموات. (٩) الغفار.

﴿أزواج﴾ : أى أصناف وأنواع.

﴿فوج﴾ : أى جمع كثير من أتباع رؤساء الكفر والضلال.

﴿مقتحم﴾ : أى داخل بشدة ومشقة مع ضيق فى جهنم معكم.

﴿لا مرحبا بهم﴾.. إلخ الأصل : قالوا ﴿لا مرحبًا﴾... إلخ.

﴿صالوا النار﴾ : أى داخلوها ومقاسون حرها.

﴿لا مرحبا بكم﴾ : هذا رد من الأتباع على الزعماء..

﴿القرار﴾ : أى المقر الذى أوقعتمونا فيه، وهو جهنم.

﴿ضعفًا﴾ : أى مرتين.

﴿رجالا﴾ : يريدون فقراء المؤمنين.

﴿الأشرار﴾ : يريدون المحتقرين الذين كانوا يسخرون منهم، انظر الآية (٢٩) وما بعدها من سورة المطففين صفحة ٧٩٨.

المعنى :. يقول سبحانه لعباده المؤمنين هذا الذى ذكرناه من الجنة ونعيمها هو ما وعدكم به ربكم تنالونه بعد يوم القيامة واستقرار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار. ثم طمأنهم بأنه نعيم دائم بقوله: إن هذا الرزق لكم منا غير مقطوع.

وبعد ما وصف سبحانه نعيم المتقين أتبعه بوصف عقاب الطاغين من الكافرين والضالين فقال: هذا جزاء المتقين.. إلخ. (أى الأمر بالنسبة للمتقين هو الذى سمعت).

وإن للطاغين لشر مرجع، ثم بينه بأنه جهنم يقاسون حرها فقبح المهاد مهادها هذا العذاب فليذوقوه.

ثم بيَّنه بأنه حميم أى ماء حار يقطع الأمعاء. وصديد، انظر الآية (١٥) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٤ ولهم شراب آخر من مثل ما ذكر أنواع مختلفة لا يعلمها غيره تعالى.

ثم يقـول خـزنة جهنم لرؤسـاء الكفـر والضـلال مشـيرين إلى أتبـاعهم هذا جـمع كثـير من أتباعكم حشر معكم فى جهنم.

فيقول هؤلاء الزعماء: لا مرحبا بهم. دعوا عليهم ثم عللوا كرههم بأنهم داخلون النار.

فيـرد الأتبـاع على الرؤسـاء قـائلين : بل أنتم لا مـرحبـا بكم، أى أن الـدعـاء الذى دعـوتم به علينا أنتم أحق به.

وعللوا ذلك بقولهم أنتم قدمـتم لنا هذا العـذاب بتـغـريركم بنا حـتى اتبعناكم، فبـئس هذا المقر الذى أوقعتمونا فيه.

ثم قال هؤلاء الأتباع: يا ربنا مَنْ تسبب لنا فى تقديم هذا العذاب فزده عذابا مضاعفا فى النار، عذابًا على ضلاله وآخر على إضلاله لغيره، ونظيره فى الآية (٣٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٨ والآية (٤٧) من سورة غافر صفحة ٦٢٤.

وقـال رؤسـاء الكفـر: مـا لنا لا نرى رجـالاً من فـقـراء المـؤمنين كنا فى الدنيـا نـعـدهم من التعساء.

هل كنا سـخـرنا منهم مع أنهم من أهل الجنـة، أم هم مـعنـا فى النار ولكن لم تقع عليـهم أبصارنا؟

ثم بين سبحـانه أن هذا التخـاصم سـيكون حقـا فقال إن ذلك.. إلخ أى هذا الذى حدثناك عنه أيها النبى حق، هو تخاصم أهل النار، انظر الآية (٩٦) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦.

قل أيها النبى لكفار مكة إنما أنا محذر لكم من عذاب الله إذا أشركتم به والحال أنه ما من إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز أى الغالب على أمره. الغفار لكل من تاب.

والمراد: أنا منذر ولست بساحر ولا كاذب كما تفترون.

قُلْ هُوَ نَبَؤٌا(١) عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ(٢) الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ(٣) إِنِّي خَالِقٌ(٤) بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٥) ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ(٦) كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ(٧) ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ(٨) مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ

المفردات :. ﴿من علم﴾ : ﴿من﴾ حرف يدل على النص على عموم نفى ما بعده.

﴿الملأ الأعلى﴾ : المراد بهم هنا الملائكة ومن تبعهم ممن أمروا بالسجود لآدم فى الآية (٣٠) من سورة البقرة صفحة ٨، ويدل على ذلك ما سيأتى فى الآية (٧١) وما بعدها هنا.

﴿إذ﴾ : أى حين.

﴿يختصمون﴾ : المراد من الاختصام هنا: مجرد المحاورة، أى يتحاورون فى شأن آدم.

﴿إن يوحى﴾ : ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ما. ﴿إذا قال ربك﴾.. إلخ بيان لبعض ما حصل من المحاورة فى الملأ الأعلى.

﴿سويته﴾.. إلخ : تقدم فى الآية (٢٩) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠.

﴿خلقت بيدى﴾ : تقدم المراد بها فى الآية (٧١) من سورة يس صفحة ٥٨٥.

﴿استكبرت﴾ : الهمزة للاستفهام المراد به التوبيخ، أى هل يصح أن تتكبر على آدم مع أنه خير منك، أى هل استولى عليك كبر.

﴿أم كنت من العالمين﴾ : ﴿أم﴾ تقدم المراد بها فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢. ﴿من العالين﴾ : المراد الخارجين على أوامر الله تعالى بعصيانها بغيًا، انظر معانى العلو فى الآية (١٩) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧.

---

(١) نبأ. (٢) بالملأ. (٣) للملائكة. (٤) خالق.
(٥) ساجدين. (٦) الملائكة. (٧) الكافرين. (٨) يا إبليس.

﴿رجـيـم﴾ : أى مـرجـوم باللعن من الـجـمـيـع. ﴿يـوم الدين﴾ : يوم الـحـســاب والـمـراد يوم القيامة.

﴿أنظرنـى﴾ : أمـهلنـى. ﴿إلى يوم يـبـعـثـون﴾ : يـريد الـخـبـيـث أن ألا يمـوت مـع الـخـلائق عند النفخة الأولى الـمـذكـورة فـى الآيـة (٦٨) من سـورة الزمـر صـفـحـة ٦١٥، فلم يجـبـه سـبـحـانـه بل أخبره بأنه سـيـصـعق مع كل حى. ﴿يـوم الوقت﴾... إلخ : تقدم فى الآية (٣٨) من سـورة الحجـر صفحة ٣٤٠.

المعنى :. قل أيها النبى لكفار قومك: هذا الذى أخبرتكم به من أنى رسـول الله ومنذر لكم مـن عـذاب شـديد. ومن أنه واحد لا شريك له، هو خبـر عظيم الأثر. ولكنكم معرضـون عنه لا تـتـأملون فـى عـواقبـه. ثم نبـهـهم إلى بعض أدلة صدقه بقـوله: مـا كـان لى علم مطلقًا بأحـوال الملأ الأعلى حين يختصمون. ولـمـا كان من أدلة صدقه ﷺ الإخبار بغيب لا يعلمه غيره تعالى كرره سبحـانه فـى القرآن مـرارًا، انظر الآية (٤٤) من سـورة آل عمـران صـفـحـة ٧٠، والآية (٤٩) من سـورة هـود صـفـحـة ٢٩١ والآية (١٠٢) من سـورة يـوسف صـفـحـة ٣١٨، والآيات من (٤٤ إلى ٤٦) من سـورة القـصـص صـفـحـة ٥١٣ ثم أكـد مـا سـبق بقـوله إن يـوحـى.. إلخ: أى مـا يـوحـى إلىَّ شـىء من الله سـبـحـانـه إلا أنـى نذير لكم، وخص الإنذار مـع أنه مـبـشـر أيضًا؛ لأنه الـمـنـاسـب لحـالهم. انظـر آيتـى (١٩٣ و ١٩٤) من سـورة الـشـعـراء صـفـحـة٤٩١. ثم شـرع سبـحانه فـى تفـصيل مـا أجـمله أولا فـى الآية (٦٩) من قـصـة امـتنـاع إبليس ليـعـتـبـروا ويعلموا أن الحسد والكبـر أهلكا إبليس. فـلا يحـمـلهم الحسد والتكبر على محـمَّد ﷺ على الوقوع فـى الهلاك أيضـا، إذ قال ربك ... إلخ. أى اذكـر لـهـم مـا قـاله للملائكة إلـى آخـر مـا سـبق فـى صـفـحـات ٨ و ١٩٣ و٣٤٠ و ٣٧٢ و٣٧٣ و ٣٨٨. وبعـدمـا عـصـى إبليس قـال له سـبـحـانـه اخـرج من الجنة التى كـان فـيـهـا آدم على حسب مـا سبق فـى سـورة البقـرة، وقـال له ستكون ملعونا على كل لسـان وملعونًا منى أيضًا إلى يوم القيامة؛ ولمـا يئس الملعون من رحمة الله قال ربى أمهلنى ولا تهلكنى واتركنى حيا إلـى يوم القيامة. قال سبحانه: فإنك من المـمهلين إلى يوم النفخ فى الصور لإهـلاك الخلائق.

الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ
مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ
هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

(٣٩) سُورَةُ الزُّمَرِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَسَبْعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا
إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾
أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ

المفردات: . ﴿عزتك﴾: تقدم معناها فى الآية (١٨٠) من سورة الصافات صفحة ٥٩٧.

﴿المخلصين﴾: الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته، انظر صفحة ٢٠٦.

﴿المتكلفين﴾: أى المدَّعين معرفة مالا يعرفون. قال عبد الله بن مسعود: أيها الناس مَنْ علم منكم علما فليقل به. ومَنْ لم يعلم فليقل الله أعلم. قال سبحانه لرسوله قل وما أنا من المتكلفين.

﴿إن هو﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ما. أى: ماهو. ﴿ذكر﴾: أى تذكير وعظة.

المعنى: . لما أخبر سبحانه إبليس بأنه أخر موته ليوم النفخة الأولى. قال اللعين: أقسم بعزتك وسلطانك وقهرك الذى جعلنى غاويًا لأغوين أولاد آدم هذا بتزيين المعاصى لهم كلهم إلا عبادك منهم الذين أخلصتهم لطاعتك، فإن إغوائى لاينفع معهم لخوفهم منك. قال سبحانه وتعالى فالحق قولى دائمًا ولا أقول إلا الحق. وعزتى لأملأن جهنم منك أى من جنسك من ذريتك من الجن كما فى الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨، ومن كل مَنْ يتبعك من أولاد آدم أجمعين.

وبعد ما فرغ سبحانه من الأدلة والعبر أمر نبيه أن ينبه الكفار إلى ما لو فهموه لأنقذوا أنفسهم فقال: قل ما أسألكم... إلخ. أى ما أسألكم على تبليغ مايوحى إلىَّ أجرًا لا كثيرًا ولا قليلا. وماعرفتمونى أتكلف ماليس عندى حتى أنتحل الرسالة وأتقول على الله القرآن. وهذا

---

(١) أسألكم. (٢) للعالمين. (٣، ٤) الكتاب.

خطاب لضمائرهم التى توقن أنه صادق أمين. ولم يعرف بغير ذلك فيما بينهم. ثم أكد ذلك بقوله ﴿إن هو﴾ إلخ: أى ماهذا القرآن إلا عظة وتذكيرًا لكل العالمين من إنس وجن. ثم بعدأن نبههم إلى العبرة هددهم إذا فرطوا فقال ولتعلمن.. إلخ. أى والله لتعلمن إن أصررتم على الباطل خبر هذا القرآن وأنه حق ولتعلمنه بعد قليل.. أى حين موتكم. ولن ينفعكم علمكم حينئذ. نسأل الله تعالى الهداية. والله تعالى أعلم.

سورة الزمر

المفردات: . ﴿الزمر﴾: بفتح الميم وسيأتى بيان هذا اللفظ فى الآية (٧١) الآتية.

﴿تنزيل الكتاب﴾: المعنى تنزيل هذا الكتاب الكريم هو من الله.

﴿العزيز﴾: هو الغالب الذى لايغلبه أحد. ﴿الحكيم﴾: الذى لايفعل إلا مافيه حكمة ومصلحة.

﴿الدين﴾: المراد به هنا الطاعة. ﴿أولياء﴾: المراد: معبودات باطلة يوالونها بالتقرب إليها.

المعنى: تنزيل هذا الكتاب العظيم هو من الله العزيز الحكيم الذى لايفعل شيئًا عبثًا. لا من الشياطين كما يزعم المفترون، انظر الآية (٢١٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢، وبعد ما أثبت أنه حق من عند الله.

شرع فى بيان ما اشتمل عليه فقال (إنا أنزلنا).. إلخ. أى إنا أنزلنا إليك أيها الرسول هذا الكتاب آمرا بالحق والعدل ومافيه سعادة البشر. فاعبد الله تعالى وحده مخلصا له الطاعة من شوائب الشرك والرياء، ثم نبه على أن الله تعالى لايقرب إليه إلا الطاعة الخالصة من كل عيب. وبعد ذلك أراد سبحانه أن يبين قبح الشرك وما يلحق صاحبه من ضرر جسيم فقال: (والذين اتخذوا).. إلخ أى والمشركون الذين اتخذوا معبودات من غير الله.

مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ
فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ
كَفَّارٞ ﴿٣﴾ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ
مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ
وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ
يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم
مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ
ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا
مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ
ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكۡفُرُواْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن

المفردات: . ﴿زلفى﴾: تقدمت فى الآية (٣٧) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨. ﴿كفار﴾: أى شديد الكفر. ﴿لاصطفى﴾: أى اختار.

﴿يكور الليل..﴾. إلخ: تقول العرب كور العمامة على رأسه أى لفها طاقة فوق طاقة. فالمعنى يلف الليل على جزء من النهار فيطول الليل، ويلف النهار على جزء من الليل فيطول النهار.

والكلام كناية عن طول أحدهما وقصر الآخر وتفاوت جزء كل منهما بين الضوء والظلمة، كما فى الآية (٢٧) من سورة آل عمران صفحة ٦٧.. ﴿ألا﴾: حرف ينبه السامع للعناية بما بعده. ﴿خلقكم من نفس واحدة.. ﴾إلخ: تقدم شرحها فى الآية (١) من سورة النساء صفحة ٩٧. ﴿وأنزل لكم من الأنعام﴾: معنى الإنزال هنا: الخلق والإيجاد؛ انظر الآية (٢٦) من سورة الأعراف صفحة ١٩٥ والآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣.
﴿ثمانية أزواج﴾: تقدم معناها فى الآية (١٤٣) من سورة الأنعام صفحة ١٨٧.

﴿خلقا من بعد خلق﴾: تقدم بيان ذلك فى الآية (١٢) ومابعدها صفحة ٤٤٦.

﴿فى ظلمات ثلاث﴾: أثبت التشريح الطبى الحديث أن الجنين محاط بثلاثة أغشية فى داخل الرحم. فسبحان مَنْ علم رسوله مالم يكن أحد يعلمه.

﴿فأنى﴾: أى فكيف. ﴿تصرفون﴾: أى يصرفكم الشيطان عن الحق.

المعنى: . والذين اتخذوا من دون الله أولياء يتقربون إليهم يقولون مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله منزلة وذلك أنهم جعلوا تماثيل للكواكب وللملائكة وللأنبياء وللصالحين الذين ماتوا.

وقربوا لها القرابين. وتوسلوا بها إلى الله تعالى. وقالوا إن الله أعظم من أن نتوجه إليه مباشرة. فنحن نتقرب إلى هذه. وهى تقربنا إلى الله وتشفع لنا عنده كما فى الآية (١٨) من

---

(١) كاذب. (٢) سبحانه. (٣) الواحد. (٤) السموات. (٥) الليل. (٦) الغفار. (٧) واحدة.
(٨) الأنعام. (٩) ثمانية. (١٠) أزواج. (١١) أمهاتكم. (١٢) ظلمات. (١٣) ثلاث.

سورة يونس صفحة ٢٦٨ . وقد رد عليهم سبحانه موبخًا لهم في الآية (٢٨) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧٠. ثم هددهم سبحانه بقوله: إن الله يحكم بينهم أى وبين المؤمنين فيما اختلفوا فيه من التوحيد والشرك يوم القيامة فيدخلهم جهنم. ويدخل المؤمنين الجنة. ثم بيَّن سبحانه سبب ضلالهم.

فقال: إن الله لايهدى مَنْ هو مصمم على الافتراء شديد الكفر والعناد، انظر شرح ذلك فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ثم بيَّن سبحانه استحالة مايزعمون فقال: (لو أراد الله أن يتخذ).. إلخ: أى كما قالوا: اتخذ الرحمن ولدا فى الآية (٢٦) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٢ و ٤٢٣؛ ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يتخذ ولدا لما أمكن أن يختاره إلا من خلقه، لاستحالة وجود أحد قديم فى الكون لا أول له غيره تعالى، انظر الآية (١١٦) من سورة البقرة صفحة ٢٣، ومن المقطوع به أن الولد من جنس أبيه، ويستحيل أن يكون المخلوق من جنس الخالق القديم، وحاصل المعنى: لو أراد الله سبحانه وتعالى اتخاذ ولد لامتنعت تلك الإرادة لتعلقها بالممتنع، لكن لايجوز على البارى أن تتعلق إرادته بالمستحيل، فالنتيجة أن الولد محال عليه سبحانه وتعالى؛ ونظير ذلك مافى الآية (١٧) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢١ و ٤٢٢؛ ولكنه لو أراد أن يصطفى أحدًا من خلقه لاصطفى ماشاء، وقد اصطفى فعلاً فى الآية (٣٣) من سورة آل عمران صفحة ٦٨ ولايكون هذا من اتخاذ الولد فى شىء؛ ولذا قال ﴿سبحانه﴾ أى تنزيهًا له تعالى عن ذلك لأنه الواحد الذى قهر كل شىء لقدرته. ثم بين كمال قدرته على كل شىء فقال: خلق السموات والأرض بالحق ولحكمة سامية لاعبثًا كما فى الآية (١٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١. ومن قدرته أنه يطيل الليل ويقصر النهار تارة ويعكس الأمر تارة أخرى لحكم عالية. وسخر الشمس والقمر لمصالح خلقه. كل منهما يجرى لحين انتهاء العالم. ألا هو الغالب على أمره. القاهر لكل كافر لايعتبر. الغفار لكل مَنْ تاب من ذنبه. ومن دلائل قدرته وحكمته أنه خلق الناس من نفس واحدة وجعل لها زوجا من جنسها وأنزل أى خلق (كما فى إنزال الحديد فى الآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣). والمعنى: خلق لكم من الأنعام وهى الإبل والبقر والضأن والماعز. ومن قدرته وحكمته أيضًا أنه يخلقكم أطوارا فى بطون أمهاتكم خلقًا من بعد خلق من علقة إلى مضغة إلخ ماسبق، وهذه التطورات تحصل فى جوف الرحم محاطة بثلاثة أغشية. ذلكم الذى يفعل كل هذا هو ربكم الحق لا إله إلا هو. فكيف يصرفكم الشيطان عن عبادته وحده إلى عبادة غيره معه. ثم بيَّن سبحانه أن عبادتهم له لمصلحتهم فقال: إن تكفروا فلن يضره كفركم لأنه سبحانه غنى عنكم. ولا يرضى لعباده أن يكفروا به؛ لأنه هو الذى خلقهم ورزقهم فيجب ألا يعرفوا غيره.

تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ
رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ(١) ضُرّٞ دَعَا
رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ
إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ
قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ(٢) ٱلنَّارِ ﴿٨﴾
أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ(٣) ءَانَآءَ(٤) ٱلَّيۡلِ(٥) سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ(٦)
وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ
لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ(٧) ﴿٩﴾ قُلۡ يَٰعِبَادِ(٨)
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ(٩) ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا
حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ(١٠)ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ(١١) أَجۡرَهُم
بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا

المفـردات: . ﴿ولا تزر وازرة وزر أخـرى... إلخ﴾: تقدم فى الآية (١٦٤) من سورة الأنعام صفحة ١٩١. ﴿منيبًا إليه﴾: أى راجعًا إليه سبحانه وتعالى بالتضرع. ﴿خوّله﴾: أى أعطاه تفضلا منه، انظر الآية (٩٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨.

﴿أندادًا﴾: أى أمثالا ونظراء. ﴿أمن﴾: مركبة من كلمتين ﴿أم﴾ و ﴿مَنْ﴾ و ﴿أم﴾ هنا تفيد معنى همزة الاستفهام الإنكارى المفيد للنفى، ومعنى بل التى تفيد الانتقال من موضوع إلى آخر.

﴿قانت﴾: أى مداوم على الخضوع التام لربه، انظر الآية (٣١) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٤. ﴿آناء الليل﴾: آناء جمع إنو بكسر فسكون، بمعنى جزء، كما تقدم فى الآية (١١٣) من سورة آل عمران صفحة ٨١.

﴿بغير حساب﴾: هذا التعبير فى لغة العرب يقصد به أن الشىء المتحدث عنه بلغ من الكثرة حدًا لايحصيه الحصر بدليل أنه جاء فى الحديث عن نعيم الجنة الخالد الذى لاينقطع فقال سبحانه ﴿فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ الآية (٤٠) من سورة غافر صفحة ٦٢٣. ومن أساليب العرب أنهم إذا أرادوا مقابل هذا المعنى وهو القلة يأتون بكلمة ﴿معدودة﴾ أو كلمة ﴿معدودات﴾ فيقول القرآن ﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة﴾.. الآية أى مدة قليلة، انظر الآية (٨) من سورة هود صفحة ٢٨٥. ويقول ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون. أيامًا معدودات).. الآية آيتى (١٨٣، ١٨٤) من سورة البقرة صفحة ٣٥. ويقول ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة﴾... الآية انظر الآية (٢٠) من سورة يوسف صفحة ٣٠٥.

---

(١) الإنسان. (٢) أصحاب. (٣) قانت. (٤) آناء. (٥) الليل. (٦) الآخرة.
(٧) الألباب. (٨) ياعباد. (٩) آمنوا. (١٠) واسعة. (١١) الصابرون.

المعنى: - إن الله لايحب لعباده الكفر وإن تشكروا نعمه عليكم بالإيمان به يرض لكم هذا الشكر ويجازكم عليه بالجنة. ثم بّين أن كل مكلف يجازى يوم القيامة بما قدم من عمل، ولاشأن له بعمل غيره، فقال ولاتزر.. إلخ أى لاتحمل نفس مذنبة ذنب نفس أخرى. بل كل لا يحمل إلا ذنب نفسه.

ثم مصيركم يوم القيامة إلى ربكم العليم بكل ماحصل منكم فيخبركم بما كنتم تعملونه فى الدنيا. ثم يجازى كلا على حسب عمله وما انطوت عليه نفسه، لأنه عليم بما فى داخل الصدور. ثم بين سبحانه حالة من حالات هؤلاء الكفار لاتتفق مع العقل فقال: وإذا مس الإنسان الكافر بلاء وشدة لجأ إلى الله لايدعو غيره، انظر الآية (١٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٧، والآية (٤٩) الآتية فى هذه السورة صفحة ٦١٢. ثم إذا أعطاه سبحانه نعمة منه تذهب عنه ماهو فيه من الشدة ماكان يدعو الله لكشفه، واغتر بما هو فيه، وجعل لله نظراء. فتكون نتيجة عمله أنه يكون قدوة فى إضلال الناس عن التوحيد. ثم هدد سبحانه مَنْ كان على هذا الطريق بقوله ﴿قل تمتع بكفرك﴾..إلخ أى قل أيها النبى لَمنْ يعمل ذلك تمتع بما أنت فيه من زخرف الدنيا وكل مايلهيك عن التأمل فى الأدلة زمنًا قليلا إلى حين حلول أجلك، ثم أنت بعد ذلك من أصحاب النار المخلدين فيها. ثم بيَّن سبحانه أن عدله لايسوى بين المؤمن والكافر فقال ﴿أمن هو﴾.. إلخ. أى هل مَنْ هو قائم فى عبادة ربه فى ساعات الليل التى تكون العبادة فيها أشق على النفس وأبعد عن الرياء حال كونه ساجدًا وقائمًا يخاف عذاب الآخرة ويرجو رحمة ربه. هل مَنْ كان هذا حاله يستوى مع مَنْ يكفر بالله ولا يشكر نعمه؟ كلا ثم صرح بنفى التساوى فقال ﴿قل هل يستوى﴾. إلخ أى قل أيها النبى لقومك هل يصح فى نظر العقول السليمة وفى حكم العدل أن يستوى الذين يعلمون منافع الطاعة ومضار المعصية. ويعملون بمقتضى علمهم مع الذين لايعلمون ذلك لاشتغالهم بمتاع الدنيا الزائل إنما يعتبر بهذا التنبيه وهذه الإرشادات أصحاب العقول التى لم تفسدها التقاليد الفاسدة. ثم أمر سبحانه نبيه أن ينصح المؤمنين بما فيه خيرهم فقال ﴿قل ياعبادى﴾.. إلخ أى قل أيها النبى للمؤمنين معك داوموا على تقوى ربكم واعلموا أن الله جعل لَمنْ يحسن عمله فى الدنيا حسنة فى الدنيا، انظر شرح الآية (٤١) من سورة النحل صفحة ٣٥١ والآية (٥٥) من سورة النور صفحتى ٤٦٦ و ٤٦٧ وفى الآخرة له الجنة.

ثم رغبهم فى الهجرة من مكة فقال ﴿وأرض الله﴾... إلخ أى أنكم إذا لم تستطيعوا الإحسان فهاجروا إلى بلد تستطيعون فيه ذلك. واصبروا على مفارقة الوطن؛ لأن الله تعالى سيجازى الصابرين جزاء واسعًا لايمكن حصره. وقل لهم أيضًا إن الله أمرنى أن أعبد الله وحده مخلصا له الطاعة.

لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾
قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾
قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ
دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ[1] الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ[2] أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ
مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ
اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ[3] فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا
الطَّاغُوتَ[4] أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ
عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ
أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ[5] اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ[6] ﴿١٨﴾
أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾
لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ

المفردات: . ﴿وأمرت لأن أكون إلخ﴾... المعنى: وإنما أمرت بما تقدم لأجل أن أكون أول المسلمين. ﴿ألا ذلك﴾: ﴿ألا﴾: حرف ينبه السامع لما بعده. ﴿ظلل﴾: جمع ظلة بضم الظاء، كما فى الآية (١٧١) من سورة الأعراف صفحتى ٢٢٠ و ٢٢١، والمراد أن فى جهنم طبقات متراكمة من النار فوقهم وتحتهم، انظر الآية (٤١) من سورة الأعراف صفحة ١٩٨ والآية (٥٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨، وسمى ماتحتهم ظلة لأنها وإن كانت تحتهم فهى فوق آخرين، انظر الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨، كما تحيط بهم من جوانبهم فى الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤ و ٣٨٥.

﴿الطاغوت﴾: هو كل ماتكون طاعته سببًا فى زيادة طغيانه وبعده عن الصواب، والطاغوت يطلق على الواحد والمتعدد. فيقال رجل طاغوت أى طاغية، ورجال طاغوت أى طاغون، انظر الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣ و ٥٤.

﴿أنابوا﴾: أى رجعوا إلى ربهم بالتوبة. ﴿يستمعون القول... إلخ﴾: أى يسمعون قول الله بعناية وتأمل. فيفعلون مما أمروا به أكثره ثوابا. ﴿أفمَنْ حق عليه﴾.. إلخ: أى هل أنت تملك أمر الناس فمَنْ حكم الله تعالى عليه بالعذاب تنقذه أنت؟ و ﴿حق﴾: أى ثبت ووقع، انظر شرح الآية (٨٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٤. و ﴿كلمة العذاب﴾: هى قوله ﴿لأملأن جهنم﴾... إلخ الآية (١٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٤.

﴿أفأنت﴾: كرر الاستفهام لتأكيد معنى الإنكار والنفى. ﴿تنقذ مَنْ فى النار﴾: الأصل (تنقذه) كما تقدم لكنه جاء بالظاهر بدل الضمير لبيان أن مَنْ استحق النار كأنه دخلها فعلا.

المعنى: . قل لهم أيها النبى إن ربى أمرنى أن أعبده مخلصًا له الطاعة. وأمرت أن أكون أول مَنْ ينقاد لأمر ربه لأكون القدوة فى الخير وقل لهم أيضًا (إنى أخاف).. إلخ. فالحاصل أنه ﷺ كلف بأن يخبرهم بأنه مأمور بالعبادة والإخلاص فيها وبأنه مأمور بأن يكون أول مَنْ يطع.

---

(١) الخاسرين. (٢) القيامة. (٣) ياعباد. (٤) الطاغوت. (٥) هداهم. (٦) الألباب.

وبأن يخبرهم بخوفه من عذاب الله إن عصى. وبأن يقول لهم إنى لا أعبد إلا الله مع الإخلاص إظهارًا لتصلبه فى الدين. وقطعًا لأطماعهم فى التراخى عنه، وتمهيدًا لتهديدهم بقوله فاعبدوا ماشئتم غير الله فإنكم بذلك ستخسرون كل خير. ولذا قال ﴿قل إن الخاسرين﴾... إلخ: أى قل لهم أيضًا إذا كنتم لاتعلمون مَنْ هم الخاسرون لكل سعادة فاسمعوا أخبركم بهم. هم الذين خسروا أنفسهم بالكفر الموجب للخلود فى النار، وخسروا أهليهم الذين يلوذون بهم إذا اتبعوهم فى ضلالهم فحرموا من التمتع بهم فى الجنة كما يتمتع المؤمنون فى الآية (٢٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥.

ثم نبه سبحانه إلى خطر ذلك فقال ألا ذلك الذى وقع فيه الكافرون هو الخسران الواضح إنه لاخسران بعده. انظر شرح مبين فى الآية (٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٦، ثم بيَّن بعض هذا الخسران فقال لهم فى جهنم أطباق متراكمة من النار فوقهم وتحتهم، انظر الآية (٤١) من سورة الأعراف صفحة ١٩٨، والآية (٥٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨. ذلك الذى وصف من العذاب هو الذى يخوف الله به عباده ليجتنبوا أسبابه. ياعباد فاتقونى ولا تتعرضوا لعذابى. ثم رغب سبحانه فى اجتناب عبادة غيره فقال والذين اجتنبوا كل طاغية يدعو للكفر والمعاصى واجتنبوا أن يطيعوه ورجعوا إلى الله بكل جوارحهم. لهم البشرى بالجنة على ألسنة الملائكة عند الموت، انظر الآية (٣٢) من سورة النحل صفحة ٣٤٩. فبشر أيها النبى هؤلاء المؤمنين لأنهم عباده الذين يستمعون قول الله وقول رسوله الذى يحث على فعل الخير. فيختارون أكثره ثوابا وهو الأفضل وهذا مدح لهم بأنهم وهبهم الله تعالى دقة الموازنة بين الشيئين، فإذا صادفهم أمران واجب ومندوب، اختاروا الواجب. أو مباح ومندوب اختاروا المندوب، وإذا فوض إليهم الأمر بين القصاص والعفو اختاروا العفو، أو بين العقاب والتعدى اختاروا الإغضاء وإن كان له حق وله أن يعفو عنه ويتنازل اختار العفو والتنازل، انظر الآية (٢٣٧) من سورة البقرة صفحة ٤٩ والآية (١٢٦) من سورة النحل صفحة ٣٦٣ والآية (٤٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤٤؛ هؤلاء الذين يتبعون الأفضل هم الذين هداهم الله تعالى إلى طريق السعادة وهؤلاء هم أصحاب العقول السليمة التى تميز الفاضل والأفضل والحسن والأحسن ولما كان ﷺ شديد الحزن على كفر قومه شديد الرغبة فى هدايتهم. وكان سبحانه يعلم أنهم لايؤمنون أبدا مهما جاءهم من البراهين قال لنبيه ﴿أفمَنْ حق عليه﴾.. إلخ: أى لاتشق نفسك أيها النبى لإهمال هؤلاء الكفار؛ لأن مَنْ حكم الله عليه بالعذاب الخالد فى جهنم لعلمه أنه مصمم على الكفر مهما رأى من البراهين الدالة على الحق لايمكنك أنت إنقاذه منها، انظر الآية (١١١) من سورة الأنعام صفحة ١٨١ والآية (٥٦) من سورة القصص صفحة ٥١٥، ولما بيَّن سبحانه أن للكافرين طبقات من النار. أراد أن يبين أن المتقين لهم

مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ
ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ
يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ
يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ
لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ
فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ
ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ
ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ
ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا
لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾

طبقات فى الجنة لتزداد حسرة الخاسرين فقال لكن الذين اتقوا ربهم فلم يفعلوا ما يغضبه. لهم فى الجنة غرف من فوقها غرف.

المفردات: ﴿مبنية﴾: تذكر العرب مثل هذه الكلمة مع سابقتها لتأكيد أن ما قبلها حقيقة لاتجوز فيها. فيقولون: رأيت الشىء بعينى رأسى. وطار الصقر بجناحيه، انظر الآية (٣٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ﴿سلكه﴾: أى أدخله كما فى الآية (١٢) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨، انظر الآية (١٨) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٧. ﴿ينابيع﴾: جمع ينبوع كما فى الآية (٩٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦؛ وهو العين التى يجرى ماؤها فى باطن الأرض. ﴿ألوانه﴾: أى أنواعه، وأصنافه. يقال أعد فلان من ألوان الطعام الشىء الكثير أى أصنافه. ﴿يهيج﴾: أى يتم جفافه. ﴿حطاما﴾: الحطام هو الشىء المتكسر بعد يبسه، ويسمى فتاتا بضم الفاء.

﴿أفمن شرح الله صدره﴾.. إلخ: الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى ومقابل ﴿مَنْ شرح﴾ مقدر فى الكلام مفهوم من السياق والأصل: هل عميت بصائركم فجعلتم مَنْ شرح الله صدره للإسلام كمَنْ جعل صدره ضيقًا لايدخله الإيمان. والمراد لايستويان و ﴿شرح الله صدره﴾ أى جعله مسرورًا به مرتاحا إليه. ﴿نور من ربه﴾: المراد: هدى منه تعالى كما فى الآية (٥) من سورة البقرة صفحة ٤. ﴿فويل﴾: أى هلاك. ﴿للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾: المراد: المتصلبة قلوبهم والمتألمة من سماع القرآن، انظر آيتى (١٢٤ و ١٢٥) من سورة التوبة صفحة ٢٦٤ والآية (٤٥) الآتية فى هذه السورة صفحة ٦١٢. ﴿متشابهًا﴾: المراد هنا: متماثلا فى النظم، والإتقان، والإرشاد إلى كل نافع. ﴿مثانى﴾: جمع مثنى بضم أوله، وفتح ثانيه، ونون مشددة مفتوحة، بمعنى مردد، ومكرر، لتكرر قراءة آياته بلا سآمة بل بإقبال واشتياق. وأيضًا

(١) الأنهار. (٢) ينابيع. (٣) ألوانه. (٤) فتراه. (٥) حطاما. (٦) الألباب. (٧) للإسلام.
(٨) للقاسية. (٩) ضلال. (١٠) كتابا. (١١) متشابها. (١٢) القيامة. (١٣) للظالمين.

لتكرر براهينه ومواعظه وقصصه بصور مختلفة لقطع العذر على مَنْ يحاول الاعتذار يوم القيامة، انظر الآية (٤) من سورة القمر صفحة ٧٠٥. ﴿تقشعر﴾: من وعيده بالعذاب جلودهم لأنهم يخشون ربهم. ﴿ثم تلين﴾... إلخ: أى تطمئن وتسكن لوعده.

﴿أفمن يتقى بوجهه﴾... إلخ: يقال فيه ماقيل فى مثله فى الآية (١٩) السابقة.

المعنى:- إن الله وعد المتقين بأن يكون لهم فى الجنة غرف من فوقها غرف حقيقية نظمت على أساس أنها تجرى من تحتها الأنهار. وعدهم الله تعالى بذلك وعدا. والله لايخلف وعده. وبعدما وصف سبحانه نعيم الآخرة بما يرغب فيه. أراد أن يبين نعيم الدنيا وسرعة زواله تحذيرا من الاغترار به. وصرف كل الهمة فيه. فقال: ﴿ألم تر﴾.. إلخ أى ألم تشاهد أيها الناظر الماء وقد نزل من السماء فأدخل منه كثيرا فى بطن الأرض، ثم فجر منه عيونا تجرى على ظهر الأرض، ثم يخرج به أنواعًا مختلفة من النبات من بر وشعير وأرز إلى غير ذلك. ثم نضجت وجفت واصفرت بعد خضرة ثم صارت فتاتا متكسرة. إن فى هذا الذى تشاهدونه تذكيرًا وعبرة يعتبر بها أصحاب العقول فلا يغترون بزخارف الدنيا لأنها سريعة الزوال وإنما خص سبحانه ماء العيون بالذكر مع أن المطر قد يجرى أنهارًا على ظهر الأرض مباشرة؛ لأن ماء العيون هو الدائم فى البلاد الصحراوية كبلاد العرب الذى كان الخصام دائرًا معهم ذلك الحين. ثم بين سبحانه أنه لاينتفع بهذه العبرة إلا مَنْ شرح صدره للدين الحق فقال: ﴿أفمن شرح﴾.. إلخ أى هل يظن عاقل أن مَنْ دخل النور قلبه، فانشرح للإسلام صدره، لما علم فيه من الحق، فأصبح متمكنا من الهداية التى أنعم الله بها عليه، كمَنْ طبع على قلبه لغفلته عن المصير المحتوم؟ انظر الآية (١٢٢) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣. فهلاك أشد أنواع الهلاك لِمَنْ قست قلوبهم من أجل ذكر الله الذى من حقه أنْ تلين الجلود لذكره. هؤلاء فى ضلال واضح لايخفى على بصير. ثم بيَّن هذا الذكر الذى لم يهز قلوبهم بقوله: الله الذى أنزل أحسن الحديث كتابا متشابها أى متماثلا فى الإتقان، تكرر قصصه ومواعظه وأوامره ونواهيه بصور مختلفة، إذا سمعها المؤمنون تقشعر من وعيده بالعذاب جلودهم لأنهم يخشون ربهم. وإذا سمعوا آيات الرحمة والمغفرة تلين جلودهم وتسكن قلوبهم. ذلك الكتاب هو هدى الله يهدى به مَنْ يشاء. ومَنْ يبعده الله تعالى عن الانتفاع به فما له أحد يهديه إلى الصواب، انظر شرح الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ثم أراد سبحانه أن يبين الفرق بين حال المهتدى والضال: ﴿فقال أفمن يتقى بوجهه﴾.. إلخ أى هل مَنْ يتقى بوجهه الذى هو أشرف أعضائه يوم القيامة العذاب السيىء لكون يده التى يتقى بها المخاوف مغلولة إلى عنقه كمَنْ هو آمن لايعتريه مكروه فلا يحتاج إلى اتقائه وتقول الملائكة لهؤلاء المعذبين ذوقوا جزاء ما كنتم فى الدنيا تعملون من الكفر والمعاصى.

كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ
ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ
وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾
ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾
۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ
جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي
جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾

المفردات: . ﴿ضربنا للناس﴾: المراد: نوّعنا لهم أسباب العبر والاتعاظ على وجوه شتى، منها ما فى الآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤. ﴿من كل مثل﴾: ﴿من﴾ لتأكيد عموم ما بعدها. ﴿عوج﴾: ميل عن الصواب كما تقدم فى الآية (١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠. ﴿رجلا﴾: المراد به هنا: عبدا مملوكا؛ نظير مافى الآية (٧٥) من سورة النحل صفحة ٣٥٥.

﴿متشاكسون﴾: أى متنازعون دائمًا لشراسة طباعهم، كل يجتذبه لنفسه. ﴿سلما لرجل﴾: أى خالصا لسيد واحد لاينازعه فيه أحد.

﴿هل يستويان﴾: ﴿هل﴾ حرف استفهام إنكارى يفيد النفى. أى لايستويان. ﴿مثلا﴾: أى صفة وحالاً. ﴿الحمد لله﴾: تقدم المراد منها فى مثل هذا المقام فى شرح الآية (٥٩) من سورة النمل صفحة ٥٠١. ﴿ميت﴾: الميّت بالتشديد: الحى الذى سيموت.

والميت بسكون الياء هو مَنْ خرجت روحه فعلا. ﴿تختصمون﴾: انظر بعض هذا الخصام فى الآيات: (١٦٦) من سورة البقرة صفحة ٣٢ و (٣١) ومابعدها من سورة سبأ صفحة ٥٦٧ و (٢٧) ومابعدها من سورة الصافات صفحة ٥٨٨. ﴿مثوى﴾: أى مأوى يقيمون فيه. ﴿الذى جاء بالصدق﴾: هو النبى ﷺ. والذى صدق به هم المؤمنون.

المعنى: . أراد سبحانه أن يحذر كفار قريش حتى لا يصيبهم ما أصاب أمثالهم. فقال: ﴿كذب الذين﴾.. إلخ: أى لما كذبوا رسلهم أتاهم العذاب بغتة كما فى الآية (٤٠) من سورة

---

(١) فأتاهم. (٢) الحياة. (٣) الآخرة. (٤) القرآن.
(٥) قرآنا. (٦) متشاكسون. (٧) القيامة. (٨) للكافرين.

العنكبوت صفحة ٥٢٦. فأذاقهم الله الخزى بالذل والهوان والقتل فى الحياة الدنيا. وما أعد لهم من عذاب الآخرة أكبر لشدته ودوامه. لو علموا حقيقته لاعتبروا. ثم أراد سبحانه أن يبين أن فيما قصه القرآن عليهم من الأمثال والمواعظ أكبر عبرة؛ فقال: ﴿ولقد ضربنا﴾ .. إلخ. أى: ولقد جعلنا لكفار مكة أمثالاً من كل نوع لعلهم يتعظون.

سهلنا لهم أن يتذكروا قرآنا عربيًا بلغتهم يسهل عليهم فهمه. ليس فى هذا القرآن اختلاف بين معانيه ولا انحراف عن الصواب، لعلهم يتقون الكفر والمفاسد ثم ذكر مثلا من هذه الأمثال التى جاء بها القرآن؛ فقال ﴿ضرب الله﴾ .. إلخ: أى جعل الله تعالى لهم مثلا للمشرك والمؤمن حال عبد مملوك لشركاء متنازعين دائمًا يصدرون إليه أوامر متناقضة فهو بينهم حائر إذا أرضى واحدا أغضب الباقى. وإذا احتاج إلى شىء رده كل إلى الآخر. وعبد آخر مملوك لرجل واحد. فأيهما أسعد حالا؟ لا شك أنه الثانى. فهو يعرف مايرضى سيده. ولايخاف غضب غيره. أما الأول فإنه يخضع لآلهته، وإذا أصابه ضر لجأ إلى غيرهم كما فى الآية (٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣. فالنتيجة أن صفاتهما مختلفة. ولما ثبت الحق على أوضح وجه أرشد سبحانه عباده أن يحمدوه بقولهم: الحمد لله. ثم انتقل سبحانه وتعالى إلى بيان سبب عدم هدايتهم للحق فقال بل أكثرهم لايعلمون أن صاحب الفضل هو الله وحده. فلا يصح أن يشرك معه غيره. ولما كان كفار مكة يمنون أنفسهم بموته ﷺ ليستريحوا منه كما فى الآية (٣٠) من سورة الطور صفحة ٦٩٨. أخبر سبحانه بأن الموت سيعمهم جميعًا، فلا يموت أحد ويبقى الآخر، فلا معنى لتمنيه فقال جل جلاله: إنك ميت أى ستموت قطعًا كما أنهم سيموتون أيضًا. ثم يختصم الخلائق أمام ربهم بما فيهم أنت وهؤلاء فتحتج عليهم بأنك بلغتهم وأنهم عاندوا، ويعتذرون بتقليد الآباء وتغرير الرؤساء كما فى الآية (٦٧) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠ و ٥٦١. فلا أحد أظلم ممَنْ كذب على الله بادعاء أن له شريكًا وكذب بالكتاب الصادق الذى جاءه على لسان رسولنا الصادق محمد ﷺ، ثم هددهم بأن فى جهنم متسعًا لكل كافر فقال: ﴿أليس فى جهنم مثوى للكافرين﴾. أى هل ضاقت جهنم حتى أصبحت لا مكان إقامة فيها لهؤلاء الذين مامنعهم عن تصديق رسولنا إلا كبرهم، ثم بيَّن فضل مَنْ صدق وما أعد لهم فقال ﴿والذى جاء بالصدق﴾... إلخ: أى والرسول الذى جاء بالصدق والمؤمنون الذين صدقوا برسالته. هؤلاء جميعا هم المتقون الله حقا.

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾
لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم
بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ
عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ
فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ
أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم[1] مَّا تَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ[2]
ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ[3] رَحْمَتِهِۦ قُلْ
حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ[4]
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ[5] فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

المفردات: . ﴿لهم مايشاءون عند ربهم﴾: أى فى الجنة، أما فى الدنيا فلا، كما تقدم فى الآية (١٦) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢، والذى يتأمل هذا التعبير يجده جاء فى القرآن خمس مرات، أربع منها تصرح بأن هذا النعيم فى الجنة: الآية (٣١) من سورة النحل والآية (١٦) من سورة الفرقان والآية (٢٢) من سورة الشورى والآية (٣٥) من سورة ق؛ والخامسة ماهنا وهى الآية التى لم تقيد بل أطلقت، لكن العلماء اتفقوا على أنه إذا ورد فى القرآن لفظ مطلق فى مكان، ومقيد فى مكان آخر، فإنه يجب حمل المطلق على المقيد. ومن ذلك ماجاء فى سورة النساء ﴿تحرير رقبة مؤمنة﴾ الآية (٩٢) صفحة ١١٧، فى حين جاء ﴿رقبة﴾ فقط مطلقة فى الآية (٨٩) من سورة المائدة صفحتى ١٥٥، ١٥٦، وكذلك الآية (٣) من سورة المجادلة صفحة ٧٣٥، فحملوا المطلق على المقيد. والذى يؤكد ذلك ماحصل للأنبياء من الشدائد بل قتل بعضهم، فهو صريح فى أنهم لم ينالوا ماكانوا يرجونه فى الدنيا من متاعها أو راحتها، بل إن مانال خاتم الرسل ﷺ على يد قريش من الشدائد ماتنوء عنه الجبال. ﴿أليس الله﴾: الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى. وبما أن ﴿ليس﴾ تفيد النفى أيضًا، ونفى النفى يفيد الإثبات، فالمعنى: الله يكفى عبده قطعًا، أى يحفظه من كل مايخيفه. ﴿بكاف﴾: الباء هنا تفيد تأكيد ربط ماقبلها بما بعدها. وكذا يقال فى ﴿أليس الله بعزيز﴾ الآتية ﴿ومَنْ يضلل الله﴾.. إلخ: تقدم شرحها فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ﴿أفرأيتم﴾: المراد أخبرونى. ﴿على مكانتكم﴾: المراد اعملوا على أقصى مايمكنكم من الكيد فإنه فاشل، انظر الآية (١٣٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٥.

المعنى: . لعباد الله المتقين مايشاءون عند ربهم من نعيم الجنة. ذلك الفضل العظيم هو جزاء الله لكل مَنْ يحسن عمله. تفضل سبحانه عليهم بذلك ليكفر عنهم أسوأ أعمالهم فضلا عن صغائرها. ويعطيهم ثواب أعمالهم كلها على قدر أحسنها. فيزاد أجرهم على أقلها حتى

---

(١) أفرأيتم. (٢) كاشفات. (٣) ممسكات. (٤) ياقوم. (٥) عامل.

يصل إلى مثل جزاء أحسنها. لشدة إخلاصهم فيها فضلاً منه سبحانه وكان كفار مكة يخوفونه ﷺ من غضب آلهتهم عليه، كما هى عادة الكفار قبلهم، انظر الآية (٨٠) ومابعدها من سورة الأنعام صفحة ١٧٥ والآية (٥٤) من سورة هود صفحة ٢٩٢. لما كان هذا أراد سبحانه أن يبين للرسول ﷺ وللمؤمنين أنه حافظهم من كل سوء.. إلخ فقال: (أليس الله).. إلخ أى أن الله وحده هو الذى يكفى عبده المؤمن به كل المخاوف، ثم فرع على ماسبق ماهو نتيجة له فقال (ويخوفونك)... إلخ أى ويخوفك كفار مكة بالذين عبدوهم غيره تعالى. فلا تبال بهم، فإنهم كما وصفتهم لك فى الآية (٧٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٤. ثم بيَّن سبحانه منشأ جهلهم وأنه الضلال والبعد عن الصواب فقال ومن يضلل الله.. إلخ أى ومَنْ أفسد فطرته بحب الفسوق حتى استحق الإبعاد عن الهداية فليس له هاد يخلصه من الضلال. ومَنْ خالف شهواته وقدم مايرضى الله ويتفق مع العقل والمصلحة فهداه الله تعالى إلى الصواب دائما وحفظه من الضلال فلن يقدر أحد على إضلاله، ثم دلل على ماذكر بقوله أليس الله بعزيز أى أن الله غالب على كل شىء لايعجزه شىء يريده. ذو انتقام من أعدائه لإنقاذ أوليائه. ثم أقام الدليل ثانيا على غفلتهم وتناقضهم إذ عبدوا مايقرون بعجزهم عن خلق شىء من هذا العالم علويه وسفليه فقال ولئن سألتهم.. إلخ أى والله لئن سألت أيها النبى هؤلاء المشركين عمَنْ خلق هذا العالم أهو الله وحده أو آلهتهم؟ لما استطاعوا أن ينكروا أنه هو الله وحده، ثم أمر سبحانه نبيه أن يوبخهم بعد هذا الاعتراف فقال قل أفرأيتم.. إلخ أى قل تبكيتا لهم إذا كان خالق العالم هو الله وحده كما أقررتم فأخبرونى حينئذ هل أصنامكم التى تدعونها من دون الله إن أرادنى الله بضر هل تستطيع دفعه عنى، وإن أراد سبحانه لى رحمة هل تستطيع منعها عنى؟ روى أنهم لما سئلوا بذلك قالوا هى لاتفعل شيئًا من ذلك، ولكنها تنفعنا عند الله كما تقدم فى شرح الآية (٣) السابقة. فقال سبحانه لنبيه قل لهم حسبى الله فى جميع أمورى من جلب نفع ودفع ضر. عليه وحده يعتمد العاملون بما يرضيه، المتوكلون عليه حق التوكل، روى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: . (كنت خلف النبى ﷺ يوما فقال: ياغلام إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف). وفى رواية غير الترمذى (احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، واعلم أن ما اخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أنَّ النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا). وبعد ماذكر سبحانه الحجة القاطعة أمره ﷺ أن يهددهم بقوله: (قل ياقوم).. الآية. أى قل لهم أيها النبى مهددا ياقوم

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ[1] لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ
فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم
بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ
فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ
ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ[2] لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ
أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ
ٱلشَّفَٰعَةُ[3] جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[4] وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ[5] ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[6] وَٱلْأَرْضِ
عَٰلِمَ[7] ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ[8] أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟

اعملوا أقصى مايمكنكم من المكر والكيد إنى عامل آخر جهدى فى تقرير الدين والسعى فى نشره. فسوف تعلمون مَنْ يأتيه عذاب يخزيه بالقتل والأسر، ويحل عليه عذاب دائم فى الآخرة. هل هو أنا أو أنتم؟ ستعلمون قريبًا أنه أنتم وحدكم ومن عمل عملكم.

المفردات: ﴿بوكيل﴾: الباء هنا حرف يدل على تأكيد نفى مابعدها عما قبلها، والوكيل هنا معناه الحفيظ المهيمن الذى يجبرهم على مايريد ﴿يتوفى الأنفس﴾: يتوفى أى يقبض، انظر الآية (٦٠) من سورة الأنعام صفحة ١٧١. الأنفس: اعلم أن النفس فى كلام العرب تطلق على معان كثيرة، وأكثر ماجاء منها فى القرآن يدور على خمسة معان: الأول: الروح التى بها الحياة؛ انظر الآية (٩٣) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٧، ١٧٨، والآية (٥٥) من سورة التوبة صفحة ٢٥٠.

والثانى: الإنسان بجملته، أى جسده وروحه انظر الآيات (٣٢) من سورة المائدة صفحة ١٤٢ و (٤١) من سورة التوبة صفحة ٢٤٨ و (٥٠) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٧، ٥٥٨.

والثالث: الضمير وموضع السر من الإنسان، انظر الآية (٢٣٥) من سورة البقرة صفحة ٤٨.

والرابع: القوة العاقلة، انظر الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥. والخامس: قوة أودعها الله جسم الإنسان صالحة للتأثر بعوامل مختلفة، وهذه القوة إن كان يغلب عليها الغضب والانقياد للشهوات التى تجمع الصفات المذمومة تسمى (النفس الأمارة بالسوء)، وهذى قال فيها النبى ﷺ «أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك»، وأمر صلوات ربى وسلامه عليه بمجاهدتها بقوله: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، وقد جاءت فى قوله تعالى ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ الآية (٥٣) من سورة يوسف صفحة ٣١١، وقوله ﴿إن يتبعون

---

(١) الكتاب. (٢) لآيات. (٣) الشفاعة. (٤) السموات.
(٥) بالآخرة. (٦) السموات. (٧) عالم. (٨) الشهادة.

إلا الظن ماتهوى الأنفس﴾ الآية (٢٣) من سورة النجم صفحة ٧٠١؛ وإذا كانت متأرجحة بين عوامل الخير والشر وتغلب مقاومتها للشر وميلها للخير تسمى النفس اللوامة، انظر الآية (٢) من سورة القيامة صفحة ٧٧٨؛ وإذا تغلبت على كل عوامل الشر وركنت إلى الخير فإنها تسمى النفس المطمئنة، انظر الآية (٢٧) من سورة الفجر صفحة ٨٠٧. إذا علمت كل هذا فاعلم أن النفس التى معنا فى هذه الآية هى من القسم الأول الروح التى بها الحياة. وبما أن الروح بعد خروجها من الجسد بالموت تنتقل إلى موضع آخر لايعلمه إلا الله، تتنعم فيه، كما فى آيتى (١٦٩، ١٧٠) من سورة آل عمران صفحة ٩١؛ أو تشقى، كما فى الآية (٤٦) من سورة غافر صفحة ٦٢٤... تكون نسبة الموت والنوم إليها نسبة مجازية، والمراد موت الجسم الذى تحل فيه، أو نومه. وهذا أسلوب عربى فصيح، يقول العربى: هذا نهر جار، وبما أن النهر اسم للمكان الذى يجرى فيه الماء، فإن السامع يفهم من هذا الكلام أنه يريد بقوله هذا نهر جار ماؤه. وكذا يقول العربى رأيت عليا فى الماء، وهو يريد رأيت جزءا منه. والتجوز هنا من نوع المثل الأخير باعتبار المعنى الثانى للنفس، (أى الجسم بجملته) والمراد هنا: يقبض الله الروح عن الأبدان ظاهرا فقط فيمنع الشعور والتصرف عن الجسم حال النوم. أو ظاهرا وباطنا فيمنع كل مظاهر الحياة كحال الموت. ﴿أجل مسمى﴾: هو انتهاء عمرها المقدر عنده تعالى.

﴿لآيات﴾: آيات: دلائل على قدرة الله تعالى وكمال علمه. ﴿أم﴾: هنا تفيد معنى حرفين: ﴿همزة الاستفهام الإنكارى﴾ المقصود به التوبيخ و ﴿بل﴾ التى تفيد الانتقال من كلام إلى آخر: ﴿إذا هم يستبشرون﴾: ﴿إذا﴾ كلمة تدل على سرعة حصول مابعدها عقب ماقبلها. ﴿فاطر السموات والأرض﴾: أى خالقهما على غير مثال سابق.

المعنى: ـ بعدما أقام سبحانه وتعالى الأدلة وهددهم أراد أن يخفف عن رسوله حزنه على عدم إيمانهم الذى كان يؤلمه كما فى الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠ والآية (٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٧٩، فقال: (إنا أنزلنا عليك)... إلخ أى إنا أنزلنا عليك القرآن لمصلحة الناس وإنقاذهم من الضلال.

مقترنًا هذا القرآن بالحق فى كل أحكامه ومواعظه، فمَنْ اهتدى منهم ففائدة هدايته لنفسه، ومَنْ ضل فضلاله يعود عليها. ولست أنت أيها الرسول مهيمنا عليهم حتى تجبرهم على الإيمان والهدى ـ بل أنت محذر ومبشر فقط، انظر آيتى (٢١، ٢٢) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥؛ ثم ذكر شيئًا مما يدل على أنه وحده المهيمن على خلقه فقال: (الله يتوفى) .. إلخ أى الله وحده هو الذى يقبض الأرواح حين انقضاء أجلها بالموت ويقطع تعلقها بالجسد. ويقبض الأرواح التى لم يحضر أجلها فيمنعها التصرف فى الجسد مع بقائها متصلة به،

فيمسك التى قضى عليها الموت فلا يردها إلى جسدها ويرسل النائمة إلى الجسد عند اليقظة، ويتركها حتى ينقضى الأجل المحدد لبقائها فى الدنيا.

إن فيما ذكر لعظة وعبرة لقوم يتفكرون فى صنع الله وعظمته. روى البخارى أنه ﷺ قال: إذا آوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بطرف إزاره. فإنه لايدرى ماخلفه بعده. ثم ليقل: (باسمك ربى وضعت جنبى وباسمك أرفعه. إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما حفظت به عبادك الصالحين). ثم أنكر سبحانه على المشركين اتخاذ معبوداتهم شفعاء لهم عنده. فقال: (أم اتخذوا)... إلخ: أى بل هل اتخذ المشركون معبوداتهم شفعاء لهم عند الله فى قضاء حاجاتهم؟ ثم أمر رسوله ﷺ أن يجهلهم فقال ﴿قل أو لو كانوا﴾... إلخ أى قل أيها النبى لهم لإظهار جهلهم هل تتخذونهم شفعاء حتى لو كانوا لايملكون شيئًا ولو حقيرا ولا يعقلون أنكم تستشفعون بهم؟ قل لهم الشفاعة بكل أنواعها، ملك لله وحده لايقدم عليها مخلوق إلا بعد إذنه ولِمَنْ يرضى عنه كما تقرر فى الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦. وهذان الشرطان مفقودان هنا؛ لأن له سبحانه التصرف المطلق فى العالم كله علويه وسفليه ومنه ماتستشفعون به، فلن يأذن فى الشفاعة لكم. فخير لكم أن تعبدوا مالك الملك وحده لأنكم إليه ترجعون يوم القيامة، فيجازيكم على أعمالكم. ثم ذكر سبحانه مايدل على بشاعة جهلهم فقال وإذا ذكر الله وحده.. إلخ: أى إذا أفردت الله بالذكر وبأنه هو وحده المتصرف فى الكون انقبضت قلوب هؤلاء الكفار الذين لايؤمنون بيوم يرجعون فيه إلى الله. وإذا ذكر غيره تعالى مَنْ يعظمونهم ويعتقدون فيهم النفع والضر أسرع إليهم الاستبشار لشدة فتنتهم بأنهم ينفعونهم. قال الألوسى فى تفسيره الكبير باكيا حال المسلمين اليوم (وقد رأينا كثيرا من الناس على هذه الصفة التى وصف الله تعالى بها المشركين. يسرون عند ذكر أموات يستغيثون بهم ويطلبون منهم حاجاتهم. ويطربون من سماع حكاية كاذبة عنهم توافق معتقداتهم فيهم، ويعظمون مَنْ يحكى لهم ذلك، وينقبضون ممَنْ يقول لهم لايتصرف فى الكون إلا الله سبحانه. ثم قال وقد قلت يوما لرجل يستغيث فى شدة ببعض الأموات وينادى يافلان أغثنى فقلت له: قل ياالله أغثنى لأنه سبحانه قال (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) الآية (١٨٦) من سورة البقرة صفحة ٣٦ فغضب وبلغنى أنه قال: فلان ينكر الأولياء. ثم قال: وسمعت من بعضهم أنه قال: الولى أسرع إجابة من الله سبحانه. وهذا كفر صريح نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزيغ والطغيان) انتهى. وبعد ما ذكر سبحانه عن المشركين حبهم للشرك ونفورهم من التوحيد أمر رسوله بالتوجه إليه وحده ليخفف عنه ما قاساه من عنادهم فقال: (قل اللهم)... إلخ: أى قل ياالله مبدع السموات والأرض، يامَنْ يستوى فى علمك ماغاب عنا وماتشهده العيون أنت وحدك الذى تحكم بين عبادك فيما اختلفوا فيه. فتنصف المحق وتعاقب المبطل.

فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ[1] وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧)
وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ[2] (٤٨) فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ[3] ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا
خَوَّلْنَاهُ[4] نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ
فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ
سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ[5]
لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) * قُلْ يَا عِبَادِيَ[6] الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ

المفردات: ﴿وبدا لهم﴾: أى ظهر لهم من عقاب الله. ﴿يحتسبون﴾: أى يظنون ﴿وحاق بهم﴾: أى نزل وأحاط بهم، حتى صاروا لاخلاص لهم منه. ﴿ماكانوا به يستهزئون﴾: هو العذاب الذى كانوا ينكرونه استهزاء، انظر شرح الآيات (٥٣) من سورة يونس صفحة ٢٧٤، و (٥١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧١، و ٧، ٨ من سورة سبأ صفحة ٥٦٣.

﴿خولناه﴾: تقدم فى الآية (٨) من هذه السورة صفحة ٦٠٧. ﴿أوتيته على علم﴾: تقدم فى الآية (٧٨) من سورة القصص صفحة ٥١٨، والضمير يعود على الشىء المنعم به المفهوم من المقام، ونظيره فى الآية (٥٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧.

﴿بل﴾: حرف يدل على إبطال ماقبله وإثبات ما بعده. ﴿فتنة﴾: أى اختبار وامتحان ليتجلى ما فى نفسه للناس هل يشكر أم يكفر؟ انظر الآية (٣٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤. ﴿بمعجزين﴾: الباء لتأكيد نفى مابعدها عما قبلها ؛ والمراد بموقعين الله فى العجز، حتى يفلتوا من عقابه، انظر الآية (١٢) من سورة الجن صفحة ٧٧١. ﴿يبسط﴾: أى يوسع. ﴿يقدر﴾: أى يضيق، انظر شرح الآية (٣٦) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨. ﴿لآيات﴾: أى براهين قاطعة بأن كل شىء بيده سبحانه. ﴿أسرفوا على أنفسهم﴾: أى أكثروا من المعاصى جانين بذلك على أنفسهم.

المعنى: . بعد ما بين سبحانه جرائم الكفار وذكر لهم من الأدلة ما كان يكفى أقل منه فى أرجاعهم. أراد أن يبين ما سيلاقونه من الأهوال فقال: ولو أن للذين ظلموا .. إلخ: أى ولو أن هؤلاء المشركين كانوا يملكون كل ما فى الأرض من الأموال وغيرها ومثله معه وقُبلت منهم الفدية لافتدوا به أنفسهم من هول مايشاهدون من العذاب الشديد. وذلك أنه ظهر لهم من

---

(١) القيامة. (٢) يستهزئون. (٣) الإنسان. (٤) خولناه. (٥) لآيات. (٦) ياعبادى.

عذاب الله تعالى الذى أعد لهم ما لم يكن فى حسابهم. وظهر لهم أيضًا حين تعرض عليهم صحائف أعمالهم جزاء سيئات ماعملوه فى الدنيا وأحاط بهم عذاب الآخرة الذى كانوا ينكرونه مستهزئين. ثم أراد سبحانه أن يظهر حماقة هؤلاء الكفار وأنهم يتناقضون ولايشعرون أنهم متناقضون فقال: فإذا مس الإنسان.. إلخ: والمراد.. عجيب أمر هؤلاء الناس يشمئزون إذا ذكر الله تعالى وحده ويستبشرون بذكر آلهتهم. ثم يناقضون أنفسهم إذا مسهم ضر حيث يلجئون إلى مَنْ اشمأزوا من ذكره. وينسون مَنْ استبشروا به. ومع هذا إذا أعطينا أحدهم نعمة تفضلا منا نسى شكرنا وقال متبجحًا لم أحصل على هذا الخير والإنعام إلا لعلمى بطرق كسبه لا فضل لأحد علّى فيه. ثم أبطل سبحانه قوله هذا فقال: بل هى.. إلخ. أى لم يصدق فيما قال والحقيقة أن هذه النعمة أعطيناها له لاختباره، ليظهر طبعه جليًا للناس هل يشكر معطيها فلا يعصيه أم يكفر؟ ولكن أكثر الناس لغفلتهم لايعلمون أن النعمة قد تكون فتنة واختبارا. وقد قال مثل هذه المقالة الخاطئة الذين من قبلهم كقارون وقومه كما فى الآية (٧٨) من سورة القصص صفحة ٥١٨. فلم يدفع عنهم شيئًا من عذاب الله ماكانوا يكسبونه من حطام الدنيا.

ثم ذكر سبحانه نتيجة ماسبق فقال: فأصابهم.. إلخ. أى فحل بهم جزاء سيئات أعمالهم فأصيبوا بالخزى فى الدنيا. وسيصيبهم العذاب الأكبر فى الآخرة. فكذلك الذين ظلموا من كفار قريش سيصيبهم أيضًا وبال سيئات ماكسبوه من أعمال منكرة. وماهم بمعجزين لله حتى يفلتوا من عقابه فى الدنيا والآخرة.

هل غفل هؤلاء الذين قالوا إنما أوتينا سعة الرزق عن علم ولم يعلموا أن الله يوسع الرزق لِمَنْ يشاء وإن كان أعجز الخلق.

ويضيق على مَنْ يشاء وإن كان أنشط من غيره لحكم يعلمها سبحانه تقدم بعضها فى شرح الآية (٣٦) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨.

إن فى فعل الله هذا لأدلة على أن كل شىء بيده سبحانه ينتفع بها المؤمنون ولايعمى عنها إلا الغافلون. وكان بعض الكفار يحاول صرف الناس عن الإيمان بقوله: إن محمدًا يقول: إن من سبق منه عبادة غير الله أو قتل نفسًا فلن يغفر له. وكان أيضًا بعض من آمن شديد الخوف من ذنوبه حتى يكاد الشيطان يوقعه فى اليأس، لهذا أنزل سبحانه ﴿قل ياعبادى الذين﴾... إلخ. أى طمئن من أفرط فى الجناية على نفسه بالإسراف فى المعاصى بمغفرة الله على الوجه الآتى.

أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ
جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ
وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾
وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن
يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ
نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ(١) عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ
لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ(٢) ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى(٣) لَكُنتُ
مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى
كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى(٤)
فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ(٥) ﴿٥٩﴾
وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ(٦) تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ
أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

المفـردات: - ﴿لاتقنطوا﴾: أى لاتيـأسـوا. ﴿أنيبوا﴾: أى ارجعوا بالتوبة.

﴿وأسلموا له﴾: أى اخضعوا له مخلصين. ﴿أحسن مـا أنزل﴾: أى افعلوا مما أمـرتم به أكثره ثوابا كما فى الآية (١٨) من هذه السورة صفحة ٦٠٨.

﴿أن تقول﴾: مـرتبط بقوله ﴿وأنيبوا﴾ أى ارجـعـوا خـوف أن تقـول نفس.. إلخ إذا لم ترجع. ﴿فى جنب الله﴾: أى حق الله وطاعته.

﴿وإن كنت لمن السـاخـرين﴾: المراد وإنى كنت فى الدنيـا من المسـتـهـزئين بدين الله وبرسـوله ﴿هدانى﴾: المراد أرشـدنى. ﴿لو أن لنا﴾: ﴿لو﴾ هنا حـرف يدل على التـمنى، أى تتمنى.

﴿كرة﴾: أى رجعة إلى الدنيا وسيقع منهم هذا فعلا فى الآخرة. انظر شرح الآية (١٠٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦.

﴿بلى﴾: حـرف يدل على رد منه تعالى على كلام منفى مفهوم من كلامهم؛ لأن قول الكافر ﴿لو أن الله هدانى﴾ يدل على أن الله تعـالى لم يهـده أى لم يرشـده، انظر مـاقـيل فى حـرف ﴿بلى﴾ فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

﴿أليس فـى جـهـنم مـثـوى﴾: المعنى: إن فى جـهـنم مـثـوى انظـر مـا تقـدم فـى آيتـى (٣٢، ٣٦) صفحتى ٦١٠، ٦١١.

المعنى: - قل لعبادى لاتيـأسـوا من رحمة الله لأنه يغفـر الذنوب جميعها غير الكفر. وهل لابد من توبة أو ولو بدون توبة؟ رأى بعض العلماء أنه لابد لحصول المغفرة من سبق التوبة، واستدل بما سيـأتى فى الآية (٥٤) ومـابعـدها - هنا - وبأنه سبـحـانه قـرن المغفـرة بالتوبة فى آيات كثيـرة

---

(١) ياحسرتا. (٢) الساخرين. (٣) هدانى. (٤) آياتى. (٥) الكافرين. (٦) القيامة.

جدًا منها: - الآية (١٦٠) من سورة البقرة صفحة ٣١ وآيتى (١٧، ١٨) من سورة النساء صفحة ١٠١، والآية (٣٩) من سورة المائدة صفحتى ١٤٣، ١٤٤، والآية (٥٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٠ والآية (١١٩) من سورة النحل صفحة ٣٦٢ والآية (٦٠) من سورة مريم صفحة ٤٠٢ والآية (٨٢) من سورة طه صفحة ٤١٣ والآية (٥) من سورة النور صفحة ٤٥٧، والآية (٧) من سورة غافر صفحة ٦١٨.

ومَنْ لايشترط استدل بالآية (٤٨) من سورة النساء صفحة ١٠٨، والآية (٣٤) من سورة محمد صفحة ٦٧٧.

والحق أن الأصل فى المغفرة سبق التوبة النصوح ومن مات قبل أن يتوب على شىء مكفر فلا مغفرة له طبعًا.

وإن مات على معصية مع الإيمان فأمره متروك إلى الله تعالى يفعل به ماتقتضيه حكمته وعدله.

لكنه لايخلد فى النار على كل حال. قال الشيخ اللقانى فى العاصى بغير الكفر (ومَنْ يمت ولم يتب من ذنبه، فأمره مفوض لربه) ولهذا يجب الاحتراس والبعد عن الخطر، ولذا قال سبحانه وأنيبوا ... إلخ. أى ارجعوا أيها الناس إلى ربكم بالتوبة وأخلصوا له الطاعة من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتجدوا نصيرًا يمنعه عنكم، واتبعوا أحسن ماطلب منكم لتكونوا من أفضل الناس من قبل أن يأتيكم العذاب فجأة بدون علم سابق. ارجعوا إلى ربكم حذر أن تقول نفس مقصرة ياحسرتى على تقصيرى فى طاعة الله. واستهزائى بدينه وبكتابه وبرسوله وبالمؤمنين. أو تقول لو أن الله أرشدنى إلى الصواب لكنت من الذين ابتعدوا عن الكفر والمعاصى. أو تقول حين ترى عذاب جهنم ليت لى رجعة إلى الدنيا فأكون من المحسنين لعقائدهم وأعمالهم، فيبطل الله ماتضمنه كلامهم من عدم إرشادهم بقوله: قد جاءتك آياتى القرآنية التى فيها كل أسباب الهداية فكذبت بها واستكبرت عن قبولها، وكنت من الكافرين، انظر الآية (٣٧) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٦، ٥٧٧.

ثم بين سبحانه بعض أحوالهم يوم القيامة التى يراها كل مَنْ ينظر إليهم فقال ويوم القيامة.. إلخ: أى ويوم القيامة ترى يا مَنْ يصح منك أن ترى فى ذلك اليوم وجوه الذين كذبوا على الله فزعموا أن له ولدا أو شريكا أو غير ذلك مغشاة بالسواد من الكآبة والحزن، انظر الآية (٤٠) ومابعدها من سورة عبس صفحة ٧٩٣، فسيدخلون جهنم قطعًا لأنها واسعة فيها مكان لكل متكبر عن قبول الحق. فى الوقت الذى يدخلونها ينجى الله المؤمنين الأتقياء.

اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ
خَالِقُ[1] كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ
السَّمَاوَاتِ[2] وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ[3] اللَّهِ أُولَٰئِكَ
هُمُ الْخَاسِرُونَ[4] ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا
الْجَاهِلُونَ[5] ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ[6] ﴿٦٥﴾
بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ[7] ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ
حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[8]
وَالسَّمَاوَاتُ[9] مَطْوِيَّاتٌ[10] بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ[11] وَتَعَالَىٰ[12] عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ[13]
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ
فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا

المفردات: ـ ﴿بمفازتهم﴾: ﴿المفازة﴾ الفوز والظفر بالمراد. ﴿مقاليد﴾: جمع مقلاد بكسر فسكون كمفتاح وزنا ومعنى. والكلام كناية عن تمام التصرف كقولهم (بيد فلان مفاتيح كذا) أى هو صاحب التصرف فيه.

﴿يحبطن﴾: أى يبطل ويذهب فلا يكون له أثر فى النجاة من الخلود فى النار، والنون للتوكيد. ﴿بل الله فاعبد﴾: ﴿بل﴾ حرف يفيد رفض ما حاولوه، والمعنى.. لا تلتفت أيها النبى لما يقولون. وتنبَّه لكيدهم فلا تعبد إلا الله وحده؛ فتقديم لفظ الجلالة لإفادة الحصر.

﴿وما قدروا الله حق قدره﴾: تقدم فى الآية (٩١) من سورة الأنعام صفحة ١٧٧ والمراد: ماعرفوا الله حق المعرفة. ﴿قبضته﴾: أصل القبضة المرة من القبض. والمراد هنا: مقبوضة له تعالى. أى فى ملكه وتحت تصرفه. ﴿مطويات بيمينه﴾: أصل الطى ضد النشر، كما فى الآية (١٠٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١، والمراد خاضعات لتصرفه سبحانه وحده. ﴿الصور﴾: تقدم شرحه فى صفحة ١٧٤.

﴿صعق﴾: يقال صعق الرجل يصعق بوزن تعب يتعب، إذا مات أو أغمى عليه، وماهنا من الأول؛ ومن الثانى ما فى الآية (١٤٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٤. ويقال أيضًا صعقته السماء، تصعقه بوزن قطع يقطع. وأصعقته أيضًا إذا أهلكته، ومنه مافى الآية (٤٥) من سورة الطور صفحة ٦٩٩، وانظر ماسيأتى فى الآية (١٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣١. ﴿إلا مَنْ شاء الله﴾: قيل هم حملة العرش، وقال قتادة: لاندرى مَنْ هم هؤلاء، ولم يرد فى تعينهم خبر صحيح.

﴿ينظرون﴾: أى ينظرون مايفعل بهم. ﴿أشرقت الأرض﴾.. إلخ: المراد الأرض الجديدة كما فى الآية (٤٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٧. أى تجلى الله سبحانه على أرض المحشر

---

(١) خالق. (٢) السموات. (٣) بآيات. (٤) الخاسرون. (٥) الجاهلون. (٦) الخاسرين. (٧) الشاكرين.
(٨) القيامة. (٩) السموات: (١٠) مطويات. (١١) سبحانه. (١٢) تعالى. (١٣) السموات.

فأشرقت بنور لايعلمه غيره سبحانه. به يرى أهل المحشر بعضهم بعضا لأنه لا شمس ولا قمر، وبه يتحقق العذاب بأجلى صوره.

المعنى: - وينجى الله الذين اتقوا معاصيه مصاحبين فوزهم حال كونهم لايمسهم أقل سوء ولايحزنون على فوات مرغوب. ثم رجع سبحانه لبيان أنه وحده الخالق لزيادة تسفيه المشركين، فقال الله خالق كل شىء وليس لما يشركونه مع الله خلق شىء حتى ولا ذبابة كما فى الآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤. وهو مهيمن على كل شىء يتولاه ويحفظه. ثم فصل ذلك بعض التفصيل فقال (له مقاليد).. إلخ. أى له وحده التصرف التام فى كل شىء من السموات والأرض ومافيهما. تنبه لذلك الموفقون فآمنوا. والذين كفروا بالأدلة التى بثها الله تعالى فى الكون وجاء بها القرآن دالة على وحدانيته سبحانه. هؤلاء هم الذين خسروا السعادة الخالدة. ولما كان كفار قريش لاينون فى العمل على صرفه ﷺ عن دعوته بكل حيلة. ومن ذلك أنهم قالوا له: اعبد آلهتنا يوما ونحن نعبد معك إلهك يوما... فرد الله سبحانه وتعالى عليهم أشد رد، قطع أطماعهم.. هنا وفى سورة (الكافرون) صفحة ٨٢٤. فقال هنا: قل أفغير الله.. إلخ. أى قل لهم أيها النبى تسفيهًا لعقولهم وقطعا لأطماعهم: هل تأمرونى أيها الجاهلون أن أعبد غير الله الذى لايصح أن يعبد غيره. ثم شدد فى التحذير وأعلمهم هم وكل مَنْ يأتى بعدهم أن دين الله عند كل رسول هو التوحيد، فقال: ولقد أوحى إليك أيها النبى وإلى الأنبياء من قبلك وحيا قلنا فيه لكل نبى والله لئن أشركت بالله غيره ليبطلن كل عمل عملته من الخير كصلة رحم وبر مسكين وبناء مصحة... إلخ. فتكون من الخاسرين لكل فائدة، انظر الآية (١٣) من سورة الشورى صفحتى ٦٣٩، ٦٤٠. فلا تعبد مايريدون بل اعبد الله وحده وكن من الشاكرين لفضله عليك. ثم بين سفههم وجهلهم بقوله (وماقدروا).. إلخ. أى وماعرفوا الله المعرفة اللائقة به والحال أن له قدرة باهرة من مظاهرها أن الأرض مقبوضة بيده يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه، والمراد يتصرف فيها كما يشاء. روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال: يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك. أين ملوك الأرض؛ انظر الآية (١٦) من سورة غافر صفحة ٦١٩، ثم علمنا سبحانه كيف ننزهه عما يزعم المشركون فقال سبحانه وتعالى عما يشركونه به من المعبودات الباطلة ثم ذكر شيئًا مما يدل على كمال قدرته من مقدمات يوم القيامة فقال: ﴿ونفخ فى الصور﴾ أى النفخة الأولى ﴿فصعق مَنْ فى السموات ومَنْ فى الأرض إلا من شاء الله﴾ ولم يصح حديث فى بيان مَنْ هؤلاء الذين شاء سبحانه بقاءهم.. وقيل: هم حملة العرش، وقال قتادة: لاندرى مَنْ هم، ثم نفخ فيه الثانية فإذا جميع الخلائق من عهد آدم قيام من قبورهم ينتظرون مايفعل بهم، وأشرقت الأرض بنور ربها.

وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ[١] وَجِاْىٓءَ[٢] بِٱلنَّبِيِّـۧنَ[٣] وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ
بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ
مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا[٤] وَقَالَ
لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ[٥]
رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ
حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ[٦] ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ
أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ[٧] فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾
وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا
جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا[٨] وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ[٩] عَلَيْكُمْ
طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ[١٠] ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى
صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ

المفردات: . ﴿الكتاب﴾: هنا.. الذى تسجل فيه أعمال كل عبد. انظر الآية (١٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، والآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨. والآية (١٢) من سورة يسٓ صفحة ٥٨٠، والآية (١١) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٦. ﴿النبيين والشهداء﴾: عطف الشهداء على النبيين من عطف العام على الخاص: لأن الشهداء فى هذا اليوم يكون منهم الأنبياء الذين يشهدون على أممهم أنهم بلغوهم. انظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧، والآية (٧٥) من سورة القصص صفحة ٥١٧؛ ومنهم المؤمنون من أمة محمد ﷺ. انظر الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨، ومنهم الحفظة من الملائكة. انظر الآيات (١٦٦) من سورة النساء صفحة ١٣١ و (٢١) من سورة ق صفحة ٦٩٠ و (١٠) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥؛

والجوارح، انظر الآية (٢٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢. ﴿زمرا﴾: جمع زُمْرة بضم فسكون، وهى الجماعة المتفقة فى المرتبة والمبادئ، والمراد: طوائف حسب ترتيب درجات كفرهم وجرائمهم. انظر الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨، والآية (٦٩) من سورة مريم صفحة ٤٠٣. ﴿ينذرونكم﴾: أى يحذرونكم. ﴿بلى﴾: أى نعم جاءوا. ﴿حقت﴾: أى ثبتت ووجبت. ﴿كلمة العذاب﴾: تقدمت فى الآية (١٩) من هذه السورة صفحة ٦٠٨. ﴿مثوى﴾: أى مكان يحتويهم، انظر الآية (٣٢) من هذه السورة صفحة ٦١٠.

﴿حتى إذا جاءوها وفتحت﴾... إلخ، جواب ﴿إذا﴾ مقدر بعد ﴿خالدين﴾ الآتية. والمراد: حتى إذا جاءوها حال كونها مفتحة أبوابها.. إلخ، فازوا بما لايحيط به الوصف. ولايخطر على

---

(١) الكتاب. (٢) جىء. (٣) بالنبيين. (٤) أبوابها. (٥) آيات.
(٦) الكافرين. (٧) خالدين. (٨) أبوابها. (٩) سلام. (١٠) خالدين

قلب بشر. ﴿وفتحت أبوابها﴾: الواو تدل على أن الجملة بعدها حال، انظر ﴿مفتحة لهم الأبواب﴾ فى الآية (٥٠) من سورة ص . ﴿طبتم﴾ أى طابت حالكم وحسنت.

﴿الأرض﴾: المراد: أرض الجنة. ﴿نتبوأ﴾: أى ننزل.

المعنى: . ووضع الكتاب فى يد كل مكلف فأصحاب السعادة يأخذونه بأيمانهم من أمامهم والأشقياء يأخذونه بشمالهم من وراء ظهورهم، انظر الآية (١٩) ومابعدها من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢ ومابعدها؛ والآية (٧) ومابعدها من سورة الانشقاق صفحة ٧٩٩ ومابعدها. وأحضر النبيون والشهداء وقضى بين جميع الخلائق بالحق لاينال أحدًا منهم ظلم.

ووفى الله تعالى كل نفس جزاء عملها بكل دقة؛ لأنه سبحانه يعلم كل أفعالها فلا يضيع على أحد مثقال ذرة.

وسيق الذين كفروا سوق عنف وإهانة إلى جهنم حال كونهم طوائف موزعة على أنواع أعمالهم شدة وأشد. فيطرح كل فوج فى الدرك اللائق به فى جهنم. حتى إذا وصلوا إلى جهنم فتحت الخزنة أبوابها، وكانت قبل ذلك مغلقة كأبواب السجون التى تغلق ولاتفتح إلا عند حضور أرباب الجرائم؛ وقالوا لهم تقريعًا وإظهارًا لعدل الله تعالى ألم يأتكم فى الدنيا رسل منكم تعرفونهم وتفهمون مايقولون وتلوا عليكم آيات ربكم الدالة على وحدانيته وقدرته، وخوفوكم من أن تلقوا العذاب فى يومكم هذا؟ قالوا نعم حصل كل هذا، ولكن سبقت علينا شقوتنا فوجب علينا وعيده الذى توعد به الكافرين، انظر الآية (١٠٦) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥، فتقول لهم الملائكة: ادخلوا أبواب جهنم عالمين بأنكم ستخلدون فيها. فبئس هذا المكان مكانا للمتكبرين على قبول الحق. وسيق الذين اتقوا .. إلخ. المراد من السوق هنا إسراع الملائكة بهم إلى دار الكرامة حبًا فى الإسراع بإدخال السرور عليهم كما يفعل حاشية الملوك بالوافدين على الملك المرضى منه عنهم فإنهم يستحثونهم على سرعة المقابلة لتعجيل سرورهم. وهم طوائف أيضًا، لكل طائفة منزلة فى الجنة. حتى إذا وصلوا الجنة والحال أن الملائكة كانت فاتحة أبوابها كأنها مسرورة بقدومهم. مهيأة لانتظارهم. وقال لهم خزنتها سلام من الله عليكم. طاب عيشكم فادخلوها موقنين بالخلود فى هذا النعيم العظيم. وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا أرض الجنة ننزل منها فى المكان الذى نشاؤه. ومن لطف الله بهم أن أحدهم لايريد منزلة فوق المنزلة التى اختارها الله له ويسره سرور إخوانه فى الجنة. انظر الآية (٤٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤١.

نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ[1] ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ[2] حَآفِّينَ
مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم
بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

(٤٠) سُورَةُ غَافِرٍ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَثَمَانُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ[3] ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ[4] مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾
غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِۖ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ[5] فِىٓ ءَايَٰتِ[6]
ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ[7] ﴿٤﴾
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ وَهَمَّتْ

المفردات: ﴿حافين﴾ : أى محيطين.

﴿العـرش﴾ : تقـدم الكلام عليـه فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١ .

﴿حم﴾ : تنطق هكذا: حا، ميم بكسر أوله وسكون ثانيه وآخره.

﴿العزيز﴾ : أى الغالب الذى لا يغلب.

﴿التوب﴾ : أى التوبة.

﴿ذى الطـول﴾ : ﴿ذى﴾ أى صـــاحب ﴿الطول﴾ أى الفضل والإحسان.

﴿تقلبـهم﴾ : أى تنقلهم للتجـارة وغيرها. انظر الآية (٤٦) من سـورة النحل صـفـحـة ٣٥١ .

﴿الأحزاب﴾ : المراد بهم: الذين تحزبوا على رسلهم، وأظهروا لهم العداوة.

كعاد وثمود وقوم فرعون انظر ما تقدم فى آيتى (١١، ١٣) من سورة ص صفحة ٥٩٨ .

المعنى :- بعد دخول المتقين الجنة وحمدهم ربهم يقول سبحانه تفخيمًا لنعيمهم لزيادة سرورهم: نعم أجر العاملين تلك الجنة.

وترى يا مَنْ يصح أن ترى فى ذلك اليوم الملائكة جميعًا محيطين بالعرش من كل جوانبه يتنعمون ويتلذذون بقولهم سبحان الله وبحمده، فثوابهم هو ذلك التسبيح المصاحب للحمد،

(١) العاملين. (٢) الملائكة . (٣) حا ميْم.
(٤) الكتاب. (٥) يجادل.
(٦) آيات. (٧) البلاد.

وقضى بين جميع الخلائق بالعدل، وقال جميع الناجين الحمد لله رب العالمين على هذا القضاء العادل.

أما الحمد الأول فهو على صدق وعده سبحانه فلا تكرار.

سورة غافر

﴿حم﴾ تقدم المراد من مثلها فى أول سورة البقرة. هذا القرآن منزل من الله الغالب القاهر فوق عباده.

واسع العلم بأحوال خلقه، وهو الذى يغفر ما سبق من ذنوب العباد.

ويقبل توبة مَنْ تاب. وهو شديد العقاب لمَنْ تمرد وطغى.

وهو المتفضل على عباده بما هم فيه من النعم التى لا تحصى لا إله إلا هو إليه مرجع جميع الخلائق.

وجمع سبحانه بين هذه الصفات ليبقى العبد بين الرجاء والخوف فلا ييأس ولا يهمل.

وبعدما بيَّن سبحانه هذه الحقائق الواضحة، أراد أن يبيِّن أنه لا يعارض فيها إلا جاحد، فقال سبحانه: (ما يجادل).. إلخ.

أى لا يخاض فى القرآن بالطعن فيه بقوله مرة إنه شعر، ومرة إنه سحر.. إلى غير ذلك، إلا الذين جحدوا النور الواضح كبرًا وعنادًا، فلا يغررك أيها النبى تنقلهم فى البلاد للتجارة وغيرها.

وما يحصلون عليه من المكاسب؛ لأن وراءهم يومًا عبوسًا أشار إليه بقوله كذبت قبلهم.. إلخ.

أى أنهم فعلوا مثل مَنْ سبقهم من قوم نوح وكل مَنْ تحزبوا على رسلهم. ومما فعلوه أن كل أمة منهم همت برسولها ليقتلوه... إلخ.

كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا بِالْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا
بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ
النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ
بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا
رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا
وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا
وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ
ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ
فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ

المفردات :. ﴿ليأخذوه﴾ : المراد : ليهلكوه.

انظر مثل ذلك فى الآية (٣٢) من سورة الرعد صفحة ٣٢٦ وآيتى (٢٦، ٣٠) من هذه السورة صفحتى ٦٢١، ٦٢٢.

﴿ليدحضوا﴾ : أى ليبطلوا، انظر الآية (٥٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٩.

﴿فأخذتهم﴾ : أى أهلكتهم.

﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا.. إلخ﴾:

﴿حقت﴾ أى وجبت، انظر الآية (٧١) من سورة الزمر صفحة ٦١٦ و﴿كلمة ربك﴾ هى الجملة المبينة فى الآية (٨٥) من سورة ص صفحة ٦٠٥، والمراد وعيده سبحانه وتعالى بإدخالهم جهنم.

﴿أنهم أصحاب النار﴾ : بيان لمضمون هذه الكلمة، وقد رجح الألوسى أنها تعليل أى لأنهم المستحقون للنار.

﴿يحملون العرش﴾ : تقدم ما ينبغى أن يفهم من هذا فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١.

---

(١) جادلوا.
(٢) بالباطل.
(٣) أصحاب.
(٤) آمنوا.
(٥) جنات.
(٦) آبائهم.
(٧) أزواجهم.
(٨) ذرياتهم.

﴿ويؤمنون به﴾ : صرح بذلك مع أنه مقطوع به لإظهار فضل الإيمان وشرف أهله. وأنه هو السبب فى عطف بعض المؤمنين على بعض مهما تخالفت الأجناس وتباعدت المسافات.

﴿وسعت كل شىء رحمة وعلما﴾: أصلها وسعت رحمتك وعلمك كل شىء، تقول العرب.

(طاب محمَّد نفسا) ويريدون (طابت نفس محمَّد) وذلك إذا أرادت المبالغة.

﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ : أى احفظهم منه بإبعاده عنهم.

﴿وقهم السيئات﴾ : المراد بالسيئات هنا: عقوبات الدنيا والآخرة فذكره بعد.

﴿عذاب الجحيم﴾ من ذكر العام بعد الخاص.

﴿مقت الله﴾ : أى بغضه سبحانه وكراهيته لكم.

﴿مقتكم أنفسكم﴾ : أى عندما تدركون أنها سبب مصائبكم، انظر الآية (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٣.

المعنى :. وهمَّت كل أمة من أمة قوم نوح والأحزاب برسولهم ليفتكوا به. وكانوا قبل ذلك جادلوه بالباطل ليبطلوا به الحق فأهلكتهم، فتأمل أيها العاقل على أى حال كان عقابى لهم. ألم أجعلهم عبرة للمعتبر؟ وبعد ما بيَّن سبحانه ما حل بهم فى الدنيا أراد أن يبيِّن ما سيلاقيهم فى الآخرة فقال (وكذلك).. إلخ.

أى كما ثبت إهلاك هؤلاء المتحزبين على رسلهم فى الدنيا أوجبنا إدخالهم النار فى الآخرة.

ثم أراد سبحانه أن يطمئن رسوله بأن الملائكة الذين فى المقام الأعلى مداومون على الدعاء للمؤمنين بما يسرهم فقال: (الذين يحملون).. إلخ: أى كبار الملائكة الذين يحملون عرش الرحمن.

والملائكة الذين يحفون به يقولون دائمًا سبحان الله وبحمده مع إيمانهم الكامل بإله واحد كإيمانك أيها النبى أنت ومَنْ معك ويستغفرون لمَنْ آمنوا مثلهم قائلين فى استغفارهم يا ربنا

وسعت رحمتك وعلمك كل مخلوق، تعلم أعمال المكلفين منهم ونياتهم. فاغفر للذين تابوا من الكفر والمعاصى واتبعوا دين الحق الذى أنزلته على رسلك، واحفظهم فى الآخرة من عذاب النار.

يا ربنا أجب دعاءنا السابق وأدخلهم جنات عدن أى إقامة طيبة التى وعدتهم بها هم ومَنْ صلح أى اتصف بالصلاح المسوغ لدخول الجنة من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم حتى يتم تنعمهم ويكمل سرورهم، انظر شرح الآية (٢٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥، والآية (٢١) من سورة الطور صفحتى ٦٩٧، ٦٩٨.

إنك يارب أنت العزيز الغالب الذى لا يعجزه شىء عما يريد. الحكيم الذى لا يفعل إلا الحكمة.

ومنها الوفاء بالوعد واحفظهم يارب من كل ما يسوءهم فى الدنيا والآخرة ومَنْ تحفظه من السيئات يوم المؤاخذة عليها فقد رحمته.

وذلك المذكور من الرحمة هو الفوز الذى ليس بعده فوز.

وبعدما بيَّن سبحانه أن الكفار سيدخلون النار أراد أن يبين أحوالهم بعد دخولهم النار فقال: (إن الذين كفروا).. إلخ.

أى الذين كفروا تناديهم الملائكة عندما يظهر منهم التضرر من أنفسهم التى قادتهم بشهواتها إلى الشقاء.

فتقول لهم: والله لمقت الله لكم أشد من مقتكم لأنفسكم. وكان بعض الصالحين إذا شعر بشهوات نفسه تدفعه إلى منكر يقول:

(والله ويلك يا نفسى من ليلة وضعى فى رمسى.. أى قبرى) نسأل الله السلامة.

المفردات :. ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ : إذا رجعت إلى ما تقدم فى بيان ما للعرب من أساليب مختلفة فى شرح الآية (٥٦) من سورة الدخان صفحة ٦٦٠ تعلم أن المراد

إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ[1] فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا
اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ
مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ
وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾
هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ[2] وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا
وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ
لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ[3] ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ[4]
ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ[5] لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ
مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ[6] الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾
الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ
اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ[7] إِذِ

هنا بالموتتين، الموتة المجازية وهم مازالوا ترابًا، والموتة الحقيقية التى تكون عند انتهاء الآجال.

وأما الحياتان، فالأولى وهم فى الرحم، والثانية، عند البعث من القبور يوم القيامة ويعد هذا القول اعتراف منهم فى هذا المقام الخطير بما كانوا ينكرونه فى الدنيا كما فى الآية (٢٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦. وإقرار الله سبحانه وتعالى هذا الاعتراف بموتتين أحدهما مجازية والأخرى حقيقية، مع ما تقدم من قوله تعالى فى المؤمنين.

﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ الآية (٥٦) من سورة الدخان صفحة ٦٦٠، وقد يكون هذا الإقرار مما حمل ابن كثير فى تفسيره على القول بأن عذاب القبر للروح فقط؛ لأنه لو عادت الروح إلى الجسد بعد الدفن وفارقته ثانيًا لكانت الموتات والإحياء ثلاث لا اثنتين فقط.

﴿إلى خروج﴾ : أى من جهنم، يريدون أى نوع من الخروج ولو بطيئًا، انظر الآية (١٠٧) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥، والآية (٣٧) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٦، ٥٧٧، والآية (٥٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٤.

﴿من سبيل﴾ : ﴿من﴾ لتأكيد العموم فيما بعدها، وسبيل: أى طريق. ﴿وإن يشرك به تؤمنوا﴾ : انظر الآية (١٠٦) من سورة يوسف صفحة ٣١٩، والآية (٤٥) من سورة الزمر صفحة ٦١٢. ﴿آياته﴾ : البراهين التى نشرها فى الكون دالة على كمال خالقها وتفرده.

---

(١) الإيمان. (٢) آياته. (٣) الكافرون. (٤) الدرجات.
(٥) بارزون . (٦) الواحد. (٧) الآزفة.

﴿رزقًا﴾ : المراد : مطرًا يكون سببًا لرزقكم. ﴿ينيب﴾ :أى يرجع إلى ربه ويترك العناد والكبر. ﴿رفيع الدرجات﴾ : أى ارتفعت درجات كماله حتى لا يظهر دونها كمال. ﴿ذو العرش﴾ : أى صاحب العرش العظيم.

﴿الروح﴾ : المراد بها هنا الوحى، انظر شرح الآية (٨٥) من سورة الإسراء صفحة٣٧٦. ﴿لينذر﴾ : أى يحذر ويخوف. ﴿يوم التلاق﴾ : أى يوم تلاقى الخلق بالخالق للحساب والجزاء، انظر الآية (١٥٤) من سورة الأنعام صفحة١٩٠.

﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت﴾: اليوم تجزى: أى تعلم، ومن هذا قول الرجل الذى صدر الحكم لصالحه بأخذ منزل مثلاً: اليوم أخذت المنزل. يريد: أى حُكم لى به، انظر الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٤، والمراد هنا: تعلم كل نفس يوم القيامة قضاء الله لها بجزاء ما عملت من خير أو شر، ثم تسوقهم الملائكة بعد ذلك كلٌ إلى دار جزائه من جنة أو نار، انظر الآيات من (٧٠) إلى (٧٣) من سورة الزمر صفحة ٦١٦.

﴿الآزفة﴾ : أى القريبة والمراد بها القيامة. من قولهم أزف الرحيل إذا قرب، انظر الآية (٥٧) من سورة النجم صفحة ٧٠٤، والآية (٧) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥.

المعنى :. يقال للكفار فى جهنم مقت الله لكم أشد لأنكم كنتم فى الدنيا يدعوكم رسل الله إلى الإيمان بإله واحد فتأبون وتشركون به. ثم ذكر سبحانه ما سيقولونه قطعا بعد ذلك فقال: قالوا ربنا.. إلخ. أى قالوا متضرعين يا ربنا خلقتنا أولاً ترابا. ثم بعد الحياة أمتنا عند انقضاء الآجال ونفخت فينا الروح مرتين، مرة فى الأرحام وأخرى عند البعث من القبور، واعترفوا بذلك هنا مقدمة لطلبهم الخروج من جهنم ولذا قالوا فاعترفنا بذنوبنا بإنكار البعث وغيره فهل تتفضل علينا بإرشادنا إلى طريق لخروجنا من النار ولو ببطء. انظر مرادهم فى الآية (١٢) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦، فيقال لهم كلا لن تخرجوا أبدا. ذلك العذاب الذى أنتم فيه بسبب أن حالكم فى الدنيا كان إذا عبد الله حال كونه منفردًا بالعبادة كفرتم أنتم وأشركتم به غيره. وإن يشرك معه غيره تؤمنوا بهذا الإشراك، انظر مثل هذا فى الآية (٤٥)

من سورة الزمر صفحة ٦١٢. فالحكم اليوم عليكم وعلى غيركم بما تستحقون لله العلى عن أن يشرك معه غيره.

﴿الكبير﴾ : أى العظيم سلطانه فلا يرد حكمه. وبعدما خوفهم به من المصير المظلم نبههم هم وغيرهم إلى دليل وحدانيته وعظمته فقال هو الذى يريكم آياته الدالة على جليل صنعه ثم خصص بعضها بالذكر لشدة حاجتهم إليها فقال (وينزل من السماء).. إلخ: أى ينزل مطرًا فيخرج به أرزاقكم .

وما يعتبر بذلك إلا مَنْ يرجع إلى ربه فيعرف بديع صنعه. وإذا كان الأمر كذلك فادعوا الله وحده مخلصين له العبادة. ولا تبالوا بكراهة المشركين لكم فسيكفيكم ربكم شرهم. ثم ذكر سبحانه بعد ذلك ثلاث صفات لنفسه تدل على أنه لا يصح معها أن نشرك معه غيره. فقال ﴿رفيع الدرجات﴾ ... إلخ.

أى هو سبحانه أرفع مما سواه قدرا؛ لأن كل ما سواه محتاج إليه، وهو مستغن عن الجميع. وأنه صاحب العرش العظيم يدبر ملكه وحده، وأنه هو الذى يلقى الوحى الذى هو سر من أسراره على مَنْ يختارهم من عباده لرسالته، لينذر الناس بيوم القيامة حتى لا يعملوا إلا صالحًا. يوم التلاق هو يوم يبرز إليه الخلائق لا يسترهم شىء. لا يخفى عليه من أعمالهم شىء كما فى الآية (١٨) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢.

ويقول سبحانه فى ذلك الحين لمَنْ الملك اليوم؟ فلا أحد يجيبه. فيجيب نفسه بقوله لله الواحد القهار لجميع الخلق بالموت، وبعدما بيَّن سبحانه صفات قهره وعظمته شرع فى بيان صفات عدله وفضله فقال اليوم تجزى كل نفس بما كسبت. لا ظلم اليوم. إن الله سريع الحساب، فيحاسب الجميع كما يحاسب نفسًا واحدة. ونظير ذلك فى الآية (٢٨) من سورة لقمان صفحة ٥٤٣، والآية (٥٠) من سورة القمر صفحة ٧٠٨. وبعدما بيَّن أن رسله ينذرون أممهم بيوم القيامة، أمر نبينا ﷺ بإنذار قومه فقال (وأنذرهم) ... إلخ: أى خوف قومك من يوم القيامة القريب حصوله... إلخ.

الجزء الرابع والعشرون

ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ[1] ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ[2] مِنْ حَمِيمٍ
وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى
ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن
دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾
۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ[3]
ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا[4]
فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ
مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ[5]
فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا[6] وَسُلْطَٰنٍ[7] مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَهَٰمَٰنَ[8] وَقَٰرُونَ[9] فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ[10] كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم
بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[11] مَعَهُۥ

المفردات :. ﴿القلوب لدى الحناجر﴾ : الحناجر جمع حنجرة وهى الحلقوم وهذا كناية عن شدة الخوف والتألم والضيق، انظر الآية (١٠) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٠.

﴿كاظمين﴾ : أصل الكظم الحبس والمراد: ممتلئة قلوبهم غمًا وكربًا، انظر أصل المعنى فى الآية (١٣٤) من سورة آل عمران صفحة ٨٤.

﴿حميم﴾ : الحميم شديد الشفقة من قريب أو صديق. انظر الآية (١٠١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦ والآية (١٠) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥.

﴿خائنة الأعين﴾ : المراد : الخائنة من الأعين. وهى التى تسترق النظر إلى ما نهى الله تعالى عنه.

---

(١) كاظمين.
(٢) للظالمين.
(٣) عاقبة.
(٤) آثارا .
(٥) بالبينات.
(٦) بآياتنا.
(٧) سلطان .
(٨) هامان .
(٩) قارون.
(١٠) ساحر.
(١١) آمنوا.

﴿واق﴾ : أى حافظ يقيهم الشر.

﴿بآياتنا وسلطان مبين﴾ .. إلخ: أى المعجزات والحجة الواضحة، كما تقدم فى الآية (٩٦) من سورة هود صفحة ٢٩٨.

﴿هامان﴾ : كبير وزراء فرعون.

﴿قارون﴾ : تقدم فى الآية (٧٦) من سورة القصص صفحتى ٥١٧، ٥١٨.

﴿قالوا اقتلوا﴾... إلخ : إذا رجعت إلى الآيات (٤) وما بعدها من سورة القصص صفحة ٥٠٦ تعلم أن المراد استمروا وانشطوا فى قتل أبناء ... إلخ.

المعنى :. وأنذر أيها الرسول مشركى قومك أهوال يوم القيامة حين يشتد كربهم ولايستطيعون منه خلاصًا.

وليس لهؤلاء الظالمين لأنفسهم وللحق مَنْ يعطف عليهم. وليس لهم شفيع مطلقًا فضلا عن كونه يطاع فالكلام من قبيل مَنْ يقول فى أهل بلد كلهم أميون (ليس فى هذا البلد عالم يسمع قوله) يريد ليس فيها عالم مطلقًا.

ولمَّا قال فيما سبق ﴿لا يخفى على الله منهم شىء﴾ أراد أن يبرهن على ذلك بقوله يعلم خائنة الأعين وكل ما تخفيه القلوب.

ومَنْ كان هذا شأنه لا يخطئ فى أحكامه، ولذا قال والله يقضى بالحق أى يحكم بالعدل.

أما معبوداتهم الباطلة فليس لها فى ذلك اليوم قضاء بشىء ولو حقيرًا.

لأنهم لا يعلمون شيئًا ولا يقدرون على شىء.. بل ليست لهم حقيقة كما اعترفوا هم بذلك فى الآية (٧٤) الآتية فى هذه السورة صفحة ٦٢٧.

وإنما اختص سبحانه بذلك لأنه هو وحده السميع لما تنطق به الألسنة البصير بكل ما تعمل به الجوارح. وبعدما حذرهم سبحانه عذاب الآخرة أراد أن يحذرهم أيضًا عذاب

الدنيا، فقال (أو لم يسيروا فى)... إلخ: أى هل غفلوا ولم يسيروا فى الأرض يوما فيروا كيف كانت عاقبة مَنْ كان مثلهم من الأمم الذين عملوا مثل عملهم، وقد كانوا أشد منهم بطشًا وأبقى آثارا، من قصور وحصون ومبان ضخمة كالأهرامات مثلا.

ثم بيَّن هذه العاقبة بقوله فأخذهم.. إلخ: أى فأهلكهم الله بسبب ذنوبهم. وما كان لهم من عذاب الله من حافظ يدفعه عنهم.

ثم بيَّن سبحانه بعض هذه الذنوب فقال: (ذلك بأنهم).. إلخ: أى ذلك العذاب الذى حل بهم بسبب أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالمعجزات والأحكام الواضحات فكفروا فأهلكهم الله؛ لأنه قوى لا يعجزه شىء أراده، شديد العقاب لمَنْ طغى وتجبر وعاند رسله.

وبعدما فرج سبحانه عن رسوله بذكر عاقبة الأمم الذين كذبوا رسلهم أراد سبحانه أن يذكر واحدة منها تخويفًا لقومه من أن يحل بهم ما حل بفرعون وقومه، فقال: ولقد أرسلنا موسى مصاحبا لمعجزات وبرهان واضح إلى فرعون ملك مصر وهامان وزيره وقارون أكثر أهل زمانه مالا فلمَّا بهرتهم حجته عمدوا إلى المغالطة وقالوا هو ساحر كذاب.

ثم جمعوا له كبار سحرة المملكة، ولمَّا تفوق عليهم، وآمن السحرة، لجأ فرعون ومَنْ معه من الرؤساء إلى القوة، انظر الآيات من (١٠٦) إلى (١٢٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٩ وما بعدها.

فى كل هذا قال سبحانه: فلما جاءهم بالحق من عندنا أى وعجزوا عن مقاومته قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه... إلخ.

المفردات :. ﴿فى ضلال﴾ : أى فى ضياع والمراد: لا يضر رسل الله سبحانه وتعالى.

﴿ذرونى﴾ : أى اتركونى.

﴿عذت بربى﴾ : أى تحصنت به تعالى.

وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥
وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ
أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦
وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ
لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ
فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ
وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ
كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ
ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ
ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ
أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ

﴿رجل مؤمن﴾ : هو المذكور فى الآية (٢٠) من سورة القصص صفحة ٥٠٩.

﴿يكتم إيمانه﴾ : المتأمل فى الآيات (٢٨) وما بعدها يدرك أن هذا الرجل بدأ كلامه على حذر إلا أنه عندما استرسل تجلت له الحقائق فتجرأ ولم يبال فانتقل من حالة الخوف إلى حالة الوثوق فقال:

﴿يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد﴾ الآية (٣٨) الآتية فى هذه السورة صفحة ٦٢٣، والآيات بعدها، وبالأخص الآية (٤٢).

﴿مسرف﴾ : أى متجاوز للحد.

﴿لكم الملك﴾ : أى أنكم انفردتم بحكم مصر فى هذا العصر. انظر الآية (٥١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢.

﴿ظاهرين فى الأرض﴾ : المراد : غالبين غيركم متحكمين فيه.

---

(١) الكافرين.
(٢) ضلال.
(٣) آل.
(٤) إيمانه.
(٥) بالبينات.
(٦) كاذبا.
(٧) يا قوم.
(٨) ظاهرين.
(٩) آمن.
(١٠) يا قوم.

﴿بأس الله﴾ : أى عذابه الشديد.

المعنى :. بعدما علمنا من الآيات (٤) وما بعدها من سورة القصص صفحة ٥٠٦ أن فرعون كان قبل ولادة موسى يذبح بنى إسرائيل ويستحيى نساءهم نعلم مما هنا أن هذه القسوة كانت قد توقفت أو خفت على الأقل لسبب ما ولكن لما جاء موسى بالرسالة كما هنا، أمر كبار قوم فرعون أتباعهم بإعادة تلك القسوة على بنى إسرائيل ثانيا ليضعفوا قوة موسى. فأبطل سبحانه تدبيرهم بقوله وما كيد الكافرين أى لرسل الله إلا فى ضياع وبطلان.

ولمَّا كان فرعون يعلم من صميم قلبه أن موسى صادق، انظر الآية (١٠٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨ والآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥..

ولكنه كان يخاف من ضياع ملكه، وكان يخشى أنه إن أمر بقتل موسى عاجله الله تعالى بالهلاك. أراد أن يموه على قومه بما يظهره بمظهر القوى الغيور على مصالحهم. فقال: اتركونى أنا أتولى قتل موسى بنفسى. وإن كان صادقا فليطلب من ربه أن يمنعه منى.

ثم أتقن التضليل بقوله لأنى أخاف أن يبدل دينكم، فجعله دينهم الذى يجب عليهم حمايته مع أن أساس هذا الدين هو عبادتهم له إن كان حاضرا، وعبادة تماثيله إن كان غائبًا، انظر شرح الآية (١٢٧) من سورة الأعراف صفحة ٢١١. أو أن يظهر فى أرض مصر الفساد بإخراجكم منها وإذلالكم، انظر الآية (١٢٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١١، والآية (٧٨) من سورة يونس صفحة ٢٧٨.

وبهذا استخف فرعون عقولهم، انظر الآية (٥٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢.

ومن هذا نعلم أن خروج فرعون وراء موسى كما فى الآية (٧٨) صفحة ٤١٣، لم يكن لقتله وإنما كان ليمنع خروج بنى إسرائيل الذين كان يستعملهم فى الأعمال الشاقة، الأمر الذى كان من أهم مقاصد رسالة موسى، انظر الآية (٤٧) من سورة طه صفحة ٤٠٩، وآيتى (١٦، ١٧) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٠، وأيضًا ليرد أموال المصريين التى حملها بنو إسرائيل معهم وصنعوا منها العجل، انظر شرح آيتى (٨٧، ٨٨) من سورة طه صفحة ٤١٤، وبعدما سمع

موسى عليه السلام من فرعون هذا التهديد صرخ فى وجوههم بأنه لا يلجأ إلا إلى الله تعالى فقال إنى استجرت بربى وربكم من شر كل مستكبر لا يذعن للحق ولا يؤمن بيوم يحاسب فيه الخلق عند ذلك قيض الله تعالى رجلا من آل فرعون أنفسهم يدافع عن موسى على أكمل وجه.

قال تعالى: (قال رجل).. إلخ: أى قال رجل منهم كان يخفى إيمانه خوفًا من طغيانهم هل يصح لكم أن تقتلوا رجلا لمجرد قوله ربى الله؟ وقد جاءكم بأدلة صدقه أيده بها ربكم الحق.

قال ابن عباس لم يكن فى آل فرعون مؤمن غير هذا الرجل وامرأة فرعون المذكورة فى الآية (١١) من سورة التحريم صفحة ٧٥٣.

وقال المؤمن: ولأى شىء تقتلونه مع أنه إن كان كاذبا فعليه وحده وبال كذبه أى يفتضح ويهان.

وإن كان صادقًا يصبكم على الأقل بعض الذى يعدكم به وهو عذاب الدنيا. وعلى الأكثر عذاب الآخرة. ثم أظهر لهم أنه يدلل على كلامه مع أنه يقصد التعريض بهم فقال: (إن الله لايهدى) .. إلخ: أى أن موسى إن كان مسرفًا فى الجراة على الله تعالى، كذابًا فى دعوى أنه سبحانه أرسله. فالله لا يهديه أبدًا ولا يؤيده بمعجزات.

ثم وعظهم مع شىء من التهديد فقال: (يا قوم).. إلخ: أى يا قوم لكم اليوم ملك مصر مسلطين على الناس بالرياسة والقوة، فلا تتعرضوا لعذاب الله بقتل موسى، لأنه لا ينقذنا أحد من عذاب الله إن جاءنا، ولمّا خاف فرعون من تأثير نصيحة الرجل سلك سبيل تضليله المعتاد فأراهم أنه أبعدهم نظرًا فقال: (ما أريكم).. إلخ: أى لا أشير عليكم إلا بما تحققت فائدته وهو قتل موسى. وما أدلكم إلا على طريق الصواب.

المفردات :. ﴿يوم الأحزاب﴾ : يوم اسم جنس بمعنى الأيام لأن لكل حزب يوما فالعذاب لم ينزل بها فى يوم واحد.

إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ
نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾
يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ
مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ
إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ
يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ
جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ
ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ

والمراد بالأيام الوقائع التى حلت بهم، انظر الآية (٥) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٠، والأحزاب هى الأمم الكافرة التى تحزبت على رسلها، انظر ما تقدم فى الآية (٥) من هذه السورة صفحتى ٦١٧، ٦١٨.

﴿مثل دأب﴾ : الدأب : العادة الدائمة والمراد: مثل عادتهم القبيحة.

﴿يوم التناد﴾ : أصله التنادى بمعنى النداء فالمفاعلة على غير بابها كما فى قوله تعالى فى الآية (٢٨٦) من سورة البقرة صفحة ٦٢ ﴿ربنا لا تؤاخذنا﴾ فالمؤاخذة بمعنى الأخذ بالعقاب، والمراد : يوم القيامة الذى تنادى فيه كل أمة برسولها، انظر الآية (٧١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤.

﴿تولون مدبرين﴾ : المراد : تهربون مسرعين لا تلتفون إلى الخلف خوفًا من العذاب فتساقون إليه سوقا، كما فى الآية (٧١) من سورة الزمر صفحة ٦١٦.

﴿بالبينات﴾ : الأمور الظاهرة الدالة على صدقه.

﴿فما زلتم فى شك﴾ : أى لم يخالط الإيمان به قلوبكم، وأظهرتم له أنكم مؤمنون، لأن السلطان والمال كان بيده.

﴿هلك﴾ : أى مات، كما فى الآية (١٧٦) من سورة النساء صفحتى ١٣٣، ١٣٤.

---

(١) ويا قوم. (٢) بالبينات. (٣) يجادلون. (٤) آيات. (٥) سلطان. (٦) أتاهم.
(٧) آمنوا. (٨) يا هامان. (٩) الأسباب. (١٠) أسباب. (١١) السموات.

﴿مسرف﴾ : أى مكثر من المعاصى.

﴿مرتاب﴾ : المراد: شاك فى دينه.

﴿الذين يجادلون﴾ : مبتدأ خبره ﴿كبر﴾ الآتية.

﴿سلطان﴾ : أى برهان.

(كبر مقتًا).. إلخ : ﴿كبر﴾ أى عظم واشتد، وهى تفيد معنى الذم كبئس. و ﴿مقتًا﴾ أى شدة الكراهية المستوجبة للبغض، والمراد: كبر مقت جدالهم أى المقت المترتب عليه.

﴿يطبع الله﴾ : أى يختم عقابا لهم، انظر الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤ .

﴿عقابا لهم﴾ : انظر شرح الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨.

﴿صرحًا﴾ : المراد به هنا البناء العالى، وانظر الآية (٥١٢) من سورة القصص صفحة ٥١٢.

﴿الأسباب﴾ : تقدم فى الآية (١٠) من سورة ص صفحة ٥٩٨.

﴿فأطلعَ﴾ : بفتح العين على أنه جواب ﴿لعل﴾ كما فى الآية (٤) من سورة عبس صفحة ٧٩١.

المعنى : . قال المؤمن يا قوم إنى أخاف عليكم من مثل المصائب التى حلت بالأمم السابقة التى تحزبت على رسلها وحاربتهم مثل جزاء الكفر الذى داوم عليه قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم كقوم لوط وشعيب. ولم يعاقبهم الله بغير ذنب بل لكفرهم وعنادهم؛ لأنه سبحانه لايريد ظلمًا لأحد. وبعدما حذرهم عذاب الدنيا أراد أن يحذرهم عذاب الآخرة فقال (ويا قوم).. إلخ: أى أخاف عليكم عذاب يوم القيامة الذى ينادى فيه على الخلائق للوقوف موقف الحساب يوم تولون مسرعين من الموقف إلى النار عندما تسوقكم ملائكة العذاب إليها كما تقدم فى صفحة ٦١٦، وليس لكم فى هذا اليوم عاصم يعصمكم من عذاب الله.

ثم نصحهم بأن يبتعدوا عن أسباب إضلال الله لهم لأنهم إذا لم يبتعدوا فلابد أن يضلهم. ومَنْ يضلله سبحانه فلن يستطيع مخلوق هدايته.

ثم نبههم إلى خطر التقليد الذى قد يكون هو المؤثر فيهم، فقال ولقد جاءكم يوسف .. إلخ: أى ولقد جاء آباءكم يوسف بن يعقوب من قبل موسى بنحو ٤٠٠ سنة بأدلة صادقة يدعوكم إلى طاعة الله وحده، فلم يلتفتوا لهذه الهداية.

وإنما قصروا طاعتهم على أمور الدنيا فى حفظ الأموال والأقوات، انظر شرح الآية (٥٥) من سورة يوسف صفحة ٣١١. ولأنه كان وزيرا لم يواجهوه بالتكذيب ولم يصرحوا بالتصديق. ولذا قال فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا مات يوسف قال أسلافكم لن يبعث الله من بعده مَنْ يدعى أنه رسول.

أى قطعوا بتكذيبه وتكذيب مَنْ يأتى بعده بدون برهان. ومثل هذا الإضلال الذى حل بكم يضل الله كل مسرف فى الجرائم شاك فيما لا يصح الشك فيه لوضوح دليله. ثم هددهم بغضب الله فقال (الذين يجادلون).. إلخ: أى الذين يجادلون فى البراهين التى نصبها الله قاطعة بالحق بدون أن يكون معهم دليل من الله على ما يزعمونه اشتد مقت الله والمؤمنين لهم على جدالهم بغير دليل بل لمجرد العناد والجمود على تقليد الآباء.

كهذا الختم الذى ختم الله على قلوب المعاندين حتى حرمهم الوصول للحق يختم الله على كل قلب متكبر على الحق جبار فى العصيان.

وبعد كل هذه المواعظ التى تلين الحديد عاد فرعون لتدجيله ثانيًا وقال لوزيره الأول: يا هامان ابن لى بناءً عاليًا لأبلغ به السلام التى توصل إلى السموات فأطلع إلى إله موسى.

وهذا تضليل منه واحتقار لعقول قومه واستخفاف بهم وذلك لأنه يعلم أنه ليس لإله موسى مكان، انظر الآية (٥٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٢.

وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَٰذِبًا[1] وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ
وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧)
وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ[2] يَٰقَوْمِ[3] ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٣٨)
يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ[4] ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ[5] وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ[6] هِيَ دَارُ
ٱلْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ
صَٰلِحًا[7] مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ
ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) * وَيَٰقَوْمِ[8] مَا لِيٓ
أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ[9] وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي
لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ
إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ[10] (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ
لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ[11] وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ
وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ[12] ٱلنَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ

المفردات: . ﴿تباب﴾ : أى خسران وضياع.

﴿الرشاد﴾ : هو ضد الغى والضلال. وهو الرشد المذكور فى الآية (٢٥٦) من سورة البقرة صفحتى ٥٣، ٥٤.

﴿متاع﴾ : أى متعة زائلة، انظر الآية (٣٦) من سورة الشورى صفحة ٦٤٤.

﴿ما لى أدعوكم﴾ : أى، أى شىء حصل يجعلنى أتعجب من أمركم؟

﴿لا جرم﴾ : المراد : حقا، انظر الآية (٢٢) من سورة هود صفحة ٢٨٧.

﴿ليس له دعوة﴾ : المراد : ليس فى قدرته أن يجيب دعاء مَنْ يدعوه، انظر الآية (١٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢٣، والآية (٥٠) الآتية فى هذه السورة صفحة ٦٢٤.

﴿المسرفين﴾ : أى فى المعاصى بالكفر والطغيان.

---

(١) كاذبا.
(٢) آمن.
(٣) يا قوم
(٤) الحياة.
(٥) متاع.
(٦) الآخرة .
(٧) صالحا.
(٨) يا قوم.
(٩) النجاة.
(١٠) الغفار.
(١١) الآخرة.
(١٢) أصحاب.

المعنى : . قال فرعون وإنى لأظن موسى كاذبًا فى أن له إلهًا غيرى. ومثل التزيين المستبشع فى الأذهان زين الشيطان لفرعون عمله السيئ من الكفر والعناد، وجعله فى نظره حسنًا. ومنعه عن سلوك طريق الحق بالاجتهاد فى الكيد لموسى وإبطال دعوته، ولكن وراء موسى إله قادر على إبطال كيد فرعون. ولذا قال وما كيد فرعون.. إلخ: أى وما احتيال فرعون لمحاربة دعوة موسى إلا فى ضياع. ولما رأى الرجل المؤمن تمادى فرعون فى تضليله أعاد النصح مرة أخرى، بأسلوب آخر شديد التأثير، فقال يا قوم.. إلخ: أى يا قومى اتبعوا نصيحتى وآمنوا أدلكم على طريق الصواب. يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متعة زائلة. وأن الآخرة هى دار الاستقرار والدوام. ثم بيَّن كيف يحصل الجزاء فى الآخرة لينتبهوا فقال مَنْ عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها.

كما تقدم فى الآية (١٦٠) من سورة الأنعام صفحة ١٩١. ومَنْ عمل عملاً صالحًا من ذكر أو أنثى والحال أنه مؤمن أى مصدق بالله وبرسله فهؤلاء يدخلون الجنة يرزقهم الله تعالى من نعيمها رزقًا واسعًا لا يمكن حصره. ويا قوم مالى.. إلخ.

أى أخبرونى كيف هذا الحال، أدعوكم إلى ما فيه نجاتكم من مهالك الدنيا والآخرة، وتدعوننى إلى ما يدخلنى النار. ثم فسَّر ما سبق بقوله تدعوننى لأكفر.. إلخ: أى بينما أنتم تدعوننى لأكفر بالله وأشرك معه فى العبادة معبودات ليس عندى علم بصحة ألوهيتها، أنا أدعوكم إلى مَنْ جمع صفات الألوهية الحقة، وهى العزة أى الغلبة والقهر لكل ما سواه، القادر على المجازاة على كل عمل، الغفار لمَنْ تاب ورجع إليه. قد ثبت عندى حقًا أن ما تدعوننى إلى عبادته ليس فى قدرته أن يجيب دعوة مَنْ يدعوه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة. فهو لا ينفع مَنْ يعظمه ولا يضر مَنْ يحتقره وثبت أيضًا أن مردنا بعد الموت إلى الله فيجازى كل عبد بما يستحق. وأن المسرفين فى العصيان بالكفر والطغيان هم أصحاب النار. ثم ختم نصيحته بكلمة فيها تحذير لعلهم يتفكرون فى عاقبة أمرهم فقال: فستذكرون ما أقول لكم ... إلخ.

لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾
فَوَقَىٰهُ[1] ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ[2] فِرْعَوْنَ سُوٓءُ
ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ
تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ[3] فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾
وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟[4] لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ
ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟
رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ
تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ[5] قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا
دُعَٰٓؤُا۟[6] ٱلْكَٰفِرِينَ[7] إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ[8] ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[9] فِى ٱلْحَيَوٰةِ[10] ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ[11] ﴿٥١﴾

المفردات : . ﴿حاق بآل فرعون﴾

﴿حاق﴾ أى نزل وأحاط بهم، وقد تقدم فى الآية (٤٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٣، والمراد من ﴿آل فرعون﴾ فرعون وقومه جميعًا وجميع مَنْ يتبعه.

يقول العربى يعجبنى من آل عمر صلاحهم يريد عمر وأهله، ومنه قوله ﷺ : نحن آل محمَّد لا تحل لنا الصدقة، يريد ﷺ هو وأهله.

﴿غدوا وعشيا﴾ : أى صباحا ومساء، من صباح ومساء أهل الدنيا، وأخرج ابن أبى شيبة وغيره أن هذا العرض للأرواح دون الأجساد التى تبلى وتأكلها الأرض، ففى الآية دليل على بقاء الأرواح، ويؤيده قوله سبحانه وتعالى ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم﴾... إلخ انظر آيتى (١٦٩، ١٧٠) من سورة آل عمران صفحة ٩١، وهذه الآية تدل بوضوح على عذاب البرزخ؛ لأن عذاب القيامة ذكر بعد ذلك فى قوله تعالى ﴿ويوم تقوم الساعة﴾.. إلخ.

﴿ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ : إذا رجعت إلى ما قلناه فى تفسير الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٤، تعلم أن المراد هنا أنه بعد حساب الخلائق يوم القيامة، يقول سبحانه للملائكة : أدخلوا فرعون وقومه أشد أنواع العذاب فى جهنم، فتسوقهم الملائكة إليها يتقدمهم فرعون كما فى قوله تعالى ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود﴾ انظر الآية (٩٨) من سورة هود صفحة ٢٩٩. وتقدير القول فى الكلام

(١) فوقاه. (٢) بآل. (٣) آل. (٤) الضعفاء. (٥) بالبينات. (٦) دعاء.
(٧) الكافرين. (٨) ضلال. (٩) آمنوا. (١٠) الحياة. (١١) الأشهاد.

الفصيح كثير، ومنه فى القرآن غير ما هنا، ففى قوله تعالى ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾ الآية (٤٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٠ المراد تقول الملائكة ادخلوا الجنة .. إلخ.

ومثل ذلك فى الآيات (١٠٦) من سورة آل عمران صفحة ٨٠، و (٣١) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤، و (٢٠) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٩، و (٣٦) من سورة المطففين صفحة ٧٩٨.

﴿الضعفاء﴾ : المراد بهم هنا: الأتباع ﴿للذين استكبروا﴾ : هم الرؤساء والكبراء والزعماء، انظر الآية (٣١) وما بعدها من سورة سبأ صفحة ٥٦٧، والآية (١٦٦) من سورة البقرة صفحة ٣٢.

﴿تبعا﴾ : أى أتباعا نفعل كما فعلتم. و ﴿تبعا﴾ من الجموع النادرة عند العرب. مفرده ﴿تابع﴾ كخدم جمع خادم. ﴿فهل أنتم مغنون﴾... إلخ : ﴿هل﴾ حرف استفهام يدل على أن المتكلم به يرغب فى حصول ما بعده، و ﴿مغنون﴾ من الغناء بفتح الغين. وهو النفع والإفادة، انظر الآية (٢٨) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣ و ﴿مغنون﴾ متضمن معنى ﴿مدافعين﴾، والمراد هل تنفعوننا دافعين عنا .. إلخ؟

﴿لخزنة جهنم﴾ : الخزنة جمع خازن، وهم الملائكة المكلفون بتعذيب أهل النار، انظر الآيات من (١٩ إلى ٢٢) من سورة الحج صفحة ٤٣٦، والآية (٧١) من هذه السورة صفحة ٦٢٧، والآية (٤٨) من سورة القمر صفحة ٧٠٨ وغير ذلك فى القرآن كثير، وانظر الآيات (٧١، ٧٣) من سورة الزمر صفحة ٦١٦، والآية (٨) من سورة الملك صفحة ٧٥٥. وكان أصل التركيب ﴿وقال الذين فى النار لخزنتها﴾ ولكنه سبحانه وضع الاسم الظاهر ﴿جهنم﴾ بدل الضمير لإلقاء الرعب فى قلوب الكافرين ليتعظوا فيخافوا هول ماهم قادمون عليه إذا استمروا على كفرهم، وذلك أن ﴿جهنم﴾ أخص من النار، فالنار تطلق على نار الدنيا، انظر الآية (١٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٦، ٤٠٧، والآية (٦٩) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧؛ كما تطلق على نار

الآخرة كما فى الآية (٤٦) السابقة، بخلاف جهنم فإنها لا تطلق إلا على مكان معد لأشد أنواع العذاب فى الآخرة، كما فى الآية (٤٦) السابقة، وكما فى قوله تعالى ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار﴾.. إلخ الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨.

﴿بلى﴾ : حرف جواب بمعنى ﴿نعم﴾ والمراد: نعم جاءتنا رسلنا، انظر الآية (٧١) من سورة الزمر صفحة ٦١٦.

﴿ضلال﴾ : أى ضياع لا يفيد شيئًا.

﴿الأشهاد﴾ : جمع شاهد كأصحاب وصاحب. أو شهيد كأشراف وشريف، وهم الملائكة الحفظة والأنبياء، كما تقدم فى الآية (١٨) من سورة هود صفحة ٢٨٦، وهم الشهداء فى الآية (٦٩) من سورة الزمر صفحتى ٦١٥، ٦١٦، وانظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧، ونقل ابن كثير عن مجاهد أن الأشهاد هم الملائكة الحفظة، انظر الآية (٢١) من سورة ق صفحة ٦٩٠، وآيتى (١٠، ١١) من سورة الانفطار صفحتى ٧٩٥، ٧٩٦.

المعنى :. ولما شعر الرجل المؤمن من آل فرعون أنهم نووا به شرا، ختم نصيحته بقوله فستذكرون ما أقول لكم، وأفوض أمرى إلى الله، أى ليحفظنى من كل سوء لأنه بصير بعباده فيعلم مَنْ هو على حق ومن هو على باطل؛ فوقاه الله مكرهم السيئ وأنجاه مع موسى وأحاط بفرعون وقومه العذاب السيئ وهو بعد الغرق فى البحر، تعذيبهم فى القبور بعرضهم على النار صباحا ومساء، ويقال لهم هذا مصيركم فى الآخرة، ليعيشوا فى شقاء وذعر دائم من هول ما سيلاقيهم ويوم تقوم القيامة يقول الله سبحانه للملائكة أدخلوا آل فرعون أشد أنواع العذاب. ثم بيَّن سبحانه ما سيحصل من أهل النار بعضهم مع بعض فقال: ﴿وإذ يتحاجون﴾.. . إلخ: أى واذكر أيها النبى لقومك حين يتخاصم أهل النار فيقول الأتباع المقلدون للرؤساء والقواد.: إنا كنا فى الدنيا تابعين لكم فيما طلبتم منا فزاد جاهكم وقوى نفوذكم فترجوكم اليوم أن تنفعونا بدفع شىء من العذاب عنا. فيقول الرؤساء: إنا نحن وأنتم الآن فى النار فكيف ندفع عنكم؟ ولو قدرنا لدفعنا عن أنفسنا. إن الله قد حكم بين العباد

فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، وقدر لكل منا عذابا لا يدفعه أحد عنه. ولمَّا يئس كل من الطرفين من الآخر لجئوا إلى خزنة جهنم من الملائكة وقالوا لهم: ادعوا ربكم أن يخفف عنا من العذاب ولو مقدار يوم من أيام الدنيا، فتقول الملائكة توبيخًا لهم هل أهملكم الله فى الدنيا. ولم تك تأتيكم رسلكم بالحجج والمعجزات الدالة على صدقهم؟ قالوا: نعم. جاءتنا الرسل بالبراهين ولكنا كذبنا ونرجو الصفح. قال لهم الخزنة : إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم فلن ينفعكم الدعاء، أما نحن فلا نفعل العبث.

ثم أيد الله سبحانه الملائكة بقوله وما دعاء الكافرين فى الآخرة إلا فى ضلال أى ضياع لافائدة منه.

وهذا فى دعاء الكافر يوم القيامة، أما فى الدنيا فقد يجاب لما يدعو به كما فى الاستسقاء الذى يطلب فيه نزول المطر ويساعده الإطلاق فى قوله تعالى ﴿أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه﴾.. إلخ الآية (٦٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٢، وأيضا إجابة إبليس عندما طلب من الله عز وجل البقاء إلى يوم القيامة، انظر آيتى (٣٦، ٣٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠، وانظر مع هذا شرح قوله تعالى : ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ الآية (٢٧) من سورة المائدة صفحة ١٤١.

وبعدما هدد سبحانه الكافرين بما سيكون قطعًا: شرع فى تطمين رسوله والمؤمنين فى الدنيا والآخرة، فقال: إنَّا لننصر رسلنا والذين آمنوا بهم فى الحياة الدنيا بالحجة والظفر بالأعداء وقتلهم والانتقام الشديد لهم، ولا منافاة بين ما هنا وبين قتل بنى إسرائيل لبعض رسلهم، انظر الآية (٨٧) من سورة البقرة صفحة ١٧؛ لأن المراد بالرسل هنا هم الرسل الذين أمرهم الله سبحانه بقتال من يحارب دعوتهم، ويعمل على إحباطها بحد السيف، وقد يخفى على العقول أن تتصور أن العزيز الحكيم يأمر رسله بقتال أعداء دعوتهم ثم لا ينصرهم، فالمقتول من رسل بنى إسرائيل هم الرسل الذين لم يكلفهم الله سبحانه وتعالى بالقتال؛ وقد ورد أن بنى إسرائيل لمَّا قتلوا نبى الله يحيى أهلك الله به منهم سبعين ألفا وخلد ذكره الحسن فى الخالدين. وننصرهم يوم القيامة، يوم يقوم بين يدى الله الشهود العدول على مَنْ كفر وعصى.

يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ[1] مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ
سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا[2] مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[3] ٱلْكِتَـٰبَ[4] ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى
ٱلْأَلْبَـٰبِ[5] ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ[6] ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُجَـٰدِلُونَ[7] فِىٓ ءَايَـٰتِ[8] ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ[9] أَتَىٰهُمْ[10] إِن فِى صُدُورِهِمْ
إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ[11] فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ[12] وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ
ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى
ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[13] وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ[14] وَلَا
ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ[15] لَّا رَيْبَ
فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ

المفردات :. ﴿الكتاب﴾ : المراد به هنا : ما يشمل التوراة والزبور والإنجيل.

﴿واستغفر لذنبك﴾ : انظر مع هذا الآية (١٩) من سورة محمد صفحة ٦٧٥، والآية (٢) من سورة الفتح صفحة ٦٧٨، والآية (٣) من سورة النصر صفحة ٨٢٥.

﴿العشى والإبكار﴾ : ﴿العشى﴾ من الظهر للغروب، ﴿الإبكار﴾ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى، انظر الآية (٤١) من سورة آل عمران صفحة ٦٩.

﴿بغير سلطان آتاهم﴾: السلطان هو الحجة والبرهان وتقييد بـ ﴿أتاهم﴾ لبيان أن الدليل لا يكون إلا من جهته تعالى فضلا عن استحالة وجود دليل عندهم فهم قوم يهرفون بما لا يعرفون.

﴿إن فى صدورهم﴾ : إن حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾. ﴿ماهم ببالغيه﴾ : الباء للنص على عموم نفى ما بعدها، والمراد : لن يبلغوا سبب كبرهم وهو الرئاسة والزعامة على غيرهم.

﴿قليلا ما تتذكرون﴾ : المراد : لا تتذكرون إلا لحظات قليلة جدا يرغمكم عليها سطوة الدليل أو قسوة الحوادث وسرعان ما تزول.

المعنى : . يوم يقوم الشهود هو يوم لا ينفع الظالمين لأنفسهم بالشرك بالله تعالى، انظر الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠، لا ينفعهم اعتذارهم إن اعتذروا، انظر الآية (٥٧) من

---

(١) الظالمين. (٢) آتينا. (٣) إسرائيل. (٤) الكتاب. (٥) الألباب. (٦) الإبكار.
(٧) يجادلون. (٨) آيات. (٩) سلطان . (١٠) أتاهم. (١١) ببالغيه. (١٢) السموات.
(١٣) آمنوا . (١٤) الصالحات. (١٥) لآتية.

سورة الروم صفحة ٥٣٨، ولهم اللعنة من الله والناس أجمعين فتبعدهم عن الرحمة، ولهم سوء الدار وهى جهنم، ولمَّا ذكر سبحانه أنه ينصر رسله والمؤمنين فى الدنيا والآخرة ذكر مثلا لذلك فقال: ولقد آتينا موسى.. إلخ: أى أعطينا موسى ما فيه الهداية من المعجزات والتوراة وأورثنا بنى إسرائيل من بعد موسى الكتب المقدسة حال كونها هادية ومذكرة لذوى العقول السليمة، فاصبر أيها النبى على إيذاء قومك، كما صبر موسى، وكن واثقا بنصر الله لك؛ لأن وعده حق، واستعن عليهم بما يقربك من الله وهو الاستغفار عما قد يكون فرط منك وممَّنْ تبعك من هفوات. وداوم على تسبيح ربك وحمده فى كل وقت خصوصا فى الصباح والمساء، ثم أراد سبحانه أن يبيِّن لرسوله والمؤمنين أن جدال الكفار لم يكن إلا عنادا وكبرا فقال ﴿إن الذين يجادلون﴾.. إلخ: أى إن الذين يخاصمونك أيها النبى فيما جئت به من عند ربك من الآيات بغير دليل لا يحملهم على ذلك إلا كبر وحب للرئاسة، ولكن يستحيل أن يصلوا إلى الباعث على هذا الكبر وهو الرئاسة. فالتجئ أيها النبى إلى الله ليحميك من كيد مَنْ يحسدك؛ لأنه سبحانه هو السميع لما تقول ويقولون. البصير بعملك وعملهم، فهو حافظك من كيدهم، ولمَّا كان مما جادلوا فيه البعث وقالوا إنه مستحيل بعد أن يصير الميت ترابا.. إلخ، ذكر هنا سبحانه برهانا على إمكانه فقال: ﴿لخلق السموات﴾.. إلخ: أى والله لخلق السموات والأرض ابتداءً من غير سبق مادة أعظم فى النفوس وأشد فى العادة عند الناس من خلق الناس مرة ثانية بعد أن خلقهم سبحانه أول مرة، انظر الآية (٣٣) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحجة، فهم كالأعمى، ومَنْ يعلمها كالبصير، وما يستوى الكافر الذى لا يتأمل حجة الله فصار كالأعمى، ولا المؤمن الذى يرى تلك الحجج فيعتبر بها فهو كالبصير الذى لا يضل الطريق فلا تتذكرون إلا قليلا؛ وكذلك لايستوى المؤمنون المطيعون مع العاصين المسيئين لأعمالهم؛ ثم هددهم سبحانه وتعالى بقوله ﴿إن الساعة لآتية﴾... إلخ : أى إن القيامة التى تنكرونها والله لحاصلة قطعًا ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بذلك لغلبة الغفلة عليهم واشتغالهم بحب الدنيا الذى حجب عقولهم.

ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
اللَّيْلَ[1] لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ
رَبُّكُمْ خَالِقُ[2] كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾
كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ[3] اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ
فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ[4] ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ
فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[5] ﴿٦٥﴾
* قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ[6] مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ

المفردات :. ﴿عبادتى﴾ : المراد : دعائى؛ لأن الدعاء خلاصة العبادة كما قال ﷺ الدعاء مخ العبادة. ﴿داخرين﴾ : المراد : أذلاء مهانين، انظر ما تقدم فى الآية (٤٨) من سورة النحل صفحة ٣٥١. ﴿مبصرا﴾: المراد: مضيئًا، كما تقدم فى الآية (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦. ﴿فأنى﴾ : أى فكيف. ﴿تؤفكون﴾ : أى تصرفكم الشياطين عن قبول الحق، انظر الآية (٧٥) من سورة المائدة صفحة ١٥٢، وانظر شرح الآية (٧٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣. ﴿يؤفك﴾ : الأصل (أفك) بالفعل الماضى لكنه جاء به بالصورة الدالة على الحال والاستقبال (الفعل المضارع) لاستحضار الصورة البشعة التى هم عليها. ﴿يجحدون﴾ : أى ينكرون الحق مع اعتقادهم به، انظر الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥. ﴿أن أُسلم﴾: أى أن أستسلم بانقياد وخضوع.

المعنى :. وبعدما أثبت سبحانه أن يوم القيامة لابد منه، طلب الاستعداد له بالتوبة إليه وحده، ثم هدد مَنْ لا يخضع له، وبيَّن شيئًا من أدلة تفرده بالملك فقال ﴿ادعونى﴾... إلخ والدعاء هنا هو العبادة بدليل ما بعده، ولمَّا كان الدعاء المعروف وهو طلب الحاجات من الله سبحانه هو خلاصة العبادة كما ورد فى حديث أنس عنه ﷺ، كان مرادًا أيضا، أما إجابة العبادة البدنية كالصلاة مثلا فهى الإثابة عليها. وأما إجابة الدعاء القولى إذا استوفى شروطه المشار إلى بعضها فى قوله تعالى ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ الآية (٢٧) من سورة المائدة صفحة ١٤١، فهى إثابة الداعى عليه أولاً، ثم إعطاؤه الأنفع له فى الدنيا والآخرة، ثم هدد

---

(١) الليل. (٢) خالق. (٣) بآيات. (٤) الطيبات. (٥) العالمين. (٦) البينات.

سبحانه مَنْ يعرض عن عبادته فقال ﴿إن الذين يستكبرون﴾... إلخ أى إن الذين يتعاظمون عن عبادتى وحدى سيدخلون جهنم صاغرين أذلاء. ثم ذكر ما يدل على مَنْ هو أحق بالتوجه إليه وحده فقال: ﴿الله﴾... إلخ: أى الله وحده هو الذى جعل لكم الليل لتستريحوا فيه، والنهار مضيئًا تبصرون فيه مصالحكم. إن الله وحده هو صاحب الفضل الكثير على الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرونه عليها لغفلتهم عن أنه مصدرها فكفروا به، انظر الآية (٣٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٥، ذلكم الذى جعل لكم ما سبق هو الله ربكم، وهو الخالق لكل شىء، لا إله إلا هو، فكيف تصرفكم الشياطين عن توحيده والخضوع له إلى مَنْ تدعونهم من دونه. ثم بيَّن سبحانه أن كفار مكة سلكوا طريق من كفر قبلهم. فقال ﴿كذلك﴾... إلخ: أى كما صرف الشيطان هؤلاء عن توحيد الله صرف الكفار قبلهم الذين كانوا يجحدون بآيات الله الدالة على وحدانيته كبرًا وعنادًا، وبعدما بيَّن سبحانه فضله المتعلق بالزمان أراد أن يبين فضله المتعلق بالمكان فقال: الله الذى جعل لكم الأرض مكان استقرار لتمشوا فى مسالكها لطلب الرزق. والسماء سقفًا محفوظًا كالبناء المتين، ثم انتقل لبيان فضله المتعلق بأنفسهم فقال ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ انظر الآية (٤) من سورة التين صفحة ٨١٣، ورزقكم مما تستطيبه نفوسكم التى لم تفسدها الخبائث. ذلكم الذى فعل كل ذلك هو وحده الله ربكم. وإذا كان الأمر كما ذكر فيجب أن ينزه سبحانه وهو رب العالمين عن كل نقص وشريك. هو وحده الحى الحياة الحقيقية التى لا نهاية لها، لا إله إلا هو فادعوه بكل ما يجوز أن تطلبوه منه سبحانه، حال كونكم مخلصين له الطاعة، انظر شيئًا من ذلك فى الآيات (١٩١) وما بعدها من سورة آل عمران صفحة ٩٥، وآيتى (٤٠، ٤١) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٦، حال كونكم قائلين الحمد لله رب العالمين الذى هدانا للصواب، انظر حكمة ذكر الحمد فى هذا المقام فى شرح الآية (٥٩) من سورة النمل صفحة ٥٠١. وبعدما أثبت سبحانه لنفسه صفات الجلال والكمال أمر نبيه أن يقطع أطماعهم فى ترك دينه بأسلوب لين لطيف فقال: ﴿قل إنى نهيت﴾.. إلخ: أى قل أيها النبى لكفار قومك إن البراهين المنتشرة فى الكون وآيات الله المنزلة نهتنى أن أعبد الذين تعبدونهم غير الله عندما جاءتنى تلك البينات. وأمرت أن أنقاد له تعالى لأنه هو وحده خالق العالمين ومربيهم بفضله ورحمته.

ٱلْعَٰلَمِينَ[1] ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ
ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ
لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟
أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ
فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ
تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ[2] فِىٓ ءَايَٰتِ[3] ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ[4] وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ[5] فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ[6] وَٱلسَّلَٰسِلُ[7]
يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾
ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟
ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ
يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ[8] ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ

المفردات : . ﴿طفلا﴾ : هذا اللفظ يطلق على الواحد، والأكثر، انظر ما تقدم فى الآية (٣١) من سورة النور صفحتى ٤٦١، ٤٦٢. ﴿أشدكم﴾ : المراد هنا: غاية نمو جسمكم واشتداد قوتكم، وغالبًا يكون ذلك عند بلوغ سن الخامسة والعشرين، انظر الآية (٢٢) من سورة يوسف صفحة ٣٠٥. ﴿ولتبلغوا﴾ : معطوف على خلقكم من تراب، واللام متعلقة بفعل مقدر بعدها تفيد الحصر كما سيأتى فى الشرح. ﴿أجلاً مسمى﴾ : أى وقتًا محددا لجمعكم هو يوم القيامة، انظر الآية (٩) من سورة التغابن صفحة ٧٤٦. ﴿كن فيكون﴾: المراد يحصل سريعًا، انظر شرح الآية (٨٢) من سورة يس صفحة ٥٨٦. ﴿أنى﴾ : أى كيف. ﴿إذ الأغلال﴾ : ﴿إذ﴾ أصلها ظرف يدل على الزمن الماضى، كما فى الآية (٨٤) من سورة الصافات صفحة ٥٩٢، واستعملت هنا استعمال ﴿إذا﴾ الدالة على الزمان المستقبل، كما فى قوله تعالى ﴿ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها﴾ للدلالة على تحقيق ما سيحصل كأنه حصل فعلا، و ﴿الأغلال﴾ جمع ﴿غُل﴾ بضم أوله، وهو الحديد الذى يوضع فى العنق. ﴿السلاسل﴾: هى الحديد الذى يوضع فى الأيدى والأرجل. ﴿الحميم﴾ : هو الماء الذى يغلى من شدة الحرارة. ﴿يسجرون﴾ : يقول العربى سجرت التنور أى ملأته نارًا، انظر الآية (٤٠) من سورة هود صفحة ٢٩٠، والمعنى تملأ بطونهم نارًا، انظر آيتى (٦، ٧) من سورة الهمزة صفحة ٨٢١. ﴿ضلوا عنا﴾ : أى غابوا عنا، ولم ينفعونا فى وقت الشدة. ﴿بل﴾: حرف يدل على الانتقال من غرض فى الكلام إلى غرض آخر. ﴿لم نكن ندعو من قبل شيئا﴾: يريدون أن آلهتهم كانت

(١) العالمين. (٢) يجادلون. (٣) آيات. (٤) بالكتاب.
(٥) الأغلال. (٦) أعناقهم. (٧) السلاسل. (٨) الكافرين.

مجرد أوهام لا حقيقة لها. ﴿تفرحون﴾.. إلخ : المراد : تفرحون بمتاع الدنيا بما لا يصح أن يكون منشأ فرح، حتى نسيتم أهوال الآخرة فتجرأتم على المعاصى، انظر الآية (٧٦) من سورة القصص صفحتى ٥١٧، ٥١٨ والآية (٨٣) صفحة ٦٢٩.

المعنى :. ومن أدلة تفرده سبحانه ما تشاهدونه فى أنفسكم أنه بدأ خلقكم من عناصر أهمها التراب، ثم خلق النطفة من التراب بعد تحويله إلى غذاء فدم ثم علقة كما تقدم فى صفحة ٤٤٦، ثم يخرجكم من بطون أمهاتكم حال كونكم أطفالاً، ثم يبقيكم لتبلغوا غاية نمو الجسم والعقل، ثم لتكونوا بعد ذلك شيوخًا، والشيخوخة تبدأ من ٥١ سنة إلى نهاية العمر، انظر الآية (٧٢) من سورة هود صفحة ٢٩٥، ومنكم مَنْ يتوفى من قبل الأشد أو الشيخوخة، ومنكم مَنْ يرد إلى أرذل العمر، وما فعل سبحانه كل ذلك بكم للعب أو لهو وإنما فعله لتعبدوه ولتبلغوا بعد ذلك يوم جزائكم، وهو يوم القيامة ولتعقلوا ما فى التنقل بكم من حال إلى حال من أدلة قدرته سبحانه. ومن أدلة قدرته وتفرده أيضا أنه هو وحده الذى يحيى مَنْ يشاء أول مرة كما تقدم، ويوم البعث. ويميت مَنْ يشاء عند انتهاء أجله وليس شىء من ذلك يشق عليه لأنه سبحانه إذا قضى إيجاد أمر من الأمور حصل فى طرفة عين من غير أن يستعين بغيره، ثم أراد سبحانه أن يجعل الناس يتعجبون من أحوال الكفار الشنيعة بعد كل تلك الأدلة فقال ﴿ألم تر﴾.. إلخ : أى انظر واعجب أيها السامع إلى هؤلاء الكفار الذين يجادلون بالباطل فى آيات الله الواضحة الدالة على الإيمان به وحده وتعجب كيف يصرفهم الشيطان عن التأمل فيها. ثم بيَّن صفاتهم مع تهديدهم فقال ﴿الذين كذبوا﴾.. إلخ : أى هم الذين كذبوا بالقرآن وبجميع ما أرسلنا به رسلنا من التوحيد والبعث، فسوف يعلمون حقيقة ما أخبرناهم به حين توضع الأغلال فى أعناقهم والسلاسل فى أيديهم وأرجلهم يسحبون بها ﴿فى الحميم﴾، ثم تملأ بطونهم نارا وهم فى وسط النار، أى تعمهم النار ظاهرا وباطنا، ثم تقول لهم الملائكة توبيخًا أين آلهتكم التى كنتم تشركونها مع الله من غير إفراد الله بالعبادة، لمَ لمْ ينقذوكم من العذاب؟ فيقولون غابوا الآن عنا وتركونا فى البلاء، لا، بل الحق أننا ما كنا ندعو فى الدنيا شيئًا لأنهم كانوا كالعدم، وكما أضل سبحانه أعمال هؤلاء المشركين بإبطالها وعدم نفعها يضل أعمال كل كافر، انظر الآية (١) من سورة محمَّد صفحة ٦٧٢، ثم يقال لهم ذلكم الذى أنتم فيه من العذاب بسبب فرحكم فى الدنيا بارتكابكم المعاصى.

فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا
أَبْوَابَ(١) جَهَنَّمَ خَالِدِينَ(٢) فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾
فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ
أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن
قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ
عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ(٣) إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا
جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾
اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ(٤) لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ(٥) وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً
فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ
آيَاتِهِ(٦) فَأَيَّ آيَاتِ(٧) اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا
فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ(٨) الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

المفرادت : . ﴿فى الأرض بغير الحق﴾ : مرتبط بالفرح المتقدم، وهو فرح مذموم؛ والمراد : تفرحون بالإقدام على الباطل والجرائم المنكرة وتظنون أن ذلك من علامات القوة والعظمة، وهذا كما ذكرنا هو الفرح المذموم، انظر الآيات (١٢٠) من سورة آل عمران صفحتى ٨٢، ٨٣ و (١٨٨) من نفس السورة صفحة ٩٤، و (٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩ و (٥٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٩ و (٨١) من نفس السورة صفحة ٢٥٥ و (١٠) من سورة هود صفحة ٢٨٥ و (٥٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٠ و (٧٦) من سورة القصص صفحتى ٥١٧، ٥١٨ و (٨٣) الآتية فى هذه السورة صفحة ٦٢٩، وهناك فرح محمود وهو فرح المؤمن بكل ما يرضى ربه، انظر الآيات (١٧٠) من سورة آل عمران صفحة ٩١ و (٥٨) من سورة يونس صفحة ٢٧٥ و (٣٦) من سورة الرعد صفحة ٣٢٧ و (٤) من سورة الروم صفحة ٥٣١. ﴿تمرحون﴾ : أى تختالون وتتفاخرون على الناس، انظر الآية (٣٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩. ﴿بئس﴾ : أى قبح. ﴿مثوى﴾ : أى مكان إقامة. ﴿فإما نرينك﴾ : الأصل فإن ما نريك، والنون الثانية تفيد توكيد الرؤية. ﴿بآية﴾ : المراد بها هنا : المعجزة.

﴿الأنعام﴾ : اختار العلماء أن المراد بها هنا الإبل فقط؛ لأن المزايا الآتية لا توجد إلا فيها. ﴿الفلك﴾: السفن. ﴿آياته﴾ : أى براهينه الدالة على كمال قدرته سبحانه وتفرده بالتصرف فى الكون كله.

---

(١) أبواب. (٢) خالدين. (٣) بآية. (٤) الأنعام .
(٥) منافع . (٦) آياته . (٧) آيات. (٨) عاقبة.

المعنى : . ما حصل لكم من العذاب بسبب أنكم كنتم فى الدنيا تفرحون بما لا يصح الفرح به وهى المعاصى، ومن علامات الفجر الفاضح أن يفتخر الشخص بأنه قتل أو سرق، أما المؤمن فإنه يحزن إذا فلت منه ذنب، وبما كنتم تختالون وتتطاولون على الناس. ويقال لهم يوم القيامة ادخلوا أبواب جهنم المبينة فى الآية (٤٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤١ موقنين بالخلود فيها فبئست جهنم محل إقامة للمتكبرين عن قبول الحق. ثم خفف سبحانه عن نبيه ﷺ ألمه من عدم إيمانهم به بأنه سينتقم منهم فى الدنيا أيضًا فقال : ﴿فاصبر إن وعد الله﴾ أى بتعذيبهم ﴿حق﴾ أى لابد من وقوعه. فإن أريناك بعض الذى نعدهم به من عذاب الدنيا فالأمر ظاهر، وإن توفيناك قبل ذلك فإلينا يرجعون يوم القيامة فننتقم منهم أشد انتقام، ولما كان من ضروب عنادهم أنهم اقترحوا معجزات معينة غير القرآن الذى أعجزهم، كما فى الآية (٩٠) وما بعدها من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦، وكان سبحانه يعلم أنهم مهما جاءتهم المعجزات فلن يؤمنوا لأنهم متعنتون كما فى الآية (٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣ و (١١١) من نفس السورة صفحة ١٨١، لما كان كل هذا أراد سبحانه أن يصرف عن رسوله ألمه منهم فقال ﴿ولقد أرسلنا﴾... إلخ: أى لقد أرسلنا رسلاً من قبلك إلى أممهم، منهم مَنْ قصصنا عليك حاله وحال قومه معه، وهم ٢٣ منهم ١٨ فى الآية (٨٣) وما بعدها من سورة الأنعام صفحة ١٧٥ وما بعدها، والباقى إدريس. هود. شعيب. صالح. ذو الكفل. ومنهم مَنْ لم نقصص عليك خبرهم، وليس واحد منهم إلا أعطاه الله تعالى معجزات، وليس واحد منهم إلا وجادله قومه وكذبوه، فصبروا، فاصبر كما صبروا. وأعلم أنه ما كان لرسول من رسل الله مطلقا أن يأتى بمعجزة إلا بإذن الله الذى يعلم المناسب منها لحال كل رسول، فانتظر قضاء الله فيهم فإنه إن جاء أمره بنزول العذاب بهم قضى بينهم وبينك ومَنْ معك بالحق. وهو نجاة المؤمنين وخسران المبطلين. ثم رجع سبحانه إلى ذكر أدلة تفرده وتفضله فقال ﴿الله الذى﴾.. إلخ: أى الله وحده هو الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا بعضها، وتأكلوا بعضها ولكم فيها غير ذلك منافع من جلودها وأوبارها ولبنها ونتاجها ولتبلغوا عليها حاجاتكم التى تهتمون بها كحمل الأثقال من بلد إلى بلد بعيد، وكما حملكم عليها فى البر حملكم على السفن فى البحر، يريكم سبحانه كل يوم دلائل وحدانيته وكمال قدرته، ثم وبخهم على إنكار أقل آية منها فقال ﴿فأى آيات الله﴾... إلخ. أى فأى آية من آياته تعالى تنكرونها؟ أى مستحيل عليكم ذلك بدليل ما فى الآية (٦١) وما بعدها من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩، ثم وبخهم على إهمالهم التأمل فقال: ﴿أفلم يسيروا﴾... إلخ : أى هل عجزوا فلم يسيروا فى أنحاء الأرض فيتأملوا على أى حال كانت عاقبة الذين كفروا مثلهم من الأمم الماضية.

كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ
أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ
يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ
خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

(٤١) سُورَةُ فُصِّلَتْ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا أَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ

المفردات : . ﴿آثارًا فى الأرض﴾ : أى من مبان، وحصون، وغيرها. انظر الآيات (٨٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣ و (١٨، ١٢٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٧.

﴿فرحوا بما عندهم﴾ : أى من العلم، انظر شرح آيتى (٧٦، ٧٨) من سورة القصص صفحتى ٥١٧، ٥١٨ والآية (٧٥) الماضية فى هذه السورة.

﴿حاق﴾ : أى نزل وأحاط بهم، كما تقدم فى الآية (٤٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٣.

﴿بأسنا﴾ : المراد : عذابنا الشديد.

﴿فلم يك ينفعهم﴾.. إلخ : أى عند مشاهدة الهلاك؛ لأنه اضطرارى لا اختيارى. انظر الآيات (١٥٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٩٠، ١٩١ و (٩٠، ٩١) من سورة يونس صفحة ٢٨٠ و (٥٥) وما بعدها من سورة الزمر صفحة ٦١٤

سورة فصلت

﴿حم﴾ : تنطق هكذا حا ميم بكسر الميم الأولى وسكون الياء والميم الثانية.

﴿تنزيل﴾ : المراد : هذا القرآن منزل.. إلخ.

﴿الرحمن الرحيم﴾ : تقدم بيانهما فى سورة الفاتحة، وانظر الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧.

---

(١) آثارا. (٢) بالبينات. (٣) آمنا. (٤) إيمانهم. (٥) سنة. (٦) الكافرون.
(٧) حا ميْمْ بكسر الميم الأولى وسكون الياء والميم الثانية. (٨) كتاب.

المعنى : . كان اللائق بهم وهم يسيرون فى الأرض للتجارة وغيرها أن يتأملوا فيما فعل الله فى الكفار قبلهم مع أنهم كانوا أكثر عددا وأشد قوة وأقوى وأثبت آثارا .. فى الأرض ومع كل هذا لم يغن عنهم فى دفع العذاب ما كانوا يعملونه.

أى فيجب أن يعتبر هؤلاء بهم ويعلموا أنهم لو استمروا على معصية الرسول سيحصل لهم نظير ما حصل لمَنْ قبلهم، وأن عاقبة الكثرة والقوة كانت عكس ما كانوا يرجون منها، ثم فصَّل بعض ما أجمل فيما سبق فقال: ﴿فلما جاءتهم رسلهم﴾ .. إلخ : أى فلما جاء هذه الأمم رسلهم الذين أرسلهم الله لإنقاذهم من الهلاك بالمعجزات والأدلة الظاهرة أعرضوا عنهم لأنهم فرحوا بما عندهم من العلم بتدبير أمور الدنيا وطرق تحصيلها، انظر الآية (٧) من سورة الروم صفحة ٥٣١، ولهذا لمَّا جاءهم الرسل بعلوم الديانة والأخلاق وهى تحث على المكارم، وتزهد فى الانهماك فى التمتع بملاذ الحياة لم يلتفتوا إليها واستهزأوا بها معتقدين أنه لا علم أنفع وأجلب للفوائد من علومهم، عند ذلك نزل بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به إذا قيل لهم أنه سيصيبكم إذا تماديتم.

ثم بيَّن أنهم لم يؤمنوا إلا عند اليأس فلم ينفعهم فقال ﴿فلما رأوا بأسنا﴾ ... إلخ: أى فلما رأوا مقدمات عذابنا الشديد قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا بسببه مشركين مع الله غيره، فلم يك ينفعهم إيمانهم الذى حصل منهم حين مشاهدة العذاب. سن الله ذلك سنة أى أجراهم على عادته فى معاملة الأمم الماضية وهى أن لا ينفعهم الإيمان إلا فى وقت الرخاء، وبهذا خسر هؤلاء الكافرون كل خير فى ذلك الوقت.

﴿سورة فصلت﴾

﴿حم﴾ تقدم المراد بمثلها فى أول سورة البقرة.

هذا القرآن مُنَزَّل من الرحمن الرحيم بخلقه حيث رسم لهم فيه طريق سعادتهم فى الدارين وهو كتاب فصلت آياته.

فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾
بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾
وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا
وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾
قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ
وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ
فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ
أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ

المفردات: ﴿قرآنا عربيا﴾: قرآنًا بمعنى مقروء، حال من كتاب و﴿عربيا﴾ صفة له. أى حال كون الكتاب مقروءًا بلسان العرب، الذى هو لسان رسولهم، للحكمة المبينة فى شرح الآية (٣٧) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٧، ٣٢٨، والآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩ .

﴿لقوم يعلمون﴾: متعلق بقوله ﴿فصلت﴾.

﴿أكنة﴾: أى أغطية، كما تقدم فى الآية (٢٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٥، ١٦٦ .

﴿وقر﴾: أى صمم.

﴿حجاب﴾: أى ساتر يحول بيننا وبينك حتى كأننا لا نرى شخصك من شدة كراهيتنا لك.

﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى..﴾ إلخ: تقدم فى الآية (١٠٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٢ .

﴿فاستقيموا إليه﴾: المراد: استقيموا فى أفعالكم متوجهين إليه وحده لا تقصدون معه غيره.

﴿ويل﴾: أى هلاك.

﴿الزكاة﴾: انظر ما تقدم فى الآية (٤) من سورة لقمان صفحة ٥٣٩ .

(١) آياته. (٢) قرآنا. (٣) آذاننا (٤) عاملون
(٥) واحد (٦) الزكاة (٧) بالآخرة (٨) كافرون
(٩) آمنوا (١٠) الصالحات (١١) العالمين (١٢) رواسى
(١٣) بارك (١٤) أقواتها

﴿غير ممنون﴾: تقول العرب مننت الحبل أى قطعته، فالمراد غير مقطوع، أى دائم، انظر الآية (٣٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤ . ﴿أئنكم﴾: الهمزة الأولى لإنكار كفرهم والتشنيع عليهم به. ﴿يومين﴾: المراد فترتين من الزمن لا يعلمها إلا اللّٰه تعالى، انظر ما تقدم فى شرح الآية (٥٩) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٧ .

﴿أندادا﴾: جمع ﴿ند﴾ بكسر النون، بمعنى مثيل. ﴿رواسى﴾: أى جبال ثوابت.

﴿من فوقها﴾: المراد: أن أكثر الجبال امتد ارتفاعه عن سطح الأرض حتى شاهدوه وانتفعوا بما فيه من المعادن والاستدلال على الطرق، وإلا فأصول الجبال غائصة فى أعماق الأرض.

﴿فى أربعة أيام﴾: المراد: فى بقية أربعة أيام، قال ابن الأنبارى: يقول العرب خرجت من صنعاء إلى مكة فى عشرين يوما، وإلى المدينة فى ثلاثين يوما، يريد ثلاثين يوما من خروجى من صنعاء إلى المدينة.

﴿سواء﴾: مصدر بمعنى استواء منصوب بفعل مقدر، والأصل: استوت تلك الأيام استواء تاما فلا تفاوت بينها فى أقل من لحظة. وهذا دليل منتهى الدقة فى التقدير.

﴿للسائلين﴾: متعلق ﴿بقَدَّر﴾ والسائلين المراد بهم الطالبون للرزق بالسعى فى الأرض، انظر الآية (١٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٥ .

﴿استوى إلى السماء﴾:المراد: توجهت إرادته سبحانه إلى السماء، كما تقدم فى الآية (٢٩) من سورة البقرة صفحة ٧.

المعنى:. هذا القرآن كتاب فصلت آياته، أى تميز بعضها عن بعض لفظًا ومعنى وزمنا. ففى اللفظ بالفواصل التى حددت الآيات. وفى المعنى فبعضها فى وصف ذاته تعالى بكمال العلم والحكمة والرحمة والقدرة على إيجاد عجائب الحيوان والنبات. وبعضها فى وعد المتقين بالنعيم ووعيد العصاة بالعذاب. وبعضها فى قص أحوال الماضين. وبعضها فى أحكام مختلفة عليها سعادة البشر. وبعضها مواعظ وتهذيب للأخلاق. قال بعض العلماء: كل منصف يجزم بأنه لم يوجد من بدء الخلق إلى قيام الساعة كتاب جمع من العلوم المختلفة مثل ما فى القرآن. وفُصلت فى الزمن فنزل على فترات حسب الحاجة، انظر شرح الآية (١٠٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٩، والآية (٣٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤ . فصلت آياته حال كونه

مقروءًا بلسان عربى واضح لينتفع به كل مَنْ يعلم معانيه حق العلم. وحال كون هذا الكتاب مبشرًا مَنْ آمن واتقى بالجنة. ومنذرًا ومحذرًا مَنْ كفر وعصى بالعذاب. ومع تفصيل آيات هذا القرآن على هذا الوجه فقد أعرض عنه أكثر الناس، وهم مرضى القلوب، فهم لا يسمعونه سماع قبول. وقال زعماء الكفر فى عهده ﷺ تبجحًا وإصرارًا على العناد: قلوبنا فى أغطية لايصل إليها معنى ما تريد، كما قال أمثالهم فى الآية (٨٨) من سورة البقرة صفحة ١٧، وفى آذاننا صمم لا يصل إليها صوتك، ثم بالغوا فى النفور والبعد أكثر فقالوا ومن بيننا وبينك حجاب يكاد يحجب عنا حتى شخصك فاعمل على دينك إنا مستمرون على العمل بديننا. أى لا تطمع فى تحويلنا. عند ذلك أمر سبحانه نبيه أن يخبرهم بأنه لا يجبر أحدًا على الإيمان، وإنما وظيفته أنه مبلِّغ عن الله تعالى فقال: (قل إنما)... إلخ. أى قل لهم ما أنا إلا بشر مثلكم أوحى الله إليَّ أن أبلغكم أنه ليس لكم إلا إله واحد فاستقيموا فى كل أعمالكم حال كونكم متوجهين إليه وحده. واطلبوا مغفرته مما أنتم عليه. ثم هدد بقوله ﴿وويل للمشركين﴾ أى هلاك عظيم لهم من شدة جهلهم بحق ربهم. الجهل الذى قسى قلوبهم على الفقراء فلا يؤتون زكاة، وما جرأهم على ذلك إلا كفر أيضًا بالآخرة. انظر الآية أو ما بعدها من سورة الماعون صفحة ٨٢٣ .

ثم بين جزاء المؤمنين فقال: إن الذين آمنوا.. أى بكل ما يجب الإيمان به وعملوا الصالحات لهم أجر عملهم فى الجنة نعيم غير مقطوع.

وبعدما هدد الكافرين وبين فضل المؤمنين أراد أن ينبههم إلى ما يدل على كمال قدرته سبحانه حتى لا يشركوا به غيره. ولا ينكروا قدرته على البعث فقال: (قل أئنكم).. إلخ. أى قل لهم مُنكرًا عليهم عملهم والله إنكم لتكفرون بالإله الحق الذى خلق وحده الأرض فى يومين وتجعلون له نظائر فى استحقاق العبادة مع أنه وحده هو رب العالمين وليس لآلهتكم دخل فى شىء منها.

والله وحده هو الذى جعل فى الأرض جبالا ثابتات ظاهرة أطرافها من فوقها لمنافعكم من خزن المياه والمعادن وغير ذلك. وجعلها أى الأرض مباركة كثيرة الخيرات بالشجر والزرع والثمار، وقدر فيها أرزاق أهلها فى يومين آخرين فصارت الجملة أربعة أيام كاملات متساويات. وصار كل شىء فيها معدا للطالبين له بلسان حالهم بالسعى أو بلسان مقالهم بالدعاء. ثم توجهت إرادته سبحانه إلى السماء... إلخ.

إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا
أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ[1] سَبْعَ
سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا
السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ[2] وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً[3]
مِّثْلَ صَاعِقَةِ[4] عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن
بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ
شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً[5] فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ[6] ﴿١٤﴾
فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ
أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ
أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا[7] يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ

المفردات: ﴿دخان﴾: المراد به مادة غازية تشبه الدخان وتسمى فى العلم الحديث. (سديمًا).

﴿فقال لها وللأرض..﴾ إلخ: لم يحصل منه سبحانه كلام، ولا من السماء والأرض قول أيضًا، وإنما الكلام كناية عن أنه لابد من أن تنفذ إرادته سبحانه فيما يريده من خلقه سريعًا. ونظير هذا الأسلوب كثير فى كلام العرب، ومنه فى القرآن الكريم.

﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾، وقوله تعالى ﴿طوعًا أو كرهًا﴾: أصلهما مصدران أريد بهما هنا اسم الفاعل وهما حالان أى طائعتين أو كارهتين والمراد لابد أن تأتيا والكلام تصوير لتأثير قدرته تعالى فى تهيئتهما للانتفاع بهما.

وقوله تعالى ﴿أتينا طائعين﴾ تصوير لتأثرهما بسرعة، كما يتأثر العبد ويسرع فى إجابة سيده، انظر صفحة ٢٢٣. ﴿فقضاهن﴾: أى أتمهن. ﴿أوحى﴾ ... إلخ: الوحى هنا بمعنى الأمر التكوينى وهو الإيجاد.

﴿أمرها﴾: أى ما هى مهيأة له، مما اقتضت الحكمة الإلهية الانتفاع به منها كالشمس والقمر والنجوم وغير ذلك. فالمراد خلق فى كل سماء ما هو مختص بها لنفع الخلق.

﴿وزينا السماء الدنيا﴾: انظر الحكمة فى تغيير الأسلوب من الغيبة إلى التكلم فى شرح الآية (٦٠) من سورة النمل صفحة ٥٠١ .

﴿بمصابيح وحفظا﴾: انظر آيتى (٦، ٧) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧ والآية (٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٤ .

---

(١) فقضاهن (٢) بمصابيح (٣،٤) صاعقة
(٥) ملائكة (٦) كافرون (٧) بآياتنا

﴿صاعقة﴾: هى صوت شديد مزعج يصدر من جهة العلو، مصحوبًا بما فيه عذاب وهلاك، من نار تحرق، أو ريح تدمر، أو غير ذلك.

﴿من بين أيديهم ومن خلفهم﴾: المراد: كثر بينهم الرسل. وعملوا معهم كل حيلة. انظر شرح الآية (٢١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٩ .

﴿من أشد منا﴾: ﴿من﴾ اسم استفهام إنكارى، يفيد النفى، أى لا أحد أشد منا.

﴿صرصرا﴾: شديدة الصوت مزعجة. من الصرة وهى الصياح والجلبة. انظر الآية (٢٩) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٤ .

﴿نحسات﴾: جمع نحسة بفتح فكسر، أى مشئومات، وكانت ثمانية، انظر الآية (٧) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦١، ٧٦٢ .

المعنى: ثم توجهت إرادته سبحانه إلى السماء والحال أنها كالدخان، فحصل ما أراده منهما بلا تأخير. فأتم سبحانه خلق السموات سبعا فى يومين. وخلق سبحانه فى كل سماء ما هو مخصص بها. وزين سبحانه السماء الدنيا بكواكب ونجوم ترى كالمصابيح. وحفظناها بذلك حفظا من كل شيطان يحاول استراق السمع كما تقدمت الإشارة إليه. كل ذلك المتقدم تقدير العزيز أى الغالب على كل شىء العليم بأسرار خلقه. بلغ أيها النبى ما سبق لقومك فإن أعرضوا عن الإيمان بعد ذلك فقل لهم إنى أنذركم بحلول نقمة بكم كما حصل للأمم التى كذبت رسولها كعاد وثمود ومَنْ على شاكلتهم حين جاءتهم الرسل بأدلة من جميع جهاتهم قائلين لهم لا تعبدوا إلا اللّٰه. فلجوا فى عنادهم وقالوا لو شاء ربنا إرسال رسل إلينا لأنزل ملائكة برسالته. لا بشرا مثلنا. وبما أنكم لستم ملائكة. فإنا بما تزعمون أنكم أرسلتم به كافرون. ثم بيّن سبحانه ما حصل منهم غير ذلك وما حل بهم بقوله فأما عاد فبغوا فى الأرض بالباطل. وقالوا لما خوفهم رسولهم بالعذاب لا أحد أشد منا قوة فلا نخاف تهديدكم. هل غفل هؤلاء ولم يعلموا أن الذى خلقهم وهو الذى يهددهم على لسان رسوله هو أشد منهم قوة. وكانوا يعرفون أن اياتنا التى جاء بها رسلنا حق، ولكنهم جحدوها عنادا، انظر مثلها فى الآية (١٤) من سررة النمل صفحة ٤٩٥، فعاقبهم سبحانه بأن أرسل عليهم ريحا شديدة تهلك كل شىء تمر به. وكان لها صوت قوى يصم الآذان. استمرت بحالها هذا سبع ليال وثمانية أيام كلها شؤم حتى تركتهم جثثا هامدة مطروحة على الأرض كأنها أعجاز نخل خاوية كما فى الآية (٧) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦٢،٧٦١ . فعل بهم سبحانه ذلك ليذيقهم العذاب المخزى فى الدنيا.

ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا[1] وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ[2] أَخۡزَىٰۖ
وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ[3] فَٱسۡتَحَبُّواْ
ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ[4] ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ
بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ[5] وَكَانُواْ
يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ
يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ
وَأَبۡصَٰرُهُمۡ[6] وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ
لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ
كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾
وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ[7]
وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا
تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ[8]

المفردات: ﴿فهديناهم﴾: أى أرشدناهم إلى طريق الخير. وبيَّنا لهم طريق الشر ليجتنبوه، انظر الآية (٣) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١ ، والآية (١٠) من سورة البلد صفحة ٨٠٨ .

﴿صاعقة﴾: تقدم فى الصفحة السابقة.

(العذاب الهون﴾: ﴿الهون﴾ أصله مصدر معناه الهوان والذل، وأريد به اسم الفاعل مبالغة أى المهين المذل جدًا حتى كأنه هو الذل نفسه كما تقول: رجل عدل أى عادل جدًا.

﴿أعداء اللَّه﴾: المراد بهم: الكفار من جميع الأمم بما فيهم كفار مكة.

﴿يوزعون﴾: المراد: يمنعون من الهرب ويساقون إلى جهنم، انظر الآية (٧١) من سورة الزمر صفحة ٦١٦ .

﴿إذا ما جاءوها﴾: ﴿إذا﴾ ظرف زمان يربط بين جملتين تسمى الأولى شرطًا وهى هنا ﴿جاءوا﴾ والثانية جوابا وهى هنا ﴿شهد عليهم﴾ و﴿ما﴾ حرف يدل على تأكيد ربط الشرط بالجواب.

﴿جلودهم﴾: المراد بها الجوارح مطلقًا فهو من عطف العام على الخاص. ولذا أفردها بالذكر فيما بعد.

---

(١) الحياة.
(٢) الآخرة.
(٣) فهديناهم.
(٤) صاعقة.
(٥) آمنوا.
(٦) أبصارهم.
(٧) أبصاركم.
(٨) أرداكم.

﴿أن يشهد عليكم﴾: الأصل خوف أن يشهد .

﴿أرداكم﴾: أى أوقعكم فى الردى فهلكتم.

المعنى: . فعل سبحانه بعاد ما سبق ليذيقهم ألم الخزى فى الدنيا. ووالله لعذاب الآخرة أشد خزيًا وذلاً. وهم فى هذه الحالة لا يجدون مَنْ ينصرهم بمنع العذاب عنهم.

وأما ثمود فأرشدناهم وبيَّنا لهم طريق الخير. فبالغوا فى حب العمى وهو الكفر وفضلوه على الهدى وهو الإيمان والطاعات فأخذتهم صاعقة العذاب المهين المذل بسبب استمرارهم على كسب الكفر والمعاصى.

ونجينا من هذا العذاب الذين آمنوا مع نبيهم صالح صلوت اللهً عليه. وكانوا يتقون الله فلم يخالفوا أمره.

ثم ذكر سبحانه كفار مكة بما سيكون يوم القيامة لجميع الكفار لعلهم يرتدعون فقال ويوم يحشر... إلخ: أى واذكر أيها النبى لكفار قومك يوم يحشر الكفار أعداء الله إلى النار فهم يساقون إليها، حتى إذا جاءوها وسئلوا عما أجرموا فأنكروا شهد عليهم سمعهم وأبصارهم بما كانوا يعملون.

وقالوا لجلودهم متعجبين كيف شهدتم علينا؟ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء يريد أن ينطقه.

وليس هذا بعجيب على قدرته، وهو الذى خلقكم أول مرة من العدم والقادر على ذلك قادر على إنطاق كل شىء وعلى بعثكم للحساب والجزاء. ثم توبخهم جلودهم لزيادة حسرتهم فتقول:

(وما كنتم) .... إلخ: أى وما كنتم تأتون المنكر مستترين خائفين من شهادة جوارحكم لأنكم ما كنتم تقرون بالبعث. ولكنكم لجهلكم عملتم عمل مَنْ يظن أن الله لا يعلم ما تفعلونه خفية. وهو كثير. فلا يظهره لكم ولا يؤخذاكم عليه. انظر مثل هذا الظن فى الآية (٣) من سورة الهمزة صفحة ٨٢١ . وهذا الظن الذى ظننتموه بربكم هو الذى أهلككم وخلدكم فى النار.

فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ[1] ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ
مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾
۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا
خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن
قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ[2] ﴿٢٥﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ[3] وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا
شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ
بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا[4] يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ[5] أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا
تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

المفردات: ﴿مثوى﴾: أى محل إقامة، من قولهم: ثوى فلان بالمكان أى أقام به.

﴿يستعتبوا﴾: أى يطلبوا زوال سبب العتاب بالرضا عنهم. انظر أصل المادة فى الآية (٨٤) من سورة النحل صفحة ٣٥٧ .

﴿المعتبين﴾: أى المجابين لما يطلبون.

﴿قيضنا﴾: أى أعددنا، وهيأنا لأنهم انحرفوا عن الصواب، انظر الآيات (٨٣) من سورة مريم صفحة ٤٠٤ و (٣٦) من سورة الزخرف صفحتى ٦٥٠، ٦٥١ و (٨) إلى (١٠) من سورة الليل صفحتى ٨١٠، ٨١١ .

﴿قرناء﴾: جمع قرين أى صاحب، والمراد به هنا الصاحب من شياطين الإنس والجن، انظر آيتى (٣٨) من سورة النساء صفحة ١٠٦ و(٥١) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠ . ﴿ما بين أيديهم﴾: من شهوات الدنيا والكفر والضلال.

﴿وما خلفهم﴾: من أمور الآخرة، فأفهموهم أنه لابعث ولا حساب.

﴿وحق عليهم القول﴾: المراد وقع عليهم العقاب، انظر الآية (٨٣) من سورة النمل صفحة ٥٠٤ . ﴿خلت﴾: أى مضت.

﴿والغوا فيه﴾: أى أحدثوا فى أثناء قراءته لغوًا من القول، ولغطًا، وتهويشًا حتى لا يؤثر فيمن يسمعه. ﴿النار﴾: خبر لمبتدأ مقدر والأصل ﴿هو النار﴾. ﴿لهم فيها دار الخلد﴾: المراد لهم فى النار محل إقامة دائمة.

﴿اللذَّين أضلانا﴾... إلخ: جاء تعبيره سبحانه عن ﴿الجن والإنس﴾ بلفظ المثنى ﴿اللذَين﴾ بفتح الذال ولم يقل (الذين أضلونا) بكسر الذال لفظ الجمع، فعل سبحانه ذلك اعتبارا بأن

---

(١) الخاسرين. (٢) خاسرين. (٣) القرآن. (٤) بآياتنا. (٥) اللذين.

الجن فريق. والإنس فريق، فهما فريقان. وتذكر الآية قول الذين كفروا فيمَن أضلوهم من الفريقين بسبب شدة غضبهم عليهم. انظر شيئًا من ذلك فى الآيات (١٦٦و١٦٧) من سورة البقرة صفحة ٣٢ و٦٧ و ٦٨ من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١ و(٣٢ و٣٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٧ .

المعنى: فصرتم من الخاسرين لكل ما فيه سعادة، فإن يحبسوا غيظهم ظانين أن الصبر مفتاح الفرج فلن ينفعهم ذلك شيئًا ما؛ لأن النار هى مقرهم الدائم. وإن يطلبوا الرضا عنهم فلن يجابوا.

وبعدما بيَّن سبحانه ما سيكون يوم القيامة. ولم ينزجر كفار قريش، أراد سبحانه أن يبين لنا كيف عاقبهم فقال: وقيضنا... إلخ: أى لما ألحوا فى عنادهم هيأنا لهم قرناء السوء من الجن والإنس فزينوا لهم شهوات الدنيا والكفر بالآخرة فحق عليهم وعيدنا لهم بعذاب جهنم، يدخلونها فى جملة أمم كافرة قد مضت فى زمن قبلهم.

ثم بيَّن سبحانه أن تلك الأمم الكافرة كانت جمعت الأشرار من الجن والإنس لأنهم استووا جميعًا فى خسران خيرى الدنيا والآخرة. ثم بين سبحانه بعض جرائم كفار مكة فقال: وقال (الذين كفروا)... إلخ: أى قال الكافرون بالله ورسوله من أهل مكة: لا تنصتوا لهذا القرآن، وعارضوه برفع الصوت باللغو والتهويش لعلكم تغلبون القارئ فيسكت عن القراءة. فتوعدهم سبحانه بقوله فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدًا.

ووالله لنجزين كفار قريش أشد جزاء لما كانوا يعملونه من الكفر والمعاصى. ذلك الجزاء وهو النار هو جزاء أعداء الله، لهم فى هذه النار مكان يخلدون فيه لا يخرجون منه أبدًا. جازيناهم بذلك جزاء شديدًا بسبب أنهم كانوا يجحدون آياتنا أى ينكرونها عنادا. ثم رجع سبحانه إلى بيان ما سيحصل منهم فى جهنم لعلهم يتنبهون فقال: (وقال الذين كفروا) .... إلخ: أى وقال الكافرون وهم يتقلبون فى النار: يا ربنا أرنا فريقى المضلين لنا من الجن والإنس اللذين أوقعانا فى الضلال لننتقم منهما بوضعهما تحت أقدامنا إهانة لهما ليكونا فى أسفل مكان اجتمعنا فيه.

وبعد أن توعد سبحانه الكفار بما تقشعر منه الجلود أتبع ذلك بالوعد الشريف للمؤمنين فقال: (إن الذين قالوا ربنا).... إلخ.

قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا[1] تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ[2] أَلَّا
تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾
نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ[3] الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ[4] وَلَكُمْ
فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا
مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا
إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا[5] وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾
وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ[6] كَأَنَّهُ وَلِيٌّ
حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا[7] إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا[8] إِلَّا
ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ[9] نَزْغٌ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ[10]
اللَّيْلُ[11] وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ

المفردات: ﴿تتنزل عليهم الملائكة...﴾ إلخ: أى عند المـوت؛ انظر الآية (٦٤) من سورة يونس صفحة ٢٧٦، وشرح الآية (٩١) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧، والآية (٣٢) من سورة النحل صفحة ٣٤٩ .

﴿ما تدعون﴾: أى ما تطلبون؛ انظر الآية (٥٧) من سورة يس صفحة ٥٨٤ .

﴿نزلا﴾: أصل النزل يطلق على المكان الذى ينزل فيه الضيف المكرم، كما يطلق على ما يقدم للضيف من الزاد والمراد به هنا طعام الجنة، انظر الآية (١٩٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٦ . ﴿ومَنْ أحسن قولا...﴾ إلخ: ﴿مَنْ﴾ أسم استفهام مشرب معنى النفى.. أى لا أحد أحسن فى القول... إلخ.

﴿ادفع﴾: أى رد واطرد. ﴿بالتى هى أحسن﴾: أى بالطريقة الحسنى التى لا غلظة فيها.

﴿فإذا الذى...﴾ إلخ : ﴿إذا﴾ كلمة تدل على سرعة حصول ما بعدها مرتبًا على ما قبلها.

﴿ولى﴾: أى صديق.

﴿حميم﴾: أى شديد الصداقة والمحبة.

﴿يلقاها﴾: أى يتلقى النهاية الحسنة، كما تقدم فى الآية (٨٠) من سورة القصص صفحة ٥١٨ . ﴿حظ عظيم﴾: أى نصيب وافر من خصال الخير.

﴿ينزغنك﴾: المراد: يوسوس لك، كما تقدم فى الآية (٢٠٠) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٥ .

---

(١) استقاموا (٢) الملائكة (٣) الحياة
(٤) الآخرة (٥) صالحا (٦) عداوة
(٧، ٨) يلقاها (٩) الشيطان (١٠) آياته
(١١) الليل.

﴿ومن آياته﴾: أى من أدلة قدرته تعالى، وتصرفه وحده فى الملك.

المعنى: إن الذين اعترفوا بأن اللهَّ ربهم ثم أداموا الاستقامة على الطريق الذى شرعه لهم. فوحدوه وعملوا ما يرضيه تتنزل عليهم الملائكة عند الموت قائلين لهم: لا تخافوا مما أنتم مقدمون عليه. ولا تحزنوا على فوات ما تحبون. وأبشروا بالجنة التى وعدكم اللّه بها فى الدنيا. نحن كما كنا موالين لكم فى الدنيا بالحفظ نواليكم الآن بما فيه سروركم. ولكم فى الجنة ما تشتهيه أنفسكم. ولكم فيها كل ما تطلبون. والمراد كل ما تشتهيه أنفسكم موجود فيها. وكل ما تطلبونه تنالونه حال كون ما تطلبونه مطعومًا مقدمًا لكم من رب غفور لذنوبكم. رحيم بكم. ثم بيَّن سبحانه بعض ما استحق به المؤمنون هذا النعيم فقال: ومَنْ أحسن... إلخ: أى لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى توحيد اللّه وطاعته وعمل صالحًا ليصدق عمله دعوته، وقال مبتهجًا بالإسلام وفرحا به: إننى من المسلمين. وبعدما بيَّن محاسن الأعمال الجارية بين العبد وربه. أراد أن يبين محاسنها الجارية بين العباد بعضهم مع بعض ليرغب نبيه ﷺ فى الصبر على إيذاء المشركين فقال: ولا تستوى... إلخ: أى لا تستوى الفعلة الحسنة مع الفعلة السيئة فى نظر العقل ولا فى حكم اللّه. أى فلا تستوى دعوتك أيها النبى لهم إلى سعادتهم مع سفاهتهم وغلظتهم. فادفع سفاهتهم بالفعلة التى هى أحسن الطرق. أى فادفع الغضب بالصبر، والسفاهة بالحلم، والإساءة بالعفو، ثم بيَّن ذلك بقوله: فإذا الذى بينك وبينه عداوة... إلخ: أى أنك إذا فعلت ذلك انقلب سليم الطبع منهم الذى كان يكرهك إلى صديق حميم لك طول حياته كأنه لم تسبق منه لك عداوة. وما يعطى هذه المزية منه تعالى إلا الصابرون على تحمل المكاره ولا يعطاها إلا ذو النصيب العظيم من السعادة فى الدنيا والآخرة. ثم أرشد سبحانه إلى ما فيه سد الباب على الشيطان فقال: (وإما ينزغنك)... إلخ: أى وإن حاول الشيطان ليغريك بخلاف ما نصحك به ربك، فاستعذ باللّه من كيده فسينقذك من شره؛ لأنه سبحانه سميع لقولك عليم بإخلاصك.

ولما كان بعض قبائل العرب خصوصًا فى شرق العراق يعبدون الكواكب، انظر ما تقدم فى شرح الآية (١٧) من سورة الحج صفحة ٤٣٥، لما كان هذا أراد سبحانه أن يبين أن هذه الكواكب وما ترتب عليها من آثار خلقها الله سبحانه دالة على وحدانيته وقدرته فقال: ومن آياته... إلخ أى ومن أدلة وجوده ووحدانيته وقدرته أنه هو الذى نظم تعاقب الليل والنهار. وسير الشمس والقمر بحساب دقيق فلا تسجدوا لهما فإنهما مخلوقان وإن كثرت منافعهما... إلخ.

وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ
يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ[1] وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ[2] ﴿٣٨﴾ ۩
وَمِنْ آيَاتِهِ[3] أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً[4] فَإِذَا أَنزَلْنَا
عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي
الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ
فِي آيَاتِنَا[5] لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم
مَّن يَأْتِي آمِنًا[6] يَوْمَ الْقِيَامَةِ[7] اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ
وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ[8] عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ[9] مِن بَيْنِ يَدَيْهِ
وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ
لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ

المفردات: ﴿فالذين عند ربك﴾: المراد عندية منزلة وكرامة. وهم الملائكة وليست عندية مكان، انظر الآية (٥٥) من سـورة القمر صفحة ٧٠٨ .

﴿لا يسأمون﴾: أى لا يملون. وهنا يسجد القارئ إذا كان على طهارة. وهذه السجدة المعروفة بسجدة التلاوة.

﴿خاشعة﴾: المراد: يابسة قحلة.

﴿اهتزت وربت﴾: تقدم فى الآية (٥) من سورة الحج صفحتى ٤٣٣، ٤٣٤ .

﴿أحياها﴾: تقدم فى الآية (٢٤) من سورة الروم صفحة ٥٣٣ .

﴿يلحدون﴾: المراد يحرفون، انظر الآية (١٨٠) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢ .

﴿الذكر﴾: هو القرآن، انظر آيتى (٩) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨ و(٤٤) من سورة النحل صفحة ٣٥١ .

﴿عزيز﴾: أى منيع لا يستطيع أحد أن ينال منه مطعناً.

﴿حميد﴾: أى محمود على كل حال.

المعنى: لا تسجدوا للشمس ولا للقمر كما كان يفعل أهل بلقيس، انظر الآية (٢٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٧ . واسجدوا لله الذى خلق تلك الآيات الأربع إن كنتم لا تعبدون غيره كما تزعمون، فلا تخضعوا لغيره، وكانوا يدعون أنهم موحدون وأن هذه الأشياء تقربهم إلى

---

(١) بالليل. (٢) لا يسأمون. (٣) آياته.
(٤) خاشعة. (٥) آياتنا. (٦) آمنا.
(٧) القيامة. (٨) لكتاب. (٩) الباطل.

الله. ولم يعلموا أن هذا هو الشرك بعينه، فإن استكبر هؤلاء المشركون عن عبادته وحده فاتركهم أيها النبى وشأنهم. فإن الملائكة الذين هم أكرم منهم يسبحون له دائمًا، ولا يملون أبدًا.

وبعدما بيَّن سبحانه أدلة وحدانيته وقدرته فى العالم العلوى أراد أن يبين بعضها فى العالم الأرضى فقال: ﴿ومن آياته﴾... إلخ: أى ومن أدلة قدرته على كل شىء خصوصًا بعث الخلق أنك أيها الناظر ترى الأرض يابسة فإذا أنزلنا عليها الماء من مطر أو غيره اهتزت بالنبات وانتفخت إن الذى يحيى هذه الأرض ويخرج منها نباتا، والله لقادر على إحياء الموتى من قبورهم لأنه على كل شىء قدير لا يعجزه شىء.

ثم هدد الكفار الذين يطعنون فى هذه الآيات فقال: إن الذين يلحدون... إلخ: أى أن الكفار الذين ينحرفون عن الصواب طاعنين فى آياتنا لا يخفون علينا. فسنجازيهم أشد الجزاء.

ثم بيَّن سبحانه ما سيجازون به مقرونًا بجزاء المؤمنين لعلهم يتنبهون فقال: ﴿أفَمن يلقى﴾... إلخ: أى هل اختلت العقول حتى جهل الناس أى الرجلين خير عاقبة. مَنْ مصيره أن يلقى فى النار، أم مَنْ يأتى آمنا يوم القيامة لأنه سيدخل الجنة؟

ثم هدد كفار مكة فقال: (اعملوا ما شئتم) أى فلن تضروا إلا أنفسكم؛ لأنه سبحانه بما تعملون بصير. وسيجازيكم على كل صغيرة وكبيرة. ثم بيَّن سبحانه لنبيه أن هؤلاء الكفار معاندون فقال: ﴿إن الذين كفروا ....﴾ إلخ: خبر إن فى هذه الآية مقدر مفهوم من سياق الكلام. والمراد: إن هؤلاء الكفار المكذبين بالقرآن لما جاءهم، سيعذبون على كفرهم هذا أشد العذاب، وكيف لا يكون ذلك والحال أن هذا الكتاب حق، وهو كتاب منيع.

ثم بيَّن سبحانه مناعته بأنه لا يأتيه الباطل من أية جهة من جهاته، وهو منزل من إله بالغ الحكمة فى أعماله، محمود على كل حال على نعمه التى منها هذا القرآن الذى فيه شفاء من أمراض الصدور.

ثم شرع سبحانه فى تسلية رسوله على ما يصيبه من إيذاء المشركين فقال: ﴿ما يقال لك﴾... إلخ: أى ما يقول لك كفار قومك إلا مثل ما قال الكفار أمثالهم لإخوانك الرسل قبلك، انظر الآية (١٨٤) من سورة آل عمران صفحة ٩٣، والآية (٥٢) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥ فلا تحزن لأن ربك صاحب مغفرة للمؤمنين على ما قد يحصل منهم.

وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا
لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ
آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ
وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا
كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ
مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ
فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ
السَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ
أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي
قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا
يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَا يَسْأَمُ

المفردات: ﴿أعجميا﴾: أي بلغة العجم، نسبة إلى (أعجم) وهو مَنْ في لسانه (عجمة) بضم فسكون. وهي خفاء الكلام.

﴿لولا فصلت آياته﴾: ﴿لولا﴾ حرف يفيد طلب حصول ما بعده كما تقدم المراد منه في الآية (٣٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦.

﴿فصلت آياته﴾: أي بينت بلسان العرب حتى نفهمها.

﴿ءَ أعجمي﴾: الهمزة الأولى للاستفهام الإنكاري المفيد للنفي مع التعجب. فمرادهم هل يصح أن يكون الكتاب أعجميًا والمنزل عليه عربيًا؟ فكيف يجتمعان.

﴿وقر﴾: أي صمم، حيث كانوا يكرهون سماع القرآن ولا يصغون لنصائح الرسول ﷺ، كما كان يفعل قوم نوح عليه السلام، انظر من الآية (٥) إلى الآية (٨) من سورة نوح صفحة ٧٦٨ .

---

(١) جعلناه.
(٢) قرآنا.
(٣) آياته.
(٤) آمنوا.
(٥) آتينا.
(٦) الكتاب.
(٧) صالحا.
(٨) ثمرات.
(٩) شركائي.
(١٠) آذناك.
(١١) يسأم.

﴿عَمىً﴾: مصدر عَمِى بفتح فكسر تقول العرب عمى فلان عمى وعماء أى صار لا يبصر، والمراد: أن القرآن ثقيل عليهم سماعه كثقل العمى فلذا ينفرون من سماعه، انظر الآية (٢٦) السابقة من هذه السورة صفحة ٦٣٢، والآية (٤٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٠، والآية (٤٥) من سورة الزمر صفحة ٦١٢ .

﴿ينادون من مكان بعيد﴾: أى فصاروا كالرجل الذى يناديه آخر من مكان بعيد جدا، فإنه لا يسمع صوته ولا يرى شبحه.

﴿الكتاب﴾: هنا هو التوراة.

﴿فاختلف فيه﴾: أى أوَّله كل فريق على حسب شهوته، انظر الآية (١١٠) من سورة هود صفحة ٣٠٠ .

﴿كلمة سبقت...﴾ إلخ: هى وعده سبحانه بتأخير حسابهم إلى يوم القيامة.

﴿لقضى بينهم﴾: أى لحكم بينهم وبين المؤمنين فى الدنيا بإهلاكهم ونجاة المؤمنين.

﴿مريب﴾: أى موقع فى الريبة وهى الشك الشديد الموجب للحيرة.

﴿وما ربك بظلام﴾: المراد ليس الله بصاحب ظلم ولو قليلاً، انظر الآية (٤٠) من سورة النساء صفحة ١٠٧ . والباء للنص على عموم النفى.

﴿أكمامها﴾: جمع كم بكسر أوله وهو الغطاء الذى يكون على الثمرة قبل ظهورها .

﴿آذناك﴾: أى اعلمناك والمراد أقررنا .

﴿ما منا من شهيد﴾: ﴿شهيد﴾ أى: شاهد، و﴿من﴾ للنص على عموم النفى، والمراد: ليس منا مَنْ يشهد فى هذا اليوم على أن لك شريكًا .

﴿ضل عنهم﴾: أى غاب عنهم.

﴿محيص﴾: أى مهرب. تقول العرب حاص فلان يحيص إذا هرب.

﴿لا يسأم﴾: أى لا يمل.

المــعنى: إن ربك أيها النبى لذو مغفرة للمؤمنين، وذو عقاب شديد الألم للكافرين. وكان كفار قريش يتفننون فى وضع العراقيل فى سبيل الدعوة المحمدية.

فتارة يقولون: لو كان محمد صادقًا لجاء بكتابه دفعة واحدة كما جاء موسى وعيسى، انظر الآية (٣٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤، والآية (٤٨) من سورة القصص صفحتى ٥١٣، ٥١٤ وتارة يقولون نحن على استعداد للإيمان بك إذا صعدت للسماء أمامنا وجئتنا بكتاب نقرؤه، انظر الآية (٩٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧ . فجاء الرد بما فضح نياتهم فى الآية (٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣ .

وتارة يقولون: لو كان محمد صادقًا لأعطاه اللّٰه كتابا بلغة الكتب السابقة. ولما كان كل ماعدا العرب يسمون عجمًا، كما تقدم فى الآية (١٩٨) وما بعدها من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢، رد سبحانه عليهم بما يبين أنهم كاذبون معاندون فقال: (ولو جعلناه قرآنا)... إلخ: أى ولو جعلنا هذا الكتاب الذى أنزل إليك مقروءًا بلغة العجم لقال كفار قريش هلا بينت آياته وما فيها من أحكام بلغة العرب حتى نفهمه. ولقالوا منكرين بصورة المتعجبين هل يصح أن يكون الكتاب أعجميًا والمنزل عليه عربيًا؟

ثم بين سبحانه حال القرآن بالنسبة للمؤمنين والكافرين فقال: قل أيها النبى لهم هذا القرآن هو بالنسبة للذين آمنوا هدى من الضلال وشفاء لما فى الصدور من الشك والحقد وغيرهما.

أما الذين لا يؤمنون باللّٰه ولا برسله فإن الشيطان وضع فى آذانهم صممًا فلا يسمعون حجج القرآن ومواعظه، ويصير عليهم كالعمى يكرهونه وينفرون من سماعه خوف أن يؤثر فيهم بقوة أسلوبه، وسطوة حججه، حتى صار حالهم كحال الصم المقبلين على خطر، ويناديهم مرشدهم من مكان بعيد لينقذهم فلا يسمعون نداءه، فمثل هؤلاء مصيرهم الهلاك المحتوم؛ انظر فى ذلك كله الآية (٨٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥.

ثم بين سبحانه أن هؤلاء الكفار ليسوا وحدهم هم الذين عملوا هذا المنكر فقال: (ولقد آتينا موسى)... إلخ: أى أرسلناه وآتيناه التوراة فاختلفت أمته فيها تبعًا لاختلاف أهوائهم.

فمنهم مَنْ صدق بها ومنهم مَنْ كذب، ولولا كلمة سبقت من ربك أيها النبى بتأخير عذاب الإفناء عن قومك لقضى سبحانه بينهم وبينكم بإهلاك المكذبين فى الدنيا ونجاة المؤمنين، انظر الآية (٤٦) من سورة القمر صفحتى ٧٠٨،٧٠٧، وإن هؤلاء الكفار والله لغارقون فى شك شديد فى هذا القرآن فلا يؤمنون أبدا، انظر الآية (٦) من سورة البقرة صفحة ٤ .

ثم بين سبحانه أنه سيجازى كلا بعمله فقال: (مَنْ عمل صالحًا)... إلخ: أى مَنْ عمل صالحا فى الدنيا ففائدة عمله ترجع لنفسه. ومَنْ أساء العمل فوبال إساءته عائد على نفسه. ولا يظلم ربك أحدا من عباده.

ولما تضمن الكلام السابق أن الجزاء الأوفى سيكون يوم القيامة وكانوا أكثروا من السؤال عن موعدها قال سبحانه: (إليه يرد)... إلخ: أى إليه سبحانه وحده يرد علم وقت القيامة. وليس عجيبًا أن يختص سبحانه بعلمها؛ لأنه اختص بأشياء كثيرة تشاهدونها منها أنه لا تبرز ثمرة مهما كانت من غطائها المغلفة به، وما تحمل أنثى الحيوان ولا تضع ولدها إلا بعلم منه تعالى بزمن ذلك وحاله التى يكون عليها.

ثم ذكر بعض ما سيلاقيه الكفار فى يوم القيامة فقال سبحانه (ويوم يناديهم)... إلخ: أى واذكر أيها النبى لكفار قومك يوم يناديهم ربهم فى المحشر تهكمًا بهم على مسمع من الخلائق قائلاً لهم: أين شركائى الذين تقربتم بهم إلىَّ وأشركتموهم معى فى التعظيم والطاعة قالوا: (أعلمناك) يا رب أنه ليس أحد منا يشهد اليوم أن لك شريكًا.

يريدون بذلك الاعتراف بالخطأ. وغاب عنهم آلهتهم التى كانوا يدعونها فى الدنيا لتشفع لهم فى قضاء حوائجهم وتقربهم إلى الله حسب معتقداتهم الخاطئة، انظر الآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦، وأيقنوا أنهم لا مفر لهم من جهنم.

وبعدما بيَّن سبحانه أنهم ينكرون ما كانوا يعترفون به، أراد أن يبين أن هذا هو شأن الإنسان الكافر بدليل ما سيأتى من إنكاره البعث فقال سبحانه: لا يمل... إلخ.

ٱلْإِنسَٰنُ[1] مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ
قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ[2] رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ
لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ
إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ
أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ[3] أَعْرَضَ وَنَـَٔا[4] بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ
ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ[5] إِن كَانَ مِنْ
عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ
بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا[6] فِى ٱلْـَٔافَاقِ[7] وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ
يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ
أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

المفردات: ﴿الإنسان﴾: المراد به هنا: الكافر بدليل إنكاره للساعة أي القيامة.

﴿دعاء﴾: أي طلب.

﴿الخير﴾: المراد به هنا المال الكثير والصحة والجاه، انظر شرح الآية (٣٢) من سورة ص صفحة ٦٠١ .

﴿الشر﴾: كالفقر والمرض.

﴿يئوس﴾: أي شديد اليأس من رحمة ربه تعالى، انظر الآية (٨٧) من سورة يوسف صفحة ٣١٦، والآية (٨٣) من سورة الإسراء صفحتي ٣٧٥، ٣٧٦ .

﴿قنوط﴾: أي ظاهر عليه آثار اليأس من الحزن والانكسار.

﴿أذقناه﴾: المراد أعطيناه. ﴿رحمة﴾: كالغنى والصحة. ﴿ضراء﴾: أي شدة وبلاء. ﴿هذا لي﴾: أي هذا حقي استحقه بمجهودي لا فضل لأحد فيه، انظر الآية (٤٩) من سورة الزمر صفحة ٦١٣ .

﴿ولئن رجعت إلى ربي﴾: أي بالبعث على سبيل الفرض، كما يزعم الرسول، انظر الآية (٣٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦ .

﴿الحسنى﴾: أي نعيم الجنة. ﴿غليظ﴾: المراد كثير شديد. ﴿أعرض﴾ المراد: انصرف عن شكر المنعم، وأهمله.

﴿ونأى بجانبه﴾: نأى: أي بعد؛ وأصل نأى بجانبه: أبعد جانبه عن المنعم المتفضل عليه فهو تأكيد للإعراض مفيد للتكبر والتعاظم، انظر شرح الآية (٨٣) من سورة الإسراء صفحتي ٣٧٥، ٣٧٦ .

---

(١) الإنسان. (٢) أذقناه. (٣) الإنسان. (٤) نأى.
(٥) أرأيتم. (٦) آياتنا. (٧) الآفاق.

﴿عريض﴾: المراد كثير مستمر. ﴿أرأيتم﴾: المراد أخبرونى.

﴿مَنْ أضل﴾: ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام إنكارى، يفيد النفى أى لا أحد أشد ضلالاً... إلخ.

﴿شقاق بعيد﴾: أى خلاف لا يمكن تلافيه، انظر الآية (١٧٦) من سورة البقرة صفحة ٣٣ والآية (٥٣) من سورة الحج صفحة ٤٤١ . ﴿آياتنا﴾: أى دلائل قدرتنا وصدق كتابنا.

﴿الآفاق﴾: جمع أفق وهو الناحية والمراد نواحى السموات والأرض وما فيهما من شمس وقمر ونجوم ونظام سيرها، وما يصيب به الأشرار من الصواعق والرياح والزلازل المهلكة، ومن نبات وأشجار، انظر الآية (١٦٤) من سورة البقرة صفحة ٣١.

﴿وفى أنفسهم﴾: من عجيب الصنع وبديع الحكمة؛ وما حل بهم من قتل وأسر يوم بدر وما بعده، انظر آيتى (٢٠، ٢١) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣، والآيات (٥،٦،٧) من سورة الطارق صفحة ٨٠٢ .

﴿أولم يكف بربك﴾:الهمزة للاستفهام المفيد للتوبيخ، والواو عاطفة على مقدر مفهوم من السياق؛ والباء داخلة على فاعل ﴿يكف﴾ لتأكيد ثبوت الفعل للفاعل.

﴿أنه على كل شىء﴾: بدل من الفاعل، الذى هو ﴿ربك﴾. ﴿شهيد﴾: أى مطلع. والأصل هل غفلوا ولم يكفهم رادعًا لهم عن الكفر والمعاصى، إن ربك مطلع على كل شىء ومنه أعمالهم وسيجازيهم عليها.

﴿ألا إنهم فى مرية﴾: ﴿ألا﴾ حرف يراد به تنبيه السامع لأهمية ما يذكر بعده. ﴿مرية﴾: أى شك.

﴿من لقاء ربهم﴾: أى بالبعث بعد الموت. ﴿محيط﴾: أى عالم علمًا شاملاً.

المعنى: لا يمل الإنسان الذى لا هم له إلا الدنيا من سؤال ربه كثرة المال والصحة والجاه وغير ذلك. وإن مسه فقر أو شدة فهو شديد اليأس والقنوط من رحمة ربه؛ انظر الآية (٨٧) من سورة يوسف صفحة ٣١٦ . ووالله لئن أعطيناه غنى وصحة من فضلنا بعد شدة وبلاء حلا به ليعرضن عن شكرنا ويقول هذا الخير جاءنى بعملى واستحقاقى. وينهمك فى لذاته، لايراعى فضيلة ولا رحمة، ظنًا منه أن القيامة لا تكون أبدًا.

ثم يقول: وعلى فرض أنها ستكون فإن لى عند ربى كل كرامة؛ لأنه أكرمنى فى الدنيا عن استحقاق فكذا يكون الحال فى الآخرة. ثم بيَّن سبحانه أنه مخطئ فى زعمه فقال: فلننبئن

(الذين)... إلخ: أي وإذا كان هذا حالهم فوعزتى لنخبرن هؤلاء الكافرين يوم يرجعون إلينا بكل أعمالهم من المعاصى والكفر ولنذيقنهم من عذاب شديد.

ثم بيَّن سبحانه شأنا من شئون الإنسان مطلقا غير النوع المتقدم الخاص بالكفار فقال: (وإذا أنعمنا)... إلخ. أى من الشأن الغالب فى الإنسان أننا إذا أنعمنا عليه بسعة الرزق والصحة والجاه أعرض عما دعونا إليه من الطاعة والشكر، واستكبر عن الخضوع لأمرنا كما فى آيتى (٦، ٧) من سورة العلق صفحة ٨١٤، وإذا أصابه شر كان على العكس من ذلك فهو يطيل الدعاء إلى اللَّه ليكشف عنه ما حل به، انظر الآية (١٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٧ .

ثم لفت سبحانه نظر الطاعنين فى القرآن وفى كونه من عند اللَّه فقال: قل أرأيتم... إلخ: أى قل أيها الرسول لكفار قومك أخبرونى إن كان هذا القرآن من عند اللَّه ومع ذلك كفرتم به فهل هناك أحد أشد ضلالا منكم لأنكم فى خصام مع الحق شديد لا يمكن أن تجتمعا؟

ولما كان ما سبق يفيد الحث على التأمل والتيقظ أراد سبحانه أن يبين أنه سيزيد أدلة الحق زمنًا فزمنا، ويجلى بعض ما استتر من أسرار كونه شيئًا فشيئًا، حتى يتنبه مَنْ فيه بقية خير وتأخذ البراهين بتلابيب الجاحد المعاند حتى لا يبقى له منفذ شبهة، وبهذا يزداد عذابه إذا استكبر وجمد على عناده، فقال سنريهم.. إلخ: أى سنرى هؤلاء المشركين أدلة قدرتنا، وصدق كتابنا فيما أخبر به عن الماضى والمستقبل، فى نواحى العالم وفى أنفسهم مما سبقت الإشارة إليه، انظر الآيات (٢،٣،٤) من سورة الروم صفحتى ٥٣٠، ٥٣١، و(٣) من سورة الفتح صفحة ٦٧٨، و(٢٧) من نفس السورة صفحة ٦٨٣ ، و(٤٥) من سورة القمر صفحة ٧٠٧ . وذلك حتى يتجلى لهم أن هذا القرآن وما فيه حق.

ثم وبخهم على تفريطهم فى إهمال النظر وعنادهم المحوج إلى تتابع الآيات وعدم اكتفائهم بإخباره سبحانه فى كتابه وجهلهم بما يليق به سبحانه فقال:

(أولم يكف)... إلخ. أى هل غفلوا ولم يكفهم زاجرا أن ربك مطلع على كل شىء من أعمالهم وسيحاسبهم عليها؟ ثم بيَّن الباعث لهم على العناد والاستهتار فقال:

(ألا إنهم)... إلخ . أى تنبه أيها السامع إلى أن هؤلاء الناس فى شك من البعث يوم القيامة. ألا إن اللَّه محيط علما بكل شىء ومنه أعمالهم، وسيجازيهم عليها. والله تعالى أعلم.

(٤٢) سورة الشورى مكية
وآياتها ثلاث وخمسون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ① عٓسٓقٓ ② كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ
مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ③ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ④ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ
وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ
ٱلرَّحِيمُ ⑤ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ
عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ⑥ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ
إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا

سورة الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

سميت بذلك لما فى الآية (٣٨) الآتية صفحة ٦٤٤.

المفردات: ﴿حم. عسق﴾: تنطق هكذا. حَا - مِيمْ- عينْ- سينْ- قافْ. بسكون الآخر فى الجميع؛ وتقدم المراد من مثل هذه الحروف فى أول سورة البقرة.

﴿العزيز﴾: الغالب القهار.

﴿العلى﴾: الرفيع المنزلة فوق كل خلقه.

﴿تكاد﴾: أى تقرب.

﴿يتفطرن﴾: أى يتشققن من شدة جرم من يدعى أن لله شريكا أو ولدًا، انظر ما سيأتى فى الآية (٦) من هذه السورة، والآيات من (٨٨ إلى ٩٢) من سورة مريم صفحة ٤٠٥.

﴿والملائكة﴾: جملة حالية جاءت لبيان الفرق الشاسع بين عباد الله المخلصين والفاجرين.

﴿ألا﴾: حرف يراد به تنبيه السامع لما بعده.

﴿أولياء﴾: المراد: معبودات يوالونها بالخضوع لها، أو التقرب إليها.

﴿حفيظ عليهم﴾: أى رقيب على أعمالهم.

﴿بوكيل﴾: الباء للنص على عموم نفى ما بعدها عما قبلها، أى ليس موكولا إليك جبرهم على الهداية، إنما أنت منذر.

---

(١) حا ميم بسكون الآخر.
(٢) عين سين قاف بسكون الآخر فى كل كلمة.
(٣، ٤) السموات.
(٥) الملائكة.
(٦) قرآنا.

﴿لتنذر﴾ : أى لتحذر من غضب الله.

﴿أم القرى﴾ : هى مكة، انظر الآية (٩٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٧ والآية (٥٩) من سورة القصص صفحة ٥١٥.

المعنى: ﴿حم. عسق﴾ تقدم المراد منها أول سورة البقرة. مثل ما فى هذه السورة من المقاصد العامة عند كل رسول. وهى التوحيد. والرسالة واليوم الآخر. ومكارم الأخلاق. يوحى بها إليك وبغيرها من القرآن كما أوحى بذلك أيضًا إلى الأنبياء قبلك الله العزيز فى ملكه. الحكيم فى صنعه. انظر هذه المبادئ وأنها فى الكتب السابقة فى سورة الأعلى صفحة ٨٠٣ و٨٠٤ أما فروع الشرائع فلكل نبى شرع يناسب عصره. انظر ما سبق فى الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦.

ثم بيَّن سبحانه عظمته تمهيدًا لتسفيه الكفار على جرمهم فقال: له ما فى السموات.. إلخ، أى أن كل ما فى السموات وما فى الأرض تحت قبضته إيجادًا وتصرفًا وإعدامًا، وهو المتعالى فوق الجميع. العظيم عن أن يماثله أحد. وتكاد السموات يتمزقن وتسقط كل واحدة فوق التى تحتها من هول قول المشركين اتخذ الله ولدًا أو أن له شريكًا.

أما الملائكة الذين هم أعرف المخلوقات بربهم فينزهونه سبحانه عما لا يليق به حامدين فضله على العالم. ويستغفرون لمن فى الأرض من المؤمنين، انظر شرح الآية (٧) من سورة غافر صفحة ٦١٨. وفيه حث وترغيب للمستعد من الكفار للإيمان. والله يستجيب دعاء الملائكة لأنه غفور رحيم. والذين اتخذوا غير الله شركاء يوالونهم بالخضوع لهم.

الله سبحانه رقيب على أحوالهم. وسيجازيهم بما يستحقون. أما أنت أيها النبى فلست مطالبًا إلا بإبلاغهم ما أمرت به. ولست مكلفًا بأن تجبرهم على الهداية. ومثل هذا الإيحاء البديع المشار إليه فيما سبق أوحينا إليك قرآنًا بلسان قومك، انظر الآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩ لتحذر أهل مكة ومن حولها من جميع الخلق من عذاب الله إذا خالفوا أمره.

وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق
في السعير (٧) ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة[1] ولكن
يدخل من يشاء في رحمته والظالمون[2] ما لهم من ولي
ولا نصير (٨) أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو
الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير (٩)
وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله
ربي عليه توكلت وإليه أنيب (١٠) فاطر السموات[3]
والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا[4] ومن الأنعام[5]
أزواجا[6] يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع
البصير (١١) له مقاليد السموات[7] والأرض يبسط
الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم (١٢)
* شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا

المفردات: ﴿يوم الجمع﴾: هو يوم القيامة، انظر الآية (٩) من سورة التغابن صفحة ٧٤٦.

﴿لا ريب﴾: أى لاشك.

﴿ولو شاء الله﴾.. إلخ: انظر شرح الآية (١١٨) من سورة هود صفحة ٣٠١.

﴿ومن ولى ولا نصير﴾: الولى هو الصديق والنصير هو المعين، كما تقدم فى الآية (١٠٧) من سورة البقرة صفحة ٢١.

﴿أم اتخذوا﴾: (أم) حرف متضمن معنى حرفين (بل) التى تفيد الانتقال من كلام إلى آخر.. و(همزة الاستفهام الإنكارى) المفيد للنفى، أى لم يتخذوا أولياء غيره سبحانه ينتفعون بهم، انظر الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢.

﴿أنيب﴾: أى أرجع.

﴿فاطر السموات﴾: أى خالق على غير مثال سابق، كما تقدم فى الآية الأولى من سورة فاطر صفحة ٥٧١.

﴿من أنفسكم أزواجًا﴾: أى من نوعكم كما تقدم فى الآية (٢١) من سورة الروم صفحة ٥٣٣.

---

(١) واحدة.
(٢) الظالمون.
(٣) السموات.
(٤) أزواجا.
(٥) الأنعام.
(٦) أزواجا.
(٧) السموات.

﴿الأنعام﴾: تقدمت فى الآيات من (١٤٢ إلى ١٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٨٦، ١٨٧، وخصها بالذكر لأن أغلب انتفاعهم بها.

﴿يذرؤكم﴾: أى يخلقكم بكثرة، تقدم فى الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢. وجاء بضمير الخطاب للعاقل تغليبًا للإنسان على الأنعام.

﴿فيه﴾: أى فى هذا الجعل، كأن الجعل منبع للذرء.

﴿ليس كمثله شيء﴾: تقول العرب إذا أرادت المبالغة فى نفى البخل مثلا عن رجل: (مثلك لا يبخل) أى أنت لا تبخل أبدا. والمراد هنا: ليس لله سبحانه مثيل قطعًا. ونظير ذلك ما فى الآية (٤) من سورة الإخلاص صفحة ٨٢٦.

﴿مقاليد﴾: أى مفاتيح، كما تقدم فى الآية (٦٣) من سورة الزمر صفحة ٦١٥.

﴿ويقدر﴾: أى ويضيق، انظر الآية (١٦) من سورة الفجر صفحة ٨٠٧.

﴿شرع لكم من الدين﴾: هذا تفصيل لما أجمله سبحانه فى الآية (٣) أول هذه السورة.

﴿ما وصى به نوحا﴾: بدأ سبحانه بـ (نوحا) عليه السلام لأنه أول الرسل كما فى حديث الشفاعة الذى رواه البخارى، إذ جاء فيه.. اذهبوا إلى نوح فإنه أول الرسل.

﴿أوحينا إليك﴾: التفت سبحانه من خطاب الأمة إلى خطابه ﷺ. ومن ضمير الغائب فى قوله ﴿وصَّى﴾ إلى ضمير المتكلم فى قوله (أوحينا). ولم يقل (والذى أوحى إليك). وكذا جاء بنبينا ﷺ فى الوسط مع أنه آخر الأنبياء، كل هذا لإظهار العناية به ﷺ؛ لأنه صاحب الشريعة الخالدة، وهذا هو السبب فى أنه سبحانه عبر فى جانبه ﷺ بالوحى.. وفى جانب غيره بالوصية؛ لأن الإيحاء فى هذا المقام لا يكون إلا لرسول. ففى التصريح به إشعار بتسفيه كفار مكة الذين أنكروا ذلك.

المعنى: لتخوف كل من فى الأرض من المكلفين من عذاب الله فى الدنيا، وكذا تخوفهم من عذاب الآخرة يوم يجمعهم سبحانه للحساب، والجزاء الذى هو آت لا شك فيه. وستكون عاقبة هذا الحساب أن فريقًا منهم يدخلون الجنة، وفريقًا منهم فى نار الله الموقدة. انظر الآية (١٠٣) وما بعدها من سورة هود صفحة ٢٩٩. ولما كان ﷺ شديد الحرص على إيمان قومه.

حزينا لكفرهم.. أراد سبحانه أن يبين له ولغيره أن نظامه الذى اختاره حسب حكمته فى خلقه أن يكونوا أحرارا يختارون ما يشاءون فقال: ﴿ولو شاء..﴾ إلخ. أى لو شاء أن يجبر الناس على دين واحد وهو الإيمان كما تحب أيها النبى لكانوا جميعًا أمة واحدة على دين واحد.. وحينئذ لا يكون هناك طائع وعاص، ولا جنة ولا نار. ولكنه سبحانه شاء أن يكونوا أحرارا. فمن اختار الإيمان أدخله فى رحمته، فيتنعم بالجنة. ومَنْ ظلم نفسه باختيار الكفر والمعاصى يدخله جهنم. وليس له صديق يشفع له. ولا ناصر يدفع عنه العذاب بقوته، ثم بيَّن سبحانه سبب اغترار المشركين وتمسكهم بما هم عليه فقال: أم اتخذوا.. إلخ. أى أن هؤلاء المشركين من قومك أيها النبى اتخذوا الأصنام أولياء يدفعون عنهم الشر، والحقيقة أن هذه الأصنام ليست من الولاية فى شىء. وإذا كان الأمر كذلك فقل لهم أيها النبى الله سبحانه هو الولى القادر على جلب النفع ودفع الضر. وهو وحده الذى يحيى الموتى يوم القيامة؛ لأنه على كل شىء قدير. وكل شىء اختلفتم معنا فيه فمرجع الحكم فيه إلى الله يحكم فيه يوم القيامة بالعدل. ذلكم الذى يفعل ما تقدم هو وحده الله ربى عليه توكلت وإليه أرجع فى أمورى. وهو وحده خالق السموات والأرض وما فيهما على أبدع نظام. وهو الذى خلق لكم من جنسكم أزواجا. وخلق للأنعام من جنسها أزواجًا يكثركم بسبب هذا الجعل بالتوالد. ومَنْ كان هذا وصفه فليس له مثيل مطلقًا، وهو السميع لكل همسة. البصير بالأعمال لا يخفى عليه شىء. له سبحانه تمام التصرف فى السموات والأرض وما فيهما. يوسع الرزق على مَنْ يشاء. ويضيقه على مَنْ يشاء حسب حكمته؛ لأنه عليم بكل شىء من أحوال عباده. حكيم فلا يفعل إلا الصواب. ثم شرع سبحانه فى تفصيل بعض ما أجمله أولا فى قوله: ﴿كذلك يوحى إليك﴾ ..إلخ فقال: شرع لكم.. إلخ.. أى شرع لكم يا أمة محمد من أصول الدين التى لا تختلف فى زمان عن زمان.. ولا فى أمة عن أمة ما وصى به نوحًا عليه السلام وهو الذى أوحيناه إليك يارسول هذه الأمة.

المفردات: ﴿أن أقيموا الدين﴾: هذا بيان لما وصى به وأوحاه. أى هو إقامة الدين، وإقامته المحافظة عليه والتمسك به. ﴿ولا تتفرقوا فيه﴾: أى لا تختلفوا فيه فتأتوا ببعض وتتركوا بعضا.

﴿كبر﴾: أى عظم وشق. ﴿يجتبى﴾: أى يصطفى ويختار.

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ[1] وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟
ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ
إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن
يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ
بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ[2] مِنۢ
بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ
كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ[3] بِمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ[4] ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا
وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا[5] وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ[6] ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ
يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ

﴿ينيب﴾: أى يرجع بالتوبة. ﴿وما تفرقوا﴾ .. إلخ: أى وما اختلفوا وصاروا شيعا وأحزابا. انظر الآية (٤) من سورة البينة صفحة ٨١٦. ﴿بغيا بينهم﴾: البغى مجاوزة الحد المشروع فى كل شىء. ﴿كلمة﴾: هى وعده سبحانه بإمهالهم. ﴿أجل مسمى﴾: هو يوم القيامة. و(مسمى) أى محدد وقته فى علمه سبحانه وتعالى. ﴿لقضى بينهم﴾: أى بإهلاك المبطلين ونجاة المحقين.

﴿الذين أورثوا الكتاب﴾: المراد بهم: اليهود والنصارى. الذين كانوا فى عهده ﷺ. فالكتاب مراد به التوراة والإنجيل، انظر الآية (٦٦) من سورة المائدة صفحة ١٥٠. ﴿مريب﴾: أى موقع فى الريبة وهى شدة الشك الموجب للحيرة. ﴿استقم كما أمرت﴾: المراد: داوم وأثبت على الاستقامة كما تقدم فى الآية (١١٢) من سورة هود صفحتى ٣٠٠، ٣٠١. ﴿كتاب﴾: المراد جنس كتاب، فيشمل كل الكتب المنزلة.

﴿لنا أعمالنا .. ﴾ إلخ أنظر شرح الآية (٤١) من سورة يونس صفحة ٢٧٣.

﴿لاحجة﴾: أى لا محاجة ولا مجادلة. ﴿يجمع بيننا﴾ .. إلخ: انظر شرح الآية (٢٦) من سورة سبأ صفحة ٥٦٦. ﴿يحاجون فى الله﴾: أى يجادلون ويخاصمون فى دينه.

﴿داحضة﴾: أى باطلة.

المعنى: شرع لكم يا أمة محمد من الدين ما وصى به نوحًا ومن بعده من أصحاب الشرائع وأولى العزم من مشهورى الأنبياء. وهذا الذى شرعه ووصى به هو إقامة دين الله الحق بالمواظبة عليه ودفع الزيغ عنه وعدم التفرق فيه، بأن يؤمن به بعض ويكفر به بعض. وبعد ما

---

(١) إبراهيم. (٢) الكتاب. (٣) آمنت. (٤) كتاب. (٥) أعمالنا. (٦) أعمالكم.

بيَّن سبحانه أن دين الأنبياء جميعًا هو التوحيد أراد أن يسفه المشركين على إنكاره فقال: كبر.. إلخ، أى شق على المشركين ما تدعوهم إليه من التوحيد وترك الشرك لأنهم توارثوا ذلك عن الآباء والأجداد، فجمدت قلوبهم عليه. ثم أراد سبحانه أن يبين لرسوله أن من هؤلاء المشركين من سيستيقظ ضميره فيؤمن فقال: الله يجتبى.. إلخ. أى أنه سبحانه يختار ضاما إلى أوليائه من يشاء اختياره لسلامة فطرته. ولذا قال: ويهدى إليه.. إلخ. أى ويهدى إلى سبيل مرضاته من يرجع إليه سبحانه بالتوبة ويترك ماكان عليه آباؤه. وبعدما بيَّن أحوال أهل الشرك أراد أن يبين حال أهل الأديان السابقة الذين نهاهم أنبياؤهم عن التفرق كما سبق فقال: وما تفرق.. إلخ، أى وما تفرق أهل الأديان السابقة فى الدين بأن جعلوه تبعًا لأهوائهم وشهواتهم، انظر ذلك فى الآية (١١٠) من سورة هود صفحة ٣٠٠، وفرقوا بين الرسل إلا من بعد ما جاءهم العلم على لسان أنبيائهم بأن التفرق ضلال. وقد فعلوا ذلك بغيًا وحسدًا وطلبًا للرياسة، فلجت كل طائفة فى طريقها مع أن دين الله واحد عند كل الرسل. ولولا الكلمة السابقة من ربك بتأخير جزائهم إلى يوم القيامة لعجل لهم العقوبة فى الدنيا، ثم ذكر تفرق أهل الكتاب سابقا أثر فى أولادهم من اليهود والنصارى الذين هم فى عصره ﷺ فقال: وإن الذين أورثوا.. إلخ، أى وإن خلفهم الذين ورثوا التوراة والإنجيل والله لفى شك من كتابهم شديد، حيث لم يؤمنوا به على وجهه الصحيح. ولو آمنوا حقًا لعلموا أن محمدا رسول الله صادق فيما يدعو إليه. فلأجل ما أحدثه هؤلاء من التفرق فى دين الله اجتهد فى الدعوة أنت أيها النبى إلى الاتفاق على ملة إبراهيم، وداوم أنت ومن معك على التوحيد كما أمرت. ولا تتبع أهواء الذين شكوا فى الحق. وقل لهم إنى صدقت كل الكتب المنزلة لا أكذب شيئًا منها، انظر الآية (٢٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٦١، ٦٢، وقل لهم أمرنى ربى بالعدل بينكم فى الحكم إذا تخاصمتم إلىَّ. ولا أجور عليكم بما يخالف شرع الله. وأعلم أنا ومَنْ معى من المؤمنين أن ربنا وربكم هو الإله الحق. ونقر بأن جزاء أعمالنا قاصر علينا. وجزاء أعمالكم قاصر عليكم. لاينتفع أحدنا بحسنات صاحبه ولا تضره سيئاته. وإذا صممتم على العناد. فلا حاجة بيننا وبينكم لأن الحق أصبح واضحًا وسيجمعنا الله يوم القيامة. وإليه المرجع فى النهاية فيقضى بيننا وبينكم بعدله. والذين يجادلون فى دين الله من بعد ما استجاب له المخلصون لظهور براهينه وآمنوا به. هؤلاء المجادلون ما يزعمونه حجة لهم هو وهم.

عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾
اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ
لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ
أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ
الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي
حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ
فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم
مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ
بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا

المفردات: ﴿الكتاب﴾: المراد جنس الكتاب الشامل لكل الكتب المنزلة.

﴿الميزان﴾: المراد به هنا: القواعد والضوابط التى جاءت فى الكتب السماوية الموضحة للحد الفاصل بين الحق والباطل. والمراد بإنزال الميزان الأمر به، والإرشاد للعمل به، انظر مثلها فى الآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣. ﴿يستعجل بها﴾: انظر شرح الآية (٥١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧١ والآية (٤٧) من سورة الحج صفحة ٤٤٠ والآية (١٢) وما بعدها من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣. ﴿مشفقون منها﴾: أى خائفون من أهوالها فيعملون ما يحفظهم منها، انظر الآية (٦٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥١. ﴿ألا﴾: حرف يدل على تنبيه السامع لما يأتى بعده. ﴿يمارون فى الساعة﴾: أى يجادلون وينكرون البعث يوم القيامة. ﴿لطيف بعباده﴾: أى رفيق بهم حيث لم يعجل بعذابهم، ولم يهلكهم جوعا بمعاصيهم. ﴿حرث الآخرة﴾: المراد ثوابها، انظر الآيات من (٢٠٠ إلى ٢٠٢) من سورة البقرة صفحتى ٣٩، ٤٠ و (١٤٥) من سورة آل عمران صفحة ٨٦. ﴿حرث الدنيا﴾: المراد لذاتها وشهواتها. ﴿أم لهم شركاء..﴾ إلخ: تقدم شرح مثلها تفصيلاً فى الآية (٩) من هذه السورة صفحة ٦٣٩. ﴿كلمة الفصل﴾: هى المشار إليها فى الآية (١٤) المتقدمة.

المعنى: والذين يجادلون فى دين الله بالباطل من اليهود ما يدعون أنه حجة لهم هو خيال باطل لا يقبل عند ربهم، وعليهم غضب من الله فى الدنيا، ولهم عذاب شديد فى الآخرة. ثم بيَّن سبحانه بعض ما تضمنته هذه الكتب تحذيرًا من مخالفتها. فقال: الله الذى أنزل.. إلخ، أى أن الله هو الذى أنزل كتبه على أنبيائه مقترنة بالحق وأنزل فيها الآيات المشتملة على ما

(١) الكتاب. (٢) آمنوا. (٣) ضلال. (٤) الآخرة.
(٥) شركاء. (٦، ٧) الظالمين. (٨) آمنوا.

يبين الحق والباطل ليلتزمها المكلف فى معاملته مع الله ومع خلقه. ثم هدد مَنْ يخالف هذه الكتب بقيام الساعة فقد تفاجئه وهو على معاصيه. فقال: وما يدريك لعل الساعة قريب، أى وأى شيء يعلمك بوقتها، فلعل وقتها قريب منك وأنت لا تشعر، فعليك أن تحافظ على أوامر ربك. ثم سفه مَنْ ينكرون القيامة جهلا منهم فقال: ﴿يستعجل بها﴾ ..إلخ. أى مع إخبار الله بأنها آتية لا شك فيها، يستعجل بها الكافرون استعجال استهزاء. أما المؤمنون بها فهم خائفون منها؛ لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم عند الحساب. لذلك يجتهدون فى الأعمال الصالحة، لعلمهم أنها حق لابد منها. فاعلم أيها السامع أن الذين يجادلون فى القيامة بالباطل والله لفى ضلال بعيد عن الصواب. ثم بيَّن سبحانه سعة رحمته بعباده فى الدنيا حتى بالعصاة منهم فقال: الله لطيف.. إلخ. أى بار بعباده. يفيض عليهم جميعا صالحهم وفاجرهم. من فضله ما به يحفظ حياتهم، انظر الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧. وبعد علمنا بأنه يرزق الجميع. وأن كل دابة على الله رزقها. نعلم أن قوله: يرزق مَنْ يشاء.. إلخ. معناه يرزق مَنْ يشاء بما يشاء. فيخص واحدًا بنعمة وغيره بغيرها. ويوسع على البعض ويقتر على الآخر، وذلك على حسب حكمته المشار إليها فى الآية (٢٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢. وهو سبحانه القوى على فعل ما يريد، العزيز الغالب على كل شيء. ثم بين سبحانه أن ما قدره من كثرة رزق الفاسق ليس لرضاه عنه، بل قد يكون لزيادة عذابه كما فى الآية (٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩ فقال: مَنْ كان يريد.. إلخ أى مَنْ كان يريد بسعيه كسب ثواب الآخرة نبارك له فى ثوابه فنجزيه بالحسنة عشرة أمثالها. ومَنْ كان يريد بسعيه فى الدنيا مجرد لذاتها وشهواتها نؤته منها ما قسمناه له، وليس له فى الآخرة نصيب من خيراتها، انظر الآيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧. وبعدما بيَّن سبحانه أن الكتب السابقة فيها العدل والحق أراد أن يوبخ قريشًا على اتباعهم لشياطينهم الذين أحلوا لهم ما حرمه الله. وحرموا ما أحله. فقال: بل لم يكن لكفار مكة إلا شياطين أشركوهم مع الله فى التحليل والتحريم. فشرعوا لهم من الدين الباطل ما لم يأذن به الله، انظر شيئًا من ذلك من الآية (١٢١ إلى الآية ١٤٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٢ وما بعدها.

ولولا قضاؤه سبحانه السابق بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة لقضى سبحانه بينهم وبينكم بإهلاكهم حالا. أن الظالمين لهم عذاب أليم بسبب ظلمهم الحق وأنفسهم. ثم بيَّن ما سيكون عليه حالهم يوم القيامة فقال: (ترى الظالمين..) إلخ، أى ترى الظالمين أنفسهم بالكفر

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ[1] فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ
عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ الَّذِي
يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا[2] وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ[3] قُل
لَّا أَسْأَلُكُمْ[4] عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن
يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن
يَشَإِ[5] اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ[6] وَيُحِقُّ
الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ[7] إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ
الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو[8] عَنِ السَّيِّئَاتِ
وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا[9] وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ[10] وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ[11] لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ

خائفين أشد الخوف من جزاء ما كسبوه من السيئات. والحال أن هذا الجزاء واقع بهم لامحالة. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ففى الجنات.. إلخ.

المفردات: ﴿فى القربى﴾: (فى) سببية، كما فى قوله ﷺ: (دخلت امرأة النار فى هرة حبستها حتى ماتت). أى دخلت النار بسبب تصرفها السيئ فى هرة؛ و﴿القربى﴾. القرابة.

﴿يقترف﴾: أى يكتسب.

﴿نزد له فيها حسنا﴾: أى نزده فى ثوابها أجرًا حسنا جدا، فتكون الحسنة بعشر أمثالها.

﴿حسنا﴾: المراد ثوابا كبيرا جدا حتى صار كأنه الحسن نفسه، انظر شرح الآية (٨٦) من سورة الكهف صفحتى ٣٩٢، ٣٩٣.

﴿أم يقولون افترى﴾..إلخ: (أم) تقدم معناها فى الآية (٩) من هذه السورة صفحة ٦٣٩.

﴿يختم على قلبك﴾: أى يمنعك من حفظ القرآن. كما فى الآية (١٦) من سورة يونس صفحة ٢٦٨ والآية (٨٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦.

﴿ويمحُ﴾: أصلها يمحو بالواو. والعرب تسقطها فى مثله تخفيفًا، انظر (ويدع الإنسان) فى الآية (١١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥؛ و ﴿سندع﴾ فى الآية (١٨) من سورة العلق صفحة ٨١٥، ﴿ويمحُ﴾ ليس معطوفا على ﴿يختمْ﴾ لأن يمحُ فعل مضارع مرفوع ويختمْ فعل مضارع مجزوم. ﴿بكلماته﴾: المراد بقضائه النافذ عندما يريد شيئاً فإنه يقول له كن فيكون. ﴿عن

---

(١) الصالحات. (٢) آمنوا. (٣) الصالحات. (٤) أسألكم. (٥) يشا.
(٦) الباطل. (٧) بكلماته. (٨) يعفو. (٩) آمنوا. (١٠) الصالحات.
(١١) الكافرون

عباده﴾ ﴿عن﴾ بمعنى ﴿من﴾ لأن مادة القبول تتعدى ﴿بمن﴾ كما فى الآية (١٢٧) من سورة البقرة صفحة ٢٥، و (٢٧) من سورة المائدة صفحة ١٤١. ﴿ويستجيب﴾: استجاب مبالغة فى أجاب. أى يجيبون دعاءه تعالى إلى عمل الخير بسرعة وإخلاص: انظر ما تقدم فى الآية (١٦) من هذه السورة صفحتى ٦٤٠ ، ٦٤١، والآية (٣٨) الآتية من هذه السورة أيضًا صفحة ٦٤٤، والآية (٢٤) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٠. والآية (١٠) من سورة غافر صفحتى ٦١٨ ، ٦١٩، والآية (٣٢) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١.

المعنى : والذين آمنوا وعملوا الصالحات يدخلهم ربهم أطيب بقاع الجنة لهم فيها ما يشاءون عند ربهم . ذلك النعيم العظيم هو الفضل الكبير من الله. هذا الفضل هو الذى بشر الله تعالى به عباده المؤمنين الصالحين فى الدنيا. وقد صدق وعده . وبعد كل هذه العبر والمواعظ استمر كفار قريش على عنادهم وشدة إيذائهم له ﷺ . فقال له سبحانه ﴿قل لاأسألكم﴾.. إلخ. روى البخارى ومسلم أن ابن عباس فسر هذه الآية بأن رسول الله ﷺ كان له قرابة فى جميع بطون قريش. ولما أرسله ربه كذبوه وآذوه، فأمره سبحانه أنه يقول لهم : ياقوم إن رفضتم الإيمان برسالتى فلا أطلب منكم إلا أن تكفوا إيذاءكم عنى، وتتركونى وشأنى مع غيركم . مراعين بذلك حق القرابة، وصلة الرحم، التى بينى وبينكم فلا تؤذونى ولا يصح أن يكون غيركم من العرب أحفظ لكرامتى منكم؛ ولما كان نبى الله موسى لا قرابة له بفرعون وقومه قال غير ما هنا، انظر الآية (٢١) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧، وحاصل المعنى هنا : لا أطلب منكم أجرًا على تبليغ رسالة ربى إلا أن تدفعوا عنى إيذاءكم مراعاة لحقوق القرابة، قال الألوسى ردًا على مَنْ قال : المعنى لا أسألكم على تبليغ رسالتى إلا أن تودوا قرابتى، قال الألوسى: هذا معنى لا يناسب مقام النبوة لما فيه من التهمة؛ لأن أكثر مَنْ يطلبون الدنيا يفعلون الشىء ويطلبون عليه من الأجر ما يكون فيه نفع لأولادهم وأقربائهم. (انتهى) ومقام الرسول الأعظم لا يسأل أجرًا دنيويًا على أعظم عمل وأشرفه يكلفه الله عز وجل به وهو

تبليغ رسالته للناس كافة، ويكفى فضلا من الله سبحانه وتشريفا لأهل بيت نبيه ﷺ أن يأمر كل مؤمن ومؤمنة أن يصلى ويسلم عليهم كل يوم عدة مرات فى الصلاة وغيرها كما فى الآية (٥٦) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٩، وما هنا أرق من قول موسى عليه السلام لفرعون وقومه فى الآية (٢١) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧ المشار إليها سابقًا. ثم وبعد هذا الأسلوب الرقيق المؤثر أراد سبحانه أن يرغبهم فى الإيمان بأن العمل الصالح يجازى بأكثر منه فقال (ومَنْ يقترف) ..إلخ. أى ومَنْ يعمل صالحا نزد له فيه أجرا وثوابا، فنجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، انظر الآية (٤٠) من سورة النساء صفحة ١٠٧. إن الله كثير المغفرة لذنوب مَنْ رجع إليه كثير الشكر للقليل من حسنات عبده فيضاعفها، ثم انتقل سبحانه إلى توبيخ مَنْ يستمر على كفره فقال: أم يقولون.. إلخ. أى هل يصح أن يقولوا افترى محمَّد على الله كذبا بادعائه أنه سبحانه أنزل عليه قرآنا؟ أى كيف يصدر هذا منهم وأنت تحت مراقبة الله القادر على أن يمحو كل ما فى قلبك فلا تستطيع النطق بشىء منه، أى ولو كان باطلا لمحاه؛ لأنه سبحانه يمحو الباطل ويثبت الحق بقضائه النافذ، انظر الآية (١٧) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٣، ٣٢٤ فهو سبحانه عليم بما تكنه الضمائر لا يخفى عليه شىء منها. فيذهب باطلها ويحفظ حقها. ثم رغب سبحانه فى التوبة فقال سبحانه : وهو الذى يقبل التوبة من عباده. أى إذا تابوا توبة صحيحة ويعفو عما وقع منهم من السيئات. ويعلم ما تفعلون فلا يجازى إلا عن خبرة وحكمة. ثم بيَّن سبحانه أن مَنْ يسمع هذه الحقائق ويجيب الداعى إليها هو المؤمن المحافظ على عمل الصالحات. ونظير ذلك يجازيهم سبحانه الحسنة بعشر أمثالها. ويزيديهم من فضله أضعافا كثيرة كما فى الآية (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥. أما الكافرون فيجازيهم بعذاب شديد. ولما كان المسلمون فى مكة قليلين وأغلبهم فقراء. وكانت النفوس ربما تتوق إلى أن يوسع الله عليهم من رزق الدنيا كغيرهم من صناديد قريش، أراد سبحانه أن يبين أن الحكمة هى فى النظام الذى اختاره لخلقه، وأنه لو أفقرهم جميعًا لهلكوا. ولو أغناهم جميعًا لما خضع واحد لآخر فيخرب العالم.

لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ
بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن
بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾
وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا
مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا
أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن
كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم
مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ
الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ
فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن
كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم

المفردات : ﴿لبغوا فى الأرض﴾ : البغى مجاوزة الحد المشروع، انظر آيتى (٦ ، ٧) من سورة العلق صفحة ٨١٤.

﴿بقدر﴾ : المراد بمقدار معين اقتضته الحكمة الإلهية.

﴿الغيث﴾ : هو المطر الذى ينزل وقت الحاجة إليه، انظر الآية (٣٤) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤.

﴿قنطوا﴾ : أى يئسوا.

﴿رحمته﴾ : المراد بها كل الخيرات التى تحصل بالمطر كسقى العطاش والزرع والشجر.

﴿الولى﴾ : أى المتولى عباده بالإحسان. ﴿الحميد﴾ : المحمود على كل حال.

﴿آياته﴾ : أى دلائل قدرته، انظر آيتى (١٦٤) من سورة البقرة صفحة ٣١ و(٣١) من سورة لقمان صفحة ٥٤٣.

﴿وما بث فيهما﴾ : ﴿ما﴾ معطوفة على ﴿السموات والأرض﴾ ، ﴿وبث﴾ : أى كثر ونشر .

---

(١) آياته.
(٢) السموات.
(٣) أصابكم.
(٤) يعفو.
(٥) آياته.
(٦) كالأعلام.
(٧) لآيات .
(٨) يجادلون.
(٩) آياتنا .

﴿من دابة﴾: ﴿من﴾ حرف يدل على أن ما بعده بيان لـ ﴿ما﴾ المذكورة قبله . ﴿دابة﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما: إن فى السماء عوالم لا يعلمها إلا الله تعالى؛ وقال الألوسى: لا يجوز نفى ذلك لأنه نفى بلا دليل، بل الدليل يخالفه؛ والذى يؤخذ من كتب اللغة أن الدبيب هو الانتقال الخفيف حقيقة أو مجازًا، فمن الأول قولهم: دب الطفل والشيخ المسن إذا مشى خفيفًا. ومنه أيضًا قول العرب: ناقة دبوب. أى لا تكاد تمشى من كثرة اللحم. وكذا دب الجيش إلى العدو إذا مشى بدون إسراع. ومن الثانى : دب السقم فى الجسم والبلى فى الثوب والصبح فى الغبش والنوم فى البدن، كله بمعنى سرى على مهل. وبهذا يظهر أن غلبة لفظ ﴿دابة﴾ على ما يركب من الخيل والبغال والحمير، إنما هو عرف طارئ. لا أنه هو المعنى اللغوى فى الأصل، وكذا تقييدها بأنها ﴿فى الأرض﴾ كما فى الآية (٦) من سورة هود صفحة ٢٨٤ إنما يراد به الغالب المشاهد لهم لا أنها كلها فى الأرض. ولذا قال الألوسى فى تفسير الآية (٤٩) من سورة النحل صفحة ٣٥١: إن الدبيب هو الحركة الجسمانية. سواء أكانت فى الأرض أم فى السماء، والملائكة أجسام لطيفة تتحرك .. وقد أطلق القرآن الدابة على كل متحرك ولو لم يكن له دبيب، انظر ذلك فى قوله تعالى: ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ الآية (٤٥) من سورة النور صفحة ٤٦٥، فإنهم أدخلوا فيها الزواحف والطيور قطعًا، وقال الأستاذ عباس محمود العقاد - عضو المجمع اللغوى - : لا مانع من أن يراد بالدابة كل حى: لأن الدبيب والحركة الذاتية لا يكونان إلا عن حياة. ولذلك تشمل الملائكة وغيرها من المخلوقات الحية المستورة عنا. ويساعد على ذلك أن المتبادر عرفا من الدبيب هو الضرب على الأرض . ليس مرادًا بدليل ﴿ومنهم مَنْ يمشى على بطنه﴾ ولا ضرب له على الأرض.. بل هو مجرد زحف، والله تعالى أعلم بحقيقة ملكوته الواسع الذى تحار فيه العقول.

﴿من مصيبة﴾ : ﴿من﴾ تدل على أن ما بعدها بيان لـ ﴿ما﴾ المذكورة قبلها.

﴿بمعجزين﴾ : أى بجاعلين الله سبحانه عاجزا عن جزائكم ، والباء لتأكيد نفى ما بعدها.

﴿من ولى ولا نصير﴾ : الولى هو الصديق ، والنصير هو المعين، كما تقدم فى الآية (١٠٧) من سورة البقرة صفحة ٢١ .

﴿الجوار﴾ : جمع جارية والمراد بها السفن .

﴿الأعلام﴾: مفردها علم بفتحتين، وهو الجبل. ﴿يظللن﴾: أى يبقين .

﴿رواكد﴾ : جمع راكدة أى ثابتة ساكنة.

﴿يوبقهن﴾: أى يهلكهن.

﴿ويعلم الذين يجادلون﴾ : كون المقام لتحذير الكافرين يدل على أن أصل الكلام يهلكهم ليظهر عظمته وقدرته، وليعلم أمثالهم أنهم هالكون قطعا. ومثل هذا التقدير كثير فى القرآن، ومنه ما فى آيتى (٢١) من سورة مريم صفحة ٣٩٨ و(٢٢) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣.

المعنى : لو وسع سبحانه رزق جميع العباد وجعلهم متساوين فيه لاختل نظام العالم؛ لأن كل واحد يزاحم غيره على ما فيه الرياسة، ويرفض ما دونها. فلا يقبل واحد منهم أن يكون جنديًا وغيره قائدا. ولا نجارا أو خبازا وغيره مديرا أو وزيرا مثلا .

وبهذا تتعطل المصالح ويحل الخراب. فمن الحكمة أن يكون البعض غنيًا والبعض فقيرا ليعمل كل فيما يصلح له ، انظر الآية (٣٢) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠، ولذا قال: (ولكن ينزل بقدر) .. إلخ. أى ولكن ينزل بنظام ما يشاء من الأرزاق. فيبسط للبعض ويضيق على البعض، كما فى الآية (١٢) السابقة صفحة ٦٣٩. إنه سبحانه محيط بخفيات أمور عباده بصير بجليها، فيعلم مَنْ يليق به أى من الحالين وهو سبحانه الذى يغيث العباد بإنزال المطر من بعد يأسهم منه، وينشر بركات الغيث ومنافعه. وهو الذى يتولاهم بإحسانه. وهو المستحق للحمد على كل حال.

ومن أدلة قدرته وتفرده بالملك أنه هو الذى خلق السموات والأرض وما بث فيهما من كل دابة تتحرك كالملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات. وهو سبحانه القدير على جمع مَنْ يشاء جمعه منهم يوم القيامة، وإن شئت فانظر أول شرح صفحة ٧٥١.

ثم أراد سبحانه أن يبين أنه منزه عن الظلم وأن ما يصيب الناس من المصائب سببه منهم ليبتعدوا عنه. ومع ذلك فلولا عفوه وسعة رحمته لهلكوا جميعًا كما فى الآية (٤٥) من سورة

فاطر صفحة ٥٧٨. فمصائب الأفراد سببها عملهم؛ ومصائب الأمم والجماعات سببها عمل أغلبها، انظر الآية (١٥٢) وما بعدها من سورة آل عمران صفحة ٨٧، والآية (٢٥) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٠، وفى هذا قال سبحانه: (وما أصابكم من مصيبة..) إلخ . أى ما يصيبكم من مصائب الدنيا كبيرها وصغيرها فبسبب أعمالكم ومع ذلك فإنه سبحانه يعفو عن كثير من ذنوبكم لا يؤاخذكم بها فى الدنيا وإلا لأهلككم جميعًا كما فى سورة فاطر صفحة ٥٧٨ السابق الإشارة إليها. ويجب أن نعلم أن هذا هو المبدأ العام.

ولكن قد يبتلى سبحانه بعض عباده بالمصائب لحكم عليا كرفع درجات فى الجنة كما حصل لنبينا ﷺ فى موت أولاده الذكور مثلا. وكحسن القدوة فى الصبر كما حصل لنبى الله أيوب عليه السلام كما فى الآيات من (٤١ إلى ٤٤) من سورة ص صفحتى ٦٠١ ، ٦٠٢، وانظر نظير ذلك فى الآيات (١٥٥ ، ١٥٦، ١٥٧) من سورة البقرة صفحة ٣٠، والآية (٢١٤) من سورة البقرة أيضا صفحة ٤٢، وآيتى (٢ ، ٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٠. ثم رجع سبحانه إلى تهديد المشركين فقال سبحانه : (وما أنتم بمعجزين).. إلخ . أى وما أنتم أيها المشركين بمفلتين من عذاب الله هربا فى الأرض انظر الآية (٣٣) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠. وليس لكم غير الله مَنْ ينقذكم أو يرحمكم ولا نصير يدفع العذاب عنكم. ومن دلائل قدرته تعالى تلك السفن التى تجرى فى البحار مرتفعة حمولتها، وشراعها كالجبال؛ إن يشأ سبحانه إسكان الريح التى تحركها يسكنها فتقف ساكنة لا تتحرك.

إن فى القدرة على إجرائها وإسكانها لأدلة واضحة على قدرة مدبر الكون، يتدبرها ويستفيد منها كل عبد حبس نفسه عما لا ينبغى . وحصر همه فى تذكر آيات ربه. كثير الشكر لفضله سبحانه . وفيه إشارة إلى أن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر. وإن يشأ سبحانه يهلك هذه السفن بما فيها بتسليط ريح عاصف، أو كسرها، أو غير ذلك بسبب ذنوب أهلها. وإن يشأ يعفو عن كثير منهم. يفعل سبحانه كل هذا لتتجلى قدرته وليعلم الذين يعاندون ولايعترفون بآيات الله أنهم لا مفر لهم من عذاب الله تعالى.

مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ[1] ٱلْحَيَوٰةِ[2]
ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[3] وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ[4] ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ[5]
وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟
لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ[6] وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا
رَزَقْنَـٰهُمْ[7] يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ
يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟[8] سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا
وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ[9] ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ
ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾
إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ
فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾
وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

المفردات: ﴿محيص﴾ : أى مهرب، فعله حاص أى هرب، تقدم فى الآية (٤٨) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦.

﴿كبائر الإثم﴾: هى الذنوب التى توعد الله تعالى عليها وشدد عقوبتها.

﴿الفواحش﴾ : هى الكبائر التى توجب الحد كالزنا؛ فهو من عطف الخاص على العام.

﴿هم يغفرون﴾: ضمير ﴿هم﴾ يدل على مدحهم بأنهم هم وحدهم الذين يغفرون الذنب حتى فى حال الغضب، انظر شرح الآية (١٨) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨ .

﴿أمرهم شورى بينهم﴾: أى أن كل أمورهم التى تهمهم مصحوبة بالشورى وتحوى الصواب. والمراد أن المشاورة لازمة لأمورهم حتى كأن أمورهم هى المشاورة نفسها.

﴿البغى﴾: الظلم والتعدى ومجاوزة الحد.

﴿ينتصرون﴾: أى لأنفسهم بمقابلة السيئة بمثلها فقط، على ما سيأتى تفصيله.

﴿عفا﴾ : أى صفح عمّن أساء إليه.

---

(١) فمتاع.
(٢) الحياة.
(٣) أمنوا.
(٤) كبائر.
(٥) الفواحش.
(٦) الصلاة.
(٧) رزقناهم.
(٨) جزاء.
(٩) الظالمين.

﴿أصلح﴾ أى ما بينه وبين من يعاديه بالإغضاء عما يصدر منه. إن كان الإغضاء يصلحه ولا يطغيه.

﴿من سبيل﴾ : ﴿من﴾ للنص على عموم نفى ما بعدها و ﴿سبيل﴾ أى طريق للمؤاخذة.
﴿عزم الأمور﴾ : أى الأمور التى يجب العزم والثبات عليها كما تقدم فى الآية (١٨٦) من سورة آل عمران صفحة ٩٤ والآية (١٧) من سورة لقمان صفحة ٥٤١ ومَن يتأمل هذه الصفحة يجدها قد تعرضت للحث على الصفح والعفو ثلاث مرات فى الآيات (٣٧، ٤٠ ، ٤٣) فسبحان العليم الحكيم.

المعنى : ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا بالباطل أنهم لا مفر لهم من عذاب الله . ثم بعد ما خوفهم أراد سبحانه أن يبين لهم أن كل ما فى الدنيا لا يساوى شيئًا إذا قيس بنعيم الآخرة فقال: (وما أوتيتم) .. إلخ. أى وكل ما تعطونه من الغنى والبنين فهو متاع تلك الحياة القصيرة، سريع الزوال. وما عند الله من النعيم الكثير خير وأبقى: لأنه خالد ، ينتفع به الذين آمنوا ولايكلون أمورهم لغير ربهم.

وهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وحين يعتريهم الغضب لا يستخفهم حتى ينتقموا ممَّنْ أغضبهم. بل يتجاوزون عن إساءته حتى كأنهم هم وحدهم الذين من طبعهم العفو ولين الخلق انتظارا لفضل الله سبحانه وتعالى.

وهم الذين أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من التوحيد وكل الفضائل. وأقاموا الصلاة، وإذا عرض لهم أمر مهم تشاوروا فيما بينهم ليظهر لهم الحق. وينفقون فى وجوه الخير مما رزقهم ربهم. وإذا أصابهم بغى وظلم من أحد كانوا مختصين بالاقتصار على المقابلة بالمثل. فلايعتدون بالزيادة كما يفعل أهل الجاهلية. فهم محمودون فى الحالين: حال الانتقام لا يتجاوزون المثل. وحال الصفح عند الغضب. بخلاف غيرهم فإن الغضب يدفعهم للانتقام. وإذا انتقموا جاوزوا الحد.

فإذا سرق منهم فرس أخذوا فرسين. وإذا قتل رجل منهم قتلوا رجلين، وهكذا. ثم بيّن سبحانه ما أباحه لمن أراد أن ينتصر فقال: وجزاء سيئة.. إلخ، أى وجزاء من يسىء إلى غيره يعمل معه ما يسيئه بشرط أن يكون مماثلاً لإساءته ولا يزيد عليها. ثم رجع إلى الترغيب فى العفو فقال، (فمن عفا) ..إلخ، أى فمَنْ عفا عن المسىء إليه وأصلح ما بينه وبينه بالعفو والإغضاء عما صدر منه فأجره على الله الذى لا يجازى إلا بأعظم الأجور، انظر الآية (١٢٦) من سورة النحل صفحة ٣٦٣، والآية (٣٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٤. ثم أكد سبحانه المساواة فى العقاب فقال: إنه لا يحب الظالمين أى المتجاوزين الحد فى الانتقام.

ولما كان كل ما تقدم يشعر بالرغبة الشديدة فى العفو. وذلك ربما يوهم ذم مَنْ ينتصر لنفسه فى حدود الجائز؛ فقد دفع ذلك سبحانه بقوله: (ولمَنْ انتصر).. إلخ. أى والله إن الفريق من الناس الذى ينتصر ممَنْ ظلمه بالعدل فهؤلاء ليس لأحد طريق إلى لومهم فضلاً عن إيذائهم، إنما اللوم والإثم على الذين يؤذون الناس بالظلم أو يزيدون فى الانتقام على ما أجيز لهم. ويتكبرون فى الأرض تجبرًا وفسادا. هؤلاء الذين يفعلون ذلك لهم عند الله عذاب أليم.

ثم ختم الموضوع بالترغيب فى الأفضل فقال: (لمن صبر).. إلخ.

أى والله إن من صبر وكف نفسه عن الانتقام وأغضى عن السيئة وسترها، إن ذلك منه لمن الأمور التى يجب الثبات عليها. ويجب أن نعلم فى هذا المقام أن من الإساءة ما يجوز أن يتولى المرء بنفسه المجازاة عليها، كاللطمة أو الشتمة. ومنها ما لا يجوز، بل لابد أن يتولاها إمام المسلمين بواسطة أعوانه، منعًا للفوضى وانتشار الشر، كالقذف بالزنا والقتل وغير ذلك مما تقدم بعضه فى الآية (٤٥) من سورة المائدة صفحتى ١٤٥، ١٤٦، والحكمة فى كثرة الحث على الصفح والعفو فى هذه السورة المكية أن ما ذكر حكم جواز مقابله السيئة بمثلها، وإن كان هو حكم الإسلام الدائم لكنه لم يأت زمانه ما داموا فى مكة وهم قلة ضعيفة ليس لهم قوة تنفيذ الأحكام. وإنما ذكرت هذه الأحكام ليسمع أهل مكة عدالة الإسلام وسماحته وإن كان تنفيذ البعض يتوقف على تمام نظام الدولة. فما هنا نظير ما قيل فى الآية (١٠٩) من سورة البقرة صفحة ٢١.

وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ۗ وَتَرَى
الظَّالِمِينَ[1] لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن
سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ[2] يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ[3] مِنَ
الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا[4] إِنَّ
الْخَاسِرِينَ[5] الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[6] ۗ
أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ[7] فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم
مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ
فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ
يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ[8] يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم
مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ[9] عَلَيْهِمْ
حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ[10] ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ[11]
مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ

المفردات: ﴿من يضلل الله﴾: انظر شرح الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨.

﴿من ولى﴾: (من سبيل)، (من أولياء)، (من ملجأ)، (من نكير): (من) فى كل ذلك حرف يفيد النص على عموم ما بعدها.

﴿هل﴾: حرف استفهام مراد به تمنى حصول ما بعده كحرف (ليت) فى الآية (٢٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦. ﴿مرد﴾: أى رد إلى الدنيا ورجوع إليها حتى نتوب. ﴿عليها﴾: أى على جهنم المفهومة من المقام فى الآية (٤٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨.

﴿من طرف﴾: أصل معنى طرف العين هو تحريك جفنها. ويطلق على الجفن نفسه. وعلى جانب العين، ومنه قول الشاعر: إن العيون التى فى طرفها حور.. إلخ، أى فى جانبيها. والمراد: يسترقون النظر إلى جهنم بطرف عين خفى معظمها تحت الجفن من شدة الخوف؛ أما فى الموقف قبل ذلك فعيونهم لا تطرف من شدة الهول كما سبق فى الآية (٤٣) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٦؛ وقبيل موقف الحساب تضطرب أبصارهم ولا تستقر على حال لحيرتها وعدم معرفتها المصير المجهول، انظر الآية (٣٧) من سورة النور صفحتى ٤٦٣، ٤٦٤.

﴿خسروا أنفسهم وأهليهم﴾: تقدم فى الآية (١٥) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨.

﴿ألا﴾: حرف يراد به تنبيه السامع للعناية بتأمل ما بعده. ﴿الظالمين﴾: المراد بهم المشركون، انظر الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠. ﴿مقيم﴾: أى دائم.

---

(١) الظالمين. (٢) تراهم. (٣) خاشعين.
(٤) آمنوا. (٥) الخاسرين. (٦) القيامة.
(٧) الظالمين. (٨) ملجأ. (٩) أرسلناك.
(١٠) البلاغ. (١١) الإنسان.

﴿أولياء﴾: أى أعوانا. ﴿استجيبوا لربكم﴾: أى أجيبوا دعوته تعالى بسرعة وعزم وإخلاص، كما تقدم فى الآية (٢٦) من هذه السورة. ﴿لا مرد له﴾: المرد هو الرد أى لا يرده الله تعالى بعد ما حكم بإتيانه. ﴿ملجأ﴾: أى مكان تلجأون إليه. ﴿نكير﴾: النكير أى الإنكار، والمراد: لاتستطيعون ذلك بعد شهادة جوارحكم وكتبكم والملائكة عليكم، انظر الآية (٢٠) من سورة فصلت صفحة ٦٢٢. ﴿حفيظا﴾: أى مراقبا مهيمنًا عليهم، ترغمهم على الإيمان. ﴿إن عليك﴾: ﴿إن﴾: حرف نفى بمعنى (ما). ﴿الإنسان﴾: المراد به الجنس فمعناه الناس ونظيره الطفل فى الآية (٣١) من سورة النور صفحتى ٤٦١، ٤٦٢؛ ولذا جاء ضمير الجمع بعدها.

المعنى: بعد ما ذكر سبحانه جزاء منْ يبغون بغير الحق أتبع ذلك ببيان أنهم لما اختاروا طريق الشر جازاهم الله بأن زاد ضلالهم، ومن يضلله سبحانه فما له ناصر يتولى أمره من بعد إضلاله تعالى، ثم بين عاقبتهم يوم القيامة فقال: وترى الظالمين.. إلخ، أى وترى يا من يصح أن ترى فى ذلك اليوم هؤلاء الباغين الظالمين حين يشاهدون عذاب جهنم يتمنون الرجوع إلى الدنيا حتى يعلموا غير الذى كانوا يعملونه. وتراهم أيضًا فى ذلك اليوم وهم يعرضون على النار حال كونهم خاشعين خشوع ذل، ينظرون إلى النار من طرف خفى جزعًا كما ينظر من قدم للقتل إلى السيف فلا يقدر على فتح عينيه فيه. وإنما ينظر إليه بجزء منها وعند ذلك يقول المؤمنون: إن هؤلاء الخاسرين هم الذين خسروا أنفسهم فأدخلوها النار، وخسروا أهليهم فلم يتمتعوا بهم فى الجنة، ثم صدق سبحانه كلام المؤمنين فقال: ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم، أى خالد. ولا يجدون لهم أعوانا ينقذونهم غير الله كما كانوا يزعمون أن معبوداتهم تشفع لهم. ومن يضلله الله فليس له طريق إلى الهداية كما فى الآية (١٨٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣، والآية (١٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٢. وبعد ما ذكر سبحانه ما سيلاقونه من الأهوال حذرهم من يوم القيامة فقال: استجيبوا.. إلخ، أى أجيبوا داعى الله للإيمان والطاعات قبل أن يأتى يوم لا رد له منه تعالى بعدما حكم بأنه لابد منه. فإذا جاء هذا اليوم فليس لكم حصن تلجأون إليه يحميكم من عذابه. ولا تستطيعون إنكار ما حصل منكم. ثم خفف سبحانه الأمر على نبيه إذا أعرضوا فقال: فإن أعرضوا.. إلخ، أى فإن أعرض مشركو قومك عن الحق فدعهم وشأنهم، لأننا لم نرسلك مسيطرًا عليهم تجبرهم على الهداية فما عليك إلا إبلاغهم ما أمرك به ربك كما فى الآية (٢٧٢) من سورة البقرة صفحة ٥٨، ثم بين سبحانه أنهم من أغلب الناس الذين فسدت طباعهم فقال: وإنا إذا أذقنا..

أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ(1) كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ(2)
وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا(3)
وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا
وَإِنَاثًا(4) وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾
۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ(5)
حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ
عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ
أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ(6) وَلَا الْإِيمَانُ(7) وَلَٰكِن
جَعَلْنَاهُ(8) نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ
لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ(9) مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ(10) اللَّهِ الَّذِي
لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ(11) وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ
الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

إلخ، أى وإنا إذا أعطينا أولاد آدم من فضلنا سعة رزق وصحة وأولادا.. صرفوا همهم للفرح بها. ونسوا شكر معطيها. وإن تصبهم سيئة كفقر أو مرض أو فقد ولد بسبب ماقدمت أيديهم.. إلخ.

المفردات: ﴿كفور﴾: أى شديد كفران نعم ربه.

﴿إناثا﴾: جمع أنثى، وقدمهن فى مقام التفضل لتسفيه بعض العرب فى كراهة البنت، كما فى الآية (٥٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٢.

﴿الذكور﴾: جمع ذكر.

﴿يزوجهم﴾: الضمير المنصوب وهو (هم) مراد به الأولاد الموهوبين، والتزويج جعل الشىء زوجا، ذكرا وأنثى أى صنفين.

﴿ذكرانا وإناثا﴾: ذكرانا جمع ذكر. وهما حالان من الأولاد المشار إليهم فيما سبق أى يجعل الأولاد أزواجا أى صنفين حال كونهم ذكورا وإناثا.

---

(١) الإنسان.
(٢) السموات.
(٣، ٤) إناثا.
(٥) وراء.
(٦) الكتاب.
(٧) الإيمان.
(٨) جعلناه.
(٩، ١٠) صراط.
(١١) السموات.

﴿عقيما﴾: لا ولد له.

﴿وحيا﴾: المراد بالوحى هنا إلقاء شيء فى القلب يجعل صاحبه لا يشك فى أنه من عند الله. كما حصل لأم موسى فى الآية (٧) من سورة القصص صفحتى ٥٠٦، ٥٠٧.

وقد يكون ذلك عن طريق رؤيا منامية، يشعر صاحبها أنها من عند الله قطعًا، كما فى الآية (١٠٢) من سورة الصافات صفحتى ٥٩٢، ٥٩٣. ﴿من وراء حجاب﴾: كما حصل لموسى عليه السلام فى الآيات (٣٠) وما بعدها من سورة القصص صفحة ٥١١.

﴿يرسل رسولا﴾: كما حصل لنبينا ﷺ ولبقية الأنبياء فقد كان جبريل يأتيهم بالوحى.

﴿فيوحى﴾: أى يلقى ويبلغ.

﴿روحا من أمرنا﴾: هو القرآن، وقد تقدم المراد من ذلك فى الآية (٨٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦.

﴿الكتاب﴾: هو القرآن.

﴿ألا﴾: حرف يدل على تنبيه السامع لما بعده.

المعنى: إن الناس إذا أصابتهم مصيبة فإنهم بدل أن يرجعوا إلى الله بطلب كشفها والعزم على عدم العودة لأسبابها يهملون ذلك، انظر الآية (٤١) من سورة الروم صفحة ٥٣٦. أوينسون النعم الماضية حتى كأنها لم تكن. وسبب ذلك أن الإنسان شديد كفران النعم. فلا يشكر المنعم بها.

ولما ذكر سبحانه أنه هو وحده واهب النعم. وأن الإنسان قد يصاب بالشر فيضجر بدل أن يصبر. أتبع ذلك سبحانه بأنه هو صاحب التصرف فى ملكه. وأنه يقسم النعم وغيرها كما يشاء حسب حكمته لا كما يشتهى الإنسان. وبذلك لا يجوز إلا شكره والتسليم له. فقال: (لله ملك السموات والأرض).. إلخ ثم فصل سبحانه بعض هذه الأعمال فقال: (يهب لمن يشاء).. إلخ. أى يجعل أحوال عباده فى الأولاد مختلفة، فيهب للبعض صنفًا واحدًا إناثًا أو ذكورًا. ويهب للآخر الصنفين فيرزقهم ذكورًا وإناثًا.

ويحرم البعض منهما فيجعله بلا ولد. إنه سبحانه عليم قدير. فإذا علم أن الحكمة فى عمل شيء فلا يعجزه شيء عن عمله. ولما كان كفار مكة يجهدون أنفسهم فى محاربة دعوته ﷺ. وكانوا يطلبون طلبات تعنتية كما فى الآية (٩١) وما بعدها من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦. وكان من تعنتهم أنهم يتصلون بأهل الكتاب لعلهم يسمعون منهم ما يساعدهم كما فى شرح الآية (٥١) من سورة النساء صفحة ١٠٩، والآية (١٩) وما بعدها من سورة الأنعام صفحتى ١٦٤، ١٦٥.

لما كان كل هذا معروفًا عنهم، قال أبو حيان: إن كفار مكة اتصلوا بأهل الكتاب وسألوهم كيف كان موسى يكلم ربه؟ فأضلوهم وقالوا: إنه كان يكلم ربه وهو ينظر إليه. فقالوا له ﷺ: إن كنت صادقا فكلم ربك وأنت تنظر إليه كما فعل موسى.

فأنزل سبحانه وما كان لبشر.. إلخ. أى ما صح لفرد من بنى آدم أن يكلمه الله إلا بإحدى طرق ثلاث: الأولى أن يوحى إليه وحيا بإلهام أو فى المنام. والثانية أن يكلمه من وراء حجاب فيسمع صوتا ولا يرى متكلما.

والثالثة أن يرسل إليه رسولا من الملائكة فيلقى إليه بإذنه تعالى ما يشاء تبليغه إليه. ولما كان ظاهر ما سبق ربما يوهم مماثلته تعالى للحوادث. دفع سبحانه ذلك بقوله: إنه علىّ حكيم. علىّ أى بعيد عن صفات الخلق. حكيم فيما يصنع. فيكلم تارة بواسطة وأخرى بغيرها وبعدما بيَّن سبحانه أقسام الوحى ذكر سبحانه أنه أوحى إلى رسوله كما أوحى إلى الأنبياء قبله فقال: (وكذلك).. إلخ. أى كما أوحينا إلى جميع رسلنا من قبل أوحينا إليك هذا القرآن الذى هو سر من أسرارنا تحيا به القلوب وما كنت قبله تدرى ما هذا القرآن. وما شرائع الإيمان. ولكن جعلنا هذا القرآن نورا عظيمًا. نهدى به مَنْ نشاء هدايته من عبادنا ونوصله للصواب. وإنك أيها النبى ترشد الخلق بواسطة هذا النور إلى صراط مستقيم هو دين الإسلام. ثم فسر هذا الصراط بأنه صراط الله.. إلخ. أى هذا الطريق هو الطريق الذى شرعه مالك السموات والأرض وما فيهما ويعلم مصالح أهلها. وفى النهاية ترجع جميع أمور الخلق إليه سبحانه لا إلى غيره. فلا يصح أن يتوجه المشركون لغيره بالعبادة. تعالى الله عما يقول المبطلون علوا كبيرا. والله تعالى أعلم.

(٤٣) سُورَةُ الزُّخْرُفِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَثَمَانُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ[1] ﴿١﴾ وَالْكِتَٰبِ[2] الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ[3] قُرْءَٰنًا[4]
عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ الْكِتَٰبِ[5] لَدَيْنَا
لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ
قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾
وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ[6] ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ
أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن[7] سَأَلْتَهُم
مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ[8] وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ
الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ

سورة الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿حم﴾: تقدم كيفية النطق بها في أول سورة فصلت صفحة ٦٢٩.

﴿عربيًا﴾: انظر حكمة ذلك في شرح الآية (٣٧) من سورة الرعد صفحتي ٣٢٧، ٣٢٨. والآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩.

﴿أم الكتاب﴾: تقدم في الآية (٣٩) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨. أن المراد: اللوح المحفوظ المذكور في الآية (٢٢) من سورة البروج صفحة ٨٠٢. ﴿لعلى﴾: أي مرتفع ومهيمن على كل ما سبقه من الكتب يقر الصالح منها وينسخ بعضها، ويبطل ما دخلها من التحريف؛ انظر الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦.

﴿أفنضرب عنكم﴾: تقول العرب ضربت الإبل عن الحوض. أي نحيتها عنه: والهمزة للاستفهام الإنكاري المفيد للنفي، أي لا نبعد عنكم الذكر. ﴿الذكر﴾: المراد به هنا: هو التذكير بما في القرآن من العبر والأدلة والأحكام. ﴿صفحًا﴾: أصل الصفح الإعراض والمراد به هنا: اسم الفاعل، أي ﴿معرضين﴾ وهو حال من فاعل نضرب.

﴿إن كنتم﴾: أصله (لأن كنتم): أي لكونكم. ﴿مسرفين﴾: أي متجاوزين الحد في الضلال، والمراد: لابد من تذكيركم لتقوم عليكم الحجة يوم القيامة. ﴿وكم﴾: أي كثيرًا. وبيَّن هذا

---

(١) حا ميم بكسر الميم الأولى وسكون الياء والميم الثانية. (٢) الكتاب.
(٣) جعلناه. (٤) قرآنا.
(٥) الكتاب. (٦) يستهزئون.
(٧) ولئن. (٨) السموات.

الكثير بكونه (من نبى) أى كثيرًا من الأنبياء. ﴿وما يأتيهم من نبى﴾: (من) هنا تدل على النص على عموم ما بعدها. ﴿بطشًا﴾: البطش هو أخذ الشىء بقوة وشدة، انظر الآية (١٣٠) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٧، ٤٨٨، والآية (١٩) من سورة القصص صفحتى ٥٠٨، ٥٠٩.

﴿مضى﴾: أى سبق ذكره فى القرآن غير مرة. ﴿مثل الأولين﴾: أى حالهم العجيبة وما حصل لهم. ﴿الذى جعل لكم الأرض.. ﴾ إلى قوله تعالى .. ﴿لمنقلبون﴾: من كلامه تعالى، وجاء به لتوبيخهم على الشرك بعد اعترافهم بأنه سبحانه وتعالى هو الخالق.

المعنى: ﴿حم﴾.. تقدم المراد بمثل هذه الحروف المفردة أول سورة البقرة.. وحق الكتاب الموضح لطريق الصواب. إنّا صيرناه قرآنًا بلغة هؤلاء العرب ليفهموا معانيه حتى لا يتعللوا بعدم فهمه لو نزل بلغة أخرى، وأن هذا القرآن لعلى الشأن عندنا فى اللوح المحفوظ ذو حكمة فائقة، ثم وجه سبحانه الخطاب لمشركى العرب منكرًا عليهم اشمئزازهم من سماع القرآن فقال: أفنضرب.. إلخ. أى لا تظنوا أننا لأجل إسرافكم فى الكفر نترككم هملاً وننصرف عن تذكيركم بما فى القرآن من حجج دالة على صدقه. كلا بل لابد من تذكيركم، لا طمعًا فى إيمانكم لأننا نعلم أن الذكرى لا تنفع المعرضين عن التأمل فيما يوصل للهداية، انظر الآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦، ولكن نذكركم لتقوم عليكم الحجة، فتغلق عليكم الأعذار الكاذبة يوم القيامة، انظر الآيات (١٦٥) من سورة النساء صفحة ١٣١ و (١٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، و (١٣٤) من سورة طه صفحة ٤١٩.

ثم شرع سبحانه فى تخفيف ألمه ﷺ من استهزاء قومه وتهديد كفار قريش فقال: وكم أرسلنا.. إلخ. أى كثيرًا من الأنبياء أرسلناهم إلى من سبقك من الأمم وكانوا لا يأتيهم نبى مثلك إلا استمروا على الاستهزاء به. ثم شرع فى تهديد كفار مكة فقال: (فأهلكنا).. إلخ. أى فأهلكنا تلك الأمم التى كذبت رسلها وكانوا أشد سطوة من هؤلاء المشركين. ثم شرع فى تسفيه عقولهم بأن عملهم يخالف قولهم فقال: (ولئن سألتهم).. إلخ. أى والله لئن سألت أيها النبى كفار قومك عمن خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن الله العزيز الغالب الذى لا يغلب، العليم بكل شىء. ثم قرر سبحانه اعترافهم وذكر لنفسه ست صفات توجب توبيخهم على عدم التوحيد.. فقال: (الذى جعل لكم).. إلخ. أى هو الله الذى جعل لكم الأرض مقرًا سهلاً كالمهد الذى ينام عليه الطفل.

لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ
تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ[1] كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ
الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ[2] مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا[3] عَلَىٰ ظُهُورِهِ
ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ[4]
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ
رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ
الْإِنسَانَ[5] لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ
وَأَصْفَاكُم[6] بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ
لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾
أَوَمَن يُنَشَّأُ[7] فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾
وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ[8] الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ[9] الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا[10] ۚ أَشَهِدُوا

المفردات: ﴿بقدر﴾: أى بمقدار معين اقتضته.

﴿فأنشرنا﴾: أى أحيينا. كما فى الآية (٢١) من سورة الأنبياء، صفحة ٤٢٢، وتغير الأسلوب من الغيبة إلى التكلم تقدمت حكمته فى شرح الآية (٩٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩، والآية (٥٣) من سورة طه صفحة ٤١٠.

﴿ميتا﴾: المراد: لا نبات بها. انظر الآية (٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠١، ٢٠٢.

﴿الأزواج﴾: تقدم فى الآية (٣٦) من سورة يس صفحة ٥٨٢.

﴿الفلك﴾: السفن. ﴿الأنعام﴾: المراد بها هنا: الإبل فقط دون بقية أنواع الأنعام؛ لأن الكلام بعدها يدل على ذلك.

﴿تستووا على ظهوره﴾: المراد: تستقروا على ظهور ما ذكر.

﴿مقرنين﴾: تقول العرب: أقرن فلان الشىء إذا أطاقه، وقوى عليه، والمعنى وما كنا مطيقين ولا مخضعين لها لولا تسخير الله سبحانه وتعالى.

---

(١) الأزواج.
(٢) الأنعام.
(٣) لتستووا.
(٤) سبحان.
(٥) الإنسان.
(٦) أصفاكم.
(٧) ينشأ.
(٨) الملائكة.
(٩) عباد.
(١٠) إناثا.

﴿منقلبون﴾: أى راجعون.

﴿جزءًا﴾: المراد بهم: الملائكة حيث قالوا إنها بنات الله. والولد جزء من والده، انظر الآية (١٩) الآتية، والآية (١٥٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩٦.

﴿لكفور﴾: أى شديد الكفر. ﴿مبين﴾: أى ظاهر الكفر.

﴿أم اتخذ﴾: (أم) تفيد معنى بل التى للانتقال من موضوع لآخر، مع معنى همزة الاستفهام التوبيخى، انظر الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢، والمراد هنا: ليس الأمر كما يظنون.

﴿أصفاكم﴾: أى اختار لكم.

﴿بما ضرب للرحمن مثلا﴾: المراد بالبنات التى جعلها لله مثيلا؛ لأن الولد مماثل لأبيه.

﴿ظل﴾: أى صار. ﴿كظيم﴾: مملوء القلب همًا وكربًا، انظر الآية (٥٨) وما بعدها من سورة النحل صفحة ٣٥٢.

﴿أوَمَنْ﴾: الهمزة للاستفهام المفيد للإنكار والتسفيه. والواو عاطفة على مقدر. والأصل هل تجرءوا وجعلوا مَنْ ينشأ.. إلخ ولدا لله تعالى.

﴿ينشأ﴾: أى يربى. ﴿فى الخصام﴾: أى فى المحاجة والمجادلة.

﴿غير مبين﴾: غير موضح لحجته، للعجز عن مجاراة الرجال فى مشاكل المجادلة.

المعنى: الله الذى جعل لكم فى الأرض طرقًا لتهتدوا إلى مقاصدكم. وهو الذى نزل من السماء ماء بمقدار حاجتكم ولم يجعله طوفانًا فيغرق، انظر شرح الآية (١٣٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢. ولا قليلا جدا فتجف الأرض ويظمأ الحيوان فيهلك. فأحيا بهذا الماء المقدر أرض بلد لا نبات به فصارت مخضرة. وكما أخرج النبات من الأرض يخرجكم سبحانه من القبور يوم القيامة للحساب والجزاء. وهو سبحانه الذى خلق أصناف الحيوان والنبات والأشجار، وجعل لكم من السفن والإبل ما تركبونه فى أسفاركم الطويلة، لكى تستقروا بكل سهولة على ظهور ما تركبون ثم تتذكروا بقلوبكم نعمة ربكم عليكم بمجرد استقراركم عليه. وتقروا بألسنتكم تنزيهه سبحانه مما لا يليق به قائلين: سبحان الذى هيأ لنا هذا. ولولا

تسهيله ما كنا نقدر على تسيير السفن فى البحار، ولا إخضاع الإبل لقطع الصحارى والقفار. وإنا فى النهاية لراجعون إلى ربنا بعد مماتنا لمحاسبتنا على ما قابلنا به نعمه. فلله ما أسمى تعاليم الإسلام التى ترشد العبد إلى دوام مراقبة ربه فى كل حركة من حركاته. وتذكره دائمًا بأنه سيلاقى ربه فلا يفعل إلا ما يرضيه. ثم بيَّن سبحانه أن مشركى العرب متناقضون إذ يعترفون بأن الخالق للعالم هو الله العزيز العليم. ثم بعد ذلك يعبدون الملائكة ويسمونها بنات الله. فقال: (وجعلوا له) .. إلخ. أى جعل كفار مكة لله جزءًا من عباده مع أن الحادث يستحيل أن يكون جزءًا من القديم. إن أغلب الناس ومنهم هؤلاء شديدو الكفر بربهم. ثم زاد سبحانه فى الإنكارعليهم والتعجب من تناقضهم مشيرًا فى أثناء كلامه إلى ما يبطل زعمهم فقال: (أم اتخذ).. إلخ. أى بل هل يصح أن يتخذ سبحانه من بعض خلقه بنات له فقط، ويختار لكم البنين مع البنات، مع أنكم إذا بشر أحدكم بالأنثى صار وجهه أسود من الكآبة وامتلأ قلبه همًا. ثم كرر سبحانه الإنكارفقال: (أو من ينشأ).. إلخ. أى هل تجاسروا وجعلوا الأنثى= التى تربَّى محاطة بكل ما يزينها فى نظر الرجل لما فى طبعها من الوداعة والميل إلى رجل يحميها من خطوب الزمان. وهى أيضا ضعيفة فى ميدان المجادلة مع الرجال. فلا تقدر على سلوك تعاريجها الوعرة = جعلوها لله ولهم الذكر. ثم صرح سبحانه بما فيه تسفيههم من عدة وجوه فقال: (وجعلوا الملائكة).. إلخ، أى سموا الملائكة الذين هم عباد من عباد الرب الرحمن، سموهم بنات فجمعوا الكفر من وجوه. أولها: نسبتهم الولد لله تعالى. الثانى: أنهم جعلوا له تعالى ما يكرهون. الثالث: أنهم استخفوا بالملائكة وهم عباد مكرمون، فجعلوهم من النوع الذى لا يحبونه، انظر آيتى (٢١، ٢٢) من سورة النجم صفحة ٧٠١. ثم أبطل سبحانه مزاعمهم بقوله: (أشهدوا خلقهم).. إلخ، أى هل كانوا حاضرين عندما خلقنا الملائكة.. إلخ، انظر الآية (١٤٩) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٥.

المفردات: ﴿شهادتهم﴾: المراد بها: قولهم الذى أكدوه بأيمانهم من أن الملائكة بنات الله.

﴿لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾: تقدم مرادهم بذلك فى الآية (١٤٨) من سورة الأنعام صفحة ١٨٨، وانظر الآية (٣٥) من سورة النحل صفحتى ٣٤٩، ٣٥٠.

خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ
شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ
إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ
مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ
وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا
مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ
ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾
۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ
قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى
فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ

﴿من علم﴾: (من) لإفادة النص على عموم نفى ما بعدها.

﴿إن هم﴾: (إن) حرف بمعنى (ما) النافية.

﴿يخرصون﴾: أى يكذبون؛ انظر الآية (١١٦) من سورة الأنعام صفحة ١٨٢.

﴿أم﴾: تقدم معناها فى الآية (١٦) السابقة.

﴿كتابا﴾: المراد: سندا وحجة تثبت لكم صدق دعواكم، انظر الآية (٣٥) من سورة الروم صفحة ٥٣٥، والآية (٤٤) من سورة سبأ صفحة ٥٦٩، والآية (١٥٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٦.

﴿مستمسكون﴾: أى متمسكون بقوة فى عبادة الأصنام.

﴿على أمة﴾: أى على طريقة وملة، انظر الآية (٩٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٠.

﴿وإنا على آثارهم﴾: المراد على طريقتهم، انظر الآية (١٠٤) من سورة المائدة صفحتى ١٥٧، ١٥٨.

﴿مهتدون﴾: يريدون مهتدون فى سيرنا على آثار طريقة آبائنا ولم نخطئ.

---

(١) شهادتهم. (٢) يسألون.
(٣) عبدناهم. (٤) آتيناهم.
(٥) كتابا. (٦) آباءنا.
(٧) آثارهم. (٨) آباءنا.
(٩) آثارهم. (١٠) قال.
(١١) آباءكم. (١٢) كافرون.
(١٣) عاقبة. (١٤) إبراهيم.

﴿من نذير﴾: (من) تفيد عموم ما بعدها.

﴿مترفوها﴾: الترف التنعيم، فالمترفون هم الغارقون فى النعيم، انظر الآية (١١٦) من سورة هود صفحة ٣٠١، والآية (١٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦.

﴿مقتدون﴾: قال هنا مقتدون، وفيما سبق (مهتدون)؛ لأن الأول كان فى سياق المحاجة معه ﷺ فناسب أن يدعوا أنهم على هدى لا فى ضلال. أما الثانى فكان فى بيان مجرد الاتباع للآباء بدون دعوى الاهتداء.

﴿لأبيه﴾: هو آزر المذكور فى الآية (٧٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤.

﴿براء﴾: بمعنى برىء. ولكونه فى الأصل مصدرا تطلقه العرب على الواحد والأكثر، والمذكر والمؤنث فيقولون: رجال براء، وامرأة براء، بخلاف (برىء) فإنها توافق موصوفها فتقول: هما بريئان، وهم بُرءؤا كما فى الآية (٤) من سورة الممتحنة صفحة ٧٣٥.

﴿إلا الذى فطرنى﴾: فطرنى أى خلقنى، ولما كان قومه يخلطون عبادتهم لله بالشرك كما فى آيتى (٨١، ٨٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٥. استثنى إبراهيم عليه السلام الله سبحانه وتعالى من البراءة من معبوداتهم فقال: إلا الذى فطرنى.. إلخ. وإطلاق (ما) فى قوله (مما) على الله سبحانه ورد فى آيتى (٣، ٥) من سورة الكافرون صفحة ٨٢٤.

﴿كلمة﴾: أى كلمة التوحيد المفهومة من قوله: ﴿إنى براء﴾.. إلخ.

﴿عقبه﴾: أى ذريته ووصاهم بها فى الآية (١٣٢) من سورة البقرة صفحة ٢٥.

المعنى: بعدما أكد المشركون أن الملائكة بنات الله رد عليهم سبحانه متهكمًا بهم فقال: (أشهدوا).. إلخ، أى هل كانوا حاضرين عندما خلق الله الملائكة وعلموا بالمشاهدة أنهم بنات، ثم هددهم بقوله: ستكتب شهادتهم.. إلخ. أى ستكتب الملائكة قولهم: (إن الملائكة بنات الله) وسيسألون عنه يوم القيامة . ثم ذكر سبحانه عن المشركين نوعًا آخر من الكفر فقال: وقالوا لو شاء الرحمن.. إلخ، أى لو شاء الله منعنا لمنعنا، وحيث لم يمنعنا كان ذلك دليلاً على

رضاه. وهو لا ينهى عما يرضى عنه. فرد سبحانه بقوله: (ما لهم بذلك).. إلخ، أى ليس عندهم أقل علم بما يزعمون وما هم إلا يكذبون؛ لأن المشيئة شىء، والرضا شىء آخر، كما فى الآية (٧) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٦، ٦٠٧. وهم يعلمون ذلك ولكنهم يغالطون كقولهم وأمثالهم فى الآية (٤٧) من سورة يس صفحة ٥٨٣، والآية (١) من سورة المنافقين صفحتى ٧٤٢، ٧٤٣. وبعدما بيَّن سبحانه بطلان قولهم بالعقل أتبعه بدليل بطلانه من النقل فقال: (أم آتيناهم كتابا).. إلخ، أى بل هل أعطيناهم كتابا من قبل هذا القرآن ينطق بصحة ما يدعون فهم به شديدو التمسك؟ وبعدما بيَّن أنه لا حجة عندهم من عقل ولا نقل بيَّن أن الحامل الحقيقى لهم هو مجرد التقليد والجمود على ما كان عليه الآباء، فقال: (بل قالوا إنَّا وجدنا آباءنا على أمة). أى على ملة ونحن سائرون على طريقتهم فى هداية ولسنا ضالين. ثم أراد سبحانه أن يخفف عن رسوله بأن هذا هو عمل كل الأمم السابقة مع أنبيائها فقال: (وكذلك).. إلخ. أى مثل هذا القول الشنيع قالت الأمم الماضية لإخوانك الأنبياء.

فلم نرسل قبلك فى قرية رسولا إلا قال كبراؤها الذين يخافون على نفوذهم إنا وجدنا آباءنا على طريقة وإنا مقتدون بهم فى السير على آثارهم، قال لهم رسولهم: هل تتبعونهم ولو جئتكم بدين أقوى فى الهداية مما وجدتم عليه آباءكم. وإنما قال (أهدى) مع أن ما عليه الآباء ليس فيه هداية أصلا - مجازاة لهم ولِيناً فى خطابهم لعلهم يرجعون. لكنهم لم ينفع فيهم ذلك. وقالت كل أمة لرسولها إنا كافرون بما تزعم إنك أرسلت به من قِبَل الله.

قال سبحانه: فانتقمنا منهم بما بيَّن سبحانه فى الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦. فانظر أيها العاقل على أى حال كانت عاقبة المكذبين.

ثم أراد سبحانه أن ينبه العرب إلى أن أباهم إبراهيم عليه السلام كان على ما يدعوهم إليه محمد ﷺ فقال: (وإذ قال إبراهيم).. إلخ. أى واذكر أيها النبى لقومك تبرؤ إبراهيم مما يعبده أبوه وقومه واعترافه بأنه ليس له إلا إله واحد هو الذى خلقه ويهديه إلى الصواب وجعل كلمة التوحيد خالدة فى ذريته وستبقى ينادى بها بعضهم إلى يوم القيامة.

(الجزء الخامس والعشرون)

٦٥٠

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ(١) حَتَّىٰ
جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ
قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ(٢) ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ
هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ(٣) عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ(٤) رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ(٥) ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ(٦)
لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ(٧) رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً(٨) لَّجَعَلْنَا
لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ
عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا(٩) وَسُرُرًا عَلَيْهَا
يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ(١٠) ٱلْحَيَوٰةِ(١١)
ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ(١٢) عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن

المفردات: ﴿بل متعت﴾: الأصل ولما يرجعوا لم أعاجلهم بالعقوبة، بل متعتهم كما متعت اباءهم من قبل ليزدادوا إثما، انظر الآية (١٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٢.

﴿الحق ورسول مبين﴾: (الحق) هو القرآن. و(الرسول) هو محمد خاتم الرسل ﷺ. و(مبين) واضح ظاهر ثابت الرسالة بماله من المعجزات الخالدة.

﴿لولا﴾: حرف يدل على طلب حصول ما بعده، انظر شرح الآية (٣٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦.

﴿القريتين﴾: يريدون مكة والطائف.

﴿عظيم﴾: يريدون ذا مال وجاه عريض، كالوليد بن المغيرة بمكة، انظر الآيات (١١) وما بعدها من سورة المدثر صفحة ٧٧٦، وعروة بن مسعود بالطائف.

﴿رحمة ربك﴾: المراد بها هنا النبوة. ﴿معيشتهم﴾: أى ما يعيشون به كالطعام والشراب، انظر الآية (٢٠) من سورة الحجر صفحة ٣٣٩.

﴿سخريا﴾: مادة التسخير تدل على إخضاع الشيء لما يراد منه قهرا، كما فى قوله تعالى ﴿وسخر لكم الفلك﴾: وقوله ﴿وسخر لكم الشمس والقمر﴾ انظر آيتى (٣٢، ٣٣) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٤، وأصل معنى (السخرى) هو الذى يقهره غيره فيتسخر له. ولكن المراد هنا: مَنْ ترغمه ظروف الحياة على عمل يأخذ عليه أجرا.

(١) آباءهم. (٢) كافرون.
(٣) القرآن. (٤) رحمة.
(٥) الحياة. (٦) درجات.
(٧) رحمة. (٨) واحدة.
(٩) أبوابا. (١٠) متاع.
(١١) الحياة. (١٢) الآخرة.

﴿أمة واحدة﴾: أى متفقة على الكفر. ﴿لبيوتهم﴾: بدل من (لِمَنْ يكفر) وهو بدل اشتمال، أى لبيوت منْ يكفر. ﴿معارج﴾: أى سلالم والمراد: من فضة أيضًا.

﴿يظهرون﴾: أى يصعدون. ﴿أبوابًا﴾: أى من فضة.

﴿سررا﴾: جمع سرير وهو عند العرب ما يجلس عليه. وقد ينام عليه أيضًا. ويكون مرفوعًا عن الأرض، فإن كان عليه ستائر يسمى أريكة، انظر الآية (١٣) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥.

﴿زخرفًا﴾: أى زينة لبيوتهم ونقوشًا من ذهب وفضة.

﴿إن كل﴾: (إن) حرف بمعنى (ما) النافية.

﴿لما﴾: حرف بمعنى (إلا).

﴿يعش﴾: أى يتعام ويعرض.

المعنى: وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد باقية فيمَنْ صلح من ذريته رجاء أن يرجع إليها مَنْ يقع من ذريته فى الشرك.

ولما لم يرجع كفار قومك أيها النبى متعتهم هم وآباءهم بزخارف الدنيا فشغلهم ذلك عن الله. ونسوا كلمة التوحيد، انظر الآية (٤٤) من سورة الأنبياء ٤٢٥ و (١٦) من سورة الحديد صفحة ٧٢١. ولم أعاجلهم بالعقوبة حتى جاءهم القرآن بما فيه إنقاذهم ورسول منهم واضح الرسالة بما أيده به ربه من المعجزات. ولما جاء هذا القرآن المعجز فبدل أن يرجعوا إلى الحق ويتركوا العناد قالوا هذا سحر وإنا به كافرون. ثم ذكر سبحانه نوعًا آخر من كفرهم وتعنتهم فقال: وقالوا لولا.. إلخ، أى قال كفار مكة إن منصب الرسالة عن الله. لو صح أن يرسل بشرًا. منصب شريف لا يليق إلا برجل عظيم الجاه كثير المال. ومحمد ليس كذلك. فمن الواجب أن يسند إلى الوليد بن المغيرة فى مكة أو عروة بن مسعود الثقفى بالطائف، وكانا أغنى بلديهما، وأوسعهما جاها. وهم فى قولهم هذا جاروا فيه بنى إسرائيل فى تدخلهم فيما لا يعلمون حيث قالوا: ﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه﴾.. الآية (٢٤٧)

من سورة البقرة صفحة ٥١، وكفار مصر فى شأن نبى الله موسى كما سيأتى فى الآيات (٥١) وما بعدها من هذه السورة صفحة ٦٥٢.

فخطأهم سبحانه منكرا عليهم بقوله تعالى: أهم يقسمون رحمة ربك.. إلخ. أى عجيب أمر هؤلاء الناس. هل وضعوا أنفسهم موضع مَنْ يقسم أمر النبوة بين الناس فيختارون لها مَنْ يشاءون ولو لم يكن أهلا لها؛ لأن حقيقة الناس لا يعلمها إلا الله الذى يعلم مَنْ يصلح لها ومَنْ لا يصلح، انظر الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣. ثم بيَّن سبحانه وجه خطئهم فقال: (نحن قسمنا).. إلخ، أى أننا فى هذه الحياة فضلنا بعضهم على بعض فى الغنى والفقر، والقوة والضعف، إلى غير ذلك، لا لكمال فى الغنى، ولا لنقص فى الفقير مثلا، ولكن ليتم نظام الحياة بالتعاون، انظر شرح الآية (٢٧) من سورة الشورى صفحتى ٦٤٢، ٦٤٣. وإذا كانوا قد عجزوا عن توزيع أحوال الناس فى الدنيا فكيف يريدون التدخل فى منصب الرسالة وهو أسمى من كل المناصب. وإذا كانوا لا يحرصون إلا على زخارف الدنيا فهم فى غاية الجهالة. لأن رحمة ربك، وفضله بالنبوة وما يتبعها خير مما يجمعون من حطام الدنيا الفانى، ثم بيَّن سبحانه حقارة الدنيا بالنسبة للآخرة فقال: (ولولا أن يكون الناس).. إلخ. أى ولولا كراهة أن يكون الناس أمة واحدة فى الكفر إذا رأونا لا نعطى المال إلا لكافرين فيرغبون فى الكفر، لولا كراهة ذلك لجعلنا لبيوت مَنْ كفر بالرحمن سقوفا من فضة ومصاعد من فضة يصعدون عليها، وجعلنا لبيوتهم أيضًا أبوابًا من فضة، وجعلنا لهم سررًا عليها يتكئون كما هو شأن الملوك لا يهمهم شىء، وجعلنا لبيوتهم أيضا زخارف من ذهب وفضة. ثم بيَّن سبحانه أن كل ذلك سريع الزوال فقال: (وإن كل ذلك).. إلخ. أى ما كل ما ذكر إلا متاع قصير الأمد زائل قطعًا، والآخرة وما فيها خير فى حكم ربك للمتقين. وأيضًا لولا كراهة أن يكون إيمان الناس خاضعًا لتأثير المال لا حبًا للحق وطلبًا لرضى ربهم، لأغنى الله تعالى كل منْ يؤمن. وبهذا نفقد حكمة امتحان العباد بالتكاليف التى يستحقون جزاء الآخرة على قدر قيامهم بها. أو إهمالها. وبعدما بيَّن سبحانه هذه العبر الساطعة. أراد أن يبين أنه لا يحرم من الانتفاع بها إلا كل أعمى القلب معرض عنها. فقال: (ومنْ يعش).. إلخ.

ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا[1] فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ
لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ[2] بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ
فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ
أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ
أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ[3] مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا
نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى
وَعَدْنَٰهُمْ[4] فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ
أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ[5] مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ
لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ[6] ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ[7] مَنْ أَرْسَلْنَا
مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً[8]
يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ[9] إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

المفردات: ﴿نقيض﴾: أى نهيّئ.

﴿قرين﴾: أى صاحب من شياطين الإنس والجن. انظر الآية (٢٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣، وانظر سبب ذلك فى الآية (٢٧) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٥، ١٩٦.

﴿ويحسبون أنهم مهتدون﴾: أى يتوهمون خطأ أنهم على حق، انظر الآية (٣٠) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦ والآيات (١٠٣) وما بعدها من سورة الكهف صفحتى ٣٩٤، ٣٩٥.

﴿المشرقين﴾: المراد بهما المشرق والمغرب. والعرب تثنى الاسمين المختلفين بلفظ أحدهما. فيقولون مثلاً فى أبى بكر وعمر (العمران)، وفى الشمس والقمر (القمران)، وفى الأب والأم (الأبوان)، انظر الآية (٨٠) من سورة الكهف صفحة ٣٩٢.

﴿إذ ظلمتم﴾: (إذ) ظرف بمعنى حين بدل من (اليوم) قبله وهى داخلة على مقدر: والمراد: حين وضح وثبت لكم ولأهل المحشر ظلمكم لأنفسكم فى الدنيا، وقال ابن هشام فى المغنى: أن (إذ) هنا تفيد التعليل، كما تقدم فى الآية (١٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٢، والمعنى على ذلك: لن ينفعكم اليوم اشتراككم فى العذاب لأجل ظلمكم فى الدنيا، وهل هى فى هذا الحال حرف بمنزلة (لام) التعليل أو ظرف والتعليل مستفاد من قوة الكلام، لا من اللفظ لأنك إذا قلت: ضربت عليا إذ أساء، تريد وقت الإساءة، وأفاد كلامك أن الإساءة هى سبب الضرب.

---

(١) شيطانا. (٢) ياليت. (٣) ضلال.
(٤) وعدناهم. (٥) صراط. (٦) تسألون.
(٧) اسأل. (٨) آلهة. (٩) بآياتنا.

﴿أنكم﴾: فاعل ينفع.

﴿أفأنت تسمع﴾.. إلخ: الهمزة للاستفهام التعجبى. والأصل هل تشقى أيها النبى نفسك فتريد أن تهدى المعرضين عنك الذين وصل حد إعراضهم كأنهم صم وعمى؟ انظر آيتى (٤٢، ٤٣) من سورة يونس صفحة ٣٧٢.

﴿فإما نذهبن بك﴾: المراد: فإن نقلناك من دار الدنيا إلى دار الآخرة.

﴿فاستمسك﴾: أى تمسك بقوة.

﴿ذكر لك﴾.. إلخ: أى شرف لك وفخر، انظر الآية (١٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١.

﴿من دون الرحمن﴾: المراد غيره.

﴿بآياتنا﴾: أى بالحجج والبراهين والمعجزات، انظر الآية (٧٥) من سورة يونس صفحة ٢٧٨، والآية (١٠١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨.

المعنى: وكل مَنْ يعرض عن القرآن نسلط عليه شيطانا عقابا له يقارنه ولا يفارقه، ليزداد إثما فيزداد عقابه. وإن الشياطين ليمنعون عن سبيل الخير.

ويظن هؤلاء المعرضون أنهم مهتدون، ولا عذر لهم فى هذا الظن؛ لأن منشأه الإعراض عن التأمل فيما جاءت به الرسل من البراهين والجرى وراء ما زينته لهم الشياطين مما يتفق وشهواتهم، فأورثهم ذلك تفريطًا أوقعهم فى هذا الخطر، وهم لا يشعرون أنهم وقعوا فى خطر عظيم. وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ رسالة الرسول إليه وعجزه عن الوصول إليها، فهذا له حكم آخر، انظر شرح الآية (١٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، ثم ذكر سبحانه ما سيكون بين المعرض وشيطانه يوم القيامة فقال: (حتى إذا جاءنا).. إلخ، أى إذا جاء هذا المعرض عن القرآن قال لقرينه متحسرًا: يا ليت بينى وبينك مسافة ما بين المشرق والمغرب.

فبئس القرين أنت. فيقول سبحانه لهم توبيخًا: (ولن ينفعكم).. إلخ. أى ولن ينفعكم اليوم حين تبين ظلمكم لأنفسكم اشتراككم مع قرنائكم فى العذاب كما ينفع الواقعين فى مصيبة

واحدة تعاونهم فى تحملها وتسلية بعضهم لتخفيف مشقتها فليس شىء من هذا هنا. بل كل واحد غارق فى همه. لا يشعر بما فيه غيره. ولما كان ﷺ متعبًا نفسه فى سبيل هداية قومه وهم لا يزيدون إلا عنادا واستكبارا. أراد سبحانه أن يطلعه على حقيقة ضمائرهم فى أسلوب تعجبى من تعبه مع من لا يؤمن ولو جاءه بكل آية فقال: (أفأنت).. إلخ. أى هل تحمل نفسك أيها النبى هذا العناء فتريد أن تسمع صوتك لمعرض عنك عنادا فهو كالأصم لا يسمع شيئًا، أو تهدى إلى طريق النجاة مَنْ وضع على بصره غشاوة، فلم ير أدلة الحق. وهى محيطة به حتى صار كالأعمى فهو دائمًا غارق فى ضلال واضح. ثم طمأن سبحانه نبيه بأنه سيعاقبهم حتمًا على عنادهم، فقال: (فإما نذهبن).. إلخ، أى فإن قبضناك أيها النبى إلينا قبل أن نريك عذابهم فإنهم لن يفلتوا منه لإنا منتقمون قطعًا من كل مَنْ يكذب رسلنا. أو نرينك العذاب الذى وعدناهم به. فهو سهل علينا لتمام قدرتنا على ذلك. وقد حصل هذا فلم يفلت واحد من صناديد قريش فى يوم بدر وغيرها إلا مَنْ تحصن بالإسلام، وإذا كان الأمر كذلك. فتمسك بالقرآن الذى أوحيناه إليك إنك على دين مستقيم لا عوج فيه. ثم وبخ سبحانه قريشًا على محاربة القرآن مع أن فيه شرفهم ببقاء لغتهم.

وفى بقائها ذكرهم وشرفهم، فقال: وإنه أى القرآن، لشرف لك ولقومك. وسوف تسألون يوم القيامة عن قيامكم بحقوقه. ثم أراد تسفيه قريش بأنهم خالفوا كل الديانات فقال: واسأل مَنْ أرسلنا من قبلك من رسلنا، أى اسأل أمم وعلماء مَنْ أرسلنا قبلك ممن لم ينحرفوا عن الصواب المشار إليهم فى الآية (١١٣) من سورة آل عمران صفحة (٨١) والآية (٩٤) من سورة يونس صفحة ٢٨١، هل أبحنا لهم فى دياناتهم أن يعبدوا آلهة غير الله؟ فإذا لم تجد إن هذا حصل فبلغ كفار قومك أنهم خالفوا جميع الأنبياء ولم يخالفوك أنت وحدك، وروى عن ابن عباس أن سؤال الرسل كناية عن النظر فى شريعتهم، فيظهر أنها بوحىٍ لا شك فيه، كما يقول العربى: اسأل ديارهم وأطلالها تنبئك عن أخبارهم، وقولهم: سل الأرض مَن شق أنهارها وغرس أشجارها.. إلخ. ولما كان أتباع موسى وعيسى هما الباقيان المشهوران عندهم من أتباع الرسل ذكر سبحانه عيسى عليه السلام فى الآيات (٥٧) وما بعدها من هذه السورة صفحة ٦٥٣، وذكر موسى عليه السلام هنا فقال: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون).. إلخ.

وَمَلَإِيْهِۦ[1] فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ[2] ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا
جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ[3] إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم
مِّنْ ءَايَةٍ[4] إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم[5] بِٱلْعَذَابِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ[6] ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ
فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ[7] أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ[8]
تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا
ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ
أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ[9] مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾
فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ[10] ﴿٥٤﴾
فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا[11] ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ[12] أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾

المفردات: ﴿ملئه﴾: هم كبار قومه.

﴿إذا هم﴾: (إذا) هنا وفى الآية (٥٠) الآتية تفيد سرعة حصول ما بعدها عقب حصول ما قبلها، وتسمى فجائية، انظر الآية (١٠٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٩.

﴿من آية﴾: (من) تفيد النص على عموم ما بعدها و(آية) أى معجزة.

﴿أكبر من أختها﴾: المراد قوية جدًا حتى يخيل للناظر أنها أكبر مما سبقها ، كما تقول فى رجال كلهم فرسان: كل واحد منهم أمهر من غيره. تريد أنهم جميعًا مهرة.

﴿أخذناهم بالعذاب﴾: المراد قهرناهم وأذللناهم بالمصائب المذكورة فى الآية (١٣٣) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢.

﴿الساحر﴾: يريدون موسى عليه السلام وكان الساحر فيهم عظيمًا يوقرونه. ولم يكن السحر عندهم صفة ذم. فمرادهم يا أيها العالم الماهر، ولذلك نادوه بوصف الرسول عند الاستعانة به، انظر الآية (١٣٤) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢.

﴿بما عهد عندك﴾: المراد بإكرامه لك بجعلك رسولا، كما تقدم فى (١٣٤) المشار إليها سابقًا. ﴿ينكثون﴾: أى ينقضون العهد. ﴿مهين﴾: أى ضعيف حقير ليس معه جند ولا خدم.

﴿يبين﴾: أى يوضح مراده، انظر الآيات (٢٧، ٢٨) من سورة طه صفحة ٤٠٨ و(٣٤) من سورة القصص صفحة ٥١١. ﴿لولا﴾: حرف يدل على الرغبة فى حصول ما بعده.

---

(١) ملئه. (٢) العالمين. (٣) بآياتنا.
(٤) آية. (٥) أخذناهم. (٦) يأيها.
(٧) يا قوم. (٨) الأنهار. (٩) الملائكة.
(١٠) فاسقين. (١١) آسفونا. (١٢) فأغرقناهم.

﴿ألقى عليه﴾: أى ألبسه مَنْ أرسله. ﴿أسورة﴾: جمع سوار وكانوا إذا جعلوا رجلا رئيسا عليهم ألبسوه سوارا من ذهب. ﴿مقترنين﴾: أى مقترنين به، ومصاحبين له، ويكونون من أتباعه يساعدونه على تأديب مَنْ يخالفه. ﴿آسفونا﴾: أى أغضبونا.

المعنى: ولقد أرسلنا موسى مؤيدًا بالمعجزات إلى فرعون وقومه خصوصًا كبارهم لأنهم القادة. فقال موسى: يا فرعون إنى رسول رب العالمين إليك وإلى قومك لتؤمنوا وترسلوا معى بنى إسرائيل، انظر الآية (٤٧) من سورة طه صفحة ٤٠٩، والآية (١٣٤) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢. عند ذلك طلب منه فرعون بيان تلك المعجزات كما فى الآيات (١٠٥) إلى (١٠٨) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٩، ٢١٠. فلما جاء بالمعجزات فاجأوه بالضحك منها سخرية من غير تأمل زاعمين أنها سحر، وأنهم أقوى منه وأبرع فيه، انظر الآية (٣٦) من سورة القصص صفحة ٥١٢. وما أريناهم من آيات إلا كانت غاية فى القوة. وأصبناهم بأنواع من العذاب ليرجعوا عن الكفر إلى الإيمان. وكانوا كلما نزل بهم عذاب من الطوفان والجراد وغيرهما لجئوا إلى موسى قائلين أيها العالم العظيم ادع لنا ربك متوسلا بما أكرمك به من عهده لك بجعلك رسولا. ونعاهدك إن كشفت عنا العذاب أن نكون من المهتدين المؤمنين بك. فلما كشفنا عنهم العذاب أسرعوا إلى نقض العهد فى كل مرة. وبعد الكشف آخر مرة، خاف فرعون أن يؤثر ذلك فى القبط فيؤمنوا. فعمد إلى التهويش وجمع كثيرًا منهم كما فى الآية (٢٣) وما بعدها من سورة النازعات صفحة ٧٩٠، ونادى فيهم قائلاً: يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار المتفرعة من النيل تجرى من تحت قصورى؟ هل عميت عيونكم فلا تبصرون ذلك؟ فتستدلون به على عظيم منزلتى وضعف موسى. وبعدما افتخر بالملك والسلطان انتقل يفتخر بالمزايا الشخصية فقال: ﴿أم أنا خير﴾.. إلخ. أى بل أنا خير بما لى من العظمة وقوة البيان من موسى الحقير الذى لا يقدر على الإفصاح عما يريد، ثم بالغ فى التضليل فقال: ﴿فلولا ألقى﴾.. إلخ. أى إذا كان رسول إله قادر غيرى كما يقول فهلا ألبسه أسورة من ذهب وأرسل معه ملائكة تقارنه وتعينه على أعدائه؟ وبهذا استخف فرعون عقول قومه فأطاعوه وغفلوا عن قوة البراهين؛ لأنهم قوم داوموا على الفسق والخروج عما تقتضيه العقول السليمة. ثم بيَّن سبحانه جزاءهم الأخير فقال: ﴿فلما آسفونا﴾.. إلخ. أى فلما أغضبونا بعد طول الحلم انتقمنا منهم بالعذاب العاجل. فأغرقناهم أجمعين.

جَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ * وَلَمَّا ضُرِبَ
ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟
ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ
مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً
فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ
بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ
ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾
فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ

المفردات: ﴿سلفا﴾: السلف أى المتقدم والمراد متقدمين على غيرهم فى الفزع والخوف وأشد العذاب من أول دخولهم القبر وإلى يوم القيامة، كما فى الآية (٤٦) من سورة غافر صفحة ٦٢٤.

﴿مثلا﴾: أى حديثا عجيبًا يسير بين الناس مسير المثل، يقول الناس فى الضالين: (مثل بنى فلان كمثل قوم فرعون) أى فى الضلال والعماية. (ضرب ابن مريم مثلاً): أى لما جعل زعيم من كفار مكة عيسى مثلا لما عبد من دون الله ليحتجوا به على نجاتهم ونجاة أصنامهم من النار كما سيأتى.

﴿إذا﴾: تقدمت فى الصفحة السابقة.

﴿قومك﴾: أى كفار قريش.

﴿منه يصدون﴾: (منه) أى من قول هذا الرجل.

﴿يصدون﴾: أى يضجون بالضحك زاعمين أنهم أفحموا الرسول ﷺ.

﴿ما ضربوه لك إلا جدلا﴾: أى ما جعلوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدل والعناد لا لطلب الحق.

﴿بل هم قوم خصمون﴾: (بل) حرف يدل على الانتقال من بيان العلة وهى حب الجدل إلى بيان سببها وهو أنهم معرفون بشدة الخصومة؛ (خصمون) أى شديدو الخصومة.

(١) فجعلناهم. (٢) للآخرين. (٣) جعلناه.
(٤) إسرائيل. (٥) ملائكة. (٦) صراط.
(٧) الشيطان. (٨) بالبينات. (٩) صراط.

﴿إن هو﴾: (إن) حرف نفى بمعنى (ما).

﴿مثلاً لبنى إسرائيل﴾: أى كالمثل السائر فى غرابته، يستدل به على قدرته سبحانه وتعالى على ما يشاء، انظر الآية (٥٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٠.

﴿لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون﴾: (منكم) (من) بمعنى بدل أى بدلكم، ومثلها (من) فى الآية (٣٨) من سورة التوبة صفحة ٢٤٧؛ إذا علمنا من الآية (٣٠) من سورة البقرة صفحتى ٧، ٨ أنه سبحانه اختار لعمارة الأرض بنى آدم دون الملائكة؛ لأن حاجتهم إلى الغذاء والكساء هى التى تحملهم على العمل فيها ليحصلوا على ما يحفظ بقاءهم. والملائكة ليسوا فى حاجة إلى ذلك فلا يصلحون لعمارة الأرض. نقول إذا علمنا هذا، نعلم أن كلمة (الملائكة) هنا ليس المراد بها ظاهرها. بل المراد خلقًا آخر يشبه الملائكة فى الإيمان والطاعة وعدم العصيان فى شىء مطلقا، وذلك أسلوب عربى فصيح جاء منه فى القرآن قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين﴾ الآية (٢٠) من سورة المائدة صفحة١٤٠، إذ لم يجعل الله بنى إسرائيل كلهم ملوكًا، بل كالملوك فى الاستغناء عن الغير، وغير ذلك. فالكلام هنا من قبيل ما فى الآيات (٩٩) من سورة يونس صفحة ٢٨١ و (٣١) من سورة الرعد صفحة ٣٢٦ و (٩) من سورة يونس صفحة ٢٨١ و (٣١) من سورة الرعد صفحة ٣٢٦ و (٩) من سورة النحل صفحة ٣٤٦، وانظر مع كل هذا الآية (٣٨) من سورة محمد صفحتى ٦٧٧، ٦٧٨.

﴿يخلفون﴾: أى يخلفونكم فى عمارة الأرض.

﴿وإنه لعلم للساعة﴾: المراد أن وجود عيسى عليه السلام علامة واضحة يعلم بها قرب القيامة حتى كأنها العلم نفسه. وذلك أنه ليس بعد عيسى إلا خاتم المرسلين محمد ﷺ، ثم القيامة. وقال أبو السعود: (إنه) أى عيسى نفسه (علم للساعة): أى دليل على قيام الساعة، حيث وُجد من غير أب والمراد أن القادر على إيجاد بشر من غير أب لقادر على إحياء الموتى يوم القيامة، وهذا دأب القرآن، أنه يستدل بما يشاهده الإنسان من دلائل القدرة على البعث، كاستدلاله بإحياء الأرض بالنبات بعد موتها بالجفاف على قدرته سبحانه على إحياء الموتى

من القبور، انظر الآية (٥٠) من سورة الروم صفحة ٥٣٧، والآيات من (٧ إلى ١١) من سورة ق صفحتى ٦٨٨، ٦٨٩ والآية (١١) من هذه السورة صفحة ٦٤٨. ﴿فلا تمترن بها﴾: أى فلا تشكوا فيها. ﴿بالبينات﴾: أى بآيات الإنجيل الواضحات فى الدلالة على الخير- قبل تبديله وتحريفه. ﴿الحكمة﴾: هى كل ما يوصل للحق وانظر الآية (٤٨) من سورة آل عمران صفحة ٧٠. ﴿الأحزاب﴾: هم طوائف بنى إسرائيل الذين اختلفوا شيعًا بين مصدق بعيسى وبين مكذب وبين جاهل يقول له ابن الله، انظر الآية (٣٧) من سورة مريم صفحة ٣٩٩.

﴿فويل﴾: أى هلاك.

المعنى: لما استمر قوم فرعون على العناد والكفر أهلكناهم وجعلناهم سابقين إلى مشاهدة مقاعدهم من النار وعبرة لغيرهم. وكان من تعنت كفار قريش أن بعضهم لما سمع قوله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ الآية (٩٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١ سارع إلى تضليل العامة وقال يا محمد: أليس النصارى يعبدون المسيح؟ وأنت تقول كان نبيًا وعبدًا صالحًا؟ فإن دخل المسيح النار رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه لأنه خير من آلهتنا على كل حال كما تقول. ففرح بذلك سفهاء قريش وارتفعت أصواتهم بالضحك ظانين أنهم غلبوه ﷺ. فقولهم: آلهتنا خيرأم هو؟ يريدون به: هل آلهتنا خير أم عيسى؟ فإن كان عيسى خيرًا كما تقول رضينا أن تكون آلهتنا معه. ولما كان هذا منهم مجرد تضليل لأنهم يعلمون أنه ليس من المعقول فى كلام أقل الناس مدح شخص وجعله فى أعلا درجات الكمال ثم حطه فى أسفل درجات الشقاء، فضلاً عن كلام مَنْ تحداهم بأنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرًا، لا اختلافا واحدا، وفى هذا قال: ما ضربوه لك.. إلخ. أى ما جعل لك كفار قريش عيسى مثلا لآلهتهم إلا لأجل حب الجدل والمغالبة، لا لإظهار الحق؛ لأنهم سمعوا أيضًا بعد الآية التى غالطوا بها ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ وهذا قاطع فى أن القرآن لم يقصد بمَنْ سيكون فى جهنم إلا مَنْ عبد من دون الله من آلهتهم عن رضى منه، إن كان حيًا عاقلاً، أو مطلقًا إن كان جمادا أو حيوانا، كالأصنام مثلا عند العرب وغيرهم، والعجل عند قدماء المصريين وغيرهم، ومن العرب من عبد الملائكة، والملائكة تتبرأ منهم،

انظر شرح الآية (١١٦) من سورة البقرة صفحة ٢٣ والآية (١) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٨، ٥٦٩ إلى غير ذلك مما تقدم فى شرح الآية (٩٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١. ثم بيَّن سبحانه منشأ تمسكهم بالجدل بأنهم قوم عرفوا بشدة المخاصمة وجبلوا على اللجاج فى الباطل فقال سبحانه: ﴿بل هم قوم خصمون﴾. ثم وضح سبحانه مكانة عيسى ومنزلته عليه السلام فقال: ﴿إن هو﴾.. إلخ. أى ما عيسى إلا عبد من عبادنا الصالحين أنعمنا عليه بالنبوة. وجعلناه دليلا لبنى إسرائيل على كمال قدرتنا على إيجاد ما نشاء. ثم هدد سبحانه كفار مكة بقوله: (ولو نشاء﴾.. إلخ أى لو نشاء لأهلكناكم وجعلنا بدلكم فى الأرض خلقًا آخر يشبه الملائكة فى الإيمان والطاعة يعمرونها ويعبدوننا حق العبادة. أى فنحن فى غنى عنكم، انظر نظير ذلك فى الآية (٣٨) من سورة محمد صفحتى ٦٧٧، ٦٧٨. ثم نبههم إلى خطر غفلتهم عن قيام الساعة بأن عيسى الذى خلقته من غير أب دليل قاطع أمامكم على قدرتى على إيجادكم بعد الموت بل ذلك أهون كما جاء فى الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤، فلا يصح أن تشكوا فى قدرتى ومن ثم فلا تشكون فى قيام الساعة؛ واتبعوا شرعى فهو طريق مستقيم موصل للنجاة. ولا يصرفنكم عنه الشيطان إنه لكم عدو ظاهر العداوة. والعاقل لا يأمن عدوه. ثم شرع سبحانه فى قصة عيسى وقومه ليعلم منها أن العاقبة للمؤمنين. والهلاك للكافرين فقال: (ولما جاء).. إلخ. أى ولما جاء عيسى لبنى إسرائيل مزودًا بالآيات الواضحات، انظر الآية (٦) من سورة الصف صفحتى ٧٣٨، ٧٣٩. وقال لهم: قد جئتكم بالعلوم التى توصلكم إلى معرفة الحقيقة. وجئتكم لأبيِّن لكم بعض ما اختلفتم فيه، وهو ما يتعلق بأمور الدين؛ لأن بعضهم كان حرَّف التوراة تبعا لشهواته. أما اختلافهم فى أمور الدنيا الصرفة كعلوم الزراعة مثلا فليس من وظيفة الأنبياء، وقال لهم: اتقوا عذاب الله وأطيعونى. إن الله المستحق للعبادة وحده هو ربى وربكم. فكلنا عبيد له فقراء إليه. هذا الذى جئتكم به طريق للخير مستقيم. وكان الواجب بعد هذا الإرشاد أن يكونوا سواء على حق. ولكن الشهوات فرقتهم وجعلت كل فريق يتحزب لرأيه كما سبق فى صفحة ٣٩٩. فتوعدهم سبحانه بقوله: (فويل).. إلخ. أى فهلاك شديد لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، انظر الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠.

عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ(١) لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ
ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟(٢) بِـَٔايَٰتِنَا(٣) وَكَانُوا۟
مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ(٤) تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾
يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا
مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ(٥) ﴿٧١﴾
وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾
لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ(٦) كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ
فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ(٧) ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ
مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ(٨) وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ(٩) ﴿٧٦﴾
وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ(١٠) لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ(١١) ﴿٧٧﴾

المفردات: ﴿أليم﴾: صفة لليوم باعتبار ما فيه فهى صفة للزمان باعتبار الحاصل فيه كما وصف المكان باعتبار الكائن فيه، تقول العرب: نهر جار، أى جار ما فيه وهو الماء. ﴿هل﴾: حرف استفهام إنكارى يفيد النفى، أى لا ينظرون إلا قيام الساعة.

﴿ينظرون﴾: أى ينتظرون.

﴿الساعة﴾: القيامة.

﴿أن تأتيهم﴾: أى إتيانها لهم وهو بدل من الساعة. ﴿الأخلاء يومئذ﴾.. إلخ: المراد أن الصداقة فى الحياة الدنيا نوعان: صداقة رباطها متاع الدنيا فقط، ليس الباعث عليها شيئًا مما يرضى الله، وأصحابها يوم القيامة يعادى بعضهم بعضًا، انظر الآية (٢٨) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣. والثانى صداقة المتحابين فى الله وهؤلاء هم المتقون.

﴿يا عباد﴾: انظر صفاتهم فى الآية (٦٣) وما بعدها من سورة الفرقان صفحة ٤٧٧. ومابعدها. ﴿مسلمين﴾: أى منقادين لربهم.

﴿تحبرون﴾: أى تسرون سرورا عظيما.

﴿صحاف﴾: جمع صحفة وهى إناء كبير يوضع فيه ما يؤكل.

﴿أكواب﴾: جمع كوب وهو كوز لا مقبض له.

﴿لا يفتر عنهم﴾: أى لا يخفف الله عنهم العذاب. يقال فترت عنه الحمى: إذا خفت قليلا. ﴿مبلسون﴾: أى يائسون من النجاة متحسرون، انظر الآية (٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩. ﴿مالك﴾: هو رئيس خزنة جهنم من الملائكة.

---

(١) يا عباد. (٢) آمنوا. (٣) بآياتنا. (٤) أزواجكم. (٥) خالدون. (٦) فاكهة.
(٧) خالدون. (٨) ظلمناهم. (٩) الظالمين. (١٠) يا مالك. (١١) ماكثون.

﴿ليقض علينا ربك﴾: المراد: نرجو من الله أن يميتنا حتى نستريح، انظر الآية (٤٠) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨.

المعنى: هلاك وشقاء لهؤلاء المشركين سيحل بهم من عذاب أليم يوم القيامة. لا ينتظر المختلفون فى تعاليم رسلهم إلا إتيان القيامة بغتة وهم غافلون عنها. وهذا تهكم بهم وتهديد شديد لأنه جعل قيام الساعة كالمنتظر لحظة بعد أخرى، أى فلابد من وقوعه. ثم بيَّن أحوال الناس فى ذلك اليوم فقال: الأخلاء.. إلخ، أى الذين تصاحبوا فى الدنيا على المعصية يلعن بعضهم بعضًا فى الآخرة، انظر الآية (٢٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤ والآية (٦٧) من سورة الأحزاب صفحة ٥٦٠، ٥٦١، إلا المتقين فإنهم يكونون إخوانًا على سرر متقابلين كما فى الآية (٤٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤١، ويقول لهم سبحانه تكريمًا لهم: يا عباد لا خوف عليكم اليوم أى من العذاب، ولا أنتم تحزنون على ضياع مرغوب. ثم بيَّن سبحانه صفة هؤلاء العباد الذين سينالون هذه المنزلة فقال: الذين آمنوا بآياتنا المنزلة فى الكتب السماوية وكانوا منقادين لأوامر ربهم، ويقول لهم سبحانه: ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم اللاتى آمن معكم تسرون بما فيها سرورًا عظيمًا. ثم بين سبحانه بعض ما فيها من النعيم فقال: (يطاف عليهم).. إلخ، أى تطوف عليهم ولدان بقصاع كبيرة من الذهب مملوءة بأصناف الطعام وبأكواب فيها أصناف الشراب. ويقال لهم: إن فى هذه الجنة كل ما تشتهيه أنفسكم. وتسر بالنظر إليه أعينكم. وأنتم فى هذا النعيم خالدون لا تخرجون ولا ينقطع. ثم إن هذا الفضل العظيم استحقوه بأعمالهم فقال: (وتلك الجنة) .. إلخ، أى وهذه هى الجنة التى جعلها الله تعالى لكم سهلة الحصول كالميراث جزاء أعمالكم الصالحة. وبعد أن ذكر الطعام والشراب ذكر الفاكهة فقال: لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون كما تشاءون. وبعد ما بيَّن سبحانه نعيم أهل الجنة أتبعه بشقاء أهل النار كما هى عادة القرآن ليرغب وينفر فقال: (إن المجرمين).. إلخ، إن المجرمين بالكفر كما فى الآية (٢٩) من سورة المطففين صفحة ٧٩٨ فى عذاب جهنم خالدون لا يخفف عنهم وهم فيه يائسون متحيرون. وما ظلمهم الله لأنه بيَّن لهم طريق الخير فتركوه فكانوا هم الذين ظلموا أنفسهم. ثم بيَّن ما سيحصل منهم فى جهنم فقال: ونادوا.. إلخ، أى وسينادون نداءً محققًا لاشك فى حصوله حتى كأنه حصل فعلا، يقولون يا مالك بلغ طلبنا من الله أن يريحنا بالموت. فيقول لهم: كلا إنكم ماكثون فى العذاب أبدا لا تموتون ولا

لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾
أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ
سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ
إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَـٰنَ
رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾
فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى
يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ
إِلَـٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ
ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾

تحيون كما فى الآية (٣٦) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦ والآية (١٣) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤ نسأل الله السلامة.

المفردات: ﴿أم أبرموا﴾.. إلخ: (أم) حرف يفيد الانتقال من الكلام السابق إلى الإنكار عليهم فى أحكامهم تدبير الكيد، كما تقدم فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢ والآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩.

﴿أبرموا﴾: أى أحكموا التدبير.

﴿أمرا﴾: هو الكيد له ﷺ والتحايل على إبطال دعوته.

﴿أم يحسبون﴾: (أم) هنا مشوبة معنى الاستفهام التوبيخى المفيد للنفى، والمراد: الإنكار عليهم ظنهم (أن الله لا يسمع سرهم).. إلخ.

﴿سرهم ونجواهم﴾: المراد بالسر هنا حديث النفس وما يخطر فيها من النيات السيئة، انظر الآية (٥٢) من سورة المائدة صفحة ١٤٧.

﴿نجواهم﴾: مايتهامسون به بصوت منخفض حتى لا يسمعه غيرهم، انظر الآية (٧٨) من سورة التوبة صفحة ٢٥٤.

---

(١) جئناكم.
(٢) كارهون.
(٣) نجواهم.
(٤) العابدين.
(٥) سبحان.
(٦) السموات.
(٧) يلاقوا.
(٨) السموات.
(٩) الشفاعة.
(١٠) لئن.

﴿بلى﴾: حرف يدل على إبطال النفى قبله

وإثبات ما بعده.

﴿رسلنا﴾: هم الحفظة من الملائكة المشار إليهم فى الآية (١٨) من سورة ق صفحة ٦٨٩، والآية (١٠) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥.

﴿فأنا أول العابدين﴾: أى أسبق الناس إلى الخضوع له.

﴿العرش﴾: تقدم الكلام عليه فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١.

﴿يصفون﴾: أى يكذبون، انظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

﴿ذرهم﴾: أى اتركهم وأعرض عنهم.

﴿يخوضوا﴾: أصل معنى الخوض الدخول فى الماء الكثير، ثم استعمل قليلا فى الدخول فى الحديث للتسلية كما فى الآية (٦٥) من سورة التوبة صفحتى ٢٥١، ٢٥٢، والدخول فى الحديث عن أمر خطير كقول العلماء: لا تخوضوا فى الكلام عن الأرواح، وغلب استعماله فى الدخول فى الباطل كما هنا وكما فى الآية (٩١) من سورة الأنعام صفحة ١٧٧ والآية (٤٥) من سورة المدثر صفحة ٧٧٨.

﴿ويلعبوا﴾: أى يفعلون فى الدنيا فعل اللاعب الغافل عن العاقبة.

﴿إله﴾: أى معبود بحق. ﴿تبارك﴾: أى تزايد خيره، انظر الآية (١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠.

﴿الساعة﴾: أى القيامة. ﴿أنى﴾: كيف.

﴿يؤفكون﴾: أى تصرفهم الشياطين عن الحق كما تقدم فى الآية (٧٥) من سورة المائدة صفحة ١٥٢.

المعنى: بعدما رد مالك خازن النار على الكفار بما أوقعهم فى اليأس من الخروج. خاطبهم الله تعالى خطاب تقريع وتوبيخ مبينًا سبب ما هم فيه فقال: (لقد جئناكم).. إلخ، أى لقد بينا لكم الحق على لسان رسولنا ولكن أكثركم للحق كارهون. ولم يقبله إلا قليل فنجوا من هول ما أنتم فيه. ثم انتقل سبحانه إلى إظهار مكرهم مبينًا أنه سينقلب عليهم فقال: (أم أبرموا)..

إلخ. أى بل الذى جرأ كفار مكة على كفرهم ظنهم أنهم أحكموا الحيلة فى المكر فى رد الحق، ولكنا أحكمنا الكيد فى إهلاكهم. انظر الآية (٥٠) من سورة النمل صفحة ٥٠٠، والآية (٤٢) من سورة الطور صفحة ٦٩٩. بل هل يظنون أنا لا نسمع حديثهم فى داخل أنفسهم ولا ما يتكلمون به سرا بينهم. كلا بل نسمعه. والملائكة الحفظة يسجلون كل ما يصدر عنهم ليلقى إليهم يوم القيامة فتنقطع أعذارهم. انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨. ثم أمر سبحانه رسوله أن يقيم عليهم الحجة فى إبطال زعمهم أن لله عز وجل و لدا فقال: قل إن كان.. إلخ. أى قل أيها النبى لكفار قومك إن أمكنكم أن تثبتوا بدليل قاطع أن للرحمن ولدا كنت أنا أول مَنْ يخضع له تعظيمًا لأبيه. وبما أن الولد لله مستحيل، فمستحيل أن أعبد غير الله: وهذا أسلوب معهود عند العرب فى نفى الشىء بطريق قاطع - يقول أحدهم لمَنْ يناظره: إن ثبت ما تقول بالدليل الصحيح فإنا أول مَنْ ينادى به. ثم علمنا سبحانه كيف ننزهه، فقال: (سبحان رب السموات والأرض).. إلخ، أى ننزه مالك السموات والأرض وما فيهما ورب العرش العظيم عما يفتريه عليه المشركون من الولد والشريك. وبعد ذلك أمر سبحانه نبيه أن يعرض عنهم لأنهم ميئوس منهم، فقال: (فذرهم يخوضوا).. إلخ، أى فاتركهم يتوغلون فى الباطل. ويلعبون فى دنياهم كالأطفال حتى يلاقوا اليوم الذى وعدناهم به. وهو يوم القيامة. وعند ذلك لا ينفعهم الندم ثم أكد التنزيه السابق فقال: (وهو الذى).. إلخ. أى وهو الله الذى.. إلخ، أى وهو الله الذى يستحق العبادة وحده لا شريك له من أهل السماء وأهل الأرض. وهو الحكيم فى تدبير خلقه. العليم بأحوالهم وما يصلح لكل منهم. تعالى قدر الله الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما، وعنده وحده علم قيام الساعة. وإليه مرجع جميع الخلائق. ولا يقدر شىء من الأصنام وما يعبدون غيره تعالى على الشفاعة لهم كما زعموا فى الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨. ولكن مَنْ نطق بكلمة التوحيد وكان على علم بربه كالملائكة والأنبياء وعلى رأسهم محمد ﷺ فإن لهم الشفاعة بشرط إذنه تعالى. وكون المشفوع فيه يستحقها كما تقدم فى الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦. ثم بيَّن سبحانه أن هؤلاء المشركين متناقضون فقال: (ولئن سألتهم).. إلخ. أى ولئن سألت أيها النبى مشركى قومك مَنْ الذى خلقهم بل وخلق الخلق جميعًا؟ والله ليقرون بأنه هو الله وحده ولا يستطيعون الإنكار فكيف مع هذا يصرفهم الشيطان عن توحيده تعالى فى العبادة.

وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

(٤٤) سُورَةُ الدُّخَانِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

المفردات: ﴿وقيله﴾: القيل والقال كلها والقول شيء واحد، والواو للقسم أي: وحق قول رسولي محمد وشكواه من أنهم لا يؤمنون لأذيقنهم ما يستحقون في الدنيا والآخرة، وحذف المقسم عليه معهود عند العرب.

﴿فاصفح عنهم﴾: المراد: أعرض عنهم إعراض العاقل عن الجاهل واستمر في دعوتك ولا تبال بهم، انظر الآية (٩٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤.

﴿سلام﴾: المراد: سلام ترك وإهمال، لا سلام تحية، انظر الآية (٥٥) من سورة القصص صفحتي ٥١٤، ٥١٥.

﴿حم﴾: تنطق حا ميم بكسر الميم الأولى وسكون الآخر. ﴿والكتاب﴾: أي وحق هذا القرآن. ﴿المبين﴾ الموضح للحق والباطل والحلال والحرام. ﴿أنزلناه﴾: أي ابتدأنا إنزاله. ﴿في ليلة مباركة﴾: هي ليلة القدر المذكورة في سورة القدر صفحة ٨١٥. ﴿منذرين﴾: أي محذرين ومخوفين من المعاصي. ومع أنه بَشَّر أيضًا كفار مكة لكن اقتصر هنا على ذلك لأن مقام الكلام يقتضيه. ﴿يفرق﴾: أي يفصَّل ويبين، والمراد (فصَّل وبيَّن). أي بدئ في تفصيل كل أمر.. إلخ. والتعبير بالفعل المستقبل والمراد الفعل الماضي لاستحضار الصورة العجيبة. وذلك في القرآن كثير، انظر الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢ والآية (٤٠) من سورة طه صفحتي ٤٠٨، ٤٠٩ والآية (٢٦) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٣ والآية (١٢) من سورة النجم صفحة ٧٠١ والآية (١) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٤.

(١) يارب. (٢) سلام. (٣) حاميم. (٤) الكتاب.
(٥) أنزلناه. (٦) مباركة. (٧) السموات. (٨) آبائكم.

﴿حكيم﴾: أى محكم لا يستطيع مخلوق نقضه. ﴿أمرا من عندنا﴾: المراد: مأمور به منا، وهو حال من القرآن المنزل. ﴿رحمة من ربك﴾: مفعول لأجله. أى لأجل رحمة المرسل إليهم.

المعنى: بعدما علم ﷺ شدة عناد قومه وشعر بعدم إيمانهم ناجى ربه متحسرًا حزينًا: (يارب إن هؤلاء).. إلخ بعد ذلك أقسم سبحانه بقوله ﷺ تشريفا له وتقديرا لشكواه إليه فقال: وقيله.. إلخ. أى وحق قول رسولى وشكواه لى لأفعلن بهم ما يستحقون من الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.

فأعرض عنهم أيها النبى وقل سلام منى عليكم، سلام هجر وفراق. فسوف يعلمون عندما نأذنك بقتالهم أنهم هم الخاسرون، وأن جندنا هم الغالبون الفائزون. والله تعالى أعلم.

(سورة الدخان)

حم. تقدم المراد بمثل ذلك أول سورة البقرة. أقسم بحق هذا القرآن الموضح لطريق الخير والشر حتى يسلك الأول ويجتنب الثانى. إنا بدأنا إنزاله فى ليلة كثيرة الخير بنزوله فيها فكانت بذلك خيرًا من ألف شهر. ثم بيَّن سبحانه حكمة إنزاله بقوله: إنا كنا منذرين أى معلمين الناس ومحذرينهم مما يضرهم. فى هذه الليلة بدئ فى تفصيل كل أمر محكم مما يتعلق بصلاح الخلق حال كون هذا الدال على هذا الأمر الحكيم مأمورا بإنزاله من عند الحكيم العليم.

ثم بيَّن سبحانه ما يحقق حكمة إنزاله فقال: (إنا كنا مرسلين).. إلخ. أى من شأننا أن نرسل رسولنا لأجل رحمة عبادنا وإنقاذهم من الضلال. إن الله هو السميع لكل أقوال خلقه. العليم بكل أحوالهم فلا يشرع لهم إلا ما ينفعهم. ثم أكد سبحانه إحاطة سمعه وعلمه بقوله: رب السموات والأرض.. إلخ؛ أى السميع العليم لأنه منشئ السموات والأرض وما بينهما ومالكهما. إن كنتم يا أهل مكة موقنين بذلك حقا كما تقولون فيجب أن تعترفوا بوحدانيته وصدق رسوله. انظر الآية (٦١) وما بعدها من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩ والآية (١٤) من سورة الملك صفحة ٧٥٥. ثم أكد سبحانه ما سبق فقال: لا إله إلا هو يحيى من يشاء ويميت مَنْ يشاء. ربكم ورب آبائكم الأولين لا رب سواه.

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي
السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾
أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا
عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا
إِنَّكُمْ عَائِدُونَ[1] ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا
مُنْتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ
رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ[2] بِسُلْطَانٍ[3]
مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾
وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ
قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾

المفردات: ﴿بل هم﴾: بل: حرف يدل على إبطال ما قبله وإثبات ما بعده.

﴿فارتقب﴾: أى انتظر.

﴿دخان﴾: المراد: ظلمة فى الجو يراها الواقع فى كرب كأنها دخان.

﴿مبين﴾: أى واضح.

﴿يغشى الناس﴾: أى يحيط بهم.

﴿مؤمنون﴾: يريدون عازمون على الإيمان، لأنهم فى الواقع لم يؤمنوا لحظة واحدة.

﴿أنى﴾: أى كيف ومن أين.

﴿الذكرى﴾: أى التذكر والاعتبار.

﴿رسول مبين﴾: أى واضح الرسالة من ربه. وهو خاتم الرسل ﷺ.

﴿تولوا عنه﴾: أى أعرضوا.

﴿مُعَلَّم﴾: أى يعلمه غيره من البشر. وليس رسولا؛ انظر الآية (١٠٣) من سورة النحل صفحة ٣٦٠.

﴿إنكم عائدون﴾: أى هذه طبيعتكم، انظر الآية (٢٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦.

﴿نبطش﴾: أى نأخذ بشدة، انظر الآية (٣٦) من سورة القمر صفحة ٧٠٧ والآية (١٢) من سورة البروج صفحة ٨٠١.

﴿فتنا قبلهم قوم فرعون﴾: أى عاملناهم معاملة المختبر ليظهر ما فى نفوسهم للناس فيؤمنوا بعدل الله.

---

(١) عائدون. (٢) آتيكم. (٣) بسلطان.

﴿رسول كريم﴾: هو موسى عليه السلام كريم على ربه.

﴿أن أدوا إلىّ عبادالله﴾: أى أعطونى واتركوا لى بنى إسرائيل. انظر الآية (٤٧) من سورة طه صفحة ٤٠٩.

﴿لاتعلوا على الله﴾: تدور معانى كلمة (علا) حول الارتفاع والترفع وما يتبع ذلك من التكبر والجبروت والقهر والغلبة، فتفسر فى كل موضع بما يناسبه، قال صاحب لسان العرب: تقول العرب علا فلان فلانا إذا قهره. يقال: علا الله على الخلق أى قهرهم بقدرته. (انتهى كلام صاحب اللسان).

والمناسب هنا هو التكبر كما تقدم فى الآية (٣١) من سورة النمل صفحة ٤٩٧، ومن المعلوم أن التكبر قد يضر الغير معنويا فقط، كالمتعاظم على الناس من غير أن ينالهم منه ضرر مادى، وقد يضر ماديا كالمتكبر الذى ينفذ فى الناس آثار تكبره كضرب، أو سلب مال، أو غير ذلك. كل هذا إذا كان التكبر على مخلوق، أما التكبر على الله عز وجل فمعناه التعالىٰ على تنفيذ أوامره سبحانه وتعالى وعصيانه.

﴿سلطان مبين﴾: أى برهان واضح على صدق رسالتى انظر الآية (٣٢) من سورة القصص صفحة ٥١١.

﴿عذبت بربى﴾: أى تحصنت بربى.

﴿أن ترجمون﴾: أى من أن ترجمونى بالحجارة فتقتلونى، انظر الآية (٩١) من سورة هود صفحة ٢٩٨.

﴿تؤمنوا لى﴾: أى تصدقونى، انظر الآية (١٧) من سورة يوسف صفحتى ٣٠٤، ٣٠٥.

﴿فاعتزلون﴾: أى اتركونى وشأنى.

المعنى: ولما كان ما سبق يشعر بأنهم مصدقون ما يقرون به أراد سبحانه أن يبطل ذلك فقال: بل هم فى شك.. إلخ. أى هم فى الحقيقة غير موقنين بما يقولون بل هم فى شك واضطراب فى داخل أنفسهم حال كونهم فى إقرارهم بأن خالقهم هو الله يقولون قول الأطفال

الذين لا يقدرون ما يقولون. ولما اشتد حزنه ﷺ على عدم إيمان قومه كما تقدم فى الآية (٨٨) فى الصفحة السابقة، طلب من ربه أن يضيق عليهم لعل الشدة ترجعهم إلى الصواب، فقال له سبحانه: فارتقب يوم تأتى السماء.. إلخ. أى من جهتها أو بسببها حيث منع سبحانه عنهم المطر مدة طويلة حتى يبست الأرض. وهلك الزرع. وأغبر الجو. وأكلوا الجيف من شدة الجوع. وضعفت أبصارهم حتى صار الرجل إذا نظر إلى السماء يرى كهيئة دخان واضح محيط بهم من كل جانب حتى قالوا هذا عذاب شديد الألم. يا ربنا اكشف عنا هذا العذاب إنا سنؤمن لو كشفته عنا، فرد سبحانه عليهم بقوله: (أنى لهم).. إلخ، أى من أين لهم التذكر والاعتبار والحال أنهم جاءهم رسول ظاهر صحة الرسالة بما معه من المعجزات. ومع ذلك أعرضوا عنه. وقال بعضهم يعلمه بشر وليس رسولا. وبعضهم قال: إنه مجنون يقول كلاما لم نسمعه من آبائنا الأولين، ومع هذا فقد رق قلبه ﷺ وطمع فى إيمانهم، وطلب من ربه أن يكشف العذاب عنهم، فأجابه سبحانه بقوله: إنا كاشفو العذاب.. إلخ، أى سنكشفه زمنا قليلا هو المدة الباقية لهم فى الحياة. ثم إنكم بعد كشفه عائدون إلى العزم على الاستمرار على الكفر. فانتظر أيها النبى يوم نبطش بهم البطشة الكبرى فننتقم منهم. وقد حصل فى غزوة بدر وما بعدها، فلم ينج منهم إلا مَنْ تحصن بالإيمان. ثم أراد سبحانه أن يذكرهم بما حصل لفرعون وقومه ليعتبروا فقال: (ولقد فتنا).. إلخ. أى امتحنا قوم فرعون فأرسلنا لهم رسولا كريما، وقال لهم آمنوا بالله وأرسلوا معى بنى إسرائيل، انظر الآية (١٣٤) من سورة الأعراف صفحة ٢١٢. إنى لكم رسول من الله أمين على أداء رسالته. وألا تتكبروا على أوامر الله؛ لأنى أتيتكم ببرهان واضح على صدق رسالتى. وإنى تحصنت بربى وربكم من أن تقتلونى رجما بالحجارة فلا أخافكم من هذه الجهة. انظر سبب يقينه فى هذا فى آيتى (٤٥، ٤٦) من سورة طه صفحة ٤٠٩ والآية (١٥) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٠ وآيتى (٦١، ٦٢) من نفس السورة صفحتى ٤٨٣، ٤٨٤ والآية (٣٥) من سورة القصص صفحتى ٥١١، ٥١٢. وإن لم تصدقونى فابتعدوا عنى ولا تكونوا علىَّ ولا لى. ولكنهم لم يتركوا إيذاءه ولا إيذاء بنى إسرائيل فدعا ربه قائلاً: يا ربى هؤلاء القوم - أى فرعون وقومه - مجرمون. فقال له سبحانه فأسر بعبادى ليلا. وقد دبرت أن فرعون وجنوده سيتبعونكم فأغرقهم إلى آخر ما سيأتى.

وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمۡ تَرَكُواْ
مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾
وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا
ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ
وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ
ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ
ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾
وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ
بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمۡ
خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ
كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا

المفردات: ﴿رهوا﴾: أصله رها يرهو. بوزن عدا يعدو. أى سكن. وأريد به هنا اسم الفاعل. أى ساكنا، لا اضطراب فيه كحاله عند عبوركم مفتحة فيه الطرق.

﴿كم﴾: أى كثير.

﴿من جنات﴾: (من) حرف يدل على بيان المراد من (كم) قبله.

﴿مقام كريم﴾: المساكن الحسنة والمجالس البهيجة، انظر الآية (٥٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٣.

﴿نعمة﴾: أى تنعم.

﴿فاكهين﴾: تقدم فى الآية (٥٥) من سورة يس صفحة ٥٨٤. ﴿كذلك﴾: أى الأمر كذلك.

﴿قوما آخرين﴾: قيل هم كل مَنْ استولى على مصر بعد فرعون.

---

(١) جنات.
(٢) فاكهين.
(٣) أورثناها.
(٤) آخرين.
(٥) إسرائيل.
(٦) اخترناهم.
(٧) العالمين.
(٨) آتيناهم.
(٩) الآيات.
(١٠) بلاء.
(١١) بآبائنا.
(١٢) صادقين.
(١٣) أهلكناهم.
(١٤) السموات.

﴿بكت عليهم السماء﴾: العرب تقول: بكت على فلان السماء كناية عن أنه ذو مقام خطير يهتم الناس بفقده.

﴿منظرين﴾: أى مؤخرين عن الوقت المحدد لإهلاكهم.

﴿عاليا﴾: أى مستعليا على الناس، انظر الآية (٨٢) من سورة يونس صفحة ٢٧٩.

﴿المسرفين﴾: أى المفرطين فى الشر والفساد.

﴿على علم﴾: أى عالمين باستحقاقهم.

﴿الآيات﴾: أى المعجزات على يد موسى كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى، انظر آيتى (٥٧، ٦٠) من سورة البقرة صفحتى ١١، ١٢.

﴿بلا مبين﴾: أى اختبار ظاهر ليشكروا، أو يكفروا.

﴿هؤلاء﴾: أى كفار مكة.

﴿إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين﴾: (إن) حرف نفى بمعنى (ما) و(هى) أى الموتة التى سنلاقيها. (الأولى) إذا تأملت بيان أساليب العرب عند شرح الآية (٥٦) من هذه السورة صفحة ٦٦٠، تعلم أن مراد الكفار هنا هو أنه ليس لنا إلا موتة لا حياة بعدها، وليس مرادهم أنهم ينكرون موتة ثانية يقول بها الرسول ﷺ؛ لأن الرسول وما جاء معه من القرآن يقرران أن لا موت بعدما حصل فى الدنيا، وأن كلا من المؤمن والكافر خالد فيما هو فيه. أما المؤمن ففى آيات كثيرة منها الآية (٥٦) من هذه السورة صفحة ٦٦٠. وأما الكافر ففى الآية (٣٦) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦ والآيات (٧٤ - ٧٧) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٤ والآيات (١١-١٣) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤.

﴿بمنشرين﴾: الباء لتأكيد نفى ما بعدها عما قبلها، و(منشرين) أى مبعوثين من القبور أحياء كما يقول محمد ﷺ.

﴿تبع﴾: هو تبع الحميرى، أحد ملوك اليمن وكان رجلا صالحا، ولذا ذم سبحانه قومه دونه، وكان معروفًا عند أهل مكة وكذا ما حصل لقومه.

المعنى: وقال سبحانه لموسى إذا خرجت من البحر أنت وأصحابك فلا تضربه ثانيا ليعود كما كان بل اتركه على حاله مفتحة فيه الطرق ليدخله فرعون وقومه فيغرقوا. ثم ذكر ما خلفوه فقال: كم تركوا .. إلخ. أى كثيرا ما تركوا من بساتين وعيون تفيض ماء وزروع ناضرة وقصور شامخة وأسباب تنعم كانوا فيه متلذذين. الأمر كذلك، لا تغير فيه، وأورثنا هذه النعم قومًا آخرين من أمم مختلفة كالبابليين والحبش والفرس والرومان والعرب.. إلخ. وانظر مع هذا ما تقدم فى آيتى (٥٧ - ٥٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٣. ومع أن فرعون وقومه كانوا يستعظمون أنفسهم فما اهتم بهلاكهم أحد. وما أمهلهم الله لحظة عن الوقت المحدد لإهلاكهم. ثم بيَّن سبحانه إحسانه لموسى وقومه فقال: ولقد نجينا.. إلخ. أى لقد خلصناهم من عذاب فرعون وملئه لهم بالاستعباد والقتل بإهلاك عددهم. إن فرعون كان متعاليًا متكبرًا مجاوزًا فى الفساد. ولقد اخترنا بنى إسرائيل على علم منا بحالهم. وقدمناهم على عالم زمانهم لأنهم كانوا مؤمنين وما عداهم أغلبهم وثنيون مشركون، ولكنهم لما اختلفوا وعصوا كما فى الآية (١٧) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٢ غضب الله عليهم غضبة خالدة، كما تقدم فى الآية (١٦٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٠. وأعطيناهم من الأمور العظيمة ما فيه امتحان لهم هل يشكرون أم يكفرون نعمتنا؟، ثم رجع سبحانه إلى الكلام عن أهل مكة فقال: إن هؤلاء.. إلخ. أى إن قومك أيها النبى ينكرون البعث ويقولون: ما العاقبة والنهاية إلا الموتة التى تصادفنا أول شىء بعد نهاية الحياة. ولا حياة بعدها وما نحن بمبعوثين أحياء من القبور، انظر الآية (٢٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٦. فإن كان البعث حقا كما تقول يا محمد أنت ومَنْ معك فاسرعوا بإحياء آبائنا إن كنتم صادقين. بعد ذلك توعدهم سبحانه وهددهم بأنه سيحصل لهم ما حصل لقوم تبع الذين كانوا أكثر منهم وأغنى فقال: أهم.. إلخ. المراد هل هم أقوى أم قوم تبع والذين سبقوهم كقوم نوح وعاد وثمود.. إلخ؟ هؤلاء جميعا أهلكناهم لما عصوا رسلهم واستمروا على الإجرام. ولهذا سنعاملكم مثلهم إذا بقيتم على الكفر، لأنا ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما للعب، بل لحكمة.

المفردات: ﴿لاعبين﴾: أى ما خلقناهما باطلاً، ولا عبثًا، انظر الآية (١٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١ والآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦، والآية (٢٧) من سورة ص صفحة ٦٠٠.

بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾
يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾
إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ
شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى
فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ
سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ
ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ
هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ
أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ
وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم
بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾

﴿يوم الفصل﴾: أى اليوم الذى يفصل فيه بين الخلائق، وهو يوم القيامة. انظر الآية (٣) من سورة الممتحنة صفحة ٧٣٥.

﴿ميقاتهم﴾: أى وقت جمعهم للحساب.

﴿يغنى﴾: أى ينفع. انظر الآية (١٢٣) من سورة البقرة صفحة ٢٤.

﴿مولى﴾: أى شخص موال بالقرابة أو الصداقة أو التحالف.

﴿عن مولى﴾: أى عن صديق مذنب أو قريب مخطئ.. إلخ.

﴿شجرة الزقوم﴾: شجرة منتنة الرائحة، مرة الطعم، كما تقدم فى الآية (٦٢) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠. ﴿الأثيم﴾: هو كثير لآثام أى الذنوب. ﴿كالمهل﴾: سائل الذهب أو الفضة أو النحاس أو نحوها. كما تقدم فى الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥.

﴿الحميم﴾: هو الماء الشديد الحرارة. ﴿خذوه﴾: أى الأثيم. ﴿فاعتلوه﴾: أى جروه بغلظة وقسوة. ﴿سواء الجحيم﴾: أى وسطها. ﴿العزيز الكريم﴾: يقال هذا للأثيم سخرية وتهكمًا به؛ لأنه كان يزعم أنه منيع الجانب مكرم. ﴿تمترون﴾: أى تشكون. ﴿مقام أمين﴾: فى محل إقامة أمنوا فيه من كل هم وحزن. ﴿فى جنات وعيون﴾: المراد: يقيمون فى مكان تحيط به البساتين والعيون تجرى منها الأنهار. انظر الآية (٥٤) من سورة القمر صفحة ٧٠٨.

﴿سندس﴾: هو ما رق من الحرير. ﴿إستبرق﴾: يطلقه العرب على ما غلظ من الحرير، وعلى ماله لمعان.

(١) لاعبين. (٢) خلقناهما. (٣) ميقاتهم.
(٤) شجرة. (٥) جنات. (٦) متقابلين.
(٧) زوجناهم. (٨) فاكهة. (٩) آمنين.

﴿حور﴾: الحور بفتح الحاء والواو هو أن يغلب سواد العين على بياضها مع قوة كل منهما. ويقال للمرأة التى بهذه الصفة حوراء. بفتح فسكون وجمعها حُور كما هنا بضم أوله.

﴿عين﴾: جمع عيناء. وهى واسعة العين. ﴿يدعون﴾: أى يطلبون.

المعنى: ما خلقنا الخلق عبثا بل خلقناه لحكم عالية منها امتحان العقلاء بإرسال الرسل وإنزال الشرائع. فيتميز من يستحق الخلود فى نعيم الحياة الآخرة ومن يستحق العذاب، انظر شرح أيتى (٤، ٥) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٢، ٥٦٣. ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لغفلتهم وانهماكهم فى لذات الدنيا فأنكروا الآخرة. أو أهملوا العمل لها. ثم هدد سبحانه الكفار بقوله: إن يوم الفصل.. إلخ. أى إن اليوم الذى يفصل الله فيه بين الخلق هو الوقت المحدد لهم جميعًا. وهو يوم لا ينفع فيه قريب ولا صديق قريبه ولا صديقه أقل شىء من النفع. ولا أحد من هؤلاء الموالى العاصين، ينصره غيره بدفع العذاب عنه. لكن مَنْ رحمه الله من عباده المؤمنين فإنه لا يحتاج إلى غيره. وهو مَنْ غلبت حسناته سيئاته. إنه سبحانه هو العزيز أى الغالب فى انتقامه من أعدائه الرحيم بالمؤمنين، ثم بيَّن سبحانه ما سيلاقيه الكافر فى جهنم لعل كفار مكة ينزجرون فقال: (إن شجرة الزقوم).. إلخ. أى إن طعام الأثيم فى جهنم سيكون من مثل هذه الشجرة الخبيثة الطعم والرائحة. فإذا ما دخل فى البطون كان كالمعدن المذاب يغلى كغلى الماء البالغ النهاية فى الحرارة. ويقال للزبانية خذوا هذا الأثيم فادفعوه بشدة فى وسط جهنم. ثم صبوا فوق رأسه من الماء الذى يغلى ليزداد عذابه، انظر آيتى (١٩، ٢٠) من سورة الحج صفحة ٤٣٦، وقولوا سخرية به، ذق الذل اليوم لأنك كنت تدعى أنك عزيز كريم وإذا بك ذليل مهين. ثم يقال لمنكرى البعث: إن هذا العذاب هو ما كنتم تشكون فيه فى الدنيا مع قيام ألف دليل عليه، انظر الآية (١٤) من سورة الطور صفحة ٦٩٧. وبعدما ذكر ما سيلاقيه الكافر من الأهوال شرع فى بيان ما يلاقيه المؤمن من النعيم فقال: (إن المتقين).. إلخ. أى إن الذين اتقوا الله فى الدنيا سيكونون فى محل مأمون من الموت ومن كل ما يحزن. ثم بيَّن بعض هذا النعيم فقال: فى جنات وعيون يلبسون ما رق وبهج من الحرير على سرر متقابلين كما فى الآية (٤٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤١. الأمر كما ذكرنا لا شك فيه. وزوجناهم بنساء بالغات النهاية فى جمال العيون. يطلبون كل ما يشتهون من أنواع الفاكهة. آمنين من انقطاعها: لأن الله وعدهم بذلك كما فى الآية (٣٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤.

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

(٤٥) سُورَةُ الجَاثِيَةِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا سَبْعٌ وَثَلَاثُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن

المفردات: ﴿إلا الموتة الأولى﴾: ﴿إلا﴾ حرف بمعنى ﴿غير﴾ أي لا يعانون في الجنة. ألم الموت بعدما عانوه في الدنيا عند خروج الروح، ولما كان هو المراد لم يتعرض للموت الذي سبق الحياة الدنيا المشار إليه في الآية (٢٨) من سورة البقرة صفحة ٧ والآية (١١) من سورة غافر صفحة ٦١٩؛ لأنه ليس فيه ذوق ألم.

﴿يسرناه بلسانك﴾: أي سهلناه بلغتك عليك وعلى مَنْ يقرؤه.

﴿فارتقب﴾: تقدم معناه في الآية (٣٠) من سورة السجدة صفحة ٥٤٨ .

سورة الجاثية

﴿الجاثية﴾: انظر معنى هذا الاسم في الآية (٢٨) الآتية صفحة ٦٦٤ .

﴿حم﴾: تنطق حاميم بسكون الآخر.

﴿لآيات﴾: أدلة على حكمته تعالى وقدرته.

﴿يبث﴾: أي ينشر ويفرق في الأرض والسماء كما في الآية (٢٩) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣ .

﴿من دابة﴾: ﴿من﴾ تدل على أن ما بعدها بيان لـ (ما) قبلها.

(١) وقاهم.
(٢) يسرناه.
(٣) حاميم.
(٤) الكتاب.
(٥) السموات.
(٦) لآيات.
(٧) آيات.
(٨) اختلاف.
(٩) الليل.

﴿يوقنون﴾: تقدم فى الآية (٤) من سورة البقرة صفحة ٣ .

المعنى: بعدما بيّن سبحانه نعيم المؤمنين أراد أن يصرح بما يزيد فى اطمئنانهم فقال: (لا يذوقون)... إلخ. أى لا يتجرع أهل الجنة مرارة الموت بعد الموتة الأولى التى قطعت حياتهم الدنيا. ووقاهم ربهم عذاب الجحيم، وحصل ذلك لتفضل ربك أيها النبى عليهم. وهذا هو الفوز العظيم الذى لا فوز بعده.

ثم بيّن سبحانه حكمة كون القرآن عربيًا فقال: (فإنما)... إلخ. أى وإنما سهلنا قراءة القرآن وجعلناه بلغتك التى هى لغة قومك ليتذكروا ويتدبروا ما فيه.

فإما أن يؤمنوا وإما أن تقوم عليهم الحجة. انظر الآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩، وآيتى (١٩٨، ١٩٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢؛ فإذا لم يهتدوا فانتظر ما سيحصل لهم عندما يأذنك اللّٰه بقتالهم، واعلم أنهم هم أيضًا ينتظرون لك الموت ليستريحوا، انظر آيتى (٣٠، ٣١) من سورة الطور صفحة ٦٩٨ .

سـورة الجاثية

﴿حم﴾: تقدم المراد من مثلها أول سورة البقرة. تنزيل هذا القرآن هو من اللّٰه العزيز القاهر فوق عباده. الحكيم فى صنعه. فلم يخلق شيئًا عبثًا.

ثم أرشد سبحانه إلى أدلة حكمته وقدرته فقال: (إن فى السموات)... إلخ. أى إن فى السموات وما فيها من بديع الصنع ودقيق النظام. والأرض وما فيها من زرع وأشجار وحيوان لأدلة قاطعة على وجود مدبر حكيم، ينتفع بهذه الأدلة المؤمنون، انظر الآية (١٦٤) من سورة البقرة صفحة (٣١) والآية (١٩٠) من سورة آل عمران صفحة ٩٥ .

وفى خلقكم أيها الناس على أحوال مختلفة من أول تكوينكم فى الأرحام إلى مماتكم كما فى الآية (١٢) وما بعدها من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦ والآية (٥) من سورة الحج صفحتى ٤٣٣، ٤٣٤ والآية (٥٤) من سورة الروم صفحة ٥٣٨ .

وإن فى خلق ما يبثه سبحانه من الدواب فى الأرض والسماء، فى كل ذلك أدلة ينتفع بها الذين يدخل اليقين قلوبهم بصحة كل ما فى هذا القرآن. وكذا فى جعل الليل والنهار يخلف أحدهما الآخر للحكمة المذكورة فى آيتى (٧١، ٧٢) من سورة القصص صفحة ٥١٧ . وكذا فيما أنزل سبحانه من جهة السماء من ماء... إلخ.

رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ[1]
ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ[2] اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ
بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَٰتِهِ[3] يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾
وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ[4] اللَّهِ تُتْلَىٰ
عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا[5] شَيْـًٔا اتَّخَذَهَا هُزُوًا
أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ[6] جَهَنَّمُ وَلَا
يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْـًٔا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ
أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ
كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ[7] رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾
۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ

المفردات: ﴿رزق﴾: المراد: سبب الرزق وهو المطر. والرزق هنا غير ما ورد في الآية (٢٢) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣ .

﴿فأحيا به الأرض﴾: جعلها تنبت.

﴿بعد موتها﴾: أي بعد يبسها وخلوها من النبات. ﴿تصريف الرياح﴾: أي تنويع اتجاهها من جهة إلى جهة أخرى. ومن حارة إلى باردة، لحكم يدركها المفكرون.

﴿بعد الله وآياته﴾: المراد بعد حديث الله وما فيه من أدلة واضحة. دل على هذا ذكر ﴿حديث﴾ قبله، والحديث هو القرآن، انظر الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠ والآية (٢٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩، وعطف الآية على ما قبلها من عطف الجزء على الكل. ﴿ويل﴾: أي هلاك. و﴿أفاك﴾: كثير الإفك أي الكذب. ﴿أثيم﴾: كثير الآثام أي الذنوب.

﴿فبشره بعذاب أليم﴾: هذا تهكم به وإلا فالمراد أنذره وخوفه. ﴿اتخذها﴾: أي جعلها. ﴿هزوا﴾: أي مهزوءا بها. ﴿ورائهم جهنم﴾: أي أمامهم، كما تقدم في الآية (٧٩) من سورة الكهف صفحة ٣٩٢ . ﴿لا يغني عنهم﴾: أي لا ينفع في دفع شيء من العذاب عنهم.

﴿أولياء﴾: المراد بهم معبوداتهم الباطلة، ورؤساؤهم الذين أطاعوهم في معصية الله سبحانه، انظر الآيات (٨٦) وما بعدها من سورة النحل صفحة ٢٥٧ و(٦٧) من سورة الأحزاب صفحتي ٥٦٠، ٥٦١ و (٢٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣٣ .

﴿رجز﴾: المراد: أشد أنواع العذاب. ﴿سخر لكم﴾: انظر شرح الآية (٣١) من سورة لقمان صفحة ٥٤٣ .

---

(١) الرياح. (٢) آيات. (٣) آياته. (٤) آيات
(٥) آياتنا. (٦) ورائهم. (٧) بآيات.

المعنى: وإن من آيات اللّه ما نزله سبحانه من جهة السماء من مطر يتسبب عنه رزق العباد كما فى الآيات (٩، ١٠، ١١) من سورة ق صفحة ٦٨٩ . فأنبت اللّه بهذا المطر الأرض بعد أن كانت قاحلة. وفى تقليب الرياح من حال إلى حال لسوق السحاب كما فى الآية (٤٨) من سورة الروم صفحة ٥٣٧ والآية (٩) من سورة فاطر صفحة ٥٧٢.. وتسير به السفن إلى غير ذلك.

فى كل ذلك آيات لقوم يعقلون. وحاصل ما تقدم أنه سبحانه يقول إنكم إذا تأملتم فى الأدلة الموجودة فى السموات والأرض آمنتم بوحدة خالقها وقدرته، فإذا ازداد علمكم زاد تثبتكم، فصرتم موقنين. ومتى أيقنتم بإتقان هذا النظام صرتم أصحاب عقول تغوص فى هذا الكون وتستخرج أسراره وتنتفع بكل ما فيه.

ـ هذه آيات القرآن بما فيها من أدلة وعبر نتلوها عليك مقترنة بالحق. فبأى حديث بعد حديث اللّه وما فيه من أدلة واضحة يؤمن هؤلاء القوم؟ ثم بعد ذلك هددهم إذا لم يتنبهوا فقال: (ويل)... إلخ. أى أشد الهلاك سيحل بكل كذاب فى أقواله، مجرم فى أفعاله، يسمع هذا الأفاك آيات اللّه تقرأ عليه وتهز القلوب هزا، لكنه هو لتحجر قلبه يصر على ما هو فيه عنادا واستكبارا كأنه لم يسمع منها شيئًا. فبلغه أيها النبى أنه ليس له خبر سار يسمعه أبدا.

بل لا يسمع إلا الوعيد بالعذاب الأليم. هذا حاله عند سماع آيات القرآن.

أما حاله عندما يبلغه شىء منها وهو بعيد عن سماعها من الرسول أو أحد المؤمنين فإنه يجعلها هزوا وسخرية؛ فقد روى أن بعض كفار مكة لما سمع أن فى النار شجرة الزقوم قال: يقول محمد إن النار تأكل الحجارة. ثم رجع وقال: إن فيها شجرة. فهؤلاء الكفار لهم عذاب شديد الإهانة.

ثم بيّن هذا العذاب فقال: (من ورائهم)... إلخ. أى أمامهم جهنم ولا يدفع عنهم ما كسبوه فى الدنيا من المال والجاه شيئًا من عذابها. وكذا لا ينفعهم بشىء ما عبدوهم غير اللّه. ولهم عذاب عظيم لا يعرف قدره سبحانه. هذا القرآن تام الهداية إلى الحق. والذين كفروا به وبأدلة وحدانيته تعالى لهم عذاب من أشد أنواع العذاب.

ثم ذكر سبحانه بعض آثار آياته السابقة على وجه الإجمال فقال سبحانه: اللّه الذى سخر لكم.. إلخ. أى أن الذى سخر لكم البحر لتجرى السفن فيه بإذنه ولتطلبوا من فضله بالتجارة وغيرها مما فى جوف البحار ولتشكروه على كل ذلك هو اللّه وحده. لا شىء من معبودات المشركين الباطلة.

لَكُمْ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا
يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ
فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ
الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم
بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ
الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾
إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ

المفردات: ﴿جميعًا منه﴾: أى من فضله عليكم وإحسانه إليكم.

﴿يغفروا﴾: متعلق بأصل ما تقدم فى هذه السورة من الآية (٧) إلى الآية (١١)، وفيها من تبجح المشركين وغرورهم ما يحرج صدور المسلمين وتحريضهم على معاقبتهم فأمر الله المسلمين بأن يصفحوا ويمدوا لهم حبل الإمهال إلى أن يأذن الله سبحانه بقتالهم. انظر الآية (١٠٩) من سورة البقرة صفحة ٢١ والآية (٢٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٣، ٢٤٤ . ﴿لا يرجون﴾: أى لايتوقعون لأنهم فى غفلة عما ينتظرهم من الشر. انظر ما سبق فى الآية (٢١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣ . ﴿أيام الله﴾: المراد مثل المصائب التى أنزلها الله سبحانه وتعالى بالأمم قبلهم. انظر الآية (١٠٢) من سورة يونس صفحة ٢٨٢ والآية (٥) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٠ . و﴿الكتاب﴾: المراد جنس الكتاب فيشمل التوراة والإنجيل. ﴿الحكم﴾: المراد به هنا: الحكمة كما تقدم فى الآية (٨٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧٦ . ﴿فضلناهم على العالمين﴾: أى فضلناهم على جميع من سواهم فى زمانهم لشدة إيمانهم وقوة يقينهم. انظر ما تقدم فى الآية (٣٢) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨ . ﴿بينات من الأمر﴾: المراد أدلة واضحة من أمر خاتم المرسلين نثبت صدقه. انظر الآيات (٤٢، ٨٩، ١٤٦) من سورة البقرة صفحات ٩، ١٧، ٢٨ والآية (٤٦) من سورة النساء صفحة ١٠٨ . ﴿بغيا بينهم﴾: تقدم شرحه فى الآية (٢١٣) من سورة البقرة صفحتى ٤١، ٤٢ . ﴿ولا تتبع أهواء﴾... إلخ: انظر شرح الآية (٨٦) من سورة القصص صفحتى ٥١٩، ٥٢٠ .

---

(١) السموات. (٢) لآيات. (٣) آمنوا. (٤) صالحا.
(٥) آتينا. (٦) إسرائيل. (٧) الكتاب. (٨) رزقناهم.
(٩) الطيبات. (١٠) فضلناهم. (١١) العالمين. (١٢) آتيناهم.
(١٣) بينات. (١٤) القيامة. (١٥) جعلناك. (١٦) الظالمين.

المعنى: بعدما ذكر سبحانه بعض ما أنعم به على الإنسان أراد أن يبين أن فضله أعم مما ذكر فقال: (وسخر لكم ما فى السموات)... إلخ أى وسخر لمصلحتكم جميع ما فى السموات من شمس وقمر ونجوم تهتدون بها ورياح ومطر وجميع ما فى الأرض من أنهار وأشجار وحيوان وزروع؛ جميع ما ذكر وغيره منه سبحانه وحده، انظر الآيات (٣٢، ٣٣، ٣٤) من سورة إبراهيم صفحتى ٣٣٤ ، ٣٣٥ . إن فى ذلك لأدلة على استحقاقه العبادة وحده، يدركها مَنْ يتفكر ويتأمل: وبعدما أرشد سبحانه العباد إلى أدلة التوحيد أراد أن يرشدهم إلى فضائل الأخلاق. فقال: قل للذين آمنوا... إلخ. أى قل أيها النبى للذين آمنوا بالله ورسوله اصفحوا وأعرضوا عن هؤلاء المشركين إذا نالكم منهم مكروه؛ لأنهم فى غفلة الآن عن عقابه سبحانه الذى ينزله بكل مَنْ فعل فعلهم. وعما قريب سيحل بهم ويجزيكم أيها المؤمنون على ما كسبتم من الصالحات التى منها الصبر على أذية الكفار والإغضاء عنهم بكظم الغيظ. يجزيكم بما لا يحيط به البيان من الثواب العظيم. ثم رغب سبحانه فى الصالحات وحذر من غيرها فقال: (مَنْ عمل صالحًا) ... إلخ. أى مَنْ عمل عملاً صالحًا فنفعه خاص به ومَنْ عمل سيئًا بأن عصى ربه فوبال سيئته على نفسه لا يضر غيره. ثم فى النهاية ترجعون أيها العباد إلى ربكم يوم القيامة للحساب والجزاء. ثم أراد سبحانه أن يخفف عن نبيه ﷺ ما حصل من قومه ببيان أن هذا من شأن الأمم مع أنبيائهم فقال: (ولقد آتينا بنى إسرائيل).. إلخ. أى ولقد تفضلنا على بنى إسرائيل بالتوراة والإنجيل وعلمناهم معرفة الحقائق وأسرار الأشياء وجعلنا فيهم أنبياء كثيرين ورزقناهم من طيبات الأرزاق فكانوا كالملوك، انظر الآية (٢٠) من سورة المائدة صفحة ١٤٠ . وفضلناهم على عالمى زمانهم انظر ما تقدم فى الآية (٣٢) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨ . وآتينا بنى إسرائيل فى التوراة والإنجيل أدلة واضحة على صدق خاتم الرسل. ولكنهم لما جاء اليقين عند إرساله ﷺ ومعه العلامات الموجودة عندهم اختلفوا. فمنهم مَنْ آمن، ومنهم مَنْ كفر لمجرد البغى والحسد لأن الرسول كان من غيرهم كما تقدم فى الآية (٨٩) من سورة البقرة صفحة ١٧ . ثم هددهم سبحانه فقال: (إن ربك)... إلخ. أى أن ربك أيها النبى سيقضى بين المحق والمبطل منهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. فيثيب المحق ويعاقب المبطل. وبعد ذلك أمر سبحانه نبيه والمؤمنين معه أن لا يفعلوا فعلهم فقال: (ثم جعلناك)... إلخ أى ثم جعلناك بعد بنى إسرائيل على شريعة من أمر الدين، فسر فى طريقها، ولا تتبع آراء الجهال من رؤساء الكفر فى قريش، فإن آراءهم تابعة لشهواتهم لا مع الحق، فلا تتبعهم فإنهم لن ينفعوك فى دفع شىء مما يريده الله بك إن أطعتهم ولا توالى غير الله؛ لأن الظالم لا يوالى فى الدنيا إلا ظالما أما فى الآخرة فلا ولى ولا شفيع.

أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ[1] لِلنَّاسِ
وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ
اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا[2] وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ[3] سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾
وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ[4] وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ
نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ[5] مَنِ اتَّخَذَ
إِلَٰهَهُ هَوَاهُ[6] وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ
وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً[7] فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا
وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ
إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا[8] بَيِّنَاتٍ[9] مَا كَانَ
حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا[10] إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[11] ﴿٢٥﴾

المفردات: ﴿بصائر﴾: أي سبب نور القلوب كما تقدم فى الآية (١٠٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٠ والآية (٤٣) من سورة القصص صفحة ٥١٣ .

﴿أم حسب﴾: المراد: ليس الأمر كما يظن الذين كفروا. انظر ما تقدم فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢ والآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ .

﴿اجترحوا﴾: قال الراغب: الاجتراح اكتساب الإثم. وأصل مادته الجَرْح؛ لأن المذنب كأنه جرح نفسه وآلمها.

﴿السيئات﴾: المراد بها هنا سيئات الكفر بدليل ما يقابلها فيما يأتى.

﴿سواء﴾: أى مستويا.

﴿ساء﴾ ... إلخ: أى قبح حكمهم.

﴿ولتجزى﴾ ... إلخ: فعل سبحانه ذلك لتمام العدل ولتجزى كل نفس بما كسبت.

﴿أفرأيت﴾: المراد: اخبرنى عن جواب الاستفهام الآتى. انظر الآية (٤٠) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨.

﴿على علم﴾: المراد: وهو عالم بالحق والباطل كما تقدم فى الآية (١٧) هنا فى هذه السورة ونظيره فى الآية (١٤٠) من سورة البقرة صفحة ٢٧ .

﴿فمن يهديه﴾: ﴿من﴾: اسم استفهام إنكارى يفيد النفى. أى لا أحد يهديه.

---

(١) بصائر. (٢) آمنوا. (٣) الصالحات.
(٤) السموات. (٥) أفرأيت. (٦) هواه.
(٧) غشاوة. (٨) اياتنا. (٩) بينات.
(١٠) بآبائنا. (١١) صادقين.

﴿نموت ونحيا﴾: أي يموت بعضنا ويخلفنا بالولادة آخرون، كما تقدم فى الآية (٣٧) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٩ .

والمراد: ليس هناك بعث بعد الموت ولا جنة ولا نار، كما يقول بعض الذين يدعون أنهم رسل اللهّ.

﴿الدهر﴾: هنا هو الزمن الطويل وكان العرب فى الجاهلية ينسبون كل حادث إليه. فمن ذلك قول الشاعر:

أشاب الصغير وأفنى الكبير * كَرُّ الغداةِ ومرُّ العشىّ

﴿من علم﴾: ﴿من﴾ للنص على عموم نفى ما بعدها.

﴿إن هم﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾.

﴿حجتهم﴾: سماها حجة تهكما بهم وإلا فهى ليست فى شىء من الأدلة.

﴿ائتوا بآبائنا﴾: خطاب من كل أمة كافرة لنبيها، انظر الآية (٣٦) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨.

المعنى: إن الظالمين أنفسهم بالشرك كما فى الآية (١٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٠ بعضهم أولياء بعض.

أما المؤمن الذين يتقون الله، فالله وليهم وناصرهم يخرجهم من الظلمات إلى النور كما فى الآية (٢٥٧) من سورة البقرة صفحة ٥٤.

ثم بيَّن سبحانه فضله بإنزال القرآن فقال: (هذا بصائر)... إلخ. أى هذا القرآن بما فيه من تعاليم تنير طريق الصواب بمنزلة البصائر للقلوب التى ترشد إلى طريق النجاة وهو قوى الهداية وسبب رحمة لمَنْ يوقن بصحته فينتفع بما فيه.

ثم أراد سبحانه أن يبين الفرق الواضح بين حال المحسنين والمسيئين فقال: (أم حسب)... إلخ. أى بل هل يظن الذين اكتسبوا السيئات بكفرهم بالله وتكذيب رسله أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات فنسوى بينهم فى الدنيا والآخرة؟

كلا. فإن المؤمن فى الدنيا مطمئن القلب فى سعادة روحية وفى الآخرة فى نعيم دائم. والكافر فى الدنيا فى قلق وخوف من زواله من الدنيا أو زوالها عنه وهو فى الآخرة فى عذاب

مقيم، انظر شرح الآية (٩٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٩. ولهذا قال سبحانه: ساء ما يحكمون. أى قبح حكمهم بالتساوى بين الفريقين. ثم بيّن سبحانه سبب ذمهم على التسوية بقوله: وخلق اللّه... إلخ. أى أنه سبحانه خلق السموات والأرض وما فيها لحكمة لا لعبًا وعبثًا. وذلك يقتضى العدل والإنصاف.

وهذا لا يكون إلا بعدم مساواة المحسن بالمسىء. انظر تفصيل ذلك فى شرح آيتى (٤، ٥) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٢، ٥٦٣. ولهذا قال: ﴿ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾. ثم أكد سبحانه عدم المساواة بذكر جرائم الكافرين والمتبعين شهواتهم فقال: (أفرأيت)... إلخ. أى هل وقفت أيها السامع على حال هؤلاء الضالين فتخبرنى عن الإنسان الذى يطيع شهوات نفسه ولا يخالفها أبدا كأنها إلهه الذى يعبده. وعاقبه اللّه بغلق باب الهداية فى وجهه حال كون هذا الضال عالما بما هو حق وما هو باطل. وختم على سمعه فلا تؤثر فيه موعظة. وعلى قلبه فلا يفكر فى دليل الحق. وجعل بصره لا يرى آيات اللّه فى الكون كأن عليه غطاء؛ إنسان كهذا هل فى الكون من يستطيع أن يهديه بعدما عاقبه اللّه تعالى بهذا الإضلال؟ انظر آيتى (٦، ٧) من سورة البقرة صفحة ٤. هل عدمتم أيها الكفار ملاحظة ذلك فلا تتذكرون فتعتبرون؟

ثم بيَّن سبحانه بعض أسباب إضلالهم فقال: (وقالوا)... إلخ. أى وقال مَنْ ينكر البعث من كفار مكة وغيرهم ليس هناك إلا هذه الدار التى يسميها محمَّد الدنيا يموت منا قوم ويخلفهم آخرون، وليس بعد ذلك بعث ولا قيامة. وما يهلكنا إلا طول الزمن، أى لا ملك يقبض الأرواح كما يقول محمَّد، وأن اللّه تعالى لا دخل له فى ذلك، هذا ما يقوله مشركو العرب والدهرية الذين لايؤمنون بوجود اللّه تعالى، فهم يزيدون عن كفار قريش إنكار الإله بعد اتفاقهم معهم فى إنكار البعث.

وليس لكل هؤلاء فيما ذكروا من إنكار الحياة الأخرى ونسبة الهلاك إلى الدهر علم يستند إلى عقل أو نقل صحيح، وما هم إلا يخمنون تخمينًا باطلاً لايغنى من الحق شيئًا. ومن عيوبهم أنهم إذا تتلى عليهم آياتنا واضحات فى إثبات البعث لا يكون عندهم حجة يزعمونها إلا قولهم: إن كنت صادقا يا محمَّد أنت ومَنْ معك فأحيوا آباءنا الأولين حتى نؤمن بك.

قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ[1]
لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[2] وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ
يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ
إِلَىٰ كِتَٰبِهَا[3] ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا[4]
يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[5] وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ[6] فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ
فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى[7] تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا
مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ
فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ
بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم

المفردات: ﴿لا ريب فيه﴾: أى لاشك فيه.

﴿يومئذ﴾: هذا توكيد لـ ﴿يوم﴾ السابق.

﴿المبطلون﴾: المراد: المستمرون على الباطل.

﴿جاثية﴾: أى باركة على الركب كهيئة الخائف المتذلل.

﴿تدعى إلى كتابها﴾: المراد: يدعى كل واحد منهم لأخذ كتاب أعماله، إما بيمينه، وإما بشماله. انظر الآية (١٩) وما بعدها من سورة الحاقة صفحتى ٧٦٢،٧٦٣ .

﴿ينطق﴾: المراد يسجل ويشهد ما فيه بالحق، فهو نطق بلسان الحال لا بلسان المقال، انظر الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١ والآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨ .

﴿نستنسخ﴾: أى نطلب من الملائكة الحفظة نسخ وكتابة أعمالكم التى تصدر عن جوارحكم وقلوبكم، انظر الآية (٢١) من سورة يونس صفحة ٢٦٩ والآية (٨٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥ .

﴿المبين﴾: أى الواضح، انظر الآية (١٦٨) من سورة البقرة صفحة ٣٢، والآية (٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٦ .

﴿مستيقنين﴾: أى متحققين.

﴿بدا لهم﴾: أى ظهر لهم. ﴿حاق﴾: نزل وأحاط.

---

(١) القيامة. (٢) السموات. (٣) كتابها.
(٤) كتابنا. (٥) آمنوا. (٦) الصالحات.
(٧) آياتى.

المعنى ـ قل أيها النبى لمنكرى البعث: الله وحده هو الذى يحييكم ابتداء. ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم. أى لا الدهر كما تزعمون ثم يجمعكم مسوقين إلى جزاء يوم القيامة، انظر آيتى (٧١، ٧٣) من سورة الزمر صفحة ٦١٦ . لا شك فى هذا الجمع.

والمراد: أن مَنْ قدر على خلقكم أولاً قادر على إعادتكم ثانيا، بل هذا عليه أهون كما فى الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤. ولكن أكثر الناس يجهلون ذلك لإهمالهم التفكير الصحيح وانهماكهم فى شهوات الدنيا، وإنما لم يجبهم سبحانه لماطلبوا لأنه يعلم أنهم إذا فعل لا يؤمنون كما فى الآية (١١١) من سورة الأنعام صفحة ١٨١ وعند ذلك يحل بهم عذاب الإفناء. وهو سبحانه لا يريد ذلك لأمة خاتم المرسلين، انظر الآية (٥٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٢ .

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على قدرته على البعث، وأتبعه بتخويفهم مما سيكون بعده فقال: ولله ملك السموات... إلخ. أى أنه سبحانه مالك العالم كله علويه وسفليه لا يجرى فيه حكم غير حكمه. وليس لأصنام ولا لدهر فيه تصرف. ويوم تقوم القيامة فى هذا اليوم يخسر الغارقون فى الباطل كل خير. وترى ـ يا مَنْ يصح أن ترى ـ فى ذلك اليوم كل أمة جاثية أفرادها على ركبهم من شدة الهول والرعب انتظارا لما يقضى به عليهم أو لهم وذلك عقب ندائها باسم إمامها كما فى الآية (٧١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤ .

ثم يدعى أفراد كل أمة إلى تسلم كتب أعمالهم ويقول الله سبحانه لهم: اليوم تجزون بأعمالكم خيرًا أو شرًا. فلا ظلم؛ لأن هذا الكتاب الذى أمرنا به يشهد عليكم ما فيه شهادة حق لا زيادة فيه ولا نقص، لأنا كنا أمرنا الملائكة أن تكتب فيه ما كنتم تعملون فقط. وهم لايعصون الله فيما أمرهم. ويفعلون ما يؤمرون به. ثم بعد انتهاء الحساب يوزعون.

فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته، والمراد بها هنا الجنة. ذلك هو الفوز الواضح الذى لا فوز بعده. وأما الذين كفروا فيقول سبحانه لهم توبيخًا وإقامة للحجة: هل أهملتكم فلم يكن رسلى يتلون عليكم آياتى المنزلة وفيها إرشادكم إلى الصواب، فاستكبرتم عن الإيمان بها واتباع الرسل وذلك لأنكم تمرنتم على الإجرام ومن أفظعه الكفر بالله؟ وإذا قال لكم رسل الله: أن وعد الله بالحساب والجزاء حق، وقالوا لكم: الساعة آتية لاشك فيها، قلتم مستهزئين لا علم لنا بهذه الساعة. وما نظن فى أمرها إلا ظنا، وليس عندنا فيها يقين، أى ونحن لا نعلم حسابا لما لا نستيقنه، وبعد هذا التوبيخ ظهر لهم جليا قبيح أعمالهم وأحاط بهم العذاب من كل جانب.

مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ[1] كَمَا
نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ[2] ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن
نَّٰصِرِينَ[3] ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ[4] ٱللَّهِ هُزُوًا
وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ[5] ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ
يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[6] وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ[7] ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[8] وَٱلْأَرْضِ ۖ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

(٤٦) سُورَةُ الأحْقَافِ مَكِّيَّة
وآيَاتُهَا خَمْسٌ وثَلاثُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ[9] ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ[10] مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾

المفردات: ﴿ننساكم﴾: أى نتركككم، ونهملكم، فلا ننقذكم، كما تركتم العمل لهذا اليوم، انظر الآية (١١٥) من سورة طه صفحة ٤١٧ .

﴿كما نسيتم﴾: أى كما تركتم.

﴿مأواكم﴾: أى مكانكم الذى تأوون إليه.

﴿من ناصرين﴾: ﴿من﴾ حرف يدل على النص على عموم نفى ما بعده.

﴿هزوا﴾: أى مهزوءًا بها والمراد: استهزأتم بآيات اللّه.

﴿يستعتبون﴾: أى لا يطلب منهم أحد من الشفعاء أن يرجعوا عما أوجب العتب كما تقدم فى الآية (٨٤) من سورة النحل صفحة ٣٥٧ والآية (٥٧) من سورة الروم صفحة ٥٢٨.

﴿رب العالمين﴾: لم يعطفه كسابقه لأنه تأكيد لهما بما يعمهما ويعم ما فيهما المصرح به فى آيات كثيرة منها ما فى الآية (٦٥) من سورة مريم صفحتى ٤٠٢،٤٠٣ والآية (٦) من سورة طه صفحة ٤٠٦، وبما هو أوسع كما فى الآية (٢٩) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣.

---

(١) ننساكم.
(٢) مأواكم.
(٣) ناصرين.
(٤) آيات.
(٥) الحياة.
(٦) السموات.
(٧) العالمين.
(٨) السموات.
(٩) حاميم بكسر الميم الأولى وسكون الميم الثانية.
(١٠) الكتاب.

﴿الكبرياء﴾: أى العظمة والسلطان القاهرة.

المعنى: وأحاط بمنكرى البعث العذاب الذى كانوا يستهزئون به ويقابلون وعد اللّٰه به بالإنكار، ثم يزاد فى تعذيبهم بإخبارهم بأنهم مهملون لا ينظر إليهم ربهم برحمة فيقول سبحانه لهم: اليوم نترككم فى العذاب كالمنسيين كما تركتم العمل للقاء يومكم هذا. ومحل إقامتكم النهائى هو النار. وما لكم منقذون ينقذونكم منها. ثم ذكر سبحانه بعض ما استحقوا به هذا الشقاء فقال: (ذلكم بأنكم)... إلخ.

أى هذا الذى أصابكم من العذاب بسبب أنكم فى الدنيا اتخذتم آيات اللّٰه التى أنزلها على رسله سخرية تهزءون بها وخدعتكم زخارف الدنيا فشغلتكم عن العمل بما ينجيكم من هذا الشقاء الدائم. فاليوم لايقدر أحد على إخراجهم من النار. ولا يسمح لهم أن يطلبوا رضا اللّٰه عنهم.

وبعدما أوضح سبحانه فى السورة طريق السلامة وطريق الخطر، وأقام الدليل بعد الدليل على الحق، أرشد العباد لحمده على نعمة الإرشاد والهداية فقال: فللّٰه الحمد... إلخ، أى إذا كان هذا الذى سبق من الإرشاد منه تعالى وحده فله الحمد، وهو سبحانه وحده مالك السموات والأرض ومالك جميع ما فيهن وله وحدهُ العظمة والسلطان فى العالم كله.

فكل شىء خاضع لقهره، وهو العزيز أى الغالب الذى لا يغلب. الحكيم فيما يشرع ويفعل. فيجب ألا يعبد غيره، ولا يطاع سواه. اللهم وفقنا لتوحيدك وطاعتك يا نعم المجيب آمين.

سورة الأحقاف

المفردات: ﴿حم﴾: تنطق هكذا حاميمْ بكسر الميم الأولى وسكون الميم الثانية.

المعنى: . حم: تقدم المراد من مثلها أول سورة البقرة: تنزيل هذا القرآن هو من اللّٰه العزيز فى ملكه الحكيم فى صنعه.

مَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ[1] وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾
قُلْ أَرَءَيْتُم[2] مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ
الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَٰوَٰتِ[3] ائْتُونِي بِكِتَٰبٍ[4] مِّن
قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَٰرَةٍ[5] مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ[6] ﴿٤﴾ وَمَنْ
أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ
يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ[7] وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ[8] ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ
النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ[9] ﴿٦﴾
وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا[10] بَيِّنَٰتٍ[11] قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ
لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ[12] قُلْ
إِنِ افْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا
تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ

المفردات: ﴿ماخلقنا السموات﴾ ... إلخ: تقدم المراد من ذلك فى الآية (٢٢) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣. ﴿وأجل مسمى﴾: معطوف على ﴿الحق﴾ قبله. والمراد: وبتقدير أجل محدد هو يوم القيامة، الذى يجازى فيه كل على عمله. ﴿أرأيتم﴾: المراد: أخبرونى عن جواب الاستفهام الآتى: ﴿ماذا خلقوا﴾ ... إلخ. ﴿أم لهم شرك﴾ ... إلخ: ﴿أم﴾ تقدم الكلام عن معناها فى الآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ وبقية الآية تقدم الكلام عن معناها فى الآية (٢٢) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٥، ٥٦٦، والآية (٤٠) من سورة فاطر صفحة ٥٧٧. ﴿أثارة﴾: أصلها البقية من الشىء، والمراد: ليس عندكم أقل علم بما تزعمون. ﴿مَنْ أضل): ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام إنكارى يفيد النفى أى لا أحد أشد ضلالا.

﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾: هذه الجملة كالتعليل لما قبلها لأن المراد بالغفلة العجز عن الإجابة، انظر شرح آيتى (٢٨، ٢٩) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١ وآيتى (١٣، ١٤) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٣، ٥٧٤. ﴿كانوا لهم أعداء﴾: أى كانت معبوداتهم أعداء لهم، انظر الآية (٢٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤ والآيات (٢٢ إلى ٣٣) من سورة الصافات صفحتى ٥٨٨، ٥٨٩. ﴿للحق﴾: اللام بمعنى ﴿عن﴾ كما فى الآية (١٠٥) من سورة النساء صفحة ١٢٠ والآية (٣٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٨ والآية (١١) الآتية من هذه السورة صفحة ٦٦٧. ﴿سحر مبين): أى ظاهر كما تقدم فى الآية (٣٠) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤. ﴿افتراه﴾: الافتراء أقبح أنواع الكذب. ﴿تفيضون فيه﴾: أى تخوضون فيه، انظر الآية (٦١) من سورة يونس صفحتى ٢٧٥، ٢٧٦ والآية (١٤) من سورة النور صفحتى ٤٥٨، ٤٥٩. ﴿كفى به شهيدا﴾: أى مطلعًا، انظر الآية (٣٦) من سورة الزمر صفحة ٦١١ والآية (٥٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧.

---

(١) السماوات. (٢) أرأيتم. (٣) السموات. (٤) بكتاب. (٥) أثارة. (٦) صادقين.
(٧) القيامة. (٨) غافلون. (٩) كافرين. (١٠) آياتنا. (١١) بينات. (١٢) افتراه.

المعنى: ـ يقول سبحانه: ماخلقنا هذا العالم الدنيوى لمجرد اللعب واللهو بل لحكم عالية. وبتقدير أجل محدد هو يوم القيامة الذى يجازى فيه كل عامل على عمله. ومع كل هذا فالذين كفروا معرضون عن الإيمان به وعن الاستعداد له. قل أيها النبى توبيخًا لهم أخبرونى عن هذه المعبودات الباطلة التى تخضعون لها من دون إفراد الله بالعبادة. ثم أكد الطلب الأول فقال: أرونى أى أطلعونى على الذى خلقوه من أجزاء الأرض ومافيها؟ بل هل لهم مشاركة مع الله سبحانه فى خلق السموات وما فيها؟ وبعد مابكّتهم بعجزهم عن دليل عقلى شرع فى تبكيتهم بالعجز عن دليل نقلى، فقال: (ائتونى)... إلخ. أى أطلعونى على كتاب منزل من قبل هذا القرآن يدل على صحة شرككم. أو ائتونى ببقية من علم العلماء السابقين تدل على جواز عبادة غير الله إن كنتم صادقين فى دعواكم جواز عبادة غير الله تعالى. وإذا لم تستطيعوا فيجب أن تعلموا بطلان ما أنتم عليه. ثم ذكر سبحانه نتيجة ماتقدم فقال: ومَنْ أضل...إلخ. أى لا أحد أشد ضلالا ممَنْ يدعو من دون الله مخلوقًا يستحيل عليه أن يجيب دعاءه مادامت الدنيا. وبعدها تكون الإجابة أشد استحالة بدليل ما سيأتى فى الآية (٦)، فالمراد لايستجيب له أبدا، ومثل ماهنا لعنة الله سبحانه وتعالى لإبليس فى الآية (٣٥) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠، فإنها مستمرة عليه بعد يوم القيامة أيضًا. فالكفار يدعون مخلوقات والحال أن هذه المخلوقات غافلة عنهم لاتنفعهم بشىء. وإذا حشر الناس عند قيام الساعة كان المعبودون من دون الله أعداءً لعابديهم. وكافرين بهم، أى مكذبين لهم فى دعوى أنهم عبدوهم، بل كانوا يعبدون شهواتهم ثم رجع سبحانه يذكر بعض جرائم المشركين فقال: (وإذا تتلى عليهم)... إلخ. أى وإذا قرأ رسولنا أو أحد المؤمنين على كفار مكة آيات القرآن حال كونها واضحات فى بيان الحق، قال الكافرون فى شأن هذه الآيات التى هى حق. عندما عجزوا عن الإتيان بمثلها ـ هذا سحر ظاهر يخدع مَنْ يسمعه، ثم انتقل سبحانه من حكاية قولهم الشفيع إلى حكاية ماهو أشنع وهو الكذب على الله فقال: (أم يقولون)... إلخ. أى بل هل بلغ من تبجحهم أن يقولوا إن محمدًا افترى هذا القرآن على الله؟ قل أيها النبى لهم إن كنت افتريته على سبيل الفرض فإن الله لابد أن يعاجلنى بالعقوبة. وعند ذلك لاتستطيعون أنتم ولاغيركم دفع شىء من عقابه عنى. فكيف يصح لعاقل أن يتعرض لمقت الله. انظر الآية (١٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨ والآيات (٤٠ إلى ٤٧) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦٣، ٧٦٤ والآية (٢٢) من سورة الجن صفحة ٧٧٢. والله سبحانه يكفينى شاهدا بينى وبينكم. ثم رغب مَنْ هو مستعد منهم للتوبة، فقال: (وهو الغفور)... إلخ. أى وهو سبحانه الغفور لمَنْ يتوب الرحيم بالمؤمنين.

الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي
مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا
إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ
وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ
فَـَٔامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا
إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾
وَمِن قَبْلِهِ كِتَٰبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ
مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ
لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَٰمُوا
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
الْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

المفردات: . ﴿بدعًا﴾: البدع والبديع هو الذي لم يسبق له مثيل، أي ما أنا بأول رسول جاء بالتوحيد، ومكارم الأخلاق. ﴿وماأدرى ما يفعل بى﴾ .. إلخ: أى فى هذه الدنيا، هل أموت قبل أن تؤمنوا جميعًا، أم يؤمن أكثركم.. إلخ. وما أشبه ذلك مما لايعلمه إلا الله. ﴿إن أتبع﴾ ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ما. أى ما أتبع. ﴿نذير﴾: أى محذر من غضب الله سبحانه لمَنْ يعصيه. ﴿مبين﴾: واضح التحذير. ﴿أرأيتم﴾: تقدم شرحها فى الآية (٤) من هذه السورة صفحة ٦٦٦. ﴿إن كان﴾: أى القرآن الكريم. ﴿شاهد﴾: كعبد الله بن سلام من اليهود. ومن النصارى كالمذكورين فى قوله تعالى. ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا) فى الآيات (٨٢ إلى ٨٤) من سورة المائدة صفحتى ١٥٣، ١٥٤. انظر شرح الآية (٣٦) من سورة الرعد صفحة ٣٢٧. ﴿على مثله﴾: المراد: على صحة كتب الله السابقة المماثلة للقرآن فى الدعوة إلى التوحيد، وأصول الفضائل. وهذه الآية رقم (١٠) مدنية: لأنه لم يسلم أحد من اليهود أو النصارى إلا بعد الهجرة.

﴿للذين آمنوا﴾: اللام بمعنى ﴿عن﴾ أى تحدثوا عن الذين آمنوا. فهى كاللام المتقدمة فى ﴿للحق﴾ فى الآية (٧) من هذه السورة صفحة ٦٦٦. ﴿وإذ لم يهتدوا به﴾: ﴿إذ﴾ هنا بمعنى لام التعليل. كما تقدم فى الآية (١٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٢ والآية (٣٩) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١. والمعنى: ولأجل عدم هدايتهم بالقرآن فسيفترون عليه كذبا. ﴿إفك قديم﴾: الإفك هو أقبح أنواع الكذب والمراد: كذب من جنس أساطير الأولين. ﴿ومن قبله﴾: أى قبل القرآن الكريم. ﴿كتاب موسى﴾: أى التوراة. ﴿إماما﴾ = أى قدوة يؤتم به فى دين الله كما يؤتم بالإمام. ﴿وهذا كتاب مصدق﴾ ... إلخ: أى وهذا القرآن مصدق لما قبله حال كونه بلسان العرب. انظر شرح الآية (٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٩.

(١) أرأيتم. (٢) إسرائيل (٣) فآمن. (٤) الظالمين. (٥) آمنوا.
(٦، ٧) كتاب. (٨) استقاموا. (٩) أصحاب. (١٠) خالدين.

المعنى: ـ قل أيها النبى لكفار قومك لست غير مسبوق برسل جاءوا بمثل ماجئت به من التوحيد ومكارم الأخلاق. بل سبقنى كثير منهم بذلك ولست أدرى على التفصيل مايفعله الله بى ولابكم إلا من جهة مايوحيه سبحانه إلىّ هل أخرج من بلدى أم تؤمنون وأبقى معكم، وهل سيعجل لكم العذاب أم يؤخر للآخرة، ولا أتبع فى عملى إلا ما يوحيه سبحانه. وما أنا فى الحقيقة إلا بشر اختاره الله ليكون للعالمين نذيرا واضح الإنذار انظر شرح الآية (١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠. قل لهم أخبرونى ماذا يكون حالهم إن توارد الدليل بعد الدليل. وثبت أن هذا القرآن من عند الله، لا سحر ولا كذب كما تزعمون، والحال أنكم مع ذلك كفرتم به، وسيأتى من بنى إسرائيل علماء بالتوراة يشهدون على صحة كتب الله السابقة التى تماثل القرآن فى الدعوة إلى التوحيد وأصول العقائد... إلخ مايدل على أن هذا القرآن من عند الله، انظر الآيات ١٩٢ إلى ١٩٧ من سورة الشعراء صفحتى ٤٩١، ٤٩٢ وآيتى (١٨، ١٩) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤. إن ثبت كل ذلك فآمن هذا الشاهد واستكبرتم ألستم تكونون ظالمين؟ فلن يهديكم الله أبدا؛ لأنه سبحانه لايهدى القوم الظالمين. ثم شرع سبحانه فى حكاية نوع آخر من سفاهتهم فقال: وقال الذين... إلخ. أى وقال كفار مكة عن الذين آمنوا من الفقراء والضعفاء كعمار بن ياسر وبلال مثلا. لو كان ماجاء به محمد خيرا ماسبقنا إليه هؤلاء الضعفاء. قالوا ذلك لزعمهم أن الخير لايحصل إلا لمَنْ كان غنيًا واسع الجاه، انظر الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠. ولجوا فى العناد حين لم يهتدوا بهذا القرآن فقالوا فيه ماقالوا وسيقولون أيضًا أنه كذب من نوع أساطير الأولين المتقدم فى الآية (٣١) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١. ولما كان كفار مكة يرجعون إلى أهل الكتاب لعلهم يجدون عندهم ما يساعدهم على تكذيبه ﷺ كما تقدم فى شرح الآية (٥١) من سورة النساء صفحة ١٠٩ والآية (٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١. أراد سبحانه أن يبين لهم هنا أن فى كتب أهل الكتاب الصحيحة مايدل على أن مافى القرآن حق وأن رسوله صادق فقال: (ومن قبله) ... إلخ. أى كيف يصح أنه كذب والحال أن كتاب موسى جاء من قبله بلغة أعجمية حال كونه إماما ورحمة لمن آمن به. وهذا القرآن كتاب من الله تعالى مصدق لما فى كتاب موسى من أصول الشرع حال كونه بلسان عربى ليتيسر أن يحذر به الرسول العربى الذين ظلموا أنفسهم بالشرك. وهو مع ذلك بشرى للمؤمنين المحسنين لعقائدهم وأعمالهم. وبعد ماذكر سبحانه طريق أهل الباطل أرشد إلى طريق أهل الحق وجزائهم فقال: (إن الذين قالوا)... إلخ. أى إن الذين اعترفوا بلسانهم بما يتفق مع مافى قلوبهم من أنه لارب لهم إلا الله ثم استقاموا على شرع الله سبحانه فلا خوف عليهم من مكروه، ولايحزنون لفوات مرغوب. هؤلاء هم أصحاب الجنة خالدين فيها. أعطاهم الله ذلك جزاء بما كانوا يعملون.

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا
وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا
بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا
تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي
مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ
مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ
الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ
أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن
قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ
حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ

المفـــردات: . ﴿كــرهًا﴾: المراد بالكره هنا المشقة، والمراد حملته حملا ذا مشقة، انظر الآية (١٤) من سورة لقمان صفحتى ٥٤٠، ٥٤١. ﴿وحمله وفصاله﴾: أصل الفصال الانفصال الناتج عن الفطام، وأريد به هنا المدة الكاملة للرضاع التى يعقبها الفطام، انظر الآية (٢٣٣) من سورة البقرة صفحتى ٤٧، ٤٨، والمراد: أن مدة حمله ورضاعه ثلاثون شهرا.

﴿أشده﴾: أى كمال قوته الجسمية والعقلية كما تقدم فى الآية (٢٢) من سورة يوسف صفحة ٣٠٥ والآية (١٤) من سورة القصص صفحة ٥٠٨.

﴿قال رب أوزعنى﴾: نبه سبحانه إلى ماينبغى أن يكون عليه المؤمن إذا بلغ أشده فقال ينبغى له أن يقول: يارب وفقنى لشكر نعمتك... إلخ، وانظر مايحصل من غير المؤمن فى الآية (١٩٠) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٤. ﴿نتقبل عنهم﴾: ﴿عن﴾ هنا بمعنى ﴿من﴾، انظر الآية (٢٥) من سورة الشورى صفحة ٦٤٢. ﴿أحسن ماعملوا﴾: المراد: نعطيهم ثواب أعمالهم كلها على قدر أحسنها، تفضلاً، لقوة إخلاصهم فيها، انظر الآية (٣٥) من سورة الزمر صفحة ٦١١.

﴿والذى قال لوالديه﴾ المراد: والفريق من الناس... إلخ، فهو جمع بدليل جمع الضمائر فى الآية ﴿١٨﴾ الآتية وهو مبتدأ خبره ﴿أولئك الذين حق﴾... إلخ.

﴿أف﴾: كلمة تدل على التضجر، كما تقدم فى الآية ﴿٢٣﴾ من سورة الإسراء صفحة ٣٦٧.

---

(١) الإنسان. (٢) بوالديه. (٣) إحسانا.
(٤) فصاله. (٥) ثلاثون. (٦) والدى.
(٧) صالحا. (٨) ترضاه. (٩) أصحاب.
(١٠) لوالديه. (١١) أساطير.

﴿أتعدانني أن أخرج﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري، المفيد للنفي. أي لايصح أن تعداني بالخروج من القبر والمراد: أنه ينكر البعث. ﴿خلت﴾: أي مضت.

﴿يستغيثان الله﴾: يقال استغاث الله، واستغاث به. أي طلب أن يغيثه. ﴿ويلك﴾: أي هلاكك، والمراد: هلكت إن لم ترجع عما تقول.

﴿أساطير الأولين﴾: هي الأكاذيب، انظر الآية (٢٥) من سورة الأنعام صفحتي ١٦٥، ١٦٦.

﴿حق عليهم القول﴾: المراد: نزل بهم ماهددناهم به، كما تقدم في الآية (٨٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٤.

المعنى: . جرت عادته سبحانه أنه إذا ذكر توحيده قرن به الوصية بالوالدين إشارة إلى العناية بالإحسان إليهما، فمن ذلك مافي الآية (٣٦) من سورة النساء صفحة ١٠٦ والآية (٢٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٧، وفي بعضها شدد الوصية بالأم لأن نصيبها في الفضل على الولد أكبر.

ولذا قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله من أحق بحسن صحابتي؟ قال: (أمك) قال: ثم مَنْ؟ قال: (أمك) قال: ثم مَنْ قال: (أمك) قال: ثم مَنْ؟ قال (ثم أبوك).

(أخرجه البخاري في كتاب الأدب ٢ - باب من أحق الناس بحسن الصحبة)

والمعنى: ووصينا الإنسان بأن يحسن لوالديه إحسانا بأن لايفعل معهما إلا ماهو حسن شرعا مما يرضيهما خصوصًا إذا كبرا في السن، انظر آيتي (٢٣، ٢٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٧. ثم بيّن سبحانه بعض ماتتحمله الأم فقال: حملته أمه... إلخ.

أي أنها كانت طول مدة حملها له في مشقة ثم في مشقة أخرى عند الوضع. ومدة حمله مع مدة رضاعه ثلاثون شهرًا، فأفادت هذه الآية مع الآية (٢٣٣) من سورة البقرة صفحتي ٤٧، ٤٨ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وأكثر مدة الرضاع عامان، كما تقدم في الآية (١٤) من سورة لقمان صفحتي ٥٤٠، ٥٤١.

ثم نبه سبحانه إلى ماينبغى أن يكون عليه المؤمن إذا بلغ رشده، فقال: حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة.

وهى المدة التى يكتمل فيها العقل. ولهذا قال ابن عباس (مَنْ أتى عليه أربعون عاما ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار) فإذا بلغ الإنسان كمال العقل قال يارب وفقنى لشكر نعمتك على وعلىّ والدى لأن الإنعام على الوالد: إنعام على ولده، وأن أعمل صالحا ترضاه واجعل الصلاح ساريا فى ذريتى لأنتفع بدعائهم فى الدنيا وأتمتع بالاجتماع بهم فى الجنة، انظر الآية (٢٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥. إنى تبت إليك مما يكون قد حصل منى مما لايرضيك.

وإنى من الخاضعين لأوامرك. ثم قال تعالى: أولئك.. إلخ. أى هؤلاء المؤمنون الذين هذه صفاتهم هم الذين نتقبل منهم.

أى نعطيهم ثواب أعمالهم كلها على قدر أحسنها ونتجاوز أى نصفح عما وقع منهم فى الدنيا من ذنوب لم يصروا عليها. انظر الآية (١٣٥) من سورة آل عمران صفحتى ٨٤، ٨٥ نجازيهم هذا الجزاء حال كونهم معدودين فى أصحاب الجنة. فنحقق لهم بذلك وعدنا الصادق الذى كانوا يوعدون به على ألسنة رسلنا.

وبعدما فرغ سبحانه مما ينبغى أن يكون عليه المؤمن ذكر حال الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث فجمع أفظع الجرائم فقال: والذى قال لوالديه.. إلخ. أى الفريق من الناس الفجار الذى يقول لوالديه عندما يطلبان منه أن يؤمن بالبعث: إنى أتضجر من جهلكما فكفا عن هذا الهراء. هل يصح أن تعدانى بالخروج من القبر والحال أن الأمم التى مضت قبلى لم تخرج من قبورها؟

يقول لهما ذلك والحال أنهما يطلبان من الله أن يغيثهما برجوعه عن الكفر، ويقولان له هلكت إن لم تؤمن. فأسرع إلى الإيمان بالله وبالبعث لأن وعد الله بالقيامة حق. فيقول ماهذا الذى تقولانه إلا أكاذيب من أكاذيب الأولين. هؤلاء الذين يفعلون هذه الجرائم وجب عليهم العذاب حال كونهم فى عداد أمم سبقتهم فعلت فعلهم. والمراد أن سنة الله فى معاملة الكفار واحدة وأن عدله لايختلف.

ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ[1] (١٨) وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ[2]
مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ[3] وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (١٩)
وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ[4]
فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ
ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ
وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ (٢٠) ۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ
قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ
خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ
يَوۡمٍ عَظِيمٖ (٢١) قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا[5] فَأۡتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ[6] (٢٢) قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ[7] قَوۡمٗا
تَجۡهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ

المفردات: . ﴿ولكل درجات﴾: أى مراتب حسب عمل كل واحد. ﴿وليوفيهم﴾: الأصل وجازاهم سبحانه بذلك. ﴿عذاب الهون﴾: أى الهوان والذل كما تقدم فى الآية (١٧) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢. ﴿أخا عاد﴾: هو نبى الله هود عليه السلام، و ﴿عاد﴾ هى عاد الأولى الآتى ذكرها فى الآية (٥٠) من سورة النجم صفحة ٧٠٣. ﴿أنذر﴾: أى حذر وخوف ﴿الأحقاف﴾: جمع حِقْف بكسر فسكون، وهو الرمل المستطيل مع ارتفاع وانحناء، والمراد: الأودية التى حوله باليمن عند (حضر موت)، انظر الآية (٢٤) الآتية فى هذه السورة.

﴿خلت﴾: أصل معناها مضت، والمراد هنا كثرت قبله.

وحوله فى أمم غير أمته لايعلمهم إلا الله، انظر الآية (٧٨) من سورة غافر صفحة ٦٢٨.

﴿النذر﴾: جمع نذير. والمراد: الرسل الذين يحذرون أممهم من عذاب الله سبحانه إذا عصوه.

﴿بين يديه﴾: أى قبل إرساله؛ وقد جاء فى استعمال ﴿مابين يديه﴾ فى الزمن السابق كما فى الآية (٩٧) من سورة البقرة صفحة ١٩، والآية (٥٠) من سورة آل عمران صفحة ٧١، وآيتى (٤٦، ٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦، وقد جاء كناية عن جميع الجهات فى الآية (٢٥٥) من سورة البقرة صفحة ٥٣.

---

(١) خاسرين. (٢) درجات. (٣) أعمالهم. (٤) طيباتكم.
(٥) آلهتنا. (٦) الصادقين. (٧) أراكم.

﴿من خلفه﴾: أي بعد إرساله. ولكنهم كانوا في أزمانهم يحذرون أممهم بمثل تحذيره، انظر الآية (١٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣١.

﴿لتأفكنا﴾: أي لتصرفنا، انظر شرح الآية (٧٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣.

﴿تجهلون﴾: المراد: تجهلون وظيفة الرسل وأنهم إنما جاءوا مبلغين لامعذبين. ﴿رأوه﴾: أي العذاب الذي هددهم به عندما جاء في صورة سحاب.

﴿عارضًا﴾: هو السحاب الذي يخرج عريضا في الأفق. ﴿مستقبل أوديتهم﴾: أي مقبلا عليها.

المعنى: - هؤلاء الذين حل بهم العذاب كانوا ضمن أمم من الجن والإنس، وعذبناهم لأنهم استمروا على الخسران في كل حياتهم فأفسدوا فطرتهم التي هي رأس مال النجاة، فلم يفعلوا مما ينفعهم في الآخرة شيئًا.

وفي الآية دليل على أن الجن يموتون قرنا بعد قرن كالإنس. ثم بين سبحانه أن لكل من فريقي المؤمنين والكافرين مراتب متفاوتة في النعيم والعذاب فقال: (ولكل درجات)... إلخ. أي لكل فرد من أفراد المؤمنين والكافرين منزلة في الجنة أو النار تناسب عمله، فمن المؤمنين مَنْ هو في أعلى درجات الجنة. ومن الكافرين مَن هو في الدرك الأسفل من النار.

وجازاهم سبحانه بذلك ليوفيهم جزاء أعمالهم. وهم لايظلمون. فلا ينقص من المؤمن شيء مما قدر له. ولا يزاد الكافر فوق ما قدر له.

واذكر أيها النبي لكفار قومك ماسيلاقونه من الهول يوم يعرضون على النار، والمراد يدخلونها.

ويقال لهم توبيخًا: استنفدتم ملذاتكم في الدنيا ثم بين ذلك بقوله: واستمتعتم بها أي جعلتم كل همكم في الدنيا هو إشباع شهواتكم حتى تعطلت عقولكم عن التفكير فيما فيه نجاتكم من العذاب الخالد، فصرتم كالبهائم التي لاتعرف ماسيكون في مستقبلها بل كنتم أضل. لاتعرفون رحمة بفقير، ولاشفقة على ضعيف.

انظر الآية (١٢) من سورة محمد صفحتى ٦٧٣، ٦٧٤ والآيات (١، ٢، ٣) من سورة الماعون صفحة ٨٢٣. ولهذه الآية خاف كثير من السلف التوسع فى إرضاء شهوات أنفسهم، والذى يتتبع سنته ﷺ يعلم أنه ينبغى للإنسان أن يأكل ما وجد، ولايجهد نفسه فى البحث عما لايجد من أسباب الشهوات. ولايتكلف الطيب من الملذات ويتخذه عادة.

وقد كان ﷺ يشبع إذا وجد. ويصبر إذا فقد. ويأكل الحلوى إذا قدر، ويأكل اللحم إذا تيسر. ولايتعمده أبدا. ولم يجعله له عادة هدانا الله لسنته. ثم يقال لهؤلاء المجرمين فاليوم تجزون العذاب المهين بسبب أنكم كنتم فى الدنيا تستكبرون فى الأرض بالباطل، وكنتم تفسقون. أى تخرجون عن أوامر ربكم. انظر الآية (٢١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣، ولما كان كفار مكة غارقين فى شهواتهم معرضين عن الإيمان ناسب تذكيرهم بما حصل للعرب الأول ممَّنْ كانوا أقوى منهم.

فقال: (واذكر أخا عاد).. إلخ. أى واذكر أيها النبى لكفار قومك قصة هود حين حذر قومه بالأحقاف لما كذبوه. وخوفهم من عذاب الله. وقد سبقته تحذيرات رسل لأممهم كما جاءت تحذيرات لم تخل منها أمة. انظر الآية (٢٤) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٤، ٥٧٥ حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب تلك الأمم. وقال لهم لاتعبدوا إلا الله.

إنى أخاف عذاب يوم عظيم الهول إذا بقيتم على كفركم. فقالوا ردًا عليه: هل جئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟ فإن كنت صادقًا فى أنه سينزل بنا عذاب فأت به. فقال لهم: لايعلم وقت نزول العذاب غيره تعالى وليس علىّ إلا أن أبلغكم ما أرسلنى به ربى، وكنت أظن أن فيه الكفاية لإرجاعكم عما فيه هلاككم. ولكن تبين لى أنكم قوم لاترجعون من الجهل أبدًا. وكان من آثار ذلك أنكم تقترحون للرسول ماليس من وظيفته. وهو إنزال العذاب بمَنْ يخالفه. ولكنى أظنكم قوما تجهلون وظيفة الرسول. وهى أنه مبلغ فقط. بعد ذلك أمر سبحانه بتنفيذ ما تدعوهم به.

فأرسل عليهم الريح. ظهرت لهم أول أمرها فى صورة سحاب ممتد فى عرض الأفق مقبلا على أوديتهم التى يقيمون فيها.

فاستبشروا وقالوا: (هذا سحاب ممطرنا).. إلخ.

هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا
لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا
وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا
أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ
بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم
مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾
فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً
بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾
وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ
فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم

المفردات: ﴿ممطرنا﴾: أى منزل المطر علينا فيكثر الخير. ﴿فيما إن مكناكم فيه﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى. أى فى الذى لم نمكنكم فيه ياكفار مكة. انظر الآية (٦) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٢، ١٦٣، والمراد: كانوا أقوى منكم ومع ذلك أهلكناهم ﴿أفئدة﴾: أى قلوبا ليعقلوا بها.

﴿فما أغنى عنهم﴾: أى لم ينفعهم، انظر الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢.

﴿من شىء﴾: ﴿من﴾ حرف يفيد النص على عموم نفى مابعده. ﴿إذ كانوا﴾: ﴿إذ﴾ حرف تعليل. أى لأنهم كانوا. ﴿يجحدون بآيات الله﴾: أى ينكرونها مع أن اعتقاد صدقها راسخ فى أعماق نفوسهم، انظر الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥.

﴿حاق بهم﴾: أى نزل وأحاط بهم انظر الآية (٤٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٣. ﴿أهلكنا ما حولكم﴾: أى ياأهل مكة من الأمم المكذبة بالرسل، انظر الآية (٤١) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨ والآية (٤٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥. ﴿وصرفنا الآيات﴾: أى نوعنا البراهين وانظر معنى التصريف فى آيتى (٤١، ٨٩) من سورة الإسراء صفحات ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٦. ﴿فلولا... إلخ﴾: أصل معناه طلب حصول مابعده، وتقدم معناها فى الآية (٣٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦ والآية (٤٦) من سورة النمل صفحة ٥٠٠، والمراد بها هنا التهكم.. ﴿قربانا﴾: مفعول لأجله، أى للتقرب بهم إلى الله، انظر الآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦. ﴿بل﴾:

---

(١) مساكنهم. (٢) مكناهم. (٣) مكناكم. (٤) أبصارا. (٥) أبصارهم.
(٦) بآيات. (٧) الآيات. (٨) آلهة. (٩) القرآن.

حرف يفيد إبطال ما قبله، وإثبات مابعده. ﴿ضلوا﴾: أى غابوا وفقدوا، انظر الآية (١٩٧) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٧، ١٩٨ والآية (٧٤) من سورة غافر صفحة ٦٢٧.

﴿إفكهم﴾: قال القرطبى ﴿الإِفْك﴾ بكسر فسكون مثل ﴿الأَفَك﴾ بفتحتين معناهما: الصرف عن الصواب، كما قالوا فى ﴿الحِذْر﴾ بكسر فسكون، مثل ﴿الحَذَر﴾ بفتحتين معناهما الاحتراس، انظر الآية (٧١) من سورة النساء صفحة ١١٢ لتعرف معنى الحذر، وانظر معنى مادة الإفك فى الآية (٧٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣. والمراد: أن عدم نفع آلهتهم لهم ناتج عن صرف أنفسهم عن الحق والباطل، ولو صرفوا إلى عبادة الإله الحق لنفعهم، وناتج أيضًا عن افترائهم بأن لله شركاء كما سيأتى.

﴿يفترون﴾: أى يكذبون، قاصدين الكذب بأن لله شريكا.

﴿صرفنا إليك﴾: المراد: يسرنا لهم التوجه إليك.

﴿نفرا من الجن﴾: النفر عدد قد يصل إلى أربعين، وأقله ٣، وجمعه أنفار، انظر معنى المادة فى شرح الآية (٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥.

المعنى: لما رأت عاد ما فى الأفق قالوا هذا سحاب يأتينا بالمطر، وكانوا فى شدة الحاجة إليه، فقال لهم هود كلا بل هو مااستعجلتم به من الهلاك. هو ريح فيها عذاب أليم. تدمر وتهلك كل شىء مرت عليه من الأنفس والأموال بإذن ربها، انظر الآية (٤١) ومابعدها من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥.

ثم وصلتهم تلك الريح فأهلكتهم فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم وبمثل هذا الجزاء الشديد يجزى الله كل قوم أجرموا وعملوا مثل عمل عاد، انظر الآيات (٦، ٧، ٨) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦١، ٧٦٢، ثم نبه سبحانه كفار مكة إلى أن هلاكهم أيسر فقال: ولقد.. إلخ. أى ولقد أقررنا عادا فى نعيم وعز لم نعطه لكم. وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ليستعملوها فيما خلقت له. ويعرفوا عن طريقها كل ماينفعهم النفع الصحيح. فلم ينفعهم سمعهم شيئًا لأنهم لم يحسنوا استماع الوحى. ولاأبصارهم لأنهم لم يدركوا بها آيات الله فى الكون. ولا أفئدتهم حيث لم يستعملوها فى البحث عن الحق وفيما يجب لله ومايستحيل عليه تعالى. لم ينفعهم واحد منها أقل نفع؛ لأنهم مردوا على إنكار آيات الله والتعامى عنها، ونزل بهم العذاب الذى

كانوا يستهزئون به إذا حذرهم منه رسولهم. ولقد أهلكناهم كما أهلكنا مَنْ كانوا حولكم ياأهل مكة من قرى ثمود ومدين وقوم لوط، بعد أن نوعنا تصوير الأدلة والعبر بأساليب شتى حتى يتضح الحق بكل طريق، ليرجع كل مَنْ ضل إلى الحق، ومَنْ كفر إلى الإيمان.

ثم نبه قريشًا إلى أن غير الله لاينفع فقال: فلولا نصرهم.. إلخ. أى فهلا نصرهم بدفع العذاب عنهم، هؤلاء الذين اتخذوهم من دون الله آلهة ليتقربوا بهم إليه سبحانه؟ كلا لم يحصل ذلك، بل غابت عنهم تلك الآلهة فى وقت شدة الحاجة إليهم، وعدم نفع آلهتهم لهم هو أثر صرفهم أنفسهم عن الحق إلى الباطل، ونتيجة افترائهم على الله الكذب بأن له شركاء وبعدما هدد سبحانه كفار مكة بحصول ماحصل لَمْنْ قبلهم ممن كانوا أشد منهم من الإنس، أراد أن يهددهم مع شىء من التوبيخ بأنهم ليسوا أقوى من الجن الذين يعرفون قوتهم، وأشار إليها القرآن فى الآية (٣٩) من سورة النمل صفحة ٤٩٨.

وملخص الحادث كما يؤخذ مما سيأتى فى سورة الجن صفحة ٧٧٠ ومابعدها ومما رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس أنه لما بدأ نزول القرآن حالت الشهب بين الشياطين وبين استراق السمع من السماء كما تقدم فى الآية (٧) ومابعدها من سورة الصافات صفحة ٥٨٧، عند ذلك أبلغت الشياطين قومهم من الجن بما حصل. فأخذ كثير من الجن يبحث عن السبب.

وتفرقوا فى الأرض. وفى ليلة كان ﷺ مع جماعة من أصحابه فى مكان قريب من مكة وكان يصلى بهم الصبح فمر به جماعة من هؤلاء الجن. فلما سمعوا القرآن قالوا هذا والله هو الذى حال بينكم وبين الصعود إلى جهة السماء.

ورجعوا إلى قومهم وأخبروهم ماحكاه الله. فأخبر سبحانه نبيه بما حصل منهم هنا وفى سورة الجن. فقال: (وإذ صرفنا).. إلخ. أى واذكر لقومك ماحصل حين صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن لعل قومك يتنبهون لجهلهم وقبح صنيعهم من الكفر بالقرآن والإعراض عنه مع أنه بلسانهم، ويتلوه عليهم رجل من جنسهم فى الوقت الذى لما استمع إليه نفر من الجن آمنوا به وبمَنْ جاء به مع أنه ليس من جنسهم. فلما حضر هذا النفر إلى مكان قراءة القرآن قال بعضهم لبعض أنصتوا. أى اتقنوا الاستماع. فلما فرغ من القراءة انصرفوا مسرعين إلى قومهم.

مُنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ[1] إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا[2] أُنزِلَ مِنۢ
بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ
طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ[3] أَجِيبُوا دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا[4]
بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾
وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ
لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُولَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ[5] مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ[6] وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ
يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ[7] عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ[8] ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى
ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا
ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا
ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ

المفردات: . ﴿من بعد موسى﴾: أى من بعد إنزال كتاب موسى، وهو التوراة؛ واقتصروا عليه لأنه متفق عليه بين الجميع، ولأنها هى أصل الشريعة، والإنجيل تابع ومتمم بما يناسب وقته.

﴿داعى الله﴾: يريدون به الرسول ﷺ.

﴿بمعجز﴾: أى لايعجز الله تعالى بالهرب من عقابه، انظر الآية (١٢) من سورة الجن صفحة ٧٧١.

﴿لم يعى بخلقهن﴾: أى لم يتعبه خلقها.

﴿بقادر﴾: الباء لتأكيد ربط القدرة بالله سبحانه وتعالى، وكذا الباء فى ﴿بالحق﴾ الآتية، فإنها لتأكيد ربط مابعدها باسم الإشارة قبلها. وهو ﴿هذا﴾ ﴿أليس هذا.. إلخ﴾: الاستفهام المفيد للنفى هنا للتوبيخ والباء فى ﴿بالحق﴾ تفيد تأكيد ثبوت الحق لما قبله. ﴿بلى﴾: حرف يفيد إبطال النفى قبله وإثبات المنفى، انظر تفصيل ذلك فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

﴿أولو العزم﴾: أى أصحاب الثبات والصبر وهم كل الرسل سوى يونس عليه السلام لما فى قوله تعالى: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ فى الآية (٤٨) من سورة القلم صفحة ٧٦٠.

المعنى: . لما سمع الجن القرآن أسرعوا إلى قومهم يحذرونهم من العذاب إن لم يؤمنوا به وبالرسول الذى جاء به؛ لأنهم علموا أنه رسول لكل مكلف. وهم كذلك كما سيأتى فى سورة الجن. قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد كتاب موسى مصدقًا لما سبقه من التوراة

---

(١) ياقومنا. (٢) كتابا. (٣) ياقومنا. (٤) آمنوا.
(٥) ضلال. (٦) السموات. (٧) بقادر. (٨) يحيى.

وغيرها. وهذا سبب قطعهم بأنه حق يهدى إلى الحق فيما يجب لله وإلى شرع مستقيم. ياقومنا أجيبوا هذا الرسول الذى يدعو الثقلين المشار إليهما فى الآية (٣١) ومابعدها من سورة الرحمن صفحة ٧١٠ إلى الإيمان. وآمنوا به يغفر الله لكم بعض ذنوبكم على الأقل.

وإن أحسنتم الإيمان يغفر لكم كل هذه الذنوب لايبقى منها ذنب، ويحفظكم من عذاب مؤلم.

ومَنْ لايجب داعى الله فلابد من إهلاكه وتعذيبه؛ لأنه لايمكن أن يعجز الله تعالى عن عقابه مهما اختفى فى أنحاء الأرض، انظر الآية (٣٣) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠. وليس له غير الله نصراء يحفظونه.

هؤلاء الذين لايؤمنون فى ضلال ظاهر. وبعد ما بين سبحانه فيما سبق أدلة وحدانيته وإثبات الرسل. شرع فى أثبات البعث فقال: أولم يروا أى هل أعمى كفار مكة الجهل حتى أنكروا البعث ولم يعلموا أن الله الذى قدر على خلق السموات والأرض ولم يلحقه تعب من ذلك قادر على أن يحيى الموتى؟ بلى. أى نعم هو قادر على ذلك؛ لأنه قدير على كل شىء. ثم ذكر بعض ماسيحصل بعد البعث من الهول. فقال: ويوم.. إلخ. أى ويقال للذين كفروا يوم يعذبون بالنار أليس هذا الذى أنتم فيه من العذاب هو الحق الذى أخبركم به رسولكم، فيقولون قولا لاشك فى تحققه حتى كأنه وقع فعلا: نعم وحق ربنا إنه هو الذى أخبرنا به رسلنا. قال لهم ربهم حينئذ فذوقوا العذاب بسبب كفركم بالله وبرسله.

وبعدما فرغ سبحانه من تقرير الأصول الثلاثة: التوحيد والرسالة والبعث. شرع فى تثبيته ﷺ ونصيحته فقال: (فاصبر كما)... إلخ.

أى إذا كانت عاقبة الكفار ماذكر فاصبر على آذاهم كما صبر أصحاب العزم من إخوانك الرسل قبلك على إيذاء أممهم.

ولاتستعجل العذاب لهم. فإنه نازل بهم قطعًا وسيكون له من الهول عندما يرونه مايجعلهم يظنون أنهم لم يعيشوا فى الدنيا إلا لحظة.

مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ[1] فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَٰسِقُونَ[2] ﴿٣٥﴾

(٤٧) سُورَةُ مُحَمَّدٍ مَدَنِيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَثَلَاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ[3] ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا[4] وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ[5] وَءَامَنُوا[6] بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَٰطِلَ[7] وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا[8] اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ[9] ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ

المفردات: ﴿لم يلبثوا﴾: أي لم يمكثوا. انظر الآية (٤٥) من سورة يونس صفحة ٢٧٣.

﴿بلاغ﴾: أي كفاية فى الموعظة، والمعنى هذا القرآن الذى وعظتهم به كافيهم لو كانوا مستعدين لسماعه.

﴿فهل يهلك﴾... إلخ: ﴿هل﴾ حرف استفهام إنكارى، يفيد النفى. أى لا يهلك إلا الظالمون.

المعنى: يتوهم هؤلاء الكفار حين مشاهدة العذاب المعد لهم فى جهنم أنهم لم يعيشوا فى الدنيا إلا لحظة صغيرة من نهار لما دهاهم من الهول. هذا القرآن الذى تلوته عليهم كافيهم عبرة وعظة لو كانوا مستعدين لقبول الحق. ثم توعدهم بتنفيذ عدله فيهم إذا استمروا فقال: (فهل)... إلخ. أى لا يهلك الله إلا الفاسقين الخارجين على شرعه.

سورة محمد

المفردات: ﴿وصدوا عن سبيل الله﴾: أى منعوا الناس عنه.

﴿أضل أعمالهم﴾: أى أبطلها وأذهب فائدتها فلا تنقذهم من الخلود فى النار ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ الآية (٢٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣.

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾: أى آمنوا بكل ما أنزل على الرسل السابقين، كما فى الآية (٨٤) من آل عمران صفحتى ٧٦، ٧٧. ﴿وآمنوا بما نزل على محمد﴾: من عطف الخاص على العام، أى خصوصًا ما نزل على محمد.

---

(١) بلاغ. (٢) الفاسقون. (٣) أعمالهم. (٤) آمنوا. (٥) الصالحات.
(٦) وآمنوا (٧) الباطل. (٨) آمنوا. (٩) أمثالهم.

﴿بالهم﴾: أى حالهم.

﴿ذلك بأن الذين﴾... إلخ: أى هذا الجزاء العادل بسبب اتباع الكافر للباطل واتباع المؤمن للحق.

﴿كذلك يضرب اللّٰه﴾: أصل معنى ﴿يضرب﴾: يجعل، كما فى الآية (٧٥) من سورة النحل صفحة ٣٥٥ والمراد هنا: يوضح ويبين.

﴿أمثالهم﴾: أصل المثل الحالة التى تستلفت النظر، وتشتهر، والمراد بالأمثال هنا: أحوال الكافرين والمؤمنين التى عرف بها كل منهم، واشتهر بها بين الناس.

المعنى: الذين كفروا باللّٰه وبرسوله ومنعوا غيرهم عن الدخول فى دين اللّٰه جعل أعمالهم باطلة الآثار فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فإحباط ما عملوه من الكيد للرسل صلوات اللّٰه عليهم وإنفاق الأموال لصرف الناس عن دينه، انظر الآية (٣٦) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٢ والآية (٢٥) من سورة غافر صفحتى ٦٢٠، ٦٢١ وآيتى (٤٢، ٤٦) من سورة الطور صفحتى ٦٩٩، ٧٠٠ . والآية (٢) من سورة الفيل صفحة ٨٢٢ . وأما فى الآخرة فقد تقدم بيانه ومنه ما فى الآية (٣٤) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١ . والذين آمنوا بما يجب الإيمان به المبين فى الآية (٢٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٦٠، ٦١ وعملوا الصالحات وآمنوا خصوصًا بالقرآن المنزل على رسوله محمّد ﷺ.

وذكر ذلك مع أنه داخل فى الإيمان باللّٰه تنبيهًا لعظيم مكانته فيما يجب الإيمان به. ولذا قال بعد ذلك وهو الحق. أى هذا القرآن هو وحده الحق المنزل من ربهم. المؤمنون الذين هذه صفاتهم كفر اللّٰه عنهم سيئاتهم وأصلح حالهم فى الدنيا والآخرة بالتوفيق وراحة الضمير. انظر شرح الآية (٩٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٩ . ذلك التفاوت فى المعاملة بين الكافرين والمؤمنين سببها اتباع الأولين للباطل فى كل شىء. والباطل لابد من مَحْقه. واتباع الآخرين للحق الذى أرشدهم إليه ربهم والحق ثابت الآثار لا تمحوه الزلازل. انظر شرح الآية (١٧) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٣، ٣٢٤ كهذا البيان السابق لحال الكافرين والمؤمنين بما نزل على محمّد يبين اللّٰه للناس فى كل زمان أحوال كل كافر وكل مؤمن. من إبطال عمل الكافر، وغفران ذنب المؤمن. وإصلاح حاله. وإذا كان الأمر كما ذكر من إصرار الكفار على ضلالهم. فإذا لقيتموهم فى الحرب فاضربوا رقابهم... إلخ.

ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا
بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ
يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ
وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ (٤)
سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ (٥) وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا
لَهُمۡ (٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ
وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ (٧) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ
أَعۡمَٰلَهُمۡ (٨) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ
أَعۡمَٰلَهُمۡ (٩) ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ
وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ (١١) إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ

المفردات: ﴿أثخنتموهم﴾: أى أضعفتموهم بسبب القتل والجراح، انظر معنى الإثخان فى الآية (٦٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧.

﴿فشدوا الوثاق﴾: الوثاق هو الحبل الذى يربط به الأسير، والمراد: خذوهم أسرى.

﴿منًّا﴾: المن إطلاق الأسير بلا مقابل.

﴿وإما فداء﴾: الفداء هو أن يفدى الأسير نفسه من الأسر. بأن يدفع من المال ما يفدي به نفسه من الأسر ولم يتعرض القرآن للاسترقاق أى جعل الأسير عبدًا يباع ويشترى. لم يتعرض له القرآن للإشعار بأنه يكرهه، لما فيه من إهدار كرامة الإنسان وإلحاقه بالحيوان. وإنما اضطر المسلمون للعمل به لما رأوا خصومهم يسترقون مَنْ يأسرونهم من المسلمين. ففعلوا مثلهم أخذًا بقوله تعالى ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ الآية (١٢٦) من سورة النحل صفحة ٣٦٣ وإن كف الكفار عنه وجب على المسلمين الكف عنه.

﴿تضع الحرب أوزارها﴾: الأوزار جمع وزر. بكسر فسكون. وأصله الحمل الثقيل والمراد أهوال الحرب، والكلام كناية عن انتهاء الحرب.

﴿ذلك﴾: الأصل: الأمر هو ذلك الذى كلفتكم به.

﴿لانتصر منهم﴾: أى لانتقم منهم بغير الحرب. كالخسف والغرق.

﴿ليبلوا﴾: أى ليمتحن حتى تظهر طبيعتهم كل. انظر الآية (٣١) الآتية من هذه السورة صفحة ٦٧٦.

---

(١) أعمالهم. (٢) آمنوا. (٣) عاقبة.
(٤) للكافرين. (٥) أمثالها. (٦) الكافرين.

﴿لن يضل أعمالهم﴾: لا يبطل أعمالهم بل يثيبهم عليها.

﴿سيهديهم﴾ ... إلخ: أى إلى ما فيه الاعتراف بفضله، انظر آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة الحج صفحة ٤٣٦ .

﴿ويصلح بالهم﴾: أى يصلح أحوالهم فى الآخرة بما أشار إليه فى الآية (٢٣) من سورة الحج صفحة ٤٣٦ .

﴿عرفها لهم﴾: المراد: عرفهم منازلهم فيها بإلهام منه تعالى، فلا يصادفون مشقة فى الوصول إليها.

﴿تعسًا لهم﴾: أصل التعس هو السقوط على الوجه، يقال تعس الرجل بفتح العين على وزن قطع. إذا انكب على وجهه.

والمراد هنا: هلاكًا لهم.

﴿أحبط﴾: أبطل، انظر ما قيل فى الآية الأولى من هذه السورة صفحة ٦٧٢ .

﴿دمر الله عليهم﴾: تقول العرب: دمره الله أى أهلكه، ودمر عليه. أى أهلكه وأضاع عليه كل ما يخصه من النفس والأهل والمال.

﴿الله مولى الذين آمنوا﴾: أى مواليهم بالنصر.

المعنى: فإذا حاربكم الكفار فاشتدوا عليهم بالقتل حتى إذا أضعفتموهم وتمكنتم من أخذ باقيهم أحياء فأسروهم. وبعد ذلك فإما أن تمنوا عليهم بإطلاق سراحهم بلا مقابل - إن كانت المصلحة فى ذلك.

أما إن كانت المصلحة فى استرقاقهم فللإسلام أن يجعلهم أرقاء مملوكين للمسلمين، ويدل على ذلك عشرات الآيات من القرآن التى تنادى بملك اليمين. وإما أن تفادوهم بمال أو بأسرى من المسلمين إن كان هناك أسرى منهم. واستمروا على ضربهم وأسرهم حتى تنتهى الحرب. الأمر فى معاملة الكافر المعتدى هو ذلك الذى ذكرته لكم.

ثم أراد سبحانه أن يبين أن تكليفهم بمقاومة العدو ولو بالحرب هى السنة الطبيعية فى نظام عالم الدنيا. وإلا فهو سبحانه قادر على أن ينتقم ممَّنْ يحارب رسوله بغير حرب، بل بشىء مما فى الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦، ولكن أمر اللَّه سبحانه بالقتال ليمتحن بعضكم ببعض فيتميز المجاهد الصابر من غيره.

ثم بيَّن سبحانه جزاء المجاهدين فى سبيله فقال: والذين قتلوا ... إلخ. أى والمؤمنون الذين قتلوا فى الدفاع عن دين اللَّه فلن يضيع عليهم ثمرة أعمالهم، سيهديهم ربهم إلى طيب القول مما فيه حمد اللَّه والاعتراف بفضله. ويصلح أحوالهم فى الآخرة على ما تقدمت الإشارة إليه فى آيتى (٢٣، ٢٤) من سورة الحج صفحة ٤٣٦ وآيتى (٣٤، ٣٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦ . والحال أنه سبحانه يدخلهم الجنة ويعرفهم منازلهم فيها.

وفى الحديث: (والله لأحدكم بمنزله فى الجنة أعرف منه بمنزله فى الدنيا).

ثم وعدهم سبحانه بالنصر إذا نصروا دينه فقال: (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا اللَّه) بنصر رسوله والدفاع عن دينه ينصركم ، ويثبت أقدامكم فى المعارك. والذين كفروا يهلكهم اللَّه هلاكًا شديدًا ويضيع عليهم أعمالهم. يفعل بهم ذلك الذى ذكر من الإهلاك وإضاعة الأعمال بسبب أنهم كرهوا القرآن الذى فيه سعادة البشر؛ لأنه يسفه عقولهم التى تسوغ لهم عبادة أصنام لا تضر ولا تنفع، ويقول: إن الفضل بالتقوى لا بالغنى والجاه إلى غير ذلك مما يخالف ما كان عليه آباؤهم. وبكرههم القرآن استحقوا أن يبطل اللَّه أعمالهم حتى لو لم يعملوا غير ذلك.

ثم لفت نظر كفار مكة إلى التأمل فيما حصل لغيرهم فقال: (أفلم يسيروا)... إلخ. أى هل قعدوا ولم يسيروا فى الأرض سير مفكر فينظروا على أى حال كانت عاقبة المكذبين قبلهم، ثم بينها بقوله: ﴿دمر اللَّه عليهم﴾ أى أهلكهم جميعًا.

ولهؤلاء الكافرين أمثال ما حصل لمَنْ قبلهم. ذلك المتقدم من نصر المؤمنين وهلاك الكافرين سببه أن الله ناصر المؤمنين. وأن الكافرين لا ناصر لهم.

ثم بيَّن حال المؤمنين فى الآخرة لزيادة تشجيعهم على الثبات فقال: إن اللَّه يدخل... إلخ.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ
ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ
أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا
نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ
لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى
وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن
لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ
مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن
رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ
أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟
مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُو۟لَٰٓئِكَ

المفردات: . ﴿مثوى لهم﴾ : أى محل إقامة.

﴿كأين﴾ : أى كثير.

﴿من قرية﴾ : بيان لهذا الكثير.

﴿قريتك﴾ : هى مكة.

﴿أفمَنْ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد لنفى التسوية الآتية المذكورة فى قوله.

﴿كمَنْ زين﴾.

﴿على بينة﴾ : أى على حجة ونور بصيرة.

﴿زين له سوء عمله﴾ : تقدم فى الآية (٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٢ .

﴿مثل الجنة﴾ : أى صفتها العجيبة. قال الزمخشرى الأصل: هل مثل أهل الجنة... إلخ. حتى يتفق مع مقابله الآتى فى ﴿كمَنْ هو خالد﴾. ونظيره ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾... إلخ الآية (١٩) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٢، ٢٤٣ . والمراد: لا يستويان. انظر الآية (٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠ والآيتين (٣٥، ٣٦) من سورة القلم صفحة ٧٥٩. وحذف حرف الاستفهام اعتمادًا على إدراكه من المقام كثير فى كلام العرب وفى القرآن: وساعد على فهمه هنا وجوده فى الآية السابقة مباشرة دالاً على إنكار التسوية كما هنا تمامًا. ﴿آسن﴾: هو الماء المتغير الطعم والرائحة. وفعله أسن. كضرب. ودخل. ﴿لذة﴾ : المراد: لذيذة جدًا حتى كأنها اللذة نفسها.

(١) آمنوا. (٢) الصالحات. (٣) جنات. (٤) الأنهار.
(٥) الأنعام. (٦) أهلكناهم. (٧) أنهار. (٨) آسن.
(٩، ١٠) وأنهار. (١١) للشاربين. (١٢) وأنهار. (١٣) الثمرات.
(١٤) خالد. (١٥) آنفا.

﴿كَمَنْ هو خالد فى النار﴾: ﴿مَنْ﴾ هنا بمعنى فريق أى جمع من الكفار بدليل جمع الضمير العائد عليها فى قوله ﴿وسقوا﴾ و﴿فقطع أمعاءهم﴾ أى هل صفة أهل الجنة كصفة الفريق من أهل النار؟. ﴿سقوا﴾: أى أكرهوا على شربه، انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥ .

﴿حميمًا﴾ هو الماء شديد الحرارة.

﴿أمعاءهم﴾: هى المصارين التى يصل إليها الطعام بعد هضمه فى المعدة ومفردها (مِعى) بكسر الميم، وفتح العين منونة.

﴿ومنهم مَنْ يستمع إليك﴾: أى ومن الكافرين منافقون، وهم المذكورون فى الآية (٢٠) الآتية يستمعون إليك، أى يلقون سمعهم إليك عندما تقرأ وتعظ مظهرين أنهم كالمؤمنين الصادقين.

﴿للذين أوتوا العلم﴾: المراد بهم علماء الصحابة. كابن عباس وابن مسعود.

﴿ماذا قال﴾: هذا هو غمز الخبث يريدون به السخرية كأنه قال كلامًا لا يؤبه له، انظر آيتى (٢٩، ٣٠) الآتيتين فى هذه السورة صفحة ٦٧٦ .

﴿آنفًا﴾: المراد فى الزمن الماضى القريب.

المعنى: بعدما أخبر سبحانه أنه مولى المؤمنين أى نصيرهم. وأن الكافرين لا مولى لهم. أراد أن يذكر أثر ولايته للمؤمنين. وأثر حرمان الكافرين منها فقال: (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار، والذين كفروا)... إلخ. أى أن الكافرين يتمتعون فى الدنيا بزخارفها الفانية وليس همهم فيها إلا ملء بطونهم كالأنعام التى لا تفكر فى مستقبلها، انظر ما تقدم فى الآية (٢٠) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٩. وفى الآخرة تكون النار هى محل إقامتهم الدائمة. وبعدما حثهم على السير فى الأرض للاعتبار بما حصل لأمثالهم ولم يعتبروا أراد سبحانه أن يخفف عن رسوله ﷺ فقال: (وكم من قرية).. إلخ.

أى وكثير من أهل القرى الذين كانوا أشد قوة من أهل قريتك الذين تسببوا فى خروجك منها أهلكناهم جميعًا لما عملوا مثل عمل كفار قومك ولم يجدوا مَنْ ينصرهم بدفع عذابنا عنهم. وبعدما بيَّن أن المؤمنين فى نعيم وأن الفجار سيكونون فى جحيم أراد سبحانه أن يبين سبب هذه التفرقة فقال: (أفمَنْ كان).. إلخ. أى هل يستوى الفريقان - مَنْ كان يسير فى حياته الدنيا على نور من ربه فهو لا يضل أبدا مع مَنْ زين له الشيطان عمله السيئ حتى رآه حسنًا. وساروا فى حياتهم وراء شهواتهم انظر ما سبق فى الآية (٣٠) من سورة الأعراف صفحة ١٩٦ والآية (١٠٤) من سورة الكهف صفحة ٣٩٥، أى لا يصح فى حكم العقل أن يستويان: ثم أراد سبحانه أن يبين الفرق بين نهاية الفريقين مع بعض تفصيل فقال: (مثل الجنة).. إلخ، وأصل الكلام : هل مثل أهل الجنة، فاستغنى عن الاستفهام الإنكارى لوجوده فى الآية قبلها مباشرة أى لا يصح أن تكون صفة أهل الجنة التى وعد الله بها المتقين حال كونها فيها أنهار من ماء غير متغير بما ينفر منه. وأنهار من لبن لم يتغير طعمه بحموضة ولا غيرها. وأنهار من خمر لذيذة جدًا لشاربيها، لا تسكر ولا تصدع، انظر ما سبق فى الآية (٤٥) وما بعدها من سورة الصافات صفحتى ٥٨٩، ٥٩٠. وأنهار من عسل مصفى. ولهم فوق ذلك من كل الثمرات المشار إليها فى الآية (٢٥) من سورة البقرة صفحة ٦.

ولهم فيها نعيم روحانى أيضًا وهو مغفرة الله لذنوبهم يتبعها رضاه عنهم . مثل هذا الفريق المنعم لا يمكن أن يكون كمثل الفريق الخالد فى النار الذين تسقيهم زبانية جهنم ماءً حارًا تقطع شدة حرارته أمعاءهم.

فيشملهم العذاب من الداخل والخارج. نسأل الله تعالى السلامة. وبعدما بيَّن سبحانه حال الكافرين، أراد أن يبين حال المنافقين الذين كانوا يحضرون مجلسه ﷺ فقال: (ومنهم).. إلخ.

أى من الكفار منافقون يستمعون منك القرآن وغيره فلا يلتفتون لما تقول تغافلا عما تدعوا إليه، وكراهة فيه حتى إذا خرجوا من مجلسك قالوا لمَنْ حضر مجلسك من أهل العلم ماذا قال محمَّد فى هذه اللحظة السابقة؟

يقصدون بذلك السخرية والاستهزاء بما يقول كأنه مما لا ينبغى الاهتمام به.

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾
وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾
فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ
أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ
لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا
لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا
الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ
نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ
وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ
خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا
فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ

المفردات :. ﴿طبع الله على قلوبهم﴾ : الطبع هو الختم المتقدم فى الآية (٧) من سورة البقرة صفحة ٤ .

﴿ينظرون﴾ : أى ينتظرون. ﴿الساعة﴾ : المراد : القيامة.

﴿أن تأتيهم﴾ : بدل من الساعة. أى إلا إتيان الساعة.

﴿أشراطها﴾ : أى علاماتها. والمفرد ﴿شَرَط﴾ بفتحتين على وزن ﴿سبب﴾. ﴿أنى﴾ : أى كيف ومن أين؟. ﴿ذكراهم﴾ : تذكرهم واتعاظهم. انظر الآيات (٥٤ إلى ٥٩) من سورة الزمر صفحة ٦١٤. ﴿واستغفر لذنبك﴾ : انظر ما تقدم فى شرح الآية (٥٥) من سورة غافر صفحة ٦٢٥.

﴿متقلبكم﴾ : أى تنقلكم فى البلاد للكسب. انظر الآية (٤) من سورة غافر صفحة ٦١٧.

﴿مثواكم﴾ : أى محل إقامتكم فى الجنة أو النار. انظر الآية (١٢) من هذه السورة صفحة ٦٧٤.

﴿لولا﴾ : حرف يدل على الرغبة فى حصول ما بعده.

﴿نزلت سورة﴾ : أى هلاً نزلت سورة نؤمر فيها بالجهاد. لو أنزلت لأسرعنا إلى الجهاد.

﴿محكمة﴾ : المراد واضحة الدلالة على المعنى انظر الآية (٧) من سورة آل عمران صفحة ٦٣.

(١) آتاهم. (٢) تقواهم. (٣) ذكراهم.
(٤) المؤمنات. (٥) مثواكم. (٦) آمنوا.

﴿مرض﴾ : المراد به هنا: النفاق، انظر الآية (١٠) من سورة البقرة صفحة ٤.

﴿المغشى عليه من الموت﴾ : أى المغمى عليه، انظر الآية (١٩) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥١، ٥٥٢.

﴿أولى لهم﴾ : يقول العربى عند تهديد شخص : (أولى لك) أى هلاك قريب الحصول لك، والمراد هلاك قريب الحصول لهم، انظر الآية (٣٤) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠.

﴿طاعة﴾ : مبتدأ خبره مقدر يُشعر به آخر الآية هو ﴿خير لهم﴾.

﴿عزم الأمر﴾ : أصلها عزم وصمم الرجال على الأمر. فإسناد العزم للأمر مبالغة كقولهم (أسرع الطريق) أى أسرع السائر فيه. فبالغوا وجعلوا الطريق كأنه هو المسرع.

﴿عسيتم﴾ : عسى كلمة تدل على توقع حصول ما بعدها. فالمراد: يتوقع وينتظر منكم... إلخ.

المعنى : . هؤلاء المنافقون هم الذين ختم الله على قلوبهم عقابا لهم واتبعوا فى النفاق إشباع شهواتهم فلذلك استهانوا بكلامه سبحانه. أما الذين اهتدوا إلى الإيمان وحسن استماع القرآن وكلام الرسول زادهم الله تعالى نور بصيرة وأعانهم على التقوى.

ثم بيَّن خطر غفلة الكفار عليهم فقال: (فهل ينظرون) .. إلخ. أى إذا كان كل ما سبق من العبر لم يفدهم فماذا ينتظرون؟ لا ينتظرون إلا إتيان الساعة بغتة فيجب أن يستعدوا لها. فقد ظهرت علاماتها. وأولها بعثة خاتم الرسل، وآخرها طلوع الشمس من المغرب، وإذا كانوا لايعتبرون إلا إذا جاءتهم الساعة فكيف ينفعهم تذكرهم حينئذ؟ انظر الآية (١٥٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٩٠، ١٩١ وآيتى (٨٤، ٨٥) من سورة غافر صفحة ٦٢٩.

ثم أراد سبحانه أن يرشد رسوله والمؤمنين إلى خيرهم فقال: (فاعلم).. إلخ.

أى إذا علمت أيها النبى أن الأمر كله بيدنا فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله واهضم نفسك بالاستغفار لذنبك. وأقل هفوة من الأنبياء شديدة عند الله انظر ما سبق فى

آيتى (٦٧، ٦٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧ . والآية (٣٧) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٥، ٥٥٦. واستغفر للمؤمنين والمؤمنات فإنهم أحوج إلى استغفارك، وحثهم أيضًا على الصالحات التى تسبب غفران ذنوبهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات. والله سبحانه يعلم كل أحوالكم فى الدنيا والآخرة وسيجازى كلا بما هو أهله.

روى مسلم وأحمد وغيرهما عن عبدالله بن سَرْجس بفتح السين وسكون الراء وكسر الجيم قال: أكلت مع رسول الله من طعامه ثم قلت غفر الله لك يا رسول الله.

فقال ﷺ: ولك. فقلت هل أستغفر لك؟ فقال: نعم ولكم. وقرأ ﷺ: ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين﴾ ... الآية وفى الأحاديث الصحيحة أنه ﷺ كان يقول فى آخر تشهده (اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت. وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى. أنت المقدم. وأنت المؤخر. لا إله إلا أنت).

ثم أراد سبحانه أن يبين حالة أخرى كان يتفاوت فيها المؤمنون والمنافقون فقال: (ويقول الذين آمنوا)... إلخ. أى أن المؤمنين المخلصين كانوا يشتاقون إلى نزول آيات تأمر بالجهاد حرصًا على ثوابه.

فإذا أنزل الله تعالى سورة ذكر فيها الأمر بالجهاد بدلالة واضحة لا تقبل تأويلاً فرح المخلصون وشق ذلك على المنافقين وصاروا ينظرون إليك أيها النبى نظر المحتضر الخائف من الموت.

فهلاك لهم. طاعة منهم لك وقول حسن يدل على صدق الامتثال لما تقول خير لهم.

فإذا جد الجد وصمم المؤمنون على القتال، فلو صدق هؤلاء الله فى الإيمان به وطاعته لكان ذلك خيرا لهم. ثم وبخ المنافقين فقال: (فهل عسيتم).. إلخ.

أى أنكم يتوقع منكم لفساد طبائعكم أنكم إن توليتم أمور الناس تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم فتعودوا إلى تباغض الجاهلية.

ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ[1] ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ[2]
أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم[3]
مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ[4] سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ
لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ
سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾
فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ[5] يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَٰرَهُمْ[6] ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟
رِضْوَٰنَهُۥ[7] فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ[8] ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ[9] ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ
لَأَرَيْنَٰكَهُمْ[10] فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ[11] ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ
ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ[12] ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ
ٱلْمُجَٰهِدِينَ[13] مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ[14] وَنَبْلُوَا۟[15] أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ

المفردات : . ﴿فأصمهم﴾ : أى أصابهم بالصمم عن سماع الحق، فلا يسمعون ما ينفعهم. انظر الآية (١٠١) من سورة الكهف صفحة ٣٩٤.

﴿أم﴾ : حرف بمعنى ﴿بل﴾ يفيد الانتقال من حكم إلى حكم.

﴿أقفالها﴾ : أضافها إليها للإشارة إلى أنها مناسبة لها فى إحكام الغلق.

﴿ارتدوا على أدبارهم﴾ : كناية عن التراجع.

والمراد : تراجعوا عن إخفاء الكفر إلى إظهاره. وهم المنافقون المشار إليهم فى الآية (٦٦) من سورة التوبة صفحة ٢٥٢.

﴿سوّل لهم﴾ : أى سهل لهم وزين.

﴿أملى لهم﴾ : أى مد لهم فى الأمانى حتى يستغرقوا فى الشهوات.

﴿للذين كرهوا ما نزل الله﴾ : هم يهود بنى قريظة والنضير الذين كانوا حول المدينة. انظر آيتى (٢٦، ٢٧) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٣.

﴿فى بعض الأرض﴾ : أى مما يعطل الدعوة الإسلامية. انظر الآية (١١) من سورة الحشر صفحتى ٧٣١، ٧٣٢.

﴿إسرارهم﴾ : أى إخفائهم لخيانتهم وكيدهم للمسلمين.

---

(١) أبصارهم. (٢) القرآن. (٣) أدبارهم. (٤) الشيطان. (٥) الملائكة.
(٦) أدبارهم. (٧) رضوانه. (٨) أعمالهم. (٩) أضغانهم. (١٠) لأريناكهم.
(١١) بسيماهم. (١٢) أعمالكم. (١٣) المجاهدين. (١٤) الصابرين. (١٥) نبلوا.

﴿يضربون وجوههم﴾ : انظر ما تقدم فى الآية (٥٠) من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٤، ٢٣٥.

﴿فأحبط﴾ : أى أبطل كما فى الآية (٩) من هذه السورة صفحة ٦٧٣.

﴿أم حسب﴾ : تقدم معناها فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢.

﴿مرض﴾ : أى نفاق كما تقدم فى الآية (٢٠) من هذه السورة صفحة ٦٧٥.

﴿أضغانهم﴾ : مفردها ضِغْن بكسر فسكون وهو الحقد الشديد، انظر شرح الآية (٦٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥١.

﴿أريناكهم﴾ : أى عرفناك إياهم بعلامات لا تكون إلا فيهم.

﴿سيماهم﴾ : (السِّيما) : العلامة و ﴿سيماهم﴾ أى علاماتهم.

﴿فى لحن القول﴾ : ﴿فى﴾ سببية والمراد : بسبب لحن... إلخ و ﴿لحن القول﴾ إمالة الكلام عن معناه الظاهر إلى معنى آخر متفق عليه بينهم يجعل عباراته ملتوية. لا يفهمها غيرهم.

انظر مثلا من ذلك فى الآيات (١٠٤) من سورة البقرة صفحة ٢٠ و(٤٦) من سورة النساء صفحة ١٠٨ و (٦٥) من سورة التوبة صفحتى ٢٥١، ٢٥٢ والآية (١٦) من هذه السورة صفحتى ٦٧٤، ٦٧٥ و (٨) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٦.

﴿لنبلونكم﴾ : أى لنعاملكم معاملة المختبر كما تقدم فى الآية (١٨٦) من سورة آل عمران صفحة ٩٤ .

المعنى : - هؤلاء المنافقون هم الذين لعنهم الله أى أبعدهم عن رحمته عقابا لهم، فسدت آذانهم عن سماع الحق وعميت أبصارهم عن طريق الهداية. هل بعد كل هذه العبر ما زالوا مصممين على الكفر فلا يتدبرون القرآن ليعرفوا الحق.

ثم انتقل من توبيخهم على عدم الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم إلى توبيخهم بعدم الانتفاع

بقلوبهم أيضا فقال: (أم على قلوب).... إلخ. أى بل أغلقت قلوبهم بأقفال مناسبة لها. والكلام تمثيل لعدم وصول التدبر إلى قلوبهم. وكان المنافقون فى أول الأمر يتقنون إخفاء كفرهم. فخفيت حالهم حتى عليه ﷺ. انظر الآية (١٠١) من سورة التوبة صفحة ٢٥٩.

ولكن لما أصيب المسلمون فى بعض الوقائع وظن هؤلاء المنافقون أن هزائم المسلمين ستتوالى. فاستهانوا بهم. وطمأنهم وجرأهم على ذلك ما علموه من أنه ﷺ لا يقتل أحدا ما دام ينطق بالشهادتين. من كل ذلك علموا أنه لا خوف عليهم إذا أظهروا بعض ما فى أنفسهم بالدس للمسلمين والكيد لهم. وفعلوا ما فى الآية (٢٦) الآتية، والآية (١٢) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٠. والآية (١٨) وما بعدها من نفس السورة صفحة ٥٥١ وما بعدها. والآية (٦٠) من نفس السورة صفحة ٥٦٠. والآية (١١) من سورة الحشر صفحتى ٧٣١، ٧٣٢، وآيتى (٧، ٨) من سورة المنافقون صفحتى ٧٤٣، ٧٤٤.

لما حصل كل هذا عبر عنهم سبحانه بأنهم ارتدوا أى رجعوا إلى إظهار الكفر بتلك الطريق الملتوية بعدما كانوا يخفونه فقال: إن الذين ارتدوا.. إلخ.

أى إن الذين تراجعوا عما كانوا يظهرون من بعد ما تبين لهم الهدى إلى الطريق الواضح. هؤلاء ما فعلوا ذلك إلا لأن الشيطان زين لهم الضلال ومد لهم فى الآمال حتى غفلوا عن أهوال الآخرة.

ثم بيّن بعض ما ارتدوا به فقال: (ذلك بأنهم).. إلخ. أى ذلك الارتداد الذى وقع من المنافقين حصل بسبب قولهم لليهود الذين كرهوا ما نزل الله من القرآن على خاتم الرسل حسدا قالوا لهؤلاء اليهود سنطيعكم فى بعض الأمور التى تطلبونها منا لتعطيل دعوة محمّد وهو ما فى الآية (١١) من سورة الحشر صفحتى ٧٣١، ٧٣٢. قالوا ذلك والحال أنه سبحانه يعلم إخفاءهم لما يقولون وغيره.

ثم سفه عقولهم ببيان أنهم إن سلموا من نتيجة كيدهم هذا فى الدنيا فماذا يصنعون فيما بعد. فقال: فكيف... إلخ. أى فكيف يصنعون إذا قبضت ملائكة الموت أرواحهم حال كونهم يضربون وجوههم وأدبارهم.

ثم بيّن سبب ما تقدم فقال: (ذلك بأنهم اتبعوا) ... إلخ.

أى ذلك الموت على أقبح الوجوه وأفظعها بسبب أنهم اتبعوا كل ما يسخط الله سبحانه من الكفر والمعاصى. وكرهوا ما يرضيه تعالى من الإيمان والطاعات، فأبطل سبحانه جميع أعمالهم فى الدنيا والآخرة. فلا ينتفعون بشىء ولا يصلون إلى مرغوب.

ثم انتقل سبحانه إلى تهديدهم فقال: أم حسب.. إلخ. أى بل هل ظن هؤلاء المنافقون أن الله لا يظهر أحقادهم فيفضحهم. وقد فعل سبحانه فى سورة التوبة حتى سماها بعض الصحابة (الفاضحة) انظر شيئًا من ذلك فى صفحات ٢٤٧ وما بعدها خصوصًا الآيات (٥٨، ٦١، ٧٥، ٨١، ٨٤، ٩٤).

ثم أكد سبحانه تهديدهم بالفضيحة فقال: ولو نشاء ... إلخ. أى ولو نشاء تعريفك أيها النبى أشخاصهم لعرفناك فتعرفهم بعلامات غالبة عليهم، ولكنه سبحانه لم يفعل فى ذلك الوقت لحكم منها: عدم إيذاء أقربائهم المسلمين وحرصا على مظهر المسلمين فى أول الأمر.

ولما استقر الأمر واطمأنت القلوب فضح الله بعضهم كما تقدمت الإشارة إليه. والله إنك لتستطيع أيها النبى أن تعرفهم بسبب عباداتهم الملتوية.

ثم وجه التهديد إليهم ثانيًا فقال تعالى: والله يعلم أعمالكم أيها المنافقون وسيعاقبكم عليها بالعذاب فى الدرك الأسفل من جهنم كما فى الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨، ثم وجه الخطاب للمؤمنين فقال: ولنبلونكم ... إلخ. أى والله لنعاملنكم أيها المؤمنون معاملة الممتحن حتى يتبين للناس أمر المجاهدين بإخلاص والصابرين على الشدائد وغيرها.

ونمتحن أخباركم التى تقولونها من أنكم مؤمنون صادقون وموالون للمؤمنين. هل أنتم صادقون فيها أم لا؟

المفردات : . ﴿صدوا﴾ : تقدم أول السورة.

﴿شاقوا الرسول﴾ : المراد عادوه وحاربوه لدينه، كما تقدم فى الآية (١٣) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٨.

﴿سيحبط أعمالهم﴾ : أى يبطل ما عملوه لعرقلة الإسلام، انظر آيتى (٨، ٣٦) من سورة الأنفال صفحتى ٢٢٧، ٢٣٢ والآية (١٧) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٣، ٣٢٤ والآية (١٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٢.

﴿فلن يغفر الله لهم﴾: أى لشركهم وكفرهم، انظر الآية (٤٨) من سورة النساء صفحة ١٠٨.

﴿تهنوا﴾ أى تضعفوا.

﴿السلم﴾ : أى المسالمة.

﴿الأعلون﴾ : أى المستعلون الغالبون.

﴿ولن يتركم أعمالكم﴾ : أى ولن ينقصكم أجر أعمالكم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ
بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ
أَعْمَٰلَهُمْ[1] ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ[2] أَطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ[3] ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن
يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ
ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ[4] ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا
ٱلْحَيَوٰةُ[5] ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ
أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ[6] أَمْوَٰلَكُمْ[7] ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا[8]
فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ[9] ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ
هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ
وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ

(١) أعمالهم.
(٢) آمنوا.
(٣،٤) أعمالكم.
(٥) الحياة.
(٦) يسألكم .
(٧) أموالكم.
(٨) يسألكموها.
(٩) أضغانكم.

﴿لعب﴾ : هو كل ما يشغل مما ليس فيه ضرر فى الحال، ولا منفعة فى المال، ولم يعطل عن نافع الأمور والشئون، فهو أشبه بأعمال الأطفال.

﴿لهو﴾ : ما ليس فيه منفعة ويشغل عن مهام الأمور.

﴿يحفكم﴾ : الإحفاء كالإلحاح هو المبالغة فى طلب الشيء حتى يتعب المطلوب منه.

﴿أضغانكم﴾ : تقدم فى الصفحة السابقة.

﴿يبخل عن نفسه﴾ : ضمن ﴿يبخل﴾ معنى مانعًا الخير، ولذا عَدَّاه بحرف (عن) بدل حرف (على) ويقال هنا ببخله يمنع الخير عن نفسه.

المعنى : . إن الذين كفروا بالله ورسوله. ومنعوا غيرهم عن الدخول فى دين الله. وعادوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى بما أيده الله تعالى به من المعجزات وبما فى شرعه من المصلحة للناس جميعا. هؤلاء لن يضروا الله أقل ضرر بكفرهم.

وسيبطل سبحانه كل مكايدهم التى نصبوها لمحاربة دينه. روى ابن كثير أن بعض الصحابة ظن أنه لا يضره ذنب متى اعترف بأنه لا إله إلا الله كما لا ينفع مع الشرك عمل. فأنزل سبحانه قوله تعالى: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾... إلخ.

يشير إلى أن كثيرا من الذنوب تبطل الحسنات. كالرياء والحسد. فقد ورد أن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. وكذلك المن والأذى، انظر الآية (٢٦٤) من سورة البقرة صفحة ٥٦ .

فى كل هذا قال سبحانه: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم، أى لا تضيعوا ثواب أعمالكم الصالحة بما يصدر عنكم مما يبغضه الله سبحانه وتعالى. ثم بيَّن سبحانه أنه لا يغفر للمصرين على الكفر فقال: (إن الذين كفروا)... إلخ. أى الذين جمعوا بين الكفر وبين صدهم غيرهم عن الإسلام ثم ماتوا على ذلك لن يغفر الله لهم. وسيعذبهم على الكفر ويزيد عذابهم على الصد عن الإسلام.

وإذا علمتم أيها المؤمنون أن الله مبطل أعمال الكافرين ومعاقبهم فى الدنيا والآخرة فلا تبالوا بهم. ولا تظهروا ضعفًا بالدعوة إلى المهادنة.

والحال أنكم المتفوقون. والله معكم بالنصر.

ولن ينقصكم من أجر أعمالكم شيئًا. وبعدما أمر سبحانه المؤمنين بالثبات وعدم إظهار الخوف من الأعداء حرصًا على الحياة أراد أن يبين لهم أن الحياة لا قيمة لها إذا قيست بنعيم الآخرة.

فقال: إنما عمل الإنسان فى الدنيا كاللعب واللهو الذى لا بقاء له، إلا ما كان منه فى سبيل الله وطلب رضاه: وإن تؤمنوا وتتقوا وتبتعدوا عما يغضب ربكم فلا تعصوه، يؤتكم ثواب أعمالكم. ولا يطلب منكم كل أموالكم فى الزكاة وسائر وجوه الخير.

بل يطلب منكم القليل منها مواساة لإخوانكم الفقراء. وحفظًا لمصلحة الدولة.

ثم بيَّن سبحانه أن الإنسان فى طبعه الحرص على المال. ولذلك لم يكلفه ما يرهقه. فقال: إن يسألكموها: أى إن يطلبها كلها فيثقل عليكم ويغلب عليكم الطبع تمتنعوا عن الإنفاق. وبذلك يظهر الله سبحانه أحقادكم على تعاليم الإسلام لشدة حرص الإنسان على المال.

ثم بيَّن سبحانه أن المسلمين الموجودين فى ذلك الحين منهم الشحيح ومنهم السخى، فقال: ها أنتم... إلخ. أى ها أنتم يا هؤلاء الذين أظهرتم أنكم مسلمون تدعون لتنفقوا فى كل ما يرضى الله من أبواب الخير. فمنكم أناس يبخلون ومَنْ يبخل فإنما يبخل مانعًا الخير عن نفسه. ومنكم مَنْ ينفق لمرضاة ربه.

ثم بيَّن أن الإنفاق إنما هو لمصلحتهم لا لحاجته سبحانه. فقال : والله وحده هو الغنى عن كل ما سواه وأنتم الفقراء.

الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم[1] ﴿٣٨﴾

(٤٨) سورة الفتح مدنية وآياتها تسع وعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴿١﴾ ليغفر لك الله ما تقدم من
ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا[2]
مستقيما ﴿٢﴾ وينصرك الله نصرا عزيزا ﴿٣﴾ هو الذي
أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا[3] مع
إيمانهم[4] ولله جنود السموات[5] والأرض وكان الله
عليما حكيما ﴿٤﴾ ليدخل المؤمنين والمؤمنات[6] جنات[7]

المفردات: ﴿تتولوا﴾: أي تعرضوا عن الإيمان.

﴿لا يكونوا أمثالكم﴾: أي فى الإعراض، بل يؤمنون ويطيعون الرسول. انظر آيتى (٤٠، ٤١) من سورة المعارج صفحتى ٧٦٦، ٧٦٧.

المعنى: والله غنى عن خلقه، وأنتم الفقراء إلى إحسانه. وإن تعرضوا عن طاعته يجعل بدلكم قوما آخرين يبتعدون عن مسلككم الخاطئ فلا يكونوا مثلكم فى العصيان. بل مطيعين له سبحانه. والله فعّال لما يريد. ولكن الكافرين لا يعلمون والله تعالى أعلم.

(سورة الفتح)

المفردات: ﴿فتحنا لك﴾: أي مكناك من فتح ما كان مغلقا فى وجه دعوتك فانسابت فى البلاد لا يصدها شيء.

﴿مبينا﴾: أي واضحا، انظر الآية (١٦٨) من سورة البقرة صفحة ٣٢.

﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك﴾: أي بعد أن تستغفره عما كان يضيق به صدرك فى بعض الأحيان، من شدة إيذاء قومك وإعراضهم عن الإيمان، يغفر لك ذلك وجميع ما حصل

(١) أمثالكم.
(٢) صراطا.
(٣) إيمانا.
(٤) إيمانهم.
(٥) السموات.
(٦) المؤمنات.
(٧) جنات.

منك مما يصح أن تعاتب عليه، انظر ما سبق فى الآية (٩٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤ والآية (٥٥) من سورة غافر صفحة ٦٢٥ والآية (١٩) من سورة محمد صفحة ٦٧٥ والآية (٣) من سورة النصر صفحة ٨٢٥.

﴿عزيزا﴾: يطلق العزيز على الشىء النادر الصعب المنال، فالمراد: نصرا يصعب حصول مثله لغيرك.

﴿السكينة﴾: أى الطمأنينة والثبات، انظر الآية (٢٦) من سورة التوبة صفحة ٢٤٤.

﴿جنود السموات والأرض﴾: جنود الله هم كل ما بهم تنفيذ أوامره تعالى من الملائكة، أو الإنس، أو الحجارة، أو الزلازل إلى غير ذلك، انظر الآية (٩) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٠ والآية (٣١) من سورة المدثر صفحتى ٧٧٦، ٧٧٧. والمراد هنا جنوده تعالى التى ثبَّت بها المؤمنين وطمأنهم كما فى الآية (٤٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٧.

المعنى: تدور آيات هذه السورة حول غزوة الحديبية وما قارنها من الوعد بفتح مكة وخيبر وغيرهما. والحديبية بضم الحاء وفتح الدال وسكون الياء الأولى وكسر الباء وتخفيف الياء الثانية مفتوحة. هى قرية قريبة من مكة على مسافة يوم بسير الإبل. وملخص قصتها أنه ﷺ رأى فى منامه فى أواخر سنة ستة هجرية أنه دخل هو وأصحابه مكة معتمرين. وبعد فراغهم من العمرة تحللوا بحلق رءوسهم أو تقصير شعورهم وهم مطمئنون. فأخبر ﷺ بذلك، ودعا الجميع للخروج معه حتى الأعراب المقيمين حول المدينة الذين كانوا يظهرون الإسلام، وفعل ذلك حذرًا من قريش أن يتعرضوا له بحرب أو يمنعوه من الوصول إلى البيت الحرام فاستعد للخروج معه من المؤمنين نحو ١٤٠٠ رجل. وتخلف المنافقون من الأعراب متعللين بأعذار كاذبة كما سيأتى فى الآية (١١) الآتية صفحتى ٦٧٩، ٦٨٠. وقالوا فيما بينهم كيف يذهب إلى قوم فى عقر دارهم بعدما قتلوا أصحابه فى غزوة أحد. انظر الآيات (١٢١) وما بعدها من سورة آل عمران صفحة ٨٣. وظنوا أنه لن يرجع أبدا. ولما تم تنظيم جيشه ﷺ خرج فى ذى القعدة من تلك السنة. وساق معه الهدى ليعلم أهل مكة أنه ما جاء لحرب، ولكن لأداء عبادة. ووصل خبر خروجه ﷺ أهل مكة. فصمموا على منعه من الدخول. واستعدوا لقتاله. ولما وصل ﷺ الحديبية بلغه ما فعل المشركون فتوقف عن السير. وأرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه

إلى مكة ليخبر أهلها بما جاء ﷺ لأجله. فلم تقبل قريش ذلك. ومنعوا عثمان من الرجوع إليه ﷺ. وحجزوه عندهم، فشاع بين المسلمين أن عثمان قد قتل. عند ذلك صمم ﷺ على الحرب ثقة منه بما وعد سبحانه في الرؤيا. وكان جالسا تحت الشجرة الآتى ذكرها فى الآية (١٨) من هذه السورة صفحة ٦٨١، فدعا أصحابه للمبايعة على الحرب. وألا يفر واحد منهم مهما كانت الأحوال. ثم تبين بعد ذلك كذب إشاعة قتل عثمان. ولما علمت قريش تصميمه ﷺ على الدخول أرسلت إليه رجالا منهم ليصالحوه على أن يرجع هذا العام ويتركوا له مكة فى العام القادم مدة ثلاثة أيام. فقبل ﷺ الصلح على ذلك بشروط منها أن تكون بينه وبينهم هدنة مدة عشرة أعوام. ومن أسباب رضاه ﷺ عن ذلك أن هذا يمكنه من التفرغ لتطهير المدينة ممن حولها من اليهود والخونة الذين كانوا يقلقونه بمساعدة المشركين.

فلما شرع فى الرجوع قال عمر بن الخطاب لأبى بكر الصديق رضى الله عنهما، كيف رضى ﷺ ذلك. وقد وعدنا أننا سندخل المسجد الحرام آمنين؟ فقال أبو بكر: هل قال سيحصل ذلك فى هذا العام؟ قال عمر: لا.. قال أبو بكر: فانتظر فستدخل آمنا. وفى أثناء الطريق نزل عليه ﷺ الوحى بسورة الفتح كلها. فأمر ﷺ مناديا ينادى عمر بن الخطاب، وكان فى مقدمة الركب. فلما جاء قال له: يا عمر لقد نزلت علىَّ الليلة سورة هى أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس. ثم قرأ ﷺ ﴿ إنا فتحنا لك..﴾ إلى آخر السورة.

وفى هذا قال البراء بن عازب (تعدون أنتم الفتح فتح مكة، لكنا نحن نعد الفتح هو صلح الحديبية) أى لأن بها أمن المسلمون شر قريش وتفرغوا لنشر الدعوة فى أنحاء الجزيرة. وتمكن كثير مِمَنْ كانوا يخافون من قريش من الدخول فى الإسلام. وتم فتح خيبر كما سيأتى فى شرح الآية (١٥) من هذه السورة صفحة ٦٨٠.

قال ابن إسحاق (لم يكن فى الإسلام فتح قبل صلح الحديبية، وإنما كان الكفر والقتال) وبعد الحديبية أمن الناس واتصل بعضهم ببعض، وبادر الناس إلى الدخول فى الإسلام. فدخل فيه فى سنتين أكثر مِمَنْ دخل فيه طول مدة السبع عشرة سنة الماضية من مبدأ الرسالة. وإن أردت المزيد من شروط صلح الحديبية ودقائق ما حصل فى هذه الحادثة فارجع إلى أحاديث ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧ من كتابنا صفوة صحيح البخارى. فقوله تعالى إنا فتحنا

لك.. إلخ. أى إنا هيأنا لك بهذا الصلح أسباب فتح البلاد فتحًا ظاهرا لا يخالطه ضعف. ولما كان ﷺ وأصحابه تضيق صدورهم من عنف المشركين مع العجز عن القضاء على طغيانهم، انظر الآيات (٣٣) إلى (٣٥) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧ وآيتى (١٢، ١٣) من سورة هود صفحة ٢٨٥ والآية (٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٧٩ والآية (٣٥) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٧١، ٦٧٢. وقد حصل للمؤمنين من الأمم السابقة مثل هذا، انظر الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢.

وكل هذا لا يعد من الإنسان الذى لا يعلم الغيب نقصا لأنه مطبوع على حب دواعى الاطمئنان، انظر الآية (٢٦٠) من سورة البقرة صفحة ٥٥ ومع ذلك يعده سبحانه إذا حصل من أقرب المقربين إليه هفوة تستحق الاستغفار، لكل هذا يقول سبحانه بعد أن فتحت لك أيها النبى أبواب النصر فاستغفر لما سبق منك من الضجر ليغفر الله لك كل ما حصل وسيحصل منك مما يصح أن تعاتب عليه، وفى هذا غاية التطمين لنفسه الشريفة ﷺ، ومطاردة ما كان يضايقه من افتراء الكافرين، قال تعالى: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ الآية (٩٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤، وقال سبحانه: ﴿.. ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون﴾ الآية (١٢٧) من سورة النحل صفحة ٣٦٣، وانظر سورة النصر صفحة ٨٢٥. ويتم نعمته عليك بإعلاء دينك وتمكين كلمتك. ويهديك طريقًا مستقيمًا فى تبليغ الرسالة لمَنْ لم تبلغه، وفى تنظيم قواعد الملك الصحيح.

وينصرك الله نصرًا منيعًا لا هزيمة بعده. ثم بيَّن سبحانه ما أفاض عليهم من مبادئ الفتح فقال تعالى: ﴿هو الذى أنزل السكينة..﴾ إلخ. أى هو وحده الذى أوجد الطمأنينة والثبات فى قلوب المؤمنين عندما طلبتهم للمبايعة، فلم يهتموا بالكفار. فعل سبحانه بهم ذلك ليزدادوا يقينًا بصدق الرسول مع يقينهم بالله واليوم الآخر. فتطمئن قلوبهم، كما اطمأن قلب نبى الله إبراهيم عليه السلام فى الآية (٢٦٠) من سورة البقرة، صفحة ٥٥ المشار إليها سابقًا. ثم بيَّن سبحانه منشأ تفضله عليهم بالثبات فقال سبحانه: ولله جنود السموات والأرض ينفذون أمره فى خلقه فثبت بهم المؤمنين وكان الله عليمًا بأعمال خلقه، حكيمًا فى تدبير شئونهم، ودبر سبحانه ما دبر من تثبيت المؤمنين ليقاتلوا المشركين لتكون النتيجة أنه سبحانه يدخل المؤمنين والمؤمنات جنات.. إلخ.

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ
الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾
وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾
لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ
اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ
وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾
سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا

المفردات: ﴿الظانين بالله﴾.. إلخ: هم مَنْ سيأتى فى الآية (١٢) من هذه السورة صفحة ٦٨٠. ﴿السوء﴾: هو الشىء المسىء المكروه. ﴿دائرة السوء﴾: أصل معنى الدائرة هو الخط المحيط بالشىء. ثم استعملت فى الداهية التى تحيط بمَنْ تصيبه. ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾: ذكرت هذه الجملة فى الآية (٤) السابقة من هذه السورة صفحة ٦٧٨ فى مقام تقرير أنه سبحانه هو المدبر لشئون خلقه فناسب أن يذكر بعدها ﴿عليمًا حكيمًا﴾، ولما كان المقام هنا مقام تهديد المشركين بأن فى قبضته سبحانه وتعالى جنود السموات كالملائكة، والصواعق، والطير الأبابيل فى الآية (٣) من سورة الفيل صفحة ٨٢٢ وجنود الأرض كالزلازل والغرق، ناسب أن يذكر بعدها ﴿عزيزا﴾ أى غالبًا، لا يغلبه أحد، ﴿حكيما﴾ لا يسوى بين المؤمن والكافر. ﴿شاهدا﴾.. إلخ: تقدم فى الآية (٤٥) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٦.

﴿تعزروه﴾: أصل معنى العزر بفتح العين وسكون الزاى (المنع)، انظر الآية (١٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨ والمراد هنا: تنصروه بنصر دينه كما فى الآية (٧) من سورة محمد صفحة ٦٧٢. ﴿توقروه﴾: أى تعظموه. ﴿بكرة وأصيلا﴾: البكرة أول النهار. والأصيل آخره، والمراد دائما. ﴿يد الله فوق أيديهم﴾: كناية عن تأكيد البيعة، على ما جرت عليه عادة العرب عند المبايعة من وضع يد أحدهما فى يد الآخر. ثم يضع كبير القوم يده فوق أيدى الجميع – دون تشبيه طبعا فالله تعالى ليس كمثله شىء.

---

(١) الأنهار. (٢) خالدين.
(٣) المنافقين. (٤) المنافقات.
(٥) المشركات. (٦) السموات.
(٧) أرسلناك. (٨) شاهدا.
(٩) عاهد. (١٠) أموالنا.

﴿نكث﴾: أى نقض العهد.

﴿المخلفون﴾: جمع مخلف بوزن مُعَظَّم. وهو المتروك خلف القوم. والمراد الذين أقعدهم الشيطان عن الخروج معه ﷺ.

﴿الأعراب﴾: هم سكان البادية. انظر الآية (٩٠) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٦، ٢٥٧.

المعنى: يدخل سبحانه المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها. ويمحو عنهم سيئاتهم. فلا يؤاخذهم بها. وكان ذلك الإدخال ومحو الذنوب عند الله فوزًا عظيمًا. ومَنْ كفر باطنًا كالمنافقين والمنافقات، أو ظاهراً أو باطنًا. كالمشركين والمشركات، يعذبهم سبحانه فى الدنيا بالخزى والقتل. وفى الآخرة بنار جهنم. وذلك لأنهم ظنوا بالله الظن السيئ. وهو أنه سبحانه لا ينصر رسوله والمؤمنين. كما سيأتى فى الآية (١٢) الآتية صفحة ٦٨٠. فخيب الله ظنهم وقلب الهزيمة عليهم، وغضب عليهم، وطردهم من رحاب رحمته. وأعد لهم جهنم. وقبحت جهنم نهاية لهم. ثم بيَّن سبحانه أنه قادر على ما توعدهم به فقال ولله جنود السموات والأرض. كلها فى قبضته ينفذ بها ما يشاء فى خلقه. وكان الله غالبًا حكيمًا. يجازى كلا بما يستحق. ثم امتن سبحانه على نبيه فقال: إنا أرسلناك.. إلخ. أى أرسلناك أيها النبى شاهدا على أمتك وعلى مَنْ سبقهم بأن شرع الله بلغتهم، ومبشرًا مَنْ آمن بالجنة. ومحذرا مَنْ عصى بالنار. أرسلناك لتؤمن أيها النبى أنت ومَنْ معك بالله ورسوله، وتنصروا الله بتقوية دينه. وتعظموه وتسبحوه دائمًا. وقد أفادت الآية أنه يجب على الرسول أن يكون على يقينه من أنه رسول الله. وبعدما بيَّن سبحانه شرف نبيه أراد أن يبين أيضًا أن من منزلته الرفيعة أن مَنْ يبايعه فقد بايع الله تعالى نفسه لأن المقصود من مبايعته ﷺ هى طاعة الله ومَنْ يطع الرسول فقد أطاع الله كما فى الآية (٨٠) من سورة النساء صفحة ١١٤. وليعلم بذلك المؤمنون مخاطر نقض مبايعته فقال: إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله. ثم أكد ذلك بقوله سبحانه: يد الله فوق أيديهم. والمراد: التأكيد فقط. وإلا فقد تكون هناك بيعة بدون وضع يد. كبيعته ﷺ للنساء. انظر الآية (١٢) من سورة الممتحنة صفحة ٧٣٧. ومن نتائج هذه البيعة المؤكدة أن مَنْ نقضها فإن وبال نقضه يعود على نفسه. ومَنْ أوفى بعهده مع الله فسوف يؤتيه أجرًا عظيمًا. وهو العز فى الدنيا: والنعيم الخالد فى الآخرة. ولما ذكر سبحانه أهل بيعة الرضوان أتبع ذلك بذكر مَنْ تخلف عن الخروج معه ﷺ وأعذارهم الكاذبة فقال سبحانه: (سيقول لك).. إلخ.

وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ(١) سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ(٢) وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ(٣) اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل

المفردات: ﴿أهلونا﴾: جمع أهل والمراد بهم النساء والذرارى؛ وهذه عادة المنافقين أن يتعللوا بالباطل، انظر الآية (١٣) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٠، ٥٥١.

﴿مَنْ يملك﴾: (مَنْ) اسم استفهام إنكارى يفيد النفى، أى لا أحد يملك لكم.. إلخ، وأصل معنى الملك إمساك الشىء وضبطه بقوة فإذا قلت لا أملك فمعناه لا أستطيع التصرف. ﴿ضرا﴾: المراد: ما يضر.

﴿نفعا﴾: المراد ما ينفع.

﴿ينقلب الرسول﴾: أى يرجع إلى المدينة. ﴿ظن السوء﴾: تقدم فى الآية (٦) من هذه السورة صفحة ٦٧٩. ﴿بورا﴾: أى فاسدين لا خير فيكم، كما تقدم فى الآية (١٨) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٢. والمراد بها هنا: هالكين. ﴿المخلفون﴾: تقدم فى الآية (١١) من هذه السورة. ﴿مغانم﴾: هى مغانم خيبر. ﴿ذرونا﴾: أى اتركونا نخرج معكم ولا تمنعونا.

﴿يبدلوا كلام الله﴾: هو الذى وعد به رسول الله ﷺ بأن مغانم خيبر خاصة بمَنْ بايعوه تحت الشجرة كما سيأتى فى آيتى (١٨، ١٩) من هذه السورة صفحة ٦٨١.

﴿لن تتبعونا﴾: المراد من (لن) هنا النهى عن الإذن لهم بالغزو مع المسلمين. والمعنى: لا تتبعونا لأن الله جعل هذه الغنائم للمؤمنين الصادقين. ﴿من قبل﴾: أى قبل رجوعنا إلى المدينة. ﴿بل تحسدوننا﴾: أى أن الله لم يمنعنا بل أنتم الذين تحسدوننا على ما نأخذه معكم من الغنائم.

المعنى: بعدما بيَّن سبحانه حال المؤمنين الصادقين شرع فى بيان حال المنافقين الذين تعودوا الكذب لإخفاء أغراضهم بطرق شتى. انظر منها ما فى الآيات (٤٢، ٤٩، ٥٦، ٦٢، ٦٧،

(١) للكافرين. (٢) السموات. (٣) كلام.

٧٤، ٨٦، ٩٣ إلى ٩٨، ١٠١) من سورة التوبة صفحات ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩. فقال هنا عن فريق منهم وهم الأعراب المشار إليهم فى الآية (١٠١) السابقة من سورة التوبة صفحة ٢٥٩ سيقول لك.. إلخ. أى سيقول لك أيها النبى الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج معك شغلتنا أموالنا وأهم منها أهلنا فلم نستطع الخروج خوفًا عليها من الضياع؛ لأن ليس لنا مَنْ يحافظ عليها بعدنا. فاستغفر لنا الله ليغفر لنا تخلفنا عنك. فرد سبحانه مكذبا لهم بقوله: (يقولون بألسنتهم).. إلخ. أى أن قولهم هذا صادر عن طرف اللسان لا يوافق ما فى قلوبهم. والحقيقة أن سبب تخلفهم هو ظنهم أن الرسول ﷺ ومَنْ معه لن يرجعوا أبدا كما سيأتى فى الآية (١٢) هنا. ثم أمر سبحانه نبيه أن يرد عليهم بأجوبة ثلاثة. الأول فى صورة وعظ فيقول لهم: لا أحد يستطيع دفع ضر أراده الله تعالى بكم. ولا جلب نفع لم يرده سبحانه لكم. ثم انتقل إلى الجواب الثانى الذى فيه تهديد بدون تصريح فقال: (بل كان الله بما تعملون خبيرا،) فيطلع على ما تخفون، وسيجازيكم عليه. ثم انتقل إلى الجواب الثالث المصرح بفضيحتهم، والكشف عن السبب الحقيقى لتخلفهم، فقال: (بل ظننتم).. إلخ. أى ظننتم عدم رجوع الرسول والمؤمنين إلى أهليهم بالمدينة أبدا؛ لأن قريشًا ستقتلهم، وحسَّن الشيطان هذا الظن الفاسد فى قلوبكم حتى تمكن منها. ثم أكد الفضيحة بقوله وظننتم ظن السوء فى كل ما يتعلق بالله ورسوله فظننتم أن الله تعالى لاينصر رسوله، وأن دينه ليس حقًا، إلى غير ذلك. وكنتم بهذا قومًا فاسدين هالكين. ثم بيَّن كيفية هلاكهم فقال: ومَنْ لم يؤمن بالله. أى فظن أنه يخلف وعده، وبرسوله فظن أنه غير صادق، فهو كافر. وقد هيأنا للكافرين نارًا ملتهبة. ثم قطع سبحانه أطماع مَنْ يصر على الكفر فى المغفرة، وفتح بابها لمَنْ يتوب فقال: (ولله ملك السموات والأرض).. إلخ. أى وما فيهما فلا أحد يشاركه فى التصرف فيهما. يغفر لمَنْ يشاء وهو مَنْ يتوب. ويعذب مَنْ يشاء وهو المصر على الكفر. ثم بيَّن سبحانه أن رحمته أوسع من غضبه فقال: وكان الله غفورًا رحيمًا. فالويل لمَنْ أغلق بابها الواسع بالكفر. ثم بيَّن سبحانه أن هؤلاء المنافقين لا يهمهم إلا الدنيا فقال سبحانه: (سيقول لك).. إلخ. أى إذا رجعت أيها النبى للمدينة وأردت غزو خيبر والاستيلاء على أموال اليهود فيها. وهى سهلة ليس فيها صعوبة. فسيقول لك هؤلاء المخلفون اتركونا نتبعكم فى غزو خيبر، يريدون بمحاولتهم هذه تبديل كلام الله الذى وعدك فيه بأنها خاصة بأهل البيعة. قل لهم أيها النبى لن تتبعونا أبدا. فهذا الحكم الذى أقوله لكم الآن حكم الله من قبل رجوعنا إلى المدينة. فسيقول المنافقون للمؤمنين عند سماع هذا المنع: لم يكن المنع عن حكم الله بل ذلك منكم حسدًا لنا أن نشارككم فى المغانم. ثم انتقل سبحانه إلى بيان جهلهم المستولى عليهم فقال:

لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ
شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ[1] أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ
أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ[2] تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ[3] ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ
يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ
السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ[4] فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً
يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ
مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ
النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً[5] لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا[6]

بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا. أي إلا فهمًا قليلا. وهو المتعلق بأمور الدنيا وطرق تحصيلها انظر آيتى (٦، ٧) من سورة الروم صفحة ٥٣١.

المفردات: ﴿للمخلفين﴾: كرر سبحانه هذه الكلمة مبالغة فى الذم وإشعارا بشناعة التخلف.

﴿إلى قوم﴾: قال بعض السلف: هم الذين ارتدوا والذين منعوا الزكاة فى عهد أبى بكر الصديق رضي الله عنه وهم الذين اتبعوا مسيلمة وكانوا فى اليمامة.

﴿أولى بأس﴾: أى أصحاب شدة فى الحروب. ﴿حرج﴾: أى إثم ومؤاخذة.

﴿الشجرة﴾: هى شجرة كبيرة فى وادى الحديبية كما تقدم، وكانوا يستظلون تحتها وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان. ﴿السكينة﴾: أى الطمأنينة والثبات، انظر الآية (٤) من هذه السورة صفحة ٦٧٨ والآية (٢٦) من سورة التوبة صفحة ٢٤٤. ﴿أثابهم﴾: أى جازاهم.

﴿فتحًا قريبًا﴾: هو صلح الحديبية كما تقدم أول السورة والذى ترتب عليه انطلاق الدعوة الإسلامية حيث لا عائق. ﴿مغانم كثيرة﴾: هى جميع مغانم المسلمين إلى يوم القيامة.

﴿هذه﴾: هى مغانم خيبر عندما فتحها ﷺ سنة ٧هـ بعد رجوعه من الحديبية، وصالح أهلها على أن يدفعوا نصف ما يخرج من أرضها، وفى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أجلاهم

---

(١) تقاتلونهم.
(٢) جنات.
(٣) الأنهار.
(٤) أثابهم.
(٥) آية.
(٦) صراطا.

للشام، ربما أن السورة كلها نزلت أثناء رجوعه ﷺ من مكة، تكون هذه الآية نزلت بعد فتحه ﷺ خيبر. ﴿كف أيدى الناس عنكم﴾: المراد بهم: اليهود الذين كانوا حول المدينة. حيث ألقى سبحانه فى قلوبهم الرعب. فلم يجرؤا على أن يمسوا مَنْ فى المدينة من النساء والأطفال بأدنى سوء أثناء غياب المؤمنين فى سفرهم لعمرة الحديبية.

﴿ولتكون آية﴾: الواو عاطفة على مقدر مفهوم من المقام. أى عجل سبحانه وتعالى لكم المغانم وكف أيدى اليهود عنكم لتشكروه جل شأنه. وليكون ذلك آية. أى دليلا على صدق وعده سبحانه.

المعنى: قل أيها النبى لهؤلاء الذين ارتكبوا جرم التخلف عن القتال انتظروا قليلا فستدعون إلى ملاقاة قوم أصحاب قوة وشدة فى الحروب على أن لا يكون إلا أحد أمرين إما قتالهم أو إسلامهم ولا ثالث لهما. وهذا هو حكم مشركى العرب والمرتدين فإن تطيعوا مَنْ يدعوكم لذلك يؤتكم الله أجرًا حسنًا. العز فى الدنيا والنعيم فى الأخرى. وإن تعرضوا عن طاعة ربكم كما أعرضتم من قبل فى السفر مع الرسول إلى مكة. يعذبكم عذابا أليما بالذل فى الدنيا والنار فى الآخرة. ولما شدد سبحانه فى عقاب مَنْ يتخلف ذكر الأعذار التى تبيح التخلف فقال: (ليس على الأعمى).. إلخ، أى لا مؤاخذة على التخلف عن القتال لمن عنده عذر كالعمى والعرج والمرض. ثم رغب سبحانه فى الطاعة ونفر من العصيان فقال: ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار. ومن يتول. أى يعرض ويعصى الله يعذبه عذابًا أليمًا. ثم رجع سبحانه إلى بيان فضل من بايعوا على الموت كما تقدم. وما جازاهم به فقال: لقد رضى الله عن المؤمنين حين مبايعتهم لك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم من صدق الإيمان وحسن الطاعة، فرزقهم الطمأنينة ورباطة الجأش. وجازاهم بما حصل من الصلح الذى يعتبر فاتحة كل خير. وقدر لهم مغانم كثيرة سيأخذونها من البلاد التى يفتحونها. وكان الله تعالى غالبًا على أمره لا يعجزه شىء. حكيمًا يعامل كل امرئ على حسب عمله. ثم التفت سبحانه إلى خطاب أهل بيعة الرضوان تشريفًا لهم. فقال سبحانه وتعالى: وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها. أى من الفتوحات الكثيرة التى ستتم على أيديكم. فعجل لكم غنيمة خيبر. وكف أيدى اليهود المحيطين بالمدينة فلم يؤذوا نساءكم وذراريكم وأنتم مشغولون بعمرة الحديبية.كف سبحانه الأيدى عنكم وعجل لكم مغانم خيبر لتشكروه، ولتكون تلك النعمة

مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا
وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾
سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ
تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ
عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ
عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ
وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن
تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ
فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ

الجليلة أمارة يعلم منها المؤمنون أن الله تعالى حاميهم وناصرهم فى غيبتهم وحضورهم. ويهديكم بتلك الآية طريقًا مستقيمًا هو الثقة بفضل الله سبحانه والتوكل عليه فى كل الأعمال.

المفردات: ﴿أخرى لم تقدروا عليها﴾: هى المغانم الكثيرة التى أخذت من ثقيف وهوازن فى غزوة حنين بعد فتح مكة. المذكورة فى الآية (٢٥) من سورة التوبة صفحة ٢٤٤.

﴿أحاط الله بها﴾: المراد: جعلها تحت قبضته سبحانه ليعطيها للمؤمنين فيما بعد.

﴿لولوا الأدبار﴾: أى لانهزموا. ﴿وليًا﴾: الولى هو الذى ينفع بلباقة وتلطف. انظر الآية (١٠٧) من سورة البقرة صفحة ٢١.

﴿نصيرا﴾: النصير هو المعين الذى يساعد بقوة.

﴿سنة الله﴾: أى عادته سبحانه وتعالى فى خلقه.

﴿خلت﴾: أى مضت. ﴿ببطن مكة﴾: المراد: وادى الحديبية القريب من مكة.

﴿أظفركم عليهم﴾: أى جعلكم ظافرين بهم متفوقين عليهم. بنصره المعنوى عندما ألقى فى قلوب المشركين الرعب من قتالكم.

﴿الهدى﴾: اسم جمع. مفرده هدية. والهدى هو ما يهديه الحاج لفقراء البيت الحرام من الأنعام. انظر الآية (٢) من سورة المائدة صفحتى ١٣٤، ١٣٥. وآيتى (٩٥، ٩٧) من سورة المائدة أيضا صفحتى ١٥٦، ١٥٧.

---

(١) قاتلكم. (٢) الأدبار. (٣) مؤمنات.

﴿معكوفًا﴾: أى محبوسًا ومقصورًا على فقراء بيت الله الحرام.

﴿محله﴾: أى المكان الذى يجوز فيه نحر الهدى وهو (منى). ﴿ولولا رجال مؤمنون﴾.. إلخ: جواب (لولا) مفهوم، أى لأذناكم بقتالهم.

﴿لم تعلموهم﴾: أى لم تعلموا ذواتهم ولا مكانهم. ﴿أن تطئوهم﴾: أصل الوطء الضرب بالرجل على الأرض، والمراد هنا تهلكوهم، والجملة فى قوة مصدر بدل من (رجال ونساء) والمعنى لولا كراهة أن تهلكوا رجالا ونساء أبرياء لأذناكم. ﴿معرة﴾: أى مكروه يوجب الأسف والألم. ﴿بغير علم﴾: أى بإيمانهم. ﴿تزيلوا﴾: أى تميز المؤمنون عن الكافرين، انظر الآية (٢٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٠، ٢٧١.

المعنى: وعجل لكم مغانم أخرى لم تقدروا عليها الآن. وهى ما أخذ يوم حنين إذ لم يأخذ المسلمون مغانم قبلها أكثر منها وجعلها معجلة مع أنها كانت بعد خيبر بالنسبة لما يأتى بعدها من مغانم لا حصر لها، وقد حفظها سبحانه لكم لوقتها. وكان الله على كل شىء قديرًا لا يعجزه أن يحفظ لكم ما يريده لكم. ثم بيَّن سبحانه أن من آثار قدرته على نصر المؤمنين أنه لو قاتلهم كفار مكة وهم بالحديبية لانهزموا ثم لا يجدون صديقًا يدفع عنهم بالحسنى، ولا ناصرًا ينصرهم بالقوة. جعل سبحانه ذلك عادة مضت من قبل فى الأمم ورسلهم فينصر الرسل ويهزم الكافرين بهم. ولن تجد لهذه العادة الإلهية تبديلا. ثم ذكر منة أخرى على المؤمنين فقال: وهو الذى كف.. إلخ، وذلك أنه بينما كان ﷺ تحت الشجرة مع بعض أصحابه ينتظرون قدوم عثمان بن عفان كما تقدم إذ جاء خبر أن ثمانين رجلا من قريش مسلحين يريدون أخذه ﷺ على غرة. فأرسل ﷺ إليهم جماعة من أصحابه فأسروهم. وأحضروهم إليه. فعفا ﷺ عنهم. لتعلم قريش أنه لا يريد إلا السلام، والمعنى: أنه هو سبحانه الذى كف أيديهم عنكم فلم ينالوكم بسوء. وكف أيديكم عنهم وأنتم ببطن مكة من بعد أن جعلكم ظافرين غالبين عليهم. وكان الله بصيرا بأعمالكم وأعمالهم. فاقتضت حكمته منع القتال لتعظيم البيت المحرم من سفك الدماء فيه بدون ضرورة.. ولما سيأتى فى الآية بعدها حيث قال: هم الذين كفروا.. إلخ. أى لولا ما سيأتى لكانوا يستحقون القتل لأنهم كفروا ومنعوكم عن دخول المسجد الحرام. ومنعوا الهدى عن أن يبلغ محله مع أنه مخصص لفقراء البيت الحرام، ولولا رجال ونساء مؤمنون ومؤمنات مبعثرون بين كفار مكة لا يمكنكم معرفتهم، لولا أنكم تقتلونهم خطأ مع الكفار فتصيبكم من قتلهم معرة بغير علم منكم بإيمانهم لأذناكم فى قتالهم.
أى الكفار الذين لم يؤمنوا؛ لأنهم ظلموا وصدوا عن البيت. ولكن من الفضل الإلهى أنه رحمة بهؤلاء المستضعفين المشار إليهم فى الآية (٧٥) من سورة النساء صفحة ١١٣ والآية (٩٨) من

الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ(١) فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ
وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا
وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ
رَسُولَهُ الرُّؤْيَا(٢) بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ
اللَّهُ آمِنِينَ(٣) مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ
فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾
هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى
الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ
وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ(٤)
رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا(٥) ۖ سِيمَاهُمْ
فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ(٦) ۚ
وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ(٧) فَآزَرَهُ(٨)

نفس السورة صفحة ١١٩. فلم يأذن فى القتال ليدخل فى رحمته من يشاء من المؤمنين فينقذهم، ويوفقهم لزيادة الخير ولو تميز المؤمنون فى مكان بعيد عن الكافرين لعذبنا الكافرين عذابًا أليمًا بالقتل والسبى وكل أسباب الشقاء، ففعل بهم ذلك حين جعلوا فى قلوبهم.. إلخ.

المفردات: ﴿الحمية﴾: هى الأنفة.

﴿حمية الجاهلية﴾: هى الأنفة الناتجة عن طيش وغرور بالعظمة الكاذبة، فتحمل صاحبها على أن يتحكم فى غيره، ويمنعه مما يريده لمجرد إغاظته، كما فعلوا فى منع المسلمين من دخول المسجد الحرام عام الحديبية.

﴿سكينته﴾: تقدم معناها فى الآية (٤) من هذه السورة صفحة ٦٧٨.

﴿ألزمهم كلمة التقوى﴾: أى أمرهم بها ووفقهم لها و(كلمة التقوى) هى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) التى تقى صاحبها من الشرك والخلود فى جهنم ولذلك أضيفت للتقوى.

﴿أحق بها﴾: أى أولى الناس بها. ﴿وأهلها﴾: أى مستأهلون لها؛ لأن فيهم أسباب استحقاقها. ﴿الرؤيا﴾: هى رؤياه ﷺ فى المنام أنه دخل المسجد الحرام.

﴿إن شاء الله﴾: المراد بهذا التعليق التبرك. ﴿محلقين﴾.. إلخ: لأن الحاج، أو المعتمر إذا فرغ من مناسكه تحلل بحلق رأسه أو تقصير شعره بأن يقصه. ﴿ففتحًا قريبًا﴾: هو ما حصل من الصلح كما تقدم أول هذه السورة. ﴿ليظهره على الدين كله﴾: أى بقوة الدليل وكمال

(١) الجاهلية. (٢) الرؤيا. (٣) أمنين. (٤) تراهم.
(٥) رضوانا. (٦) التوراة. (٧) شطأه. (٨) فآزره.

التعاليم، كما تقدم فى الآية (١٩٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨. والآية (٣٩) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٢ والآية (٣٣) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥.

﴿كفى بالله شهيدا﴾: تقدم فى الآية (٣٦) من سورة الزمر صفحة ٦١١ والآية (٥٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧. ﴿رضوانا﴾: هو الرضا الكامل من الله وأهمه ما كان فى الآخرة، انظر الآية (٧٢) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣. ﴿سيماهم﴾: أى علامتهم المميزة لهم عن غيرهم. ﴿شطأه﴾: قال الكسائى: يعنى طرفه الأعلى، وفسره بأنه السنبل ويؤيد ذلك قوله الآتى (فاستوى على سوقه). ﴿فآزره﴾: أى قواه.

المعنى: إن كفار مكة كانوا يستحقون العذاب السريع حين ملئوا قلوبهم بالأنفة الظالمة حيث منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام، ومنعوا كاتب شروط الصلح من أن يكتب (هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله) وقالوا اكتب فقط (محمد بن عبدالله) إلى غير ذلك مما هو موضح فى مكانه المشار إليه أول هذه السورة. فبينما أخذت الكفار حمية الجاهلية أنزل سبحانه طمأنينة فى القلوب على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين فقبلوا الصلح ولم يأنفوه. واختار لهم المحافظة على كلمة التوحيد التى تقيهم من عذاب النار. وكانوا أولى الناس بها لما فيهم من الصفات التى تؤهلهم لها. وكان الله بكل شىء من خلقه عليمًا. فيعلم من يصلح للخير وغيره. ثم بيَّن سبحانه أن ما وعد به نبيه ﷺ حق لابد منه فقال: لقد صدق الله.. إلخ. أى جعل رؤيا رسوله ﷺ أنه دخل المسجد الحرام صادقة مقترنة بالحق ليس فيها شىء من أضغاث الأحلام المشار إليها فى الآية (٤٤) من سورة يوسف صفحتى ٣٠٩، ٣١٠، ثم أكد ذلك بالحلف عليه، فقال سبحانه: (لتدخلن).. إلخ. أى وعزتى لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين من العدو وقت الدخول، متمين عبادتكم حالقا بعضكم رأسه ومقصرا شعره البعض الآخر؛ لا تخافون بعد تمام عبادتكم من شىء. وبهذا فقد علم سبحانه من الصلح ما لم تعلموا، فجعل من قبل دخولكم هذا فتحًا قريبًا. وهو ما تقدم بيانه أول السورة. ثم أكد سبحانه صدقه ﷺ فى الرؤيا فقال: (هو الذى أرسل رسوله).. إلخ، أى كيف يخطئ أو يكذب. وهو الذى أرسله الله تعالى بالقرآن شديد الهداية. وبدين الحق الذى اختاره لسعادة البشرية ليعليه بالبراهين واضحة التعاليم على كل الأديان. وكفاك أيها النبى ربك شهيدا على صدق رسالتك فلا تبال بإنكارهم ذلك. ومنعهم إثبات ذلك فى شروط الصلح. ثم أكد ذلك مع بيان فضل

المؤمنين معه ﷺ فقال: محمد رسول الله. أى رغم أنف كل مكابر والمؤمنون معه من صفاتهم أنهم أشداء على كل كافر بربه الذى خلقه، لا يمكنونه من عرقلة الإسلام، متعاطفون فيما بينهم برحمة بعضهم بعضا، تراهم فى أغلب أحوالهم راكعين ساجدين لله يطلبون فضلا من ربهم ورضًا واسعًا، انظر الآية (٢) من سورة المائدة صفحتى ١٣٤، ١٣٥ لهم علامة فى وجوههم من أثر كثرة صلاتهم. وسئل مجاهد عن هذه العلامة هل هى هذا الأثر الذى يرى فى وجوه بعض الناس مما يشبه أثرا الكىّ فقال: كلا: لأن هذا الأثر ربما كان بين عينى من هو أقسى قلبا من فرعون. ولكنه الخشوع والتواضع. وقال عبدالعزيز المكى: هو نور يتجلى على وجوه العابدين يظهر من باطنهم على ظاهرهم يراه أصحاب البصيرة ولو كان صاحبه زنجيًا أو حبشيًا. وقال على بن أبى طالب رضي الله عنه: ما أسَرَّ أحد سَرِيرَةً إلا أظهرها الله تعالى على صفحات وجهه: ذلك المذكور من صفاتهم هى صفتهم المذكورة فى التوراة الصحيحة، ومثلهم فى الإنجيل الصحيح أيضًا كزرع من القمح مثلاً تخرج الحبة الواحدة منه سبع سنابل أو أكثر كما فى الآية (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥. ولجودة هذا الزرع فإنه يقوى سنابله ويغذيها بما يجعلها فى منتهى الجودة. ولا يقال إن التوراة والإنجيل اللذين بأيدينا اليوم ليس فيهما عن أصحاب خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام هذه الصفات: لأنه قد أثبت القرآن الكريم فى مواضع كثيرة أن اليهود والنصارى قد حرفوا كتابيهما وبدلوا فيهما بل وشطبوا كثيرا مما كان فيهما. انظر الآية (٤٦) من سورة النساء صفحة ١٠٨ والآيات (١٣، ١٤، ١٥) من سورة المائدة صفحتى ١٣٨، ١٣٩. وقد شهد بذلك شاهد من أهليهم. انظر تفسير المنار جزء ٦ صفحة ٢٨٩ تجد ما نصه (إن الكتب التى يسمونها الأناجيل الأربعة هى تاريخ مختصر للسيد المسيح عليه السلام. لم يذكر فيها إلا شىء قليل من أقواله وأفعاله. بدليل قول يوحنا فى آخر إنجيله: هذا هو التلميذ الذى يشهد بهذا، وكتب هذا، ونعلم أن شهادته حق. وأن أشياء أخرى كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة.. آمين). قال صاحب المنار: هذه العبارة يراد بها المبالغة فى بيان أن الذى كتب عن المسيح لا يبلغ عشر معشار تاريخه.

وقال صاحب ذخيرة الألباب المارونى: (إن الإنجيل لا يستغرق كل أعمال المسيح ولا يتضمن كل أقواله. كما شهد به القديس يوحنا).

فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ (١) وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ (٢) مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

(٤٩) سورة الحجرات مدنية
وآياتها ثماني عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ (٣) فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ (٤) وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ (٥) عِندَ رَسُولِ

المفردات: ﴿استغلظ﴾: أي صار هذا السنبل غليظًا، بعد أن كان ضعيفًا.

﴿فاستوى﴾: أي استقر ولم تذهبه الآفات. ﴿سوقه﴾: أي سيقانه. وهى عيدانه. ﴿منهم﴾: (من) لبيان الجنس. أى الذين آمنوا من جنس هؤلاء فهى كمن فى الآية (١٧٢) من سورة آل عمران صفحة ٩١.

المعنى: بعد ما أشار سبحانه إلى جودة هذا السنبل قال إنه لما قوى صار غليظًا ممتلئًا واستقر على عيدانه ولم تهلكه الآفات وإذا رآه العارفون بفنون الزراعة امتلئوا به إعجابا، وإنما جعلهم سبحانه بهذه الصفة ليغيظ بهم الكفار، وهذا مثل للصحابة كان فى بدايتهم فى قلة وضعف، ثم كثروا وتقووا على أحسن وجه، قال قتادة: مكتوب فى الإنجيل (يخرج نبى آخر الزمان بين قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) . وعد الله الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات مغفرة لذنوبهم، وأجرًا عظيمًا هو نعيم الجنة الخالد. نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم إنه سميع مجيب.

(سورة الحجرات)

المفردات: ﴿لا تقدموا﴾: أصل التقدم بين يدى الشخص هو سبقه فى السير، وأريد به هنا الكناية عن سبق الله تعالى ورسوله فى حكم من الأحكام الشرعية. ولكنه سبحانه أبرز المراد فى صورة مستبشعة وهى سبق الخادم سيده بدون إذن منه للتنفير من هذا العمل. ولما كانت الكناية عند العرب يصح أن يراد بها المعنى الأصلى مع المعنى اللازم صح أن يكون المراد هنا النهى عن التقدم الحسى عليه ﷺ بدون إذن. وعن القطع بحكم قبل أن يحكم الله تعالى فيه ورسوله.

---

(١) آمنوا. (٢) الصالحات. (٣) أصواتكم. (٤) أعمالكم. (٥) أصواتهم.

﴿أن تحبط أعمالكم﴾: أى خوف أن تبطل أعمالكم. ﴿يغضون أصواتهم﴾: أى يخفضونها أدبًا معه ﷺ.

المعنى: هذه السورة هى أول السور القصار. وقد خاطب سبحانه فيها المؤمنين خمس مرات وخاطب الناس عامة مؤمنهم وكافرهم مرة واحدة. والذى يعلم ما كان عليه أجلاف العرب من الفوضى والخشونة والعيوب الاجتماعية والخلقية، وكيف عالج القرآن بعضها فى آيتى (٣٠، ٣١) من سورة النور صفحتى ٤٦١، ٤٦٢ والآيات (٥٨ إلى ٦٣) من نفس السورة صفحات ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩ والآيات (٥٣ إلى ٥٩) من سورة الأحزاب صفحات ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠ والآية (٢) وما بعدها من سورة المجادلة صفحتى ٧٢٤، ٧٢٥. والآية (٩) وما بعدها من نفس السورة صفحة ٧٢٦ والآية (١١) من سورة الجمعة صفحة ٧٤٣. وعالج هنا نحو ثلاثة عشر عيبًا حتى نقل هؤلاء الأجلاف المفككين من حضيض الفوضى إلى مصاف أرقى الأمم أدبا وترابطًا ونظامًا. نقول: الذى يعلم ذلك كله يدرك فضل الله تعالى على الناس بهذا القرآن العظيم والنبى الكريم ﷺ. فمن عيوبهم التى عالجها فى هذه السورة أنهم كانوا إذا ساروا معه ﷺ لا يتحاشون أن يتقدموا عليه بدون حاجة ولا مبالاة وأنهم كانوا إذا جد أمر وسئل فيه ﷺ وهم حاضرون فى مجلسه ربما تسابقوا فى بيان الحكم فيه قبله ﷺ. فقال سبحانه وتعالى علاجًا لذلك: يا أيها الذين آمنوا.. إلخ. أى لا تقدموا أنفسكم فى السير أمام الرسول بدون إذن منه. ولا آراءكم فى أمر دينى قبل حكم الله تعالى ورسوله. أى لا تفعلوا ولا تقولوا ما يخالف القرآن وسنة الرسول. واتقوا الله بالابتعاد عما يغضبه. إن الله سميع لأقوالكم. عليم بأفعالكم وسيجازيكم عليها. وكانوا إذا تكلم ﷺ فى أمر وتكلموا معه فيه يرفعون أصواتهم فوق صوته ﷺ بما يشعر بعدم توقير كبير المجلس. فقال سبحانه لا ترفعوا.. إلخ. أى لا تبلغوا بأصواتكم حدًا فوق الحد الذى يبلغه صوته ﷺ. ثم ترقى سبحانه فى توقير رسوله ﷺ فقال: ولا تجهروا.. إلخ. أى إذا تكلم أحدكم والرسول ﷺ يسمع فلا تفعلوا معه من رفع الصوت ما تعودتموه فى مخاطبة الأقران والنظراء من رفع الصوت بدون مبالاة. أى لاحظوا فى مخاطبته ﷺ خفض الصوت القريب من الهمس كما هى العادة فى مخاطبة المعظم. فحافظوا على مراعاة مقام النبوة وجلال قدر الرسالة. ولا تخالفوا هذه الآداب خوف أن تذهب فائدة أعمالكم: لأن من ارتكب هذه المحظورات كان مسيئًا له ﷺ. وقد لا يشعر بذلك فيعاقبه سبحانه بحرمانه من ثواب بعض أعماله وهو لا يشعر أنه حرم من ذلك أيضا. ويجوز أن يراد بالأعمال هنا ما يعم كل عمل فيشمل ما يقصده المتكلم معه ﷺ. ويكون المعنى أن رفع الصوت بدون أدب أمام الكبير الذى يجب توقيره من شأنه أن يغير من نفسه

ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ
ٱلْحُجُرَٰتِ[١] أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ
تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ[٢] إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن
تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ[٣] فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ[٤] ﴿٦﴾
وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ
ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ[٥] وَزَيَّنَهُۥ
فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ[٦] ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا[٧] عَلَى

ويصور له المتكلم بصورة سيئة فلا يلتفت إلى كلامه، ولا يحقق له مطلبًا، هذا إذا لم يزجره أو يطرده. وهذا بلا شك تضييع للعمل، ولا غرابة، فقد بشّع سبحانه رفع الصوت فى الآية (١٩) من سورة لقمان صفحتى ٥٤١، ٥٤٢. وبعد هذا التخويف أراد سبحانه أن يرغب فى الانتهاء عما نهوا عنه فقال: (إن الذين يغضون).. إلخ. أى إن الذين يخفضون أصواتهم فى حضرته ﷺ تأدبا فى مجلسه.. إلخ.

المفردات: ﴿امتحن الله قلوبهم﴾: تقول العرب: امتحن الصائغ الذهب إذا أذابه ليخلصه مما خالطه؛ والمراد هنا: مرن قلوبهم على احتمال الشدائد. حتى صارت خالصة للتقوى.

﴿من وراء الحجرات﴾: أى من وراء جدرانها، والمراد من خارج حجرات نسائه ﷺ فى وقت يكون ﷺ مستريحًا فيه فى واحدة منها، وكانت الجدران من جريد النخل عليها ستائر من شعر أسود؛ وأدخلت فى عهد الوليد بن عبدالملك فى المسجد.

﴿إن جاءكم فاسق﴾: أصل معنى الفسق الخروج، يقول العربى: فسقت الرطبة عن قشرتها أى خرجت منها، وانفصلت عنها، فالفاسق هو الخارج، فإن كان خارجا عن حدود الله كلها فهو

---

(١) الحجرات.
(٢) آمنوا.
(٣) بجهالة.
(٤) نادمين.
(٥) الإيمان.
(٦) الراشدون.
(٧) إحداهما.

الكافر، ويقابله المؤمن. قال تعالى: ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون﴾ الآية (١٨) من سورة السجدة صفحتى ٥٤٦، ٥٤٧، ويطلق الفسق أيضًا على الكثير من الذنوب، وعلى القليل منها؛ لأن فى كل خروج عن أحكام الشرع. قال الراغب: الفاسق هو المخل بشيء من أحكام الشرع أو المروءة، ويقابله العادل، وهو مَنْ لم يصدر منه شيء مما تقدم ولهذا قال مقاتل، وابن زيد، وسهل بن عبدالله، الفاسق هنا هو الكاذب.

قال العلماء: ويؤخذ من هذه الآية ومن الآية (٤) من سورة النور صفحة ٤٥٧ دليل على أنه كان فى الصدر الأول من يقال عنه إنه فاسق. قال الراغب: وكان الصحابة إذا حصل من أحدهم شيء مما يخل فإنه لا يصر عليه بل يسرع إلى الخروج منه متى اعتقد أنه محرم أو مخل بالمروءة. وقد قال العلماء: وسبب نزول هذه الآية أن النبى ﷺ أرسل الوليد بن عقبة لجمع الزكاة من بنى المصطلق،وهم عرب من خزاعة كانوا يقيمون خارج المدينة، ودخلوا الإسلام، وتصادف أن كان بينهم وبين الوليد بن عقبة عداوة فى الجاهلية، ولكن الإسلام استل من صدورهم كل أثر لذلك ولما علموا بأن الرسول ﷺ أرسل إليهم من يجمع الزكاة استعدوا لاستقباله، فعلم الوليد بتجمعهم، فظن فيهم سوءًا وخاف أن يكونوا يريدون قتله، فقفل راجعًا إلى المدينة، وقال: يا رسول الله إن هؤلاء هموا بقتلى، فأراد بعض الصحابة تجهيز جيش لقتالهم على منع الزكاة، ولكن النبى صلوات الله عليه أراد أن يتثبت من الأمر؛ لأنه خطير، فأوفد خالد بن الوليد ليتعرف حالهم فراقبهم عن بعد، فوجدهم يؤذنون للصلوات الخمس ويصلونها فدخل إليهم وأخبرهم بما حصل فقالوا: كنا نستعد لاستقباله ولم نره قط، فرجع خالد وأخبر النبى ﷺ بما رأى. فنزلت هذه الآية وما بعدها، وفيها سمى سبحانه الوليد بن عقبة فاسقًا، أى كاذبًا.

وقد أجمع بعض العلماء أن المراد بالفاسق هنا الكافر؛ لأن القرآن كثيرا ما أطلق الفسق على الكفر، وقال بعض آخر من العلماء: أن المراد بالفاسق هنا مجهول العدالة. والله أعلم.

﴿نبأ﴾: هو الخبر المهم، لا مجرد خبر، تأمله فى كل القرآن تجده لا يعبر به إلا عن الأمور الخطيرة ذات الأهمية، انظر الآية (٥) من سورة الأنعام صفحة ١٦٢ والآية (٤٩) من

سورة هود صفحة ٢٩١ والآية (١٢٠) من نفس السورة صفحتى ٣٠١، ٣٠٢ والآية (١٠٢) من سورة يوسف صفحة ٣١٨ والآية (٦) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٠ والآية (٦٦) من سورة القصص صفحة ٥١٦، والآية (٤) من سورة القمر صفحة ٧٠٥.

﴿فتبينوا﴾: أى فتثبتوا من صحته قبل أن ترتبوا عليه آثارا.

﴿أن تصيبوا﴾: اى خشية أن تصيبوا.

﴿بجهالة﴾: أى مع جهلكم بالحقيقة.

﴿لعنتم﴾: أى لوقعتم فى مشقة ومكروه، انظر الآية (١٢٨) من سورة التوبة صفحة ٢٦٤.

﴿وزينة فى قلوبكم﴾: قال الراغب: الزينة الحقيقية مالا يشين الإنسان فى شىء من أحواله لا فى الدنيا ولا فى الآخرة وهى ثلاث زينات: زينة نفسية كالعلم والاعتقادات الحسنة والتقوى. وزينة بدنية كالقوة وطول القامة. وزينة خارجية كالمال والجاه؛

فالزينة هنا من الأولى. وقوله تعالى فى قارون: ﴿فخرج على قومه فى زينته﴾ الآية (٧٩) من سورة القصص صفحة ٥١٨ من الثالثة؛ ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة﴾ .. إلخ الآية (١٤) من سورة آل عمران صفحتى ٦٤، ٦٥.

﴿الفسوق﴾: قال ابن عباس: المراد به هنا الكذب. ﴿العصيان﴾: هو كل ذنب فهو من عطف العام على الخاص. ﴿الراشدون﴾: هم المستقيمون على طريق الحق الثابتون عليه.

﴿بغت﴾: أى تجاوزت الحد فى الطغيان.

المعنى: إن الذين يخفضون أصواتهم فى حضرة رسول الله ﷺ تأدبًا. أولئك هم الذين جعل الله قلوبهم خالصة لتقواه حتى لم يبق لغيرها فيه مجال. هؤلاء لهم فى الآخرة مغفرة لذنوبهم، وأجر عظيم من نعيم الجنة. ومع أنه ﷺ كان جم التواضع كثير الحياء. فإن أثر نزول هذه الآية تجلى فى كثير من أصحابه ﷺ؛ فقد ثبت فى الصحيح أنا أبا بكر الصديق وعمر بن

الخطاب رضى الله تعالى عنهما كانا لا يخاطبانه بعدها إلا بما يشبه الهمس، حتى إن أحدهم كان يرتجف إذا سمع ﷺ صوته من أول مرة. خوفًا من أن يكون رفع صوته. وكان هناك عادة أخرى تدل على همجية مَنْ أسلم من الأعراب وبعدهم عن الذوق والنظام، وذلك أنه ﷺ قد يكون فى حجرة من حجرات نسائه نائمًا أو مستريحًا من عناء السفر أو جهد العبادة التى كلفه الله عز وجل بها كما فى الآيات (١ إلى ٥) من سورة المزمل صفحة ٧٧٣: فيأتى هؤلاء الأجلاف يريدون منه ﷺ شيئًا. فبدل أن ينتظروه حتى يخرج إليهم يطوفون حول حجرات نسائه ينادون بأصوات مزعجة وعبارات جافة، يا محمد. يا محمد. اخرج إلينا. قال سبحانه: فى تأديب هؤلاء: إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون. وإنما قال سبحانه: ﴿أكثرهم﴾ تلطفًا فى إصلاحهم: لأن كل واحد منهم يظن نفسه من القليل لا من الكثير المستحق للذم: فيحسن حاله. ولا يلج به العناد فيرتفع منه الحياء فيهلك.

ثم علمهم سبحانه ما ينبغى فقال: ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم. أى من تلقاء نفسك لكان صبرهم خيرا لهم لما فيه من وفرة الأدب والمحافظة على توقير رسول الله ﷺ. ثم رغبهم فى التوبة فقال سبحانه وتعالى: والله غفور أى لِمَنْ رجع إلى الصواب، رحيم بهم حيث اكتفى بنصيحتهم ولم يعذبهم.

قال الألوسى عند قوله تعالى هنا ﴿والله غفور رحيم﴾ أى بليغ المغفرة والرحمة، فلذلك اقتصر سبحانه على النصح تارة، والتقريع أخرى لهؤلاء المسيئين للأدب المعرضين عن توقير الرسول ﷺ. وقد كان مقتضى ذلك أن يعذبهم أو يهلكهم، لكن رحمته تبارك وتعالى سبقت غضبه. ومن هذا الذى أدب سبحانه به المؤمنين. ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما، أنه لما سمع رسول الله ﷺ يمدح أُبَىَّ بن كعب بن قيس الأنصارى بحسن قراءته للقرآن. وكان الصحابة يلقبونه بسيد القراء للقرآن. لذلك كان ابن عباس رضي الله عنهما يذهب إلى أُبىّ فى بيته ليتعلم قراءة القرآن عنه فكان يقف ببابه دون أن يدقه وينتظر حتى يخرج كعادته فاستعظم ذلك أُبَىّ منه فقال له يومًا: يا ابن عم رسول الله هلا دققت الباب حتى يفتح لك ولا تنتظر؟ فقال ابن عباس: العالم

فى قومه كالنبى فى أمته، وقد قال سبحانه فى حق نبيه: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم﴾. ثم عرض سبحانه وتعالى إلى جانب آخر من جوانب الفساد الشائع بين العرب الذى كان التساهل فيه يجر إلى أعظم الأخطار، ذلك هو التسرع بإذاعة ما قد يجر إلى خطر شديد قبل التثبيت منه. وعالجه سبحانه فى قوله: ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق.. إلخ. أى إن جاءكم رجل لا تثقون بصدق خبره وأخبركم بخبر له أهمية. فلا تتسرعوا فى بناء آثار عليه، بل تثبتوا من صحته أولاً خوف أن يكون مكذوبًا على قوم مظلومين. فتصيبوهم - مع جهلكم بحالهم- بما يكرهون. ثم يتبين لكم بعد ذلك كذب الخبر فتصبحوا على ما فعلتم نادمين، ولا ينفعكم الندم، وبعد ما حذر سبحانه المؤمنين من أخبار الفاسق نبههم إلى أن الرسول المرشد الأعظم الذى يجب اتباعه موجود بينهم، فيجب أن يكونوا بعيدين عن الكذب الذى يجر إلى المصائب التى تؤلمه ﷺ، ولا يليق بالمؤمن المحب لرسوله أن يوقعه فيما يتألم منه، وبهذا يجب أن يطيعوه لا أن يطيعهم هو فيما يقولون بدون تثبت؛ لأن ذلك يوقعهم فى إثم ومشقة لكن سبحانه وقاكم يا جماعة المؤمنين من شر ذلك. فحبب إليكم الإيمان بتحسينه فى قلوبكم فصرتم لا تتحولون عنه! وكره إليكم الكفر به وبرسوله. والكذب الجالب للمفاسد ولكل معصية، هؤلاء المؤمنون الذين هذه صفاتهم هم المستقيمون على طريق الصواب. فعل سبحانه بهم ذلك تفضلا منه وإنعاما؛ لأنه عليم بأحوالهم حكيم فيما يعاملهم به، ولأن هذه السورة جمعت من الآداب مع الرسول ﷺ ما لم يأت فى غيرها فإنها كذلك جمعت من الآداب بين المسلم وأخيه المسلم مالم يأت فى غيرها أيضًا، ففضلا عن أنها عالجت عيوبًا جمة كانت بين العرب فى الجاهلية ولهذا تعتبر هذه السورة سجل ثمين لمكارم الأخلاق.

ثم أرشد سبحانه المؤمنين إلى ما يفعلونه إذا وقع تنازع بين فريقين من إخوانهم أو فردين منهم فقال سبحانه: وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بطلبهم إلى الرضوخ لحكم الله. فإذا رفضت إحداهما الرضا بحكم الله وتجاوزت الحد بطغيانها على

ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟[١] ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن
فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ
أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟[٢] لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا
مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ
وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ[٣] ۖ بِئْسَ
ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ[٤] ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلظَّٰلِمُونَ[٥] ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[٦] ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا
مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب
بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا
فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا

الأخرى فامنعوه بالقوة وذلك يكون على يد إمام المسلمين إذا وجد، وألا تتولاه جماعة منهم.

المفردات: ﴿تفيء﴾ أي ترجع (فاءت): أي رجعت إلى الصواب باختيارها وما زال فيها قوة للقتال. ﴿بالعدل﴾: أي بالإنصاف والمراد لا تميلوا إلى جانب منهما.

﴿أقسطوا﴾: أي أعدلوا فى آثار الحكم وطرق تنفيذه، وفى كل أحوالكم، وأعمالكم. لا فى الحكم فقط. ﴿لا يسخر قوم﴾.. إلخ: سخر بوزن فزع. يسخر أي يهزأ بغيره على وجه مضحك بحضرته، كأن يحاكى كلام المسخور منه. أو فعله مثلا. ﴿تلمزوا أنفسكم﴾: اللمز الطعن فى الغير خفية بالإشارة بالعين أو اللسان مثلا، وقد يطلق على كل إلصاق عيب بالغير، ولو بالباطل. انظر آيتى (٥٨، ٧٩) من سورة التوبة صفحات ٢٥٠، ٢٥٤، ٢٥٥.

﴿تنابزوا بالألقاب﴾: يقال نبزه بوزن ضربه. إذا لقبه بلقب قبيح مكروه و(تنابزوا): أى لقب كل واحد صاحبه بما يكره. وذكر الألقاب بعده لمجرد التأكيد تقول العرب: (رأيته بعينى، وسمعته بأذنى)، ومنه فى القرآن (طائر يطير بجناحيه) فى الآية (٣٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ و(القلوب التى فى الصدور) فى الآية (٤٦) من سورة الحج صفحة ٤٤٠.

---

(١) فقاتلوا. (٢) آمنوا. (٣) بالألقاب.
(٤) الإيمان. (٥) الظالمون. (٦) آمنوا.

﴿بئس﴾: أى قبح (الاسم): ليس المراد به هنا ما قابل الفعل والحرف بل المراد به الذكر الذائع: يقولون طار اسمه فى الناس بالكرم أو البخل مثلا. وقال ابن كثير (الاسم) هنا بمعنى الصفة كما فى الآية (٦) من سورة الصف صفحتى ٧٣٨، ٧٣٩. ﴿كثيرا من الظن﴾: قال تعالى (كثيرا) لينبه للاحتياط لكل ظن. ويتأمل حتى يعلم أنه مما لا ضرر فيه. ﴿بعض الظن﴾: هو كظن السوء بالغير بدون دليل. ﴿ولا تجسسوا﴾: التجسس هو تتبع عورات الناس بالبحث عنها. ﴿يغتب بعضكم بعضا﴾: الغيبة ذكر الشخص بما يكره. ﴿أيحب﴾: الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى أى لا يحب أبدا. ﴿يأكل لحم أخيه ميتا﴾: هذا تمثيل لما يفعله المغتاب فى حق أخيه الإنسان بأفظع صورة. و أشنعها فى الطبع والعقل.

المعنى: فإن بغت طائفة من المؤمنين على طائفة منهم فامنعوا بغيها بمقاتلتها حتى ترجع إلى حكم الله وترضى به. فإن رجعت وقبلت تحكيم شرع الله. فأصلحوا بينهما بالعدل والإنصاف ولا تكتفوا بمجرد فض التنازع بل لابد من مجازاة المعتدى وتعويض المعتدى عليه حتى تأمنوا عدم رجوع العداوة واعدلوا دائمًا فى كل أعمالكم وأقوالكم. إن الله يحب العادلين فى كل أعمالهم. ثم بيَّن سبحانه الباعث على ما تقدم فقال: إنما المؤمنون إخوة. أى إن المسلمين بينهم أخوة فى الدين كالإخوة فى النسب إن لم تكن أحق منها بالرعاية. وإذا كان الأمر كذلك فبادروا للإصلاح بين أخويكم وبالأولى بين إخوانكم الأكثر من اثنين. واتقوا الله فى احترام أوامره رجاء أن تستحقوا رحمته. ثم نهى سبحانه عن عيوب أخرى كانت شائعة بينهم فى الجاهلية فقال: يا أيها الذين آمنوا لا يسخر.. إلخ. أى لا يحل لرجل أن يسخر من رجل أو امرأة أو جمع من الناس. ولا لامرأة أن تسخر من امرأة أو رجل أو جمع من الناس. وإنما جاء النهى فى الآية عن سخرية رجال من رجال ونساء من نساء ملاحظة لأن أغلب السخرية تكون فى المجامع. ثم بيَّن سبحانه علة النهى بأن المسخور منه قد يكون خيرًا من الساخر فى الواقع وعند الله. ثم نهى سبحانه المؤمنين عن طعن بعضهم بعضا خفية بما يؤذى وفى قوله: (أنفسكم) إشعار بأن الطاعن فى أخيه كأنه يطعن نفسه. ولا يلقب بعضهم بعضا بما يكره سواء أكان اللقب له أو لأبيه أو لمن تجمعه به قرابة. فلا يجوز أن يقول له يا فاجر مثلا. قال ابن عباس: ومنه أن يكون للرجل سيئات وتاب منها. فلا يجوز أن أقول له يا سارق. ولا لمَنْ أسلم من أهل الكتاب يا يهودى ولا يا نصرانى ولا يا ابن النصرانى مثلا. بئست

السمعة الذائعة بين الناس للمؤمن الفسوق بعد أن يدخل فى الإيمان، وبئس الوصف للمؤمن وصف الفسق بعد الإيمان، والمراد بيان أن مَنْ فعل شيئًا مما تقدم فهو فاسق والجمع بين الفسق والإيمان قبيح. ثم نبه سبحانه إلى طريق الخلاص من الذنب وهو التوبة منه فقال تعالى: ﴿ومن لم يتب﴾.. إلخ. أى ومن استمر على فسقه بعد ذلك فقد ظلم نفسه بحرمانها من عفو الله. ثم حذر سبحانه من عيوب أخرى فقال: يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا.. إلخ. أى احترسوا من كثير من الظن فإن بعضه ذنب يعاقب عليه. فلا تسارعوا فى ترتيب آثار على مطلق ظن مخافة أن يكون من هذا القليل الممنوع، وهو ظن السوء بالمؤمن المعروف بالأمانة والتستر. أما من يجاهر بالمعاصى فلا حيلة فى دفع ظن السوء به. وكذا لا يجوز لكم أن تتبعوا عورات الناس. وفى الحديث الصحيح: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تتبعوا عورات المسلمين. فإن مَنْ تتبع عوراتهم فضحه الله فى عقر بيته) وكذا لا يغتب بعضكم بعضا بذكره بما يكره سواء أكان ذلك فى دينه أو فى دنياه. متصلا به أو بمَنْ له به رابطة. كولد أو زوجة أو والد أو والدة. وبهذا تحرم غيبة مستور الحال.

ولا تحرم غيبة المجاهر بالمعصية، وقالوا ليس من الغيبة أن تذكر عيوب شخص لمَنْ استشارك فى مصاهرته أو مشاركته فى عمل مثلا. بشرط أن يكون ذلك منك سرا وأن لا تكون كاذباً.. إلى آخر ما ذكروا من شروط تدور كلها حول المحافظة على كرامات الناس إلا للضرورة. ثم بشع سبحانه أمر الغيبة فقال: أيحب أحدكم.. إلخ. والمراد أن صاحب العرض يغار على عرضه، ويتألم له كما يتألم من تمزيق لحمه. فالمغتاب يمزق لحم من اغتابه وهو غير حاضر معه ولا شاعر بتمزيق عرضه وقت الغيبة فكأنه ميت. وكأن المغتاب يأكل لحم أخيه الميت. وهذه أبشع صورة عند العقلاء.. ولذا قال فكرهتموه أى إذا كانت هذه هى صورة عمل المغتاب فقد كرهها واحد. وإذا كنتم تكرهون ذلك. فاتقوا الله وتوبوا عما يغضبه. فإنه سبحانه كثير القبول للتوبة. رحيم بالتائبين المخلصين. وقد صح فى الحديث أنه ﷺ قال: (أتدرون ما الغيبة؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال هى ذكرك أخاك بما يكره. فقال أحد أصحابه أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ فقال ﷺ: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فقد افتريت عليه). وقال العلماء: من كفارات الغيبة بعد التوبة منها الاستغفار لمن اغتابه والدعاء له بالخير.

ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم[1] مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ[2] شُعُوبًا
وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ[3] ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا[4] ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟
وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ[5] فِى قُلُوبِكُمْ ۖ
وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ[6] شَيْـًٔا ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[7]
بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟[8] بِأَمْوَٰلِهِمْ[9] وَأَنفُسِهِمْ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ[10] ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ
ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ[11] وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ
وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ
قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم[12] ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ
هَدَىٰكُمْ[13] لِلْإِيمَٰنِ[14] إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ[15] ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ

المفردات: ﴿ذكر وأنثى﴾: آدم وحواء.

﴿شعوبا﴾: جمع شَعْب بفتح فسكون، وهو الجمع العظيم من الناس المنتسبون إلى أصل واحد عرفوا به، ويتشعب منه قبائل ومن القبائل عمائر. ومن العمائر بطون. ومن البطون فخذ ومن الفخذ الفصيلة هذه هى الطبقات الست التى ينقسم إليها العرب. ومثلوا للشعب بخزيمة وربيعة ومضر. ومن خزيمة قبيلة كنانة ومن ربيعة قبيلة بكر ومن مضر قبيلة تميم. إلى غير ذلك.

﴿الأعراب﴾: هم سكان البادية والأعراب لا مفرد له من لفظه وينسب إليه المعنى فيقال: أعرابى.

﴿أسلمنا﴾: أى أنقذنا ظاهرا فقط. ﴿لمَّا يدخل الإيمان﴾.. إلخ: (لما) حرف يدل على استمرار نفى ما بعدها إلى حين وقت التكلم ومثلها فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢ والآية (٨) من سورة ص صفحة ٥٩٨ والمعنى: لم يدخل الإيمان فى قلوبكم إلى الآن.

﴿لا يلتكم﴾: تقول العرب: لاته يليته. بوزن باعه يبيعه إذا منعه شيئًا مما يستحق. ولهذا الفعل صيغة أخرى ستأتى فى الآية (٢١) سورة الطور صفحتى ٦٩٧، ٦٩٨.

﴿لم يرتابوا﴾: المراد بلغ من قوة إيمانهم أنه يستحيل أن يطرأ عليهم شك فى المستقبل.

﴿أتعلمون الله﴾: أى أتخبرونه. ﴿يمنون عليك﴾: المن تعداد النعم.

﴿أن أسلموا﴾: أى إسلامهم، والمراد يعدون إسلامهم منة عليك أيها النبى.

---

(١) خلقناكم. (٢) جعلناكم. (٣) أتقاكم. (٤) آمنا. (٥) الإيمان.
(٦) أعمالكم. (٧) آمنوا. (٨) جاهدوا. (٩) بأموالهم. (١٠) الصادقون.
(١١) السموات. (١٢) إسلامكم. (١٣) هداكم. (١٤) للإيمان. (١٥) صادقين.

المعنى: نهى سبحانه عن عيب آخر كان شائعا عندهم. وهو التفاخر بالأنساب. مهما كانت الأعمال. فقال: (يا أيها الناس).. إلخ. أى إنا خلقناكم من أب واحد وأم واحدة. فأنتم فى أصل النسب سواء. وإنما ميزناكم إلى شعوب وقبائل ليسهل تعاون بعضكم ببعض، فتصلوا أرحامكم لا للتفاخر. ولأنه لا اختيار لكم فى خلقنا لكم على هذا النظام. وبما أن تقوى الله تعالى هى التى لكم فيها كسب فإذا جاز الافتخار بشىء فأحق شىء به هو التقوى، فاجتهدوا فيها لأن أقربكم. عند الله هو أشدكم تقوى له سبحانه والله عليم بأعمال الناس خبير بأحوالهم. وسيجازيهم ويفضل أحسنهم عملا وأصلحهم حالا لا أشرفهم نسبًا. وفى هذا قال ﷺ فى حجة الوداع: أيها الناس ألا إن ربكم واحد. لا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأسود على أحمر. ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى. أى نعم. بلغت يا رسول الله قال: فليبلغ منكم الشاهد الغائب. وقال بعض الأعراب المسلمون فى الظاهر آمنا بقلوبنا. قل لهم أيها النبى لم تؤمنوا إيمانا وافق القلب فيه اللسان. ولكن الذى يصح أن تقولوه هو أننا أنقذنا ظاهرًا فقط. مادمتم إلى الآن لم يدخل الإيمان فى قلوبكم. وإن تطيعوا الله ورسوله ظاهرًا وباطنًا لا ينقصكم من أجر أعمالكم شيئًا. إن الله غفور لذنوب مَنْ يتوب. رحيم بعباده فيقبل توبتهم. وليس الإيمان هو ما زعم هؤلاء الأعراب. إنما الإيمان الصحيح هو إيمان المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله إيمانا ملأ قلوبهم حتى استحال أن يطرأ عليه ريبة من أية جهة. ويكون من آثاره أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله. المؤمنون الذين هذه صفاتهم هم الصادقون فى دعوى الإيمان. ثم وبخهم سبحانه فقال: (قل أتعلّمون).. إلخ. أى قل أيها النبى لهؤلاء الأعراب. هل تعلمون الله بحقيقة دينكم وتريدون أن توهموا أنكم مؤمنون حقًا. والحال أنه سبحانه يعلم ما فى السموات والأرض. وهو بكل شىء مما كان وما سيكون عليم. غير محتاج لأخباركم. وكان بعض هؤلاء الأعراب يقول له ﷺ إنا أسلمنا بغير قتال. ولم نقاتلك كغيرنا. فأمره سبحانه وتعالى بأن يقول لهم: لا تمنوا على إسلامكم. بل الله هو الذى يمن عليكم أن هداكم للإيمان الذى تزعمونه. فإن كنتم صادقين فى قولكم (آمنا) فالفضل لله الذى هداكم إليه. والمراد توبيخهم على تبجحهم بشىء غير صحيح.

سورة ق

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿ق﴾: تنطق قاف بسكون الآخر.

﴿المجيد﴾: صاحب المجد والشرف. وجواب القسم مقدر مفهوم من سياق الكلام. والأصل: وحق القرآن المجيد إنك يامحمد منذر لهم. ﴿بل﴾: حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر ومثلها الآتية فى الآية (٥) هنا.

﴿منذر﴾: أى رسول محذر من عذاب الله لمن عصاه.

﴿رَجْع﴾: يقال رجع فلان الشىء بوزن ضرب. أى أعاده ورده. فالرجع الإعادة. انظر الآية (٨) من سورة الطارق صفحة ٨٠٢ .

﴿ما تنقص الأرض منهم﴾: المراد: ما تأكل الأرض من أجسامهم بعد الموت.

﴿كتاب﴾: هو اللوح المحفوظ. انظر الإشارة إليه فى الآية (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١ والآية (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠ .

﴿حفيظ﴾: أى شديد الحفظ لتفاصيل كل شىء، ودقائقه. ﴿بل كذبوا﴾: بل كالسابقة.

﴿مريج﴾: أى مضطرب، مختلط والمراد: أنهم شديدو الاضطراب حتى كأن حالهم هو الذى اضطرب. فهو مثل ﴿عيشة راضية﴾ فى الآية (٢١) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢ .

﴿زيناها﴾: أى بالكواكب. انظر آيتى (٦) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧ و(٥) من سورة الملك صفحة ٧٥٤ .

(الجزء السادس والعشرون)

٦٨٨

غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

(٥٠) سُورَةُ قٓ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ[1] وَالْقُرْآنِ[2] الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ
مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ[3] هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا[4] مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ
الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ[5] حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا
بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا
إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا[6] وَزَيَّنَّاهَا[7] وَمَا لَهَا مِنْ
فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا[8] وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ[9]

---

(١) قاف. (٢) القرآن. (٣) الكافرون. (٤) أئذا. (٥) كتاب.
(٦) بنيناها (٧) زيناها. (٨) مددناها. (٩) رواسى.

﴿فـروج﴾: أى شقوق، انظر شرح الآية (٣) من سـورة الملك صفحة ٧٥٤ . ﴿رواسى﴾: أى جبالا ثوابت.

المعنى: إذا كنتم تكذبون على الرسول ﷺ وتقولون آمنا، فالله سبحانه لا يخفى عليه حالكم لأنه يعلم كل ما خفى فى السموات والأرض، فهو يعلم الصادق منكم والكاذب، والداخل فى الإسلام رغبة فيه والداخل طمعًا فى المغانم. وهو بصير بما تعملونه من خير أو شر وسيجازيكم عليه.

﴿ق﴾ تقدم المراد من مثلها أول سورة البقرة. أقسم بالقرآن صاحب الشرف العظيم على سائر الكتب لإعجازه وعدم نسخه بغيره إنك أيها النبى لرسولنا حقا. أرسلناك لتنذر الناس بالبعث. انظر مثله فى الآية الأولى من سورة ص صفحة ٥٩٧ فامتنع الكفار عن تصديقك، بل جعلوا رسالتك والبعث محل تعجب. ثم فسر سبحانه تعجبهم بقوله: فقال الكافرون هذا البعث الذى يقوله محمد شىء عجيب. ثم بينوا سبب تعجبهم فقالوا: هل حين نموت ونصير ترابا نرجع ثانيا أحياء!؟ ذلك الرجوع الذى يقول به محمَّد رجوع بعيد غير ممكن. فرد سبحانه تعجبهم واستبعادهم بقوله: (قد علمنا)... إلخ. أى قد علمنا ما تأكله الأرض من أجسامهم بعد الموت، فلا يستبعد علينا جمعها بعد تفرقها، ثم أكد سبحانه ما سبق بالأسلوب الذى يعهدونه. وهو أن عنده سبحانه كتابا حافظًا لكل شىء فى العالم. وإلا فعلمه سبحانه لا يحتاج إلى كتاب ولا غيره. ثم انتقل من بيان شفاعتهم السابقة إلى بيان ما هو أشنع. وهو تكذيبهم للنبوة الثابتة بالأدلة القاطعة، فقال: (بل كذبوا)... إلخ. أى كذبوا من أول وهلة بدون تفكير برسالة رسولنا الذى جاء بالقرآن مع أن رسالته وكتابه حق لاشك فيهما. فهم فى اضطراب لا يثبتون على رأى واحد فى رسالة الرسول. وفى البعث كحال الكفار قبلهم، فقالوا على رسل الله تارة سحرة، وأخرى كهان.. ومرة مجانين. وفى البعث تعجبوا منه تارة، واستبعدوه أخرى. ونفوه وكذبوه تارة، انظر الآيات (٣٦ إلى ٣٩) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٩ وآيتى ١٤ ، ١٥ من سورة الطور صفحة ٦٩٧ والآيات ٤٧ إلى ٥١ من سورة الواقعة صفحة ٧١٥؛ ثم شرع سبحانه فى إبطال ما زعموا فقال: (أفلم ينظروا)... إلخ. أى هل عميت أبصارهم فلم ينظروا إلى السماء حال كونها فوقهم كيف بنيناها بلا عمد، وزيناها بالكواكب وليس فيها شقوق تعيبها، والأرض بسطناها ليسهل عيشهم فيها، وثبتناها بالجبال حتى لا تميل بهم. انظر الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧ .

وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ
عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَٰرَكًا(١) فَأَنبَتْنَا
بِهِ جَنَّٰتٍ(٢) وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ(٣) لَّهَا
طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا
كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ(٤)
الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ(٥) لُوطٍ ﴿١٣﴾
وَأَصْحَٰبُ(٦) الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ
وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ
خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ(٧) وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ
بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾
إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾
مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ

المفردات: ﴿زوج﴾: أى صنف من النبات

﴿بهيج﴾: أى شديد البهجة، وهى حسن المنظر ، انظر الآية (٦٠) من سورة النمل صفحة ٥٠١ .

﴿تبصرة﴾: أى تبصيرا وتبيينًا وتثبيتًا.

﴿ذكرى﴾: أى تذكيرا.

﴿منيب﴾: أى راجع إلى الله بالتوبة.

﴿الحصيد﴾: أى الزرع المحصود. وذكر الحب لأنه المقصود الأصلى للزرع.

﴿باسقات﴾: أى طويلات.

﴿طلع﴾: المراد به هنا: الشماريخ التى تحمل البلح؛ وانظر ما تقدم فى الآية (٦٥) من سورة الصافات صفحة ٥٩١ .

﴿نضيد﴾: أى مرتب بعضه فوق بعض، انظر الآية (٢٩) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤

﴿أحيينا به بلدة﴾: المراد جعلنا الأرض القاحلة منبتة بسبب نزول المطر.

﴿ميتا﴾: المراد قاحلة.

﴿الخروج﴾: أى من القبور يوم القيامة.

﴿أصحاب الرس﴾: هم أصحاب الأخدود المذكورون فى الآية (٤) من سورة البروج صفحة ٨٠١ .

---

(١) مباركا.
(٢) جنات.
(٣) باسقات.
(٤) أصحاب.
(٥) إخوان.
(٦) أصحاب.
(٧) الإنسان.

﴿وإخوان لوط﴾: قال البيضاوى: كانوا أصهاره عليه السلام، فليس المراد الأخوة فى النسب، وبذلك فلا تنافى بين ما هنا وما سبق فى الآية (٨٠) من سورة هود صفحة ٢٩٦ من أنه كان غريبًا عنهم.

﴿أصحاب الأيكة﴾: تقدم فى الآية (٧٨) من سورة الحجر صفحة ٣٤٢ وكان نبيهم شعيبًا عليه السلام انظر آيتى (١٧٦، ١٧٧) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٠ .

﴿قوم تبع﴾: تقدم فى الآية (٣٧) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨ .

﴿فحق وعيد﴾: أى وجب ونزل بهم مقتضى وعيدى لهم بالهلاك.

﴿أفعيينا... ﴾ إلخ: تقدم فى الآية (٣٣) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١ . والهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى، أى لم نعجز.

﴿بالخلق الأول﴾: هو خلق السموات والأرض وما فيهما.

﴿بل﴾: حرف يفيد الانتقال من كلام لآخر.

﴿فى لبس﴾: أى فى خلط وارتباك فى عقولهم، لإهمالهم النظر فى الأدلة القاطعة بقدرة الله تعالى على ذلك.

﴿حبل الوريد﴾: الإضافة بيانية. أى حبل هو الوريد، والوريدان عرقان بجانبى العنق متصلان بالعظمتين اللتين خلف الأذن. إذا قطع أحدهما مات صاحبه. والمراد: وملائكته أقرب إليه... إلخ وذلك لاستحالة أن يحويه سبحانه مكان.

﴿المتلقيان﴾: هما الملكان المكلفان بالإنسان يسجلان ما يعمله.

﴿قعيد﴾: أى قاعد كجليس بمعنى جالس.

﴿رقيب﴾: أى مراقب.

﴿عتيد﴾: هو المعد والمهيأ للشىء، والمراد هنا: مهيأ لكتابة ما أمر بكتابته. انظر الآية (٨٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥ وآيتى (١٠، ١١) من سورة الانفطار صفحتى ٧٩٥، ٧٩٦ .

المعنى: يقول سبحانه وأنبتنا فى الأرض من كل صنف من أصناف الزرع ما يسر الناظر إليه. فعلنا ذلك تبصيرا منا وتذكيرًا لكل عبد راجع إلى ربه بالطاعة والتوبة عما يحصل منه ويقول سبحانه ونزلنا من جهة السماء ماءًا كثير البركات والخيرات فأنبتنا به بساتين وزرعا يحصد فينتفع بحبه.

وأنبتنا بهذا الماء أيضًا النخل حال كونها طويلات دالة على قدرتنا. لا يمسكها على طولها إلا اللّه. وحال كونها تحمل عراجين متراكما عليها ثمرها لأجل رزق عبادنا.

وجعلنا بهذا الماء الأرض القاحلة خضراء بكل نبت غير ما تقدم. مثل إخراجنا هذه الأشياء من الأرض نخرج الموتى من القبور يوم القيامة. والمراد أن القادر على ذلك قادر على إعادة الخلق للجزاء فكيف تنكرونه؟

ثم بيَّن سبحانه أن عمل كفار مكة من تكذيب الرسول وإنكار البعث كعمل مَنْ قبلهم مع رسلهم. وكانت عاقبتهم الهلاك لينزجر كفار مكة. فقال: كذبت قبلهم أى قبل كفار قومك أيها النبى قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وقومه وقوم لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع. كل أمة من هؤلاء كذبت رسولها. فنزل بهم ما أوعدتهم به، وهو العذاب والهلاك.

ثم أكد سبحانه صحة البعث فقال: (أفعيينا).. إلخ. أى هل قصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه حتى يتوهم عجزنا عن الإعادة؟ اعلم أيها النبى أنهم غير منكرين قدرتنا على الخلق الأول بل هم فى خلط وحيرة من خلق جديد لما فيه من مخالفة العادة وعدم إيمانهم بوعد ربهم.

ثم هددهم سبحانه فقال: ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به أى ما تحدثه به نفسه ويخطر بباله. والمراد فى قوله تعالى: ونحن أقرب إليه من حبل الوريد.

الكناية عن تمام علمه سبحانه بأحوال العبد. لا يخفى عليه شيء منها. نعلم ذلك حيث يتلقى الملكان أفعاله. عن يمينه واحد وعن شماله واحد. والكلام يشعر بعدم حاجته سبحانه لذلك. ولكن أمر بذلك ليكون حجة للعبد أو عليه. فما يلفظ العبد من قول فضلا عن أن يفعل فعلا إلا عنده رقيب حاضر مهيأ لإثبات كل شيء له أو عليه، حتى الحسد وظن السوء.

سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾
وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ
نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ
هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾
وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ
كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي
جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ(١) فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾
۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ(٢)
بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم
بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ(٣)
لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ
مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾

المفردات: ﴿سكرة الموت﴾: هي شدته التي تذهل العقول.

﴿بالحق﴾: المراد به هنا: كل ما كان ينكره الكافر من أمور الآخرة؛ لأن المرء عند الموت يعلم ما كان خافيا عليه.

﴿تحيد﴾: أي تبتعد وتنفر.

﴿ونفخ في الصور﴾: المراد هنا: النفخة الثانية انظر الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ (والصور): هو في لغة العرب اسم للبوق الذي ينفخ فيه فيحدث صوتا قويا، انظر الآية (٧٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤.

﴿يوم الوعيد﴾: المراد: يوم تحقق الوعيد الذي توعد الله سبحانه به في الدنيا الكافرين بالعذاب الخالد.

﴿سائق﴾: المراد هنا: سائق يسوقها إلى المحشر.

﴿شهيد﴾: أي لها أو عليها. وهو كثير في ذلك اليوم فمنه الأنبياء والملائكة والكتب والجوارح وغير ذلك، انظر الآيات (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧ والآية (٢٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢ والآية (٢٩) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤ .

﴿حديد﴾: أي حاد قوي.

﴿قرينه﴾: المراد به هنا: الملك المراقب له، المتقدم في الآية (١٨) من هذه السورة صفحة ٦٨٩ .

---

(١) آخر.
(٢) ضلال.
(٣) بظلام.

﴿عتيد﴾: هنا: معد ومهيأ لما يقضى به اللّٰه فيه.

﴿ألقيا﴾: الخطاب للسائق والشهيد من الملائكة.

﴿مريب﴾: المراد: شاك فى الدين.

﴿قرينه﴾: المراد به هنا: صاحبه الذى قارنه فى الدنيا، وزين له الكفر والفسوق؛ انظر الآية (٢٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢ .

﴿نقول لجهنم﴾: قال مجاهد: ليس هناك قول. وإنما جرى الكلام على سبيل تمثيل حال جهنم بأنها امتلأت حتى لم يبق فيها مكان خال، ونظيره تقدم فى الآية (١١) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٠، ٦٣١ .

﴿هل امتلأت﴾: ﴿هل﴾ حرف استفهام تقريرى. أى أقرى بأنك امتلأت وحققت لك ما وعدت به، انظر الآية (٨٥) من سورة ص صفحة ٦٠٥، ونظير هذا الاستفهام فى الآية (١) من سورة الشرح صفحة ٨١٢ .

﴿هل من مزيد﴾: ﴿هل﴾ هنا للاستفهام الإنكارى، المفيد للنفى. أى لا مزيد.

﴿أزلفت﴾: أى قرِّبتْ، والأصل تزلف لكنه جاء به بصيغة الفعل الماضى لإفادة أنه سيحصل قطعًا، كما فى الآية (١) من سورة النحل صفحة ٣٤٥ .

﴿غير بعيد﴾: هذا تأكيد لما قبله، كما تقول فلان كريم غير بخيل.

المعنى: بعدما أبطل سبحانه استبعادهم للبعث . وبيَّن أن أعمالهم معلومة له سبحانه. أراد أن يحذرهم بأنهم سيلاقون يوم البعث قطعًا ويعرفون أنه حق بمجرد موتهم فقال: وجاءت سكرة الموت بالحق.. إلخ. أى جاءت شدة الموت مقارنة لمعرفة الحقيقة؛ لأن الإنسان يعلم بمجرد دخوله فى سكرات الموت كل شىء مما كان وما يكون وتقوله الملائكة ذلك الحق هو ما كنت تفر منه خوفًا. وفى هذا المعنى قال النبى ﷺ: (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا). ونفخ إسرافيل فى الصور لقيام الأموات من القبور. ذلك الوقت الذى نفخ فيه هو يوم تحقق الوعيد

الذى توعد اللّٰه به الكفار فى الدنيا. وإنما خص الوعيد بالذكر مع أنه يوم الوعيد بالنعيم للمؤمنين أيضًا لأن المقام لتخويف كفار مكة. وجاءت كل نفس مكلفة معها سائق وشهيد. وتقول الملائكة للعاصى لقد كنت فى الدنيا فى غفلة من هذا الذى رأيته الآن فكشفنا اليوم عنك غطاء الغفلة والانهماك فى الدنيا. فبصرك اليوم حاد قوى يكشف ما خفى، وقال الملك المقارن له المتقدم فى الآية (١٨) من هذه السورة صفحة ٦٨٩ هذا ما هو تحت مراقبتى معد وحاضر الآن للحساب والجزاء. فيقول سبحانه للسائق والشهيد من الملائكة: اطرحا فى جهنم كل مبالغ فى الكفر مبالغ فى العناد بترك الانقياد للحق.. مبالغ فى منع الخير عن الناس. ظالم منكر للحق: شاك فى دين اللّٰه وفى البعث.

ثم بين سبحانه بعض صفات هذا الكافر العنيد فقال: الذى جعل مع اللّٰه إلها آخر. ثم أكد الأمر بإدخاله النار بقوله: (فألقياه)... إلخ. أى وإذا كان هذا حاله فألقياه فى العذاب الشديد. ونظير هذا التأكيد فى الآية (١٨٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٤ عند ذلك يعتذر الفاجر بأن قرينه الشرير هو الذى أطغاه، انظر الآية (٣١) وما بعدها من سورة سبأ صفحة ٥٦٧. فيرد شيطانه الذى أغواه فى الدنيا، ويقول: يا ربنا، أنا ما أوقعته فى الطغيان، ولكنه كان فى ضلال بعيد جدا عن الصواب، فسار وراء شهواته وتأثر بمجرد دعائى له ولم أكرهه انظر الآية (٢٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣.

فيقول سبحانه لكل المتخاصمين لا تختصموا عندى الآن والحال إنى قدمت إليكم فى الدنيا وعيدى بالعذاب، إذا كفرتم وعصيتم، فلا تبديل لما قلته فى الدنيا فى كتبى وعلى لسان رسلى؛ لأنى لست بصاحب ظلم لعبادى، ومن الظلم أن أسوى بين الطائع والعاصى، انظر الآية (٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠ وآيتى (٣٥، ٣٦) من سورة القلم صفحة ٧٥٩.

لا أظلم أحدًا يوم نقول لجهنم حققت لك ما وعدت به فى الآية (٨٥) من سورة ص صفحة ٦٠٥ فتقول: نعم يا ربى لا مكان عندى لمزيد. هذا حال الفجار، أما المؤمنون فتقرب لهم الجنة قطعًا فى مكان غير بعيد لتعجيل إدخال السرور عليهم وإسعادهم بنعيمها المقيم.

هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ
ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ[1]
ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا
مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم
بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ[2] هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ[3] وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ
وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾
وَمِنَ ٱلَّيْلِ[4] فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ[5] ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ
يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ
بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ[6] وَنُمِيتُ

المفردات: ﴿أواب﴾: كثير الرجوع إلى الله بالطاعة والتوبة.

﴿حفيظ﴾: أى شديد المحافظة على شرائع ربه.

﴿خشى الرحمن بالغيب﴾: أى خاف ربه وهو بعيد عن الناس انظر الآية (٤٩) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥ .

﴿قلب منيب﴾: قال فى المختار أناب إلى الله تعالى. أى أقبل وتاب. ونسب الإنابة للقلب لأن العبرة بالقلوب.

﴿ادخلوها بسلام﴾: أى مصاحبين سلاما من ملائكة الله عليكم. انظر الآية (٧٣) من سورة الزمر صفحة ٦١٦ .

﴿يوم الخلود﴾: أى اليوم الذى يبشركم الله فيه بالخلود فى النعيم.

﴿كم﴾: كلمة معناها كثير.

﴿من قرن﴾: ﴿من﴾ تدل على أن ما بعدها بيان لهذا الكثير المفهوم من ﴿كم﴾. والقرن هم الجماعة المقترنون فى زمن واحد. انظر الآية (٦) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٢، ١٦٣ .

﴿بطشًا﴾: البطش: أخذ الشىء بقوة وشدة. انظر الآية (١٣٠) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٧، ٤٨٨ .

﴿نقبوا فى البلاد﴾: أى ساروا فى البلاد باحثين عن مكان يحفظهم من الموت.

---

(١) بسلام. (٢) فى البلاد.
(٣) السموات. (٤) الليل.
(٥) أدبار. (٦) نحيى.

﴿هل... ﴾ إلخ: ﴿هل﴾ هنا حرف استفهام إنكارى يفيد النفى. أى لا محيص، والمحيص المفر. ﴿من﴾ لتأكيد النص على عموم نفى ما بعدها.

﴿لذكرى﴾: أى تذكير وعظة.

﴿لمن كان له قلب﴾: أى يدرك به الحق بنفسه.

﴿ألقى السمع﴾: المراد: أصغى لما يقول غيره انظر ما تقدم فى الآية (٢٢٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٣.

﴿شهيد﴾: المراد حاضر القلب تام اليقظة .

﴿فى ستة أيام﴾: تقدم الكلام عليها فى الآية (٩) وما بعدها من سورة فصلت صفحة ٦٣٠، ٦٣١ .

﴿لغوب﴾: الفتور الذى يعقب التعب كما تقدم فى الآية (٣٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦ .

﴿قبل طلوع الشمس... ﴾ إلخ: تقدم فى الآية (١٣٠) من سورة طه صفحة ٤١٩ .

﴿أدبار السجود﴾: ﴿أدبار﴾ جمع دبُر بضمتين، وهو آخر الشىء، والمراد: عقب الصلوات.

﴿المناد﴾: أصلها المنادى، وقيل: هو إسرافيل.

﴿الصيحة﴾: هى النفخة الثانية، المشار إليها فى الآية (٢٠) المتقدمة من هذه السورة صفحة ٦٩٠ .

﴿بالحق﴾: هو المتقدم فى الآية (١٩) من هذه السورة صفحتى ٦٨٩، ٦٩٠ والمراد به البعث الذى كان الكفار ينكرونه.

﴿الخروج﴾: أى من القبور.

المعنى: وتقول الملائكة للمتقين هذا هو النعيم الذى وعدكم به ربكم فى كتبه وعلى لسان رسله وهو معد لكل عبد رجاع إلى مولاه بالطاعة. حفيظ لشرائعه وهو مَنْ خاف ربه مخلصًا

بعيدًا عن الرياء. وجاء ربه بقلب منيب راجع إلى اللّه دائمًا لا يعرف غيره، ويقال لهم أيضًا ادخلوا الجنة مسلمًا عليكم من الملائكة تحية لكم. ذلك اليوم الذى دخلتم فيه الجنة هو اليوم الذى تبتدئون فيه الحياة الدائمة فلا موت بعده. ولهم فى الجنة كل ما يريدون، ثم يزيد فى سرورهم سبحانه وتعالى فقال: ولدينا مزيد. أى نزيدهم فوق ما يشاءون من النعيم ما لايخطر لهم على بال. وبعد ما حذرهم سبحانه من عذاب الآخرة شرع يحذرهم من عذاب الدنيا فقال: و(كم أهلكنا)... إلخ. أى وكثيرا من الأمم قبلهم شرعنا فى إهلاكهم لما عملوا مثل عملهم. فهربوا فى البلاد خوفًا من الهلاك. والمراد ارتبكوا فلم يجدوا مخرجًا. فقيل لهم لا مفر لكم من الهلاك. أى هلكوا ولم ينج منهم أحد. انظر آيتى (١٢، ١٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١ .

إن فيما ذكر مما حصل للأمم قبلهم لتذكرة وعظة لمَنْ كان له قلب سليم يدرك الحقائق بنفسه أو يصغى إذنه لما يلقيه عليه غيره، من المواعظ، والحال أنه حاضر الفكر متيقظ.

ثم ذكر سبحانه دليلاً آخر على البعث فقال: ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ولم يعترينا تعب.

ولاشك أن مَنْ قدر على خلق ذلك وهو أكبر من خلقهم كما فى الآية (٥٧) من سورة غافر صفحة ٦٢٥ . قادر على أن يبعثهم يوم القيامة.

وإذا كان الأمر كما ذكر فاصبر أيها النبى على ما يقولوه المشركون فى شأن البعث. ونزهه تعالى عن العجز وعن خلف الوعد، حامدًا لربك على ما أنعم عليك به. واحمده دائمًا وسبحه على الأخص بعضًا من الليل والناس نيام، وعقب كل صلاة. واستمع لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة، يوم ينادى المنادى أهل القبور من مكان يسمعه كل واحد منهم كأنه بجانبه.

فى هذا اليوم يسمعون نفخة إسرافيل الثانية مقترنة بالحق الذى كان ينكره كثير منهم وهو البعث والحساب والجزاء. ذلك اليوم هو يوم خروجهم من القبور، من كل ذلك يعلم أننا وحدنا نحيى ونميت من غير أن يشاركنا أحد.

المفردات: ﴿المصير﴾: المرجع ﴿تشقق الأرض﴾: أصلها تتشقق وذلك يوم القيامة. ﴿سراعا﴾: جمع سريع مثل كرام جمع كريم، وهو حال من فاعل يخرجون المفهوم من الخروج المتقدم في الآية (٤٢) السابقة صفحة ٦٩١، والمراد يخرجون من القبور سراعًا.

وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا
ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا
أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ[1] مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

(٥١) سُورَةُ الذَّارِيَاتِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا سِتُّونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّٰرِيَٰتِ[2] ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَٰمِلَٰتِ[3] وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَٰرِيَٰتِ[4]
يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَٰتِ[5] أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ
لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَٰقِعٌ[6] ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ
الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ
مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّٰصُونَ[7] ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ

﴿يسير﴾: أى سهل هين.

﴿بجبار﴾: الباء لتأكيد نفى ما بعدها عما قبلها، أى بقاهر لهم على الإيمان كما فى الآية (٢٢) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥ .

﴿وعيد﴾: الوعيد التهديد بالعذاب والأصل وعيدى.

المعنى: وإلينا وحدنا المرجع فى الآخرة للحساب والجزاء لا ينازعنا فيه منازع إلينا مرجعهم يوم تتشقق الأرض عنهم فيخرجون مسرعين فى الخروج منها إلى المحشر كأنهم جراد منتشر. انظر الآية (٧) من سورة القمر صفحة ٧٠٥ . ذلك الحشر حشر يسير علينا مستحيل على غيرنا. ثم خفف سبحانه على نبيه ألم تكذيبهم له فقال: نحن أعلم بما يقولون من تكذيبك وإنكار البعث. فلا تقتل نفسك حزنا عليهم. انظر الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠ . لا تكلف نفسك فوق طاقتها لأنك لست قادرا على جبرهم على الإيمان. وأشغل نفسك. فذكر بالقرآن مَنْ يخاف وعيدى الذى توعدت به المخالفين. فإن مَنْ يخاف ذلك هو الذى ينتفع بالتذكير. انظر الآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ .

سورة الذاريات

المفردات: ﴿الذاريات﴾: جمع ذارية. والمراد بها الريح لأنها تثير الأبخرة فى الجو حتى تنعقد سحابا. انظر الآية (٤٨) من سورة الروم صفحة ٥٣٧. تقول العرب: ذروت الشىء أذروه أى طيرته.

﴿وقرا﴾: أصل الوقر حمل البعير. والمراد به هنا: السحاب الثقيل وجمعه أوقار. انظر الآية (٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠١، ٢٠٢ .

---

(١) بالقرآن. (٢) الذاريات. (٣) فالحاملات. (٤) فالجاريات
(٥) فالمقسمات (٦) لواقع. (٧) الخراصون.

﴿يسرا﴾: أى جريا هينًا سهلاً، انظر الآية (٣٦) من سورة ص صفحة ٦٠١ .

﴿المقسمات أمرًا﴾: المراد بالأمر هنا المطر. والمقسمات هى الرياح التى توزع الأمطار بتصريفها للسحاب فى الأقطار حسب ما يريد سبحانه وتعالى، انظر الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥ .

﴿الدين﴾: المراد به هنا: الحساب والجزاء. ﴿لواقع﴾: أى حاصل بلا أدنى شك.

﴿الحبك﴾: كالطرق وزنًا ومعنى ومفردها حبيكة، والمراد: طرق سير الكواكب.

﴿قول مختلف﴾: أى متناقض مضطرب، والمراد ليس عندكم علم ثابت.

﴿يؤفك عنه﴾: أى يصرف عن الإيمان بالحساب والجزاء يوم القيامة. ﴿مَنْ أفك﴾: أى مَنْ صرفه الشيطان عنه. وفيه مبالغة حيث جعل المصروف كأنه مصروف قبل نسبة الصرف إليه. تقول العرب: حصلت المعركة فقتل مَنْ قتل ونجا مَنْ نجا.

﴿قتل﴾: المراد لعن وهلك انظر الآية (١٧) من سورة عبس صفحة ٧٩٢ .

﴿الخراصون﴾: الكذابون.

﴿فى غمرة﴾: أى فى جهل يغمرهم. كما يغمر الماء الغريق فيه.

المعنى: يقسم سبحانه بالرياح التى تثير السحاب فتحمله وهو ثقيل بماء المطر. فتجرى به جريا سهلاً فتقسمه الأقطار كما يشاء سبحانه. إن وعده للكفار بالبعث لصادق، وإن الحساب والجزاء لحاصل قطعًا. انظر حكمة قسمه سبحانه ببعض خلقه فى شرح الآية (١) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٨٧ .

ثم أقسم سبحانه قسمًا آخر على مقسم عليه آخر فقال: (والسماء)... إلخ. أى أقسم بالسماء ذات الطرق التى تسير فيها كواكبها بإتقان كما تقدم فى شرح الآية (٤٠) من سورة يس صفحة ٥٨٢ . إنكم يا كفار مكة لمضطربون فى أقوالكم فى شأن الرسول والقرآن والبعث، فتارة تقولون فى الرسول ساحر وأخرى مجنون: وتقولون فى القرآن سحر، وتارة تقولون أساطير الأولين. وفى البعث تارة تشكون وتارة تنكرون. فأنتم تسيرون فى عماية ليس عندكم علم بشىء. يصرفكم الشيطان عن الإيمان بما ذكر. لعن الله الكذابين أمثالكم الذين غمرهم الجهل فهم غافلون عن أهوال الآخرة.

سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى
ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم
بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾
ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ
مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾
وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ
وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾
وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ
وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ
مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ
إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ
سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ

المفردات: ﴿ساهون﴾: المراد غافلون.

﴿يسألون﴾: أى يسألون الرسول سؤال استهزاء.

﴿أيان﴾... إلخ: اسم استفهام عن زمان، أى متى مجىء يوم الدين أى يوم الحساب والجزاء الذى تقول به.

﴿على النار يفتنون﴾: أصل معنى الفتنة إذابة المعادن كالذهب مثلاً على النار. ليظهر غشه، ثم استعمل فى التعذيب، وضمّن يفتنون معنى يعترضون ولذا جاء بحرف ﴿على﴾ ولم يأت بحرف الباء، والمراد يعذبون بعرضهم على جهنم.

﴿فى جنات وعيون﴾: المراد فى مكان محاط بجنات وعيون تجرى منها الأنهار، انظر الآية (٥٤) من سورة القمر صفحة ٧٠٨ .

(آخذين ما آتاهم ربهم﴾: الأخذ هنا معناه التلقى بالقبول والرضا: انظر الآية (١٠٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥٩ .

﴿كانوا قبل ذلك﴾: أى فى الدنيا، انظر الآية (٢٤) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣ .

﴿قليلا من الليل ما يهجعون﴾: الهجوع النوم القليل؛ و﴿ما﴾ تجعل ما بعدها مصدرا؛ والمعنى كانوا قليلا من الليل هجوعهم.

﴿الأسحار﴾: جمع سحر بفتحتين، وهو آخر الليل قبيل الفجر.

﴿حق﴾: انظر ذلك فى شرح الآية (٤) من سورة لقمان صفحة ٥٣٩ .

---

(١) يسألون. (٢) جنات. (٣) آخذين.
(٤) آتاهم. (٥) الليل. (٦) أموالهم.
(٧) آيات. (٨) أتاك. (٩) إبراهيم.
(١٠) سلاما. (١١) سلام.

﴿للسائل﴾: هو الذى يطلب الصدقة.

﴿المحروم﴾: المراد به الفقير المتعفف، المشار إليه فى الآية (٢٧٣) من سورة البقرة صفحة ٥٨ . ﴿آيات﴾: أى دلائل على قدرة الله ووحدانيته. ﴿للموقنين﴾: المراد المستعدون للإيقان المذكور فى الآية ٤ من سورة البقرة صفحة (٣) (تبصرون): المراد تنظرون بعين البصيرة.

﴿وفى السماء رزقكم﴾ ... إلخ: المراد: فى جهة السماء ما هو مدون فى اللوح المحفوظ من كل ما يحصل لكم، انظر الآية (٦) من سورة هود صفحة ٢٨٤ . ﴿مثل ما أنكم﴾: (ما) حرف يدل على تأكيد التماثل بين سابقه ولاحقه كما يدل على تأكيد الربط بين سابقه ولاحقه فى الآية (٤٠) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨ والآية (٢٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢ فالمراد مماثل مماثلة شديدة لنطقكم.

﴿هل أتاك﴾: انظر حكمة بدء الكلام بـ ﴿هل﴾فى شرح الآية (٩) من سورة طه صفحة٤٠٦.

﴿ضيف﴾: كلمة تطلق على الواحد والأكثر من الضيفان.

و﴿المكرمين﴾ تدل على تعددهم، وكانوا ملائكة فى صورة شبان كما تقدم فى الآية (٧٧) من سورة هود صفحة ٢٩٥ .

﴿منكرون﴾ : المراد غير معروفين. ﴿فراغ﴾: أى فذهب فى خفية عن الضيوف.

﴿عجل﴾: من البقر؛ لأنه كان لا يملك إلا البقر. وقدمه بعد شَيِّه على النار كما جاء فى الآية (٦٩) من سورة هود صفحة ٢٩٤ .

المعنى: هؤلاء الكفار غارقون فى الجهل غافلون عن الآخرة فلا يعملون لها. يسألون الرسول سؤال استهزاء متى مجىء يوم الدين؟ فقل لهم أيها النبى معرضًا عن خطابهم فى الرد عليهم سيجىء يوم هم يعذبون بالنار ويقول لهم الزبانية ذوقوا آلام تعذيبكم هذا التعذيب فى جهنم الذى كنتم تستعجلونه فى الدنيا استهزاء. وبعدما بيَّن سبحانه جزاء الكافرين. شرع فى بيان جزاء المؤمنين فقال: (إن المتقين فى جنات)... إلخ. أى تحيط بهم البساتين والعيون التى تجرى منها الأنهار متقبلين ما أعطاهم ربهم من الثواب بالرضا والسرور؛ لأنهم كانوا قبل دخولهم الجنة فى الدنيا محسنين لأعمالهم.

ثم بيَّن بعض هذا الإحسان بقوله: (كانوا قليلاً)... إلخ . أى إنهم كانوا يكابدون العبادة فى أوقات الراحة. مشغولة قلوبهم بربهم، فلا ينامون إلا قليلاً من الليل. وكانوا يشتغلون قبيل الفجر بالاستغفار خوفًا من أن يكونوا فرطوا فى مطلوب شرعًا.

و هؤلاء هم أرقى طبقات المؤمنين وهم السابقون المذكورون فى الآية (١٠) وما بعدها من سورة الواقعة صفحتى ٧١٣، ٧١٤ . وكانوا ينفقون من أموالهم للفقير الذى يسأل والذى يتعفف عن السؤال؛ والمراد أن ذلك كان هو حالهم فى ليالى الخير، كالعشر الأواخر من رمضان، والعاشر من ذى الحجة، وليلة القدر، وليلتى العيدين.... إلخ. أما بقية الليالى فشأنهم أن يكونوا قريبًا من النبى ﷺ، وأنه كان يصل فى قيامه إلى ثلثى الليل، انظر الآية (٢٠) من سورة المزمل صفحتى ٧٧٤، ٧٧٥ .

ثم شرع سبحانه فى بيان بعض الأدلة على قدرته سبحانه ووحدانيته التى غفلوا عنها فقال: (وفى الأرض)... إلخ. أى وفى الأرض من الجبال والبحار والأشجار والنبات وغيرها دلائل ينتفع بها المستعدون لليقين لسلامة فطرتهم. وكذلك فى داخل أنفسكم من الأجزاء الدقيقة والنظام البديع والعقول المفكرة المستنبطة للصنائع الباحثة عن أسرار الكون. فى كل ذلك براهين. أيضًا على تمام القدرة والإله الواحد. ثم عنف الكفار على إهمال التفكير فى ذلك فقال: أفلا تبصرون. أى هل طمس على قلوبكم فصرتم لا تدركون هذه الأدلة؟

ثم بيَّن سبحانه أنه عالم بكل شىء مع تهديدهم بأنهم سيلاقون ما أنكروه يوم القيامة فقال: (وفى السماء)... إلخ. أى فى جهة السماء تقدير أرزاقكم وأسبابه مدون فى اللوح المحفوظ، انظر الآية (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠، وكذا مدون فيه كل ما وعدكم به ربكم من خير وشر وبعث وحساب وجزاء يوم القيامة.

ثم أكد سبحانه ذلك بالقسم فقال تعالى: (فورب السماء)... إلخ. أى ما توعدون به لحق حال كونه فى أحقيته وثبوته كنطقكم تماما. فكما أنكم لا تشكون فى أنكم تنطقون كذلك لا يصح أن تشكوا فى تحقق ما توعدون.

وهذا أسلوب عربى معهود يقول الرجل: (إن هذا الأمر حق كما أنك ترى وتسمع)، وروى الحسن أن رسول الله ﷺ قال: (قاتل اللّٰه قوما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوه).

ثم أراد سبحانه أن يطمئن نبيه بأنه سينجيه ويقر عينه. ويهلك أعداءه فقال: (هل أتاك)... إلخ. أى هل بلغك أيها النبى حديث ضيوف إبراهيم خليل اللّٰه المكرمين عند اللّٰه تعالى حين دخلوا عليه فقالوا نسلم عليك سلاما قال وعليكم سلام. ثم قال لبعض غلمانه سرا هؤلاء قوم غير معروفين لى قبل ذلك. ثم ذهب إلى أهله سرا وذبح عجل بقر سمين وشواه... إلخ.

سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ
مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ[1] عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾
فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ
عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾
فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا
غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً[2] لِّلَّذِينَ
يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ[3] إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ[4] مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ[5]
أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ[6] وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ[7] فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ

المفردات: ﴿سمين﴾: انظر الآية (٦٩) من هود صفحة ٢٩٤ .

﴿ألا تأكلون﴾: ﴿ألا﴾ حرف يدل على الرغبة فى حصول ما بعده فى أدب وتلطف، كما يقال فى عصرنا هذا. (تفضلوا وكلوا).

﴿فأوجس﴾ ... إلخ: أصل معنى أوجس: أخفى الخوف، ولكن المراد منه هنا: أنه أخفاه أولا ثم صرح به، كما فى الآية (٥٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤١ . وانظر الآية (٧) من سورة هود صفحتى ٢٩٤، ٢٩٥ .

﴿غلام﴾: هو إسحاق عليه السلام.

﴿عليم﴾: أى غزير العلم إذا بلغ رشده ففيه بشارة بأنه سيعيش حتى يبلغ ذلك.

﴿امرأته﴾: هى (سارة).

﴿صرة﴾: صوت مرتفع تقول ﴿يا ويلتنا﴾ ... إلخ تعجبا. انظر الآية (٧٢) من سورة هود صفحة ٢٩٥ .

﴿فصكت وجهها﴾: أى فضربت وجهها بأطراف أصابعها.

---

(١) بغلام.
(٢) آية.
(٣) أرسلناه.
(٤) بسلطان.
(٥) ساحر.
(٦) فأخذناه.
(٧) فنبذناهم.

﴿عجوز عقيم﴾: الأصل هل ألد وأنا عجوز عقيم كما فى الآية (٧٢) من سورة هود صفحة ٢٩٥ .

﴿فما خطبكم﴾: الخطب هو الأمر الخطير، أى فما شأنكم؟

﴿قوم مجرمين﴾: هم قوم لوط عليه السلام.

﴿حجارة﴾: انظر الآية (٨٢) من سورة هود صفحة ٢٩٦ .

﴿مسومة﴾: تقدم فى الآية (٨٣) من سورة هود أيضًا صفحة ٢٩٦ .

﴿للمسرفين﴾: المتجاوزين الحد فى الفجور.

﴿مَنْ كان فيها﴾: أى فى قرى قوم لوط وهى مفهومة من سياق الكلام، مثل ﴿الأرض﴾ فى قوله تعالى: ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾ الآية (٤٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨ .

﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾: المراد غير بيت جمع مع الإيمان الإسلام، وهو بيت لوط نفسه. فالإيمان هو العقائد، والإسلام هو الأعمال كالصلاة والصيام... إلخ.

﴿آية﴾: أى عبرة وعظة.

﴿بسلطان مبين﴾: أى بحجة واضحة وهى معجزاته من العصا واليد.

﴿فتولى بركنه﴾: ﴿الركن﴾ هو الجانب، والمراد أعرض متكبرًا، انظر الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٤ والآية (٣٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦ .

﴿فأخذناه وجنوده﴾: المراد هيأنا لهم أسباب الخروج وراء موسى حتى أهلكناهم غرقا، انظر الآية (١٣٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٣ والآية (٩٠) من سورة يونس صفحة٢٨٠ .

﴿اليم﴾: البحر.

المعنى: جاء إبراهيم عليه السلام بعجل سمين مشوى، فقدمه لضيوفه، ورجا منهم أن يأكلوا. فلما رأى أيديهم لا تمتد إلى الطعام، كما فى الآية (٧٠) من سورة هود صفحتى ٢٩٤، ٢٩٥ . دب فى نفسه الخوف من أن يكونوا يريدون به شرًا.

ثم صارحهم بخوفه منهم. عند ذلك قالوا لا تخف إنا رسل ربك. وبشروه بأنه سيولد له ولد يكون كثير العلم عند بلوغه مبلغ الرجال، وكانت امرأته فى ركن من البيت تسمع حديثهم فأقبلت نحوهم وهى رافعة صوتها بعبارات التعجب وضربت بيدها على وجهها كما هى عادة النساء وقالت: أنا امرأة عجوز عاقر فكيف ألد؟

قالوا مثل قولنا هذا: قال لنا ربك ونحن مبلغون عنه فقط، إنه سبحانه هو الحكيم الذى يفعل الشىء فى وقته المقدر له. العليم بأسرار خلقه فلا يعجزه شىء يريده.

ولما اطمأن إبراهيم عليه السلام وعلم أنهم ملائكة وأن البشارة كان يكفى فيها ملك واحد فقط. وأدرك أنه لابد أن يكون لهم أمر أهم من ذلك. قال ما شأنكم الخطير أيها المرسلون؟

قالوا: إنا أرسلنا اللّه تعالى إلى قوم لوط المجرمين. لنجعل مدنهم عاليها سافلها، ونرسل عليهم حجارة من طين متحجر لا يخطئ الحجر صاحبه من هؤلاء المتجاوزين الحد فى الفجور.

ثم جاءت ملائكتنا إلى لوط وكان بينهم وبينه ما فى الآية (٧٧) وما بعدها من سورة هود صفحة ٢٩٥ . فأخرج ملائكتنا من كان فى تلك القرى من المؤمنين قبل نسفها، فما وجدوا فيها غير بيت واحد جمع أهله مع الإيمان الإسلام بكل أعماله وهو بيت لوط نفسه، وتركنا فى تلك القرى عبرة للذين من شأنهم أن يخافوا عذاب اللّه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم، فلا يفعلون أسبابه.

أما القاسية قلوبهم فإنهم محرومون من ذلك. وتركنا فى حادث موسى وفرعون أيضًا عبرة حين أرسلناه إلى فرعون ببرهان واضح فأعرض مستكبرا وقال هذا الرجل إما ساحر يعتمد على سحره أو مجنون يجازف بحياته بدون شعور.

وهذا من فرعون تضليل لقومه لأنه يعلم أنه رسول صادق. انظر الآية (١٤) من سورة النمل صفحة ٤٩٥ ولما لم ينفع معه شىء أغرقناه فى البحر.

مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾
مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾
وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ[1] وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا
اسْتَطَاعُوا[2] مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ
مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ[3] ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا[4]
بِأَيْدٍ[5] وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا[6] فَنِعْمَ
الْمَاهِدُونَ[7] ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾
وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ[8] إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾
كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ
أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾

المفردات: ﴿مليم﴾: أي مرتكب ما يلام عليه. قيل فى المصباح: ألام الرجل أى فعل ما يستحق عليه اللوم.

﴿الريح العقيم﴾: هى التى لا تحمل سحابا ممطرا ولا لقاحا لشجر. فلا خير فيها، انظر الآية (٢٤) وما بعدها من سورة الأحقاف صفحتى ٦٦٩، ٦٧٠ .

﴿ما تذر﴾: أى ما تترك.

﴿من شىء﴾: ﴿من﴾ حرف يدل على عموم ما بعده.

﴿الرميم﴾: هو المفتت من العظم أو النبات الجاف، انظر الآية (٧٨) من سورة يس صفحة ٥٨٦ .

﴿فعتوا﴾: أى فتجاوزوا الحد فى الطغيان، انظر الآية (٢١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣.

﴿الصاعقة﴾: تطلق الصاعقة على كل داهية تأتى من جهة السماء مصحوبة بصوت مزعج أو نار تحرق ويطلق عليها (صيحة) كما فى الآية (٦٧) من سورة هود صفحة ٢٩٤، كما لها أسماء عدة منها ﴿رجفة﴾ كما فى الآية (٧٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥ . ومنها ﴿طاغية﴾ فى الآية (٥) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١ .

﴿من قيام﴾: ﴿من﴾ كسابقتها.

---

(١) الصاعقة. (٢) استطاعوا.
(٣) فاسقين. (٤) بنيناها.
(٥) بأيد. (٦) فرشناها.
(٧) الماهدون. (٨) آخر.

﴿وقوم نوح﴾: المراد: وأهلكنا قوم نوح، كما أهلكنا هؤلاء المتقدمين.

﴿بأيد﴾: المراد بأيد لائقة به سبحانه، ليس كمثله شيء والذى نفهمه أن السماء بنيت بقوة لا يتصورها البشر، انظر الآية (٤٥) من سورة ص صفحة ٦٠٢ .

﴿لموسعون﴾: من الوسع بمعنى الطاقة والقدرة. تقول فى وسعى أن أفعل كذا، أى فى قدرتى، والمعنى هنا: وإنا لقادرون.

﴿فرشناها﴾: أى جعلناها ممهدة كالفراش ليسهل الاستقرار عليها؛ انظر الآية (١٩) من سورة نوح صفحة ٧٦٩ والآية (٦) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧ .

﴿الماهدون﴾: جمع ماهد. وأصله الذى يعد ويهئ المهد الذى يستريح عليه الطفل، انظر الآية (٤٦) من سورة آل عمران صفحة ٧٠ ، والآية (٦) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧، والمراد: جعلنا الأرض مريحة تسهل المعيشة عليها.

﴿زوجين﴾: أى صنفين . ذكرا وأنثى.

﴿ففروا إلى الله﴾: هذا تمثيل للاعتصام بجنابه سبحانه وتعالى. والمراد: فروا من مصايد الشيطان إلى رحاب الرحمن بالطاعة.

﴿كذلك﴾: الأصل الأمر كذلك. أى أمر أمتك أيها النبى كأمر تلك الأمم.

﴿قالوا ساحر أو مجنون﴾: انظر الآية (٤٣) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٦،٦٣٥ .

﴿أتواصوا به﴾: الهمزة للاستفهام التعجبى، أى تعجبوا أيها الناس من هؤلاء الذين كأنهم وصى بعضهم بتكذيب الأنبياء.

﴿بل﴾: حرف يدل على الانتقال مما قبله إلى ما بعده.

﴿طاغون﴾: أى متجاوزون حدود الحق والعدل.

المعنى: يقول سبحانه وأغرقنا فرعون والحال أنه فاعل ما يؤاخذ عليه من الكفر والطغيان فلم نظلمه. وتركنا عبرة أيضًا فى عاد حين أرسلنا عليهم الريح الخالية من الخير فما تركت هذه الريح شيئًا مرت عليه إلا جعلته محطمًا مفتتًا.

وفى ثمود وما حصل لهم أيضًا عبرة حين قال لهم ربهم: آمنوا بالله وتمتعوا بخيرات الدنيا إلى حين انتهاء آجالكم كما قال نوح لقومه فى الآية (٤) من سورة نوح صفحتى ٧٦٧، ٧٦٨ وتجاوزوا الحد فى الطغيان، وخرجوا عن أمر ربهم بترك الناقة وعدم إيذائها فعقروها. عند ذلك أنذرهم نبيهم صالح عليه السلام بأن العذاب سينزل بهم بعد ثلاثة أيام، انظر الآيات (٦٤ إلى ٦٧) من سورة هود صفحة ٢٩٤ .

وبعد مضى ثلاثة أيام نزل بهم العذاب فأهلكهم وهم ينظرونه قادما عليهم زيادة فى النكاية بهم. فلم يستطع واحد منهم أن يقوم من مصرعه بنفسه وما نصرهم غيرهم على الخلاص من الهلاك.

وأهلكنا قوم نوح من قبل إهلاكنا هذه الأمم لأنهم كانوا قوما خارجين على أوامر ربهم بالكفر والاستهزاء برسولهم، انظر الآية (٣٨) من سورة هود صفحة ٢٨٩ .

ثم أراد سبحانه أن يبرهن على أنه وحده القادر على كل شىء فلا يصح أن يعبد سواه ولا أن تنكر قدرته على البعث فقال: والسماء... إلخ. أى بنينا السماء بقوة وإنا لقادرون على خلق أكبر منها. وفرشنا الأرض وجعلناها كالمهاد. فنعم الماهدون نحن. ومن كل شىء من الحيوان والنبات خلقنا ذكرا وأنثى ليبقى النوع ولتتذكروا بكل ذلك فتتنبهوا إلى أن صانع ذلك واحد قادر. وإذا كان الأمر كذلك فقل لهم أيها النبى فروا من معاصى ربكم إلى طاعته. إنى محذر لكم من العذاب. واضح التحذير لمَنْ لم يلجأ إلى طاعة ربه.

ثم أكد ذلك بقوله تعالى: ولا تجعلوا مع الله إلها آخر تلجأون إليه. ثم أكد أنه محذر واضح التحذير وكان التحذير الأول فى مقام الأمر بما يجب، والثانى فى مقام النهى عما لا يجوز. والمقصود المبالغة فى النصيحة.

ثم خفف سبحانه الأمر على نبيه ﷺ . فقال: (كذلك ما أتى) ... إلخ. أى حال أمتك أيها النبى كحال تلك الأمم السابقة، ثم بيَّن ذلك بقوله: ما أتى الذين من قبلهم. أى قبل كفار مكة رسول إلا قال بعضهم عنه أنه ساحر، وقال بعضهم إنه مجنون. هل وصى هؤلاء بعضهم بعضا فيما يقال للرسل؟ لا، بل الذى جمعهم على هذا الجرم هو الطغيان، فكانت النتيجة عند الجميع واحدة.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ
تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن
يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾
فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ[1] فَلَا
يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى
يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

(٥٢) سُورَةُ الطُّورِ مَكِّيَّة
وآياتها تسع وأربعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَـٰبٍ[2] مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾

المفردات: ﴿فتول عنهم﴾: أى فأعرض عن مجادلتهم لأنهم مكابرون.

﴿إلا ليعبدون﴾: أى ليعبدونى وحدى، ولا يطيعوا غيرى إذا بلغوا سن التكليف؛ انظر الآية (٥) من سورة البينة صفحة ٨١٦، والمراد من العبادة طاعته سبحانه فى كل ما يأمر به نبيه الامتثال من العبد الخاضع لمولاه، وبهذا يدخل كل عمل قاموا به تقربا إلى ربهم حتى السعى على عيالهم.

﴿المتين﴾: أى شديد القوة فهو تأكيد لما قبله.

﴿الذين ظلموا﴾: المراد بهم كفار مكة.

﴿ذنوبا﴾: أصل الذنوب الدلو العظيم الممتلئ ماء والمراد به هنا: النصيب من العذاب؛ لأن السقائين يقسمون به الماء فيأخذ كل واحد نصيبه، وفيه إشارة إلى أن العذاب سيصب عليهم كما يصب الماء. انظر الآية (١٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٦ .

﴿أصحابهم﴾: المراد بهم كفار الأمم السابقة.

﴿فلا يستعجلون﴾: أى فلا يطلبون منه سبحانه أن يعجل لهم العذاب، وكانوا يستعجلونه استهزاء عادتهم، انظر الآية (٥٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨ والآية (١٦) من سورة ص صفحة ٥٩٩ والآية (١٤) من سورة الطور صفحة ٦٩٧ .

﴿ويل﴾: كلمة يراد بها الدعاء عليهم بالهلاك.

﴿يومهم﴾: أى يوم نزول العذاب بهم فى الدنيا أو الآخرة.

﴿يوعدون﴾: أى يعدهم الله بالعذاب فيه.

---

(١) أصحابهم. (٢) كتاب.

المعنى: وبما أنك أيها النبى قمت بالواجب عليك ولم يسمعوا فأعرض عن مجادلتهم لأنهم مكابرون لا ينفع فيهم جدل. ولن يلومك أحد على ذلك. واستمر فى موعظة المستعد للإيمان. ثم بيَّن سبحانه سبب أمره لنبيه بدوام التذكير، وأنه لتحقيق حكمة خلق الجن والأنس فقال: (وما خلقت)... إلخ. قال على بن أبى طالب و ابن عباس رضى الله عنهما معناها: وما خلقتهم إلا لآمرهم بعبادتى وحدى ولا يطيعوا إلا أمرى إذا بلغوا سن التكليف. ثم بيَّن سبحانه أنه غنى عن العالمين فليس كالملوك الذين يحتاجون إلى مَنْ يحصل لهم الرزق. ومَنْ يعد لهم الطعام، فقال: (ما أريد منهم).... إلخ. أى لا أريد من أحد من خلقى رزقا، ولا أن يهيئ لى طعاما. وقل أيها النبى لأمتك إن الله هو الرزاق لكل ما عداه. أى فليس محتاجًا لرزق. وهو سبحانه صاحب القدرة شديدة القوة فلا يحتاج إلى غيره. ثم هدد كفار مكة بقوله: (فإن للذين ظلموا)... إلخ. أى وإذا علمت أيها السامع ما حصل للكفار من الأمم السابقة من عاد وثمود وغيرهم فاعلم أن للظالمين من كفار قريش الذين عملوا عملهم نصيبا من العذاب مثل نصيب نظرائهم من الأمم السابقة.

وإذا كان الأمر كذلك فقل لهم أيها النبى لا تستعجلوا هذا العذاب استهزاء بمثل ما فى الآية (١) من سورة النحل صفحة ٣٤٥ والآية (١٨) من سورة الشورى صفحة ٦٤١ .

فهلاك عظيم لهؤلاء الكفرة من مجىء يومهم الذى توعدهم الله تعالى فيه بالعذاب فإنه لا ينجيهم منه أحد.

سورة الطور

المفردات: . ﴿والطور﴾: هو الجبل الذى كلم الله سبحانه وتعالى عليه موسى عليه السلام، انظر آيات (٣٩) وما بعدها من سورة القصص صفحتى ٥١١،٥١٠ . ولا تنسى ما تقدم فى القسم فى شرح الآية (١) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧ .

﴿وكتاب مسطور﴾: قال أبو السعود: الأنسب بالطور أن يراد بالكتاب هنا ألواح موسى التى سطرت فيها. أى كتبت التوراة. انظر الآية (١٤٥) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٥،٢١٤ .

﴿فى رق﴾: أصل الرق الجلد الرقيق الذى يكتب عليه. وقد أريد به هنا كل ما يكتب عليه من الصحف وتنكيره للإشعار بأنه ليس مما يتعارفه الناس، فهو عجيب فى صنعه.

المعنى: يقول سبحانه وتعالى: أقسم بالطور لما حصل عليه من العبر. وبكتاب مدون ما فيه فى جلد رقيق مبسوط غير مطوى. انظر الآية (١٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦ . والمراد أنه يسهل على كل مكلف معرفة ما فيه من الأحكام.

وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ
الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ[1] ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِن
دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ
سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي
خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾
هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا
أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا
سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ
الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ[2] وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ[3] بِمَا ءَاتَىٰهُمْ[4]
رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ[5] رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا
هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ
وَزَوَّجْنَٰهُم[6] بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا[7] وَاتَّبَعَتْهُمْ

المـفـردات: ﴿البـيت المـعـمـور﴾: هو الكعبة، المعمورة بالحجاج والمعتمرين.

﴿السـقف المـرفوع﴾: هو السمـاء، انظر الآية (٣٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣ .

﴿البـحـر المسـجـور﴾: أى المـتـقـد نارا، انظر الآية (٦) من سـورة التكوير صـفـحـة ٧٩٤، وفى ذلك تنبـيـه للغـافلين لخطر ذلك اليوم.

﴿عـــذاب ربك﴾: المـــراد: عـــذاب يوم القيامة. بدليل ما بعده.

﴿تمور السـمـاء﴾: أى تتحـرك وتضطرب مقدمة لتشـقـقهـا، انظر الآية (١) من سورة الانشقاق صفحة ٧٩٩ .

﴿تسيـر الجبال﴾: أى قبيل نسفها، انظر بيان ذلك فى الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧ وانظر معها الآية (١٠٥) من سورة طه صفحة ٤١٦ .

﴿فى خوض يلعبون﴾: انظر أصل معنى الخوض فى الآية (٨٣) من سورة الزخـرف صفحة ٦٥٥ ، والمراد: يشغلون أوقاتهم فى الطعن فى الرسول والقرآن وكل ما لايفيد كالأطفال. انظر ما تقدم فى شرح الآية (٦٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٢، ١٧٣ .

﴿يدعون﴾: أى تدفعهم الملائكة بعنف وشدة فيسقطون على وجوههم؛ انظر الآية (٩٠) من سورة النمل صفحة ٥٠٥ .

﴿أفسـحـر هذا﴾: الاستفهام للتوبيخ، تقوله لهم المـلائكة. ﴿وهذا﴾: إشـارة للعذاب الذى شاهدوه يوم القيامة.

---

(١) لواقع. (٢) جنـات. (٣) فاكهين. (٤) آتاهم.
(٥) وقاهم. (٦) زوجناهم. (٧) آمنوا.

﴿اصلوها﴾: أى ادخلوا النار وقاسوا شدة حرارتها.

﴿فاصبروا أو لا تصبروا﴾: أى لاينفعكم فى دفع العذاب صبر ولا ضجر؛ انظر الآية (٢٤) من سورة فصلت صفحة ٦٢٣ .

﴿فاكهين﴾: أى متنعمين متلذذين، كما تقدم فى الآية (٥٥) من سورة يس صفحة ٥٨٤ .

﴿حورعين﴾: تقدم بيانها فى الآية (٥٤) من سورة الدخان صفحة ٦٥٩ .

المعنى: يقول سبحانه أقسم بالبيت المعمور بالعباد. وبالسماء المرفوعة بلا عماد.. وبالبحر الممتلئ نارا، إن عذاب ربك أيها النبى لهؤلاء الكفار لواقع، يوم تهتز السماء ثم تتشقق وتفنى لتحل محلها سماء غيرها. انظر الآية (٤٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٧ .

وتسير الجبال سيرا، ثم تكون هباء. وإذا كان هذا سيحصل قطعًا فهلاك شديد يومئذ للمكذبين لكلام ربهم ورسله، الذين هم فى اندفاع عجيب فى الأباطيل والأكاذيب حال كونهم يلعبون ويتشاغلون عن الحق كما يفعل الأطفال. الويل لهم يوم يدفعون بعنف إلى نار جهنم دفعًا شديدًا. وتقول لهم الزبانية تبكيتًا وتوبيخًا. هذه هى النار التى كنتم فى الدنيا تهتمون بتكذيبها لصد الناس عن الإيمان. وإذا كنتم فى الدنيا تقولون فى القرآن الذى حذركم من هذا العذاب أنه سحر فهل هذا العذاب الذى أنتم فيه الآن سحر أيضًا؟ أم أنتم اليوم عمى لاتبصرون. قاسوا شدائد هذه النار. وإذا كان هذا لابد منه. فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم الصبر وعدمه فى عدم الفائدة: لأن اللّه تعالى لم يجازكم إلا بنتيجة أعمالكم. وبعدما بيَّن سبحانه جزاء الكافرين شرع فى بيان جزاء المؤمنين ليتميز أصحاب اليمين من أصحاب الشمال فقال: إن المتقين فى جنات ونعيم متلذذين بما أعطاهم ربهم من النعيم، ووقاهم قبل ذلك عذاب الجحيم. وتقول لهم الملائكة كلوا واشربوا أكلا وشربا هنيئًا أى ممتعًا لا تنغيص معه جزاء أعمالكم الصالحة. يكونون فى الجنات حال كونهم متكئين على فرش من الحرير فوق سُرر منظمة كما يفعل الملوك. لا يشغلهم عن النعيم شىء، انظر الآية (٥٤) من سورة الرحمن صفحة ٧١١، وزوجناهم أبكارا حسان العيون، انظر الآية (٥٦) من سورة الرحمن أيضًا صفحة ٧١٢ والآية (٣٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥ . وبعدما بيَّن سبحانه جزاء المؤمنين المادى بيَّن جزاءهم المعنوى فقال: (والذين آمنوا واتبعتهم).... إلخ.

ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ
عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾
وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ
فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ
غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا
مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾
إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ
فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ
يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ
تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ
أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ

المفردات: ﴿ألحقنا بهم ذريتهم... ﴾: إلخ أى فى دخول الجنة بحيث يرونهم ويجتمعون بهم، ليزداد سرورهم بشرط أن يكونوا صالحين.

﴿بإيمان﴾: الباء للسببية تدل على أن ما بعدها سبب فيما قبلها، أى وجرى ذريتهم على طريق آبائهم بسبب اتفاقهم معهم فى الإيمان.

﴿ما ألتناهم﴾: ألت فلان الشىء يألته بوزن ضربه يضربه إذا نقصه، أى ما نقصناهم.

﴿من شىء﴾: ﴿من﴾: لتأكيد عموم نفى

ما بعدها.

﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾: ﴿امرئ﴾: هنا مقيد بقيد مفهوم من آية أخرى وهذا القيد هو لفظ ﴿كافر﴾ أى كل امرئ كافر محبوس فى سقر، بسبب كسبه الخبيث.. وهذا القيد مفهوم من الآية (٣٨) وما بعدها من سورة المدثر صفحة ٧٧٧، وهذا أسلوب معهود فى القرآن، يحذف بعض الألفاظ اعتمادًا على ذكره فى آية أخرى، وإنما قلنا ذلك لأن مادة الرهن تفيد معنى الحبس وفاعل الخير لا يناسب أنه يعبر فى جانبه بالحبس بل يعبر فى جانبه بأن له (كذا) وفاعل الشر يعبر فى جانبه أيضًا بأن عليه (كذا) انظر الآية (٢٨٦) من سورة البقرة صفحة ٦٢ والآية (١١١) من سورة النساء صفحة ١٢١ والآية (٤٤) من سورة الروم صفحة ٥٣٦، والآية (٤٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦، والآية (١٥) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٢. ويكون ذكر هذا التذييل لتهديد الكافر من بعد تبشير المؤمنين كما هى عادة القرآن فى إتباع

---

(١) بإيمان. (٢) ألتناهم. (٣) أمددناهم (٤) بفاكهة
(٥) يتنازعون. (٦) ووقانا (٧) بنعمة (٨) أحلامهم.

الترغيب بالترهيب والعكس حسب المقامات، انظر تفسير الراغب فى مادة (رهن).
﴿أمددناهم﴾: أى زدناهم.

﴿يتنازعون فيها﴾: أى يتجاذبون فى الجنة الكئوس، كل من يد صاحبه تلذذا وتأنسًا.

﴿لا لغو فيها﴾: أى لا يصاحب شربها لغو كما فى خمر الدنيا.

﴿ولا تأثيم﴾: أى ولا عمل يوجب إثما كضرب أو شتم.

﴿غلمان﴾: يخلقهم اللّٰه فى الجنة كما يخلق الحور العين، يطوفون عليهم بما فى الآية (٧١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٤ وآيات (١٧، ١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤ .

﴿مكنون﴾: أى محفوظ فى صدفه لم يطرأ عليه ما يغير صفاءه.

﴿يتساءلون﴾: أى يسأل بعضهم بعضا عما كانوا عليه فى الدنيا. وما صاروا إليه فى الآخرة تساؤل تلذذ. واعتراف بفضل اللّٰه.

﴿فى أهلنا﴾: المراد: فى حال وجودنا بين أهلنا فى الدنيا واعتزازنا بهم كنا نخاف اللّٰه. ولم نعتز بقوة الأهل.

﴿مشفقين﴾: أى خائفين من عذاب اللّٰه يوم القيامة. انظر الآية (٤٩) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥ . والآية (٢٧) من سورة المعارج صفحة ٧٦٦ .

﴿السموم﴾: هو لهب النار الخالص من الدخان. انظر الآية (٢٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠ .

﴿البر﴾: هو عظيم الإحسان. صادق الوعد.

﴿بنعمة ربك﴾: الباء للسببية كالسابقة فى الآية (٢١). وهى متعلقة بالنفى المفهوم من ما.

والمعنى: انتفت عنك الكهانة والجنون بسبب فضل ربك عليك. كما تقول ما أنا محتاج بفضل ربى على. ونظيرها فى الآية (٢) من سورة القلم صفحتى ٧٥٧، ٧٥٨ .

﴿بكاهن﴾: الباء لتأكيد نفى ما بعدها عما قبلها. والكاهن هو الذى يدعى علم الغيب.

﴿أم يقولون﴾: ﴿أم﴾ تقدم معناها فى الآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ .

﴿نتربص به﴾: أى ننتظر به.

﴿ريب المنون﴾: أصل (الريب) الشك، انظر الآية (٢٣) من سورة البقرة صفحة ٦ والمراد به هنا: المشكوك فيه، فإضافته للمنون من إضافة الصفة للموصوف، كما فى قوله: (حسن ثواب) فى الآية (١٤٨) من سورة آل عمران صفحتى ٨٧، ٨٨ . وقد يطلقون ﴿ريب المنون﴾ على حوادث الدهر.

﴿والمنون﴾: هو الموت لأنه يقطع الحياة، انظر أصل المادة فى الآية (٨) من سورة فصلت صفحة ٦٣٠ فالمراد الموت المشكوك فى وقته لا فى حصوله لأنه مقطوع به. وإنما المجهول للإنسان هو الوقت.

﴿أم تأمرهم﴾: ﴿أم﴾ كسابقتها والاستفهام فيها للإنكار والتوبيخ، وتأمرهم كناية عن توصيلهم إليه كأن لها سلطان عليهم يطاع.

﴿أحلامهم﴾: أى عقولهم جمع حلم بكسر فسكون، وهو يطلق على العقل وعلى التأنى وعدم الغضب.

﴿أم هم﴾: ﴿أم﴾: هنا بمعنى بل التى تفيد إبطال سابقها وإثبات لاحقها. ﴿طاغون﴾: أى متجاوزون الحد فى الطغيان عنادًا.

المعنى: مَنْ يرجع إلى شرح الآية (٢٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥ والآية (٨) من سورة غافر صفحة ٦١٨ يعلم أن المراد هنا أن الذين آمنوا واتفقت معهم ذريتهم فى الإيمان، جمعناهم مع ذريتهم فى الجنة ليتم للجميع السرور. ويكمل النعيم بمؤانسة الأحباب ومصاحبة المتجانسين فى الصفات. ولا يلزم من ذلك أن يكونوا فى درجة واحدة، انظر شرح الآية (٦٩) من سورة النساء صفحة ١١٢ . وإنما اخترنا ذلك مع كثرة القائلين بخلافه لأدلة كثيرة منها ما يفيد أنه ليس للإنسان فى الآخرة إلا جزاء عمله، انظر الآية (٢٨٦) من سورة البقرة صفحة ٦٢ ، والآية (٤٤) من سورة الروم صفحة ٥٣٦، والآية (٣٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤، والآية (٥٤) من سورة يس صفحة ٥٨٤ والآية (١٧) من سورة غافر صفحة ٦١٩ والآية (٤٦)

من سورة فصلت صفحة ٦٣٦، والآية (٢٢) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣، وأيضًا فلا يستطيع أحد أن يحمل شيئًا من ذنوب غيره، انظر الآية (١٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٤، وأيضًا قوله ﷺ: يا فاطمة بنت محمَّد اعملى لنفسك لا أغنى عنك من الله شيئًا. ومن الأدلة ما يفيد أن أهل الجنة تتفاوت درجاتهم فيها بتفاوت أعمالهم. حتى الأنبياء عليهم السلام، انظر الآية (٢٥٣) من سورة البقرة صفحتى ٥٢، ٥٣ والآيتين (٩٥، ٩٦) من سورة النساء صفحة ١١٨ والآية (٧) وما بعدها من سورة الواقعة صفحتى ٧١٤،٧١٣ والآية (١٠) من سورة الحديد صفحتى ٧١٩، ٧٢٠ ، وأيضًا قوله ﷺ: (تدخلون الجنة بفضل الله وتقتسمونها بأعمالكم)، وقوله: (الله الله فى أصحابى لو أنفق رجل فى وجوه الخير مثل جبل أحد ذهبًا ما بلغ جزاؤه مثل جزاء أحدهم). وأيضًا لو تساوى الأبناء بدرجات الآباء فى الجنة لكان جميع مَنْ آمن بالأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام من اليهود والنصارى والمسلمين كلهم فى درجة الخليل إبراهيم عليه السلام، وكذا يقال فى غيره حتى خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام فتكون جميع ذريته من فاطمة رضى الله عنها فى درجته هو ﷺ، ولا أظن أحدًا يجرؤ على القول بذلك. ومقامه ﷺ فى الجنة فوق كل مقام، بل يلزم أن يكون كل أهل الجنة فى درجة واحدة من عهد آدم حتى تقوم الساعة؛ لأن كل شخص له والد وولد وزوجة، فالوالد يريد أن يكون مع ولده، وأبو الوالد يريد أن يكون مع ابنه الذى هو والد هذا الولد، والزوج يريد أن تكون معه زوجته وأبوها يريدها معه، وهكذا يتشابك العالم يجر كل فرد مَنْ فوقه من آبائه ومَنْ تحته من ذريته... إلخ. فتأمل بعقلك! أما كيف يتم سرور الآباء بمشاهدة الأبناء فى جنة عرضها السموات والأرض كما تقدم فى الآية (١٣٣) من سورة آل عمران صفحة ٨٤ فهذا شىء يسير على قدرة الله تعالى. خصوصًا، وقد توصل الإنسان الضعيف فى هذا العصر إلى اكتشاف ما يجعل الإنسان يكلم ويرى غيره وكل منهما فى طرف من أطراف الأرض بواسطة مايسمى (التليفزيون). وإنما أطلنا فى هذا المقام لأنك لا تكاد تجد مفسرا إلا قال بمساواة الذرية بالآباء فى درجات الجنة. وهذا ما رأيت بطلانه. والله تعالى أعلم. ولهذا البحث بقية ستأتى فى شرح الآية (٣٩) من سورة النجم صفحة ٧٠٣، ومعنى قوله تعالى: (وما ألتناهم)... إلخ.

أنا لا ننقص الآباء شيئًا من أجورهم نظير تمتعهم بوجود أبنائهم معهم فى الجنة.

وبعدما بيَّن سبحانه حال المتقين أتبع ذلك ببيان أن المتقين خلصوا أنفسهم من العذاب، وغيرهم بقى محبوسًا بذنبه فى عذاب جهنم فقال: كل امرئ بما كسب رهين. قال ابن عباس: ارتهن أهل جهنم فى النار بأعمالهم. وصار أهل الجنة إلى نعيمهم. ثم بيَّن سبحانه فضلاً آخر على المتقين فقال: وأمددناهم... إلخ. أى زدنا أهل الجنة على ما عندهم من نعيم وسرور فاكهة ولحما مما يشتهون حال كونهم يتجاذبون فى الجنة وأحبابهم تجاذب سرور - كأسا لايلغوا شاربها بساقط القول، ولا يفعل ما يعاب عليه مثل ما كان يفعل شارب خمر الدنيا. ويطوف عليهم بالطعام والفاكهة والشراب خدم مخصصون لهم فى غاية الجمال. ولما استقروا فى الجنة وأنسوا سأل بعضهم بعضًا عما كانوا عليه فى الدنيا، وما صاروا إليه فى الآخرة سؤال تلذذ واعتراف بفضل اللَّه، قال فريق منهم: إنا كنا فى الدنيا بين أهلنا نخاف اللَّه ونخشى عقابه فمنَّ اللَّه علينا بالرحمة والتوفيق، وحفظنا من أقل أنواع العذاب، لأنا كنا فى الدنيا نعبده وحده، فتفضل علينا لأنه واسع الإحسان كثير الرحمة، ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ بما ينبغى فقال: (فذكر)... إلخ. أى وإذا كان هذا هو الذى سيحصل فداوم أيها النبى على ما أنت عليه من تذكير المستعدين للخير بما أنزله عليك ربك من الذكر الحكيم، ولا تبال بما يقول المشركون فيك من الباطل، فما أنت بكاهن ولا مجنون، بسبب ما أنعم اللَّه به عليك من العقل الراجح والنبوءة الحقة، ثم وبخ سبحانه كفار مكة وتهكم بباطلهم فى نحو ثلاثة عشر موضعًا فقال: (أم يقولون شاعر).. إلخ. أى بل هل يقول المجرمون عن هذا النبى الكريم إنه شاعر يؤثر فى الناس بزخرف القول فلننتظر به الموت الذى يريحنا منه كما أراحنا من كثير من الشعراء غيره الذين جمعوا الناس حولهم، قل لهم أيها النبى انتظروا ما تزعمون أنه يريحكم، فإنى أنا أيضًا منتظر ما سيحصل لكم مما يسوءكم ويسرنى.

ثم انتقل سبحانه إلى تسفيه لهم آخر فقال: (أم تأمرهم).. إلخ. أى بل هل عقولهم هى التى تقودهم إلى هذا القول المتناقض فإن الكاهن والشاعر يكونان أصحاب عقل وفطنة ويقظة. والمجنون مختل العقل والتفكير. فهم فى قولهم هذا فى حيرة واضطراب عقل حيث كذبوا أنفسهم من حيث لا يشعرون. وهذا هو شأن المبطل دائمًا. وليس كل هذا منهم حق بل هم قوم تجاوزوا الحد فى المكابرة والعناد. ثم انتقل سبحانه إلى تسفيه آخر فقال: (أم يقولون تقوله)... إلخ.

تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن
كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ
ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل
لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ
ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ
مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ
ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾
أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ
فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ
سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟
يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ

المفردات: ﴿تقوله﴾: أى اختلق القرآن من عند نفسه ونسبه لله تعالى، إنهم لشدة كفرهم وعنادهم، يرمونه ﷺ بهذه الأباطيل، وكيف لا يكون هذا منهم افتراءً مقصودًا وهم جميعًا يعلمون أنه ﷺ من العرب مثلهم، وكانوا أكثر منه خطابة وشعرًا. ولو كان محمد قال هذا من عند نفسه لكنتم أيها المفترون أقدر منه عليه، والدليل على بطلان ما تقولون أنكم عجزتم عن أقصر سورة منه، وهذا هو المراد من قوله تعالى:

﴿لا يؤمنون﴾: أى إنهم يعلمون أنهم غير قادرين.

﴿بل﴾: حرف يدل على إبطال ما قبله وإثبات ما بعده.

﴿بحديث﴾ ... إلخ: المراد بقرآن كهذا. انظر الآية (٣٨) من سورة يونس صفحة ٢٧٢. والآية (١٣) من سورة هود صفحة ٢٨٥ والآية (١١١) من سورة يوسف صفحتى ٣١٩، ٣٢٠. والآية (٢٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩ .

﴿من غير شىء﴾: أى من غير خالق قديم. انظر الآية (١٩) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٤، ١٦٥ والآية (٨٨) من سورة القصص صفحة ٥٢٠ تجد أن الله سبحانه يطلق عليه ﴿شىء﴾: لأن الشىء فى لغة العرب هو الموجود.

﴿أم هم الخالقون﴾: أى لأنفسهم. وهذا باطل باعترافهم. انظر الآية (٨٧) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥ .

---

(١) صادقين . (٢) الخالقون. (٣) السموات.
(٤) المسيطرون. (٥) بسلطان. (٦) البنات.
(٧) تسألهم. (٨) سبحان. (٩) يلاقوا.

﴿يستمعون فيه﴾: فى هنا بمعنى (على) كما فى الآية (٧١) من سورة طه صفحة ٤١٢ .

﴿سلطان﴾: أى حجة، وبرهان ظاهر. ﴿له البنات﴾: الضمير فى ﴿له﴾ راجع إليه تعالى، انظر افتراءهم هذا فى الآية (١٧) وما بعدها من سورة الزخرف صفحتى ٦٤٨، ٦٤٩ .

﴿مغرم﴾: هذا اللفظ يسميه علماء العربية (مصدرًا ميميًا) معناه الغرامة.

﴿مثقلون﴾: أى محملون ما يثقل كواهلهم فيصعب عليهم أداؤه.

﴿فهم يكتبون﴾: أى منه للناس ما يزعمونه مطلوبًا منهم من عبادة غيره تعالى.

﴿يريدون كيدًا﴾: إشارة إلى ما دبروه فى الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، وفى هذا إخبار بما سيكون منهم لأن هذا الكيد حصل قبل الهجرة مباشرة وسورة الطور هذه نزلت قبل ذلك.

﴿كسفا﴾: جمع كسفة وهى القطعة وزنًا، ومعنى، انظر الآية (٩٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧ . ﴿مركوم﴾: المراد: ملىء بالمطر، انظر الآية (٤٣) من سورة النور صفحة ٤٦٥ .

﴿يصعقون﴾: الصعق هو الموت قتلاً أو الإغماء. والمراد هنا القتل بالحرب، كما حصل يوم بدر وغيره، وقد يكون بغير الحرب، والمعنى يقتلون، انظر الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ .

المعنى: هل يقول هؤلاء المشركون أن محمَّدًا افترى القرآن على اللّٰه كلا. هم لا يعتقدون ذلك من صميم قلوبهم؛ لأنهم يعرفون أن محمَّدًا واحد منهم، وتربى بينهم، ولم يشتهر بالخطابة والشعر كما اشتهر كثير منهم، ومع ذلك عجز عن الإتيان بمثل القرآن فحولهم، فالحامل لهم على قولهم هذا إنما هو كفرهم الناتج عن العناد، انظر الآية (٢٣) من سورة البقرة صفحة ٦ . ولذا قال تعالى: (فليأتوا)... إلخ. أى إذا كان البشر يستطيع الإتيان بكلام مثل القرآن فليأتوا هم بمثله إن كانوا صادقين فى قولهم: إن محمَّدًا جاء به من نفسه، انظر الآية (٩٣) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٧، ١٧٨ .

ثم انتقل سبحانه إلى توبيخ آخر فقال: (أم خلقوا).. إلخ. أى هل وجدوا على هذا الخلق البديع من غير خالق حكيم فلهذا لم يوحدوه ولم يلتفتوا إلى رسوله. أم هم الذين خلقوا أنفسهم فلا يحتاجون لأحد؟. كل هذا مستحيل بدليل اعترافهم هم أنفسهم، انظر الآية (٨٧) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥ . بل هل خلقوا السموات والأرض فلذلك يتكبرون على

رسولنا؟ كلا باعترافهم هم أنفسهم، انظر الآية (٣٨) من سورة الزمر صفحة ٦١١ . ولذا قال سبحانه: بل لا يوقنون. أى هم لا يعتقدون ذلك من صميم قلوبهم. وإذا كانوا يعتقدون ذلك فلماذا لمْ يفردوه سبحانه بالعبادة. بل هل عند كفار قومك أيها النبى خزائن رحمة ربك حتى يعطوا النبوة لمَنْ يشاءون. ويمنعونها عمَنْ يشاءون؟. أم هم المسلطون على هذا العالم القاهرون له حتى يدبروا أموره على مايريدون ولا محاسب لهم على تصرفاتهم؟. بل هل لهم سلم منصوب إلى السماء يستمعون وهم صاعدون فيه كلاما من اللهِ يأمرهم بما يفعلون؟، إذا كان ذلك واقعًا فليأت مستمعهم بحجة واضحة تدل على صدق سماعه. وهذا تسفيه وتقريع. ثم بالغ فى تسفيههم بجعلهم كالمجانين عندما قالوا نعبد الملائكة لأنها بناتِ اللهِ. فقال سبحانه: (أم له البنات)... إلخ. أى بل هل خص اللهُ سبحانه نفسه بالبنات اللاتى تحتقرونها وخصكم أنتم بالبنين الذين تفخرون بهم؟ ثم أعرض عن خطابهم احتقارا لهم. ووجه الخطاب له ﷺ فقال: (أم تسألهم)... إلخ. أى بل هل سألتهم أجرًا على تبليغ الرسالة فهم من التزام الغرامة فى مشقة تجعل اتباعك صعبًا عليهم. ثم وبخهم توبيخًا آخر فقال: (أم عندهم الغيب)... إلخ. أى بل هل علم الغيب عندهم فهم يكتبون منه للناس ما يزعمونه مطلوبًا منهم من عبادة غيره تعالى. وغير ذلك من الجرائم، بل هل يريدون بك أيها النبى كيدًا من قتل وغيره؟، إذا فكروا فى ذلك فليعلموا أنهم وهم الكافرون بربهم هم المكيدون أى المغلوبون، وقد حصل وقتلوا وأسروا فى بدر كما تقدم فى سورة الأنفال. ثم ختم توبيخهم بما هو كالنتيجة لكل ما تقدم فقال: (أم لهم إله)... إلخ. أى بل هل لهؤلاء الكافرين إله غير اللهِ يعينهم ويمنع عنهم عذابه. قل أيها النبى أنت والمؤمنون معك تنزه اللهُ ربنا عما يزعمونه شريكًا له فى تصريف الكون. وبعدما سفه سبحانه عقولهم بصور شتى ونبههم لمكان الخطأ الواضح أراد أن يبين أنهم قوم معاندون مكابرون حتى فى المحسوسات فضلاً عن المعقولات. فقال سبحانه: (وإن يروا)... إلخ. أى فلو رأى هؤلاء بعض ما طلبوه من العذاب استهزاءً، كما فى الآية (٩٠) وما بعدها من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٦، ٣٧٧، لكذبوك وقالوا ما نراه ما هو إلا سحاب ملآن بالمطر. ولا يؤمنون أبدا كما فى آيتى (١٤،١٥) من سورة الحجر صفحتى ٣٣٨، ٣٣٩ . وهذا شأن الكفار قبلهم كما فى الآية (٢٤) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٦٩، ٦٧٠ . وإذا كان هذا حالهم فأعرض عنهم أيها النبى ولا تبال بهم، وأرح نفسك منهم حتى يلاقوا يومهم الذى يصعقهم اللهُ تعالى فيه بالقتل وقد حصل فى بدر وغيرها وفى هذا اليوم لا ينفعهم كيدهم شيئًا.

كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا
عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ
لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ
تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ(١) فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ(٢) النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

(٥٣) سُورَةُ النَّجْمِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا اثْنَتَانِ وَسِتُّونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾
وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾
عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ
بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ

المفردات: ﴿دون ذلك﴾: أى قبل العذاب المشار إليه فيما سبق وهو (الصعق).

﴿أكثرهم﴾: انظر المراد من ذلك فى الآية (٤٢) من سورة الروم صفحة ٥٣٦ .

﴿بأعيننا﴾: يقال هنا ما قيل فى ﴿أيد﴾ فى الآية (٤٧) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥ . والذى نفهمه هنا أنه ﷺ تحت رعاية ربه دائمًا. انظر الآية (٣٧) من سورة هود صفحة ٢٨٩ .

﴿وسبح بحمد ربك﴾ .. إلخ: المعنى: نزه ربك عما لا يليق به حامدًا له على نعمه عليك. تفعل ذلك حين تستيقظ من النوم وكذا تفعل فى الليل.

﴿وإدبار النجوم﴾: إدبار أى ذهاب. والمراد: حين ذهاب ضوئها بظهور ضوء الصبح.

المعنى: يوم يصعق الله هؤلاء الكفار لا ينفعهم كيدهم شيئًا من النفع ولو قليلا. ولا يجدون مَنْ ينصرهم بمنع العذاب عنهم. وإن لهؤلاء الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصى عذابًا قبل عذاب بدر وما بعدها وهو عذاب القحط المتقدم فى الآية (١٠) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧. ولكن أكثرهم لا يعلمون ما أعد لهم من العذاب.

وأصبر أيها النبى على أذاهم ولا تبال بهم وامضى لأمر ربك. وبلغ ما أرسلت به فإنك تحت رعايتنا. وكن دائمًا مرتبطًا بربك فسبحه عند قيامك من النوم أو من المجلس لأى عمل من صلاة أو غيرها.

---

(١) الليل.
(٢) إدبار.

وقد صح فى الحديث أنه ﷺ كان يقول عند قيامه من المجلس: (سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك). وقال: إن ذلك كفارة لما يحصل فى المجلس من اللغو؛ وكان يقول عند القيام للصلاة: (سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك).

وروى عن عائشة رضى اللّه عنها أنه ﷺ كان عند قيامه من النوم يكبر عشرا ويحمد عشرًا ويهلل عشرًا ويستغفر عشرًا، وإذا فرغ من الصلاة كان يسبح ويحمد ويكبر ثلاثًا وثلاثين. كل ذلك منه ﷺ امتثالاً لأمر ربه فيما سبق.

وفى قوله تعالى: (ومن الليل).. إلخ. أى وسبح ربك فى جزء من الليل، انظر الآية (١) وما بعدها من سورة المزمل صفحة ٧٧٣ . وسبحه كذلك عند ذهاب نور النجوم بدخول الصبح. اللهم وفقنا بفضلك وكرمك للعمل بسنة رسولك فى طاعة أمرك. إنك سبحانك نعم المجيب.

سورة النجم

المفردات: . ﴿والنجم﴾ انظر ما تقدم فى شرح الآية الأولى من سورة الصافات صفحة ٥٨٧، والمراد هنا جنس النجم فيشمل كل النجوم.

﴿هوى﴾: أى سقط، وذهب ضوءه يوم القيامة، انظر الآية (٢) من سورة التكوير صفحة ٧٩٣ والآية (٢) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥ . ﴿ما ضل﴾: أى ما أخطأ الطريق المستقيم.

﴿صاحبكم﴾: يريد به النبى ﷺ، وفى هذا التعبير توبيخ لهم حيث أنكروا صدقه مع علمهم بصدقه؛ لأنه عاش بينهم مدة طويلة ولم يجربوا عليه كذبة واحدة، انظر الآية (١٦) من سورة يونس صفحة ٢٦٨ . ﴿وما غوى﴾: المراد: وما اعتقد باطلا، انظر الآية (١٢١) من سورة طه صفحتى ٤١٧، ٤١٨ .

﴿وما ينطق﴾: أى بالقرآن. ﴿عن الهوى﴾ :أى بشهوة فى نفسه.

﴿إن هو﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾ و﴿هو﴾ أى القرآن.

﴿علمه﴾: المراد هنا علمه ما سيأتى من أول سورة المدثر كما سيأتى فى سورة المدثر صفحة ٧٧٥، وأما أول شىء علمه له فهو الآيات الأولى من سورة العلق صفحة ٨١٤ .

﴿شديد القوى﴾: هو جبريل عليه السلام.

﴿ذو مرة﴾: أى دقة، وحصافة، فلا يخطئ أبدا.

﴿فاستوى﴾: أى ظهر جبريل مستويا على صورته الحقيقة التى خلقه الله سبحانه عليها بأجنحته التى تملأ الأفق. انظر الآية الأولى من سورة فاطر صفحة ٥٧١ .

﴿الأفق﴾: أصل معنى الأفق الجهة، والمراد هنا: الجهة العليا للناظر إلى جهة السماء.

إما إطلاق علماء الهيئة الأفق على جانب السماء القريب (فى نظر الرائى) من الأرض فهو اصطلاح خاص بهم.

﴿دنا﴾: أى قرب منه ﷺ . ﴿فتدلى﴾: أى بالغ فى قربه منه ﷺ.

﴿قاب﴾: أى مقدار.

المعنى: أقسم سبحانه بالنجوم إذا تساقطت. واندثرت يوم القيامة لتخويفهم بأنه حاصل ولابد. فيجب أن يحذروه ولا ينكروه ولا يكذبوا الرسول الذى جاء به.

ولهذا المعنى كرر سبحانه القسم بيوم القيامة. انظر الآية (٧٥) من سورة الواقعة والآية الأولى من سورة القيامة صفحة ٧٧٨ والآية (٢) من سورة البروج صفحة ٨٠٠ . أقسم سبحانه بذلك على أن محمدًا الذى صاحبتموه مدة طويلة وعرفتم صدقه ما ضل عن طريق الصواب وما اعتقد باطلا أبدًا. انظر الآية (١٦) من سورة يونس صفحة ٢٦٨ والآية (٤٨) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٧. وما ينطق فيما أتاكم به من القرآن عن هوى نفسه وشهوته. فما الذى ينطق به من القرآن إلا وحى من الله يوحيه سبحانه إليه. علمه إياه جبريل، شديد القوى، وصاحب فطنة قوية بعدما علمه أول ما علمه قبل ذلك قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ما لم يعلم﴾ صفحة ٨١٤. ثم انقطع عنه الوحى مدة ثلاث سنين حتى اشتد حزنه ﷺ، وتطلعت نفسه إلى رؤية جبريل. فظهر له يومًا فى جهة السماء سادًا كل الأفق بأجنحته. ثم دنا من النبى ﷺ وقرب حتى كاد يمسه. فكان منه على مسافة قدر قوسين تحقيقًا كما سيأتى. وسيأتى أيضًا أنه ﷺ رأى جبريل عليه السلام مرة أخرى بصورته الحقيقية. ولم يره عليها غير هاتين المرتين وكانت كل منهما قبل نزول هذه السورة.

قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾
مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ(١) عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾
وَلَقَدْ رَءَاهُ(٢) نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾
عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾
مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ(٣) رَبِّهِ
ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ(٤) ٱللَّٰتَ(٥) وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ(٦)
ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ
إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم(٧) مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ(٨) إِن يَتَّبِعُونَ
إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن
رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ(٩) مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ(١٠)
وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ(١١) لَا تُغْنِى

المفردات: ﴿قوسين﴾: المراد: على بعد مسافة قوسين. وكانت العرب تقدر المسافات القصيرة بالقوس والرمح والذراع والشبر.

﴿أو أدنى﴾: أدنى أى أقرب و﴿أو﴾ فى مثل هذا المقام تقدم الكلام عليها فى الآية (١٤٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥ .

﴿فأوحى إلى عبده﴾: الضمير فى ﴿عبده﴾ يعود على مفهوم من سياق الكلام، وهو اللّه سبحانه لأن محمدًا ﷺ ليس عبدًا لجبريل بداهة، فكأنه قال: فأوحى جبريل إلى عبدالله .... إلخ. ونظيره الضمير فى ﴿عليها﴾ فى الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣، وقال بعضهم: فأوحى اللّه سبحانه إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل.

﴿ما أوحى﴾: المراد: أوحى إليه شيئًا فخمًا لا تحيط بكنهه العقول كما فى الآية (٧٨) من سورة طه صفحة ٤١٣ .

﴿ما كذب﴾: ﴿كَذب﴾ بتخفيف الذال.. بمعنى ﴿كذّب﴾ بتشديدها.

﴿الفؤاد﴾... إلخ: أى فؤاده ﷺ. أى قلبه. أى ما كذب قلبه بصره فيما رآه.

﴿أفتمارونه﴾: أى أفتجادلونه؟

﴿على ما يرى﴾: كان الأصل فيما رأى. لكن لما كان جدالهم يقصدون به غلبته ﷺ قال ذلك.

---

(١) أفتمارونه (٢) رآه (٣) آيات
(٤) أفرأيتم (٥) اللات (٦) مناة
(٧) آباؤكم (٨) سلطان (٩) للإنسان
(١٠) الآخرة (١١) السموات.

﴿نزلة أخرى﴾: مرة أخرى، وعبر بذلك للإشارة إلى أنها كانت نزولا أيضًا كالسابقة وإن لم تكن مثلها من كل وجه، والكلام صالح لأن يكون ﷺ فى هذه المرة كان على الأرض أيضًا ورأى جبريل عند سدرة المنتهى كما تقول: رأيت النجمة فى السماء.

﴿سدرة﴾: شجرة من السدر المتقدم فى الآية (١٦) من سورة سبأ صفحة ٥٦٥، ولا يعلم حالها إلا اللّه عز وجل علام الغيوب.

﴿المنتهى﴾: مكان الانتهاء، قيل: واللّه أعلم لأن مَنْ تحتها من الملائكة ينتهى صعودهم عندها. ومَنْ فوقها لا ينزلون إلا إليها. ﴿جنة المأوى﴾: قال ابن عباس: هى التى تأوى إليها وتنعم بها أرواح الشهداء، انظر الآية (١٥٤) من سورة البقرة صفحة ٣٠، والآية (١٦٩) من سورة آل عمران صفحة ٩١، والآية (٥٨) من سورة الحج صفحة ٤٤٢ . ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾: أى حين يغطيها ما يغطيها من خلائق لا يعلمها غيره سبحانه.

﴿مازاغ البصر﴾: أى ما تحول يمينا ولا شمالاً عما توجه إليه.

﴿وما طغى﴾: أى وما تجاوز ما شغل نفسه برؤيته.

﴿من آيات ربه الكبرى﴾: أى بعض الدلائل الكبرى الدالة على كمال قدرته تعالى وسعة ملكه. ﴿أفرأيتم﴾: أى أخبرونى.

﴿اللات. والعزى. ومناة﴾: هذه الثلاثة أسماء لأصنام كانوا يزعمون أنها تمثل بعض الملائكة، وكانوا يتقربون بها إلى الله سبحانه وتعالى. وقد كانوا يزعمون أن الملائكة بنات اللّه. انظر الآية (٢٧) الآتية فى هذه السورة صفحة ٧٠٢ والآية (١٤٩) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٥ والآية (١٥) وما بعدها من سورة الزخرف صفحة ٦٤٨ .

﴿الثالثة الأخرى﴾: المراد من هذين الوصفين إلحاق مناة بسابقتيها فى الاحتقار كما تقول: بلغت به الجرأة هو الآخر أن يقول كذا.

﴿ألكم الذكر﴾... إلخ : انظر مثل هذا التوبيخ فى الآية (٥٧) وما بعدها من سورة النحل صفحتى ٣٥٢، ٣٥٣ والآية (٤٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٩ .

﴿ضيزى﴾: أى جائرة يقال: ضاز فى الحكم. أى جاز فيه. وضازه حقه بوزن باعه إذا نقصه وبخسه.

﴿إلا أسماء﴾: أى لا حقيقة لها. انظر اعترافهم بذلك يوم القيامة فى الآية (٧٤) من سورة غافر صفحة ٦٢٧ .

﴿من سلطان﴾: ﴿من﴾ لإفادة عموم نفى ما بعدها و﴿سلطان﴾: أى دليل وبرهان.

﴿إن يتبعون﴾: ﴿إن﴾ كسابقتها.

﴿أم للإنسان﴾: انظر المراد من ﴿أم﴾ هنا فى الآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ .

﴿كم من ملك﴾: ﴿كم﴾ أى كثير.

﴿من﴾: تفيد أن ما بعدها تفسير وبيان لـ ﴿كم﴾ قبلها.

﴿لا تغنى﴾: لا تنفع.

المعنى: فكان جبريل قريبًا منه ﷺ بصورته الهائلة. فسقط ﷺ على الأرض مغشيًا عليه. ولما أفاق أسرع إلى بيت خديجة وقال (دثرونى دثرونى): فنزل عليه جبريل فى تلك اللحظة لكنه بغير تلك الصورة. فأوحى إليه أى بلغه ما أمره ربه بتبليغه له ﷺ فى ذلك اليوم وهو قوله تعالى: (يا أيها المدثر قم فأنذر)... إلى آخر الآية (٥) من سورة المدثر صفحتى ٧٧٥، ٧٧٦ .

ثم بيَّن سبحانه أن رؤيته ﷺ لجبريل على صورته الحقيقية كانت حقيقة لاشك فيها. فقال: (ما كذب الفؤاد)... إلخ. أى ما كذب قلبه ما رأته عينه. أى لم يشك فى أن ما رآه هو جبريل قطعًا. فهل بعد ذلك تكذبون أيها المشركون فتجادلونه مغالبين له على ما رأى معاينة من تلك الصورة العجيبة التى بلغ من غرابتها أنها حاضرة فى ذهنه إلى الآن. ولذلك جاء القرآن بـ﴿يرى﴾: التى تدل على الرؤية فى الحال بدلاً من (رأى) التى تدل على الماضى.

ثم أكد ذلك بقوله: (ولقد رآه)... إلخ. أى وعزتى لقد رأى محمَّد عبدنا جبريل على تلك الصورة مرة أخرى، وكان جبريل فى هذه المرة فى مكان أعلى من الأول، فقد كان عند سدرة المنتهى التى عندها جنة المأوى. رآه حين أحاط بهذه السدرة ما أحاط بها من عوالم الغيب

التى لا يحيط بوصفها غيره تعالى. ثم أكد ذلك بقوله: مازاغ البصر وما طغى. أى كان متحققًا مما رأى. ثم زاد التوكيد بقوله: (لقد رأى)... إلخ. أى وعزتى لقد رأى نبينا ﷺ بعضًا من دلائل ربه الكبرى الشاهدة على سعة ملكه وتمام قدرته. وإذا كان هذا هو الحق فأخبرونى أيها المشركون عن آلهتكم هذه التى تسمونها ـ اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ـ هل لها من شىء من هذه القدرة والعظمة، حتى تجعلونها تمثل بنات اللّٰه وتتقربون إليها؟

ثم وبخهم توبيخًا آخر فقال: (ألكم الذكر)... إلخ. أى هل يصح أن تختاروا لأنفسكم الذكر الذى تعتزون به. وتجعلون للّٰه الأنثى التى إذا بشر بها أحدكم امتلأ غيظًا. تلك القسمة إذا رضيتموها قسمة ظالمة لأنكم جعلتم للّٰه ما تكرهون.

ثم أبطل زعمهم بقوله: (إن هى)... إلخ. أى ما هذه الأصنام التى تعبدونها إلا مجرد أسماء لاحقيقة لها. اخترعتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل اللّٰه بعبادتها من برهان تستندون إليه. ثم أعرض سبحانه عن مخاطبتهم احتقارا لهم فقال: (إن يتبعون)... إلخ. أى ما يتبعون فى عملهم إلا توهم أن ما هم عليه حق، جاءهم ذلك من تقليد الآباء، ويجرون وراء ما تشتهيه أنفسهم من أنها شفعاء لهم عند اللّٰه تدفع عنهم الشقاء والعذاب. ومن عجيب أمر هؤلاء المشركين أنهم يفعلون ذلك فى الوقت الذى جاءهم من ربهم الكتاب الذى فيه هدايتهم.

ثم انتقل سبحانه إلى توبيخهم وقطع أطماعهم فى خير الآخرة فقال: (أم للإنسان)... إلخ. أى بل هل يكون للإنسان كل ما يتمناه لمجرد أنه يحبه. ومن ذلك ما فى الآية (٣٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦ والآية (٥٠) من سورة فصلت صفحة ٦٢٧ . كلا. لن يكون له ذلك لأن الأمر كله للّٰه فى الدنيا والآخرة. وهو سبحانه لا يعطى إلا ما يشاء لمن يريد. وليس لأحد أن يتحكم عليه فى شىء.

ثم أكد ذلك بقوله: (وكم من ملك)... إلخ. أى وكثير من الملائكة المقربين لا تنفع شفاعتهم... إلخ.

شفعتهم(١) شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء
ويرضى ﴿٢٦﴾ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة(٢) ليسمون
الملائكة(٣) تسمية الأنثى ﴿٢٧﴾ وما لهم به من علم
إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق
شيئا ﴿٢٨﴾ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد
إلا الحياة(٤) الدنيا ﴿٢٩﴾ ذلك مبلغهم من العلم إن
ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن
اهتدى ﴿٣٠﴾ ولله ما في السموات(٥) وما في الأرض
ليجزي الذين أساءوا(٦) بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا
بالحسنى ﴿٣١﴾ الذين يجتنبون كبائر(٧) الإثم والفواحش(٨)
إلا اللمم إن ربك واسع(٩) المغفرة هو أعلم بكم إذ
أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم(١٠)

المفردات: ﴿يأذن الله لمَنْ يشاء﴾: أى إلا بعد إذنه سبحانه للشافع، ورضاه عن المشفوع له. انظر الآية (٢٥٥) من سورة البقرة صفحة ٥٣ والآية (٣) من سورة يونس صفحة ٢٦٥ . والآية (٢٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣ والآية (٢٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٦ .

﴿ليسمون الملائكة﴾..... إلخ: المعنى: يسمون كل واحد من الملائكة تسمية الأنثى، أى يسمونه بنتاً. يقول العربى: كسانا الأمير حلة يريد كسا كل واحد منا حلة، والمراد يصفونها بأنها بنات الله. انظر الآية (٥٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٢ والآية (١٩) من سورة الزخرف صفحتى ٦٤٨، ٦٤٩، وانظر الاسم بمعنى الصفة فى الآية (١١) من سورة الحجرات صفحة ٦٨٦ .

﴿من علم﴾: ﴿من﴾ لإفادة عموم نفى ما بعدها.

﴿إن يتبعون﴾: ﴿إن﴾ هنا نافية بمعنى (ما) أى ما يتبعون إلا ... إلخ.

---

(١) شفاعتهم.
(٢) بالآخرة.
(٣) الملائكة.
(٤) الحياة.
(٥) السموات.
(٦) أساءوا.
(٧) كبائر.
(٨) الفواحش.
(٩) واسع.
(١٠) أمهاتكم.

﴿الظن﴾: المراد: التوهم الباطل. ﴿لا يغنى﴾: أى لا ينفع.

﴿من الحق﴾: ﴿من﴾ بمـــعنى (عن). والحق هنا هو العلم القطعى لأنه لا ينفع فى الاعتقاديات غيره.

﴿مبلغهم﴾: أى منتهى ما بلغوه من العلم، انظر الآية (٧) من سورة الروم صفحة ٥٣١ .

﴿كبائرالإثم والفواحش﴾: تقدم شرحها فى الآية (٣٧) من سورة الشورى صفحة ٦٤٤ .

﴿إلا اللمم﴾:اللمم هى الصغائر من الذنوب، و﴿إلا﴾ بمعنى (لكن) أى لكن اللمم يغفرها الله، لأنه سبحانه واسع المغفرة، انظر الآية (٣١) من سورة النساء صفحة ١٠٥ .

﴿من الأرض﴾: أى خلقكم من تراب الأرض، انظر الآية (٣٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦، والآية (٥٥) من سورة طه صفحة ٤١٠، والآية (١١) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣، والآية (١٧) من سورة نوح صفحة ٧٦٩ .

﴿أجنة﴾: جمع جنين وهو الطفل ما دام فى بطن أمه.

المعنى: وكثير من الملائكة المقربين فضلا عن غيرهم لا تنفع شفاعتهم أقل نفع إلا من بعد أن يأذن الله تعالى لهم فيها ويرضى عن المشفوع له.

وإذا كان هذا حال أقرب الخلق إلى الله تعالى، فكيف يطمع المشركون فى شفاعة معبوداتهم الباطلة. وهى أبعد الخلق منه تعالى، انظر زعمهم هذا فى الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨ ، ولا تنس ما قيل فى شرح الآية (٣٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦ والآية (٥٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧ .

ثم بيَّن سبحانه شفاعة أخرى لهؤلاء المشركين وهى وصفهم الملائكة بأنها بنات الله، والذى جرأهم على ذلك كفرهم باليوم الذى يجازى فيه الخلائق على أعمالهم. وليس عندهم علم يستندون إليه فيما يقولون. لكن عندهم مجرد وهم أوقعهم فيه تقليد الآباء بدون بحث وتحقيق. وإن مثل هذا الظن لا ينفع أقل نفع فى مقام العلم القطعى المطلوب فى العقائد التى لا يكفى فيها الظن.

وإذا كان أمر هؤلاء كما ذكر فأرح نفسك أيها النبى من عناء إرشاد مَنْ أعرض عن القرآن وحصر همه فى تحصيل الدنيا والتمتع بزخارفها، لأن طلب الدنيا هو نهاية قصده من العلم، فهم لا يعلمون إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا وفى غفلة عما سيلاقيهم فى الآخرة. ومَنْ كان هذا شأنه فلا تزيده الدعوة إلى الحق إلا عنادًا وإصرارًا على الباطل.

ثم بين سبحانه سبب أمره له ﷺ بالإعراض عنهم فقال: (إن ربك هو أعلم)...إلخ. أى إن الذى يعلم مَنْ تفيد فيه الدعوة ومَنْ لا تفيد هو الله وحده. فلا تشق نفسك فى دعوتهم بعد ذلك؛ لأنه ليس عليك إلا البلاغ لتقوم الحجة عليهم. وقد بلغت.

ثم بين سبحانه سبب أنه هو الأعلم بأحوالهم فقال: (ولله ما فى السموات)... إلخ. أى إن كل المخلوقات فى ملكه وتحت تصرفه فهو يعلمها تمام العلم. فأرح نفسك أنت أيها النبى.. واترك الأمر لنا. فنحن العالمون بهم. نجزى يوم القيامة المسىء بعقاب عمله. ونجزى الذين أحسنوا أعمالهم بالمثوبة الحسنى وهى الجنة.

ثم بيَّن سبحانه المحسنين فقال: الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش. وإذا فعلوها لم يصروا عليها بل يسارعون إلى التوبة، كما فى الآية (١٣٥) من سورة آل عمران صفحتى ٨٤،٨٥ .

لكن إذا وقع منهم صغيرة كالنظرة المحرمة مثلا فإن الله تعالى يغفرها لأن ربك أيها النبى واسع المغفرة. فيغفر الصغائر باجتناب الكبائر كما فى الآية (٣١) من سورة النساء صفحة ١٠٥، ويغفر الكبائر بالتوبة النصوح، انظر ما تقدم فى الآية (٥٣) من سورة الزمر صفحتى ٦١٣،٦١٤ .

وهو سبحانه أعلم بأحوالكم من مبدأ خلقكم من الأرض. وحين كنتم فى الأرحام، انظر تفسير الآية (٣٤) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤ .

والتصريح بقوله تعالى: ﴿فى بطون أمهاتكم﴾ مع أن الجنين لا يكون إلا فى البطن للحكمة المبينة فى شرح الآية (٣٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ .

فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ
ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ
ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾
وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾
وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ
يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ
ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ
وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾
مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾
وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾
وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾
وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾

المفردات: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾: أى لاتمدحوها افتخارًا، انظر الآية (٤٩) من سورة النساء صفحتى ١٠٨، ١٠٩ ..

﴿تولى﴾: انصرف معرضا.

﴿أكدى﴾: تقول العرب: فلان حفر فى الأرض فأكدى أى وجد كدية أوقفته عن الحفر، والكدية بضم فسكون هى الحجر الكبير شديد الصلابة فالكلام كناية عن التوقف عن العطاء.

﴿فهو يرى﴾: أى يعلم الحقيقة، فالرؤية هنا علمية كقولهم رأى مالك وأبو حنيفة فى المسألة الفلانية كذا أى علما.

﴿أم﴾: انظر المراد منها فى الآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ .

﴿ينبأ﴾: أى يخبره علماء أهل الكتاب وكانوا متصلين بهم كما فى شرح الآية (٥١) من سورة النساء صفحة ١٠٩، وأيضًا فى الكلام حث له على البحث والتحرى.

﴿صحف موسى﴾: المراد: التوراة، انظر الآية (١٤٥) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٤، ٢١٥، وقدم موسى وصحفه لقرب عهدها من العرب وشهرة التوراة عندهم. وقدم إبراهيم عليه السلام فى الآية (١٩) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤ حسب الترتيب الزمنى.

﴿وفى﴾: أى أدى ما أمر به على أتم وجه. انظر الآية (١٢٤) من سورة البقرة صفحة ٢٤، ورضى أن يرمى فى النار ولم يفرط فى الدعوة لدينه، انظر الآية (٦٨) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٧ .

---

(١) أفرأيت (٢) إبراهيم (٣) للإنسان
(٤) بجزاه (٥) ثمود.

﴿ألا تزر وازرة﴾... إلخ : تقدم فى الآية (١٦٤) من سورة الأنعام صفحة ١٩١ .

﴿إلا ما سعى﴾: أى إلا جزاء سعيه فى الدنيا.

﴿وأن سعيه سوف يرى﴾: أى يراه اللَّه سبحانه وتعالى ورسوله والمؤمنون، ويراه صاحبه نفسه. انظر الآيات (١٠٥) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٩، ٢٦٠ وآيتى (٨،٧) من سورة الزلزلة صفحة ٨١٨ .

﴿يجزاه﴾: أى يجازيه سبحانه وتعالى على عمله، تقول العرب: جزاه اللَّه بعمله، وعلى عمله، وجازاه عمله. كلها بمعنى واحد.

﴿المنتهى﴾: المراد: المرجع والمصير انظر الآية (٣) من سورة غافر صفحة ٦١٧ والآية (٨) من سورة العلق صفحة ٨١٤ .

﴿أضحك وأبكى﴾: المراد أوجد أسباب الضحك وأسباب البكاء.

﴿أمات وأحيا﴾: انظر الآية (٢) من سورة الملك صفحة ٧٥٤ .

﴿نطفة﴾: تقدم فى الآية (١٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦ .

﴿تمنى﴾: أى تدفق فى الرحم، انظر الآية (٦) من سورة الطارق صفحة ٨٠٢ .

﴿النشأة الأخرى﴾: هى البعث من القبور للحساب والجزاء، انظر الآية (٢٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٣ والآية (٦٢) من سورة الواقعة صفحة ٧١٦ .

﴿أقنى﴾: تقول العرب: أقناه اللَّه أى أرضاه بالصبر والقناعة. فالمراد هنا: أفقر. انظر الآية (٣٦) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨ .

﴿الشعرى﴾: نجم ضخم كانت العرب تعرفه، وهو ألمع نجوم الشمس. ويبعد عنا أكثر من بعد الشمس بنصف مليون مرة. فضوؤه بالنسبة لضوء الشمس كضوء الكشاف الضخم بالنسبة لضوء الشمعة الصغيرة ونسبة حرارته لحرارة الشمس كنسبة ضوئه. ولو قرب منا كالشمس لتبخر ماء المحيطات، ولم يبق فيها قطرة. ولذاب جميع ما فى الأرض من معادن . ولفنى

العالم أجمع. والعرب تعرف ضخامته وتنسب إليه شدة الحر. وذلك كثير فى أشعارهم، ولهذا عبده كثير منهم لاعتقادهم تأثيره فى العالم. وفى تخصيصه بالذكر تجهيل لهؤلاء الذين عبدوه حيث جعلوا المربوب ربا يعبد.

﴿عادا الأولى﴾: هى المذكورة فى أربعة وعشرين موضعًا فى القرآن الكريم فى الآيات (٦٥، ٧٤) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٣، ٢٠٤، والآية (٧٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣، والآيات (٥٠، ٥٩، ٦٠) من سورة هود صفحتى ٢٩١، ٢٩٣، والآية (٩) من سورة إبراهيم صفحتى ٣٣٠، ٣٣١، والآية (٤٢) من سورة الحج صفحة ٤٣٩، والآية (٣٨) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٥، والآية (١٢٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٧، والآية (٣٨) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٥، ٥٢٦، والآية (١٢) من سورة ص صفحة ٥٩٨، والآية (٣١) من سورة غافر صفحة ٦٢٢، والآيتين (١٣،١٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣١، والآية (٢١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٩، والآية (١٣) من سورة ق صفحة ٦٨٩، والآية (٤١) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥، والآية (٥٠) من سورة النجم هنا والآية (١٨) من سورة القمر صفحة ٧٠٦، والآيتين (٤، ٦) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١، والآية (٦) من سورة الفجر صفحة ٨٠٦؛ وذكرت عاد بغير هذا الاسم مرة واحدة فى الآية (٨٩) من سورة هود صفحة ٢٩٧، ولم تذكر عاد إلا وذكر معها ثمود مقرونين فى آية واحدة أو فى آيات متتاليات؛ قال ابن كثير: إن هاتين الأمتين ليس لهما ذكر فى التوراة التى بين أيدينا. ولكن فى القرآن ما يدل على أن نبى اللّٰه موسى أخبر عنهما، ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومَنْ فى الأرض جميعًا فإن اللّٰه لغنى حميد. ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود﴾.. إلخ آيتى (٨، ٩) من سورة إبراهيم صفحتى ٣٣٠، ٣٣١. وكانت عاد وثمود من العرب البائدة وهما من أقدم الأمم وجودا وآثارا فى الأرض وكانوا بعد قوم نوح مباشرة. انظر الآية (٦٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٣. وكانوا أشداء جبارين أبطرتهم قوتهم وما هم فيه من جنات ونعيم. انظر الآية (٦٥) وما بعدها من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٣، ٢٠٤. والآية (١٢٣) وما بعدها من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٧، ٤٨٨، والآية (١٣) وما بعدها من سورة فصلت صفحتى ٦٣١، ٦٣٢. وكانت عاد تسكن الأحقاف كما تقدم فى الآية (٢١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٩ فى شمال حضرموت جنوب الربع الخالى

وشرقها عمان، وموضع بلادهم اليوم رمال ليس بها أحد، ولم يصفها القرآن بلفظ الأولى إلا فى هذه الآية، ويرى بعض المفسرين أنها عاد واحدة وأن المراد بالأولى أنها المتوغلة فى القدم جدًا. وقال ابن كثير: إن عادا الثانية كانوا بطنًا من عاد الأولى. وكانوا مقيمين بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم، والله تعالى أعلم.

﴿وثمود﴾: تقدم فى الآية (٧٣) وما بعدها من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٤،٢٠٥ .

﴿أظلم وأطغى﴾: أى أشد ظلمًا وطغيانًا؛ فقد عاش يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما كما فى الآية (١٤) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢، ومع ذلك فقد كانوا يضربونه ويسخرون منه. وكان الرجل منهم إذا قارب الموت، يأخذ ابنه بيده ويقف به عند نوح ويحذره من اتباعه ويقول له: أبى وصانى بذلك، وأنا أوصيك به اليوم، فلا تصدقه؛ ولهذا دعا عليهم نوح بدعائه المذكور فى الآية (٥) وما بعدها من سورة نوح صفحتى ٧٦٨، ٧٦٩ .

المعنى: وإذا كان ربكم هو وحده العليم بأحوالكم فلا تمدحوا أنفسكم لتظهروها أمام الناس فى مقام أعلى. بل اتركوا الحقيقة له سبحانه فهو أعلم بالمتقى وغيره. وبعدما بين سبحانه جهل كفار مكة بعبادة غيره تعالى ذكر واحدا منهم ضم إلى ذلك شناعة أخرى.

فقال: (أفرأيت الذى تولى)... إلخ. وقد ذكر المفسرون فى تعيين هذا المتولى أقوالا عدة منها أنه هو الوليد بن المغيرة الآتى الحديث عنه فى الآية (١١ إلى ٢٦) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦ . وحيث لم يعينه سبحانه فلا نتكلفه، بل الذى يهمنا فى مكان العبرة أنه رجل من المشركين سمع القرآن وهمَّ بالإيمان. ولما سمع بذلك المشركون عيروه على ترك دين آبائه. فقال: إنى خشيت عذاب الله يوم القيامة الذى سمعته فى قرآن محمَّد، فقال له أحدهم (لا تخف. لئن صدق محمَّد فى قوله إن هناك يوم قيامة فسأتحمل عنك كل ذنوبك، على شرط أن تعطينى الآن شيئًا من مالك). وكان المشركون يضللون بذلك البسطاء، انظر الآية (١٢) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢ . فوافقهم، وأعطى بعض المال، ثم امتنع لشدة حرصه عليه. فنزل فيه قوله تعالى: ﴿أفرأيت الذى تولى﴾... إلخ. أى إذا كان ما سبق هو الحق فأخبرنى أيها السامع العاقل عن هذا الذى انصرف عن الإيمان بعد همه به. وأعطى قليلاً مما أنفق

عليه ثم منعه حرصه الشديد. فضم إلى التصميم على الكفر البخل بما التزم به. فأخلف الوعد. والبخل وخلف الوعد من أقبح صفات الرجال خصوصًا عند العرب. ثم زاده تسفيها فقال: (أعنده)... إلخ، أى هل عند هذا الرجل علم الغيب فهو يعلم أن غيره يصح أن يتحمل عنه عذاب الآخرة. بل هل لم يخبره أهل الكتاب بماجاء فى صحف موسى وإبراهيم الذى يزعمون أنهم على ملته مع أنه قام بما أمره اللّٰه به خير قيام، ثم شرع سبحانه فى بيان اثنى عشر شيئًا مما فى هذه الصحف فقال: ﴿ألا تزر وازرة﴾.... إلخ، أى أن حقيقة الحال أنه لا تحمل نفس وزر غيرها يوم القيامة. وأن الإنسان ليس له فى ذلك اليوم إلا جزاء عمله خيرًا أو شرًا فلا يأخذ من عمل غيره شيئًا. أما ما ثبت من انتفاع الإنسان بدعاء غيره له، وصدقته. فسنتكلم عليه فى آخر تفسير هذه الصفحة إن شاء اللّٰه تعالى؛ وفيها أيضًا أن سعيه سوف يراه هو نفسه ليطمئن إلى عدل ربه. ويراه اللّٰه تعالى والرسول ﷺ والمؤمنون، تشريفًا للمؤمن وفضيحة لغيره على رءوس الأشهاد. ثم يجزى صاحب العمل على عمله الجزاء الأوفى. لايظلم أحد مثقال ذرة. وفيها أن مرجع الخلق إلى اللّٰه تعالى يوم القيامة. وأنه سبحانه هو وحده الذى خلق ما يضحك وما يبكى، أى أنه سبحانه وحده هو الذى خلق كل ما يَسُرُّ وكل ما يحزن. فالمؤمن يرضى بقضاء اللّٰه سبحانه فيهما فَيُسَرّ فيما يَسُرُّ ويصبر على ما يحزن. وأنه وحده هو الذى أمات مَنْ قضى عليه الموت. وأحيا مَنْ يريد حياته. وأنه هو الذى خلق من الحيوان الذكر والأنثى لبقاء النوع. خلقهما من نطفة حين تدفق فى الرحم من ماء مهين. فكيف يشمخ بأنفه، ويتكبر على أوامر خالقه. وينكر البعث؛ انظر الآيات (٣٧ إلى ٤٠) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠ والآية (٢٠) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٥ . وأن عليه سبحانه وفاء بوعده إحياء خلقه بعد الموت للحساب والجزاء. وأنه هو الذى أغنى ويغنى مَنْ يشاء. وأفقر ويفقر مَنْ يشاء. وأنه هو رب الشعرى المتصرف فيها. فلا يعجزه أن يفعل بكم ما يشاء ولايصح أن تعبدوها لأنها مخلوقة مثلكم. وأنه أهلك عادا الأولى. وكانوا أكثر منكم أموالا وأولادا فإهلاككم عليه أهون. وأهلك ثمودًا فلم يبق منها أحد، وأهلك قبل ذلك قوم نوح بالغرق جميعًا لشدة ظلمهم وطغيانهم. قال المفسر السلفى ابن كثير فى معنى ﴿ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ لايحصل للإنسان من الأجر إلا ما كسب هو بنفسه. ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعى

وأتباعه وكذا الإمام مالك أن القرآن لا يصل إهداء ثوابه إلى الموتى لأنه ليس من عملهم. ولهذا لم يرغب فيه ﷺ أمته، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إشارة، ولم ينقل ذلك عن أحد من أصحابه رضوان الله عليهم، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه.

وباب القربات يقتصر فيها على النصوص ولا يتصرف فيها بأنواع الأقيسة والآراء. فأما الدعاء والصدقة فمجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما وقوله ﷺ: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له). رواه مسلم: لأن كل ذلك فى الحقيقة من سعيه. متفق مع قوله تعالى: ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾: الآية (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠ انتهى كلام ابن كثير. ويؤيد ما قاله ابن كثير ما أرشدنا إليه فى شرح الآية (٢١) من سورة الطور صفحتى ٦٩٧،٦٩٨ .

ومما اغتر به كثير من الناس حتى صار كأنه من صميم الدين ما يرونه على أنه حديث ولفظه (اقرؤا يس على موتاكم). فهذا طعن فيه الحفاظ. قال ابن القطان: إنه مضطرب وموقوف أى لم ينسب للنبى ﷺ: وبعض رواته مجهولون وقد يكونون ممنّ اندسوا على الإسلام لتشويهه. وقال فيه الحافظ الدارقطنى: إنه ضعيف الإسناد مجهول المتن والسند. فحديث هذا حاله كيف يعول عليه. خصوصًا بعد معارضته لنصوص القرآن المتقدمة. وأحاديث الرسول ﷺ على أنه ليس للإنسان إلا عمله. وما يتشدق به بعضهم من قولهم: (الأحاديث الضعيفة يعمل بها فى فضائل الأعمال). وتطبيقهم هذا على قراءة سورة يس على الموتى باطل: لأن هذه القاعدة لو صحت فإن المراد بها أن العمل الذى ورد عن الشارع نص صريح فى فضله كالصدقة على الفقراء مثلاً. فإنه يجوز العمل بالحديث الضعيف الذى يحث عليها. على أنه حينئذ يمكن الاستغناء عنه بالنص الأصلى. أما العمل الذى تدل النصوص القطعية على عدم مشروعيته كما هنا. فإنه لا يجوز الإقدام عليه إلا بنص عن الشارع مقطوع بصحته. لا بحديث مطعون فيه. وإلا نكون قد ابتدعنا فى دين الله تعالى مالم يأذن به، على أن هذا الحديث مع ضعفه قال فيه مالك رضى الله تعالى عنه: (المراد منه قراءة يس عند المحتضر) ولذا ذكره ابن ماجه فى باب (ما جاء فيما يقال عند المحتضر) فالمراد من موتاكم أى مَنْ حضرهم الموت. ولهذا قيل: إنها ما قرئت على محتضر إلا سهل عليه. لما فيها من التوحيد

والبشرى بالجنة. وقال ابن القيم فى كتابه (أعلام الموقعين) جزء ٤ صفحة ٣٢٣ الطبعة المنيرية (المفرط من غير عذر لا ينفعه أداء غيره عنه لفرائض اللّٰه تعالى التى كان هو المأمور بها ابتلاءً وامتحانا له دون غيره. فلا تنفع توبة أحد عن أحد، ولا إسلامه عنه. ولا صلاته. لا غير ذلك). وقال الشاطبى فى كتابه الموافقات جزء ٢ صفحة ٢٢٧ طبعة مصطفى محمد: المطلوب الشرعى ضربان: أحدهما ما كان من قبيل العادات الجارية بين الخلق كالتصرفات المالية.

والثانى: ما كان من قبيل العبادات اللازمة للمكلف لتوجيهه إلى ربه.

فأما القسم الأول فالنيابة فيه صحيحة يقوم بها الإنسان مقام غيره؛ لأن الحكمة فيها تتحقق بذلك. كدفع الديون مثلاً. ما لم يكن ذلك الأمر العادى مشروعًا لحكمة لا تتعدى الشخص المطلوب منه هذا الفعل كالزواج وتوابعه من وجوه الاستمتاع التى لا تصح النيابة فيها شرعًا. ومثل ذلك الحدود فى مثل السرقة والزنا وكل العقوبات البدنية، فلا يقتل غير القاتل. ولا تقطع يد غير السارق ولا يجلد غير الزانى؛ لأن المقصود للشارع منها الزجر، والزجر لا يتعدى الجانى. ما لم يكن الجزاء فيه مال كالدية فى القتل الخطأ، فإن النيابة فيه تصح.

وأما النوع الثانى وهو ما كان من قبيل العبادات، فالمقرر فيه أن التعبدات الشرعية لا يقوم فيها أحد عن أحد. ولا يحمل وزر التقصير فيها غير المقصر. وذلك ثابت بالنصوص، وبالنظر العقلى فى حكمة التشريع. فالنصوص كقوله تعالى: ولا تزر وازرة وزر أخرى. وقد كررها سبحانه فى القرآن فى خمسة مواضع وهى الآية (١٦٤) من سورة الأنعام صفحة ١٩١ والآية (١٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦ والآية (١٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٤ والآية (٧) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٦، ٦٠٧ والآية (٣٨) من سورة النجم صفحة ٧٠٣؛ وكقوله تعالى: ﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ الآية (١٣٩) من سورة البقرة صفحة ٢٧، وقوله سبحانه: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء﴾ الآية (١٢)

من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢، وقوله سبحانه. ﴿ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه﴾ الآية (١٨) من سورة فاطر صفحة ٥٧٤، وقوله تعالى لنبيه ﴿ما عليك من حسابهم من شيء﴾ الآية (٥٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٠ . ومما يدل على أن أمور ما بعد الموت لا يستطيع أحد نقل أجر لأحد فيها أو رفع وزر عن أحد. الآيات (٣٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤ و(٤٦) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦ و(١٩) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٦ . وغير ذلك كثير.

ومن هذا ما صح من أنه ﷺ لما نزل عليه قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ الآية (٢١٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٣ . جمع قومه وخطب فيهم فقال: (يا عم، يا عباس، سلنى من مالى ما شئت، فإنى لا أغنى عنك يوم القيامة من الله شيئًا. يا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئت، فإنى لا أغنى عنك من الله شيئًا).

وأما إذا نظرنا إلى حكمة تشريع العبادات، فإنا نعلم أن المقصود منها الخضوع له تعالى ومراقبته والخوف منه، فلا نعمل ما يغضبه. والنيابة فى العبادة لا تحقق هذه الحكمة؛ لأنها لو صحت لكان الفاعل هو الخاضع لله لا المنوب عنه.

والخضوع والمراقبة لا يتصف بهما إلا فاعلهما وأيضًا لو صحت النيابة فى العبادات البدنية لصحت فى القلبية كالإيمان، والصبر، والشكر، والرضا، والتوكل، وما أشبه ذلك. وبهذا لا تكون التكاليف محتمة. على كل شخص، بل يكفى أن يفعلها بعض المؤمنين نيابة عن الجميع فينجو كل مفرط. ولا يقول بهذا عاقل.

انتهت عبارة الشاطبى. ومما يؤيد كلام الشاطبى أن العقل لا يقبل أن يتمرغ الرجل فى الوساخة ويطلب من غيره أن يغتسل بالماء نيابة عنه؛ لأن الماء لا ينظف إلا مَنْ اغتسل به فقط دون غيره، فكيف يعقل أن يعيش الرجل طوال حياته ملوثًا بقاذورات المعاصى حتى يموت على ذلك قذرًا ثم يأتى بعد ذلك رجل آخر ويتطهر نيابة عنه. اللهم احفظنا من هذه الجهالات التى شوهت وجه دينك المستقيم.

بقى قسم آخر يدور الأمر فيه بين العبادة والأمور المالية كالحج والتضحية فى العيد وهذا أجاز الشارع فيه النيابة نظرًا لما فيه من جهة المال إذا فاتت الجهة الأخرى على المكلف. والمال فى الحج مطلوب لفقراء الحرم تحقيقًا لدعاء الخليل إبراهيم عليه السلام، انظر الآية (١٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٢٤، ٢٥ . والضحية فيها مصلحة الفقراء.

أما دعاء الإنسان لغيره، وتصدقه عنه، فقال المفسر أبو السعود: (إن مرجع انتفاع المدعو له، والمتصدق عنه هو عمله نفسه؛ لأنه لولا عمله الصالح، وإخلاصه فيه، لما سخر له سبحانه مَنْ يدعو له).

وبيان ذلك أن دعاء الداعى، وتصدقه، طاعة مقدمة منه له تعالى يرجع ثوابها له نفسه، سواء استجاب اللّه دعاءه أم لا، كما حصل لنبينا ﷺ عندما استغفر لعمه ولعبد اللّه بن أُبى بن سلول، ونهاه سبحانه وتعالى عنه، ومع ذلك أثابه على توجهه إليه تعالى لأنه عبادة فى ذاته. انظر الآية (١١٣) من سورة التوبة صفحة ٢٦١ . وإنما ينتفع المدعو له بهذا الدعاء إذا كان فيه أهلية لذلك من صالح الأعمال وحسن الإخلاص؛ لأن الدعاء لا يخرج عن كونه شفاعة من الداعى للمدعو له.

وشرط قبول الشفاعة إذن اللّه تعالى فيها، ورضاه عن المشفوع له. انظر شرح الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦ . هذا هو الحق الذى كان عليه سلف الأمة. قال الشاطبى فى الموافقات جزء ٢ صفحة ١٦٢ طبعة منير: (إن دعاء المؤمن لأخيه، من باب الشفاعة للغير).

والعبادات لا يجوز فيها الابتداع، لأننا لو زدنا بعقولنا لشرعنا فى دين اللّه ما لم يأذن به، وصرنا كأهل الديانات الأخرى الذين ابتدعوا فيها ما ذهب بأصولها.

وقد قال ﷺ: (شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار). وخوفنا من هذا الحديث هو الذى دعانا إلى الإطالة فى هذا الموضوع لأنا فى زمن طغت فيه البدعة على السنة حتى جهل أكثر الناس ما كان عليه سلفهم فصارت البدعة هى السنة، والسنة هى البدعة. نسأل اللّه تعالى السلامة. ومَنْ أراد المزيد فى هذا المقام فليرجع إلى حديثى ٨٦، ٢٧٢ من كتابنا (صفوة صحيح البخارى). والله ولى التوفيق

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا[1] مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ[2]
رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾
أَزِفَتِ الْآزِفَةُ[3] ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾
أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ
وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ[4] ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ
وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾﴾

(٥٤) سورة القمر مكية وآياتها خمس وخمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً[5] يُعْرِضُوا
وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾

المفردات: ﴿المؤتفكة﴾: مأخوذة من الإتفاك وهو الانقلاب الذى حدث بالخسف. أى القرية المنقلبة على مَنْ فيها. انظر الآية (٧٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣ والآية (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣ والآية (٧٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨.

﴿أهوى﴾: أى أسقطها من أعلى إلى أسفل.

﴿غشاها﴾: أى غطاها ما غطاها من الحجارة والأهوال.

﴿ماغشى﴾: أى الذى غشاها. وهى عبارة يقصد بها التهويل.

﴿آلاء﴾: أى نعم، مفردها ﴿إلى﴾ بكسر فسكون، بوزن حِمل وأحمال. انظر الآية (٦٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٣. وجعل سبحانه كل ما تقدم نعمًا مع أن منه نقمًا؛ لأن ذكر النقمة الواقعة بالغير فيه تحذير وهو رحمة لكل متيقظ.

﴿تتمارى﴾: أى تتشكك أيها الإنسان؟ من المرية وهى الشك. انظر الآية (٥٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٧.

﴿هذا نذير﴾: أى هذا رسول محذر من عقاب الله تعالى، انظر الآية (٢) من سورة هود صفحتى ٢٨٣، ٢٨٤ والآية (٣٤) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٧، ٥٦٨.

---

(١) فغشاها.
(٢) آلاء.
(٣) الآزفة.
(٤) سامدون.
(٥) آية.

﴿من النذر الأولى﴾: أى من الرسل المتقدمين، انظر الآية (٤٧) من سورة يونس صفحتى ٢٧٣، ٢٧٤ والآية (٢٤) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

﴿أزفت﴾: أى قربت.

﴿الآزفة﴾: أى القيامة، انظر الآية (١٨) من سورة غافر صفحتى ٦١٩، ٦٢٠ .

﴿كاشفة﴾: المراد: نفس تكشفها أو تزيلها وتمنع وقوعها.

﴿هذا الحديث﴾: المراد: القرآن. انظر الآية (٢٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩ .

﴿سامدون﴾: أى غافلون لاهون.

﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾: عطف اعبدوا على ما قبله من عطف العام على الخاص... وهنا يسجد المتوضئ من القارئ والسامع.

سورة القمر

المفردات: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾: جاء فى لسان العرب: يقال شق الفجر وانشق أى طلع، كأنه شق موضع طلوعه وخرج منه. فعلى هذا يقال انشق القمر بمعنى طلع، وانتشر نوره ويكون فى الآية بمعنى ظهر الحق ووضح، كالقمر حين ينشق الظلام بنوره كما يقول الناس عند وضوح الأمر طلعت الشمس أى لم يعد فى الأمر خفاء، انظر الآية (٧٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٦ والآية (٥٧) المتقدمة من سورة النجم فى هذه الصفحة. ﴿وإن يروا آية﴾: المراد بالآية هنا كل دلائل توحيده سبحانه وتعالى وقدرته، وصدق رسوله، انظر الآية (١٤٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٥ ومنها القرآن المعجز، ويروا على هذا معناه يعلموا ويسمعوا. ﴿ويقولوا سحر﴾: عبر بالفعل المضارع للدلالة على أن هذا هو شأنهم دائمًا، وسيكون هذا مادام العناد مستوليا عليهم.

وقد قالوا عن القرآن إنه سحر مرارًا، انظر الآية (٤٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٩ والآية (٣٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠ والآية (٢٤) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦ ونظير ما هنا آيات (١، ٢، ٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠ .

﴿مستمر﴾: أى مطرد متتابع بعضه إثر بعض.

المعنى: وأسقط الله سبحانه وتعالى أكبر قرى قوم لوط وأكثرها سكانا على مَنْ فيها وجعل عاليها سافلها. وبهذا الخسف غطاها بما غطاها به من الأتربة والحجارة كما فى الآية (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣ .

وإذا كان الأمركذلك ففى أية نعمة من نعم ربك أيها الإنسان تتشكك؟ ثم نبه سبحانه الكفار بأن محمدًا رسول من الرسل السابقين فلم يكن شيئًا غريبًا. انظر الآية (٩) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧ . ثم هددهم بقرب القيامة ليحذروا هولها فقال سبحانه وتعالى: (أزفت)... إلخ. أي قربت الساعة التى هى قريبة جدًا. وهذا مبالغة فى قربها. وإذا جاءت فليس لها غير الله قوة تقدر على كشفها ومنعها. فهل بعد هذا الخطر المحقق تعجبون من القرآن إنكارا له، وتضحكون استهزاء، ولا تبكون حزنًا على ما حصل منكم، وخوفًا من عذاب الله سبحانه. والحال أنكم غافلون لاهون. وإذا كان لابد من الساعة فيجب ألا تسجدوا إلا لله ولا تعبدوا غيره.

المعنى: بدأ الله سبحانه وتعالى هذه السورة لتخويف كفار مكة بقرب قيام الساعة فقال عز وجل: (اقتربت الساعة وانشق القمر)... إلخ. ذكر هنا بعض المفسرين حديثًا عن ابن عباس قال فيه: (قال المشركون للنبى ﷺ إن كنت صادقًا فشق لنا القمر شقتين كل نصف على جبل من الجبلين المحيطين بمكة. فقال ﷺ: إن فعلت تؤمنوا؟ قالوا: نعم. وكانت ليلة البدر. فسأل ﷺ ربه فانشق القمر) . ورأى بعض العلماء أن هذا مخالف لما تكرر فى القرآن كثيرًا من عدم إجابته سبحانه لما يطلبه المشركون من معجزات.

وبيَّن سبب ذلك تارة بأنهم معاندون لن يؤمنوا حتى لو أجيبوا إلى ما يطلبون. انظر آيتى (٧، ٨) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣ والآية (١١١) من سورة الأنعام أيضًا صفحة ١٨١، وتارة بأن فى القرآن كفاية لهم بعد عجزهم عن الإتيان بمثله. انظر آيتى (٥٠، ٥١) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٨ .

وتارة بأن عادة الله مع الأمم الماضية أنه سبحانه إذا أجابهم لما يقترحون ولم يؤمنوا يهلكهم جميعًا: ولا يُبقى منهم أحدًا. انظر شرح الآيات من (٣٥ إلى ٣٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧ والآية (٥٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٢ والآيات (٢١، ٢٢، ٢٣) من سورة

الفرقان صفحة ٤٧٣ . وبما أنه سبحانه لم يرد إهلاك كفار مكة جميعًا لعلمه أنه سيظهر منهم مَنْ يؤمن ويقوم بنشر الإسلام. لم يحقق سبب إفنائهم. هذا فضلاً عن أن انشقاق القمر من الأحداث الكونية المهمة، ولوحصل لشاهده عالم لا يحصى من العرب وغيرهم، خصوصًا وأنه كان فى ليلة البدر كما تقدم ولبلغ حدًا لا يمكن لأحد أن ينكره. لكل هذا قال بعض العلماء إن (وانشق القمر) كناية عن وضوح الأمر حتى لم يعد صالحًا للجدل.

وقال آخرون: ومنهم الحسن والقشيرى وعثمان بن عطاء: إن المعنى أنه سينشق قطعًا. وقريبًا جدًا عند قيام الساعة. فالمراد: اقتربت الساعة وقرب انشقاق القمر يوم تنشق السماء وتنتثر الكواكب، كما فى الآية (١) وما بعدها من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥، والآية (١) وما بعدها من سورة الانشقاق صفحة ٧٩٩، فالتعبير بالماضى للتحقق كما فى قوله تعالى: ﴿أتى أمر الله﴾ ... إلخ انظر الآية (١) من سورة النحل صفحة ٣٤٥ .

قال الماوردى: هذا هو رأى جمهور العلماء انظر تفسير القرطبى فى هذا المقام. وأعجب ما وقع فيه بعض العلماء هنا من الخطأ قولهم: إن قراءة حذيفة بن اليمان (قد انشق القمر) ومَنْ له إلمام بعلوم القراءات لا يعلم قراءة كهذه أبدًا. فلا هى من القراءات المعول عليها ولا هى من المتواترة، بل ولا حتى من الأربع المذكورة بعد العشرة على أنها شواذ بل هى مجرد أوهام نقلها بعض العلماء فى كتبهم على أنها قراءة، فتتابع الناس عليها بدون روية ونقلها عنهم بعض المستشرقين اغترارًا وجهلاً. نسأل الله تعالى الهداية للصواب. ثم وبخ سبحانه كفار قريش على أنهم مع قرب هذا الخطر الداهم مهملون فقال عز وجل: (وإن يروا)... إلخ. أى وإن يرى كفار مكة كل يوم دليلاً جديدًا على وحدة الله تعالى وصدق رسوله مما حواه القرآن من صدق أخباره فى الماضى والمستقبل ومن عجزهم عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه.

إن يروا كل ذلك يتوارد عليهم يومًا بعد يوم يعرضوا عن التأمل فيه، ويقولوا هذا القرآن سحر مطرد يتبع بعضه بعضا يأتى به محمَّد ﷺ على مر الزمان، انظر شرح الآية (٧) من سورة هود صفحة ٢٨٤ والآية (٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠ والآية (٤٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٩ والآية (٣٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠ والآية (٧) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٦ والآية (٢٤) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦، قالوا ذلك وكذبوا النبى ﷺ واتبعوا شهواتهم التى زينتها لهم الشياطين من حب الرياسة وعدم الخوف من يوم القيامة.

وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنبَآءِ
مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ[١] فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ (٥)
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا
أَبْصَٰرُهُمْ[٢] يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧)
مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ[٣] هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)
۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ
وَٱزْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَآ
أَبْوَٰبَ[٤] ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ
عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَٰهُ[٥] عَلَىٰ
ذَاتِ أَلْوَٰحٍ[٦] وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ
كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ[٧] ءَايَةً[٨] فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥)
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ[٩]

المفردات: ﴿كل أمر مستقر﴾: أى كل أمر من أمور هذا العالم مستقر على الحالة التى قدرها سبحانه له. ومن ذلك نصر الحق وخذلان الباطل.

﴿الأنباء﴾: أى أخبار الأمم الماضية مما نزل بهم لما كذبوا رسلهم.

﴿مزدجر﴾: أى فيه ازدجار. وهو الابتعاد عن الشر.

﴿حكمة بالغة﴾: خبر لمبتدأ مقدر مفهوم من سياق الكلام، والأصل: هذه الأخبار التى جاء بها القرآن كلها حكم وعظات بالغة نهايتها فى الإتقان تكفى كل عاقل.

﴿ما تغن﴾: لا تنفع.

﴿النذر﴾: جمع نذير بمعنى الإنذار. أى التحذير كما سيأتى فى الآية (١٦) الآتية، وانظر الآية (١٠١) من سورة يونس صفحة ٢٨٢.

﴿فتول عنهم﴾: أى أعرض عنهم ولا تجادلهم بعد الآن.

﴿يوم يدع الداع﴾: (يدع) أصلها يدعو وحذفت الواو. فى الكتابة فقط كحذف الياء فى (الداع). انظر الآية (١١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥. و(يوم) منصوب بـ (يخرجون) الآتية. و(الداع) هو إسرافيل، عند النفخة الثانية، انظر الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥.

﴿نكر﴾: هو الأمر الشديد الذى لا عهد للنفوس بمثله. لشدة هوله.

(١) بالغة. (٢) أبصارهم. (٣) الكافرون.
(٤) أبواب. (٥) حملناه. (٦) ألواح.
(٧) تركناها. (٨) آية. (٩) القرآن.

﴿خشعا﴾: جمع خاشع بمعنى ذليلة منكسرة.

﴿الأجداث﴾: جمع جَدَثٌ بفتحتين وهو القبر. انظر الآية (٥١) من سورة يس صفحة ٥٨٣

﴿مهطعين﴾: أى مسرعين، انظر الآية (٤٣) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٦ والآية (٤٣) من سورة المعارج صفحة ٧٦٧.

﴿عسر﴾: أى عسير، شديد الهول، صعب عليهم، انظر آيتى (٩، ١٠) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦.

﴿ازدجر﴾: أى زجره ونهره الكفار بشدة، انظر ما تقدم فى الآية (٥٢) من سورة النجم صفحة ٧٠٣. ﴿منهمر﴾: أى ينصب بكثرة وقوة.

﴿على أمر قد قدر﴾: (على) حرف يفيد أن ما بعده علة لما قبله، أى لأجل نفاذ أمر قدره الله سبحانه وتعالى... وهو إغراقهم .

﴿ذات ألواح﴾: أى سفينة مصنوعة من ألواح أى أخشاب عريضة.

﴿دسر﴾: مفردها دسار بكسر أوله ككتاب وكتب، وهو ما تمسك به الألواح بعضها ببعض، كالمسمار.

﴿بأعيننا﴾: تقدم المراد بمثل هذا فى الآية (٤٨) من سورة الطور صفحة ٧٠٠. ﴿لمن كان كفر﴾: أى لنوح الذى كفروا نعمة الله تعالى بإرساله لهم.

﴿تركناها آية﴾: أى تركنا حادثة السفينة وما فيها من نجاة المؤمنين وهلاك غيرهم عبرة وعظة.

﴿فهل﴾: استفهام يدل على الرغبة فى وجود ما بعده.

﴿مدكر﴾: أى متذكر ومتعظ.

﴿فكيف كان عذابى﴾: استفهام أريد به حمل السامع على التأمل فى هول ما حصل ليبتعد عنه.

﴿يسرنا﴾: أى سهلنا .

المعنى: بعدما شنع سبحانه على كفار مكة بأنهم اتبعوا شهواتهم وأهملوا النظر فى

الدليل أراد أن يقطع أطماعهم فى فشله ﷺ، وأن يطمئن رسوله فقال: وكل أمر. أى من أمره ﷺ ومن أمورهم بل وأمور العالم منته إلى ما قدره سبحانه له. ومن ذلك نصر المؤمنين وهلاك الكافرين، ووالله لقد جاء كفار مكة من أخبار الأمم التى كفرت برسولها فهلكت، ما فيه كفاية لهم فى زجرهم عن كفرهم لو تأملوها فى القرآن؛ لأن هذه الأنباء حكمة بالغة فى الموعظة والإتقان. ولكن لشدة عنادهم لا تنفع معهم الإنذارات. وإذا كان الأمر كذلك فأعرض أيها النبى عنهم، فسيخرجون من القبور ذليلة أبصارهم، يوم يدعوهم إسرافيل إلى موقف شديد وهو موقف الحساب فيكونون فى سرعة سيرهم وتشتتهم من الهول كأنهم جراد منتشر من الحيرة والخوف، ولذا قال: (مهطعين).. إلخ. أى يخرجون حال كونهم مسرعين إلى الداع فى خشوع، يقولون؛ لأنهم كفروا بهذا اليوم: هذا يوم شديد الهول. ثم فصل سبحانه بعض ما أجمله من أنباء ما مضى فقال: (كذبت قبلهم).. إلخ. أى كذب قبل كفار مكة قوم نوح. ثم فصل هذا التكذيب بقوله: فكذبوا عبدنا. أى نوحًا ونسبوه إلى الجنون وزجروه وهددوه بالتعذيب والقتل إن لم يرجع عن دعوتهم إلى خلاف ما كان عليه آباؤهم. فلما نفد صبر نوح عندما قالوا له إن كنت صادقا فأت بما تهددنا به، انظر الآيات من (٣٢إلى ٤٩) من سورة هود صفحات ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١. اتجه إلى ربه لينقذه منهم، وقال: يارب إنهم غلبونى وتمردوا علىَّ فانتصر لدينك منهم بعقابهم، انظر تفصيل دعوته فى سورة نوح صفحات ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، فأجاب الله سبحانه وتعالى دعوته وقال سبحانه فى ذلك: ففتحنا أبواب السماء.. إلخ، والمراد أنزلنا من السحاب ماء كثيرا جدا. وفجرنا عيون الأرض للإسراع بإغراقهم. فالتقى ماء السماء بماء عيون الأرض لأجل تحقيق أمر قدرناه فى الأزل وهو إهلاكهم غرقا. وفى هذا الوقت حملنا نوحا ومَنْ معه كما فى الآية (٤٠) من سورة هود صفحة ٢٩٠ على سفينة مصنوعة من ألواح خشب ممسوك بمثل المسامير أو الحبال. وأخذت هذه السفينة تجرى على الماء برعايتنا وحفظنا. فعلنا ذلك جزاء لنوح وانتصارا له لأنه نعمة من الله عليهم كفروا بها. ولقد أبقينا هذه الحادثة عبرة يتناقلها الناس خلفًا عن سلف، فهل هناك عاقل يتذكر عاقبة الكفر بالله فيبتعد عنه؟ فتأمل أيها السامع وانظر كيف كان عذابى وتحذيرى لهم قبل نزوله. ثم أقسم سبحانه على أنه لا عذر لغافل فقال: (ولقد يسرنا).. إلخ. أى والله لقد سهلنا فهم القرآن خصوصا لقومك أيها النبى لأنه بلغتهم.. إلخ.

لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ
نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ
مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
الْقُرْآنَ[١] لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢) كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا[٢] نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي
ضَلَالٍ[٣] وَسُعُرٍ (٢٤) أَؤُلْقِيَ[٤] الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ
كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦)
إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧)
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨)
فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً[٥] فَكَانُوا كَهَشِيمِ

المفردات: ﴿للذكر﴾: أى للتذكر والاتعاظ. ﴿فهل من مدكر﴾: تقدمت فى الصفحة السابقة، وكرر هذه الجملة وما قبلها تنبيهًا على أن كل قصة منهما مستقلة بإيجاب الاعتبار وكافية فى الأزدجار والكف عن الكفر والمعاصى.

﴿فكيف كان عذابى ونذر﴾: تقدم أيضا فى الصفحة السابقة.

﴿صرصرا﴾: أى ذات صوت مزعج.

﴿يوم نحس﴾: النحس الشؤم. والمراد باليوم هنا: جنس اليوم، فيشمل الأيام المتعددة، فهى ثمانية. انظر الآية (٧) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦١، ٧٦٢، وهذا أسلوب عربى فصيح، جاء القرآن به. انظر لفظ كتاب فى الآية (١٣٦) من سورة النساء صفحة ١٢٦. ﴿تنزع الناس﴾: روى أنهم لما اشتدت الريح احتموا بحفر فى الأرض فاقتلعتهم الريح منها، وصرعتهم على رءوسهم. ﴿أعجاز نخل﴾: المراد بأعجاز النخل: أصوله التى ليس عليها جريد، وشبهوا بها لأنهم كانوا طوال الأجسام. ﴿منقعر﴾: أى مقتلع من أصوله. ﴿ثمود﴾: هم قوم صالح. ﴿بالنذر﴾: جمع نذير بمعنى منذر أى محذر، والمراد الأمور التى أنذرهم بها نبيهم. انظر الآية (١٠١) من سورة يونس صفحة ٢٨٤.

﴿أبشرا﴾: أى هل يصح أن نتبع بشرا؟ والرسول فى تقديرهم لا يكون إلا ملكا!

﴿واحدا﴾: يريدون فهو ضعيف لا يخشى بأسه. ﴿سعر﴾: أى جنون، يقال: رجل مسعور أى مجنون. ﴿أؤلقى الذكر عليه﴾.. إلخ: أى هل أنزل الوحى عليه دوننا؟ والاستفهام للإنكار.

﴿أشر﴾: أى شديد البطر متكبر، يريد الرئاسة علينا. ﴿غدًا﴾: أصل الغد هو اليوم التالى لليوم الذى أنت فيه، فليس بينك وبينه غير ليلة واحدة، ولكنه يطلق على كل زمن مستقبل بشرط

---

(١) القرآن. (٢) واحدا. (٣) ضلال. (٤) أؤلقى. (٥) واحدة.

أن يكون ما سيقع فيه محققًا حتى كأنه قريب جدا، والمقصود به هنا يوم القيامة، انظر الأية (١٨) من سورة الحشر صفحة ٧٣٣. ﴿فتنة لهم﴾: أى ابتلاءا وامتحانًا لهم. ﴿ونبئهم﴾: أى وأخبرهم. ﴿الماء قسمة بينهم﴾: أى أن ماء البئر الذى كانوا يشربون منه مقسم بينهم وبين الناقة، انظر الآية (١٥٥) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٩، وعبر سبحانه وتعالى عنهم وعنها بضمير العقلاء (هم) تغليبا لهم عليها لكثرتهم. ﴿شرب﴾: هو النصيب مما يشرب.

﴿محتضر﴾: أى يحضره صاحبه فى نوبته. ﴿صاحبهم﴾: هو رجل طائش متهورًا.

﴿فتعاطى﴾: أى أعطاه غيره السيف مثلا، فتعاطاه، أى أخذه غير مكترث بالنتيجة.

﴿فعقر﴾: المراد: فقتل الناقة. ﴿صيحة﴾: تقدمت فى الآية (٢٩) من سورة يس صفحة ٥٨١. ﴿كهشيم﴾: هو المتهشم أى المتكسر، من أطراف الشجر وعيدان النبات إذا يبسا.

المعنى: يقول سبحانه وتعالى ولقد سهلنا القرآن للاتعاظ. فهل يوجد عاقل يتعظ؟ كذبت عاد نبيهم هودا فعذبناهم فانظر كيف كان عذابى بعد تحذيراتى. ثم فصل سبحانه هذا العذاب بقوله: إنا أرسلنا عليهم ريحا ذات صوت شديد مهلك مكث تزعجهم سبع ليال وثمانية أيام. كل يوم منها يوم شؤم دائم حتى أفناهم. فكانت الريح تقتلعهم من الحفر التى احتموا بها. وتصرعهم على رءوسهم حتى تفصلها. وصاروا كأنهم أصول نخل منقلع من أساسه. فتأملوا كيف كان عذابى ونذرى. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر. كذبت ثمود بالأمور التى أنذرهم بها نبيهم صالح. وفصل سبحانه وتعالى تكذيبهم بقوله: أبشرا .. إلخ. أى هل نتبع بشرا مثلنا ورسل الله لا يكونون إلا ملائكة؛ وفضلا عن ذلك فهو واحد ليس له من العزوة ما تخافهم. إنا إذا اتبعناه نكون والله فى ضلال أى بعد عن الصواب وجنون. هل أنزل الله عليه الوحى من بيننا وفينا مَنْ هو أحق منه؟ الحق أنه كذاب متجبر يريد التسلط علينا. ثم هددهم سبحانه بقوله: سيعلمون غدا - أى عند نزول العذاب بهم يوم القيامة- من هو الكذاب الأشر. ثم ذكر سبحانه وتعالى مقدمات العذاب فقال: إنا سنبعث الناقة لأجل فتنتهم. فيخالفوا أمر ربك فيها فيهلكهم - فانظر ماذا يصنعون. أو اصطبر على أذاهم ولا تعجل. ثم شرع سبحانه فى بيان الفتنة فقال: ونبئهم أن ماء البئر الذى يشربون منه جميعا قسمه الله تعالى بينهم وبين الناقة، لهم يوم ولها يوم. كل نصيب من الماء يأتيه صاحب الدور. فلم يمتثلوا ونادوا رجلا طائشا منهم وأعطوه سيفا فأخذه وعقرها. فأهلكناهم فكيف كان عذابى ونذرى. ثم فصل سبحانه كيف أهلكهم بقوله تعالى: إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة من جبريل فصاروا كالزرع الجاف المفتت.

ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ[1] لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ[2] لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم[3] بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً
مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم
بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ[4] عَن ضَيْفِهِۦ
فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم
بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ[5] لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ[6]
فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا[7] كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ[8] أَخْذَ
عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم
بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾
سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ

المفردات: ﴿المحتظر﴾: هو الذى يعمل حظيرة للغنم ونحوها. من عيدان الشجر ونحوه. فإذا يبست وداستها الحيوانات تفتتت. وصارت كالتراب.

﴿كذبت قوم لوط﴾: انظر ما حصل منهم ولهم فى الآيات (١٦٠- ١٧٥) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨٩، ٤٩٠.

﴿النذر﴾: تقدم فى الصفحة السابقة.

﴿حاصبا﴾: أصل معنى الحاصب هو الذى يرمى غيره بالحصباء، وهى الحجارة الصغيرة. والمراد به هنا الريح التى رمتهم بالحجارة. انظر الآية (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣.

﴿بسحر﴾: الباء بمعنى (فى) وهى هنا للظرفية الزمانية والسحر هو آخر الليل.

﴿أنذرهم﴾: أى حذرهم. ﴿بطشتنا﴾: البطشة هى الأخذ بشدة، انظر الآية (١٦) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧. ﴿فتماروا﴾: أى تشككوا ، وكذبوا بتشديد الذال المفتوحة.

﴿راودوه عن ضيفه﴾: انظر آيتى (٧٨، ٧٩) من سورة هود صفحتى ٢٩٥، ٢٩٦ والآية (٦٨) وما بعدها من سورة الحجر صفحتى ٣٤٢، ٣٤٣، والمراد: فاوضوه فى البعد عن ضيوفه ليفعلوا بهم ما يريدون. ﴿طمسنا أعينهم﴾: قال ابن عباس: حجب سبحانه إدراكهم فلما دخلوا المنزل لم يروا أحدا، والله سبحانه هيأ الملائكة لأن يكونوا معنا ولا نراهم.

﴿صبحهم﴾: أى أتاهم وقت الصباح، وهو من أول الفجر إلى ما بعد طلوع الشمس بقليل.

﴿بكرة﴾: المراد هنا: أول الصبح. ﴿مستقر﴾: أى دائم النزول عليهم حتى أهلكهم.

﴿أكفاركم﴾ ..إلخ: الاستفهام للإنكار، أى هل كفاركم أيها العرب خير من كفار الأمم الماضية، فلا يعذبون. ﴿الزبر﴾: جمع زبور. والزبور هو الكتاب المزبور أى المكتوب. والمراد هنا: الكتب المنزلة على الأنبياء، وهى التى من شأنها أن تكتب لتحفظ.

---

(١) القرآن. (٢) آل. (٣) نجيناهم. (٤) راودوه.
(٥) القرآن. (٦) آل. (٧) بآياتنا. (٨) فأخذناهم.

﴿جميع﴾: أى جمع متفق الكلمة، انظر الآية (٥٦) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٣.

﴿يولون الدبر﴾: المراد: يفرون منهزمين.

المعنى: يقول سبحانه أهلكنا ثمود حتى صاروا كفتات الحطب الجاف المختلط بالتراب. ولقد يسرنا القرآن للذكر. فهل من مدكر، كذبت قوم لوط بالنذر إنا أرسلنا عليهم ريحا تحمل حجارة ترميهم بها بعد خسف القرى بهم حتى هلكوا إلا آل لوط فإنا أنجيناهم بإخراجنا لهم من القرية فى السحر. انظر الآية (٨١) وما بعدها من سورة هود صفحة ٢٩٦. نجينا المؤمنين مع لوط إنعاما منا عليهم لإيمانهم. وبمثل هذا الجزء نجزى كل شاكر لنعمنا غير كافر بها. ثم فصل سبحانه ما حصل فقال تعالى: ولقد أنذرهم.. إلخ. أى والله لقد حذرهم لوط بإهلاكنا لهم بشدة إذا استمروا على كفرهم. فشكوا فى كلامه ولم يصدقوه. ثم بيَّن سبحانه جرمهم الفظيع الذى استحقوا به تعجيل العذاب فقال: ولقد راودوه.. إلخ. أى ولقد طلبوا منه الابتعاد عن الدفاع عن ضيوفه ولما لم يستطع دفعهم فعل سبحانه ما أخفى الضيوف عنهم فرجعوا. وقلنا لهم على لسان الملائكة ذوقوا بهذا الطمس مقدمات عذابى ونذرى. ثم بيَّن سبحانه ما حصل بعد ذلك مبينًا وقت نزول العذاب فقال: ولقد صبحهم.. إلخ. أى ولقد نزل بهم العذاب أول وقت الصبح، ومازال مستمر النزول عليهم حتى أفناهم. فقلنا لهم ذوقوا عذابى ونذرى التى كنتم تكذبونها. ثم كرر سبحانه الجملة القسمية للمرة الرابعة تقريرا لما سبق من قوله: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء﴾.. إلخ ما سبق فقال تعالى: (ولقد يسرنا القرآن).. إلخ. ولقد جاء آل فرعون النذر. فماذا حصل منهم؟ كذبوا بآياتنا التى جاء بها موسى كلها. انظر الآية (١٠١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨ فأخذناهم بالعذاب أخذ عزيز لا يغلب، مقتدر لا يعجزه شىء، وبعد ما ذكر سبحانه ما حصل للأمم السابقة بسبب كفرهم أراد أن ينبه كفار العرب إلى أنهم إن لم يرجعوا فسيحل بهم ما حل بغيرهم: لأنهم ليسوا خيرا منهم، فقال: (أكفاركم).. إلخ. أى ليس كفاركم أيها العرب خيرًا من كفار الأمم السابقة. فلم تكونوا أخف منهم كفرا، ولا أحسن منهم حالا فى الدنيا. بل كانوا أقوى منكم وأكثر أموالا وأولادا. ثم انتقل سبحانه إلى توبيخ آخر فقال: أم لكم.. إلخ. أى بل هل لكم صك يبرئكم من كفركم جاء فى كتب الأنبياء؟ المراد لا شىء من هذا. ثم انتقل إلى توبيخ آخر مع الإعراض عن خطابهم لحقارتهم؛ فقال تعالى: أم يقولون.. إلخ. أى بل هل يقولون نحن جمع متماسك لا يهزم، منتصر على كل من عاداه لا يغلب، ثم هددهم فقال تعالى: سيهزم هذا الجمع الذى يفخرون به حتى يفروا. وقد حصل فى بدر وما بعدها من الغزوات. ثم بيَّن سبحانه أن هذا هو عذاب الدنيا وسيأتيهم يوم القيامة عذاب أشد.. فقال سبحانه: (بل الساعة موعدهم).. إلخ.

والساعة أدهى وأمر ﴿٤٦﴾ إن المجرمين في ضلال[1]
وسعر ﴿٤٧﴾ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا
مس سقر ﴿٤٨﴾ إنا كل شيء خلقناه[2] بقدر ﴿٤٩﴾ وما أمرنا
إلا واحدة[3] كلمح بالبصر ﴿٥٠﴾ ولقد أهلكنا أشياعكم
فهل من مدكر ﴿٥١﴾ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴿٥٢﴾
وكل صغير وكبير مستطر ﴿٥٣﴾ إن المتقين في جنات[4]
ونهر ﴿٥٤﴾ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴿٥٥﴾

(٥٥) سورة الرحمن مدنية
وآياتها ثمان وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحمن ﴿١﴾ علم القرآن[5] ﴿٢﴾ خلق الإنسان[6] ﴿٣﴾

المفردات: ﴿أدهى﴾: الداهية هى الأمر الفظيع الذى لا يمكن الخلاص منه. والمراد: إن عذاب يوم القيامة أشد إيلاما لأجسامهم.

﴿أمر﴾: أى أشد مرارة وصعوبة على النفوس.

﴿ضلال وسعر﴾: تقدم فى الآية (٢٤) من سورة القمر صفحة ٧٠٦.

﴿مس سقر﴾: المراد: عذاب جهنم الذى مجرد مسه يهلك.

﴿بقدر﴾: أى بتقدير ونظام محكم على مقتضى الحكمة. انظر الآية ٨ من سورة الرعد صفحة ٣٢٢ والآيتين (١٩، ٢١) من سورة الحجر صفحة ٣٢٩ والآية (٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠.

﴿أمرنا﴾: المراد: أمرنا لشىء نريد وجوده.

﴿إلا واحدة﴾: أى إلا مرة واحدة بكلمة واحدة. انظر الآية (٨٢) من سورة يس صفحة ٥٨٦.

﴿كلمح﴾: اللمح النظر بعجلة وخفة والمراد سريعا.

---

(١) ضلال.
(٢) خلقناه.
(٣) واحدة.
(٤) جنات.
(٥) القرآن.
(٦) الإنسان.

﴿أشياعكم﴾: أى أشباهكم المتفقين معكم فى الكفر: انظر الآية (٥٤) من سورة سبأ صفحة ٥٧٠.

﴿الزبر﴾: جمع زبور بوزن رسل ورسول والزبور هو الكتاب المزبور أى المكتوب والمراد هنا: كتبة الحفظة. انظر ايتى (١٠، ١١) من سورة الانفطار صفحتى ٧٩٥، ٧٩٦.

﴿وكل صغير وكبير﴾: أى كل ما دق وعظم. انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٢٨٧، ٢٨٨.

﴿مستطر﴾: أى مسطور. تقول العرب: سطرت الكتاب واستطرته بمعنى واحد.

﴿نهر﴾: المراد جنس النهر فيكون بمعنى أنهار.

﴿مقعد صدق﴾: المراد: مكان شريف كريم. انظر الآية (٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٥ والآية (٨٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥.

﴿عند مليك﴾: المراد عندية مكانة وشرف. انظر الآية (١٦٩) من سورة آل عمران صفحة ٩١ والآية (٢٠٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٦. والمليك: صيغة مبالغة من الملك بضم الميم أى: عند ملك عظيم ملكه.

المعنى: ليس ما سبق من الإذلال فى الدنيا هو تمام عقوبتهم، بل الساعة (القيامة) هى موعد عذابهم اللائق بجرمهم. وعذاب القيامة هذا أفظع من هذا الذى فى الدنيا وأشد مرارة على نفوسهم. أنظر الآية (٢١) وما بعدها من سورة الفجر صفحة ٨٠٧.

ثم بيَّن سبحانه سبب استحقاقهم ذلك فقال تعالى: (إن المجرمين)... إلخ. أى إن هؤلاء الكفار الذين أجرموا فى حق ربهم بالكفر والمعاصى كانوا فى بعد عن الصواب. انظر الآيات (٢٩) وما بعدها من سورة المطففين صفحة ٧٩٨. كما كانوا فى جنون منعهم من التأمل فى البراهين الدالة على الحق. وسيقال لهم يوم يسحبون فى النار بالسلاسل على وجوههم ذوقوا عذاب جهنم.

ما يشاؤه تعالى. ثم رجع إلى تهديد كفار قريش فقال سبحانه: ولقد أهلكنا أمثالكم من الكفار لأنهم عملوا عملكم. فهل فيكم عاقل يتدبر فيرجع عن أسباب الهلاك؟

ثم بيَّن سبحانه أن كل أعمالهم مسجلة فلم يظلمهم فقال تعالى: وكل شيء فعلوه فى الدنيا مسجل فى كتب الحفظة.

ثم زاد إيضاحا وتفصيلا فقال: وما من صغيرة ولا كبيرة مما فعلوه إلا وهى مسطرة فى صحائفهم. فليحذروا ما هم قادمون عليه. وبعدما بيَّن جزاء الكافرين ختم السورة ببيان جزاء المؤمنين، ليظهر التقابل فيتنبه الغافل. فقال: إن المتقين.. إلخ. أى إن المتقين فى مكان محاط بجنات وأنهار فى مكان شريف عال عن ملك عظيم لا يعجزه شيء أراده. وهذا المكان المشرف هو الجنة، نسأل الله تعالى أن يوفقنا لأسبابها.

سورة الرحمن

الرحمن سبحانه هو الذى علم نبيه ﷺ القرآن. لا رجل من البشر كما يزعم المشركون، انظر الآية (١٠٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٠، والآية (٨٦) من سورة القصص صفحتى ٥١٩، ٥٢٠ والآية (٤٨) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٧.

ولقد قدم سبحانه (علم القرآن) للإشعار بأن من آثار رحمته تعالى تعليم القرآن؛ لأنه مصدر الخير للإنسان فى دينه ودنياه، وبه يعرف الإنسان كيف يعبد ربه، والعبادة هى حكمة خلقه، انظر الآية (٥٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦، وفى كل من تعظيم شأن القرآن ما لا يخفى.

وقال العلماء: وبما أن الغاية من إيجاد النبى هو المقصود الأصلى وهى أول ما يخطر على البال قَدَّمَ سبحانه ذكرها أولا وإن كان الأمر بالعكس فى الوجود الخارجى؛ لأن خلق الإنسان فى الوجود مقدم على تحقيق الغاية والحكمة فى إيجاده. وهو سبحانه من فضل رحمته خلق الإنسان وأنعم عليه بما سيذكر هنا من النعم.. ولما كانت السورة كلها فى تعداد نعمه سبحانه الدنيوية والأخروية مع التحذير مما يستدعى غضبه - صدرها سبحانه باسمه تعالى (الرحمن).

عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾
وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ
ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ
بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا
لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ[١] وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾
وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ[٢] رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ[٣] مِن صَلْصَٰلٍ[٤] كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾
وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ[٥] رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾
فَبِأَىِّ ءَالَآءِ[٦] رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ
يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ[٧]
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾

المفردات: ﴿البيان﴾: أى أن يبين ما فى ضميره بنطق واضح، أو كتابة توصل مراده لغيره مهما تباعدت المسافات بينهما. انظر الآية (٤) من سورة العلق صفحة ٨١٤. ﴿حسبان﴾: مصدر كالغفران، ومعناه الحساب الدقيق. ﴿النجم والشجر يسجدان﴾: يطلق العرب النجم على ما نراه فى السماء، وهو المذكور فى الآية (١٦) من سورة النحل صفحة ٣٤٧، كما يطلقونه أيضا على النبات الصغير الذى ينجم أى يظهر من الأرض ولا ساق له، وهذا هو المراد هنا. ويطلقون الشجر على النبات الذى له ساق وأغصان. وسجودهما: انقيادهما لله تعالى فيما أراد منهما كانقياد الساجد لخالقه تعظيمًا له. انظر الآية (٧٩) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨ والآية (١٨) من سورة الحج صفحتى ٤٣٥، ٤٣٦.

﴿ووضع الميزان﴾: وضع: أى أنزل على لسان كل نبى كما سيأتى فى الآية (٢٥) من سورة الحديد صفحة ٧٢٣، والميزان تقدم فى الآية (١٧) من سورة الشورى صفحة ٦٤١.

﴿ألا تطغوا﴾: الطغيان هنا أخذ الزيادة عن الحق. ﴿القسط﴾: العدل. ﴿لا تخسروا﴾: أى لاتنقصوا العدل عن أصوله من تمام الضبط. ﴿الأنام﴾: المراد به هنا الأنس والجن ليتناسب مع تثنية الضمير فى قوله تعالى (تكذبان) ومع الآيات (١٤، ١٥، ٣١، ٣٣) الآتية، قال ابن عباس (الأنام): هو الحيوان كله أى كل ما فيه روح على وجه الأرض. ﴿الأكمام﴾: أى الأغطية التى تكون على الثمار قبل ظهورها، كما تقدم فى الآية (٤٧) من سورة فصلت صفحة ٦٣٦. ﴿العصف﴾: هو التبن الذى يتكون من عيدان القمح والشعير إذا تكسرت مثلا، ومن قشر الحب والذى تأكله الدواب والرياح تعصفه بسهولة. ﴿الريحان﴾: نبت له رائحة طيبة.

---

(١) فاكهة. (٢) آلاء. (٣) الإنسان. (٤) صلصال. (٥، ٦، ٧) آلاء.

﴿فبأى آلاء ربكما﴾ .. إلخ: تقدم فى الآية (٥٥) من سورة النجم صفحة ٧٠٤. ﴿صلصال﴾: هو الطين اليابس الذى له صلصلة أى صوت يتردد. ﴿الفخار﴾: هو الطين المحروق. ﴿مارج﴾: المراد به هنا اللهب الذى ينطلق فى الهواء مضطربًا، انظر المادة فى الآية (٥٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٦. ﴿من نار﴾: (من) تدل على أن ما بعدها بيان لجنس ما قبلها. ﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾: المراد مشرق ومغرب الشمس والقمر. ﴿مرج البحرين﴾: (برزخ). ﴿لا يبغيان﴾: كل ذلك تقدم فى الآية (٥٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٦. ﴿ولا يبغيان﴾: أى لايتعدى أحدهما على الآخر حتى يذهبه، انظر الآية (٦١) من سورة النمل صفحتى ٥٠١، ٥٠٢. ﴿يخرج منهما.. إلخ﴾: انظر شرح الآية (١٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣.

المعنى: ومن رحمته سبحانه أنه اختص الإنسان بأن وضع فيه استعداد تعلمه ما يوضح به مراده بكل الطرق نطقًا وكتابة. وهذا لا يوجد فى غيره من الحيوانات. ثم انتقل سبحانه إلى بيان ما أنعم به على الإنسان من العالم العلوى والسفلى، انظر الآية (٣٢) وما بعدها من سورة إبراهيم صفحتى ٣٣٤، ٣٣٥. فقال تعالى: (والشمس والقمر)..إلخ. أى والشمس والقمر يجريان بحساب دقيق وبذلك تتكون الأيام والفصول والسنون فنعلم ما ينفعنا: انظر الآية (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦: والنجم والشجر خاضعة لما يريده الله تعالى منها منادية بأنه لا رب غيره سبحانه وتعالى. ورفع السماء بغير عمد. وأنزل الآيات المشتملة على القواعد المبينة للحق والباطل ليلتزمها المكلف فى معاملته مع الله تعالى ومع الخلق فلا يتعدى حدود الله فى تطبيق هذه القواعد. وأقيموا وزنكم أى تقديركم للأمور بالعدل التام. ولا تنقصوه مما ينبغى أن يكون عليه. فإن المقصود من وضعه أن يكون كاملاً. وإنما كرر سبحانه العدل والوصية به على صور مختلفة لزيادة العناية به. وتحذير الخلق من إهماله إرضاءً للشهوات التى تغلب كثيرًا من ضعاف الإيمان. قال قتادة: (اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يعدل لك وأوف كما تحب أن يوفى لك. فإن فى العدل صلاح الناس). وأوجد سبحانه الأرض فى وضع أقرب إلينا من السماء فى نظر العين لينتفع بما فيها الأنس والجن. انظر الآية (٢٩) من سورة البقرة صفحة ٧.

ثم بيَّن سبحانه بعض هذه المنافع فقال سبحانه: فيها فاكهة من كل نوع وخص النخل بالذكر لأن كل شىء فيه مفيد خصوصا ثمره الذى يكون أول ظهوره محفوظًا بالأكمام. وفيها الحب الذى يقتات به الإنسان. والعصف الذى يقتات به الحيوان. انظر الآية (٣٠) وما بعدها

من سورة النازعات صفحة ٧٩٠، ثم وبخ سبحانه مَنْ كفر بنعمه بعدم الشكر عليها. وبعبادة غيره مع أنه وحده المنعم. ومَن جحد فضله تعالى فكأنما كذب كونه هو المنعم فقال: فبأى آلاء ربكما .. إلخ، أى فبأى فرد من أفراد نعم ربكما يا معشر الإنس والجن تكذبان، مع أن كل نعمة منها ناطقة بالحق شاهدة بالصدق. ويندب لكل سامع عند كل آية من هذه أن يقول (لا بشىء من نعمك يا رب نكذب. فلك الحمد) وكرر سبحانه هذه الآية فى واحد وثلاثين موضعًا لتقرير النعمة وتأكيد التذكير بها: وهذا أسلوب معروف فى كلام العرب عند العناية بشىء. يقول أحدهم لمَنْ أنكر جميله (ألم تكن مريضا فعالجتك؟ هل تنكر هذا؟ ألم تكن عريانا فكسوتك؟ هل تنكر هذا؟ ألم تكن فقيرا فأغنيتك؟ هل تنكر هذا؟ ألم تكن معرضًا للوقوع فى خطر فنبهتك؟ هل تنكر هذا؟) ومن هذا النوع قصائد قالها المهلهل بن ربيعة والحارث بن عباد البكرى فى حرب البسوس ذكرها المؤرخون والأدباء: فى (باب أيام العرب) فارجع إليها إن شئت. قال بعض الأدباء: ومقام النعم يكون التكرار فيه أحلى فى الذوق من السكر إذا تكرر. فتنبه أيها القارئ لأساليب العرب حتى لا تقع فى شباك خصوم الإسلام. ولا تنس ما قيل فى شرح الآية (٥٥) من سورة النجم صفحة ٧٠٤ من أن ما هو فى الظاهر ليس نعمة كما فى الآية (٣١) الآتية وما بعدها صفحة ٧١٠ فإنه فى الحقيقة نعمة باعتبار الإرشاد إلى خطره ليبتعد السامع عن أسبابه. ثم فصل سبحانه بعض هذه النعم السابقة مع تكرار التوبيخ على إهمال الشكر عليها فقال: خلق الإنسان.. إلخ. أى إنه سبحانه صاحب الفضل على الإنسان حيث خلق أباه الأول من طين يابس ثم نفخ فيه الروح فصار فى أحسن تقويم كما فى الآية (٤) من سورة التين صفحة ٨١٣. وخلق سبحانه أبا الجن الأول من لهب مضطرب كائن من نار. فبأى نعمة من نعم ربكما تكذبان. وهو سبحانه رب - أى موجود ومنظم مشرقين للشمس والقمر ورب مغربيهما أيضًا. ثم ذكر سبحانه نعمته فى الماءين وبقاء كل منهما على حاله ليتحقق النفع بهما. فقال: (مرج البحرين).. إلخ. أى أجرى البحر المالح والعذب حال كونهما يلتقيان فى بعض الأماكن. ولكن بينهما حاجزا فيما عدا هذه الأماكن لا يطغى أحدهما على الآخر حتى يصير الكل مالحا أو الكل عذبا فتضيع الحكمة المشار إليها فى الآية (١٢) من سورة فاطر صفحة ٥٧٣. فبأى نعمة من هذه النعم تكذبان يا معشر الإنس والجن. ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى متعلقة بالبحرين فقال: يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فتنتفعون بهما فى التجارة والتحلى.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ
فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾
كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ
وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾
يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى
شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ
لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾
يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ
أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا
بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ
عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ

المفردات: ﴿الجوار﴾: جمع جارية. والمراد بها السفينة. ﴿المنشآت﴾: أى المرفوعات الشراع، تقول العرب: أنشأت الشراع أى رفعته. ﴿الأعلام﴾: جمع علم والمراد به هنا الجبل المرتفع.

﴿مَنْ عليها﴾: المراد على الأرض المفهومة من سياق الكلام، كما فى الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

﴿وجه ربك﴾: المعنى المراد ذات ربك، ولكن حقيقة الوجه لا نعرفه، انظر شرح الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١.

﴿الجلال﴾: هو التناهى فى عظم القدر ولا يكون إلا لله سبحانه وتعالى.

﴿الإكرام﴾: أى الإحسان إلى المتقين بما فيه تكريم وتشريف. ﴿كل يوم﴾: المراد باليوم هنا اللحظة من الزمن ولا تنس ما قيل فى شرح الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١. ﴿فى شأن﴾: أى متصرف فى شأن من شئون خلقه كالإحياء والإماتة والإيجاد والإعدام والعطاء والحرمان إلى غير ذلك مما لا يحصى.

﴿سنفرغ لكم﴾: يقول العربى إذا أردتم تهديد غيره: سأتفرغ لحسابك على ما فعلت. وبما أن الله سبحانه وتعالى لا يشغله شىء عن شىء. فيكون الكلام كناية عن أنى سأحاسبكم حساب المتفرغ لكم. ﴿الثقلان﴾: تثنية ثَقَل بفتحتين وهما الإنس والجن: لأنهما أثقل الأرض، بالوجود فيها. انظر الآية (٢) من سورة الزلزلة صفحة ٨١٧.

﴿إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض﴾: أى أن تخترقوا جميع السموات والأرض من جانب إلى جانب. والمراد: لا تستطيعون ذلك، لأن فيها كواكب ملتهبة كالشمس، والشعرى لا يدنو منها مخلوق إلا احترق.

---

(١) كالأعلام. (٢) الجلال. (٣) يسأله. (٤) السموات. (٥) أيها. (٦) يا معشر. (٧) بسلطان.

﴿سلطان﴾: المراد به هنا: القوة، والقهر. أى بقوة قاهرة لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى. ﴿يرسل عليكما﴾: قال بعض العلماء: هذا تحذير لهم فى الدنيا، كما هو ظاهر الكلام السابق، وقال آخرون: بل تهديد بما سيكون فى جهنم. ﴿شواظ﴾: أى لهب، انظر الآية (٣) من سورة المسد صفحة ٨٢٦. ﴿نحاس﴾: أى مذاب تشوى به جلودهم وبطونهم. انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥. ﴿فلا تنتصران﴾: المراد: فلاتجدان مَنْ ينصركما، بمنع العذاب عنكما.

المعنى: فبأى نعمة من نعم ربكما يا معشر الجن والإنس تكذبان. وله سبحانه وحده تدبير سير السفن الكبار فى البحار تحملكم وتحمل أرزاقكم، انظر توضيح ذلك فى الآية (٣٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٤ والآية (٣١) من سورة لقمان صفحة ٥٤٣ والآيتين (٣٢، ٣٣) من سورة الشورى. فبأى آلاء ربكما تكذبان وبعد ما ذكر سبحانه بعض نعم الدنيا أتبع ذلك بأن كلها زائلة ليرغبهم فى النعيم الدائم فقال: كل مَن عليها أى على الأرض فان.

وتبقى ذات ربك صاحب القدر العظيم والإكرام لأوليائه. فبأى آلاء ربكما تكذبان. يسأله سبحانه كل مخلوق فى السموات والأرض بلسان الحال أو بلسان المقال، كل ما يحتاجونه فى وجودهم أو بقائهم. فلذا كان سبحانه كل لحظة متصرف فى شأن من شئون عباده من إيجاد وإعدام، وخفض ورفع، وتوسعة وتضييق، قال ﷺ: ومن شأنه تعالى أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين. فبأى آلاء ربكما تكذبان. وبعدما عدد سبحانه نعمه على عباده وذكر أنهم مفتقرون إليه فى كل لحظة. وبين أن ما فى الدنيا لا يدوم أراد أن ينبههم إلى أنه سيحاسبهم حسابا دقيقًا فقال: (سنفرغ لكم).. إلخ، أى لنحاسبكم بدقة لا يشغلنا عن ذلك شىء يا أيها الثقلان من الإنس والجن. وبعد نعمة التنبيه للخطر التى هى واحدة من كثير قال: فبأى نعمة منها تكذبان. ثم بيَّن أنه لا مهرب من هذا اليوم فقال: (يا معشر الجن والإنس)..إلخ. أى يا جماعة الجن والإنس إن قدرتم أن تفروا من جانب من جوانب السموات والأرض للهرب من الحساب فاهربوا. ولكن لن تستطيعوا ذلك إلا بالقوة التى تفوق قوة ربكم وذلك مستحيل. فبأى نعمة من هذه النعم المرشدة تكذبان. ثم حذر سبحانه مما سيكون للعصاة حتى يحاولوا الهرب فقال: (يرسل عليكما).. إلخ. أى يسلط عليكما - أيها الجن والإنس لهب من نار، ويسلط عليكما أيضًا نحاس مذاب تكوى به جلودكم ولا يمكن خلاصكم بوجود مَن ينصركم ويمنع ذلك عنكم. فبأى آلاء ربكما تكذبان. ثم بيَّن سبحانه وتعالى مبدأ هذا الهول فقال: (فإذا انشقت السماء فكانت).. إلخ، انظر الآية (٢٥) وما بعدها من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣، والآية الأولى وما بعدها من سورة الإنشقاق صفحة ٧٩٩.

وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ[1] عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ[2]
فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي[3] وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾
يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ[4] ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ[5] زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ
بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ

المفردات: ﴿وردة﴾: أى كوردة حمراء، انظر الآية (٨) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥. ﴿كالدهان﴾: أصله ما يدهن به كالإدام لما يؤتدم به. والمراد كالزيت الذى يغلى. فهو تشبيه آخر قصد به الذوبان والحرارة. ﴿لا يسأل عن ذنبه﴾.. إلخ: انظر شرح الآية (٧٨) من سورة القصص صفحة ٥١٨. ﴿المجرمون﴾: المراد بهم الكافرون كما فى الآية (٤٣) الآتية هنا والآية (٢٩) من سورة المطففين صفحة ٧٩٨. ﴿سيماهم﴾: السيمى: العلامة، انظر علاماتهم فى الآيات (١٠٢) من سورة طه صفحتى ٤١٥، ٤١٦، (٦٠) من سورة الزمر صفحة ٦١٤، (٤٠، ٤١) من سورة عبس صفحة ٧٩١. ﴿فيؤخذ بالنواصى﴾ ..إلخ: النواصى: جمع ناصية وهى مقدم الرأس، انظر الآية (١٥) من سورة العلق صفحتى ٨١٤، ٨١٥، والمراد: تجذبهم ملائكة العذاب من رءوسهم، وأقدامهم، وترميهم فى جهنم، وذكر (فبأى آلاء ربكما تكذبان) بعد ذكر هول العذاب يفيد أن التحذير من الشر قبل الوقوع فيه نعمة عظمى. ﴿يطوفون﴾: أى ينتقلون، انظر شرح الآية (٦٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩١. ﴿حميم﴾: ماء حار، يسقون منه، انظر الآية (١٥) من سورة محمد صفحة ٦٧٤. ﴿آن﴾: أى شديد الحرارة. ﴿خاف مقام ربه﴾: يصح أن يراد بالمقام الحضرة العلية كما تقدم فى الآية (١٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٢، ويصح أن يراد به قيامه سبحانه وتعالى على العبد أى مراقبته له كما فى الآية (٣٣) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٦، ٣٢٧. ﴿جنتان﴾: القرآن عربى اللفظ والأسلوب، فهو يخاطب العرب بما يعهدونه مما يسر وما يخيف، فيذكر الإبل والنخل والرمان، ويكثر من تخويفهم من حر جهنم لأنهم يشعرون بضيق الحرارة، وكان الرجل منهم يفخر بأن له بساتين مثلا ليتمتع بالتنقل

---

(١) يسأل. (٢) بسيماهم. (٣) بالنواصى. (٤) آن. (٥) فاكهة.

بينهما حتى لا يمل المنظر الواحد. فالمراد هنا يكون للمتقين فى الجنة أوسع أنواع النعيم أما حقيقة هذا النعيم فلا يعلمها غيره سبحانه، انظر الآية (١٧) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦.
﴿ذواتا﴾: صاحبتا. ﴿أفنان﴾: أغصان كثيرة، مفردها فَنَن بفتحتين. ﴿زوجان﴾: أى صنفان، ويقال فيه ما قيل فى جنتان. ﴿فرش﴾: مفرده فراش. ﴿إستبرق﴾: حرير سميك. ﴿جنى﴾: هو الثمر الذى تهيأ للجنى. ﴿دان﴾: أى قريب التناول لكل راغب فيه.

المعنى: فإذا انشقت السماء عند قيام الساعة. فكانت حمراء سائلة مع لمعان. حل بالخلق الهول، انظر الآية (٢) من سورة الحج صفحة ٤٣٣. فبأى آلاء ربكما تكذبان، فيوم تتصدع السماء ويحشر الخلائق لا يسأل المجرمون من الإنس والجن عن ذنوبهم سؤال استجلاب رحمة، وإنما سيسألون سؤال توبيخ. فبأى آلاء ربكما تكذبان. تعرف الملائكة المجرمين بعلاماتهم فتجذبهم من رءوسهم وأقدامهم وتطرحهم فى جهنم. فبأى آلاء ربكما تكذبان. وتقول لهم الملائكة تبكيتًا: هذه هى جهنم التى كنتم تكذبون بها أيها المجرمون. وإذا استغاثوا من حرها، وطلبوا ماء، ينتقلون إلى ماء شديد الحرارة يشوى وجوههم إذا قربوه منها كما تقدم فى الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥. فبعد هذا التنبيه كيف تكذبون نعمة ربكما عليكما به. وبعد ما بيَّن سبحانه الأهوال التى سيلاقيها المجرمون أتبع ذلك ببيان نعيم المتقين لتتحرك النفوس المستعدة للهداية فقال: ولمَنْ خاف مقام ربه أى لكل واحد ممَنْ خاف مقام ربه من السابقين المذكورين فى الآية (١٠) من سورة الواقعة صفحتى ٧١٣، ٧١٤ جنتان يتنقل بينهما فى الوقت الذى يتنقل فيه المجرم بين جهنم والحميم. فما أعظم الفرق بينهما. قال الراغب: وليس الخوف هنا معناه الرعب إما هو الكف عن المعاصى. والقيام بالطاعات. ولهذا قالوا: لا يعد خائفًا مَنْ ليس للذنوب تاركا. فبأى آلاء ربكما تكذبان. أشجار هاتين الجنتين لها أغصان كثيرة، وكل غصن يحمل ثمرًا كثيرًا أيضًا. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيها عينان تجريان فتكونان أنهارا. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيهما من كل فاكهة صنفان. فبأى آلاء ربكما تكذبان. يتنعم هؤلاء المقربون حال كونهم متكئين كما يفعل الملوك. لا يشغلهم عن التنعم عمل. على فرش بطائنها من حرير سميك. أما ظواهرها فلا يحيط بعظمتها غيره تعالى. وثمار الجنتين قريبًا لمَنْ يريده، لا مشقة فى الحصول عليه، انظر الآية (٢٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣ والآية (١٤) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٢.

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ[1] ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ
إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾
كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ[2] إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ[2] ﴿٦٠﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ[3] وَنَخْلٌ
وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ
خَيْرَٰتٌ[4] حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾
حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ[5] فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾

المفردات: ﴿فيهن﴾: أى فى الأشياء المذكورة فيما تقدم، من الجنتين، وما حوتا من غرف، وفرش، وفواكه.

﴿قاصرات الطرف﴾: المراد حابسات أعينهن على أزواجهن، كما تقدم فى الآية (٤٨) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠.

﴿لم يطمثهن﴾: أى لم يفض بكارتهن، انظر الآية (٣٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥.

﴿إنس قبلهم ولا جان﴾: أى لم يمس الإنسيّة إنسى قبل زوجها ولا الجنيّة جنّى قبل زوجها كذلك.

﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾: الياقوت: بياضا وصفاء، والمرجان: حمرة وجمالا.

﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾: هل للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى، أى لا جزاء لإحسان الأعمال إلا إحسان الثواب. ﴿ومن دونهما جنتان﴾: أى أقل منهما جنتان وهما لأصحاب الميمنة. انظر الآية (٨) الآتية فى سورة الواقعة صفحة ٧١٣ والآية (٢٧) من سورة الواقعة أيضًا صفحة ٧١٤.

﴿مدهامتان﴾: (مدهامتان): لفظ مأخوذ من (الدُّهْمَة) بوزن الغرفة. وهى السواد. والمراد: أنهما لشدة خضرتهما يريان من بعيد كأنهما مسودتان، تقول العرب: حصان أدهم أى أسود وتقول إدهام بكسر أوله وسكون الدال وتشديد الميم مدهام بوزن مختار أى اشتد سواده.

﴿نضاختان﴾: أى فوارتان بالماء.

---

(١) قاصرات.
(٢) الإحسان.
(٣) فاكهة.
(٤) خيرات.
(٥) مقصورات.

﴿نخل ورمان﴾: من عطف الخاص على العام، ولا تنس ما قيل فى شرح الآية (٤٦) الماضية صفحة ٧١١. ﴿خيرات﴾: تقول العرب: فلانة خَيرة بفتح فسكون. وخيِّرة بتشديد الياء المكسورة، والمعنى واحد. أى حسنة حسنًا حسيًا. انظر الآية (٢٥) من سورة البقرة صفحة ٦؛ وانظر (عربا) فى الآية (٣٧) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥.

﴿حسان﴾: جميلات الوجوه. ﴿حور﴾: تقدم فى الآية (٥٤) من سورة الدخان صفحة ٦٥٩.

﴿مقصورات﴾: أصل معنى المقصورة الملازمة بيتها لا تتعداه. لكن المراد هنا أنها غير مبتذلة فى عمل من الأعمال. بل هى كالمخدرة المكرمة.

﴿فى الخيام﴾: لا تنس ما تقدم فى الآية (٤٦) السابقة صفحة ٧١١ وهذا الاستعمال جار على معهود العرب. والذى يجب أن نفهمه أنها أمكنة للتنعيم لا يعلمها غيره تعالى. مضافة إلى أمكنة أخرى من بناء، كما فى آيتى (٥٨) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩ و(٢٠) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٨، ٦٠٩.

المعنى: فى كل ما تقدم من مواطن النعيم زوجات من الإنس والجن لا ينظرن لغير أزواجهن أبكار لم يمس الإنسية منهن إنس قبل زوجها فى الجنة. ولا الجنية منهن جنى قبله كذلك. فبأى آلاء ربكما تكذبان. كأن أجسام هذه الزوجات الياقوت بياضا وصفاءً. وكأن وجناتهن المرجان حمرة ورواءً. فبأى آلاء ربكما تكذبان. ثم بيَّن سبب مجازاة المؤمنين بذلك فقال: (هل جزاء الإحسان).. إلخ. أى وإذا كان العبد خاف مقام ربه فلا نجازى إحسانه لعمله إلا بإحسان ثوابه.

فبأى آلاء ربكما تكذبان، ومن دون هاتين الجنتين الموعود بهما الخائفون جنتان لأصحاب اليمين المذكورين فى الآية (٨) من سورة الواقعة الصفحة الآتية. فبأى آلاء ربكما تكذبان. هاتان الجنتان شديدتا الخضرة. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيهما عينان فوارتان تجرى منهما الأنهار. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فيهما فاكهة ونخل ورمان، انظر ما قيل فى الآية (٤٦) الماضية صفحة ٧١١ (فبأى آلاء ربكما تكذبان). فيهن زوجات خيرات الأخلاق حسان الوجوه. فبأى آلاء ربكما تكذبان. فى عيونهن جمال فائق. وهن مخدرات مكرمات فى أمكنة بهجة لا تخطر على بال مخلوق. فبأى آلاء ربكما تكذبان. لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان: تقدم معناه.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ
وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾
تَبَٰرَكَ[1] ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ[2] وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

(٥٦) سُورَةُ الوَاقِعَةِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا سِتٌّ وَتِسْعُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ
رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ
بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا[3]
ثَلَٰثَةً[4] ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ[5] ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ[6] ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾
وَأَصْحَٰبُ[7] ٱلْمَشْـَٔمَةِ[8] مَآ أَصْحَٰبُ[9] ٱلْمَشْـَٔمَةِ[10] ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ[11]

المفردات: ﴿رفرف﴾: اسم جنس واحده رفرفة، كما يقال: تمر وتمرة، وهى الستائر التى تتدلى من الأسرة.

﴿عبقرى﴾: الياء فيه، كالياء فى (كرسى) أى أصلية، وليست للنسب (كمصرى ومغربى) نسبة إلى مصر والمغرب، وإنما هى من بنية الكلمة، وأصله كل شىء يتعجب من جودته، وهو لفظ يطلق على الواحد والأكثر مثل (الفلك) و(الطفل) انظر الآية (١٦٤) من سورة البقرة صفحة ٣١ والآية (٣٧) من سورة هود صفحة ٢٨٩ والآية (٣١) من سورة النور صفحتى ٤٦١، ٤٦٢، والمراد به هنا: البسط المزخرفة بألوان مصبوغة.

﴿حسان﴾: تقدم فى الصفحة السابقة.

﴿تبارك﴾: تقدم فى الآية (١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠.

﴿اسم ربك﴾: المراد به الرحمن المتقدم فى أول السورة.

---

(١) تبارك.
(٢) الجلال.
(٣) أزواجا.
(٤) ثلاثة.
(٥) فأصحاب.
(٦، ٧) أصحاب.
(٨) المشأمة.
(٩) أصحاب.
(١٠) المشأمة.
(١١) السابقون.

﴿الجلال والإكرام﴾: تقدم فى الآية (٢٧) صفحة ٧١٠.

﴿وقعت﴾: أى حدثت.

﴿الواقعة﴾: اسم للقيامة لأنها ستقع قطعا.

﴿لوقعتها﴾: اللام بمعنى (عند) كما فى قوله تعالى ﴿لدلوك الشمس﴾ فى الآية (٧٨) من سورة الإسراء صفحة ٢٧٥. والمعنى عند وقوعها.

﴿كاذبة﴾: جاء هذا الوزن فى لغة العرب، مرادًا به المصدر أى الكذب. انظر شرح (خائنة) بمعنى (خيانة) فى الآية (١٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٨ والمراد أنها إذا وقعت انقطعت ألسن الكذب التى كانت تتبجح بإنكارها فى الدنيا.

﴿خافضة رافعة﴾: ترفع أقواما وتخفض آخرين.

﴿إذا رجت الأرض﴾: أى زلزلت، انظرالآية (١) من سورة الحج صفحتى ٤٣٢، ٤٣٣، والآية (١) من سورة الزلزلة صفحة ٨١٧ و(إذا) بدل من (إذا) الأولى.

﴿وبست الجبال﴾.. إلخ: أى فتتت ومزقت، انظر شرح الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧.

﴿هباء﴾: تقدم فى الآية (٢٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣.

﴿منبثًا﴾: أى متفرقًا فى الفضاء.

﴿أزواجا﴾: أى أصنافا.

﴿ثلاثة﴾: إذا علمت أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحدًا من عمله مثقال ذرة كما فى الآية (٤٠) من سورة النساء صفحة ١٠٧، وأنه سبحانه فضل بعض الرسل على بعض كما فى الآية (٢٥٣) من سورة البقرة صفحتى ٥٢، ٥٣ وأهل النار متفاوتون فى العذاب كما فى الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨؛ نقول إذاعلمت كل هذا تعلم أن كل صنف من هذه الأصناف الثلاثة على درجات بعضها أعلى من بعض. ﴿أصحاب الميمنة﴾: المراد بالميمنة جهة اليمين والمراد: أصحابها هم الذين يعطون كتابهم بأيمانهم، انظر الآية (١٩) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢.

﴿ما أصحاب الميمنة﴾: (ما) اسم استفهام يقصد به فى مثل هذا المقام تهويل أمر الشىء المتحدث عنه، إما فى حسن الحال، كما هنا، أو فى قبحه كما سيأتى بعد، والمراد به هنا أصحاب اليمين، انظر الآية (٢) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١. ﴿المشأمة﴾: هى جهة الشمال لأن شأنها أن يتشاءم بها. وأصحابها هم الذين يأخذون كتابهم بشمالهم، انظر الآية (٢٥) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣.

المعنى: فبأى نعمة من نعم ربكما يا معشر الإنس والجن تكذبان يتنعم أصحاب اليمين بتلك النعم السابقة حال كونهم متكئين على ستائر خضر متدلية من فوق السرر ويجلسون على فرش فاخرة ويكفيك فى حسنها وصفه سبحانه وتعالى لها بأنها حسان فبأى آلاء ربكما تكذبان ومن كل ما سبق الفرق بين نعيم من خاف مقام ربه ومن كان فى المنزلة أقل منهم. وذلك أنه سبحانه جعل الغالب فى بساتين الأولين الأشجار ذات الفواكه والغالب للآخرين النبات الأخضر والرياحين وقال فى الأولين: (من كل فاكهة)، وفى الآخرين: (فيهما فاكهة). وكذا فرق فى الماء لأن العين الجارية أغزو ماءً من الفوارة، وكذا ما وصف به الحور العين فى الفريق الأول دون الثانى ومع ذلك فالكل منعمون يشعر الأعلى بتفوقه ولا يشعر به الأقل؛ لأن الله سبحانه رفع من صدورهم الحسد والغل، انظر شرح الآية (٧٤) من سورة الزمر صفحتى ٦١٦، ٦١٧.

﴿سورة الواقعة﴾

إذا قامت القيامة التى لا شك فى وقوعها، لا يوجد عند ذلك مَنْ يقول: إن الوعد بها كان كذبا بل يقطع بها حتى مَنْ كان ينكرها، وهى خافضة لقوم بدخولهم النار والمراد مظهرة لذلك ورافعة لقوم بدخولهم الجنة أى فى وقت وقوع الواقعة تزلزل الأرض زلزالاً شديدًا، وتتفتت الجبال تفتيتًا شديدًا فتكون غبارا متناثرا فى الفضاء، وعند ذلك تكونون أيها الخلائق أنواعا ثلاثة، اثنان فى الجنة وواحد فى النار، ثم شرع فى بيان هذه الأنواع على وجه الإجمال فقال: (فأصحاب الميمنة).. إلخ. أى فأصحاب الميمنة فى غاية حسن الحال وفخامة المنزلة وأصحاب المشأمة فى نهاية سوء الحال وشناعة المنزلة. والسابقون أخرهم مع أنهم أعلى ليربط بهم بيان أحوالهم قبل بيان أحوال غيرهم.

ٱلسَّـٰبِقُونَ[1] ﴿١٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّـٰتِ[2]
ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ[3] ﴿١٤﴾
عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ[4] ﴿١٦﴾
يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ[5] مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ
وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾
وَفَـٰكِهَةٍ[6] مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾
وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ[7] ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾
جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا
تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا[8] سَلَـٰمًا[9] ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَـٰبُ[10] ٱلْيَمِينِ
مَآ أَصْحَـٰبُ[11] ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ
مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾
وَفَـٰكِهَةٍ[12] كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ

المفردات: ﴿السابقون﴾: هم المسارعون إلى كل ما دعا الله إليه، الفارون من كل ما نهى عنه، وداوموا على ذلك طول حياتهم، وهم من كل أمة من زمن ادم إلى قيام الساعة، انظر بعض صفاتهم فى الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤ والآيات (٦٣ إلى ٧٤) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٧، ٤٧٨ والآيات (١٦) وما بعدها من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣.

﴿ثلة﴾: اسم غلب استعماله فى الجماعة الكثيرة أى كثير، والمراد: كثير من صدر كل أمة آمنت بنبيها فى حين قوة الدعوة.

﴿موضونة﴾: تقول العرب: وضن فلان الدرع بوزن وعد، أى نسجه بإتقان فأصل الموضون المنسوج بنظام. والمراد هنا: متصل بعضها ببعض بنظام بديع كأنها منسوجة، انظر الآية (١٠) من سورة (ق) صفحة ٦٨٩ والآية (٢٠) من سورة الطور صفحة ٦٩٧.

﴿متقابلين﴾: تقدم فى الآية (٤٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤١.

---

(١) السابقون.
(٢) جنات.
(٣) الآخرين.
(٤) متقابلين.
(٥) ولدان.
(٦) فاكهة.
(٧) كأمثال.
(٨، ٩) سلاما.
(١٠، ١١) أصحاب.
(١٢) وفاكهة.

﴿ولدان﴾: هم الغلمان المتقدم ذكرهم فى الآية (٢٤) من سورة الطور ٦٩٨.

﴿أكواب﴾: جمع كوب، وهو الإناء الذى لا عروة له ولا خرطوم

﴿أباريق﴾: جمع إبريق وهى آنية لها عرى وخراطيم.

﴿كأس من معين﴾: تقدمت فى الآية (٤٥) من سورة الصافات صفحة ٥٨٩.

﴿لا يصدعون عنها﴾: أى لا يصيبهم صداع ناشئ عن شربها، كخمر الدنيا.

﴿ينزفون﴾: انظر أصل معنى المادة فى الآية (٤٧) من سورة الصافات صفحتى ٥٨٩، ٥٩٠، والمراد هنا: لا يخرجون ما فى بطونهم بالقىء بسبب شربها، كما تفعل خمر الدنيا من إخراج الطعام بالقئ. (حور عين): تقدم فى الآية (٥٤) من سورة الدخان صفحة ٦٥٩.

﴿اللؤلؤ المكنون﴾: تقدم فى الآية (٢٤) من سورة الطور صفحة ٦٩٨.

﴿لغوًا ولا تأثيمًا﴾: تقدم فى الآية (٢٣) من سورة الطور صفحة ٦٩٨.

﴿قيلا﴾: القيل هو القول، انظر الآية (١٢٢) من سورة النساء صفحة ١٢٣.

﴿سلامًا سلامًا﴾: بيان لـ (قيلا) قبله.

﴿سدر﴾: شجر النبق وليس كنبق الدنيا ولكنها فاكهة تليق بالجنة: قال ابن عباس: ليس فى الدنيا من نعيم الجنة إلا الأسماء.

﴿مخضود﴾: تقول العرب: خضد فلان الشجر بوزن ضرب إذا قطع ما فيه من الشوك ولم يبق إلا الثمر.

﴿طلح﴾: جاء فى لسان العرب: ليس هو الموز، ولكنه شجر عظيم وارف الظل، طويل الفروع يستظل تحته الإبل والخلق، وأطلقه القرآن على نوع من أشجار الجنة المثمرة بما ليس لها فى الدنيا مثل. ﴿منضود﴾: متراكب بعضه فوق بعض وليس فى ساقه مكان خال من الثمر، انظر المادة فى الآية (١٠) من سورة (ق) صفحة ٦٨٩.

المعنى: السابقون هم السابقون، وهذا تركيب تقوله العرب عند إرادة لفت النظر إلى التهويل فى شأن شىء. تعظيمًا أو تحقيرًا. فالمراد: السابقون هم هؤلاء المشهورة أحوالهم،

المعروفة فضائلهم. ثم بيَّن نتيجة عملهم إجمالاً فقال: أولئك هم المقربون أى أصحاب الحظوة والمنزلة الرفيعة عند ربهم فى جنات النعيم. هؤلاء كثير من صدر كل أمه من أمم الأنبياء، فى حين قوة الدعوة وقليل من متأخريهم، ثم بيَّن نعيمهم فقال: على سرر.. إلخ. أى جالسون على سرر مصفوفة بنظام بديع حال كونهم متكئين عليها كالملوك، لا يشغلهم شيء، متقابلين، يسر بعضهم بمشاهدة بعض. يطوف عليهم غلمان لا يكبرون ولا يتغيرون بأكواب وأباريق فيها خمر من نهر ظاهر للعيون لتسر به لا يصيبهم صداع من شربها ولا يتقيأون. ولا يتبولون كما تفعل خمر الدنيا بشاربها. قال ابن عباس: خمر الدنيا تصيب بالسكر والصداع والقيء والبول. وقد نزه الله تعالى خمر الجنة عنها، ويطوف الخدم أيضًا بأصناف من الفاكهة مما يتخيرونه، وبلحم طير مما يشتهون. وبعدما بيَّن سبحانه نعيمهم المطعوم والمشروب أتبعه بذكر نسائهم فقال: (وحور عين).. إلخ. أى ولهم فى الجنة نساء حسان العيون بيض كأنهن فى صفاء بشرتهن اللؤلؤ المحفوظ فى صدفه. جزاهم ربهم بهذا كله مكافأة لهم بما كانوا يعملونه فى الدنيا، انظر بعضه فى الآية (١٦) وما بعدها من سورة الذاريات صفحة ٦٩٣. لا يسمعون فى الجنة من القول ما هو لغو، وهو ما لا فائدة فيه. ولا يسمعون القول الموقع فى الإثم. ولكن يسمعون تحية مكررة بتكرر قائليها، بيَّنها بقوله: سلاما. أى سلاما من الله تارة كما فى الآية (٥٨) من سورة يس صفحة ٥٨٤، ومن الملائكة تارة كما فى الآيتين (٢٣، ٢٤) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥، والآية (٧٣) من سورة الزمر صفحة ٦١٦. ومن أصحاب الأعراف كما فى الآية (٤٦) من سورة الأعراف صفحة ١٩٩.

ثم شرع فى بيان حال أصحاب اليمين فقال: (وأصحاب اليمين).. إلخ. انظر المراد من هذا التركيب فى الآية (٨) السابقة أى فى أحسن حال، ثم بيَّن حالهم بعد دخول الجنة فقال: (فى سدر).. إلخ. أى فى جنات ذات شجر من نبق يليق بنعيم الآخرة منزوع الشوك، وفى مكانه ثمر حتى لا يكون فيه ما يؤذى متناوله. وشجر عظيم وارف الظل لاحر معه. وماء يسكب لهم متى شاءوا. وفاكهة كثيرة لا تنقطع لعدمها، ولا تمنع عنهم مع وجودها. وفرش يجلسون عليها، انظر الآية (٥٤) من سورة الرحمن صفحة ٧١١.

مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ
أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ
مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ
ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾
وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا
أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ
ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾
لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا
ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ

المفردات: ﴿أنشأناهن﴾: أي أوجدناهن من جديد. والضمير يعود على الزوجات اللاتي أشار إليهن سبحانه إشارة لطيفة بقوله (فرش) فهن مفهومات من المقام، كما فهمت الأرض في الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣، وانظر نظير هذا الاستعمال في الآية (٣٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٤ والآية (٢٦) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠ والآية (٨٣) الآتية صفحة ٧١٧.

﴿أبكارا﴾: عذارى دائمًا كلما مسهن أزواجهن رجعن أبكارا ثانية. ﴿عربا﴾: جمع عروب، بوزن صبور - بفتح أوله - وهي المرأة شديدة الحب لزوجها. ﴿أترابًا﴾: جمع ترب بكسر فسكون وهي المساوية لغيرها في السن؛ والمراد أن نساء الجنة جميعًا يكن في سن الشباب، كما تقدم في الآية (٥٢) من سورة ص صفحة ٦٠٢. ﴿لأصحاب اليمين﴾: متعلق بالفعل في (أنشأناهن) في الآية (٣٥) أي أنشأنا الزوجات لأصحاب اليمين. ﴿ثلة﴾: تقدم في الآية (١٣) من هذه السورة صفحة ٧١٤.

﴿ما أصحاب الشمال﴾: يقال فيه ما قيل في الآية (٨) من هذه السورة صفحة ٧١٣.

﴿سموم﴾: لهب النار، كما تقدم في الآية (٢٧) من سورة الطور صفحة ٦٩٨.

﴿حميم﴾: ماء شديد الحرارة، انظر الآية (١٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٦، والآية (١٥) من سورة محمد صفحة ٦٧٤. ﴿يحموم﴾: المراد به الدخان شديد الحرارة، والسواد، مأخوذ من الحمم بضم ففتح، وهو الفحم عقب احتراقه مباشرة، انظر الآية (١٦) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨. ﴿كريم﴾: المراد من كريم هنا: حسن المنظر. ﴿مترفين﴾: أي منعمين بما شغلهم عن خطر هذا اليوم. ﴿يصرون﴾: أي يداومون ولا يتوبون. ﴿الحنث العظيم﴾: أي الذنب

---

(١) أنشأناهن. (٢) فجعلناهن. (٣) لأصحاب. (٤) الآخرين. (٥) أصحاب.
(٦) أئذا. (٧) عظاما. (٨) أئنا. (٩) آباؤنا. (١٠) الآخرين.
(١١) ميقات. (١٢) لآكلون. (١٣، ١٤) فشاربون.

الكبير؛ وهو كل كبيرة، وأفظعها الشرك به سبحانه وتعالى.﴿أئذا متنا﴾: استفهام أرادوا به إنكار البعث ﴿أئنا لمبعوثون﴾: أعادوا الاستفهام لتأكيد الإنكار. ﴿ميقات يوم﴾.. إلخ: هو يوم القيامة. انظر بيان هذا التركيب فى شرح الآية (٣٨) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٢، وانظر الآية (٩) من سورة التغابن صفحة ٧٤٦.﴿زقوم﴾: شجر بشع الهيئة واللون، كريه الرائحة والطعم ينبت فى أصل الجحيم، أنظر آيتى (٦٢، ٦٤) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠، والآية (٤٣) من سورة الدخان صفحة ٦٥٩.﴿فشاربون﴾.. إلخ: المراد: أنهم يسقون هذا الحميم رغم أنوفهم، كما فى الآية (١٥) من سورة محمد صفحة ٦٧٤.

المعنى: إن أصحاب اليمين يجلسون على فرش مرفوعة على سرر. وانشأنا لهم زوجات فى الجنة إنشاء جديدًا حتى منْ كانت منهن فى الدنيا عجوزا فإنها تخلق فى الجنة شابة بكرًا دائمًا مهما مسها زوجها. متحببات لأزواجهن، كلهن فى سن واحدة، ليس فيهن عجوز ولا طفلة. أنشأناهن على هذه الحال لأجل أصحاب اليمين. وهم كثير من الأولين وكثير من الآخرين؛ وبعدما بيَّن سبحانه مآل الفريقين المؤمنين قال تعالى فى الفريق الثالث: وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال. يقال فى هذا التركيب ما سبق فى الآية (٨) من هذه السورة صفحة ٧١٣ والمراد: إن أصحاب الشمال فى أسوأ حال. ثم بينً ذلك سبحانه فقال: (فى سموم).. إلخ. أى فى لهب يحرق جلودهم. وظل مكون من دخان أسود حار. لا بارد كغيره من الظلال. ولا حسن المنظر. جازيناهم بذلك لأنهم كانوا فى الدنيا منغمسين فى النعم حتى غفلوا عن هذا الهول. وكانوا يداومون على كل كبيرة وأولها الشرك به تعالى وإشراك غيره معه. وكانوا مع ذلك ينكرون البعث فيقولون: هل يصح أننا إذا متنا وصرنا ترابا وعظاما هل إذا كنا على هذه الحال نبعث أحياء ثانيا؟ هذا غير معقول. هل نبعث نحن وآباؤنا الأولون أى الذين مضوا من زمن بعيد. وهذا تأكيد للإنكار. قل لهم أيها النبى فى الرد عليهم: إن الأولين من آبائكم وغيرهم الذين تستبعدون بعثهم. والآخرين كذلك إلى يوم القيامة - والله - لمجموعون أى مساقون إلى موقف فى زمن محدد فى علم الله من يوم معلوم هو يوم القيامة الذى يبدأ بالنفخة الأولى وينتهى بدخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. ثم بيَّن سبحانه ما سيأكلونه وما سيشربونه فقال تعالى: ثم إنكم أيها الغافلون أى عن طريق الصواب. المكذبون لله ولرسوله، والله لآكلون طعاما مأخوذا من شجر من زقوم بشع الهيئة واللون، كريه الرائحة والطعم، ينبت فى أصل الجحيم، مؤلم يقف فى الحلق؛ ومع هذا فسترغمون على ملء بطونكم منه. وعقب الأكل مباشرة تستغيثون من العطش فتغيثكم زبانية جهنم بالحميم، انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥. (فشاربون).. إلخ. نسأل الله تعالى السلامة.

شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ
خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾
ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ
الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ
وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ
الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾
ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ
حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ
نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾
ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ
جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي
تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾

المفردات: ﴿الهيم﴾: هي الإبل شديدة العطش. يقال ناقة هيماء بفتح فسكون، وجمل أهيم بفتح الهمزة وسكون الهاء ويجمعان على هيم.

﴿نزلهم﴾: المراد بالنزل الطعام الذي يقدم للضيف، انظر الآية (٦٢) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠ وذكره هنا للتهكم كما في الآية (١٠٢) من سورة الكهف صفحة ٣٩٤.

﴿يوم الدين﴾: هو يوم الحساب والجزاء وهو يوم القيامة، وإذا علمت ما تقدم في شرح الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٤ تعلم أن المراد هنا أن الله عز وجل يخبرنا بأنه أعد للكافرين في جهنم ما ذكر وأنه تعالى سيعلمهم به يوم القيامة علما يقينيًا لا يحتمل الشك، ثم تسوقهم الملائكة سوقًا إلى جهنم، انظر الآيات (٦٩، ٧٠، ٧١) من سورة الزمر صفحتي ٦١٥، ٦١٦. ﴿لولا﴾: كلمة تدل على الرغبة في حصول ما بعدها. ويعبرون عن معناها بـ (هلا) بتشديد اللام. ﴿أفرأيتم﴾: المراد: أخبروني عن جواب الاستفهام الآتي.

﴿ما تمنون﴾: أي ما تقذفونه في الأرحام من المني.

﴿تخلقونه﴾: أي تصورونه وتنفخون فيه الروح.

﴿قدرنا بينكم الموت﴾: أي قسمناه وجعلنا لكل واحد منكم عمرا محدودا من طول أو قصر، انظر الآية (١٤٥) من سورة آل عمران صفحة ٨٦.

﴿بمسبوقين﴾: أي عاجزين، انظر الآية (٤) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢١ والباء لتأكيد نفي ما بعدها عما قبلها.

---

(١) خلقناكم. (٢) أفرأيتم. (٣) أأنتم. (٤) الخالقون. (٥) أمثالكم.
(٦) أفرأيتم. (٧) أأنتم. (٨) الزارعون. (٩) لجعلناه. (١٠) حطاما.
(١١) أفرأيتم. (١٢) أأنتم. (١٣) جعلناه. (١٤) أفرأيتم. (١٥) أأنتم.

﴿نبدل أمثالكم﴾: أى نخلق بدلكم خلقا يشبهكم فى أنه إنسان لكن يكون خيرًا منكم.

﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾: أى بعد أن نبدلكم بخير منكم، نجعلكم فى صورة قبيحة لا تتصورون شناعتها، قال الحسن: يجعلكم قردة وخنازير أى فى صورة بشعة يستقذرها الناس.

﴿النشأة الأولى﴾: هى خلقكم أول مرة فى الدنيا، والنشأة الأخرى هى البعث يوم القيامة، انظر الآية (٢٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٣. والآية (٤٧) من سورة النجم صفحة ٧٠٣.

﴿فلولا﴾: بمعنى (هلا) التى تفيد طلب حصول ما بعده.

﴿تذكرون﴾: أى تتذكرون أن مَنْ قدر على النشأة الأولى قادر على الأخرى.

﴿حطاما﴾: هو الشىء المحطم، أى المفتت، انظر الآية (٢١) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩.

﴿ظلتم﴾: أى صرتم، انظر الآية (١٤) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨.

﴿تفكهون﴾: أصل التفكه التنقل بين صنوف الفاكهة، ثم استعمل فى التنقل بالحديث من موضوع إلى آخر، والمراد: تتنقلون من تعجب، إلى تندم، إلى تحسر... إلخ، كما يتنقل المتفكه من فاكهة لأخرى، انظر الآية (٤٢) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦؛ واستعماله هنا من قبيل ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾.

﴿مغرمون﴾: يقال غرم فى تجارته بفتح الغين وكسر الراء بوزن تعب، إذا خسر، وأغرمه غيره إذا أوقعه فى الغرم. والمراد هنا: يقول بعضكم لبعض ما هذه المصيبة؟ إن الشيطان أوقعنا فى الخسارة فصرنا خاسرين.

﴿بل نحن محرومون﴾: (بل) للانتقال من كلام إلى آخر، أى بل نحن محكوم علينا بالحرمان من زرعنا.

﴿أجاجا﴾: أى شديد الملوحة، انظر الآية (٥٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٦.

﴿تورون﴾: أى تخرجونها حتى ترى بالعين.

﴿شجرتها﴾: قالوا إن المراد بها: ذلك الشجر المعروف عند العرب وهو نوعان، أحدهما يسمى (العفار) بكسر العين، وآخر يسمى (المرخ) بفتح فسكون. وكانوا إذا احتاجوا النار يضربون عودا من أحدهما بعود من الآخر مع احتكاك شديد فيخرج شرر النار كما يفعل الآن بالحديد المسمى بالزناد وقطعة من الحجر.

المعنى: إن الضالين بعدما يملأون بطونهم من شجر الزقوم يسرع إليهم العطش فيشربون من الماء الحار، ومع كونه شديد الحرارة فإن رداءة الزقوم تجبرهم على الشرب منه كثيرا كشرب الإبل العطاش. وهذا الطعام المر البشع والشراب الجار هو طعام ضيافتهم يوم القيامة. ثم وجه سبحانه الخطاب للكفرة توبيخا فقال: نحن... إلخ. أى نحن وحدنا الذين خلقناكم فهلا تصدقون بالبعث الذى أخبرناكم به؛ لأن الذى يخلقكم من العدم قادر على أن يعيدكم، انظر الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤، والآية (٧٩) من سورة يس صفحة ٥٨٦. وبعد هذا فأخبرونى عن المنى الذى تقذفونه فى الأرحام. هل أنتم الذين تتولون تصويره فى الأرحام وتنفخون فيه الروح أم نحن الخالقون. نحن وحدنا الذين جعلنا لكل واحد منكم عمرًا محددًا لا يتجاوزه. وما نحن بعاجزين بل قادرين على أن نميتكم دفعة واحدة. ونخلق بدلكم خلقا آخر يشبهكم فى أنه إنسان لكن يكون خيرًا منكم، انظر الآية (١٩) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٢، والآية (٣٨) من سورة محمد صفحتى ٦٧٧، ٦٧٨. وقادرون أيضا أن نخلقكم أنتم ولكن خلقًا جديدًا لا تعلمونه كأن نجعلكم قردة وخنازير. وفى هذا تهديد لهم. ولقد علمتم كيف أنشأناكم أولا من طين ثم من نطفة.. إلخ، حتى قوله تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين، انظر الآيات من (١٢) إلى (١٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦، فهلا تتذكرون أن مَنْ قدر على ذلك قادر على إحيائكم من القبور، وأخبرونى أيضًا عما تحرثون الأرض لأجله. وتبذرون حبه؛ هل أنتم الذين تتولون إنباته وجعله أخضر ناميًا حتى يثمر؛ أم نحن المنبتون له لا أنتم؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف تستبعدون علينا إخراج الموتى من القبور؟ انظر الآية (١٩) من سورة الروم صفحة ٥٣٢، والآية (١١) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٨ لو نشأ لجعلنا هذا الزرع هشيمًا مفتتًا قبل أن يثمر، فصرتم بسبب ذلك تتقلبون بين الندم والحسرة والتعجب من سوء حظكم حال كونكم قائلين من شدة الألم: إنا لمصابون بالخسران. بل إن السبب الحقيقى فيما حصل لنا أننا كتب علينا الحرمان ونحس الطالع؛ ثم انتقل سبحانه إلى عبرة أخرى بعدما تقدم فقال: أفرأيتم.. إلخ. أى فأخبرونى أيضا عن الماء العذب الذى تشربونه أنتم وأنعامكم. هل أنتم الذين أنزلتموه من السحاب أم نحن المنزلون؟ لو نشاء جعلناه ملحًا مرًا فهلا تشكرون الله على ذلك. وأخبرونى أيضًا عن النار التى تستخرجونها بقدح عود من الشجر على عود آخر منه. هل أنتم الذين خلقتم شجرتها وأودعتم فيها هذا السر أم نحن الخالقون لها.

نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا[1] تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا[2] لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ
رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ[3] ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾
وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ[4] كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾
فِى كِتَٰبٍ[5] مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾
تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ[6] ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم
مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾
فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾
فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ[7] ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ
وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ[8]
ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ[9] لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ[10] ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن

المفردات: ﴿تذكرة﴾: أى تذكيرًا للغافل، يعلم منه قدرة ربه تعالى على البعث وعلى كل ما يريده؛ كما أن فيها أيضًا تخويف لمن يعصى ربه بعذابها.

﴿متاعا﴾: أى شيئًا يتمتع وينتفع به.

﴿للمقوين﴾: أصل المقوى هو الذى ينزل فى القواء بكسر القاف وهو المكان القفر الخالى من السكان، والمراد هنا المسافرون والموجودون فى الصحارى والوديان الذى يغطيها الثلج عدة شهور فى العام، وهم الذين يصعب عليهم الحصول على النار، فتكون المنة عليهم أظهر.

﴿فلا أقسم﴾: هذه عبارة من عبارات العرب فى القسم يريدون بها تأكيد المقسم عليه، كأنه فى ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى يمين، ويقصدون أيضا لفت نظر السامع إلى خطر الشىء المقسم به. وهو هنا الإشارة إلى يوم القيامة، انظر شرح الآية (١) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧.

﴿مواقع النجوم﴾. جمع موقع بفتح القاف. مصدر بمعنى وقوع النجوم وسقوطها يوم القيامة، انظر الآية (١) من سورة النجم صفحة ٧٠٠ والآية (٢) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥.

---

(١) جعلناها.
(٢) متاعا.
(٣) بمواقع.
(٤) لقرآن.
(٥) كتاب.
(٦) العالمين.
(٧) صادقين.
(٨) أصحاب.
(٩) فسلام.
(١٠) أصحاب.

﴿عظيم﴾: لأنه ينبه ليوم فيه من الأهوال ما يوجب على العاقل البعد عن أسباب أخطاره.

﴿كتاب﴾: هو اللوح المحفوظ، انظر الآية (٢٢) من سورة البروج صفحة ٨٠٢.

﴿مكنون﴾: المراد: مصون من التلاعب فيه.

﴿المطهرون﴾: أى الملائكة لأنهم جميعًا مطهرون من المعاصى، انظر الآية (١٣) وما بعدها من سورة عبس صفحة ٧٩٢.

﴿تنزيل﴾: أصل تنزيل مصدر بمعنى الإنزال لكن أريد هنا به المنزل. وغلب على القرآن حتى صار اسمًا من أسمائه يقال جاء به التنزيل ونطق به التنزيل وهكذا.

﴿الحديث﴾: المراد به القرآن، انظر الآية (٢٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩.

﴿مدهنون﴾: مأخوذ من المداهنة وهى الملاينة فى الظاهر للوصول إلى غرض خفى والمراد هنا: متهاونون متساهلون، لا تنظرون إليه بعين الجد، وتظهرون بمظهر مَنْ لا يهمه الأمر، انظر شرح الآية (٩) من سورة القلم صفحة ٧٥٨.

﴿رزقكم﴾: أى حظكم من هذا القرآن.

﴿فلولا إذا بلغت﴾.. إلخ: (لولا) هذه أصل معناها طلب حصول ما بعدها ولكنه أريد بها هنا التعجيز والتبكيت، والفعل المطلوب هنا المبكت به هو (ترجعونها) الآتى. و(إذا) ظرف زمان بمعنى حين منصوب بترجعونها الآتى لكنه فصل بينها وبينه بهذه الجمل لتصوير بشاعة حال الموت لمن يشاهده من أقارب المحتضر.

﴿بلغت﴾: أى الروح المفهومة من سياق الكلام كما فى الآية (٢٦) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠.

﴿الحلقوم﴾: مجرى الطعام والشراب أول تناوله.

﴿وأنتم حينئذ﴾: أى حين بلغت.. إلخ. والجملة حال من الروح. والمخاطب هنا هم الحاضرون بجوار المحتضر الذى يعالج سكرات الموت.

﴿تنظرون﴾: أى إلى حاله وما يعانيه. لا تقدرون على دفع شىء عنه.

﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾ : المراد : ورسلنا المكلفون بقبض روحه أقرب إليه منكم، انظر الآية (٦١) من سورة الأنعام صفحتى ١٧١، ١٧٢ والآية (٣٧) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٧، ١٩٨ . وهذا أسلوب معهود عند العرب يقولون: بنى الأمير المدينة ويريدون بناها عماله، ونسبة الفعل إلى الله سبحانه وتعالى تارة وإلى رسله من الملائكة تارة أخرى كثير فى القرآن، من ذلك ما فى الآية (١١٧) من سورة المائدة صفحة ١٦١، والآية (٤٢) من سورة الزمر صفحة ٦١٢ مع الآية (٦١) من سورة الأنعام صفحتى ١٧١، ١٧٢ والآية (٣٧) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٧، ١٩٨ والآية (١١) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦، ومنه أيضا قوله تعالى ﴿ونكتب ما قدموا﴾: الآيه (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠ مع الآية (٢١) من سورة يونس صفحة ٢٦٩، والجملة حال من فاعل تنظرون.

﴿فلولا﴾ : الثانية تأكيد لـ (لولا) الأولى السابقة فى الآية (٨٣).

﴿إن كنتم غير مدينين﴾ : جملة شرطية جاءت متوسطة بين (لولا) والذى أصله أن يكون مذكورا بعدها، وجواب شرط الجملة الاعتراضية مقدر دل عليه (ترجعونها) المذكور، والأصل إن كنتم غير مدينين ترجعونها، وإنما قلنا ذلك لأن (ترجعونها) المذكورة بعد (إن كنتم) هى جواب (لولا) الأولى كما سبق أن أوضحنا، والمراد : أى غير خاضعين لسلطان الله القاهر فى كل ما يتعلق بكم، من حياة، وموت، ورزق، وبعث بعد موت، تقول العرب: دانت لفلان الأمة أى خضعت، انظر الآية (٦١) من سورة الأنعام صفحتى ١٧١، ١٧٢ .

﴿ترجعونها﴾ : يقال رجع فلان الشىء وأرجعه بمعنى واحد، انظر الآية (٤٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٨، ٤٠٩، والمراد ترجعون الروح للجسد كما كانت.

﴿إن كنتم صادقين﴾ : شرط آخر مؤكد لمضمون الشرط الأول فجوابه هو جوابه. والمراد صادقين فى حلفكم على أن الله لا يبعث مَنْ يموت؛ لأن العقل لا يصدق أن التراب يعود جسما حيا، انظر الآية (٣٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٠ والآية (٣) من سورة ق صفحة ٦٨٨، والمعنى المراد من هذا التركيب كله أن الذى يحكم على الله بأنه لا يمكن أن يحيى الموتى إنما هو الذى يقدر على منع الموت بإرجاع الروح. أى وأنتم أعجز من أن تستطيعوا هذا كما

فى الآية (١٦٨) من سورة آل عمران صفحة ٩١ وحينئذ لم لا تقرون أن القادر على أحدهما قادر على الآخر.

﴿إن كان﴾: أى المتوفى المفهوم من السياق.

﴿من المقربين﴾: هم السابقون من الأصناف الثلاثة المتقدم ذكرهم فى الآية (١٠) من هذه السورة صفحتى ٧١٣، ٧١٤.

﴿روح﴾: جاء فى القاموس المحيط: الروح، الرحمة والراحة. فالمراد: رحمة من الله تملأ نفوسهم رضا بما لاقوا: قال نبى الله يعقوب عليه السلام لبنيه (ولا تيأسوا من روح الله)... الآية (٨٧) من سورة يوسف صفحة ٣١٦. أى لا تيأسوا من رحمة الله تعالى. ويؤيد ذلك قول خليل الرحمن عليه السلام قال ﴿ومَنْ يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾ الآية (٥٦) من سورة الحجر صفحة ٣٤٢.

﴿ريحان﴾: قال الراغب: تطلق العرب الريحان على الرزق. قيل لأعرابى: إلى أين تذهب فقال: أطلب من ريحان الله، أى من رزقه. فالمراد هنا للمؤمنين فى الجنة رزق من كل ما يُدْخِل السرور عليهم. قال تعالى فيما أعد للمؤمنين فى الجنة ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ الآية (٥٠) من سورة الحج صفحة ٤٤٠.

﴿فسلام لك﴾: المراد تقول له ملائكة الرحمة عند الموت فسلام لك من إخوانك أصحاب اليمين الذين سبقوك إلى الجنة، إلى رضوان الله تعالى. ويشعر بهذا ما فى الآية (١٧٠) من سورة آل عمران صفحة ٩١.

المعنى: يقول سبحانه وتعالى موبخًا الكفار هل أنتم الذين خلقتم هذه الشجرة التى تخرج منها النار أم نحن الذين أنشأناها. وجعلناها تذكيرًا للغافل بأمر البعث، وتحذيرًا له من عذاب جهنم؛ لأن الذى يخرج النار من الشجر الأخضر المضاد لها قادر على إعادة من تفرقت أجزاؤه. وجعلنا النار متاعا ينتفع به البعيد عن المدن خصوصًا أماكن الثلج. فإنه لولا النار لهلك الإنسان والحيوان؛ وبعدما عدد سبحانه بدائع صنعه وجلائل نعمه أمر عبده أن ينزهه عن كل نقص فقال: فسبح.. إلخ. أى وإذا كان الأمر كما سمعت فنزه الله تنزيهًا مرتبطًا باسمه الدال على أنه مربيك وصاحب الفضل عليك وقل (سبحان ربى العظيم). ولما بلغ من تبجج المشركين أنهم يقولون عن القرآن أنه يتلقاه محمد من الكهنة والشياطين. رد سبحانه عليهم

بما فى الآيات (٢١٠ إلى ٢١٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢ والآية (٢٢١) من سورة الشعراء أيضًا صفحة ٤٩٣ والآيات من (٣٨ إلى ٥٢) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦٣، ٧٦٤، ورد عليهم هنا بقوله: (فلا أقسم).. إلخ، أى ما سأخبركم به ثابت قطعًا ولا يحتاج إلى هذا القسم العظيم الذى يذكركم بيوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت. إن هذا القرآن الحاضر بأدلته فى الأذهان. الظاهر بإعجازه للعيان، لهو قرآن كريم، أى جم المحاسن غزير المنافع. مسجل فى كتاب مكنون، لا يدنو منه إلا الملائكة المطهرون من أدران المعاصى. وهو منزل من رب العالمين، لا من الشياطين كما تفترون.

هل بعد هذه الصفات الجليلة لهذا القرآن الجليل تعرضون عنه فتتهاونون به؟ ثم تهكم بهم فقال تعالى: (وتجعلون).. إلخ. أى هل يصح أن يكون كل نصيبكم وحظكم من هذا الكتاب العظيم هو التكذيب به بدل الاهتداء به والشكر عليه. ثم أراد سبحانه أن ينبه الكفار لعجزهم عما يقع بين أيديهم وأبصارهم مما أراد سبحانه نفاذه ليعلموا أن مَنْ يقدر على ذلك قادر على إعادتهم أحياء يوم القيامة، فقال: (فلولا إذا بلغت).. إلخ. أى إن كنتم خاضعين لسلطان الله القاهر ولقدرتنا ظانين أننا لن نقدر على بعثكم بعد الموت وكنتم صادقين فى حلفكم أننا لن نبعثكم فهلا ترجعون روح المحتضر حين تبلغ حلقومه.

والحال أنكم فى هذا الوقت تنظرون إلى حاله، وملائكتنا فى هذا الحال أيضًا أقرب إليه منكم، ولكن لا تنظرونهم؛ وإذا كنتم لا تستطيعون ذلك فكيف لا تقرون بأن الله لا يعجزه شىء يريده. ومن ذلك بعثكم بعد الموت. وبعدما بيّن سبحانه حال المحتضر عند النزع أراد أن يبين حاله بعد الموت فقال: (فأما إن كان).. إلخ. أى فأما إن كان المتوفى من المقربين السابقين فى الآيتين (١٠، ١١) صفحتى ٧١٣، ٧١٤. فتقول لهم ملائكة الرحمة تبشيرًا لهم: لكم عند الله رحمة منه تملأ نفوسكم رضا بما لاقيتم، ولكم أيضًا رزق من كل ما يدخل السرور عليهم ومن كل ما تشتهيه أنفسكم، انظر الآية (٦٤) من سورة يونس صفحة ٢٧٦ والآية (٣٠) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٣، ٦٣٤. وأما إن كان المتوفى من أصحاب اليمين، فتقول له الملائكة تبشيرا أيضا: سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين الذين سبقوك إلى رحمة الله، إنهم فرحون بما أعد لك من السعادة، انظر الآية (١٧٠) من سورة آل عمران صفحة ٩١.

كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾
وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾
فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

(٥٧) سُورَةُ الحَدِيدِ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ(١) وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ(٢) وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ
وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ(٣)
وَٱلظَّٰهِرُ(٤) وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ(٥) وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى

المفردات: ﴿فنزل﴾: تقدم فى الآية (٥٦) من هذه السورة صفحة ٧١٦.

﴿حميم﴾: تقدم فى الآية (٤٢) من هذه السورة صفحة ٧١٥.

﴿تصلية﴾: يقال صلى فلان النار بتخفيف اللام. أى دخلها، كما فى الآية (١٢) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤. وصلاة غيره بتشديد اللام تصلية أى ألقاه فيها. فالمراد: وإدخال فى جحيم جهنم لأصحاب الشمال.

﴿جحيم﴾: هى جهنم. ﴿إن هذا﴾: أى ما ذكر من نعيم المؤمنين وعذاب الكافرين.

﴿حق اليقين﴾: ورد فى مثل هذا المقام عبارات ثلاث هى: (علم اليقين)، و(عين اليقين) انظر آيتى (٥، ٧) من سورة التكاثر صفحة ٨٢٠، و(حق اليقين) وفسروا (علم اليقين) بما يعلمه الإنسان بالسماع من الخبر الصادق أو بالبحث الدقيق أو بالقياس الصحيح أو ما يشبه ذلك. و(عين اليقين) بما يشاهده الإنسان عيانا. و(حق اليقين) بما يدركه وما يتذوقه بحواسه أو وجدانه، ومثلوا للأول: بما إذا أخبرك شخص بأن فى الإناء المغلق عسلاً فصدقته، أو رأيت آثار العسل على حافة الإناء، فاستدللت بها على وجود العسل مثلاً، وللثانى: بما إذا كشف لك عن العسل فرأيته بعينيك، وللثالث: بما إذا ذقت العسل بنفسك ووجدت حلاوته على لسانك؛ والمكلفون فيما أخبروا به من أمور الآخرة على هذه الدرجات. أولها علمهم بذلك تلقيًا عن رسل الله سبحانه وكتبه. وهذه الدرجة حرم منها الغافلون حتى فاجأهم الموت. وثانيها إذا رأوا ما وعدوا به من الثواب والعقاب من بعيد. وثالثها إذا باشروا ذلك فعلاً فدخل الجنة أهل الجنة، والنار أهل النار، وأحسوا بما فيهما. (سبح لله).. إلخ. تقدم بيان ذلك فى الآية (٤٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٠، وشرح

(١، ٢) السموات. (٣) الآخر. (٤) الظاهر. (٥) السماوات.

الآية (٧٩) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٨. يقال: سبحت الله وسبحت له بلام لتقوية وصل الفعل بالمفعول كما يقال: نصحته ونصحت له: والمراد هنا: نَزَّهَه عما لا يليق به.

﴿العزيز﴾: الغالب الذى لا يغلبه أحد. وهذا يدل على أن تسبيح المخلوقات بهذا المعنى المشار إليه فى الصفحات المذكورة قهرى. ﴿الحكيم﴾: الذى يضع كل شىء فى محله.

﴿الأول﴾: أى السابق فى الوجود على كل موجود. ﴿الآخر﴾: الذى يبقى بعد فناء الموجودات كما فى آيتى (٢٦، ٢٧) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠. ﴿الظاهر﴾: بآثاره الدالة على وجوده. ﴿الباطن﴾: الذى لا تحيط به الحواس. ولا تدرك حقيقته العقول.

﴿فى ستة أيام﴾.. إلخ: تقدم الكلام عليها فى شرح الآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١.

المعنى: وأما إن كان المتوفى من أصحاب الشمال المكذبين البعيدين عن الصواب فتقول له ملائكة العذاب إزعاجا له: لك اليوم شراب من سائل شديد الحرارة يشوى الوجوه. ولك أن تقذف فى جهنم. إن هذا النعيم الذى يلاقيه المؤمنون والعذاب الذى يلاقيه المكذبون لهو الحقيقة التى تيقنها المؤمنون فى الدنيا. وكان يجب أن تكون كذلك عند غيرهم مَمنْ فتنتهم الدنيا عنها حتى فوجئوا بها. وبعدما بيَّن سبحانه جزاء الكل نبه إلى العناية بتنزيه مقامه عن كل نقص فكرر قوله: فسبح باسم ربك العظيم. والله الموفق.

﴿سورة الحديد﴾

نادى بوجود الله سبحانه وتنزيهه عن كل نقص كل مخلوق فى العالم العلوى والسفلى بلسان حاله أو مقاله. وهو سبحانه الغالب على أمره الحكيم فى صنعه. له وحده ملك السموات والأرض وما فيهما. ومن آثار تفرده بالملك أنه وحده الذى يفيض الحياة على من يشاء. ويسلبها عمن يشاء فى القوت المقدر حسب علمه تعالى. وهذا يسير عليه لأنه سبحانه على كل شىء قدير. هو وحده الموجود قبل كل شىء. والباقى بعد فناء كل شىء. وهو الظاهر وجوده لكثرة الأدلة عليه. الباطن. حقيقته لا تدركها الحواس. ولا تحيط بها العقول. وهو بكل شىء عليم. يستوى عنده الظاهر والباطن. ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار. وهو اللطيف الخبير﴾ الآية (١٠٣) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٩، ١٨٠. وهو سبحانه وحده الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام لا يعلم مقدارها إلا هو سبحانه. ثم استوى على العرش.. إلخ.

العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما
ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم
والله بما تعملون بصير ﴿٤﴾ له ملك السموات والأرض
وإلى الله ترجع الأمور ﴿٥﴾ يولج الليل في النهار
ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور ﴿٦﴾
ءامنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه
فالذين ءامنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴿٧﴾ وما لكم
لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد
أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴿٨﴾ هو الذي ينزل على
عبده ءايت بينت ليخرجكم من الظلمت إلى النور
وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴿٩﴾ وما لكم ألا تنفقوا
في سبيل الله ولله ميرث السموت والأرض لا يستوي

المفردات: ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾: إلى قوله تعالى (فيها): تقدم كل ذلك في الآية (٢) من سورة سبأ صفحة ٥٦٢، وانظر الآية (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١.

﴿وهو معكم﴾: أي بعلمه، انظر الآية (٧) من سورة المجادلة صفحتي ٧٢٥، ٧٢٦.

﴿أينما كنتم﴾: أين اسم مكان متضمنة معنى الشرط فتربط جملتين إحداهما بالأخرى. و(ما) حرف جاء لتأكيد هذا الربط، انظر الآية (١٤٨) من سورة البقرة صفحة ٢٩. والجملة الثانية دل عليها ما قبل أين. والأصل أينما كنتم يعلم جميع أحوالكم.

﴿له ملك السموات﴾.. إلخ: أعادها هنا في مقام آخر غير ما سبق في الآية (٢) السابقة صفحة ٧١٨. وذلك أن ما سبق كان في مقام أنه هو سبحانه الذي يحيي قومًا ويميت آخرين في الدنيا. وأما هنا ففي مقام أنه سيجازي يوم القيامة. ولا يفلت أحد من حسابه لأن الكل ملكه.

﴿يولج الليل في النهار﴾: تقدم في الآية (٢٧) من سورة آل عمران صفحة ٦٧.

﴿بذات الصدور﴾: المراد: النيات الخافية في الصدور والخواطر من خير وشر.

﴿مستخلفين﴾: جمع مستخلف بفتح اللام وهو في الأصل من جعله غيره خليفة عنه في التصرف في شيء، والمراد: أنفقوا في وجوه الخير بعض المال الذي جعلكم سبحانه خلفاء

---

(١) السموات. (٢، ٣) الليل.
(٤، ٥) آمنوا. (٦) ميثاقكم.
(٧) آيات. (٨) بينات.
(٩) الظلمات. (١٠) ميراث.
(١١) السماوات

فى التصرف فيه لغيركم؛ انظر الآية (٣٠) من سورة البقرة صفحتى ٧، ٨، والآية (١٦٥) من سورة الأنعام صفحة ١٩٢، والآية (١٤) من سورة يونس صفحة ٢٦٧.

﴿ومالكم لا تؤمنون﴾: (ما) اسم استفهام توبيخى والمراد أى شىء حصل لكم حال عدم إيمانكم وكان هو السبب فيه.

﴿والرسول يدعوكم﴾.. إلخ: الجملة حال من الضمير فى قوله تعالى: (لا تؤمنون) وهذا فيه إشارة للدليل النقلى أى القرآن.

﴿وقد أخذ ميثاقكم﴾: الجملة حال من (ربكم) أى والحال أن ربكم قد أخذ.. إلخ. والميثاق هنا هو الإشهاد المتقدم فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١، وهذا فيه إشارة للدليل العقلى.

﴿إن كنتم مؤمنين﴾: المراد مستعدين للإيمان يا مَنْ لم تؤمنوا، أو لزيادته والحرص على تعاليمه يا مَنْ آمنتم كما فى الآية (٢٧٨) من سورة البقرة صفحة ٥٩.

﴿آيات بينات﴾: هى آيات القرآن. ﴿رءوف رحيم﴾: انظر الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨، والآية (١١٧) من سورة التوبة صفحة ٢٦٢، والآية (٧) من سورة النحل صفحة ٣٤٦.

﴿وما لكم ألا تنفقوا﴾.. إلخ: أطلب منكم أن تنفقوا.

﴿ميراث السموات﴾.. إلخ: المراد: سبحانه بعضًا من أدلة وجوده وقدرته ووحدانيته وفضله توجه إلى العباد وأمرهم جميعًا - المؤمن منهم وغير المؤمن - بالأوامر الآتية. وكل منهما يحقق ما ليس عنده. فقال تعالى: آمنوا.. إلخ. أى آمنوا بالله ورسوله يا مَنْ لم تؤمنوا، وأنفقوا يا مَنْ لم تنفقوا فى وجوه الخير بعض المال الذى جعلكم سبحانه خلفاء فى التصرف فيه. كأنه يقول: الأموال التى فى أيديكم ما هى إلا ودائع مملوكة له سبحانه ولابد يومًا أن تؤخذ منكم. فسارعوا إلى إنفاقها فيما يرضى معطيها وينفعكم فى الآخرة. ثم رغبهم فقال: فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير هو نعيم الجنات. ثم وبخ سبحانه مَنْ لم يؤمن بعد قطع أعذاره فقال: ومالكم.. إلخ. المراد أى شىء حصل لكم حال عدم إيمانكم وكان هو السبب فى

ذلك؟ والحال أن الرسول يدعوكم ليل نهار بالوحى الذى ينزل عليه لتؤمنوا بربكم الذى أخذ عليكم العهد بالإيمان به بما ركبه فيكم من العقول. وما ينصبه أمامكم من أدلة فى الكون وفى أنفسكم إذا كنتم مستعدين للإيمان حقيقة بدليل نقلى مقطوع بصحته أو بدليل عقلى فهذا وقته، لتوفر وجودهما معا. فبادروا قبل فوات الأوان. ثم بيَّن سبحانه أنه هو الذى رحمهم بإنزال القرآن المرشد للحق. ومنه الإيمان به وحده، فقال: هو الذى ينزل على عبده محمد ﷺ آيات بينات ليخرجكم من الظلمات أى ظلمات الكفر إلى النور أى نور الإيمان. ولأنه سبحانه رءوف بكم رحيم لأنه نبهكم بالقرآن، ولم يكتف بالدليل العقلى. وبعدما وبخهم أن مصير الأشياء جميعها إليه سبحانه، انظر الآية (١٨٠) من سورة آل عمران صفحة ٩٢.

المعنى: المراد أنه سبحانه بعد خلق السموات والأرض وما فيهما شرع فى تدبير ملكه وهو وحده الذى يعلم كل ما يدخل فى الأرض من بذور وأجزاء إنسان وغير ذلك. ويعلم ما يخرج منها من نبات وغيره وما ينزل من جهة السماء من مطر وغيره، ويعلم ما يصعد إليها من الملائكة وغيرهم. ثم صور سبحانه إحاطة علمه بالمخلوقات وعدم خفاء شىء من أعمال العباد عنه سبحانه فقال: (وهو معكم).. إلخ. أى حيثما وجدتم فى أى مكان فعلمه محيط بكم؛ لأنه سبحانه بصير بجميع أعمالكم وسيجازيكم عليها. لا تفلتون من قبضته لأن كل العالم العلوى والسفلى فى سلطانه وتحت تصرفه. ومرجع الأمور كلها فى الآخرة إليه. فيقضى بين عباده بالحق. ثم بيَّن سبحانه بعض دلائل انفراده بتصريف هذا الملك العظيم بما يشاهدونه كل يوم مما يدل على كمال قدرته ونعمته فقال: يولج الليل فى النهار. إلخ. والمراد أنه هو وحده الذى وضع النظام الذى به يطول النهار ويقصر الليل وبالعكس، لتتكون فصول العام التى يعرف فوائدها العلماء المختصون؛ انظر بعض ذلك فى الآية (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦. ثم حذر من كل ما لا يرضيه فقال: وهو عليم.. إلخ. أى هو وحده العليم بالنيات الخافية فى الصدور فإياكم والتفكير فى الشر والتصميم عليه. وبعدما بيَّن على ترك الإيمان مع وجود أسبابه، وبخ مَنْ لم ينفق منهم على ترك الإنفاق فقال تعالى: (ومالكم ألا تنفقوا)..إلخ. والمعنى أى غرض لكم فى عدم الإنفاق على وجوه الخير والله سبحانه سيرث الأرض ومن عليها. ولا يتبقى لكم منها شىء إلا ما أنفقتموه فيما يرضيه فسيجازيكم به نعيمًا مقيمًا.

مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ[1] أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ
دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟[2] وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ
ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى
يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ[3] لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾
يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ[4] يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم[5] بُشْرَىٰكُمُ[6] ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ[7] تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ[8] خَٰلِدِينَ[9] فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ
يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ[10] وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ[11] لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[12] ٱنظُرُونَا
نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ[13]
مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟
بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ

المفردات: ﴿من أنفق﴾: المراد الفريق الذى أنفق. ﴿الفتح﴾: الراجح أن المراد به هنا: ما حصل بعد صلح الحديبية الذى نزلت فيه سورة الفتح، كما سبق فى شرح الآية (١) من سورة الفتح صفحة ٦٧٨.

﴿وقاتل﴾: ذكر القتال هنا إشارة إلى أنه من أهم موارد الإنفاق مع كونه فى نفسه من أفضل العبادات ولا يخلو مَنْ يجاهد من الإنفاق فى الغالب.

﴿الحسنى﴾: أى المثوبة الحسنى وهى الجنة.

﴿مَنْ ذا الذى﴾ (مَنْ) اسم استفهام مبتدأ مراد به الحث على ما بعده، و(ذا) اسم إشارة بمعنى هذا خبر المبتدأ، و(الذى) بيان لاسم الإشارة. ﴿يقرض الله﴾: أصل معنى القرض ما يدفع من المال على شرط رده، فالتعبير به هنا ترغيب فى الإنفاق فى الخير.

﴿قرضًا حسنًا﴾: هو ما كان من حلال، عن طيب نفس يرجى به وجه الله عز وجل، انظر الآية (٢٦١) وما بعدها من سورة البقرة صفحة ٥٥، والآية (٩٢) من سورة آل عمران صفحة ٧٨.

﴿يضاعفه له﴾: المراد: يزيد مقادير ثوابه، بمحض الفضل فيجعل الحسنة بعشر كما فى الآية (١٦٠) من سورة الأنعام صفحة ١٩١، أو أكثر كما فى الآية (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥.

---

(١) قاتل. (٢) قاتلوا.
(٣) فيضاعفه. (٤) المؤمنات.
(٥) بأيمانهم. (٦) بشراكم.
(٧) جنات. (٨) الأنهار.
(٩) خالدين. (١٠) المنافقون.
(١١) المنافقات (١٢) آمنوا.
(١٣) ظاهره.

﴿وله أجر كريم﴾: هو ما كان يستحقه بمجرد العدل، وهو الحسنة بمثلها. ﴿يسعى نورهم﴾.. إلخ: المراد يحيط بهم نور من كل جهة بسبب أعمالهم الصالحة، وإنما خص الأمام والأيمان بالذكر إشارة إلى أنهم ممَّنْ يأخذون كتابهم من تلك الجهات، انظر الآيتين (٧، ١٠) من سورة الإنشقاق صفحة ٧٩٩.

﴿بشراكم﴾: أى ما تبشرون به. (الفوز﴾: الظفر والنجاح.

﴿انظرونا﴾: أى انتظرونا ولا تعجلوا فى السير إلى الجنة.

﴿نقتبس﴾.. إلخ: أصل معنى الاقتباس أخذ بعض من شعلة النار، انظر الآية (١٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٦، ٤٠٧، والمراد هنا نهتدى إلى الطريق ببعض نوركم.

﴿فالتمسوا﴾: أى فاطلبوا.

﴿فضرب بينهم بسور﴾.. إلخ: المراد: جعلت الملائكة بين المنافقين والمؤمنين حاجزا.

﴿له باب﴾: أى موصل للجنة.

﴿باطنه﴾: أى باطن السور وهو الجهة التى فى داخلها المؤمنون. ﴿الرحمة﴾: المراد رائحة الجنة ومنظرها. ﴿ظاهره﴾: هو ما يلى المنافقين.

﴿من قبله﴾: أى من جهته. ﴿العذاب﴾: أى مكان العذاب وهو جهنم.

﴿بلى﴾: بمعنى نعم لأن ما قبلها استفهام تقريرى يجعل مآل الكلام الإيجاب، انظر تفصيل ذلك فى شرح الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١ فالمراد: نعم كنتم معنا فى الظاهر.

﴿فتنتم أنفسكم﴾: أى أوقعتموها فى الفتنة وهى البلاء.

﴿تربصتم﴾: أى انتظرتم للرسول وللمؤمنين الهلاك، انظر الآية (١٢) من سورة الفتح صفحة ٦٨٠، والآية (٣٠) من سورة الطور صفحة ٦٩٨.

﴿ارتبتم﴾: أى شككتم فى الدين، وفى صدق الرسول ﷺ.

المعنى: بعدما أمر سبحانه بالإنفاق فى سبيل الخير أراد أن يبين أن درجات المنفقين تتفاوت الظروف والأحوال حتى مع استواء المقادير، لينبه على تحرى الأفضل، فقال تعالى: (لا

يستوى منكم).. إلخ. والمراد: أن الإنفاق والقتال قبل فتح باب النصر للمسلمين وهم فى ضعف وقلة؛ والأحوال غامضة على أكثر الناس. وعدوهم فى قوة وعزة، لاشك أنهما أفضل من الإنفاق والقتال بعد ظهور أمارات النصر ودخول أكثر الناس فى الدين. ومع هذا فكل من أنفق فى كلا الحالين له عند الله المثوبة الحسنى بدخول الجنة، وإن تفاوتت درجاتهم فيها. وهو سبحانه خبير بما تعملون، فيجازى على قدر العمل. ثم أكد سبحانه الأمر بالإنفاق فى وجوه الخير مع التوبيخ على تركه بأبلغ أسلوب، فى صورة أروع تمثيل. كأنه سبحانه يقول: هذه يدى أبسطها لمْ يعطنى قرضًا، سأرده له بصورة كريمة شريفة، وأكافئه بعد ذلك بأمثاله عدة مرات.. فقال فى ذلك: (مَنْ ذا الذى).. إلخ، أى مَنْ هذا الذى يقدم نفقة إرضاء الله فيعطيه سبحانه أجرًا مضاعفًا والحال إنه له مع ذلك الأجر المضاعف أجر حسنته مثلها وهذا المثل أجر كريم فى ذاته حتى لو لم يضم إليه الأضعاف، فكيف إذا ضم إلى الأضعاف الكثيرة؟ لاشك أنه يكون أكرم. فإذا سمع ذلك العاقل وهو يعلم أن ما بيده من المال هو من فضله سبحانه، ثم إذا صرفه فيما يرضيه كافأه عليه بأكثر منه، كيف لا يسارع إلى هذه التجارة الرابحة؟ انظر الآيتين (٢٩، ٣٠) من سورة فاطر صفحتى ٥٧٥، ٥٧٦، والآية (١٠) من سورة الصف صفحة ٧٣٩. يعطى سبحانه هذا الأجر المتقدم فى اليوم الذى ترى فيه - يا مَنْ تكون هناك - المؤمنين والمؤمنات بعد الحساب وهم متجهون إلى الجنة حال كون نورهم يحيط بهم من كل جهاتهم. وتقول لهم ملائكة الرحمة: ما نبشركم به اليوم هو جنات تجرى من تحت قصورها الأنهار خالدين فيها لا تبغون عنها تحولاً كما فى الآيتين (١٠٧، ١٠٨) من سورة الكهف صفحة ٣٩٥. وذلك النعيم هو النجاح العظيم يناله المؤمنون فى اليوم الذى يقول فيه المنافقون والمنافقات عندما تحيط بهم الظلمات بعد الحساب للمؤمنين والمؤمنات: انظرونا نقتبس شيئاً من نوركم نهتدى به فى السير، فتقول لهم ملائكة العذاب استهزاء بهم: ارجعوا حيث كنتم فى الموقف فالتمسوا هناك نورا، فيرجعون فتفصل الملائكة بينهم وبين المؤمنين بسور له باب موصل للجنة. باطن هذا السور فيه مظاهر الرحمة، وظاهره المقابل للمنافقين من جهته عذاب جهنم. ولما يحاول بينهما يصيح المنافقون على المؤمنين قائلين: ألم نكن معكم فى الدنيا نعمل عملكم؟ فيقول لهم المؤمنون: نعم كنتم معنا ظاهرًا فقط، فأهلكتم أنفسكم بالنفاق، وانتظرتم أن تحل بالمؤمنين المصائب. وشككتم فى صدق الرسول وصحة الدين وغرتكم الأمانى الباطلة.

الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾
فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ[1]
النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ[2] وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ
لِلَّذِينَ آمَنُوا[3] أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ
الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ[4] مِن قَبْلُ
فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
فَاسِقُونَ[5] ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ
قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ[6] لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ
وَالْمُصَّدِّقَاتِ[7] وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ[8] لَهُمْ
وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا[9] بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ
هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا[10] أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ[11]

المفردات: ﴿الأمانى﴾: جمع أمنية. وهى ما كانوا يمنون أنفسهم به من زوال الإسلام. انظر آيتى (٧، ٨) من سورة المنافقون صفحتى ٧٤٣، ٧٤٤. ﴿أمر الله﴾: أى بموتهم. ﴿الغرور﴾: هو كل ما يشغل عن الله تعالى كما تقدم فى الآية (٣٣) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤. ﴿فدية﴾: هى ما يبذله الإنسان لحفظه مما يؤذيه. انظر الآية (١١) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥.

﴿الذين كفروا﴾: المراد بهم من أعلنوا الكفر ولم يخفوه كالمنافقين السابق ذكرهم.

﴿مأواكم النار﴾: أى مكانكم الذى تأوون إليه. ﴿مولاكم﴾: أصل المولى هو الناصر، والمعين فذكره هنا على سبيل التهكم، حيث لم يجعل لهم ناصرًا إلا النار. كما تقول إذا وقع فى ورطة واستغاث بك: إغاثتك عندى هى رميك فى النار. ﴿ألم﴾: المراد من هذا التركيب هنا هو الحث على ما بعده. ﴿يأن﴾: تقول العرب: أنى الأمر يأنى. أنيًا أى جاء وقته. بوزن رمى. يرمى. رميًا؛ والمراد: ألم يتهيأ للذين آمنوا وقت خشوع.. إلخ. ﴿لذكر الله﴾: المراد عند تذكر حساب الله وجزائه.. فاللام بمعنى (عند) كما فى الآية (٧٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥، وانظر حكمة هذا فى شرح الآية (١٣) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٨. ﴿وما نزل من الحق﴾: (من) بيانية والمراد: وما نزل من القرآن المبين بأنه هو الحق. انظر الآية (٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٧.

﴿كالذين أوتوا الكتاب﴾: هم اليهود والنصارى. ﴿الأمد﴾: أى الزمن بينهم وبين أنبيائهم. ﴿يحيى الأرض بعد موتها﴾: هذا تمثيل لأثر الذكر فى القلوب، بأثر المطر فى الأرض، فتنبت ما ينفع الناس. ﴿الآيات﴾: المراد بها هنا الأدلة والعبر. ﴿المصدقين﴾: أى المتصدقين. ﴿أقرضوا الله﴾.. إلخ: تقدم شرح هذه الآية فى الآية (١١) من هذه السورة صفحة ٧٢٠.

---

(١) مأواكم. (٢) مولاكم. (٣) آمنوا. (٤) الكتاب. (٥) فاسقون. (٦) الآيات.
(٧) المصدقات. (٨) يضاعف. (٩) آمنوا.. (١٠) بآياتنا. (١١) أصحاب.

﴿الصديقون والشهداء﴾: تقدم فى الآية (٦٩) من سورة النساء صفحة ١١٢.

﴿نورهم﴾: تقدم فى الآية (١٢) من هذه السورة صفحة ٧٢٠.

المعنى: يقول المؤمنون للمنافقين: إنكم غرتكم الأمانى الباطلة التى منّاكم بها الشياطين من عفو الله عنكم، وإحسانه إليكم. وصرتم فى غفلة حتى جاءكم الموت، وغركم شيطان الجن والإنس بتزيين النفاق. فاليوم لا سبيل لنجاتكم بفدية. ولا للكافرين ظاهرًا وباطنًا. ومأواكم النار. لا مغيث لكم غيرها. وبئس نهاية مطافكم النار. وكان المؤمنون وهم فى مكة فى خوف شديد وفقر. ولما انتقلوا للمدينة واطمأنوا وكثر رزقهم، فترت هممهم بعضهم عما كانوا عليه فى مكة. وورد أنه ﷺ رأى بعض أصحابه وهم يضحكون فقال: هل تضحكون ولم يأتكم أمان من ربكم بأنه قد غفر لكم؟ فى هذا ومثله قال سبحانه: (ألم يأن).. إلخ. أى هل لم يأت الوقت الذى تخشع فيه قلوب المؤمنين عند تذكر حساب الله وجزائه، وعند سماع القرآن الذى نزل بالحق، فيكثروا من تدبر أسراره. ولا يغفلوا عن تعاليمه الحقة فيقعوا فيما وقع فيه غيرهم من اليهود والنصارى عندما طال الزمن بينهم وبين رسلهم. فقست قلوبهم، فجرؤوا على البدع وتحريف كلام الله. فلم يبق على الدين الصحيح إلا قليل منهم. وكثير منهم خرج عن تعاليم دينه. وفى هذا تنبيه لقادة المسلمين، أن لا يهملوا تذكير المسلمين بآداب دينهم حتى لا تأكله البدع بطول الزمن. وقال بعض السلف: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم. فإن القلب القاسى بعيد عن الله. ثم أرشد سبحانه إلى ما به تحيا القلوب فقال: (اعلموا).. إلخ. أى اعلموا أن الله يحيى الأرض بالنبات بعد جدبها، إذا تعهدها العامل بالخدمة والسقى. فكذلك يحيى القلوب الميتة الغافلة إذا تعهدها العبد بتذكر ربه وتدبر آياته وطرد عنها وساوس الشيطان. فترق بعد قسوة. وتنقاد بعد جفوة. قد بيّنا لكم أيها الناس العبر والعظات، لتعقلوا فتستفيدوا فتفوزوا بالسعادتين. ولما كانت العناية بالإنفاق فى وجوه الخير من أهم المقاصد، آكد سبحانه الترغيب فيه بقوله: (إن المصدقين). إلخ. أى إن الذين يصدقون فى سبيل الخير من رجال ونساء - وبعملهم هذا يكونون قد أقرضوا الله قرضًا حسنًا. إجابة لطلبه سبحانه المتقدم فى الآية (١١) من هذه السورة صفحة ٧٢٠ - يضاعف لهم سبحانه الأجر. ولهم مع ذلك الأجر المضاعف أجر كريم كما تقدم. ولما كان الإيمان الصحيح، مما يبعث على القرض الحسن، قال سبحانه: والذين آمنوا بالله ورسله. أى على الوجه المبين فى الآية (٢٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٦١، ٦٢. هؤلاء هم الصديقون والشهداء فى حكم ربهم. لهم أجر حسن فى الدنيا والآخرة، ولهم نور يسعى بين أيديهم إلى الجنة. أما الذين كفروا بالله ورسله وكذبوا كتبه، هؤلاء هم أصحاب النار..

ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ
وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ
حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ
وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟
إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ
ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾
مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا
فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾
لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ

المفردات: ﴿لعب ولهو﴾: تقدم الفرق بينهما فى الآية (٣٢) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٦، ١٦٧، والآية (٣٦) من سورة محمد صفحة ٦٧٧.

﴿زينة﴾: كل ما يتزين به كملبس ومركب مما ليس فيه شرف ذاتى.

﴿تفاخر﴾: أى بالأنساب والثراء.

﴿تكاثر﴾: أى تسابق فى تكثير ما يشغل أغلب الناس عن الآخرة حتى يفاجئهم الموت: انظر الآية (١٤) من سورة آل عمران صفحتى ٦٤، ٦٥، والآية (١) من سورة التكاثر صفحة ٨٢٠.

﴿كمثل غيث﴾: انظر معنى هذا التمثيل فى الآية (٤٥) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧، والغيث: هو المطر الكثير الذى يغيث المحتاجين إليه، انظر الآية (٣٤) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤.

﴿الكفّار﴾: جمع كافر، وأصل معنى الكفر الستر، والمراد بالكفار هنا: الزرّاع الذين يسترون الحب فى الأرض، كما يستر الكفار بالله حقيقة نور الإيمان.

﴿يهيج﴾.. إلخ: تقدم فى الآية (٢١) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩.

﴿رضوان﴾: هو الرضا التام، كما تقدم فى الآية (٢١) من سورة التوبة صفحة ٢٤٣.

﴿الغرور﴾: أى الخديعة، كما تقدم فى الآية (١٨٥) من سورة آل عمران صفحة ٩٤.

---

(١) الحياة. (٢) الأموال. (٣) الأولاد.
(٤) فتراه. (٥) حطاما. (٦) الآخرة.
(٧) رضوان. (٨) الحياة. (٩) متاع.
(١٠) آمنوا. (١١) كتاب. (١٢) آتاكم.

﴿سابقوا﴾: المراد أسرعوا إلى أسباب المغفرة، وسابقوا الموت قبل أن يقطع عليكم طريق العمل.

﴿عرضها.. إلخ﴾: تقدم فى الآية (١٣٣) من سورة آل عمران صفحة ٨٤، والمراد من السماء جنسها الشامل للسموات كلها.

﴿من مصيبة﴾: (من) لتأكيد عموم ما بعدها.

﴿فى الأرض﴾: كالقحط وآفات الزرع وَغلاء الأسعار وغير ذلك.

﴿فى أنفسكم﴾: كالأمراض، والفقر، وفقد الأهل. انظر سبب ذلك فى آيتى (٤١) من سورة الروم صفحة ٥٣٦، (٣٠) من سورة الشورى صفحة ٦٤٣.

﴿فى كتاب﴾: هو اللوح المحفوظ. انظر آيتى (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١، (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠.

﴿نبرأها﴾: أى نخلقها. والمراد: قبل خلق هذه الأشياء المذكورة، من الأرض والأنفس والمصائب.

﴿لكيلا﴾: تركيب من (لام التعليل) و(كى) التى بمعنى (أَنْ) بفتح فسكون وهى التى تجعل الفعل بعدها مصدرًا من مادته. و(لا) النافية. والمعنى: لعدم أساكم أى حزنكم على ما فاتكم وفرحكم بما آتاكم، انظر الآية (١٥٣) من سورة آل عمران صفحتى ٨٧، ٨٨.

﴿مختال﴾: مأخوذ من الخيلاء بضم الخاء وفتح الياء، وهو التكبر الناشئ عن تخيل فضيلة تراءت للإنسان فى نفسه، ﴿فخور﴾: صيغة مبالغة من الفخر؛ انظر الآية (٣٦) من سورة النساء صفحة ١٠٦.

المعنى: بعدما بيَّن سبحانه وتعالى حال الفَريقين (المؤمنين والكافرين) فى الآخرة. شرع فى بيان حال الدنيا التى أغتر بها الفريق الثانى، مبينًا أنها من الأشياء التى لا يركن إليها العقلاء؛ لأنها لعب لا ثمرة له لمَنْ تنسيه الآخرة. ولهوٌ يشغل الإنسان عما يعنيه. وزينة لا يحصل منها شرف ذاتى للإنسان. وتفاخر بالأنساب أى العظام البالية، ودار تسابق فى كثرة الأموال والأولاد. ومن شأن ذلك أن يفتن عن الآخرة وينسى العمل لها، انظر الآية (١٥) من

سورة التغابن صفحة ٧٤٧. وهى مع هذا سريعة الزوال. حالها كحال غيث سقى زرعًا فنما، وترعرع حتى أعجب الزرّاع نباته. ثم هاج حتى بلغ غايته فجف، فتراه مصفرًا. ثم تكسر وتفتت فكان حطاما. وبعدما بيّن سبحانه حقارة الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة، بيّن عز وجل شأن الآخرة وعظم نعيمها وخطر عذابها فقال: (وفى الآخرة عذاب شديد) أى لمَنْ جعل كل همه تحصيلها، ولم يراع حق الله فيها. وفيها أيضًا مغفرة للذنوب من فضل الله تعالى، وفيها رضى عظيم لمن راقب الله فيها. ثم بيّن سبحانه نتيجة ما سبق. بأن الحياة الدنيا ليست إلا متاع الخديعة لمَنْ فتن بها، ولم يجعلها وسيلة للآخرة. قال سعيد بن جبير رضي الله عنه: (الدنيا متاع الغرور، إن ألهتك عن طلب الآخرة، أما إذا أعانت عليه فنعم المتاع)، وإنما أكثر سبحانه من التحذير منها لشدة حب النفوس لها. وقوة فتنتها. وبعد بيان ذلك رغب سبحانه فيما يجلب الخير فى الآخرة فقال سبحانه: ﴿سابقوا﴾.. إلخ. أى سابقوا الموت قبل أن يقطع عليكم الأعمال إلى أسباب مغفرة عظيمة حاصلة من ربكم. وإلى جنة واسعة الأرجاء بما لا يخطر على قلب بشر، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله. ذلك الموعود به من المغفرة والجنة: فضل الله يعطيه لمَنْ يشاء حسب نظامه الذى شرعه. والله صاحب الفضل العظيم. وبعدما بيّن سبحانه أن متاع الدنيا زائل. أتبع ذلك بتهوين ما يلاقيه المؤمن فيها، حتى لا يحمله الجزع على اليأس من رحمة الله. ولا كثرة النعم على البطر والتفاخر: فقال تعالى: ﴿ما أصاب﴾.. إلخ. أى لا يصيب أحدًا منكم مصيبة من مصائب الزمان مهما كانت، إلا وهى ثابتة عند الله، مقدرة قبل خلق العالم، كالخير سواء بسواء. إن تسجيل كل هذا يسير جدا على الله فلا يحتاج إلا لقوله عز وجل: ﴿كن فيكون﴾. أعلمناكم بذلك لئلا يشتد حزنكم على ما فاتكم من الخير. ولا يشتد فرحكم بما أعطاكم منه: لأن مَنْ علم أن الخير والشر مقدران لا يحصل منهما إلا ما قدر حصوله، ولا يمتنع إلا ما قدر منعه. لا يجزع على ما فات جزعا مع يأس. ولا يفرح بما حصل فرح بطر واستكبار على الناس. أما الفرح بالنعمة مع الشكر عليها فغير مذموم. وكذا الحزن الطبيعى الذى لا يلهى عن تذكر ثواب الله على الصبر على المصيبة، فهو أيضا غير مذموم، وقال بعض السلف: تحصنوا من خطر المصيبة بالصبر. ومن بطر النعمة بالشكر. والله لا يحب كثير الاختيال والفخر؛ لأنه ينسى تذكر النعمة ويؤذى العباد. ومن شأن هؤلاء المختالين الفخورين بمتاع الدنيا، أنهم يبخلون بالإنفاق فى سبيل الخير.

وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ
الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ(١) وَأَنزَلْنَا
مَعَهُمُ الْكِتَابَ(٢) وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا
الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ(٣) لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ
مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ(٤) وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ
وَالْكِتَابَ(٥) ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ(٦) ﴿٢٦﴾
ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم(٧) بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
وَآتَيْنَاهُ(٨) الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً
وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا(٩) عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ
رِضْوَانِ(١٠) اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا(١١) الَّذِينَ آمَنُوا(١٢)
مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ(١٣) ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

المفردات: ﴿يتول﴾: يعرض عن أمر ربه.

﴿الحميد﴾: أى المستحق لكثرة الحمد على كل حال وذلك لكثرة نعمه، وإن لم يحمده الغافلون.

﴿البينات﴾: أى الحجج الواضحة الدالة على الحق.

﴿الكتاب﴾: المراد جنس الكتاب فيشمل كل الكتب السماوية.

﴿الميزان﴾: أى الضوابط التى يعرف بها الحق والباطل، كما تقدم فى الآية (١٧) من سورة الشورى صفحة ٦٤١.

﴿القسط﴾: العدل. ﴿أنزلنا الحديد﴾: أى أوجدناه، انظر معنى الإنزال فى (٢٦) من سورة الأعراف صفحة ١٩٥، و(٦) من سورة الزمر صفحة ٦٠٦.

﴿بأس﴾: أى قوة.

﴿يعلم الله﴾: أى يعلم علم تحقق. وهذا لا يحصل إلا بعد أن تفعلوا ما كلفتم به.

﴿بالغيب﴾: أى بلا رياء ولا سمعة.

﴿نوحا وإبراهيم﴾: نوح هو الأب الثانى لجميع البشر وإبراهيم أبو الأنبياء من بعده، فليس هناك نبى إلا وهو من ذريته.

---

(١) بالبينات. (٢) الكتاب.
(٣) منافع. (٤) ابراهيم.
(٥) الكتاب. (٦) فاسقون.
(٧) آثارهم. (٨) آتيناه.
(٩) كتبناه. (١٠) رضوان.
(١١) فآتينا. (١٢) آمنوا.
(١٣) فاسقون.

﴿قفينا﴾: من التقفية، وهى جعل الشىء فى إثر الشىء. انظرالآية (٤٦) من سورة المائدة صفحة ١٤٦.

﴿آثارهم﴾: جمع إثر بكسر فسكون وهو العقب. والمراد: على أعقابهم وهى الطرق التى سلكوها.

﴿رأفة ورحمة﴾: تقدم الفرق بينهما فى الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨.

﴿رهبانية﴾: نسبة إلى (الرهبان) بفتح الراء وسكون الهاء وهو العبد شديد الخوف من الله تعالى (كالخشيان) أى شديد الخشية. والرهبانية هى المبالغة فى العبادة، والانقطاع عن الناس، والمعيشة الخشنة والبعد عن النساء.

﴿ابتدعوها﴾: أى اخترعوها من عند أنفسهم. لم يطلبها الله تعالى منهم. انظر الكتاب المسمى (قديسو مصر) الذى ترجمه المرحوم عمر طوسون فى كتابه (وادى النطرون ورهبانه) طبعة سنة ١٩٣٥ ميلادية. ففيه أن هذه الفكرة أول ما تحققت كانت فى وادى النطرون بمصر سنة ١٥٠ بعد ميلاد المسيح عليه السلام.

﴿إلا ابتغاء﴾.. إلخ: (إلا) بمعنى لكن. و(ابتغاء): أى طلب. والمراد: لكنهم فعلوها طلبًا لرضى الله سبحانه وتعالى.

﴿فما رعوها﴾: المراد ما حافظ كثير منهم على ما تقتضيه الرهبنة بل أهملوها. واعلم أن الإسلام حرم هذه الرهبنة بقوله ﷺ: لا رهبانية فى الإسلام.

المعنى: والمبتلون بالخيلاء والافتخار بالأموال، هم الذين يبخلون بها لشدة حرصهم عليها ولا يكتفون بذلك، بل يدعون غيرهم للبخل خضوعا لوسوسة الشيطان. انظر الآية (٢٦٨) من سورة البقرة صفحة ٥٧.

ثم بيَّن سبحانه أن ضرر عملهم هذا عائد عليهم وحدهم فقال: (ومن يتول).. إلخ. أى ومَنْ يعرض عن الإنفاق فى وجوه الخير لا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئًا؛ لأنه سبحانه غنى عن جميع خلقه، محمود فى ذاته. وبعدما طلب سبحانه من عباده الإيمان به وبرسله، أراد أن يبين حكمة إرسال الرسل وإنزال الكتب المشتملة على ضوابط العدل، ليقوم به الناس

ويحققوه. فقال: (لقد أرسلنا).. إلخ. أى ولقد أرسلنا كل رسلنا مؤيدين بالمعجزات والأدلة القاطعة بصدقهم، وأنزلنا معهم الكتب المبينة للقواعد التى يزن بها الناس معاملاتهم مع الله، ومع بعضهم، بل ومع ما تحت أيديهم من الحيوانات، ليقوم الناس بالعدل فى كل ذلك، فيعطوا كل ذى حق حقه. ولما كانت القوانين وحدها لا تكفى لحفظ النظام والقيام بالعدل، إلا إذا كان الخلق كلهم خيارا - أما إذا كان فيهم أشرار كما هو الواقع فلا تردعهم إلا القوة - قال سبحانه: إنا أوجدنا الحديد ليستعان به على دفع الظلم، وتنفيذ حدود الله. وفيه أيضا منافع للناس فى معايشهم، فما من شىء منها إلا وللحديد دخل فيه.

خلق سبحانه الحديد لينتفع الناس به فى مصالحهم والمحافظة على دينهم. وعند ذلك يعلم سبحانه من ينصره بنصرة دينه، ومَنْ ينصر رسله بإخلاص. فيجازيهم أحسن الجزاء. ثم أشار سبحانه إلى أنه غير محتاج إلى نصير، وإنما كلف عباده لمصلحتهم فقال: إن الله قوى عزيز. أى غالب لا يغلبه أحد. ولو شاء لانتقم من الأشرار وحده. انظر الآية (٤) من سورة محمد صفحتى ٦٧٢، ٦٧٣.

ثم فصل سبحانه بعض ما أجمله فيما سبق، بذكر أشهر الرسل فقال: (ولقد أرسلنا نوحا) (آدم الصغير) وإبراهيم (أبا الأنبياء بعده)، وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتب الأربعة: التوراة والزبور والإنجيل والقرآن. فكان من ذريتهم من اهتدى بهذه الكتب. وكثير منهم فاسقون خارجون عن تعاليمها. انظر الآية (١١٣) من سورة الصافات صفحة ٥٩٣.

ثم أرسلنا بعد نوح وإبراهيم رسولاً بعد رسول، حتى انتهى الأمر إلى عيسى بن مريم، وأعطيناه الإنجيل، وجعلنا فى قلوب الذين آمنوا به واتبعوه رأفة ورحمة على العباد، اكتسبوا ذلك من رقة قلبه عليه السلام، وتسامحه الذى جاء به ليخفف من قسوة اليهود وغلظتهم حتى على الأتقياء منهم، فقتلوا أنبياءهم. وكان من مبالغتهم فى الرأفة، أنهم ابتدعوا رهبانية ما طلبناها منهم، ولكنهم فعلوها طلبًا لرضى الله عنهم، وألزموا أنفسهم بها، فكانت كالنذر. وبما أن من ألزم نفسه نذرًا ولم يوف به كان عاصيًا قال سبحانه: (فما رعوها).. إلخ.

والمراد: أنه خلف من بعد مَنْ التزم الرهبنة ذرية تظاهروا بها، ولكنهم عملوا على نقيضها باطنًا، ففسق كثير منهم. وكانوا أبعد عن تعاليم المسيح نفسها. لكن مَنْ آمن إيمانا صحيحًا

من أسلافهم وحافظ على نذره الذى ألزم به نفسه، آتيناه أجره اللائق بإخلاصه. وقد نهى الإسلام عن هذا النوع من العبادة، فقال ﷺ: لا رهبانية فى الإسلام. وقال: إن لبدنك عليك حقا. وقال: مَنْ لم يتزوج فليس منى،. بل نهى عن كل بدعة فى الدين يقصد بها التقرب إلى الله، بعبادة لم يشرعها. فقال ﷺ: كل بدعة ضلالة. وكل ضلالة فى النار. وضابط البدعة المحرمة هو كل عبادة جاءت على خلاف مارسم صاحب الشرع. وذلك أن العبادات من الأمور التى وضعها سبحانه لعباده ليعظموه بها. وهو وحده الذى يعلم ما يصح أن يعظم به وما لا يصح. ولا يجوز أن يزاد فيها شىء عما أذن فيه. فلا يجوز لنا أن نحدث عبادة جديدة. كدق الطبول بقصد العبادة مثلا. ولا أن نغير ما شرعه لنا بزيادة ولا بنقص. فلا نصلى الصبح أربعا، ولا الظهر ركعتين. ولا أن نغير فى كيفية العبادة. فإذا قرأ ﷺ فى صلاة النهار سرا، وفى صلاة الليل جهرا، فلا يجوز لنا العكس.

وإذا قال لنا سبحانه: ﴿واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول﴾ ..إلخ. الآية (٢٠٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٦، فلا يجوز لنا أن نرفع أصواتنا بالذكر إلا فيما ورد فيه الرفع، كالأذان وتلبية الحج وتكبير العيدين. وإذا لم يحدد الشارع للعبادة وقتًا معينًا. فلا يجوز لنا أن نحدد نحن. فإذا طلب منا صلاة التطوع فى الليل من بعد العشاء إلى الفجر. ولم يحدد وقتًا معينًا من هذا الزمن فلا يجوز لنا أن نلتزم وقتًا معينًا كنصف الليل مثلا. ولا نفعل فيه إلا على قصد أن هذا هو العبادة المقربة إلى الله.

وكما تكون البدعة فى إحداث جديد، من عمل أو عدد أو كيفية أو وقت، تكون كذلك فى ترك شىء مباح على قصد التعبد، كترك نوع من الأطعمة أو اللباس المباح على نية التعبد. كما فعل رهبان النصارى؛ لأن من يفعل ذلك يضع نفسه موضع صاحب الشرع فى اعتبار الترك عبادة.

أما إذا ترك شيئًا، لا على أنه قربة إلى الله، فليس ذلك من البدعة. ومن هذا نعلم أن البدعة لا تكون فى الأمور العادية، كطبع الكتب وبناء المدارس وآلات الزراعة والركوب مثلاً. وكذا ليس من قبيل البدع الشرعية، الأمور المحرمة التى فشت فى الأسواق والمجتمعات من كل ما هو مخالف لقواعد الشرع، والله الموفق للصواب.

ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

(٥٨) سورة المجادلة مدنية
وآياتها اثنتان وعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ

المفردات: ﴿كفلين﴾: مثنى كفل. والكفل النصيب، والمراد نصيب على إيمانكم بالرسل السابقين، وآخر على إيمانكم بخاتمهم وهو رسولكم.

﴿نورا﴾: هو المتقدم فى الآية (١٢) السابقة من هذه السورة صفحة ٧٢٠ .

﴿لئلا يعلم﴾: ﴿لئلا﴾ لفظ مركب من ثلاث كلمات: لام التعليل وأن الناصبة للفعل بعدها ولا النافية؛ والعرب تجيء بـ (لا) هذه فى مثل هذا المقام لتأكيد نفى سابق.

أو للتمهيد لنفى لاحق مع تأكيده فى المعنى كما هنا.

والمراد: أخبركم الصادق فى جميع أخباره وهو اللّٰه سبحانه بما سبق، ليعلم أهل نفى قدرتهم على تصريف فضل اللّٰه نفيًا مؤكدًا. فلا يطمعوا فى حجز فضله عن نبيه محمد ﷺ.

سورة المجادلة

﴿سمع اللّٰه﴾: أى أجاب وقبل. كما فى (سمع اللّٰه لمَنْ حمده) أى قبل حمده وأثابه عليه. وليس المراد مجرد السماع.

﴿قول التى﴾: أى دعاءها بأن يفرج اللّٰه كربتها. كما سيأتى بيانه.

(١، ٢) آمنوا.
(٣) الكتاب.
(٤) تجادلك.
(٥) يظاهرون.
(٦) أمهاتهم.

﴿تجادلك فى زوجها﴾: المراد: تراجعك الكلام فى شأن زوجها وما حصل منه لما ظاهرها. والزوج المظاهر اسمه (أوس بن الصامت الأنصارى الخزرجى)، وزوجته اسمها (خولة بنت ثعلبة الأنصارية).

﴿تحاوركما﴾: أى تراجعكما فى الكلام ورد كل منكما على الآخر.

﴿يظاهرون﴾: فعل مأخوذ من الظهر. وذلك أن العربى كان فى الجاهلية إذا قال لامرأته:

(أنت علىَّ كظهر أمى) تحرم عليه حرمة مؤبدة، فكان أشد طلاق عندهم: والظهار فى عرف الإسلام هو تشبيه الرجل زوجته أو عضوًا منها بامرأة محرمة بقصد التحريم، لا بقصد الاحترام ولم يجعله طلاقًا مؤبدًا كما سيأتى.

﴿منكم﴾: المراد: بعضكم أيها العرب وفيه توبيخهم على هذه العادة السخيفة التى انفردوا بها دون العالم.

﴿من نسائهم﴾: جاء بعد الفعل بحرف ﴿من﴾ ليفيد أن الفعل. ﴿يظاهرون﴾ أشرب معنى النفور، كأنه قال: يظاهرون نافرين من نسائهم.

المعنى: لما أنزل سبحانه فيمَنْ آمن من أهل الكتاب قوله: ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ الآية (٥٤) من سورة القصص صفحة ٥١٤ . أى أجرا على إيمانهم الصحيح بأنبيائهم قبل البعثة المحمدية، وأجرًا على إيمانهم بخاتم الرسل بعد بعثته. نقول: لما نزل هذا، قال بعض أهل الكتاب - ممَنْ لم يؤمنوا بنبينا ﷺ - لبعض الصحابة: إن كتابكم اعترف بأن من آمن برسول من رسل بنى إسرائيل فله أجر. وبما أنا نعتقد أن الرسالة لا تكون إلا فى بنى إسرائيل، فنحن لا نؤمن بنبى من العرب. ولنا مع ذلك أجر باعتراف كتابكم.

أما أنتم فليس لكم ذلك: لأنكم اتبعتم رجلاً ليس من بنى إسرائيل الذين انحصرت فيهم الرسالة. فأغضب قولهم هذا بعض المؤمنين. فأنزل سبحانه فى ذلك مخاطبًا المؤمنين بخاتم الرسالة قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إلخ.

أى يا أيها الذين اتصفوا بالإيمان، اتقوا اللّٰه حق تقاته. واثبتوا على الإيمان برسوله محمَّد ﷺ، يؤتكم اللّٰه تعالى نصيبين من الأجر من فيض رحمته؛ نصيب على إيمانكم بالرسل السابقين، ونصيب على إيمانكم بخاتمهم ﷺ، وأيضًا نصيب فى الدنيا ونصيب فى الآخرة كما فى الآية (٢٠١) من سورة البقرة صفحة ٤٠ .

ويريكم يوم القيامة نورًا تهتدون به فى المشى إلى الجنة. ويغفر لكم ذنوبكم؛ لأنه سبحانه سريع المغفرة لمَنْ أخلص التوبة، واجتنب الكبائر. واسع الرحمة، لا يضيع أجر من أحسن عملاً. أعلن اللّٰه ـ صادق الوعد ـ ذلك لأجل أن يعلم أهل الكتاب القائلون: مَنْ آمن برسوله فله أجر.

أما المؤمنون بمحمَّد فلا أجر لهم، أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل اللّٰه بالأجر والرسالة بهم وحدهم مهما كان هذا الأجر قليلاً. ويعلموا أيضًا أن الفضل بالأجر والرسالة ليس خاضعًا لتصرفهم فيه، يمنحوْنه لمَنْ يشاءون، ويمنعونه عمّنْ يشاءون. بل هو بيد اللّٰه وحده يؤتيه مَنْ يشاء حسب حكمته. وهو سبحانه صاحب الفضل العظيم.

سورة المجادلة

تضمنت هذه السورة محاربة بعض عادات العرب الشاذة، التى حاربت سورة الحجرات كثيرًا منها. وكذلك نبهت هذه السورة إلى عيوب المنافقين واليهود. وأول العادات المرذولة هو الظهار. وأول ظهار وقع فى الإسلام، هو ظهار أوس بن الصامت الخزرجى الأنصارى، أخى عبادة بن الصامت الصحابى المشهور، من زوجته خَوْلة بفتح الخاء وسكون الواو، بنت ثعلبة الأنصارية.

وحاصل ما وقع أن أوسًا غضب من خولة يومًا، فقال لها أنت علىَّ كظهر أمى، وكان هذا يعتبر تحريمًا مؤبدًا فى الجاهلية. فحزنت حزنًا شديدًا وأسرعت إلى النبى ﷺ، وكان فى بيت عائشة رضى اللّٰه تعالى عنها.

وقالت: (يا رسول اللّٰه إن أوسًا تزوجنى وأنا شابة مرغوب فيها، فلما كبرت وكثر عيالى، جعلنى عليه، كأمه فى ثورة غضبه، ثم رجع وندم فإن كنت يا رسول اللّٰه تجد لى مخرجًا فحدثنى به) فقال ﷺ: (ما أراك إلا قد حرمت عليه) فقالت: يا رسول اللّٰه لم يذكر طلاقا.

فقال ﷺ: (ما أمرت فى أمرك بشىء) فقالت: (انظر إلى رخصة يا رسول اللّٰه، فواللّٰه إن لى منه صبية صغارًا، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىَّ جاعوا. وصارت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إنى أشكو إليك وحدتى وشدة فاقتى) وكررت ذلك مرارًا. فبينما هى على هذه الحال، وإذا بالوحى ينزل عليه ﷺ.

فقالت لها السيدة عائشة: (انتظرى يا خولة، فلا أظن إلا أن اللّٰه قد أنزل فى أمرك قرآنا) فلما فرغ الوحى، قال ﷺ: ابعثى زوجك يا خولة. فلما حضر تلا عليه ﷺ من أول السورة إلى الآية (٤). فكفَّر أوس وعاش معها. وأدركت خولة هذه عمر بن الخطاب فى خلافته.

وورد أنها لقيته يومًا يسير مع جماعة من أصحابه فاستوقفته وأطالت معه الحديث، وهو منصت لا يتحرك، ولم ينصرف حتى انصرفت هى، فقال بعض أصحابه: ما هذه العجوز التى أوقفتك هذا الموقف ياأمير المؤمنين؟ فقال: واللّٰه لو أوقفتنى طول اليوم لوقفت، وَيْحَكُم!! ماذا تريدون من عمر؟! أتريدون منه ألا يستمع إلى امرأة سمع اللّٰه شكواها من فوق سبع سماوات، وأنزل فيها قرآنا يتلى إلى يوم القيامة؟

ومعنى الآيات:

قد أجاب اللّٰه ضراعة المؤمنة التى جادلتك أيها النبى فى شأن زوجها، وشكت حالها إلى ربها، وكان اللّٰه يسمع تحاوركما؛ لأنه سبحانه وتعالى سميع لكل ما يسمع، بصير بحال عباده، فيغيث المستغيث.

ثم بيَّن سبحانه بغضه لتلك العادة فى نفسها، وسفاهة مَنْ يقدم عليها فقال تعالى: الذين يظاهرون منكم نافرين من نسائهم فيجعلونهن كأمهاتهم، ليحرموا معاشرتهن إلى الأبد. ألا فليعلم هؤلاء أن نساءهم ليسوا أمهاتهم فى حكم اللّٰه تعالى. فالذين يجعلون نساءهم كأمهاتهم مخطئون.

إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا
مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَٱلَّذِينَ
يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ
مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ
مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ
ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) يَوْمَ
يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ
وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ

المفردات: ﴿إن أمهاتهم﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى (ما).

﴿اللائى﴾: جمع نسوة بمعنى اللاتى.

﴿منكرًا من القول﴾: أى ينكره العقل السليم والطبع والشرع؛ لأن علاقة الزوجية مبنية على إباحة أمور تتنافى كل المنافاة مع علاقة الأمومة.

﴿زورا﴾: أى كذبًا وباطلا منحرفًا عن الحق؛ لأنه تضمن جعل الزوجة كالأم وقد علمت فساده.

﴿لعفو﴾: أى لكثير العفو، وهو عدم المؤاخذة على الذنب.

﴿غفور﴾: أى كثير المغفرة، وهى ستر ذنب العبد المؤمن فلا يفضحه.

﴿يعودون لما قالوا﴾: أى لنقض ما قالوا بالعزم على تحليل ما حرموه على أنفسهم. واللام بمعنى (فى) كما فى قولهم مضى فلان لسبيله أى فى طريقه، وما فى الآية (٤٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥ .

﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾: أى فى يوم القيامة.

﴿تحرير﴾: أى عتق.

﴿رقبة﴾: المراد عبدًا مملوكًا أو أمة.

---

(١) أمهاتهم. (٢) اللاتى.
(٣) يظاهرون. (٤) للكافرين.
(٥) آيات. (٦) بينات.
(٧) للكافرين. (٨) أحصاه.

﴿يتماسا﴾: أى يتصلا اتصالا لا يحل إلا للزوجين.

﴿متتابعين﴾: لا يفصل بين يومين منهما إفطار فى النهار، فإن فصل أعاد من أولهما وبطل ما مضى.

﴿حدود اللَّه﴾: المراد أحكام شرعه التى فصل بها بين الحق والباطل.

﴿يحادون اللَّه﴾: المراد يعادونه بعصيانه، كما تقدم فى الآية (٦٣) من سورة التوبة صفحة ٢٥١ .

﴿كبتوا﴾: أى أذلهم اللَّه، كما تقدم فى الآية (١٢٧) من سورة آل عمران صفحتى ٨٤،٨٣ .

﴿أحصاه اللَّه﴾: المراد: أمر الملائكة بإحصائه فى الكتاب، انظر الآيات (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٨،٣٨٧، و(١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠، و (٨٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥ .

﴿ألم تر﴾: الاستفهام تقريرى، و﴿تر﴾: بمعنى تعلم أى يجب أن تعلم بأن اللَّه يعلم... إلخ. وكيف لا يعلم شيئًا وهو خالقه. انظر الآية (١٤) من سورة الملك صفحة ٧٥٥ .

المعنى: الذين يجعلون نساءهم كأمهاتهم مخطئون؛ لأنهم ليس لهم أمهات إلا اللائى ولدنهم، وبما أن الزوجة ليست والدة، فهم بذلك لايقولون إلا قولاً منكرًا لا يجيزه شرع ولا يرتضيه عقل، ولا يقرهم عليه ذو عقل سليم. ثم فتح لهم باب التوبة منه فقال: وإن اللَّه لعفو غفور لمَنْ أحسن التوبة. وبعدما بيَّن سبحانه بشاعة الظهار، شرع فى بيان حكمه لو وقع، فقال تعالى: (والذين يظاهرون من نسائهم)... إلخ. أى ثم يأسفون، ويعزمون على إبطال ما قالوا باستمرار إمساك زوجاتهم فى عصمتهم، فعلى كل منهم عتق رقيق قبل أن يتعاشرا معاشرة الأزواج. هذا الحكم شرع لكم لتتعظوا وتبتعدوا عن ارتكاب المنكر، واللَّه خبير بكل أعمالكم، فيعلم المطيع وغيره، ويجازى كلاً بما يستحق، فحافظوا على ما شرع. فمَنْ لم يجد ثمن رقبة يعتقها، فعليه صيام شهرين قمريين متتابع صومهما، فلو فصلها بيوم إفطار يعيدها من أولها، ولا يجوز له أن يمس زوجته قبل تمام الشهرين، وإن خالف ارتكب بذلك ذنبًا آخر غير أصل

الظهار، فمن لم يستطع الصوم فعليه إطعام ستين مسكينًا، كل مسكين قوت يوم غداء وعشاء من أوسط ما تطعمون أهليكم الذين تحت رعايتكم، فلا يجوز لمعتاد أكل اللحم والخضر والفاكهة أن يطعم الخبز والجبن مثلاً، ويجوز أن يعطى المسكين ما يكفيه طعام يوم من مال أو قوت. ولما لم يقيد هنا بقوله: ﴿من قبل أن يتماسا﴾ اختلف نظر العلماء، فقال بعضهم: يجوز له المسيس من نوى للإطعام. وقال آخرون: إنه مشروط أيضًا، ولكنه اكتفى عند ذكره بما علم من سابقه. بيَّن سبحانه لكم تلك الأحكام وفرضها عليكم، ملاحظات فيها التخفيف من درجة إلي درجة ليزداد تصديقكم بالله ورسوله، وتُقبلوا على شرعه. وتقلعوا عما كنتم عليه فى جاهليتكم، وللكافرين بهذه الحدود عذاب شديد الألم. وكفره بها إن كان برفضها، فجزاؤه الخلود فى النار، وإن كان بمجرد إهمالها فهو كبير، وهناك عبارات تشبه الظهار يستعملها أهل مصر بقصد الطلاق فقط مثل (أنت حرام علىَّ كحرمة أمى أو كحرمة كل شىء حرمه الشرع) فهذا وأمثاله ليس ظهارًا، ولكنه طلاق بائن، لا تحل المرأة بعده إلا بعقد جديد. ومما تقدم يعلم ان حكم الشريعة فى الظهار، هو مجرد تفريق بين أبدان الزوجين مع بقاء العصمة بيد الرجل. فلو لم يرجع إلى زوجته بالكفارة، فلها حق رفع أمرها للقاضى يحكم بما فيه مصلحتها.

وبعدما بيَّن سبحانه أحكام كفارة الظهار، أتبع ذلك ببيان أن مَنْ لا يقبل شرع اللّه من العرب الذين كانوا يظاهرون، سيخذل فقال تعالى: إن الذين لايخضعون لشرع اللّه ورسوله سيخذلهم اللّه ويذلهم، كما أذل الذين من قبلهم من كفار الأمم الماضية. وكيف لا يقبلون شرعنا والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات تبين حدود اللّه وصدق رسوله.

فمَنْ كفر بعد ذلك فله عذاب مهين. فهذا اليوم الذى سيبعثهم الله فيه من القبور جميعًا، هم والأولون والآخرون فيخبرهم بما كسبت أيديهم خزيًا لهم على رءوس الأشهاد. وقد أحصى سبحانه كل كبيرة وصغيرة عملوها، ومن شدة غفلتهم فى الدنيا عن هذا اليوم، أنهم تهاونوا فى مراقبة أعمالهم حتى نسوها. ثم استشهد سبحانه على شمول علمه فقال تعالى: (ألم تر أن أن الله يعلم).. إلخ.

(الجزء الثامن والعشرون)

٧٢٦

مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ[١] وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ
ثَلَٰثَةٍ[٢] إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ
مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ[٣] إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ
تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ
وَيَتَنَٰجَوْنَ[٤] بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ[٥] وَمَعْصِيَتِ[٦] ٱلرَّسُولِ وَإِذَا
جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ
لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا
فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟[٧] إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ[٨]
فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟[٩] بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ[١٠] وَمَعْصِيَتِ[١١] ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟[١٢]
بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾
إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ[١٣] لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[١٤]

المفردات: ﴿من نجوى﴾: ﴿من﴾ لتأكيد عموم ما بعدها. والنجوى هى التناجى أى المحادثة سرًا.

﴿ثلاثة. خمسة﴾: هذا العدد على سبيل التمثيل فقط؛ لأن غالب التناجى أن يكون بمثله.

﴿إلا هو معهم﴾: قال ابن كثير: معهم بعلمه.

﴿ألم تر﴾: الهمزة للاستفهام التعجبى، أى ألم تنظر وتعجب أيها النبى؟

﴿الذين نهوا﴾: هم جماعة من اليهود والمنافقين.

﴿الإثم﴾: هو كل ذنب.

﴿العدوان﴾: ذنب مخصوص، وهو ظلم المؤمنين والتعدى عليهم بما يؤذيهم.

---

(١) السموات.
(٢) ثلاثة.
(٣) القيامة.
(٤) يتناجون.
(٥) العدوان.
(٦) معصية.
(٧) آمنوا.
(٨) تناجيتم.
(٩) تتناجوا.
(١٠) العدوان.
(١١) معصية.
(١٢) تناجوا.
(١٣) الشيطان.
(١٤) آمنوا.

﴿معصية الرسول﴾: هذا ذنب أفظع، والمراد التواصى فيما بينهم بمعصية الرسول.

﴿بما لم يحيك به الله﴾: فيقولون السام عليك يا أبا القاسم، يوهمون أنهم يقولون السلام عليك يا أبا القاسم؛ والسام هو الموت.

﴿لولا يعذبنا اللَّه﴾: ﴿لولا﴾: حرف، أصل معناه: طلب حصول ما بعده. واستعملوه هنا على سبيل الاستهزاء يريدون: لو كان محمد نبيًا لعجل الله لنا العذاب فى الدنيا بسبب قولنا هذا.

﴿حسبهم جهنم﴾: أى كافيهم جهنم تغنى عن كـل عـذاب، انـظر الآيـة (١٧٨) من سـورة آل عمران صفحة ٩٢ .

﴿يصلونها﴾: أى يدخلونها ليحترقوا فيها.

﴿بئس المصير﴾: قبح المرجع والنهاية.

﴿البر﴾: كل ما فيه خير.

﴿التقوى﴾: كل ما فيه ترك المعصية.

﴿ليحزن﴾: حزنه يحزنه بوزن قتله يقتله، أى أدخل عليه الحزن.

المعنى: و بعدما أكد سبحانه علمه بكل شىء من العالم العلوى والسفلى، ومنه أعمال هؤلاء الذين يحاربون اللَّه ورسوله، انظر الآية (٨٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥، قال مقررًا لما سبق ﴿ما يكون من نجوى﴾ ... إلخ. أى لا يوجد تناجى ثلاثة إلا وهو سبحانه رابعهم بعلمه، ولا تناجى خمسة إلا هو سادسهم، ولا أقل من الثلاثة ولا أكثر من الخمسة إلا وهو سبحانه معهم، أى عالم بكل أسرارهم فى أى مكان وجدوا ولو فى جوف الأرض. هو مطلع عليهم. ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة تفضيحًا لهم، وتقريرًا لما يستحقونه من الجزاء؛ لأن اللَّه تعالى بكل شىء عليم. لا يخفى عليه بعيد ولا مستور. وكان جماعة من اليهود والمنافقين إذا رأوا مؤمنًا قادمًا عليهم يتهامسون سرًا ويشيرون إليه ليوهموه أن أقاربه من المؤمنين المجاهدين والمسافرين حصل لهم سوء فيحزن، فشكا المؤمنون ذلك لرسول اللَّه ﷺ فنهاهم عن ذلك فلم ينتهوا، فأنزل سبحانه قوله: ﴿ألم تر﴾ .... إلخ. أى هل لم تنظر وتعجب أيها النبى من حال هؤلاء الذين نهيتهم عن التناجى المريب، ثم يعودوا لما نُهوا عنه؟

ثم بين هذا المنهى عنه فقال: فيتناجون بالإثم والتعدى على المؤمنين بإيذائهم وإزعاجهم، وبالتواصى بعصيان الرسول إذا نهاهم عن شىء، أو أمرهم بشىء.

ثم ذكر لهم جرمًا آخر فقال: ﴿وإذا جاءوك﴾... إلخ. وكان قوم من اليهود وبعض المنافقين إذا دخلوا عليه صلوات الله وسلامه عليه يقولون (السام) عليك يا أبا القاسم، يدعون عليه به، ويوهمون بإدغام كلامهم أنهم يقولون: السلام عليك يا أبا القاسم، وهذا خبث معروف فى اليهود، انظر الآية (١٠٤) من سورة البقرة صفحة ٢٠، وكان ﷺ مؤدبًا، فكان رده أن يقول: (وعليكم)، فإذا خرجوا من عنده ﷺ يقولون فيما بينهم لو كان محمد نبيًا لعجل الله لنا العذاب فى الدنيا بسبب قولنا هذا.

ولما كان عذابهم مؤجلاً لحكمة يعلمها سبحانه، رد عليهم بقوله ﴿حسبهم جهنم﴾: أى أن جهنم وما فيها من الهلاك كافية للتنكيل بهم، وسيدخلونها يحترقون بنارها. وبئست جهنم نهاية لهم. وقال ابن عباس والشعبى وقتاده وجماعة من الصحابة: إن رد السلام على أهل الذمة مطلوب شرعًا، انظر الآية (٨٦) من سورة النساء صفحة ١١٥.

ثم قال سبحانه مؤدبًا عباده المؤمنين معرضًا باليهود والمنافقين: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم﴾... إلخ. أى فى أنديتكم وخلواتكم فلا تكونوا كاليهود والمنافقين، بل تناجوا بكل ما فيه خير لكم وللناس، وبكل ما يبعدكم عن عذاب الله، واتقوا الله فى كل أعمالكم لأنكم ستحشرون إليه يوم القيامة، فيحاسبكم ويجازيكم حسب أعمالكم.

ثم بيَّن سبحانه الباعث لليهود على التناجى بالإثم.. إلخ، فقال تعالى: ﴿إنما النجوى﴾... إلخ أى إنما التناجى سرًا بالإثم والعدوان من وسوسة الشيطان وتزيينه، ليدخل الحزن على الذين آمنوا بتوهم أنهم فى نكبة نزلت بهم، ولما كان فى تهامس اثنين فأكثر فى حضرة واحد لم يشركوه معهم فيه ما يؤلمه.

قال ﷺ: (لا يتناجى جماعة دون واحد إلا بإذنه، أو بوجود من يكون معه أثناء تناجيهم)، وهذا من الأدب النبوى الكريم الذى يحفظ على الناس توادهم وتحابهم.

وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟
فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ
ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ
صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ
صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ

المفردات: ﴿بضارهم﴾: (الباء) لتأكيد نفى ما بعدها.

﴿تفسحوا فى المجالس﴾: أى توسعوا فيها، والمراد: ليفسح بعضكم لبعض حتى يجلس الأشد حاجة لما فى المجلس من علم ونحوه.

﴿انشزوا﴾: أى انهضوا للتوسعة أو للخروج لحكمة لسبب مشروع.

﴿ناجيتم الرسول﴾: المراد: إذا أردتم محادثته سرا.

﴿بين يدى نجواكم﴾: أى قبل مناجاتكم.

﴿ءأشفقتم﴾.... إلخ: أى هل خفتم كثرة النفقات من تقديمكم صدقات؟ وهو استفهام قصد به إظهار ما جال فى نفوسهم مقدمة للتخفيف الآتى:

﴿فإذ لم تفعلوا﴾: ﴿إذ﴾ ظرف لزمان مضى، أى فحين لم تفعلوا ... إلخ.

﴿وتاب الله عليكم﴾: أى برفع هذه المشقة وإذنه بالمناجاة بدون صدقة.

﴿ألم تر﴾: تقدم فى الآية (٨) من هذه السورة صفحة ٧٢٦ .

﴿الذين تولوا﴾: هم المنافقون.

﴿قوما غضب الله عليهم﴾: المراد بهم اليهود.

---

(١) امنوا. (٢) المجالس. (٣) امنوا.
(٤) درجات. (٥) ناجيتم. (٦، ٧) نجواكم.
(٨) صدقات. (٩) الصلاة. (١٠) اتوا.
(١١) الزكاة.

﴿مـا هم منكم ولا منهم﴾: أى أن المنـافقـين ليسـوا من المـؤمنين، ولا من اليـهـود. بل هم مذبذبون بينهما، انظر الآية (١٤٣) من سورة النساء صفحة ١٢٧ .

﴿يحلفـون علـى الكذب﴾: أى يحلفـون على الكذب بـأنه حق. وأنهم يعلمـون أنه رسـول اللّه وأنهم يوقـرونه ﷺ وهم فى ذلك كـاذبون، انظـر الآيات (١) و مـا بعـدها من سـورة المنافـقـون صفحتى ٧٤٢ ، ٧٤٣ .

المعنى: يريد الشيطان ليحـزن الذين آمنوا بالإغراء على النجوى، وليس هذا التناجى بضار المؤمنين شيئًا، إلا بإذنه تعالى، وعلى اللّه فليتوكل المؤمنون، ولا يبالوا بهذا الكيد ولما نهى المؤمنين عن مثل أعمال المنافقين مما يكون سببًا للتنافـر بينهم، أتبع ذلك بأمرهم بما يكون سببًا لزيادة الألفة، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم﴾... إلخ وكان المؤمنون يتنافسون على القـرب منه ﷺ حرصًا على الاسـتمـاع منه، وقـد يتـأخـر عن المبـادرة إلى مـجلسـه ﷺ أصحـاب الأعذار، وقد يكون بعضهم ضعيف السمع، أو أحوج من غيره لقـرب عهـده بالإسلام. وكان الواحد من هؤلاء يقف بعيدًا عنه ﷺ.

وكان صلوات اللّه عليه يتألم لذلك، ولكنه كان شديد الحياء واسع الحلم، فـأنزل سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس﴾... أى المعدة للخير. قال القرطبى: هذا يشمل كل مجلس اجتمع فيه المسلمون لسماع ما ينفعهم، فيوسع كلٌّ لأخيه بما لا يؤذيه، فافسحوا لإخوانكم يفسح اللّه لكم فى كل مـا تحبون الفسح فيه: من الأمكنة، والأرزاق، وصدور الناس، وأخيراً فى القبور. وإذا قيل لكم انهضوا للتوسعة لقدوم غريب أحوج منكم إلى استماع شىء من الدين، أو لترك مجلسه ﷺ؛ لأنه كان يحب الانفراد أحيانًا ليتفرغ لتدبير شئونه، أو لأداء فرائضه الخاصة، فانهضوا طوعًا للأمر، فإذا فعلتم ذلك يرفع اللّه الذين آمنوا منكم ـ خصوصًا العلماء الذين يفقهون أسرار هذا التشريع ـ درجات فى الدنيا بالنصر وحسن الذكر، وفى الآخرة بالمنازل العالية فى الجنة.

ثم هدد سبحـانه وبشـر فقـال: ﴿واللّه بمـا تعملون خبير﴾ أى فيجازى من امتثل وغيره كلاً بما يستحق.

ثم أراد سبحانه أن يعالج بعض الفوضى، التى كانت سائدة بين العرب، وخصوصًا الأعراب. قال ابن عباس: إن بعض من أسلموا أكثروا من مناجاته ﷺ، من غير حاجة إلا لتظهر منزلتهم، وكان الأغنياء بحكم مراكزهم يكثرون من ذلك، ويغلبون الفقراء على القرب منه ﷺ حتى شغلوا أوقاته التى يجب أن تكون موزعة على ما تقتضيه المصلحة، وكان يؤذيه ذلك ولكن يغلبه الحياء كما تقدم، فأنزل سبحانه تأديبًا لهم ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول﴾... إلخ. أى يا أيها الذين اتصفتم بالإيمان، إذا أردتم مناجاة الرسول ﷺ ومحادثته سرًا، فقدموا قبل مناجاتكم صدقة للفقراء، ذلك التصدق خير لكم لما فيه من الثواب وأطهر لنفوسكم من دنس الشح والتكالب على الدنيا.

فمن لم يجد منكم ما يتصدق به، فقد جوز له ربه المناجاة فى الأمور المهمة بدون تقديم صدقة؛ لأنه سبحانه وتعالى غفور رحيم بعباده الضعفاء، ولهذا التكليف حكم كثيرة، منها تخفيف التزاحم عليه ﷺ من غير حاجة، ومنها تربية مهابته ﷺ فى نفوسهم حتى يسارعوا إلى امتثال أمره، ومنها نفع الفقراء، ومنها التمييز بين المخلص والمنافق، وبين محب الآخرة ومحب الدنيا إلى غير ذلك.

ولما استقر فى نفوسهم كمال الأدب، وتعودوه معه ﷺ، وشعروا بعظمة منزلته عند ربه، وتحقق الغرض المطلوب، خفف سبحانه عنهم فقال تعالى: ﴿ءأشفقتم﴾... إلخ أى هل خفتم كثرة النفقات من تقديم صدقة قبل كل مناجاة؟ فحين لم تفعلوا ما طلب منكم لمشقة عليكم لكثرة تكرره، وتاب الله عليكم بإذنه لكم فى المناجاة المهمة بدون صدقة، فاستعيضوا عن ذلك بالمواظبة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لأن الصلاة تعين على مشاق التكاليف، والزكاة تحارب الشح، وأطيعوا الله ورسوله فى جميع الأوامر. والله خبير بما تعملون، فيجازيكم حسب أعمالكم.

ثم عجب سبحانه نبيه من حال المنافقين فقال تعالى : (ألم تر)... إلخ. أى انظر وتعجب أيها النبى إلى هؤلاء المنافقين الذين يوالون اليهود المغضوب عليهم. هؤلاء المنافقون ليسوا معكم، ولا مع اليهود. ولكنهم يظهرون ذلك ظنًا منهم أن فيه نجاتهم. وتعجب كيف يحلفون لك كذبًا، أنهم مؤمنون بك.

وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ
أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا
فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ
حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ
أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ

المفردات: ﴿عذابا شديدًا﴾: انظر شرح ذلك فى الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨ .

﴿ساء﴾: أى قبح.

﴿جنة﴾: أى وقاية يستترون بها ليحفظوا أموالهم من الإنفاق فى الجهاد وأنفسهم من القتل، انظر الآية (٢) من سورة المنافقون صفحة ٧٤٣ .

﴿فيحلفون له﴾: أى على أنهم ما كانوا منافقين، كما فعل أمثالهم فى الآية (٢٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥ ، والآية (٢٨) من سورة النحل صفحة ٣٤٨ .

﴿استحوذ عليهم﴾: أى استولى عليهم بوسوسته وإغرائه. ﴿ألا﴾: حرف يراد به تنبيه السامع لأهمية ما بعده.

﴿يحادون الله﴾: تقدم فى الآية (٥) من هذه السورة صفحة ٧٢٥ .

﴿أولئك فى الأذلين﴾: أى كتب الله عليهم أن يكونوا فى زمرة الأذلاء.

﴿كتب الله﴾: أى فى أم الكتاب، انظر الآية (٣٩) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨ . والمراد قضى وحكم.

﴿يوادون﴾: أى يصادقون ويعقدون معهم مودة.

---

(١) أيمانهم. (٢) أموالهم (٣) أولادهم
(٤) أصحاب. (٥) خالدون (٦) الكاذبون
(٧) الشيطان. (٨) فأنساهم. (٩،١٠) الشيطان.
(١١) الخاسرون. (١٢) الآخر.

المعنى: بلغ من جرأة المنافقين، أنهم يحلفون على الكذب، حال كونهم عالمين أنهم كاذبون حانثون، أعد الله لهم على ذلك عذابا شديدًا فى الدرك الأسفل من النار؛ لأن أعمالهم بلغت من القبح درجة غير معهودة.

ثم بيَّن بعضها بقوله تعالى: ﴿اتخذوا﴾ ... إلخ. أى يجرؤن على الكذب متخذين من أيمانهم الفاجرة وقاية يسترون بها جرمهم. وبهذه الوسيلة منعوا كثيرًا من الناس عن طريق الحق بتشويه الإسلام؛ لأن البسطاء يظنونهم صادقين. فلهم عذاب مذل على الصد، فوق عذاب الكفر؛ انظر الآية (٨٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٧ . ولما كان سبب مصيبتهم هو خوفهم على أموالهم أن تنفق فى سبيل الله. وعلى أولادهم من القتل فى الجهاد. قال سبحانه: ﴿لن تغنى﴾ ... إلخ. أى لا تنفعهم هذه الأموال والأولاد، ولا تدفع عنهم شيئًا من عذاب الله. وهم أصحاب النار، هم فيها خالدون. لن ينفعهم شىء من ذلك يوم يبعثهم الله جميعًا ويحشرهم لموقف الحساب، فيدهشهم الموقف، فيظنون أن الكذب هنا ينفعهم. فيحلفون لله سبحانه أنهم ما كانوا منافقين، كما كانوا يحلفون لكم فى الدنيا. ويظنون أنهم بحلفهم هذا على شىء من حسن التدبير، فينجون من الهلاك كما نجوا فى الدنيا. فرد سبحانه عليهم كل ما سبق بقوله منبها السامع إلى أهمية ما سيقوله، فقال: ألا إنهم هم البالغون الغاية فى الكذب حيث يحاولون الكذب على عالم الغيب والشهادة. ثم بيَّن سبب وقوعهم فى هذا الشقاء، فقال: ﴿استحوذ﴾ أى غلب على عقولهم الشيطان بوسوسته وتزيينه للدنيا. فلم يمكنهم من تذكر وعد الله تعالى للطائع، ولا من وعيده لمَنْ عصى. هؤلاء هم أعوان الشيطان . ألا إن جنود الشيطان هم الخاسرون لخيرى الدنيا والآخرة. ثم بيَّن سبحانه سبب شقائهم بصورة أخرى فقال: ﴿إن الذين يحادون﴾.. إلخ. أى إن الذين يخالفون أوامر الله ورسوله، أولئك معدودون فى أشد الناس ذلا. ثم برهن سبحانه على ذلك فقال: ﴿كتب الله﴾ ... إلخ. أى قضى بذلك قائلاً: وعزتى لأغلبن أنا ورسلى بالحجة والقوة؛ لأن الله قوى لا يعجزه شىء، عزيز لا يغلبه أحد، انظر الآية (١٧١) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٦ . ثم بين سبحانه أن حال المنافقين يخالف حال المؤمنين المخلصين فقال: ﴿لا تجد قومًا﴾ ... إلخ. أى لا يمكن أن تجد قوما يجمعون بين الإيمان بالله واليوم الآخر، وبين مودة ومصاحبة أعداء الله ورسوله، مهما كان هؤلاء الأعداء والمقصود بالأعداء ليس الكفار فقط بل يشمل أيضًا الفاسق ولو كان غير كافر، وتصرح الأحاديث بالنهى عن موالاتهم.

كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ[1] أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ[2] أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ[3] وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ[4] تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ[5] خَٰلِدِينَ[6] فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

(٥٩) سُورَةُ الحَشْرِ مَدَنِيَّة وآياتها أربع وعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ[7] مِن دِيَٰرِهِمْ[8] لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ

المفردات: ﴿عشيرتهم﴾: تقدم فى الآية (٢٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٣، ٢٤٤ .

﴿أولئك﴾: أى المؤمنون حقا. ﴿كتب فى قلوبهم الإيمان﴾: المراد ثبته وقواه. ﴿بروح منه﴾: المراد بسر من أسراره تعالى كطمأنينة القلب، ونور البصيرة. انظر الآية (٤) من سورة الفتح صفحة ٦٧٨ .

المعنى: لا يصح أن يوجد بين المؤمنين مَنْ يصادقون أعداء الله تعالى ورسوله ﷺ، ولو كان هؤلاء الأعداء آباء المؤمنين، أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو أهلهم الأقربين غير ما تقدم. هؤلاء المؤمنون حقا الذين لا يصادقون أعداء الله تعالى، ثبت الله فى قلوبهم الإيمان، فلا يؤثر فيها غير ما يرضى ربهم، وأيدهم براحة الضمير، وحب الله ورسوله. وسيدخلهم فى الآخرة جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها. رضى الله عنهم لإحسان أعمالهم وقوة إخلاصهم، ورضوا عنه بجزيل ثوابه. هؤلاء هم أنصار دين الله. ألا إن أنصار الله هم الفائزون بخيرى الدنيا والآخرة. وقد صح أن جماعة من المؤمنين قتلوا أقاربهم المشركين، دفاعا عن الدين وعن رسوله الأمين.

سورة الحشر

المفردات: ﴿سبح لله﴾: تقدم فى الآية الأولى من سورة الحديد صفحة ٧١٨ . ﴿الذين كفروا من أهل الكتاب﴾: هم طائفة من طوائف اليهود المقيمين حول المدينة، وكان يقال لهم (بنو النَّضير) بفتح النون وكسر الضاد.

﴿ديارهم﴾: كانت على بعد ميلين من المدينة. ﴿لأول الحشر﴾: اللام بمعنى عند يقول

(١) آباءهم. (٢) إخوانهم. (٣) الإيمان. (٤) جنات.
(٥) الأنهار. (٦) خالدين. (٧) الكتاب. (٨) ديارهم.

العرب: جئت لطلوع الشمس. أى عنده كما فى الآية (٧٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥. والحشر هو إخراج جمع من مكان إلى آخر، وإضافة أول للحشر من إضافة الصفة للموصوف كقولهم: لك جميل الصبر، أى الصبر الجميل. فالمراد: الحشر الأول. وهو إخراجهم من ديارهم حول المدينة إلى خيبر. والحشر الثانى إخراجهم فى زمن عمر بن الخطاب من خيبر إلى الشام.

المعنى: تدور آيات هذه السورة حول خيانة قوم من اليهود ونقضهم العهد معه ﷺ، وإخراج الله لهم من ديارهم أذلاء، وذلك أن بنى النضير من اليهود المقيمين فى ضواحى المدينة كان بينهم وبينه ﷺ عهد الا يكونوا عليه ولا له ولما هزم المسلمون فى واقعة أحد، كما تقدم فى شرح صفحة ٨٣ طمع هؤلاء اليهود فى المسلمين ونقضوا العهد. فذهب زعيمهم كعب بن الأشرف ومعه أربعون رجلاً يهوديًا إلى مكة، وتعاهدوا مع قريش عند الكعبة على أن يقاتلوا محمدًا ﷺ. وبلغ ذلك للنبى، فأمر رجلاً من المسلمين بقتل كعب بن الأشرف لغدره وخيانته. وبعد اغتياله بمدة سار إليهم النبى صلوات الله عليه فى جمع من أصحابه ليأمروهم بالخروج من ساحة المدينة. فأظهروا الملاينة. ودبروا حيلة للفتك به صلوات الله عليه، وفى هذا الوقت جاء رسول من منافقى المدينة إلى هؤلاء اليهود، يطلب منهم ألا يخرجوا وأن يقاتلوا محمدًا ﷺ. ووعدهم نيابة عن المنافقين بأنهم سيقاتلون معهم. وإن اضطروا للخروج فسيخرجون معهم ليستعدوا لحرب أقوى .. ووصل ما دبروه للنبى ﷺ. فطلب منهم سرعة الخروج فأبوا إلا الحرب، اعتمادًا على قوة حصونهم، وعلى مساعدة المنافقين. وتحصنوا داخل ديارهم. فحاصرهم ﷺ إحدى وعشرين ليلة. فلما يئسوا من مساعدة المنافقين، وشعروا بالضعف بسبب قتل زعيمهم، ومدير شئونهم كعب بن الأشرف. داخلهم الرعب، وطلبوا منه صلوات الله عليه الصلح، فصالحهم على أن يجلوا بشرط أن كل أهل بيت يحملهم جمل واحد. ولهم أن يأخذوا على هذا الشرط ما شاءوا من المتاع دون السلاح. فخرج بعضهم إلى خيبر. وبعضهم إلى الشام. وكان ذلك فى ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة. فأنزل سبحانه فى ذلك قوله: سبح لله ما فى السموات... إلخ. أى أن جميع ما فى الكون يقدسه سبحانه وينزهه وهو العزيز الغالب الذى لا يغلب. الحكيم فى تدبيره وصنعه. ثم بين بعض آثار عزته وحكمته فقال: هو الذى أخرج... إلخ. أى هو وحده الذى أجلى بنى النضير بقوته وحكيم تدبيره عند الحشر الأول بلا صعوبة، وما كنتم أيها المؤمنون تظنون أنهم يخرجون، لشدة بأسهم، وقوة حصونهم، وكثرة عددهم، وعظيم استعدادهم. والآثار ظاهرة فى شمول ﴿من حاد الله﴾ للفاسق ولو غير كافر. والأحاديث مصرحة بالنهى عن موالاتهم. ولذا قال بعض السلف، من صح إيمانه لا يأنس إلى مبتدع ولا يصاحبه. ومَنْ داهن مبتدعا، سلبه الله حلاوة السنة. ومَنْ تحبب إلى مبتدع يطلب عز الدنيا أذله الله.

وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ[١] اللَّهُ مِنْ
حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم
بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ[٢] ﴿٢﴾
وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا
وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ[٣] عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾
مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ
اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ[٤] ﴿٥﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ
مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ
يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾
مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ[٥] وَالْمَسَاكِينِ[٦] وَابْنِ السَّبِيلِ

المفردات: ﴿فأتاهم الله﴾: أي جاءهم عذابه بالرعب والجلاء.

﴿من حيث لم يحتسبوا﴾: أي من جهة لم تخطر لهم على بال.

﴿قذف في قلوبهم﴾: أصل القذف الرمي بقوة، والمراد أثبته وركزه.

﴿الرعب﴾: هو الخوف الذي يملأ القلب.

﴿وأيدي المؤمنين﴾: أي جعل التخريب كله صادرًا منهم سواء أكان بأيديهم أو بأيدي المؤمنين، وذلك لأن غدرهم هو السبب في إطلاق أيدي المؤمنين في التخريب.

﴿الأبصار﴾: جمع بصيرة وهي نور القلب.

﴿كتب الله﴾: أي قضى وحكم. انظر الآية (٢١) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٨ .

﴿شاقوا الله﴾: تقدم في الآية (١٣) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٨ .

﴿لينة﴾: هي النخلة مطلقًا. قال بذلك الحسن ومجاهد والراغب ويجمعها أهل المدينة على (لون).

﴿وليخزي الفاسقين﴾: الأصل: ليسر المؤمنين ويعزهم، ويخزي الفاسقين ويذلهم.

﴿ما أفاء الله﴾: ﴿ما﴾ بمعنى (الذي) وهي مبتدأ، وأصل معنى ﴿أفاء﴾ ردّ وأرجع. والمراد هنا أعطى وملك: ومنه الفيء وهو في الشرع ما أخذ من أموال الكفار بدون قتال بخلاف الغنيمة فإنها ما أخذت بحرب وقتال، وقد تقدم حكم الغنيمة في الآية (٤١) من سورة الأنفال صفحتي ٢٣٢، ٢٣٣ .

---

(١) فآتاهم. (٢) الأبصار. (٣) الآخرة.
(٤) الفاسقين. (٥) اليتامى. (٦) المساكين.

﴿فما أوجفتم﴾: هذه الجملة خبر المبتدأ السابق و﴿ما﴾ هنا نافية و ﴿أوجفتم﴾ من قولهم وجف الفرس، أو البعير، إذا أسرع. وأوجفه صاحبه. أى جعله يسرع.

﴿من خيل﴾: ﴿من﴾ للنص على عموم نفى ما بعدها.

﴿ركاب﴾: أصل الركاب اسم جمع لكل ما يركب، ولكنه غلب عند العرب على الإبل. ولا مفرد له من لفظه. وإنما يقال للفرد منه (راحلة).

﴿فللَّه وللرسول﴾.. إلخ: تقدم كل ذلك فى الآية (٤١) من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٢، ٢٣٣، والمراد بذى القربى هنا: هم قرابته ﷺ من بنى هاشم وبنى عبد المطلب الذين لا تحل لهم الصدقة، فمصرف الفىء كله هو مصرف الخمس فى الآية (٤١) من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٢، ٢٣٣.

المعنى: وظن بنو النضير، أن حصونهم المنيعة تمنعهم من أن ينالهم عذاب اللَّه على أيدى المؤمنين فاطمأنوا لذلك وأشعلوا نار الفتنة ضد المسلمين. فجاءهم عذاب اللَّه من جهة لم تخطر لهم على بال. من ذلك قتل رئيسهم كعب بن الأشرف كما تقدم. فإنه أضعف قوتهم وشتت كلمتهم. وسلب به سبحانه من قلوبهم الطمأنينة وملأها رعبًا. فصاروا من شدة الخوف وقوة الحصار يخربون بيوتهم من الداخل، ليسدوا بأخشابها وحجارتها أفواه الأزقة، وقام بعضهم بفعل ذلك، حتى لا تبقى صالحة لسكنى المؤمنين، لو فرض وغلبوا. وتسببوا فى أن يخرب المؤمنون بيوتهم من الخارج ليدخلوها عليهم. ولزيادة النكاية بهم.

وإذا كان هذا هو ما حصل قطعًا، فيجب أن يتعظ بحالهم كل من له عقل يفكر فلا يغدر ولا يعتمد على غير اللَّه سبحانه. ثم بين سبحانه أن الجلاء الذى كتبه عليهم، كان أخف من القتل والأسر، لعلهم يقلعون عن غدرهم فى المستقبل فقال:

﴿ولولا﴾... إلخ: أى ولولا قضاؤه سبحانه عليهم بالجلاء لعذبهم فى الدنيا بالقتل والأسر. ولهم مع ذلك فى الآخرة عذاب النار. ذلك الذى حل بهم من الجلاء والذل، بسبب أنهم حاربوا اللَّه ورسوله. ومَنْ يعاد اللَّه ورسوله لابد من هلاكه؛ لأن اللَّه شديد

العقاب. وكان مما حصل أن المسلمين، لما وصلوا مساكن بنى النضير، وجدوهم حصنوا أنفسهم بقوة. فأمر ﷺ بحصارهم، ليضايقهم حتى يسلموا وحتى لا يتلف شىء من أموالهم، ولما عاندوا أذن الرسول ﷺ بإلهام من الله تعالى فى قطع بعض نخيلهم ليحملهم على التسليم فأشاع المنافقون وأذنابهم اليهود، أن محمدًا الذى كان ينهى عن إتلاف المال أصبح اليوم يتلفه، فأنزل سبحانه: ﴿ما قطعتم﴾.. إلخ، ليخرسهم، أى ما قطعتم يا مسلمين من نخلة مثمرة، أو تركتموها بدون قطع إلا بإذن الله لرسوله. أذنه فى ذلك لينصر المؤمنين ويعزهم وليخزى الفاسقين. وذلك لأن قطعها فيه حسرتهم على ذهابها بأيدى أعدائهم، وتركها سليمة يمكن المسلمين من الاستيلاء عليها والانتفاع بها، ففى كل حسرة عليهم.

وبعدما بيّن سبحانه ما حل باليهود، شرع فى بيان الحكم فى أموالهم. وكان بعض المسلمين طلب تخميسها كالغنائم، فأنزل الله سبحانه: (وما أفاء الله)... إلخ. ردا عليهم ببيان، أن هذه الأموال تعتبر فيئًا لا غنيمة. فكأنه يقول: هذا المال الذى أعطاه سبحانه لرسوله من أموال بنى النضير، لم تقطعوا إليه مسافات، ولا لقيتم فى الحصول عليه مشقة حرب. ولكن جاءت هذه الأموال؛ لأن سنة الله تعالى جارية، على أن يسلط رسله على مَنْ يشاء من أعدائهم تسليطًا خاصًا، لا مشقة معه. وحينئذ لا حق لأحد فيها. فأمرها مفوض إلى الله ورسوله. والله على كل شىء قدير. فلا يعجزه قهر أعداء رسله.

ثم بيّن سبحانه حكم الفىء مطلقًا بما فيه هذه الأموال فقال تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾. أى من غير قتال، فهو يصرف فى سبيل الله ـ فى مصالح المسلمين، وللرسول ينفق على أهل بيته، ولذى قرابته من بنى هاشم وبنى المطلب. واليتامى من أطفال المسلمين، والمساكين ذوى الحاجات من المسلمين. وابن السبيل، المنقطع فى سفره عن أهله، كما هو مبين فى الآية (٤١) من سورة الأنفال صفحتى ٢٣٢، ٢٣٣ السابق الإشارة إليها، وبالجملة فمصرف الفىء كله هو مصرف خمس الغنائم المتقدم الإشارة إليه.

كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ
فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن
دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا
وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾
وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ
هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا
وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ
شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا
مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا
بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ

المفردات: ﴿دولة﴾: هو الشيء الذى يتداوله الناس. لهذا مرة ولذاك أخرى.

والمراد: لا يكون خاصًا بالأغنياء كما كان فى الجاهلية لا يأخذ الفقير منه شيئًا.

﴿للفقراء﴾.. إلخ: بيان لذى القربى وما بعده فى الآية السابقة و﴿أموالهم﴾: معطوف على ديارهم بعد تضمين.

﴿أُخرجوا﴾: معنى ﴿الترك﴾، وسيأتى تضمين مثله فى الآية التالية.

﴿والذين تبوءوا الدار﴾: أى اتخذوها مباءة أى منزلاً والمراد بهم الأنصار، و﴿الذين﴾ مبتدأ خبره ﴿يحبون﴾ الآتية و﴿الدار﴾ هى المدينة المنورة.

﴿الإيمان﴾: مفعول لفعل مقدر يناسبه معطوف على تبوءوا نحو والتزموا الإيمان ورضوه من قبل قدوم المهاجرين. يقول العربى فى فرسه: علفتها تبنًا وماءً باردًا يريد وسقيتها ماء....... إلخ: انظر نظير ذلك فى الآية (١١) من سورة الطلاق صفحة ٧٥٠.

﴿حاجة﴾: هى هنا بمعنى الشيء المحتاج إليه يقال: أعطاه من ماله حاجته. أى ما يحتاج إليه. والمراد لا يشعرون فى أنفسهم رغبة فى شيء مما أخذه المهاجرون.

---

(١) آتاكم. (٢) نهاكم.
(٣) المهاجرين. (٤) ديارهم.
(٥) أموالهم. (٦) رضوانا.
(٧) الصادقون (٨) تبوءوا
(٩) الإيمان (١٠) جاءوا.
(١١) لإخواننا. (١٢) بالإيمان.
(١٣) آمنوا.

﴿مما أوتوا﴾: أى مما أعطاه النبى ﷺ للمهاجرين من الفىء وغيره.

﴿يؤثرون على أنفسهم﴾: أى يقدمون ويفضلون إخوانهم المؤمنين على أنفسهم، وإذا رجعت إلى الآية (٢٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨ والآية (٦٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨، مع ما ورد من أن الأنصار كانوا يتنازلون للمهاجرين عن شطر أموالهم ومن يبقى عنده نصف ماله لا يقال به خصاصة، ومن كل هذا تعلم أن هذه الآية نزلت فى قوم مخصوصين كانوا يستطيعون احتمال مشقة الحاجة وأن هذا ليس تشريعًا عامًا.

﴿خصاصة﴾: هى شدة الحاجة إلى ما ينفقونه.

﴿يوق﴾: أى يقيه الله بسبب تقواه.

﴿شح نفسه﴾: الشح صفة للنفس تحملها على شدة الحرص على المال وأما البخل فهو الامتناع عن الإنفاق، فهو أثر من آثار الشح.

﴿الذين جاءوا من بعدهم﴾: هم التابعون والمؤمنون إلى يوم القيامة.

﴿بالإيمان﴾: أى متحلين بالإيمان.

﴿غِلاً﴾: أى حقدا.

﴿رءوف رحيم﴾: تقدم الفرق بينهما فى الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨ .

﴿ألم تر﴾: تقدم معناه فى الآية (٨) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٦ .

﴿الذين نافقوا﴾: هم عبدالله بن سلول وجماعة ذكروا فى شرح أول السورة.

المعنى: حكم سبحانه بتوزيع مال الفىء على الوجه المتقدم، لئلا يكون مقصورًا تداوله بين الأغنياء منكم كما كان الحال فى الجاهلية، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا غنيمة أخذ يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض شهواتهم ولا يعطون منها شيئًا للفقراء. وبعد ذلك حث سبحانه على طاعة الرسول فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه. ومنه تقسيم الفىء فقال تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول﴾ ... إلخ. أى وما جاءكم الرسول به من الأوامر فافعلوه. وما نهاكم عنه من المحرمات فانتهوا عنه.

واتقوا الله فلا تخالفوا رسوله لأن الله شديد العقاب لمَنْ يخالفه. ثم بيَّن سبحانه المراد من ذى القربى وما بعده فقال: ﴿للفقراء﴾... إلخ. أى اعطوا الفىء للفقراء المذكورين سابقا، المهاجرين من مكة إلى المدينة، الذين أكرههم المشركون على الخروج من ديارهم بمكة التى يحبونها، تاركين أموالهم، فخرجوا طالبين رزقًا حسنًا من ربهم فى الدنيا. ورضى عنهم منه سبحانه فى الآخرة، وعازمين على نصرة دين الله ورسوله. هؤلاء هم الكاملون فى صدق الإيمان، ثم مدح سبحانه الأنصار بثلاث صفات، فيها تعريض بمَنْ طلب تقسيم الفىء على الجميع، وعدم تخصيصه بالمهاجرين، فقال: ﴿والذين تبوءوا الدار﴾... إلخ. هم الأنصار الذين اتخذوا المدينة منزلاً. وأحبوا الإيمان من قبل قدوم المهاجرين عليهم. ومن آثار هذا الحب، أنهم لايشعرون فى أنفسهم ميلاً لشىء مما أعطاه الرسول للمهاجرين، بل يفضلونهم على أنفسهم بأموالهم وبيوتهم. لا عن استغناء عنها، بل مع احتياجهم إليها. أى فهم بالسماح بالفىء أولى. وهذا نتيجة طهارتهم من الشح. ومَنْ يقيهم الله شَرَّ شُحِّ أنفسهم لقوة تقواهم، فأولئك هم الفائزون بسعادة الدارين.

ثم بيَّن سبحانه أن آخر المؤمنين كأولهم فى محبة بعضهم بعضا، فقال: (والذين جاءوا)... إلخ. أى والمؤمنون الذين جاءوا بعد المهاجرين والأنصار، لشدة محبتهم لإخوانهم المؤمنين يقولون: يا ربنا اغفر لنا ولإخواننا فى الدين الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا حسدًا لأحد من المؤمنين، الذين سبقونا أو عاصرونا. يا ربنا أجب دعاءنا، إنك عظيم الرأفة واسع الرحمة. قال بعض العلماء: المؤمنون على ثلاثة منازل: المهاجرون. والأنصار. والذين جاءوا من بعدهما فاحرص على أن تكون من أولئك الذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار. ولا تظن أن إيثار الغير مع الاحتياج، ربما يعارض ما فى آيات (٢٦، ٢٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨، و(٦٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨. لأن ذلك يختلف باختلاف أحوال الناس، فمَنْ ليس عليه دين، وليس له عيال يخاف عليهم مشقة الجوع، ويكون هو قوى العزيمة، يصبر على الفقر، جاز له أن يقدم غيره المحتاج على نفسه، على أن لا يؤدى ذلك إلى هلاكه أو عريه. فإن فقد شرط من ذلك، فلا يصح له الإيثار. وبعدما ذكر سبحانه ما حل باليهود، أتبع ذلك بما حصل من منافقى المدينة على وجه التعجب من صنيعهم، فقال: ﴿ألم تر﴾.... إلخ. أى هل لم تعلم يا مَنْ يصح منك العلم وتعجب من المنافقين الذين يقولون.. إلخ.

لِإِخْوَٰنِهِمُ(١) ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ(٢) لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ
لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ
لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ(٣) ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟
لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ
لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ(٤) ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً
فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾
لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ(٥) جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ
جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ
ٱلشَّيْطَـٰنِ(٦) إِذْ قَالَ لِلْإِنسَـٰنِ(٧) ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى
بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ(٨) ﴿١٦﴾ فَكَانَ

المفردات: ﴿لإخوانهم﴾: أى فى الكفر.

﴿الذين كفروا﴾: هم يهود بنى النضير، انظر أول سورة الحشر صفحتى ٧٢٩، ٧٣٠.

﴿لا نطيع فيكم﴾: أى فى قتالكم.

﴿أحدًا﴾: أى من الرسول وأصحابه.

﴿ولئن نصروهم﴾: على سبيل الفرض والتقدير.

﴿ليولن الأدبار﴾: أى ينهزمون.

﴿أشد رهبة﴾: المراد من ﴿رهبة﴾ هنا مرهوبية. أى خوفًا ناتجًا عن إرهابكم لهم والمراد: إن خوفهم منكم أشد من خوفهم من الله تعالى، وهذا منتهى الجهل والجبن.

﴿ذلك بأنهم ...﴾ إلخ: أى ما ذكر من كون خوفهم من المخلوق أشد من خوفهم من الخالق، انظر الآية (٧٧) من سورة النساء صفحتى ١١٣، ١١٤ .

﴿بأنهم﴾ أى بسبب أنهم.

﴿لا يفقهون﴾: أى لايدركون تمام الإدراك عظمة الله سبحانه وتعالى، انظر الآية (٦٥) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧ .

﴿جميعًا﴾: أى حال كونكم مجتمعين.

﴿محصنة﴾: أى بمثل الخنادق والمتاريس ونحوها.

---

(١) لإخوانهم. (٢) الكتاب. (٣) لكاذبون. (٤) الأدبار.
(٥) يقاتلونكم. (٦) الشيطان. (٧) للإنسان. (٨) العالمين.

﴿جدر﴾: جمع جدار. والمراد بها الحصون، كالأسوار.

﴿بأسهم بينهم﴾ ... إلخ: أصل البأس الحرب والشدة، انظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٤،٣٣ والمراد به هنا: العداوة الشديدة والكره، أى أن العداوة بين اليهود والمنافقين شديدة؛ لأن اليهود أرباب دين. والمنافقون مشركون.

﴿تحسبهم جميعًا﴾: أى تظنهم فى الظاهر مجتمعين متفقين.

﴿شتى﴾: جمع شتيت أى: متفرق. ﴿الذين من قبلهم﴾: هم المشركون الذين حاربوا فى غزوة بدر انظر الآيات (١٢) وما بعدها من سورة الأنفال صفحتى ٢٢٨، ٢٢٩ . ﴿قريبًا﴾: صفة لكلمة مقدرة.

﴿زمن﴾: أى ذاقوا العذاب فى زمن قريب يوم بدر، وبدر كانت فى السنة الثانية من الهجرة، انظر ذلك فى الآية (٥) وما بعدها من سورة الأنفال صفحتى ٢٢٧، ٢٢٨ .

﴿وبال﴾: أصل الوبال الثقل، والشدة الناتجة عن أمر من الأمور ومنه: طعام وبيل. أى ثقيل على المعدة، ومطر وابل. أى ثقيل القطر، ويستعمله العرب فى كل ما يؤذى معنويًا؛ لأنه ثقيل على النفس، كأى من أنواع العقاب.

﴿أمرهم﴾: المراد من الأمر هنا: العمل الذى نتج عنه الوبال وهو هنا الكفر.

﴿كمثل الشيطان﴾: أى مثل المنافقين مع اليهود كمثل الشيطان.

﴿إذ قال للإنسان اكفر﴾: المراد: حين أغرى الإنسان بالكفر إغراءً شديدًا كأنه ملك مطاع، والمراد بالشيطان والإنسان هنا: الجنس، أى إن هذا هو شأن الشيطان مع الضال من الإنسان.

﴿قال إنى برىء منك﴾ ... إلخ المراد: حدَّث نفسه بالتبرى منه خوف أن يشاركه فيما يحل به، انظر مثل ذلك فى الآية (٤٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٤ .

المعنى: انظر وتعجب أيها السامع من منافقى المدينة الذين يقولون لإخوانهم فى الكفر من اليهود: والله لئن أخرجكم المسلمون لنخرجن معكم لنستعد لحربهم، ولا نطيع فى

معاونتكم أحدا من المسلمين إذا طلب منا ذلك وإن قاتلكم المسلمون لنساعدنكم حتى تنتصروا. قالوا ذلك. والله يشهد إنهم لكاذبون. ثم وضح سبحانه مواضع كذبهم فقال: (لئن أخرجوا)... إلخ. أى: وعزتى لئن أخرج المسلمون اليهود من ديارهم لا يخرج معهم المنافقون من المدينة لإعانتهم. ولئن قاتل المسلمون اليهود لا ينصرهم المنافقون. ولئن فرض ونصروهم لينهزمون جميعًا على يد المسلمين، ثم لا ينصرهم اللّه بعد ذلك أبدًا. ثم بيَّن سبحانه سبب هذا الجبن فقال تعالى: (لأنتم أشد).. إلخ. والمراد: إن خوفهم منكم المتمكن من نفوسهم أشد من خوفهم من اللّه. هذا الخوف الذى يظهرونه لكم نفاقًا؛ لأنهم فى الحقيقة لا يخافون اللّه أبدا. وإلا لما نافقوا وتظاهروا بالإيمان الذى يستلزم الخوف من عصيانه. ثم بيَّن سبحانه سبب خوفهم من المسلمين على هذا الوجه بقوله: (ذلك).. إلخ. أى ذلك الخوف منكم دون الخوف من اللّه سبحانه ـ سببه أنهم لا يفقهون قدر عظمته. فهم لذلك يتهاونون بأوامره. ولا يخافون عقابه مثل ما يخافونكم ويرهبونكم. ثم بيَّن سبحانه جبن كل من اليهود والمنافقين بقوله: (لا يقاتلونكم)... إلخ. أى لا يجرؤ أن يقاتلكم اليهود والمنافقون حتى فى حال اجتماعهم معًا إلا وهم فى داخل قرى محصنة بالخنادق والمتاريس مثلاً. أو من وراء جدران.

﴿أسوار﴾: يجعلونها حصونًا يستترون بها: لأن اللّه قذف فى قلوبهم الرعب منكم. ثم وضح بعض أسباب جبنهم بقوله: (بأسهم).. إلخ. أى العداوة بينهم شديدة. تظنهم فى الظاهر متفقين. والحال أنهم فى الواقع مشتتة قلوبهم ـ متنافرة ـ لتنافر عقائدهم. فهؤلاء اليهود يقولون بإله واحد. والمنافقون مشركون يعبدون الأصنام. ذلك الحال الذى هم عليه من التنافر فى الباطن. ثم الاتفاق على حرب المسلمين فى الظاهر ـ سببه أنهم قوم لايعقلون أسباب النصر والخذلان. وإن تفرق القلوب يضعف القوى، ويمكن الخصوم، ومثل هؤلاء الكفار من اليهود والمنافقين ـ فى نزول المصائب عليهم ـ كمثل أهل بدر من المشركين الذين ذاقوا سوء العاقبة فى الدنيا... ولهم فى الآخرة عذاب أليم.

ومثل هؤلاء المنافقين فى إغرائهم اليهود، ثم جبنهم عن مساعدتهم كمثل الشيطان حين يوسوس للإنسان بالكفر، فلما أطاعه وكفر، وتعرض لعذاب اللّه تبرأ الشيطان منه وقال: إنى أخاف اللّه رب العالمين من أن يلقى علىَّ تبعة عملك هذا.

عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ
نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا
تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ
أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ
ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾
لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا
مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ

المفردات: ﴿لغد﴾: المراد به هنا يوم القيامة، انظر الآية (٢٦) من سورة القمر صفحة ٧٠٦ .

﴿نسوا اللَّه﴾: المراد: شغلتهم الدنيا عن تذكر حقوق اللَّه عز وجل، فعاقبهم بأن أنساهم حق أنفسهم، فلم يقدموا لها ما ينفعها؛ انظر الآية (٩) من سورة المنافقون صفحة ٧٤٤ .

﴿لا يستوى أصحاب النار﴾... إلخ: انظر الآية (٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠، والآية (٢١) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣ .

﴿لو أنزلنا هذا القرآن﴾: الكلام تمثيل لقساوة قلب الإنسان، وعدم خشوعه عند سماع القرآن حتى حرم من تدبره والانتفاع به، ونظير هذا فى الآية (٧٤) من سورة البقرة صفحتى ١٤، ١٥، والآية (٧٢) من سورة الأحزاب صفحة ٥٦١ .

﴿خاشعًا﴾: أى خاضعًا متذللاً.

﴿متصدعًا﴾: أى متشققًا.

---

(١) عاقبتهما. (٢) خالدين.
(٣) جزاء. (٤) الظالمين.
(٥) آمنوا. (٦) فأنساهم.
(٧) الفاسقون. (٨، ٩، ١٠) أصحاب.
(١١) الفائزون. (١٢) القرآن .
(١٣) خاشعًا. (١٤) الأمثال.
(١٥) عالم . (١٦) الشهادة .
(١٧) السلام . (١٨) سبحان.

﴿من خشية اللَّه﴾: من خوف جبروته وعذابه.

﴿وتلك الأمثال﴾... إلخ: أى هذه الأمثال المذكورة فى القرآن. ومنها ما هنا وما فى الآية (٢٦١) من سورة البقرة صفحة ٥٥ والآيتين (٢٦٤، ٢٦٥) من نفس السورة صفحة ٥٦، والآية (١٧) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٣، ٣٢٤، والآية (٧٣) من سورة الحج صفحة ٤٤٤ .

﴿عالم الغيب والشهادة﴾: المراد يستوى فى علمه ما غاب وما حضر، انظر الآية (٧٣) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤ .

﴿الملك﴾: أى المتصرف فى كل شىء.

﴿القدوس﴾: أى شديد التنزه عما يقوله المبطلون من الولد والشريك وغيرهما مما لا يليق.

﴿السلام﴾: أصله بمعنى التسليم، وأريد به هنا اسم الفاعل، أى المسلِّم، بفتح السين وتشديد اللام المكسورة - أى هو وحده المسلِّم من جميع المخاطر التى لا ينفذ منها غيره سبحانه.

﴿المؤمن﴾: مأخوذ من ﴿آمن﴾ بمعنى: أعطى الأمان لعباده، فلا يظلم منهم أحدًا. انظر الآية (٤) من سورة قريش صفحة ٨٢٣ .

والمراد هنا: أنه سبحانه لا يظلم أحدا من عباده مثقال ذرة.

﴿المهيمن﴾: أى صاحب السلطان الرقيب على ما عداه، انظر الآية (٤٨) من سورة المائدة صفحة ١٤٦ .

﴿العزيز﴾: أى الغالب الذى لا يغلب.

﴿الجبار﴾: أى الذى يخضع لعظمة قدرته كل شىء.

﴿المتكبر﴾: المراد: المترفع عن كل نقص، المستعلى على كل ما عداه بحق.

المعنى: بعدما ضرب سبحانه - لتقرير المنافقين باليهود - مثل الشيطان الذى يغرى الإنسان بالكفر، ثم يتبرأ منه. ذكر نتيجة ذلك بقوله تعالى: (فكان عاقبتهما)... إلخ. أى فكان عاقبة المضلل والضال الخلود فى نار جهنم.

وهذا جزاء كل مَنْ يظلم نفسه بالكفر: كاليهود والمنافقين.

ثم نصح سبحانه المؤمنين بما ينفعهم فى الدارين حتى لا يكونوا مثل هؤلاء الخاسرين فقال تعالى: يا أيها الذين آمنوا... إلخ.

أى يا أيها الذين امنوا اتقوا اللّه فيما أمركم به، فلا تهملوه، ويجب أن يتساءل كل منكم: ما الذى قدمه لنفسه من الخيرات لتنفعه يوم القيامة؟ واتقوا اللّه فيما نهاكم عنه، فلا تفعلوا منه شيئًا؛ لأنه سبحانه خبير بكل ما تعملون من كبيرة وصغيرة، وسيحاسبكم عليه.

ولا تكونوا كالذين شغلتهم الدنيا فنسوا حق اللّه فتركوا أوامره، ولم ينتهوا عن معاصيه، فعاقبهم اللّه بأن أنساهم حق أنفسهم، فلم يقدموا لها شيئًا ينفعها ـ هؤلاء هم الخارجون عن طاعة اللّه فهلكوا.

ثم قارن سبحانه بين المحسنين والمسيئين حثًا على الإحسان فقال تعالى: (لا يستوى أصحاب النار).. إلخ. أى لا يستوى فى حكم اللّه وعدله مَنْ يعمل بعمل أهل النار ومَنْ يعمل بعمل أهل الجنة.

ثم بيَّن نتيجة عدم الاستواء فقال سبحانه: أصحاب الجنة هم الفائزون بكل ما يحبون.

ثم وبخ سبحانه الكفار على عدم تيقظهم لما فى القرآن من العبر التى تهز القلوب هزا فقال تعالى: لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية اللّه.

وهذه الأمثال المذكورة فى القرآن نضربها ونوضحها للناس ليتفكروا فيما حوته، فيعرفوا مواطن الخطر ومواطن الأمان.

وبعدما بيَّن سبحانه عظم القرآن وما حواه، أكد ذلك ببيان أنه من كلام الإله الحق صاحب الصفات الجليلة فقال عز وجل: هو اللّه الذى لا إله إلا هو الملك.. إلخ. أى هو وحده المتصرف فى كل شىء، شديد التنزه عما يقوله المبطلون... إلخ.

ٱلْخَٰلِقُ(١) ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ
لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ(٢) وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

(٦٠) سُورَةُ الْمُمْتَحِنَةِ مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟(٣) لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ
تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ
يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ
خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا(٤) فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم
بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ
مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟

المفردات: ﴿الخالق﴾: يطلق الخالق فى لغة العرب على معنيين: الأول بمعنى المنشئ، والثانى بمعنى المقدر للأشياء على مقتضى ما يريد من الحكمة وما هنا من الثانى، انظر الآية (١٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦.

﴿البارئ﴾: أى الموجد للأشياء؛ فهو بمعنى الخالق بالمعنى الأول.

﴿المصور﴾: أى المشكل للموجود فى آخر مراحله بالصورة التى قدرها له، انظر الآية (٦) من سورة آل عمران صفحة ٦٣ والآية (١١) من سورة الأعراف صفحة ١٩٣.

﴿الحسنى﴾: مؤنث الأحسن، لأنها تدل على معان فى منتهى الحسن: من تحميد، وتقديس، إلى غير ذلك.

المعنى: هو الله سبحانه وتعالى المقدر للأشياء فى الأزل، الموجد لها حسب ما قدر، المشكلها على هيئات مختلفة تتميز بها. له الأسماء الحسنى. يسبح له ما فى السموات والأرض وهو سبحانه العزيز الحكيم.

سورة الممتحنة

المفردات: اللائق أن تكتب (الممتَحَنَة) بثلاث فتحات للتاء والحاء والنون؛ لأنه هو المناسب لآية (١٠) من هذه السورة صفحتى ٧٣٦، ٧٣٧.

---

(١) الخالق.
(٢) السموات.
(٣) آمنوا.
(٤) جهادا.

﴿لا تتخذوا﴾.. إلخ: انظر الآية (٢٨) من سورة آل عمران صفحة ٦٧ والآية (١١٨) من سورة آل عمران أيضًا صفحة ٨٢، والآية (٥٧) من سورة المائدة صفحة ١٤٨.

﴿عدوى﴾: يطلق العدو على الواحد والكثير.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿إن هذا عدو لك ولزوجك﴾: الآية (١١٧) من سورة طه صفحة ٤١٧.

ومن الثانى قوله تعالى: ﴿وهم لكم عدو﴾ الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨.

﴿تلقون إليهم بالمودة﴾: الباء تدل على أن ما بعدها سبب لما قبلها والمعنى: تلقون إليهم أسرار المسلمين بسبب ما بينكم وبينهم من مودة، انظر الآية (٢٢) من سورة المجادلة صفحتى ٧٢٨، ٧٢٩. وقال بعضهم المعنى: لا توصلوا إليهم المودة والباء كالباء فى ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ الآية (١٩٥) من سورة البقرة صفحة ٣٨.

﴿يخرجون الرسول﴾: انظر شرح الآية (٤٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٧.

﴿أن تؤمنوا﴾: أى لأجل كراهتهم إيمانكم، انظر الآية (٤٠) من سورة الحج صفحة ٤٣٩.

﴿إن كنتم خرجتم﴾: هذا شرط، جوابه. ﴿لا تتخذوا عدوى﴾ المتقدمة، ونظير ما هنا ما فى الآية (٣٥) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧ مع الآية (١١١) من نفس السورة صفحة ١٨١.

﴿ابتغاء﴾: أى طلب.

﴿مرضاتى﴾: أى رضائى.

﴿سواء السبيل﴾: أى الطريق المستوى وهو الطريق الحق البعيد عن العقبات، انظر الآية (١٠٨) من سورة البقرة صفحة (٢١).

﴿يثقفوكم﴾: المراد: يظفروا بكم، انظر الآية (١٩١) من سورة البقرة صفحة ٣٧، والآية(٥٧) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٥.

المعنى: نزلت هذه السورة فى ما حصل من حاطب بن أبى بلتعة (بفتح الباء وسكون اللام، وفتح التاء) وهو من المهاجرين، عندما جاءت سارة، وهى امرأة فقيرة من مكة تنشد نفقة،

فعندما أرادت الرجوع إلى مكة لقيها حاطب وأعطاها عشرة دنانير، أجر توصيل كتاب لكفار قريش وكان فى هذا الكتاب (من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة. إن رسول الله ﷺ يريد غزوكم فخذوا حذركم) فأخبر جبريل رسول الله بذلك فأرسل ﷺ عليا وعمارا وجماعة من المسلمين ليلحقوا بها فيأخذوا الكتاب قبل أن يصل إلى أيدى كفار قريش، فلما لحقوا بها واستردوا منها الكتاب، طلب رسول الله ﷺ حاطبا وسأله: ما حملك على ذلك؟ فقال: يارسول الله، والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكنى كنت رجلاً غريبًا فى قريش، ولى أهل بينهم أخشى عليهم منهم، وغيرى لهم قرابات أقوياء يحمون بها أولادهم وأموالهم فأحببت أن أقدم لقريش يدا أحمى بها قرابتى مع علمى بأن الله تعالى سينزل بهم عذابه وأن كتابى لا يغنى عنهم شيئًا؛ فصدقه الرسول وقبل عذره لأنه ممَن شهدوا بدرًا.

ونزل فى ذلك: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء. أى أنصارا موالين، ثم فسر هذه الموالاة بقوله: تلقون إليهم بالمودة. أى تبلغونهم أسرار المسلمين بسبب ما تظهرونه لهم من المودة.

ثم ذكر سبحانه شيئين يمنعان هذه المودة:

- الأول كفرهم بالقرآن.

- والثانى تسببهم فى إخراج الرسول، وإخراجكم أيها المؤمنون من مكة، لا لشىء إلا لأنكم تؤمنون بالله والرسول.

ثم زاد من تحريضهم على المقاطعة بقوله: (إن كنتم خرجتم).. إلخ. أى إن كنتم خرجتم للجهاد فى سبيلى وطلب رضائى، فلا توالوا أعدائى وأعدائكم الذين أخرجوكم من دياركم. ثم خوف من مودتهم فقال: (تسرون).. إلخ. أى تبلغون المشركين خفية أسرار المؤمنين بسبب المودة التى تريدون عقدها بينكم وبينهم. وأنا يستوى فى علمى ما تخفون وما تعلنون، ثم هددهم فقال: (ومَنْ يفعله).. إلخ. أى ومن يفعل هذه الموالاة، ويبلغ أخبار الرسول لأعدائه، فقد ضل الطريق المستقيم، ومآله جهنم. ثم ذكر بعض ما يحمل على عدم الموالاة فقال: (إن يثقفوكم).. إلخ. أى إن يتمكن منكم هؤلاء الكفار يكونوا لكم أعداءً..

لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ
وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا
أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ
مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ
وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ
لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ
رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾
رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ
أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ

المفردات: ﴿يبسطوا﴾: أي يمدوا.

﴿بالسوء﴾: المراد به ما يسوء مما يحصل باليد: كالقتل والضرب، أو باللسان: كالشتم والسب.

﴿ودوا﴾: أي تمنوا.

﴿لو تكفرون﴾: (لو) حرف يجعل ما بعده مصدرًا. أي كفركم.

﴿أرحامكم﴾: أي أقاربكم الذين يجمعكم وإياهم رحم قريب.

﴿يفصل بينكم﴾: أي يفرق الله بينكم وبينهم يوم القيامة فيأتي كل فرد أمام الله منفردًا، فلن ينفع أحد أحدًا شيئًا، انظر الآية (٩٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨، والآية (٩٥) من سورة مريم صفحة ٤٠٥، والآية (٣٤) وما بعدها من سورة عبس صفحة ٧٩٣.

﴿أسوة﴾: أي قدوة.

﴿والذين معه﴾: نقل الألوسى والطبرى وغيره أن المراد من (الذين معه) هم الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم عليه السلام، وتبرءوا من أقوامهم الذين عبدوا غير الله ويكون المعنى: لكم أيها النبى وأمتك أسوة فى إبراهيم والأنبياء فى أن تتبرءوا من كل ما عبد من دون الله؛ لأن

(١) أولادكم.
(٢) القيامة.
(٣) إبراهيم.
(٤) براء.
(٥) العداوة.
(٦) إبراهيم.
(٧) يرجو.
(٨) الآخر.

إبراهيم عليه السلام خرج من العراق ولم يكن معه أحد مؤمن سوى زوجته سارة ولوط وبناته. انظر الآية (٢٦) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٤. والآية (٨٣) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٢. والآية (٣٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٤.

﴿برآء﴾: جمع برىء. بوزن ظريف وظرفاء.

﴿كفرنا بكم﴾: المراد: أنكرنا تصرفكم وقاطعناكم.

﴿بدا﴾: أى ظهر. ﴿العداوة﴾: المراد: المعاداة الفعلية بأن يحارب كل منا الآخر.

﴿البغضاء﴾: هى الكره القلبى.

﴿إلا قول إبراهيم﴾: (إلا) بمعنى (لكن) وهى تفيد الاستثناء المنقطع من (أسوة حسنة).

﴿لأبيه﴾: آزر. انظر الآية (٧٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٤.

﴿من شىء﴾: (من) تفيد النص على عموم نفى ما بعدها.

﴿أنبنا﴾: أى رجعنا بالتوبة، والعمل الصالح.

﴿لا تجعلنا فتنة﴾.. إلخ: أصل الفتنة الاختبار، وأريد بها هنا: المفتتن به، أى لا تجعلنا سبب فتنة للكافرين بأن نقع فى معصية فيزداد ضلالهم تقليداً لنا.

والمؤمن الصادق يطلب من ربه أن يكون إماما فى الخير فقط، كما فى الآية (٨٥) من سورة يونس صفحة ٢٧٩، والآية (٧٤) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨.

﴿يرجو الله واليوم الآخر﴾: أى يرجو رضاء الله وثواب الآخرة.

المعنى: أن يظفروا بكم يظهروا لكم العداوة، ويمدوا إليكم أيديهم بالقتل والضرب، وألسنتهم بالسب والشتم. وتمنوا كفركم. ثم ذكر أن ما جعلوه سببا لمودة الأهل لا يجوز أن يقدم على مصلحة الدين، فقال: لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم الذين توالون المشركين لأجلهم. فى دفع شىء من العذاب عنكم يوم القيامة إن عصيتم الله.

ثم بيَّن السبب فى عدم هذا النفع بقوله: يفصل بينكم. أى يوم القيامة يفرق بينكم وبين أهليكم وأولادكم المشركين، فلا ينفع أحدكم الآخر. ثم هدد بقوله: والله بما تعملون بصير. أى سيجازيكم عليه خيرًا أو شرًا.

ثم أكد ما تقدم من عدم مولاة الكافرين بأمرهم بالاقتداء بأبيهم إبراهيم. فقال: (قد كانت لكم أسوة).. إلخ. أى قد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة فى إبراهيم عليه السلام وفيمن معه من المؤمنين حين قالوا لقومهم الكافرين: إنا أبرياء منكم ومما تعبدون من دون الله.

ثم بيَّن نتيجة هذه البراءة بقوله: كفرنا بكم. أى جحدنا ما بيننا وبينكم من المودة، وبرزت بيننا وبينكم العداوة، ولو استطعنا قتالكم لقاتلناكم. وكرهناكم، فلا محبة بيننا وبينكم أبدا إلى أن تؤمنوا بالله وحده. فإن آمنتم تصافينا.

ثم استثنى من القدوة المأمور بها وعد إبراهيم لأبيه بالاستغفار فقال: إلا قول إبراهيم لأبيه.. إلخ. انظر الآية (٤٧) من سورة مريم صفحتى ٤٠٠، ٤٠١. أى لكن ليس لكم أن تجاملوهم وتظهروا لهم الرأفة كما فعل إبراهيم عليه السلام؛ لأنه لم يكن قد تبين له حال أبيه كما تبين لكم حال أهلكم، ولذلك رجع عنه إبراهيم عليه السلام، وأعرض عن نصحه. انظر الآية (١١٣) من سورة التوبة صفحة ٢٦١. وقال إبراهيم لأبيه بعد الاستغفار: وما أملك.. أى ليس فى وسعى أن أنفعك بأكثر من الاستغفار.

وقال إبراهيم ومن معه: ربنا اعتمدنا عليك، ورجعنا بالتوبة إلى ما تحب، ونقر بأن مرجعنا يوم القيامة إليك. وقالوا أيضًا: يا ربنا لا تجعلنا سبب فتنة للذين كفروا. أى باعد بيننا وبين معصيتك حتى لا يتبعنا الكفار فى العصيان، واغفر لنا ما قد يقع منا من الهفوات. إنك أنت الغالب الذى لا يغلب، الحكيم فيما يفعل. ثم رغب سبحانه فى الاقتداء بإبراهيم بصورة أخرى فقال: (لقد كان لكم)... إلخ. أى لقد كان لكم يا أمة محمد قدوة حسنة فى إبراهيم ومن معه، هذه القدوة نافعة لمَنْ كان يرجو ثواب الله والنجاة فى اليوم الآخر. ومَنْ يعرض عن أوامر الله والاقتداء بخليله صلوات الله عليه، فلن يضر إلا نفسه، والله تعالى أعلم.

فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ
فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ
إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ
ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ
وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ
ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ
فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ
لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ

المفردات: ﴿عسى الله﴾.. إلخ: ينبغى أن يوجد عندكم رجاء من الله يجعل بينكم وبين كفار مكة مودة، بأن يهديهم للإيمان.

﴿عن الذين لم يقاتلوكم﴾: المراد: عن بر الذين لم يقاتلوكم.. إلخ، كما سيأتى.

﴿أن تبروهم﴾: أى عن برهم، فهو بدل من (الذين) المتقدم، والبر هو فعل كل خير فيه إدخال السرور على الغير، ولو بالكلمة الطيبة. انظر الآية (٢٦٣) من سورة البقرة صفحة ٥٦، والآية (٢٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨.

﴿وتقسطوا إليهم﴾: المراد: تقدموا إليهم قسطا من أموالكم على سبيل البر بهم، فهو من عطف الخاص على العام. وليس المراد بالقسط هنا العدل؛ لأن العدل واجب مع الصديق والعدو، انظر الآية (٨) من سورة المائدة صفحة ١٣٧.

﴿قاتلوكم فى الدين﴾: (فى) حرف يدل على أن ما بعده سبب فى حصول ما قبله، أى بسبب تمسككم بدينكم. انظر (فى) فى الآية (٦٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٧ والآية (١٤) من سورة النور صفحتى ٤٥٨، ٤٥٩.

﴿ظاهروا﴾: أى عاونوا. انظر الآية (٤) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢.

﴿تولوهم﴾: أى توالوهم؛ والمراد أن تعقدوا بينكم وبينهم موالاة.

---

(١) ينهاكم. (٢) يقاتلوكم. (٣) دياركم.
(٤) ينهاكم. (٥) قاتلوكم. (٦) دياركم.
(٧) ظاهروا. (٨) الظالمون. (٩) آمنوا.
(١٠) المؤمنات. (١١) مهاجرات. (١٢) بإيمانهن.
(١٣) مؤمنات. (١٤) آتوهم. (١٥) آتيتموهن.

﴿امتحنوهن﴾: أى اختبروهن بما يفيدكم ظنًا غالبًا أن ما فى قلوبهن موافق لما فى ألسنتهن. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحلفهن بالله مرارًا أنهن ما هاجرن إلا رغبة فى الإسلام، لا لغرض آخر.

﴿الله أعلم بإيمانهن﴾: المقصود بهذه الجملة بيان عذرهم فى الاكتفاء بغلبة الظن. إذ حقيقة ما فى القلب لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

﴿فإن علمتموهن﴾: أى ظننتم ظنًا قويًا غالبًا كما تقدم.﴿إلى الكفار﴾: المراد: إلى أزواجهن الكفار.

﴿لاهن حل لهم﴾.. إلخ: (حل) أى حلال، أى أصبحن محرمات عليهم الآن.

﴿ولاهم يحلون لهن﴾: أى فى المستقبل، ماداموا مشركين. وكان ذلك بعد أن أبطل الله زواج المشرك بالمؤمنة الذى كان موجودًا بمكة قبل الهجرة، وكان منه زواج زينب بنت الرسول ﷺ من ابن خالتها العاص بن الربيع وكان مشركًا ولما أسر ببدر أطلقه ﷺ على أن يرسل زينب إلى المدينة، وقد جاء بعد ذلك مسلمًا، فرد ﷺ إلى العاص زينب بعقد جديد.

﴿آتوهم ما أنفقوا﴾: هذا خطاب لأولياء أمور المؤمنين أى أعطوا الأزواج الكفار ما دفعوا من الصداق إذا طلبوا ذلك.

﴿ولا جناح﴾:أى لا حرج فى زواجهن، وإن لم يطلقهن أزواجهن الكفار، لانفساخ العقد بمجرد إسلامهن، دون أزواجهن.

﴿أجورهن﴾: أى مهورهن.

المعنى: لما نزل النهى عن موالاة الكفار فى أول السورة تشدد المسلمون فى معاداة أقربائهم من كفار مكة فقاطعوهم حتى إن (قُتَيلة) - بضم ففتح - بنت عبد العزى، وكانت امرأة أبى بكر الصديق، وطلقها فى الجاهلية وله منها ابنته (أسماء) رضي الله عنها. ولما جاءت قُتَيلة المدينة لزيارة ابنتها أسماء، ولتقدم إليها هدية رفضت أسماء أن تقبل هديتها، أو تدخلها بيتها. لما حصل كل هذا - أراد سبحانه أن يستثنى من الذين تجب عداوتهم مَنْ لا دخل له فيها، فإنه يصح برهم وإن لم تجز موالاتهم، وليوجد عند المؤمنين أملاً فى إيمان أقربائهم من كفار مكة، وقد آمنوا فعلاً بعد الفتح فقال تعالى: عسى الله أن يجعل بينكم أيها المسلمون

وبين الذين عاديتم من كفار مكة مودة، بأن يوفقهم للإيمان فيصيروا لكم أولياء، والله قدير على ذلك وعلى ما هو أصعب منه. والله غفور لهم ما سلف، رحيم بعباده فيقبل توبتهم - ثم فصل النهى السابق فقال تعالى: (لا ينهاكم الله).. إلخ. أى لا ينهاكم الله تعالى عن بر من لم يقاتلوكم من الكفار لأجل تدينكم بالإسلام، ولم يتسببوا فى إخراجكم من دياركم، لا ينهاكم عن برهم بجميع أنواع البر، من فعل أو قول، خصوصًا تقديم جزء من أموالكم إليهم. إن الله يحب من يعطى بعض ماله صلة لرحمه. إنما ينهاكم الله عن موالاة الذين قاتلوكم من صناديد كفار مكة لأجل دينكم، وتسببوا فى إخراجكم من دياركم، وكذا من أعانوهم من الأتباع على إخراجكم. هؤلاء نهاكم الله عن موالاتهم، ومن يوالهم فأولئك هم الظالمون، لوضعهم الموالاة فى غير موضعها. ولما كان من شروط صلح الحديبية الذى تقدمت الإشارة إليه فى أول سورة الفتح صفحة ٦٧٨ أن من جاء من المشركين مسلما رده ﷺ إلى مكة. وجاء بعد ذلك بعض نساء مكة إلى المدينة مسلمات. وتردد المسلمون فى تنفيذ شروط الصلح: هل ينطبق على النساء كالرجال أم لا ينطبق عليهن؛ لأن المرأة إذا أسلمت انقطعت العصمة بينها وبين زوجها المشرك، وبهذا يتعذر ردهن إليهم. عند ذلك نزل قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن) بما تعرفون به إيمانهن بقدر طاقتكم؛ لأن حقيقة ما فى القلوب لا يعلمها إلا الله، فإن غلب على ظنكم أنهن صادقات فى دعوى الإيمان، فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار؛ لأنهن أصبحن محرمات عليهم فى تلك الحالة وفى المستقبل، إلا إذا أسلم أزواجهن قبل انقضاء عدتهن. ولما كان صلح الحديبية يقتضى إرجاع كل من يؤمن إلى مكة، وبنزول هذه الآية امتنع هذا الرد، وأصبح الإرجاع خاص بالرجال فقط لأن المرأة ضعيفة ولا تستطيع أن تقيم بين قوم مشركين لا يحل أن تتزوج منهم من يحميها وينفق عليها. أراد سبحانه أن يعوض المشركين شيئًا عن عدم تنفيذ هذا الشرط، فأمر أولى الأمر أن يدفعوا من بيت المال للأزواج ما ضاع عليهم من الصداق. وذلك تمام الإنصاف والعدل. ولا حرج عليكم أيها المسلمون أن تتزوجوا هؤلاء المهاجرات ولو لم يطلقهن أزواجهن الكفار مع مراعاة شروط الزواج المعروفة من انقضاء العدة وغير ذلك. فإن إسلامهن قطع العصمة بينهما، بشرط أن تؤتوهن مهورهن، ولا تكتفوا بما دفعه ولى الأمر لأزواجهن من بيت المال. وذلك لأن المصلحة ألا تترك امرأة بلا عائل مِمَّنْ هى بينهم من المؤمنين يتكفل بالإنفاق عليها.

وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا[1] مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا[2]
مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ[3] إِلَى الْكُفَّارِ
فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا[4] الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم[5] مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا
جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ[6] يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْـًٔا
وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ[7] وَلَا يَأْتِينَ
بِبُهْتَانٍ[8] يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ
فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا[9] لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ[10] كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ
أَصْحَابِ[11] الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

المفردات : ﴿عصم﴾ : جمع عصمة، وهى هنا عقد الزواج. ﴿الكوافر﴾: جمع كافرة، هذا الحكم هو الأصل وهو أنه لا يجوز للمؤمن أن يتزوج غير المؤمنة مطلقا لكن الآية (٥) من سورة المائدة صفحة ١٣٦ أخرجت من الكافرات المنهى عن زواجهن الكتابيات؛ لأن لهن شرائع فيرجى لهن الهداية إلى الصواب. ﴿واسألوا ما أنفقتم.. إلخ﴾: أى أطلبوا من الكفار ما أنفقتم من المهور للنساء اللاتى كفرن ورجعن إليهم بمكة كما أنهم يسألون ما أنفقوا لمن جاءتكم مؤمنة.

﴿وإن فاتكم شىء﴾.. إلخ : المراد : وإن ذهب بعض أزواجكم مرتدات إلى الكفار بمكة ولم يدفعوا لكم مادفعتموه فى صداقهن. ﴿فعاقبتم﴾: أى أصبتم الكفار بعقوبة، والمراد: هزمتموهم فى حرب، وغنمتم منهم أموالاً.

﴿فآتوا الذين ذهبت﴾.. إلخ : المراد : فأعطوا يا رؤساء المؤمنين من الغنائم التى أخذتموها من كفرت زوجته ما كان دفعه صداقًا لها. ﴿واتقوا الله﴾ .. إلخ: أى فافعلوا ما أمركم به من العدل وكل ما فيه مصلحتكم. ﴿ببهتان﴾ : أصل البهتان هو الشىء الذى يبهت العقول. أى يحيرها، والمراد به هنا: أى يكذبن نسبته لأزواجهن.

﴿بين أيديهن وأرجلهن﴾ : كناية عن أنه ولدهن من أزواجهن؛ لأن الولد يحمل فى البطن التى هى بين اليدين ويولد بين الرجلين. ﴿فى معروف﴾ : أى أمر عُرف حسنه شرعًا وعقلاً. ﴿يئسوا من الآخرة﴾: أى من خيرها . ﴿كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾: الأصل كما يئسوا من رجوع الموتى إلى الدنيا : فالكفار هم نفس المغضوب عليهم، وإنما عبر عنهم بالوصف الظاهر وهو ﴿الكفار﴾ بدل الضمير لبيان سبب نكبتهم وهو الكفر.

---

(١) اسألوا. (٢) ليسألوا. (٣) أزواجكم. (٤) فآتوا.
(٥) أزواجهم. (٦) المؤمنات. (٧) أولادهن. (٨) ببهتان.
(٩) آمنوا. (١٠) الآخرة. (١١) أصحاب.

المعنى : لا يجوز أن يكون بين المسلم والمشركة رباط زواج، وعلى هذا يجوز لكم أن تتزوجوا المؤمنة أخت الكافرة التى كانت فى عصمتكم وبطل رباط زواجها بسبب بقائها على الشرك، فيجوز لكم عقب فراقها مباشرة العقد على أختها المسلمة، ولا تنتظروا مضى عدة، كما هو الحال فيما إذا كانت المطلقة مسلمة، وحينئذ لا يكون هذا من الجمع بين الأختين المنهى عنه فى الآية (٢٣) من سورة النساء صفحتى ١٠٢ ، ١٠٣؛ لأن الأختين هنا فصل بينهما الإيمان والشرك فكأن كلاً منهما أجنبية عن الأخرى. وأطلبوا من كفار مكة ما دفعتموه من مهور مَنْ ذهبن إليهم من نسائكم، كما لهم الحق أيضًا فى طلب ما أنفقوه من المهور على نسائهم اللاتى هاجرن إليكم وأسلمن . وإنما أعاده ثانيًا لإبراز المساواة فى المعاملة والإنصاف فى كل شىء؛ ذلك المذكور هو حكم الله يحكم به بينكم، فلا تخالفوه، والله عليم بأسرار خلقه ، حكيم ، لا يشرع إلا ما فيه مصلحتهم. وكان المشركون قد امتنعوا عن إعطاء المسلمين مهر مَنْ فرت إليهم من المدينة مرتدة. فأنزل الله سبحانه وتعالى : وإن فاتكم شىء... إلخ. أى وإن ذهب بعض أزواجكم مرتدات إلى الكفار ولم يعطوكم المهور التى دفعت لهن، ثم غلبتم المشركين فى موقعة وأخذتم منهم غنائم، فأعطوا الذين ذهبت أزواجهم من هذه الغنائم قدر ما دفعوا من المهور للنساء الفارات إلى المشركين الذين بينكم وبينهم عهد. واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون، فإن الإيمان به يقتضى الخوف من عصيانه، فلا تتعدوا أحكامه التى شرعها لكم. وكان صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة سنة ثمانية هجرية، اجتمعت النساء لمبايعته على تعاليم الإسلام، فأنزل الله تعالى: يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات قاصدات للمبايعة على أن لا يشركن بالله شيئًا من الشرك ولو قليلاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن كما كان يفعل فى الجاهلية خوف الفقر، انظر الآية (٣١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨، ولا يأتين بولد لقيط ينسبنه إلى الزوج، ولا يعصينك فى أمر معروف شرعيته، فتأمل كيف شرط سبحانه فى طاعته ﷺ أن تكون بمعروف مع أنه لا يأمر إلا به، ولا تغتر بقول جاهل (طاعة ولى الأمر واجبة مطلقًا) فالحق أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، إذا جئن على هذا الشرط فبايعهن، واستغفر لهن الله على ماسبق منهن، فإنه سيغفر لهن، إنه غفور رحيم. ثم ختم سبحانه السورة بما بدأها به لأهميته فقال: يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قومًا غضب الله عليهم، هم الكفار جميعًا؛ لأنهم قد يئسوا من خير الآخرة، أما الكفار فلأنهم ينكرونها، وأما اليهود فقد حملتهم شدة عنادهم له ﷺ على أن يعملوا عمل اليائسين من خيرها كما يئس جميع الكفار من رجوع أصحاب القبور إلى الدنيا، انظر شرح الآية (٩٤) وما بعدها من سورة البقرة صفحتى ١٨ ، ١٩، والله تعالى أعلم .

(٦١) سُورَةُ الصَّفِّ مَدَنِيَّةٌ وَآيَاتُهَا أَرْبَعَ عَشْرَةَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ[1] وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[2] لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا
تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا
تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ[3] فِي سَبِيلِهِۦ
صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ[4] مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ[5] لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ
إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي
ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ[6] ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ[7]

سورة الصف

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿سبح لله﴾.. إلخ: تقدم فى سورة الحديد صفحة ٧١٨.

﴿أكبر﴾: أى عظم شناعة وبشاعة.

﴿مقتًا﴾: المقت: أشد أنواع البغض، والمعنى: عظم كرهًا لكم عند الله قولكم مالا تفعلون.

﴿مرصوص﴾: أصله المتماسك بعضه ببعض بالرصاص، والمراد: متقن كأنه قطعة واحدة.

﴿لِمَ تؤذوننى﴾: انظر شرح الآية (٦٩) من سورة القصص صفحتى ٥١٦، ٥١٧.

﴿زاغوا﴾: أى انحرفوا عن الصواب.

﴿أزاغ الله قلوبهم﴾: أى زادها بعدًا عن الصواب.

المعنى: نزه الله عن كل نقص كل ما فى السموات وما فى الأرض بلسان المقال أو بلسان الحال، وهو سبحانه الغالب الذى لا يغلب، الحكيم الذي لا يفعل عبثًا، وكان بعض شبان المسلمين يقولون: لو دلنا سبحانه على أحب الأعمال إليه لعملناها، فأخبر سبحانه نبيه أن أحب الأعمال إليه.. الإيمان به تعالى وجهاد الكفار. ولمَّا جاء يوم أحد ضعفوا حتى حلت

---

(١) السموات. (٢) آمنوا.
(٣) يقاتلون. (٤) بنيان.
(٥) يا قوم. (٦) الفاسقين.
(٧) يا بنى.

الهزيمة بالمسلمين كما فى شرح الآية (١٢١) وما بعدها من سورة آل عمران صفحة ٨٣؛ فأنزل سبحانه فى ذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا .. إلخ﴾. أى يا أيها الذين آمنوا لأى غرض تقولون ما لا تفعلون؟ فهو توبيخ على عدم فعلهم ما وعدوا به، فهم عملوا ذنبين: ترك فعل الخير، وخلف الوعد. ثم بيَّن شناعة ذلك فقال: ﴿كبر مقتا .. إلخ﴾. أى عظم كرها لكم عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون؛ لأن الوفاء بالوعد فيه ثقة الجماعة بعضها ببعض، وفى هذا كل الخير، وفى نقيضه كل الشر.

وبعدما أنكر عليهم خلف الوعد بين ما يجب أن يسارعوا إليه لأنه يحبه ويرضيه فقال: إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله متساندين مترابطين كأنهم بنيان مرصوص، لا يجد العدو بينهم ثغرة ينفذ منها. وبعدما وبخهم سبحانه على خلف الوعد والجبن عند القتال أراد أن يذكرهم بحال اليهود الذين جبنوا عندما طلب منهم موسى دخول الأرض المقدسة كما فى الآية (٢١) وما بعدها من سورة المائدة صفحة ١٤٠.

وعندما طلب منهم عيسى ما طلب وعصوه، فحل عليهم غضب الله فقال: وإذ قال موسى.. إلخ، أى واذكر لقومك أيها النبى ما حصل حين قال موسى لقومه: يا قوم لأى سبب تؤذوننى بمخالفة أمرى والجبن عند القتال، وأنتم تعلمون حقًا صدق رسالتى إليكم، فلما أصروا على الانحراف عن الصواب عاقبهم الله بزيادة زيغهم وضلالهم؛ لأنه سبحانه لا يهدى القوم المصرين على الفسق، انظر ما قيل فى الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧ والآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، واذكر لهم أيضًا ما حصل حين قال عيسى بن مريم: يا بنى إسرائيل.. إلخ.

المفردات: ﴿يا بنى إسرائيل﴾: لم يقل (يا قوم) كما قال موسى قبل ذلك؛ لأن النسب فى العادة إنما يكون من جهة الأب، وليس لعيسى عليه السلام أب، فضلا عن أن يكون منهم.

﴿مصدقا﴾: انظر الآية (١٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨، والآية (٣٠) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١.

إِسْرَٰٓءِيلَ[1] إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ
مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ[2] وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ
فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ[3] قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى
ٱلْإِسْلَٰمِ[4] ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ[5] ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ
لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ[6] وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْكَٰفِرُونَ[7] ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ
ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[8] هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ[9] تُنجِيكُم مِّنْ
عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ[10]
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ[11] وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ[12]

﴿بين يدى﴾: أى تقدمنى.

﴿اسمه﴾: أى صفته. والعرب يطلقون الاسم على الصفة، انظر الآية (١١) من سورة الحجرات صفحة ٦٨٦، والآية (٢٧) من سورة النجم صفحة ٧٠٢.

﴿أحمد﴾: أى كثير الحمد لربه.

﴿البينات﴾: أى المعجزات المذكورة فى الآية (٤٩) من سورة آل عمران صفحتى (٧٠، ٧١).

﴿مبين﴾: أى ظاهر وواضح؛ انظر معانى مبين فى الآية (١٦٨) من سورة البقرة صفحة ٣٢.

﴿مَنْ أظلم﴾: ﴿مَنْ﴾ اسم استفهام إنكارى يفيد النفى أى: لا أحد أشد ظلما.

﴿أفترى على الله الكذب﴾: أى قال إن له ولدا أو شريكًا أو لم يرسل رسولا كما فى الآية (٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠.

﴿يريدون ليطفئوا﴾: اللام هنا بمعنى (أن) بفتح فسكون، التى تجعل ما بعدها فى قوة مصدر، أى: يريدون إطفاء نور الله. فإذا ذكرت (أن) لا تذكر اللام كما فى الآية (٣٢) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥.

﴿نور الله﴾: المراد به القرآن.

---

(١) إسرائيل. (٢) التوراة. (٣) بالبينات.
(٤) الإسلام. (٥) الظالمين. (٦) بأفواههم.
(٧) الكافرون. (٨) آمنوا. (٩) تجارة.
(١٠) تجاهدون. (١١) بأموالكم. (١٢) جنات.

﴿بأفواههم﴾: أى بقولهم فيه إنه سحر وشعر..إلخ.

﴿بالهدى﴾: المراد به: القرآن البالغ النهاية فى الهداية، حتى أصبح كأنه الهدى نفسه، انظر الآية (١٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٣٥، ٣٦.

﴿دين الحق﴾: من إضافة الموصوف لصفته، فالمراد: الدين الحق، كقولهم مسجد الجامع، أى المسجد الجامع للناس.

﴿ليظهره﴾: أى ليعليه بقوة الحجة وسلامة التعاليم.

﴿هل أدلكم﴾: استفهام أريد به الحث على قبول ما بعده.

﴿تجارة﴾: المراد مقابلة شىء بشىء كالتجارة، انظر الثمن والمثمن فى الآية (١١١) من سورة التوبة صفحة ٢٦١.

﴿تؤمنون﴾: هذا خبر فى معنى الطلب. أى آمنوا وجاهدوا..إلخ. وجاء بالطلب فى صورة الخبر للترغيب فيه حتى كأنهم سارعوا إلى تحصيل المطلوب فصح الإخبار عنه. ﴿أموالكم وأنفسكم﴾: جاء هذا الترتيب على سبيل الترقى من الجهاد بالفاضل إلى الأفضل.

﴿يغفر لكم﴾.. إلخ: جزم الفعل لأنه واقع فى جواب الطلب المفهوم من ﴿تؤمنون﴾ كما تقدم.

المعنى: وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم، حال كونى مصدقا للتوراة التى جاءتكم قبلى على يدى موسى، ومبشرًا برسول يأتى من بعدى، أبرز صفة له أنه كثير الحمد لربه. فلم يصدقوه، وأنكروا رسالته. فلما جاءهم بالمعجزات القاطعة بصدقه، لجوا فى العناد وقالوا: هذا الذى جئت به سحر واضح، ورب قائل يقول: هل فى الإنجيل الذى بأيدى النصارى اليوم ما يدل على هذا الوصف؟ نقول: إنه – مع أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا فى القرآن أنهم بدلوا وغيروا فيه، ومن ذلك أنهم أثبتوا فيه أن المسيح عليه السلام صلبه خصومه، والقرآن يقطع بكذب ذلك – مع كل هذا فقد فلت منهم رغم أنوفهم ما يدل على ما هنا. فقد جاء فى إنجيل يوحنا فى الفصل الخامس عشر ما يأتى: (قال يسوع المسيح: إن – الفارقليط – روح الحق الذى يرسله ربى، يعلمكم كل شىء). وقال فى الفصل المتقدم أيضا: (قال المسيح: مَنْ يحبنى يحفظ كلمتى. و(أبى) أى ربى يحبه. كلمتكم بأنى لست عندكم بمقيم. و(الفارقليط) روح القدس الذى يرسله ربى هو يعلمكم كل شىء، وهو يذكركم كل ما قلت لكم). وقال المسيح أيضًا: (إن خيرا لكم أن أنطلق؛ لأنى إن لم

أذهب لم يأتكم الفارقليط، فإذا جاء يوبخ العالم على الخطيئة. وإن لى كلامًا كثيرا أريد قوله لكم، ولكنكم لا تستطيعون حمله. لكن إذا جاء روح الحق - ذلك الذى يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بكل ما يأتى، ويعرفكم جميع ما للرب).

و(الفارقليط) فى اللغة القديمة لفظ يفيد معنى الحمد، وقد فسره بعض النصارى (بالحماد) بتشديد الميم، وهو الذى يحمد كثيرا. وهذا هو معنى (أحمد) المتقدم. وانظر مع هذا الآية (١٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨. وبعدما ذكر سبحانه وتعالى ما حصل من قوم موسى وقوم عيسى وإنكارهم الآيات الدالة على صدق رسلهم، كما فعل الكفار فى عصر النبى ﷺ أراد أن يبيِّن شناعة جرمهم فقال: ومن أظلم ممن افترى.. إلخ. أى لا أحد أشد ظلما ممن اختلق على الله كذبا وقال إن له ولدا أو شريكا، أو إنه لم يرسل محمدًا رسولا، والحال أن الرسول يدعوه إلى الاستسلام والخضوع لله الواحد القهار. والله لا يهدى القوم الظالمين.

ثم ذكر بعض جرائمهم من الاجتهاد فى محاربة القرآن وتعاليمه فقال متهكما بهم، وساخرا من عقولهم: (يريدون).. إلخ. والمراد: تمثيل حالهم واجتهادهم فى إبطال ما جاء به القرآن بحال من ينفخ الشمس بفمه ليطفئ ضوءها يفعلون ذلك والحال أن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

ثم بيَّن سبحانه ما يؤيد إتمام هذا النور فقال: هو الذى أرسل رسوله.. إلخ. أى بالقرآن الهادى إلى الطريق المستقيم، وبالدين الحق ليعليه بالحجة على كل الديانات، ولو كره المشركون.

وبعدما نهى سبحانه المؤمنين عن أن يكونوا مثل قوم موسى فى التخاذل وعدم القتال، أو قوم عيسى فى العصيان.. رغبهم سبحانه فى الجهاد بالمال والنفس فقال تعالى: يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة رابحة، ثم بيَّنها بقوله: (تؤمنون).. إلخ. أى تضموا إلى إيمانكم القوى الجهاد بأموالكم، بل حتى بأنفسكم التى هى أعز من الأموال.. فى سبيل إعلاء كلمة الله ونصر دينه. ذلك المذكور من ضم الجهاد إلى الإيمان خير لكم مما تبذلونه من الأموال والأنفس؛ لأن ثمرته نعيم دائم، والمال والأنفس عرض زائل، إن كنتم من أهل العلم الصحيح الذى يفرق المرء به بين النافع والضار. فافعلوا ما طلبته منكم، ثم ذكر جواب الأمر وفيه بيان للعوض عن المال والنفس فقال: (يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات).. إلخ.

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ[1] وَمَسَاكِنَ[2] طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ[3] عَدْنٍ
ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ
وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا[4]
كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ[5] مَنْ
أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت[6]
طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ[7] وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ
آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ[8] ﴿١٤﴾

(٦٢) سُورَةُ الْجُمُعَةِ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا إِحْدَىٰ عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ[9] وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ

المفردات: ﴿مساكن طيبة﴾: المراد: قصور ذات بهجة مكونة من غرف فوقها غرف. انظر الآية (٢٠) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٨، ٦٠٩.

﴿عدن﴾: أصل العدن الإقامة، والمراد جنات خلود.

﴿وأخرى تحبونها﴾.. إلخ: أى ولكم عند ربكم مثوبة أخرى. هى نصر من الله.. إلخ. لأنها تشفى صدوركم مما عانته من كيد الكافرين.

﴿وبشر المؤمنين﴾: معطوفة على فعل مقدر قبل ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ المتقدمة فى الآية (١٠)، والأصل: قل أيها النبى يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة.. إلخ.

وبشر المؤمنين بهذا النصر المحقق والفتح المبين: انظر الآية (٥١) من سورة غافر صفحة ٦٢٤. والآية (٢١) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٨.

﴿كونوا أنصار الله﴾.. إلخ: أى كونوا أنصار دين الله، كما كان الحواريون أنصار دين الله عندما قال لهم نبيهم عيسى: مَنْ يكون جندا لى متوجهًا معى إلى نصرة دين الله؟ قال الحواريون: نحن أنصار دين الله معك.

﴿الحواريون﴾: جمع حوارىّ بتشديد الياء، وهم صفوة أتباع المسيح. انظر الآية (٥٢) من سورة آل عمران صفحة ٧١.

(١) الأنهار. (٢) مساكن. (٣) جنات.
(٤) آمنوا. (٥) للحواريين. (٦) فآمنت.
(٧) إسرائيل. (٨) ظاهرين. (٩) السموات.

﴿ظاهرين﴾: أي غالبين.

﴿يسبح لله﴾: ينزهه سبحانه عما لا يليق به، انظر الآية (١) من سورة الحديد صفحة ٧١٨.

﴿الملك القدوس﴾: أي المنزه كثيرًا عما يقول الكافرون، انظر شرح الآية (٢٣) من سورة الحشر صفحة ٧٢٣.

المعنى: ويدخلكم ربكم جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار. ومساكن طيبة فى جنات عدن. ذلك النعيم هو الفوز العظيم. ولكم عند ربكم - فوق ما ذكر من النعيم - نعمة أخرى تحبونها: لأنها تشفى صدوركم مما عانيتموه من كيد الكفار. تلك النعمة هى نصر من الله تعالى لكم على أعدائكم. وفتح قريب لم يعهد له مثيل فى التاريخ، إذ لم يستقر وينتشر مبدأ أو دين فى مثل هذا الوقت القليل. وبشر أيها النبى المؤمنين بذلك.

وهذه إشارة منه سبحانه وتعالى إلى أنه لابد من تحقق هذا النصر. وقد حصل. ثم أرشد سبحانه أتباع رسوله، بأن يكونوا كلهم أنصار له، وألا يتفرقوا كما تفرقت أمة عيسى، فيحل بهم ما حل بمَنْ عصى منهم. فقال: يأيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد، كونوا أنصار دين الله كما كان الحواريون أنصار دينه حين قال لهم عيسى: (من يكون جندا لى متوجهًا معى إلى نصرة دين الله؟) قال الحواريون: نحن جميعًا أنصار دين الله معك. وتخاذل آخرون. وبذلك آمنت طائفة من بنى إسرائيل بعيسى، وقالوا إنه عبدالله ورسوله. وكفرت طائفة به وهم اليهود. فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فصاروا غالبين بالكثرة والقوة.

﴿سورة الجمعة﴾

ينادى بتنزيه الله عن كل ما لا يليق. كل ما فى السموات وما فى الأرض؛ لأنه المتصرف وحده فى كل شىء. ولأنه شديد التنزه عن كل نقص.

ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ[1] رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ[2] وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ[3]
وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ[4] مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ[5]
مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ
فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾
مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ[6] ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ
أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ[7] ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ[8] ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟
إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟
ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ[9] ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ[10] ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ
ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ[11] ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ[12] ٱلْغَيْبِ

المفردات: ﴿العزيز الحكيم﴾: تقدم فى صفحة ٧١٨.

﴿فى الأميين﴾: جمع أمى. وهو الذى لايكتب والمراد من بينهم، وقال سبحانه فى الأميين ولم يقل للأميين؛ لأن المراد هنا أنه سبحانه أرسله من بينهم، ولو قال للأميين لكان رسولا لهم فقط مع أنه مرسل للناس كافة بأدلة أخرى كثيرة، انظر الآيات (١٩) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٤، ١٦٥ و(١٥٨) من سورة الأعراف صفحة ١٥٨ و(٢٨) من سورة سبأ صفحة ٥٦٦.

﴿منهم﴾: المراد منهم نسبًا أى من عصبتهم وليس من بينهم فقط؛ لأنه قد يكون من بينهم وليس من عصبتهم كلوط عليه السلام، انظر الآية (١٣) من سورة ق صفحة ٦٨٩، والمراد: لفت نظر العرب إلى أنهم يعرفون أمانته وصدقه فكان يجب أن يكونوا أول الناس إيمانا به، انظر الآية (١٦) من سورة يونس صفحة ٢٦٨. ثم كونه منهم نسبًا، كان أدعى لهم أن يفخروا به على اليهود لا أن يحاربوه، انظر الآية (١٢٨) من سورة التوبة صفحة ٢٦٤، ففى الكلام حث للعرب على المسارعة إلى الإيمان بهذا الرسول الذى جاءهم بما فيه شرفهم فهو نظير ما فى الآية (١٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١، والآية (٤٤) من سورة الزخرف صفحة ٦٥١. ﴿آياته﴾: أى آيات القرآن. انظر الآية (١) من سورة النمل صفحة ٤٩٤. ﴿يزكيهم﴾: أى يطهرهم من خبائث العقائد والأعمال.

---

(١) الأميين. (٢) آياته. (٣) الكتاب.
(٤) ضلال. (٥) آخرين. (٦) التوراة.
(٧) بآيات. (٨) الظالمين. (٩) صادقين.
(١٠) بالظالمين. (١١) ملاقيكم. (١٢) عالم.

﴿الكتاب﴾: يطلق الكتاب عند العرب على معان منها:

١- الكلام الذى يصح أن يكتب ولو قبل كتابته كما فى الآية (٣) من سورة آل عمران صفحتى ٦٣، ٦٤، والآية (٢٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٤.

٢- المكتوب فى الصحف كما فى الآية (٧) من سورة الأنعام صفحة ١٦٣، والآية (٩٤) من سورة يونس صفحة (٢٨١) والآية (٢) من سورة الطور صفحة ٦٩٦، والآية (٧) من سورة المطففين صفحة ٧٩٧.

٣ - الصحف وما كتب فيها كما فى الآية (١٥٣) من سورة النساء صفحة ١٢٩، والآية (١٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦، والآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨، والآية (٢٩) من سورة النمل صفحة ٤٩٧.

٤ - المحتم المقضى به قضاءً أزليًا كما فى الآية (٦٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٧، والآية (٣٨) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨، والآية (٤) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨.

٥- المحتم المفروض شرعًا كما فى الآية (٢٣٥) من سورة البقرة صفحة ٤٨ والآية (٢٤) من سورة النساء صفحة ١٠٣.

٦- اللوح المحفوظ كما فى الآية (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١، والآية (٥٢) من سورة طه صفحة ٤١٠، والآية (٧٠) من سورة الحج صفحة ٤٤٣، والآية (٧٥) من سورة النمل صفحة ٥٠٣، والآية (٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٢.

٧- المصدر، أى الكتابة، وهى ضم الحروف بعضها إلى بعض بالقلم كما هنا، وكما فى الآية (٤٨) من سورة آل عمران صفحة ٧٠. فالمراد هنا بالكتاب تعليم الخط والكتابة ليخرج العرب من الأمية، وقد نبه القرآن إلى ذلك فى أول آية نزلت منه لذلك سارع ﷺ إلى تحقيقه عقب غزوة بدر مباشرة حيث جعل فداء كل أسير يعرف القراءة والكتابة تعليم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة.

﴿الحكمة﴾: العلم الصحيح ومعرفة أسرار الأشياء.

﴿وإن كانوا﴾: الأصل وإنهم كانوا.

﴿وآخرين﴾: أى وبعثه إلى آخرين ممن آمن بعد ذلك إلى يوم القيامة.

﴿منهم﴾: أى من الأميين، وهؤلاء الآخرون هم الذين جاءوا من العرب إلى يوم القيامة وآمنوا به ﷺ بدليل قوله تعالى ﴿لما يلحقوا بهم﴾ فإن (لما) تدل على أنهم سيلحقون بهم فى الإيمان. ﴿لما يلحقوا﴾: (لما) حرف يدل كما ذكرنا على عدم حصول ما بعده إلى زمن التكلم وعلى أنه سيحصل قطعا. ﴿يلحقوا بهم﴾: أى فى الإيمان، والمراد: أنهم لم يلحقوا بهم فى الإيمان إلى الآن ولكن سيلحقون بهم فيما بعد.

﴿ذلك﴾: أى هذا الشىء الرفيع المنزلة، وهو تفضيل الرسول ﷺ وقومه، وجعلهم أئمة فاتحين بعد أن كان العرب أتباعا.

﴿مَثَلُ﴾: أى صفة. ﴿الذين﴾: هم اليهود. ﴿حملوا التوراة﴾: أى عُلّموها وكُلّفوا العمل بها.

﴿لم يحملوها﴾: أى لم يعملوا بها. ﴿أسفارا﴾: جمع سِفر بكسر فسكون، وهو الكتاب الذى يسفر أى يكشف عن حقائق ما فيه. والتنوين للتفخيم ليدل على أنها أسفار كبار.

﴿هادوا﴾ أى صاروا يهودا، انظر الآية (٦٢) من سورة البقرة صفحتى ١٢، ١٣.

﴿أولياء لله﴾: المراد أحباؤه، انظر الآية (١٨) من سورة المائدة صفحتى ١٣٩، ١٤٠.

﴿فتمنوا.. إلخ): تقدم كل ذلك فى الآية (٩٤) وما بعدها من سورة البقرة صفحتى ١٨، ١٩.

﴿بما قدمت أيديهم﴾: متعلق بالنفى المفهوم من (لا) أى انتفى تمنيهم الموت بسبب ما قدموا من الأعمال الخبيثة، انظر تعلق الباء بالنفى فى الآية (٢٩) من سورة الطور صفحة ٦٩٨.

﴿الغيب﴾: هو كل ما غاب عنا.

المعنى: هو سبحانه وحده الذى أرسل إلى العرب الأميين رسولاً من أنفسهم وأميًا مثلهم، ومع ذلك يتلو عليهم آيات كتاب الله. ويطهرهم من أدناس العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة، ويعلمهم الكتابة والقراءة ليمحو عنهم صفة الأمية الدالة على الجهل ليسايروا ركب الحضارة ويعلمهم أيضًا العلم النافع ومعرفة أسرار الأشياء فيستفيدوا، ويفيدوا. ثم أشار إلى سبب شدة احتياجهم إلى من يرشدهم إلى ذلك فقال: وإن كانوا.. إلخ. أى وإنهم كانوا من قبل مجىء هذا

الرسول لفى ضلال ظاهر من الشرك وخبائث الجاهلية. كما بعث رسوله إلى عرب آخرين لم يلحقوا الصحابة فى الإيمان إلى الآن. وسيلحقونهم فيما بعد إلى يوم القيامة، وإنما خص الكلام هنا العرب لما علمت فيما سبق وليوبخ اليهود على دعواهم أنهم شعب الله المختار. وهو سبحانه العزيز القادر الذى لا يعجز عن تمكين رسوله من هذا الأمر الخارق للعادة. الحكيم فى اختيار رسوله. ويعلمه ما لم يكن يعلم. انظر الآية (١١٣) من سورة النساء صفحتى ١٢١، ١٢٢. هذا الفضل الرفيع المنزلة الذى ناله الرسول الأعظم هو فضل الله وحده يؤتيه من يشاء من عباده الذين يعلم صلاحيتهم له، انظر الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣، والله صاحب الفضل العظيم ولما سمع اليهود ذلك قالوا: إن محمدًا لم يبعث إلا للعرب خاصة. أما نحن فلأننا أبناء الله وأحباؤه لا يرسل لنا إلا رسولا منا. ولن نؤمن إلا بما أنزل على رسولنا، انظر الآية (٩١) من سورة البقرة صفحة ١٨ فرد سبحانه عليهم بأنهم لم يفهموا التوراة التى أنزلت عليهم. وفيها أنه سيأتيهم نبى أمى من العرب، انظر الآية (١٥٧) من سورة الأعراف صفحتى ٢١٧، ٢١٨. فمثلهم فى حمل التوراة وعدم الانتفاع بها كمثل الحمار الذى يحمل الكتب الكبار ولا ينتفع بما فيها. بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدق الرسول.

والله لا يهدى كل ظالم لنفسه بالإصرار على العناد. ثم رد على قولهم (نحن أبناء الله وأحباؤه) بأمره له ﷺ أن يقول: يا أيها اليهود إن زعمتم أنكم أحباء الله من دون الناس فتمنوا الموت ليريحكم من دار التعب إلى النعيم الدائم. إن كنتم صادقين فى زعمكم فتمنوا ذلك. وأخبر سبحانه بما سيكون منهم فقال: ولا يتمنونه.. إلخ. أى ويستحيل أن يتمنوه بسبب ما قدمت أيديهم من الكفر والفسوق، فيخافون من عذاب الله. وقال ﷺ: والذى نفسى بيده، لايقولها واحد منهم إلا قُتل بريقه. ولذا لم يجرؤ واحد منهم على هذا التمنى لتيقنهم من صدقه ﷺ، انظر الآية (٤٢) من سورة البقرة صفحة ٩، والآية (٨٩) من سورة البقرة أيضًا صفحة ١٧، والآية (١٤٦) من سورة البقرة كذلك صفحة ٢٨، فهذا كالمباهلة فى الآية (٦١) من سورة آل عمران صفحة ٧٢. والله تعالى عليم بالظالمين فيجازيهم بظلمهم. ثم ملأ قلوبهم حسرة، فأمر نبيه أن يقول لهم: إن هذا الموت الذى تخافون منه هو لاحقكم قطعًا. ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة الذى يستوى فى علمه الغائب والحاضر.. إلخ.

وَالشَّهَٰدَةِ[1] فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟[2] إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ[3] مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ
اللَّهِ وَذَرُوا۟ الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾
فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ[4] فَانتَشِرُوا۟ فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ
اللَّهِ وَاذْكُرُوا۟ اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟
تِجَٰرَةً[5] أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا[6] قُلْ مَا عِندَ
اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَٰرَةِ[7] وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ[8] ﴿١١﴾

(٦٣) سُورَةُ المُنَافِقُونَ مَدَنِيَّة وآيَاتُهَا إحْدَى عَشْرَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ الْمُنَٰفِقُونَ[9] قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ

المفردات: ﴿الشهادة﴾: أصل معنى الشهادة الحضور. والمراد بها هنا الشيء الحاضر المشاهد.

﴿من يوم﴾: (من) بمعنى (فى).

﴿ذكر الله﴾: المراد به هنا: الصلاة، والخطبة لأنه يذكر فيها اسم الله.

﴿ذروا﴾: أى اتركوا.

﴿البيع﴾: المراد المعاملة مطلقًا من بيع وشراء وإجارة وغير ذلك من كل ما يشغل.

﴿انتشروا فى الأرض﴾: أى تفرقوا كما تقدم فى الآية (٢٠) من سورة الروم صفحتى ٥٣٢، ٥٣٣. والآية (٥٣) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٥٨، ٥٥٩.

﴿ابتغوا﴾: أى اطلبوا.

﴿من فضل الله﴾: أى بعض فضل الله مما كان ممنوعًا بعد الآذان وقبل الصلاة.

﴿تجارة﴾: المراد بها هنا: الإبل التى تحمل متاع التجارة قادمة من الشام.

﴿لهوًا﴾: المراد به هنا: الطبل الذى يضربونه عند زفاف العروس أو الإعلان عن قدوم إبل التجارة.

﴿انفضوا إليها﴾: أى انصرفوا عنك إلى التجارة، والأصل: إذا رأوا تجارة انفضوا إليها، أو سمعوا لهوا انفضوا إليه، واكتفى بالأهم فقط.

---

(١) الشهادة. (٢) آمنوا. (٣) للصلاة.
(٤) الصلاة. (٥) تجارة. (٦) قائمًا.
(٧) التجارة. (٨) الرازقين. (٩) المنافقون.

﴿قائما﴾: أى على المنبر للخطبة.

﴿خير الرازقين﴾: انظر المراد من الرازق هنا فى شرح الآية (٥٨) من سورة الحج صفحة ٤٤٢.

﴿نشهد إنك..إلخ﴾: إذا قال العربى: أشهد أن فلانًا حضر مثلاً فإنه يقصد معنى أقسم بالله على أنى صادق فيما أقول.

المعنى: يقول سبحانه ثم تردون أيها اليهود يوم القيامة إلى الله الذى يستوى فى علمه ما خفى وما ظهر. فينبئكم بما كنتم تعملون. ويجازيكم عليه بما تستحقون. وبعد ما عاب على اليهود حرصهم على الدنيا وإغفالهم أمر الآخرة أراد أن يرشد المؤمنين إلى خيرى الدنيا والآخرة. فقال: يأيها الذين آمنوا.. إلخ. أى إذا نادى المؤذن بالإقبال على صلاة الجمعة فاسعوا إليها؛ لأن فيها ذكر الله، واتركوا كل معاملة تشغلكم عنه. ذلك السعى إلى ذكر الله خير لكم من الاشتغال بأمور الدنيا فى هذه الساعة إن كنتم من أرباب العلم النافع تدركون أن طاعته أربح من كل عمل آخر؛ لأن ثمرتها أدوم وأكرم. فإذا قضيتم صلاتكم فاسعوا فى مناكب الأرض. واطلبوا بعض فضل ربكم من كل ما ينفعكم، وداوموا على تذكر الله فى جميع أحوالكم، حتى لا يكون للشيطان عليكم سلطان، فتفوزوا بخيرى الدنيا والآخرة. وقد علمت مما تقدم فى شرح الآية (١) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٤؛ أن العرب كان يغلب عليهم التساهل فى مراعاة النظام والآداب الراقية، فمن هذا ما جاء الحديث عنه هنا من أن بعضهم كانوا إذا رأوا - وهم فى المسجد - قوافل تجارة، أو سمعوا لهو عرس أو غيره خرجوا ينظرون إليه. وقد استخفتهم هذه العادة حتى وهم يستمعون إلى الرسول الأكرم ﷺ وهو يخطب، ظانين أنه ليس فى ذلك حرج ماداموا سيعودون للصلاة، فأدبهم سبحانه بطريق التعريض بهم فقال مخاطبا رسوله ﷺ: وإذا رأوا قوافل تجارة أو مركب لهو انصرفوا إليه وتركوك قائما تخطب، أى وهذا لا يليق خصوصا والخطيب أشرف الخلق ﷺ. قل لهم أيها النبى مرشدا للصواب: ما عند الله من الأجر العظيم لمن تأدب بأدب الإسلام خير من اللهو ومن التجارة. وهو سبحانه خير الرازقين. فإذا احترمتم رسوله وآداب الصلاة فلن يفوت عليكم شىء من الرزق. والله أعلم.

﴿سورة المنافقون﴾

تدور آيات هذه السورة حول ما حصل من عبدالله بن أبى بن سلول كبير المنافقين فى سنة ٦ فى غزوة بنى المصطلق. وهم بطن من قبيلة خزاعة على ما جاء فى البخارى من أن شابا من المهاجرين لطم شابا من الأنصار. فاستغل ذلك ابن سلول كبير المنافقين للوقيعة بين المهاجرين والأنصار فقال لمن حوله: والله ما مثلنا يا معشر الأنصار من المهاجرين إلا كمثل من قال (سمن كلبك يأكلك)، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. وأنتم أيها الأنصار أما والله لو أمسكتم عنهم فضل الطعام لتحولوا من عندكم (أى لتركوا المدينة)، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد. (ويريد بالأعز أهل المدينة وبالأذل المهاجرين). فسمع ذلك زيد بن أرقم فأخذته الدهشة حيث يقول هذا مسلم. وكان أمر ابن سلول لا يزال مجهولاء وكان له موقف كهذا لا يعلمه إلا خاصته فضمه الله إلى ما فضحه به هنا. قال ابن عباس لما رجع عبدالله بن سلول من أحد سنة ٣ بثلث الجيش (كما تقدم فى تفسير صفحة ٨٣) مقته المسلمون وعنفوه، فقال له بعض أقاربه من المؤمنين الصادقين: لو أتيت رسول الله ﷺ يستغفر لك ويرضى عنك. فقال: لا أذهب إليه ولا أريد أن يستغفر لى. وصار يلوى رأسه. ثم قال: قد أشرتم علىَّ بالإيمان فآمنت. وبإعطاء زكاة مالى ففعلت. ولم يبقى إلا أن تأمرونى بالسجود لمحمد. ولكن الله سبحانه أمهله ولم يفضحه حتى تفاقم خطره فكشف ستره فى هذه السورة. وفضحه فى سورة التوبة فضيحة شنيعة عندما تخلف عن غزوة تبوك، انظر صفحة ٢٤٧ وما بعدها. فلما رجع الجيش إلى المدينة أبلغ زيد بن أرقم عمه ما قال ابن سلول. فأخبر به رسول الله ﷺ. فدعا زيد أو سمع منه ما قاله ابن سلول؛ فطلب رسول الله ﷺ ابن سلول فجاءه هو وقوم من أصحابه. فأخبره بما قال زيد. فأقسموا ما حدث من ذلك شيء. فصدقه رسول الله ﷺ وكذب زيدا. يقول زيد فذهبت إلى بيتى ولم أستطع الخروج منه مخافة أن يرانى الناس فيقولوا هذا هو الكذاب. ولم ألبث طويلا حتى أرسل لى رسول الله ﷺ وقال لى: يا زيد إن الله قد صدقك. وتلا من أول هذه السورة إلى ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون..﴾ الآية. (٨).

والمعنى: إذا جاءك المنافقون قائلين بألسنتهم خلاف ما فى قلوبهم. نقر عن علم ويقين.. إلخ.

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ(١)
لَكَٰذِبُونَ(٢) ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ(٣) جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟(٤)
ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾
۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟
تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ
صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ(٥) ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ
يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ
رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم
مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ
تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْفَٰسِقِينَ(٦) ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ

المفردات: ﴿والله يعلم إنك لرسوله.. إلخ﴾: (إنك) بكسر همزة إن لأن ما قبلها متضمن معنى القسم كما فى الآية (٤٢) من سورة التوبة صفحة ٢٤٨، وهذه جملة متوسطة بين ما قالوا وبين تكذيب الله تعالى لهم. أريد بها إظهار العناية بحفظ مقام الرسول الكريم. حيث أبعد بها ما قد يسبق إلى الوهم أول الأمر من أن التكذيب موجه لظاهر قولهم (إنك لرسول الله) فهذه الجملة تحدد موضع التكذيب الآتى فى (لكاذبون) بأنه لما تضمنه كلامهم من موافقة ظاهر كلامهم لما يبطنون.

﴿جنة﴾: أى وقاية كما فى الآية (١٦) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٨.

﴿ذلك﴾: أى ما تقدم من حالهم فى النفاق والكذب والاستتار وراء الأيمان الكاذبة.

﴿آمنوا ثم كفروا.. إلخ﴾: أظهروا الإيمان وسط المؤمنين وإذا خلا لهم الجو مع الكفار أظهروا الكفر، كما هنا، وانظر الآية (٣٧) من سورة النساء صفحة ١٢٦.

﴿فطبع على قلوبهم): الطبع هو الختم المذكور فى الآية من سورة البقرة صفحة ٤. والكلام كناية عن عدم استعدادهم لقبول الإيمان.

﴿لا يفقهون﴾: لا يدركون حقيقة الإيمان ومزاياه.

---

(١) المنافقين.
(٢) لكاذبون.
(٣) أيمانهم.
(٤) آمنوا.
(٥) قاتلهم.
(٦) الفاسقين.

﴿تعجبك أجسامهم﴾: قال ابن عباس: كان عبدالله بن سلول جسيمًا سليمًا، وكان بعض المنافقين مثله.

﴿تسمع لقولهم﴾: أى تعجبك طلاوة أساليبهم لفصاحتهم.

﴿كأنهم خشب مسندة﴾: أي كالخشب المسندة على الحائط أشباح ضخام بلا أرواح ولاعلم ولا تفكير.

﴿يحسبون﴾: أى يظنون.

﴿كل صيحة عليهم﴾: المراد: صيحة أى صوت مرتفع. ولو كان للبحث عن مفقود، أو لإدراك دابة انطلقت مثلا. لخوفهم من ظهور فضائحهم، انظر الآية (٦٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥١..

﴿هم العدو﴾: أى هم أشد أعدائك كأنه لا عدو غيرهم.

﴿قاتلهم الله﴾: قال البيضاوى: ﴿قاتل﴾ هنا مراد بها لعن وطرد، والمراد: لعنهم الله وطردهم من رحمته. (أنى): أى كيف.

﴿يؤفكون﴾: أى يصرفهم الشيطان عن الحق والصواب.

﴿لوّوا رءوسهم﴾: المراد: صرفوا وجوههم عن القائل علامة على الإعراض عن كلامه، وهذه عادة الكافر المصمم على الكفر، انظر الآية (٧) من سورة نوح صفحة ٧٦٨.

﴿يصدون﴾: أى يعرضون عن القائل، ويمنعون أنفسهم عن الاستغفار.

﴿لا تنفقوا﴾: أى يقول زعماء المنافقين لأهل المدينة: لا تنفقوا على فقراء المهاجرين.

المعنى: إذا جاء مجلسك أيها النبى المنافقون مقسمين على أنهم يعتقدون أنك رسول الله. ومع أن الله يعلم إنك لرسوله حقًا فلا تصدقهم؛ لأن الله يعلم أنهم كاذبون فى ادعائهم أن باطنهم يوافق ظاهرهم. والذى جرأهم على هذا الكذب أنهم جعلوا أيمانهم وقاية من كل شر قد يصيبهم من جهة المؤمنين كالقتل ومصادرة الأموال. وبواسطة هذا الاستتار وراء الأيمان الكاذبة أمكنهم أن يصدوا عن دين الله بعض من كان يريد الدخول فيه. إنهم قبح ما استمروا

على ارتكابه من النفاق وتوابعه. هذا الحال الذى هم عليه من الجرائم بسبب أنهم تمرنوا على إظهار الإيمان عند الخوف. ثم إظهار الكفر عند عدمه. انظر صفحتى ٤، ٥. فحيل بين قلوبهم وبين قبول الإيمان. فصاروا لا يدركون حقيقة الإيمان وفوائده.

ثم بيّن سبحانه أن هؤلاء المنافقين يجمعون بين جمال المظهر الذى ضللوا به بعض البسطاء وبين قبح الباطن فقال: وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم.. أى لجمالها وقوتها. وإن يتحدثوا تصغى إلى حديثهم لفصاحتهم وطلاوة أسلوبهم . ولكنهم فى الحقيقة كالخشب المسندة على الجدران. أى أشباح ضخام بلا أرواح ولا علم عندها ولا تفكير ينفع. وهم أيضًا مع هذه الضخامة والفصاحة فى منتهى الجبن. يستولى عليهم الذعر إذا سمعوا أى صوت يظنونه مظاهر فضيحة فضحهم الله بها فتقع عليهم المصائب. انظر الآية (٦٤) من سورة التوبة صفحة ٢٥١. هؤلاء هم أشد أعدائك أيها النبى فاحذر شرهم؛ لأن أنكى الأعداء ما كان بين جنبيك. حقت عليهم لعنة الله وأقصاهم من مجال رحمته. ثم لفت الأنظار إلى التعجب من حالهم فقال: أنى يؤفكون . أى كيف يصرفهم الشيطان عن الحق مع ظهوره إلى ما هم فيه من الكفر والنفاق.

ومن شدة عنادهم التى جرأتهم على الجرائم أنهم إذا قال لهم ناصح : تعالوا نذهب إلى رسول الله نطلب منه أن يستغفر الله لكم ما حصل منكم بعد أن تتوبوا. أظهروا الإعراض. يصدون عن الاستغفار وهم مستكبرون عن الذهاب إليه ﷺ. ثم أراد سبحانه أن يقطع الأمل فى غفران ذنوبهم لأن الفساد أتلف قلوبهم. فقال : سواء .. إلخ . أى استغفارك أيها النبى وعدمه مستويان فى عدم النفع؛ لأن سنة الله أنه لا يهدى المصرين على الخروج على أوامره انظر الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦ ، ٧، والآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨، ثم ذكر سبحانه جريمة أخرى لهم فقال : هم الذين يقولون لا تنفقوا ... إلى آخر ما تقدم فى شرح أول السورة.

المفردات : ﴿الأعز﴾ : أى الأقوى عزة وهى القوة والصولة . يريدون أنفسهم، انظر شرح الآية (١٨٠) من سورة الصافات صفحة ٥٩٧.

﴿الأذل﴾: أى الأشد ذلة. يريدون المهاجرين لأنهم غرباء فى زعمهم عن المدينة.

عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ
لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ
وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ
وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ
أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾
وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

﴿ولله العزة.. إلخ﴾: معنى هذا الرد: أنه سبحانه يقول: نعم سيخرج الأذل ويبقى الأعز.

ولكن الأعز ليس هو أنتم أيها السفهاء بل هم المؤمنون. والأذل هم أنتم أيها المنافقون.

﴿لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾: أى لا يمنعكم حب جمع المال، وشدة تعلقكم بالأولاد عن تذكر نعم الله عليكم الموجبة لطاعته، ومنها إنفاق المال فيما يرضيه، انظر الآية (٢٤) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٣، ٢٤٤؛ فالمال والأولاد زخرف الدنيا وفتنتها، انظر الآية (٤٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧، والآية (٦٠) من سورة القصص صفحة ٥١٥، وآيتى (١٥، ١٦) من سورة التغابن صفحة ٧٤٧. ﴿عن ذكر الله﴾: انظر شرح الآية (١٣) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٨.

﴿من قبل أن يأتى أحدكم الموت﴾: المراد: مقدمات الموت.

﴿لولا﴾: حرف يدل على طلب حصول ما بعده، ويعبر العلماء عن معناه بكلمة (هلا) بتشديد اللام. وهذا الحرف يجعل الفعل بعده مستقبلا، وإن كان بلفظ الماضى فالمعنى أطلب أن تؤخرنى.

﴿وأكن﴾: المعنى: إن أخرتنى حتى أتصدق أكن من الصالحين.

المعنى: بعدما أفاد سبحانه أن المنافقين فاسقون أراد أن يبين دليل ذلك فقال: هم الذين يقولون.. إلخ. وذلك أن المهاجرين تركوا أموالهم بمكة وكانوا بحاجة إلى مساعدة أهل

(١) السموات. (٢، ٣) المنافقين. (٤) آمنوا.
(٥) أموالكم. (٦) أولادكم. (٧) الخاسرون.
(٨) مما. (٩) رزقناكم. (١٠) الصالحين.

المدينة، قال رأس المنافقين عبدالله بن سلول ومَنْ تبعه لبعض أهل المدينة: لا تنفقوا على المهاجرين الملتفين حول محمد حتى ينفضوا من حوله، فتتكسر شوكته. فأبطل سبحانه كيدهم ببيان أن خزائن الأرزاق بيد الله وحده، ولن يستطيع أحد أن يمنع رزقه عن أحد. ولكن المنافقين لا يدركون حقيقة مقامه سبحانه. فلذا توهموا توهمًا فاسدا.

ثم ذكر لهم جريمة أخرى أفظع من سابقتها، وهى قولهم والله لئن رجعنا من الغزوة إلى المدينة لنخرجن هؤلاء الغرباء الأذلاء وهم محمد وأصحابه. لأننا أصحاب الوطن، ولنا فيه القوة والصولة. فرد سبحانه عليهم بأنه صحيح أن الأعز هو الذى سيقهر الأذل. ولكن ليس عندكم شىء من العزة مطلقا. بل هى لله يقهر بها أعداءه. ولرسوله فيظهر بها دينه رغم أنوفكم. وللمؤمنين فينتصرون وتكون لهم الغلبة. هذا هو الواقع. ولكن المنافقين لانطماس قلوبهم لا يعلمون ذلك. ولما كان من أسباب شقاء المنافقين حرصهم على الأموال، وخوفهم من أن تصرف فى سبيل الله حتى تواصوا بعدم بذل شىء منها للمهاجرين. لما كان كل هذا نهى سبحانه المؤمنين عن التشبه بهم فقال: يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم.. إلخ. أى يا أيها الذين آمنتم بالله تعالى وبأن النصر بيده لا تشغلكم زينة الدنيا وفتنتها عن مراقبة الله وتنفيذ أوامره. وابتعدوا عما يغضبه. والفريق الذى تشغله الدنيا عن ذكر ربهم هم الخاسرون لخيرى الدنيا والآخرة. وبعد هذا التحذير أمرهم سبحانه بما فيه صلاحهم فقال: وأنفقوا.. إلخ. أى وأنفقوا بعض ما رزقناكم من المال فيما أمر الله تعالى بالإنفاق فيه، من قبل أن يأتى أحدكم مقدمات الموت وهو لم ينفق فيقول: يا ربى أرجو أن تؤخر موتى مدة قصيرة بقدر ما أستدرك ما فاتنى، فإنك إن سمحت بذلك حتى أبذل المال فيما يرضيك أكن من الصالحين، فلا يحل بى غضبك. فلا يستجيب الله لهم: لأنه لا يؤخر نفسًا إذا جاء آخر عمرها. ولا يقبل توبة عبد شاهد مقدمات الموت كما فى آيتى (١٧، ١٨) من سورة النساء صفحة ١٠١.

فخافوا الله أيها الناس فى جميع أعمالكم: لأنه خبير بما تعملون وسيحاسبكم ويجازيكم عليه: قال ابن عباس رضي الله عنهما: مَن كان له مال تجب فيه الزكاة ولم يزكه، أو له مال يستطيع به الحج ولم يحج، ندم عند مشاهدة الموت، وطلب المهلة. ولن يستجيب الله له. نسأل الله السلامة. والله تعالى هو الموفق.

(٦٤) سورة التغابن مدنية
وآياتها ثماني عشرة

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ
وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ
فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي
السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

﴿سورة التغابن﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿يسبح لله﴾: أى ينزهه بلسان المقال، أو بلسان الحال؛ انظر الآية (١) من سورة الجمعة صفحتى ٧٤٠، ٧٤١ .

﴿فمنكم كافر﴾.. إلخ: المراد فمنكم من كفر ومنكم مَنْ آمن، انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥. والآية (٣) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١ .

(بالحق﴾: المراد: خلقًا مقترنًا بالحق، والحكمة، لا لهوًا ولا لعبًا.

انظر الآية (١٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١ .

﴿أحسن صوركم﴾: انظر الآية (٤) من سورة التين صفحة ٨١٣ .

﴿بذات الصدور﴾: أى خفايا الصدور انظر الآية (١٥٤) من سورة آل عمران صفحة ٨٨، والآية (٧) من سورة المائدة صفحة ١٢٧ .

﴿ألم يأتكم نبأ الذين﴾.. إلخ: تقدم فى الآية (٧٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣.

﴿فذاقوا وبال أمرهم﴾: تقدم فى الآية (١٥) من سورة الحشر صفحة ٧٣٢ .

(٣،٢،١) السموات.

المعنى: ينادى كل ما فى السموات وما فى الأرض ـ بلسان الحال وبلسان المقال ـ بتنزيه الله سبحانه عن كل ما لا يليق به. وكيف لا وهو وحده مالك التصرف فى كل ما فى هذا العالم. وله وحده الحمد؛ لأنه المنعم بكل النعم. وهو وحده القادر على كل شىء.

ثم بيَّن سبحانه بعض آثار قدرته فقال: (هو الذى خلقكم).. إلخ. أى هو سبحانه الذى خلقكم هذا الخلق البديع المستوفى لجميع ما يهيئ للكمال، ومع ذلك فمنكم مَنْ اختار الكفر مع أنه خلاف ما فطره الله عليه، كما فى الآية (٣٠) من سورة الروم صفحة ٥٣٤ .

ومنكم مَنْ اختار الإيمان لأنه لم يفسد فطرته، انظر ما يوضح ذلك فى شرح الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥ .

ثم رغب سبحانه فى الإيمان وحذر من الكفر بقوله: والله بما تعملون بصير. أى فسيجازى كلا بعمله بالعدل.

وهو سبحانه الذى خلق السموات والأرض وما فيها مقترنًا كله بالحكمة البالغة. ولم يخلقها عبثًا .

وهو الذى صوركم فأحسن صوركم حيث جعلكم أكمل ما على وجه الأرض حسًا ومعنى، ومرجعكم فى الآخرة إليه وحده ليحاسبكم على الشكر والكفر.

فاحذروا ما يغضبه. وإذا كان وحده الذى خلق العالم كله فلابد أن يكون عالمًا به.

ويستوى فى علمه ما يسر به بعضكم لبعض وما تعلنونه. بل يعلم ما انطوت عليه صدوركم من المعانى الحسنة والسيئة. وسيحاسبكم على ذلك أيضًا، انظر آيتى (١٣، ١٤) من سورة الملك صفحة ٧٥٥ .

ثم اتبع هذه التحذيرات بتحذير يعلمونه مع التوبيخ على إهماله فقال: ألم يأتكم... إلخ. أى هل جهلتم أيها الكفار خبر ما حصل للأمم قبلكم حين كفرت بأنبيائها كقوم نوح وما بعده؟

فعاقبهم الله على كفرهم فى الدنيا بالذل والهلاك. وأعد لهم فى الآخرة عذابًا شديد الألم.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟
أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ
حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ
بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ
ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا
يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن
مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ

المفردات: ﴿البينات﴾: أى البراهين والمعجزات.

﴿أبشر﴾.. إلخ: الهمزة للاستفهام الإنكارى المشرب معنى التعجب.

﴿وبشر﴾: لفظ يطلق على الواحد والأكثر والمراد بهم هنا الرسل.

﴿زعم﴾: الزعم ادعاء العلم، وأكثر ما يكون فى الباطل كما هنا.

﴿بلى﴾: حرف يدل على إبطال النفى قبله وإثبات المنفى.

﴿النور﴾: هو القرآن، كما تقدم فى الآية (١٧٤) من سورة النساء صفحة ١٣٣ .

﴿أنزلنا﴾:انظر سبب العدول عن قوله أنزله إلى أنزلنا فى الآية (٥٣) من سورة طه صفحة ٤١٠ .

﴿يوم الجمع﴾: هو يوم القيامة، انظر الآية (١٠٣) من سورة هود صفحة ٢٩٩ . والآية (٥٠) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥ . والآية (٣٨) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٥ .

﴿التغابن﴾: ﴿التغابن﴾ بوزن التفاعل، لا يكون إلا بين طرفين؛ لأن هذا الوزن (التفاعل): يدل بهيئته على اشتراك طرفين فى مادته. يقال: تضارب عمرو وبكر، أى ضرب كل منهما الآخر، ويقال: تشاتما، أى شتم كل منهما صاحبه، فإذا كان الضرب من جهة واحدة، فلا يقال: تضاربا، وإنما يقال: ضرب فلان فلانًا.

(١) بالبينات. (٢) فآمنوا.
(٣) صالحا. (٤) جنات.
(٥) الأنهار. (٦) خالدين.
(٧) بآياتنا. (٨) أصحاب.
(٩) خالدين

فالتغابن ها هنا يدل على وقوع الغبن بين طرفين، غبن كل منهما صاحبه. وللغبن عند العرب معان: - منها (الجور) على حقوق الغير، كأن يلحق به ظلمًا ينقصه ما يستحقه، ومنها (ما جاء فى كتابى لسان العرب، والقاموس المحيط) من قول العرب: غَبِن فلان الشىء، بفتح الغين، وكسر الباء، يغبنه، بفتح الباء، بوزن فرح يفرح، غبنًا بفتح الغين والباء، وغبنًا، بسكون الباء أيضًا، ومعناه: نسى الشىء، أو أغفله، أو جهله، ومنه قولهم: غبنت حقى عند فلان، أى نسيته، ومنها (قول العرب أيضًا): غبن فلان غيره، يغبنه، غبنًا، بوزن ضربه يضرِبه ضربًا، ومعناه: مرَّ به وهو واقف أمامه، ولم يفطن له، ولم يشعر به، وهذان المعنيان الأخيران هما اللائقان هنا.

فالمعنى: يوم ينسى الناس بعضهم بعضًا، فهو يوم التناسى والذهول الذى يحصل بين الناس، وهو يوم القيامة، وذلك من شدة الهول، انظر آيتى (١،٢) من سورة الحج صفحتى ٤٣٢،٤٣٣، ومثلها الآيات (٨ - ١٤) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥، والآيات (٣٣ - ٣٧) من سورة عبس صفحة ٧٩٥ .

﴿يكفر عنه سيئاته﴾: انظر الآية (٣٨) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٢، والآية (١١٤) من سورة هود صفحة ٣٠١، والآية (٧٠) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨ .

﴿ما أصاب من مصيبة﴾: ﴿من﴾ حرف يدل على أن ما بعده بيان لـ ﴿ما﴾ فى قوله ما أصاب.

﴿إلا بإذن الله﴾: أى بعلمه ومشيئته، انظر الآية (٢٢) من سورة الحديد صفحة ٧٢٢ .

﴿يهد قلبه﴾: أى يوصله للثبات والاطمئنان والرضا بقضاء الله، انظر الآية (٢٨) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٥،٣٢٦ .

المعنى: ذلك العذاب الذى حل بالأمم الماضية بسبب أنهم كانوا على حالة أنهم إذا جاءت رسلهم بالحجج الواضحات على صدقهم أنكر كل فريق منهم رسالة رسوله وقال متعجبًا: هل يصح فى العقول أن يهدينا إلى الحق بشر مثلنا. ورسل الله لا يصح أن يكونوا إلا ملائكة، انظر آيتى (٩٤، ٩٥) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧، والآيات (٣ - ٧) من سورة الأنبياء صفحتى ٤٢٠، ٤٢١، والآية (١٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣١ .

ولا أدل على فساد عقول هؤلاء من إنكارهم الرسالة على البشر، وقبولهم عبادة الحجر. وبسبب خطئهم هذا كفروا برسل الله. وأعرضوا عن التأمل فيما أتوا به من البينات. فأظهر سبحانه غناه عن إيمانهم. فأهلكهم. ولولا أنه غنى عنهم لما فعل ذلك، والله غنى عن العالمين فضلاً عن طاعة هؤلاء. مستحق للحمد الكثير على كل حال.

ثم بين سبحانه أهم الأسباب التى جرأتهم على الكفر فقال: زعم.. إلخ. أى توهم هؤلاء الكافرون أنهم لا يبعثهم الله للحساب والجزاء. قل لهم أيها النبى ستبعثون.

ثم أكد أيها النبى ذلك بالحلف عليه. ليرتب عليه ما بعده، فقل لهم: وحق ربى لتبعثن. ثم ليطلعنكم سبحانه على كل أعمالكم ويحاسبكم عليها. وذلك البعث والحساب سهل على قدرة الله. فبأى وجه تنكرونه؟ وإذا كان الأمر كما ذكر بلا شك. فآمنوا أيها الكفار فى مكة وغيرها بالله الذى علمتم قدرته، ورسوله محمد ﷺ، والقرآن الذى أنزله الله لتنوير القلوب، والله بما تعملون من طاعة ومعصية خبير، وسيحاسبكم عليه.

قل أيها النبى سينبئكم الله بأعمالكم يوم يجمع الخلائق للحساب والجزاء. ذلك اليوم هو التناسى، يوم يغفل فيه كل مكلف عن غيره، ولا يذكر إلا نفسه من شدة الهول. وبعدما خوفهم سبحانه رغبهم فى التوبة فقال: ومن يؤمن بالله ويعمل صالحًا يكفر عنه سيئاته، أى فلا يعذبه بها، بل يضم إلى ذلك أنه يدخله جنات تجرى من تحت قصورها الأنهار موقنين بالخلود فيها أبدا. ذلك المذكور من النعيم هو الفوز العظيم الذى لا فوز بعده.

وبعدما بيَّن سبحانه نعيم المؤمنين، بيَّن سبحانه شقاء الكافرين ليحث النفوس بالمقارنة على الأنفع فقال تعالى: والذين كفروا ... إلخ. أى بالله ورسله، وكذبوا بالمعجزات التى أيد بها الرسل، والبراهين التى ملأ بها الكون. هؤلاء هم الملازمون لنار جهنم خالدين فيها. وبئست النهاية النار. وكان المنافقون والمشركون يضللون البسطاء بقولهم: لو كان أصحاب محمَّد على حق لما شردوا من ديارهم، ولما حلت بهم مصيبة. فأبطل سبحانه زعمهم بقوله: (ما أصاب) ... إلخ.

أى كل مصيبة تصيب العبد فهى بعلم الله تعالى وإرادته لحكم يعلمها، فإذا علم المؤمن ذلك وصبر طلبًا لثواب الآخرة. هدى الله قلبه لليقين فيطمئن ويستريح.

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ[1] الْمُبِينُ ﴿١٢﴾
اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا[2] إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ[3] وَأَوْلَادِكُمْ[4] عَدُوًّا
لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ[5] وَأَوْلَادُكُمْ[6] فِتْنَةٌ ۚ
وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ
وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن
يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن
تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ[7] لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ
شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَالِمُ[8] الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ[9] الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

المفردات: ﴿من أزواجكم﴾: ﴿من﴾ تدل على معنى بعض.

﴿عدوا﴾: كلمة تطلق على الواحد والأكثر. انظر الآية (٥٠) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨.

﴿تعفوا وتصفحوا وتغفروا﴾: هذه الكلمات الثلاث إذا اجتمعت كما هنا تغايرت معانيها، وإذا انفردت واحدة منها فإن معناها قد يشمل معانى زميلتيها، وذلك مثل لفظى ﴿الفقراء والمساكين﴾ فى الآية (٦٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥١: فالعفو هنا عدم المعاقبة على ذنوبهم القابلة للعفو، والصفح: الإعراض عن تأنيبهم وتوبيخهم، والمغفرة: ستر ما حصل منهم وعدم فضيحتهم.

﴿فتنة﴾: أى امتحان لكم هل يشغلكم حبهما عن الطاعات أو يحملكم على المعاصى، انظر الآية (٧٥) وما بعدها من سورة التوبة صفحة ٢٥٤.

﴿ما استطعتم﴾: ﴿ما﴾ حرف يدل على أن ما بعده فى قوة مصدر مسبوق بمعنى مدة فالمعنى مدة استطاعتكم، والمراد مادمتم مستطيعين.

﴿خيرًا لأنفسكم﴾: المعنى: يكن ذلك خيرًا ... إلخ.

﴿يوق شح نفسه﴾ ... إلخ: تقدم فى الآية (٩) من سورة الحشر صفحة ٧٣١

---

(١) البلاغ. (٢) امنوا. (٣) أزواجكم.
(٤) أولادكم. (٥) أموالكم. (٦) أولادكم.
(٧) يضاعفه. (٨) عالم. (٩) والشهادة.

﴿تقرضوا اللَّه﴾.. إلخ: المراد تنفقوا فى وجوه الخير التى يرضى اللَّه عنها، كما تقدم فى الآية (١١) من سورة الحديد صفحة ٧٢٠ .

﴿عالم الغيب والشهادة﴾: تقدم فى الآية (٨) من سورة الجمعة صفحتى ٧٤١، ٧٤٢ .

المعنى: واللَّه بكل شىء عليم حتى القلوب وأحوالها. وأطيعوا اللَّه فيما أمر به فى كتابه. والرسول فيما يأمر به مبينًا لشرع ربه. انظر الآية (٤٤) من سورة النحل صفحة ٣٥١، والآية (٧) من سورة الحشر صفحة ٧٣٠، ٧٣١ . فإن أعرضتم عن طاعة الرسول فلن تضروه شيئًا؛ لأنه ليس عليه إلا التبليغ الواضح وقد فعله على خير وجه. وحينئذ فلا تضرون إلا أنفسكم. ثم ذكر سبحانه ما يعتبر كالنتيجة لما سبق مع الحث على التوكل فقال: اللَّه لا إله إلا هو وعلى اللَّه (أى وحده) فليتوكل المؤمنون. وفى الكلام إشارة إلى أن من لا يتوكل عليه سبحانه فلا يعد من المؤمنين. نسأل اللَّه السلامة. انظر آيتى (٥٨ و ٥٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٩ .

ولما كان حب متاع الدنيا وزينتها من الأموال والأولاد قد يستولى على بعض النفوس فيضعف فيها الرغبة فى العمل الذى يرضى اللَّه حذر سبحانه من ذلك فقال: (ياأيها الذين آمنوا)... إلخ. أى بعض أزواجكم وأولادكم قد يجرونكم إلى ما لا يوقعكم فيه إلا الأعداء، فكونوا على حذر فيما يطلبونه منكم. وزنوه بميزان الشرع. ولا تطيعوهم فيما يضر.

قال العلماء: إن من عداوتهم أنهم قد يحملون الرجل على ترك الطاعات وما ينفع فى الآخرة. وقد يورطونه فى اقتراف المحرم. وروى أنه ﷺ قال: يأتى على أمتى زمان يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده. يعيرانه الفقر فيركب مراكب السوء فيهلك. ومن الناس مَنْ يحمله حبه لهم والشفقة عليهم على أن يكونوا فى عيش رغيد فى حياته وبعد موته فيقع فى المحظورات. ومن ذلك. أن أناسا من أهل مكة أسلموا. ولما أرادوا الهجرة إلى المدينة قال لهم أزواجهم وأولادهم: لمن تتركوننا ها هنا؟ فرقوا لحالهم، وامتنعوا عن الهجرة. ولما هاجروا فيما بعد وعلموا فضل منْ سبق إلى الهجرة وأنهم كانوا عرضة للخطر الذى جاءت الإشارة إليه فى الآية (٩٧) من سورة النساء صفحتى ١١٨، ١١٩، اشتد

غيظهم على أزواجهم وأولادهم وعزموا على الانتقام منهم. ولما كان ما حصل من الأزواج والأولاد بحكم الطبيعة بعيدًا عن قصد العصيان. رأف سبحانه بهم فقال: وإن تعفوا. أى عن ذنوبهم فلا تعاقبوهم. وتصفحوا عن لومهم وتستروا ما حصل منهم عن الغير. فإن اللّه تعالى يعاملكم بالمثل تفضلاً منه لأنه كثير المغفرة لمَنْ تاب، رحيم بمَنْ ندم على ما فرط منه.

ثم بيَّن سبحانه منشأ البلاء بالأموال والأولاد فقال: إنما أموالكم وأولادكم فتنة. أى يشغلكم حبهما عن الطاعات.

قال القرطبى: (وفى الحديث: يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال أكل عياله حسناته. وقال بعض السلف: العيال سوس الطاعات). انظر كيف تعلل بهم المنافقون فى الآية (١١) من سورة الفتح صفحتى ٦٧٩، ٦٨٠. واللّه عنده أجر عظيم خير من الدنيا وما فيها.

ولما كان الإنسان مطبوعًا على حب المال والولد، وربما ظن أن المبالغة فى التحذير منهما توقعه فى مشقة، أراد سبحانه أن يبين أن الدين يسر لا مشقة فيه، فقال: فاتقوا اللّه... إلخ. أى وإذا كان الأمر كما سمعتم فاتقوا اللهَ أيها الناس. وراقبوه فى كل شىء خصوصًا فيما جعله فتنة لكم ما دمتم مستطيعين ذلك. فلا تكلفوا أنفسكم وأولادكم مشقة يعسر عليهم حملها. انظر الآية (٢٨٦) من سورة البقرة صفحة ٦٢، والآية (٧٨) من سورة الحج صفحتى ٤٤٥،٤٤٤ . واسمعوا مواعظ ربكم وأطيعوا أوامره وأنفقوا مما رزقكم فيما يرضيه يكن ذلك خيرًا لأنفسكم فى الدارين .

ثم رغب سبحانه فى الإنفاق فقال: (ومَنْ يوق شح نفسه)... إلخ. أى الفريق الذى يقيه اللّه شح نفسه. أولئك هم الفائزون بخيرى الدنيا والآخرة، وإن تنفقوا المال فى الوجوه التى رغب اللّه فيها مع الإخلاص وطيب النفس يضاعف اللّه لكم جزاء ذلك، ويغفر لكم ذنوبكم، واللّه كثير الشكر فيعطى الجزيل على العمل القليل، حليم لا يعجل بالعقوبة، ويفتح باب التوبة. وهو سبحانه يستوى فى علمه الغائب والحاضر، وهو الغالب الذى لا يغلب، الحكيم فيما يفعل ويشرع. واللّه سبحانه أعلم.

(٦٥) سُورَةُ الطَّلَاقِ مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ
وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ
بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ[1] مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ
حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ
لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغۡنَ
أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ
وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ[2] لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ
يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ[3]ۚ وَمَن يَتَّقِ

سورة الطلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿يا أيها النبى﴾.. إلخ: لم يخاطب الله سبحانه فى أول السور رسوله ﷺ بلفظ النبوة إلا فى ثلاثة. هذه السورة والأحزاب والتحريم.

ووجه الله الخطاب أولاً له ﷺ. ثم عمم الخطاب بالحكم. جريًا على أسلوب العرب إذا خاطبوا جماعة لهم رئيس رفيع المنزلة بينهم، فإنهم يوجهون الخطاب للجميع فى شخص هذا الرئيس، فيقولون: يا فلان افعلوا كذا وكذا.

﴿إذا طلقتم﴾: المراد: إذا أردتم الطلاق كما فى قوله تعالى:

﴿إذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ الآية (٩٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٩ .

﴿لعدتهن﴾: اللام بمعنى ﴿عند﴾ كما فى قوله تعالى: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ الآية (٧٨) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥، والمراد عند استقبال عدتهن، وذلك بأن يطلقها فى طهر لم يمسها فيه.

﴿واحصوا العدة﴾: أصل الإحصاء عند العرب هو العد بالحصى لأنهم أميون. ثم استعمل فى مطلق العد والضبط.

فالمراد واضبطوا العدة وأكملوها ثلاثة قروء، كما تقدم فى الآية (٢٢٨) من سورة البقرة صفحتى ٤٥، ٤٦ .

---

(١) بفاحشة.
(٢) الشهادة.
(٣) الآخر.

﴿فاحشة﴾: أى فعلة شديدة القبح، كفعل ما يوجب حدًا. أو السفه على الزوج أو أهله. أو الخروج قبل انقضاء العدة بدون إذن المطلق.

﴿مبينة﴾: المراد: واضحة الفحش. انظر شرح مبين فى الآية (١٦٨) من سورة البقرة صفحة ٣٢، والآية (٢) من سورة القصص صفحة ٥٠٦ .

﴿حدود اللّه﴾: أى أحكامه التى فصل بها بين الحلال والحرام.

﴿أمرًا﴾: كالندم على الطلاق والميل للرجعة.

﴿بلغن أجلهن﴾: المراد قاربن نهاية العدة.

﴿فأمسكوهن﴾: المراد: راجعوهن إذا أردتم.

﴿بمعروف﴾: أى مع حسن عشرة.

﴿أو فارقوهن﴾.... إلخ: المراد اتركوهن بلا مراجعة مع إعطائهن كل حقوقهن، انظر الآية (٢٣١) من سورة البقرة صفحتى ٤٦، ٤٧ .

﴿وأشهدوا ذوى عدل منكم﴾: أى على الرجعة إذا اخترتموها. أو الفرقة كذلك.

﴿وأقيموا الشهادة للّه﴾: هذا خطاب للشهود. والمراد أدوها إن طلبت منكم. خالصة لوجه اللّه، دون تحيز لجانب منهما.

﴿ذلكم﴾: المذكور من الحث على مراقبة الله. وعدم تعدى حدوده فى كل ما تقدم.

﴿يوعظ به﴾: أى يعظ اللّه به المؤمنين لتلين قلوبهم، فيزداد خشوعهم له سبحانه.

المعنى: يا أيها النبى أنت والمؤمنون معك إذا أردتم طلاق نسائكم لسبب مشروع فأوقعوا الطلاق وهن مستقبلات لعدتهن، وذلك بأن تطلقوهن فى مدة طهرهن من الحيض قبل أن تمسوهن فى هذا الطهر، حتى يحسب هذا الطهر واحدا من ثلاثة. ولا يبقى عليها فى الخروج من العدة سوى طهرين فقط. وذلك رأفة بهن بسبب تقصير زمن العدة.

وهذا الأمر من الله يفيد أن من طلق فى مدة الحيض فقد ارتكب منكرا. واضبطوا العدة. واعرفوا مبدأها ومنتهاها.

واتقوا الله ربكم، فلا تطيلوا العدة للإضرار بهن. ولا تخرجوهن من سكنهن الذى كن فيه. ولا يجوز لهن أن يخرجن منه إلا برضاء الطرفين.

ومحل منعهن من الخروج ما لم يفعلن فعلاً واضح القبح. فإن حصل منهن شيء من ذلك جاز للمطلق إخراجهن...

وتلك الأحكام السابقة هى الحدود التى فصل الله بها بين الحلال والحرام. ومَنْ يتعدها فقد ظلم نفسه بتعريضها للعقاب.

فلا تعرض نفسك أيها المطلق لمخالفة أحكام الله. فإنك لاتدرى لعل الله يحدث بعد طلاقك أمرًا ليس فى حسابك من تطيب نفسها ونفس أقاربها أو الميل إلى إرجاعها. إن كانت طلقتها رجعية.

فاجعل حبل الود موصولاً فإذا قارب المطلقات بلوغ نهاية العدة. فإن أردتم إرجاعهن فأرجعوهن بمعروف من حسن النية فى العشرة، أو فاتركوهن يستوفين عدتهن مع إعطائهن كل حقوقهن.

وأشهدوا على الرجعة إن اخترتموها، أو الفرقة إن رأيتموها، شاهدين عدلين منكم، بعدا عن الشك، وقطعا للتنازع. وأدوا الشهادة على وجهها أيها الشهود إذا طلبت منكم.

ذلك المذكور من الأوامر والنواهى السابقة يوعظ به مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ لأنه هو الذى ينتفع به. انظر الآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ .

ثم بيَّن سبحانه فائدة طاعة الله فى كل شيء. ومنها ما سبق. فقال: (ومَنْ يتق الله)... الخ.

المفردات: ﴿بالغ أمره﴾: أى بالغ كل أمر يريده لا يفوته مراد.

﴿قدرًا﴾: أى تقديرًا لا يتعده فى مقداره ولا فى زمانه.

اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ
وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ
قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ
الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ
وَالَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ
حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾
ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ
سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ
سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ
وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ
فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم
بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ

﴿إن ارتبتم﴾: أى شككتم فى حكم عدتهن أو فى الدم النازل. منهن هل هو دم حيض أو غيره: واختار ابن جرير وسعيد بن جبير أن المعنى: إن شككتم فى حكم عدتهن ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر.. إلخ، وروى فى ذلك عن أُبى بن كعب قال: قلت: يا رسول اللّه إن أناسًا فى المدينة لما نزلت الآية التى فى سورة البقرة فى عدة النساء قالوا قد بقى عدة الآيسة والصغيرة وذات الحمل فأنزل اللّه هذه الآية، انظر آيتى (٢٢٨ و ٢٣٤) من سورة البقرة صفحات ٤٥، ٤٦، ٤٨، وكذا الآية (٤٩) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٧ .

﴿واللائى لم يحضن﴾: أى وكذا حكم الصغيرات فعدتهن ثلاثة أشهر قمرية.

﴿وأولات﴾: أى وصاحبات.

﴿الأحمال﴾: جمع ﴿حَمْل﴾ بفتح فسكون.

﴿ذلك أمر اللّه﴾: أى ذلك الذى ذكر من الأحكام هو حكم اللّه.

﴿من حيث سكنتم﴾: ﴿من﴾ بمعنى بعض أى بعض مكان سكنكم.

﴿من وجدكم﴾: الوجد ـ الطاقة والوسع. فالمراد: مما تطيقونه.

---

(١) بالغ.
(٢) اللائى.
(٣) ثلاثة.
(٤) اللائى
(٥، ٦) أولات.
(٧) فآتوهن.

﴿ولا تضاروهن﴾: أى فى السكنى والنفقة.

﴿لتضيقوا عليهن﴾: أى لتوقعوهن فى ضيق ومشقة لترغموهن على الخروج.

﴿وأتمروا﴾: أى تآمروا وتشاوروا. انظر المادة فى الآية (١١٠) من سورة الأعراف صفحة ٢١٠.

﴿بمعروف﴾: أى بما فيه حسن المعاملة، من أجر الرضاع من جهة الأب، والعناية بالطفل من جهة الأم.

﴿تعاسرتم﴾: أى ضيق بعضكم على بعض بأن طلبت الأم أجرًا فوق المعتاد، لا يقدر عليه الأب.

﴿فسترضع له أخرى﴾: المراد: فستوجد امرأة أخرى غير الأم ترضع للأب طفله.

المعنى: لما كان عماد كل خير هو تقوى اللَّه فى السر والعلن كرر سبحانه التنبيه لها فى هذا المقام عدة مرات، هنا وفى الآتيتين (٤و ٥) فقال: ومَنْ يتق اللَّه - أى فى كل شىء - خصوصًا ما تقدم يجعل له مخرجًا مما قد يصادفه من الهموم، ويرزقه من جهة لا تخطر له على بال. ومَنْ أخذ فى أسباب الحياة المشروعة وفوض أمره إلى اللَّه كفاه سبحانه كل ما يهمه فى الدين والدنيا. ثم بيَّن سبحانه فائدة التوكل فقال: إن اللَّه بالغ أمره، أى إنه منفذ أحكامه فى خلقه بما يشاء. وقد جعل لكل شىء مقدارا وزمانًا لا يتجاوزهما. فإذا علم ذلك المؤمن فإنه لا يحزن لما يفوته، ولا يؤلمه الفقر كما يؤلم الفاجر: لأنه يجد بالتقوى مخرجًا من كل ضيق ويجد من عناية اللَّه به رزقًا غير محتسب. بل يكون مطمئن القلب راضيًا بقضائه سبحانه.

ولما ذكر سبحانه الطلاق المشروع، ولم يسبق فى بيان العدة إلا عدة صاحبات الحيض والمتوفى عنهن أزواجهن كما فى آيتى سورة البقرة (٢٢٨، ٢٣٤) صفحات ٤٥، ٤٦، ٤٨ . أراد هنا أن يبين عدة غيرهن فقال: (واللاتى يئسن)... إلخ. أى والنساء اللائى بلغن سنًا يظن فيه اليأس من الحيض - وهو فى الغالب سن الخامسة والخمسين فأكثر - إن شككتم فى الدم النازل منهن، هل هو دم حيض أم استحاضة. فاحسبوا عدتهن ثلاثة أشهر قمرية. وبالأولى إذا

قطع بأنه ليس حيضًا. والنساء اللاتى لم يحضن لصغرهن فكذلك عدتهن ثلاثة أشهر. وربما يقال: إن الشرع أوجب على المدخول بها العدة لبراءة الرحم، وللحذر من اختلاط الأنساب، واحتياطا لحكم ولاية الولاء والوراثة. فلماذا أوجبها فى المذكورات هنا من العقيم، والآيسة، والصغيرة؟ والجواب إن باطن الرحم لا يطلع عليه إلا علام الغيوب فهو وحده الذى يعلم ما فى الأرحام كما فى الآية (٣٤) من سورة لقمان صفحة ٥٤٤ ويعلم استعداده. فلو فتحنا بابًا إلى التفصيل فى كل مطلقة على حدة لركبنا متن خطر فى أمر لا نعلم باطنه. فإيجاب العدة مع عدم الحمل الظاهر لنا أهون من ركوب هذا الخطر؛ وقال صاحب المنار فى الجزء الثالث صفحة ٢١٥ عند الكلام على المتشابه: ويصح أن يقال أيضًا: إن المطلق قد يأسف على ما حصل منه، فيترك له فرصة المراجعة، ولأن سرعة زواج الغير بها قد يؤثر فى نفس المطلق فمهلة العدة قد تنسيه أو تخفف عنه ألم فراق مَنْ كانت زوجًا له. (انتهى كلام صاحب المنار).

أما النساء الحوامل فعدتهن تنتهى بوضع الحمل، ما لم تكن متوفى عنها زوجها. وإلا فعدتها أربعة أشهر وعشرا كما سبق فى الآية (٢٣٤) من سورة البقرة صفحة ٤٨ . ثم أكد الأمر بالتقوى فقال: ومَنْ يتق اللّه فيبتعد عن مخالفة أمره يسهل له أموره فى الدنيا والآخرة. ذلك المذكور هو حكم اللّه أنزله إليكم لسعادتكم. ثم أعاد الوصية بالتقوى ليرتب عليها ثواب الآخرة بعدما وعد بثواب الدنيا. فقال: ومَنْ يتق اللّه يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرًا. أى يعطيه الأجر العظيم على العمل القليل، ثم بيَّن أن من التقوى أن تسكنوا المطلقات بعض مساكنكم فى حدود طاقتكم. وذلك لبعدهن عن الفتنة فى أثناء العدة. ولا تضاروهن فى شيء من حقوقهن لتضيقوا عليهن فى السكن والنفقة ليرغمن على الخروج. وجمهور العلماء على أن السكنى مطلوبة للمعتدات مطلقًا سواء أكان الطلاق رجعيًا أو بائنًا غير رجعى. وإن كانت المطلقات حاملات فأنفقوا أيها الأزواج عليهن إلى أن يضعن حملهن. وبعد الوضع فإن قمن برضاع الطفل المنسوب لكم بعد انقضاء رابطة الزواج بانتهاء العدة، فادفعوا لهن أجرًا إرضاعهن. وتشاوروا فى مقدار الأجر بالحسنى. وإن صادفكم عسر بسبب مبالغة الأم فى الأجر فلن يعدم الأب امرأة أخرى ترضع الطفل بالأجر المعتاد. وفى الكلام إشارة إلى توبيخ الأم على المضايقة فى أمر يتعلق بطفلها؛ لأنها كانت هى الأولى بأن ترضع طفلها بأقل من الأجنبية. ثم بيَّن سبحانه كيف يقدر الإنفاق فقال: (لينفق)... إلخ.

ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ
ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ
ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ
رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا
نُّكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا
خُسْرًا (٩) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى
ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠)
رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن
يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ
رِزْقًا (١١) ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ

المفردات: ﴿من سعته﴾: المراد: على قدر سعته أى غناه.

﴿قدر عليه رزقه﴾: أى ضيق الله عليه رزقه بأن كان فقيرًا. انظر الآية (١٢) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ .

﴿وكأين من قرية﴾: تقدم فى الآية (١٣) من سورة محمد صفحة ٦٧٤ .

﴿عتت﴾: أى تجبرت، وخرجت عن طاعة ربها انظر الآية (٧٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥، والآية (٤٤) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥ .

﴿فحاسبناها﴾.. إلخ: أى سنحاسبها فى الآخرة قطعًا وإن حسابها مقطوع به كأنه حصل فعلا. انظر الآية (٤٨) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٠، والآية (١) من سورة النحل صفحة ٣٤٥ .

﴿نكرًا﴾: تقدم فى الآية (٨٧) من سورة الكهف صفحة ٣٩٣ .

﴿فذاقت وبال أمرها﴾: تقدم فى الآية (١٥) من سورة الحشر صفحة ٧٣٢ .

﴿خسرًا﴾: أى خسارة فى الآخرة لا ربح معها، انظر الآية (١٦) من سورة البقرة صفحة ٥ والآية (٢) من سورة العصر صفحة ٨٢٠ .

﴿يا أولى الألباب﴾: أى يا أصحاب العقول.

﴿ذكرا﴾: هو القرآن، انظر الآية (٤٤) من سورة النحل صفحة ٣٥١ .

---

(١) آتاه. (٢) آتاها. (٣) فحاسبناها. (٤) عذبناها.
(٥) عاقبة. (٦) الألباب. (٧) آمنوا. (٨) آيات.
(٩) مبينات. (١٠) آمنوا. (١١) الصالحات. (١٢) الظلمات.
(١٣) صالحا. (١٤) جنات. (١٥) الأنهار. (١٦) خالدين.
(١٧) سموات.

﴿رسولاً﴾: مفعول لفعل مقدر، والأصل: وأرسلنا إليكم رسولا، انظر بيان ذلك فى شرح الآية (٩) من سورة الحشر صفحة ٧٣١ .

﴿سبع سموات﴾: تكلم العلماء على هذه الآية وأمثالها ومنهم ابن عباس حيث قال: إن كل سماء هى سماء بالنسبة لما تحتها وأرض بالنسبة لما فوقها وإن للّه تعالى عوالم لا يعلمها غيره. انظر مجلد المنار ٢٩ صفحة ٧٢٩ .

المعنى: فلينفق الوالد على المرضع على قدر سعته أى غناه ومَنْ كان رزقه بمقدار قوته فلينفق على قدر طاقته فى حدود ما آتاه اللّه؛ لأن اللّه تعالى لا يكلف أحدًا من النفقة على مَنْ تلزمه نفقته إلا فى حدود ما أعطاه. فلا يكلف الفقير بما يكلف به الغنى. ثم طمأن الفقير حتى لا يوقعه الشيطان فى اليأس فقال: (سيجعل اللّه) ... إلخ. أى إن الأرزاق تتحول من حال إلى حال، وسيجعل اللّه بعد شدة رخاء.

وبعدما أمر سبحانه بأشياء ونهى عن أخرى ـ أراد أن يحذر مَنْ تحدثه نفسه بعصيانه بأنه يحل به ما حل بأمثاله فقال: (وكأين).. إلخ. أى وكثير من أهل القرى الماضية تجبرت فى الخروج عن أمر ربها ورسله فلابد من حسابها حسابا عسيرًا على الكبير والصغير. وسنعذبها عذابا لم تعهده من قبل. فتذوق وبال ما فعلت. ويكون نهاية أعمالها فى الدنيا خسارة فى الآخرة. ثم أكد التهديد السابق ليرتب عليه تحذير العقلاء. فقال: أعد اللّه لهم عذابًا شديدًا، أى: فليكن ذلك داعيًا لكم يا أصحاب العقول من المؤمنين إلى تقوى اللّه الذى رحمكم فأنزل عليكم قرآنًا فيه أسباب سعادتكم. وأرسل إليكم رسولاً يتلو عليكم آيات اللّه من هذا القرآن حال كونها موضحات لكل ما تحتاجون إليه. انظر الآية (٨٩) من سورة النحل صفحتى ٣٥٧، ٣٥٨ . ليخرج المستعد للإيمان والأعمال الصالحة من ظلمات الكفر والمعاصى إلى نور الإيمان والطاعة. انظر الآية (٣٧) من سورة ق صفحة ٦٩١ .

ثم بيَّن عاقبة الإيمان والعمل الصالح فقال: (ومَنْ يؤمن باللّه)... إلخ. أى والفريق من المكلفين الذى يؤمن باللّه ويعمل صالحًا يدخله جنات تجرى من تحت قصورها الأنهار حالة كونهم موقنين بالخلود فيها أبدا. وقد اختار له سبحانه أحسن الأرزاق فيها مما لم يخطر على بال مخلوق. وبعدما هدد سبحانه الكفار من عاقبة عصيانه بأنه سيصيبهم بما أصاب به غيرهم من أمثالهم أراد أن يبين أنه قادر على تنفيذ ما هدد به بأن سلطانه شامل للعالم العلوى والسفلى. وقد تنبه نبى اللّه نوح لهذا فى الآية (١٥) وما بعدها من سورة نوح صفحتى ٧٦٨، ٧٦٩ . فقال سبحانه: (اللّه الذى خلق سبع سموات)... إلخ.

مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

(٦٦) سُورَةُ التَّحْرِيمِ مَدَنِيَّة
وَآيَاتُهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ
أَزْوَاجِكَ[1] وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ
تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ[2] وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ[3] وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾
وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ[4] حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ
بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ
فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ

المفردات: ﴿يتنزل الأمر بينهن﴾: انظر المراد من ذلك فى شرح الآية (٥) من سورة السجدة صفحة ٥٤٥ .

﴿لم تحرم﴾: المراد: لأى سبب تمتنع عن الحلال، مع اعتقادك أنه حلال؛ لأنه ﷺ أعلم الناس بأنه لا يجوز تحريم ما أحل الله. فالاستفهام للعتاب.

﴿ما أحل الله لك﴾: المراد به: عسل النحل كما سيأتى. ﴿تبتغى﴾: تطلب ﴿مرضاة﴾: رضاء.

﴿أزواجك﴾: المراد: عائشة وحفصة فقط. بدليل قوله تعالى: ﴿تتوبا﴾ و﴿تظاهرا﴾ فالإضافة فى ﴿أزواجك﴾ لجنس الزوجات الصادق بالواحد والأكثر.

﴿فرض الله﴾: المراد شرع وبيّن لكم ما أوجبه عليكم إذا أردتم الخروج من تبعات أيمانكم، انظر الآية (١) من سورة النور صفحتى ٤٥٦، ٤٥٧ .

﴿تحلة أيمانكم﴾: أى تحليلا تخرجون به من مسئوليتها بالكفارة، كما فى الآية (٨٩) من سورة المائدة صفحتى ١٥٤، ١٥٥ . و﴿تحلة﴾ مصدر غير قياسى لفعل ﴿حلل﴾ ومصدرها القياسى التحليل كما فى كَرّم تكريمًا وتكرمة.

﴿مولاكم﴾: أى متولى أموركم وناصركم. ﴿بعض أزواجه﴾: هى حفصة.

﴿حديثا﴾: هو قوله ﷺ لها: إنى شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ، ولن أعود له أبدًا. وقد حلفت على ذلك. فلا تخبرى بذلك أحدًا.

---

(١) أزواجك. (٢) أيمانكم. (٣) مولاكم. (٤) أزواجه.

﴿أظهره اللّه عليه﴾: أى أطلعه سبحانه عليه على لسان جبريل.

﴿عرف بعضه﴾: أى عرف حفصة بعض ما أفشته من السر لعائشة وهو قوله: إنى شربت إلى قوله ولن أعود.

﴿وأعرض عن بعض﴾: وهو قوله: (وقد حلفت على ذلك، فلا تخبرى بذلك أحدًا) تكرمًا منه ﷺ لما فيه من زيادة خجلها.

المعنى: بعد العلم بأن العرب يستعملون الأعداد كسبعة وخمسين، وسبعين، وسبعمائة... إلخ، وذلك لإفادة الكثرة بدون قصد التحديد كما فى الآية (٨٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥٥ .

وبعد العلم أيضًا بأن ملك اللّه سبحانه بلغ من العظمة والسعة ما لاتحيط به العقول. وفى هذا روى ابن مسعود عنه ﷺ أنه قال: ما السموات السبع وما فيهن والأرضون السبع وما فيهن بجانب الكرسى إلا كحلقة ملقاة فى أرض فلاة، انظر الآية (٢٥٥) من سورة البقرة صفحة ٥٣ . وروى مجاهد عن ابن عباس عندما سئل عن معنى هذه الآية أنه قال: لوحدثتكم بمعناها لكذبتمونى. قالوا: وهذا منه إشارة إلى أن هناك عوالم كثيرة لا تستطيع العقول العادية إدراكها. نقول بعد علمنا بكل هذا فاللائق بنا ألا نخوض فى تفاصيل هذا المحيط الأعظم ونقتصر على مكان العبرة من ذلك وهو أن الإله الذى هذا ملكه وسعة سلطانه لا يعجزه أن يهلك مَنْ يكذب رسله ويعذبهم العذاب الأليم. فالمعنى: أن اللّه تعالى هو الذى خلق هذا العالم العلوى والسفلى ويسرى فيه أمره. وينفذ حكمه. أخبركم سبحانه بذلك لتعلموا أن اللّه على كل شىء قدير . وأن علمه قد شمل كل ما فى هذا الكون؛ لأن الذى أوجد شيئًا لابد أن يعلمه. انظر الآية (١٤) من سورة الملك صفحة ٧٥٥ .

سورة التحريم

تعرضت هذه السورة لنوع من أنواع كيد النساء، وشدة غيرتهن، وعناية اللّه تعالى برسوله الأكرم. فقد جاء فى البخارى وغيره من الكتب الصحيحة أن عائشة أم المؤمنين رضى اللّه عنها قالت: كان ﷺ يحب الحلوى. وكان إذا فرغ من صلاة العصر يمر على نسائه يسأل عنهن. فمر على زينب بنت جحش يومًا فمكث عندها أكثر من غيرها. فعلمت أنها كانت تسقيه

عسلاً. فاتفقت أنا وحفصة على أن تقول كل واحدة منا عند دخوله عليها: إنى أجد منك ريح مغافير. والمغافير جمع مغفور وهو شيء حلو يسيل من شجرة يشبه شجرة الصمغ لكن رائحته غير طيبة. وكان ﷺ يكره أن يدرك أحد منه رائحة غير طيبة. فلما دخل عندى قلت له ما اتفقنا عليه. ثم دخل على حفصة بعد ذلك فقالته له. فقال لحفصة: إنى شربت عسلا عند زينب؛ فقالت حفصة: إن نحل هذا العسل لابد أن يكون تغذى من شجر المغافير. فقال ﷺ: لن أشربه بعد الآن. وقد حلفت على ذلك. فلا تخبرى بذلك أحدًا. انتهى ملخص ما قالته عائشة. ولكن حفصة استخفها نجاح المكيدة فى زينب، فأخبرت عائشة بكل ما قاله ﷺ ظنا منها أنه لا خطر فى ذلك، فأخبره جبريل بما حصل من حفصة وعائشة. فذهب إلى حفصة يعتب عليها إفشاء ماطلب منها كتمانه. وأخبرها بأنها قالت لعائشة جزءًا من الحديث. فأنزل سبحانه: (يا أيها النبى)... إلخ. أى يا أيها النبى لم تمتنع عن شرب العسل الذى أحله اللَّه لك.. تلتمس بامتناعك رضا أزواجك. ولما كان مقام النبوة خطيرًا، كانت الهفوة منه كالذنب بالنسبة لغيره. قال سبحانه مشيرا إلى ذلك: واللَّه غفور. أى غفر لك ما حصل. رحيم بعباده المخلصين حيث جعل لهم مما وقعوا فيه مخرجًا. ولذا أتبع ذلك بقوله: قد فرض.. إلخ. أى قد شرع لكم التحلل من أيمانكم بالتكفير عنها. فكفر أيها الحالف واشرب العسل وغيره. ولا تضيق على نفسك ما وسعه ربك عليك.. واللَّه متولى أموركم أيها المؤمنون. وهو العليم بما يصلحكم الحكيم فى تدبير شئونكم. ثم شرع سبحانه فى تفصيل الحادث للدلالة على سعة علمه، وأنه لا يخفى عليه شيء، فقال: (وإذ أسر).. إلخ. أى واسمع أيها المؤمن ما حصل حينما أسر النبى إلى بعض أزواجه، وهى حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى اللَّه عنهما حديث شرب العسل عند زينب، وحلفه أن لا يشربه أبدًا، وطلبه منها ألا تخبر بذلك أحدًا. فلما أخبرت حفصة بهذا الحديث عائشة، وأطلعه اللَّه على ما حصل من حفصة، عرَّف حفصة ببعض ما أفشته، وأعرض عن بعضه رأفة منه بها، لئلا يقتلها الخجل إذا جابهها بأنها أفشت طلبه منها حفظ السر. فلما أخبر حفصة بما حصل منها ظنت أن عائشة هى التى أوقعتها فى هذا الحرج فقالت: يا نبى اللَّه مَنْ الذى أخبرك بهذا السر الذى كان بينى وبين عائشة؟ قال: أخبرنى ربى العليم بكل شيء.

ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا
وَإِن تَظَٰهَرَا[1] عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ[2] وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ[3]
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ[4] بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ
إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا[5] خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ[6]
مُّؤْمِنَٰتٍ[7] قَٰنِتَٰتٍ[8] تَٰٓئِبَٰتٍ[9] عَٰبِدَٰتٍ[10] سَٰٓئِحَٰتٍ[11] ثَيِّبَٰتٍ[12]
وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[13] قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ
نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ[14] غِلَاظٌ شِدَادٌ
لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[15] تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً
نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ
جَنَّٰتٍ[16] تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ[17] يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ

المفردات: ﴿إن تتوبا﴾... إلخ: خطاب لعائشة وحفصة، على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وذلك لمواجهتهما بالتهديد الآتي.

﴿فقد صغت قلوبكما﴾: أى فقد مالت عن الواجب لمقام الرسول الأكرم إلى ما يكره. وهذا مشعر بجواب الشرط المتقدم، والأصل: إن تتوبا أنقذتما أنفسكما من العقاب لأن قلوبكما انحرفت... إلخ.

﴿قلوبكما﴾: الأصل: قلباكما.. ولكن العرب تكره اجتماع تثنيتين فيما يشبه الكلمة الواحدة، متى كان المراد واضحًا.

﴿إن تظاهرا عليه﴾: أصل الفعل: تتظاهرا. أى تتعاونا على إحراجه ﷺ والإساءة إليه. والعرب تحذف إحدى التاءين فى مثل هذا لتخفيف النطق.

﴿فإن الله هو مولاه﴾: أى ناصره. وهذا دليل جواب الشرط المتقدم. والأصل: إن تتعاونا على إيذائه ﷺ فلن تقدرا: لأن الله هو مولاه.. إلخ. ويحسن أن يقف القارئ على ﴿مولاه﴾ لأن ﴿وجبريل وما بعده﴾ مبتدأ خبره ﴿ظهير﴾ الآتية.

(١) تظاهرا. (٢) مولاه.
(٣) صالح. (٤) الملائكة.
(٥) ازواجا. (٦) مسلمات.
(٧) مؤمنات. (٨) قانتات.
(٩) تائبات. (١٠) عابدات.
(١١) سائحات. (١٢) ثيبات.
(١٣) امنوا. (١٤) ملائكة.
(١٥) امنوا. (١٦) جنات.
(١٧) الأنهار.

﴿وصالح المؤمنين﴾: أصلها وصالحو المؤمنين، فحذفت الواو تخفيفًا، انظر ﴿يدع﴾ فى الآية (١١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥ و ﴿يدع الداع﴾ فى الآية (٦) من سورة القمر صفحة ٧٠٥ .

﴿والملائكة﴾: ذكرها بعد جبريل من ذكر العام بعد الخاص.

﴿ظهير﴾: أى معين، انظر الآية (٢٢) من سورة سبأ صفحتى ٥٦٥،٥٦٦ .

﴿عسى ربه﴾: انظر وقع ﴿عسى﴾ هنا على نفوسهن فى شرح الآية (٧٢) من سورة النمل صفحة ٥٠٣ .

﴿قانتات﴾: خاضعات خضوعًا تامًا، كما تقدم فى الآية (٣١) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٤ .

﴿سائحات﴾: المراد: الصائمات المفكرات فى ملكوت الله. انظر الآية (١١٢) من سورة التوبة ٢٦١ .

﴿قوا أنفسكم﴾... إلخ: أى اجعلوا لها وقاية من العذاب بالطاعة.

﴿ويفعلون ما يؤمرون﴾: أى لا يعجزهم شىء عن تنفيذ ما يأمرهم به ربهم. انظر الآية (٥٠) من سورة النحل صفحة ٣٥٢ .

﴿توبة نصوحًا﴾: هى التى تجمع بين الإقلاع عن الذنب والندم عليه، والعزم القاطع على عدم العودة، ورد الحقوق لأصحابها أو لورثتهم.

﴿عسى ربكم﴾: المراد: مترجين تكفير الذنوب... إلخ.

المعنى: قال ﷺ: أطلعنى على ما حصل ـ العليم بأحوال خلقه، الخبير بما يدبر فى الخفاء، ثم التفت سبحانه إلى خطابهما فقال: إن تتوبا إلى الله أى مما أجرمتما فى حق رسوله أنقذتما أنفسكما من عقابه؛ لأن قلوبكما طغت عليها الغيرة. فحولتها عن احترام الرسول إلى إيذائه. وإن أبيتما إلا التعاون على ما يكره، فلن تنالا منه شيئًا؛ لأن الله هو الذى

تولى نصره وحمايته. ولزيادة توبيخهن قال سبحانه: (وجبريل) ... إلخ. أى وكبير الملائكة وكاملو الصلاح من المؤمنين. والملائكة. كل فريق من هؤلاء معين له ﷺ عليكن بعد نصرة اللّٰه له. وإنما شدد سبحانه فى محاربة كيدهن لأن كيد النساء عظيم، مقلق، مشتت لأفكار الرجال؛ مهما كان مقامهن من علو المنزلة.

ثم هددهما ومَنْ تحدثها نفسها بمثل ما فعلا. بما يحطم غرورهن فقال: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله. أى يعطيه بدلكن زوجات خيرًا منكن إسلامًا وتصديقًا بكل ما يجب التصديق به. مواظبات على الطاعة. تائبات من كل هفوة. كثيرات التعبد فى خلواتهن. صائمات ومتفكرات فى ملكوت اللّٰه.. يجمع له مَنْ فيهن هذه الصفات من نوعى النساء: الثيبات والأبكار كما يريد.

وبعدما أمر سبحانه نساء النبى ﷺ بالتوبة، وحذرهن من خطر المخالفة. شرع سبحانه فى إرشاد جميع المؤمنين إلى إنقاذ أهليهم من مثل هذه المخاطر، فقال: يا أيها الذين آمنوا اعملوا على إبعاد أنفسكم عن خطر المعاصى، وإبعاد أهليكم من الزوجة والولد وغيرهما ـ بالنصح والتأديب ـ من نار لا وقود لها إلا الناس والحجارة التى هى أشد أنواع الوقود حرارة، يشرف على تعذيب مَنْ فيها ملائكة غلاظ فى الأجسام والمعاملة، أقوياء جمعوا بين صفتى الطاعة والقدرة على كل ما يكلفون به. فلا يعتريهم عجز ولا سهو ولا نسيان.

وتقول الملائكة لأهل النار: يا أيها الكفار لا تعتذروا اليوم لأنكم لا تجزون اليوم إلا بما داومتم على عمله فى الدنيا.

وبعدما بيَّن سبحانه أن التوبة فى يوم القيامة لا تنفع، نبه عباده المؤمنين إلى المبادرة بها فى الدنيا ـ فقال: يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى اللّٰه توبة خالصة من كل ما يبطلها. راجين من ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحت قصورها وأشجارها الأنهار. يدخلكم فيها فى اليوم الذى لا يخزى فيه النبى، والخزى يكون بإدخال النار كما فى الآية (١٩٢) من سورة آل عمران صفحة ٩٥ .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا[1] مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ[2]
يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ جَٰهِدِ[3] الْكُفَّارَ وَالْمُنَٰفِقِينَ[4]
وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ[5] جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ[6] نُوحٍ وَامْرَأَتَ[7] لُوطٍ
كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ[8] فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا
عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ[9] ﴿١٠﴾
وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ[10] فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ
رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ
وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ[11] ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَٰنَ[12]
الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ
بِكَلِمَٰتِ[13] رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ الْقَٰنِتِينَ[14] ﴿١٢﴾

المفردات: ﴿نورهم يسعى﴾ ... إلخ: أى يوم القيامة بعد انتهاء الحساب، كما تقدم فى آيتى (١٢، ١٣) من سورة الحديد صفحة ٧٢٠ .

﴿جاهد الكفار﴾ ... إلخ: أى بالحجة والبرهان، كما تقدم فى الآية (٧٣) من سورة التوبة صفحتى ٢٥٣، ٢٥٤ وانظر الآية (٥٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٦ .

﴿واغلظ عليهم﴾: أى لا تعاملهم بالرحمة لأنهم مصممون على الفساد فيجب كف شرورهم.

﴿تحت عبدين﴾: العرب تقول: فلانة تحت فلان، كناية عن أنها فى عصمته. مهيأة للتأثر بأخلاقه، وأفعاله.

﴿فخانتاهما﴾: المراد: أخفت كل منهما الكفر، وأظهرت الإيمان وكانت تساعد خصومه سرًا. و زادت امرأة نوح أنها كانت تقول للناس عنه أنه مجنون؛ وامرأة لوط كانت ترشد الفساق لضيوفه، انظر شرح الآية (٧٨) من سورة هود صفحتى ٢٩٥، ٢٩٦ والآية (٦٧) وما بعدها من سورة الحجر صفحة ٣٤٢ وما بعدها.

﴿أحصنت فرجها﴾ ... إلخ: أى حفظته. كما تقدم فى الآية (٩١) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٠ .

---

(١) آمنوا.
(٢) بأيمانهم.
(٣) جاهد.
(٤) المنافقين.
(٥) مأواهم.
(٦، ٧) امرأة.
(٨) صالحين.
(٩) الداخلين.
(١٠) امرأة.
(١١) الظالمين.
(١٢) عمران.
(١٣) بكلمات.
(١٤) القانتين.

المعنى: يدخلكم سبحانه أيها التائبين جنات فى اليوم الذى ينجى فيه النبى والمؤمنين معه من العذاب، حال كون نورهم يحيط وهم سائرون إلى الجنة.

وهم يقولون: إذا انطفأ نور المنافقين كما فى الآية (١٢) من سورة الحديد صفحة ٧٢٠ المشار إليها هنا: يا ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا ذنوبنا إنك على كل شىء قدير... وبعدما أمر سبحانه المؤمنين بالمسارعة إلى التوبة أمر رسوله ﷺ بقتال الكفار الذين يحاربون دعوته. وبتوعد المنافقين بعد إقامة الحجة عليهم. وبمعاملة الفريقين بالغلظة حتى يتقى شرهم. ثم بيَّن سبحانه أن المكان الذى سيأوى إليه فى النهاية مَنْ يظهر الكفر ومَنْ يخفيه هو جهنم، وبئس المصير هى. وبعدما بيَّن سبحانه مآل المؤمنين والكافرين، شرع فى ضرب مثلين للنوعين، مع الإشارة إلى تحذير زوجاته ﷺ من الغرور بأنهن زوجات نبى. فإن ذلك لا ينفعهن شيئًا إذا عصين ربهن، فقال: (ضرب اللَّه مثلا) ... إلخ أى جعل سبحانه مثلاً للكافر المخالط للمؤمن وأن هذه المخالطة لا تنفعه. بامرأة نوح وامرأة لوط اللتين كانتا فى عصمة عبدين من عبادنا صالحين. وكان يمكنهما لولا فساد طبعيهما أن تهتديا بهديهما. ولكنهما خانتاهما بإظهار الإيمان وإخفاء الكفر إلى آخر ما تقدم. وكان من نتائج خبثهما هذا أن صلاح الزوجين لم ينفعهما، ولم يدفع عنهما من عذاب اللَّه شيئًا ولو قليلاً. وقيل لهما عند الموت: ادخلا النار مع الكفار المحكوم عليهم بدخولها. وهذا ولا شك يرعب أمهات المؤمنين اللاتى لم يرعين حرمة مقام الرسول الأعظم صلوات اللَّه عليه. وجعل سبحانه مثلاً آخر يفيد عكس ما سبق: لأنه مثَّل للمؤمنة فى عصمة كافر بامرأة فرعون أى نجاتها حين قالت: يارب ابن لى عندك - أى قريبا من رحمتك - بيتًا فى الجنة. ونجنى من عشرة فرعون وغطرسته ومن أعماله السيئة، من الكفر وغيره. ونجنى من قومه من القبط الذين اتبعوا فرعون فى ظلمه للضعفاء. وجعل سبحانه حال مريم ابنة عمران مثلاً آخر للمؤمنة التى لا زوج لها لتكون عبرة للأرامل اللائى يعشن فى وسط قوم أكثرهم كافرون. ثم وصف مريم بأنها حفظت نفسها من الخنا. فوضع اللَّه سبحانه فيها سرًا من أسراره كان بواسطته عيسى عليه السلام. وصدقت بكلمات ربها فى الوعد والوعيد الذى جاء على لسان رسل ليس لهم كتب. وكذا صدقت بما نزل من الكتب، كالتوراة والزبور وصحف إبراهيم. وكانت من عداد عباد اللَّه المواظبين على الطاعة. وفقنا اللَّه كما وفقها؛ إنه ذو الفضل العظيم.

(٦٧) سُورَةُ المُلْكِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا ثَلَاثُونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ[1] ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١
ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ[2] لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ
وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ[3] طِبَاقٗاۖ
مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ[4]ۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ
تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ
إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ
ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ[5] وَجَعَلۡنَٰهَا[6] رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ[7]ۖ وَأَعۡتَدۡنَا
لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ

سورة تبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿تبارك﴾: تعالى قدره، وتعاظم خيره، كما تقدم فى الآية (١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠ .

﴿خلق الموت﴾... إلخ: المراد: قدر الموت عليكم أولاً حين كنتم ترابًا، ثم الحياة بعد ذلك، انظر الآية (٢٨) من سورة البقرة صفحة (٧) والآية (١١) من سورة غافر صفحة ٦١٩ والآية (٢٦) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤؛ وانظر الخلق بمعنى التقدير فى شرح الآية (١٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦ .

﴿ليبلوكم﴾: أى ليختبركم، كما تقدم فى الآية (١٨٦) من سورة آل عمران صفحة٩٤ .

﴿العزيز﴾: القوى الغالب الذى لا يعجزه عقاب مَنْ أساء عملاً .

﴿الغفور﴾: كثير المغفرة لمَنْ تاب، ممَنْ أساءوا، انظر الآية (٨٢) من سورة طه صفحة ٤١٣ .

﴿سبع سموات﴾: انظر شرح الآية (١٢) من سورة الطلاق صفحتى ٧٥٠، ٧٥١ .

﴿طباقا﴾: جمع طَبَقَة بفتحات، والمراد: طبقات بعضها فوق بعض.

﴿من تفاوت﴾: ﴿من﴾ حرف يفيد النص على عموم نفى ما بعده. والمراد بالتفاوت: التنافر، وعدم التناسب، والاختلاف.

---

(١) تبارك. (٢) الحياة.
(٣) سموات. (٤) تفاوت.
(٥) بمصابيح. (٦) جعلناها.
(٧) للشياطين.

﴿ارجع البصر﴾: أى أعده إلى السماء. ﴿هل ترى﴾: ﴿هل﴾ حرف استفهام مراد به الإنكار، أى النفى والمراد: لا ترى. ﴿من فطور﴾: ﴿من﴾ كسابقتها. والفطور جمع فَطْر بفتح فسكون وهو الشق، والمراد به هنا الخلل. ﴿كرتين﴾: أصل معناه مرتين والمراد: التكرار بدون تحديد. ﴿ينقلب﴾: أى يرجع. ﴿خاسئًا﴾: أى متعبًا، كما تقدم فى الآية (٦٥) من سورة البقرة صفحة ١٢. ﴿حسير﴾: بالغ الغاية فى الضعف من كثرة المراجعة، تقول العرب: حَسَر بصر فلان يَحْسِر بوزن ضرب ويَحْسُر بوزن يدخل. ﴿زينا السماء الدنيا﴾: تقدم فى الآية (٦) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٨٧ . ﴿مصابيح﴾: المراد بها الكواكب المضيئة كأنها مصابيح. ﴿رجومًا﴾: جمع رجم بفتح فسكون؛ وأصله مصدر رجم إذا رمى بالحجارة. وأريد به هنا الشىء المرجوم به. ﴿اعتدنا﴾: أى أعددنا وهيأنا.

سورة تبارك

المعنى: تعالى قدر اللّه وتزايد تنزيهه عن كل ما لا يليق به هو وحده الذى بقبضة قدرته التصرف فى الأمور. وهو على كل شىء قدير . ومن مظاهر قدرته أنه قدر عليكم أيها الناس أن تكونوا ترابًا لا حياة فيه. ثم أحياكم ليعاملكم معاملة المختبر. ليظهر فى الوجود مَنْ منكم أحسن عمله ومَن أساء، انظر الآية (٧) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٠، ٣٨١ . وهو القادر على مجازاة مَنْ أساء عمله. واسع المغفرة لمَنْ تاب. ومن مظاهر قدرته أيضًا أنه خلق سبع سموات بعضها فوق بعض. لا ترى أيها الناظر لهذا الذى خلقه الرحمن اختلافًا وعدم تناسب. فإن كنت فى ريب من ذلك فارجع البصر إلى السماء فإنك لا ترى فيها خللاً مطلقًا.

ثم أعد البصر مرة بعد مرة ما شئت، يرجع إليك بصرك. ذليلاً، والحال أنه شديد التعب من كثرة المراجعة بدون الحصول على جديد.. والكلام كناية عن كمال النظام فى هذا العالم العظيم. وذلك لا يقدر عليه إلا إله قادر حكيم. وبعدما بيَّن أن هذا العالم العلوى فى غاية النظام، أراد أن يبين أن السماء الأولى مزينة أيضًا بما فيه زيادة بهجتها، ويحفظها من استراق الشياطين للسمع كما تقدم فى الآية (٦) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٨٧، وما سيأتى فى الآية (٨) وما بعدها من سورة الجن صفحة ٧٧١ ، فقال: ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح أى بكواكب كالمصابيح. وجعلنا من هذه الكواكب شهبًا ترجم الشياطين إذا حاولوا الصعود إلى السماء. وأعددنا لهم عذاب جهنم فى الآخرة.. ولكل مَنْ كفر بربه منهم أو من الإنس عذاب جهنم... إلخ.

جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا
شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ
فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ
قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ
أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ[١] كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ
نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ[٢] السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ
فَسُحْقًا لِأَصْحَٰبِ[٣] السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ
٢٠ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ
خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ
وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنْتُمْ[٤] مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ

المفردات: ﴿شهيقًا﴾: أصل الشهيق هو الصوت المزعج كصوت الحمار، والمراد به هنا (الحسيس) المذكور فى الآية (١٠٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١ يحدثه الله سبحانه فيها لشدة إزعاجهم.

﴿تميز﴾: أصله تتميز ، أى ينفصل بعضها عن بعض.

﴿من الغيظ﴾: أى من غيظها منهم، والكلام كله تمثيل لشدة غليانها انتظارًا لهم.

﴿فوج﴾: الفوج هنا الجماعة من الكفرة.

﴿خزنتها﴾: مفرده خازن وهم الملائكة المذكورون فى الآية (٦) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢ .

﴿ألم يأتكم﴾: الهمزة للاستفهام التوبيخى .

﴿نذير﴾: أى رسول يحذركم من هذا العذاب.

﴿بلى﴾: حرف إبطال، كما تقدم فى شرح الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١ .

﴿من شىء﴾: ﴿من﴾ تقدم مثلها فى الآية (٣) من هذه السورة صفحة ٧٥٤ .

﴿إن أنتم﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾.

﴿نسمع﴾: أى كلام الرسول سماع تعقل، انظر الآية (٣٧) من سورة ق صفحة ٦٩١ .

﴿نعقل﴾: أى نتفكر فى آيات الله فى الكون.

﴿سحقا﴾: أصل السحق البعد. ومنه مكان سحيق أى بعيد. والمراد أبعدهم سبحانه بعدًا شديدًا عن رحمته.

---

(١) ضلال.
(٢) أصحاب.
(٣) لأصحاب.
(٤) آمنتم

﴿يخشون ربهم بالغيب﴾: أى يخافونه وهم فى خلواتهم بعيدون عن الرياء.

﴿ذات الصدور﴾: أى خفايا النفوس، كما تقدم فى الآية (١٥٤) من سورة آل عمران صفحة ٨٨.

﴿ألا يعلم﴾: الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى و﴿لا﴾ للنفى ونفى النفى يقرر الإثبات، فالمراد يعلم قطعا.

﴿اللطيف﴾: المراد به هنا العالم بدقائق الأشياء، وخفياتها.

﴿ذلولا﴾: أى مذللة سهلة لا صعوبة فى المعيشة عليها.

﴿مناكبها﴾: جمع مَنْكِب بوزن مجلس، والمراد جوانبها وطرقها.

﴿النشور﴾: البعث من القبور، انظر آيتى (٣، ٤٠) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠، ٤٧٥ .

﴿أأمنتم﴾: الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد كسابقتها. أى يجب ألا تأمنوا.

﴿مَنْ فى السماء﴾: إذا تأملنا ما تقدم فى شرح الآية (٧) من سورة آل عمران صفحة ٦٢ والآية (٥٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠١ والآية (٤٦) من سورة الرحمن صفحة ٧١١ يسهل علينا أن نعلم أنه سبحانه يخاطب خلقه بما يجدونه فى نفوسهم.

والعبد يتصور خالقه فى المقام الأعلى من غير تحديد ولا تمثيل. ولهذا يرفع يديه عند الدعاء إلى السماء، مع اعتقاده أنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء. ويفوض ما خفى عليه إلى ربه.

﴿يخسف بكم الأرض﴾: أى كما خسفها بقارون، انظر الآية (٨١) من سورة القصص صفحتى ٥١٨، ٥١٩ . والله تعالى الموفق للصواب.

المعنى: وللذين كفروا بربهم من الإنس والجن عذاب جهنم. وبئست النهاية جهنم. إذا ألقتهم الملائكة فيها كما فى الآية (٤١) من سورة الرحمن صفحة ٧١١ قابلتهم بصوت مزعج وهى تغلى تكاد تتقطع غيظًا منهم لكفرهم بخالقهم ورازقهم. كلما طرح فيها جماعة منهم متجانسة العمل، يسألهم خزنتها سؤال توبيخ: هل لم يأتكم رسول

يحذركم من غضب الله إذ كفرتم به؟ يقولون: نعم. قد جاء كل جماعة منا نذير. فكذبناهم. وقلنا ما نزل الله عليكم شيئًا مما تزعمونه، وما أنتم أيها الزاعمون للرسالة إلا فى ضلال بعيد عن الصواب. أفرطنا فى تكذيبهم على هذا الوجه، ولو كنا نسمع منهم بإخلاص أو نعقل ما نصبه الله من الأدلة على صدقهم، ما كنا اليوم فى عداد أصحاب السعير. فاعترفوا بذنبهم فى وقت لا ينفعهم فيه الاعتراف.. فأبعدهم الله بعدًا شديدًا عن رحمته، انظر مثل ما هنا فى آيتى (٧١،٧٢) من سورة الزمر صفحة ٦١٦.

ثم أراد سبحانه أن يوسط بين تهديد الكفار وتبشير المؤمنين ليوقظ قلوب المستعدين. فقال:(إن الذين يخشون ربهم)... إلخ. أى إن المؤمنين المخلصين الذين يخافون ربهم فى غيبتهم عن عيون الناس، بعيدين عن الرياء، لهم عند ربهم مغفرة وأجر كبير.

ثم رجع إلى تهديد الكفار المخاطبين ومَنْ على شاكلتهم فقال: وأسروا قولكم... إلخ. وذلك أن كيدهم للنبى ﷺ كان منه ما يسرون به ومنه ما يعلنونه، فهددهم سبحانه وقال: سواء عليكم إسراركم الكيد أو جهركم فلن يخفى على الله شىء منه؛ لأنه عليم بخفيات الصدور. هل يجهل الموجد للشىء ما أوجده؟ وأنتم وجميع أجزائكم من خلقه تعالى، فيجب أن تعلموا أنى أعلم أحوالكم تمام العلم فاحذروا غضبى. وكيف لا يعلم الخالق خلقه وهو العالم بما خفى: الخبير بما ظهر.

ثم نبههم إلى نعمه فقال: هو الذى جعل لكم الأرض مذللة لا صعوبة فى المعيشة عليها، بل وفيها راحتكم، كما فى الآية (٦) من سورة النبأ صفحة ٧٨٧، فامشوا فى نواحيها لطلب الرزق، وكلوا مما رزقكم الله وإليه فى النهاية أمر بعثكم من القبور ليحاسبكم ويجازيكم.

ثم هددهم بأن يحصل لهم ما حصل للكفار قبلهم فقال: أأمنتم... إلخ. أى هل أمنتم نقمته بأن يخسف بكم الأرض... إلخ.

ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن
يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا
ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ
جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا
فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ
بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ
أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ
ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ

المفردات: ﴿تمور﴾: تهتز وترتج ارتجاجا شديداً فتتشقق، انظر الآية (٩) من سورة الطور صفحة ٦٩٧ .

﴿أم﴾: تقدم المراد منها فى الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢، وانظر الآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ .

﴿حاصبا﴾: المراد: ريحا شديدًا، كما تقدم فى الآية (٦٨) من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٣، ٣٧٤ والآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦ .

﴿كيف نذير﴾: المراد بالنذير هنا التحذير. والأصل: (نذيرى): أى تحذيرى، والمعنى كيف كان عاقبة تحذيرى؟ انظر الآية (١٦) من سورة القمر صفحة ٧٠٥ .

﴿نكير﴾: أى إنكارى وغضبى عليهم.

﴿صافات﴾: أى باسطات أجنحتها فى الهواء انظر الآية (٤١) من سورة النور صفحة ٤٦٤ .

﴿يقبضن﴾: أى يَضمُمن أجنحتهن إلى جوانبهن عند الشروع فى التحرك.

﴿ما يمسكهن إلا الرحمن﴾: انظر الآية (٧٩) من سورة النحل صفحة ٣٥٦، وانظر إتقان صنعه سبحانه وتعالى فى مثل هذا فى الآية (٣١) من سورة لقمان صفحة ٥٤٣ .

﴿أمَّن هذا﴾ ... إلخ: أصلها (أم. من) و(أم) هنا بمعنى (بل) الدالة على الانتقال من توبيخ على عدم التأمل فيما سبق مع التهديد، إلى توبيخ وتهديد آخر. و﴿مَنْ﴾ اسم استفهام.

(١) صافات. (٢) الكافرون. (٣) صراط. (٤) الأبصار.

﴿جند﴾: لفظ مفرد. معناه جمع. أى من هذا الجمع الذى تزعمون أنه ينصركم؟... إلخ.

﴿إن الكافرون﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ﴿ما﴾..

﴿فى غرور﴾: أى فى خداع أوقعهم فيه الشيطان. انظر الآية (٦٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٣ . ﴿لجوا﴾: أى تمادوا باندفاع. ﴿عتوا﴾: أى تجبر وتكبر. انظر الآية (٧٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٥ . ﴿مكبا﴾: من أكب بمعنى سقط والمراد: يمشى ووجهه إلى أسفل. فيحتمل سقوطه فى هاوية دون أن يشعر.

﴿أهدى﴾: أى أكثر هداية. ﴿سويا﴾: أى مستقيمًا منتصب القامة.

﴿قليلا ما تشكرون﴾: المراد تشكرون شكرا قليلاً جدا، انظر مثل هذا التركيب فى الآية (٣) من سورة الأعراف صفحة ١٩٢ والآية (١٠) من نفس السورة صفحة ١٩٣ .

﴿ذرأكم﴾: أى كثركم كما تقدم فى الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢ .

﴿هذا الوعد﴾: المراد الموعود به وهو يوم القيامة.

المعنى: هل آمنتم يا كفار العرب أن يخسف الله بكم الأرض كما خسفها بقارون وقوم لوط، فإذا هى حين الخسف تهتز وتضطرب حتى تختفوا تحتها. ثم انتقل سبحانه إلى توبيخ آخر فقال: (أم أمنتم مَنْ فى السماء).. إلخ. أى بل هل أمنتم انتقام من فى السماء بأن يرسل عليكم ما يرميكم بالحجارة من ريح أو طير كما حصل لأصحاب الفيل انظر سورة الفيل صفحة٨٢٢. فإذا أصررتم على العناد فستعلمون ما عاقبة إنذارى؟ وأنها هى الهلاك

ثم أعرض سبحانه وتعالى عن مخاطبتهم احتقارًا لهم موضحًا جهلهم لغيرهم مسليًا رسوله فقال: ولقد كذب الذين من قبلهم كقوم نوح وعاد ما أنذرهم به رسلهم. فماذا كانت عاقبة إنذارى وغضبى عليهم؟ كانت هولاً شديدًا نزل بهم. ولما هددهم بإرسال الحاصب من جهة السماء ناسب أن يكون تذكيرهم بقدرته سبحانه متضمنًا قدرته على إرسال الحاصب على جناح ريح أو طير، فقال: (أولم يروا).. إلخ. أى هل عميت أبصارهم ولم ينظروا إلى الطير حال كونها فوق رءوسهم باسطة أجنحتها، فإذا أرادت التحرك ضمتها إلى جنبها كما يفعل مَن

يسبح فى الماء. وما يحفظهن فى الجو عند البسط والقبض مع ثقلهن و رقة الهواء إلا تدبير الرحمن الذى من رحمته أنه هيأ لها هذا الجو وخلقها على هذا الشكل الذى يسهل لها التحرك لكسب رزقها. إنه سبحانه بكل شىء بصير. فيدبر لكل مخلوق ما يهديه لما به حياته. انظر الآية (٥٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٩ ، ٤١٠ . وانتقل بعد هذا التوبيخ إلى توبيخهم على غرورهم بما لا ينفع، مع توجيه الخطاب إليهم ثانيًا لشدة تقريعهم، وحرمانهم من رحمة اللّه لهم كما رحم ذلك الحيوان الضعيف؛ فقال: أمن هذا الذى هو جند.. إلخ. أى بل مَن هذا الجمع الحقير الذى تزعمون أنه جند لكم ينصركم مستغنيا عن نصر الرحمن الذى حرمتم أنفسكم من رحمته لكفركم به؟ فيمنع عنكم عذابه. الجواب: لا أحد يستطيع ذلك.

ثم بين سبحانه منشأ مصائبهم فقال: (إن الكافرون)... إلخ. أى ليس هؤلاء الكافرون إلا غارقين فى غرور بأن آلهتهم تدفع عنهم الذهاب مثلاً أو تنفعهم. وبعد توبيخهم على كل ما سبق انتقل إلى توبيخهم على إهمالهم شكر المنعم عليهم فقال: أمَّن هذا الذى يرزقكم... إلخ. أى بل مَنْ هذا الذى يرزقكم إن منع الرحمن رزقه عنكم؟ أى لا أحد مطلقًا يستطيع ذلك. هل تظن أيها السامع أنهم تأثروا بكل هذه التحذيرات؟ كلا بل لجوا فى التجبر والعناد والنفور من الحق لثقله عليهم. ثم ضرب سبحانه مثلاً للمشرك والمؤمن يوضح حالهما فى الدنيا فقال: (أفمن يمشى)... إلخ. أى هل بعد كل ما تقدم يصح فى العقول أن يسوى بين رجلين فى الهداية أحدهما يعثر كل خطوة ويسقط على وجهه لصعوبة الطريق الذى اختاره. والثانى يمشى مستوى القامة سالمًا من العثرات لا يسير إلا على طريق مستقيم.

ثم شرع سبحانه يعرفهم بما لا يصح أن يجهلوه فقال: قل.. إلخ. أى قل أيها النبى لكفار قومك: إن اللّه وحده هو الذى خلقكم وجعل لكم السمع لتسمعوا به ما ينفعكم. والأبصار لتنظروا ما يفيدكم. والعقول لتفكروا بها فى دقيق صنع الخالق، وفى معاشكم، ولكنكم لا تشكرون منعمها باستعمالها فيما خلقت له إلا قليلا جدا فكان كالعدم. وقل لهم أيضا: اللّه وحده هو الذى خلقكم لتعيشوا فى الأرض، ويوم القيامة لا تحشرون إلا إليه.

ومن عجيب أمر هؤلاء الكفار أنهم بعد هذه التحذيرات لا يتحولون عن عنادهم فيسألون الرسول ﷺ والمؤمنين على سبيل الاستهزاء قائلين: متى يأتى ما تهددونا به من الحشر والحساب؟

صَـٰدِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ
أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ
عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ
أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ (٣٠)

(٦٨) سُورَةُ القَلَمِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا اثْنَتَانِ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ

المفردات: ﴿نذير مبين﴾: ﴿نذير﴾ أى محذر من غضبه تعالى.

﴿مُبين﴾ أى واضح التحذير، انظر الآية (١٦٨) من سورة البقرة صفحة ٣٢ .

﴿رأوه﴾: المراد: رأوا العذاب الموعود به فى يوم القيامة. عبر بالفعل الماضى مع أنه سيحصل فى المستقبل لأن وقوعه لما كان محققا صار كأنه حصل فعلاً.

﴿زلفة﴾: اسم مصدر من (أزْلَفه) أى قربه. فهى بمعنى قربا وأريد بهذا المصدر اسم الفاعل مبالغة. أى قريبًا، كما تقول: هذا رجل عدل أى عادل.

﴿سيئت وجوه﴾: أى غشيها آثار ما يسوءها. انظر ذلك فى آيتى (٢٦، ٢٧) من سورة يونس صفحة ٢٧٠ وشرح الآية (٤١) من سورة الرحمن صفحة ٧١١ والآية (٢٤) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠ والآية (٤٠) من سورة عبس صفحة ٧٩٣ .

﴿تدعون﴾: المعنى ما كنتم تتصنعون وتتكلفون طلبه استعجالاً به، والمراد ما كنتم تستعجلون به فى الدنيا على وجه الاستهزاء، انظر الآية (١٦) من سورة ص صفحة ٥٩٩ والآية (١٨) من سورة الشورى صفحة ٦٤١ .

---

(١) صادقين.
(٢) ارايتم.
(٣) الكافرين
(٤) آمنا.
(٥) ضلال.
(٦) ارايتم.
(٧) نون.

﴿أرأيتم﴾: المراد أخبرونى.

﴿غورًا﴾: أصله مصدر (غار): الماء، أى ذهب فى جوف الأرض، وأريد به اسم الفاعل أى غائرًا، كما تقدم فى زلفة.

﴿معين﴾: أى ظاهر، تراه العيون، والمراد فى متناول أيديكم.

المعنى: ويقول هؤلاء الكفار استهزاء متى يأتينا ما تعدنا به يا محمَّد أنت ومَنْ معك؟ إن كنتم صادقين فأخبرونا عن وقته. قل لهم أيها النبى لا علم بوقته إلا عند اللَّه.

وليس من مقتضى وظيفتى أنى أعلم ذلك، إنما وظيفتى أى عملى أن أنذركم وأحذركم من وقوعه.

ثـم أراد سبحانه أن يبين حالهم يوم القيامة إذا استمروا على كفرهم فقال: (فلما رأوه)... إلخ. أى وسيرون العذاب الموعود به قريبًا منهم قطعًا فتغشى وجوههم الكآبة. و يقول لهم ملائكة العذاب توبيخًا: هذا هو الذى كنتم تستعجلون به فى الدنيا استهزاء.

ثم شرع فى تسفيه عقولهم فقال: قل أرأيتم... إلخ. أى أخبرونى عن جواب الاستفهام الآتى وهو: إن أماتنا اللَّه قبل أن نشاهد النصر عليكم وأدخلنا الجنة بإيماننا أو رحمنا بإبقائنا حتى نُسر بهزيمتكم وإعلاء الحق، فهل لكم أنتم على كلا الغرضين مَنْ ينقذكم من عذاب النار الأليم؟

الجواب الوحيد أنه لا منقذ لكم أبدًا. أما نحن فضامنون بإذن اللَّه إحدى الحسنين المشار إليهما فى الآية (٥٢) من سورة التوبة صفحة ٢٤٩ .

وفى هذا الكلام حث للكفار على الخلاص من الهلاك. وقل لهم أيها النبى بعد ذلك: ربنا الذى ندعوكم للإيمان به هو الرحمن، آمنا به، فيجيرنا برحمته من عذابه. وكفرتم أنتم به فلن يجيركم. ولا نتوكل فى أعمالنا إلا عليه. بخلافكم فى اعتمادكم على أصنامكم.

وإذا كان الأمر كما ذكر فستعلمون قريبًا من هو فى ضلال ظاهر؟ هل هو نحن أم أنتم؟ وهذا إخراج للكلام مخرج الإنصاف ليستجلبهم إلى طرح العناد فيفكرون لعلهم يصلون إلى الحق. كما فى الآية (٢٤) من سورة سبأ صفحة ٥٦٦ .

ثم انتقل من تنبيههم للأعلى إلى تنبيههم للأدنى كأنه يقول لهم: إن لم تخافوا اللّٰه للحياة الباقية فراقبوه للمحافظة على الحياة الدنيا. فقال: قل أرأيتم إن أصبح الماء الذى تظنونه فى أيديكم لتمكنكم منه غائرًا فى أعماق الأرض. وكان اعتمادهم على الآبار.

فمن غير اللّٰه يأتيكم به ثانيًا ظاهرا تراه أعينكم؟ قيل: إن رجلاً جبارًا لما سمع هذه الآية قال مستهزئًا:

(تأتى به المعاول والفئوس) فأذهب اللّٰه تعالى ماء عينيه. فندم ولم ينفعه الندم. نسأل اللّٰه السلامة وحسن التسليم.

سورة القلم

المفردات: . ﴿ن﴾: تقدم مثل هذا الحرف والمراد من هذه الحروف أول سورة البقرة. وتنطق نُونْ بضم النون الأولى وسكون الأخيرة.

﴿والقلم﴾: أى وحق القلم. انظر سبب الحلف بمثله فى شرح الآية الأولى من سورة الصافات صفحة ٥٨٧ . وحكمة ذلك فى شرح الآية الأولى من سورة الصافات صفحة ٥٨٧. وحكمة ذلك فى شرح الآية (٢) من سورة الجمعة صفحة ٧٤١ .

﴿ما أنت بنعمة ربك﴾: حرفا الجر هنا متعلقان بالنفى المفهوم من حرف ﴿ما﴾ فى ﴿ما أنت﴾ والمراد: انتفى عنك الجنون بسبب نعمة ربك، كما تقدم فى الآية (٢٩) من سورة الطور صفحة ٦٩٨ .

المعنى: نون. وحق القلم وما يسطره به العالمون والمتعلمون إنك أيها النبى لبرىء من الجنون الذى زعموه بسبب نعمة ربك عليك بالحفظ من كل ما يسوءك.

بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ
لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ[١]
ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾
وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ
مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ
ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا[٢] قَالَ أَسَٰطِيرُ[٣]
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ[٤] كَمَا
بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ[٥] ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾
وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ
وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا

المفردات: ﴿بمجنون﴾: الباء لتأكيد نفى ما بعدها كما فى الآية (٢٩) من سورة الطور، وهذا رد على قولهم عنه ذلك فى الآيات (٦) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨ و(١٤) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧ و(٥١) الآتية من هذه السورة صفحة ٧٦١ .

﴿غير ممنون﴾: أى غير مقطوع لأنك مؤمن عملت الصالحات انظر الآية (٣٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤ .

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾: قالت عائشة: كان خلقه القرآن، أى ما فيه من مكارم الأخلاق، ثم قرأت قوله تعالى: (قد أفلح المؤمنون)... إلى آخر الآية (٩) من سورة المؤمنون.

﴿فستبصر ويبصرون﴾ ... إلخ: المراد: فعن قريب ترى أيها النبى وتعلم ويرى ويعلم المفترون عليك بأى فريق منكم المفتون. وقد جاء فى لسان العرب: المفتون هو مَنْ أصابته فتنة أذهبت عقله، ثم استعمل وأريد به المصدر أى الفتنة بمعنى الجنون: كما يقول العرب فلان لا معقول له أى لا تعقل؛ ولا مجلود له أى لا جلد ولا صبر، ولا ميسور له أى لا يسر عنده؛ ولا معسور له أى لا عسر عنده؛ ويقولون بذلت مجهودًا كبيرًا أى جَهْدًا؛ فالمراد هنا بأيكم الجنون؟.

﴿ودوا﴾: أى تمنوا وأحبوا.

﴿لو﴾: حرف يجعل الفعل بعده فى حكم المصدر

---

(١) بأيكم. (٢) آياتنا. (٣) أساطير.
(٤) بلوناهم. (٥) أصحاب.

﴿تدهن﴾: أى تداهن وتلاين وتدارى ولا تكون جادًا. انظر المعنى فى الآية (٨١) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧. وانظر أيضًا شيئًا مما حاولوه فى الآية (٧٣) من سورة الإسراء صفحة (٣٧٤).

﴿حلاف﴾: كثير الحلف فى الحق والباطل. وهو الوليد بن المغيرة. انظر قوله تعالى فى سورة المدثر. ﴿ذرنى ومَنْ خلقت وحيدًا... الآيات﴾.

﴿مهين﴾: المراد حقير الرأى.

﴿هماز﴾: أى كثير العيب للناس.

﴿مشاء بنميم﴾: المراد: نقال للحديث على وجه الإفساد.

﴿مناع للخير﴾: مغرم بمنع نفسه عن عمل الخير؛ وإغراء غيره على منع الخير كذلك: فهو من قبيل ما فى الآية (٣٤) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣ .

﴿معتد﴾: أى شديد التعدى والظلم.

﴿أثيم﴾: أى كثير الآثام أى الذنوب.

﴿عتل﴾: جاف غليظ الطبع.

﴿زنيم﴾: فى لسان العرب: الزنيم هو الذى له فى رقبته زنمة تحت ذقنه. والزنمة بفتحات هى الجلد المتدلى من رقبة الماعز. والمراد هنا: أنه مميز بعلامات من الشر لم تجتمع فى غيره، ولذا قال ابن عباس: الزنيم هو الذى يعرف بالشر كما تعرف الشاة بالزنمة. وقال ابن كثير: الزنيم هو الذى يشتهر بين الناس بالشر، وغالبا يكون هذا الوصف فى الأدعياء.

﴿أن كان﴾: ﴿أن﴾ تجعل ما بعدها فى قوة مصدر. والأصل لكونه ذا مال يكذب آياتنا... إلخ.

﴿ذا مال﴾: أى صاحب مال... إلخ. وسيأتى بيانه فى الآية (١٢) وما بعدها من سورة المدثر صفحة ٧٧٦ .

﴿أساطير الأولين﴾: أى أكاذيب الأولين، تقدم فى الآية (٥) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠، ٤٧١ .

﴿سنسمه على الخرطوم﴾: أى نجعل له.

﴿سِمة﴾: بكسر ففتح ـ على أنفه، أى علامة تميزه والتعبير عن أنفه بالخرطوم للاستهزاء، فالخرطوم اشتهر بأنف الفيل، وهو الجزء الطويل فى مقدم رأسه يستعمله كما يستعمل الإنسان يده والكلام كناية عن إذلاله غاية الإذلال، كما تقول العرب أرغم اللّه أنفه، أى أذله؛ وفى لسان العرب: الوسم أثر الكى بالنار، وفى الحديث أنه ﷺ كان يسم إبل الصدقة ﴿الزكاة﴾ أى يُعلم عليها بالكى.

﴿بلوناهم﴾: أى اختبرنا أهل مكة بالجوع والقحط، كما تقدم فى شرح الآية (١٠) وما بعدها من سورة الدخان صفحة ٦٥٧ .

﴿أصحاب الجنة﴾: هذه الجنة كانت بستانا لرجل صالح من أهل اليمن، وكان يؤدى حق الفقراء فيها. فلما مات قال أولاده: إن فعلنا مثل فعل أبينا افتقرنا، ونحن أصحاب عيال. فصمموا على قطع ثمرها قبل طلوع الصبح خوف حضور المساكين، فأحرقها اللّه فى أول ليلة عزموا على قطعها فيها.

﴿ليصرمنها مصبحين﴾: أى ليقطعن ثمار شجرها وهم داخلون فى وقت الصباح المبكر.

﴿ولا يستثنون﴾: أى ولا ينون استثناء حق المساكين أى إخراجه مما سيأخذونه، كما فى نظيره فى الآية (١٤١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٦ .

﴿فطاف عليها﴾: المراد: أحاط بها نازلاً عليها.

﴿طائف﴾: المراد: بلاء محيط بها فأهلكها.

﴿الصريم﴾: أصله المنقطع عن غيره، وأطلقه العرب على الليل لانقطاعه عن النهار، والمراد: فأصبحت محترقة سوداء كالليل.

المعنى: انتفى عنك أيها النبى الجنون بفضل ربك عليك بالعقل والنبوة. وإن لك فى الآخرة لأجرًا غير مقطوع. وإنك لسائر على خلق عظيم. وعما قريب تعلم ويعلم كفار مكة بأن فريق منكم المجنون. هل هو أنت أم هم؟ وسيظهر أن الذى يخاف اللّه فيحفظه هو العاقل. وغيره الذى عرض نفسه للهلاك هو المجنون. وأن ربك هو أعلم بمَنْ ضل عن سبيله فكان مجنونًا.

وهو أعلم بالمهتدين العقلاء. وكان زعماء كفار قريش طلبوا منه ﷺ أن يتساهل فى تقبيح الشرك وهم يمتنعون عن الطعن فيه. ولما كان هذا مكرا منهم قصد به غلق باب تسفيه عقول مَنْ يشرك فيبقى المشرك على شركه. قال سبحانه لرسوله ﷺ: (فلا تطع)... إلخ. أى وإذا كان الأمر كما علمت من أنهم فقدوا عقولهم فلا تطع كفار قومك المكذبين برسالتك لأنهم يحبون أن تلين فى محاربة الشرك، فهم أيضًا يسالمونك وهم الرابحون؛ لأن قوة البراهين تحطم كل يوم من حصون الشرك ما يزعجهم. وكان زعيمهم فى هذه المكيدة هو الوليد بن المغيرة وكان غنيًا بالمال والأولاد. فقال سبحانه: ولا تطع... إلخ. أى ولا تطع خصوصًا كل حلاف مهين إلى آخر تلك الصفات التسع التى ما اجتمعت فى شخص إلا كان أقبح الخلق، ولفظ ﴿كل﴾ يدل على إرادة عموم ما تجتمع فيه تلك الصفات لا شخص بعينه.. وإن كان جميعها واضحا فى ذلك الوقت فى الوليد بن المغيرة وقوله ﴿بعد ذلك﴾: أى بعد كل هذه النقائص فهو أيضًا اجتمعت فيه شرور أخرى لم تجتمع فى غيره. ولا نعلم أن الله عز وجل، وصم أحدًا بجميع هذه النقائص مثل ما فعل بهذا، حتى ألحق به عارًا لا يفارقه: فأصبح كالعلامة يعرفه بها كل ناظر إليه. ثم سفهه على غروره فقال: أن كان.. إلخ أى لكونه صاحب مال كثير وبنين كثيرين يتهم القرآن حين يتلى عليه بأنه أكاذيب منقولة عن الأمم السابقة.

ثم هدده بالخزى فى الآخرة أيضًا فقال: سنسمه.. إلخ. أى سنطبع على وجهه يوم القيامة من علامات أصحاب الجحيم المستتبعة للمقت والذل ما يجعل الفضيحة. تلاحقه فى آخرته كما لاحقته فى دنياه، انظر الآية (١٠٦) من سورة آل عمران صفحة ٨٠ والآيتين (٤٠، ٤١) من سورة عبس صفحة ٧٩٣ . كما سيأتى فى الآيات (١١) وما بعدها من سورة المدثر صفحة ٧٧٦.

ثم انتقل سبحانه لبيان ما حصل لكفار مكة فقال: (إنا بلوناهم)... إلخ. أى ابتليناهم بالقحط والجوع كما ابتلينا أصحاب البستان حين أقسموا ليقطعن ثماره قبل الصبح قبل تيقظ الفقراء. ولم ينووا إخراج حق المساكين. فأهلكه سبحانه ليلاً فأصبح أسود كسواد الليل، لا ثمر فيه ولا زرع. ثم بيّن سبحانه ما شرعوا فيه وهم لا يشعرون بما حصل. فقال: (فتنادوا)... إلخ.

مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰرِمِينَ[١] ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ[٢] ﴿٢٣﴾ أَن
لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ
قَٰدِرِينَ[٣] ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ
نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا
تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَ[٤] رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ[٥] ﴿٢٩﴾
فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ[٦] ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا[٧]
إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ[٨] ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا
إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ[٩] ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ[١٠]
أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ
جَنَّٰتِ[١١] النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ[١٢] فِيهِ

المفردات: ﴿مصبحين﴾: أى داخلين فى وقت الصباح. ﴿أن اغدوا﴾: ﴿أن﴾ حرف يدل على أن ما بعده بيان للتنادى السابق كأنه قال: كان تناديهم هو قولهم: اغدوا أى اذهبوا وقت الغدوة. بضم الغين. وهو الصباح الباكر.

﴿حرثكم﴾: المراد به ما تنتجه الأرض من ثمار الأشجار والزرع. ﴿صارمين﴾: المراد مريدين قطع ثمار الجنة.

﴿يتخافتون﴾: المراد: يتحدثون بصوت منخفض لئلا يسمعهم المساكين. ﴿أن لايدخلنها﴾: ﴿أن﴾ مفسرة لما به التخافت.

﴿على حرد﴾: أى منع، يقال حرده يحرده بوزن ضربه يضربه أى يمنعه. والمراد منع المساكين من حقوقهم وهو متعلق بـ ﴿قادرين﴾ بعده، وقدم لإفادة الحصر مبالغة فى الذم، كأنه يقول قادرين على المنع لا غير، كما يقال (فلان لا يقدر إلا على الشر).

﴿لضالون﴾: المراد: لمخطئون طريق البستان. ﴿بل نحن﴾... إلخ: ﴿بل﴾ حرف يدل على الرجوع عما قبله. والاعتراف بما بعده.

﴿أوسطهم﴾: أى خيرهم عقلاً، ودينًا. انظر الآية (١٤٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٧، ٢٨ .

﴿لولا﴾: أى هلا. انظر ما تقدم فى الآية (٣٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦ .

﴿تسبحون﴾: المراد: تذكرون الله دائمًا بالتسبيح حتى لا تفعلوا ما يغضبه.

﴿كذلك العذاب﴾: هذا تحذير منه سبحانه لكل مَنْ تحدثه نفسه بعصيان ربه: أى كهذا العذاب الذى حل بأهل مكة. انظر الآية (١٧) الماضية من هذه السورة صفحة ٧٥٨ .

---

(١) صارمين. (٢) يتخافتون. (٣) قادرين. (٤) سبحان.
(٥) ظالمين. (٦) يتلاومون. (٧) يا ويلنا. (٨) طاغين.
(٩) راغبون. (١٠) الآخرة. (١١) جنات. (١٢) كتاب.

﴿مالكم﴾: أى خبل حصل لكم. ﴿كيف تحكمون﴾: ﴿كيف﴾ اسم استفهام مراد به التعجب من هذا الحكم الأعوج، انظر الآية (٢١) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٣ .

﴿أم لكم﴾: ﴿أم﴾ تقدم معناها فى الآية (٩) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ .

﴿كتاب﴾: أى منزل من الله كما تقدم فى الآية (٤٤) من سورة سبأ صفحة ٥٦٩ . والآية (٢١) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٩ .

المعنى: نادى بعضهم بعضًا فى الصباح الباكر قائلاً اذهبوا فى الغدرة مقبلين على ثمار بستانكم إن كنتم مريدين قطعها قبل يقظة المساكين. فانطلقوا وهم يتهامسون سرا بما يحقق عدم دخول المساكين عليهم وهم يجنون ثمارها. وساروا فى الغدوة بحالة لا يقدرون فيها إلا على الحرمان، مع قدرتهم على العطاء. فلما رأوا مكان جنتهم خرابًا ظنوا أنه ليس هو مكانها وقالوا إنا تائهون عنها. ولما تحققوا أنه مكانها قالوا: لم نخطئ بل نحن محرومون، أى حرمنا الله خيرها لظلمنا المساكين، عند ذلك قال خيرهم عقلاً ودينًا: هل لم أعظكم وأطلب منكم أن تذكروا الله دائمًا فلا تغضبوه. قالوا تنزه ربنا تنزيها قويًا عن ظلم عبد من عباده، بل نحن الذين كنا ظالمين، فجازانا بما نستحق. ثم التفت بعضهم لبعض يلوم كل صاحبه، فبعضهم يتبرأ والآخر يقول: لم يرشدنا أحد.. إلخ.

ثم قالوا: يا هلاكنا ومصيبتنا إنا كنا متجاوزين حدود الله. ونرجوا ربنا أن يبدلنا خيرًا منها، إنا راجعون إلى ربنا بالتوبة، راغبون فى فضله. ثم حذر سبحانه كل مَنْ تحدثه نفسه بالعصيان بقوله: كذلك... إلخ. أى كهذا العذاب الذى حلَّ بأهل مكة وأصحاب الجنة يعذب الله عليه كل عاص. وعزتى لعذاب الآخرة أشد من هذا، لو كانوا يعلمون ذلك لما أقدموا على أسبابه. وبعد بيان حال مَنْ عصى ربه ذكر سبحانه حال المتقين ليتبين الفرق فقال: إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم. ثم وبخ صناديد كفار مكة الذين كانوا يزعمون أن الخير هو ما هم عليه انظر الآية (١١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧ فقال: (أفنجعل)... إلخ. أى هل نترك العدل فنسوى بين مَنْ أسلم وجهه لله وبين هؤلاء المجرمين؟.

المراد: لا يمكن فى حكم الله هذا. ثم لفت النظر إلى التعجب من زعمهم فقال: ما لكم.. إلخ. أى هل حصل لكم خبل حتى تحكموا بما تقولونه. ثم انتقل إلى توبيخهم بشىء آخر فقال: (أم لكم كتاب)... إلخ.

تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ[1]
عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ[2] إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ[3] إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾
سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟
بِشُرَكَآئِهِمْ[4] إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ[5] ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن
سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً[6]
أَبْصَٰرُهُمْ[7] تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ
وَهُمْ سَٰلِمُونَ[8] ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ
إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ[9] أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ
مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾
فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ
نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ[10] نِعْمَةٌ مِّن

المفردات: ﴿تدرسون﴾: تقدم فى الآية (٤٤) من سورة سبأ صفحة ٥٦٩ .

﴿لما تخيرون﴾: اللام لتأكيد ثبوت حقهم فيما يختارونه؛ و﴿ما﴾ بمعنى الذى؛ ﴿تخيرون﴾ أى تختارون.

﴿أيمان﴾: المراد عهود. انظر الآية (٨٠) من سورة البقرة صفحتى ١٥، ١٦ والآية (٧٨) من سورة مريم صفحة ٤٠٤ .

﴿بالغة﴾: أى متناهية فى التأكيد وبالغة غايته من قبيل ما فى الآية (١٠٩) من سورة الأنعام صفحة ١٨٠ .

﴿زعيم﴾: أى كفيل وضامن، انظر الآية (٧٢) من سورة يوسف صفحة ٣١٤ .

﴿يوم يكشف عن ساق﴾: العرب تقول ذلك كناية عن يوم الشدة، فالمعنى يوم شدة الهول، وهو يوم القيامة.

﴿خاشعة أبصارهم﴾: أى منكسرة ذليلة، كما تقدم فى الآية (٤٥) من سورة الشورى صفحة ٦٤٥ والآية (٧) من سورة القمر صفحة ٧٠٥ .

---

(١) أيمان.
(٢) بالغة.
(٣) القيامة.
(٤) بشركائهم.
(٥) صادقين.
(٦) خاشعة.
(٧) أبصارهم.
(٨) سالمون.
(٩) تسألهم.
(١٠) تداركه.

﴿ترهقهم ذلة﴾: أى تغشاهم، كما تقدم فى الآية (٢٧) من سورة يونس صفحة ٢٧٠ .

﴿فذرنى ومَنْ يكذب﴾: المراد أرح نفسك أيها النبى واترك لى أمر عقاب المكذبين، فهو تسلية له ﷺ وتهديد لهم.

﴿الحديث﴾: هو القرآن الكريم كما تقدم فى الآية (٢٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩ والآية (٨١) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧ .

﴿سنستدرجهم، وأملى لهم﴾: تقدما فى آيتى (١٨٢، ١٨٣) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢.

﴿من حيث لا يعلمون﴾: أى من جهة يخفى عليهم أنها استدراج. انظر الآية (١٧٨) من سورة آل عمران صفحة ٩٢ والآية (٤٤) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٨، ١٦٩ وآيتى (٥٥، ٥٦) من سورة المؤمنون صفحتى ٤٥٠، ٤٥١ .

﴿أم تسألهم أجرا﴾... إلخ: تقدم فى الآية (٤٠) من سورة الطور صفحة ٦٩٩ .

﴿أم عندهم الغيب﴾: تقدم فى الآية (٧٨) من سورة مريم صفحة ٤٠٤ .

﴿يكتبون﴾: المراد: ينقلون من صحف عندهم هذا الذى يقولونه من الباطل.

﴿صاحب الحوت﴾: هو يونس عليه السلام المتقدمة قصته فى الآية (٨٧) وما بعدها صفحة ٤٢٩ وما بعدها والآية (١٣٩) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٥ .

﴿نادى﴾: أى بقوله: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾: انظر الآية (٨٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٩ .

﴿مكظوم﴾: المراد: أحاط به الغضب، والغم، من كل جهة حتى صار كأنه محبوس فيهما.

المعنى: هل جاءكم كتاب من اللّه تقرءون فيه أن لكم ما تختارونه وتشتهونه فى الدنيا والآخرة. فلذلك تجرأتم على تكذيب رسولنا؟ المراد لا شىء من ذلك، أم لكم عهود آخذتموها علينا مؤكدة بأقوى أنواع التأكيد بأن يكون لكم إلى يوم القيامة كل ما تحكمون به لصالحكم. فلا ينالكم شر أبدا. سلهم أيها النبى مبكتًا: أى واحد منهم ضمن لهم ذلك.

ثم انتقل إلى توبيخ آخر. فقال: (أم لهم)... إلخ. أى بل هل لهم شركاء عقلاء يوافقونهم فيما يقولون وعندهم من الأدلة ما يساعدونهم بها؟

فليأتوا بهؤلاء الشركاء إن كانوا صادقين. الحق أنه ليس عندهم جميعًا إلا تقليد الآباء بدون تعقل.

وبعدما أبطل سبحانه جميع ما يمكن أن يتعلقوا به فى إثبات زعمهم من دليل عقلى مشار إليه فى الآية (٣٥) من هذه السورة ونقلى مشار إليه فى الآية (٣٧) بعدها أو وعد منه سبحانه كما فى الآية (٣٩) أو متبوعون لهم يمكن الاعتماد عليهم كما فى الآية (٤١) هنا. وبعد إبطال كل هذا هددهم سبحانه بقوله: (يوم يكشف)... إلخ. أى اذكر لهم أيها النبى ما سيحصل يوم يشتد الهول ويطلب منهم السجود لله توبيخًا على تركهم ذلك فى الدنيا. وتحسيرا لهم على تفريطهم فيه. فإذا أرادوا ذلك لا يستطيعون.

قال عبدالله بن مسعود: تصير ظهورهم عظمة واحدة بلا مفاصل للنكاية بهم، لا يقدرون حال كونهم خاشعة أبصارهم تغشاهم ذلة وانكسار ندمًا على ما فاتهم وقت التمكن، حين كانوا يدعون إلى السجود فى الدنيا وهم سالمون أى متمكنون منه.

وإذا كان هذا حالهم فأرح نفسك أيها النبى منهم واترك لى هؤلاء المكذبين بهذا القرآن، سنأخذهم شيئًا فشيئًا إلى هلاكهم من حيث لا يعلمون أنهم صائرون إلى الهلاك.

قال سفيان: (نغدق عليهم النعيم وننسيهم الشكر).

وسأطيل لهم مدة النعيم للكيد بهم. إن كيدى قوى شديد. ثم رجع إلى توبيخهم ثانيًا فقال: أم تسألهم.. إلخ. أى بل هل طلبت منهم أيها النبى أجرًا على تبليغ الرسالة فهم من شدة الغرامة متألمون من تحمل ما يثقلهم؟.

أم عندهم علم الغيب فهم يسجلون منه ما يحكمون به من زعم باطل، فيستغنون به عن علمك. ثم أمر سبحانه رسوله بالصبر لحكم ربه بإمهالهم.

ولا يكون كيونس عليه السلام فى سرعة الغضب والضجر حين نادى ربه وهو مكروب فى بطن الحوت، لولا أن تداركته نعمة ربه.

رَبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ[1] رَبُّهُۥ
فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ[2] ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ[3] لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ
لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ[4] ﴿٥٢﴾

(٦٩) سُورَةُ الحَاقَّةِ مَكِّيَّة
وآياتها ثنتان وخمسون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ[5] مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴿٣﴾
كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ
بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾
سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ[6] أَيَّامٍ حُسُومٗا فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ

المفردات: ﴿لنبذ﴾: أى لطرح. ﴿العراء﴾: الأرض الخالية من الزرع والشجر. ﴿مذموم﴾: أى متصف بما يذم عليه. ﴿فاجتباه ربه﴾: أى اختاره لإتمام رسالته. ﴿وإن يكاد الذين كفروا﴾: أى إنهم يقربون... إلخ.

﴿ليزلقونك﴾: اللام لتأكيد قربهم من إيذائه ﷺ و﴿يزلقونك﴾: أى يزيلونك عن مكانك من الأرض فتصرع والعرب تجعل ذلك كناية عن شدة الغيظ فيقولون: نظر فلان إلى فلان حتى كاد يصرعه أو كاد يأكله. كأن العداوة لشدتها قوة صادرة من العين تصرع أو تأكل. ﴿الذكر﴾: هو القرآن.

﴿إلا ذكر﴾: أى تذكير بكل ما ينفع.

المعنى: لولا أنه أدرك يونس فضل من ربه لطرحه الحوت من بطنه بالخلاء متلبسًا بذنبه الذى لامه اللّه تعالى عليه أى فيهلك. لكنه لما كان من المسبحين حفظه اللّه واختاره لإتمام رسالته كما فى الآية (١٤٧) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٥ . وبذلك جعله من الصالحين الكاملين فى الصلاح وهم الرسل، انظر شرح الآية (٩) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢١ . ثم بيَّن سبحانه شدة غيظ الكافرين منه ﷺ بأروع عبارة فقال: (وإن يكاد الذين كفروا)... إلخ. أى إن هؤلاء الكفار لشدة عداوتهم وكراهتهم لك أيها النبى ينظرون إليك بحقد، وأؤكد لك أن غيظهم منك ملأ قلوبهم حتى جعلهم لو استطاعوا الفتك بك لفعلوا. يقع منهم ذلك حين يسمعون منك القرآن. ويعجزون عن محاربته. ويقولون مؤكدين ما يقولون تضليلا للناس وتنفيرا لهم: واللّه إن محمدا لمجنون لأنه يأتى بكلام يتضمن هدم ما وجدنا عليه آباءنا. والحق أن هذا القرآن ليس إلا تذكيرا ووعظًا للعالمين. فكيف يكون مَنْ يتلوه مجنونا؟

---

(١) فاجتباه. (٢) الصالحين. (٣) بأبصارهم.
(٤) للعالمين. (٥) أدراك. (٦) ثمانية.

سورة الحاقة

المفردات: . ﴿الحاقة﴾: مأخوذة من حق الشيء إذا ثبت ووجب. وهى اسم من أسماء القيامة، لأنها واجب حصولها ومن أسمائها أيضًا الواقعة صفحة ٧١٣ . والطامة فى الآية (٣٤) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠ .

والصاخة فى الآية (٣٣) من سورة عبس صفحة ٧٩٣ . والغاشية فى الآية الأولى من سورة الغاشية صفحة ٨٠٤ . والقارعة فى الآية الأولى من سورة القارعة صفحة ٨١٩ .

﴿ما الحاقة﴾: المراد: أى شيء هى الحاقة، وهذا أسلوب يقصد به العرب تهويل أمر الشيء المتحدث عنه كأنه بعيد عن متناول العقول. ﴿وما أدراك ما الحاقة﴾: المراد: لا سبيل لك إلى معرفة وقتها.

﴿ثمود﴾: هم قوم نبى اللَّه صالح عليه السلام. ﴿عاد﴾: هم قوم نبى اللَّه هود عليه السلام.

﴿القارعة﴾: اسم للساعة كما سيأتى فى سورة القارعة صفحة ٨١٩ .

﴿بالطاغية﴾: المراد: الحادثة التى جاوزت الحد فى الشدة، والمراد بها ﴿الصاعقة﴾ المذكورة فى الآية (١٣) من سورة فصلت صفحة ٦٣١ .

﴿صرصر﴾: أى شديدة الصوت مزعجة. ﴿عاتية﴾: بالغة منتهى الشدة فى التدمير.

﴿حسوما﴾: جمع حاسم أى قاطع، بوزن شهود وشاهد، ومنه حسم الكى للداء أى قطعه، والمراد: قاطعات لدابرهم، وهو صفة لسبع ليال وثمانية أيام.

المعنى: الساعة الواجبة الوقوع. ما هى هذه الساعة؟ إن من حقها أن يسأل عنها لشدة هولها. وأى شى أعلمك أيها المخاطب بها؟

المراد: لا يمكن أن يكون ذلك. ثم ذكر بعض الأمم التى كذبت بها، وما حصل لهم ليتنبه كفار مكة . فقال: كذبت ثمود وعاد بالقارعة أى بالقيامة التى تقرع القلوب بالفزع والهول، والسماء بالتشقق، والأرض والجبال بالنسف، ثم فصَّل ما نزل بكل أمة فقال: (فأما ثمود)... إلخ. أى فأما ثمود فأهلكهم اللَّه بصيحة فاقت الحد فى الشدة. وأما عاد فأهلكهم اللَّه بريح مزعجة شديدة التدمير، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام قاطعات لدابرهم، حتى كأن صورتهم العجيبة حاضرة الآن يراها الناظر.

فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم
مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ[1]
بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً
رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ[2] فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾
لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ[3] ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ
فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ[4] ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ
فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾
وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ
أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ[5] ﴿١٧﴾
يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ
كِتَٰبَهُۥ[6] بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟[7] كِتَٰبِيَهْ[8] ﴿١٩﴾ إِنِّى
ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ[9] حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾

المفردات: ﴿صرعى﴾: جمع صريع أى هالك. فهم هلكى بفتح فسكون.

﴿أعجاز نخل﴾: تقدم فى الآية (٢٠) من سورة القمر صفحة ٧٠٦ .

﴿خاوية﴾: خالية، تناثر كل ما فى جوفها.

﴿فهل ترى لهم﴾... إلخ: استفهام إنكارى يفيد النفى؛ و﴿من باقية﴾: ﴿من﴾ للنص على عموم نفى ما بعدها، أى فلا ترى منهم نفسا باقية. بل هلكوا جميعًا.

﴿ومَنْ قبله﴾.. إلخ: أى من الأمم الماضية التى كذبت رسلها كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم وخاصة المؤتفكات، وهى جمع مؤتفكة أى منقلبة، وهى قرى قوم لوط التى خسف الله بها وبهم الأرض، انظر الآية (٧٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣ .

﴿بالخاطئة﴾: أى بالفعلة الشديدة الخطأ.

﴿رابية﴾: مأخوذة من ربا الشىء، أى زاد. والمراد: زائدة فى الشدة.

﴿طغى الماء﴾: المراد: جاوز حده المعتاد.

﴿حملناكم﴾: المراد: حملنا آباءكم الذين أنتم من نسلهم.

﴿فى الجارية﴾: المراد: سفينة نوح عليه السلام.

﴿تذكرة﴾: أى عبرة.

---

(١) المؤتفكات. (٢) حملناكم.
(٣) واعية. (٤) واحدة.
(٥) ثمانية. (٦) كتابه.
(٧) اقرءوا. (٨) كتابيه.
(٩) ملاق.

﴿تعيها﴾ : أى تحفظها باهتمام، ولا تكون مثل ما فى الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢، والعرب تنسب ذلك للأذن وتريد صاحبها.

﴿واعية﴾ : المراد: حسنة الاستعداد للحفظ، ووراءها عقل يفكر، فلا تسمع خطأ، انظر الآية (٣٧) من سورة ق صفحة ٦٩١: قال الزجاج: الأصل أن يقال ﴿وعى﴾ لما يحفظ فى النفس، كما هنا، وكما فى وعيت العلم فى صدرى، و﴿أوعى﴾ لما يحفظ فى وعاء، فيقال أوعيت المتاع فى صندوق، كما فى الآية (١٨) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥، وقد يستعمل كل مكان الآخر، انظر الآية (٢٣) من سورة الانشقاق صفحة ٨٠٠ .

﴿فإذا نفخ فى الصور﴾ : تقدم فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥، وجواب (إذا) قوله الآتى ﴿فيومئذ﴾ .

﴿حملت الأرض والجبال﴾ : أى رفعت من أماكنها من شدة الزلزلة المذكورة فى الآية الأولى من سورة الحج صفحتى ٤٣٢، ٤٣٣ .

﴿فدكتا﴾ ... إلخ: أصل الدك الهدم والتحطيم لجسم كبير مثل الحائط والجبل.

﴿وقعت الواقعة﴾ : تقدم فى الآية الأولى من سورة الواقعة صفحة٧١٣ .

﴿انشقت السماء﴾ : أى تفرق بعض أجزائها عن بعض، انظر الآية (٢٥) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣ والآية الأولى من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥ .

﴿واهية﴾ : أى ضعيفة متداعية سهلة السقوط. ﴿والملك﴾ : المراد جنس الملك فيشمل جماعة منهم. ﴿أرجائها﴾ : الضمير يعود على السماء بمعنى آخر كما قيل فى شرح ﴿رحمتى﴾ الآية (١٥٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١٧، والمراد السماء الجديدة بدل الذاهبة، انظر الآية (٤٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٢٧ ، ومفرد أرجاء ﴿رجى﴾ بوزن ﴿فتى﴾ منونًا ومعناه جانب.

﴿ثمانية﴾ : أى من الملائكة، ومن الأدب مع علام الغيوب البعد عن الخوض فى أوصافهم وسبب عددهم.

﴿هاؤم﴾ : ﴿هاء﴾ اسم فعل بمعنى ﴿خذ﴾ ، والميم تدل على أن المخاطب جمع أى ﴿خذوا﴾ : ومفعوله محذوف دل عليه ما بعده وهو الكتاب المذكور بعده، والمخاطبون مراد بهم مَنْ يسره اجتماعه بهم فى الجنة، وهم المذكورون فى الآية (٢٣) من سورة الرعد صفحة ٣٢٥

﴿كتابيه﴾ : الهاء هنا وفى ﴿حسابيه﴾ و ﴿ماليه﴾ و﴿سلطانيه﴾ . تسمى ﴿هاء السكت﴾ وهى حرف يلحقه العرب بالكلمة إذا أرادوا السكوت عليها . ثم توسعوا وأثبتوها حتى مع الوصل. ﴿ظننت﴾ : المراد : تيقنت كما فى الآية (٤٦) من سورة البقرة صفحة ١٠ .

﴿عيشة﴾ : هى حالة الإنسان التى يعيش عليها، انظر تفصيل ذلك فى الآية (٢٠) من سورة الحجر صفحة ٣٣٩ . ﴿راضية﴾ : المراد : راض بها صاحبها رضا كثيرا حتى كأنها هى الراضية .

المعنى ـ أرسل سبحانه الريح على عاد فأهلكتهم. فترى القوم ـ لو كنت حاضرًا فى تلك الليالى والأيام ـ مطروحين على الأرض قتلى، كأنهم لضخامة أجسامهم قوائم نخل جوفاء . فلا ترى منهم نفسًا باقيًا . وجاء بعدهم فرعون ومَنْ تقدمه من الأمم الكافرة . وخصوصًا أهل قرى قوم لوط التى قلبها اللّه تعالى عليهم. جاء كل هؤلاء بالفعلة الشنيعة الخطأ . ثم فسر بعضها فقال: فعصوا أى عصيت كل أمة رسول ربها فعاقبهم سبحانه عقابا شديدًا، انظر الآية (١٠٢) من سورة هود صفحة ٢٩٩ . ثم ذكر سبحانه أنه نجى مَنْ آمن به وأغرق مَنْ كفر فقال: إنا لما طغى الماء... إلخ. أى إنا لما تجاوز الماء الحد المألوف كما فى آيتى (١١، ١٢) من سورة القمر صفحة ٧٠٥، حملنا آباءكم المؤمنين مع نوح فى السفينة التى صارت تجرى بهم فى موج كالجبال، كما فى الآية (٤٢) من سورة هود صفحة ٢٩٠ نجينا كل مَنْ فيها لنجعل هذه الحادثة عبرة تدل على كمال قدرتنا . ولتحفظها الآذان ذات القلوب المتيقظة فينتفع بها أصحابها فلا يغضبون ربهم. وبعدما بين سبحانه هول القيامة شرع فى بيان كيفية وقوعها فقال: (فإذا نفخ)... إلخ. أى إذا نفخ إسرافيل فى الصور نفخة واحدة لا تحتاج إلى تكرار. ورفعت الأرض والجبال عن مكانها . وحطمتا تحطيمة واحدة كذلك. فيوم يحصل هذا تقوم القيامة. وتتشق السماء وتتداعى للسقوط، وتذهب وتبدل بسماء غيرها، ويقف الملائكة على جوانبها ينتظرون أوامر ربهم، ويحمل عرش ربك فوق هؤلاء الملائكة ثمانية ملائكة آخرون. يوم يحصل كل هذا الموقف الرهيب تعرضون أيها الخلائق على اللّه للحساب. لا تخفى عليه من سرائركم خافية. ثم فصل سبحانه أحوال الخلق عند العرض فقال: فأما مَنْ أوتى كتابه بيمينه فيقول أى لمَنْ يسره اجتماعه بهم ويسرهم سروره من الآباء والأزواج والأبناء: خذوا كتابى اقرءوه ليسركم سرورى. ثم يذكر سبب هذه السعادة فيقول: إنى كنت فى الدنيا متيقنًا أنى سألاقى هذا الحساب. والمراد: كنت مؤمنًا باليوم الآخر. وفيه تعريض بالكفار الذين ينكرونه. ثم يكون مآله بعد ذلك أن يكون فى عيشة اشتد رضاه عنها حتى كأنها هى الراضية.

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا
هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
كِتَٰبَهُۥ(١) بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي(٢) لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ(٣) ﴿٢٥﴾
وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا(٤) كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾
مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ(٥) ﴿٢٩﴾
خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ
ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ
بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾
فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا(٦) حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ
غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ(٧) ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ
بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ
كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

المفردات: ﴿عالية﴾: أي مرتفعة منزلتها وقصورها وأشجارها.

﴿قطوفها﴾: جمع قطف بكسر فسكون بمعنى المقطوف كالذبح بمعنى المذبوح فى الآية (١٠٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩٣؛ والقطف هو ما يجنى بسرعة وسهولة.

﴿دانية﴾: أى قريبة التناول.

﴿أسلفتم﴾: أى قدمتم من الصالحات.

﴿فى الأيام الخالية﴾: أى الماضية وهى أيام الدنيا دار التكليف.

﴿يا ليتها﴾: أى الموتة التى متها فى الدنيا وهى مفهومة من سياق الكلام، كما فى قوله تعالى: ﴿ما ترك على ظهرها﴾ الآية (٤٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨ .

﴿القاضية﴾: أى القاطعة لأمرى فلا أبعث ثانية، بل أكون ترابًا، انظر الآية (٤٠) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨ .

﴿ماليه﴾: أى ما كان لى فى الدنيا من مال وغيره.

﴿هلك﴾: أى فقد، وذهب.

﴿سلطانيه﴾: السلطان هنا معناه الحجة، كما فى الآية (٦٨) من سورة يونس صفحة ٢٧٧ والمراد: ظهر بطلان ما كنت أحتج به فى الدنيا من حجج واهية، كاتباع الآباء مثلاً.

---

(١) كتابه. (٢) يا ليتنى.
(٣) كتابيه. (٤) يا ليتها.
(٥) سلطانيه. (٦) ها هنا.
(٧) الخاطئون.

﴿فغلوه﴾: أى ضعوا فى عنقه الأغلال، انظر الغل فى شرح الآية (٤) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١ .

﴿الجحيم﴾: هى النار شديدة التأجج.

﴿صلوه﴾ :أى أدخلوه فيها، انظر الآية (٣) من سورة المسد صفحة ٨٢٦ .

﴿ذرعها﴾: أصل معنى الذرع قياس الشىء بالذراع، وأريد به هنا قياسها. ومقدار طولها.

﴿فاسلكوه﴾: أى أدخلوه فيها، انظر الآية (٢١) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩ .

﴿لا يحض﴾: أى لا يأمر غيره.

﴿طعام﴾: المراد: إطعام . فهو مصدر كالعطاء بمعنى الإعطاء.

﴿حميم﴾: أى محب قوى المحبة يحميه. انظر شرح الآية (١٠١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦ .

﴿غسلين﴾: أصله ما يسيل من الجراح إذا غسلت، والمراد: الصديد والدم الذى يسيل من أجساد أهل النار.

﴿فلا أقسم﴾: تقدم المراد من ذلك فى الآية (٧٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧ .

﴿بما تبصرون ﴾... إلخ: المراد: بجميع ما تشاهدونه، وما غاب عنكم، ومما غاب: (الملائكة، وأحوال الآخرة، بل وبعض المخلوقات الدقيقة التى لم يمكن رؤيتها للآن)، انظر الآية (٣) من سورة البقرة صفحة ٣ . ولا تنس ما سبق فى شرح سورة الصافات صفحة ٥٨٧ .

﴿إنه﴾: أى القرآن. ﴿لقول رسول﴾: المراد قول رسول الله مبلغًا عن ربه بدليل الآية (٤٣) الآتية ويصح أن يراد به جبريل. انظر الآية (١٩) من سورة التكوير صفحة ٧٩٤ .

﴿بقول﴾: الباء لتأكيد نفى ما بعدها.

﴿شاعر﴾: أى كما تفترون.

﴿قليلاً ما﴾.. إلخ تقدم شرح هذا التركيب تفصيلاً فى الآية (٨٨) من سورة البقرة صفحة ١٧ . وانظر الآية (٥٨) من سورة غافر صفحة ٦٢٥ .

المعنى: إن فريق أهل اليمين يكون فى الآخرة فى جنة عالية ثمارها قريبة من كل راغب. تقول لهم الملائكة إدخالاً للسرور عليهم كلوا واشربوا أكلا وشربا هنيئًا. جزاء ما قدمتم فى الدنيا من الأعمال الصالحة. وأما مَنْ أعطى كتابه بشماله فيقول متحسرًا عندما يرى قبح عمله: يا أيها الناس ليتنى لم أعط كتابى حتى لا أعرف ما فيه. ولا ما هو حسابى. لم ينفعنى ما كان لى فى الدنيا أقل نفع، غاب عنى ما كنت أظنه حججًا تنفعنى. عند ذلك ينادى سبحانه وتعالى الملائكة بقوله: خذوه فضعوا الغل فى عنقه. ثم أدخلوه الجحيم؛ ثم كبلوه فى سلسلة طويلة تحوطه من جميع جهاته، لأنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يأمر غيره بإطعام المساكين وذلك لشدة بخله.

ولما سمع أبو الدرداء رضى الله عنه: ذلك علم أن منشأ هذا الشقاء شيئان هما أفظع الجرائم: الكفر بالله، والبخل المشعر بقسوة القلب على الفقير، فكان يقول لامرأته: أكثرى من المرق لأجل المساكين؛ لأن الله مَنَّ علينا بخلع نصف تلك السلسلة البشعة بالإيمان، فلا يصعب علينا خلع النصف الآخر بإطعام المساكين. عليك رضوان الله يا أبا الدرداء؛ نرجو من الله أن يوفقنا لما وفقك له.

فليس للكافر يوم القيامة فى جهنم صديق ينفعه. ولا طعام إلا من صديد ودماء أهل النار، وما هنا وما فى الآية (٥٢) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥ من أن طعامهم الزقوم، وما فى الآية (٦) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥ من أنه الضريع.

كل هذا يشعر بأن أهل النار طبقات. لكل منهم طعام مخصوص كما أن لكل طبقة بابا مخصوصًا يدخلون منه إلى جهنم، انظر الآية (٤٤) من سورة الحجر صفحة ٣٤١ لا يأكل هذا الطعام إلا مَنْ تعمد الخطايا واستمر عليها عنادا.

ثم انتقل سبحانه إلى تعظيم أمر القرآن والرسول المنزل عليه فقال: فلا أقسم بما تشاهدونه ومالا تشاهدونه... إلخ. أى أن ما سأقوله فى غاية الوضوح، وهو أن هذا القرآن قاله لكم رسول كريم على ربه. مبلغا عنه. لا من عند نفسه. وليس هو قول شاعر كما تفترون، انظر الآية (٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠؛ لأن الشعر كله خيال لا حقيقة له. وأما ما يبلغه الرسول فحق كله. ولكنكم لشدة عنادكم قليلا ما تصدقون. فلا يرفع عنكم الخلود فى النار.

وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ
الْعَالَمِينَ[1] ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾
لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾
فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ[2] ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ
لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ[3] ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

(٧٠) سُورَةُ المَعَارِجِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا أَرْبَعٌ وَأَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ[4] لَيْسَ لَهُ

المفردات: ﴿بقول﴾: الباء كسابقتها.

﴿كاهن﴾: هو الذى يدعى علم الغيب، يستغل به البسطاء.

﴿قليلاً ما﴾: تقدم شرح هذا التركيب تفصيلاً فى الآية (٨٨) من سورة البقرة صفحة ١٧، وانظر الآية (٥٨) من سورة غافر صفحة ٦٢٥.

﴿قليلاً ما تذكرون﴾: ﴿تذكرون﴾ أصلها تتذكرون أى تتفكرون وتتأملون: والمراد تتذكرون تذكرًا قليلاً جدا، لا ينفع، كما تقدم فى الآية (٣) من سورة الأعراف صفحة ١٩٢.

﴿تقول علينا﴾: التقول تكلف القول والمراد: افترى قولا من عند نفسه ونسبه إلينا.

﴿الأقاويل﴾: هى جمع (أقوال) التى هى جمع (قول)، ولكنها اشتهرت فى الأقوال المكذوبة احتقارًا لها، كما يقولون أضاحيك وأعاجيب.

﴿لأخذنا منه باليمين﴾: أى لقبضنا على بعضه.

ثم بيَّن هذا البعض بأنه اليمين، والكلام كناية جرت على عادة العرب فى الأخذ بيمين مَنْ يريدون عقابه، كما يقول السلطان لمَنْ يريد إهانته: خذوا على يديه.

﴿الوتين﴾: هو عرق متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.

---

(١) العالمين.
(٢) حاجزين
(٣) الكافرين
(٤) للكافرين.

﴿فما منكم﴾: ﴿ما﴾ بمعنى (ليس). ﴿من أحد﴾: ﴿من﴾ حرف أريد به النص على عموم ما بعده.

﴿أحد﴾: أريد به هنا الجمع، بدليل ﴿حاجزين﴾ الآتية فالمعنى: فليس جمع منكم يمنع عنه عقابنا، وانظر معنى ﴿أحد﴾ فى الآية (٢٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٦١، ٦٢ .

﴿وإنه﴾: أى القرآن الذى يقولون عنه إنه شعر.

﴿لتذكرة﴾: أى تذكير وعظة.

﴿للمتقين﴾: لأنهم هم الذين ينتفعون به، انظر الآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ .

﴿لحسرة﴾: المراد: أؤكد أنه سيكون سبب حسرة لهم يوم القيامة إذا رأوا ثواب المؤمنين.

﴿لحق اليقين﴾: أى لهو الحقيقة التى يجب أن تتيقن، انظر شرح الآية (٩٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٨ .

المعنى: وليس القرآن بقول كاهن قليلاً ما تتذكرون أيها الكفار وتتأملون فى أحوال الرسول الذى لم يعرف عنه إلا الصدق، وفى معانى القرآن التى تنافى الكهانة.

والحق أن هذا القرآن منزل من رب العالمين على أكرم المرسلين. ثم صور سبحانه أبشع صور العذاب لمن يكذب عليه أى فلا يعقل أن ينصر محمداً ويؤيده إذا كذب عليه.

فقال: (ولو تقوّل علينا)... إلخ. أى لو نسب إلينا محمد بعضاً يسيرًا من الأكاذيب فضلاً عن هذا القرآن الكريم لأخذنا منه باليمين وأهلكناه. فصور الهلاك هنا بأفظع صورة يفعلها الملوك بمَنْ يغضبون عليهم، فإن المأمور بتنفيذ القتل يأخذ المذنب من يمينه ويضربه بالسيف فوق نحره وهو ينظر إليه، لو كذب علينا محمد وفعلنا به ذلك فليس جمع منكم يستطيع منع هذا العقاب عنه.

وإن هذا القرآن لمذكر وواعظ للمتقين. وإنا لنعلم أن بعضكم يا أهل مكة مكذبون، وبعضكم مؤمنون، وسنجازى كلا بما هو أهله، وإن هذا القرآن لهو سبب حسرة على الكافرين إذا رأوا فى الآخرة ثواب المتقين وعقاب الكافرين.

ولولا أن الرسول بلغهم القرآن لما حصل لهم كل هذا ، وإن هذا القرآن لهو الحق الذى يجب أن يتيقن. وإذا كان الأمر كما ذكر فسبح أيها النبى ربك بذكر اسمه العظيم منزها له عن الرضا بالكذب عليه.

سورة المعارج

المفردات: ﴿سأل سائل﴾: أى طلب. والمراد دعا مستعجلاً استهزاء.

﴿بعذاب﴾: هو المذكور فى الآية (٣٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١ والآية (٩٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٧ والآية (١٦) من سورة ص صفحة ٥٩٩ .

﴿واقع﴾: أى لابد من وقوعه. ﴿للكافرين﴾: أى عليهم.

المعنى: كان بعض صناديد الكفر إذا هددهم النبى ﷺ بالعذاب فى الدنيا أو فى الآخرة يطلبون وقوعه استهزاء، فنزل فيهم قوله سبحانه: (سأل سائل)... إلخ. أى طلب من الله طالب من صناديد الكفر بمكة أن ينزل عليهم العذاب الذى حذرهم ﷺ من وقوعه فى الدنيا أو الآخرة. وإنما قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء به.

وقد تضمنت هذه السورة: ـ

أولاً: ـ الرد على مَنْ يستعجلون العذاب.

ثانيًا: تحذير الكفار بهول يوم القيامة وما يحدث فيه.

ثالثًا: بيان لاختلاف أحوال الإنسان فى حال الخير والشر.

رابعًا: ـ ذكر صفات المؤمنين التى تؤهلهم للنعيم الدائم وهى ثمان صفات.

خامسًا: تيئيس مَنْ يبقى على الكفر من دخول الجنة.

سادسًا: ـ بيان الحكمة فى تأخير العذاب عنهم ليزدادوا جرمًا فيزداد عذابهم.

دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ[١]
وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾
فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ[٢]
قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ
ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ[٣] حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾
يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ
بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ[٤] وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى
تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا
لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾
وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ[٥] خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾
إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾
إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ[٦] ﴿٢٣﴾

المفردات: ﴿ذى المعارج﴾: أى صاحبها وخالقها.

و﴿المعارج﴾: : جمع مَعرج بفتح الميم والراء، بينهما عين ساكنة؛ والمعرج هو مكان العروج أى الصعود.

﴿تعرج﴾ أى تصعد.

﴿الروح﴾: هو جبريل عليه السلام، انظر الآية (١٩٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١ . وخصه سبحانه وتعالى بالذكر لزيادة شرفه.

﴿إليه﴾: أي إلى عرشه وموطن تدبيره.

﴿فى يوم﴾: هو يوم القيامة.

﴿خمسين ألف سنة﴾: أى من سنى الدنيا لو صعد فيه غير الملائكة انظر ما قيل فى الآية (٤٧) من سورة الحج صفحة ٤٤٠ ؛ ولهذا قالوا: إن المراد إفادة أنه لشدة هوله على الكافر يتوهم أنه بهذا المقدار.

أما المؤمن فإنه يكون أقصر عليه من مقدار صلاة مفروضة كما ورد فى الحديث الصحيح.

﴿صبرا جميلاً﴾: هو الذى لا يخالطه ضجر ولا شكوى لمخلوق.

﴿يرونه بعيدًا﴾: أى يظنون العذاب بعيدًا عن الوقوع.

﴿ونراه قريبًا﴾: أى نعلم أن العذاب اللائق بكفرهم وهو عذاب الآخرة الذى يعد عذاب الدنيا بجانبه عدمًا قريب الوقوع؛ وانظر تهديدهم بعذاب الدنيا الذى حل بهم فى صفحتى ٢٧٣، ٢٧٤ .

﴿المهل﴾: المراد به هنا المعدن الأحمر المذاب، كما تقدم فى الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥ .

---

(١) الملائكة. (٢) نراه. (٣) يسأل.
(٤) صاحبته. (٥) الإنسان. (٦) دائمون.

﴿العهن﴾: هو الصوف، كما سيأتى فى الآية (٥) من سورة القارعة صفحة ٨١٩، ولا تنس شرح الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧ .

﴿حميم﴾: هو القريب والصديق، شديد المحبة المشفق على مَنْ يحبه، انظر شرح الآية (١٠١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦ . ولمجيئه نكرة فى مقام النفى كان المراد به العموم؛ ولذا جمع ضميره بعد ﴿يبصرونهم﴾: الجملة حال من كل من ﴿حميم﴾ و ﴿حميمًا﴾؛ لأن قصد العموم فيهما صحح مجىء الحال منهما، والتبصير: التعريف. يقال بصره الشىء أى عرفه به.

والمراد هنا: يعرف اللّه تعالى كل حميم حميمه ومع ذلك فلا يلتفت أحد لأحد من شدة الهول، فيظهر لهم فساد الاعتماد على غير العمل؛ وخطر صحبة الأشرار. كما فى الآية (٢٨) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣ .

﴿يود﴾: أى يحب ويتمنى. ﴿لو يفتدى﴾: ﴿لو﴾ حرف يجعل الفعل بعده فى قوة المصدر، فالمعنى افتداء نفسه. ﴿صاحبته﴾: زوجته. ﴿فصيلته﴾: أسرته التى فصل عنها، أى تفرع منها.

﴿تؤويه﴾: أى تضمه لها عند الشدائد.

﴿ثم ينجيه﴾: عطف على ﴿يفتدى﴾ وضمير الفاعل عائد على ﴿مَنْ فى الأرض﴾ وعطف بحرف ﴿ثم﴾ لبيان استبعاد الإنجاء، والمراد يتمنى المجرم لو كان الجميع تحت يده ويقدمهم فداء لنفسه ثم ينجيه ذلك، وذلك مستحيل.

﴿كلا﴾: حرف يدل على الزجر عما قبله. ﴿إنها﴾: أى النار المفهومة من المقام الذى يذكر فيه العذاب، وذلك نظير ما فى الآية (٤٥) من سورة فاطر صفحة ٥٧٨ .

﴿لظى﴾: اسم من أسماء نار الآخرة لأنها تتلظى أى تتلهب دائمًا، انظر الآية (١٤) من سورة الليل صفحة ٨١١ .

﴿نزاعة﴾: أى شديدة نزع الشىء المتصل بشىء آخر. ﴿للشوى﴾: جمع شواة بفتح أوله، وهى جلدة الرأس. ﴿تدعو﴾: أصل معنى تدعو تطلب. والمراد: أن العاصى يجذب إلى جهنم بلا تأخير كأنه مطلوب من ملك جبار لا يخالف أمره، انظر الآية (٢٢) من سورة الحج صفحة ٤٣٦ .

﴿أدبر﴾: أى أعطى ظهره للحق. ﴿تولى﴾: انصرف معرضًا عن الطاعة.

﴿جمع فأوعى﴾: أى جمع المال ووضعه فى وعاء لشدة حرصه على الدنيا.

﴿هلوعًا﴾: أصله من الهلع وهو السرعة. تقول العرب (ناقة هلوع) أى سريعة السير، والمراد هنا: سريع الجزع عند حصول مكروه، وشديد المنع عند حصول الخير. فما بعده تفسير له. ﴿جزوعًا﴾: أى كثير الجزع وهو عدم الصبر.

المعنى: لما استعجل زعماء الكفر بمكة العذاب استهزاءً كما تقدم، أنذرهم سبحانه بأن العذاب الأكبر فى جهنم حاصل قطعًا لكل كافر لا يستطيع أحد دفعه؛ ثم بيَّن سبحانه أنه واقع. أى حاصل من اللَّه تعالى خالق المصاعد التى تصعد عليها الملائكة وجبريل إلى مهبط أمره سبحانه فى يوم طويل جدًا على الكافرين. ثم خفف عن نبيه وقع تكذيبهم له فقال: فاصبر... إلخ. أى إذا استعجل هؤلاء العذاب استهزاءً بأخبارك أيها النبى فلا تضجر واصبر صبرًا جميلاً. والذى غر هؤلاء الكفار أنهم يستبعدون وقوع العذاب الذى أنذرتهم به. ولكن ربك يعلم أنه سيحصل لهم قريبًا ما هو أفظع منه وهو عذاب القيامة. يوم تكون السماء كالنحاس المذاب، انظر الآية (٣٧) من سورة الرحمن صفحتى ٧١٠،٧١١، وتكون الجبال كالصوف المنفوش تتطاير فى الهواء، ولا يطلب قريب من قريبه مساعدة. فى حال أن اللَّه عرف كلا منهما صاحبه. لشدة الهول التى شغلت كلا بنفسه. ومن مظاهر هذا الهول أن المجرم يتمنى افتداء نفسه من عذاب هذا اليوم بكل مَنْ كانوا أعزاء عليه فى الدنيا، حتى لو استطاع أن يفتدى بجميع مَنْ فى الأرض لينجو لفعل، ولما كان هذا اليوم لاينفع فيه فداء كما فى الآية (٣٦) من سورة المائدة صفحة١٤٣ زجرهم سبحانه عن الطمع فى ذلك بقوله: كلا... إلخ. أى كفوا عن هذا وانتظروا، إن مكانكم نار تلظى، شديدة نزع الجلود من على الرءوس فتحرقها ثم تعود كما كانت كما فى الآية (٥٦) من سورة النساء صفحتى ١٠٩، ١١٠. هذه النار يطلب إليها مَنْ أعرض عن الحق. وانصرف عن الطاعة. واختزن المال فى أوعية ولم يؤد حق الله فيه. ثم بيَّن سبحانه طبع أكثر الناس فقال: إن الإنسان خلق سريع الجزع عند المكروه. لا يعرف فضل الصبر. شديد المنع للخير إذا وسع اللَّه عليه. ولم يسلم من هذا العيب إلا الذين عالجوه بالمداومة على الصلاة. فإنها تساعد على الصبر ومكارم الأخلاق انظر الآية (٤٥) من سورة البقرة صفحة ١٠ والآية (١٣٢) من سورة طه صفحة ٤١٩ .

وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾
وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ
رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَى
وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ
قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾
أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا
قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾
أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا
إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ

المفردات: ﴿حق معلوم للسائل﴾ ... إلخ: لما كانت هذه السورة مكية، والزكاة المعروفة لم تحدد مقاديرها إلا فى المدينة بعد الهجرة؛ وأيضًا لما اقتصر فى بذل المال هنا على الفقراء فقط وكان للزكاة المعهودة مصارف ثمانية، انظر الآية (٦٠) من سورة التوبة صفحة ٢٥١؛ لما كان كل هذا قال العلماء: إن الزكاة لما فرضت أولاً بمكة كانت غير محددة المقادير [1]، بل متروك أمرها للمؤمنين يبذل كل واحد منهم ما يريد أن يتقرب به إلى الله وكان فيهم مَنْ أوجب على نفسه مقدارًا معينًا يؤديه للفقراء فى أوقات معينة قال الألوسى: ﴿حق معلوم﴾: أى نصيب معين يؤديه الرجل كل جمعة، أو كل شهر مثلاً. فهذا النوع من المؤمنين هم الذين امتدحهم الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة كما امتدح نوعًا آخر أعلى من هؤلاء فى قوله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ الآية (٩) من سورة الحشر صفحة ٧٣١، ثم انظر بعد كل هذا ما تقدم فى شرح الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٤،٣٣ فستجد فيها أن الشارع طلب بذل مال غير الزكاة المفروضة. ولما كان لفظ ﴿أموالهم﴾ مفردًا مضافًا فيفيد عموم كل مال، كما قال العلماء يكون من لطف الله بالمحرومين أن يحث الأغنياء على إعطائهم بعضًا من كل ما

---

(١) أموالهم.	(٢) للسائل.	(٣) حافظون.
(٤) أزواجهم.	(٥) أيمانهم.	(٦) لأماناتهم.
(٧) راعون.	(٨) بشهاداتهم.	(٩) قائمون.
(١٠) جنات.	(١١) خلقناهم.	(١٢) المشارق.

---

(١) انظر ذكر الزكاة فى السور المكية الآية (٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٥ وغير ذلك فى السور المكية كثير.

يسمى مالاً. ولو لم يكن فيه زكاة، كالعسل بجميع أنواعه، والطيور، وغير ذلك من كل ما تتطلع إليه نفس المحروم، وبذا يكون المسلمون أسرة واحدة رباطها التراحم، لا القسر والقوة؛ فما أروع هذا الدين وما أسمى تعاليمه. لو وفق أهله للعمل به. ﴿للسائل﴾: هو الفقير الذى يسأل الناس. ﴿المحروم﴾: هو الفقير الذى يتعفف عن سؤال الناس فيظنه الجاهل غنيًا. فيحرم من العطاء، انظر الآية (٢٧٣) من سورة البقرة صفحة ٥٨. (بيوم الدين) أى يوم القيامة انظر الآية (٤) من سورة الفاتحة صفحة ٢. ﴿مشفقون﴾: أى خائفون فلا يفرطون فى طاعة: انظر شعورهم بمزية هذا فى الآخرة فى الآية (٢٦) من سورة الطور صفحة ٦٩٨. ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾: فيجب على المؤمن البعد عن أسبابه. ﴿والذين هم لفروجهم﴾.. إلى آخر الآية (٣٢): تقدم فى صفحة ٤٤٦. ﴿بشهاداتهم﴾: أى التى تطلب منهم عند الفصل فى المنازعات. ﴿قائمون﴾: المراد يؤدونها قائمة على أصولها. ليس فيها ميل عن الحق. ﴿على صلاتهم يحافظون﴾: المراد يحافظون على أركانها وشروطها وسننها وآدابها على أكمل وجه، فهذا غير المداومة عليها المتقدمة فى الآية (٢٣). ﴿مكرمون﴾: أى يكرمهم اللّه فى الجنة. ﴿فمال الذين كفروا﴾: هكذا رسم فى المصحف الإمام، الذى أقره الصحابة فى عهد خلافة عثمان بن عفان رضى اللّه عنه، والرسم المعروف الآن ﴿فما للذين كفروا﴾ والمعنى: أى شىء حصل لهم استخف عقولهم. ﴿قبلك﴾: أى جهتك وحولك. ﴿مهطعين﴾: المراد مسرعين ليسمعوا مايجعلونه مثار استهزاء، وهى حال من (الذين كفروا) وكذا (عزين) وهى جمع عزة بكسر أوله، وفتح ثانيه، وهى الجماعة والمراد: جماعات. جماعات. (أيطمع): الهمزة للاستفهام التوبيخى. ﴿كلا﴾ حرف يدل على الزجر عما قبله، ﴿مما يعلمون﴾: المراد من نطفة مهينة قذرة، انظر الآية (٢٠) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٥ فهذا غمز خفيف لغطرستهم؛ انظر الآيات (١٧، ١٨، ١٩) من سورة عبس صفحة ٧٩٢.

﴿فلا أقسم﴾: المراد: أن الأمر أوضح مما يحتاج إلى قسم. ﴿المشارق﴾: جمع مَشْرِق، بفتح فسكون، فكسر، للشمس والقمر والنجوم.

المعنى: فى طبع الإنسان شدة الجزع عند الشدائد. وشدة البخل عند الرخاء، ولايعدل هذا الطبع ويدفع ضرره إلا مراقبة اللّه واتباع إرشاداته. ولايوفق لذلك إلا الذين جمعوا الصفات الآتية. وهى أن يكونوا محافظين على الصلاة فى أوقاتها. وأن يخصصوا من أموالهم

نصيبًا حسب طاقتهم يعطونه لأهله من الفقراء المستجدين والمتعففين. ويؤمنوا بيوم القيامة الذى يحاسب فيه الجميع. ويكونوا دائمًا على حذر من عذاب الله: لأن شهوات النفس وهمزات الشياطين تتسرب للإنسان فى الخفاء. فلا يكون العذاب مأمونًا إلا بتمام اليقظة. ويصونوا فروجهم مما حرم الله. ولكن التمتع بالزوجات، أو ما ملكت اليمين من الإماء لا يلامون عليه. فمَن طلب غير ماذكر مما أحل له فهو متجاوز الحلال إلى منطقة الحرام. وأن يراعوا أى لايخونوا فيما أئتمنوا عليه من مال وغيره. ولاينقضون ماعاهدوا الله عليه، أو أحدًا من خلقه، ويؤدوا الشهادة على وجهها، لا يجاملون قريبًا أو قويًا على بعيد أو ضعيف، ويحافظون على أركان الصلاة وشروطها وآدابها حتى تقع على أكمل وجه. هؤلاء المتصفون بهذه الصفات يدخلهم ربهم فى جناته. مكرمون عنده. وبعدما وصف سبحانه المؤمنين الذين يستحقون دار الكرامة، أتبع ذلك ببيان حال كفار مكة معه ﷺ وخطئهم فى طمعهم فى أن يكونوا محل فضل الله مع ماهم عليه من الكفر والعناد. فقال: (فما للذين كفروا)... إلخ. وبيان ذلك أن صناديد الكفر بمكة كانوا لا يجدون طريقًا لتضليل الضعفاء وصرفهم عن الإيمان به ﷺ إلا سلكوه. وقد قص علينا القرآن كثيرًا مما كانوا يفعلونه فمنه ما فى الآية (٦) من سورة لقمان صفحة ٥٣٩ والآية (٢٦) من سورة فصلت صفحة ٦٢٣، وما فى شرح الآية (١١) من سورة الأحقاف صفحة ٦٦٧ . ومنه ما أشار إليه هنا وهو ما روى أنه ﷺ كان إذا قرأ القرآن عند الكعبة أسرع كبار المشركين للاجتماع حوله فرقة يستمعون ويستهزءون ويقولون: إن دخل هؤلاء العبيد والفقراء الذين اتبعوا محمدًا الجنة على سبيل الفرض فلنسبقنهم إليها: لأنهم لو كانوا أصحاب منزلة عند الله كما يقول لهم محمد نما جعلهم فقراء وجعلنا أكثر منهم أموالا وأولادًا، فيرد عليهم سبحانه وتعالى تارة بما فى الآية (٣٧) من سورة سبأ صفحة ٥٦٨، وأخرى بقوله هنا: (فما للذين كفروا)... إلخ. والمعنى أى شىء حصل لعقول هؤلاء الكفار حتى جعلهم يسرعون إلى مجلسك ويحيطونك يمينًا وشمالاً جماعات جماعات. ثم يستهزءون ويقولون نحن أحق بالجنة من هذا وأتباعه إن كان هناك جنة كما يدعى. فسفه سبحانه عقولهم بقوله: أيطمع... إلخ. أى هل حصل لهؤلاء جنون حتى صار كل منهم يطمع أن يدخل جنة النعيم؟ فليرتدعوا عن هذا التبجح لأن أصلهم الذى خلقناهم منه شىء حقير يستحى من ذكره. فإذا لم يكملوا أنفسهم بالإيمان والطاعات ومكارم الأخلاق فلن يكونوا أهلا لمقام الكرامة ومساواة عبادنا الصالحين. بل يكونوا أتعس حظًا من البهائم فضلاً عن استحقاق كرامة رب العالمين، انظر الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢ . ثم هددهم سبحانه بإفنائهم إذا لم يرجعوا فقال: (فلا أقسم برب المشارق)... إلخ.

وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

(٧١) سُورَةُ نُوحٍ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ

المفردات: ﴿نبدل خيرًا منهم﴾: انظر الآية (٣٨) من سورة محمَّد صفحتى ٦٧٧، ٦٧٨ ﴿بمسبوقين﴾ : انظر الآية (٦٠) من سورة الواقعة صفحة ٧١٦، والمراد: بعاجزين عن عقابهم.

﴿ذرهم يخوضوا﴾: أى يدخلوا فى الباطل، كما تقدم فى الآية (٨٣) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥، وانظر الآية (٦٨) من سورة الأنعام صفحتى ١٧٢، ١٧٣ .

﴿الأجداث﴾: جمع جَدَث بفتح أوله وثانيه وهو القبر.

﴿سراعًا﴾:أى مسرعين إلى المحشر، انظر ما تقدم فى الآية (٤٤) من سورة ق صفحة ٦٩٢ .

﴿نصب﴾: لفظ مفرد معناه العلامة المنصوبة للدلالة على الطريق.

﴿يوفضون﴾: مأخوذ من (أوفض) أى أسرع؛ والمراد: يسرعون إسراع مَنْ ضل الطريق إذا رأى علامة تهديه.

﴿خاشعة أبصارهم﴾... إلخ: تقدم فى الآية (٤٣) من سورة القلم صفحة ٧٦٠

المعنى: لا أقسم بمدبر مطالع الكواكب ومغاربها على ما يأتى؛ لأنه واضح لا يحتاج إلى يمين، ثم بيَّن سبحانه المقسم عليه فقال: (إنا لقادرون)... إلخ. أى إنا لقادرون على أن نهلك كفار قومك أيها النبى دفعة واحدة كما فعلنا بغيرهم ممَنْ مضى، ونأتى بخير منهم يعرفون حق ربهم وما نحن بمغلوبين إن أردنا ذلك، ولكن حكمتنا اقتضت عدم ذلك لأنك خاتم الرسل،

(١) المغارب. (٢) لقادرون. (٣) يلاقوا.
(٤) خاشعة. (٥) أبصارهم. (٦) يا قوم.

ربهم وما نحن بمغلوبين إن أردنا ذلك، ولكن حكمتنا اقتضت عدم ذلك لأنك خاتم الرسل، وأمتك آخر الأمم، لذلك تأخر عذابهم الأكبر ليوم القيامة.

وإذا كان الأمر كما علمت أيها النبى فأعرض عنهم، ولا تشغل نفسك بهم، واتركهم يخوضون فى باطلهم، ويلعبون بمتاع الدنيا كالأطفال الذين لايقدرون النتائج إلى أن يلاقوا اليوم الذى وعدناهم به وهو يوم القيامة، وعند ذلك يفيقون من غفلتهم. ولكن بعد فوات فرصة النجاة.

ثم بيَّن سبحانه بعض ما سيحصل فى هذا اليوم بقوله تعالى: يوم يخرجون... إلخ . أى يوم يخرجون من القبور عند النفخة الثانية المذكورة فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ . حال كونهم ـ مسرعين من شدة الهول ظانين أن أمامهم طريق النجاة كأنهم قوم تاهوا فى صحراء ثم رأوا علامة الطريق فأسرعوا إليها، يخرجون من القبور كسيرة أبصارهم تغشاهم المذلة، ذلك اليوم الذى شاهدوا فيه هذه الأهوال هو اليوم الذى كانوا وهم فى الدنيا يوعدون بملاقاة شدائده ليحذروه، ولكنهم أنكروه فلم يعدوا له عدته. نسأل اللّه السلامة.

ســورة نـوح

المفردات: ﴿أن أنذر﴾ ... إلخ: ﴿أن﴾ مفسرة لما به الإنذار؛ أى قلنا له حذر قومك من العقاب إذا خالفوا أمر ربهم؛ وفى الألوسى ﴿أن﴾ تفسيرية لما فى الإنذار من معنى القول فهى تفسير ما به الإرسال.

﴿نذير مبين﴾: أى محذر مبين والمراد: موضح رسالة ربى. ﴿أن اعبدوا اللّه﴾: ﴿أن﴾ مفسرة أيضًا؛ أى أقول لكم اعبدوا ... إلخ.

المعنى: يقول سبحانه إنا أرسلنا نوحا إلى قومه. أى وقلنا له حذر قومك من عصيان ربهم من قبل أن يأتيهم عذاب شديد الألم فى الدنيا والآخرة. فنفذ أمر ربه وقال: يا قوم إنى لكم نذير مبين بما أرسلنى به ربى فأقول لكم وحدوا اللّه فلا تعبدوا غيره، وابتعدوا عن معاصيه، وأطيعونى فى كل ما أنصحكم به، إذا فعلتم ذلك يغفر اللّه لكم.

المفردات: ﴿من ذنوبكم﴾: ﴿من﴾ بمعنى (بعض). والمراد بهذا البعض كل الذنوب التى

لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ
ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى
دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا
فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ
فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟
ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ
لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ
إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾
وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل
لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ
خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ
سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ

ليس فيها حق لمخلوق. أما هذه فغفرانها متوقف على رد الحق لصاحبه. أو سماحه له فيه، وإلا بقى فى عنقه إلى يوم القيامة، فالكافر الذى اغتصب فى حال كفره مال غيره يعاقب على بقاء هذا المال فى ذمته عذابا زائدًا على عذاب الكفر ككل معصية تضم للكفر؛ انظر الآية (٢٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٨ ، والآية (٨٨) من سورة النحل أيضًا صفحة ٣٥٧، والآيتين (٦٨، ٦٩) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٨، والآيتين (١٢، ١٣) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢، والآيتين (٦٧، ٦٨) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠،٥٦١ والآيتين (٨، ٩) من سورة التكوير صفحة ٧٩٤، والآية (١٠) من سورة البروج صفحة ٨٠١، ولعلك بعد هذه الأدلة لا تغتر بقول يخالفها.

﴿أجل مسمى﴾: ﴿مسمى﴾ أى معين عند الله، وهو أقصى ما قدر لهم بشرط الإيمان والعمل الصالح، وذلك أنه سبحانه اقتضت حكمته أن الأمة التى تؤمن وتستقيم تطول أعمارها ويبارك لها فيها، أما الأمة التى يغلب عليها الكفر والفساد فإنه يسرع إليها الفناء ولا يزيد عددها فى الغالب؛ والعبرة واضحة الآن فى الدولة الفرنسية فإنه مضى عليها عشرات السنين وعددها يكاد لا يزيد إلا قليلا.

﴿أجل اللّه﴾: المراد الأجل الذى قدره اللّه لهم إذا استمروا على الكفر والمعاصى؛ انظر شرح الآية (١٠) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣١ .

﴿ليلاً ونهارًا﴾: المراد: دائمًا من غير فتور أو تقصير.

﴿فرارًا﴾: أى بعدًا ونفورًا من الإيمان.

﴿جعلوا أصابعهم... إلخ﴾: كناية عن أنهم أصموا آذانهم عن سماع الحق.

---

(١) دعائى. (٢) أصابعهم. (٣) آذانهم. (٤) بأموال.
(٥) جنات. (٦) أنهارا (٧) سموات.

﴿استغشوا ثيابهم﴾: المراد: بالغوا فى جعل ثيابهم أغشية أى أغطية لوجوههم من شدة كراهتهم لرؤيته عليه السلام؛ انظر ما تفعله شدة كراهية الكافرين لأنبيائهم فى الآية (٥١) من سورة القلم صفحة ٧٦١ .

﴿وأصروا﴾: أى صمموا على الكفر. ﴿واستكبروا﴾: أى عن اتباعى.

﴿استكبارًا﴾: أى شديدًا غريبًا فى نوعه. ﴿جهارا﴾: المراد: مجاهرًا.

﴿السماء﴾: هى اسم لكل ما ارتفع كما فى الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥ ، وهى هنا السحاب، والمراد ما فيه من المطر.

﴿مدرارًا﴾: أى كثيرًا متتابعًا. ﴿ما لكم﴾: استفهام توبيخى.

﴿لا ترجون﴾: أى لا تُقدرون، بضم أوله وتشديد الدال المكسورة.

﴿وقارًا﴾: أى عظمة.

﴿أطوارًا﴾: جمع طور وهو (الحال)؛ أى خلقكم متنقلين من حال النطفة إلى العلقة.. إلى آخر ما فى سورة المؤمنين صفحة ٤٤٦ .

﴿ألم تروا﴾: تقدم فى الآية (٧) من سورة المجادلة صفحتى ٧٢٦،٧٢٥

﴿طباقًا﴾: أى طبقات بعضها فوق بعض، كما تقدم فى الآية (٣) من سورة الملك صفحة ٧٥٤

﴿وجعل القمر فيهن نورًا﴾: بما أن القمر نورًا فى السماء الدنيا فقط قال الفخر الرازى: المراد جعله فى جملة السموات لا فى كلها كما يقال (دخل الأمير العراق) فإنه لا يدل على أنه حل فى جميع أنحاء العراق بل فى بعضه فقط.

﴿نورًا﴾: تقدم فى الآية (٥) من سورة يونس صفحة ٢٢٦

المعنى: لما أرسل الله سبحانه نوحًا قال لقومه اعبدوا الله واتقوه وأطيعونى. إن فعلتم ذلك يغفر لكم بعض ذنوبكم. ويطل أعماركم وتتمتعوا بخيرات الدنيا لحين انتهاء أعماركم العادية. وإلا إذا بقيتم على كفركم فإنه سبحانه يعجل لكم الأجل الذى قدره لمَنْ يفسدون فى

الأرض. وهذا الأجل إذا جاء وأنتم على ما أنتم عليه من الكفر والمعاصى لا يؤخر لحظة. فبادروا بالإيمان والاستقامة قبل حلوله لو كنتم من أهل العلم النافع لوجب أن تسارعوا إلى ما فيه الحياة السعيدة المديدة. وبعدما بلغ نوح رسالة ربه ولم يطيعوه توجه إلى ربه بالشكوى من عنادهم فقال: (رب إنى)... إلخ. أى يا رب إنى دعوت قومى إلى التوحيد والطاعة فى كل الأوقات ولم أتوان لحظة. فلم يزدهم دعائى إلا نفورا. وإنى كلما دعوتهم للإيمان بك لتغفر لهم أصموا آذانهم عن دعائى وغطوا وجوههم بثيابهم لئلا يرونى لشدة كراهتهم لى. وصمموا على الكفر. واستكبروا عن اتباعى استكبارا شنيعًا. وبعدما بيَّن أنه عمم أوقات الدعوة أراد أن يبين أنه عمم أحوالها فقال: (ثم إنى دعوتهم جهارا)... إلخ. و﴿ثم﴾ تشعر بأنه دعاهم أولاً سرًا لأنه ادعى لقبولهم لما فيه من التلطف معهم. فلما لم يقبلوا بعد محاولته بهذه الطريقة عشرات السنين انتقل إلى الجهر لأنه أشد ، فقد ينفع حيث لم ينفع اللين. واستمر كذلك سنين كما سيأتى. ولما لم ينفع أيضًا انتقل إلى الجمع بين الإعلان والإسرار.

هذا فى مقام وذاك فى مقام، وهذا فى ظرف وذاك فى آخر. وهذا لفريق وذاك لآخر. ظانا أن فى الجمع بينهما من الفائدة ماليس فى الأفراد. فالمراد من كل هذا أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين كما فى الآية (١٤) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٢ يدعوهم المرة بعد المرة على وجوه مختلفة. وأساليب متعددة. فلم ينفع معهم شىء.

ثم بيَّن بعض ما دعاهم به على وجه الترغيب فقال: قلت استغفروا ربكم. أى بالتوبة من الشرك والمعاصى يغفر لكم لأنه واسع المغفرة. ويرسل المطر كثيرًا بعد امتناعه عنكم حتى عم القحط ويزد فى أموالكم وأبنائكم. ويجعل لكم بساتين ويجعل لكم أنهارًا دائمة الجريان فلا تظمئوا أبدًا.

ثم انتقل إلى توبيخهم على جهلهم بقدر اللَّه مع أنه صاحب الفضل عليهم، وخالق هذا النظام البديع، فقال: مالكم.. إلخ. والمعنى: أى شىء حصل لكم حال كونكم غير مقدرين للَّه عظمته اللائقة به المقتضية الإيمان به وطاعته مع وضوح ما يوجب ذلك من أنه هو وحده الذى خلقكم على أطوار وأحوال مرتب بعضها على بعض، فمن طين، إلى نطفة إلى علقة، إلى آخر ما تقدمت الإشارة إليه. أليس من الجهل والغفلة أن لا تعلموا كيف خلق سبحانه هذه السموات بعضها فوق بعض وجعل القمر فيهن نورا فتعتبروا وتقطعوا بأن مَنْ يفعل ذلك يجب أن لا يعبد غيره ولايخالف أمره؟

ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ
نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ
جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا
فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن
لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا
كُبَّارٗا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ(١) وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا
سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ﴿٢٣﴾ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ
وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ(٢) إِلَّا ضَلَٰلٗا(٣) ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ(٤)
أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
أَنصَارٗا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ
ٱلۡكَٰفِرِينَ(٥) دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ
وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ(٦)

المفردات: ﴿الشمس سراجًا﴾: انظر الفرق بين السراج والنور فى شرح الآية (٥) من سورة يونس صفحة ٢٦٦ .

﴿أنبتكم من الأرض﴾: المراد: أوجدكم من عناصرها، كما يوجد النبات؛ انظر الآية (٢٨) من سورة البقرة صفحة ٧ والآية (٥٥) من سورة طه صفحة ٤١٠ .

﴿نباتًا﴾: اسم مصدر معناه الإنبات، والمراد: نباتا عجيبا.

﴿يعيدكم فيها﴾: أى بعد الموت.

﴿يخرجكم﴾: أى عند البعث يوم القيامة.

﴿إخراجًا﴾: المراد: إخراجًا خاصًا لغرابته. (كتكليما) فى الآية (١٦٤) من سورة النساء صفحة ١٣١ .

﴿بساطا﴾: المراد: يسهل التنقل عليها كالبساط.

﴿تسلكوا﴾: تقدم فى الآية (٥٣) من سورة طه صفحة ٤١٠ .

﴿سبلا﴾: أى طرقا.

﴿فجاجا﴾: جمع فج؛ وهو المذكور فى الآية (٢٧) من سورة الحج صفحة ٤٣٧ .

﴿واتبعوا﴾: أى اتبع عامتهم.

﴿مَنْ لم يزده ماله﴾: هم الرؤساء وأصحاب المال والجاه.

﴿خسارًا﴾: أى خسرانًا. ﴿ومكروا﴾: أى الرؤساء.

---

(١) آلهتكم. (٢) الظالمين
(٣) ضلالا (٤) خطيئاتهم.
(٥) الكافرين (٦) لوالدى.

﴿كبارا﴾: أى كبير جدا، حيث استعملوا كل أنواع الحيل فى صرف الناس عن نبيهم نوح عليه السلام.

﴿لاتذرن﴾: أصله لاتذروا. أى لا تتركوا، ولكنهم أكدوا النهى لأن هذه النون التى جاءت فى آخر الفعل تؤكد ما فيه من معنى الطلب.

﴿آلهتكم﴾: التى وجدتم آباءكم يعبدونها.

﴿ودا، وسواعا، ويغوث، ويعوق، ونسرا﴾: روى ابن جرير أن هؤلاء كانوا رجالا صالحين الأمم التى كانت بين آدم ونوح. وكان لهم أتباع يقتدون بهم. ولما ماتوا زين إبليس لأتباعهم أن يبنوا عليهم المساجد، ويصوروا لهم الصور، ليتذكروا بها صلاحهم، فيعملوا مثلهم. فلما طال الزمن ظن أكثر الناس أن آباءهم كانوا يعبدونهم ليتقربوا بهم إلى اللّٰه ففعلوا مثلهم؛ انظر الآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦؛ وروى البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت: لما رجعت بعض النساء المؤمنات من الحبشة بعد الهجرة إليها. قصصن على النبى ﷺ ما رأينه فى كنيسة بالحبشة فيها تصاوير فقال ﷺ هؤلاء قوم كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا (المراد ما يشبه المسجد عند المسلمين وهو الكنيسة).

ثم صوروا فيه تلك الصور. أولئك شرار الخلق عند اللّٰه يوم القيامة.

﴿مما خطيئاتهم أغرقوا﴾... إلخ: ﴿من﴾ حرف تعليل يفيد أن ما بعده علة وسبب فى حصول الغرق، وإدخال النار. وتقول العرب: ضجرت من خبر جاءنى يريد بسبب خبر. ويقولون: إذا رأى الناس فلانًا غضوا أبصارهم من مهابته؛ و﴿ما﴾ حرف يؤكد هذا التسبب.

﴿فأدخلوا نارا﴾: المراد بالنار العذاب الذى يلاقونه بعد الموت، وهذا العذاب عذاب البرزخ الذى يبلغ من شدته أن ما يلاقيه كأنه النار، وعذاب يوم القيامة بنار الآخرة، انظر الآية (٤٦) من سورة غافر صفحة ٦٢٤، كما أن مَنْ يموت مؤمنًا يتنعم كأنه دخل الجنة، انظر آيتى (٢٦، ٢٧) من سورة يس صفحة ٥٨١ .

﴿لا تذر﴾: أى لا تترك.

﴿ديارًا﴾: أى أحدًا.

المعنى: كيف غفلتم عن أن اللّٰه وحده هو الذى جعل القمر فى مجموع السموات نورا. وجعل الشمس سراجا، يبصر أهل الدنيا فى ضوئها كما يبصر أهل البيت فى ضوء السراج

ما يحتاجون إليه. وأنه سبحانه هو الذى خلقكم من الأرض خلقًا عجيبًا، ثم يعيدكم فيها بعد الموت. ثم يخرجكم منها يوم القيامة كما أخرجكم منها أول مرة. وأنه سبحانه وحده هو الذى جعل لكم الأرض ممهدة كالبساط لتسلكوها متخذين منها طرقًا فسيحة. وبعد تعنتهم فى العصيان قال نوح شاكيًا إلى ربه عنادهم فقال: يا رب إن قومى عصونى واستمر عامتهم على اتباع رؤسائهم الذين أبطرتهم أموالهم وغرتهم أولادهم. وكان ذلك سببًا لزيادة خسارتهم فى الآخرة وصاروا أسوة للأتباع وما شكى منه نوح شكى منه موسى عليهما السلام، انظر الآية (٨٨) من سورة يونس صفحتى ٢٧٩، ٢٨٠ . ومكر هؤلاء الرؤساء مكرًا كبيرًا.

ثم بيَّن بعض هذا المكر بقوله: (وقالوا لاتذرن)... إلخ. أى لا تتركوا عبادة آلهة عبدها آباؤكم. ثم أكدوا هذا النهى مع ذكر أشهر آلهتهم. فقالوا: (ولاتذرن ودا ولاسواعا)... إلخ. ثم قال نوح: وقد أضل الرؤساء بهذه الأصنام كثيرًا من العوام. ولما أوحى اللَّه سبحانه إلى نوح أنه لن يؤمن منهم إلا مَنْ آمن، كما فى الآية (٣٦) من سورة هود صفحة ٢٨٩ . دعا عليهم بقوله: لاتزد يارب هؤلاء الظالمين إلا بعدا عن الخير. وكان الترتيب الطبيعى أن يذكر ما سيأتى فى الآية (٢٦) وما بعدها وبعد ذلك يذكر ما فى الآية (٢٥)، ولكنه أراد المسارعة إلى بيان نهايتهم المؤلمة. وأن ما أصابهم من الإغراق والعذاب بعد الموت لم يحصل لهم إلا بسبب خطاياهم التى عددها سابقا.

وهذا هو المهم من العبرة بالقصة. ولم يجدوا لهم غير اللَّه مَنْ ينصرهم بدفع العذاب عنهم، ثم رجع إلى بيان دعاء نوح الذى كان سببًا لتعجيل هلاكهم فقال: وقال نوح رب لاتذر... إلخ. والمراد أن الذى عجل بإغراقهم هو يأس نوح وتضرعه إلى ربه بقوله: يارب لاتترك على وجه الأرض من الكافرين أحدًا لأنك إن تتركهم يستمروا على إضلال عبادك الناشئين، ولا يخرج منهم نسل إلا وهو متشبع بمبادئ الكفر والفجور.

ثم توجه إلى ربه بطلب المغفرة للمؤمنين الأقربين منه ولغيرهم فقال: (رب اغفر لى ولوالدى)... إلخ.

وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ[1] وَلَا
تَزِدِ الظَّٰلِمِينَ[2] إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

(٧٢) سورة الجن مكية وآياتها ثمان وعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا
قُرْءَانًا[3] عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَءَامَنَّا[4] بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ
بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَٰلَىٰ[5] جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَٰحِبَةً[6]
وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾
وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾
وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ

المفردات: ﴿تبارا﴾: أى هلاكا، انظر الآية (٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥.

المعنى: قال نوح يا رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنًا وللمؤمنين والمؤمنات عامة إلى يوم القيامة. وهذا دعائى لمن آمن بك يا رب. وأما مَنْ ظلم نفسه وكفر بك فلا تزده إلا هلاكا.

﴿سورة الجن﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿استمع نفر من الجن﴾: تقدم مع تفصيل الحادثة فى الآية (٢٩) وما بعدها من سورة الأحقاف صفحتى ٦٧٠، ٦٧١: والكلام هنا يشعر بأنه ﷺ ما كان يعلم باستماعهم له.

﴿الجن﴾: هو عَالَم أخبرنا الله سبحانه أنه خلقهم من نار، كما فى الآية (٢٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٠: ولولا خبره الصادق لما علمنا عنهم شيئًا يعتد به.

﴿عجبا﴾: العجب أصله مصدر، والمراد عجيبًا، أى لم نسمع له نظيرا من قبل فى حسن نظمه، ودقة معانيه، وغزارتها. وكانوا يعرفون شيئًا عن التوراة كما فى الآية (٣٠) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١. ﴿يهدى﴾: المراد يرشد ويدل.

﴿الرشد﴾: أى الصواب. ﴿وأنه تعالى﴾: (وأنه) الضمير يفيد معنى الحال الثابت، وما بعده تفسير له. أى أن الأمر الثابت المحقق هو ترفع عظمة ربنا .. إلخ. و(تعالى) أى ترفع وتنزه.

---

(١) المؤمنات. (٢) الظالمين. (٣) قرآنا.
(٤) فآمنا. (٥) تعالى. (٦) صاحبة.

﴿جد ربنا﴾: أى عظمته وجلاله. ﴿صاحبة﴾: المراد زوجة، انظر الآية (١٠١) من سورة الأنعام صفحة ١٧٩. ﴿ولا ولدا﴾: كما يقول المفسرون فى العزير والمسيح والملائكة، انظر الآية (٣٠) من سورة التوبة صفحة ٢٤٥ والآية (٥٧) من سورة النحل صفحة ٣٥٢.

﴿سفيهنا﴾: أرادوا من السفيه جنسه، فيشمل كل جنود إبليس، والسفه هو الطيش وخفة العقل.

﴿شططا﴾: أصل الشطط البعد الشديد، ويقال اشتطت به الدار. أى اشتد بعدها. وأريد به هنا القول البعيد عن الصواب.

﴿أن لن تقول﴾: الأصل أنه لن.. إلخ. فهى مثل ما تقدم فى الآية (٣) هنا.

﴿كان رجال من الإنس﴾: أى فى الجاهلية.

﴿يعوزون﴾: أى يتعوذون ويطلبون الحفظ من المكروه.

المعنى: لما اشتد عناد كفار مكة أراد سبحانه أن يسفه عقولهم ويهددهم بأنهم ليسوا بأقوى من الجن إلى آخر ما سبق فى شرح ما فى سورة الأحقاف صفحة ٦٧٠ فقال: قل أوحى.. إلخ. أى قل أيها النبى لأمتك إن الله أوحى إلىَّ أن عددًا من الجن أصغى لسماع القرآن فقالوا لقومهم عندما رجعوا إليهم يا قومنا إنا سمعنا كلامًا مقروءًا عجيبًا. أى ليس ككتاب موسى كما فى صفحة ٦٧٠. ثم بينوا بعض مزاياه فقالوا: (يهدى).. إلخ. أى يدل ويرشد إلى طريق الصواب، ويحارب الشرك بالله، فآمنا به، ولن نشرك بعد اليوم بربنا أحدًا من خلقه، بعدما سمعناه من أدلة التوحيد. ثم ذكروا بعض آثار تلك الأدلة التى تجلت لهم عند سماع القرآن؛ فقالوا: (وأنه تعالى).. إلخ. أى ونخبركم يا قومنا أن الحق الثابت هو ترفع عظمة ربنا عن اتخاذ الزوجة والولد لأنه غنى عن ذلك. وأن ما كان يقوله لنا سفهاؤنا من الشياطين على الله من نسبة الزوجة والولد إليه هو قول بعيد عن الحق. ثم بينوا أنهم كانوا مخطئين فى تقليد هؤلاء السفهاء من غير بحث؛ فقالوا: (وأنا ظننا).. إلخ. أى وكنا نظن أن لا يجرؤ على الكذب على الله أحد من الأنس والجن. وبعدما بينوا بعض جرائم سفهائهم فى إشاعة نسبة الولد والصاحبة إليه تعالى أرادوا أن يبينوا جريمة أخرى لهم أوقعت كثيرا من الأنس فى حبائل الشرك بوجه آخر. فقالوا: (وأنه كان رجال) إلى آخر ما سيأتى.

فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ
اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا[1] مُلِئَتْ حَرَسًا
شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ[2] لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن
يَسْتَمِعِ الْآنَ[3] يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي
أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾
وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ[4] وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ
قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن
نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا[5] بِهِ ۖ فَمَن
يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا
الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ[6] ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا
رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ[7] فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾
وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا[8] عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم[9] مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾

المفردات: ﴿فزادوهم رهقا﴾: (رهقا) مصدر مأخوذ من فعل (رَهِق) بوزن فرح. ولهذا الفعل عند العرب استعمالات: منها أن يكون قاصرا، أى لا يتعدى لمفعول، كقولهم رَهِقَ فلان، أى سفه، وطاش، وخف عقله، وفعل القبائح. ومنها أن يكون متعديًا لمفعول واحد، كرهقه، أى غشيه، وستره، ومنه ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولاذلة﴾ الآية (٢٦) من سورة يونس صفحة ٢٧٠. ويقال أرهقه غيره شيئا (متعديا لمفعولين) ومصدره إرهاقا أى حمَّله إياه وكلفه فوق طاقته؛ ومنه ﴿ولا ترهقنى من أمرى عسرا﴾ الآية (٧٣) من سورة الكهف صفحة ٣٩١ و﴿يرهقهما طغيانا وكفرا﴾ الآية (٨٠) من سورة الكهف صفحة ٣٩٢.

و﴿سأرهقه صعودا﴾ الآية (١٧) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦.

وما هنا من المتعدى لمفعولين. والمعنى زاد الرجال العائذون من الإنس الجنَّ طغيانا وطيشا وجرأة على إضلال بنى آدم، تحقيقًا لوعد إبليس رئيسهم، حيث ظنوا أنهم أخضعوا الإنس لسلطانهم؛ انظر الآية (١١٨) وما بعدها من سورة النساء صفحتى ١٢٢، ١٢٣.

---

(١) فوجدناها.
(٢) مقاعد.
(٣) الآن.
(٤) الصالحون.
(٥) آمنا.
(٦، ٧) القاسطون.
(٨) استقاموا.
(٩) لأسقيناهم.

﴿وأنهم ظنوا﴾: أى أن كفار الأنس ظنوا كما ظننتم يا كفار الجن عدم البعث.

﴿أن لن يبعث﴾: (أن) أصلها أنه لن يبعث.. إلخ. ويقال فيها ما قيل فى مثلها فى الآية (٣) السابقة. ﴿لمسنا السماء﴾: أصل اللمس المس، وأريد به هنا القصد والتوجه إليها.

﴿حرسًا﴾: اسم جمع لحارس، نحو خدم لخادم. والمراد ملائكة يحرسونها فلا يقرب من جهتها شيطان كما كان سابقا. ﴿شديدا﴾: وصف للحرس باعتبار لفظه، ولكن المراد معناه أى أشداء. ﴿شهبا﴾: جمع شهاب. وقد تقدم فى الآية (١٠) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧.

﴿نقعد منها مقاعد﴾.. إلخ: أى نتخذ من بعض نواحى السماء مقاعد، أى أماكن صالحة لتسمع أخبار السماء من الملائكة، لخلوها من الحراسة.

﴿فَمَنْ يستمع الآن﴾: أى فَمَنْ يرد منا الاستماع الآن بعد بعثة خاتم الرسل.

﴿رصدا﴾: أصله مصدر، وأريد به اسم المفعول. أى مرصودا ومعدا لطرد المستمع.

﴿رشدا﴾: المراد صوابا وخيرا، بدليل مقابله هنا وهو (شرا). انظر الآية (٢٤) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٣، ٣٨٤. ﴿الصالحون﴾: المراد الكاملون فى الصلاح.

﴿دون ذلك﴾: أى الأقل.

﴿طرائق﴾: جمع طريقة، والمراد: كنا أصحاب طرق مختلفة.

﴿قددا﴾: جمع قِدة بكسر القاف وهى الفرقة، والمراد: متفرقين إلى مذاهب مختلفة.

﴿أن لن نعجز الله﴾.. إلخ: (أن) كسابقتها والمراد: لن نفلت منه تعالى بالدخول فى الأرض أو الهرب فى السماء، انظر الآية (٣٣) من سورة الرحمن صفحة ٧١٠.

﴿الهدى﴾: المراد القرآن الهادى الحق، انظر الآية (٢) من سورة البقرة صفحة (٣).

﴿بخسا﴾: نقصا فى الجزاء.

﴿ولا رهقا﴾: أى لا ترهقه الذلة يوم القيامة، كما تقدم فى الآية (٢٦) من سورة يونس صفحة ٢٧٠.

﴿المسلمون﴾: المراد المنقادون لأوامر الله، المؤمنون به.

﴿القاسطون﴾: من قسط الرجل، إذا جار ولم يعدل، والمراد الجائرون على أنفسهم بالكفر والمعاصى، أما العدل فيقال فيه أقسط الرجل أى عدل فهو مقسط، انظر نظير ذلك فى الآية (١٥) من سورة طه صفحة ٤٠٧. ﴿تحروا﴾: أصل التحرى طلب الأحرى أى الأحق والمراد قصدوا بأعمالهم، الرشد والهداية. ﴿رشدا﴾: المراد: طريق الرشد. والمراد به هنا: الهدى.

﴿ألو﴾: أصلها (أن لو)، وأصل (أن) أنه، ويقال فيها ما قيل فى الآية (٣) السابقة. وهذا من كلامه سبحانه معطوفٌ على (أنه استمع نفر).. إلخ.

﴿الطريقة﴾: هى ملة الإسلام.

﴿غدقا﴾: أى كثيرا. والمراد: وسعنا عليهم الرزق؛ لأن الماء سبب كل خير وعدمه يجلب الجدب والخراب.

المعنى: قبل الكلام على معنى هذه الآية يجب أن نعلم شيئًا من محاولات إبليس فى تضليل الخلق تنفيذا لعزمه المذكور فى الآية (١١٧) من سورة النساء وما بعدها صفحتى ١٢٢، ١٢٣ حتى نستطيع الحكم على المسلمين اليوم هل هم على بصيرة من دينهم. أم أهملوه حتى حقق عليهم إبليس ظنه؟ كما فى الآية (٢٠) من سورة سبأ صفحة ٥٦٥، ورحم الله عمر بن الخطاب الذى قال: أتدرون متى يصاب الإسلام ويهدم لبنة لبنة؟ قالوا: لا، قال: إذا جهل الناس ما كان عليه الجاهلية. يريد أنهم يقعون فى ما كان عليه الجاهلية من حيث لا يشعرون، فيجب حينئذ أن نبين ما كان فيه أهل الجاهلية من الشرك حتى لا نقع فيه. قال ابن كثير فى تفسيره. روى عن مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى عن ابن السائب الأنصارى قال: خرجت مع أبى من المدينة فى حاجة. وذلك أول ما تحدث الناس عن ظهور رسول الله ﷺ بمكة. فأدركنا الليل عند راعى غنم فى الصحراء فبتنا عنده. فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا (ولد شاة صغير) فوثب الراعى وهو يقول (يا حامى الوادى احم جارك) فسمعنا صوتًا لم نر صاحبه يقول: اترك الحمل يا ذئب. فرجع الحمل يجرى. فنزل فى مثل ذلك على رسول الله وهو بمكة قوله تعالى: وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن.. إلخ.

قال ابن كثير: وقد يكون هذا الذئب من شياطين الجن أراد أن يخيف الإنسى حتى يستجير به ثم يرده عليه ليضله ويخرجه عن دين الله. وورد عن كثير من السلف أن الرجل الضعيف الثقة بربه كان إذا نزل واديًا قفرًا تعبث به مردة الجن فيوسوس إليه الشيطان أن لكل واد رئيسًا من الجن لهؤلاء المردة. فإذا لجأ إليه الخائف وطلب حمايته فإنه يحميه. فكان الرجل فى الجاهلية يقول (أعوذ بسيد هذا المكان من سفهاء قومه) فيشعر بالأمن ويبتعدون عنه بعد أن يوقعوه فى الكفر. ولما جاء الإسلام عالج هذا الخطر فأمر ﷺ مَنْ يشعر بخوف فى مكان موحش أن يقول: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر كل ما خلق) فإنه لا يصاب بشر. وبعد فهل نجا المسلمون اليوم مما حذر منه الفاروق رضي الله عنه. نقول مع الحسرة الشديدة: كلا. فما على مَنْ يشك فى ذلك إلا أن يجوس خلال الديار، ويسأل البسطاء، بل وبعض من فوق البسطاء. فسيسمع منهم أن فلانا كان ليلة خائفًا فنادى يا سيدى فلان أغثنى فخرج له فارس ملثم وهو يقول: لا تخف. فإذا علمت أن الإسلام ينهى عن هذا، وأن رسول الله ﷺ قال: (إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله)، وأن الشيطان يتمثل بشكل كل مخلوق إلا به ﷺ ولو كانت الاستغاثة بالأموات جائزة شرعًا لكان أعلم الناس بذلك الحسين بن على رضى الله عنهما ولطلبها من والده رضي الله عنه ولم يعرض نفسه للهلاك يوم قتل ظمآنا. إذا علمت كل ذلك تعلم أن محاولة إبليس رفعت رأسها ثانيا بعد أن ابتعد المسلمون عن نبع دينهم الصافى. وبعد تراخى العلماء فى التنبيه لمواطن الخطر، وكثرة الدخيل على تعاليم الإسلام حتى كاد يخفيها. نقول: إذا علمت كل هذا فهل يطمئن قلبك إلى أن المسلمين اليوم هم المؤمنون الذين تعهد الله تعالى بنصرهم أم هم شىء آخر؟ نسوا الله فنسيهم، فصاروا شرا ممن كانوا، فى الرخاء يلجأون لغيره تعالى وفى الشدة لا يلجأون إلا إليه سبحانه، ومع ذلك حكم عليهم سبحانه وتعالى بالعذاب الأليم، انظر الآية (٦٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٢. والآية (٦٥) من سورة العنكبوت صفحتى ٥٢٩، ٥٣٠. نسأل الله السلامة.

بقيت كلمة نهمس بها فى آذان مَنْ ركبوا رءوسهم وظنوا أن الرقى إنما هو فى إنكار كل مقدس مهما كان طريقه مقطوعًا بصحته، نقول لهؤلاء: إن كنتم مؤمنين بأن القرآن حق وأنه من لدن خالق الكون، العالم بأسراره التى ما علمتم منها إلا قليلا، وجب عليكم أن تصدقوا كل

ما جاء به من مثل ما فى الآية (٣٩) من سورة النمل صفحة ٤٩٨ و (١٢ إلى ١٤) من سورة سبأ صفحة ٥٦٤، وإن لم تكونوا كذلك فللجدل معكم موطن آخر، والسلام على مَنْ اتبع الهدى. وبعد كل هذا. فالمعنى إن الجن أخبروا قومهم بأنه كان فى الجاهلية رجال من الإنس يتحصنون لدفع الأذى عنهم برجال من الجن، فزادهم هؤلاء الرجال من الإنس الرجال المستعاذ بهم من الجن طغيانا وسفهًا وجرأة على ارتكاب المنكر، والعبرة فى أن يقص سبحانه علينا قول هؤلاء الجن المؤمنين بعد سماع القرآن هى إعلامنا أن بعض الجن أدركوا خطأ الإنس فى هذا التعوذ، وأدركوا أيضًا سفه إخوانهم من الجن حيث فرحوا بتعوذ الإنس بهم، وظنوا أنهم بهذا صاروا أسيادا مسيطرين على أولاد آدم الذى فضله الله عز وجل على الجن. وأن بعض الإنس ظنوا كما ظننتم يا كفار الجن أن لن يبعث الله أحدا بعد الموت، أى أنكروا البعث كما أنكرتم. وأنا قصدنا جهة السماء لنسترق السمع فوجدناها ملئت حراسًا أشداء وشهبًا يرمى بها كل مَنْ يدنو منها، مع أننا كلنا قبل هذه الحالة نتخذ أمكنة منها تهيؤنا للتسمع. لكن طرأ أن من يحاول منا الاستماع الآن يجد له شهابا مرصودًا لمطاردته. وأنا لا ندرى بعد منع السمع هل هذا شر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم خيرا؟ وأنا كان منا الكاملون فى الاستقامة لغلبة الخير على طبائعهم، ومنا آخرون أقل منهم فى ذلك. أى والأكثرون كافرون كما يشعر به السابق واللاحق، فكنا علي طرق مختلفة. وأنا علمنا بعد سماع هذا القرآن أنه لا يمكن أن نفلت من قبضة الله لا بالدخول فى جوف الأرض، ولا بالهرب إلى أعلا السماء، وأنا لما سمعنا القرآن الداعى إلى الهدى آمنا به لأنه من عند ربنا. ومَنْ يؤمن بربه وكلامه فلا يخاف نقص ثواب ولا إصابة ذلة وهوان. وأنا الآن بعد وجود هذا الرسول. منا مَنْ آمن به. ومنا مَنْ جار وظلم نفسه بالكفر به. أما مَنْ أسلم فهؤلاء قصدوا بأعمالهم الوصول إلى الخير. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا. وهذا آخر كلام الجن. ثم بعد هذا البيان تحدث سبحانه عن كفار مكة فقال: وأن لو استقاموا.. إلخ. أى لو استقام الكافرون بعد سماع هذه العبر على الطريقة المستقيمة لعاشوا عيشة رغدا لا ضيق فيها، انظر الآية (٩٦) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٨. ومَنْ أراد الوقوف على تفصيل استراق الشياطين للسمع من أول الخليقة وقبيل الإسلام وبعد نزول القرآن، فليرجع إلى شرح حديث رقم ٤٢٦ من كتابنا (صفوة صحيح البخارى).

لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا
صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَٰجِدَ[1] لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾
وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ
لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا[2] رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾
قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن
يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾
إِلَّا بَلَٰغًا[3] مِّنَ اللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ[4] وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ[5] فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا
مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾
قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ
أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ[6] الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾
إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ

المفردات: ﴿لنفتنهم فيه﴾: أصل الفتنة الاختبار. والمراد هنا: لنعاملهم معاملة المختبر. ليظهر للعيان هل يشكرون النعمة أم يكفرونها.

﴿ذكر ربه﴾: الذكر هنا هو القرآن، انظر الآية (١. ٤) من سورة فصلت صفحة ٦٣٥.

﴿يسلكه﴾: أي يدخله، والأصل يسلكه في عذاب، انظر الآية (٢٠٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢، والآية (٢١) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩. ﴿صعدا﴾: أصل الصعد: العقبة التي يصعب تخطيها، ويستعيره العرب لكل ما هو شاق، فالمراد هنا: عذابا شاقا. صعبًا تحمله.

﴿وأن المساجد لله﴾.. إلخ: أي وأن المساجد مختصة بعبادته تعالى وحده لا شريك له، فلا تدعوا غيره تعالى فيها. ﴿عبدالله﴾: هو النبي ﷺ. ﴿يدعوه﴾: أي يعبد ربه بالصلاة وقراءة القرآن. ﴿كادوا﴾: أي قرب الجن عند سماع القرآن منه ﷺ كما تقدم في الآية (٢٩) من سورة الأحقاف صفحتي ٦٧٠، ٦٧١. ﴿لبدا﴾: جمع لبدة بكسر فسكون، بوزن نعمة. واللبدة هي الصوف أو الشعر الملتصق بعضه ببعض التصاقًا شديدًا، والمراد: جماعات متزاحمة، متلاصقة. تعجبًا مما سمعوا. ﴿ضرا ولا رشدا﴾: أي ضلالا ولا هداية.

﴿من دونه﴾: أي من غيره تعالى. ﴿ملتحدا﴾: أي ملجأ. انظر الآية (٢٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٤. ﴿إلا بلاغا﴾: مستثنى من (رشدا) وما بينهما ذكر لتأكيد عجزه ﷺ عن شئون غيره ببيان عجزه عن شئون نفسه. والبلاغ هو التبليغ. والمراد: تبليغ ما أنزل من القرآن المأمور به من الله سبحانه وتعالى، انظر الآية (٦٧) من سورة المائدة صفحة ١٥٠. ﴿رسالاته﴾: المراد: وتبليغ رسالاته التي يوصيها إليَّ سبحانه على لسان جبريل لتفصيل أنواع العبادات، وبيان كيفياتها، كالصلاة والزكاة والحج، وغير ذلك من كل ما تحتاج إليه الدعوة.

---

(١) المساجد. (٢) أدعو. (٣) بلاغا.
(٤) رسالاته. (٥) خالدين. (٦) عالم.

﴿ما يوعدون﴾: أى من العذاب. ﴿إن أدرى﴾: (إن) حرف نفى أى لا أدرى. ﴿أقريب ما توعدون﴾: أى هل العذاب الذى توعدون به قريب؟ ﴿أمدا﴾: المراد: زمنًا بعيدًا. ﴿يسلك﴾: أصل معنى يسلك: يدخل كما تقدم فى الآية (١٧) هنا، وأريد به هنا: يجعل. ﴿من بين يديه ومن خلفه﴾: كناية عن كل جوانبه.

المعنى: يقول سبحانه لو استقام الكفار على ملة الإسلام لمتعناهم فى الدنيا متاعا حسنا لنعاملهم معاملة المختبر ليظهر استعدادهم هل يشكرون مَنْ أنعم عليهم أم ينكرون فضله ويكفرون به: فمن أقبل على الإسلام فاز بالسعادة. ومن يعرض عن القرآن وإرشاده يدخله سبحانه عذابا شديدا. وكان المشركون إذا دخلوا المسجد الحرام طافوا حول الكعبة وهم يتوسلون بأصنامهم فأراد سبحانه أن يوبخهم على ذلك، فقال: وأن المساجد.. إلخ. أى وقل لهم أيها النبى أنه أوحى إلىّ أن المساجد لله وحده فلا تدعوا فيها مع الله عز وجل أحدا غيره، وأوحى إلىّ أيضا أنه لما قام عبدالله ورسوله يعبد ربه بالصلاة وقراءة القرآن كاد الجن أن يطبقوا عليه كطبقات اللبد من شدة تعجبهم من القرآن، وقل لكفار مكة موبخًا: أنا لا أعبد إلا ربى ولا يصح أن أشرك به أحدًا من خلقه. وقل لهم: إنى لا أملك شيئًا من الضرر والنفع. وقل لهم إنى لا أملك لكم ذلك لأنى لا أملك لنفسى شيئًا منه؛ لأنه لن يجيرنى من الله أحد إن أرادنى بسوء، ولن أجد غيره ملجأ أتحصن به. قل لهم لا أملك لكم شيئًا من أسباب الرشد إلا تبليغكم ما أنزل إلىّ بأمر منه سبحانه، وإلا تبليغكم أيضًا رسالاته التى حملها إلى جبريل غير القرآن لبيان بقية العبادات وغير ذلك. وقل لهم إن الله يقول لكم إن الفريق منكم الذى يعصى الله فيما جاء فى كتابه، أو يعصى رسوله فيما أمر به فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا.

ولما كان كفار مكة يعتزون بكثرة الأنصار والأولاد قال سبحانه: حتى إذا رأوا.. إلخ. أى أعرض عنهم أيها النبى ودعهم فى غفلة عن الهول الذى ينتظرهم حتى إذا رأوا ما وعدهم الله به من العذاب الأكبر فسيعلمون حينئذ من أضعف ناصرًا وأقل عددًا، هل هم أم جند الله؟ ولما قالوا على سبيل الاستهزاء: متى هذا العذاب الذى تعدنا به يا محمد قال سبحانه: قل لهم لا أدرى هل ما وعدكم الله به من العذاب قريب أم يجعل له ربى زمنًا طويلاً لا علم لى به، ثم بيَّن أن وقت هذا العذاب من الغيب الذى اختص الله به فقال: (عالم الغيب).. إلخ. أى هو ربى وحده الذى يعلم الغيب فلا يطلع على غيبه أحدًا من خلقه إلا الرسول الذى يرتضيه لحمل رسالته لخلقه. ولقصر علم الغيب على هذا الرسول فإنه سبحانه يجعل حوله حرسًا ساعة إطلاعه على الغيب الذى يتعلق برسالته.

خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ
وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

(٧٣) سُورَةُ المُزَّمِّلِ مَكِّيَّة وآياتها عشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ[٢] إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ
أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ[٣]
تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ
ٱلَّيْلِ[٤] هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ
سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ
تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

المفردات: ﴿رصدا﴾: تقدم معناه فى الآية (٩) من هذه السورة صفحة ٧٧١ وانظر مدلول ذلك فى الآيات (٢١٠، ٢١١، ٢١٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢ والآية (٩) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨.

﴿ليعلم﴾: أى الرسول المرتضى.

﴿أبلغوا﴾: المراد جملة الوحى من الملائكة ومن معهم من الحرس.

﴿أحاط بما لديهم﴾: المراد: علم سبحانه جميع أحوال هؤلاء الملائكة.

﴿أحصى كل شىء عددا﴾: المراد: شمل علمه سبحانه عدد كل شىء مما كان وما سيكون من كبير وصغير.

المعنى: أنه سبحانه إذا أراد إطلاع رسول من رسله على بعض الغيب الذى يتعلق برسالته فإنه يحيط هذا الرسول بحرس شديد من الملائكة والشهب حتى يحفظ هذا الغيب من تلاعب الشياطين فلا يتسرب إليه دخيل، كما تقدم فى شرح الآيات من (٧ إلى ١٠) من سورة الصافات صفحة ٥٨٧. ومن أهم هذا الغيب ما نزل من القرآن. وقد تكفل سبحانه بحفظه حتى لايتطرق إليه ما تطرق إلى غيره، انظر الآية (٩) من سورة الحجر صفحة ٣٣٨. والمعنى أخبر سبحانه بكل هذا الحرس الشديد ليعلم الرسول الذى ارتضاه علما قاطعا أن رسل الوحى من الملائكة قد أبلغوه رسالات ربهم كما هى من غير تخليط. والحال أنه سبحانه قد علم بما لدى رسل الوحى. وكيف لا يعلم أحوالهم وهو الذى أحصى عدد كل شىء مما كان وما سيكون من كبير وصغير، انظر الآية (٥٩) من سورة الأنعام صفحة ١٧١ والله تعالى أعلم.

---

(١) رسالات. (٢) الليل. (٣) القرآن. (٤) الليل.

﴿سورة المزمل﴾

المفردات: ﴿المزمل﴾: أصل المتزمل، وهو الملتف بثيابه. والمراد هنا: المعتكف حزنا مما يقول المشركون. ﴿قم الليل﴾: اتفق العلماء على أن هذه هى أول صلاة فرضت على النبى ﷺ وعلى من آمن معه بمكة، كما سيأتى بيان ذلك فى آخر السورة، فكان ﷺ يصلى هو وأصحابه فى بيوتهم اتقاء لشدة إيذاء قريش وستعلم رفع هذا الغرض عن الأمة فيما بعد.

﴿نصفه﴾: بيان للقليل، كأنه قال: هذا القليل هو النصف. وإنما سماه قليلا للإشارة إلى أن الزمن الذى يخلو من ذكر الله قليل مهما كان كثيرًا، بل يستحق أن يكون لا شىء، وأن العامر بالعبادة بمنزلة الأكثر بل بمنزلة الكل؛ وفيه حث للمؤمن على أن يشغل أوقاته بذكر ربه.

﴿انقص منه﴾: أى من النصف العامر بالعبادة. ﴿زد عليه﴾: أى أيضًا على هذا النصف العامر بالعبادة حتى يكون أكثر من النصف، وما سيأتى فى الآية (٢٠) من هذه السورة يدل على أنه ﷺ لم يقم هو والمؤمنون مقدارًا من الليل يصل إلى الثلثين. ﴿رتل القرآن﴾: أى اقرأه على مهل فإن ذلك يساعد على التدبر. ﴿قولا ثقيلا﴾: هو القرآن.. لما فيه من التكاليف الشاقة على النفوس. ﴿ناشئة الليل﴾: أى العبادة التى تنشأ فى الليل.﴿أشد وطأ﴾: أصل الوطء وضع القدم على الأرض فى ثبات. والمراد: أشد ثباتا ورسوخًا فى النفوس من عبادة النهار. ﴿أقوم قيلا﴾: القيل هو المقال، وأريد به هنا القرآن المقروء، وأقوم أى أحسن وأفضل؛ لأن السكون يساعد القلب على استحضار المعانى. ﴿سبحًا﴾: المراد تحركا فيما يشغلك من المهام. ﴿تبتل﴾ :أصل التبتل الانقطاع، والمراد: جرد نفسك لمراقبة ربك متوجهًا إليه بقلبك. ﴿المشرق والمغرب﴾: أى مشرق الشمس ومغربها، انظر الآية (٤٠) من سورة المعارج صفحتى ٧٦٥، ٧٦٦ والمراد: رب العالم كله.

المعنى: روى البخارى وغيره من كتب السنة أن أول ما نزل من القرآن بعد ﴿اقرأ باسم ربك﴾ هو أول سورة المدثر إلى آخر الآية (٥)، انظر ما تقدم فى شرح الآية (١٠) من سورة النجم صفحة ٧٠١، وبعدما أعلن ﷺ رسالته، اجتمع صناديد الكفر من قريش وتآمروا فيما يمنعون الناس به من أتباعه ﷺ فقالوا نقول عنه إنه ساحر، أو كاهن، أو شاعر.

ولما بلغ ذلك النبى ﷺ حزن حزنًا شديدًا من مقابلة قومه وعشيرته له بهذا الافتراء. ودخل بيته والتف بثيابه ونام يفكر كما يفعل المهموم. فأتاه جبريل وهو على هذه الحال وبلغه قوله تعالى: (يا أيها المزمل).. إلخ. وإنما ناداه سبحانه بهذا الوصف تأنيسًا له وملاطفة كما هى عادة العرب إذا أرادوا تخفيف هم واحد منهم وملاطفته فإنهم ينتزعون له اسمًا من حالته التى هو عليها.

ومن ذلك قوله ﷺ لعلى بن أبى طالب لما دخل عليه ووجده نائمًا على التراب: (قم يا أبا تراب) ومن هذا تعلم أن قول بعضهم إن المدثر نزلت بعد المزمل إنما يصح إذا كان يريد أن بقية المدثر بعد الآيات الخمس الأولى هو الذى نزل.

والمعنى: يا أيها الملتف فى ثيابه ألما من قومه، قم وصل لربك نصف الليل، أو انقص من النصف قليلا إلى الثلث، أو زد على النصف قليلا، والمراد لا حرج عليك إذا صليت مقدار ما مما ذكر، فقدر ظروفك، ولا تُحمِّل نفسك ما لا طاقة لك به بشرط أن لا تنقص عما حددنا لك أنت وأمتك من هذا الزمن، ثم خفف سبحانه عنهم بما سيأتى فى آخر السورة من قيام مقدار مّا من غير تحديد بزمن معين، إلا أن هذا القيام حتى مع التخفيف كان فرضا عليه ﷺ ومندوبا لأمته، رفع سبحانه فرض قيام الليل عن الأمة وأوجب صلاتين عليها وعليه ﷺ، صلاة العصر وصلاة الصبح، وكل صلاة كانت ركعتين، كما ستعلم آخر السورة.

وروى مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: إن الله عز وجل افترض على النبى ﷺ قيام الليل فى أول سورة المزمل فقام الليل هو وأصحابه مدة من الزمن ثم خفف عنه فى آخر السورة. وقال ابن عباس بما قالت به عائشة.

وقال سعيد بن جبير: مكث ﷺ يقول هو وأمته هذا المقدار من الليل مدة ثم نزل آخر السورة بالتخفيف عنهم وبقى الفرض عليه ﷺ وحده من آية (ومن الليل فتهجد به نافلة لك..) الآية (٧٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥ كما سيأتى آخر السورة؛ واقرأ القرآن فى صلاة الليل على مهل فإن ذلك يساعدك على تدبره. وإنما أمرناك بذلك لأن الصلاة تساعدك على تحمل المشاق كما فى الآية (٤٥) من سورة البقرة صفحة ١٠، ونحن سنلقى عليك قرآنا ثقيل التكاليف على النفوس. فعود نفسك ومَن آمن معك على ذلك؛ لأن العبادة التى ينشئها أى يوجدها العابد فى الليل أشد تأثيرا فى النفس من عبادة النهار، والقراءة فيها أفضل من قراءة النهار، لأن انقطاع الأصوات وحضور القلب فيها متوفر. وإنما رغبناك فى قيام الليل لأنك فى النهار مشغول بمهام الرسالة الأخرى، ومهام أسرتك، وداوم على ذكر ربك ما استطعت على أى

فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا
جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ
قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا
غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ
وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ
رَسُولًا شَاهِدًا(١) عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾
فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ(٢) أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾
فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ(٣) شِيبًا ﴿١٧﴾
السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ۚ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ
تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ
يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ(٤) وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ
وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ(٥) وَالنَّهَارَ

وجه، وبأى ذكر. وجرد نفسك لمراقبته سبحانه. لأن فى ذلك طمأنينة القلب، انظر الآية (٢٨) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٥، ٣٢٦. ثم بيَّن سبحانه ما يؤيد وجوب الاعتماد عليه وحده فقال: رب المشرق.. إلخ. أى ربك أيها النبى هو رب الكون كله، لا إله إلا هو.

المفردات: ﴿هجرا جميلا﴾: هو مالاعتاب معه.

﴿ذرنى والمكذبين﴾: أى اتركنى وإياهم، والمراد: أرح نفسك منهم فإنى قادر فإنى قادر على عقابهم.

﴿أولى النعمة﴾: أى أصحاب التنعم بالأموال والأولاد. وهم صناديد الكفر كما تقدم، وفيه إشارة إلى سبب تكبرهم.

﴿مهلهم﴾: أى اتركهم برفق وعدم مبالاة.

﴿قليلا﴾: أى زمنًا قليلا.

﴿لدينا﴾: أى عندنا من العذاب ما أعددناه لهم إذا استمروا.

﴿أنكالا﴾: جمع نكل بكسر فسكون. وهو القيد الثقيل، انظر المادة فى الآية (٦٦) من سورة البقرة صفحة ١٣.

﴿جحيمًا﴾: أى نارا شديدة التوقد.

﴿ذا غصة﴾: الغصة اسم لما يقف فى الحلق فلا يخرج ولا ينزل فى الجوف، كالعظم

(١) شاهدا.
(٢) فاخذناه.
(٣) الولدان.
(٤، ٥) الليل.

والشوك، والمراد: طعاما مصحوبا بشىء بشع يوقفه فى الحلق، فيحدث ألما شديدًا. ونظيره فى قوله تعالى (يتجرعه ولا يكاد يسيغه..) الآية (١٧) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٢، وانظر الآية (٦٢) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٠ والآية (٤٣) وما بعدها من سورة الدخان صفحة ٦٥٩ والآية (٦) وما بعدها من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥.

﴿ترجف الأرض﴾: أى تضطرب وتتزلزل عند النفخة الأولى. انظر الآية (١) من سورة الحج صفحتى ٤٣٢، ٤٣٣، والآية (١) من سورة الزلزلة صفحة ٨١٧، والمراد هنا: وحذرهم هول يوم ترجف الأرض. وتخويف المشركين فى عهد الرسول ﷺ بقيام الساعة معهود فى القرآن.

﴿كثيبًا﴾: الكثب هو الكومة من الرمال. ﴿مهيلا﴾: أى متناثرا.

﴿شاهدا عليكم﴾: انظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧.

﴿وبيلا﴾: أى ثقيلا شديدًا، انظر الآية (١٥) من سورة الحشر صفحة ٧٣٢.

﴿السماء منفطر به﴾: أى متشققة كما فى الآية (١) من سورة الإنفطار صفحة ٧٩٥ والآية (١) من سورة الانشقاق صفحة ٧٩٩.

﴿به﴾: أى بسبب هول هذا اليوم، وإنما جاء بصيغة المذكر، ولم يقل (منفطرة) لأن السماء تذكر باعتبارها سقفا، كما فى الآية (٣٢) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣.

﴿وعده﴾: المراد ما وعد به سبحانه من حوادث يوم القيامة.

﴿مفعولا﴾: أى حاصلا لا محالة.

﴿هذه﴾: أى آيات القرآن المتقدمة.

﴿تذكرة﴾: أى تذكير وموعظة.

﴿يقدر الليل﴾: أى يعلم مقاديره ويحصيها بدقة.

﴿وطائفة من الذين معك﴾: (من) فى قوله (من الذين معك) بيانية لا تبعيضية أى طائفة هم الذين آمنوا معك، ومثلها (من) فى قوله تعالى ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ الآية (٣٠) من سورة الحج صفحة ٤٣٧، وكل الأوثان رجس، وفى قوله ﴿الذين استجابوا لله والرسول من

بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ الآية (١٧٢) من سورة آل عمران صفحة (٩١) والذين استجابوا كلهم محسنون متقون.

المعنى: افعل المطلوب منك أيها النبى، وفوض أمورك لربك فإنه يكفيك كل شىء. واصبر على ما يقول الكفار من الباطل. واهجرهم هجرًا جميلا حتى لا تمكنهم من العنف. وأرح نفسك من هؤلاء الذين أغراهم التنعم الكثير على تكذيبك. ومهلهم زمنا قليلا وترى بعده ما يحل بهم. إنا أعددنا لهم فى جهنم قيودًا ثقيلة توضع فى أرجلهم وهم فى الجحيم. وإن عندنا لهم طعاما معه ما تقف فى حلوقهم فلا يخرج ولا ينزل فلا يستريحون. وفوق ذلك عذابا شديد الألم لا يعلمه إلا هو سبحانه. لدينا كل هذا سنعذبهم به يوم ترجف الأرض والجبال عند النفخة الأولى. وتصير الجبال كالرمل المتناثر. ولا تنس ما قيل فى شرح الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧.

ثم وجه سبحانه الخطاب للمكذبين أصحاب النعيم ليذكرهم بما حصل لمن كذبوا رسولهم من الماضين فقال: إنا أرسلنا إليكم أى يا أهل مكة رسولا سيكون شاهداً عليكم يوم القيامة كما أرسلنا إلى فرعون رسولا هو موسى. فعصى فرعون رسوله فعاقبناه عقابا شديدا. وإذا كان الأمر كما ذكر فخبرونى بأى شىء تتقون - إن بقيتم على الكفر - هول يوم يجعل الولدان شيبا. أى كل واحد منهم يكون من الهم كالرجل الأشيب، السماء تتشقق من هوله. وكان ما وعد به سبحانه لابد من حصوله، إن ما ذكر من هذه الآيات تذكير وعظة، فمَنْ شاء النجاة منكم ومن غيركم يسلك طريقًا يوصله إليها وليس إلا الإيمان والعمل الصالح. وبعد ذلك أراد سبحانه أن يخفف عنه ﷺ وعن أصحابه الذين قاموا الليل مثله، وذلك أنهم كانوا لجهلهم مقادير الليل لا يعرفون النصف والثلث بالتحديد، فكان الواحد منهم ربما قام إلى قبيل الفجر محتاطا وفى هذا من الشدة ما فيه .

قال ابن جرير روى سعيد بن جبير أنه قال : لما أنزل الله سبحانه على نبيه (يا أيها المزمل) مكث ﷺ يقوم الليل كما أمره ربه مدة من الزمن، ويقوم كما تقوم طائفة هى كل من آمنوا بالله عزوجل معه ﷺ ، فأنزل سبحانه بعد ذلك: إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى أى أقل من ثلثى الليل ولكن فوق النصف، وتقوم أيضًا نصفه، وثلثه؛ وتقوم معك طائفة هم المؤمنون، والله وحده هو الذى يعلم مقادير الليل والنهار بالتحديد.

عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ
الْقُرْءَانِ(١) عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ(٢)
يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ(٢)
يُقَاتِلُونَ(٣) فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا
الصَّلَوٰةَ(٤) وَءَاتُوا(٥) الزَّكَوٰةَ(٦) وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا
تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا
وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

(٧٤) سورة المدثر مكية
وآياتها ست وخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾

المفردات: ﴿أن لن﴾: تنطق ألَّن والمراد: أنكم لن تحصوه، انظر الآية (٣) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩.

﴿لن تحصوه﴾: أى لن تستطيعوا إحصاء أجزاء الليل بدقة. وبهذا تقعون فى مشقة لو طلب منكم قيام مقدار محدد منه.

﴿فتاب عليكم﴾: المراد: خفف عنكم، بأن تفعلوا ما تيسر لكم.

﴿فاقرءوا ما تيسر لكم﴾: المراد: صلوا قارئين القرآن فى صلاتكم بدون تحديد بزمن معين، انظر الآية (١١٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٩.

﴿أن سيكون﴾: (أن) أصلها أنه وهى مثل سابقتها.

﴿يضربون فى الأرض﴾: أى يسافرون للتجارة، انظر الآية (١٠٦) من سورة المائدة صفحة ١٥٨. ﴿يبتغون﴾: أى يطلبون. ﴿فاقرءوا ما تيسر منه﴾: ذكره ثانيًا لأنه هنا مرتب على أسباب أخرى للتخفيف غير السبب الأول، وهى المرض، والسفر، والجهاد.

﴿أقيموا الصلاة﴾: هذه هى الصلاة التى فرضت بعد تخفيف قيام الليل وكانت ركعتين فى العصر ومثلها فى الصبح، روى مسلم فى صحيحه عن جرير بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال: إن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها يعنى العصر والفجر، ثم فرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء كما هو موضح هناك.

﴿آتوا الزكاة﴾: كانت الزكاة مفروضة بمكة من غير تحديد مقدار معين، انظر شرح الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤. ﴿وأقرضوا الله قرضا حسنا﴾: تقدم فى الآية (١١) من سورة الحديد صفحة ٧٢٠. ﴿من خير﴾: (من) تدل على أن (خير) بعدها بيان لـ (ما) قبلها.

---

(١) القرآن. (٢) آخرون. (٣) يقاتلون.
(٤) الصلاة. (٥) آتوا. (٦) الزكاة.

المعنى: والله وحده هو الذى ضبط جميع أجزاء الليل والنهار بغاية الدقة فى كل لحظة. وعلم سبحانه أن الحقيقة الثابتة هى عجزكم عن ضبط ساعات الليل بالدقة. ولهذا أوقعكم الاحتياط فى مشقة. وإذا كان الأمر كما ذكر فإنه سبحانه خفف عنكم، ولم يلزمكم بقيام المقادير المبينة أول السورة، فصلوا واقرءوا القرآن فى صلاتكم ما تيسر لكم من أجزاء الليل بدون تحديد. وروى أن قيام الليل بالمقدار المبين أولا كان فرضا عليه ﷺ وعلى مَنْ آمن معه. وكان بعضهم يصليه معه وبعضهم يصليه فى بيته. ثم خففه بالنسبة للمؤمنين بالاكتفاء بصلاتين. وبقى قيام الليل على أنه سنة.

أما بالنسبة له ﷺ فإنه بقى فرضا عليه ﷺ. لكن بدون تحديد زمن معين، انظر الآية (٧٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٥. وبعد ما بيَّن سبحانه أن سبب التخفيف هو صعوبة ضبط الأوقات على المؤمنين. الأمر الذى أوقعهم فى مشقة أراد سبحانه أن يبين سببا آخر للتخفيف فقال: علم أن سيكون.. إلخ. أى علم سبحانه أن الحالَ الثابت وقوعه فى المستقبل هو وجود مرضى منكم، ومسافرون للتجارة يطلبون من فضل الله ربحًا، ومقاتلون فى سبيل الله. وإذا كان الأمر كذلك، فاقرءوا ما تيسر من القرآن فى صلاة الليل. وأقيموا الصلاة التى فرضت عليكم قبل طلوع الشمس وقبل الغروب كما تقدم. وآتوا الزكاة، وأنفقوا بعد ذلك فى وجوه الخير يجازيكم عليه سبحانه أجرًا مضاعفًا. وكل خير تقدمونه لأنفسكم فى حال صحتكم مما ذكر سابقا وما لم يذكر تجدون ثوابه عند الله يوم القيامة خيرًا مما وصيتم بإنفاقه بعد الموت. ثم بيَّن بعض وجوه هذه الخيرية، فقال: وأعظم أجرا، أى يضاعفه سبحانه أضعافا كثيرة ولما كان الإنسان لا يخلو من تفريط. أرشده سبحانه لكثرة فى جميع الأحوال. والله يغفر لمن يستغفره لأنه سبحانه كثير المغفرة، واسع الرحمة.

سورة المدثر

المفردات: ﴿المدثر﴾: أصلها المتدثر، أى لابس الدثار؛ والدثار بكسر الدال هو ما يغطى الجسم؛ وقد بيَّنا سبب تدثره فى شرح الآية (١٠) من سورة النجم صفحة ٧٠١، وحكمة مناداته بهذا الوصف فى الآية (١) من سورة المزمل صفحة ٧٧٣.

﴿أنذر﴾: أى حذر وخوف عشيرتك الأقربين أولاً ثم جميع الناس ثانيًا، أى من عذاب الله إن لم يؤمنوا.

المعنى: قد علمت فى شرح الآية (١٠) من سورة النجم صفحة ٧٠١ أن الوحى كان قد انقطع عنه ﷺ مدة ثلاث سنين حتى حزن حزنًا شديدًا. وفى يوم كان وحده على جبل حول

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن
تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾
فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ[1] غَيْرُ
يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا
مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا[2] عَنِيدًا ﴿١٦﴾
سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ
قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ
وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا
سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ
سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ[3] مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾
لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا

مكة فرأى جبريل بصورته الحقيقية. فرجع خائفا وقال لخديجة رضى الله عنها: دثرونى دثرونى. فنزل عليه جبريل بقول الله تعالى: يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر. أى وخص ربك بالتكبير والتعظيم ونزهه عما يفتريه الكافرون.

المفردات: ﴿ثيابك فطهر﴾: قال ابن عباس: ذلك كناية عن تطهير الباطن من العيوب، يقول العرب: فلان طاهر الثياب، نقى الذيل. إذا كان بعيدا عن كل عيب.

﴿الرجز﴾: بضم الراء وكسرها، قال مجاهد: المراد بالرجز هنا الصنم الذى يعبد، وله معان أخرى، منها ما فى الآية (١١) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٨.

﴿ولا تمنن﴾: من المن، وهو الإنعام، أى لا تعط غيرك شيئا لتأخذ أكثر منه، بل أجعله لوجه الله.

﴿تستكثر﴾: جملة تستكثر حال من فاعل (تمنن) وهو النبى ﷺ أى لا تعط غيرك شيئًا حال كونك طالبا أكثر مما أعطيت.

﴿فإذا نقر فى الناقور﴾: (إذا) ظرف منصوب بفعل مستفاد من معنى جملة (فذلك يومئذ) إلخ. وتقدير هذا الفعل: أشتد الهول فى وقت النقر. و(نقر): أصل النقر الضرب على شىء يحدث صوتا وأريد به هنا النفخ فى الصور الذى يحدث الصوت الذى يخرج الناس من القبور كما فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ و(الناقور) أصله مكان النقر، وأريد به الصور المشار إليه سابقا.

﴿فذلك﴾: أى فذلك الزمن الذى ينفخ فيه فى الصور، وهو مبتدأ وخبره (يوم عسير) الآتى (يومئذ) بدل من (ذلك) المتقدم. ﴿غير يسير﴾: المراد: لا يمكن أن ينكشف عسره حتى يرجع

---

(١) الكافرين. (٢) لآياتنا. (٣) أدراك.

يسيرا كما هو حال العسر فى أحوال الدنيا، انظر الآية (٥) من سورة الشرح صفحة ٨١٢.

﴿ذرنى ومن خلقت﴾: المراد: لا تشغل نفسك به واترك لى عقابه، انظر الآية (١١) من سورة المزمل صفحة ٧٧٤.

﴿وحيدًا﴾: أى فريدًا فى كل أحواله من مبدأ ميلاده كما فى الآية (٩٤) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨. ثم بعد ذلك جمع من الصفات ما لم يوجد فى غيره. فمن صفات الذم ما فى الآيات (١٠ - ١٥) من سورة القلم صفحة ٧٥٨. ومن مظاهر الدنيا ما ذكر هنا فكان أوجه العرب فى عصره حتى لقبوه (بالوحيد) وهو الوليد بن المغيرة، وهو أحد الرجلين اللذين تمنى المشركون أن يكون الرسول واحدًا منهما، انظر شرح الآية (٣١) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٠.

﴿مالا ممدودًا﴾: أى مبسوطا كثيرا. فكان له بين مكة والطائف من الإبل والغنم والعبيد والبساتين ما ليس عند غيره.

﴿وبنين شهودا﴾: أى حضورا فى المحافل معه بمكة، يتمتع بهم لا يشغلهم عن ذلك شىء. وكانوا أكثر من سبعة. ما تواكلهم على الكفر مثله إلا ثلاثة فإنهم أسلموا منهم (خالدبن الوليد) رضي الله عنه. القائد المشهور المظفر فى جميع مواقعه.

﴿ومهدت له تمهيدا﴾: أى هيأت وبسطت له من المال والرئاسة جاهًا عريضًا حتى كانوا يلقبونه (ريحانة قريش).

﴿كلا﴾: أى زجرا له عن هذا الطمع.

﴿إنه كان﴾: علة الزجر. ﴿لآياتنا عنيدا﴾: أى شديد المعاندة للقرآن. حتى قال فيه ما سيأتى فى آيتى (٢٤، ٢٥) هنا.

﴿سأرهقه صعودا﴾: (أرهقه) أى أحمله شدائد، انظر شرح الآية (٦) من سورة الجن صفحتى ٧٧٠، ٧٧١، وأصل الصعود العقبة التى يصعب تخطيها. ويستعار لكل شاق. فالمراد سأحمله مشقة من العذاب. (إنه فكر): بيان لسبب تعذيبه، والمراد فكر فى شىء يطعن به فى القرآن بعد ما سمعه.

﴿قدر﴾: أى قدر الذى يمكن أن يقال. ﴿فقتل﴾: دعاء عليه.

﴿كيف قدَّر﴾: استفهام مراد به لفت النظر للتعجب من شناعة حالة استهزاء به.

﴿ثم قتل﴾: مبالغة فيما سبق.

﴿ثم نظر﴾: أى فى وجوه القوم وهم ينتظرون رأيه.

﴿عبس﴾: أى قطب ما بين عينيه متألما من عدم العثور على مطعن.

﴿بسر﴾: أى تغير شكل وجهه. وقبح منظره بتقلص شفتيه وبروز أسنانه من شدة الكرب، انظر الآية (٢٤) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠.

﴿إن هذا﴾: أى ما هذا القرآن.

﴿يؤثر﴾: أى يروى ويتعلم عن أهل بابل بالعراق، انظر الآية (١٠٢) من سورة البقرة صفحة ٢٠.

﴿إن هذا إلا قول البشر﴾: تأكيد لما قبله.

﴿سأصليه سقر﴾: سأدخله جهنم.

﴿وما أدراك ما سقر﴾: تقدم المراد من هذا التركيب فى الآية (٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١.

﴿لا تبقى﴾: أى على شىء مما يطرح فيها بل تحرقه.

﴿لا تذر﴾: أى لا تتركه يخرج منها. بل كلما أراد الخروج أعيد فيها، انظر الآية (٢٠) من سورة السجدة صفحة ٥٤٧.

﴿لواحة﴾: أى شديدة التسويد للجسم. من قولهم لوحته الشمس بحرها: إذا سودت جلده.

﴿للبشر﴾: اسم جمع لبشرة. كبقر وبقرة. والبشرة ظاهر للجلد.

﴿تسعة عشر﴾: لا ندرى هل هم رؤساء ملائكة العذاب أو أنواع منهم والذى يهمنا أنهم جنود من جنود الله الذين سخرهم لتعذيب أهل النار، انظر الآية (٣١) الآتية من هذه السورة.

المعنى: وابعد أيها النبى قلبك ونفسك وأعمالك عن كل عيب من العيوب الباطنة والظاهرة كالحقد والحسد والبخل والرياء وغير ذلك حتى لا يمسك شىء من عيوب المشركين. ولا تعط خيرا لأحد منتظرا منه أكثر، بل اعط ابتغاء وجه الله وحده وإلا كنت متاجرا، فاصبر على إيذاء المشركين ومشاق التكاليف لتنال أجرا بغير حساب، انظر الآية (٢٢) من سورة الرعد

صفحتى ٣٢٤، ٣٢٥ والآية (١٠) من سورة الزمر صفحة ٦٠٧، وسيلقى أعداؤك عاقبة كفرهم يوم ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية. فذلك اليوم يوم عسير على الكافرين، لا ينفرج كربه أبدا. وكان الوليد بن المغيرة أكبر صناديد الكفر بمكة، ولما سمع القرآن هجم عليه الحق وكاد يؤمن. ولكنه لما رأى حزن قومه من ذلك استكبر وأصر على العناد. وقد ورد أنه لما سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ عند الكعبة انصرف وقال: ما هذا الذى يقوله محمد كلام أنس ولا جن. وأنه لا يعلو عليه كلام قط. فلما سمعت بذلك قريش شملهم الحزن خوف أن يؤمن فيتبعه العرب. فذهب كبارهم إلى بيته وعلى رأسهم أبو جهل وسألوه. فقال: لا يصح أن نقول إن محمدا مجنون. لأنا لم نره يخنق نفسه، ولا كاهن؛ لأنا لم نره يتعاطى الكهانة.

فقالوا فماذا تقول أنت فيه؟ ففكر كثيرا إلى آخر ما سيأتى. فنزل قوله تعالى: (ذرنى ومَنْ خلقت).. إلخ. أى أرح نفسك أيها النبى واتركنى وأنا أكفيك شر هذا الذى أوجدته فريدا فى كل أحواله، ليس له مال ولا جاه ولا شىء مما سيأتى ذكره. ثم جعلت له مالا كثيرا. وبنين وجهاء يملأون المحافل. وهيأت له من كل ذلك جاها عريضا. ثم بلغ من تكالبه على الدنيا أنه يطمع فى المزيد منها. كلا لن أزيده بعد اليوم. بل سأنقصه لأنه مستمر على شدة المعاندة للقرآن مع علمه بأنه حق. وكفر العناد أفحش أنواع الكفر. سأحمله من مشاق عذاب الدنيا والآخرة مالا يقدر على حمله. وقد حصل أنه زال عزه ومات حقيرا. ثم بيَّن سبحانه سبب تعذيبه فقال: (إنه فكر).. إلخ. أى فكر لعله يجد شيئًا يطعن به فى القرآن. وقدر فى نفسه الذى يمكن أن يموه به على الضعفاء. قاتله الله كيف يقدر هذا الباطل، ثم نظر فى وجوه القوم وهم ينتظرون منه ما يزيل خوفهم من إيمانه، ثم قطب جبينه ألمًا من صعوبة العثور على منفذ. ثم أسرع إلى وجهه شكل قبيح. ثم تمادى فى الإعراض. وبالغ فى الاستكبار عن الخضوع للحق. وقال ما هذا الذى أتى به محمدًا إلا سحر تعلمه من غيره. ألا ترونه فرق بين الرجل وزوجه وولده فصار أحدهما يتبعه والآخر ثابت على دين آبائه؟ ثم أكد ما سبق فقال: ما هذا إلا قول البشر من رجال السحر فتأمل كيف حمله العناد على إنكار ما قرره أولاً بأن البشر لا يقدر على هذا الكلام. ولذا قال سبحانه: سأصليه.. إلخ. أى سأدخله سقر. ولا تدرى أيها السامع ما أهوال سقر. إنها لا تبقى على سلامة من يدخلها. ولا تتركه يخرج منها. تسود الجلد تسويدا شديدا. يشرف على تعذيب من فيها تسعة عشر.. إلخ.

أصحب[١] النار إلا ملئكة[٢] وما جعلنا عدتهم إلا فتنة
للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتب[٣] ويزداد
الذين ءامنوا[٤] إيمنا[٥] ولا يرتاب الذين أوتوا الكتب[٦]
والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكفرون[٧]
ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء
ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي
إلا ذكرى للبشر ﴿٣١﴾ كلا والقمر ﴿٣٢﴾ واليل[٨] إذ أدبر ﴿٣٣﴾
والصبح إذا أسفر ﴿٣٤﴾ إنها لإحدى الكبر ﴿٣٥﴾ نذيرا
للبشر ﴿٣٦﴾ لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴿٣٧﴾ كل
نفس بما كسبت رهينة ﴿٣٨﴾ إلا أصحب[٩] اليمين ﴿٣٩﴾
في جنت[١٠] يتساءلون ﴿٤٠﴾ عن المجرمين ﴿٤١﴾ ما سلككم
في سقر ﴿٤٢﴾ قالوا لم نك من المصلين ﴿٤٣﴾ ولم نك نطعم

المفردات: ﴿أصحاب النار﴾: المراد بهم هنا الموكول إليهم تعذيب من يدخلها.

﴿إلا ملائكة﴾: لما فيهم من الصفات المذكورة فى الآية (٦) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢.

﴿وما جعلنا عدتهم﴾: العدة العدد، والمراد: وما أخبرنا عن جعلنا لهم بهذا العدد.. إلخ. انظر نظير ذلك فى تقدير (الإخبار) فى الآية (٢٩) من سورة الحديد صفحة ٧٢٤ والآية (١٢) من سورة الطلاق صفحتى ٧٥٠، ٧٥١.

﴿فتنة للذين كفروا﴾: المراد من الفتنة هنا الامتحان الذى تظهر به طبيعتهم.

وقد روى أن أبا جهل لما سمع عددهم قال: يا شجعان قريش، هل يعجز كل عشرة منكم أن يبطش بواحد من هؤلاء التسعة عشر؟ وهذا شأن المضللين مع ضعاف العقول، انظر نظير ذلك فى الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧ والآية (٦٠) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٢ والآيتين (٦٢، ٦٣) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠. ﴿ليستيقن﴾: أى ليكتسب اليقين بصدق الرسول وكتابه. ﴿الذين أوتوا الكتاب﴾: من اليهود والنصارى لأنه موافق لما فى دينهم. ﴿ولا يرتاب الذين﴾.. إلخ: المراد: ولا يطرأ عليهم بعد اليقين وزيادة الإيمان شك فى المستقبل أبدًا. ﴿مرض﴾: هو النفاق، كما فى الآية (١٠) من سورة البقرة صفحة ٤. وبما أن النفاق لم يظهر إلا فى المدينة فيكون هذا من إخبار القرآن بالغيب المستقبل، وقد حصل فعلا وأشد منه. (ماذا .. إلخ): استفهام قصدوا به الإنكار. ﴿بهذا﴾: أى بعدد ملائكة النار.

---

(١) أصحاب. (٢) ملائكة. (٣) الكتاب. (٤) آمنوا. (٥) إيمانا.
(٦) الكتاب. (٧) الكافرون. (٨) الليل (٩) أصحاب. (١٠) جنات

﴿مثلا﴾: المراد بالمثل هنا الشىء المستغرب، وهوحال من اسم الإشارة، انظر الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧.

﴿جنود ربك﴾: المراد بالجنود هنا المخلوقات التى سخرها سبحانه لما يريد ومنها الملائكة، انظر الآية (٤) من سورة الفتح صفحة ٦٧٨ والآية (٧) من نفس السورة صفحة ٦٧٩. ﴿وما هى﴾: أسم سقر المتقدمة فى الآية (٢٦) من هذه السورة صفحة ٧٧٦. والمراد ما الحديث عنها إلا ذكرى.. إلخ.

﴿ذكرى﴾: أى تذكير وتنبيه. ﴿كلا﴾: حرف يدل على زجرهم من الاستهزاء المفهوم من قولهم (ماذا أراد الله).. إلخ. ﴿والقمر﴾: أى وحق القمر.

﴿إذ﴾: حين. ﴿أدبر﴾: مضى. وهو كناية عن ذهاب الليل، انظر آيتى (١٧، ١٨) من سورة التكوير صفحة ٧٩٤. ﴿أسفر﴾: أى أضاء وظهر.

﴿إنها﴾: أى سقر. وهذا هو المحلوف عليه. ﴿لإحدى﴾: أى واحدة من الكُبَر. ﴿الكبر﴾: جمع الكبرى وهى الداهية الكبيرة.

﴿نذيرا﴾: النذير هنا بمعنى الإنذار كما فى الآية (١٧) من سورة الملك صفحة ٧٥٦.

﴿لمن شاء﴾.. إلخ: بدل من (للبشر) بدل مفصل من مجمل.

﴿أن يتقدم﴾.. إلخ: أى يتقدم إلى الإيمان والخير، أو يتأخر إلى الكفر والشر. انظر الآية (١٨) وما بعدها من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧ والآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥. ﴿رهينة﴾: من الرهن أى الحبس، أى مرهونة فى النار بقدر عملها، والهاء فيها للمبالغة كالهاء فى (فلان علامة. أى كثير العلم).

﴿أصحاب اليمين﴾: المراد بهم هنا المؤمنون الكاملون. فإن كثرة حسناتهم تفك رقابهم من النار. ﴿يتساءلون﴾: أى يسأل بعضهم بعضًا عن حال المجرمين الذين كانوا معهم فى الدنيا وما حل بهم، نظير ما فى الآية (٥٠) وما بعدها من سورة الصافات صفحة ٥٩٠.

﴿المجرمين﴾: هم الكافرون، كما فى الآية (٢٩) وما بعدها من سورة المطففين صفحة ٧٩٨. ﴿ما سلككم﴾.. إلخ: أى ما هو الذنب الذى أدخلكم فى سقر.

المعنى: يقول سبحانه: وما جعلنا المشرفين على تعذيب أهل النار إلا ملائكة. لشدتهم وطاعتهم وقدرتهم على كل ما يؤمرون به. وما جعلنا عدتهم.. إلخ. المراد وإنما أخبرنا عن عدد ملائكة جهنم بهذا العدد الذى تسبب فى بروز فتنة الكافرين لحكمة سامية هى اكتساب أهل الكتاب يقينًا بصحة نبوته ﷺ لأنهم يعرفون هذا العدد من دينهم. وزيادة إيمان المؤمنين عندما يعلمون تصديق أهل الكتاب لذلك. ويظهر ذلك واضحًا بعد إيمان بعضهم كعبد الله بن سلام وأصحابه من اليهود وكثير من النصارى المشار إليهم فى الآية (٨٢) وما بعدها من سورة المائدة صفحة ١٥٣، وأيضًا لئلا يعترى أهل الكتاب والمؤمنين شك بعد ذلك أبدا. ومن حكم الإخبار بهذا العدد أيضًا ظهور تضليل المنافقين والكافرين فى المستقبل فيقولون على سبيل الإنكار: ما الذى أراده الله تعالى بهذا العدد المستغرب ولم يجعل الملائكة آلافا حتى يمكنهم تعذيب هذا العدد الضخم. فمرادهم لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد القليل. كهذا المذكور سابقًا من إضلال المنافقين والكافرين لإعراضهم عن النظر فى البراهين وهداية المؤمنين لإخلاصهم. يضل الله مَنْ يشاء إضلاله، ويهدى من يشاء هدايته على النظام الذى اختاره لهذه الحياة، انظر بيان ذلك فى شرح الآية (٢٦) من سورة البقرة صفحتى ٦، ٧ والآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨. ثم سفههم سبحانه على ما يقولونه فقال: (وما يعلم جنود ربك).. إلخ. المراد إنكم لا تعلمون شيئًا عن حقيقة هذه التسعة عشر وعن قوة بطشهم، فضلا عن كل جنود الله التى لا حصر لها. وما الحديث عن سقر وصفاتها إلا تذكير وتنبيه للبشر. فانزجروا عن هذا الاستهزاء وحق القمر حين مضى وذهب ضوؤه والليل إذا ولى. والصبح حين ظهر ضوؤه إن سقر لهى إحدى الدواهى الكبيرة التى أعدها سبحانه لمن يكفر به. أى فلهم عنده سبحانه بلايا غير محصورة. أخبرناكم بها لإنذار البشر لمن شاء منهم أن يتقدم للخير أو يتأخر عنه. وهذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

ثم بيَّن سبحانه المآل لكل عامل فقال: (كل نفس).. إلخ، أى مرهونة فى النار بقدر عملها، فمنهم من يخلد، ومنهم من يخرج بعد استيفاء جزائه، إلا المؤمنين الصادقين فإنهم لا يدخلون النار أبدا، بل هم من أول الأمر فى جنات يتساءلون عن حال الكافرين الذين كانوا يعرفونهم فى الدنيا. وعندما يرونهم فى جهنم يقولون لهم ما الذى أدخلكم سقر؟ يقولون لم نك فى الدنيا من المصلين للفرائض ولم نك نطعم المحتاج. والمراد لم نعبد ربنا ولم نحسن إلى خلقه.. إلخ.

الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ[1] (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ
بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا[2] الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ[3]
الشَّافِعِينَ[4] (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ
مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ
مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ[5] (٥٣)
كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ
إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦)

(٧٥) سُورَةُ القِيَامَةِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا أَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ[6] (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢)

المفردات: ﴿نخوض﴾ : أي ندخل في كل باطل. انظر الآية (٦٨) من سورة الأنعام صفحتي ١٧٢، ١٧٣.

﴿يوم الدين﴾ : يوم القيامة.

﴿اليقين﴾ : المراد: الموت. انظر الآية (٩٩) من سورة الحجر صفحة ٣٤٥.

﴿التذكرة﴾ : أصلها بمعنى التذكير، وأريد به هنا: القرآن مبالغة في قوة تذكيره حتى كأنه هو التذكرة نفسها.

﴿حمر﴾ : جمع حمار. والمراد به هنا حمار الوحش؛ لأنه هو المعروف عند العرب بشدة النفور.

﴿مستنفرة﴾ : تقول العرب: نفرت الدابة إذا شردت شرودًا عاديًا. واستنفرت إذا شردت بقوة، كعجب واستعجب.

﴿قسورة﴾ : أي أسد.

﴿بل يريد كل امرئ﴾ .. إلخ: عطف على مقدر مفهوم من السياق والأصل لا يكتفون بتلك التذكرة، بل يريد .. إلخ.

﴿صحفا منشرة﴾ : أي منشورة غير مطوية ولا مغلقة حتى يقرأها كل مَن يراها. انظر نظير هذا التعنت في الآية (١٢٤) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣ والآية (٩٠) وما بعدها من سورة الإسراء صفحتي ٣٧٦، ٣٧٧.

﴿كلا﴾ : أي فلينزجروا عن اقتراح المعجزات تعنتا.

(١) الخائضين. (٢) أتانا. (٣) شفاعة.
(٤) الشافعين. (٥) الآخرة. (٦) القيامة.

﴿بل﴾: حرف يدل على الانتقال من تعنتهم إلى بيان سببه، وهو إنكار يوم القيامة.

﴿لا يخافون الآخرة﴾: المراد: ينكرونها. فلذلك لم يبالوا بالتعنت.

﴿كلا﴾: زجرا لهم عن إنكار الآخرة.

﴿إنه﴾: أى القرآن وما فيه من الأدلة والعبر.

﴿تذكرة﴾: أى تذكير بليغ لمَنْ تيقظ ضميره، وأراد الاتعاظ به مخلصًا. فإن الله تعالى يسهل له ذلك.

﴿إلا أن يشاء الله﴾: انظر ذلك فى شرح الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ والآية(١٠٤) وما بعدها من سورة الأنعام أيضًا صفحة ١٨٠.

﴿أهل التقوى﴾: أى أهل لأن يتقى غضبه، وعقابه، فلا يعصى.

﴿أهل المغفرة﴾: أهل لأن يغفر لمن رجع إليه بالتوبة.

المعنى: يقولون فى بيان سبب دخولهم جهنم إنا كنا نمنع الخير عن المساكين. وكنا ندخل فى كل باطل مع المبطلين. وكنا مع ذلك من المكذبين بيوم القيامة. وبقينا فى غفلتنا حتى أتانا الموت.

ثم بيَّن سبحانه حالهم بعد ذلك فقال فما تنفعهم شفاعة الشافعين. لو فرض وشفع فيهم أحد وهو مستحيل لما سبق فى شرح الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦. وإذا كان هذا الذى سيحصل قطعًا فما الشىء الذى دهاهم حال كونهم معرضين عن القرآن مع توافر الأدلة على صدقه.

ثم صور قبح إعراضهم أبشع صورة فقال: كأنهم.. إلخ. أى ينفرون من سماع القرآن نفور حمير الوحش من الأسد الذى يريد افتراسها وهذا منتهى البله حيث خافوا مما هو منشأ الأمان.. ومن العجب ألا يرضى هؤلاء بهذا القرآن الذى أعجز الإنس والجن.

بل يريد كل واحد منهم أن يأتيه من الله كتاب مفتوح عند كل تكليف يكلفه به. وروى عن السلف أنهم قالوا له ﷺ: إن أردت أن نتبعك فأت كل واحد منا بكتب من السماء عنوانها: من رب العالمين إلى فلان بن فلان. وفيها الأمر من الله بما يريد. فلينزجر هؤلاء عن اقتراح

المعجزات؛ لأن المانع لهم ليس قلة الأدلة بل المانع الحقيقى هو كفرهم بالآخرة، ولذلك لا يبالون بالأدلة.

فلينزجروا عن الإعراض عن الأدلة وعن عدم الإيمان بالآخرة؛ لأن القرآن تذكير بالغ النهاية فى الكفاية، فمن شاء أن يتذكره بإخلاص سهل عليه سبحانه تذكره. وما يتذكرون فى حال من الأحوال إلا فى حال مشيئة الله تعالى على النظام الذى وضعه لهذا العالم. هو سبحانه أهل لأن يتقى غضبه تعالى بالإيمان به وبرسوله. وأهل المغفرة ذنوب عبده إذا رجع إليه بالتوبة الخالصة.

(سورة القيامة)

المفردات: ﴿لا أقسم﴾.. إلخ: المراد: إن بعثنا الخلائق يوم القيامة لا يحتاج فى ثبوته وتحققه إلى قسم، ونظيره فى الآية (٧٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧. فالمحلوف عليه هو أنكم ستبعثون يوم القيامة وحذف ما يعلم شائع فى كلام العرب، ومنه فى القرآن ما فى الآية (١١١) من سورة الأنعام صفحة ١٨١، والآية (٣١) من سورة الرعد صفحة ٣٢٦، والآية (١٠) من سورة النور صفحة ٤٥٨.

﴿اللوامة﴾: أى التى تلوم نفسها دائما، إن قصرت فعلى التقصير، وإن أحسنت فعلى عدم الزيادة فيه. فهى يقظة دائما لما ينفعها.

المعنى: لا أحلف بيوم القيامة. ولا بالنفس المؤمنة به على أنكم ستبعثون فيه، لأن ثبوته أوضح من أن يحتاج إلى حلف.

المفردات: ﴿أيحسب﴾: أى هل يظن، والاستفهام للتوبيخ على هذا الظن.

﴿الإنسان﴾: المراد به هنا: الكافر المنكر ليوم القيامة، فهو جمع فى المعنى.

﴿ألن﴾: الأصل (أنَ. لن)، انظر الآية (٢٠) من سورة المزمل صفحتى ٧٧٤، ٧٧٥.

﴿نجمع عظامه﴾: انظر إنكارهم فى الآية (٤٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧١ والآية (٧٨) من سورة يس صفحة ٥٨٦ والآية (١١) من سورة النازعات صفحة ٧٨٩.

أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ[1] أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ[2]
عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ[3] لِيَفْجُرَ
أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ[4] أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ[5] ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ
ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ
وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ[6] يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾
كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾
يُنَبَّؤُا۟[7] ٱلْإِنسَٰنُ[8] يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ
ٱلْإِنسَٰنُ[9] عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾
لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ
وَقُرْءَانَهُۥ[10] ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ[11] فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ[12] ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ
عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾
وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ[13] ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا

﴿بلى﴾: حرف يفيد إبطال ظنهم، وإثبات نقيضه، انظر الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

﴿قادرين﴾: حال من فاعل الفعل المقدر بعد (بلى) والمراد: نجمعها حال كوننا قادرين على جمع أدقها، وهو البنان، كغمام وغمامة.

﴿نسوى﴾: أى نوجدها مستوية كما كانت.

﴿بنانه﴾: اسم جمع واحده بنانة وهى طرف الأصبع.

﴿بل يريد﴾: حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر.

﴿ليفجر﴾: اللام بمعنى (أن)، انظر نظير ذلك فى الآية (٨) من سورة الصف صفحة ٧٣٩.

﴿أمامه﴾: أصل الأمام: اسم المكان المقابل للوجه، واستعمل هنا فى الزمن المستقبل، والمعنى: ليدوم على فجوره، ولا يتقيد بشريعة.

﴿أيان﴾: متى. ﴿برق البصر﴾: أى لمع من شدة شخوصه، كأنه البرق. انظر الآية (٤٢) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٦، والكلام كناية عن شدة الحيرة والخوف.

﴿جمع الشمس والقمر﴾: المراد: اختل نظام سيرهما المشار إليه فى الآية (٤٠) من سورة يس صفحة ٥٨٢، فيجمعهما الفناء.

---

(١) الإنسان. (٢) قادرين.
(٣) الإنسان. (٤) يسأل.
(٥) القيامة. (٦) الإنسان.
(٧) ينبأ. (٨، ٩) الإنسان.
(١٠) قرآنه. (١١) قرآناه.
(١٢) قرآنه. (١٣) الآخرة.

﴿كلا﴾: زجرًا لهم عن تمنى الفرار.

﴿لاوزر﴾: أى لا ملجأ يحتمى به. ﴿قَدَّم﴾: أى من عمل حسن، أو من أثر حسن تركه فى الناس بعده يعملون به.

﴿أخَّر﴾: من أعمال مطلوبة منه لم يعملها، أو من أثر سيئ تركه فى الناس بعده يعملون به، انظر الآية (١٢) من سورة يس صفحة ٥٨٠.

﴿بل الإنسان﴾: بل للانتقال على وجه الترقى أى لا يحتاج إلى مَنْ ينبؤه بل هو شاهد على نفسه.

﴿بصيرة﴾: أى حجة واضحة، أى أن جوارحه شاهدة عليه، كما فى الآية (٦٥) من سورة يس صفحة ٥٨٥ والآية (٢٠) من سورة فصلت صفحة ٦٣٢.

﴿ألقى﴾: أى قدم.

﴿معاذيره﴾: جمع معذرة، أى أعذاره، انظر الآيتين (١٠٦، ١٠٧) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥ والآيات من (٩٧ إلى ١٠٢) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٦ والآية (١٢) من سورة السجدة صفحة ٥٤٦؛

﴿لا تحرك به﴾: أى بالقرآن المفهوم من السياق كما فى الآية (١) من سورة القدر صفحة ٨١٥ ولا حق الكلام.

﴿جمعه﴾: المراد حفظه فى صدرك أيها النبى.

﴿قرآنه﴾: القرآن هنا معناه القراءة والمراد إقدارك على قراءته متى شئت.

﴿قرأناه﴾: المراد: أتممنا قراءة ما نريد إنزاله على لسان جبريل ﴿فاتبع قرآنه﴾: أى فاتبع قراءة جبريل على مهل، ولا تسرع فى ملاحقته.

﴿كلا﴾: اعلم أن (كلا) لم تذكر إلا فى السور المكية، وفى النصف الثانى من القرآن فقط فى (٣٣) موضعًا، أولها فى الآية (٧٩) من سورة مريم صفحة ٤٠٤، وآخرها فى الآية (٤) من سورة الهمزة صفحة ٨٢١. وكلها تفيد معنى الزجر عما قبلها إلا فى خمسة مواضع. فإن

دعوى الزجر فيها تكلف. الموضع الأول هنا والثانى فى الآية (٩) من سورة الانفطار والثالث والرابع فى الآيتين (٧، ١٨) من سورة المطففين صفحة ٧٩٧ والخامس فى الآية (٦) من سورة العلق صفحة ٨١٤. ولذا قال ابن هشام إنها فى مثل هذه المواضع الخمسة بمعنى (ألا) بفتح الهمزة الموضحة فى الآية (١٥١) من سورة الصافات صفحة ٥٩٥، فهى حرف يفيد تنبيه السامع لأهمية ما يلقى بعده ويسمونه (حرف استفتاح).

﴿بل تحبون﴾: (بل) للانتقال من حال يوم القيامة إلى سبب مصيبة الكفار الحقيقية، (وتحبون) خطاب للكفار المفهومين من (الإنسان) فى الآية (٣) السابقة.

﴿العاجلة﴾: المراد متاع الدنيا. ﴿تذرون الآخرة﴾: أى تهملون اعتبار يوم القيامة، انظر الآية (٢٧) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٣.

﴿ناضرة﴾: بهجة مشرقة، انظر الآية (٢٤) من سورة المطففين صفحة ٧٩٨، والآيتين (٣٨، ٣٩) من سورة عبس صفحة ٧٩٣.

المعنى: هل يظن كل كافر باليوم الآخر أن الواقع هو عدم جمع الله لعظامه. ظنهم باطل؛ لأننا سنجمعها حال كوننا قادرين على أن نوجد أطراف أصابعه كما كانت، وهى أدق من عظامه صنعًا، أى ومن قدر على ذلك فهو على إعادة العظام أقدر. ثم انتقل من توبيخهم على هذا الظن الفاسد إلى بيان انهماك الكافر فى ملذات الدنيا. فقال: بل يريد الإنسان.. إلخ. أى أن الكافر مصمم على مداومة الفجور فيما يستقبله من الزمان.

لا يتركه ولا يتوب؛ ولهذا فإنه يسأل استهزاء متى يكون يوم القيامة. فرد سبحانه ببيان بعض ما سيكون فى يوم القيامة، وما سيقابلونه من الأهوال فقال تعالى: ﴿فإذا برق البصر﴾..إلخ. أى إذا اشتد لمعان البصر فزعًا، وذهب ضوء القمر، وشمل الفناء الشمس والقمر، إذا حصل هذا يقول الإنسان فى هذا اليوم هل هناك طريق للفرار؟ فيزجر عن هذا التمنى، ويقال له: لا ملجأ لك اليوم ينجيك من الحساب والعقاب؛ لأن مستقر جميع الخلائق راجع إلى الله وحده. فيحاسبهم ويجازيهم. وفى هذا اليوم يخبر الله سبحانه الإنسان بكل ما قدم من عمل خير أو من أثر حسن تركه فى الناس بعده يعملون به، وبكل ما أخر من أعمال

مطلوبة منه لم يعملها أو من أثر سيئ تركه فى الناس بعده يعملون به. ولا تظن أن الأمر محتاج إلى أدلة تثبت للإنسان ذلك. بل أعضاؤه خير شاهد عليه إذا أنكر. ولو أتى بكل عذر بعد ذلك فإنه لا يقبل منه، بل فى نهاية الحساب يزجر عن الاعتذار كما فى الآيتين (٣٥، ٣٦) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٥، وشرح الآية (٢٤) من سورة النور صفحة ٤٦٠، ولما كان ﷺ فى أوائل عهده بالوحى شديد الحرص على حفظ ألفاظ القرآن مخافة أن يفلت منها شىء. فكان ﷺ يحرك لسانه بحروف الكلمات فى أثناء سماعها من جبريل، فنزلت الآية الآتية والآية (٦) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٣ وذلك لزيادة تطمينه ﷺ على عدم ذهاب شىء منه.

وقال عامر الشعبى: إنه ﷺ كان تارة يقرأ مع جبريل الجملة من شدة حبه له وحلاوته على لسانه فأراد سبحانه أن ينبهه إلى أنه بعد أن تكفل له بحفظه فما عليه إلا أن يرغب فى الاستزادة من علم أسراره، ونزل فى ذلك الآية (١١٤) من سورة طه صفحة ٤١٧. ولعله ﷺ حصل منه تحريك لسانه بحروف الكلمات عندما كان يتلقى ما سيحصل يوم القيامة فى هذه السورة. فأمر سبحانه جبريل أن يبلغه ما ذكر هنا، ثم يتابع الكلام مع الكفار ثانيا. ولعل مما حَسَّن وضعها هنا أنها تلّوح بتقريع الذين يحبون العاجلة، كأنه يقول أنتم يا بنى آدم مخلوقون من عجل فصرتم تحبون كل شىء عاجل، فإذا كان ﷺ يُمْنَع من العجلة حتى فى الشىء النافع فكيف يكون حال مَنْ يستعجل الشىء الزائل. والله تعالى أعلم.

وقد قال تعالى هنا: لا تحرك به لسانه.. إلخ. أى لا تحرك أيها النبى بقراءة القرآن لسانك لتأخذه على عجلة خوف أن يفوتك منه شىء لأنا ضمنا لك جمعه محفوظا فى صدرك، وضمنا لك أيضًا سهولة قراءتك له. وإذا كان الأمر كذلك فإذا قرأه عليه جبريل. فاتبع قراءته على مهل، ثم إن علينا بعد ذلك أن نبين لك ما أجمل من معانيه لتوضحه للناس، انظر الآية (٤٤) من سورة النحل صفحة ٣٥١.

وبعدما أرشد سبحانه نبيه إلى كيفية تلقى القرآن. رجع إلى الكلام عن الكفار وبيان الباعث على جهالتهم فقال: (كلا بل).. إلخ. أى انتبهوا أيها الغافلون فإنكم لا تنكرون البعث والحساب لدليل قام عندكم بل حبكم لمتاع الدنيا هو الذى جعلكم تهملون النظر فى الآخرة وما فيها من المخاطر. ثم بيَّن حال الناس فيها فقال تعالى: (وجوه).. إلخ. أى فى هذا اليوم تكون وجوه المؤمنين بهجة مستبشرة، إلى ربها ناظرة.

نَّاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن
يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾
وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ
السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾
فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾
ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾
ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ(١) أَن يُتْرَكَ
سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ
عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ
الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ(٢) عَلَىٰ أَن
يُحْيِيَ(٣) الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

المفردات: ﴿باسرة﴾: أى قبيحة المنظر. انظر الآية (٢٢) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦.

﴿تظن﴾: المراد من الظن هنا: اليقين، كما فى الآية (٤٦) من سورة البقرة صفحة ١٠.

﴿فاقرة﴾: أى داهية عظيمة، تكسر فقار الظهر أى عظامه، و(فقار) بفتح الفاء جمع فقارة بفتح الفاء أيضاً، وهى الحرزة الواحدة من حرز العمود الفقرى بالظهر.

﴿كلا﴾: هنا زجر للكافر على تفضيل العاجلة على الآخرة.

﴿بلغت﴾: أى الروح المفهومة من سياق الكلام. انظر الآية (٨٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧. ﴿التراقى﴾: جمع ترقوة بفتح فسكون فضم ففتح. وهى العظام المحيطة بالنحر، فى أسفل العنق. ﴿مَنْ راق﴾: (من) اسم استفهام، أى مَنْ الذى يرقيه. والمراد: هل يوجد طبيب يشفيه بالرقية. ﴿ظن﴾: المراد تيقن المحتضر المفهوم من سياق الكلام.

﴿أنه﴾: أى ما حل به. ﴿الفراق﴾: أى مقدمات فراق الدنيا. ﴿التفت الساق بالساق﴾: أى عند وضعه فى كفنه. ﴿المساق﴾: أى المرجع. ﴿فلا صدق﴾: فلا تصدق وأخرج زكاة ماله.

﴿يتمطى﴾: أى تبختر افتخارا غير مقدر للعاقبة. ﴿أولى لك فأولى﴾: أصل (أولى) أفعل تفضيل من الولى، بفتح الواو، وسكون اللام بمعنى القرب. يقال هذا يلى هذا. أى قريب منه، ثم غلب استعماله فى قرب الهلاك ثم صار يستعمل دعاء بالهلاك، وأريد به هنا تلقين المؤمن الدعاء عليه بالهلاك وذلك كتحذير من مثل عمله، وكرره للتأكيد. انظر الآية (٢٠) من سورة

(١) الإنسان. (٢) بقادر. (٣) يحيى.

محمد صفحة ٦٧٥. ﴿سدى﴾: أى مهملا بلا تكليف، ولا حساب، انظر الآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦ والآية (٢) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٠.

﴿يمنى﴾: أى يراق فى الرحم. ﴿علقة﴾: قطعة دم متماسكة تعلق فى أعلى الرحم، انظر الآية (١٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦. ﴿فسوى﴾: أى جعل أعضاءه سوية سليمة مناسبة لما يراد. ﴿فجعل منه﴾: أى من الإنسان المذكور. ﴿الزوجين﴾: تقدم فى الآية (٤٠) من سورة هود صفحة ٢٩٠. ﴿الذكر والأنثى﴾: بيان للزوجين. ﴿أليس﴾: الهمزة للاستفهام الإنكارى المفيد للنفى، وبدخوله على (ليس) المفيدة للنفى أيضًا صار المعنى مثبتًا، فالمراد أنه قادر. (بقادر): الباء لتأكيد ثبوت ما بعدها لما قبلها.

المعنى: إن وجوه المؤمنين يوم القيامة مشرقة ناظرة إلى وجه ربها الكريم على حالة لا تدركها عقولنا الآن. ووجوه الكافرين قبيحة المنظر تتيقن أنه سيقع بها داهية. فارتدعوا أيها الكفار عن كفركم وتنبهوا لما سيلاقيكم عند الموت الذى من أهواله أنه إذا بلغت الروح الحلقوم وقال من بجوار المحتضر: هل من طبيب ينقذه؟ وتيقن هو أن ما حصل له هو مقدمات فراقه للدنيا التى كان يحبها. ووضع فى كفنه بعد موته. إذا حصل كل هذا تقول الملائكة: لا مرجع لك اليوم إلا إلى ربك ليجازيك على عملك، ثم بيَّن سبحانه ما كان عليه الكافر فى الدنيا. فقال: فلا صدق.. إلخ. أى لم يزك مالاً. ولم يصل ولكن كذب القرآن والرسول وأعرض عن عمل الخير. ثم ذهب إلى أهله تبختر؛ لأنه مادام لا يؤمن باليوم الآخر لا يهمه إلا شهواته، انظر الآية (٣١) من سورة المطففين والآيتين (١٣، ١٤) من سورة الانشقاق صفحتى ٧٩٩، ٧٨٠. وبعدما بينَّ سبحانه غفلة الكافر عن العاقبة وجه إليه الخطاب بالتهديد فقال: (أولى لك) .. إلخ. أى قولوا أهلكك الله أيها المتبختر هلاكا فوق هلاك. ثم رجع إلى توبيخه على غفلته فقال: (أيحسب الإنسان).. إلخ. أى هل يظن الكافر أن الله سيتركه هملا. لا يكلفه بما فيه صلاح العالم، ولا يبعثه ويحاسبه. لا يصح له أن يظن ذلك لأن الله الذى خلقه من نطفة مكونة من منى وضع فى الرحم، ثم صار علقة، فخلقه فسواه إنسانا كاملا فجعل منه زوجين ذكرا وأنثى. الإله الذى يقدر على كل ذلك أليس قادرا على إحياء الموتى؟ نعم يقدر قطعا على إحيائهم للحساب والجزاء. نسأل الله تعالى حسن الخاتمة.

(٧٦) سُورَةُ الإِنسَانِ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا إِحْدَى وَثَلاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا
مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ
فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا
وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَا وَأَغْلالًا
وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا
كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا
تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ
مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا

سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

المـفـردات: ﴿هل أتى﴾: ﴿هل﴾ حـرف بمعنى ﴿قد﴾ الدالة على تحقيق ثبوت ما بعدها، والمراد: قد أتى... إلخ.

﴿الإنسان﴾: المراد به هنا جنس الإنسان لا شخص معين.

﴿حين﴾: مقدار من الزمان محدد، قليلاً كان أو كثيرًا؛ انظر الآية (١٠٦) من سورة المائدة صفحة ١٥٨ والآية (٢٥) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٣ .

﴿الدهر﴾: هو الزمن الممتد غير المحدد بنهاية. ﴿لم يكن شيئًا﴾: انظر الآيـة (٦٧) من سورة مريم صفحة ٤٠٣ .

﴿نطفة﴾: إذا لاحظت أنه سبحانه أخبرنا فى الآية (٣٧) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠ أن النطفة من المنى، وأن هذا المنى يمنى أى يتدفق فى الرحم يظهرلك أن النطفة من الرجل، وأن المقصود منها هو ما يسمى فى العصر الحديث (الحيوان المنوى) كما تقدم تفصيله فى شرح الآية (١٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦ .

ويؤيد هذا ظاهر قوله ﷺ: (تخيروا لنطفكم ولا تضعوها فى غير الأكفاء)، انظر شرح الآيتين (٦،٧) من سورة الطارق صفحة ٨٠٢ .

(١،٢) الإنسان. (٣) فجعلناه.
(٤) هديناه (٥) للكافرين.
(٦) سلاسل (٧) أغلالا.

﴿أمشاج﴾: تقول العرب مشجت الشيء بالشيء كخلطته وزنا ومعنى، والناتج من هذا الخلط يسمى مشيجًا وجمعه أمشاج.

فالمشيج هو المكون من عناصر مختلفة باختلاف مواد الغذاء التى تكونت منها النطفة، انظر آيتى (١٢،١٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦ .

﴿نبتليه﴾: الابتلاء: الامتحان بالتكليف. والمراد: خلقناه مريدين ابتلاءه بالعبادة، انظر الآية (٥٦) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ .

﴿هديناه﴾: المراد: وضحنا له.

﴿السبيل﴾: المراد: طريق الخير وطريق الشر، انظر الآية (١٠) من سورة البلد صفحة ٨٠٨ .

﴿اعتدنا﴾: أى أعددنا وهيأنا.

﴿سلاسل﴾.. إلخ: تقدم فى الآية (٧١) من سورة غافر صفحة ٦٢٧ .

﴿الأبرار﴾: جمع ﴿بر﴾: بوزن (رب). وهو المطيع المتوسع فى أعمال الخير.

﴿كأس﴾: أصله اسم للإناء إذا كان فيه شراب، وقد يطلق على الإناء وحده أو على الشراب وحده، والمراد به هنا الشراب بدليل ما بعده.

﴿مزاجها﴾: أى ما يمزج بها. كالحزام لما يتحزم به.

﴿كافورا﴾: اسم ماء فى الجنة لا نعلم حقيقته، والذى نقطع به أنه لا يخطر على قلب بشر، لجودته وهو يشبه الكافور فى رائحته وبياضه. والعرب كانت تتلذذ من رائحته، انظر الآية (٤٦) من سورة الصافات صفحة ٥٨٩ .

﴿عينا﴾: بيان للكافور، ولا تنس أن ابن عباس قال: ليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة إلا الأسماء. أما الحقيقة فلا تخطر على قلب بشر.

﴿يشرب بها﴾: المراد: يشربون ليرتووا بها.

﴿يفجرونها﴾: المراد:يصرفونها كما يريدون تصريفًا عجيبًا.

﴿مستطيرًا﴾: أى منتشرًا غاية الانتشار، انتشارا مخيفًا.

﴿على حبه﴾: أى مع حبه، انظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٤،٣٣، والآية (٩٢) من سورة آل عمران صفحة ٧٨، أما إنفاق المكروه فهو مذموم، انظر الآية (٦٢) من سورة النحل صفحة ٣٥٣ .

المعنى: قد أتى على جنس الإنسان طائفة محدودة من الزمان الممتد لم يكن فيها شيئًا معروفا بأنه إنسان. وإنما كان شيئًا آخر هو عناصره التى تكون منها فيما بعد. ثم شرع سبحانه فى بيان كيف أوجده بعد ذلك فقال: إنا.. إلخ. أى إنا خلقنا هذا الإنسان من نطفة خليط من عناصر مختلفة، مريدين امتحانه بالتكاليف بعد كمال عقله.

لهذا جعلناه سميعًا لكل ما يرشد للحق، بصيرًا لكل الأدلة الدالة على وجودنا ووحدانيتنا، ولم نكتف بذلك بل بينّا له طريق الخير ليسلكه، وطريق الشر ليجتنبه، انظر الآية (١٠) وما بعدها من سورة البلد صفحة ٨٠٨ . هديناه لذلك ليتبين فيما بعد هل هو شاكر لنعمة ربه مؤمن به مختار لطريق النجاة، وإما شديد الكفر معرض عن إرشاد ربه فاستولت عليه شهواته فسلك طريق الشر، انظر آيتى (١٩،١٨) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٧،٣٦٦، والآية (٤) وما بعدها من سورة الليل صفحتى (٨١١،٨١٠).

وقد تقدم بعض ذلك فى شرح (٢) من سورة التغابن صفحة ٧٤٥، ثم بيَّن سبحانه مصير كل من الفريقين فقال: إنا أعتدنا للكافرين سلاسل يسحبون بها. وأغلالاً فى أعناقهم. ونارًا مستعرة. أما عباد اللّٰه الأبرار فإنهم يشربون فى الجنة من خمر ممزوجة بماء لذيذ الطعم جميل اللون.

ثم بيَّن أن هذا الماء المسمى كافورًا كثير فقال تعالى: عينًا يشرب بها أى يشرب ليرتوى بها عباد اللّٰه يفجرونها تفجيرًا غريبًا فتجرى أو تصعد إليهم حيث شاءوا.

ثم بيَّن سبحانه ما لأجله استحقوا هذا الجزاء فقال: (يوفون)... إلخ. أى أنهم كانوا فى الدنيا يوفون بنذرهم إذا نذروا. ويخافون يوما يكون شره منتشرًا ويطعمون الطعام ـ مع حبهم له وحاجتهم إليه ـ المحتاجين من المساكين وغيرهم ابتغاء رضاء الله عزوجل.

وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ(١) ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ(٢) نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم(٣) بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا(٤) وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ(٥) مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠(٦) ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟(٧) مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ(٨) مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا

المفردات: ﴿يتيمًا﴾: المراد هنا طفلا جمع بين الفقر وفقد الوالد. فهو من عطف الخاص على العام، انظر الآية (١٧٧) من سورة البقرة صفحتى ٣٣، ٣٤ .

﴿أسيرًا﴾: لأنه لا يملك حيلة يكتسب بها.

﴿عبوسًا﴾: أصله شديد العَبوس، كالأسد عندما يريد الهجوم على فريسته. والمراد هنا: مخيفًا .

﴿قمطريرا﴾: أى شديد العُبوس والكرب.

﴿وقاهم الله﴾... إلخ: أى نجاهم من شره.

﴿لقاهم﴾: المراد أعطاهم.

﴿نضرة﴾: أى بهجة يظهر أثرها على الوجوه، كما فى الآية (٢٤) من سورة المطففين صفحة ٧٩٨ .

﴿الأرائك﴾: تقدم فى الآية (٣١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٥ .

﴿لا يرون فيها شمسًا﴾.. إلخ: المراد لا يشعرون فيها بحر، ولا برد، بل بجو يشبه الظل الدائم، انظر الآية (٣٥) من سورة الرعد صفحة ٣٢٧ .

﴿ودانية عليهم ظلالها﴾: انظر شرح الآية (٤١) من سورة المرسلات صفحة ٧٨٦ .

﴿ذللت﴾: المراد: جعلت سهلة التناول.

(١) فوقاهم. (٢) لقّاهم.
(٣) جزاهم. (٤) ظلالها.
(٥) بآنية. (٦، ٧) قوارير.
(٨) ولدان.

﴿قطوفها﴾: تقدم فى الآية (٢٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣ .

﴿آنية من فضة﴾: هى الأباريق المملوءة بالشراب، انظر الآية (١٨) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤ .

﴿كانت قوارير﴾: ﴿كانت﴾: أى وجدت ﴿قوارير﴾: جمع قارورة وهى إناء رقيق من زجاج يوضع فيه الشراب. وهو منصوب على أنه حال من ضمير ﴿كانت﴾ العائد على الأكواب والمراد: وجدت تلك الأكواب حال كونها رقيقة.

﴿قوارير﴾: بدل من الأول.

﴿من فضة﴾: الكلام على التشبيه. أى تشبه الفضة فى البياض.

﴿قدروها﴾: المراد قدر الخدم ما فيها على مقدار طلب الشارب تقديرا دقيقًا. وهذا ألذ له.

﴿كأسًا، مزاجها﴾: تقدما فى الآية (٥) من هذه السورة صفحة ٧٨١ .

﴿زنجبيلا﴾: المراد: شراب يشبه الزنجبيل فى بعض خواصه التى كان العرب يتلذذون بها، وانظر ما قيل فى ﴿كافورا﴾ سابقًا.

﴿سلسبيلا﴾: السلسبيل هو السهل الانحدار فى الحلق.

﴿ولدان مخلدون﴾: تقدم فى الآية (١٧) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤ .

﴿ثمَّ﴾: أى هناك فى الجنة.

المعنى: إن عباد اللّٰه الأبرار يحسنون إلى المحتاجين الذين لا يستطيعون الحصول على قوتهم - سواء أكان المحتاج مسكينًا أو يتيمًا أو أسيرًا.

قال ابن عباس: كان أسراؤهم من المشركين، وقال قتادة: أمر اللّٰه سبحانه بالإحسان إلى الأسرى، وكانوا يومئذ من أهل الشرك، وقال ابن كثير: ويشهد لهذا أن رسول اللّٰه ﷺ أمر

أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسرى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الطعام، واختار ابن جرير أن الأسرى هنا يشمل كل ممنوع من التمتع بحريته كالمساجين من المسلمين، و الأسرى من المشركين ـ قائلين بلسان حالهم إنما نطعمكم رجاء رضاء الله وثوابه.

لا نريد منكم مكافأة. ولا أن تشكرونا عند الناس؛ لأننا نخاف من ربنا فى يوم شديد الكرب مخيف. هو يوم القيامة. فلإخلاصهم هذا دفع الله سبحانه عنهم شر ذلك اليوم، وأعطاهم حسنًا فى الوجوه. وفرحًا فى القلوب. وجزاهم سبحانه بسبب صبرهم على أداء الواجبات واجتناب المحرمات جنة يدخلونها. وحريرًا يلبسونه حال كونهم متكئين فى الجنة على السرر المزينة. لا يشعرون بحر مزعج، ولا ببرد مؤلم، بل جو واحد معتدل.

ونعيمها ورفاهيتها قريب منهم فى كل لحظة. وقطوف فاكهتها سهلة التناول ويطوف عليهم الخدم من الولدان الآتى ذكرهم فى الآية (١٩) من هذه السورة بأباريق من فضة ملآى بالشراب. وأكواب أوجدها الله تعالى حال كونها جامعة بين صفاء الزجاج وشفافيته. وبياض الفضة ونقائها. يأتى الخدم بما فيها من الشراب على قدر حاجتهم. ويسقونهم فيها خمرًا ممزوجة بماء يشبه الزنجبيل.

ثم بيَّن الكأس بأنها عين تسمى سلسبيلا أى غاية فى السلاسة. وسهولة الشرب.

ثم ذكر سبحانه أوصاف الخدم وهم يطوفون على مجالس أهل الجنة فقال: ويطوف عليهم ولدان خالدون لا يموتون. إذا رأيتهم أيها النبى فى انتشارهم لقضاء حوائج سادتهم، وكثرتهم، وصباحة وجوههم، ورشاقة أجسامهم وحسن ثيابهم. ظننتهم لؤلؤًا منثورًا. وإذا رأيت ما هناك فى الجنة وسعتها رأيت نعيما عظيمًا لعباد الرحمَن. وملكا أى مملكة لله كبيرة.

ومع كل هذا الإطناب فى الترغيب فى نعيم الآخرة فكثير من الناس غلبت عليه شقوته.

كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ[1] ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ
وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ[2] رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾
إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ[3] تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ
رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا[4] أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ
رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ[5] فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا
طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ
يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ[6] وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا
شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ[7] تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ
فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ
أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن
يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ[8] أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

المفردات: ﴿عاليهم﴾: أى مستعليا عليهم. والمراد: لابسين. وهو منصوب على أنه حال من الضمير المنصوب. أى على المقيمين من أهل الجنة فى ﴿يطوف عليهم ولدان﴾ ... إلخ: والمراد: لابسين ثياب سندس ... إلخ. كما تقول ﴿باب حديد﴾: أى باب من حديد.

﴿إستبرق﴾: معطوف على ثياب بتقدير مضاف، أى وثياب إستبرق.. إلخ.

(سندس. إستبرق): تقدما فى الآية (٣١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٥ .

﴿حلوا﴾ ... إلخ: أى حلاهم ربهم بأساور.. إلخ.

﴿من فضة﴾: هذا لبعضهم وللآخرين من ذهب كما فى الآية (٣٣) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦ ؛ لأن جزاءهم فى اللبس يختلف باختلاف أعمالهم كما اختلف فى نوع المأكول وغيره. كما فى الآية (١٥) وما بعدها إلى الآية (٣٤) من سورة الواقعة صفحتى ٧١٥،٧١٤، وشرح الآية (٧٤) من سورة الزمر صفحتى ٦١٦، ٦١٧ .

---

(١) عاليهم.
(٢) سقاهم.
(٣) القرآن.
(٤) آثما.
(٥) الليل.
(٦) خلقناهم.
(٧) أمثالهم.
(٨) الظالمين.

﴿وسقاهم ربهم شرابا طهورا﴾: هذا شراب آخر غير النوعين السابقين فى آيتى (٥، ١٧) من هذه السورة صفحتى ٧٨٢،٧٨١ . الممزوجين بالكافور والزنجبيل وهذا أعلاها، ولذا أسند سبحانه سقياهم منه لنفسه.

و﴿الطهور﴾: معناه شديد الطهارة فهو طاهر فى نفسه مطهر لغيره.

﴿تنزيلا﴾: أى مخصوصًا مقسمًا على ٢٣ سنة لحكم بيَّن بعضها فى الآية (١٠٦) من سورة الإسراء، والآية (٣٢) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٤ .

﴿لحكم ربك﴾: أى لقضائه.

﴿ولا تطع منهم﴾: انظر بيان ذلك فى شرح الآية (٨) من سورة القلم صفحة ٧٥٨ .

﴿آثمًا﴾: هو الفاجر المداوم على الإثم، وفسره ابن كثير بالمنافق، انظر الآية (٤٨) من سورة الأحزاب صفحة ٥٥٧ .

﴿أو كفورا﴾: ﴿أو﴾ بمعنى الواو أى ﴿ولا كفورا﴾ يقول العربى: لا تقرب (القتل أو السرقة) يريد لا تقرب القتل ولا السرقة، و﴿كفورا﴾ أى شديد الكفر.

﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا﴾: المراد: كن دائمًا فى نهارك على ذكر من ربك؛ لا تتصرف فى شىء إلا تحت مراقبته سبحانه، والبكرة أول النهار، والأصيل ما بين العصر والمغرب. والمراد: دائمًا.

﴿ومن الليل فاسجد له﴾: المراد: وصل لربك بعض الليل على ما هو مبين فى الآية (٢٠) من سورة المزمل صفحتى ٧٧٥،٧٧٤ .

﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾: المراد: واجعل جزءًا كبيرًا من الليل مشغولا بتسبيح ربك وتقديسه، وكل هذا ليساعده ﷺ على تحمل إيذاء قومه.

﴿هؤلاء﴾: هم كفار مكة.

﴿العاجلة﴾: أى الدنيا.

﴿يذرون﴾: أى يتركون.

﴿وراءهم﴾: المراد أمامهم، انظر الآية (٧٩) من سورة الكهف صفحة ٣٩٢ والآية (١٠٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٤ .

﴿يومًا ثقيلاً﴾: المراد: شديد الهول.

﴿شددنا﴾: أى قوينا.

﴿أسـرهم﴾: الأسر فى الأصل الشد والربط، وأطلق على مـا يشـد به كمـا هنا والمـراد به الأعصاب التى تربط المفاصل.

﴿بدلنا أمـثـالهم﴾: انظـر الآية (١٣٣) من سـورة الأنعـام صفحـة ١٨٥ والآيـة (١٩) من سـورة إبراهيم صفحة ٣٣٢ .

﴿هذه﴾: أى الآيات القرآنية المتقدمة.

﴿تذكرة﴾: أى تذكير وعظة.

﴿وما تشاءون﴾... إلخ: انظر بيان ذلك فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٨ .

﴿والظالمين﴾: منصوب بفعل يدل عليه مـا بعده مثل (أهان): أو (توعد): وتوعد الظالمين وأعد لهم... إلخ.

المعنى: إن لباس أهل الجنة الحرير، ومنه سندس هو الرفيع الذى يلبس على الجسد مـبـاشــرة. ومنه الإسـتـبـرق وهو السـميك الذى له بريق يلبـسـونه فى الظاهر كـمـا هـو المعـهـود. وحـلاهم ربهم بأسـاور تارة من فضـة وأخـرى من ذهـب. وسـقـاهم ربهم شـرابا شـديد التطهيـر لبـواطنهم من عيوب الدنيا كـالحسـد وغيـره. انظر الآية (٤٧) من سـورة الحجر صـفـحـة ٣٤١ وشرح الآية (٧٤) من سـورة الزمـر صـفـحـتـى ٦١٦، ٦١٧، ويقـول لهم

ربهم: إن هذا جزاء على أعمالكم الحسنة. وكان سعيكم مشكورا عند الله، فجازاكم على القليل بالكثير.

وبعدما بيَّن سبحانه أن الإنسان منه الطائع والعاصى، وبيَّن ما أعده لكل منهما. أراد أن يقوى قلب رسول الله ﷺ، ويخفف عنه تألمه من عناد قومه، فقال:إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا، أى تنزيلا محكما حسب الوقائع ومقتضى الحاجة.

وإذا كان الأمر كما ذكرنا فاصبر أيها النبى لحكم ربك. ولا تطع منهم آثما ولا كفورا إذا حاولوا صرفك عن تبليغ ما أنزل إليك. وداوم على ذكر اسم ربك فإنه أعون لك على الصبر، قال الطيبى: إنه سبحانه لما نهى حبيبه ﷺ عن طاعة الآثم والكفور وحثه على الصبر على أذاهم وشدة عداوتهم أراد سبحانه أن يرشده إلى الإعراض عنهم بعد ذلك، فأمره تعالى باستغراق أوقاته من صلاة وغيرها بما يطيق.

ثم شرح له طبيعة كفار مكة فقال تعالى: (إن هؤلاء)... إلخ. أى إنهم فتنوا بحب الدنيا وانهمكوا فى لذاتها وتركوا الخوف من يوم شديد الأهوال سيلاقيهم فلم يعملوا ما ينقذهم من أهواله.

ثم وبخهم على الكفر به مع أنه هو الموجد لهم على أحسن حال، فقال: (نحن خلقناهم)... إلخ. أى نحن خلقناهم لاغيرنا. وأحكمنا ربط أجزاء أجسامهم بعضها ببعض.

ثم هددهم فقال: (وإذا شئنا)... إلخ. أى وإذا شئنا أهلكناهم وجئنا ببدلهم خيرا منهم، إن هذه الآيات المتقدمة تذكير وعظة لمن كان له قلب يفقه. فمَن شاء منهم أن يسلك طريقًا يوصله إلى ربه سبحانه وتعالى فليفعل. وما تشاءون ذلك إلا على الحال التى شاءها الله ووضع لها نظامها كما سبقت الإشارة إليه. إنه سبحانه عليم دائمًا بما يستحقه كل واحد. حكيم فيما يفعل ويشرع. يدخل مَنْ يشاء فى رحمته بالتوفيق للطاعة متى تنبه لإرشاداته سبحانه، ويهين الظالمين الذين أغمضوا أعينهم عن أدلة الحق بأنه يُعد لهم سبحانه وتعالى عذابا أليمًا. نسأل الله السلامة.

(٧٧) سورة المرسلات مكية وآياتها خمسون

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾
وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ
ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾
فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾
وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ
يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ
الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ
الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ

سورة المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿المرسلات﴾: المراد بها: الرياح، انظر الآية (١٦) من سورة فصلت صفحتى ٦٣١،٦٣٢، ولا تنس ما تقدم فى القسم بالمخلوقات فى سورة الصافات صفحة ٥٨٧ .

﴿عرفا﴾: أصل العرف فى الخيل: هو الشعر الذى فوق أعناقها والعرب تشبه به الشيء المتتابع، وكثر ذلك حتى صار كأنه حقيقة فيه، فالمراد هنا: متتابعات. وهو منصوب على الحال من المرسلات، انظر الآية (٧) من سورة الحاقة صفحتى ٧٦١، ٧٦٢ .

﴿العاصفات﴾: هى الرياح القوية التى لها صوت شديد، انظر الآية (٢٢) من سورة يونس صفحة ٢٦٩، والآية (١٦) من سورة فصلت صفحتى ٦٣١، ٦٣٢، وآيتى (٢٤،٢٥) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٦٩،٦٧٠، وآيتى (٤١،٤٢) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٥، فعطف العاصفات على المرسلات من قبيل عطف الصفة على موصوفها.

﴿والناشرات﴾: هذا مقسم به آخر، ولذا جاء قبله بواو القسم وعطف صفاته عليه بالفاء كالسابق، والمراد: الملائكة التى تنشر أجنحتها فى الجو عند نزولها بالوحى نشرًا عجيبًا، انظر الآية (١) من سورة فاطر صفحة ٥٧١ .

---

(١) المرسلات. (٢) العاصفات. (٣) الناشرات. (٤) الفارقات.
(٥) الملقيات. (٦) لواقع. (٧) أدراك. (٨) الآخرين.

﴿الفارقات﴾: المراد: الحاملات ما به الفرق بين الحق والباطل، حملاً أمينًا لا يتسرب إليه شك، انظر آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة الجن صفحتى ٧٧٢، ٧٧٣ .

﴿الملقيات﴾: أى على الأنبياء والمرسلين.

﴿ذكرا﴾: أىْ وحيًا من كتب، وحكمة، وغير ذلك من كل ما يذكر باللَّه.

﴿عذرًا﴾: أى لأجل إعذار الصالحين والمحقين، أى قبول أعذارهم ومحو سيئاتهم.

﴿نذرًا﴾: أى لأجل إنذار المبطلين، وتخويفهم من عقاب اللَّه.

﴿إنما توعدون﴾: أى ما وعدكم اللَّه به من قيام الساعة والبعث والجزاء، وهذا هو جواب القسم.

﴿طمست﴾: أى محقت وذهب نورها.

﴿فرجت﴾: أى انشقت، كما فى الآية (١) من سورة الانشقاق صفحة ٧٩٩ .

﴿الجبال نسفت﴾: أى انتقلت من أماكنها بسرعة، انظر الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧ .

﴿أقتت﴾: أى عين لها وقت تجتمع فيه للشهادة على أممها، انظر الآية (١٠٩) من سورة المائدة صفحة ١٥٩ والآية (٦٩) من سورة الزمر صفحتى ٦١٥، ٦١٦ .

﴿لأى يوم أجلت﴾: أى لأى يوم أجلت تلك الأمور السابقة، وهذا أسلوب فيه تخويف وتهديد.

﴿ليوم الفصل﴾: الأصل أجلت ليوم الفصل. أى بين الخلائق.

﴿وما أدراك﴾... إلخ: انظر المقصود من ذلك فى شرح الآية (٢٧) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦ .

﴿ويل﴾: أى هلاك وعذاب.

﴿ألم نهلك﴾: المراد من هذا الاستفهام هو التقرير كما فى الآية (٤٠) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠ .

﴿الأولين﴾: كقوم نوح.

﴿الآخرين﴾: كعاد وثمود، انظر الآيات (٥٠، ٥١، ٥٢) من سورة النجم صفحة ٧٠٣ .

المعنى: أقسم سبحانه على وقوع يوم القيامة بشيئين من خلقه للحكم المشار إليها فى أول سورة الصافات. فأقسم بالرياح المتتابعة التى تعصف بكل شىء تأتى عليه. وفى هذا تحذير لمَنْ يكفر به. وأقسم ثانيًا على سبيل الترقى بأشرف من القسم الأول وهم الملائكة، الناشرات أجنحتها وهى هابطة بالوحى تحمل ما به الفرق بين الحق والباطل فتلقيه على مَنْ اصطفاهم الله من خلقه. يفعل سبحانه ذلك لمحو إساءة المحقين الذين أحسنوا الرجوع إليه. ولتحذير المبطلين من عذابه إذا استمروا على باطلهم. يقول سبحانه أقسم بكل ما ذكر على أن ما وعدتكم به من قيام القيامة لابد واقع.

ثم شرع فى بيان مقدماته فقال تعالى: (فإذا النجوم طمست). أى ذهب نورها. وإذا السماء انشقت مقدمة لمورها كما فى الآية (٩) من سورة الطور صفحة ٦٩٧، وإذا الجبال نسفت. وإذا الرسل عين لها وقت اجتماعها للشهادة على أممها وحضرت فيه، مقولاً فى كل تلك الأمور السابقة للتهويل: لأى يوم أجلت تلك الأشياء.

ثم بين بأنها أجلت ليوم يفصل فيه بين الخلائق. ولا يستطيع أحد أن يدرك ما الحال فى هذا اليوم لشدة ما سيكون فيه من الأهوال. إذا حصل كل هذا يتجلى الأمر ويتضح جرم المكذبين بيوم القيامة. وعذاب وهلاك يومئذ للمكذبين. وبعدما حذر الكفار من عذاب الآخرة أراد أن يحذرهم أيضًا من عذاب الدنيا فقال: (ألم نهلك)... إلخ. أى يجب أن يعلم هؤلاء الكفار أنا أهلكنا أمثالهم ممَنْ سبقوهم أول الزمان. ثم أتبعنا مَنْ كفر بعدهم بهم فى الهلاك أيضًا. وبما أن طريقتنا فى جميع من كذبوا رسلنا واحدة سنفعل بكل مجرم يعمل عملهم مثل ما عملنا معهم أى وإذا استمر كفار مكة على كفرهم فسيحل بهم القتل والعذاب أيضًا.

بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم
مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ[١] فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ[٢] ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً
وَأَمْوَاتًا[٣] ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ[٤] شَامِخَاتٍ[٥] وَأَسْقَيْنَاكُم[٦]
مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ
مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ[٧]
شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي
بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ[٨] صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ
فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ
الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ[٩] وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ

المفردات: ﴿المجرمين﴾: كلهم وأنتم منهم يا كفار مكة.

﴿من ماء مهين﴾: أى من سائل يرى بالعين كأنه ماء قذر، ولا تنس ما تقدم فى الآية (٢) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١ .

﴿قرار مكين﴾: هو الرحم المثبت فى مكانه بأربطة قوية فلا يتحرك أقل حركة. والمحاط بحوض من العظام متين جدًا من الخلف والجانبين، ومن الأمام بأجزاء سميكة من الجسم.

﴿إلى قدر معلوم﴾: أى إلى مقدار معلوم من الوقت، قدره سبحانه للولادة.

﴿فقدرنا﴾: قَدرَ بالتخفيف، كقدَّر بتشديد الدال بمعنى واحد. أى فقدرنا ذلك تقديرا محكما. فنعم المقدرون نحن.

﴿كفاتا﴾: الكفات أصله مصدر كالقتال من كفت فلان الشيء بوزن ضرب: إذا جمعه وضمه، وأريد به هنا: اسم الفاعل، أى كافتة وجامعة لهم.

---

(١) فجعلناه.
(٢) القادرون.
(٣) أمواتا .
(٤) رواسى.
(٥) شامخات.
(٦) أسقيناكم.
(٧) ثلاث.
(٨) جمالة.
(٩) جمعناكم.

﴿أحياءً وأمواتًا﴾: الأصل تكفتكم أى تضمكم فى حال حياتكم على ظهرها، وفى حال موتكم فى بطنها.

﴿رواسى شامخات﴾: أى جبالا عاليات.

﴿فراتا﴾: أى شديد العذوبة، انظر الآية (٥٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٦.

(ظل﴾: المراد به شيء يخرج من جهنم شديد السواد والحرارة، انظر الآية (٤٣) من سورة الواقعة صفحة ٧١٥ .

﴿ذى ثلاث شعب﴾: قال المفسرون: إنه يتشعب لعظمته كما هو شأن الدخان العظيم، ويجوز أن يكون المعنى أنه يحوطهم من أعلاهم وأسفلهم وجوانبهم فتكون الآية (١٦) من سورة الزمر صفحة ٦٠٨ تعرضت للأعلى والأسفل، والآية (٢٩) من سورة الكهف صفحة ٣٨٤ تعرضت للجوانب، وهذه الآية التى معنا تعرضت للجميع. والله تعالى أعلم.

﴿لا ظليل﴾: أى لايدفع حر ذلك اليوم كما يدفع ظل الدنيا حر الشمس.

﴿إنها﴾: أى النار التى يخرج منها هذا الظل.

﴿جمالة﴾: جمع جَمَل كحجارة جمع حجر.

﴿صفر﴾: جمع أصفر. ويطلقه العرب غالبا على ما يخالط صفاره سواد.

﴿لا ينطقون﴾: أى بعد أن يحاسبوا ويجادلوا عن أنفسهم.. كما فى الآية (١١١) من سورة النحل صفحة ٣٦١ وبالاعتذار الباطل... كما فى الآية (٦٧) من سورة الأحزاب صفحتى ٥٦٠، ٥٦١ وبالإنكار مرة أخرى... كما فى الآية (٢٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٥، ثم بعد ذلك يختم سبحانه على أفواههم كما فى الآية (٦٥) من سورة يس صفحة ٥٨٥ .

﴿لا يؤذن لهم﴾: أى فى الاعتذار إذا طلبوه بعد ثبوت جرائمهم، انظر الآيات ١٠٦،١٠٧،١٠٨ من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥ .

﴿كيد﴾: المراد حيلة للخلاص من العذاب.

المعنى: كما أهلكنا المكذبين فيما مضى نهلك كل مجرم مكذب مثل كفار مكة. والويل يومئذ للمكذبين. وبعدما هددهم سبحانه بما حصل لأمثالهم أراد أن يذكرهم بما يدل على أنه وحده هو المنعم عليهم وعلى أنه قادر على إحيائهم يوم القيامة لأن القادر على الابتداء يقدر على الإعادة، فقال: ألم نخلقكم... إلخ.

أى يجب أن تقروا بأنى خلقتكم من ماء مهين. فجعلناه أول وجوده فى مكان حصين وحفظناه فيه إلى المدة التى قدرناها لبقاء الحمل تقديرًا محكمًا. فنعم المقدرون نحن.

ثم بعد ذلك تنكرون فضلنا وتنكرون قدرتنا على بعثكم. ويل لكم أيها المكذبون. ألم تروا أنا جعلنا الأرض جامعة لكم أحياء على ظهرها. وأمواتا فى بطنها. وجعلنا فيها جبالا عاليات كما فى الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧ . وأسقيناكم ماءً شديد العذوبة. ويل يومئذ للمكذبين. ثم انتقل سبحانه لبيان ما سيحصل لهم يوم القيامة فقال: انطلقوا... إلخ. تقول لهم الملائكة توبيخًا: انطلقوا إلى ما كنتم تكذبون به فى الدنيا من عذاب الآخرة.

ثم بيَّن بعضه فقال تعالى: انطلقوا..... إلخ. أى اذهبوا إلى كتل من جهنم تشبه الدخان تتشعب حولكم. لا تدفع الشمس ولا تمنع لهب جهنم. إن النار التى يخرج منها هذا الظل ترمى بشرر كالبناء العظيم فى ضخامته وكالجمال الصفر فى لونه وكثرته وانتشاره.

ويل يومئذ للمكذبين، هذا اليوم الذى هو يوم القيامة لا ينطقون فيه بعد الختم على أفواههم، وظهور كذبهم، وإذا أرادوا الاعتذار لا يسمح لهم به..... ويل يومئذ للمكذبين.

هذا هو يوم الفصل بين المحسن والمسىء. جمعناكم يا مكذبى خاتم الرسل مع الأولين مكذبى رسلهم الذين كنتم تقتدون بهم. فإن كان لكم جميعًا حيلة فى دفع العذاب فافعلوها.....

فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ
فِي ظِلَٰلٍ[1] وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ[2] مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟
وَاشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟
قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

(٧٨) سُورَةُ النَّبَإِ مَكِّيَّة
وآياتها أربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي

المفردات: ﴿فكيدون﴾: أى فاحتالوا علينا حتى تفلتوا من عقابنا، إن استطعتم.

﴿فى ظلال﴾: جمع ظل. وهو عند العرب جو المكان الذى لا شمس فيه سواء أكانت تطلع عليه الشمس فى بعض الأوقات أم لا. ومن الثانى ظل الجنة وظل الغار الذى يكون فى باطن الأرض، ويعبر العرب بالظل أيضًا عن الحفظ والعز والرفاهية فيقولون: فلان فى ظل فلان أى فى كنفه وعزه. وفلان فى ظل النعمة، أى فى غضارة عيش ورفاهية. وما هنا من هذا الأخير.

﴿كلوا وتمتعوا﴾: هذا خطاب تهديد منه سبحانه لكفار مكة ومَنْ على شاكلتهم.

﴿اركعوا﴾: أى اخضعوا لأوامر اللّٰه تعالى، انظر الآية (٤٣) من سورة البقرة صفحة ٩ والآية (٥٥) من سورة المائدة صفحة ١٤٨.

﴿بعده﴾: أى بعد القرآن الذى هو أحسن الحديث، كما فى الآية (٢٣) من سورة الزمر صفحة ٦٠٩ .

المعنى: يقول سبحانه وتعالى لجميع الكفار يوم القيامة توبيخًا وتعجيزًا إن كان عندكم جميعًا حيلة تدفعون بها العذاب عنكم فاحتالوا بها اليوم علينا إن كنتم تستطيعون. ولن يكون ذلك. والويل لكم الآن لأنكم كذبتم بهذا العذاب.

---

(١) ظلال
(٢) فواكه

ثم بيّن سبحانه نعيم المتقين بعد بيان شقاء المكذبين فقال: إن المتقين منعمون فى رفاهية من العيش بين عيون تجرى من تحت قصورهم. وفواكه مما يشتهون. تقول لهم الملائكة كلوا واشربوا أكلاً وشربًا هنيئًا جزاء أعمالكم الصالحة. وإن من عدلنا أن نجزى كل محسن على إحسانه مثل هذا الجزاء. وهلاك يومئذ للمكذبين لوعدنا ولرسلنا.

ثم وجه سبحانه الخطاب لكفار مكة مهددًا فقال: كلوا... إلخ. أى كلوا كما تأكل الأنعام أيها الكافرون. وتمتعوا زمنًا قليلاً ينتهى حتمًا بموتكم لأنكم مستمرون على الإجرام بتكذيب ربكم. ويل يومئذ لكم من هذا التكذيب.

ثم بيّن بعض أسباب ما استحقوا به العقاب فقال: (وإذا قيل لهم).. إلخ. أى وإذا قال لهم ناصح اخضعوا لأوامر ربكم لا يخضعون بل يعرضون مستكبرين ويل يومئذ لهؤلاء المكذبين. فإذا لم يؤمنوا بهذا القرآن المعجز فبأى حديث غيره يؤمنون؟ المراد أنهم لشدة عنادهم لن يؤمنوا أبدا انظر آيتى (٦، ٧) من سورة البقرة صفحة ٤ .

سورة النبأ

المفردات: ﴿عمَّ﴾: أى عن أى شىء، وأصله ﴿عمَّا﴾: فحذفت ألف ﴿ما﴾ الاستفهامية تخفيفًا.

﴿يتساءلون﴾: أى يسأل بعضهم بعضًا: هل محمَّد رسول حقًا... إلخ؟

﴿النبأ العظيم﴾: الخبر المهم وهو هنا بعث الخلق يوم القيامة.

المعنى: لما بعث ﷺ كان الكفار يسأل بعضهم بعضًا هل محمَّد رسول اللَّه حقًا؟ وما حقيقة هذا الخبر المهم الذى جاء به من أنه سيأتى يوم يبعث فيه الموتى، ويحاسبون إلى غير ذلك؟ فحكى سبحانه وتعالى ما حصل منهم فى صورة استفهام أريد به تفخيم شأن ما يسألون عنه. ثم بيَّن المسئول عنه بأنه النبأ العظيم.

هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَٰدًا[١] (٦) وَالْجِبَالَ
أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَٰكُمْ[٢] أَزْوَٰجًا[٣] (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ
سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا الَّيْلَ[٤] لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ
مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا
سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَٰتِ[٥] مَاءً ثَجَّاجًا (١٤)
لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّٰتٍ[٦] أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ
يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا[٧] (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ
أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا[٨] (١٩) وَسُيِّرَتِ
الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١)
لِّلطَّٰغِينَ[٩] مَـَٔابًا[١٠] (٢٢) لَّٰبِثِينَ[١١] فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ
فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً

المفردات: ﴿هم﴾: أى كفار مكة.

﴿مختلفون﴾: فبعضهم يقطع بعدمه كما فى الآية (٣٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٠، وبعضهم يشك فيه كما فى الآية (٣٢) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٤ .

﴿كلا﴾: تقدم الكلام عليها فى شرح الآية (٢٠) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩ ، والمراد: انزجروا عن هذا التساؤل والتكذيب.

﴿سيعلمون﴾: أى بعد الموت لأن الميت يعلم بعد الموت كل شيء.

﴿كلا﴾: تأكيد للزجر السابق.

﴿سيعلمون﴾: عند البعث يوم القيامة أنه حق. ﴿ألم نجعل الأرض﴾: المراد من هذا الاستفهام حملهم على الإقرار بأن الذى خلق هذه الأشياء التسعة الآتية بهذا الإحكام قادر على البعث يوم القيامة، وأنه يستحق الشكر.

﴿مهادًا﴾: هو المهد، وأصله الفراش المهيأ لراحة الطفل. والمراد: أن فى الأرض راحتكم.
﴿أوتادًا﴾: أى كالأوتاد فى حفظ توازنها، انظر الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧
﴿أزواجًا﴾: أى ذكرًا وأنثى ليبقى النوع بالتوالد.

﴿سباتا﴾ ﴿لباسا﴾: تقدما فى الآية (٤٧) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٥ .

---

(١) مهادا . (٢) خلقناكم. (٣) أزواجًا.
(٤) الليل . (٥) المعصرات. (٦) جنات.
(٧) ميقاتا. (٨) أبوابا. (٩) للطاغين.
(١٠) مآبا. (١١) لابثين.

﴿معاشًا﴾: أصل معنى المعاش الحياة أو ما به الحياة والمراد به هنا: وقت تحصيل ما به الحياة، انظر بيان ذلك فى الآية (٢٠) من سورة الحجر صفحة ٣٣٩ .

﴿سبعًا﴾: هى السموات. ﴿شدادًا﴾: أى قوية البنيان لا يتهدم منها شىء على طول الزمن مع أنها بلا عمد كما فى الآية (٢) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٠، ٣٢١ . ﴿سراجًا﴾: هى الشمس. ﴿وهاجًا﴾: أى شديد التلألؤ.

﴿المعصرات﴾: هى السحائب الممتلئة ماء، مأخوذة من قولهم أعصرت السحابة إذا حان وقت عصرها، أى نزول مائها، كقولهم: أحصد الزرع إذا جاء وقت حصاده، وأيسر فلان إذا جاء وقت يسره.

﴿ثجاجا﴾: أى منصبًا بكثرة. ﴿حبًا﴾: أى لقوت الإنسان. ﴿نباتًا﴾: أى لقوت الحيوان، كالتبن والحشائش، انظر آيتى (٥٣، ٥٤) من سورة طه صفحة ٤١٠ .

﴿ألفافًا﴾: جمع لفيف، كشريف وأشراف، واللفيف تقدم فى الآية (١٠٤) من سورة الإسراء صفحتى ٣٧٨، ٣٧٩ والمراد هنا: ملتفة أغصانها بعضها على بعض لجودتها.

﴿ميقاتًا﴾: أى وقتا محددًا لجمع الخلائق فيه للحساب والفصل بينها. ﴿يوم ينفخ﴾: ﴿يوم﴾ بدل من ﴿يوم الفصل﴾ قبله ﴿أفواجًا﴾: أى طوائف كل أمة مع رسولها. انظر الآية (٧١) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٤.

﴿فتحت السماء﴾... إلخ: كناية عن تشققها قبل أن تمور وتفنى، انظر الآية (٩) من سورة الطور صفحة ٦٩٧، والآية (٢٥) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣، والآية (١) من سورة الانشقاق صفحة ٧٩٩.

﴿سيرت الجبال﴾: انظر شرح الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٩٧، والمراد: وكانت قد سيرت الجبال؛ لأن ذلك يحصل قبل النفخة الثانية. انظر كل ذلك فى الآيات من (١) إلى (١٤) من سورة التكوير صفحتى ٧٩٣، ٧٩٤. ﴿مرصادا﴾: أى موضعًا يرصد فيه خزنتها مَنْ يستحقونها، ويسحبونهم إليها. ﴿مآبا﴾: أى مرجعًا. ﴿لابثين﴾: أى ماكثين.

﴿أحقابا﴾: مفردها حُقب بضمتين، والحُقب جمع حِقبة بكسر فسكون وهى مدة من الزمن غير محددة، فالأحقاب جمع الجمع.

﴿بردًا﴾: المراد هواء رطب يخفف حرها. ﴿حميمًا﴾: ماء شديد الحرارة. و ﴿غساقًا﴾: ما يسيل من صديد أهل النار.

المعنى: عن أى شيء يتساءل هؤلاء. ثم رد سبحانه بقوله: عن النبأ.. إلخ. على سبيل التوبيخ. أى هل عن النبأ العظيم المقطوع به يصح التساؤل والاختلاف؟ فلينزجر هؤلاء عن هذا التساؤل فسيعلمون عند الموت كل شيء. ثم سيعلمونه أوضح عند البعث من القبور. ألم يعلموا أننا نحن الذين جعلنا الأرض ممهدة راحة لهم. وجعلنا الجبال حافظة لتوازن الأرض كالأوتاد. وخلقناكم مزدوجين ذكرا وأنثى لبقاء النوع. وجعلنا نومكم قاطعًا لمتاعبكم، وجعلنا النهار وقت سعى على ما تعيشون به. وبنينا فوقكم سبع سموات قويات محكمات. وجعلنا فيها شمسا كالسراج، شديدة التوهج. وأنزلنا من السحائب ماءً كثيرًا لنخرج به حبا تقتاتون به، ونباتًا لأنعامكم وجنات متشابكة الأغصان لجودتها.

وبعدما بيّن سبحانه قدرته على هذه الأشياء العظيمة. شرع سبحانه فى بيان سر تأخير ما يسألون عنه، فقال تعالى: إن يوم الفصل... إلخ. أى إن يوم القيامة الذى يفصل فيه بين الخلائق كان فى علم الله محددًا بوقت لا يتقدم ولا يتأخر، انظر آيتى (١٠٣، ١٠٤) من سورة هود صفحة ٢٩٩ .

ثم بيّن ما سيحصل فيه، فقال: يوم ينفخ فى الصور النفخة الثانية فتحيون من القبور وتأتون للمحشر أفواجًا. ولما كان يوم القيامة يطلق على الزمن الطويل الذى يبدأ بالنفخة الأولى المذكورة فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ والآية (١٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢، وينتهى بدخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.... نقول لما كان بهذا الطول فهو يشمل كل ما يقع فيه، فصح أن يقول سبحانه: وفتحت السماء. أى تأتون أفواجًا. والحال أنه فى هذا اليوم تشققت السماء ومارت وسيرت الجبال وتطايرت وفى هذا اليوم تكون جهنم موضعا يرصد فيه خزنتها مَنْ يستحقون دخولها ويسحبونهم إليها، ثم بيّن سبحانه من هم أصحابها، فقال: للطاغين مآبا، أى كانت مرجعا لكل مَنْ طغى وكفر. مقيمين فيها دهورًا لا نهاية لها. لا يذوقون فيها راحة الهواء البارد، ولا شرابا يطفئ ظمأهم، لكن يشربون ماء يغلى مخلوط بالصديد الذى يسيل من أجسام أهل جهنم، انظر الآية (٦٧) من سورة الصافات صفحة ٥٩١.

وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾
فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ
مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾
وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾
جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾
يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ
أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ
فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا
قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ
يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾

المفردات: ﴿وفاقا﴾: أي موافقا لعملهم.

﴿لا يرجون حسابا﴾: أي لا يقدرون أن الله تعالى سيبعثهم ويحشرهم ويحاسبهم.

﴿كذابا﴾: أي تكذيبا شديدًا مصحوبًا بالعناد.

﴿أحصيناه كتابا﴾: أي ضبطناه وكتبناه.

﴿كتابا﴾: مصدر مؤكد لـ ﴿أحصيناه﴾: من معناه، كما تقول قعدت جلوسًا، تريد قعدت قعودًا محققًا، فالمراد هنا كتبناه كتابة لاشك فيها بإحصاء دقيق، وحاصل المعنى: أحصيناه في كتاب أعمالهم بكل دقة، انظر الآية (١٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦ . والآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتي ٣٨٧، ٣٨٨.

﴿مفازا﴾: أي مكان فوز بالنعيم.

﴿كواعب﴾: جمع كاعب وهي الفتاة التي بدأ ثديها يستدير، ولم يزد على مقدار الكعب.

﴿أترابا﴾: جمع تِرب بكسر فسكون، وهي مَنْ تساوي غيرها في العمر . والمراد: متساويات في العمر.

﴿دهاقا﴾: أي مملوءة، والمراد بما يشتهون.

(١) بآياتنا. (٢) أحصيناه.
(٣) كتابا. (٤) أعنابا.
(٥) كذابا. (٦) السموات.
(٧) الملائكة. (٨) مآبا.
(٩) أنذرناكم. (١٠) يا ليتني.
(١١) ترابا.

﴿كذابا﴾: المراد به هنا: مجرد التكذيب. فهو غير ما تقدم فى الآية (٢٨) من هذه السورة.

﴿عطاء حسابا﴾: المراد: كثيرًا كافيًا، تقول حسبك درهم. أى كافيك.

﴿لا يملكون منه خطابا﴾: المراد: لا يمكِّن سبحانه أحدًا من مخاطبته. ففى اليوم الذى يقوم فيه الروح، بطلب زيادة ثواب، أو إنقاص عقاب... إلخ. وهذا من قبيل قولهم: مَلَك فلان من محمَّد درهما أى أن محمَّدا ملَّك فلانا درهما. فالمعنى والله أعلم. أنه سبحانه مع واسع رحمته التى كان يجب عليهم أن يستجلبوها فإنه فى هذا اليوم الشديد الكرب لا يُملِّك سبحانه كلا الطائفتين السابقتين ﴿الطاغين﴾ و﴿المتقين﴾ خطابا يستطيعون به تخفيف العذاب أو زيادة الثواب. فالكلام استئناف مقرر لما دلت عليه الربوبية العامة من غاية العظمة الإلهية، وانفراده سبحانه فى ذلك اليوم بالجزاء والعطاء من غير أن يكون لأحد من خلقه تَدَخُّل فيه. انظر الآية (١٠٥) من سورة هود صفحتى ٢٩٩، ٣٠٠ .

﴿الروح﴾: هو جبريل عليه السلام. انظر الآية (١٩٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١ .

﴿الملائكة﴾: انظر الآية (١٧) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢ .

﴿لا يتكلمون﴾: تأكيد لقوله تعالى: ﴿لا يملكون﴾ ... إلخ: لأن هؤلاء الذين هم أقرب الخلائق إلى الله تعالى، ولا يعصون له أمرًا، إذا لم يقدروا على الكلام إلا بإذنه سبحانه من شدة الهول، فكيف يكون الحال بالنسبة لغيرهم.

﴿مآبا﴾: أى أوبا ورجوعا إلى الله بالتوبة والطاعة.

﴿أنذرناكم﴾: أى حذرناكم.

﴿قريبًا﴾: أى قريبا حصوله، وهو عذاب يوم القيامة الآتى الذى لاشك فيه، فكل آت قريب.

﴿يا ليتنى كنت ترابا﴾: أى ياليتنى بقيت على حالتى الأولى فى الدنيا، ولم أصر إنسانًا مكلفا. ونظير هذا قول عمر بن الخطاب لكن فى مجال الخوف من الله: ليت أم عمر لم تلد عمر، انظر الآية (٣٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٦.

المعنى ـ يجازى سبحانه الكفار بما سبق منهم جزاء موافقًا لأعمالهم. ثم فصل بعض أعمالهم هذه فذكر منها شيئين هما أفظعهما فقال: إنهم كانوا ... إلخ. أى إن الذى جرأهم على الكفر والفسوق أنهم ما كانوا ينتظرون يوم الحساب. وأنهم كذبوا بجميع أدلة التوحيد وصدق رسولهم وكتابهم تكذيبًا شنيعًا. كانوا فى الدنيا فى غفلة. ونحن نحصى عليهم فى كتابهم الذى سيقرءونه يوم القيامة بأنفسهم كل شىء عملوه فى الدنيا ليجازوا به. انظر الآية (١٤) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦. ثم نقول لهم بعد دخولهم جهنم: وبما أن هذا عملكم فذوقوا جزاءه ولا تنتظروا أن نزيدكم إلا عذابا. انظر آيتى ٥٧، ٥٨ من سورة ص صفحة ٦٠٣.

ثم بين سبحانه جزاء المؤمنين فقال: إن للمتقين مفازا. وبيَّنه بأنه حدائق فيها كل فاكهة خصوصًا الأعناب. وأن لهم فى هذه الجنات زوجات ناشئات أبكارًا كلهن فى عمر واحد. ويشربون كأسا مليئة بما يشتهون. لا يسمعون فى الجنة كلاما لا فائدة فيه ولا تكذيبًا يؤلم كما هو المعروف عمَّنْ يشربون خمر الدنيا. جزاهم ربك أيها النبى بهذا وأعطاهموه جزاء وعطاء من فضله كافيًا وافيًا.

ثم وصف الرب المعطى سبحانه بأنه رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن، ومع ذلك فمن شدة الهول فى هذا الموقف فلن يقدر أحد من أهل السموات والأرض على الإقدام على مخاطبته فى زيادة ثواب أو تخفيف عقاب فى ذلك اليوم الذى يقوم فيه جبريل عليه السلام والملائكة جميعًا مصطفين فى انتظار أوامره سبحانه وتعالى. انظر الآية (٢٢) من سورة الفجر صفحة ٨٠٧ . لا يتكلم واحد منهم بكلمة واحدة إلا مَنْ أذن له الرحمن فى الشفاعة بشرط أن تكون شفاعته فى محلها. انظر تفصيل ذلك فى الآية (١٠٩) من سورة طه صفحة ٤١٦ . ذلك اليوم المعد للفصل بين المحققين والمبطلين هو الحق الثابت حصوله ممَن شاء أن يتقى شره فليتخذ طريقًا يرجعه إلى ربه عز وجل. ثم رجع سبحانه إلى تهديد المعاندين فقال: إنا أنذرناكم عذابًا قريبًا ستجدون مقدماته بعد الموت مباشرة وأهواله تجدونها يوم ينظر الإنسان ما قدمت يداه. فيسر المؤمن، ويندم الكافر ندمًا شديدًا، حيث لا ينفع الندم، ويتمنى لو كان ترابًا لم يخلق. أو يصير بعد البعث ترابًا. كالبهائم. نسأل اللّه تعالى السلامة فى الدنيا والآخرة.



سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿والنازعات﴾: انظر الحلف بمثل ما هنا فى صفحة ٥٨٧ . والنازعات هى الكواكب التى تجرى من قولهم نزع الفرس، أى جرى.

﴿غرقًا﴾: أى نزعًا ذا غرق، أى إغراق وهو المبالغة فى الشىء، والمراد نزعًا شديدًا.

﴿الناشطات﴾: هى الكواكب المتنقلات من برج إلى برج من قولهم نشط الرجل، إذا خرج من بلد إلى بلد.

﴿السابحات﴾: هى الكواكب التى تسير فى الجو سيرًا هينًا.

﴿السابقات﴾: هى الكواكب التى تتم دورتها فى مدة أقل من غيرها، كالقمر الذى يتم دورته كل شهر، مع أن الشمس تتمها كل عام.

﴿المدبرات أمرًا﴾: المراد: المتسببات فى حدوث الأمور المترتبة على سيرها، من اختلاف الفصول ومعرفة عدد السنين وحساب مواقيت العبادات والمعاملات بين الناس، انظر الآية (١٢) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٥، ٣٦٦ .

﴿يوم ترجف﴾: هذا متعلق بجواب القسم المحذوف للعلم به من المقام كما فى آيتى (١، ٢) من سورة القيامة صفحة ٧٧٨، والأصل: أقسم بهذه الأشياء التى تدركون منافعها، أن كل الأموات سيبعثون (يوم ترجف)... إلخ و﴿ترجف﴾: أى تهتز وتتزلزل.

---

(١) النازعات. (٢) الناشطات. (٣) السابحات. (٤) السابقات. (٥) المدبرات.
(٦) أبصارها. (٧) خاشعة. (٨) أإنا. (٩) أئذا (١٠) عظامًا.
(١١) واحدة. (١٢) أتاك (١٣) ناداه.

﴿الراجفة﴾: هى الأرض عند زلزلتها، انظر الآية (١٤) من سورة المزمل صفحة ٧٧٤ .

﴿الرادفة﴾: هى السماء التى تتبع الأرض فى اضطرابها وتشققها. ﴿واجفة﴾: شديدة الانزعاج. ﴿خاشعة﴾: أى ذليلة كسيرة. ﴿يقولون﴾: أى الكفار فى الدنيا، على وجه الإنكار للبعث. ﴿فى الحافرة﴾: أصل الحافرة: هى الطريق المحفورة بتكرار المشى فيها، يقولون: رجع فلان فى حافرته أى فى طريقه التى جاء منها، والمراد هنا: الحالة الأولى، وهى الحياة التى كانوا عليها فى الدنيا. ﴿نخرة﴾: بالية جوفاء تمر فيها الرياح، فيسمع لها صوت. ﴿كرة﴾: أى رجعة. ﴿خاسرة﴾: المراد خاسر أصحابها كقوله ﴿عيشة راضية﴾ أى راض صاحبها. ﴿هى﴾: أى الرجعة إلى الحياة. ﴿زجرة﴾: الزجرة النفخة فى الصور والمراد: أن الرجعة إثر تلك الزجرة. ﴿فإذا هم﴾: الفاء تدل على سرعة حصول مابعدها مرتبًا على ما قبلها.

﴿الساهرة﴾: هى الأرض البيضاء، سميت بذلك؛ لأن السراب يجرى فيها، من قولهم: (عين ماء ساهرة) أى ماؤها جار لا ينقطع، أى فهى أرض فضاء شاسعة. ﴿هل أتاك﴾: تقدم المراد من مثل هذا فى الآية (٩) من سورة طه صفحة ٤٠٦ . ﴿الواد المقدس طوى﴾: تقدم كذلك فى الآية (١٢) من سورة طه أيضًا صفحة ٤٠٧ .

المعنى: يقول سبحانه وتعالى أقسم بأنواع من الكواكب، والنجوم والشمس، والقمر، إظهارا لعظم شأنها، وإتقان نظامها، وكثرة منافعها، وأنها مسخرة لخالقها، وخاضعة لأمره، أن كل الأموات سيبعثون بعد الموت، يوم ترجف الأرض وما عليها، وتتبعها السماء وما فيها، يومئذ تنزعج قلوب الكفار، وتخشع أبصارهم. ثم ذكر سبحانه بعض ما استحقوا به ذلك فقال تعالى: يقولون... إلخ. أى يقول كفار مكة استهزاء وإنكارا للبعث، هل نحن حقًا مردودون للحياة بعد الموت كما يقول محمد؟ ثم بالغوا فى ذلك فقالوا: هل نرد للحياة بعد أن نكون عظاما بالية لو لمست لتفتت؟ هذا لا يكون، وزادوا فى الاستهزاء فقالوا: تلك الرجعة - إن صح مايقول محمد - رجعة خاسر أصحابها. فرد سبحانه عليهم استبعادهم البعث بقوله: فإنما هى... إلخ. أى لاتظنوا أن رجوعكم صعب على الله بل هين لأنه لا يحتاج إلا إلى صيحة واحدة لا ثانى لها. فإذا الناس جميعًا أحياء مجتمعون على وجه الأرض الخلاء وبعدما رد عليهم سبحانه أراد أن يهددهم بعذاب الدنيا أيضًا. ويخفف على رسوله تألمه منهم فذكر الجميع بقصة موسى مع فرعون. وقد كان لفرعون من الجبروت ماليس عند كفار مكة، ومع ذلك أهلكه الله، ونصر نبيه. فقال تعالى: هل أتاك حديث موسى؟ إذ - أى حين - ناداه ربه بالوادى المقدس الذى هو طوى؟

اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى
أَن تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾
فَأَرَاهُ[1] الْآيَةَ[2] الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ
أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ
الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ[3] وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾ أَأَنتُمْ[4] أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ
السَّمَاءُ بَنَاهَا[5] ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا[6] ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ
لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا[7] ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا[8] ﴿٣٠﴾
أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا[9] ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا[10] ﴿٣٢﴾
مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ[11] ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ
الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ[12] مَا سَعَى ﴿٣٥﴾
وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَى ﴿٣٧﴾

المفردات: ﴿هل لك﴾.. إلخ: الاستفهام مراد منه الطلب بلطف لتخفيف حدة جبروت فرعون. أى هل لك ميل إلى أن تتطهر مما أنت فيه، وهذا هو (القول اللين) المذكور فى الآية (٤٤) من سورة طه صفحة ٤٠٩ .

﴿تزكى﴾: أصلها (تتزكى) أى تتطهر من الكفر والعناد والمعاصى.

﴿الآية الكبرى﴾: هى المعجزة العظمى وهى العصا، انظر الآية (٣٢) من سورة الشعراء صفحتى ٤٨١، ٤٨٢ .

﴿أدبر﴾: أى أعرض عن الإيمان.

﴿يسعى﴾: أى فى محاربة الحق والكيد لموسى وإبطال دعوته.

﴿فحشر﴾: أى أرسل من يجمع له السحرة، انظر آيتى (١١١، ١١٢) من سورة الأعراف صفحة ٢١٠ .

﴿فنادى﴾: أى فأعلن فى الجمع قوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾: تقدم المراد من هذا القول فى شرح الآية (١٢٧) من سورة الأعراف صفحة ٢١١ .

﴿فأخذه الله﴾: أى عاقبه.

﴿نكال﴾: النكال بمعنى التنكيل وهو التعذيب المقصود به منع الغير من الوقوع فى أسبابه، انظر الآية (٦٦) من سورة البقرة صفحة ١٣، وهو منصوب على أنه مفعول لأجله، أى عاقبه الله لأجل عقابه فى المرة الأولى والآخرة عبرة لغيره.

---

(١) فاراه. (٢) الآية. (٣) الآخرة
(٤) أانتم (٥) بناها. (٦) فسواها.
(٧) ضحاها (٨) دحاها (٩) مرعاها
(١٠) أرساها (١١) لأنعامكم (١٢) الإنسان.

﴿الآخرة﴾: أى الحاصل فى الآخرة بعذاب جهنم، وهو عبرة من جهة أن الله تعالى أخبر بأنه سيقع قطعًا، ونظير ذلك ما فى الآية (٣١) من سورة المدثر صفحتى ٧٧٦، ٧٧٧ .

﴿الأولى﴾: الحاصل فى الدنيا وهو إغراقه، انظر الآية (٩٠) من سورة يونس صفحة ٢٨٠ .

﴿ءأنتم﴾ ... إلخ: استفهام أريد به تقريع وتوبيخ منكرى البعث.

﴿خلقا﴾: أى إيجادا.

﴿سمكها﴾: أصل السمك إقامة الشىء. والمراد جعل مقدار اتجاهها إلى جهة العلو مرتفعا

﴿فسواها﴾: أى فعدلها بوضع كل جزء فى موضعه، وجعلها سليمة من الشقوق، انظر الآية (٣) من سورة الملك صفحة ٧٥٤ .

﴿أغطش ليلها﴾: يقال غطش الليل بوزن ضرب أى أظلم، وأغطشه اللّٰه أى جعله مظلمًا.

﴿وأخرج ضحاها﴾: الضحى ضوء الشمس أول النهار، ويطلق على زمنه، انظر الآية (٥٩) من سورة طه صفحة ٤١٠ والآية (١) من سورة الشمس صفحة ٨٠٩، والمراد: أبرز نور شمسها.

﴿دحاها﴾: تقول العرب: دحا يدحو، كدعا يدعو. ولهذا اللفظ عندهم معنيان: الأول البسط، والثانى الدفع أى التحريك.

يقولون: دحا المطر الحصا عن وجه الأرض، أى دفعه عن مكانه، وجرفه إلى مكان آخر ومنه (المِدحاة) بكسر فسكون، وهى خشبة يلعب بها الصبيان فى دحو الحجر مثلا. ليقع فى حفرة. والمعنيان جاءا فى القرآن. فمن الأول ما فى الآية (١٩) من سورة نوح صفحة ٧٦٩، ومن الثانى ما يفهم من عموم (كلٌّ) فى الآية (٤٠) من سورة يس صفحة ٥٨٢، لأن المعنى كل شىء مما ذكر فى هذه الصفحة من أرض وشمس وقمر ... إلخ.

﴿مرعاها﴾: أصل المرعى مكان الرعى، وأريد به هنا كل ما تنتجه الأرض من قوت الناس والحيوان.

﴿متاعا لكم﴾: أى لأجل أن تتمتعوا به أى تنتفعوا.

﴿أنعامكم﴾: تقدم فى الآية (١٤٢) وما بعدها من سورة الأنعام صفحتى ١٨٦، ١٨٧ .

﴿الطامة﴾: هى الداهية التى تطم أى تعلو على سائر الدواهى.

﴿الكبرى﴾: ى أكبر الطامات وهى القيامة التى تبدأ بالنفخة الثانية. انظر الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ وهى المعبر عنها بالصاخة فى الآية (٣٣) من سورة عبس صفحة ٧٩٣، وانظر بقية أسمائها فى الآية (١) من سورة الحاقة ٧٦١ .

﴿يوم يتذكر﴾: ﴿يوم﴾ ظرف بدل من ﴿إذا﴾ فى إذا جاءت.

﴿ماسعى﴾: أى الذى عمل، والمعنى يتذكر أعماله.

﴿برزت الجحيم﴾: أى أبرزها الله لأعين الكافرين لزيادة إزعاجهم، انظر الآية (١٠٠). من سورة الكهف صفحة ٣٩٤ .

المعنى: قال سبحانه لموسى اذهب إلى فرعون لإصلاحه لأنه تجاوز الحد فى الكفر والفساد. وقل له متلطفا هل لك ميل إلى أن تتطهر مما أنت فيه. وأدلك على طريق معرفة ربك الذى خلقك فتخافه وتمتنع عما أنت فيه فتنجو من العذاب؟ فلما سمع موسى ذلك من ربه ذهب إلى فرعون وبلغه كما أمره ربه. فلم يصدقه فرعون وطلب منه دليلا. فأراه موسى المعجزة الكبرى فاستمر على التكذيب. وعصى رسول ربه، كما فى الآية (١٦) من سورة المزمل صفحة ٧٧٤ .

ثم أعرض عن الإيمان وهو يسعى فى الكيد لموسى ومحاربته. وكان مما فعله أنه أرسل مَنْ حشر أى جمع له السحرة والأتباع. فنادى فيهم قائلاً: أنا ربكم الأعلى، أى فلا تسمعوا قول موسى. فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، ليجعل تعذيبه فى الآخرة بالإحراق وفى الدنيا بالإغراق عبرة لمَنْ تحدثه نفسه بمثل عمله. إن فى هذا الذى حصل لفرعون وجنوده عبرة عظيمة. ينتفع بها مَنْ يخشى الله. ثم رجع سبحانه إلى توجيه الخطاب لكفار مكة المنكرين للبعث بأسلوب فيه تقريع وتسفيه فقال: (ءأنتم)... إلخ. أى هل أنتم أيها المغرورون أصعب على الله إيجادا أم السماء التى هى أكبر منكم بالمشاهدة كما فى الآية (٥٧) من سورة غافر صفحة ٦٢٥ .

ثم بيّن كيف أنشأ سبحانه السماء ونظمها فقال: بناها . أى جعلها عالية البناء سليمة من كل نقص، وجعل ليلها مظلما ونهارها مضيئًا، للحكمة المشار إليها فى الآية (٧١) وما بعدها من سورة القصص ٥١٧ .

وبعد ذلك دحى الأرض أى جعلها تسبح فى فلكها كما تقدم لتحصل الفائدة المترتبة على ذلك مما هو معروف عند علماء الهيئة. أو مهدها وجعلها صالحة للسكنى فأخرج منها الماء والمرعى وأرسى فيها الجبال لتمنعها من اختلال توازنها، انظر الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧ . فعل سبحانه كل ما ذكر لتنتفعوا بما فيها أنتم وأنعامكم التى يتوقف عليها نظام حياتكم.

وبعد هذا فهل يصح أن يكون القادر على ذلك كله غير قادر على بعثكم أيها الكفار ويليق بإله حكيم أن يخلق هذا العالم على هذا النظام ثم يتركه هملاً بدون محاسبة ومجازاة المحسن والمسيىء، انظر الآية (١٦) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢١ والآية (١١٥) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦ .

وإذا كان لابد من الحساب فاعلموا أنه إذا جاءت القيامة بأهوالها الكبرى وحينئذ يتذكر الإنسان عمله خيرًا أو شرًا. والمعنى يتذكر كل واحد ما عمله بأن يشاهده مدونًا فى صحيفته بعد أن كان نسيه من شدة غفلته، أو قسوة ما لقى من هول القيامة.

قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعًا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد﴾ الآية (٦) من سورة المجادلة صفحة ٧٢٥ . وتبرز الجحيم ليراها الغاوون كما فى الآية (٩١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥ . وإذا حصل كل هذا انقسم الناس إلى شقى طاغ، وإلى سعيد يخاف الله، كما فى الآية (١٠٥) من سورة هود صفحتى ٢٩٩، ٣٠٠ . فأما مَنْ طغى... إلخ.

(تنبيه) قد يتوهم الناظر العابر أن ظاهر الآية (٣٠) هنا يختلف مع ظاهر الآيات (٢٩) من سورة البقرة صفحة ٧ و(٩:١١) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٠، ٦٣١ . حيث يدل ظاهر الآية الأولى على تقدم خلق السماء وما فيها على خلق الأرض وما عليها وعلى العكس ما فى الآيات صفحات ٦٣١،٦٣٠،٧ . ولكن الخبير بأساليب العرب لا يتسرب إليه هذا الوهم لأنه يدرك أن قوله سبحانه هنا (بعد ذلك) ظاهر فى تقدم خلق السموات على الأرض وهو ما اختاره

المحققون من العلماء. وأن الآيات الأخرى جاء فيها ذكر خلق السماء معطوفا (بثم) وحرف (ثم) يأتى فى كلام العرب كثيرًا لإفادة الترتيب فى الذكر والحكاية لا فى الوجود: فيقول أحدهم. أنا أحسنت لفلان بكذا وكذا، ثم أنقذته من كذا. يريد بالعبارة الأخيرة ذكر نوع آخر من الإحسان ولو كان سابقا فى الوجود على ما قبله. فهو على معنى قولهم فى بعض الأحيان (وغير ذلك فعلت معه كذا) وجاء هذا المعنى فى القرآن فى الآية (١٥٤) من سورة الأنعام صفحة ١٩٠ بعد آيات ١٥١:١٥٣ صفحة ١٨٩؛ لأن إيتاء موسى الكتاب كان قبل أمره سبحانه لخاتم الرسل ﷺ بما ذكر فى تلك الآيات.

ولكنه عندما أراد الإخبار أخره فى الذكر فقط، كأنه يقول أمرتك بكذا ثم أخبرك بكذا. وكذلك ﴿ثم﴾ فى الآية (١٧) من سورة البلد صفحتى ٨٠٨، ٨٠٩ بعدما فى الآيات (١١، ١٦) فإن الأعمال الصالحة التى فى هذه الآيات لا تعتبر إلا إذا سبقها الإيمان مع أنه مذكور بعدها معطوف ﴿بثم﴾ وليس التأخير إلا فى الإخبار فقط، إذا فما الحكمة فى تقديم الأرض فى بعض الآيات والعكس فى البعض الآخر؟ الحكمة أن ذلك يختلف باختلاف المقامات. فإن كان المقام للامتنان على الإنسان بتعداد النعم فإنه يحسن تقديم ذكر أقرب مصادر النعم إليه وهى الأرض التى يعيش فوقها.

ولكن إذا كان المقام لبيان كمال قدرته تعالى على الانتقام من الكافرين أو على بعثهم يوم القيامة. فإنه يحسن تقديم ما يدل على ذلك وهو خلق السموات وما فيها. وهى أعظم من الأرض. وإن كان المقام يصلح للاعتبارين صح تقديم كل منهما. انظر مقام بيان القدرة فى الآية (١٠٧) من سورة البقرة صفحة ٢١ والآية (١١٧) من سورة البقرة أيضًا صفحة ٢٣ والآية (١٨٥) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣ والآية (٩٩) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٨ والآية (٨١) من سورة يس صفحة ٥٨٦، والذى يهمنا فى هذا المقام هو العلم بأنه سبحانه خلق هذا العالم بالتدريج الذى لا يعلم حقيقته غيره تعالى كما فى الآية (٥١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٨ . وإنما ذكر لنا ما يدل على كمال قدرته وعظيم حكمته. أو يدل على سابغ فضله وحكمته. ولم يرد سبحانه سرد التاريخ لتكوين العالم بالترتيب، كما تفعل كتب التاريخ؛ لأن هذا ليس من مقاصد الدين الأصلية. وإنما مقاصده كلها ترمى إلى الهداية والإرشاد إلى الصواب. والله تعالى أعلم.

وَءَاثَرَ[1] ٱلۡحَيَوٰةَ[2] ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾
وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾
فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ[3] عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ
مُرۡسَىٰهَا[4] ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ[5] ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ
مُنتَهَىٰهَآ[6] ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا[7] ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ
يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا[8] ﴿٤٦﴾

(٨٠) سُورَةُ عَبَسَ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ
لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ

المفردات: ﴿آثر الحياة﴾: أى اختارها وفضلها.

﴿المأوى﴾: أى المكان الذى يأوى إليه ويستقر فيه.

﴿مقام ربه﴾: تقدم فى الآية (١٤) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٢ والآية (٤٦) من سورة الرحمن صفحة ٧١١ .

﴿الساعة﴾: المراد بها القيامة عند النفخة الثانية كما فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ .

﴿أيان﴾: أى متى وفى أى وقت.

﴿مرساها﴾: المرسى معناه الإثبات، انظر الآية (١٨٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٣ ، ومنه الجبال الرواسى انظر الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧ والمراد: متى يوجدها الله يقولون ذلك استهزاء وإنكارًا لها.

﴿فيم أنت﴾ ....إلخ: الأصل ﴿فى، ما﴾ و﴿ما﴾ اسم استفهام إنكارى يفيد النفى والمعنى: فى أى شىء من العلم أنت أيها النبى حتى تذكر لهم وقتها؟

---

(١) آثر.
(٢) الحياة.
(٣) يسألونك.
(٤) مرساها.
(٥) ذكراها.
(٦) منتهاها.
(٧) يخشاها.
(٨) ضحاها.

أى لا علم لك به؛ لأنه مما لا يعلمه غيره سبحانه، والمراد: أن السؤال عما لا يعلمه إلا الله لا يكون إلا من متعنت لا يريد الحق.

﴿إلى ربك منتهاها﴾: المراد منتهى علم وقت حصولها موكول إلى ربك وحده.

﴿منذر﴾: أى محذر من هولها.

﴿لم يلبثوا﴾: أى لم يمكثوا فى الدنيا، وفى القبور.

﴿عشية﴾: هى طرف النهار الأخير.

﴿ضحاها﴾: أى ضحى تلك العشية، والضحى أول النهار.

المعنى: أما مَنْ طغى وفضل متاع الحياة الدنيا وانهمك فى لذاتها ولم يفكر فى آخرته فإن جهنم هى مقره ولا مقر له سواها وأما مَنْ راقب جلال ربه، ومنع نفسه عن شهواتها، وضبطها بالصبر على الشدائد، فإنه لا مسكن له إلا الجنة.

ثم انتقل سبحانه إلى تسفيه كفار قريش على إنكارهم القيامة، وكان من أساليب إنكارهم، أنهم يسألونه ﷺ عنها استهزاء.

فقال سبحانه: (يسألونك)... إلخ. أى يسألك كفار قومك عن القيامة قائلين متى يوجدها الله؟ فى أى شىء أنت من ذكر وقتها لهم حتى يسألونك عنه، والمراد ليس هذا من شأنك؛ لأن مرجع علم وقتها إلى الله وحده، فهو ليس من وظيفتك. إنما وظيفتك أنك تحذر من أهوالها مَنْ يخشاها ويخافها فيتقى ربه.

ثم بيَّن سبحانه شدة هولها فقال: كأنهم يوم يرونها.. إلخ. أى أنهم عندما يشاهدون كربها وشدائدها، يظنون أن جميع الأزمان التى قضوها فى الدنيا أو فى القبور ما هى إلا لحظة كعشية أوضحى يومها، انظر الآية (٥٢) من سورة الإسراء صفحة ٣٧١، والآية (١١٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦، والآية (٥٥) من سورة الروم صفحة ٥٣٨، والآية (٣٥) من سورة الأحقاف صفحتى ٦٧١، ٦٧٢ .

سورة عبس

المفردات: ﴿عبس﴾: أى قطب وجهه ﷺ متألمًا؛ لأنه كان مشغولاً بهداية كبار القوم.

﴿تولى﴾: أى أعرض بوجهه.

﴿أن جاءه﴾: أى لأجل أن جاءه.

﴿الأعمى﴾: هو عمرو بن قيس بن أم مكتوم، جاء للنبى ﷺ يسأله عن علم يزداد به إيمانًا.

﴿يزكى﴾: أى يتطهر. والمراد: يزداد طهرًا من آثار الماضى.

﴿أو يذكر﴾: أى يتعظ.

﴿فتنفعه﴾: بنصب الفعل جواب (لعل) كقوله تعالى: ﴿فاطلع إلى إله موسى﴾ الآية (٣٧) من سورة غافر صفحتى ٦٢٢، ٦٢٣ .

المعنى: وسبب نزول هذه السورة، أن عمرو بن قيس بن أم مكتوم، جاء يومًا إلى النبى ﷺ فى وقت كان عنده فيه صناديد قريش يحاول هدايتهم للإسلام، فقال: علمنى يا رسول الله مما علمك الله.

وكان اهتمام النبى ﷺ بهداية مَنْ فى مجلسه شديدًا، فلم يلتفت إليه، فصار عمرو يكرر قوله، وهو لا يشعر بتشاغله ﷺ بالقوم. فكره ﷺ أن يقطع كلامه فعبس وأعرض عنه. وبعد انصراف القوم ورجوعه ﷺ إلى بيته نزل الوحى بقوله تعالى: (عبس وتولى)... إلخ.

فكان ﷺ لا يراه بعدها إلا ضمه إليه ويقول: مرحبًا بمَنْ عاتبنى فيه ربى، وذكر لفظ الأعمى للإشعار بعذره فى الإقدام على قطع كلامه صلوات الله عليه مع القوم وللإشارة إلى أنه أحق بالرفق، وقوله: (وما يدريك) ... إلخ. معناه أى شىء يدريك حال هذا الأعمى، والمراد أنت لا تعلم حاله حتى تعامله هذه المعاملة؛ لأنه قد يزداد بإقبالك عليه تطهرًا من آثار الماضى بما يتعلمه منك، أو يتعظ بما يسمعه منك فتنفعه الموعظة. فالذى يرجى منه الانتفاع تعرض عنه. أما الذى استغنى عنك... إلخ.

أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا
يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾
فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ
ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾
بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ
مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ
خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ
فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ
مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ(١) إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا
صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾
فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا
وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً(٢) وَأَبًّا ﴿٣١﴾

المفردات: ﴿استغنى﴾: أى عن الإيمان بك، وعما جئت به من العلوم والفضائل والخير.

﴿تصدى﴾: الأصل تتصدى، وحذفت إحدى التائين تخفيفًا. والمعنى تتعرض للإقبال عليه.

﴿وما عليك﴾: أى ليس عليك لوم فى أن لا يتزكى.

﴿يزكى﴾: أى يتطهر بالإسلام من دنس الشرك.

﴿يسعى﴾: أى يسرع لطلب الخير.

﴿تلهى﴾: الأصل تتلهى، والمراد: تتشاغل عنه بالحديث مع غيره.

﴿كلا﴾: أى لا تفعل مثل ذلك. ﴿إنها﴾: أى آيات القرآن.

﴿تذكرة﴾: أى فيها تذكير بالحق وعظة.

﴿ذكره﴾: أى ذكر القرآن المشار إليه بالآيات والمراد: تذكره واتعظ به.

﴿فى صحف﴾: أى أن تلك الآيات القرآنية مثبتة فى صحف ... إلخ.

﴿مكرمة﴾: أى عند الله تعالى. ﴿مرفوعة﴾: أى فى القدر والمنزلة.

﴿مطهرة﴾: أى منزهة عن كل عيب.

﴿سفرة﴾: جمع سافر، بمعنى سفير، كجمع كاتب على كتبة، قال ابن عباس: هم الملائكة الموكول إليهم تبليغ وحيه سبحانه إلى أنبيائه، انظر الآية (٢) من سورة النحل صفحة ٣٤٥ .

---

(١) الإنسان.
(٢) فاكهة.

﴿بررة﴾: جمع بار أى كثير الخير.

﴿قتل الإنسان﴾: أصل معناها الدعاء والمراد أنه استحق الهلاك، فالإنسان هنا يراد به الكافر.

﴿ما أكفره﴾: أى ما أشد كفره بربه الذى غمره بإحسانه، انظر ما سبق فى الآية (١٧٥) من سورة البقرة صفحة ٢٣ .

﴿من أى شىء خلقه﴾: استفهام أريد به التحقير، انظر شرح الآية (٣٩) من سورة المعارج صفحة ٧٦٦ .

﴿من نطفة خلقه﴾: بيان لهذا الشىء الحقير.

﴿فقدره﴾: أى قدر وجوده على أدوار مرتب بعضها على بعض، كما فى الآيات (١٣ وما بعدها) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦ .

﴿السبيل يسره﴾: المراد يسر له معرفة طريق الخير والشر ليسلك الأول ويجتنب الثانى، انظر الآية (١٠) من سورة البلد صفحة ٨٠٨ .

﴿فأقبره﴾: أى ألهم الأحياء أن يقبروه، وذلك لمواراة جيفته تكريمًا له، ولم يتركه على وجه الأرض يستقذر منه الناس، انظر الآية (٣١) من سورة المائدة صفحة ١٤٢ .

﴿أنشره﴾: أى أحياه يوم القيامة، تقول العرب (أنشره ونشره) بمعنى واحد، انظر الآية (٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠ .

﴿كلا﴾: زجر للإنسان عن الكفر.

﴿لما يقض﴾.. إلخ: ﴿لما﴾: حرف يدل على عدم حصول الفعل بعده إلى وقت التكلم، أى إلى الآن لم يفعل الإنسان ما أمره به ربه، انظر ﴿لما﴾ فى الآية (٨) من سورة ص صفحة ٥٩٨.

﴿إلى طعامه﴾: أى إلى تدبير وجود طعامه. ﴿أنا صببنا الماء﴾: بيان للتدبير.

﴿قضبًا﴾: أصل القضب مصدر لفعل قضب الشىء أى قطعه بوزن ضرب ومنه كلام مقتضب. ويطلق العرب القضب على كل نبت يقطع بعضه وهو أخضر ليؤكل ويخرج مكانه غيره، كالكرات، والنبات المعروف فى مصر (بالبرسيم) الذى تعلف به الدواب.

﴿غلبا﴾: جمع غلباء بفتح فسكون. كحمر جمع حمراء، والغلباء هى الحديقة الضخمة الأشجار الملتفة الأغصان. ﴿أبًا﴾: قيل هو المرعى الذى ينبت بدون تدخل زارع من البشر - والله تعالى أعلم - ولا يهمنا إلا أن نعلم أن لله نعمًا كثيرة يجب شكره عليها.

المعنى: أما من انشغل عنك أيها النبى واستغنى عما جئت به فأنت تخصه بالإقبال عليه. ولما عليك لوم فى بقائه بدنس الغرور، وأما من جاءك مسرعًا يطلب زيادة ما يقربه إلى ربه وهو يخشى الله تعالى ويخاف الضلال، فأنت تجعل تشاغلك قاصرًا عليه. لا تعد لمثل ذلك أيها النبى ولا تشق نفسك مع من يظهر العناد والغرور؛ لأنه لا ينتظر منه رجوع عما هو عليه. وروى أنه ﷺ ما عبس بعد ذلك فى وجه ضعيف أبدًا. ولا اشتد اهتمامه بغنى. ولما كان مبعث شقاء من استغنى هو إعراضه عن القرآن، بيَّن سبحانه أنه لو تأمل هذا القرآن لنجا. فقال: إنها تذكرة أى إن آيات القرآن موعظة عظيمة، لو أراد الهداية لانتفع بها، فمَنْ شاء الوصول للحق تذكرة تذكر اعتبار وهذه الآيات مثبتة فى صحف مكرمة عند الله، مرفوعة القدر والمنزلة، منزهة عن كل نقص، بأيدى ملائكة سفراء بين الله تعالى وأنبيائه، كرام عليه تعالى كثير خيرهم. وبعدما أرشد سبحانه إلى طرق الهداية، وكان الكافر فى غفلة عنها. قال سبحانه: قتل الإنسان. أى هلك الإنسان ما أشد كفره بربه الذى غمره بإحسانه.

ثم بيَّن بعض أسباب استحقاقه للدعاء عليه فقال: من أى شىء خلقه؟ أى ألم يعلم أنه خلق من ماء مهين. ثم جعله فى أطوار مختلفة حتى صار خلقًا كاملاً. ثم بيَّن له طريق الخير ليسلكه وطريق الشر ليجتنبه.

ثم لما أماته كرمه، ولم يتركه جيفة قذرة تأكلها سباع الطير والوحوش. ثم إذا شاء إحياءه للحساب والجزاء أحياه فى الوقت الذى قدره زجرًا لهذا الإنسان عن غفلته؛ لأنه إلى الآن لم يفعل شيئًا مما أمره به ربه مما فيه نجاته. وبعد ما عدد سبحانه على الإنسان نعمه فى أصل وجوده شرع فى بيان نعمه عليه لحفظه وبقائه فقال: (فلينظر)... إلخ. أى وإذا كان الإنسان فى غفلة عن فضل ربه عليه فى أصل وجوده فهل يصح أن لا ينظر إلى تدبير طعامه وكيف وصل إليه؟ ثم بيَّن ذلك فقال سبحانه: أنَّا صببنا الماء صبا. أى منظمًا على قدر الحاجة ولم نغرقهم كما حصل لقوم نوح. ثم شققنا الأرض شقا لائقا بكل نبات صغيرًا كان أو كبيرًا، وشكلا، فأنبتنا فيها حبًا وعنبًا ونباتا يأكله الإنسان والحيوان، أخضر طريًا، وزيتونًا ونخلاً، وحدائق ضخمة الأشجار. ثم خص الفاكهة بالذكر لأنها خاصة بالإنسان، وأخرج منها أيضًا مرعى لا يكلف الإنسان عناء.

مَتَٰعًا[١] لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ[٢] ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ
يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ[٣]
وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾
وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾
أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

(٨١) سُورَةُ التَّكْوِيرِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾
وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾

المفردات: ﴿متاعًا لكم﴾.. إلخ: تقدم فى الآية (٣٣) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠. (إذا جاءت): جواب إذا مفهوم من معنى الجملة الآتية فى الآية (٣٧).

﴿الصاخة﴾: أصل معنى الصَّخّ الضرب بالحديد مثلاً على كل جسم صلب مثله، فيحدث صوتًا مزعجًا.. والمراد هنا: هذا الصوت المزعج الناتج عن النفخة الثانية فى الصور المذكورة فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥: جاء فى مختار الصحاح الصاخة. هى الصيحة التى من شأنها أنها تصم الآذان لشدتها وهى المعبر عنها بالطامة فى الآية (٣٤) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠.

﴿يوم يفر﴾: ﴿يوم﴾: بدل من ﴿إذا﴾: السابقة كما قيل فى مثلها فى الآية (٣٥) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠. ﴿صاحبته﴾: أى زوجته. ﴿شأن﴾: أى حال. ﴿يغنيه﴾: أصل معناه: يكفيه لتوجيه جميع قواه لنفسه، والمراد: لا يشغله إلا نفسه. ﴿مسفرة﴾: مضيئة، متهللة. ﴿مستبشرة﴾: أى متمكن منها البشر والسرور عندما ترى النعيم. ﴿ترهقها قترة﴾: أى تغشاها غمامة سوداء انظر الآية (٢٦) من سورة يونس صفحة ٢٧٠. ﴿الفجرة﴾: جمع فاجر، وهو المعلن للفسق، والخروج على الشرع، وأصل معنى ﴿الفجرة﴾ الشق ومنه الفجر وهو أول النهار لأنه يشق ظلمة الليل بضوئه.

المعنى: خلق سبحانه كل ما تقدم ليتمتع به الإنسان والأنعام التى خلقت له، انظر الآية (٥) من سورة النحل صفحتى ٣٤٥، ٣٤٦. وبعدما بيَّن سبحانه مبدأ خلقهم وما به معاشهم شرع فى بيان أحوالهم يوم القيامة فقال: فإذا جاءت الصاخة. أى ما تقدم فيما تفضل به عليكم فى الدنيا، فإذا جاءت الداهية التى تصم آذانكم بضجتها فى يوم القيامة ـ فى هذا

---

(١) متاعًا. (٢) لأنعامكم. (٣) صاحبته

اليوم يفر المرء من أخيه لا يسأل إلا عن نفسه، بل يحاول أدهى من ذلك، انظر الآية (١٠ إلى ١٤) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥ ، بل يزيد به الكرب حتى يفر من أخيه وأمه وأبيه، بل حتى من زوجته التى هى ألصق الناس به، وقد كان يضحى فى الدفاع عنها بحياته. بل ويفر من بنيه الذين كان يشقى فى الدنيا ليسعدهم. ذلك كله لأن لكل واحد ممَنْ يشاهد هذا الهول ويخاف مناقشة الحساب شأنا يشغله عمَنْ سواه. وهذه الجملة الأخيرة هى المشعرة بجواب ﴿إذا﴾ فى قوله ﴿فإذا جاءت الصاخة﴾ والأصل فإذا جاءت الصاخة ورآها الإنسان الذى كان فى الدنيا غافلاً عنها فإنه يحاول الفرار من كل عزيز عليه فى الدنيا، ظانًا أن ذلك ينجيه. ثم قسم سبحانه أهل الموقف بعد الحساب إلى قسمين فقال: وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة. وهى وجوه الأتقياء. ووجوه يومئذ عليها غبرة تعلوها ظلمة، أصحاب هذه الوجوه القبيحة هم الذين جمعوا بين الكفر بالله والفجور والمعاصى. نسأل الله تعالى السلامة.

سورة التكوير

المفردات: ﴿كورت﴾: أصل التكوير لف الشىء بعضه على بعض، والمراد هنا: اختفى ضوءها، انظر الآية (٥) من سورة الزمر صفحة ٦٠٦ .

﴿انكدرت﴾: أسرعت فى الزوال وتناثرت، انظر الآية (٢) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥ .
﴿الجبال سيرت﴾: تقدم بيان ذلك فى الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧ . ﴿العشار﴾: جمع عُشَراء بضم العين وفتح الشين. وهى الناقة الحامل إذا بقى على وضعها شهران فقط وهى أحب الأموال عند العرب. ﴿عطلت﴾: أى تركت بلا راع ولا مرعى من شدة الهول، وقال القرطبى: هذا كناية عن انشغال الإنسان بنفسه فينسى كل ما يملك.

المعنى: ذكر سبحانه اثنى عشر حدثا ستحصل يوم القيامة من أول النفخة الأولى إلى انقضاء الحساب وإعلان الجزاء فيدخل فيه ما بعد النفخة الثانية، وقد يسمى كل هذا الزمن يوم القيامة تسامحًا؛ لأن أصل زمن القيامة هو ما بعد النفخة الثانية، التى يقوم فيه الناس من القبور، آخر هذه الأحداث فى الآية (١٣)، فقال تعالى: إذا الشمس كورت أى طويت وذهب ضياؤها، وإذا النجوم تناثرت، وإذا الجبال سيرت بعد نسفها ثم صارت هباء، وإذا النوق الحوامل أهملها أصحابها من شدة الهول..

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾
وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُۥدَةُ[1] سُئِلَتْ ﴿٨﴾
بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾
وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾
وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾
فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾
وَاللَّيْلِ[2] إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾
إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ
مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم
بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ[3] بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى
الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ[4] رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾
فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ[5] ﴿٢٧﴾ لِمَن

المفردات: ﴿الوحوش حشرت﴾: المراد أن الوحوش مع شدة نفرتها فى الدنيا من الإنسان، وشرودها فى الصحارى والغابات واحتراس ضعيفها من قويها. فإنها فى هذا اليوم من شدة الهول يختلط بعضها ببعض، ولا تخاف من بنى آدم، بل تسرع إلى مكان التجمع طلبا للحماية.

﴿سجرت﴾: أى امتلأت نارًا، كما فى الآية (٦) من سورة الطور صفحة ٦٩٧ .

﴿النفوس زوجت﴾: أى زوجت الأرواح بأبدانها بعد النفخة الثانية فتعود إليها الحياة.

﴿الموءودة﴾: هى الطفلة التى كان يدفنها والدها تحت التراب وهى حية حتى تموت، خوفا من الفقر أو العار، وفعلها (وأد، يئد)، انظر الآية (٥٩) من سورة النحل صفحتى ٣٥٢، ٣٥٣ .

﴿سئلت﴾: أمام والدها لتبكيته كما يسأل عيسى عليه السلام أمام النصارى فى الآية (١١٦) من سورة المائدة صفحتى ١٦٠، ١٦١ .

﴿الصحف نشرت﴾: انظر الآية (١٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦ .

﴿كشطت﴾: المراد أزيلت.

﴿سعرت﴾: أى اشتد تأججها.

---

(١) الموءودة
(٢) الليل
(٣) رآه
(٤) شيطان
(٥) للعالمين.

﴿أزلفت﴾: أى قربت، انظر الآية (٣١) من سورة (ق) صفحة ٦٩٠ .

﴿علمت نفس﴾: هذا هو جواب ﴿إذا﴾ فى أول السورة و﴿إذا﴾ تدل على زمان ممتد من أول النفخة الأولى إلى انتهاء الحساب والمراد: كل نفس، انظر الآية (٣٠) من سورة آل عمران صفحتى ٦٧، ٦٨ .

﴿ما أحضرت﴾: المراد: ما عملته فى الدنيا وكانت سببًا فى وجوده حاضرًا أى مسجلاً فى صحيفتها وقت الحساب، انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧،٣٨٨ .

﴿فلا أقسم﴾: انظر الآية (٧٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧ .

﴿الخنس﴾: جمع خانسة من خَنَس الشىء، إذا تأخر ورجع، والمراد بها: النجوم التى تجرى مع الشمس فى النهار دون أن ترى. فإذا غابت الشمس وظهرت صارت كأنها تأخرت عن الشمس، ورجعت عن السير معها. فهذا الخنوس يترتب عليها ظهورها ليلاً .

﴿الجوار﴾: أصلها (الجوارى) جمع جارية.

﴿الكنس﴾: جمع كانسة، وأصلها الظبية التى دخلت فى كناسها بكسر الكاف، وهو بيتها الذى تتخذه من أغصان الشجر؛ والمراد النجوم التى تختفى عند طلوع الشمس. فالأوصاف الثلاثة للنجوم باعتبار حالاتها المختلفة. وأقسم سبحانه بها لما فيها من هذا النظام البديع الدال على قدرة مدبرها، انظر شرح الآية (٤٠) من سورة يس صفحة ٥٨٢ .

﴿عسعس﴾: أى أقبل ظلامه.

﴿تنفس﴾: أصل التنفس إخراج النفس من الجوف فيستريح صاحبه. والمعنى أن أول النهار كأنه شخص مهموم من ضغط الليل عليه. فإذا ذهب الليل تنفس مسرورًا وأشرق وجهه، والكلام كناية عن ظهور ضوئه.

﴿إنه﴾: أى القرآن ﴿لقول رسول... إلخ﴾: الرسول هنا جبريل عليه السلام، والمراد أنه سبحانه أجراه على لسانه عند تبليغه لمحمَّد عليه الصلاة والسلام.

﴿ذى قوة﴾: تقدم فى الآية (٥) من سورة النجم صفحة ٧٠٠.

﴿ذى العرش﴾: هو الله سبحانه وتعالى.

﴿مكين﴾: صاحب مكانة وشرف.

﴿مطاع ثم﴾: ﴿ثم﴾: أى هناك. أى مطاع فى جميع مَنْ فى الملأ الأعلى.

﴿أمين﴾: أى على الوحى وكل ما يسند إليه.

﴿صاحبكم﴾: المراد به النبى ﷺ.

﴿بمجنون﴾: تقدم فى الآية (٢٩) من سورة الطور صفحة ٦٩٨ .

﴿رآه﴾: أى رأى النبى ﷺ جبريل وهو بالأفق المبين.

﴿الأفق﴾: تقدم فى الآية (٧) من سورة النجم صفحة ٧٠٠ .

﴿المبين﴾: الموضح لما فيه.

﴿وما هو﴾: أى وليس النبى ﷺ.

﴿الغيب﴾: المراد به: كل ما يجىء به عن ربه من أخبار يوم القيامة، ودقائق الوجود التى تخفى على كثير.

﴿بضنين﴾: أى ببخيل. والباء لتأكيد نفى ما بعدها عما قبلها.

﴿بقول شيطان﴾: أى كما يقول المشركون، انظر الآية (٢١٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٢ .

﴿رجيم﴾: مرجوم باللعنات إلى يوم القيامة.

﴿فأين تذهبون﴾: استفهام أريد به بيان ضلالهم عن طريق الحق.

﴿إن هو﴾: ﴿إن﴾ حرف نفى بمعنى ما.

﴿ذكر﴾: تذكير وعظة.

المعنى: إذا حصل ما تقدم، واجتمعت الوحوش مع غيرها، وغفلت عن عادتها من شدة الهول، وغلت مياه البحار، وردت الأرواح إلى أبدانها، وسئلت الطفلة المقتولة ظلمًا أمام قاتلها

توبيخًا له. فيقول لها الله سبحانه وتعالى: بأى ذنب قتلك والدك؟ وفى هذا تقريع لا تتحمله الحجارة الصلدة.

وقد بلغ من قوة قلوب بعض العرب فى الجاهلية أن أحدهم إذا بلغت ابنته السنة السادسة من عمرها يقول لأمها زينيها لأزور معها أقاربها بعد أن يكون قد حضر بئرًا فى الصحراء. فإذا بلغ البئر يقول للطفلة انظرى ما فى هذا البئر فإذا نظرت دفعها من الخلف ثم يهيل عليها التراب حتى يسوى البئر بالأرض. ولا سبب لهذه الوحشية إلا خوف الفقر أو العار كما يزعمون، فانظر كيف حارب الإسلام ذلك فى مواضع من كتابه الكريم غير ما هنا مثل ما فى الآية (١٥١) من سورة الأنعام صفحة ١٨٩ والآية (٣١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨ حتى تحولت تلك القلوب المتحجرة إلى قلوب إنسانية مرهفة مفعمة بالرحمة. يتقرب أصحابها إلى الله سبحانه بالإحسان إلى البنات وإجادة تربيتهن. وذلك بتوجيه الرسول الأكرم. فقد قال ﷺ: ﴿مَنْ رزق من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن وأجاد تربيتهن كن له سترًا من النار﴾ فشكرا لك يا رب على نعمة الإسلام.

وإرسالك رسولك الذى بعثته رحمة عمت الأطفال حتى الحيوان. وإذا نشرت صحف الأعمال ورأى كل مكلف عمله. وكشطت السماء عن مكانها. وسعرت الجحيم. وقربت الجنة للمتقين. عند ذلك تعلم كل نفس ما عملته لأنها تجده حاضرًا.

ملاحظة: قال المرحوم الشيخ محمد عبده فى معنى ﴿السماء كشطت﴾ هنا: أنه سبحانه ذكر فى هذه السورة (١٢ حدثًا) من أحداث يوم القيامة ٦ منها مما يحدث بعد النفخة الأولى. التى يحصل بها خراب هذا العالم وآخرها ما فى الآية (٦) . وذكر (٦) مما يكون بعد النفخة الثانية التى بها بعث الأموات من القبور وآخرها ما فى الآية (١٣)، انظر الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥.

ولما ذكر سبحانه ﴿السماء كشطت﴾: وسط الأحداث التى تكون بعد النفخة الثانية فلابد أن يكون لها معنى يناسب وضعها. وبما أن القرآن يفسر بعضه بعضًا فيحسن تفسير ما هنا بما جاء فى سياق ذكر تلك الأحداث من سورة ﴿ق﴾ صفحة ٦٩٠، ٦٩١ من أول الآية (٢٠ إلى ٣٥) . فيكون كشط السماء هنا هو كشف الغطاء هناك، وذلك لأن من معانى السماء (السقف) كما فى الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥ .

ومن شأن السقف أنه يحجب ما فوقه. ويكون المراد بالسماء هنا الغطاء الذى كان يحجب الإنسان عن حقيقة أعماله، وبكشفه يظهر لكل نفس عملها فتبصر ما حجبتها عنها الغفلة من تفصيل كل كبيرة وصغيرة منه. انتهى.

وقال صاحب تفسير «روح البيان» ما يفيد أن المراد من كشط السماء هنا لازمه. وهو ظهور ما وراءها من الجنة والعرش وغير ذلك مما كان محجوبًا بها. فاختر لنفسك ما يروقها. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

وبعدما حذر سبحانه كفار مكة من أهوال يوم القيامة أقسم لهم أن ما جاء به النبى حق وأنه تلقاه من أمين الوحى جبريل عليه السلام فقال: فلا أقسم.. إلخ. أى أقسم لكم قسمًا مؤكدًا بهذه النجوم التى تهتدون بها وهى تجرى على هذا النظام البديع. انظر الآية (٩٧) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨ والآية (٧٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧ . وأقسم لكم بالليل إذا أظلم. وبالنهار إذا أضاء وما فى ذلك من النعم عليكم كما فى الآيات (٧١:٧٣) من سورة القصص صفحة ٥١٧.

أقسم لكم بكل ما تقدم أن ما يقوله النبى هو قول تلقاه بإذننا من جبريل رسول الوحى. الكريم علينا. صاحب قوة على تنفيذ ما يؤمر به. صاحب مكانة عند ربه. مطاع الكلمة فى الملأ الأعلى. أمين على كل ما يوكل إليه. وأقسم لكم أن محمَّدًا الذى صاحبكم مدة طويلة. وعرفتم خلقه. ليس مجنونًا كما يفترى بعضكم. وأنه يعرف جبريل حق المعرفة فهو واثق بما يلقيه إليه.

ولقد رآه فى صور مختلفة حتى فى صورته الحقيقية سادا الأفق من عِظمه. وأنه ﷺ ليس حريصًا على ما عنده من الغيب بخلاً به. فيستحيل عليه أن يكتم عنكم منه شيئًا طمعًا فى أخذ أجر منكم كما يفعل الكهان. وليس الذى جاء به رسولنا قول شيطان ملعون كما يقول بعضكم.

وإذا كان الأمر كما ذكر فأى طريق تسلكونه بعدما أحاط بكم البرهان من جميع جهاتكم. واعلموا أن ما يتلوه رسولنا عليكم ليس إلا تذكيرًا وعظة للعالمين. ثم بيَّن مَنْ ينتفع من هؤلاء فقال تعالى: (لِمَنْ شاء)... إلخ.

المفردات: ﴿وما تشاءون﴾ ... إلخ: تقدم مثلها ومرجعها فى شرح الآية (٣٠) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٣ .

المعنى: إن هذا القرآن تذكير ينتفع به مَنْ وجّه إرادته لأن يستقيم على طريق الحق. أما مَنْ صرف نفسه عن ذلك، ولم يرد إلا الاعوجاج فإن القرآن لا يؤثر فيه لغفلته عنه. وما تشاءون .. إلخ. أى إن إرادتكم مخلوقة له تعالى ولو شاء لسلبها وأجبركم على الطاعة فكنتم كالملائكة. لا تكليف ولا جنة ولا نار إلى آخر ما سبقت الإشارة إليه فى صفحة ٧٨٣.

شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ[١] ﴿٢٩﴾

(٨٢) سُورَةُ الانفِطَارِ مَكِّيَّة
وآياتها تسع عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ
ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ
بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْإِنسَٰنُ[٢] مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ
فَسَوَّىٰكَ[٣] فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾
كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ[٤] ﴿١٠﴾

سورة الانفطار

المفردات: ﴿انفطرت﴾: أى انشقت انظر الآية (١٦) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢، والآية (١) من سورة الإنشقاق صفحة ٧٩٩ ﴿فجرت﴾: أى شققت جوانبها فزال ما بين الملح والحلو من الحواجز، انظر الآية (٥٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٦ .

﴿بعثرت﴾: يقول العرب: بعثر فلان متاعه وبعثر أى فرق وبدد، والمراد بعثر ما فى جوفها، أى خرج على ظهرها، انظر الآية (٩) من سورة العاديات صفحة ٨١٨.

﴿علمت نفس﴾: هذا هو جواب ﴿إذا﴾ انظر ما قيل فى مثلها الآية (١٤) من سورة التكوير صفحة ٧٩٤.

﴿ما قدمت وأخرت﴾: تقدم فى الآية (١٣) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩ .

---

(١) العالمين. (٢) الإنسان. (٣) فسواك. (٤) لحافظين.

﴿يا أيها الإنسـان﴾: خطابه بهذا العنوان للإشـارة إلى أنه عـاقل مفكر فلا يليق به ما ذكر بعده. ﴿ما غرك بربك﴾.. إلخ: المراد: أى شيء خدعك وجرأك على عصيان ربك؟.

﴿فسواك﴾: أى سوى أعضاءك وجعلها معدة لمنافعها.

﴿فعدلك﴾: أى جعلك معتدل القامة متناسب الخلقة. لا كالحيوان الذى يمشى على وجهه.

﴿فى أى صورة ما﴾... إلخ: ﴿فى﴾: متعلق بـ ﴿ركبك﴾ و﴿أى﴾ لإفادة التعميم فى ﴿صورة﴾ و﴿ما﴾ لإفادة تفخيم الصورة. والمراد: ركبك فى صورة فخمة بديعة، اقتضتها مشيئته تعالى وفق حكمته من الصور المختلفة فى الطول والقصر واللون ومراتب الحسن وغير ذلك.

﴿كلا﴾: حرف يفيد تنبيه السامع لأهمية ما يذكر بعده، انظر ما سبق شرحه فى الآية (٢٠) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩ . ﴿بل﴾: حرف يفيد الانتقال من موضوع إلى موضوع.

﴿الدين﴾: أى الحساب والجزاء يوم القيامة، تقدم فى الآية (٤) من سورة الفاتحة صفحة ٢.

﴿حـافظين﴾: هم الملائكة الذين يحفظون العبد، أى يسجلون على العبد كل شيء عمله، ويكتبونه فى صحيفة أعماله، انظر الآية (٨٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥ .

المعنى: يقـول سبحـانه: إذا السمـاء انفطرت، أى تصدعت، وإذا الكواكب تناثرت، وإذا البحار تصدعت حواجزها فاختلط حلوها بمالحها. وإذا القبور ظهر ما فى باطنها على ظهرها. إذا حصل كل هذا تعلم كل نفس عند الحساب ما قدمت وأخرت من عمل صالح وغيره. وبعدما بيَّن سبحانه ما سيكون يوم القيامة وجه الخطاب للإنسان الغافل عما فيه الخطر فقال: يا أيها الإنسان... إلخ. أى يا أيها العاقل المفكر أى شيء خدعك وجرأك على عصيان ربك الكريم الذى كان مقتضى كرمه أن تقابله بالشكر والطاعة. وإلا عرضت نفسك لأشد العقوبات؛ لأن ربك كما أنه كريم فهو أيضًا عدل حكيم لا يسوى بين المؤمن والكافر والصالح والفاجر. انظر آيتى (٢٧، ٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠ وآيتى (٣٥، ٣٦) من سورة القلم صفحة ٧٥٩. أى فكان حق كرمه أن يزجرك عن عصيانه ويدعوك إلى المبالغة فى طاعته. ربك الذى من آثار كرمه أنه جعلك مخلوقا سويًا. وعدلك وفى أحسن صورة ركبك. تنبه أيها السامع واعلم أن السبب الأصلى فى اغترار الإنسان الجاهل أنه يكذب بيوم الحساب والجزاء. والحال أنه عليكم أيها الناس ملائكة يحصون كل ما تعملون.

كِرَامًا كَاتِبِينَ[١] ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ[٢] ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ[٣] مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ[٤] مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

(٨٣) سورة المطففين مكية وآياتها ست وثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾

المفردات: ﴿كاتبين﴾: لكل صغيرة وكبيرة تصدر عنكم، انظر الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨ .

﴿الأبرار﴾: تقدم في الآية (٥) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١ .

﴿الفجار﴾: تقدم فى الآية (٢٨) من سورة ص صفحة ٦٠٠.

﴿يصلونها يوم الدين﴾: إذا رجعت لما قيل فى شرح الآية (٥٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٦ تعلم أن المراد هنا بقوله تعالى ﴿يصلونها يوم الدين﴾ هو الحكم عليهم يوم الدين.

﴿بغائبين﴾: الباء للنص على عموم نفى ما بعدها عما قبلها.

﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾: تقدم المراد من ذلك فى الآية (٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١.

المعنى: أنه سبحانه جعل الملائكة مراقبين عباده يكتبون أعمالهم عن علم بكل ما يفعلون. وتكون نتيجة هذا التسجيل أن يظهر العباد قسمين. أبرار كثير خيرهم: وفجار كثير شرهم. فيدخل الأبرار دار النعيم. ويدخل الفجار دار العذاب المحرقة. يقاسون حرها يوم الحساب الذى كان كثير منهم يكذب به. ويهمل العمل الذى ينجيه من هوله. وما هم عن جهنم بغائبين لحظة. بل هم خالدون فيها أبدا. ثم فخم سبحانه أمر ذلك اليوم فقال: وما أدراك ... إلخ. أى مَنْ الذى أعلمك أيها الإنسان حقيقة ما يجرى فى هذا اليوم وشدة هوله. ثم أكد التهويل بقوله: وما أدراك ما يوم الدين. ثم بيَّن شيئًا من هوله فقال: (يوم لا تملك نفس)... إلخ. أى

---

(١) كاتبين. (٢) بغائبين. (٣، ٤) أدراك.

اذكر أيها النبى لهم يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا. أى فلا تحمل عنها ذنبا ولا تخفف عذابا. والأمر يومئذ لله وحده. لا ينازعه التصرف فيه منازع، نسأله تعالى السلامة فى هذا اليوم.

سورة المطففين

المفردات: ﴿ويل﴾: أى عذاب وهلاك. ﴿المطففين﴾: أصل المطفف هو الذى يأخذ الشىء الطفيف أى القليل التافه بغير حق.

﴿الذين إذا اكتالوا﴾.. إلخ: صفة موضحة لحال المطففين الذين استحقوا به العذاب.

﴿اكتالوا على الناس﴾ تقول العرب: كِلْتُ فلانا طعامًا وكلت له طعامًا. كل منهما بمعنى أعطيته طعامًا مقدرًا بالكيل، وتقول اكتلت عليه الطعام مثلاً أى أخذته منه مكيلاً. فكال تقال فى جانب المعطى. واكتال تقال فى جانب الآخذ. ولما كان المطففون إذا كان لهم شىء عند الغير يعتقدون أنه حق لهم لذا قال: على الناس أى أخذوا الذى كان لهم على الناس، ولكنهم لا يشعرون بذلك إذا كان للغير حق عندهم. فاستحقوا بهذه التفرقة الهلاك والعذاب، وإذا توعد سبحانه بالهلاك مَنْ يأخذ حقه كاملاً ويعطى غيره ناقصًا فكيف يكون حال الذين إذا اكتالوا على الناس يأخذون أكثر من حقهم، وإذا كالوهم أنقصوهم. لا ريب سيكون عذابهم أشد ولهم ويلان، ويل على ما أخذوه أكثر من حقهم وويل على ما أنقصوه من حق غيرهم.

﴿يستوفون﴾: أى يأخذون حقهم كاملاً وافيًا. ﴿كالوهم أو وزنوهم﴾: أى كالوا لهم أو وزنوا لهم، تقول العرب: وزن محمَّد خالدًا الطعام أى أعطاه له مقدرًا بالوزن، ويقولون: اتزن محمد الطعام من زيد أى أخذه منه مقدرًا بالوزن، ﴿يخسرون﴾: أى يوقعونهم فى الخسارة، والمراد: ينقصونهم حقهم. فكيف بمَنْ هو أخسر حالاً من هؤلاء، ممَنْ إذا أخذوا زادوا لأنفسهم. وإذا أعطوا أنقصوا حق الغير؟ أولئك لهم ويلان لا ويل واحد نسأل الله السلامة.

المعنى: هلاك وشقاء للمطففين الذين إذا كان لهم حق على الناس فى شىء يكال أو يوزن وأرادوا أخذه منهم فإنهم لا يأخذونه إلا تامًا وافيًا. وإن كان للناس عندهم حق فى مكيل أو موزون أعطوهم إياه ناقصًا. وألحقوا بهم الخسارة. واكتفى فى مقام الاستيفاء بذكر الكيل لأنه لا شىء عليهم فى الاستيفاء، فاكتفى بذكر نوع من المعاملة فيه. ولما كان الجرم إنما يقع منهم عندما يعطون غيرهم فإنه فصل فيه لأنه أبشع. فكأنه يقول.. كان الواجب عليهم ما داموا يحرصون على الاستيفاء أن يكونوا منصفين، فيوفوا غيرهم، لكنهم بلغ بهم من الجرم أنهم كانوا إذا كالوا للغير أو وزنوا له فإنهم يظلمونه. وهذا هو محل الذم.

أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥)
يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ[1] (٦) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ[2]
الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ[3] مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ[4]
مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ
يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا[5] قَالَ أَسَاطِيرُ[6] الْأَوَّلِينَ (١٣)
كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)
كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ
لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ
تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ[7] الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨)
وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ[8] مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ
الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ[9]

المفردات: ﴿ألا يظن﴾: ﴿ألا﴾: مركبة من همزة الاستفهام المقصود بها التوبيخ و﴿لا﴾ النافية. والمعنى هل لا يظن... إلخ.

﴿ليوم عظيم﴾: المراد لحساب يوم.. إلخ.

﴿يوم يقوم الناس﴾: ﴿يوم﴾ بدل من ﴿يوم﴾ قبله باعتبار محله وهو النصب ﴿يقوم الناس﴾: أى من قبورهم للحساب أمام رب العالمين.

﴿كلا﴾: حرف تنبيه مثل ما تقدم فى الآية (٩) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥.

﴿كتاب﴾: جاء لفظ كتاب فى القرآن على أربعة معان: أولها المصدر أى الكتابة وهى ضم الحروف بعضها إلى بعض بالقلم كما فى الآية (٤٨) من سورة آل عمران صفحة (٧٠) والآية (٢) من سورة الجمعة صفحة ٧٤١ .

وثانيها: المكتوب فى الصحف كما فى الآية (١٠٤) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣١ والآية (٣) من سورة البينة صفحة ٨١٦.

وثالثها: الصحف كما فى الآية (٧٨) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧ .

ورابعها : الصحف المكتوب فيها. كما فى الآية (١٣) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٦ والآية (٢٩) من سورة النمل صفحة ٤٩٧ . والمراد هنا: المعنى الثانى، أى المكتوب من أعمال الفجار.

﴿الفجار﴾: تقدم فى الآية (١٤) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٦.

---

(١) العالمين. (٢) كتاب. (٣) أدراك. (٤) كتاب.
(٥) آياتنا. (٦) أساطير . (٧، ٨) كتاب. (٩) الأرائك.

﴿سجين﴾: اسم للصحف التى سجلت فيها أعمال الفجار، وهو لفظ يشعر بالتسفل، فى حين أن مقابله الخاص بالأبرار يشعر بالعلو.

﴿وما أدراك﴾: تقدم المراد منه فى الآية (٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١.

﴿كتاب مرقوم﴾: ﴿كتاب﴾: هنا من القسم الثالث فيما سبق شرحه.

﴿مرقوم﴾: المراد: معلم بعلامة تدل مَنْ يراه من أول وهلة على أن ما فيه كله شر.

﴿معتد﴾: أى متجاوز حدود العقل والشرع.

﴿أثيم﴾: أى كثير الآثام، أى الذنوب.

﴿أساطير الأولين﴾: أى أكاذيب كما تقدم فى الآية (٢٥) من سورة الأنعام صفحتى ١٦٥،١٦٦، والآية (٥) من سورة الفرقان صفحتى ٤٧٠، ٤٧١ .

﴿كلا بل﴾: ﴿كلا﴾ هنا حرف يفيد الزجر عما قبله، و﴿بل﴾: حرف يفيد الانتقال من كلام إلى آخر.

﴿ران﴾: أى غطى ومنع التيقظ لأسباب الهداية.

﴿كلا إنهم﴾: ﴿كلا﴾: مثل سابقتها.

﴿صالوا الجحيم﴾: أى داخلو جهنم.

﴿كلا إن﴾: ﴿كلا﴾: هنا مثل ما فى الآية (٧) السابقة.

﴿كتاب الأبرار﴾: ﴿كتاب﴾: هنا من القسم الثانى فيما سبق شرحه، ﴿الأبرار﴾ تقدم فى الآية (٥) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١.

﴿عليين﴾: اسم للصحف التى سجل فيها أعمال الأبرار، وهو لفظ يدل على العلو والشرف.

﴿وما أدراك﴾: تقدم المراد منه. ﴿مرقوم﴾: المراد: معلم بما يدل على أن مافيه خير رفيع.

﴿يشهده﴾: أى يحضر كتابته.

﴿المقربون﴾: أى الملائكة الذين لهم عند ربهم منزلة خاصة وشرف كبير والمقصود من ذلك تشريف الأبرار، انظر الآية (١٧٢) من سورة النساء صفحتى ١٣٢،١٣٣ .

﴿الأرائك﴾: هى السرر، كما تقدم فى الآية (٣١) من سورة الكهف صفحة ٣٨٥ .

المعنى: إن مَنْ يختلس أموال الناس لا يكون إلا شخصًا لايظن أنه سيبعث يوم القيامة ويحاسب. ولوظن لما فعل خوفاً من بعثه فى يوم عظيم الهول، يوم يقوم الناس لانتظار حكم رب العالمين وقضائه.. ولما كان العبد يعرض عليه كتابه فى الموقف نبه لخطر ذلك فقال: كلا... إلخ. أى تنبه أيها العبد فإن ما يكتب على كل فاجر من أعماله مسجل فى كتاب يسمى ﴿سجين﴾. ولا يوق أحد شر ذلك الكتاب. يعرف صاحبه خطره من أول نظرة إليه كما فى الآية (٤٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٧، ٣٨٨ . هلاك عظيم فى ذلك اليوم لكل مَنْ يكذب به. وما يكذب به إلا كل متجاوز حد العقل والشرع كثير الآثام بلغ من جرمه أنه إذا يتلى عليه القرآن يقول هذا من أكاذيب الأولين، وليس من عند اللّه. فلينزجر هؤلاء عن هذا الفحش فإن القرآن حق كالشمس. ولم يمنعهم عن الإيمان به شك فيه، بل الذى منعهم هو أعمالهم السيئة التى طمست كثرتها على قلوبهم فأعمتها عن نظر الحق. فلينزجروا فإنهم إن استمروا فسيحرمون من النظر إلى وجه رب كريم. وهذا هو أعلى نعيم فى الجنة كما فى شرح الآية (٢٦) من سورة يونس صفحة ٢٧٠ .

ثم إنهم لداخلون الجحيم يحرقون فيها. تقول لهم الملائكة تقريعًا هذا العذاب الذى أنتم فيه هو ماكنتم فى الدنيا تكذبونه. تنبهوا أيها الناس للفرق بين حال الفجار والأبرار. واعلموا أن كتاب الأبرار لفى عليين ولا يعرف شرف يعلو عليه، وهو كتاب معلم بما يدل على سعادة صاحبه، يحضر كتابته تشريفًا لصاحبه ملائكة مقربون عند اللّه تعالى.

وبعدما بيَّن حال كتاب الأبرار شرع سبحانه فى بيان محاسن أحوالهم فى الجنة فقال: إن الأبرار لفى نعيم متكئين على الأسرة كما يجلس الملوك.

يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾
يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ[١] مِسْكٌ ۚ وَفِى
ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ[٢] ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن
تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[٣] يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا
مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ
ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ[٤] ﴿٣٣﴾
فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟[٥] مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى
ٱلْأَرَآئِكِ[٦] يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟
يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

المفردات: ﴿ينظرون﴾: أى إلى ما أعد لهم من النعيم.

﴿تعرف﴾: أى يا مَنْ تراهم فى ذلك الوقت. ﴿نضرة النعيم﴾: أى بهجة التنعم، انظر الآية (٢٢) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩ والآية (١١) من سورة الإنسان صفحة ٧٨٢ . ﴿رحيق﴾: اسم لأجود أنواع خمر الجنة. ﴿مختوم﴾: المراد مغلقة أو انية بغطاء كما هو شأن الشىء النفيس. ﴿ختامه﴾: قال الراغب: أى خاتمة شربه تعطى رائحة المسك فى الطيب، والمراد: بيان كمال نفاسته. وإلا فما فى الجنة شىء لا يدرك أهل الدنيا حقيقته.

﴿وفى ذلك﴾: المشار إليه هو النعيم السابق؛ والمراد: فى طريق الوصول إليه يجب أن يتنافس ... إلخ. ﴿يتنافس﴾: أى يتسابق فى الوصول إليه، ونظير ذلك ما فى الآية (٦١) من سورة الصافات صفحة ٥٩٠ . ﴿مزاجه﴾: أى ما يمزج به، انظر الآية (٥) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١ . ﴿تسنيم﴾: أى ماء يأتى من مكان مرتفع. ﴿عينا﴾: تفسير للتسنيم. والأصل: أريد بالتسنيم عينًا ... إلخ. فكأن عينًا بيان للتسنيم. ﴿يشرب بها﴾: المراد: يرتوون بسببها، انظر الآية (٦) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١ . ﴿الذين أجرموا﴾: المراد بهم بعض صناديد الكفر كأبى جهل، والوليد بن المغيرة. ﴿الذين آمنوا﴾: المراد بهم فقراء المؤمنين كبلال، وعمار بن ياسر. ﴿يتغامزون﴾: أى يغمز بعضهم بعضًا، ويشيرون إليهم بالجفن والحاجب استهزاء. ﴿انقلبوا﴾: أى رجع هؤلاء المجرمون... إلخ. ﴿فكهين﴾: أى متلذذين باستهزائهم بالمؤمنين، انظر الآيات (١٠٨ : ١١١) من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٥ . ﴿هؤلاء﴾: أى المؤمنين مطلقًا.

---

(١) ختامه. (٢) المتنافسون. (٣) آمنوا
(٤) حافظين (٥) آمنوا. (٦) الأرائك.

﴿لضالون﴾: أي بعيدون عما كان عليه الآباء والأجداد. ﴿وما أرسلوا عليهم﴾: جملة حالية من ضمير. ﴿قالوا﴾. ﴿حافظين﴾: أي موكلين بهم. محكمين في تصرفاتهم.

﴿فاليوم﴾: أي يوم القيامة. وبعد دخول المؤمنين الجنة. ﴿على الأرائك ينظرون﴾: أي متكئون على السرر ينظرون إلى صنع الله بِمَنْ كان يستهزئ بهم.

﴿هل ثوب الكفار﴾: إلخ. التثويب المجازاة. يقال ثوبه بتشديد الواو، وأثابه أي جازاه. واشتهر في المجازاة بالخير. ويكون استعماله في مجازاة الكفار على سبيل التهكم كما في ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ الآية (٢١) من سورة آل عمران صفحة ٦٦. والجملة الاستفهامية مسبوقة بقول مقدر وقع حالا من ضمير ﴿ينظرون﴾ والأصل يجلسون على الآرائك في حال قوله تعالى لهم لزيادة سرورهم: هل جازينا أعداءكم بما كانوا يفعلون بكم؟

المعنى: إن الأبرار يجلسون على الأرائك إلى نعيم الجنة. تعرف في وجوههم بهجة النعيم يا مَنْ تراهم في ذلك اليوم. يسقيهم الخدم خمرًا مختومًا على آنيتها بالمسك. وفي طريق هذا النعيم العظيم ينبغي أن يتسابق المتسابقون وما يمزج به هذا الخمر هو ماء عين في مكان عال تشريفًا لها. يشرب منها المقربون من ربهم. وبعدما بيَّن سبحانه ما أعد للفجار في الآخرة. وما أعد للمتقين. أراد أن يبين ما حصل من الفجار في الدنيا بالنسبة للمتقين. وما سيجازون به على عملهم هذا.

فقال تعالى: إن الذين أجرموا. أي من صناديد كفار قريش وأغنيائهم كانوا يضحكون من حال الفقراء الذين آمنوا استهزاء بهم. وإذا مر هؤلاء المجرمون بالفقراء المؤمنين يغمز بعضهم بعضا ويشيرون بأعينهم إليهم احتقارا لهم. وإذا رجع هؤلاء المجرمون إلى بيوتهم تفكهوا بحكاية ما يعيبون به المؤمنين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء الذين تبعوا محمداً لأنهم تركوا دين آبائهم. يقولون ذلك والحال أن الله تعالى لم يرسلهم مراقبين لحال المؤمنين ويحكمون بصحة أعمالهم أو عدمها: لأن هذا من وظائف الرسل. هذا ما كان منهم في الدنيا فإذا جاء يوم القيامة صار الذين آمنوا يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلولين في السلاسل يسحبون إلى جهنم. يضحك الذين آمنوا وهم جالسون على الأرائك كالملوك ينظرون إلى صنع الله بمن كان يستهزئ بهم. في حال قوله تعالى لهم لزيادة سرورهم هل جازينا هؤلاء الكفار بما كانوا يفعلونه معكم؟ الجواب: نعم يا ربنا. صدق وعدك. فلك الحمد والشكر الجزيل.

(٨٤) سورة الانشقاق مكية
وآياتها خمس وعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا السماء انشقت ﴿١﴾ وأذنت لربها وحقت ﴿٢﴾
وإذا الأرض مدت ﴿٣﴾ وألقت ما فيها وتخلت ﴿٤﴾
وأذنت لربها وحقت ﴿٥﴾ يا أيها الإنسان[١] إنك كادح
إلى ربك كدحا فملاقيه[٢] ﴿٦﴾ فأما من أوتي كتابه[٣]
بيمينه ﴿٧﴾ فسوف يحاسب حسابا يسيرا ﴿٨﴾
وينقلب إلى أهله مسرورا ﴿٩﴾ وأما من أوتي كتابه[٣]
وراء ظهره ﴿١٠﴾ فسوف يدعو[٤] ثبورا ﴿١١﴾ ويصلى
سعيرا ﴿١٢﴾ إنه كان في أهله مسرورا ﴿١٣﴾ إنه ظن أن

سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿انشقت﴾: انظر الآية (٢٥) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣ والآية (١) من سورة الانفطار صفحة ٧٩٥.

﴿أذنت لربها﴾: تقول العرب: أذن فلان لفلان، بوزن علم إذا سمع كلامه وانقاد له، والمراد: حصل ما أراده سبحانه منها من الانشقاق، نظير ما فى الآية (١١) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٠، ٦٣١.

﴿وحقت﴾: أى حق لها أن تمتثل لأنها فى قبضة قدرته سبحانه وتعالى.

﴿مدت﴾: المراد أنها بعد دكها كما فى الآية (١٤) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢ وذهاب جبالها، تمتد كما يمد الجلد، فيقل سمكها، فتقذف جميع ما فى جوفها إلى الخارج ولهذا قال سبحانه بعده ﴿وألقت ما فيها﴾.. إلخ. ﴿وتخلت﴾: أى خلت خلوًا تامًا مما كان فى جوفها.

﴿كادح إلى ربك﴾: يقول العرب: كدح فلان بوزن قطع، إذا سعى بجد واجتهاد، والمراد: إنك ساع بجد فى أعمالك سائر إلى لقاء ربك بالموت.

﴿فملاقيه﴾: الهاء ضمير يعود على الكدح المفهوم من (كادح)، والمراد: فملاق جزاء كدحك. أى عملك من خير، أو شر. ﴿ينقلب﴾: أى يرجع. ﴿إلى أهله﴾: المراد: من يسره وجودهم معه فى الجنة. انظر ما قيل فى الآية (١٩) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢.

﴿وراء ظهره﴾: المراد: يأخذه بشماله من وراء ظهره، انظر الآية (٢٥) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣، والكلام يشعر بكراهته لتناوله لأنه حجة عليه.

---

(١) الإنسان. (٢) فملاقيه. (٣، ٤) كتابه. (٤) يدعو.

﴿يدعو﴾: أى يطلب. ﴿ثبورا﴾: أى هلاكًا ليستريح، انظر الآية (١٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧١، والآية (٤٠) من سورة النبأ صفحة ٧٨٨.

﴿يصلى سعيرا﴾: أى يدخل نارا مستعرة. ﴿مسرورًا﴾: أى غارقًا فى سروره بالشهوات، حتى نسى ما أعد للغافلين.

﴿ظن أن﴾: (أن) هذه كالتى تقدمت فى الآية (٢٠) من سورة المزمل صفحتى ٧٧٤.

المعنى: أراد سبحانه أن يصور للمشركين هول يوم القيامة وما سيلاقيه الكافر والمؤمن لعلهم يتعظون فقال: (إذا السماء).. إلخ. أى إذا السماء تصدعت واختل نظامها وانقادت لتأثير قدرة ربها، وهى حقيقة أى جديرة بالانقياد؛ لأن قدرة الرب لا يتعاصى عليها شىء.

وإذا الأرض مدت وقل ثخنها وطرحت ما فى جوفها وتخلت عنه فأصبح على ظهرها وانقادت لتنفيذ قدرة ربها وحق لها ذلك. إذا حصل كل هذا تعلم كل نفس ما قدمت وأخرت، كما تقدم فى الآية (٥) من سورة الإنفطار صفحة ٧٩٥. ثم أراد سبحانه أن يوقظ الإنسان من غفلته عما سيلاقيه فقال: (يا أيها الإنسان).. إلخ. أى يا أيها الإنسان الذى من شأنه كثرة الغفلة عن نهايته تنبه إلى أنك لست بخالد فيما أنت فيه. بل أنت مسرع إلى الموت. فكل خطوة تخطوها فى عملك هى خطوة إلى نهاية أجلك. ثم تلاقى بعد ذلك جزاء عملك خيرًا أو شرًا. وأول علامات ذلك أخذك كتاب أعمالك. فمن أخذه وهو مقبل عليه بيمينه فسوف يحاسبه ربه حسابا سهلا، ويرجع إلى من يسره رؤيتهم فرحًا بالنجاة من العذاب والفوز بالسعادة، والذى يأخذ كتابه بشماله كارهًا له مدبرًا عنه فإنه يتمنى الهلاك ليستريح، وسيقاسى حر نار شديدة؛ لأنه كان فى الدنيا بين أهله مسرورا بما هو فيه غارقًا فى الشهوات لا يراقب ربا ولا يخاف حسابا. وظاهر الكلام يفيد أن المذكور فى القسم الأول إنما هم المؤمنون الكاملون الذين غلبت حسناتهم سيئاتهم كما فى الآية (٦) من سورة القارعة صفحة ٨١٩. والقسم الثانى هم الكافرون. وأنه لم يتعرض للعصاة الذين غلبت سيئاتهم على حسناتهم فى هذا المقام؛ لأن لهم أحوالاً خاصة فإنهم بعد الحساب يعذبون على قدر ذنوبهم، ثم يخرجون من النار إلى الجنة، انظر الآية (١٠٥) وما بعدها من سورة هود صفحتى ٢٩٩، ٣٠٠. والله سبحانه وتعالى أعلم.

لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ
بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾
لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾
وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾

(٨٥) سُورَةُ البُرُوجِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا اثْنَتَانِ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾

المفردات: ﴿لن يحور﴾: أى لن يرجع إلى الله للحساب يوم القيامة.

﴿بلى﴾: حرف يفيد إبطال المظنون قبله. وإثبات نقيضه. أى لابد أن يرجع. انظر تفصيل ذلك فى شرح الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة ٢٢١.

﴿فلا أقسم﴾: انظر شرح الآية (٧٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧.

﴿بالشفق﴾: هو الحمرة التى ترى فى الأفق بعد غروب الشمس.

﴿وما وسق﴾: (ما) اسم بمعنى الذى. و(وسق) أى جمع. والمعنى: وكل الذى جمعه الليل وستره فى ظلامه.

﴿اتسق﴾: أى تم نوره. ويكون ذلك فى ثلاث ليال. تبتدئ من ليلة ١٣ من كل شهر قمرى.

﴿لتركبن﴾: المراد بالركوب هنا: الملاقاة. أى لتلاقن.

﴿طبقًا عن طبق﴾: الطبق فى الأصل ما يطابق غيره مطلقًا. والمراد هنا الحالة التى تطابق غيرها فى الشدة من موت بعد حياة. ثم حياة فى الآخرة. ثم سوق إلى المحشر. ثم وقوف للحساب إلى آخر ما سيكون مما لا يعلمه غيره سبحانه. و(عن) بمعنى (بعد) أى حالة بعد حالة. تقول العرب: فلان عظيم أبا عن جد. أى بعد جد.

﴿يوعون﴾: المراد: يحفظون ويضمرون فى صدورهم ضد الإسلام ورسوله ﷺ.

﴿فبشرهم بعذاب﴾: المراد: أخبرهم محذرًا لهم. وعبر بالبشارة تهكمًا بهم. انظر الآية (٢١) من سورة آل عمران صفحة ٦٦ والآية (١٣٨) من سورة النساء صفحة ١٢٦.

﴿غير ممنون﴾: تقدم شرحه فى الآية (٨) من سورة فصلت صفحة ٦٣٠.

---

(١) الليل. (٢) القرآن. (٣) آمنوا. (٤) الصالحات.

المعنى: إن من أسباب استحقاق العبد العذاب إنكاره العرض على ربه للحساب يوم القيامة. والحق أنه لابد من عرضه عليه سبحانه ليحاسبه على ما فعل فى الدنيا: لأنه سبحانه هو ربه الذى خلقه وهو العليم بأحواله دائمًا. وأنه لم يميزه عن سائر الحيوانات بالعقل والفكر إلا ليمتحنه. فإذا أصلح جازاه خيرا. وإذا أفسد عاقبه. ولو لم يحاسبه لكان تميزه بهذه الصفات عبثا. والله سبحانه منزه عن العبث. انظر ما قيل فى شرح الآية (٣٦) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠. وأقسم لكم بالشفق الذى لا يدرى الإنسان ما سيكون وراءه. وبالليل وكل شيء شمله ظلامه. وبالقمر إذا تكامل نوره أنكم ستلاقون حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا. تطابقها فى الشعور والإدراك واللذة والألم على وجه العموم وتنتقلون فيها من بعث من القبور إلى حشر فى الموقف إلى حساب إلى ما لا يعلمه غيره سبحانه وكلها مواقف يشابه بعضها بعضا فى الهول. أى أنها حياة حقيقية. وإن خالفت فى بعض أحوالها الحياة الأولى. وإذا كان الواقع أن للإنسان حياتين. وأنه سبحانه أقام الأدلة على ذلك وأقسم عليه فأى شيء حصل لكفار مكة جعلهم لا يؤمنون بذلك. وإذا قرئ عليهم القرآن وهو منبه لهذا لا يذعنون (وبعد قراءة - لا يسجدون - يسجد السامع والقارئ المتطهران). ثم انتقل سبحانه من بيان عدم خضوعهم للقرآن إلى بيان أنهم يكذبونه صراحة فقال: بل الذين كفروا يكذبون. ثم هددهم فقال: والله أعلم بما يوعون. أى يضمرون فى صدورهم من الكفر والعناد للحق. وإذا كان ربك أيها النبى يعلم ما يخفون من الكيد لك وللإسلام، فبشرهم من الآن بعذاب أليم. لكن من آمن بالله ورسوله وعمل صالحًا فله أجر دائم من نعيم الجنة.

سورة البروج

المفردات: ﴿البروج﴾: هى البروج الاثنا عشر التى تنتقل فيها الشمس فى مرأى العين، ولها صور وأشكال سماها بها علماء الهيئة وهى: (١) الحمل بفتحتين. (٢) الثور. (٣) الجوزاء. (٤) السرطان. (٥) الأسد. (٦) السنبلة. (٧) الميزان. (٨) العقرب. (٩) القوس. (١٠) الجدى. (١١) الدلو. (١٢) الحوت، وهى مقسمة على فصول السنة الأربعة الربيع - الصيف - الخريف - الشتاء. فالشمس تمر على الثلاثة الأولى فى فصل الربيع، والثلاثة الثانية، فى فصل الصيف وهكذا. (اليوم الموعود): هو يوم القيامة.

المعنى: أقسم سبحانه بالسماء صاحبة البروج البديعة الصنع. وباليوم الموعود به وهو يوم القيامة.. إلخ.

وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾
النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ
عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ
إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا
فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن
تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ
لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ
الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا
يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ

المفردات: ﴿شاهد ومشهود﴾: المراد: كل شاهد، فيشمل كل الرسل. وكل مشهود، فيشمل كل الأمم التى يشهد عليها رسلها يوم القيامة، انظر الآية (٤١) من سورة النساء صفحة ١٠٧، والآية (٨٩) من سورة النحل صفحتى ٣٥٧، ٣٥٨.

﴿قتل﴾: هذا هو جواب القسم، والأصل لقد لعن الله أصحاب الأخدود، وأذاقهم بجرمهم أشد الأنواع، والمراد: فاحترسوا يا كفار قريش أن يصيبكم ما أصابهم.

﴿أصحاب الأخدود﴾: الأخدود لفظ مفرد جمعه أخاديد، وهو الشق المستطيل فى الأرض، وأصحاب الأخدود هم قوم كفار كانوا باليمن.

﴿النار﴾: بدل من الأخدود، أى أصحاب النار التى فى الأخدود. ﴿ذات الوقود﴾: المراد من هذه الصفة بيان شدة النار وطول مكثها. ﴿إذ هم﴾: (إذ) ظرف بمعنى (حين). والمراد الزمن الذى بدأ فيه استحقاقهم العذاب، فهو منصوب بـ (قتل) و(هم) ضمير المراد به رؤساؤهم المشرفون على تعذيب المؤمنين. ﴿عليها قعود﴾: جمع قاعد. والمراد جلوس على حافة الأخدود. ﴿هم على ما يفعلون﴾: (على) بمعنى مع. ﴿شهود﴾: جمع شاهد بمعنى حاضر، والمعنى: وهم مع ما يفعله أتباعهم بالمؤمنين حاضرون يشاهدون ولا يرق لهم قلب.

﴿وما نقموا منهم﴾: أى وما كرهوا منهم، انظر الآية (١٢٦) من سورة الأعراف صفحة ٢١١.

﴿فتنوا المؤمنين﴾: أى عذبوهم ليرجعوا عن دينهم. ﴿عذاب الحريق﴾: المراد: العذاب شديد الإحراق، انظر الآية (٩) من سورة الحج صفحة ٤٣٤. ﴿بطش ربك﴾: هو الأخذ بشدة كما تقدم فى شرح الآية (١٦) من سورة الدخان صفحة ٦٥٧. ﴿يبدئ ويعيد﴾: أى ينشئ الخلق أولا، ثم يعيده يوم القيامة بعد فنائه، انظر الآية (٢٧) من سورة الروم صفحة ٥٣٤.

---

(١) أصحاب. (٢) السموات. (٣) المؤمنات. (٤) آمنوا.
(٥) الصالحات (٦) جنات. (٧) الأنهار. (٨) أتاك.

﴿الودود﴾: شديد المحبة لمن أطاعه. ﴿هل أتاك﴾: انظر شرح الآية (٩) من سورة طه صفحة ٤٠٦. ﴿الجنود﴾: المراد: الجماعات التى جندت أنفسها لمحاربة رسل الله. ﴿فرعون﴾: بدل من الجنود على حذف المضاف، والأصل جنود فرعون وثمود.

المعنى: يقول سبحانه: أقسم بما تقدم وبكل رسول يشهد على أمته يوم القيامة وبالأمم المشهود عليها. وفى هذا تحذير لكفار قريش من هذا اليوم. أقسم بكل ما ذكر أنه سجل اللعنة على أصحاب الأخدود. وهم قوم كفار كانوا ببعض بلاد اليمن. وكان بجوارهم نصارى نجران عندما كان دينهم على التوحيد الخالى مما حدث فى النصرانية بعد البعثة المحمدية. فأراد الكفار إرغام نصارى نجران على ترك دينهم الحق. فلم يقبلوا. فحفروا لهم خنادق فى الأرض. وملئوها بالوقود وأضرموا فيها النار. وصاروا يأتون بالمؤمن أو المؤمنة ويقولون إما أن ترجع أى إلى الوثنية وإما أن نطرحك فى النار. فكان المؤمنون يفضلون النار على الكفر. فكانوا يرمونهم فيها. وهم جلوس حولها. وهم مع ما يفعله أتباعهم بالمؤمنين من التعذيب الشنيع حاضرون يشاهدون. ولا تتحرك قلوبهم شفقة على المساكين المعذبين لتمكن القسوة منها. وليس للمؤمنين عيب عندهم يقتضى هذا التعذيب إلا أنهم آمنوا بالله الغالب الذى لا يفلتون من عقابه. المحمود على كل حال. ثم بيَّن سبحانه أنهم لن يفلتوا من عقابه بقوله: الذى له ملك السموات والأرض. أى فلن يخرج شىء من سطوته. وهو شاهد على كل شئ. فلا يخفى عليه شىء من أعمالهم. ثم بيَّن سبحانه حكمه العام فى كل من يفعل مثل ما ذكر فقال تعالى: إن الذين.. إلخ. أى إن كل ما يعذب مؤمنا أو مؤمنة ليرده عن دينه وفيهم كفار مكة الذين عذبوا آل ياسر وصهيب وبلال وغيرهم. ثم لم يتوبوا من جرمهم هذا فلهم عذاب جهنم بكل أنواعه. ولهم على الخصوص عذاب اللهب المحرق. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات تجرى من تحت قصورها الأنهار. ذلك النعيم هو الفوز الكبير. ثم هدد سبحانه كفار مكة مخاطبًا رسوله ﷺ فقال: (إن بطش ربك لشديد) شدة فى منتهى الخطورة. ثم برهن سبحانه على سعة قدرته فقال: (إنه هو يبدئ).. إلخ. أى إنه هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده يوم القيامة للحساب والجزاء. وهو واسع المغفرة لمن رجع إليه بالتوبة كما فى الآية (٨٢) من سورة طه صفحة ٤١٣. وهو سبحانه قوى المحبة لمن أخلص له العمل. ومن آثار محبته كثرة إحسانه. وهو سبحانه صاحب العرش العظيم. وهو فعال لكل ما يريده. لا يعجزه شىء. ثم بيَّن بعض ما يدل على شدة بطشه وأنه فعال لما يريد فقال: (هل أتاك).. إلخ. أى هل بلغك أيها النبى قصص أولئك الجنود الأشداء الأقوياء من جنود فرعون.. إلخ.

وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

(٨٦) سورة الطارق مكية وآياتها سبع عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا

المفردات: ﴿ثمود﴾ هم قوم نبى الله صالح عليه السلام. انظر الآية (٦١) وما بعدها من سورة هود صفحتى ٢٩٣، ٢٩٤.

﴿بل﴾: حرف يدل على إبطال أسباب تكذيبهم، وإثبات ما هو حق.

﴿مجيد﴾: أى شريف رفيع المنزلة.

﴿فى لوح محفوظ﴾: أى محفوظ من كل ما يمس قدسيته، وهو المشار إليه فى الآيات (٣٩) من سورة الرعد صفحة ٣٢٨ و(٧٨) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧ و(١٣، ١٤) من سورة عبس صفحة ٧٩٢.

المعنى هل أتاك أيها النبى خبر ما حصل لمن جندوا أنفسهم لمحاربة رسلنا وهم جنود فرعون وثمود. وكلهم أشد قوة من كفار قومك، ومع ذلك أهلكهم الله ونصر رسله. فهل اعتبر بذلك كفار مكة؟ كلا بل لجوا فى العناد حتى غرقوا فى لجة تكذيب كل ما جاء به رسولنا. وبذلك لن يفلتوا من العقاب؛ لأن الله تعالى محيط بهم بعلمه وقدرته. وتكذيبهم القرآن بقولهم عنه أنه أساطير الأولين سفه وحماقة منهم، بل هو قرآن شريف كريم فى لوح محفوظ من كل ما يمس صدقه وشرفه.

﴿سورة الطارق﴾

المفردات: ﴿الطارق﴾: هو اسم لكل ما يطرق أى يأتى ليلا. ﴿وما أدراك ما الطارق﴾: أنظر معنى هذا التركيب والمراد منه فى الآية (٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١. ﴿النجم الثاقب﴾: الذى يثقب بضوئه ظلمة الليل. ﴿إن كل نفس﴾: (إن) حرف نفى بمعنى (ما). وهذا أول جواب القسم.﴿لما عليها﴾: (لما) حرف بمعنى (إلا) الاستثنائية كما تقدم فى الآية (١١١) من سورة هود صفحة ٣٠٠. ﴿حافظ﴾: المراد به هنا جند من جنود الله، كالملائكة تحفظ

(١) ورائهم. (٢) قرآن. (٣) أدراك. (٤) الإنسان. (٥) الترائب. (٦) السرائر.

الإنسان من كل ما يريد الله أن يحفظه منه. كما يحصى عليه أعماله. انظر الآية (٨٠) من سورة الزخرف صفحة ٦٥٥. ﴿مم خلق﴾: أصلها (من، ما) أى من أى شىء خلق؟ انظر الآية (١٧) وما بعدها من سورة عبس صفحة ٧٩٢. ﴿ماء﴾: هو المنى الذى توجد فيه النطفة. انظر الآية (١٣) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦. فخلقه من هذا الماء مراد به خلقه مما يحمله بداخله من النطفة. ﴿دافق﴾: بمعنى مدفوق. انظر الآية (٥٨) من سورة الواقعة صفحة ٧١٦ ونظير ذلك (الحافرة) فى الآية (١٠) من سورة النازعات صفحة ٧٨٩. ﴿الترائب﴾: جمع تريبة وهى الواحدة من عظام الصدر بوزن صحيفة وصحائف. ﴿رجعه﴾: أى إرجاعه. انظر الآية (٨٣) من سورة التوبة صفحة ٢٥٥. والمراد: إرجاعه حيا. ﴿تبلى السرائر﴾: أصل البلاء الاختبار. وأريد به هنا كشف ما كان مستترا. والسرائر جمع سريرة. والمراد بها ما خفى من العقائد والنيات والأعمال. وكل ما استتر على وجه العموم. فيظهر طيبها من خبيثها.

﴿من قوة﴾: (من) للنص على عموم نفى ما بعدها.

المعنى: أقسم سبحانه بالعالم العلوى وما فيه خصوصًا النجم الذى يخترق ضوؤه ظلمة الليل فيهتدى به السائر فى ظلمات البر والبحر كما فى الآية (٩٧) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨. أقسم سبحانه بذلك على أن كل نفس عليها رب رقيب على جميع أحوالها حتى ينتهى أجلها. ثم ذكر الدليل على ذلك فقال تعالى: (فلينظر الإنسان).. إلخ. أى إذا أراد الإنسان أن يعلم أنه تحت حفظ الله ومراقبته فلينظر إلى نفسه من أى شىء خلق؟ وسيعلم أنه خلق من ماء يصبه الرجل فى رحم المرأة بعد خروجه من أصوله الموجودة بين صلب الرجل وعظام صدره: وهى الشرايين التى تغذى الأجزاء المعدة لإفراز منى الرجل. وبصبه فى الرحم واختلاطه ببويضة المرأة يتكون الجنين. وإنما قلنا ذلك لأن العلماء المختصين اتفقوا على أن الماء الذى يوصف بأنه دافق إنما هو ماء الرجل. أما ماء المرأة الذى يحمل بويضاتها فإنه مجرد إفراز ورشح يسيل كما يسيل اللعاب من الفم. وليس له تدفق أبدا. وإذا علم الإنسان ذلك يعلم أن الذى أنشأه من ماء لاصورة فيه ولا تنظيم ثم جعله إنسانا سويا سميعا بصيرا كما فى الآية (٢) من سورة الإنسان صفحة ٧٨١ قادر على أن يرجعه حيا بعد الموت فى اليوم الذى يظهر الله فيه كل ما خفى من العقائد والنيات والأعمال. ويحاسب ويجازى على حسبها. وفى هذا اليوم لا يكون لأحد قوة على الخلاص من العقاب إن كان مسيئا ولا يجد من ينصره فيحميه من العذاب.

نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ
الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾
إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ
الْكَافِرِينَ[1] أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

(٨٧) سُورَةُ الأَعْلَى مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا تِسْعَ عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾
وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾
فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ

المفردات: ﴿الرجع﴾: هو المطر. سمى بذلك لأنه يرجع المرة بعد المرة.

﴿الصدع﴾: أصلة الشق فى الشىء الجامد. والمراد به هنا: تشقق الأرض عند خروج النبات منها بعد نزول المطر عليها.

﴿إنه﴾: أى القرآن.

﴿فصل﴾: أى بالغ الغاية فى الفصل بين الحق والباطل حتى كأنه هو الفصل نفسه.

﴿بالهزل﴾: الباء لتأكيد نفى ما بعدها.

﴿إنهم﴾: أى كفار مكة.

﴿يكيدون﴾: أى يعملون تدابير خفية لمحاربة الإسلام وإخفاء نوره.

﴿وأكيد كيدا﴾: المراد: أقابل تدبيرهم بتدبير أقوى منه يبطله. انظر الآية (١٨٣) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢.

﴿فمهل الكافرين﴾: المراد: لا تستعجل هلاكهم فكل لحظة يزداد فيها جرمهم يزداد عذابهم.

﴿أمهلهم﴾: أمهل هنا مثل (مهل) السابقة بتشديد الهاء معناهما واحد. فهو تأكيد لزيادة تصبيره ﷺ على إيذائهم.

﴿رويدا﴾: مصغر (رُود) بضم فسكون. بوزن عود. وهو التمهل وتقول العرب: فلان يمشى على رود. أى على مهل. ويصغرونه على رويد. فهو اسم مصدر لأمهل من معناه كما تقول: (تجلس قعودا). فالمعنى هنا: أمهلهم إمهالاً خاصا وهو القليل.

المعنى: بعد ما بيَّن سبحانه فيما سبق أصلين من أصول عقائد الإسلام: الأول: وجود إله يراقب كل نفس. والثانى: أن هناك يوما آخر يحاسب فيه الناس. شرع فى إثبات الركن الثالث

(١) الكافرين.

وهو الرسالة مؤكدًا له بالقسم على صدق القرآن الذى جاء به خاتم الرسل، فقال تعالى: (والسماء ذات).. إلخ. فأقسم سبحانه بالسماء التى تفيض عليهم بمائها والأرض التى تخرج لهم معاشهم. وأيضًا فى الماء الذى منه كل شئ حى إشارة إلى حياة الإنسان الأولى. انظر الآية (٣٠) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٣، وفى خروج النبات من الأرض إشارة إلى خروج الموتى من القبور يوم القيامة. فيكون القسم على صحة الرسالة متضمنًا تنبيه الأذهان إلى دليل من أدلة البعث جاء التصريح به فى مواضع أخرى منها ما فى الآية (٣٩) من سورة فصلت صفحة ٦٢٥ والآية (٩) وما بعدها من سورة ق صفحة ٦٨٩، أقسم سبحانه بما تقدم على أن القرآن قول فاصل بين الحق والباطل. وليس فيه شيء من رائحة الهزل واللعب. بل كله جد، فمن حقه قطعًا أن تخضع له الجباه، ويهتدى به الطغاة. وبعد ما بيّن سبحانه أركان عقائد الإسلام الثلاثة. وهى الألوهية والبعث والرسالة، شرع فى بيان حال الكفار فقال تعالى: إنهم.. إلخ. أى أن كفار قومك أيها النبى يكيدون لك وللإسلام كيدًا عظيمًا وأنا أمكر بهم مكرًا لا يشعرون به وإذا كان كيدى أقوى فلا تشغل نفسك بهم. وانتظر قليلا حتى آمرك بقتالهم. وهناك ستكون الخسارة عليهم والنصر لك. والله تعالى أعلم.

﴿سورة الأعلى﴾

المفردات: ﴿الأعلى﴾: أى البالغ النهاية فى العلو والرفعة.

﴿فسوى﴾: أى جعل المخلوق مهيأ لما أعده له.

﴿قدر﴾: أى كل شيء بقدر معين يصلح به حاله، انظر الآية (٤٩) من سورة القمر صفحة ٧٠٨.

﴿فهدى﴾: أى وجه سبحانه كل مخلوق إلى ما ينبغى له، انظر الآية (٥٠) من سورة طه صفحتى ٤٠٩، ٤١٠.

﴿المرعى﴾: هو ما يرعاه الدواب. ﴿غثاء﴾: أى يابسًا. ﴿أحوى﴾: أى مائلا للسواد.

﴿سنقرئك﴾: قال الزمخشرى: إن السين إذا دخلت على فعل محبوب أفادت أنه واقع لا محالة، وبيان ذلك أن من معانيها إفادة الوعد بحصول الفعل المذكور بعدها، ودخولها على ما

يفيد الوعد يقتضى تأكيده، وتثبيت معناه خصوصًا إذا كان الوعد صادرًا عن القادر الذى لا يخلف الميعاد، ومن ذلك قوله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ فى الآية (١٣٧) من سورة البقرة صفحة ٢٦.

﴿فسيكفيكهم الله﴾: وفى الآية (٧١) من سورة التوبة صفحة ٢٥٣.

﴿أولئك سيرحمهم الله﴾: فهذا يدل على أن كفاية الله ورحمته حاصلان بلاشك.

المعنى: نزه أيها النبى كل ما يدل على ذات ربك البالغ النهاية فى العلو والترفع عن كل ما يليق بجلاله من الشبه بالمخلوقات فى ذاته أو صفاته. ربك الذى خلق كل شىء فجعله مهيأً لما خلق لأجله والذى قدر الأشياء بتقدير محكم فسخر كلا منها لما أعد له. وهو الذى أخرج المرعى لأنعامكم، فجعله بعد خضرته يابسًا أغبر يتكسر فيكون هشيمًا فترابًا كما كان. وفى ذلك إشارة إلى أن زخرف الدنيا سريع الزوال، انظر الآية (٢٤) من سورة يونس صفحتى ٢٦٩، ٢٧٠، والآية (٤٥) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧. وبعد ما أمر سبحانه نبيه بأن ينزه كل ما يتصل به سبحانه عن مشابهة الحوادث، لتتعلم منه أمته. شرع فى وعده بأنه سيقرئه القرآن الذى فيه كمال تنزيهه تعالى وما يجب أن يعرف من صفاته. كما وعده بأنه لن ينسى منه شيئًا أبدًا. فقال تعالى: (سنقرئك).. إلخ، أى سنقرئك ما نوحى به إليك على لسان جبريل ونعدك بأن نحفظه لك فى قلبك فلا تنسى منه شيئاً أبدًا. ولما كان الوعد السابق بعدم النسيان جاء بأسلوب التأييد القاطع، وذلك ربما يوهم أنه سبحانه لا يقدر على غيره، أراد سبحانه أن قدرته لا يقف فى طريقها شىء من الممكنات. وأن ما وعد به نبيه ﷺ إنما هو فضل صدر منه سبحانه بمحض اختياره، لكل هذا قال إلا ما شاء الله. والمراد أنه إذا أراد أن ينعيك أيها النبى ما وهبه لك فإنه لا يمنعه من ذلك مانع. أى فكن دائم المراقبة لربك قائمًا بواجب شكره، انظر نظير ذلك فى آيتى (٨٦، ٨٧) من سورة الإسراء صفحة ٣٧٦. ثم تمم ما سبق بقوله تعالى: (إنه يعلم الجهر).. إلخ. أى أن الذى وعدك بما تقدم وفى قدرته أن يفعل ما يشاء عالم بجهرك وسرك. فلا يخفى عليه شىء من أحوالك وخطرات قلبك. وبفعل بك ما يناسب ما عندك. فاحرص على رضى الله تعالى يوف لك ما وعد. ثم طمأنه ﷺ بأنه سيوفقه للشريعة السمحة فقال تعالى: (ونيسرك).. إلخ.

لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ
مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى
النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾
قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾
بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ[1] الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ[2] خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾
إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ[3]
وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

(٨٨) سُورَةُ الْغَاشِيَةِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا سِتٌّ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ[4] حَدِيثُ الْغَٰشِيَةِ[5] ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ[6] ﴿٢﴾

المفردات: ﴿لليسرى﴾: مؤنث اليسر، وهو السهولة يقال أخذ الأمر فى يسر أى فى سهولة، وقد يراد به الأمر السهل كما هنا، ومنه الدين يُسر أى سهل، فالمراد باليسرى الشريعة السمحة التى لا عسر فيها، انظر الآية ٧٨ من سورة الحج صفحتى ٤٤٤، ٤٤٥.

﴿الذكرى﴾: أى التذكير: انظر الآية (٤٥) من سورة ق صفحة ٦٩٢، والآية (٤٥) من سورة النازعات صفحة ٧٩١.

﴿يتجنبها﴾: أى يهمل الذكرى ويتركها جانبًا.

﴿الأشقى﴾: أى أشد الناس شقاء وهو الكافر، ومن سار على طريقه. ﴿يصلى النار﴾: أى يدخلها ليحترق بها.

﴿الكبرى﴾: أى العظمى. وهى نار جهنم قال ﷺ: (ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم)، ومراده ﷺ تهويل أمر نار الآخرة.

﴿لا يموت فيها ولا يحيى﴾: أى لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة طيبة.

﴿أفلح﴾: الفلاح الفوز بالسعادة فى الدارين.

﴿تزكى﴾: المراد: تطهر من دنس الكفر والمعاصى.

---

(١) الحياة.
(٢) الآخرة.
(٣) إبراهيم.
(٤) أتاك.
(٥) الغاشية.
(٦) خاشعة.

﴿وذكر اسم ربه﴾: المراد تذكر ولاحظ بقلبه صفات ربه العلية فاطمأن قلبه، انظر الآية (٢٨) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٥، ٣٢٦. ﴿فصلى﴾: المراد فخشع كما فى الآية (٢) من سورة الأنفال صفحة ٢٢٧. وإنما عبر عن الخشوع بالصلاة لأنه خلاصتها والمقصود منها. وهى بدونه شبح لا روح فيه، انظر الآية (٢) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٥.

﴿تؤثرون﴾: أى تفضلون. ﴿إن هذا﴾: أى ما ذكر من قوله: ﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى﴾.

المعنى: نوفقك أيها النبى للشريعة السمحة التى يسهل على النفوس قبولها. ولا يصعب على العقول فهمها. ونظير هذا قوله ﷺ:(اعملوا فكل ميسر لما خلق له). وإذا كان الأمر كذلك فذكر إن نفعت الذكرى، وإنما قال (إن نفعت) مع أنه ﷺ مأمور بتذكير الناس كافة لتقوم الحجة على من لم يؤمن، الآية (١) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٠ والآية (٢١) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥. إنما قال ذلك لأنه ﷺ عند نزول هذه الآية كان قد أفرغ جهده فى تذكير الجميع. ولم يترك حيلة فى هداية قومه إلا فعلها. ولا طريقة إلا سلكها. حرصا منه على إيمانهم. ومع ذلك فما كان يزيد بعضهم إلا عتوا واستكبارا، وتمردا وفسادا، انظر الآيات (١، ٢، ٣) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٠. بعد ذلك خفف سبحانه عن نبيه ما يلاقيه من عناء تعنتهم حتى كاد من شدة حزنه أن يتلف نفسه، انظر الآية (٦) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠ والآية (٢) من سورة طه صفحة ٤٠٦ والآية (٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٧٩.

فأمره أن يوجه عنايته إلى تذكير من يظن أنه ينتفع بالتذكير، انظر الآية (٥١) من سورة الأنعام صفحة ١٧٠ والآية (١١) من سورة يس صفحة ٥٨٠ والآية (٤٥) من سورة ق صفحة ٥٩٢ والآية (٥٥) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ والآية (٤٥) من سورة النازعات صفحة ٧٩١. أما من قطع بأن التذكير لا يزيده إلا كفرا وعنادا أو أخبره سبحانه أنه من أصحاب النار كأبى لهب فى سورة المسد صفحتى ٨٢٦، ٨٢٧، والوليد بن المغيرة المشار إليه فى الآية (١٠) وما بعدها من سورة القلم صفحة ٧٥٨ والآية (١١) وما بعدها من سورة المدثر صفحة ٧٧٦ فقد أمر ﷺ بالإعراض عنهم حتى لا يضيع وقته الثمين عبثا. انظر الآية (٥٤) من سورة الذاريات صفحة ٦٩٦ والآية (٢٩) من سورة النجم صفحة ٧٠٢.

فالمعنى هنا فذكر فى المجال الذى تنفع فيه الذكرى، فسيتعظ من فيه استعدادًا للخوف من الله تعالى. ويهمل الذكرى أشد الناس شقاءً وهو الكافر بربه، وسيدخل نار جهنم التى لا تعد نار الدنيا بجانبها شيئًا. ثم يبقى فى عذابها لاميتا فيستريح ولا حيًا حياة طيبة، انظر الآية (٣٦) من سورة فاطر صفحة ٥٧٦، وبعدما توعد سبحانه الأشقياء أراد تعالى أن يبين مآل أهل الخشية فقال: قد أفلح.. إلخ. أى قد فاز بالسعادتين من طهر نفسه من خبائث الكفر والمعاصى، وتذكر ربه دائمًا فى كل أعماله وانقاد لأوامره وخشع لهيبته، ومن مظاهر ذلك الصلاة وما فيها. وبعد كل هذا فهل أنتم أيها السامعون لهذا الإرشاد عاملون به؟ كلا بل أنتم فى غالبكم تفضلون زخارف الحياة الدنيا والحال أن نعيم الآخرة أفضل وأدوم. ثم أراد سبحانه أن يؤيد الحق الذى جاء به ﷺ بأنه هو بعينه الذى جاء به إبراهيم وموسى، وإنما خصهما عليهما السلام بالذكر دون باقى الرسل لأن إبراهيم عليه السلام صاحب ملة خالدة وإمام للناس، انظر الآية (١٢٤) من سورة البقرة صفحة ٢٤ والآية (١٣٠) من نفس السورة صفحة ٢٥ والآية (١٢٥) من سورة النساء صفحتى ١٢٣، ١٢٤ والآية (١٢٣) من سورة النحل صفحة ٣٦٣، وموسى صاحب شريعة كما أن خاتم الرسل ﷺ صاحب شريعة وموسى أيضًا صاحب كتاب جاء مقترناً بالقرآن فى مواضع عدة، انظر آيتى (٩١، ٩٢) من سورة الأنعام صفحة ١٧٧ وآيتى (٤٨، ٤٩) من سورة القصص صفحتى ٥١٣، ٥١٤ والآية (٣٠) من سورة الأحقاف صفحة ٦٧١.

﴿سورة الغاشية﴾

المفردات: ﴿هل أتاك﴾: انظر شرح الآية (٩) من سورة طه صفحة ٤٠٦.

﴿الغاشية﴾: هى الداهية التى تغشى الناس، أى تغمرهم بأهوالها، والمراد بها: القيامة.

﴿وجوه﴾: المراد بالوجوه أصحابها كما يدل عليه ما سيأتى خصوصًا الآية (٩).

﴿خاشعة﴾: أى ظاهر عليها الذل والخزى؛ لأنها أدركت بطلان عملها فى الدنيا.

المعنى: هل سمعت أيها النبى قصة يوم القيامة وما يقع فيه من الأهوال التى تغمر الناس؟ فى هذا اليوم ينقسم الناس إلى فريقين: ففريق يظهر على وجوههم الذل والخزى لأنهم يعلمون أنهم من أصحاب النار. وفريق المؤمنين مسرورون كما سيأتى. نسأل الله تعالى السلامة.

عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ
ءَانِيَةٍ(١) ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ
وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨
لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا
لَٰغِيَةً(٢) ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣
وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ
مَبْثُوثَةٌ ۝١٦ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧
وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ
نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ
إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ(٣) ۝٢٢ إِلَّا
مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۝٢٤
إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦

المفردات: ﴿عاملة﴾: قيل: مستمرة في جهد ومشقة، لا ترى راحة أبدا. والله أعلم بحقيقة هذا العمل، وقد يكون منه ما في الآية (٧١) من سورة غافر صفحة ٦٢٧ والآية (٤٨) من سورة القمر صفحة ٧٠٨ والآية (٤٤) من سورة الرحمن صفحة ٧١١.

﴿ناصبة﴾: أي متصفة بالنَّصَب بفتح النون والصاد، وهو التعب من كثرة العمل. يقال نَصِب فلان بكسر الصاد، ينصَب بفتحها نَصَبًا بفتحها أيضًا، إذا عمل حتى تعب انظر قوله تعالى: ﴿فانصب﴾ الآية (٧) من سورة الشرح صفحة ٨١٣ مع الآية (٤٨) من سورة الحجر صفحة ٣٤١. وهذا مبدأ جملة أخرى، والأصل: هي عاملة ناصبة أي في الدنيا: والمعنى أن خشوعها وذلها سببه أنه ظهرلها أنها كانت جادة في العمل في الدنيا بلا فائدة، فيزداد ألمها. وأما الوجوه المؤمنة فإنه يظهر لها أن سعيها في الدنيا كان سبب خير لها، فهي له راضية كما سيأتي.

﴿تصلى نارا﴾: تقاسى حرها. ﴿آنية﴾: شديدة الحرارة، انظر الآية (٤٤) من سورة الرحمن صفحة ٧١١. ﴿ضريع﴾: هو اسم لنوع من الشوك ترعاه الإبل إذا لم تجد غيره، لا يكسبها لحما ولا شحما، والمراد هنا طعام ردىء لا يعلم مقدار رداءته إلا الله سبحانه وتعالى.

﴿ناعمة﴾: المراد: متنعمة في بهجة وحسن، انظر الآية (٢٤) من سورة المطففين صفحة ٧٩٨. ﴿لسعيها راضية﴾: اللام بمعنى الباء، إى راضية بما عملت في الدنيا عندما ترى ثوابه.

﴿لاغية﴾: أي نفسا تقول لغوا، كما تقول سمعت المقرئ تريد قراءته: لأن كلام أهل الجنة الحمد والتسبيح والتسليم، انظر آيتي (٢٥، ٢٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٤، وانظر وزن

(١) انية. (٢) لاغية. (٣) بمسيطر.

(خائنة﴾: فى الآية (١٣) من سورة المائدة صفحة ١٢٨. ﴿أكواب﴾: جمع كوب وهو إناء لا عروة له. ﴿موضوعة﴾: أى بين أيديهم فيسهل تناولها عندما يشتهون ما فيها. ﴿نمارق﴾: أى وسائد، جمع نمرقة بضم النون. ﴿زرابى﴾: بسط فاخرة، مفردها (زَرْبِيَّة) بفتح فسكون فكسر، مع تشديد الياء المفتوحة.

﴿مبثوثة﴾: أى مفروشة فى أنحاء القصور. ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل﴾: أى نظر اعتبار وتأمل يدرك بها من أسرار صنع الله فيها. ﴿الإبل﴾: اسم جمع لا مفر له من لفظه، وإنما يقال فى مفرده جمل أو ناقة. ﴿بمسيطر﴾: أى الباء لتأكيد نفى ما بعدها عما قبلها، و(مسيطر): أى متسلط، تجبرهم على ما تحب، انظر الآية (٤٥) من سورة ق صفحة ٦٩٢.

﴿إلا من تولى﴾: المراد: لكن من أعرض. ﴿العذاب الأكبر﴾: هو عذاب الآخرة، انظر الآية (٢١) من سورة السجدة صفحة ٥٤٧. ﴿إيابهم﴾: أى رجوعهم يوم القيامة. ﴿علينا حسابهم﴾: المراد: إن حسابهم وعد قطعناه على أنفسنا، ولن نخلفه.

المعنى: إذا جاء يوم القيامة، وانجلت الحقائق ظهر لبعض الناس أنهم كانوا فى الدنيا مجتهدين فى عمل أتعبوا أنفسهم فيه. وذهب فى هذا اليوم هباء؛ لأنه غير مسبوق بالإيمان بالله ورسوله على الوجه الصحيح؛ والإيمان شرط قبول الأعمال، انظر شرح الآية (٢٣) من سورة الفرقان صفحة ٤٧٣، وهؤلاء هم أهل الكتاب الذين كفروا به ﷺ، والمشركون الذين أجهدوا أنفسهم فى خدمة الكعبة لكنهم أحاطوها بالأصنام لتشفع لهم عند الله، انظر الآيات (١٧، ١٨، ١٩) من سورة التوبة صفحتى ٢٤٢، ٢٤٣. وكذا يدخل فى هؤلاء كل مبتدع فى دين الله. روى ابن كثير ان عمر بن الخطاب لما زار الشام رأى راهبًا خاشعًا فبكى، وقيل: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت هذا فتذكرت قوله تعالى (عاملة ناصبة تصلى نارا حامية). فبكيت لغفلته عما هو صائر إليه، انظر شرح الآيات (١٠٣ إلى ١٠٦) من سورة الكهف صفحتى ٣٩٤، ٣٩٥ والآية (٣٩) من سورة النور صفحة ٤٦٤ وآيتى (٣٦، ٣٧) من سورة الزخرف صفحتى ٦٥٠، ٦٥١، يسقى هؤلاء الضالون من ماء يجرى من عين شديد الحرارة، وإذا أحسوا بالجوع فلا يقدم لهم طعام إلا من أخبث مالا تتصوره العقول، لا يفيدهم قوة ولا يدفع عنهم جوعًا. وأما الفريق الثانى فهم المؤمنون الصادقون فهم فى بهجة وسرور وقد ظهر لهم حسن أعمالهم فى الدنيا ففرحوا بثوابها على عكس الضالين. فهم أى المؤمنون. فى جنة عالية،

انظر آيتى (٥٤، ٥٥) من سورة القمر صفحة ٧٠٨. لا يسمعون فيها لغو نفس لاغية بفحش القول. فيها عين جارية. تسر بمنظرها النفوس. فيها سرر مرفوعة. وأكواب مليئة بالشراب تحت أيديهم. ووسائد مرتبة وبسط فاخرة موزعة فى أبهاء القصور. ثم أراد سبحانه أن يقرر ما سبق من القيامة والبعث بأسلوب فيه توبيخ للكفار على غفلتهم عن أدلة ما ذكر فقال تعالى: أفلا ينظرون.. إلخ. أى هل عميت بصائرهم حين ينكرون البعث ويستبعدونه على قدرة الله. فلا ينظرون نظر اعتبار وتأمل إلى الإبل التى عليها جل منافعهم. وهى أنفس أموالهم. ولذا لم يقبلوا دية المقتول إلا منها - كيف خلقت هذه الإبل خلقًا بديعًا دالا على دقة صنع خالقها وحسن تدبيره حيث جعلها صالحة لحمل الأثقال إلى مسافات بعيدة، انظر الآية (٧) من سورة النحل صفحة ٣٤٦ والآية (٢٢) من سورة المؤمنون، وسهل الحمل عليها مع ارتفاع قامتها حيث جعلها تبرك عند الحمل. وجعلها طويلة الأعناق لمصالح يدركها أرباب العقول المفكرة، منها تسهيل المرعى عليها فكما تأكل من حشائش الأرض تأكل من أوراق أعالى الشجر. ومنها أن طول عنقها يسهل لها النهوض من مبركها بأثقل الأحمال التى تتركز على ظهرها أقرب إلى مؤخر جسمها، فلولا أنها تمد عنقها إلى الأمام. وبه الرأس التى تعادل مع طول العنق ما على ظهرها من الأحمال لما استطاعت القيام، ومن عجائب الله تعالى فى الإبل أيضًا أنها تتحمل الجوع والعطش فوق الخمسة عشر يومًا، وذلك أنه جعل لها مخزنًا من الشحم فوق ظهرها محدبًا ليكون أقوى تحملا مما لو كان مسطحا إلى غير ذلك من العجائب التى تدل على سيد حكيم. وإلى السماء كيف رفعت بلا عمد. وإلى الجبال كيف نصبت حفظًا للأرض من الاضطراب كما فى الآية (١٥) من سورة النحل صفحة ٣٤٧ وهداية للسارى فى الصحارى فلا يضل الطريق. انظر الآية (١٦) من نفس السورة صفحة ٣٤٧. وإلى الأرض كيف سطحت ليتيسر للناس العيش عليها والمشى فى مناكبها. وإذا كان الأمر كما ذكر فذكرهم أيها النبى لعلهم يتنبهون إلى أن القادر على كل هذا قادر على إعادتهم أحياء يوم القيامة. ذكرهم بهذا ولا تكلف نفسك فوق ذلك لأنك لست إلا مذكرا فقط. وليس لك سلطان تجبرهم به على الهداية، لكن من أعرض عن التذكر وكفر، أى جحد الحق المعروض عليه، فسيعذبه الله العذاب الأكبر، ثم أكد هذا الحكم وهو أنه سيعذبهم فقال: إن إلينا.. إلخ. أى رجوعهم فى الآخرة إلينا وحدنا، وحسابهم قطعنا به وعدا علينا، فلن يتخلف أبدا. نسأل الله تعالى السلامة.

(٨٩) سُورَةُ الفَجْرِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا ثَلَاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣)
وَاللَّيْلِ[1] إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥)
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧)
الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ[2] (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا
الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ
طَغَوْا فِي الْبِلَادِ[3] (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢)
فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ
لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) فَأَمَّا الْإِنسَانُ[4] إِذَا مَا ابْتَلَاهُ[5] رَبُّهُ

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿الفجر﴾: المراد به والله أعلم فجر يوم الأضحى الذى يصلى الحاج بعده الصبح بمزدلفة، ويقف عند المشعر الحرام يذكر ربه كما فى شرح الآية (١٩٨) من سورة البقرة صفحة ٣٩.

﴿ليال عشر﴾: هى العشر الأولى من شهر ذى الحجة المشغولة بتكبير الله وحده وتحميده. وقد ورد أن العمل فيها أفضل من العمل فى غيرها، فتنكيرها للتعظيم.

﴿الشفع والوتر﴾: المراد: الزوج والفرد من أيام تلك الليالى العشر. فيكون سبحانه أقسم بجميع أفرادها وأجزائها من ليل ونهار؛ لأنها كلها مشغولة بذكر الله وبالاعتبار بمواقف إبراهيم أبى الأنبياء المشار إليها بأعمال الحج وأماكنه.

﴿والليل إذا يسر﴾: أصل (يسر): (يسرى)، وحذفت الياء تخفيفاً كما فى الآية (٦) من سورة القمر صفحة ٧٠٥، والمراد بالليل هنا: هو آخر ليلة من الليالى العشر، وخصها بالذكر ثانيا لأن بمسراها - أى ذهابها - يتم الحاج فى صباحها أعمال حجه الذى يخرج به من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

﴿هل﴾: حرف استفهام يفيد تقرير وتفخيم شأن القسم بهذه الأشياء.

﴿فى ذلك﴾: أى فى القسم بهذه المذكورات.

---

(١) الليل. (٢، ٣) البلاد. (٤) الإنسان. (٥) ابتلاه.

﴿قسم لذى حجر﴾: الحجر: العقل؛ لأنه يحجر أى يمنع عما لا ينبغى، والمعنى هل فى القسم بهذه الأشياء قسم مقنع لصاحب العقل، أى فهو قسم عظيم، نظير ما فى الآية (٧٦) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧.

﴿ألم تر﴾: الاستفهام كالسابق و(تر) أى تعلم، والجملة إشارة لجواب القسم، والمعنى: أقسم بكل ما تقدم أن لابد أن أنتقم من كفار قومك يا محمد كما انتقمت من طغاة تلك الأمم.

﴿بعاد﴾: هم عاد الأولى، قوم نبى الله هود عليه السلام، انظر الآيات (٦٥ إلى ٧٢) من سورة الأعراف صفحتى ٢٠٣، ٢٠٤ والآيات (٥٠ إلى ٦٠) من سورة هود صفحات ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، والآية (٥٠) من سورة النجم صفحة ٧٠٣.

﴿إرم﴾: هو لقب من ألقاب (عاد).

﴿ذات العماد﴾: أى صاحبة العماد، والعماد ما يعتمد عليه كالعمود، والمراد أنهم كانوا بدوًا رحّلاً أهل خيام وعمدان، ينتقلون وراء الغيث والمرعى.

﴿ثمود﴾: هم قوم نبى الله صالح عليه السلام، انظر الآية (٦١) وما بعدها من سورة هود صفحتى ٢٩٣، ٢٩٤.

﴿جابوا الصخر﴾: أى قطعوا الصخر ونحتوا منه بيوتًا، انظر الآية (٧٤) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٤ والآية (٨٢) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣ والآية (١٤٩) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٩.

﴿بالواد﴾: الأصل بالوادى، والمراد به وادى القِرى بكسر القاف، المسمى بالحجر المذكور فى الآية (٨٠) من سورة الحجر صفحة ٣٤٣، وهو بين المدينة المنورة والشام.

﴿فرعون﴾: المراد به حاكم مصر الذى كان فى عهد موسى.

﴿ذى الأوتاد﴾: جمع وتد بكسر التاء، والمراد بها هنا المبانى العظيمة التى تشبه الجبال فى الثبات، انظر شرح الآية (١٢) من سورة ص صفحة ٥٩٨.

﴿الذين طغوا﴾: صفة لكل مَنْ تقدموا من عاد ومَنْ بعدهم. ﴿فصل عليهم﴾: المراد: أنزل عليهم بكثرة وبدون انقطاع حتى هلكوا. ﴿سوط عذاب﴾: أصل السوط هو الخلط والمزج، ثم

سموا به الجلد المضفور الذى يضرب به المذنب؛ لأن ضفائره مختلط بعضها ببعض، والمراد هنا: أنواع من العذاب مختلفة، انظر الآية (٤٠) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٦.

﴿المرصاد﴾: هو المرصد بوزن المقعد، وهو المكان الذى يراقب فيه الحراس ما يريدون مراقبته، والكلام كناية عن أنه سبحانه رقيب على أعمال عباده، مجاز عليها.

﴿إذا ما﴾: (ما) لتأكيد الربط بين شرط إذا (ابتلاه) وجوابها (فيقول).

﴿ابتلاه ربه﴾: أصل الابتلاء الاختبار، والمراد: عامله معاملة المختبر بالخير والشر، انظر الآية (٣٥) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٤ والآية (٤٠) من سورة النمل صفحة ٤٩٩.

المعنى: بعدما قال سبحانه فى السورة السابقة ﴿إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم﴾ أراد أن يطمئن نبيه ﷺ بأنه لابد معاقب كفار قومه، فأقسم له بالفخر وما بعده لما فيها مَنْ الذكريات والعبر. كما تقدم فى شرح صفحة ٥٨٧. ثم أكد هذا القسم بأنه عظيم فيه كفاية لكل ذى عقل. أقسم سبحانه على أنه لابد أن يعاقب كفار قريش كما عاقب مَنْ قبلهم عندما عملوا عملهم. ثم أشار سبحانه إلى جواب القسم بقوله: ألم تر كيف فعل ربك.. إلخ. أى يجب أن تعلم أيها النبى ما فعله ربك بعاد الملقبة بإرم صاحبة الخيام والعماد التى لم يخلق الله فى البلاد قبيلة مثلها فى عظم الأجسام والقوة. ولذا كانوا يفخرون بذلك ويقولون (من أشد منا قوة) انظر الآية (١٥) من سورة فصلت صفحة ٦٣١ وما فعله بثمود الذين بلغوا من القوة وسعة التفكير فى أمور الدنيا مبلغا مكنهم من أن ينحتوا لأنفسهم بيوتًا فى الجبال ليأمنوا الهدم والغرق. وما فعله بفرعون الذى كان يفخر بأنه بنى على الأرض بناءً خالدًا خلود الجبال. هؤلاء جميعًا لما طغى كل منهم فى قومه، أى تجاوز حد الاعتدال فى معاملة الناس، وسخروا قوتهم لهضم حقوق الغير وأكثروا الفساد بنشر الكفر والظلم. فأنزل عليهم ربك عذابا متنوعا بتنوع جرائمهم كما سبقت الإشارة إليه. وذلك لأن ربك أيها النبى القائم بتدبير أمرك رقيب على عباده، لا يفلت أحد من جزائه. هذا هو شأن ربك أيها النبى مع الإنسان، لا يهمل تنبيهه إلى ما ينفعه، وتحذيره مما يضره، لحمله على العمل للحياة الخالدة، وأن لا يجعل همه إلا السعادة الدائمة. أما شأن الإنسان فى أغلب أفراده، فإنه لا يهتم إلا بالحياة الفانية، فإذا امتحنه ربه بالخير ليظهر استعداده هل يشكر أم يكفر؟

فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا
مَا ابْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾
كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ
طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾
وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ
دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾
وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ
لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ
أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِىٓ إِلَىٰ
رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾
وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

المفردات: ﴿فأكرمه﴾: بيان لما به الابتلاء، والمراد أكرمه بالمال والجاه. ونعمه أى مكنه من التنعم بما أكرمه به.

﴿أكرمن﴾: أصلها أكرمنى. وحذفت الياء تخفيفاً أى أكرمنى عن استحقاق. يريد أنه أهل لذلك. وبهذا الغرور نسى شكر المنعم. كالعطف على اليتيم والمسكين. انظر آيتى (٧٧، ٧٨) من سورة القصص صفحة ٥١٨ والآيات (٤٩، ٥٠، ٥١) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٦، ٦٣٧.

﴿فقدر عليه رزقه﴾: أى ضيقه. انظر الآية (٣٦) من سورة سبأ.

﴿أهانن﴾: أصلها أهاننى، والمراد: يشغله الحزن عن فضيلة الصبر. انظر الآيات (١٩، ٢٠، ٢١) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥. ﴿كلا﴾: حرف يدل على زجرهم عن هذا الزعم الخاطئ من أن الإكرام عن استحقاق، والتضييق عن إرادة إهانة.

﴿بل﴾: حرف يدل على الانتقال من كلام لآخر. ﴿لا تحاضون﴾: أصله تتحاضون أى لا يحض ولا يحث بعضكم بعضا. ﴿طعام المسكين﴾: (طعام) اسم مصدر بمعنى الإطعام كالعطاء بمعنى الإعطاء. ﴿تأكلون﴾: المراد تأخذون. انظر شرح الآية (١٨٨) من سورة البقرة صفحة ٣٧.

﴿التراث﴾: أصله (الوراث) من الوراثة والعرب تجعل الواو تاء لتخفيف النطق والمراد به هنا: الميراث الذى كانوا يأخذونه من حق النساء والأطفال. انظر الآية (٢) من سورة النساء صفحة ٩٧ والآية (٦) من نفس السورة صفحة ٩٨ والآية (١٠) من نفس السورة صفحة ٩٩. أى لا يفرقون بين ما جمع من حلال، أو من حرام، مما يتعلق به حق الغير.

(١) ابتلاه. (٢) أهانن. (٣) تحاضون. (٤) جىء.
(٥) الإنسان. (٦) ياليتنى. (٧) عبادى.

﴿لمّا﴾: أصل (اللم) الجمع بين الأشياء المتفرقة ووصف به الأكل للمبالغة فى الشر والذى يعميهم عن التفرقة بين حلاله وحرامه. ﴿جما﴾: أى كثيرا. والمراد مع حرص وشره.

﴿كلا﴾: أى ارتدعوا عن هذا العيب. ﴿دكت الأرض﴾: تقدم فى الآية (١٤) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢. ﴿دكّا دكّا﴾: المراد: دكا متتابعا، يستوعبها، ولا يبقى منها شيئًا: كما تقول علمته الحساب بابا بابا أى كله. ﴿وجاء ربك﴾: علماء الخلف يرجعون مثل هذا إلى نظيره فى الآية (٩٧) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٨ والآية (٣٣) من سورة النحل صفحة ٣٤٩: فيقولون: جاء أمره بدعوة الخلق للحساب. وعلماء السلف يقولون:جاء مجيئًا نؤمن به ولا نبحث عن حقيقته. ونؤمن بأنه سبحانه ليس كمثله شيء من خلقه. ويقولون: إنما الذى يهمنا علمه من هذا الكلام هو أن سلطانه سبحانه سيكون هو المتحكم فى هذا اليوم.

﴿والملك﴾: المراد به: جنس الملك. فيشمل جميع الملائكة. ﴿صفا صفا﴾: المراد: مصطفين استعدادا لتلقى أوامر الملك القهار. ﴿وجيء يومئذ بجهنم﴾: المراد: برزت وظهرت، انظر الآية (٩١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥ والآية (٣٦) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠.

﴿يتذكر الإنسان﴾: أى يتعظ عندما يرى قبح أعماله. ﴿وأنى له الذكرى﴾: (أنى) اسم استفهام تفيد معنى من أين. والمراد من الاستفهام هنا النفى، و(الذكرى): العظة والعبرة انظر الآية (٣٧) من سورة ق صفحة ٦٩١ والمعنى: ومن أين له التذكر الآن، أى لا ينفعه.

﴿لحياتى﴾: أى لأجل حياتى الخالدة. ﴿لا يعذب عذابه أحد﴾: أى لا يعذب أحد تعذيبًا مثل تعذيب الله فى الشدة لهؤلاء الطغاة. ﴿ولا يوثق﴾: أى لا يربط بالسلاسل والأغلال.

﴿وثاقه﴾: الوثاق يطلق على الرباط الذى يوثق أى يربط به كما فى الآية (٤) من سورة محمد صفحتى ٦٧٢، ٦٧٣. ويطلق على الإيثاق بمعنى الربط كما هنا، فالمراد لا يربط أحد مثل ربط الله لهؤلاء فى القوة. ﴿المطمئنة﴾: أى بذكر الله تعالى، الراضية بقضائه سبحانه، انظر الآية (٢٨) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٥، ٣٢٦.

﴿ارجعى إلى ربك﴾: أى إلى دار كرامته تعالى فهو نظير ما فى الآية (٥٥) من سورة القمر صفحة ٧٠٨. ﴿راضية﴾: أى بما نالت، ﴿مرضية﴾: أى عنده تعالى. ﴿فادخلى فى عبادى﴾: المراد: وقد جعلتك فى زمرة عبادى المقربين.

المعنى: ومن طبع بعض أفراد الإنسان أنه إذا امتحنه ربه بإعطائه ما يحب ليظهر هل يشكر ويعطف على الضعفاء أم يجحد الفضل ويبخل. فإنه لا يلتفت لذلك بل بدل أن يشكر

يتبجح ويقول: ما أعطاني الله هذا إلا لأني أستحق الكرامة عنده. ومن كان كذلك لا يهمه شيء. ولا يعاب عليه عمل. ويجهل أنه سبحانه قد يغدق الخير على كافر فتنة له لا لكرامته عنده. انظر شرح الآية (٣٣) وما بعدها من سورة الزخرف صفحتي ٦٥٠، ٦٥١، وآيتي (٣٥، ٣٦) من سورة سبأ صفحتي ٥٦٨. وأنه إذا امتحنه بتضييق الرزق ليظهر قوة صبره فإنه يفعل ذلك أيضًا ويظن أن ما حصل إنما هو إهانة منه تعالى له. فيسخط على القضاء ويستولى عليه الجزع فيحرم فضيلة الصبر كما تقدمت الإشارة إليه في الآية (٥) من سورة المعارج صفحة ٧٦٥. ولما كان هذا هو شأن أغلب أفراد الإنسان زجرهم سبحانه بقوله: كلا. أي لم أبتلهم بالغنى لكرامتهم عندي. ولا بالفقر لهوانهم عليّ. بل ذلك لحكمة عالية. ثم انتقل سبحانه من ذم أفراد الإنسانِ على القبيح من الأقوال إلى ذمهم على الأقبح من الأفعال فقال سبحانه: (بل لا تكرمون).. إلخ. أي قل لهم أيها النبي ليس عيبكم مقصورًا على ما تقدم بل لكم أفعال أشد قبحًا مما تقدم تدل على تهالككم على المال. فمع إعطائكم الكثير منه فإنكم لا تؤدون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم بالإحسان إليه، ولا يحث بعضكم بعضًا على إطعام المساكين. وفي الكلام إشارة إلى أن بخلهم زاد حتى أنه لم يقف عند البخل بالبذل بل تجاوزه إلى البخل حتى بكلمة نصح. فالمراد لا تبذلون ولا تأمرون غيركم به. وبلغ من فتنتكم بالمال أنكم تستولون على الموروث منه بشره لا تفرقون بين حقكم وحق غيركم، ولا بين ما جمع من حلال أو من حرام مما يتعلق به حق الغير. ثم بيَّن سبحانه سبب ذلك فقال: وتحبون المال حبا جما. ثم زجرهم عما تقدم بقوله: كلا، ثم علل الزجر بما فيه تهديدهم فقال: (إذا دكت الأرض).. إلخ، أي إذا قامت القيامة وتجلى ربك على الخلائق واصطفت الملائكة انتظارا لأمر الواحد القهار، وبرزت جهنم للعيان في هذا الوقت ينكشف الغطاء عن الغافل فيتعظ، ولكن لا تنفعه هذه الموعظة لفوات وقتها، عند ذلك يندم ويقول: يا ليتني قدمت عملا صالحا لأجل انتفاعي به في حياتي الخالدة، فيوم يحصل كل ما سبق لا يعذب أحد مثل عذابه تعالى لمن كفر به في الشدة. ولا يربطه بالسلاسل والأغلال أحد مثل ربطه تعالى لهم، والمراد أن عذابه تعالى في هذا اليوم لمَنْ كفر به لا تتصور العقول شدته، وبعد ما حكى سبحانه ما سيحل بمن كفر به وشغله حب المال عن واجب الشكر أراد أن يبين حال من اطمأن قلبه بذكر ربه ولم يفرط في حق من حقوقه فقال تعالى: يا أيتها النفس..إلخ، المراد أنه سبحانه يوجه خطابه للمخلصين ويقول لكل منهم: (يا أيتها النفس) التي كانت في الدنيا لا تغفل عن ذكر ربها ارجعي اليوم إلى حظيرة رضا ربك حال كونك راضية بما نلت، مرضية عنك منه تعالى فادخلي في زمرة عبادي الذين اصطفيتهم وادخلي في جنتي. اللهم اجعلنا منهم بفضلك وكرمك.

سورة البلد


(٩٠) سورة البلد مكية وآياتها عشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

لا أقسم بهذا البلد ﴿١﴾ وأنت حل بهذا البلد ﴿٢﴾
ووالد وما ولد ﴿٣﴾ لقد خلقنا الإنسان[١] في كبد ﴿٤﴾
أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴿٥﴾ يقول أهلكت مالا
لبدا ﴿٦﴾ أيحسب أن لم يره أحد ﴿٧﴾ ألم نجعل له
عينين ﴿٨﴾ ولسانا وشفتين ﴿٩﴾ وهديناه[٢] النجدين ﴿١٠﴾
فلا اقتحم العقبة ﴿١١﴾ وما أدراك[٣] ما العقبة ﴿١٢﴾
فك رقبة ﴿١٣﴾ أو إطعام[٤] في يوم ذي مسغبة ﴿١٤﴾
يتيما ذا مقربة ﴿١٥﴾ أو مسكينا ذا متربة ﴿١٦﴾ ثم كان من

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿لا أقسم﴾: تقدم بيانه فى الآية (٧٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٧ والآية (١) من سورة القيامة صفحة ٧٧٨.

﴿بهذا البلد﴾: هى مكة.

﴿حل﴾: أى حلال كما فى الآية (٥) من سورة المائدة صفحة ١٣٦، والمراد: أن كفار مكة استحلوا إيذاءه ﷺ وقتله، فالكلام إشارة إلى تقريعهم على ذلك، انظر الآية (٣٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١.

﴿ووالد وما ولد﴾: المراد: كل والد، وكل مولود من الموجودات التى تتوالد؛ لأن بهذا التوالد بقاء النوع. فضلاً عما يكابده الوالد فى المحافظة على ولده مما يشير إليه جواب القسم الآتى ﴿لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾: و(الكبد) هو المشقة والتعب.

﴿أيحسب﴾: تقدم معنى ذلك فى الآية (٣) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩.

﴿أن. لن﴾: تقدم معنى ذلك فى الآية (٢٠) من سورة المزمل صفحتى ٧٧٤، ٧٧٥.

﴿لبدا﴾: جمع لُبدة بوزن غُرَف وغُرفَة، وأصله الصوف المتلبد الملتصق بعضه ببعض والمراد به هنا كثيرا، يقول ذلك إظهارا للتفاخر بكثرة المال والإنفاق، انظر المادة فى الآية (١٩) من سورة الجن صفحة ٧٧٢.

﴿أن لم﴾: أن كسابقتها.

---

(١) الإنسان. (٢) هديناه. (٣) أدراك. (٤) إطعام.

﴿ألم نجعل له﴾: المراد من الاستفهام حمل المخاطب على الإقرار بما بعده.

﴿عينين﴾: أى يبصر بهما.

﴿ولسانا﴾: يبين به ما فى ضميره.

﴿شفتين﴾: يستربهما فمه، ويستعين بهما على النطق، والأكل، والشرب وغير ذلك.

﴿وهديناه﴾: أى أرشدناه ووضحنا له.

﴿النجدين﴾: أصل النَّجد بفتح فسكون: الطريق الذى فيه ارتفاع والمراد هنا: طريق الخير ليسلكه وطريق الشر ليجتنبه.

﴿فلا اقتحم﴾: قال ابن هشام فى المغنى: إن (لا) النافية كما هنا إذا دخلت على فعل ماض فلا ينطق العربى الفصيح بها إلا مكررة نحو (فلا صدق ولا صلى) الآية (٣١) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠، وهى هنا مكررة تقديرًا وسهل ذلك تعدد معنى العقبة هنا. فالمراد فلا هو فك رقبة ولا أطعم مسكينًا.

﴿اقتحم﴾: أى تخطى.

﴿العقبة﴾: أصلها الطريق الصعب فى الجبل. والمراد بها هنا: التكاليف الشاقة كفعل الطاعات، وترك المحرمات. والمراد من اقتحامها: فعلها.

﴿وما أدراك ما العقبة﴾: تقدم المراد من ذلك فى الآية (٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١.

﴿فك رقبة﴾: أى تخليصها من الرق، وهذا شروع فى بيان أهم أفراد العقبة التى يقتضيها هذا المقام.

﴿فى يوم ذى مسغبة﴾: (المسغبة) المجاعة. ويوم ذو مجاعة أى جاع الناس فيه. يقول العرب: (يوم ذو صيام) أى صام الناس فيه.

﴿يتيمًا﴾: مفعول (لإطعام).

﴿ذا مقربة﴾: أى صاحب قرابة لأن فيه صلة رحم وجبر خاطر لليتيم، فهو أولى بالإحسان، انظر الآية (٢٦) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٨.

﴿ذا متربة﴾: (المتربة) مصدر لفعل (ترب) بفتح فكسر، أى افتقر، وأصله من قولهم: ترب الرجل، أى التصق بدنه بالتراب.

﴿ثم كان﴾: (ثم) هنا للترقى فى الرتبة، فالمراد: ثم كان قبل كل ما تقدم مؤمنا.. إلخ؛ لأن شرط قبول الأعمال الصالحة أن يسبقها الإيمان.

المعنى: لما اشتد إيذاء المشركين للنبى ﷺ مع أنه مقيم معهم فى مكة التى جعلها الله بلدا آمنا كل من فيه حتى الحيوان، انظر الآية (٦٧) من سورة العنكبوت صفحة ٥٣٠. وكان من أشدهم إيذاء له ﷺ وانتهاكا لحرمة مكة رجال منهم أسيد بن كندة الجمحى. وكان شديد الاغترار بقوة جسمه. ومنهم الوليد بن المغيرة. وأبو جهل. وغيرهم ممن كان ينفق المال الكثير لمحاربة دعوته ﷺ. ولطلب الجاه عند الناس فأراد سبحانه وتعالى أن يخفف عن نبيه ﷺ ويحثه على الصبر، كما تشير إليه الآية (١٧) الآتية من هذه السورة.

ونبه الغافل المفتون بقوته أو بكثرة نفقاته رياء. ليرجع إلى نفسه فيرى أنه فى تعب فكرى أو جسمانى مادام فى هذه الحياة. فمن أسف على فوات رغبة إلى مرض عزيز أو موته إلى غير ذلك. فقال تعالى: (لا أقسم).. إلخ. أى لست بحاجة إلى القسم بهذا البلد الأمين، والحال أن الكفار من أهله استحلوا إيذاءك أيها النبى الكريم، ولا إلى القسم بكل والد وولده لما لهم من الأهمية فى بقاء الأنواع التى بها عمار الكون.

ثم ذكر المقسم عليه فقال: لقد خلقنا.. إلخ. أى إنا خلقنا الإنسان فى هذه الحياة يكابد مشاقها ومتاعبها، فالموفق مَنْ صبر وتخلص من شرورها، أما مَنْ يغره بريقها لحظات فيفخر بقوته فإنه جاهل لظنه أنه أصبح من القوة بحيث لا يقدر على إيلامه أحد. مع أن ما هو من مكابدة مشاق الحياة كاف لإيقاظه لعجزه، ويفخر بما ينفقه فى وجوه الشر والرياء. فهل يظن أنه لم يره أحد وهو ينفق ذلك مما رزقه به مَنْ يقدر على محاسبته وعقابه. إن ظن ذلك فهو مخطئ؛ لأن الله تعالى يراه ويراقب تصرفاته. وسيحاسبه ويجازيه عليها، ثم أراد سبحانه أن يبين لهؤلاء جميعًا أنه هو وحده الذى منحهم ما يتمتعون به من البصر، والنطق، والعقل المميز بين الخير والشر. وهو القادر على سلب كل ذلك منهم.

ومع ما وهبه لكل منهم من هذه النعم فلا هو تخطى العقبة فحرر رقبة من الرق. ولا هو تخطاها بإطعامه يتيمًا قريبًا له، أو مسكينًا ليس عنده ما يقتات به فى زمن اشتدت فيه المجاعة. ثم كان قبل كل ذلك مؤمنًا بالله ورسوله.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾
أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا
هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

(٩١) سُورَةُ الشَّمْسِ مَكِّيَّة وآياتها خمس عشرة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ
إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ
وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا
سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ
مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ

المفردات: ﴿المرحمة﴾: أى التراحم بينهم بأن يرحم قويهم ضعيفهم، وغنيهم فقيرهم.

﴿الميمنة والمشأمة﴾: تقدما فى آيتى (٨، ٩) من سورة الواقعة صفحة ٧١٣.

﴿بآياتنا﴾: أى القرآنية، كما فى الآية (٣١) من سورة الأنفال صفحة ٢٣١، والكونية كما فى الآية (٣٩) من سورة فصلت صفحة ٦٣٥.

﴿مؤصدة﴾: أى مغلقة عليهم من قولهم (آصدت الباب) بمد الهمزة أى أغلقته.

المعنى: إن من يتخطى العقبات هو الذى يفعل الصالحات ويسبق ذلك بكونه من المؤمنين الذين لا يكتفى أحدهم بأن يكون صابرا رحيما فقط، بل ويأمر غيره بهما، هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم أصحاب اليمين الناجون من هول يوم القيامة. أما الذين يكفرون بآيات الله المنزلة أو غيرها كما تقدم فهم أصحاب الشمال الذين تغلق عليهم أبواب النار فلا يخرجون منها أبدا.

﴿سورة الشمس﴾

المفردات: ﴿والشمس﴾: انظر شرح صفحة ٥٨٧. ﴿وضحاها﴾: المراد ضوءها أول النهار.

﴿تلاها﴾: أى تلا الشمس بعد غروبها بضوئه طول الليل، وذلك فى الليالى البيض وهى (١٣، ١٤، ١٥) من كل شهر قمرى.

---

(١) آمنوا.	(٢) أصحاب.	(٣) بآياتنا.	(٤) أصحاب.
(٥) المشأمة.	(٦) ضحاها.	(٧) تلاها.	(٨) جلاها.
(٩) الليل.	(١٠) يغشاها.	(١١) بناها.	(١٢) طحاها.
(١٣) سواها.	(١٤) تقواها.	(١٥) زكاها.	(١٦) دساها.

﴿جلاها﴾: أى جلى الشمس وأظهرها ساطعة، وهذا قسم بضوء الشمس فى صورة أخرى.

﴿يغشاها﴾: أى يغطى ضوءها. ﴿وما بناها﴾: أى ومن بناها وهو الله سبحانه وتعالى، والعرب تعبر بـ (ما) عن الذات المصاحبة لوصف عظيم كما فى ﴿بما وضعت﴾ فى الآية (٣٦) من سورة آل عمران صفحة ٦٨ و﴿ما طاب لكم﴾: الآية (٣) من سورة النساء صفحتى ٩٧، ٩٨ والمعنى هنا والقادر العظيم الذى بنى السماء دالة على وجوده وكمال قدرته.

﴿وما طحاها﴾: أى ومن بسطها وجعلها صالحة للإقامة عليها، انظر الآية (٢٢) من سورة البقرة صفحة ٦. ﴿وما سواها﴾: أى من عدل أجزاءها وجعل كل جزء صالحا لما أريد منه، انظر الآية (٧) من سورة الانفطار. ﴿فألهمها فجورها﴾.. إلخ: المراد أفهمها قبح الفجور وحسن التقوى ببيان طريق الشر وطريق الخير، انظر الآية (١٠) من سورة البلد صفحة ٨٠٨.

﴿قد أفلح﴾: جواب القسم. ﴿زكاها﴾: أى طهر نفسه من دنس الذنوب والبخل، انظر أصل معنى الزكاة فى الآية (٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٥. ﴿دساها﴾: أصل معنى (دسى) أخفى، والمراد أخفى مزايا إنسانية بالجهل والفسوق. ﴿كذبت ثمود﴾: اقتصر فى العبرة على ثمود من باب التنبيه بالأقل جرمًا على الأكثر، أى فغيرهم من باب أولى. وذلك أن عادا وقوم لوط وقوم فرعون مثلا جمعوا مع الكفر جرائم أخرى أفظع بكثير من جرائم ثمود.

المعنى: يقول سبحانه أقسم بالشمس وضوئها. وبالقمر حين يتبعها فيظهر ضوؤه بعد ذهاب ضوئها عند الغروب ويمكث طول الليل. فيبقى الضوء ليلا ونهارا وبالنهار حين يجلى ويظهر قوة ضوء الشمس. وهذا قسم بضوء الشمس فى صورة أخرى وبالليل حين يغطى كل ضوء للشمس بظلمته. فلا يكون على وجه الأرض أثر للضوء مطلقًا. وذلك لا يحصل إلا فى ليال قليلة فى الشهر. ولقلة ذلك جاء فى الكلام عنه بالفعل المضارع (يغشاها) الدال على أنه طارئ قليل الزمن؛ وأقسم سبحانه بالسماء ومن بناها، وبالأرض ومن جعلها فراشا، وبكل نفس ومن عدل خلقها وجعلها صالحة للحياة. وبعد ذلك أرشدها وبيَّن لها طريق الفجور لتتجنبه وطريق التقوى لتسلكه. أقسم سبحانه بكل ما ذكر من تلك الأمور العظيمة على أن من طهر نفسه من أدناس الفجور قد فاز بكل خير. وأن من دفن نفسه تحت أقذار الكفر والمعاصى قد خاب وخسر كل خير. ثم ذكر سبحانه مثلاًمن الأمم السابقة التى أفسدت نفوسها فخسرت ليكون ذلك عبرة لكفار مكة فقال: (كذبت ثمود).. إلخ.

بِطَغْوَاهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ
رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا
فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ
عُقْبَـٰهَا ﴿١٥﴾

(٩٢) سُورَةُ اللَّيْلِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا إِحْدَى وَعِشْرُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ
ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ
أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ
لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ

المفردات: ﴿بطغواها﴾: أى بسبب طغيانها.

﴿انبعث﴾: تقول العرب: بعثت فلانا للأمر فانبعث. أى كلفته بأمر فذهب لقضائه، والمراد هنا: فذهب لعقر الناقة.

﴿أشقاها﴾: أى أشقى رجل فى قبيلة ثمود.

﴿رسول الله﴾: هو نبى الله صالح عليه السلام.

﴿ناقة الله﴾: أى لا تقربوا ناقة الله بإيذاء، انظر الآية (٧٣) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٤.

﴿وسقياها﴾: هو شربها فى يومها. أى لا تمنعوها منه، انظر الآية (١٥٥) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٩ والآية (٢٨) من سورة القمر صفحة ٧٠٦. قال الراغب: السَّقى والسُّقيا أن تعطى غيرك ما يشربه، والمراد به هنا نصيبها من الماء، والمعنى: لا تقربوا سقياها فى يوم شربها.

﴿فعقروها﴾: المراد: قتلها الأشقى بأمرهم فكانوا جميعا مشتركين فى القتل، انظر شرح الآية (٢٩) من سورة القمر صفحة ٧٠٦.

﴿دمدم عليهم﴾: يقال دمدم عليه القبر إذا أطبقه عليه. فالمراد أهلكهم هلاكًا كليًا لم يبق لهم أثرًا على ظهرها.

﴿فسواها﴾: المراد فسوى القبيلة بالأرض فصاروا لا وجود لهم على ظهرها.

---

(١) بطغواها. (٢) أشقاها. (٣) سقياها.
(٤) فسواها. (٥) عقباها. (٦) الليل.

المعنى: كذبت ثمود رسلها بسبب طغيانها وتجبرها على الحق وتجلى طغيانها حين بعثوا أشقى رجل فيهم ليقتل الناقة التى قال لهم فيها رسولهم: لا تمسوا ناقة الله بسوء ولا تمنعوها عن شربها فى يومها الذى أمركم ربكم بتركه لها وإلا حل بكم عذاب عظيم، فكذبوه فى تهديده، فاتفقوا على قتلها. فقتلها الأشقى بموافقتهم. فأهلكهم ربهم عن آخرهم بسبب ذنبهم ولم يجعل لهم أثرا على ظهر الأرض. فعل سبحانه بهم ذلك والحال أنه سبحانه فى عزته وجبروته لا يخاف عاقبة هذه الفعلة كما يخاف الذين يقدمون على عمل خطير كهذا. والكلام كناية عن أنهم أذلاء حقراء لا يشعر بهم أحد، كما فى الآية (٢٩) من سورة الدخان صفحة ٦٥٨.

﴿سورة الليل﴾

المفرادت: ﴿يغشى﴾: أى يغطى النور بظلمته. ﴿وما خلق الذكر﴾: أى وحق الإله القادر الحكيم الذى خلق.. إلخ. ﴿إن سعيكم﴾: هذا أول المحلوف عليه. ﴿شتى﴾: جمع شتيت أى متفرق ومتنوع وبذلك يتفاوت جزاؤه. ﴿صدق بالحسنى﴾: المراد: وصدق بكل عقيد حسنى كتوحيد الله، وصدق رسوله، وحصول اليوم الآخر.. إلخ. ﴿فسنيسره﴾: المراد نسهل عليه، ونهيئه. ﴿لليسرى﴾: أى للطريقة السهلة، والمراد لسلوكها. انظر الآيات (١٨، ١٩، ٢٠) من سورة الإسراء صفحتى ٣٦٦، ٣٦٧. والآية (٢٠) من سورة عبس صفحة ٧٩٢ والآية (٨) من سورة الأعلى صفحتى ٨٠٣، ٨٠٤. ﴿واستغنى﴾: أى استغنى بماله عن طلب ثواب الله عن الناس، فلم يرحم ضعيفًا ولا يغيث محتاجا.

المعنى: يقول سبحانه أقسم بالليل حين تغطى ظلمته النور، وبالنهار إذا ظهر ضوؤه، ثم ترقى فى القسم فأقسم بنفسه، فقال: وبالقادر الذى خلق الذكر والأنثى إن سعيكم أيها الناس فى هذه الحياة لمتفاوت تفاوتا سأرتب عليه آثاره، وأجازى كل واحد بعمله. ثم بيَّن سبحانه اختلاف أعمال الناس، وما رتبه على كل عمل. فقال: فأما من أعطى أى من أعطى أصحاب الحقوق حقوقهم وأولهم الفقراء والمحتاجين، واتقى الله، ففعل ما أمره به وابتعد عما نهاه عنه. وصدق بكل قضية حسنها العقل والشرع، وأولها ما يجب اعتقاده فى الله وصفاته واليوم الآخر. من فعل كل ذلك فسنسهل له طريق الخير. وأما من بخل فمنع ذوى الحقوق حقوقهم ولم يعطف على فقير واستغنى بماله عن طلب ثواب الله وعن الناس فلا يرحم ضعيفا ولا يغيث محتاجا. (وكذب بالحسنى).. إلخ.

بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ
مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ
لَنَا لَلْآخِرَةَ[1] وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾
لَا يَصْلَاهَا[2] إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾
وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾
وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ
رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

(٩٣) سُورَةُ الضُّحَىٰ مَكِّيَّة
وآياتها إحدى عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ[3] إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ

المفردات: ﴿بالحسنى﴾: و﴿نيسره﴾: تقدما فى آيتى (٦، ٧) من هذه السورة صفحة ٨١٠ وانظر الآية (٢) من سورة محمد صفحة ٦٧٢.

﴿للعسرى﴾: أى الطريقة التى كلها عسر ومشقة لخلوها من طمأنينة القلب، انظر الآية (١٢٥) من سورة الأنعام صفحة ١٨٣ والآية (٢٨) من سورة الرعد صفحتى ٣٢٥، ٣٢٦.

﴿وما يغنى عنه ماله﴾: المراد لا ينفعه ماله.

﴿إذا تردى﴾: أى إذا وقع فى حفرة القبر، والمراد إذا مات.

﴿إن علينا للهدى﴾: أى أوجبنا على أنفسنا بيان طريق الهدى من طريق الضلال وذلك بمقتضى عدلنا وحكمتنا، انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥ والآية (١٠) من سورة البلد صفحة ٨٠٨. ﴿فأنذرتكم﴾: أى حذرتكم يا كفار مكة. ﴿تلظى﴾: أصلها تتلظى، أى تتوقد وتلتهب. ﴿لا يصلاها﴾: المراد: لا يدخلها دخولا مؤبدًا إلا الأشقى؛ أى أشد الناس شقاء وهو الكافر. ﴿كذب﴾: أى برسوله. ﴿وتولى﴾: أى أعرض عن طاعة ربه.

﴿وسيجنبها﴾: أى يبعد عن النار مطلقا. ﴿الأتقى﴾: أى شديد التقوى والخوف من الله، فيتقى كل ما يغضبه، أما ضعيف التقوى فإنه تحت المشيئة، فقد يدخلها ليستوفى ما عليه ثم يخرج منها. ﴿يتزكى﴾: المراد: قاصدا تطهير نفسه من دنس الشح فلا رياء عنده.

﴿عنده﴾: أى عند هذا الذى أعطى شيئا من ماله للمحتاج. ﴿من نعمة﴾: (من) للنص على عموم نفى ما بعدها. ﴿تجزى﴾: المراد يجازى صاحبها عليها. ﴿إلا﴾: حرف معناه هنا: لكن.

(١) للآخرة. (٢) يصلاها. (٣) الليل.

﴿ابتغاء وجه ربه﴾: أى لكن يفعل ما يفعل طلب رضاء ربه فقط، لا رياء.

﴿ولسوف يرضى﴾: أى والله لسوف يعطيه ربه ثوابا حتى يرضى. انظر الآية (٥) فى السورة الآتية صفحة ٨١٢.

المعنى: أما من بخل بماله، وعد نفسه مستغنيًا عن غيره، وكذب بكل ما يجب اعتقاده فسنهيئ له الطريقة العسيرة. فلا يرى راحة قلب المؤمن، ولا ينفعه ماله الذى بخل به شيئًا حين يتردى فى قبره.

ثم أراد سبحانه أن يبين أنه لا يعاقب أحدا إلا بعد أن يرشده إلى الصواب ويخالف فقال تعالى: وإن علينا.. إلخ. أى أوجبنا على أنفسنا بمقتضى عدلنا وحكمتنا أن نبين للمكلفين طريق الهدى من طريق الضلال. أى وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه. ثم هدد بأن المصير إليه فى آخر الأمر فقال تعالى: وإن لنا للآخرة.. إلخ. أى التصرف التام فى الآخرة وفى الدنيا لنا وحدنا فنيسر للخير ونثيب من أعطى واتقى وصدق.. إلخ. ونعاقب غيره. وبما أن الأمر فى الآخرة لنا فاحذروا يا كفار قريش من أن أدخلكم نارا تتلظى لا يدخلها خالدًا إلا الكافر. الذى كذب رسوله وأعرض عن طاعة ربه، وسيبعد عنها فلا يدخلها أبدا أشد الناس تقوى. وهو الذى يعطى المساكين ماله حال كونه قاصدًا بذلك تطهير نفسه من دنس الشح والمعاصى. أى ولم يعطه رياء ولا ردًا لمجاملة لأحد سبق أن أسدى إليه نعمة فأراد أن يجازيه عليها. لكن فعل ما فعل طلبا لرضاء ربه رفيع المنزلة. ومثل هذا والله لسوف يعطيه ربه ثوابا فى الجنة حتى يرضى. والله أعلم.

﴿سورة الضحى﴾

المفردات: ﴿الضحى﴾: وقت ارتفاع الشمس أول النهار.

﴿سجى﴾: أصل سجا الشىء سكن. والمراد: سكون الناس فيه للراحة. انظر الآية (٩٦) من سورة الأنعام صفحة ١٧٨.

﴿ما ودعك ربك﴾: ودع فلان فلانا كتركه وزنا ومعنى. وودعه بتشديد الدال أى بالغ فى تركه والبعد عنه. والمراد ما تركك، ولا أهملك، كما يقول المفترون.

المعنى: يقول سبحانه أقسم بالضحى وبالليل وقت سكون الناس فيه. وفى كل ذلك من الحكمة ودليل القدرة ما سبقت الإشارة إليه فى شرح صفحة ٥٨٧. أقسم بما ذكر على أن ربك أيها النبى ما تركك بعدما اختارك.. إلخ.

وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ(١) خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ(٢) ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا(٣) فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ(٤) فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

(٩٤) سُورَةُ الشَّرْحِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾

المفردات: ﴿وما قلى﴾: يقول العربى: قليت الرجل أقليه. بوزن رميت، أى أبغضته. فالمعنى: وما كرهك.

﴿وللآخرة﴾: أى ولنهاية أمرك.

﴿الأولى﴾: أى بداية أمرك.

﴿ألم يجدك يتيمًا﴾: الهمزة أصل معناها الاستفهام الذى يفيد طلب المتكلم من المخاطب أن يفهمه شيئًا خفى عليه علمه. لكنها هنا مستعملة فى الإنكار الذى معناه النفى. وبما أن ما بعدها وهو حرف (لم) يفيد النفى أيضًا. ونفى النفى إثبات. فيصير مضمون الكلام ثابتًا. ويكون قصد المتكلم بهذا التركيب هو حمل المخاطب على الاعتراف بما بعد النفيين. ويكون المعنى اعترف أيها النبى أن ربك سبحانه وتعالى وجدك يتيما فآواك لتكون بذلك شاكرا له عز وجل. ﴿ويجدك﴾: المراد به يعلمك.

﴿فآوى﴾: أى فآواك وضمك إلى من يكفلك. وهو عمك أبو طالب.

﴿ضالا﴾: قال الراغب: الضلال العدول عن الطريق المستقيم. ضد الهداية. قال تعالى ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها﴾. ويطلق الضلال عن كل عدول عن الطريق المستقيم عمدًا كان أو سهوًا. يسيرًا كان أو كثيرًا. وإذا كان الضلال ترك الطريق المستقيم عمدًا كان أو سهوًا. قليلاً كان أو كثيرًا صح أن يستعمل لفظ الضلال فى فعل كل مخطئ خطأ ما. ولذا نسب الضلال للكفار. وللأنبياء وإن كان بين الضلالين بون بعيد. فقال لخاتم الرسل ﴿ووجدك ضالا فهدى﴾ أى غير مهتد لما سيق إليك من النبوة. وفى يعقوب

---

(١) للآخرة. (٢) فآوى.
(٣) عائلا. (٤) السائل.

﴿إنك لفى ضلالك القديم﴾ الآية (٩٥) من سورة يوسف صفحة ٣١٧؛ وعن موسى ﴿فعلتها إذا وأنا من الضالين﴾ الآية (٢٠) من سورة الشعراء صفحة ٤٨١؛ وقوله تعالى ﴿أن تضل إحداهما﴾ الآية (٢٨٢) من سورة البقرة صفحتى ٦٠، ٦١. والمعنى أن تنسى. والضلال من وجه اخر نوعان: ضلال فى العلوم النظرية كالضلال فى معرفة الله سبحانه وتعالى ومعرفة النبوة ونحو ذلك. المشار إليه بقوله سبحانه وتعالى ﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ الآية (١٣٦) من سورة النساء صفحة ١٢٦. وضلال فى العلوم العملية كعدم معرفة الأحكام الشرعية؛ والضلال البعيد إشارة إلى ما هو سبب كفر؛ والضلال فى سورة الضحى هنا بمعنى البعد عن معرفة الصواب نتيجة الحيرة المستحكمة الناشئة عن عدم معرفة تفاصيل حقائق الواقع المستتبع للحيرة بين عقله ﷺ وبين ما عليه كبار قومه. انظر الآية (٥٢) من سورة الشورى صفحة ٦٤٦.

﴿عائلا﴾: أى فقيرا. ﴿السائل﴾ المراد به هنا: المستفهم عن علم ينفعه. قلنا ذلك ليتحقق التناسب بين الثلاثة التى أمر بها ﷺ وبين ما كان عليه هو قبل النبوة من الأحوال الثلاثة المذكورة سابقا.

﴿بنعمة ربك فحدث﴾: المراد بالتحدث بالنعمة هنا: شكر الله سبحانه عليها المستتبع للعطف على الفقراء. وبهذا يتحقق التناسب كما تقدم. ووجه ذلك أن البخيل إذا وجد بين محتاجين فإنه يحاول إخفاء ما عنده، بل قد يظهر الشكوى من الفقر والحاجة، حتى لا يطلب منه أحد شيئًا.

المعنى: أنه ﷺ بعدما ذاق من حلاوة الاتصال بربه سبحانه وتعالى عن طريق الوحى كان إذا فتر الوحى زمنًا غير معتاد يشتد شوقه صلوات الله عليه إليه. وشدة الشوق قلما تخلو من قلق وخوف. وقد علمت فى شرح آخر صفحة ٧٠٠ كيف حزن ﷺ حزنًا شديدًا عندما فتر عنه الوحى. هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد كان ﷺ يعانى هو وأصحابه من شدة إيذاء المشركين حتى استبطأ بعضهم نصره سبحانه وتعالى لهم كما تشير إليه الآية (٢١٤) من سورة البقرة صفحة ٤٢. لكل هذا ربما يتوهم حديث عهد بالإسلام أن الله سبحانه ترك رسوله ﷺ لاسيما أنه قد روى أن بعض المشركين أذاع عندما علم أن الوحى قد أبطأ أن رب محمد ﷺ قلاه، أى كرهه. فلهذا أراد سبحانه أن يلقى الطمأنينة فى نفسه ﷺ ويطمئن أصحابه فأخبره بما يطمئنه مؤكدا له بالحلف عليه فقال: والضحى.. إلخ. أى أقسم بالضحى

والليل حين يسكن الخلق فيه ما تركك ربك أيها النبى منذ اختارك. ولا أبغضك منذ أحبك. فلا تخف من شىء، فكل لحظة تقبل عليك ففيها خير لك مما فى سابقتها. ووالله لسوف يعطيك ربك كل ما فيه خير لك. من ظهور دينك، وسعادة أمتك. وجزيل نعمه عليك فى الآخرة حتى ترضى بما يسرك أما حكمة التسويف فى قوله تعالى ﴿ولسوف يعطيك﴾. فالتسويف يقتضى التراخى، فقد بينه المرحوم الشيخ محمد عبده بقوله: لما اشتد ألمه ﷺ لتأخر الوحى بعد نزول أول آية وهى ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾.. إلخ ومرت فترة طويلة قدرها بعضهم بثلاثة أعوام، وأشاع المشركون أن الله سبحانه وتعالى ودّع محمدا أى تركه وأهمله، وقلاه أى كرهه، وكان ﷺ يجد فى نفسه أن للأمر تتمة لم تأت، وهو شغفٌ بحصولها، فلم تكن نفسه راضية دون أن يبلغ ما أعد له من إكمال دينه، فأكد سبحانه له الوعد بأنه سيعطيه، ويعطيه. ويعطيه، ولا يزال يعطيه حتى يرضى بإكمال دينه ﷺ. وكان ذلك فى أكثر من ثلاث وعشرين سنة حتى نزل قوله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم..﴾ الآية (٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٥؛ ثم أراد سبحانه أن يعدد نعمه على رسوله فيما مضى ليطمئنه على أنه سيزيد نعمه عليه فى المستقبل، فقال تعالى: ألم يجدك.. إلخ. أى يجب أن تقر أيها النبى أن ربك علم يتمك فضمك إلى عمك أبى طالب فرباك فى كنفه؛ لأن إقرارك بذلك نوع من الحمد لله الذى طلبه منك سبحانه وتعالى، ووجدك ضالا.. إلخ. من المقطوع به فى كل كتب السير والتاريخ أنه صلوات الله عليه لم يسجد لصنم طول حياته قبل البعثة. وأنه كان طاهر النفس لم يرتكب فاحشة قط. ولم يكذب أبدا حتى لقب بالصادق الأمين. وإذا كان هذا هو الواقع فلا يكون الضلال هنا معناه الانحراف فى العقيدة. والعمل الذى يطلب العبد من ربه البعد عنه. كما فى الآية (٧) من سورة الفاتحة صفحة ٢. بل معناه الحيرة، وذلك أنه ﷺ قبل نزول الوحى عليه كان قاطعًا بفساد ما عليه قومه من الشرك، وكان يسمع عن النصرانية واليهودية، ولكنه كان يشك: فى سلامتها من التحريف. وكان فى حيرة أيضًا هل يستطيع أن يجهر بما يعتقد وسط فحول الشرك وصناديد الكفر ثم يسلم منهم، ثم كان فى حيرة أيضًا من معرفة ما يصح أن يتقرب به العبد إلى ربه وما لا يصح. وما هو الحال بعد الموت. ولما استولت عليه تلك الحيرة كان ينفر من الجماعات وينفرد فى غار حراء يفكر ويتلمس الهداية والخروج من ظلمة الحيرة، فإذا هداه ربه بنزول الوحى عليه إلى الصواب فى كل شىء فهل هناك نعمة فى الحياة تدنو من هذه النعمة؟ ووجدك فقيرًا لم يترك لك أبوك غير ناقة وجارية، فأغناك بربح التجارة وبما وهبتك زوجتك خديجة رضى الله عنها. ثم أراد سبحانه أن يرشد نبيه إلى العطف على

كل إنسان صادفته حالة من الحالات الثلاث التى مرت به ﷺ فقال: (فأما اليتيم).. إلخ. أى إذا علمت مرارة اليتم فلا تذل يتيما بل كرمه بالأدب وهذبه بمكارم الأخلاق ليكون عضوا فى جماعتك نافعا. وبما أنك عانيت آلام الجهل المورث للحيرة فلا تنهر من يسألك علما يزيل حيرته. وبما أنك عانيت مشقة الفقر فابذل مالك فى إغاثة المحتاج. هذا هو المراد من التحدث بالنعمة، أما ذكر الثروة باللسان فقط فإن هذا من مظاهر التفاخر لا من مقاصد الشرع.

﴿سورة الشرح﴾

المفردات: ﴿ألم نشرح﴾: الاستفهام هنا كالمتقدم فى (ألم يجدك) وشرح الصدر كناية عن السرور وانبساط النفس، بإخراجه ﷺ من الحيرة، المتقدم ذكرها فى السورة السابقة.

﴿ووضعنا عنك﴾: المراد أسقطنا عنك.

﴿وزرك﴾: الوزر أصله الحمل الثقيل، والمراد به اهتمامه الشديد بهداية قومه. ودفع إيذائهم عنه.

﴿أنقض ظهرك﴾: أى أثقله.

﴿فإن مع العسر يسرا﴾: المراد أن كل شدة يعقبها فرج بسرعة حتى كأنه معها.

المعنى: إذا تنبهت لما ذكر فى السورة السابقة تعلم كمال المناسبة بينه وبين ما هنا، فقوله: ألم نشرح لك. إلخ. معناه اعلم أيها النبى فضل ربك عليك لما شرح صدرك بإخراجك من الحيرة وأنار لك طريق الصواب وأزال عنك حمل الاهتمام الشديد بهداية قومك الذى كان يثقل كاهلك. ورفعنا لك ذكرك فى العالمين إلى يوم القيامة. وهل نال إنسان ما نلت أنت من رفع الصوت عاليا بذكر اسمك بعد ذكر اسم الله كل يوم على المنابر عدة مرات فى جميع أنحاء الأرض. وغير ذلك من مواطن الصيت العالى كثير.

ثم أكد سبحانه استمرار الفرج فقال تعالى: (فإن مع العسر يسرا).. إلخ، أى أن بعد كل شدة يعانيها المؤمنون الآن من فقر أو ضعف مع قوة العدو فرجًا بالخروج منها والوقاية من شرها. مادام العبد يسعى جهده فى أسباب الخروج منها وإن مع كل شدة تصادفكم فى المستقبل من جنس ما تقدم أو غيره فرجًا يزيلها حتى تنتصروا وتعلوا كلمتكم بشرط الأخذ فى أسباب إزالة تلك الشدة. والله تعالى أعلم.

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

(٩٥) سُورَةُ التِّينِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

المفردات: ﴿فرغت﴾: أى من عملك الخاص بك وبأهلك وأصحابك.

﴿فانصب﴾: أصل معناه فاتعب من النصب بفتح النون والصاد. وهو التعب كما تقدم فى الآية (٤٨) من سورة الحجر صفحة ٣٤١، والآية (٣) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٥. والمراد هنا: فاجتهد فى كل عمل يقربك من ربك. ﴿وإلى ربك فارغب﴾: أى ولا توجه رغبتك إلى غير ربك سبحانه وتعالى.

المعنى: إذا علمت أيها النبى أن مع العسر يسرا فليكن كل وقتك بعد تمام فراغك من شئون الدنيا مشغولاً دائمًا باجتهادك فى عبادة ربك وكل ما يقربك إليه سبحانه: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنى أكره أن أرى أحدكم فارغًا، لا فى عمل الدنيا ولا فى عمل الآخرة. ولا توجه رغبتك فى شئ إلى غيره سبحانه وتعالى: فلا تطلب عونًا إلا منه جل شأنه.

﴿سورة التين﴾

المفردات: ﴿والتين﴾: هو الشجر المعروف صاحب الورق المذكور فى الآيتين (١٩، ٢٢) من سورة الأعراف صفحتى ١٩٤، ١٩٥ والآيتين (١٢٠، ١٢١) من سورة طه صفحتى ٤١٧، ٤١٨. والقسم به إشارة إلى عهد آدم كما سيأتى.

﴿والزيتون﴾: هو أيضًا الشجر المعروف. والقسم به إشارة إلى عهد نوح كما سيأتى.

﴿وطور سنين﴾: هو طور سيناء المذكور فى الآية (٥٢) من سورة مريم صفحة ٤٠١، والآية (٢٠) من سورة المؤمنون صفحة (٤٠)، والآية (٢٠) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٧، والقسم به إشارة إلى عهد شريعة موسى عليه السلام. ﴿وهذا البلد الأمين﴾: هى مكة المكرمة. والقسم بها إشارة إلى أول عهد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ و(الأمين): أى الآمن من أهله من

(١) الإنسان. (٢) رددناه. (٣) سافلين. (٤) آمنوا. (٥) الصالحات. (٦) الحاكمين.

كل مكروه، انظر الآية (٤) من سورة قريش صفحة ٨٢٣. ﴿في أحسن تقويم﴾: أصل التقويم: التثقيف والتعديل. وأريد به هنا أثره. وهو الاعتدال حسًا ومعنى. ﴿رددناه﴾: المراد: عاقبناه لما لم يشكر نعمة ربه عليه برده إلى أسفل سافلين. ﴿أسفل سافلين﴾: أي أسفل وأحط من المنحطين بحسب الخلقة الأصلية وهي البهائم، انظر الآية (١٦٦) من سورة الأعراف صفحتي ٢١٩، ٢٢٠. ﴿غير ممنون﴾: أي مقطوع، تقدم في الآية (٨) من سورة فصلت صفحة ٦٣٠.

﴿فما يكذبك﴾: الاستفهام للتوبيخ والمعنى: أي شيء يجعلك أيها الإنسان الكافر تكذب؟

﴿أليس الله﴾: الاستفهام والنفي بعده للتقرير كما تقدم في الآية (٦) من سورة الضحى صفحة ٨١٢. ﴿بأحكم﴾: الباء لتأكيد ربط ما بعدها بما قبلها وأحكم أي أتقن تدبيرا.

﴿الحاكمين﴾: المراد: المدبرين.

المعنى: (والتين).. إلخ. قال المرحوم الشيخ محمد عبده: أقسم سبحانه بهذه الأشياء الأربعة ليذكرنا بأربعة فصول من كتاب الإنسان الطويل من أول نشأته إلى بعثة خاتم الرسل صلوات الله عليه. فالتين إشارة إلى عهد أبي البشر حين كان يستظل في الجنة بورق التين. وعندما بدت له ولزوجه سوءاتهما وصارا يضعان عليهما من ورقه. والزيتون إشارة إلى عهد نوح (آدم الصغير) عليه السلام. حين كان في السفينة. وأراد أن يعرف هل ارتفع غضب الله على أهل الأرض. وانقطع نزول الماء. فبعد البحث رأى طيرًا يحمل ورقة زيتون خضراء فعلم أن الأرض قد ظهر بعضها. فالقسم بذلك يذكرنا وفق ما تقدم بأول من عمر الأرض بعد خرابها بالطوفان. وطور سينين إشارة إلى عهد شريعة موسى عليه السلام التي بقيت آثارها إلى عهد نبينا ﷺ وهذا البلد الأمين إشارة إلى عهد خاتم الرسل ﷺ. أقسم سبحانه بكل ما ذكر على أنه خلق الإنسان على أحسن صورة حسا ومعنى فجعله سويًا. يمشي على رجليه. ويأكل بيديه.. إلخ. وجعله صاحب عقل ساد به كل ما على وجه الأرض. ومن كان هذا شأنه يكو ن عارفًا وجوه الخير. ساعيًا إليها. ويعرف وجوه الشر فيبتعد عنها. ولما أفسد فطرته التي فطرنا عليها كما في الآية (٣٠) من سورة الروم صفحة ٥٣٤. صيرناه أحط من الحيوانات التي هي في الأصل أحط منه عندما كان إنسانًا كاملاً. وذلك أنه لما أهمل عقله وغفل عما ينبغي لسعادة المجموع انقلب أرذل من الحيوان الذي لا يعرف كيف يتقن في إيصال الشر للغير إلا الذين آمنوا بمدبر الكون الذي وضع الشرائع لسعادة البشر وبأنه يجازي فاعل الخير بالخير. ويجازي غيره بما يستحق وسارعوا إلى عمل الصالحات. فهؤلاء قد حفظوا منزلتهم من الإنسانية. وحافظوا على الاعتدال الذي خلقهم الله عليه، فيجازيهم ربهم بأجر غير مقطوع فإذا كنت أيها الإنسان ترى كل ذلك فأي شيء يجعلك تكذب بالدين الذي من تعاليمه

(٩٦) سُورَةُ العَلَقِ مَكِّيَّة
وآياتها تسع عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ[١]
مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ
بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ[٢] مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ
الْإِنسَانَ[٣] لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ[٤] اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ
رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ[٥] الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا
إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ[٦] إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾
أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ[٧] إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾
أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا

ما علمت. وكلها تدعو لما فيه سعادة البشر. ويجب أن تقر بأن الله الذى هذا صنعه هو أتقن تدبيرًا من كل مدبر. والله تعالى أعلم.

المفردات: ﴿اقرأ باسم ربك﴾: هذا أول قرآن نزل عليه ﷺ إلى آخر آية رقم (٥). وكان ﷺ عند نزول هذه الآيات الخمس يتعبد فى غار حراء. انظر تفصيل ما حصل عند ذلك وبعده فى الحديث الطويل رقم (٣) فى كتابنا (صفوة صحيح البخارى).

سورة العلق

﴿خلق﴾: أى خلق سبحانه كل شىء.

﴿خلق الإنسان﴾: أعاد الفعل مع بعض أفراد المخلوقات لشرفه ولأنه المقصود بنزول هذا القرآن. ﴿علق﴾: جمع علقة وهى القطعة المتماسكة من الدم، انظر الآية (١٤) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٦.

﴿اقرأ﴾: أعاده ثانيًا وذلك لتأنيسه ﷺ وتأكيد أنه يسير عليه سبحانه أن يجعله قارئًا.

﴿وربك الأكرم﴾: الذى يفوق كرمه كل كريم؛ لأنه يعطى بلا مقابل وينعم حتى على من عصاه، قال أبو السعود: هذه جملة استئنافية جىء بها لإزالة ما أظهره ﷺ من العذر عن عدم القراءة بقوله ﴿ما أنا بقارئ﴾ أى أنا أمى فكيف أقرأ؟ فقيل له: اقرأ وربك الذى أمرك بالقراءة هو الأكرم.. إلخ. والمراد: أنه لما اعتذر ﷺ بأنه لا يعرف القراءة، قال له: اقرأ وأنت واثق من أن ربك أكرم من كل كريم، فيسير عليه أن يفيض عليك نعمة القراءة، بدون معالجة أسبابها.

﴿علم بالقلم﴾: انظر كيف نقل الإسلام العرب من الأمية إلى العلم فى شرح الآية (٢) من سورة الجمعة صفحة٧٤١.

(١، ٢، ٣) الإنسان.
(٤) رآه.
(٥، ٦، ٧) أرأيت.

﴿كلا﴾: هذا الحرف يفيد هنا تنبيه السامع لما بعده لأهميته، انظر شرح الآية (٢٠) من سورة القيامة صفحة ٧٧٩.

﴿الإنسان﴾: المراد غالب جنس الإنسان، فقليل منه هو الذى يشكر ولا تطغيه النعمة، انظر الآية (١٣) من سورة سبأ صفحة ٥٦٤.

﴿يطغى﴾: أى يتجاوز حدود الله بكثرة معاصيه.

﴿أن رآه استغنى﴾: أى لأجل أنه رأى نفسه صار غنيًا.

﴿الرجعى﴾: مصدر كالبشرى. معناه: الرجوع إليه تعالى يوم القيامة للحساب والجزاء.

﴿أرأيت﴾: أى أخبرنى أيها السامع العاقل عن: ﴿الذى ينهى﴾: وهو أبوجهل.

﴿عبدا﴾: هو النبى ﷺ؛ أى هل هو محق فى نهيه هذا؟ ﴿أرأيت إن كان﴾.. إلخ: أى أخبرنى أيها السامع عن حال هذا الرجل، هل هو على هدى عندما منع عبدا من طاعة ربه، أو هو أمر بالتقوى عندما أمر غيره بعدم إطاعة خالقه؟ والمراد: إنه لم يكن لا هذا ولا ذاك.

﴿أرأيت إن كذب﴾.. إلخ: أى أخبرنى أيها السامع عن حاله عندما كذب رسولنا، وأعرض عن طاعة ربه، فهل يظن أنه يفلت من عقابنا؟ كلا... ﴿ألم يعلم﴾.. إلخ: استفهام تقريرى معناه: يجب أن يقر بأنه يعلم أن الله يرى أعماله ويحصيها عليه وعبر ﴿بأن الله يرى﴾ لأن العرب تزيد الباء فى المفعول لتقوية ربط الفعل به بقوة. ومثل ذلك قوله تعالى ﴿وهزى إليك بجذع النخلة..﴾ الآية (٢٥) من سورة مريم صفحة ٣٩٨، ومثله ما فى الآية (١٥) من سورة الحج صفحة ٤٣٥ والآية (٢٥) من نفس السورة صفحتى ٤٣٦، ٤٣٧.

﴿كلا﴾: حرف يفيد هنا الزجر عما قبله، أى يجب أن ينزجر.

﴿لنسفعًا﴾: تنطق فى حال الوصل: (لنسفعن): بنون التوكيد أما عند الوقوف عليها فإنها تنطق ألفا كما هى، و(السفع): القبض على الشىء وجذبه بشدة والمراد: لنقبضن على ناصيته ونرميه فى النار.

المعنى: اقرأ أيها النبى مستعينًا باسم ربك. لا باسم غيره. ربك الذى خلق كل شىء خصوصًا الإنسان المقصود بهذا الشرع. خلق أفراده من علق. ولما كانت القراءة غريبة عليه ﷺ. كرر سبحانه الأمر بها. فقال: اقرأ وليكن فى علمك أن ربك هو الأكرم من كل كريم، فيسير عليه سبحانه أن يفيض عليك نعمة القراءة. ثم أراد أن يزيده ﷺ اطمئنانا لهذه

الموهبة الجديدة. فوصف معطيها سبحانه وتعالى بأنه هو الذى علم بالقلم. أى جعل القلم واسطة التفاهم مع البعيد. كما أن اللسان واسطة علم للقريب، كما تقدم فى شرح الآية (٤) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩.

وبما أن القلم آلة جامدة لا حياة فيها. وجعلها سبحانه واسطة علم فمن اليسير عليه سبحانه أن يجعل لسانك مفهمًا للغير ما عندك من العلم. ثم أراد سبحانه أن يزيل شبهة استغراب القراءة من الأمى فقال: علم الإنسان.. إلخ. أى الذى أمرك بأن تكون قارئًا هو الذى علم سبحانه الإنسان جميع ما عنده من العلم بعد أن كان فى أول خلقته لا يعلم شيئًا. انظر الآية (٧٨) من سورة النحل صفحة ٣٥٦. ثم بعد ما بيَّن سبحانه فضله على الإنسان أراد أن ينبه إلى جحود بعض أفراده لهذا الفضل.

وبيان ذلك أن بعض صناديد الكفر بمكة كأبى جهل حملته شدة غروره بغناه وقوته على أن يحلف: لئن رأى محمدا يصلى عند الكعبة ليطأن عنقه برجله ويعفرن وجهه الشريف بالتراب حتى يمتنع عن ذلك. فقال سبحانه فى ذلك ما معناه. تنبه أيها السامع لبشاعة صنع بعض أفراد الإنسان الذى يتجاوز الحد فى العصيان بسبب شعوره بأنه غنى يرى نفسه فوق الجميع من هم أقل منه مالا. وهذه رذيلة محطمة لبناء الجماعة، انظر شرح الآية (٨) من سورة الليل صفحة ٨١٠. ثم هدده سبحانه بأن ما بيده زائل وأنه سيموت ويرجع إليه تعالى ويحاسبه ويجازيه أشد جزاء.

ثم ذكر مثلاً من أمثلة طغيان هذا الإنسان فى أسلوب الاستغراب والتبشيع، وأعقبه بتهديده فقال: (أرأيت الذى ينهى).. إلخ، أى أخبرنى أيها السامع عن حال عقل هذا الذى ينهى عبدًا عن الصلاة. والمراد: ما أسخف عقل من يطغيه الكبر حتى يجرؤ على نهى عبد من عباد الله عن الصلاة لربه إذا رآه يصلى. أخبرنى أيها السامع عن حال هذا الرجل هل هو على هدى عندما منع عبدًا من عبادة ربه. أو هو أمر بالتقوى حينما أمر غيره بعدم طاعة خالقه؟ الجواب: كلا ثم ترقى سبحانه فذكر بشاعة أخرى فقال: (أرأيت إن كذب).. إلخ. أى كذب بما جاء به الرسول وأعرض عن الطاعة، فهل يظن أنه يفلت من عقابنا؟ هذا جهل منه. ألم يعلم بأن الله يطلع على أعماله ويحصيها عليه؟ يجب أن ينزجر هذا الطاغية وينتهى عن جرمه. ووالله لئن لم ينته لنقبضن على ناصيته ونقهره ونذله.

بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ[1] خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾ ۩

(٩٧) سُورَةُ القَدْرِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا خَمْسٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ[2] فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَىٰكَ[3] مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَٰٓئِكَةُ[4] وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ[5] هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

المفردات: ﴿بالناصية﴾: هى شعر مقدم الرأس. وتطلق أيضًا على الجبهة.

﴿ناصية كاذبة﴾: المراد: كاذب صاحبها، كما فى (راضية) فى الآية (٢١) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢.

﴿خاطئة﴾: أى خاطئ صاحبها أيضا.

﴿فليدع ناديه﴾: أصل النادى: المكان الذى يجتمع فيه القوم، كما يطلق على القوم المجتمعين فيه. وهذا هو المراد هنا، والمراد: فليجمعهم عنده، وليحارب المؤمنين إن استطاع.

﴿سندع﴾: أصلها (سندعو) وحذفت الواو تخفيفا، كما فى الآية (١١) من سورة الإسراء صفحة ٣٦٥.

﴿الزبانية﴾: جمع زابن، مأخوذ من الزبن بفتح فسكون وهو الدفع بشدة. وأصل استعمال الزبانية فى الجنود أعوان الولاة. ويطلقه العرب على كل قوى شديد البطش. والمراد بهم هنا الملائكة المشار إليهم فى الآية (٦) من سورة التحريم صفحة ٧٥٢.

﴿كلا﴾: كسابقتها.

﴿لا تطعه﴾: المراد: استمر على عدم طاعته فيما يريده من ترك الصلاة.

﴿واسجد﴾: أى داوم على صلاتك.

---

(١) كاذبة.
(٢) أنزلناه.
(٣) أدراك.
(٤) الملائكة.
(٥) سلام.

﴿واقترب﴾: أى أجتهد فى القرب منه سبحانه بكثرة الطاعة.

المعنى: يقول سبحانه والله لئن لم ينته هذا الطاغية عن طغيانه لنذلنه ونقهرنه لكذبه فى زعمه أن صاحب المال أعلا منزلة من الفقير ولخطئه فى تجاوزه الحد فى الطغيان.

ثم هدده بالفشل والخزى فقال: (فليدع ناديه).. إلخ. أى فليجمع أنصاره ويحارب المؤمنين إن استطاع. وإن حدثته نفسه بذلك فقد تعرض لنقمتنا لأنا سندعو لمحاربته من جنودنا من لا طاقة له بهم فيهلكونه فلا تهتم به أيها النبى. وداوم على عدم طاعته واستمر على صلاتك، واجتهد فى كل ما يقربك من الله سبحانه وتعالى، والله أعلم.

﴿سورة القدر﴾

المفردات: ﴿أنزلناه﴾: الضمير يرجع للقرآن الذى بلغ من الشهرة واشتغال الناس به حدا جعله حاضرا فى كل ذهن، انظر نظير ذلك فى الآية (٦١) من سورة النحل صفحة ٣٥٣.

﴿القدر﴾. المراد به العظمة والشرف. يقال لفلان قدر عند فلان، أى شرف ومنزلة رفيعة.

﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾: تقدم المراد من هذا الاستفهام فى الآية (٣) من سورة الحاقة.

﴿خير من ألف شهر﴾: المراد: ألف خالية من ليلة مثلها، فالخير فى هذه الليلة عميم، والعمل الصالح فيها شكرا لله على نعمة إنزال القرآن الكريم الذى فيه سعادة الخلق.

﴿تنزل الملائكة﴾.. إلخ: أصلها تتنزل أى تنزل تباعا ملائكة الرحمة وكبيرهم جبريل، بإذن ربهم لهم بذلك على العابدين الشاكرين.

﴿الروح﴾: هو جبريل عليه السلام كما تقدم فى الآية (١٩٣) من سورة الشعراء صفحة ٤٩١. ﴿من كل أمر﴾: من بمعنى الباء أى بكل أمر.

﴿سلام هى﴾: أصل السلام هو السلامة من كل مكروه وأريد به هنا أنها سبب تام للسلامة والنجاة حتى كأنها هى السلام نفسه.

﴿حتى مطلع الفجر﴾: أى إلى وقت طلوع الفجر.

المعنى: إنا بدأنا إنزال القرآن فى ليلة الشرف والرفعة. وهل هناك شرف وعلو منزلة لزمن من الأزمان مثل شرف ليلة أنزل فيها سبحانه أجل نعمة تضىء طريق الهداية للناس كافة إلى يوم القيامة؟ ولذا قال سبحانه: وما أدراك.. إلخ. أى إن معرفة منزلة هذه الليلة باعتبار ما حصل فيها فوق مستوى قدرة البشر، ولا يعلم حقيقة شرفها إلا علام الغيوب جلة قدرته. وإنما قلنا بدأنا إنزاله لأن القول بإنزال القرآن كله فى تلك الليلة لا يستقيم إذا علمنا أن هذه السورة جاءت مخبرة عن إنزال القرآن. فلو كان المعنى إنزاله كله تكون هذه السورة ليست منه؛ لأنه لا يصح أن تكون مخبرة ومخبرًا عنها فى آن واحد. وبعدما شوق سبحانه النفوس لمحاولة إدراك فضلها، أراد أن يبين شيئًا مجملا منه فقال: ليلة القدر خير من ألف شهر. أى إن خيرها عميم، والعمل الصالح فيها - شكر الله على نعمة إنزال هذا القرآن - خير من العمل فى ليال كثيرة غيرها. ثم ذكر سبحانه ما يشعر بشىء من فضلها فقال تعالى: تنزل الملائكة.. إلخ. أى تتنزل ملائكة الرحمة وكبيرهم جبريل عليه السلام على العابدين الشاكرين فيها بأمر ربهم لهم بذلك، تنزل بكل أمر فيه خير للطائعين من التسليم عليهم والاستغفار لهم والدعاء. كما يفعل حملة العرش لهم، انظر آيات (٧، ٨، ٩) من سورة غافر صفحة ٦١٨.

وطاعة الله فى هذه الليلة فيها سبب للسلامة والنجاة من كل مخوف فى الدنيا والآخرة. ويستمر نزول الملائكة على العباد فوجًا بعد فوج إلى طلوع فجرها. ومن يعلم أنه سبحانه أمرنا بصيام شهر رمضان شكرا له على إنزال القرآن فى ليلة من لياليه كما فى الآية (١٨٥) من سورة البقرة صفحتى ٣٥، ٣٦. يعلم سبب عناية الرسول ﷺ بالبحث على قيامها، وأنه هو الشكر على هذه النعمة التى لا تساويها نعمة أخرى. وقد عرف عنه ﷺ حرصه على شكر ربه على كل نعمة حتى ما كان منها على من سبقه من إخوانه الأنبياء. فقد جاءت الأحاديث الصحيحة أنه ﷺ لما هاجر إلى المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء لأن الله تعالى نجى فيه موسى عليه السلام من الغرق. فقال ﷺ. نحن أحق بموسى منهم. وأمر أصحابه بصيامه.

المفردات: ﴿أهل الكتاب﴾: المراد بهم كل من كانوا يدعون أنهم أهل كتاب وأنهم أتباع نبى من الأنبياء كاليهود، والنصارى، والصابئين، انظر الآية (٦٢) من سورة البقرة صفحتى ١٢، ١٣ والآية (٦٩) من سورة المائدة صفحة ١٥١.

(٩٨) سورة البينة مدنية وآياتها ثمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ[1] وَالْمُشْرِكِينَ
مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ
يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا
تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ[2] إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ
الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ[3] وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ[4]
وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ[5] وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ[6] فِيهَا

سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والمشركين﴾: المراد بهم هنا كل من عبد غير الله كالأصنام أو النار، ولم يكن لهم كتاب.

﴿منفكين﴾: أى متروكين هملا بدون أن نرشدهم للحق، ونقيم عليهم الحجة؛ انظر الآيات ١١٥ من سورة المؤمنون صفحة ٤٥٦ و(٥) من سورة الزخرف صفحة ٦٤٧ و(٣٦) من سورة القيامة صفحة ٧٨٠.

﴿حتى تأتيهم البينة﴾: أى إلى أن تأتيهم الحجة والمعنى: لا نتركهم إلا بعد أن نقيم عليهم الحجة لنقطع عليهم العذر يوم القيامة، وانظر معانى البينة فى الآية (٥٧) من سورة الأنعام صفحة ١٧١.

﴿رسول من الله﴾: بيان للبينة، باعتبار ما جاء به ﷺ من القرآن المعجز، انظر آيتى (١٣٣، ١٣٤) من سورة طه صفحة ٤١٩.

﴿يتلو صحفًا﴾: المراد: يقرأ قرآنًا يصير فيما بعد مكتوبًا فى صحف.. إلخ. ﴿مطهرة﴾: أى منزهة عن الباطل والتحريف.

﴿فيها كتب﴾: المراد من الكتب هنا: الآيات المكتوبات فى الصحف، انظر ما تقدم فى الآية (٧) من سورة المطففين صفحة ٧٩٧.

﴿قيمة﴾: أى مستقيمة لا عوج فيها، انظر آيتى (١، ٢) من سورة الكهف صفحة ٣٨٠.

﴿وما تفرق﴾.. إلخ: أى وما اختلفوا وصاروا شيعًا وأحزابًا، انظر الآيات (٢١٣) من سورة البقرة صفحتى ٤١، ٤٢ و (١٠٥) من سورة آل عمران صفحة ٨٠ و (١٦، ١٧، ١٨) من سورة الجاثية صفحة ٦٦٢، والمراد: أن هذا هو شأنهم دائما. ﴿إلا ليعبدوا الله﴾: اللام بمعنى (أن) والمراد إلا أن يعبدوا الله.. إلخ. انظر شرح الآية (٨) من سورة الصف صفحة ٧٣٩.

(١، ٢) الكتاب. (٣) الصلاة. (٤) الزكاة. (٥) الكتاب. (٦) خالدين.

﴿حنفاء﴾: جمع حنيف، وهو البعيد عن الباطل، المائل إلى الحق؛ انظر شرح الآية (١٣٥) من سورة البقرة صفحة ٢٦، والآية (٣١) من سورة الحج صفحتى ٤٣٧، ٤٣٨.

﴿دين القيمة﴾: أى دين الأمة المستقيمة على طريق الحق.

المعنى: كان الناس قبل مبعث النبى ﷺ ما بين مشركين يعبدون غير الله، وأهل كتاب غلب عليهم ظلام الجهل بما يجب اعتقاده لله سبحانه، وما يجب عمله تقربا إليه، ونسوا كثيرا من شرائع أنبيائهم كما فى الآية (١٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٨ واعتمدوا فيما يعتقدون ويعملون على تقليد الآباء. وكان آباؤهم أدخلوا فى شرائعهم ما ليس منها لسوء فهم أو لاستحسان بدع يتوهمونها خدمة للدين مع أنها أشد ضررًا عليه انظر شرح الآية (١٠٤) من سورة الكهف صفحة ٣٩٥. وبعملهم هذا خفى الحق فى ظلام الباطل.

وإذا وصل الأمر إلى هذا الحد تقتضى الحكمة الإلهية إرسال رسول يوضح للناس طريق الحق ويزيل منه ما وضع فيه من أشواك شوهت جماله. فى كل هذا يقول سبحانه: لم يكن للذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين، أى متروكين على ما هم عليه هملا، المراد لا نتركهم إلا بعد أن تأتيهم منها حجة تبين لهم طريق الصواب، وتلك الحجة هى الرسول المؤيد بأدلة صدقه خصوصًا ما معه من القرآن الذى يتلوه عليهم. فإذا فعلنا ذلك نتركهم وشأنهم. فمن شاء فليؤمن. ومن شاء فليكفر. انظر الآية (٢٩) من سورة الكهف صفحتى ٣٨٤، ٣٨٥. ثم أراد سبحانه أن يوبخ أهل الكتاب - على الخصوص - على إعراضهم عن الإيمان به ﷺ فقال: (وما تفرق الذين).. إلخ.

المراد أنه لما جاءهم الرسول المؤيد بالمعجزات كان الواجب عليهم أن يهتدوا. ولكنهم لم يستفيدوا منه كما هى عادتهم السابقة مع أنبيائهم فإنهم لم يبالغوا فى التفرق إلى شيع وأحزاب إلا بعد ما جاءتهم البينة على ألسنة رسلهم. فهذا شأنهم أيضًا مع خاتم الرسل ﷺ. مع أنهم لم يؤمروا على ألسنة الرسل مطلقًا إلا بأن يعبدوا الله مخلصين له الطاعة بعيدين عن جميع العقائد الباطلة. ويقيموا الصلاة على أصولها. ويؤتوا الزكاة لمستحقيها. وهذا هو المذكور هو دين الأمة المستقيمة على طريق الصواب، ثم أراد سبحانه أن يبين حال الفريقين - الكافرين والمؤمنين - فى الآخرة فقال تعالى: (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها).. إلخ.

أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟(١) وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ(٢) أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ(٣) عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ(٤) خَٰلِدِينَ(٥) فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

(٩٩) سورة الزلزلة مدنية وآياتها ثمان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ(٦) مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ

المفردات: ﴿البرية﴾: أى الخليقة.

﴿جنات عدن﴾: أصل معنى (عدن) الإقامة، ثم استعمل اسما من أسماء الجنة؛ لأن الإقامة فيها خالدة.

﴿رضى الله عنهم﴾: فأحسن ثوابهم.

﴿ورضوا عنه﴾: أى رضوا عن جزائه لهم، وسروا به.

﴿ذلك لمن خشى ربه﴾: أى وهذا الجزاء المتقدم لا يناله إلا من خاف مقام ربه، عند كل تصرف.

المعنى: الذين كفروا ويدخلون جهنم يوم القيامة هم شر الخليقة؛ لأنهم بإهمالهم لعقولهم أوقعوا أنفسهم فى العذاب الدائم فهم أضل من الأنعام كما فى الآية (١٧٩) من سورة الأعراف صفحة ٢٢٢. والذين آمنوا بالله تعالى ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر وعملوا الصالحات أولئك هم خير الخلائق. جزاؤهم عند ربهم بعد انتهاء الحساب يوم القيامة جنات عدن تجرى من تحت قصورها وأشجارها الأنهار خالدين فيها أبدًا. رضى الله عنهم فأحسن ثوابهم. ورضوا عن جزائه لهم. ولما كان ربما يظن قصير النظر أن مجرد الإيمان الوراثى الذى لم يقترن بالبرهان القطعى وأداء بعض العبادات كحركات الصلاة وإمساك الصوم مثلا - يظن أن مجرد ذلك يكفى فى نيل هذا الجزاء العظيم، ولو مع خلو القلوب من خشية الله تعالى التى توجب البعد عن المعاصى - لما كان ربما يظن هذا، أراد سبحانه دفع ذلك ببيان أن هذا الجزاء لا يناله إلا من ملأت خشية الله قلبه. فلا يصلى إلا خاشعًا، كما فى الآية (٢) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٥، ولا ينفق إلا لوجه الله. ولا يقرب معصية أبدا. وإذا وقع فيها سارع إلى التوبة منها. والله الموفق.

(١) آمنوا. (٢) الصالحات. (٣) جنات. (٤) الأنهار. (٥) خالدين. (٦) الإنسان.

﴿سورة الزلزلة﴾

المفردات: ﴿إذا زلزلت﴾: أى اضطربت، انظر الآية (١) من سورة الحج صفحتى ٤٣٢، ٤٣٣؛ وإذا علمت أن (إذا) هنا ظرف لزمان يوم القيامة، الممتد من النفخة الأولى إلى دخول دار الجزاء (الجنة أو النار) تعلم أن المعنى: إذا تحركت الأرض حركة عنيفة عند النفخة الأولى و﴿أخرجت﴾ أى عند النفخة الثانية.

﴿زلزالها﴾: المراد: الزلزال المخصوص بها فى تلك الحالة. وهو زلزال شديد لا يعرف مقدار شدته إلا علام الغيوب سبحانه وتعالى.

﴿وأخرجت الأرض﴾: أظهر ذكر الأرض ثانيًا، ولم يكتف سبحانه بضميرها فيقول (وأخرجت أثقالها) للإشعار بأن الأرض عند إخراج ما فيها تكون على حالة مغايرة لما كانت عليه عند الزلزلة، فهى أرض أخرى، انظر (يوم تبدل الأرض).. إلخ الآية (٤٨) من سورة إبراهيم صفحة ٣٣٧.

﴿أثقالها﴾: جمع ثقل، بكسر فسكون. والمراد ما يثقلها من كل ما فى جوفها من أموات، وكنوز، وغير ذلك، انظر الآية (٤) من سورة الانشقاق صفحة ٧٩٩.

﴿وقال الإنسان﴾: المراد بالإنسان هنا: الكافر لأنه هو الذى يفاجأ بما كان ينكره.

﴿مالها﴾: أى شىء حصل لها؟ والمراد: التعجب من شدة الهول.

﴿تحدث أخبارها﴾: أى تحدث الناس بلسان حالها، كما فى (قالتا أتينا طائعين) الآية (١١) من سورة فصلت صفحتى ٦٣٠، ٦٣١.

﴿بأن ربك أوحى لها﴾: الباء للسببية. أى بسبب إيحاء الله لها. أى أمره لها بأن يحصل منها ما حصل والمراد: الأمر التكوينى المشار إليه فى الآية (٨٢) من سورة يس صفحة ٥٨٦.

المعنى: إذا تحركت الأرض حركة عنيفة عند النفخة الثانية، وأخرجت الأرض كل ما فى جوفها مما كان يثقلها. ويقول الإنسان لما دهاه من المفاجأة: أى شىء حصل للأرض حتى لفظت ما فى بطنها، إذا حصل كل هذا ينادى لسان حال الأرض بما يفهم منه إن ما حدث لم يكن بسبب من الأسباب العادية المعهودة فى الدنيا. بل ذلك بسبب أن الله قال لها: كونى مضطربة مخرجة ما فى جوفك، فكان ما أمر به سبحانه.

يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ[1] ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

(١٠٠) سُورَةُ العَادِيَاتِ مَكِّيَّة وآياتها إحدى عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ[2] ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ[3] قَدْحًا ﴿٢﴾
فَالْمُغِيرَاتِ[4] صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ
بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ[5] لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ
عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾
* أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ

المفردات: ﴿يصدر الناس﴾: تقول العرب: صدر فلان عن المدينة أى سافر منها وتركها وانتقل لغيرها: والمراد هنا: يخرجون من القبور.

﴿أشتاتا﴾: أى متفرقين، تقدم فى الآية (٦١) من سورة النور صفحتى ٤٦٨، ٤٦٩، وانظر الآية (٧) من سورة القمر صفحة ٧٠٥ والآية (٤) من سورة القارعة صفحة ٨١٩.

﴿ليروا أعمالهم﴾: المراد ليريهم الله جزاء أعمالهم. تقول العرب: عاش فلان حتى رأى عمله. أى ثمرة عمله.

﴿مثقال ذرة﴾: تقدما فى الآية (٤٠) من سورة النساء صفحة ١٠٧ والآية (٦١) من سورة يونس صفحتى ٢٧٥، ٢٧٦.

المعنى: فى يوم القيامة عند النفخة الثانية المذكورة فى الآية (٦٨) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ يخرج الناس من القبور متفرقين لا يسأل أحد عن أحد من شدة الهول. ثم يساقون إلى المحشر ليريهم الله جزاء أعمالهم ثم فصل ذلك بقوله تعالى: (فمن يعمل).. إلخ. أى فمن كان عمل فى الدنيا عملا من الخير بوزن أصغر شىء فى الوجود فإنه يرى جزاء عمله لا فرق فى ذلك بين مؤمن وكافر لأن صريح نص الآية (٤٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٢٥ يقتضى ذلك. والآيات التى تفيد بطلان عمل الكافر وعدم نفعه له المراد منها أنه لا ينفعه فى رفع الخلود فى النار. فلا يمنع أنه يخفف عنه بعض عذاب الذنوب الأخرى غير الكفر بمقتضى عدل الله سبحانه، أما الكفر نفسه فلا يخفف عنهم من عذابه شىء. ويؤيد هذا ما جاء فى الأحاديث

---

(١) أعمالهم.
(٢) العاديات.
(٣) فالموريات.
(٤) فالمغيرات.
(٥) الإنسان.

الصحيحة من قوله ﷺ أن حاتم الطائى يخفف عنه العذاب لكرمه وأن أبا لهب يخفف عنه لسروره بمولده ﷺ حتى أنه أعتق جاريته (ثويبة) عندما بشرته بذلك. وأن أبا طالب عمه ﷺ لا تمس النار إلا قدميه وإن كان يغلى منها رأسه. لتفانيه فى دفع أذى قريش عنه ﷺ. ومما يدل على أن عذاب جهنم يتفاوت ما جاء فى الآية (١٤٥) من سورة النساء صفحة ١٢٨، والآية (٤٦) من سورة غافر صفحة ٦٢٤، وانظر شرح الآية (٤٩) من سورة الأنعام صفحة ١٦٩ و (٣٦) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣ ومما يدل على انتفاع الكافر بعمل الخير ما نقلناه عن الحافظ ابن حجر فى شرح حديث رقم ٣٢٧ فى كتابنا صفوة صحيح البخارى وهو فى باب المزارعة (من زرع زرعا فيأكل منه طير أو.. إلخ إلا كان له ثواب).. إلخ ومن يعمل وزن ذرة من الشر ير جزاءه شرا، لا فرق كذلك بين مؤمن وكافر، إلا إذا تاب منه المؤمن نسأل الله تعالى السلامة.

﴿سورة العاديات﴾

المفردات: ﴿والعاديات﴾: جمع عادية. من العدو وهو الجرى. والمراد: الخيل الجاريات.

﴿ضبحا﴾: الضبح هو صوت أنفاس الخيل عند جريها، وأريد به هنا اسم الفاعل الواقع حال من العاديات،، أى والعاديات حال كونها ضابحات أى مرتفعات أصوات أنفاسها.

﴿الموريات﴾: جمع مورية من الإيراء. وهو إخراج النار من الحجر بالزناد مثلا انظر الآية (٧١) من سورة الواقعة صفحة ٧١٦.

﴿قدحا﴾: أصل القدح هو الضرب على الحجر لإخراج النار، والمراد: حال كونها قادحات أى ضاربات بحوافرها على حجارة الأرض فتخرج النار.

﴿المغيرات﴾: جمع مغيرة، من أغار على العدو إذا هجم عليه.

﴿صبحا﴾: أى وقت الصبح والعدو فى غفلة.

﴿أثرن﴾: الإثارة هنا هى التهييج وتحريك الغبار.

﴿نقعا﴾: أى غبارا.

﴿وسطن به جمعا﴾: (به) أى بالصبح. أى دخلن وتوسطن فى وقت الصبح داخل جمع العدو.

﴿إن الإنسان﴾: هذا أول المحلوف عليه. والمراد: أغلب أفراد الإنسان. وإلا فمَنْ عصمه الله لا يكون هكذا، انظر الآية ٢ من سورة العصر صفحة (٨٢٠). (لكنود): أى كفور. يقال فلان كند النعمة أى جحدها ولم يشكر عليها، والمراد: لكثير جحود النعمة.

﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾: أى إن أعماله تشهد بأنه كفور لنعم ربه، فهى شاهدة بلسان الحال، وهى أصدق من شاهدة اللسان، انظر نظير ذلك فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف صفحة (٢٢١) والآية (١٧) من سورة التوبة صفحة ٢٤٢.

﴿الخير﴾: المراد به هنا: المال الكثير. انظر الآية (١٨٠) من سورة البقرة صفحتى ٣٤ ، ٣٥.

﴿بعثر﴾: أى نثر، كما تقدم فى الآية (٤) من سورة الإنفطار صفحة ٧٩٥.

﴿حصل﴾: أى جمع من صحف الملائكة، وأبرز ما انطوت عليه الصدور من نيات حسنة أو سيئة .

المعنى : . أقسم سبحانه بالخيل التى تجرى فى سبيل الله حال كونها ضابحات من شدة الجرى. ويتطاير الشرر من تحت حوافرها من شدة قدمها للأرض الحجرية. والتى يهجم بها فرسانها على العدو فى وقت الصباح ليأخذوه على غرة. والتى يكون من شدة جريها أنها تثير غبار الطرق فى وقت الصباح. فتدخل وسط جمع الأعداء فتشتته. ومع ملاحظة أول شرح صفحة ٥٨٧ تعلم حكمة قسمه سبحانه بالخيل صاحبة تلك الصفات. وهى تنبيه المؤمنين للعناية بكل ما يعلمهم الكر والفر ومقاومة شر الأعداء. ليكونوا دائمًا على أهبة الاستعداد فيها بهم مَنْ تحدثه نفسه بأضعافهم، انظر الآية (٦٠) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٦. ثم ذكر سبحانه المحلوف عليه فقال تعالى: إن الإنسان.. إلخ. أى إن طبع الإنسان الذى يظهر فى أغلب أفراده أنه شديد الكفر لنعم ربه، فلا يؤدى حق شكرها بالإحسان إلى المحتاجين والصرف فى مصالح الأمة، وأن تصرفاته فى جمع المال والتسابق بشره عليه تشهد عليه بذلك؛ لأن الذى يتهالك على جمعه لا يسهل عليه بذله فى وجوه الخير. ثم ذكر سبحانه الباعث للإنسان غير الموفق على ذلك فقال: وإنه لحب .. إلخ. أى وأنه لشديد الحب للمال الكثير ـ ثم هدد سبحانه مَنْ كان هذا شأنه بقوله أفلا يعلم، أى هل جرفته الغفلة فصار لا يعلم ما سيلاقيه حين يخرج الموتى من القبور للحشر والحساب. وحين يجمع من صحف الملائكة ويبرز ما انطوت عليه الصدور من النيات الحسنة والسيئة وغير ذلك؟

مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

(١٠١) سُورَةُ القَارِعَةِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا إِحْدَى عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ[1] مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾
يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ
الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ
مَوَازِينُهُ[2] ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ[3] ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ[4] مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾
نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

المفردات: ﴿يومئذ لخبير﴾: هذا كناية عن مجازاتهم على أعمالهم فى هذا اليوم. وإلا فهو سبحانه يعلم أحوالهم فى هذا اليوم وفى غيره، كما تقول مهددًا شخصا: سأعرف لك عملك هذا تريد سأجازيك؛ ومنه قوله تعالى ﴿سنكتب ما قالوا﴾ الآية (١٨١) من سورة آل عمران صفحة ٩٣ . أى سنجازى عليه لأن الكناية حصلت بمجرد النطق بها.

المعنى: إن رب هؤلاء الناس عالم بأحوالهم؛ والمراد أنه سيجازيهم فى هذا اليوم على ما عملوا. والله أعلم.

سورة القارعة

المفردات: ﴿القارعة ما القارعة﴾... إلخ: انظر المراد بهذا الأسلوب فى شرح الآيات (١،٢،٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١.

و﴿القارعة﴾: اسم من أسماء القيامة كالحاقة فى صفحة ٧٦١، والطامة فى الآية (٣٤) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠، والصاخة فى الآية (٣٣) من سورة عبس صفحة ٧٩٣، والغاشية فى الآية (١) من سورة الغاشية صفحة ٨٠٤، وسميت قارعة لأنها تقرع القلوب، أى تزعجها بأهوالها.

﴿يوم﴾: هذا اليوم يبتدئ من النفخة الأولى إلى انتهاء الحساب، انظر ما تقدم فى ﴿إذا زلزلت﴾ صفحة ٨١٧.

---

(١) أدراك. (٣،٢) موازينه. (٤) أدراك

﴿الفراش﴾: هو الطير الصغير الذى يترامى على ضوء السراج ليلا؛ ويضرب به المثل فى الحيرة، والجهل بالعاقبة.

﴿المبثوث﴾: أى المنتشر، انظر الآية (٧) من سورة القمر صفحة ٧٠٥ .

﴿وتكون الجبال كالعهن﴾: العهن الصوف، انظر التفصيل فى الآية (٤٧) من سورة الكهف صفحة ٣٨٧.

﴿ثقلت موازينه﴾: المراد: كانت حسناته أكثر من سيئاته، فكان له عند ربه اعتبار، انظر شرح الآية (٨) من سورة الأعراف صفحة ١٩٣ .

﴿عيشة راضية﴾: تقدم فى الآية (٢١) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢.

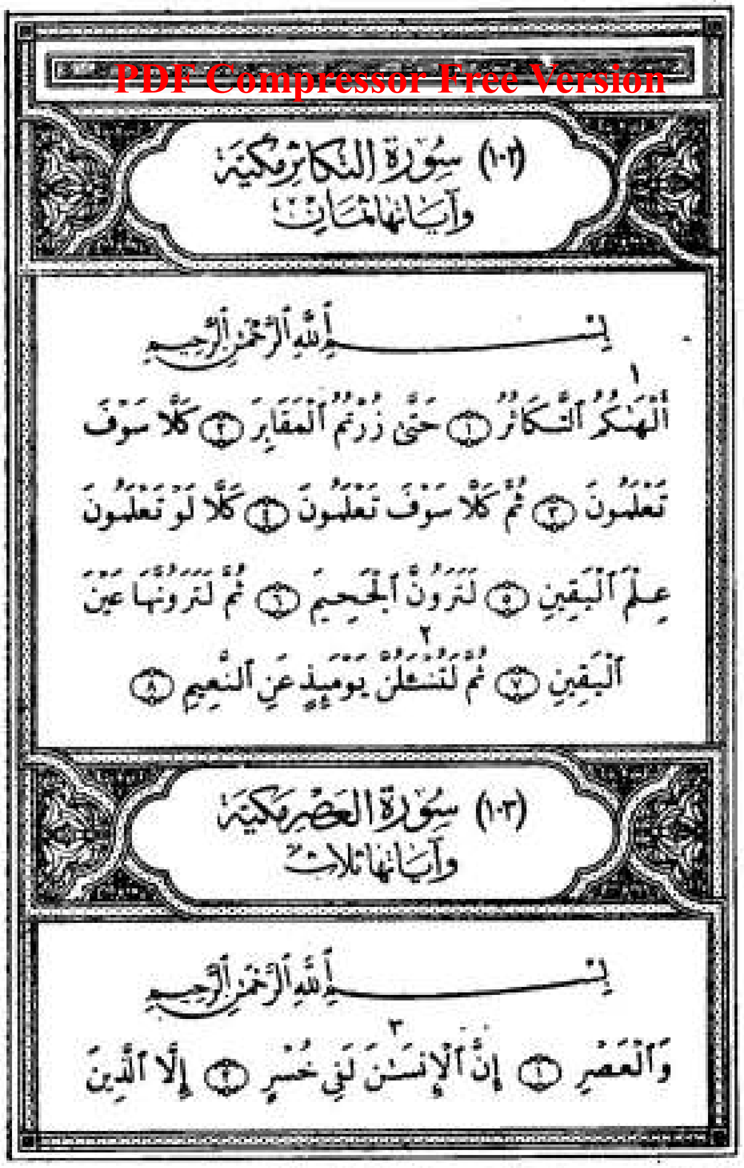
﴿خفت موازينه﴾: المراد: كانت سيئاته أكثر من حسناته فالويل لمَنْ لم تكن له حسنات.

﴿أمه﴾: المراد مرجعه الذى يأوى إليه كما يأوى الطفل إلى أمه، وهذا تهديد شديد، وأنه لن يجد مكان راحة حتى ما كان يظن أنه راحة فهو نار حامية، والكلام هنا من قبيل التهكم، كما فى قوله تعالى ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾.

﴿هاوية﴾: هى المكان المنخفض كثيرًا الذى لا يرجع من سقط فيه. وفسرها هنا بالنار.

﴿ماهية﴾: أصلها (ما هى) والعرب تزيد هاء ساكتة على آخر الكلمة، ويسمونها هاء السكت، كما سبق فى قوله تعالى ﴿اقرءوا كتابيه﴾ فى الآية (١٩) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٢.

المعنى: القارعة وما حقيقتها؟ شىء هائل. ولا شىء يدريك حقيقتها لشدة أهوالها. هذه القارعة تقرع الأسماع فى اليوم الذى يكون الناس فيه كالفراش المبثوث فى الكثرة والانتشار والاضطراب والطيش والضعف. وتكون الجبال كالصوف المنفوش فى الخفة والتطاير فى الهواء ثم الفناء. وعند عرض الخلائق على الحساب فى هذا اليوم ينقسمون إلى من رجحت كفته عند ربه فيجازيه بعيشة هنيئة يرضى عنها غاية الرضا. وإلى مَنْ سقطت قيمته عند ربه لكثرة سيئاته فيجازى بإسقاطه فى هاوية سحيقة لا يخرج منها. وتلك الهاوية هى نار شديدة


(١٠٢) سُورَةُ التَّكَاثُرِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ[1] التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ
عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ
الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ[2] يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)

(١٠٣) سُورَةُ الْعَصْرِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا ثَلَاثٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ[3] لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ

الالتهاب. نسأل الله تعالى السلامة.

سورة التكاثر

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿ألهالكم﴾: أى شغلكم.

﴿التكاثر﴾: أى التسابق فى تكثير الأموال والأولاد والتفاخر بهما، انظر الآية (٢٠) من سورة الحديد صفحة ٧٢٢ .

﴿زرتم المقابر﴾: المراد: حتى متم ودفنتم فى القبور. والتعبير بالزيارة لإفادة أن المكث فى القبور قليل سيعقبه سريعا حساب ثقيل، وقال ﴿زرتم﴾ مع أن المخاطبين لازالوا أحياء جريا على عادة القرآن فى نسبة عمل الآباء لأبنائهم الذين ساروا فى طريقهم، فكأنه يقول شغلتكم الدنيا كما شغلت آباءكم الذين ماتوا. ومن ذلك خطابه سبحانه لبنى إسرائيل الذين كانوا فى عهده ﷺ بما حصل من آبائهم فى عهد موسى، انظر آيتى (٤٩، ٥٠) من سورة البقرة صفحة ١٠ وآيتى (٥٥، ٥٦) من سورة البقرة أيضًا صفحة ١١ .

﴿كلا﴾: زجر لهم عما تقدم. ﴿سوف تعلمون﴾: أى بعد الموت. ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾: أى عند البعث من القبور علم مشاهدة جزاء أعمالكم.

﴿كلا﴾: كرر سبحانه زجرهم وذلك لتمكن شهوة المال من نفوسهم.

﴿لوتعلمون علم اليقين﴾: أى علمًا يقينيًا، انظر ما تقدم فى الآية (٩٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٨، وجواب ﴿لو﴾ مقدر، أى لصرفكم ذلك عن التكاثر من المتاع الزائل، ولدفعكم إلى السعى فيما به السعادة الخالدة.

﴿لترون الجحيم﴾: المعنى: والله لترون الجحيم وهى بارزة لكم. غير بعيدة، كما فى الآية (٩١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥ والآية (٣٦) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠.

---

(١) الهاكم. (٢) لتسالن. (٣) الإنسان.

﴿ثم لترونها﴾: أى بعد ذلك بدخولكم فيها وذوقكم عذابها. ﴿عين اليقين﴾: أى عيانا، وانظر ما تقدم أيضًا فى الآية (٩٥) من سورة الواقعة صفحة ٧١٨. ﴿ثم لتسألن﴾... إلخ: ﴿ثم﴾ للترتيب الإخبارى؛ لأن السؤال فى موقف الحساب قبل رؤية جهنم.

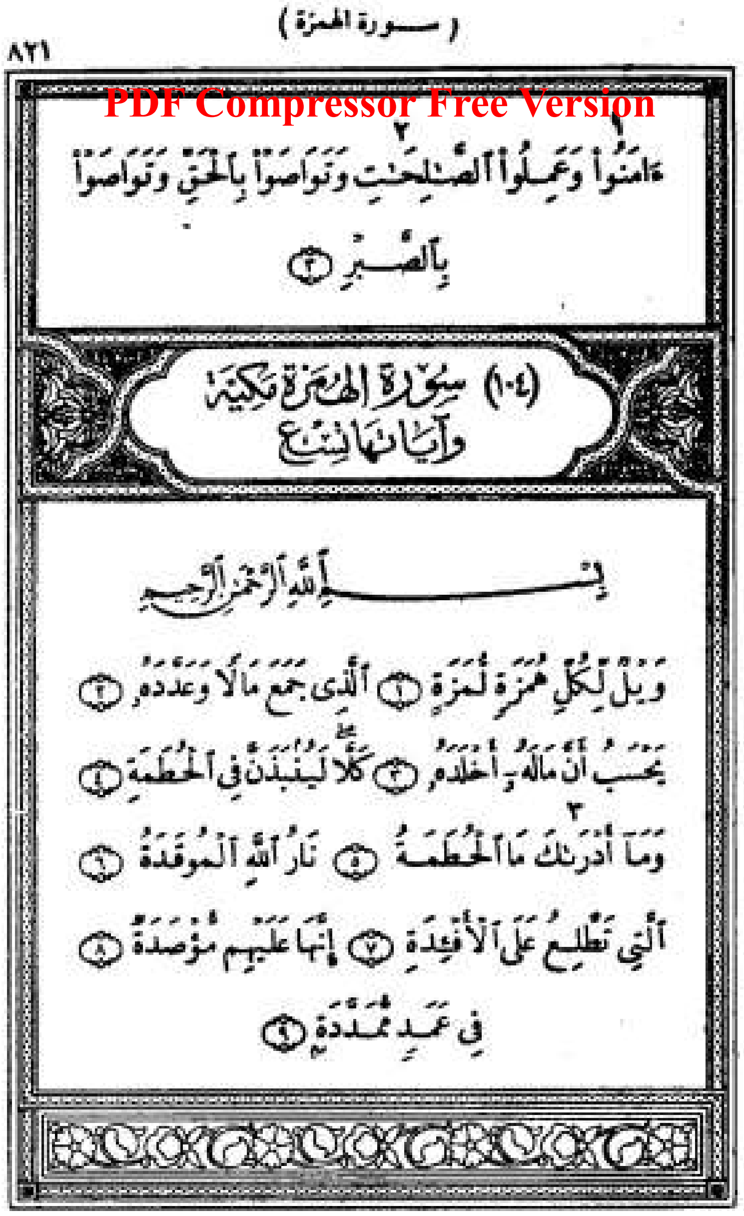
المعنى: شغلكم أيها الضالون التسابق فى تكثير الأموال والأولاد والتباهى بهما، وصرف إلى ذلك اهتمامكم حتى غفلتم عما سيلاقيكم من المخاطر. وبقيتم فى هذه الغفلة حتى دفنتم فى القبور، انزجروا عن هذا التكالب، وإلا سوف تعلمون بعد الموت خطاكم. ثم انزجروا خيرًا لكم فسوف تعلمون عند البعث من القبور علم مشاهدة جزاء أعمالكم. لو تعلمون علمًا يقينيًا لصرفكم ذلك عن التكاثر من المتاع الزائل. ولدفعكم إلى السعى فيما فيه السعادة الخالدة. ثم أكد سبحانه ما تقدم مع تهديدهم فقال: لترون... إلخ. أى والله لترون الجحيم وهى بارزة لكم غير بعيد، كما فى الآية (٩١) من سورة الشعراء صفحة ٤٨٥ والآية (٣٦) من سورة النازعات صفحة ٧٩٠ . ثم لترونها بعد ذلك بدخولكم فيها وذوقكم عذابها؛ ثم ختم السورة بما فيه توبيخ لهم فقال: ثم لتسألن يومئذ عن النعيم أى الذى كنتم تتكالبون عليه. هل رأيتم فيه حقوق الله. وراعيتم أحكامه فى الحصول عليه والتمتع به. فإن لم يكن كذلك كان ما تنعمتم به سببًا لأبشع شقاء فى دار البقاء. نسأل الله السلامة.

سورة العصر

المفردات: ﴿العصر﴾: المراد به عصر النبوة مدة حياته ﷺ فإنه أشرف العصور. أقسم به سبحانه لأهمية ما حصل فيه، كما أقسم بالتين والزيتون وطور سيناء لما حصل فيها. فيكون سبحانه أقسم ببلده ﷺ باعتبارين. اعتبار توبيخ الكفار على انتهاك حرمته كما فى الآية (١) من سورة البلد. واعتبار شرفه لمبعثه فيه كما فى الآية (٣) من سورة التين صفحة ٨١٣ . وأقسم هنا بعصره الذى عاش فيه لأنه أشرف العصور لما فيه من إنقاذ للبشرية من الشرور وعموم الرحمة، انظر الآية (١٠٧) من سورة الأنبياء صفحة ٤٣٢ .

﴿الإنسان﴾: المراد به هنا: المكلف، ﴿لفى خسر﴾: أى لفى خسران فى تجارته التى جعلها مع الشيطان انظر الآية (١٦) من سورة البقرة صفحة ٥ .

المعنى: وحق عصرك أيها النبى الذى كان خيرًا وبركة على العالمين إن الإنسان لفى خسارة عظيمة فى تجارته التى جعلها مع الشيطان فيقدم له عصيان ربه لينال حظًا فانيًا فما ربحت تجارته، انظر الآية (١٦) من سورة البقرة صفحة ٥ ، لكنه لو تاجر مع الله كما أرشده لربح ربحًا عظيمًا، انظر الآيات من (١٠ إلى ١٣) من سورة الصف صفحتى ٧٣٩، ٧٤٠ .



المفردات: ﴿وتواصوا بالحق﴾: أى بكل ما هو حق.

﴿وتواصوا بالصبر﴾: هو من عطف الخاص على العام. وخصه بالذكر لأهميته ولأنه كما قال الحديث، نصف الإيمان. والمراد: الصبر على مشاق كل ما يرضى الله.

المعنى: والذين آمنوا بكل ما يجب الإيمان به. ومنه تصديقهم بما يجلب الخير ويبعد الشر. واعتقادهم الفرق بين الفضيلة والرذيلة وكان إيمانهم هذا حاملاً لهم على أن يعملوا الأعمال النافعة لهم ولقومهم فى الناس كافة ومن بين تلك الأعمال عملان مهمان هما أصل الفلاح، أولهما أن يوصى بعضهم بعضًا باتباع الحق وهو كل ما يقره الشرع والعقل السليم. فكل مَنْ لم يأخذ على نفسه حمل غيره على الحق المقطوع بنفعه فهو من الخاسرين بمقتضى هذا النهى الصريح. وثانيهما أن يوصى بعضهم بعضًا على الصبر على مشقة العمل الطيب. واحتمال آلام المصائب بدون جزع. ولا يمكن حمل الغير على شيء من ذلك إلا إذا كان الأمر به قائمًا بالواجب عليه، ولجلال هذه المبادئ وعموم نفعها قال الشافعى رضى الله تعالى عنه: لو لم ينزل من القرآن غير هذه السورة لكفت الناس.

سورة الهمزة

المفردات: ﴿ويل﴾: أى هلاك. ﴿همزة﴾: أى كثير الهمز، أى العيب فى غيره. والتاء فيه للمبالغة فى الصفة، كما تقول فلان ضحكة أى كثير الضحك وقد تقدم معناه فى الآية (١١) من سورة القلم صفحة ٧٥٨ .

---

(١) آمنوا. (٢) الصالحات. (٣) أدراك.

﴿لمزة﴾: أى كثير اللمز. وهو الطعن فى الغير خفية. بالإشارة باللسان أو العين مثلا، وقد يطلق على الطعن مطلقا، ولو بغير هذه الكيفية، كما فى الآية (٥٨) من سورة التوبة صفحة (٢٥٠) والآية (١١) من سورة الحجرات صفحة ٦٨٦ والتاء هنا كسابقتها.

﴿جمع مالا﴾: هذه إشارة إلى ما جعله يهزأ بالناس ويحط من أقدارهم ويسخر منهم، انظر الآية (١٤) من سورة القلم صفحة ٧٥٨ والآية (١٢) من سورة المدثر صفحة ٧٧٦ .

﴿وعدده﴾: أى صار يعده المرة بعد المرة، شغفًا به وتلذذا بإحصائه. ﴿يحسب﴾: أى يظن. ﴿أخلده﴾: أى جعله خالدًا لا يموت، والمراد: عمل كعمل مَنْ لا يظن الموت. ﴿كلا﴾: زجر له عن هذا العمل؛ أى فليرتدع عن هذا الظن.

﴿لينبذن﴾: أى والله ليطرحن. ﴿فى الحطمة﴾: كثيرة التحطيم والتكسير لكل ما يلقى فيها. (وما أدراك)... إلخ: المراد من هذا التركيب تهويل الأمر وقد تقدم مثله فى الآية (٣) من سورة الحاقة صفحة ٧٦١ . ﴿الموقدة﴾: أى الملتهبة التهابا شديدًا.

﴿تطلع على الأفئدة﴾: الأفئدة هى القلوب والمراد: أن هذه النار تصل إلى أعماق قلوبهم، انظر ما تقدم فى الآية (٧٢) من سورة غافر صفحة ٦٢٧ . ﴿مؤصدة﴾: أى مغلقة كما تقدم فى الآية (٢٠) من سورة البلد صفحة ٨٠٩ .

﴿فى عمد﴾: العمد اسم جمع، واحده عمود، كما تقدم فى الآية (٢) من سورة الرعد صفحة ٣٢٠ و﴿فى﴾: بمعنى الباء. أى مغلقة أبوابها بعمد ... إلخ. ﴿ممددة﴾: المراد: طويلة لشدة إغلاقها، وإشعارهم باليأس من الخروج منها.

المعنى: . هلاك شديد لكل مَنْ يعيب غيره. أو يطعن فى عرضه أو يسخر منه. الذى يحمله على ذلك كثرة جمعه للمال، وتلذذه بتعداده لأنه لا يرى شرفا إلا به. فكلما نظر إلى كثرة ما عنده انتفخ وظن أن كل مَنْ عداه دونه، وهو بعمله هذا يعمل عمل مَنْ يظن أن المال الكثير يخلد صاحبه فلا يموت. وبعدما هدد بالويل إجمالاً، فصل بعض تفصيل فقال تعالى: كلا... إلخ. أى فليرتدع عن هذا الظن وإلا والله ليطرحن فى النار حقيرًا ذليلاً. هذه النار التى تصل إلى أعماق القلب الذى يملؤه بحب المال وبالنيات السيئة والمقاصد الخبيثة. إن هذه النار تغلق عليهم ويوضع على أبوابها عمدان طويلة لشدة غلقها وتأكيد يأسهم من الخلاص منها، وهل هذا كناية عن عدم تمكينهم من الخروج من النار؟ أو هو حقيقة؟ الله أعلم بأحوال الآخرة. انظر الآية (٢٢) من سورة الحج صفحة ٤٣٦ .. نسأل الله الهداية والسلامة.

(١٠٥) سُورَةُ الفِيلِ مَكِّيَّة
وآيَاتُهَا خَمْسٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ[١] الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ
فِى تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم
بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)

(١٠٦) سُورَةُ قُرَيْشٍ مَكِّيَّة
وآيَاتُهَا أَرْبَع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَـٰفِ[٢] قُرَيْشٍ (١) إِۦلَـٰفِهِمْ[٣] رِحْلَةَ الشِّتَآءِ

المفردات: ﴿ألم تر﴾: الاستفهام هنا للتقرير، مثل ما فى الآية (١) من سورة الشرح صفحة ٨١٢ و﴿تر﴾: أى تعلم.

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أصحاب الفيل﴾: هم قوم من الحبشة كانوا يحكمون بلاد اليمن.

﴿ألم يجعل﴾: الاستفهام كالسابق.

﴿كيدهم﴾: أى تدبيرهم السيئ.

﴿تضليل﴾: أصل مادة الضلال تفيد معنى ضياع العمل عبثًا، انظر الآية (٢٥) من سورة غافر صفحتى ٦٢١،٦٢٠ ، والمراد هنا: أنه سبحانه أبطل كيدهم.

﴿طيرًا﴾: الطير اسم لكل ما يطير سواء أكان كبيرًا أم صغيرًا، فيشمل الذباب والبعوض، وغيرهما من جنود الله المهلكة التى لا يعلمها إلا هو سبحانه.

﴿أبابيل﴾: جمع إبالة بكسر الهمزة وتشديد الباء. وأصلها حزمة الحطب الكبيرة. شبهت بها جماعات الطير فى تضامها والتصاقها، والمراد: أنها كثيرة جدا.

﴿ترميهم﴾: الأصل رمتهم ولكنه جاء بالفعل المضارع لاستحضار الصورة العجيبة.

﴿سجيل﴾: الطين المتحجر كما تقدم فى الآية (٨٢) من سورة هود صفحة ٢٩٦ .

﴿عصف﴾: أى تبن كما تقدم فى الآية (١٢) من سورة الرحمن صفحة ٧٠٩ .

---

(١) بأصحاب.
(٢) لإيلاف.
(٣) إيلافهم.

المعنى: تشير هذه السورة لحادث الفيل المشهور عند العرب حتى أنهم جعلوه مبدأ تاريخ فيقولون: حدث كذا عام الفيل أو بعد عامين من عام الفيل مثلا، وهو العام الذى ولد فيه النبى ﷺ. وحاصل هذا الحادث أن قائدا حبشيًا يقال إن اسمه (أبرهة) - من قواد ملك الحبشة الذى كان متغلبًا على بلاد اليمن فى ذلك الحين - بنى كنيسة فى (صنعاء) وأراد أن يرغم العرب على الحج إليها بدل الكعبة.

ولما لم يقبل عليها أحد أراد أن يهدم الكعبة حتى لا يجد العرب غير تلك الكنيسة فجهز جيشًا كبيرًا وتوجه إلى مكة واستصحب معه فيلاً ضخمًا ليرهب به قريشًا. وسار يقهر من يلاقيه فى طريقه حتى قرب من مكة، فعسكر خارجها، وأرسل إلى أهلها يخبرهم بأنه لا يريد حربهم، وإنما جاء ليهدم الكعبة، فإذا تركوه يفعل ما يريد فإنه لا يمسهم بسوء، فخافه أهل مكة وفروا إلى الجبال.

وفى هذا الحين أصيب جيش أبرهة بما ألقى فى قلوبهم الرعب ومات منهم أكثرهم شر ميتة. وفى ذلك يقول سبحانه: ألم تر كيف... إلخ. أى ألم تعلم أيها النبى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟.

أم يجعل تدبيرهم فى ضياع فلم ينجحوا فيه؟.

ثم بيَّن كيف أضاعه فقال: فأرسل أى فسلط عليهم طيرا فرقا يتبع بعضها بعضا. حتى لا يمكنهم التحفظ منها. وكانت هذه الطير تحمل شيئًا يشبه الطين المتحجر فألقته عليهم ففتت أجسامهم حتى صارت كالتبن الذى أكلته الدواب. والله أعلم.

هل كان منشأ هلاك هذا الجيش هذه الحجارة نفسها أو ما علق بها من مخلوقات فتاكة لاتدركها الأبصار؟. فقدرة الله واسعة وما يعلم جنوده إلا هو، انظر الآية (٣١) من سورة المدثر صفحتى ٧٧٦، ٧٧٧ . وتكون العبرة أعظم كلما كان الطير أصغر، ليعتبر مَنْ يغتر بقوته. كالحبشى الذى اغتر بالفيل وضخامته. وقال بعض علماء التابعين: إن ما أصاب هذا الجيش كان مرض الجدرى.

وقال إن هذا كان أول جدرى حصل فى بلاد العرب. وكان شديدًا حتى تساقط منه لحم مَنْ أصيب به. واللّه تبارك وتعالى أعلم.

﴿سورة قريش﴾

المفردات: ﴿لإيلاف﴾: متعلق بآخر السورة السابقة، أى جعلهم كعصف أى مفتتين هالكين لأجل إيلاف قريش. وإيلاف مصدر آلفت الشيء بمد الهمزة إيلافا، أى تعودته وأنست به فهو من الإلف والعادة.

﴿قريش﴾: اسم للقبائل العربية المتفرعة من النضر بن كنانة، انظر ما تقدم فى الآية (١٢) من سورة الحجرات صفحتى ٦٨٦، ٦٨٧ .

﴿إيلافهم﴾: بدل من إيلاف الأولى وإنما جاء به مطلقًا بدون تقييد أولاً لتشويق النفوس للقيد الذى سيذكره بعد ذلك فى المرة الثانية.

فإذا ذكر بعد ذلك كان أوقع وهذا القيد هو قوله: ﴿رحلة الشتاء﴾... إلخ.

و﴿رحلة الشتاء﴾: كانت إلى اليمن للتجارة.

المعنى: كانت لقريش رحلتان. رحلة لليمن فى فصل الشتاء، والأخرى للشام فى فصل الصيف. يجلب تجارها فيهما الأقوات لأن مكة ليست بلاد زرع ولا صناعة مشهورة، ولأنهم خدام بيت اللّه، كانت قوافلهم معروفة عند العرب محترمة فى نفوسهم. فكانوا آمنين فى أسفارهم، على الرغم مما كان شائعًا عند العرب من كثرة النهب والسلب. فكان للبيت واحترامه فضل عليهم فى أمنهم وفى أسفارهم حتى ألفوا تلك الأسفار، ولم ينفروا منها كبقية العرب.

وسخر اللّه لهم حادث الفيل فزاد من احترام العرب لهم. لكل هذا قال سبحانه: (لإيلاف قريش)... إلخ. أى أهلك سبحانه جيش الحبشة لأجل دوام إلف قريش رحلة الشتاء وزيادة اطمئنانهم باحترام العرب جميعًا لهم.

وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ
أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم(١) مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

(١٠٧) سُورَةُ الماعون مكية
وآياتها سبع

بسم الله الرحمن الرحيم

أَرَءَيْتَ(٢) ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ
ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾
فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ
سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ
ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

المفردات: ﴿والصيف﴾: أى إلى الشام للتجارة أيضًا.

المعنى: . فعل ربك ما فعل بأصحاب الفيل لأجل زيادة احترام الناس لقريش خدام بيته فيزيد إلفهم وأنسهم لرحلتهم شتاءً وصيفا التى بها يرزقون قوتهم ويربحون فى تجارتهم. وإذا كان هذا من فعل رب البيت الذى كان سبب أمنهم فيجب عليهم أن يعبدوه وحده لأنه هو الذى أطعمهم فأنقذهم من جوع مهلك وأمنهم من خوف مقلق فى وسط قبائل مشهورة بالسلب والنهب، انظر الآية (٦٧) من سورة العنكبوت صفحة ٥٣٠

سورة الماعون

المفردات: ﴿أرأيت الذى يكذب﴾: الاستفهام هنا مقصود به حمل المخاطب على التعجب من صنع هذا المكذب، مع وضوح الأدلة على صحة هذا الدين. والرؤية هنا بمعنى المعرفة.

﴿بالدين﴾: المراد به هنا: كل العقائد والتعاليم التى جاء بها الرسول ﷺ . وفى مقدمتها أنه سيأتى يوم يحاسب فيه الله عباده على أعمالهم، ويجازيهم عليها.

﴿يدع اليتيم﴾: أى يطرده بجفوة وخشونة، ويزداد قبح ذلك إذا كان هذا الطرد لمنع حق من حقوقه، انظر الآية (١٣) من سورة الطور صفحة ٦٩٧ .

﴿ولا يحض﴾: أى لا يحث غيره . ﴿على طعام﴾: أى على إطعام. ﴿فويل للمصلين﴾: أى هلاك وعذاب شديد لهم.

﴿ساهون﴾: أى غافلة قلوبهم عما يقولونه ويفعلونه فى الصلاة حتى صارت خالية من الخشوع. فحرموا الفوز انظر آيتى (٢،١) من سورة المؤمنون صفحة ٤٤٥، وإذا كان هذا هو جزاء المصلى الساهى. فالويل الأشد للتارك كليًا. نسأل الله السلامة.

---

(١) وآمنهم. (٢) أرأيت.

﴿يراءون﴾: أصل معنى المرائى: هو الذى يعمل أمام الناس يرونه وهو يعلم أنهم يرونه، والمراد: الذين يتظاهرون بأنهم محسنون ليمدحهم الناس لا لطلب رضاء اللّٰه سبحانه.

﴿الماعون﴾: هو كل ما يستعان به فى فك كربة، أو قضاء حاجة.

المعنى: هل عرفت أيها السامع مَنْ هو المكذب بالدين فلم يعمل له حسابا، إن لم تكن عرفته فاسمع أعرفه لك، هو الذى يدع اليتيم. أى أن من علاماته أنه يجفو على اليتيم إذا طلب منه شيئًا احتقارا له لأنه فقد النصير. وليس له مجير. ومَنْ يفعل هذا مع اليتيم لضعفه يستهين بكل ضعيف ويحتقر كل محتاج. ومن علاماته أيضًا أنه فضلا عن بخله على المحتاج فإنه لا يحث غيره على الإحسان إليه. والكلام توبيخ له على البخل بأسلوب بليغ. أى أنه كان الواجب عليه أن لا يكتفى بأن يكون محسنًا بل عليه أيضًا أن يرغب غيره فيه. ولما كانت هذه الصفات القبيحة من أظهر علامات الشخص الذى لا يخاف اللّٰه حذر منها سبحانه فى القرآن بأساليب مختلفة، انظر الآيتين (٣٣، ٣٤) من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣، والآيات من (٤٢ إلى ٥٣) من سورة المدثر صفحتى ٧٧٧، ٧٧٨ والآيتين (١٧، ١٨) من سورة الفجر، ولما كان من آثار الصلاة الصحيحة أنها تنهى صاحبها عن المنكر كما فى الآية (٤٥) من سورة العنكبوت صفحة ٥٢٧ يسهل علينا أن نعلم أن الذى لا تنهاه صلاته عن إيذاء اليتيم والبخل على المسكين لم يصل الصلاة المطلوبة بينما أجهد نفسه فى حركات وأقوال جوفاء لم تصل إلى أعماق نفسه، ولذا قال سبحانه: (فويل للمصلين)... إلخ. أى إذا علمت أن الكذب بالدين هو الذى أقفر قلبه من الرحمة بالضعيف والمكرمة مع المحتاج فاعلم أن اللّٰه قدر الهلاك للمصلين الذين يقومون بحركات وقلوبهم غافلة عما يقولون ويفعلون. وعن الحكمة التى أرادها اللّٰه منها. فصلاتهم شبح لا روح فيه. لا تجلب خيرًا ولا تدفع شرا. لذلك تراهم يراءون الناس ولا يشعرون بروح العبادة، ويمنعون كل مساعدة للغير ما دام ليس فيها نفع لهم فى الدنيا، وإذا كان هذا هو عقاب اللّٰه للمصلى الساهى فى صلاته فياهول مَنْ تركها وأغلق دونها قلبه ومنع منها جوارحه. وبعد علمنا أن من علامات المصدق بالدين الرحمة وبذل المعونة، فإنه يجب على كل مسلم قرأ هذه السورة أن ينظر نفسه فى أى الفريقين؟ ليبتعد عن الخطر، ويستزيد من الخير، ويشكر اللّٰه عليه، وإلا كان ممَنْ يصدق عليهم قوله سبحانه فى أشقى الناس ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ الآية (٢٤) من سورة محمد صفحة ٦٧٦ نسأل اللّٰه السلامة..

(١٠٨) سُورَةُ الكَوْثَرِ مَكِّيَّة وآياتها ثلاث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ[1] ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾
إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

(١٠٩) سُورَةُ الكَافِرُونَ مَكِّيَّة وآياتها سِتّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ[2] ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ[3] مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ[4] مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿الكوثر﴾: هذا اللفظ من صيغ المبالغة فى الكثرة، ومعناها الخير البالغ النهاية فى الكثرة.

﴿فصل لربك﴾.. إلخ: المراد لا تصل إلا لربك ولا تنحر إلا له. والحصر فى اللغة العربية تارة يفهم بذكر الأداة الدالة عليه كما فى قوله تعالى ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ الآية (١١٠) من سورة الكهف صفحة ٣٩٥، و﴿لا إله إلا اللّه﴾، وتارة يفهم بلفظ يذكر بعد الجملة المراد منها الحصر كما فى قوله تعالى ﴿لا شريك له﴾ بعد قوله تعالى ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين﴾ الآيتين (١٦٢، ١٦٣) من سورة الأنعام صفحة ١٩١، وتارة يفهم من مقام الكلام كما هنا وكما فى قوله تعالى ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ أى اعبده وحده الآية (٩٩) من سورة الحجر صفحة ٣٤٥ .

وكقوله سبحانه ﴿قد أفلح مَنْ تزكى وذكر اسم ربه فصلى﴾ الآيتين (١٤،١٥) من سورة الأعلى صفحة ٨٠٤ أى صلى لله وحده.

وكقوله ﴿وأمر أهلك بالصلاة﴾ أى لله وحده، الآية (١٣٢) من سورة طه صفحة ٤١٩ .

﴿شانئك﴾: أى مبغضك.

(١) أعطيناك.
(٢) الكافرون.
(٤،٣) عابدون.

﴿الأبتر﴾: المراد: المنقطع الذكر الحسن، فلا ينافى أن بعضهم بقى له الذكر السيىء وهو خالد معهم حتى فى جهنم، انظر الآيات (١٦١، ١٦٢) من سورة البقرة صفحة ٣١ و(٥٠، ٥١) من سورة الأعراف صفحة ٢٠٠ و (١) من سورة المسد صفحة ٨٢٥ .

المعنى: اشتملت هذه السورة على ثلاث آيات، ردت كل آية منها على مشركى مكة ما صدر عنهم من قول زائف، وعمل باطل، فقد كانوا إذا رأوا فقر المسلمين وضعفهم يظهرون الاستخفاف بهم ليوهموا الناس أن الفقر والضعف دليل على بطلان دين محمد ﷺ؛ لأنه لو كان رسول اللّٰه حقا لجعله غنيا فيغدق على أصحابه كما فى آيتى (٧، ٨) من سورة الفرقان صفحة٤٧١ .

ولما كان بعض الضعفاء من قريبى العهد بالإسلام ربما تمر بنفوسهم بعض خواطر السوء خصوصًا عندما تشتد عليهم حلقات الضيق ويكثر تضليل المشركين، لما كان كل هذا أراد سبحانه أن يطهر قلوب المؤمنين من وساوس الشيطان، ويغيظ الكافرين فأخبر نبيه عليه الصلاة والسلام خبرًا مؤكدًا بأنه هو صاحب الخير الكثير فى الدنيا والآخرة، فقال تعالى: (إنا أعطيناك)... إلخ. أى إنا قضينا بإعطائك الخير الذى لا تجد له غاية من سعادة الدنيا بالنصر، والذكر الذائع، والصيت الرفيع، وسعادة الآخرة من كل وجه، انظر شرح آيتى (٤،٥) من سورة الضحى صفحة ٨١٢ .

ولما كان مشركو مكة يعبدون الأصنام لتقربهم إلى اللّٰه وينحرون ذبائحهم باسمها فقد ردت الآية الثانية عليهم إلى أنه بعد ما أعطاه اللّٰه هذا الخير الكثير فإنه يجب عليه الشكر على ذلك، وأفضل الشكر إخلاص العبادة للّٰه وحده وعدم التوسل إليه بشىء كما كان يفعل المشركون، فقال تعالى: (فصلِ لربك).. إلخ. أى اجعل صلاتك لربك وحده، وانحر ذبيحتك له وحده وباسمه، ولا تفعل كما يفعل كفار قومك من التوسل بالأصنام والذبح لها، انظر الآيات من (١٦١ إلى ١٦٤) من سورة الأنعام صفحة ١٩١ ، و (٣) من سورة المائدة صفحة ١٣٥ .

ولما كان المستهزئون من كفار قريش كالعاص بن وائل وأبى لهب وغيرهما إذا رأوا أبناء النبى ﷺ الذكور وهما القاسم وعبدالله الملقب بالطاهر يموتان وهما صغيران

يقولون: بتر محمد، أى قطع نسله، فلن يبقى له مَنْ يحى ذكره، لاعتقادهم أن الذى يبقى ذكر الرجل هم أبناؤه، وكانوا يصورون لضعاف العقول أن ذلك عيب من عيوبه ﷺ لينفروا الناس من أتباعه، ردت عليهم الآية الثالثة ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ أى إن عدوك هو الخائب المقطوع الذكر.

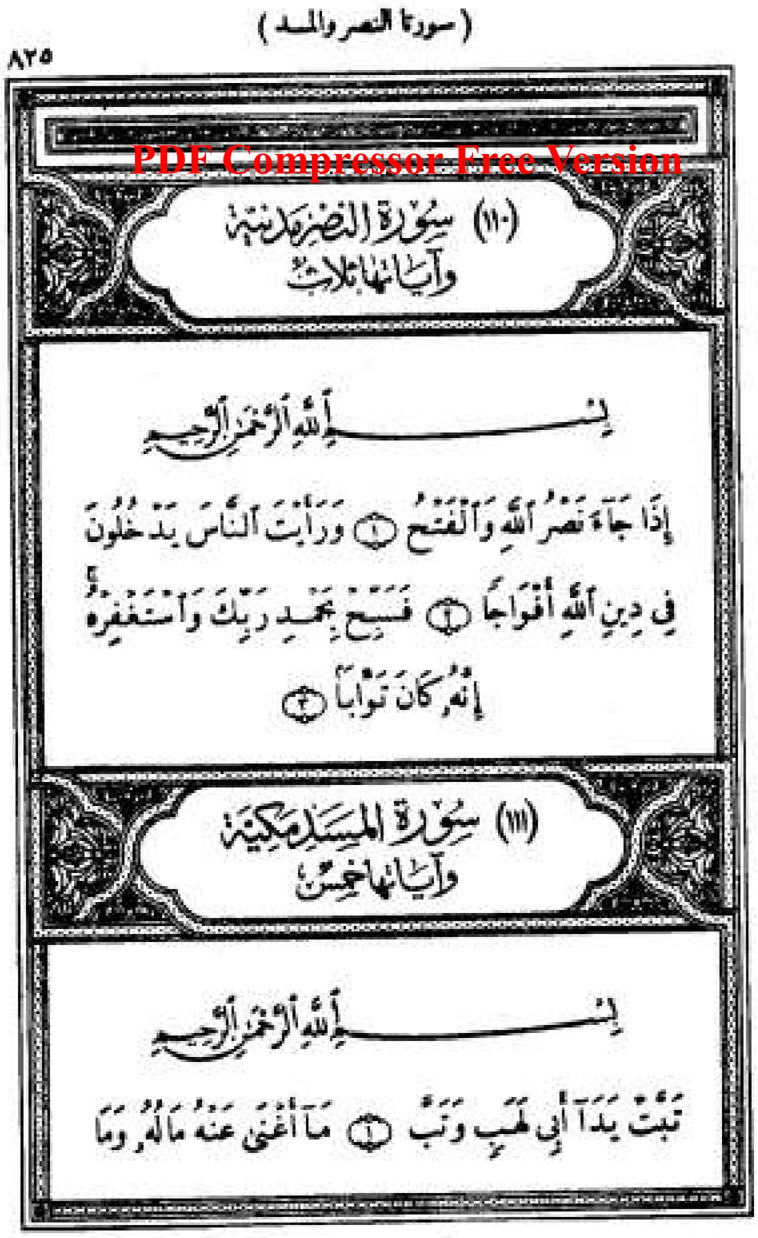
سورة الكافرون

المفردات: ﴿ماتعبدون﴾: ﴿ما﴾ اسم موصول بمعنى الذى. أى الإله الباطل الذى تعبدونه.

﴿ما أعبد﴾: أى الإله الحق الذى أعبده أنا. واللّٰه سبحانه وتعالى يصح أن يعبر عنه بـ ﴿مَنْ﴾ كما فى الآية (١٦) من سورة الملك صفحتى ٧٥٥، ٧٥٦، وأن يعبر عنه أيضًا بـ ﴿ما﴾ كما هنا، وكما فى الآيات (١٣٣) من سورة البقرة صفحتى ٢٥، ٢٦ و (٥، ٦، ٧) من سورة الشمس صفحة ٨٠٩ .

﴿ما عبدتم﴾: ﴿ما﴾ هذه مصدرية تجعل ما بعدها فى معنى المصدر. أى ولا أنا عابد عبادتكم الباطلة، وكذا ﴿ما﴾ التى بعدها.

المعنى: تقدم فى شرح الآية (٦٤) من سورة الزمر صفحة ٦١٥ سبب نزول هذه السورة وأمثالها، وهو طمع كفار قريش فى تحويله ﷺ عما هو عليه، فقطع سبحانه أطماعهم بقوله لنبيه: قل يأيها الكافرون... إلخ. أى لا أعبد الإله الذى تزعمون أنكم تعبدونه لأنه فى تصوركم يتوسل إليه بالأصنام كما فى الآية (٣) من سورة الزمر صفحتى ٦٠٥، ٦٠٦ ويستشفع إليه بها كما فى الآية (١٨) من سورة يونس صفحة ٢٦٨ . ويتخذ ولدا كما فى (١١٦) من سورة البقرة صفحة ٢٣ فإذا تحولتم عن هذا المعبود الذى تصورتموه ورجعتم إلى الإله الحق فإنى معكم. ولا أنتم عابدون لشدة عنادكم الإله الذى أعبده أنا الذى لا يقبل شفاعة إلا من الأتقياء فيمن يرضى عنهم. وهذا الإله أنتم لا تعبدونه، بل تعصونه وتخالفون أمره، وتعبدون إلهًا خياليًا لا وجود له، ثم أكد البعد عنهم والبراءة منهم بقوله: ولا أنا عابد عبادتكم الباطلة. ولا أنتم عابدون عبادتى الصحيحة، أى فلا معبودنا واحد. ولا عبادتنا واحدة. فلكم وحدكم دينكم، لايتعداكم شره إلى غيركم، ولا دينى ـ أى لا يصلكم خيره. أى إنى برىء منكم، وأنتم بريئون منى، انظر الآية (٤١) من سورة يونس صفحة ٢٧٣ والآية (٢١٦) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٣ .


(سورة النصر والمسد)
٨٢٥
(١١٠) سُورَةُ النَّصْرِ مَدَنِيَّة وَآيَاتُهَا ثَلَاث
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ
فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ
إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾
(١١١) سُورَةُ الْمَسَدِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا خَمْس
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا

سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

المفردات: ﴿نصر اللّٰه﴾: أى لك أيها النبى ولدينه وللمؤمنين على أعدائكم.

﴿والفتح﴾: هو فتح مكة.

﴿أفواجًا﴾: أى جماعات كثيرة.

﴿واستغفره﴾: مما كان يضيق به صدرك، ويشتد له حزنك من شدة إيذاء قومك، وعدم إيمانهم، انظر الآيات (٣٣) من سورة الأنعام صفحة ١٦٧ و (٩٧) من سورة الحجر صفحة ٣٤٤ و(١٢) من سورة هود صفحة ٢٨٥ و (٨،٤) من سورة فاطر صفحتى ٥٧١، ٥٧٢ وانظر ما تقدم فى الآية (١٩) من سورة محمد صفحة ٦٧٥، والآية (٢) من سورة الفتح صفحة ٦٧٨ .

المعنى: إذا جاء نصر اللّٰه لك أيها النبى على أعدائك. وفتحت لك مكة المكرمة التى أخرجك منها أعداؤك. ورأيت الناس يدخلون فى دين اللّٰه الحق الذى جئت به حال كونهم طوائف كثيرة كأهل مكة جميعًا وأهل الطائف وهم أقوى العرب. وكذا سائر القبائل حتى الذين فى اليمن. فسبح بحمد ربك شكرًا له، واستغفره أنت والمؤمنون معك مما يكون قد يجول فى نفوسهم من استبطاء نصر اللّٰه، وتوبوا إليه من هذه الهفوات فهو يقبلها منكم لأنه كثير القبول للتوبة.

سورة المسد

﴿تبت يدا﴾: التب والتباب والتتبيب كلها بمعنى الخسران والهلاك، انظر الآية (١٠١) من سورة هود صفحة ٢٩٩ والآية (٣٧) من سورة غافر صفحتى ٦٢٢، ٦٢٣، والعرب تقول: تبت

يدا فلان أى خسر وهلك، كما فى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾، أى لا تعرضوا أنفسكم لها، انظر الآية (١٩٥) من سورة البقرة صفحة ٣٨ . وقوله تعالى ﴿ذلك بما قدمت يداك﴾ الآية (١٠) من سورة الحج صفحة ٤٢٤، والجملة دعاء على أبى لهب لقنه سبحانه للمؤمنين ليقولوه إلى يوم القيامة.

﴿أبى لهب﴾: هو.عبدالعزى بن عبدالمطلب، عم النبى ﷺ، وكان أشد الناس عداء له ﷺ، وكنى بأبى لهب لشدة احمرار وجهه فذكره سبحانه بهذه الكنية تهكما به، كما تهكم بأحد زعماء الكفر فى الآية (٤٩) من سورة الدخان صفحة ٦٥٩ .

﴿وتب﴾: الواو حرف عطف.

و﴿تب﴾: أى هلك وهذا إخبار منه سبحانه بأن هلاكه مقطوع به، حتى كأنه قد حصل.

﴿ما أغنى عنه ماله﴾: أى لم ينفعه ما جمعه من المال شيئًا.

المعنى: روى البخارى وغيره أنه لما نزل عليه ﷺ قول الله تعالى ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ الآية (٢١٤) من سورة الشعراء صفحة ٤٩٣ . وقف ﷺ على جبل الصفا ونادى بأعلى صوته، يا معشر قريش فلما حضروا قال: أرأيتم لو أخبرتكم الآن أن عدوا يريد أن يغير عليكم هل تصدقونى أم لا، فقالوا جميعًا: نصدقك. والله ما جربنا عليك كذبا، فقال: إنى رسول الله إليكم أحذركم من الشرك به. فانصرفوا عنه فى سكون إلا أبا جهل فإنه قال: تبا لك، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله قوله: (تبت يدا أبى لهب).. إلخ. أى اطلبوا منى أيها المؤمنون أن أهلكه وقد قضيت بهلاكه. وسيحصل قطعًا.

وقد تحقق الوعد الإلهى، وأصيب أبو لهب بورم يشبه الطاعون، فلما مات به خشى الناس القرب منه حذر العدوى حتى كادوا يهملون دفنه. ثم واروه التراب بطريقة مهينة. وكان ذلك بعد غزوة بدر بسبع ليال. وما نفعه ماله الذى كان يفخر به وينفقه فى محاربة النبى ﷺ.

كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)

(١١٢) سورة الإخلاص مكية
وآياتها أربع

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)

(١١٣) سورة الفلق مكية
وآياتها خمس

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ

المفردات: ﴿وما كسب﴾: أى لم ينفعه ما كسبه من الأعمال السيئة فى محاربته ﷺ، بل باءت كلها بالفشل، انظر الآية (٣٦) من سورة الأنفال صفحة ٢٣٢ .

﴿سيصلى نارا﴾: أى سيدخلها ليحترق بها. ﴿ذات لهب﴾: أى صاحبة توقد وشدة حرارة.

﴿وامرأته﴾: أى ستصلاها أيضًا زوجته واسمها ﴿أروى بنت حرب﴾ أخت أبى سفيان وهى عمة معاوية وكانت تكنى أم جميل، ولأنها كانت عوراء، قال ابن العربى: هى العوراء، أم قبيح.. وكانت من سادات نساء قريش، وكانت تشجع زوجها على الكفر، ومحاربة النبى ﷺ، والوقوف فى وجه دعوته، وبلغ من كرهها له صلوات الله تعالى وسلامه عليه، أنها كانت تضع القاذورات فى طريقه، وهو ﷺ، ذاهب إلى الكعبة.

﴿حمالة الحطب﴾: حمالة منصوب بفعل مقدر مفهوم من السياق يشعر بذمها، والأصل أقصد بهذه المرأة الشقية حمالة الحطب... إلخ.

﴿وحمالة الحطب﴾: كناية عن أنها كانت تمشى بين الناس بالنميمة والوشاية توقد نار الفتنة والعداوة بين الناس، انظر الآية (٦٤) من سورة المائدة صفحتى ١٤٩، ١٥٠ . ﴿فى جيدها﴾: أى فى عنقها.

﴿حبل من مسد﴾: هو ما فتل من الحبال فتلا شديدا ويكون من الليف وغيره، والمراد من جملة ﴿فى جيدها حبل من مسد﴾: تقوية الكناية السابقة، وإظهارها بصورة مستبشعة، انظر نظير ذلك فى الآية (٣٠) وما بعدها من سورة الحاقة صفحة ٧٦٣ .

المعنى: ولم ينفع أبا لهب ما كسبه من أعماله الشريرة طول حياته فى إبطال نشر الإسلام بل باءت كل مساعيه بالفشل. ثم هدده سبحانه مصيره النهائى فقال: سيصلى نارا ذات لهب أى شديدة التوقد والحرارة، ستصلاها معه زوجته. أقصد بهذه الخبيثة حمالة النميمة والوشاية توقد بها نار العداوة بين الناس. وتحرق بها ما بينهم من الروابط. ولزيادة تبشيع صورتها قال تعالى: (فى جيدها)... إلخ. والمراد واللّٰه أعلم أنها فى تكليف نفسها المشقة للإفساد بمنزلة مَنْ يحمل على ظهره حطبا مشدودًا فى عنقه بحبل خشن. والمراد: لم كل هذا العناء؟ وياليتها صرفته فى صالح الناس.. ومن إعجاز القرآن أنه أخبر قبل موت أبى لهب وامرأته بأنهما من أصحاب جهنم، وكان يمكن أن يؤمنا، ولكنهما ماتا على الكفر فدخلا جهنم فعلاً، وصدق اللّٰه العظيم.

سورة الإخلاص

المفردات: ﴿أحد﴾: أى واحد فى ذاته وصفاته، وأفعاله، ليس أجزاء ولا ثان أما الواحد فإنه يقال له ليس له ثان ولذا لا يقال أحد فى الإثبات لغير اللّٰه فلا يقال محمد أحد فى الدار، وإنما يقال واحد فى الدار أى ليس معه ثان فيها. والمراد: منفرد بتصريف العالم. ﴿الصمد﴾: هو السيد الأعلى الذى لايقصد فى قضاء الحوائج غيره. ﴿كفوا﴾: أى مكافئا ومماثلاً.

المعنى: قل أيها النبى وعلم أمتك أن تقول: اللّٰه هو الواحد فى كل صفات الكمال. وهو المقصود وحده فى قضاء كل ما يحتاجه المخلوق. فلايصح التوجه فيما وراء الأسباب إلى غيره. وهو الذى لم يلد ولدا لأنه غنى عنه. ولم يلده أب لأنه قديم أزلى. والمولود حادث. والنتيجة أنه ليس له نظير أبدًا. كما قال سبحانه عن نفسه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير. الآية (١١) من سورة الشورى صفحة ٦٣٩ .

سورة الفلق

المفردات: ﴿الفلق﴾: هو الصبح الذى يفلق ضوءه ظلمة الليل.

المعنى: قل أيها النبى أعوذ وأتحصن برب الصبح الذى يزيل الظلام، فيفرج كرب الأنام، أى ومَنْ قدر على ذلك يقدر على أن يحفظك من شر كل مخلوق.

غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ[1] فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾
وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

(١١٤) سُورَةُ ٱلنَّاسِ مَكِّيَّة
وَآيَاتُهَا سِتّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾
إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾
ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ
وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

المفردات: ﴿غاسق﴾: أصل معنى الغسْق بفتح فسكون ﴿السيل﴾: يقال غسقت العين إذا سال دمعها، والمراد من الغاسق هنا الليل إذا جرت ظلمته في الكون. ﴿وقب﴾: أى دخل دخولاً معمقًا. ﴿النفاثات فى العقد﴾: العقد جمع عقدة، وهى فى الحبل معروفة، وتستعمل العقدة مجازا فى كل علاقة بين اثنين أحكم ربطها. كالرباط الذى بين زوجين، انظر الآية (٢٣٥) من سورة البقرة صفحة ٤٨ . والنفث هو: النفخ الخفيف، وقد يكون معه رشاش من ريق الفم. والنفاثات جمع نفاثة، النفاثة من صيغ المبالغة كالعلامة بتشديد اللام، الفهامة يستعمل فى الذكر والأنثى: أى كثير العلم والفهم؛ وفسر بعضهم النفاثات بالنفوس الشريرة التى تعالج السحر لتفسد به بين الناس ويفسرها آخرون بالنفوس النمامة التى تقطع روابط الألفة بين الناس بالنميمة.

﴿حاسد﴾: هو الذى يتمنى زوال نعمة المحسود.

﴿إذا حسد﴾: إذا نفذ مقتضى حسده بالسعى فى إزالة نعمة المحسود.

المعنى: تحصن بالله واطلب منه الحماية من شر الليل إذا دخلت ظلمته. فإن هذا الوقت يحرك فى النفوس الشريرة عوامل الفساد لسهولة استتارها بلباس الليل. فقد يؤخذ البرىء من حيث لا يدرى. أو يسلب متاعه إلى غير ذلك. وأعوذ برب الفلق، أى من شر نوع آخر من أنواع النفوس الشريرة وهى التى تسلك للشر طريقًا خبيثًا تفسد به الروابط، وتقطع العلائق. فيحل العداء بين الناس محل الصفاء. ومن شر نوع ثالث ملأ قلبه الحقد وكراهة نعمة الله على غيره. فصرف همه فى زوالها. نسأل الله تعالى السلامة.

---

(١) النفاثات.

سورة الناس

المفردات: ﴿ملك الناس﴾: أى حاكمهم ومدبر أمورهم. ﴿الوسواس﴾: أصل الوسوسة الصوت الخفى، والوسواس الذى يوسوس كثيرًا، بوزن الثرثار الذى يتكلم كثيرًا، والمراد: الذى يدس الشرور فى النفوس، ويغرى عليها بطرق خفية.

﴿الخناس﴾: الذى من عادته أن يخنس أى يختفى، ويرجع كلما رأى مانعًا، انظر المادة فى الآية (١٥) من سورة التكوير صفحة ٧٩٤ .

﴿يوسوس فى صدور الناس﴾:المراد يلقى فى قلوبهم بأسلوب ماكر قد لا يشعرون به.

﴿من الجنة والناس﴾: ﴿من﴾ بيانية لما بعدها بيانٌ للوسواس. والجنة أصلها كل ما استتر عن العيون، ويطلق على الملائكة كما فى الآية (١٥) من سورة الصافات صفحة ٥٩٦، وعلى الجن المعروف كما فى الآية (١١٩) من سورة هود صفحة ٣٠١ .

المعنى: قل أيها النبى وعلم أمتك أن تقول: أعوذ أى أتحصن وأطلب الحماية من خالق الناس ، وحاكمهم ومدبر أمورهم ومعبودهم الحق. من شر نوع آخر من الخلق وهو الذى يدس الشرور ويغرى على المفاسد بطرق خفية. وقد يلبس فاعل ذلك ثوب الناصح للتغرير والتضليل. ولهذا إذا أدرك أن الموسوس له يتيقظ لمكره سرعان ما يختفى وراء معاذير أخرى أو يتوارى نهائيًا فيرجع خائبا. وهذا النوع المفسد تارة يكون من العالم الخفى الذى ترى أثره ولا تراه وتارة يكون من الناس الظاهرين للعيان. ومثل هذا النوع الشرير لا يفترس إلا مَنْ كان غارقًا فى لجج الغفلة عن الله سبحانه. أما العبد المتيقظ فإنه إذا أحس بخطر هذا النوع فإنه يسرع إلى حماية ربه يتحصن بها، فيحفظه ويقيه شرهم. وهو سبحانه خير الحافظين وملجأ اللاجئين.

سبحانك ربى لا أحصى ثناء عليك. أنت كما أثنيت على نفسك. سبحانك ربى ما أكرم نعمتك على عبادك المفرطين. وما أوسع رحمتك بعبادك المذنبين. نتوجه إليك ضارعين أنا تعيذنا من وساوس الشيطان الرجيم ومكايده. وأن توفقنا لدوام مدارسة كتابك الكريم بفهم أسراره. فهو متعة أرواح المؤمنين. وريحانة نفوس المتقين. واجعل ياربى عملنا هذا خالصًا لوجهك الكريم. يا نعم المولى ويا نعم المجيب.

وقد كان الفراغ من هذا العمل المتواضع بالقاهرة عاصمة الديار المصرية فى صبيحة غرة شهر الله المحرم أول سنة سبع وسبعين بعد الثلثمائة والألف من هجرة خاتم النبيين ﷺ وعلى آله وصحبه الأبرار وسلم إلى يوم الدين. والحمد لله رب العالمين.

خاتمة الطبعة الثالثة

طبعت الطبعة الأولى من هذا التفسير عام ١٩٥٧م ونفدت بالكامل ولقد شهدت هذه الطبعة عدة إضافات وتعديلات وزيادة فى الشرح والتحليل سواء فى شرح المفردات أو المعنى الكلى للآيات. وقد انتهى فضيلته من هذه التعديلات قبل لقاء ربه بعامين وكان الفضل بعد المولى عز وجل فى إخراج هذه الطبعة كوكبة من العلماء الأفاضل الذين يجب علينا أن نقدم لهم عظيم الشكر والعرفان ونخص بالذكر الأستاذ الدكتور محمد هداية الذى قام متطوعا بإضافة التعديلات والإضافات التى أعدها فضيلته والتى استغرقت أكثر من عشر سنوات، وفضيلة الشيخ محمد عبدالجليل عيسى الذى تولى المراجعة للتحقق من كافة التعديلات والإضافات.

كما نتقدم بأطيب آيات الشكر لفضيلة المرحوم الإمام محمد متولى الشعراوى الذى قدم لنا صادق العون والمشورة والتى كان لها عظيم الأثر فى خروج هذا العمل بهذه الصورة.

شكر لجنة المراجعة بالأزهر

نتقدم بوافر الشكر لفضيلة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية، وفضيلة الشيخ مدير عام الإدارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة، والسادة العلماء الأفاضل الذين قاموا بالمراجعة.

شكر الهيئة المصرية العامة للكتاب

نتقدم بوافر الشكر والتقدير للهيئة المصرية العامة للكتاب ونخص بالشكر السيد الأستاذ الدكتور ناصر الأنصارى رئيس الهيئة والسيد الأستاذ الدكتور وحيد عبدالمجيد نائب رئيس الهيئة. والسادة المراجعين الذين بذلوا جهودا صادقة حتى يخرج هذا العمل بهذه الصورة

الرائعة مؤكدين هدف الهيئة السامى بنشر الثقافة الدينية ميسرة للعامة - بجانب الثقافة التاريخية والأدبية والفنية.

أهم مميزات هذا التفسير

١ - إعانة القارئ العادى على قراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة

٢ - اليسر والسهولة ووضوح الأسلوب فى إيصال المعنى للقارئ.

٣ - البعد عن القصص والإسرائيليات.

٤ - البعد عن التعمق فى المسائل النحوية والبلاغية والفقهية وغير ذلك مما يخرج التفسير عن جوهره.

وأجد أنه من الضرورى أن أشير هنا إلي قيام الدكتور أحمد عشماوى زيدان المدرس بكلية أصول الدين (جامعة الأزهر - المنوفية) بإعداد رسالة دكتوراه فى منهج الشيخين: عبدالجليل عيسى وحسنين مخلوف فى تفسيرهما للقرآن الكريم.

وقد نال درجة الدكتوراة مع مرتبة الشرف الأولى بتاريخ ١١ سبتمبر ٢٠٠٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلف في سطور:

نبذة مختصرة عن السيرة الذاتية للمرحوم - بإذن الله - فضيلة الأستاذ الشيخ/ عبدالجليل عيسى أبو النصر شيخ كليتى اللغة العربية وأصول الدين بالأزهر الشريف سابقا وعضو مجمع البحوث الإسلامية

- ولد فضيلته بقرية الرملة التابعة لمركز الخادمية بمحافظة كفر الشيخ فى سنة ١٨٨٨ ميلادية.
- حفظ القرآن الكريم بكُتّاب القرية، ثم التحق بمعهد الجامع الأحمدى بطنطا سنة ١٩٠٢.
- ثم التحق بالجامع الأزهر حيث نال شهادة العالمية ١٩١٤.
- ثم عُيِّن مدرسا بمعهد أسيوط ثم مدرسا بالقسم الثانوى بالأزهر الشريف سنة ١٩٢٣.
- ثم عُيِّن مدرسا بمعهد دمياط سنة ١٩٢٥.
- ثم عُيِّن مدرسا بالقسم العالى بالأزهر الشريف سنة ١٩٢٦.
- أحيل للمعاش بالأمر الملكى سنة ١٩٣١ مع جمهرة من علماء الأزهر لمواقفهم الوطنية احتجاجا على قيام سلطات الاحتلال الإيطالى بليبيا بإعدام المجاهد عمر المختار.
- أعيد إلى العمل سنة ١٩٣٥ مدرسا بكلية الشريعة بالأزهر فى عهد المرحوم الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى.
- ثم عيِّن فى نفس العام سنة ١٩٣٥ مفتشا بالمعاهد الأزهرية.
- وفى سنة ١٩٣٧ صدر المرسوم الملكى بتعيينه شيخا لمعهد دسوق الدينى.
- وفى سنة ١٩٣٨ صدر المرسوم الملكى بتعيينه شيخا لمعهد شبين الكوم الدينى.
- وفى سنة ١٩٤٦ صدر المرسوم الملكى بتعيينه شيخا لكلية أصول الدين.
- وفى سنة ١٩٤٧ صدر المرسوم الملكى بتعيينه شيخا لكلية اللغة العربية.
- ثم عُيِّن عضوا بمجمع البحوث الإسلامية - وعضوا بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وعضو لجنة الفتوى بالأزهر الشريف والمجلس الأعلى للثقافة.
- لقى ربه فى يوم الجمعة أول رمضان الموافق ٢ يوليو ١٩٨١ عن عمر يناهز ٩٣ عاما.

أعماله للخير ابتغاء مرضاة الله:

١ - بناء مسجد الرملة - مسقط رأسه - من ماله الخاص وأوقف مساحة ٢ فدان وثمانية قراريط للصرف من ريعها على هذا المسجد.

٢ - أوصى فى وصيته بأن تهدى مكتبته العامرة بكتب التراث الإسلامى والمراجع وأمهات الكتب النادرة فى الفقه والسنة إلى معهد كفر الشيخ الدينى ليستفيد بها طلاب العلم بالمعهد وأبناء محافظة كفر الشيخ.

مؤلفاته العلمية:

١ - صفوة صحيح البخارى سنة ١٩٣٥ حيث قام باختيار ٧٠٠ حديث صحيح، وطبع هذا الكتاب فى أربعة أجزاء وتقرر تدريسه بالقسم الثانوى بالأزهر الشريف من ذلك التاريخ وذلك بتكليف من المرحوم الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر.

٢ - اجتهاد الرسول ﷺ كتبه فى سنة ١٩٤٨ وتم طباعته ونشره عن دار البيان بدولة الكويت سنة ١٩٦٩.

٣ - تيسير التفسير، صدر فى سنة ١٩٥٨ وهو تفسير باللغة الميسرة لسهولة قراءته وفهمه للطبقة العادية من القراء.

٤ - المصحف الميسر - تفسير للقرآن الكريم مختصر عن السابق.

٥ - ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين وهو كتاب يبين فيه أن هناك أساسيات فى بعض المسائل الدينية والشرعية التى لا يجوز فيها للمسلمين أن يختلفوا فيها سواء أكانت فى العقائد أو العبادات.

٦ - سلسلة مقالات تحت عنوان (إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) نشرت فى مجلة منبر الإسلام. وذلك على سنوات طويلة كذلك نشرت هذه السلسلة فى مجلة الوعى الإسلامى بدولة الكويت.

الإنعامات والجوائز والأنواط الحاصل عليها:

١ - كسوة التشريفة الملكية من الدرجة الثالثة أثناء عمله مفتشًا بالأزهر الشريف عام ١٩٣٥.

٢ - كسوة التشريفة الملكية من الدرجة الثانية أثناء عمله شيخا لمعهد شبين الكوم. عام ١٩٣٧.

٣ - جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولى فى أكتوبر سنة ١٩٨٠ من السيد الرئيس محمد أنور السادات وكان بذلك أول شخصية أزهرية تنال هذه الجائزة.

٤ - نوط الامتياز من الطبقة الأولى فى إبريل سنة ١٩٩١ من السيد الرئيس محمد حسنى مبارك باسم المرحوم فضيلة الأستاذ الدكتور الشيخ عبدالجليل عيسى أبو النصر.

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
or Research, Writting & Translation

الأزهـــر
مجمــع البحــوث الاســـــلامية
الادارة العـــــامة
للبحـــوث والتـــأليف والترجمـــة

السيد /

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ...

تفيـد الادارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة بأنه لامانع لديها مـن طبع [illegible] الكريم للقراءة والفهم المستقيم [illegible] مقـاس [illegible] (برواية حفص عن عاصم) المكتوب بالخط [illegible] طبع مطبعة الهيئة العامة للكتاب ...

على أن يقـدم للإدارة عشر نسخ بعد الطبع للمراجعة بلجنة مراجعة المصاحف مراجعة نهائية تمهيداً للتصريح بالتداول ولا يجوز توزيع هذا المصحف ونشره الا بعد الحصول على تصريح التداول من الإدارة العامة للبحوث والتأليف والترجمة مع الزامكم بوضع صورة من تصريح التداول بكل نسخة من نسخ المصحف قبل نشره وعرضه للجمهــــــور .

والله ولى التوفيـــــــق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

[illegible]

مدير عام البحوث والتأليف والترجمـــة [illegible] ٢٠٠٧	الأمين العـــام لمجمع البحوث الاسلاميـــــة [illegible] ١١٢٨ / ٢٠٠٨

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg